

الدكتور روبرت حكايسة

تَارِيخُ الْفَنِّ:
الْعَيْنُ تَسْمَعُ وَالْأُذُنُ تَرَى

موسوعة التصوير الإنشائي



مكتبة لبنان ناشرون

هذه الموسوعة

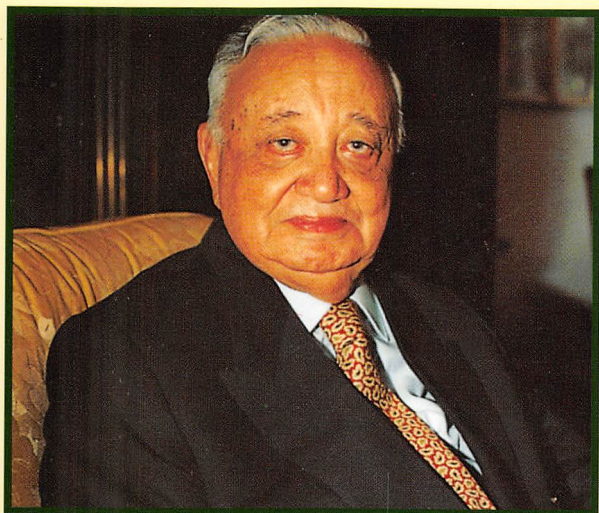
يجول بنا الدكتور ثروت عكاشة خلال هذه الموسوعة بين إبداعات التصوير الإسلامي. وإذا كان القارئ قد ألف أن تكون الموسوعة مرتبة ترتيباً ألفبائياً فإن هذه الموسوعة على خلاف ما يَألف، إذ تقع في أبواب موضوعية عدتها ستّة، ينتظمها تتابع زمني موزّع توزيعاً جغرافياً. وتتطرق الموسوعة في أوّل أبوابها إلى مناقشة موضوع التصوير بين الإباحة والتّحريم، وكذا لمّامح التصوير الإسلامي بصفة عامّة مع اختلاف الزّمان والمكان، مُستعرضة فنون الزّخرفة الإسلاميّة من توريق مُشابك أو رقص، وفنون النّحت والنّقش البارز والتصوير الجداري وخيال الظّل، ونظرة كلّ من أهل السُنّة والشيعة إلى التصوير، فضلاً عن السّمات التي ينفرد بها التصوير الإسلامي، وتحديد المصادر الحضاريّة المُختلفة التي لَقِن عنها واقتبس منها والموضوعات التي تناولها والمصاعب التي يلقاها من يُقبل على دراسة فنون التصوير الإسلاميّة، ثمّ مكانة المُصوّر المُسلم في مُجتمعه.

وإذ قد مرّ التصوير الإسلامي بمراحل مُتعدّدة، لكلّ مرحلة عواملها المؤثّرة فيها وظروفها وبيئاتها ومصادر إلهامها، أمكن حصرها في مدارس أربع رئيسيّة تنقسم بدورها إلى مدارس فرعيّة زماناً ومكاناً. ولقد أفردت هذه الموسوعة لكلّ من هذه المدارس الأربع باباً مُستقلاً، فيتناول الباب الثّاني مدرسة «التّصوير العربي» التي نشأت في العراق وسوريا ومصر والأندلس. ويتناول الباب الثّالث مدرسة «التّصوير الفارسي» بعهدَيْها «التيموري» و«الصفوي». ويتناول الباب الرّابع مدرسة «التّصوير التركي» منذ القرن السادس عشر بعهدَيْها: عصر الوثائق التاريخيّة وعصر التّيوْلُپ. ويتناول الباب الخامس مدرسة «التّصوير المغوليّ في الهند» منذ نشأت الامبراطوريّة المغوليّة بالهند عام ١٥٢٦ إلى اضمحلالها عام ١٨٥٨. وقد أفردت الموسوعة الباب السّادس للصور الإبداعيّة الرامزة في المُنمنّات الدينيّة باعتبار أنّ الفنّان يلوذ برموز تُسبغ على مُنجزاته ألواناً من التّخيّلات المُعبّرة عن أحاسيسه الخفيّة الغيبيّة لا عن ملامح الطّبيعة الواقعيّة.

ولقد كان من الطّبيعيّ لإعطاء القارئ فكرة أكثر ما تكون دقّةً وكمالاً عن التصوير الإسلاميّ أن يُزوّد كاتب هذه السّطور بأكبر قدر من آثار هذا الفنّ الفريد المُتميّز. فلم يقف مَسعاه عند ما قدّمته المؤلّفات العربيّة والأجنبيّة فحسب، بل حفزه عشق هذا الفنّ والظّمّ إلى الرّشَف من مناهله الأصليّة إلى الاختلاف إلى المتاحف ودور الكتب والمعارض التي تزخر بالمخطوطات الإسلاميّة عربيّة كانت أم فارسيّة أم تركيّة أم مغوليّة حيث وقع على كنوز شائعة نادرة.

وهذا العرض الصادق الأمين نقرؤه في عبارة مُشوّقة تُطالعك بين فقراتها اللّوحات المُصوّرة تنطق نطق العبارات، ويجد فيها القارئ بياناً وافياً. وهذه الموسوعة إنّما هي عمل كبير اتّسعت له سنوات طويلة، فقد بدأها صاحبها منذ عام ١٩٦٣، وهو بلا شكّ جهد ضخم يُضيفه إلى مآثره المُتمثّلة في الإنجازات الثّقافيّة الكبيرة التي اضطلع بها، والتي احتفت بها مُختلف الدّوائر الحضاريّة في الداخل والخارج على السّواء، حتّى أنّ مجلس أساتذة الكوليج ده فرانس بباريس قرّر في نوفمبر - تشرين الثّاني ١٩٧٢ اختياره لشغل كرسيّ الدّولة المُخصّص للعلماء والأساتذة الأجانب لإلقاء مُحاضراته عن تاريخ الفنّ الإسلاميّ.

الدكتور روبرت حواسنة



وُلِدَ بالقاهرة عام ١٩٢١، وتَخَرَّجَ في الكَلِيَّة الحربيَّة عام ١٩٣٩، ثمَّ في كَلِيَّة أركان الحرب عام ١٩٤٨. فاز بجائزة «فاروق الأول العسكرية» الأولى في مسابقة القوَّات المُسلَّحة للبحوث والدراسات العسكرية عام ١٩٥١. حصلَ على دبلوم الصَّحافة من كَلِيَّة الآداب جامعة فؤاد الأوَّل (القاهرة) عام ١٩٥١، ونالَ درجة الدُّكتوراه في الأدب من جامعة الشُّروبون بباريس (١٩٦٠). شارَكَ في حرب فلسطين (١٩٤٨) وفي ثورة يولييه (١٩٥٢).

عُيِّنَ رئيسًا لتحرير مَجَلَّة التَّحرير (١٩٥٢ - ١٩٥٣)، ثمَّ مُلحقًا عسكريًا بالسَّفارة المصريَّة ببرن ثمَّ باريس ومدير (٥٣ - ١٩٥٦)، ثمَّ سفيرًا لمصر في روما (١٩٥٧ - ١٩٥٨)، ثمَّ وزيرًا للثقافة (١٩٥٨ - ١٩٦٢)، وشَغَلَ مَنْصَبَ رئيسِ مجلسِ إدارة البنك الأهلي المصري (١٩٦٢ - ١٩٦٦)، ثمَّ مَنْصَبَ نائب رئيس الوزراء ووزير الثقافة ورئيس المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعيَّة (١٩٦٦ - ١٩٧٠). ثمَّ عُيِّنَ مُساعدًا لرئيس الجمهوريَّة للشؤون الثقافيَّة (١٩٧٠ - ١٩٧٢)، وعَمِلَ أستاذًا زائرًا بالكوليج ده فرانس بباريس لمادَّة تاريخ الفن (١٩٧٣)، ثمَّ انتُخبَ زميلًا مُراسلًا بالأكاديميَّة البريطانيَّة الملكيَّة (١٩٧٥ -)، انتُخبَ رئيسًا لجمعيَّة الصَّداقة المصريَّة الفرنسيَّة (١٩٦٥ -).

انتُخبَ عُضْوًا بالمجلس التَّنفيذيِّ لِمُنظَّمة اليونسكو (١٩٦٢ - ١٩٧٠)، كما عَمِلَ نائبًا لرئيس اللُّجنة الدوليَّة لإنقاذ فينيسيا وآثارها (١٩٦٩ - ١٩٧٨).

انتُخبَ رئيسًا للُّجنة الثقافيَّة الاستشاريَّة لمعهد العالم العربي بباريس (١٩٩٠ - ١٩٩٣). منحتَه الجامعة الأمريكيَّة بالقاهرة درجة الدكتوراه الفخريَّة في العلوم الإنسانيَّة (١٩٩٥).



01R160916

The History of Art:
the listening eye, the seeing ear

Dr. SARWAT OKASHA

ENCYCLOPEDIA OF ISLAMIC PAINTING



Librairie du Liban Publishers

الذِّكْرُ الرَّوَّاسِيَّ - مُخَلَّصَةٌ



مَكْتَبَةُ لِبْنَاتِ نَاشِرُونَ

مُؤَسَّسَةٌ
التَّصَوُّفِ الْإِسْلَامِيِّ

تَارِيخُ الْفَنِّ:
الْعَيْنُ تَسْمَعُ وَالْأُذُنُ تَرَى

مُوسَى عِيسَى التَّصَوُّبُ وَالْإِسْلَامُ

الدَّكْتُورُ ثُرُوتُ عُكَّاشَةُ

مَكْتَبَةُ لَبَنَاتٍ نَاشِرُونَ

مكتبة لبنان ناشرون

زقاق البلاط - ص.ب: ٩٢٣٢-١١

بيروت - لبنان

website: www.ldlp.com

e-mail: info@ldlp.com

وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

© الحقوق الكاملة محفوظة

مكتبة لبنان ناشرون

الطبعة الأولى ٢٠٠١

01R160916

طبع في لبنان



حضرة صاحب الفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر

تحية مباركة وإجلالا لشخصكم الكريم . .

يسعدنى أن أتقدم إلى فضيلتكم بنسخة من آخر مؤلفاتى المعنون بـ « موسوعة التصوير الإسلامى » .

وتعد هذه الموسوعة خلاصة لثلاثة كتب سبق إصدارها لى وهى :

١- التصوير الإسلامى الدينى والعربى .

٢- التصوير الفارسى والتركى .

٣- التصوير المغولى الإسلامى فى الهند .

ويؤسفى أن أوضح لفضيلتكم أن الكتاب الأول قد منع من التداول بواسطة المجلس الأعلى للبحوث الإسلامية عام ١٩٧٨ ؛ فى حين أخذت الكتب الأخرى طريقها إلى التداول ، ونفدت نسخها جميعا .

وكان من أسباب منع تداول الكتاب الأول اشتماله على صور معينة نصَّ عليها بيان المجمع الصادر عام ١٩٧٨ . وفى ضوء هذا المنع وضعت فى اعتبارى كما راعيت كافة القيود والمحظورات التى نصَّ عليها فى هذا البيان ، وأنا بصدد إعداد مادة وصور موسوعة التصوير الإسلامى التى هى موضع التماسى المقدم إلى فضيلتكم .

إننى أناشد فضيلتكم ، واستنارتكم ، ورحابة فكركم ، وروحكم العصرية المتحضرة :

أن تنكروا بالأمر بإعادة تشكيل لجنة تعيد النظر فى أمر منع تداول هذه الموسوعة ، مسترشدة بما وضعته من ردود ومبررات ضممتها المذكرة المرفقة ، والموجهة إلى فضيلتكم .

وإننى على استعداد للالتزام بما تصدرونه من توجيهات لتخليص الموسوعة من مواضع الاعتراض ، كما أننى أناشدكم إذا رأيتم ، فضيلتكم ، السماح لى بمناقشة أعضاء اللجنة فى أوجه الاعتراض لإجلاء ما قد يغمض من مواقف ترتب عليها الاعتراض ، وبالتالى المنهج . ولعلنا نصل بتبادل رأى إلى قرار يرضينا جميعا .

إن فى سماحة شخصكم ، وعدالة طبعكم ، واتساع الأفق المعهود فيكم - لكفيلة جميعها برد حق ضائع .

ولكم جزيل الشكر وفائق الاحترام والتقدير .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

د. ثروت عكاشة

القاهرة ١٩٩٩/٩/٧

Date :

٢٠٠٠/٨/٦ تحريراً فى

فضيلة الأمام الأكبر الدكتور / محمد السيد طنطاوى
شيخ الأزهر

السلام عليكم ورحمة الله تعالى .. وبعد ،،

فقد انتهى مجمع البحوث الإسلامية بعد مناقشة التقرير المقدم من اللجنة المشكلة من فضيلة الدكتور / محمد الراوى ومنى ، حول كتاب "موسوعة التصوير الإسلامى" للدكتور / ثروت عكاشة إلى أن المجمع لا يمانع فى نشر الكتاب ، بشرط أن ترفع منه صور النبي صلى الله عليه وسلم ، وصور الأنبياء عليهم السلام ، وصور الصحابة ، التى تحددها اللجنة المشار إليها ، فى ضوء المعايير المشار إليها فى تقرير اللجنة الذى عرض على المجمع ..

وقد اتصل بنا الدكتور / ثروت عكاشة ، وأبلغناه بمجمل قرار اللجنة ، وذكرنا له أن أمانة المجمع سوف توافيه بنص القرار حسبما جرى به العمل .. فذكر لنا أن رفع الصور بمعنى حذفها جملة أمر شديد الصعوبة فنياً لاشتغال الصفحات على عدد من الصور بعضها لا يتضمن صوراً للنبي صلى الله عليه وسلم أو الأنبياء عليهم السلام أو صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

وأضاف أن وسائل الطباعة الحديثة وتقنياتها المتقدمة تتيح حجب الوجه والقسمات من أى صورة بغير صعوبة تذكر .. وأطلعنا على نسخة من الكتاب تم فيها إجراء ذلك الحجب ، فوجدناها محققة تماماً لمقصد المجمع من قراره .. وبعد مراجعة الكتاب مرة أخرى قمنا بتحديد الصور التى يقتضى تنفيذ قرار المجمع إجراء ذلك الحجب عليها .. كما رأينا عرض الأمر على فضيلتكم لإقرار ما قامت به اللجنة إعمالاً لقرار المجمع ..

وفيما يلى بيان الصور التى رأينا حجب ما تتضمنه من وجه وقسمات النبي صلى الله عليه وسلم أو الأنبياء عليهم السلام ، أو صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم ..

العباس أخو الحسين يحاول إمداد الشهداء بالماء يوم كربلاء .	لوحة ١٩
الحسين وقد اخترقت السهام جسد جواده .	لوحة ٢٠
يوسف يستقبل أخوته .	لوحة ٣١
شريعة اللذة (كاماسوترا) .	لوحة ٤٢
جبرائيل امين الوحي .	لوحة ٥٦
المسيح يتأمل مصرع لصوع ثلاثة .	لوحة ٢٣٧
المسيح يرمي أبلّيس (الوجه محجوب) .	لوحة ٢٣٨
الوجه الآخر (الوجه محجوب) .	لوحة ٢٣٩
إبراهيم وإسماعيل يشيدان الكعبة (تحتاج لحذف) .	لوحة ٢٤٣
سليمان على عرشه ، سليمان وبلقيس	لوحة ٢٤٧
	لوحة ٢٤٨
تقاطر الأمم لإشهار إسلامها (الوجه محجوب)	لوحة ٢٣٢٧
الآية الكبرى .	لوحة ٤٤٩ م
الغبراء مريم تفر النخلة .	لوحة ٤٥١ م
الغبراء مريم ترضع الطفل عيسى .	لوحة ٤٥٢ م
صورة للمسيح .	لوحة ٤٥٣ م
فن شعبي مصري - يوسف و زليخا .	لوحة ٤٦٠ م
إبراهيم يُضْحى بابنه إسماعيل .	لوحة ٤٦١ م
جد الرسول أمام الكعبة .	لوحة ٤٦٢ م
التشاور لفتح مكة .	لوحة ٤٦٩ م
الملائكة يقدمون أقداحاً ثلاثة .	لوحة ٤٧٧ م

والرجاء أن توجهوا فضيلتكم إلى اعتماد هذا الذي انتهت إليه اللجنة إنفاذاً لتفويض

المجمع لها ..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،

د. أحمد كمال أبوالمجد

أحمد كمال أبوالمجد

ص ١٠٣٠٥

السيد الأستاذ الدكتور / ثروت عكاشة

٣٤ شارع ١٤ - المعادى

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ... وبعد :

فإن مجمع البحوث الإسلامية في اجتماعه بتاريخ ٢٩/٦/٢٠٠٠ م قد عهد إلى فضيلة الشيخ / محمد محمد الراوى والأستاذ الدكتور / أحمد كمال أبو المجد عضى مجمع البحوث الإسلامية بالنظر في شأن تداول كتاب " موسوعة التصوير الإسلامى " تأليف سيادتكم ...

وإن مجلس مجمع البحوث الإسلامية ليس لديه مانع من الموافقة على مايريانه ...

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

الأمين العام

لمجمع البحوث الإسلامية

()

(السيد وفا أبو عجور)

١٢ من جمادى الاولى ١٤٢١

١٢ من أغسطس ٢٠٠٠

تحريرا فى:

Date :

تحريراً فى

٢٠٠٠/٨/٢٠

السيد الأستاذ الدكتور / ثروت عكاشة

تحية طيبة .. وأرجو أن تكونوا بخير .. وبعد ،،

فجواباً عما استفسرتم عنه من فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر ، ومنى ، عما انتهى إليه
الرأى فى شأن تداول كتابكم "موسوعة التصوير الإسلامى" .. أرجو أن أنهى إليكم أن فضيلة
الإمام الأكبر كان قد شكل لجنة منى ومن فضيلة الأستاذ الشيخ محمد الراوى لتضع تقريراً برأيها
فى الكتاب لعرضه على مجلس المجمع ..

وقد عرض التقرير على المجمع وانتهى إلى أنه لا يمانع فى نشر الكتاب وتداوله بشرط
أن ترفع منه صور النبى صلى الله عليه وسلم وصور الأنبياء عليهم السلام وصور الصحابة
رضوان الله عليهم .. كما عهد إلى اللجنة بتحديد الصور التى يتعين رفعها تنفيذاً لقرار المجلس ،
وفى ضوء المعايير المشار إليها فى تقرير اللجنة الذى عرض على المجمع ..

وحين أطلعتمونا سيادتكم على نسخة من الكتاب أجرى فيها حجب بعض الوجوه المطلوب
رفعها ، فقد استقام لدينا وانشرح صدرنا لإعتبار هذا الحجب محققاً لمقصود المجمع من قراره
برفع الصور .. وقد كتبنا بهذا كله إلى فضيلة الإمام شيخ الأزهر وأرفقنا به قائمة بالصور التى
رأينا إعمال الحجب فيها ، فوافق فضيلته على ذلك كله واعتمده بتاريخ ٢٠٠٠/٨/١٥ .

لهذا أرجو أن يكون هذا التوضيح كفيلاً بإزالة كل لبس ، وكافياً لإتخاذ قراركم فى ضوئه ..

وفكم الله تعالى وبارك جهودكم الموصولة فى خدمة الثقافة العربية والإسلامية ، فى حوص
صادق على التعريف بالإسلام وحضارته تعريفاً يتحرى الضوابط الكفيلة بالحفاظ على ثوابت
الإسلام وقيمه الكبرى ،،

وتفضلوا بقبول صادق الود وخالص التحية والتقدير .،،
والسلام عليكم ورحمة الله ،،

د. أحمد كمال أبوالمجد

أحمد كمال أبوالمجد

لح

برأى

٢٠٠٢/٤/١٤

برأى

فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور / محمد السيد طنطاوى
شيخ الأزهر ورئيس مجمع البحوث الإسلامية
تحية طيبة .. وبعد ،،

فإنهاء للبحث الذى طال حول كتاب "موسوعة التصوير الإسلامى" الذى نشره
الأستاذ الدكتور / ثروت عكاشة .. وفى ضوء ما قرره المجمع فى شأنه استناداً إلى
التقرير الذى انتهت إليه اللجنة التى شكلتموها فضيلتكم من فضيلة الأستاذ الشيخ / محمد
الراوى و منى .. وفى ضوء أن لجنة التأليف والترجمة والبحوث قد أصدرت إنها بطبع
الكتاب وتداوله بعد "رفع الصور" محل الاعتراض من اللجنة ومجلس المجمع .. وإزاء
التساؤل عما إذا كان "الحجب" أو "الطمس" الذى لجأ إليه ناشر الكتاب يحقق مقصد المجمع
واللجنة التى شكلها ..

فى ضوء ذلك كله أرجو أن أكرر مرة أخرى ما اشتمل عليه الخطاب الموجه منى
للدكتور / ثروت عكاشة فى ٢٠/٨/٢٠٠٠ من أنه قد "استقام لدينا وانشرح صدرنا لاعتبار
هذا الحجب محققاً لمقصود المجمع من قراره برفع الصور" ذلك أنه بإجراء هذا الحجب
(الطمس) ، لا يكون هناك "تصوير" لأحد الأنبياء عليهم صلوات الله ، ولا أحد من
الصحابية ، يرد عليه الاعتراض الذى استقر عنده رأى اللجنة والمجمع ..

والأمر - فيما نرى - واضح تماماً ، لا لبس فيه ولا خفاء ..

رجاء أن يضع هذا الخطاب نهاية لهذا الأمر الذى طال أمد تعليقه ، وأن توجهوا
فضيلتكم إلى المضى فى تنفيذ رأى اللجنة الذى أقره المجمع .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،

د. أحمد كمال أبوالمجد

أحمد كمال أبوالمجد

مر ٦٨٠٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

AL - AZHAR

Islamic Research Academy

Secretary General Office

الأزهر

مجمع البحوث الإسلامية

مكتب الأمين العام

السيد الاستاذ الدكتور / ثروت عكاشة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. وبعد

فبناءً على ما جاء بقرار مجمع البحوث الإسلامية بشأن كتابكم " موسوعة التصوير
الإسلامي " و تنفيذاً لتأشيرة فضيلة الامام الاكبر شيخ الازهر .
نفيد بأنه لا مانع من تداول الموسوعة ونشرها في ضوء التقرير المقدم من
اللجنة المشكلة .
رجاء الاحاطة .

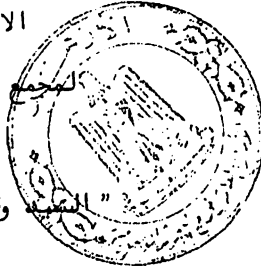
و السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

الامين العام

مجمع البحوث الإسلامية

ل

" السيد وفا ابو عجزور "



تحريراً في : ٢٠٠٢/٥/٨

م م م م م

م / سمير

إلهدراء

إلى ولدي ... البعيد القريب ،
الذي نأت به الديار وسكن القلب .
إلى ولدي الغالي محمود .

شُكْر

لكي يخرج هذا الكتاب ميسور الثمن؛ ممّا يتيح للجَمّ الغفير من القُرّاء اقتناؤه، فقد تَفَضَّلَتِ المُؤَسَّسات التالية بالإسهام في جزء من نفقاته: البنك الأهلي المصري، وبنك مصر (القاهرة)، والبنك التجاري الدولي، وبنك قناة السويس، والبنك المصري لتنمية الصادرات، والمصرف العربي الدولي، والبنك الأهلي سويسيتيه جنرال، وبنك الائتمان الدولي، وبنك التنمية الصّناعيّة، وبنك القاهرة.

وليس ثمة جهد يأخذ مكانه في الوجود دون عون الكثيرين؛ ولذلك يَتَوَجَّه كاتب هذه السطور بأعمق الشكر إلى السادة أمناء المتاحف والمكتبات الذين يَسَّرُوا له مُهِمَّة البحث والاطّلاع على المخطوطات التي بحوزتهم، وأذنوا له بنشر الصور التي وقع عليها اختياره لثُضَمَّ إلى موسوعة التصوير الإسلامي:

دار الكتب المصريّة، ومتحف الفنّ الإسلاميّ بالقاهرة، والمتحف المصريّ، ومتحف كُليّة الآداب بجامعة القاهرة، ومتحف طوب قابو سراي باستنبول، ومتحف الفنّ الإسلاميّ والتركي باستنبول، ومكتبات فيض الله وجامع السلیمانيّة وآيا صوفيا والجامعة باستنبول، ومتحف الفنون الزخرفيّة بطهران، ومكتبة قصر جلستان بطهران، والمتحف القومي بدمشق، ومتحف باردو بتونس، ومتحف الحمراء بغرناطة، والمتحف البريطانيّ، ومكتبة الجامعة بأدنبره، ومتحف فكتوريا وألبرت بلندن، والمكتبة البودليّة بأوكسفورد، ومكتبة تشستر بيتي بدبلن، ودار الكتب القوميّة بباريس، ومتحف المتروبوليتان بنيويورك، والفريز جاليري بواشنطن، ولترز جاليري بمدينة بلتيمور، ومتحف الفنون الجميلة ببوسطن، ومتحف فوج للفنون الجميلة بجامعة هارفارد، ومتحف الفنّ بكليفلاند ومتحف سنسناتي للفنون، ومتحف الفنون بسياتل، والمكتبة العامّة بنيويورك، ومتحف نلسن آتكنز كانساس، ومكتبة بير پونت مورجان بنيويورك، ومُؤَسَّسة جولينكيان بلشبونه، ومتحف الإرميتاج بسان بطرسبرج، ومعهد الدراسات الشرقيّة بأكاديميّة العلوم بسان بطرسبرج، ومكتبة سالتيكوف تشدرين بسان بطرسبرج، ودار الكتب القوميّة بفيينا، والمتحف القوميّ بفيينا، ومتحف الفنون التطبيقيّة بفيينا، ومتحف الفاتيكان، ومكتبة الفاتيكان، ومكتبة أمبروزيانا بميلانو، ودار الكتب القوميّة بكونينهاجن، ومكتبة الإسكوريال، والمتحف القوميّ بدلهي، ومتحف جوچرات بمدينة أحمد آباد، ومتحف فكتوريا بكلكتا، ومتحف أمير ويلز ببومباي، ومكتب حكومة الهند بلندن، ومكتبة باقاريا بميونخ، ومتحف ريتبرج بزورخ، ومكتبة الكتب النادرة (كريزويل) بالجامعة الأمريكيّة بالقاهرة، والدكتور إدموند ده أونجر.



الدكتور ثروت عكاشة

تَوَطُّتْ

بزغ شمس الإسلام على أرض جزيرة العرب خلال القرن السابع الميلادي وسكانها أشتات متناثرون، ورخّالون جَوّابون لا يستقر مقام إلّا بأهل مكة في قلب الجزيرة، وبأهل اليمن في الجنوب، وبأهل سوريا في الشمال، ويتوهّج ضوء الإسلام فيجتذب الشتات ويوحّد بين الفرقاء ويضع محل التناحر والتقارب رباط العقيدة واللغة، فإذا بكل العرب أمة متحدة تحت راية رسالة سماوية تسوّي بين البشر جميعاً، وتدعو إلى الخير والأخوة الإنسانية الصادقة، وتجتذب راية الإسلام شعوباً أخرى إلى الشعب العربي، وتمضي اللغة العربية في رفقة العقيدة الإسلامية في مسيرتها إلى جنوبي غربي آسيا وشمال إفريقيا. لكن دولة الإسلام تأخذ بقدر ما تعطي، وخاصة حين تمتزج بشعوب عريقة الحضارة كالفرس والروم والبابليين والمصريين، وتشكل من هذا اللقاء الإنساني العريض سمات واضحة لطابع إسلامي يصبح عنوان الإسلام وصبغة حضارته، ويكتسب قداسة العقيدة الإسلامية وسحر اللغة العربية، فيطالعه العالم متميّزاً وفريداً موحياً ومعبراً في كل عمل فني يصدر عن ربوع العالم الإسلامي الفسيح.

ولقد كان ظهور الدولة الإسلامية بداية مرحلة خصبة من الإبداع في مجال الفنون التشكيلية التي لم تمارسها البيئة العربية قبل الإسلام، والتي كانت لا تعرف من الاستقرار الجسدي أو النفسي ما يتيح لها إنجاز فن يدوي، فاكثفت بالإبداع في فن القول، وبخاصة في فن الشعر الذي كان العرب أئمتّه وسدنته. وإذا كانت كتب التاريخ قد نقلت إلينا أن جدران الكعبة كانت مزوّقة قبل مجيء دين الإسلام بتصاوير تجسّد بعض المعتقدات القديمة، وأن أصناماً صغيرة عديدة كانت تنتشر حول الكعبة، فإن هذا لا يعني أن العرب قد نحتوا هذه أو أبدعوا تلك؛ فثمة مصادر شتى تتحدث بأن الروم كانوا يحملون التماثيل الصغيرة المصنوعة في الإسكندرية إلى الجزيرة العربية فيما بين القرنين الثاني والسادس الميلاديين، كما تتحدث عن استقدام سادة قريش لفنانين من الحبشة لتزويق الكعبة ورسم صور الأنبياء - الذين كان من بينهم إبراهيم وعيسى ومريم - وهو ما ذكره الأزرق في كتابه أخبار مكة. وأغلب الظن أن العرب لم يساهموا في هذه الأعمال الفنية إلّا بقدر ضئيل لا يتجاوز حدّ التقليد أو التنفيذ.

والحق الذي لا مرأى فيه إن العرب لم يلجوا عالم التصوير قبل الإسلام؛ فإن أحداً لم يعثر على

أثر قديم من آثار التصوير في جزيرة العرب كلها، حتى إن المرء لا يدهش حين يرى العرب كذلك بعد الإسلام متحفّظين أمام هذا الفن، سواء منهم من أسلم أو من بقي على نصرانيته أو يهوديته. فإن تجنّبهم التصوير لم يكن وليد التّهي الذي يفترض أن نبي الإسلام قد أطلقه، وهم الذين نُهوا عن موبقات أخرى كالخمر دون أن يتوقف بعضهم عن معاقبتها. وأغلب الظن أن هذا كان موقفًا نابغًا من البيئة وحدها، بل إن المرء ليجد تأكيدًا لهذه النظرة في إقبال كثرة من المسلمين غير العرب على فن التصوير، وخاصة في فارس وتركيا العثمانية ودولة المغول في الهند. وثمة من يقول إن هذا العداء للتصوير الذي بدأ مع مطلع الإسلام كان مردّه إلى التأثير اليهودي على أيدي من أسلم منهم.

ولم تبدأ دراسة التصوير الإسلامي إلّا خلال قرننا الحالي عندما أصدر سير توماس أرنولد كتابه الشائق: التصوير في الإسلام Painting in Islam عام ١٩٢٨، وإن سبقته بحوث ومقالات ودراسات على أيدي أساتذة عظام أمثال فردريك مارتن Martin عام ١٩١٢، ومارتو-فثييه Marteau-Vever عام ١٩١٣، وشولتز Schulz عام ١٩١٤، وكونل Kühnel عام ١٩٢٢، ومينورسكي Minorsky، وإدجار بلوشيه Blochet، وساكيسيان Sakisian. غير أن الصور الإيضاحية والمنمنمات في هذه البحوث والمقالات والدراسات كافة كانت تُرَبّي على النصوص الشارحة، ولا غرو فقد كان هؤلاء الأساتذة هم الرّواد الأوائل في مجال غامض لم يُكشف عنه بعد، إلى أن ظهر كتاب سير توماس أرنولد بما انتظم من مادة غزيرة متعمّقة ليصبح العمدة الذي لا غنى لكل دارس باحث عن النهل منه واعتماده. ومن بعده صَنّف لورنس بنيون Binion، وچ. ولكنسون Wilkinson وبازيل جراي Basil Gray مجتمعين كتابهم الجامع الشامل عن التصوير الفارسي Persian Painting عام ١٩٣٣ الذي يعدّ إضافة جذرية إلى كتاب أرنولد. وتلا هؤلاء إيثان تشوكين Stchoukine بمؤلفاته الجادة التفصيلية عن التصوير خلال العصر العباسي وعصر الإيلخانات عام ١٩٣٦، ثم عن التصوير التيموري عام ١٩٥٤، والتصوير الصفوي عام ١٩٥٩، ١٩٦٤. وعلى الرغم من أن هذه المؤلفات موسوعية رصينة وجادة وهامة إلّا أنها تعدّ تمة لما بدأه الأستاذ أرنولد. ومن المؤلفين العرب تصدّى للتصوير الإسلامي منذ الثلاثينيات من هذا القرن علماء أجلاء، يأتي على رأسهم الأساتذة زكي محمد حسن، وبشر فارس، ومحمد مصطفى، وجمال محرز، وعفيف بهنسي، وسالمان عيسى وغيرهم.

* * *

وليس الفن الإسلامي فن دولة بذاتها أو شعب بعينه، بل هو فن حضارة تشكّلت خلال ظروف تاريخية إثر فتح العرب للعالم القديم وتوحيد أقاليم شاسعة تحت راية الإسلام. ومنذ البداية حددت النظم السياسية اتجاه الفن الإسلامي بصرف النظر عن الحدود السياسية والاجتماعية. ومن هنا سنتناول موضوع التصوير في العالم الإسلامي تحت عنوان الأسرار المختلفة التي تولّت الحكم والسلطة وانقسمت على أيديها وحدة الإمبراطورية الإسلامية الأصلية إلى دول عديدة أو دويلات. ولقد انبنت الطبيعة المركّبة للفن الإسلامي على التقاليد الحضارية التي سادت قبل الإسلام على أيدي الرومان والبيزنطيين والفرس وغيرهم، كما انبنت على توليفة

متكاملة من التقاليد العربية والفارسية والتركية اكتمل شملها معاً في سائر أنحاء الإمبراطورية الإسلامية. وما من شك في أن الروح العربية كانت في جميع الأزمنة بارزة جليلة، فكانت بمثابة الأساس أو القاعدة التي قام عليها الفن الإسلامي من خلال «رسالة الإسلام» ولغة القرآن وطرز الكتابة العربية التي غدت أوضح سمة للفن الإسلامي، وأفضت إلى ظهور تنوعات لا نهائية للزخارف المجردة وإلى طراز للتجريد الخطّي ينفرد به الفن الإسلامي، ويستحيل فصله عن أصوله العربية. لقد ولع العرب بالرياضيات وعلوم الفلك وتبحّروا في معارفهم التي ورثوا أصولها عن الرومان، وما لبثوا أن طبّقوا هذه المبادئ الهندسية على الفن بعد أن أضافوا إليها حسّهم الفطري بالإيقاع المتدفّق أو التوتر المتتابع بين حالي الصوت والصمت، أو النور والظلام، أو القوة والضعف، أو الضغط واللين، أو القصر والطول، أو الإسراع والإبطاء، أو التوتر والاسترخاء إلى غير ذلك، فإذا هذا الإيقاع يتمثل في العلاقة بين الجزئيات بعضها ببعض، وبين الجزء الواحد وباقي أجزاء الأثر الفني أو الأدبي، وذلك في صيغة حركية منتظمة سواء في شكلها التصويري أو الأدبي أو الموسيقي، وطبقوه ببراعة لا تبارى في كافة صيغهم الفنية المتكررة المعقّدة التي نلمسها في زخارفهم.

ويتميّز العنصر الفارسي في الفن الإسلامي باتجاه شاعري غنائي وتيار ميتافيزيقي رائع يُفضي عاطفياً وروحانياً إلى صوفية بديعة بلا نظير. ولا غرو فقد قامت معظم مدارس التصوير الإسلامي في إيران فوق صرح الأدب الفارسي، فإذا بين أيدينا إيقونوغرافية نسيج وحدها خلاصة أسرة، ازهرت خلال القرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر في أنحاء العالم الإسلامي كله بلا ضريب.

أما العنصر التركي في الفن الإسلامي فيقوم أساساً على أفكار تجريدية متأصلة طبّقها أتراك أواسط آسيا على الأشكال الفنية التي صادفوها خلال رحلتهم الطويلة من أعماق آسيا حتى بلغوا مصر. ولقد حملوا معهم فيما حملوا تقاليد راسخة للتصميمات الفنية التشخيصية وغير التشخيصية من شرق آسيا إلى غربها، خالقين بدورهم إيقونوغرافية تركية متميزة. ويمكن أن ندرك أهمية العنصر التركي في الحضارة الإسلامية إذا تذكّرنا أن العالم الإسلامي كانت تحكمه وتسيطر عليه عناصر تركية منذ القرن العاشر حتى القرن التاسع عشر. ومن هنا كان الفن الإسلامي يدين بالكثير إلى تلك الأسرار التركية الحاكمة، حتى ليصعب أطراح أثر الفكر التركي والذوق التركي على الفن الإسلامي.

وعلى الرغم من أن هذه العناصر الثلاثة التي تشكّل الفن الإسلامي يمكن تمييز كل منها في بعض العصور مستقلة بذاتها إلا أنها جميعاً تُسهم بنصيب متساوٍ في تطور الفن الإسلامي، فهي في أغلب المراحل تتصافر وتتكامل حتى يتعدّد التفرقة بينها.

وهكذا تشترك أقاليم العالم الإسلامي كله في سمات فنية جوهرية تجرّها إلى وحدة «إتنيه» وجغرافية تتجاوز الاتجاهات القومية ولا يوازيها في تاريخ الحضارة الإنسانية إلا مثيلتها في العالم الروماني القديم، حين كانت الروائع الفنية الرومانية في مختلف الأقاليم والأمصار تجمع

بينها وشائج قري متينة، بغض النظر عن مصدرها أو البيئة التي أنتجت فيها. وكانت هذه الروابط من القوة بحيث يمكن القول بأن العالم الروماني كانت تسوده لغة فنية مشتركة «كُويني» كما كانت تدعى في تلك العصور.

* * *

وإذا كان القارئ قد أَلِفَ أن تكون الموسوعة مرتبة ترتيباً ألفبائياً، فإن هذه الموسوعة على خلاف ما يَأْلَفُ؛ إذ تقع في أبواب موضوعية عدتها ستة، ينتظمها تتابع زمنيٍّ موزَّع توزيعاً جغرافياً. وتتطرق هذه الموسوعة في أول أبوابها إلى مناقشة موضوع التصوير بين الإباحة والتحريم. فعلى حين نجد فريقاً من الفقهاء ينحازون إلى التحريم دون أن يملكوا على هذا دليلاً أو حجة، بل وقفوا عند الظاهر فالتزموا حرفية الأحاديث المحرمة، دون أن ينظروا ما معها من قيد أو شرط، نجد غيرهم قد أباحه، بل منهم من كان يمارس هذا الفن بنفسه. وكل ما جاء بالتحريم من أحاديث رسول الله ﷺ مشروط بالألا يكون فيه ما يُغري بالشُّرك بالله أو ما يشغل العابد عن عبادته، ثم إن ما جاء في الأثر عن الرسول الكريم من إغضاء دون تصريح بتحريم أو إباحة، فقد رأى فيه المبيحون للتصوير دليلهم على جوازه، وهذا لما ينميه في الإنسان من رقيق المشاعر وجميل القيم.

ويعرض هذا الباب أيضاً لملامح التصوير الإسلامي بصفة عامة مع اختلاف الزمان والمكان، مستعرضاً فنون الزخرفة الإسلامية من توريق متشابك، أو رقص، مما سمّاه الغربيون الخط المنعم «أرابيسك» يعدّونه بذلك فن العرب الأصيل المذهل، وفنون النحت والنقش البارز والتصوير الجداري وخیال الظل، ونظرة كل من أهل السنة والشيعة إلى التصوير. وإذا كان النهج في التصوير الإسلامي يختلف عنه في التصوير الكلاسيكي كان لا معدى عن إيضاح السمات التي ينفرد بها التصوير الإسلامي، وتحديد المصادر الحضارية المختلفة التي لقن عنها واقتبس منها، والموضوعات التي تناولها، والمصاعب التي يلقيها من يُقبل على دراسة فنون التصوير الإسلامية، ومكانة المصور المسلم في مجتمعه.

لقد مرّ التصوير الإسلامي بمراحل متعددة، لكل مرحلة عواملها المؤثرة فيها وظروفها وبيئاتها ومصادر إلهامها، ويمكن حصرها في مدارس أربع رئيسية، تنقسم بدورها إلى مدارس فرعية زماناً ومكاناً. ومن الصعوبة بمكان تحديد تواريخ دقيقة لكل مرحلة؛ إذ كثيراً ما تختلط وتتداخل بدايات تلك المراحل ونهاياتها.

وقد أفردت هذه الدراسة لكل من هذه المدارس الأربع باباً مستقلاً، فيتناول الباب الثاني مدرسة «التصوير العربي» التي نشأت في العراق وسوريا ومصر والاندلس. ويتناول الباب الثالث مدرسة «التصوير الفارسي» بعهديةا التيموري والصفوي، ويتناول الباب الرابع مدرسة «التصوير التركي» منذ القرن السادس عشر بعهديةا: عصر الوثائق التاريخية وعصر التيولپ «اللال». ويتناول الباب الخامس مدرسة «التصوير المغولي» بالهند منذ نشأت الإمبراطورية المغولية بالهند عام ١٥٢٦ إلى اضمحلالها عام ١٨٥٨.

ولسنا نملك إلا أن نعترف بأن النهي عن التصوير قد لعب بالفعل دورًا في إحجام عدد كبير من المصورين المسلمين عن التصوير إما تحررًا أو أخذًا بالأحوط، بل إن مَنْ أقدم منهم على التصوير في المراحل الأولى قد تحاشى التطرّق إلى تصوير الموضوعات الدينية، حتى إذا انهارت الدولة العباسية على يد هولاكو في منتصف القرن الثالث عشر رأينا بعض الأقلام تتجه إلى التصوير الديني دون أن توقّع باسمها عليه. ولم تلبث أن ظهرت انطلاقة جديدة في فن التصوير، وخاصة في بلاد فارس في عهود الإيلخانات والتيموريين السنيين والصفويين الشيعة، ثم في تركيا العثمانية السنيّة وخلال الحكم المغولي السني بالهند. غير أن شيئين اثنين بقيت لهما قداسة لا تجعل مصوّرًا يمسّهما بريشته، وهما المساجد والمصاحف، فلم تظهر صورة على جدار مسجد في طول العالم الإسلامي - باستثناء بعض المزارات الشيعية في إيران - كما لم تحمل إحدى صفحات مصحف أية صورة، فقد حلت محل مثل هذه الصور الترقينات الزخرفية البالغة الثراء والروعة، بينما حلت محل الصور الجدارية في المساجد الحلقات المعمارية المبتكرة والزخارف الكتائية والتوريقات المتشابكة. على أن الإقبال على التصوير لم يكن فسيحًا، فلم يكن أحد ليجعل وجود نصوص يحرم ظاهرها التصوير، فكان من الطبيعي ألا يُقدّم إلا قليلون عرفوا ضعف هذه النصوص أو نجحوا في تأويلها بما يرفع سوط التحريم عنهم. ولا أعتقد أن العديد من المصورين المسلمين كانوا يمارسون التصوير وهم يعرفون أنه محرّم كما ذهب بعض مؤرخي الفن إلى ذلك؛ وإلا لسمعنا عن إقدام بعضهم على التوبة أو على حرق ما سبق أن صوّروه خلال عهدهم بالعصيان على نحو ما فعل المصور المسيحي بوتيتشلي في القرن الخامس عشر بعد تأثره بمواعظ الراهب سافونارولا ووعيده المثير للخشية. على أن ما بأيدينا من مخطوطات إسلامية مصوّرة يدل على مدى ما أولاه الحكام المسلمون وكبار القوم من تشجيع للصنّاع والحرفيّين المشتغلين بالفنون التصويرية والتشكيلية رغم عدم رضا نفر من الفقهاء. ومن هنا انحصر فن التصوير إلى حد بعيد بين جدران القصور والدور وغدا فن بلاط فحسب. فما من شك في أنه ثمة فرق بين ما تأخذ به السلطة الدينية وما يأخذ به الناس عامة؛ إذ سلطانها أقصر ما يكون عن أن يقتحم على الناس بيوتهم التي تحفل بمثل هذه المحظورات. على أن التصوير الديني الإسلامي لم يصطبغ بالصبغة التعليمية التي اتسم بها التصوير المسيحي الذي كان يخاطب من لا يعرفون القراءة والكتابة - سواء بفريسكاته فوق جدران الكنائس أو بلوحاته الزيتية أو بأيقوناته أو بزجاجه الملون المعشّق - فلقد ظهر بين ثنايا المخطوطات فحسب، وكان هذا الارتباط بين التصوير والمخطوطات سرّ عدم شيوع التصوير؛ إذ كانت المخطوطات المصوّرة وقفًا على الرؤساء والأمراء وعلية القوم وكبار العلماء والأدباء نظرًا لارتفاع تكلفتها.

ولقد أفردت الباب السادس للصور الإبداعية الرامزة في المنمنمات الدينية باعتبار أن الفنان يلود برموز تسبغ على منجزاته ألوانًا من التخيلات المعبرة عن أحاسيسه الخفية الغيبية لا عن ملامح الطبيعة الواقعية. وما أصدق مقولة المتصوّف الإسلامي النابه جلال الدين الرومي وهو يخاطب ربّه قائلاً: «هل أنا إلا مصوّر نقاش أصنع لحظة تمثالاً، ثم أنا في حضرتك أصهر كل هذه التماثيل، كما أخلق مائة نقش وأنت فيها الروح. فإذا ما رأيْتُ ما صوّرت أنت، ألقيتُ بما صنعتُ أنا جميعًا في

النار.» وهذا اعتراف من الفيلسوف المسلم بأن الفنان المسلم يُقدم على الإبداع مُدْرِكَاً أنه إنما يتشبه بالخالق مبدع الكائنات. وتلك مخاطرة كبرى ينبغي أن يحسب حسابها، ومن ثم كان عليه أن يفلت من إسار الواقع. وإذا كان التصوير الديني الإسلامي يقوم على ملء الفراغ بإبداع فني يتشكّل في أساسه من الرموز لا من عناصر واقعية مهما ادّعى الفنان أن هذه الصور أو تلك تمثل هذا النبي أو ذاك، أو أن هذا المبنى يمثل الكعبة أو قبة الصخرة، فإن ما نراه ليس غير نماذج يرمز بها إلى الأشخاص أو الأماكن.

وتخلو هذه الدراسة من أية منمنمات ترمز إلى الرسول ﷺ والإمام علي كرم الله وجهه والسيدة خديجة أم المؤمنين وبعض الصحابة رضوان الله عليهم، لم يرضها مجمع البحوث الإسلامية، «فحرّم عملها واقتناءها ونشرها وتداولها سواء أكانت منفردة أم في ثنايا الكتب أم محفوظة في المتاحف أو دور الكتب أو غيرها^(١)».

ولهذا فقد اجتزأت في هذه الموسوعة عن نشر تلك المنمنمات بعبارات وصفية لها تغني عن عرضها استجابة لما رآه المجمع، فلقد سبقت إلى هذا كتب السير وكتب التاريخ فوصفت الرسول ﷺ كما وصفت غيره من الصحابة. ولقد كان من الطبيعي لإعطاء القارئ فكرة أكثر ما تكون دقة وكمالاً عن التصوير الإسلامي أن أزوّدته بأكبر قدر من آثار هذا الفن الفريد المتميز. فلم يقف مسعاي عند ما قدمته المؤلفات العربية والأجنبية، بل حفزني عشق هذا الفن والظماً إلى الرشف من مناهله الأصلية إلى الاختلاف إلى المتاحف ودور الكتب والمعارض التي تزخر بالمخطوطات الإسلامية عربية كانت أم فارسية أم تركية أم مغولية، حيث وقعت على كنوز شائعة نادرة، أخص من بينها مكتبة طوب قابو سراي باستنبول، ودار الكتب المصرية، ومتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، ومكتبة قصر جلستان بطهران، والمتحف البريطاني، ودار الكتب القومية بباريس، ودار الكتب بفيينا، ومتحف المتروبوليتان بنيويورك. وكانت ثمرة هذه الدراسة تقديم بعض هذه المنمنمات المذهل الروعة للقارئ لأول مرة، مضيفاً بذلك إلى جهد العديد ممن سبقوني لبنة متواضعة إلى صرح هذا الفن الشامخ الذي ما يزال في انتظار جهود الكثيرين.

وتتنظم الموسوعة سبعمائة وأربعاً وخمسين لوحة مصورة، منها أربعمائة وخمس وثمانون لوحة ملونة، منها ثمانٍ وسبعون لوحة لم يسبق نشرها، ومائتان وتسع وستون لوحة أبيض وأسود منها سبع وأربعون لم يسبق نشرها.

ولقد آثرت ألا أشير إلى أية منمنمة إلا مع المخطوطة التي تضمها؛ ليعرف القارئ بيئتها التي ظهرت فيها وزمانها وتسلسلها التاريخي ومدى التطور الذي لحق بأسلوب التشكيل الفني المعاصر لها. كذلك أضفت في نهاية الموسوعة ثبناً بكافة المخطوطات التي ورد ذكرها قبل الثبث الببليوجرافي للمراجع العربية والأجنبية.

(١) بيان صادر من مجمع البحوث الإسلامية بشأن كتاب «التصوير الإسلامي الديني والعربي» تأليف الدكتور ثروت عكاشه في ٢٦ أبريل ١٩٧٨.

ولا أنسى أن أسدي شكري إلى الأستاذ الجليل دكتور جورج متري عبد المسيح رئيس دائرة المعاجم - بعبدات - مكتبة لبنان وزميله الأستاذ هاني تابري على ما قاما به من عون كريم في إعداد هذه الموسوعة في طبعتها هذه تدقيقاً وتنسيقاً وترتيباً وتبويباً ومراجعة وتصحيحاً للتجارب، وكذا محرري مكتبة لبنان ولا سيما السادة المحررين... والفنانين... حتى خرجت الموسوعة على هذه الصورة.

وأخيراً أتقدم بشكري الخاص إلى الأستاذ خليل حبيب صايغ صاحب مكتبة لبنان وصاحب فكرة إصدار هذه الموسوعة، على كل ما أبداه من نصح وتشجيع وتأيد وملاحظات نيرة وتذليل للعقبات، فإليه يرجع الفضل في خروج هذه الموسوعة إلى النور.

وبالله التوفيق.

المعادي في ١٨ فبراير ١٩٩٨

ثروت عكاشة

البرء الذوّ

التصوير الإسلامي

الفصل الأول

التصوير بين الجواز والحظر

فنون الجزيرة العربية قبل الإسلام

ولهكذا رأينا الكعبة في مكة تزدحم بالتمائيل وتغطي جدرانها التّصاوِيرُ. وكذا كانت الحال في اليمن التي أطلتها حضارة جُمَيْرِيَّة^(١) قبيل الإسلام وشاعت فيها فنون يدوية.

ولهذه الأصنام التي انتشرت في مكة وما حوايها والتي تكلم عنها ابن الكلبي في كتابه «الأصنام» كان أكثرها - فيما يبدو - وما جَلَبه العرب معهم في رحلاتهم إلى خارج مكة شمالاً وجنوباً. وليس بعيد أن يكون هناك قلة من العرب حاكوا تلك الأصنام المجلوبة. أما تلك الصور التي اُزدانت بها جدران الكعبة قبل الإسلام فمما لا شك فيه أن العرب جلبوا لصنعها صناعاتاً من الخارج. ويحكي الأزرقي في كتابه «أخبار مكة» أن سادة قُريش لما هموا بإعادة بناء الكعبة استعانوا بنجار قِطَفي اسمه باخوم، وأنهم رَوّقوا أسقفها وجدرانها، وجعلوا في دعائمها صور الأنبياء والملائكة. وكان من بين هذه الصور صورة إبراهيم عليه السلام وصورة عيسى بن مريم وأمه عليهما السلام. وعجاجة الأزرقي تُفيد أن تلك التّراويق كانت هي الأخرى من صنع غير العرب. ولقد عُثر باليمن على تماثيل صغيرة وتُحف برونزية ترجع إلى عهد مملكة سبأ السابقة على الحضارة الجُمَيْرِيَّة، وهي وإن لم تكن من الإثقان بمكان، لكنها تدل على أن سُكّان تلك الناحية كانوا هم أيضاً ذوي تجربة وخبرة في تلك الفنون اليدوية. وثمة تماثيل صغيرة كانت تُصنع في الإسكندرية فيما بين القرنين الثاني والسادس الميلاديين، ثم حملها نفر من الروم عبر البحر الأحمر (لوحه ١)، والأرجح أن بعضاً مما وُجد في الجزيرة العربية من هذه العاديات كان مُقلداً أو صنّع محاكاة لها. ومن هنا لم تعرف البيئة العربية قبل الإسلام التصوير فنّاً كما عرفته الأمم الأخرى.

كان ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي إيذاناً بصحوة كبرى في منطقة شبه الجزيرة العربية الفسيحة التي كانت تضم قبائل متناثرة من بدو رُحّل لا يعرفون الاستقرار في مأوى ولا الانتماء إلى وطن ولا الارتباط بجماعة. هذا إذا استثنينا مُجْتَمَع مكة ومُجْتَمَع اليمن اللذين كانا يُمثّلان شبه دولتين شمالية وجنوبية. فلقد كان العرب - خلا اللُحَمِيّين والعُساسنة التّازِجِين إلى الشام من اليمن - يعيشون أشتاتاً مُتبايني اللّهجات لا تجمعهم وحدة سياسية أو اجتماعية، بل كان التناحر والتناحر والحروب ديدن هذه الجماعات حتى كانت دعوة الإسلام التي سرعان ما جمعت هؤلاء الأشتات تحت لوائها على عقيدة واحدة ولسان واحد ونظام واحد. وإذا نحن بين يدي أمة لها مقوماتها الأدبية والمادية، وإذا هي تجمع تحت لوائها شعوباً أخرى تشترك معها في الإسلام، تسكن إلى الجنوب الغربي من آسيا وفي الشمال الأفريقي.

ولقد كان بعيداً عن تلك الأمة التي بدأت حياتها الأولى في البادية - حيث الرحلة الدائمة والخلاف القاطع للصلوات - أن تتبكر فنّاً يدوياً، وألا يكون لها غير فن القول. ذلك أن الفن اليدوي تُعوزه الحياة المستقرة يُطلق فيها الموهوب يده فيصوّر ما يُجسّن لتأثس به نفسه ويُجمل به مسكنه. تلك كانت حال الجزيرة العربية في جاهليتها من ذلك الفن اليدوي قبل أن يُظللها الإسلام بظله ويلفها بردائه.

ولم يكذّ يكتب لتلك الأشتات أن يجتمع شملها في مكة واليمن حتى غدت لهم فنون يدوية سابقة على الإسلام. وكانت ثمة معتقدات في تلكما البيئتين نمت حولها أساطير. وكانت ثمة ديانات موروثة تصمّنتها سير. وكان لا بد من تصوير نزعات النفس وخلجاتها وإبراز تلك الأحاسيس وتجسيد تلك المعتقدات.

(١) تنتظم حضارة اليمن ثلاث حضارات: حضارة معين (١١٢٠ ق.م - ٦٣٠ ق.م)، وحضارة سبأ (٨٠٠ ق.م - ٦٢٨ ق.م)، وحضارة جُمَيْرِيَّة (٤٠٠ - ٥٢٥ ق.م).

الشعوب التي خالطوها أذبا وعلمًا أفادوا أيضًا من تلك الحضارات قُتًا. فكانت لهم تلك الجولات الأولى في التصوير يوم أن عرفوه فيما شاهدوه عن تلك الأمم، وكانت نشأة المصورين العرب الذين تتلمذوا على الفنون التصويرية لتلك الأمم المختلفة مسيحية وبيزنطية وساسانية. غير أنهم كانوا لا يزالون قريبي العهد بتعاليم الرسول ﷺ التي لا تعرف لهو الحياة وترى فيما يصرفها عن وجه ربها شيئًا محرّمًا.

من أجل هذا كان ذلك التشدد في النظرة إلى التصوير وغيره مما يشبهه الذي عهدناه في العهود الأولى للإسلام، إذ كان المسلمون أول عهدهم بالإسلام يرون ألا يشغلهم شاغل عن العبادة، وكان التصوير في نظرهم من هذه الشواغل. ولهذا رأينا المساجد الأولى بُنيت على طريقة معمارية خالية من كل رُقش أو نقش ومن الإسراف في مباحج الحياة، فقد روى البخاري في كتاب الفتن حديثًا عن الرسول ﷺ أن من علامات الساعة تطاول الناس في البُنيان.

كذلك روى الأزرقعي أن رسول الله ﷺ لما دخل الكعبة بعد فتح مكة قال لشيبة بن عثمان: «يا شيبة امحُ كُل صورة فيه إلا ما تحث يدي». ثم رفع يده عن صورة عيسى بن مريم وأمه. وهذا الذي رواه الأزرقعي رواه أيضًا ابن حجر في شرح صحيح البخاري^(١). والدليل على ذلك أن هذه الصور بقيت كما هي ولم تتناولها يد المحو إلا في تاريخ متأخر، وذلك أيام ولاية عبد الله بن الزبير المدينة سنة ٦٨٣م. وهو ما يدلنا على أن التصوير لم يكن منهيًا عنه جملًا، وأن النهي كان عما هو مُسيف منه ويحول بين العبد وربّه ويُسِيء إلى معتقده.

ويروى أن عائشة زوج الرسول ﷺ وضعت في بيتها سترًا عليه تصاوير. فقال لها الرسول ﷺ: أميطي عني فإنه لا تزال تصاويره تعرض لي في صلاتي. وتقول عائشة رضي الله عنها إن الرسول ﷺ قد نزع الستّر، ففقطعت هي وسادتين كان يرتفق عليهما. وهذا يعني أن كراهية الرسول ﷺ للتصوير لم تكن عامة بل كانت خاصة تشمل ذلك الجاني الذي يشغل عن العبادة. أما إذا كان للزينة فلا كراهية فيه.

كما يحكى عن عائشة أيضًا أنها حين رُفّت إلى الرسول حَمَلَت معها دُمى كانت تلعب بها، ولقد سألها عنها الرسول مرّة فأجابته بأنها خيول سليمان فسكت الرسول ﷺ ولم يعد لسؤالها مرّة أخرى^(٢). هذا إلى أن زوجات الرسول ﷺ - كما يزوي

ومن أجل ذلك لم يظفر العصر الجاهلي بشيء من التصوير كما عُثِر على مثله عند الأمم الأخرى. ولعل بُعد الأمة العربية في جاهليتها عن التصوير كان له أثره فيها فيما بعد حين أظلمها الإسلام، فكانت أميل إلى الأخذ بالنهي عن التصوير والابتعاد عنه. ولعل هذا أيضًا كان له أثره في الإخباريين وأهل السير والمفسرين فمالوا في تأويلهم إلى ما أثار عن الرسول ﷺ خاصًا بالتصوير إلى جانب التحريم.

ولقد أخذ هذا الدين الجديد بيد الأمة معتقدًا كما أخذ بيدها في جميع شئون الحياة فأصبحت لا تصدر إلا عنه دينًا وحياة. وما لبثت تلك الدولة الجديدة أن أخذت عمن حولها وأعطت، وإذا لها آخر الأمر من هذا المزيج سمات خاصة وصفات متميزة، وإذا هي تنفرد عن غيرها بطابع خاص هو الطابع الإسلامي الذي استطاع منذ أن وُجد وتميز أن يفرض وجوده وأن يصارع من أجل ذلك الوجود الذي عاش في جميع مراحل تأسده عقيدة ولغة. وكان الثيل منه معناه الثيل من تلك العقيدة أو من تلك اللغة. لذا كان كل ما يمس تلك الدولة الإسلامية ويصدر عنها ذا طابع شبه قُدسي.

التصوير الإسلامي بين الإباحة والتحريم

لم يعم الإسلام الجزيرة العربية كلها في أول أمره، بل ظل نقرّ يدينون بالوثنية واليهودية وبالنصرانية، ومن ثم لم يشمل التحرّز عن الأخذ بالتصوير الذي شمل المسلمين أول عهدهم بالإسلام غيرهم ممن لم يدينوا بالإسلام. وعلى الرغم من هذا لم نظفر لهؤلاء بتصاوير فيما عدا تصاوير الشريان اليعاقبة وبعض المسيحيين الشرقيين، وهذا يردنا إلى ما قلنا قبل من أن البيئة العربية لم تكن بيئة تُعزّم بالتصوير، وأن السبب في بُعد العرب عن التصوير لم يكن للإسلام وتعاليمه نصيب كبير فيه. وعلمنا أنه حين واجهت الأديان الأمم بأوامر ونواها ظل نفر من الناس لا يأخذون بتلك الأوامر ولا يجتنبون تلك النواهي؛ من ذلك ما واجه به الإسلام الأمة العربية من تحريم الخمر، وكانت بها مشغوفة وعليها عاكفة. وبالرغم مما أخذ به الإسلام في تحريم الخمر على مراحل كي يسر الأمر على معاقرها، فلقد ظلت فئات معاقرها لا يصرفها عن ذلك التشدد في النهي الذي ختم به الإسلام المسألة مُحَدَّرًا مُثْبِرًا.

ولقد ظل هذا الأثر البيئي الذي صرّف العرب عن الأخذ في التصوير مُمتدًا عهود الإسلام الأولى إلى أن كانت تلك الصلّات التي عُقدت بين الشعوب العربية وشعوب أخرى ذات حضارات تختلف تقاليدها عن التقاليد العربية، وتحمل قنونا مختلفة، منها فن التصوير وفن النحت. وكما أفاد العرب من حضارات تلك

(١) شرح صحيح البخاري، ٧: ٣٨.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨: ٤٢.

هذه الرخصة الفقهيّة لا تتّسع لها كما اتّسعت للأمم، أعني أنّ هذا الإجماع يحمل في طياته إباحة الفنّ جُملةً إلّا ما كان منه مُسيئاً مُسيئاً إلى المُعتقَد وكان فيه ما يُخاف منه عليه.

هذا إلى أنّ القرآن الكريم ليس فيه ما يُشير عن قُرب أو عن بُعد إلى تحريم التصوير، بل إنّ في ثنايا كلام الله تعالى في كتابه الكريم ما يرمز إلى صُور تُشكّل من المعاني لُوحات فنيّة تنطق بما في القرآن من إعجاز. ففي الكثير من مواضع القرآن الكريم ما يدلّ على أنّ الجمال نعمة من نعم الله ما لم يجزّ الناس إلى الشُّرك بالله. وفي هذا الصّدّد يقول المؤرّخ الإسلاميّ د. محمّد عمارة:

[إنّ موقِف القرآن الكريم من التصوير والتّماثيل للأحياء ليس واحداً وليس عامّاً وليس مُطلقاً. فحينما تكون سبيلاً للشُّرك بالله - شيئاً جليلاً أو خفياً - فهي حرام، والواجب تحطيمها... أما عندما تُنتفى مَظَنّة عبادتها وتُعظيمها والشُّرك بواسطتها فهي عندنا من نعم الله... والإيمان بالإعجاز القرآنيّ مرهون بازدهار الحاسة الفنّيّة لدى المسلم... ومن ثمّ فإنّ البدهة قاضية بأن يكون القرآن داعياً يُركّز تنمية الحاسة الفنّيّة لدى المسلمين. فلقد رأينا كيف امتلأت صُور القرآن الكريم بما نُسميه في الدّراسات الأدبيّة والفنّيّة بـ «التّعبير بالصُّور»، أي رَسَم الصُّور الحسيّة كي تُعبّر بها آياته عن المَقولات والمعاني والأفكار... فنحن أمام «لُوحات» تُعبّر بالصُّور المرئيّة والمُحسوسة عن المعاني والأفكار والمَقولات. أي أمام «التّمثيل» و«التّصوير». فعندما يتحدّث القرآن الكريم عن الذين كفّروا فأحبط الكُفر أعمالهم وأضاع الثّمار المرجوّة من مثلها نجد «يُمثّل» هذه «الفكرة» فيُعرضها في «صُور» مُحسوسة، و«يرسمها» في لُوحات فنيّة تراها العين عندما ينطلق بكلماتها اللّسان... فأعمال هؤلاء الكُفّار كَرَماد هبّت عليه الرّيح العاصفة فلم تُبق منه لأصحابه كثيراً ولا قليلاً: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ، ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ إبراهيم ١٨، و﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَطَنَ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَّمْ تَكُنْ إِلَّا نَسِ، كَذَلِكَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يونس ٢٤. نعم... كذلك يُفصّل الله الآيات... وكذلك يُصوّر القرآن الأفكار فيُحيل المُعقولات إلى صُور مُحسوسة تُعرضها آياته الكريمة في لُوحات[^(١)].

ولكن نَمّة، إلى هذا الذي يحمل في طياته إباحة التصوير، ما

أصحاب السّير والأخبار - كُنْ يَتَّخِذْنَ أَقْمِشَةَ مُزَخْرَفَةً بِرُسُومِ الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ.

ويقول الطّبريّ إنّ سعد بن أبي وقاص حين دخل بجيشه المَدائن «طيسفون» بعد موقعة القادسيّة التي هَزَم فيها جيوش كِسرى، نزل القصر الأبيض واتّخذ الإيوان مُصلّى، وكانت فيه لُوحات مُصوّرة فلم يأمر بإزالتها، وظلّت هذه التّصاوير من دون أن تُمسّ نَحْوًا من قرنين بعد هذا بذليل ما جاء على لسان البُحْثَرِيّ الشّاعر من وصف لها:

فإذا ما رأيت صورة أنطا

كيّة ارتعت بين روم وفرس

والمنايا موائل، وأنوشر

وان يُزجي الصفوف تحت الدّرّفس

في اخضرارٍ من اللّباس على أصد

فمرّ يختال في صبيغة وزر

وكأنّ القيان وسطّ المما

صير، برّجحن بين حوّ ولعس

وكأنّ اللّقاء أول من أم

سي، ووشك الفراق أول أنسي

ولهذا الجُزّص من المسلمين، وعلى رأسهم رسول الله ﷺ، على أن يكون العبد موصولاً بربه من دون صارف، قد أخذ به عبّاد الأديان الأخرى بعد، فقد ذهب القديس برنار (٩٢٣ - ١٠٠٨م) إلى أنّ الرّخايف المعماريّة الرومانسكية والتّصاوير الجداريّة بالكنائس لها أثر صارف في نفوس المُصلّين ولا سيّما من كان منهم يتدوّق الجمال، وكانت هذه هي نظرة بغض المسلمين إلى فنّ التّصوير، وهي نظرة خوْف على أن يُشغل المُصلّي في المسجد بما هو صارف له عن استغراقه في الصّلاة.

ونرى لِلْفُقهاء - وبخاصّة المالكيّة - رأياً حوّل الدّمي المُجسّدة استناداً إلى ما سُقناه قَبْلُ عن دُمى عائشة التي دخلت بها على الرّسول ﷺ حين رُفّت إليه، فهم يروّون إباحة الدّمي ولكّنه يَشترطون لذلك شروطاً منها أن تكون تلك الدّمي للصّبيّات الصّغيرات، وأن يكون للمُحتسب وخذه الحقّ في تلك الإباحة، أي أنّ المُحتسب عليه أن ينظر أولاً فيما إذ كانت تلك الدّمي لإيقاظ غريزة الأمومة وأنّس الأُنثى بدُمى الأطفال أو لغير ذلك من أغراض أخرى، فإن كانت الأولى أباحها وإلاّ منعها. وكم من أغراض أخرى كثيرة تُشارك الأمومة في بُلبها. وما نظنّ

(١) د. محمّد عمارة: الإسلام والفنون الجميلة. دار الشّروق ١٩٩١.

يَسْغُلُ العابد عن عبادته. أمّا ما جاء في الأثر عن النَّبِيِّ ﷺ من إغضاء دون تصريح بتّحريم أو إباحة، فلقد رأى فيه المبيحون للتّصوير دليلهم على جوازه، وهذا لما يُنمّيه في الإنسان من تزيق المشاعر وجمال القيم. فعلى حين نجد قريباً من الفقهاء يتحازون إلى التّحريم دون قيد أو شرط، نجد غيرهم قد أباحه، بل منهم من كان يُمارس هذا الفنّ ومثل الفقيه الإمام أبي العبّاس أحمد بن إدريس القرافي (١٢٨٥م) الذي زاد على إباحته فنّ الثّحت والتّصوير اشتغاله به.

وعلى أيّة حال فلقد كان ل تلك الوقفة التّحرّيزيّة إزاء التّصوير أثرها في أخذ المسلمين بالأخوط فلم يقبلوا على التّصوير إقبالاً صريحاً، وتحاشوا أكثر ما تحاشوا أن يستخدموه في أمور الدّين. من أجل هذا خطا التّصوير فيما يمسّ الدّين خطوات بطيئة وعلى استحياء. فلم يعيش لخدمة الدّين ولم يدخل إلى المساجد ولم يسهم في تجميل المصاحف، غير أنّا مع هذا وجدنا صوراً تمثّل أحداثاً دينيّة كالإسراء والمعراج وغيرها.

ويرى بعض مؤرّخي الفنّ أنّ السّر الثّقسي في تحريم التّصوير مرّده إلى أنّ الصورة جزء من المصوّر لا تنقص عنه غير الرّوح، وأنها وسيلة لإلحاق الأذى بصاحبها كما كان يفعل الكهنة والسّحرة منذ حين بعيد^(١). ويذهب أصحاب هذه النظريّة إلى أنّ هذا المفهوم كان من معتقدات الجنس السّاميّ، لهذا كان من رأي فقهاء الإسلام تشويه الصّور بكسر أو نحوه حتّى لا تبدو ممثّلة لصاحبها تمثيلاً حقّاً. غير أنّ الرّغم بأنّ هذا المفهوم البدائي لا يخصّ غير الجنس السّاميّ أو الشّرقيّين بصفة عامّة أمر يجافي الحقيقة التاريخيّة، فقد رأينا في بقع عديدة من العالم منذ العصور القديمة، كما زاولته شعوب أوروبيّة عدّة في العصور الوُسطى.

ويعتقد جاستون فييت أنّ هذا الرّغب المتوارث الذي أصبح شبه شيء غريزيّ في نفوس السّاميين كان له أثره في نُدرة التّصوير بين الشعوب الإسلاميّة العربيّة وغزرتها بين الشعوب الإسلاميّة غير السّاميّة مثل الفرس والمغول والهنود والأثراك^(٢). كما يعلّل

يحمل في طياته هو الآخر ما يُحرّمه ويصرف الناس عنه. فلقد روي عن النَّبِيِّ ﷺ في ذلك أحاديث منها: «إنّ أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة المصوِّرون»، ومنها: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كُلبٌ ولا تصاوير»، ومنها: «إنّ الذين يصنعون هذه الصّور يُعذبون يوم القيامة يقال لهم أحيوا ما خلقتُم». ولكن من المعروف أنّ ما جُمع في كُتب الأحاديث منه ما هو مرّدود ليضعف سنّده، ثمّ إنّنا لو سلّمنا بصحّة تلك الأحاديث فليتلّوّل فيها مُتّسع، فقد تكون هذه الكراهية للتّصاوير والمصوِّرين هي ما أُريد به صَرْف الناس عن عبادة الله أو رُدّهم إلى الوثنيّة والشّرك أو تشبيههم الله في صوّر لا تليق بجلاله، نغني أنّ التّصوير المُنهي عنه هو ما قُصِد به إلى ذلك الغرض الصّارف عن العبادة والدّاعي إلى الشّرك، وأنّ المصوّر الموعود بعذاب النار هو ذلك المصوّر الذي يأتي لهذا وذلك عندنا ليُضِلّ به الناس عمّا هداهم الله إليه. وقد يكون هذا التّحريم لمواجهة تآثر الناس بما كانوا عليه من وثنيّة قديمة، فخيّف عليهم مع إباحة التّصوير أن تنزع نفوسهم إلى ما وجدوا عليه آباءهم ثمّ ما ألفوه في أنفسهم زمناً طويلاً. فعلة التّحريم في صدر الإسلام كانت الخشيّة من الرّدة بما يُجيز لنا أن نقول إنّ كان تحريماً مؤقتاً برّمن وبظروف خاصّة^(٣)، ولم يكن مُطلقاً في الزّمان والمكان، وأنّه لا ضرورة له متى أُمنّ جانب العبادة والتّعظيم.

فليس من منطوق الأمور أن يُحرّم التّصوير على عمومه على مرّ العهود الإسلاميّة السّالفة، فقد يكون عماداً في حفظ حقوق شرعيّة، كما هو الشأن في صوّر الغرقى والأموات من مجهولي الشّخصيّة والتي تعرضها الدّولة على الملّا ليتعرّف عليهم ذوّهم وتحدّد بذلك الحقوق والواجبات والأحكام الرّؤويّة وحلول الديون والهبات والموارث ونحو ذلك. وقد يكون التّصوير كذلك سبباً من أسباب تحذير الأُمّة من اللّصوص والمحتالين والجواسيس والإرشاد عنهم. ومن الصّور، مرّسومة أو منحتوتة، ما نعرف به أسرار جِسْم الإنسان والحيوان والنبات والصّخور وغير ذلك ممّا هو لازم في علوم النّاس وفي تقدّم البشريّة وتطوّرها. ومن القواعد الأصوليّة أنّ حكم الوسيلة هو حكم الغاية والمقصد، فكما يكون المقصد تكون الوسيلة جالاً أو تحريماً. فإذا كانت الصّور تتوقّف عليها بعض أحكام شرعيّة أو مُعالجات طبيعيّة أو كُشف وسائل علميّة، كان اتّخاذها ولا شكّ من المرغوب فيه شرعاً، وإنّ كانت لمجرد الزينة أو اللّهُو المُباح كان اتّخاذها مُباحاً، ولا تحريم لها إلّا إذا اتّخذت للتّعظيم والعبادة والتّبرّك^(٤).

ومن هُنا يكون ما جاء بالتّحريم من أحاديث رسول الله عليه الصّلاة والسّلام مشروطاً بأنّ يكون فيه ما يُغري بالشّرك بالله أو ما

(١) Zaki Hassan: The Attitude of Islam Towards Painting. Bulletin of the Faculty of Arts, Fouad I University, Vol 17, July 1944, PP. 1-15.

(٢) مجلّة الهداية جزء ٦ و٧، سنة ١٩١١، صفحة ٤٨٧ - ٤٩١.

(٣) Ettinghausen: Arab Painting P. 13, SKIRA.

(٤) Weit et Hauteceur: Les mosquées du Caire, Librairie Ernst Leroux, Paris 1932 P. 170.

وهكذا نرى العالم الإسلامي الذي عاش تنازعه الآراء لم يُحجم عن التصوير، ولكنه كان فيما يأخذ فيه من ذلك بين الإقبال والإغراض، يستوي في ذلك المسلمون أنفسهم ومن يعايشهم من أصحاب الديانات الأخرى. والثابت أن وقفة العالم الإسلامي من التصوير - كما سبق القول - لم تكن على درجة واحدة على مرّ العصور تحريماً وتحليلاً. فلم تنشأ تلك الوقفة الصارمة ضدّ التصوير إلا متأخرة على يد إمام من أئمة الشافعية هو الإمام الثوري المتوفى بمصر سنة ١٣٣٢م. حين حرم تصوير ما له ظلّ وما ليس له ظلّ، وإن كان قد أحلّ تصوير الثبات وما لا تدبّ فيه الحياة. ولقد كان الثوري فيما ذهب إليه في كتابه «المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج» من تحريم تصوير الكائنات الحيّة يرى أن ذلك محاولة لمجاراة صنع الخالق فيما خلق، ولا يرى بأساً في التصوير إذا كان زخرفة فحسب. من أجل هذا أباح للمصوّر أن يمجّلوا حمّاماتهم بتلك الصور البشريّة لأنّ العلة فيها هنا في رأيه كانت للتّجميل لا لمجاراة الخالق فيما خلق.

ولقد ساد المسلمون جميع البلاد التي فتحوها سيادة شاملة وطبّعوا بطابعهم، فإذا هي قد أنشئت قديمها أو كادت وتأثّرت بالنتاج فناً وعلماً وأدباً وروحاً، لم يتخلّف ذلك حتّى مع انهيار الدّولة العبّاسيّة سنة ١٢٥٨ على أيدي المغول، ولا حتّى مع عصر الدّويلات. وما كادت قبضة الحكّام العرب تخفّ تحت حكم الأتراك السلاجقة ثمّ العثمانيّين من مُتّصف القرن الثالث عشر إلى القرن التاسع عشر حتّى قامت جمهرة من المناهضين للتصوير ممّا أفضى إلى نُدرة التّصاویر، على حين كانت الحال في تركيا العثمانية في تلك العهود على العكس من ذلك، حيث ازدهر فيها فنّ التصوير. ولعلّ هذا هو السرّ في إحساس الناس اليوم أن المسلمين في مختلف أنحاء العالم الإسلامي كانوا دائماً يعدّون التصوير محرّماً ويتجنّبونه. وكانت الحال على الضّدّ من هذا في إيران وفي البلدان الشّرقية من الخلافة الإسلاميّة، تلك البلاد التي كان بها موروث غالب من فنّ عاش بظّلها، وعاشت هي متأثرة به تأثراً عميقاً، فما إن خفّت قبضة الحاكم العربيّ حتّى رجعت تلك البلاد إلى موروثها الفنّي أيام العصر السّاسانيّ، ثمّ بدت ثمة شعوبية مع هذا الانجلال أخذت تحارب كلّ ما هو عربيّ الطّابع فناً أو غير فنّ، وأفلحت إلى حدّ، فإذا الفنّ العربيّ ينحصر في بيئة محدودة تنظم العراق وسوريا ومصر ومراكش.

بعض الدّارسين كثرة التّصوير عند الشيعة بأنّهم كانوا أبعد الناس عن الاعتراف بالأحاديث التي جاءت بتحريم التّصوير والنّهي عنه والتي رواها أهل السنّة^(١). والحقيقة أنّ بعض فقهاء الشيعة كانوا من الصّرامة كنظرائهم من أهل السنّة في تحريم الصّور، فكان الشيعة يحتفظون بجملة من أحاديث الرّسول التي تنهى عن التّصوير وتحرمه بلا هوادة. وهكذا لم تكن الدّولة الشّيعيّة أكثر تسامحاً مع فنّ التّصوير من الدّولة السّنيّة. ولعلّ السّبب الأساسي الذي جعل الناس يأخذون بهذا الرّأي هو ظنّهم بأنّ إيران كانت مهبط الشيعة ومأواها، على حين أن إيران لم تدنّ بالمذهب الشّيعيّ رسمياً إلا عام ١٥٠٧ مع نشوء الأسرة الصفويّة.

وكان لهذا التّحرّز أيضاً أثره في نفوس المصوّرین فلم يحاولوا أن يطالعوا الناس بأسمائهم، حتّى رأينا تلك التّصاویر الأولى التي جاءت مع الإسلام على أيدي مسلمين، بقيت لنا لا تحمل أسماء أصحابها إلا في التّأدير الذي لا يمتدّ به. ولعلّ سبب ذلك أيضاً أنّ المصوّرین في مطلع الإسلام كانوا من المغموّرين إذ لو كان لواجد منهم شهرته لعزّ عليه أن يترك أثراً من آثاره من دون أن يمهّره باسمه.

ومع ظهور الدّولة الأمويّة كان الفكر الإسلامي قد أخذ يُلْقَن عن اليونانية والمسيحيّة، وذلك بفضل ما تُرجم من نصوص كثيرة إلى العربيّة. ومن تلك النّصوص ما كان يحمل صوراً، وإذا هذه الصّور تنقل بدورها إلى العربيّة بعد أن أضفي عليها طابع عربيّ. وهكذا أخذ الفكر يفتّح للتّصوير كما تفتّح لغيره ممّا تضمّنته النّصوص المترجمة. فأخذ الناس يأسون تدريجاً إلى التّصوير ويتخفّفون من هذا التّشدّد لا سيّما أنّ التّحريم لم يكن مدّعماً بأدلة حاسمة. وكان للإبحاءات الفلسفيّة تأثير كبير على كلّ التّرجمات من اليونانية سواء ما كان منها يدور حول النّاحية الدّينية أو العلميّة، فقد احتدم الجدّال حول الآراء الواردة في النّصوص أكثر ممّا دار حول التّصوير نفسه.

وقد ذهب «ماسينيون» في تفسير القرار الذي أصدره الخليفة يزيد بن معاوية عام ٧٢٣م بتحريم التّصوير إلى أنّه كان وليد الرّغبة في جُزّمان المسيحيّين [المُشركين] من أقوى الأسلحة التي تعمل على تثبيت عقيدتهم، تمهيداً لفتح قلوبهم للإسلام، وأنّه لم يكن تحريماً للتّصوير ودعوة إلى تّبذه. وكما ذهب ماسينيون إلى هذا ذهب إلى أنّ الرّأي القائل بتحريم التّصوير للخوف على المسلمين من الازدياد إلى الوثنيّة رأي ليس له وجهته، إذ هو يُصوّر لنا المسلمين الأوّل الذين كانوا أقوى ما يكونون إيماناً على حال من الضّعف والشكّ تكاد تردّهم عن دينهم الذي اهتدوا إليه عن عقيدة.

A.L. Wensink: The Second Commandment, PP. 4-5, (١)

Amsterdam Handbook of Early Mohammadan Tradition,

Leiden, Brill, 1927.

المنحوت في الحَجَر بقلعة الجبل بالقاهرة من عصر صلاح الدين الأيوبي والذي كان شيعاراً له (١١٧١). ونستطيع أيضاً أن نقول إن تزيين القصور بصُور جدارية كان من التقاليد التي أخذ بها في العالم الإسلامي منذ العهد الأول للأمويين، وكان أمراء بني أمية أحرص ما يكونون على تغيير تلك التُصاوير الجدارية في الحين بعد الحين، لا هم لهم من وراء ذلك إلا الرغبة في التجديد، وهو ما نراه في قصر الحير الغربي ببادية الشام وقصير عمرة ببادية الشام.

وكما كانت الحال عند الأمويين كانت عند العباسيين، فلقد كشف لنا هرتزفيلد في «سر من رأى» [وكان هذا اسمها أول ما بناها الخليفة المعتصم سنة ٨٣٦، حتى إذا ما هُجرت وصارت خراباً سموها ساء من رأى التي حُرقت إلى سامراء] عن رسوم جدارية اُرتفاعها وثران، ولهذا، لا شك، يؤكد أن العباسيين احتذوا حذو الأمويين في هذا اللون من التُصاوير الجدارية. ومن سوء الحظ أن الزمن عدا على بعض هذه الرسوم حتى لم يسلم منها ما كان بعيداً عن موطنه الأول فإذا الحُرب العالمية الثانية تدمر فيما دمرت من هذه الرسوم جانباً كبيراً كان يحتفظ به في متحف برلين. ولم يبق من تلك الرسوم التي كشف عنها هرتزفيلد إلا القليل يحتفظ به في متحف بغداد. وثمة رسوم جدارية أخرى من عصر الدويلات كشف عنها شلومبرجيه بين أطلال قصر محمود الغزنوي بلشكر بازار في أفغانستان.

التحريم في «العهد القديم»

كما لم يحارب الإسلام التصوير على إطلاقه وإنما حارب منه ما كان صارفاً للمُتعبّد عن عبادته أو لافتاً للمُسلم إلى وثنِيّته الأولى، كذلك كانت آيات «الكتاب المُقدس» صريحة في ذلك، صريحة في النهي عن اتّخاذ ما يُنحت للعبادة. وثمة آيات في «العهد القديم» من الكتاب المُقدس تدور حول تحريم صنْع التماثيل لغرض العبادة، على الرّغم من تأوّل بعضهم لآية منها بأنها صريحة في تحريم صناعة التماثيل لذاتها، وهي: «ملعون الإنسان الذي يصنع تمثالاً منحوتاً أو مسبوّكاً لدى الربّ عمل يذّي نَحَات ويضعه في الخفاء»، ولقد فات هؤلاء المُتأوّلين أن ختام الآية يرمز إلى أن اتّخاذ التماثيل كان للعبادة. فلقد جاء في سفر الخروج: «لا يكون لك آلهة أخرى أمامي. لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما عَمّا في السماء من فوق وما في

ولعل خير ما نُعقّب به من قول قاطع هو كلمة الإمام الجليل الشيخ مُحَمَّد عبده الذي تولى الإفتاء في مصر فترة: «إن الرّسم شِعْر ساكت يُرى ولا يُسمع، كما إن الشّعْر رَسْم يُسمع ولا يُرى... وإن الذين قالوا بمنع التُصاوير وقفوا جامدين في تأويل قوله ﷺ، [إن أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة المُصوِّرون]، وفات هؤلاء أن الحديث ينصرف إلى ذلك التُصوير الذي شاع في الوثنية والذي كان القصد فيه إلى تأليه بعض الشُخصيات. أما ما جاء لغير ذلك من تُصاوير قُصد فيها إلى المتعة والجمال فلا يُحمل قول الرسول عليه.. وإنه يغلب على ظني أن الشريعة الإسلامية أبعد من أن تُحرّم وسيلة من أفضل وسائل العلم بعد تحقيق أنه لا خطر فيه على الدين، لا من جهة العقيدة ولا من جهة العمل... وليس هناك ما يمنع المُسلمين من الجَمْع بين عقيدة التوحيد ورسم صورة الإنسان والحيوان لتحقيق المعاني العلمية وتمثيل الصور الذهنية»^(١).

وثمة كثير من مُفكرينا اليوم من يُشارك الإمام رأيه، لا سيّما بعد أن وجدنا الكثرة من تُصاوير الشُخص التي حملتها الدنانير الإسلامية في مُختلف العهود حين كان الإسلام في عُنفوانه وازدهاره. فحسبنا هذا الموقف الذي ساد حقبة من الزمن فضيّع على المُسلمين ثروات ثرائية ضخمة خرّجت من أيديهم إلى أيدي غيرهم، وكانت إلى جانب مُتعتها الفئّة دُخراً أديباً.

ونستطيع في نهاية المطاف أن نُجيب بنعم على هذا السؤال الذي طالما تردّد على الألسنة: «هل في العالم الإسلامي تصوير للكائنات الحيّة؟». نُجيب بنعم في الوقت نفسه الذي نعترف فيه بالدور الذي لعبه التشنّد في بعض عصور التاريخ وفي بعض الأقاليم. ورغم أن هذا الفن لم يجد طريقه إلى المساجد ولا إلى المصاحف، إلا أنه غطى الكثير من جدران القصور، وملاً بمُتعلقاته المصورة الملونة العديد من صفحات المخطوطات. وبرز عنصراً تجميل على الخزفيات والمُنجزات المعدنية التي صنّع منها أيضاً بعض التماثيل. بل إن مراعاة الدقّة تدفعنا لأن نُسجّل أن القاعدة التي سادت العالم الإسلامي قبل الغزو المغولي، من تجنّب استخدام تصوير الكائنات الحيّة في الموضوعات الدنيّة أو داخل دور العبادة قد وجدت بعض الاستثناءات على مرّ عصور التاريخ، فقد زُيّنت بعض المساجد بجليّات على شكل الكائنات الحيّة، مثال ذلك المِقْبَض البرونزي لمَدخل مسجد قلاوون بالقاهرة والمُشكّل على شكل أسد، والرّأساني المُتوجّان المنحوتان على مدخل مسجد «نجد» التركي وسط الأناضول (١٢٢٢م)، والنسر المُزدوج من الحَجَر المحفور على مدخل مسجد ديفرحي بالأناضول، وكذا النسر

(١) أنظر: تاريخ الشيخ مُحَمَّد عبده لرشيد رضا. المُجلّد الثاني. صحيفة ٤٩٨ - ٥٠١ مطبعة المنار، والأعمال الكاملة للإمام مُحَمَّد عبده جزء ٢. طبعة بيروت ١٩٧٢.

تَحْطِمْ الصُّورَ الْمُقَدَّسَةَ فِي بِيْزَنْطَةَ، غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ الْمُحَاوَلَاتِ لَا تَحْمِلُ بُرْهَانًا، فَعَلِيَ حِينَ ذَهَبَ هَؤُلَاءِ إِلَى أَنَّ الْمَوْقِفَ الْإِسْلَامِيَّ الْمُعَادِي لِفُنُونِ التَّصْوِيرِ قَدْ ظَهَرَ أَثَرًا مِنْ آثَارِ حَرَكَةِ تَحْطِمْ الصُّورِ الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي بَدَأَتْ فِي الْعَالَمِ الْمَسِيحِيِّ الشَّرْقِيِّ عَامَ ٧٢٦م، ذَهَبَ آخَرُونَ مِثْلَ أَوْسْتَرُوجُورْسْكِي وَغَيْرِهِ وَمَنْ قَامُوا بِبُحُوثِ جَادَّةٍ حَوْلَ حَرَكَةِ تَحْطِمْ الصُّورِ الْمَسِيحِيَّةِ إِلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ هَذِهِ الْحَرَكَةَ قَدْ جَاءَتْ مُتَأَثِّرَةً بِتَحْرِيمِ الْإِسْلَامِ لِلتَّصْوِيرِ. وَمَعَ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ الْمَحَالِ أَنَّ الْجَدَلَ الَّذِي ثَارَ حَوْلَ هَذَا الْمَوْضُوعِ فِي الْعَالَمِ الْمَسِيحِيِّ كَانَ لَهُ بَعْضُ الْأَثَرِ عَلَى فُقَهَاءِ الْإِسْلَامِ الَّذِينَ زَامَنُوا هَذِهِ الْحَرَكَةَ، ثُمَّ الَّذِينَ تَوَسَّعُوا فِي تَرْوِيجِ الْأَتِّجَاءِ الْمُضَادِّ لِتَصْوِيرِ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ خِلَالَ الْقَرْنِ الثَّالِثِ الْهِجْرِيِّ.

وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ أَمْرِ تَأَثَّرَ أَحَدُ هَذَيْنِ الْمَوْقِفَيْنِ بِالْآخَرِ فَلَسْنَا نَجِدُ قَرَابَةً بَيْنَ هَاتَيْنِ الْحَرَكَتَيْنِ، إِذْ عَلَى حِينٍ كَانَتْ حَرَكَةُ تَحْطِمْ الصُّورِ الْمَسِيحِيَّةِ حَدَثًا تَارِيخِيًّا طَارِئًا لَهُ بَدَايَةٌ وَنِهَايَةٌ، كَانَتْ مَوَاقِفُ تَحْرِيمِ التَّصْوِيرِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ اتِّجَاهًا يَخْتَلِفُ ظُهُورُهُ بِاخْتِلَافِ الْأَقَالِيمِ وَالْمَذَاهِبِ زَمَانًا وَمَكَانًا. هَذَا مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ عَصُورَ تَحْطِمْ الصُّورِ لَمْ تَقْتَصِرْ عَلَى الْإِسْلَامِ وَحْدَهُ أَوْ عَلَى فِتْرَةٍ تَحْطِمْ الصُّورِ الْمَسِيحِيَّةِ فِي مَطْلَعِ الْقَرْنِ الثَّامِنِ، بَلْ هِيَ ظَاهِرَةٌ عَمَّتِ الْعَالَمَ كُلَّهُ، فَتَحَنُّنٌ لَا تَنْسَى مَا فَعَلَهُ أَتْبَاعُ زَنْجِلَرٍ وَكَالْفَنِّ فِي مُسْتَهْلِ الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ بِالصُّورِ الدِّينِيَّةِ الْمَسِيحِيَّةِ، وَمَا أَتَاهُ كُرومُوِيلَ خِلَالَ ثَوْرَتِهِ فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ تَجَاهَ التَّصْوِيرِ الدِّينِيِّ، وَإِنْ اخْتَلَفَتْ وَجْهَةٌ النَّظَرِ الَّتِي اسْتَنْدَ إِلَيْهَا كُلُّ مِنْهُمَ تَجَاهَ التَّحْرِيمِ.

الْأَرْضُ مِنْ تَحْتٍ وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الْأَرْضِ، لَا تَسْجُدُ لَهُنَّ وَلَا تَعْبُدُهُنَّ لِأَنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكَ».

وَالْوَاضِحُ مِنْ سِيَاقِ النَّصِّ أَنَّ التَّحْرِيمَ مُنْصَبً عَلَى التَّحْتِ الَّذِي يُصَوِّرُ الْقُوَى الْإِلَهِيَّةَ عَلَى أَيِّ نَسَقٍ كَانَ، ثُمَّ عَلَى عِبَادَةِ هَذَا التَّمَثَالِ الْمُنْحَوْتِ، فَالتَّحْرِيمُ مَشْرُوطٌ بِشَرْطَيْنِ أَوَّلُهُمَا تَصْوِيرُ الْإِلَهِ وَثَانِيَهُمَا عِبَادَتُهُ، أَمَّا مَا عَدَا ذَلِكَ فَهُوَ مُبَاحٌ. وَإِذَا كَانَ التَّحْرِيمُ قَدْ جَاءَ فِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ صَرِيحًا فَإِنَّهُ لَمْ يَرِدْ لَهُ ذِكْرٌ فِي الْقُرْآنِ، وَمِنْ الْعَسِيرِ الْعَثُورِ فِي الْقُرُونِ الْأُولَى لِلْإِسْلَامِ عَلَى نَصِّ صَرِيحٍ عَلَى نَحْوِ مَا جَاءَ بِسِفْرِ الْخُرُوجِ.

وَيَرَى بَعْضُهُمْ أَنَّ الْيَهُودِيَّةَ لَمْ تُحَرِّمْ صِنَاعَةَ التَّمَاثِيلِ بَلْ حَرَّمَتْ عِبَادَتَهَا شَأْنَهَا فِي ذَلِكَ شَأْنُ الْإِسْلَامِ. مُسْتَدِلِّينَ عَلَى ذَلِكَ بِرِسْمِ سَيِّدِنَا مُوسَى لِلْكَارَوِيمِ «الْمَلَكَ» فِي قُبَّةِ الشَّهَادَةِ، وَقِيَامِهِ بِصُغْعِ حَيَّةٍ مِنْ نُحَاسٍ فِي الْبَرِّيَّةِ، وَبِأَنَّ سُلَيْمَانَ أَمَرَ بِصُغْعِ تَمَاثِيلٍ وَأَسُودَ لُتْرِيْنَ الْمَعْبَدِ، وَهُوَ مَا أَكَّدهُ «الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ» فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ، اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا، وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشُّكُورُ﴾. وَتُفِيدُ هَذِهِ الْآيَةُ أَنَّ كُلًّا مِنْ مُوسَى وَسُلَيْمَانَ قَدْ سَمَحَا بِصِنَاعَةِ التَّمَاثِيلِ.

وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ مُؤَرِّخِي الْفَنِّ مِثْلَ لَامَنْسٍ وَجِيُومَ إِلَى أَنَّ تَحْرِيمَ تَمَثِيلِ الشُّخُوصِ فِي الْيَهُودِيَّةِ قَدْ جَاءَ فِي فِتْرَةٍ لَاحِقَةٍ مِنْ التَّارِيخِ الْيَهُودِيِّ حِينَ أَعَادَ رِجَالُ هَذَا الدِّينِ تَفْسِيرَ بَعْضِ آيَاتِ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ بِمَا يُحَرِّمُ هَذَا الْفَنَّ كُمُحَاوَلَةِ مُتَطَاوِلَةِ لِمُحَاكَاةِ اللَّهِ فِي صُنْعِهِ، فَاللَّهُ عِنْدَهُمْ هُوَ الْمُبْدِعُ الَّذِي يُصَوِّرُ كُلَّ شَيْءٍ أَحْسَنَ تَصْوِيرٍ. وَيَرَى لَامَنْسٌ وَجِيُومَ كَذَلِكَ أَنَّ هَذَا التَّفْسِيرَ الْيَهُودِيَّ الْمُسْتَحْدَثَ قَدْ وَاكَبَ فَجَّرَ صِبَاغَةَ الْفِئَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَأَنَّهُ انْتَقَلَ إِلَى الْفِكْرِ الْإِسْلَامِيِّ عَلَى أَيْدِي رِجَالٍ مِنَ الْيَهُودِ أَسْلَمُوا، وَظَلَّتْ رَوَاسِي مِنْ أَفْكَارِ التَّلَمُودِ مُعَلِّقَةً بِأَذْهَانِهِمْ ثُمَّ لَمْ تَلْبَثْ أَنْ تَسَرَّبتْ إِلَى فِكْرِ بَعْضِ فُقَهَاءِ الْإِسْلَامِ. وَيَسْتَدِلُّ لَامَنْسٌ وَجِيُومَ عَلَى ذَلِكَ بِاخْتِوَاءِ بَعْضِ الْأَحَادِيثِ الدِّينِيَّةِ صَرَاحَةً عَلَى الْمَوْقِفِ نَفْسِهِ الَّذِي وَقَفَتْهُ الشَّرِيعَةُ الْمُسَوِيَّةُ تَجَاهَ التَّصْوِيرِ عَلَى أَنَّهُ اعْتِدَاءٌ عَلَى مَا اخْتَصَّ اللَّهُ نَفْسَهُ بِهِ. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ بَعْضَ أَجْبَارِ الْيَهُودِ قَدْ دَخَلُوا الْإِسْلَامَ فِي حَيَاةِ الرَّسُولِ وَصَارُوا مِنْ صَحَابَتِهِ وَرُوَاةِ أَحَادِيثِهِ وَمِثْلَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ الَّذِي كَانَ أَسْتَاذًا لِأَبِي هُرَيْرَةَ، وَمِثْلَ كَعْبِ الْأَحْبَارِ الَّذِي تَلَمَّذَ عَلَى يَدَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ.

الصِّلَةُ بَيْنَ حَرَكَةِ تَحْطِمْ الصُّورِ الْمُقَدَّسَةِ الْمَسِيحِيَّةِ (الْأَيْقُونَاتِ)^(١) وَالتَّحْرِيمِ فِي الْإِسْلَامِ

يَعَزُو بَعْضُ الْمُؤَرِّخِينَ تَحْرِيمَ التَّصْوِيرِ فِي الْإِسْلَامِ إِلَى حَرَكَةِ

(١) تَعْنِي لَفْظَةُ الْإَيْقُونَةِ (Icon) الصُّورَةُ أَوْ صُورَةُ الْوَجْهِ وَحَدَهَا (بُورْتَرِيه) بِعَامَّةٍ. وَتَنْطَبِقُ هَذِهِ اللَّفْظَةُ بِصِفَةِ خَاصَّةٍ عَلَى تَصَاوِيرِ الشُّخُوصِ الْمُقَدَّسَةِ فِي الْكَنِيسَةِ الشَّرْقِيَّةِ الْأَرْتُودُكْسِيَّةِ، وَمِثْلُ أَيْقُونَاتِ الْقِدِّيسِينَ أَوْ أَيْقُونَاتِ الْعُدْرَاءِ. وَبَعْدَ الْجَدَلِ الْعَنِيفِ الَّذِي ثَارَ حَوْلَهَا فِي بِيْزَنْطَةَ خِلَالَ الْقَرْنَيْنِ الثَّامِنِ وَالتَّاسِعِ (حَرَكَةُ تَحْطِمْ الصُّورَةِ: iconoclasm)، صَاغَتِ الْكَنِيسَةُ الشَّرْقِيَّةُ نَظْرِيَّةً تَقْدِيسِ الْإَيْقُونَاتِ، وَشَرَعَتْ قَانُونًا كَنْسِيًّا، أَوْ مَجْمُوعَةً مِنَ الْقَوَاعِدِ التَّقْنِيَّةِ، تَضْبِطُ أَشْكَالَهَا الْفَنِّيَّةَ وَتَعْتَبِرُ الْإَيْقُونَاتِ جُزْءًا أَسَاسِيًّا مِنَ الْكَنِيسَةِ تَحْطِي بِتَقْدِيسِ شَعَائِرِيٍّ خَاصٍّ. وَالْإَيْقُونُغَرَاْفِيَّةُ الْبِيْزَنْطِيَّةُ لَيْسَتْ فَنًّا وَاقِعِيًّا بَلْ رَمْزِيًّا، وَطِيفَتِهَا التَّعْبِيرُ عَنِ الْعَالَمِ الْأَهْوِيَّةِ لِلْكَنِيسَةِ مِنْ خِلَالِ الْخُطُوطِ وَالْأَلْوَانِ. وَكَانَتْ تَكْتُبُ مُوجَّهَةً تُصَدِّرُهَا السُّلْطَةُ الْكَنْسِيَّةُ، وَمِثْلُ الْمُؤَلَّفِ الْمَتَاوَلِ «إَيْقُونُغَرَاْفِيَا» (Iconograhia) الَّذِي وَضَعَهُ الرَّاهِبُ پَانْزِيلِينُوسُ (Panselinos) فِي جَبَلِ أُنُوسِي بِالْيُونَانِ، وَجَمَعَ فِيهِ التَّوْجِيهَاتِ الَّتِي يَلْتَزِمُ بِهَا الْمُصَوِّرُونَ الْبِيْزَنْطِيُّونَ. [المُعْجَمُ الْمُسَوِّعِيُّ لِلْمُصْطَلَحَاتِ الثَّقَافِيَّةِ «م.م.م.ث» لِكَاتِبِ هَذِهِ السُّطُورِ. لُونْجَمَان. مَكْتَبَةُ لُبْنَانِ].

والمعروف أنَّ المجتمع الإسلامي في عهوده الأولى لم يكن مُعاديًا للتصوير شأن الأجيال التالية عندما أصبح تحريم الفن التشكيلي والتصويري أمرًا مسلمًا به استنادًا إلى اجتهادات بعض الفقهاء. فما كاد القرن الثاني الهجري يهَلّ حتّى اختفت سِماحة

الجيل الأول فيما يتّصل بالفنون التشكيلية التي رأيناها تأخذ حظها - لا سيّما في بلاط الخلفاء الذين كان شاغلهم الشاغل هو المُتعة - وإذا بنا نرى في الأجيال اللاحقة لونًا من ألوان الصرامة والتشدد ضدّ التصوير.

الفصل الثاني

ملايح التصوير الإسلامي مع اختلاف الزمان والمكان

النحت في عهود الإسلام الأولى

أولئك السيّدات وزيتهنّ تمثّل زي العصر، وما من شكّ في أنّ تمثال السيّدة التي تحمل أزهاراً كان ملوّناً فأنطمس تلوينه وبقيت ألوان الأزهار.

وثمة لوحة فريدة من النقش البارز على الحجر ترجع إلى العهد الفاطمي في القرن العاشر عُثِرَ عليها في المهديّة بثونس، تمثّل أميراً متوجّاً يحمل كأساً بيده اليمنى ويجلس مُضجياً إلى عازف الناي (لوحة ٦). كذلك يضمّ متحف الفن الإسلامي بالقاهرة لوحيتين من النقش البارز على العاج من العهد الفاطمي تمثّل إحداهما أميراً يحمل كأساً ومن ورائه تابع ومن أمامه حيوانان لعلهما كلبان (لوحة ٧)، وتمثّل الثانية عازفاً على الجوزمار (لوحة ٨).

ثمّ إنّ المسلمين الأوائل لم يقدّموا لفنّاني البلاد التي فتحوها أنماطاً أو أساليب فنيّة يُمكن أن يسيروا على نهجها في إنتاجهم الفنيّ في ظلّ الحكم الجديد، ولهذا أخذوا عنهم مع إدخال بعض تعديلات تتفق وما يعتقدون. ولم تلبث أن تشكّلت ملايح واضحة لفن إسلاميّ متميّز خلال العصر العبّاسي على غرار ما يظهر على جدران مباني مدينة «سامرا» (لوحة ٩).

وفي متحف الفن الإسلامي بالقاهرة كُنتلنان من الرخام مقوشن على كلّ منهما صورة أسد زاحف في تودة كانا مقامين على مدخل أحد أزقة القاهرة (لوحة ١٠). وتتجلى في الأسد عضلاته الممتلئة ولبدته بكثافة شعرها، وهو ما يجعلنا نرجّح أنّه من بقايا العصر الفاطمي أو ربّما العصر المملوكي. وثمة تمثال أجوف من الرّبيّ بإيران من الحزف ذي البريق المعدنيّ بتّي اللّون يُمثّل سيّدة جالسة، على رأسها تاج، وشعرها مُسدل، ويبدو من ملايح وجهها أنّها سلجوقيّة أو مغوليّة، ورداؤها مزخرف بدوائر متناثرة تضمّ رسوماً نباتيّة (لوحة ١١). وفي هذا المتحف أيضاً قطعة مُستديرة بدّعة من الرخام ترجع إلى العصر المملوكي برزت

لَمْ يُعالج الفنّانون المسلمون نحت التماثيل على النّحو الذي كان عليه الفنّ اليونانيّ والرّومانيّ وغيرهما من الفنّون الشرقيّة والغربيّة التي عُنيّت بعمل التماثيل. وأكثر ما رأيناهم لهؤلاء الفنّانين المسلمين نقوش بارزة، إلى جانب قلّة قليلة من تماثيل حصيّة جاءت لا ترقى رُقيّ التماثيل اليونانيّة والرّومانيّة. ويجدر بنا الانتباه إلى أنّ نُذرة المنحوتات خلال الفترة من القرن السابع حتّى العاشر كانت سيّمة شائعة في بيّزنة المجاورة أيضاً.

ولعلّ من أهمّ المنحوتات التي بقيت لنا، تلك التي وُجِدَت في قصر هشام بخربة الجفجر بالأردن (لوحات ٢، ٣، ٤)، وتدلّ صناعتهما على تأثرها بالتقاليد السابقة على الإسلام في هذه المنطقة. فنرى في (اللوحة ٢) شريطاً زخرفيّاً من الحصّ يتكوّن من جامات كثيرة مُتصلة بأخرى أصغر منها، وداخل الجوامت الكبيرة نقوش بارزة لأشخاص. أما التماثيل (اللّوحتان ٣، ٤) فهي قريبة الشبّه بالتماثيل السّوريّة التي ظهرت في العهود السابقة على الإسلام، فنرى تماثيل الفتيّات كلّها قصيرة وأجسادهنّ مُمتلئة، وأكبر الظنّ أنّهنّ يُمثّلن نساء القصر من سيّدات وراقصات وعازفات وقيان. ويظهر في (لوحة ٥) التزاوج الواضح بين التقاليد الشرقيّة والغربيّة في العصر الإسلاميّ المبكّر، فعلى حين أنّ وُريّدت الأكانثا وزخارف الكروم ذات أصول أوروپيّة رومانيّة فإنّ رؤوس الشّخص المحيطة بالوُريّدة المركزيّة ذات أصول متأعّرة قريبة الشبّه بالنّحت الحصّيّ في أواسط آسيا خلال القرنين السادس والسابع. وربّما تأثر الفنّان الأمويّ أيضاً بما كان مُتبّعاً بالفنّ السّاسانيّ في استخدام الكوى [الحنيّات] كخلفيّة لرُسومه أو لتمثيله مع الفارق في التفاصيل، فملابس الشّخص مَثَلًا تختلف عن الملابس الفارسيّة. كذلك يرى هاملتون أنّ ملابس

الطبيعية يستمد الرّاقش العناصر الأولى لفنّه، ثمّ يتضمّن الخيال إلى الإحساس بالتّناسب الهندسيّ ليتكوّن بعد هذا الشّكل الرّخرفيّ الهندسيّ الذي يرمز إلى نفس المسلم في تطلّعها إلى الله. وقد يأتي من ألوانه ما لا يخضع إلى تناسق فيكون أقرب إلى الفنّ التجريديّ الذي ظلّ مجهولاً عند الأوروبيّين إلى عهد قريب (اللّوحتان ٢، ٣م).

والتّخوير^(٢) الذي يمتلئ به هذا الفنّ هو وليد التّوريق المتشابه إذ أساسه تشكيل الفنّان لما جمّع من عناصر فنيّة بدوّقه الفنّي، تشكيلاً تكيفه روحه، فيضفي عليها تغييراً معيّناً كثيراً ما لا يكون مطابقاً في شكله لمظهرها الطبيعيّ. ومن هنا كانت المباعدة في الرّخرفة الإسلامية بين روح المصوّر وبين الأشكال الأصليّة للكائنات الحيّة. وإذا نزع إلى ذلك فإنه يعتمد إلى تجزئة عناصرها، ثمّ إعادة بنائها على شكل مُكرّر، فإذا الشّكل قد تحوّل إلى وحدة زخرفيّة يسودها التّكرار، ويشيع فيها حسّ موسيقيّ رهيف (لوحة ٤م).

وللّون أثره الهامّ في إضفاء إشراقه نيرة على أشكال الرّقش الإسلاميّ، كما يكشف عن إحساس مُرهّف بالألوان، ويقترب حيناً ويبتعد حيناً آخر عن ألوان الطبيعة، غير أنّه متأثر لا شكّ بالومضات واللّمحات المنبعثة في خواطر الفنّان المسلم دالة على صديق الوجدان (اللّوحتان ٥، ٦م).

(١) فنّ التّزيين الرّخرفيّ، أو الرّقش، «أرابيسك» (Arabesque) هو الإجابة في استخدام الخطوط متلاقية متعاقبة ثمّ متجاوئة متلامسة متهايسة. ومن الطبيعة يستمدّ الرّاقش العناصر الأولى لفنّه، من ساق نبات أو ورقته، ثمّ يتضمّن الخيال إلى الإحساس بالتّناسب الهندسيّ ليتكوّن بعد هذا الشّكل الرّخرفيّ الذي يرمز إلى نفس المسلم في تطلّعها إلى الله. والتّخوير الذي يحتشد به هذا الفنّ هو وليد التّوريق المتشابه، إذ أساسه تشكيل الفنّان لما جمّع من عناصر فنيّة بدوّقه الفنّي تشكيلاً تكيفه روحه. ويطلق لفظ «أرابيسك» بصفة عامّة على الخطّ الرّشيق المتأوّد المتّسق المنعم [م.م.٠.٠.٠.ث].

(٢) التّخوير (Stylization) هو أسلوب فنيّ أو تصوّر مثاليّ يُستخدم في كلّ من النّحت والتّصوير عند التعبير عن موضوع ما. فيطرا عنه تغيير معيّن لا يكون مطابقاً في شكله لمظهره الطبيعيّ. والتّخوير نوعان أحدهما «بائني»، والآخر «تجميليّ»، وأولهما هو إخضاع الفنّان عناصر الرّسم ومفرداته لتضمين مسبق له، ومن دون تقيّد بالواقع أو ارتباط بمواضيعها في شكلها الأصليّ. وثانيهما إخضاع الفنّان رسمة للمحسنات الشّكلية، ولما يدور في خياله من أشكال وتكوينات منمّقة. والتّخوير هو الذي يُحدّد في النهاية أساليب الفنّانين المختلفة [م.م.٠.٠.٠.ث].

على صّفحتها صورة يسرّ ذي رأسين وقد قصّ بمقارئه على رأسيّ وعلين (لوحة ١٢)، علماً مع ذلك بأنّ نحت التماثيل لم يكن من الشّيوع بمكان في الفنّ الإسلاميّ، فتحنّ لمّ نظفر من مثل هذه المنحوتات إلّا بالشّيء القليل من نماذج صُنعت لتزيين أوانٍ معدنيّة أو خزفيّة كما مرّ بنا، أو حافات التّافورات مثل أسود نافورة قصر الحمراء نسبة إلى بني الأحمر [وهم بنو نصر حكام غرناطة ما بين عامي ١٣٣٢ و ١٤٩٢م] الذين شيّدوا هذا القصر خلال القرن الرابع عشر فجاء أحد الإنشاءات الرائعة في تاريخ العمارة الإسلامية، وكان ممّا يميّز به ساحة الأسود التي تقع في منتصف جناح الحريم، ويرجع اسمها إلى التّافورة التي ترتكز على أسود رخاميّة تنساب المياه من أفواهها، وتحيط بها البوائك المستندة على أعمدة، واحد أو اثنين على التوالي في رشاقة ومُتعة بلا نظير (اللّوحتان ١، ١٣) ولكن لا يغيب عنّا مرّة أخرى أنّ نحت التماثيل المستقلّة القائمة بذاتها لم يكن أمراً مألوفاً في الفنّ الإسلاميّ.

فنون الرّخرفة الإسلاميّة

إذا كان بعض المصوّرين قد شغلوا بالتّصوير الجداريّ وتّصوير المخطوطات فإنّ الكثرة منهم قد اتّجهت أنظارهم إلى الرّخرفة الخطيّة والهندسيّة والتّوريقيّة، وهي المجالات التي ازدهر فيها الفنّ الإسلاميّ.

وإنّ أوّل ما نلاحظه في فنّ التّزيين الرّخرفيّ هو أنّه وليد فكرة محدّدة عن العالم والحيّة، عن الإنسان والله. وتستند هذه الفكرة إلى أنّ الله هو كنه هذا الوجود منه بدأ وإليه ينتهي، هو الأوّل والآخر، والظاهر والباطن. ومن هذه النّظرة اختلّفت فنون الإسلام اختلافاً بيّناً عن فنون الغرب: فبينما يرفع الفنّانون الإغريق والرّومان الإنسان إلى منزلة يُمجّدون فيها عرّيه في تماثيلهم، نجد الفنّان المسلم ينظر إلى أعماق الآديميّ أكثر ممّا ينظر إلى مظهره الخارجيّ، رُغم إيمانه بأنّ الله سواه فأحسن صورته، وإنّ الفنّان المسلم ليسنّهين بالعالم المادّي ويراه عرّضاً زائلاً، ومُتعة فانيّة إنّ لامسها ففي رفق مؤمناً دائماً بأنّ الخلود الحقيقيّ إنّما هو للروح.

وقد برّع المسلمون أكثر ما برّعوا في أربعة أشكال من الفنون الرّخرفيّة أولها التّوريق المتشابه وثانيها التّخوير، وثالثها التّلوين ورابعها الكتابة الخطيّة.

والتّوريق المتشابه أو الرّقش كما يصفه الفنان العلامة بشر فارس هو الفنّ الذي نرى فيه الرّخرفة العربيّة مكتملة، وقد سمّاه الغربيّون «أرابيسك» أو الخطّ المنعم^(١) ويعدّونه بذلك فنّ العرب الأصليّ. ولهذا التّوريق هو الإجابة في استخدام الخطوط. ومن

بين هذا العمل وقُدرة الله على الخلق. وَنَجَحَ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ مِثْلُ ابْنِ عَرَبِيٍّ الْمُفَكِّرِ الْأَنْدَلُسِيِّ الْعَظِيمِ مِنَ الْقَرْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ فِي تَطْوِيعِ خَيَالِ الظَّلِّ لِمَبَادِئِ الْأَخْلَاقِ وَالشَّرْعِ بَعْدَ مُجُونِ كَانَ يَجْذِبُ النَّاسَ. فَخَيَالُ الظَّلِّ دَعْوَةٌ إِلَى تَأَمُّلِ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ، كَمَا تَبْهَرُ الْعَرَائِسُ مُشَاهِدِيهَا بِقُدْرَةِ اللَّاعِبِ عَلَى تَحْرِيكِهَا، فَالْحَيَاةُ الْبَشَرِيَّةُ إِنَّمَا تَجْرِي بِمَشِيئَةِ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ الْكَامِنَةِ وَرَاءَ ظِلَالِهَا كَمَا تَتَرَاوَعُ الظُّلَالُ وَالْخَيَالَاتُ إِثْرَ تَحْرِيكِ الْعَرَائِسِ بِالْخُيُوطِ وَالْجِبَالِ (لُوحات ١٥، ١٦، ١٧).

وهنا تكمن المفارقة الكبرى إذ إنَّ نصوص هذه المسرحيات مشحونة بكُلِّ ما هو فاجش، ومن ثَمَّ فَإِنَّ هَذَا الرَّأْيَ يُعْبَرُ عَنْ وَجْهَةِ نَظَرِ الْفَلَسَافَةِ أَكْثَرَ مِمَّا يَعْكُسُ بَرَاةَ حُجَجِهِمْ وَقُوَّةَ إِقْنَاعِهِمْ. وَيُقَالُ إِنَّ صَلَاحَ الدِّينِ الْأَيُّوبِيَّ لَمْ وَزِيهِ الْقَاضِي الْفَاضِلُ عِنْدَمَا هَمَّ بِمُغَادَرَةِ مَجْلِسِهِ إِثْرَ وُصُولِ لَاعِبِ الْعَرَائِسِ وَخَيَالِ الظَّلِّ لِإِسْرِي عَنِ السُّلْطَانِ. وَبَعْدَ أَنْ فَرَضَ صَلَاحُ الدِّينِ عَلَى الْفَقِيهِ الْحَذِرِ بَقَاءَهُ حَتَّى نِهَايَةِ الْعَرَضِ سَأَلَهُ رَأْيَهُ فَأَجَابَ: مَا رَأَيْتُ إِلَّا دَرْسًا جَلِيلَ الْمَعَانِي، فَقَدْ شَهِدْتُ أَمَمًا تَرُوحُ وَتَعْدُو، وَعِنْدَمَا أُسِيلُ السَّتَارَ كَانَ صَاحِبُ الطَّوْلِ فِيهَا جَمِيعًا هُوَ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ.

فَنَ التَّصْوِيرِ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالشَّيْعَةِ

بالرُّغْمِ مِنْ أَنَّ الْخَانَاتِ خُلَفَاءَ جَنْكِيَزْ خَانَ الذِّينِ اعْتَنَقُوا الْإِسْلَامَ فِي عَهْدِ غَازَانَ خَانَ مُؤَسَّسِينَ دَوْلَةَ الْإِيلَخَانَاتِ فِي فَارِسَ (١١٦٧ - ١٢٢٧م) قَدْ شَكَّلُوا دَوْلَةَ سُنِّيَّةَ مُتَشَدِّدَةٍ إِلَى حَدِّ مَا، إِلَّا أَنَّهُمْ أَبَاحُوا ظُهُورَ صُورِ النَّبِيِّ ﷺ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، قَاصِدِينَ مِنْ ذَلِكَ الْإِيْحَاءَ بِأَنْجِدَارِهِمْ مِنْ سُلَالَةِ إِسْلَامِيَّةٍ. وَقَدْ تَجَلَّتْ رَغْبَتُهُمْ فِي الْاسْتِثْنَاءِ بِالْهَيْئَةِ وَالْجَلَالِ فِي أَنَّ مُعْظَمَ الْكُتُبِ الَّتِي شَجَّعُوا عَلَيْهَا كَانَتْ كُتُبَ مَدِيحٍ وَإِطْرَاءٍ وَتَأْرِيخٍ لِسَيَرِهِمْ. ثُمَّ جَاءَ الْغَزَاةُ التَّيْمُورِيَّةُ وَعَلَى رَأْسِهِم تَيْمُورْلَنْكُ (١٣٣٦ - ١٤٠٥) الَّذِي اسْتَهْلَ أَعْمَالَهُ الْحَرْبِيَّةَ بِإِخْضَاعِ تُرْكِسْتَانَ ثُمَّ غَزَا فَارِسَ وَجَنُوبِيَّ رُوسِيَا وَالْهِنْدَ وَبِلَادَ الْكُوجِ وَسُورِيَا، ثُمَّ رَحَفَ عَلَى بَغْدَادِ وَأَسِيَا الصُّغْرَى مُؤَسِّسًا الدَّوْلَةَ التَّيْمُورِيَّةَ (١٣٣٦ - ١٤٠٥م)، وَكَانَتْ عَاصِمَتُهُ مُلْكُهُ سَمَرْقَنْدَ. وَبِالرُّغْمِ مِمَّا تَعَجَّ بِهِ سَيَرَتُهُ مِنْ أَعْمَالِ الْقَسْوَةِ فَلَهُ مَآثِرٌ مِنْهَا تَشْجِيعُ الْفَنِّ وَالْأَدَبِ وَالْعِلْمِ وَإِقَامَةُ الْمُنْشَأَتِ الْعَامَّةِ الضَّخْمَةِ.

وَتَرَجَعَ قِيَمَةُ الصُّورِ الَّتِي ظَهَرَتْ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي مَخْطُوطَاتِ عَصْرِ الْإِيلَخَانَاتِ (القرنان ١٣ و ١٤) وَالَّتِي كَانَتْ مِنْ بَوَادِرِ التَّصْوِيرِ الدِّينِيِّ الْإِسْلَامِيِّ إِلَى أَنَّهَا كَانَتْ تُمَثِّلُ أَسَاسًا لِلدُّفْعَةِ الْقَوِيَّةِ فِي فَنِّ التَّصْوِيرِ الْفَارِسِيِّ بِشَكْلِ عَامٍّ خِلَالَ الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ حَيْثُ قَامَتْ دَوْلَةُ الْإِيلَخَانَاتِ بِتَشْجِيعِ الْفَنَّاينِ وَرِعَايَتِهِمْ.

وَكَذَا كَانَ لِلْخَطِّ قِيَمُهُ بِالنَّبِضِ عَلَى يَدِ الْفَنَّانِ الْمُسْلِمِ، إِذْ كَانَ يَحْمِلُ أَشْرَفَ رِسَالَةٍ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى نَبِيِّهِ الْكَرِيمِ يَسْتَجْلِيهَا النَّاسُ مَرْسُومَةً مَقْرُوءَةً. وَإِذْ كَانَتْ تِلْكَ رِسَالَةُ الْخَطِّ لِهَذَا كَانَ هَذَا التَّنْسِيقُ وَالتَّجْمِيلُ يَجْمَعُ بَيْنَ جَلَالَيْنِ، هَذَا الْجَلَالِ السَّمَائِيِّ وَذَلِكَ الْجَلَالِ الدُّنْيَوِيِّ (لُوحات ٧م، ٨م، ١٤).

إِنَّ هَذِهِ النَّبْضَاتِ الْوُجْدَانِيَّةَ الَّتِي أَلْقَى بِهَا الْإِسْلَامُ فِي رُوحِ الْفَنَّانِ الْمُسْلِمِ وَالَّتِي تَكْمُنُ وَرَاءَ كُلِّ عَمَلٍ فَنِّيٍّ إِسْلَامِيٍّ هِيَ الَّتِي جَعَلَتْ الْفَنَّ الرَّخْرِفِيَّ الْعَرَبِيَّ يَتَأَلَّقُ فِي الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْمُسْتَعْرَبَةِ، وَيَجْذِبُ إِلَيْهِ الْفَنَّاينِ الْمَسِيحِيِّينَ فِي مِصْرَ وَسُورِيَا وَبِيزَنْطَةَ وَصَقْلِيَّةَ وَإِسْبَانِيَا، فَهُوَ فَنٌّ لَنْ يَنْطَفِئَ بَرِيقُهُ، وَسَيَظَلُّ هَذَا الْبَرِيقُ مُمْتَدًّا إِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ.

خَيَالُ الظَّلِّ

نَمَّةُ نَوْعٍ آخَرَ مِنَ الْفُنُونِ يَرْتَبِطُ ارْتِبَاطًا كَبِيرًا بِفَنِّ الشَّكْلِ وَالنَّحْتِ هُوَ فَنُّ الدُّمَى وَالْعَرَائِسِ. وَمِنْ الْجَلِيِّ أَنَّ الْفُقَهَاءَ قَدْ تَسَامَحُوا فِيهِ، وَتَغَاضَوْا عَنْ إِقْبَالِ الْجَمَاهِيرِ عَلَى مَا اصْطَلَحَ النَّاسُ عَلَى تَسْمِيَّتِهِ «بِخَيَالِ الظَّلِّ»، حَيْثُ تَظْهَرُ أَشْبَاحُ الْعَرَائِسِ وَتَحَرُّكَاتُهَا مِنْ وَرَاءِ سِتَارٍ. وَفِي تَعَارُضِ هَذِهِ الْعَرَائِسِ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ وَالْخَيَالِ صَارَتْ هَذِهِ الْأَنْوَاعُ مِنَ التَّمَثِيلِيَّاتِ مَوْضِعًا لِلتَّرْفِيهِ. وَلَا يُمْكِنُ مَعْرِفَةُ نَشْأَةِ خَيَالِ الظَّلِّ تَمَامًا، وَلَا مِنْ أَيْنَ انْتَقَلَ إِلَى الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ، وَقَدْ يُمْكِنُ الْقَوْلُ بِأَنَّهُ نَشَأَ فِي الْيُونَانِ الْقَدِيمَةِ ثُمَّ انْتَقَلَ عَنْ طَرِيقِ بِيزَنْطَةَ، وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ الْإِشَارَاتُ غَيْرُ الْمُهَذَّبَةِ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ. وَلَكِنَّ الرَّاجِحَ أَنَّ الْعَرَبَ قَدْ عَرَفُوا خَيَالِ الظَّلِّ عَنْ طَرِيقِ شَرْقِ آسِيَا وَجَنُوبِهَا الشَّرْقِيِّ وَإِنْ لَمْ يَبْتَثْ ذَلِكَ بِالذَّلِيلِ الْقَاطِعِ، وَقَدْ يَكُونُ الْمَعُولُ هُمُ الَّذِينَ نَقَلُوهُ إِلَى الْعَرَبِ فِي الْقَرْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ أَوْ الرَّابِعِ عَشَرَ. وَمِنْ الثَّابِتِ أَنَّ مِصْرَ عَرَفَتْ هَذَا النَّوعَ فِي الْقَرْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ وَشَاعَ فِيهَا، وَإِنْ كَانَ الرَّاجِحُ أَنَّهَا عَرَفَتْهُ قَبْلَ ذَلِكَ. وَكَمَا تَأَثَّرَ فَنُّ خَيَالِ الظَّلِّ الْمِصْرِيِّ بِنَظِيرِهِ فَنُّ الْقَرَةِ جُوزِ التُّرْكِيِّ، كَذَلِكَ تَأَثَّرَ التُّرْكِيُّ بِنَظِيرِهِ الْمِصْرِيِّ، وَلَعَلَّ سُورِيَا هِيَ ثَانِيَةُ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ بَعْدَ مِصْرَ الَّتِي وَجَدَتْ فِيهَا تَمَثِيلِيَّاتٍ لِخَيَالِ الظَّلِّ.

وَتَعَدَّ عَرَائِسُ «خَيَالِ الظَّلِّ» مُحَاكَاةَ صَرِيحَةٍ لِلشُّخُوصِ الْإِنْسَانِيَّةِ. وَكَانَتْ تُصَنِّعُ عَادَةً مِنْ جِلْدِ الْجَمَلِ يُدْبَغُ وَيُرَفَّقُ إِلَى أَنْ يَصِيرَ قِشْرَةً شَفَافَةً تُصَبَّغُ بِالْأَلْوَانِ. وَلَمْ يَفْتَ الْفُقَهَاءُ أَنْ يَنَاقِشُوا شَرْعِيَّةَ هَذِهِ الْعَرَائِسِ مُنَاقِشَاتٍ اخْتَدَمَتْ، ثُمَّ انْتَهَوْا فِيهَا إِلَى قَرَارِ حَاسِمٍ وَهُوَ أَنَّهُ مَا دَامَ فِي كُلِّ عَرُوسٍ مِنْ تِلْكَ الْعَرَائِسِ ثَقْبٌ تَعْلَقُ مِنْهُ بِخَيْطٍ، وَمَا دَامَ هَذَا الثَّقْبُ نَافِذًا بِطَرِيقَةٍ يَسْتَحِيلُ مُضَاهَاةَا بِمَثِيلٍ لَهُ فِي الْكِيَانِ الْإِنْسَانِيِّ الْحَيِّ، فَلَنْ يَنْشَأَ عَنْ ذَلِكَ مُقَارَنَةٌ

باللغة التُركِيَّة الشَّرْقِيَّة الخافَاقِيَّة، وهي لُغَة لم يَكُن يَعْرِفُهَا فِي الْبَلَاط الْعُثْمَانِي إِلَّا الْقَلِيل. وقد ذَكَرَ بِأَفِيهِ دِه كُورْتِي حِينَ نَشَرَ التَّرْجُمَة الْفَرَنْسِيَّة عام ١٨٨٣ صُعُوبَة تَرْجُمَتِهِ، إِذِ اخْتَلَطَتِ الْأَلْفَاظُ الْعَرَبِيَّة وَالْفَارْسِيَّة وَالتُّركِيَّة مَعَ اللَّهْجَاتِ الْأُوجُورِيَّة كَالْتَرْتِيَّة وَالْجَنْغَانِيَّة اخْتِلَاطًا مُعَقَّدًا لَمْ يَكُنْ فَهَمُهُ يَسِيرًا إِلَّا رُبَّمَا عِنْدَ مَغُولِ الْهِنْد فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ.

وَبَدَتِ الصُّورُ الَّتِي تُزَيِّنُ الْكُتُبَ الدِّيْنِيَّة فِي أَوَاخِرِ الْعَصْرِ التَّيْمُورِي تُمْلِيهَا أَذْوَاقُ الْمُلُوكِ وَالْحُكَّامِ، وَتُجَارِي الْأُسُسَ الْخُلُقِيَّةَ وَالْمَذْهَبِيَّةَ السَّائِدَةَ، وَتُسَائِرُ التَّطَوُّرَ الْفِكْرِيَّ لِلْبِلَادِ مُسَايَرَةً تَدْرِيجِيَّةً بَطِيئَةً. وَكَانَ الْمُتَتَبِعُ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ وَضَعَ صُورٍ لِلشَّخْصِيَّاتِ التَّارِيخِيَّةِ الَّتِي يَضُمُّهَا النَّصُّ مِنْ دُونِ أَنْ تَكُونَ ذَاتَ مَلَامِيحٍ حَقِيقِيَّةٍ لِلشَّخْصِيَّاتِ الَّتِي تُمَثِّلُهَا؛ بَلْ لَقَدْ كَانَتْ فِي الْأَكْثَرِ قَوَالِبَ جَامِدَةٍ عَلَى نَمَطٍ لَا تَعُدُّهُ. وَاسْتَمَرَّ هَذَا التَّقْلِيدُ مُهَيِّئًا عَلَى مَخْطُوطَاتِ كُتُبِ السَّيْرِ حَتَّى الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ، فَإِذَا مُحَاوَلَاتُ تَظْهَرُ فِي الْإِيْقُونُوغَرَفِيَّةِ^(١) التُّركِيَّةَ لِمُحَاكَاةِ التَّقْلِيدِ الْبِيْرَنْطِي الَّذِي يُحَدِّدُ الْمَلَامِيحَ الْخَاصَّةَ بِكُلِّ قَدِيسٍ مَعَ بَيَانٍ عَنْ صِفَتِهِ الْقُدْسِيَّةِ، كَمَا ظَهَرَتْ مُحَاوَلَاتُ أُخْرَى لِمُحَاكَاةِ الْإِتْجَاهِ الَّذِي شَاعَ فِي نَمَازِجِ التَّصْوِيرِ الْإِيْطَالِيِّ خِلَالَ عَصْرِ النَّهْضَةِ وَالَّذِي كَانَ يَجْعَلُ الصُّورَةَ وَكَأَنَّهَا تَعْبِيرٌ عَنِ النَّصِّ. وَهُوَ مَا نَجِدُهُ فِي صُورِ مَخْطُوطَةِ «سِيرِ النَّبِيِّ» الَّذِي كُتِبَ وَصُوِّرَ بِإِسْتَبُولَ فِي عَامِ ١٥٩٦/١٥٩٥ لِلسُّلْطَانِ الْعُثْمَانِيِّ مُرَادِ الثَّالِثِ وَالَّذِي يَضُمُّ ثَلَاثَ عَشْرَةِ صُورَةٍ وَسِتِّمِائَةِ مُوزَعَةٍ عَلَى خَمْسَةِ مِنْ مُجَلَّدَاتِهِ السَّتَّةِ الَّتِي وَصَلَتْ إِلَيْنَا، وَهُوَ مَخْطُوطٌ قِيَمَ جَدِيرٌ بِالدراسةِ الطَّوِيلَةِ الْعَمِيقَةِ.

وَمَا أَكْثَرَ مَا يَرُوجُ بَيْنَ الْعَرَبِيِّينَ مِنْ أَنَّ التَّصْوِيرَ الْإِسْلَامِيَّ قَاصِرٌ عَلَى الشَّيْعَةِ دُونَ غَيْرِهِمْ، وَيَعْرِضُونَ هَذَا إِلَى الشُّعْبِيَّةِ الَّتِي قَامَتْ فِي فَارَسَ، وَهُوَ اعْتِقَادٌ خَاطِئٌ. فَلَقَدْ كَانَتْ لِعُلَمَاءِ الشَّيْعَةِ فِي

(١) الْإِيْقُونُوغَرَفِيَّة (Iconography) لَهَا عِدَّةُ مَعَانِي:

أ- قَائِمَةُ الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي تُعْنَى بِهَا خَضَارَةُ مِنَ الْحَضَارَاتِ، أَوْ يُشْغَلُ بِهَا عَهْدٌ مِنَ الْعُهُودِ، أَوْ يُعَالِجُهَا قَتَانٌ مِنَ الْقَتَانِيْنَ، وَمِنْ ثَمَّ فَهِيَ تَخْتَلِفُ عَنْ قَائِمَةِ الْمُنْجَزَاتِ الَّتِي تُشْمَلُ عِنْدَ الصُّورِ وَالْتِمَائِلِ، أَوْ الْأَعْمَالِ الْفَنِّيَّةِ الَّتِي تَمَثِّلُ خِلَالَ خَضَارَةٍ مِنَ الْحَضَارَاتِ أَوْ عَهْدٍ مِنَ الْعُهُودِ أَوْ بِوَاسِطَةِ قَتَانٍ مُعَيَّنٍ.

ب- كُلُّ مَا يَخْتَصُّ بِمَوْضُوعٍ قَنِّيٍّ مُصَوَّرٍ تَضْنِيْفًا وَوَضْفًا، فَالْإِيْقُونُوغَرَفِيَّةُ الْمَسِيْحِيَّةُ مَثَلًا تَجْمَعُ بَيْنَ عَدَدٍ مِنَ الرُّمُوزِ مَعَ شَرْحِهَا وَالْإِبَانَةِ عَمَّا تُشِيرُ إِلَيْهِ.

ج- الْيُورْتَرِيَّاتِ وَالصُّورِ وَاللُّوْحَاتِ الْمَطْبُوعَةِ الَّتِي تُعْرَضُ لِشَخْصِيَّةٍ بَارِزَةٍ فِي أَحْوَالِهَا الْمُخْتَلِفَةِ؛ مِثْلُ الْإِيْقُونُوغَرَفِيَّةِ التَّالِيُوْنِيَّةِ أَوْ الشُّكْسِيرِيَّةِ. [م.م.م.ث.].

وَقَدْ خَلَفَتْ هَذِهِ النَّهْضَةُ عَدِيدًا مِنْ كُتُبِ السَّيْرِ وَالتَّارِيخِ الْمُصَوَّرَةِ مِنْ أَمْثَالِ «جَامِعِ التَّوَارِيخِ» (١٣٠٧ - ١٣١٤)، كَمَا أَعَانَتْ عَلَى تَوْجِيهِ فَنِّ التَّصْوِيرِ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَيَادِينِ التَّصْوِيرِ الدِّيْنِيِّ وَالْعِلْمِيِّ. وَمَعَ أَنَّ كِتَابَةَ السَّيْرِ وَالتَّوَارِيخِ كَانَتْ تُعَالِجُ مُنْذُ عَصُورِ الْإِسْلَامِ الْأَوَّلَى غَيْرَ أَنَّهَا تَمَيَّزَتْ فِي الْعَصْرِ التَّيْمُورِيِّ بِظَاهِرَتَيْنِ جَدِيدَتَيْنِ: أَوَّلَاهُمَا ظُهُورُ كَثْرَةِ كَثِيرَةٍ مِنْ كُتُبِ السَّيْرِ الدِّيْنِيَّةِ الْمُتَنَوِّعَةِ تَأْلِيفًا وَتَرْجُمَةً، وَثَانِيَتُهُمَا تَصْوِيرُ جُمْلَةٍ كَبِيرَةٍ مِنْ هَذِهِ الْكُتُبِ الْمُرْتَجَمَةِ أَوْ التَّالِفَةِ عَنْ كُتُبٍ أَكْثَرَ قَدَمًا، مِثْلُ كِتَابِ «تَارِيخِي كَزِيدِهِ» أَيِ مُخْتَارِ التَّارِيخِ الَّذِي وَضَعَهُ «الْقَزْوِينِي» فِي الْقَرْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ مُعْتَمِدًا فِيهِ عَلَى كِتَابِ «تَذْكِرَةِ الْأَوَّلِيَاءِ» الَّذِي وَضَعَهُ الشَّاعِرُ الْفَارْسِيَّ فَرِيدُ الدِّينِ الْعَطَّارُ (١١٣٣ - ١٢١٠م) وَعَلَى «قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ» لِلْعُلَيْيِّ، وَعَلَى «سِيرَةِ النَّبِيِّ» لِابْنِ هِشَامٍ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْكُتُبُ تُعَدُّ خِلَالَ الْعَصْرِ التَّيْمُورِيِّ الْمُبَكَّرِ كُتُبَ تَارِيخٍ لَا كُتُبَ أَدَبٍ قَصَصِيٍّ، كَمَا كَانَتْ الصُّورُ الَّتِي تَضُمُّنَهَا بَسِيطَةً سَيَقَتْ لِلتَّرْتِيْنِ فَحَسْبُ، فَكَانَتْ عَارِيَّةً عَنِ الْهَالَاتِ الَّتِي تُحِيطُ بِرُؤُوسِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْغِلَالَاتِ الَّتِي تَحْجُبُ وُجُوهَهُمْ.

كَذَلِكَ ظَهَرَ تَطَوُّرٌ جَدِيدٌ فِي الْعَصْرِ التَّيْمُورِيِّ الْآخِرِ بِظُهُورِ لَوْنٍ مِنَ الْكِتَابَةِ بَدِيلًا لِلْأَدَبِ التَّارِيخِيِّ يَتَنَاوَلُ الْمَوْضُوعَاتِ الْخُلُقِيَّةِ وَالتَّعْلِيمِيَّةِ وَالْوَعظِيَّةِ وَالْعِبَادَاتِ الرُّوحِيَّةِ الْخَالِصَةِ. وَلَعَلَّ أَهَمَّ كِتَابٍ مِنْ كُتُبِ هَذَا الْإِتْجَاهِ الْجَدِيدِ هُوَ الْمَخْطُوطُ الْأُوجُورِي الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ دَفْتِيهِ كِتَابِي «تَذْكِرَةِ الْأَوَّلِيَاءِ» وَ«مِعْرَاجِ نَامِهِ»، وَقَدْ تَضَمَّنَ مُقَدِّمَةً يَذْهَبُ فِيهَا الْمُتَرْجِمُ إِلَى أَنَّ اسْتِخْلَاصَ الْعِبَرَةِ مِنْ حَيَاةِ الْأَوَّلِيَاءِ وَالْيَمَاسِ الْقُدُّوَّةِ الْحَسَنَةِ فِي أَقْوَالِهِمْ هُوَ أَقْصَرُ الطَّرِيقِ لِصَلَاحِ النَّفْسِ وَبُلُوغِهَا دَرَجَةَ الْوَلَايَةِ أَوْ عَلَى الْأَقْلَ نَيْلِهَا «الْحِكْمَةَ»، وَهُوَ مَا يَجْعَلُ اللَّهُ يَضْطَفِيهَا وَيَهَبُهَا الْقُدْرَةَ عَلَى تَحْمُلِ الْأَلَامِ فِي سَبِيلِهِ. كَمَا أَنَّهَا اتَّسَمَتْ بِصِفَةِ أُخْرَى غَيْرَ تَرْتِيْنِ الصَّفَحَاتِ أَوْ تَفْسِيرِ النَّصُوصِ وَتَوْضِيحِهَا، هِيَ الْيَفَاتِهَا إِلَى هَزِّ الْمَشَاعِرِ بِمَا هُوَ قُدْسِيٌّ سِوَاكَ أَنْ كَانَ هَذَا عَنْ إِحْسَاسٍ لِلْمُصَوَّرِ أَوْ عَنْ إِحْسَاسٍ لِلْمَشَاهِدِ، حَتَّى لَقَدْ أَخَذَتْ صُورَ الرَّسُولِ ﷺ فِيمَا بَعْدَ خِلَالَ الْعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّ مَكَانَةً شَبِيْهَةً بِمَكَانَةِ صُورِ الْقِدِّيسِينَ فِي الْكَنِيسَةِ الْمَسِيْحِيَّةِ. وَكَانَ التَّصْوِيرُ الدِّيْنِيُّ الْبِيْرَنْطِي هُوَ الْآخَرُ يَرَى الْإِتْجَاهَيْنِ ضَرُورِيَيْنِ وَمُتَكَامِلَيْنِ، فَالْإِتْجَاهُ التَّفْسِيرِيُّ يُعِينُ عَلَى تَوْضِيحِ الْعَقِيدَةِ وَكَشْفِ أَسْرَارِهَا، وَالْإِتْجَاهُ الْإِيْحَاطِيُّ يَهْدِفُ إِلَى إِقْبَاطِ شُعُورٍ مِنَ التَّجَبُّلِ وَالْقُدُّوسِ لِأَسْرَارِ الْعَقِيدَةِ الَّتِي تُبَشِّرُ الْكَنِيسَةَ بِهَا. وَيَتَضَمَّنُ مَخْطُوطَ قِصَّةِ الْمِعْرَاجِ «مِعْرَاجِ نَامِهِ» الْأُوجُورِيَّ الْحُرُوفِ وَالْمَنْسُوخَ بِهَرَاةِ (١٤٣٦م) الْمَحْفُوظِ بِدَارِ الْكُتُبِ الْقَوْمِيَّةِ بِبَارِيسِ سَبْعًا وَخَمْسِينَ مُنَمَمَةً مُلَوْنَةً مُرَفَّقًا بِكُلِّ مِنْهَا شَرْحٌ بِاللُّغَتَيْنِ الْعَرَبِيَّةِ وَالتُّركِيَّةِ الْعُثْمَانِيَّةِ، يَتِمُّ كُتِبَ النَّصِّ

ثمَّ حُطام صَنَم ثالث على الأرض. ويتَّفَق هذا الأسلوب في التَّصوير الاتِّفاق كُلُّه والتَّاحية الدَّرامِيَّة، فَكأنَّه شَرِيط سينمائيٌّ مُتحرِّك ينقل تَتابع الأحداث بِماضيها وحاضِرها ومُستقبلها.

ويذهب بَعْض الدَّارسين العَرَبِيِّين إلى تَأثُّر الشَّيعة بالمَسِيحِيَّة، مُستَدينَ في ذلك إلى أَنَّهُ ثَمَّةُ تَوافقٍ بَيْنَ الشَّيعة والمَسِيحِيَّة حَوْلَ التَّصوير، ومِثْل تَقْدِيس الصُّور الدِّينِيَّة وإِضاءة المَساجِد بالقَنَادِيل الدَّائِمة الاشتعال وإِخراق البُخور في المَجامير وتَصوير الإِمام على صُورة طُفْل تَحْمِلُهُ أُمُّهُ وهي صُورة مَسِيحِيَّة مَحْضَة. غَيْرَ أَنَّ هَذَا كُلُّهُ لَا يَقُوم دَلِيلًا قاطِعًا على أَنَّ العَقِيْدَةَ الشَّيْعِيَّة مُتَأَثِّرة في هَذَا بالعَقِيْدَةِ المَسِيحِيَّة.

وأخيراً فَإِنَّ الفُروقَ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّة والشَّيعة حَوْلَ التَّصوير لَمْ تُكُنْ مِنَ التَّبَاعُدِ بِمَكَانٍ كَمَا يَخَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنَ البَاحِثِينَ العَرَبِيِّينَ، فَقَدْ أَمَرَ السُّلْطَانُ العُثمانيُّ مُراد الثالث وهو مِنَ السُّنِّيِّينَ بِسَنخِ مَحْطُوط يَتَضَمَّنُ صُورًا مِنَ حَيَاة الإِمام عَلِيِّ وَحَفَظَهُ في مَكْتَبَتِهِ.

التَّصَوِيرُ الجِدَارِيّ فِي الإِسْلَام

وَرَثَت الإِمْبَرَاطُورِيَّةُ الإِسْلَامِيَّةُ مَنَاطِقَ فَسِيحَةً سَادَتْ فِيهَا مُنْذُ أَلْفِ السَّنِينَ تَقَالِيدُ الحَضَارَتَيْنِ الفَارِسِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ وَالْيُونَانِيَّةِ الكَلَّاسِيكِيَّةِ. وَهِيَ وَإِنْ طَبَعَتْهَا بِطَائِعِهَا إِلَّا أَنَّهُمَا - كَمَا سَبَقَ القَوْلُ - لَمْ تَقُوَ على انْتِزَاعِهَا مِنْ مَوْرُوثِهَا كُلِّهِ، فَحَقِيقَتُهُ إِلَى جَانِبِ ذَلِكَ الطَّابَعِ الجَدِيدِ آثَارُ مِنْ ذَلِكَ المَاضِي العَتِيدِ، وَكَانَ التَّصَوِيرُ الجِدَارِيّ لِحُسْنِ الحِظِّ مِنْ هَذَا الَّذِي بَقِيَ. وَلَقَدْ عَاوَنَتْ عَوَامِلُ اجْتِمَاعِيَّة فِي الشَّرْقِ الإِسْلَامِيّ عَلَى نُمُوِّ قَنِّ التَّصَوِيرِ الجِدَارِيّ، مِنْهَا الفُضْلُ دَاخِلُ الدُّورِ الخَاصَّةِ بَيْنَ الجَنَاحِ المَفْتُوحِ الَّذِي يُسْتَقْبَلُ فِيهِ الضُّيُوفُ، وَبَيْنَ جَنَاحِ «الحَرِيمِ» الَّذِي لَمْ يَكُنْ يُسَمَحُ لِغَرِيبٍ أَنْ يَدْخُلَهُ فَتَقَعَّ عَيْنُهُ عَلَى مَا فِيهِ، الأَمْرُ الَّذِي شَجَّعَ، لَا شَكَّ، عَلَى تَجْمِيلِ أَجْنِحَةِ الحَرِيمِ بِصُورِ الأَشْخَاصِ يُدْعَوْنَ فِيهَا كَمَا يَشَاءُونَ، فَقَدْ كَانَ التَّصَوِيرُ المُحَرَّمُ فِي الحَيَاةِ الخَارِجِيَّةِ تَحْفَلُ بِهِ بُيُوتُ الحَرِيمِ، كَمَا هُوَ الحَالُ فِي الشَّرَائِطِ الخَشَبِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تُزَيَّنُ قَاعَةُ سِتِّ المُلْكِ بِالْقُصْرِ الفَاطِمِيّ العَرَبِيّ وَالتِّي عُثِرَ عَلَيْهَا فِي مَارِسْتَانَ قَلَاوُونَ وَالْمَحْفُوظَةِ حَالِيًا بِمُتَحَفِ القَنِّ الإِسْلَامِيّ بِالقَاهِرَةِ (لُوحَات ٨م، ٩م، ١٠م، ١١م، ١٢م، ١٣م، ١٤م، ١٥م). وَلَا يَغْنِينَا هُنَا أَنْ نُنَاقِشَ السَّبَبَ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ رُيِّتَ بُيُوتُ الحَرِيمِ بِتِلْكَ التَّصَاوِيرِ وَهُوَ قَصْدُ التَّرْفِيهِ عَنْ نِسَاءِ تِلْكَ العُصُورِ اللَّاتِي كُنَّ شَبِيهَ حَبِيسَاتٍ لَا يَرَيْنَ مُنْعَ الحَيَاةِ، وَلَكِنْ الَّذِي يَغْنِينَا هُوَ أَنَّ التَّصَوِيرَ الَّذِي كَانَ مُمْنَعًا فِي نَاحِيَةِ إِذَا بَنَا نَرَاهُ مُبَاحًا فِي نَاحِيَةِ أُخْرَى، كَمَا أَنَّ الصُّورَ الجِدَارِيَّةَ الَّتِي كَثِيرًا مَا كَانَتْ تُزَيَّنُ بِهَا قَاعَاتُ الاجْتِمَاعِ كَانَتْ إِحْيَاءً لِلتَّقَالِيدِ الَّتِي سَادَتْ

مَبْدِ الأَمْرِ وَثَقَّةُ مُعَادِيَةِ لِلتَّصَوِيرِ وَعَدَوُهُ شَيْئًا بِاطِلًا، فَتَرَى «الحَلِيَّ» وَهُوَ مِنْ عُلَمَاءِ الشَّيعة المَعْرُوفِينَ (١٢٧٥م) يُفْتِي بِأَنَّ الصُّورَ بِضَاعَةٌ لَا تُبَاعُ وَلَا تُشْتَرَى لِأَنَّهَا لَا سَنَدَ لَهَا. وَلَقَدْ كَانَ لِمِثْلِ هَذِهِ الفَتْوَى وَلَا شَكَّ أَثَرٌ بَعِيدٌ، وَإِنْ لَمْ يَنْتَقِلْ أَثَرُهَا مِنَ البِيئَةِ الشَّيْعِيَّةِ إِلَى غَيْرِهَا، فَلَقَدْ رَأَيْنَا الأَمِيرَ الأُمَوِيَّ السُّتِّيَّ يَمْلَأُ جُدْرَانَ الحَمَامِ الَّذِي بَنَاهُ فِي قُصْبَرِ عَمْرَةَ بِالرُّسُومَاتِ وَالتَّصَاوِيرِ، كَمَا رَأَيْنَا الخَلِيفَةَ العَبَّاسِيَّ السُّتِّيَّ يُزَيِّنُ هُوَ الآخَرُ قُصْرَهُ فِي سَامَرَاءَ بِالصُّورِ الجِدَارِيَّةِ.

كَذَلِكَ لَمْ يُصْبِحَ المَذْهَبُ الشَّيْعِيّ المَذْهَبُ الرُّسُومِيّ لِلدَّوْلَةِ فِي فَارِسَ إِلَّا بَعْدَ انْبِصَارِ الصَّفَوِيِّينَ وَتَوَطُّدِ سُلْطَانِهِمْ سَنَةَ ١٥٠٧م عَلَى يَدِ الشَّاهِ إِسْمَاعِيلَ، ثُمَّ إِنَّ الشَّيعة فِي فَارِسَ لَمْ يَكُونُوا كُلَّهُمْ يُجِيزُونَ التَّصَوِيرَ، بَلْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ عَارَضَهُ مُعَارَضَةً أَهْلُ السُّنَّةِ لَهُ. عَلَى أَنَّ هَذَا لَا يَقُومُ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ الشَّيعة كَانُوا هُمُ الطَّائِفَةُ الوَحِيدَةُ مِنْ طَوَائِفِ الإِسْلَامِ الَّتِي أَجَازَتْ التَّصَوِيرَ، فَثَمَّةُ أَيْضًا مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ مَنْ أَجَازَ قَنِّ التَّصَوِيرِ.

وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ الشَّيعة فِي تَقْدِيسِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ مَا لَمْ يَتْلُغْهُ أَهْلُ السُّنَّةِ فِي تَقْدِيسِ مُحَمَّدٍ صَلَّواتُ اللهُ عَلَيْهِ، فَقَدْ وَصَفُوا عَلِيًّا بِالْعِصْمَةِ، وَهُوَ مَا جَعَلَ بَعْضَ البَاحِثِينَ العَرَبِيِّينَ يَرَوْنَ أَنَّ عَلِيًّا عِنْدَ الشَّيعة هُوَ بِمَنْزِلَةِ المَسِيحِ عِنْدَ المَسِيحِيِّينَ، وَكَمَا يُقَدَّسُ المَسِيحِيُّونَ فِي عِيْسَى اسْتِشْهَادُهُ وَيَتِمَلَّلُونَ حَيَاتِهِ، كَذَلِكَ يَفْعَلُ الشَّيعة فِي شَأْنِ عَلِيٍّ وَبَنِيهِ، فَإِذَا هُمْ يَضَعُونَ مَسْرُوحَةً دِينِيَّةً تُمَثِّلُ آلَامَ الحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ وَاسْتِشْهَادَهُ يَعْرضُونَهَا فِي ذِكْرِ مَصْرَعِ الحُسَيْنِ فِي شَهْرِ المُحَرَّمِ لَا فِي إِيْرَانٍ وَخَذَهَا بَلْ فِي مُخْتَلِفِ مَنَاطِقِ الشَّيعة فِي العَالَمِ الإِسْلَامِيّ كُلِّهِ، وَيَزُمُونَ مِنْ وَرَاءِ هَذِهِ المَسْرُوحَةِ إِلَى تَصَوِيرِ الشَّهِيدِ عَلَى نَحْوِ يَدْعُو المُؤْمِنِينَ إِلَى الاقْتِدَاءِ بِسُلُوكِهِ وَاسْتِخْلَاصِ العِظَاتِ مِنْ حَيَاتِهِ وَمَضَرَعِهِ بَعْدَ أَنْ يَرَفَعُوهُ إِلَى مَرْتَبَةِ القَدَّاسَةِ. فَمَسْرُوحَةُ الآلَامِ لَدَى الشَّيعة لَيْسَتْ سَرْدًا لِأَحْدَاثٍ تَارِيخِيَّةٍ فَحَسْبُ بَلْ لَهَا هَدَفٌ تَعْلِيمِيٌّ وَأَخْلَاقِيٌّ. وَهَذَا الهَدَفُ أَيْضًا هُوَ المَغْزَى مِنَ التَّصَوِيرِ الدِّينِيِّ.

وَتَمَّةٌ مُنَمَّةٌ شَهِيرَةٌ مِنْ مَحْطُوطَةِ «رُوضَةِ الصِّفَا» لِمِيرْخُونَد (١٥٩٥) [غَيْرُ مَسْمُوحٍ بِشَرْهَا] تَرْمِزُ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُوَ يَرْفَعُ عَلِيًّا لِتَحْطِيمِ أَصْنَامِ الكَعْبَةِ فِي العَامِ الثَّامِنِ لِلْهِجْرَةِ، نَلْمَسُ أَنَّ مُصَوِّرَهَا قَدْ أَعَدَّهَا مِنْ أَجْلِ أَحَدِ الشَّيعة، إِذِ المَقْصُودُ بِهَا رَفْعُ شَأْنِ عَلِيٍّ الَّذِي تُحِيطُ بِرَأْسِهِ هَالَةٌ مُشْتَبِعَةٌ عَلَى غِرَارِ تِلْكَ الَّتِي لِلرُّسُولِ، وَنَرَى أَهْلَ قُرَيْشٍ فِي جَانِبِي اللُّوْحَةِ يَشْهَدُونَ هَذِهِ اللَّحْظَةَ التَّارِيخِيَّةَ. وَقَدْ لَجَأَ القَتَّانُ إِلَى تَقْسِيمِ الحَادِثِ إِلَى مَرَاجِلِ ثَلَاثٍ، نَرَى فِي الأَوَّلَى مِنْهَا صَنَمًا مَا زَالَ قَائِمًا فَوْقَ جِدَارِ الكَعْبَةِ مُسْتَقِرًّا فِي مَكَانِهِ، وَفِي الثَّانِيَةِ صَنَمًا آخَرَ قَدْ وَقَعَ فِي قُبْصَةِ عَلِيٍّ وَهُوَ عَلَى وَشْكِ تَحْطِيمِهِ،

قَبْلَ الإسلام في إيران وأواسط آسيا.

تلك الأضرحة مزارات يقصد إليها الناس عامة على مختلف مستوياتهم ليقيدوا عظة ويقعوا على طريفة، كانت المخطوطات تُنسخ لمجموعة بعينها لا تعدوها من الملوك والحكام والعلماء والمُتخصِّصين، ولم تكن تُضم في مبدأ الأمر إلا صوراً خاصة مما قد يتصل بنبات أو طب أو فلک أو نحو ذلك، ونرى لها مثلاً في كتاب «الجامع بين العلم والعمل في الجيل» للجزري.

ولم يكتب لهذه المخطوطات أن تشع، إما كان يتطلبه نسخها من وقت ونفقات لا سيما إذا قصد فيها إلى الزخرفة، فكان المخطوط من نسخة واحدة أو نسخ معدودة. من أجل ذلك فقدنا منها الكثير ولم يبق لنا غير أسماها تُرددها بعض المراجع، ولم يصل لنا من بعضها غير نسخ فريدة. وإذا كانت ترتب الفداس في العقيدة المسيحية لا تعني غير الفساسة الذين كانوا على درجة من التعليم تمكنهم من القراءة والفهم، إذا كانت تلك التراتيل تُخط خالية من الصور التي يستعين بها الأمي على فهم النص، ومع ذلك كان ثمة نسخا يتألفون في نسخ بعضها وتجويدته وتزيينه ليوضع في هياكل الكنائس جزيًا وراء الكسب المادي. وعلى الجوال نفسه رأينا ناسخي المصاحف ينتهجون النهج عينه في التزيين والتجويد حين ينسخونها للملوك والأمراء. غير أن أكثر المخطوطات الإسلامية زخرفة وأناقته كانت أقلاً صوراً ورسمًا إضاحية^(١)، يؤيد ذلك ما نراه على سبيل المثال في النسخ المزخرفة المهداة إلى السلاطين والحكام، إذ نجدتها أقل النسخ خطًا من النساوير. وهذا إن دلنا على شيء آخر فإنما يدلنا على قلة اكتراث أولئك الخطاطين بالنساوير والرسم. ومثل هذا نجد في نسخة «جامع التواريخ» المؤرخة بين سنتي ١٣١٠ و ١٣١١، فلم تضم سوى صور قليلة لم تأت لجلاء النص، بل إمتاعاً للمهدي إليه الخان «أولجايتو» (١٣٠٤ - ١٣١٧) حين يقرأ حتى لا ينصرف عن الكتاب إلى غيره.

ولقد شاهدت خلال تجوالي بين عدد من مزارات الأئمة في منطقة قزوین شمال غربي إيران، مجموعة الرسوم التي تصور علي بن أبي طالب ولديه على نهج بدائي يتفق مع طابع التصوير الفارسي في أواخر العصر الصفوي، معلقة على السياج الحديدي المحيط بالأضرحة، وما يكاد المرء يلحظ القناديل المضاءة ورائحة البخور التي تملأ الأجواء حتى يخلل إليه أنه

(١) الصور الإضاحية (Illustration) هي الصور والرسوم التي تزين الكتب والمخطوطات وتعين المشاهد على فهم الموضوع المطروح، أو إعطائه فكرة أكثر وضوحاً من خلال صورة أو شكل [م.م.م.ث.].

ومع تحريم تصوير الأشخاص صراحة، بقيت الحمايات العامة تزدان بصور الأشخاص متأثرة في ذلك بما ورثته من تقاليد كانت سائدة قرونًا قبل الإسلام، فلقد رأى المسلمون في طبيعة هذه الأمكنة ما يتيح لهم أن يصوروا، فاتخذ منها فتانهم ومصوروهم مجالاً يطلعون فيه العنان لمواهبهم ولايديهم ما شاءت أن تصور. غير أن معظم آثار التصوير الجداري الإسلامية قد اختفت للأسف خلال غزوات التتار لعالم الإسلام وتدميرهم لبغداد حاضرة العرب وروضة الفن الإسلامي، ولم يبق منها ما يدلنا عليها غير بعض شواهد تنطق بما كان عليه التصوير في حياة عهود الإسلام الأولى، ثم قلة من كتب تحدثنا عنه.

ولقد ثبت أن الصور الجدارية الفارسية، بصفة عامة، التي ترجع إلى القرنين الثالث عشر والرابع عشر، قد استمدت بعض أصولها من التصوير الجداري البوذي، وهو ما يؤكده اكتشاف العلماء السوفيت لمعبد بوذي يرجع تاريخه إلى القرن الثالث عشر خلال حفائهم بمدينة مزو. وعلمنا أن المسلمين في إيران لم يقبلوا في مبدأ الأمر على التصوير الجداري خوفاً على الثقافة الفارسية من أن تفقد طابعها القومي بطغيان التأثير البوذي، فكان رشيد الدين الهمداني صاحب الديوان في عهد اثنين من خانات الدولة الإلخانية هما غازان خان وأولجايتو يحمل على البوذيين، ضيقاً بطقوسهم وعباداتهم فضلاً عن إحساسه بفقدان المسلمين المتحضرين لكل امتيازاتهم في ظل الخان المغولي أباقا بن هولاكو، وانتقال هذه الامتيازات إلى طغمة من البرابرة حديثي العهد بالحضارة. ولهذا ظل المسلمون الفرس يتجنبون اتخاذ الصور الجدارية لازتيادها في أذهان الناس بالبوذية، حتى إذا ما جاء الغزو التيموري - الذي كان مسلماً إيرانيًا على عكس الغزو المغولي - تغيرت الحال، وعندها لم ير الفرس المسلمون بأساً من أن تعود إيران وآسيا الوسطى بنظرها إلى الشرق الأقصى. ولنا في فنون الخط والتصوير ما يكشف عن مدى ما تدين به النهضة الفنية في فارس للصين من نسج على منوالها واتباع لتقاليدها. وهكذا أتاحت للتصوير الجداري ظروف مواتية، ولم يعد هناك بأس في أن تظهر الصور في كل مكان وأن يطلع عليها عامة الناس، سواء أكانت من أصل صيني أم لا، من دون أن يعد ذلك مساساً بالتراث الفارسي الأصيل. والزاجح أن الصور الدينية الفارسية التي تغطي جدران الأضرحة وسقوفها قد ظهرت أول ما ظهرت في ظل دولة الصفويين الشيعة.

وثمة خلاف بين صور الأضرحة العامة التي للشيعة العلوية، وبين الصور التي تضمها المخطوطات المصورة. فعلى حين كانت

يُذَلَّف إلى كنيسة بيزنطية لا إلى ضريح إسلامي شيعي.

ضيدَ خصومه، غَيْرَ أَنَّ الحُسَيْنَ طَلَبَ إِلَيْهِ العُودَةَ إلى دياره وَأَن يُعَدَّ مَراسِم «التَّعْزِيَّة» فِي شَخْصِ الحُسَيْنِ وَأَفْرَادِ أُسْرَتِهِ. وَنَشْهَدُ التَّضَادَّ العَنِيفَ بَيْنَ الجَوَادِينَ بِالمُجَانِبَةِ عَلَى حِينِ تُطَلَّلُ عَلَيْنَا الوُجُوهُ بِالمُوَاجَهَةِ عَلَى غِرَارِ أُسْلُوبِ التَّقْوِشِ السَّاسَانِيَّةِ، كَذَلِكَ اتَّبَعَ الفَتَّانُ أُسْلُوبَ شَرِيطِ الْأَحْدَاثِ الْمُتَابِعَةِ فَجَمَعَ بَيْنَ الحُسَيْنِ فِي الْهِنْدِ مُنْقَذًا قِيسًا مِنَ الْأَسَدِ، وَفِي اللَّحْظَةِ عَيْنِهَا جَعَلَهُ فِي مُوَاجَهَةِ خَصْمِهِ لِاعْتِبَارِهِ بِذَلِكَ عُضُرَ الزَّمَنِ.

ونرى في (لَوْحَةُ ٢١) الحُسَيْنِ وَقَدْ عَادَ مُنْخَنًا بِالجِرَاحِ المُمِيتَةِ، وَبَدَا وَجْهُهُ مُغْطًى بِالجِمَارِ وَأَحَاطَتْ بِرَأْسِهِ هَالَةٌ الثُّورِ جَالِسًا عَلَى الْأَرْضِ مُحْتَضِيًا طِفْلًا تُحِيطُ بِرَأْسِهِ هُوَ الْآخِرُ هَالَةٌ بَعْدَ أَن اخْتَرَقَتِ السَّهَامُ جَسَدَهُ، وَمِنْ تَحْتِ قَدَمَيْهِ بَدَا دِرْعُهُ وَخُودَتُهُ الْمُرِيْشَةُ وَرُوحُهُ مُنْتَثِرَةٌ عَلَى الْأَرْضِ. وَصُوِّرَتْ أَرْبَعُ سَيِّدَاتٍ مِنْ أُسْرَةِ الْإِمَامِ عَلِيِّ وَهُنَّ يَرْفَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِلَى السَّمَاءِ ضَارِعَاتٍ وَسَطَ جَيْشِ الْأَعْدَاءِ الَّذِينَ يَرْفَعُونَ رُؤُوسَ الشُّهَدَاءِ فَوْقَ أَسِنَّةِ الرَّمَاكِ، بَيْنَمَا تُطَلَّلُ الْمَلَائِكَةُ الْمُجَنَّبَةُ شُهُودًا عَلَى هَذِهِ الْمَذْبَحَةِ الثَّكْرَاءِ. وَقَدْ اتَّبَعَ الْفَتَّانُ أَيْضًا أُسْلُوبَ شَرِيطِ الْأَحْدَاثِ الْمُتَابِعَةِ فِي ثَلَاثِ مَرَاكِجٍ، أَوَّلَاهَا الحُسَيْنِ فِي خَلْفِيَّةِ الصُّورَةِ وَأَعْلَاهَا، مُقْبِلًا عَلَى الْمَعْرَكَةِ وَفِي أَعْقَابِهِ تَابِعُهُ رَافِعًا الْمِظْلَةَ فَوْقَ رَأْسِهِ وَفَقَّ التَّقْلِيدِ السَّاسَانِيَّ الْقَدِيمَ الْمُتَّبِعَ نَحْوَ الْمُلُوكِ وَعِلْيَةِ الْقَوْمِ. وَفِي الثَّانِيَةِ وَقَدْ رُشِقَ جَوَادُهُ بِسِهَامِ الْأَعْدَاءِ، وَجَلَسَ هُوَ عَلَى الْأَرْضِ حَامِلًا جُثَّةَ ابْنِهِ عَلِيِّ بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ. وَفِي الْمَرَحَلَةِ الثَّالِثَةِ، وَفِي مُقَدِّمَةِ الصُّورَةِ، نَرَى جَوَادَهُ مُتَصَلِّبًا كَأَنَّهُ قَدْ فَقَدَ الْحَيَاةَ هُوَ الْآخِرُ زَمْرًا لِاسْتِشْهَادِ الحُسَيْنِ.

وقد نَشَرَتْ بِذَا جُودَارِ مَجْمُوعَةٍ مِنْ صُورِ الْإِمَامِ عَلِيِّ الْمُنْقُوشَةِ عَلَى سَقْفِ مَزَارِ الْإِمَامِ زَادِهِ مِير بوزورج فِي مَدِينَةِ آمُول بِشَمَالِ إِيرَانَ، وَمَعَ أَنَّهَا صَرِيحَةٌ فِي انْتِمَائِهَا إِلَى الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ، إِلَّا أَنَّهُ مِنَ الْمُحْتَمَلِ أَن تَكُونَ تَجْدِيدًا لِرُسُومٍ قَدِيمَةٍ كَانَتْ قَدْ بَلَّيَتْ فَرَدَهَا الْمُصَوِّرُ إِلَى حَالَتِهَا الْأُولَى بِرِيشَتِهِ. وَإِنَّا لَنَجِدُ بِمِثْلِ هَذَا التَّجْدِيدِ فِي صُورِ الْإِمَامِ عَلِيِّ وَوَلَدَيْهِ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ الْمُنْقُوشَةِ عَلَى ضَرِيحِ الْإِمَامِ زَيْدٍ بِمَدِينَةِ إِصْفَهَانَ وَالتِي رُمِّمَتْ عَامَ ١٦٨٥/١٦٨٦مَ كَمَا هُوَ مُبَيَّنٌ عَلَيْهَا (لَوْحَاتُ ١٩، ٢٠، ٢١) حَيْثُ تُصَوِّرُ جَانِبًا مِنْ مَأْسَاةِ كَرْبَلَاءَ حِينَ دَهَمَ الْأَمَوِيُّونَ الْحُسَيْنَ وَأَخَاهُ غَيْرَ الشَّقِيقِ، وَيُذْعَى الْعَبَّاسُ، وَأَنْصَارُهُمَا، كَمَا دَهَمُوا مَعَهُمْ نِسَاءَهُمْ، وَقِيلَ إِنَّهُ كَانَ مِنْ بَنِيهِنَّ سَكِينَةً وَزَيْنُودَةَ ابْنَتَا الْحُسَيْنِ وَرَقِيَّةَ شَقِيقَةِ الْإِمَامِ عَلِيِّ. فِي (لَوْحَةِ ١٩) نَرَى الْعَبَّاسَ أَخَا الْحُسَيْنِ يُحَاوِلُ إِعْدَادَ الشُّهَدَاءِ بِالمَاءِ يَوْمَ كَرْبَلَاءَ، وَيَدُو مُمْتَطِيًا جَوَادَهُ مُرْتَدِيًا خُوْدَةَ مُرِيْشَةٍ بِرِيشَتَيْنِ وَتُحِيطُ بِرَأْسِهِ هَالَةٌ مِنْ ثُورٍ عَلَى شَكْلِ وَرَقَةِ الشَّجَرِ، مَاذَا يَدُهُ إِلَى «سَكِينَةٍ» لِيَتَنَاوَلَ مِنْهَا قِرْبَةَ الْمَاءِ. وَتُظْهِرُ نِسَاءَ الْأُسْرَةِ وَمِنْ بَنِيهِنَّ سَكِينَةً وَزَيْنُودَةَ ابْنَتَا الْحُسَيْنِ وَرَقِيَّةَ شَقِيقَةَ الْإِمَامِ عَلِيِّ. وَتُرَوَّى قِصَّةُ اللَّوْحَةِ أَنَّ الْعَبَّاسَ قَصَدَ نَهْرَ الْفُرَاتِ وَمَلَأَ الْقِرْبَةَ بِالمَاءِ لِيَسْقِيَ ذَوِيهِ، غَيْرَ أَنَّ الْأَعْدَاءَ دَهَمُوهُ خِلَالَ عَوْدَتِهِ فَقَطَّعُوا يَدَهُ الْيُسْرَى ثُمَّ الْيُمْنَى فَمَضَى فِي طَرِيقِهِ مُمَسِّكًا الْقِرْبَةَ بِأَسْنَانِهِ إِلَّا أَنَّ سِهَامَ الْأَعْدَاءِ نَقَبَتْهَا وَانْسَكَبَ الْمَاءُ مِنْهَا إِلَى أَنَّ سَقَطَ شَهِيدًا. وَتَسْتَرْعِنَا الدِّيْنَامِيكِيَّةُ الْمُتَدَفِّقَةُ فِي هَذِهِ اللَّوْحَةِ الَّتِي تَلْمَحُهَا فِي تَوَثُّرِ الْجَوَادِ وَاخْتِلَافِ التَّعْبِيرِ عَنْ لَوْعَةِ النِّسَاءِ بِرُغْمِ اخْتِفَاءِ مَلَامِحِهِنَّ، وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ الْوَضْعَاتِ وَالْأَحْجَامِ وَإِيْمَاءَاتِ الْأَيْدِي. وَقَدْ لَجَأَ الْفَتَّانُ إِلَى تَصْوِيرِ الْحَادِثِ فِي مَرَحَلَتَيْنِ عَلَى نَسَقِ شَرِيطِ الْأَحْدَاثِ الْمُتَابِعَةِ. فَنَرَى الْعَبَّاسَ فِي الْمَرَحَلَةِ الْأُولَى فِي صَدْرِ اللَّوْحَةِ وَهُوَ يَنْهَيَّا لِلذَّهَابِ إِلَى الْفُرَاتِ، ثُمَّ نَرَاهُ فِي الْمَرَحَلَةِ الثَّانِيَةِ فِي خَلْفِيَّةِ اللَّوْحَةِ وَقَدْ كَادَ جَوَادُهُ أَنْ يَكْبُو كَمَا يَتَضَيِّحُ مِنْ سَاقِيهِ الْخَلْفِيَّتَيْنِ وَالْعَبَّاسِ مِنْ فَوْقِهِ فِي حَالَةِ أَلِيمَةٍ وَحَوْلِهِ جُنُودُ الْأَعْدَاءِ يَرْشِقُونَهُ بِالسَّهَامِ. وَيَتَّبِعُ الْفَتَّانُ التَّهْجَ نَفْسَهُ بِالنِّسْبَةِ لِمَجْمُوعَاتِ النِّسَاءِ فِي حَالَتِي تَوْدِيْعِهِ ثُمَّ اسْتِقْبَالِهِ فِي خَلْفِيَّةِ اللَّوْحَةِ وَصَدْرِهَا.

ونرى في (لَوْحَةُ ٢٠) الْإِمَامَ الْحُسَيْنَ وَقَدْ اخْتَرَقَتْ السَّهَامُ جَسَدَ جَوَادِهِ يَوْمَ مَأْسَاةِ كَرْبَلَاءَ، وَتَحْتَ قَوَائِمِهِ أَسَدٌ رَامِزٌ إِلَى أَنَّ قِيسًا مَلِكَ الْهِنْدِ قَدْ اسْتَنْجَدَ بِالْحُسَيْنِ فِي الْوَقْتِ الَّذِي أَوْشَكَتَ فِيهِ حَيَاةُ الشَّهِيدِ عَلَى الْانْتِهَاءِ. وَبِمُعْجَزَةٍ بَلَغَ الْحُسَيْنُ الْهِنْدَ وَأَقْنَذَ قِيسًا الَّذِي كَانَ الْأَسَدَ عَلَى وَشَلِكِ الْتِهَامَةِ، فَزَادَ الْأَسَدَ اسْتِئْثْلَامًا تَحْتَ قَدَمَيْ الْحُسَيْنِ، وَإِذَا بِالْمَلِكِ يَمْرُضُ عَلَى الْحُسَيْنِ أَن يَتَبَعَ لِمُعَاوَنَتِهِ

التَّصْوِيرُ الدِّينِي عَلَى أَلْسِنَةِ الرَّحَالَةِ الْمُسْلِمِينَ وَالْأَوْرَبِيِّينَ

تَكْشِفُ مُطَالَعَةُ كُتُبِ الرَّحَالَةِ الْمُسْلِمِينَ وَالْأَوْرَبِيِّينَ عَنْ أَوَّلَةِ قَاطِعَةٍ عَلَى وُجُودِ تَصْوِيرٍ دِينِيٍّ فِي عَصُورِ الْإِسْلَامِ الرَّاهِيَةِ. هَذَا إِلَى الْوَنَائِقِ الْأَدَبِيَّةِ الَّتِي تُؤَكِّدُ وُجُودَ نَوْعٍ مِنَ التَّصْوِيرِ الْعَامِّ الَّذِي يُعْرَضُ لِلْجَمِيعِ وَلَا يُحْصَرُ فِي بُطُونِ مَخْطُوطَاتٍ لَا يَطَّلَعُ عَلَيْهَا إِلَّا قَلَّةٌ مِنَ الْخَوَاصِّ. وَيَكَادُ الْأُسْتَاذُ مَايْكِلُ رُوجِرْزُي يَكُونُ هُوَ الْوَحِيدَ بَيْنَ مَنْ قَرَأَتْ لَهُمْ مِنْ مُؤَرِّخِي الْفَنِّ الْإِسْلَامِيِّ الَّذِي

بالإنجليزية - إلى أن ابن بطوطة أساء فهم ما قيل له في تفسير الصورة، ويرجح أن يكون المبنى الذي دخله كنيسة حقاً وأن الصورة كانت للثبيّ لباس (إلّا) فخال أنها لعلّي. وإذا جاز أن يخلط الرهبان بين حرفي الهَمْزة والعَيْن كما يذهب جبّ فبعيداً أن يقع ابن بطوطة في مثل هذا الخلط - الذي يذهب إليه جبّ - وهو العالم اللغويّ المعروف بالدقّة في هجاء الكلمات ونطقها، ثمّ إنّه من المستبعد أن تكون في الكنيسة صورة للثبيّ لباس وحده دون سائر الأنبياء، وبعيداً أن تكون الصورة لقيديس من القديسين المحاربين وممن كانت صورهم شائعة في التصوير البيزنطيّ كما يبعد أن تكون هذه الصورة من عمل فتان أجنبيّ، إذ إنّ المصوّر الأوربيّ كان يلتزم خلال القرن الرابع عشر الواقعيّة في تفاصيل الرزيّ حين يرسم صورة «شرقيّ» أو «غربيّ»، ومن العسير كذلك أن تكون ثمة صورة دقيقة لمسلم قبل عام ١٤٨٠، ففي هذا العام فقط بدأ المصوِّرون الإيطاليّون يختلفون إلى استنبول ودمشق.

ولترك ما أثاره ابن بطوطة بقصته المليئة بالإيحاءات هذه التي لم تنته فيها إلى جواب قاطع لتناول كتاباً آخر أكثر وضوحاً، هو كتاب «دون خوان الفارسيّ». فلقد نشأ «عروج بك»، الذي اشتهر باسم دون خوان الفارسيّ، مسلماً شيعياً ثمّ غادر بلاده إيران عام ١٥٩٩ بين وفد سفارة الشاه عباس إلى إسبانيا، غير أنّه ما لبث أن استقرّ بإسبانيا ثمّ اعتنق الكاثوليكيّة، وعكف على كتابة «رحلته» بالإسبانية التي تحدّث فيها عن مقتل أبيه عليّ بك بايات أثناء حصار الأتراك لمدينة تبريز وعن إصدار الشاه محمد خدابنده أمراً بعمل صورة لعلّي بك شامخاً وقد أرغم القوادر الأتراك السبعة الذين هزمهم قبل وفاته على الرُكوع أمامه، ثمّ أمر بوضع هذه الصورة على مدخل المسجد الذي أقيم في تبريز. وهذه القصة تدلّنا على أنّه كان ثمة تقليد بعمل صور بشريّة تهدف إلى تخليد ذكرى الموتى أو الشهداء في إيران. ولهذا الدليل الوحيد الذي نملكه من قصة دون خوان الفارسيّ على هذا النوع من التصوير فيه ما يدلّنا أيضاً على قيمة الاستشهاد عند الشيعة.

وثمة وثيقة ثالثة في كتاب «القاضي أحمد» الذي وضع في عام ١٦٠٦ بأسلوب ممنق يُصور لنا فنون الخطّ والتصوير في إيران ومشاهير الخطّاطين والفنانين، ولقد جاء أشبه ما يكون بموسوعة فارسيّة موجزة للمصوِّرين والمثالين والمعماريّين، على غرار الموسوعة التي وضعها الناقد والفنان الإيطاليّ جيورجو فاساري (١٥١٢ - ١٥٧٤). وذهب القاضي أحمد في كتابه هذا إلى أنّ فنّ التصوير ما هو إلّا ثمرة من ثمرات «القلم» الذي أقسم به الله في كتابه الكريم، ولهذا فقد رأى أنّه ينبغي تكريم مصوِّري الكائنات

وضع ثبّتاً شاملاً جمّع أقوال من كتبوا عن التّصاویر الجداريّة الدّينية الإسلاميّة من الرّحالة المسلمين والأوربيين. وكُنْتُ أطمع خلال البحث أن أجد اسماً جديداً أضيفه إلى هذا الثّبت، غير أنّي اعترف أنّ جهدي لم يصل بي إلّا إلى الثّقة بكمال صنيع مايكل روجرز. والأمر الجدير بالملاحظة خلال مُطالعة كُتب الرّحالة من القرن السابع عشر، دقّة ملاحظة الرّحالة الأوربيين في حديثهم عن مظاهر التّصوير الإسلاميّ، ولعلّ ذلك لم يكن إلّا وليد حرصهم الشّديد على تأمل دقائق عالم غريب عليهم، بينما لم يُظهر الرّحالة المسلم «ابن بطوطة» مثل هذا الحرص خلال إقامته في القسطنطينيّة، فهو لم يدخل كنائسها خشية اضطرابه إلى الرّكوع أمام مذابحها. ولو أنّه تكلف الدّخول إلى إحدى الكنائس لترك لنا أوصافاً قيّمة كان من المحتمل أن تزودنا برأيه في التّصوير المسيحيّ بوصفه مسلماً سنيّاً، وأنّ ثعيننا على المقارنة بين التّصوير في الإسلام وبينه في المسيحيّة.

وقد قام ابن بطوطة برحلاته الطويلة العديدة في الشّرق الأوسط بين عام ١٣٢٠ وعام ١٣٣٠ على وجه التّقريب، وزار في إحدى رحلاته مدينة كيرش بشبه جزيرة القرم على الساحل الشماليّ للبحر الأسود وتحدّث عنها قائلاً: «... ورأيت كنيسة فقصدتها واجتمعت براهب فيها، ورأيت في أحد جدران الكنيسة صورة رجل عربيّ عليه عمامة وهو مُتقلّد سيفاً قابض على رُمح وبين يديه سراج مُوقد، فسألته الزاهب عن تلك الصورة فأجابني بأنّها صورة الثّبيّ عليّ، فعجبت لجوابه».

وما نرى ابن بطوطة، وهو العالم اللغويّ المدقّق، إلّا أراد كنيسة حقاً، غير أنّ استرساله بعد ذلك في الوصف وذكره مبيته وطبخه دجاجة في الكنيسة وما يُثير الشكّ في أنّها كانت كنيسة حقاً، إذ إنّ مثل هذا لا يحدث في الكنائس المسيحيّة؛ ولعلّ اندهاشه لوجود صورة الإمام عليّ في هذا المكان هو ما جعله في حيّرة من أمر هذا المكان فتصوّر أنّه كنيسة. على أنّ ابن بطوطة الذي التزم الدقّة في وصف أضرحة الشيعة في العراق وعادات زائريها، لم يُحدّثنا عن وجود صور بأضرحة شيعيّة في «كيرش» التي كان المَعول يحكمون ما وراءها آنذاك وتدين قبائلها بالمذهب السنيّ، بينما كانت هناك كثرة من الجاليات الأجنبيّة تسكن البلدة نفسها، وليس من المستبعد أن يكون من بينهم أقلّيّة من الشيعة الفُرس، وأن تكون لهم معابدهم الخاصّة يُمارسون فيها طقوسهم المتميّزة، وأن يكون ذلك المَعبد الذي وصفه ابن بطوطة معبداً خاصاً بالشيعة سمّاه كنيسة لاعتباره أنّ الشيعة نخلة خارجة على الإسلام.

وقد ذهب هاملتون جبّ - آخر من نشر رحلات ابن بطوطة

وإن شهادة هؤلاء الرّحالة لتؤكد لنا - على الرّغم من قلة عددهم - وجود تصوّر عامّ شاركت فيه الجماهير، بل ووجود صور منقوشة على السقوف والجدران في بعض مدُن إيران مثل أمول وفزوين وإصفهان تعرض مشاهد من القرآن ومن حياة العلويين وتعاليمهم من الكثرين.

التصوير نزعاً من نزعات النفس لا يخضع لتشريع يغالبها وتغالبه

يزعم أرنولد أن العداء للثّقت والتصوير الذي ساد زماناً بعيداً، قد نحى هذين الفئتين عن الحياة العامّة في الإسلام وعن حياة غاليّة المجتمع الإسلامي، حتى إن بعض الأوربيين كانوا يبدون دهشهم كلّما عثروا على تصاوير بالبلاد الإسلامية، وفسروا هذه الظاهرة على أنها أمر شاذ. غير أن موقفهم هذا لم يتسم بالعمق المطلوب، حيث توقعوا أن تحكم نظريات أئمة الدين حياة الناس حكمًا لا فكًا لهم منه، بينما كانوا يشهدون حياة الأوربيين المسيحيين من حولهم وهي تمر بالاختلاف الكبير بين العقيدة وبين تصرفات الناس خلال حياتهم اليومية. ويمكن القول بلا تحوّل إن نهج الناس في الحياة لا يخضع دائماً إلى ما يتلقونه من مواعظ دينية. فكثيراً ما نرى الناس يعملون بخلاف هذه المواعظ في حياتهم اليومية. فإذا كان ثمة إسلاميون لم يقدموا على التصوير، فلقد كانوا من هؤلاء الذين أخضعوا منهجهم في الحياة للعظة الدينية. أما من شغفوا بالتصوير فهؤلاء لا شك من الذين آثروا منهج الحياة على العظة. ثم هم في هذا لم يأتوا أموراً فيها إثم وتجريح.

وما أكثر ما رفض السلاطين والملوك في العالم الإسلامي اعتراضات الفقهاء وأهملوها حين تعارضت مع رغباتهم رغم تمسكهم العام بالعقيدة وإخلاصهم لدينهم. فقد حرم شرب الخمر مثلاً في القرآن أكثر مما حرم التصوير، وأكد الحديث الشريف هذا التحريم وفسره. ورغم ذلك فندر منهم من حرّمها على نفسه وظلّ الشعر في طول البلاد الإسلامية وعرضها يتغنى بمآثرها في كل المهدود. وكان هارون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩) من أشد الناس تمسكاً بتعاليم دينه، رغم أنه اعتاد الشراب وحيداً أو في حاضرة نفر قليل من خلصائه. كذلك حرم بعض فقهاء المسلمين الموسيقى والغناء. ورغم ذلك فقد حفل تاريخ الأدب العربي بقصص المغنين والقيان والعازفين وبمظاهر الرعاية والحذب التي أحاطهم بها أمراء المسلمين. وثمة تصرفات أخرى كثيرة للأمراء تناقض تعاليم الأحاديث المأثورة أو التقاليد السائدة. وسعى السلاطين في معظم البلاد الإسلامية إلى تخليد

البشرية لأنهم يستخدمون «القلم» في عملهم، بل إنهم ليستجقون نصيباً أكبر من التكريم لأنهم استلهموا «الصور المعجزة التي خطها قلم علي بن أبي طالب»، وهو لا ينسب التصوير إلى الإمام عليّ وخذه، بل إنه ينقل قصيدة مهلهلة النظم تشيد بتفوق النبي محمد ﷺ على (الصينيين!) في فنّ التصوير. وما من شك أن هاتين القصتين غير المدعمتين بسند تاريخي تضمنان ادعاء ما نظن المؤلف لجأ إليه إلا ليغري الشيعة المتشددين المعادين للتصوير بممارسته وإطراح كراهيته. وإذا تعدّر علينا أن نأخذ مثل هذا الرأي مأخذ الجد فعلى أية حال نحن مفيدون منه بأن إيران كان فيها من يدافع عن شرعيّة رسم صور الكائنات الحيّة بل وعن قدسيّتها أيضاً مع مطلع القرن السابع عشر.

وكان القاضي أحمد يعدّ مطابقة الصور للواقع مقياساً لجودتها على التقيض مما ذهب إليه الإمام الثوري الذي ارتأى في محاولة المصور التوفيق بين الواقع والصورة تطاولاً على إبداع الله. ولقد وصف القاضي قبر المصور بهزاد بأنه «روضة حافلة بالصور والثقوش». وفي هذا ما يكشف عن تقدير ذلك العصر لفنّ التصوير وظفر المصورين بمكانة في النفوس جعلت الناس يدفنونهم في روضة حافلة بالصور، وهو ما كرّموا به بهزاد أشهر مصوري إيران في مستهلّ العصر الصفوي.

وثمة وثيقة رابعة وهي كتاب الشيفالييه ده شاردان الذي زار فارس في النصف الثاني من القرن السابع عشر وخلف لنا وصفاً تفصيلياً دقيقاً لأضرحة مدينة «قمر» وما ذكر أنه شاهد بها آية صور دينية، ولم يحدثنا عن صور ضريح الإمام زيد بإصفهان التي يرجع تاريخ ترميمها إلى عام ١٦٨٥/١٦٨٦ كما يدلّ على ذلك أحد نقوشها، وقد يعود صمته عنها إلى أنه ربّما زار الضريح في الوقت الذي بدأ فيه ترميم تلك الصور. وفي الكتاب تحامل على صور قصور الصفويين في إصفهان وفزوين التي رآها دون المستوى فنيّاً. كما ندّد بصغف مستوى التصوير الديني الذي كان شائعاً في إيران خلال زيارته لها، وعزا ذلك إلى تحريم بعض العلماء لتصوير الكائنات البشرية وتحريم بعضهم الآخر تصوير الكائنات الحيّة كلّها. وأغلب الظن أن حكمه على مستوى التصوير بالصغف ليس إلا وليد تأثره بدوقه الفرنسي المحصور في إطار المنظور.

ولو أننا اكتفينا بما كتبه الرّحالة والباحثون لتوهّمنا أن الاتجاه إلى التصوير بدأ في قطر واحد من العالم الإسلامي هو إيران، فكما شارك فيه الشيعة شارك غيرهم، يدلّنا على ذلك ما دونه ابن بطوطة عن رحلاته في الشرق الأوسط.

ذُكرهم ببناء الأضرحة. وهو أمر مُحَرَّم حَسَبَما ورد في الحديث المأثور عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ابن عم النبي وزوج ابنته. قال مسلم عن أبي الهياج الأسدي: قال لي علي ألا أبغتك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلا سويته.

وأحاديث النبي حافلة بتحريم تحويل الرجال إلى خصيان بحيث يخرج كل مستول عن عملية من هذا القبيل من عداد المؤمنين. قال محمد عليه الصلاة والسلام: «ليس منا من خصى غيره أو خصى نفسه». وزعم هذا فلم تحل فترة من فترات الحكم الإسلامي، اللهم إلا منذ عهد قريب، من ظاهرة الخصيان، وكان من بين هؤلاء كثير من الساسة والقادة والمصلحين العلماء والرجال الأتقياء.

ونمة شيء من التوافق بين المسيحية والإسلام في عجز كل منهما عن التخلص نهائياً من آثار الماضي وإقامة حضارة تسودها روح الدين خالصة دون ما عداها. وكما أن حضارة المسيحية تأثرت بالآداب الوثنية السابقة على الديانة المسيحية في كل من اليونان وروما، كذلك بقي الشعر الجاهلي مصدراً ممتعاً وإعجاب في العالم الإسلامي بوصفه أرفع تعبير عن المقدرة الأدبية، وظل يدرس في المدارس ويروى في الأوساط الثقافية خلال المصور الإسلامية على مدى ثلاثة عشر قرناً زعم أن موحياته ومثله العليا تناقض تعاليم الإسلام، فالطلاب المسلم يجلس لإقراء الشعر الجاهلي الحافل بالتفاخر ومشاهد الغزل والخمر وبعض صور الانغماس في اللذة المكروهة في التعاليم الدينية التي يخلف إلى دراستها في الوقت نفسه. ولعل هذه هي بعض أسباب الصراع الذي عاصر الإسلام من أول عهده، بين أمثلة الإسلام العليا في الزهد والتشوف وإنكار الذات والتقوى من ناحية، وبين الزهو والرغبة والشهوة ومتع الحياة من ناحية أخرى.

ولقد حرص الحايك الإسلامي دائماً على أن يبقى انغماسه فيما هو مُحَرَّم خافياً عن عيون الجميع سوى أصفياه. وإذا صدق المؤرخون فقد كان أغلب الخلفاء من العصر الأموي ومجالسهم مشهورين باستهانتهم بالمحرمات. ولعل الرسوم الجدارية بقصير عمرة نموذج لهذه الحقيقة ومقياس لمدى تشجيعهم لفنون التصوير. ولا غرابة فيما نعلمه عن الخليفة الأموي يزيد بن معاوية (٦٨٠ - ٦٨٣) إذا وجدنا في قصر الرجل الذي ولأه أميراً على الكوفة «عبيد الله بن زيادة» أشكال أسود شرسة وكلاب نابحة وأكباش متناطحة وما إلى ذلك مما كان يُحرّمه أغلب الفقهاء. وكانت الحياة الاجتماعية في العصر الأموي تزخر بما يتعارض مع تعاليم الإسلام الواضحة ومثله العليا

بحيث لا نستغرب تجاوز الشريعة فيما يتعلق بأمور الفن أيضاً. وقد ذكر الشاعر الأموي عمر بن أبي ربيعة (المتوفى سنة ٧١٩) في إحدى قصائده التي نظمها أثناء الحج إلى البيت الحرام في مكة أوصاف السائر المنسوجة من الفماش المحلى بالقصب والمطرزة بشخوص من الذهب داخل خيمة إحدى سيدات الأسرة الحاكمة. وسواء أكانت أشكال الرسوم المطرزة لآدميين أم لحيوانات فإن الشاعر لا يفصح عن ذلك، ولا أهمية لتفصيل تلك الرسوم غير أنها نوع من الزينة يعد انتهاكاً لحُرمة المكان في عرف بعض رجال الفقه.

ومن الثابت أيضاً في عصر العباسيين أن خلفاءهم، وقد عمدوا إلى تأكيد اشتباههم بالتقوى، قد تهاوتوا في خطر رسم الشخوص، ومن بينهم كبيرهم المنصور (٧٥٤ - ٧٧٥) مؤسس مدينة بغداد الذي أقام فوق قبة قصره تمثالاً لفارس مُمتطياً جواده. وأشيع بين الناس أنها مجرد «رياح» لمعرفة اتجاه الرياح، غير أن جموع الشعب تشاءمت منها واعتقدت أن الرُمح يشير إلى المكان الذي قد يأتي منه العدو غازياً. وتحطم التمثال إثر عاصفة عاتية سنة ٩٤١ ميلادية. وكان للخليفة الأمين (٨٠٩ - ٨١٣) مجموعة من الأخذية الكبيرة المرتفعة صيغت في أشكال حيوانات مختلفة كالأسد والنسر والدرفيل اعتاد أن يضعها حين يرتاد حفلاته على نهر الدجلة. ولكن خلفاء العباسيين تحاشوا فيما يبدو إثارة الرأي العام الإسلامي المحافظ أو صدم عقيدة المسلمين المتشددين بشكل مكشوف، زعم أنه من المحتمل أنهم زينوا قصورهم من الداخل بالأشكال والصور كما توحى بذلك الرسوم الجدارية في سر من رأى. وفي وقت متأخر نوعاً كان للخليفة المقتدر (٩٠٨ - ٩٣٢) بقصره في بغداد شجرة من الذهب والفضة وسط خزان، يتفرع منها ثمانية عشر غصناً مرصعة بالأحجار الكريمة تتدلى منها كالفواكه، وعلى كل غصن يقف طائر من الذهب أو الفضة يغرد كلما اهتز الغصن تحت لمسات التسيم. وعند طرف الخزان يقف خمسة عشر فارساً متحليين بأعلى الثياب، مزودين بالسيوف والرمح يتحركون فيبدون وكأنهم يتهاونون للزوال كل ضيد قرينه.

ومن المؤكد أن مبالغ طائلة كانت تنفق على صناعة الخيام التي كانت تقام لأغراض رسمية وعلى الأشكال والشخوص التي تُطرز بها لزخرفتها. ومن هذا القبيل الخيمة التي أقامها البازوري وزير الخليفة الفاطمي المستنصر (١٠٣٥ - ١٠٩٤) فقد تصافر على إعدادها مائة وخمسون عاملاً لسنوات تسع، وتكلفت ثلاثين ألفاً من الدنانير الذهبية، وكان من بين زخارفها صور لحيوانات العالم إلى العديد من التماذج والأشكال التصويرية الأخرى.

العُكس من كَبِير القُضاة وأَعوانه. ومثل هذا كان في تلك التَّمَاذِج التي تُصاغ من الشَّمْع على أَشْكال الحَيوان أو الأُناسِيّ أو المَلَأِكة يُجَلِّلون بِها حَقَلات العُرس لِعلِيّة القَوْم خلال القَرْن الثَّامِن عَشَرَ بِاسْتِنْبُول.

أما صُنْع تَمَائِيل للأَحْيَاء، فَلَمْ يَكُنْ مِمَّا يُجِيزُهُ الشَّرْع، لِذا كانت نَادِرَة. وعلى الرُّغم من هَذَا فَقَدْ ظَفَرَ الفَنّ الإسلاميّ بِبَعْض التَّمَائِيل، وكان لِخِمَارِيه (٨٨٣ - ٨٩٥)، ابنُ مُؤَسِّس الدَّوْلَة الطُّولُونِيَّة بِمِصْر، حُجْرَة في قَصْر له بِالقُرْب من الفِسطاط تُسَمَّى «بَيْت الذَّهَب»، بُنِيَتْ على جُدرانها تَمَائِيل لِأَهْلِ البَيْت والزَّوْجَات والقيان. وَتَحْمِل التَّمَائِيل على رُؤوسها تِجَانًا من الذَّهَب وَعَلَيْهَا ثِيَاب مُرْصَعَة بِالْجَوَاهِر الثَّقِيصَة. كما أَمَرَ عَبْد الرَّحْمَن الثَّالِث (٩١٢ - ٩٦١)، أَعْظَم المُلُوك في تَارِيخ الأَنْدَلُس، بِإِقَامَة تِمْنَال «لِزَهْرَة»، أَحَبَّ زَوْجَاتِهِ، فَوْق بَوَابَةِ القَصْرِ المُنِيف الذي شَيَّدَهُ لَهَا في ضَوَاحِي قُرْبَة وَأَطْلَقَ عَلَيْهِ اسْمَهَا.

وَتَمَّة إِفْرِيز بِقَرَة سَرَاي بِالْمَوْصِل - وَهُوَ القَصْر الذي أَنْشَأَهُ أَتَابِك بَدْر الدِّين لُؤْلُؤ (١٢٣٣ - ١٢٥٩) - يَنْتَظِم تَمَائِيل جِصِّيَّة، عَدَدُهَا مائَة تِمْنَال، لِأَشْخاص يُطْلَوْنَ مِنْ فُتُوحَات كُوَى لَا يَبْدُو مِنْهَا سِوَى نِصْفِهَا العُلُويّ، وَأَذْرَعُهَا مَضمُومَة إِلَى صُدُورِهَا، وَلِكُلِّ مِنْهَا هَالَة خَلْفَ الرُّأْس، غَيْرَ أَنَّهَا جَمِيعًا أَصَحَّتْ أَثَرًا بَعْدَ عَيْنٍ.

وقد نَجَحَتْ الدَّوْلَة السَّامَانِيَّة (٨٧٤ - ٩٩٩) في تَأْسِيس مُلْكُهَا بِإِيرَان وَضَمَّتْ إِلَى مَمْلَكَتِهَا بُخَارَى وَسَمَرْقَنْد اللَّتَيْنِ أَصْبَحَتَا مِنْ أَهَمِّ المَرَاكِزِ الحَضَارِيَّة. وَقِيلَ إِنَّ أَمِيرَهَا المُسْتَنِير نَصْر بن أَحْمَد (٩١٣ - ٩٤٢) قد أَمَرَ أَحَدَ الشَّعْرَاء بِصِيَاغَة أُسَاطِير كَلِيلَة وَدِمْنَة شِعْرًا مُزَوَّنًا. وَقَدْ طَرَبَ الأَمِير بِالاسْتِمَاع إِلَى هَذَا الشَّعْر وَوَدَّ لَوْ أَنَّهُ رَأَاه مُرَقَّنًا بِرُسُوم وَصُور مِنْ إِعْدَادِ قَتَانِينَ صِيصِيَّينَ.

وَاخْتَفَتِ الدَّوْلَة السَّامَانِيَّة قَبْلَ قِيَامِ دَوْلَةِ التُّرْك القَوِيَّة، وَعَمَدَ الأَمِير الفَاتِح مُحَمَّد العَزْنَوِيّ الذي كَانَ المَعِين على تَحْطِيمِ الدَّوْلَة السَّامَانِيَّة إِلَى الإِعْلَاء مِنْ شَأْنِ نَفْسِهِ وَالزَّهْو بِجَزَائِهِ وَشَجَاعَتِهِ، فَأَمَرَ بِتَرْزِينِ قَصْرِهِ بِصُور تُمَثِّلُهُ شَخْصِيًّا وَتُمَثِّلُ جَيْشَهُ وَالْفِيلَة الَّتِي يَمْلِكُهَا. وَمِنْ غَرِيبِ الصَّدَفِ أَنَّ هَذِهِ الأَعْمَالِ الفَنِّيَّةَ قد وَرَدَ ذِكْرُهَا فِي كِتَاب يَسْرِدُ سِيرَةَ الْمُتَصَوِّفِ الإسلاميّ الكَبِيرِ أَبُو سَعِيدِ بن أَبِي الخَيْرِ، لِأَنَّ الفَتَانَ المُصَوِّرَ الذي حَقَّقَ هَذَا المَشْرُوعَ كَانَ وَالِدَ هَذَا المُتَصَوِّفِ نَفْسِهِ، والذي لَمْ يُخَفِ اسْتِثْنَاءَهُ مِنْ تَمْجِيدِ غَيْرِ اللَّهِ. وَتَذَهَبُ القِصَّةُ إِلَى حَدِّ تَصْوِيرِ أَنَّ الوَالِدَ قد تَأَلَّمَ وَنَدِمَ مُتَأَثِّرًا بِمَلاحِظَةِ وَلَدِهِ وَأَنَّهُ طَمَسَ مَا رَسَمَهُ.

وَإِذَا تَأَمَّلْنَا مَوْقِفَ كُتَّابِ السِّيرَةِ وَالتَّارِيخِ مِنَ الفَنِّ وَالفَنَّانِينَ

وَمِمَّا يَرْتَبِطُ بِذِكْرِ ذَلِكَ الوَزِيرِ المُجَبِّ لِلْفُنُونِ (١٠٥٠ - ١٠٥٨) قِصَّةٌ تُروى عَنِ المُنَافَسَةِ الحَادَّةِ بَيْنَ اثْنَيْنِ مِنَ الفَنَّانِينَ ضَمَّهُمَا إِلَى مَجْلِسِهِ، هُمَا «القَصِير» وَ«ابْنُ عَزِيزٍ». قَالَ الأَخِيرُ: «سَأَرَسِمُ تَصْوِيرًا إِذَا شَهِدَ الرَّائِي أَحْسَنَ وَكَأَنَّهُ يَشْرَعُ فِي التَّفَاذِ خَارِجًا مِنَ الحَائِطِ. فَقَالَ «القَصِيرُ»: أَمَّا أَنَا فَسَأَرَسِمُهُ بِحَيْثُ يَرَاهُ الرَّائِي فِيظُنُّ وَكَأَنَّهُ يَشْرَعُ فِي التَّفَاذِ إِلَى دَاخِلِ الحَائِطِ» فَصَاحَ الحَاضِرُونَ: هَذَا أَعَجَبٌ مِنَ الاِقتِرَاحِ السَّابِقِ. فَأَذِنَ البَازُورِيُّ لهُمَا، فَرَسَمَ كُلُّ مِنْهُمَا صُورَةً لِإِرَاقِصَةٍ بِدَاخِلِ مَا يُمَثِّلُ كُوَّةَ فِي الحَائِطِ إِحْدَاهُمَا فِي مُوَاجَهَةِ الأُخْرَى. فَكَانَ الرَّائِي يَتَخَيَّلُهَا وَكَأَنَّهُمَا تَهْتَمُ بِالخُرُوجِ مِنَ الحَائِطِ فِي الصُّورَةِ الأُولَى، وَكَأَنَّهُمَا تَخْرُقُ الحَائِطَ فِي الصُّورَةِ الثَّانِيَّةِ. وَقَدْ تَحَايَلَا عَلَى ذَلِكَ بِأَنَّهُ رَسَمَ «القَصِيرُ» الرَّاqِصَةَ فِي رِدَاءٍ أَبْيَضٍ دَاخِلَ كُوَّةٍ مَطْلِيَّةٍ بِاللُّونِ الأَسْوَدِ، وَصَوَّرَ «ابْنَ عَزِيزٍ» الرَّاqِصَةَ فِي رِدَاءٍ أَحْمَرَ دَاخِلَ كُوَّةٍ صَفْرَاءَ. وَأَبْدَى البَازُورِيُّ إِعْجَابَهُ بِمَا رَسَمَا وَمَنَحَ كُلًّا مِنْهُمَا رِدَاءَ شَرَفٍ وَأَجْزَلَ لهُمَا مِنَ الذَّهَبِ العَطَاءِ.

وَفِي الأَنْدَلُسِ كَانَتْ تَعَالِيمُ الفُقَهَاءِ وَرجالِ الدِّينِ كَذَلِكَ مَوْضِعَ تَجَاهُلٍ جُمْهُورِ المُسْلِمِينَ. وَلَا مَحَلَّ لِأَن نَسْتَدِ إِلَى مَا ارْتَبَاهُ ابْنُ خَلْدُونِ بِأَنَّ حُبَّ الفُنُونِ التَّصَوِيرِيَّةِ بَيْنَ مُسْلِمِي القَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ فِي الأَنْدَلُسِ يَرْجِعُ إِلَى خُضُوعِهِمْ لِلحُكْمِ المَسِيحِيّ، وَذَلِكَ لِأَنَّ العَرَبَ السَّابِقِينَ، حَيْثُمَا تَوَلَّوْا زِمَامَ الأُمُورِ فِي الأَنْدَلُسِ، انْتَهَجُوا الطَّرِيقَ عَيْنَهُ، وَلَا تَزَالُ تَمَائِيلُ الاثْنِي عَشَرَ أَسَدًا المَرْمَرِيَّةَ فِي صَحْنِ الأَسْوَدِ بِقَصْرِ الحَمْرَاءِ شَاهِدًا عَلَى مَدَى مَا بَلَغَهُ فَنُّ التَّحْتِ مِنْ رِعَايَةِ المُسْلِمِينَ. بَلْ وَمِنْ المَقْطُوعِ بِهِ أَنَّ أَمَثِلَةً أُخْرَى وَتَمَازِجَ مُشَابِهَةً مِنْ هَذِهِ الفُنُونِ قد اخْتَفَتْ وَانْدَثَرَتْ، مِثْلُ التَّافُورَةِ ذَاتِ الشُّخُوصِ الإِنْسَانِيَّةِ المَنْحُوتَةِ الَّتِي اجْتَلَبَهَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ الثَّالِثُ مِنَ القُسْطَنْطِينِيَّةِ وَوَضَعَهَا فِي قَصْرِهِ بِمَدِينَةِ الزَّهْرَاءِ، وَأَصَافَ إِلَيْهَا اثْنِي عَشَرَ شَكْلًا ذَهَبِيًّا مُزِينَةً بِاللَّكَلِيِّ أَمَرَ بِصُنْعِهَا فِي مَدِينَةِ قُرْبَة، وَتُمَثِّلُ ضِرْغَامًا وَغَزَالَةً وَتِمَسَاحًا وَتُغْبَانًا وَنِسْرًا وَفِيلًا وَبَارَا وَطَاوُوسًا وَدَجَاجَةً وَدِيكًا وَصَقْرًا وَمَلِكَ الثُّسُورِ، وَضُبِعَتْ بِحَيْثُ تَتَدَفَّقُ الجِيَاهُ مِنْ أَفْوَاهِهَا.

وَمَا تَزَالُ بَعْضُ عُلَبِ المَجُوهَرَاتِ العَاجِيَّةِ المَخْفُورَةِ مِنْ بَقَايَا قُصُورِ المُلُوكِ المُسْلِمِينَ فِي الأَنْدَلُسِ بَاقِيَةً بِمَا عَلَيَهَا مِنْ مَشَاهِدِ الصَّيْدِ وَمَتَانِظِ المَوْسِيقِيِّينَ. وَكَانَتْ كُلُّ التَّمَازِجِ الآلِيَّةِ كَالسَّاعَاتِ الرَّمْنِيَّةِ المَائِيَّةِ وَالأَلَاتِ المَوْسِيقِيَّةِ تُصَنَعُ فِي شَكْلِ الشُّخُوصِ الإِنْسَانِيَّةِ، بَلْ وَكَانَتْ الحَلَوَى تُصَافُ عَلَى أَشْكَالِ شُخُوصِ إِنْسَانِيَّةٍ وَحَيَوَانِيَّةٍ يَتَهَادَوْنَهَا فِيمَا يَبْتَنُّهُمْ أَيَّامَ الاِخْتِفَالِ القَوْمِيَّةِ بِأَعْيَادِ الخُلَفَاءِ الفَاطِمِيِّينَ بِمِصْرَ وَلَا سِيمًا فِي مُنَاسَبَةِ الاِخْتِفَالِ بِجَبْرِ الخَلِيجِ، إِذْ كَانَتْ نَظَرَتُهُمْ إِلَيْهَا نَظَرَةً فِيهَا تَسَامُحٌ، عَلَى

هذه الأعمال أو مُعظَمها، غيّر أنّ عَدَدًا من السّجاجيد والصّناعات الفنّيّة العاجيّة والمعدنيّة والرّجاعيّة وأعمال الحفّر على الخشب والثّقوش ظلّت باقية رُغم كُُلّ الأحداث المروّعة التي اجتاحت العالم الإسلاميّ من حين إلى حين. ولا تزال هذه القطع محفوظة بمئأى عن أيّ نزعة عداويّة دينيّة للفنّون داخل المتاحف العامّة وضمن المجموعات الخاصّة. والأعجب من هذا أنّ بعضها محفوظ بغرف المقدّسات في الكنائس المسيحيّة والكاتدرايات. أمّا الرسوم الجداريّة فقد زالت جميعها باستثناء الأحدث منها في إيران كما تقدّم.

لقد كشف ما تبقى من التّصوير في بداية عصر الحضارة الإسلاميّة، عن مدى تعلق الخلفاء الأمويّين بحياة التّرف، ومدى حبّهم للنّساء والموسيقى والصّد والمُتّع الجسيّة، ضاربين صمغًا عمّا أورثه إياهم آبائهم من مثل التّقشف والزّهّد. ولما كانت العقيدة الجديدة في نظر الفقهاء لا تُرحّب على الأقلّ بفنون النّحت والتّصوير، فقد لجأ أولئك الحُكّام إلى استقدام فنانين من سائر الأقطار حتّى يتفادوا ما قد ينشأ من جدل بينهم وبين آراء الفقهاء. والواقع أنّ تأثير الفقهاء كان قويًّا إلى حدّ أنّه استبعد كلّ تصوير للشّخص والاشكال من الأبنية المعدّة لأغراض العبادة والدين. وبالتالي فبقينا إنّ فنّ التّصوير انحصر بين جدران القصور وعدا فنّ بلاط فحسب ولم يُصبح جزءًا من الحياة الحضاريّة الإسلاميّة كما كان الأمر في الحضارة المسيحيّة.

ولقد اهتمّ «بابور» أحد أحفاد جنكيز خان من ناحية أمّه اهتيمًا بفنّ التّصوير، ولعلّه لم يجد أيّ مُبرّر لكبت رغباته من أجل إرضاء رجال الدين. وليس هناك أيّ دليل على أنّ بابور نفسه كان على معرفة عمليّة بالفنّ، غيّر أنّ السّلطان أحمد من الأسرة الجلائريّة - وهو أمير مغوليّ من عهد سابق وأحد المُبرزين في مملكة العراق (١٣٨٢ - ١٤١٠) - قد مارس التّصوير كما تناول التّذهيب. ولم يرد أنّ أحدًا من أبناء أو أحفاد تيمور الذي عُرف برعايته للفنانين قد درّس التّصوير، ولكنّ بايسقر ميرزا (المُتوفى سنة ١٤٩٩) وهو أحد أمراء هذه الأسرة وأحد أحفاد تيمور من الجيل الخامس ومن وُلّوا سمرقند بغض الوقت، ذكره ابن عمّه بابور لا على سبيل الإشادة به من بين عظماء الخطّاطين فحسب، بل على أنّه من الأشخاص الذين حدّقوا التّصوير إلى حدّ لا بأس به. ففي تلك الأيّام كانت الثقافة تُقضي الموسوعيّة في المعرفة شأن أوربا أيضًا وقتذاك، فكان الإلمام بفنّ التّصوير ضروريًّا من أجل استكمال العديد من المَلَكات. وكتب بابور أيضًا عن ابن عمّه الثّابغة حيدر ميرزا الذي ألف كتاب «تاريخ الرّشيدى» (١٤٩٩ - ١٥٥١): كان ماهر اليد في كلّ شيء، في الخطّ وفي التّصوير

بعامة فلا مندوحة لنا من أن نضع نُصْب أعيننا، أنّ عِلْم التاريخ في العالم الإسلاميّ يرتبط مُنذُ بداياته بعلوم الفقه والدين، وقد يؤخّذ على أنّه فرع من عِلْم الأصول. ذلك أنّ أولّ دافع لِتَدوين التاريخ نشأ عن الحاجة إلى تسجيل سيرة الرّسول، وتوضيح شتى الإشارات التاريخيّة الواردة في القرآن؛ وبالتالي فقد كان عدد كبير من كبار مؤرّخي المسلمين عُلَماء دين في الوقت عينه. وتعاطف هؤلاء الرّجال مع تخريم فنّ التّصوير وزغبوا عن تضمين صفّحاتهم صورًا يحرمها الدين، ولم يقبلوا على تسجيل نشاط المُصوِّرين إلّا بعد أن تغيّرت النظرة إلى الفنّ في مجال الأدب مع مطلع القرن السادس عشر. ولو أنّ المؤرّخين تنازلوا بأقلامهم هذه الموضوعات لسجّلوا لنا اللّوحات المصوّرة بمسايين الخلفاء المسلمين من أمثال الخليفة العبّاسيّ المُهندي (٨٦٩ - ٨٧٠) وغيره، ولَسَجّلوا كذلك أوصاف زخارف قُصور التّيموريّين، ولَعَدَا لذلك التّسجيل قيمة علميّة عظيمة، فإنّ ما عُرِف عنهم من حبّهم للفنّ، يجعلنا نفترض أنّهم كانوا بالضرورة يُزيّنون بيوتهم بالسّخاء نفسه الذي أثير عنهم في تشجيعهم الفنانين على تزويق المخطوطات وتصويرها. غيّر أنّ كلّ ما يذكره لنا المؤرّخ الذي روى ماير مؤسس المملكة التّيموريّة عن القصر الذي بناه تيمور في حديقة بشمال سمرقند في أوائل سنة ١٣٩٧، هو أنّه كان مُزيّنًا برُسوم جداريّة تُزري برُسوم كتاب ماني وصور الصّين. ولم يبقَ إلّا سَف من تلك التّصاویر الجداريّة ما يُمكن معه تصوّر طابعها العام، ولا تكفي الآثار القليلة للرسوم الجداريّة المُتبقيّة في قصر الإمبراطور «أكبر» حفيد بابور في فتحبور - زيكري لتكوين فكرة واضحة عن طابعها. ورُغم أنّها صوّرت في القرن الثّاني (أي حوالي ١٥٧٠) ورُغم أنّها تُمثّل خصائص الأسلوب التّوفيقيّ «المغوليّ الفارسيّ» الذي شجّع «أكبر» وأيّده، إلّا أنّها تُطابق تقاليد الرسوم الجداريّة التي صوّرت من أجل أجداد «أكبر» في سمرقند وهراة.

وقد عاصر ملوك الصفويّين في فارس أباطرة المغول في الهند أجيالًا عديدة، وزيّنوا مثلهم قُصورهم بالرسوم الجداريّة، غيّر أنّنا لم نَحظْ بشيء عنها إلى أن أقدم الرّحالة الأوربيّون على وصفها. ولم تُنمَح معالم الصور الجداريّة في عهد الشّاه عبّاس (١٥٥٧ - ١٦٢٨) إذ بقيت منها لُوحات رائعة في «جهل [تشهل] سوتون» أو قاعة الأعمدة الأربعة بأصفهان (لوحات ٢٢، ٢٣، ٢٤).

هذه بغض التّسجيلات القليلة التي تنانرت خلال الكُتُب والمؤلّفات على مدى ألف سنة. وكلّها تدلّ على مدى ما أولاه الحُكّام المسلمون والبلّاء من تشجيع للصّناع والحرفيّين المُستغلّين بالفنون التّصويريّة والشّكليّة رُغم عدم إرضاء الفقهاء. وقد بادت

عَنِ الْأَعْيُنِ. وَلَمْ يَجْرَوْا عَلَى الْمُجَاهَرَةِ بِرَفْضِهِ لِلتَّحْرِيمِ سِوَى نَفَرٍ قَلِيلٍ مِنْ بَعْضِ ذَوِي الْمَكَانَةِ أَوْ الْمُحْتَمِينَ بِهِمْ. وَعِنْدَمَا مَاتَ الْوَزِيرُ قَرَهُ مُحَمَّدٌ سَنَةَ ١٦٤٤ انْتَشَرَتْ عَنْهُ الشَّائِعَاتُ الْمُخْتَلِفَةُ لِأَنَّهُمْ اكْتَشَفُوا حُجْرَةَ سِرِّيَّةٍ كَانَ يُخْفِي فِيهَا صُورًا لِشَخْصِهِ وَلِبَعْضِ مُعَاَصِرِهِ.

وَيُقَدِّمُ «دوسون» تَحْلِيلًا وَعَرْضًا لِاللُّوحَاتِ الَّتِي تُصَوِّرُ مَوْقِعَةَ رَدِّ خِلَالِهَا هُجُومَ إِسْبَانِيَّ عَلَى الْجَزَائِرِ، وَهِيَ صُورَةٌ رَسَمَهَا الْغَازِي حَسَنٌ بِأَمْرٍ مِنَ الْوُزَرَاءِ أَثْنَاءَ حُكْمِ السُّلْطَانِ عَبْدِ الْحَمِيدِ الْأَوَّلِ (١٧٧٣ - ١٧٨٩) بِنَفْسِهِ لِنَفْسِهِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَجْرَوْا عَلَى عَرْضِهَا فِي قَصْرِهِ بِإِسْتِثْنَاءِ، وَاحْتِفَظَ بِهَا فِي قَصْرِهِ الرَّيْفِيِّ حَيْثُ اعْتَادَ أَصْدِقَاؤُهُ الْأُورُبِّيُّونَ وَالْمَسِيحِيِّونَ أَنْ يَتَرَدَّدُوا عَلَيْهِ لِمُشَاهَدَتِهَا، وَكَذَلِكَ كَانَ يَفْعَلُ السُّلْطَانُ نَفْسَهُ. وَلَعَلَّ مَكَانَتَهُ الرَّيْفِيَّةَ هِيَ الَّتِي حَمَتَهُ مِنْ أخطارِ كَانَتْ تَنَالُهُ لَوْ كَانَ مِنْ عَامَّةِ النَّاسِ. وَعَلَى هَذَا التَّنَسُّقِ نَجِدُ أَنَّ الْكَثِيرِينَ مِنْ سُلَاطِينِ تُرْكِيَا - ابْتِدَاءً مِنَ السُّلْطَانِ مُحَمَّدٍ الثَّانِي الَّذِي اسْتَصَافَ فِي بِلَاطِهِ الْمُصَوِّرَ جَنْتِلِي بِلِينِي مِنَ الْبُنْدُوقِيَّةِ - كَانُوا يَسْتَخْدِمُونَ الْمُصَوِّرِينَ مِنْ دُونِ أَنْ يُبَيِّرُوا حَقِيقَةَ الشَّعْبِ. وَهَكَذَا ظَلَّ التَّصْوِيرُ نَشَاطًا سِرِّيًّا حَتَّى إِنَّ الْكَثِيرِينَ مِنَ الزُّوَارِ الْأُورُبِّيِّينَ لِمَدِينَةِ إِسْتَنْبُولَ فِي الْقُرُونِ السَّادِسِ عَشَرَ اعْتَقَدُوا أَنَّ كِرَاهِيَةَ الْمُسْلِمِينَ لِلصُّورِ كَانَتْ مُطْلَقَةً، بَلْ إِنَّ اهْتِمَامَ السُّلْطَانِ سُلَيْمَانَ (١٥٢٠ - ١٥٥٦) بِفَنِّ التَّصْوِيرِ ظَلَّ مَجْهُولًا مِنْ مُعَاَصِرِهِ. وَكَانَ السُّلْطَانُ مُحَمَّدُ الرَّابِعُ (١٦٤٨ - ١٦٨٧) أَيْضًا رَاعِيًا لِلْفَنَّانِينَ، وَلَكِنَّهُ عُنِيَ بِأَنْ يُخْفِيَ لُوحَاتِهِ وَصُورَهُ فِي غُرْفَةٍ خَاصَّةٍ. وَقِيلَ عَنْ الْمَجْمُوعَةِ الشَّهِيرَةِ الْخَاصَّةِ بِصُورِ السُّلَاطِينِ الْعُثْمَانِيِّينَ وَالَّتِي نُشِرَتْ مَرَّاتٍ عَدِيدَةٍ فِيمَا بَعْدَ إِنَّهَا كَانَتْ خِلَالَ الْقُرُونِ الثَّامِنِ عَشَرَ مَحْفُوظَةً فِي مَكَانٍ خَفِيٍّ عَلَى الْجُمْهُورِ وَعَلَى كُلِّ ضَبَاطِ الْبِلَاطِ الَّذِينَ لَمْ يَحْظُوا بِصَدَاقَةِ السُّلْطَانِ الشَّخْصِيَّةِ. وَعِنْدَمَا عَقَدَ السُّلْطَانُ سَلِيمُ الثَّالِثُ (١٧٨٩ - ١٨٠٧) الْعَزْمَ عَلَى تَجَاهُلِ الْأَحْكَامِ الْمُسَبِّقَةِ إِزَاءَ الْفَنِّ وَشَرَعَ يُفَكِّرُ فِي إِعْدَادِ صُورٍ لِلسَّابِقِينَ مِنَ السُّلَاطِينِ وَطَلَبَ اسْتِئْذَانَ صُورٍ مَطْبُوعَةٍ لَهَا بِطَرِيقَةِ الْحَقْرِ عَلَى الْحَجَرِ أَوْ غَيْرِهِ فِي إِنْجِلْتَرَا، اضْطُرَّ إِلَى اسْتِخْدَامِ فَلَاحِ رُومِيٍّ مَوْهَبٍ فِي فَنِّ التَّصْوِيرِ لِيَقْلَ تَسَخُّا مِنْهَا فِي مَكَانٍ مُنْعَزَلٍ دَاخِلَ الْقَصْرِ، ثُمَّ أُرْسِلَتِ النُّسخُ إِلَى إِنْجِلْتَرَا سَنَةَ ١٨٠٦ مَعَ تَعْلِيمَاتٍ وَاضِحَةٍ صَرِيحَةٍ بِأَنْ تُرَاعَى كُلُّ سِرِّيَّةٍ مُمَكِّنَةٍ أَثْنَاءَ الْقِيَامِ بِالْعَمَلِ.

وَفِي صِنَاعَةِ السَّهَامِ وَكُلَّابِ السَّهْمِ وَجِبَالِ الضُّعْطِ فِي الثَّبَالِ، وَفَوْقَ هَذَا كُلِّهِ وُلِدَ شَاعِرًا.

وَاتَّبَرَى الْإِمْبَرَاطُورُ «أَكْبَر» - الَّذِي قِيلَ إِنَّهُ تَلَقَّى فِي شَبَابِهِ دُرُوسًا فِي الرَّسْمِ - مُدَافِعًا عَنِ الْفَنِّانِ الْمُصَوِّرِ مِنْ وَجْهِهِ نَظَرِ الَّذِينَ عَلَى أَسَاسٍ مُخْتَلِفٍ. وَجَاءَ فِي مَقَالٍ بِقَلَمِ وَزِيرِهِ الْوَفِيِّ أَبِي الْفَضْلِ حَدِيثٌ عَنِ دِفَاعِ «أَكْبَر» عَنِ التَّصْوِيرِ شَرَحَ فِيهِ رَأْيَ «أَكْبَر» وَحَكَى عَلَى لِسَانِهِ أَنَّهُ قَالَ: «يُحْتَلِّ لِي أَنَّ لِلْمُصَوِّرِ وَسَائِلَ غَرِيبَةً لِلْغَايَةِ لِلتَّعَرُّفِ عَلَى اللَّهِ. إِذْ إِنَّهُ عِنْدَمَا يَقُومُ بِعَمَلِ تَخْطِيطِ لَأَيِّ شَيْءٍ حَيٍّ، وَعِنْدَمَا يَعْمَدُ إِلَى إِبْدَاعِ أَطْرَافِهِ وَاجِدًا بَعْدَ الْآخِرِ لَا بُدَّ أَنْ يَشْعُرَ بِقُصُورِهِ عَنْ أَنْ يَهَبَ عَمَلَهُ فَرُودِيَّتَهُ وَشَخْصِيَّتَهُ، وَبِالْثَّانِي يَجِدُ نَفْسَهُ مُضْطَرًّا إِلَى التَّفَكُّيرِ فِي اللَّهِ وَاهِبِ الْحَيَاةِ فَتَزْدَادُ عَلَى هَذَا الْتَحَوُّ مَعْرِفَتِهِ».

وَمِمَّا هُوَ جَدِيرٌ بِالذِّكْرِ أَنَّ مِثْلَ هَذَا التَّقْدِيرِ الْجَدِيدِ لِفَنِّ التَّصْوِيرِ كَانَ حَرَبًا بِأَنْ يَتَقَبَّلَهُ الْفُقَهَاءُ وَيُجِيزَهُ الْمُشْرِعُونَ فَيَقْنَدُونَ بِذَلِكَ أَقْوَالَ مَنْ سَبَقُوهُمْ مِنَ الْفُقَهَاءِ الْأَقْدَمِينَ عَنِ الْفَنِّ بِنَفْسِ الْأَسَالِبِ الشَّرْعِيَّةِ. غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ تَظْهَرْ أَيَّةُ مُحَاوَلَةٍ فِي كُتُبِ الْأَدَبِ الْإِسْلَامِيِّ لِاسْتِثْبَاتِ مَذْهَبٍ مُسْتَقِلٍّ فِي عِلْمِ الْجَمَالِ أَوْ لِلْوُصُولِ إِلَى تَقْدِيرٍ مَا لِلْفَنِّ فِي ذَاتِهِ. يَبْدُو أَنَّ هَذَا التَّقْدِيرَ الْجَدِيدَ لِفَنِّ التَّصْوِيرِ لَمْ يَنْجَحْ قَطُّ فِي مَحْوِ التَّحْرِيمِ الْقَدِيمِ وَالْحُلُولِ مَحَلِّهِ؛ وَمَرَدُّ ذَلِكَ أَنَّ الْقَوْلَ بِتَحْرِيمِ الْفَنِّ كَانَ قَدْ اسْتَقَرَّ وَامْتَدَّتْ جُذُورُهُ فِي الْمَشَاعِيرِ الشَّعْبِيَّةِ بَعْدَ أَنْ انْتَشَرَ عَلَى صَفَحَاتِ كُتُبِ الْفُفْهِ وَفِي الْكُتُبِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي سَادَتْ التَّفَكُّيرِ الْإِسْلَامِيِّ أَجْيَالًا طَوِيلَةً حَتَّى لَمْ تَعُدْ تَسْمَحُ بِأَيِّ تَأَمُّلٍ أَوْ تَفَكُّيرٍ جَدِيدٍ فِي الْمَوْضُوعِ، وَظَلَّتْ تُخَيِّمُ عَلَى الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ قُرُونًا عَدِيدَةً. وَعِنْدَمَا أَرَادَ السُّلْطَانُ مُحَمَّدُ الثَّانِي (١٨٠٨ - ١٨٣٩) أَنْ يَفْرِضَ الْآدَابَ وَالْعَادَاتِ وَأَنْوَاعَ الْعُرْفِ وَالسُّلُوكِ الْغَرِيبَةِ عَلَى الشَّعْبِ التُّرْكِيِّ وَعَلَّقَ صُورَهُ فِي جَمِيعِ الْمُعَسَّكَرَاتِ، نَارَ سَكَانِ إِسْتَنْبُولَ مُتَمَرِّدِينَ بِتَحْرِيزِ «الْعُلَمَاءِ» وَتَعَذَّرَ إِخْمَادُ الْعِصْيَانِ وَقَمَعَ الشَّعْبُ إِلَّا بَعْدَ صِرَاعٍ أَسْفَرَ عَنْ أَرْبَعَةِ آلَافٍ شَهِيدٍ أُلْقِيََتْ أَجْسَادُهُمْ فِي الْبَحْرِ.

وَنَسْتَطِيعُ أَنْ نَتَأَمَّلَ الْعِدَاءَ لِتَّصْوِيرِ الشُّخُوصِ، وَمَدَى نَفَازِهِ فِي نَفْسِ النَّاسِ وَسَيْطَرَتِهِ عَلَى ضَمَائِرِ الْمُسْلِمِينَ الْمُتَمَرِّتِينَ مِنْ مَرَاجَعَةِ تَارِيخِ الْأَتْرَاكِ. فَقَدْ كَانَ بَعْضُ الْأَتْرَاكِ الْمُسَاوِمِينَ يَمِيلُونَ إِلَى فُنُونِ التَّصْوِيرِ وَيَتَذَوَّقُونَهَا بَلْ وَيَقْتَنُونَهَا، غَيْرَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُخْفُونَهَا

الفصل الثالث

سِمَاتُ التَّصْوِيرِ الْإِسْلَامِيِّ

أولاًها: اختواء الصورة على عدّة مفردات يتمّ جمعها في غير اتّساق بحيث يبدو كلّ منها في منظور مختلف. مثال ذلك لوحة «المجنّون أمام خيمة ليلي» عن قصّة ليلي والمجنّون من مخطوطة العروش السّبعة «هفت أورانج» لعبد الرّحمن جامي التي أعدت لمكتبة أبي الفضل سلّطان إبراهيم ميرزا (١٥٥٦ - ١٥٦٥) والمخطوطة بالفريز جاليري بواشنطن. وتعدّ من أروع الصّور الصّوفيّة التي بلغ بها المصوّر قمّة البراعة في التّصوير. ونراه قد أطرّح جانباً الإطار المحدّد للمثّن المكتوب وانطلق يبدع بفراشاته الأنيقة وألوانه الرّقافة المتوازنة، ملتزمًا بالواقعيّة الشديدة في رسم التفاصيل ودقائق الحياة اليوميّة، والجزأة في ابتكار الصّينغ الرّخويّة (لوحة ١٨م). فنشهد إلى اليمين من أسفل الصّورة خيمة قد جمعت بين أمير ومحتظته وثمة تابع يذلّك ساق الأمير، ومن حولهما أتباع يقدّمون لهما الطّعام. وعلى باب الخيمة شحاذ يسألهما الإحسان، وإلى اليمين من الخيمة وقّف حارس يحول عصاً وإلى اليسار من تلك الخيمة خيمة أخرى فيها جمعٌ من الطّهاة يعدّون الطّعام. وإلى الأعلى من هذا المشهد جمع آخر من الأفراد قد امتطى واحد منهم بعيراً، على حين أناخ سائرهم مطاياهم وأخذوا يحطّون ما عليها من أحمال. وفي الرّسط من الصّورة يقف قيس على باب خيمة ليلي وقد أخذ يُنجيها. وإلى ما فوق هؤلاء ثلّة من النّساء يحدثن بعضهنّ بعضاً وقريب منهنّ خطّاب. وثمّ إلى يمينهم نفرٌ من الرّجال يحدثن بعضهنّ بعضاً ويبنّ أيديهم إبلهم وسقاء قد أخذ يحاور امرأة.

(١) الإلهام (Illusion) هو تصوير الأشياء على نحو يحدث وهماً يُخيّل معه إلى المشاهد أنّ الأشياء حقيقة وليست مجرد رسم [م.م.م.ث.].

(٢) المنظور (Perspective) هو تمثيل الأشياء ذات الأبعاد الثلاثة على سطح ذي بُعدين، فتبدو وكأنّها نافذة إلى العمق [م.م.م.ث.].

يختلف النهج في التّصوير الإسلاميّ عنه في التّصوير الكلاسيكيّ [اليونانيّ - الرّومانيّ]، فهو لا يلجأ إلى الإلهام^(١) ويغفل قواعد المنظور^(٢) التي ترمز إلى العمق، كما يطرح استيخدام الظلال. وكان إهمال المصوّر المسلم لقواعد المنظور عن قصد، إذ لم يكن يؤمن كثيراً بالواقعيّة إلّا حين تصوّره للمخطوطات العلميّة، لهذا إذا كان هناك أصل يتقل عنه، على نحو ما نرى في لوحة الكرمة «بكتاب الحشائش وخواصّ العقاقير» ليدوسقوريدس ١٢٢٩م (لوحة ١٦م)، فهي مصوّرة بأسلوب طبيعيّ فيه إبداع خارق وتكشف عن تفاصيل الثّبات الحقيقيّة من جذوره حتّى أطرافه، وقد لوّنت كلّ ورقة بلون خاصّ يميّزها عن جاراتها، ورُسمت العروق واضحة في أغلب الأوراق، وظهرت جميع أجزاء الثّبات سابحة في الفضاء متحرّرة جذورها من الأرض. وتبدو هذه اللّوحة مطابقة للصّورة الأصليّة البيزنطيّة، حتّى إنّها لو لم تكن مرسومة على صفحات المخطوط العربيّ لظن المرء أنّها صورة يونانيّة أصيلة مقحمة.

أمّا إذا لم يكن ثمة أصل يتقل الثّتان عنه فكان يلجأ إلى التّحوير كما نرى في لوحة نبات العدس من المخطوطة نفسها (لوحة ١٧م) التي تُعدّ التّقيض التام لصورة «الكرمة» فهي تخضع للرّاضف الدقيق حيث تشابه العناصر المتجاورة دون أن تختلف درجات ألوانها، ولا تكاد نرى العروق المرسومة بطريقة إجماليّة، وتوحي دقّة شكلها الرّخويّ الخالص بأنّها نُقلت بالرّوسم [صفحة مخرّقة على نمط النقوش والحروف للطبع منها]، كما يظهر تجاهل اللّوحة للطبيعة، وذلك في وضع الثّبات على الصّفحة بطريقة أفقيّة مخالفة تماماً للاتّجاه الطّبيعيّ لثمّوها، وهو تجاهل يوجب التّشكيل التّحويري.

ونستطيع أن نُجول سِمَاتِ التّصوير الإسلاميّ في نقاط خمس:

ورابعتهما: مُجَانِبَتُهُ فِي الْأَكْثَرِ لِكُلِّ مَا يُوحِي بِالْعَرَبِيَّةِ أَوْ الْمُجُونِ وَعَدَمَ لِقَائِهِ بِالْأَلْوَجْدَانِيَّاتِ، إِذْ كَانَ ذِيْدُهُ التَّسْلِيَّةِ لَا الْإِثَارَةِ. فَلَقَدْ كَانَ التَّصْوِيرُ الْإِسْلَامِيُّ فِي خِدْمَةِ الْبَلَاطِ أَوَّلًا، أَوْ بِمَعْنَى آخَرٍ فِي خِدْمَةِ قُصُورِ الْمُلُوكِ الَّتِي كَانَتْ تُعَدُّ بُيُوتَ الْمُسْلِمِينَ عَامَّةً، يَسْعَى إِلَيْهَا الشَّاكِي وَذُو الْحَاجَةِ وَصَاحِبُ الْمَظْلَمَةِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مُخْتَلِفِ الطَّبَقَاتِ. مِنْ أَجْلِ هَذَا كَانَ لَا بُدَّ لِتِلْكَ الْقُصُورِ أَنْ تَبْدُو أَقْرَبَ إِلَى الْجِدِّ مِنْهَا إِلَى الْعَبَثِ وَالْمُجُونِ. وَلِهَذَا كَانَتِ التَّصَاوِيرُ الَّتِي تُزَيَّنُ بِهَا جُدرانُ الْقُصُورِ وَالْمَخْطُوطَاتِ الْمُصَوَّرَةِ الَّتِي فِي حَوْزَةِ ذَوِي الْجَاهِ وَالْمَسْمُوحِ بِالْإِثْلَاعِ عَلَيْهَا أَقْرَبَ إِلَى التَّسْلِيَّةِ مِنْهَا إِلَى الْإِثَارَةِ. هَذَا إِذَا اسْتَشْنَيْنَا الْأَجْنَحَةَ الْخَاصَّةَ بِالْحَرِيمِ، فَمَا نَشْكُ فِي أَنَّهَا كَانَتْ عَلَى صُورَةٍ أُخْرَى غَيْرَ تِلْكَ الصُّورَةِ.

وَأخِيرًا ثَمَّةُ سِمَةٍ أُخْرَى فِي التَّصْوِيرِ الْإِسْلَامِيِّ تَسْتَحِقُّ مِنَّا لَفَتَةً هِيَ جُمُودُهُ عِنْدَ وَضْعَةِ تَقْلِيدِيَّةٍ وَإِعْغَالِهِ الْإِنْفِعَالَاتِ الْوَجْدَانِيَّةِ وَالتَّقْسِيَّةِ الَّتِي تَتَرَاءَى عَلَى الْوُجُوهِ إِلَّا فِي الْقَلِيلِ، إِذَا الْوُجُوهُ تَبْدُو غُفْلًا لَا أَحَاسِيْسَ فِيهَا. وَمِنْ الْمُسْتَبْعَدِ أَنْ نَعْزُو مِثْلَ هَذَا الْقُصُورِ إِلَى تَقْصُصِ الْكِفَايَةِ الدَّائِيَّةِ مَا دَامَ بَيْنَ أَيْدِينَا تِلْكَ الْإِنْجَازَاتِ الرَّائِعَةِ الَّتِي خَلَفَهَا الْمُصَوِّرُونَ الْمُسْلِمُونَ فِي مُخْتَلِفِ أَنْوَاعِ التَّصْوِيرِ وَالَّتِي تَكْشِفُ عَنْ مَقْدِرَةِ مَبْدِعَةِ خَلْقَةٍ وَبِخَاصَّةٍ فِي مَجَالِ تَصْوِيرِ الْقَسَمَاتِ الْمُمَيَّزَةِ.

غَيْرَ أَنَّا نَعْتَقِدُ أَنَّ ثَمَّةَ عَوَامِلَ وَظُرُوفًا عَدِيدَةً أَدَّتْ إِلَى هَذِهِ النَّتِيجَةِ. فَإِذَا تَذَكَّرْنَا مَثَلًا أَنَّ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الْفَنِّيَّةَ التَّصَوِيرِيَّةَ تَنْتَمِي أَصْلًا إِلَى فُنُونِ الْبَلَاطِ كَمَا سَبَقَ الْقَوْلُ، فَقَدْ أَصْبَحَ حَتْمًا أَنْ تُوَاجِبَ مَظَاهِرُ الْوَقَارِ هَيْئَةً صَاحِبِ الصُّورَةِ مُجَارِيَّةَ السُّلُوكِ الْعَامِّ فِي احْتِرَامِ جَمَاهِيرِ النَّاسِ لِلْخَلِيفَةِ أَوْ السُّلْطَانِ خِلَالَ حِقْبَةٍ طَوِيلَةٍ مِنَ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ.

أَمَّا مِنَ النَّاحِيَةِ الْفَنِّيَّةِ الْبَحْثَةِ فَقَدْ كَانَ لِلْكَثْرَةِ مِنْ تَصَاوِيرِ الْمَخْطُوطَاتِ الْفَارِسِيَّةِ أَصُولُهَا فِي الصُّورِ الَّتِي تُغَطِّي جُدرانَ الْقُصُورِ السَّاسَانِيَّةِ الْمَلِكِيَّةِ، وَمِنْ ثَمَّ انْطَبَعَتْ بِطَائِعِهَا الْأَسَاسِيِّ وَجَارَتْهَا فِي جَعْلِ التَّعْبِيرِ الْإِنْفِعَالِيِّ يَحْتَلُّ مَكَانًا ثَانَوِيًّا لِيُفْسِحَ الْمَجَالُ لِمُتَطَلِّبَاتِ الزُّخْرَفَةِ الْبَحْثَةِ.

وَقَدْ لَاحَظَ الْأُسْتَاذُ لُورَنْسُ بَيْنُونُ أَنَّ جَمَالَ خُطُوطِ الرَّسْمِ الْفَارِسِيَّةِ الْمُتَأَخَّرَةِ كَانَ مَطْلُوبًا لِذَاتِهِ دُونَ الْتِفَاتِ إِلَى الْمَدْلُولِ وَمَا تُوحِي بِهِ هَذِهِ الْخُطُوطُ الْجَمِيلَةُ. فَكَثِيرًا مَا كَانَ الْفَنَّاانُ يُصَوِّرُ الْجَمَالَ مُجَرَّدًا مُسْتَخْدِمًا فِي ذَلِكَ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ أَلْوَانٍ عَلَى نَمَطِ صَاحِبِ صَارِخٍ، قَاصِرًا جُهْدَهُ عَلَى تَجْوِيدِ خُطُوطِ الرَّسْمِ فَحَسَبَ، الْأَمْرَ الَّذِي كَانَ يُمَثِّلُ بَيْنَ مُعَاَصِرِهِ أَرْفَعَ مَرَاتِبِ التَّعْبِيرِ عَنْ جَمَالَ

وَأِنَّا حِينَ نُنْعَمُ التَّنَظَّرَ فِي هَذِهِ اللَّوْحَةِ الْبَدِيعَةِ نُنْعِمُهُ فِي خَدَرٍ، عَلَى نَحْوِ مَا يَكُونُ مِنْ عَالِمٍ يُتَابِعُ مِنْ خِلَالِ عَدَسَتِهِ الْمَكْبَرَةِ خَفَايَا خَلِيقَتِهِ تَزْخُرُ بِالْجُسْتِمَامَاتِ الْمُجْتَمِعَةِ الْمُتَنَاقِضَةِ، إِذْ إِنَّ حَرَكَةَ الْأَحْدَاثِ فِي الصُّورَةِ مُعَقَّدَةٌ مُحِيرَةٌ حَتَّى لَتَكَادُ تُفْلِتُ مِنْ مُتَابَعَتِنَا. فَشُخْصُوهَا تَجْمَعُ مَا بَيْنَ أَمِيرٍ وَمَحْظِيَّتِهِ، إِلَى خَدَمٍ وَطَهَاءٍ، إِلَى غَادَاتٍ فَائِزَاتٍ، وَشَمْطَاوَاتٍ غَيْرِ مُبَالِيَّاتٍ، وَقَهْرْمَانَاتٍ مُسَيَّنَاتٍ، وَفُتَيَّةٍ وَفَقِيَّاتٍ مَرِحَاتٍ. حَتَّى الثُّوقُ تَبْدُو وَكَأَنَّهَا غَايَاتُ طَلَبَيْنِ وَجُوهَهُنَّ بِمَزِيدٍ مِنَ الْأَصْبَاغِ وَالْمَسَاحِقِ، أَمَّا الْخَيْلُ الرَّشِيقَةُ الْمُطَهَّمَةُ فَتَبْدُو وَكَأَنَّهَا مَطَايَا لِلْعَشَاقِ فَحَسَبَ. وَالصُّورَةُ يُحَوِّمُ فِي ثَنَائِهَا جَوْ الْعَبَثِ، حَيْثُ تَفْتَقِدُ الْعَقْلَانِيَّةَ وَالسَّكِينَةَ تَارَةً، ثُمَّ مَا نَلَبَثُ أَنْ نَعْتَرَّ عَلَيْهَا تَارَةً أُخْرَى. وَمِمَّا يَلْفِتُنَا أَنَّ رُوحَ الدُّعَابَةِ وَخِفَةَ الظَّلِّ تُرْفَرُفُ عَلَى أَغْلَبِ شُخُوصِ الصُّورَةِ. وَيَبْدُو أَنَّ الْمُصَوِّرَ قَدْ اسْتَعَانَ فِي رَسْمِهِ لِهَذِهِ اللَّوْحَةِ بِانْطِبَاعَاتِ رَجُلٍ مِنْ رِجَالِ الْبَلَاطِ دَاهِيَةٍ أَرِيبَ نَافِذِ الْمَلَاخِظَةِ يَعْرِفُ كَيْفَ يُدَاهِنُ الْحَاكِمَ مَرَّةً فِي تَزَمُّتِهِ، ثُمَّ مَا يَلْبَثُ أَنْ يُشَارِكَهُ فِي مُجُونِهِ بِخَمَاسَةِ مَرَّةٍ أُخْرَى.

كَذَلِكَ يَسْتَرْعِي انْتِبَاهُنَا أَنَّ الْحَيَزَ الَّذِي تَشْغَلُهُ الصُّورَةُ لَا يَتَّقُو وَالْمَنْطِقَ، حَيْثُ نَظْهَرُ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَكَأَنَّهَا وَافِدَةٌ مِنْ لَا مَكَانَ. وَكَمَا تَرْتَبِطُ الشُّخُوصُ بِبَعْضِهَا بِبَعْضٍ بِعِلَاقَاتٍ عَصَبِيَّةٍ عَلَى التَّصْدِيقِ، نَجِدُ أَنَّ النَّسَبَ - عَنْ عَمْدٍ - غَيْرَ مُتَشَبِّهٍ عَلَى نَحْوِ جِدِّ غَرِيبٍ. وَيَمْتَدُّ التَّكْوِينُ الْفَنِّي لِيَشْغَلَ كَافَّةَ أَنْحَاءِ فَرَاغِ الْمُنْمَنَةِ، وَإِنْ بَدَتْ مُفَرَّدَاتُهُ مُتَجَمِّعَةً فِي غَيْرِ اتِّسَاقٍ وَقَدْ انْفَسَمَتْ إِلَى مَجْمُوعَاتٍ مُسْتَقِلَّةٍ تَكَادُ كُلُّ مِنْهَا تُغْنِي بِذَاتِهَا، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّهَا فِي مَجْمُوعِهَا تُكَوِّنُ شَكْلًا مُتَكَامِلًا. وَعَلَى الرُّغْمِ مِنَ الصَّنِيعِ الزُّخْرَفِيَّةِ الْأَنِيقَةِ الْمُثِيرَةِ لِلْاهْتِمَامِ فَوْقَ أَقْمِشَةِ الْخِيَامِ وَالْمِظَلَّاتِ مِنْ حُلِيَّاتٍ وَمُعِينَاتٍ وَخُطُوطٍ مَائِلَةٍ، يُوحِي الْأَثَرُ الْعَامُّ بِالْحَرَكَةِ الْمُدَوِّمَةِ الْمُتَّجِهَةِ صَوْبَ الْخَارِجِ، لَكَأَنَّ الْقُوَى الطَّارِدَةَ الْمَرْكَزِيَّةَ بِالصُّورَةِ تَرْمِزُ إِلَى رِيحٍ تُبْعِثُ كُلَّ شَيْءٍ فِي شَتَّى الْأَتَجَاهَاتِ.

وِثَانِيَّتُهَا: انْقِسَامُ كُلِّ صُورَةٍ إِلَى مَوْضُوعَاتٍ مُسْتَقِلَّةٍ يَكَادُ كُلُّ مِنْهَا يُغْنِي بِذَاتِهِ، ثُمَّ هِيَ إِلَى ذَلِكَ تُكَوِّنُ فِي مَجْمُوعِهَا شَكْلًا مُتَكَامِلًا. وَتَكَادُ اللَّوْحَةُ السَّابِقَةُ تَكُونُ شَاهِدًا عَلَى ذَلِكَ.

وَالثَّلَاثُهَا: أَخَذَهُ بِمَبْدَأٍ أَنَّ تَصْغِيرَ الْمَوْضُوعِ الْمُصَوَّرِ لَا يَجُوزُ أَنْ يُبْعِدَهُ عَنْ تَقَالِيدِ تَقْنِيَّةِ تَصْوِيرِ الْمُنْمَنَمَاتِ. فَلَنَحْظُ فِي مُنْمَنَةِ الْمُصَوِّرِ مُحَمَّدٍ زَمَانَ ذَاتِ الطَّابِعِ الْمُهَجَّنِ - وَكَانَ قَدْ تَلَقَّى دِرَاسَتَهُ الْفَنِّيَّةَ بِرُومَا فِي نَهَايَةِ الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ - الْخُرُوجَ عَلَى هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ، وَذَلِكَ لِتَأْثِيرِ التَّقْنِيَّةِ الْأُورُوبِيَّةِ الَّتِي أَسَاءَ تَمَثُّلُهَا، لِأَنَّهُ حِينَ أُتِيبَ بِهَ تَصَوِيرِ الْمُنْمَنَمَاتِ فَقَدَتْ مُنْمَنَمَاتُ السَّمَاتِ الَّتِي تُضْفِي عَلَى التَّصْوِيرِ الْإِسْلَامِيِّ جَاذِبِيَّتَهُ (الْلُوحَتَانِ ١٩م، ٢٥).

وَيَسَارًا جُنُودًا يَنْفَخُونَ فِي الْأَبْوَاقِ كَيْ يَبْعَثُوا فِي قُلُوبِ الْمُقَاتِلِينَ
الْحَيِّةَ لِيَنْشَطُوا لِلْجِهَادِ.

ومن ذلك أيضًا تصوير الناس وهم في غمرات الفرح والنشوة
ولا أثر ليلك الغمرات على وجوههم وكأنَّ السعادة لم تطرق لهم
بابًا أبدًا. ولقد استعان المصورون بوسائل شبيهة حسيَّة لتوضيح
الانفعالات الشعوريَّة. ومن أكثر هذه الوسائل شيوعًا وضع
الإصبع على الشفاه علامةً للدَّهْشَة والعَجَب والدُّهول، ومنها
كذلك غَضُّ ظَهْر الكَفِّ إشارةً إلى اليأس، وعلامة ثالثة هي
إسدال حجاب على الوجه أو طَرَح الدَّرَاعِينَ إلى الخلف للتدليل
على الأسى.

على أنه مما يسترعي الانتباه أن مخطوطة جامع التواريخ
«لرشيد الدين» (١٣١٠) ومخطوطة شاهنامه ديموط (١٣٣٠)
تكادان تنفردان بتطبيق مبدأ التعبير الانفعالي. وقد نشأ هذا
الخروج على ما تميَّز به التصوير الإسلامي عادةً عن تأثير
الأسلوب الصيني الغالب على هاتين المخطوطتين. ويبدو أن
الطابع الدُمويِّ للأحداث التي عُهد إلى الفنانين بتصويرها في
مخطوطة جامع التواريخ قد جَمَدَ الدَّم في عروقهم هم أنفسهم،
إذ تتوالى أعمال القتال والتَّخريب والمعارك والمذابح صفحة بعد
أخرى حتَّى كادت تُصيب الفنان بالغثيان. وقد أَصْفَى مُصَوِّرُهَا
عَلَيْهَا سِتْرًا كثيفًا من الكآبة ينعكس على وجوه المشاهدين بأعمق
مِمَّا ينعكس على وجه الضَّحِيَّة الذي حُزَّت رَقَبَتُهُ أو ذراعاه أو
ساقاه. على حين يبدو الطابع الانفعالي في مخطوطة شاهنامه
ديموط على الجماعات أكثر ممَّا يبدو على الأشخاص.

ونلمس بوضوح تأثيرًا صينيًّا ذا طابع مُختلف تمامًا في
المنجزات الرائعة لفنان من مرحلة متأخرة هو «محمدي» الذي
لا نكاد نعرف عن حياته شيئًا يُذكر. ونلمح وشائج وثيقة بين
رُسُومه والفنَّ الصيني، ولعلَّه هو نفسه كان صينيًّا اعتنق الإسلام
أو مُسلمًا من إحدى مناطق شرق آسيا. إلا أن الصُّور التي عرَضَها
«محمدي» تكشف عن رُوح فكَّه ساخرة، فَقَدْ شَغِفَ بتصوير
الشُّخُوص الهزليَّة وهم يَرُقُصُونَ وَيَتَبَوَّأُونَ وقد غَلَبَ عَلَيْهِم طابع
المرح (لوحه ٢٦). ولم يُحاول أحد غيره من المصورين خلال
العهد الصفويِّ الفارسي أن يُعبِّر عن الانفعالات الإنسانيَّة في
تصاويره باستثناء صورة الطَّبِيبين المُتَنَافِسِينَ المشهورة التي
أوردَها الشَّاعر نظامي في المقالة الثَّانِيَّة عَشْرَة «في وداع الدُّنْيَا»
بمَظْلُومَة «مَحْزَن الأسرار» التي استهلَّ بها كتابه «خُمْسُهُ نظامي».
وتَحْكِي القِصَّة أن اثنين من الأَطِيَاء قد تَنَافَسَا في مدى إيقان كُلِّ
منهما لِصُنْع السُّمُوم، فَتَنَازَلَا أَوَّلُهُمَا جُرْعَة مَسْمُومَة شَرَبَهَا ثُمَّ تَنَازَلَا
زِيَادًا شَافِيًّا في الحال، وحين جاء الدُّور لاختيار رفيقه التَّقَطَّ وَرَدَة

الشُّكْل، فَرَسَمَ خُطُوطه الرَّشِيقَة المُتَمَوِّجَة رَسْمًا يُوحِي بِالرَّضَا
والانْشِرَاح. وَيَبْدُو أَنَّ الْفَنَانَ الْمُصَوِّرَ كَانَ يَقْنَعُ بِالْأَثَرِ الزُّخْرُفِيِّ
المُبهر بَعْدَ أَنْ يَرِبَط شُخُوصه بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وَيَكْسُوها بِفَاخِرِ
الثِّيَاب وَيُعْطِي رُؤُوسَهَا بِعَمَائِمٍ مُتَشَبِّهَة الطَّيَات وَيُوشِي عِبَاءِهَا
بَطَّرِيزَاتٍ مِنَ الْقَصَب، مُسْتَعْرِضًا قُدْرَاتِهِ فِيمَا يُسَبِّغُه عَلَى
تَصْمِيمَاتِهِ مِنْ بَهَاءٍ.

ومَهْمَا اخْتَلَفَتِ الآراءُ فِي ذَلِكَ، فَمِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ لَتِلْكَ
الْخُطُوطِ أَثَرُهَا الْفَعَالُ فِي الثَّمُوسِ لَوْنًا وَتَمَثِيلًا لِمَا يُرَاد مِنْهَا وَإِنْ
افْتَقَرَتْ إِلَى الدَّلَالَةِ وَالْإِيحَاءِ. وَكَانَ الْفَنَانُ يُؤَيِّرُ أَنْ يُفَوِّقَ وَقْتَهُ فِي
رَسْمِ الْعُرُوقِ الدَّقِيقَةِ لِأَوْرَاقِ الشَّجَرِ أَوْ فِي إِضْفَاءِ الظَّلَالِ اللَّوْنِيَّةِ
عَلَى أَوْرَاقِ التَّوَيُّجِ فِي أَكْمامِ الزُّهُورِ، بَيْنَمَا لَمْ يَخْطُرْ بِبَالِهِ أَنْ يَبْذُلَ
مِثْلَ هَذَا الْجَهْدِ فِي إِبرَازِ التَّعْبِيرِ الْإِنْفِعَالِيِّ أَوْ لَمَحَاتِ الْفِكْرِ فِي
قَسَمَاتِ الشُّخُوصِ الَّتِي يَرَسُمُهَا. وَقَدْ سَادَ أَسْلُوبُ تَصْوِيرِ
الْأَشْخَاصِ الْمَائِلِينَ فِي الصُّورِ بِوُجُوهٍ غُفْلٍ مِنَ الْإِنْفِعَالِ سَوَاءً
أَكَانُوا مُلُوكًا أَمْ رَعَايَا، جُنُودًا أَمْ رُعَاةً. مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ الْمُحَارِبِينَ
وَهُمْ فِي سَعِيرِ الْمَعْرَكَةِ كَارِئِينَ فَارِئِينَ يَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ بَيْنَ الْجُنُثِ
وَالْجَرْحَى، يَبْدُونَ فِي الصُّورِ بِوُجُوهٍ خَائِبَةٍ لَا تُفْصِحُ، وَكَأَنَّ الْأَمْرَ
لَا يَقْنِعُهُمْ فِي قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ. مِنْ ذَلِكَ مَا قَدْ نَرَاهُ مِنْ جُمُودٍ عَلَى
وَجْهِ فَارِسٍ يَتَدَفَّقُ الدَّمُ مِنْ جُرْحِهِ وَكَأَنَّهُ لَا يُحِسُّ أَلَمَ الْمَوْتِ وَهُوَ
يُعَاجِلُهُ، عَلَى نَحْوِ مَا نَرَى فِي مُنَمَّةِ الْحَمْلَةِ الَّتِي جَرَدَهَا السُّلْطَانُ
أُولُجَايْتُو لِمُحَارَبَةِ الشَّاهِ مُصَوِّرِ حَاكِمِ شِيرَازَ، فَكَانَ لَهُ الظَّفَرُ بِهِ
وَقَتْلُهُ فِي تِلْكَ الْمَعْرَكَةِ، الَّتِي تَضُمُّهَا مَخْطُوطَةُ «مَطْلَعُ السَّعْدِينَ»
لِلْإِسْمَرْقَنْدِيِّ ١٦٠١مِ الْمَحْفُوظَةُ بِمُتْحَفِ الْفَنِّ الْإِسْلَامِيِّ بِالْقَاهِرَةِ،
حَيْثُ يَبْدُو أُولُجَايْتُو وَهُوَ يَبَارِزُ مُصَوِّرَ (لَوْحَة ٢٠م)، وَفِي أَسْفَلِ
الصُّورَةِ فَارِسَانِ يَتَأَهَّبَانِ لِلصَّرَاحِ، وَفَوْقَ الرُّبَى الَّتِي تَنَافَرَتْ عَلَيْهَا
الْأَشْجَارُ جَمَاعَاتٌ مِنَ الْجُنُودِ يَنْفَخُونَ فِي الْأَبْوَاقِ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ
إِلَى يَمِينِ الصُّورَةِ فِي يَدَيْهِمْ أَعْلَامًا رَفَعُوهَا. ثُمَّ مَا نَرَاهُ مِنْ فَارِسٍ
قَدْ قَدْ يَصْفَيْنَ وَمَعَ ذَلِكَ لَا تَبْدُو عَلَى وَجْهِهِ سِمَةٌ مِنْ سِمَاتِ الْفَرَعِ،
وَهُوَ مَا تُطَالِعُنَا بِهِ مُنَمَّةُ أُخْرَى مِنَ الْمَخْطُوطَةِ نَفْسُهَا (لَوْحَة ٢١م)
تُصَوِّرُ الْمَعْرَكَةَ الَّتِي دَارَتْ بَيْنَ مِيرْزَا سُلْطَانِ إِبْرَاهِيمَ وَمِيرْزَا شَاهِ
مَحْمُودٍ [وَمِيرْزَا اخْتِصَارَ لِكَلِمَةِ مِيرْزَاةَ بِمَعْنَى نَجَلِ الْأَمِيرِ] الَّتِي
دَارَتْ رَحَاهَا فِي مَنَاطِقٍ قَرِيبَةٍ مِنْ مَدِينَةِ مَشْهَدَ حَيْثُ هُزِمَ جُنْدُ
سُلْطَانِ إِبْرَاهِيمَ هَزِيمَةً مُنْكَرَةً. وَتَتَجَلَّى فِي الصُّورَةِ أَشْأَاءُ جَيْشِ
سُلْطَانِ إِبْرَاهِيمَ يُعَدُّ مَا حَاقَ بِجَيْشِهِ مِنْ هَزِيمَةٍ، فَنَرَى فَارِسًا فِي
مُتَنَصِّفِ الصُّورَةِ يُجَنِّدِلُ فَارِسًا آخَرَ يَهْوِي بِهِ مِنْ عَلَى صَهْوَةِ جَوَادِهِ
بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَ سَيْفُهُ فِي جَسَدِهِ وَهُوَ يُؤَلِّي أَمَامَهُ. وَثَمَّةُ جَنَّةٍ لَقَتِيلٍ وَقَدْ
شَطَّرَتْ شَطْرَيْنِ غَابَ مِنْهَا شَطْرٌ وَبَقِيَ شَطْرٌ، وَغَيْرُ بَعِيدٍ مِنْ هَذِهِ
الْجَنَّةِ رَأْسُ قَتِيلٍ آخَرَ، وَنَرَى فِي تِلْكَ الرُّبَى الْمُحِيطَةِ بِالْمَشْهَدِ يَمِينًا

وَهَمَسَ إِلَيْهَا بِتَعْوِذَةٍ ثُمَّ سَلَّمَهَا إِلَيْهِ كَيْ يَشْمَهَا فَمَا لَبِثَ أَنْ سَقَطَ مَيِّتًا مِنْ قَرْطِ الْخَوْفِ. وَتَعَدَّ ابْتِسَامَةُ الْفَرَحَةِ الْبَهِيْجَةِ الْغَادِرَةِ الْبَادِيَةِ عَلَى وَجْهِ الطَّبِيبِ الْفَائِزِ الْمَاكِرِ وَهُوَ يَتَأَمَّلُ جُثَّةَ خَصْمِهِ الْأَذْنَى ذِكَاءً مُحَاوَلَةً نَادِرَةً لِلتَّعْبِيرِ عَنِ الْاِنْفِعَالِ فِي التَّصْوِيرِ الْفَارِسِيِّ (لَوْحَةٌ ٢٧). وَنَجِدُ فِي بَعْضِ التَّصَاوِيرِ الْمَغُولِيَّةِ بِالْهِنْدِ عَدَدًا أَكْبَرَ مِنَ النَّمَاذِجِ الَّتِي تَهْتَمُّ بِإِظْهَارِ الْمَشَاعِرِ عَلَى وُجُوهِ الْإِنْسَانِيِّ، وَلَعَلَّ مَرَدَّ ذَلِكَ إِلَى الْمُصَوِّرِينَ الْهِنْدُوْكِيِّينَ الَّذِينَ كَانَتْ تَزْدَحِمُ بِهِمْ مَرَاسِمُ بِلَاطِ الْأَبَاطِرَةِ الْمَغُولِ، فَلَقَدْ كَانَ هَؤُلَاءِ الْمُصَوِّرُونَ أَكْثَرَ تَأَثُّرًا بِخَلْجَاتِ النَّفْسِ، فَضْلًا عَنْ تَأَثُّرِهِمُ الشَّدِيدِ بِنَمَاذِجِ التَّصْوِيرِ الْأُورَبِيِّ.

وَلَعَلَّ أَوْفَقَ النَّمَاذِجِ لِلتَّعْبِيرِ عَنِ الْاِنْفِعَالِ هِيَ الَّتِي تَمَثَّلَتْ فِيهَا صُورُ الْحَيَوَانِ، فَقَدْ نَجَحَ الْمُصَوِّرُونَ الْفُرسُ وَالْهِنْدُ فِي إِبْرَازِهِ بِشَكْلِ مَلْحُوظٍ، وَمَنْحُوهِ مِنْ اهْتِمَامِهِمْ وَمُثَابَرَتِهِمْ وَتَجْوِيدِهِمْ مَا مَنْحُوهُ لِتَصْوِيرِ الْأَشْجَارِ وَالزُّهُورِ. وَلَا غَرَوْ فَإِنَّ أَوَّلَ كِتَابٍ دُعِيَ الْمُصَوِّرُونَ لِتَرْوِيْقِهِ بِالصُّورِ هُوَ كِتَابُ «كَلِيلَةِ وَدُمْنَةٍ»، وَهُوَ مَجْمُوعَةٌ مِنْ الْقِصَصِ الْبُودِيَّةِ تَتَحَدَّثُ فِيهَا الْحَيَوَانَاتُ وَتَسْلُكُ سُلُوكِ الْإِنْسَانِ. وَيَبْدُو أَنَّ الْمُصَوِّرِينَ مُنْذُ الْبِدَايَةِ قَدْ تَقَدَّوْا إِلَى الرُّوحِ الْأَصِيلَةِ فِي هَذَا الْعَمَلِ الْأَدَبِيِّ الْقَدِيمِ، وَمَا أَكْثَرَ مَا بَرَّ نَجَاحَهُمْ فِي إِجَادَةِ التَّعْبِيرِ عَنْ مَلَاحِجِ الْحَيَوَانِ نَجَاحَهُمْ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ مَلَاحِجِ الْآدَمِيِّينَ.

الفصل الرابع

مَدَارِسُ التَّصْوِيرِ الْإِسْلَامِيِّ

لا لِأَشْخَاصٍ بِذَوَاتِهِمْ (لَوْحَة ٢٨)؛ وَمِنْهَا اسْتُخْدِمَ الْأَعْيُنُ فِي التَّعْبِيرِ وَالْأَصَابِعُ فِي الْإِشَارَاتِ وَالْأَيْدِي فِي الْإِيْحَاءَاتِ (لَوْحَة ٢٢م)، وَظُهُورُ الشَّخْصِ الرَّئِيسِ أحيانًا أَكْبَرَ حَجْمًا مِنْ غَيْرِهِ وَمِنْ هُمْ أَقَلٌّ مِنْهُ شَأْنًا. هَذَا إِلَى تَوْفِيقِ هَذِهِ الْمَدْرَسَةِ فِي تَصْوِيرِ مَجْمُوعَاتِ النَّاسِ مَعَ تَنْوُوعِ وَضْعَاتِهِمْ (لَوْحَة ٢٨)، وَوَضْعِ كُلِّ شَخْصٍ فِي مَرْتَبَتِهِ رِفْعَةً وَضِيعَةً.

وَتَمَّةُ شَيْءٍ لَهُ قِيَمَتُهُ أَثَرٌ عَنْ هَذِهِ الْمَدْرَسَةِ هُوَ تِلْكَ الْهَالَةُ الَّتِي تَعْلُو الرُّؤُوسَ. وَهَذِهِ الْهَالَةُ تَرْجِعُ إِلَى أَصْلَيْنِ قَدِيمَيْنِ: أَوَّلُهُمَا بِيَزْنُطِيٍّ، وَكَانَتْ الْهَالَةُ تُرْسَمُ عَلَى شَكْلِ دَائِرَةٍ تُكَلَّلُ بِهَا رُؤُوسُ الْأَبَاطِيرَةِ وَالْأَبْطَالِ وَمِنْ إِلَيْهِمْ. وَقَدْ شَاعَتْ تِلْكَ الْهَالَةُ بَعْدَ أَنْ اعْتَنَقَتْ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةُ الرُّومَانِيَّةُ الشَّرْقِيَّةَ [بِيَزْنُطَةَ] الْمَسِيحِيَّةَ، إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ عَلَامَةً تَقْدِيسٍ كَمَا كَانَ يَظُنُّ الْبَعْضُ، فَقَدْ كُتِلَتْ بِهَا رُؤُوسُ أَشْخَاصٍ كَانُوا أَعْدَاءَ لِلْمَسِيحِيَّةِ. وَمِنْ الْمُحَقِّقِ أَنَّ تِلْكَ الْهَالَةَ فَقَدَتْ مَغْزَاهَا فِي التَّصْوِيرِ الْإِسْلَامِيِّ، وَلَمْ تَعُدْ أَنْ تَكُونَ عُنْصَرًا زُخْرُفِيًّا نَرَاهَا حَوْلَ رُؤُوسِ الْأَشْخَاصِ عَامَّةٍ لِمُتَمَيِّزِيهَا وَإِبْرَازِهَا.

أَمَّا عَنِ الْأَصْلِ الثَّانِي، فَهُوَ فُنُونُ الصِّينِ وَأَوَاسِطُ آسِيَا، غَيْرَ أَنَّهَا كَانَتْ تُرْسَمُ فِي الْأَكْثَرِ بِيَضِيَّةٍ غَيْرِ مُنْتَظِمَةٍ الْخُطُوطِ، مِمَّا جَعَلَهَا يَبْدُو عَلَى شَكْلِ شُعْلَةٍ نَارِيَّةٍ.

وَأَمَّا الْهَالَةُ الَّتِي اسْتُخْدِمَتْ فِي الْفَنِّ الْإِسْلَامِيِّ فِي أَوَائِلِ عَهْدِ قُتُمَائِلِ تِلْكَ الَّتِي كَانَتْ دَائِرِيَّةً وَأَحَاطُوهَا أحيانًا بِخَوَافِ زَرْقَاءٍ أَوْ حُمْرَاءٍ (لَوْحَة ٢٣م) ثُمَّ مَا لَبَّتْ مَعَ امْتِدَادِ الزَّمَنِ أَنْ تَأَثَّرَتْ بِمِثْلَتِهَا فِي الْفَنِّ الصِّينِيِّ وَالْأَسْيُوتِيِّ، فَجَاءَتْ عَلَى شَكْلِ هَالَةٍ نُورَانِيَّةٍ (لَوْحَة ٢٤م).

كَذَلِكَ أَصَابَتْ هَذِهِ الْمَدْرَسَةَ تَوْفِيقًا فِي رَسْمِ الْحَيَوَانِ لَا سِيَّما الْحَيَوَانِ الْمُسْتَأَنَسِ فِي الْبَادِيَةِ الْعِرَاقِيَّةِ مِنْ خَيْلٍ وَإِبِلٍ، فَأَبْدَعَتْ فِيهِ أَيْ إِبْدَاعَ لَا سِيَّما حِينَ سَاقَتْ مَشَاهِدَ مِنْ قَوَافِلِ مُتَرَاصَّةٍ مُتَتَابِعَةٍ مِنْ

مَرَّ التَّصْوِيرِ الْإِسْلَامِيِّ بِمَرَاجِلَ مُتَعَدِّدَةٍ، لِكُلِّ مَرَحَلَةٍ عَوَامِلُهَا الْمُؤَثِّرَةُ فِيهَا وَظُرُوفُهَا وَبَيْنَاتُهَا، وَيُمْكِنُ حَضَرُهَا فِي مَدَارِسِ أَرْبَعٍ رَئِيسَةٍ، تَنْقَسِمُ بِذَوْرِهَا إِلَى مَدَارِسٍ فُرْعِيَّةٍ زَمَانًا وَمَكَانًا. وَمِنْ الصَّعُوبَةِ بِمَكَانٍ تَحْدِيدِ تَوَارِيخٍ دَقِيقَةٍ لِكُلِّ مَرَحَلَةٍ، إِذْ كَثِيرًا مَا تَخْتَلِطُ وَتَتَدَاخِلُ بِدَايَاتِ تِلْكَ الْمَرَاجِلِ وَنِهَايَاتُهَا. وَهَذِهِ الْمَرَاجِلُ هِيَ: مَدْرَسَةُ التَّصْوِيرِ «الْعَرَبِيَّةِ» وَ«الْفَارْسِيَّةِ» وَ«الْمَغُولِيَّةِ بِالْهِنْدِ» وَ«التُّرْكِيَّةِ».

التَّصْوِيرُ الْعَرَبِيُّ

تَغْلِبُ عَلَى مَدْرَسَةِ التَّصْوِيرِ الْعَرَبِيَّةِ الرُّسُومُ الْآدَمِيَّةُ الَّتِي جَاءَتْ لَا تَفَاصِيلَ فِيهَا لِلْأَجْسَامِ، وَمِنْ أَجْلِ هَذَا غَشَّاهَا الْمُصَوِّرُونَ بِثِيَابٍ كَثِيرَةٍ الْأَطْوَاءِ وَالْمَكَاسِيرِ، كَمَا جَاءَتْ مِنْ دُونَ دِرَايَةِ بِأَصُولِ التَّشْرِيحِ وَلَا مُرَاعَاةٍ لِنِسْبِ الْأَعْضَاءِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، مُطَرِّحَةً جَانِبًا أَثَرُ الْأَحَاسِيسِ وَالْإِنْهَعَالَاتِ فِي الْوُجُوهِ إِلَّا مَعَ التَّادِيرِ الْمَعْدُودِ - فَإِذَا هِيَ عُقْلٌ مِنْ مَلَامِحِ التَّعْبِيرِ وَكَأَنَّ عَلَيْهَا أَقْنَعَةً. فَكَانَ شَأْنُ الْمُصَوِّرِ شَأْنًا لِأَعْبَ مَسْرَحِ الْعَرَائِيسِ يَعْرِضُ أَذْوَارَ شُخُوصِهِ فِيمَا يَسْرِدُ مِنْ أَحْدَاثٍ بِخُطُوطٍ مُحَوَّرَةٍ تُحَدِّدُ الْإِيْمَاءَاتِ مَعَ شَيْءٍ مِنَ التَّهْوِيلِ، لِكَيْ يَعْوِضَ بِهَذَا عَنْ إِغْفَالِ تَعْبِيرِ الْوُجُوهِ، كَمَا قَدْ يُعْبَرُ عَنْ بَعْضِ مَوَاقِفِ الْأَشْخَاصِ وَحَرَكَاتِهِمْ بِالثِّيَابِ طَيًّا وَبَسْطًا.

وَكَمَا لَمْ تُعْنِ هَذِهِ الْمَدْرَسَةُ بِتُمَثِيلِ الطَّبِيعَةِ عِنَايَةَ الْفُنُونِ الصِّينِيَّةِ أَوْ الْأَوْرُوبِيَّةِ، لَمْ تُعْنِ أَيْضًا بِقَوَاعِدِ الْمَنْظُورِ، فَلَمْ يَكُنْ لِلصُّورَةِ غَيْرُ بُعْدَيْنِ اثْنَيْنِ هُمَا الطُّوْلُ وَالْعَرْضُ، أَمَّا الْعُمْقُ فَلَا وَجُودَ لَهُ. وَإِلَى هَذَا فَإِنَّا نَجِدُ هَذِهِ الْمَدْرَسَةَ أَقْرَبَ إِلَى الْوَاقِعِ فِي تَصْوِيرِ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ، وَهُوَ مَا لَمْ تَلْحَقْهَا فِيهِ الْمَدَارِسُ الَّتِي خَلَفَتْهَا فِي الْإِسْلَامِ.

وَمِنْ مِيزَاتِ هَذِهِ الْمَدْرَسَةِ الْجَمْعُ بَيْنَ مَشْهَدَيْنِ أَوْ أَكْثَرٍ فِي صُورَةٍ وَاحِدَةٍ، وَمِنْهَا تِلْكَ الْمَسْحَةُ الْعَرَبِيَّةُ وَاللَّحَى الْمُرْسَلَةُ الَّتِي سَادَتْ قَسَمَاتِ الْوُجُوهِ، وَإِنْ غَدَّتِ الْوُجُوهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ أَنْمَاطًا مُعَيَّنَةً

وتتجاهل أسلوب المدارس الأوروپية القائمة على الاعتماد على تجسيم^(١) الأشكال. وعلى حين كان الإنسان يشمخ ندًا لآلهة في التصوير الأوروپي حاجبًا كُل ما عداه، وعلى حين اختفى التصوير الصيني بمناظر الطبيعة أي احتفاءً مهملًا شأن الإنسان، جاء المفهوم الفارسي بين هذا وذاك، فالإنسان وما يأتيه من أفعال لهما مكانهما على الدوام في صدر الصورة. والفنان الفارسي على خلاف غيره من الفنانين لا يرسم الجسد الإنساني إلا كاسيًا غير عارٍ، وإن لم يتجَلَّ هذا المفهوم في كافة أنماط التصوير الفارسي.

وثمة تقليد شاع في جميع الفنون الآسيوية احتذاء التصوير الفارسي، وهو افتراض أن يتخيل المتفرج نفسه وكأنه يتطلع إلى المشهد المتعدد الزوايا والأبعاد والأحجام والمستويات من موقع مرتفع أو ما اضطلع على تسميته بـ «نظرة الطائر» حتى لا يضطر الفنان إلى رسم الشخص أو الجماعات متراكبة بعضها فوق بعض، فعلى حين نجد الفنان يرسم المبنى وكأنه يراه من عل، تظهر بقية الصورة للعين في مستوى النظر أو من زاويتين مختلفتين في آنٍ معًا (لوحة ٢٧م). ولا يبدو أن هذا الاختلاف بين الزويتين كان يُورق الفنان أو المشاهد، فكلهما لم يبال بأن تكون الصورة مطابقة كُل المطابقة للأشياء كما تَرى. على أن المصور الفارسي رُغم ضيق مجال «الإيهام» أمامه لا يقصاره على استخدام البعدين الرأسي والأفقي فحسب، ولا يفقاره إلى إمكانيات التأثير بواسطة الظلال والمنظور والتجسيم قد وُفق إلى التعبير عما يريده بواسطة وسائل بديلة، فقد كان يوحى بالتراجع في الفراغ عن طريق وضع الأشياء البعيدة أعلى الصورة والقرينة أذناها، مع رسم الأشياء البعيدة أحيانًا أشد ضالة في حجمها من الأشياء القريبة. ووراء هذا النوع من الفن يكمن الخيال الشرقي العريق الذي يضع في اعتباره دائمًا ما يستهوي المشاهد، فيحاول المصور إرضاءً مُحققًا العجائب والمعجزات الخارقة في نظر العقلية المدققة في اختراهما لقوانين الطبيعة، فيظهر المصور الفارسي المشاهد الليلية في حين لا يسود الصورة ظلام دامس، ويدفع التجوم إلى التألق في مشهد حافل بضوء النهار، ما يحا نفسه حريات واسعة من دون اكتراث.

(١) الفن الإصطلاحي (Conventional) هو فن متواضع عليه من زمن، وهو غير الفن التقليدي، لأن التقليد هو اتباع الإنسان غيره من غير نظر وتأمل في الدلائل (التغريفات للجرجاني)، وهو ليس المقصود هنا. [إصطلاحات عربية لفن التصوير. بشر فارس ١٩٤٨].

(٢) الصورة الشخصية أو البورتريه (Portrait): هي تصوير الفنان لشخص ما [م.م.ث.].

(٣) التجسيم (Modelling) هو الإحياء بكثافة الأجسام وشغلها لجزء من الفراغ الثلاثي الأبعاد فوق مسطح ذي بعدين. [م.م.ث.].

الإبل. ولا شك أن إجادة مصوري مدرسة بغداد لتصوير الحيوان قد آلت إليهم عن أسلافهم فثاني بابل وأشور ثم عن الفنانين الفرس (لوحة ٢٥م). ولقد جَنَحَت المدرسة البغدادية في الرسوم النباتية إلى التنسيق الزخرفي، فجين تناولت مشاهد الطبيعة والنبات أحالتها تقريبًا إلى رموز وزخرفة، وأدى ذلك إلى الخروج عن الحقيقة المرئية للنبات، غير أنه على الرغم من هذا فثمة رسوم نباتية جاءت مُحَاكِة للطبيعة.

أما عما أثر عن هذه المدرسة في تصوير العمائر فتراها قد التزمت أسلوب التشكيل الخطي والاصطلاحي^(١) المتداول (لوحة ٢٩م). وكان مصورو هذه المدرسة أقبل ما يكونون على استخدام الألوان الزاهية الخاطفة (لوحة ٢٦م)، ولعلمهم كانوا يقصدون من وراء ذلك إلى جذب الأنظار ثم التوقيض عما في تصاويرهم من تسطيع وقصور عن التعبير بقواعد المنظور.

كما نجد تلك المدرسة تلتزم في رسم الثياب أن تكون واسعة سائلة بأكمام مسترخية، وعلى تلك الأكمام أشرطة تحمل بعضًا من زخارف. وقد ضمت إلى هذا أنواعًا من الثياب منها ما هو بلا أطواء يحمل بزقشة أو صورًا لأزهار وحيوانات أو رسومًا لأهله وبروج، ومنها ما هو ذو أطواء تحاكي الأمواج المضطربة، وقد يسرفون في الأطواء فتبدو معقدة مجافية للمألوف. وثمة نوع ثالث من تلك الثياب تبدو فيه المكاسير على هيئات زخرفية، تارة كالأصداف المتراكبة وتارة كالديدان المتجمعة (لوحة ٣٠م).

وثمة موضوعات لم يطررها التصوير العربي إلا بقدر كالموضوعات الدينية، وذلك لحساسية هذا النوع من التصوير في العالم الإسلامي آنذاك. كذلك لم يتناول موضوعات الملاحم الشعرية أو الدرامية، ومرد ذلك إلى خلو الأدب العربي من الدراما وتثذاك، وإن كان قد تناول بعض قصص الحب والغرام الساذجة. وكذا لم يُغن كثيرًا بتصوير الموضوعات الأسطورية أو القصص الرمزي أو الصور الذاتية للشخص «البورتريه»^(٢). وبالرغم من هذا كله فقد استطاع المصور العربي أن يعبر بالصورة عن موضوعات وأفكار ملوكية وسياسية وعلمية وشاعرية، وأن يوفق إلى تمثيل العناصر الأجنبية، وأن يخلق بقدراته صورًا مكتومة بل وعصية على الشئان أحيانًا، وأن يُمضي في طريقه بعزم وتصميم دون أن يلقي بالاً للمتمزتين من رجال الدين، فكان بهذا مضرب المثل في الشجاعة.

التصوير الفارسي

نشأت في فارس مدرسة من أعظم مدارس الفن الآسيوي تقف أثر مدارس التصوير الأخرى في آسيا من حيث إهمالها للظلال،

والفاتحين العرب. وقد بقيت لنا منه بعض النقوش الصخرية والقليل التادر من نماذج التصوير الساسانية التي لم يبق منها شيء سوى بعض الرسوم الجدارية في كوه خواجه (جبل السيد) بإيران وفي باميان بأفغانستان. وتدل إحدى قصائد البُخترى المتوفى سنة ٨٩٧ - كما تقدم - على أن بعض اللوحات المصورة الأصلية كانت لا تزال موجودة خلال حياته في القصر الملكي الساساني بمدينة طيسفون «المداين».

والثابت أن ما ظهر في الفن العربي من منجزات مصورة باسماء خلال القرن التاسع كان صورة من التحف الساسانية الفضية المحفورة التي أفلتت من عوادي الزمن، وهي لم تظهر على ترتيب زخارف الشخص على نحو ما كان في الفن الساساني فحسب، بل تظهر فيها أيضا أنماط وجوه الرجال والنساء نفسها، كما تظهر الثياب نفسها بأسلوبهم في تصوير الأطواء والمكاسير، وكذا صور الراقصات والقيان والمغنيات والعازفات من النساء ومثلياتهن كما هي في التقاليد الساسانية القديمة. وكان استقى الشعراء المسلمون من الفرس موضوعات قصصهم عن التاريخ الأسطوري للملوك القدامى قبل الفتح العربي، مثلما فعل الشاعر الفزدوسي في الشاهنامه ومثلما فعل الشاعر نظامي في قصائده الخمس، كذلك خضع مصورو الممنمات الفارسية الإسلامية في مخطوطاتهم لتأثير أسلافهم، فعادت إلى الظهور بعد سبعة قرون أو ثمانية مشاهد الصيد والطراد وتأثير الملوك والأبطال ومعارك القتال وقصص الغرام المأثور، كما تابع هؤلاء المصورون الأسلوب التقليدي للفتانين القدامى في العهود الساسانية في تمثيل موضوعات بذاتها.

التصوير المغولي بالهند

حكمت الهند سلالة من الأباطرة المسلمين سنة ١٥٢٦ إلى ١٨٥٨م، أسسها بابر [ومعناه الأسد بالتركية] بعد أن تم له غزو الهند من ناحية أفغانستان مثنياً للإمبراطورية الهندية المغولية على أطلال سلطنة دهلي. وبابر هو سليل الغازي التتري تيمورلنك من جهة أبيه والغازي المغولي جنكيز خان من جهة أمه.

وعندما غزا بابر الهند في عام ١٥٢٥ مؤسساً إمبراطورية المغول بالهند بعد أن تم له فتح الأتحاء الشمالية منها، حمل معه حضارة الإسلام. وكان خلفه هُمَايون (١٥٣٠ - ١٥٤٢) قد قضى بعض الوقت في المنفى بإيران بعد أن فقد عرشه بالهند، وأعجب بتقاليد التصوير في بلاط الشاه طهماسب. وعند عودته أحضر معه عدداً من المصورين الفرس على رأسهم الأستاذان ميرسيد علي وخواجه عبد الصمد اللذان عهد إليهما بالإشراف

وأكثر منجزات التصوير الفارسي مصورات إيضاحية زخرفية، وإذا كان الفرس مفطورين على حب الزخرفة، فلم يكن غريباً على الفنان الفارسي أن يبدع في خلق التكوين الزخرفي الذي يعتمد على اتساق أجزائه وعلى التحكم فيها بحيث تبلغ الانسجام التام. وما أصدق الفنان ماتيس الذي تأثر أيما تأثر بتصوير الممنمات الفارسية حين قال: «إن التكوين الفني هو قدرة المصور على التنسيق بين العناصر المختلفة التي بين يديه زخرفياً، ليُعبّر بهذا عن انفعالاته». وانطوت الممنمات الفارسية على نظم لوني فريد يضم مجموعات لونية يؤلف منها المصورون تكوينات مذهلة من درجات الألوان التي لا تتعدى درجتين أو ثلاثة تقدم في النهاية عناقيد لونية ينتقل فيها البصر من لون إلى آخر مما يُثير الإعجاب بها منفصلة أو متعاقبة مع الألوان الأخرى مسهمة كلها في التكوين العام للوحة (لوحة ١٨م). ولم يقتصر الفنان الفارسي في اختياره للألوان وتوزيعها على الهدف الزخرفي وحده، بل جاوزه إلى أهداف أخرى مثل التعبير عن المزاج النفسي، إذ كان يوحي بجو المعارك العنيف بالتوزيع المتناثر للألوان، كما كان يوحي باحتدام عواطف العشاق وحلقة الليل باللونين الأحمر والأزرق الكئيفين، على حين كان يحرك الإحساس بالرغب في عالمه غير الواقعي باحتواء اللوحة على اللونين الأحمر والبُرْتُقَالِي مع اللونين الأصفر والبنفسجي.

وكان الفنان إذا ما فرغ من رسم الممنمة وتلوينها وتذهيبها أو تفضيضها ألقي عليها نظرة نافذة تستهدف الإحادة سواء بالإضافة أو التصحيح. ولا يقف من الممنمة عند هذا الحد، بل لا يلبث أن يشرع في تخطيط هوامشها وتجميلها يرسم إطار من الزخارف الثورية أو الحيوانية، ثم يعقب ذلك بصفقها بمصقلة من العقيق أو يبيض البُلُور أو بأداة شبيهة ذات سطح أملس، إلى أن تأخذ الممنمة في التوهج فينقلها إلى مكانها الخاص في أحد الألبومات [مضم الصور] أو يتركها في مكانها في مخطوطتها.

وقد مر التصوير الفارسي بصفة عامة بمراحل ثلاث: أولاها التصوير في عصر الإيلخانات المغول (لوحة ٣١) (١٢٩٥ - ١٣٩٢)، وثانياتها التصوير في عصر التيموريين بعهدية الأول (١٤٠٠ - ١٤٥٠) والثاني (١٤٥٧ - ١٥٠٧) (لوحة ٣٢)، ولا يقتصر التصوير في هذا العصر على هراة فحسب بل يشمل أيضاً مدارس شيراز وتبريز، وبخارى وقزوين وغيرها من عواصم الأقاليم. وثالثة هذه المراحل هي التصوير في العصر الصفوي مع مطلع القرن السادس عشر (لوحة ١٨م).

وقد ظل ثراث الفنون التصويرية الساسانية يعيه أهل فارس الأوفياء لثرائهم ويلقى التشجيع حتى من أولئك الذين دائوا بعقيدة

إلى حد ما - من التصوير الهندي الشيعي، والتصوير الأوربي، وبخاصة بعد زيارات من بعض الفنانين اليسوعيين البرتغاليين (بين عامي ١٥٨٠ و ١٦٠٥) فأحسن الإمبراطور أكبر وفادتهم، وبدأ لأول مرة ظهور بعض عناصر التصوير الأوربي مثل «المنظور» وتقنة «الإشراق والعممة»^(١). ومن هنا كان هذا التحول الذي امتزجت فيه الخطوط والألوان الفارسية بالواقعية الأوربية والأساليب الهندية المحلية، فعدا التصوير المغولي في صدر القرن السابع عشر فرعاً مستقلاً قائماً بذاته من فروع التصوير الإسلامي.

وخلف الإمبراطور أكبر ابنه جهانجير (١٦٠٥ - ١٦٢٧) وكان هو الآخر راعياً للفنون، غير أنه لم يكن خلافاً كآبيه ولم يُعَن بتصوير المخطوطات عنايته بتصوير البورتريهات الشخصية والأحداث التي وقعت إبان حكمه (لوحة ٢٩م)، وكذا الدراسات الواقعية للنبات والحَيوان (لوحة ٣٠م). وقد اتسم عهده بتغيير ملحوظ في الدرجات اللونية للمُنمنمات المصورة المغولية فضلاً عن التوسع في استخدام تقنة الإشراق والإظلام. وقد أسهمت «نورجهان» زوجة جهانجير بنصيب في تشجيع الفنانين لتطوير التصوير بإشاعتها إحساساً جديداً بالرقّة تجلّى في الثياب البيضاء الرهيفة الشفافة للرجال والنساء على السواء، كما تجلّى في تصوير الرخام الأبيض المكفّت في صور العمائر، وفي قبض الألوان الشفيفة حتى باتت حِفْبة حكم جهانجير تُعدّ العصر الذهبي للتصوير المغولي.

وفي مطلع القرن السابع عشر وفي عهد الإمبراطور شاه جهان (١٦٢٨ - ١٦٥٨) بلغ البورتريه المغولي أوج قمته، وكذلك

على تصوير مخطوطة «حمزة نامه» (١٥٦٠ - ١٥٧٤)، وهي الملحمة التي تُشيد بمآثر حمزة عم الرسول والتي يعدها البعض الرمز الفني المعبّر عن الفتح الإسلامي للهند. وقد عكف على إعدادها، فيما يُقال، مئة مصوّر بين هنود وفُرس، فكانت عملاً فذاً في تاريخ الفن المصور يضم ١٤٠٠ صورة مسجلة على نسج قطني من الحجم الكبير غير المؤلف (٢٧,٥ بوصة × ٢٣,٥ بوصة)، ولا يزال عدد منها محفوظاً بين المجموعات العامة والخاصة في أوربا وأمريكا (لوحة ٢٨م). وقد انتهى العمل في هذه المخطوطة في عهد الإمبراطور «أكبر» (١٥٥٦ - ١٦٠٥)، وكان عاشقاً للفنون وراعياً لها. وقد حاول دمج الشعب الهندي مع أشياعه المغول المسلمين وذلك بتحالفه مع الراجپوت في وحدة سياسية واجتماعية، وهو ما أسفر عن تألق التصوير المغولي بقسماته المتميزة حيث تدرّب في المدرسة التي أنشأها بعاصمة ملكه قرابة مئة من المصورين الهنود والمسلمين على أيدي الأساتذة الفُرس. وكان إنتاج هذا فناناً هندياً جديداً، تكوينه الفني العام فارسي وأشكاله وعمارته فارسية في بعض أجزائها وراجپوتية في أجزائها الأخرى، بينما كان يتجلى تأثير الفن الأوربي بين الفينة والفينة في اتباع قواعد المنظور ورسم المناظر الطبيعية في الخلفيات. وقد عمل «أكبر» في سبيل تحقيقه لهذه الأساسيات - وهو خلق قومية عامة - على إدخال موضوعات من التقاليد والأساطير الهندوكية، فثمة العديد من اللوحات المصورة المعبرة عن نصوص سنسكريتية إلى جانب صور «حمزة نامه» و«بابر نامه» التي تُسجل حياة مؤسس الدولة المغولية في الهند. فلقد كان «أكبر» ذا حسن «أثقيائي» يدفعه إلى الترحيب بكل ما ينال إعجابه بعض النظر عن مصدره، فوقياسه الأساسي والأوحد هو توافق عناصر العمل الفني مع نظراته الجمالية. وكانت المنجزات الفنية المغولية هي حصيلة جهد جماعي لفريق متعاون من الفنانين، وكان ثمة مجال واسع للتخصّص ضمن كل فريق، فالبعض يقوم بتصميم التكوين الفني العام، والبعض يرسم الشخوص والتفاصيل، والبعض الآخر يستخدم الألوان المناسبة. ولم يكن المصور بصفة عامة يوقع على صورته، غير أن كاتب البلاط كان يدون أسماء المشاركين في أدنى اللوحة في أغلب الأحوال. وهكذا كان هؤلاء الملوك المسلمون رعاة لمدرسة فنية جديدة في التصوير اشترك فيها الفنانون الهنود مع الفنانين الوافدين من فارس وأواسط آسيا في تسجيل مآثر ملوكهم ومغامراتهم العسكرية وحفلاتهم وهوياتهم، وإن غلبت الصفة الملحمية على مصوراتهم وبخاصة في المراحل المبكرة. وبهذا يكون التصوير المغولي الهندي قد أخذ في بدايته عن إيران، ولو أنه انتهى قبل أفرول القرن السادس عشر إلى تبني طراز مستقى -

(١) الإشراق والعممة، الظل والثور، الفاتح والداكن، كياروسكورو (Chiaroscuro) هو تدرج أطراف الضوء والظل في التصوير الزيتي، من حيث إبراز الأشياء المصورة والإبانة عن مواضعها وصلتها بعضها ببعض في المساحة المتاحة، فيظهر التدرج في درجات الثور والظل المتفاوتة زيادة أو نقصاً، سواداً أو بياضاً، وأكثر مما يبدو في التصوير الجداري (fresco)، وقد يستغل الفنان للإيحاء بمسحة وجدانية من حيث الدرجة الضوئية. والمعروف أن التدرجات الضوئية تُعين على تجسيم «الأشكال»، ومن هنا كانت إضافة لا غنى عنها لتجسيم «الشكل» الذي كان يكتفى في تصويره بالخط المحوّل الخارجي. وحين تؤدي تلك التدرجات الضوئية دورها، تتضح درجات الضعف والقوة التي يبنى عليها الإحساس الجديد بالكثافة. فعلى حين يخضع «الشكل» لإطار العقلانية الواعية تتخطى الكثافة هذه المرحلة لثوحي بما هو غير عقلاني كالانفعال الوجداني، فدرجات الكثافة لا تقاس إلا حياءً. [م.م.م.ث.]

الْفَنِّ الْمَغُولِيِّ قَضَاءٌ لَا رَجْعَةَ لَهُ بِالرُّغْمِ مِنْ كُلِّ مُحَاوَلَاتِ التَّجْدِيدِ.

وسُرْعَانِ مَا تَعَرَّفَ الْعَرَبُ عَلَى هَذَا الْفَنِّ الْإِسْلَامِيِّ الْمَغُولِيِّ الْهِنْدِيِّ وَوَضَعَهُ فِي مَنْزِلَتِهِ اللَّائِقَةِ بِهِ، وَكَانَ أَوَّلَ الْمُعْجَبِينَ بِهِ رَمْبِرَانْت أَخَذَ عِبَاقِرَةَ الْمُصَوِّرِينَ الْهَوْلَنْدِيِّينَ فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ. وَيُقَالُ إِنَّهُ كَانَتْ فِي حَوَازَتِهِ مَجْمُوعَةٌ أَصْلِيَّةٌ مِنْ تِلْكَ الْمُنْمَنَاتِ الْمَغُولِيَّةِ اسْتَنْسَخَهَا وَزَادَ فَضَمَّنَ بَعْضَ عَنَاصِرِهَا لَوَحَاتِهِ. وَمُسْتَنْسَخَاتِ رَمْبِرَانْتِ هِيَ عُجَالَاتٌ تَخْطِيطِيَّةٌ تَنْطَوِي عَلَى تَقْنَةِ «الْإِشْرَاقِ وَالْإِظْلَامِ» الَّتِي خَلَّتْ مِنْهَا الْأَصُولُ الْمُسْتَنْسَخَةُ، غَيْرَ أَنَّ رُوحَ الْفَنِّ الْمَغُولِيِّ قَدْ أَشْرَبَتْهَا رُوحُ رَمْبِرَانْتِ، وَبِذَا أَصْبَحَ مِنَ الْيَسِيرِ التَّعَرُّفُ عَلَى الشَّخْصِيَّاتِ الْمَوْجُودَةِ فِي الْأَصُولِ الْمَغُولِيَّةِ فِي عُجَالَاتِ رَمْبِرَانْتِ. وَثَمَّةُ عِدَدٌ مِنَ الْفَنَّانِينَ الْإِنْجِلِيزِ إِلَى جَانِبِ رَمْبِرَانْتِ وَلَعُوا هُمْ الْآخَرُونَ بِهَذَا الْفَنِّ، وَعَلَى رَأْسِهِمُ الْمُصَوِّرُ وَالنَّاقِدُ الْفَنِّيُّ الْفَدَّ سِيرِ چوشوا رينولدز.

التَّصْوِيرُ التُّرْكِيُّ

يَتَعَدَّرُ اسْتِغْرَاضُ تَارِيخِ التَّصْوِيرِ التُّرْكِيِّ عَلَى نَحْوِ مُتَّصِلٍ مُتَلَحِّقٍ قَبْلَ عَهْدِ سُلَيْمَانَ الْعَظِيمِ لِقَلَّةِ مَا حَفَظَهُ الزَّمَنُ مِنْ شَوَاهِدٍ تَنْتَمِي إِلَى الْعُهُودِ السَّابِقَةِ. وَمَعَ أَنَّ التَّصَاوِيرَ التُّرْكِيَّةَ فِي الْقَرْنِ ١٦ هِيَ الْإِنْبَنَةُ الشَّرْعِيَّةُ لِلتَّصَاوِيرِ الْفَارِسِيَّةِ إِلَّا أَنَّهَا سُرْعَانِ مَا أَفَادَتْ بِمَا حَوْلَهَا فَجَدَّدَتْ وَطَوَّرَتْ. فَعَلَى حِينٍ نَرَى فِي اللَّوْحَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ كَافَّةَ عَنَاصِرِ الْفَنِّ الْفَارِسِيِّ فِي مَجَالِ تَصْوِيرِ الطَّبِيعَةِ، إِلَّا أَنَّ بَيْنَهُمَا تَبَاطُؤًا جَوْهَرِيًّا، فَمَوْضُوعَاتُ التَّصْوِيرِ التُّرْكِيِّ، وَإِنْ كَانَتْ مُسْتَوْحَاةً مِنَ التَّصْوِيرِ الْفَارِسِيِّ، إِلَّا أَنَّ أُسْلُوبَهَا مُخْتَلِفٌ، كَمَا لَحَقَتْ بِعَنَاصِرِهَا تَحْوِيرَاتٌ عِدَّةٌ لَا سِيَّامَا مَا يَمَسُّ الْحَدِّقَ وَالتَّمَكُّنَ مِنَ الرَّسْمِ الَّذِي عَدَا أَكْثَرَ وَضُوحًا وَأَقْوَى تَعْبِيرًا. أَمَّا الْأَلْوَانُ وَإِنْ بَقِيَتْ عَلَى حَالِهَا وَضَاءَةً إِلَّا أَنَّهَا مُثْقَلَةٌ بِتَضَادِّهَا الصَّارِخِ وَفَجَاجَتِهَا أَحْيَانًا، وَجَاءَتْ أَرْيَاءُ الشُّخُوصِ تُؤَكِّدُ الطَّائِعَ الْقَوْمِيَّ التُّرْكِيَّ لِلْوَهْلَةِ الْأُولَى بِحَيْثُ أَصْبَحَ مِنَ الْيَسِيرِ عَلَى الْمَشَاهِدِ أَنْ يَتَعَرَّفَ عَلَى نَكَهَتِهَا الْعُثْمَانِيَّةِ، وَبِخَاصَّةٍ فِي مَجَالِ تَصْوِيرِ الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ يَلْفَتُونَ الْإِنْتِبَاهَ بِمَظْهَرِهِمُ الْقَوِيَّ وَبُنْيَانِهِمُ الْمُتَيْنِ، عَلَى الْعَكْسِ مِنْ شُخُوصِ اللَّوْحَاتِ الْفَارِسِيَّةِ الَّذِينَ يَبْدُونَ ضِعْفًا تَتَخَلَّعُ أَجْسَادُهُمْ مِنْ قَرُوطٍ مُروْنَتِهَا. وَلَمْ يَنْقَلِ الْمُصَوِّرُ التُّرْكِيُّ أَلْوَانَهُ عَنِ الْفَنِّانِ الْفَارِسِيِّ بَلْ ابْتَكَرَ أَلْوَانَهُ الْخَاصَّةَ جَانِحًا إِلَى الْأَلْوَانِ الْبَسِيطَةِ الرَّاهِيَّةِ غَيْرِ الْمُرَكَّبَةِ الَّتِي تَنْجَلِي خُصُوصِيَّاتِهَا وَتَفَرِّدُهَا حَتَّى مَعَ اخْتِلَاطِهَا بِلَوْنٍ آخَرَ، عَلَى حِينٍ كَانَ الْفَنَّانُ الْفَارِسِيُّ يَمِيلُ إِلَى الْأَلْوَانِ الْمُرَكَّبَةِ. وَإِذَا كَانَتْ الْمُنْمَنَاتُ الَّتِي تَزْدَانُ بِهَا دَوَابِنُ الشُّعْرِ التُّرْكِيَّةِ وَالْفَارِسِيَّةِ قَدْ ظَلَّتْ خَاضِعَةً لِلتَّقَالِيدِ

تَصْوِيرِ مَوْضُوعَاتِ الثَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ وَخُصُوصًا فِي مَخْطُوطَاتِ كَلِيلَةِ وَدِئْمَةِ. وَكَانَ لِهَذَا وَذَلِكَ أَثَرُهُ عَلَى فَنِّ التَّصْوِيرِ الْهِنْدُوكِيِّ الَّذِي تَجَلَّى هُوَ الْآخِرُ فِي الْمُنْمَنَاتِ الَّتِي تُرْفَنُ مَخْطُوطَاتُ مَلَحَمَتِي الرَّامَايَاةِ وَالْمَهَابَهَارَاتِ.

وَلَمْ يَكُنْ ثَمَّةُ تَغْيِيرٍ أَسَاسِيٍّ إِبَانِ حُكْمِ «شَاهِ جِهَان». وَلَكِنْ ثَمَّةُ كَثْرَةٍ مِنْ تِلْكَ التَّصَاوِيرِ وَإِنْ كَانَ لَهَا حَظُّهَا مِنَ التَّأَلُّقِ إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ تُوحِي بِأَنَّ فَنِّ التَّصْوِيرِ كَانَ إِلَى اضْمِحْلَالٍ، فَقَدْ أَخَذَ التَّأَكِيدَ عَلَى الْأُبْهَةِ يَطْعَى، كَمَا زَادَتْ التَّرْعَةُ التَّكَلُّفِيَّةُ فِي رَسْمِ التَّفَاصِيلِ لِدَرَجَةٍ تَدْعُو أَحْيَانًا إِلَى الْمَلَلِ. وَلَعَلَّ هَذِهِ الْفَتْرَةَ تُمَثِّلُ أَكْثَرَ مَرَاكِجِ التَّصْوِيرِ صَفْلًا وَرِقَّةً وَإِنْ افْتَقَدَتْ إِلَى حَدٍّ مَا حَيَوِيَّةَ الْمَرَحَلَةِ الْأُولَى وَأَصَالَتِهَا.

وَكَانَ أَكْبَرَ أَبْنَاءِ «شَاهِ جِهَان» أَيْضًا مِنْ عَشَاقِ الْفَنِّ وَرِعَانِهِ غَيْرَ أَنَّ أَخَاهُ أَوْرَانْجِزِبَ (١٦٥٨ - ١٧٠٧) أَزَاحَهُ عَنِ الْعَرْشِ وَسَرَّحَ الْمُصَوِّرِينَ مِنَ الْمَرَامِسِ الْمَلَكِيَّةِ، وَأَبْطَلَ رِعَايَةَ الْبَلَاطِ لِلْفُنُونِ، الْأَمْرَ الَّذِي أَسْفَرَ عَنْ تَدَهُّورِ التَّصْوِيرِ الْمَغُولِيِّ بِشَكْلٍ لَا تُحِيطُهُ الْعَيْنُ. وَعَلَى الرُّغْمِ مِنْ أَنَّ الْقُوَّةَ الدَّافِعَةَ لِلرَّعَايَةِ الَّتِي أَوْلَاهَا «شَاهِ جِهَان» لِلْفُنُونِ ظَلَّتْ مُسْتَمِرَّةً فِي السَّنِينَ الْأُولَى لِحُكْمِ «أَوْرَانْجِزِبَ» إِلَّا أَنَّ الْبَلَاطَ مَا لَبَثَ أَنْ فَقَدَ الْإِهْتِمَامَ بِالْفُنُونِ. وَبِأَنْجِسَارِ رِعَايَةِ الْإِمْبَرَاطُورِ لِلْفُنُونِ، بَدَأَ الْمُصَوِّرُونَ الْمُسَرَّحُونَ يَتَمِيدُونَ عَلَى حَاجَةِ رَاجَاوَاتِ الْهِنْدِ إِلَيْهِمْ فِي الْإِمَارَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ هُنَا وَهُنَا. عَلَى أَنَّهُ قَدْ نَشَأَ خِلَالَ حُكْمِ «أَوْرَانْجِزِبَ» أُسْلُوبٌ طَعَتْ عَلَيْهِ مَشَاهِدُ الْمَعَارِكِ الْحَرْبِيَّةِ وَالصُّوَرِ الشَّخْصِيَّةِ الرَّسْمِيَّةِ.

وَبَعْدَ «أَوْرَانْجِزِبَ» عَدَا التَّصْوِيرُ الْمَغُولِيُّ، شَيْئًا فَشَيْئًا، يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضًا وَتُعَوِّزُهُ الْأَصَالَةُ وَغَارِقًا فِي الْأَسَالِيبِ الْإِصْطِلَاحِيَّةِ الْمُتَدَاوِلَةِ، كَمَا شَاعَتْ الزُّخَارِفُ الْمُفْرَطَةُ الثَّرَاءُ مَعَ الْغُلُوفِ فِي التَّذْهِيبِ وَتَصْوِيرِ الثِّيَابِ الْخَدِيثَةِ الطَّرَازِ الْمُطَرَّزَةِ بِالْقَصَبِ وَالْمُرْصَعَةِ بِالْجَوَاهِرِ. وَمَا إِنْ عَدَّتِ الْحَيَاةَ الْأَرِسْتَقْرَاطِيَّةَ تَزُخَّرَ بِالْإِسْرَافِ فِي الثَّرَفِ وَالْمَلَذَّاتِ وَالشَّهَوَاتِ حَتَّى كَانَ لِهَذَا أَثَرُهُ فِي التَّصْوِيرِ، فَإِذَا بِنَا نَرَى أَنَّ الصُّورَ الْمَلِيَّةَةَ بِمَوْضُوعَاتِ الْحَرِيمِ وَحَفَلَاتِ الرَّفْصِ وَالْمُوسِيقَى وَمَجَالِسِ الشَّرَابِ وَحَيَاةِ الْعُشَاقِ هِيَ الطَّائِعُ الْغَالِبُ عَلَى التَّصْوِيرِ. كَذَلِكَ تَطَوَّرَتْ مَوْضُوعَاتُ التَّصْوِيرِ شَيْئًا فَشَيْئًا فَخَذَّتْ تَسْتَوْحِي الرُّومَانِيَّةَ وَالْعَاطِفِيَّةَ الَّتِي تَمْتَرِ بِهَا الْحَيَاةُ الرِّيفِيَّةُ. وَكَانَ ثَمَّةُ بَعْثٍ قَصِيرِ الْمَدَى بَيْنَ عَامِي ١٧١٣ وَ١٧٤٨ يُذَكِّرُ بِأَمْجَادِ الْمَاضِي التَّلِيدِ وَإِنْ ظَلَّ الْإِنْتِاجُ الْفَنِّيُّ فِي عُمُومِهِ وَاهِنًا عَقِيمًا، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مِنْ حَيْثُ التَّقْنَةُ سَلِيمٌ. وَفِي نِهَايَةِ الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ فَقَدَتْ تَقَالِيدَ الْمَدْرَسَةِ الْمَغُولِيَّةِ حَيَوِيَّتَهَا بَعْدَ أَنْ أَخَذَ التَّدَهُّورُ بِتَلَابِيحِهَا طَوَالَ الْقَرْنَيْنِ الثَّامِنِ وَعَشَرَ وَالتَّاسِعِ عَشَرَ، فَضْلًا عَمَّا أَلْحَقَتْهُ عَنَاصِرُ التَّصْوِيرِ الْأُورُوبِيَّةِ الدَّخِيلَةِ مِنْ قَضَاءٍ عَلَى

حتى تغدو مثل خِطِّ العنكبوت. كذلك تَمزج رسوم الباروك العُثمانيّة التصوير بالرُخْفَة مُطلقَةً العنان لسيطرة المُتخيل المُجَرَّد على الواقع المرئي، وقد يبلغ فقْدان التوازن بين المنصُرين أحياناً حدّاً تتغلّب فيه الرُوح الرُخْفِيّة على الرُوح التّصويريّة فيُصبح التّكوين مُجرّد رُخْف نرى فيه حيواناً أو وردة لا يمتّان إلى الحيوان أو الثّبات بصِلَة. وما لبثت أشكال هذه الحيوانات والثّباتات وليدة الأُحلام أن انتقلت من لوحات المصوّر إلى بلاطات القاشاني. وعلى هذا التّحو كان تأثّر الفنّ التّركي بالفنّ الأوربيّ في النّصف الثاني من القرن السابع عشر إلى جوار تأثير مدرّسة إصفهان الفارسيّة. وتسَلّلت التّأثيرات الأوربيّة في أوّل أمرها على استِخْفاء لا تكاد تتعدّى أسلوب تجسيم الجسد وإبراز طيّات الثّياب وتُخَن الأقيشة أو في المُحاولات المُتردّدة للإيحاء بالعمق عند تصوير الطّبيعة أو العِمارة. ولا يلبث المصوِّرون الأتراك أن يُضاعفوا من مُحاولاتهم تَقْلِيد مصوِّري الغرب قُرب نهاية القرن حتى رأينا خَلَقِيّات اللّوحات التّركيّة تتجاوز الشّكل المُسطّح الثّنائيّ الأبعاد تَمَاماً وباتت ذات أعماق، وعَدّت الطّبيعة مُحاكاة للمنظر الطّبيعيّ الأوربيّ، ولم يَبْقَ من الأسلوب التّركي في اللّوحات المصوّرة سوى شُخصها الذين بَدّوا وكأنّهم دُمى مُلوّنة تُركت مَغرولة في فراغ ذي عمق، أعني ثلاثيّ الأبعاد. وأشهر المخطوطات المصوّرة في عصر الرُّنْبِق هي «سورنامة وهبي» (١٧١١) المحفوظة بمُتحف طوب قاپو بإسطنبول.

وقد بلغ فنّ تصوير الشّخوص ذُرّوته في تَرْكِبا حين استطاع الفنّان تَسْخِير فرشاته بنجاح في تَسْجِيل التّعبير المُرتسم على وجوه شُخصه، وهو ما يتجلّى في صُور السّلاطين البليغة التّعبير التي أنجزها المصوّر حيدر الرّيس المعروف باسم نيجاري. وحتى نهايات القرن السادس عشر كانت البورتريهات تُمثّل صُوراً شَخْصيّة مُتخيلة لأُمراء العُثمانيين بما في ذلك مُؤسّس أُسرتهم عُثمان الأوّل. وأوّل صورة شَخْصيّة صُورها فنّان عن الطّبيعة لُثْمَل شَخْصيّة بذاتها هي صورة مُحمّد الفاتح بريشة الفنّان سنان بك (لوحه ٣٣) الذي درس على كبار الفنّانين في مدينة البندقيّة، وهو ما يتجلّى في إضفاء الإحساس بالتّجسيم بفعل الظلال التي يُسقطها على ملامح وجوهه وعلى طيّات الثّياب ومكاسيرها. وقد تميّز البورتريه التّركي بطابع خاصّ هو تَخْطِي جُزئيّات الأشياء المرئيّة وعدم وقوفه عند المَحسوسات المرئيّة، فلقد حرص دوماً على ألاّ يَنحصر في شَتَى جُزئيّات المرئيّ فيتجاوزها إلى ما وراء الشّخص مَوْضوع الصّورة سواء في ثيابه أو فيما يُؤثّر عنه في أسلوب حياته، كتصويره تارة وهو يَهْم بِشَم وردة وتارة أخرى وهو يشدّ قَوْسه ليطلق سَهْمه.

الإيرانيّة إلّا أنّ الأمر اختلف مع تصوّير السّجّلات التاريخيّة الذي سيطر على الفنّ العُثمانيّ في القرن السادس عشر كلّهُ حتى لم يَبْقَ في تَكويناتها الفنّيّة من الأثر الفارسيّ إلّا أقلّه وبخاصّة في تصوّير المناظر الطّبيعيّة (لوحه ٣١م)، على حين تبدّو الشّخوص مُتأثّرة تارة بالتيار الأوربيّ وتارة أخرى تبدّو خَشينة مُتميّزة بالمناكب العريضة والبُنية القويّة، وتَفُوح منها وَخْشيّة الرّوح العسكريّة التّركيّة المأثورة في مشاهد الحَرْب (لوحه ٣٢م). ويَتِمّا يُصوّر الفنّان العُثمانيّ مُواطنيه الأتراك في هذه الوُضعة الجامدة السّاكنة، كان يَسْتَوْحي أشكال أعدائه من الأُجانب وِوضعاتهم من التّصاوير الأوربيّة. على أنّ مظهر الشّخوص التي تبدّو وكأنّها تماثيل جامدة في اللّوحات التاريخيّة ما يلبث أن يَتغيّر في لوحات الأفراح الشّعبيّة وبخاصّة في حفلات خِتَان أبناء السّلطان، حيثُ نرى مُمثلي مُختلف الجِرف وهم يُستعرضون أمام السّلطان، فقد صوّرهم الفنّان التّركي بأسلوب ينم عن قُوّة المُلاحظة وروح المَرَح والدّعابة فيبدون أقلّ جُموداً من الأشراف والجند وكأنّهم دُمى صغيرة تُؤدّي الأدوار التي وُزعت عليها بحماس (لوحه ٣٣م).

وتعدّ المَرحلة الأولى من التّصوير التّركي التي استغرقت القرن السادس عشر كلّهُ أعنى مراحله خُصوبة وعِزارة. حيثُ نرى العناصر الفارسيّة والأوربيّة وقد اتحدت مع التّقاليد التّركيّة القويّة في تَكوينات فنّيّة حَوَلتها الرّوح الخَلّاقة للفنّانين الأتراك إلى مُنجزات تّركيّة بحتة. وهكذا يعود الفضل في خَلْق الطّابع الخاصّ للتّصوير العُثمانيّ خلال هذا القرن إلى العبقرية التّصويريّة التّركيّة التي أضفت على لوحاتها الشّاعريّة جاذبيّة أسيرة، وعلى لوحات الحياة اليوميّة روح الدّعابة الرّاقية، وعلى لوحاتها التاريخيّة عظمت المَلاحِم وجلالها، وعلى لوحاتها الدّينيّة المِهابة وخَفَق المَشاير بكُلّ ما هو قُدسيّ.

وخلال المَرحلة الثّانيّة من التّصوير التّركي التي يُطلق عليها اسم «عصر الرُّنْبِق» (١٦٢٣ - ١٧٧٣)، وهو الاسم الذي أُطلق على عهد السّلطان أحمد الثالث المشهور بِبَذْخه ولَمَمه بالحياة الرّعدة المَرحَة، تابعت رسوم البورتريه تطوُّرها في إطار التّقاليد التي رَسَخَتْ خلال المَرحلة السّابقة وتَميّزت بِدِقّة مُحاكاتها للشّخصيّات التي نَقَلَتْ عَنْهَا مع البَساطة التّامة في التّفاصيل. كذلك بدأت تَأثيرات طراز الباروك الأوربيّ تَطْفُو فوق التّأثير الفارسيّ حاجبةً إياه مُزاحمةً لَهُ ثُمَّ مُحِتلةً مَكَانه، وأثبت الباروك التّركي خُصوبته فيما قَدّم من رُسوم الأشْخاص المُفعمّة بالرّقة والخيال تَبهر الناظر بِمِهارة تَقْيِيَّتْها وبأنسياب خُطوطها وتَمَرّجاتها البهلوانيّة، فهي أحياناً مُنتفخة ثقيلة وأحياناً أخرى تدق وترهف

الفصل الخامس

مصادر التصوير الإسلامي

حتى نهاية القرن العاشر الميلادي.

ولقد كان للفن الكلاسيكي البيزنطي أثره الغالب في شمالي العراق وخصوصاً الموصل خلال العصر العباسي حيث كانت للحركة العلمية نهضة تحثي فيها بالأصول اليونانية كانت من آثارها تلك الجهود الموسوعية في علوم الطب والفلك والميكانيكا والنبات إلى غير ذلك. ويتضح لنا مدى الاهتمام بالفن البيزنطي والإقبال عليه من فقرة وردت بكتاب البلدان تأليف الفقيه الهمداني تفيد أن سكان الإمبراطورية الرومانية الشرقية [وكان يعني البيزنطيين] هم أمهر المصورين في العالم.

فلقد ازدهرت الحضارة الهلينية [الإغريقية] في منطقة الشرق الأدنى بعد غزو الإسكندر لها سنة ٣٢٣ ق.م. ثم ما لبثت الفنون الإغريقية أن تأثرت شيئاً فشيئاً بالبيئة الشرقية - سواء في ذلك مصر والشام والعراق وفارس وشمال الهند - وتجرّدت من ميزتين كانت تتميز بهما وهما البساطة وصدق الأداء، وغدا هذا الفن يحمل اسماً جديداً في تلك البيئات يُعرف بالفن الهلينيستي [المُتأغرق]. ثم كان أن ساد الحكم الروماني تلك البيئة منذ القرن الثاني ق.م. وكانت فنونه مزيجاً من الفنين الإغريقي والمُتأغرق. وبعد أن اعتنق الرومان المسيحية خطا الفن المُتأغرق خطوات في ظل المسيحية وأصبح يُعرف باسم الفن المسيحي المبكر أو الفن البيزنطي. وخلال هذه الحقبة الفنية - أي منذ منتصف القرن الثالث الميلادي إلى سقوط الدولة الساسانية في القرن السابع - كان الفن الساساني في إيران والعراق قد بلغ ذروة ازدهاره. وحين فتح المسلمون فارس والعراق وسوريا ومصر وشمال أفريقيا وإسبانيا وشاركوا في حضارة الشرق الأدنى كانت لتلك البلاد أساليب فنية موروثة أضاف إليها المسلمون ما نقلوه عن فنون الصين وآسيا الوسطى، فإذا هذا وذاك يمتزجان ويُشكلان فناً جديداً فيه أثر الإزث والإبداع. وكانت الكثرة من الصور

لم تظهر آلهة العرب وقت مولد الرسول ﷺ ينصب من الفن إلا أقله، وكان من هذا اجتزاء العرب حينذاك بالرّمز إلى ما عبدوا من آلهة في الأكثر يكتل صماء لا تشكيل فيها هي الأوثان والأصنام، ولم يكن لهم في هذا التشكيل غير قليل من الجهد الفني. وعندما خرجوا خلال القرن السابع من بلادهم إلى مراكز الحضارة التي نزلوها في الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية، واحتلوا بأجناس لها ميراث من تقاليد فنية عريقة، وجدوا فيها تلك التماثيل القائمة في الميادين العامة من المذن فرجع بهم خيالهم إلى تلك الأصنام التي عبدوها في جاهليتهم وأيقظ ذلك في نفوسهم نزعة الرجوع إلى الماضي، غير أن الحكام المسلمين ما لبثوا أن طوّعوا تلك الفنون التي شهدوها في البلاد المفتوحة، فجاء منها ما يؤايم العقيدة الإسلامية، وإن كان قد نذ منها شيء لا يتفق والعقيدة.

ولم يُستخدم فن تزويق المخطوطات بالصُور في العالم الإسلامي خلال القرون الثلاثة الأولى من التاريخ الهجري إلا نادراً. وكان إسهام العرب في ميادين الفن إسهاماً متواضعاً لاسيما في مجال التصوير. وحين رَغبت الأرستقراطية العربية خلال القرن السابع في تزئين بيوتها بالصُور الجدارية استعانت برعايا الأمم المغلوبة. وحين كان يصل إلى علم الناس بأن ثمة قصراً من قصور الخلفاء أو الأمراء المسلمين يحوي صورة لملك فارسي أو أيقونة للعداء مزيم كان الرّد على ذلك بأن هذا ليس من تصوير العرب. وعندما أراد الخليفة الأموي الوليد (٧٠٥ - ٧١٥م) أن يُعيد بناء المسجد في المدينة المنورة خلال القرن الثامن اضطر إلى أن يطلب من الإمبراطور البيزنطي جوستنيان أن يرسل إليه التماثيل القادريين على أداء هذا العمل، والمواد اللازمة للوحات الفسيفساء. وحين أنشأ الخليفة العباسي المهدي حرم الكعبة في مكة استقدم عمالاً مصريين وسوريين لإزخرفة الأعمدة المحيطة بها بالفسيفساء، وظلت توقيعاتهم عليها ظاهرة

المُختلفة والفَلَك والنُّبَات فُيَمَكِن رَدُّهُ إِلَى تِلْكَ الْمَصَادِر الْمَسِيحِيَّةِ ذَاتِهَا. وَلَا يَقْضِي هَذَا بَأَنَّ تِلْكَ الصُّوَرِ قَدْ تَمَّتْ عَلَى أَيْدِي مُصَوِّرِينَ مَسِيحِيِّينَ، فَالرَّاجِحُ أَنَّ تِلْكَ الصُّوَرِ قَدْ تَمَّتْ عَلَى أَيْدِي نَفَرٍ مِنَ الْمُصَوِّرِينَ الْمُسْلِمِينَ جَاءُوا بَعْدَ، وَكَانُوا فِيمَا فَعَلُوا مُقْلِدِينَ. وَفِي رَسْمِ بِالْجِيرِ الْأَحْمَرِ عُثِرَ عَلَيْهِ بِإِحْدَى نُسَخِ مَقَامَاتِ الْحَرِيرِيِّ الْمُؤَرَّخَةِ عَامَ ١٣٢٣ تَتَبَيَّنُ أَنَّ الْمُصَوِّرَ قَدْ اقْتَبَسَهَا عَنْ مُنَمَّةٍ مَسِيحِيَّةٍ تُمَثِّلُ السَّيِّدَ الْمَسِيحَ فِي الْمَعْبَدِ بِأَوْرَشَلِيمَ يُنَاقِشُ الْفَرِيسِيِّينَ وَالصَّدُوقِيِّينَ، فَالْمَلَامِحُ ذَاتِ التَّقَاطُعِ الْغَلِيظَةِ وَالْأَنْوُفِ الْكَبِيرَةِ الْبَارِزَةِ وَالْوِضَاعَاتِ وَالثِّيَابِ كَمَا هِيَ هُنَا هِيَ هُنَاكَ (لَوْحَةٌ ٣٤).

وَمِنْ بَيْنِ الْعُجَالَاتِ التَّخْطِيطِيَّةِ الَّتِي تَضُمُّهَا نُسْخَةُ مِنْ تَوْرَةِ مَنَحُولَةٍ بِالْعِرَاقِ مُؤَرَّخَةِ عَامَ ١٢٩٩ فِي مَكْتَبَةِ لُورَنْتِيَانَا بِفِلُورَنْسَا صُورَةٌ تَتَجَلَّى لَنَا فِيهَا سِمَاتٌ عِدَّةٌ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الصُّوَرِ الَّتِي جَاءَتْ فِي نُسَخِ مَقَامَاتِ الْحَرِيرِيِّ الَّتِي تَتَّفَقُ مَعَهَا تَارِيخًا (لَوْحَاتُ ٣٥، ٣٦، ٣٧). فَالْأَزْدِيَّةُ الَّتِي نَرَاهَا فِي صُورَةِ نُسْخَةِ التَّوْرَةِ الْمُغْشَاةِ بِبَرَقْشَةٍ أَوْ صُورِ لِأَزْهَارٍ وَخَيَوانٍ وَطَيْرٍ أَوْ رُسُومِ لِأَهْلَةٍ وَبُرُوجٍ وَمَلَائِكَةٍ ذَوِي أَجْنِحَةٍ طَوِيلَةٍ مُدْبَّيَّةٍ، ثَمَّةٌ يُمَثِّلُهَا فِي تَصَاوِيرِ مَخْطُوطَاتِ مَقَامَاتِ الْحَرِيرِيِّ.

أَمَّا مَا نَرَاهُ مِنْ تَصَاوِيرٍ لِلْأَسْوَدِ وَالْفَيْلَةِ وَالْخَيْلِ وَالْإِبِلِ وَالطَّيْرِ عَلَى سَجَادِ مَدِينَةِ الْجَبَرَةِ الشَّهِيرَةِ فَأَغْلَبَ الظَّنُّ أَنَّهَا تَمَّتْ عَلَى أَيْدِي الْمَسِيحِيِّينَ النَّسَاطِيرَةِ، فَمَا أَكْثَرَ مَا كَانَ مِنْهُمْ فِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ.

وَأَمَّا عَنْ تِلْكَ التَّصَاوِيرِ الْحَيَّةِ اللَّافَةِ الَّتِي امْتَلَأَتْ بِهَا أَسْطُحُ الْأَوَانِي الْخَزَفِيَّةِ فِي مَدِينَةِ الرَّيِّ فَأَكْبَرُ الظَّنِّ أَنَّهَا هِيَ الْأُخْرَى تَرْجِعُ إِلَى فِتْنَتَيْنِ مِنَ النَّسَاطِيرَةِ، فَلَقَدْ كَانَتْ مَدِينَةُ الرَّيِّ هِيَ مَقَرُّ كُرْسِيِّ الْكَرَازَةِ النَّسْطُورِيَّةِ. وَإِذْ كَانَ الرَّأْيُ الْإِسْلَامِيُّ السَّائِدُ وَقْتُهَا مُشَدَّدًا لَا يُجِيزُ تَصْوِيرَ الشُّخُوصِ لَمْ يَجْرَوْا فِتْنَانِ مُسْلِمٍ عَلَى أَنْ يَخْرُجَ عَلَى هَذَا الْمَنْعِ فِيمَا نَعْلَمُ.

عَلَى أَنَّ الْبَعْضَ كَانَ يَرَى الْأَمْرَ عَلَى الضَّدِّ مِنْ هَذَا كُلِّهِ، أَعْنِي أَنَّ الْفَنَّ الْإِسْلَامِيَّ لَمْ يَتَأَثَّرْ بِمُشَارَكَةِ الشَّرْيَانِ وَالْمَسِيحِيِّينَ الشَّرْقِيِّينَ، بَلْ إِنَّ الْفَنَّ الْإِسْلَامِيَّ كَانَ صَاحِبَ الْأَثَرِ فِي الْفَنِّ الْمَسِيحِيِّ الَّذِي لَقِّنَ مِنْ تَصَاوِيرِ مَدْرَسَةِ بَغْدَادِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ شَائِعَةً فِي الشَّرْقِ الْأَدْنَى فِيمَا بَيْنَ الْقَرْنَيْنِ الْحَادِي عَشَرَ وَالثَّلَاثِ عَشَرَ، فَتَرَى الْأُسْتَاذَ بَخْتَالِ يُعَدِّدُ عُنَاوِينَ غَرِيبَةً عَلَى التَّصْوِيرِ الْيُونَانِيِّ فِي مَخْطُوطَاتِ الْكَنِيسَةِ الشَّرْقِيَّةِ حَدَّدَ مَصَدَرَهَا بِعُنَاوِينَ التَّصْوِيرِ وَمُفْرَدَاتِهِ فِي الْمَخْطُوطَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمُعَاصِرَةِ. وَمَعَ ذَلِكَ فَلَمْ يُنْكَرِ الْقَائِلُونَ بِهَذَا الرَّأْيِ الثَّانِي أَنَّ تَكُونُ ثَمَّةُ جُهُودٍ عَلَى أَيْدِي الْفِتْنَانَيْنِ الْمَسِيحِيِّينَ الشَّرْقِيِّينَ نَقْلُهَا مِنَ الْمَخْطُوطَاتِ

الَّتِي يَغْلِبُ عَلَيْهَا الطَّائِعُ الْفَارِسِيُّ هِيَ أَوَّلُ مَا بَدَأَ بِهِ تَرْيِيزَ الْمَخْطُوطَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِالصُّوَرِ، وَلَمْ يُشَارِكِ الْفَرَسُ فِي هَذَا الْمَجَالِ غَيْرُهُمْ مِنَ الشُّعُوبِ الَّتِي دَانَتْ بِالْإِسْلَامِ، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ أَخَذَ التَّصْوِيرَ الْعَرَبِيَّ عَنِ الْفَنِّ الْمُتَأَغْرِقِ أَيَّامَ أَنْ أَخَذَ فِي التَّدْهُورِ، هَذَا إِلَى مَا أَخَذَهُ عَنِ الثَّمَاذِجِ الْمَسِيحِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ أَيَّامَ تَدْهُورِهَا هِيَ الْأُخْرَى. غَيْرَ أَنَّ الطَّائِعَ الْفَارِسِيَّ الْغَالِبَ كَانَ قَدْ قَطَعَ شَوَاطِئَ بَعِيدًا فِي التَّمَكِّنِ لِنَفْسِهِ وَالتَّغَفُّفِ عَلَى الْأَنْمَاطِ الْمُتَأَغْرِقَةِ الْمُتَرَدِّدَةِ.

وَكَانَ الْأُمَرَاءُ الْمُسْلِمُونَ يَشْمَلُونَ الْفِتْنَانَيْنِ الْمُحْتَرِفَيْنِ التَّابِعَيْنِ لِلْكَنِيسَةِ الشَّرْقِيَّةِ بِرِعَايَتِهِمْ وَعِنَايَتِهِمْ. وَيَرَى بَعْضُ مُؤَرِّخِي الْفَنِّ أَنَّ تِلْكَ التَّصَاوِيرَ الَّتِي شَاعَتْ بَيْنَ الشَّرْيَانِ الْيَعَاقِيَّةِ كَانَتْ هِيَ الْوَسْطَةُ بَيْنَ الثَّرَاثِ الْكَلَّاسِيكِيِّ الْبِيزَنْطِيِّ الَّذِي اشْتَمَلَ عَلَيْهِ الْفَنُّ الْمَسِيحِيُّ وَبَيْنَ فَنِّ التَّصْوِيرِ فِي الشَّرْقِ الْإِسْلَامِيِّ. وَالْيَعَاقِبَةُ طَائِفَةٌ مَسِيحِيَّةٌ قَالَتْ بِالطَّبِيعَةِ الْوَاحِدَةِ لِلْمَسِيحِ، وَيُدْعَوْنَ أَيْضًا الشَّرْيَانِ الْأَرْتُودُكْسُ تَمَيِّيزًا لَهُمْ عَنِ الشَّرْيَانِ الْكَاثُولِيكِ. وَكَانَ الْمُصَوِّرُونَ مِنَ الشَّرْيَانِ الْيَعَاقِيَّةِ وَمِنَ الْمَسِيحِيِّينَ الشَّرْقِيِّينَ هُمْ أَوَّلُ مَنْ سَارَعُوا إِلَى الْفَاتِحِينَ الْعَرَبَ يُشَارِكُونَهُمْ بِفُنُونِهِمْ، مَذْفُوعِينَ إِلَى ذَلِكَ بِالْكَرَاهِيَةِ الَّتِي امْتَلَأَتْ بِهَا نُفُوسُهُمْ لِلْحُكَّامِ الْبِيزَنْطِيِّينَ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ثُمَّ لِنُفُورِهِمْ مِنْ تِلْكَ الْبِدْعِ الَّتِي كَانَتْ تَفْرُضُهَا كَنِيسَةُ الدَّوْلَةِ. وَيُضِيفُ تُوْمَاسُ أَرْنُولْدُ إِلَيْهِمُ النَّسَاطِيرَةَ وَهِيَ طَائِفَةٌ أُخْرَى مِنَ الْمَسِيحِيِّينَ الشَّرْقِيِّينَ يَنْتَسِبُونَ إِلَى نَسْطُورِ بَطْرِيَرِكِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ قَطَنُوا فِي كُرْدِسْتَانِ بَيْنَ الْمَوْصِلِ وَأَرْمِينِيَا وَازْدَهَرَتْ بَيْنَهُمْ حَيَاةُ الرَّهْبَنَةِ فَأَوْفَدُوا الْمُبَشِّرِينَ إِلَى آسِيَا الشَّرْقِيَّةِ مُنْذُ فَجَّرَ الْقَرْنُ السَّادِسَ، وَعَنْهُمْ انْتَشَرَتِ الْمَسِيحِيَّةُ فِي فَارِسَ وَالْهِنْدَ وَالصِّينَ. وَإِذْ كَانَتْ الْعِلَاقَاتُ بَيْنَ الْيَعَاقِبَةِ وَالنَّسَاطِيرَةِ وَبَيْنَ حُكَّامِهِمُ الْمُسْلِمِينَ أَكْثَرَ وَدًّا مِمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ بَيْنَ الطَّوَائِفِ الْمَسِيحِيَّةِ الْأُخْرَى وَبَيْنَ الْحُكَّامِ الْمُسْلِمِينَ، لِذَا كَانَ عَلَيْنَا تَلَمُّسُ أَثَرِ هَذَا الْفَنِّ الْمَسِيحِيِّ عَلَى صُورِ الْمَخْطُوطَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ بَيْنَ تَصَاوِيرِ طَائِفَتِي الْيَعَاقِبَةِ وَالنَّسَاطِيرَةِ اللَّتَيْنِ عَاشَتَا بَيْنَ الشُّعُوبِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَكَانَتَا تَتَحَدَّثَانِ اللَّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ نَفْسَهَا، كَمَا كَانَتَا تَنْتَهِيَانِ إِلَى الْجَذْمِ الْعَرَبِيِّ نَفْسَهُ. وَمِنْ الْمَعْرُوفِ أَنَّ الْحُكَّامَ الْعَرَبَ قَدْ اسْتَحْدَمُوا الْفِتْنَانَيْنِ الْمَسِيحِيِّينَ فِي إِتْجَانِ الْعَدِيدِ مِنْ شُؤْنِهِمُ الْفَنِّيَّةِ الَّتِي كَانَتْ مِنَ الْكَثْرَةِ بِمَكَانٍ، غَيْرَ أَنَّنَا لَمْ نَظْفَرْ مِنْ هَذَا الْكَثِيرِ إِلَّا بِالْقَلِيلِ. فَفِي التَّصْوِيرِ الْجِدَارِيِّ لَمْ يَبْقَ لَنَا غَيْرُ تَصَاوِيرِ قُصَيْرِ عَمْرَةٍ فِي الْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ، وَغَيْرِ تِلْكَ الْجُزْئِيَّاتِ الْمُصَوَّرَةِ الَّتِي حَمَلَتْهَا بَقَايَا الْجُدُرَانِ بَيْنَ أَطْلَالِ سَامَرَّا فِي الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ. أَمَّا مَا تَحَمَّلَهُ الْمَخْطُوطَاتُ الْعَرَبِيَّةُ مِنْ صُورٍ مِثْلَ كِتَابِ مَقَامَاتِ الْحَرِيرِيِّ وَكِتَابِ كَلِيلَةِ وَدْمَنَةِ وَغَيْرِ هَذَا مِنْ كُتُبِ الْآلِيَّاتِ

البِزْزُطِيَّة المَسِيحِيَّة إلى مَخْطُوطَاتِهِم الدِّيْنِيَّة.

حَرَّان هُمْ أَوْفَر النَّاسِ حَظًّا فِي هَذَا الْعَمَلِ. وَانْصَبَّ اهْتِمَامُهُمْ عَلَى دِرَاسَاتِ الْفَلَكِ وَالرِّيَاضِيَّاتِ عَلَى الْأَخْصَصِ. وَمِنْ هُنَا تَوَلَّدَ الْاهْتِمَامُ بِتَصْوِيرِ الْأَفْلاكِ السَّمَاوِيَّةِ الَّتِي بَرَزَتْ بَيْنَ النَّمَاذِجِ الْأُولَى لِلْفُنُونِ التَّصْوِيرِيَّةِ فِي بَدَايَةِ الْعُصُورِ الْإِسْلَامِيَّةِ. وَلَا نَعْرِفُ مَا إِذَا كَانَ الْوُثْنِيَّوْنَ فِي حَرَّانِ قَدْ شَارَكُوا فِي تَنْوِيَةِ فَنِّ التَّصْوِيرِ فِي نَوَاحٍ أُخْرَى، وَلَكِنْ الْمُؤَكَّدُ هُوَ أَنَّهُمْ عُنُوا بِهَذَا الْفَنِّ مِنْ فُنُونِ الْحَضَارَةِ الْقَدِيمَةِ مَعَ غَيْرِهِ مِنَ الْفُنُونِ. وَبِهَذَا كَانَتْ حَرَّانُ مِنْ بَيْنِ الْمَصَادِرِ الْأُولَى لِفَنِّ التَّصْوِيرِ الْإِسْلَامِيِّ.

تأثير السلاجقة

مِنْ مُنْتَصَفِ الْقَرْنِ الْحَادِي عَشَرَ حَتَّى الْغَزْوِ الْمَغُولِيِّ فِي النِّصْفِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقَرْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ كَانَتْ إِيرَانَ وَالْعِرَاقَ وَآسِيَا الصُّغْرَى تَحْتَ حُكْمِ الْأَثْرَاقِ السَّلَاجِقَةِ، ثُمَّ مَا لَبِثَتْ أَنْ تَفَرَّقَتْ دَوْلَاتٌ مُسْتَقِلَّةٌ يَحْكُمُهَا الْأَتَايَكَةُ. وَيَنْسَبُ بِلُوشِيهِ تَارِيخُ أَوَّلِ مَخْطُوطَةٍ مُصَوَّرَةٍ مِنْ مَدْرَسَةِ الْعِرَاقِ [أَوْ مَدْرَسَةِ بَغْدَادِ أَوْ الْمَدْرَسَةِ الْعَرَبِيَّةِ] إِلَى عَامِ ١١٨٠ حِينَ كَانَ الْأَمْرَاءُ السَّلَاجِقَةُ يُسَيِّطُونَ عَلَى الْخِلَافَةِ فِي بَغْدَادِ مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ عَامٍ، حَيْثُ يَلْمَسُ الْمُشَاهِدُ فِي صُورِ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ مَزِيْجًا لِرُوحَيْنِ: أَوَّلَاهُمَا لِلْحُكْمِ السَّلَاجِقَةِ وَثَانِيَتُهُمَا لِأَهْلِ الْحَضَارَةِ مِنَ الْفُرْسِ. ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ نَجِدَ هَذَا الْمَزِيْجَ نَفْسَهُ عَلَى عَهْدِ الْإِيلَخَانَاتِ الْمَغُولِ وَالسَّلَاطِينِ الْيَمُومِيَّيْنَ الَّذِينَ كَانُوا بَدَوًا كَالْأَثْرَاقِ السَّلَاجِقَةِ. وَيَقُولُ هَامِلْتُونُ جِبٌّ: «لَمْ يُؤَثِّرْ عَنِ الْجِنْسِ التُّرْكِيِّ الَّذِي كَانَ السَّلَاجِقَةُ أَوَّلَ مَوْجَةٍ تَحْدِيرٍ مِنْهُ صَوْبَ إِيرَانَ وَالْعِرَاقِ أَيْ اهْتِمَامِ بِالذِّينِ أَوْ الْفَلَسَفَةِ أَوْ الْأَدَبِ يَحْمِلُ طَائِعَ عَقَبَرِيَّتِهِ الدَّائِيَّةِ الَّتِي تَتِمَّلُ فِي أَعْمَالِهِمْ لَا فِي آرَائِهِمْ». وَمِنْ هُنَا كَانَ مِنَ الْمُتَعَدِّ إِبْطَاقِ اسْمِ «الْمَدْرَسَةِ السَّلْجُوقِيَّةِ» عَلَى صُورِ الْمَخْطُوطَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمُبَكِّرَةِ اكْتِفَاءً بِتَسْمِيَّتِهَا بِالْمَدْرَسَةِ الْعِرَاقِيَّةِ أَوْ الْبَغْدَادِيَّةِ، فَلَقَدْ كَانَ الْعِرَاقُ وَبَغْدَادُ آنَذَاكَ هُمَا قَلْبُ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ الْمُشْبَعِ بِالْحَضَارَةِ الْفَارِسِيَّةِ، وَإِنْ أَطْلُقَ عَلَيْهَا الْبَعْضُ عَنْ حَقِّ، مِثْلَ رَيْتشارْدِ إِنْجِهَارْزُونِ وَتَالِبُوتِ رَايْسِ، اسْمَ الْمَدْرَسَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

وَلَمْ يَقْتَصِرِ السَّلَاجِقَةُ عَلَى افْتِيَاثِ النَّمَاذِجِ الْفَارِسِيَّةِ فَحَسْبَ، بَلْ نَرَاهُمْ خِلَالَ إِقَامَتِهِمْ فِي مَوَاطِنِهِمِ التُّرْكُسْتَانِيَّ بِأَوَاسِطِ آسِيَا قَدْ تَمَثَّلُوا حَضَارَةَ الصِّينِ الْبُودِيَّةِ وَأَخَذُوا الْكَثِيرَ عَنِ الْأَوِيْجُورِيِّينَ الَّذِينَ لَمْ يُعْرِفْ عَنْهُمْ أَتَّهَمُوا بِتَكْرَارِ حَضَارَةِ خَاصَّةٍ بِهِمْ وَلَكْتَهُمْ تَشَبُّعُوا مُنْذُ عَهْدٍ بَعِيدٍ بِكَافَّةِ الْمُؤَثِّرَاتِ الْحَضَارِيَّةِ الْمُحِيطَةِ بِهِمْ، فَهُمْ قَدْ اعْتَقَنُوا الْمَانَوِيَّةَ عَلَى يَدِ الْفُرْسِ الْمَانَوِيَّيْنَ التَّارِحِينَ خِلَالَ الْقَرْنِ الثَّاسِعِ، غَيْرَ أَنََّّهُمْ مَا لَبَثُوا أَنْ تَحَوَّلُوا عَنْهَا إِمَّا إِلَى الْبُودِيَّةِ أَوْ الْمَسِيحِيَّةِ الَّتِي بَشَّرَ بِهَا النَّاسُطُورَةُ أَوْ إِلَى الْإِسْلَامِ.

وَمِنْ الْإِنْصَافِ الْاعْتِرَافُ بِأَنَّهُ كَانَ ثَمَّةُ تَبَادُلٍ فَنِّيٍّ بَيْنَ أُسْلُوبِ مَدْرَسَةِ بَغْدَادِ وَبَيْنَ أُسْلُوبِ الْمَسِيحِيِّينَ الشَّرْقِيِّينَ. وَعَلَى الرُّغْمِ مِنْ أَنَّ ثَمَّةَ أَثَرًا لِلْفَنِّ الْمَسِيحِيِّ فِي الْفَنِّ الْإِسْلَامِيِّ إِلَّا أَنَّ هَذَا لَا يَسْتَقِيمُ حُجَّةً عَلَى أَنَّ الْفَنِّ الْإِسْلَامِيِّ كَانَ كُلَّهُ اشْتِقَاقًا مِنَ الْفَنِّ الْمَسِيحِيِّ.

وَتَكَادُ تَكُونُ مَصَادِرُنَا الْأُولَى الَّتِي اسْتَقْتَيْنَا مِنْهَا مَا نَعْرِفُهُ عَنْ نَشْأَةِ التَّصْوِيرِ فِي الْإِسْلَامِ هِيَ لُوحَاتُ الشَّيْخِ سَاءِ بِقُبَّةِ الصَّخْرَةِ فِي الْقُدْسِ (٦٩٠م) وَبِالْمَسْجِدِ الْأُمَوِيِّ فِي دِمَشْقَ (٧٠٦م) وَبِالتَّصَاوِيرِ الْجِدَارِيَّةِ فِي قُصَيْرِ عَمْرَةَ (٧١٠ - ٧١٥م) بِبَادِيَةِ الْأُرْدُنِّ وَفِي قُصْرِ الْحَيْرِ الْعَرَبِيِّ بِبَادِيَةِ الشَّامِ (٧٣٠م) وَذَلِكَ خِلَالَ الْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ. أَمَّا فِي الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ فَكَانَتْ مَصَادِرُنَا فِيهِ تِلْكَ التَّصَاوِيرُ الْجِدَارِيَّةُ الَّتِي تُرِينَ جُدْرَانَ قُصْرِ سَامَرَا (٨٣٦ - ٨٣٩م) ثُمَّ تِلْكَ التَّصَاوِيرُ الْجِدَارِيَّةُ الَّتِي اجْتَمَعَتْ لِعَهْدِ السُّلْطَانِ مُحَمَّدٍ الْغَزْنَويِّ (٩٩٨ - ١٠٣٠م) الَّذِي لَمْ يَطُلْ كَثِيرًا. وَكَانَتْ سُلْطَنَةُ الْغَزْنَويِّ تَشْمَلُ أَفْغَانِسْتَانَ وَالْجُزْءَ الْأَكْبَرَ مِنْ إِيرَانَ، وَامْتَدَّتْ هَذِهِ السُّلْطَنَةُ إِلَى أَجْزَاءٍ مِنَ الْهِنْدِ الَّتِي كَانَ لَهَا أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي الْفَنِّ الْإِسْلَامِيِّ. وَلَقَدْ كَانَ لِلْسُّلْطَانِ مُحَمَّدٍ عِنَايَةٌ بِالثَّقَافَةِ وَالْفُنُونِ وَغَدَا بِلَاطُهُ مَرْكَزًا حَضَارِيًّا مُثْبِتًا، وَحَسْبُنَا دَلِيلًا عَلَى تَوَطُّدِ أَزْكَانِ الثَّقَافَةِ فِي عَهْدِهِ أَنَّ الْفِرْدَوْسِيَّ أَلَّفَ الشَّاهَنَامَةَ فِي ظِلِّ إِرْشَادِهِ وَرِعَايَتِهِ. وَكَانَ لِلْحَضَارَةِ الْفَارِسِيَّةِ السِّيَادَةُ فِي بِلَاطِهِ وَفِي سَائِرِ أَنْحَاءِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ، تِلْكَ الْحَضَارَةُ الَّتِي كَانَ لِلْعَبَّاسِيِّينَ قَبْلَ ذَلِكَ أَثَرٌ أَكْبَرُ فِي دَفْعِهَا إِلَى الْأَمَامِ لِمَا رَأَوْهُ فِيهَا مِنْ عِرَاقَةٍ وَصِلَةٍ مُسْتَوْرَةٍ بِالْحَضَارَةِ الْبِيزَنْطِيَّةِ.

أَمَّا التَّصْوِيرُ عَلَى الْوَرَقِ وَالْمَخْطُوطَاتِ فَلَيْسَ بَيْنَ أَيْدِينَا مِنْهُ شَيْءٌ يَرْجِعُ إِلَى الْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ. وَأَوَّلُ مَا وَقَعَ لَنَا مِنْهُ يَرْجِعُ إِلَى الْعَهْدِ الْعَبَّاسِيِّ، غَيْرَ أَنَّا لَا زِلْنَا نَجْهَلُ تِلْكَ الْمَرَاكِلَ الَّتِي مَرَّ بِهَا فِي بَدَايَتِهِ.

التأثير الفني لمدينة حرّان

كَانَ سُكَّانُ مَدِينَةِ حَرَّانَ بِالْعِرَاقِ يَدِينُونَ بِالْوُثْنِيَّةِ، وَكَانَتْ مَدِينَتُهُمْ تَضُمُّ مَعْبَدًا قَدِيمًا لِعِبَادَةِ الْقَمَرِ رَعَاهُ مُلُوكُ أَشُورَ، غَيْرَ أَنَّ الْمُهَاجِرِينَ إِلَيْهَا مِنَ الْمَقْدُونِيِّينَ وَالْيُونَانِيِّينَ حَمَلُوا مَعَهُمْ عِبَادَةَ إِلَهَةِ شَتَّى تَحْمِلُ أَسْمَاءَ وَصِفَاتٍ يُونَانِيَّةَ.

وَحِينَ فَتَحَ الْمُسْلِمُونَ حَرَّانَ وَجَدُوا أَهْلَهَا عَلَى دِيَانَةِ خَلِيطٍ بَيْنَ الْوُثْنِيَّةِ الْبَابِلِيَّةِ وَالْعَقَائِدِ الْيُونَانِيَّةِ الدَّخِيلَةِ أَهْمَهَا عِبَادَةُ الْكَوَاكِبِ وَالنُّجُومِ. وَخِلَالَ حُكْمِ الْخُلَفَاءِ الْعَبَّاسِيِّينَ حِينَ نَشْطَتْ حَرَكَةُ التَّرْجُمَةِ وَالثَّقُلُ عَنِ الْعُلُومِ وَالثَّقَافَةِ الْيُونَانِيَّةِ، كَانَ الْوُثْنِيَّوْنَ فِي

التأثير الفني المانوي

وثمة مصدر آخر كان له تأثير على فن التصوير الإسلامي يتمثل في الفنون المرتبطة بالعقيدة المانوية. وقد انتشر هذا الدين في الشرق وفي شمال أفريقيا وفي جنوب أوروبا انتشاراً واسعاً وعانى قروناً من اضطهاد الساسانيين المؤمنين بعقيدة زردشت. وماني مُصلح إيراني ظهر في القرن الثالث الميلادي وأعلن النبوة عام ٢٤٢ ثم أجبر على الفرار تحت ضغط الحكام، ولما عاد حُكم عليه بالموت. وقد تأثر هذا المذهب بالبوذية والغنوصية^(١) تأثراً كبيراً وأُسم بتعاليم الزردشتية متخذاً النضال أساساً للصراع بين الخير والشر. وكانت تعاليمه روحية بين أتباعه الذين كانوا يأملون الظفر بالسعادة بعد الموت. ولقد نما فن التصوير في أحضان ذلك الدين الذي عدّه ماني أداة هامة لتشرع الوحي الديني، وكان هو نفسه مُصوراً فذا رسم صوراً ملونة يوضح بها مبادئه وفلسفته.

ولقد ترك أشياعه أحراراً لعدة أجيال بعد أن فتح العرب بلاد فارس، أمكنهم خلالها ضم عدد من المشايخين الجُدد لعقيدتهم في ظل الإسلام. ثم ما لبثوا أن تعرضوا في عهد الخليفة المُقتدر في أواخر القرن العاشر لاضطهاد شديد، فهرب مُعظمهم إلى خراسان ولم يبقَ منهم في مدينة بغداد، في مُنتصف القرن العاشر، سوى نفر لا يجاوز الثلاثمائة عدداً. ولعل الأهمية التي أولوها فن التصوير هي التي دفعتهم إلى تكوين مدرسة من المُصورين يُقبل أفرادها على العمل لدى المسلمين حين يطلبون إليهم ذلك. واستلقت أغلفة كتبهم الدينية ذات الزخارف القيسية انبثاء خصومهم الدينيين من المسيحيين والمسلمين على السواء. فلقد أسروا في تزيينها إسرائاً حتى قيل إنه عندما أحرق المسلمون أربعة عشر صندوقاً مُمتلئة بكتبهم الدينية في بغداد سنة ٩٢٣ سال الذهب والفضة منها جداول مُناسبة. وظلت سيمات الرسوم المانوية مُجهولة حتى اكتشف الأستاذ فون ليكوك بعض المخطوطات المانوية، مصحوبة بالصور، سنة ١٩٠٤. كما اكتشف بعض الرسوم الجدارية داخل معبد مهجور لأنصار ماني وأتباعه في أطلال مدينة قُرب «طُرفان» في تركستان الصينية على مُلتقى الطرق التجارية بين الصين والغرب، وعندما أُسلم سكانها البوذيون صارت «دار الإسلام». وتظهر هذه الرسوم في تلويها وتصميمها بعض أواصر الشبه مع أعمال المُصورين الفرس

وكان مركز بثت القومية الفارسية خلال الخلافة العباسية يقع في شرقي الدولة، حيث التلاحم مع الشعوب التركستانية، ولاسيما أيام ولاية السامانيين، فيما وراء النهر، خلال القرن العاشر عندما بلغت العلاقات التجارية مع الصين مبلغها، فاستقر التجار الصينيون في سمرقند، وحيث يعيش الأويجوريون الذين يدنون بالمانوية. هنا ازدهرت الأساطير القومية الفارسية التي ضمتها الفِرْدَوْسي في شاهنامته، وكان تأثير الفن البوذي والمانوي الوافدين من أواسط آسيا وتُخوم الصين هو الغالب.

هكذا جاء السلاجقة ومعهم في نزوحهم غرباً من شرقي تركستان نحو الشرق الأدنى التقاليد التشكيلية التي تحكي شيئاً من الفن البوذي بأواسط آسيا. وقد تجلّت هذه التقاليد في البقايا القليلة من التماثيل واللوحات الجصية ذات النقوش المُحفورة لأسود ونُسور برأسين وتينينات وملائكة، وصُور أخرى على جذران القصور تُمثل حياة البلاط، غير عُلّيتها هنا وهناك فيما بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر. وثمة نموذج آخر للنشاط الفني السلجوقي قد يكون من ابتكار الصُناع والجزفيين النصارى هو التصوير فوق أسطح الأواني الخزفية الذي عُرف بمدينة الري التي قيل عنها إنها كانت أجمل وأرقى مدينة في الشرق بأكمله بعد مدينة بغداد خلال القرن العاشر، وتشاركها هذه المنزلة في التصوير على الخزف مدينة قاشان وساهو وغيرهما. وقد أخذت مدرسة التصوير العربية بهذه التقاليد السلجوقية، وهو ما يتمثل في تلك المُشابهة بين موضوعات التصوير والمنهج المُتبع في رسم الشخص هُنا وهناك. من هذا ما نراه من تماثل بين تلك الزخارف التي تحملها تلك الأواني السلجوقية ونظيراتها من الرسوم التي تشيع في مخطوطات كتاب مقامات الحريري وكتاب الأغاني وكتاب التزيان وغيرها (لوحات ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٨).

على أن ثمة من يقول، ومنهم آرثرلين في كتابه «الخزف الإسلامي المبكر»، إن الوزير شاور حين استنجد بالصليبيين في عهد الخليفة العاضد في أواخر العصر الفاطمي (القرن الثاني عشر) أشعل صرغام النار في القسطنطينية دفاعاً عن مصر أمام تقدم عموري الصليبي ملك بيت المقدس، طناً منه أن في هذا ما يحول بينه وبين دخول القاهرة. وكان من أثر هذا الحريق أن هاجر كثرة من الجزفيين ومن بينهم صُناع خزف البريق المعدني إلى الرقة بالشام والري بإيران، فأسفرت هذه الهجرة عن تأثر خزف الري بأسلوب الخزف الفاطمي ذي البريق المعدني خلال القرن الثاني عشر (لوحات ٣٧، ٣٨، ٣٩).

(١) الغنوصية (Gnosticism) تُعزى إلى كلمة غنوصيس اليونانية، وهي حركة فلسفية ودينية نشأت في العصر المتأخر، وتؤمن بأن الخلاص لا يتم بالإيمان وأعمال الخير وإنما بالمعرفة. [م.م.م.ث.].

المنجزات المصورة بسامراء خلال القرن التاسع. وهي لا تظهر على نحو التسيق الرخرفي للشخص ومثلما كان الحال في الفن الساساني فحسب، بل تظهر فيها أيضًا أنماط وجوه الرجال والنساء نفسها، وكذا تظهر الثياب نفسها بأسلوبهم في تصوير طيات الثياب ومكاسيرها، كما تُناظر الرافعات والمغنيات والعازفات من النساء مثيلتهن في التقاليد الساسانية القديمة، وكذلك أشكال الحيوان العديدة. وكما استقى الشعراء المسلمون من الفرس موضوعات قصصهم عن التاريخ الأسطوري للملوك القدامى قبل الفتح العربي، على نحو ما فعل الشاعر الفزدوسي في الشاهنامه والشاعر نظامي في منظوماته الخمس، كذلك خضع مصورو المنمنمات الفارسية الإسلامية في مخطوطاتهم لتأثير أسلافهم، فعادت إلى الظهور بعد سبعة قرون أو ثمانية مشاهد الصيد والطراد ومآثر الملوك والأبطال ومعارك الحزب وقصص الغرام المأثور، كما تابع هؤلاء المصورون الأسلوب التقليدي للفنانين القدامى في العهود الساسانية في تمثيل موضوعات بذاتها، مثال ذلك تصويرهم ليهرام جور وهو جالس إلى جوار جاريته الأثيرة فثمة [آزاديه] تسفيه الخمر بينما يستمع إلى عزف الموسيقىات (لوحه ٣٩)، أو استغراضهم مهازته في القضاء على الثنين (لوحه ١٩م)، أو صيد الغزلان، أو الحمر الوحشية مصحوبًا بأحب عازفات العود إلى نفسه (لوحه ٤٠). كذلك مضى المصورون يستسيخون للخلفاء العباسيين في سامراء صور غلمان ملوك الفرس وملوك كوشان، وهو ما تجلّى في الصور الجدارية، يباري فيها كل ملك أو خليفة غيره من الملوك أو يحاكيه.

وإلى جانب تصوير أبطال التاريخ القوي الفارسي ثمة عدد من التفصيلات المتعلقة بالثياب كالحوذات والدروع والبنود الطويلة إلى غير ذلك مما تنقله المنمنمات الفارسية المصورة في القرنين السادس عشر والسابع عشر عن النقوش الفضية الساسانية من القرن السابع.

ولم يحتفظ التصوير وحده بالثراث الساساني في الفن، إذ من المعروف أنّ الفرس مارسوا تصميم نماذج التصوير في نسج السجاد أيضًا وأبدوا فيه مهارة كبيرة. وجاء أول وصف لإحدى هذه السجاجيد عندما استولى العرب سنة ٦٣٧ على قصر ملك الفرس بالمدائن «طيسفون». وتعود مناظر الصيد الأثيرة لدى الساسانيين الأوائل إلى الظهور على مثل هذه السجاجيد، حيث الفرسان فوق جيادهم بين الحيوانات المفترسة المولية الأذبار من السهام. وثمة موضوع آخر ظهر على هذه السجاجيد وهو موضوع قديم يرجع إلى فترة سابقة على عصر الساسانيين، وأعني به شكل الأسد المنقّص على الغزالة الباسية ناشبًا أنيابه في كنفها الرهيف

اللاحقين. ويبدو أنّ القلة المانوية التي آثرت البقاء في الأراضي الخاضعة للحكم الإسلامي قد قدّمت خبراتها في خدمة الحكام المسلمين. أما أولئك الذين نشأوا في المهجر بطخارستان ووسط قبائل الأويجوريين في أواسط آسيا، فلا بدّ أنهم قد شاركوا في فنون التصوير فيها بقسط وافر تاركين بصماتهم، حتى إنّ المغول حين غزّوا فارس، وكانت لهم عنايتهم الفائقة بفن التصوير، تركوا أثرًا خاليدًا على الفن الإسلامي.

ولقد احتفظ العالم الإسلامي بنسخ من المخطوطات المانوية حتى بعد تحريم إقامة شعائر تلك الديانة. من ذلك ما ورد في كتاب بيان الأديان لأبي المعالي محمد بن عبيد الله (١٠٩٢) الذي ذكر أنّ ثمة مخطوطة مستسخة للكتاب المصور الذي أعدّ ماني صوره بنفسه والمعروف باسم «أرزهانج» [أي لحن الشوق] محفوظة في بيت المال بالعاصمة «غزنة»، وكثيرًا ما ورد ذكر هذا الكتاب في الأدب الفارسي. ويرجع السرّ في الإبقاء على تلك النسخة محفوظة في بيت المال هناك إلى صفاتها الفنية الفريدة وإلى أسلوب تذهيبها الباهر. ولا شك أنّ استنقاذ مثل هذه النسخة دليل على أنّ غيرها قد أمكن إنقاذه كذلك، وإذا هي تغدو نماذج بالنسبة إلى الفنانين.

التأثير الفني الساساني الفارسي

مع أنّ نماذج التصوير الساسانية نادرة إلا أنّها تميّز بخصائص ذات طابع فريد يمكن التعرف عليه للوهلة الأولى. والثابت حتى الآن أنّ أعمال التصوير في عصر الساسانيين لم يبق منها شيء باستثناء بعض الرسوم الجدارية التي اكتشفها سبير أوريل ستاين في كوه خواجه [جبل السيد]، وبعضها الآخر التي اكتشفها هاكين في باميان بأفغانستان. وعلى الرغم من ذلك فهناك إشارات عديدة بالكُتب تُسجل نمو فن التصوير وتبرهن على وجوده وتدلّ بعض قصائد البُخترّي (المتوفى سنة ٨٩٧)، كما سبق القول، على أنّ بعض اللوحات المصورة الأصلية كانت ما تزال موجودة خلال حياته في قصر ملوك الساسانيين بمدينة طيسفون «المدائن».

ولقد ظلّ ثراث الفنون التصويرية الساسانية يعيه أهل فارس الأوفياء لثرائهم، وظلّ هذا التراث على مدى الأيام يلقى التشجيع حتى من أولئك الذين دانوا بعقيدة الفاتحين العرب. وقد بقيت لنا منه بعض النقوش الصخرية.

ولعلّ تلك التحف الفضية المخفورة التي أفلتت من عوادي الزمن تكفي كني تدلنا على خصائص هذا الفن الساساني وتفصل لنا موضوعاته، تلك الموضوعات التي بُعثت من جديد في

إلى الموضوعات التي تناولها الأدب مما أسفر عن تأثيره الدائب على التصوير الفارسي وكذلك على التصوير المغولي بالهند الذي كان يقف أثره. ونكتفي هنا بذكر نموذجين من نماذج الإشارة الأدبية إلى هذا الموضوع، فقد عدَّ الجغرافي ابن الزدي، في منتصف القرن الخامس عشر تقريباً، الفنون التي تميز بها أهل الصين ومنها الخزف الصيني والتماثيل الصغيرة المحفورة وتصويرهم الرائع ورؤسومهم للأشجار والحيوانات والطيور والأزهار والقوايك والناس في مختلف المواقف والأشكال، حتى لكأنها لا يعوزها غير الروح والطق. كذلك قيل في نهاية القرن الخامس عشر نفسه ضمن الترجمة الفارسية لكتاب كليله ودمنة في وصف براعة أحد الفنانين إنه كان رايغاً إلى حد أنه «عندما رسم الوجوه، اضطربت أرواح المصورين الصينيين في وادي الدهول كما تاهت قلوب فتاني «قطاي» - أي الصين - في صحراء الحيرة إزاء عبقرية تلويحه».

وإذا كان ذكر الصين لم يعن به إقليم بعينه على وجه التحديد جاز لنا أن نستنبط أنها كانت تشير في الوقت نفسه إلى أراضي كل البلاد المتاخمة لحدود الصين. وقد دلت الاكتشافات التي تمت في المنطقة على وجود فن تصوير نما وترعرع خلال عدة قرون في الأراضي الواقعة بين الحدود الشرقية للممالك الإسلامية وإمبراطورية الصين، شارك فيه بوذيون ومسيحيون ومانيويون. ويدل استيعاب هؤلاء الفنانين للمؤثرات الشرقية الوافدة من الصين والمؤثرات الغربية النابعة من التقاليد المتأخرة التي تسلفت عبر الكنائس الشرقية وكذلك بعض المؤثرات الهندية على أن تبادل القواعد والأصول الفنية كان شائعاً في أواسط آسيا خلال العصور الوسطى.

ونكاد نجس أثر مدرسة التصوير في ميران بأواسط آسيا (القرن الثالث الميلادي) كما نجس أثر مدرسة إمارات واحة طرفان في قيزيل وكوتشو (القرن السابع) التي امتدت إلى التماوير الجدارية في سامرا عهد العباسيين. بل وإلى الفاطميين في مصر ومنها إلى تونس. ولم تقل من هذا التأثير كذلك مدينة الرتي عاصمة الأتراك السلاجقة في إيران، ثم مصر في عهد المماليك. ومن سمات هذا التأثير ملامح الوجوه في التماوير كاستدارة الوجه والعيون النجلاء المائلة ذات الإنسان الكبير والأنف المستقيم والقم الدقيق، بل امتد كذلك إلى طرق تصنيف الشعر في لم تنسدل على الجبهة وتنتوي عرضها كله فيما بين الفؤدين، وهي تريحة غريبة نراها تظهر من جديد في تماوير البريق المديني على الخزف في العهد الفاطمي.

كذلك تسلل هذا التأثير إلى أفغانستان في لوحات القصر

إلى أن تستسلم راغمة تحت وطأة جبروته ووخشيته. وما أكثر ظهور هذا العنصر الفني في الهوامش الزخرفية المصورة للمخطوطات الفارسية.

التأثير الفني للصين وأواسط آسيا

في القرن الأول من عهد أسرة طان (٦٢٠ - ٧٢٠) اعتادت السفن الصينية أن ترسو في ميناء سيراف على الشاطئ الشرقي من البحر العربي وأن تتبادل التجارة والمقايضة مع البصرة وعمان وأماكن أخرى. وفي النصف الأول من القرن التاسع بدأت هذه السفن الصينية التي تقصد هذه الأماكن تقل شيئاً فشيئاً على حين أخذت السفن العربية تكثر من زيارتها للصين، وصارت الأدوات الفنية الصينية المستوردة إلى الأراضي الإسلامية بمثابة نماذج يحاكونها ويقلدون. ولم يكتشف الأستاذ «سار» خلال حفائره في سامراء نماذج من الخزف الصيني فحسب بل وجد أيضاً خزفاً محلياً يحاكي المستورد من الصين. ومن المستبعد أن يكون تاريخ هذه المحاكاة للمصنوعات الصينية أبعد من سنة ٨٨٣. ومن أهم المؤثرات الثقافية ذات الأهمية البالغة والنتائج البعيدة إدخال صناعة الورق الذي قيل إن أهالي سمرقند تعلموها لأول مرة في التاريخ الإسلامي على يد أسير حرب من الصين جاء به حاكم المدينة زياد بن صالح المتوفى سنة ٧٥٢، ولكن تاريخ بدء معرفة العرب بفنون التصوير الصينية لما يحدد بعد.

وما من شك في أن ثمة انطباع عميق أحدثه التصوير الصيني على كبار زواد الفن الإسلامي من أهل فارس، حتى جرت العادة في الأدب الفارسي أن يكون معيار تقدير المستوى الفني للتصوير بمقارنته بالفن الصيني.

يصف الثعالي دقة المصور الصيني وأمانته فيقول: إنه يستطيع أن يصور الإنسان وكأنه يتنفس، ولا يكفي هذا بل يذهب إلى تمثيله وهو يضحك بل وهو يؤدي مختلف أنواع الضحك الممكنة. ومثل هذا القول في الإشادة بمقدرة الفنانين الصينيين وفي إطرأ أعمالهم تدل على أنه إما أن يكون قد تعرف شخصياً على أعمالهم أو أن أحد العارفين بها قد نقلها إليه.

ولا أدل على أهمية العلاقات بين الصين وفارس في أوائل القرن الخامس عشر، فيما يتعلق بالتصوير، من أن شاه رخ الابن الرابع لتيغورلنك (١٣٧٧ - ١٤٤٧) الذي تولى السلطنة عام ١٤٠٥ واجتاح إيران وآسيا الصغرى واشتهر بسخائه على العلماء والشعراء والفنانين، قد أوفد فتاناً مصوراً هو «غياث الدين» بين مبعوثيه من السفراء إلى إمبراطور الصين وعهد إليه بتسجيل ما يراه مثيراً للاهتمام خلال رحلته. وامتد هذا الاهتمام بالتصوير الصيني

[الكركدن]، وله أجنحة عدّة أشبه ما تكون بقطع من السحاب وقد مزّقه البرق، وكثيراً ما تُصايفه في صور الأواني والأوعية الخزفية (لوحة ٤٥). وثمة حيوان خرافي آخر يبدو في الرسوم وفي زخارف الخزف هو الحصان السماوي المجنّح يركض فوق المياه المحوّرة (لوحة ٤٦). بهذا الخيال الذي أُملى صور هذه الحيوانات الخرافية تأثّر الخيال الإسلامي في تصويره للشحّب، وإذا هو يُغيّر من تشكيلها، فيجمع بين أجزاء من هنا ومن هناك من هذه الحيوانات والطيور: فثمة أجنحة مبسوطة، ومناقير، وأفواه تقذف باللهب، وذيل مرخاة مثلوية متشعبة، وقوائم مستقيمة مرّة ومتعرجة أخرى، وحوافر صلبة، ومخالب قد انفرج ما بين أصابعها، وأجسام ممشوقة هفءاء تسبح في الفضاء وتعبث بها الرياح. ومن هنا صوّر الفنان المسلم الشحّب على هذا الجنّوال. وتُفصّل صورة «حيوانات الفأل الحسن» من التصوير الصيني في القرن السابع عن هذا كله (لوحة ٤٧).

وثمة مصدر إيقونوغرافي آخر للشحّب الصيني هو الشرائط المتموجة كالشرائط التي تبدو في صورة «فايتشرفانا» إله الثروات البوذي من فنون التبت بأواسط آسيا (لوحة ٤٨).

وبين أيدينا صورة من الفن الصيني تمثل سيّاً من البوديساتفا، أي نهاية التناسخ (لوحة ٤٩). فلقد كان البوذويون يعتقدون أنّ كلّ إنسان يتقلّب بمراحل عدّة تُنسَخ مرحلةً مرحلةً حتى ينتهي آخر الأمر إلى مرتبة بوذا. ومما يلفت نظرنا في هذه الصورة تصفيفة الشعر، فهي تبدو معقوفة قد شدّت من قريب من نهايتها وأُرسل لها طرفان كلّ منهما على شكل بيضيّ، ولهذا ما ترسمه المصوِّرون المسلمون حين صوّروا تصفيقات الشعر في بعض الأحيان.

وهكذا يكون الرافد الرئيس الذي استقى منه التصوير الإسلامي أصوله وجذوره قد نبع من المدارس البيزنطية والمسيحية والساسانية والمائوية أولاً، ثمّ المدرسة الصينية في فترة متأخرة.

الغزنويّ في سوق العسكر «الشكر بازار» التي كشف عنها دانييل شلومبرجيه، فتلمس الشبه الشديد بين غلمان المماليك. ففي (اللوحتين ٣٩م، ٤١) نرى مملوكاً فتياً من سامراً لأحد الخلفاء العباسيين يحمل غزاة هديّة، كذلك الأمر مع صور المماليك التي تُشاهدها على جذران قصر كوشان في قيزيل، وإن كنّا لا نعرف أجناسهم غير أنّ ثيابهم تُوحى بأنهم من الأتراك (لوحة ٤٢). وعلى الرغم من أنّ تصاوير الكايبلا بالاتينا بباليرمو في صقلية كانت تتبع الأسلوب البيزنطيّ اللاحق إلّا أنّها حتّى في هذا المكان الثاني نلاحظ بعض التأثير الذي يُعزى إلى سامراً وميران.

وكان المصوِّرون الفُرس قد استقوا الكثير من الأصول الفنيّة إمّا من بلاد الصين مباشرة أو من تلك البلاد المتاخمة للحدود الفارسيّة. ثمّ ما لبثت هذه الأصول أن عدّت خصائص تُميّز فنون التصوير لديهم. ومن بين هذه الملامح المميّزة «هالة اللهب» التي استعاروها من تماثيل بوذا في آسيا الوسطى والصين، ومثل صورة بوذا السُعدي من القرن الثامن أو التاسع جالساً فوق عرش اللوتس (لوحة ٤٣)، أو مثل صورة بوذا الصيني من القرن التاسع الجالس كذلك فوق عرش اللوتس قابضاً بيده اليمنى على الصاعقة «فاجرا» التي تُعدّ المصدر الإيقونوغرافي للشعلة أو هالة اللهب، ومن تحت عرشه حامي العقيدة البوذية «فاجراياني» وهما يحملان هالتين من لهب فوق رأسيهما (لوحة ٤٤).

وقد أضاف الفنان الصيني إلى مشاهد الطبيعة الباعثة على التأمل والخيال مجموعة من الحيوانات والطيور الخرافية التي ولع بها ولعاً شديداً، يتصدّرها الثنين رمز الخير والرفعة. وهو كائن مُلقّق له جناحا يسرّ وذيل أفعى تكسو جسده خراشف السمك وينبثق اللهب من فمه، وقد يبرز له قرنان، ومخالبه كمخالب الأسد. وبعد الثنين نرى طائر العنقاء «فينيكس» أو فين وإنّ رمز الخلود، وله جسّد ثنين ورأس ديك، وقد استلهمه الفُرس في رسم طائر السيمرغ الخرافي. ثمّ يأتي حيوان الكيلين «تشي لين»، وله رأس أسد وجسد جواد، وينبت في جبهته قرنٌ وحيد كالخرتيت

الفصل السادس

موضوعات التصوير الإسلامي

تصاوير الكتب العلمية

(٩٠١) ينتمي إلى هذه السلسلة الوثيقة العربية، وكان مترجمًا نشيطًا من اليونانية ومؤلفًا كذلك.

ولقد تضاءلت فرص ممارسة ملكات التصوير الفنية في غالبية الأبحاث والكتب الطبية، على العكس من مخطوطات علوم النبات والحشائش والعقاقير، وعلى الأخص اليونانية منها مثل مؤلفات ديوسقوريدس، في عهود مبكرة من الفتح الإسلامي. وكان قسطنطين الثامن إمبراطور بيزنطة قد أرسل سنة ٩٤٨ مخطوطة مصورة رائعة لديوسقوريدس إلى الخليفة عبد الرحمن في قرطبة. ولعل من بين المخطوطات التي حملها رسل المأمون (٨١٣ - ٨٣٣) من بيزنطة أيضًا إلى بغداد نسخ من مخطوطات ديوسقوريدس التي اختوت على التصاوير الأصلية الباقية على حالها في الترجمة العربية.

كتب الآليات المتحركة «الأوتوماتا»

وهناك مجموعة من الصور المبكرة التي وجدت ضمن المؤلفات المتعلقة بالآليات المتحركة وبخاصة تلك التي تتناول موضوع الساعات المائية وما شابهها من اللعب الآلية (اللوحات ٥٠، ٥١)، وكثير منها يرجع بلا شك إلى أصول يونانية. وفي الحق إن هذه المؤلفات العلمية التي أشرنا إليها لم تثر اهتمام أحد سوى نفر قليل من المتعلمين القادرين على استيعابها، بينما احتشدت المؤلفات المتعلقة باللعب الآلية والزخارف لتسليية الأمراء الذين كان يستهويهم امتلاك مثل هذه الآلات يُجملون بها قصورهم. ويحضرنا في هذا المقام ما جاء على لسان الفقيه الإمام القرافي (١٢٨٥م) في كتابه «شرح المحصول» حيث قال: «... بلغني أن الملك الكامل (١١٨٠ - ١٢٣٨م) وضع له شمعدان، وهو عمود طويل من النحاس له مرايز يوضع عليها الشمع للإضاءة، كلما مضى من الليل ساعة انفتح باب منه وخرج منه شخص يقيف في خدمة الملك، فإذا انقضت عشر

كانت أولى الكتب التي طلب إلى المصورين تزويقها بالتصاوير أبحاثًا علمية تتعلق بالطب والفلك والميكانيكا. ويتضح لنا من تاريخ الطب العربي أن العرب، بوصفهم فاتحين، تلقوا معارفهم الأولى بهذا العلم عن زعايهم المسيحيين الذين نقلوا إليهم ثراث العلوم الطبية اليونانية. وبمجرد بدء عصر الترجمة العظيم في منتصف القرن الثامن تقريبًا ترجمت كتب علماء الطب الإغريق إلى اللغة العربية سواء عن اليونانية مباشرة أو عن طريق النسخ السريانية.

ومن أهم المترجمين حنين بن إسحاق، وهو أحد نساطرة «الجيرة» الذي صار من بعد طبيب البلاط بقصر الخليفة في بغداد. ولم يلبث عدد كبير من المترجمين في العصر العباسي أن نقلوا أغلب المعارف اليونانية وبخاصة أثناء حكم المأمون (٨١٣ - ٨٣٣). وكان أغلب هؤلاء المترجمين الذين عملوا في بغداد من المسيحيين، وكان بعضهم قد أرسل خصيصًا إلى آسيا الصغرى والدولة البيزنطية للحصول على المخطوطات اليونانية. ولكن ثمة مركز ثقافي آخر كان بمثابة مجمع للعلوم اليونانية وعلوم الطب بوجه خاص، وهو مدينة «جندي شاهبور» القديمة الموجودة حاليًا بإقليم خوزستان [عيلام] بجنوب غرب فارس. وكان «ماني» قد لقي حتفه في هذه المدينة، ولعل بعض أتباعه كانوا لا يزالون هناك حتى أواخر القرن الثامن. ودعوي عدد آخر من المترجمين إلى مدينة حران. وقد ظل أغلب القوم في هذه المدينة وثنيين حتى القرن الثالث عشر كما سبق القول، واستمرت عبادة القمر الآشورية بشكل أو آخر. والدليل على استمرار بعض عقائد الحضارة اليونانية السابقة على ظهور المسيحية هو اسم «هيليبوليس» الذي أطلقه بعض الآباء المسيحيين على هذه المدينة. وكان الرياضي العظيم ثابت بن قرة (المتوفى سنة

الذين يُعزى إليهم أنهم أقحموا في عباداتهم أسماء كانت شائعة في الديانة المصرية القديمة ومنها الطير والحيوان. وبهذا كانت لهم ولامثالهم من أصحاب النحل الأخرى تأويلات مجازية ورمزية، فإذا هم يحملون ما جاء في الكتاب المقدس من ذكر للطير والحيوان رموزاً ذات دلالات من العبر والموعظ. غير أن الكنيسة لم تعترف بمثل هذه النحل، إلى أن جاء فيزيولوجوس ليفيد منها فلسفياً. ومُنذ القرن الرابع ظهرت نسخ باليونانية من هذا الكتاب، حتى إذا ما كان القرن الخامس، ثم السادس، ظهرت منه نسخ باللاتينية في أسلوب ثري.

أما كُتب الحيوان المرموز بها Bestiary فقد شاعت شيوعاً واسعاً خلال العصور الوسطى وبخاصة خلال القرن الثاني عشر، شرقاً في بيزنطة وغرباً في أوربا، وجاءت مقسمة فصولاً يحمل كل فصل عنواناً خاصاً به مثل الحيوان والطير والزواحف والأسماك، وكذا يحمل فصولاً للنبات والجماد في نسخ قليلة. وقد ترجمت هذه الكتب إلى اللغات الشرقية وعُرفت في إنجلترا قبل الغزو النورماندي ١٠٦٦م. غير أن الناس ما لبثوا بعد أن اطلعوا هذه الكتب بعد أن تبين لهم ما بينها وبين علم التاريخ الطبيعي من بُعد. ولقد شاع بين القراء في العالم الإسلامي أيضاً قصص الحيوان بكل ما يصحبه من حكم وجدل وتأملات مشتقة من مجربات الحياة العامة. ومما لا شك فيه أن «طباعات خاصة» من هذه الكتب كانت تعد لمكتبات السلاطين تزود بتساوير توازيها روعة وأبهة، غير أن ما آل إلينا من مثل هذه المخطوطات المصورة تبدو وكأنها قد أعدت لأشخاص أقل شأنًا، حيث إن صورها تقتصر إلى الأنافة، والألوان المستخدمة فيها من النوع الرخيص. وعلى الرغم من أن رسوم هذه الكتب كانت عموماً خشنة غير مصقولة، إلا أنها كانت تشبع فيها الحيوية، واستطاع المصورون أن ينفذوا إلى أعماق القصص البوذي الأصلي التي جعلت للحيوان والطير صفة البشر، فتصويرهم مثلاً لابن آوى بدهائه الخارق، وهو يُعزّر بضحية من ضحاياه بأسلوب ساخر فكاهي، لم يُعرف في غير هذا النوع من الكتب خلال معظم مراحل تاريخ الفن الإسلامي.

ونحن إلى الآن لم نَهتدِ بعد إلى الأصول الفنية الأولى التي

ساعات، طلع الشخص على أعلى الشمعدان وإصبعه في أذنه وقال صبح الله السلطان بالسعادة، فيعلم أن الفجر طلع». ثم يستطرد الإمام القرافي فيروي عن تجربته الشخصية قائلاً: «وعملت أنا هذا الشمعدان وزدت فيه: إن الشمعة يتغير لونها في كل ساعة، وفيه أسد تتغير عيناه من السواد الشديد إلى البياض الشديد إلى الحمرة الشديدة، وفي كل ساعة لها لون، فإن طلع شخص على أعلى الشمعدان وإصبعه في أذنه يشير إلى الأذان، غير أنني عجزت عن صنعة الكلام». وهكذا يؤكد الإمام القرافي، بصنعه لذلك الشمعدان الثاني ليبرز به صنع الشمعدان الأول، أنه فوق إباحته لقن النحت والتصوير نحات ومصور أيضاً يبرّ غيره من النحاتين والمصورين. كما يدل هذا المثال أيضاً على أن العصر الذي عاشه هذا الإمام كان عصرًا يُجيز النحت والتصوير وإلا ما جرؤ الإمام على ما أقدم عليه من إباحة للفن واشتغال به.

كُتب طبائع الحيوان المرموز بها

إسم لنوع من كُتب المصور الوسطى تضم قصصاً عن الطير والحيوان والنبات والجماد موصوفة بأوصاف شبيه علمية، تسوق ما تبين عالم التاريخ الطبيعي وبتن العقيدة المسيحية من مشابهة، ثم تستخلص منها ما تنطوي عليه من عبر أخلاقية. وهذا القصص، حين يتناول الطير والحيوان يصف سلوكهما، وقد يستلهم أيضاً طيراً وحيواناً خرافياً كان الظن الشائع عندها أن لها وجوداً حقيقياً. وهذه وتلك كانت تتقمص خصائص البشر وتجري على ألسنتها مثل ديبية وأخرى فيها العظة والعبرة، وثالثة نقدية قد تتناول مع المجتمع الكنيسة نفسها. ولم يكن هذا القصص بألوانه هذه كلها على نمط قياسي واحد، كما يرجع في نشأته إلى كتاب «عالم التاريخ الطبيعي للحيوان» لعالم يوناني مجهول الاسم من القرن الثاني الميلادي، وربما كان الخامس، لُقّب بلقب «فيزيولوجوس»^(١) Physiologus، وقد اعتمد في مبحثه الشهير هذا على مؤلفات لأرسطو وبلينيوس وغيرهما، وقد شاع كتابه في أوربا ودول البحر المتوسط وكان سابقاً لكل ما ألف عن طبائع الحيوان حين يرمز به. وتعدّ مصر هي المصدر الأول الذي استقى منه فيزيولوجوس ثم كُتب طبائع الحيوان المرموز بها جميعاً، فلقد شاعت في مصر منذ القدم الرمزية الوصفية لحيوانات وطيور مختلفة، إذ كانت مما يُعبد ويُقدّس، فأصبح المصريون القدماء عليها لهذا صفات خلقية. حتى إذا ما كان القرن الثاني ظهرت شعائر كُتب لها البقاء قرنين، وكانت مرحلة الانتقال بين الوثنية المصرية القديمة وبين المسيحية الناشئة، فظهرت نحل متعددة كان أبرزها نحلة العارفين بالله Gnostics،

(١) عالم التاريخ الطبيعي للحيوان «فيزيولوجوس» (Physiologus): إسم أطلق على عالم مجهول الاسم من القرن الثاني الميلادي أو ربما الخامس، نُسب إليه مبحث هام في التاريخ الطبيعي للحيوان، اعتمد فيه على أرسطو وبلينيوس وغيرهما من القدماء. [م.م.م.ث.].

نجاحهم في التعبير عن ملامح الآدميين. فنرى الثعالب وهي تُراقب الثور الأبله يساق إلى حتفه مُبْسِمة في سُحْرِيّة واستهزاء فَرِحَة بتفوق دهاياها، والغراب يشهد مصير أصدقائه في تعاطف ويُدبّر الخُطَط في حِكْمَة لِيُخْلَصَهُمْ وَيُنَجِّيَهُمْ، ويظهر البوم بِسْمَتِهِ الاسْتِفْزَازِيّة وَغَضَبِهِ الْوَحْشِيّ حين تُصَيِّبُهُ الْحَيَّة، وكأَنَّنا بِالْحَيَوَان وَقَدْ سَعِدَ بِهَذِهِ الْعِنَايَةِ بِأَمْرِهِ مِنَ الْمُصَوِّر، جِلًّا بَعْدَ جِلٍّ، حَتَّى بَلَغَتْ هَذِهِ الْمَجْمُوعَةُ الْجَذَابَةَ مِنْ قَنِّ تَصْوِيرِ الْحَيَوَانِ وَالطَّيْرِ تَغْيِيرَهَا الْأَجْمَلَ وَالْأَوْفَى فِي طِرَازِ الْهِنْدِ الْمَغُولِيّ.

ومن أوائل مخطوطات هذا الكتاب المصورة، نسخة يرجع تاريخها إلى عام ١٢٢٠ من مدرسة التصوير العربيّة محفوظة بدار الكتب القوميّة بباريس، ولم يكتفِ المصورون، سواءً خلال مدرسة بغداد أم مدرسة الإيلخانات المغوليّة أم المدرسة التيموريّة أم المدرسة الصفويّة، عن تزقيّن مخطوطات هذا الكتاب الفريد (لوحه ٥٢).

«مقامات الحريري» لأبي القاسم بن عليّ الحريري (١٠٥٤ - ١١٢٢)

تعلّم الحريري على أيدي علماء البصرة حتى صار من أَلَمَعِ عُلَمَاءِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، فغلّبت صناعة اللَّفْظ على إبداعه النَّثْرِيّ والشّعريّ، وجرت بلاغته في صياغة مقاماته مجرى الأمثال، وظهرت كذلك في هويته للشعر الذي بثّه بين ثنايا مقاماته محدثاً في سحر حقيقيّ عن مجتمع قريته. ويرجع المؤرّخون أن يكون الحريري قد احتزف هو أو أحد آبائه مهنة بيع الحرير فسُمّي بالحريريّ. وقد دعاه البعض بالحراميّ نسبةً إلى حيّ «بني حرام» الذي وُلِدَ به في القرن الحادي عشر وتوفيّ به كذلك في القرن الثاني عشر.

كتب الحريري في تصدير مقاماته: «أنشأت خمسين مقامةً تحتوي على جدّ القول وهزله ورفيق اللفظ وجزله وغرر البيان ودزله وملح الأدب ونواذيره، إلى ما وشئتُها به من الآيات ومحاسن الكنايات ورصعته فيها من الأمثال العربيّة واللطائف الأدبيّة والأحاجي النَّحْوِيّة والفنّاء اللُّغَوِيّة والرسائل المُبْتَكِرَة والخُطَب المُحَيَّرَة والمواعظ المُبْكِيّة المُلهِيّة ممّا أملتُ جميعه على لسان أبي زيد السروجي وأسندت روايته إلى الحارث بن هَمَامِ الْبَصْرِيّ». وعني الحريري بالزّاوي الذي سمّاه الحارث بن هَمَامِ، وقد أخذَه من قول الرسول عليه السّلام «كُلُّكُمْ حَارِثٌ وَكُلُّكُمْ هَمَامٌ». والحارث هو الكاتب والهمّام هو كثير الاهتمام.

وقد استمع أهل الأندلس إلى هذه المقامات وأعجبوا بها،

أخذ عنها هذا اللون من التأليف، وإن كان من الممكن أن نهتدي شيئاً إلى تلك الأصول من تتبنا ما تتابع من هذه الكتب التي تتناول طبائع الحيوان المرموز بها التي صوّرها أشياح بعض الكنائس الشرقيّة أو التي ظهرت في أوروبّا خلال العصور الوسطى.

كتاب كَلِيلَة وَدِمْنَة

اهتمّ الشعراء العرب الأوائل بالحيوانات وبخاصّة الإبل والحياد يتخذون منها مادّةً لأشعارهم، وخلعوا عليها أوصافاً تكشف عن دقّة ملاحظتهم. وقد تضمّنت نقوش «فصير عمرة» ببادية الأزرد من العصر الأمويّ صوراً لحيوانات في مشاهد الصيد، وصوراً أخرى ذات طابع زُخْرُفِيّ خالص. فلا عجب إذاً في أن نجد كتاباً من بواكير كتب الأدب العربيّ يتناول سير الحيوان هو كتاب «كليلة ودمنة» الذي يضمّ عدّة أساطير تدور حول بطلين من فصيلة ابن آوى. وهو في حقيقته ترجمة عربيّة، تصدّى لها ابن المقفع (المتوفى عام ٧٥٩) لنصّ قديم يرجع إلى القرن ٦ كتبه الفيلسوف الهنديّ بَيَذْبَا. غير أن ابن المقفع ترجمه عن الپهلويّة لا عن النصّ الأصليّ المكتوب بالسّسكريتيّة. وكتب في مقدّمة الترجمة العربيّة أن هذه الحيوانات تتحدّث إلى الملوك أكثر ممّا تتحدّث إلى الشعب والنّساء. ذلك أن الكتاب الهنديّ كُتِبَ أصلاً ليكون «مِرآةً لِحَيَاةِ الْأُمَرَاءِ»، وأضاف أن تزين الكتاب بصور ملوّنة كان يهدف مضاعفة سحره وجاذبيّته وتعميق الإحساس بالحكمة المستخلصة من كلّ قصّة من قصصه. هو إذاً كتابٌ موجهٌ إلى الملوك صوّر في عصور الإسلام الأولى، ونُقِلَ عن ترجمة فارسيّة كانت تتضمّن، من دون شك، مُنمّنات مُتسبقة مع الأسلوب الفنّيّ للبلات الساسانيّ.

ولقد نال كتاب كَلِيلَة وَدِمْنَة ما لم يتّله غيره من الكتب من الإعجاب والرواج، من أجل هذا كان الجرحى على نقله إلى لغات العالم ذات الآداب. وكان اعتماد هؤلاء النّاقليّن إلى اللغات المختلفة على النّسخة العربيّة، إذ كان الأصلاّ اللّذان نُقِلَ عنهما الكتاب إلى العربيّة، وهما الپهلويّة التي أخذت عن السّسكريتيّة، قد فُقِدا. وكان هذا الكتاب أوّل كتاب ظهر بالعربيّة قصصاً نثريّاً على ألسنة الطّير والحيوان، والمعروف أن الهند عرّفت قديماً بأنّها البيّنة التي شاع فيها هذا اللون من القصص.

ويبدو أن المصورين منذ البداية قد نفذوا إلى الروح الأصلية في هذا العمل الأدبيّ الجليل ذي الجاذبيّة الإنسانيّة العريضة. وكثيراً ما برّ نجاحهم في إجادة التعبير عن ملامح الحيوانات

أحاسيس المصورين وخيالاتهم ومناهجهم إلى جانب تمثيلها لمشاركة الفنّ للأدب في تصوير الواقع والتأثر به، فقد عبّر المصور من خلال هذه المنمنمات - على غرار الأديب - عن إحساسه بما في العالم العربيّ بعمامة وبالبيئة العراقية بخاصة. وقد ضمن المنمنمات صوراً لمصر ومرو وبرقعيد. كما صورّ الولاة وجلسات الحكم وحفلات العرس والأسواق وأحوال الناس، في خصوصياتهم ونزواتهم، والمتكسبين بالآداب، وما إلى ذلك مما كانت تزخر به البيئة العربية، وما أضفى عليها الخيال من جمال.

ويصل التصوير العربيّ إلى الذروة في المحاولات المختلفة والمتواصلة التي ظهرت في منمنمات المقامات التي أُنجزت في بغداد، وذلك بالرغم من أنّ نصّ الحريريّ نفسه لا يُفصح مجالاً كبيراً أمام المصور، فأهم ما في هذا النصّ كما سبق القول هو المهارة اللغوية ليطه أبي زيد، وأبو زيد هذا كما تمثله الحريريّ شيخ خفيف الظلّ، حاضر البديهة، ماهر، لبق، وصاحب حيل بارعة تختلط بالكذب أو التلّفيق أحياناً، وهو قدير على أن يؤثر في جمع من الناس أو في شخصية لها سلطان فيستدريجهم جميعاً عن طيب خاطر ورضاً. وظلّ القراء العرب على مدى قرون يعجبون بالتلميحات والتشبيهات البليغة والطباق والجناس والأحاجي التي تُسبغ على هذه المغامرات الفكهة الصفات التي ميّزتها في مجال الأدب. وطبيعيّ أن يتناسى المصور خلال معالجته لفته هذه الصفات اللغوية الجذابة وأن يقصر اهتمامه على المناسبات التي خلّقها الكاتب من أجل عرض هذه الأقوال. ولأنّ المقامات الخمسين تدور في أماكن كثيرة ومختلفة فقد عني المصورون بأن تكون منمنماتهم صوراً لتلك البيئات المختلفة. لهذا استطعنا أن نعرف منها العالم العربيّ ببنياته لا سيّما العراق لأنّ أحداثها دارت على أرضه. فنشهد فضلاً عن القصة يقع في مسجد، وفصولاً أخرى في مكتبة أو سوق أو مسافر خاتمة، أو في جبانة أو في خيام في الصحراء أو في جزر خضراء في بحار الهند. كما نرى بلاط الحاكم، أو قصرًا حافلاً بالعبيد والخدم، أو فضلاً في مدرسة ساعة يشير الأستاذ إلى تلميذ بالعصا، أو نازراً موقدة وبيجوارها تنحّر اللبiche، أو سفينة تقلع مآخرة غباب البحر، أو فرساناً أو مسافرين وخدم على الطريق، أو قافلة جمال بأحمالها وموسيقيين مُمتطين ظهور الدواب. وتعدّ تلك التصوير استعراضاً لرجال أغنياء وفقراء، محزونين أو فرحين، عصبيّ المزاج أو هادئ الطبع، فضوليين أو متعقّفين، ثمّ سمحاء أو برمين. وتبرز هذه المنمنمات وواقعيتها كثيراً من سمات حياة المصور الوسطى التي كانت مجهولة من قبل، ففيها نرى عمارة المنازل في المدن

فَنشروها في بلادهم بعد أن أضافوا إليها تطوّراً أخرجها عن جمود قوالب المشرق العربيّ وحزرها من حذلقه اللغويين، وغدت المقامة قصصية الطابع مغرقة في الشعبية، يستعرض مؤلفوها عن طريقها صوراً بديعة للمجتمع الأندلسي، تتميز بالواقعية وتفيض بالشخيرة اللاذعة من البشريّة التي كان يَمُور بها ذلك المجتمع. وانتهت المقامة في الأندلس إلى عكس ما انتهت إليه في المشرق، فبعد أن كانت هناك تمريناً لغوياً أُمست هنا لونها من ألوان القصة الاجتماعية التقليدية. كذلك شغف يهود الأندلس بفنّ المقامات، فقام سليمان بن حقبال القرطبيّ - وكان شاعراً يميل إلى الهزل والمجون - في مُستهلّ القرن الثاني عشر، بتأليف مقامات عبرية على غرار مقامات البصرة.

على أنّ مقامات الحريريّ التي وجد فيها الأدباء والمُستغلون بعلوم اللغة مبعيناً للرواية لا ينضب، قد ألفت حولها المصورون يستلهمون موضوعاتها - رغم جفافها وتكرار أحداثها - مادة لروحاتهم ومنمنماتهم الدقيقة التي تُشكّل اليوم جزءاً جوهرياً من تراث التصوير الإسلاميّ الفريد. وكان انتقاء الألفاظ اللغوية والبحث وراء الغريب منها هو الهدف المنشود من وراء إنشاء المقامات. وهذا ما فرضته ظروف العصر الذي انصرف فيه الناس عن التعمّق اللغويّ، وهجروا فيه الكثير من الألفاظ التي كادت تندثر لقلّة استخدامها. وكَم كانت شاقة مهمة مصوّر المقامات، إذ كان عليه أن يلتقط تفاصيل الموضوع من خلال الألفاظ الخوشية الغربية والتعقيدات الأسلوبية، وأن ينفذ إلى الأعماق والخفايا ليبرزها في لوحته.

وكانت المقامات، في نهجها الذي ابتدعه بديع الزمان، أقدر الأشكال على تصوير البيئة العربية، وهو ما جعل كاتباً كبيراً كالحريريّ ينتهجه وإنّ تميّز بجراًة في عرض الصور المختلفة للحياة العربية. وقد كان أدب الكذبة (التسوّل) شكلاً سائداً في عصر البديع والحريريّ لا في مجال النثر وحده بل في مجال الشعر أيضاً، فكان العصر يغصّ بالسائلين ممّن كانت لهم حيل وأباطيل وخدع وأضاليل جعلت موضوعهم يشغل الأدباء فينبشون حوله القصائد والمقامات. أما ما كُتب من بعد الحريريّ من مقامات في الكذبة فلم يكن إلّا من قبيل المحاكاة لا من قبيل الثقل عن الحقائق الواقعية.

وقد بقيت لنا من المقامات عشر مخطوطات موزقة بالتصاوير، إحداها بدار الكتب ببلنجراد، وأخرى بإسطنبول، وثالثة بدار الكتب القوميّة بفيينا وثلاث بدار الكتب القوميّة بباريس، وثلاث بالمتحف البريطانيّ والعاشرة بالمكتبة البودلية في أكسفورد. ونستطيع أن نبيّن في منمنماتها نماذج مختلفة من

ولا سيّما في الأدب. وما من شك في أن ثمة غيوباً تتحوّرها إذا أغضينا عن طولها الذي افتضاه موضوعها، وعن الاستطراد المُمِل الذي تُشارك فيه غيرها من الملاحم. هذا إلى التشبيّهات المُكرّرة، فكلّ بطل فيها أسد ضار أو تمساح أو فيل هائج. ويذهب المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام إلى أنّه يجد في الشاهنامة ما يؤيد قول نلديك وبغض قول براون، فالشاعر فياض يحول القارئ من مغممة إلى أخرى مُعجّبا مُرتاعا، وهو يطيل ويُسهب حين يحسب القارئ أن ليس للقول مجال.

وتجمع الشاهنامة مُعظم ما وعى الفُرس من أساطيرهم وتاريخهم من أقدم عهودهم حتى الفتح الإسلامي، مرتبة ترتيباً تاريخياً: تذكر الأسرة قديماً بأول ملوكها بُني تاريخه وما كان في عهده من أحداث ثم تذكر الملك التالي وهلمّ جرّاً. ويستمرّ الفصل فيها ثلاثة آلاف وأربعة وسبعين عاماً يحكم فيها أربع دول: الدولة البيشداوية، وملوكها عشرة حكموا ألفين وأربعمائة وواحدًا وأربعين عاماً. وهو عهد خُرافيّ خالص تختلط فيه أساطير الهند وإيران، ويلتبس فيها الآلهة بالملوك. وتليها الدولة الأخمينيّة [أو الكيانيّة]، وملوكهم عشرة حكموا سبعمائة واثنين وثلاثين عاماً، وهي موصولة في ملوكها وقائعها بالدولة السابكية حتى عهد لهراسپ حيث تنقطع الصلة بالأساطير الهنديّة ويبدأ - فيما يُظنّ - عهدٌ يستقلّ فيه فُورُش بالملك عام ٥٥٠ ق.م. وينتهي بدارا وخروبه مع الإسكندر المقدونيّ.

وتعقبها الدولة الأشكانيّة أو [الباريّة]، ومُدتها مائتا عام، ولا يذكر الفردوسيّ منها إلا أسماء قليلة، ولا تُعنى بهم الأساطير الفارسيّة بل تعدّهم أجانب. وهي دولة تاريخيّة لم يكشف التاريخ بعد عن أصلها أكانت إيريانيّة أم تورانيّة، وتدلّ آثارهم وتصاويرهم على اضطباع حضارتهم بالصبغة اليونانيّة. وأخيراً الدولة الساسانيّة، ومُدتها في الشاهنامة خمسمائة وواحد من الأعوام، وملوكها تسعة وعشرون. وهي دولة موصولة السبب والمآثر بالدولة الأخمينيّة، وهي التي أعادت إحياء الأمجاد الفارسيّة والعقيدة الزردشتيّة بعد غزو الإسكندر للبلاد. ويتخلّل أخبار ملوكها قصص كثيرة مُمتعة لا يملّ الفردوسيّ من الإطالة فيها.

أما أشخاص الشاهنامة فإلّا الملوك المرتبة الأولى في تصريف شئون الدولة، لهم الأمر التافذ والطاعة العمياء، وهم مُميّزون حتى في خلقتهم، فالملوك الأخمينيّون - على سبيل المثال - كان في أجسامهم شامة يُعرفون بها، ولكنّ الملوك، على علوّ قدرهم، ليسوا معصومين. وبلي الأبطال الملوك وقت السلم، ولكنهم يحتلون المكانة الأولى وقت الحرب، وبعضهم من نسل

التي عفاها الدهر وضاعت معالمها وسط كلّ ما هو جديد، فكلّ العناصر المعماريّة جليّة حتى مناوح الهواء بأعلى الدور، وأسلوب لصق ألواح الخشب عند صنع القوابب والشُفن. وفوق هذا كلّهُ نستطيع أن نُلقي نظرة فاجصة على صندوق آلات الحجام - جراح عصره - بل وما هو أكثر، فقد أتاحت لنا أن نتسلّل إلى أماكن لم يكن من السهل أن نفقدها آنذاك كمخادع النساء أثناء عمليّة الوضغ. إنّها في إنجاز مرآة فريدة للحياة العربيّة خلال العصور الوسطى تعكس صوراً من حياة الإنسان منذ استقباله الحياة حتى يرحل عنها (لوحات ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٥٣، ٢٢م).

ولم يكن من المرتقب أن يعدو مثل هذا الكتاب بأسلوبه البليغ وبما تضمّنه من معلومات غزيرة في مثل شعبيّة كتاب كليله ودُمته، غير أنّه لم يلبث في القرن الثاني عشر، وبمجرد الفراغ منه، أن حاز شهرة واسعة كنموذج للبلاغة. ورغم أنّ الحريريّ مؤلّف المقامات كان مُسلماً تقيّاً محافظاً، فقد صادف كتابه هوى في نفوس المثقفين المسيحيّين ومن يقرأون العربيّة، واستأثر بشغفهم مثلما استأثر بشغف المسلمين. ويتضح من دراسة الصور الموجودة في المخطوطات المبكرة لهذا الكتاب أنّها مستلهمة من الفنّ المسيحيّ وأنّ بعض مصوريها كانوا من المسيحيّين، أو كانوا ينقلون نماذج مسيحيّة أو يعملون على هذّي التراث التقليديّ الذي يرجع في النهاية إلى الفنّ المسيحيّ (لوحة ٣٤).

الشاهنامة

الشاهنامة هي الملحمة القوميّة الفارسيّة التي تُجسد مآثر أبطال التاريخ الفارسيّ القديم. وللشاهنامة عند الفُرس مكانة جليّة، فهي سجلّ تاريخهم وأناشيد أمجادهم وديوان لغتهم، يُنشدونه في المحافل ويهيم به العالم والجاهل حتى سمّاه ابن الأثير قرآن القوم. ومع أنّ مشاهد الحرب تستقبل القارئ في كلّ مكان، إلا أنّ ثمة ميادين للحُبّ والعواطف الجائحة. ويستحوذ مؤلّفها الشاعر الفردوسيّ على القارئ ببساطة الوصف. وعاطفة الأبوّة والأومة والقرابة شديدة الوضوح في الكتاب، وإنّ صاحبها التعلّش للدماء نأراً للأقارب. وإذا كان أدباء الشرق والغرب، وفي مقدّمتهم المستشرق الألمانيّ نلديك شديدي الإعجاب بالشاهنامة، فإنّا نجد المستشرق الإنجليزيّ براون لا يُشاركهم هذا الإعجاب، فهي في رأيه لا يجوز أن توضع لحظة واحدة في مستوى المُعلّقات العربيّة ولا أن تُقاس في جمالها وعاطفتها بما يتجلّى في المنظومات الفارسيّة الخُلقيّة والغراميّة والوجدانيّة الرائعة، وإن كان لا يجوز المُجادلة في أمور الدوق

الساسانيين قد اهتموا بتصوير الحروب والمعارك التي تفيض بها الشاهنامة، وأن المصورين كانوا يحتفظون بنسخ من الصور الساسانية الأولى التي تصور حوادثها. ولدينا، منذ انتهت الفرزدوسي من شاهنامته في القرن العاشر، ثلاثة أدلة مستقلة أشارت إلى صور ذات أصل ساساني: أولها قول المسعودي إنه في حوالي سنة ٩١٥ شهد صوراً خاصة للحكام الساسانيين في ثياب الملوك ساعة موتهم في كتاب تاريخ ملوك فارس، احتفظت به إحدى الأسر النبلية بمدينة «إصطخر»، وثانيها كتاب مشابه ذكر أحد علماء الجغرافيا أنه كان محفوظاً في قلعة «شيز» القريبة من موقع يُعد من أقدس معابد النار في عصر الساسانيين، وثالثها ما أشار إليه ابن حوقل سنة ٩٧٧ من أن ثمة مبنى كبيراً في إقليم «إصطخر» زين بالتماثيل والصور. وقد حكّت هذه الآثار الباقية من فن التصوير الساساني الأسطورة القومية الفارسية، واتخذت نموذجاً لخرقة قاعة قصر السلطان محمود الغزنوي بالصور حين شرع الفرزدوسي في تجميع مواد ملحمته وإعدادها، فبدا فيها ملوك إيران وطوران وأبطالهما بأسلحتهم وخيولهم وأبطالهم وجمالهم.

ومن خلال النسخ المصورة القليلة الباقية من الشاهنامة يمكننا القول بأن كبار الفنانين المسلمين نادراً ما اهتموا بتصوير هذا العمل سوى قلة من النسخ أعدت خصيصاً للسلطين والأمراء (اللوحان ٤٠، ٤١م)، وتركوا ما عدا ذلك للمصورين العاديين. ولعل من يبي أسباب اغضائهم عنها تلك الرتبة التي تتكرر في قصص متشابهة عن صراعات الملوك والأبطال والمعارك الجماعية، باستثناء مغامرات رستم وإسكندر وبهرام جور التي أثارت اهتماماً بالغاً أفاد منه المصورون. وما تزال مسألة الأصل التاريخي للتماذج المختلفة الواردة في العديد من مخطوطات الشاهنامة بحاجة إلى تمحيص، ذلك أنها تجمع بين مدارس فنية متباينة، ولا يزال باب الاجتهاد مفتوحاً للتحقق مما يرجع منها إلى المصادر الساسانية ومما يعد ابتكاراً غير مسبوق.

منظومات خمسه للشاعر نظامي الكنجوي ١١٤٤ - ١٢١١

يلي الشاهنامة في شعبيتها من بين كتب الشعر الفارسية الكثيرة «منظومات خمسه» تأليف نظامي أحد أشهر شعراء الفرس. وكان هذا الشاعر القدير أستاذاً في تأليف القصص الشعري الذي صادف شهرة واسعة، وبخاصة في العهود التي كان يتلقى خلالها المصورون الهبات والجنح من الأمراء الفرس رعاة الفنون، ومن ثم تسابقوا في تزيين كتاباته بالمنمنمات التي سجلت أزوع التحف الفنية في تاريخ التصوير الإسلامي. وتضم

الملوك، وأعظم أبطال الفرس أفريدون وكبخسرو وسام وزال ورستم الذي هو بطل أبطال الشاهنامة. أما أعظم أبطال الدولة الساسانية فهو الملك بهرام جور والقائد بهرام جوبين.

وكان للموايدة شأن عظيم في عهد الساسانيين، وإن توسعت الشاهنامة في معنى الموبد، فهو عندها مستشار الملوك والأمراء ومفسر الأحلام كما هو طبيب.

وتمضي أحداث الشاهنامة وفق قضاء قاهر لا حيلة فيه: «فمن يستطيع التجارة بالشجاعة والمعرفة من هذا التين المحلق حديدي المخالب؟ إن المقدّر كائن لا ريب، لا يحاول الإنسان الحكيم تغييره».

والأمم التي جاء ذكرها في الشاهنامة عدا الإيرانيين هم التورانيون، من أمم الشمال الهمجية، والروم والهند والصين والعرب، وهي الأمم المجاورة لإيران والقريبة منها. وملوك التورانيين والروم - وفق الشاهنامة - أقارب ملوك إيران، كلهم من ذرية أفريدون، فملوك إيران من نسل إيرج، وملوك توران من نسل تور، وملوك الروم من نسل سلم، هذا إلى زواجهم بعضهم من بعض في عصور مختلفة. أما الهنود فليسا أقرباء ولكنهم ليسوا أعداء، وإن صهر الملك بهرام جور الساساني إلى ابنة ملك الهند. ولا يذكر الصينيون إلا في أمور التجارة، وإن التبس الأمر بينهم وبين التورانيين أحياناً. أما العرب فأجانب أعداء مثلهم شخصية «الضحاك» أحد الأزواج الشريرة الثلاثة التي دمّرت إيران، وثانيهما أفراسياب بطل التورانيين وثالثهما الإسكندر المقدوني، وإن كانت لهم مع ذلك صلات صهر، فقد تزوج البطل زال بن سام من بنت مهراب ملك كابل العربي الأصل وسليل الضحاك، فجعل العرب أحوال رستم بطل أبطال الفرس.

وإذ عمد الفرزدوسي، عند تجميع وقائع الشاهنامة، إلى استخدام المادة التاريخية الأسطورية التي ترجع إلى أزمان سابقة على الفتح العربي كان من الطبيعي أن يرجع المصور - حين يعهد إليه بمهمة تزويد المخطوطة بالصور - إلى المصدر المبكر نفسه الذي ألهم الفرزدوسي، بحثاً عن نماذجه. ورغم أن ما تبقى من تلك المصادر قليل إلا أنه من الثابت أن مدرسة التصوير كانت مزدهرة خلال حكم الساسانيين في فارس. بل إن التصوير كان هو الفن الذي خلف تأثيراً حيويًا على كل الفنون الأخرى، حتى إن جميع النقوش الصخرية والمنجزات المعدنية والمنحوتات التي بقيت لنا تدب بموضوعها وبأشكالها إلى نماذج ابتدعها المصور الساساني.

وتؤكد بعض الأعمال الأدبية لذلك العصر أن المصورين

حافظ قصائد ومقطوعات وغزليات ومثنويات ورباعيات، كان أكثرها ذيوغاً غزلياته التي طالما كانت تجري على ألسنة قومه لما كانت تحمله من معاني الزهد والتصوف. غير أن ديوان حافظ لم يحط باهتمام المصورين إلا نادراً. ولعل الذي حال بين المصورين وبين أن يصوروا ما جاء على لسان حافظ من تشبيهات تصوّفية هو أن تلك التشبيهات كانت من الغموض وبُعد الغور بمكان مما جعل تصويرها أمراً مستعصياً.

«نفحات الأنس» لعبد الرحمن جامي (١٤١٤ - ١٤٩٢)

وجامي هو خاتمة المتصوفين من شعراء الفرس، اتصل أول حياته بالطريقة النقشبندية وغداً بعد زعيم تلك الطائفة. وشعر جامي في التصوف أروع الشعر، ومنه «اللوامع على خمرية ابن الفارض». غير أن أشهر مؤلفاته «نفحات الأنس» من حضرات القدس الذي ينتظم أحوال اثنين وثمانين وخمسمائة من كبار الصوفية، وأربع وثلاثين من العارفات.

وثمة أسماء أخرى لشعراء زود المصورون مخطوطاتهم بالمنمنمات المصورة، ولكن أحداً لم يلق ذلك الاهتمام الذي لقيه الفردوسي ونظامي وسعدي. أما مخطوطات النثر المصورة فهي أندر من مثيلاتها في الشعر، وإن عدت هذه المخطوطات في تاريخ الفرس الأدبي من أجل المؤلفات وأصحها شأنًا. وعلى الرغم من ذلك فما أندر ما كان يُدعى المصورون للمعاونة في إعداد نسخ جديدة مصورة منها، باستثناء نسخة الترجمة الفارسية لكتاب الطبري «تاريخ الأنبياء والملوك»، ونسخة رشيد الدين عن تاريخ المغول «جامع التواريخ» بدار الكتب القومية بباريس، ونسخة كتاب «مطلع السعدين» لكمال الدين عبد الرزاق السمرقندي بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، وكتاب «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» للقزويني، وعدد آخر من المؤلفات التاريخية.

كتاب «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات»

يعد كتاب «عجائب المخلوقات» للقزويني من أكثر الأعمال الثرية المصورة شيوعاً، وهو بحث في شئون الكون والمخلوقات، لاقى انتشاراً واسعاً في العالم الإسلامي، وترجم من اللغة العربية إلى لغات عديدة مثل الفارسية والتركية والأوردو. ويضم الكتاب موجزاً للعلوم الطبيعية كما عرفت لدى المسلمين في القرن الثالث عشر، وكانت آنذاك تشتل على علوم الفلك والفيزياء والحيوان والتعدين وما إلى ذلك. وتخلط في هذه العلوم كل أفايصص العجائب التي كانت تثير

«منظومات خمس» قصصاً خمساً هي «مخزن الأسرار» (لوحة ٥٤)، و«خسرو وشيرين» التي استمد فحواها من تاريخ الملوك الساسانيين، و«ليلى والمجنون»، و«هفت پیکر» [أي الصور السبع أو الفاتيات السبع] التي استوحى موضوعها هي الأخرى من التاريخ الفارسي القديم قبل الإسلام، و«اسكندر نامه» بشقيها: «شرف نامه» أي كتاب الشرف عرض فيه للإسكندر كطل فاتح، و«خردنامه» أي كتاب العقل، وتحدث فيه عن الإسكندر والحكيم ونبي مرسل (لوحة ٥٥). ونلاحظ أن الشاعر قد تملق الشعور القومي للفرس من خلال حكايتين هما «خسرو وشيرين»، و«هفت پیکر». وكان نظامي تقياً بطبعه متشدداً في تقواه، ينزع إلى التصوف، وهو مع هذا كان معنياً بمجريات الأمور في حياة الناس. ولهذا فقد حظي بإقبال شديد من قراء الشعر الفارسي، لا من بين معاصريه فحسب بل ومن الأجيال التالية، وأمتاز شعره بالعرض البسيط المباشر وخلوه من كل أنواع الغموض المتنافيزيقي، فأحبه البسطاء كما أحبه عشاق القصة المحبوبة (لوحات ٢٧، ٣٢، ٣٩، ١٩م). وإذا كانت أكثر منمنمات التصوير الفارسي قد جاءت في مخطوطات خمس نظامي، لهذا سيجد القارئ في سياق الحديث عن التصوير الفارسي شرحاً تفصيلياً لهذه المنظومات الخمس تباعاً.

«بستان» سعدي الشيرازي (١١٨٩ - ١٢٩١)

ويلي نظامي في شعبيته الشاعر سعدي الذي اشتهر بغزلياته المعنونة بعنوان «الطيبات»، وقد عايش محنة غزو المغول للعالم الإسلامي واستقر في مدينة شيراز التي نجت من بطش الغزاة بعد تطواف دام ثلاثين عاماً. وعكف في شيراز على تأليف كتابيه «بستان» و«جلستان» اللذين تُرجمتا إلى اللغة العربية وعدة لغات أوربية. وثمة نسخ لا حصر لها من هذين المؤلفين (لوحة ٤١م) اشترك في تصويرها عدد كبير من الفنانين، تأتي في مقدمتها نسخة دار الكتب المصرية بالقاهرة التي شارك في تصوير بعض منمنماتها المصور بهزاد الدائع الشهرة والصيت.

ديوان حافظ الشيرازي ١٣٢٠ - ١٣٨٩

يُقال إنه لُقّب بهذا اللقب «حافظ» لأنه كان من حفاظ القرآن، كما يُقال إنه لُقّب بهذا اللقب لأنه كان ينفرد من بين أقرانه بحفظ جملة من الشعر الصوفي لم يتسنّ لغيره حفظها، وكان من أبرز شعراء المصوّفة الفرس في عصره. وعلى الرغم من أن بلاده كانت ميداناً فسيحاً للفتن والتقلبات وتغيّر الحكام فإنه لم يتقرب إلى ملك أو سلطان يزلفى يستجديه ويستوحيه، بل عاش يُملي العظة ويقول العبرة من دون خوف أو وجل. ويضم ديوان

ورُوحانيّ. وهو المفهوم نفسه الذي يتلّغ به الأدب الهنديّ المكشوف، مثل كتاب مآثرات الحبّ الجسّيّ المعروف باسم «كاما سوترا» الذي ألفه فاتسيايانا حوالي عام ٣٠٠م. ليكون دليلاً فنيّاً على تدوّن المتّع الجسّيّة واستيفاء البهجة الحسيّة التي تُزجها العطور والموسيقى والشعر الغنائيّ باعتبارها فنوناً مُساعدة. ولا يقوّه أن يستعرض العلاقات الغراميّة بين الرجال والنساء على مدى تاريخ الهند القديم. على أنّ الكتاب، وإن لم يذهب إلى أنّ المتعة الجسّيّة هي الخير الأسمى، إلّا أنّه في الوقت نفسه لا يحطّ من قدرها أو يستخفّ بها، بل هي عنده موضع التقدير لأنها عنصر لا غنى عنه لسعادة الإنسان في سنّ مُعيّنة، وكذلك لتقوية روابط الزوج. وينظر المؤلّف للجنس على أنّه وسيلة للحبّ والمتعة، وعلى أنّه أسّ من أسس الحياة، كما ينظر إليه دينياً على أنّه وسيلة لاستمرار نظام الحياة الثابت وجوداً وفناءً على أيدي الآلهة. وهكذا أصبح في الإمكان الارتقاء بالحبّ إلى مرتبة الفنّ الرفيع على يد الفنّان الحاذق القدير.

وبدار الكتب المصريّة نسخة من مخطوطة كتاب شريعة اللذة، وهو ترجمة فارسيّة لكتاب «كاما سوترا» ألفه الوزير كوكا المعروف بمغامراته العاطفيّة مع النساء لملك من ملوك الهند. وتحتوي المخطوطة على سبعة أبواب في وصف النساء والفروج وطبائع الرجال والغريزة الجسّيّة عند المرأة، ويشمل الباب الأخير العقاقير الموصوفة للضعف الجسّيّ. ويسجل المؤلّف فيه مُغامراته الجسّيّة مع إحدى النساء وكانت قد فقدت ثقتها في قدرة الرجال على إشباع شهواتها، وتمثّل اللوحة التي اختارناها بحذر وعلى استحياء رجلاً إلى جوار امرأة مُستلقيين على الفراش كما هو واضح من الكتابة بأعلى الصورة (لوحة ٤٢م).

وإلى جانب هذا اللون من كتب العشق الإباحيّ ثمة كتب تتناول العشق العُدريّ الذي كثيراً ما ينتهي بالزواج. ونجد التصوير الفارسيّ زاحراً بيثّل هذا اللون من العشق العُدريّ على نحو ما سترى في الباب الثالث.

صُور الحَمَامات

إنّ ما تبقى لنا من النماذج الأولى لفنّ التصوير الإسلاميّ هو

(١) التَنَتَرِيّة (Tantarism): تمّ تصنيف الطقوس السّخريّة البوذية وتجميعها في كُتَيّات سُمّيت «تنترا» تضمّ تعريفاً بالوسائل التي يُستجلب بها رضا الآلهة، ومنها تلاوة الرُقيّ والتعاويد وأسماء الله. وقد أُطلق على البوذية القائمة على كُتَيّات التنترا اسم «التَنَتَرِيّة» التي ظهرت في شكلها المُنظّم خلال القرن السابع [م.م.٠٠٠].

خيال العصور الوسطى في الشرق والغرب على السواء ببعض المعلومات العلميّة المسجّلة، كما يخلط الكتاب بين ما هو خرافيّ وما هو حقيقيّ (اللوحتان ٢٦م، ٥٦). وتحتوي هذه الكتب أحياناً على أوصاف وحوش غريبة مروّعة ليس في علمنا اليوم عنها شيء. ولم يتصدّد الفكر العلميّ حتّى الآن لدراسة مُقارنة بين كُتب «طبائع الحيوانات المرموز بها» الأوربيّة Bestiary وبين تلك الحيوانات الخرافيّة على النحو الذي تخيلها به الناس خلال العصور الوسطى الإسلاميّة، فمثل هذه الدراسة كفيلة بأن تكشف عن تشابه كبير بين تصاوير الأوربيّين والأوصاف التي أوردتها القزوينيّ. ولقد أضاف المصورون المسلمون، على نتائج أزمانهم، إلى نسخ هذا الكتاب صوراً من خيالهم تمثّل ما ورد به، ويبدو أنّ بعضهم قد نقلوا عن أعمال المصورين المسيحيّين. من ذلك مُنمنمة رُموز الرُّسل الأربعة أصحاب الأناجيل: ملاك القديس متى، وأسّد القديس مرقس، وثور القديس لوقا، ونسر القديس يوحنا (لوحة ٥٧) التي تضمّها نسخة من كتاب القزوينيّ كان يحتفظ بها البروفسور سار. وكان القزوينيّ قد أورد ضمن فصل عن صور الملائكة وملابسهم وألوانهم أنّ «حملة العرش صلوات الله عليهم أربعة صور: آدميّ وبقر ونسر وأسّد». وقد شاعت صور بعض الوحوش الغريبة مثل الرجال ذوي أذان الأفيال وزؤوس الكلاب، ومثل الأديبين ذوي الساق الواحدة، وغير ذلك من الخيالات المُرعبة في بعض المخطوطات الإسلاميّة على نحو ما شاعت في مَنحوتات كاتدرائيات العصور الوسطى.

كُتب العشق

لقد استوحى المصورون المسلمون من القصص الثنريّ والشعريّ، بما فيه من أحاديث العشق والغرام إباحياً كان أو عُدريّاً، ما يروّج فيه مجالاً للتصوير استجابة لرغبة الملوك والحكام وامتيثاً لِهَواهم لكي يجمّلوا بها قصورهم أو يحفظوا بها في خزائنها.

ولقد تأثرت فنون آداب الشرق الأقصى بالمذهب التَنَتَرِيّ^(١) الذي يشكّل - بين ما يشكّل - لوناً من التصوّف الماخن ذاع في أرجاء الهند خلال القرنين السابع والثامن أذى هو والأدب المكشوف إلى انتشار المَنحوتات المثيرة جنسياً في المعابد الهندوكيّة، ولا سيّما في «خاجوراها» خلال القرنين العاشر والحادي عشر. ولا يفتأ زائرو الهند أن يقفوا حائرين مشدوهين حين تقع أبصارهم على زخارف المعابد الهندوكيّة الفاجشة بما تضمّ من غرايا ومشاهد جنسيّة تفصيليّة صارخة، مَنقوشة كانت أم مصوّرة، غير مُصدّقين ما يزعمه سدنة الهندوكيّة بأنّها فنّ دينيّ

الجُدران لإخفاء معالم الرسوم حتى إذا حَضَرَ المَبْعُوثُ وفتح الباب عَوَّةً وَجَدَ جُدرانًا عاريةً إلَّا من بَعْضِ المَعْلَقَاتِ غَيْرِ المَصَوِّرةِ.

ونجد المزيد من التفصيل ابتداءً من القرن الثالث عشر عن أوصاف حَمَامِ بَغْدَادِ بَقَصْرِ شَرْفِ الدِّينِ هَارُونَ الذي كان هو نفسه شاعراً وراعياً للشُعراء وابن كبير من رجال الدولة، هو شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ الجَوْنِيُّ «صاحب الديوان» في دولة الإيلخانات الذي رَأَسَ الحُكُومَةَ في فَارِسَ عَهْدَ الحُكَّامِ المَغُولِ الثلاثة: «هولاكو» ثم «أباقا» ثم «أحمد» الذي أسلم على يَدِهِ. ولكن ما إن اغتيل الأمير «أحمد» بِيدِ ابْنِ أَخِيهِ «أرغون» سنة ١٢٨٤م حتى قُتِلَ الجَوْنِيُّ وأولاده. ويبدو أن قَصْرَ شَرْفِ الدِّينِ هَارُونَ كان مَبْنًى عَظِيمَ الشَّانِ كما كان حَمَامُهُ يَضُمُّ عَدَدًا من الحُجَرَاتِ، يَبْلُغُ عَشْرًا، مَزِيَّنًا بِأَنْدَرِ الرُّخَامِ وأغلاه من مُخْتَلِفِ الألوان، وتَسَابِ المِياهِ إليه عَبْرَ أَنْابيبٍ من الفِضَّةِ أو من الفِضَّةِ المُرَصَّعةِ بِالذَّهَبِ، صِيغَ بَعْضُهَا على هَيْئَةِ الطُّيُورِ، تَدْفُقُ المِياهِ من خلالها فَتُصْدِرُ صَوْتًا يُحَاكِي صَوْتَ الطَّائِرِ، على حينَ كانت الشَّقَّةُ الدَّاخِلِيَّةُ في الحَمَامِ دَائِمًا مُغْلَقَةً، حِرْصًا على إخفاء ما رُيِّنَتْ به من صُورٍ تُمَثِّلُ مُخْتَلِفَ مَشَاهِدِ اللِّقَاءِ الجَنَسِيِّ. يقول الحَسَنُ المُتَطَلِّبُ: «ورَأَيْتُ بَبْغَدَادِ في دار المَلِكِ شَرْفِ الدِّينِ هَارُونَ ابنَ الوَزِيرِ الصَّاحِبِ شَمْسِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بنِ مُحَمَّدِ الجَوْنِيِّ حَمَامًا مُتَفَنَ الصَّنْعَةِ، حَسَنَ البِنَاءِ، كَثِيرَ الْأَصْوَاءِ، قد اخْتَفَتْ به الْأَنْهَارُ والأَشْجَارُ. فأَدْخَلَنِي إِلَيْهِ سَائِسُ الحَمَامِ، وكان خَادِمًا حَبِشِيًّا كَبِيرَ السِّنِّ والقَدَرِ، ففَرَّجَنِي في مِياهِهِ وشَبَابِيكِهِ وَأَنَابِيهِ المُتَخَذَةِ بَعْضُهَا من الفِضَّةِ المَطْلِيَّةِ بِالذَّهَبِ وَغَيْرِ مَطْلِيَّةٍ، وَبَعْضُهَا على هَيْئَةِ طَائِرٍ إِذَا خَرَجَ مِنْهَا المَاءُ صَوَّتَ بِأَصْوَاتٍ طَيِّبَةٍ، وَمِنْهَا أَحْوَاضُ رُخَامٍ بِدِيعَةِ الصَّنْعَةِ والمِياهِ تَخْرُجُ من سَائِرِ الْأَنَابِيِبِ إِلَى الْأَحْوَاضِ، ومن الْأَحْوَاضِ تُرْمَى جَمِيعُهَا إِلَى بَرْكَةِ حَسَنَةِ الْإِنْقَانِ، ثُمَّ مِنْهَا يَخْرُجُ إِلَى البُسْتَانِ. ثُمَّ فَرَّجَنِي فِي خَلْوَةٍ، نَحْوُ عَشْرِ خَلَوَاتٍ، كُلُّ خَلْوَةٍ صَنَعْتَهَا أَحْسَنَ مِنْ أُخْتِهَا، ثُمَّ انْتَهَى بِي إِلَى خَلْوَةٍ عَلَیْهَا بَابٌ مُقْفَلٌ بِقِفْلٍ حَدِيدٍ فَفَتَحَهُ وَدَخَلَ بِي إِلَى دَهْلِيزٍ طَوِيلٍ كُلُّهُ مُرَحَّمٌ بِالرُّخَامِ الْأَبْيَضِ السَّادِجِ. وَفِي صَدْرِ الدَّهْلِيزِ خَلْوَةٌ مُرَبَّعَةٌ تَسَعُ بِالتَّقْرِيبِ نَحْوَ أَرْبَعَةِ أَنْفُسٍ إِذَا كَانُوا قُعُودًا، وَتَسَعُ اثْنَيْنِ إِذَا كَانَا جَالِسَيْنِ أَوْ نَائِمَيْنِ. وَرَأَيْتُ مِنَ الْعَجَبِ فِي هَذِهِ الْخَلْوَةِ أَنَّ حَيِّطَانَهَا الْأَرْبَعَةَ مَصْقُولَةٌ صِقَالًا لَا فَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ صِقَالِ المِرْآةِ يَرَى الْإِنْسَانُ سَائِرَ بَشَرَتِهِ فِي أَيِّ حَائِطٍ شَاءَ مِنْهَا. وَرَأَيْتُ أَرْضَهَا مَصَوِّرةً بِفُصُوصِ حُمْرٍ وَخَضِرٍ وَمُذْهَبَةٍ وَكُلُّهَا مُتَخَذَةٌ مِنْ بِلُورٍ مَصْبُوغٍ بَعْضُهُ أَحْمَرُ. فَأَمَّا الْأَخْضَرُ فَقِيلَ إِنَّهُ حِجَارَةٌ تَأْتِي مِنَ الرُّومِ والمُذْهَبُ فَهُوَ رُجَاجٌ مُلَبَّسٌ بِالذَّهَبِ. صَوَّرًا فِي غَايَةِ الحُسْنِ والجَمَالِ لِأَشْخَاصٍ على هَيْئَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ فِي نَوْمِهِمْ، وَهَمَّ بَيِّنَ فَاعِلٍ وَمَفْعُولٍ بِهِ إِذَا نَظَرَ إِلَيْهِمْ

بَعْضُ الصُّورِ الجِدَارِيَّةِ فِي حَمَامٍ «فُصِّيرَ عَمْرَةً» الذي يَعْكُسُ طَائِعَ التَّرَفِ لَدَى غَالِيَّةِ خُلَفَاءِ العَصْرِ الْأُمَوِيِّ. وَقد اسْتَسَمَتْ زَخَارِفُ الحَمَامَاتِ وَمَظْهَرُهَا بِهَذَا الطَّائِعِ نَفْسَهُ ابْتِدَاءً مِنَ الْقَرْنِ الثَّانِي. وَكان على الحَاكِمِ المُسْلِمِ، إِذَا رَغِبَ فِي الحُصُولِ على مِثْلِ هَذِهِ الصُّورِ، أَنْ يُسَيِّدَ تَنْفِيزَهَا كما سَبَقَ الْقَوْلُ إِلَى مُصَوِّرِينَ مِنْ أَبْنَاءِ أَقْلِيمٍ مِنْ أَقَالِيمِ الإِمْبَرَاطُورِيَّةِ الْبِيزَنْطِيَّةِ الَّتِي فَتَحَهَا المُسْلِمُونَ. بَلْ وَيَبْدُو أَنَّ بَعْضَ التَّمَائِلِ التَّقْلِيدِيَّةِ قَدْ أُخْفِيَتْ مُؤَثَّرًا دَاخِلَ تِلْكَ الحَمَامَاتِ لِحِمَايَتِهَا. وَعِندَمَا أَمَرَ يَزِيدُ الثَّانِي الخَلِيفَةُ الْأُمَوِيُّ فِي سَنَةِ ٧٢٢م بِتَخْطِيمِ كُلِّ الْأَوْثَانِ والأَصْنَامِ كان التَّمثالُ المَعْرُوفُ بِاسْمِ يَمثالِ حَمَامِ زَيَّانٍ - ابنِ عَمِّ الخَلِيفَةِ - مِنْ بَيِّنِ التَّمَائِلِ الَّتِي أَصَابَهَا الدَّمَارُ. وَمِنْ المُحْتَمَلِ أَنَّ هَذَا الحَمَامَ كان فِي مَدِينَةِ الإسْكَندَرِيَّةِ على نَحْوِ ما جاء بِكِتَابِ الكُنْدُكِيِّ عَنِ الْوَلَاةِ والفَضَاةِ فِي مِصْرَ. وَقد وَصَفَ الشَّاعِرُ هَذَا الحَمَامَ بِقَوْلِهِ:

مَنْ كان فِي نَفْسِهِ لِلْبَيْضِ مَنَزِلَةٌ

فَلَيَّاتِ أَبْيَضَ فِي حَمَامِ زَيَّانٍ

عَبْلَ لَطِيفِ هَضِيمِ الكَشْحِ مُعْتَدِلٍ

على تَرَائِيهِ فِي الصَّدْرِ ثُدَيَّانٍ

والحَمَامِ المَلَكِيِّ الْوَحِيدِ الَّذِي تَبَقَّى لَنَا مِنَ العَصْرِ الْأُمَوِيِّ هو «فُصِّيرَ عَمْرَةً»، على حينَ لَمْ يَبْقَ مِنَ العَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ سِوَى بَعْضِ الْأَجْزَاءِ الْمُفْتَتَةِ الَّتِي اسْتَطَاعَ أَنْ يَسْتَفِيدَها وَيَجْمَعُها، فِي كَثِيرٍ مِنَ الصَّبْرِ والأَنَاةِ، البرُوفُورِ هِرْتِفِيلْدِ أَثْناءَ حَفَائِرِهِ بَيْنَ أَطْلالِ قَصْرِ الْمُتَوَكِّلِ (٨٤٧ - ٨٦١) فِي «سامرا». وَيَصْعَبُ عَلَيْنَا أَنْ نَتَخَيَّلَ صُورَةَ كَامِلَةَ لِلْمَوْضُوعِ الْمُصَوَّرِ مِنْ خِلالِ هَذِهِ الْأَجْزَاءِ الْمُفْتَتَةِ. وَلَكِنْ الشَّخْصُ شِبْهُ الْعَارِيَةِ لِلرَّاقِصَاتِ وَالْعَارِفَاتِ تُوحِي بِأَنَّ الطَّائِعَ الْعَامَّ لِلزَّخَارِفِ كان شَبِيهاً بِزَخَارِفِ «فُصِّيرَ عَمْرَةً».

وحتى نِلْمَ بِمَناجِزٍ أُخْرَى لِمِثْلِ هَذِهِ الحَمَامَاتِ لَا مَهْرَبَ لَنَا مِنْ الْأَعْتِمَادِ على الْأَوْصافِ الْبَاقِيَةِ لَنَا، غَيْرَ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْأَوْصَافِ بِدَوْرِهَا نَادِرَةٌ. وَمِنْ قَبِيلِ هَذِهِ الْأَوْصَافِ قِصَّةُ مُحَمَّدِ الْغَزْنَويِّ (٩٩٨ - ١٠٣٠) وابْنِهِ الَّتِي تَرْجِعُ إِلَى فِتْرَةِ تَذَهُّورِ الحُكْمِ الْعَبَّاسِيِّ. وَتُروِي القِصَّةَ كَيْفَ عَلِمَ مُحَمَّدُ الْغَزْنَويُّ مِنْ جَوَاسِيْسِهِ أَنَّ ابْنَهُ مَسْعُودَ الَّذِي خَلَفَهُ فِيما بَعْدَ فِي الحُكْمِ ابْتَنَى لِنَفْسِهِ بَيْتًا صَغِيرًا وَسَطَ حَدِيقَةِ القَصْرِ بِمَدِينَةِ هَرَاةَ، وَزَيَّنَ جُدرانَهُ وَسَتَفَهُ وَأَرْضِيَّتَهُ بِصُورٍ مَأْخُودَةٍ عَنِ الكُتُبِ الْكَثِيرَةِ الْمُتَدَاوِلَةِ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْفَارِسيَّةِ الْمُسْتَنَدَةِ إِلَى الْكِتَابِ السُّنُسُكْرِيتِيِّ شَرِيعَةِ اللَّذَّةِ «كاماسوترا»، قَوَّسَى بِهِ الْوَاشُونَ لَدَى أَبِيهِ الَّذِي أَوْفَدَ مَبْعُوثًا خَاصًّا لِيَحِيطَهُ عِلْمًا بِحَقِيقَةِ أَمْرِ هَذِهِ الرُّسُومِ. غَيْرَ أَنَّ جَوَاسِيْسَ مَسْعُودِ فِي بَلَاطِ وَالِدِهِ أَنْذَرُوهُ فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ فَسَارَعَ بِتَكْلِيفِ عَمَّالِهِ بِإِطْلَاءِ

الإنسان تتحرك شهوته».

هذا المعتقد في شعر سَعْدِي الشَّيرَازِيّ وَجَدْنَاهُ يَزُوي «أَنَّ شَخْصًا رَأَى إِبْلِيسَ فِي مَنَامِهِ فَارْفَعَ الْقَوَامَ كَأَنَّهُ صَوْبِرَ جَمِيلٍ يَحْكِي الحوراء... وفي وَجْهِهِ يَتَلَأَلُ إِشْرَاقًا كَأَنَّهُ الشَّمْسُ نُورًا، فَتَقَدَّمَ مِنْهُ - فِي عَجَبٍ - قَائِلًا: أَأَنْتَ بِهَذَا المِثَالِ! فَلَنْ يَكُونَ المَلَاكُ الجَمِيلُ بِمِثْلِ مَا فِيكَ مِنْ جَمَالٍ. أَنْتَ تَبْدُو فِي وَجْهِ جَمِيلٍ جَمَالَ القَمَرِ، فَلِمَاذَا يُصَوِّرُونَكَ فِي العَالَمِ قَبِيحَ المَنْظَرِ؟ لَقَدْ ظَنَّنَا وَجْهَكَ مُخِيفًا عَبَسًا وَصَوَّرُوكَ فِي الحَمَامَاتِ قَبِيحًا بَائِسًا، وَلِمَاذَا تَقَشُّوكَ بِدِيوَانِ القَصْرِ قَبِيحَ الرُّجَّةِ كَرِهَ المَنْظَرُ؟ سَمِعَ الشَّيْطَانُ البَائِسُ هَذَا الكَلَامَ فَانْطَلَقَتْ مِنْهُ صَيْحَةٌ رَهِيبةٌ كَصَيْحَةِ اليَّاسِ، قَائِلًا: يَا صَاحِبَ الطَّالِعِ السَّعِيدِ لَيْسَ شَكْلِي هُوَ مَا تَنْظُرُ. وَلَكِنَّ القَلَمَ الَّذِي صَوَّرْتَ بِهِ فِي يَدِ الحَخْصِ هُوَ الَّذِي صَوَّرَ. لَقَدْ اقْتَلَعْتُ جُذُورَهُمْ مِنَ الجَنَانِ، وَلِهَذَا يُصَوِّرُونَنِي قَبِيحًا اتِّقَامًا مِنِّي». وَلَمْ يَحْفَظْ لَنَا التَّارِيخُ أَيَّ نَمُودَجٍ مِنْ هَذِهِ الصُّوَرِ أَوْ أَيِّ وَصْفٍ مِنْ أَوْصَافِهَا.

صُورُ الغُلَّامَانِ

مِنْ قَبِيلِ التَّجَاوُزِ أَنْ نَتَحَدَّثَ عَنِ الحُبِّ وَالْغَرَامِ مِنْ دُونِ أَنْ نُشِيرَ إِلَى عِشْقِ الغُلَّامَانِ الَّذِي تَفَشَّى إِبْتِدَاءً مِنَ القَرْنِ التَّاسِعِ حَتَّى التَّاسِعِ عَشَرَ، وَتَنَالِ الشُّعْرَ فِي العَالَمِ الإِسْلَامِيِّ مُنْذُ عَصْرِ أَبِي نُوَّاسٍ (تُوفِّيَ حَوَالَى ٨١٠م) وَمَا بَعْدَهُ مَوْضُوعِ الغَزْلِ بِالْمُدَّكَّرِ. وَمِنْ ثَمَّ فَقَدْ عَكَفَ الْمُصَوِّرُونَ عَلَى هَذَا المَوْضُوعِ بَوَصْفِهِ بِذُخَّةٍ شَائِعَةٍ بَيْنَ طَبَقَةِ المُوسِرِينَ (اللُّوحَتَانِ ٥٨، ٥٩، ٢٢م).

وخلال القرنين السابع عشر والثامن عشر انتشرت صور أليفة لشباب مُحَبَّبٍ عَلَى نَحْوِ مَا وَصَفَهَا بِهِ توماس هيربرت في كتابه عن الرِّخَلَاتِ فِي آسِيَا وَأَفْرِيقِيَا سَنَةَ ١٦٣٨ حِينَ وَقَعَ بَصَرُهُ عَلَيْهِمْ فِي بِلَاطِ الشَّاهِ عَبَّاسِ سَنَةَ ١٦٢٨، فَقَالَ فِي وَصْفِهِمْ: «غُلَّامَانِ عَلَى غِرَارِ جَانِيمِيدِسٍ^(١) فِي حُلِّ خَضِرَاءَ ثَمِينَةٍ مُزْرَكَشَةٍ، يَزْدَنُونَ عَمَائِمَ وَنِعَالًا مُتَّقَاةً، يَسْدِلُ شَعْرَهُمُ المَتَمَوِّجَ عَلَى عُيُونِ حَوْرَاءَ نَاعِسَةٍ، وَخُدُودَهُمْ وَرْدِيَّةَ أَثِيلَةٍ، يَحْمِلُونَ أَبَارِيقَ مِنْ مَعَادِنِ نَفِيسَةٍ. مَا يَكَادُونَ يَفْرِغُونَهَا حَتَّى تَمْتَلِئَ، فَيُثِيرُ شَرَابُهَا نَشْوَةً بَاكُخُوسَ وَمَرَحَةً». وَكَانَتْ أَمْثَالُ هَذِهِ الصُّوَرِ فِي الأَكْثَرِ مِنْ عَمَلِ الفَنَّانِ رِضَا عَبَّاسِيٍّ وَتَلَامِيذِهِ (اللُّوحَتَانِ ٥٩، ٦٠).

البورتريهات الإسلامية

خَضَعَ قَدْ تَصَوِيرِ الشُّخُوصِ «البورتريه» بِكُلِّ أَشْكَالِهِ لِلتَّخْرِيمِ،

(١) جَانِيمِيدِس (Ganymedes): كَانَ مِنْ بَيْنِ أَجْمَلِ غُلَّامَانِ اليُونَانِ، خَطَفَهُ نَسْرُ الإِلَهِ زِيُوسَ وَهُوَ يَزْعَى قُطْعَانِ أَبِيهِ، وَيُقَالُ إِنَّ زِيُوسَ نَفْسَهُ هُوَ الَّذِي خَطَفَهُ مُتَنَكِّرًا فِي هَيْئَةِ نَسْرٍ، لِيَعِيشَ بَيْنَ الآلِهَةِ يَخْدُمُهُمْ كَسَاقٍ. [م.م.م.ث.].

وَكَانَتْ مِثْلُ هَذِهِ الصُّوَرِ تُقَابِلُ بِالِاسْتِئْجَانِ الشَّدِيدِ مِنْ قِبَلِ رِجَالِ الدِّينِ، وَلِكَيْتَهَا رَغِمَ هَذَا لَمْ تَعْدَمْ قَوْمًا يُدَافِعُونَ عَنْهَا مِنْ بَيْنِ الأَطْيَاءِ. فَقَدْ وَضَعَ أَحَدُهُمْ كِتَابًا فِي القَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ يَتَنَاوَلُ مَصَادِرَ المُنْتَعَةِ مِثْلَ الحَدَائِقِ وَالْمَادِبِ وَالْأَصْدِقَاءِ وَالْمُغْنِيِّينَ وَالْأَسْمَاكَ وَاللُّحُومَ وَالِاسْتِزْخَاءَ وَالْكُتُبَ وَالْأَسْلُوبَ الأَدَبِيَّ الرَّفِيعَ وَمَا شَابَهُ ذَلِكَ. وَحِينَ يَتَحَدَّثُ عَنِ الحَمَامِ المِثَالِيِّ يَقُولُ: «لَا بُدَّ أَنْ يَحْتَوِيَ الحَمَامُ عَلَى صُورٍ فَنِّيَّةٍ رَفِيعَةِ القِيَمَةِ رَائِعَةِ الجَمَالِ، تُمَثِّلُ أَزْوَاجَ العُشَاقِ وَالحَدَائِقِ وَأَحْوَاضَ الزُّهُورِ وَالخِيُولَ المُطَهَّمَةَ أَثْنَاءَ عَدْوِهَا. فَمِثْلُ هَذِهِ الصُّوَرِ تَشْدُ قُوَى الجَسَدِ وَتَحْفَظُ قُدْرَاتِهِ البَهِيمِيَّةَ وَطَبِيعَتَهُ وَالرُّوحِيَّةَ». وَيَقُولُ بَذَرُ الدِّينِ بْنُ مُظَفَّرٍ قَاضِي بَغْلَبَكْ فِي كِتَابِهِ «مُفْرِجُ النَّفْسِ»: «إِتَّفَقَ عُلَمَاءُ الطَّبِيعَةِ وَالحُكَمَاءُ وَالعُقَلَاءُ عَلَى أَنَّ مُشَاهَدَةَ الصُّوَرِ الجَمِيلَةِ تَشْرَحُ الصَّدْرَ، وَتُسَعِدُ النَّفْسَ، وَتُنَحِّي مَشَاعِرَ الحُزَنِ وَالهَمِّ، وَتُدْكِي فِي القَلْبِ إِشْرَاقَهُ، وَتُنْقِيهِ مِنْ الخَيَالِاتِ المَرِيضَةِ». وَيَقُولُ آخَرُ: إِنَّهُ إِذَا لَمْ تَتَيَسَّرْ لَنَا مُشَاهَدَةُ مَا هُوَ جَمِيلٌ فِي الرُّوَاغِ فَلَا مَنَاصَ مِنْ تَأْمُلِ المَشَاهِدِ وَالرُّسُومِ المَصُورَةِ فِي الكُتُبِ الَّتِي تُزِينُ الأَبْنِيَةَ وَالقِلَاعَ. وَمِنْ هَذَا القَبِيلِ فِكْرَةُ مُحَمَّدِ بْنِ زَكَرِيَا الرَّازِيِّ الَّتِي يَنْصَحُ بِهَا مَنْ يَقَعُ فِي إِسَارِ الخَيْرَةِ وَالتَّرَدُّدِ وَالحَيَالِاتِ السَّقِيمَةِ الَّتِي تَتَنَافَرُ مَعَ أَتْرَانِ النَّفْسِ، فَيَقُولُ إِنَّ امْتِزَاجَ الألوانِ الحَمْرَاءِ وَالصُّفْرَاءِ وَالحَضْرَاءِ فِي اتِّسَاقٍ وَانْسِجَامٍ فِي لَوْحَةٍ جَمِيلَةٍ تَنَاسَبَتْ أَشْكَالُهَا يُؤَدِّي إِلَى بُرْءِ النَّفْسِ مِنَ الأَمْرِجَةِ السُّودَاوِيَّةِ وَإِلَى زَوَالِ التَّرَدُّدِ وَالاِنْفِعَالِ، وَإِلَى تَحَرُّرِ الفِكْرِ مِنَ الأَخْزَانِ، لِأَنَّ النَّفْسَ حِينَئِذٍ تَرْقَى وَتَتَقَيَّ بِتَأْمُلِ تِلْكَ الصُّوَرِ، وَعَلَى ذَلِكَ عَلَى أَوْلَئِكَ الحُكَمَاءِ المُسَيِّتِينَ الَّذِينَ ابْتَكَرُوا الحَمَامَ، وَكَيْفَ اسْتَطَاعُوا بِاسْتِصْصَارِهِمُ التَّقَاضِ وَحِكْمَتِهِمْ وَخَبِيرَتِهِمْ إِدْرَاكَ أَنَّ الإنسانَ إِذَا اسْتَحَقَّ فَقَدْ جَاءَا مِنْ قُوَاهُ، فَأَعْمَلُوا فِكْرَهُمْ لِيَصِلُوا إِلَى التَّرْيَاقِ، وَتَوَصَّلُوا إِلَى تَزِينِ الحَمَامِ بِالصُّوَرِ الجَمِيلَةِ ذَاتِ الألوانِ المَرِحَةِ الزَّاهِيَّةِ، وَقَسَمُوا هَذِهِ التَّصَاوِيرَ إِلَى ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ وَفَقًا لِمُكَوِّنَاتِ النَّفْسِ الإِنْسَانِيَّةِ مِنْ بَهِيمِيَّةٍ وَرُوحِيَّةٍ وَطَبِيعِيَّةٍ، وَأَعَدُّوا لِكُلِّ مِنْ هَذِهِ المُكَوِّنَاتِ صُورًا مُنَاسِبَةً لَتَقْوِيَةِ هَذِهِ القُدْرَاتِ، فَصُورَ القِتَالِ وَالحَرْبِ وَالحَيْلِ أَثْنَاءَ عَدْوِهَا وَصَيَدِ الحَيَوَانَاتِ المُفْتَرَسَةِ أَعَدَّتْ لِلتَّاحِيَةِ البَهِيمِيَّةِ، بَيْنَمَا وَضَعُوا لِمُكَوِّنَاتِ الإنسانِ الرُّوحِيَّةِ صُورَ الحُبِّ وَتَأْمُلِ العَاشِقِ وَالمُعْشُوقِ وَالدَّلَالِ وَالعِتَابِ وَالتَّالُفِ وَالعِنَاقِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وَوَضَعُوا صُورَ الحَدَائِقِ وَالأَشْجَارِ الجَمِيلَةِ وَالزُّهُورِ اليَانِعَةِ لِجَوَانِبِ النَّفْسِ المُوصُولَةِ بِطَبِيعَتِهَا.

وَكَانَ الاِغْتِقَادُ الشَّائِعُ أَنَّ الحَمَامَ مَلَاذِ الجَانِ وَالأَزْوَاجِ الشَّرِيرَةِ فَالصَّلَاةُ فِيهِ بَاطِلَةٌ وَلَا تَجُوزُ فِيهِ تِلَاوَةُ الْقُرْآنِ، وَقَدْ يُفَسِّرُ لَنَا هَذَا الاِغْتِقَادُ الشَّائِعُ سِرَّ تَصَوِيرِ الشَّيْطَانِ دَاخِلَ الحَمَامَاتِ. وَإِذَا تَبَعْنَا

غَيْرَ أَنَّ الْبَيِّنَاتِ وَالثَّقُوشَ تُوحِي بِأَنَّهُمْ عَلَى التَّوَالِي: إِمْبَرِاطُورُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ فِي حُلَّةٍ صَاحِبِ الْعَرْشِ وَعَلَى رَأْسِهِ التَّاجُ، وَشَاهِ الْفُرْسِ فِي ثِيَابِهِ الثَّقِيصَةِ يَضَعُ عِبَاءَهُ قِزْمِيَّةً عَلَى كَيْفِيَّتِهِ وَيَتَعَيَّلُ حِذَاءً قِزْمِيًّا وَعَلَى رَأْسِهِ تَاجٌ ثَمِينٌ مِنَ الطَّرَازِ السَّاسَانِيِّ، وَإِلَى جِوَارِهِ رَجُلٌ غَيْرٌ مُلْتَحٍ لَعَلَّهُ «يَزْدَجَرْدُ» الثَّالِثُ آخِرُ مُلُوكِ الْأُسْرَةِ السَّاسَانِيَّةِ الَّذِي لَقِيَ حَتْفَهُ سَنَةَ ٦٥٢ حَالًا فَرَاهُ. وَيَلِيهِ «رُودِيرِيكُ» آخِرُ مُلُوكِ الْقُوطِ الْغَرْبِيِّينَ فِي إِسْبَانِيَا وَقَدْ ذُبِحَ فِي مَعْرَكَةٍ ضِدَّ الْعَرَبِ سَنَةَ ٧١١. ثُمَّ هُنَاكَ نَجَاشِيٌّ الْحَسَنُ فِي زِيٍّ رَاهِبٍ مِنْ رُهْبَانِ عَقِيدَةِ الطَّبِيعَةِ الْوَاحِدَةِ لِلْمَسِيحِ. وَلَوْ أَنَّ صُورَتَهُ قَدْ مُجِيتَ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا عَلَى الْجِدَارِ سِوَى أَعْلَى خُودَتِهِ، إِلَّا أَنَّ الثَّقُوشَ تُشِيرُ إِلَى أَنَّ صُورَتَهُ كَانَتْ ظَاهِرَةً خَلْفَ كِسْرَى وَقِصْرٍ يَزْنِدِي مَلَايَسَ بَيْضَاءَ وَيَتَشَيَّحُ بِوِشَاحٍ قِزْمِيٍّ وَيَضَعُ عَلَى رَأْسِهِ عِمَامَةً. أَمَّا الشَّخْصَانِ الْآخَرَانِ فَقَدْ تَعَذَّرَ تَحْدِيدُهُمَا، وَإِنْ ذَهَبَ الْبَعْضُ إِلَى أَنَّ أَحَدَهُمَا هُوَ خَاقَانُ الْأَتْرَاقِ التُّرْكُوسْتَانِ الَّذِي حَازَهُ قِيَّتُهُ سَنَةَ ٧١٢، وَثَانِيَهُمَا هُوَ الرَّاجَا الْهِنْدِيُّ الَّذِي هَرَمَهُ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ فِي وَقْتِ مُعَاصِرِهِ. وَرُغْمَ أَنَّهُ يَصْعَبُ عَلَيْنَا أَنْ نُسَمِّيَ آيَةَ صُورَةٍ مِنَ الصُّوَرِ الْمَوْجُودَةِ عَلَى الْجِدَارِ الْغَرْبِيِّ فِي الْبَهْوِ الرَّئِيسِيِّ مِنَ الْمَبْنَى بِأَنَّهَا صُورَةُ شَخْصِيَّةٍ بِحَقٍّ، إِلَّا أَنَّ الْمُصَوِّرَ كَانَ يَقْصِدُ أَنْ تَكُونَ تَمَثِيلًا لِشَخْصِيَّاتٍ فَعَلِيَّةٍ. وَلَعَلَّهَا نُقِلَتْ فِي التَّمُودَجِينِ الْأَوَّلِينَ، عَلَى الْأَقْلَى، عَنْ التَّصَاوِيرِ الَّتِي اتُّخِذَتْ عَلَى الْعُمَلَاتِ أَوْ عَنْ تَمَثِيلَاتِ تَصَوِيرِيَّةٍ لِمُلُوكِ الْإِمْبَرِاطُورِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ وَالْإِمْبَرِاطُورِيَّةِ الْفَارْسِيَّةِ.

أَمَّا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِصُورَةِ الشَّخْصِ الْجَالِسِ فِي الْحَيَّةِ الْعُلْيَا لِلْحَائِطِ الْمُقَابِلِ لِمَدْخَلِ الْبَهْوِ الرَّئِيسِيِّ بِالْمَبْنَى (لَوْحَةٌ ٦٢) فَلَعَلَّهَا لِلْخَلِيفَةِ الْوَلِيدِ (٧٠٥ - ٧١٥) الَّذِي أَمَرَ بِنَاءَ الْحَقَامِ. وَمَعَ أَنَّ هَذِهِ الصُّورَةَ فِي حَالَةٍ رَثَّةٍ، إِلَّا أَنَّهَا تُمَثِّلُ شَخْصًا مَهِيًّا جَالِسًا عَلَى عَرْشِهِ الذَّهَبِيِّ فِي جَلَالٍ، يَقُومُ عَلَى جَانِبَيْهِ عَمُودَانِ حَلَزُونِيَّانِ يَسْتَدَانِ مِظْلَةً، وَتَوَهَّجَ خَلْفَ رَأْسِهِ هَالَةٌ مُسْتَدِيرَةٌ. وَيَعْتَقِدُ أَرْنُولْدُ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ لِمِثْلِ هَذِهِ الصُّورَةِ، فِي مِثْلِ ذَلِكَ الْمَبْنَى وَفِي مِثْلِ ذَلِكَ الْعَهْدِ، إِلَّا أَنْ تَعْنِيَ شَخْصِيَّةَ الْخَلِيفَةِ.

وَتَمَّةُ زَمَانٍ طَوِيلٍ يَقْصُلُ بَيْنَ اللَّوْحَتِ الْجِدَارِيَّةِ «بِقُصْرِ عَمْرَةَ» وَيَبْنَى بَذَنَ عَمَلِيَّةِ سَكِّ الثَّقُودِ الَّتِي تَكْشِفُ لَنَا عَنْ الْمُحَاطَلَاتِ التَّالِيَةِ لِلتَّصَوِيرِ الشَّخْصِيَّاتِ التَّارِيخِيَّةِ فِي عُصُورِ الْإِسْلَامِ. وَأَوَّلَى هَذِهِ الْمُحَاطَلَاتِ نَوُطُ يَحْمِلُ صُورَةَ لِلْخَلِيفَةِ الْمُتَوَكِّلِ (٨٤٧ - ٨٦١). وَالْمَعْرُوفُ عَنِ الْمُتَوَكِّلِ أَنَّهُ أَحَدُ الَّذِينَ اضْطَهَدُوا الْمَسِيحِيِّينَ وَالْيَهُودَ وَبَعْضَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ عَدَّاهُمْ زَنَاقَةً، وَأَنَّهُ أَغْضَبَ الشَّيْعَةَ بِهَذَا مَقْبَرَةِ الشَّهِيدِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ وَخَطَرَ الْحَجَّ إِلَى قَبْرِهِ. وَرُغْمَ ذَلِكَ فَإِنَّ تَعَصُّبَهُ الدِّينِيَّ لَمْ يَحُلْ دُونَهُ وَشُرْبُ الْخَمْرِ

إِذْ كَانَ تَصَوِيرُ الْكَائِنَاتِ الْبَشَرِيَّةِ مِنَ الْأُمُورِ الْمَحْظُورَةِ وَعَلَى الرُّغْمِ مِنْ هَذَا فَنَمَّاذِجٌ مِنْ فَنِّ تَصَوِيرِ الشُّخُوصِ كَتَغْيِيرِ فَنِّي قَائِمٍ بِذَاتِهِ مُنْذُ السَّنَوَاتِ الْأُولَى لِلْعَصْرِ الْإِسْلَامِيِّ. وَقَدْ ذَكَرَ الْمَقْرِيزِيُّ فِي كِتَابِهِ عَنِ الثَّقُودِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَنَّ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ (٦٦١ - ٦٨٠) قَدْ سَكَّ دِينَارًا عَلَيْهِ صُورَةُ شَخْصٍ مُنْطَقٍ بِحِزَامٍ وَسَيْفٍ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَصِلْنَا مِنْ هَذِهِ الْعُمَلَةِ شَيْءٌ. وَيَبْنَى سَنَتَيْ ٦٨٥ - ٦٩٥ سَكَّ الْخَلِيفَةُ عَبْدُ الْمَلِكِ ثَقُودًا تَحْمِلُ صُورَةَ شَخْصٍ يَزْنِدِي ثَوْبًا يَصِلُ إِلَى سَاقَيْهِ، وَقَدْ تَقَلَّدَ سَيْفًا غَرِيضًا فِي غِمْلِهِ مَاثِلًا مِنَ الْيَمِينِ إِلَى الْيَسَارِ، وَمِنْهَا نَمَازِجٌ عَدِيدَةٌ بِالْمَتَاحِفِ. وَيَزْعَمُ الْبَعْضُ أَنَّ الْمَقْصُودَ بِذَلِكَ الشَّخْصِ هُوَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَهُوَ مَا يَتَنَاقَى مَعَ مَا خَصَّ بِهِ الْمُسْلِمُونَ الرَّسُولَ مِنْ إِكْبَارٍ وَتَبْجِيلٍ، وَلَا يُصَوِّرُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْمَقْصُودُ مُجَرَّدَ تَمَثِيلِ زَمَنِيٍّ لِلْخَلِيفَةِ عَبْدُ الْمَلِكِ (٦٨٥ - ٧٠٥).

وَكَمَا اسْتُخْدِمَ التَّصَوِيرُ فِي أَغْرَاضِ التَّزْيِينِ وَالتَّجْمِيلِ، كَذَلِكَ اسْتُخْدِمَ فِي الْأَغْرَاضِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْاِقْتِصَادِيَّةِ، مِنْ ذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ صَكِّ صُورِ الْمُلُوكِ عَلَى وَجُوهِ الْعُمَلَةِ. فَعِنْدَمَا غَدَا الْعَرَبُ فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ سَادَةً وَحُكَّامًا فِي أَقَالِيمِ الْإِمْبَرِاطُورِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ الْحَافِلَةِ بِالثَّرَوَاتِ وَالْحَضَارَاتِ كِمِصْرَ وَسُورِيَا وَفِلَسْطِينَ وَاجْهَرَا أَنْظَمَتْ حُكْمَ قَائِمَةٍ رَاسِيخَةٍ، وَمَتَاجِعَ عَرِيقَةٍ فِي التَّجَارَةِ فَزَارُوا أَنْ يَسْتَمِرَّ الْحَالُ كَمَا هُوَ عَلَيْهِ لِعِدَّةِ سَنَوَاتٍ عَلَى الْأَقَلِّ وَأَنْ يَجْرِيَ اسْتِغْمَالُ الْعُمَلَةِ عَلَى النَّحْوِ الَّذِي اعْتَادَهُ النَّاسُ، كَمَا أَتَقَوَّا عَلَى الْمُوظَّفِينَ فِي الدَّوَاوِينِ وَفِي أَعْمَالِ جَبَايَةِ الضَّرَائِبِ. وَلِهَذَا حَاكَتِ الْعُمَلَةُ الَّتِي سَكَّهَا الْعَرَبُ فِي سُورِيَا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ عُمَلَةَ الْحُكَّامِ السَّابِقِينَ، فَصَوَّرُوا عَلَيْهَا شَخْصًا تُشَبِّهُ شَخْصَ الْأَبَاطِرَةِ الْبِيزَنْطِيِّينَ مُمَسِّكِينَ بِصَوْلْجَانٍ مُحَوَّرٍ عَنْ شَكْلِ الصَّلِيبِ. وَبَعْدَ أَنْ اسْتَمَرَّ حُكْمُ الْعَرَبِ بِدَأَتْ مَذَلُولَاتُ الْعَقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ تَتَأَكَّدُ عَلَى أَوَجِّهِ الْعُمَلَةِ الْجَدِيدَةِ، فَحَلَّ الْخَلِيفَةُ الْمُسْلِمُ عَارِي الرَّأْسِ مُمَسِّكًا بِيَمِينِهِ السَّيْفَ فِي غِمْلِهِ مَحَلَّ الْإِمْبَرِاطُورِ الْمَسِيحِيِّ. غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ لَمْ تَكُنْ مُحَاطَلَةً لِتَحْقِيقِ فَنِّ تَصَوِيرِ الشُّخُوصِ بِقَدَرِ مَا كَانَتْ تَعْدِيلًا دَخَلَ عَلَى التَّصْمِيمِ الْبِيزَنْطِيِّ كَيْ يُنَاسِبَ الْعَقِيدَةَ الْجَدِيدَةَ، فَجَاءَتْ هَذِهِ الْخَطُوءُ مُجَارَاةً لِلْمَفْهُومِ الشَّائِعِ عَنِ الْعُمَلَةِ كَمَا يَسَكُّهَا الْحُكَّامُ وَالْأَمْرَاءُ الْمَسِيحِيُّونَ فِي غَرْبِ أُرُوتَا، مَعَ خِلَافٍ فِي الثَّقُوشِ الَّتِي اتَّسَمَتْ بِالرُّوحِ الْعَرَبِيَّةِ، تَحْمِلُ أَحْيَانًا نَصَّ الشَّهَادَتَيْنِ بِعِبَارَةِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ».

وَتَرْتَدُّ الصُّوَرُ السَّتِّ الْمَشْهُورَةِ فِي قُصْرِ عَمْرَةَ (لَوْحَةٌ ٦١) إِلَى أَصْلٍ أَجْنَبِيٍّ، وَكُلُّهَا أَنْمَاطٌ مِنْ نَسْجِ الْخِيَالِ، تُمَثِّلُ حُكَّامَ الْعَالَمِ السَّتِّ الَّذِينَ أَنْدَحَرَتْ جُيُوشُهُمْ مُوَلَّيَةً فِرَارًا مِنْ وَجْهِ جُيُوشِ الْعَرَبِ الْمُتَنَصِّرَةِ. وَمِنْ الْعَسِيرِ أَنْ تُحَدِّدَ مَنْ هُمْ هَؤُلَاءِ الْأَشْخَاصُ السَّتِّ،

بالْقَصَبِ والمَشْغُولَةِ وَفَوْقَ كُلِّ مِنْهَا اسْمُ صَاحِبِهَا وَمَآثِرُهُ. كَمَا بَنَى حَفِيدُهُ أَمِيرُ (١١٠١ - ١١٣٠) غُرْفَةً خَاصَّةً بِأَعْلَى الْبُرْجِ اسْتَوْدَعَهَا صُورًا شَخْصِيَّةً لِمُعَاصِرِيهِ مِنَ الشُّعْرَاءِ، وَنَقَشَ إِلَى جِوَارِ كُلِّ صُورَةٍ اسْمَ صَاحِبِهَا وَمَحَلَّ مِيلَادِهِ وَمَا أَنَشَدَهُ مِنْ أَثِيَّاتٍ، ثُمَّ أَحَاطَ كُلُّ صُورَةٍ بِإِطَارٍ أُنِيقَ. وَحِينَ اطَّلَعَ الْخَلِيفَةُ عَلَى مُحْتَوَى حُجْرَةِ حَفِيدِهِ أَمِيرٍ وَقَرَأَ الشُّعْرَ، اغْتَبَطَ بِمَا شَاهَدَ وَقَرَأَ وَأَمَرَ بِإِهْدَاءِ كُلِّ شَاعِرٍ مِنْهُمْ خَمْسِينَ قِطْعَةً ذَهَبِيَّةً.

وَرُغِمَ اعْتِنَاقُ الْمَغُولِ لِلدِّينِ رَعَايَاهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، إِلَّا أَنَّهُمْ رَفَضُوا الْخُضُوعَ لِلْمَحَازِيرِ الْمَفْرُوضَةِ مِنْ قِبَلِ عُلَمَاءِ الدِّينِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالصُّورِ الشَّخْصِيَّةِ. وَمِنْ ثَمَّ وَاصَلُوا عَادَاتِ أَسْلَافِهِمُ الْوَلِيِّينَ الَّذِينَ اعْتَادُوا أَنْ يَتَّخِذُوا صُورًا شَخْصِيَّةً لَهُمْ وَلَقَدْ اخْتَارُوا مُصَوِّرِي الْبَلَاطِ مِنْ بَيْنِ الصِّينِيِّينَ أَوْ مِنْ بَيْنِ الْفَتَانِيْنَ الْمُتَنَمِينَ إِلَى الْجِسِّيَّاتِ الْمُتَعَدِّدَةِ الْخَاصِصَةِ لِحُكْمِهِمْ فِيمَا بَيْنَ بِلَادِ الْمَغُولِ الْأَصْلِيَّةِ وَخُدُودِ فَارِسِ الشُّرُوقِيَّةِ. وَتَحْتَوِي مَخْطُوطَةُ جَامِعِ التَّوَارِيخِ لِرَشِيدِ الدِّينِ عَلَى تَصَاوِيرِ خَشْنَةِ التَّعْبِيرِ لِكُلِّ مِنْ جَنْكِيَزْخَانَ وَذَرَارِيهِ، رُسِمَتْ فِي أَوَاخِرِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ نَقْلًا عَنْ صُورٍ سَابِقَةٍ رُسِمَتْ فِي تَارِيخٍ مُتَقَدِّمٍ.

وَشَاعَ تَصْوِيرُ الشُّخُوصِ بَعْدَ غَزْوِ الْمَغُولِ لِإِيرَانَ، فَهُنَاكَ صُورٌ عَدِيدَةٌ لِتَيْمُورِ (١٣٦٩ - ١٤٠٤) رُغِمَ أَنَّ مَا وَصَلْنَا مِنْهَا رَسْمُهُ قَتَانُ الْأَجْبَالِ اللَّاحِقَةِ (لَوْحَةٌ ٦٤). وَيَصِفُ «جِهَانَجِير» فِي مُذَكِّرَاتِهِ صُورَةَ مِنْ عَمَلٍ مُصَوَّرٍ اسْمُهُ «خَلِيلُ مِيرَا»، وَهُوَ أَحَدُ الْعَامِلِينَ فِي مَكْتَبَةِ شَاهِ إِسْمَاعِيلِ (١٥٠٢ - ١٥٢٤) مُؤَسِّسِ الْأُسْرَةِ الصُّقُوفِيَّةِ. وَقَدْ مَثَّلَتِ الصُّورَةُ إِحْدَى مَعَارِكِ تَيْمُورِ مُصَوَّرَةً مَائَتِينَ وَأَرْبَعِينَ شَخْصًا، تَحَدَّثَتْ أَسْمَاؤُهُمْ بِحَيْثُ لَا يُخْطِئُ الرَّائِي هُويَّةَ كُلِّ مِنْهُمْ، وَنَرَى فِي الصُّورَةِ هَذَا الْفَاتِحَ، الَّذِي لَمْ يَعْرِفِ الشَّفَقَةَ، بَيْنَ أَثْنَائِهِ وَقَادَةَ جَيْشِهِ.

وَيَبْدُو أَنَّ قَدْ تَصَوَّرَ الشَّخْصِيَّاتِ فِي الْقَرْنِ الْخَامِسِ عَشَرَ غَدَاً وَسِيلَةً مَشْرُوعَةً لِتَحْلِيلِ ذِكْرِ أَغْلَبِ الْمُلُوكِ وَمَآثِرِهِمْ. فَقَدْ أَمَرَ السُّلْطَانُ حُسَيْنُ مِيرَا (١٤٧٣ - ١٥٠٦) مُصَوِّرِي بَلَاطِهِ، حِينَ بَدَأُوا بِتَسْجِيلِ مَآثِرِ الْإِسْكَندَرِ فِي مَخْطُوطَاتِهِ، أَنْ يُصَوِّرُوهُ هُوَ بِقِسْمَاتِهِ وَكَأَنَّهَا قِسْمَاتِ الْإِسْكَندَرِ. فَفِي مَخْطُوطَةِ إِسْكَندَرِ نَامَةٌ لِنِظَامِي بِالْمُتَخَفِ الْبَرِيطَانِيِّ يُمَثِّلُ الْمُصَوِّرَ «بَهْرَاد» إِسْكَندَرُ وَهُوَ يَزُورُ نَاسِكًا فِي كَهْفِهِ، غَيْرَ أَنَّهُ يَجْعَلُ مِنْ مَوْلَاهُ السُّلْطَانُ حُسَيْنُ مِيرَا الْبَطْلَ الْحَقِيقِيَّ لِلْمَشْهَدِ مُسْتَعِيرًا مَلَامِحَهُ فِي هَذِهِ الْمُنَاسِبَةِ (لَوْحَةٌ ٥٥). وَإِلَى الْمُصَوِّرِ بَهْرَادِ تُعْزَى صُورَتَانِ تُمَثِّلَانِ ذَلِكَ الْمَلِكَ الْمُسْتَعِيرَ الَّذِي حَمَى الْفُنُونِ، إِحْدَاهُمَا مُبَكَّرَةٌ وَالْأُخْرَى لَهُ فِي أَوَاخِرِ عَهْدِهِ.

وَأَقْبَتْنَا آلَافَ الْجَوَارِي، كَمَا اسْتَقْدَمَ الْمُصَوِّرِينَ الْيُونَانِيِّينَ لَتَرْزِينِ قَصْرِهِ فِي سَامَرَا بِالْصُّورِ وَمِنْ بَيْنِهَا صُورَةُ كَنِيسَةٍ وَرُهْبَانِهَا. وَقَدْ تَمَكَّنَ هِيرْتزفيلدُ مِنْ اسْتِنْفَازِ بَعْضِ هَذِهِ الرِّخَافِ مِنْ بَيْنِ بَقَايَا أَطْلَالِ هَذَا الْمَبْنَى. وَتُمَثِّلُ الْعُمْلَةُ الَّتِي سَكَّتْ فِي عَهْدِهِ صُورَةَ الْخَلِيفَةِ الْمُتَوَكِّلِ بِلَخِيَّةٍ طَوِيلَةٍ مُزْدَوِجَةِ الْأَطْرَافِ، يَزِيدُ حُلَّةَ نَعِيسَةٍ مُزْرَكَشَةٍ وَيَضَعُ طَاقِيَّةً عَلَى رَأْسِهِ، وَعَلَى جَانِبَيْ وَجْهِهِ تُرْفَرِفُ رَايَتَانِ مِنَ الطَّرَازِ السَّاسَانِيِّ. أَمَّا الْوَجْهَ الْآخَرُ لِلْعُمْلَةِ فَيَحْمِلُ صُورَةَ رَجُلٍ يَقُودُ جَمَلًا.

وَفِي عَهْدِهِ بَدَأَ خُضُوعُ الْخُلَفَاءِ لِلْحَرَسِ الْخَاصِّ مِنَ الْأَثَرَاكِ يَشِيعُ، حَتَّى إِنَّهُ اعْتِيلَ بِأَيْدِيهِمْ سَنَةَ ٨٦١. وَلَقِيَ حَفِيدُهُ الْمُقْتَدِرُ (٩٠٨ - ٩٣٢) مَصِيرًا مُشَابِهًا بَعْدَ أَنْ هَانَتْ مَكَانَةُ الْخِلَافَةِ فِي عَهْدِهِ، حَيْثُ صَرَفَ ذَلِكَ الْحَاكِمُ الضَّعِيفُ جُلَّ وَقْتِهِ بَيْنَ الْجَوَارِي وَالْعَارِزِينَ، خَاضِعًا خُضُوعًا كَامِلًا لِإِنْسَاءِ قَصْرِهِ يُنَوِّقُ عَلَيْهِنَ مَا جَمَعَهُ سَلَفُهُ مِنْ كُنُوزٍ وَتُرُوتَاتٍ. وَعَلَى التَّقْوَدِ الَّتِي سَكَّتْ فِي عَهْدِهِ صُورُ الْخَلِيفَةِ فِي ثِيَابِ الْمَلِكِ الْقَشِيبَةِ الْمُرْصَعَةِ بِاللَّالِئِ وَالْمُزْخَرَفَةِ بِالْأَشْكَالِ الْهِنْدُوسِيَّةِ، وَهُوَ جَالِسُ الْقُرْفُصَاءِ مُمَسِّكًا بِقَدَحٍ فِي يَدِهِ الْيُمْنَى وَبِسِلَاحٍ فِي يَدِهِ الْيُسْرَى. كَمَا نُشَاهِدُ عَازِفَ الْعُودِ جَالِسًا الْقُرْفُصَاءَ كَذَلِكَ فِي رِدَاءٍ شَبِيهِ بَرْدَاءِ الْخَلِيفَةِ غَيْرَ أَنَّ أَكْمَامَهُ أَكْثَرَ اسْتِغَاةً (لَوْحَةٌ ٦٣).

وَمِنْ غَيْرِ الْمُسْتَبْعَدِ أَنْ يَكُونَ أُمَرَاءُ الْبَيْتِ الْعَبَّاسِيِّ الَّذِينَ نَقَشُوا صُورَهُمْ عَلَى التَّقْوَدِ قَدْ اسْتَعَانُوا بِبَعْضِ الْمُصَوِّرِينَ لِرَسْمِ صُورِ شَخْصِيَّةٍ لَهُمْ. وَيَقِينًا إِنَّ قَدْ تَصَوَّرَ الشُّخُوصِ قَدْ لَقِيَ بَعْضُ التَّشْجِيعِ فِي عَهْدِهِمْ، إِذْ بَلَغَ هَذَا الْقَرْنُ فِي عَهْدِ مُحَمَّدٍ الْغَزْنَويِّ (٩٩٨ - ١٠٣٠) قَدْرًا مَلْحُوظًا مِنَ الْبَرَاعَةِ وَالْإِتْقَانِ إِلَى حَدِّ اسْتِخْدَامِهِ فِي أَغْرَاضِ الْبَحْثِ الْجِنَائِيِّ حَسَبِ الرِّوَايَةِ الَّتِي تَضَمَّنَتْ وَسَائِلَ الْوَالِي فِي اكْتِشَافِ مَكَانِ اخْتِفَاءِ ابْنِ سِينَا، فَقَدْ قِيلَ إِنَّ هَذَا الْفَيْلَسُوفَ الْعَالِمَ الطَّبِيبَ رَفَضَ الْعَمَلَ فِي خِدْمَةِ السُّلْطَانِ مُحَمَّدٍ الْغَزْنَويِّ وَفَرَّ هَارِبًا إِلَى «جَرْجَانَ» فَكَلَّفَ السُّلْطَانُ أَبَا نَصْرَ بْنَ عِرَاقِ الْمُصَوِّرَ وَالرِّيَاضِيَّ وَالْفَلَكَائِيَّ الْمَشْهُورَ بِأَنْ يَرَسِمَ صُورَةَ شَخْصِيَّةِ لَابْنِ سِينَا عَلَى وَرَقَةٍ، ثُمَّ أَمَرَ مُصَوِّرَيْنِ آخَرَيْنِ بِنَسْخِ أَرْبَعِينَ نُسْخَةً مِنْهَا، وَرَعَّتْ عَلَى أَمَاكِنِ جِرَاسَةِ الْوَلَاةِ الْمُجَاوِرِينَ، أَرْفَقَ بِهَا طَلَبًا بِإِرْسَالِ صَاحِبِ الصُّورَةِ. وَتَقِيدُ هَذِهِ الرِّوَايَةُ أَنَّ السُّلْطَانَ الْغَزْنَويِّ قَدْ اسْتَعَانَ بِعَدَدٍ كَبِيرٍ مِنْ خُبَرَاءِ الْمُصَوِّرِينَ.

وَفِي مِصْرَ أَشَارَتْ دَلَائِلُ مُتَفَرِّقَةٍ إِلَى أَنَّ قَدْ تَصَوَّرَ الشَّخْصِيَّاتِ قَدْ عُرِفَ فِيهَا. فَمِنْ بَيْنِ كُنُوزِ الْخَلِيفَةِ الْفَاطِمِيِّ الْمُسْتَنْصِرِ (١٠٣٥ - ١٠٩٤) السِّبْئِيُّ الطَّالِعُ الَّذِي نَهَبَهُ جُنُودُهُ الْأَثَرَاكُ الْمُتَمَرِّدُونَ وَسَلَبُوهُ أَمْوَالَهُ، عُثِرَ عَلَى عَدَدٍ كَبِيرٍ مِنَ السِّتَائِرِ الْحَرِيرِيَّةِ الْمُحَلَّلَةِ

وَتَمَّةٌ صُورَ شَائِعَةٌ كَذَلِكَ عَنْ «شاه طهماسب» (١٥٢٤ - ١٥٧٦) وهو الأمير الصفوي الذي زاول فنون التصوير بنفسه ورعى كبار الفنانين مثل سلطان محمد و«أقا ميرك»، وظهرت صوره كذلك على صفحات مخطوطاته الرائعة مثل «منظومات خمسه» لِنظامي، حيث يبدو وهو يغدو وسط الحقول مُتَخَفِّيًا في هيئة «بهرام جور» وهو يصيد الجمار الوحشي (لوحة ٤٠).

ولقد شجّع ملوك فارس من الأسرة الصفوية فن تصوير الشخص، ويمكننا أن نتبين ملامح «شاه عباس» (١٥٨٧ - ١٦٢٩) في عدد كبير من الصور (اللوحات ٦٥، ٦٦). ونرى حفيده الشاه صافي الذي خلفه في الحكم (١٦٢٩ - ١٦٤٢) في لوحة ثنائية الطيات يحيط به قادة جيشه ونبلاء بلاطه، وتحدد شخصية واحد وعشرين من بين أربعة وثلاثين شخصاً في هذه الصورة اسماً أو لقباً. وكان هذا تقليداً شائعاً في الفنون الهندية المعاصرة له. ولعله يفصح عن مدى العناية بتمثيل الشخصيات، بحيث صار فن تصوير الشخص، في ذلك العصر وما بعده، أبرز جوانب النشاط الفني في فارس وفي الهند على السواء ثم في تركيا بعد ذلك.

ولم ينفرد الملك بالجزء على تخليد ذكراه، بل عدا ذلك بدعة أو تقليداً سائداً لدى الشعب نفسه. ولعل هذا الضرب من شعبية فن تصوير الشخصيات في فارس قد نشأ، إلى حد ما، عن إلغاء مراسيم التصوير الملكية بعد أن زادت نفقات حملات الشاه عباس، فاضطر اقتصاداً للنفقات إلى تسريح مصوري البلاط. ومن ثم لم يجد هؤلاء بدءاً من التعامل مع عامة الناس. ومن المحتمل أن تعزى زيادة صور النبلاء وضباط الجيش والعلماء والأطباء والباحثين وغيرهم إلى تلك الظاهرة كذلك، وكانت فرشة «رضا عباسي» دائماً على أهبة الاستعداد لِحُوض هذا المضمهر.

ولقد تحمس الأباطرة المغول بالهند لفن تصوير الشخصيات بما يجاوز حماس الأسرة الصفوية بفارس. فكان «أكبر» يجلس أمام المصور لتصويره، كما أمر بإعداد صور شخصية لكبار رجال بلاطه. وفضلاً عن الصور المستقلة، قام مصورو المخطوطات بمكتبه الإمبراطورية بتصنيف معرض كامل من الصور الشخصية لكبار رجال بلاطه في كتاب «أخبار نامه» الذي سجل أخبار المملكة فيه رئيس وزراء وصديقه الحميم أبو الفضل. ففي هذه الحوليات أو الوقائع سجلت الأحداث المتصلة بأعمال السلطان وحملاته الحربية وعمليات الحصار العسكري لِقلاع الأعداء ورحلات صيده وماذبه. ورُغم أن الاهتمام بتفصيل الملامح

الشخصية لا يصل في مثل هذه الحوليات إلى إبرازها بوضوح يرقى إلى مستوى دقته في الصور الشخصية المستقلة، إلا أن الملامح المميزة فيها كانت كافية لأن تطبع كل عضو من أعضاء البلاط المختلفين، الوارد ذكرهم في التاريخ، بطابع يسهل التعرف عليه. ولا يحاكي تصوير الأشخاص هنا التصوير المبكرة في بلاط الملوك المسلمين الأولين، أو تلك الصورة التي احتفظ بها «نواب رامبور» في قصره، حيث يتبدى فيها أحد أسلافه جالساً بين حريمه، ثمائل كل منهن جازتها تماماً، كأن عين المصور لم تقع قط على أي منهن، على النهج نفسه الذي شاع في الفن الغربي في مستهل عهد النهضة من التصوير الباهية اللون، الخالية من التعبير الانفعالي للأفراد كما يتجلى في رسوم جوتو الجدارية بكنيسة القديس فرنسيس الأسيزي العليا، والتي تصور القديس نفسه في حضرة البابا أنوسنت الثالث يلتف الكرادلة حوله فلا تتميز ملامح أحدهم عن زميله.

ويبدو أن الإمبراطور «جهانجير» (١٦٠٥ - ١٦٢٨) الذي خلف «أكبر» كان أكثر شغفاً بفن الصور الشخصية من أبيه. فلم يفتن بالصور الشخصية العديدة له وللبلاط فأرسل مصوراً اسمه «بیشان داس» في معية سفيره المغولي إلى بلاط فارس، وكان من أبلغ المصورين لصور الشاه ورجال بلاطه البارزين.

وعندما تضاءلت رعاية البلاط المغولي للفن في الهند حتى توقفت تماماً في عهد الإمبراطور «أورانجير» (١٦٥٩ - ١٧٠٧) كان على المصورين الهنود، شأن زملائهم الفرس المعاصرين، أن يبحثوا عن أزرارهم لدى عامة الناس فشاغ أمر تصوير الأفراد العاديين، وإن جاء هذا على حساب الإثقان.

ولقد شجّع المصورين من الأتراك على تصوير الشخص ما لقوا من رعاية وحماية من سلاطين آل عثمان في القرن الخامس عشر، وذلك عندما بدأ جنتيلي بليني وكونستانزو دافارارا بتصوير السلطان محمد الفاتح. فقد زين ملوك الأسرة الحاكمة قصورهم في القسطنطينية بالصور الشخصية التي أعيد نسخها مرات، ثم استنسخت بعد ذلك في العصر الحديث.

هكذا كان لفن تصوير الشخص في العالم الإسلامي تاريخ حافل على الرغم من أنه كان غير مرغوب فيه. ومن المحتمل أن الصور التذكارية التي صورت كانت من الوفرة بـمكان، غير أن ما حفظه لنا الزمن منها يعد قليلاً جداً إذا قيس بما كان متداولاً منها ذات يوم، وهي في ذلك لا تختلف عن أنواع الإنتاج الفني الأخرى من بين أعمال الفنانين المسلمين.

الفصل السابع

مَصَاعِبُ دِرَاسَةِ التَّصْوِيرِ الْإِسْلَامِيِّ

على عاتق اثنين من الغزاة، هما جَنَكِزْخان وحفيده هولاكو. وَقَدْ يَكُونُ بَعْضُ الْجُنُودِ الْمُسْلِمِينَ قَدْ رُزِقُوا تَقْدِيرًا لِقِيَمَةِ الْمَخْطُوطَاتِ فَاحْتَفَظُوا بِهَا لِيَبْعَها. أَمَّا الْمَغُولُ الْبَرَابِرَةُ الْهَمَجِيُونَ فَكَانَ احْتِقَارُهُمْ لِكُتُبِ الْمُسْلِمِينَ وَلِعُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ بِالْعَمَلِ. وَظَلَّ هَذَا طَائِفَةً مُمَيَّزًا لِمَوْقِفِهِمْ إِزاءَ كُلِّ مَا كَانَ مُقَدَّسًا لَدَى الْمُسْلِمِينَ حَتَّى أَنَّهُمْ عِنْدَمَا هَاجَمُوا بُخَارَى سَنَةَ ١٢٢٠ اتَّخَذُوا مِنَ الْمَسْجِدِ الْأَعْظَمِ حَظِيرَةً لِحَبْلِهِمْ وَجَعَلُوا مِنَ الْمَخْطُوطَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ فِرْشًا تَنَامُ عَلَيْهِ، وَلَا ضَرْبَ فِي التَّارِيخِ لِهَذِهِ الْأَسَالِبِ التَّخْرِيبِيَّةِ الَّتِي اتَّبَعَهَا الْمَغُولُ. وَمِنَ الْمَعْرُوفِ أَنَّهُمْ بَعْدَ أَنْ نَكَّلُوا بِالسُّكَّانِ وَأَقَامُوا لَهُمُ الْمَذَابِحَ وَحَرَقُوا مَدِينَةَ الْجُرْجَانِيَّةِ سَنَةَ ١٢١٩ فَتَحَوْا السُّدُودَ وَأَعْرَقُوا الْإِقْلِيمَ بِأَكْمَلِهِ فِي مِيَاهِ نَهْرِ جِيحُونِ الَّذِي يَصُبُّ فِي بَحْرِ الْأَرَالِ وَهَدَمُوا مَدِينَةَ بَامِيَانِ، فَظَلَّتْ مَهْجُورَةً بَعْدَ ذَلِكَ قُرَابَةَ الْمِائَةِ سَنَةٍ. وَفِي سَنَةِ ١٢٢٠ سَوَّاهُ مَدِينَةَ تَيْسَابُورِ بِالْأَرْضِ وَهِيَ إِحْدَى مَدُنِ خُرَاسَانَ الْآهِلَةِ بِالسُّكَّانِ. وَلَقِيَتْ بَغْدَادُ الْمَصِيرَ نَفْسَهُ عِنْدَمَا اسْتَوْلَى عَلَيْهَا هَوْلَاكُو سَنَةَ ١٢٥٨، وَذَبَحَ قُرَابَةَ الثَّمَانِمِائَةِ أَلْفٍ مِنْ سُكَّانِهَا وَأَسْلَمَهَا بَعْدَ ذَلِكَ لَجُنُودِهِ الْأَشْرَارِ الْمُتَوَحِّشِينَ لِكَيْ يَزِيدُوا سَلْبًا وَنَهْبًا.

وَمَوْجَةٌ أُخْرَى مِنَ الْمَصَائِبِ انْصَبَّتْ عَلَى مَرَاكِزِ الثَّقَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي إِيرَانَ وَأَوَاسِطِ آسِيَا بَعْدَ أَنْ أَفَاقَتْ مِنَ الْغَزْوِ الْمَغُولِيِّ وَدَبَّتْ فِيهَا الْحَيَاةُ مِنْ جَدِيدٍ، وَذَلِكَ عِنْدَمَا شَرَعَ تَيْمُورُ فِي آخِرِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ فِي غَزَوَاتِهِ مُهَيِّئًا أَسْبَابًا جَدِيدَةً لِلشَّقَاءِ وَالتَّعَاسَةِ بَيْنَ الْأَجْيَالِ الْجَدِيدَةِ. وَقَدْ أَذَتْ حَمَلَاتُ الْغَزْوِ وَالتَّخْرِيبِ وَالْهَدْمِ إِلَى فَقْدَانِ تِلْكَ الصُّوَرِ الْجِدَارِيَّةِ الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا بَعْضُ الْمُؤَرِّخِينَ كَمَعَالِمٍ وَاضِحَةٍ مُمَيَّزَةٍ مِنْ مَعَالِمِ الرُّخْرَفَةِ فِي قُصُورِ الْمُلُوكِ الْمُسْلِمِينَ فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ.

وَنَحْنُ نَدِينُ بِالْفَضْلِ فِي الْإِحْفَافِ بِأَحْسَنِ نَمَازِجِ التَّصْوِيرِ مِنْ أَعْمَالِ الْفَنَّانِينَ وَالْمُصَوِّرِينَ فِي بِلَاطِ الْإِمْبَرَاطُورِ «أَكْبَر»، إِلَى حَادِثَةٍ

يُلَاقِي مَنْ يُقِيلُ عَلَى دِرَاسَةِ فُنُونِ التَّصْوِيرِ الْإِسْلَامِيَّةِ مَصَاعِبَ جَمَّةً، إِذْ مَا يُعْنَى بِهِ يَكُونُ عَادَةً مُتَنَائِرًا هُنَا وَهُنَا، يَصْعَبُ عَلَيْهِ لَمْ شَتَاتِهِ وَالْجَمْعُ بَيْنَ أَطْرَافِهِ. وَهَذَا يَقْتَضِيهِ التَّنْقُلُ بَيْنَ أَمَاكِنَ وَمَكْتَبَاتٍ وَمَتَاحِفٍ مُخْتَلِفَةٍ مُتَبَاعِدَةٍ بَعْدًا شَاسِعًا، فَضْلًا عَمَّا يَحْتَاجُهُ مِنْ عَوْنِ مِنَ الْمُتَخَصِّصِينَ، وَمَا أَسْعَدَهُ ذَلِكَ الَّذِي يَتَحَقَّقُ لَهُ كُلُّ هَذَا. وَثَمَّةُ مَصَاعِبٍ أُخْرَى غَيْرَ مَا ذَكَرْنَا، مِنْهَا أَنَّ التَّمَاذِجَ الْفَنِّيَّةَ الَّتِي حَفَظَهَا لَنَا الزَّمَنُ لَا تَعْدُو غَيْرَ قَلَّةٍ مِنَ الْأَعْمَالِ الْفَنِّيَّةِ الَّتِي أُنْجِزَتْ. وَهَكَذَا تَزْدَادُ الثُّغَرَاتُ اتِّسَاعًا، فَإِذَا الْوُصُولُ إِلَى رَأْيٍ قَاطِعٍ عَنْ مَدْرَسَةٍ بَعْثَهَا قَدْ أَصْبَحَ مُتَعَدِّدًا أَوْ مُسْتَحِيلًا، اللَّهُمَّ إِلَّا إِذَا اجْتَرَأْنَا بِنَمُودَجٍ مُفْرَدٍ أَبَقَتْهُ لَنَا الْأَيَّامُ. وَسَوْفَ يَظَلُّ مَا نَسْتَقِيهِ عَنْ تِلْكَ الْمَدَارِسِ أَوْ مَجْمُوعَاتِ الْفَنَّانِينَ مُنْقُوصًا فِي أَكْثَرِ الْأَحْوَالِ.

وَبِاسْتِثْنَاءِ الرُّسُومِ الْجِدَارِيَّةِ الَّتِي بَقِيَتْ فَوْقَ جُذُرَانِ الْقُصُورِ، كَانَتْ كُلُّ الصُّوَرِ الْفَنِّيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ لَدَيْنَا تُرْسَمُ فِعْلًا عَلَى الْوَرَقِ، أَيْ عَلَى مَادَّةٍ هَشَّةٍ قَابِلَةٍ لِلتَّلَفِ السَّرِيعِ، وَفِي جَوِّ الشَّرْقِ عَلَى الْأَخْصَصِ. وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ الْعَطَبَ يَكُونُ شَيْئًا لَا يُؤْبَهُ لَهُ إِذَا قِيسَ بِالْخَرَابِ النَّاجِمِ عَنْ نَهْبِ الْمَدُنِ. فَقَدْ تَعَرَّضَتْ الْمَكْتَبَاتُ أَيْضًا لِذَلِكَ الْمَصِيرِ الْغَاشِمِ الَّذِي كَانَ يَتَعَرَّضُ لَهُ السُّكَّانُ أَنْفُسُهُمْ عِنْدَمَا يَنْطَلِقُ الْجَيْشُ الْمُتَصَوِّرُ فِي مُمَارَسَاتِهِ الْهَمَجِيَّةِ.

غَزَوَاتُ جَنَكِزْخان وَهَوْلَاكُو وَتَيْمُورَلَنْكُ الْمُخْرَبَةُ

مَا أَكْثَرَ مَا كَانَ يُفْقَدُ مِنَ الْمَخْطُوطَاتِ الْمُتَنَبِّهَةِ عَلَى أَيْدِي الْجُيُوشِ الْغَازِيَّةِ وَهِيَ فِي طَرِيقِ تَقْلُّهَا، أَوْ يَغْتَنَدِي عَلَيْهَا مُعْتَدٍ آخَرُ أَثْنَاءِ انْتِقَالِهَا، أَوْ تَتَعَرَّضُ لِشَيْءٍ مِنَ التَّلَفِ وَالْإِهْمَالِ خِلَالَ الرِّحْلَةِ وَالْأَسْفَارِ. وَمَا مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ فَقْدَانَ الْأَعْمَالِ الْفَنِّيَّةِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ وَفِي مِثْلِ هَذِهِ الْمُنَاسَبَاتِ قَدْ تَكَرَّرَ بِصُورَةٍ رَتِيبَةٍ فِي التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ يَصْعَبُ عَلَى أَيِّ مُؤَرِّخٍ أَنْ يُحْصِيَهُ. غَيْرَ أَنَّهُ مِنَ الْمَوْثُوقِ أَنَّ مَسْئُولِيَّةَ التَّخْرِيبِ الَّتِي أَذَتْ إِلَى إِبَادَةِ أَكْثَرِ مَخْطُوطَاتِ الْمُسْلِمِينَ وَأَتَتْ عَلَى كُلِّ كُتُبِهِمْ وَمَخْطُوطَاتِهِمْ، تَقَعُ

لِلْجَمَالِ الْكُلِّيِّ (لَوْحَة ٢٩).

ومثل هذا التشويه للأعمال الفنية لم يكن دائماً ناشئاً عن مثل هذه الدوافع الدينية، إذ إن تلطيخ الألوان بالوسخ فوق الثحف الفنية الرائعة كان يحدث أحياناً نتيجة مس أحد الدين لا يقدرون الفن قدره سطحها بإصبعه، ومما يرجح أن هذا كان يعزى أكثر ما يعزى إلى نساء البيوت. وجرت العادة في فارس وفي الهند أن توضع المخطوطات الثمينة في «حرمك» البيت بوصفه أكثر الأماكن أماناً بالبيت، غير أن الجاهلات من النساء لم يكن في الغالب أحكم الحراس لهذه الكنوز التي لا عوض عنها. وكانت أمثال تلك الأيدي الأثيمة تمتد لإضافة خطوط سوداء إلى الخطوط الأصلية من أجل إبراز الملامح وتحديد الشكل العام مما ينتهي بأي تحفة فنية إلى البوار.

التعرّف على تاريخ الصورة

على حين كنا نجد البيانات التاريخية تحملها الصورة فلقد كنا نجد زيفاً في التوقيعات. من أجل هذا كان من العسير أن نستدل على المصور إلا بعد أن نعمل الفكر في دراسة الأسلوب ودراسة التلوينات، وغير ذلك من الخصائص المميزة للصورة. وكان مما يزيد الأمر عسراً أننا نجد أمثال هذه الصور مندسة بين مخطوط تكاد تكون صورته متميزة معروفة، فيكاد الإنسان لأول وهلة أن يحمل تلك الصورة الزائفة على غيرها من تلك الصور التي اجتمعت إليها، فيحكم عليها حكمه على تلك الصور. ومن هنا تبدو مهمة الحكم على تاريخ الصورة مهمة ليست باليسيرة، فلا التاريخ المدون يجدي، ولا اسم المدينة التي تُعزى إليها المخطوطة المصورة يتفع شيئاً، بل لا معدى عن دراسة أسلوب التكوين الفني والخطة التلويينية كما قلت قبل، فهما الوسيلة التي لا تكذب في الحكم على الصورة تاريخاً وموضوعاً. وكمن من مخطوطات كتبت في تاريخ وتُركت للصور أماكن فيها ثم جاء المصورون بعد أزمان لاحقة، قد تبعد كثيراً عن زمن نسخ المخطوطة، فملأوا تلك الفراغات المتركة بالصور.

ولقد فطن الدارسون إلى هذا كله فأخذوا يتتبعون المخطوطات بتصاويرها، يدرسون الخط وزمنه، كما يدرسون الرسم وزمنه مستدلين على الأول بما قر في علم الخط وتطوره وتطور عليه، ومستدلين على الثاني بتلك الأسس التي اصطليح عليها في فن التصوير. وأذا كانت المخطوطات المجهولة التاريخ تكاد تطغى على المخطوطات البيئية التاريخ، لذا كان من العسير تعرّف التاريخ الدقيق للمصورات ولا سيما بين مدارس التصوير الإقليمية، وقد يزيد في صعوبة تحديد تاريخ المخطوطة إذا جاءت

سلب «نادر شاه» سنة ١٧٣٩ للمكتبة الملكية في دلهي وتجريده لها من مجموعة من أجمل التحف والكنوز، ثم احتفاظه بها في إيران حيث صارت بمان من المصير الغاشم الذي لقيته بقيّة المخطوطات التي لم يعتقد «نادرشاه» أنها تستحق عناء حملها معه في طريق العودة من الهند. ذلك أن البيئية من مخطوطات المكتبة الملكية في دلهي تعرضت لنهب هجمي من قبل فرقة من الجنود الحمقى الجاهلين في تاريخ لاحق على ذلك التاريخ. أما كثر الصور الذي استولى عليه «نادرشاه» وصحبه معه خلال رحلته الطويلة الشاقة خلال سهول الهند ومترفعات أفغانستان فقد وصل سائماً إلى «هرا».

وإذا كانت مخطوطات العصور الوسطى الإسلامية المصورة التي وصلتنا جد قليلة فإن تلك التي يمكن أن تطلق على مسمياتها أنها «عربية» تعد بالنسبة إليها أقل بكثير. والفضل في بقاء بعض المخطوطات النادرة حتى اليوم يرجع إلى أنها كانت من بين المجموعات التي حملها الأتراك أثناء غزواتهم فيما حملوا إلى بلادهم. ثم إن عدداً كبيراً من هذه الكتب في حالة تلف يرى لها من تفتت عناصر ألوانها ومن البلل ومن البقع والتمزق والتشويه الذي عمد إليه أعداء التصوير بقطع الرأس أو طمسه أو محوه، ثم بإعادة تصويره بطريقة منقّرة وهي آخر ما كان من هذه التشويهات. على أن ما بقي من هذه المخطوطات يكشف رغم كل شيء عن وجود فن ظلّ عهداً طويلاً مجهولاً، واكتسب رغم المعارضة الحادة حيوية دافقة.

تخريب المتشددين للآثار المصورة

وإذا أفلنت أعمال المصورين بشكل أو بآخر من الدمار الذي كان يصاحب الثقلبات السياسية والغزوات العسكرية، كان ثمة خطر آخر أشد نفاذاً وفاعلية حتى في أوقات السلام، وهو خطر المغالاة في تشدد المحافظين من المسلمين أو ممن واتهم الفرصة لتدمير الصور التي كان الرأي العام المحافظ ينظر إليها بكرهية شديدة.

فكم تعرض للدمار الكثير من الصور على أيدي الغلاة من المتعبدن مسلمين وغير مسلمين ممن كانوا يحرمون التصوير على أنه محاولة لمحاكاة صنع الله، على نحو ما فعل الزايب سافونارولا بصور الفنان بوتيتشيلي وغيره من مصوري عصر النهضة في فلورنسا. وحتى إن نجث بعض أجزاء اللوحات أو الصور من الدمار تعرض لها بعض أعداء الفن فأفسدوها. ومن أمثلة ذلك ما كان يجري غالباً من طمس ملامح الصورة من دون المساس ببيئتها ودون اكتراث بما قد يؤدي إليه ذلك من إفساد

مُنَمَّاتِهَا بِأَسَالِيبٍ مُتَعَدِّدَةٍ.

وَلَقَدْ اعْتَادَ مُؤَرِّخُو الْفَنِّ الرَّبُطَ بَيْنَ التَّصَاوِيرِ الَّتِي تُزَيَّنُ
الْمَخْطُوطَاتِ الْهَامَّةِ وَالنَّصِّ الْوَاردِ بِهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُحْمَلُ تِلْكَ
الْمُنَمَّاتِ مِنْ وُجُوهِ التَّأْوِيلِ مَا لَا تَحْتَمِلُهَا، أَوْ يَنْسَبُ لِمُؤَلِّفِ
الْكِتَابِ الْأَصْلِيِّ مِنَ الْآرَاءِ مَا لَا يَكُونُ قَدْ خَطَرَ لَهُ عَلَى بَالٍ،
نَاسِبِينَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِالضَّرُورَةِ مُؤَلِّفَ الْكِتَابِ هُوَ نَاسِخُهُ، كَمَا أَنَّ
مُؤَلِّفَ الْكِتَابِ لَمْ يَكُنْ مُصَوِّرَهُ إِلَّا فِيمَا نَدَرَ. وَكَثِيرًا مَا قَادَهُمْ هَذَا
إِلَى اسْتِثْنَائَاتٍ تُنَافِي حَقَائِقَ التَّارِيخِ. وَقَدْ كَشَفَ اسْتِقْرَاءُ
مَخْطُوطَاتِ الْمَكْتَبَاتِ الْمَلَكِيَّةِ مُنْذُ الْعَصْرِ التَّيْمُورِيِّ حَتَّى الْآنَ
عَلَى الْأَقَلِّ عَنْ قِيَامِ بَعْضِ «الْجُرْفِيِّينَ» بِتَصْوِيرِ الْمَخْطُوطَاتِ دُونَ
أَنْ يُعْنُوا بِقِرَاءَةِ نُصُوصِهَا أَوْ فَهْمِهَا، وَهُوَ مَا تُؤَكِّدُهُ مُقَارَنَةُ النُّصُوصِ
بِالصُّوَرِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي تَجِيءُ نُصُوصُهَا أحيانًا فِي وَاِدِّ

وَصُورِهَا فِي وَاِدِّ آخَرَ، وَأَصْبَحَ مِنَ الْمُمْكِنِ لِلْقَارِئِ أَنْ يُغْفَلَ النَّظَرُ
إِلَى هَذِهِ الصُّوَرِ مِنْ دُونِ أَنْ يُضَارَ نَصُّ الْكِتَابِ أَوْ يَتَعَدَّرَ فَهْمُهُ
عَلَيْهِ، هَذَا إِذَا اسْتَنْتَبَيْنَا الرُّسُومَ وَالصُّوَرِ الْإِيضَاحِيَّةَ الْمُدْرَجَةَ فِي
الْكَتُبِ ذَاتِ الطَّائِفِ الْعِلْمِيِّ.

وَلَمَّا كَانَ عَمَلُ الْفَنَّانِ الْمُصَوِّرِ يَأْتِي بَعْدَ انْتِهَاءِ عَمَلِ الْخَطَّاطِ
التَّاسِخِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ تَارِيخُ الصُّوَرِ أَحَدَثَ مِنْ تَارِيخِ النَّسْخِ بِمُدَدٍ
قَدْ تَفَاوَتَ إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ. وَلَيْسَ ثَمَّةَ مَعْيَارٍ نَسْتَطِيعُ بِهِ أَنْ نُحَدِّدَ تَارِيخَ
رَسْمِ الصُّورَةِ عَلَى وَجْهِ الْقَطْعِ أَوْ حَتَّى عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيبِ. وَمِنْ أَمْثِلَةِ
التَّبَايُنِ بَيْنَ تَوَارِيخِ إِعْدَادِ الصُّوَرِ، حَتَّى فِي الْمَخْطُوطِ الْوَاحِدِ، تِلْكَ
النُّسخَةُ الْمَشْهُورَةُ مِنْ كِتَابِ «مَنْظُومَاتِ خُمُسِهِ» تَأَلَّفَ «نِظَامِي»
الْمُحَلَّلَةُ بِرُسُومَاتِ مُصَوِّرِي بَلَاطِ الشَّاهِ طَهْمَاسَبِ (١٥٢٤ -
١٥٧٦) وَالْمَحْفُوظَةُ حَالِيًا بِالْمُتَحَفِ الْبَرِيطَانِيِّ.

الفصل الثامن

مكانة المصور المسلم في المجتمع

رعاية الحكام للمصورين

إن التَّزَرُّ الذي نَعْرِفُهُ عن سِيرِ الْفَتَانَيْنِ لَا يَزِيدُ عَمَّا نَعْرِفُهُ عَنْ تَقْتِيهِمْ، غَيْرَ أَنَّهُ مِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنَّ كِبَارَهُمُ الَّذِينَ حَظُّوا بِرِعايةِ الْمُلُوكِ قَدْ أَدَّوا أَعْمَالَهُمْ فِي الْمَراسِمِ وَالْمَكْتَبَاتِ الْمَلِكِيَّةِ الَّتِي وَفَّرَتْ لَهُمْ أَنْفُسَ الْمَوَادِّ وَالْأَدَوَاتِ مِمَّا يَحْتَاجُونَهُ فِي عَمَلِهِمْ، وَمِنْهَا الذَّهَبُ، الَّذِي لَمْ يُبَذَّلْ بِسَخَاءٍ فِي تَذْهِيبِ تَرْقِيَّاتِ الْمَخْطُوطَاتِ فَحَسَبَ، بَلْ كَانَ يَحْتَلُّ مَكَانَةً هَامَّةً فِي خُطَّةِ أَلْوَانِ الصُّورِ نَفْسُهَا. وَكَانَتْ أَحْجَارُ اللَّازُورْدِ، الَّتِي يُسْتَخْرَجُ مِنْهَا اللَّوْنُ الْأَزْرَقُ الزَّاهِي الَّذِي يُنِيرُ الصُّورَةَ يُعَادِلُ الذَّهَبَ فِي قِيَمَتِهِ، كَذَلِكَ كَانَ الْوَرَقُ الْمَصْقُولُ الَّذِي يُعَدُّ خَصِيصًا لِلتَّصْوِيرِ يُقَدَّمُ لَهُمْ مِنَ الْخِزَانَةِ الْمَلِكِيَّةِ. وَلَمْ يَتَيَسَّرْ هَذَا كُلُّهُ بِالطَّبْعِ أَوْ بَعْضٍ مِنْهُ لِعَامَّةِ الْفَتَانَيْنِ.

وَلَكِنِّي نَتَصَوَّرُ مَدَى ضَخَامَةِ مِثْلِ هَذِهِ الْمَوْسُئَسَاتِ وَاتَّسَاعِهَا وَاتِّشَارِهَا يُمْكِنُنَا أَنْ نَعْرِفَ كَيْفَ أَعَدَّ إِحْدَاهَا رَشِيدُ الدِّينِ فَضْلُ اللَّهِ الْهَمْدَانِي الْعَالِمَ وَالطَّبِيبَ وَالْمُؤَرِّخَ (١٢٤٧ - ١٣١٨) فِي عَهْدِ الدَّوْلَةِ الْإِلْخَانِيَّةِ، وَالَّذِي عَمِلَ فِي بِلَاطِ أَبَاخَانَ طَبِيبًا خَاصًّا، ثُمَّ تَوَلَّى مَنْصِبَ نَائِبِ السُّلْطَانَةِ فِي عَهْدِ كُلِّ مِنْ غَازَانَ خَانَ وَأُولُجَايَتُو، كَمَا نَالَ الْحُظَّوَةَ وَالتَّقْدِيرَ فِي عَهْدِ السُّلْطَانِ خُدايَنْدِه [عَبْدَ اللَّهِ]، إِلَى أَنْ وَشَى بِهِ الْوَاشُونَ فِي عَهْدِ السُّلْطَانِ أَبِي سَعِيدٍ فَقُتِلَ عَلَى أَيْدِي مُلُوكِ الْمَغُولِ الْإِلْخَانِيِّينَ الَّذِينَ كَانُوا قَدْ اسْتَوْرَرُوهُ وَعَلَى يَدَيْهِ ارْتَفَعَ شَأْنُ دَوْلَتِهِمْ. وَمِنْ بَيْنِ كُتُبِهِ كِتَابُ «جَامِعِ التَّوَارِيخِ» الشَّهِيرِ، وَكُتِبَ أُخْرَى بِالْعَرَبِيَّةِ مِنْهَا «مِفْتَاحُ التَّفَاسِيرِ» وَ«لَطَائِفُ الْحَقَائِقِ» وَكِتَابُ آخَرٍ هَامٌ تَنَاوَلَ فِيهِ التَّصَوُّفَ الْإِسْلَامِيَّ. وَقَدْ شَيَّدَ رَشِيدُ الدِّينِ ضَاحِيَّةَ لِمَدِينَةِ تَبْرِيزَ بِاسْمِ رُبْعِ الرَّشِيدِيِّ أَوْ بَابِ الرَّشِيدِيِّ، نِسْبَةً إِلَى اسْمِهِ، وَأَعَدَّهَا لِتَكُونَ مَنَارَةً لِلْعِلْمِ تَتَسَبَّحُ لِتَأْوِي نَحْوًا مِنْ سِتَّةِ آلَافٍ إِلَى سَبْعَةِ آلَافٍ طَالِبٍ، وَأَلْحَقَ بِهَا مَكْتَبَةً تَضُمُّ سِتِّينَ أَلْفَ مُجَلَّدٍ فِي الْعُلُومِ وَالتَّارِيخِ وَالشَّعْرِ وَأَلْفَ مُصْحَفٍ مَنَسُوخٍ بِأَقْلَامِ أَشْهُرِ الْخَطَّاطِينَ، وَاسْتَدْعَى خَمْسِينَ

عَالِمًا فِي الطَّبِيعِيَّاتِ مِنَ الْهِنْدِ وَالصِّينِ وَمِنْ سُورِيَا وَمِصْرَ لِيُعَلِّمَ كُلَّ مِنْهُمْ عَشْرَةَ طُلَّابٍ، وَكَانَتِ الْمُرْتَبَاتُ تُصَرَّفُ لَهُمْ جَمِيعًا نَقْدًا وَفِي صُورَةِ هِبَاتٍ. وَلَكِنِّي يَضْمَنُ الدَّوَامُ لِمَوْلَفَاتِهِ الْعَدِيدَةِ فِي الدِّينِ وَالتَّارِيخِ وَغَيْرِهِمَا ابْتِدَعَ سُنَّةَ جَدِيدَةٍ، هِيَ تَسْهِيلُ مُهِمَّةِ كُلِّ مَنْ يَرْغَبُ فِي نَسْخِ الْمَخْطُوطَاتِ. وَإِلَى ذَلِكَ كُلِّهِ، وَهَبَ مَبْلَغًا مِنَ الْمَالِ لِلِإِنْفَاقِ عَلَى نَقْلِ نُسخَتَيْنِ مِنْ مَوْلَفَاتِهِ سَنَوِيًّا، إِحْدَاهُمَا بِالْعَرَبِيَّةِ وَالْأُخْرَى بِالْفَارْسِيَّةِ، يُهْدِيهِمَا إِلَى مَدِينَةٍ مِنَ الْمُدُنِ الْإِسْلَامِيَّةِ، حَتَّى أَطْلُقَ عَلَيْهِ الْعَرَبُ اسْمَ رَشِيدِ الْمُشْتِئِ. وَكَانَ اخْتِيَارُ الْخَطَّاطِ النَّاسِخِ يَتِمُّ بِعِنَايَةِ كَبِيرَةٍ وَيُفَرَّدُ لَهُ مَأْوَى مُجَاوِرٌ لِلْمَكْتَبَةِ. وَمِنْ الْمُؤَكَّدِ أَنَّ نُسخَةَ كِتَابِهِ «جَامِعِ التَّوَارِيخِ» أَوْ تَارِيخِ الْعَالَمِ، كَانَتْ وَاحِدَةً وَمِمَّا أَمَكَّنَ حِفْظَهُ عَنْ هَذَا الطَّرِيقِ. وَتَدَلَّ النَّصَاوِيرُ الْعَدِيدَةُ بِهَذِهِ النُّسخَةِ عَلَى أَنَّ عَدَدًا مِنَ الْمُصَوِّرِينَ الَّذِينَ أَفَادُوا مِنْ كَرَمِ رَشِيدِ الدِّينِ لَمْ يَرِدْ ذِكْرُهُمْ فِي الْبَيَانِ الرَّسْمِيِّ بَيْنَ مَنْ مُنِحُوا مِنْهَا. غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ الْمَوْسُئَسَةَ الضَّخْمَةَ الَّتِي قِيلَ إِنَّهَا كَانَتْ تَضُمُّ حَوَالِي الثَّلَاثِينَ أَلْفَ مَنْزِلٍ وَأَلْفًا وَخَمْسِمِائَةَ حَائُوتٍ وَأَرْبَعَةَ وَعِشْرِينَ فُنْدُقًا مِنَ الْمُخَيَّمَاتِ لَمْ يَدُمْ بِهَا الْحَالُ طَوِيلًا، إِذْ لَمْ يَكُنْ وَلَدُهُ وَخَلِيفَتُهُ يَقْتُلُ سَنَةَ ١٣٣٦ حَتَّى نَهَبَ الْحَيَّ بِأَكْمَلِهِ وَصَادَرَتِ الدَّوْلَةُ كُلُّ مُخَصَّصَاتِهِ.

وَلَسْنَا عَلَى بَيِّنَةٍ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْمَوْسُئَسَاتِ الْمُشَابِهَةِ الَّتِي أُقِيمَتْ فِي تَوَارِيخِ لَاحِقَةٍ وَعَلَى قَدَرٍ أَكْثَرَ أَهْمِيَّةٍ فِي تَارِيخِ فَنِّ التَّصْوِيرِ الْفَارْسِيِّ، وَمِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ الْمَكْتَبَاتِ الْخَاصَّةَ بِأَمْرَاءِ التَّيْمُورِيَّينَ قَدْ حَفَلَتْ بِعَدَدٍ كَبِيرٍ مِنَ الْخَطَّاطِينَ وَالْمُصَوِّرِينَ، غَيْرَ أَنَّ التَّفَاصِيلَ نَعُوِزُنَا فِي هَذَا الصَّدَدِ. وَقَدْ قِيلَ عَنْ مَكْتَبَةِ أَحَدِ هَؤُلَاءِ الْأَمْرَاءِ إِنَّهَا كَانَتْ تَضُمُّ أَرْبَعِينَ خَطَّاطًا وَعَلَى رَأْسِهِمْ مَوْلَانَا «جَعْفَرُ التَّبْرِيزِيِّ».

وَلَا أَدُلُّ عَلَى رِعايةِ شَاهِ إِسْمَاعِيلِ الصَّفَوِيِّ لِلْفُنُونِ وَالْفَتَانَيْنِ مِنْ تَعْيِينِهِ الْمُصَوِّرَ «بَهْزَادَ» مُدِيرًا لِلْمَكْتَبَةِ الْمَلِكِيَّةِ عَلَى ضَخَامَتِهَا وَاتَّسَاعِهَا كُمْوَسَّةِ هَامَّةٍ، فَكَانَتْ تَضُمُّ عَدَدًا كَبِيرًا عَيْنُوا فِي

في الوقت الذي كان الخطاطون يحطون فيه بمرتبة أسمى وبجماية أكبر، لأنهم كانوا يمثلون قطاعاً مؤثراً في الثقافة الإسلامية، ومن ثم كانت لهم خطوة بين الناس لقيمة ما يؤدونه من خدمات في دواوين الحكومة بجانب نسخهم للمخطوطات. وهكذا فبينما كان الخطاط يوقع باسمه إلى جوار ما يحطى به من تكريم، لم يتح لأي فنان مصور أو معماري أن يوقع ما يُنجز باسمه، حتى لا تكاد تعرف - على سبيل المثال - أسماء غير فنانين ومعماريين اثنين من العصر المملوكي بمصر.

كذلك بقي المصور محروماً من رعاية رجال الدين، حتى أنصفه الصوفيّة في العهد الصفوي، لا سيما حين عكفوا على التأليف، فأفسحوا للتصوير والمصورين مكاناً فسيحاً في أعمالهم، فأتيح لنا أن نرى كتاب «منطق الطير» الذي ألفه فريد الدين العطار في مستهل القرن الثالث عشر وقد أضيفت إلى بعض نُسَخه لوحات مصورة في القرن الخامس عشر، كما صوّرت في القرن السادس عشر النسخ التي أنجزت في القرن الرابع عشر من قصة يوسف وزليخة التي ألفها الشاعر جامي، وكذلك فقد صوّر في القرن السابع عشر كتاب «روضة الصفا» الذي وضعه ميرخوند في القرن السادس عشر.

وكان «بهزاد» هو أول فنان فارسي يضع توقيعاً على صوره. وجاء توقيع أحد تلاميذه وهو «محمود» في صورة رسمها على الطنبور الذي أمسكت به إحدى العازفات الموسيقيات. ثم بدأ وضع التوقيعات على اللوحات يتسارع ابتداءً من القرن السادس عشر رغم أن غالبية أعمال التصوير الفارسية قد خلت من التوقيعات حتى بعد هذا التاريخ. ولم يشذ عن هذا المسلك القائم على إنكار الذات سوى شخصية «رضا عباسي» الغامضة الذي هام بتسجيل اسمه على رسومه، ولم يكتف بذلك بل اهتم أحياناً بإضافة تاريخ الصورة وظروف رسمها.

وقد دأب المرسم الملكي لإمبراطور الهند المغولي «أكبر» على إثبات أسماء الفنانين أسفل الصور في المخطوطات المعدة لمكتبته. وجاءت هذه التوقيعات في أغلب الأحوال بخط شخص واحد، الأمر الذي يدعو إلى الاعتقاد بأن أحد العاملين في المكتبة الإمبراطورية هو الذي وضعها دون المصورين أنفسهم. ويكفي هذا دليلاً على مدى الاهتمام الذي أحاط به الإمبراطور الفنانين المقيمين في بلاطه وفقاً لما عدّه أبو الفضل من أسمائهم وسرده عنهم في كتابه «عين الأخبار». وقد روي أن أعمالهم كانت تخضع لفحص أسبوعي، كما روي أن الإمبراطور كان يجزل العطاء والهدايا أسبوعياً على قدر إمتياز العمل. ومن المؤسف أن تقليد إثبات التوقيعات على الصور لم ينتشر إلا قبيل انحطاط فن

مختلف الوظائف، من خطاطين ومصورين ومذهبيين ورسامي الهوامش، ومختصين في سبائك الذهب وخلطه، وفي تصفية اللازورد إلى غير ذلك. أما وضع الخطاطين على رأس القائمة فيدل دلالة واضحة على مدى الأهمية التي أولاهم إياها الحكام، وترد أسماء المصورين قبل أسماء «المذهبيين» في الترتيب رغم أن هذه لم تكن قاعدة ثابتة على الدوام، وكثيراً ما كان المصور يوقع باسمه على الصورة تحت لقب «المذهب» حتى ولو لم يستخدم ذهباً في الصورة على الإطلاق وكأنه بذلك يرفع من قدر نفسه ومكانته.

والثابت أن مصوري الإمبراطور أكبر في الهند كانوا يحصلون على مرتبات شهرية، وأن العلاقة بين الفنان كمصور أو كحرفي أو كموظف برئيسه ظلت سائدة حتى القرن التاسع عشر. ومن المؤكد أنه بغير هذا التأييد وتلك المعونة لم يكن ليتيسر للفنان أن يبدع مثل تلك التصاوير الفنية الرفيعة المستوى، ولتعدّ عليه أن يهب من وقته وجهده ونفسه ما يصل به إلى الإبداع، فمثل هذه الروائع يستحيل أن تخرج إلى النور والفنان في عجلة من أمره أو حين يشغل عنها بتدبير أمور معاشه اليومي. على أن التاريخ لم يشر، إلا في القليل النادر، إلى روايت مصوري البلاط ولا إلى دخلهم إن هم تكسبوا من حرفتهم بين الناس.

كذلك خلت الأفاقيص والروايات من ذكر المنح والعطايا إن كانت قد وهبت لهم، على غرار تلك التي كانت توهب للشعراء حين يستميلون الولاة والسراة بإطرائهم أو تملقهم أو إبهارهم بالإجادة والإبداع. ولم يذكر كتاب الحواريات أن المصورين كانوا يتلقون هدايا أو عطايا من هذا القبيل، على نحو ما كان يحطى به الخطاط الأثير. ومهما تكن الظروف المالية بالنسبة إلى المصورين الذين عاشوا على عطاء أولئك الحكام المناصرين للفنون كالأمر ببايسنقر والسلطان «حسين ميرزا» و«الشاه طهماسب» والإمبراطور «أكبر»، أو أولئك الذين كانوا يتلقون ألقاب الشرف من جهانجير مثل «نادر الزمان»، فمن المؤكد أن ظروفهم قد ساءت إلى حد كبير في العصور التالية حين لم يعد أمامهم سوى الاعتماد على الهبات الموسمية من بعض سراة القوم وخدمهم.

مهر المصورين للوحاتهم

وإذا كان الزمن لم يترق بالعديد من آثار التصوير الإسلامي، فإنه لم يكن بأقل قسوة مع المصورين والفنانين التشكيليين أنفسهم، فلم يكن هؤلاء يجسرون على تسجيل أسمائهم على أعمالهم ربما خوفاً من تعقب المتشددين المسلمين لهم. هذا

[مُرقَّعات]، وهو إجراء أُتبع مُنذُ القَرْنِ الخامسِ عَشَرَ كما هو واضح من المُقدِّمة التي وَضَعَهَا خواندمير لِجُمْلَدِ صُورِ «بَهْرَاد». وكثيراً ما كان صاحب «المُجلَّد» الجَدِيد يَضِيقُ دَرْعاً بِأَفْتِقَارِهِ إِلَى اسْمِ مُصَوِّرٍ مَعْرُوفٍ تُنْسَبُ إِلَيْهِ مُحْتَوَيَاتُ مُجلَّدِهِ فَيَخْتَرِعُ لَهَا أَسْمَاءً. وَلَمَّا كَانَتْ عَمَلِيَّةُ إِطْلَاقِ الْأَسْمَاءِ تَتِمُّ فِي مُعْظَمِ الْأَحْوَالِ بِدَافِعٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ تَضَخِيمُ قِيَمَةِ الْمَجْمُوعَةِ وَأَهْمِيَّتِهَا، فَقَدْ أَدَّى ذَلِكَ إِلَى اضْطِرَابٍ وَبَلْبَلَةٍ تَعَوَّقُ دِرَاسَةَ الذَّارِسِينَ.

المُؤَرِّخُ إسْكَندَرُ مُنْشِي

وَتَمَّةُ مُؤَرِّخٍ هُوَ «إِسْكَندَرُ مُنْشِي» عَاصَرَ حُكْمَ الشَّاهِ عَبَّاسِ الصَّفَوِيِّ (١٥٨٧ - ١٦٢٩) غُنيَ بِسِيرِ المُصَوِّرِينَ عَلَى نَحْوِ أَكْثَرِ إِسْهَابَاتِهِ فِي التَّفْصِيلِ. وَكَانَ قَدْ تَوَقَّفَ بِتَآرِيخِهِ عِنْدَ سَنَةِ ١٦١٦، وَلَكِنَّهُ عَادَ فَوَاصَلَ عَمَلَهُ حَتَّى سَنَةِ وَفَاةِ الشَّاهِ عَبَّاسٍ وَتَوَلَّى حَفِيدَهُ «شَاهِ صَافِي» الْحُكْمَ فِي سَنَةِ ١٦٢٩. وَقَدْ خَصَّ الْأَمْرَاءَ بِأَقْسَامٍ كَامِلَةٍ فِي كِتَابِهِ، وَكَذَلِكَ فَقُهَاءَ الدِّينِ وَعُلَمَاءَ الطَّبِّ وَالْخَطَّاطِينَ وَالشُّعْرَاءَ وَالْمُعَنِّينَ وَالْعَازِفِينَ، ثُمَّ أَفْرَدَ لِلْمُصَوِّرِينَ أَرْبَعَ صَفَحَاتٍ أَوْ خَمْسًا. وَيُعَدُّ تَآرِيخُ إسْكَندَرِ مُنْشِي أَوْسَعَ مَا كُتِبَ عَنِ المُصَوِّرِينَ قَبْلَ تَدَهُورِ قَرْنِ التَّصْوِيرِ الْإِسْلَامِيِّ. وَقَدْ أَهْبَبَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ شَاهِ طَهْمَاسِپ الْمَلِكِ الْفَتَّانِ «ذِي الْيَدِ الَّتِي تُشَبِّهُ يَدَ بَهْرَاد». وَذَكَرَ أَنَّ جَلَالَتَهُ قَدْ تَتَلَمَّذَ عَلَى المُصَوِّرِ الشَّهِيرِ الْأُسْتَاذِ سُلْطَانَ مُحَمَّدٍ وَكَتَبَ أَنَّهُ ضَمَّ إِلَى مَكْتَبَتِهِ أَسَاطِينَ مُصَوِّرِي زَمَانِهِ مِثْلَ بَهْرَادٍ وَسُلْطَانَ مُحَمَّدٍ وَأَقَامِيرِكِ فَتَّانٍ إِصْفَهَانَ وَصَدِيقِ الشَّاهِ الصَّدُوقِ. كَمَا تَحَدَّثُ مُنْشِي عَنِ الْفَتَّانِ مَوْلَانَا مُظْفَّرِ عَلِيِّ الَّذِي ظَهَرَ بَعْدَ وَفَاةِ طَهْمَاسِپ وَكَانَ يَلْمِيزُ لِبَهْرَادٍ وَمُصَوِّرًا لَا يُبَارَى وَرَسَامًا مُبْدِعًا، وَهُوَ الَّذِي صَوَّرَ جَمِيعَ صُورِ الْقَصْرِ الْمَلِكِيِّ وَقَاعَةَ الْأَعْمِدَةِ الْأَرْبَعِينَ «جَهْلِ سَوْتُون» بِإِصْفَهَانَ. كَذَلِكَ ذَكَرَ مير زِين الْعَابِدِينَ الْفَتَّانَ الْمُبْدِعَ، وَصَادِقَ بَكِ التُّرْكِيِّ الَّذِي تَتَلَمَّذَ عَلَى مُظْفَّرِ عَلِيِّ، ثُمَّ مَا لَبِثَ بَعْدَ أَنْ وَجَدَ سُوقَ الْفَنِّ بَاطِرَةً أَنْ هَجَرَ التَّصْوِيرَ وَلَجَأَ إِلَى التُّرْحَالِ كَالدَّرَاوِيشِ بَعْدَ أَنْ تَخَلَّصَ مِنْ مَظَاهِيرِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَوِيَّةِ إِلَى أَنْ عَادَ مِنْ جَدِيدٍ لِمَزَاوِلَةِ الْفَنِّ بَعْدَ أَنْ أَقْنَعَهُ حَاكِمُ هَمْدَانَ بِخَلْعِ خِرْقَةِ الدَّرَاوِيشِ وَقَرَّبَهُ إِلَيْهِ وَأَكْرَمَهُ. وَقَدْ رَسَمَ بِفَرَشَاتِهِ الدَّقِيقَةِ أُلُوفَ الصُّورِ الشَّخْصِيَّةِ الرَّايِعَةِ. وَكَانَ إِلَى جِوَارِ فَتْنِهِ يَنْظُمُ قَصَائِدَ الشُّعْرِ وَالغَزَلَ وَالْمَثْوِيَّ.

وَلَا نَعْرِفُ عَنْ كُلِّ مِنَ الْخَطَّاطِ وَالْمُصَوِّرِ مَوْلَانَا عَبْدَ الْجَبَّارِ وَابْنَهُ خَوَاجَه [السَّيِّد] نَاصِرِ المُصَوِّرِ الْمَوْهُوبِ، وَمَوْلَانَا شَيْخَ مُحَمَّدٍ شِيرَازِي، الَّذِي لَا يُضَارِعُهُ أَحَدٌ فِي أَلْوَانِهِ وَرُسُومِ الْهَوَرْتَرِيَّةِ، سِوَى مَا رَوَاهُ لَنَا إسْكَندَرُ مُنْشِي. كَذَلِكَ جَاءَ ذِكْرُ الْفَتَّانِ مِيرْزَا مُحَمَّدٍ أَصْفَهَانِيِّ وَمَوْلَانَا عَبْدِ اللَّهِ شِيرَازِيِّ وَمَوْلَانَا حَسَنِ بَغْدَادِيِّ.

التَّصْوِيرِ الْإِسْلَامِيِّ، وَإِلَّا لَكَانَتْ لَدَيْنَا الْيَوْمَ حَصِيلَةٌ هَائِلَةٌ فِي هَذَا الْمَجَالِ.

وَلَقَدْ كَانَتْ شُهْرَةٌ بَعْضُ الْمُصَوِّرِينَ نَكَبَةً عَلَى قَرْنِ التَّصْوِيرِ إِذْ كَانَ فِيهَا مُتَشَعِّجٌ لِلْمُزَيَّفِينَ، فَأَخَذُوا يُقْلِدُونَ أَعْمَالَ هَؤُلَاءِ الْمَشَاهِيرِ ضَمَانًا لِرِوَاغِهَا وَشُبُوحِهَا وَسَعْيًا وَرَاءَ الْكَسْبِ الْمَادِّيِّ الْكَبِيرِ الَّذِي يُدْرِهِ عَلَيْهِمْ تَزْيِينُهُمْ لِتِلْكَ الْأَعْمَالِ الْبَاهِرَةِ. مِنْ ذَلِكَ مَا حَدَّثَتْ لِي تِلْكَ الصُّورُ الَّتِي رَسَمَهَا «بَهْرَاد» فِيمَا بَيْنَ الْقَرْنَيْنِ الْخَامِسِ عَشَرَ وَالسَّادِسِ عَشَرَ وَكَانَتْ لِتَصَاوِيرِهِ شُهْرَةٌ لَا تُضَارَعُ. فَكَمْ مِنْ أَعْمَالٍ زُيِّفَتْ بِاسْمِهِ بَعْدَ أَنْ أَصْبَحَتْ مَضْرِبُ الْأَمْثَالِ فِي الْبَلَاطَاتِ. وَخَرَصَ كُلُّ أَمِيرٍ وَكُلُّ مُتَعَشِّقٍ لِلتَّصْوِيرِ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ عَمَلٌ مِنْ أَعْمَالِ ذَلِكَ الْمُصَوِّرِ الْمَشْهُورِ «بَهْرَاد». وَلَمْ يَقْتَصِرْ هَذَا التَّزْيِيفُ لِأَعْمَالِ هَذَا الْفَتَّانِ الْكَبِيرِ عَلَى الْعَصْرِ الَّذِي عَاشَ فِيهِ بَلْ امْتَدَّ بِأَمْتِدَادِ الْقُرُونِ التَّالِيَةِ وَاسْتَمَرَّ إِلَى مُسْتَهْلِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ.

وَكَانَ الْخَلْطُ فِي تَزْيِيفِ تَوْقِيعِ «بَهْرَاد» يَرْجِعُ فِي الْغَالِبِ إِلَى الْقُصُورِ فِي الْمَلَكَةِ التَّقْدِيرِيَّةِ أَوْ الْقُصُورِ فِي مَعْرِفَةِ خَصَائِصِ أَعْمَالِ الْفَتَّانِ الْأَصِيلَةِ، فَعَلَى حِينٍ أَنَّ «بَهْرَاد» كَانَ يَضَعُ اسْمَهُ عَادَةً أَعْلَى الصُّورَةِ كَانَ الْمُزَيَّفُونَ يَضَعُونَ تَوْقِيعَهُ أحيانًا أَسْفَلَهَا. وَلَمْ تَكُنْ حِمَاةُ الْمُزَيَّفِينَ وَضَعُفُ مَقْدِرَتِهِمْ عَلَى تَمْيِيزِ الْخَصَائِصِ فِي أَعْمَالِ «بَهْرَاد» الْفَتِّيَّةِ تَنْجَلِيًّا فَقَطُّ فِي وَضْعِ تَوْقِيعِهِ عَلَى أَعْمَالٍ لَا تَسْتَحِقُّ مُجَرَّدَ النَّظَرِ وَلَا تَسْتَلْفِتُ الْإِنْتِبَاهَ، وَإِنَّمَا كَانَتْ تَبْدُو أَيْضًا فِي أَمْرِ يَلْفَتُ النَّظَرُ هُوَ أَنَّ وَاحِدًا مِنَ الْمُزَيَّفِينَ لَمْ يَكْلَفْ نَفْسَهُ عَنَاءَ دِرَاسَةِ تَوْقِيعِ «بَهْرَاد» الْأَصْلِيِّ. ذَلِكَ أَنَّ «بَهْرَاد» اغْتَادَ - فِي الْمَرَّاتِ الْقَلِيلَةِ الَّتِي وَقَعَ صُورُهُ فِيهَا بِالْفِعْلِ - كِتَابَةَ اسْمِهِ بِحُرُوفٍ دَقِيقَةٍ فِي مَكَانٍ مَعْمُورٍ مِنَ الصُّورَةِ مِثْلَ طَرَفِ السَّرْجِ أَوْ مِيَاهِ بَرَكَةِ الْبَطِّ وَمَا إِلَى ذَلِكَ.

وَتَمَّةُ مَصَاعِبِ أُخْرَى تَمْضِي مُتَوَازِيَةً مَعَ مَصَاعِبِ النِّقْصِ فِي تَوْقِيعَاتِ الْمُصَوِّرِينَ وَهِيَ الْمَصَاعِبُ الَّتِي تَنْشَأُ عَنْ انْعِدَامِ الْبَيِّنَاتِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِمَوْضُوعِ الصُّورَةِ فِي مُعْظَمِ الْأَحْوَالِ، فَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَأَلُوفِ بِالنِّسْبَةِ لِلْمُصَوِّرِ الْفَارِسِيِّ أَنْ يَدُونَ عُنْوَانًا لِلْعَمَلِ تَحْتَ الصُّورَةِ، حَتَّى وَلَوْ أَعَدَّهَا عَلَى قِطْعَةٍ مِنَ الْوَرَقِ مُفْرَدَةً. أَمَّا إِذَا أُعِدَّتِ الصُّورَةُ ضِمْنَ مَخْطُوطٍ فَالْمَفْرُوضُ أَنْ يَسْتَطِيعَ الْقَارِئُ الرُّبُطَ بَيْنَ الصُّورَةِ وَبَيْنَ مَا يُطَالِعُهُ. وَكَانَ مِثْلَ هَذَا الْأَمْرِ سِيرًا فِيمَا يَتَصَلُّ بِالْمَلَاحِظِ مِثْلَ الشَّاهِنَامَةِ أَوْ الْقَصَائِدِ الْعَاطِفِيَّةِ الَّتِي شَاعَتْ عَلَى أَلْسِنَةِ النَّاسِ وَذَاعَ تَصْوِيرُهَا. أَمَّا إِذَا أُعِدَّتِ الصُّورَةُ عَلَى وَرَقَةٍ مُنْفَصِلَةٍ فَإِنَّهُ يَتَعَذَّرُ الْعُنُورُ عَلَى وَفَتْحِ الْمَوْضُوعِ الَّذِي تُشِيرُ إِلَيْهِ وَتَتَنَاوَلُهُ. وَهَكَذَا صُورٌ عَدِيدٌ مِنَ الشَّخْصِيَّاتِ التَّارِيخِيَّةِ مِنْ دُونِ أَنْ يُنْسَبَ إِلَيْهَا اسْمٌ مُعَيَّنٌ، فَظَلَّتْ مَجْهُولَةً لَنَا حَتَّى الْآنَ. وَكَانَتْ مِثْلَ هَذِهِ الصُّورِ الْمُنْفَصِلَةِ تُوضَعُ فِي مَجْمُوعَاتٍ دَاخِلِ مُجْلَدَاتٍ

عبّاسي» بشخصيته الفنية المستقلة وبمهارته في تصوير الشخصيات المفردة وبلمساته الرقيقة. ومن المؤكد أنّ رضا عباسي كان ولوعاً بتأكيد ذاته، وقد تمثّل ذلك في حرصه على توقيع كلّ صورة، وعلى إضافة بعض بيانات عن التاريخ والظروف التي تمّت فيها اللوحة أحياناً، وهي ظاهرة جاءت بدعاً في تاريخ التصوير الفارسي، لم يكن ليتدعها سوى رجل قوي الشخصية يمكنه أن يخرج على عادات سابقه الذين لم يوقعوا على صوره تواضعاً إلا في القليل النادر، وحتى في تلك الحالات النادرة كانوا يختارون لتوقيعهم موضعاً خفياً من الصورة. وتتجلى حياة «رضا عباسي» البوهيوية المطلقة في الموضوعات التي كان يختارها غالباً لأعماله الفنية كمجالس اللّه ومشهد العشق (لوحة ٦٧) والغلمان المخنثين (اللوحتان ٥٩، ٦٠) والزواجات (لوحة ٦٨). ومن بين من ولع رضا عباسي بتصويرهم، أولئك الدراويش الزاهدون الجوالون، الذين بلغ في تصويره لهم أوج إبداعه الفني (اللوحتان ٦٩، ٧٠).

المُصوّر مُحَمَّد زَمَان

بقي الحديث عن الفنان مُحَمَّد زَمَان الذي يذكّر عنه الرخالة الثرثار نيقولا مانوتشي أنّه رجل خارق الذكاء أوفده الشاه عباس في مستهلّ عهده للدراسة في روما. وفي إيطاليا تحوّل مُحَمَّد زَمَان إلى المسيحية وتسمّى باسم باولو زَمَان. وبعد رجوعه إلى إيران أخفى ديانه الجديدة، غير أنّ أحاديثه كشفت عن إثارة النصراية على الإسلام. وإزاء الشكوك التي بدأت تحوم حوله قرّر ملتجئاً إلى الهند حيث أظله بجمايته شاه جهان (١٦٢٨ - ١٦٥٩) ومنحه راتباً على أنّه موظف في الدولة، وأوفده إلى كشمير حيث كان يلجأ المهاجرون من الفرس. وخلال هذه الفترة من حياته التي كان لا يزال يعلن فيها عن نصرايته كان أسلوب حياته لا يختلف عن أساليب المسلمين حوله. أما تاريخ عودته إلى إيران فغير معروف، ولكنّه عهد إليه عام ١٦٧٥ بتصوير ثلاث مساحات ظلت شاغرة ما ينف عن قرن في مخطوطة «منظومات خمسه» لِنظامي التي أُعدت للشاه طهماسب بين عام ١٥٣٩ وعام ١٥٤٣. وقد سُمح له أن يستخدم نماذج من أسلوب التصوير الجديد - المختلف تمام الاختلاف عن أسلوب مُصوّر شاه طهماسب - الذي تلقاه في إيطاليا فجاءت ثياب شخصه في أغلب الأحيان أوربيّة، كما جاءت مناظره الخلوية مقتبسة عن المناظر الإيطالية اللاحقة (لوحات ٢٥، ٣٩، ١٩م). ثمّ كُلف بتصوير مخطوطة أخرى من «منظومات خمسه» لِنظامي، ويبدو أنّه في هذه الآونة قد رجع إلى دين آبائه.

وهناك أيضاً مولانا عليّ أصغر الكاشاني وكان مُصوِّراً بارِعاً وأستاذاً في فنّه، فريداً في أسلوبه وفي تلوينه، وتَفوّق على أقرانه في تصوير الطُرق والأشجار، وخدم في بلاط السلطان إبراهيم ميرزا وغداً عُضواً من أعضاء المكتبة بعد ذلك في عهد السلطان إسماعيل ميرزا.

المُصوّر أَقا رِضا

كان أَقا رضا بن عليّ أصغر أعجوبة العصر في فنّ تصوير الشخص المفرّدة. ورُغم رقة لمساته فقد انفصل عن فنّه وعاش حياة غريبة بين مجتمعات دُنيا، وعاف الأوساط المثقفة ومُتتديات المهووبين وأنس إلى هوايته للرّياضات العنيفة كالمصارعة ولألعاب القوى، ثمّ عاد فقدم على سلوكه.

وقد تعاون عدد من الفنّانين على رأسهم سلطان مُحَمَّد ومُظفر عليّ وأقاميرك في تصوير نسخة الشاهنامة التي أمر بها الشاه طهماسب، والتي هي الآن بمُتحف المتروبوليتان بنيويورك والمعروفة باسم مُقتنيها «هيوتون». أمّا مُظفر عليّ الذي رسم صور النسخة المشهورة من منظومات خمسه لِنظامي المخطوطة بالمتحف البريطاني تحت رقم ٢٢٦٥، وأقا رضا فقد لقياً اهتماماً من نقاد الفن الإسلامي يَفوق كلّ اهتمام بالمُصوّرين الفرس. وقد شاع أنّ أَقا رضا هو الفنّان الذي كان يَمهر الصوّر باسم رضا عباسي بخطّ شديد الوضوح يدلّ عليه لأوّل وهلة. ويرى أصحاب هذا الرأْي أنّ كلمة «أقا» كانت تعني السيّد، ومن ثمّ كان من غير المعقول أن يضع هو هذا اللّقب إلى جانب اسمه حين يَمهر الصوّر، وأنّ المُعجّبين به ممّن اقتنوا صوره هم الذين كانوا يُضيفون لِقَب أَقا تبجيلاً وتوقيراً، أمّا كلمة «عبّاسي» فلمست اسماً له بل هي جاءت تنسب إلى الشاه عباس الذي عمّره بعطفه ورعايته.

رضا عبّاسي

وفي تلك الفترة كان إسكندر مُنشي قد انتهى من كتابة تاريخه. ومن النادر أن يتناول أيّ مُؤرّخ مُصوّرِي البلاط في عهد «الشاه عباس» ولا يذكّر اسم رضا عبّاسي الفنّان ذي المؤهبة المرموقة والشخصية الفريدة الباهرة وصاحب الأداء الفنيّ الفريد المميّز الذي يتجلى أثره على معاصريه في إبداعه مدرسة خاصّة به وخلقه اتجاهًا جديدًا ومذهباً مبتكراً في تصوير الشخصيات ورسم الشخص. وما دفع الكثيرين إلى اقتفاء خطاه. ولو أنّ الإلماحة التي سجّلها إسكندر مُنشي عنه جاءت موجزة، إلّا أنّها تؤكد بعض الخصائص المميّزة التي انفردت بها أعمال «رضا

سِير المَصُورِينَ

لم يُعْن أَحَدٌ مِنَ الكُتَّابِ المُسْلِمِينَ بالحديث عن المَصُورِينَ قَبْلَ المَقْرِيزِيِّ (١٤٤٢) الذي يَذْكُرُ لَنَا أَنَّهُ كَتَبَ تَارِيخًا لِلْمَصُورِينَ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَصِلْ إِلَيْنَا، كَمَا أَنَّ أَحَدًا مِنَ الكُتَّابِ الَّذِينَ جَاءُوا بَعْدَهُ لَمْ يَقْتَسِ مِنْهُ، وَلَعَلَّ هَذَا مِنْ أَثَرِ الاتِّجَاهِ الْمُتَعَالِي الَّذِي كَانَ يُنْظَرُ بِهِ إِلَى المَصُورِينَ. وَلَمْ يَذْكُرِ التَّارِيخُ إِلَّا نَادِرًا أَسْمَاءَ المَصُورِينَ قَبْلَ القَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ قَدْ اشْتَهَرَ كَشَاعِرٍ أَوْ كَخَطَّاطٍ بَارِعٍ، فَتَجَحَّ فِي أَنْ يَجِدَ لاسْمِهِ مَكَانًا بَيْنَ سَبِيلِ الشُّعْرَاءِ أَوْ الخَطَّاطِينَ. ثُمَّ اخْتَلَفَ تَقْدِيرُ فَنِّ التَّصْوِيرِ بَعْدَ ذَلِكَ وَالتَّفَقَّتْ التَّارِيخُ إِلَى هَذَا القَرْنِ حَتَّى حَظِيَ بَعْضُ المَصُورِينَ بِالذِّكْرِ لَدَى بَعْضِ الحُكَّامِ المَرْمُوقِينَ.

خواندَمِير

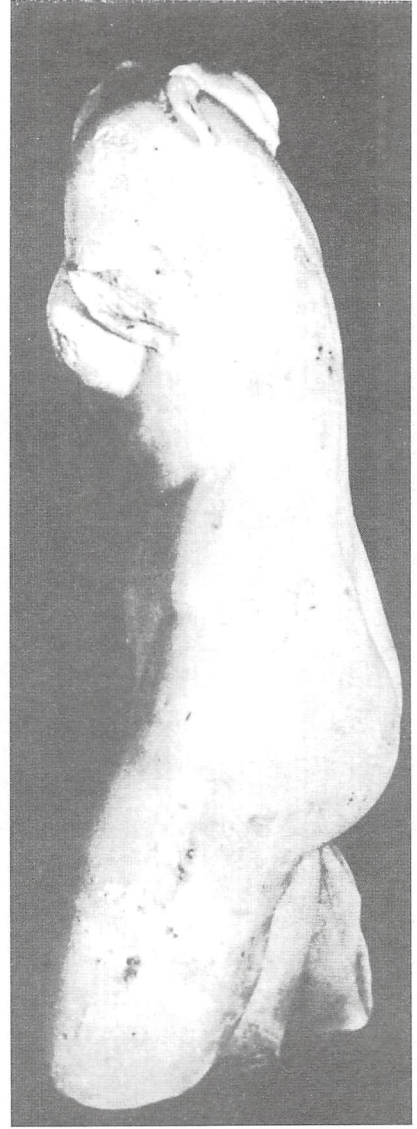
وَأَوَّلُ مَنْ سَجَّلَ سَبِيلَ الفَنَّانِينَ هُوَ خَوَانْدَمِير [أَي عَلَى رَأْسِ

العاشِقِينَ لِلْقِرَاءَةِ] الَّذِي أَنْجَزَ مُوجَزًا لِمَخْطُوطَةِ «رَوْضَةِ الصِّفَا» الَّتِي أَلَّفَهَا جَدُّهُ العَظِيمُ المَوْزُونُ مِيرْخُونْد [أَمِيرُ كُتَّابِ السَّيْرِ] وَأَضَافَ إِلَيْهَا بَعْضَ المَوَادِّ مِنْ عِنْدِهِ عَامَ ١٤٩٨ وَأَسْمَاهُ «خُلَاصَةُ الْأَخْبَارِ». وَفِي نِهَايَةِ الْكِتَابِ أَوْرَدَ ذِكْرًا قَصِيرًا لِأَرْبَعَةِ مَصُورِينَ جَنَّبًا إِلَى جَنْبِ مَعَ بَعْضِ المُهَنْدِسِينَ وَالصُّنَّاعِ الجَزْفِيِّينَ. وَيُعَدُّ ثَلَاثِينَ عَامًا تَوَسَّعَ فِي هَذَا الْبَابِ وَأَخْرَجَ كِتَابًا مُوسَّعًا هُوَ «حَبِيبُ السَّيْرِ» ذَكَرَ فِيهِ مَوْلَانَا حَاجِي مُحَمَّدٌ نَقَّاشُ أَسْتَادِ الفَنَّانِينَ فِي عَصْرِهِ: «الَّذِي كَانَ يُصَوِّرُ بِفَرَشَةِ الْخَيَالِ أُمُورًا رَائِعَةً وَأَشْكَالًا بِدِيعَةٍ فَوْقَ صَفَحَاتِ الزَّمَنِ». كَمَا ذَكَرَ مِيرُكَ نَقَّاشُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ ضَرِيبٌ فِي فَنِّ التَّصْوِيرِ وَالتَّذْهِيبِ، وَمَوْلَانَا قَاسِمٌ عَلِيٌّ مُصَوِّرُ الْوُجُوهِ وَزُبْدَةُ الفَنَّانِينَ وَرَائِدُهُمْ فِي مَكْتَبَةِ السُّلْطَانِ حُسَيْنٍ بَيْقَرَا. وَكَذَلِكَ تَكَلَّمَ عَنْ يَهْزَادِ بِإِجْلَالٍ وَتَوْقِيرٍ وَإِعْجَابٍ.

لَوْحَاتُ
الْبَابِ الْأَوَّلِ
السَّوْدَاءِ وَالْبَيْضَاءِ

التَّصْوِيرُ الْإِسْلَامِيُّ

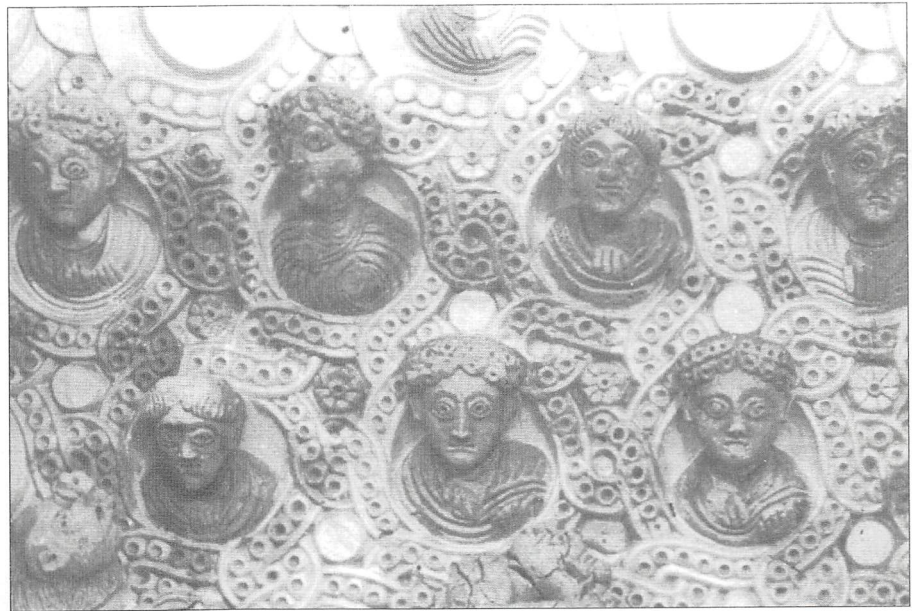
لوحة ١: أحد نماذج التماثيل التي اكتشفت في الجزيرة العربية مما كان منقولاً إليها من أحد المصدرين الرئيسيين: الشام أو الإسكندرية.



لوحة ٣: تمثال من الحجر لفتاة. قصر هشام بخرّبة المِفْجَر. أريحا.

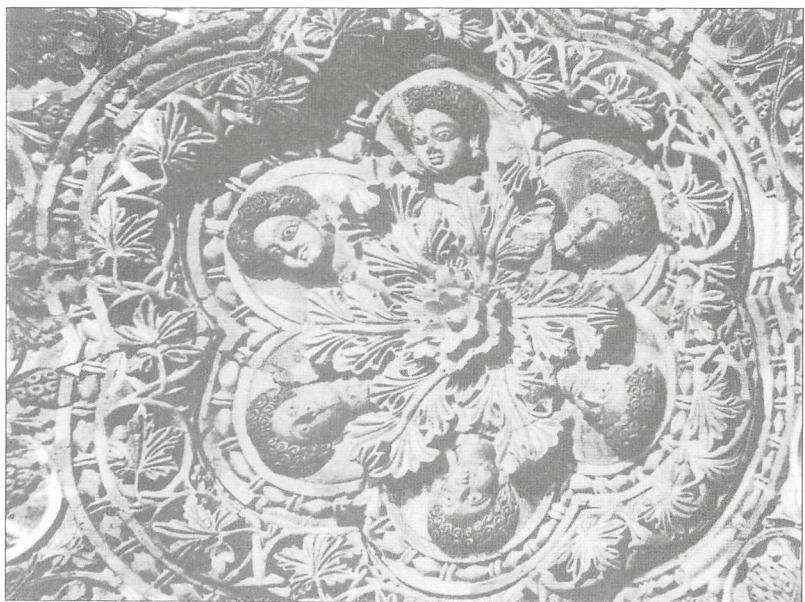


لوحة ٤: تمثال من الحجر لفتاة. قصر هشام بخرّبة المِفْجَر. أريحا.



لوحة ٢: شريط زخرفي من الجص يتكوّن من جامات تُطلّ منها نقوش بارزة لأشخاص. قصر هشام بخرّبة المِفْجَر. أريحا.

لوحة ٥: زخارف جصية من خزانة
المفجر. سقف مدخل الحمام.



لوحة ٧: نحت بارز على العاج يُمثل أميرًا
مُتوجًا مُمسكًا بكأس. وإلى جانبه أحد أتباعه،
ومن أمامه حيوانان لعلهما كلبان. العصر
الفاطمي. متحف الفن الإسلامي بالقاهرة.



لوحة ٦: نحت بارز يُمثل أميرًا مُتوجًا يحمل كأسه
بيده اليمنى ويجلس مُصغيًا إلى عازف الناي. عُثِرَ
عليه بالمهدية بتونس. القرن العاشر. العصر
الفاطمي. متحف باردو بتونس.



لوحة ٩: راقصتان. رسم جداري مُلوّن
من قصر الجوسق للخليفة المُعتصم بِسَرٍّ
من رأى (٨٣٦-٨٣٩م).

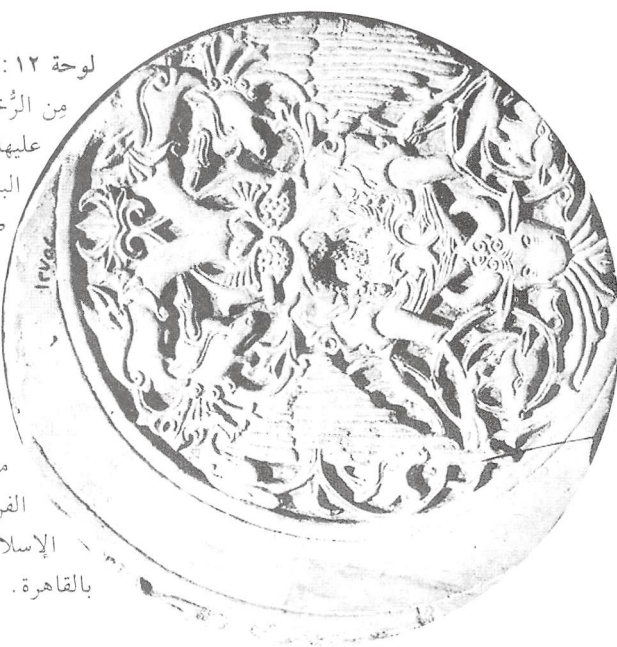


لوحة ٨: نحت بارز على العاج يُمثل شخصًا يعزف على
الناي. العصر الفاطمي. متحف الفن الإسلامي بالقاهرة.



لوحة ١٠: كتلة من الرُخام عليها صورة أسد زاحف في ثُوْدَة. العصر الفاطمي. القرن ١١. متحف الفن الإسلامي بالقاهرة.

لوحة ١٢: دائرة
من الرُخام
عليها بالحفر
البارز
صورة
نَسْر ذي
رأسين.
مصر.
القرن
١٤.
متحف
الفن
الإسلامي
بالقاهرة.



لوحة ١١: تمثال مُفَرَّغ على هيئة سَيِّدة جالسة، من الخزف ذي البريق المَعْدِنِي. الرَّيَّ بِايران. القرن ١٣. متحف الفن الإسلامي بالقاهرة.

لوحة ١٣: أسود نافورة ساحة الرِّياحين بقصر الحمراء. غَرْنَاطَة. القرن ١٤.

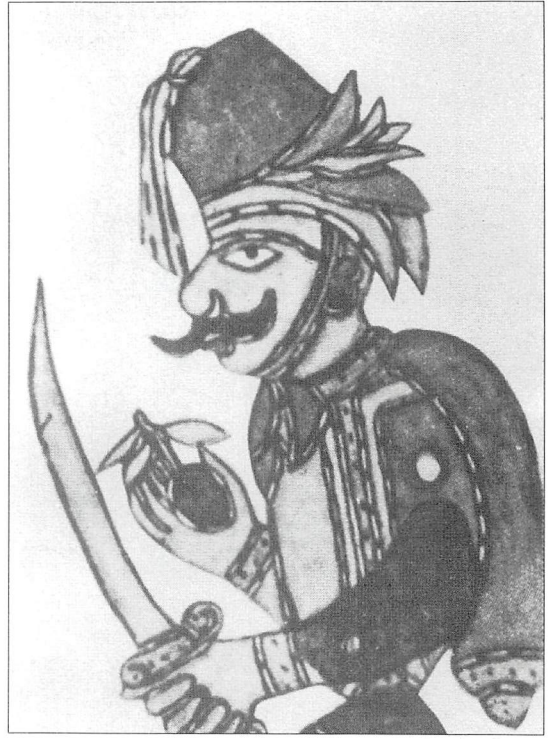


لوحة ١٤: كتابة عَرَبِيَّة بِحَظٍّ مَغْرِبِي. ساحة الرِّياحين بقصر الحمراء. غَرْنَاطَة.





لوحة ١٧: القره جوز التركّي.



لوحة ١٥: القره جوز التركّي.

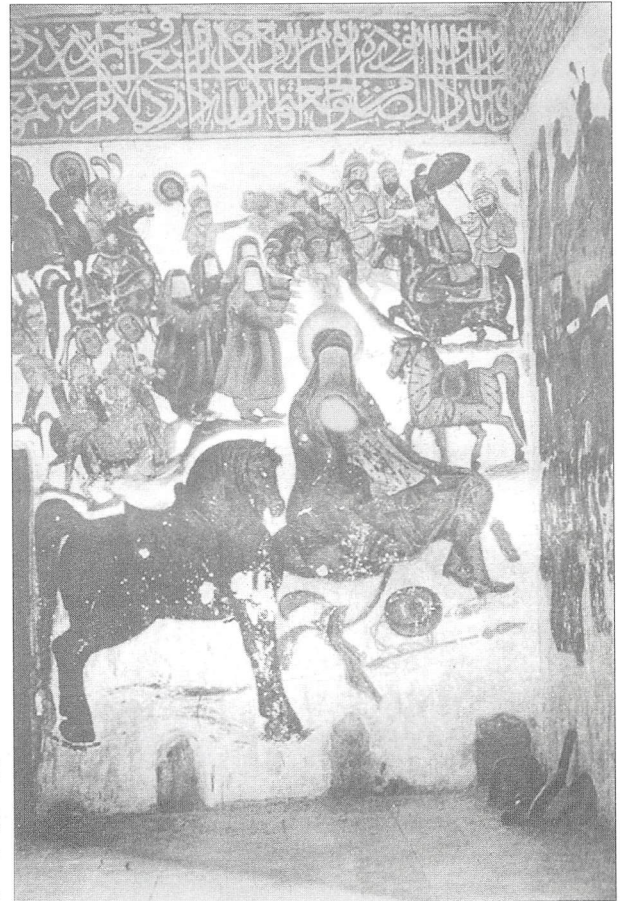
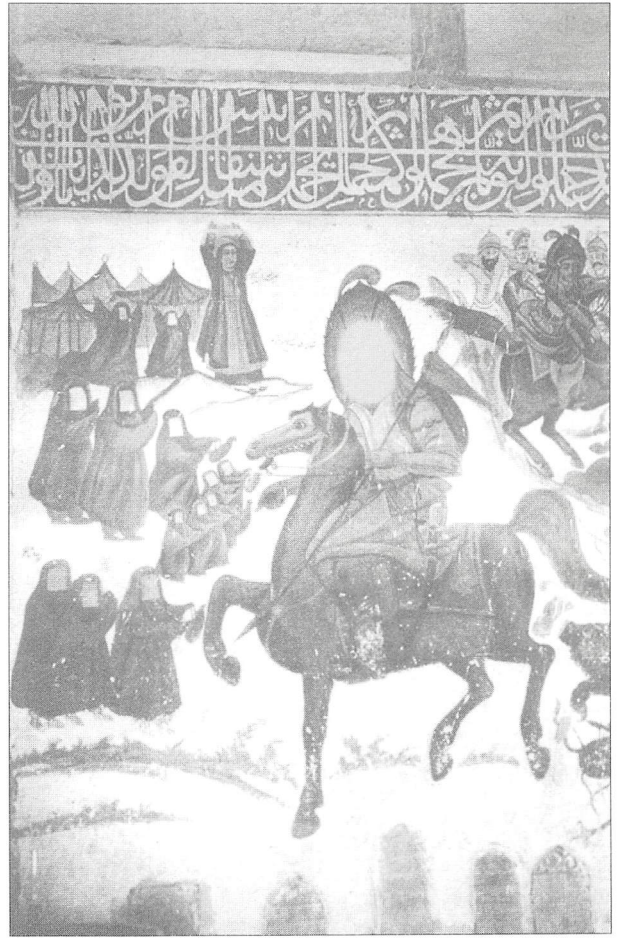
لوحة ١٨: شريط خشبيّ كان يُزَيَّن قاعة سيّت المُلْك بالقصر الفاطميّ الغربيّ. حَفَر على الخشب. صياد يَمْتطي جَوَادًا وخلفه باز الصّيد وأمامه شخص بيده رمح. القرن ١١. متحف الفنّ الإسلاميّ بالقاهرة.



لوحة ١٦: القره جوز التركّي.



لوحة ١٩: ضريح الإمام زَيْد بِمَدِينَةِ إِصْفَهَانَ.
تصوير جداري. العَبَّاسُ أَخُو الْحُسَيْنِ يَحَاوِلُ
إِمْدَادَ الشَّهَدَاءِ بِالماءِ يَوْمَ كَرْبَلَاءَ. القرن ١٧.



لوحة ٢٠: ضريح الإمام زَيْد بِمَدِينَةِ إِصْفَهَانَ.
تصوير جداري. الْحُسَيْنُ وَقَدْ اخْتَرَقَتْ السَّهَامُ
جَسَدَ جَوَادِهِ يَوْمَ مَأسَاةِ كَرْبَلَاءَ. القرن ١٧.

لوحة ٢١: ضريح الإمام زَيْد
بِمَدِينَةِ إِصْفَهَانَ. تصوير
جداري. الْحُسَيْنُ وَقَدْ عَادَ مُشَخَّنًا
بِالجراحِ الْمُمِيتَةِ. القرن ١٧.

لوحة ٢٢: قَصْر جهل
سوتون ياَصْفهان. تصوير
جداري. العصر الصَّفوي.



لوحة ٢٣: قَصْر جهل
سوتون ياَصْفهان. تصوير
جداري. العصر الصَّفوي.

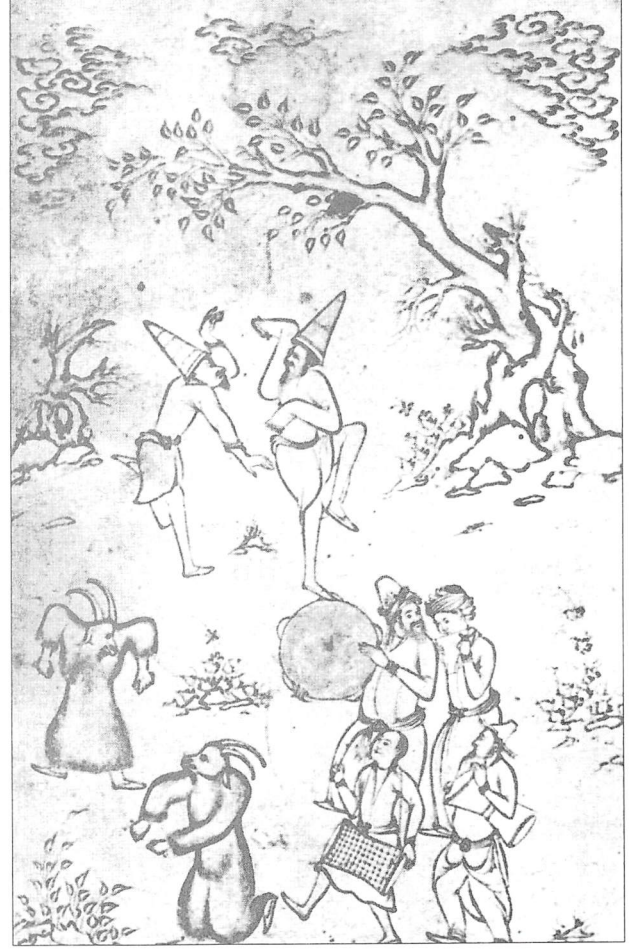


لوحة ٢٤: قَصْر
جهل سوتون
ياَصْفهان.
تصوير جداري.
العصر
الصَّفوي.





لوحة ٢٥: خمسة نظامي . منظومة هفت
بيکر . بهرام جور یصرع التین (١٦٦١) .
تصویر مُحَمَّد زمان . المتحف البريطاني .



لوحة ٢٦: رقص الدراویش . تصویر الفَنان مُحَمَّدي .



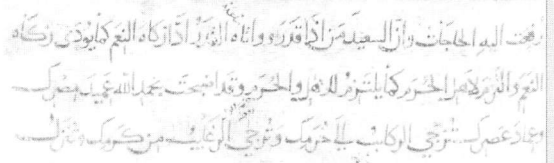
لوحة ٢٧: خمسة نظامي . منظومة «مخزن
الأسرار» . المقالة ١٢ في وداع الدنيا .
الطبيبان المُنْتَافِسان . المتحف البريطاني .



فَلَهُمْ مَنَزِلَةُ الْكَثْرَةِ وَوَصَلَ قَوْلُهُ بِالسُّكْرِ ثُمَّ وَلِيَ نَجْرُ شَقَّةٍ وَنَهَبَ بِأَجْبَاطِ طَرْقَةٍ
قَالَ الْمُخْبِرُ هَذِهِ الْحِكَايَةُ فَصَوَّرَ لِي أَنَّهُ يُجِيلُ الْحَيَاةَ مُتَصَبِّحٌ فِي مَشْيِيَةٍ فَهَضَبَتْ لَهَا نَهْجٌ

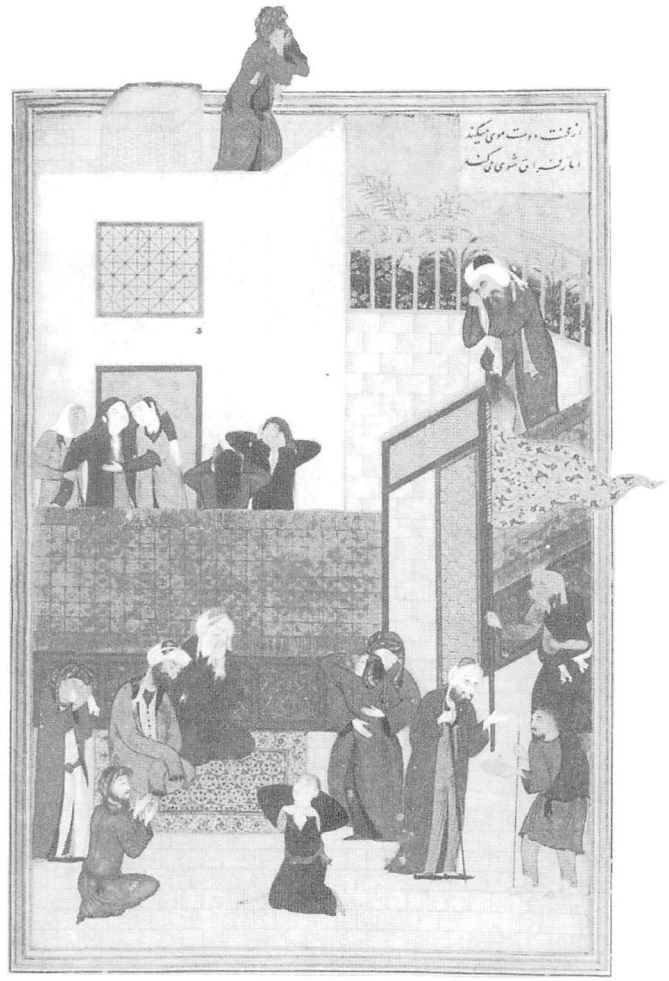
لوحة ٢٨: مقامات الحريري. تصوير الواسطي. المقامة التفليسية: قال الحارث: اتَّفَقَ حين دخلْتُ تفليسَ أن صَلَّيْتُ مع مَفَالِيسَ، فَلَمَّا قَضَيْنَا الصَّلَاةَ وَأَزْمَعْنَا الانْفِلَاتَ، بَرَزَ شَيْخٌ أَعْرَجَ رَثَ الثِّيَابِ [أَبُو زَيْد السَّرُوجِي]، فَقَالَ: «يَا أُولِي الْأَبْصَارِ الرَّامِقَةِ وَالْبَصَائِرِ الرَّائِقَةِ، الْعَيْشُ مَرٌّ وَالصَّبِيَّةُ يَتَضَاغُونَ مِنَ الطَّوَى وَيَتَمَتُّونَ مُصَاصَةَ النَّوَى، وَلَمْ أَقُمْ هَذَا الْمَقَامَ الشَّائِنَ وَأَكْشَفَ لَكُمْ الدَّفَائِنَ إِلَّا بَعْدَ مَا شَقِيتُ وَلَقِيتُ وَشَبِثْتُ مِمَّا لَقِيتُ». ثُمَّ تَأَوَّهَ تَأَوُّهُ الْأَسِيفِ وَأَنْشَدَ بِصَوْتٍ ضَعِيفٍ «أَشْكُو إِلَى الرَّحْمَنِ سَبْحَانَهُ تَقَلُّبَ الدَّهْرِ وَعَدْوَانَهُ... إلخ»، فَازْدَهَى الْقَوْمُ بِذِكَاثِهِ وَدَهَائِهِ، وَاخْتَلَبَهُمْ بِحُسْنِ أَدَائِهِ مَعَ دَائِهِ حَتَّى جَمَعَ كُلُّ مِنْهُمْ مَا قَدَّرَ عَلَيْهِ وَقَدَّمَهُ إِلَيْهِ. دَارُ الْكُتُبِ الْقَوْمِيَّةِ بِبَارِيسَ.

الذم وكَيْفَ الْمَرْءُ أَنْ يَنْقُذَ بِهِ أَعْمَالَهُ أَعْلَقَتْ بِهِ أَلْمَامٌ وَمَنْ نَفَعَتْ لَهُ أَلْمَامٌ

[illegible]

لوحه ٣١: «جامع التواريخ» لِرَشِيد الدِّين: يوسف يَسْتَقْبِلُ
إخوته. عصر الإيلخانات. الجمعيّة الأسيويّة الملكيّة بلندن.

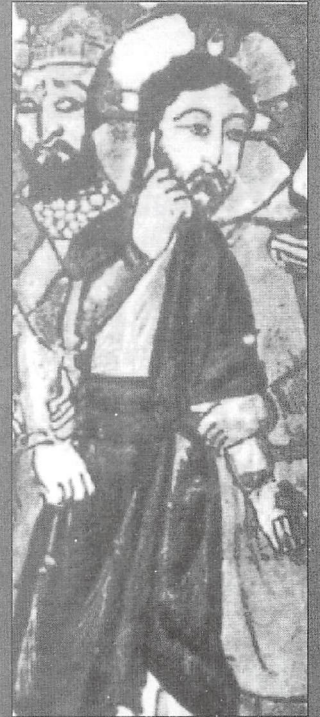
لوحة ٣٣: تصوير تركي: بورترية
مُحمَّد الفاتح بريشة الفنان سنان
بك، متحف طوب قاپو بإسطنبول.



لوحة ٣٢: خُمس نظامي: مدرسة هراة اللاحقة:
الحُزن على مَوْت زَوْج ليلي. يُرَجَّح أَنَّهَا مِنْ تَصْوِير
بُهزاد، ١٤٩٤. المتحف البريطاني.



لوحة ٣٤: رسم بالحبر
الأحمر بإحدى
مخطوطات مقامات
الحريري ١٣٢٣م،
الراجح أن المصوِّر
اقتبسها عن مُنمَّمة
مسيحية تُمثِّل السيِّد
المسيح في المعبد
بأورشليم يناقِش
الفريسيين والصدوقيين.
المتحف البريطاني.



لوحات ٣٥، ٣٦، ٣٧: نماذج
لأنماط مُتشابهة في المخطوطات
الإسلامية والمسيحية الشرقية.

لوحة ٣٨: «كتاب الأغاني» لأبي
الفرج الإصفهاني. أمير في جلسة
طرب. دار الكتب المصرية.



لوحة ٣٩: خمسة نظامي. منظومة هفت
بيكر. بهرام جور والجارية الحسنة فتنه
«آزاديه» (١٦٦١) تصوير محمد زمان،
ويتجلى في الصورة التأثير الإيطالي
بوضوح. المتحف البريطاني.



لوحة ٤٠: شاهنامه الفردوسی. شاه طهماسب الصفوی فوق صهوة جواده یصطاد الحمر الوحشیة فی رفقة جاریته الأثیرة فتنه التي تعزف له علی القیثاره أثناء انشغاله بالصید. وقد بدا طهماسب فی هیئة البطل بهرام جور الأسطوري. المتحف البريطاني.



لوحة ٤٢: تصوير جداري بقصر كوشان
في قيزيل. غُلّمان الممالك الأتراك.



لوحة ٤١: تصوير جداري من سامرا. أحد
غُلّمان الممالك يحمل غزالاً.



لوحة ٤٣: بوذا
الشغدي. دار
الكتب القومية
بباريس [صورة لم
يسبق نشرها].



لوحة ٤٥ : حيوان الكيلين.



لوحة ٤٤ : بوذا الصيني. دار الكتب القومية
بباريس [صورة لم يسبق نشرها].

لوحة ٤٧ : لفافة مطوية صينية. حيوانات
الفأل الحسن. دار الكتب القومية بباريس.
[صورة لم يسبق نشرها].



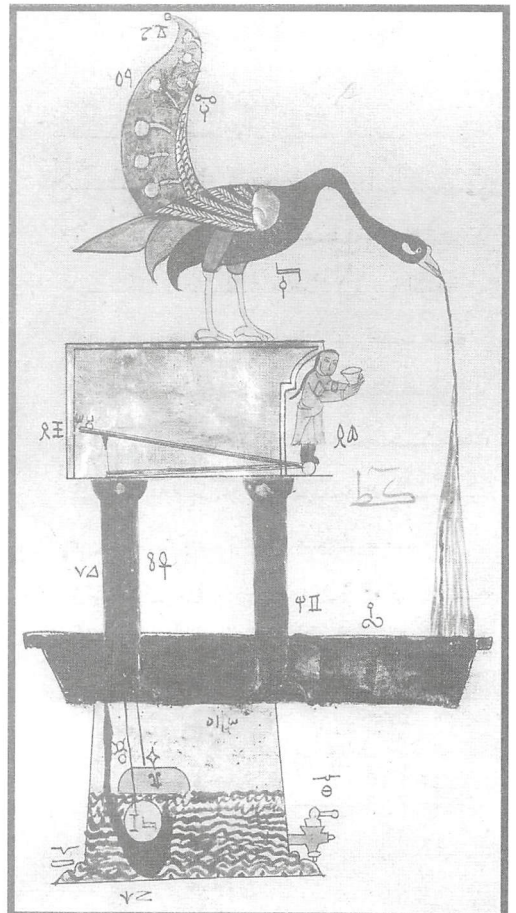
لوحة ٤٦ : الحصان السماوي
المُجَنِّح يركض فوق مياه مُحوَّرة.



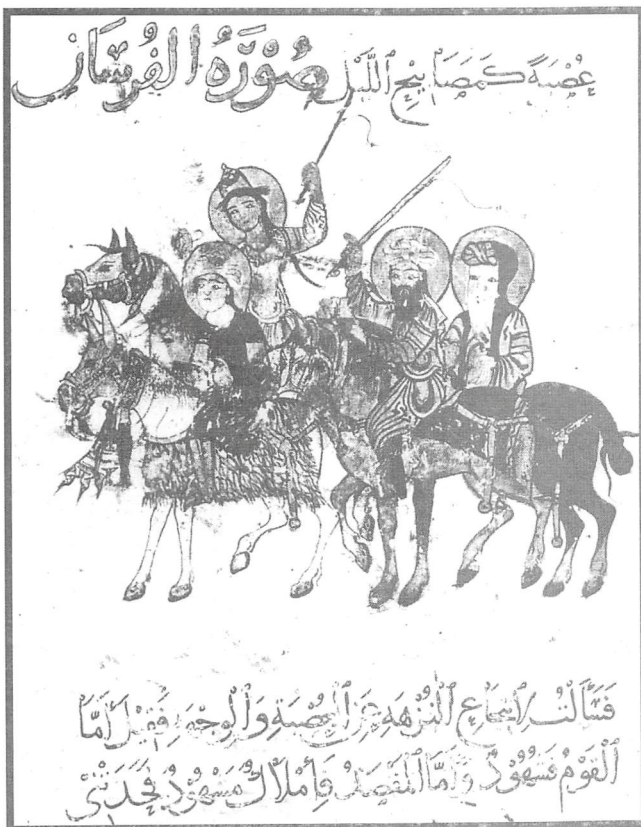
لوحة ٤٨ : لفافة مطوية. فايثرافانا. دار الكتب القومية بباريس [صورة لم يسبق نشرها].



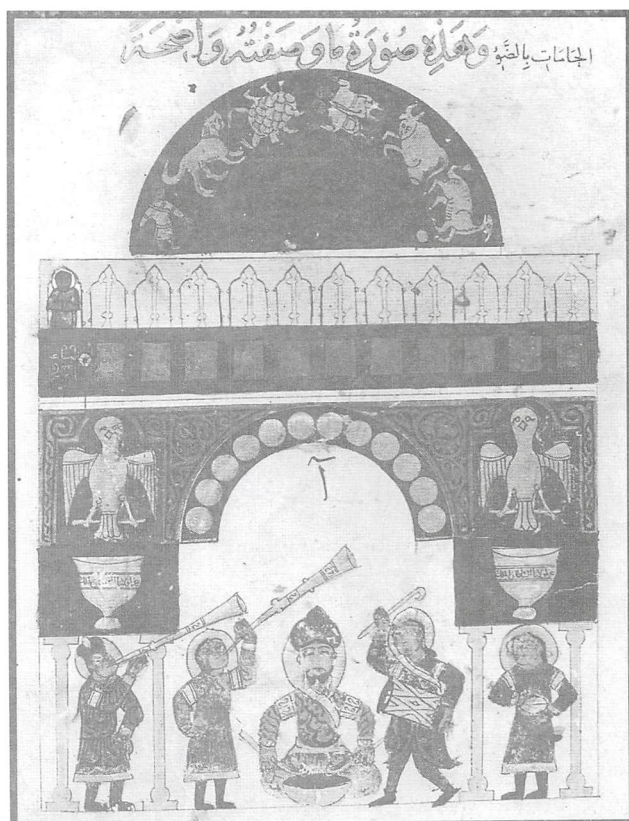
لوحة ٤٩: لفافة مطوية صينية تمثل سِتًّا مِنَ البودياتفا .
دار الكتب القومية بباريس . [صورة لم يسبق نشرها] .



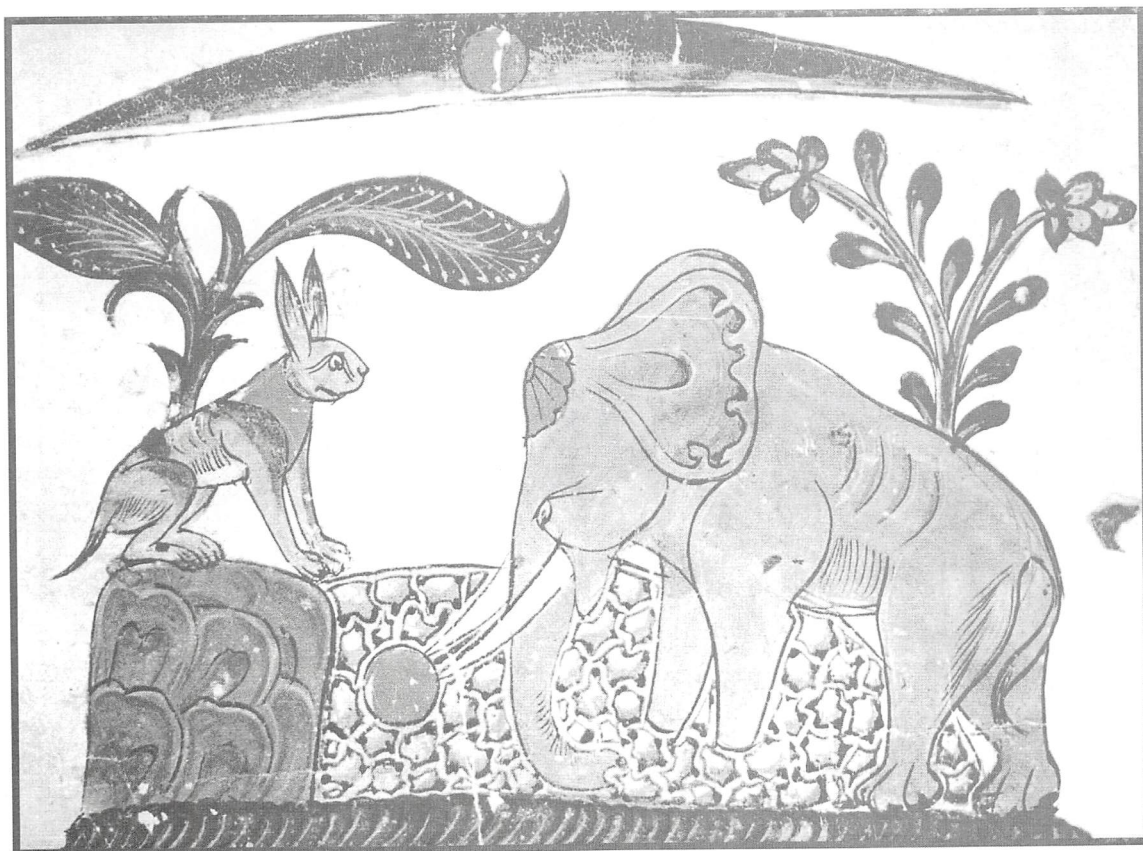
لوحة ٥٠: «الجامع بين العلم والعمل في الحِجَل»
للجزري ١٣٥٤م. جهاز على شكل الطّاووس لِعِشَل
الأيدي. متحف بوسطن للفنون الجميلة.



لوحة ٥٣: مقامات الحريري ١٢٢٢م. الفرسان في طريقهم إلى دار أفراس الشخاضين، دار الكتب القومية بباريس [صورة لم يسبق نشرها].



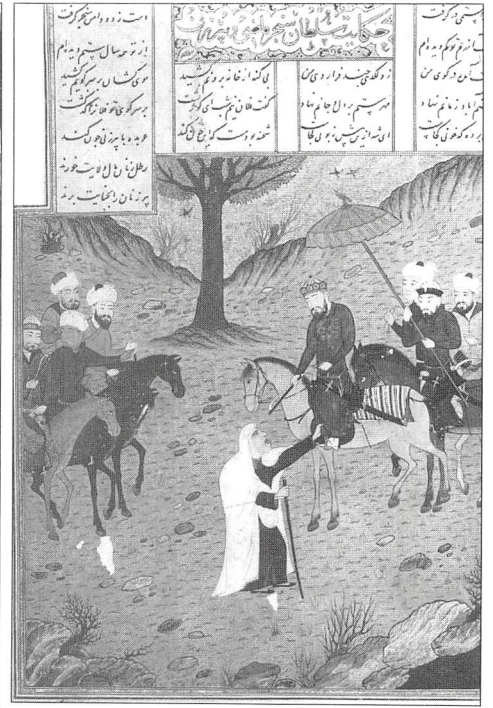
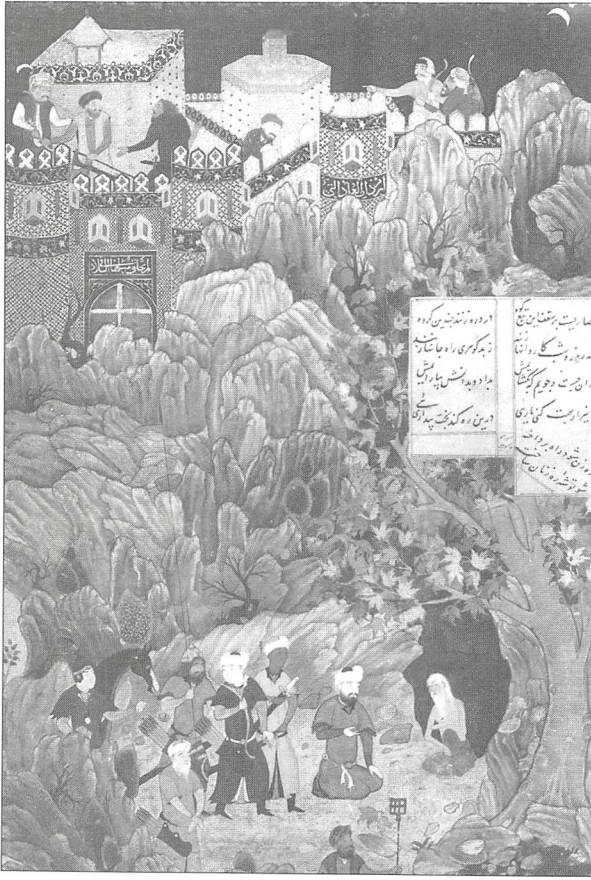
لوحة ٥١: كتاب «الجامع بين العلم والعمل في الجبل» للجزري ١٣٥٤م. ساعة مائية بالغة الدقة على شكل مدخل أحد القصور يتصدرها موسيقيون يعزفون. متحف بوسطن للفنون الجميلة.



لوحة ٥٢:
كليلة ودمنة:
الأرنب البري
وملك الفيلة
عند بئر القمر
سوريا
١٣٥٤م.
المكتبة
البودلية
بأوكسفورد.

لوحة ٥٥ : خمسة

نظامي . منظومة
إِسْكَندَرُ نَامِه .
إِسْكَندَرُ يَزُورُ نَاسِكًا
يَقْطُنُ كَهْفًا . وَيَلْفَتُنَا
كِتَابَةُ الْآيَتِينَ
الْفَرَأْنَتَيْنِ : «إِرْمَ ذَاتِ
الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ
مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ»
مَوْزَعَتَيْنِ عَلَى
الْمَبَانِي فِي أَعْلَى
خَلْفِيَّةِ الصُّورَةِ .
الْمَتْحَفِ الْبَرِيطَانِيِّ .



لوحة ٥٤ : خمسة نظامي . منظومة مَخْزَنُ الْأَسْرَارِ .
الْمَقَالَةُ ٤ فِي رِعَايَةِ الرَّعِيَّةِ . إِمْرَأَةٌ عَجُوزٌ تَشْكُو إِلَى
السُّلْطَانِ سَنْجَرٍ كَيْفَ سَرَقَهَا أَحَدُ جُنُودِهِ . الْمَتْحَفِ
الْبَرِيطَانِيِّ .

لوحة ٥٧ : «عجائب

المخلوقات وغرائب
الموجودات» : رُمُوزُ
الرُّسُلِ أَصْحَابِ
الْأَنْجِيلِ الْأَرْبَعَةِ .
«وَكُنَ يُرْمَزُ فِي
التَّقْلِيدِ الْكَنْسِيِّ إِلَى
الْقِدِّيسِ مَتَّى بِشَكْلِ
مَلَاكٍ أَوْ إِنْسَانٍ نَظَرًا



لوحة ٥٦ : «عجائب المخلوقات وغرائب
الموجودات» لِلْقَزْوِينِيِّ ١٣٧٥-١٤٢٥ م . «جِبْرَائِيلُ
أَمِينُ الْوَحْيِ وَرُوحُ الْقُدُسِ وَالنَّامُوسُ الْأَكْبَرُ
وِطَاوُوسُ الْمَلَائِكَةِ . . . وَمَلْبُوسُهُ لَا يُوصَفُ مِنْ
كَثْرَةِ أَلْوَانِهِ وَحُسْنِ صُنْعَتِهِ» . الْمَتْحَفِ الْبَرِيطَانِيِّ .

لأنَّ إنجيله يبدَأُ بِتَقْدِيمِ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ فِي صُورَتِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ أَوْ النَّاسُوتِيَّةِ كَأَبْنِ إِنْسَانٍ
يَتَسَبَّبُ حَسَبَ الْجَسَدِ إِلَى دَاوُدَ وَإِلَى إِبْرَاهِيمَ . كَمَا يُرْمَزُ إِلَى الْقِدِّيسِ مَرْفُصٍ بِشَكْلِ
أَسَدٍ ، وَإِلَى الْقِدِّيسِ لُوقَا بِشَكْلِ ثَوْرٍ ، وَإِلَى الْقِدِّيسِ يُوْحَنَّا بِشَكْلِ نَسْرٍ .

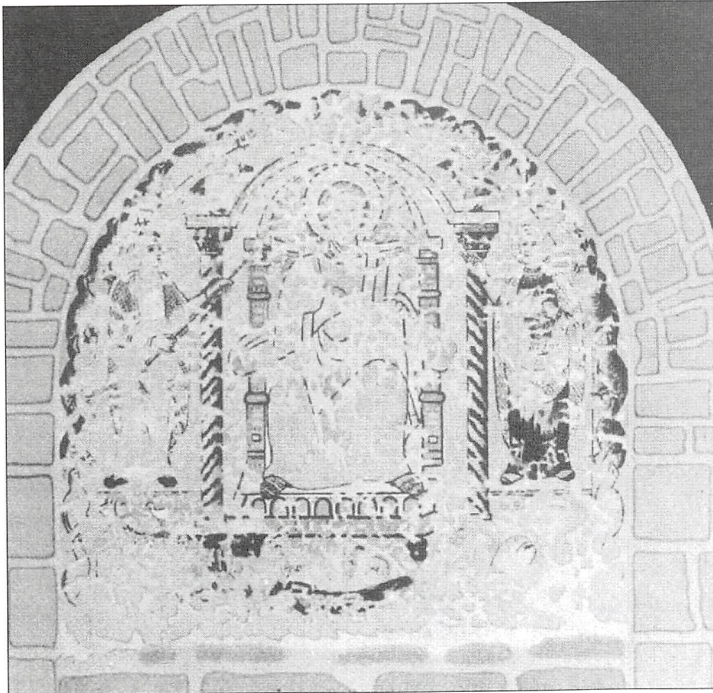
لوحة ٦٠: أمير
شاب يعزف على
الماندولين.
تصوير أفا رضا.
العصر الصفوي.



لوحة ٦١: تصوير
جداري. حُكَّام العالم
السَّت المَهْرُومِينَ.
فُصَّير عَمْرَة.



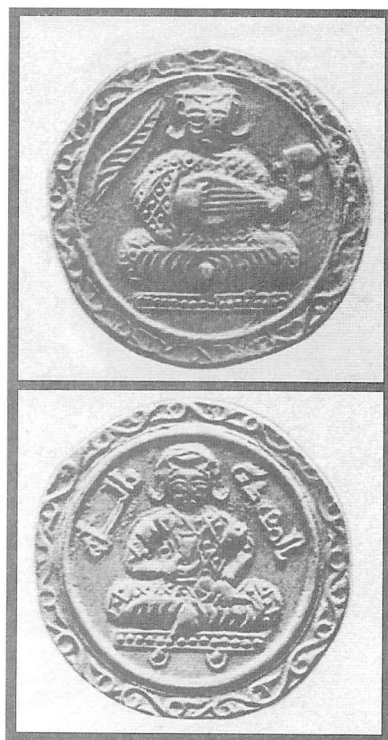
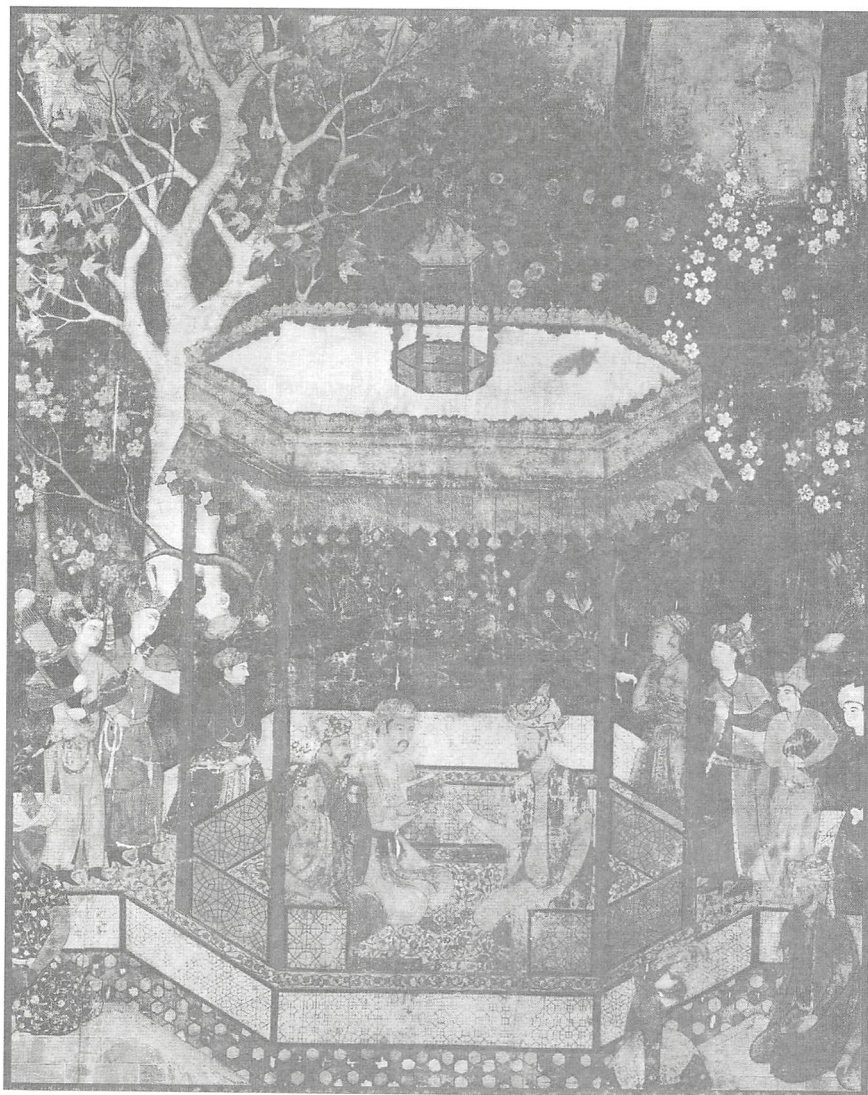
لوحة ٦٢: تصوير
جداري. الخليفة
الوَلِيد جَالِسًا على
عرشه تُحِيط به
هالة مِن نور
(مطموس).
فُصَّير عَمْرَة.



لوحة ٥٩: غُلام مِن البَلَاط الصَّفَوِيّ.
تصوير أفا رضا. العصر الصفويّ.



لوحة ٥٨:
مَقَامَات
الحَرِيرِي.
الحَارِثُ وَغُلامه
المَيِّت مُسَجَّى
أمامه. «الحارث
بعدما جاب البيد
إلى «زبيد»
وَصَحِبَه غُلامه
بعد ما رَبَّاه إلى
أن بلغ أَشَدَّهُ حتى
أَكْمَلَ رُشدَه
فَأَلَوَى بِهِ الدَّهْر
المُبِيد حينَ
صَمَّتْهُمَا زَبِيد،
فَلَمَّا شَالَت نَعَامَتَه
(أي مات)
وَسَكَنت نَامَتَه
بَقِيَتْ عَامًا لَا
أَسِيغ طَعَامًا وَلَا
أَطْلَب غُلامًا».
تصوير الواسِطِي.
دار الكُتُب
القومية بِباريس.



لوحة ٦٣: عملة نقدية من عهد الخليفة
العباسي المقتدر. (٩٠٨-٩٣٢م). عازف
عود، والخليفة يمسك بقدح وسلاح.

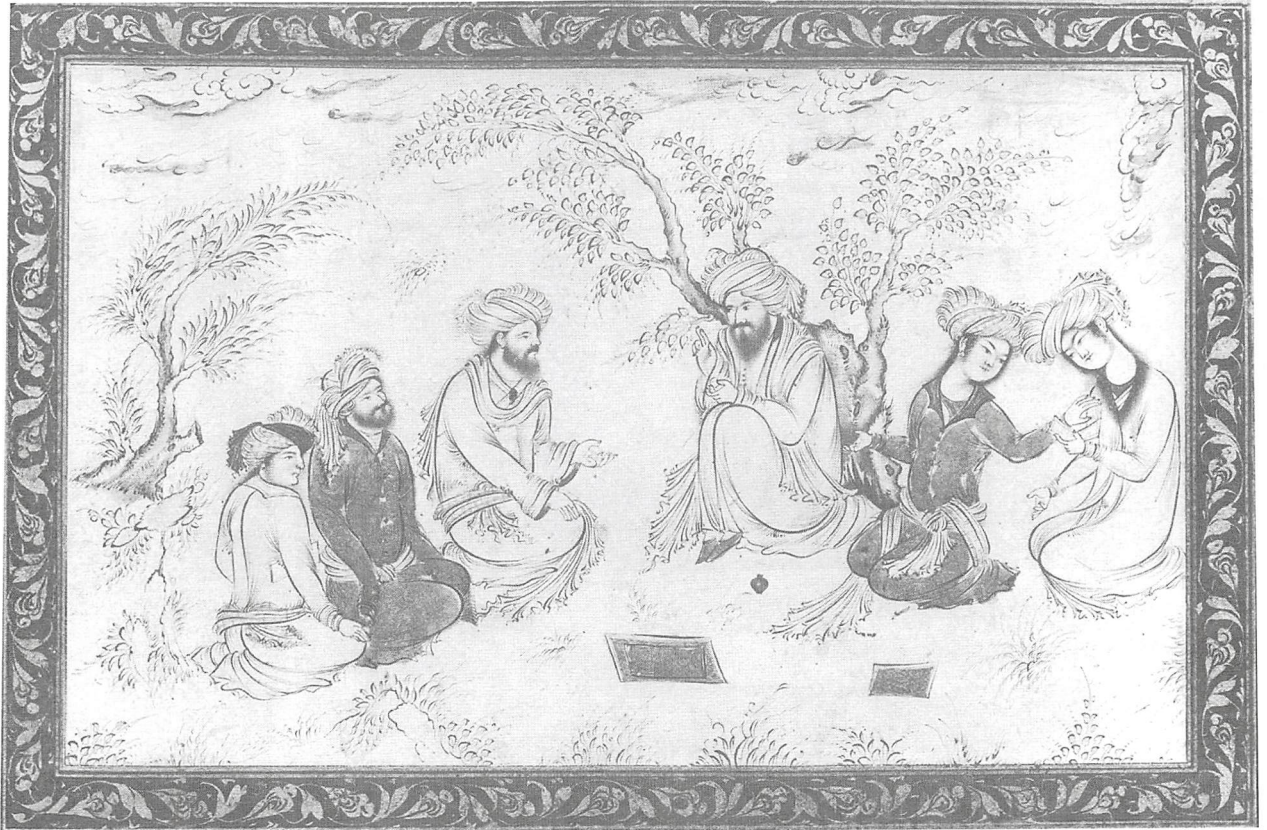
لوحة ٦٤: بيت آل تيمور لوحة
زيتية. تصوير عبد الصمد
١٥٥٥م. المتحف البريطاني.

لوحة ٦٥: تصوير جداري بقاعة الأعمدة الأربعين «جهل سوتون» بإصفهان.
(رسم خطي). شاه عباس يستقبل تابعه محمد خان زعيم الأوزبك.



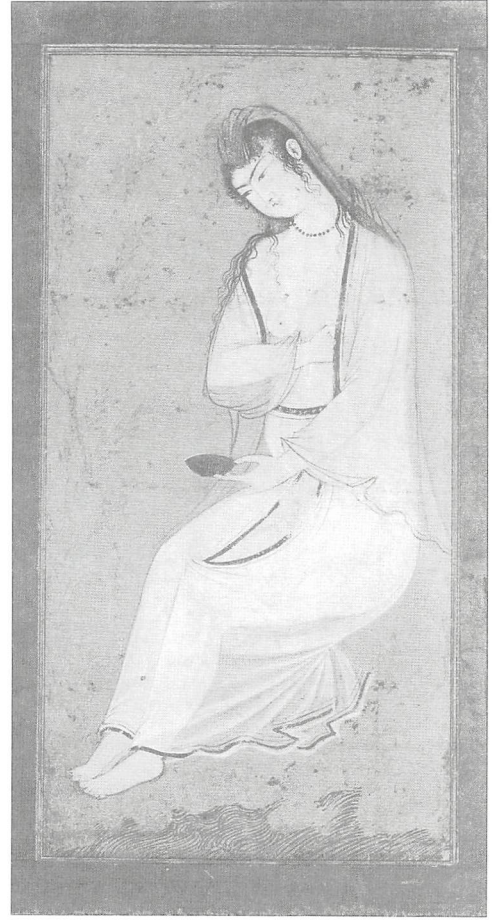


لوحة ٦٦: تصوير جداري بقاعة الأعمدة الأربعين «جهل سوتون» بإصفهان. شاه عباس يستقبل خليفة سلطان سفير الهند.

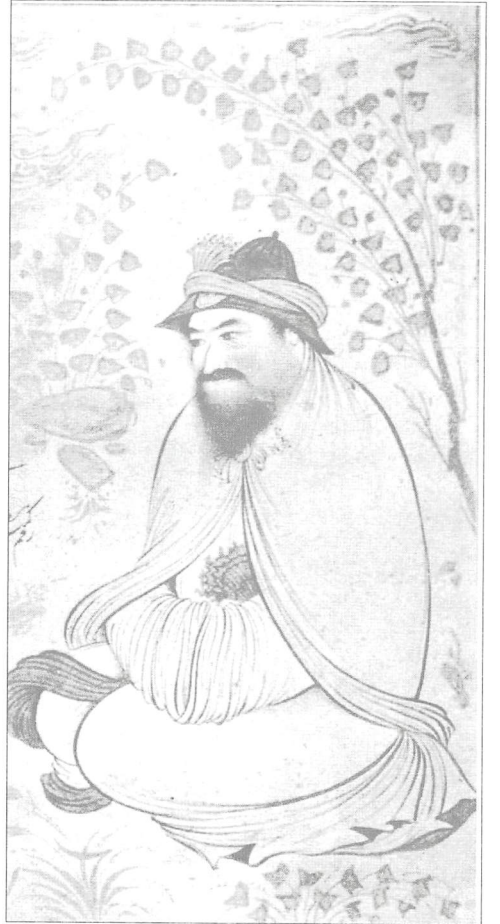


لوحة ٦٧: مشاهد لهُو وعشق خلال مأدبة في الخلاء. تصوير رضا عباسي. القرن ١٧. إصفهان. المتحف البريطاني.

لوحة ٦٨: راقصة تحمل طبقاً أزرق. تصوير
رضا عباسي. المتحف البريطاني.



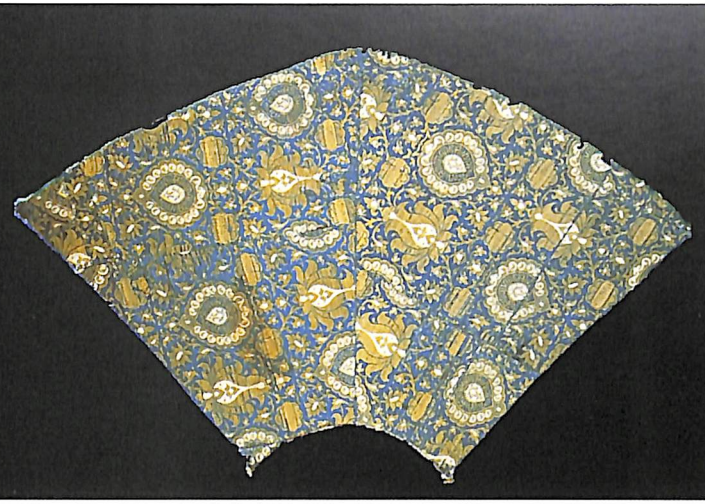
لوحة ٦٩: درویش يحمل سطلا. تصوير
رضا عباسي. المتحف البريطاني.



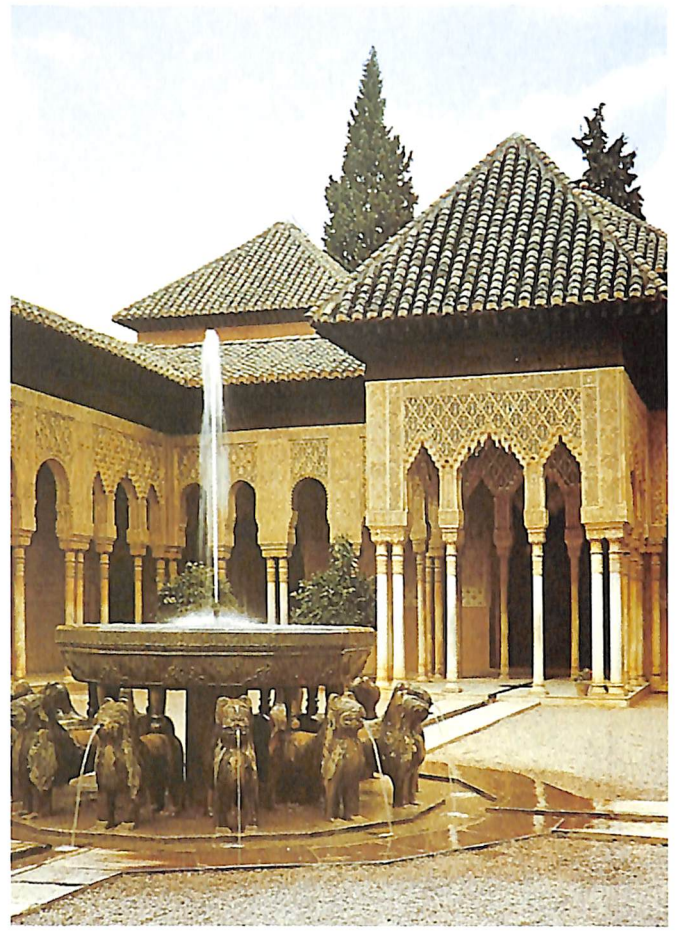
لوحة ٧٠: درویش في لحظة تأمل. تصوير
رضا عباسي. المتحف البريطاني.

لَوْحَاتُ
البَابِ الْأَوَّلِ
المُلَوَّنَةِ

التَّصْوِيرُ الإِسْلَامِيُّ

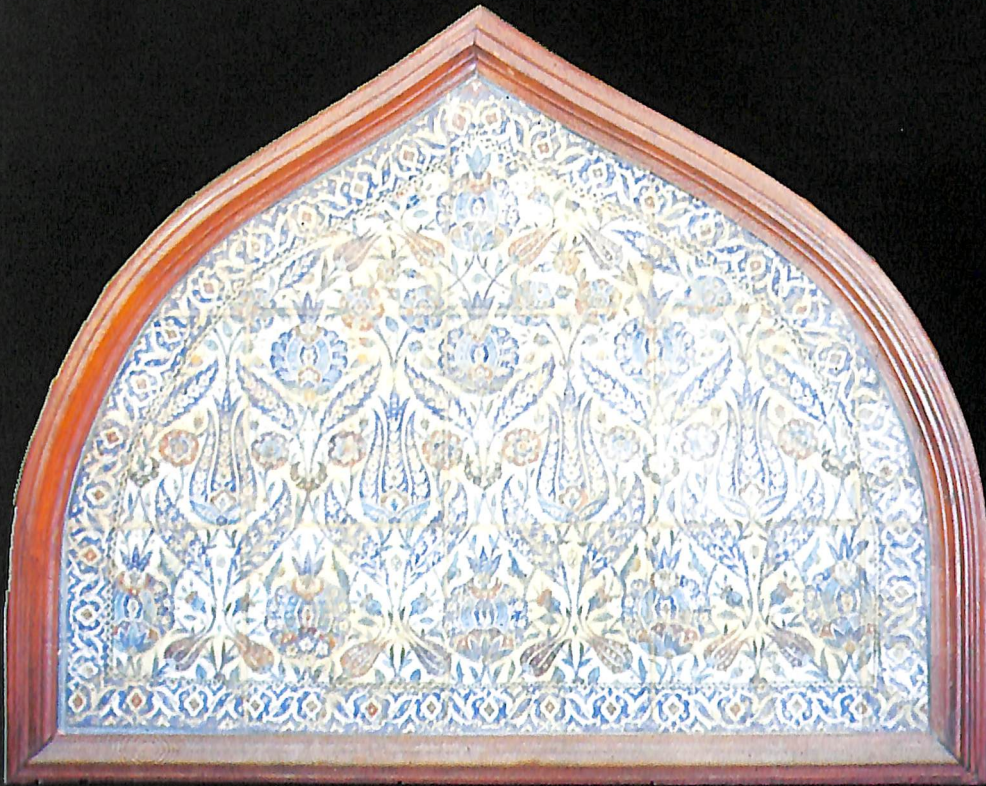


لوحة ٢م: قطعة من نسيج الحرير، من العصر
المملوكي تُزخرفها أزهار لوتس صينية الطراز
وتنخللها أفرع وأوراق نباتية. مصر. القرن ١٤.

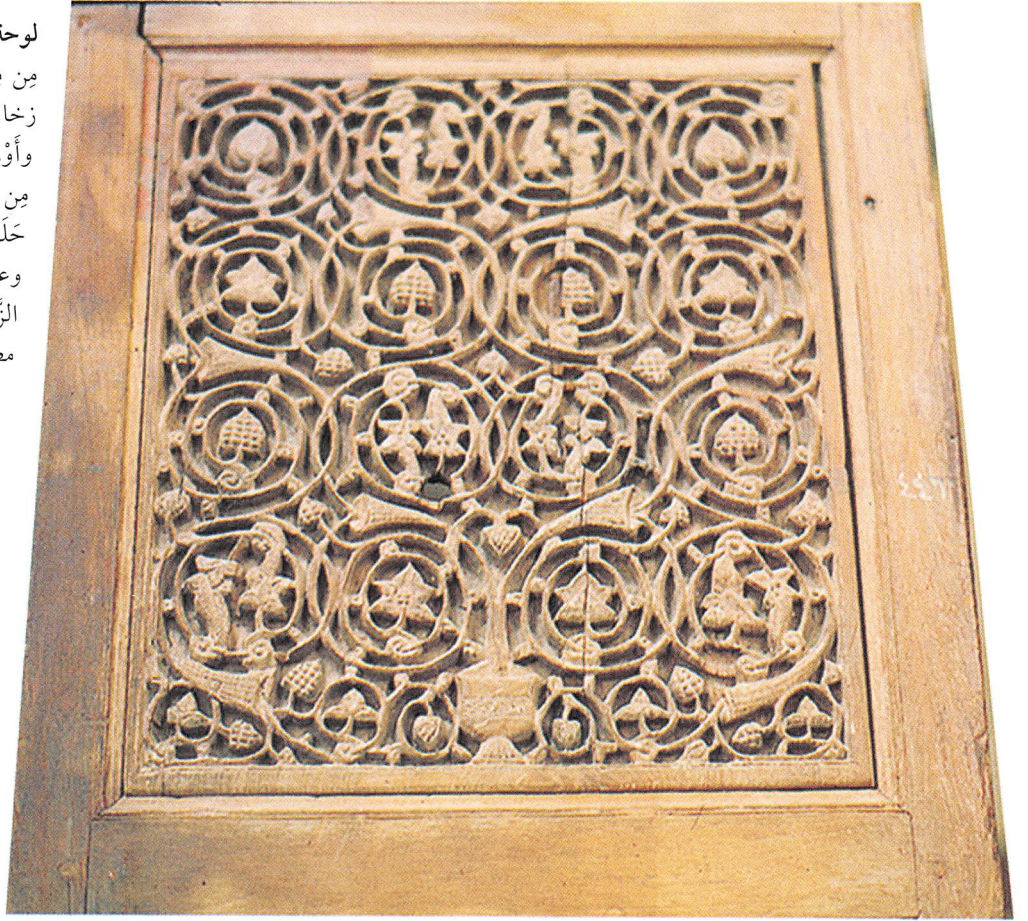


لوحة ١م: أسود نافورة ساحة الرياحين
بقصر الحمراء. غرناطة. القرن ١٤.

لوحة ٣م: لوحة من بلاطات الخزف التركي تُزخرفها
أوراق طويلة مُسنَّنة وبراعم وأزهار طبيعية، منها زهرة
القرنفل. إزنيك. القرن ١٦.



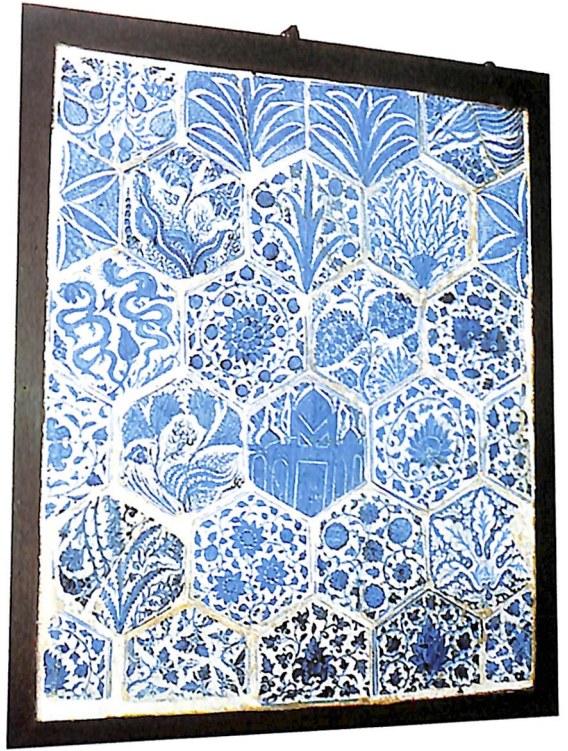
لوحة ٤م: حشوة من الخشب
من مخراب السيدة رقية عليها
زخارف أرابيسك من أفرع
وأوراق نباتية متشابكة، تنطلق
من زهرية مكونة أشكالاً
حلزونية وقرون رخاء وأوراقاً
وعناقيد عنب، وعناصر
الرَّخفة مُحَوَّرة عن الطبيعة.
مصر. القرن ١٢.



لوحة ٥م: بلاطة من
الخزف التركي
صناعة إزنيك عليها
رَّخفة تتألف من تقسيم
هندسي به أفرع وأزهار
منها القُرْنُفُل الأحمر
وبراعم الأزهار المُرَكَّبَة
بألوان الأزرق والأخضر
والأحمر والأسود.
إزنيك. القرن ١٧.



لوحة ٦م: لوحة من بلاطات الخزف المملوكي من صناعة مصر عليها زخارف متأثرة كثيراً بفن البورسلين الصيني. نرى منها شكل منزل عليه قباب ورسم التين وأزهار اللوتس. والزخرفة بالأزرق الكوبلت على أرضية زبدية اللون. القرن ١٥.



لوحة ٧م: جزء من منديل من القطن مزخرف بالطباعة عليه بالخط الثلث بقیة كلمة برسم «المحبة». وبالأرضية زخارف من أفرع نباتية تنبثق منها رؤوس حيوان وطير. العصر المملوكي. القرن ١٤.



لوحة ٨م: بلاطة مربعة من الخزف من العصر المملوكي عليها زخارف نباتية بثلاثة أنماط من الخطوط. فنرى في الإطار آية قرآنية بالخط الكوفي الزخرفي المصفور: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾. وفي أركان الإطار وفي مربعات صغيرة نجد توقيع الخزاف بعبارة نضها: «عمل غيبي بن الثوري» (نسبة إلى توريذ أي تبريز). وفي المربع الداخلي وبخط نسخي مضاف القوائم، نجد عبارة «توكل على خالقك» مكررة أربع مرات لتكون في منتصف البلاطة شكلاً نجمياً تدور حوله الكتابة. مصر. القرن ١٤/١٥.





اللوحات ٩، ١٠، ١١م: شرائط خشبية كانت تُزيّن قاعة سِتّ المُلك بالقصر الفاطميّ الغربيّ. مناظر ثلاثة يُمثّل أحدها عازفة على آلة وترية وأمامها زامر، والثاني يُمثّل زامراً تُصاحبه راقصة، والثالث يُمثّل عازفاً على العود وزامراً. متحف الفنّ الإسلاميّ بالقاهرة.



اللوحتان ١٢، ١٣م: شرائط خشبية كانت تُزيّن قاعة سِتّ المُلك بالقصر الفاطميّ: منظران يُمثّل أحدهما عازفاً على العود وراقصة تُمسِكُ بيدها صنّجات الرّقص. ويُمثّل الآخر زامراً وراقصة تنقر على الدفّ. متحف الفنّ الإسلاميّ بالقاهرة.



اللوحتان ١٤، ١٥م: شرائط خشبية كانت تُزيّن قاعة سِتّ المُلك بالقصر الفاطميّ. منظران يُمثّل أحدهما صياداً يطعن أسداً برُمحه، والآخر يُمثّل مروّضاً للأسود.

الطبيع
والاول قوته ومنفعته كالام البستاني

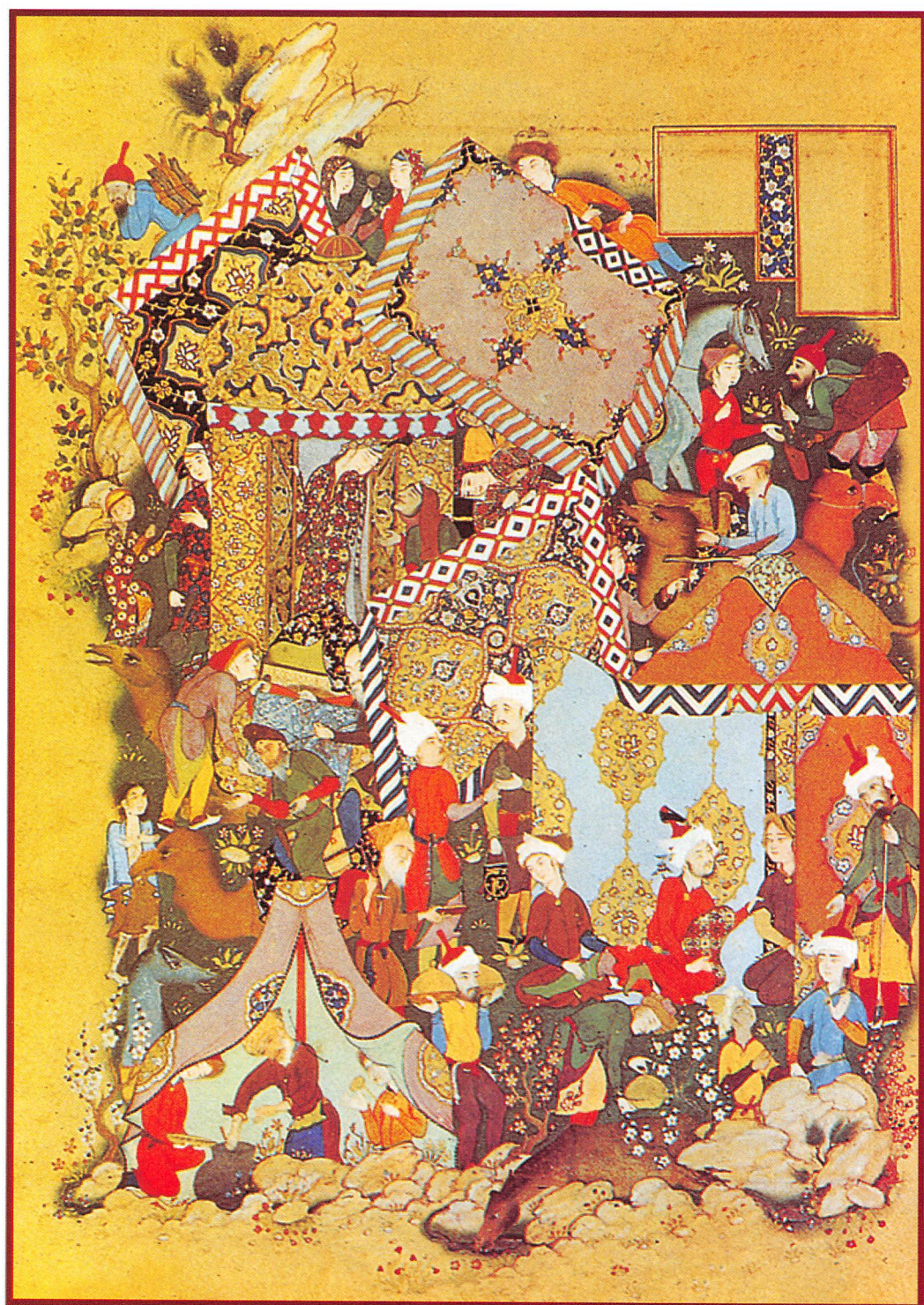


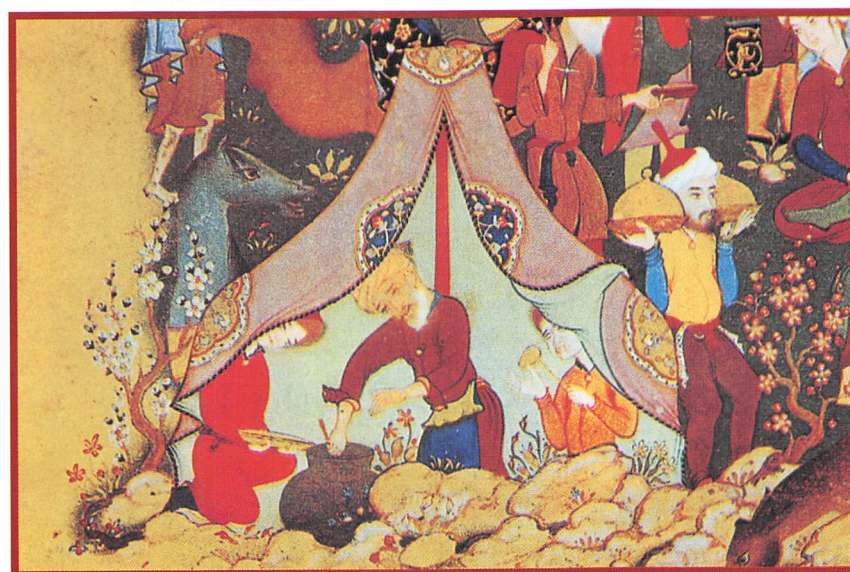
لوحة ١٦م: «كتاب الحشائش وخواصّ
العقاقير» لـديوسقوريدس. نبات الكرمة.
شمال العراق أو سوريا ١٢٢٩م. متحف
طوب قابو بإستنبول.



لوحة ١٧م: «كتاب
الحشائش وخواصّ
العقاقير»
لـديوسقوريدس. نبات
العدس. متحف طوب
قابو بإستنبول
١٢٢٩م.

الطبيع
الاحكام منه بظلم النور وهو عا الهضمة للمعدة للامعاء





لوحة ١٨م:
مخطوطة هفت
أورانج للشاعر
جامي. المَجْنُون
أمام خيمة ليلى.
١٥٥٦.



لوحة ١٩م: خمسة نظامي . منظومة هفت بيكر ١٦٦١م. بهرام جور يصيد التنين .
تصوير محمد زمان . المتحف البريطاني .



لوحه ٢٠م: مخطوطه

«مطلع السعدین»

لِلسَّمَرَقَنْدِي ١٦٠١م.

السُّلْطَانُ أُولْجَايْتُو يُبَارِزُ

شاه منصور. متحف الفنّ

الإسلاميّ بالقاهرة.

[صورة لم يسبق نشرها].



لوحه ٢١م: مخطوطه «مطلع السعدین» لِلسَّمَرَقَنْدِي ١٦٠١م

المعركة بين ميرزا سلطان إبراهيم وميرزا شاه محمود.

متحف الفنّ الإسلاميّ بالقاهرة. [صورة لم يسبق نشرها].



لوحه ٢٢م: مقامات الحريري

١٢٣٧م مخطوطه الواسطي. أبو

زَيد السُّروجي أمام حاكم رجة

عاشق الغُلمان مُمسِكًا بَغْلام

فانن. دار الكتب القوميّة بباريس.

لوحة ٢٣م: «كتاب
الحشائش وخواص العقاقير»
لديوسقوريدس. الهالة
المُستديرة ١٢٢٩م. متحف
طوب قايو بإستنبول.



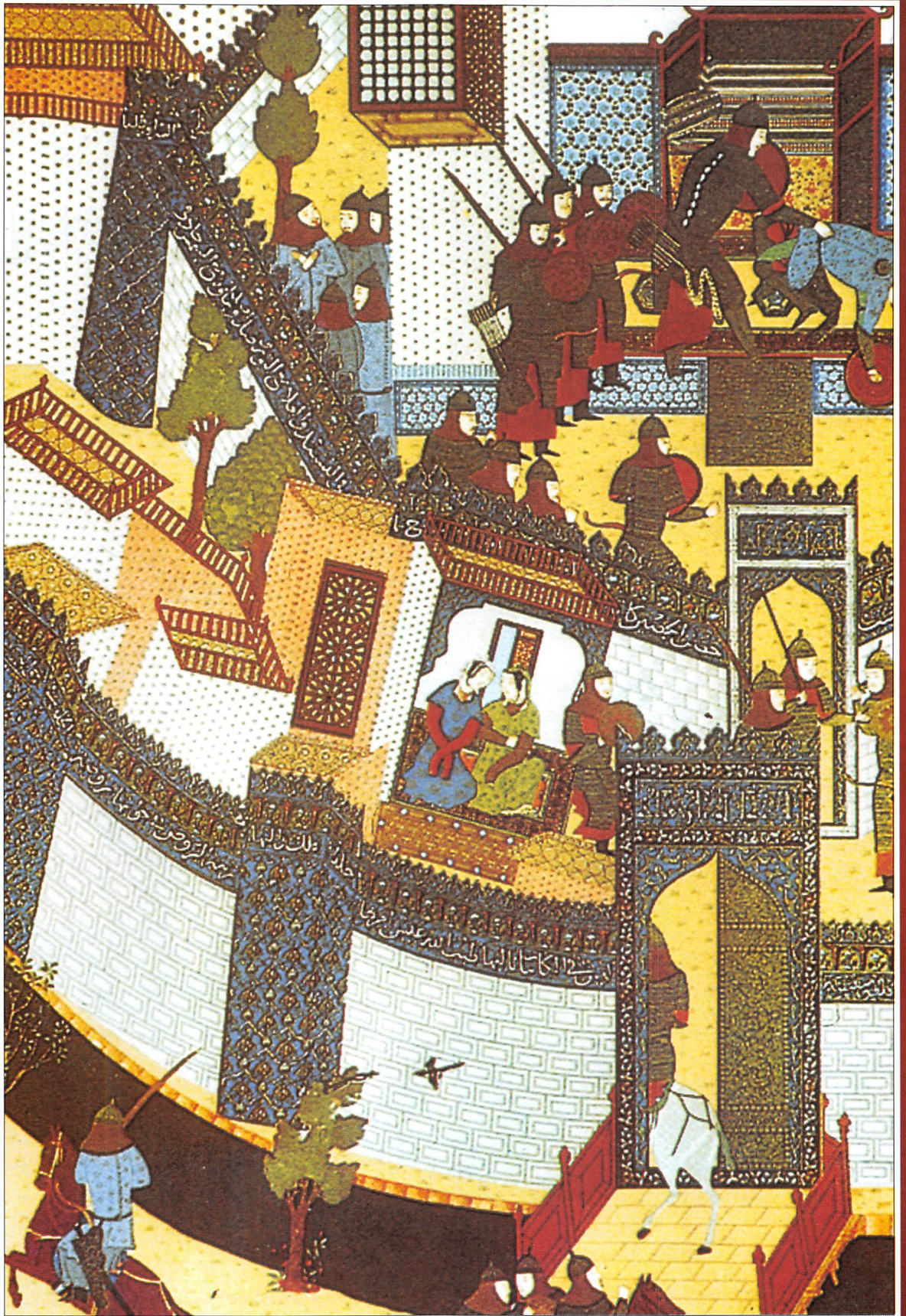
لوحة ٢٤م: «الخارنامة» لابن حسام.
الهالة البيضية التوراتية. متحف الفنون
الرَّخُفِيَّة بِطهران. شيراز ١٤٨٠.



لوحة ٢٦م: «عجائب المخلوقات وغرائب
الموجودات» للقرظيني ١٣٧٠-١٣٨٠م.
إسرافيل مُبلِّغ الأوامر ونافخ الأرواح في
الأجساد. فريز جاليري للفنون بواشنطن.



لوحة ٢٥م: مقامات الحريري: تصوير
الواسطي. الحارث وقد امتطى ظهر راحلته:
«فاقتعدت مَهْرِيَا واعتقلت سمهْرِيَا، وسرت
تلفظني أرض إلى أرض ويجذبني رفع
وخفض... إلخ». دار الكتب القومية بباريس.



لوحة ٢٧م: العصر التيموري: شاهنامه بايسنقر. إفتحام إسفنديار لقلعة أرجاسب ١٤٣٩م. مكتبة قصر جلستان بطهران.



لوحة ٢٨م: تصوير مغولي بالهند: حمزه نامه ١٥٧٥م: أسد بن خزيمه يقود جيشه ضد جيش إيراج ليحاصر قلعة فارسيّة والجند شاهرو السّلاح سيّوفاً وقسيّاً وقد تدّرّعوا بالثّروس. وبالصّورة أشجار هنا وهناك قد حطّ عليها الطّيّر، وأمام القلعة أكّمة طبيعيّة اصطفّ عليها الجند الفرس للدّفاع عن القلعة. صورة من بواكير الطّراز المغولي الذي يجمع بين الواقعيّة والحسن الفنّي الرّهيف ونقاوة الألوان. متحف متروپوليتان.



لوحة ٣٠م: تصوير مغولي بالهند. صقّر. بومباي ١٦٠١.



لوحة ٢٩م: تصوير مغولي بالهند. جهانغير يحمل بورتريه جدّه أكبر. تصوير أبو الحسن. (١٥٩٩-١٦٠٥).



لوحة ٣١م: تصوير تركي: وَصَف مَرَّاجِل حَمْلَةِ السُّلْطَانِ سُلَيْمَانَ فِي الْعِرَاقَيْنِ الْعَرَبِيِّ وَالْفَارِسِيِّ.
خَرِيطَةُ لِمَدِينَةِ السُّلْطَانِيَّةِ (تَبْرِيز) ١٥٣٧. مَكْتَبَةُ الْجَامِعَةِ بِإِسْتَنْبُول.



لوحة ٣٢م: تصوير تركي: السُّلْطَانُ سَلِيمُ الْأَوَّلُ عَلَى رَأْسِ جُنُودِهِ فِي مَوَاجِهَةِ الرُّومِ (١٥٢٠-١٥٢٥). مَتَحَفُ طُوبُوقَابُ بِإِسْتَنْبُول. [صُورَةُ لَمْ يَسْبِقْ نَشْرُهَا].

لوحة ٣٣م: تصوير تركي: هَوْنَرُ نَامَةِ حَقْلِ خَتَانَ الْأَمِيرِ ابْنِ سُلَيْمَانَ الْعَظِيمِ حَيْثُ نَرَى أَلْعَابَ الْبَهْلَوَانَاتِ. مَتَحَفُ طُوبُوقَابُ بِإِسْتَنْبُول. [صُورَةُ لَمْ يَسْبِقْ نَشْرُهَا].

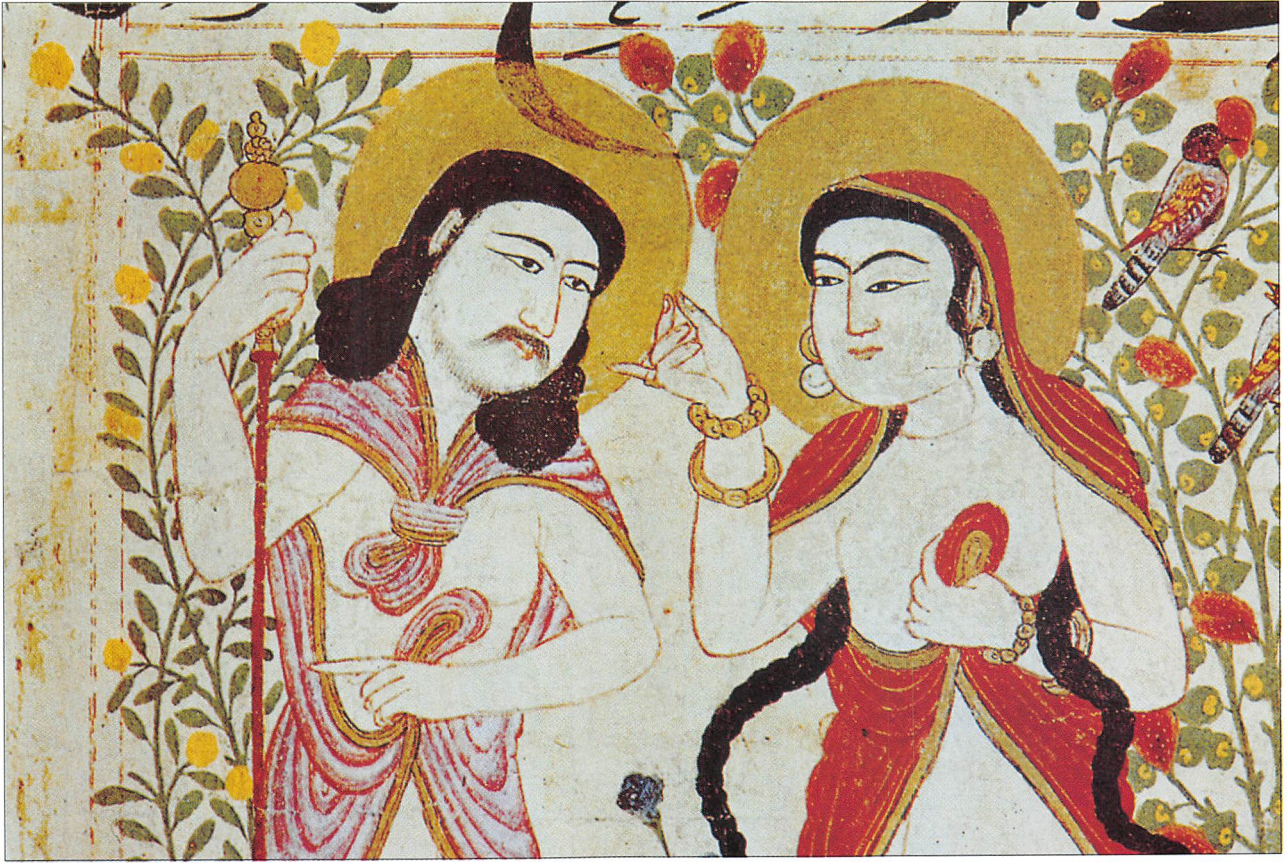


لوحة ٣٤م: فن سلجوقي. سلطانية من الخزف المينائي. الرّي. القرن ١٣. فريز غاليري للفنون بواشنطن. منظر لمعركة حربية تدور حول حصن نرى فيها صفوف الفرسان والقبيلة تُهاجم حصناً بينما يقوم المدافعون بالرّمي بالقيسيّ والمُجنّقات على المُهاجمين. ويحفّ بالرّسوم بعض شجيرات مخروطية مُبسّطة وطيور. ونرى أسماء بعض القادة الهامة مُسجّلة قرين شكل كلّ واحد منهم. ومن المرجّح أنّ هذا المشهد أُخذ عن نظير له اندثر، كان يُزيّن جداراً في أحد قصور السلاطين السلاجقة. والرّسوم مُؤدّة بالمينا المتعدّدة الألوان فوق الطلاء.

لوحة ٣٥م: فنّ سلجوقي. سلطانية من الخزف المينائي الملون فوق
الطلاء. قاشان ١١٨٧م. متحف المتروبوليتان. ويبدو رسم أمير أو ما
شابهه على صهوة جواده ومن حوله أتباعه. وفي أسفل المشهد شطّر
من بحيرة بها أسماك، ويتخلل الرسوم أفرع مُبسّطة وطيور. وعلى
الحافة شريط دائري به شبه كتابة كوفية، وفي أسفل الرسوم توقيع
الصانع «أبو زيد القاشاني».



لوحة ٣٦م: مدرسة التصوير العربي: «كتاب منافع الحيوان» نسخة لأبي سعيد
عبيد الله بن بختيشوع. مرغة ١٢٩٤-١٢٩٩. مكتبة بيرپونت مورجان
بنيويورك. آدم وحواء. حيث يتبين امتزاج طراز مدرسة بغداد الذي يتجلى في
مشهد الطير والنبات بطراز السلاجقة الذي يتجلى في ملامح الوجوه.



لوحة ٣٧م: طبق من الخزف ذي
البريق المعيني عليه رسم فارس
أثناء الصيد يحمل بازًا على يده
اليُسرى. مصر. القرن ١١.
العصر الفاطمي. متحف الفن
الإسلامي بالقاهرة.



لوحة ٣٨م: طبق من الخزف ذي
البريق المعيني عليه رسم لسيّدة
تعزف على العود. مصر. القرن ١١.
العصر الفاطمي. متحف الفن الإسلامي بالقاهرة.



لوحة ٤٠م: شاهنامة
الفرّْدُوسِي. بهرام
جور يُصارع الأسد
في بلاد الصين.
المكتبة العامة
بنيويورك ١٦١٤م.
يُحاكي المُصوّر في
هذه المُنمّنة صُور
شاهنامة بايسنقر وفق
أُسلوب مدرسة هِراة
التي سبّقت بقرنين
تقريبًا. ومِمّا يلفتنا
في هذه المُنمّنة
رسم الرُبي وكأنّها
شُعْبٌ مَرْجَانِيّة
تتخلّلها أشجار يحطّ
عليها الطّير، كما
تُتَبّنّى في رسم الأسد
مَلامِح الشّراسة
والإضرار وهو يدفع
عنه عُذوان القَتّاص.



لوحة ٣٩م: تصوير جداريّ من سامراء. أحد
عُلمان المماليك يحمل غزالًا.

لوحة ٤١م: «بستان» سعدي. حفل أنس وطرب بين يدي
السلطان حسين ميرزا. تصوير بهزاد. دار الكتب المصرية.



لوحة ٤٢م: كتاب
شريعة اللّذة [كاما
سوترا] للوزير كوكا.
دار الكتب المصرية
[صورة لم يسبق
نشرها].



الباب الثاني

التصوير العسكري

الفصل التاسع

فجر التصوير الإسلامي : العهد الأموي

الإمبراطورية الإسلامية إسبانيا والسند ووصلت الجيوش العربية إلى قرنسا بعد عام ٧٣٦، وأصبح حكام دمشق يمثلون قوة دولية خطيرة الشأن.

في ظل هذا التوسع كان ثمة تصوير إسلامي له طابعه وله خصائصه. وعلى الرغم من أن التصوير الإسلامي هو في حقيقة الأمر تزقين للكتاب إلا أن منجزاته الأولى كانت تصاوير جدارية ولوحات من الفسيفساء زينت بها المساجد والقصور. وحتى في هذه المرحلة المبكرة في نهاية القرن السابع الميلادي كُتبت تلك الفوارق المتميزة بين الفن الديني والدنيوي والتي لازمت فن تزقين الكتب حيث خلّت زخارف المصاحف من رسوم الكائنات الحيّة. كذلك الأمر في العمائر المبكرة إذ جمّلت القصور بتصوير الكائنات الحيّة ذات الأسلوب المتأغرق على حين جاءت زخارف المساجد خالية من رسوم الشخص و إن صوّرت المباني ومناظر الطبيعة.

قبة الصخرة

ولعل أقدم لوحات التصوير الإسلامي التي ما زالت محتفظة بروبقها حتى اليوم هي تلك التي رُسمت على الجدران الداخلية لقبة الصخرة بمدينة القدس، وهي أول بناء أمر الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان بإقامته عام ٦٩١م. وكان الغرض من بناء هذه القبة هو مجرّد تقدّيس تلك البقعة التي أُلّم بها الرسول في مغرجه. وهي بناء مثنى الشكل مكوّن من مثنى خارجي من الجدران يليه من الداخل مثنى آخر من الأعمدة والأكتاف، وبداخله دائرة من الأعمدة تقوم فوقها قبة مرفوعة على رقبه فيها ست عشرة نافذة (لوحات ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤م). وكان السطح الخارجي من جدران البناء مغطى بالفسيفساء التي استبدلت بها لوحات من القاشاني بأمر من السلطان سليمان القانوني عام ١٥٠٢ - ١٥٠٣م، وإن بقيت الأجزاء الداخلية من

في مُستهل القرن السابع الميلادي بعث الله محمدًا للأمة العربية يهديها، وللتاس كافة مُبشّرًا ونذيرًا. ونهض الرسول مُتبرًا بأمر ربه يدعو التاس إلى هذا الدين مُؤيّدًا بآيات السماء يُبشّر المُتقين بالثواب والتّعيم المُقيم، ويُنذر العاصين بالعذاب ونار الجحيم، وأصبحت الدعوة الإسلامية بعد حين، وبعد أن جاوزت حدود الجزيرة العربية، دعوة عالمية. وقد مهّدت الفتوحات الإسلامية لإقامة إمبراطورية عربية إسلامية واسعة الأرجاء ساعدت على نشر الإسلام في أنحاء العالم، وفي خلال خمسة عشر عامًا استطاعت هذه الإمبراطورية أن تضم بلاد العراق وفلسطين وسوريا ومصر وجزءًا كبيرًا من بيزنطة وبلاد فارس الساسانية.

وفي عام ٦٦١م انتقلت العاصمة من «المدينة» إلى دمشق السورية ذات التاريخ القديم التي كانت إلى ذلك أحد مراكز الحضارة الرومانية والبيزنطية، وتولّت السلطة فيها أول أسرة حاكمة في تاريخ الإسلام، وهي الأسرة الأموية التي ظل أفرادها يتوارثون حكم الإمبراطورية الإسلامية بين عام ٦٦١ وعام ٧٥٠م. وقد أفلحوا في أن يوحدوا بين مختلف شعوب الإمبراطورية المتباينة الميول، ثم وجّهوا أكبر جهودهم نحو توطيد أركان الإمبراطورية الفسيحة كي تظل عربية خالصة.

وكانت سياسة التعريب هي أولى الخطوات التي اتّخذت لدعم الأواصر بين أرجاء الإمبراطورية، فجعلت دولة الأمويين من اللغة العربية اللغة الرسمية، وسكت عملة عربية واجدة، وأحلت التقاليد الإسلامية العربية محلّ التقاليد السالفة، فاستمرت أوجه نشاط الدولة بالمظاهر العربية. وبعد أن تمّ توطيد دعائم الدولة عادت فاستأنفت فتوحاتها، فضمت إليها شمالي غربي أفريقيا عام ٦٧٠، وحاصرت القسطنطينية غير أنه لم يتم لها فتحها. ووطد الإسلام أركانه فيما وراء النهر. وفي عام ٧١١م أخضعت

لَقَدْ اِمْتَزَجَتْ هَذِهِ الصَّنِيعُ الْمُهَجَّنَةُ كَيْ تُشَكِّلَ أَنْمَاطًا زُخْرُفِيَّةً بَقِيَتْ عَلَى مَرِّ الزَّمَنِ تَحْلُبُ الْأَلْبَابَ. وَعَلَى الرُّغْمِ مِنْ أَنَّ عَنَاصِرَهَا مُتَعَدِّدَةُ الْأَصُولِ إِلَّا أَنَّ ثَمَّةَ وَحْدَةٍ مُبْتَكَّرَةٍ جَامِعَةٍ تَجْمَعُ بَيْنَهَا فِي إِطَارٍ وَاحِدٍ، وَمِنْ هُنَا يَحِقُّ لَنَا أَنْ نَعُدَّهَا الْخُطْوَةَ الْأُولَى فِي مَجَالِ الْفَنِّ الْأُمَوِيِّ، فَثَمَّةُ طَائِعٍ مُمَيَّزٍ فِي هَذِهِ الزَّخَارِفِ لَا نَجِدُهُ قَطُّ فِي حَصِيلَةِ الْفُنُونِ الْمَسِيحِيَّةِ وَلَا أَثَرُ لَهُ فِي أَشَدِّ الزَّخَارِفِ الْبِيزَنْطِيَّةِ تَأَثُّرًا بِالشَّرْقِ.

وَلَيْسَ هُنَاكَ شَكٌّ فِي أَنَّ هَذِهِ الزَّخَارِفَ تُمَثِّلُ إِبْدَاعًا فَنِّيًّا رَائِعًا يُخَلِّفُ أَثَرًا عَمِيقًا فِي النَّفْسِ، لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى هَدَفٍ وَاحِدٍ لَا يَعْدُوهُ هُوَ إِمْتِنَاعُ الْخَلِيفَةِ، بَلْ جَاوَزَ ذَلِكَ إِلَى إِثَارَةِ إعْجَابِ الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ الْجُدُدِ.

وَكَانَ مَبْنَى قُبَّةِ الصَّخْرَةِ مِنَ الْإِنْشَاءَاتِ الدِّيْنِيَّةِ الْأُولَى الَّتِي تَحْمِلُ طَائِعَ الدَّوْلَةِ الْفَتِيَّةِ الْجَدِيدَةِ. وَيَكْشِفُ اقْتِصَارُ زَخَارِفِهَا عَلَى الْوَحْدَاتِ النَّبَاتِيَّةِ دُونَ صُورِ الْأَشْخَاصِ، عَنْ التَّزَامِهَا بِالْقِيُودِ الَّتِي صَاحَبَتْ الْعُصُورَ الْإِسْلَامِيَّةَ الْأُولَى فِي فَنِّ التَّصْوِيرِ. وَكَانَ لِصُورِ الْأَشْجَارِ وَالتَّشْكِيلَاتِ النَّبَاتِيَّةِ أَثَرُهَا فِي نَفُوسِ الْعَرَبِ الْوَافِدِينَ مِنَ الصَّخْرَاءِ، وَمَا مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ ثَرَاءَ التَّصْمِيمَاتِ الزُّخْرُفِيَّةِ الْمُتَمَتِّجَةِ بِصُورِ الْمَجُوهَرَاتِ وَالْحَلِيِّ قَدْ بَهَرَ الْأَجْيَالِ التَّالِيَةَ.

المَسْجِدُ الْأُمَوِيُّ بِدِمَشْقَ

وَبَلَغَ الْعَصْرُ الْأُمَوِيُّ ذُرْوَةَ مَجْدِهِ خِلَالِ حُكْمِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ (أَيَّ فِيمَا بَيْنَ عَامِ ٧٠٥ وَعَامِ ٧١٥م)، فَقَدْ تَوَعَّلَتْ جُيُوشُهُ إِلَى أَبْعَدِ مِمَّا ذَهَبَتْ جُيُوشُ الْحُكَّامِ السَّابِقِينَ، وَاسْتَنْتَزَتْ سِيَاسَةً تَلِيْقَ بِعَظَمَةِ الْخِلَافَةِ، وَاخْتِطَّتْ خُطَّةً لِإِقَامَةِ الْمَبَانِي الْعَامَّةِ، فَارْتَفَعَتْ فِي مَدُنِ الْخِلَافَةِ الرَّئِيسَةِ آثَارُ هَامَّةٍ كَالْمَسْجِدِ الْأُمَوِيِّ بِالْعَاصِمَةِ دِمَشْقَ، وَمَسْجِدِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ الَّتِي يَحْتَضِنُ

(١) قَرْنُ الْوُفْرَةِ أَوْ الرِّخَاءِ وَالْخَضْبِ (Cornucopia):

قَرْنٌ عَنَزٌ مُعَوَّجٌ يَفِيضُ فَائِكَةً وَثِمَارًا وَسَنَابِلَ قَمْحٍ، اسْتُخْدِمَتْهُ الْفَتَانُونَ صِغَةً زُخْرُفِيَّةً رَسْمًا وَتَصْوِيرًا وَنَحْتًا وَبِخَاصَّةٍ فِي التَّصْمِيمَاتِ الْفَتِيَّةِ فَوْقَ الْأَكَاثِ، وَأُتِخِذَ زَمَرًا لِلرِّخَاءِ وَالْخَضْبِ وَالْوُفْرَةِ. وَتَزُودِي الْأَسْطُورَةُ أَنَّ الْحَوْرِيَّةَ أَمَالِثَا كَانَتْ قَدْ أَرْضَعَتْ الطِّفْلَ زَيْوسَ لَبَنَ عَنَزٍ حِينَ أَرْسَلَتْهُ أُمُّهُ عَقِبَ مَوْلِدِهِ إِلَى جَزِيرَةِ كريت. وَيُقَالُ إِنَّ زَيْوسَ كَانَ قَدْ تَعَلَّقَ بِأَحَدِ قَرْنِي الْعَنَزِ فَاَنْكَسَرَ، وَعَوَّضَهَا عَنْ ذَلِكَ بِأَنْ مَسَحَ عَلَى ضَرْعِهَا فَاصْبَحَ نَدِيًّا لَا يَنْقَطِعُ ذَرُّهُ عَلَى حَالِهَا. وَهَذَا مَا يُعَلَّلُونَ بِهِ ظُهُورَ الْعَنَزِ بَيْنَ الْكَوَاكِبِ السَّيَّارَةِ بِقَرْنٍ وَاحِدٍ يُسَمُّونَهُ قَرْنَ الرِّخَاءِ وَالْوُفْرَةِ وَالْخَضْبِ. وَقَدْ قَفَى زَيْوسَ بِأَنْ يُتْرَعَ هَذَا الْقَرْنُ بِكُلِّ مَا تَهْفُو إِلَيْهِ نَفْسُ صَاحِبِهِ [م.م.م.ث.].

قُبَّةِ الصَّخْرَةِ عَيْنَةً بِزَخَارِفِ الْفُسَيْفَسَاءِ الَّتِي تُزَيِّنُ الرُّوَاقَ الْمُثَمَّنَ مِنَ الدَّخْلِ وَالخَارِجِ وَيُثَبِّتَاتِ الرُّوَاقَ مِنَ الْخَارِجِ وَرَقَبَةَ الْقُبَّةِ وَقَبُو الْبَابِ الشَّرْقِيِّ.

وَهُنَاكَ نَصٌّ بِالْخَطِّ الْكُوفِيِّ فِي فُسَيْفَسَاءِ الرُّوَاقِ الْمُثَمَّنِ دُونَ فِي عَهْدِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ مُشِيدَ الْبِنَاءِ (٦٩١ - ٦٩٢م) وَلَيْسَ فِي عَهْدِ الْخَلِيفَةِ الْمَأْمُونِ كَمَا هُوَ مُسَجَّلٌ فِي التَّارِيخِ الْوَارِدِ بِالنَّصِّ. كَمَا أَنَّ هُنَاكَ تَارِيخًا آخَرَ بِفُسَيْفَسَاءِ الرَّقَبَةِ يُشِيرُ إِلَى زَمَنِ الْخَلِيفَةِ الْفَاطِمِيِّ الظَّاهِرِ (١٠٢٧ - ١٠٢٨م)، وَهُوَ مَا يَقُومُ دَلِيلًا عَلَى إِصْلَاحَاتٍ مُسْتَحْدَثَةٍ بِالْقُبَّةِ فِي عَصْرِهِ. وَمِنْ الْمَعْرُوفِ أَنَّ إِصْلَاحَاتٍ عَدِيدَةً قَدْ أُدْخِلَتْ عَلَى الْقُبَّةِ فِي عُصُورٍ مُخْتَلِفَةٍ.

وَتَتَأَلَّفُ زَخَارِفُ الْفُسَيْفَسَاءِ الزُّجَاجِيَّةِ، دَاخِلُ أَكْتَافِ عُقُودِ الْمَمَرِّينَ وَتَجْوِيفِ الْقُبَّةِ نَفْسَهَا، مِنْ وَحْدَاتٍ نَبَاتِيَّةٍ وَصُورِ أَشْجَارٍ كَامِلَةٍ بِأَوْرَاقِهَا وَثِمَارِهَا، طَبِيعِيَّةٍ كَاللَّخِيلِ وَالزَّيْتُونِ وَالْخَيْزُرَانِ، أَوْ مِنْ اِبْتِكَارِ الْخِيَالِ، وَمِنْ تَشْكِيلَاتٍ زُخْرُفِيَّةٍ نَبَاتِيَّةٍ مُتَنَوِّعَةٍ تَمْتَرُجُ بِأَوَانِي الزُّهُورِ وَالْقَوَاقِعِ وَقُرُونِ الرِّخَاءِ^(١) الْحَافِلَةِ بِالْوُرُودِ وَالْقَوَائِكِ وَخُصُوصًا الْعَنَبِ وَالرُّمَّانِ وَالْبَلَّحِ وَالتِّينِ وَالْكَمَثَرِيِّ وَالتُّفَّاحِ، وَبِوَحْدَاتِ أَوْرَاقِ الْأَكَاثِ الْكَبِيرَةِ الرَّشِيقَةِ التَّفْرِيعَاتِ وَالتِّي يَكْثُرُ اسْتِخْدَامُهَا فِي الزَّخَارِفِ الْعَرَبِيَّةِ، وَهُوَ مَا يُؤَكِّدُ بَقَاءَ اسْتِخْدَامِ نَمَاجِزِ الْفَنِّ الْكَلَّاسِيكِيِّ، وَلَيْسَ هَذَا بِغَرِيبٍ عَلَى عَصْرِ لَمْ تَمُضِ فِيهِ عَلَى انْتِزَاعِ الْقُدْسِ مِنْ أَيْدِي بِيزَنْطَةَ أَكْثَرُ مِنْ خَمْسِينَ عَامًا. وَإِلَى هَذَا فَإِنَّا نَرَى تَشْكِيلَاتٍ نَبَاتِيَّةً جَدِيدَةً كَثِيفَةً التَّكْوِينِ تَتَجَمَّعُ حَوْلَ مَحْوَرٍ أَقْوَى تَتَصَدَّرُهُ دَائِمًا زَهْرَةٌ أَوْ عِدَّةُ زَهَرَاتٍ ضَخْمَةٍ مُتَدَاخِلَةٍ. وَقَدْ حَاكَى هَذَا التَّهَجُّجَ تَيَّارِينَ فَنِّيَّينَ، أَوَّلُهُمَا التَّيَّارُ الْيُونَانِيُّ الرُّومَانِيُّ الَّذِي سَادَ فِي بِلَادِ الشَّامِ قَبْلَ الْفَتْحِ الْإِسْلَامِيِّ وَهُوَ التَّيَّارُ الْغَالِبُ عَلَى هَذِهِ الزَّخَارِفِ، وَثَانِيَهُمَا تَيَّارُ شَرْقِيٍّ سَاسَانِيٍّ، وَكَانَتْ سُورِيَا قَدْ عَرَفَتْ هَذِهِ الْوَحْدَاتِ الْإِيرَانِيَّةَ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، وَإِنْ لَمْ تُقَرِّطْ فِي اسْتِخْدَامِهَا أَوْ تُحَوَّرَ أَصْلُهَا الْقَدِيمِ. وَتَمَيَّزَتْ زَخَارِفُ الْفُسَيْفَسَاءِ أَيْضًا بِانْتِشَارِ تَصْوِيرِ النُّجُومِ وَالْأَهْلَةِ وَالْمَجُوهَرَاتِ الْمُقْتَبَسَةِ عَنِ الْأَصْدَافِ أَوْ الْأَخْجَارِ شَبِهُ الْكَرِيمَةِ وَتَنَوُّعِهَا الرَّائِعِ الدَّقِيقِ خَلَلَ التَّشْكِيلَاتِ النَّبَاتِيَّةِ، وَأَكْثَرُ مِنْ هَذَا ذِلَالَةٌ وَإِثَارَةٌ لِلدَّهْشَةِ التَّيْجَانِ الْبِيزَنْطِيَّةِ وَالْإِيرَانِيَّةِ [أَحْيَانًا] وَالصَّدْرِيَّاتِ وَالْعُقُودِ وَالذَّلَالِيَّاتِ. وَمَعَ غَلَبَةِ الْفُسَيْفَسَاءِ الزُّجَاجِيَّةِ فَثَمَّةُ غَيْرِهَا مِنَ الْأَخْجَارِ، بَعْضُهَا مِنَ الْأَخْجَارِ الْكَرِيمَةِ كَالزُّمُرْدِ وَالْفَيَّرُوزِ وَيَغْلِبُ عَلَيْهَا اللَّوْنُ الْأَخْضَرُ بِدَرَجَاتِهِ وَالْأَزْرَقُ وَالذَّهَبِيُّ، ثُمَّ تَأْتِي بَعْدَهَا دَرَجَاتُ اللَّوْنِ الْأَبْيَضِ وَالْأَسْوَدِ الْبَنْفَسَجِيِّ وَالْأَحْمَرِ وَالْفِضِّيِّ وَالرَّمَادِيِّ الدَّائِكِينَ. وَجَاءَتْ أَحْجَامُ فُصُوصِ الْفُسَيْفَسَاءِ مُخْتَلِفَةً، وَقَدْ أُلْصِقَتْ الْفُصُوصُ الذَّهَبِيَّةُ وَالْفِضِّيَّةُ مَائِلَةً فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ لَتَعَكْسِ الضَّوءِ لِلْمُشَاهِدِ (لُوحَات ٤٤م، ٤٥م: أ، ب).

الشَّكْل. وَيَتَمَيَّز الدَّوْر العُلُويّ بِالإضافة إلى عُقوده الدَّائِرِيَّة ونوافذه المُستطيلة بِسُفِّ مُسْتَمَّ يُحاكي زَهْرَةً مَقْلُوبَةً كَأَسْهًا لأَعْلَى، اسْتَطَالَت بَنَاتُهَا اسْتَطَالَت جَمَالِيَّةً لَا إِنْشَائِيَّةً ثُمَّ التَّوَتْ إِلَى أَعْلَى فِي رَقَّةٍ وَأَنْسِيَاب. كَذَلِكَ تَنْبِيْنٌ مَعَ الرِّخَارِفِ الفَخْمَةِ لِلْقَصْرِ المَلَكِيِّ والأَعْمِدَةِ وَأَنْصَافِ الأَعْمِدَةِ والسِّيَاجَاتِ وَتَفْرِيعَاتِ الأَكَانِثَا دَرَجَاتٍ غَيْرِ مُنْتَظِمَةٍ مِنَ الجَلَاءِ والعَتَمَةِ تُحَدِّدُ أَجْزَاءَ كُتْلِ المَبَانِي. وَثَمَّةُ نَوْعٍ ثَالِثٍ مِنَ الرِّخَارِفِ يَتَجَلَّى فِي المَدَاخِلِ والأَرْوَاقِ غَيْرِ المَسْقُوفَةِ إِلَى اليمينِ مِنَ القَصْرِ المَلَكِيِّ. وَهَذِهِ الرِّخَارِفِ، وَإِنْ كَانَتْ مُخْتَلِفَةً الْأَصُولِ، يَجْمَعُ بَيْنَهَا تَمَازُجٌ، إِذْ هِيَ تُشَكِّلُ مَعًا مَجْمُوعَةً مُتَنَوِّعَةً لَا يَفْصِلُهَا الْإِمْتِنَاعُ وَالحَيَالُ. وَلَمْ تَكُنْ تَلْقَائِيَّةً الْفَتَانِ الْفُطْرِيَّةِ وَلَا قُصُورِهِ أَمَامَ مَشَاكِلِ التَّصْوِيرِ - كَالْتَضَاوُلِ النَّسْبِيِّ^(١) - وَاحْتِرَامِ قَوَاعِدِ الْمُنْظُورِ فِي الْفَرَاغِ - عَقَبَةً فِي سَبِيلِ اسْتِمْتَاعِنَا بِالتَّشْكِيلِ الْجَمَالِيِّ، بَلْ لَقَدْ أَفْصَحَتِ التَّقْنِيَّةُ الْفَنِّيَّةُ عَنْ سَيْطَرَةِ كَامِلَةٍ عَلَى الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي تَنَاقَلُهَا الْفَتَانُ. وَقَدْ أَحْصَتْ مَرْجَرِيَّتُ فَا ن بِيرِشِيم - وَهِيَ أَوَّلُ مَنْ حَلَّلَ تَفَاصِيلَ هَذِهِ اللَّوْحَاتِ - تِسْعَةً وَعِشْرِينَ لَوْثًا: مِنْهَا ثَلَاثَةٌ عَشَرَ مِنَ الْأَخْضَرِ وَأَرْبَعَةٌ مِنَ الْأَزْرَقِ وَثَلَاثَةٌ فَضِيَّةً.

وَتَرَجَعَ تَصْمِيمَاتُ رَسْمِ الْأَبْنِيَّةِ وَالْأَشْجَارِ وَتَشْكِيلَاتِ أَوْرَاقِ الْأَكَانِثَا إِلَى أَصُولِ كَلَّاسِيكِيَّةٍ قَدِيمَةٍ، فَمَعَ بِدَايَةِ الرَّبْعِ الثَّانِي مِنَ الْقَرْنِ السَّابِعِ بَدَأَتْ بَعْضُ رِخَارِفِ الْفُسْتَيْفَسَاءِ تُصَوِّرُ مَوْضُوعَاتٍ مُسْتَمَدَّةً مِنَ طَبِيعَةِ الْأَرْضِ وَتَضَارِيسِهَا وَمَا عَلَيْهَا. أَمَّا الْأَبْنِيَّةُ الشَّامِخَةُ التَّحِيلَةُ ذَاتِ الْأَسْقُفِ الْمُسَطَّحَةِ أَوِ الْمُسْتَمَّةِ الْمُتَرَاجِمَةِ فِي ارْتِفَاعَاتٍ مُتَتَابِعَةٍ، فَهِيَ مَوْضُوعَاتٌ مِغْمَارِيَّةٌ سَبَقَ لِلْوَحَاتِ التَّصْوِيرِ الْجِدَارِيِّ بِهَوْمِي أَنْ تَنَاقَلَتْهَا عَلَى نِطاقٍ وَاسِعٍ، وَمِنْ قَبْلِ ذَلِكَ اللَّوْحَاتِ الْجِدَارِيَّةِ الَّتِي عَثَرَ عَلَيْهَا بِفِيلَا بُوْسْكُورِيَالِ مِنَ الْقَرْنِ الْأَوَّلِ قَبْلَ الْمِيلَادِ (لَوْحَةٌ ٧٤). وَثَمَّةُ مَظْهَرٍ آخَرَ مِنْ مَظَاهِرِ التَّصْوِيرِ الْجِدَارِيِّ بِهَوْمِي هُوَ الْمَنَاطِرُ الطَّبِيعِيَّةُ الَّتِي تَتَصَدَّرُهَا غَالِبًا قَنَوَاتٌ مَائِيَّةٌ مُشَابِهَةٌ لَتِلْكَ الَّتِي نَرَاهَا فِي لَوْحَاتِ الْفُسْتَيْفَسَاءِ الْإِسْلَامِيَّةِ، مَعَ فَارِقٍ وَاحِدٍ هُوَ أَنَّ مَوَانِيهَا وَأَنْهَارَهَا وَبُحَيْرَاتِهَا تَعْكِسُ إِحْسَاسًا بِعُمُقٍ لَا يَبْلُغُهُ النَّهْرُ الْمُصَوَّرُ فِي لَوْحَاتِ دِمَشْقَ. كَذَلِكَ تَبْدُو الدُّوَرُ ذَاتِ الطَّاقِبِينَ وَالمَبَانِي الْعَامَّةُ شَبِيهَةً بِالصُّوَرِ الْمِغْمَارِيَّةِ فِي الْكِنَاسِ الْبِيزَنْطِيَّةِ. وَإِذَا كَانَتْ لَوْحَاتُ فُسْتَيْفَسَاءِ قُبَّةِ الصَّخْرَةِ نَمُودَجًا لِلتَّصْمِيمِ «الشَّكْلِي» الَّذِي تَبْدُو

قَبْرِ الرُّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَقَدْ أُقِيمَ الْمَسْجِدُ الْأُمَوِيُّ فِيهَا بَيْنَ عَامِي ٧٠٦ وَ٧١٠، ثُمَّ شِيدَ الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى بِالْقُدْسِ فِيهَا بَيْنَ عَامِي ٧٠٩ وَ٧١٥ م. وَتُشِيرُ بَعْضُ النُّصُوصِ الْمَكْتُوبَةِ إِلَى أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ قَدْ أَمَرَ بِتَرْزِينِ الْكَعْبَةِ بِرِخَارِفِ الْفُسْتَيْفَسَاءِ.

وَيُعَدُّ الْمَسْجِدُ الْأُمَوِيُّ بِدِمَشْقَ أَهَمَّ هَذِهِ الْآثَارِ جَمِيعًا مِنْ نَاحِيَةِ تَارِيخِ التَّصْوِيرِ، غَيْرَ أَنَّ الْحَرَائِقَ وَالزَّلَازِلَ أَتَتْ عَلَى مِسَاحَاتٍ وَاسِعَةٍ مِنْ فُسْتَيْفَسَائِهِ الرُّخْرِيقَةِ. فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا غَيْرُ جُذْرَانِ الْفِنَاءِ وَآخَرَى أَقَلِّ عَدَدًا دَاخِلَ الْمَسْجِدِ نَفْسِهِ. وَقَدْ أُعِيدَ تَشْكِيلُ بَعْضِ الرِّخَارِفِ كَمَا اسْتَبْدِلَ بَعْضُهَا فِي الْعُصُورِ الْوُسْطَى، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ مَا حَفَظَهُ لَنَا الزَّمَنُ مِنْهَا يَكْفِي لِنَقْدِيمِ صُورَةَ حَيَّةٍ لِرَوَائِعِ الْأَعْمَالِ الْفَنِّيَّةِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ.

وَنَجِدُ فِي رِخَارِفِ الْمَسْجِدِ الْأُمَوِيِّ بِدِمَشْقَ الْوَحَدَاتِ الرُّخْرِيقَةِ الْمُسْتَحْدَمَةَ فِي قُبَّةِ الصَّخْرَةِ بِمِثْلِ أَوْرَاقِ الْأَكَانِثَا الَّتِي تَطْلُ مِنْ أَوَانِي الزُّهُورِ أَوْ قُرُونِ الرِّخَاءِ، وَمِثْلَ الصُّوَرِ الْوَاقِعِيَّةِ لِلْأَشْجَارِ، غَيْرَ أَنَّ عُنْصُرًا جَدِيدًا بَدَأَ يَتَصَدَّرُ رِخَارِفَ ذَلِكَ الْعَصْرِ، وَهُوَ تَصْوِيرُ الْعِمَارِ فِي مَجْمُوعَاتٍ صَغِيرَةٍ مُنْعَزَلَةٍ أَوْ وَسَطِ مَشْهَدٍ طَبِيعِيٍّ، فَتَرَى فِي الْجِدَارِ الْغَرْبِيِّ لِلْبَوَابَةِ الَّتِي تُمَثِّلُ الْبَقَايَا الرَّئِيسَةَ لِأَقْدَمِ رِخَارِفِ هَذَا الْمَسْجِدِ أَبْنِيَّةً عَدِيدَةً مُتَنَوِّعَةً وَأَشْجَارًا وَنَهْرًا (لَوْحَةٌ ٤٦ م)، غَيْرَ أَنَّ قُصُورَ الْفَتَانِ آنَذَاكَ عَنْ تَطْبِيقِ قَوَاعِدِ الْمُنْظُورِ لَمْ يَكْشِفْ بُوْضُوحَ عَمَّا يَعْنيهِ بِهَذَا التَّكْوِينِ، فَقَدْ يَتَبَادَرُ إِلَى الْمُشَاهِدِ لِأَوَّلِ وَهَلَةٌ أَنَّهُ يَرَى قَطْرَةَ صَحْمَةٍ أُقِيمَتْ فَوْقَ نَهْرٍ نَمَتْ مِنْ خَلْفِهَا أَشْجَارٌ بِاسِيقَةٍ. وَيَأْمَنَانِ النَّظْرَ، وَبِالتَّغَاضِي عَنْ قَوَاعِدِ الْمُنْظُورِ، وَبِاسْتِئْثَامِ الْإِيْقُونُوجَرَفِيَّةِ الْبِيزَنْطِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ سَائِدَةً وَقْتَذَاكَ، يُمَكِّنُنَا أَنْ نَتَسَلَّ إِلَى هَدَفِ الْفَتَانِ فَتَنْصَوِّرَ عَلَى نَحْوِ مَا ذَهَبَ رِيْتَشَارْدُ إِنْتِجَاهُوزَنْ أَنَّنَا فِي مُوَاجَهَةِ مَقْصُورَةٍ مَلَكِيَّةٍ نِصْفِ كُرْوِيَّةٍ تَدُورُ مَعَ جُزْءٍ مِنْ مُحِيطِ دَائِرَةِ حَلْبَةِ السَّبَاقِ تَشْمَخُ عَلَى جَانِبَيْهَا أَبْنِيَّةٌ كَالْأَبْرَاجِ، وَمِنْ وَرَائِهَا أَشْجَارٌ مُورِقَةٌ، وَأَنَّ ثَمَّةَ نَهْرًا يَنْطَلِقُ عِنْدَ نِهَآيَةِ الْحَلْبَةِ فِي مَقْدَمَةِ الصُّورَةِ يَهْدُرُ فِي انْطِلَاقٍ، وَعَلَى شَاطِئِهِ عِدَّةُ مَبَانٍ قَدْ تَكُونُ بِيُوتًا لِإِمْلَآكِ الْأَرْضِ أَوْ اسْتِرَاحَةٍ لِلْحَاكِمِ، أَوْ أُقِيمَتْ لِخِدْمَةِ حَلْبَةِ السَّبَاقِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ.

وَنَجِدُ فِي أَمَاكِنَ أُخْرَى مِنَ الْمَسْجِدِ نَفْسَهُ أَنْوَاعًا مُتَابِنَةً الطَّرَازِ مِنْ تَصَاوِيرِ الْأَبْنِيَّةِ فِي لَوْحَاتِ الْفُسْتَيْفَسَاءِ. وَلَعَلَّ الْفَتَانِ قَدْ قَصَدَ إِلَى أَنْ يَسْتَعْرِضَ مَدَى إِلْمَامِهِ بِطُرُزِ الرِّيَازَةِ الْمُعَاصِرَةِ، فَتَبَيَّنَ إِحْدَى اللَّوْحَاتِ قَصْرًا بَدِيْعًا مُتَعَدِّدَ الطَّوَابِقِ (لَوْحَةٌ ٤٧ م)، فِي الدَّوْرِ الْأَرْضِيِّ مِنْهُ جَوْسَقٌ مُقَبَّبٌ يَنْقَسِمُ إِلَى رَوَاقَيْنِ مَعْقُودَيْنِ تَرْتِيْبُهُمَا تَوْرِيْقَاتٌ نَبَاتِيَّةٌ مُتَمَاثِلَةٌ، وَيُحَلِّي رَقَبَةَ الْقُبَّةِ إِفْرِيزَانِ مِنْ أَوْرَاقِ الْأَكَانِثَا، وَيُجَمِّلُ سَطْحَ الْقُبَّةِ زَهْرَةً ذَاتَ سَنَبٍ بَنَاتٍ لَوْزِيَّةٍ

(١) التَّضَاوُلُ النَّسْبِيُّ (Foreshortening, raccourci):

هُوَ إِحْيَاءٌ بِالْعُمُقِ الْفَرَاقِي وَالبُعدِ الثَّالِثِ فِي سَطْحِ اللَّوْحَةِ نَتِيجَةً ضُمُورِ أبعادِ الْأَشْيَاءِ وَأَحْجَامِهَا شَيْئًا فَشَيْئًا كُلَّمَا أَمْعَتَا عُمُقًا. وَهُوَ خُدْعَةٌ بَصَرِيَّةٌ تَضْفِي لَوْثًا مِنْ أَلْوَانِ الْإِيْهَامِ بِإِتِّدَادِ ذَلِكَ الْعُمُقِ.

عناصره بأبعاد ثلاثة، فإن لوحات فسيفساء دمشق تميّز من حيث روعة خيالها وجمال تكويناتها الأخاذ.

وتختلف زخرفة جدران المسجد الأموي بدمشق عن فسيفساء قبة الصخرة في أنّ الأولى لا تحمل أدنى أثر من الطابع الفارسي. وقد كشفت الدراسة التي قامت بها السيّدة «مرجريت فان برشيم» لهذه الفسيفساء - سواء في المسجد الأموي أم في قبة الصخرة - عن أن كثرة صناعاتها كانوا من أهل سوريا نفسها، منكرة كتابات المؤرخين العرب الذين تواتروا على أنّ إمبراطور بيزنطة قد استجاب لطلب الخليفة وبعث إليه بعدد من العاملين بقرن الزخرفة الفسيفسائية. وتابعتها في هذا الرأي «سوفاجيه» ذاهبا إلى أنّ هذه الروايات أسطورية وأن العلاقة بين الأمويين والبيزنطيين لم تكن تتيح مثل هذا التبادل الثقافي، وأن لفظة «الروم» التي جاءت على ألسنة المؤرخين مقصود بها العالم المسيحي بصفة عامة. على أنّنا قد نجد عسيرا علينا اليوم أن يساورنا الشك في أنّ حكام الإمبراطوريتين قد توفّقا عن تبادل الهدايا ولفئات المجاملة والاتصالات التجارية والفنية رغم الخلافات السياسية ونشوب المعارك المؤسسية بينهما. والثابت يقينا أنّ لفظة «الروم» مقصود بها أوربا بعامة وبيزنطة بخاصة. وقد أيد «هاملتون جب» في دراسة حديثة، دقة ما ساقه المؤرخون العرب ذاهبا إلى أنّ ميل الأمويين إلى أن يحذوا حذو البيزنطيين هو أمر مؤكد، لافتا النظر إلى نص لم يتسنّ للسيّدة برشيم وسوفاجيه الرجوع إليه جاء فيه أنّ المواد اللازمة لإعداد لوحات الفسيفساء لم تكن متوافرة في تلك البيئة، كذلك الجرافيتون كانوا هم أيضا يردون دمشق والمدينة المنورة من بيزنطة. ومن المعروف أيضا أنّ المنجزات الفنية في سوريا - سواء في مجالات النحت أو الحفر على العاج أو الفسيفساء - قد أخذت في التدهور ابتداء من القرن السادس الميلادي. وليس من المعقول أن تكون لوحات الفسيفساء في دمشق والقدس المتجاوزة للغاية جاذبية وجمالا قد أنجزها صنّاع سوريا وحدهم وقت اضطحال الحركة الفنية فيها، بل الأرجح أن نقبل ما دونه المؤرخون العرب أنفسهم من أنّ ثمة عون قد وفّد من بيزنطة.

على أنّ أولئك الفنانين لم يحيدوا قط عن الإزادات الصريحة لأيمتهم في هذا الميدان، ومن ثمّ لم تظهر صور الحيوان وسط الدور رغم أنّها كانت شائعة في الكنائس. أما تفسير تصوير العمائر ومشاهد الطبيعة فمرده إلى ما يروى قديما من أنّ المدينة المصورة على شاطئ النهر لم تكن سوى مدينة دمشق تطل على نهر بردى. وليكنه لو كان الأمر كذلك لبيّ السّر خفيا بالنسبة لأجزاء أخرى مصورة في هذا المسجد. وقد ذهب

البعض إلى أنّ المشهد مُستمد من وحي «حديقة الفردوس» البيزنطية، وهذا ما لا تؤثقه التصوص العربية المعاصرة. ولعلّ أقرب تفسير لهذه المسألة هو الذي يُقدّمه لنا عالم الجغرافيا العربي «المقدسي» المولود في مدينة القدس، فمن المقبول أن يكون على علم بالمعنى الحقيقي لهذه الزخارف، إذ كتب حوالي عام ٩٨٥م يقول: «لم تكن هناك شجرة أو مدينة شهيرة إلّا وصوّرت على هذه الجدران». ويُعرّز «ابن شاكر» - أحد كتّاب القرن الرابع عشر - هذا الرأي حين يُقرّر أنّ هذه الزخارف «تمثل كلّ البلاد المعروفة».

كذلك تختلف زخارف مسجد دمشق من زاوية أخرى عن المخطوطات والزخارف المسيحية التي تتناول الموضوع نفسه، وتبدو فيها مدينة القدس وغيرها محاطة دائما بتحصينات قوية ذات أبواب ضخمة وأبراج عالية وأسوار مُستنة، على حين أنّنا ننفق مثل هذه الاستحكامات الدفاعية المميزة في زخارف مسجد دمشق إذ نجد الزخارف كلّها عليها سيما السلام.

إنّ لوحات الفسيفساء بالمسجد الأموي تمثل «أنازة» الفنون الكلاسيكية العريقة - أعني بقاءها - من ناحية، كما تمثل من ناحية أخرى - وفق قول دافيد تالبوت رايس - فنا جديدا ناضرا حيا ينهض كما تنهض العقائد الوليدة من بين رماد أمجاد الماضي.

قصير عمرة

وفي عام ١٨٩٨ اكتشف المؤرخ النمساوي «موسيل» من آثار العصر الأموي قصرا ذا مبنئ مُستقل يقع على خمسين كيلومترا من الطرف الشمالي للبحر الميت، أطلق عليه «قصير عمرة» (لوحه ٧٥)، هو في حقيقته حمام على النمط الروماني يتألف من ثلاثة بيوت أولها لئلاء البارد والثاني لئلاء الساخن والثالث لئلاء الفاتر، وقد ألحقت به قاعة لئلاء كانت للاستقبال. وقد زار موسيل ذلك الأثر مرارا بعد ذلك واضطحب في آخر زيارة له مصورا. ثمّ رفع مادته إلى أكاديمية فيينا التي تكفلت بنشر كتاب ضخم عنه، فكان أسبق المصنّفات الأثرية التي تنشر كثرة من تصاوير الشخصيات المنقوشة على جدران قصر عربي قديم. وكان عدد كبير من لوحات جدران مبنئ الاستحمام من الوضوح بحيث أمكن تحديد ملامح شخصها في السنوات الأولى لاكتشافها، غير أنّها اليوم تكاد تكون مطموسة المعالم بعد أن امتدّت إليها يد العبث، وتعرّضت لإذخان موائد البدو الرُحّل. ومع ذلك تقدّم لنا التفاصيل التي نُقِلت عن التصوير الجدارية قبل تلفها لونا من الفن الدثوي عند الأمويين فاق كلّ ما قدّمته لنا لوحات القصور الأخرى التي اكتشفت بعد «موسيل». على أنّ كثيرا من

شديدة الغلظة ترى صور الحيوان أقرب إلى الواقع، مما يدلنا على أصالة التصوير الحيواني وامتداده إلى أزمان سحيقة في فنون الشرق. وثمة أخطاء وإغفال للحروف الكتابية في لوحات هذا القصر نستنتج منها أن الفنان الذي تناولها لم يكن ملماً باللغة اليونانية فقد نقلها نقلاً، على حين جاءت حروف الكتابة العربية سليمة مكتملة كأنها منطوقة، مما يدل على أن ناسخها كانوا عرباً محلّين، ليس بالضرورة أن يكونوا جميعهم من المسلمين.

وتبين هذه اللوحات الكثير مما يثير الدهشة وإن بدت للوهلة الأولى ذات طابع زخرفي خالص، فلم يحل أميها العرب القليلين للعمل اليدوي دون أن يصوروا البتائن والتجارين وغيرهم من الجزيريين وهم مستغرقين في أعمالهم، ولم يسجل الأمويون هذه الرسوم عبثاً بل للإبانة عن أهدافهم وميولهم، ومضت الإيقونوغرافية الإسلامية مع ذلك في هذي النماذج البيزنطية. وتكشف نقوش قبة الحمام التي تصور سماء بنجومها عن سمة من سمات العقلية الأموية، فإذا كان الكثير من القباب الوثنية والمسيحية قد صور أشكالا رمزية للسما والجنة أو صوراً خيالية للأفلاك السماوية فقد وقع اختيار الفنان العربي على الصيغة العلمية. وهكذا نلمح منذ بداية التاريخ الإسلامي اتجاهاً مباشراً وعقلانياً نحو الظواهر الطبيعية، وهو المبدأ الذي استنته المسلمون الأوائل وتابعهم فيه خلفهم في العصور التالية. وفي الوقت نفسه لا يستبعد هذا الاتجاه العلمي نحو مشكلة التصوير أن تؤدي زخارف هذه القبة دوراً سحرانياً، هو ضمان حسن الطالع والحظ السعيد لمالك المبنى. ترى من كان صاحب هذا القصر؟ أهو الخليفة الوليد؟ ولكن أين هذا القصر من قصور خلفاء بني أمية؟ من هو إذاً؟ لعله أمير من أمراء ذلك العهد كان يتحين سائحة للوثوب إلى عرش الخلافة. فقد كان ثمة أميران يعيشان في الصحراء يتحين كل منهما فرصته ليتسلم العرش هما الوليد الثاني ويزيد الثالث، وأغلب الظن أن يكون لأحدهما ولعله الوليد لإلمامه باليونانية، بناء ليزجي فراغه فيه قبل أن يلي الخلافة تلك المدة القصيرة (من سنة ٧٤٣ إلى ٧٤٤) والتي قُتل بعدها. فالراجح أن يكون هذا القصر قد بُني بين سنتي ٧٢٤ و٧٤٣، أي خلال خلافة هشام بن عبد الملك.

وثمة مشهدين يكشفان عما هو أبعد من ذلك، وإن كانت معالمهما للأسف قد طُمست اليوم في أغلب أجزائهما، أحدهما المعروف باسم «ملوك الأرض» أو «أعداء الإسلام»، يصور خليفة المسلمين يقف بين يديه ملوك العالم المقيمين في صُتُن يضمّ الأماميّ منهما أجلهم شأنًا (لوحه ٦١). وقد أمدّتنا هذه اللوحة بمعلومة حددت تاريخ هذا المبنى بين سنتي ٧١٠

أسرار هذه اللوحات ما يزال خافياً علينا، هذا إلى أن ندرة الآثار المتبقية تحيط كل الافتراضات بالشك وتجعلها دوماً عرضة للتغير.

ويصف إتنجهاوزن لوحات جذران «قصير عمر» بصفتين هامتين، أولاهما احتشادها بموضوعات متنوعة تكسو كل مسطحات الجدران والأسقف، لا يخلو من ذلك حتى «سُفليات» الجدران الموشاة بنقوش تحاكي السناير والمفروشات؛ وثانيتهما الانتقال المفاجئ من موضوع إلى آخر، بدليل تقسيم الفنانين المساحة المصورة إلى أقسام مستقلة، وهو اتجاه تأكد بعد ذلك بوضوح في التصوير العربي، حيث كان حشد الموضوعات المتنوعة يُناسب الغرض الذي أُقيم المبنى من أجله، أو أن تتناول الموضوعات الخاصة التي تهتم أفراد الأسرة الأموية. وكان الفنان يستوحي اللوحات الرومانية أو البيزنطية السابقة باستثناء بعض عناصر فارسية وأخرى وافدة من آسيا الوسطى. ويتجلى التأثير الروماني والبيزنطي في مشاهد الصيد التي تنتهي فيها المطاردة بمصرع الفريسة، من دون أن تبرز الدور الرئيسي الذي يؤديه أمير الصيد. وكذلك مشاهد الاستحمام وألعاب القوى ومباريات المصارعة والنساء العاريات (لوحه ٤٨م)، ومناظر الحياة اليومية من عازفي الجُزمار والراقصات ورسوم الحيوان كالجمار الوحشي والذئب إلى غير ذلك (اللوحتان ٧٦، ٧٧). ونجد بين اللوحات ما لا نتوقع رؤيته، مثل صور شخصيات الأساطير الإغريقية كزلات فنون الشعر والتاريخ والفلسفة كتبت أسماؤهن بالإنجليزية، مما قد يفصح عن إلمام أول من اقتنى هذه اللوحات باللغة اليونانية.

وتتجلى في صور النساء العاريات التي تغطي جذران «قصير عمر» سمات رومانية، بما فيها من توزيع للضوء والظل وتطويع لثنيات الجسد التي تبدو طبيعية، ومن تجسيد للأحاسيس، غير أنها - وإن بدت رومانية بسماتها تلك - فإنها تخالف المثل العليا للجمال في العصر الكلاسيكي، فبساؤها بدينات بارزات الأثداء ضامرات الخصور، وهي مقاييس الجمال التي سادت البيئة العربية والتي ترى ما يماثلها في التماثيل الهندية وفي تماثيل آسيا الوسطى. وهكذا تشكل تماثيل نساء قصير عمر مزيجاً من فئتين أحدهما طارئ والآخر عربي أصيل، فأما ما انعكس فيها من بدانة وثقل أزداف ودقة خصور والثفاف سيقان وأسالة خدود ورخاسة أكف، إلى غير ذلك مما نعتى به شعراء الغزل في وصف محاسن المرأة ومفاتنها، فهو من إملاء البيئة العربية، وأما ما خلا ذلك من غور للعيون وشروء للظفرات فما أقربه إلى التصوير البيزنطي والقبطي. وعلى حين ترى صور البشر في رسوم هذا القصر

المتقدم فقد اختفت زخارفه تمامًا. ونُجس من بغض التفاصيل وبخاصة الأثقال المُفاجئ من المساحات الدائكة الألوان إلى المساحات الدائكة الممتزجة بالألوان المُشرقة مُحاولَة لمحاكاة الفسيفساء، وهو ما حاوله الفنانون في العصور السابقة مرّات، كمُحاولة الرومان مُحاكاة الرُخام المُطعم في لوحات التصوير الجداري.

ويُفتفي النموذج الأول الذي نعرضه التهج الكلاسيكي السائد في هذه المنطقة. فيتوسط اللوحة إطار دائري يضم صورة الربة «جيا» إلهة الأرض مُمسكة بإزار مليء بالفواكه (لوحة ٤٩م) وقد التفت حول عنقها ثعبان على نحو ما نراه في صور أخرى رمزًا لصلتها بأزباب العالم السفلي. وتتوسط الدائرة مُربّعًا من الزخارف يُحيطه إطار به دوائر حلزونية متتابعة تضم قطوف الكرم. وقد ازدان المربّع المحيط بالدائرة بالزخارف النباتية يتبدى بينها مخلوقان يُصنفهما الأعلى بشريّ ويُصنفهما الأسفل شبيه بذنب الثعبان المُدجج بالزعانف وقد التفت حول نفسه مرّات ثلاث [لا يظهر في اللوحة] وقد دعا شلومبرجيه بحق هذه المخلوقات القناطير البحرية. ونلاحظ أنّ إطار «الحزرات الكروية» المحيط «بجيا» هو العنصر الوحيد الذي لا يرجع إلى أصل روماني أو بيزنطي، وإنما هو عنصر فارسيّ تبثّه الأعمال الفنية السورية، ومع ذلك فقد أضيفت زخارف نباتية على اللآلئ الكروية غيرت من شكل الإطار المُتعارف عليه في موطنه الأصلي.

وتختلف اللوحة الثانية عن الأولى اختلافًا تامًا في الأسلوب والشكل والمضمون، وقد قُسمت مساحتها المربعة إلى ثلاثة صفوف غير متساوية الارتفاع يُحيط بها إطار مُزدان بورد رباعية البلات. وفي الصف الأعلى نرى عازفة عُود ونافخ ناي يقفان مُتقابلين تحت عقدين. وفي الصف الأوسط نرى فارسًا مُمتطيًا جوادًا يُعدو في إثر غزالتين سقطت إحداهما جريحة وانطلقت الأخرى لافئة رأسها تجاه الفارس المُتأهب لِرشقها. ويظهر في القسم الثالث، الذي أصيب بتلف كبير، خادم أسود يقود حيوانًا إلى حظيرة ويُمسك بيده ومفتاحًا كبيرًا، ويزدان عنق الحيوان بشرائط ثوحي بأنه يُساق إلى حظائر الصيد الملكية (لوحة ٥٠م: أ، ب). ونلاحظ مدى تأثر الرسوم بالأسلوب الفارسي في كافة أجزاء اللوحة ابتداءً من الشخصيات الرئيسية إلى تفاصيل الإطار والزخارف النباتية فوق العقدين وتشكيلات الزهور وآية الزهر أمام الموسيقيين. فما أيسر أن نجد نظائر الصياد والموسيقيين على أواني الزهور والكنوس الساسانية. فالموضوعات الثلاثة التي تمثلها هذه اللوحة - من الأمير الشاب العاكف على الصيد في وسط اللوحة إلى عازفي

٧١٥ ميلادية، لأن «رودريك» آخر ملوك إسبانيا من القوط الغربيين قُتل على أيدي جيوش بني أمية عام ٧١١م ولم يكن قد ارتقى عرشه إلا قبل ذلك بعام واحد أي عام ٧١٠. وتتأبعت البحوث حول هذه اللوحة أكثر من يُصف قرون اشترك فيها «ماكس فان بيرشيم»، و«إرنست هيرتفيلد» و«أوليج جرابار»، حتى أفصحت تدريجيًا عن طبيعتها وعن أنها تُصور مشهدًا رمزيًا مُقتبسًا من الإيقونوغرافية الفارسية، حيث يظهر ملوك العالم يُحيون سيدهم، وكان الخليفة قد هزم خلال النصف الأول من القرن السابع جميع الملوك الذين تنظمهم هذه اللوحة، فوقفوا في خشوع على مقعدة من قاهرهم الجالس على عرشه، من دون أن تبدو عليهم آثار الهزيمة الساحقة التي دأبت مشاهد انتصار الملوك الساسانيين على إبرازها. وقد اتخذ المصور - وهو قليل المهارة - إطارًا كلاسيكيًا للصورة، ضمنه موضوع سيادة الخليفة على الأرض بما تحوي من محيطات تسعى فيها وحوش بحرية وتعلوها سموات ترمز الطيور إليها، وجميعها موضوعات صورها من قبل خزافو إيران وزخرفوا بها الأواني الساسانية.

أما المشهد الآخر فيصور الخليفة الوليد في أغلب الظن مُرتبًا على عرش تُحيط به هالة من نور، وإلى جانبيه يقف شخصان صورًا على هيئة بيزنطية. ومن تحته صور قارب يطفو فوق الماء يضم أربعة أشخاص غراة. وعن كُتب منه طير مائي وبعض الوحوش البحرية (لوحة ٦٢).

ولم ينفرد قُصير عمرة بوخشته تلك وسط الصحراء، بل لقد ضاق غالبية أفراد الأسرة الأموية بحياة المدن المزدحمة فأثروا تشييد قصورهم وسط مراعي الصيد وعلى حواف الأراضي الزراعية بين سوريا والأردن، وأقاموا بها دُورًا للاستجمام وبُتًا حولها الحصون. ومن بعد الوليد لم يستقر في دمشق خليفة بصفة دائمة، بل لازم أكثرهم تلك المنشآت يُديرون منها أملاكهم وينطلقون إلى الصيد حين تنزع بهم الرغبة إليه. وعلى غرار قُصير عمرة، حفظ لنا قصر الحير الغربي وخزبة المفجر من عوادي الزمن عدة لوحات مُصورة.

قصر الحير الغربي

ويقع قصر الحير الغربي الفخم، الذي نُقّب فيه «دانييل شلومبرجيه» في ثلاثينات هذا القرن، على الطريق بين دمشق وتدمر، ويعود تاريخ بنائه إلى عصر الخليفة هشام حوالي عام ٧٣٠م على وجه التحديد. وقد بقيت به أجزاء من لوحات تضمّن صورًا بشرية، وازدانت أرضية بهوي الدرج بزخارف نصلت ألوانها، لكيها بقيت مع ذلك واضحة عدا الجزء

صُمِّمَتْ مُحَاكَاةَ لِبْسَاطٍ أَوْ لِنَسْجِيَّةٍ مُرْسَمَةٍ.

وَتُصَوِّرُ لَوْحَةً حَيَّةً القاعة الرئيسة شجرة ضخمة لعلها شجرة تفاح أو شجرة سفرجل (لوحه ٥١م) تنبثق حولها بعض النباتات المورقة. وإلى يسار الشجرة غزالان يقضمان الأوراق، وإلى اليمين أسد شرس يثب على غزال ثالث يحاول الإفلات منه عبثاً. ويرى إتنجهاوزن أن تصوير الشجرة يحمل قسّمات واقعية، إذ اتّبع المصور عن أسلوب التماثل وأبرز عدم انبظام غصونها الأساسية واثنياء أحدها مُستنداً إلى غيره. واختار اللون الأصفر الباهت للجذع وأصول الأوراق ثم أتبعه باللون الأخضر ثم الأزرق المخضر، وحدّد الشجرة باللون الأسود، وشغل به المساحات الشاغرة بين الأوراق. وثمة قواكه حمراء اللون نثرها فوق هذه الخلفية الداكنة تغلّوها بقع فاتحة في الأماكن التي يسقط عليها الضوء. وهناك لفظة واقعية تخالف القاعدة المتبعة في تلوين الأوراق إذ اختار الفنان لغضن في القسم الأيسر من الشجرة درجتين من درجات الرمادي بدلاً من الأخضر والأزرق المخضر، ولعلّه قد أراد بذلك أن يشير إلى وجود عطب أصاب هذا الجزء من الشجرة.

وإنّا لتساءل ثانية، هل يتضمّن هذا الموضوع مغزى خاصاً؟ فمع أن مشاهد الحيوانات الوديدة التي تُهاجمها الحيوانات المتوحشة مشاهد مألوفة شائعة في الزخارف الفسيفسائية الرومانية والبيزنطية، إلا أن هذا المشهد هو أحد مشاهد الشرق القديم، إذ يعود مشهد الأسد الذي يفترس حيواناً أضعف منه إلى آلاف السنين، ويرمز إلى قوة الملك وسلطانه. وإذا كانت هذه اللوحة الفسيفسائية هي الوحيدة التي تحوي أشكالاً حيوانية فوق المنصة التي يجلس عليها سيد الدار في قاعة الاستقبال، فالزاجح أن لهذا التصميم - إلى جانب قيمته الزخرفية - دلالة رمزية خاصة هي إشارة الأسد إلى سلطان الخليفة المطلق. ونجس في هذه اللوحة تزاوجاً بين الأساليب والأفكار، وهو ما يميّز العصر الأموي الذي استعار كثيراً من الأساليب، لكنّه خلع عليها طابعه الخاص.

الموسيقى في أعلى اللوحة، ورعاية الحظائر الملكية أسفلها - تتصل كلها بتقاليد البلاط الساساني الممثلة في فنونه.

وإن بدت مثل هذه الموضوعات مناسبة كلّ المناسبة لتزيين قصور الملوك والأمراء إلا أننا لا نملك أنفسنا عن التساؤل لم كان تفضيل هذه الموضوعات الأجنبية على الموضوعات المحلية المشابهة؟ ويجب ريتشارد إتنجهاوزن على هذا التساؤل بقوله «إن الموضوعات الفارسية كانت بلا شك أعمق تعبيراً عن فكرة السلطة والملكية»، ومن هنا كان هذا التفضيل.

خربة المِفْجَر

وقد عثر هاملتون وبرامكي - خلال الحفائر التي تمت فيما بين عامي ١٩٣٥ و ١٩٤٨ في قصر «خربة المِفْجَر» الكبير القريب من مدينة أريحا - والذي يرجع هو الآخر إلى عصر الخليفة هشام - على نحوٍ مثيرٍ وخمسين جزءاً من لوحات مصورة وعلى عدد كبير من زخارف فسيفسائية في حالة جيدة داخل القصر، وفي مبنى الاستحمام الكبير الملحق به. ومع أن أكثر صور الشخصيات والعناصر المعمارية تحمل ملامح رومانية وبيزنطية، فإن عدداً كبيراً من التكوينات الزخرفية يحاكي نسجيات فارس أو آسيا الوسطى. وقد وجدت الزخارف في القصر نفسه، وما يُبَيّن أن الموضوعات الشرقية لم تكن موضع التكرار فحسب بل إنها كانت تناسب أكثر من غيرها مقام الملوك، غير أن الأجزاء الباقية - لسوء الحظ - صغيرة إلى الحد الذي لا يسمح بمعرفة تفصيلية لموضوعها أو باستنتاجات مفيدة عن طرزها.

وتتكوّن بعض الزخارف الفسيفسائية من وحدات هندسية أقرب إلى الزخارف الرومانية البيزنطية غير أنها أكثر ثراءً وتنوعاً (لوحه ٧٨)، وثمة لوحة فسيفسائية مستقلة تزيّن حنية القاعة الرئيسة في مبنى الحمام تصور حيوانات، وزخارف فسيفسائية أخرى تزيّن هذه القاعة الضخمة وتغطي أرضها برسوم هندسية، وتوحي الدواب المحيطة باللوحة التي تصور الحيوانات بأنّها

الفصل العاشر

مَدْرَسَةُ بَغْدَاد

عَهْدُ الْعَبَّاسِيِّينَ وَمَبَاهِجُ الْبِلَاط

الآداب والفنون في عهدها واكتسب فن التصوير مكانة جديدة لم يبلغها من قبل، وغدا فناً مسلماً به بغد أن كان مثار جدل. وتحدثت بعض المخطوطات عن موضوعات تصوير مألوفة لنا، وذكرت غيرها نوعاً من التصوير لم نعرف عنه شيئاً، وجاء في أحد النصوص أن نمة قصراً بمدينة «سامرا» - التي كانت مقراً للخلافة في فترة قصيرة من القرن التاسع - قد ضم لوحة تصور كنيسة وغدداً من القساوسة مع رئيسهم، كما وصف المتنبي الشاعر خيمة مزدانة بالزخارف، ورُبما قصد بها لوحة مرسومة على قماش أو نسجية مرسمة، يصور أحد مشاهدها مجموعات من الحيوانات المتصارعة وأخرى ساكنة في دعة وهُدوء. ووصف مشهداً آخر يصور ملكاً يزنطياً مع قاذته العسكريين وهم يحنون رؤوسهم إجلالاً لسيف الدولة الحمداني، غير أن الزمن لم يترك لنا واحدة من هذه اللوحات:

عَلَيْهَا رِياضٌ لَمْ تَحْكُهَا سَحَابَةٌ

وَأَغْصَانُ دَوْحٍ لَمْ تَغَنَّ حَمَائِمُهُ

وَفَوْقَ حَوَاشِي كُلِّ ثَوْبٍ مُوجَةٌ

مِنَ الدَّرِّ لَمْ يُثَقِّبْهُ نَازِمُهُ

تَرَى حَيَوَانَ الْبَرِّ مُصْطَلِحًا بِهَا

يُحَارِبُ ضِدَّ ضِدَّةٍ وَيُسَالِمُهُ

إِذَا ضَرَبَتْهُ الرِّيحُ مَاجَ كَأَنَّهُ

تَجُولُ مَذَاكِيهِ وَتَذَايُ ضَرَاغِمُهُ

وَفِي صُورَةِ الرُّومِيِّ ذِي التَّاجِ ذِلَّةٌ

لِأَبْلَجٍ لَا تَبْجَانُ إِلَّا عَمَائِمُهُ

تُقَبِّلُ أَقْوَاهُ الْمُلُوكِ بِسَاطِهِ

وَيَكْبُرُ عَنْهَا كُفُّهُ وَبِرَاجِمُهُ

مع نهاية العصر الأموي تشجع الضائقون به على الظهور، فتأرا الأعاجم تحفزهم إلى ذلك تلك التفرقة التي كانت بينهم وبين جماهير العرب، واجتمعت كلمتهم حول زعيم من الزعماء المنحدرين من سلالة العباس عم النبي عليه السلام، وتجمع المناهضون للخلافة في شرق إيران من العرب الحائرين على بني أمية والمنسليخين من الطوائف الإسلامية والمتطرفين. وقد أفلح هؤلاء الخارجون على الخلافة في الإطاحة بالحكم الأموي وبإلحاق الهزيمة بآخر خلفائهم والقتك بأفراد أسرته عام ٧٥٠م، وأقاموا الدولة العباسية وبنوا «مدينة السلام» عام ٧٦٢ في مكان قرية فارسية على نهر دجلة أطلقوا عليها اسم بغداد، ونقلوا إليها عاصمة الخلافة. وسرعان ما دان المشرق لهذه العاصمة الجديدة وبخاصة فارس التي اختار العباسيون من بين أبنائها خيرة وُزرائهم واعتنقوا أفكارهم واتخذوا من تقاليد البلاط الساساني وعادات ملوكه الذين عاشوا على مقربة من بغداد أسوة.

غير أن صرح الدولة العباسية المتمايل ما لبث أن تعرض لِهزات عنيفة، إذ بدأ الأندلس يثشق على حكومة الخلافة المركزية عام ٧٥٦م، ثم حدثت مناطق أخرى خذوه في تتابع وهي المغرب وتونس وشرق إيران التي غدت شبه مستقلة، وأمسى الخليفة رئيساً شرفياً لها فحسب. أما التصدع الأكبر فكان في استقلال مصر عن الخلافة العباسية عهد الدولة الفاطمية. وقد وقع خلفاء بني العباس تحت سيطرة وُزرائهم وسرعان ما انتقلت سلطتهم في نهاية الأمر إلى أيدي قادة حرس قصر الخليفة الأتراك. وفي منتصف القرن العاشر فقدت الخلافة كل سلطة حتى على العراق ولم يبق له من الخلافة إلا اسمها، وبدأ الملوك المسيحيون في غزو بعض الأقاليم التي انسحلت عن الدولة الإسلامية كالأندلس وصقلية.

وبرغم تفكك الدولة العباسية وضعفها السياسي فقد ازدهرت

وَقَدْ تَقَاطَعَتْ ذِرَاعَاهُمَا. وَتَوَكَّدَ الكَأْسَانِ الدَّهْيَتَانِ وَغَطَاءُ الرَّأْسِ وَالْوِشَاحَانِ وَلَالِيَاءُ الشَّعْرِ وَالْأَقْرَاطُ وَالثِّيَابُ الْكَثِيفَةُ وَالضَّفَائِرُ الطَّوِيلَةُ وَوَقْفَةٌ كُلٌّ مِنْهَا عَلَى سَاقٍ وَاحِدَةٍ، بَيْنَمَا ثَنَّتْ سَاقَهَا الْأُخْرَى إِلَى الْخَلْفِ وَإِلَى أَعْلَى فِي وَضْعٍ أَفْقِيٍّ تَوَكَّدَ أَنَّهَا مِنْ رَاقِصَاتِ بَلَاطِ الْخَلِيفَةِ. وَمَعَ أَنَّ مَصْدَرَ الْمَوْضُوعِ كَلَّاسِيكِيٍّ إِلَّا أَنَّهُ اخْتَفَى وَرَاءَ الْقَسَمَاتِ الشَّرْقِيَّةِ الَّتِي تَنْعَكِسُ فِي الرُّجَخَاتِ الْغَلِظَةِ وَالذَّقْنِ الْعَرِيضَةِ وَالْأَنْفِ الطَّوِيلِ، وَخُصَلَاتِ الشَّعْرِ الْمَلْفُوفَةِ وَنَمَطِ تَسْرِيحَةِ الشَّعْرِ وَإِسْدَالِهِ فِي ضَفَائِرٍ طَوِيلَةٍ، وَهُوَ مَا نَجِدُ نَظَائِرَ لَهُ فِي الْفُنُونِ الشَّرْقِيَّةِ وَفِي الْفُنُونِ السَّاسَانِيَّةِ الدَّقِيقَةِ لَاسِيَّمَا وَإِنَّ الرُّسَامَ قَدْ اتَّبَعَ فِي تَكْوِينِهِ النَّمَطَ الْمَأْلُوفَ فِي الرُّسُومِ السَّاسَانِيَّةِ وَالْأَشُورِيَّةِ مِنْ قَبْلُ، وَالَّتِي تُصَوِّرُ كَانَيْنِ مُتَظَاهِرَيْنِ أَوْ مُتَوَاجِهَيْنِ وَبَيْنَهُمَا شَجَرَةٌ، فَقَدْ اسْتَعَاظَ عَنِ الشَّجَرَةِ بِسَلَّةٍ فَاكِهَةٍ بَيْنَ الرَّاقِصَتَيْنِ شَبِهُ الْمُتَوَاجِهَتَيْنِ. وَلَا تَسْدِلُ طَيَّاتِ الثِّيَابِ عَلَى طَبِيعَتِهَا، وَإِنَّمَا تُشَكِّلُ فَوْقَ الْبَطْنِ وَالرُّكْبَتَيْنِ وَحَدَاتٍ زُخْرُفِيَّةً مَشْحُونَةً بِالْحَرَكَةِ، أَطْلَقَ فِيهَا الْفَتَّانُ الْعِنَانُ لاسْتِعْرَاضِ بَرَاعَتِهِ الزُّخْرُفِيَّةِ. وَنَلَاظُ أَنْ تِلْكَ الطَّيَّاتُ تَظْهَرُ فِي شَكْلِ دَوَائِرَ فَوْقَ اسْتِدَارَاتِ الْجِسْمِ الَّذِي تَكْسُوهُ تِلْكَ الثِّيَابُ، كَاللَّهْدَيْنِ وَالسَّرَّةِ وَالرُّكْبَتَيْنِ. وَلَعَلَّ الرُّسَامَ كَانَ يَتَوَقَّعُ إِلَى أَنْ يَرَسُمَ جَسَدَ الرَّاقِصَتَيْنِ عَارِيًّا غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ مَعْبَةَ حُرِّيَّةِ فُرْشَاتِهِ وَسُوءَ الْمَصِيرِ فَاتَّكَفَى بِالْإِلْمَاحِ إِلَيْهَا مِنْ فَوْقِ طَيَّاتِ الثِّيَابِ. وَأَهَمُّ مَا فِي الْأَمْرِ هُوَ طَرِيقَةُ الْأَخْذِ فِي الْمَوْضُوعِ، فَالْحَرَكَةُ فِي الْمَشْهَدِ تَبْدُو مُمَجِّنَةً فِي التَّمَهُّلِ حَتَّى لَنَكَادُ نُحِسَّ مَعَهَا أَنَّهَا عَلَى وَشَكِّ التَّوَقُّفِ، كَمَا خَلَا الْمَشْهَدُ مِنَ التَّعْبِيرَاتِ الْعَارِضَةِ، وَلَمْ تَتَجَلَّ فِيهِ الْقَسَمَاتُ الشَّخْصِيَّةُ الْمُمَيِّزَةُ، وَلَمْ يُحَاوِلِ الْفَتَّانُ اسْتِعْرَاضَ الرِّشَاقَةِ وَالرَّخَاوَةِ اللَّتَيْنِ تَفْرُضُهُمَا طَبِيعَةُ الرَّقْصِ، وَإِنَّمَا قَصَرَ جُهْدَهُ فِي تَحْدِيدِ حَجْمِ الْجَسَدَيْنِ وَصَلَابَتَهُمَا وَوَضْعَهُمَا فِي تَنَاسُقٍ وَتَرَاضٍ وَسَطِ التَّشْكِيلِ الَّذِي رُئِيَ كُلُّ شَيْءٍ فِيهِ بِعَنَاءٍ دَقِيقَةٍ. وَلَا يُمْكِنُنَا أَنْ نُحَدِّدَ طَبِيعَةَ الْكَأْسِ فِي

(١) وثائق الجنيزة (of Cairo) Geniza :

جَنِزَةٌ كَلِمَةٌ عِبْرِيَّةٌ تَعْنِي الْجَمْعَ وَالذَّقْنَ. وَكَانَ مِنْ عَادَةِ الْيَهُودِ الْإِحْفَاطُ بِوَثَائِقِهِمْ وَأَوْرَاقِيٍّ مِنَ التُّورَةِ مَهْمَا بَلَّغَتْ مِنَ الْبَلَى وَالْقَدَمِ، فِي حُجَرَاتٍ تُحْفَظُ فِيهَا، أَوْ تُدْفَنُ فِي الْأَرْضِ بِجُورِ الْمَقَابِرِ. وَأَهَمُّ مَا وَصَلَ إِلَيْنَا مِنْهَا جَنِيزَةُ الْقَاهِرَةِ. وَكَانَتْ حُجْرَةً مِنْ مَعْبَدِ بْنِ عِزَّةِ الْيَهُودِيِّ بِالْقُسْطَاطِ مُغْلَقَةً مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا عَدَا فُتْحَةً عُلوِيَّةً تُلْقَى مِنْهَا الْوَثَائِقُ لِتَسْقُطَ فِي الْحُجْرَةِ لَا يَمْسُهَا أَحَدٌ. وَقَدْ ظَلَّتْ بِمَنَآئِ عَنِ التَّلَفِّ فَلَمْ يَمْسُسْهَا حَرِيئُ الْقُسْطَاطِ، وَبَلَّغَتْ مَخْطُوطَاتُهَا مِثْلَ أَلْفٍ. وَمِنْ بَيْنِ مَخْلُفَاتِ الْجَنِيزَةِ ذَاتُ الْأَهَمِّيَّةِ، التُّورَةُ الْأَصْلِيَّةُ الَّتِي وُزِّعَتْ بَيْنَ بُلْدَانِ الْعَالَمِ، كَمَا وَجِدَتْ بَيْنَهَا وَثِيقَةُ زَوَاجِ ابْنِ مُوسَى بْنِ مِمُونِ، الْعَالِمِ الْيَهُودِيِّ الشَّهِيرِ. [م.م.م.ث.]

وَتَمَّةٌ مَخْطُوطَاتُ أُخْرَى تَحَدَّثَتْ عَنِ التَّصْوِيرِ بِأَسْلُوبِ عَامٍّ، فَوَثَائِقُ الْجَنِيزَةِ^(١) مَثَلًا تَتَحَدَّثُ عَنِ الْفَتَّانَيْنِ الْمُتَخَصِّصِينَ فِي التَّصْوِيرِ الْجِدَارِيِّ خِلَالَ الْعَصْرِ الْفَاطِمِيِّ، وَتُزَوِّي الْمَخْطُوطَاتِ عَنْ اخْتِفَاءِ اللُّوَحَاتِ الْمُصَوَّرَةِ أَنَّ مِنْ بَيْنِهَا مَا عَادَ عَلَيْهِ الزَّمَنُ فَطَوَاهُ، وَمِنْهَا مَا عَبَّتْ بِهِ الْأَيْدِي عَمْدًا بِمَا يَكْشِفُ عَنْ مَدَى شُبُوحِ هَذَا الْفَنِّ بِأَكْثَرِ مِمَّا تُوحِي بِهِ الْمَرَاجِعُ الْأُخْرَى بَلْ وَكُشُوفُنَا الْحَدِيثَةَ كَذَلِكَ.

لَقَدْ أَظَلَّ السَّلَامُ الْعَصْرَ الْعَبَّاسِيَّ بِالرُّغْمِ مِنْ سِيَادَةِ حُكْمِ الْفَرْدِ وَمَا شَاعَ مِنْ قَلَالٍ وَاضْطِرَابَاتٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ. وَمَعَ أَنَّ نُذْرَةَ الْآثَارِ الْمُتَبَقِّيَّةِ وَائْتِثَارَهَا فِي أَغْلَبِ الْأَحْيَانِ إِلَى أَجْزَاءٍ، وَإِشَارَةُ الْكُتُبِ الْأَدَبِيَّةِ إِلَى أَنْوَاعٍ مَجْهُولَةٍ لَنَا تَجَعَّلَ إِصْدَارُ حُكْمِ عَامٍّ عَمَلِيَّةً مَخْضُوفَةً بِالْمَخَاطِرِ، إِلَّا أَنَّهُ مِنَ الْمَيَسُورِ لَنَا أَنْ نَسْتَبِطَ أَنَّ تَصْوِيرَ مَبَاهِجِ الْبَلَاطِ خِلَالَ هَذَا الْعَصْرِ كَانَ أَحَدَ مَوْضُوعَاتِ التَّصْوِيرِ الرَّئِيسَةِ إِنْ لَمْ يَكُنِ الْمَوْضُوعُ الْمُفْضَلُ خِلَالَ تِلْكَ الْفَتْرَةِ الْمَلِيَّةِ بِالْاضْطِرَابَاتِ السِّيَاسِيَّةِ.

عَلَى أَنَّ قِيَامَ بَغْدَادِ الْحَدِيثَةِ مَكَانَ «مَدِينَةِ دَارِ السَّلَامِ» الْقَدِيمَةِ جَعَلَ الْكَشْفَ عِلْمِيًّا عَنْ آثَارِهَا مِنَ الْعُسْرِ بِمَكَانِ اللَّهْمِ إِلَّا مَا وَقَعَ عَرَضًا خِلَالَ عَمَلِيَّاتِ الْحَفْرِ لِإِقَامَةِ مَبَانٍ جَدِيدَةٍ فِي مَكَانِ مَبَانٍ قَدِيمَةٍ. وَقَدْ اسْتَطَاعَ بَعْضُ عُلَمَاءِ الْآثَارِ أَنْ يَكْشِفُوا خِلَالَ أَعْوَامِ ١٩١١ إِلَى ١٩١٣ بَعْضَ مُنْجَزَاتِ التَّصْوِيرِ فِي مَدِينَةِ «سَامِرَا» الَّتِي شَبَّهَهَا أَحَدُ أَبْنَاءِ الرَّشِيدِ وَاتَّخَذَهَا عَاصِمَةً لِلْخِلَافَةِ فِيمَا بَيْنَ عَامِ ٨٣٨ وَعام ٨٨٣ ثُمَّ مَا لَبِثَتْ أَنْ فَقَدَتْ أَهَمِّيَّتَهَا السِّيَاسِيَّةَ. وَقَدْ تَحَطَّمَتِ هَذِهِ الْآثَارُ جَمِيعُهَا خِلَالَ أَحْدَاثِ الْحَزْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَى وَإِنْ بَقِيَ مِنْ صُورِهَا مَا نَقَلَهُ «إِرْنِسْت هِيرْتزفيلد»، وَكَانَ قَدْ اكْتُشِفَ بَعْضُهَا فِي الدَّوْرِ الْخَاصَّةِ وَبَعْضُهَا فِي أُبْنِيَةِ الْاسْتِحْصَامِ وَلَوْ أَنَّ أَهَمَّهَا هِيَ الَّتِي عُثِرَ عَلَيْهَا فِي قَصْرِ «الْجَوْسَقِ» وَخُصُوصًا فِي جَنَاحِ «الْحَرِيمِ» وَتُصَوِّرُ إِحْدَاهَا شَجَرَةً أَكَاثِنَا تَلْتَقُ فُرُوعُهَا فِي لَوْلِيَّةٍ شَدِيدَةٍ التَّعْقِيدِ، كَمَا تَخْصُ اللَّوْحَةُ بَعْدَ كَبِيرٍ مِنَ الشُّخُوصِ وَالْحَيَوَانَاتِ مُحَاكِةٍ أَحَدَ الْمَوْضُوعَاتِ الْمُفْضَلَةِ فِي أَوَاخِرِ الْعَصْرِ الرُّومَانِيِّ، بَيْنَمَا تَعْرِضُ التَّكُونِيَّاتُ الْأُخْرَى أُسْلُوبًا مُخْتَلِفًا هُوَ الْأُسْلُوبُ الْمُتَأَعَّرِقُ الشَّرْقِيَّ الَّذِي يَتَرَاوَى مِنْ خِلَالِهِ الْأُسْلُوبُ الْفَارِسِيُّ السَّاسَانِيُّ، وَيُذَكِّرُنَا هَذَا الطَّائِفُ الْفَارِسِيُّ بِمَا جَاءَ فِي إِحْدَى قِصَصِ كِتَابِ «أَلْفِ لَيْلَةٍ وَلَيْلَةٍ» عَنْ تَلْبِيَةِ فَتَّانِي فَارِسٍ لِدَعْوَةِ الْخَلِيفَةِ وَقِيَامِهِمْ بِزُخْرُفَةِ أَحَدِ قُصُورِهِ بِأُسْلُوبِ بِلَادِهِمْ.

وَيَتَجَلَّى أُسْلُوبُ «سَامِرَا» فِي لَوْحَةٍ جِدَارِيَّةٍ تُصَوِّرُ رَاقِصَتَيْنِ فِي ثِيَابٍ كَامِلَةٍ (الْلُّوَحَتَانِ ٥٢، ٩) تَتَقَدَّمُ كُلُّ مِنْهُمَا فِي اتِّجَاهِ الْأُخْرَى فِي حَرَكَةٍ رَاقِصَةٍ، وَتَصْبَانُ شَرَابًا، مِنَ الْقَارُورَةِ الَّتِي تُسَمِّكُ بِهَا كُلُّ مِنْهُمَا أَفْقِيًّا خَلْفَ رَأْسِهَا، فِي كَأْسٍ تَحْمِلُهُ فِي يَدِهَا الْأُخْرَى،

تَكُنْ مِنَ الْكَثْرَةِ بِمَكَانٍ.

صُورُ كَنِيسَةِ كَايِلَا بِالَاتِينَا بِبَالِيرَمُو الْمُسْتَوْحَاةِ مِنْ قَنِّ مَدِينَةِ سَامَرَا وَالْقَنِّ الْفَاطِمِي

من قَبِيلِ الصَّدْفَةِ الْحَسَنَةِ أَنَّ بَقِيَتَ مَجْمُوعَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الصُّوَرِ الْمُسْتَمَدَّةِ مِنْ قَنِّ «سَامَرَا» مَنقُوشَةٌ عَلَى سَقْفِ كَنِيسَةِ قَصْرِ «بَالِيرَمُو» الَّتِي شَيَّدَهَا حُكَّامُ صِيقَلِيَّةِ الثُّورْمَانِ، وَكَانَتِ الْجَزِيرَةُ قَدْ خَضَعَتْ لِحُكْمِ وِلَاةِ مُسْلِمِينَ مِنْ تُونِسَ ثُمَّ مِنْ مِصْرَ عَلَى التَّوَالِي فِي الْفَتْرَةِ مَا بَيْنَ عَامِ ٨٢٧ وَعَامِ ١٠٦١ م. وَمَعَ ارْتِدَادِ الْجَزِيرَةِ إِلَى الْمَسِيحِيَّةِ بَعْدَ غَزْوِ الْكُونْتِ الثُّورْمَانِيَّةِ «رُوجِيَّةِ» الْأَوَّلِ لَهَا، احْتَفَظَ بِبَلَاطِهِ بِكَثِيرٍ مِنَ الْعَادَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ. وَمِمَّا يُؤَكِّدُ انْتِشَارَ اسْتِخْدَامِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَشُيُوعِ الرُّوحِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ، الْكِتَابَةُ الْعَرَبِيَّةُ الْمَنقُوشَةُ عَلَى الصُّنْدُوقِ الْإِسْلَامِيِّ الْمَحْفُوظِ بِمَتْخَفِ الْكَنِيسَةِ مُنْذُ الْقَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ (لَوْحَةٌ ٧٩)، وَتِلْكَ الْمَنقُوشَةُ عَلَى سَقْفِ الْكَنِيسَةِ وَرِدَاءِ التَّوْبِجِ لِرُوجِيَّةِ الثَّانِي (اللُّوْحَتَانِ ٥٣ م، ٨٠) الَّتِي يُعَدُّ مِنْ أَجْمَلِ مُنْجَزَاتِ قَنِّ السِّيْجِ الْإِسْلَامِيِّ الَّتِي حَفَظَهَا لَنَا الزَّمَنُ حَتَّى الْآنَ. وَقَدْ جَاءَ تَصْمِيمُ زَخَارِفِ الرِّدَاءِ بِعَامَّةٍ تَصْمِيمًا تَجْرِيدِيًّا بَحْثًا، كَمَا يَحْمِلُ الطَّابَعُ الشَّعَارِيِّ الْمَأْلُوفِ الْمُصَوَّرِ فِي مَجْمُوعَتَيْنِ مُتَمَاثِلَتَيْنِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ تُنَازِلُ كُلِّ مِنْهُمَا قَرِينَتَهَا تَمَامًا، وَتَقْصُلُ بَيْنَهُمَا نَخْلَةٌ زُخْرُفِيَّةٌ بِدِيْعَةِ التَّكْوِينِ. وَتَتَكَوَّنُ كُلُّ مَجْمُوعَةٍ مِنْ صُورَةِ أَسَدٍ قَدْ وَبَّبَ لِنَوِّهِ عَلَى ظَهْرِ جَمَلٍ فَرَعَ يَعْذُو فِي سُرْعَةٍ تَتَجَلَّى فِي حَرَكَةِ سَيْفَانِهِ الْمُنْفَرَجَةِ. وَيَكَادُ تَصْوِيرُ الْمَجْمُوعَتَيْنِ يَكُونُ تَصْوِيرًا وَاقِعِيًّا مِنْ خِلَالِ الزُّخْرَفَةِ، يَنْبَسُ بِالْحَيَوِيَّةِ الَّتِي تَطْعَى عَلَى جُمُودِ التَّكْوِينِ الشَّعَارِيِّ. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الزُّخَارِفَ كَانَتْ تَحْمِلُ فِي طَيَّاتِهَا الْإِحْسَاسَ بِالْحَرَكَةِ الدَّافِقَةِ إِلَّا أَنَّ هَذَا لَا يَنْفِي عَنِ الصُّورَةِ صِفَةَ التَّجْرِيدِ. وَمَا أَكْثَرَ مَا طَالَعْنَا بِثُلِّ هَذَا الْمَشْهَدِ عَلَى وَجْهِ التَّخْدِيدِ فِي مُخْلَقَاتِ إِيقُونوغَرَفِيَّةٍ مِنَ الْعِرَاقِ وَفَارِسَ. وَيَذْهَبُ الْبَعْضُ إِلَى أَنَّ هَذَا الرَّسْمَ يَرْمِزُ لَانْتِصَارِ الثُّورْمَانِ عَلَى الْعَرَبِ وَاسْتِثْلَاثِهِمْ عَلَى صِيقَلِيَّةِ.

وَيُمَثِّلُ مُصَلَّى قَصْرِ بَالِيرَمُو الَّذِي شَيِّدَ عَامَ ١١٤٠ م طَرَارًا مُهَجَّنًا (لَوْحَةٌ ٨١)، فَمِخْرَابُهُ بِبِزَنْطِي الْأَسْلُوبِ يَضُمُّ لَوْحَاتٍ فُسَيْفَسَاءَ مَسِيحِيَّةِ الْفِكْرَةِ، وَتُزَخَّرُ جُذُرَانِ مَجَازِهِ الْأَوْسَطِ مَشَاهِدَ مِنَ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ، عَلَى حِينِ يَرْدَانِ السَّقْفِ الْخَشَبِيِّ الَّذِي يَعْلوهُ الْمَجَازُ الْأَوْسَطُ بِالْثُّجُومِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي صَفِّينِ مُتَوَازِيَيْنِ، مُوجِيًّا بِالسَّمَاءِ خِلَالِ اللَّيْلِ (لَوْحَةٌ ٨٢). وَقَدْ زُخِّرَتْ حَوَافِي السَّقْفِ الْخَشَبِيِّ بِنَحْتِهَا نَحْتًا دَقِيقًا مُنَوَّعًا، حَيْثُ يَهْبِطُ السَّقْفُ عَلَى هَيْئَةِ دَرَجَاتٍ مُتَتَابِعَةٍ تَصْمُ كُورَى صَغِيرَةٍ صُوِّرَتْ عَلَيْهَا زَخَارِفُ مَلُونَةٍ صَغِيرَةٍ الْمِسَاحَةِ لَا تَتَسَبَّحُ لِتَصْوِيرِ أَكْثَرِ مِنْ أَرْبَعَةِ

الصُّورَةِ إِنَّ كَانَ كَأَسَا أَوْ طَاسًا أَوْ وَعَاءَ لِلشَّرَابِ. وَيُوحِي الرَّسْمُ بِعَامَّةٍ بِأَنَّهُ لَيْسَ غَيْرَ إِشَارَةٍ إِلَى الرَّقْصِ الَّذِي يُعْرَضُ أَمَامَ الْخَلِيفَةِ، وَأَنَّهُ بَعِيدٌ عَنْ أَنْ يَكُونَ صُورَةً حَقِيقِيَّةً، فَهُوَ حَقْلٌ لَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ زَمَانٌ أَوْ مَكَانٌ.

وَيَسْتَرَعِي انْتِبَاهَنَا أَنَّ الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي تَنَازَلُهَا التَّصْوِيرُ فِي النَّصْفِ الْأَوَّلِ مِنَ الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ تَخْتَلِفُ الْاِخْتِلَافَ كُلَّهُ عَنْ الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي هَامَ بِهَا بَنُو أُمَيَّةٍ. فَبِرُغْمِ أَنَّ الْأُمَوِيِّينَ قَدْ عَرَفُوا مَظَاهِرَ الْأَنْبِيَاءِ الَّتِي شَاعَتْ بِقُصُورِ الْخِلَافَةِ، إِلَّا أَنَّ الْاِئْتِقَالَ مِنْ مَشْهَدِ الصَّيْدِ فِي قُصَيْرِ عَمْرَةَ إِلَى مَشْهَدِ الْمَوْسِقِيِّينَ فِي قَصْرِ الْحَيْرِ الْعَرَبِيِّ، ثُمَّ الْاِئْتِهَاءِ إِلَى لَوْحَاتِ «سَامَرَا» يَكْشِفُ عَنْ تَحَوُّلٍ جَدْرِيٍّ فِي الْاِتِّجَاهِ. لَقَدْ كَانَتْ الْعِنَايَةُ فِي لَوْحَاتِ قُصَيْرِ عَمْرَةَ مُوجَّهَةً كُلُّهَا إِلَى الْحَرَكَةِ وَتَحْدِيدِ مَكَانِ الْحَدَثِ وَزَمَانِهِ، عَلَى حِينِ جَمَدَتْ فِي «سَامَرَا» شَخْصِيَّاتِ الرَّسْمِ الَّتِي تَنْفُذُ نَظَرَهَا إِلَى الْمَشَاهِدِ ثُمَّ تَشْرُدُ فِي الْفَضَاءِ الْاِلْتِهَائِيِّ مِثْلَهَا مِثْلُ الْاِتْقُونَاتِ الْمَسِيحِيَّةِ، فَاكْتَسَبَ هَذَا التَّطَوُّرُ مِنَ الْحَدَثِ الدَّرَامِيِّ إِلَى التَّصْوِيرِ الرَّمْزِيِّ - كَمَا يَقُولُ رِيْتشارْدُ اِئْتِجَاهُوزِن - الصُّورَ هَيْئَةً ثَلَاثِيَّةَ التَّصْوِيرِ الْمَلَكِيِّ كُلِّ الْمَلَاءِمَةِ، وَفَقَدَتْ الشَّخْصِيَّاتُ فِي رِحْلَتِهَا إِلَى عَالَمِ التَّجْرِيدِ تَأْثِيرَهَا الْجَسَدِيِّ وَقَدْ طُمِسَتْ مَعَهُ مَعَالِمُ الذُّكُورَةِ وَالْأُنُوثَةِ. وَلَا يَزَالُ بَعْضُ الْمُتَخَصِّصِينَ يَخْتَلِفُونَ، إِلَى الْيَوْمِ، حَوْلَ ذُكُورَةِ وَأُنُوثَةِ بَعْضِ الشَّخْصِيَّاتِ الْمُصَوَّرَةِ فِي لَوْحَاتِ «سَامَرَا». وَمَعَ ذَلِكَ فَلَقَدْ اِمْتَدَّ سِحْرُ هَذَا الْأَسْلُوبِ وَجَازِيَّتُهُ إِلَى الْعَالَمِ كُلِّهِ آنَذَاكَ وَاسْتَلْهَمَهُ بِلَاطُ الْأُمَرَاءِ وَالْمُلُوكِ فِي الْعَصْرِ التَّالِيِ.

وَحَفِظَتْ مِصْرَ عَدَدًا قَلِيلًا مِنْ شَطَايَا التَّصْوِيرِ الْمَهِيْبِ الَّتِي تَرْجِعُ إِلَى عَصْرِ «سَامَرَا» وَمَا بَعْدَهُ. وَتَكْشِفُ بَعْضُ الْأَجْزَاءِ الْقَلِيلَةِ الْبَاقِيَةِ - بِمُضَاهَاةِهَا بِالْمَوْضُوعَاتِ الْمُصَوَّرَةِ عَلَى الْأَوَانِي الزُّخْرُفِيَّةِ - عَنْ اقْتِرَابِ الْأَسْلُوبِ الْمِصْرِيِّ خِلَالِ الْفَتْرَةِ مِنْ نِهَايَةِ الْقَرْنِ الثَّانِي إِلَى بَدَايَةِ الْقَرْنِ الْحَادِي عَشَرَ مِنَ الْأَسْلُوبِ الَّذِي اِزْدَهَرَ فِي الْعِرَاقِ، وَلَا غَرَابَةَ فِي هَذَا، فَإِنَّ مُؤَسَّسَ الْأُسْرَةِ الطُّوْلُونِيَّةِ فِي مِصْرَ قَدْ وَقَدَّ إِلَى وَادِي النَّيْلِ مِنْ مَدِينَةِ «سَامَرَا».

وَتَنْطَوِي الْقِيَمَةُ الْجَمَالِيَّةُ فِي التَّصْوِيرِ الْعَرَبِيِّ عَلَى تَنَاسُقِ وَتَرَابُطِ عَلَى الرَّغْمِ مِنَ الْعَنَاصِرِ الدَّخِيلَةِ الَّتِي تَسَلَّكَتْ إِلَيْهِ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنَ التَّضَارُّبِ الَّذِي كَانَ يَنْشَبُ أحيانًا بَيْنَ بَعْضِ اِتِّجَاهَاتِهِ وَأَسَالِيهِ الْمُخْتَلِفَةِ. وَتَتَجَلَّى مُمَيَّزَاتُ هَذَا التَّصْوِيرِ لِلْمَشَاهِدِ الْيَوْمِ فِي جِسْرِ الْمُصَوَّرِ الْقَوِيِّ بِ«التَّكْوِينِ الْفَنِّي» الَّذِي يُؤَلَّفُ بِزُخْرُفَتِهِ السَّلِيمَةِ بَيْنَ عَنَاصِرٍ مُخْتَلِفَةٍ فِي مَوْضُوعَاتٍ تَتَسِمُ بِالْبَسَاطَةِ وَالْوُضُوحِ رُغْمَ اقْتِرَاقِهَا أحيانًا إِلَى إِطَارٍ شَامِلٍ يَضُمُّهَا، ثُمَّ اسْتِخْدَامِهَا الْأَلْوَانِ فِي حُرِّيَّةٍ وَانْطِلَاقٍ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهَا لَمْ

إنَّ «أسلوبه العراقي لا بُدَّ وأن يكون من إبداع فنانين وإبدعين من بلاد الرافدين، وهو ما تؤكدُه الحَلَفِيَّات ذات اللُّون الواحد لعدَد من اللُّوحات والتي كانت من تقاليد الموصل». ومن المُحتمل أن يكون الفنانون المصريون خلال العصر الفاطمي قد أسهموا في إعداد لُوحات هذا السَّقف، رُغم تفوق أسلوب تصويرهم على أسلوب التَّصوير في هذه الكنيسة آنذاك. وثُمَّ اُحتمال آخر هو أن تكون هذه اللُّوحات ذات أصل تونسي، فقد شاع الأسلوب العراقي زَمَنًا في تونس التي انطلقَ منها المسلمون واحتلُّوا صِقْلِيَّة. واتَّصلت وشائج السياسة والاقتصاد بين البلدين لأعوام عدَّة، حتَّى حَكَم النُّورمانديون تونس بدورهم، وسكَّ روجيه نقودًا ذهبيَّة باسمه هناك.

نشأة التَّصوير الإسلامي بالمخطوطات في أوائل العصر العباسي.

ليس بين أيدينا شيء من التَّصوير على الورق والمخطوطات يرجع إلى العصر الأموي، وأول ما وقَّع لنا منه يرجع إلى العهد العباسي. غير أنَّنا لا زلنا نجهل تلك المراحل التي مرَّ بها في بدايته رُغم أن العرب قد نقلوا صناعة الورق عن أسرارهم الصَّينيِّين حين فتحو سمرقند في نهاية القرن الأوَّل الهجري. إلا أن المراجع التاريخيَّة والأدبيَّة تؤكد أن المصوريين المسلمين زَيَّنوا المخطوطات بالصُّور منذ القرن الثَّامن، فكتب ابن المقفع في باب عرض كتابه المترجم «كيلة ودمنة»: أنه ينبغي للنَّاظر في هذا الكتاب ومُقتنيه أن يَعْلَم أن من بين أغراضه إظهار خيالات الحيوانات بصُوف الألوان والأصباغ ليكون أُنسًا لِقُلوب الملوك ويكون حِرْصهم عليه أشدَّ، للنزَّهة في تلك الصُّور.

تسمية مدرسة التَّصوير بالعراق

قد يلتبس الأمر على قارئ كُتب الفنون الإسلامية فيما يتَّصل بتسمية هذه المدرسة الفنِّية التي نشأت بالعراق، وفي تحديد زَمَانها ومكانها؛ فهي أحيانًا تُدعى مدرسة بغداد، وأحيانًا أخرى المدرسة «الميزوبوتامية» أي مدرسة بلاد الجزيرة أو ما بين النهرين، وتُسمى أحيانًا أخرى «المدرسة العباسيَّة» وغيرها «المدرسة السلجوقيَّة».

أما أنها مدرسة بغداد، فمن قِيل التَّعميم لأنَّ بغداد كانت المركز الرئيسي لهذه المدرسة، ولأنَّ معظم إنتاجها كان من عرس الخلفاء ورعاية الأمراء، ذلك أن جماهير العامة لم تكن ليتَّهَم به أو تملك مُقابل اقتنائه.

أما المشايخون لإطلاق اسم المدرسة «الميزوبوتامية»، وعلى

شُخص، تغلو عن الأرض إلى الحَدِّ الذي يصعب معه على المُشاهد تمييز مُشاهدتها، وإنَّ أَمَكْنَ لأفراد الحاشيَّة المَلِكِيَّة آنذاك تمييز بعضها من المَقصورة المَلِكِيَّة المُرتفعة المُلتصِقة بالجدار الشَّرقي.

وقد صوَّر الفنانون المسلمون في بعض أجزاء من السَّقف الموضوعات المَلِكِيَّة التي عهدَ إليهم بِزخرفتها، مُتجنِّبين الموضوعات الدِّينيَّة مُقتصرين على الموضوعات الدُّنيويَّة، ومثلما فعلوا بِجَنَاح المَعيشة بالقصر. فصوَّر المَلِك جالسًا على عَرْشه مُمسِكًا بِكَأس في يده مُحاطًا بِالْحَدَم والعبيد (لَوْحة ٥٤م) وبالقُرْب منه صوَّر أَصْدَقَاؤُهُ المُقَرَّبُونَ ومُضْجِكُو البَلَاط والراقصات والمُوسِقيِّون وهم يعزفون على مُختلف الآلات. وتشي بعض الشَّخصيَّات المصوَّرة بالمُواجهة بِطابع الهَيِّية والفخامة الذي يُميَّز أسلوب «سامرا»، كما تُبرز هذه الموضوعات التي تُوحى بِعَظَمَةِ المَلِك وِجَالِه سِمَات فنِّ البَلَاط، وليكنَّا نَكشف في الوَقْت نفسه عَن القَلَق الدائم لِلحَاكِم في صِراعِه مَعَ الزَّمَن، الذي هو خَصَمُ الملوك اللُّدود. وكذا يَكشف عَن ذَلِكَ القَلَق الدُّعَاء الذي يُذِلُّ بِه اسمه دائِمًا طُمَأَنَّة له بِطول عَهده في حُكْم مُستقرٍّ، والذي تتضمَّنُه العبارات: «أبقاه الله» و«جعل الله أيامك ولياليك مَبَاهِج مُتَّصِلَة» المُنقوشة بالعربيَّة على رِداء التَّوَجُّج لِروِجيه الثَّاني. ويتجَلَّى انْتِشار الأسلوب العباسي حتَّى في طَريقة زينة النِّساء، كَمَقْصُ الشَّعر فَوْق الجَبْهة وأُسيْدال الضَّفائر الطَّويلة على جانبي الوجْه، الأمر الذي يَدُلُّ على الشَّبه بَيْنَها وبَيْنَ التَّصوِير في «سامرا»، على الرُّغم من أنَّ انْقِضاء ثلاثمائة عام قد أَفقدَت بعضُ العنَاصِر ثَبَاتَهَا.

وهناك لَوْحة أُخرى تُعبِّر بِجَلَاء عن أساليب تَرْجِيَةِ الملوك لأَوَاقَات فَرَاغهم، تُصوِّر عازِفين على «الثَّاني» واقفين على جانبي نافورة جداريَّة «سَلْسَبِيل» يَفْجَر ماؤها مِن قَمَّ أسد ويتساب على دَرَجَات هابِطة مُشكَّلة ما يُشبه الشَّلال، وتُنْتهِي بِخَوْض مُزخرف تَنبِيْق وَسَطه نافورة ثَانِيَة (لَوْحة ٥٥م). هذا التَّرَاثُف الرَّائِع بَيْنَ المُوسِقي والنِّساء وَخَرِير المَاء المُرْتَبِّ في التَّافورات التي تَحْتَوِيهَا هذه الصُّور يعكس لنا حَيَاة البَلَاط المُمتِعَة اللَّامُبايَة بِوَصْفِهَا كُلاً لا يَتَجَزَّأ. وَمَعَ جُمود المَشْهَد وَرَمَزِيَّتِهِ وَاهْتِمَامِهِ بِالْتَّرَاصُف بَيْنَ العنَاصِر المُتَجَاوِرَة إِلَّا أَنَّ هَذَا الأسلوب البَلِغُ يَبُرُّ ما انطَوَتْ عَلَيْهِ صُور سامرا مِن غُمُوض.

ومن العسير أن نحدِّد اليَوْمَ مَنْ هُم مُبدِعو هذه الأعمال، غير أنَّ الأُسْتَاذ أندريه جرابر اسْتَبَدَّ أن يكون تَصوِير هذه اللُّوحات مِن إبداع فنان مَسِيحِيٍّ أو صِقْلِيٍّ، وأَيَّدَه «مونريه دي قِيَار» فيما ذَهَبَ إِلَيْهِ في كتابه الجامع الذي أَوَفَّقَه على لُوحات هذا السَّقف، بِقَوْلِهِ

الإمبراطورية الإسلامية بصورة أوسع مما عليه اليوم بين الأقطار الإسلامية، على نحو ما كانت عليه حال قناني بلاد اليونان في العهدين الإغريقي والماعغري يتنقلون بين الأقاليم اليونانية جميعاً لتقديم خدامتهم.

وقد ازدهرت هذه المدرسة في بغداد والموصل والكوفة وواسط، وكذلك في إيران ومصر والشام والأندلس حتى لقبها الأستاذ بازيل جراي باسم «المدرسة العباسية الدولية» إلى أن انتقل مركز التصوير الرئيسي منذ القرن الرابع عشر إلى إيران وارتبط بمدرستها التي انبثقت عنها مدرسة التصوير في كل من الهند وتركيا.

مراكز تصوير المخطوطات العربية

أجمع مؤرخو الفن على تحديد خمسة مراكز عربية لتصوير المخطوطات، أولها في سوريا، وثانيها في شمال العراق، وثالثها في وسطه وجنوبه، ورابعها في إسبانيا والمغرب، وخامسها في مصر.

ولقد تميّزت سوريا بالزخارف المعمارية التي مارسها لعموم طوبلة، كما تناول مصوروها شخصهم متأثرين بالأسلوب الكلاسيكي البيزنطي. وقد كشفت بعض المخطوطات الإسلامية والمسيحية التي أنجزت في شمال العراق أو سببت إليه عن أن مصوريها كانوا من أكثر المصورين العرب تأثراً بفنون فارس، وهو ما يتجلى في جمود قسّمات الملوك المترعين على عروشهم وفق التقليد الساساني، كما يتجلى أيضاً في مشاهدتها التي تنبض بفيض من الحركة والتي تقترب من اللوحات السلجوقية المعاصرة المفعمّة بالحركة والمنجزة بإيران السلجوقية، حيث كان يعمّ حشد العناصر المختلفة مصطفة متجاورة. هذا إلى أن الفن البيزنطي كان له هو الآخر في هذا المجال أثره لا سيما في الموصل خلال العصر العباسي حيث كان للحركة العلمية نهضة تختدي فيها بالأصول اليونانية كانت من آثارها تلك الجهود الموسوعية في علوم الطب والفلك والنباتات والآليات والبيطرة.

وكانت مدرسة بغداد وجنوب العراق تتمتع بحرية واسعة وواقعية مميزة، حيث تباوأ الشخص مكانها المنطقي وسط المشهد الطبيعي الذي يتم تصويره بتفاصيله أجمع أحياناً، أو تظهر الشخص في رحبات المنشآت المعمارية، حيث يكون للطبيعة وأشكال العمارة نصيب كبير في اللوحة. هذا إلى أنها كانت المدرسة الوحيدة التي عيّنت بالطواهر العابرة والملاحظات السيكولوجية والفوارق الاجتماعية الطبيعية التي نجس وجودها في الخلفيات. وثمة نماذج بارعة قدّمها تصور

رأسهم الأستاذ توماس أرنولد، فحجّتهم أن مصوري الإسلام قد تلمذوا على مصوري الكنيسة الشرقية من الساطرة واليعاقية، وأن إسهام العرب في هذا المضمار لم يغد المحاكاة بلا ابتداع. واستدلوا على هذا من مشابهة صور بعض المخطوطات بغيرها من الصور البيزنطية من حيث عدد شخص الصورة وترتيب وضعاتهم وإيماءاتهم وحركاتهم والغلو في الإشادة بمكانة أحدهم بإحاطة وجهه بهالة ثمايل ما أحاط به الفنان المسيحي وجوه القديسين. بيد أن مسيحي الكنيسة الشرقية - في رأي إنتجهاوزن - لم يكن لهم فن مستقل بذاته يستلهمه المسلمون ولا أقول العرب، فإن معظم هؤلاء المسيحيين كانوا عرباً من الشام والجزيرة يعيشون بين إخوانهم المسلمين.

أما أولئك الذين يطلقون اسم «المدرسة العباسية» على هذه المدرسة فمنطقتهم أن هذه التصاوير قد نمت وازدهرت خلال العصر العباسي. على حين يستند منطق من سموها بالمدرسة السلجوقية إلى الطراز الذي شاع وقت ازدهار مدرسة التصوير الفتيّة هو الطراز السلجوقي نسبة إلى السلاجقة الذين وفدوا من آسيا الوسطى وتحكّموا منذ القرن الحادي عشر الميلادي في بلاد الإسلام من أفغانستان إلى البحر المتوسط، حتى قضى عليهم المغول في أوائل القرن الثالث عشر.

وقد ازدهرت مدرسة بغداد بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر، لكنها بلغت أوج قمتها في نهاية القرن الثاني عشر وخلال القرن الثالث عشر. ومن الإنصاف أن نقرر أن أسلوبها الفني لم يتنّه يظهر المغول وقيام مدرسة التصوير المنسوبة إليهم، فالتأثير - كما يقرر الأستاذ ساكسيان - أن مدرسة بغداد امتد بها الزمن فترة عايشت خلالها المدرسة المغولية، فإن الأساليب الفنية لا تولد أو تندثر بانقراض الدول التي تُعزى إليها، ولكنها تتصل فيؤثر كل منها في صوته وتتطور فيؤلد بعضها من بعض، مصداقاً للنظرية المعروفة في تاريخ الفن، وهي أن الأسلوب الفني المنتمي إلى دولة يعينها لا يتم نضجه إلا بعد استتباب الأمن لها فترة من الزمن، ولا يتلاشى إلا بعد سقوطها واضمحلالها بفترة أخرى، أو كما يقول ول ديورانت إن العلوم والفنون في تاريخ الدول تصل إلى غايتها بعد أن يبدأ الانحلال في هذه الدول، ذلك أن بلوغ أعلى مراتب الحكمة هو نذير باقتراب الموت.

كذلك حاول البعض تقسيم إنتاج مدرسة بغداد إلى أنماط متعددة وأساليب وصيغ تنفرد بها بعض البلاد، نظراً لأن نقرأ من المصورين ينتسبون إلى بلاد يعينها، وفاتهم أن قناني العصور الوسطى كانوا ينزحون من مكان لآخر داخل

بَكْوَاكِهَا وَنُجُومِهَا. وَقَدْ أَثَارَتِ النُّجُومُ اهْتِمَامَ السُّلْطَانِ الْبُزْجِي
«عَصْدُ الدَّوْلَةِ» الَّذِي كَلَّفَ أَحَدَ مُعَلِّمِيهِ وَهُوَ «عَبْدُ الرَّحْمَنِ
الصُّوفِي» الْفَارِسِي الْأَصْلَ بَوَضعَ كِتَابٍ عَنْهَا عام ٩٦٥. وَيُؤَكِّدُ
اهْتِمَامَ «وَلِيَام» الثَّانِي مَلِكِ صِيقَلِيَّةِ بِالْفَلَكِ - وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَتَشَبَّهُ
بِالْحُكَّامِ الْمُسْلِمِينَ - أَنَّ ذَلِكَ كَانَ أَمْرًا مَأْلُوفًا لَدَى الْمُلُوكِ. وَيَقُولُ
«ابْنُ جُبَيْر» إِنَّ «وَلِيَام» هَذَا كَانَ شَدِيدَ الْإِنْتِهَاءِ لِمَا يَقُولُهُ عُلَمَاءُ الْفَلَكِ
مِنَ الْعَرَبِ، وَإِنَّهُ حَاولَ أَنْ يَسْتَبْقِيَ إِلَى جَانِبِهِ كُلَّ عَالِمٍ فَلَكٍ مُسْلِمٍ
يَزُورُهُ فِي قَصْرِهِ.

وَيُعَدُّ كِتَابُ «الْفَلَكِ» الَّذِي وَضَعَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الصُّوفِي،
الْمَوْلُودُ بِمَدِينَةِ الرَّيِّ (٩٠٣ - ٩٨٦م) تَقْيِيمًا لِكُلِّ النُّظَرِيَّاتِ
الْفَلَكيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي ظَهَرَتْ خِلَالَ الْقُرْنِ التَّاسِعِ، عَلَى نَهْجِ
الْكِتَابِ الَّذِي وَضَعَهُ «بَطْلِيمُوس» وَغُرِفَ بِاسْمِ «الْمَجْسطي». وَقَدْ
ضَمَّ الصُّوفِي إِلَى كِتَابِهِ مَجْمُوعَةً مِنْ صُورِ مَجْمُوعَاتِ الْكَوَاكِبِ
تُعَدُّ امْتِدَادًا لِلْإِيقُونوغرافيةِ الَّتِي ظَهَرَتْ مِنْ قَبْلُ فِي الْأَطَالِيسِ
الْيُونَانِيَّةِ وَالْبَطْلِمِيَّةِ وَالرُّومَانِيَّةِ، وَيَهْتَمُّ الْكِتَابُ بِمَعْرِفَةِ الْكَوَاكِبِ
وَمَوَاقِعِهَا فِي الْفَلَكِ وَذِكْرَ أَطْوَالِهَا وَعُرُوضِهَا فِي الْبُرُوجِ وَالذَّقَائِقِ.

كِتَابُ «الصُّورِ بِمَعْرِفَةِ الْكَوَاكِبِ وَمَوَاقِعِهَا فِي الْفَلَكِ وَذِكْرَ
أَطْوَالِهَا وَعُرُوضِهَا فِي الْبُرُوجِ وَالذَّقَائِقِ» لِأَبِي الْحُسَيْنِ
الصُّوفِي، عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عُمَرَ الرَّازِي. مُتَحَفٌ طَوْبَ قَابِو
بِاسْتَنْبُولِ.

نُسِخَتْ مَخْطُوطَةُ «الصُّوفِي» الْمَوْجُودَةُ بِالْمَكْتَبَةِ الْبُودَلِيَّةِ
«بَأُكْسُفُورْد» بِخَطِّ ابْنِ الْمُؤَلَّفِ تَقْلًا عَنْ مَخْطُوطَةِ أَبِيهِ الَّتِي كَتَبَهَا
حَوَالَى عام ٩٦٥ عَلَى غِرَارِ النَّمَطِ الشَّائِعِ فِي الْقُرْنِ التَّاسِعِ. غَيْرَ أَنَّ
الْإِبْنَ قَدْ خَالَفَ النَّمَطَ الْكَلَّاسِيكِيَّ فِي التَّصْوِيرِ ذِي الْأَبْعَادِ الثَّلَاثَةِ
مُطَرِّحًا عُنْصُرَ «الْإِيْهَامِ»، وَاسْتَبَدَلَ بِهِ تَصْمِيمًا «خَطِيئًا» حَوْلَ نِقَاطِ
حَمَرَاءِ تُثَمِّلُ مَجْمُوعَاتِ الْكَوَاكِبِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَجَاءَتْ هَذِهِ الصُّورُ
تَحْوِيرًا إِسْلَامِيًّا لِلْأَصُولِ الْكَلَّاسِيكِيَّةِ. وَإِذْ لَمْ تُعَدِّ الشُّخُوصَ تَرْمِزَ
بُوضُوحٍ إِلَى الْأَصُولِ الْيُونَانِيَّةِ الْأَصْلِيَّةِ، فَقَدْ أَعَادَ الْفَنَّانُ الْمُسْلِمُ
تَفْسِيرَ الْمَوْضُوعَاتِ الْإِيقُونوغرافيةِ، وَأَطْلَقَ عَلَى النُّجُومِ وَالْكَوَاكِبِ
أَسْمَاءَ جَدِيدَةً، وَرَكَزَ اهْتِمَامَهُ عَلَى الشُّخُوصِ الرَّئِيسَةِ. وَإِذْ جَانَبَتْ
طَرِيقَتَهُ الْأَوْصَافُ الْمُسْتَقَاةُ مِنَ الْأَسَاطِيرِ الْإِغْرِيقِيَّةِ فَقَدْ جَاءَتْ أَقْرَبَ
إِلَى الْأُسْلُوبِ الْجُلُوبِيِّ، وَخَلَعَ الْمُصَوِّرُ الْمَلَامِيحَ الشَّرْقِيَّةَ عَلَى
الْأَشْخَاصِ وَبِخَاصَّةِ النِّسَاءِ، اللَّاتِي عَقَضْنَ شُعُورَهُنَّ عَلَى طَرِيقَةِ
نِسَاءِ لُوحَاتِ «سَامَرَا» وَ«بَالِيرْمُو»، وَصُوِّرَتْ طَيَّاتٌ يُثَابِهْنَ عَلَى
النَّهْجِ عَيْنَهُ.

وَيَبْضِغُ الطَّايِعُ الْإِسْلَامِيُّ فِي التَّعْدِيلَاتِ الْجَدْرِيَّةِ الَّتِي أُضْفِيَتْ
عَلَى الْإِيقُونوغرافيةِ الْمُسْتَحْدَمَةِ، كَازْتِدَاءِ جَمِيعِ الرِّجَالِ لِلْعِمَامَةِ،

الْمَرَاجِلُ الْمُتَتَابِعَةُ لِحَدَثٍ مُتَّصِلٍ ضِمْنَ الْإِطَارِ نَفْسِهِ أَوْ الْمَنْظَرِ
الطَّبِيعِيِّ مَعَ تَكَرُّارِ رَسْمِ الشُّخُوصِ الرَّئِيسَةِ كُلَّمَا كَانَ سَرْدُ الْقِصَّةِ
يَقْتَضِي ذَلِكَ.

وعلى الرُّغمِ مِنْ أَنَّ مَدْرَسَةَ الْمَغْرِبِ وَإِسْبَانِيَا لَمْ تَصِلْ إِلَى
أَيِّدِنَا مِنْهَا - لِلْأَسَفِ - سِوَى ثَلَاثِ مَخْطُوطَاتٍ أَوْ أَرْبَعٍ، اثْنَتَانِ
مِنْهَا يَضْمَانُ صُورًا عِلْمِيَّةً مَخْدُودَةً، إِلَّا أَنَّا نَسْتَطِيعُ الْقَوْلَ مِنْ دُونِ
مَخَافَةٍ إِنَّ أُسْلُوبَ التَّصْوِيرِ فِي تِلْكَ الْمَدْرَسَةِ يُؤَكِّدُ الْوَشَائِجَ بَيْنَهَا
وَبَيْنَ مَدَارِسِ الشَّرْقِ الْأَدْنَى الْعَرَبِيَّةِ، وَإِنْ اخْتَلَفَتْ أُسَالِيبُ مُعَالَجَةِ
الْمَوْضُوعَاتِ، هَذَا إِلَى اكْتِسَابِهَا بِسِمَاتٍ مَغْرِبِيَّةٍ.

وَيَبْدُو الْفَنُّ الْمَمْلُوكِيَّ فِي سُورِيَا كَمَا لَوْ كَانَ امْتِدَادًا لِفَنِّ
شِمَالِي الْعِرَاقِ حَيْثُ تَصْبِيقُ رُفْعَةِ الْمَوْضُوعَاتِ الْمُصَوَّرَةِ، فَتَزْدَجِمُ
بِالشُّخُوصِ الَّتِي تَبْدُو قَصِيرَةً ضَخْمَةً وَتُصْبِحُ خُطُوطُ الْإِطَارِ الْعَامَّ
لِلْخَلْفِيَّةِ أَكْثَرَ إِشْرَاقًا. وَيَبْلُغُ الْإِتِّجَاهُ نَحْوَ اخْتِزَالِ الْحَجْمِ وَتَضْيِيقِ
نِطَاقِ الْحَرَكَةِ ذُرُوتَهُ فِي فَنِّ بَصْرِ الْمَمْلُوكِيَّ خِلَالَ الْقُرْنِ الرَّابِعِ
عَشَرَ. وَمِمَّا يَزِيدُ مِنْ جُمُودِ الْأَشْخَاصِ ظُهُورِهَا وَاجِمَةً فِي مَتَاهِ
الْفَرَاغِ الَّذِي قَدْ يَكُونُ الْمُصَوِّرُ قَدْ مَوَّهَهُ بَطْلَاءُ مِنَ الذَّهَبِ الْبَرَّاقِ
لِيُخَكِّي بِصُفْرَتِهِ صُفْرَةَ أَجْوَاءِ الْمَتَاهَاتِ، فَلَا يَكُونُ لِلْوُجُوهِ وَسْطُ
هَذِهِ الْمَتَاهَةِ ظُهُورِهَا الْحَيِّ قَتْبِدُو وَاجِمَةً خَامِدَةً، وَإِنْ كَانَ الْمُصَوِّرُ
مَعَ هَذَا كُلِّهِ لَا يَقُوْتُهُ إِزْرَازُ مَعَالِمِ الْأَشْخَاصِ وَالْأَشْيَاءِ الَّتِي لَهَا أَثَرُهَا
فِي لَفَتِ الْأَنْظَارِ بِأَلْوَانِهَا الزَّاهِيَةِ.

وَمِنْ هُنَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَتَبَيَّنَ تِلْكَ الْإِتِّجَاهَاتِ الْمُخْتَلِفَةَ فِي فَنِّ
التَّصْوِيرِ الْعَرَبِيِّ خِلَالَ الْعُصُورِ الْوُسْطَى، وَكَذَا تَدَاخُلَ الْأَسَالِيبِ
الثَّقَافِيَّةِ الَّتِي تَأَلَّفَ مِنْهَا هَذَا الْفَنُّ، وَالْمَنْبَعُ الْأَوَّلُ لِتَارِيخِهَا السِّيَاسِيِّ
وَالْمَلَابَسَاتِ الْعَدِيدَةِ لِظُرُوفِهَا الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْاِقْتِصَادِيَّةِ، ثُمَّ مَوْضُوعِ
سِيَادَةِ الْإِسْلَامِ عَلَى الْعَالَمِ مِنْ حَوْلِهِ وَهُوَ مَا نَرَاهُ مُتَجَلِّيًا فِي الْفَنِّ
الْأُمُومِيِّ، ثُمَّ انْشِغَالِ الْفَنَّانِينَ بِصُورِ مَبَاهِجِ الْحَيَاةِ، وَهُوَ مَا نَرَاهُ
مُتَجَلِّيًا فِي الْفَنِّ الْعَبَّاسِيِّ، ثُمَّ مَا كَانَ مِنْ شُغْلٍ بِمَشَاكِلِ الْحَيَاةِ
الْيَوْمِيَّةِ، وَهُوَ مَا يَتَجَلَّى بِصِيفَةِ خَاصَّةٍ فِي الْفَنِّ الْفَاطِمِيِّ.

كِتَابُ «صُورِ الْكَوَاكِبِ الثَّانِيَّةِ» لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ الصُّوفِي
(١٠٠٩م). الْمَكْتَبَةُ الْبُودَلِيَّةُ بِأُوكْسُفُورْدِ.

لَمْ يَكُنْ تَصْوِيرُ مَنَاطِرِ أَهْلَةِ الْبَلَاطِ ضَرُوبًا مِنْ ضُرُوبِ الْإِبَاحِيَّةِ،
وَلِنَّمَا كَانَ صُورَةً حَقَّةً لِمَا كَانَتْ عَلَيْهِ قُصُورُ الْخِلَافَةِ مِنْ تَرَفٍّ وَأَهْلِيَّةٍ
وَحَلَاعَةٍ وَمُجُونٍ. وَإِذَا كَانَ بَعْضُ الْحُكَّامِ قَدْ غَنِيَ بِالْمَسَائِلِ
الْعِلْمِيَّةِ، إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَهْدِفُوا مِنْ وَرَائِهَا إِلَى الْفَائِدَةِ الْأَكَادِمِيَّةِ،
بَلْ كَثِيرًا مَا سُخِّرَتْ دِرَاسَاتُ الطَّبِّ وَالصَّيْدَلَةِ وَالْفَلَكِ لِيُخْدَمَ
الْحَاكِمُ فَحَسْبُ، وَمِنْ قَبْلِ زَيْنٍ «قُصَيْرِ عَمْرَةٍ» بِقُبَّةِ سَمَاوِيَّةِ

في اليد اليمنى، وهو بين الثريا وبين كوكبة الدب الأكبر، وذكر بطليموس أن كواكب أربعة عشر كوكبا، وكوكبة «السفينة» (لوحة ٨٥) وكواكبها خمسة وأربعون كوكبا من الصورة وليس حوالها شيء من الكواكب المرصودة، وكوكبة «الجاني» على ركبته ويسمى «الراقص» أيضا (لوحة ٥٧م) وهي صورة رجل قد مد يده: يُمناه إلى الكواكب المجتمعة على جنوب كوكب الفكة والأخرى إلى كوكبة النسر، وكواكب ثمانية وعشرون كوكبا.

وثمة قسمة أخرى من قسّمات فن «سامرا» تظهر في صور هذا المخطوط، هي ضبابية معالم الذكورة والأنوثة في الشخص المصوّر، فقد ظهر هِرقل يرتدي كالتساء إكليلا مُرصعا على مفرقه وشعره المنسدل الطويل، ملوحا بسيف على شكل منجل في يده بحركة رشيقة وكأنه يؤدي رقصة عنيفة. وحين ترمز الحيوانات للنجوم يتضح مدى الجهد الذي تكبّده الفنان في تشكيلها لتصبح أقرب ما يكون إلى النماذج الكلاسيكية المعروفة.

وجاءت أكثر رسوم هذا الكتاب الفلكي بالأسلوب «الخطي»^(٢) فقد أعان المزج الحاذق بين الأسلوب الإسلاميّ المحوّر وبين الإيقونوغرافية الكلاسيكية التي نالت تفسيراً مغايراً، على خلق أسلوب خاصّ جديد يُمكن نسبته هو وأسلوب «سامرا» وكنيسة «بالرمو» إلى هذا العصر عن حق.

(١) أندروميда (Andromeda):

إنّج البطل بيرسيوس إلى إثيوبيا حين كانت الأميرة أندروميда مقيّدة إلى صخرة، يتهدّدها وحش بحري أرسله إله البحر بوزيدون؛ عقابا لأمها التي أشاعت أنها أجمل من حوريات النيراديس، ولم تكن ثمة وسيلة لإرضاء بوزيدون، غير التقرّب إليه بدم أندروميда لكن بيرسيوس ما لبث أن وقع في هوى أندروميда التي وعدته بالزواج منه إن هو أنقذها، فقتل الوحش وفكّ أسارها [م.م.م.ث]

(٢) الأسلوب الخطي (Linear Style):

التشكيل الذي يعتمد في تأثيره على المشاهد، على الأشكال المكوّنة بالمخطوط أكثر من اعتماده على الكتلة اللونية أو التظليل. [م.م.م.ث]

عدا واحداً يعتمد القلنسوة. ولعلّ أهمّ تغيير طرأ على الشخص النسايتي هو تفادي غري أجسادهم وإزداؤهم ملابس تسترهنّ فيما عدا وجوههم، واستبدال كوكبة الكلب بكلب الصيد السلوقي، واستعارة كوكبة الفرس لأجنحة الوحش الخرافية الفارسية، وقد عدّ كبير من الشخصيات صلتهم بالشخصيات الإغريقية الأسطورية، مثل «العذراء» التي ترمز ليرج السبلة عند العرب والتي كانت تصوّر عادةً مُجنّحة تحمل السنابل بين ذراعيها كما كانت تصوّر شبه عارية في بعض الأحيان، إذ تحفّت في صورها الإسلامية من كلّ ملامحها الكلاسيكية وبدت وكأنها ترقص (لوحة ٥٦م)، وهو المظهر الذي اتّخذته أكثر الشخصيات، بل لقد سمي هِرقل - الذي يرمز ليرج «الجاني» - بالراقص صراحةً، وكذلك أندروميда^(١) - التي ترمز لكوكب «المرأة المسلسلة» - والتي كانت تصوّر عارية مؤثوقة الذراعين إلى إحدى الصخور، صورها ابن «الصوفي» في نسخته المحفوظة بأفسورد بلا أغلال في صورة فتاة ترتدي ثيابا تكسو جسدها كلّ بل هو يغطي سراويلها الطويلة برداء متعدّد الطيات، ويزينها بالجواهر رافعة يدها في حركة مُعبّرة، ويتطاير خمارها فتبدو كإحدى راقصات البلاط. وهكذا يتّضح إلى أيّ مدى تأثّرت الإيقونوغرافية العلمية - التي ظفرت بالاستيقرار لقرون سابقة - «بقنّ البلاط» الذي انصبّ اهتمامه على تزجّة أوقات فراغ الملوك.

وقد وصلت إلينا نسخ عدّة من المدرسة العباسية الدولية للتصوير تصاحبها هذه الرسوم التي تمثّل الكواكب كما يتخلّلها علماء الفلك ويّزسمونها على هيئة أشخاص وحيوانات وغيرها. وكانت أغلب الصور تُرسم بالجبر الصينيّ تصاحبها ألوان قليلة على النحو الذي نجده في مخطوطة طوب قابو بإستانبول ومنها كوكبة «الحوا والحيّة» (لوحة ٨٣)، وهي صورة رجل قائم قد قبض بيديه على حيّة، وكواكب أربعة وعشرون كوكبا من الصورة وخمسة خارجة عن الصورة، وكوكبة رأس الغول «برشاويز» فوق الثريا (لوحة ٨٤)، وهي صورة رجل قائم ملتفت إلى الخلف يقبض على رأس الغول بيده اليسرى وسيفه

الفصل الحادي عشر

الواقعية في التصوير الإسلامي من القرن العاشر حتى الثالث عشر

حافة الإناء زخرفة على هيئة أسنان المششار (لوحة ٨٨). وهناك صحن آخر من الخزف عليه رسم باللون الأبيض على أرضية معدنية زيتونية اللون يمثل رجلين يتبارزان بعصي مباراة الشحط (اللوحتان ٥٨م، ٨٩)، ولا شك أن هذا المشهد كان مألوفاً في الميادين العامة في مصر منذ زمن بعيد، غير أن هذا العصر وحده - القرن الحادي عشر - قد احتفى به موضوعاً جديراً بالتسجيل، ومن ثم سجله فنان فوق أداة منزلية.

ويظهر تأثير الواقعية الجديدة على فن البلاط في أحد مشاهد كنيسة قصر باليرمو الذي يصور رجلين تحت سقيفة على جانبي بئر، يجذب الشاب الواقف إلى الحبل ليرفع الدلو من البئر بينما يصب الرجل الملتحي الذي إلى اليسار دلو كبير الحجم في إناء آخر، وثمة أوعية عدة عن كتب منهما. ونلاحظ أن الفنان لا يقصر اهتمامه على تصوير الحدث ذاته، بل هو يعنى كذلك بتشويق المشهد والتأليف بين مفرداته (لوحة ٩٠).

وإنه لما يثير الدهشة أن بذرة الواقعية في التصوير العربي والتي غرست مع بداية القرن الحادي عشر لم يكتب لها الازدهار الكامل، بل توقفت نموها لفترة امتدت ما بين منتصف القرن الثاني عشر وحتى سبعيناته، ثم انطلقت من جديد في مجالات المعادن والفخار والخزف والجص المشغول، ثم في منمنمات المخطوطات قرأنا منها إبداعات مع بداية القرن الثالث عشر.

حقاً لقد ظهرت براعم هذا الازدهار قبل عام ١٢٠٠ كما تشهد بذلك نسخة من الإنجيل القبطي أعدها أسقف دمياط عام ١١٨٠، وجاءت متأثرة بفن تصوير المخطوطات العربية المعاصرة لها تعرض منها منمنمة سالومي ابنة هيروديا وهي تتلقى رأس يوحنا المعمدان يقدمونه لها على طبق من ذهب كي تهديه إلى أمها. ونرى الملك هيرودس زوج أمها متوجاً على عرشه وبصحبته شخصان (لوحة ٩١)، ويكاد أسلوب هذه المنمنمة يماثل أسلوب

لم يكذب يتقضي النصف الأول من القرن الثامن حتى كان كيان دولة الخلافة قد لحقته تغيرات جوهرية، ثم ما لبثت تلك التغيرات أن بلغت مداها في النصف الثاني من القرن العاشر واستمرت خلال القرن الحادي عشر. لقد تقلصت زعامة قادة الجيوش إلى المرتبة الثانية بعد أن خلد المجتمع إلى السلم وبرزت طبقة التجار والجواري في جميع المدن الرئيسة بالعالم الإسلامي، ونهضت صناعات النسيج والخزف والمعادن، وامتدت خطوط التجارة المزدهرة شرقاً حتى الهند والصين وإلى أوروبا غرباً وشمالاً عبر الجبال والبحور والأنهار. لقد انفتح المجتمع الإسلامي على العالم، أخذ منه وأعطاه بما في ذلك العلماء والأدباء ورجال الدين. وكان للتغيير الطبقي أثره على الفن، فإن ثراء طبقة التجار قد دعم نفوذهم السياسي فصار منهم الوزراء، ومن ثم زاد اهتمامهم بالفنون والفنانين الذين لجأوا إليهم وصوروا حياتهم اليومية بواقعها وتفصيلها، وهي ولا شك تختلف اختلافاً كاملاً عن حياة الملوك والسلاطين، ومن هنا دخل الفن العربي إلى حياة الناس.

ولم يبق لنا من نماذج هذا الفن الواقعي إلا بقع أو أن خزيئة رُسمت عليها صور لأشخاص تبدو سيحهم عادية غير مستعارة من الصين أو من أواسط آسيا، وبقع التماثيل الخشبية أو العاجية التي صُنعت في مصر خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر. أما ما عدا ذلك فقد ضاع أو تحطم أو يزال دفيناً في بطن الأرض يحق إلى من يستخرجه من محبسه. وتُمثل أجزاء من أطباق وصحون بمُتحف الفن الإسلامي بالقاهرة نماذج رائعة لهذا الفن، أحدها طبق من الخزف ذي البريق المعدني عليه رسم سيّدة تعرف على العود (اللوحتان ٣٨م، ٨٦)، وثانيها طبق عليه رسم فارس أثناء الصيد يحمل على يده اليسرى باز الصيد (اللوحتان ٣٧م، ٨٧). وثمة صحن عليه رسم حيوان خرافي مُججّ تحيط به توريقات نباتية على أرضية مغطاة بالطلاء المعدني، وفي

الإقليدية، ونسبة بعض المخطوطات الهامة لمشتقها الأصلي على سبيل التأكيد. وهكذا استحال الجزم بنسبة أي مخطوط مصور هام إلى بلده قبل عام ١٣٠٠. ومما يزيد الأمر صعوبة هجرة الفنانين والجزفيين منذ منتصف القرن بأعداد كبيرة إلى الغرب فراراً من الإزهاب المغولي لاجئين إلى رعاية حكام آخرين، الأمر الذي ترتب عليه اختلاط الأساليب إلى حد يصعب معه الكشف عن خصائص كل منها.

صعوبة تصنيف المخطوطات

كان الخطاطون الذين ينسخون المخطوطات يضمنونها أحياناً «التقنية» عندها، وهي جلية نهاية المخطوط بتاريخها الأصلية، فكان الخطاط ينسخ القفلة أو الخاتمة القديمة أو أي نقوش أخرى بحذافيرها أحياناً. وهكذا قد يتعذر على المرء تحديد تاريخ مخطوطة بعينها، فما أندر الكتب التي بقيت لنا حتى الآن والتي يمكن تأريخها بشكل مؤكد. وكان الخطاط عندما يرغب في نسخ نص ما، يستلهم عدة نسخ مختلفة من كتاب معين قبل إعادة نسخه، ثم هو قد يضيف إليه عدة منمنمات من طرز مختلفة في مجلد واحد. ولهذا يرى إتجنهاوزن أنه لا مفر، عند استعراض موضوع التصوير عن طريق المخطوطات القليلة المتبقية، من محاولة تحليل العناصر التشكيلية والجمالية في منمنماتها دون الإشارة إلى مكان صدورها إلا على وجه التقريب. ومع المشقة التي يجدها الباحث في تحليل هذه العناصر، إلا أنها تتيح لنا فهمًا أعمق لقوى الإبداع التي أثرت في تشكيل فن التصوير الإسلامي.

مدرسة بغداد في نهاية القرن الثاني عشر أو مستهل القرن الثالث عشر. ويعكس هذا الأسلوب العلاقة الوثيقة بينها وبين تقنية تصوير مخطوطات كليلة ودمنة ومقامات الحريري كما سيوضح بعد، ومن ثم فإن لوحاتها تعدّ وصلة هامة بين إيقونوغرافية الكنيسة وتصاوير مخطوطة مدرسة بغداد.

ومع أن هذه الفترة قد تركت لنا آثاراً أشد غزارة وتنوعاً من الفترة السابقة عليها، إلا أن ما بقي منها لا يمثل سوى جزء ضئيل مما أنجزه المصورون العرب، ذلك أنه لم يبق لنا لوحة جدارية أو فسيفسائية كبيرة الحجم في الشرق الأدنى سابقة على زخارف كنيسة مدينة بالرمو عدا إفريز من الفسيفساء الزجاجية بالمدرسة الظاهرية بدمشق يرجع إلى عام ١٢٢٧م ويمثل تنويعات متواضعة لزخارف المسجد الأموي.

ولم يبق لنا من مخطوطات هذه الفترة إلا القليل القليل الذي يمثل في نسخ متكررة أو نسخ وحيدة أصاب التلف بعض أجزائها. وقد أشارت بعض تلك المخطوطات إلى كتب أخرى لم يبق لها من أثر. وتعمض علينا أحياناً معرفة الأسباب التي كانت تدفع فناناً خلال القرن الثالث عشر إلى اختيار كتاب دون غيره لتركيبه، وما زال العثور على الوثائق التي تؤيدنا بمثل هذه المعارف أمراً جديداً عسير، وما أندر ما نؤمننا به الصدفة في هذا المجال.

وهذه المواد المصورة المحدودة والمبتورة والمحاطة بالشكوك لا تعين مؤرخ الفن الذي اعتاد دراسة المنمنمات وفق منهج معين. وقد يستحيل عليه تبعاً لذلك تحديد المدارس

الفصل الثاني عشر

الأثر الفارسي في فن البلاط

ومتجسّد في صورة شجرة أحياناً أخرى، وهي كما مرّ بنا طريقة شيعارية في التصوير، على ما نراه في منمنمة «ملك الغربان مجتبعاً بوزرائه» (لوحة ٩٢).

وفي عدد آخر من المنمنمات يتبع المصور أسلوب تمثيل الحركة بعنفوانها، ومن قبيل ذلك ما جاء تصويراً لقصة الظبي والغراب والسلخفاة والجُرذ، حيث نرى الغراب وقد أطبق بمنقاره على ذيل الجُرذ، حاملاً إياه عبر النهر ليقرض الحبل الذي قيد به الصياد السلخفاة (لوحة ٩٣).

ومن السمات المميزة لمنمنمات هذه المخطوطة، أن حيواناتها وشخصها تبدو طبيعية نابضة بالحياة رغم مسحة الوقار التي تكسوها على ما نرى في قصة البازار [أي مُدرّب البازار] الذي ادّعى كذباً أن امرأة المرزبان [الحاكم] قد خانت زوجها مع البواب، فانقضّ الباز على عينيه ففقاها على مرأى من الحاكم وامرأته وضيوفهما (لوحة ٩٤).

وقد جاءت بعض صور الطير والحيوان في منمنمات هذه المخطوطة محوّرة، إذ عالج الفنان فيها الأشجار والنباتات بهدف الزخرفة فبدا بعضها شديد التحوير يجاوز الواقع، وجاء البعض الآخر طفيف التحوير بحيث لا يغيب عنا أصل الثبات المحور، وتناول العماير بأسلوب خطّي إجمالي. وحين تصدّى لرسم مكاسير الثياب وطياتها أسرف حتى بلغ حدّ التكلف وهي سمة مميزة للإيقونوغرافية البغدادية. وتكاد الحصيلة الزخرفية لأنواع المكاسير والثياب والأطواء - على ما حدّدها بشر فارس في كتابه «منمنمة دينية من أسلوب التصوير العربي البغدادية» - أن تندرج في ثلاثة أنواع: أوّلها الثوب الأمسح بلا أطواء أو الأمسح المبرقش أو المخطط أو المحلّى بصور الأزهار والحيوان أو نقشات كالأهلة والبروج. وثانيها الثوب ذو الأطواء الهيئة أو المختصرة التي تنتهي إلى محاكاة الأمواج المزدبة،

كليفة ودمنة ١٢٢٠ - ١٢٣٠ م. سوريا. دار الكتب القومية بباريس

إهتم الشعراء العرب الأوائل بالحيوان، وبخاصة الإبل والحياد، يتخذون منها مادةً لأشعارهم، وخلعوا عليها أوصافاً تكشف عن دقّة ملاحظتهم. وقد تضمّنت نقوش «فصير عمرة» صوراً واقعية لحيوانات في مشاهد الصيد وصوراً أخرى لها ذات طابع زخرفي خالص (اللوحتان ٧٦، ٧٧).

لا عجب إذاً في أن نجد كتاباً من بواكير كتب الأدب العربي يتناول سير الحيوان، هو كتاب كليفة ودمنة الذي يضمّ عدّة أساطير تدور حول بطليّن من فصيلة «ابن آوى»، وهو في حقيقته ترجمة عربيّة تصدّى لها «ابن المقفع» (المتوفى عام ٧٥٩) لنصّ قديم يرجع إلى القرن السادس كتبه «بيدبا» الفيلسوف الهندي. غير أن ابن المقفع ترجمه عن الفارسيّة لا عن النصّ الأصلي المكتوب باللغة السنسكريتيّة، وكتب في مقدّمة الترجمة العربيّة أن هذه الحيوانات تتحدّث إلى الملوك أكثر ممّا تتحدّث إلى الشعب والنشء. ذلك أن الكتاب الهنديّ كُتب أصلاً ليكون «مراة لحيّاة الأمراء»، وأضاف أن تزوين الكتاب بصور ملوّنة يهدف إلى مضاعفة سحره وجاذبيّته وتعميق الإحساس بالحكمة المستخلصة من كلّ قصة من قصصه، وتمنّى أن يستقبل عمله استقبلاً طيّباً، وأن يعاد نسخ الكتاب بزخارفه وصوره. هو إذاً كتاب موجه إلى الملوك، صوّر في عصور الإسلام الأولى، ونُقل عن ترجمة فارسيّة كانت تتضمّن - من دون شك - منمنمات متسقة مع الأسلوب الفنّي للبلاط الساساني. ومع ذلك فإنّ صور الحيوانات في أقدم نسخة من «كليفة ودمنة» والمخطوطة بدار الكتب القومية بباريس تحمل الطابع التقليديّ المميّز لأسلوب البلاط الملكيّ. ويصوّر عدد من منمنماتها، التي تشيع فيها روح البساطة والتوازن، حيوانين متواجهين على جانبي محور رأسيّ متخيّل أحياناً

تجلس بعض الفتيات. ويتوسط الصف الرابع في أدنى الصورة حوض به أسماك وطيور ملونة، وقد أظلمت مظلة بديعة التشويق. وثمة فتيات أربع يجلسن في شرفتين تطلان على الحوض من جانبيه (لوحة ٥٩م). ويتجلى في تصوير هذه اللوحة وتصميمها العناية بالشكل دون المضمون حتى في مشاهد الرقص والغزف الموسيقي والغناء.

وثمة غرة أخرى بالصفحة الأولى من الجزء الرابع من كتاب الأغاني، يدار الكتب المصيرية، تمثل مجلساً من مجالس الغناء، قعد فيها الأمير تحيط به القيان (لوحة ٦٠م)، فنرى في أدنى الصورة خمس قيان قاعدات، أكبر الظن أنهن متجهات للأمير لا كما يظن أنهن متجهات إلينا، ولكن التصوير - فيما يبدو حينذاك - لم يبلغ مرحلة التوفيق بين الوضعات، بل كان ينظر فيه إلى كل وضعة على حدة. وتتوسط هؤلاء القيان الخمس قينة رفعت يديها شيئاً لتسعين على الأداء، وإلى يمينها وإلى يسارها عازقان تدقان دقيهما، وإلى أقصى اليمين عازفة تحتضن طنبوراً، وإلى أقصى اليسار أخرى تضم غوداً. وثمة شريط مزخرف، قد امتد عرضاً، يفصل بين هذا الجزء الأسفل من الصورة وبين جزئها الأعلى الذي تبلغ مساحته حوالي ثلثي مساحة الصورة كلها. ويتوسط السلطان أو الوالي هذه المساحة العليا ممسكاً بكأس تحيط به عشر جوار أخريات منهن إلى اليمين وأربع إلى اليسار، واثنان - ولعلهما راقصتان - في الركنين العلويين للوحة، والراجع أنهن لسن في الحقيقة عن يمين أو يسار بل هن بين يدي الوالي، شأنهن في ذلك شأن القينة والعازفات غير أنهن لا شك أقرب إليه. ومن هؤلاء القيان الواقفات من ترى رافعة قدما شيئاً وكأنها في حركة راقصة، كما أن منهن من تحمل شيئاً في يدها، واثنان تحملان ومظلتين متقاطعتين فوق رأس الأمير، والمظلة رمز أسيرتي عريق للسلطان، ولعل النساء الباقيات يسعين بين يديه. وأغلب الظن أن الهالات التي تحيط برؤوس الجواري جميعاً، ما هي إلا تلوينات تظهر تباين الألوان ولا تعبر عن أي معنى رمزي خاص.

كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني.

مكتبة فيض الله بإستنبول

تعبّر اللوحة التي تقع في غرة الجزء السابع عشر من كتاب الأغاني بإستنبول (لوحة ٦١م: أ، ب) خير تعبير عن نمط حياة البلاط حينذاك، ويخضع التكوين الفني كله للترصف حتى في

والتي قد تبلغ حد الإسراف والتكلف. وثاليتها محض تجميل إذ هو يحول المكاسير إلى زخرفات تبدو كأنها أهداف متتابعة أو على شكل «تجمع الديدان»^(١)، وهو الشكل نفسه الذي يعتمد إليه المزخرف البغدادي في معالجة زجرجة المياه وانعقاد ساق الشجرة. وفي (اللوحة ٩٤) يبدو ثوب المزبان على غرار النوع الثاني من الثياب ذات الأطواء الهيئة التي تحاكي الأمواج. ونلاحظ أيضاً في أغلب منمنمات هذه المخطوطة أن أسماء الشخص والحيوان والطيور قد دوت أعلاها، ولا نجد لذلك مبرراً واضحاً إلا أن تكون قد أضيفت فيما بعد بيد متحدثي سني الإملاء والخط.

«كتاب الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني ١٢١٧م.

دار الكتب المصرية.

درج مرقنو المخطوطات في هذا العصر على تزيين الصفحات الأولى من المخطوطات بصور استهلاكية قد تملأ صفحة أو صفحتين مع تذهيب الحواشي بأنواع من الرسوم والزخارف، لتكون هذه الغرة مدخلاً إلى المخطوطة وعنواناً لمضمونها، مثل الغرات التي تزيّن كتابي «الأغاني» و«الترياق» وغيرهما.

وقد تفرغ أبو الفرج الأصفهاني أربعة أعوام كاملة لتصنيف أجزاء كتابه «الأغاني» العشرين حتى أكمله عام ١٢١٩. وتضم ستة أجزاء منه [هي الأجزاء ٢، ٤، ٥، ١١ من بين ستة أجزاء تحتفظ بها دار الكتب المصرية، والجزء السابع عشر من تسعة أجزاء بمكتبة فيض الله بإستنبول والجزء العشرون بالمكتبة الملكية بكونهاجن]. صوراً استهلاكية «غرات» ما تزال باقية على حالها حتى اليوم. وتصور خمسة من هذه المجلدات الحاكم في إحدى وضعاته التقليدية: فهو يستقبل وجهه الدولة، أو يشارك أعضاء بلاطه الشراب، أو يمسيك سهماً، أو يعتلي صهوة جواده يضطاد الصقور، أو يتفرد وسط مشهد تقليدي. غير أن هناك لوحة من الجزء الثاني تصور موضوعاً آخر رغم انساقه مع الإطار العام، تعبر أصدق تعبير عن أسلوب التصوير البغدادي، وقد لونت بالأحمر والأخضر والأسود واللازورد، وبها بعض التذهيب. وتمثل مجلساً من مجالس الغناء والطرب والرقص، يظهر فيها عدد من القيان والجواري بعضهن يعزف على الآلات الموسيقية. وتنقسم المنمنمة إلى أربعة صفوف أفقية من خلال أحزمة ثلاثة محلاة بالذهب واللازورد: يضم الصف الأعلى الجواري جالسات متعاقبات متحاذيات. وفي الصفين الثاني والثالث اللذين يتوسطان الصورة يتبدى الرقص والطرب وقد اندمجت الراقصات في الوسط على شكل حلقة ومن حولهن

(١) تجمع الديدان: عمل فني دودي الشكل Vermiculated.

اللُّوحات بسبعين عامًا.

ولكن هذا التصوير وذاك كان ولا شك - كما تنطق به الصور - غير بعيد من مضمون الكتب التي سُجِّلَ على صفحاتها يستوحيا المصور ويُعبّر عن انطباعاته بقدر يختلف قُرْبًا أو بُعْدًا عن النصّ مُضيفًا من نفسه وأحاسيسه. ولا شك أنّ الخلاف الذي نلاحظه بين تلك الصور ناشئ عن فهم المصور لما بين يديه وعن التيار الذي تأثر به، فالمصور حين يتأثر بعبارة الأبهة والتّرف يسبغ على صورته ما يقرّ في تصوّره عن ذلك التّرف، ولو أنّه كان رسامًا معاصرًا لجاء تصوّره لأسلوب التّرف في عصره أقرب إلى الصّدق. أما إذا بُعِدَ به العهد، عدا لخياله ودراسته أثرهما في أسلوبه.

ونحن إذا أمتعنا النظّر في اللُّوحات السابقة واستنّينا ملبس الأمير الذي بدا مُركّزًا كلّهُ على الثَّمط المعهود في المدرسة البُغدادية التي اختذت المدرسة الفارسية في الإغراق في الرّزكشة والبَرَقشة - ولاسيما فيما يخصّ الأمراء والحُكّام - فإننا نلمح بين القيّان الواقفات والمحيطات بالوالي ألوانًا من الملبس، يكاد كلّ لون منها يُوحى بوظيفة من ترتديه. فالجوّاري الرّافعات أقدامهنّ في حركة راقصة يلبسنّ ثيابًا مُسْرِفة في الرّزكشة والبهرجة مخالفاً غيرهنّ فيما يلبسنّ أو يضعنّ على رؤوسهنّ. ويبدو أنّ ملايس جوّاري البلاط كانت تختلف باختلاف وظائفهنّ من حايلات الشّراب إلى خادِمات الطّعام إلى السّاعيات بين يدي السّلطان، والأرجح أنّ المصور لم يخالف بين الجوّاري في ملبسهنّ عشوائيًا. أما ملايس المُعنية والعازفات فتكاد كلّها تكون على نمط واحد من البساطة.

ويبدو أنّ المدرسة الفارسية جليًا في هذه اللُّوحات فهي لا شك من تراث الدّولة العبّاسية والدّويلات المُتفرّعة عنها، وكانت هذه الدّولة ودّويلاتها خاضعة لتأثير المدرسة الفارسية على حين تأثّرت تصاوير الدّولة الأموية بالمدرسة البيزنطية. من أجل هذا نرى الملبس في هذه اللُّوحات على الثَّمط الفارسي، ونرى العيون المغولية الضيّقة والحواجب الصّاعدة والضفائر المُدلاة والثّياب الإبرانية الشّكل، والسراويل الطويلة، والأقبيّة من فوق السراويل، والقُلنسوات المغولية الطّابع بقروها، وهذا كلّهُ وما نرى له مثيلًا في التّصاوير الفارسية التي كانت تحمل آثارًا من الفنّ المغولي.

على أنّ ثمة فروقًا بين اللّوحتين اللّتين تضمّهما مخطوطتا دار الكتب البصريّة واللّوحة التي تضمّها مكتبة قَيْض الله باستنبول. فعلى حين نجد إطار اللّوحتين الأوّلين مُزخرفًا، كما تبدو عناصر

أواني الزّهور الثلاثة التي تتصدّر اللّوحة، كما صوّرت الشّخوص المحيطة بالأمير متلاصقة مُتماثلة لا تبدو من إحداهما لفتة مُغايرة، والجمود يُغلّفها جميعًا بما في ذلك الأمير نفسه الذي يحسبه المرء قد تحجّر فجأة بينما تتوه نظّره في الفضاء اللّانهائي. ونرى الأمير في جلّسته هذه مُمسكًا قوسًا وسهمًا، وهما رمز السّلطة لدى الحُكّام السّلاجقة في منطقة الشّرق الأدنى خلال هذه الفترة بدلًا من السيّف العربيّ. وتؤكد أهميّة الأمير صخامة حجّمه وهيئة جلوسه والمَلَكَن المُجَنّح اللّذان يسطان وشاحًا فوق رأسه، ويتميّز رداء الأمير بأطوائه المُزخرفة على شكل تجمّع الدّيدان، ومن حول الأمير جوارٍ يُمائِلن في وضعتهنّ اللّوحتين السّابقتين، وكأنّ ذلك كان أسلوب التّعبير عن مجالس الرّولة والسّلاطين في ذلك العصر. والصّورة هنا لا تكاد تخالف مثيلتها إلّا في تفاصيل طفيفة، منها صورة الأمير، فهو هنا كُثّ اللّحّة كثيف الشّاربين، أمّا الجوّاري فلا ينقصهنّ غير القنينة والعازفات الأربع. وثمة نقوش على البساط تحمل صورًا لأواني زهور حايلة بورود مُختلفة، ويرتدي الأمير دُرّاعة مُطرزة بخيوط غليظة من القصب.

وأغلب الظنّ أنّ هذه الصور تُمثّل مجالس طرب وأنس للرّولة والأمراء، وهي - لا شك - مُستوحاة من نصوص كتاب الأغاني. فقد وصف أبو الفرج هذه المجالس وصفًا يكاد تعبّر المصور في هذه الصّورة يُترجمه ويشرّحه، فطالما ضمت تلك المجالس مع الأمير أو الوالي حَظِيّاته المُختارات وحفّلت بالشّراب والطّعام والقيان والعازفات والمُغنيات والرّاقصات والقائمات على خدمة الأمير أو الوالي. وكان المصور يُرجم قول الموصلي للرّشيد: أَغْنَيْكَ أَمْ تُغْنِيكَ إِمَاؤُكَ؟ فيجيبه: بَلِ الْجَوَارِي. فَخَرَجَتْ جَوَارِي إِبْرَاهِيمَ فَأَخَذْنَ صَدْرَ الْإِيوَانِ وَجَانِبِيهِ. فَقَالَ: أَيْضْرِبْنَ كُلَّهُنَّ أَمْ وَاحِدَةً؟ فَقَالَ: بَلْ تَضْرِبُ اثْنَتَانِ اثْنَتَانِ وَتُعْتِي وَاحِدَةً فَوَاحِدَةً، أَوْ قَوْلَ إِسْحَقِ الْمَوْصِلِيِّ: دَعَانِي الْمَأْمُونُ وَفِي مَجْلِسِهِ عِشْرُونَ جَارِيَةً قَدْ أَجْلَسَ عَشْرًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَشْرًا عَنْ يَسَارِهِ وَمَعَهُنَّ الْعِيدَانِ.

ولهذا البُذْخ الذي يبدو في لباس الأمير والقيان وتنوّعه يُؤكد لنا قُرب هذه الصور مِن رِوَاةِ أَبُو الفَرَج، ويؤكد هذا أيضًا أنّ الصّور الذي جاء في كُتُب أخرى كُتِبَ الثّبات مَثَلًا تحمل طابع الكتاب الذي وُجِدَتْ فيه، فنجد مَثَلًا صورة العالم الثّباتيّ ديوسقوريدس بين اثنين من العُلَمَاء القُدَامَى في مخطوطتين من كتابه «الحشائش وخِصَصُ العقاقير»، وعلى حين نرى الطّابع البيزنطيّ يسود التّصوير هنا في مثل هذه الكُتُب العِلْمِيّة نرى الطّابع الفارسيّ يسود التّصوير في الكُتُب الأدبيّة التي أخذت عن الأنماط الفارسيّة مُخلّدة الأسلوب العراقيّ الفارسيّ الذي مرّ بنا في لُوحات سامرّا وزخارف كنيسة باليرمو التي نُقِشت قبل هذه

ويذهب بشر فارس أيضًا إلى ردّ الشَّخصية الرئيسة، في غُرة نُسخة كوينهاجن، إلى بطل أسطوريّ من عهد الجاهليّة قبل الإسلام، وهو بطبيعة الحال استنتاج بعيد عن المنطق.

كتاب «التزيّاق» لِسَمِيّ جالينوس. الموصل ١١٩٩م. دار الكتب القوميّة بباريس

ويَتَجَلّى لنا أثر ذوق الحُكّام السّلاجقة في العديد من الشّخص بغير هذه النّسخة من كتاب «التزيّاق» (لوحة ٦٣م) ومثل تلك الشّخصية الهامّة التي جلست القُرفُصاء مُواجهه في مُتّصف الجامة، كما يتجلى أيضًا في ملامح الوجوه، وكذا في الأنماط البشريّة وتفصيل الثياب. فترى المَلِك جالسًا وحول رأسه هالة وقد أمسك يديه ما يُسميه الهلال، وإلى جانبه تابعان. وصوّر الفنان بالتّذهيب، حول الشّخصية التي تتوسط الصّورة، يَتَيّن قُدّ عُقد ذبّاهما من أسفل، ويواجه كلّ منهما الآخر برأسه. وفي كلّ رُكن من أركان الصّورة الأربعة صوّر لأشخاص أربعة على رأس كلّ منهم هالة ممّا يميّز بها الملائكة.

كتاب «التزيّاق» لِسَمِيّ جالينوس. الموصل. مُتّصف القرن الثالث عشر. دار الكتب القوميّة بفيينا

نصّم غُرة الكتاب صورة المَلِك جالسًا وسط الصّورة (لوحة ٦٤م)، يُحيط به أفراد حاشيته ما بين رجال ونساء صفًا وراء صفّ. ومما يلفتنا في هذه الصّورة مشهد طريف جديد غير مألوف من قَبْل، وهو أنّ المَلِك، بدلًا من أن يجلس في المُتّصف من اللّوحة، قد جَلَسَ إلى اليسار شيئًا ليُخلى مكانه المُعتاد لِشَواه في يَدَيْه أسياخ اللّحم يُقلّبها على نار الموقد. وإلى اليسار من اللّوحة واحد من الأتباع خرج عمّا هو مغمود في مثل هذه المواقف في حُصرة المَلِك وأدار رأسه ليهمس في أذن جاري له. وثمة أربعة من العُمال وراء القصر وقد انهمك كلّ واحد منهم في عمله. ولعلّ أجلّ ما في هذه الغُرة المُصورة أنّها تُصوّر الحياة اليوميّة على حقيقتها خير تمثيل وتُباعِد بيننا وبين الجوّ الرّسويّ لِلقصور. ولتأكيد هذا أضاف المُصوّر مشهدَيْن آخَرَيْن، أحدهما يُمثّل الصّيد في أعلى الصّورة، والثاني يُمثّل ثلّة من الفُرسان وبُصحبهم جماعة من السيّدات يَمُطّين الثّوب في أدناها. وفي الحقّ إنّ هذه المشاهد لَتَدلّ على ما كان يَجري بين حاشية المَلِك، وإن كانت تبعد كثيرًا عن مراسيم البلاط الصّارمة التي نراها مُطبّقة في كثرة من غُرات المخطوطات ذات الأسلوب المُنحدر رأسًا من الثّوش الجداريّة السّاسانيّة البارزة ومثيلاتها.

رُخُوفيّة في ثياب القيان وعلى البساط الذي يُعطي الأرض، لا تشهد في لوحة إستنبول إطارًا. وعلى حين نرى شرائط مُزخرفة عَرْضًا تفصل بين أجزاء اللّوحتين الأوّلين نجد مُصوّر اللّوحة الثالثة يَحشد مُكوّنات الصّورة كلّها حول الشّخصية الرئيسة من دون فواصل. غير أنّ كلا المُصوّرَيْن قد عبّر عن طيّات المَلابس بأسلوب رُخُوفيّ لتبدو ظاهرة مُتميّزة، وهو ما يتجلى في مَلابس الوالي وفي مَلابس بعض أفراد حاشيته.

«كتاب الأغاني» لِأبي الفرج الأصفهاني. المكتبة المَلِكِيّة بكوينهاجن

تمطي الشّخصية الرئيسة في غُرة الجزء العشرين، المُحفوظ بكوينهاجن، صهوة جواد، وتحمّل بارًا فوق ذراعها (لوحة ٦٢م) ومن حولها الجنود شاكي السلاح والقيان.

ولقد رأينا أنّ خَمَسًا من غُرات أجزاء هذا الكتاب صوّر شَخصيّة «پورتريه». وثمة جدل قد ثار حول هذه الشّخصيات. فعلى حين يذهب البروفسور ستورم راييس إلى أنّها جميعًا لَبَدَر الدّين لؤلؤ حاكم الموصل الذي أعدت المخطوطة من أجله، يربط المرحوم بشر فارس شَخصيّة كلّ غُرة بالنّص الذي يعقبها ذاهبًا إلى أنّها رسوم توضيحيّة لكتاب الأغاني. على حين يَسْتَرَعِنَا في الغُرات الخَمَس المظهر المُلوكيّ للشّخصية الرئيسة التي تبدو دائمًا أكبر حجْمًا ممّن حولها من الأفراد، وكذا تشابه ملامحها في شتى الغُرات، ثمّ المُحاولات الواضحة لإسباغ الجلال والهيبة عليّها. وهو ما يُعزّز رأي الأستاذ راييس، حيث نجد الشّخصية الرئيسة بالجزء السابع عشر باستنبول تأخذ حَظّها من التّجليل بظهور الهالة حول رأسه وإمسাকে القوس يمينه والسهم يسراه، وهما رمز الحُكم والسّلطان كما تقدّم ذكره. كذلك تُصوّر غُرة الجزء الخامس بدار الكتب المصريّة شَخصيّة مُماثلة وقد أحاطت الهالة برأسها، وليكنّه يمسيك كأسًا يسراه ويشاحًا يميناه. وفي الصّفّ الأدنى جُمع من الموسيقيّين. وإذا كان النّص يتناول حياة مُعَنَّ عَرَبِيّ شهير هو «طويس»، ذهب بشر فارس إلى أنّه المُقصود بالصّورة، وإن كان المُرجّح أنّه الأمير بذر الدّين لؤلؤ الذي يبدو في وضعة مُسترخية وهو يُصنّي إلى غناء طويس.

وثمة ميزة فريدة تلفتنا إليها مخطوطة إستنبول ألا وهي ذلك الاسم المكتوب في ثنابا الصّورة، فوق عصابتين تُحيطان بعضدي الأمير، وهذا الاسم هو «بذر الدّين لؤلؤ بن عبدالله». وقد كان بذر الدّين لهذا أتاكًا على ولاية الموصل فيما بين سنتي ١٢٠٢ و١٢٢٨م، ولهذا يعني أنّ هذه الصّورة قد رُسمت بأمر منه، فأمكن بذلك تحديد العصر الذي رُسمت خلاله.

الأقاليم الإسلامية. وأغلب الظن أن هذه الغرة قد صوّرت في الموصل بذليل تلك العناصر السلجوقية التي ظهرت بها. وفي علمنا أن الموصل تلقت كثرة من عمال نقش المعادين الإيرانيين التازحين إليها مع الغزو المغولي.

على الأواني الفضية المحفورة. فلا جدال في أن مشهدي الشريطين العلوي والسفلي يختلفان أسلوباً وشكلاً عما ألفناه في المخطوطات العربية. ومن المرجح أن مصورها قد تأثر أكثر التأثير بالذوق الفني المأثور عن تصاوير عهد الحكام السلاجقة في شتى

الفصل الثالث عشر

الفن البيزنطي في كنف الإسلام

تطويع الفن البيزنطي للطابع العربي

ساد التصوير الإسلامي خلال العصر الأموي أثران رئيسيان، هما التأثير الكلاسيكي والتأثير الفارسي، وقد سارا متواكبين لا يتخلف أحدهما، إلى أن كان العصر العباسي فإذا العنصر الفارسي يسود. غير أن التجديد الذي لحق بفن التصوير عند نهاية القرن الثاني عشر أفسح للعنصر الكلاسيكي كذلك أن يأخذ مكانه عن طريق التأثير البيزنطي. وهكذا لم تمض ستة قرون على ظهور الإسلام حتى استطاع العالم العربي أن يضمّن رؤيته الخاصة عناصر كلاسيكية بيزنطية، ونجح في ذلك بتطويع نماذج الصور البيزنطية وإخضاعها لطابع الحياة العربية الإسلامية، وهو ما يتجلى في النصوص اليونانية المترجمة إلى العربية والمزدانة بصور الأشخاص والتي كانت في متناول أيدي الفئتين العرب.

كتاب الحشائش وخواص العقاقير لـديوسقوريدس. ١٢٢٩م. مكتبة طوب قابو باستنبول

عكف ديوسقوريدس أربعين عامًا على دراسة خواص الحشائش والعقاقير حتى وقف على منافع البذور والحبوب والفشور والألباب، فصنّفها ولقّنها لتلاميذه، وقام أصطفان باسيلي بنقل الكتاب إلى العربية وراجع حُتّين بن إسحق. ويُشير تصدير المخطوطة المحاط بإطار زخرفي إلى أنها أُعدت «لشمس الدين أبي الفضائل محمد» الذي يغلب على الظن أنه كان حاكمًا على شمال بلاد الرافدين وجزء من الأناضول وسوريا. ولا يكفي التأريخ - الذي ينتمي إلى مدينة «الموصل» أو إلى إحدى أسرها - يذكر التاريخ الهجري على مخطوطته بل يُضيف إليه التاريخ السلجوقي. وأكثر من هذا غرابة أنه يختم جلية خاتمة الكتاب بدعاء سُرياني يكشف عن ميوله نحو أقاليم الغرب، ولهذا كله يبعث على الاعتقاد بأن هذا المخطوط قد نسخ في شمال العراق أو في سوريا.

ويبدأ هذا المخطوط بلوحتين تغطيان صفتين متقابلتين تتضمّن كلّ منهما صور أشخاص على أرضية ذهبية مُحاطة بإطار مُكوّن من عقد مَحْمول على عمودين، ونجد في الصفحة اليمنى شخصًا جالسًا هو من دون شك ديوسقوريدس نفسه (لوحة ٦٥م) يُوجّه الحديث إلى التلميذين اللذين يقفان إلى اليسار في الصفحة المقابلة ويتجهان نحوه وقد حمل كلّ منهما كتابًا في يده (لوحة ٦٦م). وفي حين ارتدى الأستاذ زياً كلاسيكياً ذا أطواء هيئة تنتهي إلى محاكاة الأمواج، وإن كان اعتمر عمامة، ارتدى تلميذاه زياً شرقيًا، غير أن قسماتهما لا تحمل أي طابع شرقي، وتذهب هذه الظاهرة الثنائية إلى أبعد من ذلك لأن هذه اللوحة الإسلامية هي قبل كلّ شيء محاولة عربية لتصدير الكتاب بصورة المؤلف، وهي الفكرة البيزنطية الأصل، على غرار ما أتبع في نسخة كتاب الحشائش وخواص العقاقير الأولى التي كتبها ديوسقوريدس من أجل الأميرة «جوليانا انيسيا» قبل عام ٥١٢ (بدار الكتب القومية بفيينا)، إذ صور المؤلف في صدر هذه النسخة جالسًا على مقعد شبيه بالمقاعد العربية، وقد وضع قدمه على مئكة خفيض، وهو عاري الرأس مادًا يده إلى امرأة شابة ترتدي زياً تقليدياً قديماً تُسمّى «هيرييسيس» وتُجسد فكرة «الاكتشاف» وتُمسك بيديها أكثر الأغصان الطيبة أثرًا وهو نبات «تفاح الجن» وقد شدّ إليه كلب، إذ كان الأقدمون يعتقدون أن استخلاص الكلب لجذور هذا النبات يُخلّصه من آثار السموم، بيد أن الصيغة العربية اطّرت الرمز والخرافات من الصورة الأصلية وجردتها من موضوعين لا يتفقان والنظرة الإسلامية، هما المرأة والكلب: فالكلب حيوان نجس، والمرأة عارية الرأس وفي زِيّ خَلِيع، فاستبدلتهما المصور المسلم بشخصيتين نقلهما عن لوحات استهلالية بيزنطية أخرى، تصور اثنين من الرسل يُقدّمان أناجيلهما للسيد المسيح أو راهبين يهديان كتابهما إلى أحد الأباطرة، أضاف إليهما بعد ذلك تعديلاً يصبغهما بالصبغة الإسلامية، إذ جعلهما تلميذين في حضرة

واحد تنبسط على الأرض ولها رائحة نَيَّة، وطعمه فيه قَبْض ما، ويُنبت في المواضع الجبليَّة الصَّخراويَّة، أصله يسهَل، حَبَّ الفَرْع إذا شُرِب منه أربع درخَمات بها العَسَل. وأجود ما يُشْرَب بالسَّقمونيا أو بالخرنق الأسود، وينبغي لِشاربه أَنْ يَأْكُل قَبْل شُرْبِهِ ثُومًا.

وقَدْ تَسَاءَل كَيْف حَدَثَ أَنَّ مَخْطُوطًا هَامًا مِثْلَ هَذَا لَمْ يَبْلُغ رَتبةَ التَّكامل، فيَصْمُ صُورًا بِمِثْلِ هَذَا التَّقاوُت، مِنْهَا صُورَتَانِ تُخَالِفَانِ الصُّورةَ الأَصْلِيَّةَ لِلْمُؤَلَّف، وَيُقَدِّمُ صُورَ الثَّبَاتِ بِأَسَالِيبٍ مُخْتَلِفَةٍ؟ وَيُجِيبُ إِنْتِجَاهُوزَنَ عَلَى هَذَا السَّأُولَ بِقَوْلِهِ: «إِنَّ اسْتِلْهَامَ مَصَادِرٍ مُتَنَوِّعةٍ كَانَ أَحَدَ الْقَسَمَاتِ الْمُميِّزةِ لِمَخْطُوطَاتِ الْعُصُورِ الوُسْطَى فِي الشَّرْقِ أَوِ الْعَرَبِ عَلَى السَّوَاءِ، هَذَا إِلَى أَنَّ وَضَعَ مَوَادِّ الْمَصَادِرِ الْمُخْتَلِفَةِ جَنَّبًا إِلَى جَنَّبٍ، كَانَ ظَاهِرَةً مَعْرُوفَةً لَا يُمْكِنُ أَنْ تُثِيرَ دَهْشَةَ الْقَارِئِ الَّذِي أَلْفَ مُطَالَعَةً كُتِبَ الْأَدَبُ الْعَرَبِيُّ. وَقَدْ جَاءَتْ نُصُوصٌ أَكْثَرُ الْكُتُبِ وَالْمَرَاجِعِ شَهْرَةً - سِوَاهُ أَكَانَتْ كُتُبُ تَارِيخِ أَمْ عُلُومِ الطَّيْبَةِ - غَاصَّةٌ بِفَقْرَاتٍ تَتَعَارَضُ فِيهَا الرِّوَايَاتُ عَن وَصْفٍ أَوْ حَدَثٍ مُعَيَّنٍ تَعَارَضًا قَدْ يَبْلُغُ حَدَّ التَّنَاقُضِ التَّامِّ مِنْ دُونِ أَنْ يُعْنَى الْمُؤَلَّفُ عَادَةً بِالْإِيْحَاءِ إِلَى الْقَارِئِ بِتَفْضِيلِ إِحْدَى الرِّوَايَاتِ عَلَى نَقِيضِهَا، بَلْ يَكْتَفِي بِأَنْ يَسْرِدَهَا ثُمَّ يَتَّبِعَهَا بِهَذَا الْمَصْطَلَحِ الْمَأْثُورِ «وَاللهُ أَعْلَمُ» مُتَحَلِّلًا بِذَلِكَ مِنَ الْمَسْئُولِيَّةِ الَّتِي يَتَحَمَّلُهَا إِنْ هُوَ انْحَازَ إِلَى رَأْيٍ بَعِيْنِهِ. وَلَمْ تَكُنْ مِثْلَ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ لِتُبَلِّلُ الْأَمِيرَ الْعَرَبِيَّ الَّذِي أَعَدَّ الْمَخْطُوطَ مِنْ أَجْلِهِ حَتَّى لَوْ كَانَ عَلَى عِلْمٍ بِالْمَوْضُوعِ - وَهُوَ أَمْرٌ مُسْتَبْعَدٌ فِي أَكْثَرِ الْأَحْوَالِ - أَوْ كَانَ عَلَى الْأَقْلَى مِنْ هَوَاتِهِ. وَلَوْ أَنَّ مَخْطُوطَ دِيوسْقُورِيدِسَ قَدْ وَصَلَ إِلَيْنَا فِي أَوْرَاقٍ مُتَفَرِّقَةٍ أَوْ ظَهَرَ فِي أَجْزَاءٍ مُنْفَصِلَةٍ، لَمَا اسْتَطَاعَ الْمُتَخَصِّصُونَ أَنْ يَقْطَعُوا بِانْتِمَاءِ مُنَمَّنَاتِهِ إِلَى مَخْطُوطٍ وَاحِدٍ. وَنَحْنُ إِذَا تَأَمَّلْنَا هَذَا الثَّبَاتَيْنِ بَيْنَ مُنَمَّنَاتِهِ أُسْلُوبًا وَتَلَوْنَا لَأَمْكَنَّا الْقَوْلَ بِأَنَّ نَمَازِجَ هَذَا الْمَخْطُوطِ أَوْ أَيِّ مَخْطُوطٍ آخَرَ لَا تَتَأَثَّرُ شَيْئًا بِالْبِيْئَةِ الْجُغْرَافِيَّةِ، لِأَنَّ الْفَتَانِ [أَوِ الْفَتَانَيْنِ الْمُتَعَدِّدَيْنِ] الَّذِي رَسَمَ الْمَخْطُوطَةَ قَدْ يَسْتَلْهِمُ بِيئَتَهُ الْجُغْرَافِيَّةَ فِي تَكْوِينَاتِهِ وَقَدْ يَنْقَلُ عَنْ بِيئَةٍ مُغَايِرَةٍ يَكُونُ قَدْ نَزَحَ إِلَيْهَا وَأَقَامَ بِهَا فَتْرَةً مِنْ عُمُرِهِ، أَوْ اسْتَلْهِمَ أَعْمَالُ فَتَانَيْنِ آخَرَيْنِ مِنْ بَنِي بَلَدِهِ أَوْ مِنْ غَيْرِهَا.

«كِتَابُ مُخْتَارِ الْحِكْمِ وَمَحَاسِنِ الْكَلِمِ» لِأَبِي الْوَفَاءِ مُبَشَّرُ بْنُ فَاتِكِ الْمُسْتَنْصِرِيِّ الْقَائِدِ، ١٢٠٠ - ١٢٥٠. مُتَحَفُ طُوبِ قَاهِرَةِ بِاسْتَنْبُولِ

يَضُمُّ هَذَا الْكِتَابُ، الَّذِي يَشْمَلُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مُنَمَّنَةً لِمُؤَلَّفٍ كَانَ مَعْنِيًّا بِالْمَوْضُوعَاتِ الْفَلَسُفِيَّةِ وَالتَّارِيخِيَّةِ وَالطَّيْبَةِ، مَجْمُوعَةً

أَسَازِهِمَا، وَغَدَتِ اللَّوْحَةُ تَتَضَمَّنُ فِكْرَتَيْنِ أَسَاسِيَّتَيْنِ، هُمَا قِيَامُ الْعَالِمِ بِالتَّدْرِيسِ ثُمَّ إِجَارَتِهِ التَّسَخُّغِ الَّتِي تَقْلَقُهَا تَلَامِيذُهُ عَنْهُ. وَتُفَصِّحُ عَنْهُمَا لَفَتَةَ الْأُسْتَاذِ وَالْإِحْتِرَامَ الَّذِي يَتَقَدَّمُ بِهِ الطَّالِبَانِ لِيَحْصِلَا عَلَى إِجَارَةِ أَسَازِهِمَا قَبْلَ أَنْ يَذْهَبَا لِشُشْرَا مُؤَلَّفِهِ، وَهُوَ رَمَزٌ إِسْلَامِيٌّ فِي الْحِفَافِ عَلَى التَّعَالِيمِ وَالتَّقَالِيدِ الْأَصْلِيَّةِ. وَثَمَّةُ صُورَةٍ أُخْرَى لِدِيوسْقُورِيدِسَ نَرَاهُ فِيهَا جَالِسًا فَوْقَ مَقْعَدٍ وَجَلَسَ تَلْمِيذُهُ فِي مُوَاجَهَتِهِ فَوْقَ وَسَادَةٍ عَلَى الْأَرْضِ (لَوْحَةُ ٦٧م).

وَتَتَضَمَّنُ التَّسَخُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ لَوْحَتَيْنِ أُخْرَيْنِ جَدِيرَتَيْنِ بِالْإِهْتِمَامِ، تَرْيَانِ نَصًّا يَدُورُ حَوْلَ فَوَائِدِ الْأَغْشَابِ الطَّيْبَةِ، غَيْرَ أَنَّهُمَا تُمَثِّلَانِ نَظَرِيَّتَيْنِ مُتَعَارِضَتَيْنِ فِي التَّصْوِيرِ: فَلَوْحَةُ الْكَرْمَةِ (لَوْحَةُ ١٦م) مُصَوَّرَةٌ بِأُسْلُوبٍ طَبِيعِيٍّ فِيهِ إِبْدَاعٌ خَارِقٌ، وَتُكْشَفُ عَنْ تَفَاصِيلِ الثَّبَاتِ الْحَقِيقِيَّةِ مِنْ جُذُورِهَا حَتَّى أَطْرَافِهَا، وَقَدْ لُوِّتَتْ كُلُّ وَرَقَةٍ بِلَوْنٍ خَاصٍّ يُمَيِّزُهَا عَنْ جَارَاتِهَا وَرُسِمَتِ الْعُرُوقُ وَاضِحَةً فِي أَغْلَبِ الْأَوْرَاقِ، وَظَهَرَتْ جَمِيعُ أَجْزَاءِ الثَّبَاتِ سَابِحةً فِي الْفَضَاءِ مُتَحَرِّرةً جُذُورِهَا مِنَ الْأَرْضِ، وَتَبْدُو هَذِهِ اللَّوْحَةُ مُطَابِقَةً لِلصُّورَةِ الْأَصْلِيَّةِ حَتَّى إِنَّهَا لَوْ لَمْ تَكُنْ مَرْسُومَةً عَلَى الْوَرَقِ الْمَكْتُوبِ نَفْسَهُ لَجَزَمْنَا بِأَنَّهَا صُورَةٌ يُونَانِيَّةٌ أَصِيلَةٌ أَفْجَمَتْ بَيْنَ صَفَحَاتِ الْمَخْطُوطِ الْعَرَبِيِّ.

وَتُمَثِّلُ اللَّوْحَةُ الثَّانِيَّةُ الَّتِي تُصَوِّرُ نَبَاتَ «الْعَدَسِ» (لَوْحَةُ ١٧م) النُّقْصَ الْكَامِلَ لِصُورَةِ «الْكَرْمَةِ» فَهِيَ تَخْضَعُ لِلتَّرَاضُفِ الدَّقِيقِ حَيْثُ تَتَشَابَهُ الْعَنَاصِرُ الْمُتَجَاوِرَةُ مِنْ دُونِ أَنْ تَخْتَلِفَ دَرَجَاتُ أَلْوَانِهَا، وَلَا تَكَادُ نَرَى الْعُرُوقَ الْمَرْسُومَةَ بِطَرِيقَةٍ إِجْمَالِيَّةٍ. وَتُوحِي دَقَّةَ شَكْلِهَا الزُّخْرُفِيِّ الْخَالِصِ بِأَنَّهَا نُقِلَتْ بِالرُّوسَمِ [وَهُوَ صَفْحَةٌ مُخَرَّقَةٌ عَلَى نَمَطِ الْحُرُوفِ وَالتَّقْوِشِ لِلطَّبْعِ مِنْهَا]، كَمَا يَظْهَرُ تَجَاهُلُ اللَّوْحَةِ لِلطَّيْبَةِ، وَذَلِكَ فِي وَضْعِ الثَّبَاتِ عَلَى الصَّفْحَةِ بِطَرِيقَةٍ أَفْقِيَّةٍ مُخَالِفَةٍ تَمَامًا لِإِلَاقَةِ الطَّبِيعِيِّ لِمُوهَا، وَهُوَ تَجَاهُلُ يُوَاكِبُ الشَّكْلَ التَّخْوِيرِيَّ. وَتُكْشَفُ اللَّوْحَاتُ الْبِيزَنْطِيَّةُ الْمُصَوَّرَةُ فِي نُسْخِ كِتَابِ دِيوسْقُورِيدِسَ مِنْذُ الْقَرْنِ السَّابِعِ عَنْ مِثْلِ كَبِيرٍ إِلَى التَّبْسِيطِ وَالتَّخْوِيرِ، غَيْرَ أَنَّ التَّسَخُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ تَفُوقُهَا فِي هَذَيْنِ الْإِتْجَاهَيْنِ، وَبِخَاصَّةٍ فِي لَوْحَةِ «الْعَدَسِ» الَّتِي تُمَثِّلُ بِشَكْلِهَا التَّجْرِيدِيَّ النَّظَرِيَّ الْإِسْلَامِيَّةَ. وَقَدْ تَنَاوَلَ الْمُصَوِّرُونَ الْمُسْلِمُونَ فِي هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ أَشْكَالَ الثَّبَاتِ بِالتَّبْسِيطِ وَالتَّخْوِيرِ أَكْثَرَ مِمَّا تَنَاوَلُوا صُورَ الْأَشْخَاصِ، ذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ أَلْفُوا مُمَارَسَةَ تَصْوِيرِ الثَّبَاتِ وَبِخَاصَّةٍ فِي أَشْكَالِهَا الْمُحَوَّرَةِ أَكْثَرَ مِنْ مُمَارَسَتِهِمْ تَصْوِيرَ الْبَشَرِ.

وَيَضُمُّ هَذَا الْمَخْطُوطُ الْعَرَبِيَّ نَمَازِجَ أُخْرَى لِنبَاتَاتٍ فِي مَرَاجِلِ التَّحْوِيلِ وَالتَّثْمُو، وَصُورَتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ صُورِ الثَّبَاتَاتِ مِنْ إِبْدَاعِ عَرَبِيٍّ إِسْلَامِيٍّ يَخْتِمْ مِثْلَ لَوْحَةِ السَّرْخَسِ (لَوْحَةُ ٩٥) الَّتِي يَعْنِي أَسْمُهَا «كَثِيرُ الْأَصُولِ»، لَهُ أَوْرَاقٌ تَتَغَيَّرُ وَتَفْرَعُ مِنْ أَصْلٍ وَغُصْنٍ

يبدو عليه الاسترسال في الحديث. غير أن التقنية الإسلامية لم تكن قد بلغت بعد درجة الكمال، ويتجلى ذلك في قلة مبالاة المصور في تناول عمامة سُقراط، كما قد يوحي اختلاف لون لحي جلّسائه وشعر رؤوسهم بأن المصور قصد الإشارة إلى اختلاف جنسية الأستاذ عن جنسية مُستمعيه. ونحن إذا أمعنا النظر في أسلوب رَسَم الثياب في اللّوحتين لوجدنا مزيجاً بين الأسلوب البيزنطي ومدرسة بغداد خصوصاً فيما يتصل بالمكاسير والأطواء وأردية الرؤوس. وثمة منمنمة أخرى (لوحة ٧١م) تصوّر پيثاجوراس جالساً على أريكة في بلدة قروطونيا يُلقن حوارييه تعاليم الحكمة والأخلاق والعلوم الرياضية. ولقد تصوّر الفنان پيثاجوراس جالساً على أريكة عريّة الزخارف والحليات، يرتدي زياً بيزنطياً ورسم له لحيّة مدبّية، فجاء أقرب في ملبسه وسيخته إلى قساوسة بيزنطة، وبين يديه صفحة مدوّنة بحروف يونانية. وصفت تجاهه ثلة من مشايخ العرب بمائهم الضخمة، وألبسهم أردية حلاها بأطواء تنتمي إلى المدرسة النعدادية وجعلهم ينظرون إلى أستاذهم مبهوتين، وإن زاد شعور الانبهار لدى أحدهم فبلغ حدّ الفرع، بينما شخّص پيثاجوراس إلى كتابه بنظرة نارية هي أقرب إلى نظرة العراف يستجلي أسرار بلّورته السحرية. إن الفنان لم يتصور أهل قروطونيا إلا عرباً، بينما تخيل پيثاجوراس قساً بيزنطياً!

ويحكي مخطوط مختار الحكيم عن الإسكندر الأكبر الذي أطلق عليه لقب «الملك الحكيم ملك ملوك الدنيا» فيقول: وكان الإسكندر أشقر أعشى أزرّق لطيف الرّشاقة، ومات وله ست وثلاثون سنة، وكان لا يشبه أباه ولا أمه في الصورة، وكانت عيناه مختلفتين، إحداهما شديدة الزرقة والأخرى تميل إلى السواد، وإحداهما تنظر إلى فوق والأخرى إلى أسفل؟ وكانت أسنانه دقيقة حادة الرؤوس، وكان وجهه كوجه الأسد، وكان شجاعاً جريئاً على الحروب منذ صباه، قدّس الله روحه.

وتصور المنمنمة (لوحة ٩٦) الإسكندر بعد أن استوى على عرشه، فاختار له الرّسام أريكة عريّة الطراز والثقوش والحليات جعلها عرشاً وأجلسه عليه وثنى له إحدى ساقيه ودلى له الأخرى في اتجاه الأرض، ثم ألبسه جلباباً عربياً فضفاضاً هين الأطواء مُحلّى بدوائر ملونة، وفي أعلى كُمّيه قُرب الكتفين وضع شريطين عليهما كتابات خطيّة زُخرفيّة أغلب الظن أنها اسمه، وهو تقليد عربيّ فتح. وعلى رأسه وضع تاجاً أشبه بطاويّة مستقيمة الحواف، وحول رأسه وتاجه رسم هالة تمتد من فقه حتى تغلّو التاج. ولعلّ الرّسام نفسه أو غيره قد حلّى هذه الهالة بخطوط دائرية فبدت وكأنّها عمامة. وهكذا ارتدى الإسكندر تاجاً وفوّه عمامة إمعاناً في تكريمه! وأمسك الإسكندر بيده اليمنى

أخرى من الموضوعات التصويريّة البيزنطيّة التي خضعت للأسلوب الإسلاميّ العربيّ. ويختلف هذا الكتاب عن كتاب ديسقوريدس في أنه ليس ترجمة لكتاب يونانيّ، بل هو يستوّد مادّة من حياة بعض حكماء الإغريق القدماء وأعمالهم من أمثال هوميروس ووصولون وأبقراط وسقراط وأرسطو وپيثاجوراس وجالينوس وغيرهم، واعتمد أساساً على مصادر يونانيّة. وتوجد إحدى نسخته المصورة بمُتحف سراي طوب قابو بإسطنبول، وقد أشار مكتشفها «فرانز روزينثال» إلى أنها تنقص بضعة صفحات يغلب على الظن أن بعضها مصوّر. ومع أن هذا المجلّد لا يحيل تاريخاً، إلا أن نقشاً بحروف ذهبيّة على الصفحة التي تحمل عنوان الكتاب يُشير إلى أنه كُتب من أجل أحد أمراء سِر «الأتابك السلجوقي» الذي لم يكشف عن شخصيته بعد، على أن أسلوب منمنمات هذا المخطوط هو أسلوب النصف الأوّل من القرن الثالث عشر، وأغلب الظن أنه نسخ في سوريا.

وتدور منمنمات هذا المخطوط حول موضوع رئيسي هو صورة الحكيم اليونانيّ يُلقى درساً على مجموعة من الطلّبة الجالسين تجاهه، وأحياناً نجد الأستاذ وهو يُلقى نظرة على كتاب أو يتطلّع في مقياس أبعاد النجوم «الأسطرلاب» أو ممسكاً بيديه إحدى الآلات، غير أنه يظهر في أغلب الأحيان مكتفياً بمناقشة تلاميذه أو وهو مُمتطٍ صهوة جواده مثل صورة جالينوس (لوحة ٦٨م) الذي وصفه النصّ بأنه «كان يجب الركوب والتّنزه مداخلاً الملوك والأمراء، وكان أسمر اللون حسن الخطيط، عريض الأكتاف، مُحبباً للأغاني وقراءة الكتب، معتدل القامة، ضاحك السنّ، كثير الهذر، قليل الصمت، كثير الأسفار، طيّب الرائحة، نقي الثياب». ويبدو رداء جالينوس في الصورة مُبرقشاً مُحلّى بنقشات زُخرفيّة متموجة، وعلى رأسه عمامة عريّة ضخمة، ونرى الجُلّ على ظهر الجواد مُحلّى بوحدات زُخرفيّة سداسيّة تحوط كل سِنَّةٍ منها نجمة سداسيّة الأطراف. ويظهر جميع الشّخص في تصاوير المخطوطة في زيّ عربيّ عدا قلة من الحكماء يعتمرون القلنسوة المدبّية التي كانت شائعة في بيزنطة، وليست هذه اللّوحات سوى صياغة عربيّة لصوّر بيزنطيّة تجمع بين حكيمة وتلاميذه. ولقد تميّزت ذاتيّة الشّخصيّات المصورة بلفّاتهن التي تصاحب كلماتهن وأوضاعهن النابضة بالحياة، وهي وإن بُولغ فيها قليلاً، إلا أنها تعمّق الإحساس بواقعيّة المناقشة وحيويّتها، وهي القسّمات التي تبدّى جميعها في صورة «صولون» (لوحة ٦٩م). ويختلف الوضع قليلاً في المنمنمة التي تصوّر «سقراط» (لوحة ٧٠م). فإنّ مع اتصال حديثه، يبدو عليه طابع الاستغراق في التفكير أكثر ممّا

عَصَا بِدَأَتْ مِنْ مُحَاذَاةِ صَدْرِهِ وَطَالَتْ حَتَّى بَلَغَ طَرَفُهَا الْمُدَبِّبَ
 سَطْحَ الْأَرْضِ، وَزَيَّتْهَا الْمُصَوِّرُ بِرَأْسِ حَيَّوَانٍ قَدْ يَكُونُ فَهْدًا أَوْ
 أَسَدًا وَلَعَلَّهُ رَمَزَ لَهَا بِصَوْلَجَانِ الْمُلْكِ. أَمَّا سِخْنَةُ الإسْكَندَرِ فَقَدْ
 تَصَوَّرَهَا الرَّسَّامُ سِخْنَةً عَرَبِيَّةً أَوْ هِيَ مَزِيجٌ بَيْنَ الْفَارِسِيَّةِ وَالْعَرَبِيَّةِ،
 أَوْ لَعَلَّهُ اسْتَوْحَى قَسَمَاتِهِ مِنْ مَثْنِ الْكِتَابِ، ثُمَّ أَحَاطَهُ بِغُلَامَيْنِ
 يَحْمِلُ كُلُّ مِنْهُمَا شُعْلَةً مَالَتْ دُوءَ ابْنَتِهَا إِلَى أَسْفَلِ، وَلِكُلِّ مِنْهُمَا
 قَسَمَاتٌ سَامِيَّةٌ وَعَلَى رَأْسِهِ عِمَامَةٌ يَبِينُ بِحَمْلِهَا وَأَلْبَسَهُمَا قُطْطَانَيْنِ
 عَرَبِيَّيْنِ مُزْرَكَشَيْنِ.

الفصل الرابع عشر

مقامات الحريري في التصوير الإسلامي

المقامة في الأدب العربي

ما من شك في أن المقامات نشأت مع نشأة غيرها من الفنون الأدبية شعراً ونثراً، غير أنها لم تستو قفلاً بذاته له مقوماته إلا على يد بديع الزمان الهمذاني في القرن العاشر فأعطاه تلك الملامح التي عرفت بها، حين أخرجها من نطاق الحادث المحدود إلى شكل القصة المتتابعة الأحداث النابضة بجوار الشخصيات، والتي ترسب في ذهن قارئها أو المستمع إليها عبرة تنبع من تماسك حلقاتها، لا من الحكيم والأفعال المُنْبَتَّة بَيْن ثناياها. فلقد ظهرت المقامات أول ما ظهرت في شكل الثدوة التي يلتقي فيها الناس ويتصدها الأديب محدثاً بالعبارة الموجزة البليغة الصياغة معلّقاً على حادث أو عارضاً لحادثة. ولا شك أن هذا هو الأصل الذي اشتق منه اسمها، فالمقامة في اللغة هي المجلس يقوم فيه الأديب محدثاً الجمع المنصب إليه. وهذا هو الذي فَرَّق بَيْنها وبين «المجلس» الذي كانت تدور فيه أحاديث علمية أخرى لا تدخل في مجال الأدب.

ولعل السر الذي جعل مؤرخي الأدب ينسبون إلى بديع الزمان الهمذاني استحداث هذا الفن - متناهيين ابن دُرَيْد (القرن العاشر) والجاحظ (القرن التاسع) - لا يعود إلى تلوينه للمقامات بسمتي الخيال والإغراب اللتين أسبغت على المقامات أهم مميزاتا الرئيسية فحسب، بل كذلك لأن أحداث العصر التي أدار حولها بديع الزمان مقاماته كانت أهم بكثير من أحداث عصر ابن دُرَيْد والجاحظ، فقد شهد الهمذاني عصر الخلافات وانقسام الفوضى وخروج الولاة على الخلفاء وفقدان الاستقرار مما أذاع تلك المقامات بين الناس بوصفها مرآة صادقة لأحداث العصر وصراعاته ومشكلاته. وكثر بعد بديع الزمان من قلده. [منهم الزمخشري (القرن ١٢) الذي كتب خمسين مقامة في الوغظ الديني. والسرقسطي المعروف بابن الأشركوني (القرن ١٢)،

وحسن بن الصافي النحوي (القرن ١٢)، ثم السيوطي عبد الرحمن (القرن ١٦)، والعطار حسن بن محمد (القرن ١٩) وناصر البازجي (القرن ١٩) وعبد الله فكري (القرن ٢٠) وإبراهيم بن الأخطب (القرن ٢٠)] غير أنهم لم يرقوا إلى مستواه لاهتمامهم البالغ بإحياء العرب من مفردات اللغة العربية، ومن ثم سار ذلك الفن في طريق التدهور برغم محاولاتهم اليائسة اجتذاب الناس إليه باستخدام الخيال. وهكذا انتهى تاريخ فن المقامات في الأدب العربي من دون أن يرقى إلى قمته في موازاة بديع الزمان الهمذاني سوى الحريري الذي لم ينافسه في مكانته فحسب، بل اجتذب حوله وحول مقاماته عدداً أكبر من المولعين بمقامات الهمذاني والمهتمين بها دراسةً ومحاكاةً.

مخطوطات مقامات الحريري

وظفرت المخطوطة المحفوظة بدار الكتب القومية بباريس التي سُميت باسم مقتنيها الأول «ثيفر» بشهرة أوسع من غيرها، وكان الأخرى أن تُسمى باسم مصورها «الواسطي»، وقد نُشر عدد من ممتلكاتها التي فُصلت إحداهما عن الأخرى وعُرِضت مُتفرقة في معرض خاص عام ١٩٣٨.

وقد نجح الواسطي في أن يكون واقعياً في تصويره وأن يضيف الحياة على مصورهات ويحيلها إلى مرجع حافل بالحياة اليومية في عصره. والواقع أن تصاويره أقرب في أسلوبها إلى اللوحات الكبيرة منها إلى المنمنمات. ويكاد مؤرخو فن التصوير الإسلامي يجمعون على أن أسلوب الواسطي هو أكمل مثال لمدسة بغداد التصويرية، فقد أجاد التعبير بريشته عن كل الحالات النفسية، واستطاع التمييز بين مختلف الشخصيات بل نجح في أن يرسم شخصية أبي زيد بحيث تميزها العين من أول نظرة في كل لوحة.

نَرَى على رأسه الفَلَنْسُوة المُدَبَّبة التي يَرْتديها القَسَاوِسة المَسِيحِيَّونَ، ونلاحظ الطَّابع الكَلَّاسِيكِيَّ في طَيَّات الثِّيَاب رُغم مِسْحَةِ الخُشونة التي تَظْهَر في التَّصْوير بِعَامة. وعلى غِرار ما هو شائع في لُوحات التَّصْوير والسِّيَفِساء البيزنطِيَّة قُسمَت خَلْفِيَّة الصُّورة إلى ثلاثة أَجزاء، كما ظَهر العَقْدُ الأساسي التَّقْلِيدِيّ. ويذهب فايترمان إلى أنَّ نظرة شاملة نلقِيها على هذه المُنَمَّنة لتُوحِي لَنَا بأنَّها صُوِّرَت على غِرار مَشْهَد «المَسِيح يَغْسِلُ أَرْجُلَ التَّلَامِيذ»^(١)، فأبو زَيْد يَجْلِس في وَضْعَةٍ هي أَشَبَّ بِوَضْعَةِ يَسُوع يُواجهه عن قُرْب شَخْصًا آخَر ظَهر وَكَأَنَّهُ يَتَأَهَّب لِيَأْخُذ دَوْر بَطْرُس الرُّسول، يَتِمَّا تُثْمَلُ باقي الشَّخْصِيَّات مَجْمُوعَةُ الحَوَارِيَّينَ.

وتُوضِح لُوحات هذه المَخْطُوطَة العَلاقة الوثيقة بَيْنَ المَدْرَسَةِ الإسلاميَّة لِلتَّصْوير - في بَوَاكِر القَرْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ - وتقاليد المَدْرَسَةِ البيزنطِيَّة والتَّصَاوِير الوارِدَة في مَخْطُوطَات السُّرْيَانِ اليَعاقِية بِالشَّام. والذي لا شَكَّ فِيهِ أَنَّ التَّصَاوِير المَسِيحِيَّة المَعاصِرَة لها والمُبَكَّرَة عَلَيَّها كانت بِمِثَابَةِ نَمَاجِ احْتِذاها مُصَوِّر هذه المَخْطُوطَة على وَجْه الخُصوص، حتَّى إِنَّ بَعْضَ المُتَطَرِّفِيْنَ مِن مُؤَرِّخِي الفَنِّ وَصَفُوا هذه المُنَمَّات بأنَّها ذات طابع مُتَأَعَّرِق أَكْثَر مِنها إسلاميَّة، وهو حُكْم جائِر تنسُخُه النَّمَاذِج المَعْرُوضَة مِن هذه المَخْطُوطَة.

ويُحاكي المُصَوِّر رِحْلَةَ الحَجِّ في (لُوحَة ٩٧) مُحَاكاة بَعِيدَة عَنِ الأُبْهَةِ وامْتِطاء الرُّوْاجِلِ المُخْتَارَة، فَصَوَّر قَوْماً خَاشِعِينَ في مَلَابِس الإحْرَام، ماثِلِينَ بَيْنَ يَدَيِ واعِظٍ يُحَدِّثُهُم مُعْتَلِينَ رَبْوَةً حتَّى يُطَالِعُهُم مِن عُلٍّ ولا يَغِيبُ فِي رَحْمَتِهِمْ. غَيَّرَ أَنَّ المُصَوِّرَ وَإِنَّ كَانَ قَدْ أَبرَزَ عَلامَاتِ الخَشْيَةِ والتَّشْشُفِ على وَجْهِ الحُجَّاجِ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يُفْلِحْ فِي الإِنْجَاح بِالرَّحْمَةِ التي أَشار إِلَيْها الحَرِيرِيّ والتي مِن أَجلِها اِغْتَلَى الواعِظُ الأَكْمَة حينَما قال: فَلَمَّا رَأَى تَأَنُّفَهُمْ حَوْلَهُ [أي تَجَمُّعَهُم والْتِفَافَهُمْ بِهِ]. ولكِنَّا قَدْ نَرَى مِن رَاوِيَةٍ أُخْرَى جَوَاز أَنَّ يَكُونُ المُصَوِّرُ قَدْ عَمِدَ إِلَى ذَلِكَ لِجُكْمَةٍ خَاصَّةٍ بِهِ، كَأَنَّ يَكُونُ اجْتِزَاءً بِالرَّمْزِ إِلَى الحُجَّاجِ بِهذه القِلَّةِ مِنْهُمْ أَوْ رَمَزَ بِقِلَّتِهِمْ هذه إلى نُذْرَةِ عَدَدِ الزَاهِدِينَ المُتَمَسِّكِينَ بِجِبالِ العَقِيدَةِ... مَنْ يَدْرِي؟

وفي (لُوحَة ٩٨) نَشْهَد رَجُلًا «طَوِيلَ اللِّسان قَصِيرَ الطَّيْلَسَان» وهو يُمَسِكُ بِقُيٍّ مِن مَلَابِسِهِ يَدْفَعُهُ صَوْبَ الأَمِيرِ فَوْقَ عَرْشِهِ قَائِلًا:

(١) المَسِيحُ يَغْسِلُ أَرْجُلَ التَّلَامِيذ:

شَاءَ المَسِيحُ بَعْدَ العِشاءِ الأَخِيرِ أَنْ يُلْقِنَ تَلَامِيذَهُ دَرْسًا فِي التَّوَّاضِعِ، فَضَلًّا عَمَّا يُضَيِّفُهُ إِلَى ذَلِكَ مِن رَمَزٍ لِلتَّطَهُّرِ، فَخَلَعَ ثِيَابَهُ وَاتَّزَرَ بِمِنْشَفَةٍ وَصَبَّ المَاءَ عَلَى الحَوْضِ، ثُمَّ شَرَعَ يَغْسِلُ أَقْدَامَ تَلَامِيذِهِ وَيُجَفِّفُهَا بِالْمِنْشَفَةِ التي يَأْتُرُّرُ بِهَا [م.م.م.ث.]

أَمَّا مَخْطُوطَةُ مَعْهَدِ الدَّرَاسَاتِ الشَّرْقِيَّةِ بِأكاديميَّةِ العُلُومِ فِي لِينْجَرَاد، فَقَدْ تَلَفَّتْ بَعْضَ أَجْزَائِها، كما قُفِدَتِ الصَّفَحَاتُ الإِلَاحِيَّةُ عَشْرَةٌ الأَوَّلَى فِيها، وَلَمْ يُنْشَرِ إِلَّا القَلِيلُ مِن مُنَمَّاتِها رُغم انطواء صُورِها على جَانِبٍ عَظِيمٍ مِن قُوَّةِ التَّعْبِيرِ. ولا تَحْمِلُ صَفَحَاتِها تَارِيخًا وَإِنَّ كَانَ رَايسُ يَذْهَبُ إِلَى أَنَّها أَقْدَمُ عَهْدًا مِن نُسْخَةِ الواسِطِيّ. وَقَدْ جَاءَتْ صُورُها - على عَكْسِ مَخْطُوطَةِ بَاريس - فِي مَكَانِها الصَّحِيحِ مِنَ النَّصِّ وَاتَّسَقَتْ مَوْضُوعَاتُها مَعَ تَفْصِيلاتِ الأَحْدَاثِ التي يَسْرُدُها النَّصُّ المَكْتُوبُ.

ولا شَكَّ أَنَّ هُنَاكَ مَخْطُوطَاتٍ أُخْرَى لِلْمَقَامَاتِ ما تَزَالُ مَفْقُودَةً، اكْتَشِفَتْ مِنها وَاحِدَةٌ حَدِيثًا هي مَخْطُوطَةُ إِسْتَنْبُول، وهي أَقْرَبُ إِلَى مَخْطُوطَةِ لِينْجَرَادِ مِنها إِلَى مَخْطُوطَةِ بَاريس، وَإِنَّ كَانَتْ أَحْدَثُ مِنْها، فَقَدْ وَرَدَ بِإِخْدَى رُسُومِها أَنَّها نُسِخَتْ فِي حَيَاةِ الخَلِيفَةِ المُسْتَعِصِمِ بِالله (١٢٤٢ - ١٢٥٨) آخِرَ الخُلَفَاءِ العَبَّاسِيِّينَ. ولا تَقَلُّ هذه المَخْطُوطَةُ عَنِ سابِقَتَيْها فِي دِقَّةِ تَصْويرِهاما لِلحَيَاةِ البَيَوتِيَّةِ وَفِي أُسْلُوبِهاما وإيقونوغرافيتِها غَيْرَ أَنَّها لِلأسَفِ قَدْ أَصِيبَتْ بِتَلَفٍ يَتَعَدَّرُ تَدَارُكُهُ، فَقَدْ مُجِيتَ فِيها الرُّؤُوسُ والجُذُوعُ، ولا شَكَّ أَنَّ أَحَدَ المُعاوِنِينَ لِتَصْويرِ الأَشْخاصِ هو الذي أَنْزَلَ بِها هَذَا التَّشْوِيهِ على غِرار ما شَوَّهَتْ بِهِ مَخْطُوطَةُ لِينْجَرَاد، وَإِنْ اكْتَفَى المُعْتَدِي فِي هذه المَخْطُوطَةِ الأخيرة بِرَسْمِ خَطِّ يَقْطَعُ عُنُقَ الأَشْخاصِ المَصُورَةِ حتَّى تَخْتَلِفَ عَنِ صُورِ الشُّخُوصِ الواقِيعَةِ فلا يُحَرِّمُ النَّظَرَ إِلَيْها، اسْتِنَادًا إِلَى ما اعتَقَدَهُ البَعْضُ مِنَ تَحْرِيمِ تَصْويرِ الكائِنَاتِ الحَيَّةِ، وَمِن ثَمَّ فَإِنَّ قَطْعَ الرُّؤُوسِ والجُذُوعِ فِي الصُّورِ يَجْعَلُها صُورًا لِأَشْيَاءَ لا رُوحَ فِيها يَحِلُّ النَّظَرُ إِلَيْها.

مَخْطُوطَةُ مَقَامَاتِ الحَرِيرِيّ ١٢٢٢م. دار الكُتُبِ القَوْمِيَّةِ بِباريس تَحْتَ رَقْمِ ٦٠٩٤

طَبِيعِيَّ أَنْ يَلْتَفِتَ مُصَوِّرُ المَقَامَاتِ إِلَى جَوَانِبٍ وَيُغْفِلُوا غَيْرِها، مُوَأَمِّينَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ أَحَاسِيْسِهِم وَأَحَاسِيْسِ بِيئَتِهِمْ. وَإِذَا كَانَ لِلْفَنِّ البِيْزَنْطِيّ أَثَرٌ كَبِيرٌ عَلَى اللُّوحَاتِ التي كَانَتْ تُسْتَخْدَمُ كَصُورٍ تَوْضِيحِيَّةٍ بِالكُتُبِ فِي أوائلِ القَرْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ، فَلَيْسَ مِنَ الغَرِيبِ أَنَّ نَسْتَشِفَّ تَأثيرَ هَذَا الفَنِّ نَفْسَهُ فِي تَصَاوِيرِ بَعْضِ مَخْطُوطَاتِ مَقَامَاتِ الحَرِيرِيّ.

وَلَمْ تَحُلْ مُنَمَّنة وَاحِدَةٌ مِن بَيْنِ مُنَمَّاتِ هذه المَخْطُوطَةِ التَّسْعِ والثَّلَاثِينَ مِن ذَلِكَ الأَثَرِ الذي وَصَفَهُ بُخْتَالُ «بِالسَّمَاتِ المُتَأَعَّرِقَةِ» والتي تَلْمَحُ فِيها دَائِمًا مِسْحَةُ الرِّصَانَةِ المَأْلُوفَةِ فِي جَانِبِ كَبِيرٍ مِنَ الفَنِّ البِيْزَنْطِيّ. ففِي مُنَمَّنة «أَبِي زَيْد فِي نَجْرَان» (لُوحَة ٧٢م) تَلْمَحُ فِي وَجْهِ أَبِي زَيْدٍ - وهو الشَّخْصِيَّةُ الرِّئِيسَةُ وَيَبْدُو مُلْتَحِجًا فِي يَسَارِ المُنَمَّنة - قَسَمَاتُ بِيْزَنْطِيَّة، كما

أَحْكَامًا فَجَّةً عَلَى إِنْسَانٍ كَأَيْتَا مَنْ كَانَ حَتَّى يَسْبِرُوا غَوْرَهُ وَيَعْرِفُوا مَخْبَرَهُ، وَأَلَّا يَكُونَ الْمَظْهَرُ الرَّثُّ، أَوْ دَمَامَةُ الْخِلْقَةِ هُمَا السَّبِيلُ إِلَى تَقْيِيمِ النَّاسِ. وَيَلْفُتُنَا طِرَازُ السَّفِينَةِ وَقَدْ تَوَسَّطَهَا الصَّارِي الَّذِي انْتَشَرَ عَلَى جَانِبَيْهِ الشَّرَاحُ وَالرُّكَابُ، يَقِفُ عِنْدَ مُقَدَّمَا - الَّذِي يُشَبِّهُ زَهْرَةَ اللُّؤْسِ - مَلَّاحٌ يُعَالِجُ الشَّرَاحَ، وَعِنْدَ مُؤَخَّرَتِهَا مَلَّاحٌ آخَرُ يُدِيرُ الدَّقَّةَ الْمُزِينَةَ بِحُلِيَّةٍ عَلَى هَيْئَةِ قُبَّةٍ مَسْجِدٍ إِلَى جِوَارِ رَايَةِ تَرْفِرُفٍ عَلَى عَمُودٍ يَنْتَهِي بِبِيرِقٍ. وَتُجَمَّلُ حَافَةُ السَّفِينَةِ مِنْ أَعْلَى سِلْسِلَةٍ مِنَ الرِّخَافِ أَشْبَهَ بِالْمُشْكَوَاتِ. هَذَا يَبْنِي تَسْجِحَ الْأَشْمَاكِ فِي انْسِيَابِ وَسْطِ الْمِيَاهِ الْمُتَمَوِّجَةِ.

وَنَمَّةٌ مُنَمَّةٌ أُخْرَى (لَوْحَةٌ ١٠١) تُصَوِّرُ مَا رَوَاهُ الْحَرِيرِيُّ عَنْ الْحَارِثِ، مِنْ أَنَّهُ قَصِدَ مَدِينَةَ «مَلَطِيَّةَ» حَيْثُ اصْطَفَاهُ تِسْعَةُ أَشْخَاصٍ اجْتَمَعُوا عَلَى الْمَوَدَّةِ وَالصَّدَاقَةِ مِنْ دُونِ أَنْ يَجْمَعَهُمْ نَسَبٌ أَوْ قَرَابَةٌ، بَلْ اخْتَشَدُوا إِلَى مَائِدَةِ الْخَمْرِ وَالشَّرَابِ. وَلَمَّا عَاشَرَهُمُ الْحَارِثُ وَأَحْبَبَهُمْ وَأَحْبَوهُ وَصَارَ وَاحِدًا مِنْهُمْ، هَبَطَ عَلَيْهِمْ أَبُو زَيْدٍ فَأَتَكَرَهُمْ لِهَوَانِ مَظْهَرِهِ وَضَالَّةِ شَأْنِهِ. وَبَقِيَ أَبُو زَيْدٍ يَرْقُبُهُمْ عَنْ كَتَبٍ، وَهُمْ يُبَدِّدُونَ أَمْوَالَهُمْ حَتَّى أَوْشَكُوا جَمِيعًا عَلَى الْإِفْلَاسِ، وَلَمَّا بَلَغُوا هَذَا الْمَبْلَغَ لَمَلَمَ الْأَطْرَافَ وَتَهَيَّأَ لِلانْصِرَافِ، فَعَلَّقُوا بِذَيْلِهِ رَاجِيْنَ أَنْ يُمَضِيَ مَعَهُمْ بَقِيَّةَ يَوْمِهِ، فَقَبِلَ عَلَى أَنْ يَسْمَحُوا لَهُ بِأَنْ يُشَارِكَهُمْ حَدِيثَهُمْ عَنِ الشُّعْرِ وَالْأَدَبِ.

وَنَلْحَظُ مِنْ جَدِيدٍ فِي هَذِهِ الْمُنَمَّةِ التَّخْوِيرَ الْمُفْرَطَ لِلْأَشْجَارِ وَالتَّبَاتَاتِ، وَتِلْكَ السَّنَةُ الشَّائِعَةُ وَهِيَ اخْتِيَارُ مُتَنَصِّفِ اللَّوْحَةِ لِرُسْمِ الشَّجَرَةِ تَكْتِفِنَهَا الشُّخُوصُ مِنَ الْجَانِبَيْنِ. غَيْرَ أَنَّ الرَّسَامَ وَإِنْ كَانَ قَدْ عَنِيَ بِرُسْمِ شَخْصِيَّةِ أَبِي زَيْدٍ وَالحَارِثِ إِلَى أَقْصَى السَّيَارِ مِنْ الصُّورَةِ إِلَّا أَنَّهُ تَكَاسَلَ فِي رَسْمِ الشُّخُوصَاتِ الْأُخْرَى فَبَدَتْ فَجَّةٌ بَدَائِيَّةٌ، وَلَعَلَّ رَسَامًا آخَرَ أَقَلَّ مِنْهُ مَقْدِرَةً قَدْ عَكَّفَ عَلَى اسْتِكْمَالِ الصُّورَةِ.

وَيَرَى توماس أرنولد، أَنَّ نَمَّةَ تَشَابُهِهِ وَاضِحٌ بَيْنَ مُنَمَّاتِ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ وَلَوْحَاتِ إِنْجِيلَيْنِ سُورِيَانِيَيْنِ رُسِمَا بِإَقْلِيمِ الْمُوصِلِ أَحَدُهُمَا مَحْفُوظٌ بِالْفَاتِيكَانِ وَالْآخَرُ بِالْمُتَخَفِ الْبَرِيطَانِيِّ. كَذَلِكَ لَاحَظَ أَنَّ بَعْضَ مُنَمَّاتِ الْمَخْطُوطَةِ قَدْ أُعِيدَ تَلْوِينُ شُخُوصِهَا بِمَا فِيهَا الْوُجُوهُ، مَعَ إِغْفَالِ الْهَالَاتِ الْمُسْتَدِيرَةِ الَّتِي اسْتُخْدِمَتْ عَشَوَاتِيًّا فِي الْمَخْطُوطَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْأُخْرَى. وَيَعْتَقِدُ هَوَلْتِرُ أَنَّ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةَ قَدْ رُسِمَتْ بِدِمَشْقَ، مُؤَيَّدًا اعْتِقَادَهُ بِوُضُوحِ الْعَنَاصِرِ الْمَسِيحِيَّةِ الْبَادِيَّةِ فِي مُنَمَّاتِهَا، عَلَى حِينِ يَنْسَبُهَا تَابِلُوتُ رَايسَ إِلَى الْمُوصِلِ، وَإِنْ كَانَ يَعُودُ فَيُعَمِّمُ نَسَبَهَا هَذَا بِقَوْلِهِ إِنَّهَا تُنَسَبُ إِلَى الْمَرَاسِمِ الشِّمَالِيَّةِ لَا إِلَى بُغْدَادٍ لِلتَّقَارُبِ الشَّدِيدِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ دُنْيَاكُ الْإِنْجِيلِيِّينِ السُّورِيَانِيِّينَ السَّابِقِ الْإِشَارَةِ إِلَيْهَا.

«إِنِّي كَفَلْتُ هَذَا الْغُلَامَ قَطِيبًا وَرَبَّيْتَهُ يَتِيمًا إِلَى أَنْ كَبُرَ وَمَهَرُ فَنَتَكَّرَ لِي وَعَقَّنِي. أَغَارَ عَلَى شِغْرِي وَادَّعَاهُ، وَسَرَقَ الشُّعْرَ عِنْدَ الشُّعْرَاءِ أَفْطَحَ مِنْ سَرَقَةِ الْأَمْوَالِ». وَأَنْكَرَ الْغُلَامُ سَرَقَةَ الشُّعْرِ، فَطَلَبَ الْحَاكِمُ إِلَيْهِمَا أَنْ يَتَطَارَحَا فَانْطَلَقَا يَتَطَارَحَانِهِ فِي تَحَكُّمٍ وَبَلَاغَةٍ حَتَّى اخْتَارَ فِي أَمْرِهِمَا، وَحَاوَلَ عَبَثًا أَنْ يُوفِّقَ بَيْنَهُمَا، وَانْتَهَى أَمْرُهُ مَعَهُمَا إِلَى أَنْ وَهَبَهُمَا جَائِزَةً سَنِيَّةً وَانْطَلَقَا. غَيْرَ أَنَّهُ مَا لَبِثَ أَنْ اكْتَشَفَ أَنَّ الشَّاعِرَ لَمْ يَكُنْ سِوَى أَبِي زَيْدٍ وَأَنَّ الْغُلَامَ لَمْ يَكُنْ سِوَى ابْنِهِ، فَطَلَبَ إِلَى الْحَاضِرِينَ أَنْ يَكْتُمُوا الْخَبَرَ حَتَّى لَا يُقَالَ إِنَّهُ قَدْ وَقَعَ فِي أَحْبُولَةٍ دُونَ أَنْ يَدْرِي. وَإِنَّ أَوَّلَ مَا يَلْفُ التَّنَظَّرُ فِي اللَّوْحَةِ هُوَ الْحَرَكَةُ الَّتِي تَبْدَأُ فِي الْأَجْسَامِ وَفِي الْإِيمَاءَاتِ الْحَيَّةِ، وَكُلَّهَا - الْحَرَكَةُ وَالْإِيمَاءَاتُ - مُعْبَّرَةٌ خَفِيفَةُ الظَّلِّ تَكَادُ تَنْتَقِ بِمَا يَدُورُ فِي مِثْلِ هَذَا الْجَمِيعِ الْفَرِيدِ.

وَفِي (لَوْحَةٌ ٩٩) نَرَى الْحَارِثَ بِنَ هَمَامٍ وَهُوَ جَالِسٌ بَيْنَ الْمُرُوجِ الْخَضْرَاءِ وَسَطَ صُحْبَتِهِ بَعْدَ أَنْ حَمَلُوا مَعَهُمْ طَعَامَهُمْ وَشَرَابَهُمْ وَاصْطَحَبُوا مُعْتَبِيًّا، وَإِذَا يَرْجُلُ زُرِّي الْخِلْقَةِ وَالْمَلْبَسِ يَهْبِطُ عَلَيْهِمْ وَيَكَاذُ يُعَكِّرُ عَلَيْهِمْ صَفْوَهُمْ. فَأَذْنُوا لَهُ بِالْبَقَاءِ عَلَى أَلَّا يَشْتَرِكَ مَعَهُمْ فِي حَدِيثٍ، ثُمَّ تَنَتَّى الْمُعْتَبِيُّ بِأَبْيَاتٍ اخْتَلَفُوا فِي مَغْنَاهَا وَإِعْرَابِهَا، فَقَامَ الْغَرِيبُ، وَأَفَاضَ فِي شَرْحِ الشُّعْرِ حَتَّى أَلْجَمَهُمْ وَعَجَبُوا لِأَمْرِهِ، وَدَعَوْهُ إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ غَيْرَ أَنَّهُ اعْتَذَرَ فِي كِبَرِيَاءِ وَشَمَمٍ، وَاتَّضَحَ أَنَّهُ أَبَا زَيْدٍ. وَتَذَكَّرْنَا التَّبَاتَاتِ الْبَادِيَّةَ فِي خَلْفِيَّةِ اللَّوْحَةِ وَالطُّيُورَ الَّتِي تَحْطُّ عَلَى أَفْنَانِهَا بِمَا رَأَيْنَاهُ فِي مُنَمَّاتِ مَخْطُوطَةِ «الْحَشَائِشِ وَخَوَاصِّ الْعَقَاقِيرِ» لِدْيوسْقوريدسٍ مِنْ تَخْوِيرِ عَنِ الْوَاقِعِ.

وَفِي مُنَمَّةٍ أُخْرَى (لَوْحَةٌ ١٠٠) يُتَابَعُ الْمُصَوِّرُ قِصَّةَ الْحَارِثِ وَقَدْ نَزَحَ إِلَى شَاطِئِ الْفُرَاتِ حَيْثُ صَادَفَ أَدْبَاءَ وَكُتَّابًا مُتَقَفِينَ مُبْدِعِينَ، مَا لَبِثُوا أَنْ اتَّخَذُوا مِنْهُ صَدِيقًا وَسَمِيرًا. وَحَدَّثَ أَنَّ كُفِّلَتْ تِلْكَ الْبَاقِيَةُ الْمُتَقَفَّةُ بِأَنْ يَرْحَلُوا إِلَى بَعْضِ جُزُرِ الْعِرَاقِ لِجَبَايَةِ الْخَرَاجِ فَاسْتَقَلُّوا سَفِينَةً وَصَحَبُوا الْحَارِثَ مَعَهُمْ. وَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِهِمُ الْمَقَامُ رَأَوْا شَيْخًا مُهْلَهْلَ الْعِمَامَةِ بِالِي الثِّيَابِ قَائِمًا فِي رُكْنٍ مِنَ السَّفِينَةِ فَعَاوُوا مَظْهَرَهُ وَهَمُّوا بِطَرْدِهِ لَوْلَا بَقِيَّةٌ مِنْ شَفَقَةٍ. وَلَمَّا انْطَلَقَتِ السَّفِينَةُ فَوْقَ سَطْحِ النَّهْرِ وَطَابَ الْهَوَاءُ وَحَلَا السَّمَرُ، سَأَلَ سَائِلٌ مِنْهُمْ عَمَّنْ يَقُوقُ صَاحِبَهُ شَرْفًا، كَاتِبَ الْإِنْشَاءِ وَالْبَيَانِ أَمْ كَاتِبَ الْخَرَاجِ وَالذِّيَوَانِ، وَذَهَبَ كُلُّ مِنْهُمْ مَذْهَبَهُ فِي التَّفْضِيلِ، وَمَا لَبِثَ أَنْ اسْتَأْذَنَ الشَّيْخُ - الَّذِي لَمْ يَكُنْ سِوَى أَبِي زَيْدٍ - فِي الْكَلَامِ فَأَذْنُوا لَهُ، فَأَفَاضَ فِي ذِكْرِ مَآثِرِ كَاتِبِ الْإِنْشَاءِ حَتَّى اعْتَقَدُوا أَنَّهُ يُفَضِّلُهُ، ثُمَّ عَادَ قَمَدُ كَاتِبِ الْخَرَاجِ بِمَا جَعَلَهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُ الْأَفْضَلُ، وَاخْتَلَطَ عَلَيْهِمُ الْفَهْمُ، وَأَرْهَقُوا أَذَانَهُمْ لَعَلَّهُ يَفْصِحُ لَهُمْ عَنْ حِكْمَتِهِ، فَأَنشَدَ أَبْيَاتًا يَنْصَحُ فِيهَا رُكَّابَ السَّفِينَةِ أَلَّا يُصْدِرُوا

موجة الاهتمام بتصوير الكائنات الحيّة

قد يكون من العسير الكشف عن المنابع التي دفعت المصوّرين العرب إلى الاهتمام بتصوير الكائنات الحيّة، غير أنّ ريتشارد إتنجهاوزن كشف في كتابه «التصوير العربي» عن أنّ ذلك يعود في جوهره إلى استقرار الحكم لمُدّة طويلة في أيدي عدد قليل نسبياً من الحكّام الأقوياء الذين عاونوا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة على هذا ازدهار. وأغلب الظنّ أنّ الخليفة العبّاسيّ الناصر (١١٨٠ - ١٢٢٥) وبذر الدّين لؤلؤ والي الموصل (١٢١٨ - ١٢٥٩) كانا من بينهم، كما أنّ كثيراً من أثرياء التجّار قد أسهموا في تشجيع الفنّانين بإقبالهم على اقتناء أعمالهم، وهو ما تؤكّده وفرة المنجزات الفنّية الثمينة التي لم تكن خالصة للملوك بل شاركتهم في الاهتمام بها وبالأعمال الأدبيّة بعامّة، الطبقة المتوسطة وطائفة التجّار الذين كان لهم دور هامّ في مجتمع ذلك العصر. فقد كانت أحوالهم الاقتصاديّة طيّبة، وأبواب العمل والكسب واسعة، ومن ضاقت عليه سبل الرزق في ناحية استطاع الانتقال إلى ناحية أخرى من دولة الإسلام الواسعة. وكانت خزانة الدولة عامرة بالمال، فلم تكن تنظر إلى ما في أيدي الناس فظهرت عليهم النعمة وكثر الأوساط والتماسير من أهل المتاجر والصناعات والحرف ومن إليهم ممن يؤمنون بالعمل ويقوم على جُهدهم رخاء المجتمعات. كذلك لعب تمجيد الأدب للمدن العربيّة الكبرى دوراً فعّالاً في ازدهار هذا الفنّ، وبرغم أنّ العصور الذهبيّة لئلك المدن كانت قد عدت جزءاً من الماضي إلّا أنّ بداية الاضمحلال شهدت في الوقت نفسه - كما هي الحال في جميع الحضارات - حركة فنّية رائعة الازدهار، وكان فنّ تصوير الأشخاص الذي ظهر في المدن الإسلاميّة الكبرى استمراً للأسلوب الواقعيّ الذي عرفته مصر منذ القرن الحادي عشر.

ولقد كان ثمة عاملان آخران لهما شأنهما: أولهما موجة الفنّون الدّراييّة الشّعبيّة التي أشارت إليها المصادر الأدبيّة المعاصرة، من مسرحيّات الآلام الشيعيّة ومسرح العرائس وخيال الظلّ. ولهذا الفنّ الأخير غداً أكثرها أهميّة بالنسبة لموضوع تصوير الشخوص في المُنمنّات، فقد كان عالم مسرح خيال الظلّ قريب الشبه بعالم المُنمنّات بقوافل إبله الزاجفة في الصحراء، وسفنه التي تمخر غباب الماء، ومعاركه البريّة التي يشترك فيها المشاة والفُرسان وبملاحيه متسلقي الجبال والصّوّاري، ومهاجمة القلاع وضرب الجصار حولها، والصّيادين ناثيري الشباك والمتعقبين الطيور بالبال. وكانت هذه المسرحيّات تتضمن - على غرار المُنمنّات - مشاهد بسيطة تدور بين عدد كبير من الشخوصيات.

ويبدو الارتباط بين هاتين الوسيليّتين التّعبيريّتين أكثر وضوحاً حين نتذكّر أنّ مسرح خيال الظلّ كان يستخدم أمائيل من الجلد المتعدد الألوان تحرك من خلف ستار أبيض رقيق. ولم تكن أطراف هذه الأمائيل ليتخلف كثيراً عن الشخوصيات المصوّرة في المُنمنّات، بل إنّ هناك دليلاً على تأثر المُنمنّات بمسرح خيال الظلّ في عصور غير بعيدة، مثل مخطوطات «كليّة ودمنة» المحفوظ باستنبول بمتحف الآثار والذي تمّ إنجازه في القرن الثامن عشر، ونرى في شخصيّاته المصوّرة بصمات شخصيّات «القرّة جوز» التّركي (انظر اللوحات ١٥/١٦/١٧).

وثاني هذين العاملين هو الشّعبيّة الواسعة لكتاب «مقامات الحريري» الذي كانت براعته اللّغويّة موضع تقدير المثقّفين، وكان بطله «أبو زيد» يسحر جماهير الشعب بذكائه ومعرفته ويعيش بفضل براعة حيلته، وينجح - على الرّغم من خروجه على العُرف السائد - في الظفر بلقمة العيش من بين أنياب وحوش المَدُن. ويجذبنا الحريري بالصّور المتعددة التي يغلف بها شخصيّة المتسوّل ممّا أثّر في خيال المصوّرين الذين عكفوا على تصوير مخطوطات المقامات المختلفة، فهو تارة يظهره في هيئة مُزريّة وتارة أخرى في هندام بديع، ونراه تارة مُستوحداً، وتارة مع ابنه أو تابعه أو زوجته، وهو لا يكف عن الاختيال على الولاة والقضاة بدعاوى مُزيّفة على أفراد أسرته، مُتنقلاً من فريسة إلى أخرى حاملاً جرابه مُمتلئاً بشخصيّته، لا تتوقّف مخيلته الخصبة عن ابتداع المكائد ونصب الفخاخ والمخائلة.

وقد ظلّ البُغض في «مقامات الحريري» محاولة للكتابة المسرحيّة، غير أنّ وجود نصوص توجّه لمُشاهدي مسرح خيال الظلّ أو العرائس في القرن الثاني عشر وتدور حول مغامرات أفاق خفيف الظلّ ومثل «أبو زيد» ليست إلّا شيئاً من قبيل الحدس وحده. ولو أنّا افترضنا أنّها وُجدت فعلاً لما تصوّرنا تسجيلها كتابة، فقد كانت تهدف إلى إمتاع جمهور أمّي إلى حدّ ما، وهو ما لا يدعو إلى التزام الدقّة في عرض النصوص، وعلى أيّة حال لم يترك لنا القرن الثاني عشر نصوصاً ولا نماذج من شخصيّات هذه المسرحيّات. ومع ذلك كلّه فإنّ المسرحيّات الثلاث من مسرح خيال الظلّ التي خلفها لنا النصف الأخير من القرن الثالث عشر والتي عكف «كاهله» الألماني على تحقيق إحداها منذ ثمانين عاماً، قادت المستشرقين إلى افتراض اعتمادها على مقامات الحريري، وهو في رأيي افتراض مشكوك فيه لسببين: أولهما أنّ نصّ إحدى هذه المسرحيّات الذي حقّقه «كاهله» مُفجّش مُغرق في الفُحش، وثانيهما أنّ هدف الحريري من مقاماته كان دائماً هو الأسلوب، وليس من الصواب أن نلتمس

الأخرى بفتح الخطم وتغيير اللون.

غَيرَ أَنَّ العُنْصُرَ الكاريكاتوريَّ يَغلبُ على جَمِيعِ الأشْكالِ الإنْسانِيَّةِ والْحَيَوَانِيَّةِ والنباتِيَّةِ، فَنَرى أبا زَيْدَ أَطوَلَ مِنْ حَقِيقَتِهِ بِلَحِيَّتِهِ المُتَدَلِّيةِ وَقَلْنُسُوتهِ الطَّوِيلَةِ المُدْبِيَّةِ وَثِيَابِهِ الرُّثَّةَ المُهْلَهْلَةَ، بَيْنَمَا يَبْدُو العَبْدُ بِخُصْلَةِ شَعْرِهِ المُتَصِيبَةِ غَيْرِ المَأْلُوفَةِ، وَتَتَجَلَّى النُّظْرَةُ الجَانِبِيَّةُ الَّتِي تَنَمُّ عَنِ الرِّيَّةِ فِيما يَدَّعِيهِ أَبُو زَيْدٍ مُرْتَسِمَةً فِي عَيْنِ الحَارِثِ بنِ هَمَّامٍ.

ولهكذا بَرَزَتِ سُخْرِيَةُ المُصَوِّرِ فِي كُلِّ لَوْحَاتِهِ الَّتِي تَتَجَلَّى فِيهَا الفُكاهَةُ القَرِيبَةُ مِنْ قَنِّ الكاريكاتيرِ، مِثَالُ ذَلِكَ اللُّوْحَةُ الَّتِي تَصِفُ المَقَامَةَ التَّاسِعَةَ والعِشْرِينَ حِينَ أَرَادَ أَبُو زَيْدٍ أَنْ يَنْتَقِمَ مِنْ أَهْلِ واسِطٍ لَمَّا لَقِيَ مِنْهُمْ مِنْ إِهَانَةٍ وَجَفَاءٍ فَأَفْتَرَحَ عَلَى الحَارِثِ أَنَّ يَتَزَوَّجَ مِنْ أَهْلِ واسِطٍ وَخَطَبَ لَهُ بِثَنَاءٍ مِنْهُمْ وَأَعَدَّوا الحَفْلَ. وَقَامَ أَبُو زَيْدٍ بِالْخُطْبَةِ وَوَزَّعَ الحَلْوَى عَلَى المَدْعُوِّينَ عَدَا الحَارِثَ فَقَدْ نَهَاها عَنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا، وَمَا كَانَ مِنَ المَدْعُوِّينَ إِلَّا أَنْ انْخَرَطُوا جَمِيعًا فِي سُبَاتٍ عَمِيقٍ، فَعَرَفَ الحَارِثُ أَنَّ الحَلْوَى مِنْ صُنْعِ أَبِي زَيْدٍ وَأَنَّهُ خَلَطَهَا بِمَادَّةٍ مُتَوَمَّةٍ. وَنَرى فِي المُنْمَنَةِ (لَوْحَةُ ١٠٢) أبا زَيْدٍ وَقَدْ عَمَدَ إِلَى مَتَاعِ القَوْمِ وَأَكْبَاسِهِمْ فَتَهَبَّ مَا فِيهَا وَحَمَلَ جِرَابَهُ وَانْسَلَّ قَائِلًا لِابْنِهِ «اخْتُمِلِ الباقِي وَاللهُ الوَاقِي».

وَتَصِفُ (اللُّوْحَةُ ١٠٣) مَا جَاءَ فِي المَقَامَةِ الثَّالِثَةِ عَشْرَةَ حَيْثُ يَرَوِي الحَارِثُ أَنَّهُ كَانَ فِي مَجْلِسٍ شِعْرٍ وَأَدَبٍ مَا كَادَ يَنْفَضُّ حَتَّى لَمَحَ عَجُوزًا عَجْفَاءَ تَسِيرُ مُتَهَالِكَةً وَخَلْفَهَا جَمْعٌ مِنْ صَبِيَّةٍ صِغارٍ فِي مَلَابِسٍ مُمَرَّقَةٍ كَأَنَّهُمْ عُرَاةٌ. وَلَمَّا وَقَفَتْ قَالَتْ بَعْدَ أَنْ بَكَتْ وَأَعْوَلَتْ «أَخْبِرْكُمْ يَا قَوْمُ أَنِّي كُنْتُ مِنْ أَكْرَمِ الأَسْرِ نَأكُلُ أَشْهُى الطَّعَامِ فِي أَطْبَاقِ الدَّهَبِ إِلَى أَنْ دَارَ الزَّمانُ وَتَغَيَّرَتِ الأَحْوالُ فَلَبِسْنَا مَلَابِسَ الهَوَانِ حَتَّى أَصْبَحْنَا إِلَى مَا تَرَوْنَ مِنَ البُؤْسِ والجُرْمانِ، وَكُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أَصُونَ نَفْسِي عَنِ السُّؤالِ وَلَا أُعْرِضُهَا لِلاِبْتِذَالِ، وَلَكِنْ هُلَوا الصَّبِيَّةُ دَفَعُونِي إِلَى غَشِيَانٍ مَنَازِلِكُمْ». فَتَأَثَّرَ الجَمِيعُ بِمَقَالِهَا وَقَامُوا بِمَا يَبْزُرُهَا فَحَمَلَتْهُ إِلَى دارِها. وَخَفَ الحَارِثُ فِي إِثْرِها، وَمَا كَادَ يَنْطَلِعُ مِنْ شُقُوقِ بابِ مَنَزْلِها حَتَّى اكْتَشَفَ أَنَّها لَمْ تَكُنْ سِوَى أَبِي زَيْدٍ وَقَدْ تَنَكَّرَ فِي هَذَا الرَّيِّ حَتَّى يَخْدَعِ النَّاسَ وَيَتَنَزَّعَ مِنْهُمْ الإِحْسانَ انْتِزَاعًا.

وَتَصِفُ (اللُّوْحَةُ ١٠٤) مَا جَاءَ بِالمَقَامَةِ الحَادِيَةِ والعِشْرِينَ حِينَ انْتَحَلَ أَبُو زَيْدٍ صِفَةَ الواعِظِ وَخَطَبَ فِي النَّاسِ فَخَلَبَ

(١) الخُطُوطُ المُحَوَّلَةُ أَوْ الحُدُودُ الخَارِجِيَّةُ:

هِيَ مَا يُحِيطُ بِجِسْمٍ أَوْ مِسَاحَةٍ مِنْ حُدُودِ تَكُونُ فَاصِلَةً بَيْنَ أَيِّ مِنْهَا وَبَيْنَ الفَرَاغِ رَسْمًا وَتَصْوِيرًا، سِوَا أَكَانَتْ فَوَاصِلَ خَطِيَّةٍ أَمْ فَوَاقِقَ لَوْنِيَّةٍ [م.م.م.ث]

الكَيانِ الدَّرَامِيَّ أَوْ القَصَصَ الْحَيَّ فِيما يُشِئُ، غَيْرَ أَنَّ هَذَا لَا يَمْنَعُ مِنْ أَنْ تَكُونَ نِهَايَةُ القَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ قَدْ شَهِدَتْ إِزْدِهَارًا لِلْفَنِّونِ الشَّعْبِيَّةِ، وَبِخَاصَّةٍ مَسْرَحِ خَيَالِ الظَّلِّ الَّذِي اهْتَمَّ فِيما اهْتَمَّ بِمَوْضُوعَاتٍ قَدْ يَكُونُ بَعْضُها قَرِيبًا مِنْ مَوْضُوعَاتِ مَقَامَاتِ الحَرِيرِيِّ فَعَدَّتْ مَصْدَرُ إِحْيَاءِ لِايَقُونوغرافيةِ مُنْمَنَاتِ مَقَامَاتِ الحَرِيرِيِّ.

مَخْطُوطَةُ «مَقَامَاتِ الحَرِيرِيِّ» ١٢٢٢م.

دارُ الكُتُبِ القَوْمِيَّةِ بِباريسِ تَحْتَ رَقْمِ ٣٩٢٩

فِي ضَوْءِ هَذِهِ النُّظْرَةِ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَتَبَيَّنَ كَيْفَ اسْتَوَحَّتْ مُنْمَنَاتُ مَخْطُوطَةِ المَقَامَاتِ الَّتِي صُوِّرَتْ فِي النُّصْفِ الأوَّلِ مِنَ القَرْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ نَمَاجِزَ، تَتَكَوَّنُ صُورُها وَأَوْضَاعُها مِنْ مَجْمُوعَةِ شَخْصِيَّاتٍ مَسْرُوحِيَّةِ خَيَالِ الظَّلِّ والعَرائِسِ وَإِمَائِها الدَّرَامِيَّةِ (لَوْحَةُ ٧٣م)، فَكُلُّ نَفَاصِيلِها تُذَكِّرُنَا بِالْخَيالاتِ والدُّمى، حَتَّى ذَلِكَ الثَّبَاتِ الصَّغِيرِ الَّذِي يَتَوَسَّطُ اللُّوْحَةَ وَكَأَنَّهُ عُنْصُرُ زُخْرُفِيٍّ مَسْرُوحِيٍّ يُسَاعِدُ عَلَى تَحْدِيدِ مَكَانِ المَشْهَدِ بِدُونِ اِزْتِياطٍ بِخُلُقِيَّةِ الصُّورَةِ أَوْ بِأَشْخاصِها. وَتُمَثِّلُ هَذِهِ المُنْمَنَةُ مَرَحَلَةَ انْتِقَالٍ فِي قَنِّ التَّصْويرِ بَعْدَ مُنْمَنَاتِ المَخْطُوطَةِ السَّابِقَةِ، فَلَيْسَ فِي رَسْمِ أَبِي زَيْدٍ التَّابِضِ بِالْحَيَوِيَّةِ أَذْنَى شَبَهٍ بِرُسُومِ تِلْكَ المَخْطُوطَةِ الَّتِي ظَهَرَ فِيها أَثَرُ التَّمَوُّجِ البِيزَنْطِيِّ الَّذِي نَقِلَتْ عَنْهُ.

وَتُصَوِّرُ المُنْمَنَةُ الحَارِثَ بنَ هَمَّامٍ مَعَ عَبْدِهِ عِنْدَ مَدْخَلِ الحُجَّاجِ إِلَى مَكَّةَ وَقَدْ أَنَاخَا الرُّكَّابَ وَمَكَّنَا لِيَسْتَرِيحَا قَبْلَ أَنْ يَسْتَأْنِفَا المَسِيرَ وَإِذَا بِرَجُلٍ مِنْ فَوْقِ الهَضْبَةِ قَدْ طَلَعَ عَلَيَّهِمَا هُوَ أَبُو زَيْدٍ السَّرُوحِيَّ يُنَادِي فِي النَّاسِ: هَلُمُّوا إِلَيَّ. وَأَخَذَ يَعِظُ وَيُبَشِّرُ وَيُنْذِرُ.

وَقَدْ أَفَرَدَ الفَنَّانُ لِلْعُنْصُرِ الثَّبَاتِيِّ المُحَوَّرِ بُؤْرَةَ الصُّورَةِ وَأَضْفَى عَلَيْهِ الحَيَوِيَّةَ والحَرَكََةَ والإيقاعَ المُنْعَمَ، عَلَى حِينِ كَانَ مَا يَزَالُ يَرِجُحُ تَحْتَ وَطْأَةِ تَقَالِيدِ الفَنِّ البِيزَنْطِيِّ، فَاحْطَاطَ رُؤُوسُ الشُّخُوصِ الثَّلَاثَةِ بِالْهَالَاتِ الَّتِي كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَدْخُرْها وَفَقَّ التَّقْلِيدِ البِيزَنْطِيِّ لِتَمْيِيزِ شَخْصِيَّةِ رَئِيسَةٍ أَوْ ذَاتِ قَدَاسَةٍ أَوْ أَهَمِّيَّةٍ. كَذَلِكَ يَبْدُو الفَنَّانُ شَحِيحًا فِي تَوَزِيعِ ألْوَانِهِ الدَّافِئَةِ عَنْ قَصْدٍ قَتِيٍّ، وَلَعَلَّهُ كَانَ يَهْدَفُ إِلَى التَّرْكِيزِ عَلَى الأَزْهَارِ الحَمْرَاءِ الثَّلَاثِ فِي العُنْصُرِ الثَّبَاتِيِّ. وَيَلْفُتُنَا أَنَّ الفَنَّانَ قَدْ خَرَجَ عَامِدًا عَلَى قَانُونِ التَّصْويرِ البِيزَنْطِيِّ الصَّارِمِ الَّذِي يَقْضِي بِرَسْمِ المُحِيطِ الخَارِجِيِّ أَوَّلًا ثُمَّ تَلْوِينَ ما بِدَاخِلِهِ، فَبَدَتْ بَعْضُ الأَجْزَاءِ دَاخِلَ الخُطُوطِ المُحَوَّلَةِ^(١) عَارِبَةً مِنَ اللُّونِ عَلَى مَا يَظْهَرُ مِنْ خُطْمِ الجَمَلِ وَجِذَاءِ أَبِي زَيْدٍ. وَتَعَمَّدَ المُصَوِّرُ إِضْفَاءَ عُنْصُرِ التَّرَاضُفِ عَلَى التَّاقِطَيْنِ مُمَيِّزًا إِحْدَاهُمَا عَنْ

ما خصَّ جبهة بِزيادة طعام].

وتروي المقامة الحادية والثلاثون كيف سافر الحارث إلى بلاد الشام ولما استقرَّ به المقام، وجد بها جمعا يُعدون أنفسهم للسفر إلى مكة لأداء فريضة الحج، ولم يلبث أن وجد نفسه في صحبتهم. ولما وصلوا إلى الجحفة - وهي مدخل الحجاج إلى مكة - أناخوا الركاب، وإذا برجل طلع عليهم من فوق الهضبة، ووقف يُنادي هلموا إليّ، فأقبل الحجاج نحوه من كل مكان، وجلسوا إليه محمّلين، وفي كلامه راغبين، فأخذ يعظ، ويشير ويُنذر، بكلام تبلغ طورا شِعرا، وطورا نثرا. ففطن الحارث إلى أنه أبو زيد، بنبات صوته وقصيح وعظه، فقصد إليه فإذا به كما توقع، ففرَّح به وعانقه عنق الإلف لئلا يلازمه ولكنه أبى أن يُرامله، وقال: عزمت في هذه الحجّة ألا أصاحب إنسانا ولا أتخذ رفيقا، وأخذ يُخاطب نفسه تائبا مُستغفرا. ويُسجل المصور في المُنمنمة (لوحة ١٠٨) لحظة عنق الحارث وأبي زيد، وقد وقف ابنه خلفه حاملا عنه عصاه التي يفوق طولها هامات القوم ومخلاته الهزيلة حتى يتفرَّع أبوه بكليته للعناق الذي عدا في الصورة أشبه بحركات المصارعة الحرّة!

ويغلب على الظن أن صور هذه المخطوطة قد نُفذت بواسطة أكثر من شخص كما كانت العادة في المدارس الإقليمية، ولمسات التحسين ليست على جانب كبير من الأهمية ولا هي بالكثرة التي يتصورها المرء للوهلة الأولى، ولكن يمكننا أن نُميّز بين بعض المُنمنمات اختلاف المنهج والأسلوب الذي نُفذت به الأغصان المرسومة أو الملونة أو التماذج الزخرفية الأخرى بما يضيفي على العمل مظهر الأعمال التي لحقها الترميم. وتتجلى واقعية مُمتعة في بعض المشاهد إلا أن أغلب الأشخاص قد رُسموا بحجم صغير، ونُفذت المناظر المحيطة بهم بطريقة بدائية مُبسطة. كما تُضفي بعض العناصر المُقتبسة عن الفن الكلاسيكي لمسة تدل على استمرار تلك التقاليد الفنية.

المُصور يحيى الواسطي

أشرنا إلى أن مخطوطة «مقامات الحريري» ١٢٣٧ المَحفوظة بدار الكتب القومية بباريس والتي سُميت باسم مُقتنيها الأول «شيفر» قد ظفرت بشهرة أوسع من غيرها. وكان الأخرى أن تُسمى باسم ناسيخها ومُصورها يحيى بن محمود الذي اشتهر بلقب الواسطي نسبة إلى واسط التي كانت موطنه في جنوب العراق. ويكاد يكون الواسطي هو الفنان الأوحد الذي انتهى إلينا اسمه مكملا عملا متكاملا من بين المخطوطات المصورة لمدرسة بغداد. ويرجع تاريخ نسخ هذه المخطوطة إلى ٣ مايو

ألباهم وإذا هم بين مُتجنب يتيكى وتائب يستغفر. ولما انتهى من خطابه إذا برجل يصرخ أمام الوالي فاتحه الرجل نحو الواعظ ليشفع له. فاتجه أبو زيد نحو الوالي يُذكره باليوم الآخر حين يستوي الناس بين يدي عالم الغيوب ويصبح الحكام والسلاطين بلا حكم ولا سلطان، فاصفر وجه الوالي وقال لعن الله الولاية والحكم ثم اتجه إلى المظلوم فأنصفه وإلى الحاكم فوبّخه وخرّج الواعظ يتبختر بعد أن «ودّع إخوانه وانطلق يسحب أردانه».

وتُصور (اللوحة ٥٨) بغضا من المقامة الرابعة والثلاثين، وقد اختار المصور منها لحظة وفاة غلام للحارث كان قد رثاه وعلمه وأدبه وأحبه كأحد أبنائه. ويرى الحارث في الصورة جالسا يُكفكف دُمعه وغلامه الميت مُسجى أمامه. وأغرب ما في اللوحة هو أن المصور لم يجد حرجا في أن يرسم صبيّا يوناني الملامح إغريقي الثياب. نرى هل وجد المصور أنه من الأيسر نسخ نموذج عن لوحة يونانية، أم قصد إلى أن الغلام كان يوناني الأصل جميل الطلعة!.

وتُصور مُنمنمة (لوحة ١٠٥) من المقامة الثانية والعشرين رحلة قام بها الحارث على شاطئ الفرات لقي فيها كُتابا بارعين وأدباء مثقفين فاختلط بهم لتَهذيبهم لا لذهبهم، وأحبهم لأخلاقهم لا لدراهمهم، ومال إليهم لأدبهم لا لِمآربهم، فأتخذوه سميّا وصاحبًا وخليلا.

وفي مُنمنمة أخرى (لوحة ١٠٦) من المقامة الثلاثين يُسجل المصور لحظة دخول الحارث مدينة صور. وبينما هو يطوف بها فوق صهوة فرس سريع الخطو إذ رأى جماعة من الفرسان يمتطون خيولهم والبشر يلوح على وجوههم، فسألهم إلى أين مسيرهم، فأجابوا بأنهم يقصدون احتفالا يعقد قران فسار معهم لعله ينال خيرا مما سوف ينالونه، حتى انتهوا إلى مكان فسيح خلّو من البناء، ورأوا شخصا يجلس على دكة. ولما سأل الحارث عن رب الدار قيل له ليست الدار ملكا لإنسان وإنما هي دار تُقام فيها أفراس الشحاذين والأفاقين والمُشعوذين.

وتُصور إحدى المُنمنمات (لوحة ١٠٧) من المقامة الثلاثين جزءا آخر من قصة دار أفراس الشحاذين والأفاقين والمُشعوذين التي نودى فيها أنه لا يعقد عقد الزواج إلا رجل كان له في الشحاذة والنصب أوفى نصيب، فما لبث أن نهض رجل أشيب مُخلدوب القامة ألقى خطبة بليغة عرّف من فصاحتها أن صاحبها أبو زيد. ولما فرغ تساقط من التثار الذهبية ما يلقى عادة في الأفراس، وقصد القوم سيمطا زينت طهاته وتناصفت في الحسن جهاته [أي كانت جهات ذلك السباط مُساوية ومُتشابهة بحيث

ويكاد مؤرّخو فنّ التصوير يُجمعون على أنّ أسلوب الواسطيّ هو أكمل نموذج لمدّسة بغداد التصويريّة، فقد أجاد التّعبير بريشته عن كلّ الحالات النّفسية واستطاع التّمييز بين مختلف الشّخصيات، بل نجح في أن يرسم شخصيّة أبي زيد بحيث تميّزها العين من أوّل نظرة في كلّ لوحة.

مقامات الحريريّ ١٢٣٧م. «مخطوطة الواسطيّ».

دار الكتب القوميّة بباريس تحت رقم ٥٨٤٧.

نسخ هذه المخطوطة وصوّر منمنماتها التسعة والتّسعين - التي رُسّمت قلة منها على صفحتين متقابلتين - يحيى بن محمود عام ١٢٣٧م. وقد اشتهر باسم الواسطيّ نسبة إلى موطنه «واسط» بجنوب العراق.

وتعدّ هذه المخطوطة من أبرز مخطوطات مدرسة بغداد، كما تُعتبر إحدى روائع التصوير الإسلاميّ، فتتوّع الموضوعات وقُدرة هذا الفنّ على التّجديد - ولو أنّه يحتفظ بطابعه المُميّز نفسه - وانطباع القوة والحياة التي تتجلّى فيه تجعل من هذا العمل خير شاهد على هذه الحقبة من التاريخ.

ولهذه المخطوطة هي أوّل عمل في التصوير الإسلاميّ نلسم اسم مبدعه عن يقين. والثابت أنّ الواسطيّ يميّز بأسلوب له طابعه الشّخصيّ، فبدلاً من أن يرصّخ للقوالب التّقليديّة أو يتقبّل الأشكال والنّمادج التي يعرضها الفنّ المسيحيّ أو الفنّ السّاسانيّ بلا تعديل نراه يستوحي مشاهداته وينقل عن المشاهد المألوفة من الحياة في العصر الإسلاميّ، ويستخلص من مؤلّف الحريريّ الممتع لوحات أمدته الحياة اليوميّة بموضوعها وعناصرها فجاءت تنطق بالحياة وليست مجرد صور تزخرف مخطوطة.

ولوحات هذه المخطوطة تميّز بتنوّع الموضوعات التي تصوّرها وبجمال التّكوين والواقعيّة، وثبتت أنّها لوحات مصوّرة أكثر ممّا هي منمنمات. فهي لوحات حقيقيّة لها قيمتها بغضّ النظر عن القصّة التي تقوم بزخرفتها لأنّ ألوانها الرّقيقة ودرجات اللّون المحدودة هي غاية في الرّحافة والحساسية بحيث تُعبّر عن الحياة نفسها تعبيراً صادقاً.

ونلمح ميّزات فنّ الواسطيّ في المنمنمة التي تصوّر المقامة العاشرة (لوحه ٢٢م) حيث قدّم أبو زيد على الوالي ممسكاً بغلام يدّعي أنّه قتل ابنه، مستهدفاً بذلك الحصول على بعض المال من

١٢٣٧، وتبلغ منمنماتها ٩٩ منمنمة مصوّرة^(١). وتعدّ هذه المخطوطة من أبرز مخطوطات مدرسة بغداد، كما تعدّ إحدى روائع التصوير الإسلاميّ. فتتوّع موضوعاتها والقُدرة على التّجديد فيها ودلائل الحيويّة التي تتجلّى فيها تجعل من هذا العمل خير شاهد على هذه الحقبة من التاريخ. وقد تميّز الواسطيّ بأسلوب له طابعه الشّخصيّ، فبدلاً من أن يرصّخ للقوالب التّقليديّة أو يتقبّل الأشكال والنّمادج التي يعرضها الفنّ البيزنطيّ والفنّ المسيحيّ أو الفنّ السّاسانيّ نقلاً حرفياً، نراه وقد استوحي مشاهداته من الحياة اليوميّة المألوفة في العصر العبّاسيّ، مستخلصاً من مؤلّف الحريريّ الممتع لوحات غنيّة بموضوعاتها وعناصرها فجاءت صورة حقّة من الحياة وليست مجرد صور تزخرف مخطوطة. فلا أثر للتأثيرات الكلاسيكيّة القديمة في خطوط الوجوه ولا في الرسوم المايعة التي تشير إليها طبّات الثّياب، ولكننا نجد أثراً جلياً لبعض التأثيرات الإيرانيّة المأخوذة عن الأصول السّاسانيّة في الشّخص ذات الرؤوس الكبيرة الحجم وفي معالجة الثّياب بطريقة زخرفيّة، وكذا المفهوم الزخرفيّ للنبات والشّجر. وهكذا أفلح الواسطيّ في الجُمع بين ما هو تّقليديّ وما هو متّقول، فإذا الأشخاص يفيضون حياة على الرّغم من أنّ يسبهم غير واقعيّة، وكذلك تبدو الحيوانات أقرب إلى طبيعتها. ولا يشدّ عن هذا غير المناظر الخلويّة التي تشبه الأشجار فيها الأغصان البحريّة العملاقة، وكذا الأزهار التي جاءت مُحورّة تحويراً شديداً فبدت أقرب ما تكون إلى ما هو مُطرز، على حين اتّسمت الخلقيّات المعماريّة بالواقعيّة والتّعبيريّة. ومما يميّز الواسطيّ عن معاصريه من الفنّانين أسلوبه السّرويّ والشّخصيّ المُميّز بالدّكاء وروح الدّعابة حتّى لثدرك أنّ مبدعه كان على حظّ كبير من خفّة الروح ويتمتع بحاسة نقد حادة. وبمدّنا فنّ الواسطيّ بمعلومات قيّمة عن العادات والتّقاليد الإسلاميّة فيما بين القرنين ١٢ و١٣، كما تعدّ صوره أكثر الفنون واقعيّة في التصوير الإسلاميّ، فريشته تُسجّل التفاصيل الدّقيقة وتصور الحياة بكلّ جوانبها ونواحيها بل طرائفها أيضاً. كما أنّها نجحت في أن تُترجم أرهف وأدقّ الخلجات النّفسية وتُجسّدّها، بل استطاعت أن تخلق من الشّخصيات المرسومة بأحجام بعيدة عن الواقع نماذج إنسانيّة تشيع فيها الحياة. وفنّ الواسطيّ - أكثر من أيّ فنّ آخر - ينفي ما أشيع عن الفنّ الإسلاميّ من أنّه فنّ غير إنسانيّ لا تتجلّى فيه شخصيّة مبدعه. ولعلّ الجانب الذي تأثّر به الواسطيّ وأملّى عليه تلك المواقف التي اختار تصوّرها دون سواها هو الجانب الأخاذ الذي استزعى نظره هذا الاستزعاء. والواقع أنّ تصاوير الواسطيّ أقرب في أسلوبها إلى اللّوحات الكبيرة منها إلى المنمنمات،

(١) أنظر: «فنّ الواسطيّ من خلال مقامات الحريريّ: أثر إسلاميّ مصوّر». لكتاب هذه السّطور. الطبعة الثانية. دار الشروق ١٩٩٢.

ببُحْل أهلها، ومُحَاوَرَة أَبِي زَيْدَ لَهُ. تَقُولُ الْمَقَامَة: «حَتَّى إِذَا أَذَانَا السَّيْرَ إِلَى قَرْيَةٍ عَزَبَ عَنْهَا الْخَيْرُ، فَدَخَلْنَاهَا لِإِلَازِتِيَادِ، وَكِلَانَا مُنْفَضِّ مِنَ الزَّادِ. فَمَا إِنْ بَلَّغْنَا الْمَحَطَّ، وَالْمُنَاحَ الْمُخْتَضَّ، إِذْ لَقِينَا غُلَامَ لَمْ يَبْلُغِ الْحِثَّ، وَعَلَى عَاتِقِهِ ضِغْثٌ (قَبْضَةُ عُشْبٍ) فَحَيَّاهُ أَبُو زَيْدٍ تَحِيَّةَ الْمُسْلِمِ، وَسَأَلَهُ وَقْفَةَ الْمُفْهِمِ، فَقَالَ الْغُلَامُ: وَعَمَّ تَسْأَلُ وَقَفَكَ اللَّهُ؟ قَالَ أَتَبَاعُ هَاهُنَا الرِّطْبِ بِالْخَطْبِ؟ وَيُجِيبُ الْغُلَامُ بَعْدَ أَنْ اسْتَمَعَ إِلَى كَلَامِ أَبِي زَيْدٍ، وَعَرَفَ أَنَّهُ أَدِيبٌ يُرِيدُ أَنْ يُوجِرَ عَلَى أَدَبِهِ: لَا وَاللَّهِ وَلَا الْبَلَحَ بِالْمَلَحِ وَلَا الثَّمَرَ بِالسَّمْرِ وَلَا الْعَصِيدَةَ بِالْقَصِيدَةِ. أَمَّا بِهَذَا الْمَكَانِ فَلَا يُشْتَرَى الشَّعْرُ بِشَعِيرَةٍ وَلَا الثَّرَى بِثَنَاءَةٍ وَلَا الْقَصَصُ بِقِصَاصَةٍ وَلَا حِكْمُ لَقْمَانٍ بِلَقْمَةٍ وَلَا أَخْبَارُ الْمَلَا حِمٍ بِلَحْمَةٍ. فَيَتَجَهَّ أَبُو زَيْدٍ لِلْحَارِثِ بِالْحَدِيثِ قَائِلًا: «اعْلَمْتُ أَنَّ الْأَدَبَ قَدْ بَارَ، وَوَلَّتْ أَنْصَارُهُ الْأَدْبَارَ... وَاعْلَمْ أَنَّ الْأَسْجَاعَ لَا تُشْبِعُ مَنْ جَاعَ».

وَقَدْ اخْتَارَ الْوَاسِطِيُّ لِمُنْمَنَتِهِ لَحْظَةً وَصُولِ أَبِي زَيْدٍ وَالْحَارِثِ إِلَى الْقَرْيَةِ، وَقَسَمَ اللَّوْحَةَ إِلَى ثَلَاثَةِ مُسْتَوِيَّاتٍ تَضُمُّ مَشَاهِدَ ثَلَاثَةٍ - وَتِلْكَ كَمَا سَبَقَ الْقَوْلُ سِمَةً مِنْ سِمَاتِ التَّصْوِيرِ الْعَرَبِيِّ - نَرَى فِي أَذْنَاهَا الْحَارِثَ وَأَبَا زَيْدٍ يَمْتَنِّيانِ نَاقَتَيْهِمَا وَأَمَامَهُمَا يَقِفُ الْغُلَامُ وَيَدُورُ الْجَوَارُ بَيْنَ ثَلَاثَتِهِمْ. وَقَدْ نَجَحَ فِي تَصْوِيرِ مَشَاعِرِ الدَّهْشَةِ وَخَيِّبَةِ الْأَمَلِ فِي وَجْهِهِمَا وَفِي إِشَارَةِ أَيْدِيهِمَا، كَمَا نَجَحَ فِي الْإِبَانَةِ عَنِ الصَّرَاحَةِ وَالْوُضُوحِ وَالثَّبَاتِ فِي نَظَرَةِ الْغُلَامِ، وَنَلَحَظُ أَنَّهُ قَدْ اسْتَعَاذَ عَنِ رَسْمِ الْغُلَامِ الْوَارِدِ بِالْمَتْنِ بِرَجُلٍ مُلْتَحٍ قَادِرٍ عَلَى أَنْ يَرْقَى بِإِذْرَاكِهِ إِلَى مُسْتَوَى الْحَدِيثِ الَّذِي دَارَ عَلَى لِسَانِهِ. أَمَّا قَوَائِمُ الرَّاحِلَتَيْنِ فَقَدْ أَدْبَعَ فِي تَصْوِيرِ حَرَكَتَيْهِمَا بِحَيْثُ بَدَتْ طَبِيعِيَّةٌ مُتَجَانِسَةٌ مِنْ حَرَكَةِ عُقْبَيْهِمَا وَرَأْسَيْهِمَا، وَفِي اخْتِلَافِ لَوْنَيْهِمَا. وَاخْتَارَ لَهُذَا الْمُسْتَوَى مِنَ الصُّورَةِ خَلْفِيَّةَ مُشْرِقَةٍ ذَاتَ لَوْنٍ هَائِسٍ يَسْمَحُ لِلتَّفَاصِيلِ بِالظُّهْرِ، ثُمَّ أَحَاطَهُ بِإِطَارٍ زُخْرَفِيٍّ مِنَ الثَّبَاتَاتِ غُرَسَ فِي أَسْفَلِهِ زُهْرًا تَدَاخَلَتْ مَعَ قَوَائِمِ الرَّاحِلَتَيْنِ فِي زَهَافَةٍ وَوَشُوشَةٍ، وَذَلَّى مِنْ إِطَارِهِ الْعُلُويِّ زُهْرًا حُمْرَاءَ كَأَنَّهَا مَصَابِيحُ عُلِّقَتْ فِي يَوْمِ غُرْسٍ. أَمَّا الْمُسْتَوَى الْأَوْسَطُ مِنَ الصُّورَةِ فَقَدْ صَوَّرَ فِيهِ بِرُكَّةٍ أَحَاطَهَا بِإِطَارٍ نَبَاتِيٍّ زُخْرَفِيٍّ وَأَطْلَقَ حَوْلَهَا أَرْبَعَ عِزْرَاتٍ يَزْتَعْنَ فِي خِفَّةٍ وَرَشَاقَةٍ، وَمَارَجَ بَيْنَ لَوْنِ الْبِرْكََةِ الْأَخْضَرِ الضَّارِبِ إِلَى الزَّرْقَةِ، وَبَيْنَ الْإِطَارِ الثَّبَاتِيِّ الزُخْرَفِيِّ الْأَخْضَرَ الْعَمِيقِ، وَعَارَضَ بَيْنَ لَوْنِي عِزْرَتَيْنِ بُيُوتَيْنِ وَأَخْرَجَ سَوْدَاوَيْنِ فِي نَعْمٍ رَاقِصٍ حُرٍّ بَعِيدٍ عَنِ التَّمَثُّلِ. وَسَجَّلَ فِي الْمُسْتَوَى الْأَعْلَى حَيَاةَ الْقَرْيَةِ وَسُكَّانَهَا، وَأَظْهَرَهُمْ دَاخِلَ بُيُوتِهِمْ وَخَارِجَهَا مُقْبِلِينَ عَلَى الْعَمَلِ فِي جَدِيَّةٍ وَنَشَاطٍ، وَقَدْ صَوَّرَهُمْ مِنْ خِلَالِ

الْوَالِي الَّذِي يَعْرِفُ هِيَامَهُ بِالْعِلْمَانِ، وَوَائِقًا مِنْ أَنَّهُ سَيُطْلِقُ الْغُلَامَ الَّذِي لَيْسَ فِي الْحَقِيقَةِ سِوَى ابْنِهِ. وَتُمَثِّلُ الْمُنْمَنَةُ أَبَا زَيْدٍ مُسَمِّكًَا بِالْغُلَامِ مُحَدِّثًا الْوَالِي - الَّذِي طَلَبَ مِنْهُ شُهُودًا لِيُبْعِدَ التُّهْمَةَ عَنِ الْغُلَامِ بَعْدَ أَنْ قُتِلَ بِهِ - قَائِلًا: «إِنَّهُ أَوْقَعَهُ عَلَى الْأَرْضِ ذَلِيلًا فَأَبَاحَ دَمَهُ خَالِيًا (مُنْفَرِدًا) فَأَتَى لَهُ شَاهِدٌ وَلَمْ يَكُنْ ثُمَّ مُشَاهِدٌ». وَلَوْ أَنَّ الْوَاسِطِيَّ خَلْفِيَّةَ اللَّوْحَةِ بَلَوْنَ أَصْفَرَ مُشْرِقٍ بِحَيْثُ يَبْرُزُ بَقِيَّةُ الْأَلْوَانِ الْمُسْتَحْدَمَةِ فِي اللَّوْحَةِ مَهْمَا خَفَّتْ دَرَجَاتُهَا، وَيُوحِي فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ بِالضُّوءِ الْبَاهِرِ. وَلَقَدْ اهْتَمَّ اهْتِمَامًا خَاصًّا بِتَغْيِيرَاتِ الْوُجُوهِ، وَمَا أَبَدَ الْفَارِقَ إِذَا مَا ضَاهَيْنَا بَيْنَ مُنْمَنَاتِهِ وَتُمَنَّمَاتِ الْمَخْطُوطَاتِ الْآخَرَى فِي هَذَا الْمَضْمَارِ.

إِنَّ وَجْهَ الْحَاكِمِ الْجَالِسِ جُلُوسَةً مُسْتَرَحِيَّةً عَلَى كُرْسِيِّهِ الْمُرْتَفِعِ فِي هَذِهِ الْمُنْمَنَةِ، لَيَعَكُسُ نَظَرَةَ شَرِّهَةِ نَحْوِ الْغُلَامِ الْجَمِيلِ، يُحَاوِلُ أَنْ يُخْفِيهَا تَحْتَ قِنَاعٍ مِنَ التَّعَالِي يَتَجَلَّى فِي تَضْمِيرِ خَدِّهِ وَفِي حَرَكَةِ يَدِهِ الْيُسْرَى الَّتِي تَبْدُو وَكَأَنَّهَا تُصْدِرُ أَمْرًا إِلَى أَبِي زَيْدٍ بِالتَّوَقُّفِ عَنِ الْحَدِيثِ، وَكَذَلِكَ فِي يَدِهِ الْيُمْنَى الْقَابِضَةِ عَلَى الْحَرْبَةِ الَّتِي اسْتَدْنَاهَا إِلَى الْأَرْضِ فِي وَضْعِ رَأْسِي. أَمَّا وَجْهُ أَبِي زَيْدٍ بَلَّ وَهَيْئَتُهُ كُلُّهَا، بِرَأْسِهِ الْكَبِيرِ الَّتِي طَوَّحَ بِهَا إِلَى الْخَلْفِ وَجِسْمِهِ التَّحِيلِ، وَبَعْيْنِهِ الْخَبِيثَيْنِ وَلِخَيْتِهِ الْبَيْضَاءِ الْمُشْعَّةِ وَقَمِهِ الْمُتَسَبِّعِ لَتَعَكُسَ كُلُّهَا الْمَكْرَ وَالِدَّاهَ يُعَلِّقُهَا حَدِيثَهُ الذَّكِيِّ الطَّلِيِّ الْمُتَدَقِّقِ فِي بَلَاغَةٍ وَحِكْمَةٍ. أَمَّا وَجْهُ الْغُلَامِ فَقَدْ صَوَّرَهُ فِي هَيْئَةٍ هِيَ أَقْرَبُ إِلَى هَيْئَةِ الْإِنْسَانِ، وَأَبْرَزَ أَهْدَابَهُ الطَّوِيلَةَ بِحَيْثُ تَشِي بِجَمَالِ عَيْنَيْهِ وَانْكِسَارِهَا، وَأَضْفَى عَلَى جِسْمِهِ اسْتِدَارَةً وَنُعُومَةً وَطَرَاوَةً تَصِلُ إِلَى حَدِّ الْإِفْتِنَاعِ بِأَنَّ هَذَا الْحَاكِمَ الْعَاشِقَ لِلْعِلْمَانِ لَا يَبْدُو أَنَّ يَدُوبُ هِيَامًا بِهَذَا الْجَمَالِ. وَلَمْ يَنْتِ الْفَتَّانُ، أَنْ يُصَوِّرَ غُلَامًا آخَرَ قَدْ أَتَفَذَ وَجْهَهُ مِنْ بَيْنِ قَائِمِ كُرْسِيِّ الْحَاكِمِ وَمَسْنَدِهِ الْخَلْفِيِّ وَمِنْ فَوْقِ فَجْدِ الْحَاكِمِ الْمُشْنِيِّ مُسْتَوِعًا بِكُلِّ حَوَاسِهِ إِلَى قِصَّةِ أَبِي زَيْدٍ، وَيَنْظُرُ فِي تَوَقُّعٍ إِلَى غَرِيمِهِ الْجَدِيدِ.

إِنَّ الْوَاسِطِيَّ، بِهَذِهِ الْحَرَكِيَّةِ الْمُتَدَقِّقَةِ، قَدْ صَوَّرَ مُجْتَمِعَ ذَلِكَ الزَّمَانِ بِأَسْرِهِ، فَضْلًا عَنْ تَصْوِيرِ قِصَّةِ أَبِي زَيْدٍ فِي هَذِهِ الْمَقَامَةِ بِالذَّاتِ. أَمَّا أَلْوَانُ الصُّورَةِ فَقَدْ شَاعَ فِيهَا الْإِنْجِسَامُ وَالتَّوَافُقُ وَالْإِيقَاعَاتُ الْحُمْرَاءُ وَالْمُذْهَبَةُ، وَازْدِيغَافُ التَّغْمَاتِ اللَّوْنِيَّةِ وَانْخِفَاضُهَا، كَمَا تَبْدُو مَثَلًا فِي لَوْنِ ثَوْبِ الْحَاكِمِ الْأَخْضَرَ بِدَرَجَتِهِ الْمُتَوَسِّطَةِ، فِي تَعَارُضٍ مَعَ لَوْنِ مَسْنَدِ الْكُرْسِيِّ الْأَسْوَدِ الْمَشُوبِ بِالْخُضْرَةِ وَجَوَارِبِ الْحَاكِمِ الْمُلَوَّنَةِ بِهَذَا اللَّوْنِ غَيْنَهُ.

وَاسْتَخْدَمَ الْوَاسِطِيُّ أَسْلُوبًا آخَرَ فِي تَصْوِيرِهِ وَهُوَ أَسْلُوبُ «الْهَانُورَامَا» الشَّامِلَةِ وَالَّذِي نَجِدُهُ فِي الْمُنْمَنَةِ الَّتِي تُصَوِّرُ الْمَقَامَةَ الثَّالِثَةَ وَالْأَرْبَعِينَ (لَوْحَةٌ ٧٤م) الَّتِي يَلْتَقِي فِيهَا أَبُو زَيْدٍ وَالْحَارِثُ خِلَالَ سَفَرِهِمَا بِغُلَامٍ قُرْبَ إِحْدَى الْقَرْيَةِ الْمَعْرُوفَةِ

شَكْلُ المُسْتَطِيلِ، وَتَتَّخِذُ كُلُّهَا مُجْتَمِعةً مُتَحَاذِيَةً شَكْلَ مُسْتَطِيلٍ وَاحِدٍ، وَفِي الرِّايَةِ المُسْتَطِيلَةِ المائِلَةِ ذاتِ الشَّرَاطِطِ المُتَدَلِّيةِ يَحْمِلُهَا الفَارِسُ الأوَّلُ فِي صَدْرِ الصُّورَةِ إِلَى الْيَسَارِ، وَكَذَلِكَ فِي الْبَيَاقِ المُسَدَّسَةِ الشَّكْلُ الَّتِي تُتَوَّجُ هَذِهِ الرِّايَاتُ كُلُّهَا. وَقَدْ اسْتَخْدَمَ الْوَاسِطِيُّ الْخُطُوطَ المُسْتَقِيمَةَ المائِلَةَ بِأَسْلُوبٍ يَقْطَعُ رَتَابَةَ المُسْتَطِيلَاتِ وَمُشْكَلاً حَرَكَةً مُضَادَّةً لِلْخُطُوطِ الْأَفْقِيَّةِ الَّتِي يَكُونُهَا الْفُرْسَانُ وَالذُّوَابُ، وَتَتِمَثَّلُ هَذِهِ الْخُطُوطُ فِي الْأَبْوَاقِ الطَّوِيلَةِ المائِلَةِ يَنْفَخُ فِيهَا الْعَازِفُونَ وَفِي الرِّايَاتِ الشَّرَاطِطِيَّةِ المائِلَةِ فِي تَعَارُضٍ مَعَ الْأَبْوَاقِ، وَالَّتِي تَبْدُو حُرَّةً طَلِيقَةً وَسَطَ مُسْتَقِيمَاتِ المُسْتَطِيلَاتِ.

كَمَا يَغْلُو قَارِعَ الطَّبَلِ سَائِرَ رِفَاقِهِ لِيَكْسِرَ أَيْضاً رَتَابَةَ صَفِّ وَجْهِ الْفُرْسَانِ الْمُتَرَاصَّةِ الَّتِي تَبْدُو غُفْلاً مِنَ التَّعْبِيرَاتِ، وَكَمْ تَسْتَرْعِنَا بَرَاعَةُ الْفَنَّانِ فِي رَسْمِ هَذَا الْحَشْدِ مِنَ الشُّخُوصِ وَالذُّوَابِ مُتَرَاصَّةٍ مُتَلَصِّقَةٍ فِي تَنْسِيقٍ رَائِعٍ، فَعَلَى حِينٍ تَتَفَتَّحُ أَشْدَاقُ التَّافِيخِينَ فِي الْأَبْوَاقِ، تَضْرِبُ الْخَيْلُ الْأَرْضَ بِخَوَافِهَا قَلْفَةً وَقَدْ تَوَتَّرَتْ قَوَائِمُهَا وَأَجْسَامُهَا وَأَعْنَاقُهَا وَبَدَتْ مَشْدُودَةً فِي تَحَفُّزٍ وَانْتِظَارٍ. أَمَّا قَوَائِمُ الْخَيْلِ وَخَوَافِهَا فَقَدْ صَوَّرَتْ غَابَةً مِنَ الْأَلْحَانِ وَالْإِنْقَاعَاتِ الَّتِي لَا يَصِلُ إِلَى تَصْوِيرِهَا سِوَى فَنَّانٍ مُتَمَكِّنٍ مُرْهَفٍ الْجِسْنِ ثَرِيٍّ الْخَيَالِ. أَمَّا عَنِ الْمُقَابَلَاتِ وَالْمُعَارَضَاتِ وَالْإِنْقَاعَاتِ اللَّوْنِيَّةِ فِي اللَّوْحَةِ كُلِّهَا فَفِي إِبْدَاعٍ يَجَلُّ عَنِ الْوَصْفِ، وَيَنْطَوِي عَلَى شِخْنَةٍ مِنَ الْإِثَارَةِ الْجَبَّاشَةِ.

وَتَمَّةٌ مُنْمَنَةٌ يَخْتَلِفُ أَمْرُهَا تَمَاماً عَمَّا سَبَقَ (لَوْحَةٌ ٧٦م) فَقَدْ صَوَّرَهَا الْوَاسِطِيُّ مِنْ وَاقِعِ الْمَقَامَةِ التَّاسِعَةِ وَالثَّلَاثِينَ الَّتِي جَاءَتْ عَلَى لِسَانِ الْحَارِثِ حَيْثُ يَقُولُ: كُنْتُ بِعُمَانَ، فَخَطَرْتُ لِي أَنْ أَرْكَبَ الْبَحْرَ، فَوَجَدْتُ مَرْكَبًا نَقَلْتُ إِلَيْهِ مَتَاعِي، وَتَعَرَّفْتُ عَلَى جَمَاعَةٍ فِيهِ، وَلَمَّا هَمَّتِ الْمَرْكَبُ فِي الْإِقْلَاعِ وَنَشَرَ الشَّرَاعَ، سَمِعْنَا مِنَ الشَّاطِئِ هَاتِفًا يَدْعُونَا لِمُصَاحَبَتِهِ، وَيَطْلُبُ إِلَيْنَا أَنْ نَقْبَلَ رُكُوبَهُ الْمَرْكَبَ، فَعَطَفْنَا عَلَيْهِ وَحَمَلْنَاهُ مَعَنَا، فَأَخَذَ يُطْرِفُنَا بِأَحَادِيثِهِ وَيَفِيضُ عَلَيْنَا مِنْ نَوَائِرِهِ، فَقُلْتُ لَهُ: بِالَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا الْبَحْرَ اللَّجِّيَّ، أَلَسْتَ السَّرُوجِيَّ؟ فَقَالَ: نَعَمْ أَنَا السَّرُوجِيَّ صَاحِبُكَ الْقَدِيمِ، فَحَمَدْتُ الصُّخْبَةَ وَالسَّفَرَ، وَسَارَتْ السَّفِينَةُ فِي هَوَاءِ عَلِيلٍ، إِلَى أَنْ هَبَّتْ عَاصِفَةٌ شَدِيدَةٌ اضْطَرَرْنَا إِلَى أَنْ نُرْسِيَ السَّفِينَةَ إِلَى جَزِيرَةٍ، فَمَكَّنَّا فِيهَا إِلَى أَنْ نَقْدَ الزَّادَ، فَدَعَانِي أَبُو زَيْدٍ أَنْ أَصْحَبَهُ إِلَى دَاخِلِ الْجَزِيرَةِ سَعْيًا وَرَاءَ الْقُوْتِ. وَسِرْنَا إِلَى أَنْ صَادَفْنَا جَمَاعَةً مِنَ الْعَبِيدِ يَحْرُسُونَ قَصْرًا، وَهُمْ فِي غَايَةِ الْكَآبَةِ فَسَأَلْنَا وَاحِدًا مِنْهُمْ عَنِ سِرِّ الْكَآبَةِ فَقَالَ: إِنَّ امْرَأَةً حَاكِمَ الْبَلَدِ فِي حَالَةٍ وَضَعُ وَعُسَرٍ فِي الْوِلَادَةِ. فَقَالَ أَبُو زَيْدٍ: إِنَّ عُنْدِي وَصْفَةً لَهُذِهِ الْحَالِ، وَكَتَبْتُ كَلَامًا، وَوَضَعُهُ دَاخِلَ خُرْقَةٍ مِنَ الْحَرِيرِ وَعَمَسَهُ فِي

قِطَاعٍ يَمُرُّ بِتِلْكَ الْبُيُوتِ وَالْحَوَانِيتِ جَمِيعُهَا فَبَلَغَ بِهَذِهِ الْحِيلَةِ مَا أَرَادَ، وَلَمْ يَتَسَنَّ قُبَّةُ الْجَامِعِ وَمِثْلُهُ فِي أَعْلَى يَسَارِ الصُّورَةِ وَإِلَى جِوَارِهِ جِدْعٌ نَخْلَةٌ تَتَدَلَّى أَغْذَاقُهَا وَاسْتَرْبَ يَصْفُ تَاجُهَا إِلَى خَارِجِ الْهَامِشِ وَاخْتَفَى أَدْنَى جِدْعُهَا خَلْفَ الْجَامِعِ. عَلَى حِينِ بَدَا الذِّبْكَ الْمَرْهُوٌّ فِي وَضْعِهِ الْأَشْمَ فَوْقَ أَعْلَى سَطْحِ فِي الْقَرْيَةِ كَالْتَّاجِ الْمُتَفَرَّدِ الْأَنِيقِ، وَخَلْفَهُ دَجَاجَةٌ تَلْقُطُ الْحَبَّ مُحْتَمِيَةً بِرَيْشِ ذَيْلِهِ فِي اسْتِكَانَةٍ وَودَاعَةٍ. وَلَمْ يَتْرِكْ فَرْدًا مِنْ أَبْنَاءِ الْقَرْيَةِ إِلَّا وَأَسْنَدَ إِلَيْهِ مَا يَشْغَلُهُ، فَفِي أَقْصَى الْيَمِينِ امْرَأَةٌ تَغْزُلُ الصُّوفَ، يَلْبِهَا فَرَّانٌ يَحْمِلُ «مِطْرَحَةَ الْأَرْغِفَةِ» وَيُدْخِلُهَا إِلَى لَهْيِبِ الْفُرْنِ، ثُمَّ امْرَأَةٌ تُطَلُّ مِنْ نَافِذَتِهَا، بَعْدَهَا أُخْرَى تُسَاوِمُ بِائِعًا، وَخَلْفَهُمَا فَتَاتَانِ صَغِيرَتَانِ فِي انْتِظَارِ وَتَرْقُبِ، وَرَأْسُ بَقَرَةٍ تُطَلُّ مِنَ الْخَطِيرَةِ سَاعِيَةً إِلَى الْخَارِجِ، ثُمَّ رَجُلٌ أَدَّى فَرِيضَةَ الصَّلَاةِ وَهُمْ بِمُغَادَرَةِ الْمَسْجِدِ. كَذَلِكَ لَمْ يُغْفَلِ الْوَاسِطِيُّ أَدَقَّ التَّفَاصِيلِ حَتَّى طِرَازَ الْعِمَارَةِ ذَاتِ الْعُقُودِ. وَلَقَدْ جَاءَ الرُّسْمُ فَضْلاً عَنْ جَمَالِيَّاتِهِ وَإِنْقَاعَاتِهِ اللَّوْنِيَّةِ الْجَذَابَةِ، وَخُطُوطِهِ الدَّائِرِيَّةِ الْهَنْدَسِيَّةِ الْمُتَقَابِلَةِ فِي الْمُسْتَوَيَاتِ الثَّلَاثَةِ، أَمِينًا أَمَانَةً كَامِلَةً مَعَ النَّصِّ، وَأَمَّا مَا أَبْدَعَهُ الْوَاسِطِيُّ مِنْ خَيَالِهِ الْخَصْبِ فَهُوَ لَا يَتَعَارَضُ مَعَهُ بَلْ يُعَمِّقُهُ وَيُجَلِّيه.

وَتَتَحَدَّثُ الْمَقَامَةُ السَّابِعَةُ «بَرْقَعِيدٍ فِي يَوْمِ عِيدٍ» فِي عِبَارَاتٍ عَامَّةٍ عَنِ الْفُرْسَانِ الَّذِينَ يَتَأَهَّبُونَ لِلْإِسْتِزَارِ فِي أَحَدِ الْأَعْيَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي هَذِهِ الْبَلَدَةِ (لَوْحَةٌ ٧٥م). يَقُولُ الْحَارِثُ: «أَزْمَعْتُ الشُّخُوصَ مِنْ بَرْقَعِيدٍ وَقَدْ تَطَلَّعْتُ إِلَى تَأَلَّقِ الْعِيدِ وَاتَّبَعْتُ السُّنَّةَ فِي ثُبْسِ الْجَدِيدِ وَبَرَزْتُ النَّاسَ لِلتَّعْيِيدِ».

وَلَقَدْ أَبْدَعَ الْوَاسِطِيُّ فِي هَذِهِ الْمُنْمَنَةِ فِي اسْتِخْدَامِ الْمُسْتَقِيمَاتِ وَالْمُسْتَطِيلَاتِ وَالْقَوَمِ الْمُدْبِيَّةِ، فَوْقَ خَلْفِيَّةٍ مُشْرِقَةٍ عَلَى نَهْجِهِ الَّذِي رَأَيْنَاهُ فِي لَوْحَاتِهِ السَّابِقَةِ. وَتَمَّةٌ نَظَرِيَّةٌ مَعْرُوفَةٌ تَقُولُ إِنَّ الْعَقْلَ مَيَّالٌ إِلَى كُلِّ مَا هُوَ مُبَسَّطٌ، ثُمَّ هُوَ مَيَّالٌ إِلَى تَعَمُّقِهِ لِيَتَعَرَّفَ إِلَى الْأَشْكَالِ الْهَنْدَسِيَّةِ النَّظْمِيَّةِ فِيهِ. هَذَا الْمَيْلُ وَذَاكَ الْعُمُقُ إِذَا مَا اسْتَطَرَّدَا فَمَضَيَا بَحْثًا عَنِ الْمُتَعَةِ انْتَهَيَا إِلَى اسْتِثْبَاتِ التَّوَافُقِ أَوْ الْإِسْجَامِ التَّشْكِيلِيِّ. وَكُلَّمَا اقْتَرَبَ الشَّكْلُ الْمُصَوَّرُ مِنَ الْأَشْكَالِ الْهَنْدَسِيَّةِ النَّظْمِيَّةِ الْبَسِيطَةِ كَانَ فِي ذَلِكَ مَا يُقَرِّبُ الْعَقْلَ مِنْ إِدْرَاكِ الْوَاقِعِ، فَالْمُرْبَعُ وَالْمُسْتَطِيلُ وَالْمُثَلَّثُ وَالدَّائِرَةُ هِيَ الْأَسَاسُ فِي التَّكُونِيَّاتِ الْمُصَوَّرَةِ، وَهَذِهِ كُلُّهَا أَشْكَالٌ لَا يَسْتَعْصِي عَلَى الْعَقْلِ إِدْرَاكُهَا. وَهَا نَحْنُ نَرَى أَنَّ الْوَاسِطِيَّ لَمْ يَخْرُجْ عَنْ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ الْأَوَّلِيَّةِ مُسْتَخْدِمًا الْأَشْكَالَ الْهَنْدَسِيَّةَ الْمُبَسَّطَةَ: فَتَتِمَثَّلُ الْمُسْتَطِيلَاتُ فِي الْكُتْلَةِ الْوَسِيطَةِ الَّتِي تَجْمَعُ الْفُرْسَانُ وَالْعَازِفِينَ وَمَجْمُوعَةَ خِيُولِهِمْ وَيَغَالِهِمْ، وَفِي الْبَيَارِقِ الْمُتَلَصِّقَةِ الْمُتَابِعَةِ وَعَلَيْهَا نَقُوشُ وَكِتَابَاتُ إِسْلَامِيَّةٍ يَغْلِبُ عَلَيْهَا لَفْظُ الْجَلَالَةِ، وَالَّتِي يَتَّخِذُ كُلُّ مِنْهَا

عَلَيْهَا طَابَعَهُ، وَحَلَّتِ النُّظُمُ والعادات الإسلامية والتراث الشعبي الإسلامي في هُدوء محلّ القواعد الثقافية للمصادر الأولى وصبغت جماع الحضارة الإسلامية بوحدة الطابع المميز لها والمُغْلَف لهذا التخليط المتنافر العناصر الذي شكّلت منه الحضارة الإسلامية لُحْمَتِهَا وَسَدَاهَا. وقد تفوق صُور «المقامات» في طرافتها حكايات ألف ليلة وليلة فضلاً عن أنها تُحاكيها، دون شك، من حيث قدرتها على استيعاب العناصر الأجنبية وإدماجها في صلبها ثم حُسن استِخدامها لِتُشكِّل في النهاية مِرآة صادقة للحضارة العربية.

وقد ورد في المقامة الثانية والثلاثين ذكر لزُهر من الإبل (لُوحَة ٧٧م) فَتَحَرَّكَ خَيَال الواسطي وأبدع صورة في مُخَيِّلَتِهِ عَكَّسَهَا في مُنَمِّمَةِ جَاءَتْ آيَة في تاريخ التصوير العربي. بدأ الفُتَان الصُورَة من اليسار فطالَعا بِعُنُقِ نَاقَة وقد تدلّى إلى الأرض يَلْتَمِسُ العُشْبَ وَحَجَبَ عَنْهَا سَائِر جَسَدِهَا خَلْفَ بَقِيَّةٍ مِنْ رَتْلٍ مِنْ أَعْنَاق مُرْتَفِعَةٍ إِلَى أَعْلَى وَكَأَنَّهَا تَصْرَعُ إِلَى اللَّهِ فِي غُلَاهُ عُنُقًا خَلْفَ عُنُقٍ إِلَى مُتَنَصِّفِ الصُورَة حَيْثُ تَبْدُو أَعْجَازُ بَقِيَّةِ الثَّوْقِ فِي تَتَالٍ تَحَاكِي أَنْصَافَ قِيَابٍ وَقَدْ تَدَاخَلَتْ، حَتَّى إِذَا مَا انْتَهَيْنَا إِلَى يَمِينِ الصُورَة رَأَيْنَا نَاقَةً دَلَّتْ عُنُقُهَا تَتَلَمَّسُ العُشْبَ فِي أَدْنَى الصُورَة، وَمِنْ وَرَائِهَا فِي أَقْصَى الْيَمِينِ رَاعِيَةٌ يَقِظَةُ مُمَسِكَ بِعَصَا رَفِيعَةٍ فِي وَضْعَةٍ رَأْسِيَّةٍ تَمِيلُ إِلَى الْخَلْفِ، وَقَدْ مَالَتْ هِيَ الْأُخْرَى بِرَأْسِهَا قَلِيلاً إِلَى الْوَرَاءِ، وَبِهَذَا تَكُونُ قَدْ أَتَمَّتْ دَوْرَةَ الانْجِنَاءِ الَّتِي بَدَأَتْ مِنْ يَسَارِ الصُورَة. وَبَدَتْ قَوَائِمُ الثَّوْقِ وَأَخْفَافُهَا وَكَأَنَّهَا سُوقُ أَشْجَارٍ غَابَةِ رَهْفَةٍ تَعَانَقَتْ وَتَدَاخَلَتْ وَافْتَرَقَتْ وَالتَقَتْ فِي تَرْجِيعٍ لَهُ بَدَايَةٌ وَلَا نِهَايَةٌ لَهَا. وَتَوَافَقَتْ أَلْوَانُ الثَّوْقِ وَتَمَازَجَتْ، تَخَفَّتْ وَتَعَلَوُ فِي إِنْقَاعٍ مَحْسُوبٍ، عَارِضُهَا الْمُصَوِّرُ يَلُونُ أَحْمَرَ زَاوٍ فِي وَشَاحٍ الرَّاعِيَةِ، وَبِأَخْضَرٍ ضَارِبٍ إِلَى الزَّرْقَةِ فِي ثَوْبِهَا، وَبِالْأَسْوَدِ فِي نَعْلِهَا، شَأْنٌ قَائِدٌ جَوْفَةً مُوسِيقِيَّةً عَبْقَرِيَّ يَخْتَمُ اللَّحْنُ الْهَامِسُ بِإِنْقَاعٍ هَادِرٍ. وَلَمْ يَتَخَلَّ الواسطي عن شَرِيطَةِ التَّبَاتِيءِ الْأَخْضَرِ الْهَادِي الْمَثُورِ بِالزَّهْرَاتِ الْحُمْرَاءِ أَسْفَلَ اللَّوْحَةِ، الْمُوحِي بِالْجَنَّةِ لَا الصَّخْرَاءِ.

وبمثل هذه اللوحة، وما هو في مُستَوَاهَا - وهو من الثدرة بِمَكَانٍ - كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَكُونَ لِلْفَنَّ الْعَرَبِيِّ شَأْنٌ آخَرٌ لَوْ أَنَّهُ قَدْ أُتِيحَتْ لِلْفَتَانِ الْعَرَبِيِّ الْمُسْلِمِ حُرِّيَّةُ الْكَامِلَةِ فِي أَنْ يُتَابِعَ التَّصْوِيرَ عَلَى مَرَّ الْقُرُونِ التَّالِيَةِ.

وَيَتَنَاوَلُ الْحَرِيرِيُّ فِي مَقَامَتِهِ الْحَادِيَةِ وَالثَّلَاثِينَ مَوَاقِبَ الْحَجِّ، وَيَسْخَرُ مِنَ الصُّحَّاجِ وَالْعَجِيجِ الَّذِي يُثِيرُهُ الْحُجَّاجُ دُونَ مَعْنَى أَوْ هَدَفٍ أحياناً:

الرُّبْدَة، ثُمَّ قَالَ: تُوضَعُ هَذِهِ الْجُرُفَةُ عَلَى فَخِذِ الْمَرْأَةِ، وَلَمْ تَمْنُصْ إِلَّا دَقَاقِ حَتَّى وَضَعْتَ غُلَامًا. وَبَلَغَ الْخَبَرَ الْوَالِي فَفَرَحَ وَاسْتَبَشَرَ، وَسَأَلَ عَنِ السَّرِّ، فَذَلَّلُوهُ عَلَى أَبِي زَيْدٍ فَأَغْدَقَ عَلَيْهِ، وَجَعَلَهُ مِنْ خَاصَّتِهِ. قَالَ الْحَارِثُ: فَلَمَّا رَأَيْتُهُ قَدْ مَالَ حَيْثُ يَكْتَسِبُ الْمَالُ، تَوَجَّهْتُ إِلَيْهِ بِاللُّومِ، فَاعْتَذَرَ إِلَيَّ وَاعْتَذَرَ عَنِ الْمَسِيرِ مَعِي، وَوَدَّعَنِي إِلَى الْمَرْكَبِ ثُمَّ عَادَ.

نرى الواسطي هنا وقد اختار لحظة الولادة، وانتقل من البادية حَيْثُ كَانَ حُرًّا طَلِيقًا إِلَى الْحَضَرِ بِقِيُودِهِ وَبُيُوتِهِ الْمُحْكَمَةِ الْعَلْقُ، وَقَدْ رَسَمَ اللَّوْحَةَ عَلَى مُسْتَوَيْنِ وَقَسَمَ كُلًّا مِنْهُمَا إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ رَأْسِيَّةٍ. نرى فِي الْمُسْتَوَى الْعُلَوِيِّ مِنَ اللَّوْحَةِ فِي الْإِطَارِ الْأَوْسَطِ الزَّوْجَ ذَا الْمَلَامِيحِ الْهِنْدِيَّةِ الْوَاضِحَةِ وَقَدْ جَلَسَ الْقُرْفَصَاءُ وَعَلَى وَجْهِهِ بَدَتْ مَشَاعِرُ الْقَلْقِ وَالتَّوَثُّرُ مُمَسِّكًا لِحَيْتِهِ بِيَدِهِ الْيَمْنَى، وَخَلْفَ كُرْسِيَّةٍ تَقِفُ جَارِيَتَانِ هِنْدِيَتَانِ بَدَتْ رَأْسَاهُمَا فَقَطُّ مِنْ فَوْقِ الْمَسْنَدِ. وَفِي الْإِطَارِ الْأَيْسَرِ نَرَى أَبَا زَيْدٍ يَكْتُبُ التَّمِيمَةَ، وَفِي الْإِطَارِ الْأَيْمَنِ شَيْخًا مُمَسِّكًا بِأَسْطُرْلَابٍ يَنْتَبِأُ أَوْ لَعْلَهُ يُصَلِّي دَاعِيًا اللَّهَ أَنْ تَضَعَ زَوْجَةَ الْحَاكِمِ طِفْلَهَا بِالسَّلَامَةِ. وَصَوَّرَ فِي الْإِطَارِ الْأَوْسَطِ لِلْمُسْتَوَى الْأَدْنَى امْرَأَةً بَدِينَةً مَهُولَةً عَرَاهَا عُرْيًا كَامِلًا وَهِيَ فِي حَالَةٍ وَضَعٍ مُتَعَسِّرٍ وَقَدْ اسْتَنْدَتْ بِإِخْدَى ذِرَاعَيْهَا إِلَى كَيْفٍ جَارِيَةٍ بَيْنَا جَلَسَتْ أُخْرَى أَدْنَى فَخِذَيْهَا الْمُنْفَرَجَيْنِ تَنْتَظِرُ الْمَوْلُودَ الْمُنْتَظَرُ فِي صَبْرٍ وَأَنَاءَةٍ. وَفِي الْإِطَارَيْنِ الْأَيْمَنِ وَالْأَيْسَرِ وَقَفَتِ جَارِيَتَانِ أُخْرَيَانِ إِحْدَاهُمَا تُمَسِّكُ بِأَيْتِيَّةٍ مُذْهَبَةٍ لَعْلَ بِهَا شَرَابًا يُعِينُ الزَّوْجَةَ عَلَى كَرْبِ حَالِهَا، بَيْنَمَا تَحْمِلُ الْأُخْرَى آيَةً قَدْ تَكُونُ لِإِطْلَاقِ الْبُخُورِ.

ولقد كان الواسطي أمينًا مع النَّصِّ كَعَادَتِهِ، فَقَدْ اسْتَنْجَحَ مِنَ النَّصِّ أَنْ الْجُزْرَ الَّتِي وَصَلَتْ إِلَيْهَا السَّفِينَةُ هِيَ مِنَ الْجُزْرِ الَّتِي أَبْحَرَ إِلَيْهَا الْحَارِثُ وَأَبُو زَيْدٍ مِنَ الْخَلِيجِ، أَيْ أَنَّهَا جُزْرٌ يَقْطُنُهَا الْهُنُودُ، وَمِنْ ثَمَّ فَقَدْ رَسَمَ جَمِيعَ الشُّخُوصِ مِنَ الْهُنُودِ مَا عَدَا أَبَا زَيْدٍ وَحَامِلَ الْأَسْطُرْلَابِ وَلَعْلَهُ الْحَارِثُ.

وقد كشف إتنجهاوزن بحق عن أَنَّ الْعَنَاصِرَ الْهِنْدِيَّةَ فِي صُورِ الْمَقَامَاتِ لَيْسَتْ مُجَرَّدُ أُسْلُوبٍ مِنْ أُسَالِيبِ التَّصْوِيرِ كَمَا فِي صُورَةِ رَبِّ الدَّارِ الشَّبِيهِ بِالتَّامِيكِ الْهِنْدِيِّ وَلَا هِيَ مُجَرَّدُ تَفْصِيلَاتٍ تَنْقَطُهَا الْمُصَوِّرُ مِنَ الْمَلَّاحِينَ الْهُنُودِ وَهُمْ يَعْبُرُونَ بِمَوَانِي الْعِرَاقِ، بَلْ إِنَّ هَذَا الْمُصْطَلَحَ الْهِنْدِيَّ قَدْ انْدَمَجَ فِي التَّشْكِيلِ الْعَامِّ لِلصُّورَةِ عَلَى غِرَارِ صُورِ أَلْفِ لَيْلَةٍ وَلَيْلَةٍ الَّتِي تَمَيَّزَتْ - بِمِثْلِ صُورِ الْمَقَامَاتِ - بِقُدْرَتِهَا عَلَى اسْتِيعَابِ الْعَنَاصِرِ الْأَجْنَبِيَّةِ وَتَمَثُّلِهَا.

وقد كتب فون جرونباوم عن ذلك قائلًا: لَقَدْ أُشْرِبَتْ رُوحُ الْإِسْلَامِ قِصَصًا يَهُودِيًّا وَبُذِيًّا وَمُتَأَعْرِفًا، غَيْرَ أَنَّ الْوَاسِطِيَّ خَلَعَ

ما الْحَجَّ سَيْرِكَ تَأْوِيًّا وَإِذْجَالًا

ولا اغتياصك أجمالا وأخذاجا^(١)

الْحَجَّ أَنْ تَقْصِدَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ عَلَى

تَجْرِيدِكَ الْحَجَّ لَا تَقْضِي بِهِ حَاجًا

وَتَمْتَنِّي كَاهِلَ الْإِنْصَافِ مُتَّخِذًا

رَدْعَ الْهَوَى هَادِيًا وَالْحَقَّ مِنْهَا جَا

وَأَنْ تُوَاسِيَ مَا أُوتِيَتْ مَقْدِيرُهُ

مَنْ مَدَّ كَفًّا إِلَى جَذُوكَ مُخْتَا جَا

فهذه إن حَوَّنَهَا حِجَّةً كَمَلَتْ

وإن خلا الْحَجَّ مِنْهَا كَانَ إِخْدَا جَا^(٢)

أخي فابغ ما تُبْدِيهِ مِنْ قَرَبِ

وَجْهِ الْمُهَيِّمِينَ وَلَاجًا وَخَرَا جَا^(٣)

وعلى عادة الواسطي في إدراكه العميق لمغزى النص وما عناه
الحريري منه رَسَمَ مُنَمَّة (لَوْحَة ٧٨م) وَقَدْ غَلَبَ عَلَيْهَا طَائِعُ التَّرْقِ
والتَّهْرِيجِ، فَالْحَرَكَةُ فِيهَا صَخْبٌ وَاهْتِزَازٌ، وَالْقَوْمُ مُدْعُونَ هَازِلُونَ
وَالثُّوقُ مُتَبَخِّرَةٌ نَكَادٌ تَشِي وَجُوهًا بِالسُّخْرِيَّةِ، وَقَائِدُ الْقَافِلَةِ - وَهُوَ
عَلَى مَا يَبْدُو الْفَارِسَ رَاكِبَ الْجَوَادِ - تَكْسُو وَجْهَهُ مَلَامِيحٌ تَبْدُدُ
الْحِجْنَ. وَصُورُ الْفَتَانِ ذَيْلُ الْجَمَلِ الْأَسْوَدِ حَامِلٌ هَوْدَجِ النِّسَاءِ -
كَمَا نَعْتَقِدُ - مُلْتَوِيًا كَالْأَفْعَى مَنقُوشِ الْوَبْرِ. وَبِمَعْنَى أَشْمَلِ عَمَدِ
الْمُصَوِّرِ إِلَى تَجْرِيدِ رِجَالِ الْقَافِلَةِ وَدَوَابِّهَا مِنْ سِمَاتِ الْقَدَاسَةِ
وَالْجَدِّيَّةِ الْمَفْرُوضَةِ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْكِبِ الدِّينِيِّ الْوَقُورِ. وَهُوَ
إِلَى ذَلِكَ قَدْ اخْتَارَ أَلْوَانًا مُتَنَاسِقَةً وَخُطُوطًا انْسِيَابِيَّةً عَذْبَةً، وَأَطْلَقَ
مِنْ مَرَكَزِ الصُّورَةِ مُتَوَازِيَاتٍ تَتَمَثَّلُ فِي عِصِيِّ الْبَيَارِقِ الطَّوِيلَةِ
الرَّشِيقَةِ تَتَدَلَّى مِنْهَا رَايَاتٌ مُثَلَّثَةٌ الشَّكْلُ مُهَذَّبَةٌ، وَفِي الْأَبْوَاقِ
الْقَصِيرَةِ يُطْلَقُهَا الزَّائِمُونَ فِي حِمَاسٍ. وَلَمْ يَنْسَ النَّبَاتَاتِ
الرُّخْرَاقِيَّةَ فِي أَدْنَى اللَّوْحَةِ.

مَقَامَاتُ الْحَرِيرِيِّ ١٢٢٥-١٢٣٥ (مَخْطُوطَةٌ سَانِ
بَطْرِسْبَرْج). مَعْهَدُ الدِّرَاسَاتِ الشَّرْقِيَّةِ بِأَكَادِمِيَّةِ الْعُلُومِ.
سَانِ بَطْرِسْبَرْج.

تتناول المقامة الثامنة والثلاثون من هذه المخطوطة شيوخ
ظاهرة الكُدِيَّة (التَّسْوُل) عَنْ طَرِيقِ مَذْحِ الْحُكَّامِ وَالْوَلَاةِ
وَمُدَاهَنَتِهِمْ وَتَقْدِيرُهَا نَقْدًا سَاخِرًا لِإِذْعَا. وَلَعَلَّ الْحَرِيرِيَّ قَصَدَ
كَذَلِكَ إِلَى السُّخْرِيَّةِ مِنْ عَقْلِيَّةِ أُولَئِكَ الْحُكَّامِ وَالْوَلَاةِ وَتَفَاهَةِ مَا
يُؤَدُّونَ لِلدَّوْلَةِ مِنْ خِدْمَاتٍ وَسُوءِ تَقْدِيرِهِمْ فِي الْحُكْمِ عَلَى

الْأَشْخَاصِ وَالْأَشْيَاءِ. وَتُرْوِي الْمَقَامَةَ أَنَّ أَبَا زَيْدٍ قَصَدَ مَجْلِسَ
أَخْدِ الْوَلَاةِ لِمَا شَاعَ عَنْهُ مِنْ كَرَمٍ وَسَخَاءٍ، وَأَنَّ الْوَالِيَّ سَأَلَ أَبَا
زَيْدٍ عَنْ حَسَبِهِ وَنَسَبِهِ اسْتِثْكَارًا لَهُ وَاسْتِثْكَارًا بِشَأْنِهِ وَمِمَّا أَثَارَ صَجْكَ
الْحَاضِرِينَ وَسُخْرِيَّتِهِمْ وَجَرَحَ مَشَاعِرَ أَبِي زَيْدٍ فَأَنْشَأَ يَقُولُ: «إِغْلَمْ
وُقِيَتْ الذَّمُّ كُفِيَتْ الْهَمُّ، أَنَّ مَنْ نِطَطَ بِهِ الْأَعْمَالُ، وَعُلِقَتْ بِهِ
الْأَمَالُ... إِلَى أَنْ يَقُولَ وَهُوَ مُغْضٍ: لَا تَسْأَلُ الْمَرْءَ مَنْ أَبُوهُ
وَاخْتَبِرْ خِلَالَهُ ثُمَّ صِلْهُ أَوْ قَاطِعْ صِلَتَكَ بِهِ» وَهَذِهِ حِكْمَةٌ أُخْرَى
قَصَدَهَا الْحَرِيرِيُّ مِنْ مَقَامَتِهِ، شَجَبَ فِيهَا تِلْكَ التَّنْظَرَةَ الضَّيِّقَةَ
الْجَاهِلَةَ الَّتِي لَا تُقِيمُ الْأَشْخَاصَ إِلَّا بِحَسَبِهِمْ وَنَسَبِهِمْ دُونَ مَا
نَظَرَ إِلَى عِلْمِهِمْ أَوْ فَضْلِهِمْ.

وَأَغْلَبَ الظَّنُّ أَنَّ الْمُصَوِّرَ قَدْ اخْتَارَ لِمُنَمَّتِهِ (لَوْحَة ٧٩م)
لَحْظَةً لِقَاءِ الْحَاكِمِ سُؤَالَهُ فِي وَجْهِ أَبِي زَيْدٍ عَنْ حَسَبِهِ وَنَسَبِهِ
وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيِّ مُرْتَفِعٍ يُشِيرُ بِيَدِهِ مُسْتَخْفًا، بَيْنَمَا ظَهَرَ أَبُو
زَيْدٍ فِي خَضْرَتِهِ يُشِيرُ بِأَصْبَعِهِ وَيَرْفَعُ رَأْسَهُ بِالْإِجَابَةِ عَلَى الْحَاكِمِ مِنْ
دُونَ خَوْفٍ، وَخَلْفَهُ شَخْصٌ قَدْ اخْتَضَنَ عَمُودًا مِنْ أَعْمِدَةِ الْهَوَى،
وَقَدْ تَشَابَهَتْ مَلَابِسُهُ مَعَ مَلَابِسِ ثَالِثٍ يَجْلِسُ خَلْفَ كُرْسِيِّ الْوَالِيِّ،
فِي تَفَاصِيلِهَا وَأَلْوَانِهَا عِدَا الْعِمَامَةِ. وَلَعَلَّ هَذَيْنِ الشَّخْصَيْنِ سَائِلَانِ
وَقَدْ انْتَهَى دَوْرُ أَحَدِهِمَا فَجَلَسَ خَلْفَ الْوَالِيِّ، ثُمَّ شَرَعَ أَبُو زَيْدٍ فِي
السُّؤَالِ، وَانْتَظَرَ الثَّالِثُ دَوْرَهُ، أَوْ أَتَاهُمَا مِنْ أَفْرَادِ الْحَاشِيَّةِ يَسْتَمْعَانِ
إِلَى مَا يَجْرِي مِنْ حَدِيثٍ. وَثَمَّةُ أَشْخَاصٍ ثَلَاثَةٌ آخَرُونَ يَجْلِسُونَ
فِي مُقَدِّمَةِ الصُّورَةِ، أُولَاهُمْ مِنْ نَاحِيَةِ الْيَمِينِ يَضَعُ عِمَامَةً سَوْدَاءَ وَقَدْ
بَدَأَ عَلَى وَجْهِهِ الْإِنْدِهَاشُ أَوْ لَعَلَّهُ قَدْ شَرَعَ يَضْحَكُ، يَلِيهِ آخَرٌ يَبْدُو
ظَهْرَهُ لِلْمُشَاهِدِ وَعَلَى رَأْسِهِ عِمَامَةٌ بَيْضَاءَ حَوْلَهَا هَالَةٌ ذَهَبِيَّةٌ، ثُمَّ
ثَالِثٌ فِي وَضْعَةٍ جَانِبِيَّةٍ، يَزْنِي جَبَّةَ حَمْرَاءَ وَعِمَامَةً بَيْضَاءَ وَفِي
يَدِهِ وَرَقَةٌ يُسَجِّلُ فِيهَا مَا يَجْرِي، وَلَعَلَّهُ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ، ذَلِكَ أَنَّهُ
يَتَكَرَّرُ بِشَكْلِ مُتَمَاثِلٍ تَقْرِيبًا فِي مُنَمَّمَاتٍ أُخْرَى. وَمِنْ الْغَرِيبِ أَنْ
نَرَى الْمُصَوِّرَ وَقَدْ أَحَاطَ بِرَأْسِ شَخْصٍ مَجْهُولٍ بِهَالَةٍ مُدْهَبَةٍ عَلَى
نَهْجِ التَّقْلِيدِ الْبِيزَنْطِيِّ، بَيْنَمَا جَعَلَ عِمَامَةَ الْوَالِيِّ سَوْدَاءَ، وَمِمَّا يُقِيدُ
أَنَّهُ قَدْ اسْتَعْدَمَ هَذِهِ الْهَالَةَ كَعُنْصُرٍ زُخْرُفِيٍّ بَحْتٍ مُجَرَّدٍ مِنْ أَيِّ
مَعْنَى زُخْرُفِيَّةٍ. أَمَّا الْمَعْمَارُ فَلَا عُمُقَ لَهُ وَإِنْ اهْتَمَّ الرَّسَّامُ
بِالْعَلَاقَاتِ فِي الْفَرَاغِ.

وَيُصَوِّرُ الْفَتَانِ فِي إِخْدَى الْمُنَمَّمَاتِ (لَوْحَة ٨٠م) فَضْلًا مِنْ
قِصَّةِ الْمَقَامَةِ السَّابِعَةِ وَالثَّلَاثِينَ الَّتِي تُرْوِي عَنْ الْحَارِثِ أَنَّهُ صَادَقَ
قَاضِيًا شَرِيفًا فِي مَدِينَةِ صَعْدَةَ وَكَانَ يُرَافِقُهُ إِلَى مَجْلِسِ الْقَضَاءِ.

(١) اغتياص: إختيار. أخذاج: مَخَفَاتِ النِّسَاءِ.

(٢) إخداج: نَقْص.

(٣) وَلَاجًا خَرَا جَا: دَاخِلًا خَارِجًا.

والهالة الثاينة حَوْلَ عِمَامَةِ الْقَاضِي فِي أَعْلَى مَوْقِعِ بِاللُّوْحَةِ تَحْتَ سَقْفِ الْحُجْرَةِ الْمَرْسُومَةِ، وَالثَّالِثَةِ فِي مُسْتَوَى أَدْنَى مِنَ الْمُسْتَوِيِّينَ السَّابِقِينَ حَوْلَ عِمَامَةِ الْحَارِسِ فِي أَقْصَى يَسَارِ الصُّورَةِ. وَلَمْ يَقُتْ الْمُصَوِّرُ أَنْ يَرَسِمَ ثَلَاثَةَ أَشْخَاصٍ جَالِسِينَ فِي صَدْرِ الصُّورَةِ صَوْرَهُمْ مِنْ ظُهُورِهِمْ، يَبْدُو أَنَّ أَوَّلَهُمْ مِنَ الْيَسَارِ وَهُوَ مُرْتَدِي الْجُبَّةِ الْحُمْرَاءِ الْمُتَمَيِّزَةِ هُوَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ. وَتَشْتَرِكُ هَذِهِ اللُّوْحَةُ مَعَ غَيْرِهَا مِنْ لَوْحَاتِ الْمَقَامَاتِ فِي الْوَاقِعِيَّةِ الصَّادِقَةِ وَالْحَرَكَةِ التَّايِضَةِ وَخِفَّةِ الظَّلِّ وَاسْتِيعَابِ النَّصِّ الْأَدَبِيِّ اسْتِيعَابًا وَصَلَ إِلَى حَدِّ إِظْهَارِ رُوحِهِ مُتَوَبِّعَةً فِي ثَنَائِهَا. كَمَا تَتَمَيَّزُ بِالْوَاقِعِيَّةِ الْأَخَاذَةِ وَبِخَاصَّةِ إِذَا مَا قُورِنَتْ بِالْأَعْمَالِ السَّابِقَةِ، وَلَكِنَّهَا بِالنَّسْبَةِ لِهَذِهِ الْمَحْطُوطَةِ لَا تَعْدُو أَنْ تَكُونَ تَكَرَّارًا، فَهِيَ مُجَرَّدُ تَنْوِيعٍ لِلوَحَةِ رُسِمَتْ بِمَقَامَةٍ سَابِقَةٍ وَفَقِ تَغْيِيرِ إِتْجَاهِهَا وَزَنِ.

وَتَمَّةٌ قَضِيَّةٌ هَامَّةٌ أَوَّلَاهَا هَذَا الْفَتَانُ عَنَابَتَهُ أَلَا وَهِيَ الْإِتِّجَاءُ إِلَى مُخْتَلِفِ الْعَجَلِ لِلإِيْحَاءِ بِالْبَيْئَةِ الَّتِي تُحِيطُ بِأَحْدَاثِ الْقِصَّةِ، وَهُوَ مَا نَجِدُهُ فِي مَشْهَدِ السَّفِينَةِ الَّتِي تَزِينُ مَطْلَعِ الْمَقَامَةِ التَّاسِعَةِ وَالثَّلَاثِينَ (لَوْحَةُ ٨١م). وَقَدْ صُوِّرَتِ الْمُنْمَنَةُ عَلَى التَّهَجُّعِ عَيْنَهُ الَّذِي صُوِّرَتْ بِهِ الْمُنْمَنَتَانِ السَّابِقَتَانِ وَإِنْ تَفَرَّدَتْ عَنْهُمَا بِتَفْصِيلَاتٍ أَكْثَرَ ثَرَاءً، فَتَرَى أَبَا زَيْدٍ وَقَدْ أُنْذِفَ مِنْ أَقْصَى يَسَارِ اللُّوْحَةِ يَقْبِضُ عَلَى بُرُوزِ امْتِدَادِ خَارِجِ السَّفِينَةِ الَّتِي بَدَأَتْ تُبْجِرُ فِعْلًا مُتَشَبِّهًا بِهَا مُسْتَبْسِلًا، مُهَيِّيًا بِخَارِطِهَا أَنْ يَسْمَحُوا لَهُ بِرُكُوبِهَا، حَامِلًا غِرَارَةً بِهَا مَوْزَنَةً. وَقَدْ كَتَّفَ اخْتِفَاءُ جُزْءٍ مِنْ جِسْمِ أَبِي زَيْدٍ خَارِجَ إِطَارِ الصُّورَةِ الْإِخْسَاسَ بِحَرَكَتِهِ الْمَلْهُوفَةِ صَوْبَ السَّفِينَةِ الْمُتَحَرِّكَةِ. وَمَا كَانَ أَيْسَرَ عَلَى الْفَتَانِ الَّذِي بَالِغٌ فِي تَسْجِيلِ التَّفَاصِيلِ فِي الْمُنْمَنَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ أَنْ يُصَوِّرَ أَبَا زَيْدٍ كَامِلًا غَيْرَ أَنَّهُ تَعَمَّدَ رَسْمَهُ نَاقِصًا وَكَأَنَّهُ يَنْدِفِعُ مِنْ دَاخِلِ إِطَارِ صُورَةٍ أُخْرَى نَحْوِ إِطَارِ هَذِهِ الصُّورَةِ. وَقَدْ ظَهَرَتْ قَامَةً أَبِي زَيْدٍ كَبِيرَةً غَيْرَ مُتَلَائِمَةٍ مَعَ حَجْمِ السَّفِينَةِ، وَأَطْلَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ مِنْ نَافِذَةِ الْقَمَرَةِ الْأُولَى مِنْ يَسَارِ السَّفِينَةِ مُرْتَدِيًا عِمَامَةَ حُمْرَاءَ، وَإِلَى يَسَارِهِ أَطْلَتْ رُؤُوسُ ثَلَاثَةٍ مِنَ الرَّاكِبِينَ مِنَ الْقَمَرَاتِ الثَّلَاثَةِ يُحْمَلِقُونَ، يَبْتَئِمُ يَنْظُرُ الرِّبَّانُ مِنْ قَمَرَتِهِ الْعَالِيَةِ شَرَرًا إِلَى أَبِي زَيْدٍ فِي دَجَى اللَّيْلِ وَهُوَ يَصِيحُ مُسْتَرْجِعًا: «يَا أَهْلَ ذَا الْفَلَكَ الْقَوِيمِ الْمُرْجَى فِي الْبَحْرِ الْعَظِيمِ هَلْ أَدَلَّكُمْ عَلَى تِجَارَةِ تُنْجِيَكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ»، فَقَالُوا لَهُ أَقْبِسْنَا نَارَكَ أَيُّهَا الدَّلِيلُ، وَأَرَشِدْنَا كَمَا يُرْشِدُ الْخَلِيلُ الْخَلِيلُ، فَقَالَ أُنْتَصَحِبُونَ ابْنِ سَبِيلٍ؟ فَأَجْمَعْنَا عَلَى الْجُنُوحِ إِلَيْهِ وَأَنْ لَا نَبْخُلَ بِالْمَاعُونِ عَلَيْهِ. فَلَمَّا اسْتَوَى الْفَلَكَ قَالَ: أَعُوذُ بِمَا لَكَ الْمُلْكُ مِنْ مَسَالِكِ الْهَلِكِ. إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَا أَخَذَ عَلَى الْجُهَالِ أَنْ يَتَعَلَّمُوا حَتَّى أَخَذَ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَنْ يُعَلِّمُوا. وَإِنْ مَعِيَ لَعُودَةٌ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ مَأْخُودَةٌ... ثُمَّ صَاحَ صَوْبَ الْمُبَاهِي وَقَالَ أَتَذَرُونَنِي مَا هِيَ؟ هِيَ وَاللَّهِ حِرْزٌ لِلْسَّفَرِ عِنْدَ مَسِيرِهِمْ فِي

وَذَاتِ يَوْمٍ دَخَلَ رَجُلٌ يَرْتَعِشُ وَزَعَمَ أَنَّ لَهُ خَصَمًا غَنِيًّا، وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ دَخَلَ غُلَامٌ كَأَنَّهُ الضَّرْغَامُ، فَقَالَ الشَّيْخُ: أَيَّدَ اللَّهُ الْقَاضِي، إِنَّ وَلَدِي هَذَا كَالْعَمَلِ الرَّدِيِّ وَالسِّفِّ الصَّدِيِّ، إِنْ قُلْتُ لَهُ أَذْهَبَ يَمِينًا يَذْهَبُ شِمَالًا، وَإِنْ شَرَفْتُ غَرْبًا، وَإِنْ غَوَّيْتُ شَرْقًا، وَجُمْلَةُ الْكَلَامِ أَنَّهُ غُنَّانُ الْخِلَافِ. فَقَالَ الْغُلَامُ: إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا دَعَا إِلَّا أَمَنْتُ، وَلَا سَأَلَنِي إِلَّا أَجَبْتُ، وَإِنِّي أَطَوِّعُ لَهُ مِنْ أَصْبَعِهِ. وَلَكِنَّهُ مُنْذُ أَنْ افْتَقَرَ وَذَهَبَ حَالُهُ وَأَفْلَسَ، طَلَبَ إِلَيَّ أَنْ أُمِدَّ يَدِي لِلسُّؤَالِ لِأَعِينَهُ عَلَى دَفْرِهِ وَأُصْلِحَ مِنْ حَالِهِ، وَقَدْ سَبَقَ أَنْ رَبَّنَانِي عَلَى الْعِزَّةِ وَالْكَرَامَةِ. فَانْتَفَضَ الشَّيْخُ وَقَالَ: إِنِّي عَلَّمْتُهُ أَنَّ الْقَنَاعَةَ كَثْرُ، وَلَكِنَّ الضَّرُورَاتِ تُبَيِّحُ الْمَحْظُورَاتِ. وَاسْتَمَرَ التَّفَاقُشَ بَيْنَهُمَا طَوِيلًا شِعْرًا وَنَثْرًا. وَرَأَى الْقَاضِي حَسَمًا لِلْخِلَافِ أَنْ يَدْفَعَ إِلَيْهِمَا مَبْلَغًا مِنَ الْمَالِ يُعِينُهُمَا عَلَى الْحَيَاةِ. وَحِينَ تَبَيَّهَ الْحَارِثُ بَعْدَ انْصِرَافِهِمَا رَاوْغَاهُ وَانْكَشَفَ أَنََّّهُمَا أَبُو زَيْدٍ وَوَلَدُهُ.

وهي قِصَّةٌ طَرِيفَةٌ أُخْرَى مِنْ أَلَا عَيْبِ أَبِي زَيْدٍ وَخِفَّةِ ظِلِّهِ وَجِنَكَتِهِ وَذَكَائِهِ. وَقَدْ اسْتَطَاعَ مُصَوِّرُ هَذِهِ الْمُنْمَنَةِ أَنْ يَعْكَسَ كُلُّ هَذِهِ الْمَعَانِي فِي قُدْرَةٍ وَبَسَاطَةٍ، فَصَوَّرَ الْقَاضِي فِي صَدْرِ الصُّورَةِ عَلَى كُرْسِيِّهِ الْمُرْتَفِعِ فِي وَضْعَةٍ مُوَاجِهَةٍ بِجِسْمِهِ، وَقَدْ لَفَتْ وَجْهَهُ تِجَاهَ مُحَدَّثِهِ فِي وَضْعَةٍ أَقْرَبَ إِلَى الْوَضْعَةِ الْجَانِبِيَّةِ، غَيْرَ أَنَّ الْمُصَوِّرَ نَفَذَ هَذَا التَّكْوِينَ الْمُتَبَايِنَ بِأُسْلُوبٍ فِي غَايَةِ الْيُسْرِ وَالْبَسَاطَةِ بَحَيْثَ لَا تَلَحُظُ الْعَيْنُ لِلْوَهْلَةِ الْأُولَى. فَقَدْ أَسْبَغَ عَلَى وَجْهِ الْقَاضِي مَلَامِيحَ التَّسَامُحِ وَسَعَةَ الصَّدْرِ وَالتَّأَنِّي فِي الْاسْتِيعَابِ إِلَى تِلْكَ الشَّكَاةِ الطَّوِيلَةِ الَّتِي يَطْرَحُهَا أَبُو زَيْدٍ، كَمَا أَحَاطَ عِمَامَتُهُ الرِّزْقَاءُ بِهَالَةِ مُذْهَبَةٍ، وَلَعَلَّهُ هُنَا بِالذَّاتِ عَنِ الرُّمُزِ نَفْسَهُ الَّذِي تَغْنِيهِ تِلْكَ الْهَالَةُ فِي التَّصْوِيرِ الْبِيزَنْطِيِّ وَهُوَ عُلُوُّ الْمَكَانَةِ. ثُمَّ صَوَّرَ أَبَا زَيْدٍ الْمُسْتَعْطِيفَ الطَّلِيقَ اللِّسَانَ وَقَدْ رَمَى بِرَأْسِهِ إِلَى الْخَلْفِ وَرَفَعَ كِلْتَا يَدَيْهِ مُحَاوِلًا التَّأْثِيرَ بِهِمَا عَلَى حُكْمِ الْقَاضِي فِي قَضِيَّتِهِ. وَلَمْ يَقُتْ الْمُصَوِّرُ وَصْفَ الْغُلَامِ فِي الْمَقَامَةِ «بِالضَّرْغَامِ» فَرَسَمَهُ غُلَامًا ضَخْمَ الْجُثَّةِ كَبِيرِ الرَّأْسِ بِإِلَامَةِ عِمَامَةٍ، بَحَيْثَ ظَهَرَ أَبُو زَيْدٍ مِنْ أَمَامِهِ وَأَخَذَ الْحُرَّاسَ مِنْ خَلْفِهِ أَقْرَبَ إِلَى الْقَرَمِينَ بِالنَّسْبَةِ لَهُ. وَمِمَّا يَلْفُظُ النَّظَرُ أَنَّ الْمُصَوِّرَ جَعَلَ هَذَا الْغُلَامَ يَحْتَضِنُ عُمُودًا ضَخْمًا عَلَى غِرَارِ الشَّخْصِ السَّابِقِ الْإِشَارَةِ إِلَيْهِ فِي الْمُنْمَنَةِ السَّابِقَةِ، وَهِيَ ظَاهِرَةٌ تَكَرَّرَتْ فِي عِدَّةٍ مُمْنَمَاتٍ، وَلَعَلَّ الْفَتَانَ كَانَ يَقْصِدُ بِهَذِهِ الْوَضْعَةِ الْغَرِيبَةِ أَنْ يَرْمِزَ إِلَى انْتِظَارِ دَوْرِهِ لِلْكَلامِ، أَوْ لَعَلَّهُ قَصَدَ أَنْ تَكُونَ مُجَرَّدَ فَكَاةٍ يَسْخَرُ فِيهَا مِنْ أَشْخَاصِ الْقِصَّةِ أَوْ يُسَايِرُ بِهَا رُوحَ السُّخْرِيَةِ وَالدُّعَابَةِ الْغَالِيَةِ عَلَى الْمَقَامَاتِ. أَمَّا الْهَالَاتُ الْمُذْهَبَةُ فَقَدْ اسْتَحْدَمَهَا الْمُصَوِّرُ فِي حِسِّ زَهْفٍ بِالْإِيقَاعِ اللَّوْنِيِّ، فَوَزَّعَهَا عَلَى اللُّوْحَةِ تَوَزِيعًا مَوْقِعَ النَّعْمِ، إِحْدَاهَا حَوْلَ عِمَامَةِ شَيْخٍ يَجْلِسُ خَلْفَ الْقَاضِي فِي مُسْتَوَى أَدْنَى وَيَنْظُرُ بِإِلْفَاتٍ شَدِيدَةٍ إِلَى مَا يَجْرِي،

يَشْكُو إِلَيْهِمْ مَا حَلَّ بِهِ وَإِذَا بَرَجُلٌ عَثَرَ عَلَى مَطِيَّةٍ ضَالَّةٍ يَبْحَثُ عَنْ صَاحِبِهَا وَذَكَرَ بَعْضُ أَوْصَافِهَا فَظَنَّ أَبُو زَيْدٍ أَنَّهَا نَاقَتُهُ وَطَلَبَ أَنْ يَسْلَمَهَا مِنْهُ فَرَفُضَ لِأَنَّ أَبَا زَيْدٍ لَمْ يَذْكُرْ أَوْصَافًا تَنْطَبِقُ عَلَيْهَا، وَاخْتَلَفَا فَاحْتَكَمَا إِلَى شَيْخٍ شَرَحَ أَمَامَهُ الرَّجُلُ الَّذِي وَجَدَ الْمَطِيَّةَ الْقَضِيَّةَ مُسْتَحْدِمًا عِبَارَاتِ التَّوْرَةِ فِي حَدِيثِهِ عَلَى التَّهْجِ الْخَاصِّ بِالْمَقَامَاتِ وَانْتَهَى بِعَرَضِ «الْمَطِيَّةِ» الَّتِي وَجَدَهَا إِذَا هِيَ مُجَرَّدُ نَعْلٍ.

وَنَرَى فِي الْمُنَمَّةِ أَنَّ الْفَتَانَ قَدْ صَوَّرَ مَضَارِبَ الْخِيَامِ بِمَا يُوحِي بِضَخَامَتِهَا وَاتِّسَاعِهَا وَبُجُودِ طُرُقَاتِ تَتَخَلَّلُهَا، وَلَوْْنُهَا بِاللُّونِ الْبَيْتِيِّ الْقَائِمِ وَزَرَكُشَهَا بِخُطُوطِ سَوْدَاءٍ مُتَقَاطِعَةٍ. وَرَسَمَ تَحْتَ سَقْفِ الْخِيَمَةِ الْأُولَى - وَهِيَ عَلَى مَا يَبْدُو خِيَمَةُ شَيْخِ الْقَبِيلَةِ - ثَلَاثَةَ شُخُوصٍ، شَيْخَ الْقَبِيلَةِ وَقَدْ أَمْسَكَ بِيَدَيْهِ الثَّغْلَ الَّذِي عَثَرَ عَلَيْهِ الرَّجُلُ الْجَالِسُ أَمَامَهُ عَلَى الْأَرْضِ، بَيْنَمَا وَقَفَ أَبُو زَيْدٍ يَشْرَحُ دَعْوَاهُ فِي حِمَاسٍ بِالِخ. وَلَوْنُ أَرْضِيَّةِ الْخِيَمَةِ بِاللُّونِ الدَّهْبِيِّ وَلَمْ يَقْنَهُ أَنْ يَرَسُمَ خَلْفَ شَيْخِ الْقَبِيلَةِ زِيرَ الْمَاءِ وَتَحْتَهُ سَجَادَةٌ مُلَوَّنَةٌ. وَبَيْنَ الْخِيَمَتَيْنِ، وَفِي الطَّرِيقِ الَّذِي تَصَوَّرَ الْفَتَانَ أَنَّهُ يَفْصَلُهُمَا رَسَمَ شَخْصَيْنِ يَتَحَدَّثَانِ، يَبْدُو أَنَّ أَحَدَهُمَا هُوَ الْحَارِثُ وَلَعَلَّهُ يَحْكِي لِزَمِيلِهِ أَوْ يَسْتَفْسِرُ مِنْهُ عَنِ الْقِصَّةِ، أَوْ لَعَلَّهُ مِنْ بَيْنِ الْقَاطِنِينَ فِي هَذِهِ الْخِيَامِ. وَفِي النَّاحِيَةِ الْمُقَابِلَةِ لِهَذَيْنِ الشَّخْصَيْنِ، رَسَمَ وَجْهَ رَجُلٍ لَوْنُهُ بِاللُّونِ الْبَيْتُسُجِيِّ الْقَائِمِ لَهُ عَيْنَانِ جَاحِظَتَانِ وَفَمٌ كَالدَّائِرَةِ لَوْنُهَا جَمِيعًا بِاللُّونِ الْأَبْيَضِ، وَرَسَمَ حَوْلَ رَأْسِهِ هَالَةً مُذْهَبِيَّةً، بِمَا جَعَلَ هَذَا الشَّخْصَ يَبْدُو وَكَأَنَّهُ مُلْتَمٌ، وَلَعَلَّهُ يَرْمِزُ بِذَلِكَ إِلَى أَنَّهُ سَارِقُ نَاقَةِ أَبِي زَيْدٍ يَتَلَصَّصُ عَلَى مَضَارِبِ الْخِيَامِ، خُصُوصًا وَأَنَّ هُنَاكَ رَقَبَةٌ نَاقَةٍ تَبْدُو رَأْسُهَا مَرْفُوعَةٌ إِلَى أَعْلَى بِالْقُرْبِ مِنْ ذَلِكَ الْمُلْتَمِ وَمِمَّا قَدْ يُفِيدُ أَنَّهُ رَاكِبُهَا، ثُمَّ أَضَافَ رَقَبَةَ نَاقَةٍ أُخْرَى تَدَلَّتْ إِلَى أَسْفَلٍ لِتَلْتَمِشَ بَعْضَ الْحَشَائِشِ. وَقَدْ كَوَّنَ وَجْهَ الرَّجُلِ وَرَأْسَهُ مَعَ رَقَبَتِي النَّاقَتَيْنِ وَرَأْسَيْهِمَا تَشْكِيلًا زُخْرُفِيًّا جَمِيلًا. وَمِنْ خَلْفِ الْخِيَامِ وَفَوْقَ أَرْضِيَّةِ صَفْرَاءَ بَاهِتَةٍ رَسَمَ الْفَتَانَ سِتَّةَ حِرَابٍ طَوِيلَةٍ تُوحِي بِأَنَّ حَامِلِيهَا هُمُ حُرَاسُ الْقَبِيلَةِ وَتُكُونُ مَعَ شَكْلِ شِبْهِ الْمُتَنَحْرِفِ الَّذِي يَصْنُمُ مَضَارِبَ الْخِيَامِ تَقَاطِعَاتٍ إِيقَاعِيَّةً مُرِيحَةً. وَتَرَكَّزَ حَرَكَتُهُ اللَّوْحَةُ فِي حَرَكَاتِ أَبِي زَيْدٍ، وَفِي حَرَكَاتِ شَيْخِ الْقَبِيلَةِ فِي صَدْرِ الصُّورَةِ. وَثَمَّةُ إِيقَاعَاتٍ لَوْنِيَّةٍ جَمِيلَةٍ تَبْدُو فِي اللَّوْنِ الْأَحْمَرِ لِتُؤَبِّي أَبِي زَيْدٍ، وَتُرَدِّدُ صَدَاهُ فِي السَّجَادَةِ الَّتِي يَجْلِسُ عَلَيْهَا الشَّيْخُ، ثُمَّ فِي عِمَامَةٍ وَصِدَارِ الْحَارِثِ. كَذَلِكَ نَرَى رَجْعَ صَدَى لَوْنِ الْأَرْضِيَّةِ الدَّهْبِيِّ فِي عِمَامَةِ الشَّيْخِ الَّذِي يُحَادِثُ الْحَارِثَ، وَفِي الْهَالَةِ الَّتِي تُحِيطُ بِرَأْسِ الرَّجُلِ الْمُلْتَمِ وَالْجُزْءِ الْبَادِي مِنْ صَدْرِهِ وَفِي لَوْنِ الْحِرَابِ الْبَادِيَةِ فِي خَلْفِيَّةِ الصُّورَةِ.

الْبَحْرُ... وَبِهَا اسْتَعَصَمَ نُوحٌ يَوْمَ الطُّوفَانِ وَنَجَا وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْحَيَّوَانِ عَلَى مَا صَدَعَتْ بِهِ آيَةُ الْقُرْآنِ. ثُمَّ قَرَأَ بَعْدَهَا أَسَاطِيرَ تَلَاهَا وَزَخَارِفَ حَلَّاهَا، وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا».

وَنُلاحِظُ أَنَّ الْفَتَانَ قَدْ رَسَمَ هَاتَيْنِ مَذْهَبَتَيْنِ حَوْلَ رَأْسِ مَلَّاحِينَ أَحَدَهُمَا فِي مُقَدِّمَةِ السَّفِينَةِ وَالثَّانِي فِي مُؤَخَّرَتِهَا قَاصِدًا بِذَلِكَ إِلَى تَوْفِيرِ إِيقَاعِ لَوْنِيٍّ مُتَوَازِنٍ تَرْتَّاحَ لَهُ عَيْنُ الْمُشَاهِدِ.

وَقَدْ أَلْهَمَتْ مَنَاطِيرُ الْبَحْرِ خَيَالَ مُصَوِّرِي الْمَقَامَاتِ جَمِيعَهُمْ بِمَا فِيهِمُ الْوَاسِطِيَّ، غَيْرَ أَنَّا نَلْحِظُ فُرُوقًا هَامَّةً بَيْنَ مُنَمَّةِ الْوَاسِطِيِّ لِهَذِهِ الْمَقَامَةِ (لَوْحَةٌ ٨٢م) وَبَيْنَ مُنَمَّةِ مَخْطُوطَةِ سَانَ بَطْرُسْبِرْجِ الَّتِي نَحْنُ بِصَدِّدِهَا. فَفِي هَذِهِ الْمُنَمَّةِ الْأَخِيرَةِ اهْتَمَّ الْفَتَانُ بِأَبِي زَيْدٍ وَبِحَرَكَتِهِ وَبِحَرَكَتِ الْمَوْجِ الصَّاحِبَةِ وَبِالْمُنَاقَشَةِ الدَّائِرَةِ بَيْنَ أَبِي زَيْدٍ وَالْبَحَّارَةِ عَلَى سَطْحِ الْمَرْكَبِ، عَلَى حِينِ أَغْفَلَ الْوَاسِطِيَّ فِي مُنَمَّةِ رَسْمِ أَبِي زَيْدٍ إِغْفَالًا تَامًّا، وَلَعَلَّهُ افْتَرَضَ أَنَّهُ قَدْ تَسَلَّلَ إِلَى السَّفِينَةِ فَعَلًّا وَاخْتَفَى فِي مَكَانٍ مَا مِنْهَا مَعَ اسْتِيعَادِ أَنْ يَكُونَ أَحَدَ الْمُطْلِقِينَ مِنْ نَوَافِدِ الْقَمَرَاتِ لِمَا يَبْدُو عَلَيْهِمْ مِنْ أَنَّهُمْ مِنْ عِلْيَةِ الْقَوْمِ وَلَيْسَ أَبُو زَيْدٍ سِوَى جَوَّابِ آفَاقٍ. كَمَا افْتَرَضَ - الْوَاسِطِيَّ أَنَّ السَّفِينَةَ قَدْ أَقْلَعَتْ فَعَلًّا وَصَارَتْ فِي غُرْضِ الْبَحْرِ، فَلَيْسَ ثَمَّةُ إِشَارَةٍ تُوحِي بِبُجُودِ الشَّاطِئِ، وَاهْتَمَّ بِأَنْ يُصَوِّرَ الْمَوْجَ هَادِنًا رَتِيبًا يَتَحَرَّكُ السَّمَكُ بَيْنَ طَيَّانِهِ أَمِنًا مُطْمَئِنًّا مُنْتَظِمَ الْحَرَكَةِ، وَأُبْرِزَ فُرُوقًا وَاضِحَةً فِي تَلْوِينِ وَجْهِ الرُّكَّابِ بِلَوْنٍ فَاتِحٍ يُشِيرُ إِلَى بَيَاضِ وَجْهِهِمْ بَيْنَا لَوْنُ وَجْهِ الْبَحَّارَةِ بِاللُّونِ الْبَيْتِيِّ إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُمْ مِنَ الْهُنُودِ. أَمَّا فِي مُنَمَّةِ سَانَ بَطْرُسْبِرْجِ فَقَدْ أَسْبَغَ الْفَتَانُ اللَّوْنُ الْبَيْتِيَّ عَلَى كُلِّ الْوُجُوهِ. وَيَسُودُ الطَّائِعُ الزُّخْرُفِيُّ مُنَمَّةِ الْوَاسِطِيِّ بِعَامَّةٍ وَقَدْ انْعَكَسَ ذَلِكَ عَلَى حَرَكَةِ الْبَحَّارَةِ الَّتِي صَوَّرَهَا فِي تَوَازُنٍ وَتَقَابُلٍ وَتَمَاطُلٍ تَكَادُ تُشَكِّلُ خَطًّا هَنْدَسِيًّا وَاضِحًا، فِي حِينِ أَطْلَقَ صَاحِبَ مُنَمَّةِ سَانَ بَطْرُسْبِرْجِ حَرَكَةَ الْبَحَّارَةِ فِي حُرِّيَّةٍ وَوَاقِعِيَّةٍ دَافِقَةٍ. وَقَدْ اخْتَلَفَتْ الْمُنَمَّاتَانِ فِي نَوْعِيَّةِ أَلْوَانِهِمَا، فَبَيْنَمَا نَرَى الْأَلْوَانَ الْكَائِيَّةَ فِي مُنَمَّةِ مَخْطُوطَةِ سَانَ بَطْرُسْبِرْجِ وَالَّتِي لَا تَخْرُجُ عَنِ اللَّوْنِ الْأَبْيَضِ وَالْبَيْتِيِّ وَالدَّهْبِيِّ وَالْأَزْرَقِ الدَّاكِنِ فِي أَمْوَاجِ الْبَحْرِ، نَرَاهَا بِهَيْجَةٍ مُشْرِقَةٍ رَاقِصَةٍ فِي مُنَمَّةِ الْوَاسِطِيِّ تَجْمَعُ بَيْنَ الْبَرْتُقَالِيَّ وَالْبَيْتِيِّ وَالْأَخْضَرَ وَالدَّهْبِيَّ، وَكُلُّهَا فِي دَرَجَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ بِحَيْثُ تَبْدُو اللَّوْحَةُ لِلْوَهْلَةِ الْأُولَى وَكَأَنَّهَا زَاخِرَةٌ بِالْأَلْوَانِ الْعَدِيدَةِ بَيْنَا هِيَ لَا تَزِيدُ عَنْ هَذِهِ الْأَلْوَانَ الْأَرْبَعَةَ، غَيْرَ أَنَّ اسْتِعْمَالَ دَرَجَاتِهَا جَاءَ فِي تَدَاخُلٍ وَتَمَازُجٍ وَائْتِسَابٍ نَعْمِيٍّ سَاحِرٍ.

وَفِي عَوْدِ لَنَا إِلَى مُنَمَّاتِ مَخْطُوطَةِ سَانَ بَطْرُسْبِرْجِ، نَرَى تِلْكَ الْمُنَمَّةَ (لَوْحَةٌ ٨٣م)، الَّتِي تُصَوِّرُ بَعْضَ أَحْدَاثِ الْمَقَامَةِ الثَّالِثَةِ وَالْأَرْبَعِينَ وَهِيَ قِصَّةُ أَبِي زَيْدٍ حِينَ فَقَدَ رَاجِلَتَهُ وَنَزَلَ بِقَوْمِ

عريضة وعميقة للمشهد مما ألجأه إلى تحديد مستويات رأسيّة ثلاثة، اختصّ أعلاها من اليمين برجلين في حالة تأهب للثوم على العُشب، وقد استند أحدهما إلى غرارة أسطوانيّة أو صندوق أو طبلّة أو شيء من هذا القبيل، وإلى اليسار رَسَم خِمتين إحداهما مغلقة إلى اليسار ولعلّها خيمة خاصّة بالحريم، على حين يهَمّ شيخ مُتدبّر من أعلى رأسه إلى أخمص قدمه - ولعلّه امرأة - بالدخول إلى الخيمة. وفي صرّة المُنمنمة بالضبط رَسَم خيمة أخرى اهتَمّ بتزيينها وبداخلها رجلان جالسان على الأرض، ولعلّها خيمة شيخ القبيلة أو قائد القافلة. وفصل المصوّر بين هذا المستوى الأوسط والمستوى الأدنى بأرض معشوشبة لعلّه يرمز بها إلى فاصل من مساحة الأرض. ثم شغل المستوى الأدنى بخيمة إلى اليسار، وأخرى صغيرة إلى اليمين، وأمامهما نافذة واقفة وقد لَوّث عنقها ورأسها إلى الأمام وهي تخنو على بعير يرُضع من ضرع، ثم راحلتين أخريين قد برّكتا على الأرض، إحداهما مُنتصبة الرأس والعنق بينما تتناول الثانية العُشب من الأرض. وإلى أقصى اليسار نرى السائس جالساً على الأرض تحت سقف خيمة صغيرة مفتوحة وقد ظهر منها عمود الوسط. واللوحة جميلة برغم غرابتها وما حشده فيها المصوّر من أشخاص ومثقولات وحَيوان وعُشب شغل بها الفراغ كلّهُ، ولم تفتّه حتّى زخرفة الخيام زخرفة دقيقة ومُتقنة مما يدلّ على أناة وصبر.

وتروي المقامة التاسعة والعشرين، أنّ أبا زيد أراد أن يتنقّم من أهل واسط، فقدم لهم حلوى بها مائة مُنومة فناموا جميعاً، فعمد إلى متاعهم وأكياسهم وجردهم منها. وقد وقع اختيار المصوّر على هذه اللُحظة عنيها لتسجيلها (لوحة ١١٢) حيث نرى أبا زيد وقد لَفّ ساقه حوّل عمود من أعمدة بهو أو شُرفة وكأنّه بهلوان يصحك ساخراً من القوم الذين يغطّون في سبات عميق تحت قدميه وأمامه الحارث يُعاتيه مُستنكراً فعلته. وقد اهتَمّ المصوّر بإبراز عمارة بيوت واسط أو لعلّه تصوّرها كذلك، فنرى على يسار المُنمنمة واجهة البناء المُشيّد بالحجر، وبه بوّابة ذات عقد تعلوها نافذة مَعقودة فوقها بُرج صغير، ثم شغل باقي فراغ الصورة بالدار من الداخل، وكأنّه أزاح الجدار المُواجه فأتاح لنا أن نتطلع إلى الصحن تحيط به أعمدة شُرفات الطابق الأرضي حيث يستلقي أهل واسط المخدّرين، ومن خلفهم ومن خلال الأعمدة التي تستند إليها الشُرفة العليا نرى أبواب العُرف. وفي الطابق الثاني نشهد سور الشُرفة المُزخرف والأعمدة الحاملة المبنى، ومن بينها تبدو أبواب العُرف المُغلقة. وفي أعلى المبنى يظهر السقف المُستقيم تتخلّله نافذتان يتوسّطهما المنور.

ومنة مُنمنمة من المقامة الرابعة «لِمُخَيَّم» تقدّم لنا توكيماً شديد الاختلاف، إذ لجأ الفنّان إلى قواعد المنظور مُتخيلاً نفسه وكأنّه يُطلّ على المشهد بـ «نظرة الطائر» من علّ. فترى أحد رجال القافلة يصغي إلى حديث اثنين من رُفقاءه في أعلى يسار اللوحة؛ كما أتاح المشهد للمصوّر ألا يقتصر على تقديم الشُخوص الرئيسيّة، بل تراه قد أضاف شُخوصاً أخرى مثل الطاهي إلى جوار مؤقّده في أعلى يمين الصورة، ومثل التاجر الذي استغرّق في الثوم بخيمته إلى اليمين من الصورة، ومثل السائس الذي يسوس الإبل في أقصى اليسار. وكما هي الحال في بعض صور «كتاب الحشايش وخواصّ العقاقير» لـ ديسقوريدس ١٢٢٤م كاذ الموضوع الأساسي يُحجب وراء مشاهد الحياة اليوميّة بكلّ تفاصيلها، فأستقرّ الأثر العام لتجمع الشُخوص والخيام والدواب عن انطباع وفير الثراء، وعدّت المُحصلة النهائيّة للصورة مشهداً مُفعماً بالحويّة للمُخَيَّم (لوحة ٨٤م).

وتُبين (اللوحة ١٠٩) أبا زيد وهو يحكي للقوم حكاية عن ابنه المزعوم، وقد بدا التأثير على ملايح مُضيفيه وتقدّم منه خادم يحمل آنية بها طعام. وقد عمد المصوّر إلى تصوير العمارة من الخارج ومن الداخل معاً في رؤية واضحة، ويُنمّا نرى واجهة الدار والبوّابة والبرج إلى اليمين، نرى قُبعتين فوق السطح يتوسّطهما المنور. ومن الداخل نرى السَلَم الداخلي للمنزل، ثم قاعة الجلوس حيث يجتمع القوم. وإلى أقصى يسار اللوحة نشهد شمعداناً ولعلّه في حُجرة مُجاورة.

وتروي المقامة الحادية عشرة أنّ الحارث «زار مدينة ساوه، وكان في حال طيّبة من اليسار، وفيها انغمس في المَلذّات والشّهوات ونسي الجشمة والوقار، وفجأة أحسّ بالذنوب التي ارتكبها أو رغب في التوبة إلى الله منها، وأخذ في الصلوة والصيام ونزل الدنيا وأخذ يُفكر في الآخرة، وفكر في أن يزور المقابر ويتعظّ بالأموال». وتُصور المُنمنمة (لوحة ١١٠) القصة في مُستويين، يُمثّل أعلاهما المدينة حيث يرمز الفنّان في إيجاز إلى البيوت والجامع، وإلى يسوة يكيّن المتوقّي، وفي أسفلهما المقابر، واللحاد يرفع جُثة الميت بعد إخراجها من نعشها ليودعها اللحد، وقد أحاط به جمع من النساء والرجال لعلّ من بينهم أبو زيد. وللاسف قد أصيبت اللوحة بالتشويه الذي محا وجه النسوة تماماً أو كاد، لهذا إلى خطوط مُستعرضة تمرّ برقاب الشُخوص.

وتناول المصوّر في مُنمنمة أخرى (لوحة ١١١) لقطة من أحداث المقامة الثانية عشرة، وهي ساعة الراحة للقافلة بينما هي في طريقها من العراق إلى دمشق. وقد حشد اللوحة بالأشخاص والحَيوانات والخيام والعُشب قصد أن يجعل منها «پانوراما»

مَبَانٍ مُتَكَائِمَةٍ وَمِنْ خَلْفِهَا بُرْجٌ غَرِيبٌ لَعَلَّهُ يُرِيدُ بِهِ مِثْلَنَّهُ، وَإِلَى جَوَارِهَا شَخْصٌ لَعَلَّهُ زَمَارٌ أَوْ خُبَّازٌ لَسْنَا نَذْرِي. وَعَلَى مَبْعَدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْمَبَانِي رَسَمٌ مَجْمَعُ الشُّعْرَاءِ وَالصُّفْوَةِ وَقَدْ جَلَسُوا مِنْبَهْرِينَ أَمَامَ ذِكَا الْأَفَاقِ أَبِي زَيْدٍ.

وَتَرَوِي الْمَقَامَةَ الثَّانِيَّةَ وَالْأَرْبَعُونَ أَنَّ أَبَا زَيْدٍ أَقْبَلَ عَلَى نَادٍ يَجْمَعُ صَفْوَةَ الشُّعْرَاءِ فَازْدَرَوْهُ لِوِثَاثَةِ مَلَابِسِهِ وَقُبْحِ مَنَظَرِهِ غَيْرَ أَنَّهُ رَاهَتْهُمْ عَلَى مُبَارَاتِهِ فِي حَلِّ الْأَلْغَازِ وَلَمْ يَتْرُكْهُمْ حَتَّى أَخَذَ مِنْ كُلِّ مِنْهُمْ جُعْلًا مُقَابِلَ حَلِّ الْأَغَاذِ. وَلَقَدْ اخْتَارَ الْمُصَوِّرُ مِنْ هَذِهِ الْمَقَامَةِ لَفْظَةً فَرِيدَةً (لَوْحَةٌ ١١٣) فَقَدْ صَوَّرَ الْقَرْيَةَ فِي الْخَلْفِيَّةِ عَلَى شَكْلِ

تألف الحضارات في التصوير العربي

كتاب «الحشائش وخواص العقاقير» لديوسقوريدس ١٢٢٤م. متحف المتروبوليتان بنيويورك.

تمثل لوحة «الصيدلية» أحد هذه المشاهد التي لا تربطها علاقة واضحة بالنص المكتوب (لوحة ٨٥م)، وتصور أحد الصيادلة في الدور الأرضي من صيدلية يُعدّ مزيجاً عسليّ اللون على التار. ويجلس في مواجهته مريض، وقد صُغت القيثارات والأوعية فوق الرق المجاور له بينما يفحص مُساعده ما بداخل إحداهما. ويوحي وضع التأمل العميق الذي يظهر فيه الرجل الجالس إلى اليسار من أعلى الصورة بأنه الطبيب الذي يُدير الصيدلية، وقد راعى المصور تسجيل حركة الناس في معاملاتهم، كما التزم الدقة في التشكيل، وإن ائتمد بتصويره عن مفهوم الفراغ. وتذكرنا هذه الصورة بطابع طلايتها المبسوط أحاديّ الدرجة^(١)، وإطارها المعماري، وملايح شخصياتها، بالمناظر الزخرفية في مسرح خيال الظل.

وإذا كان نموذج الصيدلية، قريب الشبه بصور الحانات التي نراها في اللوحات المصورة بمقامات الحريري، فإن التصوير المصاحب لفصل نبات «الأتراجالوس» (لوحة ١١٤) يعكس نمطاً مختلفاً من أنماط التصوير. فقد صور الثبات نفسه بالطريقة المألوفة من حيث الجذر والساق والأوراق، ولكن بدلاً من تصويره ضمن فراغ تجريدي كما هي الحال في المخطوطات البيزنطية والمجلدات العربية التي تقتفي أثر التقاليد البيزنطية، ارتبط الثبات في هذه الممنمة بمشهد مطاردة حيث يتصدى

إن ثمة كثرة من مخطوطات هذه الفترة تجمع قسّمات فارسية وبيزنطية وعربية، وإذا كان بعض هذه العناصر قد ظهر منفصلاً في بعض الأحيان، فما أكثر ما ظهرت متألّفة في الرسم الواحد. وعلى نحو ما اعتاد المصورون البيزنطيون منذ القرن التاسع إظهار بعض الأشخاص إلى جانب الأعشاب الطبية من وقت لآخر في مخطوطات ديوسقوريدس لتصوير شفاء مريض ما بواسطة نبات بعينه أو طريقة حصاده أو تحضيره. ظهرت أولى صور هذه الشخصيات الشارحة في التصوير العربي في نسخة من مخطوط ديوسقوريدس عام ١٠٨٣ نقلاً عن نسخة مكتوبة عام ٩٩٠ بمكتبة جامعة ليدن حيث صُغت الشخصيات بأسلوب قليل المهارة في هذه المخطوطات العربية المبكرة البيزنطية الأثر، كما ظهر حجم الأشخاص فيها ضئيلاً إذا قيس بالنباتات، غير أن مجموعة الممنمات في مخطوط العنوان نفسه عام ١٢٢٩ بمكتبة أيا صوفيا باستنبول تكشف عن تقدّم ملحوظ في ميدان تصوير مجموعات الأشخاص. وهي وإن لم تتجسّد صلتها تماماً بالموضوعات البيزنطية، فإن كثيراً منها يشكّل لوحات واقعية متوازنة، ومنها اللوحات التي تُسجل طريقة إعداد العقاقير. وهناك لوحات أخرى تُبرز وسائل الرعاية التي تُمنح للمريض، والتي تظهر فيها مجموعات الأطباء والصيادلة على غرار أنماط المخطوطات البيزنطية المختلفة، غير أنها تُعبّر عن اتجاه واضح نحو الواقعية. ثم تأتي مجموعة ثالثة من الممنمات ذات تصميم عربي خالص تصور تفاصيل المشاهد الطبيعية التي يتم فيها نبات ما أو عملية وزن عقار ما داخل صيدلية كاملة الإعداد في أحد الأسواق. وما من شك في أن هذه الموضوعات الجديدة لم تكن وليدة ابتكار خالص غير مسبوق بل إنّ منها ما اشتق من نصوص شائعة مثل مقامات الحريري.

(١) طلاء مبسوط أحاديّ الدرجة (Flat colour):

هو أن يكون اللون أو الصبغ متماثلاً في جميع أجزائه في القسم الذي يشغله من الصورة، لا تتخلله ظلال أو درجات [م.م.ث.].

القمر ومن حولها عِدَّة حَيَالَات [شخص]: إثنان يُمثِّلان اللَّيْل والنَّهَار، ثُمَّ أَرْبَعَةٌ فِي الْأَرْكَانِ تُمَثِّلُ الرِّيحَ الْأَرْبَعَ أَوِ الْأَزْمَنَةَ الْأَرْبَعَةَ أَوْ حَيَّاتٍ أَوْ مَا إِلَى ذَلِكَ. وَلِلْعُرَّةِ إِطَارٌ فِيهِ حَيَّتَانِ مُشْتَبِهَتَانِ مُعَقَّدَتَانِ لِهَمَّا رَأْسُ تَيْنِ. فَالرَّبَّةُ إِلَهَةٌ بَابِلِيَّةٌ وَهِيَ زَوْجَةُ إِلَهِ الْقَمَرِ، وَمِنْ مَنَاقِبِهَا أَنَّهَا تَشْفِي وَتُحْيِي. وَأَمَّا الْحَيَّةُ فَمِنْ آلَاتِ السَّحَرِ الْبَابِلِيِّ، وَفَضْلُهَا أَنَّهَا تَدْفَعُ الشَّرَّ وَتُنَجِّي مِنَ اللَّسْعِ. وَيَتَبَيَّنُ مِنْ وُجُودِ هَذِهِ الصُّورَةِ مُكَرَّرَةً فِي صَدْرِ هَذَا الْكِتَابِ أَنَّهُ مُوقُوفٌ عَلَى صِنَاعَةِ التَّرْيَاقِ الَّذِي هُوَ نَاجِعٌ عَجِيبٌ.

وَقَدْ صَوَّرَ الْفَتَانُ لَوْحَةً «مَشْهَدَ الْجِرَانَةِ» (لَوْحَةٌ ٨٧م) عَنْ قِصَّةِ الطَّبِيبِ أَنْدَرُومَاخُوسِ الَّذِي اعْتَادَ الْمُرُورَ عَلَى مَزَارِعِهِ لِتَفَقُّدِ أَحْوَالِهَا وَشُغْنِ الْعُمَالِ الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ أَمْرَهَا وَفِي رِفْقَتِهِ خَادِمُهُ يَحْمِلُ لَهُمْ طَعَامَهُمْ. وَذَاتَ يَوْمٍ عَثَرَ فِي قَدْرِ الشَّرَابِ الْمَغْلُوقِ الَّذِي كَانَ يَخُوي شَرَابَهُمْ عَلَى أَفْعَى، فَاسْتَعْدَمَ الطَّبِيبُ هَذَا الشَّرَابَ فِيمَا بَعْدَ تَزْيَاقًا شَافِيًا مِنْ مَرَضِ دَاءِ الْفِيلِ [أَوِ الْجُدَامِ]. وَقَدْ صَوَّرَ الْفَتَانُ مَشْهَدَ الْجِرَانَةِ الْبَالِغِ الْحَيَوِيَّةِ وَالشَّدِيدِ التَّرْكِيزِ فِي آنٍ مَعًا عَلَى صَفْحَيْنِ. فَتَرَى إِلَى يَسَارِ الصَّفْحِ الْعُلُويِّ الطَّبِيبَ أَنْدَرُومَاخُوسَ يُرَاقِبُ فَلَاحِيَهُ وَإِلَى جَوَارِهِ خَادِمُهُ يَحْمِلُ صَنِيتَهُ الْغَدَاءَ فَوْقَ رَأْسِهِ بَيْنَمَا يَحْمِلُ قَدْرَ الشَّرَابِ يُمْنَاهُ. وَمِنْ الْيَمِينِ إِلَى الْيَسَارِ نَرَى فَلَاحِيَيْنِ يَسْتَعْدِمَانِ الْمِسْحَةَ [الْكُورِيكَ] فِي تَقْلِبِ التُّرْبَةِ بَيْنَمَا يَتَحَنَّى ثَالِثٌ فِي مَشْهَدِ حَصَادِ مُمَسِّكَ بِسَاقِ نَبَاتِ الدَّرَّةِ لِيَحْشُهُ قُرْبَ قَاعِدَتِهِ بِالْمُجَلِّ [الشَّرْشَرَةِ فِي مِصْرَ] أَمَّا النَّبَاتَاتُ الْأُخْرَى الْمُتَنَافِرَةُ فِي أَنْحَاءِ الصُّورَةِ فَلَا هَدَفَ مِنْهَا غَيْرَ الزَّخْرَفَةِ فَحَسْبِ. وَيَضُمُّ الصَّفْحَ الْأَدْنَى مَشْهَدَ الدَّرْسِ، فَتَرَى إِلَى الْيَسَارِ حِمَارَ الثَّقُلِ - الَّذِي لَا يَيْدُو بِأَكْمَلِهِ - يَحْمِلُ الْحَصَادَ إِلَى الْجُرْنِ [الْبِيدَرِ] وَمُزَارِعَيْنِ يَذْرِي أَحَدُهُمَا الْحَبَّ بِالْمِذْرَاةِ عَلَى حِينِ يَنْخُلُهُ الْآخَرُ وَيُعْرِبِلُهُ بِالْغُرْبَالِ. ثُمَّ جَامُوسَةٌ وَبَقْرَةٌ يَجْرَانِ نَوْرَجًا يَجْلِسُ عَلَيْهِ فَلَاحٍ يَحْتُمِلُهُمَا بِعَصَاهُ.

وَالصُّورَةُ فِي وَاقِعِ الْأَمْرِ هِيَ مَشْهَدُ زِرَاعِيٍّ وَاقِعِيٍّ بَدِيعِ التَّكْوِينِ لَا تَظْهَرُ لَهُ فِي تَصَاوِيرِ مَدْرَسَةِ بَغْدَادَ. وَتَكُنْ قِيَمَةُ هَذِهِ الْمُنْمَنَةِ الْبَالِغَةِ الْأَهْمِيَّةِ فِي تَكْوِينِهَا الْمُتَبَكَّرِ الْمُفَعَّمِ بِالْحَيَوِيَّةِ وَالشَّدِيدِ التَّرْكِيزِ فِي آنٍ مَعًا، ثُمَّ فِي عَرْضِهَا لِيَوَاقِئِ إِنْتَوَافِيَّةٍ [مُتَعَلِّقَةٍ بِخَصَائِصِ الشُّعُوبِ] مِنْ حَيْثُ الثِّيَابُ وَأَدَوَاتُ الْجِرَانَةِ وَالْفَلَاحَةِ.

وَمَا مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ الْمُصَوِّرَ قَدْ خَرَجَ عَلَى نَصِّ الْمَخْطُوطَةِ فَلَمْ يُبَالِ كَثِيرًا بِمَوْضُوعِ التَّرْيَاقِ الشَّافِي مِنْ دَاءِ الْفِيلِ [أَوِ الْجُدَامِ]

كَلَبَ غَاضِبٍ وَرَاءَ سِلْسِلَةٍ مِنَ الرُّبِيِّ لِقَزَالٍ، فَيَقْفُزُ الْأَخِيرَ مُلْتَمِسًا الْهَوْبَ. وَلَيْسَ ثَمَّةَ سَبَبٍ وَاضِحٍ يُبَيِّنُ إِقْحَامَ هَذَا الْمَوْضُوعِ عَلَى تَصْوِيرِ الثَّبَاتِ، إِلَّا أَنَّ الْعَدِيدَ مِنْ مُنْمَنَاتِ هَذَا الْمَخْطُوطِ يَضُمُّ إِلَى جِوَارِ الثَّبَاتِ طَائِرًا أَوْ اثْنَيْنِ أَوْ جَرَادَةً أَوْ فَرَاشَةً أَوْ أَزْبَنًا عَلَى حِينٍ نَرَى فِي مُنْمَنَةٍ بَعْضُهَا نَسْرًا يُطَارِدُ طَائِرًا. إِنَّ الْفَتَانَ يُعَرِّبُ فِي هَذِهِ الْمُنْمَنَاتِ عَنْ رَغْبَةٍ قَوِيَّةٍ فِي إِضْفَاءِ طَائِعِ الْحَيَوِيَّةِ وَالْحَرَكَةِ عَلَى صُورِ الثَّبَاتِ. وَيَتَجَلَّى فِي تَصْوِيرِ الْغَزَالِ بِمَخْطُوطِ دِيُوسْقُورِيدِسِ إِلْمَامُ الْفَتَانِ بِمَفْهُومِ الْأُبْعَادِ الثَّلَاثَةِ مِنْ حَيْثُ تَفَاصِيلُ الْجَسَدِ وَدِقَّةُ فِي تَفْصِيلِ أَعْضَاءِ الْجِسْمِ لَا سِيَّمَا الْفَوَائِمِ الَّتِي جَاءَتْ تَحْكِي الْوَاقِعَ، كَمَا تُشَارِكُ الثَّبَاتَاتُ الْقَصِيرَةَ وَالرُّبِيَّ الْمُتَدَرِّجَةَ الْمُتَلَفَّةَ الشَّكْلَ - عَلَى الرِّغْمِ مِنْ شَكْلِهَا التَّجْرِيدِيَّ - مُشَارَكَةً هَامَّةً فِي التَّشْكِيلِ الْفَنِّيِّ. عَلَى أَنَّ إِضَافَةَ مَشْهَدِ الصَّيْدِ إِلَى الثَّبَاتِ قَدْ خَلَقَ تَكْوِينًا جَدَابًا يَكْمُلُ كُلًّا مِنَ الْعُنْصَرَيْنِ الْمُتَبَايِنَيْنِ، فَتَحَوَّلَتِ الصُّورَةُ إِلَى مَشْهَدٍ نَابِضٍ بِالْحَيَاةِ، وَأَشَاعَ هَذَا التَّقَارُّبَ بَيْنَ الثَّبَاتِ وَبَيْنَ مَشْهَدِ الصَّيْدِ وَالطَّرَادِ الَّذِي شُغِلَ بِهِ الْعَرَبُ الْإِحْسَاسَ بِمَا فِي الصُّورَةِ مِنْ صِدْقٍ.

كِتَابُ التَّرْيَاقِ لِسِمِّي جَالِينُوسَ ١١٩٩م. دَارُ الْكُتُبِ الْقَوْمِيَّةِ بِبَارِيسَ تَحْتَ رَقْمِ ٢٩٦٤. نِهَآيَةُ الْقَرْنِ ١٢.

لَمْ يَرِدْ فِي الْمَخْطُوطِ كُلُّهُ مَا يُشِيرُ إِلَى الْبَلَدِ الَّذِي تُسَيَّحُ فِيهِ الْكِتَابُ كَمَا أَغْفَلَ اسْمَ الْمُصَوِّرِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ غَيْرِ الْمُسْتَعَدِّ أَنْ يَكُونَ نَاسِخُهُ هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ السَّعِيدِ شَرْفِ الْحَاجِّ. وَمَوْضُوعُ الْمَخْطُوطِ هُوَ «جَوَامِعُ الْمَقَالَةِ الْأُولَى مِنْ كِتَابِ جَالِينُوسِ فِي الْمَعْجُونَاتِ» الَّتِي ذَكَرَ فِيهَا مَعْجُونُ الدَّرْيَاقِ. وَالْحَقُّ أَنَّ مَادَّتَهُ لَا تَزِيدُ عَلَى أَنْ تَكُونَ لَعُوقًا جَدِيدًا بَأَنَّ يَنْدَرِجَ تَحْتَ تَصَانِيفِ الرُّقِيِّ وَالتَّعَاوِذِ لَا تَحْتَ لُؤَاءِ الْعِلْمِ. وَهَكَذَا، فَإِنَّ قِيَمَةَ الْمَخْطُوطِ تَنْحَصِرُ فِي خَطِّهِ وَتَزْوِيقِهِ وَنَمْنَمَتِهِ دُونَ مَادَّتِهِ. وَتَجْمَعُ صَفْحَاتُهُ بَيْنَ الْخَطِّ الْكُوفِيِّ الْبَدِيعِ وَالنَّسْخِ الْوَاضِحِ، وَيَضُمُّ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مُنْمَنَةً لِيَعْضُهَا نَظَائِرُ فِي مَخْطُوطَاتٍ أُخْرَى، وَقَدْ سَلِمَتْ كُلُّ مُنْمَنَاتِهِ مِنَ الْعَبَثِ وَالْإِنْدَارِ. وَثَمَّةُ جَدُولٌ لِأَنْوَاعِ الْحَيَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ وَثَلَاثَ عَشْرَةَ صَفْحَةً لِأَشْكَالِ الثَّبَاتِ مُسْتَمَدَّةٍ مِنَ الْأَنْطِمَاطِ الْيُونَانِيَّةِ.

وَلَقَدْ نَهَضَ الْمَرْحُومُ بِشْرُ فَارِسَ بِتَحْقِيقِ هَذَا الْأَثَرِ الْعَرَبِيِّ الْمُصَوِّرِ فَوَقَّاهُ حَقَّهُ بِمَا أَثَّرَ عَنْهُ مِنْ مَقْدَرَةٍ قُدَّةٍ وَتَفَانٍ صَادِقٍ^(١). وَقَدْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةَ: «تَنْتَظِمُ ظَاهِرَتَيْنِ جَدِيدَتَيْنِ. أَمَّا الْأُولَى فَعَرَضُ الْعُرْيِ مَعَ تَجْسِيمِهِ، وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَبُرُوزُ أَثَارَةِ Survivance [وَالْأَثَارَةِ فِي تَعْرِيفِهِ هِيَ بَقِيَّةٌ مِنْ أَسْلُوبِ ذَهَبَ شَأْنُهُ فَتَلَمَّحَ إِلَيْهِ فِي أَسْلُوبِ آخَرٍ مُسْتَجِدٍّ]... وَتَتَجَلَّى هَذِهِ الْأَثَارَةُ فِي عُرَّةِ الْمَخْطُوطَةِ (لَوْحَةٌ ٨٦م) حَيْثُ نَرَى رَبَّةً جَالِسَةً وَفِي يَدَيْهَا هَالَةٌ

(١) أنظر: Le Livre De La Thériaque. L'Institut Français

الطريقة الأثيرة لدى المصورين العرب.

وثمة صفحة من صفحات كتاب التزيان (لوحه ١١٦) تضم خمسة أشكال نباتية وشكلًا غير نباتي هو الزاج المشوي [أملح مكلسة أحصها فوسفات الحديد والثحاس] وهو أولها في ترتيب الرسوم، يليه نبات ذهبن بلسان حيث نرى رجلًا يجرح ساق الشجرة ويتلقى العصارة التي تسيل منها في جفنة يحملها بيده اليسرى. وبعد هذا يأتي نبات الجنطيان [جنس زهر من ذوات الفلقتين وحيدات التويج]، ويضم الصف الأدنى نبات «فو» وهو الناردن [فصيلة يستخرج منها عطر مشهور]، ثم الساج الهندي في تصوير زخرفي بعيد عن الواقعية، وينتهي الجدول بنبات الفلفل الأسود.

«كتاب الجامع بين العلم والعمل في الحيل» للجزيي. ١٣١٥م. متحف المتروبوليتان

يبدو تأثير تشابك الثقافات المختلفة على أجلي ما يكون في كتاب «الجامع بين العلم والعمل في الحيل» الذي تشهد كثرة النسخ الباقية منه بسعة شهرته. صنف هذا الكتاب أبو العز إسماعيل بن الرزاز الجزيي الذي كان يعمل مهندسًا خاصًا في بلاط السلطان ناصر الدين أبي الفتح محمود بن أرتق (١٢٠٠ - ١٢٢٢) ملك حصن «كيفا وآمد» بشمال العراق. وقد أعجب السلطان بالمخترعات الآلية التي تخيلها فطلب إليه عام ١٢٠٦ أن يضع له كتابًا عنها. وكانت هذه المخترعات الآلية هي ثمرة الاكتشافات الرياضية والآلية لأرخميدس وغيره من علماء الإغريق، والتي تولت المصنّفات اليونانية إذاعتها مثل كتابات هيرون الإسكندري وفيلون البيزنطي. ولقد تضمنت تلك النصوص القديمة صورًا توضح طبيعة هذه الآلات ووظيفتها، وجاءت الترجمات العربية فنقلت عنها هذه الصور. وبكتابه هذا خلد الجزيي التقليد القديم وإن لم يشارك المؤلفين القدماء إلا في الفكرة الرئيسية لآلات وفي القليل من تفاصيلها، أما الطابع العام لصوره فقد جاء شرقيًا تمامًا.

وأوضح مثل لهذا ساعة الحائط المحمولة فوق ظهر فيل (لوحه ٨٨م) المحفوظة بمتحف المتروبوليتان للفنون في نيويورك والتي كانت جزءًا من مخطوط تلفت معظم أجزائه، وقد تم إنجازه بعد عام واحد من كتابة النسخة الأولى منه. ومع أن أسلوبها جاء أكثر تطورًا من أسلوب صور النسخة الأولى، إلا أنها تبرز أدق التفاصيل بأكثر مما تبرزه صور نسخته التالية عليها المحفوظة بمتحف آيا صوفيا والتي تكاد تنسج على منوالها.

مؤليًا عنايته بموضوع الزراعة في الحقل على حين لم يرد عنه في النص غير عبارة «الحراثين الذين يحثون الأرض للزراعة»، فالتزم بها جزئيًا في الركن الأيسر من الصف العلوي فحسب. ويذهب الأستاذ بشر فارس إلى أن ميل الفنان إلى تمثيل مشهد الجرائة مرده إلى فنون بلاد ما بين النهرين القديمة، إذ ثمة ظاهرتان من ظواهر الفن الآشوري يتجليان في الصورة، إحداهما تكوين المشهد من صفتين يعلو أحدهما الآخر، والثانية العناية الفائقة بتسجيل البيئة، حيث نجد أنفسنا منغمسين وسط أنشطة الزراعة بالحقل.

وتضحى منمنمة ياملويوس شقيق الطبيب أندروماخوس (اللوحه ١١٥) - والذي كان يعمل مساحًا لأراضي الملك - أنه كان يعمل في يوم شديد القَيْظ فإذا هو قد حطّ به التعب، فترجل عن جواده ليفي إلى ظل شجرة فنهشته حية فأنابته الفرع وأيقن أنه لا محالة هالك، وأحسّ بديب الموت يسري في أوصاله، ورأى أن يسجل اسمه ووصيته على جذع الشجرة فأخذ يقاوم الموت، وأصابه عطش شديد فمدّ يده إلى جرة عن كعب منه وعبّ منها حتى ارتوى، وما لبث حتى أحسّ بقواه تزدد إليه، وبأن العساوة تنفّس عن غيبيه. وحين أخذه العجب، أراد أن يعرف سرّ هذا الماء فاقطع فرعًا من تلك الشجرة وحرّكه داخل الجرة فاكشف أن بقاعها ثعبانين قد اقتتلا حتى الموت. وهكذا نجا ياملويوس من الموت، وظلّ صحيحًا معافى ما بقي له من عمر، وترك خدمة الملك ولازم أخاه وقام على خدمته.

ولقد صور الفنان القصة في مراحل متتابعة، فجاءت منمنمة على النهج الإسلامي في التصوير السردى، فترى ياملويوس إلى يسار اللوحة وقد جلس إلى جوار شجرة محورة بعد أن ترجل عن جواده الذي يبدو في أقصى اليسار. وثمة حية تسرب تحت قدمي ياملويوس الذي بدا مرتديًا ملابس مغايرة لملابسه في اللقطة الأولى وهو يخرج من الآنية الفخارية حيتين بواسطة عود رفيع. وفي أقصى اللوحة من اليمين يرسم الفنان المبتكر الفتى الأمرد نفسه وقد امتطى جواده ولوى عنانه وكأنه يستعد ليغادر المكان. ويتساءل بشر فارس عن سرّ هذه اللوحة فيقول، ترى هل هذا الفتى الأمرد هو ياملويوس مؤشيكًا أن يغادر المكان الذي واجه فيه مغامرته أم هو عابر سبيل يرقب ما حدث، أم أندروماخوس نفسه وهو يسرد القصة؟ خيال شرقي...!!

ولم يفت المصور أن يعلّق الوصية على الشجرة المحورة والتي جاء بها «تجاوز الله عن مساوئي. أوصيت أن تقسم أموالى على الفقراء والمساكين». وتناول المصور تموجات ماء النهر فعالجها ببرقشة تشابه أسلوب «تجمع الديدان» تلك

الملك، وأمامه أربعة من ثَمائِه قاعدين حاملين أَرْعِيَةِ الشَّرَابِ في أَكْفَهُمْ. وَقَبَالَةَ الْمَلِكِ وعلى مَقْدَمِ الزَّوْزُقِ دَكَّةٌ تَجْلِسُ عَلَيْهَا نَافِخَةٌ مِزْمَارَ وَقَارِعَةٍ دُفٍّ وعازِفَه قِيْثَارَةً ثُمَّ قَارِعَةً دُفٍّ أُخْرَى، وِمن رَأيَهِنَّ مَلَّاحٌ يَتَحَكَّمُ في «سُكَّانِ» الزَّوْزُقِ.

لَقَدْ اسْتَطَاعَ الْمُصَوِّرُونَ الْمُسْلِمُونَ رُغْمَ مَا فُرِضَ عَلَيْهِمْ مِنْ قُبُودِ أَنْ يَكْتَشِفُوا طَرِيقَةَ تَعْبِيرِ خَاصَّةٍ بِهِمْ، وَأَنْ يَخْلُقُوا مِنَ التَّقَالِيدِ الْفَنِّيَّةِ الرَّاسِخَةِ فِي تَرْقِيَنِ الْمَخْطُوطَاتِ وَتَصَوِيرِهَا مَا يَسْتَطِيعُونَ بِهِ مُنَافَسَةَ التَّصَوِيرِ الْإِيرَانِيِّ وَالْبِيزَنْطِيِّ. بَلْ إِنَّ حَيَوِيَّةَ أُسْلُوبِهِمْ لَيَبْدُو وَاضِحَةً فِيمَا تَرَكَّتْهُ مِنْ بَصَمَاتٍ فِي الْمَخْطُوطَاتِ الْمَسِيحِيَّةِ الَّتِي أَزْدَهَرَتْ فِي كَنَفِ ثَقَافَتِهِمْ.

«كِتَابُ الْجَامِعِ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ فِي الْحِجَلِ» لِلْجَزْرِيِّ ١٣٥٤م. مُتَحَفُ الْفُنُونِ الْجَمِيلَةِ بِبُوسْطُن

وَتَمَّةٌ صَفْحَتَانِ بِمُتَحَفِ الْفُنُونِ الْجَمِيلَةِ بِبُوسْطُن مِنْ رِسَالَةِ الْجَزْرِيِّ عَنِ الدُّمَى الْآلِيَّةِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ نَفْسُهُ بِخَطِّ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ الدُّمَى... فِي عَامِ ١٣٥٤م بَقِيَّتَا مَعَ أَرْبَعِ صَفْحَاتٍ أُخْرَى مِنْ مَخْطُوطَةٍ مَكْتَبَةِ أَبِي صُوفِيَا بِإِسْتَنْبُولَ، وَتَحْتَوِي كُلَّ صَفْحَةٍ عَلَى مُنَمَّةٍ مَعَ نَصِّ شَارِحٍ أَوْ بِدُونِهِ يَتَنَمَّا يَخْلُو الْوَجْهَ الْآخَرَ إِلَّا مِنَ النَّصِّ.

وَتُمَثِّلُ الْمُنَمَّةُ الْأُولَى جِهَازًا عَلَى شَكْلِ طَاوُوسٍ لِيَسِيلَ الْأَيْدِي جَاءَ وَصْفُهُ فِي الْفَصْلِ الْعَاشِرِ مِنَ الْقِسْمِ الثَّالِثِ مِنَ الرِّسَالَةِ (لَوْحَةٌ ٩٠م). وَهُوَ يُمَثِّلُ مُجَوِّفٍ مِنَ الثُّحَاسِ، يَتَّصِلُ بِخَزَانِ الْمَاءِ، وَتُوجَدُ بِهِ عِدَّةٌ صِمَامَاتٍ يُمَكِّنُ عَنْ طَرِيقِهَا التَّحَكُّمَ فِي مَلِيهِ وَتَقْرِيعِ الْمَاءِ عَنْ طَرِيقِ مِثْقَارِهِ بِطَرِيقَةِ مِيكَانِيكِيَّةٍ، وَيَسْهَلُ حَمْلَهُ وَوَضْعُهُ عَلَى قَائِمٍ جَمِيلٍ إِلَى جَانِبِ الطَّسْتِ، ثُمَّ يَتِمُّ تَشْغِيلُهُ لِيَسِيلَ الْمَاءُ مِنْ مِثْقَارِهِ.

أَمَّا الْمُنَمَّةُ الثَّانِيَّةُ فَتُمَثِّلُ سَاعَةً مَائِيَّةً بِالِغَةِ الدَّقَةِ وَالرَّوْعَةِ عَلَى شَكْلِ مَدْخَلِ أَحَدِ الْفُصُورِ يَتَصَدَّرُهَا مُوسِيقِيَّوْنَ يَغْزِفُونَ (لَوْحَةٌ ٩١م).

«كِتَابُ الْبَيْطَرَةِ» ١٢٠٩م. دَارُ الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ

وَضَعَ هَذَا الْكِتَابَ أَحْمَدُ بْنُ الْحُسَيْنِ الْأَحْنَفِ، وَقَدْ أُنْجِزَتْ مِنْهُ نُسخَةٌ فِي بَدْءِ عَامِ ١٢٠٩ مَخْضُوطَةٌ الْآنَ بِدَارِ الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ، ثُمَّ أُنْجِزَتْ مِنْهُ نُسخَةٌ تَالِيَّةٌ بَعْدَ ذَلِكَ بِعَامٍ وَاحِدٍ مَخْضُوطَةٌ بِمُتَحَفِ طُوبِ قَاهِرَ بِإِسْتَنْبُولَ. وَنَعْرُضُ مِنْ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ خَمْسَ مُنَمَّاتٍ، إِخْدَاهَا لِيَبْطَرِي يَضَعُ الْوُجُورَ - الدَّوَاءَ - لِقَرَسٍ بَدَتْ عَلَيْهِ أَغْرَاضُ الْحُمَّى: «مِنْ عَلَامَاتِهَا تَقَطُّعُ النَّفْسِ وَتَهْدُلُ الْمِنْخَرَيْنِ وَوَرَمُ الشَّفَةِ السُّفْلَى وَتَطَاثُنُ الرَّأْسِ

وَتُسِيرُ السَّاعَةُ إِلَى مُرُورِ الْوَقْتِ بِثَلَاثِ طُرُقٍ مُخْتَلِفَةٍ، أَوَّلَاهَا اللَّوْحَةُ الْمُدرَّجَةُ الَّتِي يَسْتَدِيرُ نَحْوَهَا شَخْصٌ جَالِسٌ عَلَى عُنُقِ الْفِيلِ، وَثَانِيَتُهَا مِنْ خِلَالِ قُرْصٍ كَبِيرٍ (لَا يَظْهَرُ فِي الصُّورَةِ) فِي قِمَّةِ الْهَيْكَلِ الَّتِي جَاءَ عَلَى شَكْلِ بُرْجٍ قَائِمٍ فَوْقَ ظَهْرِ الْفِيلِ. وَمَعَ مُرُورِ كُلِّ سَاعَةٍ تَنْفَتِحُ نَافِذَةٌ صَغِيرَةٌ دَائِرِيَّةٌ سَوْدَاءٌ مُشِيرَةٌ إِلَى الزَّمَنِ. أَمَّا الطَّرِيقَةُ الثَّالِثَةُ فِيهِ الطَّرِيقَةُ التَّرْفِيهِيَّةُ الْخَالِصَةُ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا صُمِّمَتْ هَذِهِ السَّاعَةُ، فَمَعَ كُلِّ نِصْفِ سَاعَةٍ يُطْلَقُ الْعُصْفُورُ الْمُسْتَقَرُّ فَوْقَ قُبَّةِ الْبُرْجِ صَغِيرًا وَيَدُورُ حَوْلَ نَفْسِهِ، وَيَهْوِي الْقَائِدُ عَلَى رَأْسِ الْفِيلِ بِمِغْوَلِهِ يَتَنَا يَنْقَرُ عَلَى الطَّبْلَةِ بِعَصَا فِي يَدِهِ الْأُخْرَى، وَيُحَرِّكُ الْفَتَى - الَّتِي يَدُورُ عَلَيْهَا وَيَدُورُ عَلَيْهَا لِيَرَقِبَ الْمَشْهَدَ - ذِرَاعِيَهُ وَسَاقِيَهُ لِيَحْفَظَ الصَّفْرَ الَّتِي يَدُورُ مِنْ تَحْتِهِ عَلَى أَنْ يُطْلَقَ كُرَّةٌ صَغِيرَةٌ يَحْنِي بِعَدَاهَا التَّيْنُ عُنْقَهُ الضَّخْمَ لَتَسْقُطَ الْكُرَّةُ مِنْ حَلْقِهِ فِي وَعَاءٍ صَغِيرٍ مُثَبَّتٍ عَلَى ظَهْرِ الْفِيلِ. وَعَبْرَ هَذَا الْوِعَاءِ تَنْفُذُ الْكُرَّةِ دَاخِلَ جَسَدِ الْفِيلِ حَيْثُ تَصْطَلِمُ بِقُرْصِ مَعْدِنِيٍّ رَثَانٍ تَسْتَقِرُّ بَعْدَهُ فِي كَأْسٍ صَغِيرَةٍ تَجْتَمِعُ فِيهَا كُرَاتٌ صَغِيرَةٌ بِعَدَدِ أَنْصَافِ السَّاعَاتِ. وَمَا أَشْبَهَ هَذِهِ السَّاعَةَ الْآلِيَّةَ بِكُنَائِسِ الْقُرُونِ الْوُسْطَى الَّتِي كَانَتْ تَضُمُّ أَشْكَالًا مُعْقَدَةً تُعْلِنُ عَنْ مُرُورِ السَّاعَاتِ بِطَرِيقَةٍ مُسَلِّيَّةٍ.

وَمَا مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ فِكْرَةَ الْفِيلِ وَسَرَّجِهِ جَاءَتْ مِنَ الشَّرْقِ وَمِنْ الْهِنْدِ عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ، وَهُوَ مَا جَعَلَ الْمُصَوِّرَ يُضْفِي عَلَى قَائِدِ الْفِيلِ مَلَاحِجَ هِنْدِيَّةٍ أَسْمَرَ الْبَشَرَةَ، لَا يَزِيدُ غَيْرَ سِرْوَالٍ فَضْفَاضٍ وَوِشَاحًا عَلَى صَدْرِهِ، غَيْرَ أَنَّ الْمِغْوَلَ الَّذِي يُمِيسِكُ بِهِ وَالَّذِي يَحْمِلُ الْأَوْصَافَ الَّتِي ذَكَرَهَا «الْجَزْرِيُّ» مُثَبَّتَةٌ الصَّلَاةَ بِالْهِنْدِ، وَلَعَلَّ السَّبَبَ هُوَ أَنَّ الْكَاتِبَ الْعَرَبِيَّ كَانَ يَرْمِزُ لِرُحْلِ بَرَجِلٍ هِنْدِيٍّ يَحْمِلُ ذَلِكَ الْمِغْوَلَ. كَمَا تَتَطَوَّى هَذِهِ اللَّوْحَةُ أَيْضًا عَلَى مُعْتَدِّ شَرْقِيٍّ سَابِقٍ عَلَى الْإِسْلَامِ بِآلَافِ السَّنِينَ، هُوَ الْمَعْرَكَةُ الرُّمُزِيَّةُ بَيْنَ الْعُصْفُورِ رَمَزِ الثُّورِ وَالسَّمَاءِ وَبَيْنَ الثُّغْبَانِ رَمَزِ الظُّلْمَةِ وَجَوْفِ الْأَرْضِ، وَرُغْمَ أَنَّ هَذَا التَّصَوِيرَ يُشِيرُ إِلَى مُعْتَقَدَاتٍ شَرْقِيَّةٍ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَحُلْ دُونَ تَسَرُّبِ عِدَدٍ مِنَ التَّأَثُّرَاتِ الْيُونَانِيَّةِ إِلَى اللَّوْحَةِ، نَجِدُهَا فِي اخْتِفَاءِ مَفَاصِلِ قَوَائِمِ الْفِيلِ عَلَى النَّسَقِ الْقَدِيمِ، وَفِي إِطَالَةِ خُرُطُومِ الْفِيلِ وَضَخَامَةِ قُوَّتِهِ عَلَى غِرَارِ تَقْنَةِ الْمُصَوِّرِينَ الْبِيزَنْطِيِّينَ.

«كِتَابُ الْجَامِعِ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ فِي الْحِجَلِ» لِلْجَزْرِيِّ ١٢٠٥م. مُتَحَفُ طُوبِ قَاهِرَ بِإِسْتَنْبُولَ

وَفِي نُسخَةٍ عَرَبِيَّةٍ مِنَ الْكِتَابِ نَفْسُهُ بِخَطِّ مُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ الْحَسَنِ الْكُوفِيِّ مُؤَرَّخَةٌ عَامَ ١٢٠٥م بِمُتَحَفِ طُوبِ قَاهِرَ بِإِسْتَنْبُولَ صُورَةُ بَدِيعَةٍ لِيُزَوَّقَ (لَوْحَةٌ ٨٩م) وَفَوْقَهُ دَكَّةٌ مُقْبَبَةٌ يَجْلِسُ عَلَيْهَا

في عَصْرٍ لاحقٍ، إلّا أنّ أهميّة هذا المخطوط ترجع إلى أنّه كان يُعدّ أقدم المخطوطات المصورة في مدرسة بغداد، حتّى نشر المرحوم بشر فارس مخطوطة كتاب «التزيّيق» المؤرّخ عام ١١٩٩م، ثمّ جاءت المُستشرقَة فلورنس داي وأكّدت أنّ مخطوطة كتاب «الحشائش وخواصّ العقاقير» ليدوسقوريدس المحفوظة بمدينة مشهد يرجع تاريخها إلى ما بين عامي ١١٥٢ و١١٧٦م، أي أنّها سابقة على كتاب «البَيطرة» وكتاب «التزيّيق».

كتاب البَيطرة ١٢١٠م. متحف طوب قابو بإسطنبول

لَمْ يَلْتَزِمَ مُصَوِّرُ هذه النسخة الدقّة البالغة في مُنمّاته، ففراه قد صَفَّ الشُّخوصَ فوق خطّ مُستوي، تبت عليه بعض الأعشاب والنباتات رايمًا به إلى الأرض. ولمّ تشدّ عن هذا التّهج إلا مُنمّنة واحدة متميّزة في نسخة إسطنبول تُصوّر فارسيّين مُنطلقين في عدو سريع (لوحة ٩٦م). ولعلّ هذه القيود التي قيّد الفنان بها نفسه ترجع إلى موضوع الكتاب ذاته، لأنّه كتاب شارح لأساليب البَيطرة. ومن ثمّ فقد جاءت رسومه أقرب إلى الرسوم التوضيحية منها إلى اللوحات الحيّة التي تتناول موضوعات من حياة الناس كمقامات الحريريّ على سبيل المثال. ورغم هذه الحدود التي تُكبّل حُرّيّة الفنان إلّا أنّ مُنمّمات هذا الكتاب تدلّ على أنّ مُصوِّرها قادر على التعبير. ومن أهمّ ميزات مُنمّمات هذا المخطوط، هو أنّها جاءت خلّوا من أيّ أثرٍ لحضارة غربيّة وإفدّة. فإذا ما تأملنا مُنمّنة الفارسيّين هذه أحسّنا روحًا عربيّة خالصة وراء اندفاع الفارسيّين، ووراء الوجوه والثياب، بل إنّ عبير الجوّ العربيّ هو الذي ينفذ إلى حِسِّ المُشاهد. وقد أدركت هذه المُنمّنة نصيبًا لمّ تُدرِكهُ المُنمّمات التي جاءت قبلها، فمع أنّ الأرض لمّ تتلّ اهتمامًا أكبر مِنّا صُوِّرت به من قبل إلّا أنّ الفارسيّين في تجاورهما يعكسان إحساسًا بِعمق حقيقيّ يدعمه ارتفاع مُستوى الفارس الثاني المُتخلف قليلًا عن الأوّل، وهو ما قد يُشير إلى أنّ الفنان كان قد أدرك بحسّه المرهف شيئًا من قواعد المنظور، كما أنّ تدفّق الحركة في المشهد كلّهُ يقنعنا بِسيطرة الفنان الفائقة على لوحته.

رسائل إخوان الصفا وخيلان الوفا ١٢٨٧م. مكتبة جامع السلّيمانية بإسطنبول

وتتجلى مرحلة التّضجّ الكامل في عُزّي الصّفّحتين الأولىين لِنسخة من مخطوط «رسائل إخوان الصفا»، تلك الموسوعة التي كُتبت بروح شيعيّة مُنطرفة خلال القرن العاشر. ويسجّل تدليل النسخة التي تنصّرها هاتان اللّوحتان أنّها أُنجِزَت عام ١٢٨٧

واستُرِخاء الأذنين وتخاذل الأعضاء وجفاف اللّسان واضطراب الأُرجل مع ارتفاع في درجة الحرارة يصحبهُ الامتناع عن العلف. ويعكس الفنّان هذا الفُتور العامّ في الصّورة بوضوح، فالفرس ليس في نشاطه وتأبّيه وجموحه، تلك الصّفات التي نعهدها في الأفراس السليمة حين تُراد على شيءٍ لاسيما إذا كان ممّا تُزعم على ابتلاعه. وقد عرّض الكتاب لوصف هذا الوجور وما يترّكب منه، ونرى جزءًا من هذا الوصف في أعلى الصّورة (لوحة ٩٢م).

وفي مُنمّنة أخرى طريفة (لوحة ٩٣م) تشهد فرسًا مُعتلّة زرقاء اللون ذات ذيلٍ بُنيّ أضجّعها حارسها على ظهرها بعد شدّ قوائمها بِحبلٍ وشرّع في علاجها بِقطع الأعصاب والعروق التي لا يُمكن إيقاف نزيفها. ويطمئننا النّصّ إلى أنّ في ذلك إنقاذها حتّى لا يتسلّل إلينا الفزع.

ولقد كانت للعرب طريقتهم في تزويض الخيل وسياستها، وأكبر الظنّ أنّهم أخذوها عن الأعاجم، فكانوا إذا ما أحسّوا في الفرس مثلاً أنّه «يُشمس برأسه ويتأبّى على الشكيمة يُغلظون له في اللجام فلا يقوّى عليه ويدلّ، ويوسعون له في الشكيمة حتّى لا يتأذى شيدقاه إنّ جتّح برأسه يُمنّة أو يُسرّة وبهذا وذاك يلين مقاد الفرس». ونلمح في صوِّرة أخرى (لوحة ٩٤م) الفارس وقد أمطى صهوة جواده وشدّ إليه رأسه بهذا اللجام الغليظ الذي يغلبه على أمره مُوسمًا له في الشكيمة حتّى لا يضارَ شيدقاه، وهكذا نرى الفارس مُستقرًّا في مكانه مالِكًا لِمَقاد حصانه.

وفي صوِّرة تسمين الثيران (لوحة ١١٧) يُترجم المُصوِّر النّصّ القائل «إذا أردت أن تُسمّن الثيران فخذ كُرثًا وقطعه. ثمّ ألق به في خلّ حاوِض وأطعمه إياه خمسة أيّام، ثمّ أنبِعه بِخشيش السّعير ثلاثة أيّام بعد أن تلقّي فيه من الجلبّة شيئًا يسيرًا». ولا تعدو الصّورة مشهد الثور الذي يتدلّى التاقوس من عنقه وهو غارق بِخَطمه في الزّبنيق المليء بِالخَلِيط السابق ذُكره.

وثمة لوحة فريدة لحارِسين يتعاونان لمُساعدة فرس على ولادة عسيرة، ويدخل أحدهما يده في الرّجِم بعد أن علِم بِفساد الجنين (لوحة ٩٥م).

وقد جاءت المُنمّمات جَمِيعًا لا إطار لها يُبرزها بل هي مُمتزجة بالنّصّ امتزاجًا، وتُميّزت بِاستخدام الرّسم الثلاثيّ الأبعاد أحيانًا، ثمّ يكوّن الحركات والنّسب أقرب ما يكون إلى الطّبيعة. وبِرغم كلّ هذه الميزات فلنيسّت تصاویر كُتِب البَيطرة مثالًا جيّدًا لِأُسلوب مدرسة بغداد، لِما سبق أن ذُكرناه من أنّها رسوم توضيحيّة، وخصوصًا بعد أن تداعت ألوانها وأعيد تلوينها

رواق مليء بالظلال. على أن أهم ما يثير انتباهنا هو اختلاف كل شخصية عن غيرها والعلاقات التي تربط بينها، وهو ما يثير مشكلة بالنسبة لموضوع اللوحتين فرخرفة المشهدين واحدة، كل مشهد يصور - كما أشار بشر فارس - خمسة حكماء ثلاثة منهم في الطابق الأرضي واثنان في الدور الأول.

وقد قيل إن أحد المشهدين ليس إلا تكراراً لآخر، فأحدهما يصور الحكماء في لحظة تأمل خلال القراءة والكتابة، بينما يصور المشهد الثاني نقاشاً حاداً بين الرجال الثلاثة القابعين في الدور الأرضي. غير أن ريتشارد إتنجهاوزن يرى أن هذا الخلاف في تشابه أشخاص كل منمنمة يلقي شكاً على هذا التفسير. فون العسير أن تصور أن الشاب الخلق المصور في اللوحة الأولى وحدها يمكن أن يكون شيخاً، كما أن المرء يتساءل عن السر الذي يدفع بالفنان إلى تصوير مجموعة واحدة مرتين، وهو شيء لم تتبعه غرة مزدوجة سابقة على هذه اللوحة الأولى رغم انتشارها في أقاليم الشرق الأدنى المختلفة، ولعل المقصود هو توزيع الحكماء الخمسة على اللوحتين: اثنين منهما في اللوحة وقد انضم إليهما أحد الكتبة، وثلاثة في اللوحة الثانية، على حين خصص الطابق العلوي للطلبة ومريدي العلم، وذلك هو سر ضالة أحجامهم بالنسبة لأحجام الحكماء الخمسة. وقد صور على الجانبين خدم ذوو قسَمات أجنبية تشي بالبلاذة هم أصغر الأشخاص حجماً لضالة مكانتهم، عدا ذلك الرجل الواقف إلى يسار اللوحة الثانية والمستند إلى عمود بعد ائذفاعته إلى المقدمة ليحرك الهواء بمروحته قرب وجوه الحكماء، فإنه يبدو إلى جانب سادته أكبر حجماً من قدره. واستفاد من هذه الميزة أيضاً الكاتب الجالس بجانب الحكيمين، وقد شرد ذهنه لحظة توقف فيها عن الكتابة منتظراً ما سوف يملأ عليه. إن مشهد اللوحتين زاخر بالنشاط الفكري المحتدم الذي يبرز سلبية الأشخاص المصورين في الطابق العلوي والحمود الذهني لدى الخدم الذين يشهدون الجدل الفكري وهم بعيدون عنه كل البعد.

في بغداد، وهذا يعني أنها نسخت بعد انهيار عاصمة العباسيين أمام الزحف المغولي عام ١٢٥٨، ومع ذلك فإن اللوحتين لم تتضمن أي عنصر من عناصر الشرق الأقصى التي اختلت مكاناً واضحاً في التصوير بعد ذلك، وقد جسدت أروع تجسيد أسلوب مدرسة بغداد بعد اكتمال نضجه وتدفق حيويته الخلاقة رغم أنه فرغ منهما قرب نهاية القرن الثالث عشر.

ويبتما يعلن عنوان الجانب الأيسر اسم الكتاب، يحيطنا عنوان الجانب الأيمن أننا في حضرة مؤلفين خمسة صنفوا هذه الرسائل. ويعد وضع «صورة المؤلف» في صدر الكتاب من خصائص العصر اليوناني الكلاسيكي إذ كانت لفافات البردي تتضمن صور المؤلفين، حتى إذا ظهرت الكتب المخطوطة في نهاية القرن الأول الميلادي بقيت عادة وضع صورة من هذا النوع قبل النص المكتوب. وقد أكد أحد مؤرخي الفن أن «صور المؤلف» كانت تشغل من الناحية العددية في مخطوطات العصور الوسطى مكاناً أكبر مما كانت تشغله المنمنمات الأخرى، ومع ذلك فلم تعالج العصور الوسطى صورة المؤلف على هذا النحو الذي يظهر في هاتين اللوحتين اللتين استوعبتا المفهوم الأصلي وتمثلناه في الحضارة العربية الإسلامية، إلى الحد الذي جعله مفهوماً بل وسمة عربية حقيقية.

وأول ما يثير انتباهنا في هاتين اللوحتين (٩٧م، ٩٨م) هو ألوانهما التي تختلف عن كل ما سبقها. فبينما كانت الألوان السائدة قبل ذلك هي الأحمر والأزرق نجد أنها تتألف هنا من الأزرق والذهبي والأسود ودرجتين من اللون البني. ويعني المصور هنا لأول مرة بإطار الحدث وبالوحدات الزخرفية البالغة التنوع، ويتصور العقود على حقيقتها والستائر المعقودة الملونة وبأدق التفاصيل، وقد وضع جناحي البناء المتعدد الزوايا منحرفين، مشيعاً بذلك عمقاً ضاعفته الخلفية البنية الداكنة التي صور عليها الشخصين الجالسين في الشرفة والتي تمثل فرجات

الفصلُ السادس عشر

التصويرُ في الأندلس

تصاویر جدارية بأحد منازل البرطل. قصر الحمراء. غرناطة. القرن ١٤.

درجات مختلفة من الأحمر والأخضر والأزرق والأصفر بالإضافة إلى الأبيض والأسود والبنفسجي والذهبي.

وتمثل الصور مناظر من الحياة العامة والاحتفالات، ومشاهد صيد يتعقب فيها الصيادون الوحوش المختلفة، ومشاهد حرب، وعودة فزقة من الفرسان إلى معسكراتها، وجماعات من الرجال والنساء على ظهور الخيل والإبل (لوحة ١١٨) ومجموعة من الأسرى المقيدون بالأغلال، وقطعاً من الغنم والبقر تسير في رفقة حراسها، وقوافل إبل وبغال محملة (لوحة ١١٩).

ومع وضوح عناية الفنان الشديدة بالرسم وحرصه على إبراز أدق التفاصيل كزخارف الأعلام والخيام والسروج، فإنه لم يكتفِ كثيراً بالحركة، بل ولم يترك فراغات بين الموضوعات، إذ صف الأشخاص والحيوانات متلاصقة جامدة أمام خلفية خالية من الزخرفة. ومع إحياء أسلوب تصويرها بالأسلوب الفارسي السائد في عصرها نفسه إلا أنها تشي بشبه واضح بزخارف الزجاج المطلي بالميناء وبالممنمات المسيحية الإسبانية، بل إن الطريقة التي اتبعت في الرسم تبعث على الاعتقاد بأنها من إبداع أحد مصوري المخطوطات الأندلسيين لاستخدامه عناصر زخرفية من نوع العناصر المستخدمة في الحمراء. وقد ذهب «مورينو» إلى أن هذه اللوحات قد أنجزت في النصف الأول من القرن الرابع عشر، استناداً إلى ما ذكره ابن الخطيب في كتابه «الإحاطة في تاريخ غرناطة» عن الجنود الأندلسيين قائلًا:

«وربهم في القديم شبه زي أفيالهم وأصدادهم من جيرانهم الفرنج إسباغ الدروع وتعليق الترسه وخفا البيضات واتخاذ عراض الأسيه ومشاعة قرايس السروج واستركاب حمله الرايات خلف كل منهم بصفة تختص بسلاحه وشهرة يعرف بها، ثم عدلوا الآن عن هذا الذي ذكرنا إلى الجواشين المختصرة، والبيض المهرقة والدزق العربية والسهم الملطية والأسل العطفية».

كُشف في عام ١٩٠٨ عن زخارف جدارية في الأندلس زودتنا بكثير من المعارف عن التصوير الإسلامي في نهاية العصور الوسطى في تلك البلاد التي شكّلت جزءاً هاماً من الإمبراطورية الإسلامية خلال فترة ازدهارها، والتي ترك فيها الفن الإسلامي بصمات ما تزال باقية حتى اليوم من كتب مرقنة أو جدران مزخرفة.

وقد اكتشفت هذه الزخارف على جدران قاعة أحد منازل البرطل في قصر الحمراء بغرناطة بجوار برج السيدات الذي يُطلق عليه اسم «البرطل»، وهي تصاویر في صفوف تعلو بعضها بعضاً، رُسمت فيها الأشخاص في حجم دقيق لا يزيد ارتفاع بعض رؤسهم عن عشرين سنتيمتراً، الأمر الذي يوحي بوجود صلة بينها وبين الممنمات وبأنها أنجزت في النصف الأول من القرن الرابع عشر، كما ذهب إلى ذلك ليوبولدو توريس بالباس.

وكان ظهور هذه الزخارف عند ترميم الدار الملاحقة ليُنرج السيدات، فلم تكن الطبقة الخارجية من الملاط تزال حتى ظهرت صور طمس الدخان بعض أجزائها وذهب بمعظم ألوانها، كما كان لإزالة الملاط أثره في إيجاد حفرة أصيبت بسببها هذه اللوحات بتلف. وعلى الرغم من ذلك فقد تيسر تمييز هذه الصور بألوانها المتعددة، وقد صفت في أربعة شرائط تعلو كل منها الآخر، يبلغ عرض كل منها عشرين سنتيمتراً، كما يفصله عن غيره إطار بعرض سنتيمتر واحد، ويحيط بها جميعاً إطار عرضه سبعة سنتيمترات مُزدان بأوراق نباتية محورة. وقد استخدمت الألوان المداية في محلول صمغي أو في زلال البيض والتي توضع على السطح الجاف بعد تحديد الرسم أولاً بخطوط من القلم الأسود أو الأحمر. وتبلغ الألوان المستخدمة فيها اثني عشر لوناً هي

إسبانيا، بل ظلَّ يُمثَّل تيارًا واضحًا إلى جانب التيار المسيحي، وكثيرًا ما برزا معًا في بعض اللوحات الجدارية بل والمخطوطات المصورة، وإن تكن الآثار الباقية قليلة إلى حد لا يسمح بتأريخ مدرسة التصوير الإسلامي في إسبانيا تأريخًا دقيقًا منذ بدايتها إلى اضمحلالها.

هذه الآثار وإن قلَّ عددها تكشف عن وجود وحدة فكرية ووسائل تعبير فنية مشتركة سادت العالم الإسلامي منذ عصوره الأولى حتى نهاية العصور الوسطى برغم كل الخلافات الإقليمية المعروفة.

«بياض ورياض». القرن الثالث عشر. مكتبة الفاتيكان.

على الرغم من الصورة الشاملة للحياة العامة التي زودتنا بها مُمَنَّمات مخطوطات مقامات الحريري إلا أنها وفقًا للتقاليد الشرقية التي يتفرد فيها الرجال بأعمال الحياة، فإنها لم تعرض لتصوير النساء إلا في التادر ولا للعلاقات العاطفية التي تربط عادة بين الرجال والنساء والتي نجد الحديث عنها مُستفيضًا في غير المقامات.

إن موضوع الحب الذي كان من أغنى موضوعات الأدب العربي لم تنقله إلينا مخطوطات مصورة، ولم نعر حتى اليوم إلا على مخطوطين منها: أحدهما يدار الكتب القومية بفيينا وهو جزء من مخطوط تنتظم إحدى صفحاته تصويرًا لقبرين تنمو وسطهما شجرة مورقة، كُتبت إلى جانبيها بغض الشطور التي أُوْحَت إلى المؤرخ «رايس» بأنها جزء من أحد كُتب الأدب المصورة التي تروي حكايات مشاهير العشاق. وهي ترجع إلى نهاية القرن التاسع أو بداية العاشر وتُعرى أحداثها إلى إحدى بلاد منطقة شرق البحر المتوسط، أو مصر بالذات في وجه راجح. وثانيهما هو المخطوط الذي يحمل عنوان «قصّة بياض ورياض» الذي اكتشفه «ديلافيذا» والمحمفوظ بمكتبة الفاتيكان، وتُربو قيمة هذا المخطوط على قيمة المخطوط الأول فنيًا، وعلى الرغم من نقص صفحاته بدايةً ووسطًا وخاتمةً، وعلى الرغم من اضطراب سائر صفحاته مما يصعب معه معرفة أحداث الموضوع في وضوح، لهذا إلى أنه مخطوط وحيد لا تُساينه نسخة أخرى رُغم وجود قصّة باسم «بياض ورياض» في مخطوط بمكتبة إستانبول يتضمن حكايات على غرار كتاب «ألف ليلة وليلة».

وتقع أحداث قصّة «بياض ورياض» في منطقة شمال الدجلة والفرات كما يوحي بذلك اسم نهر «الثرثار»، وتبدأ يوم انتقل بطل القصّة «بياض» التاجر الدمشقي الذي يهوى الشعر مصاحبًا والده في أسفاره إلى خارج وطنه، ولمع فتاة تعمل وصيفة عند سيّدة من

وهو يرى أنّ الصور تحوي الكثير مما ذكر ابن الخطيب أنّه كان يُستخدم قبل مُنتصف القرن الرابع عشر، غير أنّ الدكتور جمال محرز لا يُشاركه الرأي ويذهب إلى «أنّ اللوحات تتضمن دروعًا جلدية من النوع المحفوظ في المتاحف المختلفة والذي يرجع إلى القرنين الرابع عشر والخامس عشر». ويدل على رأيه باختلاف الأعلام عما ذكره ابن الخطيب لعدم احتوائها على أسماء القواد أو الحكام ولا على ما يمكن أن يتخذ شعارًا. وأغلب الظن أن كثرة الأعلام لا تعني أكثر من أنّها أعلام الفرق المختلفة المُمثلة في هذه اللوحات. كما أنّ الأسلحة تنطبق عليها الأوصاف التي ذكرها ابن الخطيب في المرحلة الثانية وهي التي تلت مُنتصف القرن الرابع عشر. على أنّ هذه اللوحات تكشف عن علاقة أكبر بينها وبين تصوير مدرسة بغداد، وهو ما يظهر واضحًا في قلة اهتمام المصور برسم خلفية للوحاته، واكتفائه بصفت الأشخاص والحيوانات والأشجار على الإطار الضيق الفاصل بين الأسرطة، مع إعطاء سحن الأشخاص مساحة سامية تظهر في استيالة الوجه والعيون الواسعة والأنف الأفتى واللحية والشارب الأسودين، مع اختيار الوضع الجانبي للوجه أو وضع ثلاثة الأرباع، ثم الدقة في تصوير الحيوانات وإبرازها بقوة رُغم نحولها، وعرض العناصر الزخرفية في شكل الجدائل، وإضفاء التتميق الزخرفي على أطواء الثياب بعيدًا عن الأسلوب الواقعي.

ومع هذا كله فإن هذه اللوحات ليس فيها أي عنصر من العناصر التي جدت على مدرسة بغداد إثر الغزو المغولي في الفترة نفسها التي أنجزت فيها زخارف البرطل الجدارية - أي في القرن الرابع عشر الميلادي - مثل رسم العناصر الثباتية في صورة طبيعية، ورسم العيون الضيقة مائلة موحية بالتأثير الصيني الذي ظهر في بعض أعمال التصوير المسيحي في إسبانيا، والذي لم يظهر رُغم ذلك في زخارف البرطل الإسلامية ولا مُمَنَّمات مخطوط «بياض ورياض» الأندلسي. والواقع أنّ هناك تقاربًا كبيرًا بين زخارف البرطل وسحن الأشخاص على الخزفيات الإسلامية في المشرق، وهو التشابه الذي يرجع إلى التأثير بمدرسة بغداد. كذلك تأثرت إسبانيا بأسلوب «سامرا» الذي يبرز الوجوه مُستديرة أو «قمرية» كما يُطلق عليها، وهو ما نجده في وجه سيّدة مصورة على أحد جذران مدينة الزهراء، ووجوه الأشخاص المصورة على خزفيات متحف غرناطة الأثري وفي بعض مخطوطات المستعربين.

لهكذا تأثرت فنون إسبانيا خلال العصور الإسلامية بالتيار الشرقي الوافد إليها مع الفنانين الشرقيين ومنجزاتهم الفنية. ولم يتوقف نشاط المصورين المسلمين بعد انتهاء الحكم الإسلامي في

على أنغام عود أمام السيِّدة العريقة النَّسب تُحيط بها وصيفاتها، وقد أخذ ثلاثة مِنْهُنَّ يُصغِنَ إلى العاشق الشَّابَّ في دُحول أنسَاهُنَّ الكُؤوس في أيديهنَّ، بيَّنا أخذت امرأتان تتطلَّعان إلى سيِّدتهما تتابعان تأثير الغناء على تعبير وجهها (لوحة ١٠١م).

وإذ كانت هذه اللُّوحات تُصوِّر طابع القِصَّة الذي تَحطِّه قَطرات الدُّموع، فإنَّ أهمَّ ما فيها تلك المواقِف النَّابضة بالخَفَقات العاطفيَّة الصَّادِقة. وقد اهتمَّ الفنَّان اهتمامًا بالغًا بِتصوير خَلْفِيَّات المَشاهد التي تُشبه في بعض جَواريها خَلْفِيَّات مَشاهد مقامات الحريريِّ وإنَّ جَعَلَ العنصر المِعماريَّة على جانبي اللُّوحة بدلًا من خَلْفِيَّتها على تقصُّص العادة المُتَّبعة في فنِّ التَّصوير بالمشرق. على أنَّ الفارق الجَوْهريِّ هو شُيُوع جَوَّ أكثر أُنْبهة ورقة من لُوحات المَقامات، ذلك أنَّ القِصص العربيِّ يَتَرَضُّ ثراء العاشق حتَّى يَسْتَطِيع التَّغادُّ إلى داخل قُصور الأشراف، على حين تَنجِّه مقامات الحريريِّ إلى الحديث عَن الأوساط الشَّعبيَّة. كما أنَّ سُلوك «بياض» و«رياض» المَهْدَب الرِّفيع يُشكِّل نقيضًا واضحًا لِسُلوك شَخْصِيَّات المَقامات من عاَمَّة النَّاس. وهكذا تَنبِعث الأصوات في هُذين الكِتابين من عالَمين مُختلفين كُلَّ الاختِلاف هُما عالَم أغاني العُشاق الحَزينة الوادِعة، وعالَم المُشاحنات الصَّاخية في الطَّرقات العاَمَّة المُزدجِمة بِالجماهير.

ومع أنَّ المَخْطوط لا يَتضمَّن ذِكر المكان الذي أُنجزت فيه، ولا يُحدِّد إنَّ كان مراكش أم إسبانيا، فإنَّ تفاصيل اللُّوحات تُؤكِّد أنَّه من إبداع فنَّان من المِغرب العربيِّ من القَرْن الثَّالث عَشْر شَكَلَه من عَناصر التَّصوير الشَّرقيَّة السَّائدة في عَصْره، مُعالِجًا مَوْضوعًا شَرقيًّا، مُضيفًا إِلَيْه بعض التَّفاصيل العَرَبِيَّة التي خَلَعَتْ عَلَيَّه وسِخَّة إقْلِيْمِيَّة.

كِتَاب «الشُّطْرُنْج» لِموَلَّف مَجْهول ١٢٨٣م.

تُرجم إلى الإِسبانيَّة بأمر ألفونسو الحَكيم مَلِك قِشتالة (العاشِر) (١٢٢١ - ١٢٨٤)، وَحَقَّق النَّصَّ الإِسبانيَّ الأُسْتاذ أرنالد شتايجر عام ١٩٤١. تَصوِير على البَرشمان. مَكْتَبَة الإسكوريال.

أوَّل ما ظَهَرَت لَعَبَة الشُّطْرُنْج في قُرْبَة في القَرْن التَّاسِع المِيلاديِّ وكان المُوْسيقار زُرِياب أوَّل مَنْ حَمَلَهَا إِلَيْهَا، وَقَدْ يَكُون مَنْ حَمَلَهَا مُهاجِر آخَر مِن العِراق. وَقَدْ رَحَّبَ بِهَا أَهْل قُرْبَة ثُمَّ أَهْل الأَنْدَلُس فَشَاعَتْ بَيْنَهُمْ شُيُوعًا كَبِيرًا، على الرُّغم مِنَّا جَاءَ على لِسَان المُحتسِب مِن تَحْريمها حَيْث قال: «يُنْهَى عَن لَعِب الشُّطْرُنْج والنُّزْد والقِرْق والأزلام على سَبيل القِمَار فإنَّها حَرَام وتَشْغَل عَن الفَرَايِض»، وعلى الرُّغم مِنَّا جَاءَ على لِسَان الشَّاعر

الأشرف هي ابنة أَحَد أنماء البلاط، فَمَا كَادَ يَرَاهَا حَتَّى وَقَعَ فِي غَرَامِهَا، ثُمَّ مَا لَبَثَ العاشقان «بِياض» و«رياض» أَنْ تَعَرَّضَا لِمُخْتَلِف المِحن، إِذ افْتَرَقَا وَوَقَعَ الجَفَاء بَيْنَ «رياض» وَبَيْنَ سَيِّدَتِهَا، وَأَصَابَ الجَزَع والِد السيِّدة الذي كان يَهْوَى رياض بِذَوْرِهِ وَيُرِيدُهَا لِنَفْسِهِ، وَيَتَدَخَّلُ الوُسْطاء بَيْنَ العاشِقَيْنِ يَحْمِلُونِ الرِّسائِلَ وَيُوجِّهُونِ النَّصائِح. وَتَتوالى أَحداث قِصَّة حُبِّ كان أَفلاطون أوَّل مَنْ وَصَفَه في مُحاورته الفَلَسْفيَّة «المادِّيَّة» حِينَ قال: وكان العُرف يَغْتَفِر لِلعاشِق أَن يَأْتِيَ فِي سَبِيل ظَفَرِهِ بِمَعشوقته ما لا تَغْتَفِرهُ لَهُ الفَلَسْفة، مِن الدُّعاء والتَّضَرُّع والتَّوسُّل وَقَطْع المِهود وإذلال النَّفس والاستِلْقَاء على بِساط أمام دار المَعشوقة. وَإِذَا كان هَذَا التَّمَطُّ مِنَ السُّلُوك قَدْ ظَهَرَ فِي أَقاصيص الحُبِّ اليُونانيَّة، فَإِنَّهُ شاع فِي كِتابات الكُتَّاب والشُّعراء العَرَب بِاسْم «الحُبِّ المُدْرِي» نِسْبَةً لِقَيْس وَلَيْلى عاشِقَيْ قَبيلة «عُدْرَة» الشَّهْرِيْن، وَتَجَدَ نماذج عِدَّة مِن هَذَا الحُبِّ المُدْرِي فِي كِتاب «أَلْف لَيْلَة وَلَيْلَة». وَالرَّاجِح أَنَّ العاشِقَيْنِ فِي التَّصوِيرَةِ المَخْفُوظَةِ بِمَكْتَبَة فَيينا كانا مِن هَذَا الطَّرَاز، كَمَا أَنَّ بِياض وَرياض كانا يَمْضِيانِ فِي حُبِّهما على وَفْق العُرف المألُوف، وَيَتَغَيَّيان بِه وَيُكادِبان فِي سَبِيله العَذاب، وما أَكْثَر ما كانت تَطْلُق زَفَرَاتِهما وَأَناتِهما وَصَرَخَاتِهما، لا يُقْلِيانِ بِالَّا لَمَّا أَصاب جَسَدِيَّهما مِن دُبول وَضُموْر حَتَّى كانا يَتَعانِيان مَعْنِيًّا عَلَيَّهما مِن الإِغْياء.

وعلى حين وَقَعَتْ أَحداث قِصَّة الحُبِّ المُدْرِي فِي مِنطَقة شَرْقِ البَحْرِ المُتوسِّط، أو فِي مِنطَقة أَكْثَر مِنها بُعْدًا يَجَاه الشَّرْق، نُسِخَ هَذَا المَخْطوط فِي إِحْدَى بِلاد المِغْرِب الإِسْلامِيَّة، أَي فِي مِنطَقة شَمال أَفْرِيقيا أو الأَنْدَلُس، وَهُوَ ما يُوَكِّدُه نَوْع الخَطِّ كُتِبَ بِهِ وَبَعْضُ التَّفاصيل المِعماريَّة لِلصُّوْرِ كالتَّوافِذ المُزْدِجَة.

وَرُغمُ التَّلَف الذي أَصاب صَفَحات المَخْطوط ومُتَمَنّاتِه، فَقَدْ اخْتَفَظَتْ كَثْرَةٌ مِنها بِما يَكْشِف عَن القَسَمات الرِّئاسِيَّة لِلأسْلُوب العامِّ. وَنَرى فِي إِحْدَى اللُّوحات «شُمُول» زَمِيلَة «رياض» وَصَدِيقَتِها تَحْمِلُ رِسالَة إِلَى «بِياض» المُعَذَّب الفِكر، وَقَدْ التَفَّت بِه على شاطئ النُّهر خَارِج المَدِينَة على مَقْرَبَة مِن قَصْرِ ذِي حَدِيقَة مُسَوَّرَة (لَوْحَة ٩٩م). وَفِي لَوْحَة أُخْرَى تَشْهَد شَيْخًا يَسْهَر على العاشِقِ المِسْكِين الذي سَقَطَ على الشَّاطئ غائِب الوَعْي بَعْدَ أَنَّ أَشَدَّ أَغْنِيَة حُبِّ حَزِينَة (لَوْحَة ١٠٠م). وَإِلَى جَانِب القَصْرِ ذِي الحَدِيقَة المُسَوَّرَة ظَهَرَتْ ساقِيَة كَبِيرَة مِن النَّوع الذي كان شائِعًا فِي العِراق وسُورِيا والذي ما يَزَال باقِيًا حَتَّى اليَوْم على شُطْآن كَثِير مِن الأَنْهار وتُعرَف بِاسْم التَّاعُورَة. وَفِي مُتَمَنَّة ثالِثة نَلْقَى جَوًّا أَكْثَر بَهْجَة، حَيْث يَجْلِس «بِياض» فِي حَدِيقَة مُسَوَّرَة يُغْثِي لِحَبِيبَتِهِ

أنفسهم لِمَلَاعِبَةِ أَيْدُون فَأَذِنَ لَهُ الْأَمِيرُ مُحَمَّدٌ فِي ذَلِكَ. وَاسْتَطَاعَ تَمَامَ أَخِيرًا أَنْ يَغْلِبَ أَيْدُون فِي جَوَلَاتِ مُتَعَايِبَةٍ، فَأَعْجَبَ ذَلِكَ الْأَمِيرَ وَسَرَّهُ وَرَضِيَ عَنْهُ، وَأَمَرَ بِأَنْ يُخْلَعَ عَلَيْهِ وَيُحْمَلَ عَلَى فَرَسٍ رَائِعٍ الْحَلِيَّةِ... فَخَرَجَ عَلَى النَّاسِ فِي الْخُلُوعِ رَاكِبًا لِلطَّرَفِ (أَيَ لِلْفَرَسِ) وَقُدَّامَهُ بَذَرَةُ الصَّلَةِ، فَشَهِرَ رِضَا الْأَمِيرِ عَنْهُ وَتَمَكَّنَتْ مِنْ يَوْمِيذٍ مَنَزَلَتِهِ.

وَلَقَدْ حَفَلَتْ الْقُصُورُ الْمَلِكِيَّةُ بِالْأَنْدَلُسِ بِمَا لَمْ تَحْفَلْ بِهِ قُصُورُ مِثْلِهَا عَاصِرَتِهَا أَوْ جَاءَتْ قَبْلَهَا أَوْ جَاءَتْ بَعْدَهَا، فَلَقَدْ كَانَتْ مَشَاهِدُ اللَّهْوِ وَمَجَالِسُ الشَّرَابِ وَمَحَافِلُ الْغِنَاءِ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي لَا يَزَالُ الْخَيَالُ أَعْجَزَ مَا يَكُونُ عَنْ أَنْ يَتَصَوَّرَهَا. وَتَكَادُ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةُ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِينَا تَجْمَعُ شَيْئًا مِنْ هَذَا وَإِنْ لَمْ تَدَلَّ عَلَيْهِ دَلَالَةٌ كَامِلَةٌ، فَتَرَى فِي إِحْدَى صُورِهَا وَصِيفَةً تَلْعَبُ الشُّطْرُنُجُ مَعَ أُخْرَى لَا تَظْهَرُ فِي الصُّورَةِ، عَلَى حِيْنٍ تَقُومُ وَصِيفَةٌ أُخْرَى بِالْعَرْفِ عَلَى الْعُودِ (لَوْحَةٌ ١٠٢م). وَفِي صُورَةٍ أُخْرَى نَشْهَدُ خَادِمَةً تُقَدِّمُ الطَّعَامَ بِإِحْدَى يَدَيْهَا - وَفِي الْأُخْرَى دَوْرَقٌ - إِلَى شَخْصَيْنِ جَالِسَيْنِ يَتَبَادَلَانِ الْحَدِيثَ، وَإِلَى جِوَارِهِمَا أَحَدُ الْمَوْسِيقِيِّينَ يَعَزِفُ عَلَى الْهَارَبِ (لَوْحَةٌ ١٠٣م).

وَلَيْسَ هُنَاكَ مَا يَدُلُّنَا عَلَى أَنَّ مُنَمَّنَاتِ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ قَدْ صُوِّرَتْ فِي الْأَنْدَلُسِ أَوْ فِي الْمَغْرِبِ، فَهِيَ تَجْمَعُ مَلَاحِيحَ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَاكَ مِمَّا يَجْعَلُ الْمُشَاهِدَ عَلَى شَكِّ مَنْ أَمْرُهُ لَا يَكَادُ يَجْزَمُ بِرَأْيِ.

الْأَنْدَلُسِيِّ الْغَزَالِ حِينَ عَدَّهَا فِي شِعْرِهِ رَجْسًا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، فَقَدْ بَرَزَ فِي لُغَةِ الشُّطْرُنُجِ حَاقِقُونَ نَالُوا شُهْرَةً طَبَّقَتْ آفَاقَ الْأَنْدَلُسِ، وَكَذَا هَامَ بِهَا الْحُكَّامُ مِثْلَ الْمُعْتَمِدِ بْنِ عَبْدِ مَلِكِ إِسْبِيلِيَّةٍ فَتَفَتَّنُوا فِي اتِّخَاذِ قِطْعِهَا مِنَ الْأَخْشَابِ النَّفِيسَةِ الْمُعْشَاةِ بِالصَّدَفِ وَالْعَاجِ الْمُرْصَعِ بِالذَّهَبِ. حَتَّى إِذَا مَا كَانَ الْقُرُونُ الثَّانِي عَشَرَ ظَهَرَتْ فِي قُرْطُبَةٍ لُغَةٌ أُخْرَى هِيَ لُغَةُ التَّرْدِ، وَلُغَةٌ أُخْرَى لِلنِّسَاءِ هِيَ الْقُرْقُ كُنَّ يُقَامِرْنَ فِيهَا بِأَمْوَالِهِنَّ إِلَى آخِرِ دِرْهَمٍ.

وإِنَّ جَمِيعَ الْإِشَارَاتِ الْوَارِدَةِ فِي حَدِيثِ الْأُسْتَاذِ لِيُفِي بروفنسال بِكِتَابِهِ «تَارِيخُ إِسْبَانِيَا الْإِسْلَامِيَّةِ» عَنْ لُغَةِ الشُّطْرُنُجِ فِي الْأَنْدَلُسِ، وَشِعْرِ الْغَزَالِ (يَحْيَى بْنُ الْحَكَمِ الْجِيَانِي فِي الْقُرُونِ النَّاسِغِ) وَمَهَارَةِ «أَيْدُون» الصَّفَلَبِيِّ فَتَى الْأَمِيرِ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَوْسَطِ بْنِ الْحَكَمِ الَّذِي وَلَّى إِمَارَةَ الْأَنْدَلُسِ (٨٥٢ - ٨٨٦) فِي هَذِهِ اللَّغَةِ، هِيَ الْمُتَضَمِّنَةُ فِي كِتَابِ «الْمُقْتَبَسِ مِنْ أَنْبَاءِ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ» تَحْقِيقَ مَحْمُودٍ عَلَى مَكِّي، ١٩٧٣. فَقَدْ حَكَى بَعْضُ الْمَشِيخَةِ أَنَّ السَّبَبَ فِي رِضَا الْأَمِيرِ مُحَمَّدَ عَنْ وَزِيرِهِ تَمَامَ بْنِ عَامِرِ الْقُفَيْيِّ بَعْدَ مَوْجِدَتِهِ عَلَيْهِ هُوَ أَنَّ الْأَمِيرَ مُحَمَّدًا لَاعَبَ فَتَاهُ أَيْدُونَ بِالشُّطْرُنُجِ، وَكَانَ أَيْدُونُ شَدِيدًا فِي لُغَتِهَا فَقَمَرَ (أَيَ غَلَبَ) الْأَمِيرَ، فَغَاظَهُ ذَلِكَ وَاجْتَمَعَ فِي الشُّطْرُنُجِ عَلَى أَيْدُونِ بَعْضُ رُؤُوسِ أَصْحَابِهِ، فَلَقَدْ كَانَ أَيْدُونُ هَذَا مِنَ الْمَهَارَةِ فِي لَعِبِ الشُّطْرُنُجِ بِحَيْثُ لَمْ يَلَاغِبِهِ أَحَدٌ مِنَ أَصْحَابِ الْأَمِيرِ إِلَّا غَلَبَهُ، حَتَّى غَاظَ ذَلِكَ الْأَمِيرَ. وَيَبْدُو أَنَّ تَمَامَ بْنَ عَامِرٍ كَانَ مِنْ بَيْنِ مَنْ عَرَضُوا

بداية النهاية : الغزو المغولي

منافع الحيوان ١٢٩٤ - ١٢٩٩ م لأبي سعيد عبيد الله بن بختيشوع. مكتبة بيربونت مورجان بنيويورك

من خلال واحدة من أهم مجموعات المُنمنمات نَتَبَّن أبعاد تأثير الغزو المغولي على فن التصوير المعبر عن هذه الفترة وهي الإحدى عشرة لوحة التي يَتَنظَّمها كتاب «منافع الحيوان» لابن بختيشوع، وهو كتاب يُعالج دراسة الإنسان والحيوان على نهج كتاب ديوسقوريدس في دراسة الثبات، ولا يَخْتَلِف عنه إلا في أنه يَتَضَمَّن - على غرار كُتُب العصور الوسطى - مزيدًا من الخيالات الشَّعْبِيَّة والخرافات الطَّبِيَّة التي لا تَلِيَق بِكِتَاب كِلَاسِيكِي رَصِين. وَقَدْ أُنْجِزَت هذه اللُّوحات في مدينة «مراغة» بِشَمال غَرْبِي فَارِس الفُنون. وَبَيْنَمَا تَحْمِل اللُّوحات الأولى التي تُصَوِّر الإنسان والحيوانات ذوات الأَرْبَع مَلامِح أَسْلُوب التَّصْوِير العَرَبِي السَّائِد قَبْل المغول، نَجِد لُوحات أُخْرَى من إِبْداع فَنَانَيْن تَأَثَّرُوا بِدَرَجَات مُتفاوتة بِأَساليب التَّصْوِير الصِّينِي المُعَدَّة. وَيُوحِي هذا التَّجَاوُر لِأَساليب المُتنوِّعة بِأنَّ مراغة كانت مَرَكَزًا لِعَدَد من الفَنَانَيْن المُختلِفي الأَصُول الذين ساهموا في تَرْقِين مَخْطوطاتها. ولا شَكَّ في أَنَّهُ كان مِن بَيْنِ هذه المَجمُوعة فَنان من جَنُوب العِراق ظَلَّ يَعمَل بِأَسلوبه الذي اِعتادَهُ، ففِي مُنمَمة «الفيلين» (لُوحَة ١٠٤م) نَجِد الثَّباتات الصَّخْراوِيَّة نَفْسها - وَقَدْ داسَ الفِيلانِ بَعْضها وظَلَّ بَعْضها قائِمًا - والأشجار والطَّيُور نَفْسها التي نَجدها في خَلْفِيَّة المُنمنمات العَرَبِيَّة وَخُصوصًا مُنمنمات بَغداد. وَتَتَبَّن في عَدَد مِن مُنمنمات المَجمُوعة الأولى تَعانق دِقَّة المُلاحَظَة مع طَريقة العَرَض الطَّبِيعِيَّة لِلتَّفَاصِيل المُهِمَّة، وهو الذي يَتَجَلَّى على وَجْه التَّحْدِيد في مُنمَمة «رَهْط الإبل» (لُوحَة ٧٧م) بِسُخَّة الواسِطِي مِن مَخْطُوطَة «مَقامات الحَريرِي» المَحفوظَة بِدار الكُتُب القُومِيَّة بِباريس والتي تَرَجع لِعام ١٢٣٧.

كان الغزو المغولي بَدْءَ التَّحَوُّل الكَبِير في تاريخ التَّصْوِير العَرَبِي والإسلامي، وَقَدْ بَلَغَ هَذَا الغَزْو ذُرُوتَهُ بِفَتْح بَغداد عام ١٢٥٨ وَقَتْل الخَلِيفَة العَبَّاسِي مُوقِعًا بِذَلِكَ أَكْبَر كَارِثَة في تاريخ العَرَب. لَقَدْ تَغَيَّرَ شَكْل الحَيَاة في العالَم العَرَبِي حَتَّى في تلك المُدُن التي نالها الدَّمار والتي أَفَلَّت سُكَّانها من الفَناء، وَاتَى الخَراب على الأَزْدِهار الاجتماعي والاقتصادي الذي تَأَلَّقَ بِفَضْلِهِ فَنَ تَصْوِير المَخْطُوطات وَتَرْقِينها، وبِخاصَّة في مُدُن العِراق.

وَلَقَدْ أَسْفَرَ الغَزْو عَن ثَلَاثَة آثار هَامَّة: أَوَّلها هِجرة كَثِير مِن الفَنانين إلى العَرَب والشَّمال العَرَبِي طَلَبًا لِلأَمَان، وَنُزُوح عَدَد آخَر إلى مُدُن الشَّرْق المَغُولِيَّة اللَّاعِمَة بِالاسْتِقْرار، وَثانِيها اجْتِهادات الفَنانين في التَّوَصُّل إلى ذَوُق جَدِيد يُرضي سادَتهم الجُدُد، وَثالثِيها: خُضُوع فَن الشَّرْق الأَوْسَط لِتَأثير الشَّرْق الأَقْصى بَعْد تَحَوُّل الشَّرْق الأَوْسَط، بما فيه العِراق، إلى جُزءٍ مِن إمبراطوريَّة المَغول التي نَفَذَ مَعها التَّأثير الصِّينِي حَتَّى سُورِيَا وبِصُر رُغم انْتِصارهما على المَغول في «مُوقِعة عَيْن جالوت» عام ١٢٦٠ وَرَدَّهما لَهم على أَعقابهم مَهْزُومين.

والرَّاجِح أَنَّ العِراق ظَلَّت تَعمَل في تَرْقِين المَخْطُوطات في حُدُود ضَيِّقَة رُغم بَقائِها مائة وخَمْسِينَ عَامًا تَحْتَ حُكْم المَغول الوَثائِيَّين الذين تَسَبَّهوا بِادئ ذي بَدْءٍ بِالْفُرْس ثُمَّ ما لَبَّثوا أَن اِعتَنَقوا الإسلام. وَمَعَ ذَلِكَ فَكَّزَ كان مَرَكَز التَّصْوِير العَرَبِي والإسلامي وَقَدْذاك هو دَوْلَة المَمالِك بِبِصُر وسُورِيَا، حَيْث ظَهَرَت بَعْض الكُتُب التي شَغِف بِها العَرَب وإن اِتَّسَمَت بِرُوح جَدِيدَة، إِثْر حَرَكَة تَجْدِيد مَحْدُودَة شَهِدَها الثُّلُث الأخير مِن القُرُون الثَّالِث عَشَرَ والنِّصْف الأَوَّل مِن القُرُون الرَّابِع عَشَرَ.

وقَدْ بَقِيَتْ لَنَا - لِحُسْنِ الْحَظِّ - نُسخةٌ مبكرةٌ مُصَوَّرةٌ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ كَانَتْ قَدْ نُسِخَتْ عَامَ ١٢٨٠ أَيَّ قَبْلَ وَفَاةٍ مُؤَلَّفَهَا بِثَلَاثِ سَنَوَاتٍ فِي مَدِينَةِ وَاسِطِ الْيَمَنِ كَانَ يَعْمَلُ قَاضِيًا بِهَا. وَتَتَضَمَّنُ مُنَمَّةً لِلْحَفَظَةِ، وَهُمَا مَلَكَانِ «مُوكَلَّانِ بِإِبْنِ آدَمَ أَحَدُهُمَا عَنْ يَمِينِهِ وَالْآخَرُ عَنْ يَسَارِهِ، وَيَبْدُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا دَفْتَرًا وَبِالْآخَرِ قَلَمٌ، وَجُوهُهُمَا يَبِضُّ تَمِيلُ إِلَى الْحُمْرَةِ وَمَلْبُوسُهُمَا أَزْرَقٌ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ قَصِيْبَةٌ [خُصْلَةٌ مُلْتَوِيَّةٌ] شَعْرٌ مِنْ وَرَائِهِ وَعِمَامَةٌ بَيْضَاءُ وَتَعْلَانِ وَجَنَاحَانِ وَيَضَعُ كُلُّ مِثْمَا رَأْسَ قَلَمِهِ بِدَفْتَرِهِ يَنْتَظِرُ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ» (لَوْحَةٌ ١٢٠). وَيَخْتَلِفُ أَسْلُوبُ هَذِهِ الْمُنَمَّاتِ عَنْ أَسْلُوبِ مُنَمَّاتِ «كِتَابِ الْبَيْطَرَةِ» وَكِتَابِ «الْحَشَائِشِ وَالثَّبَاتِ» لِإِدِيوسْقُورِيدِسَ، وَنُسخَتِي بَارِيَسَ وَسَانَ بِطَرَسْبَرْجَ مِنْ مَقَامَاتِ الْخَرِيرِيِّ، رُغْمَ أَنَّ هَذِهِ الْمَخْطُوطَاتِ جَمِيعًا قَدْ أُنْجِزَتْ فِي جَنُوبِ الْعِرَاقِ. لَقَدْ صُوِّرَتْ مُنَمَّاتُ «عَجَائِبِ الْمَخْلُوقَاتِ» بِأَلْوَانٍ أَقْلَ عَدَدًا وَأَبْهَى إَشْرَاقًا، عَدَا بَعْضَ الْخُطُوطِ الدَّاكِنَةِ الَّتِي تُحَدِّدُ ثَنَائِيَا الثِّيَابِ، وَيَشِيعُ فِي الصُّوَرِ شُحُوبٌ يَجْعَلُهَا أَقْرَبَ إِلَى الرَّسْمِ الْخَطِّيِّ، كَمَا تَبَدَّى فِيهَا قَوَاعِدُ جَمَالِيَّاتِ الشَّرْقِ الْأَقْصَى وَالْقَسَمَاتِ الْمَغُولِيَّةِ. وَبِالرُّغْمِ مِنْ ذَلِكَ فَإِنَّ التَّصْوِيرَ بِعَامَّةٍ كَانَ مَشْدُودًا إِلَى طَائِعِ الشَّرْقِ الْأَذْنَى.

وَتَعَكْسُ مُنَمَّةٌ «عَجَبِيَّةٌ إِنْقَازِ الْأَصْفَهَانِي» الْوَارِدَةِ بِفَضْلِ عَجَائِبِ بَحْرِ فَارِسَ مِنَ الْمَخْطُوطَةِ نَفْسَهَا (لَوْحَةٌ ١٢١) الْمِثْلَ السَّائِدَ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ لِلْعَرَائِبِ وَالْعَجَائِبِ، وَهِيَ تُحَاكِي قِصَّةَ الْمَلَّاحِ الْمَشْهُورَةِ الَّتِي وَقَعَتْ فِي الرَّحْلَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ رِحَالَاتِ السُّبُّدَادِ الْمَذْكُورَةِ بِكِتَابِ أَلْفِ لَيْلَةٍ وَلَيْلَةٍ، وَالتِّي تَرْوِي كَيْفَ التَّقَطُّ طَائِرِ الرُّخِّ رَحَالَةً مِنْ وَسَطِ جَزِيرَةِ مُوحِشَةِ جَزْدَاءَ وَحَمَلَهُ إِلَى بَلَدٍ مُتَحَضِّرٍ: «كَانَ ثَمَّةَ رَجُلٍ مِنْ إِصْفَهَانَ رَكِبَتْهُ ذُبُونٌ وَنَفَقَةٌ عِيَالٌ عَجَزَ عَنْهَا فَرَكِبَ الْبَحْرَ مَعَ بَعْضِ الثَّجَارِ. وَمَا لَبِثَتْ الْأَمْوَاجُ أَنْ تَلَاطَمَتْ بِهِمْ حَتَّى انْحَصَرُوا فِي دُزْدُورٍ [دَوَامَةٍ] بِحْرِ فَارِسَ. فَاجْتَمَعَ الثَّجَارُ إِلَى الْمُعَلِّمِ لِيُخْلَصَهُمْ فَأَفْتَى بِأَنْ يُضْحِي أَحَدُهُمْ بِنَفْسِهِ فَتَقَطَّوعَ الْإِصْفَهَانِي بِشَرَطِ أَنْ يَقْضُوا ذُبُونَهُ وَيُحْسِنُوا إِلَى أَوْلَادِهِ. فَأَمَرَ الْمُعَلِّمُ أَنْ يَقِفَ عَلَى جَزِيرَةٍ بِقُرْبِ الدَّوَامَةِ وَيَدْفَعُ صَدْرَ الْمَرْكَبِ، فَفَعَلَ، وَجَرَّتِ الْمَرْكَبُ حَتَّى غَابَتْ عَنْ بَصَرِهِ. فَلَمَّا جَاءَ آخِرُ الثَّهَارِ أَحْسَنَ بِهِدَةً شَدِيدَةً فَإِذَا طَائِرٌ لَمْ يَرَ حَيَوَانًا أَعْظَمَ مِنْهُ، فَاخْتَفَى مِنْهُ خَوْفٌ أَنْ يَصْطَاحَهُ إِلَى أَنْ بَدَأَ ضَوْءُ الصَّبَاحِ فَتَقَطَّعَ جَنَاحَيْهِ وَطَارَ. فَلَمَّا كَانَتْ اللَّيْلَةُ الثَّالِثَةُ قَعَدَ عِنْدَهُ إِلَى أَنْ نَفَضَ جَنَاحَيْهِ عِنْدَ الْفَجْرِ فَتَمَسَّكَ بِرِجْلِهِ فَطَارَ أَسْرَعَ طَيْرَانٍ إِلَى أَنْ ارْتَفَعَ الثَّهَارُ فَنَظَرَ نَحْوَ الْأَرْضِ فَمَا رَأَى سِوَى لُجَّةِ الْبَحْرِ فَكَادَ يَتْرَكَ رِجْلَهُ مِنْ شِدَّةِ مَا نَالَهُ مِنَ الثَّغْبِ فَحَمَلَ نَفْسَهُ عَلَى الصَّبْرِ إِلَى أَنْ نَظَرَ نَحْوَ الْأَرْضِ فَرَأَى الْقُرَى وَالْعِمَارَاتِ فَذَنَا الطَّيْرَ مِنَ الْأَرْضِ

عَلَى أَنَّ مُنَمَّةَ «الْفِيلَيْنِ» تُبَيِّنُ - رُغْمَ الْوَشَائِجِ الَّتِي تَرْتَبِطُهَا هِيَ وَكَثِيرٌ مِنْ مُنَمَّاتِ «مَنَافِعِ الْحَيَوَانِ» بِغَيْرِهَا مِنْ لُوحَاتِ التَّصْوِيرِ الْعَرَبِيِّ - تَسَاوُلًا حَوْلَ مَدَى تَأَثُّرِهَا بِأَسْلُوبِ التَّصْوِيرِ الْفَارِسِيِّ، خُصُوصًا وَأَنَّهَا قَدْ أُنْجِزَتْ فِي إِيرَانَ. غَيْرَ أَنَّ مَا نَعْرِفُهُ عَنِ التَّصْوِيرِ الْفَارِسِيِّ فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ يَجْعَلُنَا نَمِيلُ إِلَى الْإِجَابَةِ عَلَى هَذَا التَّسَاوُلِ بِالْتَّفَهِيمِ، ذَلِكَ أَنَّهُ لَا تَوْجِدُ مُنَمَّةً فَارِسِيَّةً وَاحِدَةً تَحْمِلُ مَا يُشِيرُ إِلَى مِثْلِ هَذَا الْإِحْسَاسِ الْمُرْهَفِ بِالْحَيَوَانَاتِ الْتَادِرَةِ، أَوْ تَقِيمُ مِثْلَ هَذَا التَّرَابُطِ الْوَثِيقِ بَيْنَ أَشْخَاصِ اللُّوحَةِ إِلَى الْحَدِّ الَّذِي يَبْدُو مَعَهُ الْحَيَوَانَانِ وَكَأَنَّمَا التَّحَمَّ جَسَدَاهُمَا مَعًا فِي جَسَدٍ وَاحِدٍ. وَتُعَدُّ هَذِهِ الْمُنَمَّةُ، مِنْ وَجْهِ كَثِيرَةٍ، وَاحِدَةً مِنْ أَعْظَمِ مُنْجِزَاتِ التَّصْوِيرِ الْعَرَبِيِّ الْخَالِصِ، الَّتِي قَدْ تُبَيِّنُ شَكْلَ بَعْضِ الْمُؤَرِّخِينَ فِي صِدْقِ مَا يُقَالُ مِنْ أَنَّ التَّخْرِيبَ الْمَغُولِيَّ أَتَى عَلَى مُنْجِزَاتِ هَذَا الْمَجَالِ كُلِّهِ، عَلَى أَنَّ هَذِهِ اللُّوحَةَ رُغْمَ قِيَمَتِهَا الْقِيَّةِ الْكُبْرَى تَدُلُّنَا عَلَى انْجِسَارِ الْأَسْلُوبِ الْعَرَبِيِّ وَاتِّبَاقِهِ إِلَى أَرْضِ أُجُنْيِيَّةٍ عَانِيَةٍ فِيهَا مِنْ مُؤَثِّرَاتِ بِلَاطِ إِمْرَاطُورِيٍّ بَلَغَ الدَّقَّةُ فِي تَنْظِيمِهِ الْوُظُفِيَّ، فَحَرَّمَ هَذَا الْفَنَ الْعَرَبِيَّ وَمَا كَانَ يَسْتَمِيعُ بِهِ مِنْ حُرِّيَّةٍ كَامِلَةٍ وَأَسْلُوبٍ طَبِيعِيِّ فِي التَّصْوِيرِ، فَأَقْلَ نَجْمُهُ. وَتَلْمَحُ فِي هَذَا الشَّرِيطِ الْمُحِيطِ بِالْفِيلَيْنِ إِحَاطَةٌ غَيْرُ كَامِلَةٍ وَالَّذِي يَبْدُو لِهَذَا ثَانَوِيًّا مَا يُشِيرُ إِلَى تِلْكَ الْقِيُودِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي كَانَ لَهَا أَثَرُهَا بَعْدَ ذَلِكَ فِي خُتْمِ الْحَيَوِيَّةِ الْمُتَدَقِّقَةِ الْمَعْرُوفَةِ لِهَذَا الْأَسْلُوبِ، إِذْ لَمْ يَكُنْ قَدْ اسْتُخْدِمَ قَبْلَ ذَلِكَ إِلَّا فِي غُرَّةِ كُتُبِ الْبِلَاطِ، وَفِي لُوحَاتِ إِقْلِيمِ الْمُوصِلِ الْقَرِيبَةِ الشُّبْهِ بِالْمُنَمَّاتِ الْفَارِسِيَّةِ الشُّكْلِيَّةِ الطَّائِعِ.

وَيَتَصَدَّرُ كِتَابُ ابْنِ بَخْشِيَشُوعَ مَجْمُوعَةُ الْكُتُبِ الْمُتَخَصَّصَةِ الْمَوْجِزَةِ الَّتِي تُعَالِجُ وَاحِدًا مِنْ مَوْضُوعَاتِ الْحَيَوَانَاتِ أَوْ الثَّبَاتَاتِ أَوْ الثَّجُومِ أَوْ الْآلَاتِ وَالذَّمَى الدَّائِيَّةِ الْحَرَكَةِ، مِنْ بَيْنِهَا مَقَالَةُ الطَّبِيبِ الْأَنْدَلُسِيِّ «الزَّهْرَاوِيِّ» الْمَعْرُوفِ فِي أَوْروْبَا بِاسْمِ «أَبُو الْقَسْتِيسِ» وَالتِّي تَضُمُّنَتْ دِرَاسَةً مُصَوَّرَةً عَنِ الْأَجْهَازَةِ الطَّبِيبَةِ وَالصَّيْدَلَةِ.

كِتَابُ «عَجَائِبِ الْمَخْلُوقَاتِ وَغَرَائِبِ الْمَوْجُودَاتِ» لِلْقَزْوِينِيِّ ١٢٨٠م - مَكْتَبَةُ الدَّوْلَةِ بِيَاْفَارِيَا، مِيُونِخَ.

ثَمَّةُ كِتَابٍ مِنْ نَوْعِ آخَرٍ ظَهَرَ خِلَالِ الْقَرْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ، يَتَضَمَّنُ دِرَاسَةً لِجَمِيعِ الظَّوَاهِرِ الطَّبِيعِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ فِي فَجْرِ الْعُصُورِ الْوُسْطَى بِطَرِيقَةِ التَّصْنِيفِ الْمُنْتَظِمَةِ الْمَوْجِزَةِ، وَهُوَ الْمَوْسُوعَةُ الْكُونِيَّةُ الَّتِي وَضَعَهَا الْقَزْوِينِيُّ (١٢٠٣ - ١٣٨٣) بِاسْمِ «عَجَائِبِ الْمَخْلُوقَاتِ وَغَرَائِبِ الْمَوْجُودَاتِ»، وَتَحَدَّثُ فِيهَا عَنِ الْأَجْرَامِ السَّمَائِيَّةِ وَالْمَلَائِكَةِ، كَمَا تَحَدَّثُ عَنِ الْمَعَادِنِ وَالثَّبَاتَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ، وَالْإِنْسَانِ نَفْسَهُ.

النباتات المتعددة، والأشجار المعوجة الجذع، والنباتات العديدة الكبيرة والصغيرة وحجر الحفاف الأزرق الحافل بالثقوب الذي كان يستخذه المصورون الصينيون في أغراض الزخرفة، وانتقل التأثير الصيني عبر فارس التي تبنت بعض العناصر الصينية في تكويناتها منذ عام ١٣٠٠. وتشتمل المنمنمات التي تُرِين القسم الثاني من كتاب «منافع الحيوان» المحفوظ بمكتبة بيرپونت مورجان على أشجار ونباتات وصخور مصفوفة في مستويات متتالية توحى بالعمق.

هكذا كان تأثير الغزو المغولي على التصوير العربي مختلفاً عن تأثيره على الفن الفارسي، فقد نفذت عناصر رئيسة من التصوير الصيني إلى الأسلوب الإيراني التركي الذي استقى بعض العناصر العربية المساعدة مما خلق في النهاية تركباً فنياً جديداً تألقت من خلاله الفن الناضج لتصوير المنمنمات الفارسية. فلم تكذ تقضي بضع أجيال حتى اعتنق الحكام المغول الإسلام وتبشروا بالفرس؛ بينما كان الموقف في البلاد العربية جد مختلف إذ تدهور مركز العراق الذي لم يعد مقر الحكومة المركزية وجفت القنوات التي كانت تحمل الحياة لأراضيه الزراعية، وزحفت قبائل البدو على الأراضي المزروعة، وفقد هذا البلد العريق قدرته على استعادة إمكانياته الخلاقة الحقيقية بعد أن أصبح ولاية فحسب ضمن الإمبراطورية الفارسية المغولية، وقطعت صلاته المباشرة بالعالم العربي. وكانت ذلة الممالك بمصر تعد المغول ألد أعدائها وتحرّم دخول منتجات الشرق الأقصى إلى أراضيها. ويُفسر هذا الموقف التاريخي رفض الممالك لمبادئ الفن الجمالية للشرق الأقصى، وإن تسللت بعض عناصره المتميزة، غير أنها لم تظهر إلا بمكانة العنصر الغريب الذي يتعدّر بقاءه وسط فن محدود شديد المحافظة، وهو ما يُفسر كذلك اختلال العناصر الوافدة من الشرق الأقصى للمرتبة الثانية. لقد كان الغزو المغولي طعنة عجّلت بنهاية فن تألقت فترة قصيرة بلغ فيها ذروة جدية بالإعجاب.

وتركته على صدارة تين في بيدر لبعض القرى والناس يُنظرون إليه ثم طار نحو الهواء وغاب». وقد رُسمت الجبال على أشكال لم تكن معهودة في المنمنمات العربية من قبل، في حين لا توحى عناصر الصورة الأخرى بالطابع الصيني. لقد استطاع الفنان أن يبرز في براعة الطابع الدرامي للموضوع الذي صوّره في شكل مهيب، كما أعان شكل الجبال الغريب على إضفاء مسحة من الوحشة التي تلائم الجو النفسي للصورة.

وقد اكتسب كتاب عجائب المخلوقات للقرطبي شعبية واسعة لا في أصله العربي وحده، بل كذلك في ترجماته إلى لغات إسلامية أخرى، وجاءت أغلب الترجمات مصورة. وإذا كانت قصص الكتاب تخفل بالخرافات والخيالات البعيدة عن الروح العلمية، فإن المنمنمات التي تصاحبها تشكل تسجيلاً مصوراً مغرقاً في الخيال.

وما من شك في أن قصص ألف ليلة وليلة يُعدّ من أروع الأدب الشعبي بذليل ذبوعه على الألسنة على مرّ الدهور يُروى حيناً على ألسنة الرواة وتصور مشاهده على أيدي المصورين حيناً آخر، ويشار إلى ما فيه من عظات وعبر. وتعدّ نسخة كتاب عجائب المخلوقات الموجودة بمكتبة ميونخ أقدم الكتب التي اشتملت على تصورات موضوعات شبيهة بموضوعات ألف ليلة وليلة.

بيد أن الشرق الأقصى لم يؤثر في ألوان المنمنمات العربية باستثناء نسخة ميونخ من كتاب «عجائب المخلوقات»، ولم تجتذب الألوان الدقيقة الماثورة عن الصينيين مثل الأسود والرمادي والأبيض الحسن الجمالي لفناني الشرق الأدنى، وإن تبنوا بعض مواصفات التصوير الصينية بخدافيرها، فاطرحوا خطّ النباتات والحشائش ذي البُعدين الذي استُخدم في منمنمة «الفيلين» وحل محلّه النهج الصيني في تصوير المناظر الطبيعية، وظهرت المستويات المتراجعة نحو الخلف والعمق، والتي تنمو عليها

الفن المملوكي ١٢٥٠ - ١٣٩٠

وقد حافظ فن تصوير المخطوطات في عصر المماليك - بقدر الإمكان - على تقاليد الفن الذي نشأ في العراق وفي سوريا، فنصايف من جديد أبحاثاً علمية وكُتِبَ أدبية مصورة، كما زاد الاهتمام بالمؤلفات التي تُعنى بالموضوعات العسكرية، وهو ما يتضح مما بقي لنا من المؤلفات العديدة عن التدريبات وصناعة المعدات العسكرية واستخدامها، وإن كانت قليلة الأهمية من الناحية الفنية. ويرجع معظم هذه المخطوطات إلى نهاية القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر. وكان المماليك يميلون بطبعهم إلى كل ما هو ضخم من أشكال التغيير وإلى المشاهد التي لا تتطوي إلا على القليل من الأحداث، كما كانوا يميلون إلى التآلفات اللونية الصارخة التي كانت أبعد ما يكون ذوقاً عن أذواق سكان الأقاليم العربية الذين ظهر ازدهارهم للحكام المماليك في ممتلكات مخطوطتي باريس وليننجراد من مقامات الحريري. على إنا ما زلنا نجهل المدى الذي بلغه الحكام المماليك في فرض الأساليب المأثورة لديهم على المصورين الذين كانوا يعملون في البلاد العربية، وذلك لندرة الآثار الباقية. ولا يملك المرء إزاء هذا إلا أن يتعنى ما صبه التاريخ من ويلات وتدمير وخراب على هذا الفن.

(١) النزعة الشكلية (Formalism).

نزعة ثنائي بتغليب الشكل والقيم الجمالية على ما في العمل الفني من فكر وخيال وشعور، موهبة نظرية الفن للفن، تلك النظرية الحديثة التي أخذت تُنافس نظرية المحاكاة التي نشأت مع نشوء الفن. وعلى حين تربط نظرية المحاكاة بين الفن والتجربة الإنسانية خارج نطاق الفن، الذي هو مرآة مباشرة للحياة يُعْتَدَى منها ويؤمى إلى إيضاحها، ترى النزعة الشكلية أن الفن السوي مُبْتَنًى الصلة بالأفعال والموضوعات التي تُشكّل تجاربنا المألوفة، ذلك أن الفن عالم قائم بذاته، وهو غير مطالب بتسجيل مجريات الحياة أو الأخذ عنها، فلا مَعْدَى عَنْ أَنْ يَكُونَ مُسْتَقِلًا مُكَيِّفًا بذاته. [م.م.م.ث]

شهدت الأسرة الأولى من أسر المماليك حُكَّام مصر وسوريا - وهي المماليك البحرية - آخر مراحل أسلوب التصوير العربي، الذي بقيت دلالاته حتى يومنا هذا. وقد حملوا اسم المماليك لأنهم كانوا أرقاء من أصول أجنبية وتركيت في الأكثر، ثم أظهروا من الكفاءة ما أهلهم لأن يصبح بعضهم أعضاء في الحرس السلطاني وأن يشغل بعضهم المناصب العليا في الدولة، وارتقى بعضهم إلى مرتبة الإمارة. وكان ثمة نظام إقطاعي صارم يحكم الأمور المدنية والعسكرية بنظام مُسَلَّس مُتَدَرِّج من الرتب والمراكز، وكانت جميع شؤون الدولة يُقْضَى فيها بالمدينتين الكبيرتين، بالقاهرة على وجه أخص، ويدمشق على وجه أدنى.

وقد انعكس هذا النظام الإداري في سمات فن هذا العصر، حتى تميّز بالصرامة عن أي فن آخر في التاريخ الإسلامي، فلم تكن الزخارف الهندسية المتشابكة تُغطي جدران المساجد وقبابها فحسب، بل امتدت إلى المنابر والأبواب والتوافد والكثير من الأشكال المعدنية وأغلقت الكتب الجلدية وترقينات المصاحف والأبسطة. أما القسمة البارزة الثانية لهذا الفن فهي استخدامهم للشكل الزخرفي في كتابة اسم السلطان أو الأمير وألقابه وشعاره بل وأقتصره عليه أحياناً. ويُفسر هذا الاهتمام بالنظام الصارم والشكلية^(١) في فن التصوير انصراف المصورين في عصر المماليك عن إنجاز فن واقعي يُقدّم صوراً من الحياة اليومية بما تتضمنه من نقد للسلوك النفسي والاجتماعي على نمط مخطوطتي باريس وسان بطرسبرج من مقامات الحريري، وذلك كما ذكرنا آنفاً، لأنهم توجهوا بفنهم إلى المسجد الإسلامي، إذ كانوا في خدمة الأمراء الذين أوقفوا أوقافهم لهذه الجوامع فأنبرى الفنان لتذهيب المصاحف وإيتكار المشكاوات والشماعيد وكراسي المصاحف المزدانة بالرُسوم الهندسية والزخارف النباتية فضلاً عن الكتابات القرآنية.

الجَدَّ بِالْمَرَح، وَيَدُورُ التَّفَاشُ فِيهَا حَوْلَ مَوْضُوعَاتٍ عِلْمِيَّةٍ وَأَدَبِيَّةٍ، فَتَقْصُمُ إِلَى الْمَعْرِفَةِ مُتَعَةً التَّسْلِيَّةِ وَيَمْسَحُ الْغِنَاءُ فِي نِهَائِهَا بِيَدِهِ الْحَايَةِ عَلَى كُلِّ الْقُلُوبِ.

وَتُعَدُّ هَذِهِ اللَّوْحَةُ كَثِيرَهَا مِنْ مُنَمَّنَاتِ الْعَصْرِ الْمَمْلُوكِيِّ امْتِدَادًا لِمَدْرَسَةِ بَغْدَاد بِكُلِّ سِمَاتِهَا مِنْ دُونِ أَيِّ تَأْثِيرٍ مَغُولِيٍّ.

وَتَمَّةٌ مُنَمَّمةٌ أُخْرَى (لَوْحَةٌ ١٠٥م) تَحْكِي أَنَّ أَحَدَ تَلَامِيذِ الطَّبِيبِ «أَبِي أَيُّوبَ الْكَحَّالِ» قَدْ اتَّفَقَ مَعَ غُلَامِهِ وَأَحَدِ الْمُغَنِّينَ فِي بَيْتِهِ عَلَى اغْتِيَالِ طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ لِأَنَّهُ نَامَ مُتَخَافِلًا عَنْهُمْ وَقَدْ قَرَصَهُمُ الْجُوعُ. فَتَهَشَّوْا خَرُوفًا بَعْدَ شَبِّهِ وَتَرَكَوْا عِظَامَ قَفْصِهِ الصُّدْرِيِّ عَارِيًّا مِنَ اللَّحْمِ، ثُمَّ مَالُوا إِلَى شَرَابِهِ يَكْرَعُونَ مِنْهُ بِلَا رَحْمَةٍ، وَأَتَوْا بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى الْحَلْوَى (الْفَالُودَج) دُونَ هَوَادَةٍ، ثُمَّ انْطَلَقَ الْمُغَنِّي رَافِعًا عَقْبِرَتَهُ بِالْغِنَاءِ، فَفَزَعَ الشَّيْخُ مِنْ نَوْمِهِ مُتَسَائِلًا «مَا هَذَا التَّبَسُّطُ فِي مِثْلِي وَالتَّحَكُّمُ فِي مَطْعَمِي وَمَشْرَبِي؟» فَرَدَّ عَلَيْهِ تَلْمِيذُهُ بِقَوْلِهِ إِنَّمَا أَرَدْتُ قَوْلَكَ حِينَ قُلْتُ:

«أَصَاحِبُكَ ضَيْفِي قَبْلَ انْزَالِهِ رَحْلَهُ

فَيُخَصِّبُ عِنْدِي وَالْمَحَلَّ جَدِيبًا»

وَتُمَثِّلُ (اللَّوْحَةُ ١٢٤) وَهِيَ امْتِدَادٌ لِلْقِصَّةِ السَّابِقَةِ أَبَا أَيُّوبَ الْكَحَّالِ يَتَرَبَّصُ خَلْفَ قُضْبَانِ طَاقَةٍ فِي بَابِ مَنْزِلِهِ، مُتَرَصِّدًا السَّائِرِينَ فِي الطَّرِيقِ حَتَّى لَا يَفْجَأَهُ تَلْمِيذُهُ بِالْحُضُورِ وَيَصْنَعُ بِهِ فِي يَوْمِهِ مَا صَنَعَهُ بِهِ فِي أَمْسِهِ.

مَقَامَاتُ الْحَرِيرِيِّ ١٣٧٧م. الْمَكْتَبَةُ الْبُودَلِيَّةُ بِأُوكْسُفُورْدِ تَحْتَ رَقْمِ ٤٨٥

وَيَتَجَلَّى تَأْثِيرُ الشَّرْقِ الْأَفْصَى الْوَافِدِ مَعَ غَزْوِ الْمَغُولِ، فِي بَعْضِ الْمَخْطُوطَاتِ الْآخَرَى لِمَقَامَاتِ الْحَرِيرِيِّ فِي صُورَةِ نَبَاتٍ وَأَخْيَانٍ فِي مُجَرَّدِ زَهْرَةٍ تَتَكَرَّرُ كَوَحْدَةٍ زُخْرُفِيَّةٍ عَلَى قِطْعَةٍ نَسِيجٍ، أَوْ تَطْهَرُ فِي جُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ الْمُنَمَّمةِ. وَمَعَ ضَيْقِ مَجَالِ تَأْثِيرِ هَذَا الْعُنْصُرِ الْمُسْتَعَارِ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ أَكْثَرَ الْعُنَاوَةِ انْتِشَارًا فِي الْفُنُونِ الزُّخْرُفِيَّةِ. وَهُنَاكَ نَمُودَجٌ مِثَالِيٌّ لِهَذَا النَّوعِ مِنَ التَّأْثِيرِ يَرْجِعُ إِلَى عَامِ ١٣٣٧ يَتَجَلَّى فِي مُنَمَّمةِ الْمَقَامَةِ السَّابِقَةِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ مَقَامَاتِ الْحَرِيرِيِّ. تَرُوي الْقِصَّةُ أَنَّ الْحَارِثَ اقْتَنَى عَدَدًا مِنَ الثُّوقِ وَالْمَغَزِّ وَالشَّيْءِ، وَقَصَدَ أَهْلَ الزَّوْبَرِ مِنَ الْبَدَوِّ وَالْأَغْرَابِ وَاتَّخَذَ مِنْهُمْ عَشِيرَةً وَأَهْلًا. وَذَاتَ لَيْلَةٍ عَنَ لَهُ أَنَّ يَتَفَقَّدُ نُوقَهُ فَانْتَشَفَ أَنَّ إِحْدَاهَا قَدْ خَلَفَتْ مَكَانَهَا وَاخْتَفَتْ، فَانْطَلَقَ فِي أَثَرِهَا بَاجِئًا مُتَقَبِّبًا غَيْرَ أَنَّهُ عَادَ مَعَ مَطْلَعِ الْفَجْرِ بِجُرْزٍ أَذْيَالِ الْخَيْتَةِ، وَصَلَّى وَاسْتَرَحَ حَتَّى انْتَصَفَ النَّهَارَ فَأَوَى إِلَى ظِلِّ شَجَرَةٍ حَتَّى سَنَحَ لَهُ سَائِحٌ عَلَى هَيْئَةِ رَجُلٍ سَائِحٍ، مَا إِنَّ نَبِيَّتَهُ حَتَّى أَذْرَكَ أَنَّهُ أَبُو زَيْدٍ

دَعْوَةُ الْأَطْيَاءِ ١٢٧٣م لَابْنِ بَطْلَانَ. مَكْتَبَةُ امْبُرُوزِيَانَا بِمِيلَانَا

بُعْدَ مَخْطُوطِ «دَعْوَةِ الْأَطْيَاءِ» الْفَرِيدِ الَّذِي يَرْجِعُ تَارِيخُهُ إِلَى عَامِ ١٢٧٣ أَقْدَمَ مَثَلٌ لِأَسْلُوبِ عَصْرِ الْمَمَالِيكِ، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ جِوَارٍ مُوجِّهٍ ضِدَّ الدَّجَالِينَ مِنْ أَذْيَاءِ الطَّبِّ، وَضَعَهُ أَبُو الْحَسَنِ الْمَخْتَارُ بْنُ بَطْلَانَ، وَكَانَ طَبِيبًا بَغْدَادِيًّا زَارَ مِصْرَ فِي عَهْدِ الْخَلِيفَةِ الْمُسْتَصِيرِ بِاللَّهِ (١٠٩٤م).

وَتُعَدُّ لَوَحَاتُ كِتَابِ «دَعْوَةِ الْأَطْيَاءِ» - بِالرَّغْمِ مِنْ ضَعْفِ قُدْرَةِ مُصَوِّرِهَا - وَثِيقَةً تَارِيخِيَّةً هَامَّةً فِي فَنِّ التَّصْوِيرِ الْمَمْلُوكِيِّ بِوَصْفِهَا أَقْدَمَ إِدْخَالٍ لِهَذَا الْعَصْرِ. وَقَدْ حَصَرَ مُصَوِّرُهَا لَوَحَاتِهِ، الَّتِي تَدُورُ أَحْدَاثُهَا دَاخِلَ الدَّوَرِ، فِي شَكْلَيْنِ مِنْ أَشْكَالِ التَّصْمِيمِ الْمِعْمَارِيِّ: أَحَدُهُمَا شَكْلُ الْغُرْفَةِ الْمَحْمُولَةِ السَّقْفِ عَلَى عَقْدَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ يُصَفِّ دَاوِئِيَّيْنِ يَتَدَوَّانِ وَكَأَنَّمَا رُسِمَا بِالْفُوجَارِ، مَعَ تَرْزِيْنِ بَنِيَّةٍ الْعَقْدِ بِوَرَقَةٍ نَبَاتِيَّةٍ عَلَى هَيْئَةِ قَلْبٍ، وَإِضَافَةً قُبَّةٍ مُزَخْرَفَةٍ بِالْأُورَاقِ النَّبَاتِيَّةِ فَوْقَ سُقُوفِ بَعْضِ الْغُرَفِ. وَثَانِيَهُمَا شَكْلُ الصِّدْلِيَّةِ الْمُضَاءَةِ بِوَضْبَاحٍ يَتَدَلَّى مِنَ السَّقْفِ. وَيُظْهِرُ جِزْءُ الْمُصَوِّرِ عَلَى إِضَاءَةِ دَاخِلِ الْغُرْفِ حَتَّى تَنْتَضِحَ كَافَّةُ مُحْتَوَيَاتِهَا، وَذَلِكَ بِالْغِنَاءِ الْجُدْرَانِ الْأَمَامِيَّةِ مِنْ أَكْثَرِ لَوَحَاتِهِ، وَاكْتِفَاءَهُ بِرِسْمِ خَطِّ أَسْفَلِ الصُّورَةِ بِدِيلًا لِأَرْضِيَّةِ الْغُرْفَةِ، وَهُوَ مَا جَعَلَ بَعْضَ الْأَشْيَاءِ الْمُرْتَكِرَةِ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ مَنَاصِدِ وَأَوَانِي فَالِكِهَةِ وَأَقْدَاحِ شَرَابٍ، تَبْدُو وَكَأَنَّمَا مُعَلَّقَةٌ فِي الْهَوَاءِ.

وَيَذْهَبُ جَمَالُ مَحْرُزٍ إِلَى أَنَّ اسْتِدَارَةَ وَجْهِ الشَّخْصِ وَمَيْلَ عِيُونِهَا الضَّيِّقَةِ وَشَوَارِبِهَا وَلِحَاحِهَا هِيَ سِمَاتٌ مَغُولِيَّةٌ تُضَافُ إِلَى عَمَائِمِهَا الْعَرَبِيَّةِ وَالْهَالَاتِ الْمُسْتَدِيرَةِ حَوْلَ الرُّؤُوسِ وَطَيَّاتِ الثِّيَابِ الْمُتَمَيِّزَةِ فِي أَسْلُوبِهَا وَقَوَاعِدِ رَسْمِهَا، وَيَرَى أَنَّ هَذَا الْمَزِيَجَ مِنَ الْقَسَمَاتِ هِيَ الْمَكُونَةُ مَلَاحِجِ التَّصْوِيرِ الْمَمْلُوكِيِّ الَّذِي لَمْ يُفْقِدْهُ التَّأَثُّرُ بِالْفَنِّ الْمَغُولِيِّ صَلَتهُ الْوُثِيقَةُ بِتَقَالِيدِ الْمَدْرَسَةِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي يُمَثِّلُ أَحَدَ أَتْمَاطِهَا الْمُتَمَيِّزَةِ. وَنَحْنُ نُوَافِقُهُ عَلَى وَجُودِ الصَّلَةِ الْوُثِيقَةِ بَيْنَ تَقَالِيدِ الْمَدْرَسَةِ الْمَمْلُوكِيَّةِ وَتَقَالِيدِ مَدْرَسَةِ بَغْدَادِ غَيْرِ أَنَّا نَخْتَلِفُ مَعَهُ فِي أَنَّ السَّحْنَ - فِي هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ الْمَمْلُوكِيَّةِ عَلَى الْأَقْلَى - لَا تَنْصِلُ بِأَيِّ سَبَبٍ بِالسَّحَنِ الْمَغُولِيَّةِ لِأَنَّ قَسَمَاتِ شَخْصِهِمْ وَشَوَارِبِهِمْ وَلِحَاحَهُمْ عَرَبِيَّةٌ خَالِصَةٌ.

وَتُمَثِّلُ (اللَّوْحَةُ ١٢٢) تَاجِرَ الْأَحْزَانِ الَّذِي يَبِيعُ أَكْثَانَ الْمَوْتَى وَيُقَدِّمُ لِأَهْلِهِمْ حَاجَاتِ الْجَنَائِزِ، وَيَصْنَعُ مِنْ عَنَاصِرِ الْعِطَارَةِ أَدْوِيَّةَ سِخْرِيَّةٍ تَشْفِي الْمُعْذِبِينَ، وَهُوَ يَقِفُ مَعَ سَيِّدَةٍ مَحْزُونَةٍ يَسْتَدْرِجُهَا وَيُحَاوِلُ التَّغْرِيبَ بِهَا بِمَوْهِبَتِهِ الْفَدَّةِ فِي الْجِدَاعِ. وَنَحْنُ إِذَا تَأَمَّلْنَا سِخْنَةَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةَ لَرَأَيْنَا قَسَمَاتٍ عَرَبِيَّةً وَاضِحَةً.

وَتُمَثِّلُ (اللَّوْحَةُ ١٢٣) إِحْدَى النَّدَوَاتِ الْفِكْرِيَّةِ الَّتِي يَمْتَزِجُ فِيهَا

زَيْد والحَارِث وَحَوْلَ رَأْسِ كُلِّ مِنْهَا هَالَةٌ مُسْتَدِيرَةٌ، وَإِلَى جِوَارِ كُلِّ مِنْهُمَا شُجَيْرَةٌ تَنْبُتُ مِنْهَا زُهورُ اللُّوتس فِي الْيَسَارِ عَلَى حِينِ يَنْتَهِي أَعْلَاهَا فِي الْيَمِينِ بِزَخَارِفٍ مِنْ أَزْهَارٍ مُرَكَّبَةٍ مُشَابِكَةٍ تُغْشِي الرُّكْنَ الْأَيْمَنَ، وَالْأَرْضِيَّةُ مُذْهَبَةٌ تُسَاعِدُ فِي إِبرَازِ عَنَاصِرِ الصُّورَةِ وَأَلْوَانِهَا الْبَدِيعَةُ بِالْأَحْمَرِ وَالْأَزْرَقِ وَالْفَيَوزِيِّ وَالْأَخْضَرِ.

مَقَامَاتُ الْحَرِيرِيِّ. نُسْخَةُ الْمُتَحَفِ الْبَرِيطَانِيِّ، حَوَالِي سَنَةِ ١٣٠٠م: تَحْتَ رَقْمٍ ٢٢١١٤

لَقَدْ حَافَظَ فَنَ تَصْوِيرِ الْمَخْطُوطَاتِ فِي عَصْرِ الْمَمَالِكِ مَا اسْتَطَاعَ عَلَى تَقَالِيدِ الْفَنِّ الَّذِي نَشَأَ فِي الْعِرَاقِ وَفِي سُورِيَا، إِذْ نَرَى فِيهِ مِنْ جَدِيدِ أَبْحَاثٍ عِلْمِيَّةٍ وَكُتُبًا أَدَبِيَّةٍ مُصَوَّرَةً بَلْ نَرَاهُ قَدْ بَدَّلَ عِنَايَةَ كُبْرَى بِالْأَبْحَاثِ الَّتِي تُعَالِجُ مَوْضُوعَاتٍ عَسْكَرِيَّةً، وَآيَةً ذَلِكَ مَا خَلَّفَهُ لَنَا مِنَ الْمُؤَلَّفَاتِ الْعَدِيدَةِ عَنِ التَّدْرِيبَاتِ وَصِنَاعَةِ الْمُعْدَّاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ وَاسْتِخْدَامِهَا، كَمَا سَنَرَى. وَتَرَجَعَ مُعْظَمُ مَخْطُوطَاتِهِ إِلَى نِهَايَةِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ وَالْقَرْنِ الْخَامِسِ عَشَرَ، غَيْرَ أَنَّهَا بِرَغْمِ ذَلِكَ لَمْ تَرْقُ إِلَى مُسْتَوَى الْفَنِّ الَّذِي لَهُ شَأْنُهُ.

وَمِنْ بَيْنِ هَذَا التَّصْوِيرِ الْمَمْلُوكِيِّ مَخْطُوطَةٌ غَيْرُ مُحَدَّدَةِ التَّارِيخِ مَحْفُوظَةٌ بِالْمُتَحَفِ الْبَرِيطَانِيِّ لَعَلَّهَا مِنْ سُورِيَا، رَأَيْتُ أَنَّ أَثْقَلَ مِنْهَا مُنَمَّةً تُزَيِّنُ الْمَقَامَةَ الثَّانِيَةَ وَالْعِشْرِينَ تُصَوِّرُ الْحَارِثَ وَهُوَ يُصْنِي مَبْهُورًا إِلَى مَوْعِظَةٍ يُلقِيهَا أَبُو زَيْدٍ فِي مَسْجِدِ سَمَرْقَنْدَ (لَوْحَةٌ ١٠٨م). غَيْرَ أَنَّ بُخْتَالَ يَلْحَظُ أَنَّ الْفَتَانَ قَدْ اخْتَصَرَ الْعَنَاصِرَ الْأَسَاسِيَّةَ فِي هَذِهِ التَّصْوِيرَةِ الْمَمْلُوكِيَّةِ، مُخَالِفًا بِذَلِكَ مَثِيلَاتِهَا فِي النَّسَخِ السَّابِقَةِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِي الصُّورَةِ سِوَى ثَلَاثَةِ مُصَلِّينَ، كَمَا اسْتَبَدَّ الْمُخْرَابُ وَالزَّخَارِفُ الْمِغْمَارِيَّةُ الْمُنَمَّةُ الشَّكْلُ. وَمِنْ الْوَاضِحِ هُنَا أَنَّ التَّرْكِيزَ عَلَى عَدَدٍ مَحْدُودٍ مِنَ الْأَشْخَاصِ مَعَ تَصْوِيرِهِمْ فِي حَجْمٍ كَبِيرٍ وَإِضَافَةَ بَعْضِ التَّقَاصِيلِ الْقَلِيلَةِ الْمُعْبَرَةِ عَنِ الْمَنْظَرِ، يُعَدُّ قَسْمَةً مُمَيَّزَةً مِنْ قَسَمَاتِ التَّصْوِيرِ الْمَمْلُوكِيِّ، وَلَوْ أَنَّ أَسْلُوبَ تَصْوِيرِ هَذَا الْمَخْطُوطِ يُعَدُّ أَسْلُوبًا تَوْفِيقِيًّا^(١). وَبَدَلًا مِنْ رَسْمِ أَطْوَاءِ الثِّيَابِ لَجَأَ الْفَتَانُ إِلَى الْمُعَالَجَةِ الْمُسَطَّحَةِ لِلثِّيَابِ وَإِنْ كَانَ قَدْ غَمَرَهَا بِدَوَائِرِ الْمَوْجَاتِ الْمُتَتَابِعَةِ، وَمِمَّا يَكْشِفُ عَنْ تَزَاوُجِ

فَقَصَصَ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ فَقَالَ لَهُ: لَا تَحْزَنْ عَلَى مَا فَاتَ، وَدَعْنَا نَسْتَرِيحَ فِي ظِلِّ الشَّجَرَةِ لَعَلَّنَا نَنَامَ وَأَخَذَتِ الْحَارِثُ سِنَةً مِنَ التَّوَمِ اسْتَيْقَظَ عَلَى أَثَرِهَا فَلَمْ يَجِدْ أَبَا زَيْدٍ كَمَا لَمْ يَجِدْ لِحْجَاهُ أَثَرًا فَصَارَ فِي هَمِّينَ وَتَضَاعَفَتْ حَيْرَتُهُ إِلَى حَيْرَتَيْنِ، ثُمَّ سَنَحَ لَهُ سَائِحَ آخَرٍ تَبَيَّنَ فَإِذَا هُوَ أَغْرَابِيٌّ يَرْكَبُ نَاقَتَهُ فَرَفَعَهُ عَنْهَا، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ لَهُ دَفْعًا، وَإِذَا أَبُو زَيْدٍ، يُقْبِلُ عَلَى صَهْوَةِ جَوَادِهِ الضَّائِعِ، وَدَفَعَ الرَّجُلُ فَأَقْصَاهُ عَنِ النَّاقَةِ وَأَخَذَ بِزِمَامِهَا وَسَلَّمَهَا الْحَارِثَ وَقَالَ: سِرْ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ (لَوْحَةٌ ١٠٦م). وَنَحْنُ لَا نَشْهَدُ فِي هَذِهِ الْمُنَمَّةِ الْمَنْظَرَ الذَّهْنِيَّ الْمُتَخَيَّلَ عَلَى التَّهَجُّجِ الْمَالُوفِ فِي فُنُونِ الشَّرْقِ الْأَدْنَى بَلْ لَوْحَةٌ تَقِيضُ بِمَا تَوَاضَعَ عَلَيْهِ فَنَ الشَّرْقِ الْأَقْصَى وَخُصُوصًا صُورَةُ زَهْرَةِ اللُّوتسِ الْكَبِيرَةِ الْمُلَوَّنَةِ الْمُتَأَلِّفَةَ عَلَى سَاقِهَا فِي الرُّكْنَ الْيَسَارِ الْعُلَوِيِّ. كَذَلِكَ لَعَلَّ الْأَرْضَ الْمُتَعَرِّجَةَ بِعَنَاصِرِهَا الثَّبَاتِيَّةِ الْمُتَرَاكِبَةِ مُشْتَمَلَةً رَأْسًا مِنْ تَقَالِيدِ فُنُونِ الشَّرْقِ الْأَقْصَى فِي مَلَأِ الْفَرَاغِ. وَلَمَّا كَانَتِ الْخَلْفِيَّةُ الَّتِي تَسْتَخْدِمُ زُهورَ اللُّوتسِ فَوْقَ سِيقَانِهَا قَدْ ظَهَرَتْ فِي مُنَمَّاتٍ سَابِقَةٍ عَلَى هَذِهِ الْحَقَبَةِ فِي مَخْطُوطَاتِ «الشَاهَنَامَةِ» بِأَسْلُوبِ فَارِسِيٍّ مَغُولِيٍّ، فَقَدْ يَعْنِي هَذَا احْتِمَالُ تَسَلُّلِ التَّأثيرِ الصِّينِيِّ إِلَى التَّصْوِيرِ الْعَرَبِيِّ عَنْ طَرِيقٍ غَيْرِ مُبَاشِرٍ.

غَيْرَ أَنَّهُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ هَذَا كُلِّهِ، فَإِنَّ مَلَاحِظَ الشُّخُوصِ تُفْصِحُ عَنْ انْتِمَائِهِمْ إِلَى الشَّرْقِ الْأَدْنَى، يُؤَكِّدُ ذَلِكَ الْمَلَابِسُ ذَاتِ الْأَطْوَاءِ الْمُبَرَّقَشَةِ وَالْعَمَائِمِ مُتَعَدِّدَةِ الطِّيَّاتِ. وَيُوحِي الطَّابَعُ الْعَامُّ بِخَلْفِيَّتِهِ الذَّهَبِيَّةِ وَبِإِطَارِهِ التَّقْلِيدِيِّ بِانْتِمَائِهِ إِلَى الدُّوْقِ الْمَمْلُوكِيِّ. وَنَلَاظِظُ أَنَّ الْفَتَانَ قَدْ رَاعَى التَّوَارُونَ بَيْنَ الْعُنْصُرِ الثَّبَاتِيِّ وَغُنْصُرِ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ مِنْ إِنْسَانٍ وَحَيَّوَانٍ، فَأَقْرَدَ لِلثَّبَاتَاتِ فِي شَكْلِهَا الْمُحَوَّرِ مَكَانَةً بَارِزَةً فِي الْمُنَمَّةِ، وَلَمْ يَرْضَها عُنْصُرًا ثَانِيًا لِلتَّجْمِيلِ وَالزُّخْرَفِ. كَذَلِكَ اسْتَعْنَى الْفَتَانُ عَنِ الْهَالَاتِ الْمُحِيطَةِ بِالرُّؤُوسِ بِشَكْلِهَا التَّقْلِيدِيِّ كَمَسَاحَةِ دَائِرِيَّةٍ مُذْهَبَةٍ وَاسْتَعَاضَ عَنْهَا بِخَطِّ زَمَرْجِيٍّ فَحَسَبَ يُحِيطُ بِالْوَجْهِ، وَمَرَدُّ ذَلِكَ وَلَا شَكَّ إِلَى أَنَّهُ قَدْ اسْتَعْلَلَ اللَّوْنُ الذَّهَبِيَّ فِي أَرْضِيَّةِ اللَّوْحَةِ بِأَكْمَلِهَا فَجَعَلَ مِنْ هَذَا الْخَطِّ «تَرْجِيمًا» لِيَلْحَنَ الْأَسَاسِيَّ نَفْسَهُ. وَالطَّرِيفُ أَنَّ الْفَتَانَ قَدْ حَوَّلَ بَاقِيَ اللُّوتسِ إِلَى قَوْسٍ يُحِيطُ بِرَأْسِ الْفَارِسِ، وَلَعَلَّهُ تَفَكِيرٌ تَشْكِيلِيٌّ مُبْتَكَرٌ لِتَأْكِيدِ فِكْرَةِ الْهَالَةِ الَّتِي طُمِسَتْ فِي اللَّوْحَةِ لَوْثًا وَظَهَرَتْ خَطًّا.

وَيَتَجَلَّى هَذَا الْإِتْجَاهُ نَحْوَ حَشْدِ الشُّخُوصِ فِي كُلِّ جَوَانِبِ الصُّورَةِ حَتَّى وَلَوْ جَانِبَ ذَلِكَ مُحَاكَاةُ الْوَاقِعِ فِي لَوْحَةٍ أُخْرَى مِنَ الْمَخْطُوطَةِ نَفْسِهَا لِأَبِي زَيْدٍ السُّرُوحِيِّ مَعَ الْحَارِثِ بْنِ هَمَّامٍ، فَالْمُسْطَحُّ كُلُّهُ حَوْلَ الشُّخُوصِ تَكْسُوهُ الزُّهورِ الْكَبِيرَةِ الْحَجْمِ وَلَكِنْ مِنْ دُونَ الْإِحْسَاسِ بِإِزْدِحَامِ الْفَرَاغِ (لَوْحَةٌ ١٠٧م)، إِذْ تَتَوَسَّطُ الصُّورَةَ شُجَيْرَةٌ مُورِقَةٌ مُزْهِرَةٌ قَرِيبَةً مِنَ الطَّبِيعَةِ وَعَلَى جَانِبَيْهَا أَبُو

(١) التَّوْفِيقِيَّةُ، التَّجْمِيعِيَّةُ، الْإِتِّقَافِيَّةُ، الْإِصْطِفَافِيَّةُ، التَّالْفِيقِيَّةُ Eclecticism:

تَرْجُوعُ مُؤَدَّاهَا انْتِفَاقُ الْأَفْضَلِ مِنْ بَيْنِ الْمَذَاهِبِ وَالْأَسَالِيبِ وَالْآرَاءِ الْفَلَسَفِيَّةِ أَوْ الدِّينِيَّةِ أَوْ الْأَدَبِيَّةِ وَالْفَنِّيَّةِ، وَكَذَا أَعْمَالُ كِبَارِ الْأَسَاتِذَةِ، وَضَمُّهَا بَعْضًا إِلَى بَعْضِهَا بَعْدَ تَشْكِيلِهَا تَشْكِيلًا جَدِيدًا فِي إِطَارِ مَوْحِدٍ وَالْخُرُوجِ مِنْهَا بِمَذْهَبٍ جَدِيدٍ.

وَهِيَ نَظَرِيَّةٌ شَاعَتْ فِي أَوَاخِرِ الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ عَلَى يَدِ الْمُصَوِّرِ لُودُوْفِيكو كَارَاتَشِي، مُؤَسَّسِ أَكَادِمِيَّةِ الْفَنِّ بِمَدِينَةِ بُولُونِيَا بِإِيطَالِيَا (١٥٨٥). [م.م.م.ث.]

وَأَنَّ هَذَا يَرْجِعُ إِلَى ضَيْقِ ذَاتِ الْيَدِ فَزَقَّ لِحَالِيهِمَا وَمَتَّحَهُمَا أَلْفِي دِرْهَمَ فَشَكَرَاهُ وَانْطَلَقَا. وَلَمَّا ذَهَبَا أَخَذَ الْقَاضِي يُثْنِي عَلَى أَذْيِهِمَا وَتَسَاءَلَ عَمَّا إِذَا كَانَ يَعْرِفُهُمَا أَحَدٌ، فَقَالَ أَحَدُ الْجَالِسِينَ: أَمَّا الشَّيْخُ فَهُوَ السُّرُوجِيُّ وَأَمَّا الْمَرْأَةُ فَفِي زَوْجِهِ، وَأَمَّا اخْتِكَامُهُمَا إِلَى مَجْلِسِ الْقَضَاءِ فَلَا يَعْدُو أَنَّ يَكُونَ أَحْبُولَةً مِنْ أَحَابِيلِ أَبِي زَيْدٍ، فَأَمَرَ الْقَاضِي بِرَدِّهِمَا، فَأَذَرَهُمَا الرَّسُولَ وَعَرَضَ عَلَيْهِمَا الْعُودَةَ إِلَى الْقَاضِي. فَأَنْشَأَ أَبُو زَيْدٍ شِعْرًا وَطَلَّبَ مِنَ الرَّسُولِ أَنْ يُنْشِدَ الْقَاضِي إِيَّاهُ، وَجَاءَ بِهَذَا الشَّعْرُ مَا مَعْنَاهُ «لَا تَغْضَبْ يَا سَيِّدِي فَمِنْ قَبْلِكَ خَدَعَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ»، فَأَنْشَأَ الْقَاضِي الْأَدِيبَ بِرَدِّهِ، وَأَرْسَلَ إِلَى أَبِي زَيْدٍ وَزَوْجِهِ مَبْلَغًا آخَرَ مِنَ الْمَالِ وَقَالَ لِرَسُولِهِ، قُلْ لِأَبِي زَيْدٍ إِنَّ الْقَاضِي يَسْرُهُ أَنْ يَنْخَدِعَ لِلْأَدْبَاءِ.

مَقَامَاتُ الْحَرِيرِيِّ ١٣٣٤م. دار الكتب القومية بـشينا

عَلَى أَنَّ أَهَمَّ مَخْطُوطِ خَلْفِهِ الْعَصْرِ الْمَمْلُوكِي هُوَ - بِلا نزاع - مَخْطُوطُ الْمَقَامَاتِ الَّذِي يَرْجِعُ لِعَامِ ١٣٣٤ وَيَبْدَأُ بِالْعُرَّةِ الْاسْتِهْلَالِيَّةِ التَّقْلِيدِيَّةِ تُصَوِّرُ حَاكِمًا يَرْفَعُ كَأْسَهُ وَحَاشِيَتِهِ مِنْ حَوْلِهِ. وَيُحِيطُ اللَّوْحَةُ إِطَارٌ مِنَ الزُّخَارِفِ التَّوْرِيْقِيَّةِ الْمُلوَّنةِ (لَوْحَةُ ١٠٩م)، وَهَذَا النَّوعُ مِنَ التَّصْوِيرِ مُشْتَقٌّ مِنَ الْأَنْمَاطِ الْفَارِسِيَّةِ الَّتِي تَنْجَلِي نَمَازِجِهَا الْأَوَّلَى فِي النُّقُوشِ الْبَارِزَةِ السَّاسَانِيَّةِ. وَلَعَلَّ النَّمَاذِجَ الْأَصْلِيَّةَ لِهَذِهِ الْمُنْمَنَةِ كَانَتْ تِلْكَ اللَّوْحَاتِ الْاسْتِهْلَالِيَّةِ الْمَأْلُوفَةِ عَنْ مَدْرَسَةِ الْمُوصِلِ، عَلَى غِرَارِ كِتَابِي الْأَغَانِي وَالتَّرِّيَاقِ، حَيْثُ تَنْبَيِّنُ أَنَّهَا مُحَاطَةٌ بِذَلِكَ الْإِطَارِ عَيْنَهُ الْمُزَخَّرَفَ بِالتَّوْرِيَقَاتِ الْمُلوَّنةِ. عَلَى أَنَّ مَخْطُوطَ الْمَقَامَاتِ الَّذِي يَرْجِعُ لِعَامِ ١٣٣٤، يُعَدُّ أَشَدَّ صَرَامَةً مِنْ كِتَابِ الْأَغَانِي الَّذِي سَبَقَهُ فِي الظُّهُورِ وَالَّذِي صَوَّرَ الْحَاكِمَ وَفِي يَدِهِ سَهْمًا وَقَوْسًا وَكَأَنَّ يَدَهُ قَدْ تَوَقَّفَتْ فَجْأَةً عَنِ الْحَرَكَةِ. وَتَبْدُو الشُّخُوصُ فِي عُرَّةِ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ جَامِدَةً لَا حَيَاةَ فِيهَا وَلَا تَنْبِيِّنَ قَسَمَاتِهِمْ بِأَفْئَالٍ أَوْ حَرَكَةٍ، حَتَّى تِلْكَ الْبَهْلَوَانَةُ الَّتِي ثَنَّتْ جَسَدَهَا أَمَامَ الْعَرْشِ فِي وَضْعَةٍ مُعَقَّدَةٍ فَفِي الْأُخْرَى قَدْ افْتَقَدَتْ كُلَّ عَنَاصِرِ الْحَرَكَةِ، بَلْ وَافْتَقَدَتْ كَذَلِكَ التَّوَثُّرَ الْوَاقِعِيَّ الَّذِي فَقَدَتْ مَعَهُ الْإِرَادَةَ عَلَى اسْتِطَاعَتِهَا اسْتِعَادَةَ وَضْعَتِهَا الْعَادِيَّةِ. وَيَنْطَبِقُ الْمَنْهَجُ نَفْسَهُ عَلَى الْمَوْسِيقِيِّينَ الْجَالِسِينَ إِلَى جَانِبِ الْحَاكِمِ وَعَلَى الْمَلَائِكِينَ الْمُتَسَكِّينَ بِإِكْلِيلِ زُهْرٍ فَوْقَ هَامَتِهِ. وَثَمَّةُ تَفَاصِيلَ أُخْرَى تُؤَكِّدُ الْإِحْسَاسَ بِالْجُمُودِ، كَتِلْكَ الْمُعَالَجَةِ الْجَافَّةِ غَيْرِ الْمَأْلُوفَةِ لِأَطْوَاءِ النَّسِيجِ الَّتِي تَعَكِّسُ الْمُبَالَغَةَ فِي الْإِعْرَابِ عَنِ الثَّمَطِ الْمَمْلُوكِيِّ الَّذِي كَانَ فِي سَبِيلِهِ إِلَى الاسْتِقْرَارِ، كَذَلِكَ فِي تَحْلِيدِ حَوَافِي الثِّيَابِ الْمُذَهَّبَةِ تَحْلِيدًا هَنْدَسِيًّا وَكَأَنَّمَا رُسِمَتْ بِالْفَرْجَارِ. وَيَظْهَرُ هُنَا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ أَحَدَ الْعَنَاصِرِ الْمُمَيِّزَةِ لِلْأَسْلُوبِ الْمَمْلُوكِيِّ وَهُوَ الْخُلُقِيَّةُ الْمُذَهَّبَةُ الَّتِي تُضْفِي الثَّرَاءَ عَلَى مَظْهَرِ هَذِهِ الْمُنْمَنَةِ

عَنَاصِرٍ مِنْ كُلِّ مَدَارِسِ التَّصْوِيرِ الْعَرَبِيِّ السَّابِقَةِ عَلَى الْغُرُو الْمَغُولِيِّ، وَهِيَ مَدَارِسُ بَغْدَادِ وَالْمُوصِلِ وَسُورِيَا، كَذَلِكَ بَعْضُ قَسَمَاتِ التَّصْوِيرِ الْبِيزَنْطِيِّ فِي اسْتِخْدَامِ الْهَالَاتِ حَوْلَ الرُّؤُوسِ، وَالصَّرَامَةُ الْمُتَجَلِّيَّةُ فِي الْمُنْمَنَةِ وَفِي التَّقْسِيمِ الثَّلَاثِيِّ الْمَأْلُوفِ.

وَتَحْمِلُ لَوْحَاتُ هَذَا الْمَخْطُوطِ تَفْصِيلًا يُلَمِّحُ إِلَى كُنْهِ التَّارِيخِ، فَقَدْ كَانَ اللَّوْنُ الْأَسْوَدُ - لَوْنُ الْعِبَادَةِ الَّتِي يَزُونُهَا أَبُو زَيْدٍ - هُوَ اللَّوْنُ التَّقْلِيدِيُّ لِمَلَابِسِ الْخُلَفَاءِ الْعَبَّاسِيِّينَ، وَحِينَ خَلَعَهَا حُكَّامُ مِصْرَ الْفَاطِمِيِّينَ ارْتَدَى الْوَعَاظُ الْمَلَابِسَ السَّوْدَاءَ فِي صَلَاةِ الْجُمُعَةِ وَأَتَّخَذُوا أَعْلَامًا وَسُيُوفًا سَوْدَاءَ تَعْبِيرًا عَنْ وَلَايَتِهِمْ لِلْخَلِيفَةِ حَاكِمِ الْمُسْلِمِينَ الشَّرْعِيَّ رُغْمَ تَقْلُصِ سُلْطَنَتِهِ السِّيَاسِيَّةِ. وَحَتَّى بَعْدَ أَنْ قَضَى الْمَعْمُولُ عَلَى الْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ اسْتَمَرَّ الْفَتَانُونَ فِي اسْتِخْدَامِ اللَّوْنِ الْأَسْوَدِ عَلَى نَحْوِ مَا نَلَحْظُهُ فِي هَذِهِ الْمُنْمَنَةِ. وَقَدْ سَجَّلَ التَّارِيخُ أَنَّ السُّلْطَانَ الظَّاهِرَ بَيَّزْنَاسَ قَدْ نَصَّبَ عَامَ ١٢٦١ أَحَدَ الْعَبَّاسِيِّينَ خَلِيفَةً فِي الْقَاهِرَةِ حَيْثُ ظَلَّ هُوَ وَخُلَفَاؤُهُ بِمَنَابَةِ الدُّمَى فِي أَيْدِي الْمَمَالِكِ حَتَّى دَالَتْ دَوْلَتُهُمُ الْثَانِيَّةُ.

مَقَامَاتُ الْحَرِيرِيِّ ١٣٠٠م.

الْمُنْتَحَفُ الْبَرِيطَانِي تَحْتَ رَقْمِ ١٢٠٠

وَثَمَّةُ مَخْطُوطَةٌ أُخْرَى لِمَقَامَاتِ الْحَرِيرِيِّ مَحْفُوظَةٌ بِالْمُنْتَحَفِ الْبَرِيطَانِيِّ اخْتَرَتْ مِنْهَا أَرْبَعُ مُنْمَنَاتٍ وَذَلِكَ لِتَمَكِينِ الْقَارِئِ فَحَسَبَ مِنَ الْمُقَابَلَةِ بَيْنَ قُدْرَاتِ الْفَتَانَيْنِ فِي الْمَخْطُوطَاتِ الْمُتَعَدِّدَةِ، وَفِي رَأْيِي أَنَّ تَصْوِيرَهَا بَعِيدٌ عَنِ الْإِثْقَانِ وَكَأَنَّهُ عُجَالَاتٌ تَخْطِيطِيَّةٌ، كَمَا أَنَّ تَحْسِيدَ الشُّخُوصِ يُوحِي بِفَنٍّ بِدَائِيٍّ، وَيَتَجَلَّى هَذَا فِي تَصَاوِيرِ الْمَقَامَةِ الْحَادِيَةِ وَالثَّلَاثِينَ الَّتِي تَرَوِي أَنَّ الْحَارِثَ قَصَدَ إِلَى الْحَجِّ فِي رِفْقَةِ صُحْبَةٍ يَحْتَوْنَ إِبْلَهُمْ حَتَّى إِذَا مَا اسْتَشْرَفُوا الْمَدِينَةَ بَرَزَ إِلَيْهِمْ شَيْخٌ مِنْ فَوْقِ الْهَضْبَةِ يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ الْحُجَّاجُ مِنْ كُلِّ قَوِّجٍ وَجَلَسُوا فِي حَضْرَتِهِ مُحَلِّمِينَ فَانْبَرَى بَيْنَهُمْ يَبْسُرُ وَيُنْزِرُ وَيَعِظُ بِخُطَابٍ بَلِيجٍ (الْلُّوْحَتَانِ ١٢٥، ١٢٦).

وَكَذَلِكَ انْتَقَبَتْ مِنْ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ، مُنْمَنَةٌ تُصَوِّرُ السَّفِينَةَ الَّتِي أَقْلَتْ الْحَارِثَ إِلَى عُثْمَانَ (الْلُّوْحَتَانِ ٨١م، ٨٢م)، تَارِكًا لِلْقَارِئِ أَنَّ يُقَارِنَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ سَفِينَةِ مَخْطُوطَتِي الْوَاسِطِيَّةِ وَسَانَ بِطَرَسْبَرْجِ.

أَمَّا الْمُنْمَنَةُ الْآخِرَةُ مِنَ الْمَقَامَةِ الْخَامِسَةِ وَالْأَرْبَعِينَ (لَوْحَةُ ١٢٨) فَتُصَوِّرُ زِيَارَةَ الْحَارِثِ لِمَجْلِسِ الْقَضَاءِ فِي مَدِينَةِ الرُّمْلَةِ حِينَ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ امْرَأَةٌ وَأَلْقَتْ قَصِيدَةً تَشْكُو فِيهَا زَوْجَهَا، وَإِذَا بِرَجُلٍ يَدْخُلُ وَسَطَ الْجَالِسِينَ وَأَنْشَدَ قَصِيدَةً يَزِدُّ فِيهَا عَلَى مَقَالِهَا، وَاسْتَشَفَّ الْقَاضِي مِنْ هَذَا الشَّعْرِ مَدَى مَا آلَ إِلَيْهِ سُوءُ حَالِيهِمَا،

وغيرها والتي تربط بين بُعْج الألوان، وهذا ما لا تظهره الخلفية العارية.

وتكشف قسّمات الحاكم وحاشيته - على العكس من شُحوص المخطوطات المملوكية - في هذه اللوحة عن أصل شعوبيّ غير عربيّ. ومن المعروف أنّ أكثر الملوك والأمراء المماليك كانوا من أصل تُركيّ أو مغوليّ. ومن الواضح أنّ الجنس المصوّر هنا هو من ذلك الجنس الوافد من وسط آسيا، فألى جانب قسّمات وجوههم المستديرة وعيونهم المنحرفة، نلمح خصلات شعرهم تنسدل على وجوههم والشامات على وجناتهم، وهما الميزتان اللتان تَعْنِي بهما الشاعر حافظ في قصائده الغزليّة. وتشارك الثياب كذلك في تحديد الطابع الأجنبيّ لرجال الحاشية، فقد اعتَمَرَ كُلّ من الموسيقيّين الجالسين إلى اليمين قكسوة ذات ريش تُحاكي تلك التي يَضَعُها المغول، كما ارتدى الحاكم وابنه أو صفيه الذي يبدو إلى جانيه وكذلك عازف العود الجالس في الجانب الأيمن القفطان التُركيّ. وتبدو أكمّام عباءة ابن الحاكم ضيقة مستطيلة على غرار معاطف الفُرس خلال حُكْم المغول. ويتمنطق كُلّ من الحاكم وابنه بِحزام ذهبيّ يرمز إلى طبقة كبار العسكريين الأتراك وإن تميّز حزام الحاكم بِدوائر صغيرة ووضّع الأمير على رأسه عمامة عربيّة ذات قرنين لا نراها في المخطوطة على رأس سيواه إلّا واجداً يغلب على الظنّ أنّه من كبار الموظفين، وهذا النوع من العمامم كان قاصراً على حُكّام مصر على حين اختار حُكّام فارس ارتداء التيجان. وقد أثار الفئان هنا أنّ يضع التاجين على رأس ملاكين. وهذا مظهر متميّز من مظاهر التصوير الفارسيّ. وبصفة عامّة فإنّ ما يُميّز النسيج الفنّي لهذه المُنمنمة هو تراصّف عناصرها.

وتقدّم مُنمنمات هذه المخطوطة التّسعة والسّتين صورة دقيقة لِقَنّ التّصوير المملوكيّ. فنرى في مُنمنمة المقامة الثامنة التي يترافّع فيها أبو زيد أمام القاضي (لوحة ١١٠م) أنّ الفئان قد صوّر منظراً داخليّاً مُتبنّياً التّقليد البيزنطيّ القديم في استخدام سِتار مُثلث لِزخرفة المساحة الفاصلة بين رأس الشّخصيّتين الرّئيسيّتين في الصورة، وأنّه منَح أهمية خاصّة لِشخصيّة أبي زيد وهو يترافّع، فأبرزه في حركة إيجابيّة بين الشّخصيّتين الأخريين اللّتين بدتا إلى جانيه ساكنتين بلا حراك برغم رُفَع أيديهما إلى أعلى، غير أنّه ممّا يلفت النّظر أنّ إيماءات أبي زيد وحركاته قد تكرّرت بطريقة نمطيّة في جميع مُنمنمات هذا المخطوط.

وفي مُنمنمة المقامة السادسة والعشرين (لوحة ١١١م) نرى خيمّة مضروبة في العراء على بُعد مرحلتين من مدينة الأهواز أمامها شُعلة من نار مشبوبة، وقد بدت في أعلى الصورة قبة

زرقاء كأنّها السّماء تضمّ هلالاً ونقطة بيضاء تُشير إلى النّجوم ممّا يدلّ على أنّ الوقت كان ليلاً. وقد جالسَ في الخيمّة شيخ جليل لم يكن غير أبي زيد السروجيّ باسطاً يده مرحّباً. وأمام الخيمّة رجّلان من أتباعه أحدهما أبيض البشرة والآخر أسمر، وخلف الخيمّة مطيّة شخص يسترق السّمع يبدو من ملبسه أنّه من الخدم وكأنّه في وقفته يرتقب أوامر سيّده. وإلى أقصى اليمين الحارث بن همام وقد ارتحل عن الأهواز بعد أن ضاقت به الحال إلى أن انتهى إلى تلك الخيمّة فقصدها يعني خيرًا. وما إن وقعت عيناه على أبي زيد حتّى عرفه فحقّق إليه كما نراه في الصورة مُشيرًا بإحدى يديه رافعًا الأخرى دليلًا على دهشته.

وفي مُنمنمة من المقامة الثالثة من هذه المخطوطة نرى الحارث بن همام وقد جالسَ إلى صديق له لا يبدو في الصورة غير اثنين منهم وقد جلسا إلى اليمين وجلسَ هو إلى اليسار في طرف الصورة. ويبدو الشّيخان على سمّت وقار إذ كانا من أهل العلم والأدب، كما يبدو المجلس مهيبًا لا جلبة فيه ولا صحب، إذ كلّهم من ذوي المكانة. وفيما أهل هذا المجلس يتجادبون أطراف الحديث إذ طلع عليهم شخص في أسمال ولم يكن غير أبي زيد السروجيّ، وهو الواقف في الصورة، وقد بدا ثانيًا رجلاً إشارة إلى عرجه، يخطب في القوم سايلًا: يا أخاير الذّخائر وبشائر العشائر عموا صباحًا وانعموا اصطباحًا وانظروا إلى من كان ذا ندّي [مجلس] وندي [كرم]، فتردّ الحارث بعد أن ناوّه دينارًا مشفقًا على عوّزه: إنّ مدّحتَه نظّمًا فهو لك. وإلى هذا تشير المُنمنمة، فقد مدّ الحارث يمينه وفيها الدّينار كما مدّ أبو زيد هو الآخر يمينه ليتسلّم الدّينار وهو يُشير يمينه مقبوضه وقد بسط سبّابه زمرًا إلى أخذه في الإنشاد الذي اشترطه عليه الحارث. ويبدو في أرضيّة الصورة وفي خلفيّتها عُصون شجيرات بأزهارها، كما يبدو في سماء الصورة طائر. وهذا وذاك ممّا يدلّ على أنّ مكان التّادي كان في بُستان أو نحو (لوحة ١١٢م).

وفي المقامة السابعة من المخطوطة نفسها نرى الحارث بن همام في لباس جديد إذ كان اليوم يوم عيد وكان عندها في مدينة بَرْقيد. والصورة (لوحة ١١٣م) تُمثل مسجداً، إذ ثمة قبة وكذلك ثمة مضباح مُدلى. لا نرى مثلهما إلّا في المساجد. ويؤكد هذا وجود الرّجلين السّاجدين إلى يمين الصورة وقد ألصق أحدهما جبهته بالأرض على حين أخذ ثانيهما في إتمام سُجوده، ووقّت من خلف المُصلّين الحارث بن همام وهو ينظر إليهما وكأنّه يستعيد لِلحاق بهما قايلاً: وحين التأم جَمع المُصلّين وانتظم وأخذ الرّحام بالكظم [أي بما يضيق النفس]. يقول الحارث هذا والصورة لا يبدو فيها غير اثنين من المُصلّين، غير أنّ المصوّر قد يكون عبّر

عَنْ هَذِهِ الرَّحْمَةِ بِرَفْعِ ثَانِي الْمُصَلِّينَ جَبْهَتَهُ عَنِ الْأَرْضِ وَكَأَنَّهُ يَبْحَثُ عَنْ مَكَانٍ لَهَا. وَإِلَى أَقْصَى الْيَسَارِ مِنَ الصُّورَةِ شَيْخٌ فِي عِبَاءَتَيْنِ وَتَقْوَدُهُ عَجُوزٌ، وَيَصِفُهُمَا الْحَارِثُ فَيَقُولُ: طَلَعَ شَيْخٌ فِي شَمْلَتَيْنِ مَحْجُوبِ الْمُقْلَتَيْنِ وَقَدْ اعْتَصَدَ شِبْهَ الْمِخْلَةِ [أَيَ عُلَّقَهَا فِي عَضْدِهِ] وَاسْتَفَادَ لِلْعَجُوزِ كَالسَّعْلَةِ [أَيَ جَعَلَهَا تَقْوَدُهُ وَشَبَّهَهَا بِالسَّعْلَةِ، وَهِيَ أَثْنَى الْغُولِ فِي الدَّمَامَةِ]. غَيْرَ أَنَّا نُلَاحِظُ أَنَّهُ لَا أَثَرَ لِحَجَبِ مُقْلَتَي الرَّجُلِ فَهُوَ يَبْدُو غَيْرَ مَحْجُوبَيْهِمَا كَمَا لَا أَثَرَ لِيَتْلِكَ الْمِخْلَةِ الَّتِي عُلَّقَهَا فِي عَضْدِهِ. وَلَمْ يَكُنْ هَذَا الشَّيْخُ غَيْرَ أَبِي زَيْدٍ السُّرُوجِيِّ وَقَدْ تَصَنَّعَ الْعَمَى وَأَسْلَمَ مَقَادَهُ لَتِلْكَ الْعَجُوزِ لِيَسْتَدِيرَ عَطْفُ النَّاسِ حَتَّى يُعْطَوْهُ.

وَفِي الْمَقَامَةِ الثَّامِنَةِ نَرَى قَاضِي مَعْرَةَ التُّعْمَانِ وَقَدْ جَلَسَ فِي مَجْلِسِ الْقَضَاءِ الَّذِي تَمَيَّزَ بِسِدْلَةٍ [سِتْرٍ] فَوْقَ رَأْسِهِ مَشْدُودَةٍ إِلَى السِّدْلَةِ. وَوَقَفَ بَيْنَ يَدَيِ الْقَاضِي شَخْصَانِ أَحَدُهُمَا شَيْخٌ مُسِنَّ قَدْ أَتَى عَلَيْهِ الدَّهْرُ وَالْآخَرُ شَابٌّ أَمْرَدٌ فِي رِيْعَانِ الشَّبَابِ وَهُمَا يَرْفَعَانِ إِلَيْهِ قَضِيَّتَيْهِمَا (لَوْحَةٌ ١١٤م). وَيَصِفُ الْحَارِثُ بَنَ هَمَامٍ هَذَا فَيَقُولُ: رَأَيْتُ مِنْ أَعَاجِيبِ الزَّمَانِ أَنَّ تَقْدَمَ خَصْمَانِ إِلَى قَاضِي مَعْرَةَ التُّعْمَانِ، أَحَدُهُمَا ذَهَبَ مِنْهُ الْأَطْيَانُ [أَيَ الْأَكْلُ وَالنَّكَاحُ، عِنْدَ بُلُوغِ أُرْدَلِ الْعُمْرِ] وَالْآخَرُ كَأَنَّهُ قَضِيبُ الْبَانِ.

وَفِي مُنْمَنَةِ آخِرَةِ نَشْهَدُ أَبَا زَيْدٍ السُّرُوجِيِّ وَوَلَدَهُ جَالِسِينَ إِلَى مَائِدَةٍ عَلَيْهِمَا أَصْنَافُ الطَّعَامِ (لَوْحَةٌ ١١٥م). وَيَلِي الْمَائِدَةَ إِنَاءٌ عَلَى شَكْلِ زَهْرِيَّةٍ بِهَا أَزْهَارٌ، يَلِيهَا طَبَقٌ كَبِيرٌ عَلَيْهِ أَوَانِي الشَّرَابِ. وَفِي رُكْنِ الصُّورَةِ الْعُلُويِّ سِتَارٌ مَعْقُودٌ، وَإِلَى الْيَسَارِ رُسْمٌ عُصْفُورٍ. وَالْأَرْضِيَّةُ مُذَهَّبَةٌ كَالْعَادَةِ، وَالرُّسُومُ بِالْوَلَوَانِ الْأَحْمَرِ وَالْبُرْتُقَالِيِّ وَالْأَزْرَقِ وَالْفَيْرُوزِيِّ.

وَيَفْرِدُ هَذَا الْفَتَانُ عَامَّةً بِإِضْفَائِهِ عَلَى شُخُوصِهِ خَوَاصَّ الدَّمِيِّ يُحَرِّكُهَا فِي مُنْمَنَاتِهِ كَبَيَادِقِ الشُّطْرُنْجِ، وَشَخْصِيَّاتِهِ تَكَادُ تَتَكَرَّرُ بِنَفْسِ اللَّحْمَطِ وَإِنْ تَبَايَنَتْ أَمَاكِنُهَا وَعِلَاقَاتُهَا بَعْضُهَا بِالْبَعْضِ، وَتَمَيَّزَ كُلُّهَا بِقِصَرِ الْقَامَةِ وَبِأَنَّ رُؤُوسَهَا كَبِيرَةٌ نَسِيًّا. وَلَمْ تَخُلْ لِمَسَاتِ الْمُصَوِّرِ مِنْ خِفَّةٍ ظَلَّ لَدَى تَصْوِيرِهِ لِشُخُوصِهِ حَتَّى إِنْ الْمَوَاقِفَ الدِّرَامِيَّةَ ذَاتَهَا لَا تُثِيرُنَا بِقَدْرِ مَا يُثِيرُنَا أَصْحَابُهَا، فَلَا تَكَادُ نُجِسُ بِأَنَّا نَشَاهِدُ لَوْحَةً تَشْكِيْلِيَّةً بِقَدْرِ مَا نَشَاهِدُ لَعِبَةٍ مُسْلِيَّةٍ مُحْتَشِدَةٍ بِالشُّخُوصِ مُتَأَلِّفَةِ الْعَنَاصِرِ الْمُخْتَلِفَةِ مِنْ إِنْسَانٍ وَأَزْيَاءٍ وَنَبَاتٍ وَحَيَوَانٍ زَاهِيَةِ الْأَلْوَانِ تَبْهَرُ الْعَيْنَ لِلْوَهْلَةِ الْأُولَى.

كَلِيلَةٌ وَدِمْنَةٌ. الْقَرْنُ الرَّابِعُ عَشَرَ.

دَارُ الْكُتُبِ الْقَوْمِيَّةِ بِبَارِيسَ تَحْتَ رَقْمِ ٣٤٦٧

بَيْنَمَا نَجِدُ «شَكْلِيَّةً» صُورَ الشُّخُوصِ تُضْفِي عَلَى الْمُنْمَنَاتِ

الْمَمْلُوكِيَّةِ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ اخْتِلَافًا فِي مَظْهَرِهَا عَنْهُ فِي الْقَرْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ، فَإِنَّا لَا نَجِدُ هَذَا الْاِخْتِلَافَ فِي «صُورِ الْحَيَوَانَاتِ» فِي مَخْطُوطَاتِ هَذَا الْعَصْرِ مِنْ كِتَابِ «كَلِيلَةٍ وَدِمْنَةٍ». وَإِذَا كَانَتْ قَدْ اسْتَعَارَتْ أَنْمَاطًا تَصَوِيرِيَّةً فَارِسِيَّةً قَدِيمَةً ذَاتَ طَبِيعَةٍ شَكْلِيَّةٍ فَقَدْ بَلَغَتْ صُورَ الْحَيَوَانَاتِ دَرَجَةَ عَالِيَةٍ مِنَ التَّخْوِيرِ مُنْذُ بَدَايَةِ الْقَرْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ، وَلَمْ تَنْطَوِ صِبْغُهَا الْجَدِيدَةُ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ عَلَى تَغْيِرَاتِ أُسْلُوبِيَّةٍ تَلَفَتْ الْأَنْظَارَ، وَلَمْ يَطْرَأْ عَلَيْهَا - عَلَى نَقِيضِ صُورِ الْأَشْخَاصِ - مَا يَصِفُهَا بِالتَّجَدُّدِ، فَقَدْ صُوِّرَتْ أَحْيَانًا بِبُضِّ الْحَيَوَانَاتِ فِيهَا نَاقِصَةٌ بِالْحَيَاةِ وَصُمِّمَتْ الْمَشَاهِدُ الَّتِي تَضُمُّهَا بِنَجَاحٍ خَلَقَ مِنْهَا أَعْمَالًا رَاقِيَةً، وَهُوَ مَا تُؤَكِّدُهُ الْمُنْمَنَةُ الَّتِي تُصَوِّرُ دِمْنَةً فِي مَخْطُوطَةٍ رَقْمِ ٣٤٦٧ بِدَارِ الْكُتُبِ الْقَوْمِيَّةِ بِبَارِيسَ وَقَدْ دَخَلَ عَلَى الْأَسَدِ وَبِجَوَارِهِ أَسَدٌ آخَرُ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمَا (لَوْحَةٌ ١٢٩)، وَلَوْحَةُ النَّجَّارِ بِنَفْسِ الْمَخْطُوطَةِ الَّتِي كَانَ مُتِمِّمًا بِحُبِّ امْرَأَتِهِ وَكَانَتْ قَدْ تَعَلَّقَتْ بِرَجُلٍ آخَرَ، وَاطَّلَعَ عَلَى ذَلِكَ بَعْضُ أَهْلِ النَّجَّارِ وَأَبْلَغُوهُ بِهِ، فَشَاءَ أَنْ يَتَبَقَّنَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: سَوْفَ أَذْهَبُ إِلَى قَرَبَةٍ هِيَ مِتَا عَلَى فَرَايِخٍ لِأَنْجِزَ عَمَلًا لِيَعُضَ الْأَشْرَافُ وَإِنِّي غَائِبٌ عَنْكَ أَيَّامًا. فَأَعْذِي لِي زَادًا فَفَرِحَتِ الْمَرْأَةُ بِذَلِكَ وَأَعَدَّتْ لَهُ الرِّادَ، فَلَمَّا أَمْسَى قَالَ لَهَا، اسْتَوْفِي مِنِّي بَابَ الدَّارِ وَاحْفَظِي بَيْتَكَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْكَ. وَخَرَجَ وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَيْهِ حَتَّى جَاوَزَ الْبَابَ، ثُمَّ تَسَلَّلَ إِلَى مَنَزَلِهِ مَرَّةً أُخْرَى مِنْ مَكَانٍ خَفِيٍّ مِنْ مَنَزَلٍ جَارٍ لَهُ، وَاخْتَالَ حَتَّى دَخَلَ تَحْتَ سَرِيرِهِ. وَأُرْسِلَتِ الْمَرْأَةُ إِلَى خَلِيلِهَا أَنْ يَأْتِيَهَا لِأَنَّ زَوْجَهَا النَّجَّارَ قَدْ خَرَجَ فِي حَاجَةٍ لَهُ يَغِيبُ فِيهَا أَيَّامًا. وَلَمَّا جَاءَهَا الرَّجُلُ هَيَّأَتْ لَهُ طَعَامًا فَآكَلَا وَسَقَتْهُ ثُمَّ تَضَاجَعَا عَلَى السَّرِيرِ وَلَبَّثَا فِي شَأْنِهِمَا لَيْلًا طَوِيلًا. غَيْرَ أَنَّ النَّجَّارَ مَا لَبَثَ أَنْ غَلَبَهُ الثُّعَاسُ وَنَامَ وَبَرَزَتْ قَدَمُهُ مِنْ تَحْتَ السَّرِيرِ فَرَأَتْهَا امْرَأَتُهُ وَأَيْقَنْتْ بِالشَّرِّ فَسَارَتْ خَلِيلَهَا أَنْ أَرْفَعَ صَوْتَكَ فَسَلَّنِي: أَيْنَا أَحَبُّ إِلَيْكَ أَنَا أَوْ زَوْجُكَ؟ وَإِذَا امْتَنَعْتَ فَأَلِجْ عَلَيَّ. فَسَأَلَهَا عَمَّا قَالَتْ فَردَّتْ عَلَيْهِ، فَقَالَتْ لَهُ: أَلَسْتُ تَعْلَمُ أَنَا مَعِشَرَ النِّسَاءِ إِنَّمَا تُرِيدُ الْأَخْيَالَ لِقَضَاءِ الشَّهْوَةِ، وَلَسْنَا نَلْتَمِزُ إِلَى أَحْسَابِهِمْ وَلَا إِلَى أَيِّ شَيْءٍ مِنْ أُمُورِهِمْ، فَإِذَا قَضَيْنَا مِنْ أَحَدِهِمْ مَارَبًا كَانَ كَغَيْرِهِ مِنَ النَّاسِ. فَأَمَّا الزَّوْجُ فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَةِ الْأَبِ وَالْأَخِ وَالْوَلَدِ وَأَفْضَلُ مِنْ مَنَزِلَتِهِمْ! فَلَمَّا لَمَسَ اللَّهُ امْرَأَةً لَا يَكُونُ زَوْجُهَا عِنْدَهَا كَعِذْلِ نَفْسِهَا أَوْ أَحَبَّ إِلَيْهَا مِنْهَا! فَلَمَّا سَمِعَ النَّجَّارُ مِنْهَا هَذَا الْقَوْلَ وَتَقَى مِنْهَا وَقَعَ فِي مَوْضِعِهِ إِلَى الْعَدُوِّ. فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّ الْخَلِيلَ غَادَرَ الْحُجْرَةَ قَامَ فَوَجَدَ امْرَأَتَهُ مُتَنَاقِضَةً فَجَلَسَ عِنْدَ رَأْسِهَا وَجَعَلَ يَذَبُّ عَنْهَا فَلَمَّا تَحَرَّكَتْ قَالَ لَهَا «يَا حَبِيبَةَ نَفْسِي نَامِي فَإِنَّكَ بِتِّ اللَّيْلِ سَاهِرَةً، وَلَوْلَا كَرَاهَةُ مَا سَاءَكَ لَقَدْ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ ذَلِكَ الرَّجُلِ صَحَبٌ شَدِيدٌ» (لَوْحَةٌ ١٣٠).

وَفِي مُنْمَنَةِ آخِرَةِ نَشْهَدُ أَبَا زَيْدٍ السُّرُوجِيِّ وَوَلَدَهُ جَالِسِينَ إِلَى مَائِدَةٍ عَلَيْهِمَا أَصْنَافُ الطَّعَامِ (لَوْحَةٌ ١١٥م). وَيَلِي الْمَائِدَةَ إِنَاءٌ عَلَى شَكْلِ زَهْرِيَّةٍ بِهَا أَزْهَارٌ، يَلِيهَا طَبَقٌ كَبِيرٌ عَلَيْهِ أَوَانِي الشَّرَابِ. وَفِي رُكْنِ الصُّورَةِ الْعُلُويِّ سِتَارٌ مَعْقُودٌ، وَإِلَى الْيَسَارِ رُسْمٌ عُصْفُورٍ. وَالْأَرْضِيَّةُ مُذَهَّبَةٌ كَالْعَادَةِ، وَالرُّسُومُ بِالْوَلَوَانِ الْأَحْمَرِ وَالْبُرْتُقَالِيِّ وَالْأَزْرَقِ وَالْفَيْرُوزِيِّ.

وَفِي مُنْمَنَةِ آخِرَةِ نَشْهَدُ أَبَا زَيْدٍ السُّرُوجِيِّ وَوَلَدَهُ جَالِسِينَ إِلَى مَائِدَةٍ عَلَيْهِمَا أَصْنَافُ الطَّعَامِ (لَوْحَةٌ ١١٥م). وَيَلِي الْمَائِدَةَ إِنَاءٌ عَلَى شَكْلِ زَهْرِيَّةٍ بِهَا أَزْهَارٌ، يَلِيهَا طَبَقٌ كَبِيرٌ عَلَيْهِ أَوَانِي الشَّرَابِ. وَفِي رُكْنِ الصُّورَةِ الْعُلُويِّ سِتَارٌ مَعْقُودٌ، وَإِلَى الْيَسَارِ رُسْمٌ عُصْفُورٍ. وَالْأَرْضِيَّةُ مُذَهَّبَةٌ كَالْعَادَةِ، وَالرُّسُومُ بِالْوَلَوَانِ الْأَحْمَرِ وَالْبُرْتُقَالِيِّ وَالْأَزْرَقِ وَالْفَيْرُوزِيِّ.

وَيَفْرِدُ هَذَا الْفَتَانُ عَامَّةً بِإِضْفَائِهِ عَلَى شُخُوصِهِ خَوَاصَّ الدَّمِيِّ يُحَرِّكُهَا فِي مُنْمَنَاتِهِ كَبَيَادِقِ الشُّطْرُنْجِ، وَشَخْصِيَّاتِهِ تَكَادُ تَتَكَرَّرُ بِنَفْسِ اللَّحْمَطِ وَإِنْ تَبَايَنَتْ أَمَاكِنُهَا وَعِلَاقَاتُهَا بَعْضُهَا بِالْبَعْضِ، وَتَمَيَّزَ كُلُّهَا بِقِصَرِ الْقَامَةِ وَبِأَنَّ رُؤُوسَهَا كَبِيرَةٌ نَسِيًّا. وَلَمْ تَخُلْ لِمَسَاتِ الْمُصَوِّرِ مِنْ خِفَّةٍ ظَلَّ لَدَى تَصْوِيرِهِ لِشُخُوصِهِ حَتَّى إِنْ الْمَوَاقِفَ الدِّرَامِيَّةَ ذَاتَهَا لَا تُثِيرُنَا بِقَدْرِ مَا يُثِيرُنَا أَصْحَابُهَا، فَلَا تَكَادُ نُجِسُ بِأَنَّا نَشَاهِدُ لَوْحَةً تَشْكِيْلِيَّةً بِقَدْرِ مَا نَشَاهِدُ لَعِبَةٍ مُسْلِيَّةٍ مُحْتَشِدَةٍ بِالشُّخُوصِ مُتَأَلِّفَةِ الْعَنَاصِرِ الْمُخْتَلِفَةِ مِنْ إِنْسَانٍ وَأَزْيَاءٍ وَنَبَاتٍ وَحَيَوَانٍ زَاهِيَةِ الْأَلْوَانِ تَبْهَرُ الْعَيْنَ لِلْوَهْلَةِ الْأُولَى.

كَلِيلَةٌ وَدِمْنَةٌ. الْقَرْنُ الرَّابِعُ عَشَرَ.

دَارُ الْكُتُبِ الْقَوْمِيَّةِ بِبَارِيسَ تَحْتَ رَقْمِ ٣٤٦٧

بَيْنَمَا نَجِدُ «شَكْلِيَّةً» صُورَ الشُّخُوصِ تُضْفِي عَلَى الْمُنْمَنَاتِ

كَلِيلَة وَدِمْنَة ١٣٥٤م. المَكْتَبَة البودلِيَّة بِأَكْسْفُورْد

بِهَا المَمَالِيك بَعْدَ سَبَقِهِمْ لِدَوْلِ الشَّرْقِ الأَوْسَطِ خِلالِ الرُّبْعِ الأَخِيرِ مِنَ القَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ فِي اسْتِخْدَامِهِمْ لَهَا ثُمَّ تَرَكَهُمْ إِيَّاهَا لِيَجْنُودَهُمْ مِنَ التُّرْكَمانِ والمَغَارِبَةِ والعَبِيدِ السُّودِ مُحْتَفِظِينَ لِأَنْفُسِهِمْ بِمُهْمَّةِ القِتَالِ الفَرْدِيِّ الدَّالِّ عَلَى فُرُوسِيَّتِهِمْ وشَجَاعَتِهِمْ. فَقَدْ تَحَدَّثَ مُؤَلِّفُهُ عَنِ اسْتِخْدَامِ الثَّقَطِ والمَدَافِعِ والبارودِ ووسائلِ التَّدْرِيبِ عَلَيْهَا.

وَتُصَوِّرُ المُنْمَنَة الأولى (لَوْحَة ١١٧م) فَارِسِينَ يَتَجَالَدَانِ بِالرِّمَاحِ. وَقَدْ بَيَّنَّ المُوَلِّفُ الصُّورَةَ الَّتِي تَحْفَظُ لِلْمُجَالِدِ سَلَامَتَهُ وَتُشِجُّ لَهُ الاِئْتِصَارَ عَلَى خَصْمِهِ فَهُوَ يَقُولُ: عَلَيَّكَ أَنْ تَتَقَدَّمَ وَأَنْ تُشْرَعَ رُمُحَكَ فِي صَدْرِ قَرَسِهِ. فَإِذَا مَا حَاوَلَ أَنْ يَطْعَنَكَ فِي كَتِفِكَ فَانْهَضْ عَلَى الرُّكَابَيْنِ وَضَعْ رُمُحَهُ بِسَاعِدِكَ ضَاعِطًا عَلَيْهِ حَتَّى يَنْكَبِرَ بَعْدَ أَنْ تَسْتَبِدَّ إِلَى مُقَدِّمَةِ القَرَبُوسِ (مُقَدِّمَةِ السَّرْجِ) ثُمَّ الْكُزْ قَرَسَهُ فَسَوْفَ يَجْفَلُ وَيَرْمِي بِفَارِسِهِ. وَإِذَا مَا حَاوَلْتَ أَنْ تَرْمِي فَتَظَاهِرَ بِأَنَّكَ تَرْمِي بَيْنَ يَدَيْ خَصْمِكَ وَأَنْتَ تُرِيدُ شِمَالَهُ، فَإِنْ ذَلِكَ يَقْلِقُهُ فِي مَكَانِهِ وَيَطْوِجُ بِهِ إِلَى الأَرْضِ. فَإِنْ لَمْ يَسْقُطْ عَلَى الأَرْضِ فَاشْرَعْ رُمُحَكَ فِي وَجْهِهِ لِيَرْدَ عَلَيْهِ طَعْنَتَهُ، فَإِنْ لَمْ يَرْدَعْهُ هَذَا وَحَاوَلَ طَعْنَكَ فِي كَتِفِكَ فَانْهَضْ فِي سَرْجِكَ واطْوِ رُمُحَهُ بِذِرَاعِكَ وَأَوْهِمِهِ أَنَّكَ طَاعِنُهُ، فَسُرْعَانِ مَا يَرْدُ إِلَيْهِ رُمُحَهُ يَحْتَمِي بِهِ. وَحِينَ يَقْعُلُ ذَلِكَ اطْعَنْهُ فِي خَاصِرَتِهِ، فَإِنْ ذَلِكَ كَفِيلُ بِطَرَحِهِ أَرْضًا. أَمَّا اللُّوْحَةُ الثَّانِيَّةُ (لَوْحَة ١١٨م) فَتُمَثِّلُ اسْتِخْدَامَ القَوْسِ أَدَاةَ لَوْزْنِ الأَثْقَالِ.

وَيُسْعِدُنِي أَنْ أَنْشُرَ الصُّورَ الثَّلَاثَ والعِشْرِينَ المَحْفُوظَةَ لَدَى الدُّكْتُورِ أُونَجِرَ، وَكُلُّهَا تُعَالِجُ مَوْضُوعَاتِ الكِتَابِ كَالْفُرُوسِيَّةِ وَرُكُوبِ الخَيْلِ والمُبَارَاةِ بِالرِّمَاحِ مِنْ فَوْقِ صَهَوَاتِ الجِيَادِ، وَقَوَاعِدِ لَعِبِ التَّخَطُّيبِ وَاسْتِخْدَامِ السَّيْفِ مُنْفَرِدًا أَوْ مَعَ التُّرْسِ، والضَّرْبِ بالدَّبُوسِ، وَاسْتِخْدَامِ القَوْسِ والشَّابِ، وَحِيلِ الفُرُوسِيَّةِ فِي اتِّقَاءِ الطَّعْنَاتِ، وَالْقَفْرِ بِالخَيْلِ دَاخِلَ الحَلَقَاتِ، وَأَسَالِيبِ الهُجُومِ وَأَصُولِ الكَرِّ وَكَيْفِيَّةِ رَمْيِ السَّبَاعِ، وَتَرْكِيبِ مِدْفَعِ حَدِيدٍ عَلَى الرُّمَحِ. وَالتَّدْرِيبِ عَلَى الطَّعْنِ بِالرُّمَحِ والدَّبُوسِ، وَضَرْبِ السَّيْفِ فِي الطَّيْنِ لِلتَّدْرِيبِ عَلَى قُوَّةِ الضَّرْبِ، وَطُرُقِ اسْتِخْدَامِ الثَّقَطِ كَسِيْلَاحٍ، والأَزْيَاءِ الَّتِي كَانَ يَرْتَدِّيها الْمُحَارِبُونَ بِالثَّقَطِ، وَالرِّمَاحِ الَّتِي يَضْرِبُونَ بِهَا وَالتَّارِ الَّتِي يُوقِدُونَهَا (لَوْحَة ١٣١). وَمِمَّا يَسْتَرْعِي الاِئْتِبَاهَ فِي رُسُومِ هَذِهِ المَحْفُوظَةِ أَنَّهُ عَلَى حِينِ كَانَتْ تَصَاوِيرُ الخَيْلِ مُتَقَنَةً جَاءَتْ التَّصَاوِيرُ الأَدْمِيَّةُ بَعِيدَةً عَنِ الدَّقَّةِ.

كِتَابُ الحَيَوَانِ لِلْجَاهِظِ. القَرْنُ الرَّابِعُ عَشَرَ. مَكْتَبَة أَمْبَرُوزِيَانَا بِمِيلَانُو.

بَيْنَمَا كَانَ مُصَوِّرُو مَشَاهِدِ كَلِيلَة وَدِمْنَة يُعَانُونَ مَشَاكِلَ عَوِيسَة

نَلَحَظُ عَلَى صُورِ مَخْطُوطَاتِ العَصْرِ المَمْلُوكِي بَصِفَةً عَامَّةً أَنَّ المُصَوِّرَ مَا يَكَادُ يَعْمَدُ إِلَى رَسْمِ الحَيَوَانَاتِ بِرُؤُوسِ شَيْبَةٍ بَشَرِيَّةٍ حَتَّى نَرَى الجُمُودَ يُغْشَاهَا عَلَى مَا هُوَ مَالُوفٌ فِي صُورِ الأَشْخَاصِ خِلالَ تِلْكَ الحِقْبَةِ، يَتَبَدَّى ذَلِكَ بَوَجْهِ خَاصٍّ فِي مُنْمَنَةِ «الأَرْزَبِ والفِيلِ» (لَوْحَة ١١٦م) الَّتِي تُصَوِّرُ قِصَّةَ الأَرْزَبِ وَقَدْ تَوَجَّهَ إِلَى مَلِكِ الفِيلَةِ يُحَاوِرُهُ مُحَاوِلًا إِقْنَاعَهُ بِأَلَّا يَرْدَ عَيْنَ المَاءِ الَّتِي يَمْلِكُهَا الأَرَانِبِ بَعْدَ أَنْ أَتَى مَلِكَ الفِيلَةِ وَقَبِيلَتَهُ عَلَى مَا كَانَتْ تَحْوِيهِ مِنْ مَاءٍ. وَيُثِيرُ المَظْهَرُ العَامُّ لِلْمُنْمَنَةِ إِحْسَاسًا بِالْعَرَابَةِ، وَتَدُلُّنَا بَعْضُ تَفَاصِيلِهَا الثَّانَوِيَّةِ عَلَى أَنَّهَا أُعْجِزَتْ فِي تَارِيخٍ مُتَأَخَّرٍ، مِنْ ذَلِكَ الإحْسَاسُ بِتَدَفُّقِ المَاءِ الَّذِي يَدُو فِي هَذِهِ الصُّورَةِ تَشْكِيلًا جَائِذَا فَحَسَبَ يُذَكِّرُنَا بِالوَحَدَاتِ الزُّخْرَفِيَّةِ عَلَى شَكْلِ الخَلَايَا الَّتِي نَرَاهَا فِي أَعْمَالِ التَّرْجِيحِ بِالْمِينَاءِ.

كِتَابُ تَعْلِيمِ فُنُونِ القِتَالِ وَالْفُرُوسِيَّةِ

بَدَأَتْ فِي مِنتَقَةِ شَرْقِ البَحْرِ المُتَوَسِّطِ خِلالَ القَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ يَقِطَعُ قَصِيرَةً لِفَنِّ المُنْمَنَاتِ بَعْدَ إِغْفَاءَتِهِ تَحْتَ حُكْمِ المَمَالِيكِ البَرْجِيَّةِ نَسْتَشِيرُ إِزْهَاصَاتِهَا فِي تَصَاوِيرِ كِتَابِ «تَعْلِيمِ فُنُونِ القِتَالِ وَالْفُرُوسِيَّةِ» فِي أَوَاخِرِ عَصْرِ المَمَالِيكِ، وَالَّذِي تُوجَدُ مِنْهُ ثَلَاثُ مُنْمَنَاتٍ مِلُونَةٍ بِمُتَحَفِ الفَنِّ الإِسْلَامِيِّ نَنْشُرُ اثْنَتَيْنِ مِنْهُمَا هُنَا، كَمَا يَحْتَفِظُ الدُّكْتُورُ إِدمُونْدُ دِي أُونَجِرَ بِلَنْدَنَ بِثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ مُنْمَنَةً أُخْرَى مِنْهَا تَفَضَّلَ بِسَخْطِهَا وَإِهْدَائِهَا لِي لِتَنْشُرَهَا فِي هَذَا الكِتَابِ.

وَلَيْسَتْ هَذِهِ المَخْطُوطَةُ أَوَّلُ مُؤَلَّفٍ فِي تَعْلِيمِ فُنُونِ الحَرْبِ والقِتَالِ، فَمَا فَتَتَّ المَرَاजِعُ تَذَكُرُ عَنَاوِينَ مِثْلَ هَذِهِ الكُتُبِ الَّتِي يَرْجِعُ أَهْمُهَا إِلَى أَوَاخِرِ القَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ، وَمَا لَبَّتْ هَذِهِ الفُنُونُ أَنْ اخْتَلَّتْ أَهْمِيَّةُ كُبْرَى فِي عَصْرِ المَمَالِيكِ. وَمُؤَلَّفُ المَخْطُوطِ وَكَذَلِكَ عُنْوَانُهُ مَجْهُولَانِ نَظَرًا لِضَيَاعِ الصَّفَحَاتِ الأُولَى والأَخِيرَةِ مِنْهُ. وَيَرْجِعُ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ مُصْطَفَى هَذَا المَخْطُوطَ إِلَى أَوَاخِرِ عَصْرِ المَمَالِيكِ الجَرَاكِسَةِ فِي عَهْدِ السُّلْطَانِ قَانصُوهِ الغُورِي قَبِيلِ الفَتْحِ العُثْمَانِيِّ عَلَى الأَرَجَحِ نَظَرًا لِتَشَابُهِ الأَلْفَاظِ والمُصْطَلَحَاتِ الفَنِّيَّةِ والأسْلُوبِ اللُّغَوِيِّ الَّذِي تَتَخَلَّلُهُ اللُّغَةُ الدَّارِجَةُ، وَكَذَلِكَ لِحِرْصِ المُصَوِّرِ عَلَى اسْتِخْدَامِ الثِّيَابِ الشَّائِعَةِ لِجَمِيعِ الشُّخُوصِ المَرْسُومَةِ، حَيْثُ كَانَ المَمَالِيكُ فِي فِتْرَةِ التَّدْرِيبِ يَلْبَسُونَ رِدَاءَ «كَبَرٍ» وَيَخْرُجُونَ إِلَى الطَّرِيقِ بِرِدَاءِ «مَلُوطَةٍ»، وَيَرْتَدُونَ عَلَى رُؤُوسِهِمُ الزَّمَطَ الأَخْمَرَ.

وَيَخْتَلِفُ هَذَا المَخْطُوطُ عَنِ بَقِيَّةِ المَخْطُوطَاتِ الَّتِي تُعَالِجُ مَوْضُوعَ فُنُونِ القِتَالِ مُتَجَنِّبَةً ذِكْرَ الأسْلِحَةِ الثَّانَوِيَّةِ الَّتِي اسْتَحَقَّتْ

حَبْلَ يَقودها بِهِ قَائِدٌ مُدَرَّبٌ، وَكَأَنَّهَا مُعَدَّةٌ لِتَحْمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا أَمِيرًا مُرْفَهًا. كُلُّ ذَلِكَ فِي إِطَارِ شَاعِرِي سَاحِرٍ، يَلْتَقِي فِيهِ الطَّيْرُ بِالشَّجَرِ، فِي حَرَكَةِ مَرِحَةٍ تُوحِي لِلأُذُنِ بِلَحْنِ مُوسِيقِي رَاقِصٍ.

وَتُصَوِّرُ الْمُنْمَنَةُ الثَّانِيَّةُ (لَوْحَةٌ ١١٩ م: ب) زَوْجَةَ نَعِيسَةٍ تَحْكِي لِصَدِيقَتَيْهَا فِي أَسَى وَاضِحٍ، مَأسَاتِهَا مَعَ زَوْجٍ جَاهِلٍ بِإِسْعَادِ الْمَرْأَةِ، إِذْ يُلْقِي عَلَى صَدْرِهَا بِصَدْرِهِ الثَّقِيلِ فِي جَلَاةٍ وَغَبَاءٍ يَبْنِيهَا تَنْصِصُ صَدِيقَتَاهَا فِي دَهْشَةٍ وَتَأَثَّرُ يَتَجَلَّيَانِ فِي إِيمَاءَةٍ كَفَى إِحْدَاهُمَا وَوَضَعَ الْأُخْرَى سَبَابَتَهَا عَلَى فَمِهَا عَلَامَةَ الدَّهْشَةِ. وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ خَلَعَ الْمُصَوِّرُ عَلَى لَوْحَتِهِ جَوَّ الْأَمَلِ الَّذِي عَنَاهُ مُؤَلِّفُ الْكِتَابِ، حِينَ بَسَطَ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَصَاحِبَتِهَا كَأْسًا وَفَيْئَةً، وَإِلَى جَانِبِ الْمَرْأَةِ شَجِيرَةً مِنَ الثَّبَاتَاتِ الْمُتَسَلِّقَةِ، إِحْيَاءَ وَجُودِ الْعَفَاقِيرِ الَّتِي قَدْ تُعَالِجُ كُلَّ الْأَذْوَاءِ.

وَتُصَوِّرُ مُنْمَنَةٌ ثَالِثَةٌ (لَوْحَةٌ ١١٩ م: ج) عَبْدًا حَاوَلَ الْمُصَوِّرُ أَنْ يُجَسِّدَ فِيهِ جَمِيعَ الصِّفَاتِ الْمَعْرُوفَةِ عَنِ الْعَبْدِ «الْخَصِيِّ»، وَالَّتِي تُخْرِجُهُ مِنَ عَالَمِ الرِّجَالِ، وَتَنْسِبُهُ إِلَى عَالَمِ الْأَطْفَالِ وَالنِّسَاءِ، فَصَوَّرَ جَسَدَهُ فِي اسْتِدَارَاتٍ أُثْنَوِيَّةٍ مُمْتَلِئًا مُعَبِّرًا بِذَلِكَ عَنِ الشَّرِّهِ الصَّبْيَانِيِّ، وَأَلْبَسَهُ ثِيَابًا أُثْنَوِيَّةً مُزَخْرَفَةً، وَجَعَلَهُ يَلْهُو بِالطَّيُورِ، يُطْلِقُهَا مِنْ قَفْصِهَا، وَأَكْسَبَ مَلَامِيحَ وَجْهِهِ دَهْشَةً صَبْيَانِيَّةً، فَحَرَّكَ فِي عَيْنِهِ دَمْعَةً مُتَرْقِرَةً.

لِكِنِّي يُطَالِعُونَا بِمَشَاهِدٍ مُسْتَخْلَصَةٍ مِنْ تِلْكَ الْقِصَصِ كَانَتْ مُهِمَّةٌ مُصَوِّرُ الْحَيَوَانَاتِ فِي كُتُبِ عِلْمِ الْحَيَوَانَاتِ أَقَلَّ عَنَاءٍ فَلَمْ يَزِدْ جُهْدَهُ عَلَى أَنْ يُصَوِّرَ حَيَوَانًا أَوْ اثْنَيْنِ، مُحَاوِلًا التَّوْفِيقَ بَيْنَ عِدَّةِ أُمُورٍ هِيَ إِجْلَاءُ خَصَائِصِ حَيَوَانَاتِ بَعِيْنِهِ وَإِحَاطَتُهُ بِجَوِّ زُخْرُفِيٍّ مُلَائِمٍ، ثُمَّ إِشَاعَةُ الْجَاذِبِيَّةِ فِي اللَّوْحَةِ، وَهُوَ مَا نَشْهَدُهُ فِي إِحْدَى مُنْمَنَاتِ مَخْطُوطِ فَرِيدٍ مِنْ كِتَابِ الْحَيَوَانَاتِ لِلْجَاحِظِ يَرْجِعُ تَارِيخُهُ إِلَى الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ. وَمَعَ أَنَّهُ مِنَ الْمَوْثُوقِ بِهِ أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ قَدْ ظَهَرَ فِي عَصْرِ الْمَمَالِيكِ إِلَّا أَنَّهُ يَصْعَبُ عَلَيْنَا تَحْدِيدُ الْمُنْطَقَةِ أَوْ الْمَدْرَسَةِ الَّتِي يَتَّبِعُهَا، ذَلِكَ أَنَّ صُورَهُ لَا تَخْضَعُ لِقَوَاعِدِ آيَةِ مَدْرَسَةٍ مِنَ الْمَدَارِسِ الْمَعْرُوفَةِ، وَهِيَ لَا تَعْدُو أَنْ تَكُونَ نَوْعًا مِنَ التَّصْوِيرِ الْبَارِعِ الْمَوْضِحِ لِلنَّصِّ عَلَى رُغْمِ الثَّقَلِ الْمَحْسُوسِ فِي خُطُوطِ فُرْشَاةِ مُصَوِّرِهَا الْمَمْلُوكِيِّ. وَتُعْزَى جَمِيعُ هَذِهِ التَّغْيِيرَاتِ إِلَى تَأْثِيرِ الْفَنِّ الْفَارِسِيِّ الْمُسَبِّعِ بِالرُّوحِ الزُّخْرُفِيَّةِ وَإِثَارِ التَّكُونِيَّاتِ الْمُتَرَاصِفَةِ وَالْمُتَوَازِنَةِ، وَالْمُتَّصِلَةِ بِمَشَاهِدِ الطَّبِيعَةِ. وَتُصَوِّرُ الْمُنْمَنَةُ الْأُولَى (لَوْحَةٌ ١١٩ م: أ) زَرَافَةً حَاوَلَ الْمُصَوِّرُ أَنْ يُوحِي مِنْ خِلَالِهَا بِالْمَعْنَى الْمَلْحُوظِ فِي اسْمِهَا بِاللُّغَةِ الْفَارِسِيَّةِ، وَالَّذِي يَتَشَكَّلُ مِنْ ثَلَاثَةِ مَقَاطِعَ: اشْتَر - كَاو - بَلَنْد، وَتَعْنِي بِالْعَرَبِيَّةِ: بَعِير - بَقَرَةٌ - ضَبْع، إِشَارَةً إِلَى ذَلِكَ الرَّعْمِ الْخُرَافِيِّ الْقَدِيمِ الْقَائِلِ بِأَنَّ الزَّرَافَةَ مَخْلُوقٌ مُرَكَّبٌ مِنْ هَذِهِ الْحَيَوَانَاتِ الثَّلَاثَةِ. وَإِلَى جَانِبِ الْبُقْعِ الْمَلُونَةِ الَّتِي نَشَرَهَا الْمُصَوِّرُ فِي جَمَالٍ أَخَاذَ عَلَى جِسْمِ الزَّرَافَةِ وَالْخَلَائِلِ الَّتِي تُزَيِّنُ قَوَائِمَهَا، بَسَطَ عَلَى ظَهْرِهَا سَرْجًا مُزَرَكَشًا بِالْبَلِغِ الرَّقَّةِ، وَجَعَلَ فِي خَطْمِهَا لِحَاجِمًا مُزْدَانًا بِالْحُلِيِّ مُشْدُودًا إِلَى

الوَمُضَة الأَخِيرَة : بَعْدَ عَام ١٣٥٠

طُغْيَانُ التَّأثيرِ الفَارِسِيِّ، وإنَّ لَمْ يَحُلْ هَذَا الاَضْمِخْلَالُ دُونَ ظَهْورِ صُورِ بَدِيعَةِ التَّكْوِينِ وَالتَّلْوِينِ بَيْنَ الفَنِّينَةِ وَالفَنِّينَةِ، مِنْهَا عَلَى سَبِيلِ المِثَالِ - لَا الحَصْرِ - لَوْحَةُ طَيرِ الكُرْكِيِّ (لَوْحَةُ ١٢١م) مِنْ كِتَابِ «مَنَافِعِ الحَيَوَانِ» لِابْنِ الدَّرِيمِ المَوْصِلِيِّ، المُنَجَّرَةُ بِوَصَرِ عَامِ ١٣٥٤م.

قانون الدنيا وعجائبها ١٥٦٣م. للشيخ أحمد المصري. متحف طوب قابو باستنبول

يَحْتَفِظُ مَتَحَفُ طُوبِ قَابُو سَرَايِ بَاسْتَنْبُولِ بِنُسخَةٍ رَاضِيَةٍ التَّصْويرِ مُنَجَّرَةٍ عَامَ ١٥٦٣ مِنْ كِتَابِ «قانون الدنيا وعجائبها» الَّذِي أَلْفَهُ الشَّيْخُ أَحْمَدُ المِصْرِيُّ. تَحْمِلُ صَفْحَةُ العُتُونِ مَلاوِجَ الأسْلُوبِ المَمْلُوكِيِّ، وَمِنْ الجَائِزِ أَنْ يَكُونَ قَدْ أُنْجِزَ فِي مِصْرَ، وَإِنْ غَلَبَ الظَّنُّ أَنَّهُ أُنْجِزَ فِي سُورِيَا كَمَا تُرَجِّحُ ذَلِكَ الزَّخَارِفُ المِيعَارِيَّةُ العَدِيدَةُ بِهِ.

وَتَكْشِفُ مُعْظَمُ مُنَمَّاتِهِ عَن مَزِيحٍ مِنَ الأسَالِبِ العَرَبِيَّةِ وَالفَارِسِيَّةِ وَالتُّرْكِيَّةِ، كَمَا يَحْمِلُ الكَثِيرُ مِنْهَا فِي الوَقْتِ نَفْسَهُ مَلاوِجَ هِنْدَ - أوروْبِيَّةَ. وَمِنْ أَبرزِ مُنَمَّاتِ هَذَا المَخْطُوطِ تَصْويرُهُ عَلَى صَفْحَتَيْنِ مُتَقَابِلَتَيْنِ، تَتَكَرَّرُ عَلَى كُلِّ مِنْهُمَا الصُّورَةُ نَفْسَهَا (لَوْحَةُ ١٢٢م) حَيْثُ يَظْهَرُ طَبَّالٌ يَتَوَسَّطُ عَازِفِينَ عَلَى التَّغْيِيرِ فِي أَعْلَى الصُّورَةِ وَمَخْلُوقَاتٍ غَرِيبَةٍ وَوُحُوشٍ خُرَافِيَّةٍ أَسْفَلَ الصُّورَةِ المَقْسَمَةِ بِوَاسِطَةِ جِدَارٍ عَرِضٍ. وَهَذِهِ الصُّورَةُ مَأْخُوذَةٌ عَن أُسْطُورَةِ الاسْتَكْنَدَرِ ذِي القَرْنَيْنِ مَعَ شَعْبٍ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي سُورَةِ الكَهْفِ. وَيَجْمَعُ تَصْويرُ الجُزْءِ الأَسْفَلِ مِنَ الصَّفْحَةِ الشَّرْئِيَّةِ بَيْنَ هَذِهِ الفِكْرَةِ المُتَعَلِّقَةِ بِالنَّظَرَةِ الدِّينِيَّةِ لِلْآخِرَةِ وَمَجْمُوعَةٍ مِنَ الكَائِنَاتِ الغَرِيبَةِ وَرِجَالاً ذَوِي سِيْقَانِ رِخْوَةٍ بِلا مَفَاصِلَ يَعتَلُونَ أَتَافَافَ قَرَائِيسِهِم مِنَ المُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَا يُجْسَدُونَ بِوُجُودِهِمْ، وَهُوَ مَا يُدْكَرُنَا بِأَخْذِ حِكَايَاتِ «الرَّحْلةِ الخَاصِيَةِ لِلسُّلْبَادِ البَحْرِيِّ»،

«كِتَابِ عَجَائِبِ المَخْلُوقَاتِ وَغَرَائِبِ المَوْجُودَاتِ» لِلْقَزْوِينِيِّ ١٣٧٠ - ١٣٨٠م. فَرِيرِ جَالِيرِي لِلْفُنُونِ بِوَاشْتَنْطِنِ

يُمْكِنُ أَنْ نَعُدَّ أَبرزَ مَخْطُوطَاتِ هَذِهِ الجُفَّةِ وَآخِرُهَا هِيَ نُسخَةُ مُصَوَّرَةٍ تَصْوِيرًا جَمِيلًا وَفِي حَجْمٍ كَبِيرٍ مِنْ كِتَابِ «عَجَائِبِ المَخْلُوقَاتِ وَغَرَائِبِ المَوْجُودَاتِ» لِلْقَزْوِينِيِّ، أُنْجِزَتْ فِي العِرَاقِ فِيمَا بَيْنَ عَامِ ١٣٧٠ وَعَامِ ١٣٨٠. فَلَقَدْ غَدَا تَصْويرُ المُنَمَّاتِ عَلَى شَكْلِ أَكْثَرِ تَعْقِيدٍ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَ، كَمَا تَجَلَّى الأسْلُوبُ المَعُولِيُّ اللَّاحِقُ فِي بَعْضِ صُورِ الحَيَوَانِ وَطُرُزِ الثِّيَابِ وَغِطَاءِ الرُّؤُوسِ فِي صُورِ الشُّخُوصِ. وَهُوَ مَا يُوحِي بِأَنَّ هَذِهِ المَخْطُوطَةَ مِنْ إِنْجَازَاتِ الجَلَّالَتَيْنِ الَّذِينَ تَشَبَّهُوا بِالْفَرَسِ فِي أَوَاخِرِ حُكْمِ المَغُولِ لِلْعِرَاقِ وَغَرْبِ فَارِسَ. وَمَا تَزَالُ هَذِهِ الصُّورُ تَحْمِلُ طَابِعَ التَّقْلِيدِ القَدِيمِ الَّذِي عَجَزَ المَصُورُ عَن طَمْسِهِ بِرُغْمِ مَا كَانَ لَهُ مِنْ جُرْأَةٍ فِي تَصْمِيمِ صُورِهِ كَصُورَةِ المَلَاكِ إِسْرَافِيلَ (لَوْحَةُ ١٢٠م) بِرُوعَةٍ جَنَاحِيَةٍ رُغْمَ ضَخَامَتِهِمَا، وَالَّذِي يَبْدُو كَذَلِكَ فِي الِاهْتِمَامِ بِالمَوْضُوعِ الرَّئِيسِ دُونَ أَكْثَرِاتِ بِالخَلْفِيَّةِ، وَفِي قُوَّةِ الحَرَكَةِ الَّتِي يَخْطُو بِهَا هَذَا المَلَاكُ إِلَى الأَمَامِ لِتَنْفِيزِ الأَمْرِ الإِلَهِيِّ بِالتَّفْخِخِ فِي الصُّورِ، حِينَ تُقَارِنُهَا بِالمَلَاكِينِ السَّاكِنِينَ فِي اللُّوحَةِ الاسْتِهْلَالِيَّةِ بِمَخْطُوطِ فَيِنَا مِنْ مَقَامَاتِ الحَرِيرِيِّ المُنَجَّرِ عَامَ ١٣٣٤ (لَوْحَةُ ١٠٩م). وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ لَوْحَةَ «المَقَامَاتِ» تَسْتَرْعِي نَظْرَنَا مِنْ خِلَالِ أَحَدِ التَّفَاصِيلِ الغَرِيبَةِ فِي لَوْحَةِ «عَجَائِبِ المَخْلُوقَاتِ»، ذَلِكَ أَنَّ الجِزَامَ ذَا الطَّرْفَيْنِ المُدَبَّبَيْنِ المُتَدَلِّيَيْنِ خَلْفَ المَلَاكِ، يَخْتَلِفُ عَنِ الصَّبِغَةِ المَمْلُوكِيَّةِ لِهَذَا التَّكْوِينِ الَّذِي لَمْ يَتَعَدَّ شَرِيطًا مِنَ القُمَاشِ يَنْعَقِدُ طَرَفَاهُ عَلَى هَيْئَةِ طُرَّةٍ، أَمَّا هُنَا فَقَدْ جَاوَزَ فِي حَجْمِهِ جَمِيعَ الحُدُودِ دُونَ ضَرُورَةٍ، بَلْ إِنَّهُ لَمْ يَعُدَّ أَكْثَرَ مِنْ عُنْصُرٍ زُخْرُفِيٍّ إِضَافِيٍّ.

وَبَعْدَ هَذَا الجُهِدِ الأَخِيرِ غَلَبَتْ عَلَى التَّصْويرِ العَرَبِيِّ أسَالِبُ غَيْرِ عَرَبِيَّةٍ، وَهَبَطَتْ بَعْضُ أَعْمَالِهِ إِلَى مُسْتَوَى غَيْرِ جَدِيرٍ بِهَا، وَظَهَرَ

ويذهب إتنجهاوزن إلى أن سَبَبَ انْجِدَارِ قَنِّ التَّصْوِيرِ الْعَرَبِيِّ دون انْجِدَارِ غَيْرِهِ مِنَ الْجِرَفِ الْعَرَبِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِزَمَنٍ طَوِيلٍ، يَرْجِعُ إِلَى عِدَّةِ أَسْبَابٍ هَامَّةٍ مِنْهَا تَأْثِيرُ الْحُكْمِ الْأَجْنَبِيِّ. فِيهِ عَصْرُ الْمَمَالِكِ كَانَتْ مِصْرَ وَسُورِيَا تَحْتَ حُكْمِ الْأَتْرَاكِ الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ إِدَارَتَهَا بِالْإِشْتِرَاكِ مَعَ أَمْرَاءِ أَجَانِبٍ كَانُوا مِنَ الْعَبِيدِ السَّابِقِينَ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُ بَعْضُهُمْ إِلَّا كَلِمَاتٍ قَلِيلَةً مِنَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَقَدْ كَانَ لِبَعْضِ مَظَاهِرِ النَّظَامِ الْإِفْطَاعِيِّ أَثَرٌ سَلْبِيٌّ، فَلَمْ تَكُنْ الْأَرْضُ الزَّرَاعِيَّةُ تُتَوَارَثُ وَكَانَ الْأَمْرَاءُ لَا يَقِيمُونَ فِي ضِيَاعِهِمْ بَلْ فِي الْقَاهِرَةِ أَوْ الْمُدُنِ الْكُبْرَى، وَقَدْ حَالَ هَذَا - كَمَا أَشَارَ بَرْنَارْدُ لُويس - دُونَ قِيَامِ أَرِسْتَقْرَاطِيَّةٍ زِرَاعِيَّةٍ تُسَاعِدُ عَلَى خَلْقِ مَدَارِسٍ إِقْلِيمِيَّةٍ، كَذَلِكَ لَمْ تَنْشَأْ قُصُورُ كُنُكٍ الَّتِي أُتَشَّاهَا الْأُمُورُ وَاسْتَضَافُوا فِيهَا الْمُصَوِّرِينَ، وَكَانَتْ الْعِرَاقُ فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ قَدْ تَحَوَّلَتْ إِلَى مُقَاطَعَةٍ فَحَسَبَ مِنْ مُقَاطَعَاتِ فَارِسَ يَحْكُمُهَا الْأَتْرَاكِ ثُمَّ الْمَغُولُ فَأَصْبَحَتْ مَعزُولَةً تَمَامًا عَنِ الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ، ثُمَّ خَضَعَتْ مِصْرَ وَسُورِيَا وَالْعِرَاقُ فِي النِّهَايَةِ لِلسِّيَادَةِ التُّرْكِيَّةِ الْعُثْمَانِيَّةِ، وَلَمْ تَعُدْ غَيْرَ مُقَاطَعَاتٍ فِي السُّلْطَانَةِ التُّرْكِيَّةِ الْكُبْرَى مِمَّا عَجَلَ بِتَدْهُورِهَا. هَكَذَا انْقَطَعَتِ الْاهْتِمَامَاتُ الثَّقَافِيَّةُ وَالْفَنِّيَّةُ الَّتِي تَكُونَتْ لِلْعَاصِمَةِ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ الْجَدِيدَةِ «الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ» بِالتَّقَالِيدِ الْقَدِيمَةِ، وَجَرَى تَقْلِيدُهَا وَمُحَاكَاتُهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ دُونَ أَنْ تُسْفَرَ عَنْ تَرْكِيبٍ فَنِّيٍّ جَدِيدٍ.

وَمِنْ بَيْنِ تِلْكَ الْأَسْبَابِ كَذَلِكَ تَدْهُورُ الْأَوْضَاعِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ خِلَالَ حُكْمِ الْمَمَالِكِ مُنْذُ الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ، وَهُوَ الْمُحْصَلَةُ الطَّبِيعِيَّةُ لِلْحُكْمِ الْاِسْتِبدَادِيِّ وَلِفْسَادِ الْجِهَازِ الْإِدَارِيِّ وَعَدَمُ كِفَايَتِهِ وَلِسِيَاسَةِ الْاِخْتِكَارِ وَقَرْضِ الضَّرَائِبِ الْبَاهِظَةِ وَاسْتِزَافِ الطَّبَقَاتِ الْفَقِيرَةِ، ثُمَّ تَحَوُّلُ تِجَارَةِ الْهِنْدِ وَالشَّرْقِ الْأَقْصَى عَنِ مِصْرَ نَحْوِ أُوْرُوبَا عَبْرَ طَرِيقِ رَأْسِ الرِّجَاءِ الصَّالِحِ الَّذِي اكْتُشِفَهُ فَاسْكَودِي جَامَا (١٤٩٧). وَمِنْ بَيْنِهَا أَيْضًا انْتِشَارُ الْمَذْهَبِ السُّنِّيِّ، وَالْعَوْدَةُ إِلَى تَحْرِيمِ جَمِيعِ أَشْكَالِ الْفَنِّ لَا قَنِّ تَصْوِيرِ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ وَحْدَهُ. وَمَعْنَى هَذَا مِنَ النَّاحِيَةِ الْوَاقِعِيَّةِ الْاعْتِمَادُ عَلَى الْأَنْمَاطِ الْمُتَعَارَفِ عَلَيْهَا وَالْمَأْمُونَةِ وَرَفُضُ كُلِّ مَا هُوَ جَدِيدٌ أَوْ مَعْبَرٌ عَنِ الشَّخْصِيَّةِ الْفَرْدِيَّةِ لِلْفَنِّانِ، وَلِهَذَا بَقِيَتْ الْمُنْجَزَاتُ الْجَرَفِيَّةُ التَّقْلِيدِيَّةُ الَّتِي تُسْتَخْدَمُ فِي الدُّورِ وَمَظَاهِرُ الْبَلَاطِ السُّلْطَانِيِّ الرَّسْمِيَّةِ وَالْأَبْنِيَّةُ الدِّيْنِيَّةُ مَحْصُورَةٌ فِي نِطَاقِ ضَيْقٍ، بَيْنَمَا قَدْ تَصَوَّرَ الْكَائِنَاتُ الْحَيَّةُ حَقَّ الْوُجُودِ بِوَصْفِهِ نِتَاجًا لِلْإِبْدَاعِ الذَّنَائِيِّ، فَانْزَوَى التَّصْوِيرُ بَيْنَ صَفَحَاتِ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ وَالتَّقْنِيَّةِ كَمَا انْكَمَشَتْ مَجَالَاتُهُ وَاهْتِمَامَاتُهُ الْفَنِّيَّةُ.

وَكَذَلِكَ مَا جَاءَ فِي كِتَابِ «عَجَائِبِ الْمَخْلُوقَاتِ» فِي نُصُوصِ أُخْرَى غَيْرِهِمَا. وَتَتَشَكَّلُ الْمَخْلُوقَاتُ أَكْثَرَ غَرَابَةِ فِي الْجُزْءِ الْأَسْفَلِ مِنَ الصَّفْحَةِ الْيُمْنَى حَيْثُ نَجِدُ رِجَالًا مُرْدَوِجِي الرُّؤُوسِ، وَرِجَالًا بِلا رَأْسٍ تَرْتَسِمُ قَسَمَاتُ وَجْهِهِ بَيْنَ كَيْفِيَّةِ، وَرِجَالًا بِأَذْنَيْنِ هَائِلَتَيْنِ وَرِجَالًا بِلا أَقْوَاهِ.

وَيَدُلُّنَا إِنْجَازُ هَذِهِ اللَّوْحَةِ الْمُرْدَوِجَةِ وَغَيْرِهَا مِنْ لُوحَاتِ الْكِتَابِ عَنِ اسْلُوبِ تِلْقَائِيٍّ يَتِمَّلُ فِي جُرْأَةِ التَّنْفِيزِ وَالتَّجَاوُزِ عَنِ الْقَاصِيلِ غَيْرِ الْهَامَةِ. وَبِمُضَاهَاةِ هَذِهِ اللَّوْحَةِ بِتَصْمِيمَاتٍ أُخْرَى أَكْثَرَ قِدَمًا تَتَبَيَّنُ لَنَا تَغْيِرَاتٌ عِدَّةٌ، فَقَدْ رُسِمَتْ الشُّخُوصُ مُسَطَّحَةً بِلا تَجَسُّمٍ بِطِلَاءٍ مُبْسُوطٍ أَحَادِيٍّ الدَّرَجَةِ حَيْثُ اللَّوْنُ مُتَمَاثِلٌ فِي جَمِيعِ أَجْزَائِهِ لَا تَتَخَلَّلُهُ ظِلَالٌ أَوْ دَرَجَاتٌ، وَمَلَأَ الْفَنَّانُ الْفَرَاقَاتِ الْخَارِجِيَّةَ بَيْنَ الْأَجْسَامِ بِالْأَلْوَانِ الْمَائِيَّةِ الْمَسْحَاءِ - الَّتِي لَا تَظْهَرُ أَيُّ بُرُوزٍ أَوْ مَنَظُورٍ - أَوْ بِرُسُومٍ نَمَطِيَّةٍ هَنْدَسِيَّةٍ، وَيَبْدُرُ أَنَّ تَتْرَاكِبَ الشُّخُوصِ، فَقَدْ انْتَشَرَتْ فِي التَّكْوِينِ الْخَالِي مِنَ الْفَرَاقَاتِ بِطَرِيقَةٍ تَذَكِّرُنَا بِزَخَارِفِ النَّسِيجِ أَوْ الرُّسُومِ الْمَنْقُوشَةِ عَلَى الصَّنَادِيقِ. وَيُؤَكِّدُ هَذَا الْمَظْهَرُ الزُّخْرُفِيَّ، اللَّوْلِيَّاتِ الَّتِي تَمَلَأُ الْمِسَاحَاتِ الْفَارِغَةَ وَالَّتِي تُضْفِي عَلَى اللَّوْحَةِ نَبْضَاتٍ حَيَوِيَّةً. لَقَدْ اخْتَفَتْ التَّكْوِينَاتُ الْمَنْطِيقِيَّةُ وَالْمَعَالِمُ التَّجَسُّدِيَّةُ الَّتِي عَهَدْنَا فِي اللَّوْحَاتِ الَّتِي كَانَتْ تَغْلِبُ عَلَيْهَا الصَّنْعَةُ فِي الْقَرْنَيْنِ الثَّلَاثِ عَشَرَ وَالرَّابِعِ عَشَرَ، عَلَى حِينٍ أَخَذَ الْاِحْسَاسُ بِالْحَاجَةِ إِلَى الزُّخْرَفَةِ وَحَشَدَ فَرَاغِ اللَّوْحَةِ يَخْلَعُ عَلَى قَنِّ التَّصْوِيرِ طَابَعًا شَعْبِيًّا وَاضِحًا.

وَتَكَادُ هَذِهِ الْقَسَمَاتُ كُلُّهَا أَوْ كَثِيرٌ مِنْهَا أَنْ تَنْطَلِقَ عَلَى مُنَمَّةٍ أُخْرَى فِي هَذَا الْكِتَابِ لَمْ تُنَشَرْ مِنْ قَبْلُ، رَأَيْتُ أَنْ أَقْدِمُهَا لِلْقَارِئِ (لَوْحَةٌ ١٣٥) نَرَى فِيهَا أَرْبَعَ شُخُوصٍ جَلَسُوا جُلُوسَةً هِيَ أَقْرَبُ إِلَى الرُّكُوعِ عَلَى أَرْبَعَةِ نَمَارِقٍ يُكُونُ كُلُّ اثْنَيْنِ مِنْهُمَا قَرِيبًا يُوَاجِهُ الْفَرِيقَ الْآخَرَ. وَنَشْهَدُ عُضُوءِي الْفَرِيقِ الْأَيْسَرِ وَقَدْ بَسَطَ كُلُّ مِنْهُمَا ذِرَاعَهُ الْيُمْنَى عَلَى فَخْذِهِ وَثَنَى بِرَفَقَةٍ الْأَيْسَرِ وَمَدَّ سَاعِدَهُ فِي أَتْجَاهِ الْفَرِيقِ الْأَوَّلِ. وَتَحْمِلُ الْوُجُوهُ السَّامِيَّةُ الْأَرْبَعَةُ نَظَرَاتٍ مُتَقَابِلَةً تَكَادُ تَكُونُ خَالِيَةً مِنَ التَّعْبِيرِ، وَإِنَّهُ لَمِنْ الْعَصِيِّ عَلَى الْمَشَاهِدِ أَنْ يَسْتَشْفِقَ مَا يَجْرِي بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، أَهْوَى لِقَاءَ بَيْنَ أَصْدِقَاءٍ أَوْ هُوَ لِقَاءُ لِلتَّفَاهُمِ وَتَبَادُلِ الْمَعَارِفِ أَمْ هُوَ لِقَاءٌ لِلتَّحَدِّيِّ! وَمِمَّا يَلْفَتُ النَّظَرَ أَنَّ ثِيَابَ الشُّخُوصِ الْأَرْبَعَةِ قَدْ خَلَّتْ مِنَ الطَّيَّاتِ، وَإِنْ لَمْ تَخُلْ مِنْ زَخَارِفِ لَوْلَبِيَّةٍ فِي مَلَابِسِ الْفَرِيقِ الْأَيْسَرِ، وَزَخَارِفِ دُودِيَّةٍ فِي مَلَابِسِ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقِ الْأَيْمَنِ، وَأَشْكَالِ هَنْدَسِيَّةٍ تَمَيَّزَتْ بِهَا مَلَابِسُ زَمِيلِهِ.

الفصل العزرون

ترقيين المصاحف من أواخر القرن التاسع إلى القرن الثامن عشر

بإمضائه مزمهوا بعمله بعكس المصور الذي كان دائم التوجس من نفمة المعارضين.

ومن البديهي أن تظهر المصاحف بأوفى نصيب من الخط المحسن، وكانت تكتب أولاً بالخط الكوفي الذي تطور على أيدي محسني الخطوط وازدهر في القرن الحادي عشر، وساعد على ذلك مرونة الحروف العربية وطبيعتها التي تليق للإنحناءات والانسياس وما تسمح به من إضافة الزخارف التورية والهندسية. ثم ظهر الخط المغربي القريب من الثلث والتسخ، وبدأ الخطاطون منذ القرن الثاني عشر يهجرون الخط الكوفي عاكفين على تجويد الخط الثلث والتسخ وغيرهما مثل التعليق والنستعليق والشكسته الفارسية.

ومن فنون الكتاب أيضاً تزيين المخطوطات بتذهيب صفحاتها، فكان الخطاط ينسخ المخطوط تاركاً فراغاً ترسم فيه الأشكال النباتية والهندسية المذهبة أو الصور ذات الصلة بالمتن أو التي لا صلة لها به على الإطلاق، ومن بعده يتلفه فتان مختص بتزيين الهوامش، ما إن ينتهي من عمله حتى يسلمه إلى المذهب ليذهب هوامشه وصفحاته الأولى والأخيرة وبداية الفصول والعناوين، خريصاً على توقيع اسمه بعد انتهائه من عمله. وتعتبر المصاحف التي كتبت بين القرنين الثالث عشر والثامن عشر أعظم المخطوطات القديمة شأنًا من الناحية الفنية.

وقد قامت الزخارف المذهبة على ما وضعته الزخارف الساسانية والبيزنطية والقبطية والكنيسة المسيحية الشرقية من أسس. ولم يقتصر هذا التزيين بالرسوم وتذهيبها على المصاحف والكتب الإسلامية فحسب، بل تعداه إلى الكتب الدينية المسيحية المكتوبة بمختلف أنواع الخط العربي البديع والمذهبة والمزينة بالزخارف الهندسية والنباتية العربية الطراز، مثال ذلك مخطوطة من الإنجيل مملوكة الطراز محفوظة بالمتحف القبطي بالقاهرة

إلى جانب تصاوير المخطوطات فرغ آخر للتصوير يجري تأريخه موازياً للفرع الأول، ذلك هو الترقيين الزخرفي [ترزين الكتب بالألوان البراقة والخطوط والرسوم] للمخطوطات وخصوصاً المصحف الشريف الذي خصه الفنانون المسلمون بعناية فائقة لم يشاركه فيها إلا عدد قليل من المخطوطات العامة.

وقد بدأت زخرفة المصحف تظهر في تلك «الأقفال» التي تأتي في نهاية كل آية وتفصلها عن التي تليها، ثم ظهرت الزخارف في بدايات السور. وأضيفت بعد ذلك العلامات المنقوشة في الهامش والتي تحدد الأجزاء وأنصافها وأرباعها وأعشارها وكذلك مواضع السجود. وأخيراً ظهرت الزخرفة الاستهلالية التي تستغرق الصفحة الأولى كاملة أو الصفحتين كاملتين، والزخرفة الختامية، على غرار الزخرفة الاستهلالية التي تمثل أزوع التشكيلات التي ازدانت بها المخطوطات العربية.

ولقد لقيت زخرفة المصاحف في البداية معارضة شديدة من بعض الفقهاء، غير أنهم ما لبثوا أن أقروا ما كانوا يعارضون وغدت هذه الزخرفة تقليداً راسخاً، ومصدراً خصباً للإبداع الفني أغرى بعض هواة الفن بانزعاج الصفحات التي تضم الزخارف الاستهلالية والاحتفاظ بها كلوحات فنية مستقلة، انتقل بعضها إلى دور الكتب العالمية والمتاحف. وكان حظ دار الكتب المصرية منها كبيراً، فقد ظفرت بمجموعة كبيرة من المصاحف المخطوطة المزودة بأزوع لوحات الزخرفة، يرجع أكثرها إلى تلك الفترة التي بدأت في منتصف القرن الثاني عشر، والتي ازدهر فيها أسلوب جديد من الزخرفة الهندسية تشابك فيها الأشكال المزودة بالثجوم، حفزت الممالك في مصر على أن يمهّدوا إلى خطاطيهم ورساميهم بإنجاز مصاحف تشهد روعتها بقُدرة جهازهم الإداري.

وكان الخطاطون أكثر الفنانين حظوة في العالم الإسلامي وذلك لأنهم يعملون في كتابة المصاحف، وكان الخطاط يوقع

رُسِمَتْ كَذَلِكَ جِلْدِيَّة دَائِرِيَّة فِي هَامِش كُلِّ صَفْحَةٍ غَاصَّةً بِالْوَحَدَاتِ النَّبَاتِيَّةِ الدَّقِيقَةِ الْمُتَعَايِفَةِ: وَهِيَ الْجِلْدِيَّةُ الَّتِي تَتَكَرَّرُ فِي الْهَامِشِ عِنْدَ أَوَائِلِ الْأَجْزَاءِ وَأَنْصَافِهَا أَيْ الْأَحْزَابِ وَأَنْصَافِ الْأَحْزَابِ وَأَرْبَاعِهَا. وَتَتَسَّقُ هَذِهِ الْجِلْدِيَّةُ الْهَامِشِيَّةُ مَعَ الرَّسْمِ الْأَصْلِيِّ لِلْوَحَةِ الزُّخْرُفِيَّةِ الْاسْتِهْلَالِيَّةِ لِمُقَابَلَتِهَا لِصُورَةِ النُّجْمَةِ الَّتِي تَتَوَسَّطُ الرَّسْمَ فِي إِطَارِهَا الدَّائِرِيِّ وَلَاخْتِوَانِهَا عَلَى الزُّهُورِ الْمُحَوَّرَةِ نَفْسِهَا الَّتِي تُشَكِّلُ الْوَحَدَاتِ الزُّخْرُفِيَّةِ فِي الْإِطَارِ الْأَزْرَقِ الْخَارِجِيِّ وَالَّتِي يَطْعَى عَلَيْهَا طَائِعُ الزُّهُورِ الصَّبِيَّةِ وَزُهُورُ عُودِ الصَّلِيبِ وَزُهُورِ اللُّوتُسِ.

وَيَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ أَنَّ هَذَا الْمُصْحَفَ قَدْ كُتِبَ عَامَ ١٢٤٩م وَهُوَ التَّارِيخُ الَّذِي أَشَارَتْ الْوَرَقَةُ الْأُولَى إِلَى أَنَّ السُّلْطَانَ أَرْغُونَ شَاه قَدْ وَفَّقَهُ خِلَالَهُ.

مُصْحَفُ السُّلْطَانِ شُعْبَانَ ١٣٦٩م. دَارُ الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ

تَخْتَلِفُ زَخَارِفُ الصَّفْحَةِ الْاسْتِهْلَالِيَّةِ فِي مُصْحَفِ السُّلْطَانِ شُعْبَانَ الْمَكْتُوبِ عَامَ ١٣٦٩ اخْتِلَافًا بَيِّنًا عَنْ غَيْرِهَا، إِذْ تَبَايَنَتْ الزُّوَايَا الَّتِي تَبْرُزُ فِي مُحِيطِ الْأَشْكَالِ الْهَنْدَسِيَّةِ، وَخَلَّتْ مَحَلَّهَا أَنْصَافُ الدَّوَائِرِ الْمُتَتَابِعَةِ، وَبَرَزَتْ الرُّسُومُ النَّبَاتِيَّةُ، وَأَنْفَسَحَ الْمُرْتَبِعُ الْمَرْكَزِيُّ، وَضَاقَ الْمُسْتَطِيلَانِ الْعُلُويُّ وَالسُّفْلِيُّ اللَّذَانِ كُتِبَتْ بِهِمَا آيَاتُ قُرْآنِيَّةٍ بِالذَّهَبِ الْخَالِصِ. وَنَرَى إِطَارًا وَاحِدًا يَجْمَعُ الْأَجْزَاءَ الثَّلَاثَةَ، ثُمَّ إِطَارًا خَارِجِيًّا غَرِيضًا يَجْمَعُ الصَّفْحَتَيْنِ الْمُتَقَابِلَتَيْنِ الْمُتَمَاثِلَتَيْنِ مَعًا، مِنْ دُونِ أَنْ تَكُونَ هُنَاكَ جِلْدِيَّةً هَامِشِيَّةً، وَنَجِدُ التَّقْسِيمَ نَفْسَهُ فِي الصَّفْحَتَيْنِ، وَإِنْ تَوَعَّتِ الزَّخَارِفُ تَوَعُّدًا رَائِعًا، وَخَلَّتْ سُورَةُ الْفَاتِحَةِ مَحَلَّ زَخَارِفِ الْمُرْبَعَيْنِ الْمَرْكَزِيَّيْنِ الْمُتَقَابِلَيْنِ. (الْوَحَّتَانِ ١٢٥: أ، ب).

مُصْحَفُ مَكْتُوبِ بِقَلَمِ مَغْرِبِيِّ عَلَى رِقِّ غَزَالٍ ١٣٩٩. دَارُ الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ.

وَمَعَ مُصْحَفِ مَكْتُوبِ بِقَلَمِ مَغْرِبِيِّ عَلَى رِقِّ غَزَالٍ عَامَ ١٣٩٩م (الْوَحَةُ ١٣٨) نَلْمَسُ عَوْدَةً إِلَى تَقَالِيدِ كِتَابَةِ الْمَصَاحِفِ الْأُولَى الَّتِي كَانَتْ مُرَبَّعَةً الْأَوْرَاقِ حَتَّى تَتَمَيَّزَ عَمَّا عَدَاهَا مِنَ الْمَخْطُوطَاتِ الَّتِي لَا تَخْطَى بِمَا تَتَفَرَّدُ بِهِ الْمَصَاحِفُ مِنْ تَقْدِيسٍ وَاجْلَالٍ. وَإِذَا كَانَتْ الصَّفْحَةُ الْاسْتِهْلَالِيَّةُ قَدْ اخْتَفَتْ فِي هَذَا الْمُصْحَفِ فَإِنَّا نَجِدُ صَفْحَتَهُ الْخَتَامِيَّةَ تَحْوِي الزُّخْرُفَةَ نَفْسَهَا الَّتِي كَانَ الْمُعْتَادُ أَنْ تُصَوَّرَ عَلَى غِرَارِهَا، وَنَلْحِظُ التَّشَابُكَ بَيْنَ الدَّوَائِرِ الْمُتَجَاوِرَةِ فِي وَسْطِ الْمُرْتَبِعِ الْمَرْكَزِيِّ الْمُتَقَطَّعِ بَعْضُ أَجْزَائِهَا لِإِفْسَاحِ الْمَجَالِ لِعِبَارَةِ مَكْتُوبَةٍ بِالذَّهَبِ «كَمَلِ الْمُصْحَفِ بِحَمْدِ اللَّهِ وَغُفْرَانِهِ». وَتَبْدُو هَذِهِ الدَّوَائِرُ الْمُتَشَابِكَةُ فِي النِّهَايَةِ كَأَنَّهَا وَرْدَةٌ بَيَاضٌ مُعْتَمَةٌ

تُسَيِّحَتْ بِدَمَشْقٍ سَنَةَ ١٣٣٤م تَسْتَهْلَهُ صَفْحَتَانِ مَحْشُودَتَانِ بِالزَّخَارِفِ الْهَنْدَسِيَّةِ وَالنَّبَاتِيَّةِ الْمَذْهَبَةِ وَرَدَّ فِيهَا بِالْخَطِّ الْكُوفِيِّ: الْإِنْجِيلُ الطَّاهِرُ وَالْمُصْبَاحُ الزَّاهِرُ يَتَبَوَّعُ الْحَيَاةَ وَسَفِينَةَ النَّجَاةِ.

رَبْعَاتُ أُولَجَايَتُو ١٣١٣م. دَارُ الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ

تَتَمَيَّزُ بَيِّنَ مَجْمُوعَةِ دَارِ الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ ثِمَانِيَّةُ مَصَاحِفِ: أُولَئِهَا الْمَعْرُوفُ بِاسْمِ «رَبْعَاتِ» أُولَجَايَتُو، وَهُوَ مُحَمَّدٌ غِيَاثُ الدِّينِ بْنُ أَرْغُونَ خَانَ بْنِ أَبَا خَانَ بْنِ هَوْلَاكُو، وَقَدْ أَسْلَمَ هُوَ وَأَخُوهُ مُحَمَّدُ غَازَانَ خَانَ وَجَلَسَ عَلَى الْعَرْشِ بَعْدَ وَفَاةِ أَخِيهِ عَامَ ١٢٧٤م. يَوْصَفُهُ ثَامِنُ سُلَاطِينِ الدَّوْلَةِ الْإِلْخَانِيَّةِ بِإِيرَانَ. وَقَدْ سُمِّيَ هَذَا الْمُصْحَفُ كَذَلِكَ لِأَنَّهُ مُقَسَّمٌ إِلَى ثَلَاثِينَ جُزْءًا مُسْتَقِلًّا، كُلُّ مِنْهَا مُنْفَصِلٌ عَنِ الْآخَرِ، كَانِ الْقُرْآنُ يَتَقَاسَمُونَهَا فِيمَا يَنْتَهَمُ لِيَقْرَأُوا الْقُرْآنَ كُلَّهُ مَعًا. ثُمَّ يَجْمَعُهَا بَعْدَ ذَلِكَ صُنْدُوقٌ وَاحِدٌ، وَكَانَ أُولَجَايَتُو هُوَ الَّذِي كُلَّفَ عَبْدَ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ مُحَمَّدٍ الْهَمْدَانِيَّ بِنَسْخِهِ فَأَتَمَّهُ عَامَ ١٢٨٤م.

وَكُتِبَتْ هَذِهِ الْأَجْزَاءُ الثَّلَاثُونَ بِالْجِدَادِ الذَّهَبِيِّ الْمُشَعَّرِ بِالْجِدَادِ الْأَزْرَقِ، وَأُحِيطَتْ سَطُورُهَا بِالْجِدَادِ وَالزَّخَارِفِ الذَّهَبِيَّةِ، وَيَتَصَدَّرُ كُلُّ جُزْءٍ لَوْحَتَانِ مَقْشُورَتَانِ بِالذَّهَبِ لِهَمَّا زَخَارِفُ اسْتِهْلَالِيَّةٌ هَنْدَسِيَّةٌ تَتَدَاخَلُ فِيهَا الدَّوَائِرُ وَالْأَشْكَالُ الْخُمَاسِيَّةُ وَالنُّجُومُ (الْوَحَاتِ ١٢٣م وَ١٣٦ وَ١٣٧). وَكَانَ سَيْفُ الدِّينِ بَكْتَمُرُ سَاقِي الْمَلِكِ النَّاصِرِ مُحَمَّدِ بْنِ قَلَاوُونَ قَدْ أَوْقَفَ هَذِهِ الرِّبْعَةَ عَلَى الْقَرَاةِ الصُّغْرَى الْمُجَاوِرَةِ لِمَقْبَرَةِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ.

مُصْحَفُ أَرْغُونَ شَاه ١٢٤٩. دَارُ الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ

عَلَى حِينِ أَنَّ «رَبْعَاتِ أُولَجَايَتُو» لَا تُمَثِّلُ الْأُسْلُوبَ الْمِصْرِيَّ الْجَدِيدَ فِي زَخْرَفَةِ الْمَصَاحِفِ نَظَرًا لِأَنَّهَا قَدْ أُنْجِزَتْ فِي إِيرَانَ، فَإِنَّ مُصْحَفَ أَرْغُونَ شَاه يُمَثِّلُ هَذَا الْأُسْلُوبَ أَصْدَقَ تَمَثِيلٍ وَأَزْوَعَهُ (الْوَحَةُ ١٢٤م). وَتَتَوَسَّطُ زَخْرَفَةُ الصَّفْحَةِ الْاسْتِهْلَالِيَّةِ لِهَذَا الْمُصْحَفِ نَجْمَةٌ ذَاتُ سِتِّ عَشْرَةَ زَاوِيَةً كَأَنَّهَا الشَّمْسُ تَتَأَلَّقُ أَشِعَّتُهَا الذَّهَبِيَّةُ وَتَتَوَالَدُ مِنْ امْتِدَادَاتِهَا أَشْكَالٌ هَنْدَسِيَّةٌ مُتَنَوِّعَةٌ تَمَلَأُ الْمُرْتَبِعَ الْمَرْكَزِيَّ الَّذِي يُحِيطُ بِهِ إِطَارٌ ضَيِّقٌ تَتَابَعُ فِيهِ أَشْكَالٌ نَبَاتِيَّةٌ، ثُمَّ يُبَسِّطُ أَعْلَى وَأَسْفَلَ الْمُرْتَبِعَ الْمَرْكَزِيَّ مُسْتَطِيلَانِ يَحْوِيَانِ آيَاتِ قُرْآنِيَّةٍ مَكْتُوبَةٍ بِجِدَادٍ أَبْيَضٍ بِالْخَطِّ الْكُوفِيِّ تُشَكِّلُ جُزْءًا لَا يَتَجَزَأُ مِنَ زَخْرَفَةِ الْمُسْتَطِيلَيْنِ اللَّذَيْنِ يُحِيطُ بِهِمَا نَفْسُ الْإِطَارِ الَّذِي يَجْمَعُهُمَا وَيَفْصِلُهُمَا عَنِ الْمُرْتَبِعِ الْمَرْكَزِيِّ، ثُمَّ يَحْتَضِنُ إِطَارُ مُزَخْرَفٍ هَذِهِ الْأَجْزَاءَ الثَّلَاثَةَ. وَأَخِيرًا يَأْتِي الْإِطَارُ الْخَارِجِيُّ الَّذِي يَجْمَعُ الصَّفْحَتَيْنِ الْمُتَقَابِلَتَيْنِ الْمُتَمَاثِلَتَيْنِ كُلَّ التَّمَاثُلِ فِي زَخْرَفَتِهِمَا فِيمَا عَدَا اخْتِلَافَ الْآيَاتِ فِي الْمُسْتَطِيلَاتِ الْعُلُويَّةِ وَالسُّفْلِيَّةِ، وَقَدْ

من جانبي الجامعة الكبيرة البيضية ورقتان كبيرتان مُستَتان في أعلاههما، ويُقابلهما اثنتان مُشابهتان في أسفلهما. وتَمَلَأ أركان المُستَطيل حَوْل الجامعة الكبيرة مِنطَقَة مُحَدَّدة تُزَخِّرُهَا رُسُوم أَزْهَار مُحَدَّدة بِالْأَسْوَدَ وَمِلْوَنَة بِالْأَبْيَضَ وَاللَّازُورْدِيَّ عَلَى أَرْضِيَّة مُذْهَبَة. أَمَّا الْكِتَابَة فِدَاخِل المُسْتَطِيل: نَصَّ سُورَة الْفَاتِحَة مَكْتُوب بِاللُّونِ الْأَسْوَدَ فِي أَسْطَر تَفْصِل بَيْنَهَا أَشْرَطَة رَفِيعَة مُتَمَوِّجَة بِالتَّذْهِيب. وَتَتَأَلَّفُ فَوَاصِل الْآيَاتِ مِنْ دَوَائِرِ بِكَلٍّ مِنْهَا زَهْرَة صَغِيرَة مُحَدَّدة بِالْأَسْوَدَ وَمِلْوَنَة بِاللُّونِ الْأَخْمَرِ وَالْأَزْرَقَ وَالدَّهَبِيَّ عَلَى أَرْضِيَّة مُذْهَبَة هِيَ الْآخَرَى. أَمَّا الْكِتَابَة فِي الْجَامِعَتَيْنِ الصَّغِيرَتَيْنِ فَمُحَجَّرَة بِالْأَبْيَضَ عَلَى أَرْضِيَّة مُذْهَبَة.

وَخَارِج المُسْتَطِيل فِي ثَلَاثَة جَوَانِبٍ مِنْهُ فَقَط زَخْرَفَة مِنْ أَوْرَاق طَوِيلَة مُسَنَّة تَلْتَقِي حَوْل الرُّكْنَيْنِ الْأَعْلَى وَالْأَدْنَى لِتُؤَلَّفَ شَكْل جَامَة أَعْلَاهَا مُحَدَّد بِأَقْوَاس مُقَعَّرَة، وَتَمْتَدُّ هَذِهِ الْأَقْوَاس لِتَكُونُ إِطَارًا مُسْتَطِيلًا يَحْدُ الْمُسْتَطِيل الْأَوْسَطَ مِنْ ثَلَاثَة جَوَانِبٍ. وَتَحْصُر هَذِهِ الْأَوْرَاقُ بَيْنَهُمَا بِالْأَرْضِيَّة فِي مَنَاطِقٍ شَبِهَ مُثَلَّثَة رُسُوم أَزْهَار مِلْوَنَة.

وَتَخْرُجُ مِنْ أَطْرَافِ الْأَقْوَاسِ الْمُقَعَّرَة فِي الْإِطَارِ الْمُسْتَطِيلِ زَخْرَفَة عَلَى هَيْئَةِ سَنَابِلِ مَرْسُومَة بِاللَّازُورْدَ عَلَى أَرْضِيَّةٍ بِالتَّذْهِيبِ، وَحَوْلَ هَذِهِ السَّنَابِلِ أَفْرُعُ نَبَاتِيَّةٍ دَقِيقَة مَرْسُومَة بِاللُّونِ الْأَخْمَرِ. وَتُحِيطُ هَذِهِ الزَّخْرَفَة بِالصَّفْحَتَيْنِ وَكَأَنَّهَا إِشْعَاعَاتُ مِنْ نُورٍ تَغْيِيرًا عَنِ جَلَالِ الْمُصَحَّفِ الشَّرِيفِ.

وَيَتَبَيَّنُ لَنَا فِي زَخَارِفِ هَاتَيْنِ الصَّفْحَتَيْنِ خَصَائِصُ الزَّخْرَفَةِ النَّبَاتِيَّةِ لِلْعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّ بِمَا نَعْرِفُهُ عَنْهَا مِنَ الْأَوْرَاقِ الطَّوِيلَةِ الْمُسَنَّةِ وَالْأَزْهَارِ الْمُخْتَلِفَةِ الْمَرْسُومَةِ بِأَسْلُوبٍ قَرِيبٍ مِنَ الطَّبِيعَةِ يَعْكُسُ وَلَعَّ الْأَثْرَاقَ بِالزُّهُورِ وَالْحَدَائِقِ بِأَلْوَانِهَا الْجَمِيلَةِ الْمُتَعَدِّدَةِ.

وَأَخِيرًا فَإِنَّ الاسْتِعْرَاضَ السَّرِيعَ لِهَذِهِ اللُّوْحَاتِ الزَّخْرُفِيَّةِ الَّتِي تَنْصَدِرُ الْمَصَاحِفَ الْبَاقِيَّةَ لَنَا لِتَكْشِفَ عَنْ أَرْفَعِ مُسْتَوَيَاتِ التَّصْوِيرِ الْإِسْلَامِيِّ الَّذِي يَقُومُ فِي الْأَسَاسِ عَلَى الدَّوَائِرِ وَالْأَشْكَالِ الْهَنْدَسِيَّةِ الْمُتَعَدِّدَةِ الْأَضْلَاحِ وَالنُّجُومِ الْمُتَنَوِّعَةِ الزَّوَايَا. غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ الْأَشْكَالَ الَّتِي تَرْجِعُ إِلَى فِكْرَةٍ هَنْدَسِيَّةٍ مُجَرَّدَةٍ تُجَاوِزُ حِسَابَ الْعَالَمِ الْمَادِّيِّ، وَتَبْلُغُ بِخُطُوطِهَا الْمُسْتَقِيمَةِ وَأَنْصَافِ دَوَائِرِهَا كَمَالًا فَنِيًّا يَصُورُ الْجَمَالَ الْمُطْلَقَ وَيَكْتَسِي بِنَبْضِ رُوحِيٍّ جَدَّابٍ، دُونَ أَنْ تُصْبِحَ لَهَا مَعَ ذَلِكَ قِيَمَةُ الرُّمُزِ الدِّينِيِّ.

لَقَدْ لَبِثَتْ هَذِهِ الصَّفَحَاتُ الْاسْتِهْلَالِيَّةُ الْمُزَخْرَفَةُ دَوْرًا هَامًّا فِي تَارِيخِ حَرَكَةِ التَّصْوِيرِ الْإِسْلَامِيِّ، إِذْ أَصْبَحَتْ تَقْلِيدًا مُتَّبَعًا لَمْ يَتَوَقَّفَ عَنِ الْعُصُورِ، كَمَا أَنَّهَا أَكْثَرُ عَنَاصِرِ التَّصْوِيرِ الْعَرَبِيِّ تَأْثِيرًا

الشَّكْلُ تُحِيطُ بِهَا رُسُومُ نَبَاتِيَّةٍ تَمَلَأُ أَرْكَانَ الْمُرْبَعِ الَّذِي يُحِيطُ بِهِ مِنَ الْيَمِينِ وَالْيَسَارِ عَمُودَانِ مُسْتَدِيرَانِ بِاللُّونِ اللَّازُورْدِيِّ يُحِيطُ بِهِمَا وَبِالْمُرْبَعِ إِطَارٌ مِنْ شَرِيطَتَيْنِ مُتَجَاوِرَتَيْنِ يَلْتَجِمَانِ عِنْدَ الْأَرْكَانِ وَالْوَسْطِ عَلَى هَيْئَةِ الصَّفَائِرِ، وَيَأْتِي فِي النَّهَايَةِ إِطَارٌ خَارِجِيٌّ لَازُورْدِيٌّ خَفِيفٌ تَخْرُجُ مِنْهُ إِلَى الْهَامِشِ الْجَلِيلَةِ الدَّائِرِيَّةُ الَّتِي تَحْوِي رُسُومًا نَبَاتِيَّةً بِالدَّهَبِ يَتِمُّ بِهَا شَرِيطٌ مِنَ اللَّازُورْدِ الْخَفِيفِ.

مُصَحَّفُ السُّلْطَانِ الْمُؤَيَّدِ ١٤١٧م. دَارُ الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ

وَقَدْ وَقَفَ السُّلْطَانُ الْمُؤَيَّدُ مُصَحَّفًا كَتَبَهُ مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْحَجِينِي عَامَ ١٤١٧، تَكَثَّرَ فِي زَخْرَفَةِ الصَّفْحَةِ الْاسْتِهْلَالِيَّةِ بِهِ جَلِيَّاتٌ عَلَى شَكْلِ مِشْكَاءَ رُسِمَتْ دَاخِلَهَا زُهُورُ نَبَاتِيَّةٍ وَأَهْلَةٌ مُتَنَاسِقَةٌ الْأَلْوَانِ فِي الْمُرْبَعِ الْمَرْكَزِيِّ الَّذِي يُحِيطُ بِهِ إِطَارَانِ مُتَدَاخِلَانِ، وَالَّذِي نَجِدُ قَوْفَهُ وَتَحْتَهُ الْمُسْتَطِيلَيْنِ اللَّذَيْنِ يَصْمَانِ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةَ الْمَكْتُوبَةَ بِالْخَطِّ الْكُوفِيِّ، ثُمَّ يَحْتَضِنُ الْجَمِيعَ إِطَارٌ صَيِّقٌ يَأْتِي بَعْدَهُ الْإِطَارُ الْخَارِجِيُّ الَّذِي يُحِيطُ بِالصَّفْحَتَيْنِ الْمُتَقَابِلَتَيْنِ (لَوْحَة ١٢٦م).

مُصَحَّفُ بِقَلَمٍ مَغْرِبِيٍّ ١٧٢٩م. دَارُ الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ

وَتَمَّةً مُصَحَّفٌ مَكْتُوبٌ بِقَلَمٍ مَغْرِبِيٍّ عَامَ ١٧٢٩ بِرَسْمِ الْمَوْلَى الشَّرِيفِ عَلِيِّ، نَجَلُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَخَلِيفَةِ السُّلْطَانِ مُحَمَّدِ ابْنِ إِسْمَاعِيلَ، وَقَدْ أَزْدَانِ أَوَّلُهُ وَرُبْعُهُ وَنِصْفُهُ وَرُبْعُهُ الْآخِرُ بِجَلِيَّاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ هَنْدَسِيَّةٍ مَقْشُوشَةٍ نَقْشًا مَغْرِبِيًّا بِالدَّهَبِ عَلَى أَرْضِيَّاتٍ مُخْتَلِفَةِ الْأَلْوَانِ فِي كُلِّ صَفْحَةٍ (لَوْحَة ١٢٧م). وَتُمَثِّلُ صَفْحَتَهُ الْاسْتِهْلَالِيَّةُ زَخْرَفَةً فَرِيدَةً بِشَكْلِهَا وَأَلْوَانِهَا، تَتَوَسَّطُ مُرْبَعَهُ الْمَرْكَزِيَّ دَائِرَةٌ كُبْرَى تَقْطَعُهَا شَرَايِطُ مُزْدَوِجَةٍ مُتَشَابِكَةٍ تَتَوَلَّدُ مِنْهَا أَشْكَالٌ هَنْدَسِيَّةٌ رَائِعَةٌ. وَإِلَى جَانِبِ الْمُسْتَطِيلَيْنِ الْمَكْتُوبَيْنِ وَالْإِطَارَاتِ الْمُتَدَاخِلَةِ، نَجِدُ نِصْفَ دَائِرَةٍ تَلْتَصِقُ بِجَانِبِ اللَّوْحَةِ وَنِصْفَ دَائِرَةٍ أُخْرَى تَغْلُوهَا، وَيُحِيطُ بِنِصْفِ الدَّائِرَةِ الْعُلْيَا عَمُودَانِ عَلَى جَانِبَيْهَا وَتَكَثَّرُ فِي نِصْفِي الدَّائِرَةِ زَخَارِفُ نَبَاتِيَّةٍ جَذَابَةِ الشَّكْلِ وَالْأَلْوَانِ.

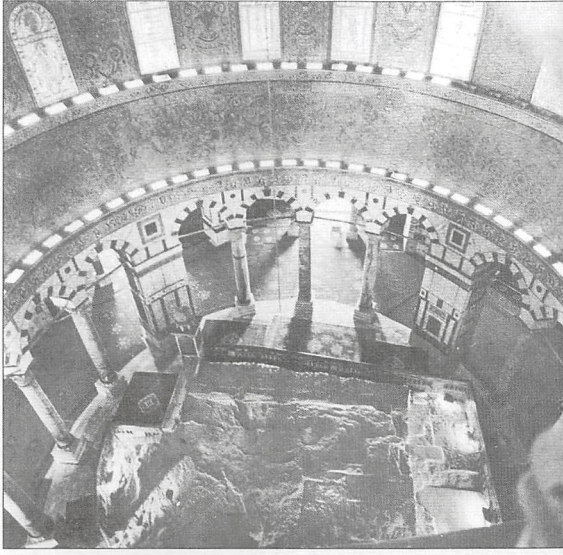
مُصَحَّفُ عُثْمَانِيٍّ ١٨٦٩م. دَارُ الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ

وَتَحْفَظُ دَارُ الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ بِمُصَحَّفٍ مِنَ الْعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّ مُؤَرَّخَ سَنَةِ ١٨٦٩م. بِخَطِّ الْكَاتِبِ حَسَنِ الْعَاشِقِيِّ مِنْ تِلَاوِيْدَةِ عُثْمَانَ الشُّوْقِيِّ الْمَعْرُوفِ بِحَافِظِ الْقُرْآنِ (لَوْحَة ١٢٨م). وَتُجَمِّلُ كُلًّا مِنَ الصَّفْحَتَيْنِ الْأَوَّلَتَيْنِ مِنطَقَةً مُسْتَطِيلَةً تَمْلُؤُهَا جَامَةٌ بِيضِيَّةُ الشَّكْلِ مُفَصَّصَةٌ تَحْدُهَا أَوْرَاقُ نَبَاتِيَّةٍ مُسْتَطِيلَةٍ مُسَنَّةٍ. وَبِالصَّفْحَةِ الْيُمْنَى مِنْهَا فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَبِالْيُسْرَى بِدَايَةِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ. وَتَخْرُجُ

فَخَامَتِهِ وَأَفْكَارِهِ الزُّخْرُفِيَّةَ رَغْمَ أَنَّ تَلْوِينَهَا بَدَأَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ أَكْثَرَ جَفَافًا، وَأَقَلَّ دِقَّةً فِي تَنْفِيدِهَا، وَلَمْ تَزَلْ تَظْهَرُ مِنْ وَقْتٍ لِآخَرٍ بَعْضُ الْمَظَاهِرِ الزُّخْرُفِيَّةِ الْمَمْلُوكِيَّةِ حَتَّى بَعْدَ سُقُوطِ دَوْلَةِ الْمَمَالِيكِ الثَّانِيَةِ، غَيْرَ أَنَّ التَّصْمِيمَاتِ التُّرْكِيَّةَ ذَاتِ التَّهْجِ الْفَارِسِيِّ أَخَذَتْ تَزْدَادُ انْتِشَارًا وَتَحْتَلِّ مَكَانَ الزَّخَارِفِ الْهِنْدَسِيَّةِ بِصِفَةِ خَاصَّةٍ.

فِي الْعَرَبِ، حَتَّى لَقَدْ حَظِيَّتِ الْوَحَدَاتُ الزُّخْرُفِيَّةُ فِي مُصْحَفِ أَرْغُونِ شَاهٍ بِشَعْبِيَّةٍ كَبِيرَةٍ وَانْتِشَارٍ وَاسِعٍ فِي فَنِّ الْمُدَجَّنِينَ بِإِسْبَانِيَا، كَمَا كَانَ لَهُذِهِ التَّشْكِيلَاتُ الْهِنْدَسِيَّةُ التَّجْرِيدِيَّةُ سِحْرَ خَاصٍّ لَدَى مُسْلِمِي الْعَصْرِ الَّذِينَ عَدَّوْهُ أَهَمَّ أَشْكَالِ التَّعْبِيرِ الْفَنِّيِّ الْمَشْرُوعِ، وَذَلِكَ لِاخْتِيَارِهِ لِزُخْرُفَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ. وَقَدْ ظَلَّ أُسْلُوبُ تَرْقِينِ الْمَصَاحِفِ حَتَّى اسْتِيلَاءِ الْأَتْرَاكِ عَلَى مِصْرَ عَامِ ١٥١٧ عَلَى

لَوْحَاتُ
البَابِ الثَّانِي
السُّودَاءُ وَالْبَيَضَاءُ
التَّصْوِيرُ الْعَرَبِيّ



لوحة ٧٢: قبة الصخرة من الداخل. تصوير
أليستير دنكان.

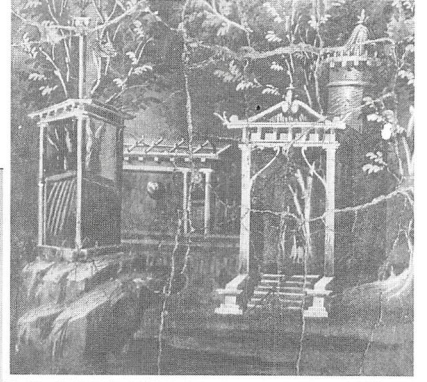


لوحة ٧١: قبة الصخرة من الخارج. تصوير أليستير دنكان.

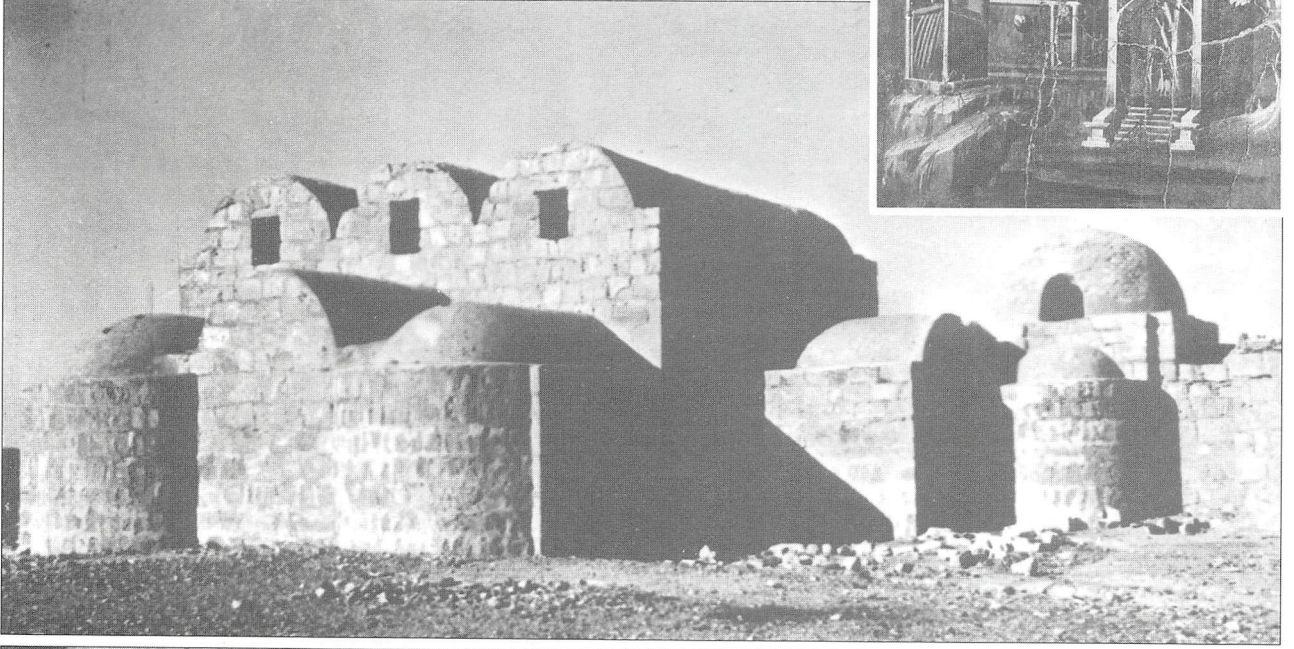


لوحة ٧٣: قبة الصخرة
من الداخل. تصوير
أليستير دنكان.

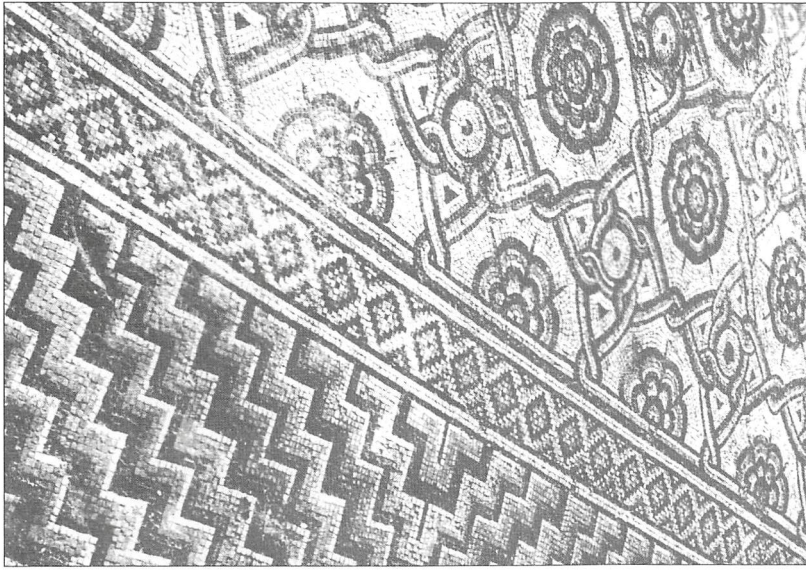
لوحة ٧٤: تصوير جداري روماني
بفيلا بوسكوربال. بومبي.



لوحة ٧٥: قُصِير عَمْرَة. منظر عام للقصر
والحمام المُلحَق به. بادية الأردن.



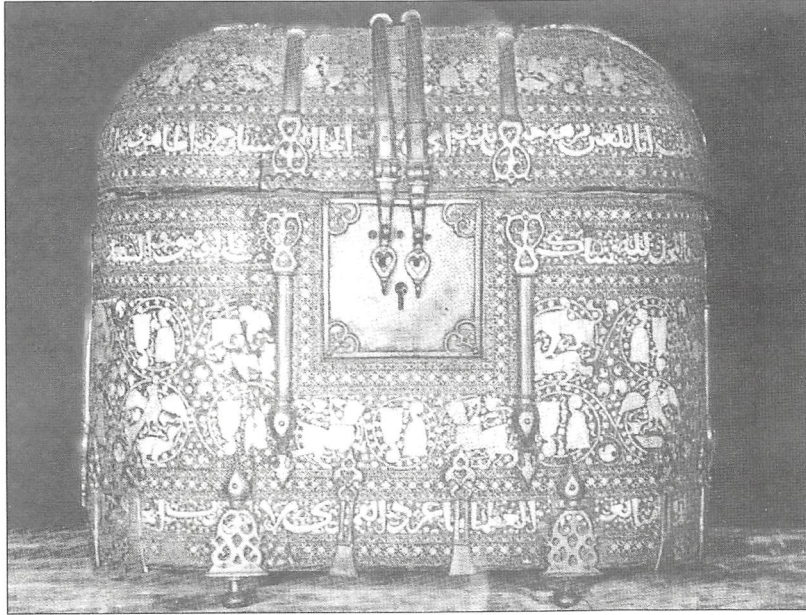
لوحة ٧٦: قُصِير عَمْرَة. تصوير جداري لمساحات مُعيّنة الشكل مُكوّنة مِن تقاطُع أُشْرطة مُزَيّنة بأوراق نباتيّة بها مناظر مُختلفة.
زَمَار وراقصة في ثياب رومانية وحمار وحشيّ.



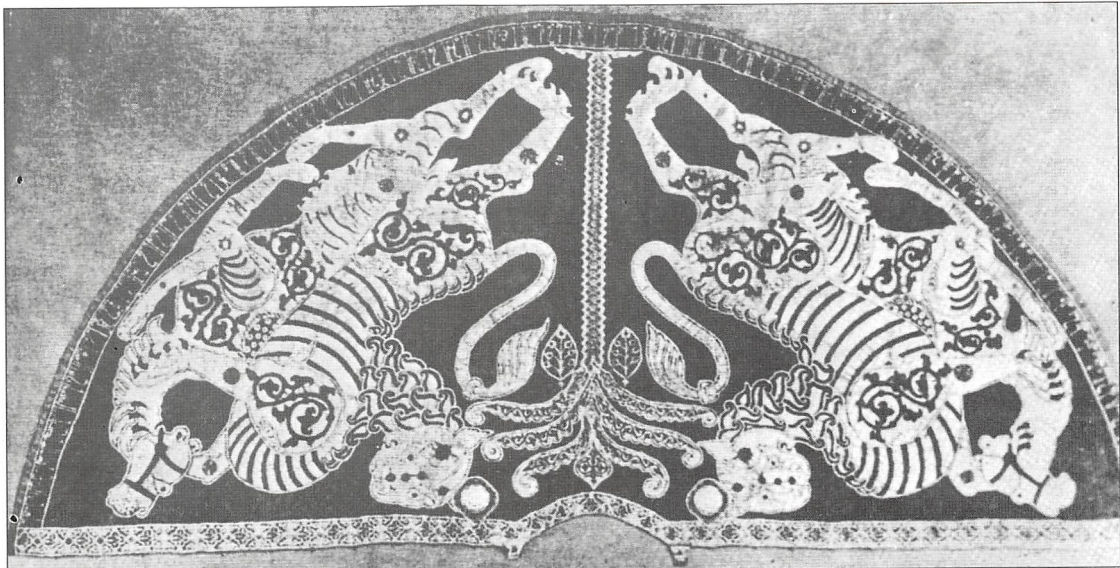
لوحة ٧٨: قصر هشام بِخربة الوُفجر . صيغ هندسيّة مِن
الفسيفساء تُغطّي أرضيّة القصر . أريحا .



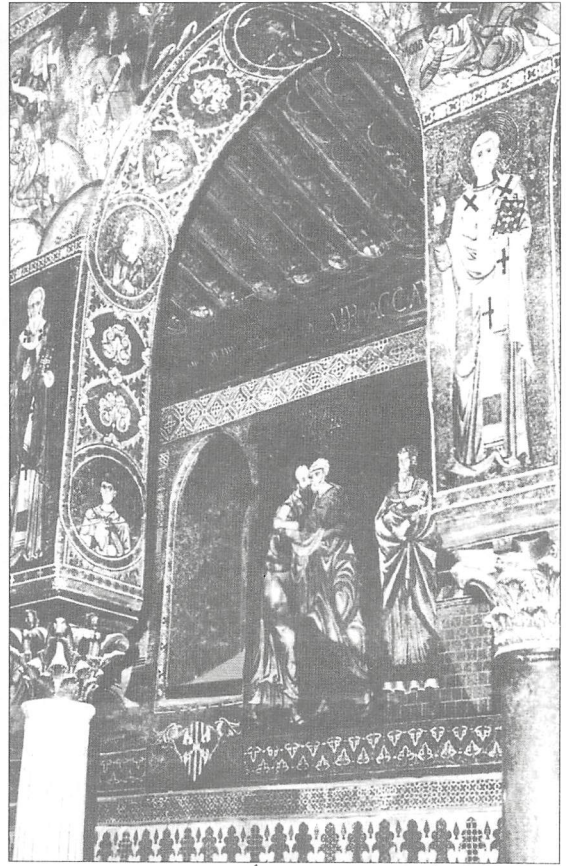
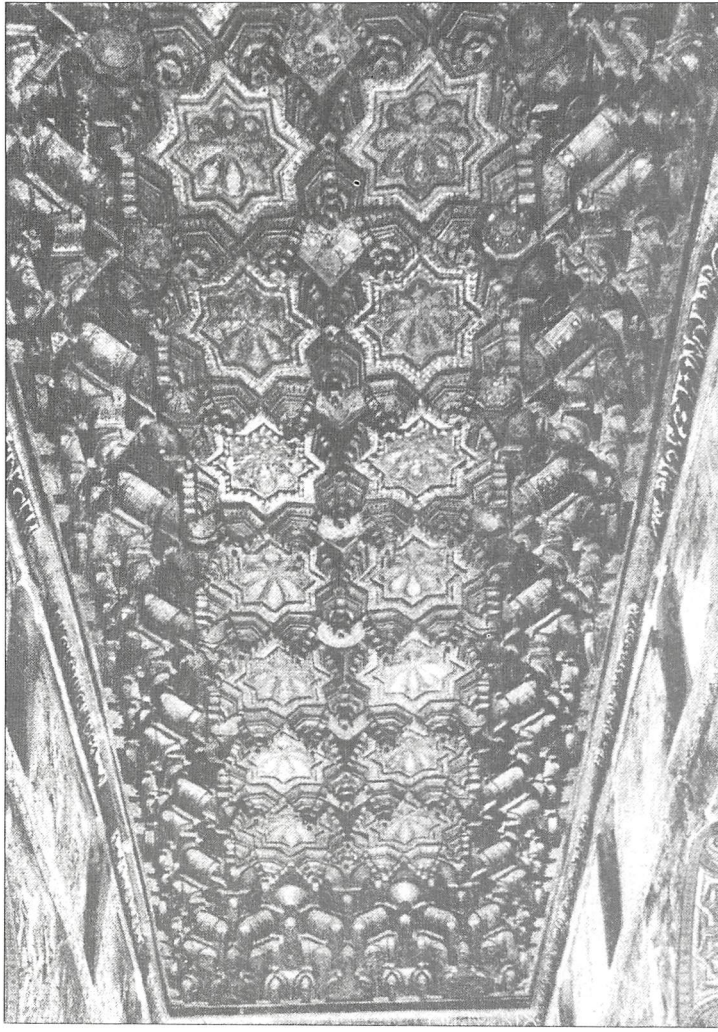
لوحة ٧٧: قُصير عَمرة . تصوير جداريّ يُمثّل
دُبّا جالسًا على مقعد وقد انشغل بالعزف على
آلة موسيقيّة وثريّة . أريحا .



لوحة ٧٩: كاپيلا
پالاتينا پاليرمو .
صندوق بِمتحف
الكنيسة مُزدان
بكتابة عربيّة .



لوحة ٨٠: رداء
تتويج روجيه
الثاني (١١٣٣-
١١٣٤) .
صقليّة . المتحف
القومي بِقينا .

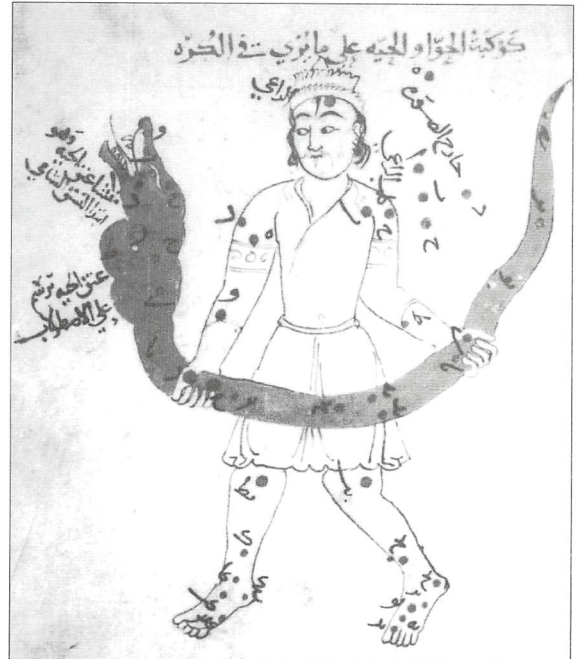


لوحة ٨١: الطراز المِهْجَن بين الطُّرُز الإسلاميَّة والمسيحيَّة بقصر باليرمو. كاپيلا پالاتينا.

لوحة ٨٢: سَفْ كاپيلا پالاتينا. باليرمو.



لوحة ٨٣: كتاب «الصُّور بِمَعْرِفَةِ الْكَوَاكِبِ وَمَوَاقِعِهَا فِي الْفَلَكَ وَذِكْرُ أَطْوَالِهَا وَعُرُوضِهَا فِي الْبُرُوجِ وَالذَّقَاتِقِ». لِأَبِي حُسَيْنِ الصُّوفِيِّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عُمَرَ الرَّازِيِّ. الْحَوَاءُ وَالْحَيَّةُ عَلَى مَا يُرَى فِي الْكُرَّةِ. مَتَحَفُ طُوبِ قَايُو بِاسْتَنْبُولِ.



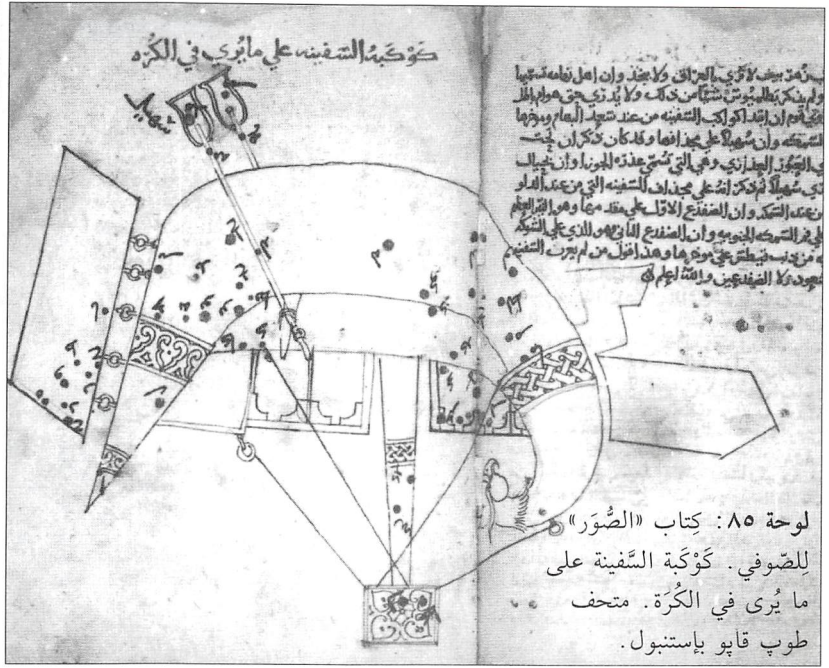
لوحة ٨٤: كتاب «الصُّور» لِلصُّوفِيِّ. كَوُكْبَةُ بَرشَاوِشِ عَلَى مَا يُرَى فِي الْكُرَّةِ. مَتَحَفُ طُوبِ قَايُو بِاسْتَنْبُولِ.

لوحة ٨٦:

طَبَقٌ مِنْ
الخَزَفِ
ذِي الْبَرِيقِ
المَعْدِنِيِّ
عليه رَسْمٌ
لِسَيِّدَةٍ
تعزف على



العود. مصر. القرن ١١. متحف الفن
الإسلامي بالقاهرة.



لوحة ٨٥: كتاب «الصُّور»
للصُّوفي. كُتُوبُ السَّفِينَةِ عَلَى
مَا يُرَى فِي الْكُرَّةِ. متحف
طوب قابو بإستنبول.



لوحة ٨٧:
طَبَقٌ مِنْ
الخَزَفِ ذِي

الْبَرِيقِ الْمَعْدِنِيِّ عَلَيْهِ رَسْمٌ فَارِسٍ أَثْنَاءَ الصِّيدِ
يَحْمِلُ بَارًّا عَلَى يَدِهِ الْيُسْرَى. مصر. القرن ١١.
متحف الفن الإسلامي بالقاهرة.



لوحة ٩٠: سقف

كابيلا بالاتينا.
باليرمو. رَجُلَانِ عَلَى
جَانِبَيْ بئرٍ تَحْتَ
سَقْفَةٍ. مُتَصَفٍّ
القرن ١٢.

لوحة ٨٨:

صحن من
الخَزَفِ ذِي
الْبَرِيقِ
المَعْدِنِيِّ
عليه رَسْمٌ
حَيَوَانٍ
خُرَافِيِّ



مُجَنِّحٌ تُحِيطُ بِهِ تَوْرِيقَاتُ نَبَاتِيَّةٍ. مصر. القرن
١١. متحف الفن الإسلامي بالقاهرة.

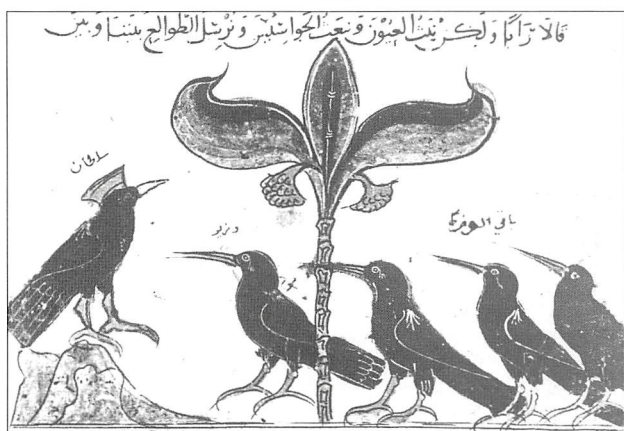
لوحة ٨٩: صحن من الخَزَفِ ذِي الْبَرِيقِ الْمَعْدِنِيِّ عَلَيْهِ
رَسْمٌ مَحْفُورٌ يُمَثِّلُ رَجُلَيْنِ يَتَبَارَزَانِ بِعَصِيٍّ التَّحْطِيبِ.
مصر. القرن ١١. متحف الفن الإسلامي بالقاهرة.



لوحة ٩١: الأنجيل الأربعة
باللغة القبطية. سالومي
تتلقى رأس يوحنا المعمدان
على صينية. دار الكتب
القومية بباريس. [صورة لم
يسبق نشرها].



لوحة ٩٢: كَلِيلَة
وِدْمَنَة. مَلِكُ الْغُرَبَانِ
يَجْتَمِعُ بِوَرَثَائِهِ. سوريَا
١٢٠٠-١٢٢٠. دار
الكتب القومية بباريس.



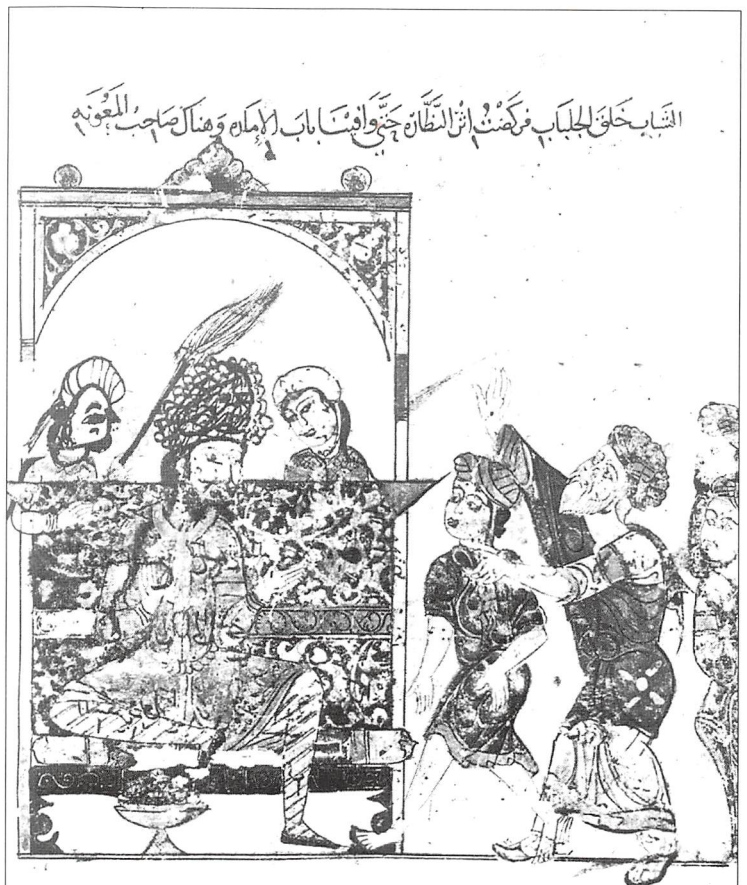
لوحة ٩٣: كَلِيلَة وِدْمَنَة. مَثَلُ الطَّيْرِ وَالْغُرَابِ وَالشُّلْحَفَاءِ
وَالْجُرْدِ. دار الكتب القومية بباريس. ١٢٠٠-١٢٢٠.

لوحة ٩٤: كَلِيلَة وِدْمَنَة. مَثَلُ
الْمَرْبَانِ وَامْرَأَتِهِ وَالْبَازِيَارِ ١٢٠٠-
١٢٢٠. دار الكتب القومية بباريس.



لوحة ٩٦: «كتاب مختار الحكم ومحاسن الكلم». صورة
الإسكندر. متحف طوب قابو بإستنبول. [صورة لم يسبق نشرها].

لوحة ٩٥: «كتاب الحشائش وخوص العقاقير»
ليديوسقوريدس. نبات السرخس. متحف طوب قابو
بإستنبول.



لوحة ٩٧: مقامات الحريري ١٢٢٢م. رحلة
الحج. دار الكتب القومية بباريس.

لوحة ٩٨: مقامات الحريري
١٢٢٢م. أبو زيد يشكو غلامه
للأمير. دار الكتب القومية
بباريس. [صورة لم يسبق نشرها].

متبعاً في حقه منتهى مسروراً به قال له الشيخ اعز الله الأولاد وحملته

وَأَتَرْتُمُ الصَّوَابَ وَالْفُلْكَ وَأَنْخَلَيْتَهُ الْحَاكُمَ عِنْدِي فَأَرْسَلُوا بِقُدِّي وَلَا تَسْتَفْتُوا أَحَدًا



نَبِيٍّ هـ اَعْمُوا الصَّنَاعَةَ الْأَنْفَاءَ أَمْ وَصَلْتُمْ إِلَى الْبَقَرِ الْكَائِنَةِ

لوحة ١٠٠: مقامات الحريري ١٢٢٢ م. الحارث وصحبه في سفينة على الفرات يُناقشون أبا زيد. دار الكتب القومية بباريس. [صورة لم يسبق نشرها].

تَبَيَّنَ لِي مَنَاجِلُهُ إِلَى أَنْ غَشِيَ سَائِدُنَا الْمَغْرِبَ وَمَعَرَّزُهَا الْمُطَوَّبُ هـ
الْمَرْسَلَةُ لَا تَصِلُ إِلَى سَائِدِ الْإِنْفِ



سَائِدَةُ الْبَقَرِ هـ وَكَذَلِكَ بَلَّمَ الرُّوحُ التَّسْلِفَ

لوحة ٩٩: مقامات الحريري ١٢٢٢ م. الحارث بن همام وصحبه يستقبلون أبا زيد. دار الكتب القومية بباريس. [صورة لم يسبق نشرها].

لَجَمَلِ الْبَاقِي وَاللَّهُ أَوْلَى
صُورَةُ الْبَقَرِ تَقْدِيرُهُ قَدْ خَلَقَهَا الْخَارِجُ



قَالَ الْخَبِيرُ بِصَدْرِهِ لِحَاكِمِهِ فَلَمَّا رَأَيْتُ أَنْ يَسِيرَ الْحَيَّةَ
وَالْحَيَّةَ وَأَتَتْهَا أَلَاءُ إِلَى الْكَيْدِ عِلْمُهَا تَنْتَبِهُ
إِلَّا خَارِجُ مَجْلِبَةٍ لِلَّهِ إِنْ قَضَيْتُ رُجُلِي وَجَمْعُ الرُّوْحِ
تَبَيَّنَ لِي وَبِئْسَ الْبَقَرُ رَزَقُ الْبَقَرِ وَنَبِيٍّ هـ

لوحة ١٠٢: مقامات الحريري ١٢٢٢ م. أبو زيد ينهب متاع أهل واسط ويحمل جرابه ويفر مع ابنه. دار الكتب القومية بباريس. [صورة لم يسبق نشرها].

إِنِّي تَبَيَّنْتُ لِي مَنَاجِلُهُ إِلَى أَنْ غَشِيَ سَائِدُنَا الْمَغْرِبَ وَمَعَرَّزُهَا الْمُطَوَّبُ هـ
الْمَرْسَلَةُ لَا تَصِلُ إِلَى سَائِدِ الْإِنْفِ



بَتَانِهِمْ كِبَارَهُمْ وَخَرَّيْنَا بَنِي النَّجْمِ الْمَغَاوِسَ إِلَى الْفُلْجِ الْمَغَاوِسَ هُوَ كَذَا يُعَذِّبُهُ الْكَلَامَاتُ
مَامُشَ الْبَقَرِ قَاتَ قَاتَ نَاغِي الْوَالِدِ وَالْمَرْوُحِي الشَّرَافِ الْفَرَسِ وَالْمَرْوُحِي الشَّرَافِ الْفَرَسِ وَالْمَرْوُحِي الشَّرَافِ الْفَرَسِ

لوحة ١٠١: مقامات الحريري ١٢٢٢ م. الحارث وأبو زيد في مدينة ملطية. دار الكتب القومية بباريس.

فَجَزَّ الصَّخْرَ وَالْخَرَّ عَلَيْنَا لَنْ حَجَلْتَنَا مِنْ رُؤُوسِكَ
لَمْ يَخْلُ بُولُ شَانِكَ فَقَالَتْ لَأَنْ كُمْ أَوْ لَشَجَارِي
ثُمَّ لَأَرْوِيكُمْ شَجَارِي وَأَنْزَلْتُ رُزْدِي عِشْرِينَ
وَأَنْزَلْتُ بَرَّةً بِحُجُورِ رُزْدِي عِشْرِينَ **صُورَتُهَا**



وَلَشَأْنُكَ رُؤُوسُكَ
أَشْهَدُ بِاللَّهِ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ
بِأَمْرِ

لوحة ١٠٣: مقامات الحريري ١٢٢٢م. أبو زيد يتنكر في زي امرأة ليسترق الإحسان. دار الكتب القومية بباريس. [صورة لم يسبق نشرها].

قَالَ الْحَزَنُ بَرَّهَمًا وَقُلْتُ لَهُ تَاللَّهِ بِكَ أَبُو زَيْدٍ
وَلَقَدْ قُتِلَ لِلَّهِ وَلَا عَمْرُؤُا بِرُجَيْبٍ فَهَسَّ هَسَاتِهِ الْكُرْثِيمَ
إِذَا لَمْ وَقَالَ أَسْمِعْ يَا ابْنَ لَمٍّ

عَلَيْكَ يَا صِدْقُ وَوَلَّاهُ لِحَرْقِكَ الصَّدْقُ نَارُ الْعِيدِ
وَلَيْخَ رَضِيَ اللَّهُ فَأَخْبَى الْوَرَى مَسْخَطُ الْمَوَلَى وَرَضِيَ الْعِيدِ
ثُمَّ لَأَنَّهُ وَرَجَّحَ أَخْرَانَهُ وَأَنْطَلَقَ يَسْجُبُ **صُورَتُهُ**



لوحة ١٠٤: مقامات الحريري ١٢٢٢م. أبو زيد الوالي يتطلق بعد أن يُذكر باليوم الآخر. دار الكتب القومية بباريس. [صورة لم يسبق نشرها].

بَعْضُهُ كَمَا بَخَعَ إِلَيْهِ **صُورَةُ الْفُرْسَانِ**

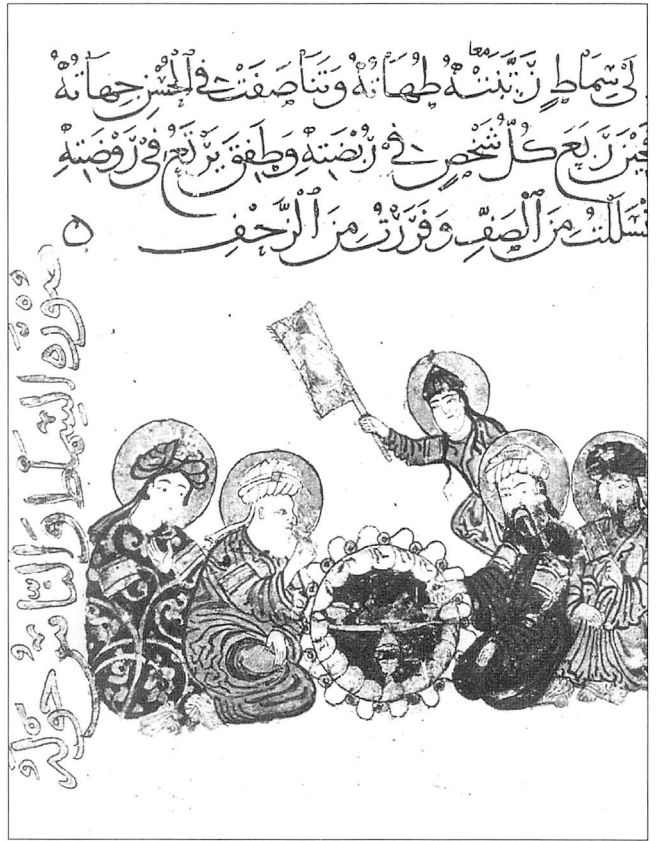


فَقَالَتْ لِمَا بَخَعَ إِلَيْهِ الْبَعْضُ وَالْأُخَرُ فَمِنْ لَمَّا
الْقَوْمُ مَسْهُورٌ وَأَمَّا الْمُنْصَرِفُ فَأَمَّا لَمْ مَسْهُورٌ خِدْنِي

لوحة ١٠٦: مقامات الحريري ١٢٢٢م. صورة الفرسان في طريقهم إلى دار أفراح الشحاذين. دار الكتب القومية بباريس. [صورة لم يسبق نشرها].



لوحة ١٠٥: مقامات الحريري ١٢٢٢م. أبو زيد ينضم لرحلة يقوم بها بعض الأدباء على شاطئ الفرات. دار الكتب القومية بباريس. [صورة لم يسبق نشرها].

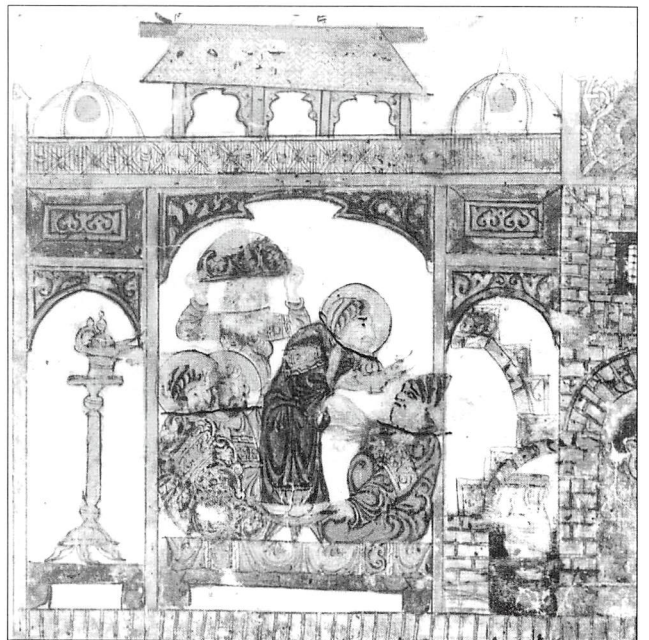


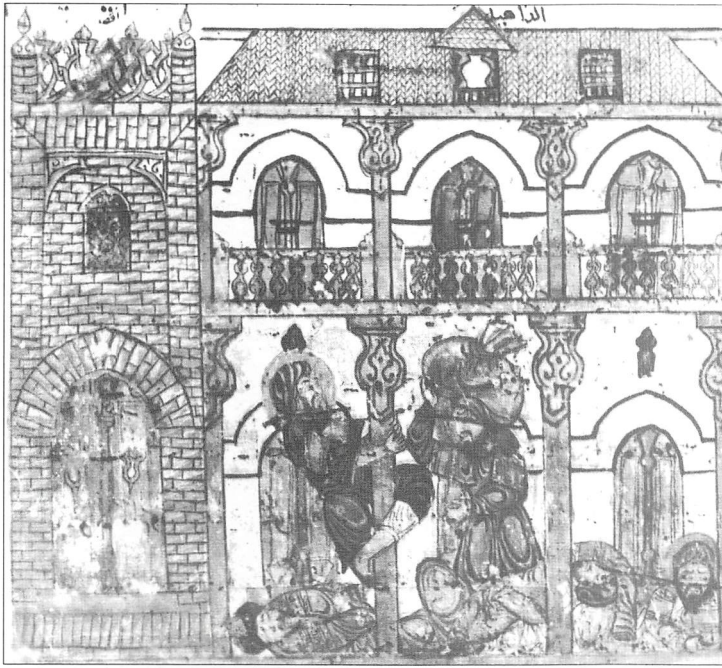
لوحة ١٠٨ : مقامات الحريري ١٢٢٢م. صورة الحارث وأبو زيد متعاقبين عند مدخل مكة. دار الكتب القومية بباريس. [صورة لم يسبق نشرها].

لوحة ١٠٧ : مقامات الحريري ١٢٢٢م. صورة السَّمَاط والنَّاسِ من حوله في دار أفراس الشَّحَازِينَ. دار الكتب القومية بباريس. [صورة لم يسبق نشرها].

لوحة ١١٠ : مقامات الحريري ١٢٢٥-١٢٣٥م. زيارة الحارث للمقابر في مدينة ساوه. معهد الدراسات الشرقية بسان بطرسبرج. [صورة لم يسبق نشرها].

لوحة ١٠٩ : مقامات الحريري ١٢٢٥-١٢٣٥م. أبو زيد يحكي للقوم حكاية عن ابنه المزعوم. معهد الدراسات الشرقية بسان بطرسبرج. [صورة لم يسبق نشرها].





لوحة ١١١: مقامات الحريري ١٢٢٥-١٢٣٥ م. ساعة
الراحة للقافلة. معهد الدراسات الشرقية بسان
بطرسبرج. [صورة لم يسبق نشرها].

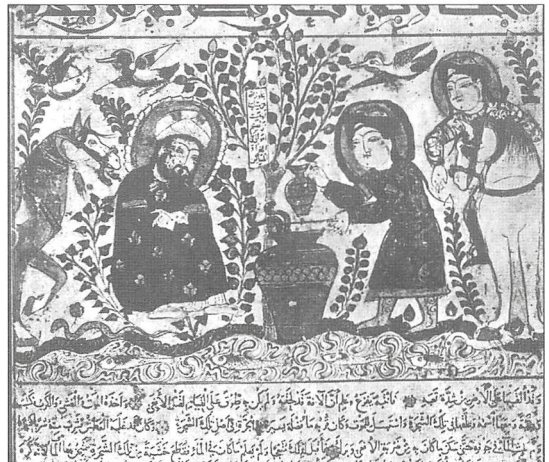
لوحة ١١٢: مقامات الحريري ١٢٢٥-١٢٣٥ م. أبو زيد ينتقم
من أهل واسط بتقديمه إليهم حلوى بمُخدر. معهد الدراسات
الشرقية بسان بطرسبرج. [صورة لم يسبق نشرها].



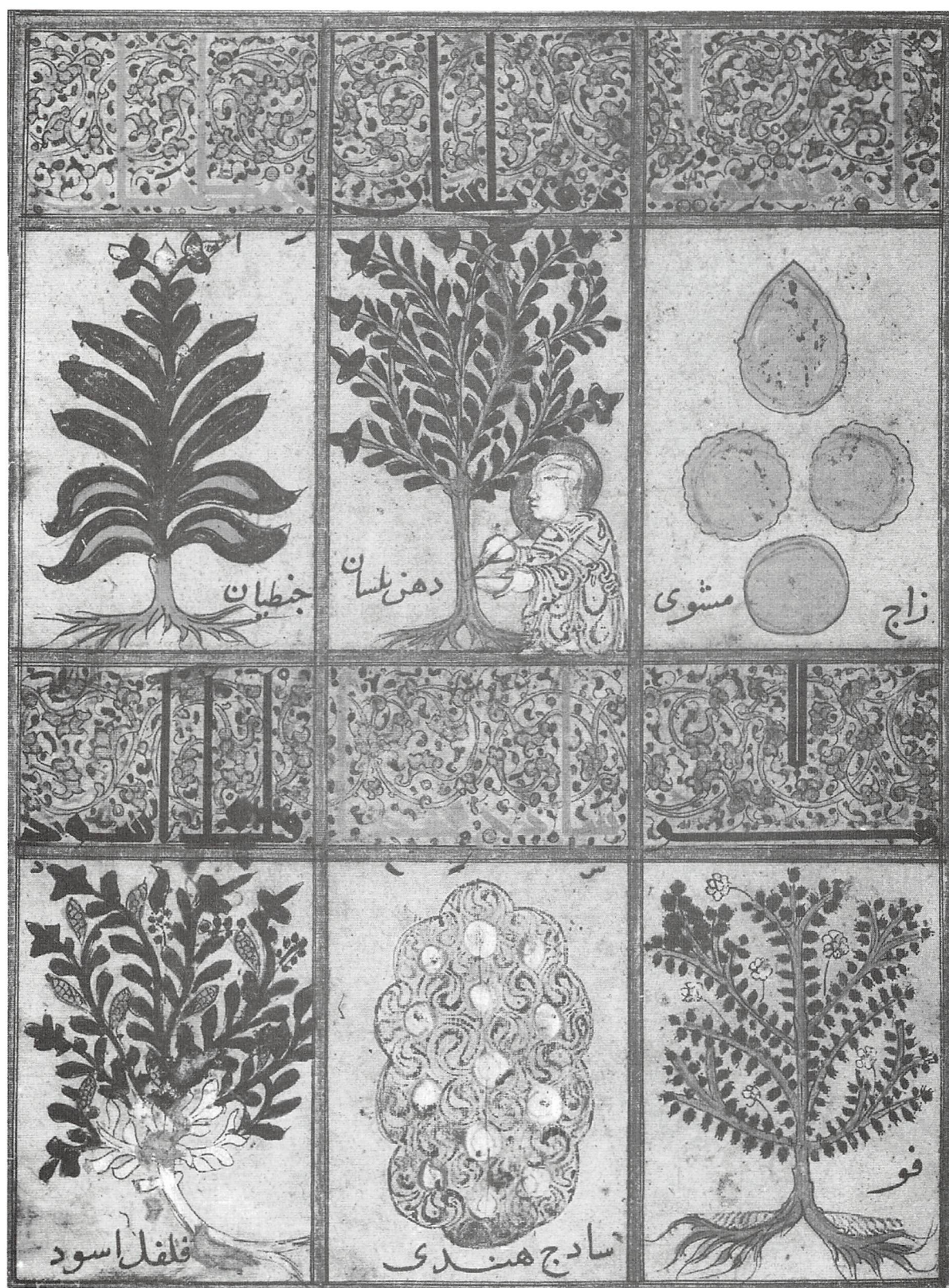
لوحة ١١٣: مقامات الحريري ١٢٢٥-١٢٣٥ م. أبو زيد
يحلّ ألباز الشعراء بمدينة نجران. معهد الدراسات
الشرقية بسان بطرسبرج. [صورة لم يسبق نشرها].



لوحة ١١٤: «كتاب الحشائش وخواص»
العقاقير ليدوسقوريدس. نبات
الأترجالوس. مكتبة أيا صوفيا بإستانبول.



لوحة ١١٥: «كتاب الترياق» لسيوي جالينوس
١١٩٩ م. مُنمنمة ياملويوس شقيق الطبيب
أندروماخوس. دار الكتب القومية بباريس.

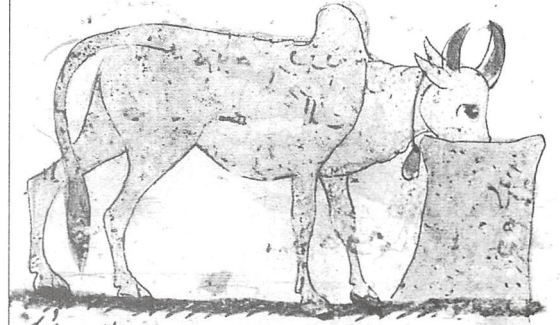


لوحة ۱۱۶: «کتاب التریاق» لِسَوِيّ جالینوس ۱۱۹۹ م. جدول النّباتات [أو الأعشاب الطّبیّة].
دار الكتب القوميّة بیاریس.

لوحة ١١٨ : رُسوم جدارية بالبرطل .
قصر الحمراء . غرناطة . جزء من
مناظر الصيد والطراد بالحائط
الشرقي . متحف الحمراء .



ان توطا صل السوس في روض وبديف وبسط على الارض
تحت مرصعة ومرغعه عليه مرارا فانه يبصره .



واذا اردت ان تسمي الثيران فخذ كرات قطعته شتم
الغنة في حل يامض ثم اياها اية خمسة ايام ثم بعد

لوحة ١١٧ : «كتاب البيطرة» ١٢٠٩م . تسمين
الثيران . دار الكتب المصرية .



لوحة ١١٩ : رُسوم جدارية بالبرطل . قصر الحمراء .
غرناطة . رُسوم الأسرى إلى يمين الصف الثاني
والماشية إلى اليسار من الصف نفسه . الحائط
الغربي . متحف الحمراء .



لوحة ١٢٠ : «كتاب عجائب المخلوقات
وغرائب الموجودات» للقرويني ،
١٢٨٠م . مئذنة الحفظة . مكتبة الدولة
بإفريقيا ، ميونخ .



لوحة ١٢١ : «كتاب عجائب المخلوقات
وغرائب الموجودات» للقرظيني، ١٢٨٠م.
عجبية إنقاذ الإصفهاني. مكتبة الدولة
بإفاريّا، ميونخ.



لوحة ١٢٢ : «كتاب دَعْوَةُ الْأَطِبَّاءِ» لابن
بُطلان ١٢٧٣م. تاجر الأُحْزَان. مكتبة
أمبروزيانا بِمِيلَانُو. [صورة لم يسبق نشرها].



لوحة ١٢٣ : «كتاب دَعْوَةُ الْأَطِبَّاءِ» لابن
بُطلان ١٢٧٣م. مجلس أنس وطَرْب. مكتبة
أمبروزيانا بِمِيلَانُو. [صورة لم يسبق نشرها].

لوحة ١٢٤: «كتاب دَعْوَة الْأَطْيَاء» لِابْن
بُطْلان ١٢٧٣ م. أَبُو أَيُّوب الْكَخَال خَلَفَ
فُضْبان طاقَة في باب مَنْزِلِهِ حَتَّى لَا يَفْجَأَهُ
تَلْمِيزُهُ. مَكْتَبَةُ امْبْرُوزِيانا بِمِيلَانُو. [صُورَةُ لَمْ
يَسْبِقْ نَشْرُهَا].



لوحة ١٢٥: مَقَامَاتُ الْحَرِيرِيِّ، ١٣٠٠ م.
الْحَارِثُ فِي رَفَقَةِ صَاحِبِهِ يَحْتَوْنَ إِلَهُمُ إِلَى
الْحَجِّ. الْمَتَحَفُ الْبَرِيطَانِيّ [صُورَةُ لَمْ يَسْبِقْ
نَشْرُهَا].



لوحة ١٢٦: مَقَامَاتُ الْحَرِيرِيِّ، ١٣٠٠ م.
أَبُو زَيْدٌ يُطَلِّ عَلَى الْحَارِثِ وَصَحْبِهِ فِي مَدْخَلِ
الْحَجِّ. الْمَتَحَفُ الْبَرِيطَانِيّ [صُورَةُ لَمْ يَسْبِقْ
نَشْرُهَا].



لوحة ١٢٧: مقامات
الحريري، ١٣٠٠ م.
السفينة. المتحف
البريطاني [صورة لم
يسبق نشرها].



لوحة ١٢٨: مقامات
الحريري، ١٣٠٠ م.
أبو زيد وزوجه يشكوان
سوء حالهما إلى قاضي
الرملة. المتحف
البريطاني [صورة لم
يسبق نشرها].



لوحة ١٢٩: «كَلِيلَة وَدُمْنَة». دار الكتب القومية
بباريس. دُمْنَة وقد دَخَلَ على الأسد وَجِوَارِهِ
أَسَدٌ آخَرُ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمَا. القرن ١٤. [صورة لم
يسبق نشرها].



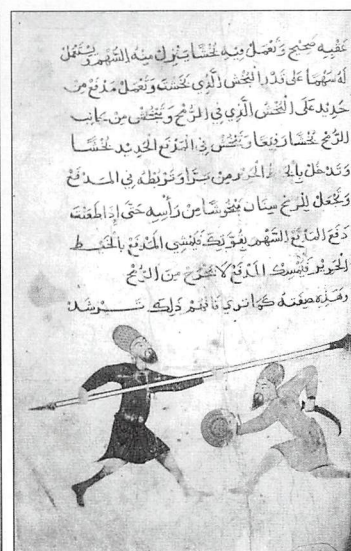
لوحة ١٣٠: «كَلِيلَة وَدُمْنَة». دار الكتب القومية
بباريس. خَلِيل امْرَأَة التَّجَّارِ نَائِمًا مَعَهَا عَلَى حِينِ
يَخْتَفِي زَوْجُهَا تَحْتَ السَّرِيرِ. القرن ١٤. [صورة
لم يسبق نشرها].



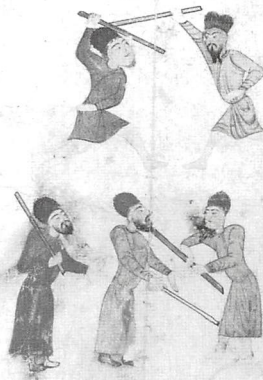
لوحة ١٣١ : « كِتَاب
تعليم فُنُون القتال
والفُروسية ». القرن
١٦. ثلاث وعشرون
مُمنمة مُقدّمة بِإِذْنٍ مِنْ
مُقتنيها دكتور إدmond
دي أونجر بلندن.



على عقبيه وفعل ذلك أبا خلايل كيتسجوخ ولوحنا د
الفرس السارمايكون وأنزلوا إلى سرمن الخيل من فوق
سجى لفقته يسوعه وشيخ لا ينفهم إلا بتدجين الماعز
للمناد ففعل هذا التارون ومن لم يعلمه لم يستخرج
الفرس إلا بتدجين وتبعه النقب الصغار في استخراج
الفرس وتخشى عليه أن يبق حود الماعز ليكويصقه
مطامها

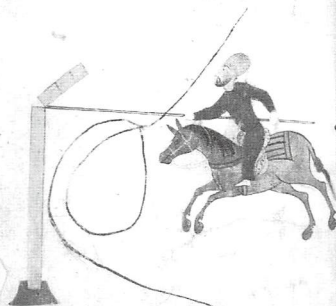


لَا تَلْعَبُ إِلَّا مَحَلًّا وَإِيَّاكَ مِنْ خُرُوجِ التُّرْسِ
، باب: لعب المحلّوف وما نصيبه ،



فَلَمَّا وَتَقَّكَ اللَّهُ أَنَّ مَدِيَّةَ الصُّورِ هِيَ قَوَاعِدُ الْمَطْرُقِ

لَمَّا نَزَلَ الْبَيْتَ قَبْلَ دُخُولِ الْعَامِ وَجَّيْ تَوَرَّ كَيْفِيَّةَ
الْعَمَلِ وَالْإِدْوَالِ وَالْجَوَارِيَةِ الْفَرْسِ عَلَى دُخُولِهِ
وَالْإِنْسَانِ عَلَيْهِ الْبَيْتِ وَهَذِهِ مِثْلَةُ الشَّيْخِ وَالْعَامِ



رَكِبُوا الْعُمُودَ يُقَالُ بَنِيَ بِنَاءً خَفِيفَةً فِي مِثْلِ أَرْضَفَ
ذِرَاعٍ وَبِقِيعَةٍ وَبِحُسْنِ خُذِهِ بِالنَّجَارَةِ حَتَّى لَا يَتَحَرَّكَ

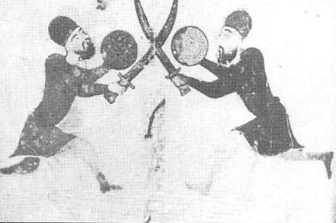
أَكْبَرُهَا، وَالْحَافِظُ لَهُمُ الْقَلْبُ إِذَا أَلَيْتَ ۖ
الْعَيْنُ بَارِي يَدَيْهِ وَأَعْيُنُ عَلَيْهِ كَأَنَّهَا الْمَصْرُورَةُ
أَنَّ تَعْيِينَ عَيْنِكَ تَعْنِيهِ ۖ وَأَعْيُنُ مَهَارِكُ الْفَرِيقَيْنِ الْخَفِيفِ
يُسَوِّعُ وَالْخَفِيفُ فِي وَسْطِهِ كَأَنَّهَا بَنَتْ إِلَى الْأَرْضِ وَكَأَنَّهَا
يَطْلُقُ الْإِنْسَانُ بِكَ وَكَأَنَّ أَوَّلَى مَرَّةٍ وَسَعَتْ فَرَقًا
تَحْلِي الْمَرْحُومَةِ وَالْمَرْحُومَةِ بِكَ الْفَهَامُ يَدَاهُ مِنْ أَمَلٍ إِلَى الْفَهَامِ
مِنْ مَوْءٍ وَكَأَنَّكَ تَحْلِي يَدَيْهِ وَكَأَنَّكَ تَحْلِي يَدَيْهِ
كَأَنَّكَ تَحْلِي يَدَيْهِ وَكَأَنَّكَ تَحْلِي يَدَيْهِ وَكَأَنَّكَ تَحْلِي يَدَيْهِ
لَسْتَعِيبُ يَدَيْهِ وَكَأَنَّكَ تَحْلِي يَدَيْهِ وَكَأَنَّكَ تَحْلِي يَدَيْهِ
لَسْتَعِيبُ يَدَيْهِ وَكَأَنَّكَ تَحْلِي يَدَيْهِ وَكَأَنَّكَ تَحْلِي يَدَيْهِ



[illegible]

إِذَا وَكَبِيتُ إِلَى الْحَصَى فَاسْتَنْصِرْ أَزْوَاجَ نَفْعٍ
يَكُنَّ مِثْرًا فَإِنَّ أَرْبَاعَهُ لَوَيْلٌ لِفَتْحِهِ
يَدْرِكُ الْبَهَائِلَ وَسَيِّدُكَ الْبَهَائِلِ وَأَفْسِدُ رُخْصَةً وَاجْتَذِبُهُ
بِقُوَّةٍ وَأَدْمَى بِهِ إِلَى زَوَادِكُ فَإِنْ لَمْ تَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ وَلَا

سَدَّ بِخَلْقِ الْيَتِيمِ وَيَدْعُ الْيَتِيمَ إِلَى مَذَامِ وَأَوْبِ
 النَّظَرِ الْيَتِيمُ وَاسْتَعِذَّ الشَّيْطَانُ بِمُتَّبِعِيهِ مَا جَاءَ إِلَى رَاسُخٍ
 مُنْصَرِفٍ الرَّسُ بِمَدِّكَ الْيَتِيمَالِ وَخُذْ وَاسْطَلِ يَتِيمًا
 جَلَّالًا ذَوْنَ وَمِنْ خَلْقِ الْفَالِقِ وَاحِدٍ وَمِرَاجِجِ هـ
 الْفَرَّاسِ وَلَا تَقْطَعْ فِي الْقَرْبِ نَيْكَ وَتُحِمْ عَيْنَيْكَ
 خُذْ فَإِنْ حَسَلَ لَكَ مُغْرَبٌ إِلَى الْكَلْبِ الْفَالِقِ
 إِذَا هَوَتْ تَحْتَ يَدِ أَشْوَهِهِ بْنِ خَيْتِ السُّوَيْهِ إِلَى الْيَتِيمِ
 شَمَائِلِ وَهَدِيدِ مَوْزِي دَلِيلِ

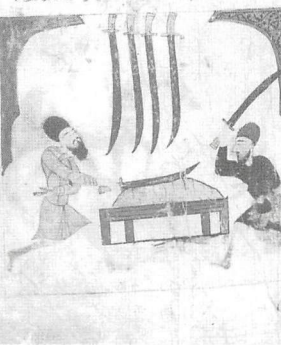


قَالَ الْأَمَنُ فِي الْقَبْرِ عَمَلٌ عَلَى تَقْوِيهِ مِنْ رِيسَالٍ وَافِيَةٍ
غَدَّةً بِنَدْوَةٍ تَقَطُّعُهُ قَدْ لَكَ الْإِذْنَانِ وَهُوَ قَدْ
وَالْمَقَامُ حَرْبُ السَّنَةِ عَلَى كَرَسٍ وَهُوَ هَذَا كَأَسْمَاءٍ
ذُخْرُهُ نِيَامُهُ إِنَّ سَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَسُرُخُهُ



جَدَّانِيْدًا وَسَّعَ الْوَرَقَةَ عَلَيَّ الْخُدَّةَ وَفَسَّرَهَا قَائِدُ
فُسُوتٍ فَلَيْسَ فُسُوتٌ مَرْبُوعٌ مَخْطُوءٌ إِلَّا مَا يَمْلُغُ سُنَّ فَإِذَا نَعَلَ

ذلك استمد وإن كان أفسوسه قد أخذ في اليمين
 واستشهد به في كف يمينه وفسق أفسوسه الشريف
 وقد فعل البليغ بين السنان والإبراهيم وفسق
 إليه متى فضله ثم إن أفسوس الشريف قد
 فسر في إلى الألف وسوسه وفسق أفسوسه



وَدَعَى زَيْنُ الْعَابِ وَالْخُزُومِ وَالْأَحْمَلُ وَالشَّيْخُ إِلَى
مَشْرِقِ الْمَسْجِدِ فَتَوَلَّى الْقَوْمُ وَهَذَا أَنْ يَخْدُجَ شَيْئًا
فِي بَعْدِهِ خَلْفَهُ الْكَلْبُفُ وَفِي مَخْرُجِهِ الْخَبْزُ وَاللَّهُ
يُتَوَخَّجُ مِنْ أَمِنْ خَيْرًا وَأَنْ يَخْدُجَ وَيَقُولَ فِي مَخْرُجِهِ
فِي مَخْرُجِهِ وَشِعْ كَتَبَهُ ابْنُ الْبُزْجَنْجَلِ وَيَدْخُلُ الْبُزْجَنْجَلُ
إِلَى الْكَلْبُفِ مِنْ تَحْتِ الْكَلْبُفِ وَيَدْخُلُ يَدُهُ مِنَ الْكَلْبُفِ
إِلَى تَحْتِ مَا بَيْنَ الْقَتَنِفَةِ وَالْخَلْفَةِ الْقَوَامِيَّةِ وَتَحْتِ
كَتَبَهُ وَيُقَصِّرُ الْبُزْجَنْجَلُ فَيَدْرَأُ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَتَنَبَّهُ
كَتَبَهُ الشَّيْخُ الْبَاهِلِيُّ بِأَنَّهُ يَنْسَبُ عَلَى كَتَبِهِ وَكَتَبَهُ
وَهَذَا مِثْلُهُ ۚ



يَجُوزُ دَعْوُ الشَّهِيدِ بِحُجَّةٍ لَا يَلِيقُ بِهَا دَعْوَةُ مَنْ لَمْ يَتَّخِذْ إِلَّا
 الدَّعْوَةَ لِحُجَّتِهِ كَانَ مُبْتَدَأً وَمَنْ رَمَى تَحْلُلًا أَوْ عَابًا
 أَوْ شَيْءَ بِنِ الْإِسْ وَكَذَلِكَ عَمْرُو بْنُ سَهْدَةَ هَذَا أَهْلُ
 إِنْ شِئْتَ وَكَذَلِكَ إِذَا دَعَى فِي بَيْتِهِ وَلَمْ يَزِدْ عَلَيْهِ حُجَّةً
 وَطَلَعَهُ بَرَجٌ هَذَا أَهْلُ الشَّهِيدَةِ أَهْلُ بَيْتِهِ الْخَلْدُ
 يَأْتِي الْأَمْرُ مِنَ الْقُرْآنِ مِنْ عَلَى كَلِمَةِ شَيْئِي الْإِسْ
 أَنْ يَحْمَلَ الْمُتَوَكِّلُ عَلَيْهَا إِلَى الْإِسْمَارِ طَبَا أَوْ كُنْهَاتُ
 ذَلِكَ لَوْ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ لَمَا تَوَكَّلْتُ عَلَى النَّاسِ وَمَنْ تَوَكَّلْ عَلَى
 النَّاسِ يَفْشَلْ وَالْفَلْهُ وَهَيْلَتُهُ كَيْفَا تَوَكَّلْ



وَالْأَيْدِيَانِ بِحِزِّ الْقَوْسِ فِي الْأَرْضِ وَالْقَوْسُ وَحِزُّ الْقَنَاةِ وَهُوَ

وَسَبَّحَ عَلِيٌّ كَرِيمًا وَنَفَسَ كَثُورًا الْفُؤَادَ وَإِذَا كُنْتَ
تَلْقِيَهُ بِأَعْيُنٍ وَأَنْفٍ وَتُحَدِّثُ وَفِي سَائِلِ الْقُرْآنِ
مَنْعَةً لِكُلِّ مَنَعَةٍ الْفَالَانِ فِي بَيْنِ الشَّيْبِ تَلَوَهُ
الْمُفَالَانِ فِي لَفْظِ الرَّيْحِ أَلَمْ يَأْتِ فِي بَيْنِ الْقُرْآنِ
الْقَدَاسِ وَهُوَ الرَّيْحُ إِذَا خَلَّتْ مَا بَيْنَ الْغَيْبِ قَمَارُهُ
وَأَمَّا فِي الرَّيْحِ فِي تَرْجُومَةِ الْقَدَاسِ وَلَا تَرْجُومَةٍ فِي تَعْدِيلِ
مَعَانِيهِ مِنْ رُوبِيَّةٍ مَا مِنْ مَن قَرِيبَ سَعَى تَحْوَنَ رُغْبَتِهِ
تَحَارَقَهُ لَوْجَتُهُ وَالْجَلْبُ كَقُلِّ تَرْجُومَةٍ فَارْتَبَعَ إِلَى الْأَوَّلِ
تَرْجُومَةٍ أَيْ تَرْجُومَةٍ رُغْبَتِهِ بِهَيْدِ الْبَيْنِ شُعْرَةً وَتَرْجُومَةٍ
إِلَى بَرْزِ الْأَسْمَاءِ عَلَى التَّوَضُّعِ وَالْخُرُوجِ مِنْ تَحْتِ رُغْبَةٍ أَوْ

بَابُ طَعْرِ النَّخْلِ وَالْخُرُوجِ مِنْهُ يَنْبَغِي لِقَاءُ
ذَلِكَ أَنْ يَتَّخِذَ شَخْصًا مِنْ حَشَبِ الْخُوزِ أَوْ مِثْلِكَ مَلًا

لوحة ١٣٢: «كتاب الحيوان» للجاحظ.
مُمنمة الزرافة. مكتبة أمبروزيانا بميلانو.
[صورة لم يسبق نشرها].



لوحة ١٣٣: «كتاب الحيوان» للجاحظ.
زوجة نعيصة تشكو لصديقتها جهل
زوجها. مكتبة أمبروزيانا بميلانو. [صورة
لم يسبق نشرها].

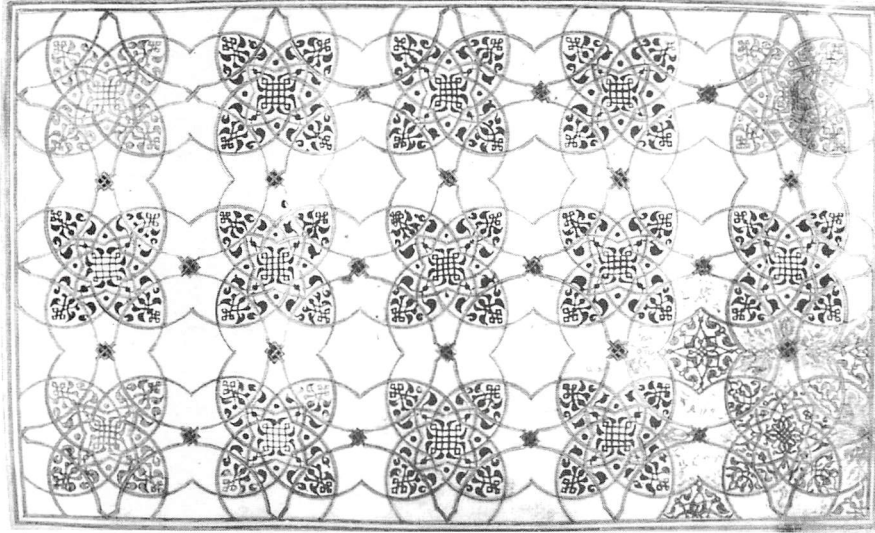


لوحة ١٣٤: «كتاب الحيوان»
لجاحظ. العبد الخصي يطلق الطير
من القفص. مكتبة أمبروزيانا
بميلانو. [صورة لم يسبق نشرها].

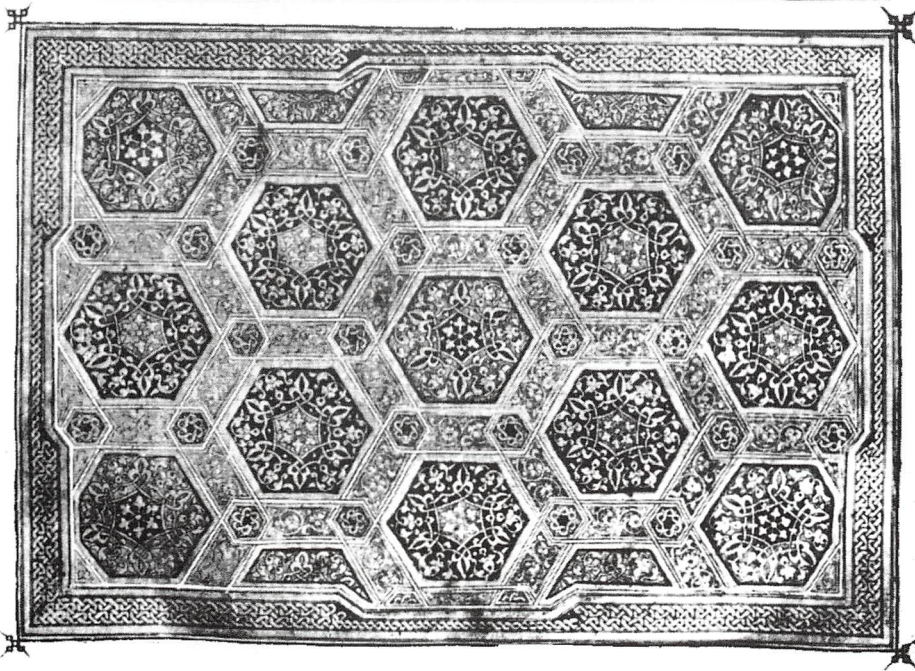




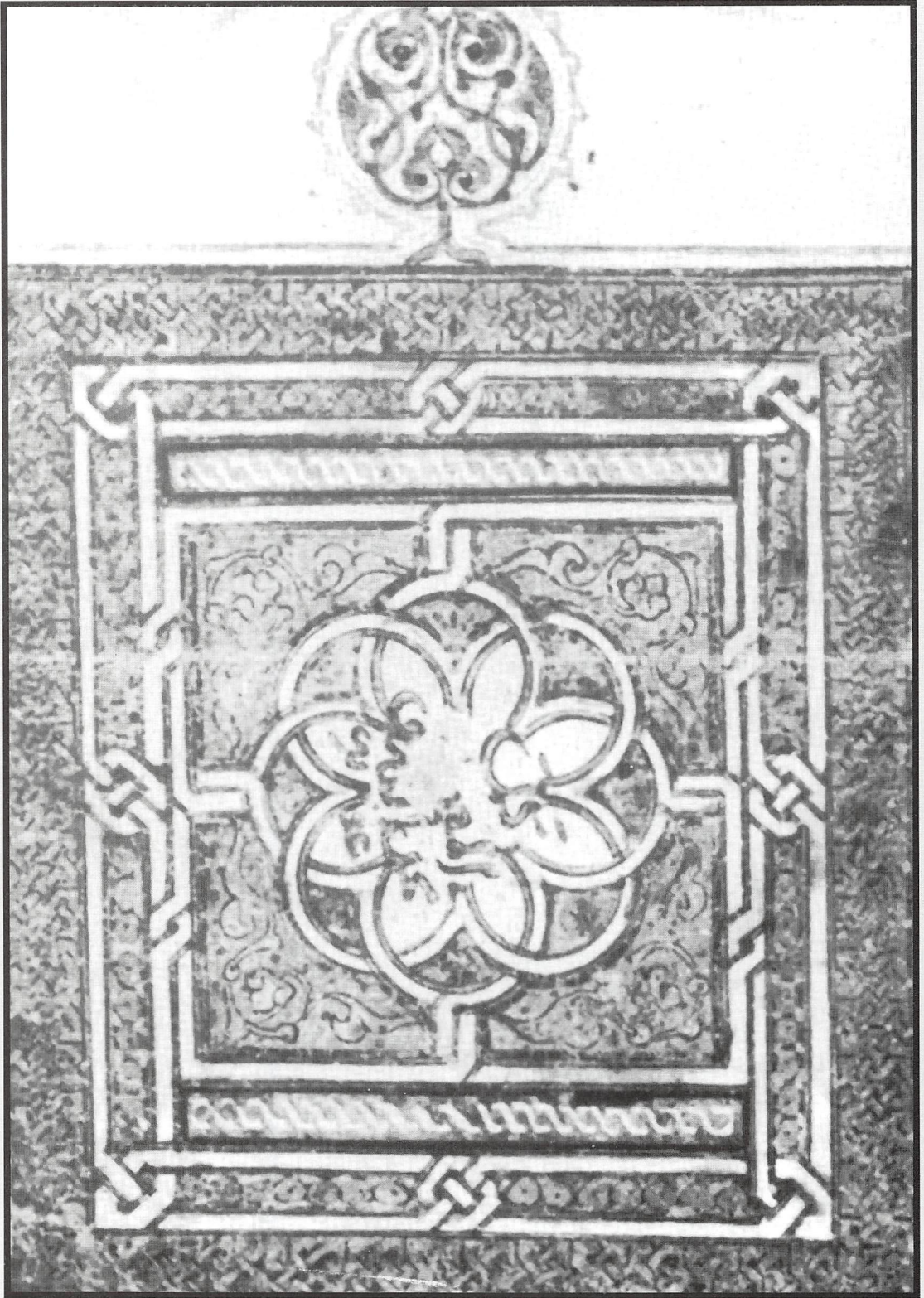
لوحة ١٣٥ : «قانون الدنيا وعجائبها»
١٥٦٣م. أربعة شخوص. متحف
طوب قاپو بإستنبول. [صورة لم
يسبق نشرها].



لوحة ١٣٦ : رُبَعات أولغايتو
١٣١٣م. دار الكتب المصرية.



لوحة ١٣٧ : رُبَعات أولغايتو
١٣١٣م. دار الكتب المصرية.



لوحة ١٣٨ : مُصَحَّف شَرِيف بَقْلَم مَغْرِبِيٍّ عَلَى رَقٍّ غَزَال ١٣٩٩م . دار الكتب المصرية .

لَوْحَاتُ
البَابِ الثَّانِي
المُلَوَّنَةِ

التَّصْوِيرُ الْعَرَبِيُّ



لوحة ٤٣م: قبة الصخرة من الخارج.
القدس. تصوير أليستير دنكان.



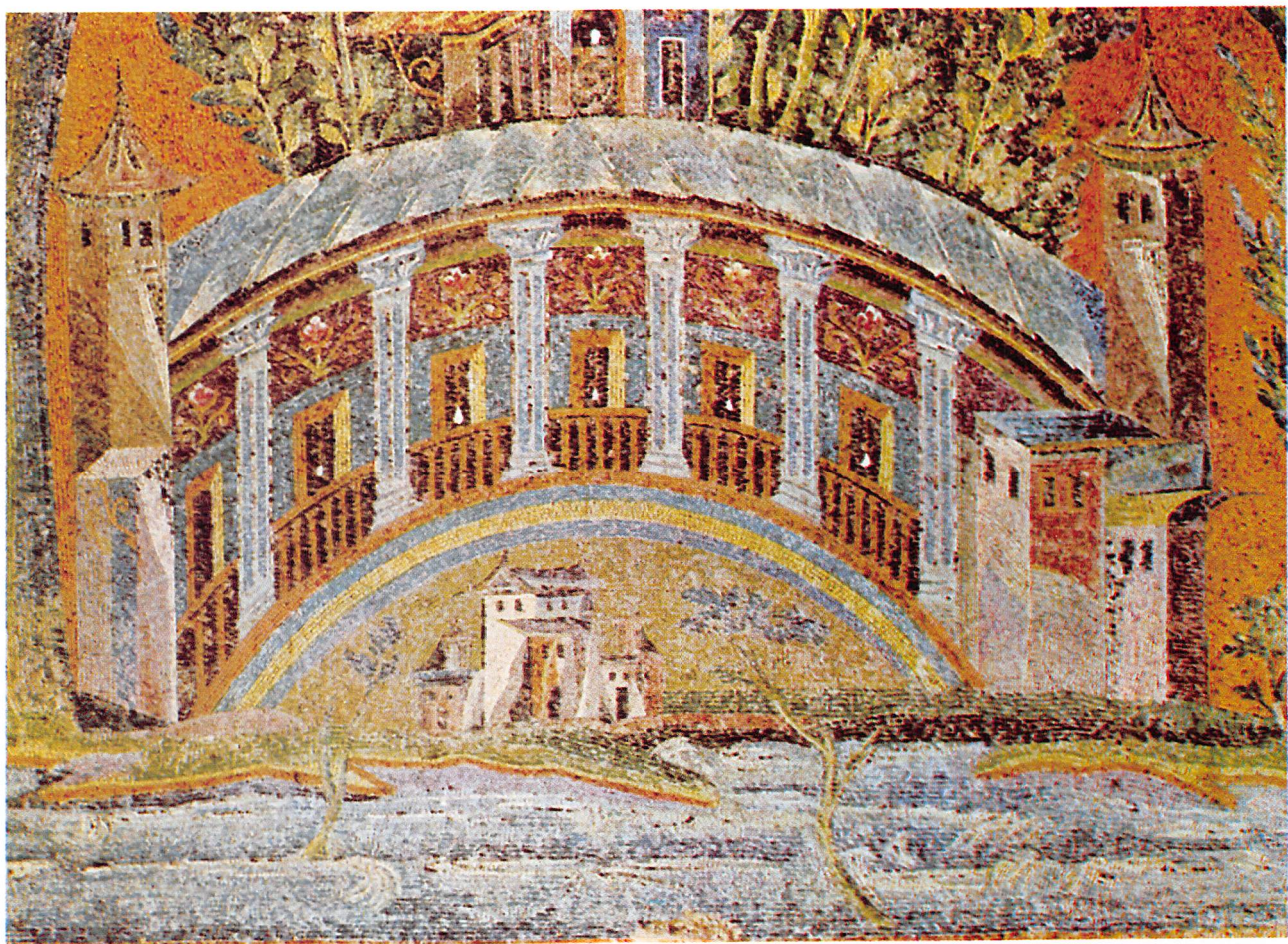
لوحة ٤٤م: قبة الصخرة.
زخارف فسيفساء. زهرية
وتوريقات نباتية ٦٩١م.



لوحة ١٤٥ أ (م): قبة الصخرة. زخارف
فسيفساء. زهرية مع زخارف أوراق
الأكانثا. ٦٩١ م.



لوحة ٤٥ ب (م): قبة الصخرة. زخارف
فسيفساء. زخارف توريقات نباتية وفق
النمط الساساني. ٦٩١ م.



لوحة ٤٦م: المسجد الأموي
بدمشق. منظر طبيعي لنهر وحلبة
سباق. فسيفساء فوق الحائط
الغربي لمدخل المسجد. دمشق.



لوحة ٤٧م: المسجد الأموي بدمشق. زخارف
فسيفسائية. فوق البنية الداخلية للقسم الغربي من
فناء المسجد. جُوسق يتوسط القصر. دمشق.



لوحة ٤٩م: قصر الحير الغربي. الإلهة جيا ربة الأرض عند اليونان و«القناطير» البحرية. أرضية فريسك. المتحف القومي بدمشق.

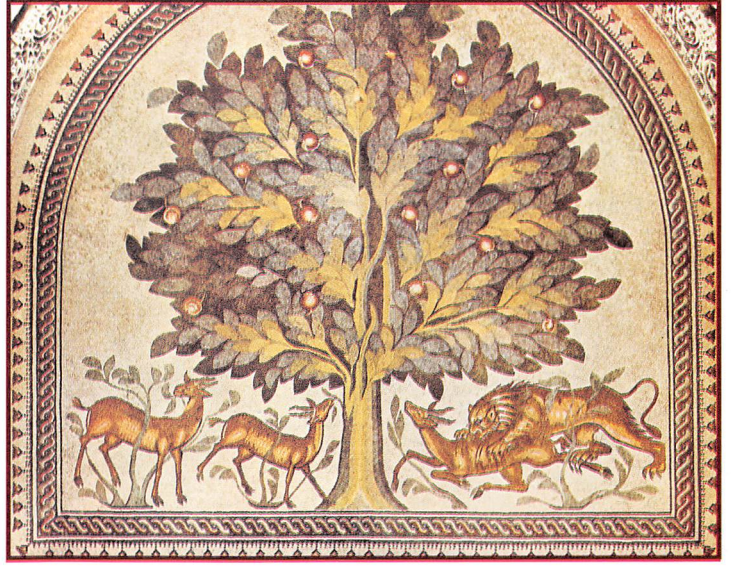


لوحة ٤٨م: قصير عمرة: تصوير جداري. امرأة تستحم.

لوحة ٥٠أ، ب (م): قصر الحير الغربي. الموسيقىات وفارس الصيد وخادم يقود حيواناً إلى الحظيرة [لا يظهر باللوحة]. أرضية فريسك. المتحف القومي بدمشق.



لوحة ٥٢م: راقصتان. رسم جداري مُلَوّن مِن قَصْرِ
الجَوْسَقِ لِلْخَلِيفَةِ الْمُعْتَصِمِ بَشَرٌ مِّن رَّأْيِ. ٨٣٦-٨٣٩م.



لوحة ٥١م: قصر هشام بِخَزْبَةِ الْمِفْجَرِ. شجرة تكتنفها
الحيوانات. أرضية مِن الْمُسَيْفَسَاءِ. أريحا.



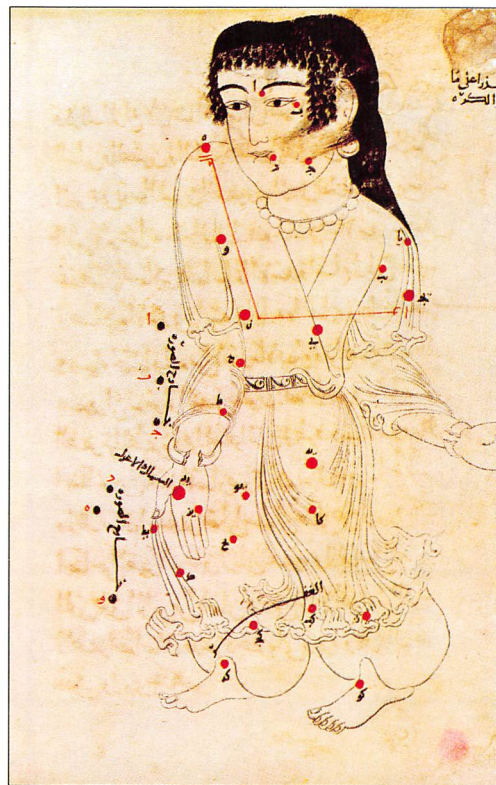
لوحة ٥٣م: رداء تنويع
روحية الثاني (١١٣٣-
١١٣٤). صِقْلِيَّة.
المتحف القومي بـثينا.



لوحة ٥٥م: نافخان في النَّاي على جانبي نافورة جدارية. سَقْف
مُصَلَّى كايلا بالاتينا. باليرمو. مُنتَصَف القرن ١٢.



لوحة ٥٤م: الملك جالسا على عرشه مُحاطًا بِالْخَدَمِ وَالْعَبِيدِ.
سَقْف كايلا بالاتينا. باليرمو. مُنتَصَف القرن ١٢.



لوحة ٥٦م: كتاب «صُور الكواكب»
الثانية للصوفي ١٠٠٩م. كوكبة
العذراء على ما تُرى في الكُرة.
المكتبة البودلية بأكسفورد.

لوحة ٥٧م: كتاب «الصُور». كوكبة
الجاني على رُكبتيه [الراقص].
متحف طوب قابو بإستنبول.



لوحة ٥٨م: صحن من الخزف ذي البريق
المعدني عليه رسم مَحفور يُمثّل رجلين
يتبارزان بعصي التَّحطّيب. مصر. القرن
١١. متحف الفن الإسلامي بالقاهرة.



لوحة ٦٠م: «كتاب الأغاني» لأبي الفرج الإصفهاني.
مجلس غناء وطرب. دار الكتب المصرية.



لوحة ٥٩م: «كتاب الأغاني» لأبي الفرج الإصفهاني.
مجلس رقص وغناء. دار الكتب المصرية.



لوحة ٦١أ، ب (م): «كتاب الأغاني» لأبي الفرج الإصفهاني.
أمير في جلسة طرب. مكتبة فيض الله باستنبول.



لوحة ٦٢م: «كتاب الأغاني» لأبي الفرج الإصفهاني. أمير فوق صهوة جواده. دار الكتب القومية بكويتهاجن.

لوحة ٦٣م: «كتاب الترياق» لِسَمَيّ
جالينوس. الموصل ١١٩٩م.
شخصيّة هامة تجلس القرفصاء. دار
الكتب القوميّة بباريس.



لوحة ٦٤م: «كتاب الترياق» لِسَمَيّ
جالينوس. الموصل. مُتَصَف القرن ١٣
عُرّة الكتاب. المليك جاليسا ومن حوله
حاشيته. دار الكتب القومية بفيينا.

لوحة ٦٥ م: «كتاب الحشائش
وخواصّ العقاقير» لـديوسقوريدس.
ديوسقوريدس نفسه. متحف طوب
قاو باستنبول.



لوحة ٦٦ م: «كتاب الحشائش وخواصّ العقاقير»
لـديوسقوريدس. تلميذان يحمل كلّ منهما كتابًا يتوجّه
به إلى ديوسقوريدس. متحف طوب قاو باستنبول.



لوحة ٦٧ م: «كتاب الحشائش وخواصّ
العقاقير». ديوسقوريدس جالسًا وفي مُواجهته
أحد تلاميذه. متحف طوب قاو باستنبول.

لوحة ٦٨ م: «كتاب
مُختار الحِكم ومَحاسِن
الكَلَم». صورة
غالينوس. متحف طوب
قاو باستنبول.



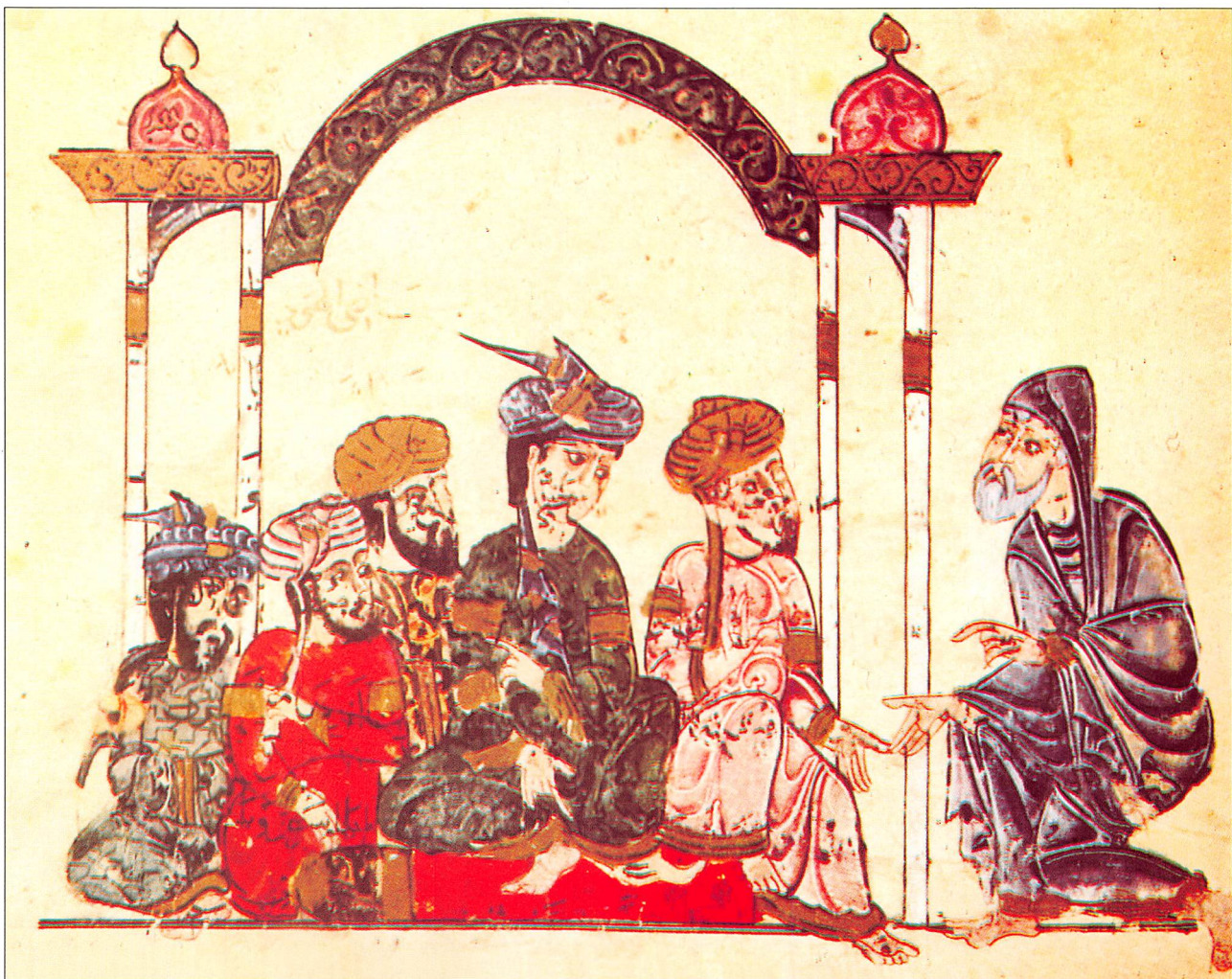
لوحة ٦٩ م: «كتاب مُختار الحِكم
ومَحاسِن الكَلَم». صورة صولون.
متحف طوب قاو باستنبول.



لوحة ٧١ م: «كتاب مُختار الحِكم ومَحاسِن الكَلَم». صورة
پِثاغوراس. متحف طوب قاو باستنبول. [صورة لم يسبق نشرها].

لوحة ٧٠ م: «كتاب مُختار الحِكم ومَحاسِن الكَلَم». صورة
سُقراط. متحف طوب قاو باستنبول.





لوحة ٧٢م: مقامات الحريري ١٢٢٢م. أبو زيد يُخاطب جمعا في نجران. مقامة ٤٢. دار الكتب القومية بباريس.

لوحة ٧٣م: مقامات الحريري ١٢٢٢م. الحارث وعبدُه عند مدخل الحجاج إلى مكة يُطلّ عليهما أبو زيد. دار الكتب القومية بباريس.



لوحة ٧٤م: مقامات الحريري
١٢٣٧م. نقاش قرب قرية. دار
الكتب القومية ببائس.



لوحة ٧٦م: مقامات الحريري
١٢٣٧م. الوضع. دار الكتب القومية ببائس.



لوحة ٧٥م: مقامات الحريري
١٢٣٧م. الفرسان يوم العيد في
برقعيد. دار الكتب القومية ببائس.



لوحة ٧٧: مقامات الحريري ١٢٣٧ م. رَهِطُ الإِبِل. دار الكتب القومية بباريس.



لوحة ٧٨: مقامات
الحريري ١٢٣٧ م.
قافلة الحجاج
«المحمل». دار الكتب
القومية بباريس.



لوحة ٨٠م: مقامات الحريري ١٢٢٥-١٢٣٥ م. أبو زيد يشكو ولده للقاضي.
معهد الدراسات الشرقية بسان بطرسبرج.



لوحة ٧٩م: مقامات الحريري ١٢٢٥-١٢٣٥ م. مخطوطة سان بطرسبرج. أبو زيد أمام حاكم مرو الذي يسأله عن حسبه ونسبه. معهد الدراسات الشرقية بأكاديمية العلوم.



لوحة ٨١م: مقامات الحريري ١٢٢٥-١٢٣٥ م. أبو زيد يستقل السفينة. معهد الدراسات الشرقية بسان بطرسبرج.



لوحة ٨٢م: مقامات الحريري. مخطوطة الواسطي. أبو زيد يستقل السفينة. دار الكتب القومية بباريس.

لوحة ٨٣م: مقامات الحريري
١٢٢٥-١٢٣٥م. المَطْيَةِ الصَّالَّة.
معهد الدِّراسات الشرقيَّة بِسان
بطرسبرج.



لوحة ٨٤م: مقامات الحريري
١٢٢٥-١٢٣٥م. المُنْخِيْم. معهد
الدِّراسات الشرقيَّة بِسان بطرسبرج.

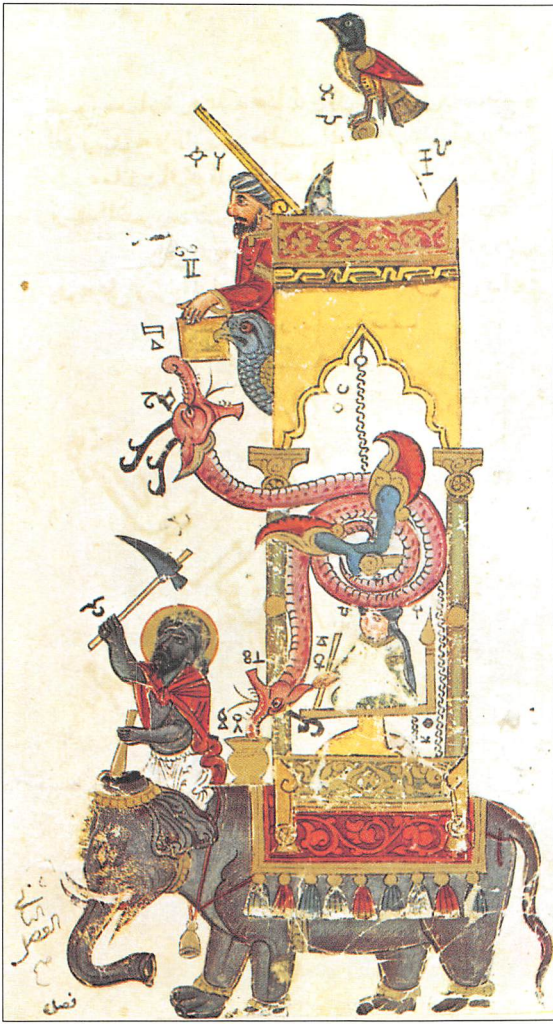


لوحة ٨٦م: «كتاب التَّرياق» لِسَيِّ
غالينوس ١١٩٩م. غُرَّة الكتاب. دار
الكتب القوميَّة بِباريس.



لوحة ٨٥م: «كتاب الحَشَائِش وَخَوَاصِّ الْعَقَاقِيرِ»
لِدْيوسقوريدس. ١٢٢٤م. الصِّيدَلِيَّة. متحف المتروپوليتان.





لوحة ٨٧م: «كتاب الترياق» لِسَمِيّ غالينوس ١١٩٩م.
مَشْهَد جِرائة. دار الكتب القومية بباريس.

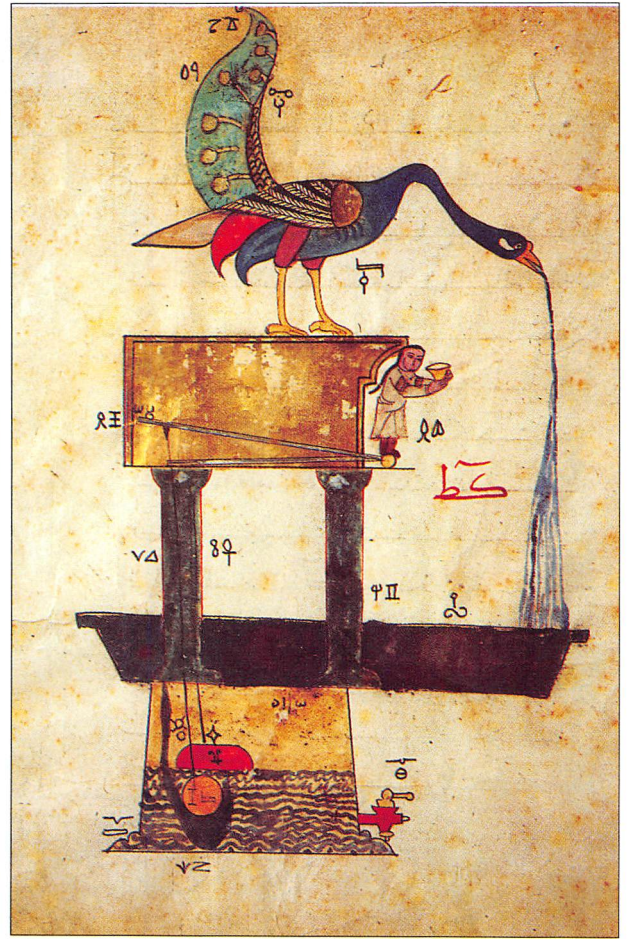
لوحة ٨٨م: «كتاب الجامع بين العلم والعمل
في الجبل» للجَزْري ١٣١٥م. ساعة محمولة
على ظهر فيل. متحف المتروبوليتان.



لوحة ٨٩م:
«كتاب الجامع بين
العلم والعمل في
الجبل» للجَزْري
١٢٠٥م. زورق.
متحف طوب قابو
بإستنبول. [صورة
لم يسبق نشرها].



لوحة ٩١م: «كتاب الجامع بين العلم والعمل في الجيل»
للجزري ١٣٥٤. ساعة مائية على شكل مدخل أحد القصور
بتصديرها موسيقيون. متحف بوسطن للفنون الجميلة.



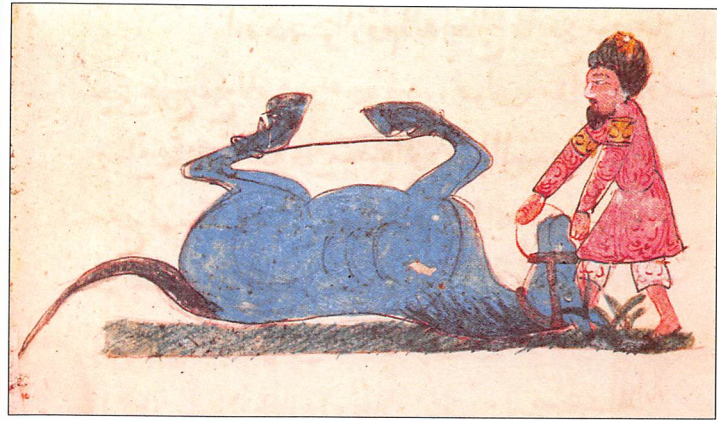
لوحة ٩٠م: «كتاب الجامع بين العلم والعمل في الجيل»
للجزري ١٣٥٤م. جهاز على شكل طاووس لغسل
الأيدي. العراق. متحف بوسطن للفنون الجميلة.



لوحة ٩٢م: «كتاب البيطرة»
١٢٠٩م. يَطْرِي يَضَع
الدَّواء لِفَرَس يَدْتُ عليه
أَعراض الحُمى. دار
الكتب المصرية.



لوحة ٩٣ م: «كتاب البيطرة»
١٢٠٩ م. فارس يروّض
جواده. دار الكتب المصرية.



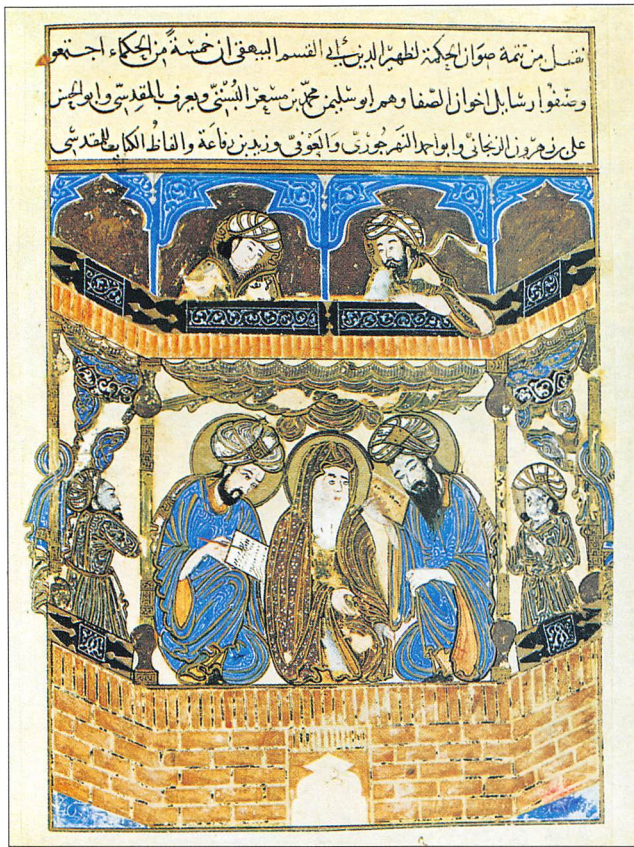
لوحة ٩٤ م: «كتاب البيطرة»
١٢٠٩ م. فارس مُعتَلّة يتولّى حارسها
علاجها. دار الكتب المصرية.



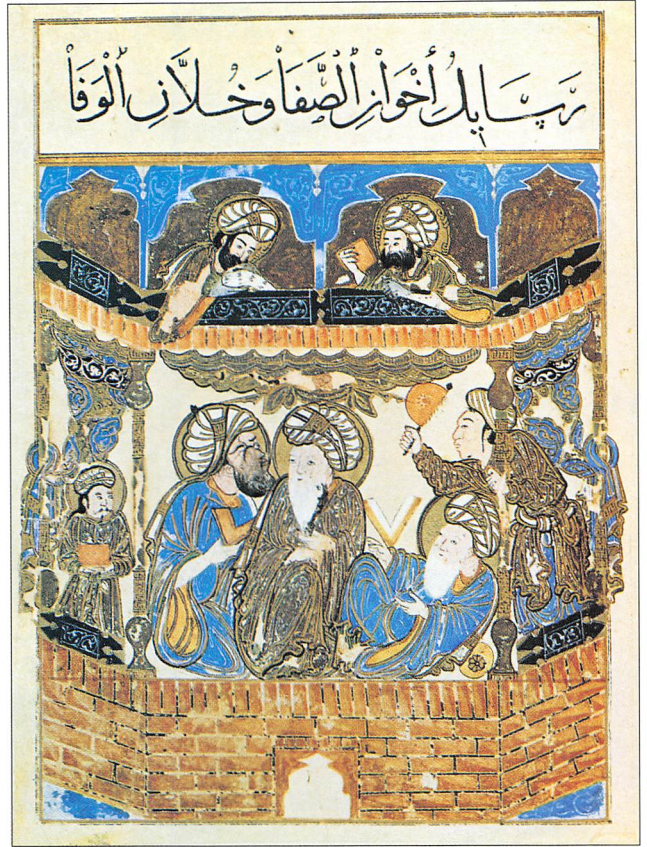
لوحة ٩٥ م: «كتاب البيطرة»
١٢٠٩ م. فارسان يتعاونان
لمُساعدة فارس على ولادة
عسيرة. دار الكتب المصرية.



لوحة ٩٦ م: «كتاب البيطرة»
١٢١٠ م. فارسان. متحف
طوب قايو بإستانبول.



لوحة ٩٨م: «رسائل إخوان الصفا وخلائ الوفا»
١٢٨٧م. الحكماء والمريدون. كاتب رسائل إخوان
الصفا. مكتبة جامع السلطانية بإستنبول.



لوحة ٩٧م: «رسائل إخوان الصفا وخلائ الوفا»
١٢٨٧م. الحكماء والمريدون. مكتبة جامع
السلطانية بإستنبول.



لوحة ٩٩م: «بياض ورياض».
القرن ١٣. شمول تكلّم بياضاً وهو
يقرب الحديقة المطلة على النهر.
مكتبة الفاتيكان.

لوحة ١٠٠م: «بياض ورياض». القرن ١٣.
شيخ يسهّر على العاشق بياض بعد أن سقط
على الشاطئ غائب الوحي. مكتبة القاتيكان.



فـالـقـلـ ازل كـلـ حـقـي فـحـ عـيـنـيـهـ و قـامـ عـلـي نـفـسـهـ و مـو عـنـشـهـ
مـيـنـهـ مـيـنـشـ و خـفـهـ و فـلـنـ لـهـ لـا بـا مـن عـلـيـهـ نـحـمـد الله ما جـعـلـت فـر جـعـلـهـ
عـيـنـهـ فـانـت و ا بـجـز مـن الـو بـ لا تـحـي فـقـالـ عـنـد مـا مـعـنـد لـمـ مـعـزـة



أفرغ بياض من شعره قالت له رياضي الله حسيب من عز و مجر
صيف مع امكان الرضيل و وجود السبيل فقال رياضي انما الوفا قليل
لنا السيرة يا بياض انت شاعر مقلو و يا رياضي و نحن نقول صا
راء و جعكنا و سمعنا ابن عينا و انت تقول من نلنا نلنا بارك الله
و فاطم الخنوز و نلنا نلنا بالخبر و الخنوز و نحن الكان اجنوز البيل و مبروز

لوحة ١٠١م: «بياض ورياض». القرن ١٣.
بياض يُعني لحييته رياض على أنعام
العود. مكتبة القاتيكان.



لوحة ١٠٢م: «كتاب الشطرنج» لمؤلف مجهول
١٢٨٣م. الأندلس.
وصيفة تلعب الشطرنج مع
أخرى لا تظهر بالصورة
على حين تقوم وصيفة
أخرى بالعزف على العود.

لوحة ١٠٣م: «كتاب الشطرنج» لمؤلف مجهول ١٢٨٣م.
الأندلس. خادمة تُقدِّم الطعام لشخصين يتبادلان الحديث
وإلى جوارهما عازف على الهارب.



رَأَيْتُ دَفْعَ جَبَامِ لُحُوتٍ وَانْصَتَّ عِظَامُ السُّوَيِّ شَاكٍ
مَا هَذَا النَّسْطُ يَهْجِسِي وَالْحَكْمُ فِي مَطْلَعِي وَشَرْبِي فَلَنْ كُنْ



قَوْلًا مَالٌ وَمَا مَوْتُكَ أَسَدَاكَ

أَضْلَكَ ضَيْفَ قَبْلِ الزَّالِ حَرْبٍ لَهُ وَحَسْبُ دِيٍّ وَالْحَلْ حَنْبٍ
مَا أَلاَ اشْرَابَ بَعْرَ سَاوِي النَّاسِ الْإِحْصَارَ دَلَّجَ الذَّنَابِ الْمَوَاجِعَ الْفَنَاءِ
مِنْ الْحَسَدِ نَكْ يَأْسِدِي مَا سَأَلْنَا مِنْهُ إِلَّا الْعَقْلَ وَفَدَكْنَا فَاجِرَ بَرْقِ النَّبْرِ
مَا أَلاَ انْصَبَّوْا الْإِشْرَارَ فَانْهَمَ بِهَيْوَنٍ عَلَيْكُمْ بِإِسْلَامِهِ مِنْهُمْ أَمَا نَعْلَمَ

لوحة ١٠٥م: «كتاب دَعْوَةِ الْأَطِبَّاءِ» لَأَبْنِ
بُطْلَانَ ١٢٧٣. أَبُو أَيُّوبَ الْكَحَّالُ يَغْلِبُهُ
النُّعَاسُ. مَكْتَبَةُ الْأَمْبُرُوزِيَانَا بِمِيلَانُو.

زَابِدُ بَرَايَ آبِيسَا دَه تَابُورِ دِيمِنِ افْدَا شَمَاشِ كَشْتِه نَسُودُ وَيِلَازِ شَبُوتِ اَنْدَلِ بِاَسَدِ جَرِنِ
اَدُو كَسُو كِدِ بَرِيْنِهَاشِ وَشَرُوعِ اَلِيْخُو مَرْدُودِ عَزَا اَدْرَا كِه كُلِّ لُغَا حِ نَبِيَا نَاشِدُ وَبُوِي كِه مَرْدُوِي



وَعِي خُودِ تَابُوتِ زَبَادَتِ. كُودِدُ وَمَا دِه بِالْأَوْبَادِ وَأَزْوَاجِ نَسُودُ وَجُونِ كُشْ اَدَبَايِ: زَابِنِ نَسَا كِدُ

لوحة ١٠٤م: «كتاب مَنَافِعِ الْحَيَوَانِ» لَأَبْنِ يَحْيَى شُعُوبِ ١٢٩٤-
١٢٩٩م. مُنَمَّمَةُ الْفِيلِيْنِ. مَكْتَبَةُ بِيْيرِ بُونْتِ مَوْرِجَانِ بِنِيُوِيْرِكِ.



لوحة ١٠٦م: مقامات
الْحَرِيرِيِّ. ١٣٣٧م.
الْحَارِثُ يَفْقَدُ نَاقَتَهُ.
المَكْتَبَةُ الْبُودَلِيَّةُ بِأَكْسَفُورْدِ.

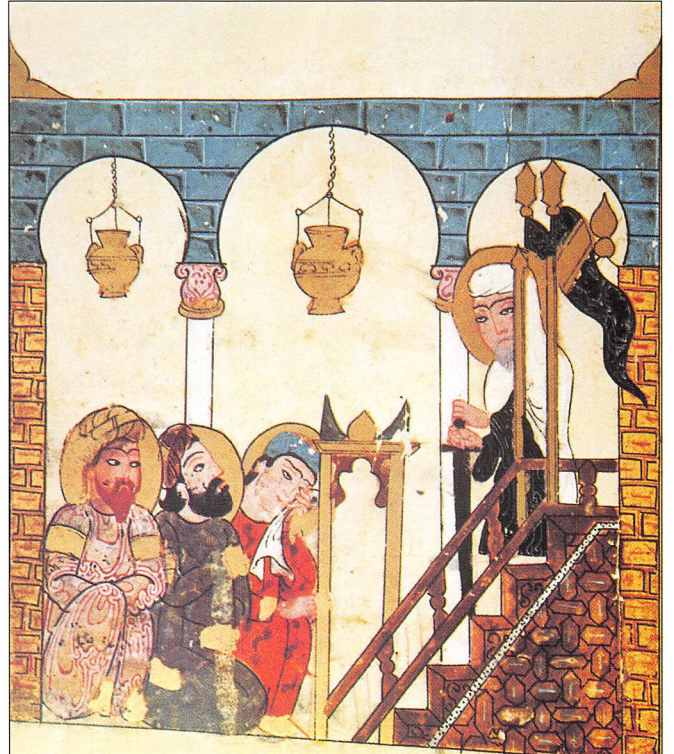
لوحة ١٠٧ م:
مقامات
الحريري.
١٣٣٧ م. أبو زيد
السروجي مع
الحارث بن
همّام. المكتبة
البودلية
بأكسفورد.



لوحة ١٠٩ م: مقامات الحريري ١٣٣٤ م. غرة
استهلالية للمخطوطة. حاكم يرفع كأسه
وحاشيته من حوله. دار الكتب القومية ببيينا.



لوحة ١٠٨ م: مقامات الحريري. حوالي ١٣٠٠ م.
الحارث يُصغي إلى مؤذنة يُلقِيها أبو زيد بِمَسْجِد
سمرقند. المتحف البريطاني.



لوحة ١١٠م: مقامات الحريري
١٣٣٤م. أبو زَيْد يَتَرَفَّعُ أَمَامَ قَاضِي
الْمَعْرَةِ. دار الكتب القومية بِقُيُنَا.



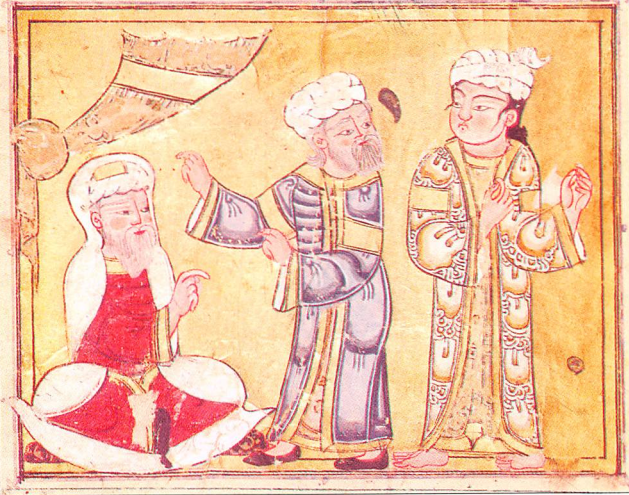
لوحة ١١١م: مقامات الحريري
١٣٣٤م. الْحَارِثُ يَتَحَدَّثُ إِلَى أَبِي
زَيْدٍ فِي خِيْمَةٍ قَرَبَ مَدِينَةِ الْأَهْوَازِ.
دار الكتب القومية بِقُيُنَا.



لوحة ١١٢م: مقامات الحريري
١٣٣٤م. الْحَارِثُ يُبْرِزُ دِينَارًا
لأَبِي زَيْدٍ وَسَطًا مَجْلِسَ مِنْ أَهْلِ
الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ. دار الكتب القومية
بِقُيُنَا. [صورة لم يسبق نشرها].

الْقِسْمَةُ الثَّامِنَةُ

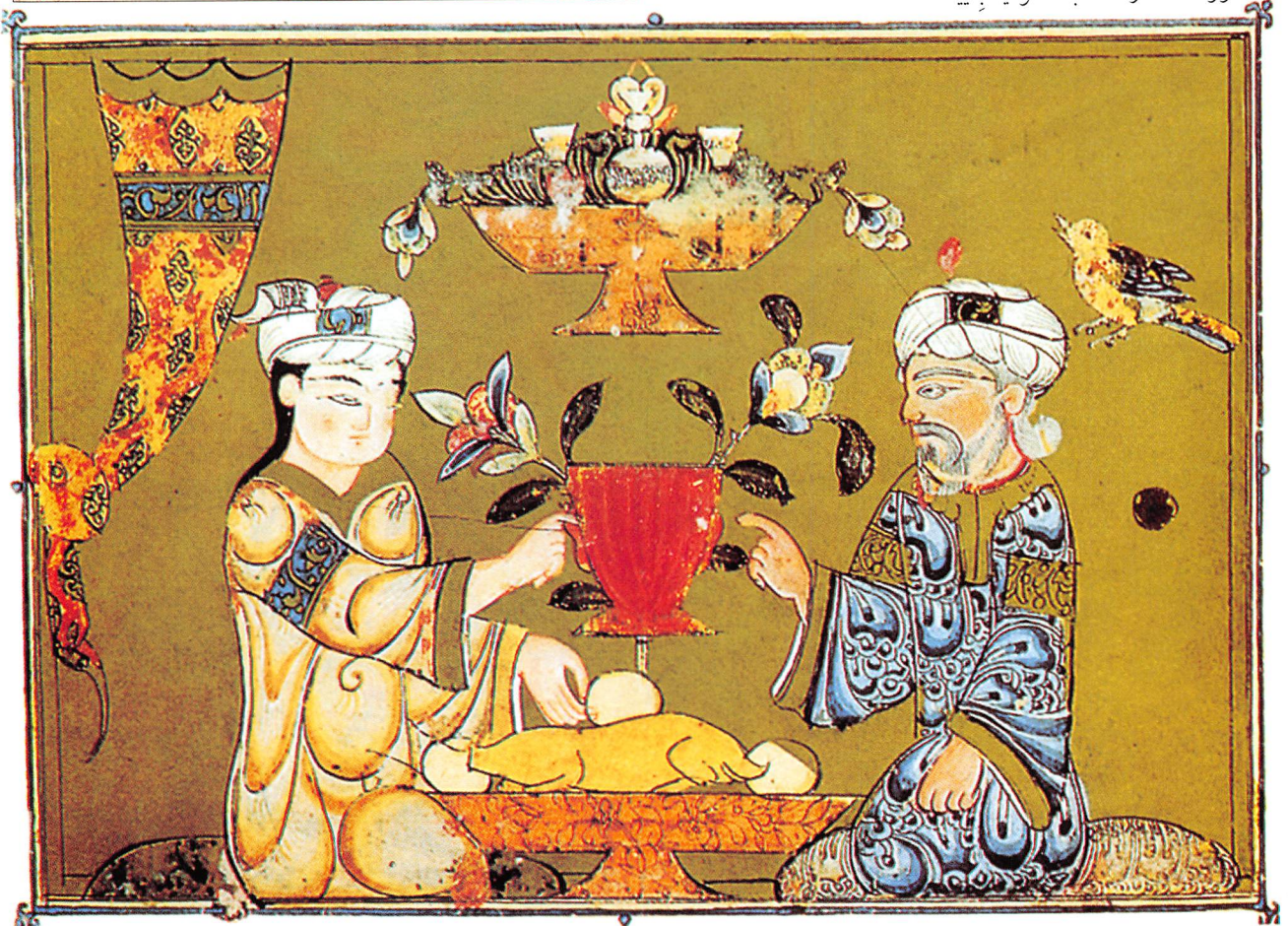
حَدَّثَ الْحَرْثُ أَبْنَهُمَ قَالَ رَأَيْتُ مِنْ أَعْجَبِ الزَّمَانِ أَنْ تَقْدَمَ
 خَصْمَانِ إِلَى قَاضِي مَعَرَةَ النُّعْمَانِ أَحَدُهُمَا قَدْ هَبَّ مِنْهُ الْأَطْيَابُ
 وَالْآخَرُ كَانَهُ قَصِيبُ الْبَابِ فَقَالَ الشَّيْخُ



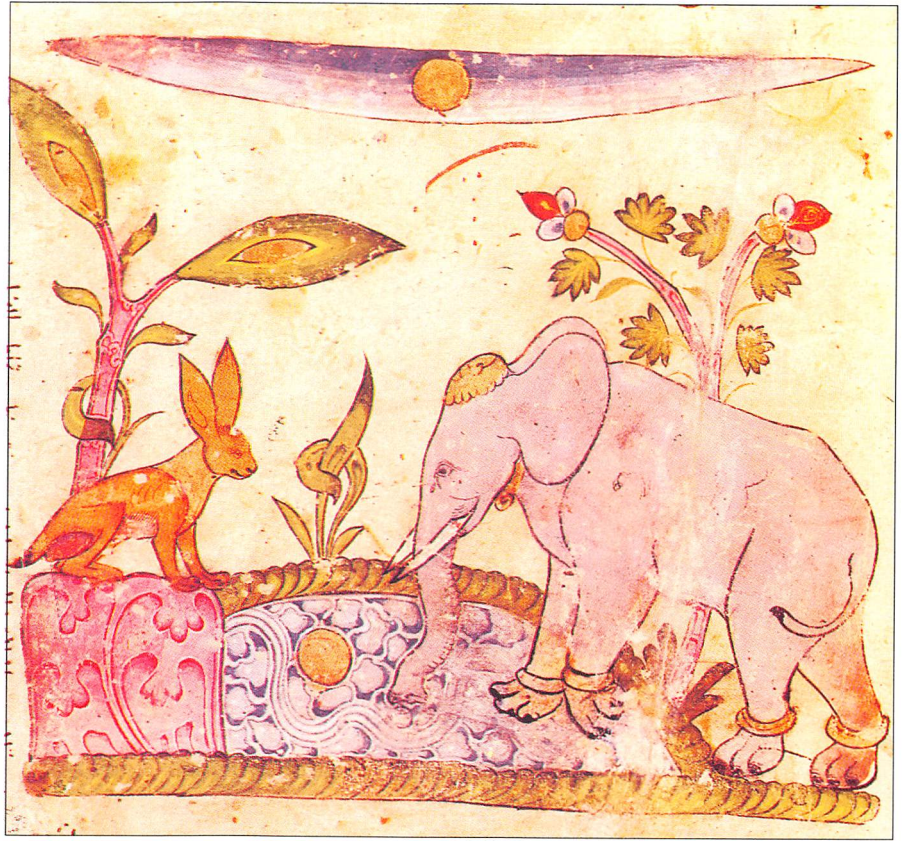
لوحة ١١٣: مقامات الحريري ١٣٣٤م. أبو زيد يتصنّع
 العَمى ويُسلم مَقَادَهُ لِأَمْرَأَةٍ عَجُوزٍ لِيَسْتَدِيرَ عَطْفَ النَّاسِ .
 دار الكتب القومية بـقُيُوتَا . [صورة لم يسبق نشرها].

لوحة ١١٤: مقامات الحريري ١٣٣٤م. قاضي مَعَرَةَ
 النُّعْمَانِ فِي مَجْلِسِ الْقَضَاءِ . دار الكتب القومية بـقُيُوتَا .
 [صورة لم يسبق نشرها].

لوحة ١١٥: مقامات الحريري ١٣٣٤م. أبو زيد
 وَوَلَدَهُ . دار الكتب القومية بـقُيُوتَا .



لوحة ١١٦م: كَلِيلَة وَدِمْنَة ١٣٥٤م.
الْأَرْبَ الْبَرِّي وَمَلِك الْفَيْلَة عِنْد بئر
القمر. المَكْتَبَة الْبُودَلِيَّة بِأَكْسَفُورْد.



لوحة ١١٨م: «كتاب تعليم
فُنُون الْقِتَال وَالْفُرُوسِيَّة». الْقَرْن
١٦. اسْتِخْدَام الْقَوْسِ أَدَاة
لِوَزْن الْأَثْقَال. مَتَحَف الْفَنِّ
الْإِسْلَامِيِّ بِالْقَاهِرَة.



لوحة ١١٧م: «كتاب تعليم فُنُون الْقِتَال
وَالْفُرُوسِيَّة». الْقَرْن ١٦. فَارِسَانِ يَنْجَالْدَانِ
بِالرَّمَا ح. مَتَحَف الْفَنِّ الْإِسْلَامِيِّ بِالْقَاهِرَة.



لوحة ١١٩ (أ) م: «كتاب
الحيوان» للجاحظ.
الرّافعة مكتبة
الأمبروزيانا بميلانو.



لوحة ١١٩ (ب) م: «كتاب الحيوان» للجاحظ. زوجة تعيسة تشكو لصديقتها جَهْلَ رُوجها. مكتبة الأمبروزيانا بميلانو.

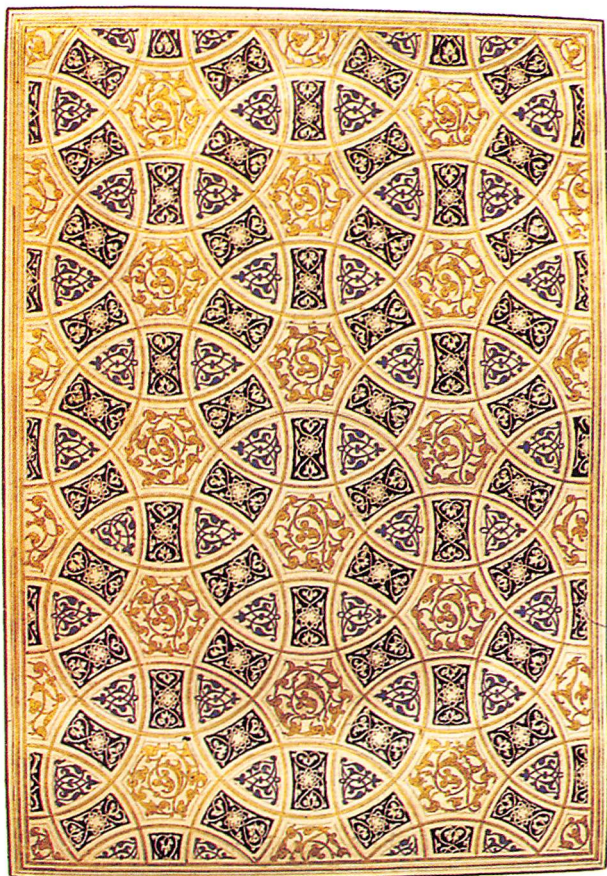




لوحة ١١٩ (ج) م: «كتاب الحيوان»
للجاحظ. العَبْدُ الْخَصِيّ يُطْلِقُ الطَّيْرَ مِنَ
الْقَفْصِ. مكتبة الأمبروزيانا بميلانو.



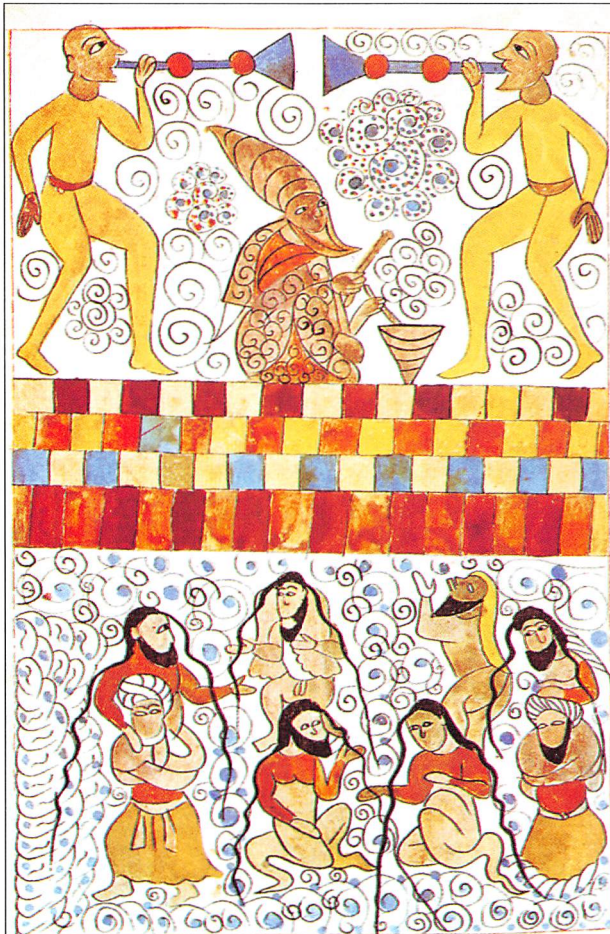
لوحة ١٢٠ م: «عجائب المخلوقات وغرائب
الموجودات» لِلْقَزْوِينِي ١٣٧٠-١٣٨٠ م.
«إسرافيل مُبَلِّغُ الأوامر ونافخ الأرواح في
الأجساد، أبيض اللون يميل إلى الحمرة،
ملبوسه أخضر ومن فوقه نمتانة حمراء [نسيج
من خيوط رقيقة]، وله أربعة أجنحة. فريز
غاليري للفنون بواشنطن.

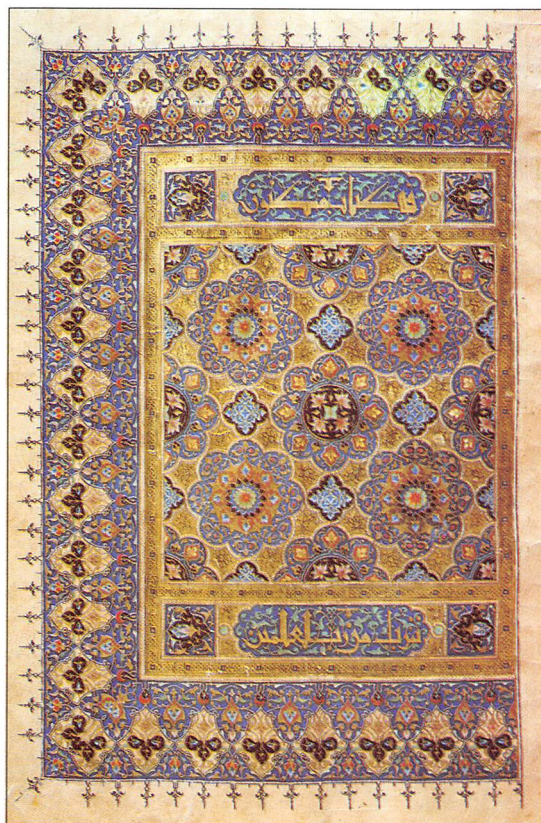


لوحة ١٢١م: «كتاب مَنافع الحَيَوان» لابن الدَّرَنهَم الموصلي.
طَبِير الكُرْكَيّ. مصر ١٣٥٤م. مكتبة الإسكوريال.

لوحة ١٢٣م: رُبَعات أولغايتو ١٣١٣م. دار الكتب المصرية.

لوحة ١٢٢م: «قانون الدنيا وعَجَائِبُهَا» ١٥٦٣م. طَبَال
يَتَوْسَّط زَامِرِين. متحف طوب قاهو ياستنبول.





لوحة ١٢٥ (أ) م: مُصَحَّف السُّلْطَان شُعْبَان
١٣٦٩ م. دار الكتب المصرية.

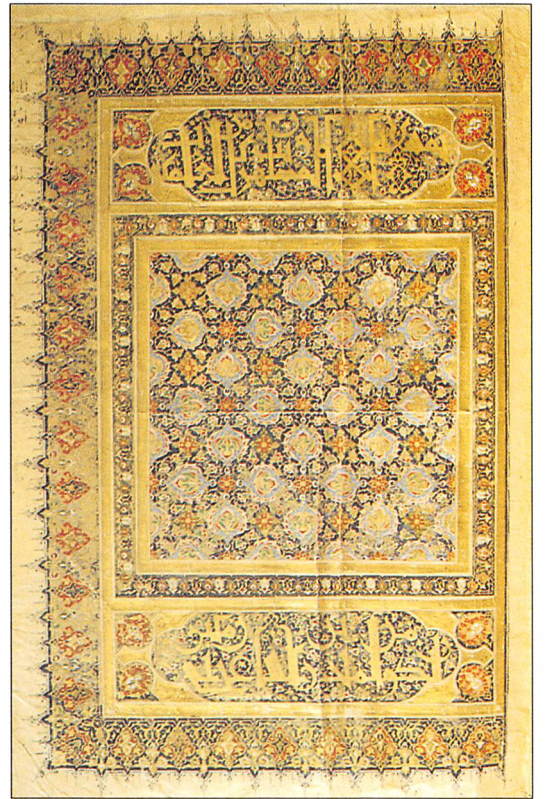
لوحة ١٢٤ م: مُصَحَّف أَرْغُون شاه
١٢٤٩ م. دار الكتب المصرية.



لوحة ١٢٥ (ب) م:
مُصَحَّف السُّلْطَان
شُعْبَان ١٣٦٩ م.
دار الكتب
المصرية.



لوحة ١٢٧م: مُصْحَف بِقَلَمٍ مَغْرِبِي ١٧٢٩م. دار الكتب المصرية.



لوحة ١٢٦م: مُصْحَف السُّلْطَانِ الْمُؤَيَّد
١٤١٧م. دار الكتب المصرية.



لوحة ١٢٨م:
مُصْحَف عُثْمَانِي
١٨٦٩م. دار
الكتب المصرية.

الباب الثالث

التصويب في الفرائض

الفصل الحادي والعشرون

توطئة

سمات التصوير الفارسي

عده. وعلى التقيض مما مثله ميكلائجلو، جاء التصوير الصيني في عصوره الكلاسيكية معنيًا بالطبيعة أشد العناية غير ملق بالاً ليشؤون الإنسان الذي يبدو في أحجام ضئيلة لا تبلغ قدر قيم الجبال الصخرية وقد طوتها السحب بين جوانحها. وعلى الرغم من تلك الصالة التي صور بها الإنسان، وعلى الرغم من انعزاليته، فهو يبدو على ألفة بالعالم الرحب الفسيح من حوله. إن الفنان الصيني يعتمد التلميح بالرؤية الكلية المطلقة لعالم الأحياء من خلال ما ينطوي عليه من تعبير لا نهاية له، ومن طاقات فياضة تضم حياة الإنسان فيما تضم.

أما المفهوم الفارسي فمكانه بين هذين المفهومين الأوربي والصيني، فالإنسان وما يأتيه من أفعال، يشخصان معاً على الدوام إلى صدر الصورة. والفنان الفارسي وإن لم بالقصص البطولي، إلا أن رؤيته للعالم تختلف عن زميله الأوربي. ولا يظهر الجسد البشري عارياً قط في تصاويره، ولعل مرّد ذلك إلى التفكير الفلسفي الصوفي الشديد الارتباط بالروح الفارسية. وقد لا يتجلى هذا المفهوم في كل أنماط التصوير الفارسي، فكما أن الفن الأوربي ليس كله فن ميكلائجلو. وكما أن منجزات الصين الفنية ليست كلها مناظر الطبيعة التي صورها مصورو عهد أسرة صون، كذلك فليس بالضرورة أن يتجلى هذا المفهوم في جميع أنماط التصوير الفارسي.

وثمة وشائج قرى بين فن فارس وفن بلاد البحر المتوسط، وإن كانت وشائجه مع فنون أقاليم أخرى في آسيا أكثر عمقاً. ولقد نشأت في فارس مدرسة من أعظم مدارس الفن الآسيوي تقفو أثر مدارس التصوير الأخرى في آسيا من حيث أطرافها للظلال؛ وتجاهلها أسلوب المدارس الأوربية في التعبير من خلال توزيع الكتل. ومع أن المدرسة الهندية المغولية الإسلامية قد تأثرت بالأسلوب الفارسي إلا أنها عمدت منذ البداية إلى تمييز فنّها

أضاف الفرس إلى فنون البشرية فناً تصويرياً جديداً فريد الطابع رفيع الأسلوب. مع أن بعض النقاد يهونون من شأنه، وحجتهم في ذلك أنه جاء خلواً من بعض الصفات الأساسية لفنون التشكيل. لكن مهماً غالتنا في تقديره أو في التهوين من شأنه فلا سبيل إلى تجاهل ما انطوى عليه من صفات مميزة لها تأثير خاص على نفس المشاهد، فتحمله على أجنحة خيالها المخلّق الموشى بالرؤى الوردية البديعة. ولو كان الخط قد أسعدنا وآل إلينا عدد كافٍ من التصاوير الجدارية المندثرة لصحّح ذلك لدى منكري ذلك الفن انطباعهم التاشي عن ضالة مقياس التصاوير الممنمة.

ومن الممنمات الفارسية ما هو أصيل أبدعه صناع يدرك أسرار فنه، ومنها ما هو أقل شأنًا رسمه جوفّي عادي محدود الموهبة. ويتضح الفارق بين هذين المستويين. إذا لجأنا إلى تكبيرهما عن طريق عدسة المجهر، فإذا الأولى تنافس في ضخامتها وزوعتها التصاوير الجدارية بكل خطوطها وألوانها، بينما لا تعدو الثانية أن تكون ممنمة مكبرة فحسب. ويكاد التصوير الفارسي أن يخلو من التصميمات ذات الطابع الضخم، باستثناء ما ندر، متوقفاً بذلك عند الممنمات التي تميّزت في روحها بمفهوم متفرد بين الفئتين الأوربي والصيني. ولو شئنا مثلاً أن نختار نموذجاً يمثل روح الغرب لوقع اختيارنا على منجزات ميكلائجلو، إذ إن السمة الشائعة في أعماله كلها هي التركيز البالغ على الجسد الإنساني، فهو الرمز المعبّر عن الرغبات البشرية ومشاعر الألم والانتصار والإحباط، إلى غير ذلك. وتكاد تصاويره تخلو مما ينتسب إلى حلي الطبيعة كوزيقات الشجر وصفحات الأنهار وتعرّجات الجداول وزوعة سفوح الجبال وقممها، بينما يشمخ «الإنسان» فيها نداءً للإلهة حاجباً كل ما

التَّحْتِي، ومن نُقُوشِ الْفَارِيزِ الْأَشُورِيَّةِ الَّتِي تُعَدُّ إِزْهَاصَةً بِأَعْمَالِ
التَّصْوِيرِ الْفَارِسِيِّ الْإِسْلَامِيِّ خِلَالِ الْقَرْنَيْنِ الْخَامِسِ وَعَشَرَ وَالسَّادِسِ
عَشَرَ الْبَيْلَادِيِّينَ.

وَقَدْ خَضَعَتْ فَارِسَ بَيْنَ عَهْدِ آخِرِ مُلُوكِ السَّاسَانِيِّينَ وَأَوَّلِ
مُلُوكِ الصَّفَوِيِّينَ لِلْحُكَّامِ الْعَرَبِ. لِهَذَا يَنْبَغِي أَنْ نُدْخِلَ فِي
حِسَابِنَا أَيْضًا، وَنَحْنُ نَتَابِعُ التَّكْوِينَ الْعَامَّ لِلتَّرَاثِ الْفَنِّيِّ الْفَارِسِيِّ
الْقَوْمِيِّ، أَذْوَاقَ هَؤُلَاءِ الْحُكَّامِ وَاضْطِرَارَ الْفَنَّانِينَ إِلَى الْإِنْتِقَالِ مِنْ
بَلَاطٍ إِلَى آخَرَ، سَعْيًا وَرَاءَ الرِّزْقِ وَالرَّعَايَةِ. وَلَسَوْفَ يَكْتَشِفُ
الدَّارِسُ لِصَفَحَاتِ مَخْطُوطَاتِ مَقَامَاتِ الْحَرِيرِيِّ وَغَيْرِهَا مِنْ
مُنْعَزَاتِ الْقَرْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ، الْإِخْتِجَابَ الْمُؤَقَّتَ لِلْعَبَقَرِيَّةِ
الْفَارِسِيَّةِ، وَلَوْ بَقِيَتْ لَنَا كُلُّ الْأَعْمَالِ الْفَنِّيَّةِ فِي ذَلِكَ الْقَرْنِ
لَانْفَسَحَ أَمَامَنَا طَرِيقٌ جَلِيلٌ لِلرُّؤْيَا وَلِإِصْدَارِ الْأَحْكَامِ.

عَلَى أَنَّا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُؤَكِّدَ، بِرَغْمِ مَا سَفَّاهَ مِنْ تَحْلِيلِ
وَمُقَارَنَاتٍ، وَبِرَغْمِ مَا اسْتَفَرَّاهُ مُؤَرِّخُو الْفَنِّ وَمَا اسْتَنْتَجَوْهُ مِنْ
تِلْكَ الْأَثَارِ الْقَلِيلَةِ الَّتِي آلَتْ إِلَى عَصْرِنَا الْحَدِيثِ، أَنَّ لِلتَّصْوِيرِ
الْفَارِسِيِّ إِغْرَاءً خَاصًّا. فَمُنْذُ أَقْدَمِ عُصُورِ التَّارِيخِ وَهُوَ يَحْمِلُ
وَهْجًا شَرْقِيًّا فَرِيدًا، وَمَعَ كُلِّ مَا اسْتَوْعَبَ مِنْ تَأَثُّرَاتٍ عَدِيدَةٍ
ظَلَّتْ قَسَمَاتُهُ مُتَمَيِّزَةً، بَلْ لَقَدْ نَفَثَ مِنْ رُوحِهِ نَفْحَاتُ بَلَعَتْ مِنْ
فُنُونِ الْعَالَمِ كَثْرَةً، فَهُوَ وَاحِدٌ مِنْ أَقْدَمِ الْفُنُونِ وَأَكْثَرِهَا عِرَاقَةً
وَأَصَالَةً. وَمَعَ انْتِشَارِ الْإِسْلَامِ فِي إِيرَانَ، حَمَلَ هَذَا الْقَرْنُ
الْفَارِسِيِّ وَمَضَاتِ مِنْ إِشْرَاقَةِ الْإِسْلَامِ، وَتَدَقَّقَتْ فِي خَلَايَاهُ
نَبْضَاتُ مِنَ الْجِسَنِ الْعَرَبِيِّ، لَكِنَّهُ بَقِيَ فَنًّا فَارِسِيًّا مُتَمَيِّزًا رَغْمَ
إِشْعَاعِهِ كَوْنَهُ مِنْ وَجْهِ الْقَرْنِ الْإِسْلَامِيِّ.

الشَّاعِرِيَّةُ فِي التَّصْوِيرِ الْفَارِسِيِّ

عَلَى أَنَّ الْمُصَوِّرَ الْفَارِسِيَّ رَغِمَ ضَيْيقِ مَجَالِ «الْإِنْهَاءِ» أَمَامَهُ -
بِتَصْوِيرِ الْأَشْيَاءِ عَلَى نَحْوِ يُحْدِثُ وَهْمًا يُخَيِّلُ مَعَهُ إِلَى الْمُشَاهَدَةِ أَنَّ
الْأَشْيَاءَ حَقِيقَةً وَلَيْسَتْ مُجَرَّدُ رَسْمٍ - لِإِقْتِصَارِهِ عَلَى اسْتِخْدَامِ
الْبُعْدَيْنِ الْأَفْقِيِّ وَالرَّأْسِيِّ فَحَسَبَ، وَلِإِفْتِقَارِهِ إِلَى إِمْكَانِيَّاتِ التَّأَثُّرِ
بِوَاسِطَةِ الظَّلَالِ وَالْمَنْظُورِ وَالتَّجْسِيمِ، قَدْ وَفَّقَ فِي التَّعْبِيرِ عَمَّا يُرِيدُهُ
بِوَاسِطَةِ وَسَائِلٍ بَدِيلَةٍ، فَقَدْ كَانَ يُوحِي بِالتَّرَاجُعِ فِي الْفَرَاغِ عَنْ
طَرِيقِ وَضْعِ الْأَشْيَاءِ الْبَعِيدَةِ أَعْلَى الصُّورَةِ وَالْأَشْيَاءِ الْقَرِيبَةِ أَدْنَاهَا،
مَعَ رَسْمِ الْأَشْيَاءِ الْبَعِيدَةِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ أَكْثَرَ ضَالَّةً فِي حَجْمِهَا
مِنَ الْأَشْيَاءِ الْقَرِيبَةِ. وَوَرَاءَ هَذَا النَّوعِ مِنَ الْقَرْنِ يَكْمُنُ الْخَيَالُ
الشَّرْقِيُّ الْعَرِيقُ الَّذِي يَنْظُرُ إِلَى مُشْكِلَةِ التَّصْوِيرِ نَظْرَةً تَخْتَلِفُ عَنْ
النَّظَرَةِ الْأُورُوبِيَّةِ، إِذْ تَضَعُ الْعَقْلِيَّةُ الشَّرْقِيَّةُ فِي اعْتِبَارِهَا دَائِمًا مَا
يَسْتَهْوِي الْمُشَاهِدَ، فَيُحَاوِلُ الْمُصَوِّرُ إِزْهَاصَهُ مُحَقِّقًا الْعَجَائِبَ
وَالْغَرَائِبَ وَالْمُعْجَزَاتِ الَّتِي تَبْدُو خَارِقَةً فِي نَظَرِ الْعَقْلِيَّةِ الْأُورُوبِيَّةِ

بِمَعَالِمِ خَاصَّةٍ، تَنْبَعُ مِنْ مُحَاوَلَةٍ تَأَكِيدُ طَائِعَ الْأَصَالَةِ الْهِنْدِيَّةِ مِنْ
نَاحِيَةٍ، وَمِنْ التَّأَثُّرِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي يَنْجَلِي أحيانًا مِنْ خِلَالِ الْإِيْحَاءَاتِ
الْأُورُوبِيَّةِ، وَمِنْ هُنَا قَدْ يَفْتَقِدُ الْبَعْضُ فِي الْفَنِّ الْهِنْدِيِّ الْمَعُولِي
الصفحات الفارسية المتألقة تألق الجواهر.

وَنَمَّةُ فَارِقِ حَاسِمٍ بَيْنَ كُلِّ مِنَ التَّصْوِيرِ الْفَارِسِيِّ وَالتَّصْوِيرِ
الصِّينِيِّ يَرْجِعُ إِلَى اخْتِلَافِ التَّكْوِينِ الدُّهْنِيِّ وَالْأُسْلُوبِيِّ لِلْفَنَّانِينَ
مِنْ نَاحِيَةٍ، وَإِلَى اخْتِلَافِ الْأَدَوَاتِ الَّتِي يَسْتَخْدِمُهَا الْمُصَوِّرُ
وَطَرِيقَةِ اسْتِعْمَالِهِ لِتِلْكَ الْأَدَوَاتِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى. وَفِي كُلِّ مِنَ
الْبَلَدَيْنِ احْتَلَّ «الْحِطُّ الْمُحَسَّنُ» مَكَانَةً أَرْفَعَ مِنَ التَّصْوِيرِ، حَيْثُ
كَانَ كُلُّ وَثَمَةٍ فَنًّا مُسْتَقِلًّا بِذَاتِهِ، وَإِنْ كَانَتِ الْفُرْشَةُ فِي الصِّينِ هِيَ
أَدَاةُ الْكِتَابَةِ وَالتَّصْوِيرِ مَعًا. وَقَدْ انْسَاقَ الْفَنُّ الصِّينِيُّ انْسِاقًا طَبِيعِيًّا
نَحْوَ اسْتِخْدَامِ تَدْرِجَاتِ الْأَخْبَارِ الْمَائِيَّةِ لِتَصْوِيرِ الْمَنْظُورِ مِنْ عَلًى،
وَذَلِكَ بِحُكْمِ اسْتِخْدَامِ الْفُرْشَةِ الْعَرِيضَةِ فِي أَغْلَبِ الْأَحْيَانِ، وَإِنْ
كَانَتِ الْفُرْشَةُ الرَّفِيعَةُ الْمَصْنُوعَةُ مِنَ الشَّعْرِ الدَّقِيقِ قَدْ اسْتَعْمِلَتْ فِي
التَّصْوِيرِ الرَّفِيقِ لِلشَّخْصِ خِلَالِ عُهُودٍ مُعَيَّنَةٍ. وَكَانَ لِيَوَلَّعِ الْفَنَّانِينَ
الصِّينِيِّينَ الْفَطْرِيُّ بِفَنِّ تَصْوِيرِ الْمَنَاطِرِ الطَّبِيعِيَّةِ الْفَضْلَ فِي خَلْقِ فَنِّ
تَصْوِيرِي يَنْتَقِلُ فِيهِ اللَّوْنُ الْوَاحِدُ مِنْ دَرَجَةٍ إِلَى أُخْرَى.

وَالتَّصْوِيرُ الْفَارِسِيُّ يُخَاطِبُ الْعَقْلَ أَيْضًا، ذَلِكَ أَنَّهُ يُعَلِّقُ أَهَمِّيَّةً
كُبْرَى عَلَى الشَّكْلِ، وَيُقِيمُ عِلَاقَاتَ زَمَنِيَّةٍ مَنْطِقِيَّةٍ وَجَمَالِيَّةٍ فِي
الْوَقْتِ عَيْنِهِ، فَيُرْبِطُ بَيْنَ الشَّبَابِ وَشَجَرِ السَّرْوِ، وَبَيْنَ وَجْهِ الْفَتَاةِ
وَالْقَمَرِ، كَمَا يَرِبُطُ بَيْنَ الْغَرَامِ وَسَمَاءِ اللَّيْلِ وَالْحَدَائِقِ الْمُسَوَّرَةِ.

وَلَقَدْ اكْتَمَلَ الطَّائِعُ الْمُتَمَيِّزُ لِلْمُنَمَمَاتِ الْفَارِسِيَّةِ عَلَى مَرَّ أَجْيَالٍ
طَوِيلَةٍ. وَإِنْ ظَلَّتْ تَفَاصِيلُ مُكَوَّنَاتِهِ غَامِضَةً لِإِعْدَامِ الْوُضُوحِ
الْكَافِي بِالنَّسْبَةِ لِشَأْنِهَا وَتَطَوُّرِهَا. وَيَعُودُ هَذَا الْعُمُوضُ إِلَى أَنَّ
بَقَايَا فُنُونِ التَّصْوِيرِ الَّتِي حَفَظَهَا لَنَا الزَّمَنُ وَقَاوَمَتْ عَوَاصِفَ
التَّثَنُّيَّةِ وَالْإِبَادَةِ خِلَالِ غَزَوَاتِ الْمَغُولِ، كَانَتْ أَشْبَهَ مَا تَكُونُ
يَمَا يَبْقَى مِنْ خُطَامِ سَفِينَةٍ مُهَشَّمَةٍ عَقِبَ خُمُودِ عَاصِفَةٍ عَاتِيَةٍ أَتَتْ
عَلَى أُسْطُولِ بَاسِرِهِ. وَمِنْ ثَمَّ فَمَا زِلْنَا نَجُوسُ فِي عَالَمِ الظَّنِّ
وَالْتَّخْمِينَ وَالتَّرَجُّجِ الَّذِي قَلَّمَا يُصِيبُ كَبِدَ الْحَقِيقَةِ، هَذَا إِلَى
تُدْرَةِ الْمَصَادِرِ الَّتِي تُعَيِّقُ اسْتِثْنَاءَ الْقَوَاعِدِ الْعَامَّةِ لِفُنُونِ تِلْكَ
الْفَتْرَةِ الْمُبَكِّرَةِ. أَمَّا الْقَلِيلُ الْمُبْقَى فَلَا يُوقِّرُ لَنَا سِوَى عَنَاصِرِ
مُتَفَرِّقَةٍ وَمُحَاوَلَاتٍ مُجْتَزَأَةٍ غَيْرِ مُحَدَّدَةٍ الْإِتْجَاهِ لَا تَكْفِي لِكُنِّي
نَتَابِعِ مِنْ خِلَالِهَا تَطَوُّرَ الْأُسْلُوبِ الْفَارِسِيِّ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ ثَمَّةَ عَبَقَرِيَّةٍ أَصِيلَةٍ فِي التَّصْوِيرِ الْفَارِسِيِّ مُسْتَمَدَّةٍ
مِنَ الْعَنَاصِرِ الْفَنِّيَّةِ السَّاسَانِيَّةِ وَمَا قَبْلَهَا. وَنَسْتَطِيعُ أَنْ نَتَلَمَّسَ دَلِيلًا
هُنَا وَهَنَاقَ مِنْ تَصَاوِيرِ مَشَاهِدِ الصَّيْدِ الْمُنْقُوشَةِ عَلَى صُخُورِ «طَاقِ
بِسْتَانِ» حَيْثُ يَسُودُ الْمَفْهُومُ التَّصْوِيرِيُّ أَكْثَرَ مِمَّا يَسُودُ الْمَفْهُومُ

فهو يلجأ إلى حيل جديدة إذا صادفته عَقَبَات في تصوّر مشهد متكامل مُتَعَدِّد الزوايا والأبعاد والأحجام والمستويات. وثمة تقليد شاع في جميع الفنون الآسيوية، وهو افتراض أن يتخيّل المتفرّج نفسه وكأنّه يتطلّع إلى المشهد من موقع مُرتفع حتّى لا يضطرّ الفنّان إلى رسم الشخوص أو الجماعات مُتراكِبة مُستخدِماً الحيل المألوفة في فنّ التّصوير. ومن الغريب أن تطلّ تلك الأساليب الأوليّة على حالها من دون تجديد أو تغيير في التّكوينات الفنّية الفارسيّة حتّى إبان نُضجها، فعلى حين نجد الفنّان يرسم المبنى وكأنّه يراه من علّ، تظهر بقيّة الصورة للعَيْن في مُستوى النّظر، أو من زاويتين مُختلفتين في آنٍ معاً، ولا يبدو أن هذا التّجانف بين الأسلوبين كان يُورّق الفنّان أو جمهور النّظارة الذين لم يُبالوا بأن تكون الصورة مطابقة مطابقة تامّة للأشياء كما تُرى، كما قنع الفنّانون بالتّعبير عن أنفسهم من خلال فنّ يخلو من دراسة أصول التّشريح وقواعد المنظور.

المُصوَّرات الرُّخرفيّة الإيضاحيّة

وأكثر مُنجزات التّصوير الفارسيّ «مُصوَّرات زُخرفيّة إيضاحيّة». وعلى الرّغم ممّا قد تُشعر به نحو عبارة «مُصوَّرات إيضاحيّة» من قِلّة الشّأن، إلّا أن كبار المُصوِّرين الإِنطاليّين غالباً ما كانوا من أصحاب المُصوَّرات الإيضاحيّة طيلة حياتهم الفنّية مُستلهمين موضوعاتهم من التّوراة والإنجيل ومن الأساطير والقصائد الشّعريّة. كذلك استلهم المُصوِّرون الفُرس موضوعاتهم من دواوين الشّعْر والملاحم البطوليّة والقصص الدّينيّ. ونَحْن حين نستخدم تعبّر «المُصوَّرات الإيضاحيّة» فإنّما نستخدم اصطلاحاً شكليّاً للدّلالة على الموضوع الذي نتناوله فحسب، ذلك أن الفنّان الموهوب يقصر اهتمامه كلّ على براعة تَصميماته ولا يُعير غيرها من الاعتبارات انثيائاً. فالفنّان المُبدع يبتّ في تَصميمه روحاً مُعبّرة عن قصّته، تتجلى في تشكيل صورتها، واختيار ألوانها، وتَحديد العلاقات بين مُكوّنات الصورة، بحيثّ تعكس موضوعه في إنقاف وفي قُدرة على تمثيل الشخوص وما يُحيط بها. وما من شكّ في أن التّصوير الفارسيّ التّاضح قد وصل إلى خلق هذا المزيج التّكوينيّ البديع، ومَرَد ذلك إلى أن الفُرس مَفطّورون على حُبّ الرُّخرفة. فمِثْل هذا التّكوين الذي يَعتَمِد على اتّساق أجزائه، وعلى التّحكّم فيها بحيثّ تبلغ الانسجام التّام هو أحد الغايات الفِطريّة لدى المُصوِّر الفارسيّ. وحتّى في التّماذج الهابطة التي قد ينحدر فيها مُستوى التّصوير إلى البراعة الرُّخرفيّة فحسب، نرى الفنّان فيها أيضاً يملك زمام التّصميم الرُّخرفيّ اللّونيّ، فهو لا يهدف إلى تصوّر الحَدَث تصوّراً حيّاً أو واقعيّاً.

المُدقّقة في اختيراتها لقوانين الطّبيعة: فيظهر المُصوِّر الفارسيّ مشاهد اللّيل في حين لا يسود الصّورة ظلام دامس، ويدفع النّجوم إلى التّألّق في مشهد حافل بضوء النّهار، كما يمنح نفسه أحياناً حرّيات أوسع من دون اكّثرات أو مُبالاة.

وإذ كانت المَدْرسة التّقليديّة الإسلاميّة تُنأى عن «الإيهام» وتولّع باللّون الصّافي المتألّق، فقد لجأ الفنّانون عند تصوّر اللّيل والنّهار إلى إشراقه السّماء الدّهية أو الزّرقاء التي تحتضن قُرص الشّمس المُشعّ للتّعبير عن النّهار وإلى ضوء المصابيح والشّموع الموقّدة وقُرص القمر للإيحاء باللّيل.

ولا مَفَرّ من الاعتراف بأنّ التّصوير الفارسيّ بعيدٌ عن الإدراك العقلائيّ لِثَبَات الأشياء المُصوَّرة، فالنّظرة الفارسيّة في جوهرها شاعريّة، تجد متعة في كلّ ما هو عجيب باهر، وهي مُتسامحة تقبل ما لا يُسلّم به العقل، فالمُصوِّر يحشد في مشاهد ما يُرضيه ويبعث البهجة في نفس المتلقّي، فنراه قد أعدّ لِحُلْفِيّته دائماً ربّوة مُرتفعة غالباً ما يُزيّنها بأجمات الثّباتات المُزهرة، وإذ كانت هذه الزّهور تَبعث على البهجة بِشَكلها الجميل فقد وهبها الفنّان من لدنّه حَجْماً كبيراً، بدون أن يخطر له أن يحيلها إلى مجموعة من البقع اللّونيّة الصّغيرة لأنّ حقيقتها في الواقع تبدو كذلك عن بُعد. ثمّ هو لا يتوانى عن أن يبرز بِجلاء مُنحدرات الجبال والتّلال في خِلْفِيّة الصورة بالتّلوّن الدّهبيّ للسّماء أو باللّون الأزرق الخالص. غير أن لهذه التّلال في مفهومه وظيفه أخرى هامّة هي أنّها تحرّره من رسم الشخوص كاملة، الأمر الذي يُضفي على الصّورة تأثيراً جدّ مُثير. ولهذا كلّها حيل بالغة المهارة، عرف كبار المُصوِّرين كيف يُؤلّفون بينها في وحدة متكاملة تُعطي للمُشاهد صورة أقرب ما تكون للواقع.

وليس المقصود بذلك أن أولئك الفنّانين قصدوا أن يكونوا فنّانين واقعيّين، فاختفاء الظّلال في حدّ ذاته من شأنه أن يُعبر، إلى حدّ ما، عن طابع مثاليّ، ويُعين على انثقال المشهد المُصوَّر خطّوة تُجاوز الانطباع الفعليّ على العَيْن. فباختفاء الظّلال والمُؤثّرات البيئيّة المُحيطة أعغى المُصوِّر الفارسيّ نفسه من مُحاولَة رسم مُعادل للمظاهر المُعقّدة، مرّكّزاً جهوده على جمال التّصميم. وهكذا نجد في تصاوير الشّاهنامة مشاهد للمعارك لم يُفعل فيها المُصوِّر أدقّ تفاصيل الدّماء المُسفوكَة، إلّا أن إغفاله قواعد المنظور والظّلال، يُهيّء له تجاوز الواقع الأصليّ بِخطّوة، فلا تبدو هذه التفاصيل البَشعة مُثيرة للاشمئزاز إذ إنّهُ عَمَد إلى تَصميم عناصر الصّورة في شكل زُخرفيّ بَحَث.

ولا ريب أن الفنّان إنسان يَتميّز بالقُدرة على الابتكار، ومن ثمّ

التلونين في التصوير الفارسي

الفارسي الجبر في رسومه إلا فيما ندر. ويتجلى الخلاف كذلك بين كلا الفئتين فيما يُسمى بمفهوم «الفراغ»، فعلى حين حقق التصوير الصيني في فترات نُضجِه تمثيل الفراغ المحيط بلا حدود. اقتصر الفراغ عند المصور الفارسي على الميدان المحدود الذي تجري فيه الأحداث المصورة.

وإذا كان «بسكال» قد ذكر يوماً أن هناك ثلاثة مداخل إلى الإدراك هي الحسي والعقلي والوجداني، فإننا نجد «بازيل جري» يبري في حماس قائلًا إن المنمنمات الفارسية تملك النفاذ إلى الإدراك عبر هذه المداخل الثلاثة جميعًا، ذلك أنها تستخدم اللون استخدًا بالغ الذكاء يتميز باختيار القدر الملائم ودرجة الصفاء المناسبة إشباعًا أو شحوبًا، قوة أو ضعفًا، وتنوع الألوان المستخدمة فيها تنوعًا بالغ الثراء، فهي تضم الذهبي والفضي والأزرق والأحمر القرمزي.

وكانت الألوان في التصوير الفارسي مصدر متعة حسية قلما نجد لها ضريبًا في مدرسة أخرى من مدارس التصوير، فقد قصد بها ملكوت مجرد لا ينتمي إلى فنون الفراغ، مثلها في ذلك مثل الموسيقى. فليس من المستبعد إذا أن يتمتع المصور بحق اختيار ألوانه ومزجها بغض النظر عن ترتيبها في الطبيعة، ثم تسبقها بحيث تولد فيما بينها «توافقًا» يهب العين متعة، و«التوافق» [أو الهارمونية] - كما نعرف - تعبير موسيقي. والألوان لا تمنح العين متعة عضوية فحسب بل تُيسر لها إشباعًا وجدانيًا ورونيًا عاطفيًا، وهو تعبير موسيقي آخر. إن اللون يخلق بنا في عالم حسي بحث يتجاوز العالم الذي تنقلنا إليه الموسيقى، ذلك أنه يسهل تركيب «سلم» الأصوات وكذا تنظيمها في ألحان وتوافقات وطباقات في دقة رياضية تخضع لقواعد ثابتة، على حين أن اللون يظل عصيًا على مثل هذا التنظيم، ولا يبقى غير التقدير الذاتي فارس ميدانه.

يقول ديلاكروا إن بعض التوافقات اللونية يمكن أن تتمحور عنها إحساسات لا تستطيع أنغام الموسيقى بلوغها، فتمتد انطباع يترتب على تسويق معين للألوان يمكن أن ندعوه «موسيقى الصورة» بحيث يأسرنا مثل هذا التوافق الساحر من قبل أن ندرِك مغزى ما تمثله الصورة. وما أكثر ما تدفع هذه العلاقات الفاتنة بين الألوان المرء إلى أن يحلم بالتوافقات والألحان، كما يندو الانطباع المتخلف عن مشاهدتها موسيقيًا. وهكذا يخاطب اللون الحس مباشرة من دون وسيط من الملكات العقلية، فاللون ليس مجرد عايل مساعد في ميدان التصوير، بل هو عايل له استقلاله الذاتي، عايل يمكن تشبيه أثره بأثر الموسيقى.

إنطوت المنمنمات الفارسية على نظم لوني فريد يضم «تكوينات لونية» يؤلف منها المصورون مجموعات مذهلة من تدرجات الألوان البسيطة التي لا تتعدى لونين أو ثلاثة، تقدم في النهاية عنقيد لونية ينتقل فيها البصر من وحدة لونية إلى أخرى، مما يحرك الإعجاب بها مفردة ثم متعاقبة مع الوحدات الأخرى مسهمة كلها في التكوين العام للوحة.

ولم يقتصر الفنان الفارسي في اختياره للألوان وتوزيعها على الهدف الزخرفي وحده، بل تعداه إلى أهداف أخرى مثل التعبير عن المزاج النفسي. فقد كان يوحى بتوتر المعارك بالتوزيع المتناثر للألوان، كما كان يوحى باستخدام عواطف العشاق وخلعة الليل باللونين الأحمر والأزرق العميقين، على حين كان يحرك الإحساس بالرغب في عالم غير واقعي يضم اللونين الأحمر والبرتقالي إلى اللونين الأصفر والبنفسجي.

لقد وفق المصور الفارسي الذي اعتاد مناخًا يسوده ضوء الشمس الساطع والجو الصافي الرائق إلى استخلاص ذلك الجمال الأخاذ الذي ينفرد به وتلك الأبهة التي توشيه، من تجنُّه السماح لأي ظلال بأن تشوب الدرجات الثقية للون، ثم من استخداده البارز لأكثر الألوان نضوعًا، مع قدرته على التوحيد بينها توحيدًا يسوده الانسجام، فليس ثمة فن غيره قد استخدم الألوان بمثل هذا الحشد والتألق.

أما قدرة التصوير الفارسي على النفاذ إلى الإدراك عبر الوجدان فهي سيمته الخاصة التي تُفرد له مكانًا جديرًا به بين فنون التصوير العالمية، ذلك أنه يتميز بقدرة على نقل الشحنة العاطفية التي يطرحها أحد المواقف إلى حس المشاهد مستخدمًا كل عناصر التلون والتشكيل والتعبير. إنه لا يترك اللون مجرد عنصر حسي بل يصهره ضمن خطة تامة التألف والانسجام تهر العين كما تطلق الخيال وسط عالم شاعري نابض بالسحر والجمال.

وبينما اعتمدت الألوان الصينية على البروز الرهيف ذي الألوان الخافتة الذي يوقره الحرير أو الورق، وعلى المساحات غير الملونة التي تمثل جزءًا متكاملًا من تصميم الصورة، نجد الفنان الفارسي يحشد أروية صورته كلها باللون المركز تركيزًا شديدًا أحيانًا، أو يحكم الثبائبات الحادة المتوهجة التي تخضع لتناغم شامل أحيانًا أخرى. وثمة خلاف واضح بين المصور الصيني وزميله الفارسي فيما يتعلق بتلون السماء، فأولهما نادرا ما استخدم اللون الأزرق في تلوينها، كذلك لم يستخدم الفنان

صَفَلُ الْمُنْمَنَات

وكان الفنان إذا ما فَرَّغَ من رَسْمِ الْمُنْمَنَةِ وتَلَوْنِهَا وتَذْهِيبِهَا أو تَقْضِيصِهَا أَلْقَى عَلَيْهَا نَظْرَةً نافِذة تَسْتَهْدِفُ الْجُودَةَ وَالْإِجَادَةَ سِوَاهُ بِالإِضَافَةِ أَوْ التَّصْحِيحِ، وَلَا يَقِفُ مِنَ الْمُنْمَنَةِ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، بَلْ مَا يَلْبَثُ أَنْ يَشْرَعَ فِي تَخْطِيطِ هَوَامِشِهَا وَتَجْمِيلِهَا بِرَسْمِ إِطَارٍ مِنَ الزُّخَارِفِ التَّوْرِيقِيَّةِ أَوْ الْحَيَوَانِيَّةِ، ثُمَّ يَتَّبِعُ ذَلِكَ بِصَقْلِهَا بِمِصْقَلَةٍ مِنَ الْعَتِيقِ أَوْ بِبَيْضَةِ الْبُلُورِ أَوْ بِأَدَاةٍ شَبِيهَةٍ ذَاتِ سَطْحٍ أَملَسَ، حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْمُنْمَنَةُ تَنْوَهَجَ نَقْلَهَا إِلَى مَكَانِهَا الْخَاصِّ فِي أَحَدِ الْأَلْبُومَاتِ [مِصْمَ الصُّورِ أَوْ الْمُرْقَعَةِ] أَوْ يَتْرَكُهَا فِي مَكَانِهَا بِمَخْطُوطِهَا.

وإذا كانت فارس لم تبخل على فَنِّهَا بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ تُذْبِيبُهَا وَتُحِيلُهَا سَائِلًا يُشَكِّلُ خُطُوطَ الرِّسْمِ وَالكِتَابَةِ الزُّخْرَفِيَّةَ، فَقَدْ كَانَتْ إِلَى جَانِبِ ذَلِكَ تَهْتَمُ بِالزُّورَقِ الَّذِي تَسْتَخْدِمُهُ لِلتَّصْوِيرِ اهْتِمَامًا بِالْعَا وَتَعْنَى بِإِعْدَادِهِ كَيْ يُبْرِزَ جَمَالَ الرِّسْمِ وَيُعِينَ عَلَى حِفْظِهِ وَتَحْلِيدِهِ، وَمَا تَرَالِ لُوحَاتِهِ بَاقِيَةً حَتَّى الْيَوْمِ يُشْرِقُ جَمَالُهَا وَرَوْقُهَا رُغْمَ مُرُورِ خَمْسَمِائَةِ عَامٍ عَلَى إِنْجَازِهَا.

وَجَعَلَتْ فَارِسُ مِنْ مَخْطُوطَاتِهَا زَوَائِعَ فَنِّيَّةٍ جَمَلَتْهَا إِلَى جَانِبِ الْمُنْمَنَاتِ الَّتِي تُصَوِّرُ النَّصَّ الْمَكْتُوبَ بِتَزْوِيقِ هَوَامِشِ الصَّفَحَاتِ بِأَعْمَالِ تَذْهِيبٍ فَرِيدَةٍ وَبِتَرْقِيعَاتٍ رَهِيْفَةٍ تُشْمَلُ جُلِيَّاتِ عَنَاوِينِ الْمَوْضُوعَاتِ وَجُلِيَّاتِ الْفُقَرَاتِ الْفَرْعِيَّةِ وَالْفَوَاصِلِ وَالنِّهَايَاتِ، وَبِخَاصَّةِ تِلْكَ التَّرْقِيعَاتِ الَّتِي كَانَتْ تُجَمَّلُ النَّصُوصُ الَّتِي تَرَقَّرَتْ بِشَاعِرِيَّةٍ خَلَابَةٍ.

الرُّوحَانِيَّةُ فِي التَّصْوِيرِ الْفَارِسِيِّ

هُنَاكَ جَانِبٌ هَامٌ لَمْ يَتَنَاوَلْهُ الْفَنَّاانُ الْفَارِسِيُّ الَّذِي يَتِمَّعُ بِإِدْرَاكِ حِسِّيٍّ مُتَأَجِّجٍ، وَنَعْنِي بِهِ الْمَفْهُومَاتِ الرُّوحِيَّةِ كَمَا نَجَلَّتْ فِي أَعْمَالِ الْمُصَوِّرِينَ الْبُودِيَّيْنَ وَالْمَسِيحِيِّينَ شَرْقًا وَغَرْبًا. وَرُغْمَ ذَلِكَ فَلَا مَحَلَّ لِلْقَوْلِ بِأَنَّهُ لَيْسَ ثَمَّةَ فَنٍّ إِسْلَامِيٍّ دِينِيٍّ، فَمِنْ الثَّابِتِ وَجُودِهِ، غَيْرَ أَنَّ هُنَاكَ تَفَرُّقَةً هَامَةً. ذَلِكَ أَنَّ الْفَنَانَ قَدْ صَوَّرَ الْمَفْهُومَاتِ الرَّسْمِيَّةِ فِي الْفَنِّ الْبُودِيَّيِّ أَوْ الْمَسِيحِيِّ عَلَى أَنَّهَا أَخْدَاتُ رَمْزِيَّةٍ أَوْ تَجَسُّدَاتٍ لِلطَّاقَةِ الرُّوحِيَّةِ وَالْحِكْمَةِ وَالْجَمَالِ إِذَا انْتَصَلَتْ بِشَخْصٍ الْمَسِيحِ أَوْ بُودَا بِالذَّاتِ، وَمِنْ ثَمَّ اسْتَحَالَتْ الْمُنْجَزَاتُ الْفَنِّيَّةُ إِلَى وَسِيلَةٍ تَقْدِيسٍ وَتَبْجِيلٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَى عَامَّةِ النَّاسِ، بَيِّدَ أَنَّ فُنُونِ فَارِسِ الدِّيْنِيَّةِ لَمْ تَأْتِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ الَّذِي يُسَبِّغُ الْقَدَاسَةَ عَلَى لُوحَاتِ الْهَيَاكِلِ، وَانْحَصَرَتْ الْأَعْمَالُ الْفَنِّيَّةُ الدِّيْنِيَّةُ فِي أُمُورٍ أَرْبَعَةٍ هِيَ تَصْوِيرُ الْقَصَصِ الْمُقَدَّسِ، وَهَزْ الْمَشَاعِرِ بِكُلِّ مَا هُوَ قُدْسِيٌّ، وَتَصْوِيرُ الْمَوَاعِظِ وَالْعِبَرِ الَّتِي شَاعَتْ فِي كُتُبِ الصُّوفِيَّةِ، وَالتَّخْوِيفِ بِالنَّارِ وَالتَّرْغِيبِ بِالْجَنَّةِ وَحَثِّ النَّفْسِ عَلَى الطَّاعَةِ.

وَلَمْ يَتِمَّثَلْ جَلَالُ هَذَا الْمَفْهُومِ الدِّيْنِيِّ الْإِسْلَامِيِّ بِقَدْرِ مَا تَمَثَّلَ فِي تَصْوِيرِ قِصَّةِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِغْرَاجِ ذَاتِ لَيْلَةٍ رَائِعَةٍ مُوشَاةٍ بِالنُّجُومِ الْمُتَلَايِنَةِ، هَذَا الْمَوْضُوعُ الَّذِي أَوْحَى إِلَى الْفَنَّاانِيْنَ الْمُسْلِمِيْنَ بِصَفَحَاتٍ رَائِعَةٍ، فَغَدَّتِ الْأَرْضُ - الَّتِي تُعَدُّ بِالنِّسْبَةِ لِلْمُصَوِّرِ الْفَارِسِيِّ مُتَعَةً تَبَعَتْ فِي حَوَاسِّ الْإِنْسَانِ كُلِّ بَهْجَةٍ - رُكْنًا ضَمِيلاً فِي رُسُومِهِمْ، حَتَّى لَكَأَنَّهَا كُرَّةٌ صَغِيرَةٌ تَبْدُو سَابِجَةً بَيْنَ الْعَمَامِ وَالْفَضَاءِ الْحَافِلِ بِالنُّجُومِ، وَإِنْ لَمْ تَحُلْ، رُغْمَ ذَلِكَ كُلِّهِ، مِنْ بَعْضِ اللَّمَسَاتِ الْحِسِّيَّةِ.

وَقَدْ كَثُرَ الْجَدَلُ حَوْلَ تَحْرِيمِ تَصْوِيرِ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ - كَمَا فَصَّلْنَا مِنْ قَبْلُ - وَنَسَبَ الْبَعْضُ هَذَا التَّحْرِيمَ إِلَى الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ، الْأَمْرُ الَّذِي تَشْجِبُهُ كَثْرَةُ الْأَعْمَالِ الْفَنِّيَّةِ الْفَارِسِيَّةِ الْمُصَوَّرَةِ وَتَذَحُّضِهِ. وَلَا بَأْسَ مِنْ أَنَّ أَكْثَرَ هُنَا أَنَّ الْمُصَوِّرِينَ الْفَرَسَ لَمْ يَكُونُوا فَاتِرِي الْعَاطِفَةِ الدِّيْنِيَّةِ، أَوْ كَانُوا يَتَصَوَّرُونَ أَنَّهُمْ بِإِبْدَاعِهِمُ الْفَنِّيَّ يُخَالِفُونَ تَعَالِيمَ الْإِسْلَامِ، وَإِنْ كَانَتْ كَثْرَةُ رِجَالِ الدِّينِ هِيَ الَّتِي ضَاقَتْ بِالتَّصْوِيرِ فِي أَغْلَبِ الْأَحْوَالِ وَاسْتَهْجَنَتْهُ، وَمِنْ ثَمَّ فَلَمْ يَضْطَلِعْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِرِعَايَةِ الْفُنُونِ الْإِسْلَامِيَّةِ بَلْ اضْطَلَعَ بِذَلِكَ الْأُمَرَاءُ وَالْأَثَرِيَاءُ الَّذِينَ بَاتَ عَلَى الْمُصَوِّرِينَ وَالْفَنَّاانِيْنَ أَنْ يُرْضُوا أَذْوَاقَهُمْ. وَإِذَا كَانَ بَعْضُ مُؤَرِّخِي الْفَنِّ قَدْ عَابُوا عَلَى الْفَنَّاانِيْنَ الْأَوْرَبِيِّينَ أَنَّهُمْ خَضَعُوا طَوِيلًا لِسَيْطَرَةِ الْكَنِيسَةِ بِمَا حَدَّ مِنْ حُرِّيَّةِ انْطِلَاقِهِمْ وَبَاتَ أَغْلَبُ إِبْدَاعِهِمْ فِي خِدْمَةِ الْأَهْدَافِ الْكَنِيسِيَّةِ، فَقَدْ عَانَى الْمُصَوِّرُونَ الْفَرَسَ مِنْ أَنَّهُمْ لَمْ يَنَالُوا الْاعْتِرَافَ بِفَنِّهِمْ وَلَمْ يَلَاوُوا بِالتَّشْجِيعِ الْخَلَاقِ.

عَلَاقَةُ التَّصْوِيرِ الْفَارِسِيِّ بِالشَّعْرِ

وَإِذَا كَانَ التَّصْوِيرُ الْفَارِسِيُّ قَدْ خَلَا نِسْبِيًّا مِنَ الْمَفْهُومَاتِ الرُّوحِيَّةِ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ فِي مُعْظَمِهِ مُسْتَوْحَى مِنَ الشَّعْرِ. كَمَا تَمَيَّزَ بِمِشْحَةِ صُوفِيَّةٍ وَاضِحَةٍ. يَقُولُ نِيْكَلسُونُ فِي كِتَابِهِ «دِرَاسَاتُ فِي التَّصَوُّفِ الْإِسْلَامِيِّ»: «كَانَتْ أَفْضَلُ أَشْعَارِ الْعُصُورِ الرُّسْطَى فِي فَارِسَ - مِنْ حَيْثُ الْكَمِّ وَالْكَثْفِ - إِمَّا صُوفِيَّةً خَالِصَةً أَوْ مُتَأَثِّرَةً بِالْأَفْكَارِ الصُّوفِيَّةِ حَتَّى لَا يَكَادُ الْقَارِئُ يَفْهَمُهَا فَهْمًا تَامًا». وَكَانَ فَرِيدُ الدِّينِ الْعَطَّارُ وَجَلَالُ الدِّينِ الرُّومِيُّ وَسَعْدِيُّ الشَّيرَازِيُّ وَحَافِظُ الشَّيرَازِيُّ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ جَامِيٌّ مِنْ أَجْزَلِ شُعْرَاءِ الْفَرَسِ، وَإِنْ كَانَتْ أَشْعَارُ سَعْدِيِّ وَجَامِيٍّ هِيَ الَّتِي حَظَّتْ بِأَوْفَى قِسْطٍ مِنْ اهْتِمَامِ الْمُصَوِّرِينَ.

لَقَدْ كِيلَتْ عِبَارَاتُ الثَّنَاءِ وَالتَّقْرِيزِ لِلْمُصَوِّرِينَ الْفَرَسَ لِمَا يَتِمَّعُونَ بِهِ مِنَ الْجِسْمِيَّةِ الدَّقِيقَةِ الْمَشْبُوبَةِ، وَمَا مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ حَوَاسَّهُمْ كَانَتْ مَصْفُولَةً بِذَوْقٍ رَهِيْفٍ. وَلَكِنْ إِذَا كَانَ الشَّعْرُ الصُّوفِيَّ عَادَةً حَافِلًا بِالرَّمُوزِ الْمُعْبَّرَةِ عَنِ الْوَجْدِ الْعَاطِفِيِّ لِلْمُحِبِّ

المفهوم المسيحي أو البوذي قائمة بالفعل وإن جاءت مُقنعة.

التعبير عن الانفعالات

وقد يحدث ألا تستلقت أنظارنا التزعة الروحية في التصوير الفارسي لخلو هذا الفن من التعبير الصريح عن الشعور والوجدان، بينما درج الفن الأوربي على استخدام سمات الوجه كوسيلة للتعبير حتى بات يدهشنا أن يختفي أحياناً. وعلى الرغم من أن التعبير عن الانفعالات كان نادراً في التصوير الفارسي، إلا أنه مع ذلك فن يتميز بآثره الدرامي، إذ يتطوي على الموهبة المعبرة عن العلاقات المثيرة من خلال مكونات الصورة نفسها، سواء بتعارض ألوانها، أو بتباين نسب الشخص والعناصر بعضها إلى بعض من دون التعبير عن تلك العلاقات بالملايح العامة لشخصها. [أنظر الفصل الثالث: سمات التصوير الإسلامي].

والمحبوب وبالشهوة ومُتعة كأس الخمر، وإذا كان لهذا الشعر عادةً يساء تأويله، فقد مرّت فنون التصوير بهذه المرحلة نفسها، واتخذت هذا الطابع نفسه، فمن ذا يمكنه أن يحدد أين تندمج نشوة العين باللون والضوء وتأثير السماء والأزهار، بأعماق الرؤيا السابحة في صفاء الوجد الصوفي المتصل بمجاد الله في الأرض وجبروته في السماء؟ هكذا بدا الأمر مع المصورين الفرس... إستهواهم التأمل والاستغراق الصوفي فتوقروا على استظهار عظمة الخالق فيما يصورون من مخلوقات مهما رقت كوزقة الشجر، أو حبة الرمل، أو سنبلة القمح، بحيث استقر كل شيء في مكانه بكل ما يتطوي عليه من جلال لا نهائي، على نهج ما يشدو به شعراء الصوفية، على العكس من النظرة الأوربية التي تناولت فكرة «وحدّة الكون» من خلال المدركات العقلانية بدلاً من إجلائها عن طريق الحدس والبصيرة الصوفية. فالتزعة الروحية إذاً بغير

الفصل الثاني والعشرون

التصوير الفارسي في عهد الإيلخانات المغول

البُذُو الرُّحْل، وَلَمْ يَكُنْ يَرْبِطُهُم بِالْفَنِّ مَا يَزِيدُ عَلَى تَطْرِيزِ بَدَائِي لِحَافِي خِيَامِهِمْ بِبَعْضِ التَّصَاوِيرِ. وَلَمْ يَتَطَوَّرْ فَنُّ الْبَلَاطِ الْمَغُولِي لِسِنِينَ خَلَّتْ، غَيْرَ أَنَّ بَعْضَ مَوَرَّخِي الْفَنِّ أَشَارُوا إِلَى أَنَّ الْعَلَاَقَاتِ الْوُدِّيَّةَ الَّتِي كَانَتْ قَائِمَةً بَيْنَ «مَارِيَا پالولوجوس» الْبِيرَنْطِيَّةِ الْمَسِيحِيَّةِ زَوْجَةِ أَبَا قَا بَنِ هَوْلَاكُو وَبَيْنَ حُكَّامِ الْغَرْبِ الْمَسِيحِيِّ، وَأَنَّهُ قَدْ أَوْرَثَتْ فَنَّ ذَلِكَ الْبَلَاطِ تَأْثِيرَاتٍ مِنَ الْفَنِّ الْمَسِيحِيِّ، وَأَنَّهُ اسْتَمَرَّ زَمَنًا طَوِيلًا بَعْدَ مَوْتِهَا. كَمَا أَشَارَ الْبَعْضُ إِلَى أَنَّ ظُهُورَ الْخَانَ الْبُودِي «أَرْغُون» (١٢٨٤ - ١٢٩١) قَدْ فَتَحَ الطَّرِيقَ دُونَ شُكٍّ أَمَامَ الْمُؤَثِّرَاتِ الْفَنِّيَّةِ الْوَافِدَةِ مِنْ أَوَاسِطِ آسِيَا وَالصِّينِ. وَتَمَيَّزَتِ الْعَوَاصِمُ الْأُولَى الَّتِي أَقَامَ فِيهَا الْإِيلَخَانَاتِ وَالَّتِي غَدَتْ مُلْتَقًى لِلتَّقَاتِ الْوَافِدَةِ مِنْ مُخْتَلِفِ أَنْحَاءِ الْعَالَمِ بِنِظَرَةٍ تَسَامُحٍ شَمَلَتْ الْأَدْيَانَ عَلَى اخْتِلَافِهَا. وَظَلَّ ذَلِكَ التَّسَامُحُ سَارِيًا حَتَّى بَعْدَ أَنْ أَعْلَنَ «غَازَانَ خَانَ» (١٢٩٥ - ١٣٠٤) الْإِسْلَامَ دِينًا رَسْمِيًّا لِلدَّوْلَةِ. وَقَدْ اسْتَقْدَمَ «غَازَانَ» إِلَى «تَبْرِيز» كَثِيرًا مِنَ الْعُلَمَاءِ مِنْ مُخْتَلِفِ الْبِلَادِ، وَكَانَ ذَلِكَ بِدَايَةِ اسْتِقْرَارِ الْمَغُولِ فِي الْمُدُنِ وَإِنْشَائِهِمْ لِقُصُورٍ رَاضِيَةٍ الْبِنَاءِ.

وَقَدْ أَذَى اطِّرَادُ نَمَاءِ النِّظَامِ الْإِقْطَاعِيِّ إِلَى تَقْوِيضِ حُكْمِ خُلَفَاءِ هَوْلَاكُو بِإِيرَانَ، الَّتِي ظَلَّتْ قُرَابَةَ نِصْفِ قَرْنٍ، بَعْدَ سُقُوطِ هَذِهِ الْأُسْرَةِ، مَقْسَمَةً إِلَى دُوِّيَلَاتٍ مَحَلِّيَّةٍ صَغِيرَةٍ كَالدَّوْلَةِ الْمُطْفَرِّيَّةِ فِي فَارِسَ وَكِرْمَانَ، وَدَّوْلَةِ الْكُرْتِ فِي هَرَاةَ، وَدَّوْلَةِ الْخَلَايَرِيَّةِ فِي الْعِرَاقِ، إِلَى أَنَّ اجْتِنَاحَهَا تَيَمُورْلَنكُ فِي نِهَايَةِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ.

التصوير الصيني:

وَفِي زَمَنٍ مُعَاوِرٍ لِذَلِكَ الزَّمَانِ الَّتِي اتَّجَهَ فِيهِ هَوْلَاكُو إِلَى إِيرَانَ وَاسْتَوَلَى عَلَى عَاصِمَتِهَا بَغْدَادَ وَمُؤَسَّسًا أُسْرَةَ الْإِيلَخَانَاتِ، عَلَى مَا سَبَقَ ذِكْرَهُ، اتَّجَهَ أَخُوهُ قُوبَلَايَ خَانَ نَحْوُ الصِّينِ وَتَمَّ لَهُ غَزْوُهَا عَامَ ١٢٠٨ مَ وَأَسَّسَ أُسْرَةَ وَنَ الْحَاكِمَةَ، عَلَى أَنْقَاضِ أُسْرَةِ صُونِ، وَظَلَّتْ أُسْرَتُهُ فِي الْحُكْمِ حَتَّى عَامَ ١٣٦٧ مَ. وَبِذَلِكَ سَادَ

شَنُّ الْمَغُولِ عَلَى فَارِسَ غَارَاتٍ وَخَشِيَّةٍ خِلَالَ الْفَتْرَةِ مِنْ عَامِ ١٢٢٠ إِلَى عَامِ ١٥٢٨ مَ. انْتَهَتْ بِاسْتِيلَائِهِمْ عَلَيْهَا، بَعْدَ تَخْرِيْبِ شَمَلٍ عَدَدًا مِنْ مُدُنِهَا الرَّئِيسَةِ وَبَعْدَ إِفْنَاءِ جَمَاهِيرٍ غَفِيرَةٍ مِنْ سُكَّانِهَا. حَتَّى غَدَتْ فَارِسَ مُجْرَدَ وِلَايَةٍ تَنْحَكِمُ فِي أُمُورِهَا بَعْضَ الْفِيَالِقِ مِنَ جُيُوشِ الْاِخْتِلَالِ الْمَغُولِي. غَيْرَ أَنَّ الْإِرْهَابَ لَمْ يَفْلَحْ فِي قَرْصِ الْاِسْتِيسْلَامِ عَلَيْهَا. وَتَوَالَتْ الثُّورَاتُ تَتْبَعُهَا الْمَذَابِحُ حَتَّى انْتَشَرَ الْخَرَابُ وَكَثُرَتِ الضَّحَايَا مِمَّا حَالَ بَيْنَ أَهْلِهَا وَبَيْنَ إِعَادَةِ بِنَاءِ مَا تَهْدَمُ مِنْ مُدُنِهَا أَوْ إِصْلَاحِ مَا تَلَفَ مِنْ شَبَكَةِ رِيِّ حُقُولِهَا. وَجَاءَ نَصِيبُ الْمَكْتَبَاتِ مِنَ الْخَرَابِ فَادِحًا بِمَا أَوْدَى بِجَمِيعِ مُقْتَنِيَاتِهَا. وَغَدَا مِنَ الْعَسِيرِ أَنْ نَعَثَ حَتَّى عَلَى مَخْطُوطٍ وَاحِدٍ مُزَيْنٍ بِالصُّوْرِ يَرْجِعُ تَارِيخَهُ إِلَى مَا قَبْلَ وَقُوعِ تِلْكَ الْكَارِثَةِ. وَمَا لَبَثَ الْمَغُولُ أَنْ أَيقِنُوا أَنَّهُمْ أَعْجَزُ مِنْ أَنْ يَحْتَفِظُوا بِسُلْطَانِهِمْ أَوْ أَنْ يَجْبُوا الضَّرَائِبَ مِنْ دُونِ الْاِسْتِعَانَةِ بِعَدَدٍ مِنْ أَبْنَاءِ الْبِلَادِ. وَمِنْ ثَمَّ اتَّخَذُوا لَهُمْ وَزَرَءَ وَمُوظَّفِينَ مِنَ الْفُرسِ، وَقَرَّبُوا بَعْضَ الطَّبَقَاتِ حَتَّى بَاتَتْ طَبَقَةٌ التَّجَارِ - فِي عَهْدِ «جَنْكِيزِ خَانَ» نَفْسَهُ - تَسْتَظِلُّ بِحِمَايَةِ خَاصَّةٍ بِوَضْعِهَا طَبَقَةً مُتَمَيِّزَةً تُؤَدِّي دَوْرًا هَامًّا فِي اقْتِصَادِ الْبِلَادِ. وَرُغِمَ التَّخْرِيْبُ الشَّامِلُ الَّذِي اجْتَنَحَ خُرَاسَانَ وَالْعِرَاقَ فَإِنَّ بَعْضَ الْمَنَاطِقِ قَدْ سَلِمَتْ مِنْهُ إِلَى حَدِّ مَا كَمِنْطَقَةٌ مَا وَرَاءَ النَّهْرَيْنِ، وَهِيَ مَرَاغَ طَبِيعِيَّةٍ تُحَاكِي مَوَاطِنَ الْمَغُولِ فِي أَوَاسِطِ آسِيَا. وَيُقَالُ إِنَّ الْأَمْنَ فِيهَا كَانَ مُسْتَبِيًّا إِلَى الْمَدَى الَّذِي تَسْتَطِيعُ مَعَهُ امْرَأَةٌ أَنْ تَمْضِيَ فِي الطَّرِيقِ آمِنَةً وَهِيَ تَحْمِلُ عَلَى رَأْسِهَا وِعَاءَ مِنْ ذَهَبٍ، عَلَى نَحْوِ مَا أَثْبَتَهُ «عَلَاءُ الدِّينِ الْجَوِينِي» الْمُؤَرِّخُ الْفَارِسِيُّ وَالْوَزِيرُ فِي عَهْدِ «جَنْغِيَايَ» ثَانِي أَبْنَاءِ جَنْكِيزِ خَانَ.

وَلَقَدْ تَوَلَّى الْخَانَ الْأَكْبَرَ مَانْجُو الْحُكْمَ عَامَ ١٢٥١، وَأَقَامَ فِي سَمَرْقَنْدَ عَامَ ١٢٥٥، وَأَسَّسَ أُسْرَةَ حَكَمَتْ فَارِسَ حَتَّى عَامَ ١٣٣٦ هِيَ أُسْرَةُ الْإِيلَخَانَاتِ. فِي عَهْدِهِ تَمَّتْ بَعْضُ الْإِصْلَاحَاتِ فِي الْغَرْبِ مِنْ إِيرَانَ الَّتِي سَبَقَ لِهَوْلَاكُو أَنْ وَطَّدَ لِنُفُوذِ الْمَغُولِ فِيهَا. وَلَمْ يَكُنْ الْمَغُولُ حَتَّى بِدَايَةِ عَهْدِ الْإِيلَخَانَاتِ قَدْ تَعَدَّوْا بَعْدَ حَيَاةِ

سَمَرَقَنْدَ فِي مَطْلَعِ الْقَرْنِ الثَّامِنِ الْمِيلَادِيِّ. كَمَا حَاكَى قَتَانُ
الْفُوسَ زَخَارِفَ الْحَرِيرِ الصِّينِيِّ الْوَارِدَةَ ضِمْنَ قَوَافِلِ تِجَارَتِهِمْ
الَّتِي كَانَتْ تَمْضِي عَبْرَ إِيرَانَ قَاصِدَةً بِلَادِ الشَّرْقِ الْإِسْلَامِيِّ.

وَكَمْ طَالَ إِعْجَابُ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ بِالْخَزَفِ الصِّينِيِّ ذِي
الْلَوْنَيْنِ الْأَزْرَقِ وَالْأَبْيَضِ فِي زَمَانٍ سَابِقٍ عَلَى الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ
لِصَلَابَتِهِ وَشَفَافِيَّتِهِ وَرَوْعَةِ تَشْكِيلِهِ. وَمَا لَيْتَ ذَلِكَ الْإِعْجَابُ أَنْ
اخْتَوَى زَخَارِفَهُ أَيْضًا. وَفِي سَامَرَا عُبُرَ عَلَى خَزَفٍ يَرْجِعُ إِلَى
الْقَرْنِ التَّاسِعِ شَبِيهِ بِالْخَزَفِ الصِّينِيِّ، وَفِي الْفُسْطَاطِ عُبُرَ عَلَى
خَزَفٍ صِينِيٍّ، وَعَلَى خَزَفٍ مِصْرِيِّ يَنْتَمِي إِلَى الْعَصْرِ الْفَاطِمِيِّ
صُنِعَ عَلَى غِرَارِ الْخَزَفِ الصِّينِيِّ. وَفِي إِصْفَهَانَ وَخِلَالَ الْعَهْدِ
الصَّفَوِيِّ شَاعَتْ مُحَاكَاةُ خَزَفِ السِيلَادُونِ الصِّينِيِّ الْمُزَجَّجِ
بِاللُّونِ. عَلَى هَذَا النِّحْوِ انْتَشَرَتْ مُحَاكَاةُ الزَّخَارِفِ الصِّينِيَّةِ عَلَى
الْخَزَفِ فِي مِصْرَ وَسُورِيَا وَتُرْكِيَا وَإِيرَانَ. وَلَعَلَّ الدَّافِعَ إِلَى هَذِهِ
الْمُحَاكَاةِ هُوَ إِعْجَابُ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ بِهَذِهِ الزَّخَارِفِ، وَمِنْ ثَمَّ
أُنْتِجَ الصَّنَاعُ هَذِهِ الْمُسْتَنْسَخَاتُ مَحَلِّيًّا تَلِيَّةً لِرِيزَادَةِ الطَّلَبِ عَلَيْهَا إِذْ
لَمْ تَكُنِ الْوَارِدَاتُ الصِّينِيَّةُ تَفِي بِحَاجَةِ السُّوقِ.

وَمَا مِنْ شَيْءٍ فِي أَنَّ ثَمَّةَ انْطِبَاعًا عَمِيقًا أَحَدَتْهُ التَّصْوِيرُ الصِّينِيُّ
عَلَى كِبَارِ رُؤَادِ الْفَنِّ الْإِسْلَامِيِّ مِنْ أَهْلِ فَارِسَ، إِذْ جَرَتْ الْعَادَةُ فِي
الْأَدَبِ الْفَارِسِيِّ أَنْ يَكُونَ مِغْيَاؤُ تَقْدِيرِ الْمُسْتَوَى الْفَنِّيِّ بِمُقَارَنَتِهِ بِالْفَنِّ
الصِّينِيِّ. وَتَضُمُّ مَكْتَبَةُ «طُوبِ قَاهِرَ سَرَايَ» بِاسْتِثْنَاءِ مَجْمُوعَةٍ مِنْ
الصُّوَرِ الصِّينِيَّةِ يَرَى الْبَعْضُ أَنَّ مِنْ بَيْنِهَا مَا يَنْتَمِي إِلَى الْقَرْنِ
الْخَامِسِ عَشَرَ، بَيْنَمَا يَتَجَلَّى فِي بَعْضِهَا الْآخَرُ الْأُسْلُوبُ
«التَّوْفِيقِي» الْمُهَجَّنُ حَيْثُ تَبَدُّو الشُّخُوصِ وَالْمَبَانِي فَارِسِيَّةِ الْمَنْهَجِ
تُوشِيهَا خَلْقِيَّاتٌ مِنَ الْمَشَاهِدِ الطَّبِيعِيَّةِ الصِّينِيَّةِ الْأُسْلُوبِ.

هَذَا التَّأثيرُ الْقَوِيُّ الَّذِي طَبَعَهُ الْفَنُّ الصِّينِيُّ عَلَى التَّصْوِيرِ
الْفَارِسِيِّ، وَبِخَاصَّةٍ فِي عَصْرِ الْإِيلَخَانَاتِ ثُمَّ الْعَصْرِينِ التَّيْمُورِيِّ
وَالصَّفَوِيِّ لِيَدْعُونَا إِلَى وَفَقَةٍ تَأْمَلِيَّةٍ نَحَاولُ أَنْ نَسْتَشْفِقَ مِنْ خِلَالِهَا
مَلَاحِظَ التَّصْوِيرِ الصِّينِيِّ وَفَلَسَفَتَهُ الْمُوجِبَةَ بِهِ.

يَنْظُرُ أَهْلُ الصِّينِ إِلَى التَّصْوِيرِ عَلَى أَنَّهُ أَسْمَى أَنْوَاعِ التَّعْبِيرِ
الْفَنِّيِّ. وَقَدْ يَبْدُو لَنَا التَّصْوِيرُ الصِّينِيُّ غَرِيبًا شَدِيدَ التَّخْوِيرِ لِأَنَّهُ لَا
يَلْتَزِمُ قَوَاعِدَ الْمَنْظُورِ وَلَا يَسْتَخْدِمُ تَقْنَةَ الْفَاتِحِ وَالذَّاكِنِ، فَالْفَتَّانُ
الصِّينِيُّ لَا يَحْرِصُ عَلَى تَسْجِيلِ الْأَثَرِ الْمُتَغَيَّرِ لِضَوْءِ الشَّمْسِ أَوْ
الظَّلَالِ، وَلَا يُعْنَى بِالتَّفَاصِيلِ الدَّقِيقَةِ لِلْمَوْضُوعِ الْمُصَوَّرِ، وَإِنَّمَا
يَحْرِصُ كُلَّ الْحِرْصِ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ الْمَشَاهِدَ عَلَى صِلَةٍ بِجَوْهَرِ
الْمَوْضُوعِ الَّذِي يَتَنَاوَلُهُ بِأَبْسَطِ السُّبُلِ الْمُمَكِّنَةِ، وَهَذَا بِاسْتِخْدَامِ
التَّصْوِيرِ الْمُبَاشِرِ بِلَمَسَاتِ الْفَرَشَةِ.

وَالتَّصْوِيرُ الصِّينِيُّ مُشِيرٌ لِلذِّكْرِيَّاتِ وَمُوجِّجٌ لِلْعَوَاطِفِ،

الْمَعُولُ خِلَالَ الْقَرْنَيْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ وَالرَّابِعِ عَشَرَ عَلَى إِمْبَرَاطُورِيَّةِ
مُتْرَامِيَّةِ الْأَطْرَافِ تَجْمَعُ مَا بَيْنَ حُدُودِ الصِّينِ وَإِيرَانَ، وَرُغْمَ أَنَّ
أُسْرَةَ الْإِيلَخَانَاتِ كَانَتْ حَاكِمَةً لِإِيرَانَ إِلَّا أَنَّ صِلَاتَهَا ظَلَّتْ وَثِيقَةً
بِأُسْرَةٍ وَنَّ مِنْ أَبْنَاءِ عُمُومَتِهَا حُكَّامُ الصِّينِ يَمَّا وَطَّدَ الْعِلَاقَاتِ
التَّجَارِيَّةَ بَيْنَ الْبَلَدَيْنِ وَأَتَاحَ لِلْمَدِّ الثَّقَافِيِّ الصِّينِيِّ الْأَوَّلِ مَكَانًا
مُتَمَيِّزًا فِي إِيرَانَ حَمَلَهُ إِلَيْهَا جَيْشٌ مِنْ كِبَارِ الْمُوَظَّفِينَ وَالْفَتَّانِينَ
وَالْحِرَفِيِّينَ الَّذِينَ اسْتَقْدَمَهُمُ الْمَعُولُ مِنَ الصِّينِ وَتُرْكِسْتَانِ الصِّينِيَّةِ
وَأَوَاسِطِ آسِيَا لِمُعَاوَنَتِهِمْ فِي إِدَارَةِ إِمْبَرَاطُورِيَّتِهِمْ فِي إِيرَانَ.

ثُمَّ دَارَ التَّارِيخُ مِنْ جَدِيدٍ وَهَبَّتْ أُسْرَةُ مِيْنُ فِي الصِّينِ وَقَوَّضَتْ
حُكْمَ الْمَعُولِ وَتَبَوَّأتْ عَرْشَهَا مُنْذُ سَنَةِ ١٣٦٨ حَتَّى ١٦٤٤ م. وَفِي
زَمَنِ مُعَاصِرِ أَطَاحِ تَيْمُورَلْتِكِ بِحُكْمِ الْمَعُولِ فِي إِيرَانَ وَأُسِّسَ
الْأُسْرَةُ التَّيْمُورِيَّةُ (١٣٦٩ - ١٥٠٠ م)، وَنَمَتْ بَيْنَ الْأُسْرَتَيْنِ
الْحَاكِمَتَيْنِ الْجَدِيدَتَيْنِ أَوَاصِرُ الصَّدَاقَةِ وَالْوُدِّ، بَلَغَتْ أَوْجَهَا فِي
عَهْدِ شَاهِ رُخِ الْإِبْنِ الرَّابِعِ لِتَيْمُورَلْتِكِ (١٣٧٧ - ١٤٤٧).
وَيَسَّرَتْ تِلْكَ الْأَوَاصِرُ لِلْمَدِّ الصِّينِيِّ الثَّانِي أَنْ يَنْطَلِقَ، فَقَدْ أَرْسَلَ
قَتَانًا مُصَوِّرًا هُوَ غِيَاثُ الدِّينِ بَيْنَ مَبْعُوثِيهِ مِنَ السُّفَرَاءِ إِلَى إِمْبَرَاطُورِ
الصِّينِ وَكَلَّفَهُ بِتَسْجِيلِ مَا يَرَاهُ مُثِيرًا لِلْإِهْتِمَامِ خِلَالَ رِحْلَتِهِ. وَامْتَدَّ
هَذَا الْإِهْتِمَامُ بِالتَّصْوِيرِ الصِّينِيِّ إِلَى الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي تَنَاوَلَهَا الْأَدَبُ
مِمَّا أَسْفَرَ عَنْ تَأثيرِهِ الدَّائِبِ عَلَى التَّصْوِيرِ الْفَارِسِيِّ وَكَذَلِكَ عَلَى
التَّصْوِيرِ الْمَعُولِيِّ الْهِنْدِيِّ الَّذِي كَانَ يَقْفُو أَثَرَهُ. وَلَقَدْ عَدَّدَ الْجُغْرَافِيُّ
إِبْنُ الْوَرْدِيِّ فِي مُنْتَصَفِ الْقَرْنِ ١٥ الْفُنُونِ الَّتِي تَمَيَّزَ بِهَا أَهْلُ
الصِّينِ وَمِنْهَا: «الْخَزَفُ الصِّينِيُّ وَالتَّمَاثِيلُ الصَّغِيرَةُ الْمَخْفُورَةُ
وَتَصْوِيرُهُمُ الرَّائِعُ وَرُسُومُهُمْ لِلْأَشْجَارِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَالطَّيُورِ
وَالْأَزْهَارِ وَالْفَوَاكِهِ فِي مُخْتَلِفِ الْمَوَاقِفِ وَالْأَشْكَالِ حَتَّى لَكَأَنَّهَا
لَا يُعْوزُهَا غَيْرُ الرُّوحِ وَالتَّنْقُطِ».

وَلَقَدْ اسْتَقْبَلَ الْمُصَوِّرُونَ الْفُوسَ هَذِهِ الْأُصُولَ الْفَنِّيَّةَ عَنِ الصِّينِ
وَعَنِ الْبِلَادِ الْمُتَاخِضَةِ لِلْحُدُودِ الْفَارِسِيَّةِ، ثُمَّ غَدَتْ تِلْكَ الْأُصُولُ
خُصَائِصُ تَمَيَّزَ فُنُونِ التَّصْوِيرِ لَدَيْهِمْ. وَمِنْ هَذِهِ الْمَلَاحِظِ الْمُمَيَّزَةِ
هَالَةُ اللَّهَبِ الَّتِي تَتَّخِذُ شَكْلًا بَيَضِيًّا غَيْرَ مُنْتَظِمٍ الْخُطُوطِ يَبْدُو وَكَأَنَّهُ
شُعْلَةٌ نَارِيَّةٌ أَوْ ثُورَانِيَّةٌ، وَهِيَ الَّتِي اسْتَعَارُوهَا مِنْ تَمَاثِيلِ بُودَا فِي
آسِيَا الْوُسْطَى وَالصِّينِ بِمِثْلِ صُورَةِ بُودَا الصِّينِيِّ مِنَ الْقَرْنِ التَّاسِعِ
الْجَالِسِ فَوْقَ عَرْشِ اللُّوتُسِ حَامِلًا بِمِثْنَاهِ الصَّاعِقَةَ «فَاجِرًا» الَّتِي تُعَدُّ
الْمَصْدَرُ الْإِيْقُونُوغِرَافِيِّ لِلشُّعْلَةِ أَوْ هَالَةِ اللَّهَبِ، وَمِنْ تَحْتِ عَرْشِهِ
حَامِيَا الْعَقِيدَةِ الْبُودِيَّةِ وَهُمَا يَحْمِلَانِ هَالَتَيْنِ مِنْ لَهَبٍ فَوْقَ رَأْسَيْهِمَا.

وَلَمْ يَكُنِ التَّأثيرُ الثَّقَافِيُّ الصِّينِيُّ خِلَالَ تِلْكَ الْعُصُورِ قَدْ تَوَقَّفَ
عِنْدَ حُدُودِ إِيرَانَ بَلْ تَعَدَّاهُ إِلَى الشَّرْقِ الْإِسْلَامِيِّ كُلِّهِ، فَانْتَشَرَتْ
تُحْفُهُمُ الْفَنِّيَّةُ وَاقْتَنَاهَا الْأَثْرِيَاءُ وَحَاكَاهَا الْفَتَّانُونَ الْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ
كَانُوا قَدْ تَقَلَّوْا صِنَاعَةَ الْوَرَقِ عَنِ الْأَسْرَى الصِّينِيِّينَ حِينَ قَتَحُوا

أثرها الكبير على غيرها من الفنون سواءً تَجَلَّتْ في الصَّيْغِ الرَّخُفِيَّةِ التي تُزِينُ أدوات الطُّقُوسِ الدِّينِيَّةِ البرونزية في تَمَثِيلِ انْسِيَابِ الثَّيَابِ على أسطُحِ المَنْحُوتَاتِ البُودِيَّةِ أَمْ في زَخَارِفِ الْأَوَانِي المَطْلِيَّةِ بِاللَّكِّ^(١) أَوْ الخَزَفِيَّاتِ أَوْ المِينَاءِ المَحْجَرَةِ^(٢)، فَحَرَكَةُ الخَطِّ الإِنْفَاعِيَّةِ التي تُجَارِي حَرَكَهَ يَدِ الْفَنَّانِ فِيهَا جَمِيعًا هِيَ الَّتِي تُحَدِّدُ الشَّكْلَ، وَهِيَ الَّتِي تُضْفِي عَلَى الْفَنِّ الصِّينِيِّ عَامَّةً مَا يَتِمَّعُ بِهِ مِنَ اتِّسَاقٍ وَوَحْدَةٍ. وَلَقَدْ اقْتَضَى هَذَا الْجِسْنَ بِالْإِنْسِجَامِ فِي الْعَصُورِ الْمُوَعَلَةِ فِي الْقِدَمِ الإِدْعَانِ لِمَشِيئَةِ السَّمَاءِ وَذَلِكَ بِإِقَامَةِ الشَّعَائِرِ وَتَقْدِيمِ الْقَرَابِينِ، فَكَانَتْ هَذِهِ الْأَهْدَافُ هِيَ الَّتِي تُمَلِّي عَلَى الْفَنِّ خُطُواتَهُ، وَكَانَ مِنْ ذَلِكَ صُنْعُ أَوْعِيَةِ الْعَصْرِ الْعَتِيقِ البرونزية التي كَانَتْ تُقَدَّمُ فِيهَا الْقَرَابِينِ إِلَى السَّمَاءِ وَإِلَى أَرْوَاحِ الْأَسْلَافِ الَّذِينَ كَانُوا الصِّينِيُّونَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ إِلَهُمُ تَصْرِيفُ أُمُورِ حَيَاتِهِمْ.

وَلَقَدْ آمَنَ الْمُجْتَمَعُ الصِّينِيُّ الَّذِي كَانَ مُجْتَمَعًا زِرَاعِيًّا أَصِيلًا بِحَاجَةِ الْإِنْسَانِ إِلَى إِدْرَاكِ كُنْهِ الطَّبِيعَةِ مِنْ حَوْلِهِ وَمُعَايَشَتِهَا فِي

وَالصُّورَةِ الْمُتَقَنَّةِ هِيَ الَّتِي تُثِيرُ فِي الْمُشَاهِدِ الْمَشَاعِرِ وَالْإِنْفِعَالَاتِ نَفْسَهَا الَّتِي مَرَّ بِهَا الْفَنَّانُ عِنْدَ تَصْوِيرِهَا. وَلَيْسَ ثَمَّةَ صُورَةٍ لِمَنْظَرٍ طَبِيعِيٍّ صِينِيٍّ تُعَدُّ تَسْجِيلًا طَبِيعِيًّا لِأَيِّ مَوْقِعٍ جُغْرَافِيٍّ، وَإِنَّمَا هِيَ جَمْعٌ لِمَظَاهِرِ عِدَّةٍ وَقَعَتْ تَحْتَ بَصَرِ الْفَنَّانِ أَثْنَاءَ تَجَوُّلِهِ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ ثَمَّةَ بُرْزَانٍ يُحَاكِي شَكْلَ صَاحِبِهِ الْمُحَاكَاةَ كُلَّهَا، وَإِنَّمَا هُوَ عَادَةً تَمَثِيلٌ لِحُجُورِ الشَّخْصِيَّةِ الْمُصَوَّرَةِ. وَإِنْ مَنْ يُحَاوِلُ الْبَحْثَ عَنْ شَبَهٍ لِلشَّيْءِ الْمُصَوَّرِ فِي اللَّوْحَاتِ الصِّينِيَّةِ - وَلَا سِيَّما تَصَاوِيرِ حَقِيقَةِ أُسْرَةٍ صَوْنٍ - يَغِيبُ عَنْهُ الْهَدَفُ مِنْ تَصْوِيرِهَا الَّذِي لَا يُعْنَى فِي الْحَقِيقَةِ بِعَرُوضِ شَيْءٍ مَا بَلَّ بِتَقْدِيمِ جَوْهَرِهِ.

وَيَجْرِي التَّصْوِيرُ الصِّينِيُّ عَادَةً فِي الْمَرَامِسِ، إِذْ لَمْ يَتَّعَدِ الْمُصَوِّرُ الصِّينِيُّ أَنْ يَنْقُلَ عَنْ الطَّبِيعَةِ رَأْسًا، بَلْ هُوَ يَرْسُمُ جَمْلَةً مِنَ الْعُجَالَاتِ وَالذَّرَاسَاتِ إِلَى أَنْ يَكُونَ عَلَى يَقَّةٍ مِنْ أَنْ فَرُشَاتِهِ بَاتَتْ قَادِرَةً عَلَى إِثْقَانِ رَسْمٍ مَا يَشِدُّ، وَمِنْ ثَمَّ يَشْرَعُ فِي رَسْمِ لَوْحَتِهِ الْهَائِثَةِ - الَّتِي تَكُونُ مِنَ الذَّاكِرَةِ - فِي خُفَّةٍ شَدِيدَةٍ وَسُرْعَةٍ فَائِقَةٍ يَتَجَلَّى مَعَهَا جَمَالُ التَّصْمِيمِ وَالتَّكْوِينِ وَالتَّنَاغُمِ بَيْنَ الْخُطُوطِ وَالْأَلْوَانِ تَجَلِّيًّا بَارِزًا. وَلَمْ يَتَعَمَّدِ الْمُصَوِّرُ الصِّينِيُّ عَلَى الْمَنْظُورِ الْخَطِّيِّ، وَعَلَى الرُّغْمِ مِنْ هَذَا فَقَدْ كَانَ جِدًّا مُوقِفِيٍّ فِي بَغْتِ الْإِحْسَاسِ فِي الثَّقُوسِ بِالمَسَافَاتِ، وَتَجَلَّى هَذَا فِي رَسْمِهِ لِلْمُشَاهِدِ الْبَعِيدَةِ أَكْثَرَ مَا تَكُونُ ضَالَّةً بَعْدَ أَنْ يُجَبِّهَهَا التَّفَاصِيلُ، كَمَا نَجَحَ فِي تَمَثِيلِ الْفَرَاغِ بِالتَّقْرِيبِ بَيْنَ الْأَشْكَالِ الَّتِي فِي أَمَامِيَةِ اللَّوْحَةِ، وَالمُبَاعَدَةِ بَيْنَ تِلْكَ الَّتِي فِي خَلْفِيَّتِهَا فَيَرَاى لِلْمُشَاهِدِ أَنَّهُ يُطْلَقُ عَلَى الْمَشْهَدِ مِنْ عَلًى. وَيَتِمُّمَا كَانَ الشَّكْلُ الْإِنْسَانِي فِي الْفَنِّ الْأَوْرَبِيِّ الْمُؤْمِنِ بِالمَادِّيَّةِ هُوَ أَقْوَى الْأَشْكَالِ تَعْبِيرًا، كَانَتْ الْبُودِيَّةُ الْمُؤْمِنَةُ بِالرُّوحَانِيَّةِ وَبِالْخَلَاصِ مِنَ الْعَالَمِ المَادِّيِّ وَأَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَوِيَّةَ عَابِرَةٌ لَا غِنَاءَ فِيهَا وَأَنَّ الْجَسَدَ ثِقْلٌ عَلَى الرُّوحِ، لَا تُعَدُّ الشَّكْلُ الْإِنْسَانِي تَعْبِيرًا صَادِقًا، وَتُعْنَى بِالْجَوْهَرِ دُونَ الْعَرَضِ، وَمِنْ هُنَا تَجَلَّى أَثَرُهَا فِي تَشْكِيلِ الْقِيمِ الْجَمَالِيَّةِ الصِّينِيَّةِ.

وَالْمَعْرُوفُ أَنَّ فَنَّ الْكِتَابَةِ الْخَطِّيَّةِ وَالتَّصْوِيرِ الصِّينِيِّ هُمَا مِنْ ابْتِكَارِ وَزِيرِ الْإِمْبَرَاطُورِ الْأَصْغَرِ هَوَانْغِ تِي (٢٦٠٠ ق.م). وَكَانَتْ الْكِتَابَةُ الصِّينِيَّةُ الْأُولَى كِتَابَةً تَصْوِيرِيَّةً، وَأَغْلَبَ الظَّنُّ أَنَّ التَّصْوِيرَ وَالكِتَابَةَ كَانَا فِي مَبْدَأِ الْأَمْرِ شَيْئًا وَاحِدًا، فَقَدْ ظَهَرَتْ أُولَى الْكِتَابَاتِ الصِّينِيَّةِ حَوْلَى عَامِ ٢٠٠٠ ق.م أَوْ ١٨٠٠ ق.م، وَكُلَّمَا أَخَذَتْ الْكِتَابَةُ التَّصْوِيرِيَّةُ فِي الثَّرْوَةِ نَحْوِ التَّحْوِيرِ وَالتَّجْرِيدِ نَحَا التَّصْوِيرَ هَذَا الْمَنْحَى نَفْسَهُ وَدَلِيلُ ذَلِكَ أَنَّ الصِّينِيِّينَ اسْتَعْدَمُوا الْأَدَوَاتِ نَفْسَهَا فِي الْكِتَابَةِ وَالتَّصْوِيرِ. وَحَتَّى الْيَوْمَ يُعَدُّ فَنُّ الْكِتَابَةِ التَّصْوِيرِيَّةِ فَنًّا جَلِيلًا يَلِي التَّصْوِيرَ مُبَاشَرَةً فِي الْأَهَمِّيَّةِ. وَلَقَدْ كَانَ لِلْقِيمِ الْجَمَالِيَّةِ الَّتِي يَتَضَمَّنُهَا التَّصْوِيرُ وَالكِتَابَةُ التَّصْوِيرِيَّةُ

(١) اللَّكُّ، (Lacquer): مَادَّةٌ عُصُوبِيَّةٌ مِنْ إِفْرَازِ حَشَرَةٍ اسْمُهَا (tachardia). كَذَلِكَ تُسْتَخْلَصُ مَادَّةُ اللَّكِّ مِنْ عُصَارَاتِ رَاتَنْجِيَّةٍ صَمْغِيَّةٍ تَغْرِزُهَا بَعْضُ النَّبَاتَاتِ، أَشْهُرُهَا مَا يُسَمَّى (rhus verniciflua) وَمَوْطِنُهَا الصِّينُ، ثُمَّ اسْتُرْزِعَتْ فِيمَا بَعْدَ فِي كُورِيَا وَاليَابَانِ وَجَنُوبِ شَرْقِ آسِيَا وَالهِنْد. وَمِنْ خَصَائِصِ هَذِهِ الْمَادَّةِ أَنَّهَا إِذَا تَعَرَّضَتْ لِلْجَوِّ تَجَفَّتْ. وَإِذْ كَانَتْ شَفَافَةً اللَّوْنِ اسْتُخْدِمَتْ لِتَغْطِيَةِ وَحِفْظِ الزَّخَارِفِ الْمُلَوَّنَةِ وَالمُذَهَّبَةِ لِلأَوَانِي وَالتَّخَفِ الْخَشَبِيِّ بِصِفَةِ خَاصَّةٍ. وَهِيَ تَقُومُ بِدَوْرِ الطَّبَقَةِ الزُّجَاجِيَّةِ (glaze) فِي صِنَاعَةِ الْخَزَفِ. وَاسْتُخْدِمَ هَذَا الْأُسْلُوبُ بِالمِثْلِ فِي زَخْرَفَةِ الْوَرَقِ الْمُقَوَّى (papier machée) [الكرتون] وَفِي زَخْرَفَةِ بَعْضِ الْأَوَانِي المَعْدِنِيَّةِ. وَقَدْ صُنِعَتْ بِتَقْنَةِ الزَّخْرَفَةِ بِاللَّكِّ أَوَانِي خَشَبِيَّةٌ وَعَلَبٌ وَمَرَايَا وَمِقْلَمَاتٌ وَأَدَوَاتٌ لِلْكِتَابَةِ، فَضْلًا عَنْ قِطْعٍ مِنَ الْأَثْنَاءِ الْخَشَبِيَّةِ كَالْأَمِيرَةِ وَالْحَوَامِلِ. وَأَقْدَمُ أَنْوَاعِ الْأَوَانِي وَالْقِطْعِ الْخَشَبِيِّ الَّتِي اسْتُخْدِمَتْ فِيهَا هَذِهِ التَّقْنَةُ تَرْجِعُ إِلَى عَصْرِ أُسْرَةِ طَان (T'ang) فِي الصِّينِ.

وَشَاعَ اسْتِعْمَالُ هَذِهِ التَّقْنَةِ فِي جَنُوبِ شَرْقِ آسِيَا كُلِّهَا وَاليَابَانِ فِي الْفَتْرَةِ مِنْ الْقَرْنِ ١٦ إِلَى الْقَرْنِ ١٩. كَذَلِكَ اسْتُخْدِمَتْ فِي إِيرَانَ مُنْذُ الْقَرْنِ الْخَامِسِ عَشَرَ، وَزُخِرَتْ بِهَا أَغْلَفَةُ المَخْطُوطَاتِ وَبِصِفَةِ خَاصَّةٍ أَثْنَاءَ الْعَصْرِ الصَّفَوِيِّ وَعَهْدِ أُسْرَةِ قَاجَارِ.

وَالزَّاجِحُ أَنَّ هَذَا الْأُسْلُوبَ الْفَنِّيَّ انْتَقَلَ مِنَ الشَّرْقِ الْأَقْصَى إِلَى مِصْرٍ - كَمَا ذَكَرَ الْمُقْرِيزِيُّ - وَإِلَى سَمَرْقَنْدٍ مِنْ خِلَالِ انْتِقَالِ الصُّنَاعِ الصِّينِيِّ إِلَيْهَا فِي الْقَرْنِ الْخَامِسِ عَشَرَ، وَلِذَا اسْتَشْهَرَتْ فَارِسُ بِهَذِهِ التَّقْنَةِ الْفَنِّيَّةِ وَفَقْدَاكَ. [م.م.م. ث.].

(٢) المِينَاءُ الْمُحْجَرَةُ (cloisonné enamel): أُسْلُوبٌ لِلزَّخْرَفَةِ بِالمِينَاءِ الْمُحْجَرَةِ فِي زَقَائِقِ مَعْدِنِيَّةٍ أَوْ ذَهَبِيَّةٍ، وَيُسْتَخْدَمُ فِي الْحُلِيِّ وَالتَّخَفِ الْمَعْدِنِيَّةِ مِنَ الذَّهَبِ أَوْ الْفِضَّةِ أَوْ النُّحَاسِ أَوْ الْبُرُونِزِ. [م.م.م. ث.].

أعواد البوص [البامبو] التي تُشير إلى حِكْمَةِ الْعُلَمَاء لِيَجْمَعَهَا بَيْنَ الصَّلابة والمرونة ولِقَابِلِيَّتِهَا لِلتَّكْيُفِ والشَّكْلِ، إذ يُثَبِّت الحَكِيم على رَأْيِهِ كما يَلِين لِمُجَادِلِهِ من دون أَنْ يَتَخَلَّى عَنْ مُثُلِهِ وَمَبَادِيهِ. وَالتَّشْبُّبُ يَرْمِزُ هُوَ الْآخِرُ لِلطُّهْرِ والثَّقَاءِ وَعِصْيَانِهِ عَلَى التَّلَفِّ، وَيَرْمِزُ التَّنِينَ إِلَى مَا فِي الْإِمْبْرَاطُورِ من خَيْرٍ، وَطَائِرُ الْكُرْكِيِّ لَطُولُ الْعُمُرِ، وَالبَطُّ الْمُتَالِفُ أَزْوَاجًا لِيُوفَاءَ الْأَزْوَاجِ. وَشَاعَ بَيْنَ الرُّمُوزِ الْمُسْتَفَادَةِ مِنَ الثَّبَاتِ زَهْرَةُ «السَّحْلَبِ» رَمَزًا لِلطُّهْرِ والثَّقَاءِ، وَشَجَرَةُ الْبَرْقُوقِ الَّتِي تَزْدَهَرُ حَتَّى أَثْنَاءَ تَسَاقُطِ الْجَلِيدِ رَامِزَةً لِلثَّبَاتِ وَالِاسْتِقْرَارِ، ثُمَّ شَجَرَةُ الصَّنُوبَرِ ذَاتُ الْعُقْدِ الرَّامِزَةِ لِحِكْمَةِ الشَّيْخُوخَةِ الَّتِي لَا تَقْهَرُ. وَكَمَا اخْتَارَ الصِّينِيُّونَ مِنْ بَيْنِ الثَّبَاتَاتِ أَشْجَارَ الصَّنُوبَرِ وَالْبَرْقُوقِ وَالْخَوْخِ وَالْمَشْمَشِ اخْتَارُوا مِنْ بَيْنِ الطُّيُورِ اللَّقْلَقَ وَالبَطَّ وَالكُرْكِيَّ وَالْإِوَزَّ وَمَالِكَا الْحَزِينِ، وَصَوَّرُوها إِمَّا مُتَطَامِنَةً عَلَى الشَّجَرِ أَوْ مُحَلَّقَةً فِي الْفَضَاءِ.

وَكَانَ الْمُصَوِّرُونَ الصِّينِيُّونَ يُنْجِزُونَ لَوْحَاتِهِمْ عَلَى رُقْعٍ مُسْتَطِيلَةٍ مِنَ الْحَرِيرِ الثَّمِينِ وَأَحْيَانًا مِنَ الْوَرَقِ، تُثَبَّتُ فِي كِلَا طَرَفَيْهَا الْعُلُوقُ وَالسُّفْلِيُّ عَصَا أَسْطُوَانِيَّةٍ رَقِيقَةٍ مُسْتَعْرِضَةٍ مِنَ الْيَسْبِ الثَّقِيصِ أَوْ مِنَ الْعَاجِ تُطَوَّى اللَّوْحَةُ حَوْلَ إِحْدَاهُمَا عَلَى شَكْلِ أَسْطُوَانَةٍ، أَوْ يُمَسَّكُ بِإِحْدَاهُمَا مُسْتَعْرِضَةً فَتَنْسَدِلُ اللَّوْحَةُ وَتَبْدُو مَجْلُوءَةً لِلْعِيَانِ. وَبَعْضُ هَذِهِ اللَّوْحَاتِ كَانَتْ تَتَنَاوَلُ مَوْضِعًا أَوْ مَوْضِعَاتٍ مُتَتَابِعَةً بِحَيْثُ تَنْبَسِطُ تَذْرِيجِيًّا، يَتَطَّلَعُ

أَنْسِجَامُ، فَعَالَمُ الطَّبِيعَةِ هُوَ الْمَظْهَرُ الْمَرْئِي الدَّلَالُ عَلَى قُدْرَةِ الْخَالِقِ الْمُتَمَثِّلَةِ فِي الْإِنْجَابِ بَيْنَ ذَكَرٍ وَأُنْثَى. وَعَلَى مَرِّ الْأَيَّامِ تَحُولُ الْفَنِّ الصِّينِيِّ مِنْ صُنْعِ أَوَانِي الْقَرَابِينِ لِاسْتِزْضَاءِ الْقُوَى السَّمَاوِيَّةِ إِلَى التَّعْبِيرِ عَمَّا يُخَالِجُ الْإِنْسَانَ مِنْ إِحْسَاسٍ بِهَذِهِ الْقُوَى بِرَسْمِ الْمَنَاطِرِ الطَّبِيعِيَّةِ وَأَعْوَادِ الْبَامْبُو وَالطُّيُورِ وَالزُّهُورِ، وَهُوَ مَا يُسَمَّى «بِالْمَفْهُومِ الطَّائِي»^(١) لِلتَّصْوِيرِ الصِّينِيِّ.

كَذَلِكَ كَانَ لِلْفَنِّ فِي الْمُصَوِّرِ الْمُبَكَّرَةِ بِصِفَةِ خَاصَّةٍ وَطَائِفٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ وَخُلُقِيَّةٍ، إِذْ تَذَكُرُ الْمَصَادِرُ الْأَدْبِيَّةُ الْقَدِيمَةَ كَيْفَ كَانَتِ الصُّورُ عَلَى جُدْرَانِ الْقُصُورِ مَقْصُورَةً عَلَى الْأَخْيَارِ مِنَ الْأَبَاطِرَةِ وَالْوُزَرَاءِ وَالْحُكَمَاءِ وَالْقَادَةِ وَكَذَا خُصُومِهِمْ مِنَ الْأَشْرَارِ يَمَّا يُتَّخَذُ عِظَةً لِلْأَحْيَاءِ. وَعَلَى هَذَا التَّهَجُّجِ الْخُلُقِيِّ نَفْسُهُ كَانَتِ الْيُورْتِيَهَاتِ لَا تُعْنَى بِمَلَاحِجِ الْأَشْخَاصِ وَإِنَّمَا غَايَتُهَا جَوْهَرُهُمْ وَمَا يُؤَدُّونَهُ مِنْ وَاجِبَاتِ حَيَوِيَّةٍ فِي الْمَجْتَمَعِ، وَهُوَ مَا يُسَمَّى «بِالْمَفْهُومِ الْكُونْفُوشِيوسِيِّ الْأَخْلَاقِيِّ» لِلتَّصْوِيرِ الصِّينِيِّ.

وَمِنْ هُنَا كَانَ الْفَنِّ الدِّينِيِّ فِي حَقِيقَتِهِ شَيْئًا غَرِيبًا عَلَى الذُّوقِ الصِّينِيِّ، فَلَمْ تَكُنْ الْعَقَائِدُ السَّائِدَةُ مَصْدَرًا لِلْهَامِ لِلْأَعْمَالِ الْفَنِّيَّةِ الْعَظْمَى إِلَّا نَادِرًا، كَمَا كَانَتِ الْبُودِيَّةُ الْوَافِدَةُ الَّتِي أَثْمَرَتْ أَعْمَالًا فَنِّيَّةً رَاقِيَةً عَقِيدَةً أَجْنَبِيَّةً مُسْتَوْرَدَةً. وَكَانَ لِلصَّلَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ دَوْمًا شَأْنٌ عَظِيمٌ فِي الصِّينِ حَتَّى غَدَا ظُهِورِ جُمُوعٍ مِنَ الشُّخُوصِ مَعًا وَهُمْ فِي مَجَالِسِ الدَّرْسِ أَوْ مَوَاقِفِ الْوَدَاعِ الْحَازِّ أَوْ لِقَاءَاتِ الرُّسُومِيِّينَ الَّذِينَ كَانُوا يُطَوِّفُونَ فِي أَثْنَاءِ الْبِلَادِ طَوْلًا وَعَرْضًا مِنْ الْمَوْضُوعَاتِ الشَّائِعَةِ فِي التَّصْوِيرِ الصِّينِيِّ (لَوْحَةٌ ١٢٩ م). وَيَكَادُ الْفَنِّ الصِّينِيُّ يَخْلُو مِنْ مَوْضُوعَاتِ الْحُرُوبِ وَالْعُنْفِ وَالْمَوْتِ وَالْعُزِيِّ وَضَحَايَا الْاسْتِشْهَادِ، كَمَا أَهْمَلَ مَشَاهِدَ الْغَرَامِ، فَتَادِرًا مَا نَرَى صُورَ الْعَاشِقِينَ ضِمْنَ مَنَظَرٍ طَبِيعِيِّ، فِي حِينِ أَنَّ الْمُصَوِّرَ الَّذِي يُعْنَى بِتَصْوِيرِ الْأَشْكَالِ الْأَدْمِيَّةِ يُقَدِّمُ فِي الْغَالِبِ الْأَعْمَ صُورَ شُبُوحِ حُكَمَاءَ مُسْتَعْرِقِينَ فِي التَّأَمُّلِ (لَوْحَةٌ ١٣٠ م). كَذَلِكَ لَمْ تُرَسِّمْ الْكَائِنَاتِ غَيْرَ الْحَيَّةِ جَامِدَةً لَا تَبْضُ فِيهَا، إِذْ كَانُوا يُحْسِنُونَ أَنَّ الصُّخُورَ وَالْجَدَاوِلَ مَفْعَمَةً هِيَ الْآخَرَى بِالْحَيَاةِ وَأَنَّهَا رَمَزٌ لِمَا وَرَاءَهَا مِنْ قُوَى خَفِيَّةٍ. وَمِنْ هُنَا دَرَجَ الْفَنِّ الصِّينِيُّ عَلَى الْآلَا يَتَنَاوَلُ مَوْضُوعًا لَا يَنْهَضُ الرُّوحُ وَلَا يَرْقَى بِهَا أَوْ لَا يَكُونُ فِيهِ مَا يَفِضُ فِي النَّفْسِ سِحْرًا وَفِتْنَةً. كَذَلِكَ لَيْسَ ثَمَّةَ مَكَانٍ فِي الثَّقَالِيدِ الصِّينِيَّةِ لِفَنِّ يَهْتَمُّ بِالشَّكْلِ الْبَحْثِ مِنْ دُونِ أَنْ يَخْتَوِيَ عَلَى مَضْمُونٍ، فَلَا يَسْبِغُ الصِّينِيُّونَ عَمَلًا يَكُونُ الشَّكْلُ فِيهِ جَمِيلًا يَنْتَمَا يَخْلُو الْمَوْضُوعُ الْمُصَوَّرُ مِنْ فِكْرَةٍ تُثِيرُ الْوُجْدَانَ. وَلِهَذَا كَانَ الْفَنُّ الصِّينِيُّ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ فَنًّا رَمَازِيًّا لِأَنَّ كُلَّ مَا هُوَ مَرْسُومٌ يَعْكُسُ مَظْهَرًا مِنَ الْمَظَاهِرِ الْكَلْبِيَّةِ الَّتِي يُدْرِكُهَا الْفَنَانُ بِالْفِطْرَةِ، فَاحْتَشَدَ الْفَنِّ الصِّينِيِّ بِالرُّمُوزِ ذَاتِ الدَّلَالَاتِ، وَعَلَى رَأْسِ هَذِهِ الرُّمُوزِ

(١) الطَّائِيَّةُ: مَذْهَبُ فَلَاسِفِي صِينِي أَنْشَأَهُ «لَاوْتزو» عام ٦٠٤ ق. م، وَمَعْنَى «طَا» هُوَ الطَّرِيقُ الَّذِي تَشَقُّهُ الْأَحْدَاثُ فِي سَيْرِهَا وَتَتَالِيهَا الْمُنتَظَمِ. وَقَدْ جَعَلَ «لَاوْتزو» الطَّبِيعَةَ هَادِيًا وَمُرْشِدًا، فَهِيَ التَّامُوسُ الْعَادِلُ الَّذِي يُرَاحُ لَهُ الْعَقْلُ، فَقَدْ بَدَأَتْ الْحَيَاةُ عَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ هَيئَةً وَادِعَةً، ثُمَّ لَمْ تَلْبَثْ أَنْ تَعَقَّدَتْ مَعَ تَطَوُّرِ الْمَدَنِيَّةِ، لِذَا كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ الرَّجْعَةُ إِلَى الطَّبِيعَةِ وَالبُعْدُ عَنِ التَّصَدِّي لِمُجَرَّيَاتِ الْأُمُورِ. وَلِهَذَا كَانَتِ الطَّائِيَّةُ وَسِيلَةً لِلتَّأَلُّفِ وَالْإِنْسِجَامِ وَالتَّكَامُلِ وَالتَّعَاوُنِ. تَدْعُو إِلَى مَا يُحَقِّقُ الرِّخَاءَ وَالسَّلَامَ وَالْعَافِيَةَ. وَلِذَا كَانَ لِلطَّائِيَّةِ أَنْ يَتَخَفَّفَ وَمَا يَشْغَلُهُ مِنْ بَلْبَلَةٍ أَوْ قَلَقٍ أَوْ هَوَى زَائِفٍ مِنْ خِلَالِ تَأَمُّلَاتِهِ الصُّوفِيَّةِ. وَلَمْ تَكُنِ الطَّائِيَّةُ ذَاتَ نِظَامٍ يَجْنَحُ لِلتَّأَمُّلِ الرَّخِيِّ فَحَسْبُ، بَلْ تَنْهَجُ مِنْهَجًا عَمَلِيًّا فِي الْحَيَاةِ، وَإِذَا تَعَالَيْمُهَا تُصْبِحُ فِي الْقَرْنِ الْخَامِسِ ق. م، أَسَاسًا لِمَذْهَبِ دِينِي هُوَ الْعَقِيدَةُ الطَّائِيَّةُ لَهَا آلِئُهَا الْمُتَعَدَّدَةُ. غَيْرَ أَنَّهَا مَا لَبِثَتْ فِي مَرَاكِجِهَا الْأَحْيَاةِ أَنْ شَغِلَتْ بِالتَّوْفِيقِ الْمُسْرِفِ بَيْنَ الْعَقَائِدِ الْمُتَعَارِضَةِ. كَمَا عُثِرَ أَصْحَابُهَا بِالْبَحْثِ عَنْ إِطَالَةِ الْحَيَاةِ وَالْخُلُودِ، سِوَاةٍ عَنْ طَرِيقِ السَّحَرِ أَوْ الْإِهْمَامِ بِالسَّيْمِيَّاتِ، تَطَلُّبًا لِإِكْسِيرِ الْحَيَاةِ. وَفِي الْحَقِيقَةِ أَنَّ كُلَّ صِينِي هُوَ طَائِي، وَعَلَى حِينٍ تُعْنَى الْكُونْفُوشِيوسِيَّةُ بِالنِّظَامِ الْجَمَاعِيِّ وَالْعَمَلِ الدَّوْبِ. تُعْنَى الطَّائِيَّةُ بِحَيَاةِ الْفَرْدِ وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَسْرِي فِيهَا مِنْ سَكِينَةٍ (م. م. م. ث.).

الرّاسخة، جاء عُود الخَيْرَان «البامبو» في مُقدّمها، وَقَدْ اتَّخَذَهُ الصَّيْنِيُّونَ رَمْزًا لِلْإِنْسَانِ لِجَمْعِهِ بَيْنَ الصَّلَابَةِ وَالْمُرُونَةِ وَلِقَابِلِيَّتِهِ لِلتَّشَكُّلِ وَالتَّكْيُفِ، «فَالْإِنْسَانُ السَّوِيُّ» قَادِرٌ عَلَى الْإِنْجِنَاءِ أَمَامَ رِيَّاحِ الْمِخْنَةِ بِدُونِ التَّحَلِّيِّ عَنْ مُثْلِهِ وَمِبَادِيَّتِهِ، وَهُوَ الرَّمْزُ الَّذِي بَلَغَ مِنْ إِيمَانِ الْمُصَوِّرِينَ الصَّيْنِيِّينَ بِهِ أَنَّ أَحَدَهُمْ مَا كَانَ لِيَبْدَأَ فِي رَسْمِ أَعْوَادِ الْخَيْرَانِ حَتَّى يَفْقِدَ إِحْسَاسَهُ بِذَاتِهِ وَبِالْبَشَرِ وَكَأَنَّمَا قَدْ تَقَمَّصَتْهُ رُوحُ الْخَيْرَانِ (لَوْحَةٌ ١٣١ م). وَنَحْنُ إِذَا أَمَعْنَا النَّظَرَ فِيمَا نَلَحْظُهُ مِنْ حَشَائِشٍ وَشُجَيْرَاتٍ كَثِيرَةٍ غَرِيبَةٍ فِي التَّصْوِيرِ الْفَارِسِيِّ رَأَيْنَا أَنَّهَا لَا تَعْدُو أَنَّ تَكُونُ تَصْوِيرًا مُحَوَّرًا لِلْبَامْبُو. وَمَا أَكْثَرَ مَا اجْتَذَبَ «بَابَاتِ الْفُطْر» - الَّذِي صَوَّرَهُ الصَّيْنِيُّونَ عَلَى شَكْلِ الْكِلْيَةِ رَمْزًا لِلزَّوْجَةِ السَّعِيدَةِ الْمَدِيدَةِ - مُصَوِّرِي الْفُرْسِ فَحَوْرُوهُ وَحَشَوُا بِهِ فَرَاعَاتِ السُّحُبِ الْمُصَوَّرَةِ حَشَوًا.

وَكَمَا اخْتَارَ الصَّيْنِيُّونَ مِنْ بَيْنِ النَّبَاتَاتِ أَشْجَارَ الصَّنَوْبَرِ وَالْخَوْخِ وَالْمَشْمَشِ وَالْبَرْقُوقِ، اخْتَارُوا مِنْ بَيْنِ الطُّيُورِ اللَّفْلَقَ وَالْبَطَّ وَالْكُرْكِيَّ وَمَالِكَا الْخَزِينِ وَالْإَوَزَّ - عَلَى نَحْوِ مَا تَقَدَّمَ - وَصَوَّرُوها إِنَّمَا مُتَطَايِنَةً عَلَى الشَّجَرِ وَإِنَّمَا مُحَلَّقَةً فِي الْفَضَاءِ فِي شَاعِرِيَّةٍ اجْتَذَبَتْ مُصَوِّرِي الْفُرْسِ إِلَى مُحَاكَاتِهَا فِي مُنَمَّنَاتِهِمْ فَأَضْفَتْ عَلَيْهَا زَهَافَةً وَرِقَّةً وَجَعَلَتْهَا تَبْضُ بِالْحَرَكَةِ وَالْحَيَاةِ. وَهَكَذَا رَأَيْنَا فِي اللَّوْحَاتِ الْفَارِسِيَّةِ الْبَطَّ مُحَلَّقًا أَوْ سَابِحًا فِي مِيَاهِ تَمَوْجٍ سَطَحُهَا فِي أَنْصَافِ دَوَائِرٍ مُتَدَاخِلَةٍ عَلَى غِرَارِ الضَّفَائِرِ تَتَخَلَّلُهَا أَلْسِنَةُ الزَّرْبَدِ أَشْيَانًا فَتَزِيدُهَا جَمَالًا عَلَى سُنَنِ رُسُومِ الْخَرْفِ الصَّيْنِيِّ ذِي اللَّوْنَيْنِ الْأَبْيَضِ وَالْأَزْرَقِ (لَوْحَةٌ ١٣٩).

لَقَدْ نَجَحَ الْمُصَوِّرُونَ الصَّيْنِيُّونَ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ أَعَمِّ مَا فِي وَجْدَانِهِمْ مِنْ أَحَاسِيْسٍ يَغْلِبُ عَلَيْهَا الطَّابَعُ الرُّومَانِسِيِّ مِنْ خِلَالِ مَشَاهِدِ الطَّبِيعَةِ الَّتِي كَانُوا يُحِسُّونَ صِلَتَهَا بِعَالَمِ اللَّانْهَائِيَّةِ، وَيُحَاوِلُونَ تَسْجِيلَ تَأْثِيرَاتِ الضَّوْءِ الْمُخْتَلِفَةِ عَلَيْهَا مَعَ اخْتِلَافِ الْفُصُولِ وَظُرُوفِ الْمُنَاحِ الْمُتَغَيِّرَةِ. حَتَّى جَمَعُوا حَصِيلَةً هَائِلَةً مِنَ اللَّوْحَاتِ الَّتِي تُصَوِّرُ الْجِبَالَ وَالوُدْيَانَ وَالْأَنْهَارَ وَالْغَابَاتِ. وَتَبْدُو أَشْجَارُهُمْ مُتَأَلِّقَةً فِي الرَّبِيعِ، رَاعِشَةً فِي الشِّتَاءِ، شَامِخَةً مَعَ الْأَنْسَامِ الْهَادِئَةِ، مُنْحِنِيَّةً أَمَامَ الرِّيحِ، جَزْدَاءَ الْغُصُونِ، حَافِلَةَ الْجُذُوعِ بِالْعُقَدِ الَّتِي تَظْهَرُ بِشَكْلِ خَاصٍّ فِي شَجَرِ السَّقَرْجَلِ. وَتَكْشِفُ هَذِهِ الْحَصِيلَةُ الْغَزِيرَةَ مِنَ اللَّوْحَاتِ عَنْ قُدْرَةِ الْمُصَوِّرِ الصَّيْنِيِّ عَلَى التَّرْكِيزِ حَتَّى لَكَأَنَّهُ يُصَوِّرُ الْكَوْنَ مُوجَزًا فِي ذَرَّةٍ مِنَ الْغُبَارِ وَيُسْكَكُ الْفَرْدُوسَ كُلَّهُ فِي زَهْرَةٍ بَرِّيَّةٍ وَاحِدَةٍ. كَمَا تَكْشِفُ عَنْ عِبْقَرِيَّتِهِ فِي دِرَاسَةِ مَشَاهِدِ الطَّبِيعَةِ، وَاتِّقَاعِ الْجَوَانِبِ الْقَادِرَةِ عَلَى التَّأْثِيرِ فِي الْمَشَاهِدِينَ الْمُزْهَفِي الْجِسْنَ مِثْلِهِ، وَعَلَى تَأْكِيدِ الْأَنْطِبَاعَاتِ الَّتِي يُرِيدُ نَقْلَهَا لِمُشَاهِدِي لَوْحَاتِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا يَتَجَلَّى فِي تَغْطِيَتِهِ سُفُوحَ الْجِبَالِ بِالضَّبَابِ وَقِمَمَهَا بِالْغَمَامِ وَإِبْرَازِ

إِلَيْهَا الزَّائِي وَكَأَنَّهُ يَتَرَأَّى كِتَابًا تَتَوَالَى صَفَحَاتُهُ زَاخِرَةً بِالْفَنِّ وَالْجَمَالِ، وَإِذَا مَا انْتَهَتْ تَطْوَى مِنْ جَدِيدٍ. وَقَدْ أَطْلَقَ عَلَى هَذَا التَّنَوُّعِ مِنَ اللَّوْحَاتِ اسْمَ «مَآكِيمُونُو» أَيْ اللَّفَائِفِ الْمَطْوِيَّةِ. وَثَمَّةُ لَوْحَاتٍ أُخْرَى كَانَتْ تَعْدُ لِعَلْقِيقِهَا فَوْقَ الْجُدُرَانِ فِي مَنَاسِبَاتٍ بَعِيْنَهَا، ثُمَّ تَطْوَى مِنْ جَدِيدٍ وَتُعَادُ إِلَى صِنَادِيقِهَا الْمُعْطَرَّةِ حَيْثُ يَتَمَّ حِفْظُهَا. وَكَانُوا يُسَمُّونَ هَذَا التَّنَوُّعَ مِنَ اللَّوْحَاتِ «كَآكِيمُونُو» أَيْ اللَّفَائِفِ الْمُعْلَقَةِ.

وَقَدْ انْطَوَتْ لَفَائِفُ التَّصْوِيرِ الصَّيْنِيِّ عَلَى قِيَمٍ مَعْنَوِيَّةٍ تَعَكِّسُ أَعْبَادَ الْحَيَاةِ الرُّوحِيَّةِ، فَهِيَ تَدُورُ حَوْلَ مَشَاهِدِ الطَّبِيعَةِ مَعَ تَحْوِيرِهَا تَحْوِيرًا لَا يَتَّعِدُ بِهَا عَنْ قَسَمَاتِهَا الرَّئِيسَةِ، وَذَلِكَ بِرَسْمِ الْخُطُوطِ الْمُحَوَّلَةِ مَعَ الْجُرْصِ عَلَى تَنَاعُمِهَا فِي أَسْلُوبِ انْطِبَاعِيٍّ تَبَرَّزَ مَعَهُ أَهَمِّيَّةُ الْخُطُوطِ وَلِمَسَاتِ الْفَرَشَةِ مَعَ إِهْمَالِ وَاضِحٍ لِشَأْنِ الْإِنْسَانِ الَّذِي لَا يَشْغَلُ فِي هَذِهِ اللَّوْحَاتِ إِلَّا مَكَانًا ضَخِيلاً يُوحِي بِهَوَانِ شَأْنِهِ وَسَطِ الطَّبِيعَةِ الْعِمْلَاقَةِ الطَّاعِيَّةِ الَّتِي تَهْزُ الْمَشَاعِرَ بِسَطَوَاتِهَا وَأَنْفُسَاحِهَا، وَيُجْبِلُهَا الْمُدْبِيَّةُ وَقَدْ امْتَزَجَتْ قِمَمُهَا بِالْعُيُومِ، وَبِصُخُورِهَا الْمُتَلَوَّنَةِ عَلَى شَكْلِ الدَّوَامَاتِ، وَبِأَشْجَارِهَا ذَاتِ الْجُنُودِ الْحَافِلَةِ بِالْعُقَدِ (لَوْحَةٌ ١٣١ م). وَكَانَتْ أَزْرَعُ مَدَارِسِ التَّصْوِيرِ فِي عَهْدِ أُسْرَةِ «صُون» هِيَ مَدْرَسَةُ التَّصْوِيرِ بِالْمِدَادِ، غَيْرَ أَنَّ السَّادَةَ الْجُدُدَ مِنَ الْمَغُولِ مَا لَبَسُوا أَنْ أَجْهَرُوا عَلَيْهَا فِيمَا أَجْهَرُوا.

وَفِي عَهْدِ أُسْرَةِ «وَن» بُعِثَ «الْفَتَّانُ الْعَالِمُ الشَّاعِرُ الْخَطَّاطُ الْمُصَوِّرُ» مِنْ جَدِيدٍ، لِيَتَبَكَّرَ أَسْلُوبًا شَاعِرِيَّ الْإِيْحَاءِ بَارِعًا فِي تَصْوِيرِ أَلْسِنَةِ الْأَرْضِ الْمُمتَدَّةِ فِي الْبَحْرِ، وَالضَّبَابِ الْمُتَلَاشِيِ بِالتَّدْرِيجِ وَالْقِمَمِ الْمُحَلَّقَةِ وَالْمِسَاحَاتِ الشَّامِعَةِ. وَأَضَافَ الرُّهْبَانَ الْفَتَّانُونَ مِنَ الْبُودِيَّيْنَ إِلَى التَّصْوِيرِ الصَّيْنِيِّ أَلْقًا مِنْ بَصِيرَتِهِمُ النَّافِذَةِ الْبَاحِثَةِ عَنِ الْحَقِيقَةِ خَلْفَ الْمَرْتَبَاتِ، يَتِمَثَّلُ فِي لِمَسَاتِ فَرْشَاتِهِمُ الْقُوَّةَ الْخَاطِطَةَ الْمُعْبَّرَةَ خِلَالَ الْمِسَاحَاتِ الْمُصَوَّرَةِ بِالْأَلْوَانِ الْمَائِيَّةِ.

وَلَعَبَتْ تَقْنَةُ «الْمَنْظُورِ الْفَرَاعِيِّ دَوْرًا بَارِعًا فِي الْإِيْهَامِ بِالْفَرَاعِ عَنْ طَرِيقِ التَّدْرِجِ اللَّوْنِيِّ فِي رَسْمِ الْمَوْضُوعَاتِ الْمُتَرَاجِعَةِ إِلَى خَلْفِيَّةِ اللَّوْحَةِ بِمَا يَعْكُسُ الْجَوَّ الْعَامَّ، وَيَنْقَلِعُ إِلَى إِحْسَاسِ الْمَشَاهِدِ، كَأَنَّهُ يُصَوِّرُ الْفَتَّانَ مِسَاحَاتٍ مِنَ الضَّبَابِ تَحْجُبُ قِمَمَ الْأَشْجَارِ أَوْ سُفُوحَ الْجِبَالِ وَالصُّخُورِ فَتَكْتَفِ الْإِحْسَاسُ بِالْأَرْفَاعِ. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ تَمَيُّزِ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنَ الْأَشْجَارِ الْجَزْدَاءِ الْعَنْكَبُوتِيَّةِ الشَّكْلَ بِشَخْصِيَّتِهَا الْمُتَفَرِّدَةِ فَإِنَّ تَكَرَّارَهَا يُضْفِي طَابِعَ الْوَحْدَةِ عَلَى اللَّوْحَةِ كَكُلِّ (لَوْحَةٌ ١٣٢ م).

وَتَبَيَّنَ التَّصْوِيرُ الصَّيْنِيُّ - كَمَا تَقَدَّمَ - مَجْمُوعَةً مِنَ الرُّمُوزِ

الْفَنِّ الْفَارِسِيِّ - حَيَوَانٌ مُفْتَرَسٌ بَغِيضٌ. وعلى حين كان التَّيْنُ لَدَى الصَّيْنِيِّينَ رَمَزَ الرُّفْعَةِ، كان على الْعَكْسِ رَمَزًا لِلشَّرِّ لَدَى الْفَتَانِ الْفَرَسِيِّينَ. وَمَعَ أَنَّ هَذِهِ التَّمَاذِجَ كُلَّهَا كَانَتْ صِيْنِيَّةَ الْمَوْضُوعِ، إِلَّا أَنَّهَا حِينَ انْتَقَلَتْ إِلَى الْفَنِّ الْفَارِسِيِّ غَدَّتْ إِسْلَامِيَّةَ التَّقْنَةِ وَالتَّشْكِيلِ.

وتكشف بَعْضُ الْمُنَمَّمَاتِ مِنَ الْعَهْدِ التَّيْمُورِيِّ عَنْ اسْتِعَارَةِ أَشْكَالِ الرُّمُوزِ الصَّيْنِيَّةِ مُجَرَّدَةً مِنْ مَدْلُولِهَا الْأَصْلِيِّ، كَالزَّخَارِفِ الَّتِي تُزَيِّنُ الثِّيَابَ وَالْأَثَانَ وَالْعُرُوشَ وَالْمَوَائِدَ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ. وَثَمَّةُ شَوَاهِدٍ عَدِيدَةٍ عَلَى ضَخَامَةِ حَجْمِ اسْتِيرَادِ خَزَفِ الصَّيْنِ ذِي اللَّوْنَيْنِ الْأَبْيَضِ وَالْأَزْرَقِ إِلَى الشَّرْقِ الْإِسْلَامِيِّ مُنْذُ مُتَنَسَفِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ. وَيُرَجَّحُ أَنْتِجَهَاوَزْنَ أَنَّ هَرَاةَ كَانَتْ هِيَ مَرْكَزُ هَذَا الْإِتِّصَالِ الْوَلَوِيِّ بِالصَّيْنِ وَلَيْسَتْ تَبْرِيْزَ. غَيْرَ أَنَّ بَازِيلَ جَرَايَ يُشَكِّكُ فِي أَنَّ يَكُونُ لِمُجَرَّدِ الْجَوَارِ الطُّوبُوغَرَاْفِيِّ أَثَرٌ فِي التَّارِيخِ الْقَنِيِّ لِهُذِهِ الْفَتْرَةِ، وَأَيَّةُ ذَلِكَ أَنَّ الْأَمْرَاءَ التَّيْمُورِيِّينَ كَانُوا دَائِمِي التَّنَقُّلِ بَيْنَ عَوَاصِمِهِمُ الْمُخْتَلِفَةِ فِي سَمَرْقَنْدَ وَشِيرَازَ وَتَبْرِيْزَ وَإِصْفَهَانَ بِالإِضَافَةِ إِلَى هَرَاةَ.

كِتَابُ «مَنَافِعِ الْحَيَوَانِ»، مَرَاغَةَ ١٢٩٤ - ١٢٩٩ م.

مَكْتَبَةُ پيبربونْت مَورْجَان، نِيُوبُورْكَ،

يَرْجِعُ تَارِيخَ أَقْدَمِ مَخْطُوطِ مُصَوِّرٍ بَقِيَ لَنَا مِنْ كِتَابِ «مَنَافِعِ الْحَيَوَانِ» إِلَى عَصْرِ الْأَمِيرِ الْمَغُولِيِّ غَازَانَ مُحَمَّدٍ خَانَ (١٢٩٥)، وَهُوَ مَخْطُوطٌ مَكْتُوبٌ بِاللُّغَةِ الْفَارِسِيَّةِ، وَقَدْ تُرْجِمَ عَنِ النَّصِّ الَّذِي كَتَبَهُ بِالْعَرَبِيَّةِ الطَّبِيبُ الْمَسِيحِيُّ ابْنُ بَخْتِشُوعِ اسْتِجَابَةً لِمَطْلَبِ الْخَلِيفَةِ الْمُتَّقِيِّ عَامَ ١٢٩١ م.

وَلَا شَكَّ أَنَّ الشُّخْصَةَ الْعَرَبِيَّةَ الَّتِي نَقَلَ الْمُتَرْجِمُ عَنْهَا كَانَتْ تَتَّبِعُ أُسْلُوبَ مَدْرَسَةِ بُغْدَادَ فِي التَّصْوِيرِ مِثْلَهَا فِي ذَلِكَ مِثْلَ كُتُبِ الْحِكَايَاتِ الَّتِي بَقِيَتْ مِنَ الْقَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ. وَتَجَلَّى فِي مُنَمَّمَاتِ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ الْفَارِسِيَّةِ أُسْلُوبَانِ: فَبَعْضُهَا مِثْلُ لَوْحَةِ الْكَرْكَدَنَّ (لَوْحَةُ ١٤٢) شَكْلِيٍّ مُجَسِّمٌ يَتَّبِعُ أُسْلُوبَ مَدْرَسَةِ بُغْدَادَ، وَالبَعْضُ الْآخَرُ مِثْلُ لَوْحَةِ طَائِرِ السِّيمْرِغِ (لَوْحَةُ ١٣٣ م) مَشْحُونٌ بِالْخَيَالِ وَيَنْهَجُ نَهْجَ الْأُسْلُوبِ الصَّيْنِيِّ. فَبَدَّتِ الشُّخُوصُ فِي الْمَجْمُوعَةِ الْأُولَى مُصَوَّرَةً عَلَى مُسْتَوًى وَاحِدٍ، وَرُيِّمَتْ الثَّبَاتَاتُ عَلَى غِرَارِ الثَّبَاتَاتِ الْمُصَوَّرَةِ فِي مَخْطُوطَاتِ مَقَامَاتِ الْحَرِيرِيِّ وَكِتَابِ الْحَشَاشِ وَالْعَفَاقِيرِ لِديوسقوريدس الْمُتَفَذَّةِ فِي الْعِرَاقِ، عَلَى حِينِ تَبَدُّو الثَّبَاتَاتِ فِي الْمَجْمُوعَةِ الثَّانِيَةِ أَقْرَبَ إِلَى مَظْهَرِهَا الطَّبِيعِيِّ، وَيَرْتَدَّى سَطْحُ الْأَرْضِ فِي أُسْلُوبِ إِيْهَامِيٍّ عَلَى مُسْتَوَيَاتٍ مُتَرَاجِعَةٍ، وَيُقَدِّمُ الْمَنْظَرَ الْخَلَوِيَّ خَلْقِيَّةً لِمَوْضُوعَاتِ الصُّورَةِ، كَمَا نَشْهَدُ تَعَدُّدَ الْعَنَاصِرِ الزُّخْرُفِيَّةِ الصَّيْنِيَّةِ مِثْلَ لَفَائِفِ

الرُّبْيِ وَالصُّخُورِ (الَّتِي هِيَ عِنْدَ الصَّيْنِيِّينَ عِظَامُ الْأَرْضِ) تَعْبَثُ بِهَا عَوَامِلُ التَّعْرِيفَةِ فَتَبْدُو إِسْفَافِيَّةَ الشُّكْلِ آثًا، وَشُعْبًا مَرْجَانِيَّةً آثًا آخَرَ، تَنْحَدِرُ الْوِيَاهُ عَلَيْهَا لِتَسَابِ فِي جَدَاوِلِ هَادِئَةٍ مُلْتَوِيَةٍ كَعَدَائِرِ الشَّعْرِ الْمُضْفَرِّ الَّتِي تَرْمِزُ إِلَى الْخَيْرِ وَالْوَدِّ وَسَطَ هَذِهِ الْمَشَاهِدِ النَّابِضَةِ بِالشَّاعِرِيَّةِ وَالْإِيْحَاءَاتِ الدَّالَّةِ. إِنَّ ذَلِكَ الْفَتَانَ الْقَدِيرَ لَيُصَوِّرُ هَذَا الْإِبْدَاعَ كُلَّهُ وَكَأَنَّهُ يُطَالِعُهُ مِنْ عَلًى تَارِكًا تَفَاصِيلَ الْمَشْهَدِ وَأَلْوَانَهُ تَتَدَاخَلُ، مُشْكَلَةً عَالَمًا مِنَ الرُّؤْيِ فِي أَفَقٍ بَعِيدٍ يَتَلَاشَى أحيانًا فِي فَرَاغِ الْخَلْفِيَّةِ اللَّانِهَائِيَّةِ.

وَقَدْ أَضَافَ الْفَتَانُ الصَّيْنِيُّ إِلَى مَشَاهِدِ الطَّبِيعَةِ الْبَاعِثَةِ عَلَى التَّأَمُّلِ وَالْخَيَالِ مَجْمُوعَةً مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْخُرَافِيَّةِ يَتَصَدَّرُهَا التَّيْنُ - رَمَزُ الْخَيْرِ وَالرُّفْعَةِ - وَهُوَ كَائِنٌ مُلَفَّقٌ لَهُ جَنَاحَا نَسْرٌ وَذَيْلٌ أَقْعَى تَكْسُو جَسَدَهُ حَرَائِيفَ السَّمَكِ يَنْفُثُ اللَّهَبَ مِنْ فَمِهِ. وَقَدْ يَبْرِزُ لَهُ قَرْنَانِ، وَمَخَالِيهِ كَمَخَالِبِ الْأَسَدِ غَيْرَ أَنَّ عَدَدَهَا يَخْتَلِفُ مِنْ تَيْنٍ إِلَى آخَرَ، فَهِيَ خَمْسَةٌ لِيَتَيْنِ الْإِمْبَرَاطُورَ وَأَرْبَعَةٌ لِيَتَيْنِ الْأَمِيرَ، وَثَلَاثَةٌ لِمَنْ هُمْ دُونَهُمَا. وَبَعْدَ التَّيْنِ نَرَى طَائِرَ الْعَنْقَاءِ أَوْ الْفِينِكِسَ «فِنْ هَوَان» - رَمَزُ الْخُلُودِ - وَلَهُ جَسَدٌ تَيْنٍ وَرَأْسٌ دِيكٍ. وَقَدْ اسْتَلْهَمَهُ الْفَرَسُ فِي تَصْوِيرِ طَائِرِ السِّيمْرِغِ الْخُرَافِيِّ. ثُمَّ يَأْتِي حَيَوَانُ الْكِيلِينِ «الْكُشِّي لِين» وَلَهُ رَأْسُ أَسَدٍ وَجَسَدُ جَوَادٍ. وَيَبْتَ فِي جَبْهَتِهِ قَرْنٌ وَحِيدٌ كَالْكَرْكَدَنَّ، وَتَنْبِيْثُ مِنْ جَسَدِهِ أَجْنِحَةٌ كَقُطْعِ السَّحَابِ الْمُمَرَّقِ بِالْبُرُوقِ، وَكَثِيرًا مَا تُصَادَفُ صُورُهُ عَلَى الْأَوَانِي وَالْأَوْيَعَةِ الْخَزَفِيَّةِ (لَوْحَةُ ١٤٠). وَهُنَاكَ حَيَوَانُ «الْبَاتِيْسِي» الَّذِي يَظْهَرُ إِذَا مُنْفَرِّدًا أَوْ مَعَ الْعَنْقَاءِ وَلَهُ رَأْسٌ تَيْنٍ وَجَسَدٌ أَسَدٍ وَذَيْلُهُ، وَتُشَبِّهُ أَجْنِحَتُهُ أَجْنِحَةَ الْكِيلِينِ. وَثَمَّةُ حَيَوَانٍ خُرَافِيٍّ آخَرَ يَبْدُو فِي الرُّسُومِ وَفِي زَخَارِفِ الْخَزَفِ هُوَ الْجِصَانُ السَّمَائِيُّ الْمُجْتَنِّحُ يَرْكُضُ فَوْقَ مَوْجَاتِ الْوِيَاهِ الْمُحَوَّرَةِ (لَوْحَةُ ١٤١).

بِهَذَا الْخَيَالِ الَّذِي أَوْحَى بِتَصْوِيرِ هَذِهِ الْحَيَوَانَاتِ الْخُرَافِيَّةِ تَأَثَّرَ الْخَيَالُ الْإِسْلَامِيُّ، فَإِذَا هُوَ يَتَوَسَّعُ فِي تَشْكِيلِهَا، فَيَجْمَعُ بَيْنَ الْأَجْزَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ لِتِلْكَ الْحَيَوَانَاتِ وَالطُّيُورِ، مِنْ أَجْنِحَةِ مُنْتَشِرَةٍ وَلَهْيَبِ مُنْبِثٍ مِنَ الْأَقْوَاهِ وَالْمَنَاقِيرِ، وَذَيْلٍ مُرْسَلَةٍ فِي تَلَوٍّ وَأَنْثِيَاءٍ، وَقَوَائِمَ مُسْتَقِيمَةٍ مَرَّةً وَمَتَعَرِّجَةٍ مَرَّةً أُخْرَى، ثُمَّ الْحَوَافِرُ بِصَلَابَتِهَا وَالْمَخَالِبُ بِانْفِرَاجِ أَصَابِعِهَا، وَتِلْكَ الْأَجْسَامُ الرَّشِيقَةُ الْهَيْفَاءُ السَّابِحَةُ فِي الْفَضَاءِ تَعْبَثُ بِهَا الرِّيَاحُ. إِذَا هُوَ يَجْمَعُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ تِلْكَ الْأَشْكَالَ الْبَدِيعَةَ الَّتِي صَوَّرَ بِهَا السُّحُبَ.

غَيْرَ أَنَّ الْفَتَانَ الْفَارِسِيَّ لَمْ يَتِمَثَّلِ الْمَعْنَى الرَّمْزِيَّةَ لِلْحَيَوَانِ الصَّيْنِيِّ الَّذِي يُحَاكِهُ، فَهُوَ يَرْتَبِطُ فِي ذِهْنِهِ بِمَعَانٍ تَخْتَلِفُ تَمَامَ الْإِخْتِلَافِ عَنِ الْمَعَانِي الْمَقْصُودَةِ فِي التَّمُودِجِ الْأَصْلِيِّ، فَالْكِيلِينِ عِنْدَ الصَّيْنِيِّينَ هُوَ أَثْبَلُ الْحَيَوَانَاتِ وَأَرْفَعُهَا شَأْنًا، وَهُوَ رَمَزُ الْخَيْرِ وَالْفَضِيلَةِ وَبَشِيرُ السَّعَادَةِ. بَيْنَمَا الْكَرْكَدَنَّ - نَظِيرُ الْكِيلِينِ أحيانًا فِي

السُّحْبُ والعُتْقَاءُ وعِيدَانُ البامبو والأشجار ذات الجُذُوعِ المُشْتَبَةِ
يُفْعَلُ الرِّيحِ والأَغْصَانُ المُتْرَاحِيَّةُ المُتَدَلِّيةُ كَالصَّفْصَافِ.

واقْتَصَرَ تَصْوِيرُ الْحَيَوَانَاتِ فِي هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ عَلَى إِبْرَازِ
سِمَاتِهَا الْحَيَوَانِيَّةِ فَحَسِبَ وَسَطَ الطَّبِيعَةِ الَّتِي تَدَبَّ فِي أَثْنَائِهَا،
وَصُوِّرَتْ كَثْرَتُهَا، لَاسِيَّامَا فِي لُوحَاتِ الْمَجْمُوعَةِ الْأُولَى، فِي
الْخَلَاءِ وَخِذْهَا وَقَدْ أُحِيطَ بِإِطَارٍ بِالْغَالِغِ الْبَسَاطَةِ مِنْ نَبَاتَاتٍ تَبْدُو
أَقْرَبَ إِلَى الْأُسْلُوبِ الْإِنْطِبَاعِيِّ.

وَتَمَّةٌ مُنْمَنَةٌ بِالْغَالِغَةِ الطَّرَافَةِ ضِمْنَ هَذَا الْمَخْطُوطِ لِأَدَمَ وَخَوَاءَ
(لَوْحَةُ ١٣٤ م) لَا تَنْبَغُ طَرَاغُهَا مِنْ نُذْرَةِ تَمَثُّلِ عُرْيِ الْبَشَرِ الْمَسْتَوْرِ
دَائِمًا فِي التَّصْوِيرِ الْإِسْلَامِيِّ، بَلْ مِنْ وُجُودِ هَذَا الْمَزِيجِ بَيْنَ
مَرَحَلَتَيْنِ سَابِقَتَيْنِ عَلَى الْمَدْرَسَةِ الْمَغُولِيَّةِ هُمَا مَرَحَلَةُ مَدْرَسَةِ
بَغْدَادِ الْأُولَى الَّتِي تَعْمُرُ خَلْفِيَّةُ الصُّورَةِ وَمَرَحَلَتُهَا الْمُتَأَخِّرَةُ بَعْدَ
أَنْ تَأَثَّرَتْ بِنَمَاذِجِ السَّحْنِ السَّلْجُوقِيَّةِ.

وَقَدْ اسْتَعْدَمَ الْفَنَانُونَ الْفُرْسُ فِي مُنْمَنَاتِ الْكُتُبِ خِلَالَ الْقَرْنِ
الرَّابِعِ عَشَرَ بَعْضَ عَنَاصِرٍ مِنْ إِيقُونوغَرَفِيَّةِ الْمَشَاهِدِ الْخَلَوِيَّةِ الْوَافِدَةِ
مِنَ الصِّينِ. غَيْرَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُجْمَعُونَهَا أَحْيَانًا بِطَرِيقَةٍ فَجَّةٍ تَكْشِفُ
عَنْ قُصُورٍ فِي إِدْرَاكِ أَصُولِ التَّصْوِيرِ الصِّينِيِّ وَالْمَعَانِي الَّتِي يَرْمِزُ
إِلَيْهَا وَالْفَلَسَفَةَ الْكَامِنَةَ وَرَاءَهُ، فَتَرَاهُمْ قَدْ حَاكُوا الْأَشْكَالَ الصِّينِيَّةَ
مِنْ دُونِ التَّقْيِيدِ بِمَا تَرْمِزُ إِلَيْهِ بَلْ صَرَفُوا مَذَلُولَهَا أَحْيَانًا إِلَى عَكْسِهِ
تَمَامًا، فَبَيْنَمَا يُعَدُّ الثَّنِينَ فِي الْمَقْهُومِ الصِّينِيِّ رَمْزًا لِلْخَيْرِ وَعُلُوِّ
الْمَكَانَةِ، كَمَا سَبَقَ الْقَوْلُ، نَرَى أَنَّ الْمُصَوِّرَ الْفَارِسِيَّ قَدْ اتَّخَذَهُ
رَمْزًا لِلشَّرِّ. وَبَيْنَمَا يَرْمِزُ سَمَكُ الشَّبُوطِ الثَّهْرِيِّ ذُو الْحَسَكِ الْغَزِيرِ
إِلَى سَعْدِ الطَّالِعِ لَدَى الصِّينِيِّينَ رَأَى الْفُرْسُ كَائِنًا يُمَثِّلُ الشَّرَّ. وَلَعَلَّ
الْفُرْسَ قَدْ نَقَلُوا بَعْضَ هَذِهِ الْعَنَاصِرِ بِإِلَاحَاةٍ بِمَعْزَاهَا الْمَكْنُونِ عَنْ
الرُّسُومِ الَّتِي شَاهَدُوهَا تُزَيِّنُ الْأَوَانِي الْخَرَفِيَّةَ وَالْأَقْمِشَةَ وَمَا إِلَيْهَا مِنْ
الْفُنُونِ التَّطْبِيقِيَّةِ وَالزُّخْرَفِيَّةِ كَلَفَائِفِ الْحَائِطِ الْمُعْلَقَةِ الْمُصَوَّرَةِ
وَلَفَائِفِ الْبِدِّ الْمَطْوِيَّةِ الْمُصَوَّرَةِ وَالْمُطَرَّزَاتِ الَّتِي وَصَلَتْ إِلَى
بِلَادِهِمْ مِنَ الصِّينِ تَحْمِلُهَا قَوَافِلُ التَّجَارِ. وَلَقَدْ حَفَلَتْ تِلْكَ
الْمَخْطُوطَاتُ كَذَلِكَ بِمَوْضُوعَاتِ السُّحْبِ، وَبِعَنَاصِرٍ أُخْرَى تُعَدُّ
إِحْيَاءً لِبَعْضِ الْمُصْطَلَحَاتِ الْفَنِّيَّةِ الصِّينِيَّةِ كَحَرَائِيفِ السَّمَكِ
وَالدَّوَامَاتِ وَالْأَمْوَاجِ الضَّخْمَةِ الَّتِي رَمَزَتْ لِلْمِيَاهِ فِي الصُّورِ
الصِّينِيَّةِ خِلَالَ النَّصْفِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ. كُلُّ هَذِهِ
الْأَشْكَالُ كَانَتْ الْفَنَّ الصِّينِيَّ وَلَا يَزَالُ يَسْتَخْدِمُهَا وَلَكِنْ بِرُوحٍ أَقَلِّ
تَحَرُّرًا مِنْ رُوحِ اسْتِخْدَامِهَا فِي الْفَنَّ الْفَارِسِيِّ.

«جامع التواريخ» لِرَشِيدِ الدِّينِ ١٣١٠م.

جَامِعَةُ أَدْنِبْرِهِ وَالْمُتَحَفُ الْبَرِيطَانِي

كَانَتْ تَبْرِيزُ مُنْتَجَبًا لِبَعْضِ الْعُلَمَاءِ الصِّينِيِّينَ الَّذِينَ اعْتَمَدَ الْوَزِيرُ
رَشِيدُ الدِّينِ عَلَى نُخْبَةٍ مِنْهُمْ فِي تَصْنِيفِ مَوْسُوعَتِهِ عَنْ تَارِيخِ الْعَالَمِ
الْمُسَمَّاةِ «جَامِعِ التَّوَارِيخِ». وَكَمَا بَدَتْ الْمَنَاطِرُ الصِّينِيَّةُ فِي أَثْنَى

وَتَمَّةٌ اصْطِلَاحَانِ مِنَ اصْطِلَاحَاتِ التَّصْوِيرِ الصِّينِيِّ لَا تُخْطِئُهُمَا
عَيْنٌ، هُمَا لَفَائِفُ السُّحْبِ الْبَعِيدَةِ عَنِ الْوَاقِعِيَّةِ، ثُمَّ الْمَنْظَرُ الطَّبِيعِيُّ
الْمَرْسُومُ عَلَى التَّهْنِجِ الصِّينِيِّ بِالْمِدَادِ وَالْأَلْوَانِ الْبَاهِتَةِ مَوْجِزًا، لَكِنَّهُ
مَعَ هَذَا الْإِيجَازِ يُتِيحُ لِلطَّيْرِ أَنْ يُعَشَّشَ فِيهِ وَلِلْحَيَوَانِ أَنْ يَسْكُنَ إِلَيْهِ.
غَيْرَ أَنَّ أُسْلُوبَ الْمُصَوِّرِ الْفَارِسِيِّ الْإِسْلَامِيِّ الْمَوْلَعِ بِالتَّحْوِيرِ وَالَّذِي
يَحْمِلُ فِي طَيَّاتِهِ مِصْطَلَحَاتِ رُسُومِ الرُّنُوكِ الْإِسْلَامِيَّةِ، جَاءَ مُخْتَلِفًا
عَنْ طَرِيقَةِ رَسْمِ الْخُطُوطِ الْمُكْتَمِلَةِ الْمَأْلُوفَةِ فِي تَصْوِيرِ مَدْرَسَةِ
بَغْدَادِ. فَقَدْ بَرَزَتْ زَهَافَةُ حِسِّ الْفَنَانِ فِي تَصْوِيرِ فِرَاقِ الْحَيَوَانِ
وَجِلْدِهِ وَرِيشِ الطَّيْرِ عَلَى غِرَارِ زَهَافَةِ الْحِسِّ الْبَادِيَّةِ فِي مَدْرَسَةِ
التَّصْوِيرِ الصِّينِيَّةِ. فَنِي صُورَةِ السِّيمْرِغِ اكْتَفَى الْفَنَانُ بِرَسْمِ
الْخُطُوطِ الْمُحِيطَةِ بِالرَّأْسِ وَالْجَنْفِ وَالظَّهْرِ بِالرِّيشَةِ بَيْنَمَا لَوَّنَ
الْأَجْزَاءَ الْأَمَامِيَّةَ بِاللَّوْنِ الْأَحْمَرِ وَأَصَافَ لِلْبَطْنِ أَهْدَابًا قَصِيرَةً
مُتَقَارِبَةً. وَجَاءَ رَسْمُ أَغْوَادِ الْبَامْبُو وَالشَّجَرَاتِ وَالزُّهُورِ وَالْمِيَاهِ
وَفَقَّ مُصْطَلَحَاتِ التَّصْوِيرِ الصِّينِيِّ تَمَامًا. وَنَلَحَظُ تَسَلُّلَ الْفَنَانِ
أَحْيَانًا بِحَافَةِ الصُّورَةِ خَارِجَ إِطَارِ الْمُنْمَنَةِ وَفَقَّ التَّقْلِيدِ الصِّينِيِّ
الْمُتَّبَعِ فِي صُورِ الطَّيُورِ وَالْأَزْهَارِ، وَالَّذِي بَدَأَ بِصُورَةِ رَائِعَةٍ
وَمُؤَثَّرَةٍ فِي بَعْضِ أَعْمَالِ الْمَدْرَسَةِ الْمَغُولِيَّةِ بِفَارِسَ، بَيْنَمَا كَانَتْ
التَّقَالِيدُ السَّائِدَةُ تَحُولُ فِي الْبِدَايَةِ دُونَ الْإِسْرَافِ فِي هَذَا التَّسَلُّلِ.

وَإِذَا كَانَ الْمَشَاهِدُ آتَذَاكَ يَتَطَلَّعُ إِلَى الصَّحِيفَةِ مُتَخَيِّلًا أَنَّهُ يَطَّلُ
مِنْ خِلَالِهَا عَلَى عَالَمٍ فَسِيحٍ خَارِجِهَا. فَإِنَّ الْفَنَانَ مَا عَادَ يُحْسِنُ
عَضَاضَةً فِي أَنْ يَتَرَكَ إِطَارَ الصُّورَةِ يَبْتَرِجُ جُزْءًا مِنَ الْمَشْهَدِ حَتَّى وَلَوْ
كَانَ مُؤَخَّرَةً الْكَرَّكَدَنَ وَذَيْلَهُ. وَلَقَدْ جَاءَتْ التَّظَرُّعُ إِلَى الصُّورَةِ عَلَى
أَنَّهَا مَشْهُدٌ يَرَى مِنْ خِلَالِ نَافِذَةٍ تَتَوَسَّطُ الصَّحِيفَةَ، خُطْوَةً جَرِيئَةً
وَهَامَةً فِي مُسْتَقْبَلِ هَذِهِ الْمَدْرَسَةِ. كَانَتْ نَظَرَةُ حَبْلِي بِذُورِ جَمِيعِ
التَّظَوُّرَاتِ الَّتِي طَرَأَتْ فِيهَا بَعْدَ عَلَى تَصْمِيمِ الصُّورِ خِلَالَ ذَلِكَ
الْعَصْرِ. وَلَمْ يَعُدْ الْمَشَاهِدُ يَسْتَنْبِرُ وَقَدْ تَذَكَّرَ أَنْ يَفْتَرِضَ امْتِدَادَ جُزْءٍ
مِنَ الْمَنْظَرِ الْمُصَوَّرِ خَارِجَ إِطَارِ الصُّورَةِ أَوْ حَتَّى إِلَى الصَّفْحَةِ
الْمُقَابِلَةِ. هَكَذَا حَقَّقَ امْتِدَادَ رَسْمِ الرِّمَاحِ وَقِيمَ الْأَشْجَارِ فِكْرَةً
اسْتِمْرَارَ الْعَالَمِ الْمُتَخَيَّلِ إِلَى أَعْيُنِ الْحُدُودِ الضَّيِّقَةِ لِلْمُنْمَنَةِ
الصَّغِيرَةِ، وَهِيَ الْفِكْرَةُ الَّتِي مَا لَبِثَتْ أَنْ أَنْجَبَتْ عَدَدًا مِنْ
الْإِبْتِكَارَاتِ الزَّائِعَةِ، غَيْرَ أَنَّ زَمَنًا طَوِيلًا انْقَضَى قَبْلَ أَنْ تَتَحَوَّلَ

شُورها في جانب من مُنمنمات مخطوطة مراغة من كتاب «منافع

الحَيَوَان»، بَدَتْ كَذَلِكَ فِي السُّنْخِ الْبَاقِيَةِ لَنَا مِنْ مَوْسُوعَةِ «جَامِعِ التَّوَارِيخِ» الَّتِي اتَّبَعَتِ الطَّرِيقَةَ «الطَّبِيعِيَّةَ» فِي رَسْمِ الْأَشْجَارِ، وَجَاءَتْ رُسُومُهَا خَطِيَّةً، بَيِّنًا اقْتَصَرَ تَصْوِيرُ الْأَرْضِ عَلَى رَسْمِ صُخُورٍ وَهَضَابٍ فِي خُطُوطٍ مُحَوَّطَةٍ مُزدَوِجَةٍ، وَلَعَلَّهَا كَانَتْ تُمَثِّلُ الطَّرِيقَةَ الصَّيْنِيَّةَ الْمَعْرُوفَةَ بِلَمْسَةِ الْفَرْشَاءِ وَالَّتِي اعْتَمَدَتْ عَلَى لَمْسِ الْفَرْشَاءِ لِلْوَحَةِ بِطَرِيقَةٍ جَانِبِيَّةٍ، وَجَاءَ التَّظْلِيلُ غَزِيرًا دَاخِلَ الْخُطُوطِ الْمُحَوَّطَةِ الْمُتَكَسِّرَةِ الَّتِي أَثَرَتْ بِالْأَلْوَانِ قُوَّةً فِي مَخْطُوطَتِي «جَامِعِ التَّوَارِيخِ» وَ«الْآثَارِ الْبَاقِيَةِ» لِلْبِيرُونِيِّ. وَغَالِيًا مَا اسْتُخْدِمَ اللَّوْنُ الْأَفْوَى بِالْقُرْبِ مِنَ الْقِمَمِ تَنْتَشِرُ فِيهِ قُفَاعَاتٌ دَاكِنَةٌ غَرِيبَةٌ رُبَّمَا قُصِدَ بِهَا تَصْوِيرُ الْحَصَى، عَلَى حِينِ صُوِّرَتْ سَفُوحُ التَّلَالِ أَحْيَانًا بِتَرَاكُمِ الْخُطُوطِ الْمُحَوَّطَةِ الدَّاخِلِيَّةِ الَّتِي يُرَجَّحُ بَازِيلُ جَرَايُ أَنْ الْغَرَضُ مِنْ اسْتِخْدَامِهَا هُوَ الْإِيْحَاءُ بِالْمَعْنَى نَفْسَهُ الَّذِي تَعْنِيهِ خُطُوطٌ تَحْدِيدِ الارتفاعاتِ فِي الْخَرَائِطِ الْعَصْرِيَّةِ. وَإِلَى جِوَارِ خُفُوتِ الْأَلْوَانِ تَنْتَرِعُ صُورُ جَامِعِ التَّوَارِيخِ فِي جَوْهَرِهَا إِلَى مَبْدَأِ «الصُّورَةِ الذَّهْنِيَّةِ الْمُتَخَيَّلَةِ» الْمَأْتُورَةِ عَنِ الْفُرْسِ، فَقَدْ أَغْفَلَ الْمُصَوِّرُ التَّنَاسُبَ بَيْنَ الْمَقَالِيسِ، كَمَا تَنَرَّ عَنَاصِرِ الْمَنْظَرِ الطَّبِيعِيِّ الْمُجَرَّدِ مَلَأَ الْفَرَاغَ. وَبِالرَّغْمِ مِنْ اخْتِرَاقِ إِطَارِ اللَّوْحَةِ لِلتَّكْوِينِ التَّصَوِيرِيِّ الْعَامِّ - عِنْدَمَا يَقْتَضِي الْأَمْرُ إِقَامَةَ التَّوَازُنِ أَوْ إِشَاعَةَ الْأَثَرِ الدَّرَامِيِّ بِاسْتِخْدَامِ الْجِيلِ الْفَنِيِّ مِثْلَ إِطَالَةِ حِرَابِ الْفُرْسَانِ مِنْ وَرَاءِ سُطُورِ النَّصِّ لِتُظْهِرَ مِنْ جَدِيدٍ فِي الْهَوَامِشِ الَّتِي تَكْتِفِيهَا - فَإِنَّ هَذِهِ الْمُنْمَنَّمَاتِ تَرْتَبِطُ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا بِالنَّصِّ الْمَكْتُوبِ.

وَيَبْدُو الْأَثَرُ الصَّيْنِيُّ وَاضِحًا كَذَلِكَ فِي عِدَّةٍ مُنْمَنَّمَاتٍ مِنْ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ تَحْكِي بَعْضَ قِصَصِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَيَتَجَلَّى هَذَا الْأَثَرُ فِي رُسُومٍ خَطِيَّةٍ تَكْشِفُ عَنْ حَرَكَةٍ مُدَقِّقَةٍ بِالْحَيَوِيَّةِ. وَمِنْ بَيْنِ هَذِهِ الْمُنْمَنَّمَاتِ، مُنْمَنَّمَةٌ تُصَوِّرُ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ يُلْقُونَ بِحُلِيِّ ذَهَبِيَّةٍ فِي النَّارِ يَضْهِرُونَهَا لِصَنْعِهَا مِنْهَا عِجْلًا ذَهَبِيًّا (لَوْحَةٌ ١٤٤)، وَأُخْرَى تَرْمِزُ إِلَى أَحَدِ أَنْبِيَاءِ إِسْرَائِيلَ وَقَدْ حَضَرَتْهُ الْمَيِّتَةُ عَلَى قِمَّةِ جَبَلٍ بِبِلَادِ الشَّامِ (لَوْحَةٌ ١٤٥)، وَثَالِثَةٌ تُمَثِّلُ مَصْرَعَ طَالُوتَ (لَوْحَةٌ ١٤٦)، وَمُنْمَنَّمَةٌ رَابِعَةٌ تُصَوِّرُ مُوقِفًا مِنْ حَيَاةِ بُودَا قَرَاهُ يُلْقِي بِوَعَاءٍ تَنَاقُلُ فِيهِ طَعَامُهُ إِلَى نَهْرِ الْجَنْجِ مُتَنْتَظِرًا حَتَّى يَرَى مَا إِذَا كَانَ سَيَطْفُو لِيَتَلَقَّى الْإِشَارَةَ بِأَنْ يَتَوَلَّى زَعَامَةً قَوْمَهُ (لَوْحَةٌ ١٤٧).

غَيْرَ أَنَّ الْعَنَاصِرَ الصَّيْنِيَّةَ لَيْسَتْ هِيَ الْعَنَاصِرُ الشَّرْقِيَّةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي تَرَكَّتْ بِصَمَاتِهَا عَلَى مُنْمَنَّمَاتِ الْقَرْنِ الْإِسْلَامِيِّ، إِذْ يَغْلِبُ الطَّابَعُ الْمَعُولِيُّ عَلَى الطَّابَعِ الصَّيْنِيِّ فِي عَدِيدٍ مِنْهَا خُصُوصًا فِي طُرُزِ الْأَزْيَاءِ وَشِكَّةِ الْقِتَالِ الَّتِي يَرْتَدِّيهِا الْمُحَارِبُونَ فِي بَعْضِ مَنَاطِرِ الْمَعَارِكِ. وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ مُصَوِّرَ هَذِهِ الْمَعَارِكِ هُوَ غَيْرُ مُصَوِّرِ الْمُنْمَنَّمَاتِ ذَاتِ الطَّابَعِ الصَّيْنِيِّ. مِثَالُ ذَلِكَ مُنْمَنَّمَةٌ مِنْ مَخْطُوطَةِ «جَامِعِ التَّوَارِيخِ» الْمَحْفُوظَةِ بِمُتَخَفِ طُوبِ قَاهِرَ سَرَايَ بِاسْتَبْوَاقِ تُمَثِّلُ الْمَعْرَكَةَ بَيْنَ سُلْطَانِ قَشْتَمَرِ فِي إِزْبِلَ بِالْعِرَاقِ ضِدَّ جَيْشِ الْخَلِيفَةِ الْعَبَّاسِيِّ، يَزْهُو فِيهَا قَشْتَمَرُ بِأَنَّهُ طَارَدَ فُلُوكَ جَيْشِ الْخَلِيفَةِ حَتَّى أَوْصَلَهَا إِلَى مَشَارِفِ بَغْدَادِ (لَوْحَةٌ ١٣٨ م).

وَمِنْ الْمَظَاهِرِ الْغَرِيبَةِ فِي هَذَا الْمَخْطُوطِ، الْحُرِّيَّةُ الْمُسْرِفَةُ فِي اسْتِخْدَامِ اللَّوْنِ الْفَضِيِّ مِنْ دُونِ حِسَابٍ. فَهُوَ لَا يُسْتَعْمَلُ مِنْ أَجْلِ إِبْرَازِ زُرْقَةِ الْبِيَاهِ فَقَطْ - وَهُوَ مَا يُعَدُّ تَصَرُّفًا مَقْبُولًا - بَلْ كَذَلِكَ لِإِبْرَازِ طَيَّاتِ الثِّيَابِ، وَتَلَوِينِ وُجُوهِ بَعْضِ الرِّجَالِ الْمُتَحَيِّنِ، وَلَعَلَّ مَصْدَرَ هَذَا التَّقْلِيدِ الْغَرِيبِ هُوَ تَرْقِينَاتُ مَخْطُوطَاتِ الْكَنَائِسِ الشَّرْقِيَّةِ، بِخَاصَّةِ كَنَائِسِ «الْيَعَاقِبَةِ». وَمِنْ الثَّابِتِ أَنَّ الْمَكْتَبَةَ الرَّشِيدِيَّةَ الَّتِي أَسَّسَهَا رَشِيدُ الدِّينِ كَانَتْ تَضُمُّ عُلَمَاءَ مَسِيحِيِّينَ يُعَاوَنُونَ فِي تَصْنِيفِ تَارِيخِ الْعَالَمِ. وَلَمْ يَقْتَصِرْ أَثَرُ مَدَارِسِ التَّصْوِيرِ السُّورِيَّةِ وَالْعِرَاقِيَّةِ عَلَى التَّقْصِيلَاتِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا مِنْ قَبْلُ بَلْ تَعَدَّاهَا إِلَى طَيَّاتِ الثِّيَابِ عَلَى نَحْوِ مَا يَظْهَرُ فِي كِتَابِ الْبِيرُونِيِّ الَّذِي يَضَعُ فِيهِ شَأْنَ التَّأَثِيرِ الصَّيْنِيِّ. وَلَعَلَّ أَهَمَّ طَابَعٍ يُبَيِّنُ هَذِهِ الْمُصَوِّرَاتِ يَكْمُنُ فِي إِظْهَارِ الْمَعْرَى الدَّرَامِيِّ بِاسْتِخْدَامِ أَقَلِّ عَدَدٍ مِنَ الْوَسَائِلِ، فَبَدَلًا مِنْ تَرْتِيبِ الشُّخُوصِ مُتَجَاوِرَةً فِي الصُّورَةِ عَلَى صَفْحَةٍ وَاحِدَةٍ - عَلَى غِرَارِ مَدْرَسَةِ بَغْدَادِ - تُصَوِّرُ الْأَشْخَاصَ هُنَا فِي جَمَاعَاتٍ مُحْتَشِدَةٍ عَلَى مُسْتَوِيَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةِ مُسْتَوِيَاتٍ، وَكَأَنَّمَا الْهَدَفُ هُوَ تَأْكِيدُ الْحَدَثِ الرَّئِيسِيِّ بِتَوْزِيعِ

التي جاءت ألوانها محدّدة يتجلى فيها طابع التصوير الخطّي المفعّم بالجسيّة.

ويستحيل على مُشاهد رسوم «جامع التواريخ» أن يتصوّر أنّ مُنفذها كانوا من الفنّانين الصّينيين أو أنّها مُستنسخات طبق الأصل من النماذج الصّينية، لأنّ أحدًا لا يمكن أن يخطئ مُنمّعة فارسيّة على أنّها لوحة صينيّة مهما بدت فيها شدّة التأثير الصّيني. وعلى الرُّغم من الإيقونوغرافية المتنوّعة التي يرتقيها المرء من صوّر مُوسوعة ضخمّة تُعالج تاريخ العالم، فإنّ وحدة التّفيز تكشف عن أنّها كلّها كانت تتمّ تحت إشراف راعٍ واحد هو رشيد الدّين.

وإذ كان التأثير الصّينيّ خلال القرن الرابع عشر كاسيحا، فقدّ بات من العسير تحديد الاتجاه الذي اختطّه التصوير الفارسيّ خلال تلك المرحلة. ومع ذلك يجوز لنا أن نزعّم أنّه إذا كانت خطوط الرّسم وأسلوب التّكوين الفنّي يكشفان عن التأثير الصّينيّ، فإنّ تجميع الحشود والتّعبير عن الحركة ظلّا محتفظين بجوهرهما الفارسيّ البحت. كذلك نلمس في مَشايد البلاط توازنا في البناء الشّكليّ غريبًا على التصوير الصّينيّ، كما أن ثمة قوّة جاريّة في مَشايد الحرب والقتال تُسبغ على التصوير الفارسيّ رفعة تُضارع أرقى مُنجزات مدرّسة ونّ. وإذا كانت ألوان صوّر هذه المخطوطة تُعدّ هاسية خافتة بالنّسبة لمُصوِّرات آية فترة أخرى من فترات التصوير الفارسيّ، وإنّ كانت خطوطها أشدّ وضوحًا إلّا أنّ هذا كلّهُ لم يُستخدَم يهدف إظهار أناقة الرّسامة بل للتأثير الدراميّ على غرار المُعالجة المُوفّقة في مخطوطات الحريريّ وأمثالها من كُتب الحكايات. وعلى الرُّغم من أنّ مُصطلحات الجبال والسُّبب واليهاء مُستعارة من الصّين إلّا أنّها استُخدمت في غير ما أرادها لها الفنّان الصّينيّ، بل لملء الفراغ أو لإنهاء نتائج مُشهد، أو بِمِثابة خُلفيّة المُشهد المُسرّحيّ للحَدَث المُصوّر، أو كوسيلة للتّعبير عن المسافات. وتجدد الإشارة هنا إلى أنّ هذه المرحلة من الفنّ الفارسيّ لم تكن مرحلة خالصة لفنّ المناظر الطّبيعيّة كاللّصوير الصّينيّ، وذلك على الرُّغم من بعض المظاهر التي تُشير إلى الاهتمام بالمنظر الطّبيعيّ. وما من شكّ في أنّ البراعة الرّهيبة التي حقّقها مُصوِّرو «جامع التواريخ» باستِخدامهم لهذه الأشكال الطّبيعيّة المُستعارة كمُجرد مُصطلحات، جديرة بإثارة انتباهنا وإعجابنا. وتُعدّ هذه المُمنّمات التي تُعترض الصّفحات الضّخمة للمخطوطة - وكأنّها شرائط تتواءم تمامًا مع الخطّ المُسنوخ - من أرفع التّصاویر التي ظهرت بِفارس مكانة، تُميّزها القُدرة الدّائمة على التّعبير عن الجانب الدراميّ من الحادث الذي يرويه النّصّ.

وقد تركّ توماس أرنولد بعد وفاته بعض موادّ لم تُنشر، تُؤكّد مدى إلمام العراق بِحضارة الصّين قبل القرن الثالث عشر، حين كانت تجارة الحرير بين روما والصّين تمرّ بهذا الطريق. ومن الثّابت أنّ الفُرس كانوا أصحابها لعدّة قرون، وأنّ تَصميمات زخارف النّسيج قد تُبودلت عبر آسيا بين فارس البارثيّة والسّاسانيّة وبين الصّين. وعلى الرُّغم من أنّ حَجْم هذه التجارة قد ضُمّر بعد أن دخلت بِمرحلة مجال تزيّنة دودة القزّ عام ٥٥٢، وبعد سقوط أسرة طان في القرن العاشر، إلّا أنّ شهرة المُنجزات الصّينيّة بما في ذلك الحرير لا التصوير وحده كانت باهرة، على نحو ما يتّضح من بعض فقرات عارضة في نصّ الشاهنامة، ثمّ جاء الغزو المغوليّ لِيشيع لدى الفُرس نهمهم إلى هذا الذّوق الصّينيّ.

ولا أدلّ على مدى حُسن العلاقات الدّوليّة التي استنّها المغول، من تلك السّهولة التي استطاع بها رشيد الدّين في تَبْرِيز أن يظفر بِمُعاونة الفرّنجيّة والأزمن والصّينيّين في تصنيف مُوسوعته عن تاريخ العالم في السّنوات الأولى من القرن الرابع عشر. لقدّ حظي المُصوِّرون الفُرس بأوسع الفرص لِدراسة التصوير الصّينيّ، وبدأ ذلك في شاهنامة تَبْرِيز العظيمة الشهيرة باسم ديموط أول من اقتناها، حيث يتجلى فيه التأثير الصّينيّ على أوضوح صورة، وكان ذلك عام ١٣٣٥ م حين بدأت الإمبراطوريّة المغوليّة في الاضمحلال. ومن بعدّ هذا التاريخ حتّى ظهور تيمورلنك غدت المخطوطات نادرة نظرًا لحالة الاضطراب التي سادت الدّولة.

ولهكذا يُمكن القول بأنّ التصوير الفارسيّ كان متأثرًا خلال القرن الرابع عشر - إلى حدّ بعيد - بِمدرّسة التصوير الصّينيّة المُعاصرة، وهي مدرّسة أسرة ونّ المغوليّة (١٢٨٠ - ١٣٦٨) التي تميّزت بِسُخط فنّانيتها على فنّهم المُعاصرين، وعلى فنّ ماضيهم القريب. فإنّ تجلّى عجز المغول عن أن يأتوا إلى الصّين بِفنّ خاصّ بهم، أحسن فنّانوا البلاط وشعراؤه أن ليس ثمة فنّ يَفوق فنّ أسرة طان الفاجر كيّ يواكب عظيمة الإمبراطوريّة الجديدة، فلجأوا إلى إحياء أسلوب مدرّسة طان القديم وابتكروا أساليب جديدة ثمّ مزجوا بين ما نقلوه وما ابتكروه.

وقد انعكس أثر هذا الأسلوب المُستنبط على صوّر شاهنامة تَبْرِيز «ديموط»، إذ واكب طابعها البطوليّ الملحميّ بما لم يواكب به أيّ فترة أخرى في تاريخ التصوير الفارسيّ. ومن ناحية أخرى استمرّ أسلوب التصوير الخطّي بِالمدادِ فخر مدرّسة صون مُطبّا. ودليل هذا الاستمرار أنّا نشهد صداه في صوّر «جامع التواريخ»

كتاب «الآثار الباقية» للبيروني ١٣٠٧ م. أدبره.

ويعود بنا ذكر الفن المانوي إلى تأثير فنون أواسط آسيا وخصوصاً الفن الأويجوري. والأويجوريون هم شعب من الجنس التركي قدّموا خدماتهم للمغول بوصفهم كتبة ومذهبيين ومصورين تلقوا عنهم في أواسط آسيا على أيدي البوذيين والمانويين والرهبان المسيحيين، وأدخلوا على الفن الفارسي أسلوباً استخدم بداءة في التصوير الجدارية، ومن ثم اتسم بقدر من المهابة، وإن كان في حقيقته أسلوباً خطئاً. وينسب هولتر للتصوير الأويجوري سمة أخرى دخلت إلى الفن الإسلامي هي المناظر الطبيعية ذات الشجيرات المنتشرة في انظام على سطح الأرض. بيد أنه ينبغي الحذر من أن نعزو إلى الأويجوريين - كما يخلو ليغص المؤرخين - كل المنجزات التي ظهرت بإيران حوالي منتصف القرن الرابع عشر.

شاهنامه تبريز العظمى، «ديموط»، ١٣٣٠ - ١٣٣٦ م

من الصفات البارزة في مخطوطة «جامع التواريخ» اتساع مساحة صفحاتها (١٢ × ١٧ بوصة)، وهي إحدى خصائص مخطوطات المكتبة الرشيديّة التي شملت كذلك الكتب الدينيّة التي صنّفها رشيد الدين. ولم يُستخدم هذا القطع الكبير بعد ذلك حتّى ارتقى «شاه رخ» العرش في النصف الأوّل من القرن الخامس عشر إلّا في حالتين هما: مخطوطة شاهنامه تبريز العظمى، ولم يبق منها سوى خمس وخمسين منمنمة وصفحات قليلة خُطت عليها نصوص (١١,٥ × ١٦ بوصة)، ومخطوطة «كليّة ودمنة» التي بقيت بعض أجزائها ضمن مجلد بمكتبة جامعة استنبول (٩ × ١٣ بوصة). وقد خصّصت في صفحات هذين المخطوطين مساحة أكبر حجماً من صور مخطوطات «جامع التواريخ». وقد عدّ هذان المخطوطان أهم أعمال القرن الرابع عشر وأعظمها أثراً، وخصوصاً صور «الشاهنامه» التي تفوق كل ما أمكن تصويره من حركة دراميّة وثراء زخرفيّ يكتسب تبريز السالفة، والتي تجمع بين التلوينات الزاهية لمنمنات كتاب البيروني وبين تصوير الحركة بمخطوطات كتاب «جامع التواريخ» مع فداحة الدور الذي تؤدّيه المشاهد الخلويّة وازديادها ازيّاطاً وثيقاً يرسم الشخص في المنمنمة.

وتكشف لنا صور شاهنامه ديموط - التي تعدّ ذروة تطوّر المدرسة المغوليّة في عهد الإيلخانات - عن مدى التطوّر الذي لحق بفنّ التصوير، فالرؤوس باتت ضخمة تختال بمظاهر الهيبة البطوليّة الأصيلة في أسلوب المدرسة الفارسيّة، وإن كان الفتانون قد بدأوا يشكّلون المناظر في فراغ غير محدود. وقد تبدو مساحة الخلفيات غير متناسبة مع الحدث الرئيسي، غير أنّها تسيح لإبراز

مع انثناء كل شكّ حول انثناء صور مخطوطة «الآثار الباقية» للبيروني المحفوظة بجامعة أدبره إلى المدرسة الإيلخانيّة، وإنجازها في تبريز حوالي عام ١٣٠٧ م إلّا أنّنا لا نجد فيها إلّا أقلّ القليل من تأثير الخيال الصينيّ الجامح المنحدر من قيود الشكل، وإن حملت بعض منمنماته عناصر صينيّة، مثل الشكل الاصطلاحيّ الصينيّ للسحب، وجذوع الأشجار الحافلة بالعقد، والأغصان المتدلّية، والمناظر الخياليّة الممتدّة إلى ما لا نهاية. وتعتمد منمنمات هذه المخطوطة اعتماداً أساسياً على مدرسة العراق. ويكمن الاختلاف بينهما وبين صور «جامع التواريخ» - بالإضافة إلى ما سبق - في تناول طبقات الأزدية، إذ اطرحت الطبقات المنسدة الواردة في صور مخطوطات المكتبة الرشيديّة وأتبعت التلافيف والحزونيات التي تميّزت بها صور مخطوطات العراق والمفتّسة اقتباساً أعشى عن الصور البيزنطيّة (لوحة ١٤٨). وتختلف كذلك في اتّباعها نهج مدرسة بيزنطة في رسم رؤوس الأشخاص محاكاة بهالة مذهبة ذات خواف مزدوجة لمجرد تأكيد أهمّيّتها. وبصفة عامّة نجد أنّ صورها ألصق ما تكون بصور مقامات الحريريّ، فالوضعات التي يتّخذها معظم الشخصوس وطريقة رسم الأزدية وتصوير المباني وبراء ألوانها، كلّها عناصر تنتمي إلى مدرسة بغداد.

وترجع أهميّة هذا الكتاب إلى أنّه يحوي بالإضافة إلى مشاهد العهد القديم كخطيّة آدم وحواء بعض مشاهد من العهد الجديد كالإشارة، وجاءت بعضها ضمن مناظر طبيعيّة تبدو فيها المستويات المتعددة للخلفيّة وسيقان الأشجار الحافلة بالعقد والأغصان المتدلّية صينيّة المصدر (لوحة ١٤٩)، على حين اقتبست الهالات والياب عن مدرسة بغداد المشتقة من مصادر بيزنطيّة، وإن اختلفت إيقونوغرافية القصص المأخوذة عن الإنجيل كلّ الاختلاف عن الإيقونوغرافية البيزنطيّة المسيحيّة. ففي موضوع غواية آدم وحواء نجد الشيطان - على عكس ما جاء بالتصوير المسيحيّ - كهلاً تحيط برأسه هالة، ولعلّه كما جاء في الرواية الزردشتيّة أهريمان إله الشرّ الذي تنكّر في شكل عجوز ليُفنع آدم وحواء بأكل الفاكهة المحرّمة، وقد استقى المانويون هذه الرواية عن الزردشتيّة وجاءت هكذا في إيقونوغرافيتهم.

وثمة مشهد فريد آخر يتجلّى فيه أثر التفسير المانويّ للديانات السماويّة. إذ نرى فيه شخصين يمتطي أحدهما بعيراً والآخر جماراً، ويهتف أولهما أن بابل قد هوت وتحطّمت أصنامها مشيراً إلى غزو المسلمين للعراق (لوحة ١٥٠).

بَحْتَة، ومثل الألوان الزاهية بَدَلًا من تلك الخافتة في الصُور المُبَكِّرة، ومثل السماء الزرقاء أو الذهبية المتألقة بَدَلًا من السماء العارية عن اللون. ولعل ما هو أهم من ذلك كله أن أسلوب التعبير عن مضمون القصص قد بدأ يفيض حماسة من خلال السرد بحيث أصبحت الصُور تفسرًا فعليًا للأحداث المروية. وكان ملك كابل قد أعد كميًا للبطل رستم بمساعدة شغاذ شقيق رستم بعد أن أقام له وليمة ودعاه للصيد فأعنت صهوة جواده رخش وأتجهوا صوب المَرَج الذي حُور فيه خندق امتلأ نضالًا فاشتد الجواد الخطر واضطرب فضربه رستم بالسوط ضربة أوقعتهما في الكمين فتمزق جسدهما. وإذ فطن رستم إلى هلاكه بفعل أخيه شغاذ الذي اعتصم بشجرة دلب رماه بسهم نفذ فيه وخاطه مع الشجرة فتأوه آهة خرجت معها روحه إلى أن فاضت روحه هو الآخر.

على أن أهم تطور لحق منمنمات مُسَهِّل القرن الرابع عشر بعد ثراء تدريجات الألوان هو استحداث وسائل متنوعة لتشكيل الصورة تشكيلاً طليقاً، مثل الثباين^(١) عن طريق رسم شخص يتصدر مقدّم الصورة على سبيل المثال، وكأنه يتطرق منها نحو المشاهد على نحو ما نرى في منمنمة «إسكندر يصرع الكركدن» (لوحة ١٣٩ م).

لقد تناولت شاهنامة ديموط موضوعين ارتقعا بها إلى أوج الرفعة، هما البطولة والوهج العاطفي المتوتر، ولم يقدم الفن الفارسي سواها نموذجاً نابضاً يمثل هذه الشحنة الانفعالية المسيطرة على منمنماتها القليلة التي تبسط صوراً من الإفراح البطولي ضد قوى الشر. فما رأينا لوحات أثارَت إعجابنا خيراً من تلك التي تصور مغامرات الأبطال بهرام جور ورستم والإسكندر، وبخاصة في معاركهم ضد التتير وغيره من ضواري الحيوان. وجاء التتير في هذه المنمنمات مقتبساً عن النموذج الصيني، غير أن استخدام الفنان المسلم للتتير في لوحاته يجعلها عصية الفهم على الصينيين أنفسهم، حيث يرونهم في التتير رمزاً لقوى الخير - كما سبق القول -، بينما أطلق الفنان المسلم الحرية لنفسه في تغيير صفاته تلك فرمز به للشر وأظهره دليلاً يستجدي الرحمة فاغراً فاه لا ليتفث اللهب والدخان، بل ليلفظ آخر أنفاسه، بينما يجهز عليه البطل بسيفه أو سهمه. وبصفة

(١) الثباين، التضاد (contrast):

هو ما يظهر من فرق بين شيئين يختلفان في الصورة أو الحجم أو الشكل أو اللون، كالفرق بين الخط المستقيم والخط المنحني، وبين الفاتح والداكن، أو بين لونين متقابلين متضادين مثل الأحمر والأخضر [م. م. م. ث.].

شخصيات أبطال هذه الملحمة القومية. وإذا كانت الشخصيات الأساسية تصدر الصورة إلا أنها تتخذ اتجاهات عديدة، وما أكثر ما تتجه نحو خلفية الصورة مؤلبة ظهرها للمشاهد. ولم يعد المنظر مغلقاً بل ممتداً تظهر فيه السماء زرقاء داكنة أو ذهبية. وتطورت طريقة بثر الحدث عند نهاية إطار المنمنمة إلى فن رفيع، مما أسفر عن تزاوج فريد بين الحدث الدرامي ومفهوم جد زهيف لمشاهد الطبيعة بلغ مشارف الخيال الساحر.

ومن الغريب أن تأثير الصين قد أعان على تأكيد التعبير المنشود وإبراز العناصر البطولية والفعالة الكامنة في ثانيا الملاحم الشعرية الفارسية، على حين أن التصوير الصيني الرفيع نفسه لم يطرق مثل هذه الموضوعات. والزاجح أن الصراع بين الثقافات القومية الموروثة وفنون التصوير الوافدة من الصين قد تمخض عن هذا الأسلوب البالغ الملهم.

وقد حاول مؤرخو الفن نسبة منمنمات هذه الشاهنامة إلى جملة من الفنانين، وتوزيع تواريخ إنجازها على فترات مختلفة من القرن الرابع عشر، غير أنه إذا كان من المسلم به اشتراك جملة من الفنانين في تصوير منمنمات هذا الكتاب، فإن تنوع الأساليب وتباين درجات التأثير الصيني لا يعني أن صوره قد أنجزت خلال عدة أجيال، بل إن حيويها لتجعل مثل هذه الاختلافات أمراً متوقفاً. ويرجح بازيل جراي أن تصويره قد استغرق فترة لا تزيد على ست سنوات، وأن ثلاثة من المصورين فحسب هم الذين أنجزوه. كما يحدد تالبوت رايس تاريخ هذه المخطوطة ما بين عامي ١٣٣٠ و ١٣٣٥، وهو لا يغزو اختلاف الأسلوب بين منمنماتها إلى اختلاف التواريخ التي أنجزت فيها المنمنمات، بقدر ما يغزوه إلى الروح المحافظة أو التقدمية التي كان يتحلى بها المصورون أنفسهم.

لهكذا اختلف أسلوب المصورين المشتركين في ترتيب هذه المخطوطة، فنجد أحدهم مثلاً - ممن يمكن أن ندعوه محافظاً - يتبع أسلوباً شبيهاً بأسلوب صور «جامع التواريخ». فإذا قارنا منمنمة مصرع رستم وقتله لإخيه شغاذ الواردة في «جامع التواريخ» (لوحة ١٥١) بتلك الواردة في شاهنامة تبريز (لوحة ١٥٢) للاحظنا وشائج قوية بينهما على الرغم من أن الرسم الخطي يطغى على أولاهما ولا تلعب فيها الألوان إلا دوراً خافئاً، بينما نرى ثانيتهما تصويراً بمعنى الكلمة. وإنما يكمن الاختلاف الأساسي بينهما في طريقة تفسير الحدث، فبينما تنبض منمنمة «جامع التواريخ» بالقوة وتفيض بالروح الدرامية، تتميز منمنمة الشاهنامة بمحاحا الغنائي الشاعر الذي عدا بعد ذلك سمة أساسية للتصوير الفارسي بصفة عامة. وثمة مصور آخر أفرط في استخدام عناصر تصويرية إيرانية

إِسْكَنْدَر، وذلك بِحَسَبِ تَلْفَاقِيٍّ مِنْ دُونِ أَنْ يَكُونَ قَدْ تَوَصَّلَ بِإِدْرَاكِهِ الذُّهْنِيَّ إِلَى قَاعِدَةٍ اسْتِخْدَامِ الضَّوِّ عَامِلًا تَشْكِيلِيًّا، والذي لَمْ يَكُنْ قَدْ عَرِفَ ضِمْنَ قَوَاعِدِ التَّصْوِيرِ الْإِسْلَامِيِّ بَعْدَ ذَلِكَ يَبْدُو أَنَّهُ اكْتُشِفَ تَلْفَاقِيًّا أَنَّهُ لَمَّا كَانَ «الشَّكْلُ» هُوَ جَوْهَرُ الْعُنْصُرِ التَّشْكِيلِيِّ فَإِنَّ «اللُّونَ» هُوَ بُرْثَتُهُ، فَانْتَبَرَى يُورِّعُ أَلْوَانَهُ بِسَخَاهُ عَلَى كُتْلَةِ الْفُرْسَانِ الْمَرْسُومَةِ تَجَاهَ خَلْفِيَّةِ السَّمَاءِ الذَّهَبِيَّةِ. وَمَعَ أَنَّ الْفَتَانَ قَدْ اخْتَارَ مُفْرَدَاتِ الْمَشْهَدِ الطَّبِيعِيِّ مِنْ عَنَاصِرِ صِبْنِيَّةِ بَحْتِهْ وَأَجَادَ تَمَثُّلَهَا وَتَسْيِيقَهَا بِحَيْثُ جَاءَتْ مُتَوَاتِمَةً مَعَ الْإِسْكَنْدَرِ وَفُورْسَانِهِ، إِلَّا أَنَّ سِخْنَ الْأَشْخَاصِ بِعَامَّةٍ - وَهِيَ سِخْنُ غَيْرِ صِبْنِيَّةِ الْمَنْبِتِ - قَدْ غَلَبَتْ عَلَى اللَّوْحَةِ.

كَذَلِكَ تُحَرِّكُ الْمَنَاطِرُ الْحَزِينَةُ إِعْجَابَنَا، مِثْلُ مَنْظَرِ التَّحْجِبِ وَالْوَلُولَةِ فِي مُنْمَنَةِ نَعَشِ الْإِسْكَنْدَرِ الْأَكْبَرِ (لَوْحَةٌ ١٤٠ م)، وَقَدْ رَوَى الْفَرْدَوْسِيُّ أَنَّ الْإِسْكَنْدَرَ لَقِيَ حَتْفَهُ فِي بَابِلَ ثُمَّ نُقِلَ جُثْمَانُهُ إِلَى الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ بَعْدَ اسْتِخَارَةِ الصَّدَى الْمُقَدَّسِ لِشَاطِئِ نَهْرِ «خُولَم» الصَّخْرِيِّ بِأَفْغَانِسْتَانِ، وَأَنَّ عَشْرَةَ آلَافٍ مُشْتَبِعٍ مِنَ الْفُورْسِ وَمِنْ جُنُودِ جَيْشِهِ قَدْ أَحَاطُوا بِنَعْشِهِ حَتَّى دُفِنَ فِي الْعَسَقِ. وَقَدَّمَ الْفَتَانَ هُنَا (وهو غيرُ مُصَوِّرِ الْمُنْمَنَةِ السَّابِقَةِ بِطَبِيعَةِ الْحَالِ) جَوْأَ آخَرَ، فَصَوَّرَ نَعَشَ الْمَلِكِ دَاخِلَ قَصْرِ، وَجَعَلَهُ فَوْقَ مِئْصَافٍ عَلَى غِرَارِ نَعُوشِ أَبَاطِرَةِ الصِّينِ، وَأَحَاطَهُ بِزَخَارِفِ ذَاتِ وَحْدَاتِ نَبَاتِيَّةٍ صِبْنِيَّةٍ، وَنَصَبَ حَوْلَ النَّعْشِ أَرْبَعَ شَمْعَاتٍ سَامِقَةٍ تَبْتَهَا فِي شَمَاعِدِ إِسْلَامِيَّةِ الطَّابَعِ، وَنَقَشَ مُتَوَسِّطَ الْبَسَاطِ الْأَحْمَرِ بِزَخَارِفِ هَنْدَسِيَّةٍ بَيْضَاءَ، وَزَيَّنَ حَوَافَّهُ بِكِتَابَةِ بَعْضِ الطَّرُزِ بِخَطِّ كُوفِيٍّ مُحَوَّرٍ. وَمِنْ فَوْقِ النَّعْشِ وَعَلَى جَانِبَيْهِ تَدَلَّتْ قَنَادِيلُ رُجَائِيَّةٍ كَقَنَادِيلِ الْمَسَاجِدِ، وَانْسَدَلَتْ فِي الْخَلْفِ سِتَائِرُ رَائِعَةِ الْوَشْيِ تَحْجِبُ مِنْ خَلْفِهَا كُوفَةً، وَعَلَى جَانِبَيْ النَّعْشِ وَقَفَ رِجَالُ حَاسِرٍو الرُّؤُوسِ، وَقَدْ أَطْلَقُوا شُعُورَهُمْ وَلِحَاهُمْ وَشَبَكَ بَعْضُهُمْ ذِرَاعِيَهُ عَلَى صَدْرِهِ بَيْنَمَا بَسَطَهُمَا آخَرُونَ فِي ابْتِهَالٍ وَتَضَرُّعٍ. وَخَلْفَ النَّعْشِ مُبَاشَرَةً شَخْصٌ طَوِيلُ اللَّحْيَةِ لَعَلَّهُ أَرَسَطُو مُعَلِّمَ الْمَلِكِ الرَّاجِلِ، وَقَدْ انْعَكَسَ تَأْثِيرُ الْخَدَثِ فِي حَرَكَةِ الشَّاءِ اللَّاتِي شَغَلْنَ الْجُزْءَ الْأَوْسَطَ مِنْ مُقَدِّمَةِ الصُّورَةِ، يَبْدُونَ مِنْ خَلْفٍ أَوْ فِي وَضْعٍ نِصْفِ جَانِبِيٍّ وَقَدْ عَقَدْنَ أَذْرُعَهُنَّ فَوْقَ رُؤُوسِهِنَّ تَعْبِيرًا عَنْ حُزْنِهِنَّ. وَارْتَمَتْ الْأُمُّ التَّكْلَى بِجَسَدِهَا الضَّامِرِ فَوْقَ النَّعْشِ، وَتَدَلَّى ثَوْبُهَا الَّذِي تُمَثِّلُ طَيَّاتَهُ بِؤْرَةِ التَّعْبِيرِ فِي الصُّورَةِ. وَقَدْ صُوِّرَتْ تِلْكَ الطَّيَّاتُ فِي تَلَافِيْفٍ وَحَلَزُونِيَّاتٍ مُتَوَجِّجَةٍ عَلَى نَهْجِ مَدْرَسَةِ بَغْدَادَ. وَلَبَّتِ الْعَنَاصِرُ الْجَوْهَرِيَّةُ دَوْرَهَا فِي إِضْفَاءِ التَّوَازُنِ وَالْإِسْقَاقِ عَلَى التَّكْوِينِ بِخُطُوطِهَا الرَّأْسِيَّةِ الْمُسَيِّقَةِ وَالتَّمَاثُلِ الْقَائِمِ بَيْنَهَا. وَكَانَ هَذَا التَّمَاثُلُ خِلَالَ الْقَرْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ إِسْهَامًا فَارِسِيًّا فِي الْأُسْلُوبِ الْعِرَاقِيِّ لِلتَّصْوِيرِ، وَبَدَلَ وَجُودِهِ هُنَا وَفِي بَعْضِ

عَامَّةٍ يَخْتَلِفُ التَّيْنِ فِي هَذِهِ الْمُنْمَنَاتِ عَنِ الْمَخْلُوقَاتِ الزُّخْرَفِيَّةِ الْمُصَوَّرَةِ فِي مُنْمَنَاتِ الْقَرْنَيْنِ الْخَامِسِ عَشَرَ وَالسَّادِسِ عَشَرَ كَمَا سَيَأْتِي بَعْدَ.

أَمَّا الْكَرْكَدَنْ الَّذِي يُوَاجِهُ الْإِسْكَنْدَرَ فِي مَعْرَكَتِهِ ضِدَّ الْأَحْبَاشِ (لَوْحَةٌ ١٣٩ م) فَهُوَ وَحْشٌ خَائِرٌ بِالْقِيَاسِ إِلَى التَّيْنِ الْمَعْهُودِ، وَإِنْ جَمَعَ إِلَى أَثْيَابِ الذُّئْبِ، قَرْنَ الْخَرْتِيتِ وَجَنَاحِي النَّسْرِ وَمَخَالِبِ الْأَسَدِ، فَهُوَ حَيَّوَانٌ مُلَفَّقٌ مِنْ قُوَى مُجْتَمِعَةٍ يَلْوِي أَمَامَهَا جَوَادُ الْمَلِكِ عُنْفَهُ خَوْفًا. وَيَذْهَبُ إِتْنَجْهَازُنَ فِي بَحْثِهِ الطَّرِيفِ وَالْمُضْنِيِّ عَنِ تَصْوِيرِ الْكَرْكَدَنْ فِي الْإِيْقُونُوغَرَفِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ إِلَى أَنَّ الْمَخْلُوقَاتِ الْمُجْتَنِّحَةَ وَحِيدَةَ الْقَرْنِ هِيَ لِلْكَرْكَدَنْ [الْخَرْتِيتِ] بِصَرْفِ النَّظَرِ عَمَّا إِذَا كَانَ جِسْمُهَا لِأَسَدٍ أَوْ لِجَوَادٍ أَوْ لِطَبْيِ أَوْ لِيَقَرِّ الْوَحْشِ.

وَحَتَّى نَسْتَطِيعَ أَنْ نُجْلِيَ لِلْقَارِئِ آيَاتِ الْجَمَالِ فِيمَا سَنَعَرُضُ لَهُ مِنْ مُنْمَنَاتِ الْفَنِّ الْفَارِسِيِّ، نَرَانَا مُضْطَرِّينَ - لَدَى شَرْحِ أَعْبَادِهَا وَاسْتِجْلَاءِ مَوْحِيَاتِهَا - أَنْ نَتَّبِعَ مِغْيَارًا مُعَاصِرًا اضْطَلَّحَ عَلَيْهِ أَكْثَرُ النَّقَّادِ، وَهُوَ اسْتِثْمَالُ الصُّورَةِ عَلَى عُضْرَيْنِ: التَّشْكِيلِيِّ أَوْ التَّصْوِيرِيِّ وَيَشْمَلُ الْخُطُوطَ وَالْأَشْكَالَ وَالْأَصْبَاحَ وَالضَّوِّ وَالظَّلَّ، وَالْعُنْصُرَ الْإِبْدَاعِيَّ أَوْ الْجَمَالِيَّ الَّذِي يَتِمَّتْ فِي طَرِيقَةِ التَّنَازُلِ وَإِخْضَاعِ الْعَنَاصِرِ التَّشْكِيلِيَّةِ لِنَسَقٍ خَاصٍّ تَتَجَلَّى فِيهِ بَرَاعَةُ الْفَتَانِ فِي التَّصْوِيرِ وَالْخَلْقِ وَالْإِبْدَاعِ. وَلَا يَعْنِي هَذَا أَنَّ الْفَتَانَ الْمُسْلِمَ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ كَانَ حَرِيًّا بِأَنْ يُطَبِّقَ هَذَا الْمِغْيَارَ، بَلْ إِنَّ رُسُومَهُ كَانَتْ مِنْ بَيْنِ أَصُولِ الرَّسْمِ الَّتِي سَاهَمَتْ عَلَى مَرِّ التَّارِيخِ فِي تَكْوِينِ الْمَفْهُومِ التَّشْكِيلِيِّ الَّذِي أَسْفَرَ فِي نِهَايَةِ الْمَطَافِ عَنْ تَحْدِيدِ هَذَا الْمِغْيَارِ.

فَفِي لَوْحَةِ «الْإِسْكَنْدَرُ يَصْرَعُ الْكَرْكَدَنْ» نَرَى الْفَتَانَ الْمُسْلِمَ قَدْ رَاعَى مَبْدَأَ الْمَوَازَنَةِ بَيْنَ الْعَنَاصِرِ الْمُكَوِّنَةِ لِلصُّورَةِ مِنْ حَيْثُ أَوْضَاعُهَا وَتَدْرِجَاتُ أَلْوَانِهَا، وَالتَّقْدِيرَ مَا بَيْنَ قُوَّةِ التَّأْثِيرِ فِي كُلِّ مِثَالٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْآخَرِ حَتَّى لَا يَذْهَبَ عُضْرٌ بِجَمَالٍ غَيْرِهِ. فَتَرَاهُ وَقَدْ رَسَمَ مُقَابِلَ كُتْلَةِ الْفُرْسَانِ الدِّينَامِيكِيَّةِ الرَّاجِفَةِ مِنْ يَمِينِ الصُّورَةِ، كُتْلَةَ الرَّبِيِّ وَالتَّلَالِ السَّائِكَةِ الْمُغَطَّاءَ بِالْأَشْجَارِ فِي يَسَارِهَا. كَذَلِكَ اعْتَمَدَ فِي تَصْمِيمِهِ عَلَى عُضْرِ الْحَرَكَةِ الْمُتَدَفِّقَةِ، وَالتِّي تَبْدَأُ فِي فَرَاغِ الصُّورَةِ مِنْ أَعْلَى الْيَمِينِ، مُمْتَدَّةً عَبْرَ الْفُرْسَانِ وَالْبَطْلِ إِسْكَنْدَرَ وَجَوَادِهِ فِي خَطِّ مَائِلٍ يَنْتَهِي بِالْكَرْكَدَنْ الْمُتَحَفِّزِ فِي أَدْنَى يَسَارِ الصُّورَةِ. وَالْآلَايَةُ لِلنَّظَرِ تَصْوِيرِ الْجَوَادِ فِي وَضْعَةٍ مَائِلَةٍ وَهِيَ وَضْعَةٌ مَا بَرَحَتْ تُعَبِّرُ فِي التَّصْوِيرِ عَنِ الْحَرَكَةِ وَعَدَمِ الْاسْتِقْرَارِ. كَذَلِكَ اسْتَعَاذَ الْفَتَانُ الْمُسْلِمُ عَنِ الضَّوِّ بِاسْتِخْدَامِ اللَّوْنِ الْمُضِيِّ فَاصِلًا بَيْنَ كُتْلَتِي تَشْكِيلِهِ وَجَاذِبًا نَظَرَ الْمُشَاهِدِ إِلَى بُؤْرَةِ التَّكْوِينِ وَهِيَ الْجَوَادُ الْمُتَوَتِّبُ وَمِنْ فَوْقِ صَهْوَتِهِ الْبَطْلُ

السَّاسَانِي. ففي كُلِّ مَخْطُوطَاتِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ نَلْمَسُ اتِّجَاهًا وَاضِحًا نَحْوَ تَسْجِيلِ مَشَاهِدِ الْعَرْشِ الَّتِي يَبْدُو فِيهَا الْمَلِكُ وَسَطَ حَاشِيَتِهِ، الْأَمْرُ الَّذِي يَخْتَلِفُ تَمَامًا مَعَ رُوحِ مَدْرَسَةِ بَغْدَادِ الَّتِي اقْتَصَرَ اهْتِمَامُهَا عَلَى صَاحِبِ الْعَرْشِ وَحْدَهُ، وَغُنِيَتْ بِتَسْجِيلِ حَيَاةِ النَّاسِ عَلَى مَا رَأَيْنَا فِي مُنَمَّنَاتِ مَقَامَاتِ الْحَرِيرِيِّ. وَبِرُغْمِ أَنَّ مَدْرَسَةَ التَّصْوِيرِ الْفَارِسِيِّ فِي عَهْدِ الْإِيلْخَانَاتِ كَانَتْ لَاحِقَةً عَلَى مَدْرَسَةِ بَغْدَادِ إِلَّا أَنَّهَا ارْتَدَّتْ إِلَى التَّقَالِيدِ الْمَلِكِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ الْقَدِيمَةِ. وَهَذَا الْاهْتِمَامُ الَّذِي يَتَّصِبُ - فِي هَذِهِ الْمَشَاهِدِ الْمَلِكِيَّةِ - عَلَى الشَّخْصِيَّةِ الرَّئِيسِيَّةِ، وَتَوَزِيعِ الشُّخُوصِ الْمُحِيطَةِ بِهِ، يَدُلُّ عَلَى مَدَى تَأْثِيرِ أُسْلُوبِ التَّصْوِيرِ الْجِدَارِيِّ الْفَارِسِيِّ عَلَى تِلْكَ الْمُنَمَّنَاتِ، إِذْ نَجِدُ أَنَّ الْخَلْفِيَّةَ الْحَمْرَاءَ السَّائِدَةَ فِي جُمْلَةِ مِثْلِهَا مَا هِيَ إِلَّا اسْتِطْرَادٌ لِلْخَلْفِيَّةِ الَّتِي تُعَدُّ سَلَفًا لِرُسْمِ الصُّورِ الْجِدَارِيَّةِ عَلَى نَحْوِ مَا نَرَى فِي تَصَاوِيرِ قَبْزِيلِ الْجِدَارِيَّةِ الْمَحْفُوظَةِ الْآنَ بِمُتَحَفِ بَرَلِين، كَمَا تُذَكِّرُنَا بِهَا أَيْضًا لِفَائِفِ السُّحْبِ وَالْأَصْطِلَاحَاتِ النَّبَاتِيَّةِ فِي هَذِهِ الشَّاهَنَامَةِ. وَمِنْ أَقْوَى هَذِهِ الْمُنَمَّنَاتِ تَعْيِيرًا تِلْكَ الْمَحْفُوظَةِ حَالِيًا ضِمْنَ مَجْمُوعَةِ «تَشْتَرِ بَيْتِي» بِدَبْلِن، وَفِيهَا نَرَى الْمَلِكَ مُتَرَبِّعًا فَوْقَ عَرْشِهِ وَأَمَامَهُ أَرْبَعَةُ شُخُوصٍ (لَوْحَةٌ ١٥٤). وَقَدْ رُسِمَتِ الشُّخُوصُ بِأُسْلُوبِ مُجَسِّمِ نَابِضٍ بِالْحَيَاةِ يُذَكِّرُنَا مِنْ نَاحِيَةِ الْفَنِّ السَّاسَانِيِّ، وَلَوْ أَنَّهُ يَرَهْصُ مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى بِمَشَاهِدِ الْبَلَاطِ الْغَزِيرَةِ خِلَالِ الْعَصْرِ التَّيْمُورِيِّ. وَإِذَا كَانَ تَطْيِيلُ الثَّيَابِ جَاءَ عَلَى غِرَارِ التَّصْوِيرِ الْبَرْزَنْطِيِّ إِلَى حَدِّ مَا إِلَّا أَنَّ سِمَةَ التَّفْطِيقِ لَا تَطْغَى عَلَى أُسْلُوبِ الْمُنَمَّنَةِ، فَقَدْ تَحَمَّتْ فِيهَا جَمِيعُ الْعَنَاصِرِ مُعْرِبَةً عَنْ أُسْلُوبِ جَدِيدٍ.

المُؤَرِّخُ دُوسْتُ مُحَمَّدٌ، وَالْمُصَوِّرُ أَحْمَدُ مُوسَى

«كَانَ فَنُّ التَّصْوِيرِ مُزْدَهِّرًا فِي الصِّينِ وَبِلَادِ الْفَرَنْجَةِ حَتَّى سَلْطَنَةِ أَبُو سَعِيدٍ، وَسَرْعَانِ مَا اكْتَشَفَ الْأُسْتَاذُ أَحْمَدُ مُوسَى الْوَجْهَ الصَّحِيحَ لِلتَّصْوِيرِ وَابْتَكَرَ الْأُسْلُوبَ الْإِسْلَامِيَّ الْحَدِيثَ».

بهذه العبارة يَسْتَهْلُ الْمُؤَرِّخُ الْفَارِسِيُّ دُوسْتُ مُحَمَّدٌ كِتَابَهُ الْمُسَمَّى «التَّارِيخُ الْمَوْجَزُ لِفَنِّ التَّصْوِيرِ» الَّذِي وَضَعَهُ فِي مُتَنَصَفِ الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ، وَكَانَ الْمُؤَلِّفُ نَفْسَهُ خَطَّاطًا مُحَسَّنًا وَمُصَوِّرًا. وَلَقَدْ أَوْرَدَ فِي مُؤَلَّفِهِ هَذَا أَسْمَاءَ عَدَدٍ مِنَ الْفَنَّانِينَ مَعَ ذِكْرِ أَهَمِّ مُنْجَزَاتِهِمْ مِنْ عَهْدِ أَبِي سَعِيدٍ (١٣١٧ - ١٣٣٥). وَسَوَاءُ أَكَانَ الْمُؤَلِّفُ قَدْ شَاهَدَ بِعَيْنَيْهِ مَخْطُوطَاتِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ الشَّيْخِيَّةِ الَّتِي ذَكَرَهَا أَمْ أَنَّ مَا رَوَاهُ كَانَ تَرْدِيدًا لِلْأَحَادِيثِ الْمُتَدَاوِلَةِ فَحَسْبُ، فَلَيْسَ ثَمَّةَ شَكٍّ فِي أَنَّهُ - وَمِثْلُ مُعَاَصِرِهِ الْإِيطَالِيِّ فَاسَارِي - قَدْ غَنِيَ بِأُسْلُوبِ التَّصْوِيرِ الَّذِي مَارَسَهُ بِنَفْسِهِ وَالْمُنْبَنِيِّ عَنْ بَوَاكِرِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ. وَنَحْنُ لَا نَمْلِكُ أَنْ نَتَجَاهَلَ حُكْمَ

الْمُنَمَّنَاتِ الْأُخْرَى مِنْ هَذَا الْمَخْطُوطِ عَلَى أَنَّ الْمُصْطَلَحَاتِ الصِّينِيَّةَ لَمْ تَكُنْ تُسْتَخْدَمُ إِلَّا بِمَقْهُومِ فَارِسِيِّ بَحْثٍ.

وَمِنْ أَكْثَرِ مُنَمَّنَاتِ الشَّاهَنَامَةِ نُضَوِّجًا بَعْدَ تَمَثُّلِ التَّأْثِيرِ الصِّينِيِّ مُنَمَّنَةُ جِنَازَةِ إِسْفَنْدِيَارِ (لَوْحَةٌ ١٥٣)، فَإِلَى جَانِبِ الرُّسْمِ الْخَطِّيِّ الرَّهِيْفِ، يُبْنَى شَكْلُ الْبَجَعَاتِ الثَّلَاثِ الْمُحَلَّفَةِ بِجَلَاءٍ عَنْ أَصْلِهَا الصِّينِيِّ. وَبَلَقْنَا أَنَّ مُسَيِّعِي الْجُثْمَانِ بِشُعُورِهِمُ الْمُرْسَلَةَ يَشْغَلُونَ التَّكْوِينَ كُلَّهُ، عَلَى جِهِنِ انْتَشَرَتْ الزُّهُورُ الصِّينِيَّةُ الْأَصْطِلَاحِيَّةُ فَغَشِيَتْ الْفَرَاعَاتِ.

وَقَدْ تَجَلَّتْ خُصُوبَةُ الْإِحْسَاسِ الْفَنِّيِّ لَدَى أَوْلَئِكَ الْمُصَوِّرِينَ الَّذِينَ شَارَكُوا فِي تَصْوِيرِ هَذَا الْمَخْطُوطِ فِي إِبْدَاعِ ابْتِكَارَاتٍ أُخْرَى انْعَكَسَتْ فِي رَسْمِ مَنَاطِرِ الْبَلَاطِ وَمَعَارِكِ الْقِتَالِ، فَتَرَى عُتُوانَ إِحْدَى تِلْكَ الْمُنَمَّنَاتِ يَدْخُلُ ضِمْنَ إِطَارِ اللَّوْحَةِ بَيْنَمَا تَنْدَفِعُ رِمَاحُ قُرْسَانِهَا فَتَقَاطِعُ أَبْيَاتَ الشَّعْرِ فِي الْمَلْحَمَةِ. وَلَعَلَّ أَكْثَرَ صُورِ مَعَارِكِ الْحَرْبِ لَفَتْ لِلنَّظَرِ هِيَ صُورَةُ هُجُومِ الْمُنْجَنِّقَاتِ الْمُتَحَرِّكَةِ بَيْنَ قُرْسَانِ الْإِسْكَنْدَرِ فِي مَعْرَكَةِ هِيْدَاسِپِسِ ضِدَّ جُيُوشِ الْمَلِكِ فُورِ الْهَنْدِيَّةِ (لَوْحَةٌ ١٤١ م).

وَإِذَا كُنَّا نَعُدُّ الْفَنَّانَ رُوبِنَزَ أُسْتَاذَ تَصْوِيرِ الْحَيَاةِ النَّابِضَةِ فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ وَوَاضِعَ الْقَوَاعِدِ الرَّاسِيَةِ لِتَصْوِيرِ الْحَرَكَةِ الْجَارِفَةِ، فَإِنَّ مُصَوِّرَنَا التَّبَرْيزِيَّ الْمَجْهُولَ قَدْ سَبَقَهُ إِلَى جَوْهَرِ هَذِهِ الْقَوَاعِدِ مُنْذُ الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ، فَتَحَنُّ نَحْسُ ذَلِكَ الْجَوْهَرِ فِي تَكْوِينَاتِهِ الدِّينَامِيَّةِ، فَهِيَ هِيَ ذَا قَدْ بَعَثَتْ الْحَيَاةَ فِي مُنَمَّنَةٍ مِنْ خِلَالِ حَرَكَةٍ عَنِيفَةٍ مُنْدَفِعَةٍ تَبْدَأُ مِنْ يَمِينِ الصُّورَةِ بِالْقُرْسَانِ الْأَرْبَعَةِ الْمُنْطَلِقِينَ مِنْ وَرَاءِ الْمُنْجَنِّقَاتِ الثَّلَاثِ صَوْبَ الْعَدُوِّ الَّذِي وَلَّى الْأَذْيَارَ، ثُمَّ تُتَابِعُ الْحَرَكَةَ انْطِلَاقَهَا فِي أَلْسِنَةِ اللَّهَبِ الدَّهْبِيَّةِ الصَّادِرَةِ عَنْ أَسِنَّةِ الرِّمَاحِ وَقُؤَاهِ الْمُنْجَنِّقَاتِ، تَكْسُو السُّحْبَ الْبَيْضَاءَ وَالسَّمَاءَ الزَّرْقَاءَ وَأَرْضَ الْمَعْرَكَةِ بِالْأَصْوَاءِ الدَّهْبِيَّةِ وَالْحَمْرَاءِ. وَتَمْتَازُ اللَّوْحَةُ بِرَاءِ أَلْوَانِهَا وَانْسِجَامِهَا، وَبِسَخَاءِ الْفَنَّانِ فِي اسْتِخْدَامِ اللَّوْنِ الدَّهْبِيِّ لِتَلْوِينِ دُرُوعِ الْقُرْسَانِ وَخُودَاتِهِمْ وَعَجَلَاتِ الْمُنْجَنِّقَاتِ وَاللَّهَبِ، ثُمَّ اللَّوْنِ الْفُضِّيِّ - الَّذِي زَالِ يَفْعَلُ الزَّمَنَ وَتَحَوَّلَ إِلَى لَوْنٍ أَسْوَدَ بَاهِتٍ - فِي تَلْوِينِ الْمُنْجَنِّقَاتِ. وَلَا تَخْفَى عَلَى الْأَعْيُنِ الْعَنَاصِرُ الصِّينِيَّةُ الْمُسْتَخْدَمَةُ، كَتَلَايِفِ السُّحْبِ وَشُعَلَاتِ اللَّهَبِ وَالثَّبَاتَاتِ الْمُحَوَّرَةِ الْمُنتَشِرَةِ عَلَى أَرْضِيَّةِ الْمَعْرَكَةِ. وَتَقْدِّمُ هَذِهِ الْمُنَمَّنَةُ كَذَلِكَ أَفْضَلَ نَمُودَجٍ لِطَرِيقَةِ بَثْرِ الْهَوَامِشِ، وَقَدْ ظَهَرَ الْقُرْسَانُ الْهُنُودُ الْمُتَلَتِفَتَيْنِ إِلَى الْوَرَاءِ مَذْعُورَيْنِ وَكَأَنَّهُمَا قَدْ وَلَّوْا فِرَارًا خَارِجَ إِطَارِ الصُّورَةِ.

وَتَعَكَّسَ الْمُنَمَّنَاتُ - تَمَثُّبًا مَعَ رُوحِ الْمَلْحَمَةِ - التَّوْقِيرَ الشَّدِيدَ لِلْعَرْشِ وَصَاحِبِهِ، وَهُوَ تَقْلِيدٌ بَلَغَ أَقْصَاهُ خِلَالِ الْعَهْدِ

أحمد موسى، ومُرْقعة بهرام ميرزا

إِنتَخَبْتُ مِنْ بَيْنِ صُورِ أَحْمَدَ مُوسَى بِمُرْقَعَةِ بَهْرَامِ مِيرْزَا شَقِيقِ الشَّاهِ طَهْمَاسِپِ الصَّفْوِيِّ الْمَحْفُوظَةِ بِمُتَخَفِ طُوبِ قَاهُو مُنْمَنَتَيْنِ رَائِعَتَيْنِ تُصَوِّرُ إِحْدَاهُمَا تَجَمُّعَ الْمُسْلِمِينَ حَوْلَ الْكَعْبَةِ وَتَدْفُقُهُمْ عِنْدَ بَابِ سُورِ الْكَعْبَةِ شَاكِرِينَ رَبَّهُمْ عَلَى دُخُولِهِمْ مَكَّةَ. وَيُعَزِّزُ هَذَا التَّفْسِيرَ الصُّورُ الرَّائِزَةُ لِلْمَلَايِكَةِ الَّتِي تُرْفَرِفُ بِأَجْنِحَتِهَا فِي سَمَاءِ الْكَعْبَةِ (لَوْحَةُ ١٤٢ م). وَتُبْنِي الْعَنَاصِرَ التَّشْكِيلِيَّةَ وَالْإِبْدَاعِيَّةَ فِي هَذَا التَّكْوِينِ الْبَدِيعِ الْمُبَكَّرِ عَنْ دِرَايَةِ وَاسِعَةٍ وَمَوْهَبَةٍ خَلَّاقَةٍ. وَنَرَى الْأَثَرِ الصِّينِيِّ مُتَجَلِّيًا فِي رَسْمِ سِلْسِلَةِ الرُّبَى الْمُحِيطَةِ بِالْكَعْبَةِ وَكَأَنَّهَا شِعَابُ مَرْجَانِيَّةٍ، وَفِي لَفَائِفِ السُّحْبِ التَّيْنِيَّةِ التَّقْلِيدِيَّةِ، وَفِي الزُّخَارِفِ الْمَنْقُوشَةِ عَلَى الْخِيَامِ وَحِثَيَاتِ السُّورِ الْمُحِيطِ بِالْكَعْبَةِ، فَهِيَ تَكَرَّرُ لِلزُّخَارِفِ الزُّرْقَاءِ الْمَنْقُوشَةِ عَلَى الْخَزَفِ الصِّينِيِّ الْأَبْيَضِ. أَمَّا الْعَنَاصِرُ الْبِنَائِيَّةُ فِيهِ فَارِسِيَّةُ الطَّائِعِ لَا سِيَّمَا قَوَائِبُ الْقَرْمِيدِ الَّتِي تَغْطِي الْأَرْضِيَّةَ أَوْ تَكْسُو الْجُدْرَانَ، وَزَخَارِفُ الْخَزَفِ فَوْقَ الْجُزْءِ الْأَعْلَى مِنْ مَبْنَى الْكَعْبَةِ. وَلَمْ يَفُتِ الْمُصَوِّرُ أَنْ يُضْفِي عَلَى الْمَكَانِ صِفَةَ الْبَادِيَةِ فَرَسَمَ إِلَى الرُّكْنِ الْأَيْمَنِ مِنَ الْمُنْمَنَةِ بَعْضَ الْجَمَالِ تَطْلُلُ بِأَعْنَاقِهَا مِنْ بَيْنِ الْخِيَامِ، وَلَمْ يَفُتْ أَنْ يَرَسِمَ بَعْضَ الْمَسَاكِينِ إِشَارَةً إِلَى بُيُوتِ سَادَةِ قُرَيْشٍ الَّتِي كَانَتْ تُحِيطُ بِالْكَعْبَةِ.

وَتُمَثِّلُ الْمُنْمَنَةُ الْأُخْرَى مَبْنَى زَاخِرًا بِالزُّخَارِفِ يَبْدُو أَنَّهُ مَسْجِدٌ، إِذْ تَتَصَدَّرُهُ أَرْبَعَةُ أَعْمِدَةٍ مُرْدُوجَةٍ نَحِيلَةٍ مِنَ الرُّخَامِ الْأَخْضَرِ تَقُومُ عَلَيْهَا قُبَّةٌ صَخْمَةٌ، وَيَنْتَهِي بِمُخْرَابٍ، وَقَدْ التَّفَّ جَمَّ غَفِيرٍ مِنَ الشُّخُوصِ حَوْلَ وَاعِظٍ يَعْظُهُمْ (لَوْحَةُ ١٤٣ م). وَتَتَمَيَّزُ الْعَنَاصِرُ الْبِنَائِيَّةُ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ بِالنَّضَائِلِ النَّسْبِيَّةِ الْمُوحِي بِالْعَمَقِ، وَرَسْمِ بَعْضِ الشَّخْصِيَّاتِ مِنْ خَلْفٍ، وَبُوضُوحِ التَّأثيرِ الصِّينِيِّ فِي رَسْمِ السُّحْبِ. وَفِي قَوْلِ آخَرٍ إِنَّ هَذَا الْمَبْنَى يُمَثِّلُ قُبَّةَ الصَّخْرَةِ بِالْقُدْسِ بِوصفه حَدَثًا سَمَويًّا لَهُ شَأْنُهُ فِي التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ.

«كَلِيلَةُ وَدِئْمَةُ» لِأَحْمَدَ مُوسَى، عَامَ ١٣٤٧ م

وَتَضَمُّ نُسْخَةً كَلِيلَةً وَدِئْمَةً الَّتِي صَوَّرَهَا أَيْضًا الْأُسْتَاذُ أَحْمَدُ مُوسَى مَجْمُوعَةً مِنَ الْمُنْمَنَاتِ الَّتِي ضُمَّتْ إِلَى مُرْقَعَةِ تَحْوِي مَجْمُوعَةٍ كُبْرَى حُطِطَتْ بِمَكْتَبَةِ إِسْتَنْبُولَ وَكَانَتْ مِنْ قَبْلِ فِي قَصْرِ يَلْدَزِ الْمُثْمَانِيَّةِ، وَهِيَ أَهَمُّ مُنْجَزَاتِ ذَلِكَ الْعَصْرِ. وَلَقَدْ جَاءَتْ أَحْجَامُهَا مُسَاوِيَةً لِأَحْجَامِ مُنْمَنَاتِ كُتُبِ تَبْرِيزِ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي الرَّثْعِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ وَإِنْ بَرَّزَتْ فِي جَمَالِ الْمَشَاهِدِ الطَّبِيعِيَّةِ وَفِي انْطِلَاقِهَا الْمُتَحَرِّرِ مِنْ حَيْثُ اسْلُوبُ التَّشْكِيلِ، وَفِي ثَرَايِهَا بِتَنْوُعِ الْأَشْجَارِ، وَفِي اخْتِرَامِهَا لِأَوْضَاعِ الْمَنْظُورِ، وَأَخِيرًا

مُؤَرِّخَ بَلِّ مُصَوِّرٍ كَانَ أَقْرَبَ إِلَى ذَلِكَ الْعَصْرِ مِنَّا، وَالْأَمْرُ الثَّابِتُ أَنَّ أَوَّلَ مَخْطُوطِ فَارِسِيٍّ مُصَوِّرٍ يَرْجِعُ إِلَى حَوَالِي عَامِ ١٣٠٠، وَهُنَاكَ مِنَ الدَّلَائِلِ مَا يُشِيرُ إِلَى أَنَّ عَبْقَرِيًّا خَلَّاقًا مِثْلَ أَحْمَدَ مُوسَى أَوْ وَالِدِهِ قَدْ لَعِبَا فِي تَارِيخِ التَّصْوِيرِ الْإِسْلَامِيِّ الْفَارِسِيِّ الدَّوْرَ عَيْنَهُ الَّذِي لَعَبَهُ مُعَاصِرُهُمَا چوتو فِي إِيطَالِيَا. أَمَّا مَا يَغْمُضُ عَلَيْنَا فَهُوَ الْعَلَاقَةُ بَيْنَ هَؤُلَاءِ الْأَسَايِذَةِ وَتَلَامِيذَتِهِمْ وَبَيْنَ مَنْ خَلَفُوهُمْ مِنَ الْفَنَّانِينَ فِي نِهَايَةِ الْقَرْنِ.

لَقَدْ كَانَتْ إِيطَالِيَا تَزْخُرُ بِلَا شَكٍّ، يُفْنُونَ التَّصْوِيرَ قَبْلَ چوتو، كَمَا نَعْلَمُ أَنَّ قُدْرَتَهُ الْإِبْدَاعِيَّةَ قَدْ نَمَتْ بَعْدَ أَنْ اسْتَوْعَبَ تَقَالِيدَ تَصْوِيرِيَّةَ سَابِقَةٍ عَلَيْهِ. تَرَى هَلْ كَانَ ثَمَّةَ اسْتِغْرَارٍ مُمَاتِلٍ فِي تَقَالِيدِ التَّصْوِيرِ الْإِسْلَامِيِّ؟ إِنَّ مَعَارِفَنَا لَا تَتَجَاوَزُ كَثِيرًا مَا عَرَفَهُ دُوسْتُ مُحَمَّدٍ الَّذِي لَمْ نَسْمَعْ مِنْهُ إِلَّا الْقَلِيلَ.

وَقَدْ ذَهَبَ دُوسْتُ مُحَمَّدٍ إِلَى أَنَّ اسْلُوبَ الْحَدِيثِ فِي التَّصْوِيرِ - الَّذِي عُرفَ فِي عَصْرِهِ - قَدْ بَدَأَ فِي عَصْرِ أَبِي سَعِيدٍ، وَكَانَ الْأَمِيرُ الصَّفْوِيُّ أَبُو الْفَتْحِ بَهْرَامِ مِيرْزَا قَدْ كَلَّفَ دُوسْتَ مُحَمَّدَ عَامَ ١٥٤٤، أَنَّ يُعِدَّ لَهُ مُرْقَعَةً تَحْوِي مَجْمُوعَةً مِنَ الصُّوْرِ وَمِنْ نَمَاجِزِ فَنِّ الْحَطِّ، وَأَنْ يُصَدِّرَهَا بِثَبَتِ أَشْمَاءِ أَعْلَامِ الْمَاضِي فِي هَذَيْنِ الْفَتَنِ، وَمَا تَرَالِ هَذِهِ الْمُرْقَعَةُ مَحْفُوظَةٌ بِمَكْتَبَةِ طُوبِ قَاهُو سِرَافِي بِإِسْتَنْبُولَ. وَلَمْ يُسَجَّلْ فِي مُقَدِّمَتِهِ عَنْ تَارِيخِ الْفَنِّ فِي الْعُصُورِ السَّابِقَةِ عَلَى عَصْرِ أَبِي سَعِيدٍ إِلَّا اقْتِرَاضَاتٌ قَائِمَةٌ عَلَى مَا تَدَاوَلَتْهُ الْأَلْسُنُ، عَلَى حِيْنِ غَدَا حَدِيثُهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَكْثَرَ اتِّسَاقًا وَأَقْرَبَ إِلَى الْمَنْطِقِ فِي خُطُوهِهِ الرَّئِيسَةِ، وَمِمَّا يَدْعُو إِلَى تَصْدِيقِهِ. وَقَدْ أَشَارَ إِلَى أَنَّ الْجَلَاتَرَيْنِ [أَسْرَةَ مَغُولِيَّةَ حَكَمَتِ الْعِرَاقَ بَيْنَ عَامِ ١٣٠٧ وَ ١٣٩٨ م] هُمُ الَّذِينَ رَعَوْا مَدَارِسَ التَّصْوِيرِ الَّتِي خَلَفَتْ لَنَا أَهَمُّ أَعْمَالِ الْفَتْرَةِ الْأَخِيرَةِ مِنَ الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ، وَذَلِكَ بَعْدَ زَوَالِ دَوْلَةِ الْإِيلَخَانَاتِ. وَهَكَذَا كَانَتْ الْمَدْرَسَةُ الَّتِي ازْدَهَرَتْ فِي الْعِرَاقِ وَغَرْبِيِّ إِيرَانَ عَلَى أَيْدِي بَنِي جَلَاتِرٍ هِيَ خَلْقَةُ الْإِتِّصَالِ بَيْنَ الْمَدْرَسَةِ الْإِيرَانِيَّةِ الْمَغُولِيَّةِ وَالْمَدَارِسِ التَّيْمُورِيَّةِ. وَذَكَرَ كَذَلِكَ أَنَّ تَيْمُورْلَنْكَ، تَقَلَّ مَدْرَسَةَ بَغْدَادَ - بَعْدَ سُقُوطِ هَذِهِ الْعَاصِمَةِ عَامَ ١٣٩٣ - إِلَى سَمَرْقَنْدَ، حَيْثُ رَعَاهَا عَدِيدٌ مِنْ خُلَفَائِهِ وَخُصُوصًا بَايَسَنْقَرُ وَأُولُوغُ بَكِ وَالسُّلْطَانُ حَسِينُ مِيرْزَا. وَسَتَبْقَى مُقَدِّمَةُ دُوسْتِ مُحَمَّدٍ وَثِيقَةً تَارِيخِيَّةً هَامَّةً، وَإِنْ يَكُنْ أَهَمُّ مَا جَاءَ بِهَا هُوَ قَوْلُهُ: إِنَّ الْأُسْتَاذَ أَحْمَدَ مُوسَى هُوَ الَّذِي خَلَعَ الثَّقَابَ عَنْ وَجْهِ التَّصْوِيرِ، وَإِنَّهُ مُصَوِّرٌ ابْتَكَرَ هَذَا النَّوعَ الَّذِي شَاعَ فِي عَصُورِنَا الْحَالِيَّةِ، وَإِنَّهُ مُصَوِّرٌ لَوْحَاتِ كِتَابِ «أَبِي سَعِيدٍ نَامَهُ» وَ«كَلِيلَةِ وَدِئْمَةِ» وَ«مِعْرَاجِ تَامَةِ» الَّتِي نَسَخَهَا «مَوْلَانَا عَبْدُ اللَّهِ» وَكَذَلِكَ لَوْحَاتِ كِتَابِ «تَارِيخِ چَنْكِيْزِ خَانَ» الَّذِي أُودِعَ بَعْدَ ذَلِكَ مَكْتَبَةَ السُّلْطَانِ حُسَيْنِ مِيرْزَا.

الغَيْلَمِ طَيْبِ نَفْسِ الْقِرْدِ وَاثْقَلَبَ رَاجِعًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ السَّاحِلَ وَثَبَ الْقِرْدُ إِلَى الشَّجَرَةِ فَصَعَدَهَا.

وَتَمَيَّزَ حَيَوَانَاتِ مَخْطُوطَةِ كَلِيلَةِ وَدُمْنَةِ بِحَيَوِيَّةٍ وَوَاقِعِيَّةٍ كَبِيرَتَيْنِ تَفُوقَانِ مَثِيلَاتَهَا فِي الشَّاهَانَمَةِ، وَقَدْ بَلَغَتْ حَدًّا لَمْ تَسْتَطِعِ الْمَدْرَسَةُ الْفَارْسِيَّةُ أَنْ تَعْدَاهُ قَطُّ. غَيْرَ أَنَّا لَوْ أَمَعْنَا النَّظَرَ فِي رُسُومِ الْحَيَوَانَاتِ لَوَجَدْنَا أَنَّهَا لَا تُثِيرُ فِيْنَا ذَلِكَ الشُّعُورَ بِالتَّعَاطُفِ الَّذِي نُحْسِنُهُ وَنُحْنُ نَتَطَلَّعُ إِلَى الْمُنَمَّنَّاتِ الرَّهِيْفَةِ الشَّاعِرِيَّةِ الْمُتَمَيِّزَةِ إِلَى الْقَرْنِ الْخَامِسِ عَشَرَ. وَمَعَ هَذَا فَإِنَّ تَكْوِينَاتِ صُورِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ كَانَتْ أَشَدَّ عُمُقًا، فَلَوْحَةُ مَلِكِ الْفُرُودِ الْعَجُوزِ مَثَلًا لَمْ تُصَوِّرْ بِطَرِيقَةِ طَبِيعِيَّةِ فَحَسَبَ بَلٍّ لَقَدْ اِمْتَدَّتْ الشَّجَرَةُ نَائِمِيَّةً فِي فَرَاغِ طَلِيقٍ وَانْتُنَتْ أَغْصَانُهَا فَوْقَ ضِيْفَةِ الْمَاءِ بِشَكْلِ وَاقِعِيٍّ.

وَتَمَّةً أَنْمَاطٌ عَدِيدَةٌ مِنَ الْأَشْجَارِ فِي صَفَحَاتِ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ يَسْتَحِيلُ مَعَهَا الْادِّعَاءُ بِأَنَّهَا مُجَرَّدُ اسْتِنْسَاحٍ لِأَشْكَالِ صِينِيَّةٍ مِنْ دُونِ تَمَثُّلِهَا تَمَثُّلًا تَامًا. كَذَلِكَ فَإِنَّ التَّخْوِيرَ هُنَا لَا يَزِيدُ عَنْ مَثِيلِهِ فِي الْعَدِيدِ مِنْ لَوَحَاتِ التَّصْوِيرِ الصِّينِيَّةِ. وَقَدْ صُوِّرَ الْمَاءُ عَلَى شَكْلِ سِلْسِلَةٍ مِنْ أَنْصَافِ الدَّوَائِرِ الَّتِي تَحْتَضِنُ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا فُقَاعَاتُ مِنَ الزَّبَدِ، وَهِيَ شَكْلَانِ مِنَ مُصْطَلَحَاتِ التَّصْوِيرِ الصِّينِيِّ الْمَأْلُوفَةِ فِي خَرْفِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ. غَيْرَ أَنَّ أَشْكَالَ الْبُسْطِ وَقَوَالِبِ الْقَرْمِيدِ الَّتِي تُغَطِّي الْأَرْضِيَّةَ أَوْ تَكْسُو الْجُدْرَانَ قَدْ اقْتَبَسَتْ عَنْ أَنْمَاطِ فَارْسِيَّةٍ كَانَتْ سَائِدَةً - فِي أَغْلَبِ الظَّنِّ - قُرْبَ نِهَايَةِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ. وَتُعَدُّ هَذِهِ الْمُنَمَّنَّاتُ مُنْجَزَاتِ فِتْرَةِ اثْتِقَالِيَّةٍ، وَهُوَ مَا يَخْلَعُ عَلَيْهَا أَهَمِّيَّةٌ كُبْرَى، وَنَجِدُ لَهَا نَمُودَجًا فِي مَشْهُدَيْنِ تَخْرِي أَحْدَانَهُمَا دَاخِلَ غُرْفَتِي نَوْمٍ. وَيُصَوِّرُ الْمَشْهُدَ الْأَوَّلَ قِصَّةَ التَّجَارِ وَأَمْرَاتِهِ وَخَلِيلِهَا (لَوْحَةٌ ١٤٥ م) (قَارِنْ مَعَ اللَّوْحَةِ ١٣٠).

وَيُصَوِّرُ الْمَشْهُدَ الثَّانِي (لَوْحَةٌ ١٤٦ م) قِصَّةَ جَمَاعَةٍ مِنَ اللَّصُوصِ قَصَدُوا بَيْتَ رَجُلٍ مِنَ الْأَثْرِيَاءِ لِيَسْرِقُوا مَتَاعَهُ فَعَلَوْا ظَهَرَ بَيْتُهُ لَيْلًا. وَابْتَهَ صَاحِبُ الْبَيْتِ لِيُطَنِّمَهُمْ وَأَحْسَنَ بِهِمْ، فَعَرَفَ أَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ ظَهَرَ بَيْتُهُ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ إِلَّا مُرِيبٌ. فَأَقْبَضَ أَمْرَاتَهُ وَقَالَ لَهَا: رُؤَيْدًا! إِنِّي لَأَحْسِبُ اللَّصُوصَ قَدْ عَلَوْا ظَهَرَ بَيْتِنَا وَأَنَا مُتَنَاوِمٌ لَكَ فَأَيْقِظْنِي بِصَوْتِ رَفِيعٍ يَسْمَعُهُ مَنْ فَوْقَ الْبَيْتِ مِنَ اللَّصُوصِ، ثُمَّ قُولِي لِي: أَلَا تُخْبِرُنِي عَنْ أَمْوَالِكَ الْكَثِيرَةِ هَذِهِ وَكُنُوزِكَ مِنْ أَيْنِ جَمَعْتَهَا؟ فَإِذَا أَبَيْتُ عَلَيْكَ فَأَلِخِي فِي السُّؤَالِ. فَفَعَلَتِ الْمَرْأَةُ ذَلِكَ وَسَمِعَ اللَّصُوصُ كَلَامَهَا، فَقَالَ الرَّجُلُ: قَدْ سَاقَكَ الْقَدَرُ إِلَى رِزْقٍ وَاسِعٍ فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَاسْكُنِي وَلَا تَسْأَلِي عَمَّا لَوْ أَخْبَرْتُكَ بِهِ لَمْ أَمِنْ أَنْ يَسْمَعَهُ سَامِعٌ فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ مَا أَكْرَهُ وَتَكْرَهِي. فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: لَعَمْرِي مَا يَقْرُبُنَا أَحَدٌ يَقْهَمُ كَلَامَنَا. فَقَالَ الرَّجُلُ: فَإِنِّي مُخْبِرُكَ أَنِّي لَمْ أَجْمَعْ هَذِهِ الْأَمْوَالَ وَالْكُنُوزَ إِلَّا مِنَ السَّرِيقَةِ. قَالَتْ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ وَأَنْتِ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ شَرِيفٌ أَمِينٌ لَمْ يَتَّهَمُكَ وَلَمْ يَسْتَرْبِ بِكَ

بِهَذَا التَّجْدِيدِ الْمُتَمَثِّلِ فِي امْتِدَادِ رَسْمِ الْمُنَمَّنَةِ عَبْرَ هَامِشِ الصَّفْحَةِ. وَقَدْ جُمِعَتْ عِدَّةُ مُنَمَّنَّاتٍ فِي الصَّفْحَةِ الْوَاحِدَةِ مُتَلَاصِفَةً أَحْيَانًا وَمُتَدَاخِلَةً أُخْرَى حَتَّى إِنَّ الْعَيْنَ قَدْ لَا تُدْرِكُ كُلَّ مَا تَقَعُ عَلَيْهِ مِنَ النَّظَرَةِ الْأُولَى، وَقَدْ حُلِفَتْ النُّصُوصُ كُلُّهَا تَقْرِيْبًا مِنْ حَوْلِهَا. عَلَى أَنَّ دِرَاسَةَ هَذِهِ الْمُنَمَّنَّاتِ تَكْشِفُ عَنْ أَنَّهَا تَخْضَعُ جَمِيعًا لِقَاعِدَةٍ وَاحِدَةٍ، هِيَ بُرُوزُ الْأَشْجَارِ وَالنَّبَاتَاتِ خَارِجَ إِطَارِ الصُّورَةِ وَبُلُوغِهَا قِيَمَةَ الصَّفْحَةِ، عَلَى حِينِ ظَلَّتِ الْوَرَقَةُ الْبَيْضَاءُ الْعَارِيَّةُ فِي خَلْفِيَّةِ الصُّورَةِ تُعَبِّرُ عَنِ الْفَضَاءِ. وَمِمَّا يَسْتَرْعِي الْإِثْبَاهَ اتِّبَاعُ قَاعِدَةٍ غَيْرِ مَأْلُوفَةٍ أَبَقَتْ هَذِهِ الْمِنْطَقَةَ عَارِيَّةً عَلَى نَحْوِ مَا نَرَى فِي التَّصْوِيرِ الصِّينِيِّ بَيْنَمَا لَوْنَتْ خَلْفِيَّةُ الْهَامِشِ بِسَمَاءٍ ذَهَبِيَّةٍ أَوْ زَرْقَاءٍ كَمَا هِيَ الْحَالُ فِي شَاهَانَمَةِ تَبْرِيزِ (دِيمُوط).

وَنَلْهَظُ فِي مُنَمَّنَتِي الْقِرْدِ الَّذِي يُلْقِي التِّينَ إِلَى الْغَيْلَمِ [ذَكَرَ السَّلْحُفَا] (لَوْحَةٌ ١٤٤ م) كَيْفَ يَمْتَدُّ الْمَنْظَرُ الطَّبِيعِيُّ خَارِجَ الْهَامِشِ، وَكَيْفَ تَتَدَاخَلُ الْمُنَمَّنَّاتَانِ الْمُتَجَاوِرَتَانِ وَتَبْرَزَانِ نَحْوَ الْفَرَاغِ الطَّلِيقِ. فَقَدْ كَانَ لِجَمَاعَةٍ مِنَ الْقِرْدَةِ مَلِكٌ طَالَ عُمُرُهُ حَتَّى هَرَمَ فَحَكَمُوا عَلَيْهِ بِالْتَّقِي، وَمِنْ ثَمَّ انْطَلَقَ إِلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ وَانْتَهَى إِلَى شَجَرَةٍ تَيْنَ فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْ ثَمَرِهَا فَسَقَطَتْ مِنْهُ تِينَةٌ فِي الْمَاءِ حَيْثُ كَانَ ثَمَّةٌ غَيْلَمٌ يَسْبَحُ، فَالْتَقَطَ التِّينَةَ وَالتَّهَمَّهَا وَلَمَّا سَمِعَ الْقِرْدُ وَقَعَ التِّينَ فِي الْمَاءِ أَعْجَبَهُ وَوَلَعَ بِإِلْقَائِهِ فِيهِ. وَجَعَلَ الْغَيْلَمُ يَلْتَقِطُهُ قِيَاكُلَهُ، غَيْرَ مُرْتَابٍ فِي أَنَّ الْقِرْدَ إِنَّمَا يَطْرَحُ التِّينَ مِنْ أَجْلِهِ فَخَفَّ إِلَيْهِ فَتَصَافَحَا وَتَصَادَقَا وَلَبَّثَا زَمَانًا لَا يَنْصَرِفُ الْغَيْلَمُ فِيهِ إِلَى أَهْلِهِ. وَلَمَّا طَالَتْ غَيْبَةُ الْغَيْلَمِ عَنْ زَوْجَتِهِ خَرَجَتْ لِلْبَحْثِ عَنْهُ، وَحِينَ كَشَفَتْ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ صَدَاقَتِهِ لِلْقِرْدِ، تَمَارَضَتْ وَذَهَبَ الْغَيْلَمُ لِيَزَارَتَهَا فَوَجَدَهَا عَلِيلَةً مَهْوُكَةً. وَلَمَّا سَأَلَهَا عَنِ الدَّوَاءِ لِيَلْتَمِسَهُ لَهَا قَالَتْ: لَيْسَ لِهَذَا الْمَرَضِ دَوَاءٌ إِلَّا قَلْبُ قِرْدٍ. فَقَالَ الْغَيْلَمُ فِي نَفْسِهِ: هَذَا أَمْرٌ عَسِيرٌ! مِنْ أَيْنَ آتَى بِقَلْبِ قِرْدٍ إِلَّا قَلْبُ صَدِيقِي؟ تَرَى هَلْ أَغْرَرْتُ بِصَدِيقِي أَمْ أَهْلِكْتُ زَوْجَتِي؟ وَعَادَ إِلَى الْقِرْدِ وَدَعَا إِلَى زِيَارَتِهِ فِي مَنَزَلَةٍ ذَاكِرًا أَنَّهُ يَسْكُنُ جَزِيرَةً كَثِيرَةَ الشَّجَرِ طَبِيعَةِ الْفَوَاكِهِ، فَاسْأَلْ لُعَابَ الْقِرْدِ الَّذِي عَلَا ظَهَرَ الْغَيْلَمِ فَسَبَّحَ بِهِ حَتَّى إِذَا لَجَّجَ بِهِ فِي الْبَحْرِ تَرِيَتْ مُفَكَّرًا، فَلَمَّا أَحْسَنَ الْقِرْدُ تَوَقَّفَ الْغَيْلَمُ عَنِ السَّبَاحَةِ ارْتَابَ فِي الْأَمْرِ وَسَأَلَهُ، فَقَالَ الْغَيْلَمُ: زَوْجَتِي عَلِيلَةٌ وَزَعَمَ الْأَطِبَاءُ أَنَّ لَا دَوَاءَ لَهَا إِلَّا قَلْبُ قِرْدٍ. فَقَالَ الْقِرْدُ فِي نَفْسِهِ: لَقَدْ أَوْرَظَنِي الشَّرُّ عَلَى كِبَرِ السِّنِّ شَرَّ مَوْرَظٍ. ثُمَّ أَرَدَفَ قَائِلًا: يَا خَلِيلِي. لَا يَثْبِغِي لِلْخَلِيلِ أَنْ يَدَّخِرَ عَنْ صَاحِبِهِ نَصِيحَةً وَلَا مَنَفْعَةً، وَلَوْ كُنْتُ عَلِمْتُ بِهَذَا لَكُنْتُ قَدْ جِئْتُ بِقَلْبِي مَعِي. فَقَالَ الْغَيْلَمُ: وَأَيْنَ قَلْبُكَ؟ قَالَ: لَقَدْ خَلَفْتُهُ فِي مَكَانِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ فَهِيَ سِنَّةٌ فِيْنَا مَعَشَرَ الْفُرُودِ إِذَا خَرَجْنَا إِلَى زِيَارَةِ أَخٍ أَوْ صَدِيقٍ نُخَلِّفُ قُلُوبَنَا لِتَزُولَ الطَّلَّةُ عَنْهَا، فَإِنْ شِئْتَ أَتَيْتُكَ بِهِ سَرِيعًا. فَفَرَحَ

وهي تكشف لنا عن العلاقة الكائنة بين النَّصِّ والصُّورة وكذلك بين المساحة المصوّرة والهامش.

كَلِيلَة وَدُمْنَة، ١٣٤٤ م

وَتَمَّة مَخْطُوطَة بِدَارِ الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ تَضُمُّ مِائَةَ وَاثْنَيْ عَشْرَةَ صُورَةً مُلَوَّنة حُدِّدَ مِنْهَا بِإِطَارٍ لَمْ تَتَّعَدْهُ الرُّسُومُ إِلَّا فِي حَالَتَيْنِ. وَتَنْقَسِمُ صُورُ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ إِلَى مَجْمُوعَتَيْنِ تَنْتَمِي كُلُّ مِئْمَةٍ إِلَى مُصَوِّرٍ بَعِيْنِهِ وَإِلَى فَرَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ وَإِنْ كَانَتَا مُتَقَارِبَتَيْنِ. فَبِالْمَجْمُوعَةِ الْأُولَى الَّتِي صُوِّرَتْ فِي أَوَاخِرِ الْقَرْنِ نَفْسِهِ، نُدْرِكُ مَلَاحِجَ الْأُسْلُوبِ التَّيْمُورِيِّ، وَتَبْدُو الْحَيَوَانَاتُ فِيهَا وَسَطَ مَنَاطِرٍ خَلَوِيَّةٍ يَبْتِمَا تَزْدَانِ الْأَرْضُ بِالسَّيْقَانِ النَّبَاتِيَّةِ وَالْأَغْصَابِ الْمُزْهِرَةِ وَالشَّجَرِيَّاتِ وَالْأَشْجَارِ الضَّخْمَةِ الْمُكَتَنَّةِ بِالْأَغْصَانِ الْكَثِيفَةِ الْأَوْرَاقِ. وَنَجِدُ الْحَيَوَانَاتَ أحياناً تَمْرَحُ بَيْنَ الْجَدَاوِلِ وَأحياناً أُخْرَى تَجُوسُ بَيْنَ الرُّبَى الْمَكْسُوءَةِ بِالنَّبَاتَاتِ. وَقَدْ نَجَحَ الْفَنَانُ فِي إِضْفَاءِ نَبْضِ الْحَيَاةِ عَلَى مُعْظَمِ الْحَيَوَانَاتِ كَمَا خَلَعَ عَلَى بَعْضِهَا شَيْئاً مِنَ الطَّرَافَةِ الْفَكِيهَةِ كَأَنْ يُقْلِدَهَا سُبْحَةً أَوْ يُتَوَجَّهَهَا بِعِمَامَةٍ. وَلَجَأَ الْمُصَوِّرُ فِي الْمَشَاهِدِ الدَّاخِلِيَّةِ إِلَى اسْتِخْدَامِ الْعُقُودِ وَالْأَبْوَابِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْمَسَاكِينِ، فَإِذَا اخْتَفَتْ هَذِهِ الْعَنَاصِرُ الْمُعْمارِيَّةُ عَمَدَ إِلَى تَزْيِينِ الْأَرْضِ بِالْبَلَاطِ وَتَغْشِيَةِ الْإِزَارِ بِالْخَزَفِ. وَتَتَنَوَّعُ مَلَاحِجُ الشُّخُوصِ وَمَلَاسِهِمْ فَتَنَجِدُ مِنْ بَيْنِهَا الْوُجُوهَ الْمُسْتَطِيلَةَ السَّامِيَّةَ وَالْهِنْدِيَّةَ وَالسَّحْنِ الْإِيرَانِيَّةَ الْبَحْتَةَ وَالْوُجُوهَ الْمُسْتَدِيرَةَ الْمَغُولِيَّةَ ذَاتَ الْعُيُونِ الضَّيِّقَةِ الْمَائِلَةِ. وَتَغْلِبُ الْعِمَامَةُ عَلَى أَغْطِيَةِ الرَّأْسِ، كَمَا تَظْهَرُ التَّيْجَانُ وَالْقَلَالِسُ الْمُخْتَلِفَةُ الْأَشْكَالَ. وَيَبْدُو بَعْضُ الْأَشْخَاصِ حَاسِرِي الرُّؤُوسِ وَقَدْ جَمَعَ بَعْضُهُمْ شَعْرَهُ وَضَمَّهُ عَلَى هَيْئَةِ مَخْرُوطٍ عَاقِداً إِيَّاهُ بِشَرِيطٍ، وَتَعْصِبُ السَّيِّدَاتُ رُؤُوسَهُنَّ بِالْمَنْدِيلِ. وَتُعَدُّ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةُ مِنْ إِنْجَازَاتِ مَدْرَسَةِ تَبْرِيزَ، وَذَلِكَ لِإِمْشَاهَتِهَا لِمَخْطُوطَةِ جَامِعِ التَّوَارِيخِ وَشَاهَنَامَةِ تَبْرِيزَ (دِيمُوط)، وَلِإِحْتِوَاءِ صُورِهَا عَلَى بَعْضِ الظَّوَاهِرِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي رَأَيْنَاهَا فِي مَخْطُوطَةِ كَلِيلَةِ وَدُمْنَةِ مِنْ تَصْوِيرِ أَحْمَدَ مُوسَى، مِثْلَ تَزْيِينِ سَطْحِ الْأَرْضِ بِالنَّبَاتَاتِ، وَرَسْمِ جُزْءٍ مِنَ الصُّورَةِ خَارِجِ الْهَامِشِ فِي اثْنَتَيْنِ مِنْ مُنْمَنَاتِهَا فَقَطُّ حَسَبِمَا أَلَمَحْنَا قَبْلَ.

وَنَسْتَطِيعُ أَنْ نَتَبَيَّنَ فِي صُورِهَا الَّتِي لَا تَطْعَى عَلَى هَوَامِشِ الصَّفَحَاتِ، قُرْبَهَا الشَّدِيدِ مِنَ الْوَاقِعِيَّةِ، وَبِخَاصَّةٍ فِي الْمُنْمَنَةِ الَّتِي تُصَوِّرُ مَلِكَ الْقُرُودِ الَّذِي اعْتَزَلَ الْعَرْشَ لِشَيْخُوخَتِهِ وَأَوَى إِلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ حَيْثُ تَكْثُرُ أَشْجَارُ النَّيْنِ، وَقَدْ تَسَلَّقَ إِخْداها وَأَخَذَ يُلْقِي مِنْ فَوْقِهَا بِشِمَارِ النَّيْنِ إِلَى الْعَيْلِمِ فِي الْبِرْكَةِ الْمُمتَدَّةِ إِلَى جَانِبِ الشَّجَرَةِ (لَوْحَةٌ ١٤٧ م). ثُمَّ نَرَى مَلِكَ الْقُرُودِ وَهُوَ

أَحَدًا؟ قَالَ: ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَصَبَتْهُ فِي السَّرَقَةِ كَانَ أَلْطَفَ وَأَرْفَقَ مِنْ أَنْ يَتَّهَمُنِي أَحَدٌ أَوْ يَزْتَابَ فِيَّ. قَالَتْ وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَذْهَبُ فِي اللَّيْلَةِ الْمُقْبِرَةِ وَمَعِيَ أَصْحَابِي، حَتَّى أَعْلُو ظَهْرَ الْبَيْتِ الَّذِي أُرِيدُ أَنْ أَسْرِقَهُ فَأَنْتَهِيَ إِلَى الْكُوَّةِ الَّتِي يَدْخُلُ مِنْهَا الضُّوءُ إِلَى الْبَيْتِ فَأَزْقِي بِهَذِهِ الرُّقِيَّةِ وَهِيَ «شَوْلَم شَوْلَم» سَبْعَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ أَعْتَقِ الضُّوءَ فَأَهْبِطُ فِيهِ إِلَى الْبَيْتِ وَلَا يُجِسُّ بِوُقُوعِي أَحَدٌ. ثُمَّ أَقُومُ فِي أَسْفَلِ الضُّوءِ فَأُعِيدُ الرُّقِيَّةَ سَبْعَ مَرَّاتٍ فَلَا يَبْقَى فِي الْبَيْتِ مَالٌ وَلَا مَتَاعٌ إِلَّا ظَهَرَ لِي وَأَمْكَنَتِي أَنْ أَتَنَاوِلَهُ وَقَوِيَتْ عَلَى حَمْلِهِ. ثُمَّ أُعِيدُهَا وَأَعْتَقِ الضُّوءَ وَأَصْعِدُ إِلَى أَصْحَابِي فَأَحْمِلُهُمْ مَا مَعِيَ ثُمَّ نَنْسَلُ وَلَا يَشْعُرُ بِنَا أَحَدٌ.

فَلَمَّا سَمِعَ اللَّصُوصُ ذَلِكَ فَرَحَا وَقَالُوا: لَقَدْ ظَفَرْنَا مِنْ هَذَا الْبَيْتِ بِأَمْرٍ هُوَ خَيْرٌ لَنَا مِنَ الْمَالِ وَأَمَنًا بِهِ مِنَ السُّلْطَانِ. وَأَطَالُوا الْمُكْثَ حَتَّى ظَنُّوا أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ نَامَ. وَذَنَا رَئِيسَهُمْ إِلَى مَدْخَلِ الضُّوءِ مِنَ الْكُوَّةِ فَقَالَ «شَوْلَم شَوْلَم» سَبْعَ مَرَّاتٍ. ثُمَّ اعْتَقَ الضُّوءَ لِيَنْزِلَ إِلَى الْبَيْتِ فَوَقَعَ مُنْكَسًا، فَوَتَّبَ إِلَيْهِ صَاحِبُ الْبَيْتِ بِهَرَاوَةٍ وَأَوْجَعَهُ ضَرْبًا وَقَالَ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا الْمُصَدِّقُ الْمَخْدُوعُ وَهَذِهِ ثَمَرَةُ تَصْدِيقِي.

وَنُلاحِظُ أَنَّ خَلْفِيَّةَ كُلِّ مِنْ هَاتَيْنِ الْمُنْمَنَتَيْنِ تَشْكَلُ مِنْ جِدَارٍ مُسَطَّحٍ، وَإِنْ كَانَ الْبَابُ ذُو الْمِصْرَاعَيْنِ الْمُوَارِبَيْنِ فِي اللَّوْحَةِ الثَّانِيَةِ يُوحِي بِوُجُودِ الْمُسْتَوَى الثَّانِي الْمُمَيَّزِ لِلْأُسْلُوبِ التَّيْمُورِيِّ الَّذِي سَادَ فِي الْقَرْنِ التَّالِي. وَتُمَثِّلُ هَذِهِ الْمُنْمَنَةُ مَرَحَلَةً أَكْثَرَ تَقَدُّمًا مِنْ الْمُنْمَنَةِ الْأُولَى بِمُعَالَجَتِهَا لِلنَّسَبِ فِي الْفَرَاغِ. وَقَدْ رَأَيْنَا كَيْفَ لَجَأَ أَفْضَلُ مُصَوِّرِي عَصْرِ الْإِيلْخَانَاتِ إِلَى رَسْمِ الْأَشْخَاصِ فِي صَدَارَةِ الصُّورَةِ وَهُمْ يُوَلِّونَ الْمَشَاهِدَ ظُهُورَهُمْ كَعَامِلٍ تَبَائِنَ. غَيْرَ أَنَّ الْمُصَوِّرِينَ نَبَذُوا هَذِهِ الطَّرِيقَةَ فِي الرَّبْعِ الثَّالِثِ مِنَ الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ بَعْدَ أَنْ تَعَرَّفُوا عَلَى قَوَاعِدِ الْمَنْظُورِ وَاسْتَخْدَمُوا التَّضَاوُلَ النَّسْبِيَّ كُلَّمَا اتَّجَهْنَا نَحْوَ الْعُمُقِ. عَلَى أَنَّ تَمَّةَ مُفَارَقَةِ ظَلَّتْ تُلَاحِظُهُمْ بِدُونِ حَلٍّ هِيَ التَّنَافُضُ بَيْنَ الْفَرَاغِ الْمُطْلَقِ الْمُصَوَّرِ فِي الْخَلْفِيَّةِ - وَالَّذِي انْتَقَلَ هُنَا إِلَى الْهَامِشِ - وَبِرَاعَةِ التَّصْوِيرِ الْمُحْكَمِ حَسَبَ قَوَاعِدِ الْمَنْظُورِ فِي الدَّاخِلِ. وَقَدْ أَضْفَى الثَّرَاثُ الصِّينِي عَلَى هَاتَيْنِ الْمُنْمَنَتَيْنِ حِسًّا بِسَعَةِ الْأَفْقِ إِلَى حَدِّ شُمُولِ الْكَوْنِ بِأَسْرِهِ تَفْقِيدَهُ جَمِيعَ الصُّورِ الْفَارِسِيَّةِ الْأُخْرَى فِي حِكَايَاتِ كَلِيلَةِ وَدُمْنَةِ. وَكَانَتِ الْمَشَاهِدُ الصَّخْرِيَّةُ الْمُوحِشَةُ الَّتِي تُبْرِزُهَا الرِّقْعُ الْمُخْضَرَّةُ ذَاتَ النَّزْعَةِ الْأَجَنَّبِيَّةِ الْغَرِيبَةِ هِيَ التَّمَطُّ الْمِثَالِي لِتَحْقِيقِ هَذَا الْإِحْسَاسِ بِالْإِنْفِاسِ، يَبْتِمَا تُعَالِجُ أَحْدَاثَ الْقِصَصِ الْإِنْسَانِيَّةِ مَشَاهِدَ دَاخِلِ قُصُورِ الْمُلُوكِ أَوْ الْأَثْرِيَاءِ الَّذِينَ تَجْتَذِبُ ثُرَوَاتِهِمُ اللَّصُوصَ وَالْقَلَّةَ. وَتُعَدُّ مُنْمَنَةُ الرُّؤُجِ الْمُخْتَبِئِ تَحْتَ السَّرِيرِ هِيَ الصُّورَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي بَقِيَتْ عَلَى حَالِهَا مِنْ دُونِ مَسَاسٍ،

الطائر كذريعة يُبلغ بها رسالة إلى وصيفات الأميرة رودابة التي ملكت قلبه وخلبت لُبه (لَوْحَة ١٥١ م). وقد صُوِّر هذا المشهد بأسلوب واقعي يكاد لا يُدانيه أيُّ تصوّر فارسيٍّ آخر، فوسّمت المُنمنمة على محور مائل من اليسار إلى اليمين قوامه النهر الفاصل بين زال ومجموعته وبين مجموعة الوصيفات في الحديقة الغناء بأشجارها المائلة وشجيرات زهورها الحمراء والصفراء فوق أرضية ذهبية. ولا تخلو ضفة النهر من ضخور على شكل الشعاب المرجانية، وبدا الطائر مُحلّقًا في سماء الحديقة، ودفع الحماس أحد الأتباع فخلع قلنسوته تقديرًا لبراعة سيده، وامتدت ذراعه وذراع أميره صوب الطائر. كذلك نكتشف تجديدًا في التقليد القديم المُقتبس عن التصوير الصيني في رسم المياه إذ تنوّعت خطوطه فبدأ مجرى النهر وكأنه سيل جارٍ.

وقد يبدو منظر المعركة في المُنمنمة الثالثة للوهلة الأولى أقل إثارة للإعجاب (لَوْحَة ١٥٢ م) غير أنّ تحليله يكشف عن مزيد من العناية في تشكيل الصورة التي احتفظت بأسلوب الجلائريين في تخطيط الصورة لينطاق الإطار واختلالها للإمامش. وبدأ الإيحاء بالحركة في هذه المُنمنمة من أقصى اليسار بجذع الشجرة المنحني بفعل الريح حتى ليكاد يُوازي بأجنائه الشديد حافة التلّ المحذبة، وتتابع الحركة مُتجهّة من اليسار إلى اليمين مُتجلبّة في دخول مجموعة حاملي العلم ونافخي الأبواق من خارج إطار الصورة إلى داخلها. ويمثّل الخطّ الحيويّ لندفّق الحركة، في الرُمح الدقيق الطويل تغرسه يد منوَّجهر في ظهر أفراسياب الفارّ أمامه بلا أمل في النجاة. ولكي يبرز المصوّر عنصر الحركة - التي عبّر عنها كذلك بوضعة الرُكُض الواضحة في قوائم جوازي القائدين وجوادٍ آخر في أعلى الصورة - ورزّ أماكِن أشلاء القتلى التوراتيين الساكنة وبِعثر رؤوسهم وخوذاتهم على الأرض فأنشأ مُقابلة بليغة بين الحركة والسكون. ونلاحظ هنا أنّ التأثير الصيني قد اقتصر على الخطوط المُحوطة بساحة المعركة وعلى جذوع الأشجار وفروعها الجرداء. ومما يجذب أنبياها للوهلة الأولى تنوع الزخارف الدقيقة البديعة في دوعي جوازي البطليين وتروس المحاربين.

وتثير فينا مُنمنمة هُجوم خسرو على قلعة أفراسياب (لَوْحَة ١٥٣ م) إحساسين مُتعارضين، أولهما إحساس بالدهشة لتجاهل المصوّر علاقة السبب والأحجام بين الشخص والخيّل ومبنى القلعة تجاهلاً يدعو إلى التعجب، وثانيهما الإعجاب ببراعته الزخرفية وكأنه يتمثّل قول مانيس بأنّ «تكوين الصورة هو فنّ تسبق العناصر المتعددة المتاحة لِفَتانِ بطريقة زُخرفيّة تسمح له

بمُطَيّ ظُهر الغيلم بعد أن اكتسب صداقته عابراً البحيرة (لَوْحَة ١٤٨ م).

وتجمع مُنمنمة «المُصدّق المُخدوع» بين ثلاثة مشاهد: مشهد الزوّج وهو يضرب اللصّ في باحة الدار، ثمّ مشهد الزوّجة مع زوّجها في حجرة الثوم، وأخيراً مشهد لصّ ثالث فوق سطح الدار في أعلى الصورة وقد اتشح بسيف وأخذ يتابع ما يجري من أحداث داخل الدار وخارجها باهتمام ملحوظ (لَوْحَة ١٤٩). ثمّ نلتقي بالمُنمنمة الطريفة التي تجمع بين امرأة النجار وعشيقها في الفراش، وقد تمدّد زوجها تحت الفراش يسترق السمع لما يجري بين العاشقين (لَوْحَة ١٤٩ م).

شاهنامه تبريز، ١٣٧٠ م

ثمّة شاهنامه بِمُتحف طوب قابو سراي بإسطنبول نُقلت بتبريز عام ١٣٧٠، تتشكّل تكوينات صورها في تحرّز وسط الفراغ، وتتألف فيها مشاهد الطبيعة مع صور الشخص في اتساق. وحين ننأمل أربما من مُنمنمات هذه النسخة نجد واحدة منها فقط ما قيّمت تحتفظ برسم الجبل الشامخ على النهج الصيني تتناثر على سفحه الأشجار التي عهدناها في شاهنامه ديموط، وتكتنفه الضخور بأشكالها الإسفنجية المماثلة للشعاب المرجانية، وتحيط بقيمة الجبل لفائف السحب البيضاء المُموجة عبر السماء الزرقاء، ويبدو طائر السيمرغ بألوان ريشه وذيله المتنوعة حاملاً الطفل مُحلّقًا به صوب عُشه (لَوْحَة ١٥٠ م). وتحكي المُنمنمة قصة سام بن نريمان بهلوان العالم في عهد منوَّجهر، ولم يكن له ولد فابتهل إلى الله أن يرزقه ولداً. وكانت له جارية فحملت منه ووضعت ولداً جميل الطلعة غير أنّ شعره كان يشتعل شيباً، فلما رآه سام استبقحه وأمر به فألقى في جبل البرز في الهند وحيداً. وعلى قمة الجبل كانت العنقاء (طائر السيمرغ) قد بنت عُشها، وحين طارت تطلب الرزق لأفراخها لمحت ذلك الرضيع المستوجد لا حول له ولا طول، فرق له قلبها ورقرقت بجناحيها عليه ثمّ حملته وحلّقت به إلى قمة الجبل ووضعت بين أفراخها وتعهّذته بالرعاية والحنان وسمّته دستان. وظلّ دستان على هذا الحال حتى علم أبوه بقصته فندم وجاء يبحث عنه فأبلغت السيمرغ دستان أنّ أباه يدور في الجبل بحثاً عنه مُحترق القلب وأنها قد ربّته مثل أفراخها وأنه أعزّ عليها من زوجها، غير أنّها ترى أن تحمله إلى أبيه لأنّه سيصير ملكاً عظيماً، وأعطته ريشة من جناحها ليحرقها إذا حزبه أمرٌ ليتخفّ على القور إلى نجدته.

على أنّنا ما نلبث أن نكتشف المشهد الطبيعيّ الأخاذ في مُنمنمة البطّل زال بعد أن غدا في ريعان شبابه وهو يصطاد

الملكِي. غَيْرَ أَنَا نَجِدُ تَفْسِيرًا لَذَلِكَ فِي ضَعْفِ قَبْضَةِ السُّلْطَانِ أَحْمَدَ عَلَى الْحُكْمِ خِلَالَ سَنَوَاتِ الْقَلَقِ الَّتِي سَبَّبَتْهَا غَزَوَاتِ الْمَلِكِ «تِيْمُورلَنك» الْمُتَابِعَةِ، وَغَارَاتِ التُّرْكَمَانِ الْمُتَكَرِّرَةِ عَلَى بِلَادِهِ.

عَجَائِبُ الْمَخْلُوقَاتِ، ١٣١٨ م، بَغْدَاد

وَتُمَثِّلُ مُنَمَّنَاتِ «عَجَائِبِ الْمَخْلُوقَاتِ» طَابَعًا جَدِيدًا، فُرِسُومَهَا مَلَوْنَةٌ فَوْقَ خَلْفِيَّةٍ عَارِيَّةٍ عَنِ الْأَلْوَانِ، يَزْدَادُ فِيهَا اتِّجَاهُ الْمُصَوِّرِ نَحْوَ التَّمْطِيَّةِ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ فِيمَا سَبَقَهَا مِنْ مُنَمَّنَاتِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ وَبِخَاصَّةٍ فِي رَسْمِ الْأَشْجَارِ وَالنَّبَاتَاتِ. غَيْرَ أَنَّ أَشْخَاصَهَا وَحَيَوَانَاتَهَا قَدْ غَدَتْ أَشَدَّ بَتَضًا بِالحَيَاةِ، كَمَا فِي مَنْظَرِ «جَنِّي ثِمَارِ شَجَرَةِ الدَّوْبِيَا» (لَوْحَةٌ ١٥٤ م). وَظَهَرَتْ النَّبَاتَاتُ الضَّخْمَةُ الَّتِي تَغْطِي سَطْحَ الْأَرْضِ حَتَّى أَصْبَحَتْ التَّمُودَجِ السَّائِدِ فِي خَلْفِيَّاتِ الْكَثِيرِ مِنَ الْمُنَمَّنَاتِ، وَاسْتُخْدِمَ اللَّوْنُ الْفُضِّي فِي تَلْوِينِ الْمِيَاهِ الَّتِي غَدَا اصْطِلَاحًا تَصْوِيرِيًّا فِي الْعَهْدِ التَّيْمُورِي بَعْدَ ذَلِكَ. وَثَمَّةُ احْتِمَالٍ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْمُنَمَّنَاتُ قَدْ أُنْجِزَتْ بَعْدَ مُضِيِّ وَقْتٍ طَوِيلٍ عَلَى كِتَابَةِ النَّصِّ، إِلَّا أَنَّ هُنَاكَ شَوَاهِدَ أُخْرَى قَدْ تَذَخَّرَ هَذَا الْإِحْتِمَالُ، مِنْهَا أَنَّ كِتَابًا كَهَذَا يَفْقَدُ قِيَمَتَهُ إِنْ لَمْ تُصَاحِبِهِ صُورٌ تَوْضِيحِيَّةٌ مُعَاَصِرَةٌ لِكِتَابَةِ النَّصِّ، وَمِنْهَا أَنَّ مَجْمُوعَةَ الْأَلْوَانِ الْمُسْتَخْدَمَةِ فِيهِ تُسَاطِرُ طَرِيقَةَ التَّلْوِينِ الصَّارِخِ الْمَأْلُوفِ عِنْدَ الْأَجْيَالِ السَّابِقَةِ فِي تَبْرِيزِ عَهْدِ الْجَلَايَرِيِّينَ، وَلَا شَكَّ أَنَّ خُلَفَاءَ تِيْمُورلَنكِ اسْتَفَادُوا مِنْهَا إِلَى هَرَاةٍ كِبَارٍ مُصَوِّرِي عَصْرِ الْإِبِلْخَانَاتِ الَّذِينَ كَانُوا مَا زَالُوا أَحْيَاءَ.

ديوان قصائد خواجو كرماني، ١٣٩٦ م. المُتَحَفُ الْبَرِيطَانِي

غَيْرَ أَنَّ مُنَمَّنَاتِ عَجَائِبِ الْمَخْلُوقَاتِ مَعَ ذَلِكَ تَقْصُرُ عَنْ تَهْنِئَةِ الْأَذْهَانِ لِاسْتِقْبَالِ رَوْعَةِ مُنَمَّنَاتِ دِيَوَانِ خَوَاجُو كَرْمَانِي وَالَّتِي تُعَدُّ مِنْ أَهَمِّ آثَارِ التَّصْوِيرِ الْفَارِسِيِّ وَذَلِكَ لِلْفَرْقِ الشَّاسِعِ بَيْنَهُمَا فِي الْإِجَادَةِ وَالْإِبْدَاعِ. وَقَدْ أَنْجَزَ هَذَا الْمَخْطُوطُ الْخَطَّاطُ الْفَارِسِيُّ الشَّهِيرَ مِيرَ عَلَى التَّبْرِيزِي، مُبْتَكِرَ الْخَطِّ الْفَارِسِيِّ «التَّسْتَعْلِيقِ».

وَهُنَاكَ ثَمَانٍ مِنَ الْمُنَمَّنَاتِ الشَّعْبِ نَكَادُ تَغْطِي مِسَاحَةً كُلِّ مِنْهَا الْمِسَاحَةُ الْمُخَصَّصَةُ لِلنَّصِّ وَالَّتِي تَضِيقُ أَحْيَاءًا فَلَا تَسْبِغُ إِلَّا لِيَّتِ وَاحِدٍ مِنَ الشَّعْرِ. وَهَذِهِ الْمُنَمَّنَاتُ الثَّمَانِي، الَّتِي تَبْدُو مُعَاَصِرَةً لِلتَّارِيخِ الَّتِي يُذَكِّرُ الْمَخْطُوطُ، إِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ صُنْعِ فَتَّانٍ وَاحِدٍ، فَهِيَ عَلَى الْأَقْلَ قَدْ أَنْجِزَتْ تَحْتَ إِمْرَافِ فَتَّانٍ وَاحِدٍ، هُوَ دُونَ رَيْبِ الْأُسْتَاذِ «جَنيد» الَّذِي أَثْبَتَ تَوْقِيعَهُ فِي الْمُنَمَّنَةِ السَّادِسَةِ الَّتِي تُصَوِّرُ «زَوَاجَ هُومَايَ وَهُومَايُونَ» عَلَى إِطَارِ التَّافِذَةِ الْمَرْسُومَةِ فَوْقَ عَرْشِ

بِالتَّغْيِيرِ عَنْ أَحَاسِيْسِهِ، فَقَدْ غَطَّى الْمُصَوِّرُ الصَّفْحَةَ كُلَّهَا بِالرُّسُومِ فِيمَا عَدَا الرُّكْنَ الْعُلُويَّ الْأَيْمَنَ آخِذًا بِأَسْلُوبِ الْأَفَقِ الْمُرْتَفِعِ، مُظْهِرًا صَفْحَةَ السَّمَاءِ الزَّرْقَاءَ تَتَخَلَّلُهَا جُذُوعُ الشَّجَرِ. وَمَضَى يُورِجُ عَنَاصِرَهُ فِي تَنَاسُقٍ مُعَبَّرٍ عَنْ احْتِدَامِ الْقِتَالِ بِالاتِّجَاهِ الْمَائِلِ لِجِرَابِ الْمُهَاجِمِينَ فَوْقَ خِيُولِهِمُ السَّائِكَةِ تَقْرِيًّا وَأَقْوَاسِ الْمُدَافِعِينَ فَوْقَ سُورِ الْقَلْعَةِ، وَتَرَّ الشَّجَرَاتِ الْخَضْرَاءَ وَالشَّرَاطِيطِ الذَّهَبِيَّةِ الْأَفْقِيَّةِ عَلَى صَفْحَةِ الْأَرْضِ وَكَأَنَّهَا سَجَادَةٌ. وَنَرَى الْمُصَوِّرَ هُنَا قَدْ لَجَأَ إِلَى الْأَلْوَانِ الْمُتَعَدِّدَةِ مُحَاوَلًا لِالاقْتِرَابِ مِنَ الْوَاقِعِيَّةِ فَمَزَجَ بَيْنَهُمَا فِي تَنَاسُقٍ يَشَدُّ الْأَنْبِيَاءَ وَيَجْعَلُ الْأَبْصَارَ لَا تَتَحَوَّلُ عَنْهَا فَتَغْفِرَ لَهُ سَقَطَةُ النَّسْبَةِ وَالتَّانُسَبِ، كَمَا صَوَّرَ قَائِدَ الْفُرْسِ بِأَسْلُوبِ مُثِيرٍ لِلضَّحْكِ وَهُوَ يَهْرُولُ مُتَعَجِّمًا بَابَ الْقَلْعَةِ وَكَأَنَّهُ يُؤَدِّي رَقْصَةً هَازِلَةً بِسَيْفِهِ فِي حَقْلٍ، بَيْنَمَا لَا تَحْمِلُ سِمَاتِهِ أَيْ أَنْفِعَالٍ بِمَا هُوَ مُقَدِّمٌ عَلَيْهِ، كَذَلِكَ نَظَرَاتِ الْمُهَاجِمِينَ الَّتِي تَحَوَّلَتْ عَنْ الْقَلْعَةِ وَعَنِ الْمُدَافِعِينَ وَاسْتَقَرَّتْ عَلَى وَجْهِ الْمُصَوِّرِ نَفْسُهُ!

الأسرة الجَلَايَرِيَّة: السُّلْطَانُ أُويس وَعَبْدُ الْحَيِّ وَشَمْسُ الدِّينِ مُصَوِّرُو الْعَهْدِ

مَا لَبِثَتِ الْأُسْرَةُ الْجَلَايَرِيَّةُ أَنْ اِحْتَلَّتْ مَكَانَةَ أُسْرَةِ الْإِبِلْخَانَاتِ فِي رِعَايَةِ فَنِّ تَرْقِيْنِ الْكُتُبِ بِفَارِسَ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ. وَقَدْ أَكَّدَ ذَلِكَ مَا كَتَبَهُ «دُوسْتُ مُحَمَّد» عَامَ ١٥٤٤، وَمَا بَقِيَ لَنَا مِنْ مُنَمَّنَاتٍ. وَإِذَا كَانَتْ الْمَخْطُوطَاتُ الْمُؤَرَّخَةُ لَا تَعُودُ بِنَا إِلَّا إِلَى عَصْرِ السُّلْطَانِ أَحْمَدَ (١٣٨٢ - ١٤١٠) فَإِنَّ «دَوْلَتِ شَاه» - التَّاقِدِ الْفَتِّيَّ وَالْمُؤَرِّخَ الْأَدَبِيَّ الْفَارِسِيَّ فِي أَوَاخِرِ الْقَرْنِ الْخَامِسِ عَشَرَ - كَتَبَ يَقُولُ إِنَّ السُّلْطَانَ أُويسَ كَانَ مُصَوِّرًا بَارِعًا وَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي لَقِّنَ هَذَا الْقَرْنَ «لِعَبْدِ الْحَيِّ» أَعْظَمَ مُصَوِّرِي هَذَا الْعَصْرِ. كَمَا أَشَارَ «دُوسْتُ مُحَمَّد» إِلَى وُجُودِ الْمُصَوِّرِ الْكَبِيرِ شَمْسِ الدِّينِ بِلَاطِ السُّلْطَانِ أُويسَ، وَقَدْ تَلَمَّذَ شَمْسُ الدِّينِ هَذَا عَلَى يَدَيِ أَحْمَدَ مُوسَى رَائِدِ فَنِّ تَصْوِيرِ الْمُنَمَّنَاتِ فِي عَهْدِ «أَبِي سَعِيدٍ»، فَمِنْ الْمُحْتَمَلِ إِذَا أَنْ تَكُونَ مُنَمَّنَاتُ مَخْطُوطِي «كَلِيلَةِ وَدِئْمَةِ» وَ«الشَّاهَنَامَةِ» فِي مُجَلَّدَيِ اسْتَبْنُولٍ مِنْ إِتْنِاجِ مَدْرَسَةِ شَمْسِ الدِّينِ الْمُنْجِزَةِ خِلَالَ حُكْمِ السُّلْطَانِ أُويسَ فِيمَا بَيْنَ عَامِ ١٣٦٠ وَعَامِ ١٣٧٤.

وَإِنْ أَقْدَمَ مَخْطُوطٌ مُزَيْنٌ بِالصُّورِ بَقِيَ لَنَا مِنْ مَكْتَبَةِ السُّلْطَانِ أَحْمَدَ حَتَّى الْآنَ هُوَ مَخْطُوطُ «عَجَائِبِ الْمَخْلُوقَاتِ» الْمَحْفُوظُ بِدَارِ الْكُتُبِ الْقَوْمِيَّةِ بِبَارِيسَ وَالَّذِي كُتِبَ بِالْخَطِّ الْجَدِيدِ الْمُسَمَّى «التَّسْتَعْلِيقِ» وَالْمَنْسُوخُ فِي بَغْدَادِ عَامَ ١٣٨٨، وَقَدْ صُوِّرَتْ مُنَمَّنَاتُهُ بِأَسْلُوبِ أَبْسَطٍ مِنْ أُسْلُوبِ تِلْكَ الْمُنَمَّنَاتِ الَّتِي تَحْدُثُنَا عَنْهَا، بَلْ إِنَّهَا قَدْ تَعَكَّسَ خَبِيَّةُ الْأَمَلِ فِي إِتْنِاجِ هَذَا الْمَرْسَمِ

الرَّخَافُ الهَامِشِيَّةُ بِرِيشَةِ جَنِيدٍ فِي دِيَوَانِ السُّلْطَانِ أَحْمَدَ. فَرِيرِ جَالِيرِي بَوَاشِطُن

وَقَدْ تَمَيَّزَ جَنِيدٌ بِالمَهَارَةِ الخَارِقَةِ فِي الرِّسَامَةِ الَّتِي تَتَجَلَّى فِي مَشْهَدِ المُبَارَزَةِ (لَوْحَةٌ ١٥٦ م)، غَيْرَ أَنَّهَا تَتَضَيَّحُ أَشَدَّ جَلَاءً وَرِقَّةً وَشَفَافَةً فِي مُنَمَّنَاتِ مَخْطُوطِ مَلِكِيٍّ آخَرَ مَكْتُوبٍ بِخَطِّ جَمِيلٍ فِي صَفَحَاتٍ فَسِيحَةٍ الهَوَاشِشِ هُوَ دِيَوَانُ شَيْخِرِ السُّلْطَانِ أَحْمَدَ. وَيَقْتَصِرُ تَصْوِيرُ الهَوَاشِشِ فِي المَخْطُوطِ عَلَى الصَّفَحَاتِ الثَّمَانِيِ الأَخِيرَةِ حَيْثُ تَبَهَّرُنَا المَشَاهِدُ الخَلَوِيَّةُ الرَّائِعَةُ الَّتِي وَشَّاهَا مُصَوِّرُهَا بِالدَّهَبِ وَبِالزُّرْقَةِ البَالِغَةِ الرِّقَّةَ فَجَاءَتْ نُحْفَةً قَرِيدَةً بَيِّنَ أَعْمَالِ المَدْرَسَةِ الفَارِسِيَّةِ (لَوْحَةٌ ١٥٧ م).

عَلَى أَنَّ التَّحْلِيلَ الدَّقِيقَ لِعَنَاصِرِ هَذِهِ الرُّسُومِ الهَامِشِيَّةِ يَكْشِفُ لَنَا عَنْ تَشْكِيلِ المَشَاهِدِ الطَّبِيعِيَّةِ عَلَى التَّهَجُّجِ الَّذِي شَكَّلَتْ بِهِ صُورَ دِيَوَانِ «خَوَاجُو». وَيَجْمَعُ أُسْلُوبُ هَذِهِ اللُّوْحَاتِ بَيْنَ القَسَمَاتِ المُسْتَعَارَةِ مِنَ النَّمَاذِجِ الصِّينِيَّةِ وَبِخَاصَّةِ الحَيَوَانَاتِ وَالتَّطَوُّرِ وَالصُّخُورِ، وَالاِصْطِلَاحَاتِ الفَارِسِيَّةِ الجَدِيدَةِ فِي رَسْمِ الأَشْجَارِ، وَالتَّلَسَّاتِ الأُورُوبِيَّةِ الَّتِي تَتَضَيَّحُ فِي مَلَامِيحِ وَجْهِ الأَشْخَاصِ. وَهِيَ تَتَطَوَّرُ فَضْلًا عَنْ ذَلِكَ عَلَى بِدْعَةٍ جَدِيدَةٍ إِذْ هِيَ تَحْتَلُّ مُسْتَوًى وَرَاءَ المُسْتَوًى الَّذِي يَحْتَلُّهُ المَثْنُ، ثُمَّ تَمْتَدُّ لِتُجَاوِزَ هَامِشَهَا مَرَّةً أُخْرَى حَتَّى حَافَةِ الصَّفْحَةِ ذَاتِهَا فَلَا تَتْرُكُ فَرَاغًا، مُخَالِفَةً بِذَلِكَ قَوَاعِدَ فَنِ المُنَمَّنَاتِ حَتَّى ذَلِكَ العَهْدِ. عَلَى أَنَّ هَذِهِ الرُّسُومَ لَيْسَتْ فِي حَقِيقَتِهَا مُنَمَّنَاتٌ بِالمَعْنَى الدَّقِيقِ، وَإِنَّمَا هِيَ رَخَافٌ مَهْمَا بَلَغَتْ دِقَّتُهَا وَرَوْعَتُهَا.

وَلَمْ يَطُورِ النُّسْبَانِ هَذَا اللَّوْنُ الرَّاقِي مِنَ التَّصْوِيرِ بَعْدَ ذَلِكَ، بَلْ لَقَدْ اسْتَعَادَهُ العَصْرُ الصُّنُوفِيُّ فَاتَّبَعَهُ قَتَانُوهُ فِي زَخْرَفَةِ اللُّوْحَاتِ الجِدَارِيَّةِ الَّتِي صَوَّرُوها كَعُنْصُرٍ مُجَمَّلٍ فِي مُنَمَّنَاتِهِمْ عَلَى مَا سَيَأْتِي بَعْدُ. وَيُمْكِنُنَا أَنْ نَعُدَّ هَذَا اللَّوْنُ مِنَ الرُّسُومِ نِهَازَةِ عَهْدِ أَزْدَهَارِ الأُسْلُوبِ الطَّبِيعِيِّ المَغُولِيِّ وَفِي الْوَقْتِ عَيْنِهِ الإِزْهَافَةُ بِظُهُورِ رَوَائِعِ المَدْرَسَةِ التَّيْمُورِيَّةِ.

أَصْحَابُ الخُرُوفِ الأَسْوَدِ

مَرَّتْ تَبْرِيْزُ بِقَفْزَةٍ مِنَ القَلَاقِلِ خِلَالِ حُكْمِ السُّلْطَانِ أَحْمَدَ حَتَّى وَقَعَتْ فِي قَبْضَةِ تَيْمُورْلُوكَ فِي عَامِ ١٣٨٦، وَظَلَّتْ تَحْتَ حُكْمِ التَّيْمُورِيَّيْنَ حَتَّى اسْتَوْلَى عَلَيْهَا قَرَهُ يَوْسُفَ أَحَدَ مَوَالِي الجَلَايَرِيَّيْنَ، وَهُوَ مِنْ قَبِيلَةِ «أَصْحَابِ الخُرُوفِ الأَسْوَدِ» التُّرْكَمَانِيَّةِ عَامَ ١٤٠٦. وَكَانَ السُّلْطَانُ أَحْمَدُ قَدْ اتَّخَذَ بَعْدَ عَاصِمَةِ لِمْلُوكِهِ خِلَالِ قَفْزَةِ حُكْمِهِ، ثُمَّ قُتِلَ فِي تَبْرِيْزِ عَلَى يَدِ قَرهِ يَوْسُفَ عَامَ ١٤١٠ خِلَالِ مُحَاوَلَتِهِ تَثْبِيْتِ سَيِّطَرَتِهِ عَلَيْهَا.

الْأَمِيرَةُ. وَقَدْ أَشَارَتِ الدِّرَاسَةُ الَّتِي تَنَاوَلَتْ مُصَوِّرِي العُصُورِ السَّابِقَةِ فِي عُرَّةِ مُرْقَعَةٍ بِهَرَامِ مِيرْزَا عَامَ ١٥٤٤ إِلَى اسْمِ «جَنِيد»، وَهُوَ أَوَّلُ مُصَوِّرٍ يُوقَّعُ بِاسْمِهِ عَلَى مُنَمَّنَةٍ. وَقَدْ كَتَبَ بـ «جَنِيد السُّلْطَانِي» وَهُوَ مَا يُشِيرُ إِلَى أَنَّهُ كَانَ مُصَوِّرًا بِبِلَاطِ السُّلْطَانِ أَحْمَدَ، وَلَمَّا كَانَ هَذَا المَخْطُوطُ ضِمْنَ مُقَتَّنِيَّاتِ الأَمِيرِ بِهَرَامَ، فَتَمَّ احْتِمَالُ أَنَّ جَنِيدًا كَانَ مَعْرُوفًا «لِدُوسْتِ مُحَمَّدٍ».

وَتَعَدُّ المُنَمَّنَاتُ الثَّلَاثُ الَّتِي تُصَوِّرُ البِلَاطَ أَهَمَّ مُنَمَّنَاتِ الْكِتَابِ وَأَشَدَّهَا رُوعَةً، تَشْغُلُ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا الصَّفْحَةَ بِأَكْمَلِهَا مَعَ بِنَاءٍ وَمَعْمَارِيٍّ وَاحِدٍ يُتَوَجَّهُ شَرِيطٌ مَقْنُوشٌ بِالخَطِّ الكُوفِيِّ بِاللُّوْنِ الأَبْيَضِ عَلَى أَرْضِيَّةٍ مُزَخْرَفَةٍ بِالأَزْهَارِ.

وَتُصَوِّرُ إِحْدَى هَذِهِ المُنَمَّنَاتِ (لَوْحَةٌ ١٥٥ م) الأَمِيرَ هُومَايَ الفَارِسِيَّ مُنْطَبِطًا جَوَادَهُ وَاقِفًا بِبَابِ قَلْعَةِ الأَمِيرَةِ «هُومَايُون» ابْنَةِ إِمْبَرَاطُورِ الصِّينِ يَتَمَلَّى مِنْ طَلْعَتِهَا بَيْنَا هِيَ تُبَادِلُهُ اللَّحْظَ مُطْلَةً مِنْ شُرْفَةِ بُرْجٍ يُحِيطُ بِهِ بُسْتَانٌ مُسَوَّرٌ مُورِقٌ الأَشْجَارِ، وَتَرْمِزُ سَمَاءَ اللَّيْلِ وَسُورَ الحَدِيقَةِ إِلَى العِشْقِ فِي التَّصْوِيرِ الفَارِسِيِّ. أَمَّا المُنَمَّنَةُ الثَّانِيَّةُ (لَوْحَةٌ ١٥٦ م) فَخَيَالُهَا أَكْثَرَ خِيَصًا وَتُشِيرُ إِلَى المُبَارَزَةِ بَيْنَ الأَمِيرِ هُومَايَ وَالأَمِيرَةِ هُومَايُون وَهِيَ مُتَخَفِيَّةٌ فِي زِيِّ الرِّجَالِ مُحْتَمِيَّةٌ بِدِرْعٍ مُقَنَّنَةٍ بِخُودَةٍ. وَقَدْ اخْتَارَ المَصَوِّرُ تَسْجِيلَ اللَّحْظَةِ الَّتِي تَعْرِفُ خِلَالَهَا هُومَايَ عَلَى حَبِيبَتِهِ حِينَ خَلَعَتْ خُودَتَهَا. وَيَلْفَتُ نَظْرَنَا أَنَّ المَصَوِّرَ قَدْ أَحَاطَ بِالحَدِثِ بِسِيَاجِيْنِ مُتَدَاخِلِيْنِ مِنَ الأَشْجَارِ الفَارِسِيَّةِ وَالصُّخُورِ الصِّينِيَّةِ عَلَى شَكْلِ الشُّعَابِ المَرْجَانِيَّةِ، كَمَا غَمَرَ الفَضَاءَ بِالتَّطَوُّرِ المُحَلَّقَةِ. وَظَهَرَ فِي أَسْفَلِ المُنَمَّنَتَيْنِ مَجْرًى مَائِيٍّ مُتَعَرِّجٌ تَحَفُّ الزُّهُورِ بِإِخْدَى صَفْتِيْنِ بَيْنَمَا تَتَشِيرُ الصُّخُورُ الصِّينِيَّةُ التَّقْلِيدِيَّةُ عَلَى الصُّفَّةِ القَرِيبَةِ مِنَ الهَامِشِ السُّفْلِيِّ لِلصُّورَةِ. وَيُسْتَرَعِنَا هُنَا أَنَّ الأَشْجَارَ الفَارِسِيَّةَ كَشَجَرِ الدُّلْبِ وَالسَّرْوِ وَالأَثَلِ وَالعَرَّعَرِ بَلْ وَالتَّخْلُ قَدْ أَزَاحَتْ الثَّبَاتَاتُ الصِّينِيَّةُ الَّتِي عَمَرَتْ مُنَمَّنَاتٍ كَلِيلَةً وَدِئِنَةً وَشَاهَنَامَةً دِيمُوطَ مُحْتَلَّةٍ مَكَانَهَا، وَمِنْ ثَمَّ دَفَعَتْهَا إِلَى عَالَمِ النُّسْبَانِ.

وَفِي مُنَمَّنَةٍ ثَالِثَةٍ (لَوْحَةٌ ١٥٦) نَشْهَدُ لِقَاءَ الأَمِيرِ هُومَايَ وَحَبِيبَتِهِ الأَمِيرَةِ هُومَايُونِ فِي حَدِيقَةٍ غَنَاءٍ وَهُمَا يَخْتَسِمَانِ الرَّاحَ وَمِنْ حَوْلِهِمَا الجَوَارِي وَالْغُلَمَانُ يَدُورُونَ عَلَيْهِمَا بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ. وَتُصَوِّرُ المُنَمَّنَةُ الرَّابِعَةُ (لَوْحَةٌ ١٥٧) قِصَّةَ حُبِّ هُومَايَ - وَاسْمِ هُومَايَ هُنَا لِفَتَاةٍ وَلَيْسَ لِرَجُلٍ - لِأَزَارِ أَفْرُوزَ. وَتَحْكِي الْقِصَّةَ أَنَّ بِهَزَادَ كَانَ يُجَالِسُ حَبِيبَتَهُ هُومَايَ وَقَدْ شَرِبَ حَتَّى ثَمَلٍ، وَحِينَ غَلَبَهُ السُّكْرُ نَامَ تَحْتَ شَجَرَةٍ، وَلَمَّا خَفَّتْ هُومَايَ لِلْبَحْثِ عَنْهُ التَّفَتَ بِأَزَارِ أَفْرُوزَ بِالقُرْبِ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي نَامَ تَحْتَهَا بِهَزَادَ، وَكَانَتْ قِصَّةَ حُبِّ جَدِيدٍ بَيْنَ هُومَايَ وَأَفْرُوزَ.

يَتَجَلَّى فِيهَا الطَّائِعُ الْمَحَلِّيُّ الْإِقْلِيمِيَّ حَتَّى اخْتَفَتْ بِسُقُوطِ شِيرَاز فِي أَيْدِي بَنِي مُظَفَّرٍ عَامَ ١٣٥٣ الَّذِينَ كَانُوا يَحْكُمُونَ مَدِينَةَ يَزْدُ الْإِيرَانِيَّةَ خِلَالَ هَذِهِ الْفَتْرَةِ، وَبَسَطُوا نَفوذَهُمْ عَلَى الْجُزْءِ الْجَنُوبِيِّ الْعَرَبِيِّ لِإِيرَانَ، ثُمَّ دَالَتْ دَوْلَتُهُمْ عَامَ ١٣٩٣ حِينَ ظَهَرَ تَيْمُورْلُوكُ وَأَطَاعَ بِهِمْ. وَقَدْ أَسْبَغَ كُلُّ مِنْ أَبِي إِسْحَاقَ إِيْنَجُوشَاهُ شَجَاعَ الْمُظَفَّرِ رِعَايَتَهُمَا عَلَى الشَّاعِرِ «حَافِظٍ»، وَلَا شَكَّ أَنَّ أَحْسَنَ مُرَقَّي الكُتُبِ قَدْ عَمِلُوا فِي خِدْمَةِ كُلِّ مِنْ هَٰذَيْنِ الْأَمِيرِينَ. وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ الْمُجَلَّدَاتِ الَّتِي يُمكنُ أَنْ تُنسَبَ إِلَى شِيرَازَ عَلَى وَجْهِ اليَقِينِ خِلَالَ تِلْكَ الْفَتْرَةِ تَرْجِعُ إِلَى عَهْدِ أُسْرَةِ إِيْنَجُو، وَالكِتَابُ الْوَحِيدُ الَّذِي يُنسَبُ إِلَى آلِ مُظَفَّرٍ يَحْمِلُ تَارِيخَ اللَّيْلَةِ السَّابِقَةِ عَلَى غَزْوِ تَيْمُورْلُوكِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ غَيْرِ الْمُسْتَبْعَدِ أَنَّ بَعْضَ الشَّاهَنَامَاتِ ذَاتِ الْأَرْضِيَّةِ الْحُمْرَاءِ قَدْ أُنْجِزَتْ تَحْتَ رِعَايَتِهِمْ. وَالرَّاجِحُ أَنَّ بَعْضَ مَدَارِسِ التَّصْوِيرِ قَدْ نَشَأَتْ فِي مَرَاكِزِ شَتَّى بِخِلَافِ شِيرَاز. وَبُعْدُ رُوبِنْسُونِ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْمَخْطُوطَاتِ الْمُصَوَّرَةِ بَيْنَ عَامَيْ ١٣٨٠ وَ ١٤١٠ جَاءَ أَسْلُوبُ تَصْوِيرِهَا عَلَى غِرَارِ أَسْلُوبِ شِيرَاز، وَلِكَيْتَهُ يَغْزُوهَا فِي الْوَقْتِ نَفْسُهُ إِلَى بُغْدَادَ وَتَبْرِيزَ وَهَرَاةَ وَشِيرَازَ. وَفِي الْحَقِّ أَنَّ مُشْكِلَةَ تَصْنِيفِ مِثْلِ هَذِهِ الْمَخْطُوطَاتِ وَبِخَاصَّةِ الْمُرتَبِطَةِ مَحَلِّيًّا يَبْغِضُ الْأَقَالِيمَ لَهَا أَمْرٌ جَدًّا عَسِيرٌ.

وَنَحْنُ نَدِينُ لِمَدِينَةِ شِيرَازَ بِأَرْبَعِ نُسَخِ مَخْطُوطَةٍ مُؤَرَّخَةٍ مِنْ الشَّاهَنَامَةِ، تُشَكِّلُ مَجْمُوعَةً مُتَقَارِبَةً إِلَى حَدِّ مَا، فَقَدْ أُنْجِزَتْ جَمِيعًا مَا بَيْنَ عَامِ ١٣٣٠ وَعَامِ ١٣٥٢، وَهُوَ مَا يَتَضَّحُّ مِنْ إِهْدَاءِ إِحْدَاهَا إِلَى الْوَزِيرِ «حَسَنِ قِيَامِ الدِّينِ» رَاعِي الشَّاعِرِ «حَافِظٍ» وَالْمُتَوَفَّى فِي أَبْرِيلِ عَامِ ١٣٥٣ بَعْدَ اثْنَيْ عَشَرَ عَامًا مِنْ إِنْجَازِ الْمَخْطُوطِ. أَمَّا مَا عَدَاهَا مِنَ النُّسخِ فَقَدْ تَفَرَّقَتْ صَفَحَاتُهَا وَضُمَّتْ إِلَى مَجْمُوعَاتٍ أُورَبِيَّةٍ وَأَمْرِيكِيَّةٍ. وَتَتَمَيَّزُ خَلْفِيَّاتُ الْغَالِبِيَّةِ مِنْ مُنَمَّنَاتِهَا بِتَلْوِينِهَا بِلَوْنٍ وَاحِدٍ هُوَ الْأَحْمَرُ أَوِ الْأَصْفَرُ الطَّفَلِيَّ أَوِ الذَّهَبِيَّ، قِلَّةٌ مِنْهَا يَلُوكُ الَّتِي تُرِكَتْ خَلْفِيَّاتُهَا عَارِيَّةً مِنَ الْأَلْوَانِ. وَرَجَّحَ بَعْضُ الْخُبَرَاءِ اشْتِقَاقَ هَذِهِ الْخَلْفِيَّاتِ الْمُلَوَّنَةِ مِنَ التَّقَالِيدِ الَّتِي أُنْجِزَتْ الصُّورُ الْجِدَارِيَّةُ السَّاسَانِيَّةُ، وَقَدْ انْقَطَعَ اتِّصَالُ هَذِهِ التَّقَالِيدِ فَتْرَةَ طَوِيلَةٍ تَعَدَّرَ تَفْسِيرُ سَبَابِهَا ثُمَّ عَادَتْ إِلَى الْوُجُودِ مَرَّةً أُخْرَى. وَلَيْسَ ثَمَّةُ شَكٍّ فِي أَنَّ هَذِهِ الْمُنَمَّنَاتِ تَعَكِّسُ أَسْلُوبًا كَانَ شَائِعًا بِفَارَسَ قَبْلَ غَزْوِ الْمَغُولِ.

- (١) الدَّوْلَةُ الصَّفَّارِيَّةُ (٨٦٧ م - ٩٠٠ م) هِيَ دَوْلَةُ بَنِي صَفَّارٍ الَّتِي أَسَّسَهَا يَتَقُوبُ بْنُ اللَّيْثِ الصَّفَّارِيِّ، وَحَكَمَهَا بَعْدَهُ ثَلَاثُ مُلُوكٍ. وَهِيَ مِنْ أَوْلَى الدَّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي قَامَتْ فِي إِيرَانَ أَيَّامَ الْعَبَّاسِيِّينَ.
- (٢) الدَّوْلَةُ الْبُيُوتِيَّةُ (٩٣٣ م - ١١٥٦ م): دَوْلَةُ إِسْلَامِيَّةٌ حَكَمَتْ إِيرَانَ وَالْعِرَاقَ.

وَمِنْ قَبْلِ كَانَ يَظْفَرُ بِتَرْجِيْبِ الْمُوَاطِنِينَ لَدَى زِيَارَتِهِ لَهَا، وَلَا غَرْوَ فَقَدْ كَانَ رَاعِيًّا لِلْفُنُونِ، وَمِنْ مَرَسَمِهِ خَرَجَتْ نُسَخَةٌ مُصَوَّرَةٌ مِنْ مَخْطُوطَةٍ «خَسْرُو وَشِيرِينَ» الَّتِي كَتَبَهَا الشَّاعِرُ نِظَامِي الْمَخْطُوطَةِ بِمُتَحَفِ فَرِيرِ جَالِيرِي بَوَاشَنَظَنَ.

وَاسْتَمَرَّ حُكْمُ أُسْرَةِ «ذَوِي الْخُرُوفِ الْأَسْوَدِ» التُّرْكَمَانِيَّةِ بِأَذْرَبِيْجَانَ حَتَّى عَامَ ١٤٣٧، مِنْ دُونِ أَنْ يَتْرُكُوا مَا يُشِيرُ - مِنْ قَرِيبٍ أَوْ مِنْ بَعِيدٍ - إِلَى أَيِّ أَهْتِمَامٍ بِرِعَايَةِ الْكُتُبِ أَوْ بِتَرْقِيْنِهَا. وَقَدْ اتَّخَذُوا مِنْ مَدِينَةِ شِيرَازَ عَاصِمَةً لَهُمْ. وَيَبْدُو أَنَّ الْعَامِلِينَ بِمَكْتَبَةِ الْجَلَالِيَّيْنِ فِي تَبْرِيزَ لَمْ يُغَادِرُوهَا إِلَى الْعَاصِمَةِ الْجَدِيدَةِ، وَذَلِيلُ ذَلِكَ أَنَّ الْأَمِيرَ بَايَسْتَرَ التَّيْمُورِيَّ التَّقِيَّ فِي تَبْرِيزَ - حِينَ أَوْفَدَهُ وَالِدُهُ شَاهُ رَخَ وَالِيًّا عَلَيْهَا - بِأَعْظَمِ خَطَاطِي ذَلِكَ الْجِيلِ، وَهُوَ جَعْفَرُ التَّبْرِيزِيِّ.

شِيرَازُ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ

وَيَمْضِي تَارِيخُ قَرْنِ التَّصْوِيرِ الْفَارِسِيِّ خِلَالَ الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ عَلَى النَّحْوِ الَّذِي سَقَّاهُ حَوْلَ لِقَائِهِ بِالْفَنَّانِ الصِّينِيِّ وَاسْتِيعَابِهِ تَأْثِيرَاتِهِ تَدْرِيجًا ضِمْنَ التَّيَّارِ الْفَارِسِيِّ. وَيَعُودُ الْفَضْلُ فِي ذَلِكَ لِلْإِلَاحَنَاتِ، لِاعْتِمَادِهِمْ فِي ثِقَاتِهِمْ عَلَى الْحَضَارَةِ الْفَارِسِيَّةِ الْقَدِيمَةِ. غَيْرَ أَنَّ الْأَمْرَ فِي أَذْرَبِيْجَانَ وَبَعِيدًا عَنْ مُجْتَمَعِ الْبَلَاطِ كَانَ يَجْرِي عَلَى نَحْوِ مُخْتَلِفٍ، فَالتَّأْثِيرُ الصِّينِيُّ كَانَ أَهْوَنَ شَأْنًا، يَهْدُ إِلَى تِلْكَ الْمِنْطَقَةِ بِطَرِيقٍ غَيْرِ مُبَاشِرٍ عِبْرَ الْفُنُونِ التَّطْبِيقِيَّةِ وَبِخَاصَّةِ أَزْيَاءِ الْغَزَاةِ الْمَغُولِ، وَمِنْ ثَمَّ أُمْكِنَ لِقَائِهِ التَّصْوِيرِ الْفَارِسِيِّ الْقَدِيمَةِ أَنَّ تَصَمُّدَ وَأَنْ تُعَبَّرَ عَنْ نَفْسِهَا بِصُورَةٍ أَقْوَى خِلَالَ هَذِهِ الظُّرُوفِ فِي شِيرَازِ الْعَاصِمَةِ الْقَدِيمَةِ لِلْإِقْلِيمِ «فَارَسَ» الْجَنُوبِيِّ الَّذِي كَانَ قَلْبُ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ الْأَخْمِينِيَّةِ.

أُسْرَةُ إِيْنَجُو [بِمَعْنَى اللَّوْلُؤِ]

وَيَبْدُو أَنَّ شِيرَازَ الَّتِي أَسَّسَتْهَا كُلُّ مِنَ الدَّوَلَتَيْنِ الصَّفَّارِيَّةِ^(١) وَالبُيُوتِيَّةِ^(٢) كَانَتْ وَاحِدَةً مِنْ مَرَاكِزِ الْحَضَارَةِ الْكُبْرَى خِلَالَ الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ. وَقَدْ ظَلَّتْ طَوَالَ حُكْمِ الْمَغُولِ مَدِينَةَ مُزْدَهَرَةٍ تَسُودُهَا تَقَالِيدُ ثِقَافِيَّةٍ عَرِيقَةٍ، فَهِيَ مَوْطِنُ كُلِّ مِنْ الشَّاعِرِ «سَعْدِيِّ» الَّذِي مَاتَ بِهَا عَامَ ١٢٩٤ وَالشَّاعِرِ «حَافِظٍ» الَّذِي امْتَدَّتْ بِهِ الْحَيَاةُ طَوِيلًا حَتَّى شَهِدَ فَتْحَ تَيْمُورْلُوكِ إِذْ مَاتَ عَامَ ١٣٨٩. غَيْرَ أَنَّ تَارِيخَ شِيرَازِ السِّيَاسِيِّ كَانَ حَافِلًا بِالْفَلَاظِلِ وَالْهَزَاتِ وَتَوَالَى عَلَى حُكْمِهَا عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الْحُكَّامِ، فَقَدْ بَدَأَتْ أُسْرَةُ «إِيْنَجُو» الْمُنْحَدِرَةِ مِنْ صُلْبِ آخِرِ وُلَاةِ الْإِلَاحَنَاتِ بِإِعْلَانِ الْاسْتِغْلَالِ بَعْدَ مَوْتِ أَبِي سَعِيدٍ إِلَى أَنْ سَيْطَرَتْ عَلَى الْإِقْلِيمِ «فَارَسَ». وَجَاءَتْ مُنْجَزَاتُ هَذِهِ الْفَتْرَةِ فَجَّةً

والصّادق لِرَوَائِعِ التَّصْوِيرِ الْفَارِسِيِّ خِلَالَ الْمَائِتَيْنِ وَخَمْسِينَ عَامًا التَّالِيَةِ. وَلَوْ أَنَّ بَعْضَ أَشْجَارِ تِلْكَ الْمَخْطُوطَةِ تَبْدُو بِوَاقِعِيَّتِهَا شَادَّةً غَرِيبَةً إِلَى جَانِبِ السُّحْبِ الْمُدْبِيَةِ الْأَطْرَافِ وَالْجُدُوعِ، إِلَّا أَنَّ التَّصْمِيمَ الْخَيَالِيَّ قَدْ أَضْفَى عَلَى هَذِهِ الْعَنَاصِرِ جَمِيعًا وَحَدَةً تَرْبِطُ بَيْنَهَا، وَحَوَّلَهَا مِنْ زَخَارِفٍ إِلَى رُمُوزٍ، قَبَاتٍ ثَلَاثَةٍ جُنُودٍ يُمَثِّلُونَ جَيْشًا، وَثَلَاثَةٌ أُسْرَى يُمَثِّلُونَ فِرْقَةً مِنَ الْعَدُوِّ الْمَهْزُومِ، وَتُورَانُ مُسْتَدِيرَانِ يُمَثِّلَانِ سِلْسِلَةً مِنَ التَّلَالِ، كَمَا تَرْمِزُ الدَّائِرَةُ إِلَى قُوَّةِ بَرْ.

وَيَهْمُنَا أَنْ نَضَعُ هَذَا التَّطَوُّرَ فِي مَكَانِهِ الصَّحِيحِ دَاخِلَ الْإِطَارِ الْعَامِّ لِتَارِيخِ هَذِهِ الْمَدْرَسَةِ، فَالْفَتَانُ دَائِمُ الْبَحْثِ عَنْ حَلِّ لِمُشْكِلةِ الْعِلَاقَةِ الْإِثْلَائِيَّةِ بَيْنَ النَّصِّ وَتَصْوِيرِهِ، بَعْدَ أَنْ ظَلَّتِ الْمُنْمَنَاتُ حَتَّى هَذِهِ اللَّحْظَةِ تَسْتَعِيرُ اصْطِلَاحَاتِهَا مِنْ نَمَازِجِ التَّصْوِيرِ فِي اللَّفَافِيفِ الْمَطْوِيَّةِ الصِّينِيَّةِ، أَوْ مِنَ اللَّوْحَاتِ الْجِدَارِيَّةِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي صُمِّمَتْ لِتُعَيِّرَ أَحْجَامَ الْكُتُبِ، وَهُوَ مَا أَدَّى إِلَى تَوْنٍ مِنَ الْمَنَازَعَةِ وَقَدْ نَشِبَتْ بَيْنَ الْمَشْهَدِ الطَّبِيعِيِّ وَالْحَدَثِ الَّذِي يَدُورُ فِيهِ، إِذْ يَحَاوِلُ كُلُّ مُنْهَمَا نَيْلَ أَقْصَى مَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفُوزَ بِهِ. وَآيَةً ذَلِكَ أَسْلُوبُ مُعَالَجَةِ الْخَلْفِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تُسْتَخْدَمُ بِادْوِئِ الْأَمْرِ لِلْإِلْحَاءِ بِالْعُمُقِ وَالتَّرَاجُعِ إِلَى مَا لَا يَهَيَاةَ إِلَّا إِذَا اعْتَرَضَ هَذَا التَّرَاجُعُ رَسْمَ سُورٍ أَوْ سِتَارٍ. وَلَقَدْ تَفَادَتْ شَاهَنَامَةُ شِيرَازُ هَذَا الْإِتْجَاهَ الْبَصَرِيَّ لِلتَّأْثِيرِ عَلَى الْعَيْنِ وَأَحَلَّتْ مَحَلَّهُ اتِّجَاهًا خَيَالِيًّا يُشَارِكُ فِيهِ الْمُشَاهِدُ مِثْلَمَا يُشَارِكُ فِي تَمَثُّلِ مَعْزَى الْمَنَاطِرِ فَوْقَ خَشَبَةِ الْمَسْرَحِ.

وَتُرْوِي الشَّاهَنَامَةُ أَنَّ الْبَطْلَ بَهْرَامَ جُورَ قَدْ ضَاقَ دَرْعًا بِمَا يَلْقَاهُ النَّاسُ مِنْ قَتْلِ التَّنِينَ بِهَمٍّ، فَطَلَبَ مِنَ الْمَلِكِ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ بِالْأَثَرِ لَهُمْ مِنْهُ قَائِلًا: «مَا هَذَا بِتَيْنٍ، إِنَّهُ هُوَ إِلَّا نَمَلَةٌ أَقْتَلَهَا ثُمَّ أَخْجَلَ بَعْدَ ذَلِكَ مَا حَيَّيْتُ». وَمَا لَبَثَ أَنْ وَثَبَ مِنْ بَيْنِ شَجَرَتَيْنِ مُصَوَّبًا سَهْمَهُ نَحْوَ التَّنِينِ مِنْ فَوْقِ جَوَادِهِ، فَأَصَابَ السَّهْمُ عَيْنَ التَّنِينِ السَّوْدَاءِ وَانْحَسَرَ عَنْهُ نُورُ الْبَصَرِ. وَبُنِيَ التَّكْوِينُ الْفَنِّيَّ وَخُطَّةُ الْأَلْوَانِ فِي هَذِهِ الْمُنْمَنَةِ (لَوْحَةٌ ١٥٨ م) عَنْ قَاعِدَةِ الْمُثَلَّثِ الَّذِي يَشْغُلُ الْجَوَادَ فَرَاغَهُ وَيَسْتَقِرُّ بِهِرَامُ جُورَ فِي قِمَّتِهِ. وَلَقَدْ عَبَّرَ الْمُصَوِّرُ عَنْ سُرْعَةِ الْحَرَكَةِ بِرَسْمِ ذَيْلِ الْجِحْصَانِ وَإِخْدَى قَائِمَتَيْهِ مُتَطَايِرَيْنِ خَارِجَ إِطَارِ الصُّورَةِ.

وَكَادَتْ الْخَلْفِيَّةُ أَنْ تَطْلُعَ عَلَى الصَّفْحَةِ كُلِّهَا مُحَقَّقَةً فِكْرَةَ الْأَثَقِ الْمُرْتَفِعِ بِحَيْثُ لَمْ تُخَلَّفْ لِرَسْمِ الْأَثَقِ إِلَّا مِسَاحَةٌ ضَخِيلَةٌ فِي الرُّكْنِ الْعُلُويِّ الْأَيْمَنِ مِنَ الْمُنْمَنَةِ. وَتَقْلَنَّا هَذِهِ الْخَلْفِيَّةَ إِلَى عَالَمِ الْخَيَالِ حَيْثُ الْأَرْضُ الْمُوحِشَةُ الَّتِي يَلْتَقِي فَوْقَهَا بِهِرَامُ جُورَ بِالتَّنِينِ، وَقَدْ نَبَتَتْ فِيهَا شَجَرَاتُ حَمْرَاءَ وَزَرْقَاءَ وَتَنَاتَرَتْ عَلَيْهَا بَعْدَ ذَهَبِيَّةٍ أَفْقِيَّةٍ تَتَكَاثَفُ عِنْدَ حَوَافِ الْخَلْفِيَّةِ. وَلَمْ يُصَوِّرِ الْفَتَانُ التَّنِينَ الْمُتَبَرِّيَّ لِبَهْرَامَ جُورَ فِي صُورَةِ الْوَحْشِ الْبَغِيضِ الَّذِي يَقْطُرُ

وَتَنْصِفُ مَخْطُوطَاتِ الْفَتَرَةِ مَا بَيْنَ عَامِ ١٣٣١ و١٣٤١ بِظَاهِرَةِ مِنْ تَوْنٍ جَدِيدٍ هِيَ التَّصَاوِيرُ الَّتِي تَنْهَضُ تَكْوِينَاتُهَا فِي وَسْطِ الْمُنْمَنَةِ مُنْدَرَّجَةً كَالْهَرَمِ. وَهِيَ ظَاهِرَةٌ تَهْدَفُ إِلَى إِثْرَازِ التَّنَاسُقِ بَيْنَ أَجْزَاءِ التَّكْوِينِ التَّشْكِيلِيَّ، وَمِنْ ثَمَّ إِثْرَازِ صِفَتَيْنِ يَهْمُ بِهِمَا الْفَنُّ الْإِيرَانِيَّ دَائِمًا، وَهُمَا رُؤْيَا الْأَشْيَاءِ فِي وَضْعِ الْمَوَاجَهَةِ وَالْمَشَاهِدِ الْمُرَكَّبَةِ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ كَمَصْطَبَاتِ الْهَرَمِ الْمُدْرَجِ. كَذَلِكَ فَإِنَّ تَجْمِيعَ وَجَنَاتِ الرِّجَالِ وَتَكثِيفَ لِحَاظِهِمْ وَشَوَارِبِهِمْ قَدْ نَشَأَ فِي إِيرَانَ الْقَدِيمَةِ، وَبَقِيَ صَدَاهُ يَتَرَدَّدُ فِي اللَّوْحَاتِ الْمُصَوَّرَةِ فِي آسِيَا الْوُسْطَى بَعْدَ انْتِهَاءِ الْعَصْرِ السَّاسَانِيِّ.

لِهَذَا نَشَأَتْ إِلَى جِوَارِ مَدَارِسِ تَبْرِيزِ وَبُعْدَادَ - حَيْثُ كَانَتْ تُنَجَزُ أَهَمُّ الْأَعْمَالِ وَأَزْهَاهَا - مَرَاكِزُ فَنِّيَّةٍ أُخْرَى، وَلَوْ أَنَّ الْمَخْطُوطَاتِ الَّتِي ظَهَرَتْ بِهَا كَانَتْ أَقْلَ حَاجِمًا وَصُورَهَا أَقْلَ شَأْنًا، فَبَدَلًا مِنَ الْخَلْفِيَّاتِ الْمُصَوَّرَةِ فِي دَقَّةٍ شَدِيدَةٍ وَالْأَلْوَانِ الْمُتَالِفَةِ وَالتَّكْوِينَاتِ الْمُحْتَشِدَةِ تَلْمَسُ تَحْفَظًا وَإِيجَازًا، كَمَا لَا يَظْهَرُ مِنَ التَّفَاصِيلِ وَالشُّخُوصِ إِلَّا الْحَدَّ الْأَدْنَى. وَعَلَى الْعَكْسِ مِنَ الْمَهَارَةِ الْفَائِقَةِ وَالتَّقْنَةِ الْبَارِعَةِ الَّتِي تُمَيِّزُ مَنْجَرَاتِ تَبْرِيزِ وَبُعْدَادَ، تَبْدُو مُنْمَنَاتُ الْمَدَارِسِ الْإِفْقِيَّةِ فَجَّةً خَشِينَةً، يَبْدُو أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ مُجَرَّدَةً تَمَامًا مِنَ الْجَادِيَّةِ، فَهِيَ عَلَى الْأَقْلِ تُمَثِّلُ الْفَنَّ الْقَوْمِيَّ الْفَارِسِيَّ مِنْ دُونِ اخْتِلَاطِ بِالْمُؤَثَّرَاتِ الصِّينِيَّةِ أَوْ الْمَغُولِيَّةِ أَوْ الْأَوِيْجُورِيَّةِ أَوْ الْعَرَبِيَّةِ، وَمَا أَشْبَهَ تَصَاوِيرَهَا بِتِلْكَ الَّتِي تَبْدُو عَلَى خَرْفِ تِلْكَ الْمَرَحَلَةِ، وَبِخَاصَّةٍ مَا يُعْرَفُ بِطِلَاءِ الْمِيْنَاءِ (الْخَرْفِ الْمُرْجَجِ)، فَكِلَاهُمَا يُمَثِّلُ اتِّجَاهًا تَقْلِيدِيًّا غَرِيبًا.

وَتَمَّةً مَرَكَزَ نَشِيطٍ نَشَأَ فِي خُرَاسَانَ تُعَزَى إِلَيْهِ كَثْرَةُ مِنْ مَخْطُوطَاتِ ذَلِكَ الْعَهْدِ، وَبِخَاصَّةٍ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ اسْمُ الشَّاهَنَامَاتِ ذَاتِ الْخَلْفِيَّةِ الْحَمْرَاءِ، وَلِكِنِّهَا صَغِيرَةُ الْحَجْمِ نِسْبًا، صُوِّرَتْ دَاخِلَ أَطْرِ «شَرَايِطٍ» أَفْقِيَّةٍ تَمُرُّ بِوَسْطِ الصَّفْحَةِ بَيْنَمَا يَحْتَلِ النَّصُّ مِسَاحَةً كَبِيرَةً مِنْ أَعْلَاهَا وَمِنْ أَسْفَلِهَا. وَلَوْ أَنَّ الْأَثَرِ الْعَامَّ لَافِتٍ لِلنَّظَرِ لَتَأَلَّقَى الْخَلْفِيَّاتِ عَادَةً بِاللُّونِ الذَّهَبِيِّ أَوْ الْأَصْفَرِ وَبِصِفَةِ خَاصَّةِ اللَّوْنِ الْأَحْمَرِ، إِلَّا أَنَّ الْأَشْكَالَ الَّتِي كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَبْدُو نَابِضَةً بِالْحَيَاةِ رُسِمَتْ بِلا عَنَايَةٍ وَبِعَدَدٍ مَحْدُودٍ مِنَ الْأَلْوَانِ عَلَى غِرَارِ تَصَاوِيرِ كُهُوفِ أَوَاسِطِ آسِيَا.

شَاهَنَامَةُ ١٣٧٠ م. عَهْدُ بَنِي مُظَفَّرٍ، «شِيرَاز»

مُتَحَفُ طُوبِ قَابُو بِإِسْتَنْبُولِ

وَمَعَ مُنْمَنَاتِ مَخْطُوطَةِ عَامِ ١٣٧٠ مِنَ الشَّاهَنَامَةِ تُخَلَّفُ وَرَاءَنَا مَنَاطِرُ الطَّبِيعَةِ الْمُنتَمِيَّةِ إِلَى النُّصْفِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقَرْنِ، وَنَنْفِذُ إِلَى عَالَمِ الْخَيَالَاتِ الْمُتَالِفَةِ الَّذِي يُشْكَلُ الْاسْتِهْلَاحَ

ثلاثة أو أربعة متعاقبة يعرض الصفحة عادةً فوق أرضية حمراء أو بيضاء؛ فنرى الأسلحة من رماح وسيوف وعصي في الصف الأعلى، والحيوان من بقر وجاموس وإبل وخيل وأغنام في الصف الثاني، والأحجار الكريمة من لؤلؤ وياقوت ودُر في الصف الثالث، ثم الآلات الموسيقية في الصف الأدنى كالعود والجنك والرباب والتاي والدق (لوحة ١٥٩ م).

(١) القيم اللمسية (Tactile values): اصطلاح ابتكره العلامة والمؤرخ الفني برنارد بيرنسون، قصد فيه إلى أن التصوير يعتمد على خلق انطباع دائم ثابت بالحقيقة الفنية، من خلال إضفاء بُعد ثالث على اللوحة المصورة في بُعدين اثنين، بإعطاء قيمة لمسية لانطباعات شبكية العين. لذا كانت مهمة الفنان هي إثارة الحس اللمسي للمشاهد، فيؤهمه بأنه قادر على لمس الشكل المصور بأعصاب كفه وأنامله حتى لتكاد تدور مع التواءات المختلفة على سطح «الشكل» (form)، قبل التسليم بأن ما يراه هو شيء حقيقي يملك تأثيراً متصلاً. وبهذا يكون الأمر الجوهرى في فن التصوير هو تنبيه وعينا بالقيم اللمسية. [م. م. م. ث.].

دماً - كما هي الحال في صورة شاهنامه ديموط - بل في صورة طيف لازوردى، يشغل نصف المنمنمة بتلافيفه موجياً بالرغبة لأنه حيوان خرافى نابع من عالم الرؤى والخيال، وبرغم ذلك فإن عرّفه الأسود يبعث الرعب والهلع. ونحن نعرف أن اللون في التصوير ينتمي إلى ميدانين، فهو يؤدي دوراً تشكيمياً عندما يؤكد الشكل ويعبر عنه، ودوراً جمالياً عندما يثير إحساننا بالقيم اللمسية^(١) للوحة، وهو لا شك يؤدي في هذه المنمنمة دوراً تشكيمياً أكثر منه دوراً جمالياً. وجمعت هيئة بهرام جور مجموعة من الألوان ترد على مجموعة ألوان التين يضيفي عليها لون القميص الأحمر التاري إيقاعاً قوياً.

مؤنس الأحرار (مقتطفات علمية) بقلم محمد بدر جاجرنى. شيراز ١٣٤١ م. متحف كليفلاند للفنون.

ومن بين هذه المخطوطات ظهر في شيراز خلال القرن الرابع عشر نوع يضم صوراً إيضاحية بمثابة المعجم المصور بعنوان «مؤنس الأحرار»، حيث نرى تلك الصور متراسة في صفوف

الفصل الثالث والعشرون

التصوير الفارسي في عهد التيموريين

أولاً: العصر التيموري الأول (١٤٠٠ - ١٤٥٠)

الصينية وزودت مصوري المُنمنمات في إيران بحافز عاونها على اكتشاف قواعد فنونهم التشكيلية وتحديدها. وقديماً استُخدم الإيرانيون اللون بجدق وبراعة في فنون العمارة وتصميم زخارف السجاد والخزفيات، وما لبث اللون أن عُدَّ عُصراً بليغاً في لغة تصوير المُنمنمات الرفيعة.

وتلت هذه المرحلة فترة انقِبال، تضافر فيها اكتشاف قوة تأثير التصوير النابض بالحياة مع إمكانيات تصوير المناظر الخلوية، على إنجاز روائع مصورة، ولو أن هذا التجديد قد أسفر مؤقتاً عن انحسار الوحدة التي كانت تنظم المخطوط. وهكذا جهد فنانون أواخر القرن الرابع عشر في المَزج بين هذه الرؤى الجديدة وبين المتطلبات التقليدية للمخطوط في ما صوّروا من مُنمنمات.

وثمة مُنمنمة من مضمّن صور كان بهراة عام ١٤٠٠ م ومَحفوظ الآن بمكتبة طوب قاپو باستنبول تُعدّ نموذجاً لهذا الأسلوب الانقيالي الذي شاع في أواسط آسيا خلال المرحلة المبكرة من العصر التيموري (لوحه ١٦٠م)، حيث يلفننا تعدد الأجناس البشرية فيها، وكذا المشهد البرّي الرقيق المكوّن مرّة من آكام صخرية صغيرة ومرّة من شجيرات يابسة. فمصادر الإلهام لم تكن قد اهتُصمت بعد، وإن كانت كلّ عناصر التصوير الضرورية ممثلة في الصورة، وهي التي تجلّت فيما بعد في نسق فني رائع مع بواكير المخطوطات التيمورية المصورة المنسوبة إلى هراة. فإلى الأسفل من الصورة فارس على جواده في إثر جواد يحمل سيّدة وطفلها، ومن ورائهما مركبة عليها أوانٍ وأباريق من البورسلين الصيني، وقد رفع أحدهم بيّزاً قد يُشير إلى أن السيّدة وطفلها من محبّد كريم. وفي وسط الصورة وإلى أعلى نقر وراء أكمات يستريحون البصر إلى هذا المشهد.

ما من ريب في أن أعظم تعبير عن الفنون المرئية في إيران يتجلّى في عمارتها وزخارفها وفنون مخطوطاتها. ولم يُعرف فن التصوير بالرّيت على لوحات الحامل قبل عهد أسرة قاچار في مُستهل القرن التاسع عشر. وهو عهد جدّ قريب. وعلى الرّغم من أن التصوير الجداري قد استُخدم خلال تاريخ إيران كلّه إلا أنه توارى أمام الاستخدام الرّخفي لخطوط الكتابة، ولم تُستثن المخطوطات من ذلك حيث كان لفرن الخطاط المكانة الأولى، ومن بعده سائر التّخليات التي تأتي في مرتبة أدنى حتى عهد الإيلخانات ومُستهل القرن الرابع عشر.

وعلى الرّغم من توارث بعض تقاليد تصوير المخطوطات خلال القرون السبعة أو الثمانية السابقة على العصر التيموري الأول إلا أن تأمل المخطوطات المصورة النادرة المتبقية والمصادر الأدبية يكشف عن أن فن التصوير كان حيناً عاجزاً عن التعبير إلا عن أبسط أنواع الوصف. ثم ما لبث مستوى المصوّرين والمُرتّنين أن ارتفع خلال القرن الرابع عشر إذ أضافوا إلى مُنجزاتهم بعداً حديداً حين مارسوا التعبير عن المشاعر الرّقاقة والمواقف الدرامية والإحساس الصوفي. ولقد اتّخذ مصوّر المُنمنمات مكانته بمحاذاة المُزخرف المعماري الذي يُصمّم رسوم الخزف والجصّ المشغول. ونشط المصوّر الفارسي خلال هذه الفترة للبحث عن وسائل التعبير وكيفية تحديد إطار الرؤية. وكان لإلمامه بالتصوير الصيني وتصميمات تكويناته أثراً جوهرياً في هذا المجال، فقد أفاد من أساتذة التصوير الصيني الذين اتّقنوا - منذ عهد بعيد - أساليب تصميم الفراغ ونهضوا بمستوى الخطّ المُعبّر.

ومع أنه لم تصل إلى إيران من بين إنجازات هذه المدرسة العريقة إلا أقلها شأنًا، فقد أدّت دورها مُعبّرة عن الجماليات

وكان الإبداع خليف هؤلاء المُجدّدين، الأمر الذي كان له

إلى تقليد قومي عريق نراه في النقش البارز الذي يمثل منظر الصيد الساساني في طاق بستان.

التصوير في مُستهلّ العهد التيموري

لم تتعدّ اهتمامات تيمورلنك - في عالم الأدب - الأعمال التاريخية مثل مخطوطة «ظفرنامه» التي تُسجل غزواته وحروبه. وإذا كانت ثمة مخطوطات رائعة صوّرت في عهده فلم يكن مردّ ذلك إلى اهتمامه الشخصي، وآية ذلك أنّ مخطوط قصائد خواجو كرمانی مؤرّخ في بغداد عام ١٣٩٦، وكانت آنذاك تحت حكم السلطان أحمد الجلائري. ويقع هذا التاريخ بين عام ١٣٩٣ الذي غزا فيه تيمورلنك بغداد لأول مرة وعام ١٤٠١ حين فتحها للمرة الثانية. وكذلك شاهنامه القاهرة وقد نُسخَت في شیراز عام ١٣٩٣، أي قبيل دخول تيمور هذه المدينة.

وفي هذه المجموعة من المخطوطات - التي ترجع إلى السنوات العشر الأخيرة من القرن الرابع عشر - نشهد الألوان المتألّفة ومناظر الطبيعة في موسم الربيع، تلك القسّمات التي غدت فيما بعد نمطاً مميزاً للتصوير الفارسي، ومن خلالها توصّل المصور إلى اكتشاف أنسب مقياس للشخص، وتحديد العلاقة الملائمة بين حجم المُنمّة وحجم المَن. ومن ثمّ كان الأرجح أن يُنسب الفضل في رعاية فنّ التصوير الفارسي خلال مرحلة تكوينه إلى البيت الجلائري.

وبوصولنا إلى هذه المرحلة لم يعد ثمة مجال لمحاولة اكتشاف المؤثرات الأجنبية وتحليلها إلى عناصر متعدّدة، فقدّ أضحت التصوير وحده متجانسة تُعبّر أكمل تعبير عن العبقرية الفارسية. وفي هذه المُنمّمات تبدو العناية الفائقة بالتفاصيل الدقيقة، ولم يعد الفنان يلجأ إلى التجسيم حين يرسم خطوطه المحوّطة بل بات يُنسّق تكوينه بحيث يكشف عن جمال أنجاءات خطوطه، فقدّم بذلك نمطاً زاد اتساقه وترابطه ووضوحه باستخدامه الحاذق للألوان المتباينة. وقد اقتضى هذا الجدق تجارب لا حصر لها للموازنة بين درجات الألوان الدافئة منها والفاترة وما أسبغ على هذه المُنمّمات بهاء يهيء لنا متعة فريدة. وكانت عملية مزج الألوان وفقدانها بالغة التعقيد، استهدفوا منها بقاء صبغتها ثابتة على مرّ الزمن.

تيمورلنك

شهدت فارس في نهاية القرن الرابع عشر حملة جديدة من حملات الغزو المتتالية يقودها غازي وإفد - كالعادة - من تخوم آسيا الوسطى، لا يكن رحمة لآدمي في سبيل أطماعه الشخصية،

شأن في ازدهار فنون الكتاب خلال العهد التيموري، أولاً في شیراز ثمّ في هراة. وقد التزم مصوِّرو هذه المدرسة باحترام حجم المخطوط ووحدّة شكله وعملوا في تعاون وانسجام إلى جانب الخطّاط والمُرَقّن، فبسّطوا تكويناتهم لتُعبّر عن الوفقات والإيماءات، ولتُنقل الصدى الجذّاب للمناظر الطبيعية بعد أن أتاحوا الاستيخاد الرّمزي للون، كتعبير عن عالم الخيال ودنيا الملاجم والقصائد الشعريّة، بل حتّى في التعبير عن المشاعر الروحانيّة الصوفيّة.

وبصفة عامّة، تميّزت منجزات هراة عن منجزات شیراز بطابع أكاديمي يميل إلى التشدّد وينجح قليلاً إلى التفرّد، كما يتّقد بالأنماط الشكليّة المنتظمة أكثر وأكثر مقترباً من الأشكال الهندسيّة، على حين تميّزت شیراز بالتصوير الرقيق العذب لشغل آية مساحة يُخلّفها الخطّاط للمُصور، وبالطُور المنطلقة المحلّقة حول المَن. وما من شكّ في أنّ شیراز كانت المهّد الذي نما الأسلوب التيموري في أحضانه وإن كان هذا لا يتّقي أثر تبريز، وبخاصّة ابتكارها خطّ التستعليق.

أقول التأثير الصيني

وما كاد عام ١٣٩٢ يُطلّ، حتّى كانت جدّة المؤثرات الصينية قد تلاشت، ولم يعد المصور الفارسي يتمثّل منها إلّا ما وجدّه مناسباً لأغراضه فحسب. وكان بين يدي الفنان الفارسي في مطلع القرن الرابع عشر بلّ وخلال ذلك القرن كلّهُ أسلوب مدرّسة بغداد بتصوير شخوصه المقتبس عن سوريا المتأغرقة، وانحصر المنظور فيه في ترتيب الشخوص في وضعات جانبيّة متجاورة على حين دبّت الحياة رفاقة في رسوم الحيوانات. وبين يديه كذلك كانت نماذج المدرّسة الإيرانية التقليديّة التي تخصّصت في تصوير الشاهنامه، وانفردت بالأسلوب التذكاري للرسوم الجداريّة والثقوش الصخرية الشائعة في العهد الساساني والتي تنسب إلى النماذج اللاحقة للرسوم الجداريّة في آسيا الوسطى. وكان هذا الأسلوب الأخير أكثر ملائمة لمقاصد الملوك الساسانيين منه لتصوير القصائد والقصص الغرامي. وعلى الرّغم من أنّ الفنان الفارسي بدا لفترة ما وكأنّه يتحاشى هذه التأثيرات الساسانيّة وبخاصّة بعد انسيابه وراء بعض الاصطلاحات التقنيّة الصينيّة ليقدّم فنّ تصوير خطّي جديد، إلّا أنّه وفّق في نهاية الأمر إلى هضم هذه الاستعارات وتمثّلها مع الاحتفاظ بالرّوح الزخرفيّة الفارسيّة، وإلى تركيز اهتمامه بالناحية الدراميّة المعهودة في الأسلوب المبكر، ومن ثمّ مزج الكلّ في أسلوب لا يقلّ فارسيّة عن الأسلوب القديم إنّ لم يُفقه. ولعلّ «الأفق المرتفع» هو ردّة

أثنا لا نستطيع أن نجزم ما إذا كانت هذه اللوحة هي نسخة أصلية من تصوير الفنان خليل نفسه أم لا. وتُشير القصة إلى أن اللوحات كانت تُصوّر في بداية القرن الخامس عشر على رُفَع من القماش أو الحرير، وأن اسم كل قائد من قادة الجيش كان مَدُونًا إلى جانب صورته على لوحة من هذا النوع، وهو ما يوحي بتساع مساحة هذه اللوحات.

وقد نشأ عن النظام السياسي لإمبراطورية تيمورلنك عدّة مراكز فنيّة، وكان الإمبراطور يُشرف على حكمه من عاصمة الدولة، وأسند إدارة الأقاليم المختلفة إلى أمراء يحكمونها كأنها ممالك مستقلة ولكنها متّحدة. وكان لكل أمير بلاطه ونظام حكمه الوراثي، فكان شاه رخ حاكمًا على خراسان في حياة أبيه تيمورلنك، وبوفاة الأخير خلفه ابنه وظلّ مقيمًا في خراسان مُتَّخِذًا هراة عاصمةً لملكه، وأسند إلى أولوغ بك حكم بلاد ما وراء النهرين في سمرقند، وإلى إبراهيم حكم شيراز وإقليم فارس.

وقد سجّل «روي كلافيو» سفير إسبانيا آنذاك أنه استقبل هو وأفراد السفارة في سمرقند عام ١٤٥٥ في أجنحة على هيئة الخيام مُقامّة وسط الحدائق مُغطّاة من الداخل بالحرير الموشى أو المطرّز بالزخارف، وقد صوّرت في سقفها عُقبان وتُصور مُحلّقة في الفضاء أو مُتأهبة للانقضاض على فريستها. وكانت الزخارف تتضمّن - حسب قصة كلافيو - مُعلقات حريرية موشاة أو مطرّزة بزخارف الرُفّش العربي، بينما لم يورد كلافيو في قصته الشاملة الدقيقة أية إشارة إلى وجود لوحات تصويرية. فلم تُصوّر أشخاص آدمية إلا بطلاء الميناء على قطع فضية كان تيمورلنك قد نهّبها من الأتراك في «بروسا» ولا شك أنها صوّرت إغريقية. على أن مُذكرات «بابور» (حفيد تيمورلنك ومؤسس الدولة المغولية بالهند ١٤٠٩ - ١٥٠٨ م) قد تحدّثت عن لوحات تصوير تُسجّل انتصارات تيمورلنك في معاركه بالهند مرسومة على جذران إحدى الاستراحات بسمرقند. وقد اختفت هذه اللوحات تمامًا، غير أن عددًا من المخطوطات التيمورية التي تتضمّن مُنمنمات أنجزت في حياة تيمورلنك قد آلت إلينا لحسن الحظ، أقدمها ما ورد من شيراز.

شاهنشاهنامه ١٣٩٧، المتحف البريطاني

وهي تُمثّل مُجلدين من مجموع أجزاء ملحمة تيمور الشعرية «شاهنشاهنامه» ويرجع هذان المُجلدان إلى حوالي عام ١٣٩٧، ويقترب أسلوبهما من أسلوب مخطوطات شيراز التي سبق وصفها والتي أنجزت خلال الفترة الأخيرة من حكم آل مظفر، حتى إنه يصعب تصوّر إنجازهما في مدينة سيواها. ومع ذلك

ألا وهو تيمورلنك الذي لم يُخفّف اعتناؤه الإسلام من صراوته هو وقبيلته «البارلاس»، فقد كانت تقاليدهم البدوية الوثنية أرسخ في نفوسهم من تعاليم الإسلام، وهم فرع من أتراك جغاطاي الذين استوعبوا الثقافة الإسلامية تدريجًا خلال احتلالهم لبلاد ما وراء النهرين. ومع أن تيمورلنك ظلّ طوال حياته أميًا لا يعرف القراءة والكتابة، إلا أنه كان يتحدّث اللغتين الفارسية والتركية، واتخذ خطوات حاسمة لتحويل البلاد التي يحكمها إلى بلاد حضريّة، فأمر بتخصيص مدينة سمرقند عام ١٣٧٠ مخالفاً بذلك - كما أشار المؤرخ بارتولد - وصية جنكيزخان الذي كان يفخر بالانتماء إليه عن طريق والدته. وكان مولعًا بالبناء والتشييد، فأنشأ الدور والبساتين الرائعة خارج سمرقند في منطقة كان يطيب له الإقامة فيها حين تترك له غزواته فسحة يسترخي خلالها، ونقل إليها عنوة عددًا كبيرًا من أصحاب الجرف الذين خلّعهم من مدّهم التي استولى عليها بما في ذلك شيراز وبعدها اللتان سقطتا في قبضته عام ١٣٩٣. والراجح أنه لم يوجّه عنايته إلى فنّ ترقيم الكتب، فرغم أنه نقل «عبد الحي» أحد كبار فنانين الأسرة الجلايرية إلى سمرقند، إلا أن نبأ واحدًا لم يصلنا عن إشرافه على تصوير أي من المخطوطات.

الرُسوم الجدارية في عهد تيمور

تحدّث المصادر الأدبية عن عدد من الرُسوم الجدارية جرى تنفيذها في استراحات حدائق سمرقند، وقد سُجّلت عليها فتوحات تيمورلنك وصُور أولاده وقادة جيشه، وهذا ما يقضيه عادة قائد مُظفر مثله. وتعود أهمية هذه اللوحات وقيمتها في تاريخ الفن إلى أنها أدخلت لأول مرة في إيران - منذ عصر الساسانيين - فنّ تصوير الأشخاص «البورتريه». ومع أنه لم يبقَ منها عدد كبير، إلا أن ما بقي وحده يكفي شاهدًا على انتشارها وقتئذ، مثل اللوحات على جدران قصر بجيفي سلطان حفيدة تيمورلنك، ومثل الأجزاء الباقية من أحد المشاهد الخلوية التي عُثر عليها بضريح شقيقته شيرين بك آغا الذي أقيم عام ١٣٨٥. وذلك هو كل ما حفظه لنا الزمن من رُسوم سمرقند الجدارية، ولم يبقَ منها في فارس سوى آثار متأخرة من العصر الصفوي ترجع إلى عصر الشاه عباس الأول. ولا شك أنه كانت هناك أنواع أخرى من التصوير تُنفذ داخل بلاط تيمورلنك، فقد حكى «جهانجير»، الإمبراطور المغولي بالهند، إنه تسلّم من الشاه عباس الصفوي لوحة تصوّر إحدى حملات تيمورلنك على أواسط آسيا مؤقّعة عليها باسم الفنان «خليل» الذي عُرف كواحد من كبار الفنانين الأربعة المزخرفين ببلاط «شاه رخ» بن تيمورلنك وخليفته في حكم خراسان وبلاد ما وراء النهرين، وبالتالي الوريث للجزء الأكبر من مُمتلكاته. على

ديوان قصائد الشعراء السبعة، ١٣٩٨م، مُتَحَفُ الفنون التركيّة والإسلاميّة باستنبول

نَسَخَ هذه المخطوطة أَحَدُ خَطَّاطِي بهبهان بِمُقَاطعة فَارِس عام ١٣٩٨. والظاهرة الهامة التي تميّزها هي اشتغالها على اثْنَيْ عَشْرَةَ مُنَمَّة صُوِّرَتْ كُلُّهَا مَشَاهِدَ طَبِيعِيَّةٍ فيما عدا الأخيرة التي تُصَوِّرُ مَشْهَدَ صَيْدٍ. وَرُسِمَتْ هذه المُنَمَّمات الإحدى عَشْرَةَ بِأُسْلُوبٍ شَدِيدِ التَّخْوِيرِ يُذَكِّرُنَا بِالنَّسْجِيَّاتِ المُرْسَمَةِ والسَّجَادِ، إِذْ إِنَّ العاِملَ الرُّخْرُفِيَّ قَدْ طَغَى فَنَأَى بِالصُّورَةِ عَنِ مُحَاكاةِ الواقعِ. إِنَّ هذه المُنَمَّمات لَتَنَقُلُنَا إِلَى عَالَمٍ خَيَالِيٍّ تَسْتَغْرِقُهُ الْأَحْلَامُ مَكَانَ قَوَائِنِ الواقعِ المَادِّيِّ.

وفي جَمِيعِ هذه المُنَمَّمات بِمَا فِيهَا مُنَمَّةُ الصَّيْدِ، نَشْهَدُ التَّلَالُ نَفْسُهَا ذاتِ الحَوَافِي المُسْتَدِيرَةِ، والألْوَانُ الْأَصِيلَةُ التي يَتَجَاوَبُ أَحَدُهَا مَعَ الْآخَرِ، كَالْأَرْجَوَانِيِّ وَالْأَصْفَرِ وَالْوَرْدِيِّ وَالْبُرْتُقَالِيِّ، وَالتَّهَرُّ نَفْسُهُ الَّذِي يَتَدَقَّقُ فِي مَجْرَاهِ الْمُتَعَرِّجِ وَسَطِ تَكْوِينِ قَائِمٍ عَلَى النَّاسِقِ وَالتَّمَائُلِ. وَلَا عَجَبَ فَإِنَّ إِحْدَى خَصَائِصَ مَدْرَسَةِ شِيرَازِ هِيَ شَغْلُ الْمِسَاحَةِ الشَّاعِرَةِ التي يُخَلِّفُهَا النَّصْنُ بِالتَّصْوِيرِ السَّاجِرِ الْأَخَازِ. وَتُعَدُّ هذه المُنَمَّماتُ الْفَرِيدَةُ فِي تَارِيخِ الْمَدْرَسَةِ الْفَارِسِيَّةِ كُلِّهَا والتي تَنْبُضُ بِالرَّقَّةِ وَالْحَسَّاسِيَّةِ الْمُرْهَفَةِ، حَلَقَةٌ هَامَّةٌ فِي سِلْسِلَةِ التَّطَوُّرِ الْمُطَرَّدِ لِلْفَنِّ الْإِيرَانِيِّ.

ونَشْهَدُ فِي إِحْدَى المُنَمَّماتِ الْمُخْتَارَةِ مِنْ هَذَا الدِّيَّانِ (لَوْحَةٌ ١٦١ م) ثَلَاثَ إِوْرَآتٍ يَبْضَاءُ مَرْكُشَةً بِالْأَحْمَرِ وَالْأَزْرَقِ تَسْبَحُ فِي بُحَيْرَةٍ دَاكِئَةِ الزُّرْقَةِ فِي مُقَدِّمَةِ الصُّورَةِ رُصِّعَتْ حَافَتُهَا بِأَحْجَارٍ ذَهَبِيَّةِ اللَّوْنِ مَعْرُوقَةٌ بِخُطُوطِ حُمْرَاءَ. وَتَنْتَهِي الْبُحَيْرَةُ فِي أَحَدِ طَرَفَيْهَا إِلَى جَدُولٍ مَاءٍ يَتَحَوَّى وَيَنْتَهِي فِي يَسَارِ النَّصْفِ الْخَلْفِيِّ مِنَ الصُّورَةِ إِلَى بُحَيْرَةٍ يَبْضَاوِيَّةٍ رُصِّعَتْ حَافَتُهَا بِمَا يُشَبِّهُ الْأَحْجَارَ الذَّهَبِيَّةَ الْمَعْرُوقَةَ بِلَوْنٍ بُيِّيٍّ، وَيُحِيطُ الْبُحَيْرَتَيْنِ وَالْجَدُولَ إِطَارٌ بُيِّيٌّ تَنْمُو عَلَيْهِ الْأَعْشَابُ الزُّخْرُفِيَّةُ. وَحَوْلَ الْجَدُولِ وَالْبُحَيْرَةِ مِسَاحَةٌ صَفْرَاءَ انْتَشَرَتْ فِيهَا أَشْجَارُ السَّرْوِ الْمَخْرُوطِيَّةِ الْهَيْفَاءِ رَمَزُ الشَّبَابِ بِقِمَمِهَا الْمُدْبِيَّةِ وَقَدْ وُزَّعَتْ عَلَى جَانِبِ الْجَدُولِ وَالْبُحَيْرَتَيْنِ وَفِي مُقَدِّمَةِ الصُّورَةِ فِي إِيقَاعٍ مُتَنَاعِمٍ رَشِيقٍ، وَلَوْنُهَا الْفَتَانُ بِاللَّوْنِ الْبَيْتِيِّ الرَّاقِيقِ الْمُتَعَدَّدِ الدَّرَجَاتِ، وَوُزَّعَ فِي هَذِهِ الْمِسَاحَةِ الصَّفْرَاءِ التي تَحْتَلُّ قَلْبَ الصُّورَةِ وَمُقَدِّمَتِهَا أَرْبَعُ أَشْجَارٍ ذاتِ سِيْقَانِ رَهِيْفَةٍ حُمْرَاءَ اثْنَتَانِ مِنْهَا فِي الرَّسْطِ ثَقَاتِيْعَانِ مَسَارِ الْجَدُولِ، أَوْرَاقُهُمَا وَثِمَارُهُمَا يَبْضَاءُ مَشْبُوبَةٌ بِالزُّرْقَةِ، وَاثْنَتَانِ عَلَى الْجَانِبَيْنِ أَوْرَاقُهُمَا بُيِّيَّةٌ. وَرُغْمَ أَنَّ هَذِهِ الْأَشْجَارَ تَرْمِزُ إِلَى أَنْوَاعٍ مَعْرُوقَةٍ أُخْرَى كَأَشْجَارِ الْخَوْخِ وَالْمِشْمِشِ وَاللُّوزِ وَالْبَرْزُوقِ وَغَيْرِهَا فَقَدْ رُسِمَتْ بِأُسْلُوبِ زُخْرُفِيٍّ لَطِيفِ التَّشْكِيلِ وَالتَّكْوِينِ. وَلَمْ تَقُتْ الْمُصَوِّرُ

عَارِضَ الْبَعْضِ هَذَا الرَّأْيِ مُسْتَبِدِّينَ فِي ذَلِكَ إِلَى ارْتِفَاعِ مُسْتَوَاهَا الْقَيِّ. وَالوَاقِعُ أَنَّ السَّرَّ فِي رَفْعَةِ مُسْتَوَاهَا هُوَ قِيَامُ سُلْطَةِ جَدِيدَةٍ أَمَدَّتِ الْفَتَانَيْنِ بِمَوَادٍ وَسِيطَةٍ أَعْلَى جُودَةٍ، فَاسْتُخْدِمَ التَّذْهِيْبُ بِسَخَاءٍ وَأَعِدَّ اللَّوْنُ الْأَزْرَقُ مِنْ لَازُورْدٍ حَقِيقِيٍّ، وَصُنِعَ وَرَقٌ بِالْبَلِغِ الرَّقَّةِ وَالتَّعْوِمَةُ إِلَى الْحَدِّ الَّذِي عَجَّلَ بِاهْتِرَاءِ بَعْضِ مَوَاضِعِ فِي الْمُنَمَّماتِ السَّتِّ عَشْرَةَ. وَتَنْتَضِعُ الْمُنَمَّماتُ جَمِيعًا الْعَنَاصِرِ الْمَأْلُوفَةِ عَنِ الْمَدْرَسَةِ الْجَلَاثِيْرِيَّةِ مِثْلَ مَجَارِي الْأَنْهَارِ وَالْمَنَاطِرِ الشَّيْبِيَّةِ بِمَنَاطِرِ مُؤَخَّرَةِ الْمَسْرَحِ، وَالْجُنُودِ الْمُخْتَفِينَ وَرَاءَ التَّلَالِ الصَّخْرِيَّةِ، وَالْحَرَكََةِ الْعَنِيفَةِ، وَالِاسْتِخْدَامِ الدَّرَامِيِّ لِلْخُطُوطِ الْمَائِلَةِ الْقَوِيَّةِ الْمُعْبِرَةِ عَنِ الْحَرَكََةِ. غَيْرَ أَنَّ الصُّخُورَ الشَّيْبِيَّةَ بِالشَّعْبِ الْمَرْجَانِيَّةِ تَخْتَلِفُ فِي هَذِهِ اللَّوْحَاتِ عَنِ تِلْكَ الَّتِي كَانَتْ تُصَوِّرُهَا الْمَدْرَسَةُ الْجَلَاثِيْرِيَّةُ.

وَقَدْ اخْتَرَتْ مُنَمَّمَتَيْنِ مِنْ بَيْنِ مُنَمَّماتِ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ أَوَّلَاهُمَا (لَوْحَةٌ ١٥٨) تُصَوِّرُ جَنْكِيْزْخَانَ وَقَدْ اغْتَلَى مِنْبَرِ جَامِعِ بُخَارَى الَّتِي دَخَلَهَا مَعَ صَلَاةِ الْعِيدِ، ثُمَّ خَطَبَ فِي النَّاسِ مُهَذِّدًا بِأَنَّهُ نَقْمَةُ اللَّهِ أَرْسَلَهُ لِإِعَاقِبِ أَهْلِهَا عَلَى شُرُورِهِمْ. وَتُصَوِّرُ ثَانِيَتُهُمَا (لَوْحَةٌ ١٥٩) الْخَلِيفَةُ الْمُعْتَصِمُ وَقَدْ سَبَقَ مُقَدِّمًا ذَلِيلًا إِلَى حَضْرَةِ هَوْلَاكَو الْجَالِسِ عَلَى الْعَرْشِ.

شاهنامه القاهرة، ١٣٩٣ م. دار الكتب المصريّة.

وَيَدَارُ الْكُتُبُ الْمِصْرِيَّةِ مَخْطُوطَةٌ نَفِيسَةٌ مِنَ الشَّاهَنَامَةِ نُسِخَتْ فِي شِيرَازِ عام ١٣٩٣ وَبِهَا صَحِيفَةٌ مُزَخْرَفَةٌ وَسَبْعُ وَسِتُّونَ مُنَمَّةً، بَلَّيَتْ أَلْوَانُهَا إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ إِذْ كَانَتْ طَبَاشِيرِيَّةً رَقِيقَةً. وَيَتَأَلَّقُ الْعَدِيدُ مِنْ بَيْنِ مُنَمَّماتِ هَذِهِ النُّسخَةِ الَّتِي اخْتَرَتْ مِنْهَا ثَلَاثًا. أَوَّلَاهَا تُصَوِّرُ مَعْرَكَةَ بَيْنَ الْبَطْلَيْنِ الْأُسْطُورِيَيْنِ رُوبِينِ وَبِيْجِنِ، وَقَدْ تَقَيَّا عَلَى صَهْوَتَيِ جَوَادِيْهِمَا، فَحَمَلَ رُوبِينُ عَلَى بِيْجِنِ بِسَيْفِهِ فَشَجَّ عُنُقَهُ بِضَرْبَةٍ قَاضِيَةٍ (لَوْحَةٌ ١٦٠)؛ وَالثَّانِيَةُ تُصَوِّرُ كَشْتَا سَبِ بْنِ لَهْرَاسَبِ الْمَلِكِ الْأُسْطُورِيِّ مِنَ السَّلَالَةِ الْأَخْمِيْنِيَّةِ وَقَدْ تَرَجَّلَ عَنْ جَوَادِهِ مُرْتَدِيًا زَرَدَهُ الْبَدِيعِ الزَّخَارِفِ لِيَضْرَعَ بِسَيْفِهِ لَبْوَةً أَثَخَنْتِ السَّهَامَ جَسَدَهَا (لَوْحَةٌ ١٦١). وَتُصَوِّرُ الْمُنَمَّمَةُ الثَّالِثَةُ كِيْخَسْرُو مَلِكِ الْفَرَسِ وَهُوَ يَعْبُرُ نَهْرَ جِيْجُونِ بِعَسَاكِرِهِ مُتَعَقِّبًا عَدُوَّهُ وَقَاتِلًا أَبِيهِ أَفْرَاسِيَابَ خَاقَانَ التُّرْكَ التَّوَارِيْثِيْنَ، وَقَدْ رَكَبَ كِيْخَسْرُو سَفِينَةً أَقِيمَ لَهَا فِيهَا عَرْشٌ جَلَسَ عَلَيْهِ مُمِيسِكًا بِصَوْلْجَانِهِ يُرَافِقُهُ ثَلَاثَةٌ مِنْ رِجَالِ حَاشِيَتِهِ. وَفِي مُقَدِّمَةِ السَّفِينَةِ أَوْ مُؤَخَّرَتِهَا جَلَسَ رُبَّانُ السَّفِينَةِ الَّتِي تُرْفَرُفُ عَلَيْهَا رَايَتَانِ (لَوْحَةٌ ١٦٢). وَنَلْظُ فِي هَذِهِ الْمُنَمَّماتِ جَمِيعًا تَكْوِينَاتِهَا الْمُسْرِفَةَ فِي الْبَسَاطَةِ، وَالتَّخْوِيرِ الشَّدِيدِ لِلْحَشَائِشِ وَالشَّجَرَاتِ وَبَعْضِ السَّمَاتِ الْبَدَائِيَّةِ مِثْلَ الْأَفُقِ الدَّائِيِيِّ الْمُرْتَفِعِ وَالْوَضْعَاتِ الْمُتَخَيِّلَةِ الْبَعِيدَةِ كُلِّ الْبُؤْدِ عَنِ الْوَاقِعِيَّةِ.

الْمُنْمَنَاتِ الْفَارِسيَّةِ إِلَى أُسْلُوبِ «الصُّورِ الدَّهْنِيَّةِ الْمُجَرَّدَةِ الْمُتَخَيَّلَةِ».

وإنَّ كَانَتِ الْمُصْطَلَحَاتِ الصِّينِيَّةِ قَدْ ظَهَرَتْ فِي تَصْوِيرِ الْمَاءِ وَالسَّحَابِ فِي بَعْضِ الصُّوَرِ إِلَّا أَنَّ هَذِهِ الْمَنَاطِرَ الطَّبِيعِيَّةَ كُتِلَتْ بِعِدَةِ كُلِّ الْبُعْدِ عَنِ الْأُسْلُوبِ الصِّينِيِّ. وَيَرَى الدَّكْتُورُ «مُحَمَّدُ آغا أَوُغْلُو» - وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ دَرَسَ هَذِهِ الْمُنْمَنَاتِ - أَنَّهَا مِنْ عَمَلِ أَحَدِ الرُّهْبَانِ الْمَزْدِيَّيْنَ حَاوِلَ أَنْ يَرْمِزَ بِهَا إِلَى عَقِيدَةِ الْخُورَنَةِ^(١)، الَّتِي اسْتَمَرَّتْ حَتَّى ظَهَرَتْ فِي فِكْرَةِ الْحُلُولَةِ الَّتِي تُؤْمِنُ بِهَا الصُّوفِيَّةُ، وَهِيَ وَإِنْ لَمْ تَتَّفِقْ مَعَ فِكْرِ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا أَنَّ أَنْيَاشَهَا كَانَ وَاسِعًا فِي إِيرَانَ.

وَيُقَدِّدُ إِيفَانِ شَتوكِينِ هَذَا الرَّأْيَ بِقَوْلِهِ: إِنَّ آغا أَوُغْلُو يُقَرِّ بِأَنَّهُ لَمْ يَعْثُرْ عَلَى شَيْءٍ مُمَاطِلٍ فِي الْفَنِّ الْفَارِسيِّ فِي نَهَايَةِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ أَوْ خِلَالَ الْقَرْنِ الْخَامِسِ عَشَرَ، وَلَكِنْ يَدَّو أَنَّه لَمْ يَفْكَرْ فِي الْبَحْثِ عَنِ الْمُمَاطِلِ فِي الْفَنِّ التُّرْكِيِّ. فَلَوْ كَانَ قَدْ فَعَلَ، لَعَثَرَ عَلَيْهِ فِي الْمُصَوِّرَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ ابْتِدَاءً مِنْ مُنْتَصَفِ الْقَرْنِ الْخَامِسِ عَشَرَ. وَلَا شَكَّ أَنَّ الْمُنْمَنَةَ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ، وَهِيَ مُنْمَنَةُ الصَّيْدِ (لَوْحَةٌ ١٦٤ م)، كَانَتِ الْمُرْشِدَ الَّذِي كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يَقُودَهُ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْمَنَاطِرَ الطَّبِيعِيَّةَ بِأَكْمَلِهَا تُرْكِيَّةٌ وَلَيْسَتْ فَارِسيَّةً، وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّ تَكْوِينَهَا يَضُمُّ شُخُوصًا تُرْكِيَّةَ السَّمَاتِ وَسَطَ مَنْظَرٍ طَبِيعِيِّ شَبِيهِ بِتِلْكَ الْمَنَاطِرِ الْمَرْسُومَةِ فِي الْإِحْدَى عَشْرَةَ مُنْمَنَةِ الْآخَرَى. وَيَسْتَطِيعُ شَتوكِينِ قَائِلًا إِنَّ آغا قَدْ اسْتَبْعَدَ مُنْمَنَةَ الصَّيْدِ بِاعْتِبَارِهَا إِضَافَةً مُتَأَخِّرَةً. وَهِيَ بِالْفِعْلِ إِضَافَةٌ، وَلِكِنَّهَا إِضَافَةٌ مَعَ بَقِيَّةِ الْإِحْدَى عَشْرَةَ مُنْمَنَةِ الْآخَرَى. لِأَنَّ كُلَّ الصُّورِ قَدْ أُضِيفَتْ عَلَى دِيْوَانِ الشُّعْرَاءِ الْفَارِسيِّ عَامَ ١٥٧٠ بِتُرْكِيَا، وَكَانَ قَدْ نُسِخَ مِنْ قَبْلِ فِي فَارِسَ فِي نَهَايَةِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ.

وَيُذَكِّرُ شَتوكِينِ عَلَى رَأْيِهِ بِأَنَّ هَذِهِ الْمَنَاطِرَ الطَّبِيعِيَّةَ قَدْ طُعِنَتْ

شَجَرَةُ الدُّلْبِ^(١) فَمَنْحَهَا مَكَانًا بَارِزًا يَشُدُّ الْبَصَرَ، وَوَضَعَ فَوْقَ كُتْلَةِ فُرُوعِهَا الْبُنْيَةَ ثِمَارًا كُرُويَّةَ حَمَاءٍ. وَفِي مُنْتَصَفِ الصُّورَةِ، وَعَلَى جَانِبَيْ الْمِسَاحَةِ الصَّفْرَاءِ الْمُوشَاةِ الْبَدِيعَةِ، اخْتَارَ الْفَتَّانُ مِسَاحَتَيْنِ صَغِيرَتَيْنِ نَوْعًا، لَوْ أَنَّ أَرْضِيَّةَ إِحْدَاهُمَا بِدَرَجَاتٍ غَرِيبَةٍ مِنَ اللَّوْنِ الْأَزْجَوَانِيِّ، وَرَسَمَ فَوْقَهَا نَخْلَةً مِرْوَجِيَّةً مُثْمِرَةً دَهْبِيَّةَ السَّعْفِ وَالْأَعْدَاقِ وَحَوْلَهَا شُجَيْرَاتٍ دَهْبِيَّةَ مُزْهِرَةٍ، عَلَى حِينِ اخْتَارَ لِأَرْضِيَّةِ الْمِسَاحَةِ الْمُقَابِلَةِ لَوْنًا بُرْتُقَالِيًّا، وَرَسَمَ نَخْلَةً أُخْرَى سَعْفُهَا دَهْبِيٌّ يَضْرِبُ إِلَى الْخُضْرَةِ وَأَعْدَاقُهَا حَمَاءٌ مُدْهَبَةٌ وَحَوْلَهَا شَجَرَتَانِ، إِحْدَاهُمَا شَجَرَةُ دُلْبٍ وَالْأُخْرَى مَرِيحٍ زُخْرَفِيٍّ بَدِيعٍ. ثُمَّ تَرَكَ مِسَاحَةً مِنَ الْأَرْضِيَّةِ الزَّرْقَاءِ فِي خَلْفِيَّةِ الصُّورَةِ وَعَلَى الْجَانِبَيْنِ بِحَيْثُ تَتَسَلَّلُ إِلَى أَسْفَلٍ فَتَفْصِلُ بَيْنَ قِمَّةِ الْمِسَاحَةِ الصَّفْرَاءِ فِي مُتَوَسِّطِ الصُّورَةِ وَالْمِسَاحَتَيْنِ الْأَزْجَوَانِيَّةِ وَالْبُرْتُقَالِيَّةِ، وَوَشَّاهَا بِزُخْرَافٍ مُدْهِلَةٍ فِي دِفْقِهَا وَرِفْقِهَا أَلْوَانُهَا مَا بَيْنَ الْأَحْمَرِ بِدَرَجَاتِهِ وَالذَّهَبِيِّ وَالْوَرْدِيِّ وَالْأَبْيَضِ الْمَائِلِ إِلَى الزَّرْقَةِ وَالْأَسْوَدِ، وَجَعَلَ مِنْ فُرُوعِهَا وَأَوْرَاقِهَا نَعْمًا مَهْمُوسًا خَالِيًا بِبَهِرِ الْعَيْنِ وَالْأُذُنِ مَعًا. وَعَلَى اللَّوْحَةِ كُلِّهَا نَثَرَ الْأَطْيَارَ الْمُخْتَلِفَةَ الْأَحْجَامَ وَالْأَشْكَالَ وَالْأَلْوَانَ الرَّهِيْفَةَ يَكَادُ الْمَرْءُ يَسْمَعُ تَغْرِيدَهَا وَيَتَابِعُ حَرَكَاتِهَا وَهِيَ تَقْفُزُ مِنْ فَنٍّ إِلَى فَنٍّ.

وَنَشْهَدُ هَذَا الْجَمَالَ كُلَّهُ وَهَذِهِ الْمَوْسِيقَى الشَّكْلِيَّةَ وَالْجَمَالِيَّةَ وَالزُّخْرَفِيَّةَ تَشْبِيعَ فِي مُنْمَنَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ مِنَ الْمَخْطُوطَةِ عَيْنِهَا. نَجِدُ فِي أُولَاهُمَا (لَوْحَةٌ ١٦٢ م) الْعِنَاصِرَ نَفْسَهَا الْمَكُونَةَ لِلْمُنْمَنَةِ السَّابِقَةِ: أَشْجَارَ السَّرُّوِّ وَالنَّخِيلِ وَالْبَرْقُوقِ وَالْخَوْخِ وَالطُّيُورِ وَالثَّمَارِ وَالتَّهْرِ وَالبُحَيْرَاتِ. غَيْرَ أَنَّ الرَّسَّامَ اسْتَعْنَى عَنِ الْإَوْرَآتِ الثَّلَاثِ، وَصَوَّرَ بُحَيْرَةً فِي صَدْرِ الصُّورَةِ تَتَمُّ فِيهَا ثَلَاثُ شَجَرَاتِ سَرُّوِّ، وَنَخْلَةٍ وَشَجَرَةَ خَوْخٍ، ثُمَّ أَطْلَقَ التَّهَرَ إِلَى الْخَلْفِيَّةِ فِي خَطِّ مُلْتَوٍ، حَيْثُ فَرَعَهُ عِنْدَ مُنْتَصَفِ الصُّورَةِ تَقْرِيبًا إِلَى فَرْعَيْنِ، أَحَدُهُمَا يَنْطَلِقُ يَمِينًا فِي انْحِنَاءٍ رَقِيقَةٍ، وَالثَّانِي يَنْطَلِقُ يَسَارًا، وَيَنْتَهِي كُلُّ مَنِهْمَا بِبُحَيْرَةٍ يَقْطَعُهَا الْهَامِشُ عِنْدَ مُنْتَصَفِهَا، وَخَلَقَ بَيْنَ التَّهَرَيْنِ دَلْنًا وَرَعَ فِيهَا الْأَشْجَارَ وَالزُّهُورَ بِأُسْلُوبِ كَالرَّقْشِ، وَلَمْ يَتَرَكَ لِلْأَفُقِ الْمُرْتَفِعِ إِلَّا مُنْتَفَسًا مَحْصُورًا فِي أَعْلَى الصُّورَةِ عَلَى شَكْلِ مُثَلَّثَيْنِ. وَاللُّوْنُ الْغَالِبُ عَلَى اللَّوْحَةِ هُوَ الْأَصْفَرُ الدَّهْبِيُّ الرَّاقِقُ. وَفِي الْمُنْمَنَةِ الثَّانِيَةِ (لَوْحَةٌ ١٦٣ م) أَعَادَ الْمُصَوِّرُ الْعِنَاصِرَ نَفْسَهَا فِي تَكْوِينِ جَدِيدٍ، ثُمَّ اخْتَارَ لِلْبُحَيْرَةِ الصَّغِيرَةِ مُنْتَصَفَ اللَّوْحَةِ، وَأَطْلَقَ مِنْهَا ذَلِكَ التَّهَرَ عَيْنَهُ يَتَحَوَّى يَسْرَةً ثُمَّ يَمْنَةً ثُمَّ إِلَى الْخَلْفِ حَتَّى يَخْتَلِطَ بِالْأَفُقِ الْمُرْتَفِعِ. وَفِي صَدْرِ اللَّوْحَةِ أَنْشَأَ مُثَلَّثًا مُسْتَدِيرَ الْقِمَّةِ أَرْجَوَانِي اللَّوْنِ، وَنَثَرَ فِيهِ أَشْجَارَ الدُّلْبِ وَالسَّرُّوِّ وَالنَّخِيلِ، وَكَرَّرَ الْوَحْدَاتِ الزُّخْرَفِيَّةَ الَّتِي فِي الْمُنْمَنَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ، فِي إِثْقَاعِ يَشُدُّ الْبَصَرَ وَيُرِيحُ النَّفْسَ. وَتُعَدُّ مُصَوِّرَاتُ هَذَا الْمَخْطُوطِ أَقْرَبَ

(١) قِيلَ إِنَّ قُورَشَ هُوَ الَّذِي غَرَسَ شَجَرَةَ الدُّلْبِ فِي إِيرَانَ، وَإِنَّ خَشْيَارِشَايَ مِنْ سُلَالَةِ الْمَلِكِيَّةِ، فُتِنَ بِهَا حِينَ رَأَاهَا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي لِيدِيَا بِأَسْيَا الصُّغْرَى، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَنْتَقِلَ مِنْ جَوَارِهَا قَبْلَ أَنْ يُعْلَقَ فِي أَغْصَانِهَا أَسَاوِيرَ وَسُلَالِيْلٍ مِنَ الذَّهَبِ! وَتُسَمَّى الْقُرْسُ هَذِهِ الشَّجَرَةُ الْجَنَارُ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهَا تَطْرُدُ الْأَوْبَةَ. وَقَدْ حَظَّيْتُ، فِي الْمُنْمَنَاتِ وَفِي السَّجَادِ، بِمَكَانَةٍ أَثِيرَةٍ مُنْذُ الْعَصْرِ التِّيمُورِيِّ.

(٢) الْخُورَنَةُ: هِيَ تَمْجِيدُ طَاقَةِ الْخَلْقِ الْأَبَدِيَّةِ أَوْ مَجْدِ الْحَيَاةِ وَالْمَعْرِفَةِ، كَمَا جَاءَ فِي الْبَنْدَهَشْتِ الْمُسَمَّرِ لِلْأَوَسْتَا كِتَابَ زَرْدَشْتِ الْمَقْدَّسِ، أَوْ هِيَ الْمَجْدُ الْإِلَهِيُّ الَّذِي يُضَاجِبُ الْمُلُوكَ الشَّرْعِيِّينَ الْأَرْبَعِينَ، وَهُوَ تَجَلِّيُ الثَّارِ الْمُشْتَبِعَةِ أَمَامَ أَهْوَارَا مَازَادَ فِي الْجَنَّةِ، كَمَا جَاءَ فِي كِتَابِ «إِيرَانَ فِي عَهْدِ السَّاسَانِيِّينَ» تَأَلَّفَ كَرِيْسْتَنْسَن، تَرْجُمَةُ دَكْتُورِ يَحْيَى الْخَشَّابِ.

منذ ١٤٠٩ إلى عام ١٤١٤، ولم يحتل إصفهان إلا عام ١٤١٢ حيث اتخذ منها موطن إقامته وشغل بتجميلها بالمباني الرائعة، ويقال إنه تزوج بإحدى بنات السلطان أحمد الجلايري، وكانت قد وقعت في الأسر بعد هزيمة السلطان بايزيد العثماني في موقعة أنقرة عام ١٤٠٢. وإذا كنا لم نجد مخطوطاً آخر غير ما سبق ذكره يقف جميع رؤسومه على المناظر الطبيعية الرائعة، فإننا نجد مع ذلك الاهتمام بتصوير الطبيعة واضحاً في صور ديواني شعر أعدا في شيراز لإسكندر خلال العامين ١٤١٠ و ١٤١١. وقد انضم إلى بلاطه أحد كبار خطاطي البلاط الجلايري في بغداد وهو «مولانا معروف». وكان مولعاً بالفن والشعر الفارسيين، بل لقد رعى إسكندر شاعراً ينظم بالتركية أيضاً هو «مير حيدر». والثابت أن أوضاع مدينة شيراز السياسية كانت مستقرة، ومن ثم استقرت حياتها الفنية فلم تكن منها الاضطرابات أو يصبها التوقف. وما زال لهما الديوانان محفوظين حتى اليوم، أحدهما في مؤسسة جولنكيان بليشيوته والآخر بالمتحف البريطاني. ومع أنهما يختلفان من ناحية الحجم والخط فإنهما يوحيان بأنهما من مدرسة واحدة من المصورين والمزخرفين. وكلاهما يضم منمنمات من أساليب متعددة تمثل في مجموعها جميع التلونات السائدة في العصر التيموري المبكر، وإن إتفقت جميعها في سمة واحدة هي عمق الإحساس بجمال الطبيعة.

ويعد الديوان المحفوظ بمؤسسة جولنكيان أقدم المخطوطتين، ويضم جزؤه الأول أربعاً وعشرين منمنمة، بينما يضم ثانيهما أربع عشرة منمنمة فقط وإن كانت أشد أصالة وبخاصة ما هو مرسوم منها على صفحتين متقابلتين. ونرى في المخطوطتين تطوراً هاماً في استخدام الألوان حيث ظهرت درجات مختلفة من اللون الذهبي.

ويقول الأستاذ بازيل جراي، إن الفنان قد ضحى ببعض القيم التشكيلية في سبيل العناصر الجمالية جزواً على إثراء الصورة، ويرى أن المنمنمة قد عدت مجرد نمط يفتقد النبض العاطفي، كما نشهد في منمنمة إسكندر يأمر داراب (لوحة ١٦٥ م) حيث يثير إطار الصورة المخشود بزخارف الرقش العربي «أرائيسك» الشعور بضعف الصورة وعدم أهميتها، وتنبئ متابغة صور الشخصوص بأسلوب المدرسة التيمورية في منتصف القرن الخامس عشر.

وفي تصواري أن إطار الصورة المذهب الذي لم يرق للأستاذ بازيل جراي وعزاه إلى ضعف الصورة، إن هو إلا لحن يرد برقشه الأخاذ على إيقاعات اللون الذهبي المتدرج داخلها. وقد اختار الفنان للحلبة التي تتوسط الصورة لوناً أزرق هفهاً رايماً يكاد يضيء، برقشه بأحجار مننائة بلون أزرق داكن في أسلوب

عليها الروح التركية، وهي وإن اشتملت على عناصر مقولة عن الفن الفارسي مثل شجر السرو والأشجار المزهرة إلا أن هناك الأشجار ذات الأوراق التي تشبه المراوح حمراء في لون المزجان، والكروم المتسلقة على شكل لولب، والعصافير التي تتوج الفروع، والهضاب ذات القمم المستديرة التي تحيط بها أشربة عريضة، فضلاً عن تكوين اللوحة الذي يضع الثبات في مستويات متدرجة، والألوان الهامسة الرقيقة التي تبرزها اللسمات الزاهية. وهذه كلها خواص ينفرد بها الأسلوب الفني للتصوير العثماني.

وهكذا يتأرجح مصدر هذه المنمنمات التاريخي والإقليمي بين رأي بينون وويلكنسون وبازيل جراي من جهة حيث ينسبونها إلى شيراز في أوائل القرن الخامس عشر، وبين الرأي الذي طلع به علينا شوكين في عام ١٩٦٦ حيث ينسبها إلى تركيا في النصف الثاني من القرن السادس عشر.

وفي رأيي أن القرن الخامس عشر قد هل على فارس وأهلها يعتنقون الإسلام منذ نصف وسنة قرون، فعاشت مبادئه وتقاليده في وجدانهم ثابتة متوارثة جيلاً بعد آخر. ولا شك أن القرآن الكريم وما ورد فيه من قصص وذكر للجنة والنار، وصور فنية بديعة زخر بها قد قرت في أئمة الناس ولا سيما المثقفين والفنانين منهم. فكيف نذهب بعيداً ونقول كما قال الدكتور محمد آغا أوغلر إن هذه المنمنمات من عمل أحد الرهبان المزدنيين؟ لم لا يكون ذلك الفنان المسلم سواء أكان فارسياً أم تركياً قد استوحى ببساطة آيات القرآن التي وردت فيها أوصاف الجنة وما أكثرها واستطاع أن يجسدها بخياله الزخرفي الخصب في هذه المنمنمات التي تصور روعة الخلق؟ فالأقرب إلى المنطق أن يكون ذلك الفنان ابن القرن الخامس عشر قد استلهم آيات من سورة الواقعة: ﴿وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون﴾، ﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مسكوب، وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة﴾؛ أو آيات من سورة الرحمن: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾، ﴿ذواتا أفنان﴾، ﴿فيهما عينان تجريان﴾، ﴿فيهما من كل فاكهة زوجان﴾، ﴿ومن دونهما جنتان﴾، ﴿مدهامتان﴾، ﴿فيهما عينان نضاختان﴾، ﴿فيهما فاكهة ونخل ورمان﴾؛ أو من سورة الكهف: ﴿أولئك لهم جئات عدن تجري من تحتهم الأنهار﴾؛ أو من كل ذلك معاً...

ديوانا الشعر المعدان لإسكندر

كان إسكندر بن عمر شيخ حفيد تيمورلنك حاكم إقليم فارس

فجعل أَرْبَعًا مِنْهُنَّ عَلَى الشَّاطِئِ وَأَرْبَعًا أُخْرَيَاتِ فِي الْمَاءِ.

لَقَدْ حَذَرَ الْمُصَوِّرُ «أَنْجَر» فِي الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ مِنْ اسْتِخْدَامِ التَّجْسِيمِ فِي الرُّوَايَا مُجَبَّدًا التَّجْسِيمِ الدَّائِرِيَّ. وَيَبْدُو أَنَّ رَسَامَ هَذِهِ اللُّوْحَةِ قَدْ فَطَنَ إِلَى هَذَا السَّرِّ قَبْلَ أَنْجَرٍ بِأَرْبَعَةِ قُرُونٍ فَلَمْ يَلْجَأْ فِي تَشْكِيلِهِ كُلِّهِ لِغَيْرِ الاسْتِدَارَاتِ. أَمَّا رَسْمُ مَلَامِيحِ الْوُجُوهِ فَيُطَالَعُنَا بِشَيْءٍ مِنَ الصَّرَامَةِ تُوحِي بِأَنَّهَا حِيَالٌ بِدَايَةِ أُسْلُوبٍ جَدِيدٍ عَدَا فِيمَا بَعْدَ الْأُسْلُوبِ التَّقْلِيدِيِّ فِي تَصْوِيرِ الْمَخْطُوطَاتِ الْفَارِسِيَّةِ.

وَجَاءَتْ مُنَمَّةُ بَهْرَامٍ جُورَ وَهُوَ يَزُورُ قَاعَةَ الصُّورِ السَّنْعِ عَمَلًا رَائِعًا عَلَى غِرَارِ أُسْلُوبِ الْمَدْرَسَةِ الْجَلَايِرِيَّةِ (لَوْحَةٌ ١٦٧ م). وَتَحْكِي قِصَّةَ الْمُنَمَّةِ أَنَّ الْمُجْتَمِعِينَ أَشَارُوا عَلَى الْمَلِكِ يَزْدَجَرِدَ بِأَنَّهُ يُوفِدُ ابْنَهُ بَهْرَامَ جُورَ إِلَى بِلَادِ الْعَرَبِ لِيَتَرَبَّيَ بَيْنَهُمْ، فَأَرْسَلَهُ إِلَى الثُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْذِرِ مَلِكِ الْحَبِيرَةِ. وَذَاتَ يَوْمٍ دَخَلَ بِهْرَامُ قَاعَةَ فِي قَصْرِ الْخُورَزْمِيِّ الَّذِي بَنَاهُ سَيْنَمَارٌ، فَوَجَدَ بِهَا صُورًا لِسَبْعِ فَتَيَاتٍ جَمِيلَاتٍ تَنْتَسِبُ كُلُّ مِئَةٍ إِلَى إِقْلِيمٍ مُعَيَّنٍ هُنَّ بَنَاتُ مُلُوكِ أَقَالِيمِ الْعَالَمِ السَّبْعَةِ وَهِيَ الْهِنْدُ وَالصِّينُ وَخَوَارِزْمُ وَبِلَادُ الصَّقَالِبَةِ وَالْمَغْرِبِ وَالرُّومِ وَالْفَرْسِ، وَتَكْتَسِي كُلُّ مِئَةٍ مِنْهُنَّ بِثَوْبٍ فِي لَوْنٍ الْقَبَّةِ الَّتِي تَعْلُو صُورَتِهَا. وَنُقِشَ بَيْنَ الصُّورِ مَا يُوحِي بِأَنَّهُ بِهْرَامُ سَيَعْقِدُ عَلَيْهِنَّ جَمِيعًا بَعْدَ أَنْ يَحْكُمَ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا.

وَقَدْ بَدَأَ الشَّكْلُ الْمِعْمَارِيُّ الدَّائِرِيُّ وَتَرْتِيبُ عَنَاصِرِهِ يَكَادُ يَتَوَقَّعُ مَعَ قَوَاعِدِ الْمُنْظُورِ، وَجَاءَتْ الْأَلْوَانُ الْمُتَنَوِّعَةُ فِي غَايَةِ التَّنَاسُقِ تُعَزِّزُ وَتُوَكِّدُ الْمَعْنَى الَّذِي أَرَادَ الْمُصَوِّرُ التَّعْبِيرَ عَنْهُ بِاسْتِخْدَامِ الْعُنْصُرِ الشَّكْلِيِّ.

مَخْطُوطَةٌ مَجْمُوعَةٌ أَشْعَارَ، ١٤٠٧ م

وَبِمُتَخَفِ طُوبِ قَاهِرَ سَرَايَ بِاسْتِئْثَالِ وَقَعْتُ عَلَى نَصِّ فَارِسِيٍّ يَضُمُّ مَجْمُوعَةً قَصَائِدَ لِعَدَدٍ مِنَ الشُّعْرَاءِ الْفَرْسِ تُسَيِّخُ عَامَ ١٤٠٧ بِمَدِينَةِ يَزْدَ قُرْبِ شِيرَازٍ يَضُمُّ سِتَّ عَشْرَةَ مُنَمَّةً رَائِعَةً تَأَلَّفَتْ مِنْ بَيْنِهَا لَوْحَةُ الْإِسْكَنْدَرِ فِي بِلَادِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ (لَوْحَةٌ ١٦٨ م) الَّتِي لَمْ يَسْبِقْ نُشْرُهَا. وَكَانَ الْإِسْكَنْدَرُ بَعْدَ أَنْ بَلَغَ بِلَادَ الصِّينِ قَدْ يَمَّمُ بِجَيْشِهِ صَوْبَ الشَّمَالِ مُخْتَرِقًا الصَّخْرَاءَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى أَرْضٍ غَاصَّةٍ بِالْفُضَّةِ لَمْ يَحْمِلْ مِنْهَا إِلَّا الْقَلِيلَ لِكَثْرَةِ مَا كَانَ يَحْمِلُ مِنَ اللَّذَبِ، وَوَأَصَلَ سَيْرَهُ حَتَّى صَادَفَ قَوْمًا مُتَدَيِّينَ يَعِيشُونَ فِي سُفُوحِ الْجِبَالِ، وَكَانُوا قَدْ اهْتَدَوْا إِلَى دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ مِنْ دُونِ وَسَاطَةِ أَنْبِيَاءٍ فَعَرَفُوا اللَّهَ عَنْ طَرِيقِ الْعَقْلِ. فَلَمَّا أَبْصَرُوا الْإِسْكَنْدَرَ قَبِلُوهُ نَبِيًّا وَتَزَوَّدُوا بِتَعَالِيمِهِ وَشَكُّوا لَهُ مِنْ شَرِّ قَبِيلَةٍ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ الَّذِينَ كَانُوا أَشْرَارًا بَطْنُهُمْ رُغْمَ أَنَّهُمْ آدَمِيُونَ، يُغَطِّي الشَّعْرَ أَجْسَامَهُمْ، وَلَهُمْ أَنْيَابُ كَأَنْيَابِ الْحَيَوَانِ الْمُفْتَرَسِ يَأْكُلُونَ الثِّبَاتَ وَيَعِيشُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا. وَاسْتَمَعَ الْإِسْكَنْدَرُ إِلَى شَكْوَاهُمْ ثُمَّ بَنَى لَهُمْ سَدًّا مَنِيعًا

مُتَنَاعِمٌ بَدِيعٌ. أَمَّا اللَّوْنُ الْأَحْمَرُ وَالْأَحْمَرُ الْمُذَهَّبُ فَقَدْ اخْتَارَ لَهُمَا الْفَنَّا مَوَاقِعَ وَدَرَجَاتٍ تُشْعِي نَعَمًا مُتَوَافِقًا. وَنَرَى صِدْقَ الْحَرَكَةِ وَجَمَالِهَا فِي الْمُنَمَّةِ بِخَاصَّةٍ فِي كَوْكَبَةِ الْفَرْسَانِ الْمُحَارِبِينَ فِي مُقَدِّمَةِ الصُّورَةِ وَالْمَجْمُوعَةِ الْأُخْرَى فِي خَلْفِيَّتِهَا، ثُمَّ الْوَسَامَةِ وَالرَّشَاقَةَ فِي حَرَكَةِ إِسْكَنْدَرَ وَتَابِعِهِ عَلَى جَوَادِيهِمَا. وَثَمَّةٌ مُلَاحَظَةٌ عَلَى جَانِبٍ كَبِيرٍ مِنَ الْأَهَمِّيَّةِ فِي حَرَكَةِ قَوَائِمِ الْخَيْلِ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ. فَحَتَّى الْقَرْنَ الثَّامِنَ عَشَرَ كَانَ الرَّسَامُونَ فِي الْعَرَبِ يُصَوِّرُونَ قَوَائِمَ الْخَيْلِ وَهِيَ تَعْدُو مَسْطُوعَةً كُلَّ السَّطِّ، حَتَّى إِنَّ الْمُصَوِّرَ الْفَرَنْسِيَّ جِيرِيكُو نَفْسَهُ حِينَ رَسَمَ حَلَبَةَ السَّبَاقِ وَقَعَ فِي الْخَطَأِ ذَاتِهِ. وَلَمْ يَتَبَيَّنْ الرَّسَامُونَ خَطَأَهُمْ إِلَّا بَعْدَ اكْتِشَافِ آلَةِ التَّصْوِيرِ. أَمَّا فِي هَذِهِ الْمُنَمَّةِ الْفَارِسِيَّةِ، ابْنَةُ الْقَرْنِ الْخَامِسِ عَشَرَ، فَإِنَّا نَلْحَظُ أَنَّ الرَّسَامَ قَدْ صَوَّرَ قَوَائِمَ الْخَيْلِ الْمُنْطَلِقَةِ بِأُسْلُوبٍ يَكَادُ يُحَاكِي مَا كَشَفَتْ عَنْهُ آلَةُ التَّصْوِيرِ ابْنَةُ الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ مِنْ أَنَّ قَوَائِمَ الْخَيْلِ تَبْدُو وَكَأَنَّهَا تَنْسَجِبُ عَلَى الْأَرْضِ فِي تَبَازُلٍ مُتَّصِلٍ.

وَتَمَّةٌ مُنَمَّةٌ أُخْرَى تَحْمِلُنَا شَاعِرِيَّتِهَا عَلَى أَجْنِحَةِ السَّحْرِ، تُصَوِّرُ إِسْكَنْدَرَ وَهُوَ يَسْتَرِقُ النَّظَرَ إِلَى الْحُورِيَّاتِ وَهُنَّ يَسْتَحْمِئْنَ فِي مِيَاهِ الْبَحِيرَةِ وَيَمْرَحْنَ عَلَى الشَّاطِئِ فِي بَرَاءَةٍ غَيْرِ مُدْرِكَاتٍ لِلنَّظَرَاتِ الْمُتَلَصِّصَةِ الَّتِي تَتَعَقَّبُهُنَّ فِي خَلْوَتِهِنَّ (لَوْحَةٌ ١٦٦ م).

وَهُنَا يَضْرِبُ الْفَنَّا بِالْأَلْوَانِ الْوَاقِعِيَّةِ عُرْضَ الْحَائِظِ مُسْتَلْهِمًا مَوْضُوعَهُ الْأُسْطُورِيَّ، فَاخْتَارَ أَلْوَانَهُ لِثَوَائِمِ ذَلِكَ الْخَيَالِ الْجَامِحِ فَكَانَ صَادِقًا مَعَ إِحْسَاسِهِ مُسَاقِرًا لِخَيَالِهِ، وَابْتَدَعَ أَلْوَانًا لَا تَخْطُرُ عَلَى بَالٍ، وَاسْتَخْدَمَهَا فِي حُدُودِ مَا أَلْفَهُ الرَّسَامُونَ. فَالْصُّخُورُ الْإِسْفَنْجِيَّةُ بِشَكْلِهَا الْمُتَوَاتِرِ لَوْنًا بِالْوَانِ خَافِتَةً مُتَعَدِّدَةً الدَّرَجَاتِ، هِيَ الْأَزْرَقُ وَالْأَخْضَرُ وَالْأَبْيَضُ الصَّارِبُ إِلَى الزَّرَقَةِ، فِي تَبَادُلٍ وَتَنَاعُمٍ. ثُمَّ أَهْرَازَ مِنْ خَلْفِهَا وَفِي رُكْنِ الصُّورَةِ الْعُلُويَّ الْأَيْمَنِ، رَأْسُ إِسْكَنْدَرَ وَتَابِعِهِ وَهُمَا يَسْتَرِقَانِ النَّظَرَ. وَلَوْ لَا تَاجُ إِسْكَنْدَرَ الذَّهَبِيِّ، وَثَوْبُهُ الْأَحْمَرُ، وَعِمَامَةُ النَّابِغِ الْبَيَاضِ بِدَرَّتِهَا الْحَمْرَاءُ الصَّغِيرَةُ، لَمَّا اسْتَطَعْنَا تَمْيِيزَهُمَا مِنْ بَيْنِ الصُّخُورِ. وَاخْتَارَ لِلشَّاطِئِ لَوْنًا بَنَفْسَجِيًّا هَامِسًا، وَلِلْبَحِيرَةِ لَوْنًا بُيَّيًّا فَرِيدًا، وَلِلسَّمَاءِ لَوْنًا أَزْرَقَ دَائِجًا يُوحِي بِاللَّيْلِ، وَتَنَرَّ فِيهَا نُجُومًا ذَهَبِيَّةً مَعَ أَنَّ اللُّوْحَةَ كُلَّهَا غَارِقَةٌ فِي ضَوْءِ النَّهَارِ، فَأُضَافَ اسْتِحَالَةُ أُخْرَى إِلَى الصُّورَةِ قَرَّتْ فِي خَيَالِهِ الشَّاعِرِيَّ. أَمَّا الْحُورِيَّاتُ فَقَدْ صَوَّرَهُنَّ أَقْرَبَ مَا يَكُنْ إِلَى الْآدَمِيَّاتِ، بِاسْتِثْنَاءِ زَعَانِفٍ نَبَتَتْ عِنْدَ مَرَاقِفِهِنَّ، وَأَلْبَسَهُنَّ أَزْرًا مُرَكَّشَةً تَجْمَعُ بَيْنَ اللَّوْنِ الْأَخْضَرِ الْفَاتِحِ وَالْبَيْتِيِّ الدَّائِكِ وَهِيَ مِنَ الْأَلْوَانِ الْمُسْتَحْدَمَةِ فِي الصُّورَةِ، وَأَطْلَقَ ضَمَائِرَهُنَّ عَلَى صُدُورِهِنَّ، وَلَعَلَّهُ اسْتَحْيَى مِنْ أَنْ يُبْرِزَ نُهُودَهُنَّ فَحَجَبَهَا خَلْفَ الصُّفَايِرِ. ثُمَّ وَزَّعَهُنَّ فِي أُسْلُوبٍ زَخْرَفِي لَطِيفٍ،

من الفولاذ لا يتحطم إلى يوم القيامة.

الخامس: «تأتمر وتشاو... فلو أن الطير كلها بادت وفقد الطاووس والبط والحمام والكركي لما اضطرتهم إلى تملك اليوم أفتح الطير منظرًا وأسوأها مخبرًا وأقلها عقولًا وأشدّها غصباً وأبعدها رحمة، مع الذي بها من الآفة والعشى بالهّار، ومن أشّر أمورها سوء تدبيرها. ولا يطيق طائر أن يقرب منه لصلفه وخبث ثننه وسوء خلقه. فإن من شأن اليوم الخبّ والخديعة، وشّر الملوك المخادع. فلا يكون تملك اليوم من رأيكم». وتشكل ألوان هذه المُنمّنة تكوينًا فنيًا رائعًا يتجلى فيه التناسق الجريء المُلهم إلى حدّ الإعجاز، كما أن مهارة الرّسم هي التي تميّز هذا المخطوط عمّا عده من مخطوطات بداية القرن الخامس عشر.

شاه رخ:

كانت هراة عاصمة خراسان ومقرّ شاه رخ عاهل الأسرة التيمورية بعد وفاة مؤسسها وراعي أمراء هذا الفرع التيموري حتى وفاته عام ١٤٤٧. وظفر شاه رخ بالزعامة على بقية أعضاء أسرته عام ١٤٠٩، حين ارتحل لكي يقيم بعاصمة ملك والده على الضفة الأخرى من نهر جيحون وسط منطقة لا تتحدث غير التركية تقريبًا، فقد كان يُجسّ بالانتماء إلى سمرقند - عاصمة أبيه - أكثر من إحساسه بالانتماء إلى فارس وهو في شيراز أو اصفهان اللّتين كان يحكُمهما أبناء أشقائه. وبعد وفاة والده انتقل إلى هراة حيث أنفق البقية الباقية من عمره بعد أن خفّت صوّت معاركه الحربية. وحكم شاه رخ هراة منذ عام ١٣٩٧، بعد أن اصطحب معه بعض الفنّانين والجرفيين الذين كان تيمورلنك قد نقلهم منها إلى سمرقند. وقد اختلفت شخصيته تمامًا عن شخصيته والده، فقد كان مولعًا بالعلوم والفنون يزعمهما مع التزامه الصّارم بتعاليم الشريعة الإسلامية. وكان يتجنّب حفلات الشّراب الماجنة التي أغرق فيها أقاربه، بل لقد ذهب به الأمر إلى حدّ جمع الخُمور من دور هراة بما فيها دار ابنه «جوكي» وإراقها في الطُّرقات. ودفعته هذه الصّرامة إلى تكليف المؤلّفين بإصدار كُتب بثناء ترتفع بمستوى المُجتمع بدلًا من كُتب الشّعْر أو القصص. غير أنّنا لو ألّقينا نظرة على المخطوطات الباقية من عهده لتبيّن لنا أنّه لم ينجح في اجتذاب أفضل الفنّانين من مرقني الكُتب سواء في مكتبته بهراة أم في غيرها. ومع ذلك فقد كان يتسّط رعايته على رجال العلم وبخاصّة على المؤرّخين مثل «عبد الرّازق» و«حافظ أبرو».

ويبدو أنّ يد شاه رخ لم تكن ميسّطة كلّ البسّط في الإنفاق على مكتبته، الأمر الذي يفسّر تلك المخطوطات التي لم يتمّ، والتسرّع الملحوظ في الأعمال الهابطة القيمة في عهده. فإذا كان

ويُلفتنا إلى هذه المُنمّنة كلا العنصرين التّشكيليّ والجماليّ إذ هما متوازيان متكافيان يُؤدّيان وظيفتَيْهما في التّعبير عن القِصّة المراد تصوّيرها أروع أداء، فنرى الإسكندر فوق صهوة جواده في مُقدّمة الصّورة يُشرف على بناء السّد، ومن ورائه تابع على جواده يرفع المِظلة - التي يعلوها صقر - ليظّل بها رأس الإسكندر. ويقف في حضّرتة القائد الذي يُباشر مهمّة التّشييد، تفصل بينهما شجرة مشمس معروقة زُيّت أطرافها بزُهور أو ثمار فضيّة. وخلف القائد شجرة دُلب خضراء بدبعة زرقاء الساق وحولها من أسفل زُهور برّية بدبعة حمراء. وثمة خلفيّة بنفسجيّة لجبل ذي حواف على شكل الشّعاب المَرجانيّة التّقليديّة. وبدا العَمال في مُنتصف الصّورة مُهمّكين في إقامة السّد الفاصل الأزرق اللّون بين القوم المؤمنين وبِلاد يأجوج ومأجوج. وفي أعلى الصّورة فوق حدود بِلادهم البنية اللّون وأمام أفق دِهِيّ وقَف شُعب يأجوج ومأجوج المُتوحّش يرقب ما يجري تحت أبصارهم مُندهشين.

لقد حشد الفنّان السّطح المُستطيل المُتاح له يَناصره التّشكيليّة في نظام دَقِيق لا تُخطئه العين ولا تَمَلّه، فما تكاد تنتهي العين من مُشاهدة تفاصيل الصّورة ومراحل الحَدَث حتّى تُعاود من جديد التطلع إليها بِشَغَف أكبر مُشدودة إلى عُذوبة الألوان وِرْقَتِها وتَنوُّعها الجَذاب. وعلى حين تَطغى الخطوط الأفقيّة على النّصف العلويّ من المُنمّنة يأتي المُشهد الطّبيعيّ مُلطفًا من رتابتها مع الحافة المُعَرّة للجبل التي تكشف عن الأحداث التي تدور من ورائها. ولم يترك المُصوّر مساحة فارغة - على ما عهدنا في فنّاني شيراز - من دون أن يشغلها بما يستلِب الأَبصار. وما من شك في أنّ هذه المُنمّنة ونظائرها في هذه المخطوطة تُعدّ من أولى زوائج العَهد التيموريّ.

كَليلة ودُمّنة، مَكْتَبَة طوب قابو بِاسْتَنْبُول، ١٤٣٠ م

وفي مخطوطة كَليلة ودُمّنة المحفوظة بمكتبة طوب قابو بِاسْتَنْبُول، وهي واحدة من أجمل أعمال التّصوير التيمورية، تَلَفّتنا الدّقة في تصوّير الطّير، وهو ما كتب لها الشّهرة. وفي مُنمّنة «لا تملّكوا اليوم عليكم فإنّه أفتح الطّير» (لوحة ١٦٩ م) تتجلى حكمة الغراب. وكان ملك اليوم قد خرّج ذات ليلة على رأس ألف من أتباعه فوقعوا على الغُربان وأعملوا فيهم القتل والجرح. وما إن علم ملك الغُربان بذلك حتّى جمّع أهل الرّأي وشاوَرهم في الأمر. فنصح الأوّل بالهَرَب والتّباعُد، ونصح الثّاني بِقتال البوم، ونصح الثّالث بالصلح أو الفديّة، ونصح الرّابع بالهجرة والجلّاء بدلًا من الخُضوع للعدوّ، وقال الغُراب

بباريس، والذي يَضُمُّ صُورًا رائعة وليس فيه من آثار رشيد الدين إلا أَقلُّها وإن اُحتفظت بِالْوُضُوح نَفْسُهُ فِي تَرْتِيبِ الْأَشْخَاصِ، وبِالْأَلْوَانِ الْمُشْرِقَةِ الَّتِي كَانَتْ تُمَيِّزُ مُنَمَّنَاتِ هَرَاةِ الَّتِي أُجْزِزَتْ لِشَاهِ رُخَ عَامِ ١٤٢٥. وَتُمَيِّزُ مُنَمَّنَاتِهِ بِالْأَصْبَاغِ الْجَيِّدَةِ وَاسْتِخْدَامِ الذَّهَبِ بِسَخَاءٍ، وَهُوَ مَا يُوحِي بِأَنَّهَا قَدْ أُجْزِزَتْ فِي الْعَاصِمَةِ لَا فِي الْأَقَالِيمِ. وَلَعَلَّهُ مِنَ الْأَرْجَحِ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْمُجْلَدُ قَدْ اسْتُكْمِلَ بَعْدَ عَشْرِ أَوْ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً مِنْ تَارِيخِ ظُهُورِ الْإِتِّجَاهِ نَحْوِ التَّمَاثُلِ وَالتَّنَاسُقِ الَّذِي شَاعَ فِي حَوَالِي مُتَنَصِّفِ الْقَرْنِ.

وَلَقَدْ اِثْنَقَيْتُ سِتَّ مُنَمَّنَاتٍ مِنْ بَيْنِ مَا حَفَلَ بِهِ هَذَا الْمَخْطُوطُ، تُمَثِّلُ إِحْدَاهَا (لَوْحَةٌ ١٦٣) جُنْكِيَزْخَانَ جَالِسًا عَلَى عَرْشِهِ الْمُزَيْنِ بِخُمْسَةِ طُيُورٍ، وَثَمَّةٌ حِرَابٍ سِتَّ مُشْرَعَةً تَتَدَلَّى مِنْهَا ذُبُولُ خَيْلٍ، وَحَوْلَ الْعَرْشِ يَصْطَفُّ عَدَدٌ مِنَ الْخَدَمِ وَالْحُرَّاسِ. وَفِي صَدْرِ الصُّورَةِ مِنْصَدَةٌ عَلَيْهَا أَوَانٍ لِلشَّرَابِ، وَخَادِمٌ يَحْمِلُ عَلَى يَدِهِ صَحِيفَةً يَتَوَسَّطُهَا فِتْجَانٌ وَقَدْ اتَّجَهَ إِلَى يَمِينِ الصُّورَةِ. وَفِي الْمُنَمَّنَةِ التَّالِيَةِ (لَوْحَةٌ ١٦٤) نَشْهَدُ جُنْكِيَزْخَانَ وَقَدْ اغْتَلَى مِنْبَرٌ مَسْجِدٌ بُخَارِي وَسَاقٍ إِلَيْهِ جُنُودُهُ أَسِيرِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَتُصَوِّرُ الْمُنَمَّنَةُ الثَّلَاثَةَ (لَوْحَةٌ ١٦٥) مَضْرِبًا لِخِيَامِ الْمَغُولِ، وَقَدْ تَوَلَّى بَعْضُهُمْ مِهْمَةَ الْإِشْرَافِ عَلَى «سَلْقِ» الْأَسْرَى رَأْسًا عَلَى عَقَبٍ فِي قُدُورٍ تَغْلِي فَوْقَ النَّيْرَانِ. وَنَشْهَدُ فِي الْمُنَمَّنَةِ الرَّابِعَةِ (لَوْحَةٌ ١٦٦) هَوْلَاكَوَ وَإِلَى جِوَارِهِ زَوْجَتَهُ فِي مَجْلِسِ أُنْسٍ وَطَرَبٍ. وَتُصَوِّرُ خَامِسَ الْمُنَمَّنَاتِ (لَوْحَةٌ ١٦٧) - وَتَسْتَغْرِقُ صَحِيفَتَيْنِ مُتَقَابِلَتَيْنِ - حِصَارَ هَوْلَاكَوَ لِمَدِينَةِ بَغْدَادَ، وَتَرَى أَسْوَارَ الْمَدِينَةِ وَأَبْرَاجَهَا وَأَبْوَابَهَا الْمَوْصَدَةَ. وَحَوْلَ السُّورِ يُسَكِّرُ جُنْدٌ هَوْلَاكَوَ وَقَدْ نَصَبُوا الْمَجَانِيقَ وَهُمْ فِي حَرَكَةِ نَشِيطَةٍ دَائِبَةٍ مَا يَبَيِّنُ رَاكِبٍ وَرَاجِلٍ، يَتَأَقَّبُونَ لِمُهَاجِمَةِ الْمَدِينَةِ. وَخَلْفَ الْأَسْوَارِ نَشَاهِدُ أَهْلَ بَغْدَادَ وَقَدْ أَصَابَهُمُ الذُّعْرُ، مُنْكَوِشِينَ يَتَطَلَّعُونَ إِلَى مَا يَجْرِي مِنْ خَلْفِ التَّوَائِفِ وَبِخَاصَّةٍ نِسَاؤُهُمْ يَبْنِيَا يَحْتَمِي جُنُودَهُمْ خَلْفَ الْأَسْوَارِ. وَلَمْ يَفُتْ الْمُصَوِّرُ رَسْمَ بَعْضِ طُيُورِ الْمَدِينَةِ وَكَأَنَّ الرُّعْبَ قَدْ دَبَّ إِلَى حَرَكَتِهَا وَأَجْسَادِهَا كَذَلِكَ. وَتُوضِحُ آخِرُ هَذِهِ الْمُنَمَّنَاتِ (لَوْحَةٌ ١٦٨) فُزْسَانَ هَوْلَاكَوَ وَقَدْ قَتَلُوا أَسْرَاهُمْ بِحَيْلٍ وَأَخَذُوا يَجْدُبُونَهُمْ بِهِ وَيَسُوقُونَهُمْ سَوْقًا إِلَى مَصِيرِهِمُ الْأَلِيمِ. وَأَجْمَلُ مَا فِي هَذِهِ الْمُنَمَّنَةِ هِيَ مَهَارَةُ التَّعْبِيرِ عَنِ الْحَرَكَةِ وَبِخَاصَّةٍ حَرَكَةَ الْخَيْلِ.

وَكَانَتِ التُّرْكِيَّةُ هِيَ اللُّغَةُ الَّتِي يَتَحَدَّثُ بِهَا شَاهُ رُخَ وَالْأَمْرَاءُ التَّيْمُورِيُّونَ فِي حَيَاتِهِمُ الْخَاصَّةِ وَلِهَذَا فَقَدْ نَسَبَ بَعْضُ الْمُؤَرِّخِينَ هَذَا الْمَخْطُوطَ إِلَى زَوَائِعِ الْفَنِّ التُّرْكِيِّ. غَيْرَ أَنَّ بَازِيلَ جَرَايَ لَا يُسَاطِرُ هَذَا الرَّأْيَ وَإِنَّمَا يُؤَيِّدُ عَكْسَهُ وَهُوَ اِئْتِمَاؤُهُ إِلَى الْمَسَارِ الرَّئِيسِيِّ لِتَطَوُّرِ فَنِّ تَصْوِيرِ الْمُنَمَّنَاتِ الْفَارِسِيِّ. وَالَّذِي لَا زَيْبَ فِيهِ أَنْ

«تَكُونِهَا الْفَنِّيَّةُ» مَقْبُولًا، إِلَّا أَنَّ التَّنْفِذَ لَمْ يَزَقْ إِلَى مُسْتَوَى الْإِتْقَانِ، كَمَا جَاءَتْ الْأَلْوَانُ غَيْرَ وَاضِحَةٍ، وَأَحْجَامُ الشُّخُوصِ كَبِيرَةٌ فِي غَيْرِ تَنَاسُبٍ، وَالْأَصْبَاغُ بَاهِتَةٌ عَلَى التَّقْيِضِ مِنَ الصَّفَلِ الْمَعْدِنِيِّ الْمُتَالِقِ لِلتَّمَاثُلِ الْتَّيْمُورِيِّ الرَّفِيعَةِ.

ديوان «كُلِّيَّاتِ حَافِظ» لِحَافِظِ أَبْرُو، بِدَايَةِ الْقَرْنِ الْخَامِسِ عَشَرَ

ثَمَّةٌ مَخْطُوطَةٌ عَنِ التَّارِيخِ كَتَبَهَا حَافِظُ أَبْرُو لِشَاهِ رُخَ بِمَكْتَبَةِ مُتَحَفِ طُوبِ قَاپُو سَرَايَ بِإِسْتَنْبُولَ تَضُمُّ عَدَدًا مِنَ اللَّوْحَاتِ الْمُصَوَّرَةِ نَعْرُضُ مِنْهَا مُنَمَّنَةً «غَزُو خَيْبَرٍ وَقَلْعَتِهَا» (لَوْحَةٌ ١٧٠ م). نَرَى فِي هَذِهِ اللَّوْحَةِ قَائِدَ الْحَمْلَةِ وَهُوَ يَخْلَعُ مَعَ اثْنَيْنِ مِنْ أَتْبَاعِهِ بَابَ الْقَلْعَةِ يَتَنَمَّا يَقَاوِمُهُ اثْنَانِ مِنْ جَيْشِ الْيَهُودِ فَوْقَ سُورِ الْقَلْعَةِ، وَيَبْدُو جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ فِي أَعْلَى اللَّوْحَةِ. وَتَبَيَّنَ سِمَاتُ الْعَصْرِ التَّيْمُورِيِّ الْمُبَكَّرِ كَرُسُومُ الْمَبَانِي وَالْقِلَاعِ وَالْأَبْرَاجِ الْمُنِيَّةِ بِالْقَرْمِيدِ الْوَرْدِيِّ وَالْأَحْمَرِ وَالْأَخْضَرِ وَالبَيْيِّ وَالبُرْتُقَالِيِّ وَزَخَارِفِ الْقَاشَانِيِّ الرَّزْقَاءِ ذَاتِ الثَّقُوشِ. وَاسْتُخْدِمَ الْمُصَوِّرُ الْأَشْكَالَ الْهَنْدَسِيَّةَ الْبَسِيطَةَ لِلتَّعْبِيرِ عَنْ عَنَاصِرِ تَكْوِينِهِ، كَبُرْجِ الْقَلْعَةِ الْأُسْطُوَانِيِّ وَالْخَنْدَقِ الْمَائِيِّ الدَّائِرِيِّ الْمُحِيطِ بِالْقَلْعَةِ، كَمَا اسْتُخْدِمَ الْمُكْعَبُ فِي تَصْوِيرِ بُيُوتِ خَيْبَرٍ، وَهُوَ مَا قَدْ يُوْحِي بِالْعُمُقِ فِي التَّصْوِيرِ ذِي الْبُعْدَيْنِ.

جامع التَّوَارِيخِ، ١٤٢٥

وَأَمْرُ شَاهِ رُخَ بِالْبَحْثِ عَنِ الْمَخْطُوطَاتِ الْقَلِيلَةِ الْبَاقِيَةِ مِنْ كِتَابِ «جَامِعِ التَّوَارِيخِ» لِرَشِيدِ الدِّينِ فِي مُحَاوَلَةٍ لِتَحْقِيقِهِ وَحِفْظِهِ مِنَ الضَّيَاعِ. وَيَبْدُو أَنَّ الْمَجْمُوعَةَ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ فِي مَكْتَبَتِهِ وَتَحْتَ إِمْرَتِهِ قَدْ عَكُفَتْ عَلَى تَحْقِيقِ رَغْبَتِهِ الَّتِي تَتَطَلَّبُ دِقَّةَ الشُّنْخِ وَسُرْعَةَ التَّنْفِذِ مِنْ دُونِ اِئْتِكَارٍ أَوْ إِجَادَةٍ.

وَقَدْ بَقِيَتْ ثَلَاثُ مَخْطُوطَاتٍ مِنْ كِتَابِ «جَامِعِ التَّوَارِيخِ» تَحْمِلُ خَاتِمَ مَكْتَبَةِ شَاهِ رُخَ، مِنْهَا ذَلِكَ الْجُزْءُ مِنَ الْمَخْطُوطِ الْمَحْفُوظِ الْآنَ بِالْمُتَحَفِ الْبَرِيطَانِيِّ وَكَانَ مِنْ قَبْلِ الْجَمْعِيَّةِ الْأَسِيوِيَّةِ الْمَلِكِيَّةِ، وَكَذَلِكَ جُزْءٌ مِنَ الْمَخْطُوطِ الْآخَرِ الْمَحْفُوظِ بِمَكْتَبَةِ طُوبِ قَاپُو سَرَايَ وَلَهُ أَهَمِّيَّةٌ خَاصَّةٌ، ذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ أَضْيَفَتْ إِلَيْهِ فِي عَهْدِ شَاهِ رُخَ مُنَمَّنَاتٌ جَدِيدَةٌ فِي مَوَاضِعٍ لَمْ تَكُنْ بِهَا تَصَاوِيرُ فِي الْمَخْطُوطِ الْأَصْلِيِّ الَّذِي أَنْجَزَهُ مَرْسَمُ الرَّشِيدِيَّةِ [أَنْظَرِ جَامِعَ التَّوَارِيخِ ١٣١٠ م، لَوْحَاتٍ مِنْ ١٤٣ إِلَى ١٤٧].

عَلَى أَنَّ مَدْرَسَةَ هَرَاةِ هَذِهِ لَمْ تَرْتَفِعْ كَثِيرًا فِي مُسْتَوَى صُورِهَا عَنْ مُسْتَوَى التَّصْوِيرِ الْمَعْتَادِ، وَلَعَلَّ أَشْهُرَ مَخْطُوطٍ يَنْتَمِي إِلَيْهَا هُوَ ذَلِكَ الْمُجْلَدُ مِنْ «جَامِعِ التَّوَارِيخِ» الْمَحْفُوظِ بِدَارِ الْكُتُبِ الْقَوْمِيَّةِ

على نسخة من مخطوطة «خسرو وشيرين» في عام ١٤٢١ محفوظة حتى اليوم بأكاديمية العلوم بسان بطرسبرج. وفي عام ١٤٢٧ نسخ خَطَّاط كبير آخر هو مُحَمَّد حُسام - المُلَقَّب بِشَمْس الدِّين والذي عَلَّمَ بايسنقر فنَّ تَحْسِين الخَطِّ - كِتَابَيْنِ صَغِيرَيْن لِمَوْلَاهُ هُما «دِيوان شعري» و«جُلستان» لِسَعْدِي، وهُما عَمَلَانِ عَظِيمَانِ لِرِوْعَةِ خَطَّاهُما وَصُورَهُما وَأَلْوَانَهُما. وَيَتَضَمَّنُ جُلستان لِسَعْدِي ثَمَانِي مُنَمَّاتٍ فِي تَكْوِينَاتِهَا التَّصَوُّيَّةِ بِسَاطَةِ وَرْقَةٍ، كَمَا تَتَمَيَّزُ بِمُسْتَوِيَّاتِهَا المُسَطَّحَةِ وَإِنِّعَاءَاتِ أَفَاقِهَا المُتَمَدِّدَةِ. وَتَتَضَيِّحُ الوُشَايِجُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَخْطُوطَاتِ الْجَلَاتِيَّيْنِ فِي طُغْيَانِ بَعْضِ صُورِهَا عَلَى هَوَامِشِ الصَّفَحَاتِ، غَيْرَ أَنَّ مَا يَهَبُ مُنْجَزَاتٍ مَرَّسَمٍ بايسنقر الأُولَى مَكَانَةَ فَرِيدَةٍ هُوَ جَمَالُ أَلْوَانِهَا لَا سِيَمَا الحَمْرَاءِ مِنْهَا وَالبُزْنَغِيَّةِ الرَّقِيقَةِ الوَهْجِ. ثُمَّ ظَهَرَ السَّمَاءُ الذَّهَبِيَّةُ الَّتِي تَشْغُلُ أَحَدَ أَرْكَانِ الصُّورَةِ وَالتِّي تُتَوَّجُ بِرُجَا أَوْ مَيِّ وَرِدِي اللَّوْنِ أَحْيَانًا، أَوْ تُوازِنُ بَيْنَ طَائِرَيْنِ أَوْ بَعْضِ الأشْجَارِ المُزْهِرَةِ، وَهِيَ الظَّاهِرَةُ الَّتِي شَاعَتْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي التَّصَوُّيرِ التَّيْمُورِيِّ وَإِنَّ لَمْ يَجْرَ تَنْفِيدُهَا بِمِثْلِ هَذَا الصَّفَاءِ وَالثَّقَاءِ، مِثَالُ ذَلِكَ مُنَمَّةُ الوَازِرِ الدَّرُوشِ يُحَاوِرُ المَلِكَ (لَوْحَةٌ ١٧١ م).

وَتَرَوِي قِصَّةَ المُنَمَّةِ أَنَّ مَلِكًا ضَاقَ بِوَزِيرٍ لَهُ فَعَزَلَهُ، فَانْخَرَطَ الوَازِرُ فِي زُمْرَةِ الدَّرَاوِشِ عَلَةً يَتَعَزَّى عَنْ جَاهِهِ الَّذِي زَالَ، غَيْرَ أَنَّهُ مَا لَبِثَ أَنْ آمَنَ بِحُجَّتِهِمْ وَصَارَ وَاحِدًا مِنْهُمْ عَنْ اقْتِنَاعٍ وَإِيمَانٍ. وَذَاتَ يَوْمٍ، رَاجَعَ المَلِكُ نَفْسَهُ وَرَأَى أَنَّهُ قَدْ خَسِرَ وَزِيرًا كَفًّا، فَأَرْسَلَ فِي طَلَبِهِ لِیَسْتَرْضِيهِ، غَيْرَ أَنَّ الوَازِرَ اعْتَذَرَ عَنْ قُبُولِ المَنْصِبِ، قَائِلًا بِلُغَةِ الدَّرَاوِشِ «الاعْتَزَالُ خَيْرٌ مِنَ الاِشْتِغَالِ». وَحِينَ أَصَرَ المَلِكُ عَلَى حَاجَتِهِ إِلَى رَجُلٍ عَاقِلٍ يُعَاوَنُهُ فِي تَدْبِيرِ أُمُورِ مَمْلَكَتِهِ، أَجَابَهُ بِأَنَّ آيَةَ العَقْلِ أَلَّا يُضْنِيَ المَرْءَ نَفْسَهُ بِمِثْلِ تِلْكَ الأَعْمَالِ. فَقَدْ آمَنَ بِوُجُوبِ الحَذَرِ مِنْ تَلَوُّنِ طِبَاعِ المُلُوكِ، وَبِالمَثَلِ القَائِلِ إِنَّ نَدِيمَ السُّلْطَانِ «تَارَةً قَدْ يَجِدُ الذَّهَبَ وَتَارَةً يُصِيبُ رَأْسَهُ العَطَبَ». وَبَيِّنُ مِنْ هَذِهِ النَّمِنَةِ أَنَّ التَّكْوِينَ الفَنِّيَّ قَدْ عَدَا أَكْثَرَ بِسَاطَةً عَمَّا كَانَ فِي مَطْلَعِ القَرْنِ، كَمَا حَلَّتِ الوَظِيفَةُ التَّعْبِيرِيَّةُ لِلأَلْوَانِ مَحَلَّ رَمْزِيَّةِ الأَسْوَارِ المُحِيطَةِ بِالحَدَائِقِ، وَاتَّسَعَتْ الأَبْوَابُ وَالتَّوَاغُفُ لِزِيَادَةِ الرُّبُطِ بَيْنَ دَاخِلِ القَصْرِ وَخَارِجِهِ، كَمَا أَعَانَ القَصْدُ فِي اسْتِخْدَامِ وَسَائِلِ التَّعْبِيرِ عَلَى إِبْرَازِ المَعْنَى المُرَادِ بِكُلِّ حَرَكَةٍ.

وَقَدْ تَطَلَّعَتِ الفُنُونُ لِكَيْ تَزْدَهَرَ إِلَى جَمَابَةِ رُعَاةِ الفَنِّ مِنْ الأُمَرَاءِ، وَكَانَ أَهْمُهُمْ إِسْكَندَرُ سُلْطَانُ بْنُ عُمَرَ شَيْخٍ فِي شِيرَازَ، ثُمَّ ابْنُ عَمِّهِ بايسنقر ميرزا بْنُ شاه رُخٍ فِي هَرَاةَ، وَهُمَا حَفِيدَا تَيْمُورلَنك. وَاسْتَعْرِقَتْ وَلايَةُ إِسْكَندَرٍ وَقَفًّا قَصِيرًا مِنْ عام ١٤٠٨ حَتَّى ١٤١٤، عَلَى حِينِ اسْتَعْرِقَتْ وَلايَةُ بايسنقر مِنْ عام ١٤٢٠ حَتَّى ١٤٢٣. إِلَّا أَنَّهُ عَاشَ فِي عَاصِمَةِ أَبِيهِ شاه رُخٍ فِي أَوَجِ سُلْطَانِ

التَّيْمُورِيِّيْنَ قَدْ أَشْهَمُوا بِنَصَبِ وَافِرٍ فِيهِ بِفَضْلِ رِعَايَتِهِمْ لَهُ وَمُسَانَدَتِهِمُ لِلثَّقَافَةِ الفَارِسِيَّةِ. وَلَا شَكَّ أَنَّ الفُرْسَ كَانُوا يَعْدُونَ التَّيْمُورِيِّيْنَ حُكَّامًا أَجَانِبَ، غَيْرَ أَنَّ الثَّقَافَةَ الفَارِسِيَّةَ فِي مُسْتَهْلِ القَرْنِ الخَامِسِ عَشَرَ نَجَحَتْ - كَمَا قَالَ چَان أَوِيَانِ بِحَقِّ - فِي تَغْيِيرِ ذَوْقِ العُرَاةِ وَإِخْضَاعِهِمْ لِمُؤَثَّرَاتِهَا، وَإِنْ ظَلَّتْ عَاجِزَةً عَنْ التَّنَاقُضِ إِلَى خُلُقِهِمْ وَرُوحِهِمْ، فَلَمْ يَلْعَبْ حُبُّهُمْ لِلْفُنُونِ وَالأَدَابِ الفَارِسِيَّةِ دَوْرًا فِي الحَدِّ مِنْ صِرَاعِهِمْ عَلَى السُّلْطَةِ وَلَا فِي بَثِّ الثَّقَّةِ بَيْنَ بَعْضِهِمْ وَبَعْضٍ.

وَقَدْ عَانَى الفُرْسُ مِنْ بَعْضِ الجَوَانِبِ تَحْتَ حُكْمِ التَّيْمُورِيِّيْنَ أَكْثَرَ مِمَّا عَانُوا خِلَالَ حُكْمِ الإِيلْخاناتِ، إِذْ تَرَكَّزَتِ السُّلْطَةُ فِي أَيْدِي الأُمَرَاءِ الأَتْرَاقِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ فِي أَيْدِي وَزَرَاءِ مِنَ الفُرْسِ، غَيْرَ أَنَّ مُعْظَمَ هَؤُلَاءِ الأُمَرَاءِ كَانُوا يَزْهَوْنَ وَيَتَمَسَّكُونَ بِإِبْرَازِ دَوْرِهِمْ كَحُكَّامٍ مُتَقِينٍ. وَكَانَ كُلُّ مَنْ بايسنقر وإِبْرَاهِيمَ، وَلَدَيْ شَاه رُخٍ، مُوَلَّعًا بِالأَدَبِ الفَارِسِيِّ وَلُغًا عَمِيقًا، وَكَانَ أَخُوهُمَا الأَكْبَرُ أُولُوعًا بِكَ أَدِيبًا وَاسِعِ الثَّقَافَةِ، وَقَدْ أَعَانَ عَلَى إِنْجَازِ عَدَدٍ مِنَ الدِّرَاسَاتِ العِلْمِيَّةِ فِي الهَنْدَسَةِ وَالفَلَكِ وَالمُوسِيقَى. وَكَانَ بايسنقر نَفْسَهُ خَطَّاطًا مُجَوِّدًا فَأَمَرَ بِإِعْدَادِ نُسخَةٍ جَدِيدَةٍ مِنَ الشَّاهَنَامَةِ، وَتَبَادُلَ مَعَ إِبْرَاهِيمَ عَدَدًا مِنَ الرِّسَالِ الهَامَّةِ حَوْلَ المَوْضُوعَاتِ الأَدِيبَةِ. وَكَانَ هَؤُلَاءِ الأَخُوَّةُ الثَّلَاثَةُ مُوَلَّعِينَ بِالأَعْيَادِ وَالحَفَلَاتِ المُوسِيقِيَّةِ عَلَى تَقْيِضِ أَبِيهِمْ. وَمِنْ هُنَا فَقَدْ كَانَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ تَكُونَ الأَعْمَالُ الَّتِي أُنْجِزَتْ بِهَرَاةَ فِي عَهْدِهِمْ مُخْتَلِفَةً فِي سِمَاتِهَا عَنْ تِلْكَ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي ظِلِّ وَالِدِهِمْ.

وَفِي ذَلِكَ العَصْرِ الَّذِي سَبَّطَرَتْ فِيهِ أَسْرَةُ وَاحِدَةٍ عَلَى كُلِّ المُدُنِ الكُبْرَى فِي فَارِسَ، تَحْقِيقًا لِسِيَاسَةِ تَيْمُورلَنكِ الَّتِي قَضَتْ بِتَغْيِينِ أَغْضَاءِ أَسْرَتِهِ حُكَّامًا لِلأَقَالِيمِ، كَانَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَتَّصِلَ التَّبَادُلُ بَيْنَ المُدُنِ المُخْتَلِفَةِ بِالنَّسْبَةِ لِلِجُورْفِيَّيْنِ وَالفَنَّانَيْنِ بِمَا فِي ذَلِكَ مُرَقَّنِي الكُتُبِ. وَكُلَّمَا بَنِيَ الفَنَّانُ كَثْرَ تَنَقُّلُهُ وَتَرَحُّالُهُ حَتَّى كَادَتْ أَنْ تَزُولَ الفَوَارِقُ بَيْنَ مَخْطُوطَةٍ لِحَاكِمٍ صُوِّرَتْ فِي هَرَاةَ وَأُخْرَى مُصَوَّرَةٍ فِي شِيرَازَ، عَلَى حِينِ بَقِيَ الفَنَّانُ المَحْدُودُ المَهَارَةَ فِي مَوْطِنِهِ يُنْتِجُ أَعْمَالًا ذاتِ مِسْخَةٍ مَحَلِّيَّةٍ.

مَكْتَبَةُ بايسنقر وَكِتَابُ «جُلستان» لِسَعْدِي، ١٤٢٧ م

أَسَّسَ بايسنقر - الابْنُ الخَامِسُ لِشَاه رُخٍ - مَكْتَبَتَهُ عام ١٤٢٠، وَهُوَ العامُ الَّذِي رَحَلَ فِيهِ عَلَى رَأْسِ قُوَّةٍ مِنْ جَيْشِهِ لِاسْتِعَادَةِ ثَبَرِيزَ مِنْ أَيْدِي التُّرْكَمَانِ، وَقَدْ عَادَ مِنْ هَذِهِ الحَمَلَةِ مُصْطَاحِبًا مَعَهُ الفَنَّانُ جَعْفَرُ الَّذِي تَتَلَمَّذَ عَلَى يَدِ مُبْتَكِرِ الخَطِّ الفَارِسِيِّ «التَّسْتَعْلِيقِ» وَالَّذِي أَصْبَحَ رَئِيسًا لِأَشْهُرِ مَكْتَبَةِ تَخْصَّصَتْ فِي النُّسْخِ وَالتَّرْقِيقِ فِي ذَلِكَ العَصْرِ. وَقَدْ وَقَّعَ بِاسْمِ البَايسنقَرِيِّ

التيمورية المبكرة.

ويبدأ المخطوط بمُنمنتين تشغلان صَفحتين مُقابلتين تُصوران منظر صَيْد مَلِكِي يَشْهده الأمير الشَّاب، تتنوع فيهما أوضاع الأشخاص وتَبعد إيماءاتهم عن الرتابة، وإن بقيت الأشكال جامدة. وقد نَجَحَ المصوِّر أيما نجاح في تصوّراته للعمائر حيث لا يحجب الذكور المَسْرُجِي الشائع - في غير هاتين المُنمنتين - روعة قوالب القَرَميد المُلَوّن وجمالها.

وعلى الرّغم من افتقار صُور هذه الشاهنامة إلى تِلْقاِيّة التعبير، إلّا أنّ مُصوِّريها كانوا مُجدِّدين لا مِعِين ومُنْغِدين بارعين، فاحتفظوا لِكُل مُنْمنّة بِطابعها، ولم تَبْدُ الألوان الزاهية صارِخة إلى حدّ يَمْجُه الذوق. ولأوّل مرّة تُرسم الشُخُوص في علاقات مُتناسبة مَعَ الفَراغ. ومازَسَ الفَنّانون حُرّيّة واسعة في التعبير، فلم تُعد الصُورة تَبْدو مُزدحمة حتّى في أشدّ مناظر القتال اُزْواحًا. وتُعدّ هذه الشاهنامة الإنجاز الأساسي في العهد التيموري المبكر، تَزْهو على كُل ما أُنجِز قَبْلَ عَهْد بهزاد من أَعْمال.

وقد تُؤنّف بايسنقر عام ١٤٣٣، وكان أكثر أبناء جيله ولعًا بِالْفَن، وظلّت هَراة من بَعْدِه زَمَنًا مَرْكَزًا لِتَرْقِين الكُتُب بِفَضْل رِعاية ابنه الأمير علاء الدّولة - وفق رواية دُوست مُحمّد - الذي ظلّ يَسْهر على أُمُور الفَنّانين الذين عاصروا والده وضمّ إليهم الفَنّان غياث الدّين المصوِّر الذي كان بايسنقر قد أوفّده كَمَبْعُوث شَخْصِيّ لَه ضِمْن أَعْضاء سِفارة شاه رُخ إلى الصّين بَيْن عامي ١٤١٩ و١٤٢٢، حيث دَوّن مُشاهداته الحَيّة خلال رِحْلته، فَضَمَّنْها عَبد الرّازق السمرقندي كتابه «مَطْلَع السَّعْدِين» مُبدِئًا اِهْتِمَامًا بِالْعَلَا بِحَفَلات البَلّاط الصّيني وأزيائه. وتَجَلّت فيه دَقّة مُلاحظة الفَنّان، كَتَرْتِظُه لِبَراعة أَهْلِ الصّين في البِناء التي تَزْهو على بَراعة المُسْلِمِينَ. وعلى الرّغم من أنّه لَيْسَ هُناكَ ما يَبْين أنّه قد اسْتَنَسَخَ بَعْض التّصاوِير الصّينيّة أو أنّه أَحْضَرَ مِنْها مَعَه عَدَدًا، إلّا أنّ الرّاجِح أنّه قد وَضَعَ أساس تلك المَجمُوعة المَوْجُودة الآن في مُجَلّدات ضَخْمة بِمُتَحَف طوب قاپو سراي بِاسْتَنْبُول التي تُخَوِي تَصاوِير صينيّة مِن القَرْن الخامس عَشَرَ وَبَعْض المُسْتَنَسَخات لِتَصاوِير صينيّة أبْعَد قَدَمًا. غَيْر أنّ ما يَلْفِتُنا هُو المُنْجِزات الصّينيّة الفارسيّة المُهَجَّنة. وثَمّة تَصاوِير - لَعَلّ مُصوِّرها هُو ذلك الفَنّان نَفْسُه - تَبْدو لِأَوَّل وهلة فارسيّة، وَبَعْدَ إِمعان النّظَر يَتَضَح أنّها مُسْتَنَسَخات صينيّة ذات «تَخْطِيطات فارسيّة». وهُناكَ عَدَد مِن الصّفْحات تُنْتَمي إلى تُخُوم آسِيا الوُسطى التي لا شَكّ أنّ بَعْثه شاه رُخ قد مَرّت بِها في طَرِيقها إلى الصّين. ويتردّد في تَقْريِر غياث الدّين ذِكْر عَبدَةِ الشّيطان في

التيموريين، ومن ثَمَّ صَرَف كُلّ جَهدِه إلى الفنون، واجتَذَب إلى مَرْسَم مَكْتَبته أساطين الفنون في عَصْرِه. وقد زَوَّدَهم بِأَفْضَل أنواع الورق والصّبْغات اللّوْنِيّة ومَوادّ التّجْلِيد بِما في ذلك الذّهب الثّمين واللّازُورْد الثّقيس، في وَقت كانت فيه هَراة مَرْكَزًا لِلحَيَاة الفُكْريّة والتّدوْق الجَماليّ. تلك هي الخُلُيفيّة التي أُنجِزَت خلالها مُنْمنّات مَحْطُوطَة شاهنامة الفَرْدُوسِي التي أَمَرَ بايسنقر بِإِنْشاؤها، وهي مَحْفوظة حاليًا بِمَكْتَبَة قَصْر جُلُستان بِطَهْران. وقد اجْتَذَبْني هذه المَحْطُوطَة الفريدة اللّوْحات فَعَكُفْتُ على دِراستها غَيْر باخِل بِجَهد أو وَقت، إذ أَحْسَسْتُ أَهمّيّتها كَمَرْجِع جَدِير بِالْإِبْاثات ضِمْن مَراجِع هذا البَحْث، كما اجْتَزأت مِنْها اثْنِي عَشْرَة مُنْمنّة حَرَصْتُ على إخراجها مُلَوّنة كما هي في الأصل. وتُعدّ هذه النّسخة - مِن بَيْن مَجمُوعة المَحْطُوطات المُهداة إلى الأمير بايسنقر - أَحْفَلها بِالسّخاء والتّرف. وقد نَسَخها كَبِير خَطّاطي المَكْتَبَة مَوْلانا جَعْفَر التّبريزي الذي ظَفَرَ بِلقَب البايسنقري مِن راعِيه الأمير بايسنقر، وَلَعَلّ جَعْفَر قد وَقَعَ نِيابَةً عن جَمِيع أَعْضاء المَكْتَبَة. ويقول دولتشاه في عام ١٤٨٧ إنّ جَعْفَر كان لَدَيْه في هَراة أَرْبَعُونَ خَطّاطًا يَعْمَلُونَ تَحْت إِمْرته في مَكْتَبَة الأمير بايسنقر. والرّاجِح أنّ مَوْلانا خَلِيل كان المصوِّر الأوّل في مَرْسَم بايسنقر، ومن ثَمَّ فالغالب أنّه كان المُسؤول عَن تَرْقِين هذه المَحْطُوطَة وتَصوِيرها. كَذَلِكَ يُمْكِنُنا أَنْ نَسْتِثْنِج مِن دُون تَرَدّد أنّ أَهمَر فَنّانِي تلك المَكْتَبَة قد اشْتَرَكوا في إَعْداد هذه المَحْطُوطَة، ولا بُدّ أنّ مِن بَيْنَهم كان الأُسْتاذ سَيِّد أَحْمَد المصوِّر وخَواجِه عَلِيّ المُرَقَن بِالإضافة إلى الأُسْتاذ خَلِيل. وَيَرى كُونِيل أنّ مُنْمنّات المَحْطُوطَة كُلّها مِن إِنْجِزات مُصوِّر واحد، على حِيْن وَرَّع شَتوكين المُنْمنّات على أَرْبَعَة مُصوِّرِينَ وإن ذَهَب إلى أن مَنظَرِي الصّيْد لِمُصوِّر واحد. وعلى أيّة حال فإنّ كافّة إِنْجِزات مَرْسَم مَكْتَبَة الأمير بايسنقر تَقْرِيًّا جَاءَتْ على مُستَوًى بِالِغ السُّمُوّ والرّوعة. وَنَجَد إلى جَانِب ألوانها التّادِرة الجَمال وَضُوحًا بِالْغَا في تَكُونياتها، وتَحْدِيدًا دَقِيقًا لِلخُطُوط الخارِجِيّة لِشُخُوصها التي تَتَجَلّى في صرامة الوُجُوه، تلك الصّرامة التي لَحَظْناها بِصُورة أَقلّ جَلَاء في الكُتُب التي أُنجِزَت قَبْلُها في عَصْر بايسنقر نَفْسُه والتي تَفْتَقِر إلى رَهافة الجِسْن إذا ما قِيسَناها بِهذا المَحْطُوط المُذهِل.

وكانت المُنْمنّات التي تَشْغَل مِساحة صَفْحَتَيْن كَامِلَتَيْن مُتَقابِلَتَيْن نادرة في المَحْطُوطات الفارسيّة بِاسْتِثْناء اللّوْحات الاسْتِهلَائيّة في غُرّات الكُتُب والتي كانت تُصوِّر المَوْضُوعات التَّمْطِية المألوفة كَمُشاهِد الصّيْد وَخَفَلات تَقْدِيم المَحْطُوطات إلى الحاكِم، ومَجْلِس سُلَيْمان وَهُوَ يَحْكُم بَيْنَ الْإِنْس والجَان أو بَيْنَ الطَّيْرِ والحَيوان، غَيْر أنّها شاعَتْ بَعْدَ ذلك في المَحْطُوطات

وقد عُرِفَت التَّكُونَات الرُّخْرِفِيَّة المُرْبَعَة الشَّكْل مُنْذُ عَهْد الإيلخانات في تصاوير شاهنامة ديموط لإنهاية عهد أبي سعيد (١٣٣٥)، أما زَخَارِف فُتُحات العُنُق فَقَدْ أُدْخِلَتْ فيما بَعْد. وَتَبْصُرُ الطَّرَازَانِ - أي طراز المُرْتَع وطراز فُتحة العُنُق - أَشْكال النَّبَات والطَّيْر والحَيَوَان. وَلَمْ يَكُنْ الفَتَّانُ أَنْ يُزَوِّق جَعْبَات السَّهَام وَكِنَانَات الْأَقْوَاس بِزَخَارِف مُمَائِلَة، وَزَيَّنَ النَّيَابَ عَلَى مَقْرَبَة مِنْ مُسْتَوَى الرُّكْبَة بِشَرِيطَ عَلَيْهِ أَشْكَالَ نَبَاتِيَّة.

وَيَزِيدُ المَشْتَرِكُونَ فِي الصَّيْد - فِي المُنْمَنَاتِ - سَرَائِلَ فَضْفَاضَة تُثَبِّتُهَا أَخْرَمَة. وَإِلَى يَسَارِ المُنْمَنَة الِئْمَنِي فَارِسٌ مُوسِيقِي يَعْزِفُ عَلَى القِيَارَة أَوْ الكِتَارَة، وَنَشْهَدُ خَادِمًا رَاكِعًا بَعْدَ أَنْ قَدَّمَ لِلْأَمِيرِ بَايسَنْقَرُ كَأْسًا أَخَذَهَا بِئْمَان. وَنَمَّةٌ خَادِمٌ آخَرٌ يَقْدُمُ طَبَقًا مِنَ الطَّعَام، وَمِنْ خَلْفِهِ نَشْهَدُ تَابِعًا يُصَبِّبُ الخَمْرَ مِنْ قَيْتَنَة فِي قَدَحٍ يَحْمِلُهُ خَادِمٌ آخَرٌ عَلَّقَ مَنَشَقَةً فِي حِزَامِهِ. وَتَضُمُّ طَرِيدَة الصَّيْدِ فِي لَوْحَة الصَّفْحَة الِئْمَنِي غَزَالَتَيْنِ وَأَرْبَابًا بَرِّيًا يُطَارِدُهَا بَعْضُ المَشْتَرِكِينَ فِي الصَّيْدِ بِالسَّهَام، ثُمَّ فَارِسًا يُصِيبُ لَبْوَةً بِسَهْمِهِ فِي حَلْقِهَا بَيْنَا يَهْوِي رَفِيقُهُ عَلَى رَأْسِهَا بِهَرَاوَتِهِ. أَمَّا طَرِيدَة الصَّيْدِ فِي لَوْحَة الصَّفْحَة الِئْمَنِي فَتَضُمُّ غَزَالَتَيْنِ وَأَرْبَعَةً ذُنَابٍ وَدُبًّا يَهَاجِمُ أَحَدَ الفُرْسَانِ.

وَالْمَنْظَرُ الْخَلَوِيُّ نَمُودَجٌ لِلْمَشَاهِدِ الْبَهْجَةِ الَّتِي تَغْمُرُ صَفَحَاتِ التَّصْوِيرِ التَّيْمُورِي بِهَرَاة، لَا نَشْهَدُ بِهِ صَخُورًا. وَتَتَوَجَّ الْأَشْجَارُ ذَاتُ الزُّهُورِ اللَّيْضَاءِ وَالْحَمْرَاءِ وَالْبَنَفْسِجِيَّةِ وَالْوَرْدِيَّةِ أَحْدُورَةً التَّلِّ، تُمَيِّزُ مِنْ بَيْنِهَا شَجَرُ السَّرْوِ وَالْخَوْخِ وَالْكَرْزِ وَالبَرَسِيمُون. وَعَلَى صَفْحَةِ السَّمَاءِ الذَّهَبِيَّةِ نَرَى الْعَصَافِيرَ الْخَضْرَاءَ وَطُيُورَ الْمِينَةِ مُحَلَّقَةً، وَكِلَاهُمَا عُنْصُرُ تَيْمُورِيٍّ مُمَيِّزٌ. أَمَّا النَّبَاتَاتُ الَّتِي تَكْسُو سَطْحَ الْأَرْضِ فَهِيَ شُجَيْرَاتُ الرَّبِيعِ الْإِيرَانِيٍّ أَوْ بَعْضُ الْأَعْشَابِ ذَاتُ الزُّهُورَاتِ النَّائِمَةِ مُورَعَةً فِي تَكْوِينِ مُنْتَظَمٍ وَكُلُّهَا مَرْسُومَةٌ بِعِنَايَةِ وَدَقَّةٍ مِنْ دُونِ تَحْوِيرٍ يَسْتَرْعِي النَّظَرَ.

وَفِي مُنْمَنَةِ جُلْنَارِ وَأَرْدَشِيرِ (لَوْحَة ١٧٤ م)، نَرَى أَنَّ المَصُورَ لَمْ يَلْتَزِمِ النَّصَّ الْوَارِدَ بِالشَّاهِنَامَةِ، أَوْ لَمْ يَقَعْ اخْتِيَارُهُ عَلَى اللَّحْظَةِ الدَّرَائِمَةِ الْمُنَاسِبَةِ مِنَ الْقِصَّةِ لِصُورِهَا بَلْ اخْتَارَ لَحْظَةً عَادِيَّةً مِنْ سِيَاقِ النَّصِّ. وَتَحْكِي الْقِصَّةَ أَنَّ بَابَكَ مَلِكَ الْفُرسِ قَدْ عَهِدَ بِابْنِهِ الْأَمِيرِ أَرْدَشِيرِ إِلَى الْمَلِكِ أَرْدَوَانَ الْأَشْكَانِي لِيَقُومَ عَلَى تَرْبِيَّتِهِ وَتَنْشِئَتِهِ، وَأَنَّ أَرْدَشِيرَ اخْتَارَ لَهُ دَارًا قَرِبَ حَظِيرَةِ خَيْلِ أَرْدَوَانَ. وَكَانَتْ لِلْمَلِكِ جَارِيَّةٌ تُدْعَى جُلْنَارُ تَقُومُ عَلَى خَزَائِنِهِ. وَذَاتَ يَوْمٍ رَأَتْ جُلْنَارُ أَرْدَشِيرَ فَعَشِقَتْهُ. وَلَمَّا حَلَّ الْمَسَاءُ عَمَدَتْ إِلَى حَبْلٍ عَقَدَتْ بِهِ عُقْدًا وَرَبَطَتْهُ فِي شُرْفَةِ الْقَصْرِ، وَتَدَلَّتْ عَلَيْهِ حَتَّى بَلَغَتْ مَنْزِلَ أَرْدَشِيرِ فَوَجَدَتْهُ مُسْتَغْرِقًا فِي نَوْمِهِ، غَعِبَ أَنَّهَا اسْتَشْفَتْ مِنْ مَلَامِحِهِ أَنَّهُ مَهْمُومٌ لِمَا عَلِمَتْهُ مِنْ ثَوْرَةِ أَرْدَوَانَ

تلك المَنَاطِقِ، بَعْدَ أَنْ شَاهَدَ بِنَفْسِهِ بَعْضَ التَّصَاوِيرِ الْبُودِيَّةِ وَبِخَاصَّةِ تلكِ الَّتِي تَأَثَّرَتْ مِنْهَا بِقُنُونِ التَّبَت. وَكَانَ غِيَاثُ الدِّينِ يَعْمَلُ فِي تَبْرِيزَ فِي خِدْمَةِ ابْنِ آخَرِ لِشَاهِ رُخْ هُوَ أُولُوغُ بَكِ الَّذِي كَانَ يَزْعَى الْعُلُومَ وَالْفُنُونِ رُغْمَ مُعَارَضَةِ الدَّرَاوِيشِ الْمُتَرْتَمِينَ وَمَا خَدَا بِهِ إِلَى عَدَمِ التَّوَقُّعِ بِاسْمِهِ عَلَى لَوْحَاتِهِ. وَهَكَذَا وَلِسُوءِ الْحَظِّ بَاتَ مِنَ الْمُسْتَعْصِي عِلْمُنَا نِسْبَةَ أَيِّ كِتَابٍ إِلَيْهِ أَوْ إِلَى تَلَامِيذِهِ سِوَا أَفِي تَبْرِيزَ أَمْ فِي هَرَاة.

شاهنامة بایسنقر. هَرَاة ١٤٣٩ م

كَانَ الْمَأْلُوفُ أَنَّ تُصَوِّرَ المُنْمَنَاتِ الْأَوَّلِيَّانِ عَلَى صَفْحَتَيْنِ مُتَقَابِلَتَيْنِ مِنَ الْمَخْطُوطِ، يَظْهَرُ فِيهِمَا السُّلْطَانُ فِي حَقْلٍ يُقَدِّمُ إِلَيْهِ فِيهِ الْمَخْطُوطُ الَّذِي أَمَرَ بِنَسْخِهِ وَتَرْفِيقِهِ، وَلَمَّا كَانَ بَايسَنْقَرُ أَمِيرًا وَوَزِيرًا لِأَبِيهِ وَلَمْ يَتَقَلَّدِ السُّلْطَانِ قَطً، وَكَانَ هُوَ الَّذِي أَمَرَ بِإِعْدَادِ الْمَخْطُوطِ، عَمَدَ المَصُورَ إِلَى التَّحَايُلِ، فَاسْتَعَاَصَ عَنْ حَقْلٍ تَقْدِيمِ الْمَخْطُوطِ بِمَنْظَرٍ جَدِيدٍ هُوَ مَشْهَدُ الصَّيْدِ.

وَنَرَى فِي لَوْحَتِي الصَّيْدِ المَصُورَتَيْنِ عَلَى صَفْحَتَيْنِ مُتَقَابِلَتَيْنِ بِصَدْرِ الْمَخْطُوطَةِ (اللُّوْحَتَانِ ١٧٢ م، ١٧٣ م) حَاكِمَا فِي رِحْلَةٍ صَيْدٍ، وَلَا شَكَّ أَنَّ ذَلِكَ الْحَاكِمَ هُوَ بَايسَنْقَرُ نَفْسُهُ وَإِنْ اخْتَلَفَ شَأْنُهُ فِي اللَّوْحَتَيْنِ. فَبِئْسَ لَوْحَةُ الصَّفْحَةِ الِئْمَنِي نَرَاهُ فِي غَيْرِ لِبَاسِ الْإِمَارَةِ وَيَضَعُ عَلَى رَأْسِهِ عِمَامَةً بَيْضَاءَ، بَيْنَمَا يَظْهَرُ فِي اللَّوْحَةِ الِئْمَنِي وَهُوَ يَضَعُ التَّاجَ الذَّهَبِيَّ عَلَى رَأْسِهِ. وَفِي كِلَا الصُّورَتَيْنِ اللَّتَيْنِ هُمَا أَقْرَبُ شَبْهًا بِهِ. يَتَدَوَّ وَجْهُ بَايسَنْقَرُ مُمْتَلِئًا غَيْرَ أَنَّهُ خَالٍ مِنَ التَّعْبِيرِ.

وَنَرَاهُ فِي مُنْمَنَةِ الصَّفْحَةِ الِئْمَنِي مُرْتَدِيًا زِيًّا يَلْبُؤُ لَازُورْدِيٍّ ذَا نَقُوشٍ مُذْهَبَةٍ حَوْلَ الرُّقْبَةِ مُمْتَلِئًا جَوَادَهُ الَّذِي اخْتَفَى جَسَدُهُ كُلَّهُ تَقْرِيبًا خَلْفَ صَخْرَةٍ، بَيْنَمَا نَرَاهُ فِي الصَّفْحَةِ الِئْمَنِي فِي لِبَاسِ أَمِيرٍ أَوْ حَاكِمٍ فِي رِدَاءٍ أَخْضَرَ تَفَاوُثَ فِيهِ الدَّرَجَةُ بَيْنَ الثُّوبِ وَالبُرْدَةِ، وَوَشَّتَهُمَا النُّقُوشُ الْمُذْهَبَةُ، وَقَدْ ظَهَرَ هُوَ وَجَوَادُهُ كُلُّهُ فِي مَكَانٍ بَارِزٍ فِي الصُّورَةِ تَتَبَعُهُ عَنْ كَتَبٍ كَوَكْبَةٍ مِنَ الْفُرسَانِ، وَقَدْ اُكْتَسَى جَوَادُهُ الْأَشْهَبُ بِقَرَبُوسٍ ذَهَبِيٍّ مُتَمَيِّزٍ الزَّخَارِفَ عَمَّا عَدَاهُ مِنْ سُورُجٍ. وَاخْتَارَ المَصُورُ لِمُنَاسِبَةِ الصُّورَةِ فِي كِلَا المُنْمَنَتَيْنِ - وَهِيَ السَّاحَةُ الَّتِي يَجْرِي فَوْقَهَا الْحَدَثُ - لَوْنًا أَبْيَضَ مَشُوبًا بِزُرْقَةٍ مُضِيئَةٍ، وَتَنَرَّ فِيهَا الْأَعْشَابُ وَالشُّجَيْرَاتُ الْخَضْرَاءُ بِشِمَارِهَا الْحَمْرَاءِ.

وَيَتِمَنَّنُ شُخُوصَ الصُّورَةِ جَمِيعَهُمْ بِأَخْرَمَةٍ، وَزَيَّنَتْ النَّيَابَ كُلُّهَا بِتَطْرِيزِ الْقَصَبِ، إِمَّا فِي تَصْمِيمِ زُخْرَفِيٍّ شَبِهُ مُرْبَعٍ فَوْقَ الصَّدْرِ وَالظَّهْرِ أَوْ عَلَى فُتُحاتِ العُنُقِ. وَنُلاَحِظُ أَنَّ كُلَّ هَذِهِ الزَّخَارِفِ ذَاتُ أَصُولٍ صَيِّئَةٍ حَيْثُ نَرَى أَنْوَاعًا عِدَّةً مِنَ التَّيْنِ أَوْ طَائِرِ الْكُرْكِي.

تَشْعَانِ مِنْ دَمِ الْبَشَرِ، فَاعْتَزَمَ أَفْرِيدُونُ أَنْ يَضَعَ نِهَایَةَ لِحْجَمِ الضَّحَّاكِ الَّذِي دَامَ أَلْفَ عَامٍ وَأَنْ يُحَرَّرَ الْعَالَمُ مِنْ رِبْقَةِ سَيِّطَوْتِهِ الشَّيْطَانِيَّةِ، بَعْدَ أَنْ مَثَلَ الْمَلَاكُ سَرُوشَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالَ لَهُ «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِتَغْذِيهِ طَوَالَ الزَّمَانِ جَزَاءَ مَا صَنَعْتَ يَدَاهُ، فَسُدُّ رِثَاقَهُ وَاحْمِلْهُ وَسِرْ بِهِ حَتَّى تَرَى جَبَلَيْنِ مُتْقَارِبَيْنِ فَأَوْثِقْهُ حَيْثُ جَبَلٌ دُومَاوَنْدٌ». وَهُنَاكَ وَجَدَ مَعَارَةً غَاصَّةً بِالظُّلُمَاتِ تَبْدُو حَتَّى فِي ضَوْءِ الشَّمْسِ الْبَاهِرِ لَيْلًا دَائِمًا فَأَمَرَ بِمَسَامِيرٍ مِنْ حَدِيدٍ دَخَّلَهَا فِي جِسْمِ الضَّحَّاكِ وَثَبَّتَهَا فِيهَا فِي الْمَعَارَةِ لِيَلْقَى عَذَابَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

فِي هَذِهِ الْمُنْمَنَةِ (لَوْحَةٌ ١٧٥ م) نَرَى أَنَّ هُنَاكَ إِطَارًا أَيْمَنَ يَحْدُ النَّصِّ وَالصُّورَةَ عَلَى السَّوَاءِ، أَمَّا الْإِطَارُ الْأَيْسَرُ فَلَا يَحْدُ إِلَّا النَّصِّ دُونَ الصُّورَةِ الَّتِي تَسْتَمِرُّ حَتَّى نِهَایَةَ الْوَرَقَةِ. وَنَرَى كَذَلِكَ أَنَّ النَّصِّ قَدْ كُتِبَ فِي جُزْءَيْنِ، جُزْءٌ عُلوِّيٌّ يَلْعُوهُ الْهَامِشُ مِنْ تَحْتِهِ فَرَاغٌ تَسْتَغْرِقُهُ الصُّورَةُ، ثُمَّ جُزْءٌ آخَرٌ مِنَ النَّصِّ أَقَلُّ مِسَاحَةً كُتِبَ فِي أَسْفَلِ الصُّورَةِ يَذْنُوهُ الْهَامِشُ السُّفْلِيُّ. وَلَقَدْ اخْتَارَ الْمُصَوِّرُ لِرِسْمِ الْمَعَارَةِ الْجُزْءَ الْأَيْسَرَ مِنَ اللَّوْحَةِ بَيْنَ جُزْئِي النَّصِّ، وَلَوْهَا بِاللُّونِ الْأَسْوَدِ الدَّاكِنِ رَايِمًا لِلظُّلُمَاتِ، وَفِي فُتْحَتِهَا رَسَمَ الضَّحَّاكَ عَارِيًّا إِلَّا مِنْ سِرْوَالٍ أَبْيَضَ، وَقَدْ مَدَّ ذِرَاعَيْهِ عَنْ يَمِينٍ وَيَسَارٍ، وَثَمَّةٌ مِسْمَارٌ أَسْوَدٌ قَدْ دُقَّ فِي كَفِّهِ الْيُسْرَى وَثَبَّتَهُ فِي ظِلْمَةِ الْمَعَارَةِ، وَأَمْسَكَ فَارِسٌ بِكَفِّهِ الْيُمْنَى يَدُقُّ فِيهَا مِسْمَارًا آخَرَ بَعْدَ أَنْ دُقَّ فِي ثَدْيَيْهِ مِسْمَارَيْنِ آخَرَيْنِ. وَتَشْهَدُ فِي صَدْرِ الصُّورَةِ فَارِسًا آخَرَ يَقِفُ فِي مُسْتَوًى أَدْنَى مِنَ الضَّحَّاكِ لِيَدُقُّ مِسْمَارًا فِي قَدَمِهِ الْيُسْرَى، وَلَمْ يَنْسَ الْمُصَوِّرُ أَنْ يَرَسُمَ حَيْثَيْنِ نَمَتَا مِنْ كَتِفَيْهِ. وَيَبْدُو الضَّحَّاكُ فِي هَذِهِ الْمُنْمَنَةِ شَخْصِيَّةً مَأْسَاوِيَّةً تُثِيرُ الرِّثَاءَ أَكْثَرَ مِمَّا تُثِيرُ الشَّمَاتَةَ.

وظَهَرَتِ الصُّخُورُ الْمَرْجَانِيَّةُ الزَّرْقَاءُ وَالذَّهَبِيَّةُ وَالْبُرْتُقَالِيَّةُ حَوْلَ الْمَعَارَةِ وَتَحْتَهَا وَفَوْقَهَا، تَتَخَلَّلُهَا الشَّجَرَاتُ وَالْأَشْجَارُ الْأَثِيرَةُ لَدَيْهِمْ. وَإِلَى يَمِينِ الصُّورَةِ نَرَى أَفْرِيدُونًا مُمْتَطِيًا جَوَادَهُ وَإِلَى جَوَارِهِ فَارِسَ آخَرَ، وَقَدْ مَدَّ تَابِعَ لَهُ ذِرَاعَهُ مِنْ خَارِجِ الْإِطَارِ حَامِلًا الْمِظْلَةَ لِيَحْمِيَ رَأْسَهُ مِنْ حَرَارَةِ الشَّمْسِ. وَتَبْدُو ذِرَاعُ التَّابِعِ فِي الصُّورَةِ، عَلَى حِينٍ لَا يَظْهَرُ مِنْ جِسْمِهِ شَيْءٌ، وَهِيَ حِيلَةٌ جَرِيئَةٌ فِي اسْتِخْدَامِ الْإِطَارِ.

أَمَّا السَّمَاءُ الذَّهَبِيَّةُ الصَّافِيَّةُ، فَقَدْ أَقْرَدَ لَهَا الْفَنَّاانِ هَامِشَ الصُّورَةِ الْعُلُوِّيَّ كُلَّهُ بِعَرَضِ الصَّنُحَةِ، وَرَسَمَ بِهَا الْأَشْجَارَ فَوْقَ إِطَارِ النَّصِّ الْعُلُوِّيِّ وَبِمَحَازَاتِهِ وَأَطْلَقَ فِيهَا الْأَطْيَارَ الْمُحَلَّقَةَ الْبَدِيعَةَ، وَرَسَمَ بَعْضَهَا حَاطَةً فَوْقَ أَفْنَانِ الشَّجَرِ. وَقَدْ أَسْفَرَ هَذَا النَّصِّيمُ الْمَدْرُوسُ الْمُتَّقَنُ عَنْ إِحْسَاسِ الْمُشَاهِدِ بِأَنَّ الْمَشْهَدَ مُنَمَّذٌ وَمُسْتَمِرٌّ، غَيْرَ أَنَّ الْجُزْءَ الْعُلُوِّيَّ مِنَ النَّصِّ قَدْ حُجِبَ بَعْضُهُ عَنْ غَيْرِ عَمْدٍ. إِنَّ الْوَصْفَ مَهْمَا دُقَّ لَا يَبْقَى هَذَا التَّكْوِينُ السَّاجِرُ حَقًّا،

عَلَيْهِ، لِإِعْتِدَادِهِ بِنَفْسِهِ وَتَحْدِيهِ لِابْنِ أَرْدَوَانَ فِي رِخْلَةِ الصَّبْدِ. وَأَحْسَتْ بِحَذْبِهَا عَلَيْهِ، فَزَفَعَتْ رَأْسَهُ بِحَنَانٍ وَأَرَاخَتْهُ فِي حِجْرِهَا، وَلَمَّا اسْتَيْقَظَ صَمَّتْهُ إِلَى صَدْرِهَا، وَمَالَتْ بِحَذْبِهَا عَلَى خَدِّهِ فِي حُبِّ وَوَلَهٍ، وَحِينَ رَأَاهَا وَأَذْرَكَ عُمُقَ عَاطِفَتِهَا، عَشِيقَهَا كَمَا عَشِيقَتُهُ وَغَدَا كُلُّ مِنْهُمَا لَا يَقْوَى عَلَى فِرَاقِ حَبِيبِهِ، وَكَانَتْ تَخْتَلِفُ إِلَيْهِ سِرًّا كُلَّ لَيْلَةٍ. وَاتَّفَقَ أَنْ تُؤْتِيَ بَابَكَ مَلِكِ فَارِسٍ وَوَالِدِ أَرْدَشِيرٍ، فَطَمَعَ أَرْدَوَانُ فِي عَرْشِهِ وَنَصَّبَ مِنْ ابْنِهِ مَلِكًا عَلَى فَارِسٍ، فَاعْتَمَتْ أَرْدَشِيرَ وَعَزَمَتْ عَلَى الْهَرَبِ، وَلَمَّا جَنَّ اللَّيْلُ، عَمَدَتْ جُلُنَارًا إِلَى خَزَائِنِ الْمَلِكِ، فَاعْتَرَفَتْ مِنْ نَفِيسِ جَوَاهِرِهَا وَذَهَبِهَا، وَخَفَّتْ إِلَى أَرْدَشِيرِ الَّذِي أَسْرَجَ فَرَسَيْنِ وَانْطَلَقَا. وَمِنْ الْغَرِيبِ أَنْ يَنْحِي الْمُصَوِّرُ كَافَةً الْمَوَاقِفَ الْمُثِيرَةَ لِلتَّابِضَةِ فِي الْقِصَّةِ لِيُقَدِّمَ لَنَا أَرْدَشِيرَ ذَاهِبًا لِلِقَاءِ جُلُنَارَ - الْمُطْلَعَةِ مِنْ نَافِذَتِهَا - فَوْقَ صَهْوَةِ جَوَادِهِ وَمِنْ وَرَائِهِ تَابِعُهُ تَسْتَقْبِلُهُ وَصِفَاتِهَا، قَانِعًا بِتَصْوِيرِ مَشْهَدِ حُبِّ تَأْسَرُ فِيهِ الْمَرْأَةُ الرَّجُلَ مِنْ أَوَّلِ نَظَرَةٍ.

وَتَشْهَدُ عِمَارَةُ الْمَنْزِلِ بِجَمَالِ زَخَارِفِ الْمَبَانِي التِّيمُورِيَّةِ، يَلُونُ قِرْمِيدَ جُذْرَانِهَا الْبُرْتُقَالِيَّ الْمُرَوَّقَ، تَعْلُوهُ بَلَاطَاتُ الْقَاشَانِيَّ الزَّرْقَاءُ الْمُتَنَهِيَّةُ بِالشَّرَافَاتِ، وَالْمَكْسُوءَةُ بِزَخَارِفِ الْأَرَابَسِكِ الْمُلَوَّنَةِ وَالَّتِي كُتِبَ فِي أَذْنَاهَا: «أَمَرَ بِنَاءِ هَذِهِ الْعِمَارَةِ السُّلْطَانُ الْأَعْظَمُ بَايَسَنْقَرُ بِهَادِرْ خَانَ خَلَّدَ اللَّهُ مُلْكَهُ». وَمِنْ الْمَعْرُوفِ أَنَّ بَايَسَنْقَرَ نَفْسَهُ كَانَ خَطَّاطًا مُحَسِّنًا، وَيُقَالُ إِنَّهُ صَمَّمُ بِنَفْسِهِ مَسْجِدَ جَوْهَرِ شَادَ فِي مَدِينَةِ مَشْهَدَ (١٤٠٥ م)، وَلَا تَزَالُ هَذِهِ التَّقُوشُ بَاقِيَةً حَتَّى يَوْمِنَا هَذَا.

وَيَقَعُ قَصْرُ أَرْدَوَانَ فِي الْمُنْمَنَةِ وَسَطَ حَدَائِقِ غَنَاءٍ حَافِلَةٍ بِالزُّهُورِ وَالرِّيَاحِينِ وَالْأَشْجَارِ تَتَوَسَّطُهَا شَجَرَةُ الذُّلْبِ، كَمَا تَحُلُقُ الطَّيُورُ ذَاتَ الْأَلْوَانِ الْخَلَّابَةِ فِي سَمَاءِ الْقَصْرِ. وَقَدْ أَضْفَى الْمُصَوِّرُ اللَّوْنَ الذَّهَبِيَّ عَلَى أَرَضِيَّةِ الْحَدِيقَةِ، وَاللُّونَ الْأَزْرَقَ اللَّازُورِيَّ عَلَى السَّمَاءِ. وَثَمَّةٌ سِيَّاحٌ مُسَدَّسُ الْأَضْلَاحِ خَفِيفُهَا يُوحِي بِالْعُمُقِ مُشَبَّدٌ مِنْ أَلْوَابِ الرُّخَامِ الْأَخْضَرِ الْمَشْغُولِ وَأَعْمَدَةُ الْقَاشَانِيَّ الزَّرْقَاءُ، يَقْصِلُ الْحَدِيقَةَ عَنْ فِنَاءٍ مُغَطًى بِبَلَاطَاتِ الْقَاشَانِيَّ يَتَوَسَّطُهُ جَذُولُ مَاءٍ يَصَبُّ فِي «الْفَسَقِيَّةِ» التَّقْلِيدِيَّةِ فِي الْمُتَنَصِّفِ. وَتُسَيِّطِرُ الْخُطُوطُ الرَّأْسِيَّةُ الْقَوِيَّةُ لِلْمَبْنَى وَالشُّخُوصُ الَّتِي تَتَوَسَّطُ الْحَدِيقَةَ عَلَى التَّكْوِينِ كُلِّهِ.

وَوَقَعَ اخْتِيَارُ الْمُصَوِّرِ كَذَلِكَ عَلَى مَوْضُوعٍ تَنَاوَلَهُ جَمِيعُ مُصَوِّرِي الشَاهَنَامَةِ، وَهُوَ مَوْضُوعُ أَفْرِيدُونِ بَعْدَ أَنْ حَمَلَ الضَّحَّاكَ إِلَى جَبَلِ دُومَاوَنْدٍ وَدَفَّاهُ إِلَى صَخْرٍ الْمَعَارَةِ بِالْمَسَامِيرِ انْتِقَامًا مِنْهُ لِقَتْلِهِ أَبِيهِ وَعِقَابًا لَهُ عَلَى جَرَائِمِهِ وَقَسْوَتِهِ. وَكَانَ الضَّحَّاكُ قَدْ عَقَدَ صَفَقَةً مَعَ الشَّيْطَانِ إِبْلِيسَ أَصْبَحَ عَلَى أَثَرِهَا تَابِعًا لَهُ مُقَابِلَ أَنْ يَكُونَ لَهُ نُفُوذٌ عَلَى الشَّيَاطِينِ. غَيْرَ أَنَّ إِبْلِيسَ تَنَكَّرَ فِي زِيٍّ شَابٍّ وَسِيمٍ وَقَبَّلَ كَتِفَيْهِ فَأَثْبَقَتْ مِنْهُمَا حَيَّاتَانِ لَا

فَلْيَنْتَعِمِ الْمُشَاهِدُ إِذَا بَتَأَمَّلَ اللَّوْحَةَ وَمُعَاشَتَهَا.

كَذَلِكَ نَرَى الطَّيْرَ يُحَلِّقُ وَكَأَنَّهُ بِالنَّهَارِ، بَيْنَمَا يَجْلِسُ لِهَراسِپَ يَحْتَسِي الخَمْرَ مُصِغِيًّا إِلَى مَا يَرُويهِ لَهُ رِجَالُ حَاشِيَتِهِ عَنْ قِصَّةِ هَلَاكِ كِيخسرو.

وَيَتَجَلَّى الطُّرُيزُ الصِّبْنِي الرَّقِيقُ فِي السَّتَارَةِ الْمُتَدَلِّيةِ فِي مُقَدِّمَةِ التَّخْتِ، أَمَّا جَانِبَاهُ وَمُسْنَدُهُ فَقَدْ زُيِّنَتْ بِزَخَارِفِ نَبَاتِيَّةٍ غَيْرِ صِنِّيَّةٍ. وَتُمَازِلُ المَائِدَةُ فِي مُقَدِّمَةِ الصُّورَةِ التَّخْتِ، وَعَلَيْهَا آيَةٌ ذَاتُ رُسُومٍ بَيْضَاءَ يَبْدُو مِنْهَا شَكْلُ أَسَدٍ فَوْقَ أَرْضِيَّةٍ زُرْقَاءَ. وَعَلَى جَانِبَيْهَا قِيتَانِ مُذَهَّبَانِ وَشَمْعَدَانِ، وَيَحْمِلُ أَحَدُ الخَدَمِ قِيتَنَةً مُشَابِهَةً، بَيْنَمَا يُقَدِّمُ بَقِيَّةَ الخَدَمِ كُؤُوسَ الخَمْرِ وَمَا لَدَّ وَطَابٍ مِنْ مَشْرَبٍ وَمَأْكَلٍ. وَتَحْمِلُ السَّجَّادَةُ زَخَارِفَ دَقِيقَةٍ مُتَشَابِكَةٍ، الأَمْرُ الَّذِي نَعْمَدُهُ فِي التَّصْوِيرِ التِّمُورِيِّ. وَبِوَجْهِ عَامٍّ فَإِنَّ المُنْمَنَةَ تُوحِي بِالعَظْمَةِ وَالْأَبْهَةِ بِمَا يَتَّقِي وَجَلَالَ المُلْكِ وَشُمُوخِهِ.

وَكَانَ سِيَاوِشُ بْنُ كِيكَائِوسَ مَلِكُ إِيرَانَ قَدْ تَزَوَّجَ مِنْ فَرَى كَيْسِ ابْنَةِ أَفْرَاسِيَابَ مَلِكِ تُورَانَ وَذَلِكَ فِي مُحَاوَلَةٍ لِيُوقِفَ الحُرُوبَ النَّاشِئَةَ بَيْنَ الْإِيرَانِيِّينَ وَالتُّورَانِيِّينَ. وَلَمَّا كَانَ سِيَاوِشُ قَدْ تَنَازَلَ عَنْ حَقِّهِ فِي العَرْشِ الْإِيرَانِيِّ فَقَدْ دَعَاهُ أَفْرَاسِيَابُ لِكَيْ يَسْتَقِرَّ فِي مَدِينَةِ جَدِيدَةٍ بَدِيعَةٍ عَلَى الْأَرْضِ التُّورَانِيَّةِ هِيَ مَدِينَةُ سِيَاوِشُ جَرْدَ الَّتِي عَدَتْ مِثْلَ الْجَنَّةِ مِمَّا أَثَارَ حَفِظَةُ كَرْسِيوزَ شَقِيقَ أَفْرَاسِيَابَ وَبِخَاصَّةٍ عِنْدَمَا تَغْلَبُ الْإِيرَانِيُّونَ عَلَى الْأَتْرَاقِ فِي مُبَارَاةِ الكُرَّةِ وَالصُّوْلُجَانِ وَفِي الرَّمْيِ بِالْقَوْسِ وَالتَّشَابُ. وَهَنَا تَحْدَى كَرْسِيوزُ سِيَاوِشَ لِمُبَارَزَتِهِ، وَلَكِنْ الْأَخِيرُ اغْتَنَزَرَ عَنْ مُبَارَاةِ شَقِيقِ المَلِكِ أَفْرَاسِيَابَ، فَاقْتَرَحَ كَرْسِيوزُ أَنْ يُبَارِزَ بَدَلًا مِنْهُ اثْنَيْنِ مِنَ التُّورَانِيِّينَ هُمَا كَرْوَزُهُ وَآخَرُ، فَوَافَقَ سِيَاوِشُ عَلَى ذَلِكَ وَأَخَذَ بِمَنْطِقَةِ أَحَدِهِمَا وَاخْتَطَفَهُ مِنْ فَوْقِ السَّرَجِ وَرَمَاهُ عَلَى الْأَرْضِ. ثُمَّ أَعَادَ الكُرَّةَ مَعَ زَمِيلِهِ، وَجَاءَ بِهِ إِلَى كَرْسِيوزَ الَّذِي اغْتَاطَ وَمِمَّا أَصَابَ صَاحِبِيَّهِ مِنَ الْجُزْيِ وَالْهَوَانِ عَلَى يَدِ سِيَاوِشَ، وَلَمَّا عَادَ كَرْسِيوزُ إِلَى أَفْرَاسِيَابَ أَوْغَرَ صَدْرَهُ ضِدَّ سِيَاوِشَ فَعَزَمَ عَلَى الْفَتْكِ بِهِ.

وَاشْتَعَلَتِ الحَرْبُ بَيْنَ الْإِيرَانِيِّينَ وَالتُّورَانِيِّينَ مِنْ جَدِيدٍ، وَكَانَ الْإِيرَانِيُّونَ زُهَاءَ أَلْفِ فَارِسٍ فَقَتَلُوا عَدَدًا كَبِيرًا مِنَ الْأَتْرَاقِ، غَيْرَ أَنَّ سِيَاوِشَ جَرَّحَ فِي عِدَّةٍ مَوَاضِعٍ مِنْ بَدَنِهِ وَتَرَجَّلَ عَنْ فَرَسِهِ وَقَاتَلَ رَاجِلًا فَأَسْرَاهُ، وَأَتَاهُ كَرْوَزُهُ فَشَدَّ يَدَيْهِ وَوَضَعَ الْأَغْلَالِ فِي عُنُقِهِ وَسَاقَهُ إِلَى الصَّخْرَاءِ فَأَضْجَعَهُ عَلَى التُّرَابِ وَدَبَّحَهُ بِخَنْجَرٍ تَنَاوَلَهُ مِنْ كَرْسِيوزَ فِي طُشْتٍ مِنْ ذَهَبٍ. وَلَمَّا سَكَبَ دَمَهُ نَبَتْ مِنْهُ النَّبْتُ الْمَعْرُوفُ خُونِ سِيَاوِشَانَ أَوْ دَمُ الْأَخْوِينِ (لَوْحَةُ ١٧٧م).

وَالنَّصُّ هُنَا مَكْتُوبٌ دَاخِلَ أَرْبَعِ مَسَاحَاتٍ صَغِيرَةٍ لَا تَشْغَلُ مِنْ مَسَاحَةِ الصَّفْحَةِ إِلَّا الْجُزْءَ الْعُلُويَّ الْأَيْمَنَ. وَاللَّوْحَةُ كُلُّهَا مَحْدُودَةٌ بِإِطَارٍ مُذَهَّبٍ لَا تَتَعَدَاهُ الْأَشْكَالُ إِلَى خَارِجِهِ، وَقَدْ شَغَلَتْ أَرْضَ

وَتُصَوِّرُ (لَوْحَةُ ١٧٦م) اغْتِيَاءُ «لِهَراسِپَ» سَرِيرِ المُلْكِ بَعْدَ كِيخسرو الَّذِي تَنَازَلَ لَهُ عَنِ العَرْشِ. وَتَحْكِي الْقِصَّةَ إِنَّ كِيخسرو اغْتَزَلَ المُلْكَ، وَتَنَازَلَ عَنْ تَاجِهِ لِلِهَراسِپِ، وَأَوْصَاهُ أَلَّا يَحْكُمَ إِلَّا بِالْعَدْلِ. ثُمَّ وَدَّعَ نِسَاءَهُ وَجَوَارِيَهُ وَأَوْصَى بِهِنَّ لَهُ، وَسَارَ فِي جُمُعٍ مِنْ خُلَصَائِهِ مِنْ سَادَةِ إِيرَانَ حَتَّى اغْتَلَوْا جَبَلًا وَفِي إِثْرِهِ زُهَاءُ مِائَةِ أَلْفِ رِجَالًا وَنِسَاءً يَبْكُونَ وَيَصِيحُونَ. وَانْقَضَى أُسْبُوعٌ ثُمَّ أَشَارَ المَلِكُ إِلَى الثُّبُلَاءِ بِالْإِنْصِرَافِ وَأَوْضَحَ لَهُمْ أَنَّ الطَّرِيقَ عَسِيرٌ جَذَبَ لَا مَاءَ فِيهِ وَلَا عُشْبٍ. فَانْصَرَفَ عَنْهُ رُسُتُمْ وَزَالُ وَجُودِرُزُ، وَسَارَ مَعَهُ الْبَاقُونَ حَتَّى وَصَلُوا إِلَى عَيْنٍ فَتَزَلُّوا إِلَى جَوَارِهَا. ثُمَّ أَخْبَرَهُمُ المَلِكُ أَنَّ بُرُوزَ الشَّمْسِ هِيَ الْإِذْنَانِ بِالْفِرَاقِ. وَلَمَّا حَلَّ الثَّلْجُ الْأَخِيرُ مِنَ اللَّيْلِ، قَامَ المَلِكُ إِلَى الْعَيْنِ فَاغْتَسَلَ وَوَدَّعَهُمْ قَائِلًا لَهُمْ إِنَّ الثَّلْجَ لَا يَلْبِثُ أَنْ يَسُدَّ عَلَيْهِمُ الطَّرِيقَ. وَلَمَّا طَلَعَتِ الشَّمْسُ وَدَّعَهُمْ وَغَابَ عَنْ عَيْنِهِمْ، فَهَامُوا عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي تِلْكَ الْبَيْدَاءِ يَطْلُبُونَهُ وَيَبْكُونَهُ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لَمْ يَعَثُوا لَهُ عَلَى أَثَرٍ. وَلَمَّا كَانَتْ عَوْدَتُهُمْ إِلَى تِلْكَ الْعَيْنِ، غَامَتِ السَّمَاءُ، وَهَبَّتِ الْأَعَاصِيرُ، وَأَمْطَرَتِ السَّمَاءُ جَلِيدًا كَثِيفًا لَمْ يَسْتَطِيعُوا لَهُ دَفْعًا فَدَفِنُوا تَحْتَهُ أَجْمَعِينَ.

وَتُصَوِّرُ المُنْمَنَةَ لَحَظَةً اغْتِيَاءَ المَلِكِ لِهَراسِپَ عَرْشَهُ جَالِسًا فَوْقَ سَرِيرِ المُلْكِ الصِّبْنِيِّ الطَّرَازِ، يُظَلُّهُ سُرَادِقٌ لَا تَظْهَرُ أبعادُ مُسَطَّحَاتِهِ، تَتَوَسَّطُهُ نَافِذَةٌ مُرْتَعَةً الشَّكْلَ عَلَى جَانِبَيْهَا زَخَارِفُ جِدَارِيَّةٌ عَلَى هَيْئَةِ آيَتَيْ زُهْرٍ، وَثَمَّةٌ أَعْمِدَةٌ مُلْتَصِقَةٌ تَحْدُ الْمَنْظَرَ الْمُتَوَسَّطَ وَهُوَ مَكَانُ العَرْشِ وَمَا حَوْلَهُ. وَنَحْنُ نَرَى ضَرْبًا لِهَذِهِ الْأَعْمِدَةِ الْمُلتَصِقَةِ ذَاتِ الرِّكَائِزِ، وَكَذَلِكَ بُنْيَتِي الْعَقْدِ الْمُسَطَّحِ، وَالتَّافِذَةِ الزُّخْرُفِيَّةِ فِي وَسَطِ اللَّوْحَةِ، فِي بَعْضِ الْمَبَانِي التِّمُورِيَّةِ بِجَبَانَةِ شَاوِ زُنْدِهِ بِسَمَرْتُنْد.

وَثَمَّةٌ مُلَاحَظَةٌ هُنَا تَلْتَقِي فِيهَا هَذِهِ المُنْمَنَةُ بِالمُنْمَنَةِ السَّابِقَةِ، وَهِيَ أَنَّ كِلْتَا المُنْمَنَتَيْنِ مَحْدُودَةٌ بِالإِطَارِ الْأَيْمَنِ، أَمَّا مِنَ النَّاحِيَةِ الْيُسْرَى فَلَا يُوجَدُ إِطَارٌ يَحْدُهُمَا وَإِنَّمَا تَسْتَرْسِلُ اللَّوْحَةُ حَتَّى نِهَايَةِ الصَّفْحَةِ، كَمَا أَنَّا نَجِدُ فِي هَذِهِ المُنْمَنَةِ أَنَّ النَّصَّ لَمْ يَسْتَعْرِقْ مِنَ الصَّفْحَةِ إِلَّا بَضْعَ سَنَتِيمَتَاتٍ فِي أَعْلَاهَا، وَتَرَكَ الصَّفْحَةَ كُلَّهَا لِلَّوْحَةِ تَجَلَّى فِيهِ مَا يَشَاءُ مُصَوَّرًا أَنْ تَجَلَّى.

وَثَمَّةٌ تَبَايُنٌ بَيْنَ السَّمَاءِ الزُّرْقَاءِ الْمُرْصَعَةِ بِالنُّجُومِ فَوْقَ الْقُبَّةِ (لَا تَظْهَرُ بِالصُّورَةِ) وَضَوْءِ النَّهَارِ السَّاطِعِ حَيْثُ يَزْكَعُ رِجَالُ الْبَلَاطِ الْأَرْبَعَةِ فِي الْهَامِشِ الْاَيْسَرِ. وَالرَّاجِحُ أَنَّ مِثْلَ هَذَا التَّنَاقُضِ لَمْ يَكُنْ لِيَسْتَعْلِقَ بِالِالمُصَوِّرِ ذِي الْخَيَالِ السَّابِحِ، الَّذِي مَضَى يُضِيفُ عُنْصُرًا بَعْدَ آخَرَ فِي بِنَاءِ لَوْحَتِهِ بِغَضِّ النَّظَرِ عَنِ التَّكْوِينِ الْمُنَظَّفِيِّ.

الْمَعْرَكَةِ أَغْلَبَ مِسَاحَةِ الصُّورَةِ. وَقُرْبَ نِهَايَةِ هَذِهِ الْمِسَاحَةِ مِنْ النَّاحِيَةِ الْيُسْرَى إِلَى أَعْلَى، رَسَمَ الْمُصَوِّرُ شَجَرَةَ دُلْبَ عَظِيمَةِ السَّاقِ غَيْرَ أَنَّ الْإِطَارَ قَطَعَ الْجُزْءَ الْأَعْلَى مِنَ الشَّجَرَةِ كُلِّهِ فَلَمْ يَظْهَرْ مِنْ غُصُونِهَا وَأَوْرَاقِهَا إِلَّا الْجُزْءُ الْأَدْنَى. وَأَسْفَلَ اللَّوْحَةِ إِلَى الْيَسَارِ رَسَمَ الصُّخُورَ الْمَرْجَانِيَّةَ الْمَعْرُوفَةَ تَنُمُو فَوْقَهَا ثَلَاثَ شَجَرَاتٍ دُلْبَ صَغِيرَةِ الْحَجْمِ، وَجَعَلَ لِلسَّمَاءِ الزَّرْقَاءِ الْمِسَاحَةَ الَّتِي تَنْحَصِرُ بَيْنَ أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ وَفُرُوعِ شَجَرَةِ الدُّلْبِ وَالْإِطَارِ السُّفْلِيِّ لِلْمِسَاحَةِ الْمَكْتُوبَةِ، وَأَطْلَقَ فِيهَا الطُّيُورَ الْمُلَوَّنَةَ الْبَدِيعَةَ، بَيْنَمَا وَشَى الطَّرْفَ الْعُلُويَّ الْأَقْصَى لِلْأَرْضِ بِالصُّخُورِ الْمَرْجَانِيَّةِ وَجُذُوعِ الْأَشْجَارِ وَبَعْضَ شَجَرَاتِ الْفَاكِهَةِ، وَوَرَعَ الْفُرْسَانَ عَلَى الْمِسَاحَةِ الْوُسْطَى، وَبَدَأَ الْجَلَادَ وَهُوَ يَحْزِرُ رَأْسَ سِياوِخْشَ بَيْنَمَا يُقَدِّمُ آخَرَ طَرَشْتًا ذَهَبِيًّا يَتَلَقَّى فِيهِ الدَّمَ الْمَسْفُوكَ. وَيَبْدُو أَنَّ الْفُرْسَانَ أَجْمَعِينَ غَيْرَ عَابِتِينَ بِمَا يَحْدُثُ لَا يَنْظُرُونَ إِلَى مَشْهَدِ الْإِعْدَامِ، سِوَى وَاحِدٍ فِي مُقَدِّمَةِ الصُّورَةِ يُولِنَا ظَهْرَهُ، لَا تَبَيَّنَ إِنْ كَانَ يَنْظُرُ إِلَى الْجَرِيمَةِ وَهِيَ تَقَعُ أَوْ يَنْظُرُ فِي اتِّجَاهِ آخَرٍ. وَبِالرَّغْمِ مِنَ الْوَحْشِيَّةِ الَّتِي تُوحِي بِهَا الْقِصَّةُ انْصَرَفَ اهْتِمَامُ الْفَنَّانِ إِلَى رَسْمِ الزُّهُورِ الْيَانِعَةِ، وَخَفَقَاتِ أَجْنِحَةِ الطَّيْرِ الْمُتَهَيِّجَةِ وَالَّتِي كَانَ أَوَّلَى بِهَا أَنْ تَصْرُخَ هَلْعًا. وَاللَّوْحَةُ لَا تُثِيرُ فِي نَفْسِ الْمُشَاهِدِ قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا مِنَ التَّمَرُّقِ الْمُتَوَقَّعِ مِنْ مَشْهَدٍ مَأْسَاوِيٍّ فَاجِعٍ وَإِنْ أَثَارَتْ فِيهِ إِحْسَاسًا بِمَا تَرُخِرُ بِهِ مِنْ جَمَالِ زُخْرَفِيٍّ.

وَقَدْ صُوِّرَتِ السَّمَاءُ الدَّاكِنَةُ الزَّرْقَاءُ الْمُبْدَدَةُ بِالسُّحُبِ بِأُسْلُوبٍ وَاقِعِيٍّ ظَهَرَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي الْمَدْرَسَةِ الْجَلَائِيَّةِ عَامَ ١٣٨٠. أَمَّا تِلْكَ الشَّجَرَةُ الضَّخْمَةُ إِلَى يَسَارِ الْمُنْمَنَةِ فَتُرْصَعُ لِجَاهِهَا الْعُقْدُ الْمَرْسُومَةُ بِإِقْتِنَانٍ وَعَنَايَةٍ، وَهِيَ إِحْدَى قَسَمَاتِ الْمُنْمَنَاتِ فِي عَهْدِ بَايَسَقَرٍ. وَيُرْتَدِّي الْمُحَارِبُونَ وَكَذَلِكَ سِياوِخْشُ دُرُوعًا بِرَاقَةٍ وَجَعَبَاتِ سِيَهَامٍ وَكِنَانَاتِ أَقْوَاسٍ مُزْرَكَّةَةٍ بِطُرْفٍ صِينِيَّةٍ مُذَهَّبَةٍ.

وَتُرْوَى الْأُسْطُورَةُ أَنَّ كِيكاوسَ سَارَ لِيَغْزُو مازَنْدَرَانَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى مَوْضِعٍ تَأْوِي إِلَيْهِ الشَّيَاطِينُ، فَأَمَرَ جُنْدَهُ بِقَتْلِ كُلِّ مَنْ فِي الدِّيَارِ حَتَّى بَدَتْ الْمَدِينَةُ كَأَنَّهَا جَنَّةُ الْفُزْدُوسِ فَاسْتَطَابَ الْمَكَانَ وَأَقَامَ فِيهِ. وَانْتَهَى الْخَبَرُ إِلَى مَلِكِ مازَنْدَرَانَ وَكَانَ عِنْدَهُ جَنِّيٌّ دَاهِيَةٌ فَأَوْفَدَهُ إِلَى مَلِكِ الْجِنِّ سَيِيدِ دِيوٍ يَطْلُبُ مِنْهُ الْعَوْثَ. فَاسْتَجَابَ لِتَوْسَلِهِ وَأَطْبَقَ عَلَى الْإِيرَانِيِّينَ إِطْبَاقَ السَّحَابِ الْأَسْوَدِ وَمَلَأَ بِالظُّلُمَاتِ جَمِيعَ الْأَفْطَارِ حَتَّى صَارَتْ كَأَنَّهَا بَحْرٌ مِنَ الْقَارِ، وَلَمْ يَعُدْ الْمَلِكُ كِيكاوسَ وَلَا عَسْكَرَهُ يُبْصِرُونَ شَيْئًا وَانْطَلَقَ الْجِنُّ يَأْسِرُونَ وَيَهْبُونَ حَتَّى أَتَوْا عَلَى خَزَائِنِهِمْ. وَتَرَكَهُمْ سَيِيدُ دِيوٍ يَخْتَبِطُونَ فِي الظُّلُمَاتِ لَا يَرَوْنَ قَمَرًا وَلَا شَمْسًا وَأَوْكَلَ لِجِرَاسَتِهِمْ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا مِنَ الشَّيَاطِينِ غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَأْمُرْ بِقَتْلِ أَحَدٍ مِنْهُمْ حَتَّى يُذِيقَهُمُ الدُّلَّ وَيَعْرِفُوا هَوَانَ أَقْدَارِهِمْ وَيَكُونُوا عِبْرَةً لغيرِهِمْ. وَإِذْ تَرَامَى التَّبَأُ إِلَى

الْمَلِكِ زَالَ أَمْرُ ابْنِهِ رُسْتَمُ بِالْمَسِيرِ لِيُنْثَرِ لِلْمَلِكِ كِيكاوسَ مِنَ الشَّيَاطِينِ. وَمَضَى رُسْتَمُ فِي طَرِيقٍ وَعَرَةً تَزْنَعُ فِيهَا السَّبَاعُ وَالصُّوَارِي وَالْأَفَاعِي وَالشَّيَاطِينُ، وَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَجْتَازَ عَقَبَاتِ سَبْعٍ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى كِيكاوسَ، آخِرُهَا التَّغْلُبُ عَلَى الْمَلِكِ أَوْلَادُ الَّذِي سَأَلَهُ حِينَ التَّقَى بِهِ: كَيْفَ تَجْرُؤُ عَلَى أَنْ تَطَّأَ هَذِهِ الْبِلَادَ وَمَنْ تَكُونُ؟ قَالَ أَنَا الَّذِي لَوْ نُقِشَ اسْمِي عَلَى الْأَرْضِ لَأَنْبَتَتْ سُبُوقًا وَأَسِنَّةً، وَإِنْ مَرَّ ذِكْرِي عَلَى سَمْعِكَ لَتَقَطَّعْتَ أَنْفَاسَكَ، وَإِنْ كُلُّ أُمَّ تِلْدِ ابْنًا وَمِثْلِكَ أَسْمِيهَا النَّاحِيَةُ الثَّكَلِي، ثُمَّ حَمَلَ عَلَيْهِ كَالْأَسَدِ فَتَسَاقَطَتْ رُؤُوسُ أَصْحَابِ أَوْلَادِ تَسَاقَطَ أَوْرَاقُ الْخَرِيفِ وَهَرَبَ أَوْلَادُ فَلَحَقَ بِهِ رُسْتَمُ وَقَبَضَ عَلَيْهِ وَشَدَّ وَثَاقَهُ ثُمَّ وَعَدَهُ بِأَنْ يُؤْلِيَهُ بِلَادَ مازَنْدَرَانَ لَوْ ذَلَّ عَلَى مَقَرِّ سَيِيدِ دِيوٍ مَلِكِ الْجِنِّ فَطَلَبَ مِنْهُ الْأَمَانَ فَأَمَّنَهُ. وَرَوَى أَوْلَادُ لِرُسْتَمُ أَنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَوْضِعِ الَّذِي حُيِّنَ فِيهِ كِيكاوسَ مِائَةَ فَرَسَخٍ تَلِيهَا مِائَةُ فَرَسَخٍ أُخْرَى حَتَّى مُسَقَّرَ مَلِكِ الْجِنِّ وَسَارَا حَتَّى بَلَغَا مَعْسَكَ كِيكاوسَ، فَلَمَّا انْتَصَفَ اللَّيْلُ سَمِعَ صَيْحًا عَظِيمًا وَرَأَى نِيرَانًا مُوقَدَةً وَلَمَّا سَأَلَهُ عَنِ الْخَبَرِ أَجَابَهُ بِأَنْ هَؤُلَاءِ هُمْ قَادَةُ مَلِكِ الْجِنِّ وَعَسْكَرُهُمْ وَأَنَّهُمْ لَا يَنَامُونَ ثُلْثِي اللَّيْلِ لِيَحْرُسُوا أَبْوَابَ مازَنْدَرَانَ. فَنَامَ رُسْتَمُ، وَلَمَّا طَلَعَتِ الشَّمْسُ شَدَّ وَثَاقَ أَوْلَادِ وَرَبَطَهُ بِشَجَرَةٍ وَازْتَدَى مَلَابِسَهُ وَحَمَلَ سِلَاحَهُ وَقَصَدَ إِلَى قَائِدِ الْجِنِّ وَحَمَلَ عَلَيْهِ وَأَنْشَبَ بَرَانِيَهُ فِي عُقْبِهِ وَاقْتَلَعَ رَأْسَهُ. فَلَمَّا رَأَى الْجِنُّ ذَلِكَ خَافُوا وَتَفَرَّقُوا بَعْدَ أَنْ أَعْمَلَ فِيهِمْ رُسْتَمُ السَّيْفَ. وَحَلَّ رُسْتَمُ وَثَاقَ أَوْلَادِ وَسَأَلَهُ عَنْ مَوْضِعِ كِيكاوسَ فَتَقَدَّمَ رَاجِلًا يَدْلُهُ عَلَى الطَّرِيقِ حَتَّى دَخَلَ الْمَدِينَةَ فَخَرَّ رُسْتَمُ سَاجِدًا بَيْنَ يَدَيْ كِيكاوسَ الَّذِي عَانَقَهُ وَأَكْرَمَهُ وَأَمَرَهُ بِأَنْ يُهَاجِمَ سَيِيدَ دِيوٍ فِي مَغَارَتِهِ وَيَقْتُلَهُ وَيَشْقِ خَاصِرَتَهُ وَيُخْرِجَ كَبِدَهُ لِأَنَّ الطَّبِيبَ أَبْلَغَهُ بِأَنْ بَصَرَهُ لَنْ يَرُدَّ إِلَيْهِ حَتَّى يَكْتَجِلَ بِدَمِ ذَلِكَ الْكَبِدِ. وَكَانَ عَلَى رُسْتَمُ أَنْ يَجْتَازَ سَبْعَةَ جِبَالٍ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى تِلْكَ الْمَغَارَةِ. وَهُنَا قَالَ لَهُ أَوْلَادُ إِنَّ الْجِنِّ يَنَامُونَ إِذَا حَمِيَتْ الشَّمْسُ فَلَا يَبْقَى عَلَى بَابِ الْمَغَارَةِ إِلَّا قَلِيلٌ مِنَ الْخُرَاسِ. وَلَمَّا كَانَ الضُّحَى شَدَّ رُسْتَمُ وَثَاقَ أَوْلَادِ وَرَبَطَهُ بِشَجَرَةٍ وَاقْتَحَمَ جَمْعُ الشَّيَاطِينِ يَضْرِبُ رِقَابَهُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا حَتَّى وَصَلَ إِلَى بَابِ الْمَغَارَةِ فَوَجَدَهَا تَغْصَنَ بِالظُّلُمَاتِ فَافْتَحَهَا مُمْتَطِيًا جَوَادَهُ «رَخَشَ»، فَحَجَبَتِ الظُّلْمَةُ نَظْرَهُ فَمَسَحَ بِأَلْمَاءِ عَيْنَيْهِ وَهَبَطَ الْمَغَارَةَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى مَلِكِ الْجِنِّ فَرَأَى وَجْهًا كَاللَّيْلِ الْبَهِيمِ يَتَلَهَّبُ كَالْجَحِيمِ وَشَعْرًا أَبْيَضَ أَشْعَثَ. وَمَا إِنَّ لَمَحَ رُسْتَمُ حَتَّى وَثَبَ إِلَيْهِ فَرَفَعَ رُسْتَمُ سَيْفَهُ وَضَرَبَهُ ضَرْبَةً أَطَارَ بِهَا سَاقَهُ فَأَمْسَكَ الْجِنُّ بِسَاقِهِ الْمَقْطُوعَةِ وَاسْتَمَرَّ فِي صِرَاعِهِمَا حَتَّى غَلَبَهُ رُسْتَمُ وَاسْتَلَّ خِنْجَرًا مِنْ وَسْطِهِ وَشَقَّ بِهِ خَاصِرَتَهُ وَاسْتَخْرَجَ كَبِدَهُ فَأَمْتَلَأَتِ الْمَغَارَةَ بِدَمِهِ وَأَسَدَّ الطَّرِيقَ لِعِظَمِ جُثَّتِهِ. وَخَرَجَ رُسْتَمُ مُظْفَرًا فَحَلَّ رِبَاطَ أَوْلَادِ وَدَفَعَ إِلَيْهِ بِكَبِدِ الْجَنِّيِّ وَسَارَ إِلَى كِيكاوسَ الَّذِي اكْتَحَلَ بِقَطَرَاتٍ مِنْ دَمِ

الكيد فعاد إليه بصره.

ولا تطابق المُنَمَّة (لَوْحَة ١٧٩م) النَّصَّ الشَّعْرِيَّ تَمَامًا إِذْ صُوِّرَ أَسْفَنْدِيَارٌ وَهُوَ يَقْتُلُ أَرْجَاسَ عَلَى عَتَبَةِ عَرْشِهِ عَلَى مَرَأَى مِنْ بَعْضِ أَتْبَاعِهِ. وَفِي وَسْطِ اللَّوْحَةِ نَرَى شَقِيقَتِي أَسْفَنْدِيَارَ أُسِيرَتَيْنِ يَقِفُ الْحُرَّاسُ عَنْ كَتَبٍ مِنْهُمَا. وَنَلَحَظُ الْبَرَاةَ فِي هَذَا التَّكْوِينِ نَظَرًا لِاخْتِيَارِ الْمُصَوِّرِ نُقْطَةَ مُشَاهَدَةٍ شَدِيدَةٍ الِازْتِفَاعِ لِيَكْشِفَ عَنِ الْحِصْنِ مِنَ الدَّاخلِ مُبَيَّنًا فِي الْوَقْتِ عَيْنَهُ الْجُدْرَانِ الْمُزْدَوِجَةِ وَالْأَبْرَاجَ الْمُحِيطَةَ بِهَا، وَهِيَ مَا اضْطَلَحَ عَلَى تَسْمِيَتِهِ بِ«نَظَرَةِ الطَّائِرِ». وَقَدْ زُيِّنَ الْمَبْنَى بِكُلِّ مَا تَفَقَّتَ عَنْهُ عِبَرِيَّةُ الْعَهْدِ التَّيْمُورِيِّ الْمُبَكَّرِ مِنْ زَخَارِفِ قَوَالِبِ الْقَرْمِيدِ ذَاتِ الثَّقُوشِ الْبَدِيعَةِ بِالْخَطِّ الْكُوفِيِّ وَالثُّلُثِ. وَأَكْثَرُ الزَّخَارِفِ مِنْ بَلَاطَاتِ الْقَاشَانِيِّ، عَلَى حِينٍ يَكْسُو الْجِدَارَ الْخَارِجِيَّ لَوْنٌ وَاحِدٌ فَوْقَ أَلْوَاكِ مِنَ الْقَاشَانِيِّ تَعْلُوها طُنْفُ ذَاتِ خَرَجَاتٍ وَدَخَلَاتٍ. وَقَدْ يَكُونُ مِنَ الْعَسِيرِ الدِّفَاعِ عَنْ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ فِي رَسْمِ الْمَنْظُورِ عِلْمِيًّا، غَيْرَ أَنَّ الْخُطُوطَ الرَّأْسِيَّةَ الْمُسْتَنِدَةَ عَلَى الْخُطُوطِ الْأَفْقِيَّةِ تَجْعَلُ التَّكْوِينِ كُلَّهُ مُتَمَايِكًا تَمَايِكًا يُرِيحُ الْعَيْنَ. وَقَدْ تَوَصَّلَ الْمُصَوِّرُ إِلَى هَذَا التَّكْوِينِ بِأَنْ اتَّبَعَ خَلًّا وَسَطًا فَجَعَلَ الْخُطُوطَ الْأَفْقِيَّةَ تَنْحَرِفُ صَاعِدَةً فِي اتِّجَاهِ الْيَسَارِ لِإِلْجَاءِ بِفِكْرَةِ الْعُمُقِ وَالِامْتِدَادِ إِلَى دَاخِلِ الْقَصْرِ وَإِلَى أَعْمَاقِ الصُّورَةِ. كَذَلِكَ يَتَبَيَّنُ لَنَا أَنَّ الاسْتِطَالَهَ الرَّأْسِيَّةَ لِهَذِهِ الْمُنَمَّةَ لَهَا أَهْمِيَّةٌ كُبْرَى تُسَبِّغُ الْاسْتِقْرَارَ وَالتَّوَاوُنَ عَلَى اللَّوْحَةِ وَتَلْمَّ شَمْلَ جَمِيعِ عَنَاصِرِهَا. وَمَا مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ هَذِهِ الْمُنَمَّةَ وَاحِدَةٌ مِنْ أَبْرَعِ التَّكْوِينَاتِ الْمِعمَارِيَّةِ فِي تَارِيخِ فَنِّ التَّصْوِيرِ الْفَارِسِيِّ كُلِّهِ، فَهِيَ غَيْرُ عَادِيَّةٍ فِي اسْتِخْدَامِهَا هَذَا «التَّصْمِيمِ» الْمِعمَارِيِّ الْمُعَقَّدِ. وَأَهَمُّ مَا يَلْفُتُنَا هُوَ التَّبَايُنُ بَيْنَ السُّكُونِ الْهَامِدِ وَالْحَرَكَةِ الدِّرَامِيَّةِ يُعَزِّزُهُ اسْتِخْدَامُ الْغَرِيبِ لِأَسْلُوبِ شِبْهِ الْمَنْظُورِ، وَكَذَلِكَ الْقُدْرَةُ الْبَارِعَةُ عَلَى تَصْوِيرِ الْقَلْعَةِ مِنَ الْخَارِجِ وَالِدَاخِلِ مَعًا. فَكُلُّ مَا يَدَاخِلُ الْقَاعَاتِ ظَاهِرٌ وَكَأَنَّ الْمُصَوِّرَ قَدْ سَجَّلَ مَا وَقَعَ عَلَيْهِ بَصَرُهُ وَهُوَ يَدَاخِلُهَا. كَذَلِكَ رُسِمَتِ الْقَلْعَةُ مِنَ الْخَارِجِ بِأَسْوَارِهَا وَنَوَافِذِهَا وَأَبْوَابِهَا وَفَنَائِهَا وَالْحَنْدِيقَ الْمُحِيطَ بِهَا وَأَشْجَارِهَا وَكَأَنَّ الْمُصَوِّرَ يُسَجِّلُ الْمَشْهَدَ مِنَ الْخَارِجِ، بَعْدَ أَنْ شَفَّتِ الْجُدْرَانُ عَمَّا وَرَاءَهَا.

وَتَرَوِي الشَّاهَنَامَةُ أَنَّ رُسْتَمَ قَتَلَ أَسْفَنْدِيَارَ بِسَهْمٍ مَقْطُوعٍ مِنْ شَجَرَةِ الطَّرْفَاءِ رَكَّبَ عَلَيْهِ نَصْلًا عَتِيقًا وَفَقَى نَصِيحَةَ «السَّيْمَرِغ»، إِلَّا أَنَّهُ سُرِعَانَ مَا لَقِيَ حَتْفَهُ هُوَ الْآخِرُ إِثْرَ تَأَمُّرِ أَخِيهِ شَغَاذَ مَعَ مَلِكِ كَابُلِ فَسَقَطَ هُوَ وَأَخُوهُ زَوَارَهُ فِي كَمِينٍ مَلِيٍّ بِالنِّصَالِ أَخْفِيٍّ فِي أَجْمَةِ الصَّيْدِ. غَيْرَ أَنَّ رُسْتَمَ قَبِلَ أَنْ يَلْفِظَ آخِرَ أَنْفَاسِهِ أَطْلَقَ سَهْمًا عَلَى أَخِيهِ شَغَاذَ نَفَذَ فِيهِ فَخَاطَهُ فِي شَجَرَةِ دُلْبٍ مُجَوِّفَةٍ. وَسَارَ فَرَاوِزُ بْنُ رُسْتَمَ عَلَى رَأْسِ جَيْشٍ كَثِيفٍ وَنَقَلَ جُثَّتَهُ إِلَى زَابُلِسْتَانِ حَيْثُ بَنَوْا لَهُ فِي بُسْتَانِهِ نَازُوسًا عَظِيمًا وَضَعُوا فِيهِ التَّابُوتَ تَحْتَ

وَقَدْ اخْتَارَ الْمُصَوِّرُ مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ لَحْظَةً الصَّرَاعِ الدَّامِي بَيْنَ رُسْتَمَ وَسَيِّدِ دِيو (لَوْحَة ١٧٨م). وَنُلَاحِظُ فِي هَذِهِ اللَّوْحَةِ أَنَّ النَّصَّ الْمَكْتُوبَ يَشْغُلُ مِسَاحَةً ضَخِيمَةً مُسْتَطِيلَةً فِي أَعْلَى الصَّفْحَةِ وَمِسَاحَةً مُمَازِلَةً فِي أَسْفَلِهَا. وَيَحْدُ اللَّوْحَةِ إِطَارٌ مِنْ جَانِبَيْهَا الْأَيْسَرِ، أَمَّا الْجَانِبُ الْأَيْمَنُ فَمُنْطَلَقٌ لَا يَحْدُهُ إِطَارٌ. وَفِي الصَّدَادَةِ وَفِي مُتَوَسِّطِ اللَّوْحَةِ تَقْرِبًا اخْتَارَ الْمُصَوِّرُ أَنْ يَرَسُمَ الْمَغَارَةَ وَلَوْنُهَا بِاللَّوْنِ الْأَسْوَدِ، وَفِي وَسْطِهَا صِرَاعٌ يَدُورُ بَيْنَ رُسْتَمَ الَّذِي أَمْسَكَ بِقَرْنِ مَلِكِ الْجَانِ وَأَعْمَدَ خَنْجَرَهُ فِي صَدْرِهِ، يَتِمَّا يَتَهَاوَى مَلِكُ الْجَانِ وَقَدْ أَمْسَكَ بِسَاقِهِ الْمُبْتُورَةَ فِي يَدِهِ. وَنَرَى خَارِجَ الْمَغَارَةِ الصُّخُورَ الْمَرْجَانِيَّةَ الْمُعْتَادَةَ وَقَدْ حَقَلَتْ بِهَا اللَّوْحَةُ كُلُّهَا تَقْرِبًا، يَتِمَّا تَنَازَلَتْ أَشْجَارُ الدُّلْبِ وَسَطَ تِلْكَ الصُّخُورِ. وَإِلَى التَّاحِيَّةِ الِئِمْنَى نَرَى شَجَرَةً دُلْبٍ كَبِيرَةً وَقَدْ رُبطَ إِلَيْهَا أَوْلَادُ مُسْتَكِينًا، يَتِمَّا يَقِفُ عَنْ كَتَبٍ مِنْهُ «رَخْش» جَوَادَ رُسْتَمَ الْوَفِيِّ. وَعَلَى سَاقِ شَجَرَةٍ انْتَشَرَتْ بِهَا الْعُقَدُ، عَلَقَ رُسْتَمَ جَعَبَةً سِيَهَامَهُ وَقَدْ لَوْنَتْ بِاللَّوْنِ الْأَسْوَدِ وَعَلَيْهَا زَخَارِفُ مُذَهَّبَةٌ تَرْمِزُ لِلْعَقَاءِ وَتُحَاكِي الْذَلَالَةِ الْبَائِيَّةَ.

وَقَدْ رَسَمَ الْمُصَوِّرُ الْجَبَلَ الَّذِي يَضُمُّ الْمَغَارَةَ مُسْتَحْدِمًا مُصْطَلَحِينَ مِنْ مُصْطَلَحَاتِ الْأَسْلُوبِ التَّيْمُورِيِّ فِي التَّعْبِيرِ عَنِ الرُّبَى الصُّخْرِيَّةِ، أَحَدَهُمَا الرُّبُوءُ ذَاتِ الْقِمَمِ الْإِسْفَنْجِيَّةِ الْمُمَازِلَةِ لِلشَّعْبِ الْمَرْجَانِيَّةِ، وَالْآخَرُ الطَّبَقَةُ الْمُتَكَسِّرَةُ وَكَأَنَّهَا قَوَالِبُ الْأَجْرِ، وَهَذَا شَيْءٌ مِنْ صَمِيمِ طَبِيعَةِ جِبَالِ لُورِسْتَانِ. وَيُعَدُّ هَذَا التَّكْوِينُ مِنْ أَنْجَحِ التَّكْوِينَاتِ فِي هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ، إِذْ أَعْرَبَ الْمُصَوِّرُ عَنْ إِحْسَاسٍ عَمِيقٍ بِالْفَرَاغِ وَتَصَوَّرَ مَرَهَفَ لِأَرْضِ الْخِيَالِ، عَلَى حِينٍ تَرَبُّطُنَا شَجَرَةَ الدُّلْبِ الَّتِي شُدَّ إِلَيْهَا أَوْلَادُ بِمِقْيَاسِهَا الْمُغَايِرِ لِعَالَمِ الْإِنْسَانِ، كَمَا تَسْتَرَعِينَا سِيَقَانُ الْأَشْجَارِ ذَاتِ الْأَلْوَانِ الْخَالِبَةِ وَقَدْ حَزَّ أَعَالِيهَا النَّصَّ الْعُلُويَّ الْمَكْتُوبَ.

وَتَرَوِي لَنَا إِحْدَى قِصَايِدِ الشَّاهَنَامَةِ كَيْفَ تَنَكَّرَ أَسْفَنْدِيَارُ فِي زِيٍّ تَاجِرٍ وَأَخْفَى عَدَدًا مِنْ أَتْبَاعِهِ الْمُخْلِصِينَ فِي غِرَارَاتٍ مَحْمُولَةٍ عَلَى جِمَالٍ قَافِلَتِهِ لِيَحْصَلَ عَلَى إِذْنٍ يَدْخُلُ قَلْعَةَ أَرْجَاسِ الْمَنِيعَةِ الَّتِي دُقَّ أَاسَاسُهَا تَحْتَ سَطْحِ الْمَاءِ ثُمَّ ارْتَفَعَتْ مَبَانِيهَا حَتَّى طَاوَلَتْ عَنَانَ السَّمَاءِ. وَمَا لَبِثَ أَسْفَنْدِيَارُ بَعْدَ أَنْ دَخَلَ الْقَلْعَةَ حَتَّى اكْتَسَبَ ثِقَةً أَرْجَاسَ فَسَمَحَ لَهُ بِأَنْ يُقِيمَ وَلِيمَةً لِكِبَارِ رِجَالِ الْحَرَسِ الْمَلِكِيِّ. وَكَانَتِ التَّيْرَانُ الَّتِي أَوْقَدَهَا لِلْوَلِيمَةِ هِيَ الْإِشَارَةُ الْمُتَّفَقُ عَلَيْهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ جُنُودِهِ الْمُخْتَبَرِينَ فِي الْغِرَارَاتِ لِيَبْدَأُوا هُجُومَهُمْ. وَبَيْنَمَا كَانَ الْمُدَافِعُونَ يَتَّخِذُونَ أَهْبَتَهُمْ لِرَدِّ الْهُجُومِ، تَسَرَّبَلِ أَسْفَنْدِيَارُ بِثَرَسِهِ وَمَضَى مُفْتَحِمًا قَصْرَ أَرْجَاسَ.

رَقَّتْ قُلُوبُهُنَّ لَهَا فَاحْتَلْنَ حَتَّى تَرَاهُ وَذَهَبْنَ إِلَى بُسْتَانٍ قَرِيبٍ مِنْ خِيَامِ دِسْتَانٍ تَحْمِلُ كُلُّ مِنْهُنَّ طَبَقًا مِنْ ذَهَبٍ يَجْمَعْنَ فِيهِ الْوَرْدَ، فَلَمَّا رَأَيْنَ دِسْتَانَ عَبَرَ النَّهْرَ سَأَلَ عَنْهُنَّ فَعَلِمَ أَنَّهُنَّ مِنْ جَوَارِي رُودَابِهِ، فَخَرَجَ إِلَى شَاطِئِ النَّهْرِ وَأَطْلَقَ سَهْمًا أَوْقَعَ بِهِ طَيْرًا عَلَى الْجَانِبِ الْآخَرَ مِنَ النَّهْرِ. وَأَمَرَ غُلَامًا مِنْ أَتْبَاعِهِ بِأَنْ يَعْبُرَ لِيَأْتِيَهُ بِهِ حَيْثُ قَابَلَ الْجَوَارِي، فَسَأَلَتْهُ إِحْدَاهُنَّ عَمَّنْ يَكُونُ هَذَا الْمَلِكُ الْجَمِيلُ الطَّلَعَةُ فَأَخْبَرَهُنَّ بِأَنَّهُ دِسْتَانُ ابْنِ مَلِكِ الْهِنْدِ، فَأَسْرَتِ إِلَيْهِ الْجَارِيَةَ بِأَنَّ خَلْفَ هَذِهِ الْحُجُبِ أَمِيرَةٌ كَالْقَمَرِ لَيْلَةً اِكْتِمَالَهُ وَقَالَتْ إِنَّ لَذِيهَا سِرًّا لَا تَبُوحُ بِهِ إِلَّا إِلَى الْأَمِيرِ. وَلَمَّا نَقَلَ الْغُلَامُ هَذَا الْحَدِيثَ إِلَى الْأَمِيرِ عَبَرَ النَّهْرَ إِلَى الْبُسْتَانِ وَاخْتَلَى بِالْجَارِيَةِ وَأَفْضَى إِلَيْهَا بِمَكْنُونِ سِرِّهِ فَصَارَتْهُ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ رُودَابِهِ وَهِيَامِهَا بِهِ، وَتَنَابَعَتِ الرِّسَالُ بَيْنَ الْعَاشِقَيْنِ حَتَّى تَوَاعَدَا عَلَى الْلِقَاءِ. وَلَمَّا جَنَّ اللَّيْلُ عَبَرَ دُسْتَانٌ إِلَى قَصْرِ الْأَمِيرَةِ دَاخِلَ الْبُسْتَانِ وَوَقَفَ تَحْتَ شَرْفَتِهَا وَأَلْفَى بِخُطَافٍ مَرْبُوطٍ بِهِ حَبْلٌ نَحْوَ السُّورِ الْمُحَصَّنِ لِلْقَصْرِ فَأَنْشَبَ بِهِ الْخُطَافُ وَتَدَلَّى مِنْهُ الْحَبْلُ فَتَسَلَّقَهُ حَتَّى بَلَغَ مَكَانَهَا. وَطَالَ بَيْنَهُمَا الْحَدِيثَ وَالسَّمَرَ وَبَانَا يَتَنَاجِيَانِ الشُّوقَ وَلَوْعَةَ الْهِيَامِ وَالْفِرَاقَ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ فَافْتَرَقَا مُتَعَاهِدِينَ عَلَى آلَا يَقْرَبُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ حَتَّى يَجْمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمَا بِالزَّوْاجِ.

وَقَدْ صَوَّرَ الْفَتَانُ فِي لَوْحَةٍ لِقَاءَ زَالٍ بِرُودَابِهِ (لَوْحَةٌ ١٨١م) قَصْرًا عَلَى الطَّرَازِ التِّمُورِيِّ لَهُ جُدرانٌ مِنَ الْقَرْمِيدِ، كَمَا رَسَمَ سَجَادَةُ مَبْسُوطَةٌ فَوْقَ الْمِنْصَةِ الَّتِي جَلَسَ عَلَيْهَا الْعَاشِقَانِ، وَفَوْقَ مَائِدَةٍ ذَهَبِيَّةٍ قَنَانٍ وَكُؤُوسٍ ذَهَبِيَّةٍ. وَثَمَّةٌ جَوَارٍ خَمْسٌ هُنَّ الْجَوَارِي الْخَمْسُ التُّرْكِيَّاتِ اللَّاتِي رَتَبْنَ هَذَا الْلِقَاءَ، اثْنَتَانِ مِنْهُنَّ يَعْرِفْنَ الْمَوْسِقَى بَيْنَمَا تُقَدِّمُ الثَّلَاثُ الْأَخْرِيَّاتُ الطَّعَامَ فَوْقَ الصُّحُوفِ.

وَتُعَدُّ هَذِهِ الْمُنْمَنَةُ إِحْدَى الْمُنْمَنَاتِ الْمُبَكَّرَةِ فِي هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ، فَالْلُّونُ الْبُرْتُقَالِي لِقَرْمِيدِ الْجُدرانِ وَاللُّونُ الْأَخْضَرُ الْفَاتِحِ الَّذِي يَكْسُو السُّورَ الْخَارِجِيَّ، يَتَّفِقُ مَعَ التَّكْوِينِ الْمَأْلُوفِ فِي مَخْطُوطَاتِ عَهْدِ بَايَسْتَقَرِ الْمُبَكَّرَةِ عَامَ ١٤٢٦. وَقَدْ كُتِبَ حَوْلَ السُّورِ الْمُحِيطِ بِالْقَصْرِ بِالْعَرَبِيَّةِ «أَمَرَ بَيْنَا هَذِهِ الْعِمَارَةَ السُّلْطَانُ الْأَعْظَمُ وَالْخَاقَانُ الْأَعْدَلُ وَالْأَكْرَمُ غِيَاثُ السُّلْطَنَةِ وَالذِّينُ وَالذُّنْيَا بَايَسْتَقَرُّ بِبَهَادَرِ خَانَ خَلَّدَ اللَّهُ مُلْكَهُ».

وَقَدْ أَجَادَ الْفَتَانُ تَصْوِيرَ الشُّخُوصِ، وَرَسَمَ الْعِمَارَةَ بِأُسْلُوبٍ مَبْسُوطٍ عَلَى غِرَارِ مَدْرَسَةِ التَّصْوِيرِ الْجَلَائِرِيَّةِ عَامَ ١٣٩٦. وَجَاءَتْ تَصْصِيْمَاتُ زَخَارِفِ الْجُزْءِ الْأَدْنَى مِنَ الْجِدَارِ وَالسَّجَادَةِ وَالْمِنْصَةِ مُطَابِقَةً تَمَامًا لِمَا جَرَتْ عَلَيْهِ التَّقَالِيدُ التَّصْوِيرِيَّةُ قَبْلَ ذَلِكَ بِأَرْبَعَةِ وَثَلَاثِينَ عَامًا، وَلَمْ يَطْرَأْ أَيْ تَغْيِيرٌ إِلَّا عَلَى ثِيَابِ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ. وَأَمَّا اخْتِفَاءُ الْجُزْءِ الْأَعْلَى مِنَ الْحُجْرَةِ فَهُوَ أُسْلُوبٌ جَرِيءٌ لَمْ يَجَسِرْ

تَحْتَ مِنَ الذَّهَبِ وَسَلُّوْا بَابَهُ، وَدَفَنُوا جَوَادَهُ رَخَشَ كَذَلِكَ إِلَى جَوَارِهِ، وَأَقِيَمَتِ الْمَائِمَةُ فَلَا يَكَادُ يُسْمَعُ فِي زَابِلِسْتَانٍ كُلِّهَا غَيْرُ الْعَوِيلِ وَالنَّحِيبِ.

وَفِي لَوْحَةٍ فَرَامِزٍ حَزِينًا أَمَامَ نَعْشِيٍّ أَبْيَهُ رُسْتَمُ وَعَمَهُ زَوَارِهِ (لَوْحَةٌ ١٨٠م) نَرَى مَبْنًى ذَا قُبَّةٍ شَبِيهَا بِالْأَضْرَحَةِ، وَقَدْ كُتِبَ أَغْلَاهُ وَحَوْلَ السُّورِ الْمُحِيطِ بِالْفِنَاءِ الْخَارِجِيِّ عِبَارَاتٌ عَرَبِيَّةٌ صُوفِيَّةٌ مِنْهَا عِبَارَةُ «الْمَوْتُ بَابُ وَكُلِّ النَّاسِ دَاخِلُهُ»، كَمَا نَرَى حَاشِيَةَ فَرَامِزٍ فِي انْتِظَارِ خُرُوجِهِ وَخَلْفَ الْبَابِ سَائِسُهُ يُمْسِكُ بِرِمَامِ جَوَادِهِ.

وَقَدْ تَلَفَّتْنَا فِي هَذِهِ اللَّوْحَةِ تِلْكَ الزَّخْرَفَةُ الَّتِي جَرَتْ عَلَى غَيْرِ مَا تَقْضِي بِهِ تَقَالِيدُ الْإِسْلَامِ الَّذِي يُحَرِّمُ إِقَامَةَ الْمَدَافِنِ الْأَنْيَقَةِ، وَإِنْ جَرَتْ الْعَادَةُ فِي عُصُورٍ مُتَأَخِّرَةٍ نَوْعًا عَلَى إِلْحَاقِ الْمَدْفَنِ بِمَسْجِدٍ أَوْ مَدْرَسَةٍ وَتَشْيِيدُ بَهْوٍ فَخْمٍ لِلْمَدْفَنِ، وَهُوَ مَا نَرَاهُ فِي جَبَانَةِ شَاوِ زَنْدِهِ بِسَمَرْقَنْدٍ وَبِمَدَافِنِ الْمَمَالِكِ الْمُلْحَقَةِ بِالْمَسَاجِدِ وَالْمَدَارِسِ بِالْقَاهِرَةِ.

وَكَانَ سَامُ بْنُ نَرِيْمَانَ بَهْلَوَانُ الْعَالَمِ فِي عَهْدِ مَنْوَجَهْرِ يَنْتَهِلُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَهَبَهُ وَلَدًا يَكُونُ قُرَّةَ لَعَيْنِهِ وَسَدًّا. وَقَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ لِدُعَائِهِ فَحَمَلَتْ مِنْهُ إِحْدَى جَوَارِيهِ وَوَضَعَتْ ذَكَرًا جَمِيلَ الصُّورَةِ أَسْمَاهُ زَالًا، غَيْرَ أَنَّ شَعْرَهُ كَانَ يَشْتَعِلُ شَيْئًا كَرُؤُوسِ الشُّبُوحِ. وَخَزَنَ سَامٌ حِينَ رَأَى وَلَدَهُ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ، وَأَمَرَ بِهِ فَأَخْرَجُوهُ إِلَى جَبَلِ الْبَرْزِ، وَهُوَ جَبَلٌ عَظِيمٌ مِنْ جِبَالِ الْهِنْدِ، وَصَعَدُوا بِهِ إِلَيْهِ وَتَرَكَوهُ وَحِيدًا. وَكَانَتِ الْعَنْقَاءُ قَدْ اتَّخَذَتْ لَهَا عَشًا فِي رَأْسِ الْجَبَلِ وَوَضَعَتْ فِيهِ أَوْلَادَهَا، فَلَمَّا رَأَتْ الصَّبِيَّ وَحِيدًا لَا حَوْلَ لَهُ رَفَّتْ لَهُ قَلْبُهَا وَزَفَرَتْ عَلَيْهِ بِجَنَاحَيْهَا، ثُمَّ حَمَلَتْهُ إِلَى قِمَّةِ الْجَبَلِ وَوَضَعَتْهُ بَيْنَ أَفْرَاحِهَا حَيْثُ شَبَّ بَيْنَهُمْ وَتَرَعَّرَعَ. وَرَأَى بَعْضُ رِجَالِ الْقَبَائِلِ هَذَا الْآدَمِيَّ بَيْنَ أَفْرَاحِ الْعَنْقَاءِ فَتَوَلَّاهُمُ الْعَجَبُ وَتَدَاوَلُوا أَخْبَارَهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ حَتَّى وَصَلَ النَّبَأُ إِلَى سَامٍ، فَخَفَّ إِلَى الْجَبَلِ وَتَضَرَّعَ إِلَى آلِهَتِهِ أَنْ تَرُدَّ إِلَيْهِ وَلَدَهُ. وَلَمَّا رَأَتْهُ الْعَنْقَاءُ عَلِمَتْ أَنَّهُ وَالِدُ الطِّفْلِ الَّذِي كَانَتْ قَدْ أَسْمَتْهُ دِسْتَانًا فَحَمَلَتْهُ وَوَضَعَتْهُ بَيْنَ يَدَيْهِ. وَأَخَذَ دِسْتَانُ يَتَدَرَّبُ عَلَى أَصُولِ الْإِمَارَةِ وَالْحُكْمِ، وَذَهَبَ لِلصَّيْدِ ذَاتَ يَوْمٍ وَنَزَلَ قُرْبَ أَرَاضِي كَابُلٍ، وَكَانَ لَهَا مَلِكٌ يُدْعَى مَهْرَابٌ خَفَّ إِلَيْهِ لِيَخْدُمَهُ. وَأَعْجَبَ دِسْتَانُ بِمَهْرَابٍ لِجَمَالِ صُورَتِهِ وَرَشَاقَةِ قَوَامِهِ، وَمَا زَالَ يُرَدِّدُ ذَلِكَ حَتَّى عَلِمَ أَنَّ لَهُ بِنْتًا «كَالشَّمْسِ الطَّالِعَةِ خُلِقَتْ مِنْ طِينَةِ الْجَمَالِ» فَهَامَ بِهَا وَشَغَفَهُ حُبُّهَا. وَدَعَا مَهْرَابَ لِيُشْرِفَ دَارَهُ فَاعْتَذَرَ إِلَّا بَعْدَ الْحُصُولِ عَلَى مُوَافَقَةِ الْوَالِدِ الْمَلِكِ سَامٍ. وَحِينَ عَادَ مَهْرَابٌ إِلَى بَيْتِهِ ذَكَرَ أَمَامَ زَوْجَتِهِ وَابْنَتِهِ رُودَابِهِ جَمَالَ صُورَةِ دِسْتَانٍ وَشَهَامَتِهِ. فَتَدَلَّهَتْ هِيَ الْآخَرَى فِي حُبِّ دِسْتَانٍ وَتَمَنَّتْ أَنْ تَرَاهُ وَتَتَّصِلَ بِهِ. وَفِي مَتَزِلِّهَا شَكَّتْ هِيَامَهَا إِلَى خَمْسٍ مِنْ جَوَارِيهَا فَأَتَّكُرْنَهُ عَلَيْهَا أَوَّلَ الْأَمْرِ ثُمَّ مَا لِيْشْنَ أَنْ

فَبَعَثَ هَرَمَزْدَ إِلَى سَاوَهَ جَيْشًا بِقِيَادَةِ الْأَمِيرِ بَهْرَامِ جَوْبِينَ وَسَلَّمَهُ عِلْمَ رُسْتَمِ بْنِ زَالٍ أَحَدِ أَجْدَادِهِ وَبَطَلَ الْأَبْطَالِ فِي عَصْرِهِ. وَالتَقَى بَهْرَامُ جَوْبِينَ بِسَاوَهَ فِي مَعْرَكَةٍ ضَارِيَةٍ وَضَعَّ خِلَالَهَا سَاوَهَ الْأَقْيَالَ فِي مُقَدِّمَةِ جَيْشِهِ، وَأَمَرَ بَهْرَامُ جَوْبِينَ عَسَاكِرَهُ بِإِطْلَاقِ السَّهَامِ عَلَى الْفِيلَةِ، فَأَهْتَاجَتْ وَارْتَدَّتْ عَلَى أَعْقَابِهَا وَدَاسَتْ جَيْشَ سَاوَهَ تَحْتَ أَقْدَامِهَا، وَأَجْهَزَ بَهْرَامُ جَوْبِينَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى سَاوَهَ بِنَفْسِهِ حَيْثُ أَقْتَفَى أَثَرَهُ أَثْنَاءَ هُرُوبِهِ وَسَدَّدَ إِلَيْهِ سَهْمًا فَأَزْدَاهُ قَتِيلًا.

وَقَدْ صَوَّرَ الْفَتَانُ هَذِهِ اللَّحْظَةَ مِنَ الْمَعْرَكَةِ (لَوْحَةٌ ١٨٣م) بِمَا فِيهَا مَصْرَعٌ سَاوَهَ، وَلِكَيْتَهُ تَجَاوَزَ اللَّصَّ الَّذِي يَذْكُرُ أَنَّ سَاوَهَ قَرَّ فَوْقَ صَهْوَةِ جَوَادِهِ وَمَاتَ بِسَهْمٍ أَطْلَقَهُ بَهْرَامُ جَوْبِينَ، فَصَوَّرَهُ الْفَتَانُ يَسْقُطُ مِنْ فَوْقِ هَوْدَجٍ يَعْتَلِيهِ فَيْلًا مَلَكِيًّا أَبْيَضَ وَقَدْ جَذَبَهُ بَهْرَامُ جَوْبِينَ بِحَبْلِ مِنْ رَقَبَتِهِ.

وَفِي هَذِهِ الْمُنْمَنَةِ الْأَخِيرَةِ مِنَ الْمَخْطُوطَةِ لَمْ يُؤَفَّقِ الْمُصَوِّرُ فِي تَصْوِيرِ ضَخَامَةِ حَجْمِ الْجَيْشِ التُّورَانِيِّ بِالنِّسْبَةِ لِجَيْشِ الصَّفَوَةِ الصَّغِيرَةِ مِنَ الْإِيرَانِيِّينَ الَّذِي بَادَرَ بِالْهَجُومِ وَالْإِفْتِحَامِ. كَمَا يَلْفُتُنَا قُصُورُ الْمُصَوِّرِ عَنْ اسْتِغْلَالِ الْهَوَاشِ لِلْإِلْهَاءِ بِمَا تَحْجِبُ وَرَاءَهَا مِنْ حُسُودٍ، بَلْ عَلَى الْعَكْسِ نَرَاهَا وَقَدْ حَدَّتْ مِنْ أَحْجَامِهَا وَحَرَكَتِهَا. غَيْرَ أَنَّ الْمُصَوِّرَ وَفَّقَ فِي إِثْرَازِ التَّنَوُّعِ الرَّائِعِ فِي أَسَالِيبِ الْقِتَالِ بَيْنَ الْجَيْشَيْنِ الْمُتَحَارِبَيْنِ، كَمَا رَسَمَ أَغْلَامَ الْجُيُوشِ عَلَى شَكْلِ أَفَاعٍ تَخْفِقُ فَوْقَ صُفُوفِ الْفُرْسَانِ. وَبِمُكِنَّا أَنْ نُمَيِّزَ بِصُعُوبَةٍ زَخَارِفَ أَشْكَالِ التَّنِينِ عَلَى جَانِبَيْ هَوْدَجِ الْفِيلِ وَنَرَى فِيهَا شَبَهَا كَبِيرًا مِنَ التَّمُودَجِ الصِّينِيِّ الْمُعَاوِرِ لَهَا.

كَلِيلَةُ وَدِئْمَةِ، ١٤٣٠م، مُتَحَفُ طُوبِ قَابُو بِإِسْتَنْبُولِ

وَتَمَّةٌ مَخْطُوطَةٌ أُخْرَى أَعَدَّهَا مُحَمَّدُ بْنُ حُسَامِ الْمُلَقَّبِ بِشَمْسِ الدِّينِ السُّلْطَانِيِّ لِبايسنقر، مِنْ كِتَابِ كَلِيلَةِ وَدِئْمَةِ عَامَ ١٤٣٠، مَحْفُوظَةٌ بِمُتَحَفِ طُوبِ قَابُو سَرَايَ تَحْتَ رَقْمِ ١٠٢٢. وَتَحْتَوِي عَلَى خَمْسٍ وَعِشْرِينَ مُنْمَنَةً مِنْ أَبْدَعِ مَا صُوِّرَ. وَيَذْكُرُ رُوبِنْسُونُ أَنَّ النُّسْخَةَ الْأُخْرَى مِنْ كَلِيلَةِ وَدِئْمَةِ وَالتِّي أُعِدَّتْ كَذَلِكَ بِأَمْرِ الْأَمِيرِ بَايسنقر كَانَتْ مِنْ بَيْنِ مَخْطُوطَاتِ الْمَكْتَبَةِ يَطْلُعُ عَلَيْهَا مَنْ يُرِيدُ عَلَى حِينٍ أُعِدَّتْ هَذِهِ النُّسْخَةُ خُصِيصًا لَهُ.

وَخِلَالِ زِيَارَتِي لِمُتَحَفِ طُوبِ قَابُو سَرَايَ بِإِسْتَنْبُولِ عَامَ ١٩٦٨، تَأَمَّلْتُ مُنْمَنَاتِ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ بِإِعْجَابٍ شَدِيدٍ وَاخْتَرْتُ مِنْ بَيْنِهَا لَوْحَتَيْنِ لَمْ يَسْبِقْ نُشْرُهُمَا، أُولَاهُمَا (لَوْحَةٌ ١٨٤م) عَنْ قِصَّةِ التَّاسِيكِ الَّذِي اشْتَرَى خَرُوفًا ضَخْمًا قُرْبَانًا فَيَصْرُ بِهِ قَوْمَ مَكْرَةٍ فَاتَّقَمَرُوا لِيَخْدَعُوهُ، وَعَرَضَ لَهُ أَحَدُهُمْ قَائِلًا: أَيُّهَا التَّاسِيكِ مَا هَذَا الْكَلْبُ مَعَكَ؟ ثُمَّ عَرَضَ لَهُ آخَرُ فَقَالَ: إِنِّي لِأَطُنُّ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي يَرْتَدِي لِبَاسَ التَّسَاكِ لَيْسَ نَاسِيكًا، فَالتَّاسِيكِ لَا

عَلَى اتِّبَاعِهِ أَيُّ فَتَانٍ قَبْلَ عَهْدِ بَايسنقر. كَذَلِكَ فَإِنَّ الشَّجَرَتَيْنِ وَالْأَعْشَابَ فِي رُكْنَيْ مُقَدِّمَةِ الصُّورَةِ يُؤَدِّيَانِ دَوْرَ «التَّابَيْنِ» كَيْ يَخْلَعَا عَلَى الْمُنْمَنَةِ الْمَزِيدَ مِنَ الْعُمُقِ. عَلَى أَنَّ أَهَمَّ مَعَالِمِ التَّجْدِيدِ فِي الْمُنْمَنَةِ، هُوَ مُحَاوَلَةُ تَصْوِيرِ عَاطِفَةِ الْحُبِّ الْحَيَاتِيَّةِ مِنْ خِلَالِ عِنَاقِ الْعَاشِقَيْنِ وَهُوَ مَا لَمْ نَعْهَدْهُ مِنْ قَبْلُ.

وَتَزُوي الشَّاهَنَامَةُ أَنَّ رَاجَا الْهِنْدِ أَرْسَلَ إِلَى شَاهِ إِيرَانَ أَنْوَشِرَوَانَ رُقْعَةً شِطْرُنْجٍ وَمَعَهَا بِيَادِقُهَا مُتَحَدِّيًا بِأَنَّهُ إِذَا عَجَزَ عُلَمَاءُ إِيرَانَ عَنْ الْكَشْفِ عَنْ سِرِّ لُغَبِهَا فَإِنَّهُ سَوْفَ يَمْتَنِعُ عَنْ آدَاءِ الْجِزْيَةِ إِلَى الشَّاهِ بَلْ وَعَلَى الشَّاهِ أَنْ يَدْفَعَ إِلَيْهِ الْجِزْيَةَ. وَاسْتَطَاعَ الْوَزِيرُ بُزْرْجُمُهرُ وَخَذَهُ أَنْ يَكْشِفَ سِرَّ اللَّغْبَةِ، وَلِكَيْتَهُ أَوْصَى بِأَنْ يُرْسِلَ أَنْوَشِرَوَانَ لُغْبَةَ التَّرْدِ إِلَى الرَّاجَا مُتَحَرِّجًا أَنْ يَدْفَعَ الْآخِرَ ضِعْفَ الْجِزْيَةِ أَوْ ثَلَاثَةَ أَضْعَافِهَا إِذَا لَمْ يُؤَفَّقِ الْبَرَاهِمَةَ إِلَى اكْتِشَافِ سِرِّهَا. وَهَذِهِ الْقِصَّةُ مَأْخُودَةٌ عَنْ كِتَابِ بَهْلَوِي هُوَ «شَطْرَنْجَنَامَةُ» مِنْ عَهْدِ الْمَلِكِ السَّاسَانِيِّ أَنْوَشِرَوَانَ (٥٣١ - ٥٧٩). وَتُبَيَّنَ لَنَا الْمُنْمَنَةُ (لَوْحَةٌ ١٨٢م) الْوَزِيرُ بَزْرَجُمُهرُ وَأَحَدُ رِجَالِ الْبَلَاطِ يَغْرُضَانِ عَلَى كِسْرَى أَنْوَشِرَوَانَ أَصُولَ لُغْبَةِ الشَّطْرُنْجِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَعْرُوفَةً بَعْدُ فِي إِيرَانَ، وَلَا نَرَى فَوْقَ الرُّقْعَةِ غَيْرَ أَرْبَعَةِ بِيَادِقٍ اثْنَانِ مِنْهَا أَبْيَضَانِ وَالْآخَرَانِ أَسْوَدَانِ وَقَدْ صُفَّتْ كُلُّهَا عَلَى خَطِّ مَائِلٍ مِنَ الرُّكْنِ الْعُلُويِّ الْأَيْسَرِ حَتَّى الرُّكْنِ الْأَدْنَى وَالْأَيْمَنِ مِنَ الرُّقْعَةِ.

وَمِنْ بَيْنِ رِجَالِ الْبَلَاطِ مِنْ حَوْلِ الشَّاهِ شَخْصٌ شَدِيدُ السُّمُرَةِ لَعَلَّهُ مَبْعُوثُ الرَّاجَا الْهِنْدِيِّ وَلَوْ أَنَّهُ يَرْتَدِي عِمَامَةً وَلِبَاسًا تِيمُورِيًّا. وَمَا مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ هَذِهِ الْمُنْمَنَةَ ذَاتُ أُسْلُوبٍ مُحَافِظٍ إِذْ سَارَتْ عَلَى نَهْجِ الْأُسْلُوبِ الْجَلَّائِيِّ مِنْ حَيْثُ اخْتِيَارُ الْمَحْوَرِ الْأَسَاسِيِّ لِلتَّكْوِينِ فِي مَرَكَزِ الصُّورَةِ وَتَصْوِيرِ بَهْرِ الْقَصْرِ الْمُغْلَقِ وَرَسْمِ الْجُدْرَانِ عَلَى نَحْوِ مُنْحَرَفٍ.

وَنَرَى السَّجَادَةَ وَالْعَرْشَ بِالْمُوَاجَهَةِ، وَقَدْ رُسِمَتِ التَّوَافِدُ الْأَرْبَعُ الْمُطْلَعَةُ عَلَى الْحَدِيقَةِ فِي تَمَائِلٍ، وَبَدَتْ أَشْجَارُ الْحَدِيقَةِ مِنْ خَلْفِ فُتَحَاتِهَا، عَلَى حِينِ زُوقَتِ السَّتَارَةُ الْحَرِيرِيَّةُ الْمُطَرَّزَةُ الْمُسَدَّلَةُ مِنْ قَاعِدَةِ الْعَرْشِ بِخَمْسَةِ صُفُوفٍ أَفْقِيَّةٍ مِنْ طَرَفِ الزُّخَارِفِ الصِّينِيَّةِ الَّتِي تُمَثِّلُ حَيَوَانَاتٍ وَطُيُورًا عَلَى شَكْلِ سُحْبٍ. وَتَمَّةٌ نَافِذَةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ الْجِصِّ الْمَشْغُولِ تَعْلُو الْعَرْشَ وَنَافِذَتَانِ ذَوَاتَا قُضْبَانٍ مُذَهَّبَةٍ عَلَى الْجِدَارَيْنِ الْمُحِيطَيْنِ بِهِ. أَمَّا الْعِبَارَةُ الْمُتَقُوشَةُ بِالْخَطِّ الثَّلَثِ عَلَى الْمُنْمَنَةِ فَلَا عِلَاقَةَ لَهَا بِالتَّصْمِيمِ الْمُعْمارِيِّ وَلَعَلَّهَا تُمَثِّلُ شَرِيطًا مِنَ الْقَاشَانِيِّ.

وَبَعْدَ أَنْ تَوَلَّى هَرَمَزْدُ بْنُ كِسْرَى أَنْوَشِرَوَانَ الْعَرْشَ لِعِشْرِ سِنِينَ، بَدَأَ الْوَهْنَ يَذُبُّ فِي دَوْلَتِهِ، فَتَارَ عَلَيْهِ سَاوَهَ مَلِكُ التُّرْكِ، كَمَا تَارَ عَلَيْهِ الرُّومُ وَالْخَزَرُ وَالْعَرَبُ وَأَرْسَلُوا جُيُوشَهُمْ لِمُحَارَبَتِهِ.

بدون تلوين إذا خَرَجَتْ عَنْهَا، وهو الحَلّ الجَرِيء التَّاجِح الذي واجَهَ بِهِ الْفَنَانُ إِحْدَى مُعْضِلَاتِ التَّصْوِيرِ.

وَيَمِيلُ الْإِنْسَانُ بِعَرِيزَتِهِ إِلَى مُحَاكَاةِ الْمَنْظَرِ الطَّبِيعِيِّ الَّذِي تَقَعُ عَلَيْهِ عَيْنُهُ بِرَسْمِ تَخْطِيطِيٍّ مُبَسَّطٍ، وَكُلَّمَا اقْتَرَبَ الرَّسْمُ مِنَ الْأَشْكَالِ الْهَنْدَسِيَّةِ الْبَسِيطَةِ كَانَ ذَلِكَ أَذَلَّ عَلَى قُدْرَةِ الذَّهْنِ عَلَى اسْتِيعَابِ الْوَاقِعِ وَتَمَثُّلِهِ، فَالِدَائِرَةُ وَالْمُرْبَعُ وَالْمُثَلَّثُ هِيَ أَسَاسُ التَّكُونِيَّاتِ التَّصْوِيرِيَّةِ لِأَنَّهَا أَنْمَاطٌ بَسِيطَةٌ وَمَلُوسَةٌ. وَيَسْتَرْعِي انْتِبَاهَنَا فِي لَوْحَةِ السُّلْخَفَةِ وَالطَّيْرِ أَنَّ الْمُصَوِّرَ قَدْ شَكَّلَ عَنَاصِرَ تَكْوِينِهِ مِنْ مُثَلَّثَاتٍ تَرْتَاحُ الْعَيْنُ إِلَى التَّأَمُّلِ فِيهَا: فَالْتَّلُ الصَّخْرِيِّ وَمَجْمُوعَةُ الشُّخُوصِ وَمَجْمُوعَةُ السُّلْخَفَةِ وَالطَّيْرِ وَصَفْحَةُ السَّمَاءِ تَتَّخِذُ كُلُّ مِنْهَا شَكْلَ مُثَلَّثٍ، بَيْنَا تَتَّخِذُ شَجَرَةُ الصَّنَوْبَرِ التَّائِبَةِ عَلَى الضَّمَّةِ الْقَرِيبَةِ مِنْ عَيْنِ الْمَاءِ شَكْلَ مُثَلَّثٍ مَقْلُوبٍ. وَفِي لَوْحَةِ التَّاسِيكِ وَالْخُرُوفِ، يَتَجَسَّبُ الْمُصَوِّرُ التَّجَسِّمَاتِ ذَاتِ الزَّوَايَا مُعْتَمِدًا فِي تَشْكِيلِهِ عَلَى الْخُطُوطِ الْمُنْحَنِيةِ وَالْإِسْتِدَارَاتِ، وَقَدْ دَلَّ اسْتِخْدَامُهُ لِشَجَرَةِ الدُّلْبِ فِي يَمِينِ اللَّوْحَةِ، وَمِنْ بَعْدِهَا الشَّجَرَةُ ذَاتِ الْجَذْعِ الْمَكْسُوفِ بِالْعُقْدِ، عُصْرًا زُخْرُفِيًّا يَتَوَازَنُ مَعَ الْمَثْنِ الْمَكْتُوبِ عَنْ حَذَقٍ وَبِرَاعَةٍ.

وَفِي كِلَا الْمُنَمَّنَتَيْنِ، فَضْلًا عَنِ الْإِهْتِمَامِ بِإِبْرَازِ الْأَنْوِيعَاتِ الْمُعَبَّرَةِ التَّادِرَةِ الظُّهُورِ فِي التَّصْوِيرِ الْإِسْلَامِيِّ، نَلَحَظُ اهْتِمَامًا بِعَرَضِ آرْيَاءِ الشُّخُوصِ فِي تَفْصِيلِ دَقِيقٍ لَا سِيَّامَا التَّصْمِيمَاتِ الزُّخْرُفِيَّةِ الْمُطْرُزَةِ بِالْقَصَبِ سِوَا فَوْقِ الصَّدْرِ أَمْ عَلَى الْأَكْتَافِ أَمْ حَوَافِ الثُّوبِ.

شاهنامة مُحَمَّد جَوَكِي، ١٤٤٠م

كَذَلِكَ كَانَ مُحَمَّدُ جَوَكِي بْنُ شَاهِ رُخٍ وَعَمَّ عِلَاءُ الدَّوْلَةِ رَاعِيًا لِلْفُنُونِ. وَتَحْفِظُ مَكْتَبَةُ الْجُمُعِيَّةِ الْأَسِيَوِيَّةِ الْمَلِكِيَّةِ بِلَنْدُنِ بِمَخْطُوطٍ مِنَ الشَّاهْنَامَةِ أُعِدَّ مِنْ أَجْلِهِ يَضُمُّ مَجْمُوعَةً مِنَ الْمُنَمَّنَاتِ الرَّائِعَةِ. وَلَمْ يَكُنْ شَاهِ رُخٍ يَعْهَدُ إِلَى وَلَدِهِ جَوَكِي بِأَيَّةِ مُهِمَّةٍ سِيَاسِيَّةٍ هَامَّةٍ لِمَا عَرَفَهُ عَنْهُ مِنْ انْغِمَاسٍ فِي حَيَاةِ الْمُجُونِ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ كَانَ هُوَ الدَّافِعُ وَرَاءَ أَمْرِ وَالِدِهِ بِمُصَادَرَةِ الْخُمُورِ الْمَوْجُودَةِ فِي مَنْزِلِهِ بِهَرَاةٍ عَامَ ١٤٤٠ كَمَا سَبَقَ وَذَكَرْتُ. وَعَلَى أَيَّةِ حَالٍ فَقَدْ كَانَ جَوَكِي مُعْتَلَّ الصِّحَّةِ فَعَاجَلَتْهُ الْمَيَّةُ مُبَكَّرَةً عَامَ ١٤٤٥.

وَيَرْجِعُ تَارِيخُ الشَّاهْنَامَةِ الْمُهْدَاةِ إِلَى جَوَكِي لِعَامِ ١٤٤٠، وَهِيَ تُعَدُّ مِنْ مُنْجَزَاتِ مَدِينَةِ هَرَاةٍ، غَيْرَ أَنَّ بَعْضَ مُنَمَّنَاتِهَا تَحْمِلُ تَأْثِيرَ مَدْرَسَةِ شِيرَازِ الَّتِي انْتَهَجَتْ طَرِيقًا مُخْتَلِفًا بَعْدَ وَفَاةِ السُّلْطَانِ إِسْكَندَرَ. وَقَدْ أَنْجَزَتْ مُنَمَّنَاتُهَا فِي حَجْمٍ يَصْغُرُ كَثِيرًا عَنْ حَجْمِ مُنَمَّنَاتِ مَخْطُوطَاتِ بَايسَنْقَرٍ. وَتَتَجَلَّى الْمَهَارَةُ الْفَائِقَةُ فِي تَلْوِينِهَا بِأَلْوَانِ الْبَرِيقِ الْمَعْدُونِي، وَتَطْغَى فِيهِ الْمَشَاهِدُ الطَّبِيعِيَّةُ عَلَى

يَقْتَنِي الْكِلَابِ. ثُمَّ عَرَضَ لَهُ ثَالِثٌ فَقَالَ «أَوْتَبَغِي الصَّيْدَ بِهَذَا الْكَلْبِ؟» فَلَمَّا أَجْمَعُوا عَلَى ذَلِكَ لَمْ يَسْتَرْبِ فِي أَنَّهُ يَقُودُ كَلْبًا، وَقَالَ لِنَفْسِهِ: لَعَلَّ مَنْ بَاعَنِي إِيَّاهُ سَحَرَنِي وَخَدَعَنِي، فَتَخَلَّى عَنْهُ فَأَخَذَهُ الْمَكْرَةَ فَذَبَحُوهُ وَالتَّهْمُوهُ.

وَأَمَّا الْمُنَمَّنَةُ الثَّانِيَّةُ فَهِيَ عَنِ قِصَّةِ الْبُحَيْرَةِ الَّتِي تَعِيشُ فِيهَا بَطْنَانٌ وَسُلْخَفَةٌ (لَوْحَةٌ ١٨٥م)، تَصَادِفُنِ جَمِيعًا وَتَأَلَّفُنِ، وَحَدَّثَ أَنَّ غَاضِ الْمَاءِ مِنْ تِلْكَ الْبُحَيْرَةِ. فَلَمَّا رَأَتْ الْبَطْنَانُ ذَلِكَ قَالَتَا: إِنَّهُ لَيَتَبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَتَحَوَّلَ إِلَى بُحَيْرَةٍ أُخْرَى. وَحِينَ هَمَّتا بِتَوَدِّعِ السُّلْخَفَةِ قَالَتْ لَهُمَا: إِنَّمَا يَسْتَنْدُ نَقْصَانُ الْمَاءِ عَلَى مِثْلِي فَأَنَا لَا أَعِيشُ إِلَّا بِهِ فَاحْتَالَا لِي وَادْهَبَا بِي مَعَكُمْ. فَقَالَتَا: يَسْتَحِيلُ أَنْ نَفْعَلَ ذَلِكَ حَتَّى تَعْدِي بَأْتِنَا إِذَا حَمَلْنَاكَ فَرَكَ أَحَدٌ فَذَكَرَكَ أَلَّا تُجِيبِيهِ. فَقَالَتْ: أَعِدْ بِذَلِكَ، وَلَكِنْ كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى مَا ذَكَرْتُمَا؟ فَقَالَتَا: تَعَصِّينَ عَلَى وَسْطِ عُودٍ، وَتَأْخُذُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِثًا بِطَرَفِهِ. فَوَضِيعَتَ وَطَارَا بِهَا، وَلَمَّا رَأَاهَا النَّاسُ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْظُرُوا إِلَى الْعَجَبِ، سُلْخَفَةٌ بَيْنَ بَطْنَيْنِ تَطِيرَانِ فِي الْهَوَاءِ! فَلَمَّا سَمِعَتْ ذَلِكَ قَالَتْ: رُغْمًا عَنْكُمْ، فَلَمَّا فَتَحَتْ فَاهَا هَوَتْ إِلَى الْأَرْضِ فَمَاتَتْ.

وَبَرَى الْبَغْضُ أَنَّ رُسُومَ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ تَسِيمُ بِالْحِدَّةِ وَالْجَفَافِ وَالْبُعْدِ عَنِ الرُّقَّةِ حَيْثُ صُوِّرَتِ الْأَشْخَاصُ غَالِبًا فِي خُطُوطِ مُسْتَقِيمَةٍ، كَمَا صُوِّرَ الطَّيْرُ وَالْحَيَوَانُ جَامِدًا مَشْلُوبًا حَتَّى فِي أَكْثَرِ الصُّوَرِ تَبْضًا بِالْحَرَكَةِ، وَلَا يَبْدُو الْمَشْهَدُ الطَّبِيعِيُّ مَهْمَا بَلَغَتْ رَوْعَةُ أَلْوَانِ صُخُورِهِ وَسُحْبِهِ إِلَّا مُجَرَّدَ خَلْفِيَّةٍ زُخْرُفِيَّةٍ. أَمَّا عَنِّي فَلَا أَتَّفِقُ مَعَ هَذَا الْوَصْفِ لِمُنَمَّنَاتِهَا، وَإِنَّمَا أَحْسَنَ لَهَا مَوْقِعًا آخَرَ عِنْدِي فَأَرَاهَا مُتَجَلِّيةً فِي أُسْلُوبٍ وَاضِحٍ بَالِغِ الْإِتْقَانِ يُضَاهِي فِي جَاذِبِيَّتِهِ وَحُسْنِهِ أُسْلُوبَ مُنَمَّنَاتِ شَاهْنَامَةِ بَايسَنْقَرٍ. وَيَبْدُو أَنَّ الْمُصَوِّرِينَ قَدْ وَجَدُوا أَنْفُسَهُمْ أَقْرَبَ بِإِمْكَانِيَّاتِهِمْ إِلَى تَصْوِيرِ الشُّخُوصِ الْأَدَوِيَّةِ مِنْ تَصْوِيرِ الْحَيَوَانَاتِ، بَلْ إِنَّا لَنَلَاظِحُ أَنَّ التَّعْبِيرَ عَلَى وُجُوهِ الشُّخُوصِ قَدْ اقْتَرَبَ مِنَ التَّصْوِيرِ الْوَاقِعِيِّ إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ، وَيَكَادُ يَكُونُ امْتِدَادًا لِمَا رَأَيْنَاهُ فِي التَّعْبِيرِ عَنِ الْحُبِّ وَالْوَلَةِ فِي مُنَمَّنَةِ زَالِ وَرُودَابِهِ (لَوْحَةٌ ١٨١م). فَفِي مُنَمَّنَةِ التَّاسِيكِ وَالْخُرُوفِ نَكَادُ نَسْتَشِفُّ الْحَدِيثَ الطَّرِيفَ الَّذِي يَدُورُ بَيْنَ الْقَوْمِ الْمَاكِرِينَ وَالتَّاسِيكِ السَّادِجِ مِنْ وُجُوهِ الشُّخُوصِ وَحَرَكَةِ أَيْدِيهِمْ. وَهُوَ مَا يَتَكَرَّرُ أَيْضًا فِي مُنَمَّنَةِ السُّلْخَفَةِ وَالْبَطْنَيْنِ، حَيْثُ نَرَى عِلَامَاتِ الدَّهْشَةِ فِي مِلَامِحِ الْوُجُوهِ وَإِيمَاءَاتِ الْأَيْدِي لِلْقَوْمِ الْمُتَطَلِّعِينَ إِلَى الْمَشْهَدِ الْفَرِيدِ. وَجَاءَتْ الْمَنَاطِرُ الطَّبِيعِيَّةُ بِهَجَةٍ جَذَابَةٍ عَلَى غِرَارِ مَنَاطِرِ الشَّاهْنَامَةِ وَلَكِنْ بِمُقْيَاسٍ أَصْغَرَ، كَمَا أَنَّهَا تَخْتَرِقُ الْهَوَاشِشَ بِالْأُسْلُوبِ نَفْسَهُ. وَعَلَى حِينٍ لَوْنَتِ السَّمَاءُ بِالذَّهَبِ دَاخِلَ إِطَارِ الْهَوَاشِشِ، تَرَكَّتْ

السَّهْم، والفَرْع والاضْطِرَاب في حَرَكَةِ الْجَوَادِ الَّذِي يَمْتَنِيهِ زَارَاسِپْ وَارْتِخَاءُ جِسْمِهِ هُوَ وَتَدَلِّي رَأْسِهِ عَلَى صَدْرِهِ فِي حَرَكَةِ تَنَمُّنٍ عَنْ إِصَابَتِهِ الْقَاتِلَةِ. وَيُحْصِرُ الْأَفَقُ الْمُرْتَفِعَ فِي الرُّكْنِ الْأَعْلَى فَقَطَّ مِنَ الصُّورَةِ فِي شِبْهِ مُسْتَطِيلٍ صَغِيرٍ، يَلِيهِ إِلَى الْيَسَارِ جِدَارُ الْجِصْنِ الْقَوْمِيْدِيِّ الْأَخْضَرِ. وَتَبْدُو الْأَرْضُ زَمْيَلِيَّةً صَفْرَاءَ إِلَى الْيَمِينِ، وَبِنَفْسِجِيَّةٍ إِلَى الْيَسَارِ، وَالْمُرْتَفَعَاتُ عَلَى شَكْلِ الشَّعْبِ الْمَرْجَانِيَّةِ الْإِسْفَنْجِيَّةِ. وَفِي أَدْنَى الصُّورَةِ مِنَ الْيَمِينِ يُرْفَرُ الْعَلَمُ الْبَنْتُسُجِيَّ يَتَخَلَّلُهُ شَرِيطَانٌ، أَخْضَرُ دَهَبِيَّ وَأَزْرَقُ، يَحْمِلُهُ فَارِسٌ وَسَطُ زُمْلَانِهِ الَّذِينَ اتَّخَذَتْ ثُرُوسُهُمْ وَخُودَاهُمْ وَجَلَّاتِ خُيُولِهِمُ اللَّوْنَ الذَّهَبِيَّ.

وفي المُنَمَّاتِ الثَّلَاثَةِ (لَوْحَةٌ ١٧٢) نُشَاهِدُ أَحَدَ مُلُوكِ الْفُرْسِ يُحَاصِرُ بِقُرْسَانِهِ الشُّجْعَانَ حِصْنًا حَصِيًّا، وَقَدْ نَصَبَ الْمُتَحَنِّقَاتِ حَوْلَهُ وَأَضْرَمَ النَّارَ فِي مَوْقِعٍ مِنْهُ بِجَوَارِ الْبَابِ. وَفِي الْمُسْتَوَى الْعُلُويِّ مِنَ اللَّوْحَةِ نَتَبَيَّنُ الْمَدِينَةَ الْمُحَاصَرَةَ وَسُكَّانَهَا فِي حَالَةِ اضْطِرَابٍ وَتَوَقُّعٍ، كَمَا نُشَاهِدُ رُؤُوسَ جُنُودِهَا الْمُدَافِعِينَ خَلْفَ الْأَسْوَارِ، وَمَنْجَنِيْقًا مُنْصَوِّبًا فِي الْوَسْطِ.

وَتُصَوِّرُ رَابِعَ هَذِهِ الْمُنَمَّاتِ (لَوْحَةٌ ١٧٣) طَائِرَ السِّمِيرِغِ يَحْمِلُ زَالَ إِلَى أَبِيهِ سَامَ، وَفِيهَا نَشْهَدُ السَّمَاءَ الزَّرْقَاءَ وَالشُّحْبَ الصَّيْنِيَّةَ التَّقْلِيدِيَّةَ وَالْجَبَلَ بِشِعَابِهِ الْمَرْجَانِيَّةِ الْإِسْفَنْجِيَّةِ زَرْقَاءَ وَخَضْرَاءَ وَبُرْتُقَالِيَّةَ وَصَفْرَاءَ وَدَهَبِيَّةَ. وَثَمَّةُ شَجَرَةٍ دَلْبٍ عَلَى خَطِّ الْأَفَقِ تُحِيطُهَا زُهُورُ حَمْرَاءَ وَبَيْضَاءَ. وَيُظْهِرُ صَغِيرَنَا زَالَ [أَوْ دِسْتَانَ] عَارِيًا يَلُونُ الْجِسْمَ الطَّبِيعِيَّ لِلصَّغَارِ، بَيْنَا يَرْكَعُ الْمَلِكُ سَامَ رَافِعًا يَدَيْهِ بِالشُّكْرِ وَالْجُودِ وَالْجُودَانِ مُرْتَدِيًا جَبَّةً أَرْجَوَانِيَّةً فَوْقَ رِدَاءِ أَزْرَقٍ، وَعَلَى رَأْسِهِ تَاجٌ دَهَبِيٌّ، وَمِنْ وَرَائِهِ تَابِعُهُ بِسِرْوَالِهِ الْأَخْضَرَ وَقَمِيصِهِ الْبُرْتُقَالِيَّ وَقَلَنْسُوتِهِ الزَّرْقَاءَ حَمْرَاءَ الْحَوَافِي.

إِنَّ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةَ تُمَثِّلُ بِحَقِّ حَلَقَةٍ الْإِتِّصَالِ بَيْنَ مَدْرَسَةِ التَّصْوِيرِ التَّيْمُورِيِّ الْمُبَكَّرِ وَمَدْرَسَةِ هَرَاةِ اللَّاحِقَةِ الْمُرْتَبِطَةِ بِاسْمِ بِهِزَادٍ، فَهِيَ ذَاتُ وَشَائِحٍ مَعَ أَعْمَالِ فَتَانِي بَايَسَنْقَرٍ وَبِخَاصَّةِ النَّمَاذِجِ الْمُبَكَّرَةِ مِنْهَا، وَهِيَ وَإِنْ كَانَتْ أَعْمَالًا مِنْ دَرَجَةِ أَدْنَى إِلَّا أَنَّهَا جَاءَتْ خُبْلَى بِالتَّجْدِيدَاتِ الَّتِي تُنْبِئُ بِمَرَحَلَةٍ جَدِيدَةٍ فِي الْفَنِّ.

وَبَدَأَتْ الْعُدُوبَةُ الزُّفْرَانَةُ تَظْهِرُ فِي الْمَوْضُوعَاتِ الشَّائِعَةِ التَّصْوِيرِ وَعَلَى الْأَخْصَنِ فِي تَصْوِيرِ قَصَائِدِ نِظَامِي الْخَلَابَةِ، فَقَدْ تَبَارَى الْمُصَوِّرُونَ فِي إِبْدَاعِهَا كَمَا تَبَارَى الشُّعْرَاءُ فِي مُحَاكَاتِهَا فَجَاءَتْ صُورُهُمْ فَرِيدَةً فِي رِقَّتِهَا وَرَهَافَتِهَا، وَفِي التَّوَافُقِ بَيْنَ الْمَثْنِ وَالرَّخَائِفِ وَالْمُنَمَّاتِ، وَبِصِفَةِ عَامَّةٍ تَمَيَّزَتْ بِأَلْوَانِهَا الْبَهْجَةِ الرَّفَاقَةِ.

صُورَ الْأَشْخَاصِ مِمَّا يَكْشِفُ عَنْ أَهْتِمَامِ الْفَتَانِينَ بِالطَّبِيعَةِ بِوَصْفِهَا مَرَكَزَ الْحَدَثِ الدِّرَامِيِّ إِلَى الْحَدِّ الَّذِي لَمْ تَعُدْ مَعَهُ الْأَشْخَاصُ إِلَّا مُجَرَّدَ عَنَاصِرٍ تَابِعَةٍ لَهَا. وَيُظْهِرُ الْمَثَلُ إِلَى الْإِثْقَانِ فِي بَعْضِ التَّفْصِيلَاتِ، بِمِثْلِ الصُّخُورِ الَّتِي رُسِمَتْ بِأَحْجَامٍ كَبِيرَةٍ مُتَّخِذَةً مَظْهَرَ الشَّعْبِ الْمَرْجَانِيَّةِ، مُصْطَبِغَةً بِأَلْوَانٍ مُغَايِرَةٍ لِأَلْوَانِهَا فِي الْوَاقِعِ، وَمِثْلَ الْأَشْجَارِ الَّتِي تَعْتَصِرُهَا الرِّيحُ، وَلَفَائِفِ الشُّحْبِ التَّقْلِيدِيَّةِ الْمُتَكَثِفَةِ فِي حَلَقَاتٍ بَيْضَاءَ ذَاتِ ظِلَالٍ وَرَوِيَّةٍ. وَصَاغَ الْفَتَانُونَ الصُّخُورَ بِطَرِيقَةٍ مَعْمَارِيَّةٍ فَجَعَلُوا بَعْضَهَا كَالْإِبْرِ التَّائِيَةِ أَوْ الْأَبْرَاجِ الْمُدْبِيَّةِ.

وَتَلَفُّنَا مُنَمَّاتِ هَذِهِ الشَّاهِنَامَةِ بِأَلْوَانِهَا وَبِخَاصَّةِ الزَّرْقَاءِ وَالْخَضْرَاءِ، وَتَكْشِفُ عَنْ قُدْرَةِ نَادِرَةٍ عَلَى التَّخَيُّلِ وَالرَّسَامَةِ، إِذْ تَذْهَبُ شَطْحَاتُ الْخَيَالِ فِيهَا إِلَى أْبْعَدِ مَدَى. وَنَلْمَسُ تَصْوِيرَ كُلِّ مَا هُوَ شَائِقٌ شَائِخٌ وَكُلِّ مَا هُوَ غَرِيبٌ خَارِقٌ لِلْمَأْلُوفِ. أَمَّا أَهَمُّ تَطَوُّرٍ فَيُمَثِّلُ فِي التَّعْبِيرِ عَنِ الْحَرَكَةِ الدِّرَامِيَّةِ بِمِثْلِ مُنَمَّاتِ الْأَبْطَالِ فَوْقَ الْجَلِيدِ (لَوْحَةٌ ١٦٩). وَهِيَ تُصَوِّرُ عَدَدًا مِنَ الْفُرْسَانِ وَقَدْ افْتَرَشُوا الْبُسْطَ وَالسَّجَادَ عَلَى ضِيقَةِ بَرَكَةٍ يَتَدَبَّرُونَ أُمُورَهُمْ بَيْنَا تَتَجَمَّعُ فِي السَّمَاءِ مِنْ خَلْفِهِمْ بَوَادِرُ زُرُبَعَةٍ جَلِيدِيَّةٍ. وَتَبْدُو الشُّحْبُ عَلَى التَّهْجِ الصَّيْنِيَّةِ التَّقْلِيدِيَّةِ مُنْطَوِيَّةً عَلَى نَذْرِ يَهْجُوبِ الْعَاصِفَةِ تَحْمِلُ فِي طَيَّاتِهَا الصَّقِيقَ وَالشُّكُونَ الْمُصَاحِبِينَ لِإِنْهَامِ الْجَلِيدِ. وَإِذَا كَانَتْ صُورَ الْأَشْخَاصِ قَدْ بَقِيَتْ جَامِدَةً وَبِخَاصَّةِ الْفُرْسَانِ، إِلَّا أَنَّ الرَّتَابَةَ لَمْ تَعُدْ الطَّابِعَ الْعَامَّ لِأَوْضَاعِهِمْ فِي الصُّورَةِ أَوْ لِحَرَكَاتِهِمْ.

وَتَتَجَلَّى هَذِهِ السَّمَاتُ أَيْضًا فِي أَرْبَعِ مُنَمَّاتٍ اخْتَرْتُهَا مِنْ بَيْنِ صَفَحَاتِ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ. أَوَّلَاهَا (لَوْحَةٌ ١٧٠) تُصَوِّرُ مَوْقِعَةً بَيْنَ رُسْتَمٍ وَبَيْنِ الْمَلِكِ أَشْكَبُوسَ، نَلْحِظُ فِيهَا الْحَرَكَةَ بَيْنَ الْجُنُودِ وَالْخَيْلِ وَالْأَفْيَالِ تَدَبُّ دَبِيًّا مَحْسُوسًا. وَتَنْقَسِمُ الصُّورَةُ إِلَى ثَلَاثَةِ مُسْتَوِيَّاتٍ: سَمَاءُ زَرْقَاءَ فِي الْمُسْتَوَى الْعُلُويِّ تُمَثِّلُ خَلْفِيَّةً لِلْبِيَارِقِ الْحَمْرَاءِ وَالْخَضْرَاءِ وَالزَّرْقَاءِ وَالسُّودَاءِ وَالْبَيْضَاءِ، ثُمَّ مُرْتَفَعَاتُ ذَاتِ صُخُورٍ مَرْجَانِيَّةٍ إِسْفَنْجِيَّةٍ فِي الْمُسْتَوَى الْأَوْسَطِ يُطِلُّ الْجُنُودُ حَامِلُو الْبِيَارِقِ مِنْ خَلْفِهَا كَمَا تَظْهِرُ رُؤُوسَ خُيُولِهِمْ، وَتَشْغُلُ سَاحَةَ الْمَعْرَكَةِ نَفْسُهَا الْمُسْتَوَى الْأَدْنَى. وَيُظْهِرُ الْمَلِكُ فِي يَمِينِ الصُّورَةِ جَالِسًا عَلَى عَرْشِهِ فَوْقَ ظَهْرِ فِيلٍ أَبْيَضٍ يَتَقَدَّمُهُ قَائِدُ الْفِيلِ. وَبِمُحَادَاثَةِ فَارِسٍ لَهُ مَلَامِيحٌ وَتَصْنِيفَةٌ شَعْرٌ صَبِيغَةٌ وَقَدْ اكْتَسَى رَأْسُ جَوَادِهِ بِاللَّوْنِ الذَّهَبِيِّ وَعُنْقُهُ بِاللَّوْنِ الْأَزْرَقِ. وَقَدْ أَنْشَأَ الْمُصَوِّرُ مُقَابَلَةً بَدِيعَةً بَيْنَ أَلْوَانِ الْبِيَارِقِ وَخُودَاتِ الْجُنُودِ فِي أَدْنَى الصُّورَةِ وَأَعْلَاهَا.

وفي مُنَمَّاتِ فَارُودِ يُصْمِي زَارَاسِپْ بِسَهْمِهِ (لَوْحَةٌ ١٧١) نَشْهَدُ الْحَرَكَةَ الْبَدِيعَةَ الْوَاقِعِيَّةَ فِي ذِرَاعِي فَارُودِ وَجِذْعِهِ بَعْدَ أَنْ أَطْلُقَ

خمسَه نظامي. منظومة «لَيْلى والمَجْنُون»

كان بَيْنَ الْعَرَبِ رَجُلٌ يَرَأْسُ بَنِي عَامِرٍ مَعْرُوفٌ بِالْفَضْلِ
وَالشَّجَاعَةِ وَالكَرَمِ، رُزِقَ ابْنًا جَمِيلًا سَمَاءَ قَيْسًا. وَكَانَ أَبْنَاءُ
الْعَرَبِ وَبَنَاتُهُمْ يَتَلَقَّوْنَ دُرُوسَهُمْ مُنْذُ الصَّغَرِ فِي الْكِتَابِ (لَوْحَة
١٨٦ م). وَهَنَّاكَ كَانَ اللَّقَاءُ بَيْنَ قَيْسٍ وَلَيْلى فَشُغِلَ قَلْبُ كُلِّ
مِنْهُمَا بِالْآخَرِ، وَكَانَتْ لَيْلى عَلَى حَظٍّ كَبِيرٍ مِنَ الْجَمَالِ حَالِكَةً
سَوَادٍ شَعْرَ الرَّأْسِ. وَحِينَ شَبَّ الْفَتَيَانِ كَانَ الْحُبُّ قَدْ انْتَهَى بِهِمَا
إِلَى نِهَايَتِهِ وَشَاعَ أَمْرُهُ بَيْنَ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ. وَلَقَدْ ذَهَبَ هَذَا الْحُبُّ
بِعَقْلِ قَيْسٍ وَغَدَا يَهْدِي هَذَيَانَ الْمَجَانِينَ حَتَّى عَدَّهُ الْقَوْمُ مَجْنُونًا.
وَلَمْ يَمْلِكْ أَهْلُ لَيْلى، بَعْدَ أَنْ شَاعَ هَذَا الْحُبُّ عَلَى أَلْسِنَةِ النَّاسِ،
إِلَّا أَنْ يَحْجُبُوا لَيْلى عَنِ قَيْسٍ. فَأَذَاهَا هَذَا الْمَسْلَكُ الْإِنْدَاءَ كُلَّهُ،
وَلَمْ تَمْلِكْ غَيْرَ أَنْ تُفَرِّجَ عَنْ نَفْسِهَا بِالْبُكَاءِ. وَحِينَ أَحَسَّ قَيْسُ أَنَّ
لَمْ يَعُدْ لَهُ سَبِيلٌ إِلَى رُؤْيَا لَيْلى لَمْ يَقْرَ لَهُ قَرَارٌ فِي مَكَانٍ وَأَخَذَ
يَجُوبُ هُنَا وَهُنَا عَلَى وَجْهِهِ فِي آفَاقِ الْأَرْضِ يُنَفِّسُ عَنْ قَلْبِهِ
بِمَا نَطَقَ مِنْ شِعْرِ فِي حُبِّ لَيْلى. وَكَانَ الَّذِينَ يَسْتَمْعُونَ إِلَيْهِ وَهُوَ
يُشِيدُ يُجَسِّوْنَ نَعْمَةَ الْأَسَى وَالْحُزْنَ عَلَى لِسَانِهِ. وَبَلَغَ بِهِ الْحَالُ أَنَّهُ
لَمْ يَعُدْ يَذُوقُ طَعَامًا أَوْ يَضَعُ عَلَى جِسْمِهِ لِبَاسًا، وَعَاشَ فِي الْبَيْدَاءِ
يَأْتَسُ بِالْوَحْشِ وَالْحَيَوَانِ، غَيْرَ أَنَّهُ عَلَى هَذَا كَانَ يَسْعَى خُفْيَةً إِلَى
مَنَازِلِ قَبِيلَةٍ مَعْشُوقَتِهِ يُبْغِلُ الْأَعْتَابَ عَلى هَذَا يُخَفِّفُ عَمَّا بِهِ مِنْ لَوْعَةٍ
ثُمَّ يَعُودُ أَذْرَاجَهُ (الْلَوْحَتَانِ ١٨٧ م، ١٨٨ م). وَكَمَا كَانَ قَيْسٌ يَتَلَقَّفُ
أَخْبَارَ لَيْلى مِنَ أَلْسِنَةِ النَّاسِ كَذَلِكَ كَانَتْ لَيْلى تَفْعَلُ مِثْلَهُ. وَحِينَ
أَحَسَّ الْوَالِدُ قَيْسَ مَا أَلَمَّ بِابْنِهِ مِنْ ضَيِّ وَجَوَى وَهُوسَ حَزَنٍ لِذَلِكَ
(لَوْحَة ١٨٩ م) وَجَهَدَ جُهِدَهُ لِأَنْ يُقْنِعَ أَبَا لَيْلى بِقَبُولِ خُطْبَةِ قَيْسٍ
لَهَا، وَلَكِنْ الْأَبُ لَمْ يَكُنْ يَمْلِكُ غَيْرَ أَنْ يَرْفُضَ بَعْدَ أَنْ شَهَرَ قَيْسُ
بَلَيْلى، فَعَادَ الْأَبُ حَزِينًا أَسِيفًا إِلَى حَيْثُ كَانَ، وَحَاوَلَ جُهِدَهُ أَنْ
يَصْرِفَ قَيْسًا عَنْ حُبِّ لَيْلى عَلَى أَنْ يُزَوِّجَهُ مِنْ يَخْتَارُ مِنَ النِّسَاءِ. مَا
كَادَ قَيْسٌ يَسْمَعُ هَذَا الْغَرَضَ مِنْ أَبِيهِ حَتَّى لَطَمَ خَدَّيْهِ بِيَدَيْهِ وَشَتَّى
ثِيَابَهُ وَخَرَجَ هَائِمًا عَلَى وَجْهِهِ إِلَى الصَّخْرَاءِ، وَهُوَ لَا يَقْتَأُ يَرُدُّدُ شِعْرَ
الْهَوَى. وَرَأَى أَبُوهُ بَعْدَ لَأْيٍ أَنَّ خَيْرَ وَسِيلَةٍ يَصْرِفُ بِهَا قَيْسًا عَنْ
لَيْلى أَنْ يَحْمِلَهُ إِلَى مَكَّةَ مَعَ مُوسِمِ الْحَجِّ لَعَلَّ اللَّهَ يُزِيحَ عَنْهُ مَا كَانَ
(لَوْحَة ١٩٠ م). غَيْرَ أَنَّ هَذَا لَمْ يَزِدْ قَيْسًا غَيْرَ وَلَهُ فَوْقَ وَلَهُ، وَإِذَا
قَيْسٌ يَرُدُّ وَسَطَ الْحُجَّاجِ «اللَّهُمَّ زِدْنِي بَلَيْلى عِشْقًا وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي
هَوَاهَا». ثُمَّ تَمَتَّى أَنْ لَوْ أَخَذَ اللَّهُ مِنْ عُمَرِهِ لِمُدَّةٍ بِهِ عُمَرُهَا. وَهُنَا
رَجَعَ الْوَالِدُ وَالْيَاسُ يَمْلَأُ فُؤَادَهُ وَالْفُتُوطُ يَسْتَحْذِذُ عَلَى نَفْسِهِ، وَأَيَّقَنَ
أَنَّ هَذَا الْعِشْقَ الَّذِي أَلَمَّ بِقَيْسٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ دَوَاءٍ. وَحِينَ لَمْ يَسْكُتْ
قَيْسٌ عَنْ ذِكْرِ لَيْلى فِي شِعْرِهِ الَّذِي طَارَ فِي الْآفَاقِ رَفَعَ قَوْمُهَا
أَمْرَهُمْ إِلَى الْوَالِي الَّذِي أَبَاحَ دَمَهُ. وَحَذَرَ الْوَالِدُ قَيْسَ أَنْ يَقَعَ بِابْنِهِ
مَا كَانَ مِنْ إِهْدَارِ دَمِهِ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الصَّخْرَاءِ حَتَّى لَا

تَقَعَ عَلَيْهِ عَيْنٌ. وَإِذَا حَيَاةُ الْإِنْعِزَالِ تَزِيدُ قَيْسًا جُنُونًا فَوْقَ جُنُونِ،
وَإِذَا هُوَ يَضَعُ الْحَدِيدَ كَالْقَيْدِ فِي رِجْلَيْهِ مَرَّةً وَيَعْبَثُ بِالْجِجَارَةِ مَرَّةً
أُخْرَى. وَكَانَتْ لَيْلى عَلَى هَذَا كُلِّهِ لَا تَزَالُ تُحِبُّ قَيْسًا، غَيْرَ أَنَّهَا
كَانَتْ تُخْفِي حُبَّهَا عَنِ الرُّقَبَاءِ خَشْيَةً أَهْلِهَا. وَكَانَتْ هِيَ الْأُخْرَى
شَاعِرَةً، فَتَنَسَّ هَذَا الشَّعْرَ عَنْهَا بِأَيَّاتٍ قَالَتْهَا فِي هَوَى قَيْسٍ إِلَّا أَنَّهَا
غَيْرُ صَرِيحَةٍ. وَكَانَ مَا يَقُولُهُ لَيْلى مِنْ شِعْرِ يَبْلُغُ قَيْسًا، كَمَا كَانَ مَا
يَقُولُهُ قَيْسٌ يَبْلُغُ لَيْلى، وَهَكَذَا عَاشَا يَجْتَزِيَانِ بِمَا يَقُولُهُ هَذَا وَيَقُولُهُ
هَذِهِ.

وَسَعَى إِلَى لَيْلى يَوْمًا قَتَى مِنْ بَنِي أَسَدٍ هُوَ ابْنُ سَلَامٍ يَطْلُبُ
يَدَهَا. وَتَصَادَفَ فِي الْوَقْتِ نَفْسُهُ أَنَّ رَجُلًا مِنَ فَضَلَاءِ الْعَرَبِ يُدْعَى
نُوفَلًا قَدْ رَقَّ قَلْبُهُ لِقَيْسٍ فَالَّ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ قَيْسٍ وَلَيْلى
مَهْمَا كَانَتْهُ ذَلِكَ مِنْ جَهْدٍ (لَوْحَة ١٩١ م). وَحِينَ بَلَغَ هَذَا قَيْسًا
طَابَتْ نَفْسُهُ شَيْئًا، وَلَكِنْ نُوفَلًا لَمْ يُوقِفْ فِيمَا أَرَادَ وَأَحَسَّ بِهَذَا قَيْسُ
فَطَلَّهَ عَنْ تَقْصِيرِ مِثْنٍ وَأَخَذَ يَلُومُهُ وَيَعْتَبُ عَلَيْهِ، فَحَفِزَ هَذَا نُوفَلًا إِلَى
أَنْ يُحَقِّقَ مَا وَعَدَ بِالْقُوَّةِ بَعْدَ أَنْ عَجَزَ عَنْ تَحْقِيقِهِ بِالْقَوْلِ، وَجَمَعَ
جَيْشًا سَارَ بِهِ إِلَى آلِ لَيْلى وَخَيَّرَهُمْ بَيْنَ اثْنَتَيْنِ إِمَّا الْحَرْبَ وَإِمَّا أَنْ
يُذْعِنُوا لِمَطْلَبِهِ بِزَوَاجِ قَيْسٍ مِنْ لَيْلى، فَأَبَى قَوْمُ لَيْلى هَذَا الْخِيَارَ
وَكَانَتْ الْحَرْبُ بَيْنَ الْقَبِيلَتَيْنِ. وَإِذْ كَانَ قَوْمُ لَيْلى أَكْثَرَ عَدَدًا اضْطُرَّ
نُوفَلُ إِلَى أَنْ يَعُودَ أَذْرَاجَهُ، وَعِنْدَهَا كَانَتْ ثَوْرَةُ الْمَجْنُونِ عَلَى نُوفَلٍ
أَشَدَّ، الْأَمْرُ الَّذِي اضْطُرَّ نُوفَلًا إِلَى أَنْ يُعَاوِدَ الْكَرَّةَ فَيُحَارِبُ قَوْمَ
لَيْلى بِجَيْشٍ أَكْثَرَ عَدَّةً، وَإِذَا هُوَ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ يَنْتَصِرُ عَلَيْهِمْ (لَوْحَة
١٩٢ م). غَيْرَ أَنَّ الْوَالِدَ لَيْلى رَجَا نُوفَلًا أَنْ يَرْجِعَ عَنْ رَأْيِهِ فِي زَوَاجِ
قَيْسٍ مِنْ لَيْلى مُهَذِّدًا إِيَّاهُ - إِنَّهُ هُوَ أَصْرٌ - أَنْ يَقْتُلَ لَيْلى لِيَتَخَلَّصَ مِنْ
تِلْكَ الْوَرُظَةِ. فَارْتَقَى قَلْبُ نُوفَلٍ لَهُ وَكَفَّ عَنْ أَنْ يَقْبِضَ نَفْسَهُ مَرَّةً
أُخْرَى فِي الْأَمْرِ. فَمَا كَانَ مِنْ قَيْسٍ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ إِلَّا أَنْ يَعُودَ إِلَى
حَيْثُ كَانَ مِنْ مَوْقِعِهِ فِي الصَّخْرَاءِ يَهِيمُ هُنَا وَهُنَا هَيَمَانُ الْمَجْنُونِ،
يَعِيشُ كَمَا كَانَ قَبْلَ بَيْنِ الْوَحْشِ الَّذِي أَلْفَهُ، وَكَمْ أَنْسَتْ بِهِ
الْوَحُوشُ كَمَا أَنْسَ بِهَا وَعَاشَ بَيْنَهَا وَكَأَنَّهَا وَاحِدٌ مِنْهَا.

وَذَاتَ مَرَّةٍ وَقَعَتْ عَيْنُ الْمَجْنُونِ عَلَى عَجُوزٍ قَدْ لَفَّتَ عَنْقُ رَجُلٍ
يَحْبِلُ وَكَأَنَّهُ أَسِيرٌ وَكَانَتْ تَقُودُهُ لِيَطُوفَ بِهِ بَيْنَ الْقَبَائِلِ، فَطَلَّبَ إِلَيْهَا
أَنْ تَضَعَ الْحَبْلَ فِي عُنُقِهِ هُوَ الْآخَرُ، وَأَنْ تَقُودَهُ كَمَا تَقُودُ الرَّجُلَ
عَلَى أَنْ تَمْضِيَ بِهِ إِلَى مَنَازِلِ لَيْلى. فَاسْتَجَابَتْ لَهُ وَأَلْقَى قَيْسُ بِقِيَادِهِ
لَهَا حَتَّى مَضَتْ مَعًا إِلَى بَابِ خَيْمَةِ لَيْلى (لَوْحَة ١٩٣ م) وَإِذَا هُوَ
يَنْبِيعُ مُتَرْتِمًا بِأَشْعَارِهِ فِي عِشْقِ لَيْلى مُصْرَحًا بِاسْمِهَا، وَكَانَ مَعَ
إِنْشَادِهِ يَرْقُصُ.

أَمَّا مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ أَهْلِ لَيْلى فَإِنَّهُمْ زَوَّجُوهَا بِسَلَامٍ، وَمَا كَانَتْ
لَيْلى تُحِبُّهُ وَلَكِنَّهَا انْصَاعَتْ لِأَمْرِ أَهْلِهَا وَعَاشَتْ مَعَهُ لَا تُنِيلُهُ مِنْ
نَفْسِهَا. وَحِينَ انْتَهَى إِلَى الْمَجْنُونِ زَوَاجِ لَيْلى أَزْدَادَ اضْطِرَابًا وَأَرْسَلَ

لَقَطَ أَنْفَاسَهُ الْأَخِيرَةَ (لَوْحَة ١٩٨ م).

وَكَمَا سَلَكَتْ لَيْلَى طَرِيقَ الْمُحِبِّينَ الْمَعْرُوفِ كَذَلِكَ سَلَكَ الْمَجْنُونُ هَذَا الطَّرِيقَ بِعَيْنِهِ، وَيُقَالُ إِنَّ الْمَجْنُونِ بَقِيَ مُلْقِيًا عَلَى قَبْرِ لَيْلَى شَهْرًا، وَقِيلَ عَامًا، وَالْوُحُوشُ مِنْ حَوْلِهِ تَحْرُسُهُ، وَلَمْ يَجْرَأْ أَحَدٌ عَلَى الدُّنُوبِ مِنْهُ. وَيَعْلَمُ أَهْلُهُ بَعْدُ فَإِذَا هُمْ يَفْتَحُونَ قَبْرَ لَيْلَى وَيَضَعُونَ جُثَّةَ الْمَجْنُونِ إِلَى جَنْبِ جُثَّةِ لَيْلَى، وَهَكَذَا جَمَعَ الْمَوْتُ بَيْنَ جَسَدَيْهِمَا بَعْدَ أَنْ فَرَّقَتِ الْحَيَاةُ بَيْنَهُمَا.

هَذِهِ قِصَّةُ لَيْلَى وَالْمَجْنُونِ كَمَا حَاكَهَا نِظَامِي. وَمِنْ الْمُؤَكَّدِ أَنَّ مَصْدَرَهُ الَّذِي اسْتَنَدَ إِلَيْهِ كَانَ الْأَصْلُ الْعَرَبِيُّ لَهَا، غَيْرَ أَنَّا لَا نُنْكِرُ أَنَّهُ أَضَافَ وَقَائِعَ لَمْ تَكُنْ فِي الْأَصْلِ الْعَرَبِيِّ، مِثْلَ وَفَاةِ زَوْجِ لَيْلَى، وَمِثْلَ تَعَارُفِ لَيْلَى وَقَيْسٍ فِي الْكِتَابِ، وَهُوَ مَا لَا تَقُولُهُ الرِّوَايَةُ الْعَرَبِيَّةُ الَّتِي تَذْهَبُ إِلَى أَنَّ تَعَارُفَهُمَا كَانَ وَهُمَا يَزْعِمَانِ الْإِبِلَ.

وَلَقَدْ أَضَمَّتْ رُوحُ الصُّوفِيَّةِ عِنْدَ نِظَامِي عَلَى قِصَّتِهِ تِلْكَ مِنْ الْعِشْقِ الصُّوفِيِّ الْكَثِيرِ، فَجَعَلَ حُبَّ الْمَجْنُونِ لِلْإِلَى حُبًّا لِذَاتِهِ مُجَرَّدًا عَنِ الْعَرَضِ، فَلَيْسَ ثَمَّةَ أَمَامَ كُلِّ عَاشِقٍ مِنْهُمَا سَبِيلٌ إِلَى لِقَاءِ الْجَسَدَيْنِ إِلَّا الْمَوْتُ حَيْثُ الشُّعُورُ بِالسَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ. وَعَلَى هَذَا التَّحَوُّلِ كَانَتْ أُسْطُورَةُ حُبِّ تَرِيسْتَانِ وَإِيزُولَدِ الَّتِي ظَهَرَتْ بِأُورَبَا فِي الْقَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ نَفْسَهُ، وَالَّتِي خَلَّدَهَا خِلَالِ الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ الْمَوْسِقَارُ رَيْتشارْدُ فَايجِنرُ فِي أُوپِرَاهِ الرَّائِعَةِ، حَيْثُ تَنْطَلِفُ حَيَاةُ إِيزُولَدِ فَوْقَ جُثْمَانِ حَبِيبَتِهِ تَرِيسْتَانِ مُسْتَقْبِلَةً آخِرَ زَفَرَةٍ يُطْلِقُهَا مُودَعًا الْحَيَاةَ، مُوَاجِهَةً مَعَهُ الْمَصِيرَ نَفْسَهُ، مُنْتَزِعَةً سَعَادَتِهَا النَّهَائِيَّةَ مِنْ عَالَمِ ظَلٍّ لَهَا وَلِحَبِيبِهَا بِالْمِرْصَادِ، وَهِيَ تُشِيدُ مَعَ آخِرِ أَنْفَاسِهَا أَغْنِيَةَ «الْمَوْتُ حُبًّا»، أَغْنِيَةَ نِهَايَةِ الْعَاشِقَيْنِ، أَغْنِيَةَ نَشْوَهِ الْوِصَالِ الْبَاهِرَةِ.

تُرَى هَلْ هَذَا مِنْ تَوَارِدِ الْخَوَاطِرِ؟

خَمْسَةُ نِظَامِي. لَيْلَى وَالْمَجْنُونِ، ١٤٤٥/١٤٤٦

وَبِمُتَحَفِ طُوبِ قَاهِرَ سَرَايِ نُسَخَتَانِ مِنْ قِصَّةِ لَيْلَى وَالْمَجْنُونِ ضِمْنَ مَخْطُوطَتَيْنِ لِلْمَنْظُومَاتِ الْخَمْسِ لِنِظَامِي تَرْجَعَانِ إِلَى هَذِهِ الْفَتْرَةِ فِي هَرَاةَ. إِحْدَاهُمَا مُؤَرَّخَةٌ عَامَ ١٤٤٥ وَالْأُخْرَى فِي عَامِ ١٤٤٦. وَقَدْ اخْتَرْتُ مِنْ كُلِّ مِنْهُمَا الثَّمَنِمَةَ الَّتِي تُصَوِّرُ مَوْضِعَ لِقَاءِ لَيْلَى بِالْمَجْنُونِ لِيُوضَعَ مَوْضِعَ الْمُقَارَنَةِ. وَتَرْوِي الْمَنْظُومَةُ قِصَّةَ إِصْرَارِ لَيْلَى عَلَى رُؤْيَا قَيْسٍ بِأَيِّ وَسِيلَةٍ رَغِمَ تَجَسُّسُ الرُّقَبَاءِ - كَمَا تَقْدِّمُ - فَاسْتَعَانَتْ بِشَيْخٍ مُحَنَّكَ خَبِيرٍ بِمَسَالِكِ الصَّخْرَاءِ وَأَعْطَتْهُ بَعْضَ الْمَالِ كَيْ يُهَيِّئَ لَهَا فُرْصَةَ لِقَاءِ الْمَجْنُونِ. وَنَجَّحَ الشَّيْخُ فِيمَا كُلَّفَ بِهِ، وَاسْتَطَاعَتْ لَيْلَى رُؤْيَا قَيْسٍ، وَلِجُثَّتَيْهِمَا لَمْ يَكْدَا يَلْتَقِيَانِ حَتَّى سَقَطَا عَلَى الْأَرْضِ مَعْشِيًّا عَلَيْهِمَا. وَلَمَّا أَفَاقَا أَنْشَدَ بَعْضُ

إِلَيْهَا يَذْكُرُهَا أَنَّهَا خَانَتْ الْعَهْدَ. وَمَا عَاشَ أَبُو الْمَجْنُونِ طَوِيلًا بَلْ مَا لَبَثَ غَيْرَ قَلِيلٍ حَتَّى لَحِقَتْهُ الْمَيِّتَةُ ثُمَّ مَضَتْ الْأُمُّ فِي إِثْرِهِ. وَكُلَّمَا مَضَتْ الْأَيَّامُ بِالْمَجْنُونِ بَيْنَ الْوُحُوشِ أَزْدَادَتْ بِهِ أُنْسًا وَأَزْدَادَ هُوَ بِهَا أُلْفَةً. وَكَانَ الَّذِينَ يَقْطَعُونَ الْبَيْدَاءَ كُلَّمَا مَرُّوا بِالْمَجْنُونِ يَرْقُونَ لِحَالِهِ وَيَشْفَقُونَ عَلَيْهِ وَيَزِيدُونَهُ بِالطَّعَامِ. وَمَا كَانَ الْمَجْنُونُ نَهْمًا إِلَى طَعَامِهِمْ بَلْ كَانَ يَجْتَزِي بِالْقَلِيلِ وَيَعَافِ الْكَثِيرَ الَّذِي يُقَدِّمُهُ لِلْحَيَوَانِ مِنْ حَوْلِهِ مِمَّا زَادَ الْحَيَوَانُ تَمَسُّكًا بِالْمَجْنُونِ وَإِطَاعَةً لِإِشَارَتِهِ (لَوْحَة ١٩٤ م). وَكَانَ تَعْقِيبُ نِظَامِي عَلَى هَذَا هُوَ أَنَّ الْإِحْسَانَ كَمَا يَمْلِكُ الْإِنْسَانُ يَمْلِكُ الْحَيَوَانُ وَيَسْتَأْنِسُهُ.

وَفِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ انْتَقَى الْمَجْنُونُ بِرَجُلٍ جَاءَ يَسْعَى إِلَيْهِ، وَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ خَالَهُ سَلِيمًا الْعَامِرِيَّ، غَيْرَ أَنَّ الْمَجْنُونِ لِدُحُولِهِ لَمْ يَعْرِفْهُ. وَبَلَغَ الْعِشْقُ بِلَيْلَى مَبْلَغَهُ وَتَاقَتْ نَفْسُهَا لِرُؤْيَا الْمَجْنُونِ فَخَرَجَتْ إِلَيْهِ تَسْعَى لَا تَخْشَى الرُّقَبَاءَ، وَاتَّخَذَتْ عَوْنًا لَهَا شَيْخًا لَهُ تَجَرِبَةٌ وَمَعْرِفَةٌ بِمَتَاهَاتِ الصَّخْرَاءِ. وَتَمَّ لَهَا مَا أَرَادَتْ، وَلَكِنْ حِينَ وَقَعَ بَصَرُ الْمَجْنُونِ عَلَيْهَا سَقَطَ مَعْشِيًّا عَلَيْهِ، وَمَا سَلِمَتْ لَيْلَى مِنْ هَذَا الْمَوْقِفِ فَوْقَتْ هِيَ الْأُخْرَى مَعْشِيًّا عَلَيْهَا. وَلَمْ يَلْبَثَا قَلِيلًا حَتَّى أَفَاقَا، فَأَخَذَ الْمَجْنُونُ يَطْرَحُ شِعْرَهُ فِي حُبِّهَا (لَوْحَاتِ ١٩٥ م، ١٩٦ م، ١٩٧ م). ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ خَلَّفَهَا وَأَبْعَدَ فِي الصَّخْرَاءِ. وَعِنْدَهَا لَمْ تَمْلِكْ لَيْلَى غَيْرَ أَنْ تَعُودَ إِلَى خِيَانَتِهَا. غَيْرَ أَنَّ زَوْجَ لَيْلَى لَمْ يُعَمِّرْ طَوِيلًا فَتَزَلَّتْ بِهِ عِلَّةُ ذَهَبَتْ بِحَيَاتِهِ، فَأَخَذَتْ لَيْلَى تَبْكِي، وَيَنْظُرُ الظَّانُّ أَنَّهَا كَانَتْ تَبْكِي لِفِرَاقِ زَوْجِهَا وَإِنَّمَا هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ كَانَتْ تَبْكِي لِفِرَاقِ عَشِيقَتِهَا.

وَاحْتَجَبَتْ لَيْلَى جِدَادًا عَلَى عَادَةِ الْعَرَبِ بَعْدَ وَفَاةِ زَوْجِهَا غَيْرَ أَنَّهَا مَا لَبِثَتْ أَنْ أَلَمَتْ بِهَا الْمَرَضُ هِيَ الْأُخْرَى. وَحِينَ أَحَسَّتْ بِدُنُوبِ أَجَلِهَا أَوْصَتْ أُمُّهَا فَقَالَتْ: «لَيْكُنْ كَفَنِي أَحْمَرَ اللَّوْنِ فَلَقَدْ مِتُّ شَهِيدَةً. جَمِّلْنِي كَمَا تَجَمَّلُ الْعُرُوسُ يَوْمَ زِفَافِهَا وَلَا تُسَلِّمْنِي إِلَى التُّرَابِ إِلَّا مُعْطَاةَ الزَّوْجِ. فَعَلِّمْنِي أَنَّ عَاشِقِي حِينَ يَنْتَهِي إِلَيْهِ خَبَرُ مَوْتِي سَوْفَ يَخْفَ لِيَقِفَ عَلَى قَبْرِي يُحْيِيهِ وَكَأَنَّهُ يُعْزِي نَفْسَهُ، وَإِخَالَ أَنَّهُ حِينَ يَجْلِسُ عَلَى قَبْرِي سَوْفَ يَنْبِشُ لِيَسْتَمِيعَ بِالْقَمَرِ الَّذِي كَمَّ تَمَتَّاهُ، وَعَبْنًا مَا يُحَاوِلُ فَلَنْ يَظْفِرَ بِغَيْرِ التُّرَابِ. وَلَسَوْفَ تَنْتَهَرُ دُمُوعَهُ مِذْرَارًا لَا تَنْقَطِعُ. أَلَا مَا أَعَزَّهُ يَا أُمَاهُ عَلَيَّ حَبِيبًا، فَاجْعَلِي مِنْهُ تَعَلَّتْكَ لِذِكْرَايَ، وَلَتَكُونِي بِحَقِّ اللَّهِ بِهِ كَرِيمَةً، وَلَا تُنْسَى أَنْ تُسِيرَ إِلَيْهِ أَنَّ لَيْلَى عَاشَتْ وَمَاتَتْ عَلَى الْإِخْلَاصِ لَهُ، وَأَنَّ رُوحَهَا مَا صَعَدَتْ إِلَّا قُرْبَانًا لِذَلِكَ الْهَوَى». وَمَا إِنْ أَتَمَّتْ كَلِمَاتِهَا تِلْكَ حَتَّى فَاضَتْ رُوحَهَا إِلَى بَارِئِهَا، وَمَا قَصَرَ أَهْلُهَا فِي الْاسْتِجَابَةِ إِلَى تَنْفِذِ مَا أَوْصَتْ بِهِ. وَيَعْرِفُ الْمَجْنُونُ نَبَأَ مَوْتِ لَيْلَى فَيَهْرَعُ إِلَى قَبْرِهَا يَقْصِمُهُ إِلَى صَدْرِهِ وَيَضَعُ رَأْسَهُ عَلَيْهِ وَلِسَانَهُ يُرَدِّدُ: «إِيَّاهُ مَعْشُوقَتِي. إِيَّاهُ مَعْشُوقَتِي»، وَمَا زَالَ يُرَدِّدُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ حَتَّى

أشعاره التي يتغنّى فيها بحبه تُم مَضَى يُناجيها.

وقبل الانتقال إلى العصر التيموري الثاني في هراة، يحسن التوقّف قليلاً لإلقاء نظرة على ما كان يدور في المناطق الأخرى من فارس خلال محاولتها التحرّر من الوصاية التيمورية، وبخاصة شيراز التي ما برحت خلال تلك السنوات تشغل مكان الصدارة في حياة فارس الفنية.

مدرسة شيراز ١٤١٥ - ١٥٠٣ م

وقدنا لدى تتبّعنا تطوّر المدرسة التيمورية في شيراز عند عام ١٤١٤ وهو عام هزيمة الأمير إسكندر وفوّء عينيه. وقد حكم البلاد من بعده ابن عمه الأمير إبراهيم أحد أبناء شاه رخ على مدى عشرين عاماً (من عام ١٤١٤ حتى عام ١٤٣٤). وكان إبراهيم كسلفه مولعاً بالآداب والفنون بل وخطاطاً أيضاً، نقش بنفسه الخزف المزجج وكسا به بناءين أوقفهما على خدمة المدينة. ورُغم رعايته للكتاب والفنانين، إلّا أنّ الاعتقاد السائد هو أنّهم هاجروا إلى هراة. وقد بُني هذا الاستنتاج على أنّ منجزات شيراز قد افتقدت بعد عام ١٤١٤ اللّمسة الشاعرية التي كانت تغلّفها في الفترة السابقة، وازدادت إلى تقاليد شيراز السالفة التي سادت نهاية القرن الرابع عشر بما تميّزت به من عنف وخشونة. وما زال هناك «ديوان شعر» كتبه إبراهيم عام ١٤٢٠ لأخيه بايسنقر، وهو يعدّ أقدم مخطوط يُمكن نسبته إلى عصر إبراهيم.

ظفرنامه، ١٤٢٥ م

إنّ أشهر مخطوط أنجز في شيراز في عصر إبراهيم هو «ظفرنامه» أو «تاريخ حياة تيمورلنك»، وقد انتهت شرف الدين علي يزدي من تأليفه عام ١٤٢٥. وبقيت لنا منمنمات كبيرة الحجم من إحدى نُسَخه القديمة ترجع إلى عام ١٤٣٤، أجملها المنمنمة المحفوظة بمعرض «فريز جاليري» بواشنطن. وتُصور هذه المنمنمة في إنجاز يبلغ دخول تيمورلنك مدينة سمرقند منتصراً، حيث تبدو شرفاتها وقد اكتست برقع الحرير المزركشة، ووقف السكّان يتطلّعون في فضول ورهبة إلى الغازي الجديد وهو يدخل المدينة مختللاً على صهوة جواده مُستظلاً بِعِظْلَة ملكيّة. وعلى الرّغم من أنّ هذه المنمنمة قد صوّرت داخل مُستطيل عاديّ إلّا نسبة طول ضلعه الرّأسيّ إلى قصر ضلعه الأفقيّ عليها تُضفي عليها سُمُوّاً فريداً، وتكشف عن أنّ أسلوبها أرقى من الأسلوب الذي ساد أثناء الفترة نفسها في هراة خلال حكم شاه رخ (لوحة ٢٠١ م).

شاهنامه السُلطان إبراهيم، ١٤٣٥ م

وتحتفظ المكتبة البودلية بأكسفورد بنسخة من الشاهنامه تميّز صورها بالثراء، ويرجع تاريخها إلى حوالي عام ١٤٣٥. وتتضمّن

وفي المنمنمة الأولى (لوحة ١٩٩ م) - وهي من تصوير خواجه علي تبريزي - نرى مَضرباً للخيام يُطلّ أهلها منها أو يتحرّكون من حولها وينظرون إلى شيخ يصب ماء الورد من قارورة على العاشقين الغائبين عن الوعي. ونشهد أسداً يقتك برجل ومن ورائه أربعة غزلان. ويلفتنا في هذا التكوين الاستخدام البارز للألوان الصارخة فوق أرضيّة هادئة اللون يحدها أفق مُرتفع تُوشّيه الشجيرات المزهرة، وتُحلّق فوقها الطيور على مقربة أمام سماء زرقاء صافية.

ونرى في المنمنمة الثانية (لوحة ٢٠٠ م) منظرًا في البادية. وتبدو - خلف تلال من الرمال - خيمة وأناس ورأس جمل، وهم يشهدون لقاء العاشقين وقد غابا عن الوعي من شدة الانفعال. ويبدو المَجَنون نَحِيلاً هزِيلاً نصف عارٍ يُسعفه زنجي بماء الورد، وإلى جانبه لئلي في أفخر ثيابها مغمى عليها تُسقيها وصيفتها كذلك بماء الورد. وفي أسفل الصورة نرى أسداً يفترس شخصاً، ومن خلف الأسد ثعلبان وغزلان ورأس أسد آخر. ويلفتنا في هذه المنمنمة بناء التكوين على أفواس مُتّحدة المركز سواء أكانت تُمثّل تضاريس الأرض أم مجموعات الأفراد أم سلسلة أشجار الدّلب البديعة التي تُؤدّي دور إطار خلاب إلى يمين الصورة، على حين يحتلّ بطلًا المأساة بؤرة التكوين.

نهاية العصر التيموريّ الأوّل

ما لبثت الأسرة التيمورية أن تهاوت، وفقدت الآداب والفنون في فارس ذلك الثمين الذي كان يحبوها بالرعاية والحماية، وهي وإنّ صادقت من يحوطها بالرعاية من جديد بعد أمد قصير، إلّا أنّها رعاية لم ترق إلى ما شملتّها به الأسرة التيمورية.

مات مُحمّد جوّكي عام ١٤٤٥ ثمّ شاه رخ عام ١٤٤٧ ولحقّ به أبناؤه عام ١٤٤٩، فقام أبو سعيد - المجهول الأصل - بتتصيب نفسه وريثاً لعرش التيموريين. وقد اتّسم حكمه الذي امتدّ عشرين عاماً بتجاهل الآداب والفنون وبالحُضوع لِدراویش سمرقند المُعادين لكلّ شكل من أشكال الثقافة - كما يذهب بارتولد - وإنّ نسب إلى أبي سعيد هذا، مخطوط «ديوان شعر» موجود بِمكتبة «شستر بيتي» بدبلن. ولقد لقي مَضْرعه في معركة مع التركمان، وخلفه في هراة السُلطان حُسين بيقر الذي حكم خراسان نحو أربعين عاماً حيث بدأ يزعى الفنون من جديد، وفي رعايته بدأ العهد التيموري الثاني. غير أنّه مع كلّ ما حقّق من ازدهار لم يتعدّ المنطقة الشماليّة الشرقيّة من بلاد فارس.

يَرَجِعُ تاريخه إلى عام ١٤٤٤ يَمَيِّزُ بِضَخامة حَجْم صَفحاته، وَيَضُمُّ سَبْعَ عَشْرَةَ مُنَمَّمة، مِنْهَا مُنَمَّمات اسْتِهْلَائِيَّتانِ بِمُتَحَفِ القَن بِكَلِيفلانَد. وَتَمَيِّزُ أَحْداثَ هَذِهِ الصُّورِ بِالْجُرْأَةِ وَالانْتِشارِ على مِساخاتِ فَسِيحة، وَبِخُطَّةِ أَلوانها الجَذابة غَيْرِ المألُوفَةِ في ثرائها وَتَنوعِها وَكَثافتِها وَجَسارتِها، وَيَتَفَضَّلُ أَنْيادُها إلى مَدْرَسَةِ شِيراز مِنْ رُسُومِ الأَشْخاصِ وَالسُّحُبِ وَالتَّباتاتِ، وَحَجْمِ أَوْرَاقِ الأشْجارِ.

وَلَقَدْ يَتَبَادَرُ إلى أَذهاننا أَنَّ مَوْضُوعَ الوَلِيمة المَلَكِيَّةِ في الحَدِيقَةِ الذي تَتَنَازَلُ المُنَمَّماتِ الاسْتِهْلَائِيَّتانِ (اللوْحَتان ٢٠٤ م ٢٠٥ م) لَا يَتَطَلَّبُ التَّعبيرَ بِالْحَرَكَةِ. غَيْرَ أَنَّهما تَتَرَفَّقانِ بِالْحَيَوِيَّةِ بِفَضْلِ الحَرَكَةِ التَّابِضَةِ التي تَبْدُو في أَوْضاعِ الشُّخُوصِ وَإِيماءِها وفي خُطوطِ الأَرابيسكِ البادِيَةِ في أَغْناقِ النِّساءِ وَأَكْتافِهِنَّ، حَتَّى لَكَأَنَّها رُسيَمَتِ بِيدِ المُصَوِّرِ الفَرَنْسِيِّ «آنْجِر». وَبَدَتْ أَوانِي الخَرْفِ الصَّيْنِيِّ ذِي اللَّوْنَيْنِ الأَبْيَضِ والأَزْرَقِ، وَتَنَوَّعَتِ العَمائِمُ وَقَلَّسُواتِ الرُّأسِ شُكْلاً وَلَوْنًا، وَظَهَرَ الأَفُقُ مُرتَفِعًا ذَهَبِيَّ اللَّوْنِ تَتَوَسَّطُهُ في المُنَمَّمة اليمْنَى شَجَرَةٌ سَرَوٌ مُدْبِيَّةٌ، وَجُمِّلَهُ في كِلَا المُنَمَّمتين وَحَدَاتِ مِنْ لَفائِفِ السُّحُبِ التَّقْلِيدِيَّةِ بِاللَّوْنَيْنِ الأَزْرَقِ والأَبْيَضِ. وَبَدَتْ الأَبْسِطَةُ والسَّجَاجِيدُ كَأَنَّها مُعلَّقةٌ في الهَوَاءِ، بَيْنَما شَكَلَتِ التَّباتاتِ الجَمِيلَةُ والشَّجَرَاتُ البايعةُ والأشْجارُ المِزْهَرَةُ وَنَسِيجُ الخَيْمةِ الفَخْمِ المُطَرَّزُ بِالذَّهَبِ والفِضَّةِ واضْطِفافُ الأَلوانِ الصَّفْراءِ والزَّرْقاءِ والأَزْجَوَانِيَّةِ والحَمْرَاءِ والفَيروزيَّةِ والخَضْرَاءِ، خُلْفِيَّةٌ تَذْكُرُنا بِالنَّسْجِيَّاتِ المُرسَّمة، وَهُوَ ما يَكْشِفُ عَن أَنَّ المَدْرَسَةَ التِّمُورِيَّةَ بِشِيرازَ لَمْ تُعَانِ أَيْ تَدْهُورَ خِلالَ السَّنَواتِ العَشْرِ الأخيرةِ مِنَ العَهْدِ التِّمُورِيِّ المُبَكِّرِ، وَلَعَلَّ رَوْعَةَ التَّلَوْنِ في اللُّوْحَتَيْنِ هِيَ العُنْصُرُ الطَّاعِي على باقِي عَنائِرِ التَّشْكِيلِ فِيها.

أَصْحابُ الخِرافِ السُّودِ

كَانَتْ ثَمَّةُ قَبِيلَتانِ مِنْ قَبائِلِ التُّركِمانِ تَعِيشانِ حَيَاةَ البَدْوِ الرَّحَّلِ في أَواسِطِ آسِيَا مُنْذُ عَهْدِ بَعِيدٍ، اسْتَقَرَّتَا خِلالَ القَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ في الرُّقْعَةِ الفَسِيحةِ التي تَفْضِلُ بِلادَ التِّمُورِيِّينَ عَن بِلادِ العُثمانيِّينَ والتي تَمْتَدُّ فِيمَا بَيْنَ المَوْصِلِ وَحُدُودِ سُورِيَا في أَذْرَبِيجانَ وَالْعِراقِ، وَكانتا مِنَ القَبائِلِ المُوَالِيَةِ لِأَوَيْسِ السُّلْطانِ الجَلائِرِيِّ (١٣٤١ - ١٣٧٤) في بَغْدادَ، وَهُوَ مَغُولِيٌّ تَشَرَّبَ الرُّوحَ الفارِسيَّةَ حَتَّى تَمَرَّسَ بِقَنِّ الحِطِّ والرَّسْمِ وَبَرَعَ فِيهِما. وَاسْتَطاعَ التُّركِمانُ مِنْ قَبِيلَةِ أَصْحابِ الخِرافِ السُّودِ «القَرَّاقِيونَليَّة» (نَسَبَةُ إلى شِعارِهِم الحَرْبِيِّ) خِلالَ جِيلٍ وَاحِدٍ التَّخَلُّصَ مِنْ سادَتِهِمْ، وَاسْتَوَلَى زَعِيمُهُمْ شاهُ مُحَمَّدَ بنِ قَرِه يوسُفَ على حُكْمِ بَغْدادَ ما بَيْنَ عامِ ١٤١١ وَعامِ ١٤٣٣، بَيْنَما حَكَمَ أَخُوهُ الأصْغَرُ چاهانُ شاهُ تَبَرِيزَ عامِ

إِهْداءَ إلى السُّلْطانِ إِبْراهيمَ وَتَخْلُو مِنَ التَّذْيِيلِ، وَلَعَلَّ مَرَدَّ ذَلِكَ إلى وَفاةِ كاتِبِها قَبْلَ أَنْ يَتِمَّ إِنْجازُها. وَفِيها نَلَحَظُ الكَثِيرَ مِنْ سِماتِ مَخْطُوطاتِ عامِ ١٤٢٠، مِثْلَ بَساطَةِ المَشْهَدِ الطَّبيعيِّ الذي يُشْكَلُ الخُلْفِيَّةَ، وَارتِفاعِ الأفقِ، وَحَيَوِيَّةِ الأَحْداثِ، وَخُفُوتِ جِدَّةِ الطَّابِعِ العامِّ لِلأَلوانِ. عَلَى أَنَّ الإِفْراطَ في اسْتِخدامِ اللَّوْنِ الأَخْضَرِ قَدْ أَتَلَفَ بَعْضَ المُنَمَّماتِ، بِفِعْلِ مادَّةِ الزَّرْنِجِ التي أَصابَتْ بَعْضَ المَوَاقِعِ بِالْحُرُوقِ وَالثَّقُوبِ. وَمَهْمَا كَانَتْ خُشونةُ هَذِهِ اللُّوْحَتِ وَهَبُوطُ مُستَوَهاها عَن مُستَوَى مُنَمَّماتِ شاهنامَةِ بايسنقر، إِلَّا أَنَّ القَصْدَ في اخْتِيارِ عَنائِرِ التَّكُونِ - الذي اتَّخَذَ طابِعَ الزَّخْرَفَةِ - قَدْ أَعانَ كَثِيرًا على إِخفاءِ أخطاءِ قَواعِدِ المَنْظُورِ عِندَ رَسْمِ الأَجْزاءِ المِعماريَّةِ. وَكَشَفَتِ المُنَمَّماتُ عَن مِثْلِ إلى أَسْلُوبِ التَّمائُلِ، وَإِنْ أَوْحَى بَعْضُها بِطابِعِ العَظَمَةِ بِفَضْلِ بَساطَةِ التَّكُونِ. وَثَمَّةُ مَجْمُوعَةٌ مِنَ المُنَمَّماتِ صَوَّرَتْ على صَفْحَتَيْنِ مُتقابِلَتَيْنِ اتَّجَهَ بَعْضُها إلى تَسْجِيلِ مَشايدِ البَلالَطِ أَو الصَّيْدِ، وَقَدْ تَفَرَّدَتْ بِاِحْتِشادِ تَكْوِيناتِها وَثِراءِ أَلوانِها. غَيْرَ أَنَّ الإِمْكانيَّاتِ التي كَانَتْ في حَوْرَةِ المُصَوِّرِ آنذاكَ لَمْ تَرْتَقِ إلى المُستَوَى المُشْهودِ، وَهُوَ ما سَمَحَ لِلتَّكَلُّفِ بِأَنْ يَتَطَرَّقَ إلى بَعْضِها. وَثَمَّةُ مُنَمَّمةٌ تُلَخِّصُ لَنَا مَزايَا أَسْلُوبِ التَّصْويرِ الرُّئيْسَةِ في هَذَا المَخْطُوطِ، وَهِيَ تِلْكَ التي تُصَوِّرُ «رُسْمٌ يَجْذِبُ جِوَادَهُ رِخَشَ بِحَبْلٍ مِنْ وَسَطِ القَطِيعِ البَرِّيِّ». وَقَدْ نَجَحَ الفَنانُ في اسْتِغْلالِ التَّعَارُضِ بَيْنَ الأَلوانِ حَتَّى غَدَتْ وَكَأَنَّها لَحْنٌ مُوسِيقِيٌّ مَوْقِعٌ (لَوْحَةٌ ٢٠٢ م).

وَيَتَفَرَّدُ هَذَا المَخْطُوطُ بِاسْتِمالِهِ على ما اضْطَلَحَ على تَسْمِيتهِ فَنِيًّا «بِالنَّزواتِ المُصَوَّرةِ» التي ظَهَرَتْ في صَفْحَتِ خَمْسٍ، وَتُمَثِّلُ تَثْوِيَعاتٍ لِصَيِّغِ تَصْويرِيَّةِ ذاتِ طابِعٍ قَرِيبٍ مِنَ الطَّابِعِ الصَّيْنِيِّ، مُلَوَّنةٌ بِاللَّوْنَيْنِ الذَّهَبِيِّ وَالْفِضِّيِّ دُونَ غَيْرِهما مِنَ الأَلوانِ (لَوْحَةٌ ٢٠٣ م). وَقَدْ رُسيِمَتِ هَذِهِ النَّزَوَاتُ المُصَوَّرةُ على نَهْجِ الزَّخارِفِ المَرْسُومَةِ بِدِيوانِي شِعْرِ إسْكَندَرَ، مِمَّا يُؤَكِّدُ أَنَّ عَدَدًا مِنَ الفَنانِينَ في شِيرازَ قَدْ نالُوا تَدْرِيبَهُمَ الفَنِّيَّ في مَرْسَمِ إسْكَندَرَ وَمَكْتَبَتِهِ. وَتَمَيِّزُ هَذِهِ الصُّورِ بِالتَّحَرُّرِ، مَعَ اقْتِباسِها بِشُكْلِ مُبايِثٍ أَوْ غَيْرِ مُبايِثٍ عَن زَخارِفِ الخَرْفِ وَالمَنْسُوجاتِ الصَّيْنِيَّةِ. وَفِي مُنَمَّماتِ هَذَا المَخْطُوطِ، بَلْ في مُنَمَّماتِ المَخْطُوطاتِ الفارِسيَّةِ بِعامَّةٍ في النِّصْفِ الأوَّلِ مِنَ القَرْنِ الخامِيسِ عَشَرَ، ظَهَرَتْ أَوانِي الزُّهُورِ الصَّيْنِيَّةِ البَيضاءِ والزَّرْقاءِ. أَمَّا رُسُومُ الحَيَواناتِ فَتُؤَكِّدُ مُعاصَرَتِها لِديوانِ السُّلْطانِ أَحْمَدَ لِاتِّفاقِ نَهْجَيْهِما في أَسْلُوبِ التَّلَوْنِ (لَوْحَةٌ ١٥٧ م).

شاهنامة شيراز، ١٤٤٤ م، دار الكتب القوميَّة بباريس

وتحتفظ دار الكتب القوميَّة بباريس بِمَخْطُوطِ آخَرٍ لِشاهنامَةِ،

خلال هذه الفترة مدرسة ذات أسلوب أكثر تقدماً تشهد ملامحه في بعض صور الأشخاص في مرقعات إستانبول التي اقترنت باسم السلطان الفاتح، والتي تتميز بالطابع التوفيقي بين الأساليب المختلفة. وإن هذا المزج بين الأساليب أمر لا يستغرب في مثل بلاط أوزون حسن الدولي الذي يضم جنسيات مختلفة. وتبدو المؤثرات المسيحية إلى جانب تأثير صيني أيضاً يوحى أسلوبه وطابعه - الذي يظهر في الثياب - بأنه تأثير أقرب إلى طراز أسرة مين منه إلى طراز أسرة ون، كما نجد في تلك الصور قطعة أو قطعتين من خزف الصين في مستهل القرن الخامس عشر ذي اللونين الأزرق والأبيض، وصورة مستنسخة من أصول صينية إلى جوار صور أصيلة أنجزها جماعة هم أقرب إلى الجوزيين المهرة منهم إلى الفتاتين. غير أنه من العسير تصنيف محتويات هذه المرقعات المهيئة التي جمعت بطريقة عشوائية أعمالاً من عصور مختلفة، ثم حاول بعض الهواة نسبتها إلى مختلف الأسماء خلال القرن السادس عشر وبعده.

وفي مبدأ الأمر لم يكن التيموريون يثقون في أسرة مين الوطنية الجديدة التي خلفت أسرة ون المغولية عام ١٣٦٨، غير أن تيمورلنك ما لبث أن تبادل الهدايا مع البلاط الصيني منذ عام ١٣٨٧، كخيول فرغانة التي كانت تهدى مقابل الأحجار الكريمة. وتزايدت أهمية البعثات الدبلوماسية كما سبق القول خلال حكم شاه رخ حتى ضمت عدداً من الأمراء التيموريين من بينهم أولوغ بك وبايسنقر.

وقد نسب البعض منمنمات القرن الخامس عشر التي تضمها مرقعات إستانبول إلى بلاد ما وراء النهر وإلى هراة خلال منتصف القرن الخامس عشر حيث كانت تعيش جاليات ذات ثقافة تركية. غير أن المعرفة الكاملة بتاريخ هذه المناطق وبمُنجزات هراة خلال حكم شاه رخ تدفع إلى اليقين بأن التركمان الذين أساغوا الروح الفارسية هم الذين أعانوا على ازدهار هذا الفن المهيمن، وبخاصة خلال حكم چاهان شاه، ثم من بعده خلال حكم أوزون حسن التركماني.

(١) التزيين (Illumination): هو فن نشأ في العصور الوسطى عندما كانت الكتب جميعاً مخطوطة قبل ظهور المطبعة، لتزيين المخطوطات وتزويقها بالألوان وسوائل المعادن الذهبية والفضية. وقد يشترك في تزيين المخطوطة الواحدة أكثر من فنان، إذ كان هذا العمل يعتبر مشروعاً مشتركاً. وعناصر التزيين ثلاثة: هي الحروف الاستهلالية والمنمنمات والأطر [م. م. ث].

١٤٣٦ قبل اغتلاله العرش ونقل العاصمة إلى تلك المدينة. وكان أدبياً يقرض الشعر بلغته التركية وإن كان عليماً بأصول الشعر الفارسي. وقد نصب ابنه بير بوداق - الذي تبناه السلطان أحمد آخر الحكام الجلائريين - حاكماً على شيراز عام ١٤٥٣، غير أنه عزله عام ١٤٥٩ بعد اتهامه بالاشتراك في مؤامرة تستهدف العيصيان، وما لبث أن حكم بإعدامه عام ١٤٦٥. وإذا كان بوداق ملماً بالثقافة الفارسية فقد رعى فن تزيين الكتب^(١)، ومن بين المخطوطات التي رُقنت في عهده بقي اثنان بمكتبة إستانبول يضمّان منمنمات رائعة هما ديوانا الشاعرين «القاسمي» و«الكاتبي» الذي كان ينعم برعاية حكام قبيلة «أصحاب الخراف السود»، وإن لم يصل إلينا أي مخطوط من تبريز خلال عصر چاهان شاه مع أنه جعل المدينة بكثرة من المباني الفخمة خلال حكمه الذي امتد من عام ١٤٣٦ حتى عام ١٤٦٧.

أصحاب الخراف البيض

وقامت قبيلة التركمان الثانية المعروفة باسم أصحاب الخراف البيض «الاق قيونلية»، برعاية أوزون حسن (١٤٥٣ - ١٤٧٧) بالاستيلاء على مقاليد الحكم بعد وفاة چاهان شاه، فحكموا تبريز عشر سنوات. وحاول أهل البندقية اجتذابهم للتحالف معهم ضد الأتراك العثمانيين، غير أن هؤلاء الآخرين هزمهم عام ١٤٧٣. وكانت زوجة أوزون حسن أميرة من سلالة آخر أسرة حاكمة بيزنطية هي أسرة كومينيس الطرابزونية. وقد أتاح هذا لزوجها أن يوثق الروابط بينه وبين عدد من الأسر الكبيرة في مدينة البندقية، والتي كانت متحالفة مع أسرة زوجته. وتضم كنوز كنيسة القديس مرقس بالبندقية كاساً بديعة من حجر الفيروز تحمل اسم ذلك الأمير. ولا شك أنه اثنى هو الآخر بعض نماذج التصوير والحفر والمخطوطات المنجزة في مدينة البندقية. وقد زارته بعثات دبلوماسية عديدة من مدينة البندقية في عاصمته تبريز وتركوا لنا تسجيلات لمشاهداتهم هناك.

ومن عصر «أوزون حسن» بقيت بعض المخطوطات التي تكشف عن نوع المنمنمات التي كان يفضلها الحكام التركمان، وأقدمها منمنمات مخطوط «الديوان» الذي يحمل تاريخ ١٤٦٨ والم محفوظ بالمتحف البريطاني، وقد نسيح بمدينة شيروان أو شماخا على الشاطئ الغربي لبحر قزوين. وتتجلى السكينة في أسلوب منمنماته أكثر مما تتجلى في المنمنمات التي أنجزت في منتصف القرن بشيراز أو هراة. وأخذ أوزون حسن عاصمته في تبريز لا في شيراز، ومن الجائز أن تكون هذه المدينة قد اختضت

مَنْظُومَةُ «مَخْزَنُ الْأَسْرَارِ». خَمْسُهُ نِظَامِي

زَاهِيَةٌ جَمِيلَةٌ هِيَ الْأَبْيَضُ وَالْأَزْرَقُ وَالْأَصْفَرُ. وَأَعْدَقُ الثُّعْمَانِ
الْعَطَاءُ عَلَى سِينِمَارٍ، وَلِكَيْتَهُ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ سَأَلَهُ إِذَا كَانَ يَسْتَطِيعُ بِنَاءَ
قَصْرِ يَفُوقُ قَصْرَ الْخَوَزَنْقِ رَوْعَةً فَأَجَابَهُ أَنَّهُ فِي اسْتَطَاعَتِهِ بِنَاءَ قَصْرِ
يُغَيِّرُ لَوْنَهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ فَغَضِبَ الثُّعْمَانُ وَأَمَرَ رِجَالَهُ
أَنْ يُلْقُوا بِسِينِمَارٍ مِنْ فَوْقِ الْقَصْرِ.

وَبَعْدَ أَنْ اعْتَلَى بِهَرَامِ الْعَرْشِ التَّزَمَ الْعَدْلُ بَيْنَ النَّاسِ فَعَلَّتْ
كَلِمَةُ الْحَقِّ. وَبَلَّغَتْ عَنَايَةَ بِهَرَامِ بِرَعَايَاهُ أَنَّهُ كَانَ يَسْتَأْجِرُ الْمُعْتَنِينَ
لِيُوفِدَهُمْ عَلَى نَفَقَةِ الدَّوْلَةِ إِلَى شَتَّى أَنْحَاءِ الْمَمْلَكَةِ لِيَشِيعَ السُّرُورُ
بَيْنَ النَّاسِ وَتَعَمَّ الْهَجَّةُ. وَكَانَ بِهَرَامٍ قَدْ دَخَلَ فِي صِبَاهٍ إِحْدَى
قَاعَاتِ قَصْرِ الْخَوَزَنْقِ فَشَاهَدَ بِهَا - كَمَا سَبَقَ الْقَوْلُ - صُورًا لِسَبْعِ
فَتَيَاتٍ جَمِيلَاتٍ هُنَّ بَنَاتُ مُلُوكِ الْعَالَمِ السَّبْعَةِ: فُورَكَ بِنْتُ مَلِكِ
الْهِنْدِ، وَبِجْمَا بِنْتُ مَلِكِ الصِّينِ، وَنَازِيرِي بِنْتُ مَلِكِ خَوَارِزْمٍ،
وَنَسْرِينَ نَوْشَ بِنْتُ مَلِكِ الصَّفَالِيَّةِ، وَأَزْرَبُونَ بِنْتُ مَلِكِ الْمَغْرِبِ،
وَهَوْمَايَ بِنْتُ قَيْسَرِ الرُّومِ، وَنَطَاوُسَ بِنْتُ كَيْسَرِي مَلِكِ الْفُرسِ.
كَذَلِكَ تَبَيَّنَ بِهَرَامٍ نَقْشًا مَكْتُوبًا بَيْنَ الصُّوَرِ بِحُطٍّ جَمِيلٍ يَقُولُ إِنَّ
بَهْرَامَ زِينَةَ الْأَمِيرَاتِ وَقُلُوبَهُنَّ، الْأَمْرَ الَّذِي أَوْحَى إِلَيْهِ أَنَّهُ سَيَعْبُدُ
عَلَيْهِنَّ جَمِيعًا.

وَعِنْدَمَا كُتِبَ لِمُلْكِهِ الْاسْتِقْرَارُ وَلِشُعْبَةِ الرَّخَاءِ لَمْ يَبْقَ أَمَامَهُ إِلَّا
أَنْ يَبْنِيَ بِالْأَمِيرَاتِ السَّبْعِ اللَّاتِي رَأَى صُورَهُنَّ عَلَى جُدُرَانِ قَصْرِ
الْخَوَزَنْقِ، فَبَعَثَ بِرُسُلِهِ لِيُخَطِبَهُنَّ لَهُ، وَعَهْدَ إِلَى أَحَدِ تَلَامِيذِ سِينِمَارٍ
بِنَاءَ سَبْعَةِ قُصُورٍ يُخَصَّصُ كُلُّ قَصْرٍ مِنْهَا لِأَمِيرَةٍ مِنْهُنَّ يَقْضِي مَعَهَا
يَوْمًا مِنْ أَيَّامِ الْأُسْبُوعِ. وَمَا لَبِثَ الْمُهَنْدِسُ أَنْ شَبَّدَ الْقُصُورَ السَّبْعَةَ
وَتَوَجَّحَ كُلًّا مِنْهَا بِقُبَّةٍ ذَاتَ لَوْنٍ يَتَّقَى وَلَوْ أَنَّ أَحَدَ الْكَوَائِبِ السَّيَّارَةِ،
وَيَنْطَبِقُ أَحْيَانًا مَعَ لَوْنِ بَشَرَةِ الْأَمِيرَةِ، كَمَا كَانَ أَثَاثُ كُلِّ قَصْرٍ وَمَا
فِيهِ مِنْ لِبَاسٍ يُشَبِّهُ لَوْنَ الْقُبَّةِ. وَعِنْدَمَا تَمَّ لِبَهْرَامِ الزَّوْاجُ بِالْأَمِيرَاتِ
السَّبْعِ صَارَ يَقْضِي كُلَّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْأُسْبُوعِ مَعَ أَمِيرَةٍ مِنْهُنَّ فِي
الْقَصْرِ الْمُخَصَّصِ لَهَا وَيَزِيدُ فِي كُلِّ قَصْرٍ ثِيَابًا تُنَاسِبُ لَوْنَ قُبَّةِ.
فَالْقَصْرُ ذُو الْقُبَّةِ السَّوْدَاءِ الَّتِي تُطَابِقُ «كَبْوَانَ» كَانَ مُخَصَّصًا لِلْأَمِيرَةِ
الْهِنْدِيَّةِ (لُوحَات ٢٠٦ م، ٢٠٧ م، ٢٠٨ م) وَيَقْضِي مَعَهَا بِهَرَامُ يَوْمَ
السَّبْتِ مِنْ كُلِّ أُسْبُوعٍ. وَالْقَصْرُ ذُو الْقُبَّةِ الصَّفْرَاءِ الَّتِي تُطَابِقُ
«الشَّمْسِ» كَانَ مُخَصَّصًا لِلْأَمِيرَةِ الصِّينِيَّةِ وَيَقْضِي مَعَهَا بِهَرَامُ يَوْمَ
الْأَحَدِ مِنْ كُلِّ أُسْبُوعٍ (لَوْحَةُ ٢٠٩ م). وَالْقَصْرُ ذُو الْقُبَّةِ الْخَضْرَاءِ
الَّتِي تُطَابِقُ «الْقَمَرِ» كَانَ مُخَصَّصًا لِلْأَمِيرَةِ الْخَوَارِزْمِيَّةِ وَيَقْضِي مَعَهَا
بَهْرَامُ يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ مِنْ كُلِّ أُسْبُوعٍ (لَوْحَةُ ٢١٠ م). وَالْقَصْرُ ذُو الْقُبَّةِ
الْحُمْرَاءِ الَّتِي كَانَتْ تُطَابِقُ «الْمَرِيخَ» كَانَ مُخَصَّصًا لِلْأَمِيرَةِ
الصَّفَلَبِيَّةِ، وَيَقْضِي مَعَهَا بِهَرَامُ يَوْمَ الثَّلَاثَةِ مِنْ كُلِّ أُسْبُوعٍ (لَوْحَةُ
٢١١ م). وَالْقَصْرُ ذُو الْقُبَّةِ الْفَيْرُوزِيَّةِ الَّتِي تُطَابِقُ «عُطَارِدَ» كَانَ
مُخَصَّصًا لِلْأَمِيرَةِ الْمَغْرِبِيَّةِ الَّتِي يَقْضِي مَعَهَا بِهَرَامُ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ

تَرَكَ نِظَامِي مَنْظُومَاتٍ خَمْسًا، أَبْيَاتُهَا نَحْوُ مِنْ ثَلَاثِينَ أَلْفَ
بَيْتٍ، وَأَسْمَاؤُهَا مَخْزَنُ الْأَسْرَارِ، وَخُسْرُو وَشِيرِينَ، وَلَيْلَى
وَالْمَجْنُونِ، وَهَفَّتَ بِيكِرَ، وَاسْكَنْدَرُ نَامِهِ. وَقَدْ نَظَّمَهَا الشَّاعِرُ
عَلَى نَهْجِ الْمَثْنَوِيِّ الَّذِي هُوَ مِنْ إِبْدَاعِ الْفُرسِ، وَعَنْهُمْ أَخَذَهُ
الْعَرَبُ وَسَمَّوْهُ الْمُزْدُوجَ. وَكُلُّ نُسْخَةٍ مِنَ النَّسْخِ الْخَطِيئَةِ تَضُمُّ
فِي الْأَكْثَرِ تِلْكَ الْمَنْظُومَاتِ الْخَمْسَ.

وَلِلمَنْظُومَةِ «مَخْزَنُ الْأَسْرَارِ» مُقَدِّمَةٌ مُسْتَفِيضَةٌ تَسْتَوْعِبُ ثُلْثِي
الْكِتَابِ، وَفِيهَا يَسْأَلُ الشَّاعِرُ رَبَّهُ الْعَفُوَّ وَالْمَغْفِرَةَ، ثُمَّ يَتَرَكُ هَذَا
إِلَى مَدْحِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَنْ يَنْتَقِلَ إِلَى مِعْرَاجِ
الرَّسُولِ. وَتَكُنِي هَذَا مَقَالَتٌ عِشْرُونَ تَتَنَاوَلُ كُلُّ مَا هُوَ خُلِقَ،
وَكُلُّ مَقَالَةٍ تُعَدُّ أَسَاسًا لِقِصَّةٍ تَجُلُو الْغُرُصُ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ أُنْشِئَتْ
تِلْكَ الْمَقَالَةُ. وَتَهْدَفُ هَذِهِ الْمَقَالَاتُ وَالْقِصَصُ إِلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ هُوَ
الْإِشَادَةُ بِالْعَدْلِ وَالتَّوَدُّدِ بِالظُّلْمِ وَالمُنَادَاةُ بِالْإِنْصَافِ وَالدُّعْوَةُ إِلَى أَنْ
يَعَمَّ الْوَفَاءُ بَيْنَ النَّاسِ فِي دُنْيَا فَإِنَّهُ لَنْ يَبْقَى فِيهَا مِنْ عَمَلِ الْإِنْسَانِ
إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ خَيْرٍ. وَكَمْ مِنْ شُعْرَاءَ جَاءُوا بَعْدَ نِظَامِي قَلَّدُوهُ فِيمَا
أُنْشَأَ فِي «مَخْزَنِ الْأَسْرَارِ» شِكْلًا وَمَوْضُوعًا، مِنْهُمْ مِيرْخَسْرُو
دَهْلَوِي الَّذِي نَظَّمَ «مَطْلَعُ الْأَنْوَارِ» وَخَوَاجُو كِرْمَانِي الَّذِي نَظَّمَ
«رُوضَةُ الْأَزْهَارِ» وَغَيْرُهُمَا (لَوْحَةُ ٢٧).

مَنْظُومَةُ «هَفَّتَ بِيكِرَ». خَمْسُهُ نِظَامِي

وَتَعْنِي الصُّورُ السَّبْعُ، أَيَّ صُورِ بَنَاتِ مُلُوكِ الدُّوَلِ السَّبْعِ الَّتِي
شَاهَدَهَا الْمَلِكُ الْبَطْلُ بِهَرَامٍ جُورَ عَلَى جُدُرَانِ قَصْرِ الْخَوَزَنْقِ. وَقَدْ
وَقَعَ اخْتِيَارُ الشَّاعِرِ نِظَامِي عَلَى شَخْصِيَّةِ بِهَرَامٍ جُورَ [بَهْرَامِ
الْخَامِسِ] الَّذِي اعْتَلَى عَرْشَ إِيرَانَ مِنْ ٤٢٠ إِلَى ٤٣٨ م لِتَكُونَ
مِخْوَرًا تَدُورُ حَوْلَهُ هَذِهِ الْقِصَّةُ. وَعِنْدَمَا طَلَبَ الْمَلِكُ يَزْدَ جَرْدَ أَنْ
يَتَعَرَّفُوا عَلَى طَالِعِ مَوْلُودِهِ إِذَا هُمْ يَزُونَ أَنَّ كُلَّ كَوْكَبٍ يُشِيرُ إِلَى أَنَّهُ
سَيَكُونُ عَلَى حَظٍّ سَعِيدٍ، فَسَمَّاهُ بِهَرَامِ أَيَّ السَّعِيدِ الطَّالِعِ، ثُمَّ مَا
لَبِثَ أَنْ كُنِيَ فِي شِبَابِهِ بِاسْمِ جُورَ لَوْلَعَهُ بِصَيْدِ الْحُمْرِ الْوَحْشِيَّةِ [الَّتِي
وَاحِدُهَا بِالْفَارْسِيَّةِ جُورَ]. وَإِذْ كَانَ يَزْدَجْرِدُ مَلِكًا طَالِمًا حَتَّى لَقِبَ
بِيزْدَجْرِدِ الْأَيْمِ، أَشَارَتْ عَلَيْهِ بِطَانَتِهِ أَنْ يُرْسِلَ ابْنَهُ بِهَرَامَ إِلَى بِلَادِ
الْعَرَبِ لِيُنْشَأَ بَيْنَهُمْ، فَسَلَّمَ الطُّفْلَ إِلَى الثُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْذِرِ مَلِكِ
الْجَبَرَةِ الَّذِي أَخَذَ هُوَ وَابْنُهُ فِي الْبَحْثِ عَنْ مُهَنْدِسٍ بَارِعٍ لِبِنَاءِ
قَصْرِ شَاقِقٍ يَنْطَاحُ السَّحَابُ يَتَرَعَّرُ بَيْنَ رُبُوعِهِ بِهَرَامِ فِي جَوْ
لَطِيفٍ حَتَّى لَا تَرْهَقَهُ حَرَارَةُ جَوْ الصَّخْرَاءِ. فَعَهْدًا إِلَى سِينِمَارِ
الْمُهَنْدِسِ الرُّومِيِّ بِتَشْيِيدِ قَصْرِ الْخَوَزَنْقِ فَأَقَامَهُ فِي سَنَوَاتِ
خَمْسٍ، وَكَانَ مِنْ بَيْنِ مِيزَانَتِهِ أَنَّهُ يُغَيِّرُ لَوْنَهُ كَالْعُرُوسِ مَرَّاتٍ
ثَلَاثَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ فَيَشْهَدُهُ الْمَرْءُ عَلَى التَّوَالِي بِأَلْوَانِ ثَلَاثَةِ

طريقه أَقْبَلَ عَلَيْهِ فَارِسٌ يَسْأَلُهُ عَنْ هَوَيْتِهِ، ثُمَّ هَدَاهُ إِلَى حَدِيقَةِ عَامِرَةٍ بِأَشْجَارٍ عَلَى شَرِيطَةٍ أَنْ يَقْضِيَهَا مُعْتَلِّيًا إِحْدَى الْأَشْجَارِ، فَفَعَلَ مَا هَانَ ذَلِكَ. وَلَمَّا سَجَا اللَّيْلُ إِذَا الْحَدِيقَةُ تَعَجَّ بِغَادَاتٍ حِسَانٍ أَقْمَنَ حَفْلًا فَخَمًا مَرَحًا بِالْقُرْبِ مِنْهُ، إِلَى أَنْ وَصَلَتْ امْرَأَةٌ ذَاتَ جَمَالٍ خَلَابٍ كَانَتْ تَتَزَعَّمُهُنَّ، جَلَسَتْ فِي عُرْضِ الْحَفْلِ وَمِنْ حَوْلِهَا تَابَعَاتُهَا، فَدَعَتْ مَا هَانَ لِلْجُلُوسِ بِجَوَارِهَا وَإِذَا هُوَ يَأْخُذُ فِي مُعَانَقَتِهَا وَيُوَالِي شَفَتَيْهَا تَقْبِيلًا، وَبَادَلَتْهُ الْمَرْأَةُ الْعِنَاقَ حَتَّى الصَّبَاحِ. غَيْرَ أَنَّهُ عِنْدَمَا أَمَعَنَّ التَّطَلُّعَ إِلَيْهَا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهَا مِنَ الْجِنِّ الَّذِي يُبِيرُ الرُّغْبَ فِي الْقُلُوبِ. وَمَا لَيْتَ أَنْ وَجَدَ نَفْسَهُ وَحِيدًا فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ الْقَاحِلِ الْمُوحِشِ الَّذِي كَانَ فِيهِ مِنْ قَبْلِ بَعْدَ أَنْ نَجَا بِفَضْلِ سَيِّدِنَا الْخَضِرِ. وَعَادَ مَا هَانَ إِلَى مَدِينَتِهِ وَعَدَا يَرْتَدِي اللَّوْنُ الْفَيْرُوزِيَّ بَعْدَ أَنْ رَأَى أَصْحَابَهُ يَرْتَدُونَ ثِيَابًا فَيْرُوزِيَّةَ حُزْنًا عَلَيْهِ وَفَرَعَتْ الْأَمِيرَةُ الْمَعْرِبِيَّةُ مِنَ الْقِصَّةِ وَهِيَ تَمْتَلِحُ اللَّوْنُ الْفَيْرُوزِيَّ فَاسْتَطَابَ الْأَمِيرُ بَهْرَامُ جُورَ قِصَّتِهَا وَقَضَى مَعَهَا لَيْلَةً مُمِيعَةً (الْلُّوحَتَانِ ٢١٥ م، ٢١٦ م).

خمسهُ نِظَامِي. هَفَّتْ بِبِكْر. تَبْرِيز ١٤٨١ م.

وَبِمُتَحَفِ طُوبِ قَابِو سَرَايِ وَفَعْتُ عَلَى مَخْطُوطَةٍ لِمَنْظُومَاتٍ نِظَامِي الْخَمْسِ مِنْ بَيْتِهَا مَنْظُومَةٌ «هَفَّتْ بِبِكْر» صَوَّرَتْ أَثْنَاءَ حُكْمِ سُلْطَانِ خَلِيلِ بْنِ سُلْطَانِ (١٤٧١ م)، تَحْتَوِي عَلَى اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مُنَمَّةً رَسَمَهَا اثْنَانِ مِنْ كِبَارِ فَنَائِي تَبْرِيزِ هُمَا شَيْخِي وَذَرُوشِ مُحَمَّدٍ. وَاسْتَمَرَّ الْعَمَلُ فِي هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ فِي عَهْدِ السُّلْطَانِ يَعْقُوبَ، غَيْرَ أَنَّهَا لَمْ تَتِمَّ إِلَّا فِي عَهْدِ الشَّاهِ إِسْمَاعِيلِ الصَّفَوِيِّ. وَتَنَجَّلَى فِي الْمُنَمَّاتِ الثَّمِينَةِ التَّادِرَةُ لِهَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ مَعَالِمَ مَدْرَسَةِ تَبْرِيزِ الطَّبِيعِيَّةِ.

وَتَرَوِي الْمُنَمَّةُ الْأُولَى (لَوْحَةُ ٢١٧ م) وَالتِي لَمْ يَسْبِقْ نَشْرُهَا قِصَّةَ بَهْرَامِ جُورِ الَّذِي خَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ لِلصَّيْدِ وَاصْطَلَحَ مَعَهُ جَارِيَتُهُ فِتْنَةُ الْحَسَنَاءِ الَّتِي تُجِدُ الْعَرْفَ عَلَى الْعُودِ وَالْغِنَاءِ وَالرَّقْصِ. وَكَانَ بَهْرَامُ يَصْحَبُهَا دَائِمًا مَعَهُ لِيَصْطَادَ بَيْتِهَا هِيَ تُعْغِي لَهُ. وَذَاتَ يَوْمٍ اصْطَادَ بَهْرَامُ جُورَ حُمُرًا كَثِيرَةً إِلَى أَنْ عَنَّ لَهُ جِمَارٌ وَحْشِيٌّ، فَأَشَارَتْ فِتْنَةُ عَلَيْهِ أَنْ يَرْمِيَهُ بِسَهْمٍ بِشَرَطِ أَنْ يَنْقُذَ سَهْمَهُ مِنْ رَأْسِ الْجِمَارِ إِلَى حَافِرِهِ فَفَعَلَ بَهْرَامُ، وَلَكِنَّ الْجَارِيَةَ قَالَتْ: إِنَّ اخْتِرَاقَ السَّهْمِ لِحَافِرِ الْجِمَارِ هُوَ مِنْ دَوَامِ التَّدْرِيبِ وَلَيْسَ مِنْ قُوَّةِ الْقُوَّةِ. وَغَضِبَ بَهْرَامُ غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَقَوْ عَلَى قَتْلِهَا بِنَفْسِهِ فَسَلَّمَهَا إِلَى فَارِسٍ كَيْ يُؤَدِّيَ عَنْهُ هَذِهِ الْمُهْمَةُ، وَتَضَرَّعَتْ فِتْنَةُ إِلَى الْفَارِسِ أَلَّا يَقْتُلَهَا وَأَنْ يُبَلِّغَ الْمَلِكَ بِأَنَّهُ نَقَذَ إِرَادَتَهُ فَإِنْ تَأَثَّرَ فَقَدْ نَجَتْ وَإِنْ لَمْ يُبَالِ عَادَ فَقَتَلَهَا. وَتَوَجَّهَ الْفَارِسُ إِلَى بَهْرَامِ وَأَخْبَرَهُ بِأَنَّهُ قَتَلَ فِتْنَةَ، فَتَأَثَّرَ بَهْرَامُ وَبَكَى، وَمِنْ ثَمَّ أَبْقَى الْفَارِسُ عَلَى حَيَاتِهَا وَأَوَاهَا فِي بَيْتِهِ.

مِنْ كُلِّ أُسْبُوعٍ (لَوْحَةُ ٢١٢ م). وَالْقَصْرُ ذُو الْقُبَّةِ الْبُنْيَةِ الَّتِي تُحَاكِي لَوْنَ خَشَبِ الصَّنَدَلِ تُطَابِقُ «الْمُشْتَرِي» كَانَ مُخَصَّصًا لِلْأَمِيرَةِ الرُّومِيَّةِ الَّتِي يَقْضِي بِهَرَامٍ مَعَهَا يَوْمَ الْخَمِيسِ مِنْ كُلِّ أُسْبُوعٍ (لَوْحَةُ ٢١٣ م). وَالْقَصْرُ ذُو الْقُبَّةِ الْبَيْضَاءِ الَّتِي تُطَابِقُ «الرُّهْرَةَ» كَانَ مُخَصَّصًا لِلْأَمِيرَةِ الْإِيرَانِيَّةِ الَّتِي يَقْضِي مَعَهَا بِهَرَامٍ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مِنْ كُلِّ أُسْبُوعٍ (لَوْحَةُ ٢١٤ م). وَاعْتَادَتْ كُلُّ أَمِيرَةٍ مَعَ لَيْلَتِهَا أَنْ تَقْصَّ عَلَى بَهْرَامٍ قِصَّةَ غَرَامٍ تُلْهِبُ عَاطِفَتَيْهَا مَعًا. وَقَدْ جَعَلَ نِظَامِي لِكُلِّ قِصَّةٍ لَوْنَهَا الَّذِي يَرْمِزُ إِلَيْهَا وَيُفْصِحُ عَنْ مَدَارِهَا، فَالْقِصَّةُ الْمَرْوِيَّةُ تَحْتَ الْقُبَّةِ السُّودَاءِ مَثَلًا تَكُونُ خَاتِمَتِهَا الْحُزْنَ عَلَى ضِيَاعِ شَيْءٍ لَهُ فَرَحَتُهُ، وَالْقِصَّةُ الْمَرْوِيَّةُ تَحْتَ الْقُبَّةِ الْحُمْرَاءِ تَنْتَهِي بِالْفَرَحِ وَالزَّوْاجِ، وَالْقِصَّةُ الْمَرْوِيَّةُ تَحْتَ الْقُبَّةِ الْبَيْضَاءِ تَهْدَفُ إِلَى الْإِعْلَاءِ مِنْ شَأْنِ الطُّهْرِ وَالْعِفَّةِ. وَلَعَلَّ هَذَا مَا يُفَسِّرُ لَنَا تَسْمِيَةَ نِظَامِي لِلْمَنْظُومَةِ بِهَفَّتْ بِبِكْرَ أَيِ الصُّورِ السَّبْعِ. وَقَدْ أَخَذَ الشَّاعِرُ يَسْطِ لَنَا مُجَرَّيَاتِ أُسْبُوعٍ لِبَلَالِيهِ.

وَالجَدِيرُ بِالْمُلاحَظَةِ أَنَّهُ عَلَى حِينِ سَجَلِ الْفِرْدَوْسِي فِي «شَاهَنَامَتِهِ» مَاثِرَ بَهْرَامِ جُورَ وَصَوَّرَ عَصْرَهُ تَصْوِيرًا دَقِيقًا وَأَسْرَفَ فِي تَصْوِيرِ رِحَالَتِهِ لِلصَّيْدِ وَمَهَارَتِهِ فِي الْحُرُوبِ، صَوَّرَ نِظَامِي فِي مَنْظُومَتِهِ «هَفَّتْ بِبِكْر» جَانِبَيْنِ مِنْ حَيَاةِ بَهْرَامِ، هُمَا الْجَانِبِ التَّارِيخِيَّ وَالْجَانِبِ الْعَاطِفِيَّ، وَرَبَطَ بَيْنَهُمَا بِمَهَارَةٍ وَأَسْبَغَ عَلَيْهِمَا التَّهْنُجَ الْقَصَصِيَّ، فَذَكَرَ مَوْلِدَ بَهْرَامِ وَنَشَأَتَهُ وَتَرْبُعَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَمَعَارِكَهُ وَوَلَعَهُ بِصَيْدِ الْحُمُرِ الْوَحْشِيَّةِ، ثُمَّ أَفْرَدَ لِلْجَانِبِ الْعَاطِفِيَّ حُبَّ بَهْرَامِ لِلْأَمِيرَاتِ السَّبْعِ وَحَيَاتِهِ الزَّوْجِيَّةَ مَعَهُنَّ.

خمسهُ نِظَامِي. مَنْظُومَةُ هَفَّتْ بِبِكْر.

قِصَّةُ الْأَمِيرَةِ الْمَعْرِبِيَّةِ لِبَهْرَامِ جُورِ تَحْتَ الْقُبَّةِ الْفَيْرُوزِيَّةِ. شِيرَاز (١٤٩١). سَانِ بِطَرَسَبَرِجِ

فِي يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ زَارَ بَهْرَامُ جُورَ الْأَمِيرَةَ الْمَعْرِبِيَّةَ فِي الْقَصْرِ ذِي الْقُبَّةِ الْفَيْرُوزِيَّةِ، فَقَصَصَتْ عَلَيْهِ قِصَّةَ التَّاجِرِ الْمُضْطَرِّ الشَّابِّ «مَا هَانَ» الَّذِي كَانَ يَتَجَوَّلُ بِصُحْبَةِ بَعْضِ رِفَاقِهِ فِي حَدِيقَةٍ، إِلَى أَنْ جَاءَهُ زَمِيلٌ يُنْهِي إِلَيْهِ أَنَّ قَافِلَةً تَحْمِلُ تِجَارَتَهُ قَدْ وَصَلَتْ لِتَوَّاهَا إِلَى بَوَابَةِ الْمَدِينَةِ، فَاتَّجَهَ مَا هَانَ مَعَ زَمِيلِهِ إِلَى بَوَابَةِ الْمَدِينَةِ ثُمَّ جَاوَزَاهَا، وَكَانَتِ الشَّمْسُ قَدْ غَرَبَتْ فَأَغْلَقَتْ بَوَابَةُ الْمَدِينَةِ دُونَهُمَا، وَلَمْ يَجِدَا بُدًّا مِنَ الْإِنْتَظَارِ حَتَّى الصَّبَاحِ. وَحَاوَلَ مَا هَانَ التَّسَلُّلَ إِلَى الْمَدِينَةِ مِنْ مَدْخَلٍ آخَرَ، غَيْرَ أَنَّهُمَا انْتَهَيَا إِلَى مَنَاطِقَةٍ قَاحِلَةٍ جَرْدَاءَ تَبَعَتْ عَلَى الْفَرَعِ، وَمَا لَيْتَ صَدِيقَهُ أَنْ اخْتَفَى فَوَجَدَ نَفْسَهُ فِي مَكَانٍ مُقْفَرٍ تَعِثُ فِيهِ الْحَيَوَانَاتُ الضَّارِيَّةُ وَالْأَفَاعِي السَّامَّةُ وَتَشْغَلُهُ الْمَغَارَاتُ الْمَرْهُوبَةُ، فَخَلَفَ الْمَكَانَ سَعْيًا إِلَى مَنَاطِقَةٍ آمِنَةٍ. وَبَيْنَا هُوَ فِي

وجلَّل ما بقي من صَفْحَةِ السَّمَاءِ بِلَفَائِفِ السُّحُبِ. وَلَمْ يَتَسَنَّ أَنْ يُصَوِّرَ طَائِراً يَحِطُّ عَلَى غُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِ شَجَرَةِ المِشْمِشِ وَآخَرَ عَلَى شَجَرَةِ الدُّلْبِ. لَمْ يَتْرِكْ هَذَا المَصَوِّرُ البَارِعَ مِسَاحَةً مِنَ الصُّورَةِ لَمْ يَشْغُلْهَا بِمَا هُوَ جَوْهَرِيٌّ فِي التَّعْبِيرِ عَنِ القِصَّةِ وَجَوْهَا، وَلَمْ يَتْرِكْ حِيلَةً مِنْ حِيلِ اسْتِدْرَاجِ البَصَرِ عَنْ طَرِيقِ التَّلَاعُبِ بِالأَلْوَانِ إِلَّا وَاسْتَحْدَمَهَا. وَمِنْ الطَّرِيفِ أَنَّ الأُسْتَادَ هَرْتَفَلْدَ قَدْ عَثَرَ فِي أَحَدِ قُصُورِ سَامَرَّا عَلَى صُورَةٍ تَحْكِي هَذِهِ القِصَّةَ. وَبِمَكْنَتِهِ سَالْتِيكُوفُ تَشْدَرِينَ بِسَانَ بِطَرْسَبَرْجَ مُنْمَعَتَانِ بِدِيْعَتَانِ تُثْمَلَانِ فِتْنَةً وَهِيَ تَصْعَدُ الدَّرَجَ أَمَامَ بَهْرَامِ جُورَ إِحْدَاهُمَا (لَوْحَةٌ ٢١٨ م) مِنْ مَخْطُوطَةٍ خَمْسَةِ نِظَامِي «هَفْتِ پِكَر» أَعْدَّتْ هِيَ أَيْضًا بِشِيرَازَ عَامَ ١٥٠٧ - ١٥٠٨ (لَوْحَةٌ ٢١٩ م).

أَمَّا المُنْمَعَةُ الثَّانِيَّةُ (لَوْحَةٌ ٢٢٠ م) الَّتِي وَقَعَ عَلَيْهَا اخْتِيَارِي مِنْ مَخْطُوطَةِ إِسْتَبْنُولِ الخَلَّابَةِ، وَالَّتِي لَمْ تُنَشَّرْ أَيْضًا مِنْ قَبْلُ، فَتَتَّصِلُ بِجُزْءٍ مِنْ قِصَّةِ بَهْرَامِ جُورَ بَعْدَ أَنْ تَحَقَّقَتْ أَمَالُهُ وَأَصْبَحَتْ الأَرْضُ أَمِينَةً بِظِلِّهِ وَلَمْ يَبْقَ أَمَامَهُ إِلَّا أَنْ يَتَزَوَّجَ مِنَ الأَمِيرَاتِ السَّبْعِ بَنَاتِ مُلُوكِ أَقَالِيمِ العَالَمِ السَّبْعَةِ كَمَا ذَكَرْنَا مِنْ قَبْلُ. فَأَرْسَلَ إِلَيْهِنَّ مَنْ يَخْطُبُهُنَّ وَكَلَّفَ أَحَدَ تَلَامِيذِ سِينَمَارَ بِنَاءَ سَبْعَةِ قُصُورٍ لِكُلِّ مِنْهِنَّ قَصْرٌ يَقْضِي مَعَهَا فِيهِ يَوْمًا مِنْ أَيَّامِ الأُسْبُوعِ، وَبَنَى لِكُلِّ قَصْرٍ قُبَّةً فِي لَوْنٍ أَحَدِ الكَوَائِبِ السَّبْعَةِ تَتَّفِقُ مَعَ لَوْنِ بَشَرَةِ الأَمِيرَةِ وَقِصَّتِهَا. كَذَلِكَ كَانَ أَثَاثُ القُصْرِ وَلَوْنُ لِبَاسِ سَكَّانِهِ يُسَاوِرُ لَوْنَ القُبَّةِ.

وَتُبَيَّنُ اللَّوْحَةُ بِهْرَامِ جُورَ وَهُوَ يَسْتَمِيعُ إِلَى قِصَّةِ الأَمِيرَةِ الصَّفَلِيَّةِ فِي القُصْرِ ذِي القُبَّةِ الحُمْرَاءِ. وَأَغْلَبَ الظَّنُّ أَنَّ مُصَوِّرَ (اللَّوْحَةِ ٢١٧ م) هُوَ مُصَوِّرُ هَذِهِ المُنْمَعَةِ نَفْسَهُ، فَاسْتَحْدَمَهَا لِعَنْصُرِي التَّشْكِيلِ وَالْإِبْدَاعِ لَا يَقِلُّ رَوْعَةُ عَنْ سَابِقَتِهَا، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يُكَرِّرْ نَفْسَهُ. لَقَدْ شَطَّرَ الصُّورَةَ شَطْرَيْنِ، وَرَسَّمَ بَابَ مَدْخَلِ القُصْرِ فِي النِّصْفِ الأَدْنَى مِنْهُمَا مُسْتَحْدِمًا طَرِيقَتَهُ الخَاصَّةَ فِي رَسْمِ المَنْظُورِ بِأُسْلُوبِ «التَّصَوُّرِ الدَّهْنِيِّ المُنْتَخِلِ»، فَأَحَاطَهُ بِسِيَّاحٍ مِثْلُكَ الأَضْلَاعِ مِنَ القَاشَانِيِّ الأَرْدَوَائِيِّ المَزِينِ بِزَخَارِفِ نَبَاتِيَّةٍ، قَبْدَا بَابَ المَدْخَلِ وَكَأَنَّهُ يُؤَدِّي إِلَى الفِنَاءِ المُشْكَلِ مِنْ بَلَاطَاتِ القَاشَانِيِّ الفَيْرُوزِيَّةِ المُسَدَّسَةِ الشَّكْلِ تَنْوِصُهَا وَزِيدَات. وَفِي الطَّرَفِ الأَخْرَ مِنَ الفِنَاءِ رَسَّمَ سِيَّاحًا خُمَاسِيَّ الأَضْلَاعِ هُوَ عَلَى الأَرَجَحِ سُورُ بَرْكَةِ مَاءٍ مِنْ بَلَاطَاتِ القَاشَانِيِّ الزُّرْقَاءِ المُحَلَّاةِ بِزَخَارِفِ نَبَاتِيَّةٍ، وَقَدْ تَرْتَّبَ عَلَى المُقَابَلَةِ بَيْنَ السِّيَّاحِيْنَ، مَا يُوحِي بِالعُمُقِ لَدَى الوَهْلَةِ الأُولَى، وَإِنْ كَانَ عَلَى المُشَاهِدِ أَلَّا يَشْغَلُ ذِهْنَهُ بِمَوْضِعِ بَابِ الدُّخُولِ. وَفِي الشَّطْرِ العُلُويِّ رَسَّمَ المَصَوِّرُ شُرْفَةً تَنْتَهِي بِسِيَّاحٍ خُمَاسِيَّ الأَضْلَاعِ مِنَ القَاشَانِيِّ البَنِيِّ المُحَلَّى بِزَخَارِفِ هَنْدَسِيَّةٍ تُحِيطُ بِهِ أَطْرَ حِمْرَاءَ تَعْلُوهُ قُبَّةُ القُصْرِ

وَتَصَادَفَ أَنَّ عِجْلاً وُلِدَ فِي يَوْمِ دُخُولِ فِتْنَةِ بَيْتِ الفَارِسِ فَصَارَتْ تَحْمِلُهُ وَتَصْعَدُ بِهِ إِلَى أَعْلَى المَنْزِلِ حَتَّى مَرَّتْ عَلَى ذَلِكَ، وَاسْتَطَاعَتْ أَنْ تَحْمِلَهُ وَتَصْعَدَ بِهِ حَتَّى بَعْدَ أَنْ صَارَ ثَوْرًا. وَذَاتَ يَوْمٍ دَعَا الفَارِسُ بَهْرَامَ إِلَى حَفْلِ أَقَامَهُ فِي مَنْزِلِهِ فَسَأَلَهُ بِهْرَامُ: كَيْفَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصْعَدَ دَرَجَاتِ السَّلَمِ وَقَدْ أَصْبَحْتَ فِي سِنِّ السَّتِينَ؟ فَأَجَابَهُ بِأَنَّهُ لَدَيْهِ جَارِيَةٌ يُمَكِّنُهَا أَنْ تَصْعَدَ الدَّرَجَ حَامِلَةً ثَوْرًا. ثُمَّ رَأَى بِهْرَامَ فِتْنَةً تَصْعَدُ حَامِلَةً الثَّوْرَ، فَسَرَ بِقَائِلِهَا عَلَى قَيْدِ الحَيَاةِ وَأَحْضَرَ المَوَادَّةَ وَعَقَدَ عَلَيْهَا.

وَلَقَدْ بَلَغَتْ جَمِيعُ عَنَاصِرِ التَّشْكِيلِ وَالْإِبْدَاعِ ذُرُوتَهَا فِي هَذِهِ المُنْمَعَةِ، فَالْمَنْزِلُ الَّذِي يَقِفُ بِهْرَامِ جُورَ عَلَى سَطْحِهِ فِيمَا يُشْبِهُ الهَوْدَجَ الْمُقْبَّبَ يُذَكِّرُنَا بِعِمَائِرِ مَدْرَسَةِ هَرَاةَ بِقَوَالِيهَا القَرْمِيدِيَّةِ الْوَرُودِيَّةِ وَالتَّقُوشِ البَيْضَاءِ عَلَى القَاشَانِيِّ الأَزْرَقِ وَشُرَافَاتِ القَاشَانِيِّ الزُّرْقَاءِ الَّتِي تُحِيطُ بِقِمَّةِ المَبْنَى. وَتَدَبَّ الحَيَاةُ فِي هَذَا المَبْنَى السَّاكِنِ مِنْ خِلَالِ الفَتَاتَيْنِ الوَاقِفَتَيْنِ بِالبَابِ، وَالتَّسْوَةِ اللَّائِي يُطِلُّنَ مِنَ التَّوَائِذِ، وَأَتْبَاعِ بَهْرَامِ جُورَ الَّذِينَ تَظْهَرُ رُؤُوسُهُمْ فِي اسْتِخْيَاءِ تَارِكِينَ مَوْلَاهُمْ بَطْلَ القِصَّةِ يَحْتَلُّ بِوُورَةِ الصُّورَةِ وَخَدَهُ فِي رِدَائِهِ الأَنِيقِ الأَخْضَرَ المَطْرُوزَ بِالقَصَبِ. وَفِي مُقَابِلِ هَذَا المَشْهَدِ تَدُورُ أَحْدَاثُ القِصَّةِ، إِذْ نَرَى فِتْنَةً حَامِلَةً الثَّوْرَ وَهِيَ تَصْعَدُ السَّلَمَ إِلَى الأَمِيرِ وَمِنْ وَرَائِهَا حَشْدٌ مِنَ الرِّجَالِ، يَمْتَدُّ لِيَخْتَرِقَ إِطَارَ الصُّورَةِ، يَتَعَجَّبُونَ مِنْ هَذِهِ المَقْدِيرَةِ الخَارِيقَةِ تَأْتِيهَا امْرَأَةٌ. وَلَمْ يَكُنْ المَصَوِّرُ أَنْ يَرَسِّمَ قَامَةً فِتْنَةً مُتَنَاسِقَةً تَفِيضُ صِحَّةً وَقُوَّةً مُرْتَدِيَّةً سِرْوَالًا أَخْضَرَ مِنْ قُوَّةِ رِدَاءِ أَحْمَرَ وَكِلاهُمَا مُطْرُزَ بِزَخَارِفٍ مِنَ القَصَبِ. وَتَعَمَّدَ المَصَوِّرُ وَضْعَ السَّلَمِ فِي مُتَنَصِفِ الصُّورَةِ فِي وَضْعٍ مَائِلٍ بَيْنَ المَنْزِلِ السَّاكِنِ جِهَةَ الِيسَارِ وَجُمْهُورِ المُتَفَرِّجِينَ الوَاقِفِينَ إِلَى الِيَمِينِ، وَذَلِكَ لِإِلْهِاءِ بِالحَرَكَةِ والصُّعُودِ. وَلَا يَتَوَقَّفُ الإِحْسَاسُ بِالحَرَكَةِ عِنْدَ هَذَا الحَدِّ بَلْ يَمْتَدُّ عَبْرَ بَرْكَةِ المِيَاءِ المُحَاطَةِ بِالأَغْصَانِ الخَضِرَاءِ وَالرُّهُورِ وَالتِّي رُسِمَتْ أَيْضًا فِي وَضْعٍ مَائِلٍ لِتَغْزِيْزِ فِكْرَةِ الإِلْهِاءِ بِالحَرَكَةِ، بَلْ وَيَنْسَحِبُ كَذَلِكَ إِلَى شَجَرَةِ المِشْمِشِ ذَاتِ الرُّهُورِ البَيْضَاءِ الْوَرُودِيَّةِ، وَالشَّجَرَةِ الوُسْطَى بِأَوْرَاقِهَا ذَاتِ اللَّوْنِ الأَخْضَرَ البَاهِتِ والأَخْضَرَ النَّاصِعِ، وَشَجَرَةِ الدُّلْبِ ذَاتِ العُصُونِ عَلَى شَكْلِ الكَفِّ وَقَدْ مَالَتْ بِسَاقِهَا وَأَغْصَانِهَا إِلَى الِيسَارِ بِفِعْلِ الرِّيحِ، وَتَدَاخَلَتْ مَعَ لَفَائِفِ السُّحُبِ التَّقْلِيدِيَّةِ ذَاتِ اللَّوْنِ الأَبْيَضِ والأَزْرَقِ. وَاتَّكَسَى الفِنَاءُ المُحِيطُ بِالمَنْزِلِ بِالشَّجَائِرِ الْمُزْهِرَةِ فِي غَيْرِ تَحْوِيرِ. وَأَبَى المَصَوِّرُ أَنْ يَتَخَلَّى عَنِ قَاعِدَةِ «الأَفَقِ المُرتَفِعِ» فَلَمْ يَشَأْ أَنْ يَتْرِكَ صَفْحَةَ السَّمَاءِ الزُّرْقَاءَ تَحْتَلُّ الثَّلَاثَ العُلُويِّ مِنَ المُنْمَعَةِ، فَرَسَّمَ رَابِيَةً إِلَى الِيَمِينِ تَكْسُوها الرُّهُورَ وَتَعْلُوها صُخُورَ إِسْفَنْجِيَّةِ الشَّكْلِ عَلَى هَيْئَةِ الشُّعْبِ المَرْجَانِيَّةِ يُطْلُ مِنْ وَرَائِهَا رَأْسُ حِصَانٍ يَقُودُهُ سَائِسٌ،

بِتَكُونَات مُستعرضة بدأها في مهاد الصورة الأمامي يجذع شجرة ملقى على الأرض، ثم بالساجات الثلاثة المنتهية بسقف القصر. وتبسط أمام بهرام جور والأميرة إلى اليمين صينية بها آيتان من الخزف الصيني باللونين الأبيض والأزرق، وإلى اليسار صفحة مليئة بالفاكهة والثمار ومائدة تحمل أربعة أباريق ذهبية لعلها للزجاج. ولم يفت المصور الجانب الفكاهي من القصة، فبينما يمتد السامر بالأمير وزوجته وتحلو المناجاة بينهما يهبط سلطان اللعاس على أفراد الحرس الصناديد فنرى أحدهم وقد انطرح على ظهره في مقدم الصورة أمام الباب إلى جوار جذع الشجرة الملقى على الأرض، بينما مال غيره منكفئ على الساج ملأ وإغياء وراحوا جميعاً يغطون في سبات عميق.

إن مصور منمنماتي مخطوطة طوب قابو موسيقي سلقته، وما أصدق ما يطبق على لوحته قول ديلاكروا: «إن الألوان هي موسيقى العيون، وإن التوافقات المتناغمة بين الألوان تولد أحاسيس لا تبلغها أنغام الموسيقى»، ومن ثم فإننا حتى من قبل أن نعرف ما يمثله موضوع هاتين المنمنمتين نستمرى انطباعاتهما الجذابة الناجمة عن تنسيق ألوانهما التي تأسرننا بأنسجامها الأسير.

لقد اتسمت هذه المدرسة التركمانية بإبداع عالم خيالي عميق التأثير بألوانه المتألقة المتألفة والمتباينة التي تجمع بين اللازوروي والأزجواني والبرتقالي فوق أرضيات سمراء أو شاحبة الخضرة أو اردوازية أو بنفسجية ضاربة إلى الزرق، وبما حشد له من السحب المخيلية والجبال الحافلة بالوحوش وبالصخور وكرام الأحجار والزهور الصينية المحورة التي تشيع عطر الربيع، وإن ظل تحور الأشكال وتحويرها وتحليقها وغوصها بطبع اللوحات بطابع الزخرف لا بمحاكاة الطبيعة. إن هذه اللوحات التركمانية بلمساتها الغريبة التي قد ثني عن أرنب يسرب من جحر ليقرض العشب، أو بطات تتلاقى مناقيرها على صفحة جدول فضي، أو طيور جارحة تحلق فوق قمم الجبال، لثوي لنا بنعم أعلى من أنغام سواها، وبأننا ننعيم بالفردوس مع أن أقدامنا لا تزال لصيقة بالأرض. واتسمت كذلك بجدة الألوان ذات النكهة العريفة والحويّة الدافقة، وبتطيرز الوسائد والحشيات والثياب بتمافج الطير والتين، وبرسم الأنماط الزخرفية المجلجلة، والاهتمام بتغيير الشخص على حساب نسب الطبيعة، وبالكشف عن محتويات الدور دونما اعتداد بمنطق التوزيع في الفراغ، وبتضمين تغضنات الصخور أشكالاً لكائنات ممسوخة. لقد تضافرت هذه القسمات كلها حتى جعلت من الأسلوب التركماني واحداً من أكثر أساليب الفن الإسلامي إمتاعاً. وما من شك في أن موقع تبريز بين الشرق والغرب واتخاذها مركزاً تجارياً رئيسياً تندفق عليه

الحمرء التي ترمز لقصر الصقلية الأحمر. وإن تزداد الساجات المضلعة من مهاد الصورة الأدنى حتى سطح الأفق لهو دليل على ما كان يحاير هذا الفنان لدى انفعاله بالقصة محاولاً التعبير عن العمق والامتداد وفق نهجه الخاص.

ويظهر بهرام جور في رداءه البنفسجي المطرز بالقصب وعباءته الخضراء ذات الحاشية الحمراء يستمع إلى قصة الأميرة الصقلية. والأمر الملفت في هذه الصورة هو خط الأرييسك المنحني البديع الذي جسم به الفنان جسد الأميرة ذات الثوب الأصفر والوشاح الأحمر في وضعة الجلوس مستندة إلى ذراعها واضعة كفيها على حشيت زرقاء. وتصوير الأميرة وإن اقترب من الواقعية إلا أن مصورها الملهم أتى الاستسلام للواقع الجاف وأضفى من خياله مثالية لا نجدها إلا في صور فتاتي المدرسة الرومانسية في أواخر القرن التاسع عشر في أوروبا. فالمنحنى الرقيق الأنيق البادئ من الرأس - الذي تشوه وجهه للأسف الشديد - والهابط ماراً بالعنق والكف إلى الخصر حتى العجز، والصاعد من جديد مع الفخذ إلى الركبة ثم هابطاً حتى ذيل الثوب، هذا المنحنى الشديد الغواية يعطي المرء الإحساس نفسه الذي يستشعره وهو يرقب مشهداً راقصاً يتسم بالرشاقة والجلال. اتخذ هذا المنحنى شكل حرف (S) الذي عدّه الفنان الإنجليزي هوجارت «سير الانسجام»، وسمّاه خط الرشاقة والجمال، وعقد له مقاله الممتع المشهور عن تحليل الجمال، كما رسم له لوحتين مخفورتين تخلبان اللب. فالتين ما تكاد تقع عليه حتى تتلهى بتبعها هذا الخط اللولبي بتجاويفه المقعرة والمحدبة التي تستعرض نفسها أمام أبصارنا على التوالي. لقد أراد المصور أن يضفي على أميرته الصقلية نوعة وتقوة حتى ولو كانت زائفة لا تمثل الواقع، فلم يعترض خطه المثالي ما يشجب هذه النوعة والتقوة.

وإذا تطلّعنا إلى مشهد الأمير والأميرة سويّاً فوق السجادة المربعة ذات الخطوط المائلة الخضراء والسوداء لوجدناهما يشكّلا من مثلاً تمتد قمته صوب الأفق الذهبي عن طريق شجرة الخوخ ذات الزهور البيضاء التي تكتنفها شجيرات ونباتات أخرى مزهرة. ويؤكد هذا الشكل الهندسي شكل مماثل هو القبة الحمراء التي تخترق الهاشم العلوي للمنمنمة (لم تظهر في الصورة)، على حين توشّي صفحة السماء الذهبية أسراباً محلقة من الطيور الزرقاء والحمرء تلاشى بمجرد اختراقها نطاق لفائف السحب التقليدية ذات اللونين الأبيض والأزرق. وقد وازن المصور في لوحته البديعة بين خطوطها الأفقية والرأسية بمهارة، فقد اغترض الأشكال الأفقية التي تبدأ بباب الدخول ثم مجلس الأمير والأميرة وشجرة الخوخ وتنتهي بقبة القصر، اعترضها جميعاً

وفي مُنمنمة «الصّراع مع الحوت» (لوحة ٢٢١ م)، والتي تُنشر للمرّة الأولى، يُصوّر الفَتَانُ قِصَّةَ مَعْرَكَةٍ فِي الْبَحْرِ بَيْنَ حُوتٍ كَبِيرٍ الْحَجْمُ وَبَيْنَ بَحَّارَةٍ سَفِينَةٍ، وَقَدْ سَدَّدَ أَحَدُهُمْ طَعْنَةً إِلَى الْحُوتِ فَأَصَابَهُ، غَيْرَ أَنَّهُ هَاجَ وَاضْطَظَمَ بِالسَّفِينَةِ لِيُحْطِطَ بِهَا فَفَاجَأَهُ الْبَحَّارُ بِطَعْنَةٍ ثَانِيَةٍ أَطْلَحَتْ بِرَأْسِهِ وَبَزَعَانِفِهِ وَقَضَّتْ عَلَيْهِ. وَقَدْ صَوَّرَ الْفَتَانُ يُصَفِّ السَّفِينَةَ فَقَطُّ دَاخِلَ إِطَارِ الصُّورَةِ، طَافِيَةً فَوْقَ مِيَاهِ بَنَفْسِيَّةٍ مُتَمَوِّجَةٍ، وَمِنْ خَلْفِهَا رَسَمَ رُقْعَةً أَرْضَ خَضْرَاءَ، تَمَتَّدَ حَتَّى نِهَايَةِ الصُّورَةِ تَقْرِيْبًا حَيْثُ تَرَكَ مِسَاحَةً ضَيِّقَةً لِلْأَفُقِ الْمُرْتَفِعِ الْأَرْزَقِ. وَفِي مُقَدِّمَةِ الصُّورَةِ وَفِي الْمُسْتَوَى الْأَيْمَنِ الْأَذْنَى رَسَمَ الْحُوتَ عَلَى هَيْئَةِ حَيَوَانٍ خُرَافِيٍّ لَهُ رَأْسٌ أَشَبَّهَ بِرَأْسِ الثَّيْنِ وَقَدَّامَانِ أَمَامِيَّتَانِ كَأَقْدَامِ الْكَلْبِ وَعَلَى ظَهْرِهِ حَرَاشِفٌ مُتَبَاعَةٌ. وَبِدَاخِلِ السَّفِينَةِ الَّتِي لَوْنُهَا يَلُونُ أَرْزَقٌ دَاكِنٌ وَجَعَلَ لَهَا رَأْسَ زَرَّافَةٍ، نَشَّهَدَ الْبَحَّارَةَ بِأَزْيَانِهِمُ الْمُلوْنَةِ، وَتَرَى أَحَدَهُمْ وَقَدْ أَعْمَلَ سَيْفَهُ فِي رَأْسِ الْحُوتِ الَّذِي بَدَأَتْ الدِّمَاءُ تَسِيلُ مِنْهُ.

وَاخْتَرَتْ مُنمنمة أُخْرَى تُنشرُ كَذَلِكَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ (لوحة ٢٢٢ م) تُصوِّرُ دُخُولَ جَمْعٍ مِنَ النَّاسِ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ. وَتُروِي الْقِصَّةَ أَنَّ مِائَةَ رَجُلٍ كَانُوا يَسْتَقِلُّونَ سَفِينَةً رَسَتْ بِهِمْ عَلَى أَرْضٍ يَحْكُمُهَا إِمَامٌ مُسْلِمٌ. فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ سَيَّافَهُ فَخَاطَبُوهُ قَائِلِينَ إِنَّهُمْ إِنَّمَا جَاءُوا لِيُطْلَبُونَ الْهِدَايَةَ وَإِنَّ لَدَيْهِمْ أَمْوَالًا طَائِلَةً. فَقَالَ لَهُمُ السَّيَّافُ إِنَّ سَيِّدَهُ لَيْسَ فِي حَاجَةٍ إِلَى أَمْوَالِهِمْ. فَزَلُّوا مِنْ قَارِبِهِمْ وَتَوَجَّهُوا إِلَيْهِ، وَقَالُوا إِنَّهُمْ لَمْ يَحْضُرُوا إِلَيْهِ بِاخْتِيَارِهِمْ وَلَكِنْ بِدِفَاعِ خَوْفٍ، وَإِنَّهُمْ يُقَدِّمُونَ عَشْرَ مَا يَحْمِلُونَ مِنْ أَمْوَالٍ عَنْ رِضَى وَاقْتِنَاعٍ، وَعَبَّرُوا لَهُ عَنْ إِحْسَاسِهِمْ بِالطَّمَأْنِينَةِ، ثُمَّ أَعْلَنُوا إِيمَانَهُمْ وَطَاعَتَهُمْ وَدُخُولَهُمْ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ.

وَقَدْ اخْتَارَ الْمُصَوِّرُ لِحَظَةً وَصُولَ الْمَرْكَبِ وَرُسُوهُ، وَإِنْ لَمْ يُظْهِرْ سِوَى يَصْفِهِ دَاخِلَ الْإِطَارِ، وَحَشَدَ فَوْقَهُ جَمْعًا مِنَ الرَّاكِبِينَ وَالرَّاجِلِينَ، وَأَمَامَهُمْ عَلَى الشَّطِّ وَقَفَ السَّيَّافُ يَتَحَدَّثُ إِلَيْهِمْ. أَمَّا الْوَالِي، فَقَدْ رَسَمَهُ فِي الرُّكْنِ الْأَعْلَى الْأَيْمَنِ مِنَ الصُّورَةِ عَلَى خَلْفِيَّةٍ مِنَ الْأَفُقِ الْمُتَمَدِّ وَخَوْلِهِ سَحَابَتَانِ عَلَى شَكْلِ الثَّيْنِ الْمُخَلَّبِي. وَاخْتَارَ الْمُصَوِّرُ اللَّوْنَ الْأُرْدَوَازِيَّ الدَّاكِنَ لِلْسَفِينَةِ الَّتِي جَعَلَ لَهَا رَأْسَ حِصَانٍ، وَاللَّوْنَ الْبَنَفْسَجِيَّ الْخَافِتَ لِلْمَاءِ، وَاللَّوْنَ الْأَبْيَضَ لِلْيَابِسَةِ الَّتِي تَنَرَّ عَلَيَّهَا زُهُورًا وَشَجِيرَاتٌ، وَوَزَعَ الْأَلْوَانَ الْمُتَنَاسِقَةَ الْخَلَّابَةَ عَلَى مَلَابِسِ الشُّخُوصِ وَعَمَائِمِهِمْ، وَلَمْ يَقْنَهُ الْجُلُ الْمُلُونُ عَلَى ظَهْرِ الْجَوَادِ الْأَوَّلِ.

وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ مُنمنماتَ مَخْطُوطَاتِ أَوَاخِرِ الْقَرْنِ الْخَامِسِ عَشَرَ الَّتِي أُنْجِزَتْ فِي شِيرَازَ لَمْ تَتَّخِذْ كُلُّهَا هَذَا الطَّاعِجَ. فَقَدْ ظَهَرَتْ صُورٌ أُخْرَى تَنْبِضُ بِالْحَرَكَةِ وَالْحَيَاةِ الطَّبِيعِيَّةِ تَفُوقُ الْمُنمنماتِ الْفَارِسِيَّةَ الْأُخْرَى، وَتُصَوِّرُ التَّمَوُّدَ الْإِثَالِيَّ لِلْفِكْرِ

الْأَقْمِشَةِ وَالْأَوَانِي وَالتَّصَاوِيرَ وَالْجَلِيَّ وَالتَّخَفَ مِنَ الصَّيْنِ وَالْهِنْدِ وَأُورُوبَا قَدْ تَرَكَ أَثَرَهُ فِي هَذَا الْقَرْنِ الْإِفْلِيمِي، فَضْلًا عَنْ الْأَفْكَارِ الصَّيْنِيَّةِ الَّتِي سَادَتْ خِلَالِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ حِينَ وَقَعَتْ تَبْرِيْزُ فِي أَيْدِي الْمَغُولِ الْمَوْلَعِينَ بِكُلِّ مَا هُوَ صِيْنِي.

شاهنامه شيراز، ١٤٧٠ م. بوسطن

إِذَا عُدْنَا إِلَى مَدْرَسَةِ شِيرَازَ فِي مُتَنَصِّفِ الْقَرْنِ الْخَامِسِ عَشَرَ وَجَدْنَا سِتًّا وَعِشْرِينَ مُنمنمةً، بِمَخْطُوطِ شَاهَنَامَةِ مَحْفُوظٍ بِمُتَخَفِ الْفُنُونِ الْجَمِيلَةِ بِبُوسْطَنَ، وَقَدْ أُرْجِعَ تَارِيخُهَا إِلَى حَوَالَى عَامِ ١٤٧٠، وَصَفَحَاتُهَا مُرَبَّعَةُ الشَّكْلِ تَقْرِيْبًا وَتَتَضَمَّنُ سِمَاتٍ شَبِيهَةً بِسِمَاتِ مُنمنماتِ مَدْرَسَةِ بَايَسَنَقَرِ فِي هَرَاةٍ، وَإِنْ تَكُنْ أَلْوَانُهَا أَقْرَبَ إِلَى أَلْوَانِ شِيرَازِ الْقَوِيَّةِ الدَّافِئَةِ، كَمَا تَحْوِي لَفَافِيفَ السُّحْبِ الْعَرِيضَةِ ذَاتِ الذَّيْلِ الْمُتَمَدِّ الَّتِي امْتَاَزَتْ بِهَا مَدْرَسَةُ شِيرَازِ، وَتَكْتَسِي الْخَيْلُ فِيهَا بِالسَّرُوجِ وَالْجُلُولِ الْمُتَمَدِّ عَلَى ظُهُورِهَا، وَالَّذِي يَعْلَمُهُ رُوبِنْسُونُ إِحْدَى عِلَامَاتِ مَدْرَسَةِ شِيرَازِ. كَذَلِكَ تَنْتَظِمُ تَكْوِينَاتُهَا حَوْلَ مَحْوَرٍ مَائِلٍ، وَتَتَشَكَّلُ الْمَنَاطِرُ الطَّبِيعِيَّةُ فِيهَا بِطَرِيقَةٍ تَخَيُّلِيَّةٍ، وَقَدْ جَانَبَتْ تَمَامًا قَوَاعِدَ الْمَنْظُورِ الَّتِي عَرَفَهَا الرُّبْعُ الثَّالِثُ مِنَ الْقَرْنِ السَّابِقِ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْ هَذِهِ الْقَوَاعِدِ سِوَى مَجَالِ الرُّؤْيَا الَّتِي يَبْدَأُ مِنْ نَقْطَةٍ عَالِيَةٍ تُنْبِجُ لِلْفَتَانِ أَنْ يَصُوِّرَ مَشَاهِدَ تَتَضَمَّنُ الْعَدِيدَ مِنَ الْأَشْخَاصِ.

خارنامة شيراز لابن حُسام، ١٤٧٦ - ١٤٨٧ م.

مُتَخَفُ الْفُنُونِ الزُّخْرُفِيَّةِ بِطَهْرَانِ

يَكْشِفُ تَصْوِيرُ الْمَشَاهِدِ الطَّبِيعِيَّةِ بِطَرِيقَةِ «التَّصَوُّرِ الدَّهْنِيِّ الْمُتَخَيَّلِ» عَنْ هِيَامِ الْقُرْسِ بِالتَّمَائِلِ وَالزُّخْرَفَةِ، وَهُوَ الْهِيَامُ الَّذِي لَمْ يَفْتَرِ أَبَدًا. وَنَسْتَطِيعُ أَنْ نَرَى ذَلِكَ بوضوحٍ فِي مَخْطُوطِ «خارنامة» ذِي الْمُنمنماتِ الرَّائِعَةِ. وَهُوَ مَلْحَمَةٌ تَارِيخِيَّةٌ كَتَبَهَا ابْنُ حُسامٍ عَنْ حَيَاةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، تَفَرَّقَتْ صَفَحَاتُهَا وَإِنْ بَقِيَ أَكْثَرُهَا فِي مُتَخَفِ الْقَرْنِ الزُّخْرُفِيِّ بِطَهْرَانِ، بَيْنَمَا ضُمَّ بَعْضُهَا الْآخَرُ إِلَى عِدَّةِ مَجْمُوعَاتٍ أَمْرِيكِيَّةٍ. وَإِذَا كَانَ تَذْيِيلُ الْخَارَنَامَةِ قَدْ انْدَثَرَ لِسُوءِ الْحَظِّ إِلَّا أَنَّ بَعْضَ صَفَحَاتِهِ يَحْمِلُ تَوَارِيخَ بَيْنَ عَامِي ١٤٧٦ وَ ١٤٨٧ إِلَى جَانِبِ تَوْقِيعَاتِ فَتَانَيْنِ بِحُرُوفٍ دَقِيقَةٍ. وَمَعَ أَنَّ هَذِهِ كُلُّهَا دَلَالَاتٌ غَيْرُ مُقْنِعَةٍ، إِلَّا أَنَّهَا مَعَ ذَلِكَ تَتَّفِقُ مَعَ الْفَتَرَةِ الَّتِي يَجُوزُ أَنْ تَنْسَبَ إِلَيْهَا. وَتَتَمَيَّزُ مُنمنماتُ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ بِالْأَلْوَانِ الْبَرَّاقَةِ، وَبِأَنَّ السُّحْبَ فِيهَا بَعِيدَةٌ عَنِ الْوَاقِعِ فِي شَكْلِهَا الْعَامِّ يَلُونُهَا الدَّهْبِيُّ وَالْأَرْزَقُ أَوْ الْأَبْيَضُ وَالْوَرْدِيُّ وَسَطُ سَمَاءِ أُرْدَوَازِيَّةٍ غَيْرِ وَاضِحَةٍ الْمَعَالِمِ عِنْدَ مُشَاهَدَتِهَا عَنْ قُرْبٍ، شَأْنُهَا فِي ذَلِكَ شَأْنُ النَّسْجِيَّاتِ الْمُرْسَمَةِ.

وأدَّى الإحساس بالتوازن - ذلك الإحساس الراسخ لدى الفنان الفارسي - إلى التعبير عن علاقة جديدة مُبدعة بين الأصل المكتوب والصورة المُعبَّرة عنه. وحاولَ الفنان التعبير عن المستويات^(١) المتعددة، واستخدمَ الخطوط المائلة المُعبَّرة، وظهرت من وقت لآخر بعض معالم المنظور وفق المفهوم الأوروبي، على الرغم من أنَّ الفنَّ الفارسيَّ لم يأخذ بها جملةً وكان مُقلِّداً في تطبيقها على ما سبقَ شرحُه.

أما رسمُ الشخص فقد حَلَّ بِتنوع في الأنماط والوضعات وسيطرةٍ أوسع على الإيماءات المُعبَّرة. حيثُ تبدَّت في إيماءات الأطراف. غير أنَّ الوجوه نفسها ظلت كما هي غير مُعبَّرة، إذ كانت التقاليد ما زالت آخذةً بتلابيب الفنان، ولم تبلغ الزخرفة «الطبيعية» حدَّ التوضيح بالقصْد الزخرفي الذي كان مُسيطرًا على الدوام، وتجلَّت الواقعية أحياناً في رسوم الحيوانات والأشجار والأزهار.

ولم يُحاول فنان واحد استِزْجاع الأسلوب الفارسي المهيِّب، فأهمل الضخامة القديمة، بيئتها شاع الأسلوب الرقيق في فنِّ تصوير الكتب، إذ كان أكثر ملاءمة للموضوعات الغرامية والحبِّ الشاعريِّ، وتسجيل فحامة حياة البلاط التي كان يتطلَّبها ذوق العصر، ويبدو أنَّ الفنانين كانوا مرَّهونين بِسادتهم رعاة الفنِّ الذين سَمَّا ذوقهم بِحيثُ أصبح من العسير إرضائهم.

وقد عدَّ القرن الخامس عشر، عصر الألوان، بالنسبة للتصوير الفارسي. والمُلاحظ أنَّ عهداً من العهود لم يستخدم اللون على هذا النحو من الإشراف والدقَّة والإتقان. ومع ذلك فإنَّ التصوير في المرحلة الأخيرة من مدرِّسة هراة لم يكن ابتداءً صِرفاً، بل جاء موصولاً بالماضي. فكثرت من صيغها ما هي إلاَّ تطوُّر للفنِّ القديم نفسه، كما أنَّ كثيراً من تجديدهاته نجدها هنا وهناك في بعض تصاوير مُستهلِّ القرن الخامس عشر أو حتَّى قبل ذلك، مثل مخطوط خواجه كرماني بالمُتحف البريطاني والمُؤرَّخ عام ١٣٩٦. وقد يكون عُصراً الألوان والمخطوط أبلغ رقة، غير أنَّ هذا الفنَّ التيموري العظيم قد امتدَّ نَماؤه من خُصْب الفنِّ السابق عليه، ثمَّ أدَّى هو بدوره إلى الأسلوب الصَّفوي المُمعن في الأبهة والثراء.

وثمةُ مدُن ثلاث في فارس يرتبط اسمُها بِفنون القرن الخامس عشر، هي تبريز في الغرب، وهراة في الشرق، وشيراز التي تكاد تتوسَّطهما إلى الجنوب الغربي. وكانت تبريز خلال مُعظم القرن

الصوفي، على ما نجد في مُنمنمة «رُسْتَم يَغفو بعد أن أنقذه جواده رخس من مخالب الأسد» الموجودة بالمُتحف البريطاني والتي لا يُعرف المخطوط الذي انْتزعت منه (لوحة ٢٢٣ م). وتتميَّز هذه المُنمنمة التي تبدو مُزدجمة، على الرغم من ألوانها البديعة، بالاهتمام بالناحية التعبيرية على حساب التوزيع الواقعي لعناصر المنظَر المتنوعة واستهداف التأثير برزعة الحدث وسحر بَقِيَّة العناصر. إنَّنا نرى رُسْتَم إلى اليمين وقد استلقى حالماً فوق بساط وكأَّه بساط الرِّيح وسط الغابة الكثيفة بفروعها وأشجارها وظلالها الخائبة وعموضها والرُّبى على شكل الشُعاب المَرْجانيَّة، والسُّحب المرسومة وفق الطراز الصيني. وإنَّ إحساساً بالتوتر ليصيب المُتطلِّع إلى هذه اللوحة إثر رؤيته لِحرْكة الأفعى الحريصة المُتأهبة - على يسار اللوحة - وقد فَعَزَتْ فاهها لِتَلَقَّف طائراً منحوس الطَّاليع، وذلك الصِّراع المصيري، بين الجواد رخس الوفيِّ الجسور وبين أسد غادر، دفاعاً عن حياة البطل رُسْتَم الغافي فوق بساطه المريح.

ثانياً: العصر التيموري الثاني

الأسلوب الهروي المبكر واللاحق

إذا ما ضاهينا أفضل تصاوير المرحلة المبكرة من العصر التيموري بتصاوير المرحلة اللاحقة منها، لرأينا تكاثف السمات الفارسية، كهيمنة الرومانسية وسيادة الزخرفة والولع بالأناقة والعناية بالمساحات الأخيرة. وإذا كانت التصاوير التيمورية المبكرة قد حافظت على كثير من ملامح تصاوير القرن الرابع عشر، فإننا نلمس في التصوير الجديد تطوُّراً في تدرُّج الألوان وتوزيعها، كما نلاحظ أنَّ الألوان المتنامة مُستخدمة استخدماً علوياً على الرغم من أنَّ فنان مُنتصف القرن الخامس عشر لم يكن بعد قد بلغ الذروة في توظيف الأصباغ توظيفاً خصباً. كذلك نلمس التخفف من استخدام اللون الأحمر مع الإشراف في تنوع درجات اللون البنيِّ والرماديِّ الضارب إلى الزرقة، والبَنَسْجِي والأخضر والوردي الرقيق، بِحيثُ يبدأ اللون بِدرجة قويَّة وينتهي شيئاً فشيئاً إلى درجة خفيفة. كذلك نلاحظ استخدام اللونين الأسود والأبيض في فاعليَّة مؤثِّرة، وأحياناً تُسيطر درجات اللون الأزرق بِصفة خاصَّة على نهج الألوان مُجتمعة. أما التكوينات التشكيلية فجاءت مُتقنة كُلَّ الإتقان، وعمدَ الفنان إلى تصغير أحجام الشخص ووجع الزدحام الشديد في مهارة، فبدت الفواصل بين الشخص مريحة للعين، وظلَّ المُصوِّر معيَّناً بِدقَّة الزخارف التي لا تُحصى على السجَّاد والظلال والتفاصيل المعمارية، كما اهتمَّ بالتصميمات المعمارية ذاتها.

(١) مُستوى (Plane): الموضع الخاص بِكُلِّ جسم أو شكل مرسوم أو منحوت بالنسبة إلى غيره في الطبيعة، وقرباً أو بُعداً بالنسبة إلى الفنان. [م. م. ث].

والعشرين من عمره. وعسير علينا اليوم أن ننسب إليه عملاً بعينه. وقد فاق الأستاذ روح الله ميرك، الذي يُقال إنه من نسل الرسول، شاه مظفر في شهرته، وكان خطاطاً بارعاً ومُرقّناً للكُتب قبل أن يصبح مُصوراً للمُنمنّات، وعمل مُديرًا لمكتبة السلطان حسين، ولم يمتد به العمر طويلاً بعد سقوط سلطانه إذ تُوفي بعد وقت قصير من استيلاء شيباني شاه الأوزبكي على هراة عام ١٥٠٧.

منظومة خسرو وشيرين. خمسه نظامي

كان الغرض من إنشاء هذه القصّة نوعاً من الاستجابة لِرغبات الناس في مثل هذا اللون من القصص الرومانسي الذي يُصور العشق في أبهى صوره. وقد لقيت هذه المنظومة ما لم تلقه غيرها من منظومات نظامي الأخرى. وفي الإشادة بنفسه بصدد هذه المنظومة يقول نظامي: «أمر الأتابك قول أرسلان برّفع أواني الخمر إجلالاً لي، فكفّ السقاة عن تقديمها وصمت المطربون. ثم قال لِنفّخ اليوم لنظامي من الصبح إلى المساء بذكر الشراب والغناء، فأغنام نظمه أعذب من أغنام العود، وشعره طرب ساحر. ثم أخذ يُغيب عليّ الثناء قايلاً: ألا لقد بعثت بمنظومتك الحياة في تاريخنا السالف». وقد اجتذبت نظامي شخصيّة شيرين الزوجة الوفيّة ليخسرو الثاني أبرويز (٥٩١ - ٦٢٨) الساساني، فقد ورد اسمها في العديد من الحواريات البيزنطية والسجلات السوربية والعربية مما يؤكد أنها كانت شخصيّة تاريخيّة.

ولهذه القصّة تمثّل الحبّ الذي ربط ما بين قلب خسرو أبرويز الملك الساساني وقلب معشوقته الأرمينية [أو الأذربيجانية] شيرين. ومما يثبت أنّ هذه القصّة تحكي حقيقة هو أنّه لا تزال ثمة آثار تتصل بها. وأبطال هذه القصّة خسرو وشيرين وثالث هو فرهاد، وقد يكون هذا الشخص الثالث من إملاء خيال المؤلف، إذ ليس له ذكر في الكتب القديمة.

ويقال إنّ الملك هرمز كان قد دعا ربّه أن يهبه ابناً، فزقه الله ذلك الابن الذي جاء على غاية من الجمال والوسامة فسماه خسرو أبرويز، الذي أسبغ عليه نظامي الكثير من صفات البطولة والوسامة والذكاء والفصاحة والإلمام بالعلوم والفنون. وحين بلغ الحلم تتلمذ على يدي أستاذه بزرگ أميد فإذا قلبه يمتلئ علماً وحكمة وعدلاً. وكان ليخسرو نديم يدعى شاپور يضارع ماني مهارة في فنّ التصوير. وقد أنهى شاپور إلى خسرو أنّه ثمة امرأة تدعى شميرا تُهيم على إقليم متاخم ليحر الخزر، لم تحظ بزواج فضمت إليها ابنة أخيها شيرين وجعلتها وليّة عهدا. وكانت شيرين على حظ كبير من الجمال والفنّة والعفة، وكان لها

عاصمة التركمان حتى استيلاء الصفويين على الحكم في مطلع القرن السادس عشر، على حين فقد التيموريون عام ١٤٥٢ مقاطعة فارس وعاصمتها شيراز التي تعدّ المركز الرئيسي للروح الفارسيّة الحقّة فعادت جزءاً من دولة التركمان. أمّا هراة فاستمرت عاصمة فعليّة للتيموريين، وكانت في بادئ الأمر مسرحاً لاضطرابات متكررة وتعرّضت لأكثر من غزو. ومنذ عام ١٤٥٧ كان من حسن حظها أن حكمها أميران تيموريان مستيران لمدة خمسين عاماً أولهما أبو سعيد (١٤٥٨ - ١٤٦٨) جدّ بابر، ثم سلطان حسين بيقرا (١٤٦٨ - ١٥٠٦). وتحت حكم هذا السلطان الأخير بلغ التصوير وفنّ ترقيق الكتب الذروة وتألّقت العبقرية الفنيّة الفارسيّة على نحو ما نرى في لوحات مخطوطة خمسه نظامي المعدّة في هراة عام ١٤٩٥ والمخطوطة بالمتحف البريطاني، فتشهد في إحداها السلطان حسين يستقبل مُحارباً شاباً (لوحة ٢٢٤ م) وفي لوحة أخرى السباط وقد أعيد ترقيّاً للضيوف (لوحة ٢٢٥ م). وكان الوزير مير عليّ شيرنواي والشاعر العالم عبد الرحمن جامي، بمثابة العمود الفقري للحركة الثقافيّة في هراة، حدّدا قسّامات مدرستها الأدبية التي استهدفت الهروب من الواقع إلى التأمل الصوفي والفنّ الرومانسي، مُمجّدة الحياة، مُسدلة رداء ساحراً على العالم المنظور (لوحة ٢٢٦ م).

ولم يكن من السهل على هراة بعد انتهاء سنوات التزمّت أن تستعيد الوبّة الخلاقة التي انطلقت بها أسلوبها السابق، حتى إنّ عصر أبي سعيد (١٤٥٨ - ١٤٦٨) لم يخلّف غير «ديوان شعر» يضمّ ثلاث قصائد غراميّة وسِتْ مُنمنّات صغيرة الحجم بسيطة التكوين يحتفظ أسلوبها بملامح المُنمنّات الباسقرية وتقتصمها مع ذلك نبضات الحياة. وقد استطاع السلطان حسين بيقرا الذي حكم هراة ثلاثين عاماً بدأت في عام ١٤٦٨ أن يحيلها إلى مركز للآداب والفنون، غير أنّ عشر سنوات أخرى مضت قبل أن تظهر ملامح التجديد في فنّ التصوير.

وبدأت المصادر الأدبية تُعنى بتسجيل أسماء الفئانين وتاريخ حياتهم. ولا شك أن تدوينها على هذا النحو يجعل معلوماتنا عنهم أكثر دقّة، غير أنّهم بالنسبة لنا ليسوا إلا أطباقاً يتعدّر علينا أن ننسب إلى كلّ منهم عملاً بذاته، وما زلنا نفتقر إلى أولّة قاطعة حتى نتبين بوضوح الخط الذي يصل مراحل تاريخ مدرسة هراة.

ونحن نعرف أنّ أولّ قتان استخدمه السلطان حسين، هو شاه مظفر بن منصور الذي كان مُصوراً في بلاط السلطان «أبي سعيد»، غير أنّ شاه مظفر الذي اشتهر بالمهارة الفائقة قد مات في الرابعة

فَصَرَ خُسْرُو وَجَدَتْ جَوَارِيهِ فِي اسْتِقْبَالِهَا بِالْحَفَاوَةِ وَالْإِجْلَالِ كَمَا أَمَرَهُنَّ بِذَلِكَ خُسْرُو. وما كان أدهشها حين أدركت أَنَّ مَحْبُوبَهَا خُسْرُو هو الذي ساقته الصُّدْفُ إِلَيْهَا لِيَلْقَاهَا عَلَى عَيْنِ الْمَاءِ. وَحَلِي لَهَا الْمَقَامَ فِي الْمَدَائِنِ فَأَقَامَتْ بَعْضَ الْوَقْتِ إِلَى أَنْ طَلَبَتْ إِلَى الْجَوَارِي أَنْ يَتَيْنَ لَهَا قَصْرًا فِي الصَّحْرَاءِ قَرِيبًا مِنَ الْمَرَاعِي، فَمَا قَبِلَتْ الْجَوَارِي أَنْ لَبَّيْنَ لَهَا الطَّلَبَ وَبَتَّيْنَ هَذَا الْقَصْرَ، وَكَانَ عَلَى بُعْدِ عَشْرَةِ فَرَاسِخٍ مِنْ كَرْمَانَ شَاهَانَ.

هَذَا مَا كَانَ مِنْ حَدِيثِ شِيرِينَ، أَمَّا مَا كَانَ مِنْ حَدِيثِ خُسْرُو فَإِنَّهُ تَابَعَ سَيَرَهُ حَتَّى بَلَغَ بِلَادَ الْأَزْمَنِ، فَإِذَا هُوَ يَجِدُ شَمِيرًا عَمَّةَ شِيرِينَ فِي اسْتِقْبَالِهِ وَتَلَقَّاهُ بِالْإِجْلَالِ وَالْحَفَاوَةِ، فَحَلِي لَهُ الْمَقَامَ هُوَ الْآخِرَ فَلَبِثَ مُدَّةَ سُرْعَانَ مَا أَحْسَنَ مَعَهَا مَرَارَةً بَعْدَ بَعْدٍ عَنْ شِيرِينَ. وَلَمْ يَلْبَثْ طَوِيلًا حَتَّى جَاءَهُ شَاطُورٌ مِنَ الْمَدَائِنِ لِيَصِفَ لَهُ شِيرِينَ وَإِذَا هُوَ يَتَّبِعُ أَنَّ تِلْكَ الْفَتَاةَ الَّتِي لَقِيَهَا عَلَى الْعَيْنِ لَمْ تَكُنْ غَيْرَ مَعشوقته شِيرِينَ.

ثُمَّ كَانَ أَنَّ عَادَتْ شِيرِينَ إِلَى مَوْطِنِهَا الْأَوَّلِ وَلَقِيَتْ عَشِيقَهَا هُنَالِكَ، وَكَانَتْ ثَمَّةَ لِقَاءَاتٍ وَلِقَاءَاتٍ وَلَكِنْ كُلُّهَا بَرِيئَةٌ تَحْتَ عَيْنِ الْعَمَّةِ. وَمَضَى يَمْشِي مَرَّةً وَيَلْعَبُ الْكُرَّةَ وَالصُّوْلَجَانَ (لَوْحَةُ ٢٣٠م). وَكَمْ حَاوَلَ خُسْرُو أَنْ يَعْدُوَ عَلَيْهَا وَلَكِنَّهَا رَدَّتْهُ بِلُطْفٍ وَإِبَاءٍ إِلَى أَنْ يَتِمَّ لَهُ اسْتِخْلَاصُ عَرْشِهِ الْمُغْتَصَبِ. لَكِنْ خُسْرُو غَضِبَ لِهَذَا الصَّدِّ وَخَلَّاهَا جَائِعًا، وَذَهَبَ إِلَى قَبْصَرِ الرُّومِ الَّذِي وَافَقَ عَلَى أَنْ يُعِيَنَهُ عَلَى اسْتِزْدَادِ مُلْكِهِ الْمُغْتَصَبِ، وَزَوَّجَهُ ابْنَتَهُ مَرْيَمَ، وَبَعَثَ مَعَهُ جَيْشًا لِيَسْتَرِدَّ عَرْشَهُ مِنْ بَهْرَامَ. وَضَرَبَ الدَّهْرَ ضَرْبَاتَهُ فَإِذَا الْعَمَّةُ شَمِيرًا تَمُوتُ، وَإِذَا مُلْكُهَا وَمِيرَاثُهَا كُلُّهُ يَعُودُ إِلَى ابْنَةِ أَخِيهَا شِيرِينَ. وَمَا إِنْ حَكَمَتْ شِيرِينَ حَتَّى كَانَ الْعَدْلُ رَائِدَهَا فِيمَا تَفْعَلُ، وَإِذَا الْحَيَاةُ كُلُّهَا أَمِنَ يَأْمَنُ فِيهَا كُلُّ شَيْءٍ عَلَى حَيَاتِهِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْحَيَوَانِ وَالطَّيْرِ. وَكَمْ حَاوَلَ خُسْرُو أَنْ يَضْمَ شِيرِينَ إِلَيْهِ وَلَكِنْ هَذَا الْمَسْعَى أَغْضَبَ مَرْيَمَ فَهَدَّذَتْ بِالْإِثْتِحَارِ.

وَرَى الشَّاعِرُ هُنَا يُفَاجِئُنَا بِإِدْخَالِ عُنْصُرٍ جَدِيدٍ فِي الْقِصَّةِ فَيَتْبَعُ مُجِبًّا جَدِيدًا لِشِيرِينَ هُوَ فَرْهَادُ، وَكَانَ مِنَ الْمُهَنْدِسِينَ الْبَارِعِينَ كَمَا كَانَ صَدِيقًا لِشَاطُورِ، الَّذِي طَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَحْفَرَ فِي الصَّخْرِ قَنَاةً لِيَجْرِيَ فِيهَا اللَّبَنُ مِنَ مَرَاعِي الْمَلِكِ إِلَى قَصْرِ شِيرِينَ، وَكَانَ اللَّبَنُ أَشْهَى طَعَامَ تَجِبَتِهِ شِيرِينَ. وَقَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ فَرْهَادُ فِي حَفْرِ الْقَنَاةِ رَأَى أَنَّ يَسْتَأْنِسَ بِرَأْيِ شِيرِينَ، فَلَمَّا جَلَسَ إِلَيْهَا وَكَانَتْ وَرَاءَ حِجَابٍ إِذَا هُوَ يَهَيِّمُ بِحُجَّتِهَا عِنْدَ سَمَاعِ صَوْتِهَا (لَوْحَةُ ٢٣١م)، وَإِذَا هُوَ يَقْبَلُ الْمُهِمَّةَ الَّتِي أُلْقِيَتْ عَلَى عَاتِقِهِ عَلَى الرَّغْمِ وَمِمَّا مَعَهَا مِنْ مَشَاقِّ جِسَامِ. وَحَاوَلَ جُهْدَهُ أَنْ يَكْتُمَ عَشِيقَهُ، غَيْرَ أَنَّ خَبْرَهُ انْتَهَى إِلَى خُسْرُو. وَكَانَ خُسْرُو يَعْلَمُ كَمْ كَانَ حَفَرُ الْقَنَاةِ أَمْرًا صَعْبًا يَسْتَحِيلُ عَلَى فَرْهَادَ إِنْجَاذَهُ وَلَكِنَّهُ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَتِمَّ عَلَى كُلِّ حَالٍ،

مِنَ الْخَيْلِ جَوَادٌ رَشِيقٌ أَسْوَدُ سَرِيعُ الْعَدُوِّ أَسَمَّتَهُ شَبْدِيزَ أَيْ أَسْوَدُ سَوَادِ اللَّيْلِ. وَلَمْ يَكُنْ شَاطُورٌ يُفْرِغُ مِنْ حَدِيثِهِ عَنْ شَمِيرَا وَشِيرِينَ حَتَّى امْتَلَأَ قَلْبُ خُسْرُو عَشْقًا لِتِلْكَ الْفَتَاةِ وَإِذَا هُوَ يَطْلُبُ إِلَى نَدِيمِهِ أَنْ يَجْهَدَ جُهْدَهُ فِي إِخْضَارِهَا إِلَيْهِ. فَاحْتَالَ شَاطُورٌ لِيُحَقِّقَ هَذِهِ الْغَايَةَ بِأَنْ رَسَمَ صُورَةَ خُسْرُو عَلَى وَرَقَةٍ كَبِيرَةٍ وَأَرْسَلَهَا إِلَى شِيرِينَ، وَمَا إِنْ وَقَعَ نَظَرُهَا عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ حَتَّى التَّهَبَّ قَلْبُهَا هِيَ الْآخَرَى عَشْقًا لِخُسْرُو. وَكَانَ يَقُومُ عَلَى خِدْمَتِهَا مِنَ الْفَتَاتِ الْجَمِيلَاتِ سَبْعُونَ، وَكَانَ الْقَصْرُ بِهِنَّ جَمِيعًا يَدُو وَكَأَنَّهُ الْجَنَّةُ وَهُؤُلَاءِ هُنَّ الْحُورِيَّاتُ. وَحِينَ رَأَيْنَ مَبْلَغَ أَثَرِ هَذِهِ الصُّورَةِ فِي نَفْسِ شِيرِينَ أَخْفَيْنَهَا ثُمَّ قَطَعْنَهَا إِرْبًا إِرْبًا حَتَّى لَا تَتَأَثَّرَ بِهَذَا الرَّسْمِ. وَإِذَا مَا فَعَلَتْهُ الْحُورِيَّاتُ رَسَمَ شَاطُورُ صُورَةَ جَدِيدَةً بَعَثَ بِهَا إِلَى شِيرِينَ، مَا إِنْ وَقَعَتْ عَيْنَاهَا عَلَيْهَا حَتَّى أَزْدَادَ تَعَلُّقُهَا بِصَاحِبِهَا، وَإِذَا الْجَوَارِي يَحْسُنُّ أَنَّ الْأَمْرَ جِدًّا لَا مَفَرَّ مِنْهُ وَإِذَا هُنَّ يَتَذَمَّنَّ عَلَى مَا فَرَطَ مِنْهُنَّ. وَعَنْ لِشِيرِينَ أَنْ تَعْرِفَ مِنْ شَاطُورٍ عَلَى صَاحِبِ الصُّورَةِ فَلَمْ يَضَعْ عَلَيْهَا وَأَخْبَرَهَا أَنَّ خُسْرُو أَبْرُوزَ مَلِكِ إِيرَانَ. وَعَنْ لَهُ هُوَ الْآخِرَ أَنْ يَتَّبِعَ مَشَاعِرَهَا نَحْوَهُ فَلَمْ تَكْتُمْ حُبَّهَا. وَهُنَا لَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ أَنْ يُصَارِحَهَا بِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي رَسَمَ الصُّورَةَ، وَزَادَ بِأَنَّهُ مَهْمَا بَالَعَ فِيهَا مِنْ إِثْقَانٍ فَلَنْ تَبْلُغَ وَصْفَ خُسْرُو الْحَقِّ فَكَيْفَ بِهَا إِذَا رَأَتْهُ عِيَانًا، فَمَا أَشْبَهَهُ بِالْغَزَالِ فِي جَمَالِهِ وَبِالْأَسَدِ فِي قُوَّتِهِ وَبِأَسِهِ. وَهَكَذَا عَشَقَ خُسْرُو شِيرِينَ قَبْلَ أَنْ يَرَاهَا كَمَا عَشَقَتْ شِيرِينَ خُسْرُو قَبْلَ أَنْ تَرَاهُ هِيَ الْآخَرَى. وَطَلَبَتْ شِيرِينَ مِنْ عَمَّتِهَا شَمِيرَا أَنْ تَسْمَحَ لَهَا بِرُكُوبِ جَوَادِهَا شَبْدِيزَ لِيَخْرُجَ بِهِ إِلَى الصَّبْدِ. وَحِينَ خَرَجَتْ لَمْ تَكُنْ تَقْصِدُ إِلَّا أَنْ تَتَوَجَّهَ إِلَى الْمَدَائِنِ لِيَلْقَاهَا خُسْرُو عَنْ طَلَبٍ مِنْهُ. وَوَقَعَتْ عَيْنُهَا وَهِيَ فِي وَسَطِ الطَّرِيقِ عَلَى عَيْنِ مَاءٍ، وَكَانَ تَعَبُ السَّفَرِ وَالطَّرِيقِ قَدْ أَضْنَاهَا وَأَرْهَقَهَا. وَبَعْدَ أَنْ طَوَّقَتْ هُنَا وَهُنَا حَتَّى إِذَا لَمْ تَقَعْ عَيْنُهَا عَلَى شَخْصٍ مَا تَرَجَّلَتْ لِيَسْتَجِمَّ وَتَسْتَجِمَّ. وَكَانَ مِنْ قَبِيلِ الْمُصَادَفَةِ أَنَّ خُسْرُو قَدْ خَرَجَ يَقْصِدُ بِلَادَ الْأَزْمَنِ لِيَبْعِدَ بِنَفْسِهِ عَنْ تِلْكَ الْمَكِيدَةِ الَّتِي دُبِّرَتْ لِلْإِقْبَاعِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِيهِ. وَإِذَا مَا كَانَ قَرِيبًا مِنْ عَيْنِ الْمَاءِ وَجَدَ جَوَادَهُ قَدْ أَرَهَقَهُ السَّيْرُ، وَمَا إِنْ تَوَقَّفَ حَتَّى وَقَعَتْ عَيْنَاهُ عَلَى فَتَاةٍ لَمْ تَقَعْ عَيْنَاهُ عَلَى مِثْلِهَا مِنْ قَبْلَ جَمَالًا وَفِتْنَةً وَبَهَاءً. وَبُهِتَتْ شِيرِينَ بِرُؤْيَيْهَا إِيَّاهُ فَلَمْ تَمْلِكْ إِلَّا أَنْ تُرْسِلَ شَعْرَهَا فَوْقَ وَجْهِهَا، وَإِذَا هِيَ قَدْ وَلَهَتْ بِحُبِّهِ وَلَمْ تَكُنْ تَعْرِفُهُ، كَمَا وَلَهُ هُوَ يُحِبُّهَا وَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهَا (لَوْحَاتِ ٢٢٧م، ٢٢٨م، ٢٢٩م).

وَهَكَذَا قُدِّرَ لِلْهَذَيْنِ الْعَاشِقَيْنِ أَنْ يَلْتَقِيَا عَلَى غَيْرِ مَوْعِدٍ وَمِنْ دُونَ أَنْ يَعْرِفَ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ. غَيْرَ أَنَّهُ مَا لَبِثَتْ شِيرِينَ أَنْ وَاصَلَتْ رِخْلَيْهَا إِلَى حَيْثُ تُرِيدُ فِي الْمَدَائِنِ وَوَاصَلَ خُسْرُو سَيَرَهُ إِلَى حَيْثُ يُرِيدُ فِي بِلَادِ الْأَزْمَنِ. وَحِينَ انْتَهَى بِهَا الْمَطَافُ إِلَى حَيْثُ

لَهُ فَأَرْسَلَ إِلَى شِيرِينَ يَخْطُبُهَا لِنَفْسِهِ، فَتَظَاهَرَتْ بِالْقَبُولِ وَشَرَطَتْ أَلَّا يَكُونَ هَذَا إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَدْخُلَ الْقَبْرَ عِنْدَ دَفْنِ جُثَّةِ زَوْجِهَا. وَحِينَ تَمَّ لَهَا هَذَا اسْتَلَّتْ سِكِّينًا طَعَنَتْ بِهِ نَفْسَهَا. وَقَبِلَ أَنْ تَقْبِضَ رُوحَهَا ضَمَّتْ خِشْرُو إِلَى صَدْرِهَا وَدَمَهَا الْحَارَّ يَغْسِلُ الْقَبْرَ هَمَسَتْ تَقُولُ: «الآنَ قَدْ اثْتَلَفْتُ الرُّوحَ مَعَ الرُّوحِ، وَاتَّحَدَ الْجَسَدُ مَعَ الْجَسَدِ، فَتَجَا الْجِسْمُ مِنْ أَلَمِ الْفِرَاقِ وَخَلَصَتْ الرُّوحُ مِنْ قَسْوَةِ الزَّمَانِ» (لَوْحَةُ ٢٣٨ م).

مَنْظُومَةُ خَمْسَةِ نِظَامِي. إِسْكَندَرُ نَامَه

نَظَّمَ الشَّاعِرُ نِظَامِي الْكَنْجَوِي قِصَّةَ الْإِسْكَندَرِ فِي مُجَلَّدَيْنِ عَرَضَ فِيهِمَا لِجَوَانِبِ ثَلَاثَةِ مِنْ حَيَاةِ الْإِسْكَندَرِ. وَلَقَدْ سَمَّى الْمُجَلَّدَ الْأَوَّلَ مِنْهُمَا «شَرَفُ نَامَه» أَيِ كِتَابِ الشَّرَفِ تَحَدَّثَ فِيهِ عَنِ الْإِسْكَندَرِ بَطْلًا غَازِيًا، ثُمَّ الْمُجَلَّدَ الثَّانِي الَّذِي سَمَّاهُ مَرَّةً «إِقْبَالُ نَامَه» أَيِ كِتَابِ الْحِظِّ وَالسَّعَادَةِ وَسَمَّاهُ أُخْرَى «خَرْدَنَامَه» أَيِ كِتَابِ الْعَقْلِ، وَتَحَدَّثَ فِيهِ عَنِ الْإِسْكَندَرِ حَكِيمًا وَنَبِيًّا. وَقَدْ لَخَّصَ نِظَامِي مَا قِيلَ حَوْلَ حَقِيقَةِ الْإِسْكَندَرِ، فَقَالَ إِنَّ الْبَعْضَ يَعِدُهُ مَلِكًا غَازِيًا وَجَوًّا فِي الْآفَاقِ، وَيَعْتَبِرُهُ الْبَعْضُ الْآخِرَ حَكِيمًا، وَيَذْهَبُ الْبَعْضُ إِلَى أَنَّهُ كَانَ نَبِيًّا لِمَا جُبِلَ عَلَيْهِ مِنْ وَرَعٍ وَتَقْوَى. وَيَخْلُصُ نِظَامِي مِنْ هَذَا كُلِّهِ بِأَنَّ الْإِسْكَندَرَ جَمَعَ تِلْكَ الصِّفَاتِ كُلَّهَا، أَيِ أَنَّهُ كَانَ غَازِيًا شَجَاعًا وَحَكِيمًا وَنَبِيًّا مُرْسَلًا. وَيُرْجِّحُ الدَّكْتُورُ عَبْدِ التَّعِيمِ مُحَمَّدَ حَسَنِ فِي كِتَابِهِ الْقِيَمَ «نِظَامِي الْكَنْجَوِي» أَنَّ الدَّافِعَ الَّذِي حَفَزَ نِظَامِي إِلَى نَظْمِ قِصَّةِ الْإِسْكَندَرِ هُوَ أَنَّهُ كَانَ عِنْدَهَا شَيْخًا هَرَمًا يُرِيدُ أَنْ يَخْتِمَ حَيَاتِهِ بِصُورَةٍ لَيْسَ فِيهَا لَعْوٌ وَلَا تَأْتِيمٌ، فَابْتَعَدَ عَنِ قِصَصِ الْعِشْقِ وَاخْتَارَ قِصَّةَ بَطَلٍ مُؤْمِنٍ مُوحَّدٍ وَنَبِيٍّ - فِي رَأْيِهِ - يَدْعُو النَّاسَ إِلَى الْعَدْلِ وَالْإِصْلَاحِ. وَلَعَلَّ وُجُودَ قِصَّةِ الْإِسْكَندَرِ فِي عَصْرِهِ فِي صُورَةٍ تَثْرِيَةٍ هُوَ الَّذِي شَجَّعَهُ عَلَى نَظْمِهَا لِأَنَّ ذَلِكَ جَعَلَ مُهِمَّتَهُ أَسْهَلًا وَسَبِيلَهُ أَيْسَرَ.

وَيَذْهَبُ نِظَامِي إِلَى أَنَّ الْإِسْكَندَرَ كَانَ مَلِكًا جَوًّا طَافَ أَرْكَانَ الْعَالَمِ الْأَرْبَعَةِ، فَالْمُلْكُ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بَعْدَ الْجَمْعِ بَيْنَ هَذِهِ الْأَرْكَانِ الْأَرْبَعَةِ، وَيَقُولُ نِظَامِي إِنَّ الْإِسْكَندَرَ جَلَسَ عَلَى عَرْشِ الْمُلْكِ وَهُوَ فِي الْعِشْرِينَ مِنْ عُمُرِهِ، كَمَا يَقُولُ إِنَّهُ حِينَ بَلَغَ السَّابِعَةَ وَالْعِشْرِينَ مِنْ عُمُرِهِ بَعَثَهُ اللَّهُ نَبِيًّا مُرْسَلًا، وَإِذَا هُوَ يَطُوفُ الْعَالَمَ، وَحَيْثُمَا حَلَّ شَادَ مَدِينَةً. ثُمَّ يَعْزِضُ لِأَصْلِهِ فَيَقُولُ إِنَّهُ كَانَ مِنْ بَيْنِ مُلُوكِ الرُّومِ مَلِكٌ يُقَالُ لَهُ فِيلْفُوسُ [وَلَعَلَّهُ يَقْصِدُ فِيلِيبَ] بَسَطَ نُفُودَهُ عَلَى بِلَادِ الرُّومِ وَرُوسِيَا، وَكَانَ مَوْلِدُهُ بِبِلَادِ الْيُونَانَ وَمَقَرَّ حُكْمِهِ إِفْلِيمَ مَقْدُونِيَا. ثُمَّ أَتْبَعَ نِظَامِي هَذَا بِرَأْيٍ آخَرَ فَقَالَ إِنَّهُ كَانَ إِيرَانِيًّا مَجُوسِيًّا وَوَصَلَ نَسَبَهُ بِدَارَا مَلِكِ الْفُرسِ.

ثُمَّ أَخَذَ يَذْكُرُ أَنَّ الْإِسْكَندَرَ قَدْ تَوَلَّى تَرْبِيَتَهُ نَقُومَاجِسُ وَالِدِ

فَأَعَزَّى فَرَاهَدَ بِأَنْ يَكُونَ إِنْجَازَ هَذَا الْعَمَلِ هُوَ الْمَهْرُ لِزَوَاجِهِ مِنْ شِيرِينَ. وَخَفَّتْ شِيرِينَ إِلَى فَرَاهَدَ تَسْتَجِثُهُ وَتُشَجِّعُهُ عَلَى إِنْجَازِ الْعَمَلِ (لَوْحَاتُ ٢٣٢ م، ٢٣٣ م، ٢٣٤ م، ٢٣٥ م) فَإِذَا هُوَ يَزْدَادُ بِهَا تَعَلُّقًا. وَكَمْ بَكَى حَتَّى شَاعَ بُكَاءُهُ فَعَرَفَ بِهِ الْقَاصِي وَالِدَانِي. وَهُنَا بَدَأَتْ الْغِيْرَةُ تَطْرُقُ قَلْبَ خِشْرُو، فَأَرْسَلَ إِلَى فَرَاهَدَ يُنَبِّئُهُ أَنَّ شِيرِينَ لَقِيَتْ رَبَّهَا، وَمَا كَانَ هَذَا صَحِيحًا. وَمَا حَاوَلَ عِنْدَهَا فَرَاهَدَ أَنْ يَعْلَمَ صِدْقَ الْخَبَرِ مِنْ كَذِبِهِ فَأَلْقَى بِنَفْسِهِ مِنْ أَعْلَى الْجَبَلِ وَلَقِيَ حَتْفَهُ. وَيَنْتَهِي النَّبَأُ إِلَى خِشْرُو فَيَأْسُفُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ. وَهَكَذَا قَضَى فَرَاهَدَ بَعْدَ أَنْ قَدَّمَ مَثَلًا فِي الْوَفَاءِ، وَعَاشَتْ شِيرِينَ مِنْ بَعْدِهِ يَمَلًا الْحُزْنَ قَلْبُهَا. وَلَمْ يَمُضِ كَثِيرٌ حَتَّى مَاتَتْ مَرِّمٌ فَبَنَى خِشْرُو بِأَمْرَةِ جَمِيلَةٍ مِنْ إِصْفَهَانَ اسْمُهَا شَكْر. وَعَلِمَتْ شِيرِينَ بِالنَّبَأِ فَأَسَتْ نَفْسَهَا لِذَلِكَ وَفَوَّضَتْ أَمْرَهَا إِلَى اللَّهِ لِيُخَفِّفَ عَنْهَا مَا هِيَ فِيهِ مِنْ هَمٍّ. وَكَأَنَّ اللَّهَ قَدْ اسْتَجَابَ لِدُعَائِهَا إِذْ مَا لَبِثَتْ أَنْ وَجَدَتْ خِشْرُو عَلَى بَابِ قَصْرِهَا يَطْلُبُ مِنْهَا أَنْ تَرْحَلَ مَعَهُ إِلَى قَصْرِهِ. غَيْرَ أَنَّهَُا تَعَلَّلَتْ أَوَّلًا ثُمَّ مَا لَبِثَتْ بَعْدَ أَنْ رَحَلَ عَنْهَا أَنْ مَضَتْ فِي إِثْرِهِ. وَكَانَتْ لَهَا قَصَائِدُ شِعْرِيَّةٍ رَقِيقَةٍ تُلَوِّحُ فِيهَا بِعِشْقِهَا لِخِشْرُو تَعَنَّتْ بِهَا الْمُطَرِّبَةُ نَكِيسًا، كَمَا كَانَ لِخِشْرُو هُوَ الْآخِرُ قَصَائِدَ يُلَوِّحُ فِيهَا بِعِشْقِهِ لِشِيرِينَ وَكَأَنَّهَا رَدَّ عَلَيْهَا تَعْنَى بِهَا الْمُغْنِي بَارِيدَ، وَانْتَهَى الْأَمْرُ بِهِمَا أَخِيرًا إِلَى الزَّوْاجِ. (اللُّوْحَتَانِ ٢٣٦ م، ٢٣٧ م).

وَهُنَا أَخَذَتْ شِيرِينَ تُسَدِّي إِلَيْهِ التُّصْحُحَ بِأَلَّا يَنْغُوسَ فِي الْمَلَذَّاتِ كَيْ يَفْرَغَ لِإِنْهَاضِ شُعْبِهِ وَالْعَمَلِ عَلَى رَفَاهِيَتِهِ. وَالطَّرِيفُ أَنَّ هَذَا الْمَوْقِفَ صَادَفَ الْبَعْثَ الْمُحَمَّدِيَّ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرْسِلُ رُسُلَهُ إِلَى الْمُلُوكِ وَالْحُكَّامِ لِيَدْخُلُوا فِي دِينِ اللَّهِ، وَكَانَ خِشْرُو يَمُنُّ أَرْسَلَ إِلَيْهِمُ الرَّسُولَ ﷺ، غَيْرَ أَنَّ خِشْرُو لَمْ يَسْتَجِبْ لِرِسَالَةِ النَّبِيِّ وَاسْتَحَقَّ بِهَا.

وَكَانَ لِخِشْرُو ابْنٌ مِنْ مَرِّمٍ هُوَ شِيرُويَه. وَكَانَ عِنْدَهَا قَدْ شَبَّ وَبَلَغَ مَبْلَغَ الرِّجَالِ فَأَخَذَ يَتَطَلَّعُ إِلَى مُلْكِ أَبِيهِ، وَقَبِلَ هَذَا كَانَ قَدْ عَلِقَ قَلْبَهُ بِشِيرِينَ. وَلَكِنِّي يَبْلُغُ هَذِهِ تَحَالَفَ مَعَ كِبَارِ رِجَالِ الدَّوْلَةِ لِأَنَّ يَخْلُصَ مِنْ أَبِيهِ، وَكَانَ لَهُ مَا أَرَادَ فَخَلَعَ أَبَاهُ عَنْ عَرْشِهِ وَطَرَحَهُ فِي السَّجْنِ وَجَلَسَ مَكَانَهُ. وَلَكِنْ شِيرِينَ كَانَتْ أَكْثَرَ مَا تَكُونُ وَفَاءً لِزَوْجِهَا فَأَبَتْ إِلَّا أَنْ تَعِيشَ مَعَهُ بَيْنَ جُذُرَانِ السَّجْنِ، فَلَمْ يَجِدْ شِيرُويَه بُدًّا مِنْ أَنْ يَقْتُلَ أَبَاهُ لِيَخْلُو لَهُ وَجْهَ الزَّوْجَةِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ مَنْ يَغْتَالُهُ. فَإِذَا هَذَا الْقَاتِلُ، حِينَ ذَهَبَ إِلَى السَّجْنِ لِيُنْفِذَ مَا أَمَرَهُ بِهِ مَوْلَاهُ، يَجِدُ خِشْرُو قَدْ عَرِقَ فِي نَوْمِهِ قُرْبَ شِيرِينَ، فَأَيَقُظُهُ لِوُجْهِهِ بِمَصِيرِهِ. وَأَبَى خِشْرُو أَنْ يُوقِظَ شِيرِينَ جِزْمًا عَلَى أَلَّا تَشْهَدَ مَا سَيَكُونُ. لَكِنْ شِيرِينَ مَا لَبِثَتْ أَنْ اسْتَقْبَلَتْ بَعْدَ أَنْ أَحْسَتْ بِالدَّمَاءِ تَسِيلَ مِنْ حَوْلِهَا. وَظَنَّ شِيرُويَه أَنَّ الْأَمْرَ قَدْ خَلَا

بلاد الروس وقَصَى على جُيوشهم وفَكَ نواشبه من الأسر (لَوْحَة ٢٤٢ م).

ويسوق نظامي عدّة قصص ليُذلل على ما حصل عليه الإسكندر من حكمة. ومن هذه القصص أنّ الإسكندر قد أَلَمَّ به الحزن لِمَعشوقه له أصابها علة، وخال أنها سوف تُقضي نَجْها، فإذا هو يقع بصره على راع طاعن في السن، فدعاه إليه. وكان الراعي على علم ولباقة في الحديث، وعرف من الإسكندر ما هو عليه من حزن لِمَرَض فتاته فَمَضَى يُخَفِّف عنه بقوله إنّ أميراً لِمَرُو كانت له عروس جميلة تُشبه فتاته هام بها حباً ومَرَضت هي الأخرى مَرَضاً شديداً أَشْفَتْ به على الموت، وملاً اليأس قلب الأمير، ولكونها لم تلبث أن تلبث أن برئت. ففعل الإسكندر بهذا الحديث، ولم يمض طويل وقت حتى انتهى إليه شفاء فتاته (لَوْحَة ٢٤٣ م). وذات يوم ظنّ الإسكندر أنّه أصبح قريباً من منطقة الظلام حيث ماء الحياة، فسار إلى الظلام وإذا هو يلقي الخضر عليه السلام، فأخذاً يَخْتَانِ معاً عن تلك العين وسلك كل منهما سبيلاً. وبينما الخضر في سبيله عثر على عَيْن الماء فَخَلَعَ ثيابه ونزل في مائها لِيَسْتَنَجِمَ، ونهل من مائها ما شاء فَعَدَا جديراً بالحياة الأبدية (اللُّوحَتان ٢٤٤ م، ٢٤٥ م). أما عن الإسكندر فَقَدْ تَشَعَّبَتْ به المشاعب وعَبَثًا حاول أن يجد العين، وظل على هذه الحال أَرْبَعِينَ يَوْماً. وحين بَلَغَ منه اليأس مَبْلَغَهُ أَرَّ أن يعود أدراجه إلى حيث كان، وخلال عودته عثر على مِفْتَاحٍ كَثُرَ السَّعَادَةُ، وكان قد أفاد في رحلته هذه كثيراً من الحكمة، الأمر الذي هَيَّأَ لَأن يتلقى النبوة. ثم أخذ نظامي يحكي عما كان عليه الإسكندر من حكمة فيستدل على هذا بتوقيره للعلماء، وأنه أمر فلاسفة اليونان بترجمة كُتُب العلم عند الأمم المختلفة. ثم عَرَضَ لآقوال التي جاءت حول تسمية الإسكندر ذي القرنين، فمن قائل يقول بأنّه سُمِّيَ بهذا الاسم لأنّه طاف العالم من مشرقه إلى مغربه، ومن قائل يقول إنه سُمِّيَ كذلك لأنّه كانت له صَفِيرَتَانِ يُرْسِلُهُمَا خَلْفَ أذنيه، وثالث يقول إنه سُمِّيَ بهذا لأنّه عاش قرنَين من الزمان، وآخر يقول إنه سُمِّيَ بهذا لأنّ أذنيه كانتا تكبران الحُجْم الطبيعي فكان يُرْسِلُ شعره لِيُعْطِيَهَا فكان شعره أشبه بالقرنين، وهناك من يقول إنه سُمِّيَ بهذا لما مات ومَضَى زمان على موته فَصَوَّرَ مُصَوِّر يوناني بين ملكين عن اليمين واليسار بَدَوَا كَقَرْنَيْن. وحين وَقَعَتْ تلك الصورة لِلْعَرَب حَاكُوها فَرَسَمُوا ما يُشَبِّهُها وخالوا أنّ المَلَكَيْنِ

أرسطو^(١). ويمضي نظامي فيقول إنّ الإسكندر حين تَرَجَّع على عَرَشِ أبيه ملأ الدنيا عدلاً، وأخذ يسرد غزواته وفُتُوحاته في تفصيل بادئاً بِمَصْر استِجَابَةً لِاسْتِغَاثَةِ أهلها من ظُلم الزنوج الذين سَدُّوا مَنَافِذ الصَّخْرَاء! ثُمَّ مَضَى لِغَزْوِ فارس حيث نَشِبَت المَعَارِكُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جُيُوش دارا. وكان أن اغتال ضابطان فارسيتان المَلِك دارا، فَذَهَبَ الإسكندر إلى دارا في إَحْضَارِهِ وسأله أن يَمُنَّيَ عَلَيْهِ ما يُريد (لَوْحَة ٢٣٩ م)، فَطَلَبَ مِنْهُ أن يَقَصَّ لَهُ يَمُنَ قَتْلِهِ فَعَمِلَ، كما طلب منه أن يُبْقِيَ على سائر أفراد الأسرة الأَخْمِيَّة فلا يَمْسُها بِسُوءٍ، وأن يُكْرِمَ ابنته رُوشَنك بِزَواجِهِ منها. وأجاب له الإسكندر كُلَّ ما طَلَبَ، واستقرَّ له المقام فَجَلَسَ على عَرَشِ دارا. ويزيد نظامي فيقول إنّ الإسكندر حين جَلَسَ على عَرَشِ دارا فَتَحَ خَزَائِنَهُ وَأَفَاضَ ما فيها على الإِيرَانِيِّينَ فَكَسَبَ بِهَذَا وِلَاءَهُمْ وإِحْلَاصَهُمْ. وكان من أمر الإسكندر بَعْدَ هَذَا أن حَرَّمَ عِبَادَةَ النَّارِ فَبَدَأَ بِتَحْطِيمِ دُورِ عِبَادَتِهَا، ودعا الناس إلى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ والإِفْلَاحَ عَنِ عِبَادَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ. ثُمَّ أَمَرَ أَتْبَاعَهُ بِأن يَجْمَعُوا كُتُبَ الفُرسِ كَي يُرْسِلُوها إلى بلاد اليونان لِتُترَجَمَ ثُمَّ عاد أدراجه إلى المَغْرِبِ، ثُمَّ شَرَقَ فَذَهَبَ إلى مَكَّةَ لِزِيَارَةِ الكَعْبَةِ وطافَ حَوْلَهَا مُرَدِّداً اسمَ اللَّهِ! ثُمَّ إذا هو يَقْصِدُ قَصْدَ الْجَنُوبِ فَيَتَجَهَّ صَوْبَ اليَمَنِ، ثُمَّ يأخذ طريقه إلى الشَّمالِ فَيَدْخُلُ الْعِرَاقَ وَأَذْرَبِيجَانَ وَأَرْمِينِيَا، ثُمَّ يَدِلِفُ جَنُوبًا إلى الْهِنْدِ مَارًّا بِخُرَاسَانَ، وإذا هو يَبْلُغُ أَقْصَا الصِّينِ، وحين عادَ مِنْهَا اشْتَبَكَ مَعَ الرُّوسِ.

وحين انتهى إلى الإسكندر أنّ مدينة بردعة بأرمينية، في الشَّمالِ الْعَرَبِيِّ لِإِيرَانَ قُرْبَ بَحْرِ الْخَزَرِ، تَحْكُمُهَا مَلِكَةٌ حَكِيمَةٌ تُدْعَى نواشبه مَلَأَتْ أَتْحَاءَ مَمْلَكَتِهَا عَدْلًا، وأنَّ بلاطها يَضُمُّ أَلْفًا مِنَ الْبُكَّارِ الْفَانِتَانِ، هذا إلى ثلاثين أَلْفًا مِنَ الْفَارِسَاتِ الْمُدْرِبَاتِ عَلَى فُنُونِ الْفُرُوسِيَّةِ وَالْقِتَالِ، ما إن سَمِعَ الإسكندر بهذا حَتَّى قَرَّرَ فِي ذَهْنِهِ أن يَغْزُو هذه الدَّوْلَةَ. غَيْرَ أَنَّهُ ما لَبِثَ أن رَجَعَ عَمَّا أَرَادَ، وَأَثَرُ أن يَزُورَ تِلْكَ الْمَمْلَكَةَ وَحْدَهُ عَلَى أَنَّهُ رَسُولُ مُوقَدٍ مِنْ قِبَلِ الإسكندر. وحين نَزَلَ بِالْمَدِينَةِ ما لَبِثَتْ نواشبا أن كَشَفَتْ حِيلَتَهُ وَعَرَفَتْهُ عَلَى حَقِيقَتِهِ حِينَ نَظَرَتْ إِلَى صُورَةٍ لَهُ عِنْدَهَا فَاسْتَقْبَلَتْهُ أَحْسَنَ اسْتِقْبَالٍ وَجَمَلَتْ قَصْرَها وَصَنَّتْ صَبَاياها الْجَمِيلَاتِ تَرْحِيبًا وَأَكْرَمَتْ وَفَادَتَهُ وَخَلَعَتْ عَلَيْهِ خِلْعًا سَيِّئَةً (اللُّوحَتان ٢٤٠ م، ٢٤١ م). وَأَغْلَبَ الظَّنُّ أَنَّ الشَّاعِرَ قَدْ انْتَهَتْ إِلَيْهِ حِينْذَاك الْقِصَّةُ الْأُسْطُورِيَّةُ عَنِ مُجْتَمَعِ الْأَمَازُونَاتِ الْأَثُوثِيَّ الْمُحَارِبِ الْقَدِيمِ فِي كَابَادُوكِيَا بِأَسْيَا الصُّغْرَى، فَاسْتَقَى مِنَ الْأُسْطُورَةِ الْإِغْرِيقِيَّةِ قِصَّتَهُ. وَحِينَ رَاوَدَ الإسكندر الْمَيْلَ لِلْعُودَةِ إِلَى مَقْدُونِيَا انْتَهَى إِلَيْهِ أَنَّ الرُّوسَ غَزَوْا بَرْدَعَةَ وَأَتَوْا عَلَى مُلْكِ نواشبه فَخَفَّ الإسكندر إلى

(١) المعروف أنّ صِيحَةً اسْمِهِ نيقوماخوس، وأنه كان ابناً لِأَرِسْطُو لا أَبًا له كما يقول. كما أنّه مِنَ الْمُحَقِّقِ أَنَّ الَّذِي تَوَلَّى تَرْبِيَةَ الإسكندر هو أَرِسْطُو نَفْسَهُ الَّذِي أَلَّفَ كِتَابًا شَهِيرًا أَهْدَاهُ لِابْنِهِ نيقوماخوس سَمَاهُ «الْأَخْلَاقِيَّاتُ النَّيْقُومَاخُوسِيَّةُ».

مرسل، فقصّد أولاً قصد المغرب ثم نحا نحو مصر، ثم إلى بيت المقدس، ثم عاد إلى الأندلس، ثم اتّجه إلى البحر المحيط الذي سمّاه اليونانيون قَبْلُ الأوقيانوس حيث تغرب الشمس. ولم يُبعد أكثر من هذا.

ويُضيف نظامي أنّ الإسكندر همّ بأن يستجِم في المحيط غير أنّه وجد ماءً ثخيناً كالزُّبْق، وما نذري أنّي له هذه، ثم أخذ الإسكندر في العودة إلى المشرق نحو الصين. وهنا يسوق نظامي. قصصاً خرافياً عن مغامرات وقعت للإسكندر في طريقه إلى الصين. وهناك أخذ يطوف في الجُزُر المُطلّة على بحر الصين، وكان في صحبته بلنياس - ونحن نعرف أنّ بلينيوس الروماني لم يكن قد وُلِدَ وأنّه وُلِدَ بعد موت الإسكندر بقرون ثلاثة. ثم أخذ يمعن في الشرق إلى ما هو أبعد، فوصل إلى جزيرة كانت آخر حدود العالم شرقاً في رأيهِ، فبنى هناك طليسمًا على صورة إنسان رافع يده إشارة إلى أنّه ليس في الكون مكان بعد هذا. ثم قفل الإسكندر راجعاً ولكنه ضلّ الطريق فإذا هو ينتهي به المطاف إلى موقع تشتّد فيه الأمواج فيستحيل على السفن أن تَدنو منه، فشيد بلنياس طليسمًا آخر يُصور رجلاً يحمل طبلّة وفي يده عصاً يدقُّ بها الطبلّة حين تشتّد الأمواج إنذاراً للسفن حتّى لا تقترب. ويزيدنا نظامي علماً فيقول إنّ كانت هناك سمكة هي التي تحدّث هذا الموج فهرّبت عندما سمعت دقّ الطبل.

ومضى الإسكندر في مسيرته فإذا هو يلقى قومًا يعيشون على سفوح الجبال ويدنون بالفطرة السليمة التي تقول بوجود الله وما أرسل إليهم رسول، وحين التقوا بالإسكندر آمنوا به نبيًا فرّودهم بالأسس الدنيّة السليمة، وشكروا إليه ما يلقون من شرّ قبيلة يأجوج ومأجوج الذين هم على صورة الآدميين ولكن في طبيعتهم الشرّ، وأجسامهم مغطاة بالشعر وأنيابهم كأنياب الحَيوان، وأن هؤلاء يغيرون دوماً عليهم فيسلبونهم طعامهم. فحال الإسكندر بين يأجوج وبينهم وكفاهم شرهم إذ بنى بينهم سدًا حديدياً يبقى إلى يوم القيامة.

ثم عزم الإسكندر على العودة إلى اليونان بعد أن رفع الظلم عن الناس في كل مكان حلّ فيه ونشر العدل بينهم. وكان وهو في طريقه إلى اليونان مروّراً بكُرمَان وبابل قد أصابه المرض، فخال الناس أنّه شرب ماءً مسموماً وحاول الأطباء جُهدهم عبثًا. وحين أيقن الإسكندر أنّه مُلاقٍ ربّه جمّع إليه الأصدقاء والحكماء يُحدّثهم عن الموت وضرب لهم مثلاً، فقال: «كان ثمّة طائر جائئاً على جبل ثم طار عنه. هل زاد الجبل بوجوده أو نقص بطيرانه؟ أنا هذا الطائر والدنيا هذا الجبل. فكما لم يضرّ الجبل بذهاب الطائر عنه، فكذلك لن تُضارّ الدنيا بذهابي عنها».

اللذين عن اليمين والشمال ليسا غير قرنين، هنا سمّوه خطأ إسكندر ذا القرنين. وهذه الآراء كلّها أو أكثر منها ذكرتها كُتب التفسير تردّداً لما كان شائعاً على ألسنة العامة.

وكان الإسكندر قد اختار سبعة من الحكماء والفلاسفة ممن اشتهروا بالحكمة والعلم والمعرفة وجمّعهم حوله في حلقه كان هو مكان المركز منها. وهؤلاء الحكماء هم وزيره أرسطو وبلنياس وسقراط وفرفوربوس وأفلاطون وواليس وهيرس. وأجب أنّ أعقب على هذا الحديث فأقول لقد فات نظامي أنّ هؤلاء الحكماء لم يجمعهم عصر واحد أو أمة واحدة بل تفاوتت عصورهم ومواقعهم تفاوتاً بعيداً، كما أنّ جملة منهم أسماءهم من خيال نظامي. فليس ثمة بين أيدينا في المراجع المختلفة من الفلاسفة والحكماء من يدعى بلنياس، ولعلّه قد أُلِيس على نظامي فظنّ أنّه بلينيوس الأصغر، علماً بأنّ هذا الكاتب والمؤرخ الروماني عاش في القرن الأول الميلادي. وليس ثمة من بين حكماء الإغريق من يدعى واليس ولعلّه أراد أوليس [البطل أوديسيوس] الذي شهد له بالمرّ والدّهاء في ملحمة الأوديسيا لهوميروس. أما هيرس فالمعروف أنّه اسم لإله من آلهة اليونان عُرف بالبيان والمهارة والبراعة. وما نذري كيف وقع نظامي في هذا التخلّط بين الخيال والحقيقة، وكيف جازّ له أن يجمع بين رجال لم يطلّهم عصر واحد.

ثم يدعي نظامي أنّ الإسكندر حين أوحى إليه ليكون رسولاً للعالمين كافّة أوجس خيفة إذ لم يكن يخلق غير لغته اليونانية، فكيف له أن يخاطب العالمين بلغاتهم المختلفة، فأذهب الوحي عنه هذا الخوف بأنّه سوف يُمكنه من معرفة كل لغة، كما أنّ السماء سوف تعينه بقوتها إن أعوزته القوة. ويزيد نظامي ويزعم أنّ الإسكندر كان من بين الرُّسل الذين أنزلت عليهم الكتب السماويّة. ولا يفوت كاتب هذه السطور أن يُشير أيضاً إلى تلك الآراء الزائفة عمّا بلغه الإسكندر من نبوة، فهذا أمر مختلف فيه ولم تتفق عليه كلمة، فما بالنا بما ادّعاء نظامي من أنّه لم يكن نبيًا فحسب بل كان رسولاً، وهذه أنكى. ولولا ما وجدته في تلك القصص التي سردها نظامي من مادّة تُسرّ لي إيضاح ما تضمّنته مخطوطات هذه المنظومة من صور رائجة خلافة لما أثقلت على القارئ بهذا السرد الطويل. ولا يكتفي نظامي بما أنزل على الإسكندر من كتاب سماويّ حمّله إلى العالم ليدعو الناس إلى ما فيه، بل جعل الإسكندر يحمل مع هذا الكتاب السماويّ كتاباً دنيويّاً من ثلاثة فصول، أولها ألّفه أرسطو عن الفضيلة، وثانيها ألّفه أفلاطون عن المعارف وثالثها ألّفه سقراط عن الفضائل المحببة. وبدأ الإسكندر عن أمر السماء يطوف في العالم كنيّ

عام ١٥٠٦ م وعُزُو الصَّفَوِيِّينَ لِلْمَدِينَةِ عام ١٥١٠ م.

ولَمَّا جاء الشَّاهُ إِسْمَاعِيلُ إِلَى الْحُكْمِ سَنَةَ ١٥٠٢ م اسْتَدْعَى بِهْزَادَ إِلَى عَاصِمَتِهِ تَبْرِيزَ، حَيْثُ أَحَاطَهُ بِالرَّعَايَةِ وَالتَّقْدِيرِ. وَيُقَالُ إِنَّهُ لَمَّا خَرَجَ الشَّاهُ إِسْمَاعِيلُ لِإِقْتَالَ التُّرْكِ عام ١٥١٤، أَخْفَى الْمُصَوِّرُ بِهْزَادَ وَالخَطَّاطُ شَاهُ مُحَمَّدُ النَّسَابُورِي فِي إِحْدَى الْمَغَارَاتِ جِزْئًا مِنْهُ عَلَى حَيَاتِهِمَا، وَلَمَّا عَادَ كَانَ الْفَتَّانُ بِهْزَادَ وَزَمِيلَهُ هُمَا أَوَّلَ مَنْ اسْتَفْسَرَ عَنْهُمْ. وَيَذْكُرُ الْمُؤَرِّخُ خَوَانْدَمِيرُ أَنَّ بِهْزَادَ فَاقَ فِي مَهَارَتِهِ جَمِيعَ أَبْنَاءِ عَصْرِهِ مِنْ أَهْلِ صِنَاعَتِهِ حَتَّى «إِنَّ شَعْرَةَ وَاحِدَةٍ مِنْ فَرَشَاتِهِ كَانَتْ قَادِرَةً بِفَضْلِ عَبْقَرِيَّتِهِ عَلَى أَنْ تَبْعَثَ الْحَيَاةَ فِي الْجَمَادِ». وَلَمَّا أَذْرَكَتْ زُفَاةُ الشَّاهِ إِسْمَاعِيلِ، بَقِيَ بِهْزَادَ يَعْمَلُ فِي خِدْمَةِ ابْنِهِ الشَّاهِ طَهْمَاسَپ (١٥٢٤ - ١٥٧٦ م)، وَقِيلَ إِنَّ بِهْزَادَ عَلَّمَهُ التَّصْوِيرَ...

وتَكشِفُ النَّظَرَةُ الْإِجْمَالِيَّةُ عَلَى أَعْمَالِ هَذَا الْفَتَّانِ الْعَظِيمِ عَنْ أَنَّهُ أَسْتَادُ مُجَدِّدٍ فِي مَيْدَانِ التَّصْوِيرِ الْإِسْلَامِيِّ، يَفْرِدُ بِرِفْقَةِ الْأَدَاءِ وَالْعِنَايَةِ بِرُسُومِ الْأَشْخَاصِ وَالْوَاقِعِيَّةِ الْمُتَجَلِّيَّةِ فِي الْمَوْضُوعَاتِ وَالْحَرَكَاتِ وَانْدِمَاجِ شَخْصِيَّاتِ صُورِهِ فُرَادَى أَوْ جَمَاعَاتٍ انْدِمَاجًا رَائِعًا. وَتَبْدُو تَصَاوِيرُهُ كَأَنَّهَا لَوَحَاتٌ مِنَ الْفُسْفُيسَاءِ تَتَأَلَّفُ أَجْزَاؤُهَا مِنْ مَنَاطِرٍ مُخْتَلِفَةٍ. وَيَمْتَازُ رَسْمُ كُلِّ جَمَاعَةٍ فِي تَصَاوِيرِهِ بِطَابَعٍ خَاصٍّ يُعَبِّرُ عَنْ وَجْدَانِ الْفَتَّانِ، وَتَبْدُو مَوْهَبَتُهُ فِي رَسْمِ الشُّخُوصِ حَالٌ تَأَمَّلُنَا وَجُوهَهُمْ وَلَا سِيَّامَا الْمُلْتَحِنِينَ مِنْهُمْ.

وَلَقَدْ أَنْهَى بِهْزَادَ عَهْدَ تَحَكُّمِ الْخَطَّاطِ فِي حَجْمِ الصُّورِ وَفِي اخْتِيَارِ الْمَوْضُوعَاتِ الْمُصَوَّرَةِ، وَفِي تَخْدِيدِ الْمِسَاحَاتِ الَّتِي يَتْرَكُهَا بِالْمَخْطُوطَةِ كَيْ يَشْغَلَهَا الْمُصَوِّرُ. فَتَرَاهُ وَقَدْ انْتَقَى الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي تَرَاءَتْ لَهُ وَصَوَّرَهَا فِي الْأَحْجَامِ الَّتِي يَرَاهَا مُنَاسِبَةً. وَقَدْ لَاحَظَ الْأُسْتَادُ كُونِلُ أَنَّ هُنَاكَ سِمَةً تُمَيِّزُ كَثْرَةً مِنْ صُورِ بِهْزَادَ، هِيَ إِقْحَامُ أَحَدِ الزُّنُوجِ وَخُلُوعِ التَّصْوِيرِ مِنَ النِّسَاءِ مَا أُمَكَّنَ.

وَقَدْ ذَاعَتْ شُهْرَتُهُ وَتَعَدَّتْ حُدُودَ بِلَادِ فَارِسَ وَتَسَاقَتْ فِي طَلَبِ صُورِهِ الْأُمَرَاءُ وَعُشَاقُ الْفُنُونِ بِبِلَادِ الْهِنْدِ. وَلَا جِدَالَ فِي أَنَّ أُسْتَادًا ذَائِعَ الصَّبِّ مِثْلَهُ لَا بُدَّ أَنْ يُسَارِعَ سَائِرُ الْفَتَّانِينَ إِلَى تَقْلِيدِهِ. وَلَيْسَ غَرِيبًا حِينَ يَلْجَأُونَ إِلَى مُحَاكَاةِ أَسْلُوبِهِ الْفَنِيِّ، أَنْ يَعْمَدُوا أَيْضًا إِلَى تَقْلِيدِ تَوْقِيعِهِ، رَغْبَةً فِي الْحُصُولِ عَلَى جِزَاءٍ مَادِّيٍّ مُجْزٍ لِأَعْمَالِهِمْ. وَهُنَاكَ عَدَدٌ مِنَ التَّصَاوِيرِ الْمَمْهُورَةِ بِاسْمِهِ، وَأَغْلَبُ الظَّنِّ أَنَّهَا مِنْ عَمَلِ تَلَامِيذِهِ بَعْدَ مُشَاهَدَتِهِمْ لِلْأَصْلِ الَّذِي أَبْدَعَهُ أُسْتَادُهُمْ.

وَكَانَ لِبهْزَادَ تَلَامِيذٌ كَثِيرُونَ سَارُوا وَفَقَ مِنْهُجِهِ الْفَنِيِّ وَاقْتَفَوْا أَثَرُ أَسْلُوبِهِ الْوَاقِعِيِّ، وَغَالِيًا مَا نَلْمَحُ فِي تَصَاوِيرِهِمْ تَعْبِيرَاتٍ وَأَشْخَاصًا مَقْنُولَةً بِنَصِّهَا عَنْ أُسْتَادِهِمْ. وَيَحُلُو لِلْبَعْضِ أَنْ يُنْكَرُوا عَلَى بِهْزَادَ الشُّهُرَةَ الَّتِي نَالَهَا لِأَنَّهُ لَمْ يَنْتِكِرْ أَسْلُوبًا جَدِيدًا، غَيْرَ أَنَّهُ

وَالآنَ وَقَدْ عَدَا تَارِيخُ الْإِسْكَانْدَرِ الْمَقْدُونِيِّ مَعْرُوفًا حَقَّ الْمَعْرِفَةِ عَلَى أَلْسِنَةِ الْمُؤَرِّخِينَ، فَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَبَّنَ وَجْهَ الْخَطِّ وَالصُّوَابِ فِيمَا رَوَاهُ الشَّاعِرُ نِظَامِي. وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ لَمْ يُسَمَّ ذَا الْقَرْنَيْنِ بِاسْمِ آخَرٍ، وَلَكِنْ هَذِهِ الْأَسْمَاءُ الَّتِي أَضْفَاهَا بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى ذِي الْقَرْنَيْنِ هِيَ مِنْ اجْتِهَادِهِمْ بَلْ وَمِنْ خَيَالِهِمْ، فَمَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ مَعْرُوفٌ لَا يَتَسَرَّبُ إِلَيْهِ الشُّكُّ مِنْ قُرْبٍ أَوْ مِنْ بُعْدٍ.

الْمُصَوِّرُ بِهْزَادَ

إِنَّ فَضْلَ رُوحِ اللَّهِ مِيرْكَ الْأَكْبَرِ يَعُودُ إِلَى أَنَّهُ تَعَهَّدَ الْأُسْتَادَ كَمَالَ الدِّينِ بِهْزَادَ بِالرَّعَايَةِ حَالَ وَفَاةِ أَبِيهِ وَهُوَ مَا زَالَ بَعْدُ طِفْلًا. وَقَدْ بَدَأَ بِهْزَادَ نَشَاطَهُ الْفَنِيِّ مُبَكِّرًا، غَيْرَ أَنَّهُ اسْتَحَالَ نِسْبَةً أَيْ عَمَلَ إِلَيْهِ قَبْلَ عَامِ ١٤٨٥، وَهُوَ الْعَامُ الَّذِي أَنْجَزَ فِيهِ مَنْمَنَاتِ مَخْطُوطِ «الْقَصَائِدِ الْخَمْسِ» الَّذِي أَلْفَهُ الْأَمِيرُ خَسْرُو بْنُ سَيْفِ الدِّينِ مُحَمَّدٍ الدَّهْلَوِيِّ، وَجَمَعَ فِيهِ خَمْسَ قِصَصٍ هِيَ «مَطْلَعُ الْأَنْهَارِ»، وَ«خَسْرُو وَشِيرِينَ»، وَ«لَيْلَى وَالْمَجْنُونِ»، وَ«أَتَيْنَةُ إِسْكَانْدَرِي»، وَ«هَشْتُ بِهِشْتِ» أَوْ الْجَنَّاتِ الثَّمَانِي. وَقَدْ حَمَلَتْ مَنْمَنَاتُهُ الثَّلَاثَ عَشْرَةَ بَوَادِرِ أَسْلُوبِ بِهْزَادَ الَّذِي لَمْ يَتَجَلَّ إِلَّا بَعْدَ ذَلِكَ بِعِدَّةِ سَنَوَاتٍ. وَيَكْشِفُ هَذَا الْمَخْطُوطُ الَّذِي أَنْجَزَ، دُونَ شَكٍّ، فِي هَرَاةٍ عَنْ مَلَاحِجِ التَّشْكِيلِ فِي مَدْرَسَةِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ الَّتِي لَمْ تَلْقَ بِالْأَلَى أَبْعَادَ الْمَنْظُورِ الْمِعْمَارِيَّةِ قَاصِرَةً اهْتِمَامُهَا عَلَى الْعِنَايَةِ بِتَنْسِيقِ الصَّلَاتِ وَالرُّوَاطِ بِتَيْنَ الْأَشْخَاصِ ضِمْنَ التَّكْوِينِ الْعَامِّ لِلصُّورَةِ. وَمَعَ أَنَّ هَيْئَةَ الْأَشْخَاصِ لَا تَبْدُو عَلَى جَانِبِ كَبِيرٍ مِنَ الرِّشَاقَةِ إِلَّا أَنَّهَا مَعَ ذَلِكَ تُشَكِّلُ فِي مَجْمُوعِهَا تَكْوِينًا مُتَجَانِسًا، وَهِيَ الصِّفَةُ الرَّئِيسِيَّةُ الَّتِي مَيَّزَتْ أَعْمَالَ بِهْزَادَ وَالَّتِي أَضَافَ إِلَيْهَا حِسَّهُ الْفُطْرِيَّ الْمُرْهَفَ بِرِشَاقَةِ الْحَرَكَةِ، مَا بَلَغَ بِهِ ذِرْوَةَ التَّنَاسُقِ الْحَقِّيَّ الْأَخَازِ الْجَاذِبِ لِلْإِنْظَارِ بِكَمَالِهِ الْبَاهِرِ.

وُلِدَ بِهْزَادَ حَوْلَ مُنْتَصَفِ الْقَرْنِ الْخَامِسِ عَشَرَ الْبِلَادِيِّ فِي مَدِينَةِ هَرَاةٍ، وَفِي خِلَالِ حُكْمِ السُّلْطَانِ حُسَيْنِ مِيرْزَا بِقِرَا (١٤١٦ - ١٥٠٦ م) بَرَزَ فَجْرُ عَصْرِ فَنِيِّ جَدِيدٍ فِي مَدِينَةِ هَرَاةٍ، ذَلِكَ أَنَّ السُّلْطَانَ حُسَيْنَ وَوَزِيرَهُ الْفَتَّانَ الشَّاعِرَ الْمَوْسِيقِيَّ الْمُصَوِّرَ مِيرَ عَلِي شِيرِنَوَائِي، شَجَّعَا التَّهْضَةَ الْفَنِّيَّةَ وَتَعَهَّدَا بِالرَّعَايَةِ وَالتَّكْرِيمِ. وَفِي ظِلِّ هَذِهِ الرَّعَايَةِ وَهَذَا التَّشْجِيعِ أَخَذَ الْفَتَّانُ بِهْزَادَ يَعْمَلُ فِي مَعَهْدِ فُنُونِ الْكِتَابِ «كِتَابِ خَانِهِ»، وَإِنْ كُنَّا لَا نَعْلَمُ عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ مَدَى نَشَاطِهِ فِي ذَلِكَ الْمَعَهْدِ. غَيْرَ أَنَّهُ يُمَكِّنُ تَتَبُّعَ تَأْثِيرَاتِ أَسَالِيهِ الْفَنِّيَّةِ مُنْذُ سَنَةِ ١٥١٠ م إِذْ كَانَ لَهُ فِي تِلْكَ الْأَنْثَاءِ تَلَامِيذٌ عَدِيدُونَ، اقْتَفَوْا أَثَرَهُ وَجَزَّزُوا عَلَى أَسْلُوبِهِ. وَظَلَّ بِهْزَادَ يَعْمَلُ فِي هَرَاةٍ حَتَّى بَعْدَ غَزْوِ الْأَوَزْبَكِيِّينَ لِلْبِلَادِ، وَإِلَى حِينَ وَفَاةِ السُّلْطَانِ حُسَيْنِ مِيرْزَا

المِحْرَابَ يَعِظُ اثْنَيْنِ مِنَ الْمُصَلِّينَ، بَيْنَمَا جَلَسَ رَجُلٌ تَحْتَ الْمِنْبَرِ مُنْخَرِطًا فِي الْبُكَاءِ تَهْجُدًا، وَقَامَ إِلَى جِوَارِهِ آخَرٌ يُكَبِّرُ لِلصَّلَاةِ، وَإِلَى يَسَارِهِ شَيْخٌ يُقْتِي سَيِّدَةً فِي أَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ وَهُوَ يَتْلُو عَلَيْهَا مِنْ كِتَابٍ بَيْنَ يَدَيْهِ. وَفِي الرُّكْنِ الْأَدْنَى الْأَيْسَرِ نَرَى رَجُلًا يَتَوَضَّأُ بَيْنَمَا يُنَاوِلُهُ عَبْدُهُ الْمُنْشَقَّةَ. وَعَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ إِلَى الْيَمِينِ مُتَسَوِّلٌ يَطْلُبُ الْإِحْسَانَ مِنْ أَحَدِ الْمُصَلِّينَ.

وَفِي لَوْحَةٍ مَجْلِسُ أُنْسٍ وَشَرَابٍ بَيْنَ يَدَيِ السُّلْطَانِ حُسَيْنِ مِيرزا (لَوْحَةٌ ٢٤٧ م) نَرَاهُ جَالِسًا بِشُرْفَةٍ قَصْرِهِ فَوْقَ حَاشِيَةِ مُزْرَكْشَةِ مَعَ ضُيُوفِهِ يَسْمُرُونَ وَيَشْرَبُونَ، وَقَدْ انْبَسَطَتْ أَمَامَهُ الْأَوَانِي وَالْكُؤُوسُ بَيْنَمَا انْهَمَكَ الْخَدَمُ فِي مَلَأِ الْأَقْدَاحِ، فَحَمَلَ أَحَدُهُمْ وَعَاءً أَزْرَقَ وَتَوَلَّى آخَرَ صَبَّ الشَّرَابِ مِنْ قَارورة زرقاء كُرُوبِيَّةٍ فِي قِمَعٍ يَغْلُو وَعَاءً يَحْمِلُهُ خَادِمٌ آخَرٌ فَوْقَ رُكْبَتِهِ. وَفِي الرُّكْنِ الْأَيْسَرِ الْأَدْنَى نَرَى أَحَدَ الضُّيُوفِ وَقَدْ نَالَ مِنْهُ السُّكَّرَ حَتَّى فَقَدْ تَوَارَتْهُ فَانْتَبَرَى اثْنَانِ مِنَ الْخَدَمِ يُحِيطَانِهِ بِأَذْرَعِهِمْ. وَنَرَى الْبَوَابَ أَمَامَ الْمَدْخَلِ الْمُوشَى بِأَجْمَلِ الزَّخَارِفِ وَالنَّقُوشِ وَهُوَ يَقْرَعُ بِعَصَاهُ أَحَدَ الْمُتَسَوِّلِينَ. وَفِي الرُّكْنِ الْأَيْمَنِ الْأَعْلَى سَجَلُ الْفَتَانِ مَشْهُدًا مِنْ مَشَاهِدِ الْحَيَاةِ الْيَوْمِيَّةِ، إِذْ نَرَى مَعَصِرَةَ التَّبِيدِ تُشْرِفُ عَلَيْهَا خَادِمَةٌ سَوْدَاءُ وَأَمَامَهَا الْأَوَانِي وَالْأَنْابِيبُ الْمُسْتَحْدَمَةُ، وَإِلَى جِوَارِهَا عَبْدٌ أَسْوَدٌ يَحْمِلُ عَصًا عَلَى كَتِفَيْهِ يَتَدَلَّى مِنْ طَرَفَيْهَا وَعَاءً إِنْ يَتَأَهَّبَ لِتَوْصِيلِهِمَا إِلَى الْحُفْلِ.

وَفِي مُنْمَنَةِ «الْمَلِكِ دَارَا وَسَائِسِ خَلِيلِهِ» (لَوْحَةٌ ٢٤٨ م) الَّتِي تَحْكِي خُرُوجَ الْمَلِكِ دَارَا لِلصَّيْدِ وَضَلَالَهُ الطَّرِيقَ حَتَّى إِذَا وَجَدَ نَفْسَهُ وَحِيدًا بَيْنَ الْجِبَالِ إِذَا هُوَ يُفَاجَأُ بِأَحَدِ رُعَاةِ الْخَيْلِ بِالْقُرْبِ مِنْ جَدُولٍ صَغِيرٍ فَأَعَدَّ سَهْمَهُ لِمُلَاقَاةِ هَذَا الْعَدُوِّ الَّذِي لَمْ يَكُنْ إِلَّا وَاحِدًا مِنْ سَوَاسِهِ قَدْ ذَنَا مِنْهُ لِيَكْشِفَ لَهُ عَنْ أَنَّ إِهْمَالَهُ لِرِعَايَاهُ قَدْ أَفْقَدَهُ الْقُدْرَةَ حَتَّى عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَهُمْ. وَنَجِدُ فِي هَذِهِ الْمُنْمَنَةِ بَرَاعَةً فِي تَصْوِيرِ الشُّخُوصِ وَالْخَيْلِ وَالطَّبِيعَةِ، وَنَلْمَسُ زُوعَةَ التَّنَاسُقِ بَيْنَهَا وَتَرَاهُ الْأَلْوَانُ وَتَنُوعَ دَرَجَاتِهَا وَوَاقِعِيَّةَ الشُّخُوصِ الَّذِينَ ظَهَرَ أَحَدُهُمْ مُمْتَطِّيًا جَوَادًا وَرَاءَ الصُّخُورِ، وَلَعَلَّهُ مِنْ أَتْبَاعِ الْمَلِكِ جَاءَ يُقْتَنِي أَثَرُ مَوْلَاهُ، كَمَا جَلَسَ عَلَى الْعُشْبِ قَتَى يُفْرِغُ اللَّبَنَ مِنْ قُوزَةٍ فِي صَحْنٍ وَقَدْ انْتَثَرَتْ أَمَامَهُ مَجْمُوعَةٌ مِنْ سُورِجِ الْخَيْلِ. وَقَسَمَ الْفَتَانُ لَوْحَتَهُ إِلَى ثَلَاثِ مِسَاحَاتٍ عَرْضِيَّةٍ غَطَّى ثُلُثُهَا الْأَسْفَلُ بِمَرْعَى أَخْضَرَ تَمَرَّجَ فِيهِ الْخَيْلُ نَرَى مِنْ بَيْنِهَا فَرَسًا أَصْفَرَ اللَّوْنِ أَبْيَضَ الرِّقْبَةِ يَكْرَعُ مِنْ جَدُولِ الْمَاءِ، بَيْنَمَا جَنَّمَ مَهْرٌ صَغِيرٌ لِيَلْقَمَ ثَدْيَ أُمِّهِ ذَاتَ الْجَسَدِ الْبَنِيِّ الْمُرْقُطِ، وَسَرَحَتْ سَائِرُ الْخَيْلِ مُنْطَلِقَةً هُنَا وَهُنَا فِي أَثْنَاءِ الْمَرْعَى. أَمَّا الثُّلُثُ الْأَوْسَطُ فَقَدْ شَغَلَهُ الْمُصَوِّرُ بِرُبَّى صَخْرِيَّةٍ شَبِهُ جَزْدَاءَ عَلَى شَكْلِ الشَّعْبِ الْمَرْجَانِيَّةِ، وَاخْتَصَّ الثُّلُثُ الْعُلَوِّيُّ بِأَفْقِ ذَهَبِي اللَّوْنِ تَنْطَوِي صَفْحَتَهُ عَلَى أَشْجَارٍ مِنَ الدُّلْبِ قَدْ نَفَذَتْ

كَانَ يَقِينًا أَبْرَعَ مُصَوِّرِي جِيلِهِ مِنْ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ ارْتَقَوْا فِي طُرُوفِ جِدِّ مُوَاتِيَّةٍ بِصَبْغِ أَسْلَافِهِمْ إِلَى دَرَجَةِ رَفِيعَةٍ مِنَ الصَّفَاءِ وَالرَّشَاقَةِ وَالْإِيقَاعِ. وَيَقْضِي الْإِنْصَافُ مِتًا أَنَّ يُشَارِكُهُ هَذَا الْمَجْدُ غَيْرُهُ مِنْ كِبَارِ الْمُصَوِّرِينَ الَّذِينَ يَتَعَدَّرُ حَتَّى عَلَى الْخُبْرَاءِ تَمْيِيزُ إِتْنَاهُ عَنْ إِتْنَاهُمْ.

«بُستَان» سَعْدِي الشَّيرَازِي، ١٤٨٨ م.

دار الكتب المصرية

مَا أَقَلَّ الصُّورَ الَّتِي صَحَّتْ نِسْبَتُهَا إِلَى بِهْزَادِ وَالَّتِي تَحْمِلُ تَوْقِيعَهُ الصَّحِيحَ. وَتَزُوهُ دَارُ الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ بِنُسْخَةٍ مِنْ مَخْطُوطَةِ «بُستَان» لِلشَّاعِرِ سَعْدِي، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ الْمُنْمَنَاتِ السَّتَّ الْأُولَى مِنْهَا مِنْ تَصْوِيرِ بِهْزَادِ. وَتُمَثِّلُ إِحْدَاهَا (لَوْحَةٌ ٤١ م) مَجْلِسَ طَرْبٍ بَيْنَ يَدَيِ السُّلْطَانِ حُسَيْنِ مِيرزا حَيْثُ نَرَى شُرْفَةً إِلَى جِوَارِ بُرْجٍ سُدَاسِيٍّ الْأَضْلَاعِ، تَامَ التَّفَاصِيلُ دَقِيقَ التَّنْفِيزِ مِنَ التَّاحِيَةِ الْمِعْمَارِيَّةِ. وَلَا يَقِلُّ عَنْ ذَلِكَ دِقَّةٌ فِي التَّفَاصِيلِ سَقْفِ السُّرَادِقِ الْمَقَامِ إِلَى يَمِينِ الْبُرْجِ، فَهُوَ مُزْدَانٌ بِمَجْمُوعَةٍ مُتَقَاطِعَةٍ مِنَ الدَّوَائِرِ تَحْتَوِي أَشْكَالَ طُيُورٍ وَغِزْلَانٍ وَأَرَانِبَ بَرِّيَّةٍ وَتَوْرِيقاتٍ نَبَاتِيَّةٍ وَزُهُورٍ بَارِعَةٍ الْأَدَاءِ، كَمَا جُمِلَتْ حَوَافِهَا بِنُقُوشٍ كِتَابِيَّةٍ. وَقَدْ فُرِشَ تَحْتَ هَذَا السُّرَادِقِ بِسَاطٌ أَخَازِدُ، وَضُيْعَتْ فَوْقَهُ وَسَادَةٌ رَفِيقَةٌ تَرْتَبِعُ عَلَيْهَا السُّلْطَانُ، وَجَلَسَ لِتَجَاهِهِ ضَيْفٌ مُقَرَّبٌ فِي سِنِّ الشُّبَابِ، وَوَرَاءَ هَذَا الضَّيْفِ وَقَفَّ حَارِسُ الْبَابِ وَقَدْ تَدَلَّى سِنْفُهُ مِنْ مِئْطَقَتِهِ. وَأَمَامَ الْبَسَاطِ صُنَّتِ الْأَقْدَاحُ وَالْكُؤُوسُ عَلَى مِئْصَدَةٍ مُنْخَفِضَةٍ. أَمَّا بَقِيَّةُ الْحَاضِرِينَ فَقَدْ جَلَسُوا فِي أَمَاكِنَ مُخْتَلِفَةٍ بِالْقُرْبِ مِنْ عَازِفِ الْعُودِ الَّذِي يَتَوَسَّطُ الصُّورَةَ. وَيَتَدَوَّلُ أَحَدُ الْمَدْعُودِينَ وَكَأَنَّهُ يُشَارِكُ بِالْغِنَاءِ عَلَى نَعَمَاتِ الْعُودِ، وَآخَرُ فِي حُلَّةٍ زَرْقَاءَ يَحْمِلُ كِتَابًا فِي يَدِهِ. وَيَدُلُّ الْمَظْهَرُ الْعَامُّ لِلْمَدْعُودِينَ عَلَى أَنَّ اللَّحْنَ قَوِيٌّ سَاجِرٌ، فَقَدْ اسْتَحَنَّهُمُ الطَّرْبُ حَتَّى إِنْ وَاحِدًا مِنْهُمْ يُجَاوِرُ عَازِفَ الْعُودِ قَدْ غَابَ عَنْ وَغْيِهِ مِنْ شِدَّةِ التَّأَثُّرِ، فَخَفَّ إِلَيْهِ مِنْ بَيْنِهِمْ مَنْ يُعْنَى بِهِ، بَيْنَمَا هَوَتْ إِلَى الْأَرْضِ عِمَامَتَاهُمَا. وَنُشَاهِدُ ضَيْفًا آخَرَ رَاكِبًا عَلَى رُكْبَتَيْهِ يَقْرَضُ أَطَافِرَهُ مِنْ فَرْطِ التَّأَثُّرِ وَالْإِعْجَابِ، بَيْنَمَا بَدَأَ آخَرَ يَتِمَايَلُ رَاقِصًا. وَإِلَى الْيَمِينِ فِي زَاوِيَةِ الصُّورَةِ نَلْمَحُ رَجُلًا يَتَسَلَّى بِهَزْ رَأْسِهِ، وَخَلْفَهُ آخَرُ يُمَرِّقُ مَلَابِسَهُ لِشِدَّةِ تَأَثُّرِهِ، بَيْنَمَا حَمَلَ لَهُ أَحَدُ الْأَتْبَاعِ عِبَاءَتَهُ وَعِمَامَتَهُ. وَيَتَدَوَّلُ الْحَاضِرِينَ جَمِيعًا قَدْ انْطَلَقُوا فِي نَشْوَةِ عَارِمَةٍ، فَأَقْرَطُوا فِي الشَّرَابِ وَطَرَبُوا لِحُسْنِ الْإِيقَاعِ، وَلَمْ يَغْفَلِ السَّاقِي عَنْ مَلَأِ الْكُؤُوسِ، فَتَرَاهُ جَالِسًا فِي الْوَسْطِ يَمَلَأُ الْأَقْدَاحَ مِنْ قَيْنَتِهِ ذَاتَ رَقَبَةٍ رَفِيعَةِ طَوِيلَةٍ. وَفِي يَسَارِ الصُّورَةِ وَقَفَّ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْخَدَمِ يَحْمِلُونَ صِحَافَ الطَّعَامِ وَأَبَارِيقَ الشَّرَابِ.

وَفِي لَوْحَةٍ مَشَاهِدِ الْمَسْجِدِ (لَوْحَةٌ ٢٤٦ م) نَرَى إِمَامًا عِنْدَ

مُوحياً أَنَّهُ قَدْ رَبطَ إِلَيْهِ حَظّاً يَجذبُهُ خَلَقَهُ عَلَى الْأَرْضِ، بَيْنَا يُشيرُ يَدَهُ الْأُخْرَى إِلَى الْغَرِيقِ الْمُسْتَغِيثِ بِهِ فِي تَسْأُلٍ تَنْطِقُ بِهِ مَلامِحُهُ وَكَأَنَّهُ يَقُولُ «مَذا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَفْعَلَ؟ أَلَا تَرى أَنَّ يَدَيِ الْأُخْرَى مَشْغُولَةٌ وَأَتِي عَاجِزٌ عَنِ السَّباحَةِ أَيُّضاً؟» أَمَّا مَجْمُوعَةُ الْحَطايِينِ فِي صَدْرِ الصُّورَةِ، فَيَبْدُو أَنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ اسْتِغاثَتَهُ، فَيَبْتَنِهِمْ وَبَيْنَهُ سَدٌّ مِنْ صُخُورٍ وَتِلَالٍ، فَصَلاً عَنِ اسْتِغْرَاقِهِمْ تَمَاماً فِي نَشْرِ فُرُوعِ الْأَشْجارِ وَتَجْمِيعِ الْحَطَبِ وَتَحْمِيلِهِ عَلَى ظَهْرِ الْجِمارِ الْمُسْتَسْلِمِ. وَقَدْ أَبْرَزَ الْمُصَوِّرُ مَفارِقَةً حَادَّةً بَيْنَ نَفَازِ الصَّبْرِ وَالْجَهْدِ الْبَادِيَيْنِ فِي مَلامِحِ الْحَطَّابِ الَّذِي يَحْمِلُ الْحَطَبَ عَلَى ظَهْرِ الْجِمارِ، وَبَيْنَ مَلامِحِ الاسْتِسلامِ وَالسَّكِينَةِ الْبَادِيَةِ فِي مَلامِحِ الْجِمارِ.

ويعَدُّ هَذَا الْمَشْهَدُ مِنْ بَيْنِ الْمَشَاهِدِ التَّادِرَةِ الَّتِي لَمْ يَتَنَاولْها التَّصْويرُ الْفَارِسيُّ مِنْ قَبْلُ، كَمَا لَمْ يُوَدِّ الْبَحْثُ إِلَى اكْتِشافِ ضَرْبِ لَهَا فِي مَدْرَسَةِ هَرَاة. وَتُسَفرُ هَذِهِ اللَّوْحَةُ كَمَا تُسَفرُ غَيْرُها مِنْ اللَّوْحَاتِ عَنِ تَجْدِيدِ هَامٍ أَدْخَلَهُ بِهَزَاد، أَلَا وَهُوَ التَّفَاصِيلُ الَّتِي تَتَنَاولُ الْحَيَاةَ الْيَوْمِيَّةَ لِعامَّةِ النَّاسِ.

وَتَمَّةُ لَوْحَةٍ أُخْرَى مِنْ هَذَا الْمَخْطُوطِ نَفْسُهُ تُنسَبُ إِلَى بِهَزَاد، هِيَ لَوْحَةُ «مَوْكِبِ الْجِنَازَةِ وَإِعْدَادِ الْمَدْفَنِ» (لَوْحَةُ ١٧٤). وَتَبْدُو الصُّورَةُ وَقَدْ رُسمَتْ عَلَى مُسْتَوَيْنِ، فِي الْمُسْتَوَى الْأَدْنَى نَرى بَاباً وَعِدَّةً نَوافِذَ تُشيرُ إِلَى بِناءِ الْمَسْجِدِ وَقَدْ وَقَفَ بِبابِهِ شَيْخٌ يَنْظُرُ فِي اتِّجَاهِ النَّعْشِ الْمُقْبِلِ نَحْوَ يَحْمِلُهُ شَخْصَانِ يَتَّجِهَانِ إِلَى الْمَسْجِدِ لِلصَّلَاةِ عَلَى الْمَيِّتِ قَبْلَ دَفْنِهِ. وَيَسِيرُ أَمَامَ النَّعْشِ شَيْخٌ يَلْطَمُ خَدَيْهِ، يَسْبِقُهُ آخَرٌ قَدْ مَرَّقَ مَلايسَهُ حُزْناً عَلَى فِرَاقِ الْمُتَوَفَّى. وَفِي التَّاحِيَةِ الْيُسْرَى وَفِي مُقَدِّمَةِ الصُّورَةِ يَقِفُ ذَرْوِشٌ يَبْكِي وَقَدْ أَمْسَكَ بِعَصَا تَحْمِلُ رَايَةً وَخُصْلَةً مِنْ ذَيْلِ جِوَادٍ دَفَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَقَدْ نَعَّشَ عَلَيْهَا «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ». وَفِي الْمُسْتَوَى الْأَعْلَى مِنَ الصُّورَةِ نَرى حَقَّارِي الْقُبُورِ وَهُمْ يُعِدُّونَ الْمَقْبَرَةَ فِي سُرْعَةٍ وَاهْتِمَامٍ وَخَلْفَهُمْ شَيْخُهُمْ يَحْتَنُّهُمْ عَلَى الْعَمَلِ وَالْإِسْرَاعِ.

وَلَقَدْ اهتمَّ الْمُصَوِّرُ بِزَخْرَفَةِ أَطْرُ بابِ الْجَامِعِ وَنَوافِذهِ وَسِفْلِ الْمَقْبَرَةِ بِزَخَارِفِ الْقَاشَانِيِّ الْبَدِيعَةِ، وَلَمْ يَقْنَعْ أَنْ يَرِسمَ شَجَرَةَ ضَخْمَةً مَعْرُوقَةً وَسَطَ الْمَقَابِرِ عُلِقَ بِضَبَاحٍ بِأَحَدِ فُرُوعِهَا بَيْنَا اسْتِكَانَتِ الطُّيُورُ عَلَى أَفْنَانِهَا.

«خُمْسُهُ» نِظامِي، ١٤٩٥ م، الْمُتَحَفُ الْبَرِيطَانِي

وَتَحْمِلُ بَعْضُ مُنَمَّنَاتِ نُسخَةِ الْمُنْظُومَاتِ الْخُمْسِ الْمَحْفُوظَةِ بِالْمُتَحَفِ الْبَرِيطَانِيِّ تَوَقِيعَ بِهَزَاد. وَتُعَدُّ صُورَ هَذَا الْمَخْطُوطِ الَّذِي يَمْتازُ بِالْأَلوانِ الصَّافِيَةِ وَكَمالِهِ وَاجِداً مِنْ أَجْمَلِ مَخْطُوطَاتِ هَرَاة. وَكَانَ قَدْ صُوِّرَ عامَ ١٤٩٥ مِنْ أَجْلِ «مِيرزا عَلِيِّ فَارِسِ بَارلاس»

إِلَى الْحاشِيَةِ الْعُلُويَّةِ مِنَ الصُّورَةِ. وَظَهَرَ تَوَقِيعُ الْفَتَّانِ «عَمَلُ الْعَبْدِ بِهَزَاد» عَلَى جُعبَةِ سِيَّاهِ الْمَلِكِ بِطَرِيقَةٍ حَقِيقَةٍ بَارِعَةٍ.

عَلَى أَنَّ بِهَزَادَ رُغمَ ما أَضافَهُ مِنْ ابْتِكَاراتٍ إِلَى التَّقَالِيدِ الْمُتَّبَعَةِ فِي تَصْويرِ الْمُنَمَّنَاتِ الْفَارِسيَّةِ، قَدْ حَافَظَ عَلَى التَّنْظُرَةِ الْأَسَاسِيَّةِ لِلتَّشْكِيلِ الْفَنِّيِّ التَّابِضَةِ بِالْخَيَالِ الَّتِي ابْتَدَعَهَا مُصَوِّرُو الْفُرسِ فِي الْقَرْنِ السَّابِقِ، وَقَدْ وَقَّفَ أَيُّماً تَوَفِيقَ فِي تَدْعِيمِ بِناءِ الْمُنَمَّنَةِ وَضاعَفَ مِنْ شِجْهَتِها الْعاطِفِيَّةِ، وَاسْتَخْدَمَ الْأَلْوَانِ بِطَرِيقَةٍ تَشْهِى بِدِرَايَةِ عِلْمِيَّةٍ تَتَجَاوَزُ دِرَايَةَ السَّابِقِينَ عَلَيْهِ. وَكَانَ يَبْسُطُ الْأَلْوَانِ الْبَالِغَةَ التَّقاءَ مُتْجَاوِرَةً عَلَى النَّحْوِ الَّذِي انْتَهَجَتْهُ أوروبَّا فِي الطَّلَاءِ بِالْبِناءِ وَفِي لَوْحَاتِ الزُّجَاجِ الْمُعْشَقِ، غَيْرَ أَنَّ مَجْمُوعَةَ الْأَلْوَانِ الَّتِي اسْتَخْدَمَهَا وَرَقَّةَ تَأْثيرِها تَفُوقُ ما أَنْجَزَهُ جَمِيعُ مَنْ سَبَقُوهُ. وَكَانَ يُفَضِّلُ اللَّوْنَيْنِ الْأَزْرَقَ وَالْأَخْضَرَ يَسُودَانِ الْمَنَاطِقَ الْعَسَلِيَّةَ الْخَافِيَّةَ وَالصُّفْرَاءَ الطَّيِّبَةَ، الَّتِي تُسْتَخْدَمُ كَمَقَابِلٍ لَهَا. وَأَضَافَ بَيْنَ حِينٍ وَحِينٍ لَمَسَاتٍ ساطِعَةِ الْحُمْرَةِ، وَغَالِيًا ما كَانَ يُفَضِّلُها قَرْمِزِيَّةً، وَيَبْدُو أَنَّهُ كَانَ يَرْتاحُ فِي مَرَحَلَتِهِ تِلْكَ إِلَى تَلَوِينِ السَّمَاءِ بِاللَّوْنِ الذَّهَبِيِّ التَّقْلِيدِيِّ مِنْ دُونِ أَنْ يُضِيفَ إِلَيْهَا السُّحُبَ التَّقْلِيدِيَّةَ الْقَدِيمَةَ، غَيْرَ أَنَّ طَرِيقَتَهُ فِي التَّلَوِينِ ما لَبَّتْ أَنْ تَعْغِرتَ تَمَاماً بَعْدَ عَشْرِ سَنَوَاتٍ.

«مَنْطِقُ الطَّيْرِ» لِغَرِيدِ الدِّينِ الْعَطَّارِ، الْمُنْسُوبِ إِلَى بِهَزَاد، ١٤٨٣. مُتَحَفُ الْمَتْرُوبُولِيتَانِ

لَجَأَ مُؤَرِّخُو الْقَرْنِ وَثَقَّادُهُ - إِذَا ما تَعَدَّرَ عَلَيْهِمْ إِمْكانُ نِسْبَةِ لَوْحَةٍ ما إِلَى بِهَزَادِ أَوْ أَحَدِ تَلَامِيذِهِ - إِلَى يَغْيَارِ فَرَضِيَّيْهِ بَحْثَ، فَيَقُولُونَ: طَالَمَا أَنَّ بِهَزَادَ كَانَ أَقْدَرُ فَتَّانِ عَمَلِ بِهَرَاةَ عَهْدَ حُسَيْنِ مِيرزا بِيقرَا، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هُوَ مُبْدِعُ أَرْوَعِ صُورِ هَذِهِ الْمَدْرَسَةِ. غَيْرَ أَنَّهُ يَصْعَبُ الاطِّمْنَانُ إِلَى مِثْلِ هَذَا الاسْتِثْناءِ الْفَرَضِيِّ، ذَلِكَ أَنَّ اسْتِخْدَامَ صِبْغَةِ التَّضْفِيلِ فِي مَجَالِ تَقْوِيمِ الْقَرْنِ وَتَخْلِيلِهِ هُوَ اسْتِخْدَامٌ ذَاتِي بَحْثَ، وَتَمَّةٌ جَدَلٌ طَوِيلٌ بَيْنَ الدَّارِسِينَ حَوْلَ إِمْكانِ نِسْبَةِ لَوْحَةٍ بِعَيْنِها إِلَى بِهَزَادِ أَوْ إِلَى غَيْرِهِ. وَعَلَى آيَةٍ حَالِ فَهْناكَ أدِلَّةٌ تُرَجِّحُ أَنَّ يَكُونَ مُصَوِّرُ الْمُنَمَّنَاتِ الْأَرْبَعِ الْوارِدَةِ فِي مَخْطُوطَةِ مَنْطِقِ الطَّيْرِ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِها هُوَ بِهَزَادُ نَفْسُهُ.

وَفِي لَوْحَةِ الْحَطايِينِ وَالْغَرِيقِ (لَوْحَةُ ٢٤٩ م) نَشْهَدُ رَجُلًا عَلَى وَشْكِ الْغَرِيقِ فِي نُهْجٍ تَحْدُهُ التَّلَالُ مِنْ جِهَةِ وَالصُّخْرَاءِ مِنَ الْجِهَةِ الْأُخْرَى. وَنَرى عِبَاءَةَ الرَّجُلِ وَعِمَامَتَهُ فِي الْجُزْءِ الْأَدْنَى الْأَيْسَرِ مِنَ الصُّورَةِ قُرْبَ الْمَكَانِ الَّذِي يَبْدُو أَنَّ الْغَارِقَ قَدْ دَلَّفَ مِنْهُ إِلَى الْماءِ، وَبَدَأَ الرَّجُلُ يَسْتِغِيثُ رَافِعًا ذِرَاعًا خَارِجَ الْماءِ بَيْنَا انْغَمَرَتْ ذِرَاعُهُ الْأُخْرَى فِيهِ، وَحَوْلَهُ بَطٌّ سَابِحٌ غَافِلٌ عَنْهُ. وَتَمَّةٌ حَطَّابٌ عَلَى الضَّمَّةِ الْبَعِيدَةِ مِنَ التَّهْيِيرِ قَدْ أَمْسَكَ بِيدِهِ حَبْلاً امْتَدَّ إِلَى خَارِجِ الصُّورَةِ

لِشَتَّى الوِضَعَاتِ وَالتَّجْمُعَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ الَّتِي ظَلَّتْ نَبْعًا يَتَهَلُّ مِنْهُ الْفَنُّ الْفَارِسِيُّ طِيلَةَ مِائَةِ عَامٍ بَعْدَ وَفَاتِهِ.

وفي مَشْهَد «التَّشِيد» يَتَجَمَّعُ الْأَشْخَاصُ فِي مَجْمُوعَاتٍ يَضُمُّ كُلٌّ مِنْهَا شَخْصَيْنِ يُؤَدِّيَانِ مُتَعَاوِنَيْنِ عَمَلًا مُتَمَاثِلًا. وَتَدْبُ الْحَرَكَةُ فِي الْمُنْمَنَةِ مِنَ الْأَزْيَاطِ وَالتَّبَايُنِ بَيْنَ نَشَاطِ الْمَجْمُوعَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ وَأَلْوَانِ أَزْيَاءِ الشُّخُوصِ فِيهَا، تِلْكَ الْحَرَكَةُ الَّتِي تَتَحَوَّلُ فِي النِّهَايَةِ إِلَى تَبَضُّعٍ خَافِقٍ يُوجِّعُ النَّاسِقَ وَالْحَيَوِيَّةَ الَّتِي تَشْبِعُ فِي اللَّوْحَةِ طَوْلًا وَعَرْضًا. كَذَلِكَ يَلْفَتُنَا فِي مُنْمَنَةِ الْحَمَامِ تَنَوُّعُ أَلْوَانِ الْقَاشَانِيِّ الَّتِي جَمَّلَ الْفَنَّاانِ بِهَا جُذْرَانَ الْحَمَامِ، وَكُلَّهَا أَلْوَانٌ مُسْتَحْدَثَةٌ قَدَّمَهَا بِهَزَادٌ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، تَشْدُنَا بِهَدُوتِهَا وَائْتِسَاجِهَا الْبَارِعِ. وَفِي مُحَاوَلَتِهِ طَرَحَ الرِّتَابَةَ عَنْ مَشْهَدِ الْمَنَاشِيفِ الْمُعْلَقَةِ لِتَجَفِّ، نَرَاهُ قَدْ عَكَسَ عَلَيْهَا أَطْيَافَ اللَّوْنَيْنِ الْأَزْرَقِ وَالْأَخْضَرِ فِي خُطُوطٍ طَوِيلَةٍ، وَتَمْضِي الْحَرَكَةُ فِي الْمُنْمَنَةِ أَكْثَرَ إِبْطَاءٍ غَيْرِ أَنَّهَا تَبْضُ بِإِتْقَاعٍ دَاخِلِيٍّ دَافِقٍ وَجَدِيدٍ، وَيُسَاعِدُ عَلَى إِتْرَازِ هَذِهِ الْجَدَّةِ اخْتِلَافُ إِسَاحَةِ الْمُنْمَنَةِ عَنِ الْمَأْلُوفِ. وَيَشْدُ وَضْعُ الْبَابِ الْخَارِجِيِّ الْمَرْسُومِ فِي الْحَاشِيَةِ الْيُمْنَى لِلصُّورَةِ عَيْنَ الْمَشَاهِدِ نَحْوَ الدَّخَالِ حَيْثُ تَجْتَذِبُهَا الْمَنَاشِيفُ الْمُسَدَّلَةُ الَّتِي تُعِينُ الْعَصَا الطَّوِيلَةَ عَلَى تَجْفِيفِهَا، وَيُمْسِكُ بِهَا - فِي خَطِّ مَائِلٍ - خَادِمٌ وَاقِفٌ لَصَقَ الْبَابِ. وَمِنَ الْحَبْلِ الَّذِي تُعَلَّقُ عَلَيْهِ الْمَنَاشِيفُ تَنْجِهَ الْعَيْنَ إِلَى الْجَانِبِ الْأَيْسَرِ حَيْثُ يَقُومُ أَحَدُ الْحَلَاقِينَ بِقَصِّ شَعْرِ الْخَلِيفَةِ فِي الْغُرْفَةِ الْمُجَاوِرَةِ، يَتِمَّا يَقِفُ أَمَامَهُ صَبِيَّانِ يَحْمِلَانِ دَلْوِي مَاءٍ، وَيُكُونَانِ مَعَ الْآخَرِينَ مَجْمُوعَةً مُتَرَاصِفَةً قَوِيَّةً، عَلَى حِينِ تَتَقَابَلُ وَتَتَوَازَنُ مَعَ أَوْضَاعِ الْمَجْمُوعَةِ الَّتِي تَتَحَرَّكُ فِي الْغُرْفَةِ الْأُولَى. وَيَلْفَتُ النَّظَرُ فِي هَاتَيْنِ الْمُنْمَنَتَيْنِ كَيْفِيَّةَ تَجْسِيمِ الْأَشْخَاصِ وَابْتِعَادِ أَذْرَعِهِمْ عَنِ أَجْسَامِهِمْ، بِخَاصَّةٍ بَعْدَ أَنْ شَهِدْنَا فِي بِدَايَةِ الْعَصْرِ التَّيْمُورِيِّ كَيْفَ بَدَّتْ الشُّخُوصُ كُتْلًا صَمَاءً وَقَدْ التَّصَفَّتْ أَذْرَعُهُمْ بِأَجْسَامِهِمْ، لَا يَتَجَاوَزُ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْجَمَالِ رَشَاقَةٌ قُدُودُهُمْ.

وَإِذَا كَانَ مِنَ الْمُتَعَدِّ تَنَاوُلِ جَمِيعِ مُنْمَنَاتِ هَذَا الْمَخْطُوطِ بِالْدِّرَاسَةِ فَإِنَّا سَنَقْصِرُ عَلَى الْبَعْضِ. وَرَأَيْتُ أَنَّ أَقْدَمَ مِنْ بَيْنِ مَجْمُوعَةِ مُنْمَنَاتِ «لَيْلَى وَالْمَجْنُونِ» مَشْهَدُ التَّوْاحِ عَلَى وَفَاةِ رَوْجِ لَيْلَى (لَوْحَةٌ ٢٥٢ م)، حَيْثُ تَتَظَاهَرُ لَيْلَى بِالْحُزْنِ نَادِبَةً رَوْجَهَا فِي الظَّاهِرِ بَيْنَا هِيَ تَبْكِي عَلَى فِرَاقِ مَعْشُوقِهَا فِي الْحَقِيقَةِ. وَتَنْطَوِي الْمُنْمَنَةُ عَلَى تَجْدِيدِ يَظْهَرُ فِي الْإِنْطِلَاقِ الْمُتَحَرِّرَةِ فِي رَسْمِ الْأَشْخَاصِ وَخَرَكَاتِهِمْ وَإِيْمَاءَاتِهِمْ الطَّبِيعِيَّةِ الْمُتَنَوِّعَةِ الْمُعْبَّرَةِ عَنِ الْحُزْنِ وَالْعَوِيلِ وَالتَّوْاحِ وَفِي قَنَاطَةِ أَلْوَانِ ثِيَابِهِمْ حَتَّى لَتَبْدُو لَوْحَةً نَادِرَةً الْمِثَالِ. وَقَدْ أَشَارَ تَشَوُّكِينَ إِلَى وَجُودِ بَعْضِ أَوْجُهٍ الشَّبَهِ بَيْنَ أَشْخَاصِ هَذِهِ الْمُنْمَنَةِ وَأَشْخَاصِ

أَحَدِ قَادَةِ سُلْطَانِ حُسَيْنِ مِيرْزَا الْمُقَرَّبِينَ.

وَتِمَّةٌ سَبْعٌ مِنْ أَبْدَعِ مُنْمَنَاتِهَا بِتَوْقِيعِ قَاسِمِ عَلِيِّ تَلْمِيزِ بِهَزَادٍ، وَكُلُّ الصُّورِ مِنْ عَمَلِ مَدْرَسَةِ بِهَزَادٍ. أَمَّا اخْتِفَاءُ تَوْقِيعِ بِهَزَادٍ فَلَا يَنْفِي اخْتِمَالِ اشْتِرَاكِهِ فِي إِعْدَادِ بَعْضِهَا أَوْ إِعْدَادِ عَجَالَاتِهَا التَّخْطِيطِيَّةِ ثُمَّ عُكُوفِ تَلَامِذِهِ وَثُلِّ «قَاسِمِ عَلِيٍّ» عَلَى اسْتِكْمَالِهَا. وَلَا يَعْني وَجُودُ كَلِمَةِ «بِهَزَادٍ» مُنفردةٌ تَحْتَ بَعْضِ الصُّورِ أَنَّهَا مِنْ عَمَلِهِ عَلَى سَبِيلِ التَّأَكِيدِ، بِرُغْمِ أَنَّ الْإِمْبَرَاتُورَ جِهَانْجِيرَ الْمَغُولِيَّ ذَكَرَ أَنَّ بِهَزَادَ رَسَمَ سِتَّ عَشْرَةَ مُنْمَنَةً مِنْ بَيْنِ الْاَثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ مُنْمَنَةً الَّتِي تَضُمُّهَا هَذِهِ الْمَخْطُوطَةُ وَرَسَمَ مِيرْكَ خَمْسًا وَعَبْدَ الرَّازِقِ وَاحِدَةً، وَلَمْ يَذْكُرْ اسْمَ قَاسِمِ عَلَى الْإِطْلَاقِ.

وَمِنْ بَيْنِ صُورِ هَذَا الْمَخْطُوطِ تَمَيَّزَ بِضِعْ مُنْمَنَاتٍ تُنسَبُ إِلَى بِهَزَادٍ، يَأْتِي فِي مُقَدِّمَتِهَا مُنْمَنَتَانِ مُذْهِلَتَانِ أَوَّلَاهُمَا مُنْمَنَةُ «زِيَارَةِ الْخَلِيفَةِ هَارُونَ الرَّشِيدِ لِلْحَمَامِ» (لَوْحَةٌ ٢٥٠ م). فَقَدْ أَوْرَدَ نِظَامِي قِصَّةَ هَارُونَ الرَّشِيدِ وَالْحَلَاقِ فِي الْمَقَالَةِ التَّاسِعَةِ عَشْرَةَ مِنْ مَنَظُومَةٍ مَحْزُونِ الْأَسْرَارِ «فِي اسْتِقْبَالِ الْآخِرَةِ»، وَالَّتِي تَرْوِي أَنَّ الرَّشِيدَ اسْتَيْقِظَ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَتَوَجَّهَ إِلَى الْحَمَامِ مُصْطَفِحًا حَلَاقَهُ مَعَهُ، فَطَلَبَ الْحَلَاقَ مِنْهُ أَنْ يُرَوِّجَهُ ابْنَتَهُ، فَاغْتَاظَ الْخَلِيفَةُ وَلَكِنَّهُ لَاذٍ بِالصَّبْرِ وَالْحَيَاءِ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّ حَرَارَةَ الْحَمَامِ قَدْ أَثَّرَتْ فِي الْحَلَاقِ فَنَسِيَ مَكَانَتَهُ وَتَحَدَّثَ بِهَذَا الْهَرَاءِ.

وَلَيْلَةٌ بَعْدَ أُخْرَى مَضَى الْحَلَاقُ يُكْرِّرُ طَلْبَهُ بِمُصَاهَرَةِ الْخَلِيفَةِ الَّذِي ضَاقَ دَرْعًا بِتَطَاوُلِ هَذَا الْحَلَاقِ الصَّفِيقِ، فَأَمَرَ وَزِيرَهُ بِزَجْرِهِ، فَقَالَ الْوَزِيرُ إِنَّهُ قَدْ انْتَهَى إِلَيْهِ أَنَّ الْحَلَاقَ يَضَعُ قَدَمَهُ عَلَى كَثَرِ الْأَمْرِ الَّذِي أَصَابَهُ بِالْغُرُورِ، وَأَشَارَ عَلَى الْخَلِيفَةِ أَنْ يَغْيِرَ مَكَانَ الْحَلَاقِ فِي الْحَمَامِ حَتَّى يَتَغَيَّرَ مَوْضِعُ قَدَمِهِ، فَإِذَا أَقْلَعَ الْحَلَاقُ عَنْ إِلْحَاحِهِ عَفَا عَنْهُ وَلَا ضَرْبَ عُنُقِهِ. وَلَمَّا تَغَيَّرَ وَضْعُ قَدَمِ الْحَلَاقِ كَفَّتْ عَنِ التُّرْتَرَةِ وَالتَّزَمِ الْأَدَبِ فِي مُخَاطَبَةِ مَوْلَاهُ. وَعِنْدَهَا أَمَرَ الرَّشِيدُ رِجَالَ حَاشِيَتِهِ بِالْحَفْرِ تَحْتَ الْمَوْضِعِ الْأَوَّلِ لِقَدَمِ الْحَلَاقِ فَوَجَدُوا كَثْرًا زَاخِرًا. وَالْمُنْمَنَةُ الثَّانِيَّةُ هِيَ تَشْيِيدُ قَصْرِ الْخَوَزَنَقِ الَّذِي أَمَرَ بِنَاؤُهُ التُّغْمَانُ بْنُ الْمُؤَيَّدِ مَلِكِ الْحِيْرَةِ لِيَسْكُنَ بِهِ الْأَمِيرُ بِهْرَامُ جُورَ بَعْدَ أَنْ عَهِدَ إِلَيْهِ أَبُوهُ بِزُدْجَرْدِ مَلِكِ الْفَرَسِ كِي يَتَشَأَ فِي الْبَادِيَةِ (لَوْحَةٌ ٢٥١ م). وَتَسْجُلُ كِلْتَا الصُّورَتَيْنِ مَشَاهِدَ مِنَ الْحَيَاةِ الْيَوْمِيَّةِ النَّابِضَةِ بِالْحَرَكَةِ لَا مَجَالَ فِيهَا لِكَثِيرٍ مِنَ الْخَيَالِ، كَمَا تَتَسِمَانِ بِالطَّائِعِ الشَّكْلِيِّ رُغْمَ حَيَوِيَّةِ الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ يَحْتُلُونَهُمَا. وَتُمَثِّلُ الْمَنَاشِيفُ الرُّزْقَاءَ الْمُعْلَقَةَ فِي الصُّورَةِ الْأُولَى، وَالسَّلْمَ وَالسَّقَالَاتِ فِي الصُّورَةِ الثَّانِيَةِ الْعُنْصُرَ الرَّئِيسَ فِي التَّشْكِيلِ الَّذِي يُحَاكِي مُحِيطَ الْمُرْتَعِ. وَتُحَدِّدُ الشَّخْصِيَّاتِ فِي هَاتَيْنِ الْمُنْمَنَتَيْنِ الْإِنْفَاعَاتِ الْجَوْهَرِيَّةَ لِلتَّكْوِينِ، وَيَكْشِفُ بِهَزَادٍ عَنْ عَبْقَرِيَّتِهِ فِي تَحْدِيدِ مَلَامَحِ الْأَشْخَاصِ وَتَنْوِيعِهَا عَنْ طَرِيقِ ابْتِكَارِهِ

وتمنمة مُنمنمة مُبتكرة تنم عن خيال روائي خصب (لوحة ٢٥٤ م)، وأغلب الظن أن بهزاد نفسه هو مُبدعها، تُصور طرقاتاً من طور الطفولة في حياة قيس وليلى وكيف أن حبهما قد نما معهما منذ نعومة أظفارهما، أو ربما تُصورهما في أطوار شتى. فتراهما طفلين أمام مسجد وقد جلسا مع طفلة ثالثة يستذكرا دروسهما، ولعل قيساً يُقدم إلى ليلي هدية. ثم نرى الشيخ في متوسط الصورة يشرح درساً لصبي قد يكون هو قيس أو غيره. وفي مقدمة الصورة نرى شجرة الدلب تستغرق أغلب الجزء الأيمن من الصورة، يُحيط بها سور خفيض لمُصلّى صغير. ونرى من جديد قيساً وليلى مُختلين بين جذع الشجرة وسور المُصلّى يتناجيان، بينما استغرق شاب في مُراجعة دروسه في الطرف البعيد من المُصلّى، ومال رجل على السور القريب مُستغرقاً في سبات عميق. وتممة سبيل سداسي البناء ملحق بالمُصلّى إلى اليمين يبرز نصفه خارج إطار الصورة، يُؤدي السقاء عمله فيه ولعله يملأ الزير، ولم يسن المصور أن يضع فوق سقيفة السبيل إبريقاً من الفخار. وتتميز اللوحة بديناميكية الحركة والواقعية في رسم جذع الشجرة وفروعها وأوراقها، والاهتمام بطرز العمارة وزخرفتها، وبصفة عامة بكل ما تتميز به مدرسة بهزاد من دقة وأناقة وجاذبية.

ومن قصّة خسرو وشيرين اختار المصور لحظة وصول صورة خسرو إلى شيرين فأحبه فور وقوع نظرها عليه. وتجمع الصورة بين شجرة الدلب الواقعية التصوير والصخور الإسفنجية والزهور والورود التي تمثل حديقة القصر، وبين شيرين التي جلست في متوسط الصورة جلسة الأبهة والكبرياء، يُحلي التاج جبينها، ومن حولها الجوّاري والقيان وقد اجتمعن حول زهرية من الهورسليين الصيني تَضُم أزهاراً وصحيفة عليها ثلاث قوارير للشراب، ومن رايهن تقف جارية تحمل صحفة الطعام. وتعزف إحدى القيان على المزمار بينما تصفق الثانية وتقرع الثالثة الدف وتعزف الرابعة على آلة الجناك. على حين تقترب جارية من شيرين تُقدم إليها صورة خسرو فمضت تتأملها. ولم يفت المصور الذي قد يكون «أقا ميرك» أن يُزخرف السجادة بصيغ سداسية تتوسطها النجوم ويحيطها بأطراف رسوم هندسية (لوحة ٢٥٥ م).

وفي لوحة مصرع فرهاد من المخطوطة نفسها (لوحة ١٧٦) يُحاول المصور تسجيل قصّة المهندس فرهاد الذي عهد إليه الملك خسرو بِشَق قناة في الصخر لِتيسير نقل اللبن من مراعي الملك إلى قصر محبوبته شيرين. وما كاد فرهاد يرى شيرين حتى عشقها، وكنتم هواه بين جوانحه مُحاولاً إخفاءه عن الناس. غير أن الهوى المضني يسيغ رغم كتمان العاشق. وما إن بلغت قصّة ذلك الحب مسامع خسرو حتى نهشت الغيرة قلبه فأرسل إليه من يُخبره كذباً

مُمنمات مخطوط عام ١٤٨٨ من بُستان سَعدي السابق الحديث عنها، تكشف عن أن مُصورها هو بهزاد نفسه، غير أنها في رأيي ليست إلا استعارات بسيطة، ذلك لأن توزيع أشخاصها قد جرى بطريقة مختلفة عن الطريقة المُتبعة في مُمنمات المخطوطة الأخرى، ولعلها من إبداع أحد تلاميذ بهزاد الأكفاء. واللافت في هذه المُمنمات الأربع العناية بتوزيع المُستويات ورسم الشخص و الإيماءات المُعبّرة والتّشويق الخلاب بين الألوان الزّرقاء والسوداء، وكلها سمات تُشير إلى بهزاد ونهجه.

وجاء في قصّة ليلي والمجنون أن سليماً العامري خال المجنون، حاول أن يلقاه فأخذ يبحث عنه حتى وجده فألقاه مُمرّق الثّياب يعيش في دُحول وحيرة بين الوحوش التي أنست إليه، فقد كان يُلقى إليها بقايا الطعام الذي كان يجود المسافرون به عليه وما جعلها تلتفت حوله وتطيعه. وقد علّق نظامي على ذلك بأن الإحسان يأسر الحيوانات ويحيل الوحوش أليفة، ثم يخاطب الإنسان بقوله: «وأنت أيضاً إذا فعلت ما فعله، فأنت سوف لا تحمل هم الدنيا ولو كان الخليفة جليساك لأنه سيُصبح خادمك بعد أن يأكل طعامك». ولم يعرف المجنون خاله فعرفه سليم بنفسه وحاول أن يُقدم إليه طعاماً وثوباً فرفض. وقد سجّل الفنان هذه الواقعة (لوحة ٢٥٣ م) فوق كل التّفيق في تنسيق اللوحة، غير أن رسم الأشجار والخضرة جاء غير مناسب لطبيعة الصحراء التي رسم حيواناتها تحيلة متوحشة. أما رسوم الأشخاص فبالرغم من محاولة التّعبير عن الصّلة التي تربط كلاً منها بغيرها إلا أنها بدت مُفترقة إلى التّألف فيما بينها.

وفي مُمنمة المجنون يلفظ أنفاسه على قبر ليلي (لوحة ١٧٥) نراه بعد أن علم بوفاتها وقد اندفع يتيكياً ثائراً داعياً الله أن يُخلّصه بما هو فيه من غناء وأن يُغادر الدنيا إلى الآخرة ليُستريح، فاستلقى بجسده التحيل العاري إلا من مئزر بسيط فوق قبر ليلي يَضُمّه إلى صدره مُنادياً معشوقته إلى أن فاضت رُوحه، ومن حوله خُلساؤه من حيوان الصحراء وكائنهم يُودّعونه، على حين ظهرت من البادية خيتمان بإحداهما امرأة تغزل وبالأخرى امرأتان تتجاذبان أطراف الحديث بينما تحلب فتاة ضرع بقرة ويهش عجوز على غنمه. وفي سفح الرّبوّة الصّخرية التقليديّة يجلس رجلان يرقبان المجنون.

ويبدو أن المصور قد أراد تسجيل قول نظامي: «لقد عبر المجنون طريق ليلي عينه، ومن ذا الذي لا يغير من هذا الطريق؟». وظلّت الوحوش تحرسه فلم يجرؤ أحد على دفنه حتى شاع نبأ موته بين القبائل وعلم أهله بذلك فتوجهوا إلى المكان الذي مات فيه ففتحوا قبر ليلي ودفنوه بجوار معشوقته.

جزيرة تُعدّ آخر حُدود العالم شرقًا. ولَمَّا عِلِمَ باستِحالة الإبحار إلى أبعد من ذلك، أَقْلَ الإسكندر راجعًا، غَيَّرَ أَنَّهُ ضَلَّ الطَّرِيقَ وَوَجَدَ نَفْسَهُ فِي مِنطَقَةٍ يَصْطَلِحُ فِيهَا الْمَوْجُ بِمَا يَهْدُدُ السُّفُنَ بِالْفَرْقِ، فَشَيَّدَ تِمْنَالًا مِنَ الْبُرُونِزِ بِنَاءً عَلَى نَصِيحَةِ الْحَكِيمِ پَلْنِاسِ عَلَى هَيْئَةِ رَجُلٍ يَحْمِلُ طَبْلًا يُفْرَعُ مِنْهُ ذَلِكَ الْحَيَوَانُ الْمَائِيّ الْخُرَافِيّ الَّذِي يُثِيرُ هَذَا التِّيَّارَ الْبَحْرِيّ فَيَهْرَبُ حِينَ يَسْمَعُ صَوْتَ الطَّبْلِ، وَهَكَذَا سَاعَدَ ذَلِكَ التَّمْنَالُ السُّفُنَ عَلَى غُبُورِ هَذِهِ الْمِنطَقَةِ.

وَلَوْ أَنَّ الْمُصَوِّرَ اكْتَفَى بِتَسْجِيلِ الْوَاقِعَةِ كَمَا جَاءَتْ عَلَى لِسَانِ نِظَامِي، لَبَدَّتْ لَوْحَتُهُ جَافَّةً عَارِيَةً عَنِ الْجَاذِبِيَّةِ، وَلَكِنَّهُ شَأْنُ أَيِّ فَنَّانٍ مُلْهِمٍ أَطْلَقَ لِخَيَالِهِ الْعِنَانُ فَأَوْدَعَ التَّمْنَالُ الْبُرُونِزِيّ جَوْسَقًا بَدِيدًا عَلَى الطَّرَازِ الْإِسْلَامِيّ، وَمَضَى أَحَدُ الْجُنُودِ يَقْرَعُ الطَّبْلَ بِالْمِطْرَقَةِ كَيْ يُفْرَعُ الْحَيَوَانُ الْخُرَافِيّ الَّذِي يَبْدُو عَلَى صَفْحَةِ الْمَاءِ يُطَارِدُهُ الْبَحَّارَةُ فِي زُورُقٍ يَتَخَسَّنُهُ بِالْجِرَابِ بَيْنَا يَنْفِخُ جُنْدِيّ فِي نَفِيرٍ لِرُهْبِهِ. وَبَذَلَ الْفَنَّانُ جَهْدًا خَارِقًا فِي الْإِعْرَابِ عَنِ مَشَاعِرِ الْبَحَّارَةِ، مُسْتَخْدِمًا كُلَّ الْحِيلِ الْمَطْرُوقَةِ فِي التَّصْوِيرِ الْإِسْلَامِيّ لِلتَّعْبِيرِ عَنِ الْإِنْفِعَالِ. وَمِنْ وَرَاءِ هَذَا الزُّورُقِ تَتَقَدَّمُ سَفِينَةُ الْإِسْكَنْدَرِ الْفَخْمَةُ يَشْدُهَا الْبَحَّارَةُ إِلَى الشَّاطِئِ وَقَدْ جَلَسَ الْإِسْكَنْدَرُ وَاضِعًا إصْبَعَهُ فِي فَمِهِ عِلَامَةً عَلَى تَعَبِّهِ، وَمِنْ قَوْفِهِ انْتَشَرَ الشَّرَاحُ الْمُزَخْرَفُ بِتَوْرِيقاتٍ نَبَاتِيَّةٍ. وَفِي أَسْفَلِ السَّفِينَةِ مَلَا حَانٍ يَسْنَدَانِ رَجُلًا مُشْيِيًّا عَلَيْهِ مِنْ فَرْطِ الْخَوْفِ وَالْفَرَقِ إِثْرٌ مَا جَبَّهَ السَّفِينَةَ مِنْ أَهْوَالٍ فِي دَوَامَاتِ الْبَحْرِ الْخَطِيرَةِ. وَمِنْ فَوْقِ قِمَّةِ الْجَبَلِ الصَّخْرِيِّ التَّقْلِيدِيّ يُطَلُّ أَسَدٌ ضَخْمٌ عَلَى هَوْلَاءِ الزُّوَارِ وَكَأَنَّ عَيْنَيْهِ لَمْ تَقْعَا عَلَى بَشَرٍ مِنْ قَبْلُ.

وَهُنَاكَ مُنَمَّةٌ لَعَلَّهَا مِنْ تَصْوِيرِ بَهْرَادٍ (لَوْحَةٌ ١٨٠، ٢٥٨ م) هِيَ أَقْرَبُ الصُّوَرِ إِلَى تِلْكَ الْقِصَّةِ الَّتِي حَكَتْهَا الْأَمِيرَةُ الْإِيرَانِيَّةُ تَحْتَ الْقُبَّةِ الْبَيْضَاءِ لِزَوْجِهَا الْأَمِيرِ بَهْرَامِ جُورِ فِي لَيْلَةِ السَّبْتِ ضِمْنَ قَصِيدَةِ الصُّورِ السَّبْعِ. وَتُزَوِّي الْقِصَّةَ فِي إِجْزَائِهَا أَنَّ شَابًّا غَنِيًّا كَانَ يَمْلِكُ حَدِيقَةً، وَكُلَّمَا مَرَّ بِهَا سَمِعَ أَنْغَامًا شَجِيَّةً. فَأَقْتَحَمَهَا ذَاتَ يَوْمٍ فَوَجَدَ فِيهَا جَمْعًا مِنَ الْفَتَيَاتِ الْجَمِيلَاتِ يُغْنِينَ وَيَعْرِفْنَ، فَأَنْهَلْنَ عَلَيْهِ ضَرْبًا وَرَكْلًا ظَنًّا مِنْهُنَّ أَنَّهُ لَصٌّ. وَبَعْدَ أَنْ أَلَمَتْ بِهِ وَجِيعَةُ الْجِسْمِ وَالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ، اكْتَشَفْنَ أَنَّهُ صَاحِبُ الْقَصْرِ، فَأَعْتَذَرْنَ لَهُ وَصَالَحَتْهُ وَمَضَيْنَ يَزْوِينَ عَلَى مَسَامِيحِهِ قِصَصًا جَذَابِيَّةً، ثُمَّ اقْتَرَحْنَ عَلَيْهِ أَنْ يَجْمَعَ فَاتِنَاتِ الْمَدِينَةِ لِيَخْتَارَ زَوْجَةً مِنْ بَيْنِهِنَّ. وَاخْتَبَأَ الْفَتَى خَلْفَ نَافِذَةِ الْحُجْرَةِ يَنْتَظِعُ مِنْ فُرْجَةٍ بِهَا يَتِمَّا سَارَتْ الْفَتَيَاتُ عَارِيَاتٍ فَرَأَهُنَّ «كَزَهْرَاتٍ نَضِرَاتٍ، صُبَّتْ سِيْقَانُهُنَّ مِنْ فِضَّةٍ، وَنُهُودُهُنَّ كَالرَّمَانِ اسْتِدَارَةً»، وَكُنَّ جَمِيعًا عَلَى حَظٍّ مِنَ الْجَمَالِ وَافِرٍ.

وَفِي الصُّورَةِ نَرَى جُزْءًا مِنْ مَبْنَى الْقَصْرِ وَمِنْ خَلْفِهِ الْحَدِيقَةُ، ثُمَّ سُورًا يُحِيطُ بِرُكَّةِ مَاءٍ صِنَاعِيَّةٍ أَمَامَ الْمَبْنَى، وَعَدَدًا مِنَ الْمُغْنِيَّاتِ

بِأَنَّ شِيرِينَ قَدْ مَاتَتْ. وَلَمْ يُحَاوِلْ فَرْهَادُ أَنْ يَتَبَيَّنَ مَدَى الصَّدَقِ فِيمَا وَصَلَهُ مِنْ خَبَرٍ مَكْذُوبٍ بَلْ صَدَّقَ مَا نَقَلَهُ الْوَاشِي إِلَيْهِ وَنَاجَى نَفْسَهُ: «لَا تَلْتَقِيَنَّ بِشِيرِينَ بَعْدَ الْعَدَمِ وَلَا سَارِعَنَّ بِخُطْوَةٍ وَاحِدَةٍ نَحْوَهَا»، ثُمَّ أَلْقَى بِنَفْسِهِ مِنَ أَعْلَى الْجَبَلِ فَذُقَّتْ عُنُقُهُ وَمَاتَ. وَكَانَتْ هَذِهِ هِيَ اللَّحْظَةُ الدَّرَامِيَّةُ الَّتِي وَقَعَ اخْتِيَارُ الْمُصَوِّرِ عَلَيْهَا لِتَسْجِيلِ هَذِهِ الْقِصَّةِ. وَلَيْسَ فِي الصُّورَةِ مَا يَلْفِتُ غَيْرَ الْخُرُوجِ عَلَى مَا عَهْدَنَاهُ فِي مَدْرَسَةِ بَهْرَادِ التَّيْمُورِيَّةِ مِنْ رَسْمِ الشُّخُوصِ فِي أَحْجَامٍ تَتَنَاسَبُ مَعَ الطَّبِيعَةِ الْمُحِيطَةِ.

وَفِي مُنَمَّةٍ مَصْرَعٍ الْمَلِكِ خُسْرُو إِلَى جِوَارِ شِيرِينَ (لَوْحَةٌ ١٧٧، ٢٥٦ م) نَرَى الْقَاتِلَ الَّذِي أَوْفَدَهُ شِيرُوبِهِ بَنَ خُسْرُو بَعْدَ أَنْ تَأَمَّرَ عَلَى أَبِيهِ وَعَزَلَهُ عَنِ الْعَرْشِ وَسَجَّنَهُ لِكَيْ يَسْتَوْلِيَ عَلَى زَوْجَتِهِ شِيرِينَ الَّتِي فُتِرَ بِهَا حُبًّا، وَلَكِنَّهَا أَبَتْ إِلَّا أَنْ تُشَارِكَ زَوْجَهَا مَصِيرَهُ فِي السَّجْنِ. وَيَقْصِدُ الْقَاتِلُ إِلَى السَّجْنِ لِيَجِدَ خُسْرُو وَشِيرِينَ نَائِمِينَ فَيُوقِظُ خُسْرُو لِيُبَلِّغَهُ بِمَصِيرِهِ الْمَحْتُومِ. وَمَا إِنْ يَدْرِكُ خُسْرُو نِيَاهَتَهُ حَتَّى يَطْمَأَ إِلَى جُزْءَةِ مَاءٍ وَيَخْطُرُ لَهُ أَنْ يُوقِظَ شِيرِينَ مِنْ نَوْمِهَا وَلَكِنَّهُ مَا يَلْبَثُ أَنْ يَطْرُدَ هَذَا الْخَاطِرَ خَشْيَةً أَنْ تَجْزَعَ وَتَفْرَعَ لِزُورِيَّةِ ذِمَّةِ الْمُسْفُوكِ، فَيُنَاجِي نَفْسَهُ: «لَوْ رَأَتْ شِيرِينَ نَصِيبِي مِنَ الظُّلْمِ وَالْخِيسَةِ لَمَا عَادَ وَذَا النَّوْمِ مِنْ فَرْطِ الْحُزْنِ وَالْعَوِيلِ، فَجَدِيرُ بِي إِلَّا أَوْقَظْتُهَا وَلِتُنْتَعِمَ بِالسَّلَامِ فِي سُبَاتِهَا وَأَنَا أَلْفُظُ آخِرَ أَنْفَاسِي»، وَهَكَذَا لَقِيَ هَذَا الْمُحِبَّ حَتْفَهُ عَطْشَانًا. وَيُصَوِّرُ الْفَنَّانُ لَحْظَةً طَعَنَ خُسْرُو بِالْخِنْجَرِ وَشِيرِينَ تَرْفَدُ إِلَى جِوَارِهِ مُسْتَعْرِقَةً فِي نَوْمِهَا. وَيَعُودُ الْمُصَوِّرُ هُنَا إِلَى سُنَّةِ إِظْهَارِ مَا بِدَاخِلِ الْمَبْنَى وَمَا يَدُورُ خَارِجَهُ فِي الزَّمَنِ عَيْنِهِ. وَتَلَفُّنَا عِنَايَةَ الْبَالِغَةِ وَالذِّقَّةِ اللَّتَيْنِ شَاءَ الْفَنَّانُ أَنْ يُصَوِّرَ بِهِمَا جِدَارَ الْقَاشَانِيّ ذَا الرُّخَارِفِ النَّبَاتِيَّةِ وَالْهَنْدَسِيَّةِ وَالتَّقْوِشِ الْكِتَابِيَّةِ كَخَلْفِيَّةٍ لِلْمَشْهُدِ الْمَاسَاوِيّ.

وَفِي مُنَمَّةِ الْإِسْكَنْدَرِ يَزُورُ نَاسِكًا لِلتَّبَرُّكِ بِهِ طَالِيًا مِنْهُ الدُّعَاءَ لَهُ كَيْ يَسْتَطِيعَ فَتْحَ الْحِصْنِ الْمَنْعِيِّ الَّذِي يَحْتَشِدُ فِيهِ قُطَاعُ الطَّرِيقِ (لَوْحَةٌ ١٧٨، ٢٥٧ م)، نَرَى الْمُصَوِّرَ يَجْمَعُ بَيْنَ أَغْلَبِ السَّمَاتِ الَّتِي تَمَيَّزَتْ بِهَا مَدْرَسَةُ بَهْرَادِ مِنْ حَيْثُ تَمَاسُكُ التَّكْوِينِ وَالْمَهَارَةِ فِي رَسْمِ الْمَبَانِي وَالْعَمَائِرِ وَزُورَةِ تَمَثِيلِ الطَّبِيعَةِ وَالْمَنَاظِرِ الْخَلُويَّةِ وَالتَّعْبِيرِ عَنِ وَجْدَانِ الشُّخُوصِ الْمَرْسُومَةِ وَالْبَرَاعَةِ فِي مَزْجِ الْأَلْوَانِ. وَيَبْدُو الْإِسْكَنْدَرُ - وَمِنْ وَرَائِهِ حَاشِيَتُهُ - جَالِسًا قُدَّامَ النَّاسِيكِ وَقَدْ خَفَّ لِزِيَارَتِهِ لَيْلًا، إِذْ يَحْمِلُ أَحَدُ الْأَتْبَاعِ شُعْلَةً أَلْقَتْ الضَّوْءَ عَلَى الْعَاهِلِ وَرِفَاقِهِ، بَيْنَا يَتَبَدَّى الْهِلَالُ فِي السَّمَاءِ، وَيُطَلُّ قُطَاعُ الطَّرِيقِ سَاهِرِينَ مِنْ فَوْقِ أَسْوَارِ الْقَلْعَةِ.

وَتَمَّةٌ مُنَمَّةٌ مِنْ هَذَا الْمَخْطُوطِ تُصَوِّرُ الْإِسْكَنْدَرَ خِلَالَ رِحْلَتِهِ فِي بَحْرِ الصَّيْنِ! (لَوْحَةٌ ١٧٩) مُصْطَلِحًا مَعَهُ الْحَكِيمِ پَلْنِاسِ قَبْلَ

الشَيْخ العراقي (١٢٨٩). ويشمل المنظر الطبيعي تلاً في خَلْفِيَّة الصورة مُذَهَّباً على النَّحْوِ التَّقْلِيدِيّ، وَقَدْ تَجَلَّت السَّمَاءُ فَوْقَهُ بِزُرْقَتِهَا الصَّافِيَّة. وَيَبْدُو الشَّيْخُ العراقي نَحِيلاً، وكان على نِيَّةِ الازِيحَال، وَقَدْ عَزَّ عَلَيْهِ أَنَّ يُقَارِقَ صَدِيقاً لَهُ فَخَرَّ عَلَى رُكْبَتَيْهِ أَسَى وَحُزْناً. وَثَمَّةٌ فِي الْمَخْطُوطَةِ عِبَارَاتٌ تُشِيرُ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ الشَّيْخُ العراقي مِنْ نَزْعَةٍ فِي شِعْرِهِ إِلَى الْحُبِّ الْإِلَهِيِّ الَّذِي يَرَاهُ مِرَاةً تَرَى لِرُوحِهِ فِيهَا ظِلَالُ الْأُلُوهِيَّة. وَقَدْ حَاوَلَ الْمُصَوِّرُ شَاه مُظَفَّرٌ جَاهِداً أَنْ يَجْلُو الْفَرْقَ بَيْنَ صُورِ الشُّخُوصِ الثَّلَاثَةِ الرَّاحِمِينَ فِي يَسَارِ اللَّوْحَةِ وَالشُّخُوصِ الْوَاقِفِينَ فِي يَمِينِهَا الَّذِينَ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ بَانِحَاءً خَفِيفَةً. وَتَدَلُّ هَذِهِ الصُّورَةُ بِحَقٍّ عَلَى أَسْتَاذِيَّةِ الْفَنَّاَنِ شَاه مُظَفَّرٍ فِي تَصْوِيرِ الْمَجْمُوعَاتِ.

وفي ديوان نوائي (١٤٧٢) مِنْ نَظْمِ الْأَمِيرِ عَلِيِّ شِيرِنَوَائِي أَيْضاً وَالْمَخْطُوطُ بِدَارِ الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ (لَوْحَةٌ ٢٦٠ م) لَوْحَةٌ مُلَوَّنةٌ بِهَجَّةٍ نَرَى فِيهَا صُورَةَ لِأَمِيرٍ مِنْ مِيَارِ خُرَّاسَانَ يَزِيدِي نُوْبًا زَيْجِي اللَّوْنِ وَيَمْتَلِي جَوَادًا، وَمِنْ خَلْفِهِ تَابِعُهُ يُمَسِكُ بِسَيْفٍ فِي غَمْدِهِ الْمَنْقُوشِ بِالذَّهَبِ. وَيَبْدُو الْأَمِيرُ فِي مَكَانٍ شَاعِرِيٍّ يَزْخَرُ بِالزُّهُورِ الْبَانِعَةِ وَالْأَشْجَارِ الْمُزْهِرَةِ، يَنْسَابُ فِيهِ جَذُولُ مَاءٍ، يَسْتَمِعُ إِلَى شَاعِرٍ يُنْشِدهُ أَيْبَاءًا مِنْ غَزَلِيَّاتِ نَوَائِي. وَيَنْصَبُ التَّكْوِينُ كُلَّهُ عَلَى إظهارِ مَا تَشْدُو بِهِ الطَّبِيعَةُ مِنْ جَمَالٍ، فَالْخَلْفِيَّةُ حَافِلَةٌ بِمُخْتَلِفِ أَنْوَاعِ الزُّهُورِ الْحَمْرَاءِ وَالْبَيْضَاءِ وَأَوْرَاقِ الشَّجَرِ الذَّهَبِيَّةِ. وَتَكْتَنِفُ اللَّوْحَةَ مِنَ الْيَسَارِ شَجَرَةٌ خَوْخٌ مُزْهِرَةٌ يَلْتَوِي جَنْعُهَا لِيَنْبِ وَرَاءَ الْمُتَنِّ ثُمَّ يُعَاوِدُ الظُّهُورَ فِي الْمُسْتَطِيلِ الْأَيْمَنِ الْمَتَمِّ لِلَّوْحَةِ، وَلِيَلْتَقِيَ مَعَ شَجَرَةٍ ذُلْبٍ تَشْمَخُ مُجْتَازَةً حَاشِيَّةً الْمُنْمَنَةِ الْعُلْوِيَّة.

خمسهُ خُسْرُو دهلوي، ١٤٩٠ م

وَقَدْ اطَّلَعْتُ عَلَى نُسخَةٍ مِنْ مَخْطُوطِ خَمْسِهِ خُسْرُو دهلوي بِدَارِ الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ مُؤَرَّخَةً عَامَ ١٤٩٠ وَهِيَ تَضُمُّ سِتَّ عَشْرَةَ مُنْمَنَةً اخْتَرَتْ مِنْهَا لَوْحَتَيْنِ لَمْ يَسْبِقْ نَشْرُهُمَا، أَوَّلَاهُمَا لِفَرْهَادٍ يَضْرِبُ الصَّخْرَةَ بِمَعُولِهِ فَتَنْفَجِّرُ مِنْهُ الْمِيَاهُ بَيْنَا جَلَسَتْ شِيرِينَ تَنْطَلِعُ بِإِعْجَابٍ إِلَى قُوَّتِهِ الْخَارِقَةِ. وَبَيْنَهُمَا وَإِلَى الْخَلْفِ قَلِيلاً وَفِي مُتَوَسِّطِ الصُّورَةِ نَرَى شَجَرَةً ذُلْبَ صَغِيرَةً نَوْعًا ذَاتَ قِمَتَيْنِ انْتَشَتَا فِي مِيلٍ رَفِيقٍ أَخَاذَ. وَنَرَى خَادِمًا يُمَسِكُ بِعِنَانِ الْجَوَادِ الَّذِي ظَهَرَ مِنْهُ رَأْسُهُ وَرَقْبَتُهُ وَقَائِمَتَاهُ الْأَمَامِيَّتَانِ فَقَطُّ، وَيَكَادُ الْخَادِمُ يَخْتَفِي خَلْفَهُ تَمَامًا. وَإِذَا أَنْعَمْنَا النَّظَرَ جَيِّداً نَلْمَحُ نَفْسًا بَارِزًا حَفَرَهُ فَرْهَادٌ بِأَعْلَى الصَّخْرَةِ يُمَثِّلُ شِيرِينَ فَوْقَ صَهْوَةِ جَوَادِهَا (لَوْحَةٌ ٢٦١ م).

أَمَّا ثَانِيَةُ هَذِهِ اللَّوْحَاتِ فَهِيَ لَوْحَةٌ تُصَوِّرُ عَبْدًا زَنْجِيًّا وَقَدْ شَرَعَ

وَالرَّاقِصَاتِ وَالْعَازِفَاتِ وَقَدْ انْتَشَرْنَ حَوْلَهَا، وَثَمَانِي فَنِيَّاتٍ عَارِيَّاتٍ قَدْ غَشَيْنَ مَاءَهَا، غَيْرَ أَنَّ الْفَنَّاَنَ أَخْفَى أَجْسَادَهُنَّ تَحْتَ الْمَاءِ حَتَّى مَا فَوْقَ الثُّهُودِ، وَأَضَاعَ عَلَى نَفْسِهِ فُرْصَةَ رَسْمِ الْجَسَدِ الْعَارِي، إِمَّا عَنْ عَقَّةٍ وَإِمَّا عَنْ خَوْفٍ. أَمَّا صَاحِبُ الدَّارِ الْمَاكِرِ، فَقَدْ اخْتَارَ لَهُ الْمُصَوِّرُ مَرْكَزًا أَيْمًا خَلْفَ فُرْجَةٍ نَافِذَةٍ بِعَرَضٍ عَيْنٍ وَاجِدَةٍ مِنْ عَيْنِيهِ. وَأَشِيرُ هُنَا إِلَى لَوْحَةٍ أُخْرَى مِنْ مَخْطُوطَةِ هَفْتِ پيكرِ الْمَخْطُوطَةِ بِمَكْتَبَةِ سَالْتِيكُوفِ تَشْدِيرِينَ بِسَانَ بِطَرَسْبَرْجِ (لَوْحَةٌ ٢١٤ م) تَنَاولَتْ الْمَوْضُوعَ نَفْسَهُ، لِمَا بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ هَذِهِ اللَّوْحَةِ مِنْ مُشَاكَلَةٍ، لِتَبْيِينِ الْفَرْقِ بَيْنَ مُصَوِّرَيْنِ أَحَدَهُمَا مِنْ هَرَاةِ (١٤٩٥) وَالْآخَرُ مِنْ شِيرَازِ (١٤٩١) يُصَوِّرَانِ مَوْضُوعًا وَاجِدًا وَقَدْ أَظْلَمْتُهُمَا حِفْظَةً وَاجِدَةً. وَلَقَدْ وَفَّقَ الْمُصَوِّرُ أَيْمًا تَوْفِيقًا، فِي إِبرَازِ حَرَكَاتِ الْفَنِيَّاتِ اللَّاهِيَّاتِ فِي حَوْضِ الْمَاءِ، وَفِي الزَّخَارِفِ الَّتِي وَشَّى بِهَا سَفَفِ الْمَبْنَى الْأَتِيقِ وَجُدْرَانِهِ وَنَوَافِذِهِ، وَفِي رَسْمِ شَجَرَةِ السَّرْوِ وَأَشْجَارِ الْخَوْخِ وَالْمُشْمَشِ، كَمَا وَفَّقَ فِي الْإِيحَاءِ بِالْأَبْعَادِ بِرَسْمِهِ السُّورِ ذَا الْأَصْلَاعِ الْمُتَقَابِلَةِ وَالَّتِي يَقْطَعُهَا هَامِشُ الصُّورَةِ مِنَ الْيَمِينِ.

وَأَخِرُ الْمُنْمَنَاتِ الَّتِي اخْتَرْتُهَا، هِيَ مُنْمَنَةٌ إِهْدَاءً هَذَا الْمَخْطُوطِ إِلَى السُّلْطَانِ «مِيرْزَا بَارِلَاس» (لَوْحَةٌ ١٨١) وَنَرَى فِي يَهَادِهَا مَجْلِسَ السُّلْطَانِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ مِنْهُ صَاحِبُ الْمَخْطُوطِ أَوْ نَاسِيخِهِ يُهْدِيهِ إِلَيْهِ فِي خَشْيَةٍ وَتَوَجُّسٍ، بَيْنَا أَحَاطَ بِهِ الْأَتْبَاعُ وَالْحُرَّاسُ يَنْظُرُونَ فِي تَوَفُّعٍ. وَلَعَلَّ السُّلْطَانَ كَانَ آنَ ذَاكَ فِي رِحْلَةٍ صَبَدٍ، حَيْثُ يَجْلِسُ عَلَى بِسَاطٍ فَوْقَ أَرْضٍ عَدْرَاءٍ تَنْمُو بِهَا النَّبَاتَاتُ الْبَرِّيَّةُ وَشَجَرَةُ ذُلْبٍ عَجُوزٍ وَارِفَةِ الظَّلَالِ، وَخِيَمَةٌ مُقْبِيَّةٌ لِلْسُّلْطَانِ وَظَلَّةٌ مَقْنُوشَةٌ بِرُسُومِ هِنْدُسِيَّةٍ خَلَابَةٍ، وَعَنْ كَتَبٍ مِنْهُ وَقَفَ حَامِلُ الْبَازِ عَلَى اسْتِغْدَادٍ.

«خمسهُ نوائي» لِامِيرِ عَلِيِّ شِيرِنَوَائِي. هَرَاةِ ١٤٨٥.

جُزْءٌ بِالْمَكْتَبَةِ الْبُودَلِيَّةِ بِأَكْسَفُورْدِ وَالْجُزْءُ الْآخَرُ بِمَكْتَبَةِ جُونِ رِيلَانْدِزِ بِمَانْشِسْتِرِ.

وَقَدْ أَهْلَى الْوَزِيرُ مِيرِ عَلِيِّ شِيرِنَوَائِي الَّذِي كَانَ رَاعِيًا لِلْفَنِّ وَالْأَدَبِ هَذَا الْكِتَابَ إِلَى بَدِيعِ الزَّمَنِ ابْنِ السُّلْطَانِ حُسَيْنٍ. وَيَبْدُو أَنَّ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةَ قَدْ صُوِّرَتْ عَلَى أَيْدِي جُمْلَةٍ مِنْ كِبَارِ مُصَوِّرِي ذَلِكَ الْعَهْدِ. وَلَا صِلَةَ لِيُصَوِّرَ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةَ بِالْحَرَكَةِ الدِّيْنَامِيكِيَّةِ الَّتِي مَرَّتْ بِهَا فِي صُورِ مَخْطُوطَةِ خَمْسِهِ نَظَامِي (١٤٩٥) بِالْمُتَحَفِ الْبَرِيطَانِيِّ. وَتُمَثِّلُ الصُّورَةُ الَّتِي اخْتَرْتُهَا مِنْ بَيْنِ صُورِ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ (لَوْحَةٌ ٢٥٩ م) وَالَّتِي تَفُوقُ مَثِيلَاتِهَا فِي الْمَخْطُوطَةِ نَفْسَهَا إِبْدَاعًا وَإِبْكَارًا وَاجِدًا مِنْ كِبَارِ الشُّعْرَاءِ الْمُتَصَوِّفِينَ هُوَ

غَرَقَ (لَوْحَة ٢٦٥ م). ولا تَقَلْ هذه اللوحة عن سابقتها جمالاً في ألوانها وخُطوطها ودِيناميكيتها. غَيْرَ أَنَّ الطَّاعِ الرُّخْفِي يَغْلِبُ عَلَيْهَا إِلَى دَرَجَةِ الإِسْرَافِ، وَلَكِنَّهُ إِسْرَافٌ جَذَابٌ مُجَبِّبٌ. وَصَوَّرَ الْفَتَانَ الْأَسْمَاكَ فِي الْمَاءِ بِأُسْلُوبٍ يُبْنِي عَنْ حَرَكَةِ السَّفِينَةِ، بَيْنَا يَرْفَعُ أَفْرَادَ الْحَاشِيَةِ أَيْدِيَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ مُبْتَهِلِينَ إِلَى اللَّهِ شَاكِرِينَ لَهُ عِنَايَتِهِ وَخَدْبِهِ. وَكَسَا الشَّاطِئَ بِدَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ اللَّوْنِ الْأَخْضَرِ وَشَاحَهَا بِعِنَايَةٍ مِنَ الزُّهُورِ الْوَرْدِيَّةِ، مُرْتَفِعًا بِشِرَاعِ الْقَارِبِ الْوَرْدِيِّ اللَّوْنِ ذِي الرُّخَارِفِ الثَّابِتَةِ الْبَدِيعَةِ كَيْ يُؤَدِّيَ دَوْرًا فَاصِلًا بَيْنَ السَّمَاءِ الدَّهْيَةِ الْمَلْبُدَةِ بِالْغُيُومِ وَبَيْنَ الْأَرْضِ الْخَضِرَاءِ.

وفي المُنَمَّمة الرَّابِعَة نَرَى مِهْرَ وَهُوَ يُمَارِسُ مَعَ رَفِيقٍ لَهُ عَلَى صَهْوَتِي جَوَادِيَهُمَا لَعْبَةَ الْكُرَّةِ وَالصُّولْجَانِ «الپولو» (لَوْحَة ٢٦٦ م) الَّتِي تُعَدُّ لَعْبَةً مَأْتُورَةً عَنِ الْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ. وَتَبْدُو رُؤُوسُ بَعْضِ الْمُتَفَرِّجِينَ عِنْدَ حَظِّ الْأَفْقِ يَتَطَلَّعُونَ إِلَى الْمُبَارَاةِ، بَيْنَا يَنْتَظِرُ بَعْضُ الْأَتْبَاعِ مُمَسِّكِينَ بِالْخَيْلِ وَالصُّولْجَانَاتِ اخْتِيَابًا لِمَا قَدْ تَتَطَلَّبهُ الْمُبَارَاةُ. وَلَيْسَ ثَمَّةُ جَدِيدٍ فِي هَذِهِ الْمُنَمَّمةِ، فَقَدْ لَجَأَ الْفَتَانُ إِلَى جَمِيعِ الْعَنَاصِرِ الْمُتَدَاوِلَةِ فِي التَّصْوِيرِ الْفَارِسِيِّ مُنْذُ الْقَرْنِ الْخَامِسِ عَشَرَ.

وَتُصَوِّرُ اللَّوْحَةُ الْأَخِيرَةُ مَدَى حُبِّ مُشْتَرِي لِمِهْرٍ وَتَضَمُّنِهَا مِنْ أَجْلِهِ وَتَبَرُّعِهَا بِدَمَاهَا لِتُبْقِيَ عَلَى حَيَاتِهِ. وَيَبْدُو الطَّيِّبُ وَهُوَ يُحَاوِلُ إِيقَافَ نَزِيفِ الدَّمِّ مِنْ مِهْرٍ وَمَا تَنْشِي الْقَطْرَاتِ تَنْصَبُّ فِي الطُّسْتِ، عَلَى حِينِ أَخَذَ مُسَاعِدُهُ يَتَلَقَّى الدَّمَّ الْمُتَدَفِّقَ مِنْ سَاعِدِ مُشْتَرِي فِي طُسْتٍ آخَرَ (لَوْحَة ٢٦٧ م)، غَيْرَ أَنَّ الْمُصَوِّرَ لَمْ يَكْشِفْ لَنَا كَيْفِيَّةَ نَقْلِ الدَّمِّ مِنْ أَحَدِهِمَا لِلْآخَرِ.

هُمَائِي هُمَايُون، هَرَاة. النِّصْفُ الثَّانِي مِنَ الْقَرْنِ ١٥.

مُتَحَف طُوب قَابُو بِإِسْتَنْبُول.

وَهُنَاكَ مَخْطُوطَةٌ «هُمَائِي هُمَايُون» أَيِ الطَّيْرِ الْمُبَارَكِ، الْمَحْفُوظَةُ بِمُتَحَف طُوب قَابُو سَرَايِ بِإِسْتَنْبُولِ لِحَوَاجِو كَرْمَانِي، وَهِيَ تَضُمُّ ثَلَاثَ مُنَمَّمَاتٍ تَنْتَمِي إِلَى مَدْرَسَةِ هَرَاةِ فِي النِّصْفِ الثَّانِي مِنَ الْقَرْنِ الْخَامِسِ عَشَرَ، وَمِنْ تَصْوِيرِ تَلَامِذَةِ بِهِزَادٍ، آثَرْتُ أَنَّ أَتَقِي مِنْ بَيْنِهَا لَوْحَتَيْنِ لَمْ يَسْبِقْ نَشْرُهُمَا تُمَثِّلَانِ مَنْظَرَ صَيْدٍ لِلْأَمِيرِ هُمَايُونِ، بَلَّغْنَا الذَّرْوَةَ فِي جَمَالِ التَّشْكِيلِ وَجَادِيَّةِ التَّلْوِينِ. نَرَى فِي اللَّوْحَةِ الْأُولَى (لَوْحَة ٢٦٨ م) الْأَمِيرَ فَوْقَ صَهْوَةِ جَوَادِهِ الْبُنِّيِّ ذِي الثَّمَنِ الْأَبْيَضِ يَلْتَفِتُ مُتَحَدِّثًا إِلَى تَابِعِهِ حَامِلِ الْمِظَلَّةِ، بَيْنَا يَأْخُذُ بِمَقْوَدِ جَوَادِهِ تَابِعٌ زُنْجِيٍّ. وَنَلْحَظُ فِي نَمَطِ تَصْوِيرِ الْجَوَادِ الْخُطُوطَ نَفْسَهَا الَّتِي شَاهَدْنَاهَا فِي خَيْلِ لَوْحَةِ دَارَا وَرَاعِي خُبُولِهِ مِنْ تَصْوِيرِ بِهِزَادِ نَفْسِهِ، كَمَا يَلْفِتُنَا السَّرْجُ

فِي جِلْدِ امْرَأَةٍ خَاطِئَةٍ بِأَمْرِ الْأَمِيرِ، بَيْنَا وَقَفَ شَرِيكُهَا مُرْتَبِعًا فِي انْتِظَارِ دَوْرِهِ وَقَدْ أَمْسَكَ تَابِعٌ آخَرَ بِتَلَابِيهِهِ (لَوْحَة ٢٦٩ م). وَنَلْحَظُ طُفْيَانِ الْأُسْلُوبِ الرُّخْفِيَّ عَلَى اللَّوْحَةِ، وَاهْتِمَامَ الْمُصَوِّرِ بِشَغْلِ الْفَرَاغِ. فَتَرَاهُ وَقَدْ صَوَّرَ رُؤُوسَ وَأَعْنَاقَ جِيَادٍ أَرْبَعَةَ اخْتَارَ لِكُلِّ مِنْهَا لَوْنًا، بِحَيْثُ شَغَلَتْ الْفَرَاغَ بَيْنَ مُقَدِّمَةِ الصُّورَةِ وَخَلْفِيَّتِهَا، وَوَارَزَتْ فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ بَيْنَ أَلْوَانِ الثِّيَابِ الَّتِي يَرْتَدِيهَا الشُّخُوصُ وَالْأَلْوَانِ الدَّاكِنَةُ فِي الْمُقَدِّمَةِ، وَبَيْنَ اللَّوْنِ الْوَرْدِيِّ الرَّهِيْفِ فِي الْخَلْفِيَّةِ.

مِهْر وَمُشْتَرِي ١٤٩٣، دَارُ الْكُتُبِ الْمَصْرِِيَّةِ

وَتَدُورُ قِصَّةُ مِهْرٍ وَمُشْتَرِيٍّ مِنْ نَظْمِ مَوْلَانَا أَحْمَدَ عَصَارِ التَّبْرِيزِيِّ حَوْلَ قِصَّةِ حُبِّ مِهْرَيْنِ شَابُورِ حَاكِمِ إِصْطَخَرٍ لِمُشْتَرِيٍّ ابْنَةِ وَزِيرِ شَابُورِ، وَهِيَ تَقْلِيدٌ لِمَثْنَوِيٍّ نِظَامِيٍّ خُسْرُوٍّ وَشِيرِينِ. وَالتُّسْخَةُ الْمَوْجُودَةُ بِدَارِ الْكُتُبِ الْمَصْرِِيَّةِ هِيَ سَادِسُ نُسخَةٍ فِي مَكْتَبَاتِ الْعَالَمِ.

وَتَتَخَلَّلُ هَذِهِ التُّسْخَةُ أَرْبَعُ عَشْرَةِ صُورَةٍ مَلُونةٍ تَتَمَيَّزُ بِطَرَقٍ مَوْضُوعَاتٍ جَدِيدَةٍ طَرِيفَةٍ، اخْتَرَتْ مِنْهَا خَمْسَ مُنَمَّمَاتٍ لَمْ يَسْبِقْ نَشْرُهَا. أَوَّلَاهَا تُصَوِّرُ مِهْرَ وَمُشْتَرِيٍّ حِينَ وَقَعَا أَسِيرِينَ فِي يَدِ قُطَّاعِ الطُّرُقِ، وَتَرَاهُمَا مَائِلِينَ أَمَامَ رَئِيسِ الْعِصَابَةِ (لَوْحَة ٢٦٣ م). وَتَتَمَيَّزُ اللَّوْحَةُ مِنَ التَّاحِيَةِ التَّشْكِيلِيَّةِ بِخَطِّ هَذَا سَيِّ يَسْتَدِيرُ فِي رِفْقٍ وَعُذُوبَةٍ، بَادِئًا مِنْ مَكَانٍ جُلُوسِ رَئِيسِ الْعِصَابَةِ فِي يَمِينِ الصُّورَةِ مَارًا بِبَاقِيِ الشُّخُوصِ حَتَّى يَبْلُغَ خَلْفِيَّتِهَا مُتَّجِدًا مَعَ اسْتِدَارَةِ الْأَفْقِ. وَجَاءَتْ أَلْوَانُ اللَّوْحَةِ آيَةً فِي الرُّقَّةِ وَالْخُفُوفِ إِلَّا مِنْ إِيقَاعَاتٍ وَاضِحَةٍ مُنَاطِرَةٍ تَبْدِي فِي ثِيَابِ بَعْضِ أَفْرَادِ الْعِصَابَةِ، وَفِي اللَّوْنِ الْأَخْضَرِ الدَّاكِنِ لِمَجْمُوعَاتٍ مُتَفَرِّقَةٍ مِنْ أَوْرَاقِ الشَّجَرَةِ الَّتِي تَنْصَبِّبُ فِي مُنْتَصَفِ خَلْفِيَّةِ الصُّورَةِ، وَفِي أَلْوَانِ بَعْضِ الْوُرُودِ الْمُسْتَبْرَةِ فَوْقَ الْأَرْضِ الْوَرْدِيَّةِ اللَّوْنِ.

وَتُبَيِّنُ الْمُنَمَّمةُ الثَّانِيَّةُ مَعْرَكَةَ مِهْرٍ مَعَ أَكَلَةِ لُحُومِ الْبَشَرِ، وَقَدْ صَوَّرَهُمُ الْفَتَانُ حَيَوَانَاتٍ لَهَا رُؤُوسُ كَرُؤُوسِ الدَّثَابِ وَأَجْسَامُ كَالْأَدَبِيِّينَ (لَوْحَة ٢٦٤ م). وَفَضْلًا عَنْ جَمَالِ أَلْوَانِ هَذِهِ اللَّوْحَةِ، فَهِيَ تَتَبِّعُ بِحَرَكَتِهَا الدِّينَامِيكِيَّةِ وَبِخُطُوطِهَا التَّشْكِيلِيَّةِ الْإِنْشِيبِيَّةِ الْفَرِيدَةِ، وَبِالْثَّبَاتَيْنِ الرَّقِيقِ بَيْنَ لَوْنِ الْأَفْقِ الدَّهْيِيِّ الَّذِي يُشْكَلُ الْخَلْفِيَّةَ لِأَجْسَادِ أَكَلَةِ لُحُومِ الْبَشَرِ بِلَوْنِهَا الْوَرْدِيِّ وَبَيْنَ لَوْنِ الْأَرْضِ الْخَضِرَاءِ الَّتِي انْطَلَقَ عَلَيْهَا مِهْرٌ وَفُزْسَانُهُ مِنْ رَاكِبِي الْخَيْلِ أَثْنَاءَ مُطَارَدَتِهِ لَهُمْ. وَلَمْ يَفُتْ الرِّسَامُ أَنْ يُخَلِّفَ سَحَابَةً تَقْلِيدِيَّةً فِي عَنَانِ السَّمَاءِ.

وَتُصَوِّرُ الْمُنَمَّمةُ الثَّالِثَةُ مِهْرَ وَمُشْتَرِيٍّ وَرُفَقَاءَ سَفَرٍ آخَرِينَ عَلَى ظَهْرِ سَفِينَةٍ تَتَهَادَى بِهِمْ عِنْدَ شَاطِئِ الْأَمَانِ بَعْدَ نَجَاتِهِمْ مِنْ حَادِثٍ

مَشْدُودَة إِلَى أَعْنَاقِهِمْ، وَهِيَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي كَانَ يَسْتَخْدِمُهَا الْمَغُولُ لِلْحَيْلُولَةِ بَيْنَ أَسْرَاهُمْ وَالْهَرَبِ مِنْ دُونِ أَنْ تَحُولَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ امْتِطَاءِ الْحَيْلِ وَالْمُضْيِ فِي قَوَائِلِهِمْ. وَتَمَيَّزَ بَعْضُ هَذِهِ الصُّوَرِ بِالرُّوْعَةِ وَالْجَمَالِ الزُّخْرُفِيِّ لِلْأَلْوَانِ، وَتَبَدُّو وَكَانَتْهَا صُورٌ لِأَشْخَاصٍ قَدْ انْتَزَعَتْ مِنَ الْمُنْمَنَاتِ وَتَمَّ تَكْبِيرُهَا، ثُمَّ عُرِضَتْ وَحْدَهَا مَعْرُولَةً عَنْ بَقِيَّةِ الْمُنْمَنَةِ. وَتَخْتَلِفُ مَلَائِسُ الشُّخُوصِ بَيْنَ تِلْكَ الَّتِي تَحْمِلُ لَوْنًا مُوَحَّدًا مُزَخْرَفًا أَوْ خَالِيًا مِنَ الزُّخْرُفِ وَتِلْكَ الَّتِي طُرِزَتْ فَتَحَاتِ الْعُنُقُ فِيهَا بِتَوْرِيقَاتٍ نَبَاتِيَّةٍ أَوْ وَحَدَاتٍ مِنَ صُورِ الْبَطِّ أَوْ الزُّهُورِ. وَقَدْ اسْتَبْعَدَ تَشْوِكِينَ هَذِهِ الصُّوَرِ الشَّخْصِيَّةِ مِنْ بَيْنِ أَعْمَالِ بَهْرَادٍ وَعَزَاها إِلَى تَارِيخٍ مُتَأَخِّرٍ، وَالرَّاجِحُ أَنَّهَا قَدْ أُنْجِزَتْ قَبْلَ نِهَايَةِ الْقَرْنِ الْخَامِسِ عَشَرَ فِي إِسْتَبُولٍ حَيْثُ اسْتَقْدَمَ السُّلْطَانُ مُحَمَّدُ الْفَاتِيحَ عَدَدًا مِنَ الْمُصَوِّرِينَ الْإِيطَالِيِّينَ، مِنْهُمْ «جِيوتيلي بِليني» و«كوستانتزو دافيرارا» اللَّذَانِ عَاشَا بِإِسْتَبُولٍ مُنْذُ عَامِ ١٤٧٩ حَتَّى عَامِ ١٤٨١.

وَلَمْ تَعْرِفْ فَارِسٌ مِنَ الصُّوَرِ الشَّخْصِيَّةِ «الْهَوْرْتَرِيَّةِ» غَيْرَ تِلْكَ الَّتِي وَرَدَتْ فِي الْمَوْلُفَاتِ التَّارِيخِيَّةِ الْمَغُولِيَّةِ فِي عَصْرِ الْإِبْلَخَانَاتِ مِنْ دُونِ أَنْ يُحَاوِلَ مَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ مُسَايَرَةَ هَذَا التَّقْلِيدِ، وَلَعَلَّ عَادَةَ تَصْوِيرِ الشُّخُوصِ «الْهَوْرْتَرِيَّةِ» قَدْ انْتَقَلَتْ إِلَى فَارِسَ مِنَ الْبَنْدُوقِيَّةِ مُبَاشَرَةً أَوْ عَنْ طَرِيقِ تُرْكِيَا. وَيَحْتَفِظُ مَتَحَفُ جَارْدَنرِ بِمَدِينَةِ بوسطن بِصُورَةٍ لِأَحَدِ الْأَمْرَاءِ تَمَيَّزَ بِدِقَّةٍ وَمَهَارَةٍ بِالْعَتَنِ، وَإِنْ لَمْ تَحْمِلْ مَلَامِيحَ اسْلُوبِ بَهْرَادٍ فِي مُنْمَنَاتِ الْمَخْطُوطَاتِ، وَلَا غَرَابَةً إِذَا اعْتَقَدْنَا أَنَّهَا مِنْ إِنْدَاعٍ أَحَدِ التَّلَامِذَةِ الْفَرَسِ أَوْ الْأَتْرَاكِ الَّذِينَ تَدَرَّبُوا عَلَى يَدِ الْمُصَوِّرِ الْإِيطَالِيِّ. بِليني خِلَالِ إِقَامَتِهِ فِي إِسْتَبُولٍ.

ثَالِثًا: التَّصْوِيرُ فِي الْعَوَاصِمِ الْإِقْلِيمِيَّةِ

مَدْرَسَةُ بُخَارَى

رَأَيْنَا مَدَى عَدَاوَةِ الْأَوَزْبِكِيِّينَ لِلْأُسْرَةِ التِّيمُورِيَّةِ وَاحْتِلَالِهِمْ هَرَاةَ لِفَتْرَةٍ مِنَ الزَّمَنِ سَلَبُوا خِلَالَهَا وَاسْتَبَا حُوحَا، وَكَانَتْ الْمَرْكَزُ الْهَامُّ لِلْفَنِّ وَالثَّقَافَةِ خِلَالِ أَوَاخِرِ الْقَرْنِ الْخَامِسِ عَشَرَ. وَقَدْ ضَاعَفَتْ ضَرَاوَةُ الْأَحْقَادِ النَّاشِئَةِ بَيْنَ الشَّيْعَةِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ مِنْ أَعْمَالِ التَّخْرِيبِ الَّتِي أَوْدَتْ بِالْجُزْءِ الْأَكْبَرَ مِنْ ثَرَاثِ هَرَاةَ كَمَا أَفْقَدَتْ خُرَاسَانَ زَعَامَتَهَا الثَّقَافِيَّةَ. وَوَرِثَتْ بُخَارَى عَاصِمَةَ الْأَوَزْبِكِيِّينَ جُزْءًا مِنْ هَذَا الثَّرَاثِ وَنَاضَلَتْ لِلحِفَظِ عَلَى الْاسْلُوبِ التِّيمُورِيِّ فِي التَّصْوِيرِ حَتَّى نِهَايَةِ الْقَرْنِ وَإِنْ كُنَّا لَا نَعْرِفُ عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ تَارِيخَ تَأْسِيسِ مَدْرَسَةِ بُخَارَى. وَيَبْدُو أَنَّ هَرَاةَ ظَلَّتْ تَحْتَفِظُ بِمَرْكَزِهَا لِعِدَّةِ سَنَوَاتٍ بَعْدَ اسْتِثْلَاءِ إِسْمَاعِيلِ الصَّفَوِيِّ عَلَيْهِ عَامَ ١٥١٠، وَنَحْنُ نَعْرِفُ أَنَّ الْخَطَّاطَ مِيرَ عَلِيَّ الْحُسَيْنِيَّ (الْمَعْرُوفَ بِالْهَرَوِيِّ نِسْبَةً إِلَى هَرَاةِ الَّتِي وُلِدَ بِهَا) قَدْ قَصَدَ مَدِينَةَ مَشْهَدَ عَامَ

الْأَزَرِّقِ بِزَخَارِفِهِ الْبَيْضَاءِ وَالْجُلِّ الْأَنِيقِ. وَيَشَاءُ الْمُصَوِّرُ أَنْ يُعَالِجَ بَيْنَ الْأَلْوَانِ فِي إِحْسَاسٍ مُرَهَفٍ فَيَلَوِّنَ جَوَادَ حَاوِلِ الْمِظَلَّةِ بِاللُّوْنِ الْأَبْيَضِ وَيُخَطِّطَ الْجُلَّ بِخُطُوطٍ مُتَوَازِيَةٍ بَيْضَاءَ صَفْرَاءَ بَنِيَّةَ زَرْقَاءَ، وَمِنْ خَلْفِ الْأَمِيرِ اصْطَفَتْ حَاشِيَتُهُ فَوْقَ صَهَوَاتِ جِيَادِهِمْ يَرْقُبُونَ الصَّيْدَ، حَيْثُ نَرَى فَارِسًا يَهْوِي بِهَرَاوَتِهِ عَلَى رَأْسِ أَسَدٍ بَيْنَا يُطَارِدُ فَارِسَانِ آخَرَانِ بِسِهَامِهِمَا الْغِزْلَانَ الْفَرْعَةَ وَالْأَرَانِبَ الْبَرِّيَّةَ الْمَذْعُورَةَ. وَنَرَى بَقِيَّةَ رُفَقَاءِ الصَّيْدِ - فِي تَنْسِيقِ زُخْرُفِيٍّ بَدِيعٍ - مُصْطَفَيْنَ عَلَى شَكْلِ نِصْفِ خَلْقَةٍ وَمِنْ أَمَامِهِمْ خَادِمَانِ يَجْرُ أَحَدُهُمَا قَهْدًا وَالْآخَرُ كَلْبَ صَيْدٍ. وَتَقَعُ هَذِهِ الْحَلْقَةُ مِنَ التَّاسِ فِي أَدْنَى الصُّورَةِ تَيَمَّةً لِذَلِكَ الْقَوْسِ الَّذِي يَجْمَعُ الْحَاشِيَةَ الَّتِي تَصْطَفُ وَرَاءَ الْأَمِيرِ تَقْصُلُهُمْ شَجَرَةٌ بِدَبْعَةِ التَّكْوِينِ مُخَضَّرَةٌ الْأَوْرَاقِ نَفَذَتْ فُرُوعَهَا إِلَى هَامِشِ اللَّوْحَةِ الْأَيْمَنِ. وَقَدْ أَبْدَعَ الْمُصَوِّرُ فِي تَصْوِيرِ الْبَاحَةِ الَّتِي يَجْرِي عَلَيْهَا الطَّرَادُ مُتَدَرِّجَةً مِنْ سَهْلٍ مُنْبَسِطٍ تَخْلَلَهُ الشَّجَرَاتِ وَالْجِجَارَةُ وَتَنْتَهِي بِالرُّبَى الصَّخْرِيَّةِ التَّقْلِيدِيَّةِ عَلَى شَكْلِ الشَّعْبِ الْمَرْجَانِيَّةِ، تَنْدَرِّجُ أَلْوَانَهَا بَيْنَ الْبَنْفَسَجِيِّ وَالْبَنِيِّ وَالْأَخْضَرِ وَتَتَنَازَلُ بَيْنَهَا بَعْضُ الْأَشْجَارِ. وَلَجَأَ الْفَتَانُ إِلَى حِيلَةٍ صَبِيغِيَّةٍ هِيَ مَا دَعَوْنَاهَا «الْمَنْظُورُ الْفَرَاغِيَّ أَوْ اللَّوْنِيَّ» إِذْ أَحَاطَ قِمَّةَ الرَّابِيَةِ الْيُمْنَى الَّتِي تَخْتَرِقُ السَّمَاءَ الذَّهَبِيَّةَ بِغُيُومٍ تَنْبُئُ عَنْ ارْتِفَاعِهَا. وَجَاءَ تَوَزِيعُ الْبَقَعِ اللَّوْنِيَّةِ الْفَاتِيَّةِ مُؤَكَّدًا لِمَدَى مَا بَلَغَتْ هَذِهِ الْمَدْرَسَةُ مِنْ إِتْقَانٍ وَدِقَّةٍ فِي الْإِحْسَاسِ الْمُرَهَفِ بِاللُّوْنِ وَتَأْتِيرِهِ.

وَفِي الْمُنْمَنَةِ الثَّانِيَةِ (لَوْحَةٌ ٢٦٩ م) يُوَاصِلُ بَعْضُ الْفَرَسَانِ طِرَادَهُمْ بَيْنَا انْتَفَتْ حَوْلَهُمْ بَاقِي أَفْرَادِ الْمَجْمُوعَةِ فَوْقَ جِيَادِهِمْ فِي خَلْقَةٍ يَرْقُبُونَ ثَلَاثَةَ فُرْسَانٍ يَتَقَصُّونَ بِسِهَامِهِمْ عَلَى الْغِزْلَانِ الَّتِي تَعْدُو وَفِي إِثْرِهَا كِلَابُ الصَّيْدِ تَعَصُّ أَعْجَازَهَا. وَنَرَى بَعْضَ الْخَدَمِ يَحْمِلُونَ عَلَى أَكْتَافِهِمْ حَصِيلَةَ الصَّيْدِ مِنَ الْغِزْلَانِ. ثُمَّ يَمَزْجُ الْمُصَوِّرُ فِي مُؤَخَّرَةِ الصُّورَةِ الرُّبَى الصَّخْرِيَّةِ ذَاتِ الْأَلْوَانِ الْخَضْرَاءِ، وَالْبَنْفَسَجِيَّةِ وَالْبَنِيَّةِ مَعَ صَفْحَةِ السَّمَاءِ الذَّهَبِيَّةِ وَالْأَشْجَارِ وَبَعْضِ الشُّخُوصِ. وَيُنْهِي لَوْحَتَهُ بِاخْتِرَاقِ قِمَّةِ الرُّبُوعَةِ لِلْحَاشِيَةِ الْعُلْيَا مِنَ الصُّورَةِ وَقَدْ لَاحَظْنَا بِهَا غَزَالَانِ ارْتَفَعَتْ قُرُونُهُمَا مُتَوَجِّعَتَا الْمُنْمَنَةِ. وَمَرَّةً أُخْرَى نَرَاهُ هَذِهِ اللَّوْحَةُ بِقُدْرَةِ الْأُسْتَاذِ الْمُصَوِّرِ عَلَى التَّلَاعُبِ بِأَفْنِيدَةِ الْمُشَاهِدِينَ بِالْأَلْوَانِ السَّاجِرَةِ اللَّافِيَّةِ.

وَقَدْ نُسِبَتْ إِلَى بَهْرَادٍ مَجْمُوعَةٌ مِنَ التَّصَاوِيرِ وَالرُّسُومِ مِنْ نَوْعِ آخَرٍ هِيَ الصُّوَرُ الشَّخْصِيَّةُ «الْهَوْرْتَرِيَّةِ» وَالَّتِي صَوَّرَ فِيهَا بَعْضُ الْحُكَّامِ مِثْلَ السُّلْطَانِ حُسَيْنِ بِيْقَرَا وَمُحَمَّدِ خَانَ شِيَانِي، وَهَذَا هُوَ أَوَّلُ مَا نَرَاهُ فِي الْفَنِّ الْفَارِسِيِّ - كَمَا يَقُولُ سَاكْسِيَان - مِنْ «هَوْرْتَرِيَّاتٍ»، وَهُوَ مَا لَمْ يُقَدِّمَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ مِنْ بَيْنِ مُصَوِّرِي آسِيَا كُلِّهَا غَيْرِ الصِّينِيِّينَ وَالْيَابَانِيِّينَ. كَذَلِكَ عُرِيَ إِلَى بَهْرَادٍ صُورٌ بَعْضُ الْأَسْرَى الَّذِينَ قِيدَتْ أَدْرُعُهُمُ الْيُمْنَى فِي أَطْوَاقٍ

دُونَ أَنْ أَرَاهُ». وجاءت ألوان هذه المُنمَنة خَافِئَةً وَزَخْرَافَةً الهَنْدَسِيَّةَ وَالتَّبَائِيَّةَ الْعَزِيْرَةَ الْمُصَوَّرَةَ عَلَى الْجُدْرَانِ وَالسَّجَادِ آيَةً فِي دَقَّةِ التَّنْفِيذِ. وَظَهَرَ فِي أَعْلَى الْبِنَاءِ نَقْشٌ يَقْرَأُ «رُوضَةُ الْخُلْدِ هِيَ دَائِمًا مَلَجًا الْفُقَرَاءَ». وَتَلَفَتْنَا فِي هَذِهِ الصُّورَةِ ظَاهِرَتَانِ، الْأُولَى هِيَ «مَلَقَفُ» الْهَوَاءِ الْمُصَوَّرِ فَوْقَ سَطْحِ الْمَبْنَى لِتَلَطِّيفِ دَاخِلِهِ، وَالثَّانِيَّةُ هِيَ ذَلِكَ الْوَعْلُ الَّذِي يَقِفُ فَوْقَ الصُّخُورِ الْإِسْفَنْجِيَّةِ عِنْدَ حَظِّ الْأَفْقِ، تِلْكَ الظَّاهِرَةُ الَّتِي تَتَكَرَّرُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الصُّوَرِ الصُّوفِيَّةِ.

وَقَدْ تَمَيَّزَتِ الْأَعْمَالُ الْمُتَأَخَّرَةُ لِمَدْرَسَةِ بُخَارَى بِبَسَاطَةِ فِي التَّشْكِيلِ أَضْفَتِ عَلَيْهَا طَابَعًا جَذَابًا، مُسَايِرَةً مَدْرَسَةَ بَهْرَادٍ وَإِنْ جَاءَ عَدَدُ أَشْخَاصِهَا أَقَلَّ وَأَلْوَانُهَا أَبْسَطُ، إِلَّا أَنَّ إِحْسَاسًا بِالرَّتَابَةِ يَتَنَبَّأُ الْمَرْءَ حِينَ يَسْتَعْرِضُ مُنْمَنَاتٍ مَخْطُوطِينَ أَوْ ثَلَاثَةً مِنْهَا. وَيَبْدُو أَنَّ عَصْرَ تِلْكَ الْمَدْرَسَةِ السَّعِيدِ كَانَ عَهْدَ عَبْدِ الْعَزِيزِ (١٥٤٠ - ١٥٤٩) وَمِنْ بَعْدِهِ بَارِ مُحَمَّدٍ (١٥٥٠ - ١٥٥٧). أَمَّا آخِرُ مُصَوِّرِيهَا فَهُوَ الْمُصَوِّرُ عَبْدُ اللَّهِ الَّذِي ظَلَّ يَعْمَلُ حَتَّى عَامِ ١٥٧٥، وَقَدْ بَرَعَ فِي تَصْوِيرِ الْأَشْخَاصِ الْمُفْرَدَةِ، وَتَمَيَّزَ بِمَبَالِغَتِهِ فِي اسْتِخْدَامِ الْأَلْوَانِ الْحَادَّةِ عَلَى حِسَابِ وَضُوحِ الْخُطُوطِ وَدَقَّةِ التَّفَاصِيلِ، وَلَوْ لَا حُسْنُ اخْتِيَارِهِ لِلْأَلْوَانِ لَأَتَّسَمَتِ أَعْمَالُهُ بِالسُّوقِيَّةِ. عَلَى أَنَّ بَسَاطَةَ تَصْصِيمَاتِهِ لَا تَقُلُّ مِنْ شَأْنِ مَهَارَتِهِ فِي التَّصْيِيرِ، وَيُمْكِنُ لِلْمَرْءِ أَنْ يَعْرِفَ عَلَى شَخْصِيَّتِهِ الْمُتَمَيِّزَةِ مِنَ النَّظَرَةِ الْأُولَى الَّتِي يُلْقِيهَا عَلَى أَعْمَالِهِ.

مَدْرَسَةُ شِيرَاز

وَعَدَّتْ مَدْرَسَةُ شِيرَاز حَتَّى عَامِ ١٥٠٣، إِلَى جَانِبِ مَدْرَسَةِ بُخَارَى، أَكْثَرَ الْمَدَارِسِ نُزُوعًا إِلَى الْمُحَافَظَةِ خِلَالَ الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ، وَهُوَ مَا نَسْتَشْفِهُ عِنْدَ تَأَمُّلِنَا إِنتَاجَهَا الْوَفِيرَ. وَتَمَيَّزَتِ صُورُ شِيرَاز فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ بِالتَّزَكُّيزِ عَلَى الْفِكْرَةِ الرَّئِيسِيَّةِ لِلْمَوْضُوعِ، وَالْجُنُوحِ إِلَى التَّكْوِينِ الزُّخْرَفِيِّ فِي الْعَنَاصِرِ الْأُخْرَى وَبِخَاصَّةِ الْخَلْفِيَّةِ الَّتِي تَضُمُّ الْعِمَارِ وَالْمَشَاهِدَ الطَّبِيعِيَّةَ. كَمَا تَتَمَيَّزُ بِتَلْوِينِ هُوَ أَقْرَبُ إِلَى الزُّخْرُفَةِ مِنْهُ إِلَى الْوَاقِعِ، وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ لَمَسَاتِ جَرِيئَةٍ بِالْأَلْوَانِ الْحَادَّةِ الَّتِي تَتَخَذُ فِي مَجْمُوعِهَا طَابَعَ الْأَلْوَانِ الشَّقْرَاءِ. فَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الْفَتْرَةُ تُعْنَى بِأَكْثَرِ مِنْ رَسْمِ خَلْفِيَّةٍ زُخْرَفِيَّةٍ عَلَى غِرَارِ السَّائِرِ الْمَسْرُوحِيَّةِ، وَمَا نَرَاهُ فِي مُنْمَنَاتِ هَذِهِ الْمَدْرَسَةِ مِنْ اخْتِرَاقِ الْأَذْرُعِ وَالرِّمَاحِ أَوْ سِيْقَانِ الْأَشْجَارِ لِهَوَامِشِهَا إِنَّمَا هُوَ دَلِيلٌ عَلَى هَذَا الْإِتِّجَاهِ الْفَنِيِّ. وَلَمْ يَكُنِ الْفَنَانُ الْفَارِسِيُّ فِي حَاجَةٍ إِلَى إِتْيَكَارِ عَالَمٍ خَيَالِيٍّ، فَقَدْ كَانَ يَعْرِفُ - مِثْلُهُ فِي ذَلِكَ مِثْلُ جُمْهُورِهِ - كَيْفَ يُضْفِي الرُّوْعَةَ عَلَى مَشَاهِدِ الْحَيَاةِ الْيَوْمِيَّةِ. وَلَكِنْ يَبْدُو أَنَّ هَذِهِ الْمَدْرَسَةَ قَدْ أَخَذَتْ تَذَوِي بَعْدَ عَامِ ١٥٦٠،

١٥٠٦، غَيْرَ أَنَّهُ سَرَّعَانَ مَا عَادَ إِلَى هَرَاةٍ وَبَقِيَ بِهَا حَتَّى اسْتَوَلَى عَلَيْهَا عُيَيْدُ اللَّهِ خَانِ أَوْزْبَكِ عَامَ ١٥٢٨ الَّذِي صَحَبَهُ مَعَهُ إِلَى بُخَارَى حَيْثُ وَاصَلَ عَمَلَهُ بِهَا إِلَى أَنْ وَاتَّهُ الْمَيِّتَةُ عَامَ ١٥٤٤ أَوْ بَعْدَ ذَلِكَ بِقَلِيلٍ. وَخِلَالَ إِقَامَتِهِ بِهَرَاةٍ وَفِي عَامِ ١٥١٩ نَسَخَ مَخْطُوطَ «بُسْتَانِ» سَعْدِي الْمَحْفُوظِ الْآنَ بِمُتَحَفِ الْفُنُونِ التُّرْكِيَّةِ وَالْإِسْلَامِيَّةِ بِإِسْتَنْبُولٍ. وَهُوَ يَضُمُّ مُنْمَنَتَيْنِ يَغْلِبُ عَلَيْهِمَا أُسْلُوبُ رَسْمِ التَّكْوِينَاتِ الْبَسِيطَةِ وَالشَّخْصِيَّاتِ الْمَأْلُوفَةِ لَدَى بَهْرَادٍ، وَإِنْ اِزْدَدَى الرَّجَالُ فِيهَا الْعِمَامَةُ الصُّوفِيَّةَ.

وَنَشَأَتْ مَدْرَسَةُ بُخَارَى تَحْتَ رِعَايَةِ عُيَيْدِ اللَّهِ الَّذِي اتَّخَذَ مَقَرَّهُ فِيهَا عَامَ ١٥١٢ ثُمَّ عَيَّنَ خَائِنًا عَامَ ١٥٢٣. وَقَدْ شَنَّ فِي عَامِ ١٥٢٨ ثُمَّ فِي عَامِ ١٥٣٦ حَمَلَةً مُفَاجِئَةً عَلَى هَرَاةٍ دَبَحَ خِلَالَهَا زُعَمَاءَ الشَّيْعَةِ بِهَا، غَيْرَ أَنَّهُ حَاوَلَ اجْتِنَابَ أَصْحَابِ الْجَرْفِ وَالْفَنَانِينَ إِلَى بُخَارَى. وَمَعَ أَنَّ التَّصْوِيرَ فِي بُخَارَى كَانَ تَقْلِيدِيًّا فِي جَوْهَرِهِ إِلَّا أَنَّهُ تَفَرَّدَ بِسِخْرِ خَاصٍّ نَابِعٍ مِنْ تَبْسِيطِهِ لِلصَّيْغِ السَّالِفَةِ وَاسْتِخْدَامِهِ لِلْأَلْوَانِ الْجَلِيَّةِ. وَكَانَ تَأْثِيرُ بَهْرَادٍ جَلِيًّا فِي تَصْصِيمَاتِهِ وَأَلْوَانِهِ وَوَضْعَاتِ شُخُوصِهِ وَإِيمَاءَاتِهِمْ. وَمُوجَزُ الْقَوْلِ كَانَتْ مَدْرَسَةُ بُخَارَى خِلَالَ الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ امْتِدَادًا لِلْمَدْرَسَةِ التَّيْمُورِيَّةِ فِي الْقَرْنِ الْخَامِسِ عَشَرَ. وَمَعَ احْتِفَاطِ الزَّمَنِ لَنَا بِعَدَدٍ مِنَ الْمَخْطُوطَاتِ الَّتِي كُتِبَتْ فِي بُخَارَى خِلَالَ هَذِهِ الْفَتْرَةِ إِلَّا أَنَّ الْمُنْمَنَاتِ الَّتِي تَضُمُّهَا تَبْدُو وَكَأَنَّهَا صُوِّرَتْ جَمِيعًا فِي تَارِيخٍ لَاحِقٍ عَلَى فِتْرَةِ حُكْمِ عُيَيْدِ اللَّهِ، وَلَعَلَّ السَّرَّ فِي ذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى انْتِشَالِهِ بِحَمَلَاتِهِ الْمُتَّصِلَةِ الَّتِي لَمْ تَتْرَكْ لَهُ فُسْحَةً مِنَ الْوَقْتِ لِلْاهْتِمَامِ بِالْأُمُورِ الْفَنِيَّةِ.

حِيرَةُ الْأَبْرَارِ. بُخَارَى، حَوَالِي ١٥٢٠ م، الْمَكْتَبَةُ الْبُودَلِيَّةُ بِأَكْسَفُورْد

وَتُمَّةُ مُنْمَنَةٍ وَحِيدَةٍ فِي مَخْطُوطَةِ «حِيرَةِ الْأَبْرَارِ» بِالْمَكْتَبَةِ الْبُودَلِيَّةِ بِأَكْسَفُورْدِ تَأَلَّفَ مِيرَ عَلِيِّ شِيرِ نَوَائِيٍّ وَمُؤَرِّخُهُ عَامَ ١٤٨٥، وَالزَّاجِحُ أَنَّ مُصَوِّرَهَا هُوَ قَاسِمٌ عَلِيٌّ أَحَدُ تَلَامِيذَةِ بَهْرَادٍ فِي تَارِيخٍ لَاحِقٍ، وَيُشِيرُ إِلَى ذَلِكَ مَا وَرَدَ بِهَا مِنْ إِهْدَاءِ مُؤَرِّخٍ فِي عَامِ ١٥٢٠ إِلَى بَدِيعِ الزَّمَانِ ابْنِ السُّلْطَانِ حَسَنِ مِيرْزَا حَاكِمِ هَرَاةٍ.

وَتُصَوِّرُ الْمُنْمَنَةُ (لَوْحَةٌ ١٨٢) صُوفِيًّا يُدْعَى خَوَاجَهَ عَبْدَ اللَّهِ أَنْصَارِيٍّ مَعَ أَرْبَعَةٍ مِنْ مُرِيدِهِ. وَقَدْ ظَنَّهُ توماسُ أَرْنُولْدُ خَطَأً النَّبِيَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَوْرَدَ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ «التَّصْوِيرُ فِي الْإِسْلَامِ». يَقُولُ الصُّوفِيُّ حَسَبَ رِوَايَةِ الْمَخْطُوطَةِ: «مَا لِي مِنْ عَمَلٍ سِوَى أَنْ أَعْبُدَ رَبِّي فَهُوَ أَمْرِي بِعِبَادَتِهِ. الْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ بَاتَا خَرَامًا لَا لَوْمْ عَلَيَّ أَنْ أُوَدِّيَ عَمَلِي هَذَا لَيْلَ نَهَارٍ وَلَوْ أَنَّ طَاعَتِي لَا تَلِيقُ بِمَقَامِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَرَجَائِي إِلَّا أَحْيَا لَحَظَةً مِنْ عُمْرِي

المتفتحة وحشائشه البانعة ورسم الجبال والمُرتفعات على شكل الإسفنج، واستخدمها الألوان الساطعة الزاهية والتوفيق في الجمع بينها جمعًا لا ينفرد منه الذوق بالرغم مما قد يوجد بينها من تنافر، وكذلك من حيث إسباغها الجمود على رسوم الأشخاص في مواقفهم وحركاتهم.

وقد اخترنا من الصور العديدة التي ضمتها هذه النسخة أربع منمنمات لم تُشر من قبل: أولاً صورة لملك الموت عزرائيل «مُسكن الحركات ومُفرق الأزواج من الأجساد، وكان لونه أبيض لكن يضرب إلى السُمرة، وملبوسه وزدي مخطط بأحمر. وأجنحته جناحان وألوانها أحمر وأصفر وأزرق وأبيض... وله خصلتان ملتويتان من الشعر الأسود. ويده رُمح برأسه خمسة أسنة، وهو جالس به كجلوس القَواس الذي يرمي التَّشَاب». وعلى حين أغرق القزويني في وصف الملائكة وصفًا من إملاء الخيال، وكذلك فعل المصور فأطلق لنفسه العنان في تصوير الملائكة تصويرًا لا التزام فيه بالحق، فصور عزرائيل على صورة فتى ذي جناحين يزدي سيروالًا أزودازي اللون وسُترة حمراء مُركشة بزخارف ذهبية وحزام لازوردي، يُحلق في السماء راكعًا وسط السحب (لوحة ٢٧٢ م).

وكانت الملائكة قد تطلعت إلى آدم بعد أن خرج من الجنة غريبانًا وقالت: إلهنا هذا آدم يديع فطراتك أفله ولا تحذله. فمرَّ بملأ من الملائكة فويخوه على نقض عهد ربّه، وكان يمين وبخه يؤمِّد هاروت وماروت فقال آدم: يا ملائكة ربّي ارحموا ولا تؤبّخوا، فذلك الذي جرى عليّ كان قضاء ربّي، فأبلاههما الله تعالى حتى عصيا فمُنعا من الصعود إلى السماء، وحلت بهما العقوبة، واختطفنا إلى أرض بابل، ثم خيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا، فهما مُسلسلان في بئر بأرض بابل مُنكسين إلى يوم القيامة. ونشهد في الصورة الثانية (لوحة ٢٧٣ م) صورة للملكين هاروت وماروت وهما مُعلقان من أرجلهما داخل بئر، وعن كُتب من البئر تسأل رجُلان ليتعلما فنَّ السحر عنهما يوهفان السمع للأصوات الصادرة عن البئر، بينما تشهد رأس جواد ورقبته خلف الصخور في أعلى اللوحة. ولم يفت الفنان أن يطبع تصويره هذا بما يميّز به التصوير التيموري، فهناك أرض مُرتفعة عليها بعض الكلا والشجيرات، كما نلمح من بعيد شجرة عارية من الأوراق تبدو كأنها في فصل الخريف، وقد وُثق الفنان في التعبير عن أحاسيس الرجلين اللذين جاءا لِيَسْتَرْقا السمع إلى ما قد يسمعه من كلمات السحر المُطلقة من البئر.

وثالث هذه المنمنمات، صورة لملك جزيرة واق الواق،

واتجهت إلى الإفراط في استخدام صور الصخور والسحب والنباتات المزهرة والأشخاص في أوضاعهم التقليدية على ظهور الخيل أو واقفين أو جالسين. وقد اتخذت السماء - التي صوّرت في مشاهد نادرة - مظهرًا مسطحًا ولوّنت باللونين الذهبي والأزرق، وصُفت بها سحب صغيرة مُتموجة، وصوّرت الأشجار وكأنها نماذج نباتية، مُفصلة أوراقها الواحدة عن الأخرى، وأتبع الأسلوب التقليدي في تصوير المياه. غير أنّ هذا الشغف برسم الوجدات مُفصلة مُتتابعة زينة قد بلغ من المغالاة حدًا تعذر معه على المشاهد أن يتبين كُنه التكوين الفني.

مهر ومشتري. شيراز ١٥٥٣ م. دار الكتب المصرية

وفي نسخة من مخطوطة مهر ومشتري، المؤرخة عام ١٥٥٣ بشيراز، نشهد خمس صور رسمت بأسلوب المدرسة الصفوية، انتقيت من بينها صورة لم يسبق نشرها لملك إصطخر الفارسي والد مهر يزور عابدًا في كهفه داخل جبل مُرتفع (لوحة ٢٧٠ م) تكثر فيه الغزلان حيث يقبل الملك يدي التائب، على حين يتضرع إليه نديم الملك طاليًا منه الدعاء له. ويبدو في أسفل الصورة تابعان يُمسكان بلبام جوادين وبأعلى الصورة شخصان فضوليان.

مسبحة الأبرار. شيراز ١٥٦٢ م. دار الكتب المصرية

وفي مخطوطة مسبحة الأبرار للشاعر نور الدين عبد الرحمن الجامي، وهو المُتَنوي الرابع من كتاب «هفت أورايج» [العروش السبعة] نرى مشهدًا رائعًا، يُشر لأول مرة، لعاشقين يتناجيان حيث تقف الحبيبة فوق سطح منزلها ويقف حبيبها خلف السور وسط حديقة مُزهرة. وبينما هما سايحان على أجنحة القرام، إذا بشيخ هرم يسأل إلى فناء الدار ويحملك في الفتاة مُبدئًا إعجابه بها فيتصدى له الشاب مُسففًا سلوكه مُغلظًا له في القول فيتأثر الشيخ ويخرّ معشيًا عليه ويصطدم فمه بالأرض فيذمى وتطير عمامته في الهواء ثم تهوي على الأرض (لوحة ٢٧١ م).

مدرسة هراة: عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، ١٥٦٧ م. دار الكتب المصرية

وثمة مخطوط محفوظة بدار الكتب المصرية يعود إلى عام ١٥٦٧ م لعجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، حافل بكثرة لا يفتنى من رسوم الحيوانات والمخلوقات الغريبة. وإذا أدخلنا في حسابنا تاريخ كتابة هذه النسخة ومطالعة ما تميّز به صورها من قسّمات خاصة وما كتبه عنها الأستاذ تشوكين بإختصار، فالراجع أنّ تلك الصور هي من إنجازات المدرسة التيمورية بصفة عامة من حيث ولوعها بتمثيل فصل الربيع بأشجاره المورقة وأزهاره

حديقة حافلة بالزهور. وترى العاشقة تمدّ يدها إلى حبيبها بوعاء الشراب لِتُسْقِيه هَنِيئًا، ومن تحتهما فُرشت سَجادة حمراء مُسدّسة الشَّكل ذات زخارف نباتية ذهبيّة، يحفّ بها إطار أبيض يتخلّله شريط أزرق مُوشى بالزهور. ويصل الجوّسق بِسطح الأرض سلّم. وإلى جوار الشجرة تابعان يحرسان جوادين جُهّز أحدهما البني بِسرج بنفسيّ وجُلّ أخضر وشيا بِالزخارف الهندسيّة، وجُهّز الجواد الأبلق بِسرج أحمر وجُلّ أزجوانيّ وشيا بِالزخارف الحيوانيّة والنباتيّة. وفي صدر الصورة حوض ماء يسبح فيه البط، وعند حافته جلسَ مُوسيقيّ يعزف على الناي بينما استغرق ثلاثة رجال في صيد السمك - يَرتدون جميعًا العمامة الصفويّة - وقبض أحدهم بيده على سمكة. وتُغطّي أغصان الشجرة وأوراقها البنيّة أرضيّة الحديقة الدّاكنة الخضرة مُصعّدة إلى أفق السماء الزرقاء لِتتخلّل لفائف السحب التقليديّة والطير المُحلّق. وهكذا ربّط المُصوّر بين العشق وسماء الليل والحديقة المُسوّرة.

وتتوازن العناصر التشكيليّة لِلْمُنْمَمة في يُسر حَوْل الشجرة ومحور التكوين بدءًا من الأمير وجاريته ثمّ الجوادين والسائسين وصيّادي السمك وعازف الناي وشجرتي السّرو الرّامزتين في التصوير الفارسيّ إلى الشباب والطّائرين المُحلّقين. ولعلّ أزوع ما في هذه المُنْمَمة تصوّر الجوادين المُكتنزين الواقفين في شموخ وخيّلاء، ولو أنّ العناية التي أسبغها المُصوّر على تجسيهما والمهارة الفائقة التي أظهرها في توشية سرجيّهما وجليهما لا تتناسب مع قوائم الخيل الرّهيبة التي لا تكاد تقوى على حمل جسديّهما. وتلعب الألوان في هذه اللوحة على أوتار أحاسيسنا مباشرة من دون أن نعيها بِعقولنا، فلم يعد اللون هنا مُجرّد عامل مُساعد في الرّسم بل هو عامل له ذاتيّة واستقلاله حتّى عدا أشبه بالموسيقى في تأثيره.

يُدعى عرجون، وهو يجلس على أريكته تحت شجرة مُورقة علّقت على أغصانها جمّاجم آدوميّة، ومن حوله أربع من جواريه شبه عاريات، إحداهنّ تُقدّم له الكأس وثانية تُغني (لوحة ٢٧٤ م). وقد جاء «إنّ جزيرة الواق واق كانت تملكها امرأة تجلس على سريرها غريانة وعلى رأسها تاج من ذهب، وعندها أربعة آلاف وصيفة أبكارًا، سميت بهذا الاسم لأنّ بها شجرة يسمع من يمرّ بها صوته كأنه يقول واق واق وأهلها يفهمون من هذا الصوت شيئًا فيتطّيرون منه. وقيل هي جزيرة كثيرة الذهب حتّى إنّ أهلها يتخذون سلاسل كلابهم وأطواق قُرودهم من الذهب، وبها شجر الأبنوس».

والصورة الرّابعة لِقَوْم يَقطنون جزيرة تُسمى جزيرة رامن، وهم قوم - طبقًا لرواية الفزويني - عراة لا يفهم كلامهم لأنّه شبه صغير، ويستوحشون من الناس، لا يزيد طول أحدهم عن أربعة أشبار، وجوههم عليها زغب أحمر، ويتخذون من أغصان الشجر سكنا لهم، ويكثر بالجزيرة حيوان وحيد القرن ونوع من الجاموس له ذيل، كما تكثر أشجار الكافور والخيزران وشجرة تُثمر ثمارًا مرّة كالعَلقم. والصورة تحوي نماذج لهذه الكائنات تطابق الوصف الذي أورده الفزويني عنها في كتابه (لوحة ٢٧٥ م).

مدرسة قزوین. قصائد جامي الخمس، ١٥٧٠ م.

مُتَحَف طوب قابو بِإِسْتَبُول

وثمة أسلوب خلاب شديد العذوبة والبُهجة نشأ في قزوین في العصر الصفويّ عهد الشاه طهماسب. ففي مخطوطة قصائد جامي الخمس المؤرّخة عام ١٥٧٠ بِمُتَحَف طوب قابو سراي بِإِسْتَبُول تتبّأ مُنْمَمة بديعة لم تُنشر من قبل غرّة الكتاب (لوحة ٢٧٦ م) تصوّر أميرًا ومَعْشوقته وقد اختلّيا في جُوسق فوق شجرة وسط

الفصل الرابع والعشرون

التصوير الصفوي

الشاه إسماعيل

الكثيرون. ولا شك أنه كان يتمتع بجاذبية خاصة تستهوي الناس وتشدهم إليه.

وقد استأثرت الحروب باهتمامه حتى لم يعد غريباً ألا تقدم مكتبته، التي عين بهزاد لإدارتها عام ١٥٢٢، سوى أعمال قليلة. ورؤي أن بهزاد - حال وصوله إلى المكتبة الملكية - وجد أن الفنان سلطان محمد كان قد بدأ يعلم الأمير طهماسب ابن الشاه فن الرسم، ويحتمل أن يكون هذا قد حدث حوالي عام ١٥٢١ حين كان الأمير ما يزال صبيًا في السابعة من عمره. ويمكننا أن نستنتج من هذه الأحداث أن بهزاد قد أخلد إلى الهدوء في هراة خلال الإحدى عشرة سنة التي تلت وفاة شيباني، حيث لم يعرض لنا ما ينبئ عن نشاطه خلال تلك الفترة. ويعتقد البعض أنه استغل هذه الفترة - التي لم يشغل خلالها وظيفة رسمية - في إبداع عدد من الصور لجساب أفراد من الناس، وهو ما يُفسر بقاء شهرته الواسعة في نهاية هذه الفترة واستمراره في إنجاز أعماله الرائعة.

وظلت تبريز عاصمة الأسرة الصفوية حتى انتقلت فيما بعد إلى قزوین نحو الجنوب الشرقي. وكان لانتقال الاهتمام من هراة في شرق فارس إلى غربها آثار هامة على تطور التصوير الفارسي. وإذ كان الأمير بديع الزمان التيموري الذي خلف أباه عام ١٥٠٦ في حكم هراة مع أخيه، قد فرّ إلى صهره الشاه إسماعيل في تبريز في أعقاب غزو الأوزبكين عام ١٥٠٧، فلا شك في أن عددًا من فنانين البلاط قد رافقوه، غير أن بهزاد وعدداً آخر من الفنانين ظلوا في هراة مع شيباني خان. وبعد هزيمة الأخير عام ١٥١٠ بدأت هجرة واسعة للفنانين نحو تبريز.

وخلال المعارك التي دارت بين السلطان سليم العثماني والشاه إسماعيل، احتل السلطان سليم تبريز، غير أنه انسحب منها بعد أسبوع مصطحباً معه إلى إستانبول بديع الزمان وبعض الفنانين والجواريين. وما من شك في أن بعض المخطوطات الفارسية

سقطت هراة عام ١٥٠٧ في يد جيوش الأوزبكين بقيادة شيباني خان، ولم تمض على سقوطها في يده ثلاث سنوات حتى تجرّع الهزيمة في معركة مرو على يد الشاه إسماعيل الذي لم يكن قد بلغ ريعه الثالث والعشرين آنذاك. وكان إسماعيل قد قضى في السنة الأولى من القرن السادس عشر على «أصحاب الخراف البيض» التركمان، وهكذا هيأ له انتصاره الأخير حكم إمبراطورية موحدة. لقد استطاع أن يوحد فارس من جديد تحت زعامة وطنية فارسية بعد مرور ثمانية قرون ونصف من الفتح العربي وبعد فضائه على السيادة المغولية والتتارية، مؤسساً الأسرة الصفوية التي استقرت في الحكم ما يتت على مائتي عام، فأفسرت الوحدة السياسية خلال حكم هذه الأسرة عن وحدة الأساليب الفنية. أما قوة الحماس الشيعي والتعصب القومي التي قفزت بالصفويين إلى كؤسي الحكم، والرواية التي ترغم أنجدار إسماعيل عن صفوي الدين أحد الأولياء في أردبيل، المنحدر بدوره عن علي رضي الله عنه والرسول عليه الصلاة والسلام، وعن سلالة ملوك الفرس العظام في الوقت نفسه، وأثر النزعة المذهبية الدينية التي واكبت العهد الصفوي الجديد، فإن ذلك كله يحتاج إلى تحليل مسهب خاص ليست هذه الدراسة مجاله.

كانت شخصية إسماعيل مزيجاً غريباً من النبيل والفسق، ومن الكرم والفسوة الوحشية. وإذا كانت الوحشية التي شوه بها جثة خصمه شيباني خان حتى حول جُمجمته إلى كأس يحسنى فيها خمره أمراً تسميّر له النفس، إلا أن زائراً إيطالياً لقيه وهو في الواحد والثلاثين من عمره كشف عن الجانب الآخر من شخصيته حين وصفه بأنه وديع كالفتاة، فيه حيوية ظبي الغاب الأسطوري وقوة تفوق أشد أعوانه مراساً. وقد امتدح شجاعته

التكوينات تنزع إلى المشاهد الساكنة، شخوصها من الفتيان والفتيات ذوي القَدِّ الممشوق والرِّشاقة المفرطة، رُسموا بأسلوب مُعَرِّ في وضعات مُتَوَدِّة، إمَّا مُسْتَقَلِّين أو مُشْتَرَكِينَ في حَقْل أو عازِفِينَ. غَيْرَ أَنَّ مَشَاهِدَ الْحَرَكَةِ وَالصَّيْدِ وَالْمَعَارِكِ لَمْ تَحُلْ مَعَ ذَلِكَ مِنَ الْعُدُوبَةِ وَالْفَخَامَةِ الَّتِي كَانَتْ الشَّخْصِيَّةَ الرَّئِيسِيَّةَ فِيهَا فِي أَكْثَرِ الْأَحْوَالِ «صُورَةُ شَخْصِيَّة» لِلْعَاهِلِ الْحَاكِمِ.

وَإِذَا كَانَ فَتَاوُ هَرَاةَ قَدْ تَجَبَّوْا الْأَلْوَانَ الدَّافِئَةَ، فَإِنَّ فَتَانِي الْعَهْدِ الصَّفَوِيِّ لَمْ يَتْرَكُوا أَيَّ تَأْلُفٍ لَوْنِي إِلَّا حَاوَلُوهُ بِلا تَحَرُّجٍ. وَبِالإِضَافَةِ إِلَى نَثْرِ الذَّهَبِ عَلَى الصَّفْحَةِ كَانُوا يَجْمَلُونَ الْهَوَاشِشَ الَّتِي عَدَّتْ مُغَطَّاةً بِطَبَقَةٍ مِنَ الطَّلَاءِ الْمُرْجَجِ بِأَشْكَالِ حَيَوَانَاتٍ مُذَهَّبَةٍ، أَوْ بِالشَّجَارِ. وَاسْتُخْدِمَتْ كَثِيرٌ مِنْ صَيِّغِ التَّصْوِيرِ فِي زَخَارِفِ السَّجَاجِيدِ وَالْأَنْسِجَةِ الْمُعَاصِرَةِ الَّتِي لَا شَكَّ أَنَّ مُصَوِّرِي الْبِلَاطِ قَدْ صَمَّمُوهَا. وَانْتَشَرَتِ الْأَرْضِيَّاتُ الدَّاكِنَةُ سِوَاهُ أَكَانَتِ خُضْرَةٍ عَمِيقَةٍ مُعْتِمَةٍ أَمْ مِيَاهَا شَدِيدَةُ الزُّرْقَةِ حَتَّى تَتَأَلَّقَ الْأَلْوَانُ الزَّاهِيَةُ فَوْقَهَا وَتَتَأَجَّجَ. وَإِلَى جِوَارِ أَعْمَالِ كِبَارِ مُصَوِّرِي الْمَرَامِيسِ الْمَلَكِيَّةِ كَانَتْ ثَمَّةٌ وَفَرَةٌ مِنَ الْمُنْمَنَاتِ لِجِسَابِ رُعَاةِ أَقْلٍ ثَرَاءٍ، يَشَدُّ الْبَعْضُ الْقَلِيلَ مِنْهَا الْإِتْيَاهَ وَيُعَدُّ مِنْ وَجْهَةِ النَّظَرِ الْفَتِيَّةِ مِنْ أَرْفَعِ الْمُنْمَنَاتِ قِيَمَةً. وَقَدْ أَرْدَادَ الْإِقْبَالَ عَلَى هَذِهِ الصُّورِ الْعَادِيَّةِ خِلَالَ عَهْدِ الشَّاهِ طَهْمَاسَپِ بِشَكْلِ لَمْ يَكُنْ مَعْهُودًا مِنْ قَبْلِ.

وَيُمْكِنُ التَّعَرُّفُ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ عَلَى الصُّورِ الصَّفَوِيَّةِ الْمُبَكَّرَةِ بِوَاسِطَةِ تَفَاصِيلِ الثِّيَابِ الَّتِي تَأْتِي الْعِمَامَةُ كَأَطْلَحٍ خَصَائِصُهَا وَأَشَدَّهَا وَضُوحًا. وَتُمَيِّزُ هَذِهِ الْعِمَامَةُ الصَّفَوِيَّةَ الْعَالِيَةَ بِطَيَّاتِهَا الْإِثْنَتَيْ عَشْرَةَ الَّتِي تَرْمِزُ لِأَيِّمَةِ الشَّيْعَةِ الْإِثْنِي عَشَرَ الْمُنْحَدِرِينَ عَنْ عَلِيِّ رَضِيِّ اللَّهِ عَنْهُ، وَتَلْتَفُّ حَوْلَ قَلَنْسُوءِ «كَوْلَةِ» حَمَرَاءِ تَنْتَهِي بِقَضِيبٍ دَقِيقٍ يَمْتَدُّ عَادَةً حَوَالَى خَمْسَةِ عَشَرَ سَنَتِيمَةً كَانَ يُرْسَمُ أَحْمَرًا بِادْوَى الْأَمْرِ ثُمَّ تَغْيَرُ لَوْنُهُ إِلَى أَنْ تُفَرِّضَ أَوْ نَدْرَ بَعْدَ وَفَاةِ طَهْمَاسَپِ عَامَ ١٥٧٦. وَيُقَدَّمُ إِلَيْهَا شَلْبِي، الرَّخَالَةُ التُّرْكِيَّةُ فِي مُتَنَصِّفِ الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ، تُقَسِّرُ فَكَّهَا لِأَصْلِ هَذِهِ الْعِمَامَةِ فَيَقُولُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ مُؤَسَّسَ الْأُسْرَةِ الصَّفَوِيَّةِ قَدْ رَأَى ذَاتَ لَيْلَةٍ حُلْمًا بِأَنَّهُ أَنْجَبَ وَلَدًا مِنْ أَتَانٍ (أَتْنَى الْجِمَارِ) لَهُ سَبْعُونَ إِصْبَعًا. وَقَدْ فَسَّرَ لَهُ هَذَا الْحُلْمُ بِأَنَّهُ بِشِيرٍ بِتَأْسِيسِهِ لِإِمْبَرَاطُورِيَّةٍ شَائِعَةٍ، فَتَذَرُ، إِنْ تَحَقَّقَ ذَلِكَ الْحُلْمُ، أَنْ يُخْلَدَ بِتَرْزِينَ عِمَامَتِهِ بِقَضِيبِ جِمَارٍ، وَأَنْ يَجْعَلَ الْمَوْسِيقَى تَتَغَنَّي بِصَوْتِهِ، وَأَنَّ هَذَا هُوَ أَصْلُ الْعِمَامَةِ الصَّفَوِيَّةِ وَمُشَابَهَةُ مَوْسِيقَى الْفَرَسِ لِتَهْيِيقِ الْجِمَارِ!

وَلَقَدْ اتَّخَذَتِ الْقَلَنْسُوءُ الْحَمَرَاءُ الَّتِي أَصْفَتْ عَلَى الشَّيْعَةِ الصَّفَوِيِّينَ اسْمَ «قِرْلُ بَاش» أَيِ ذَوِي الْقَلَنْسُوءَاتِ الْحَمَرَاءِ شَكْلَهَا الْمُرْتَفِعِ حَتَّى يَتَنَاسَبَ مَعَ عَدَدِ اللَّفَافِيفِ الْإِثْنَتَيْ عَشْرَةَ لِعِمَامَتِهِمِ الْمَحْرُوطِيَّةِ. وَكَثِيرًا مَا كَانُوا يُبَالِغُونَ فِي ارْتِفَاعِ هَذِهِ الْقَلَنْسُوءِ

الْمَوْجُودَةِ الْآنَ فِي مَكْتَبَاتٍ وَمَتَاحِفٍ اسْتَبْدُولَ قَدْ وَصَلَتْ إِلَيْنَا عَنْ هَذَا الطَّرِيقِ. غَيْرَ أَنَّ بَعْضَ فَتَانِي هَرَاةَ ظَلَّلُوا بِهَا إِلَى حِينٍ، الْأَمْرُ الَّذِي يَتَضَيِّحُ مِنْ عَدَدِ مِنَ الْمَخْطُوطَاتِ الْمُصَوَّرَةِ الصَّادِرَةِ عَنْ هَذِهِ الْمَدِينَةِ الَّتِي مَا بَرَحَتْ عَاصِمَةً إِقْلِيمِيَّةً ذَاتَ أَهْمِيَّةٍ تَابِعَةٍ لِحُكُومَةِ تَبْرِيزِ. وَهَاجَرَ الْبَعْضُ الْآخَرُ إِلَى بُخَارَى فِي مَطْلَعِ الْقَرْنِ رُبَّمَا خَوْفًا مِنْ اضْطِهَادِ الشَّيْعَةِ بَعْدَمَا أَصْبَحَتْ هَرَاةَ تَحْتَ الْحُكْمِ الصَّفَوِيِّ مُبَاشَرَةً.

وَكَانَتْ حَيَاةُ الشَّاهِ إِسْمَاعِيلِ الْقَصِيرَةِ مُسْتَغْرَقَةً فِي الْقِتَالِ وَتَوَطُّيدِ الْحُكْمِ الْجَدِيدِ بِحَيْثُ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ وَقْتُ لِلْإِنْشِغَالِ بِفُنُونِ تَرْزِينِ الْكِتَابِ، عَلَى حِينٍ اتَّجَهَتْ مَبُولُهُ نَحْوَ الصَّيْدِ وَغَيْرِهِ مِنَ الرِّيَاضَاتِ الشَّاقَّةِ. غَيْرَ أَنَّ الْقِصَّةَ الْمَعْرُوفَةَ عَنْ خَوْفِهِ عَلَى حَيَاةِ بُهْرَادِ أُنْثَاءِ الْقِتَالِ مَعَ الْأَتْرَاكِ عَامَ ١٥١٤ وَتَعْيِينِهِ لَهُ مُدِيرًا لِلْمَكْتَبَةِ الْمَلَكِيَّةِ عَامَ ١٥٢٢ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يُقَدَّرُ مَوَاهِبُ هَذَا الْفَتَانِ الْعَظِيمِ. وَلَمْ تَكُنْ الْمَكْتَبَةُ الْمَلَكِيَّةُ وَمِثْلُ الْمَكْتَبَاتِ الْعَصْرِيَّةِ بَلْ هِيَ مُؤَسَّسَةٌ صَخْمَةٌ تَضُمُّ عَدَدًا ضَخْمًا مِنْ مَهَرَةِ الْجَزْفِيِّينَ وَالْخَطَّاطِينَ وَالْمُصَوِّرِينَ وَالْمُذَهِّبِينَ وَالْمَرْقُومِينَ وَرَسَامِي الْهَوَاشِشِ وَمُطَرِّقِي الذَّهَبِ وَالْعَمَالِ الْمُتَخَصِّصِينَ فِي إِعْدَادِ اللَّازُورُودِ وَغَيْرِهِمْ، وَجَمِيعُهُمْ يَخْضَعُ لِإِدَارَةِ بُهْرَادِ.

وَاسْتَمَرَّتِ الرَّعَايَةُ الْمَلَكِيَّةُ لِلْفُنُونِ فِي عَهْدِ خَلْفِ الشَّاهِ إِسْمَاعِيلِ. فَقَدْ تَوَلَّى مِنْ بَعْدِهِ ابْنُهُ طَهْمَاسَپِ وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ عَشْرَ سَنَوَاتٍ عَامَ ١٥٢٤، وَالثَّابِتُ أَنَّهُ تَلَقَّى دُرُوسًا فِي التَّصْوِيرِ عَلَى يَدِ «سُلْطَانِ مُحَمَّدٍ»، وَأَنَّهُ كَانَ مُوَلِّعًا فِي شَبَابِهِ بِالتَّصْوِيرِ حَتَّى إِنَّهُ أَفْرَدَ لَهُ وَقْتُ فَرَاغِهِ كُلَّهُ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ الْمُقَرَّبِينَ إِلَيْهِ عِظَامُ الْفَتَانِينَ وَمِثْلِ بُهْرَادِ وَسُلْطَانِ مُحَمَّدٍ وَأَقَامِيرِكِ.

وَهَكَذَا كَانَتْ الظُّرُوفُ مُوَاتِيَةً لِازْدِهَارِ التَّصْوِيرِ خِلَالَ النَّصْفِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ، وَيُمْكِنُ الْقَوْلُ بِأَنَّ الْأُسْلُوبَ الْفَارِسِيَّ فِي التَّصْوِيرِ وَقَفْتِ ذَاكَ قَدْ بَلَغَ الذَّرْوَةَ بِأَهْلِيَّتِهِ وَأَنَاقَتِهِ وَرُوعَةِ زَخَارِفِهِ. وَمَرَدَ ذَلِكَ إِلَى رِعَايَةِ الْبِلَاطِ الْمُسْتَنِيرَةِ وَالِاتِّصَالِ السَّرِيعِ الَّذِي بَاتَ مُتَوَفِّرًا بَيْنَ مَدَارِسِ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ فِي أَغْقَابِ الْوَحْدَةِ الْفَارِسِيَّةِ، وَاضْطِرَادِ نُمُوِّ التَّقْنِيَّةِ الَّتِي اَزْدَهَرَتْ مِنْ قَبْلِ فِي هَرَاةَ وَغَيْرِهَا مِنْ عَوَاصِمِ الْقَرْنِ الْخَامِسِ عَشَرَ.

سِمَاتِ الْأُسْلُوبِ الصَّفَوِيِّ

يُعَدُّ التَّصْوِيرُ الصَّفَوِيُّ آخِرَ كَلِمَةٍ قِيلَتْ فِي الْأَهْبَةِ، فَهُوَ يَعْكُسُ ذَوْقَ بِلَاطِ أَكْثَرِ ثَرَاءٍ وَأَبْلَغَ رِفْقَةٍ مِنْ سَلَفِهِ، فَالْأَصْبَاغُ مِنْ أَجْوَدِ الْأَنْوَاعِ، وَالتَّصْمِيمَاتُ تَنْحُو نَحْوَ الْإِثْقَانِ الشَّدِيدِ، وَالْمَوْضُوعَاتُ الْأَثِيرَةُ هِيَ مَنَاطِرُ حَيَاةِ الْبِلَاطِ الْمَكْتَنَّةِ بِالشُّخُوصِ ذَاتِ الثِّيَابِ الْفَاحِشَةِ وَسَطِ قَاعَاتِ الْقُصُورِ الْمُقْبَبَةِ أَوْ الْحَدَائِقِ الْمَلَكِيَّةِ، وَأَكْثَرُ

حَتَّى إِنْ بَعْضُ «المولوية» كانوا يَجْعَلُونَهَا أَكْثَرَ مِنْ يَصِفُ بِشَرِّ.

نماذج الفترة الانتقالية: قران السعدين ١٥١٥ م،

مُتَحَف طوب قابو بِإِسْتَبُول

وَمِنْ نَمَازِجِ الْفَتْرَةِ الْإِنْتِقَالِيَّةِ بَيِّنُ أَصْلُوبِ هَرَاةَ فِي الْقَرْنِ الْخَامِسِ عَشَرَ وَالْأَصْلُوبِ الصَّفْوِيِّ، مَخْطُوطَةُ قِرَانِ السَّعْدَيْنِ، الْمُوَرَّخَةُ عَامَ ١٥١٥، مِنْ نَظْمِ الْأَمِيرِ خُسْرُو دَهْلَوِي، وَالْمَحْفُوظَةُ بِمُتَحَفِ طُوبِ قَابُو بِسَرَايِ بِإِسْتَبُول. وَتَحْتَوِي عَلَى ثَلَاثِ مُنَمَّمَاتٍ تُمَثِّلُ إِحْدَاهَا وَصُولَ الشَّاهِ إِلَى قَصْرِهِ (لَوْحَةٌ ٢٧٧ م) وَهِيَ لَوْحَةٌ لَمْ تُشَمَّرْ مِنْ قَبْلُ. وَلَا نَرَى بِهَا تَغْيِيرًا جَوْهَرِيًّا عَنِ الْمَدْرَسَةِ التَّيْمُورِيَّةِ إِلَّا فِي عِمَامَاتِ الرَّأْسِ الصَّفْوِيَّةِ، فَالْأَفَقُّ شَدِيدُ الِازْتِفَاعِ يُفْصِحُ عَنْ سَمَاءِ زَرْقَاءَ صَافِيَةٍ خَالِيَةٍ مِنْ السَّحُبِ عَلَى حِينِ تَطَاوُلِ الْحَافَةِ الْعُلْيَا لِلْقَصْرِ سَطْحِ الْأُتْقِ. وَيَقْتَرِبُ الْخَلِيفَةُ فَوْقَ جَوَادِهِ الْأَبْلَقِ وَجُلَّهُ الْمُخَطَّطُ بِخُطُوطِ حَمْرَاءَ وَصَفْرَاءَ وَسُودَاءَ وَخَضْرَاءَ تَتَخَلَّلُهَا زَخَارِفُ دَقِيقَةٌ بَيْنَا يَرْتَدِّي سِرْوَالًا أَصْفَرَ وَقَمِيصًا أَخْضَرَ مِنْ تَحْتِ رِدَاءٍ أَحْمَرَ، وَمِنْ وَرَائِهِ تَابِعُهُ حَامِلُ الْمِظَلَّةِ الزَّرْقَاءِ ذَاتِ الزَّخَارِفِ الثَّبَاتِيَّةِ الْحَمْرَاءِ وَالذَّهَبِيَّةِ. وَمَا يَكَادُ مُوَكِّبُ الْخَلِيفَةِ يَهْلُ حَتَّى تَصْعَدَ فِرْقَةُ الْمَوْسِيقَى إِلَى السَّطْحِ مُرْجَبَةً بِهِ، يَنْفَخُ أَحَدُهُمْ فِي نَفِيرِهِ وَيَنْقُرُ الثَّانِي وَالثَّلَاثُ طَبْلِيهْمَا بَيْنَا يُسَارِعُ الْخَدَمُ إِلَى لِقَائِهِ، يَحْمِلُ أَحَدُهُمْ طَسْتًا وَالْآخَرُ مِشْقَةً وَالثَّلَاثُ آيَةً. وَفِي صَدْرِ الصُّورَةِ، وَقَبْلَ الْوُصُولِ إِلَى خَنْدَقِ الْمِيَاهِ الْمُحِيطِ بِقَلْعَةِ الْقَصْرِ، فَارِسَانِ وَغُلَامِ. وَعَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ انْتِظَمَتِ الصَّيْغَةُ الزَّخْرَفِيَّةُ الْإِصْطِلَاحِيَّةُ لِلْحَشَائِشِ، عَلَى حِينِ انْتَثَرَتْ هُنَا وَهُنَاكَ شُجَيْرَاتُ خَضْرَاءَ ذَاتِ زُهُورِ حَمْرَاءَ.

وَمِنْ بَيِّنِ نَمَازِجِ هَذِهِ الْفَتْرَةِ الْإِنْتِقَالِيَّةِ كَذَلِكَ الْمَخْطُوطَةُ الزَّائِعَةُ الَّتِي تَقْصُمُ أَعْمَالِ مِيرِ عَلِيِّ شِيرِ نَوَائِي وَالْمَخْطُوطَةُ بِدَارِ الْكُتُبِ الْقَوْمِيَّةِ بِبَارِيسِ وَالْمُوَرَّخَةُ ١٥٢٧ م بِهَرَاةَ. وَمُعْظَمُ مُنَمَّمَاتِهَا عَارِيَّةٌ مِنَ التَّوْقِيعِ، وَلَكِنَّهَا فِي أَغْلَبِ الظَّنِّ مِنْ عَمَلِ تَلَامِيذِهِ بِهَزَادَ فِي تَبْرِيزَ. يَتَدَوَّى فِي إِحْدَاهَا بِهَرَامِ جُورَ فِي مَنْظَرٍ صَيِّدٍ مُتَّخِذًا مَلَامِيحَ الشَّاهِ إِسْمَاعِيلِ رُغْمَ أَنَّ الشَّاهَ كَانَ قَدْ قَضَى نَحْبَهُ قَبْلَ ذَلِكَ بِثَلَاثِ سَنَوَاتٍ.

ديوان حافظ، القرن الخامس عشر،

دار الكتب المصرية.

وَفِي نُسْخَةٍ مِنْ دِيَوَانِ حَافِظٍ، مَحْفُوظَةُ بِدَارِ الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ، نَرَى سَبْعَ مُنَمَّمَاتٍ مِنْ أَوَاخِرِ الْقَرْنِ الْخَامِسِ عَشَرَ، انْتَقَيْتُ مِنْهَا

مُنَمَّمَتَيْنِ لَمْ يَسْبِقْ نَشْرُهُمَا. تُصَوِّرُ أُولَاهُمَا (لَوْحَةٌ ٢٧٨ م) حَفْلَ اسْتِقْبَالِ فِي مَنْزِلِ عَرُوسَيْنِ مَيُوسُورِي الْحَالِ، تُدْرِكُ ذَلِكَ مِنْ جُلُوسَتَهُمَا فِي حَدِيقَةِ دَارِهِمَا الصَّغِيرَةِ الْمُسَوَّرَةِ بِسِيَاحٍ مُتَعَدِّدِ الْأَصْلَاحِ، تَتَوَسَّطُهَا نَافُورَةٌ جَمِيلَةٌ مِنَ الرُّخَامِ. وَإِلَى يَمِينِ الْحَدِيقَةِ نَشْهَدُ مَدْخَلَ الْمَنْزِلِ ذَا الْمِصْرَاعَيْنِ الْمُتَقَوِّشَيْنِ، يُغْلُوهُ طِرَازٌ مُذْهَبٌ كُتِبَ عَلَيْهِ بِالْمِدَادِ الْأَسْوَدِ عِبَارَةٌ «مَبَارَكٌ بِاد» أَيْ «مَبْرُوكٌ». وَيُغْلُو الطَّرَازَ عَقْدُ مُلَوَّنٌ بِاللُّونِ الْأَزْرَقِ وَعَلَيْهِ كِتَابَاتٌ مُذْهَبَةٌ. وَفِي الْحَدِيقَةِ نَرَى الْعَرُوسَيْنِ وَقَدْ اتَّخَذَا جُلُوسَتَهُمَا وَسَطَ الْعَازِفَيْنِ وَالْجَوَارِي يَسْتَمِعَانِ، فِي نَشْوَةٍ تَبْدَأُ فِي إِشَارَاتِهِمْ، إِلَى مُطَرِبَةٍ أَمْسَكَتْ لِإِبْرِيْقِ الثَّبِيدِ بِإِحْدَى يَدَيْهَا، وَلَوْحَتْ بِالْآخَرَى وَهِيَ تُرَدِّدُ مَا مَعْنَاهُ «مَا أَخْلَى رَفَقَةَ الْحَبِيبِ، وَأَعَذَّبَ السَّمَرَ بَيْنَ الرِّيَاضِ الْخَضِرِ وَالرَّبِيعِ، فَأَيْنَ يَا سَاقِي تَبِيدُكَ، وَحَسْبُكَ هَذَا الْإِنْتِظَارُ الطَّوِيلُ».

وَتُصَوِّرُ الْمُنَمَّمَةُ الثَّانِيَّةُ (لَوْحَةٌ ٢٧٩ م) جَلْسَةَ عَاشِقَيْنِ فِي رِحَابِ الطَّبِيعَةِ الطَّلِيْقَةِ الْحَانِيَّةِ، وَقَدْ افْتَرَشَا بِسَاطًا مَنَقُوشًا، وَأَمَامَهُمَا آيَةٌ بِهَا فَالِكِهَةِ مُنْسَقَّةٌ تَنْسِيقًا يَنْمُ عَنْ الذُّوقِ الرَّفِيعِ، وَإِلَى جَوَارِهِمَا دُورَقُ الشَّرَابِ. وَبَيْنَا هُمَا يُحْلَقَانِ أَلْفَيْنِ فِي أَفَاقِ النَّشْوَةِ، إِذَا بِنَاسِكٍ يَمَرُّ بِهِمَا مُتَوَكِّئًا عَلَى عَصَاهُ مُعْتَصِمًا بِمُسَبِّحَتِهِ، مُقْجِمًا فَضُولَهُ عَلَى خَلُوتِهِمَا، مُسْتَنَكِرًا عَشْقَهُمَا، فَيَرِدُ عَلَيْهِ الْعَاشِقُ بِأَبْيَاتٍ مِنْ دِيَوَانِ حَافِظٍ قَائِلًا: «أَيُّهَا الشَّيْخُ الرَّاهِدُ النَّقِيُّ السَّرِيرَةُ، لَا تَعْتَبْ عَلَى الْمُعْرِيدِينَ، فَإِنَّكَ لَنْ تَحْمِلَ عَنْهُمْ ذُنُوبَهُمْ، وَكُلُّ يَطْلُبُ إِلْفَهُ مُفِيقًا كَانَ أَوْ نَشْوَانًا، وَكُلُّ مَقَامٍ مَنَزِلٌ لِلْعِشْقِ، يَسْتَوِي فِي ذَلِكَ الْجَامِعِ وَالْكَنِيسَةُ».

ديوان نوائي ١٥٢٦، تبريز.

دار الكتب القومية بباريس

وَقَدْ اتَّسَعَ نَفْوذُ بِهَزَادَ كَذَلِكَ فِي تَبْرِيزَ مَعَ بِدَايَةِ حُكْمِ الشَّاهِ طَهْمَاسِپَ عَامَ ١٥٢٤، وَتَشْهَدُ بِذَلِكَ مُنَمَّمَاتُ مَخْطُوطِ دِيَوَانِ نَوَائِي نَظْمِ الْأَمِيرِ عَلِيِّ شِيرِ نَوَائِي الَّذِي أُنْجِزَ بِتَبْرِيزَ عَامَ ١٥٢٦، وَالْمَحْفُوظُ بِدَارِ الْكُتُبِ الْقَوْمِيَّةِ فِي بَارِيسَ. وَيَنْسَبُ تَشْوِكِينَ أَرْبَعًا مِنْ مُنَمَّمَاتِهِ إِلَى الشَّيْخِ زَادَ.

عَلَى أَنَّ أَهَمَّ التَّجْدِيدَاتِ نَرَاهَا فِي مُنَمَّمَةِ «رِحْلَةِ الْإِسْكَندَرِ فِي الْبَحْرِ الْأَعْظَمِ» (اللَّوْحَةُ ٢٨٠)، وَكَانَ قَدْ رَكِبَ السَّفِينَةَ مُتَّجِهًا إِلَى حَيْثُ تَغْرِبُ الشَّمْسِ فِي الْبَحْرِ الْأَعْظَمِ فَتَعَجَّبَ مِنْ ذَلِكَ الْمُحِيطِ الْعَمِيقِ الَّذِي يُسَمِّيهِ أَهْلُ الْيُونَانِ الْأَوْقِيَانُوسَ. وَتُصَوِّرُ الْمُنَمَّمَةُ الْغَازِيَّ يَصِيدُ الْبَطَّ وَيُسَدِّدُ بِحَرَكَةٍ دَقِيقَةٍ سَهْمَهُ الَّذِي يُصِيبُ الْبَطَّةَ وَهِيَ مُحَلَّقَةٌ فِي الْهَوَاءِ، بَيْنَمَا يَتَرَبَّعُ عَلَى عَرْشٍ أَقِيمَ لَهُ فِي قَارِبٍ لَا

حَوَتْ شاهنامه طهماسب وَحَدَّهَا مائَتَيْنِ وَثَمَانٍ وَخَمْسِينَ مُنَمَّةً،
تُمَثِّلُ تَطَوُّرَ فَنِّ التَّصْوِيرِ الصَّفَوِيِّ مِنْ عَشْرِينَاتِ الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ
حَتَّى خَمْسِينَاتِهِ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ ضَخَامَةَ عَدَدِ الْمُنَمَّاتِ دَلِيلٌ عَلَى وَفَرَةٍ
الْمُصَوِّرِينَ الَّذِينَ شَارَكُوا فِي إِنْجَازِهَا وَالَّذِينَ لَمْ نَعْرِفْ مِنْ بَيْنِهِمْ
عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ غَيْرَ «مِير مُظْفَر» وَ«دُوسْت مُحَمَّد» اللَّذَيْنِ وَقَعَ
كُلُّ مِنْهُمَا عَلَى وَاحِدَةٍ مِنَ الْمُنَمَّاتِ وَكَذَا أَقَامِيرِك وَمِيرزا عَلِيٍّ
وَمِير مُصَوِّرٍ وَعَبْدُ الصَّمَدِ وَشَيْخُ مُحَمَّدٍ. كَمَا لَا شَكَّ فِي أَنَّ تَجْنِيدَ
مِثْلِ هَذِهِ الْمَجْمُوعَةِ مِنَ الْفَتَانَيْنِ وَالْفَتَيَيْنِ وَتَوْفِيرِ الْمَوَادِّ الْوَسِيطَةِ
الْلاَّزِمَةِ لِإِنْجَازِ هَذَا الْعَمَلِ الْكَبِيرِ، لَمْ يَكُنْ يَمْلِكُهُ غَيْرُ حَاكِمٍ قَدِيرٍ
مَوْلَعٍ بِالْكَشْفِ عَنْ مَوَاهِبِهِ وَقُدْرَاتِهِ، وَهُوَ الشَّاهُ طَهْمَاسَبُ الَّذِي
تَمَّتْ فِي عَهْدِهِ. كَمَا يَقْفُرُ إِلَى أَذْهَانِنَا اسْمُ «سُلْطَانِ مُحَمَّدٍ» أَعْظَمُ
فَتَاتَانِي الْعَصْرِ الصَّفَوِيِّ يَوْضَعُهُ الْفَتَانُ الَّذِي عَهْدُ إِلَيْهِ بِالْإِشْرَافِ عَلَى
إِنْجَازِ هَذَا الْمَشْرُوعِ الَّذِي تَتَرَاءَى فِي مُنَمَّاتِهِ الْمُتَبَكَّرَةِ بِصَمَاتِهِ
الْمُتَمَيِّزَةِ، وَيُظْهِرُ تَأْثِيرَ أُسْلُوبِهِ فِيمَا أُنجِزَ مِنْهَا تَحْتَ إِشْرَافِ
خَلِيفَتِهِ مِير مُظْفَرٍ ثُمَّ أَقَامِيرِكٍ، فَقَدْ صَنَعَ سُلْطَانُ مُحَمَّدُ الْعَبْقَرِيُّ
التَّصْوِيرِ الصَّفَوِيِّ كُلَّهُ بِطَابَعِهِ. وَعِبَاقِرَةُ الْفَتَانَيْنِ يَتَسِمُونَ بِتَخْطِي
حَوَاجِزِ الثَّقَالِيدِ، وَابْتِكَارِ الْجَدِيدِ بَعْدَ التَّهْلُ مِنْ نَبْعِ الثَّرَاثِ،
وَتَفْسِيرِ الطَّبِيعَةِ بِرُؤْيَا ذَاتِيَّةٍ مِنْ خِلَالِ شَغْفِهِمْ بِمُشَاهَدَتِهَا وَهِيَامِهِمْ
بِأَشْكَالِهَا، وَعُزُوفِهِمْ عَنْ مُحَاكَاةِ إِبْدَاعِ الْآخَرِينَ، وَلِهَذَا تَجَيَّ
أَعْمَالُهُمْ أَكْثَرَ إِقْنَاعًا مِنْ أَعْمَالِ الْفَتَانَيْنِ الَّذِينَ لَا يَصْعَدُونَ
بَطْمُوحِهِمْ وَلَا بِمَوَاهِبِهِمْ إِلَى مَرْتَبَةِ الْعِبَاقِرَةِ. وَتَجْمَعُ مُنَمَّاتُ
هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ بَيْنَ أَتْجَاهَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ، أَوَّلُهُمَا اتِّجَاهُ تَلَامِيذِ
يَهُزَادِ الْمَرْوِيِّينَ الْعَقْلَانِيَّيْنَ، وَثَانِيَهُمَا اتِّجَاهُ سُلْطَانِ مُحَمَّدٍ وَصَحْبِهِ
التَّبَرِيزِيِّينَ أَصْحَابِ الْأُسْلُوبِ التَّعْبِيرِيِّ الْمُلْهَمِ. عَلَى أَنَّ التَّرْعَةَ إِلَى
مَزْجِ الْعَنَاصِرِ التَّيْمُورِيَّةِ بِالتَّرْكَمَانِيَّةِ لَمْ تَنْجَحْ فِي التَّخْفِيفِ مِنْ حِدَّةِ
الْخِلَافِ بَيْنَ الْإِتْجَاهَيْنِ الْأَصِيلَيْنِ.

وَمِنْ خِلَالِ هَذِهِ الْمُنَمَّاتِ، نَلْمَحُ التَّغْيِيرَ الَّذِي طَرَأَ عَلَى
شَخْصِيَّةِ طَهْمَاسَبِ نَفْسِهِ، وَنُكُوصَهُ عَنِ الْإِيمَانِ بِجَدِّيَّةِ الْوُجْدِ
الصَّفَوِيِّ الْحَالِمِ وَانْدِفَاعِهِ إِلَى مَرَحِ الْمَلْهَةِ وَخَشُونَتِهَا. وَيَتَجَلَّى
لَنَا هَذَا الْفَارِقُ، إِذَا مَا قَارَنَّا بَيْنَ لَوْحَةٍ مِثْلِ حَاشِيَةِ جَايُومَارِ
[جِيُومَرْتِ] الْحَالِمَةِ الْمُحَلَّقَةِ وَلَوْحَاتِ أُخْرَى مُتَعَجِّلَةٍ بَعِيدَةٍ عَنِ
الِاتِّقَانِ، وَمِمَّا أَسْبَغَ عَلَى مُنَمَّاتِ الْمَخْطُوطَةِ كُكُلَ صِفَةِ
التَّضَارُبِ وَعَدَمِ الْإِنْسِجَامِ. وَيَرْجِعُ تَغْيِيرُ الْمِزَاجِ النَّفْسِيِّ
لِطَهْمَاسَبِ أَسَاسًا إِلَى حِرْمانِهِ مِنَ الْحُبِّ الْأُسْرِيِّ فِي صِبَاهِ، إِذْ
نَشَأَ عَلَى عَادَةِ الْمُلُوكِ آنَ ذَاكَ بَعِيدًا عَنْ أَهْلِهِ وَأُسْرَتِهِ، حَتَّى إِنَّ
حَيَاتِهِ النَّفْسِيَّةَ قَدْ اتَّسَمَتْ بِالْمَأسَاوِيَّةِ رُغْمَ مَا أُوتِيَ مِنْ مَجْدِ
وَسُلْطَانِ، فَانْعَطَفَ مُنْذُ صِبَاهِ إِلَى فَنِّ التَّصْوِيرِ يَجِدُ فِيهِ عَوَضًا

يَكَادُ يَتَسَّعُ لِأَكْثَرِ مِنْ قَاعِدَةِ الْعَرْشِ خَالِيًا مِنْ آيَةٍ وَسَائِلٍ دَفَعَ ظَاهِرَهُ
مِثْلَ الدَّفْعِ وَالشَّرَاحِ. وَيَتَصَدَّرُ اللَّوْحَةُ قَارِبَانِ آخَرَانِ يَعْجَانِ
بِالْجُنُودِ، يُحَرِّكُ أَحَدَهُمَا مَجْدَافَ طَوِيلٍ، وَيَنْبَسِطُ فَوْقَ الْآخَرِ
شِرَاعٌ كَبِيرٌ مُرْبِعُ الشَّكْلِ، وَتَشْغُلُ رُؤْيَا الْعَالَمِ الْجَدِيدِ الْجُنُودُ عَنْ
الِاهْتِمَامِ بِمَا يَقُومُ بِهِ مَلِكُهُمْ، وَتَمَّ سِيْمَاؤُهُمْ عَنِ الدَّهْشَةِ أَمَامَ
غَرَابَةِ هَذَا الْعَالَمِ، وَهُوَ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ بِالنَّسْبَةِ لِسُكَّانِ تَبَرِيزِ الَّذِينَ
يَقَعُ نَظَرُهُمْ عَلَى الْبَحْرِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ. وَتَتَجَلَّى قِيَمَةُ هَذَا الشَّكْلِ
فِي الْإِنْفِاعِ الرَّهيفِ بَيْنَ الْقَوَارِبِ ذَوَاتِ الْمُقَدَّمَاتِ الْعَالِيَةِ وَالتِّي
تَتَلَاقَى فَوْقَ الْبِيَاهِ الْفُضِيَّةِ [الَّتِي غَطَّاهَا الْآنَ الصَّدَأُ] وَبَيْنَ الْحَرَكَاتِ
الدَّقِيقَةِ الْمُتَنَوِّعَةِ يَأْتِيهَا الرِّجَالُ الَّذِينَ يَزْحَمُونَ الْقَوَارِبَ، حَيْثُ تَشِيعُ
الشَّاعِرِيَّةُ وَيَتَجَلَّى انْتِهَارُ الْجُنُودِ أَمَامَ عَالَمٍ جَدِيدٍ يَتَأَمَّلُونَهُ لِأَوَّلِ
مَرَّةٍ. وَتُحَلِّي السَّمَاءَ لَفَائِفُ السُّحُبِ التَّقْلِيدِيَّةِ بِاللُّوْنِ الذَّهَبِيِّ
يَتَخَلَّلُهَا طَائِرٌ ضَخْمٌ بُرْتُقَالِي اللَّوْنِ، وَتَأْسُرُنَا خُطَّةُ تَوْزِيعِ الْأَلْوَانِ
بِمُجَرَّدِ وَقُوعِ بَصَرِنَا عَلَيْهَا.

وَرَأَيْتُ أَنَّ أَضْيَفَ إِلَى هَذِهِ الْمُنَمَّاتِ مُنَمَّاتُ أُخْرَى مِنْ
الْمَخْطُوطِ نَفْسِهِ لَمْ تُنَشَرْ مِنْ قَبْلِ (لَوْحَةُ ١٨٣) تُصَوِّرُ انْتِحَارَ
فَرْهَادٍ بَعْدَ أَنْ أَبْلَغَهُ الْوَاشِي كَذِبًا أَنَّ شِيرِينَ قَدْ مَاتَتْ. فَتَشْهَدُ
فَرْهَادُ بَعْدَ أَنْ فَارَقَ الْحَيَاةَ وَقَدْ أَرَاهُ صَدِيقٌ لَهُ رَأْسَهُ عَلَى فَخْذِهِ
وَبَدَأَ الْأَسَى عَلَى مَلَامِحِ وَجْهِهِ وَهُوَ يُخَاطِبُ سَيِّدَةَ عَلَيْهَا سِيْمَاءَ
الْبَّالَةِ وَعُلُوَّ الْمَحِيتِ مُنْطَبِئَةً جَوَادَهَا، وَلَعَلَّهَا شِيرِينَ قَدْ خَفَتْ إِلَيْهِ
سَاعَةً سَمِعَتْ النَّبَأَ، وَقَدْ ظَهَرَ الْحُزْنُ عَلَى مَلَامِحِهَا وَفِي إِشَارَةِ يَدِهَا
الْيُسْرَى الْمُتَبَهِّلَةِ بِالتَّرْحُمِ عَلَيْهِ. وَلَا تَخْلُو الصُّورَةُ مِنَ التَّمَاثِيلِ الَّتِي
كَانَ فَرْهَادُ قَدْ نَحَنَّا قَبْلَ وَفَاتِهِ فِي الصَّخْرِ، كَمَا ظَهَرَتْ أَدَوَاتُهُ
مُبَعَثَةً وَسَطَ الْجِجَارَةِ وَعَلَى الْأَرْضِ الصَّخْرِيَّةِ.

شاهنامه طهماسب. إصفهان ١٥٢٢ - ١٥٢٨ م، متحف
المتروبوليتان بنيويورك.

وَتَمَّةٌ وَثِيقَةٌ فَنِّيَّةٌ هَامَةٌ هِيَ شاهنامه طهماسب الَّتِي تُعَدُّ شَاهِدَةً
عَصْرَ وَخَضَارَةً، فَمَعَ أَنَّهَا عَمَلٌ مِنْ أَعْمَالِ فَنِّ التَّصْوِيرِ الْخَالِصِ،
إِلَّا أَنَّ نُدْرَةَ مَا بَقِيَ لَنَا مِنْ آثَارِ فُنُونِ الْمَعْمَارِ وَالزَّخْرَفَةِ الْإِيرَانِيَّةِ
خِلَالِ الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ الَّذِي أُنجِزَتْ فِيهِ هَذِهِ الشَّاهَنَامَةُ تَجْعَلُهَا
أَهَمَّ شَاهِدٍ وَأَدَقَّهُ عَلَى خَضَارَةِ إِيرَانِ الَّتِي وَكَبَتْ ظُهُورَهَا بِمَا حَوَتْهُ
مِنْ صُورٍ لَهَا. وَإِذَا كَانَ الْقَدَرُ قَدْ شَاءَ أَنْ يَحْفَظَ لَنَا نُسْخًا مِنْ
الشَّاهَنَامَاتِ الَّتِي كَانَ الْمُلُوكُ وَالسُّلَاطِينُ يَأْمُرُونَ بِإِنْجَازِهَا، فَقَدْ
أَتَانَا لَنَا هَذَا أَنْ نَكْتَشِفَ إِلَى أَيِّ حَدِّ فَاقَتْ شاهنامه طهماسب الَّتِي
عُرِفَتْ بِاسْمِ مُقَنَّنِيهَا «هِيُوتُون» جَمِيعَ الشَّاهَنَامَاتِ الْأُخْرَى فَخَامَةً
وَرُوعَةً. وَيَبْتَدَأُ لَمْ تَشْتَمِلْ وَاحِدَةً مِنَ الشَّاهَنَامَاتِ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي
بِدَايَةِ الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ عَلَى أَكْثَرِ مِنْ أَرْبَعِ عَشْرَةِ مُنَمَّاتٍ، فَقَدْ

مَجْلِسَنَا فِرْدَوْسًا»، وَلَقَّبَهُ الْفِرْدَوْسِيَّ، وَأَمَرَ بِإِعْطَائِهِ أَلْفَ مِثْقَالٍ ذَهَبٍ كُلَّمَا نَظَّمَ أَلْفَ بَيْتٍ. عَلَى أَنَّ الْفِرْدَوْسِيَّ أَثَرٌ أَلَا يَأْخُذُ الْمَالُ وَأَنْ يَدَّخِرَهُ لِبِنَاءِ سَدِّ طُوسٍ. وَيَقُولُ الْفِرْدَوْسِيُّ فِي مَدِيحِ السُّلْطَانِ مُحَمَّدٍ إِنَّهُ لَبَثَ عِشْرِينَ سَنَةً يَنْتَظِرُ مَلَكًا كُفْمًا لِكِتَابَتِهِ بَعْدَ أَنْ أَمَضَى عِشْرِينَ سَنَةً فِي نَظْمِ الشَّاهِنَامَةِ قَبْلَ تَبَوُّؤِ السُّلْطَانِ مُحَمَّدٍ الْعَزَنَوِيِّ الْعَرْشِ. وَهَذِهِ الْمُنْمَنَةُ مِنْ تَصْوِيرِ أَقَامِيرِكِ الْمُقَرَّبِ مِنْ شَاهِ طَهْمَاسِپَ، وَقَدْ اشْتَهَرَ بِتَصْوِيرِ الصُّورِ الشَّخْصِيَّةِ، وَقَدْ يَكُونُ الشَّخْصُ الَّذِي يَطَّلُ عَلَى الْجَمْعِ فِي الْبُسْتَانِ هُوَ الشَّاهِ طَهْمَاسِپَ نَفْسَهُ.

وَقِصَّةُ جَابِيومار [جيومرت] قِصَّةُ أُسْطُورِيَّةٍ لِوَاحِدٍ مِنْ مُلُوكِ إِيرَانَ، كَانَ يَحْكُمُ الْعَالَمَ مِنْ قَوْقِ قِمَّةِ جَبَلِ شَاهِقٍ، مُتَرَبِّعًا عَلَى عَرْشٍ صَخْرِيٍّ. وَكَانَ عَصْرُهُ عَصْرَ عَدَالَةٍ وَمِثَالِيَّةٍ بَعْدَ أَنْ حَبَاهُ اللَّهُ الْقُوَّةَ وَالشَّهَامَةَ وَالْوَسَامَةَ وَسَخَّرَ لَهُ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ جَمِيعًا، فَعَلَّمَ النَّاسَ فُنُونَ الْحَيَاةِ وَاسْتَيْثَنَاسِ الْحَيَوَانِ وَاكْتِشَافِ مَوَارِدِ الرَّزْقِ وَمَصَادِرِ الْكِسَاءِ، وَلَعَلَّهُ يَرْمِزُ أُسْطُورِيًّا إِلَى آدَمَ. وَقَدْ رَزَقَهُ اللَّهُ غُلَامًا سَمَاهُ «سِيَامِك» أَقَرَّ بِهِ عَيْنُهُ فَهَامَ بِهِ حُبًّا. وَلَمَّا بَلَغَ أَشَدَّهُ ظَهَرَ لَهُ عَدُوٌّ مِنَ الْجِنِّ أَخَذَ يَتَرَبَّصُ بِهِ لِيَقْضِي عَلَيْهِ فَأَرْسَلَ اللَّهُ الْمَلِكَ سَرُوشَ إِلَى أَبِيهِ لِيُحِيطَهُ عِلْمًا بِمَا يَجْرِي. وَلَمَّا أَحَسَّ سِيَامِكُ بِمَا يُحَاوِلُهُ الْجِنُّ [أَوِ الشَّيْطَانُ أَهْرِيْمَان] اسْتَشْطَاطَ غَضَبًا وَأَصْرَرَ عَلَى أَنْ يُنَازِلَهُ فَارْتَدَّى جِلْدَ الثَّمَرِ وَخَفَّ لِمُلَاقَاتِهِ، غَيْرَ أَنَّ الْجِنَّ أَنْشَبَ مَخَالِيهِ فِي صَدْرِهِ وَأَزْدَاهُ قَتِيلًا. وَلَمَّا عَلِمَ جِيومرت بِذَلِكَ سَفَطَ عَنْ سَرِيرِ الْمُلْكِ مَحْزُونًا وَظَلَّ يَتَعَاهَدُ عَامًّا كَامِلًا.

وَنَشْهَدُ إِلَى جَانِبِ الْمَنْظَرِ الطَّبِيعِيِّ غَيْرِ الْمَأْلُوفِ بِصُخُورِهِ وَرَبَوَاتِهِ ذَاتِ الْقِمَمِ الْإِسْفَنْجِيَّةِ الشَّكْلِ الشَّيْبَةِ بِالشُّعَابِ الْمَرْجَانِيَّةِ وَشُجَيْرَاتِهِ الْمُورَقَةِ الْمُزْهَرَةِ شَعْبَ جِيومرت وَقَدْ ارْتَدَّى أَفْرَادُهُ فِرَاءَ الضُّوَارَى وَشَارَكَهُمْ الْحَيَوَانُ حَيَاةَ الْعَصْرِ الذَّهَبِيِّ. وَتَتَدَرَجُ هَذِهِ الْمُنْمَنَةُ الْبَدِيعَةُ الَّتِي صَاغَهَا الْفَتَانُ سُلْطَانُ مُحَمَّدٍ (لَوْحَةٌ ٢٨٢م) تَحْتَ صِفَةِ التَّصْوِيرِ «الْجِيومرتسكي»، أَغْنَى أَنَّهَا تَصْوِيرٌ خَيَالِيٌّ غَرِيبٌ لِلْإِنْسَانِ وَالطَّبِيعَةِ وَالْحَيَوَانِ لَا يَمُتُّ إِلَى الْوَاقِعِ بِسَبَبٍ، حَيْثُ نَرَى الصُّخُورَ وَالرُّبَى فِي هَيْئَةٍ لَا عَهْدَ لَنَا بِهَا تُمَازِجُهَا أَشْكَالَ نَبَاتِيَّةٍ فِي تَكْوِينَاتٍ مُهَيَّجَةٍ شَادَّةٍ عَجِيبَةٍ. وَعَلَى الرَّغْمِ مِمَّا قَدْ نَلَمْسُهُ مِنْ غُلُوفِ التَّشْوِيهِ أَوْ مُجَاوَزَةِ الْحَدِّ فِيمَا هُوَ طَبِيعِيٌّ أَوْ فِيمَا يُخَالِفُ الْوَاقِعَ مِمَّا قَدْ يَخْرُجُ بِهِ إِلَى الْعَبَثِ الْمَازِحِ، إِلَّا أَنَّ اللَّوْحَةَ مُسْتَسَاغَةٌ فَنِيًّا، وَعَلَى جَانِبٍ مَكِينٍ مِنَ الْحَبْكَةِ الْفَنِيَّةِ، فَانْحَنَتْ لَهَا رُؤُوسُ الْفَتَانَيْنِ إِعْجَابًا بِدِقَّةِ تَفَاصِيلِهَا وَتَعْبِيرَاتِ شُخُوصِهَا وَالْإِفْصَاحِ عَنْ مَكْنُونَاتِ نَفْسِهِمْ وَقُوَّةِ تَأْثِيرِهَا الدِّرَامِيِّ، ثُمَّ بِالطَّائِعِ الصُّوفِيِّ الْحَالِمِ الَّذِي يَشِيعُ فِي أَتْحَانِهَا، كَمَا أَنَّهَا تَنْمُ عَنْ اسْتِيعَابِ مُصَوِّرِهَا وَتَمَثُّلِهِ لِلتَّرَاثِ الْفَنِيِّ الْغَزِيرِ الَّذِي كَانَتْ تَحْتَشِدُ بِهِ الْمَكْتَبَةُ الْمَلِكِيَّةُ

عَمَّا حُرِّمَهُ مِنْ حُبِّ وَاسْتِقْرَارِ نَفْسِيٍّ. وَاسْتَمَرَّ هَذَا الْقَلَقُ حَتَّى فِي حُبِّهِ لِلتَّصْوِيرِ، وَظَلَّ يَبْحَثُ عَنْ مُعَادِلٍ فِي فَنِّ التَّصْوِيرِ يَكُونُ وَسِيلَةً لِلتَّعْبِيرِ عَنْ نَفْسِهِ الْقَلِيقَةِ الْمُتَقَلِّبَةِ. وَهَكَذَا مَارَسَ التَّصْوِيرَ بِنَفْسِهِ، وَرَعَى الْفَتَانَيْنِ رِعَايَةً عَاجِلَ وَفَتَانَ مَعًا، وَمَا كَانَ لِمُصَوِّرٍ فِي بِلَاطِهِ أَنْ يَفْرَغَ مِنْ لَوْحَةٍ قَبْلَ أَنْ يَعْرِضَهَا عَلَيْهِ لِيَتَلَقَّى مِنْهُ التَّعْدِيلَ أَوْ التَّوْجِيهَ أَوْ الْمُوَافَقَةَ.

وَلَقَدْ أُعْجِبَ طَهْمَاسِپَ وَهُوَ بَعْدُ صَبِيٍّ بِفَنِّ بَهْرَادٍ بِهَرَاةٍ أَيْمًا إِعْجَابًا، وَلَمَّا عَادَ إِلَى تَبْرِيزَ تَفَتَّحَ وَجْدَانَهُ مِنْ جَدِيدٍ لِأَعْمَالِ مَدْرَسَةِ سُلْطَانِ مُحَمَّدٍ، فَانْدَفَعَ بِاجْتِئَا عَنْ أُسْلُوبِ يَجْمَعُ بَيْنَ الْحُسَيْنِيِّينَ، فَوَجَدَ ضَالَّتَهُ فِي الْأُسْلُوبِ التُّرْكِييِّ الَّذِي جَمَعَ بَيْنَهُمَا فِي نَهْجٍ مُتَطَوِّرٍ تَجَلَّى فِي مُنْمَنَاتِ الْمَرَحَلَةِ الْآخِرَةِ مِنْ شَاهِنَامَةِ طَهْمَاسِپَ، ثُمَّ فِي جَمِيعِ مُنْمَنَاتِ «خُمْسُو نِظَامِي». وَلَيْسَ غَرِيبًا بَعْدَ ذَلِكَ، وَبَعْدَ مَا أَدْرَكْنَا مَدَى قَلَقِ هَذَا الشَّاهِ النَّفْسِيِّ، أَنْ نَرَاهُ بَعْدَ أَنْ كَانَ مُوَلَعًا بِالْفَنِّ، بِاسِطًا رِعَايَتَهُ عَلَى فَتَانِي عَصْرِهِ، مُحَاوِلًا أَنْ يُحَقِّقَ سَعَادَتَهُ بِأَنْ يُصْبِحَ مُصَوِّرًا عَظِيمًا - نَرَاهُ وَقَدْ انْطَوَى عَلَى نَفْسِهِ، وَقَدْ جَفَّتْ شُرَائِبُهُ مِنْ دَقْفَةِ الْحُبِّ التَّابِضِ، وَسَيَّطَرَتْ عَلَيْهِ الْكِرَاهِيَّةُ وَشَهْوَةُ الْحُكْمِ، فَكَّرَهُ النَّاسَ وَالْفَنَّ مَعًا.

وَأَسْتَهْلُ مَا وَقَعَ عَلَيْهِ الْاِخْتِيَارُ مِنْ لَوْحَاتِ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ بِمُنْمَنَةِ «لِقَاءِ الشَّاعِرِ الْفِرْدَوْسِيِّ بِشُعْرَاءِ غَزَنَةَ» (لَوْحَةٌ ٢٨١م) مِنْ تَصْوِيرِ الْفَتَانِ أَقَامِيرِكِ، حَيْثُ يَقِفُ أَبُو الْقَاسِمِ الْفِرْدَوْسِيُّ فِي أَدْنَى يَسَارِ اللَّوْحَةِ، وَكَانَ قَدْ رَحَلَ إِلَى غَزَنَةِ مُنْظَلَمًا مِنَ الْوَالِي مَدِينَةِ طُوسٍ. وَلَمَّا بَلَغَهَا نَزَلَ فِي بُسْتَانٍ لِيُصَلِّيَ. وَكَانَ السُّلْطَانُ مُحَمَّدُ الْعَزَنَوِيُّ قَدْ وَرَعَ سَبْعَ قِصَصٍ مِنْ كِتَابِ تَارِيخِ الْفُرْسِ عَلَى سَبْعَةِ شُعْرَاءَ لِيَرَى أَيُّهُمْ أَجْوَدَ نَظْمًا فَيَعِدُّ إِلَيْهِ بِنَظْمِ كِتَابِ الشَّاهِنَامَةِ. وَاتَّفَقَ أَنَّ ثَلَاثَةَ شُعْرَاءَ مَشْهُورِينَ نَزَلُوا فِي ذَلِكَ الْبُسْتَانِ، وَلَمَّا رَأَاهُمُ الْفِرْدَوْسِيُّ قَصَدَ قَصْدَهُمْ فَصَدَّوهُ عَنْهُمْ بَعْدَ أَنْ ظَنَّهُ زَاهِدًا ثَقِيلًا وَرَأَوْا أَنْ يَدْفَعُوهُ عَنْهُمْ بِأَيَّةٍ وَسِيلَةٍ، فَاتَّفَقُوا أَنْ يَنْظُمَ كُلُّ مِنْهُمْ شَطْرًا عَلَى قَافِيَةٍ نَادِرَةٍ ثُمَّ يَكْلِفُوهُ بِالشُّطْرِ الرَّابِعِ فَاسْتَجَابَ لِمَطْلَبِهِمْ بِبِرَاعَةٍ أَذْهَلَتْهُمْ، فَاتَّوَرَأَ أَنْ يَسُدُّوا عَلَيْهِ السَّبِيلَ إِلَى السُّلْطَانِ مُحَمَّدٍ. وَكَانَ لِلْسُّلْطَانِ نَدِيمٌ لَقِيَ الْفِرْدَوْسِيَّ فِي هَذَا الْبُسْتَانِ وَنَاقَشَهُ فَأَعْجِبَ بِعِلْمِهِ وَفَصَاحَتِهِ. وَأَخْبَرَهُ النَّدِيمُ بِاهْتِمَامِ السُّلْطَانِ بِنَظْمِ كِتَابِ الْمُلُوكِ، فَأَخْبَرَهُ الْفِرْدَوْسِيُّ أَنَّهُ شَاعِرٌ، فَأَمَرَ الْمَلِكُ بِإِخْصَارِهِ. وَلَمَّا عَرَفَ السُّلْطَانُ أَنَّهُ عَالِمٌ بِسِيرِ الْمُلُوكِ الْعَجَمِ وَكُلِّ إِلَيْهِ أَنْ يَنْظُمَ الشَّاهِنَامَةَ. وَأَعِدَّ لِلشَّاعِرِ مَكَانًا فِي قَصْرِ السُّلْطَانِ، عُلِّقَتْ فِيهِ آلَاتُ الْحَرْبِ وَصُورُ الْأَبْطَالِ وَالْمُلُوكِ وَلَمْ يُؤَذَّنْ لِأَخَذِ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْهِ غَيْرُ غُلَامٍ وَاحِدٍ أَفْرَادَ الْحَاشِيَّةِ. وَكَانَ السُّلْطَانُ مُحَمَّدُ يُنْثِي عَلَى شِعْرِهِ وَيَقُولُ: «سَمِعْتَ هَذَا الْقِصَصَ مِرَارًا وَلَكِنْ هَذَا النَّظْمُ شَيْءٌ آخَرٌ»، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «إِنَّكَ صَيَّرْتَ

ومراسيمها، فجاءت الصورة متسقة رقيقة الأداء.

وثمة لوحة من أبرع اللوحات وأزوعها جمع مصورها المجهول بين عناصر المأساة والملهاة، ساخراً من الجيش الإيراني الذي ركن إلى المجون واللهو إثر انتصاره على الثورانيين، بينما أخذ «پران» قائد الجيش المهزوم يجمع جيش الانتقام ويحلف به على معسكرات الجيش المنتصر المسترخي على وسائد العزدة، بعد أن أسسته يفته بنفسه أن يأخذ حذره أو يتخذ حراساً يسهرون على رعايته خلال ظلمة الليل البهيم (لوحة ٢٨٣ م). وعبثاً تذهب صيحة «جيف» القائد الإيراني في إيقاظ حماسة جنده المخمورين، وكذا انطلاقة على صهوة جواده وسطهم، فإذا سيوف الثورانيين وهراواتهم تهوي فتسفع دماء الإيرانيين وتبعثر طبولهم وتمزق بيارقهم. ويطلع الصباح على جثث ثلثي جيش الإيرانيين وسط مشهد فاجع مثير للشفقة والسخرية معاً.

وتتألق منمنمة «استقبال أنوشروان لبعثة ملك الهند» (لوحة ٢٨٤ م) وسط الأعمال الرائعة التي أنجزها «ميرزا علي» ابن الفتان سلطان محمد في هذه الشاهنامة عام ١٥٣٠، وتجمع في ثناياها العناصر التي تكشف عن تأثر الجيل الثاني بمناخ التراث المختلفة، فتحن نستشف في ملامح الشخص مدي تأثر الفتان بأسلوب بهزاد في تصويره للخدجات التفسية لمن يزور إليهم من رجال البلاط والموسيقين والمدعوين جنباً إلى جنب مع نظرة سلطان محمد البحرية المرححة صوب البشر. كذلك يتجلى تأثير سلطان محمد في الإتيان المتدقق في تكوين الصورة الذي يضطرم خلال الصفحة كلها، وفي رسم التين والعنقاء فوق الستار. وتصور اللوحة وصول بعثة ملك الهند بالخيول والفيلة محملة بالجواهر والوسك والسيوف الهندية والسنانيس يقدمونها جزية للملك الساساني، بينما يقدم السفير الهندي رفعة شطرنج بيادقها إلى الشاه، ناقلاً إليه تحدي ملك الهند لعلماء إيران أن يكشفوا سير اللعبة، حتى إذا عجزوا عن ذلك دفعت إيران الجزية إلى الهند، غير أن بزرجمهر الوزير الدكي استطاع أن يكشف سير اللعبة ويحبط المحاولة.

وما أكثر ما يبدو في مجموع ميرزا علي، البستانيون والمربيات والأطفال على نحو ما كانوا يعيشون في العصر الصفوي. وما أسرع ما يقطن المشاهد إلى أنماط شخص هذا المصور، مثل وجه سفير الهند الثعلبي القسّمات ووجه الشاه على صورة البدر، هذا إلى نزوعه إلى التصوير بأسلوب الطبيعة الساكنة^(١)، وحذقه المتمكن من الرسامة وجنوحه نحو تنسيق جموعه في مجموعات صغيرة اثنين اثنين وجهاً لوجه.

ويحكي أن الضحك قد ملك الأرض والبحر شرقاً وغرباً، وكان طائفة ظالماً عاش الناس تحت نير حكمه أنعس حياة. وقد تبدى له إبليس [الشيطان] [أهريمان] في زي طاو جميل الصورة وعرض عليه خدماته فأدخله في خدمته. وما زال إبليس يلدع في ألوان الطعام الشهية فيقدم في كل يوم لوناً جديداً حتى أحبه الملك واضطفاه. وذات يوم طلب الضحك من إبليس أن يتمنى عليه فتمنع إبليس وتظاهر بالرؤد وادعى أن كل ما يتمناه هو أن يأذن له الملك بتقيل منكبيه فأذن له بذلك، وقبل الشيطان منكبیه ثم اختفى في باطن الأرض، وإذا حية سوداء تنبت في كل منكب من مكان القبل الملعونة في منكبى الملك، فتملك الضحك الفرغ واستدعى الأطباء والحكماء والمنجمين، غير أنهم عجزوا جميعاً أمام هذا الداء. وبرز إبليس إليه في زي طيب، وقال إن هذا قضاء أجراه الله عليه ولا بد من تربية الحيتين وإطعامهما من أذينة الناس حتى يهدأ اضطرابهما. وهكذا دفعه إبليس إلى سفك دماء الناس فكان يأمر كل ليلة برجلين يقتلان ليغذي الحيتين من رأسيهما، وأمضى على هذا النحو ألف عام. وذات ليلة رأى رؤيا أفضت مضجعه إذ أوحى إليه بزوال ملكه وانتهاء أجله فأطلق صرخة مدوية استيقظ على أثرها كل من بالقصر من أفراد الحاشية والنساء مذعورين، وجمع العلماء والكهنة والعرافين والسحرة من كل مكان ليستمع منهم إلى تفسير رؤياه، غير أنهم سكتوا خوفاً من بطشه إن هم أطلعوه على الحقيقة. وقد قام الفتان «مير مصور» أحد عظماء مصوري هذه الشاهنامة بتسجيل رؤيا الضحك في منمنمة بدیعة (لوحة ٢٨٥ م)، تصور قصراً صفوياً رائعاً في جنباته غادات رشيقات وفتيان ذوو وسامة وما يستلزمه القصر من خدم وأتباع. وألوان المنمنمة من الرقة بإمكان بحيث تضاهي جمال الصيغ الزخرفية «الأرابيسك» التي تزين بلاطات القاشاني وأنسجة الثياب. ولا غرو فقد كان «مير مصور» أشد المصورين المشاركين في تصوير هذه المخطوطة جنوحاً إلى الغنائية، فخطوطه السلسة وفوشاته الهادئة وتمثيله الرهيف للشخص، كل هذا يصور عالماً يتأى عن شرور الواقع. ومن

(١) طبيعة ساكنة، طبيعة هايدة (Still Life): رسم أو تصوير مجموعة من الأشياء الساكنة الهامدة؛ كالثمار والأزهار والسّمك أو الطير الميت والأدوات المنزلية إلى غير ذلك. وقد بلغت القيمة على أيدي المصورين الهولنديين والفلمنكيين خلال القرن السابع عشر. وعادة كان تصوير الطبيعة الساكنة في تلك الحقبة ينطوي على الزُمز الغامض، إما عن سرعة زوال الكائنات وحقوية الموت، وهي فكرة تحكي فكرة «باطل الأباطيل (Vanitas) وإما تعبيراً عن آلام المسيح وعن البعث. ويقدمها إلينا الفتان باستخدامه مألوفات يومية تتضمن عادة معنى رمزياً. [م. م. م. ث].

خَشِيَ زَالُ أَنْ يَعْتَرِضَ أَبُوهُ عَلَى زَوَاجِهِ مِنْ رُودَابِهِ ابْنَةُ مَهْرَابٍ سَلِيلِ الضَّحَّاكِ اسْتَدْعَى حُكَمَاءَ عَصْرِهِ يَسْتَشِيرُهُمْ فِي الْأَمْرِ فَتَصَحَّحُوهُ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى أَبِيهِ يَسْتَجِدُّهُ الْمُؤَافَقَةَ. وَتُعَدُّ صُورَةُ «زَالِ يَسْتَشِيرُ حُكَمَاءَ الْمَجُوسِ» (لَوْحَةُ ٢٨٧ م)، الَّتِي قَامَ بِتَصْوِيرِهَا سُلْطَانُ مُحَمَّدٌ وَأَحَدُ مُعَاوِنِيهِ، مُحَصِّلَةً مُؤَفِّقَةً لِلتَّعَاوُنِ الْمُثْمِرِ بَيْنَهُمَا. وَالرَّاجِحُ أَنَّ سُلْطَانُ مُحَمَّدٌ قَدْ وَضَعَ تَصْمِيمَ الصُّورَةِ كَمَا صَوَّرَ بَعْضَ أَجْرَائِهَا وَلَا سِيَّامَا الثَّلَاثُ الْأَدْنَى مِنْهَا، وَكَذَا الْفِتْنَةُ إِلَى يَسَارِ الْعَرْشِ بَيْنَمَا نَهَضَ مُعَاوِنُهُ بِاسْتِئْذَانِهَا.

وَبِنَاءً عَلَى نَصِيحَةِ سَامٍ لِابْنِهِ طَلَّبَ زَالُ مِنَ الْمَلِكِ مَنْوَجَهَرَ السَّمَّاحَ لَهُ بِالزَّوْجِ مِنْ ابْنَةِ مَهْرَابٍ. وَبَعْدَ اخْتِيَارِ عَسِيرٍ لَزَالٍ أُعْجِبَ مَنْوَجَهَرَ بِهَذَا الْبَطْلِ الْفَرِيدِ وَطُمَأْنَنَ إِلَى أَنَّهُ يُبَارِكُ زَوَاجَهُ مِنْ رُودَابِهِ. وَلَمَّا بَلَغَ الْخَبَرَ مَهْرَابٌ انْتَشَى فَرَحًا فَأَقَامَ الزَّيِّنَاتِ بِالْبِلَادِ وَأَفَاضَ الْأَمْوَالَ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمُحْتَاجِينَ. وَتُصَوِّرُ مُنْمَنَةً، نَهَضَ بِهَا مِيرُ مُصَوِّرٍ، حَقْلَ الْاسْتِقْبَالِ الَّذِي أَقَامَهُ مَهْرَابٌ لَزَالٍ فِي خَلَاءِ الْحَدِيقَةِ، حَيْثُ نَشَهُدُ مَهْرَابَ يَقِفُ فِي خُشُوعٍ وَسَيْلِ هَدَايَاهُ يَنْهَجِرُ، مِنْ خَيْلٍ وَرَقِيقٍ وَأَمْوَالٍ وَعُطُورٍ وَأَنْسِجَةٍ وَتَاجٍ مُرْصَعٍ بِالْجَوَاهِرِ، كَمَا يَسْتَرْعِينَا الْقَرَمُ إِلَى جِوَارِ زَالٍ بِشَكْلِهِ الْكَرَوِيِّ (لَوْحَةُ ٢٨٨ م).

وَيُحْكِي أَنَّ الْمَلِكَ كَيْخَسَرُو كَانَ قَاعِدًا ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى تَحْتِهِ فَجَاءَهُ مَنْ يَشْكُو مِنْ ظُهُورِ جِمَارٍ وَخَشْيٍ فِي الْمَرَامِيِّ كَأَنَّهُ أَسَدٌ هَاصِرٌ، يُهَاجِمُ الْخَيْلَ وَيُمَرِّقُ كَوَاهِلَهَا. فَأَذْرَكَ الْمَلِكُ أَنَّهُ لَيْسَ جِمَارًا وَخَشْيًا، وَأَشَارَ عَلَى الْبَطْلِ رُسْتَمُ أَنْ يَكْفِيَ الْقَوْمَ شَرَّهُ. فَأَمْتَقَى رُسْتَمُ جَوَادَهُ رَخْشَ وَخَرَجَ إِلَى تِلْكَ الصَّخْرَاءِ، وَمَكَثَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ يَبْتَحثُ فِي مُرُوجِهَا وَمَرَاعِيهَا عَنِ الْجِمَارِ الْوَحْشِيِّ سُدًى. وَلَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الرَّابِعَ ظَهَرَ لَهُ الْجِمَارُ وَعَبَّرَ بِهِ فِي سُرْعَةٍ الرِّيحِ، فَأَنْطَلَقَ رُسْتَمُ بِجَوَادِهِ الْجَرِيِّ لِاصْطِيَادِهِ وَحَمَلَهُ حَيًّا إِلَى الْمَلِكِ، غَيْرَ أَنَّهُ اخْتَفَى فَجَاءَهُ عَنْ نَازِلِهِ، فَلَمْ يُخَاطِرْ شَكَّ فِي أَنَّهُ لَيْسَ بِجِمَارٍ وَخَشْيٍ وَأَذْرَكَ أَنَّهُ الْجَنِّيُّ أَكْوَانُ وَقَدْ تَنَكَّرَ، فَأَطْلَقَ سِيَاهَهُ عَلَيْهِ غَيْرَ أَنَّهَا طَاشَتْ جَمِيعًا. وَلَمَّا لَمَحَ الْوَحْشُ أَنْشُوطَةَ رُسْتَمِ اخْتَفَى فَجَاءَهُ. وَبَعْدَ مَخَاطِرٍ لَا حَصَرَ لَهَا صَرَخَ الْجِمَارُ الْوَحْشِيُّ وَحَمَلَ رَأْسَهُ إِلَى كَيْخَسَرُو. وَقَدْ سَجَلَ قِصَّةَ رُسْتَمِ مَعَ الْجَنِّيِّ أَكْوَانِ الْفَتَانِ مُظْفَرٌ عَلَيَّ الَّذِي عَاصَرَ شَاهَ طَهْمَاسِ، (لَوْحَةُ ٢٨٩ م)، وَهُوَ الَّذِي أَسْهَمَ فِيمَا بَعْدَ فِي تَرْقِيقِ مَخْطُوطَتِي «خُمْسُهُ نِظَامِي» وَ«هَفَّتْ أَوْرَانِج» لِجَامِي الْمَحْفُوظَتَيْنِ بِالْمُتَحَفِ الْبَرِيطَانِيِّ.

وَيَسْتَرْعِي إِعْجَابَنَا فِي مُنْمَنَةِ «غَرَامِ أَرْدَشِيرِ وَجُلْنَارِ» (لَوْحَةُ

ثُمَّ لَمْ يَكُنِ الطَّاعِيَةُ الضَّحَّاكُ ذُو الْحَيِّتَيْنِ فِي مَنْكِبِيهِ الَّذِي تَرَاهُ فِي حُجْرَةِ نَوْمِهِ هُوَ أَشَدُّ مَا يَجِدُّنَا فِي هَذِهِ اللَّوْحَةِ الرَّابِعَةِ. فَكَمْ تَلَفُّنَا سَيِّدَاتِ الْفَصْرِ فِي أَعْلَى الصُّورَةِ وَقَدْ رَفَعَتْ كُلُّ وَهْنٍ سَبَابَتَهَا عَلَى قَمَهِا تَعْبِيرًا عَنِ الْفَرْعِ بَعْدَ سَمَاعِ صَرْخَةِ الضَّحَّاكِ فِي اللَّيْلِ. وَكَمْ تَشِيعُ الْبَسْمَةُ حِينَ تَرَى أَحَدَ رِجَالِ الْبَلَاطِ وَقَدْ سَقَطَتْ عِمَامَتُهُ رُغْبًا إِثْرَ الصَّرْخَةِ الصَّادِرَةِ مِنْ مِخْدَعِ الْمَلِكِ فِي أَدْنَى الصُّورَةِ.

وَكَانَ سَامٌ يَهْلُوانَ [بَطْل] الْعَالَمِ فِي عَهْدِ الْمَلِكِ مَنْوَجَهَرَ، يَسْتَهْلِكُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَهْبَهُ وَلَدًا يَكُونُ قُرَّةَ لَعَيْنِهِ وَسَنَدًا، فَكَانَ أَنْ أَنْجَبَتْ لَهُ جَارِيَةً وَلَدًا جَمِيلَ الصُّورَةِ، غَيْرَ أَنَّ شَعْرَهُ كَانَ أَيْبَسَ يَسْتَعِيلُ شَيْئًا. وَحَزَنَ سَامٌ حِينَ رَأَى وَلَدَهُ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ وَأَمَرَ بِهِ فَأَخْرَجُوهُ إِلَى جَبَلِ الْبَرِزِ، وَصَعَدُوا بِهِ إِلَيْهِ وَتَرَكَوهُ وَحِيدًا. وَكَانَ عَلَى رَأْسِ الْجَبَلِ عُشٌّ لِلْعَقَاءِ^(١) تَطِيرُ فِي طَلَبِ الرُّزْقِ لِأَفْرَاحِهَا. وَلَمَّا رَأَتْ الْعَقَاءُ ذَلِكَ الصَّبِيِّ فِي مَكَانِهِ رَقَّ لَهُ قَلْبُهَا فَتَقَلَّتْهُ إِلَى قِيَمَةِ الْجَبَلِ وَوَضَعَتْهُ بَيْنَ أَوْلَادِهَا حَيْثُ شَبَّ بَيْنَهُمْ وَتَرْغَرَعَ. وَرَأَى بَعْضُ رِجَالِ الْقَبَائِلِ هَذَا الْآدَمِيَّ بَيْنَ أَفْرَاحِ الْعَقَاءِ فَتَوَلَّاهُمْ الْعَجَبُ وَتَدَاوَلُوا أَخْبَارَهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ حَتَّى وَصَلَ النَّبَأُ إِلَى سَامٍ فَخَفَّ إِلَى الْجَبَلِ وَتَضَرَّعَ إِلَى إِلَهَتِهِ أَنْ تَرُدَّ إِلَيْهِ وَلَدَهُ، وَدَارَ هَائِمًا عَلَى وَجْهِهِ فِي شِعَابِ الْجَبَلِ بَاكِيًا ضَارِعًا. وَلَمَّا رَأَتْهُ الْعَقَاءُ وَأَذْرَكَتْ أَنَّهُ هُوَ الطِّفْلُ الَّذِي سَمَّتهُ دِسْتَانُ هُرِعَتْ إِلَى رَبِيبِهَا وَأَبْلَغَتْهُ بِأَنَّ أَبَاهُ يَبْحَثُ عَنْهُ مُفْطِرِ الْقَلْبِ وَقَالَتْ لَهُ: «لَقَدْ رَبَّيْتِكَ مِثْلَ أَفْرَاحِي وَأَنْتَ أَعَزُّ إِلَيَّ مِنْ رُوحِي وَرَأَى أَنْ أَحْمَلَكَ بَيْنَ جَنَاحِي إِلَى أَبِيكَ لَتَبْتَرَأَ عَرْشَ مَلِكِ الْمُلُوكِ. وَلَا أُعْطِيَنَّكَ مِنْ جَنَاحِي رِبْشَةً فَإِذَا أَلَمَ بِكَ مَكْرُوهٌ فَأَخْرِقْهَا وَسَتَجِدُنِي زَهْنًا إِيَّارَتِكَ لِأَقْضِي حَاجَتَكَ». ثُمَّ حَمَلَتْهُ وَخَلَقَتْ بِهِ حَوْلَ سَامٍ وَوَضَعَتْهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَخَرَّ سَاجِدًا يُعْفِرُ وَجْهَهُ بِالثَّرَابِ، ثُمَّ أَطْلَقَ عَلَى ابْنِهِ اسْمَ زَالِ أَيَّ الْكَهْلِ نَظَرًا لِشَيْبِ شَعْرِ رَأْسِهِ. وَيَلَفُّنَا فِي مُنْمَنَةِ سَامِ يَخْفُ إِلَى جَبَلِ الْبَرِزِ، (لَوْحَةُ ٢٨٦ م) الَّتِي قَامَ بِتَصْوِيرِهَا أَحَدُ مُعَاوِنِي الْمُصَوِّرِ سُلْطَانُ مُحَمَّدٌ، جَمَالَ رِيَشِ طَيْرِ الْعَقَاءِ، وَصُخُورِ جَبَلِ الْبَرِزِ ذَاتِ الشَّكْلِ الْإِسْفَنْجِيِّ الْمُشَابِهِ لِلشَّعَابِ الْمَرْجَانِيَّةِ عَلَى غِرَارِ الْأَسْلُوبِ «الْجِرُوتَسْكِي» الَّذِي اتَّبَعَهُ سُلْطَانُ مُحَمَّدٌ فِي تَصْوِيرِ لَوْحَةِ حَاشِيَةِ جِيومِرْتِ (لَوْحَةُ ٢٨٢ م).

أَخَذَ زَالُ يَتَدَرَّبُ عَلَى أَصُولِ الْحُكْمِ وَذَهَبَ لِلصَّيْدِ ذَاتَ يَوْمٍ وَنَزَلَ قُرْبَ أَرَاظِي كَابُلٍ. وَكَانَ لَهَا مَلِكٌ يُدْعَى مَهْرَابٌ مِنْ سُلَالَةِ الطَّاعِيَةِ الضَّحَّاكِ خَفَّ إِلَيْهِ لِيَخْدُمَهُ. وَحِينَ قَالَ لَهُ بَعْضُ التُّذَمَّاءِ أَنَّ لِمَهْرَابِ ابْنَةَ جَمِيلَةَ الطَّلَعَةِ هَامٌ بِهَا دِسْتَانُ [زَالٍ]. وَلَمَّا عَلِمَ مَهْرَابٌ بِذَلِكَ طَلَّبَ مِنْهُ أَنْ يُشْرِفَ دَارَهُ وَيَنْزِلَ عَلَيْهِ ضَيْفًا وَأَخْبَرَ زَوْجَتَهُ عَلَى مَسْمَعٍ مِنْ ابْنَتِهِ رُودَابِهِ عَنْ جَمَالَ صُورَةِ زَالٍ وَحَسَنِ خُلُقِهِ وَفُتُوتهِ، فَحَرَّكَ حَدِيثَهُ تَدْلِيلًا بِدَوْرِهَا فِي حُبِّ زَالٍ وَتَمَنَّتْ أَنْ تَرَاهُ. وَإِذْ

(١) أَيُّ طَائِرِ السَّيْمَرِغِ فِي الشَّاهَنَامَةِ، وَهُوَ طَائِرٌ خُرَافِيٌّ. وَكَلِمَةُ سَيْمَرِغُ تُسَاوِي عِبَارَةَ «سَهْ مَرِغ» أَيُّ ثَلَاثَةِ طُيُورٍ أَوْ «سِيْ مَرِغ» أَيُّ ثَلَاثِينَ طَيْرًا.

هَدَفَهَا إِلَّا أَنَّهُ مَا لَبَثَ أَنْ أَخْرَجَ سَيْفَهُ مِنْ غِمْدِهِ وَشَقَّ جَسَدَ كَلْبَادٍ مِنْ عُنُقِهِ إِلَى وَسَطِهِ. وَعَلَى الرُّغْمِ مِنْ أَنَّ الْمَشْهَدَ مُلَطَّحٌ بِالدِّمَاءِ، لَكِنَّهُ يَقَعُ فِي إِطَارٍ مَنظَرٍ طَبِيعِيٍّ رومانسيٍّ خَلَّابٍ.

وكانت لَوْحَةُ «هفتواذ والدودة»، التي رَسَمَهَا دُوست مُحَمَّد، آخر مُنَمَّنة أُضِيْفَتْ إِلَى شاهنامه طهماسب (لَوْحَةُ ٢٩٣ م). وَتَحْكِي اللُّوحَةُ قِصَّةَ الدُّودَةِ السَّحَرِيَّةِ الَّتِي عَثَرَتْ عَلَيْهَا ابْنَةُ هَفْتَوَازٍ دَاخِلَ ثِقَاحَةِ أَعَانَتِهَا عَلَى غَزْلِ كَمِّيَّاتٍ مِنَ الْحَرِيرِ تَفُوقَ مَا تَغْزِلُهُ زَمِيلَاتُهَا. فَفَرَحَ أَبُوهَا هَفْتَوَازٌ بِهَذِهِ الدُّودَةِ وَتَرَكَ عَمَلَهُ لِيَزْعِمَهَا، فَإِذَا بِهَا تَمَلُّاً بِالْبَلَدَةِ كُلِّهَا خَيْرًا وَبَرَكَةً، فَتَصَبَّ أَهْلُ الْبَلَدَةِ هَفْتَوَازَ حَاكِمًا. فَشَدَّ قَلْعَةَ حَصِينَةٍ فَوْقَ الْجَبَلِ وَبَنَى بِهَا حَوْضًا حَجْرِيًّا تَسْتَرْخِي فِيهِ الدُّودَةُ الَّتِي أَخَذَتْ تَنَعُمَ بِتَنَاوُلِ الْأَرْزِ وَاللَّبَنِ وَالْعَسَلِ حَتَّى أَصْبَحَتْ فِي حَجْمِ الْفِيلِ مَعَ مُرُورِ الْأَعْوَامِ. وَأَقْلَقَ وَجُودَ الدُّودَةِ الشَّاهُ أَرْدَشِيرَ فَجَرَّدَ جَيْشًا لِلْقَضَاءِ عَلَيْهَا وَعَلَى هَفْتَوَازٍ، غَيْرَ أَنَّ الْجَيْشَ عَادَ مَذْحُورًا. فَجَرَّدَ الشَّاهُ جَيْشًا أَكْبَرَ وَوَضَعَهُ تَحْتَ إِمْرَتِهِ وَقِيَادَتِهِ، وَإِذَا بِالذُّعْرِ يُصْبِيهِ حِينَ رَأَى جُيُوشَ هَفْتَوَازِ الْجَرَّارَةِ. وَحِينَ عَلِمَ أَرْدَشِيرُ أَنَّ هَذِهِ الدُّودَةَ مِنْ صُنْعِ الشَّيْطَانِ أَهْرِيْمَانِ، وَأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ قَهْرُهَا إِلَّا بِالْحِيلَةِ، تَنَكَّرَ فِي زِيٍّ تَاجِرٍ وَاصْطَحَبَ مَعَهُ قَافِلَةً وَصَدَّ الْقَلْعَةَ مُتَظَاهِرًا بِالرَّغْبَةِ فِي التَّبَرُّكِ بِالدُّودَةِ الَّتِي يَخِيَا بِفَضْلِ خَيْرِهَا. وَحِينَ أَطْمَأَنَّ الْحُرَّاسُ إِلَيْهِ دَعَاهُمْ إِلَى مَادُبَةٍ عَامِرَةٍ، وَأَخَذُوا يَعْبَتُونَ مِنْ كُؤُوسِ خَمَرِهَا حَتَّى ثَقَلَتْ رُؤُوسُهُمْ فَحَمَلَ جَرَّةً مَلِيئَةً بِالرَّصَاصِ الْمَصْهُورِ، وَمَضَى إِلَى حَوْضِ الدُّودَةِ الَّتِي رَفَعَتْ رَأْسَهَا مُتَاهِبَةً لِتَنَاوُلِ طَعَامِهَا، فَإِذَا بِالرَّصَاصِ الْمَصْهُورِ يَتَدَفَّقُ إِلَى حَلْقِهَا، فَتَصْرُخُ صَرخةً تَهْتَزُّ لَهَا الْقَلْعَةُ مِنْ أَسَاسِهَا، وَتَمُوتُ الدُّودَةُ يَتِيمًا يُعْجِلُ أَرْدَشِيرَ سَيْفَهُ فِي الْحُرَّاسِ السَّكَارَى فَيَتَهَاوُونَ. ثُمَّ يُسِيرُ أَرْدَشِيرُ إِلَى جَيْشِهِ الرَّابِضِ فِي مَخْبَأٍ قَرِيبٍ فَإِذَا بِهِ يَتَفَاطَرُ عَلَى الْقَلْعَةِ وَيَقْضِي عَلَى هَفْتَوَازٍ وَأَبْنَائِهِ وَيَسْتَوْلِي عَلَى الْبَلَدَةِ.

وَتُصَوِّرُ اللُّوحَةُ حَيَاةَ الْمَدِينَةِ بَعْدَ أَنْ عَاشَتْ فِي رَغَدٍ بِسَبَبِ الْبَرَكَةِ الَّتِي مَنَحَتْهَا الدُّودَةُ لِأَهْلِهَا، فَفِي مِهَادِهَا نَرَى الْغَابَةَ الْمُورَقَةَ وَقَدْ جَلَسَتْ الْفَتَيَاتُ يَغْزِلْنَ الْحَرِيرَ، وَيَطْهَيْنَ الطَّعَامَ، وَانْشَغَلَ الرِّجَالُ بِالْأُمُورِ الْيَوْمِيَّةِ فِي نَشَاطٍ وَإِفْجَالٍ. وَتَوَسَّطَتِ الْقَلْعَةُ اللَّوْحَةَ بِأَبْرَاجِهَا الْمُسَنَّنَةِ وَخَلْفَهَا الْحُرَّاسُ وَقَبَّةُ جَامِعِهَا الْخَضْرَاءِ، وَمِثْدَنْتِهَا يُنَادِي فِيهَا مُؤَذِّنٌ لِلصَّلَاةِ، وَوَشَّتْ أَبْوَابُهَا الزَّخَارِفُ الْمُزْهِرَةُ. وَمَنْ خَلْفَهَا بَدَتْ بِقِيَّةِ الْغَابَةِ بِصُخُورِهَا الْبَدِيدَةِ وَأَشْجَارِهَا فِي مُقَابَلَةٍ مَعَ صُخُورٍ وَأَشْجَارٍ الْغَابَةِ فِي مِهَادِ اللَّوْحَةِ. وَنَرَى بِوُضُوحٍ تَوَقُّعَ الْفَتَانِ دُوست مُحَمَّدَ عَلَى هَذِهِ الْمُنَمَّنةِ أَذْنَى الْهَامِشِ السُّفْلِيِّ.

٢٩٠ م)، الَّتِي أَوْرَدْتُ قِصَّتَهَا عِنْدَ تَنَاوُلِ شاهنامه بِاسْتِقْرَافٍ فِي الْعَصْرِ التَّيْمُورِيِّ، أُولَئِكَ الْوَصِيفَاتُ التَّاعِساتُ وَالْحَبْلُ الْمُتَدَلِّيُّ مِنْ نَافِذَةِ جُلْنَارٍ، وَالزُّهُورُ الْجَمِيلَةُ عَلَى غُصُونِ الشَّجَرَةِ الَّتِي تَرْمِزُ جَمِيعًا إِلَى لِقَاءِ الْعَاشِقَيْنِ. كَمَا يَلْفِتُنَا تَسَلُّلُ خُفْيِ الْحَبِيبِ إِلَى وَسَطِ صَيْغِ «الْأَرَايسِك» الزُّخْرُفِيَّةِ فِي أَذْنَى الْمُنَمَّنةِ بِمَهَارَةٍ فَائِقَةٍ تُثْبِي عَنْ الْقُدْرَةِ الْعَالِيَةِ لِمُصَوِّرِهَا مِير مُصَوِّرٍ.

وكان خُسْرُو أَبْرُوزِيزَ وَاحِدًا مِنَ الْمُلُوكِ السَّاسَانِيِّينَ الْأَوَاخِرِ، عُرِفَ ذَاتَ يَوْمٍ بِعَدْلِهِ ثُمَّ مَا لَبَثَ أَنْ عَدَا طَافِغِيَّةً مَعَ مُرُورِ الْأَيَّامِ، فَأَحَاطَ نَفْسُهُ بِالْهَتَّازِينَ الْمُتَمَلِّقِينَ وَلَمْ يَغْبَأَ بِاسْتِزَافِهِمْ ثُرَوَاتِ الْبِلَادِ، وَهَكَذَا مَنَ كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ حَمَلًا قَدْ أَصْبَحَ ذُبَابًا. وَقَدْ قَامَ الثُّورَارُ بِإِطْلَاقِ سَرَّاحِ ابْنِهِ الضَّعِيفِ شِيرُويِهِ مِنَ السَّجْنِ الَّذِي أَوْدَعَهُ فِيهِ أَبُوهُ، ثُمَّ أَوْدَعُوا خُسْرُو وَمَحْظِيَّتَهُ الْأَثِيرَةَ شِيرِينَ السَّجْنَ بَدَلًا مِنْهُ. وَمَا لَبَثَ شِيرُويِهِ أَنْ اعْتَلَى الْعَرْشَ فَطَالَبَهُ الثُّورَارُ بِقَتْلِ أَبِيهِ، فَاسْتَجَابَ لِمَا أَسَارُوا بِهِ مَذْعُورًا بِشَرْطِ أَنْ يَبْقَى ذَلِكَ سِرًّا غَيْرَ مُعْلَنٍ. وَتَطَوَّعَ مِهْرُ هَرْمُزٍ لِإِغْيَالِ خُسْرُو نَظِيرَ كَيْسٍ مِنَ الذَّهَبِ وَخِنْجَرٍ مَسْنُونٍ. وَعِنْدَمَا اقْتَرَبَ الْقَاتِلُ مِنَ الشَّاهِ أَدْرَكَ خُسْرُو يَتِيمَهُ فَأَوْقَدَ غُلَامَهُ لِإِحْضَارِ وَعَائِهِ الذَّهَبِيِّ وَمَاءِ وَثِيَابِ نَظِيفَةٍ عَظِيمَةٍ يَأْتِيهِ بِالْعُزْنِ مِنَ الْخَارِجِ. غَيْرَ أَنَّ الْغُلَامَ السَّادَجَ لَمْ يَقْطِنِ إِلَى مُرَادِ الْمَلِكِ وَعَادَ وَخَذَهُ، فَاسْتَسْلَمَ خُسْرُو لِمَصِيرِهِ وَأَعَدَّ نَفْسَهُ لِمُلَاقَاةِ الْمَوْتِ وَازْتَدَى ثِيَابَهُ النَّظِيفَةَ ثُمَّ نَاجَى رَبَّهُ. وَفِي سَكُونٍ أَوْصَدَ مِهْرُ هَرْمُزِ الْبَابَ ثُمَّ أَغْمَدَ خِنْجَرَهُ فِي جَسَدِ خُسْرُو. وَأُحِيلَ الْقَارِئُ إِلَى مَا ذُكِرَ قَبْلُ عَنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ عِنْدَ تَنَاوُلِ صُورِ مَحْطُوطَةِ «خَمْسَةِ نِظَامِي» ١٤٩٤ م الْمَحْفُوظَةِ بِالْمُتَحَفِ الْبَرِيطَانِيِّ.

وَمِنَمَّنةٍ مَصْرُوعٍ خُسْرُو أَبْرُوزِيزَ مِنْ عَمَلِ الْمُصَوِّرِ عَبْدِ الصَّمَدِ، وَإِذْ تَجْرِي أَحْدَاثُ هَذِهِ الْقِصَّةِ فِي جُنْحِ اللَّيْلِ نَرَى أَحَدَ رِجَالِ الْحَاشِيَةِ وَقَدْ خَلَعَ عِمَامَتَهُ لِيَسْتَعْرِقَ فِي النَّوْمِ عَلَى حِينِ تَحْيَا الْوَصِيفَاتُ حَيَاتَهُنَّ الْعَادِيَّةِ الْوَادِعَةِ فِي تَبَايُنٍ صَارِخٍ مَعَ مَشْهَدِ الْإِغْيَالِ الْبَشِيعِ فِي الْحُجْرَةِ الْمُجَاوِرَةِ (لَوْحَةُ ٢٩١ م).

وَتُعْزَى مُنَمَّنةُ الْمُبَارَزَةِ بَيْنَ فَرَى بَرزٍ وَكَلْبَادٍ (لَوْحَةُ ٢٩٢ م)، ذَاتَ الْأُسْلُوبِ التَّقْلِيدِيِّ الْعَتِيقِ، إِلَى شَيْخِ مُحَمَّدٍ الَّذِي كَانَ مِنْ بَيْنِ تَلَامِيذَةِ دُوست مُحَمَّد. وَمَا مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّهُ كَانَ يَقْفُو فِي وَضْعَاتِهِ تَصَاوِيرَ بِهَزَادٍ. قَبْعَدَ تَوَقُّفِ الْقِتَالِ بَيْنَ جُيُوشِ الْإِيرَانِيِّينَ وَالتُّورَانِيِّينَ اتَّفَقَ الْقَائِدَانِ جُوزَرْدُ وَبِيرَانُ وَاتَّفَقَا عَلَى أَنَّ يَتَجَبَّأَ الْمَزِيدُ مِنْ إِرَاقَةِ الدِّمَاءِ، وَأَنْ يَجْتَزِيَ بِأَنْ يُبَارِزَ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ، وَأَنْ يَخْتَارَ كُلُّ وَاحِدٍمَا عَشْرَةَ أَبْطَالٍ يَتَبَارِزُونَ بِذُورِهِمْ. وَكَانَ فَرَى بَرزُ بْنُ كِيكَاوَسٍ هُوَ أَوَّلُ مَنْ دَخَلَ حَلْبَةَ الْمَعْمَعَةِ لِتُنَازِلِ كَلْبَادَ شَقِيقِ بِيرَانِ قَائِدِ التُّورَانِيِّينَ. وَعَلَى الرُّغْمِ مِنْ أَنَّ سِيَهَامَ فَرَى بَرزُ قَدْ طَاشَتْ عَنْ

المُؤرَّخُونَ أَنَّ أَقْدَمَ الصُّورِ الشَّخْصِيَّةِ الْمُفْرَدَةِ قَدْ أُنْجِزَتْ تَحْتَ إشراف السُّلْطَانِ حُسَيْنٍ بِمَدِينَةِ هَرَاةٍ خِلَالِ السَّنَاتِ الْعَشْرِ الْأَخِيرَةِ تَقْرِيْبًا مِنَ الْقُرْنِ الْخَامِسِ عَشَرَ. وَمِنْ أَقْدَمِ تِلْكَ الصُّوَرِ الَّتِي بَقِيَتْ صُورَةُ مِيرِ عَلِيِّ شِيرٍ فِي شَيْخُوخَتِهِ وَهِيَ تَحْمِلُ تَوْقِيعَ «مَحْمُودِ الْمَذْهَبِ»، كَمَا بَقِيَتْ صُورُ شَخْصِيَّةِ أُخْرَى لِشِيْبَانِي خَانَ الَّذِي قُتِلَ عَامَ ١٥١٠، فَضْلًا عَنْ صُورِ عَدِيدٍ مِنَ الْأُمَرَاءِ الصَّفَوِيِّينَ، تَكْشِفُ مُقَارَنَتَهَا بِصُورِ أَصْحَابِهَا فِي الْمُنَمَّاتِ عَنْ أَنَّهَا تَرْجِعُ إِلَى حُكْمِ طَهْمَاسَب. وَيُذْفَعُ هَذَا كُلُّهُ إِلَى الْاِعْتِقَادِ بِأَنَّ قَنَ الصُّورِ الشَّخْصِيَّةِ «البورتية» قَدْ عُرِفَ فِي هَرَاةٍ فِي نِهَآيَةِ الْقُرْنِ الْخَامِسِ عَشَرَ.

مَا بَعْدَ طَهْمَاسَب

وَلَمْ يُؤَلَّ طَهْمَاسَبُ إِنْجَازَاتِ فَتَانِيهِ عِنَايَةً كَبِيرَةً فِي الْفَتْرَةِ الْأَخِيرَةِ مِنْ عَهْدِهِ نَظَرًا لِلْمَشْكِلَاتِ الْعَدِيدَةِ الَّتِي تَرَكَتْ مِنْ حَوْلِهِ، فَلَمْ تَرَكَ لَهُ مِنْ الْفَرَاغِ مَا يَسْمَحُ لَهُ بِذَلِكَ. فَقَدْ كَانَتْ جُيُوشُهُ مُشْتَبِكَةً بِصِفَةِ مُسْتَوْرَةٍ مَعَ جُيُوشِ السُّلْطَانِ سُلَيْمَانَ الْعُثْمَانِيَّ وَالْأَوْرُزْبِكِيِّينَ وَقَبَائِلِ الْكُوجِ بِالإِضَافَةِ إِلَى عَمَلِيَّاتٍ عَسْكَرِيَّةٍ أُخْرَى أَقَلَّ أَهْمِيَّةً، حَتَّى قِيلَ إِنَّهُ لَمْ يُعَادِرْ قَصْرَهُ لِأَخْذِ عَشْرَةِ سَنَةٍ. وَلَا شَكَّ أَنَّ مِثْلَ هَذَا التَّغْيِيرِ الَّذِي طَرَأَ عَلَى هَذَا الْعَاهِلِ الْكَبِيرِ كَانَ مُحْيِيًا لِأَمَالِ فَتَانِيهِ.

وَفِي عَامِ ١٥٧٦ أَعَادَ الشَّاهُ إِسْمَاعِيلُ الثَّانِي تَنْظِيمَ الْمَكْتَبَةِ الْمَلَكِيَّةِ بِمُجَرَّدِ تَوَلِّيهِ الْعَرْشِ. غَيْرَ أَنَّ الْعُمُرَ لَمْ يَمُنَّذْ بِهِ لِأَكْثَرِ مِنْ عَامَيْنِ بَعْدَ اغْتِيَالِهِ لِأَخِيهِ الْفَتَّانِ الْمَوْهُوبِ سُلْطَانَ إِبْرَاهِيمَ، وَلَمْ يَهْتَمَّ أَيُّ مِنَ الْمُلُوكِ التَّالِيْنَ بِالْمَكْتَبَاتِ أَهْتِمَامًا أَوْلَى مِنَ السَّابِقِينَ الْعِظَامِ. وَجَاءَتْ الْمَخْطُوطَاتُ حَوَالَى عَامِ ١٥٦٠، بَلَّ حَتَّى قَبْلَ ذَلِكَ التَّارِيخِ، عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ لَا تَزُخِرُ بِالزُّخَارِفِ الْمُتَمَنِّقَةِ، وَحَلَّتِ الْأَصْبَاغُ الْوَاحِدَةُ مَحَلَّ الْأَلْوَانِ السَّخِيَّةِ الْمُجَسِّمَةِ الَّتِي شَاعَتْ فِي الْقَرْنَيْنِ الْمَاضِيَيْنِ، وَلَمْ يَعُدَّ الذَّهَبُ يُسْتَعْمَلُ بِالزَّرَارَةِ نَفْسَهَا، وَقَلَّتِ الْعِنَايَةُ بِالرُّسُومِ الَّتِي غَدَتْ تَنْسِيمٌ بِالْأَلْيَةِ وَبِخَاصَّةٍ فِي الْعَدِيدِ مِنَ الشَّاهَنَامَاتِ ذَاتِ الْحَجْمِ الْكَبِيرِ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ. غَيْرَ أَنَّ هَذَا التَّدْهُورَ لَمْ يَكُنْ عَامًّا فَكَمَّةً مَخْطُوطَاتٍ جَيِّدَةٍ التَّصْوِيرِ ظَهَرَتْ فِي مُتَنَصِّفِ الْقُرْنِ وَأَوَاخِرِهِ. وَقَدْ اخْتَلَّ سَامُ مِيرْزَا مَقَامَ عَمِّهِ الشَّاهِ طَهْمَاسَبِ فِي رِعَايَةِ قَنَ تَرْقِيْنِ الْكُتُبِ خِلَالِ الْخَمْسَةِ عَشَرَ عَامًا الَّتِي تَلَتْ عَامَ ١٥٥٤، وَإِنْ لَمْ يَبْقَ غَيْرُ الْقَلِيلِ وَمَا يُمَكِّنُ زَيْبَتَهُ إِلَى مَرْسَمِهِ. وَرُبَّمَا هَاجَرَ عَدَدُ آخَرٍ مِنَ الْمُصَوِّرِينَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ إِلَى بُخَارَى وَإِلَى دَوْلَةِ الْمَغُولِ بِالْهِنْدِ، حَيْثُ إِنَّ أَفْضَلَ مَخْطُوطَاتِ بُخَارَى قَدْ أُنْجِزَتْ خِلَالِ الْفَتْرَةِ مَا بَيْنَ عَامِ ١٥٤٤ وَعَامِ ١٥٥٦.

أَثَرُ الْفُرْسِ فِي التَّصْوِيرِ الْمَغُولِيِّ بِالْهِنْدِ وَالتَّصْوِيرِ التُّرْكِيِّ

وَمِنْ بَيْنِ مُصَوِّرِي عَهْدِ شَاهِ طَهْمَاسَبِ اثْنَانِ لَهُمَا مَكَانَةٌ خَاصَّةٌ لَا لِيَمْتَزِلْتُمَا الرِّفِيعَةَ فِي مِيدَانِ الْفَنِّ بَلَّ لِلدَّوْرِ الَّذِي لَعِبَاهُ فِي تَكْوِينِ مَدْرَسَةِ التَّصْوِيرِ الْمَغُولِيِّ فِي الْهِنْدِ، وَهُمَا مِيرُ سَيِّدِ عَلِيِّ وَعَبْدُ الصَّمَدِ. وَقَدْ اشْتَرَكَ أَوَّلُهُمَا فِي تَصْوِيرِ مَخْطُوطَةِ الْمَنْظُومَاتِ الْخَمْسِ لِإِنْطَامِي. وَبَعْدَ سَنَةٍ مِنْ فَرَاغِهِ مِنْ تَصْوِيرِ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ كَانَ الْإِمْبَرَاطُورُ الْمَغُولِيُّ هُمَايُونُ بْنُ بَابُورٍ قَدْ اضْطُرَّ إِلَى أَنْ يَلْجَأَ إِلَى إِيرَانَ بَعْدَ أَنْ قَفَذَ عَرْشَهُ فِي الْهِنْدِ، فَزَارَ تَبْرِيزَ وَأَعْجَبَ فِي بِلَاطِ الشَّاهِ بِهَذَا الْفَتَّانِ، وَمِنْ ثَمَّ عَهَدَ إِلَيْهِ بِالْإِشْرَافِ عَلَى تَصْوِيرِ مَخْطُوطَةِ «حَمَزَةِ نَامَةِ» الَّتِي عَكَّفَ عَلَى إِخْرَاجِهَا حَوَالَى مِائَةِ مِنَ الْمُصَوِّرِينَ بَيْنَ هُنُودٍ وَأَجَانِبٍ. وَمِنْ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ نَبَعَ التَّصْوِيرُ الْمَغُولِيُّ الْهِنْدِيُّ وَتَفَرَّعَ عَنْهَا، فَقَدْ كَانَتْ عَمَلًا رَاضِيًا طَمُوحًا يَتَضَمَّنُ أَلْفَيْنِ وَأَرْبَعِمِائَةِ صُورَةٍ مِنَ الْحَجْمِ الْكَبِيرِ غَيْرِ الْمَأْلُوفِ، وَقَدْ تَمَّ هَذَا الْعَمَلُ فِي عَهْدِ الْإِمْبَرَاطُورِ أَكْبَرٍ. وَكَانَ عَبْدُ الصَّمَدِ ابْنُ حَاكِمِ شِيرَازٍ قَدْ خَلَّفَ مِيرُ سَيِّدَ عَلِيٍّ مُوقَّتًا عَامَ ١٥٤٩ وَالتَّحَقَّ بِخِدْمَةِ هُمَايُونِ فِي كَابُلِ الَّتِي أَقَامَ بِهَا هَذَا الْمَلِكُ مُنْذُ عَامِ ١٥٤٥ تَوَظُّفَةً لِاسْتِزْدَادِ عَرْشِهِ. هُكَذَا أَخَذَ التَّصْوِيرُ الْمَغُولِيُّ بِالْهِنْدِ فِي بِدَايَتِهِ عَنْ إِيرَانَ، وَإِنْ انْتَهَى قَبْلَ أَفُولِ الْقُرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ إِلَى تَبَنِّيِ ظِرَازِ مُشَقِّقٍ - إِلَى حَدِّ مَا - مِنْ التَّصْوِيرِ الْأُورُوبِيِّ وَالتَّصْوِيرِ الْهِنْدِيِّ الشَّعْبِيِّ الْقَوِيْمِيِّ. وَبَعْدَ زَمَنٍ قَصِيرٍ عِنْدَمَا بَلَغَ قَنَ تَصْوِيرِ الشُّخُوصِ وَمَوْضُوعَاتِ الْخَيَآوَانَاتِ أَوْجَهَ فِي عَهْدِ كُلِّ مِنَ الْإِمْبَرَاطُورِ چَهَانْجِيرِ وَشَاهِ چَهَانَ لَمْ يَعُدَّ الْأَثَرُ الْفَارِسِيِّ مَلْمُوسًا فِي الْفَنِّ الْهِنْدِيِّ.

وَكَانَ الْأَمْرُ عَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ فِي تُرْكِيَا، فَهِيَ الدَّوْلَةُ الْوَاحِدَةُ الَّتِي ظَفَرَ فِيهَا التَّصْوِيرُ الْفَارِسِيُّ بِثَبُوتٍ مُتَمَدٍّ. فَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَدَى الْأَتْرَآكِ تَقَالِيدُ قَوِيْمِيَّةٍ فِي قَنَ التَّصْوِيرِ، وَكَانَتْ الْآدَابُ الْفَارِسِيَّةُ لِقُرُونٍ عِدَّةٍ مَوْضِعَ الْمُطَالَعَةِ وَالتَّقْلِيدِ، غَدَتْ النَّمَاذِجُ الْفَارِسِيَّةُ مَوْضِعَ الْإِعْجَابِ وَالْمُحَاكَاةِ أَكْثَرَ مِنْهَا فِي الْهِنْدِ. وَالْكَثِيرُ وَمِمَّا يُدْعَى تَصْوِيرًا تُرْكِيًّا فِي الْقُرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ هُوَ فِي حَقِيقَتِهِ مِنْ عَمَلِ فَتَانَيْنِ فُوسٍ مَارَسُوا مِهْنَتَهُمْ فِي خِدْمَةِ السُّلَاطِينِ الْعُثْمَانِيِّينَ كَمَا سَيَأْتِي بَعْدَ.

الصُّورُ الْجِدَارِيَّةُ

وَمَعَ أَنَّ مُصَوِّرِي بِلَاطِ طَهْمَاسَبِ قَدْ شَغَلُوا مُعْظَمَ وَقْتِهِمْ فِي تَرْقِيْنِ الْمَخْطُوطَاتِ، إِلَّا أَنَّ بَعْضَ الْمُؤرِّخِينَ نَسَبَ إِلَيْهِمُ الْقِيَامَ بِأَعْمَالٍ أُخْرَى مِثْلَ زَخْرَفَةِ جُدْرَانِ قَصْرِ مَتْعَةٍ مُزَوَّدٍ بِالْمَرَايَا قَامَ بِهَا الْفَتَّانَانِ الْمَلِكِيَّانِ أَقَامِيرُكُ وَمِيرُ مُظْفَرُ. كَذَلِكَ بَرَعَ عَدَدٌ مِنَ الْمُصَوِّرِينَ الْبَارِزِينَ فِي قَنَ الصُّورِ الشَّخْصِيَّةِ «البورتية». وَيُرْجَّحُ

أكانوا جالسين أم واقفين أم مُهمكين في الصِّيد والقنص، وقد انحنى بعضهم على بعض في لفنة ود أو تقدير أو همس تبدى معها الرؤوس المتوجة بالعمامة الصفوية العالية. وأثر الفنان التصميمات المعمارية المسدسة الشكل أو قطاعات منها، وهي سمة ظلت تتردد بعد ذلك خلال الثلاثين عامًا التالية.

وقد سجل المصور لحظة استقبال تيمورلنك للمبعوثين الأوربيين الذين جاءوا يُقدِّمون ابن السلطان مُراد الأول العثماني، وقد وقع في أيديهم أسيرًا بعد حملته في بلاد الكرج، مُحاولين استيضاء العاهل والتحالف معه، فأحسن تيمور استقبالهم وأجابهم إلى مطالبهم (لوحة ٢٩٤ م).

ونجد أن المصور لم يترك تألفًا لونيًا جذابًا لم يستخذه، حتى أضحى اللون يؤدي في لوحته وظيفتين إحداهما «تشكيلية» عندما يؤكد «الشكل» ويبرزه، والأخرى إبداعية عندما يوجج كمال الملمس وصقل السطح، كما تطرق إلى الظلال بألوانها الزرقاء الداكنة والسماوية فوشاها بالتوريقات النباتية المتعددة الألوان. ولم يكتف بذلك، بل عمد إلى حواف الظلال فأبرزها إما في خطوط زرقاء بيضاء أو في معينات زرقاء بيضاء حتى لكأنها سجاد معلق في الفضاء يوازن السجاد الخلاب الغزير الزخارف والمبسوط على الأرض تحت أقدام الشاه. وأغلب الظن أن مصور هذه المُنمنمة كان بالمثل مُصمّم زخارف للسجاد. وإذا كانت ثمة مساحات أفلتت بعد ذلك من فراغ الصورة فقد جملها بالشجيرات والزهور الياضنة وجداول الماء. ولم يغب عن باله اختلاف أزياء المبعوثين الأوربيين عن أزياء أفراد حاشية تيمور المرتدين عمامة صفوية، فكساها بأزياء أوروبية من طراز النصف الأول من القرن السادس عشر.

وكُلما كان التصوير يفتقر إلى الوضوح والجلاء كما هي الحال في المُنمنمات ازدادت حاجة الفنان إلى التدقيق فيما يريد التعبير عنه، فيلجأ في سبيل هذا التدقيق - فيما يتصل بالشكل - إلى أوضاع نسبية مميزة أو تنسيق خاص لعناصر تكوينه، - وفيما يتصل باللون - إلى الأثر اللوني الذي تُرضي ندواته العين. والعين لا ترضى ولا تفر ولا ترتاح إلا إذا تناولت ريشة المصور أو فرشاته القسّات الجهرية للموضوع المصور. وهذا على وجه التحديد هو ما أثبتّه مصور هذه المُنمنمة ومُنمنمة الصِّيد والقنص (لوحة ٢٩٥ م) التي تجلّت فيها براعة الفنان وخُصوبة خياله ونُزوعه إلى التجديد والابتكار، فنشهد الصخور وقد تعدد لكل منها معالم مميزة، وجاء ترتيب أجزائها مُنفردًا، وأصفت عليها الألوان الهادئة الهامسة المتجانسة شخصية ذاتية تستغل بها عن مثيلاتها. كذلك لجأ المصور إلى إدماجها مع الحيوانات التي تقطن هذه

وبعد أن سقط سام ميرزا عام ١٥٦١ تولى إبراهيم ميرزا (ابن أخيه بهرام ميرزا المتوفى عام ١٤٩١) رعاية الفنون، وكان أثرًا لدى طهماسب. وقد تزوج في الثالثة عشرة من عمره من ابنة الشاه جواهر سلطان، وعُيّن حاكمًا لمدينة «مشهد» التي ألفها حيث دُفن بها والده، وقد اضطحب معه «مولانا مالك» أمهر الخطاطين ليعلّمه فن الرسم ويدير له مكتبته. غير أن الشاه استدعى مالكًا بعد ذلك بثلاثة أعوام أو أربعة إلى قزوین ليعد نقوشًا يزخرف بها مبانيه الجديدة. وقد تم إنجازها قبل انقضاء عام ١٥٦١، وإن كان قد بدأ خلال هذه الفترة في تنفيذ زخرفة واحد من أهم المخطوطات المصورة خلال هذا العصر وهو مخطوط «هفت أورانج» لثور الدين جامي المتوفى عام ١٤٦٩ م والذي يضم «خمسته» المشهورة و«سلسلة الذهب» بدفاتها الثلاثة، والمحفوظ الآن بمكتبة فرير جاليري بواشنطن، مع مُنمنماته الثماني والعشرين التي استنفذ إغدادها تسع سنوات كاملة. وقد اشترك في تنفيذ نسخة من هذا المخطوط مجموعة من الخطاطين ضمت مُحب علي الذي خلف مالكًا في إدارة مكتبة إبراهيم ميرزا، ووالده رُستم علي وعيسى، وشاه محمود الذي كان أشهرهم. وقد امتدحهم القاضي أحمد الذي نشأ في مدينة مشهد في البحث الدقيق الشامل الذي كتبه عن المصورين الذين كانوا يعملون بمكتبة الأمير.

ظفرنامه شرف الدين علي يزدي. تبريز ١٥٢٩ م.

مكتبة قصر جُلستان بطهران

ويتّصف مخطوط «ظفرنامه» لعام ١٥٢٩، المحفوظ بمكتبة جُلستان بطهران والذي يُسجل انتصارات تيمورلنك، بنوعه أسلوب تصاويره مع مهارة التنفيذ الفائقة، واختيار الألوان المتميزة بالدأوة يسودها اللونان الأزرق والأصفر اللّيموني، وتُصغير أحجام الشخصيات التي تبدو وسط مشاهد طبيعية ينتشر بها نوعان من الصخور أحدهما دائري يكاد يضاهي الصخر الطبيعي، والآخر تقليدي شبيه بالشعب المرجانية وإن صيغ في تنوعات جديدة تصافرت صبغات متعددة على تلوين جزئياته. وصوّرت السماء ذهبيّة تخللها لفائف السحب التقليدية المذبذبة على شكل القواقع باللّوين الأزرق والأبيض المشتقة عن وحدات زخرفية على الحرف الصيني. ولم يتقيد المصور بالإطار التقليدي المربع أو المستطيل فتارة يرسمه مُحَمَّسًا وتارة يجمع فيه بين المربع في ناحية والمستطيل في الناحية الأخرى. واختار المصور لبعض مُنمنماته رُكنًا ملائمًا يخترق فيه أحد عناصر التكوين حاشية الصور. وتجلّت أناقة وضعت الشخصيات سواء

التي تُصوّر مثل هذا الموضوع. وضرب المصور عرض الحائط بكل قواعد المنظور مُتَّبِعًا نَظْرِيَّةَ التَّصَوُّرِ الذَّهْنِيَّ الْمُتَخِيلَ، فَبَدَلًا مِنْ أَنْ تَكُونَ حَافَةِ الْمِظَلَّةِ الْأُفْقِيَّةِ الْقَرِيبَةِ أَعْرَضَ مِنَ الْحَافَةِ الْبَعِيدَةِ نَجِدَ الْمُصَوِّرَ قَدْ رَسَمَهَا عَكْسًا مَا هُوَ مَفْرُوضٌ، كَمَا جَاءَتْ الْخُطُوطُ الْمَحْوُطَةُ لِلرَّاقِصَتَيْنِ وَحَرَكَةُ الْأَذْرُعِ خَالِيَةً مِنْ أَيْ تَبْضٍ بِالْحَيَاةِ أَوْ أَيْ حِسٍّ بِالرَّشَاقَةِ الْمَفْرُوضَةِ فِي مِثْلِ هَاتَيْنِ الرَّاقِصَتَيْنِ. غَيْرَ أَنَّهُ فِي الْوَقْتُ نَفْسَهُ رَاعَى مَبْدَأَ التَّوَاوُنِ بَيْنَ الْمَوْسِقِيَّيْنِ وَأَفْرَادِ الْحَاشِيَّةِ وَبَيْنَ شَجَرَتَيْ السَّرْوِ اللَّتَيْنِ تَلَتَفَتْ حَوْلَهُمَا شُجَيْرَاتُ مُزْهَرَةٍ، وَجَاءَ التَّكْوِينُ عَلَى شَكْلِ مُثَلَّثٍ قِمَّتَهُ أَعْلَى الْمِظَلَّةِ. وَفَصَلَ الْفَتَانِ بَيْنَ الْعُشْبِ الْأَخْضَرِ الدَّاكِنِ وَالسَّمَاءِ الزَّرْقَاءِ بِحَافَةِ رَهِيْفَةٍ مِنَ الصُّخُورِ ذَاتِ الْأَلْوَانِ الْمُتَاكِفَةِ، وَعَشَى السَّمَاءَ بِلَفَائِفِ السُّحُبِ التَّقْلِيدِيَّةِ. وَلَعَلَّ أَكْثَرَ مَا يُبْرِزُ الْأَلْوَانِ الْبَدِيعَةُ الْمَوْزَعَةُ فِي حِذْقٍ عَلَى الْأَفْرَادِ الْمُشْتَرِكِينَ فِي الْحَادِثِ هِيَ الْخَلْفِيَّةُ الْخَضْرَاءُ الدَّاكِنَةُ لِلْحَدِيقَةِ الَّتِي تَخَلَّلَتْهَا الْأَشْجَارُ وَالشُّجَيْرَاتُ الْمُزْهَرَةُ. وَاسْتَعْدَمَ الْمُصَوِّرُ الْأَصْطِلَاحَاتِ التَّقْلِيدِيَّةَ الْمُعْبَّرَةَ عَنْ حَافَةِ الْجَبَلِ ثُمَّ السُّحُبِ لَاخْتِمَامَ الْمَشْهَدِ السَّاحِرِ بَدَلًا مِنْ تَصْوِيرِهَا مُطَابِقَةً لِلْوَاقِعِ، فَجَاءَتْ مُتَلَائِمَةً مَعَ الصُّورَةِ الشَّاعِرَةِ لِلْوَحَةِ الْمُصَوَّرَةِ.

يُوسُفُ وَزَلِيخَا، ١٥٣٣ م. دار الكتب المصرية

وَتَحُولَ مَلَامِحِ الْمَدْرَسَةِ الصَّفَوِيَّةِ فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ نُسَخَةٌ مِنْ مَخْطُوطَةٍ مِنْ دِيوَانِ «يُوسُفُ وَزَلِيخَا» لِلشَّاعِرِ جَامِي، أَتَمَّ نَسْخَهَا وَتَصَوَّرَهَا مَجْهُولٌ عَامَ ١٥٣٣، وَهِيَ مَحْفُوظَةٌ بِدَارِ الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ.

وَنَسْتَطِيعُ أَنْ نَتَبَيَّنَ رَوْعَةَ الصُّورِ الْمُلوَّنةِ لِهَذِهِ الْقِصَّةِ الَّتِي شَاعَتْ فِي جَمِيعِ الْأَدَابِ الشَّرْقِيَّةِ بِتَأَمُّلِ بَعْضِ مُنَمَّنَاتِهَا. اخْتَرْتُ مِنْهَا مُنَمَّنَةً تُصَوِّرُ عَزِيزَ بَصْرَ [فَوطِيْفَار] فِي طَرِيقِهِ لَاسْتِجْبَالِ عَرُوسِهِ زَلِيخَا، مُتَصَدِّرًا الْمَوْكِبَ عَلَى ظَهْرِ جَوَادِهِ، تَحَفَّتْ بِهِ حَاشِيَّتُهُ بِعِجَامَاتِهِمِ الصَّفَوِيَّةِ، وَيَحْمِلُ خَدَمَهُ الرَّاجِلُونَ وَالزَّاكِبُونَ الْهَدَايَا وَالْأَطْعِمَةَ وَالْمَشْرُوبَاتِ، بَيْنَمَا تَعَزِفُ الْجَوَارِي فَوْقَ صَهَوَاتِ حِيَادِهِنَّ عَلَى الْآلَاتِ الْمَوْسِيقِيَّةِ فِي مَشْهَدٍ خَلَابٍ مُبْتَكِرٍ خَصَبَ الْخَيَالِ، فَتَرَى إِحْدَاهُنَّ فِي أَعْلَى الصُّورَةِ تَعَزِفُ عَلَى الْقِيْثَارَةِ تَلْهِيًا أُخْرَى تَنْفَخُ فِي الثَّانِي وَثَالِثَةً تَعَزِفُ عَلَى الْعُودِ وَالرَّابِعَةَ وَالْخَامِيسَةَ تَقْرَعَانِ الدُّفُوفَ. وَمِنْ جَدِيدٍ نَشْهَدُ رَأْسَ عَتْرَةِ تَطُلُّ عَلَى الْمَوْكِبِ مِنْ بَيْنِ الصُّخُورِ (لَوْحَةٌ ٢٩٧ م). وَثَمَّةُ مُنَمَّنَاتِ ثَلَاثٍ أُخْرَى مِنْ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ أُحِيلَ إِلَيْهَا الْقَارِئُ فِي الْبَابِ السَّادِسِ مِنْ هَذِهِ الْمَوْسُوعَةِ (لَوْحَاتُ ٤٥٧ م، ٤٥٨ م، ٤٥٩ م). وَجَمِيعُهَا لَمْ يَسْبِقْ نَشْرُهَا.

الوَادِ، فَتَرَى مُقَدِّمَ فِيلٍ بِخُرْطُومِهِ وَنَابِيَّةٍ يَنْدِفَعُ مِنْ بَيْنِ الصُّخُورِ وَكَأَنَّهُ جُزْءٌ لَا تَكَادُ الْعَيْنُ تُمَيِّزُهُ لِأَوَّلِ وَهَلَةٍ، وَتَرَى الْخَطَّ الْأَفْقِيَّ الْمُنْحَنِي لِيُظْهِرَ الْفَهْدَ الْمَرْقُطَ يُبَايِنُ خُطُوطَ الصَّخْرِ الرَّأْسِيَّةِ، وَنَلْمَحُ رَأْسَ كَرْكَدَنٍ دَاكِنٍ يَشْرِي بِمِنْ بَيْنَ فَجَوَاتِ الصُّخُورِ يَرْتَفِعُ قَوْلُهُ إِلَى صَفْحَةِ السَّمَاءِ الذَّهَبِيَّةِ وَأَمَامَهُ أَتِيلٌ فِي لَوْنِ الصَّخْرِ يَرْتَفِعُ قَوْلُهُ أَيْضًا إِلَى صَفْحَةِ السَّمَاءِ. وَهُنَا وَهُنَاكَ تُمَيِّزُ ظَبْيًا أَوْ غَزَالًا أَوْ عَتْرَةً تُطَلُّ لِتَكْسِرَ رَتَابَةَ التَّلِّ الصَّخْرِيِّ الَّذِي يَشْغُلُ الْمُثَلَّثَ الْأَعْلَى الْأَيْسَرَ مِنَ الصُّورَةِ، عَلَى حِينِ يَجْرِي الطَّرَادُ وَالْقَنْصُ فَوْقَ الْمُثَلَّثِ الْأَدْنَى الْأَيْمَنِ. وَلَا تَكَادُ الْعَيْنُ تُمَيِّزُ فِي مُقَدِّمَةِ الصُّورَةِ - إِلَّا بِصُعُوبَةٍ - فَارِسًا يَسْتَدِيرُ فَوْقَ صَهْوَةٍ جَوَادِهِ لِيُزْمِيَ غَزَالًا بِسَهْمِهِ، وَفَارِسًا آخَرَ يَهْمُ بِأَنْ يَهْوِيَ بِسَهْمِهِ عَلَى لَبْوَةٍ غَاضِبَةٍ تَحَاوِلُ أَنْ تَعْقِرَ سَاقَهُ، وَفَارِسًا ثَالِثًا يُمَطِّرُ الْغُزْلَانَ وَالْأَرَانِبَ الْبَرِّيَّةَ بِوَابِلٍ مِنْ سِيَاهِمَا، حَتَّى تَنْتَقِلَ مُصْعِدَةً إِلَى صِرَاعٍ شَخْصٍ مُتَرْجِّلٍ عَلَى وَشْكَ أَنْ يَطْعَنَ نَوْمًا وَثَبَ عَلَيْهِ بِخُنْجَرِهِ، عَلَى حِينِ يَقُودُ خَادِمٌ غَزَالًا وَكَلْبٌ صَبْدٌ إِلَى مَكَانٍ أَمِينٍ. وَيُظْهِرُ إِلَى يَمِينِ الصُّورَةِ فَارِسَانِ مُخْتَبِئَانِ وَرَاءَ الصُّخُورِ بِجَوَادِيهِمَا مُتَرْبِّصَيْنِ بِالْفَرِيسَةِ. وَيُتَوَّجُ الْمَشْهَدُ نُتُوءَ بَدِيعٍ يُصَوِّرُ قِمَّةَ التَّلِّ تَنْبِيْقُ عَنْهُ شَجَرَةٌ تَخْتَرِقُ فُرُوعَهَا وَأُورَاقَهَا الْخَضْرَاءُ الضَّلْعُ الْخَامِسُ الْأَيْنِقُ لِحَاشِيَّةِ الصُّورَةِ يَحِطُّ عَلَيْهَا طَيْرٌ أَرْزَقٌ وَآخَرٌ أَحْمَرٌ.

ديوان حافظ ١٥٣٣ م

وَهُنَاكَ مُنَمَّنَةٌ مُخْتَلِفَةُ الطَّائِعِ ضِمْنَ مَخْطُوطِ «دِيوَانِ حَافِظٍ»، تُنَسَّبُ إِمَّا إِلَى الْمُصَوِّرِ أَفَامِيرِكٍ وَإِمَّا إِلَى سُلْطَانِ مُحَمَّدٍ، وَتُصَوِّرُ سَامَ وَبِرَا ابْنَ الشَّاهِ إِسْمَاعِيلَ فِي صُحْبَةِ فَتَاةٍ يَقْتَرِشَانِ بِسَاطًا مُوشًى بِالزُّخَارِفِ النَّبَاتِيَّةِ تَحْتَ مِظَلَّةٍ زَرْقَاءَ ذَاتِ تَوْرِيقَاتٍ نَبَاتِيَّةٍ بَدِيعَةٍ، تَدَلَّتْ حَوَافِهَا ذَاتَ الْخُطُوطِ النَّبَاتِيَّةِ وَالْخَضْرَاءِ وَسَطَ حَدِيقَةٍ، وَيَعَزِفُ لَهُمَا مُوسِيقِيَانِ أَحَدُهُمَا عَلَى الثَّانِي وَالْآخَرُ يَقْرَعُ الدَّفَّ، بَيْنَا تَرْقُصُ عَلَى أَنْعَامِهِمَا رَاقِصَتَانِ تَتَصَدَّرَانِ الصُّورَةَ وَتَقْرَعَانِ الصَّفَاقَاتِ أَثْنَاءَ الرُّقْصِ. وَانْتَصَبَتْ أَمَامَ الْعَاشِقَيْنِ مَائِدَةٌ عَلَيْهَا إِبْرِيْقَانِ مِنَ الْمَعْلِينِ الْمُدْهَبِ وَقَيْنَةٌ مِنَ الْخَزَفِ ذِي اللَّوْنَيْنِ الْأَبْيَضِ وَالْأَزْرَقِ وَصُحُونٌ بِهَا فَاكِيْهَةٌ، وَرَكَعٌ أَحَدُ الْخَدَمِ يَصَبُّ لَهُمَا الشَّرَابَ (لَوْحَةٌ ٢٩٦ م). وَجَلَسَ فِي مُقَابِلِ عَازِفِي الْمَوْسِيقَى ثَلَاثَةُ أَفْرَادٍ مِنَ الْحَاشِيَّةِ يَتَسَامَرُونَ أَثْنَاءَ مُشَاهَدَةِ الرُّقْصِ، يَأْكُلُ أَحَدُهُمْ فَاكِيْهَةً وَيَصَبُّ آخَرُ الْخَمْرَ فِي قَدَحِهِ. وَاللَّوْحَةُ تُعَبِّرُ عَنْ بَيْتٍ شِعْرِ يَقُولُ: «لَا خَلَاوَةَ لِلْوَرْدَةِ بِدُونِ وَجْهِ الْمَعْشُوقِ، وَلَا خَلَاوَةَ لِلرَّبِيعِ بِدُونِ كَأْسِ الْخَمْرِ».

وَقَدْ تَضَافَرَ الْعُنْصُرَانِ التَّشْكِيلِيَّ وَالْجَمَالِيَّ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ كَيْ يَخْلَعَا عَلَيْهَا شَخْصِيَّةً مُفْرَدَةً بَيْنَ مُخْتَلِفِ الصُّوَرِ الْفَارْسِيَّةِ

خُسرو وشيرين، ١٥٤٠ م، المُنْتَحَف المَلَكِي بِأَدْنِبَرِه

وَيَضَمُّ المُنْتَحَف المَلَكِي بِإِسْكُوتَلَنْدِه مُنَمَّةً بِالْغَةِ الرِّقَّةِ تُنبِئُ عن إْحْسَاس قَوِيٍّ بِالْبِنَاءِ وَسَيْرِ المَعْرَكَةِ، يَرْجِعُ تَارِيخُهَا إِلَى حَوَالَى عام ١٥٤٠. وَنَرَى فِي هَذِهِ المُنَمَّةِ (لَوْحَةٌ ٢٩٨ م) الأَمِيرَ خُسْرُو أَبْرُويز يُعَدُّ أَنْ نَصَحَتْهُ شِيرِينَ أَنْ يُحَاوِلَ اسْتِخْلَاصَ عَرْشِهِ الَّذِي اغْتَصَبَهُ بِهَرَامِ جُوبِينَ، فَتَوَجَّهَ خُسْرُو لِقِتَالِهِ وَظَلَّ يَرْقُبُ سَيْرَ المَعْرَكَةِ رَاكِبًا فَيْلًا حَتَّى حَانَ الْوَقْتُ الْمُنَاسِبُ الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَشْتَرِكَ فِيهِ فِي الْقِتَالِ بِنَفْسِهِ، فَقَاتَلَ بِسَالَةِ وَدَحَرَ خُصْمَهُ بِهَرَامِ الَّذِي قَرَّ إِلَى الصَّيْنِ، وَعَادَ خُسْرُو إِلَى عَرْشِهِ مِنْ جَدِيدٍ. وَنَرَى فِي اللُّوْحَةِ خُسْرُو فِي هَوْدَجٍ فَوْقَ فَيْلٍ أَبْيَضٍ، وَمِنْ وَرَائِهِ حَامِلُ العِلْمِ المُنْقُوشِ عَلَيْهِ بِعِبَارَةِ «نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ» وَإِلَى جِوَارِهِ مُعَلِّمُهُ وَوَزِيرُهُ بُزْرُجَمِيدُ بِعِمَامَةٍ صَفْوِيَّةٍ حَامِلًا فِي يَدِهِ الْأَسْطُرْلَابَ مُتَرَقِّبًا اللَّحْظَةَ الْمُوَاتِيَةَ لِشَنْ هُجُومِهِ عَلَى بِهَرَامِ جُوبِينَ. وَالمَشْهَدُ سَلِيمُ الْبِنَاءِ، حَافِلٌ بِالْحَرَكَةِ الَّتِي تَبْدَأُ مِنْ يَسَارِ الصُّورَةِ حَيْثُ يَسْطَعُ مِنَ الرُّكْنِ الْعُلُويِّ الْأَيْسَرِ قُرْصُ الشَّمْسِ فِي شِبْهِ دَائِرَةٍ تَنْبُعُ مِنْهَا الْأَشْيَعَةُ مُخْتَرِقةً سَمَاءَ زَرْقَاءَ تُغْشِيهَا لَفَافِي السَّحْبِ الثَّقَلِيدَةِ. وَتَصْوِيرُ هَذَا الْقُرْصِ ظَاهِرَةٌ فَلِكَيْتَةِ عِرَاقِيَّةٍ مُنْذُ الْعَهْدِ الْبَابِلِيِّ أَخَذَهَا عَنْهُمْ الْفُرْسُ رَمْزًا لِلْمَلَكِيَّةِ، وَكَثِيرًا مَا نَرَى هَذَا الْقُرْصَ مُنْذُ الْعَهْدِ السَّلْجُوقِيِّ عَلَى الْخَرْفِ الْمُرْجَجِ وَالمَعَادِنِ الْمَشْغُولَةِ. أَمَّا أَتْنَا لَمْ نَشْهَدْهُ فِي مَجَالِ التَّصْوِيرِ إِلَّا فِي الْعَهْدِ الصَّفْوِيِّ فَلَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يُسْتَخْدَمْ خِلَالَ عَهْدِ الْإِيلَخَانَاتِ أَوْ الْعَهْدِ التَّيْمُورِيِّ، فَإِنَّ نِسْبَةَ مَا وَصَلَ إِلَيْنَا مِنَ المَخْطُوطَاتِ المَصُورَةِ مِنْ هَذَيْنِ الْعَهْدَيْنِ جِدًّا قَلِيلٌ وَرُبَّمَا تَكْشِفُ الدِّرَاسَةُ فِيمَا بَعْدَ عَنْ وُجُودِهِ وَاسْتِخْدَامِهِ.

وَفِي طَرَفِ سَاحَةِ المَعْرَكَةِ نَرَى فَارِسًا يَنْفِخُ الْبُوقَ مُعَلِّيًا بَذَهَ الرُّخْفِ وَالهُجُومِ. وَتَتَوَالَى مَشَاهِدُ الْقِتَالِ، فَتَشْهَدُ أَحَدَ قُرْصَانِ خُسْرُو يَطْعَنُ بِرُمُوحِهِ ظَهْرَ أَحَدِ الْأَعْدَاءِ، وَنَرَى صِرَاعًا بَيْنَ الْقُرْصَانِ يَتَبَادَلُونَ قَذْفَ السَّهَامِ، أَوْ بَيْنَ جُنْدِيَيْنِ مُتَرَجِّلِينَ يَأْخُذُ أَحَدُهُمَا بِخِنَاقِ الْآخَرِ، أَوْ بَيْنَ فَارِسٍ يُبَارِزُ جُنْدِيًّا مُتَرَجِّلًا بِالسَّيْفِ. وَنَشْهَدُ بَعْضَ الْقَتْلَى مُجَنْدَلِينَ عَلَى سَاحَةِ المَعْرَكَةِ وَجَعِبَاتِ السَّهَامِ وَالحُودَاتِ وَالثَّرُوسِ وَالرُّؤُوسِ المَفْصُولَةِ عَنْ أَجْسَادِهَا مُبْعَثَرَةً هُنَا وَهُنَاكَ بِحَيْثُ لَمْ يَتْرَكِ المُصَوِّرُ قَرَاعًا إِلَّا حَشْدَهُ بِمَا يَعْكُسُ جَوَّ المَعْرَكَةِ الرَّهِيْبِ.

خُمْسُهُ نِظَامِي، ١٥٣٩ - ١٥٤٣ م

مَا مِنْ شَاكٍ فِي أَنَّ أَرْقَعَ المَخْطُوطَاتِ المَصُورَةِ قِيَمَةً فِي النِّصْفِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ هُمَا خُمْسُهُ نِظَامِي وَشَاهَنَامَةُ طَهْمَاسَپ. وَتُرَيْنَ مَخْطُوطَةُ خُمْسِهِ نِظَامِي المَخْطُوطَةُ

بِالمُنْتَحَفِ الْبَرِيطَانِي وَالَّتِي أُنْجِزَتْ مَا بَيْنَ عَامِي ١٥٣٩ وَ١٥٤٣ فِي تَبْرِيزِ أَرْبَعِ عَشْرَةِ مُنَمَّةٍ كَبِيرَةٍ رَافِعَةِ التَّصْوِيرِ، رَسَمَهَا أَقَامِيرُكُ وَسُلْطَانُ مُحَمَّدٍ وَمِيرُ سَيِّدٍ عَلِيٍّ وَمِيرِزَا عَلِيٍّ وَمُظَفَّرُ عَلِيٍّ وَغَيْرِهِمْ. وَتُعَدُّ هَذِهِ المُنَمَّاتُ دُرُورَةَ الْأَسْلُوبِ الْفَخْمِ وَأَشَدَّ مُنْجَزَاتِ التَّصْوِيرِ الْفَارِسِيِّ نُضْجًا وَثَرَاءً، وَتَزْهُو بِهَوَايِشِهَا الْمُدْهَبَةِ بِالرُّخَارِفِ النَّبَاتِيَّةِ وَمُخْتَلِفِ أَنْوَاعِ الطَّيْرِ وَالحَيَوَانِ. وَقَدْ أَضَافَ إِلَيْهَا الْفَتَّانُ «مُحَمَّدُ زَمَانُ» خِلَالَ الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ ثَلَاثَ مُنَمَّاتٍ أُخْرَى تَجَلَّتْ فِيهَا السَّمَاتُ الْأَوْروْبِيَّةُ عَلَى نَحْوِ مَا سَيَأْتِي بَعْدَ.

وَتَخْتَلِفُ «خُمْسُهُ نِظَامِي» عَنْ «شَاهَنَامَةِ طَهْمَاسَپ» فِي كَوْنِهَا عَمَلًا مُوَحَّدًا مُتَنَاسِقًا بِفَضْلِ قِلَّةِ عَدَدِ مُنَمَّاتِهَا الَّتِي كَانَتْ كَثْرَتُهَا فِي شَاهَنَامَةِ طَهْمَاسَپِ عُضْرَ ضَعْفٍ وَقُوَّةً فِي آنٍ وَاحِدٍ. وَتُصَوِّرُ «خُمْسُهُ نِظَامِي» أَفْرَادَ الطَّبَقَةِ الْعُلْيَا مِنْ أَمِيرَاتٍ وَوَصِيفَاتٍ وَأُمَرَاءَ يَرْفُلُونَ جَمِيعًا فِي أَرْوَاعِ الْأَزْيَاءِ وَأَكْثَرُهَا أَنْاقَةٌ وَسِحْرَاءُ، وَتُحِيطُ بِهِمْ الْمَقَاعِدُ الْمُدْهَبَةُ وَكِتَابَاتُ السَّهَامِ الْبَالِغَةُ الرُّوعَةُ فِي دِقَّةِ صَنْعِهَا وَرِقَّتِهَا وَالأَسْلِحَةُ الْمَصْصُغَةُ صِبَاغَةَ الْفُنُونِ الدَّقِيقَةِ وَالْأَطْبَاقِ وَالصُّحُفِ الْمُتَشِيرَةِ الْحَافِلَةِ بِأَشْهَى أَلْوَانِ الطَّعَامِ، وَآلَاتُ الطَّرَبِ تَعْرِفُ عَلَيْهَا الْأَمِيرَاتُ فِي سَاحَةِ الصَّيْدِ لِإِثَارَةِ حَمَاسِ الْمُتَقَاتِلِينَ الشُّجْعَانِ، وَحَيَوَانَاتُ التَّنْبِينِ وَطُيُورُ الْعَنْفَاءِ الَّتِي اسْتَحَالَتْ إِلَى مُجَرَّدِ زَخَارِفَ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ فِي الْمَاضِي تُصَوِّرُ مُخْتَالَةَ الْوُضُوعَاتِ مَرْهُورَةً اللَّفَاتِ. عَلَى أَنَّ «خُمْسُهُ نِظَامِي» قَدْ تَضَمَّنَتْ بَعْضَ تَيَّارَاتِ الْوُجْدِ الصُّوفِيِّ الَّتِي تَعَكُسُ تَأَثُّرًا بِكُلِّ مِنَ الْأُسْلُوبَيْنِ التُّرْكَمَانِيِّ وَالتَّيْمُورِيِّ، وَهُوَ مَا يَتَجَلَّى وَاضِحًا فِي الْعَدِيدِ مِنَ لَوْحَاتِ التَّصْوِيرِ الدِّينِيِّ بِالبَابِ السَّادِسِ.

وَفِي مُنَمَّةِ «كِسْرَى أَنْوُ شَرْوَانِ يَسْتَمِيعُ إِلَى الْبُومِ فَوْقَ أَطْلَالِ قَصْرِ خِلَالَ اللَّيْلِ» الْوَارِدَةِ فِي الْمَقَالَةِ الرَّابِعَةِ «الْعَدَلُ وَرِعَايَةُ الْإِنْصَافِ» مِنْ مَنَظُومَةِ «مَخْزَنُ الْأَسْرَارِ» لِنِظَامِي (لَوْحَةٌ ١٨٤) نَلْمَسُ تَأَثُّرَ مُصَوِّرِهَا أَقَامِيرُكُ بِأُسْتَاذِهِ بِهَزَادَ، فَهُوَ لَا يَفْتَأُ يُزَيِّنُ الثِّيَابَ وَالسُّرُوجَ بِالزُّخَارِفِ الْبَهْجَةِ الْبَدِيعَةِ وَيَرْسُمُ الْخَيْلَ بِالْخُطُوطِ الْمَحْوُوطَةِ الْأَنِيقَةِ نَفْسَهَا. وَتَزُوي الْقِصَّةُ أَنَّ أَنْوَشَرْوَانَ قَدْ خَرَجَ لِلصَّيْدِ بِصَحْبَةِ وَزِيرِهِ وَحَاشِيَتِهِ، وَمَا لَبِثَ أَنْ ضَلَّ الطَّرِيقَ وَلَمْ يَبْقَ مَعَهُ إِلَّا وَزِيرُهُ. فَابْتَصَرَ طَائِرَيْنِ مِنَ الْبُومِ يَتَحَدَّثَانِ، وَكَانَ الْوَزِيرُ يَعْرِفُ لُغَةَ الطَّيْرِ. وَحِينَ سَأَلَهُ الْمَلِكُ عَمَّا يَقُولُهُ الْبُومُ أَجَابَ بِأَنَّهُمَا يُنَاقِشَانِ زَوْاجَ أَحَدِهِمَا مِنْ ابْنَةِ الْآخَرِ الَّذِي يُطَالِبُ بِمَهْرٍ هُوَ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْأَطْلَالِ الْخَرِبَةِ، فَيَرِدُ الطَّائِرُ الْأَوَّلُ إِنَّ هَذَا أَمْرٌ مَيَسُورٌ طَالَمَا يُوَاصِلُ الْمَلِكُ سِيَاسَتَهُ الرَّاهِنَةَ. فَتَأَثَّرَ أَنْوَشَرْوَانُ وَنَدِمَ قَائِلًا إِنَّ ظُلْمَهُ أَسْفَرَ عَنْ إِحْلَالِ الْبُومِ مَكَانَ الْبَشَرِ، وَمَا لَبِثَ أَنْ تَحَوَّلَ مِنْ مَلِكٍ ظَالِمٍ إِلَى مَلِكٍ عَادِلٍ.

وَلَا تَتَجَلَّى فِي هَذِهِ المُنَمَّةِ بَرَاةُ المُصَوِّرِ فَحَسْبُ، بَلْ

وَلَيْسَ ثَمَّةَ عَلاَقَةٍ بَيِّنَ هَذِهِ التَّفَاصِيلِ وَقَصِيدَةِ الْحُبِّ، وَلَكِنَّهَا تَفَاصِيلُ بَدِيعَةٍ جَذَابَةٍ ثَبَّتِ الْاهْتِمَامَ بِتَسْجِيلِ أَنْشِيطَةِ الْحَيَاةِ الْيَوْمِيَّةِ وَقَتُّكَادَ.

وقام ميرزا عليّ بِتَصْوِيرِ مُنَمَّنَتَيْنِ فِي هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ، إِحْدَاهُمَا لِشَاهُورِ نَدِيمٍ خَسِرُو يَعْزُضُ صُورَةَ مَوْلَاهُ عَلَى شِيرِينَ (لَوْحَةٌ ١٨٧). وَكَانَ خَسِرُو قَدْ رَجَا شَاهُورَ - كَمَا سَبَقَ الْقَوْلُ - أَنْ يَأْتِيَهُ لَهْ بِشِيرِينَ، فَوَعَدَ بِذَلِكَ وَرَسَمَ صُورَةَ خَسِرُو عَلَى وَرَقَةٍ كَبِيرَةٍ وَأَرْسَلَهَا إِلَيْهَا، وَهُنَا بَدَأَ عَشَقَ شِيرِينَ لِخَسِرُو. وَبِتَجَلُّيْ أَهْتِمَامِ الْمُصَوِّرِ بِالزَّخَارِفِ الْأَنْيَقَةِ وَبِخَاصَّةٍ فِي رَسْمِ الظِّلَّةِ وَخَوَافِهَا. وَعَلَى حِينٍ جَلَسَتْ شِيرِينَ عَلَى تَحْتِهَا تُحِيطُ بِهَا وَصِيفَاتُهَا يَجْلِسُ شَاهُورُ عَارِضًا صُورَةَ خَسِرُو بِالْقُرْبِ مِنْ فَسْفِيَّةٍ تَتَوَسَّطُ الْفِنَاءَ ذَاتَ زَخَارِفِ نَبَاتِيَّةٍ مُحَوَّرَةٍ تَسْبِحُ بِدَاخِلِهَا بَطَّةً، وَمِنْ حَوْلِهَا حَاشِيَّةٌ الْأَمِيرَةِ وَالْخَدَمِ يُقَدِّمُونَ الطَّعَامَ وَالْأَقْمِشَةَ. وَنَرَى شِيرِينَ وَهِيَ تَمُدُّ يَدَهَا لِتَتَنَاوَلَ الصُّورَةَ مِنْ شَاهُورِ بَيْنَمَا وَضَعَتْ وَصِيفَاتُهَا أَصَابِعَهُنَّ فَوْقَ شِفَاهِيْنَّ عِلَامَةَ الْإِتِبَاهِ بِجَمَالِ صَاحِبِ الصُّورَةِ.

وَتُصَوِّرُ مُنَمَّنَةً أُخْرَى (لَوْحَةٌ ١٨٨) خَسِرُو يَسْتَمِيعُ إِلَى بَارِيدٍ وَهُوَ يَعْزِفُ عَلَى الْعُودِ بَعْدَ أَنْ اكْتُشِفَ فِيهِ صَوْتًا لَا هُوَ صَوْتُ مَلِكٍ وَلَا جَنِّيٍّ، فَأَمَرَ بِالْإِعْدَاقِ عَلَيْهِ وَجَعَلَهُ إِمَامَ الْمُطْرِبِينَ. وَتَمَيَّزَتْ هَذِهِ الْمُنَمَّنَةُ بِالْمِثَالِ الشَّدِيدِ إِلَى زَخَارِفِ الْجَلْبَابِ الْعُمَارِيَّةِ وَتَسْجِيلِ حَيَاةِ الْقَوْمِ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْأَمَاكِينِ، حَيْثُ يَجْلِسُ خَسِرُو عَلَى عَرْشِهِ مُسْتَمِعًا وَيُقَدِّمُ لَهُ خَادِمٌ طَبَقَ الْفَاكِهَةِ. وَعَلَى مَقَرَّبَةٍ مِنْهُ يَجْلِسُ بَارِيدٌ عَازِفًا الْعُودَ مُتَمَايِلًا، وَإِلَى جَانِبِهِ صَبِيٌّ يَضْبُطُ الْإِنْتِقَاعَ عَلَى الدُّفِّ. وَتَنَاقَرُ الْمَدْعُودُونَ يَتَسَامَرُونَ وَيَشْرَبُونَ بَيْنَمَا يَسْتَمِيعُونَ حَوْلَ الْفَسْفِيَّةِ التَّقْلِيدِيَّةِ، وَنَرَاهَا هُنَا ذَاتَ زَخَارِفِ نَبَاتِيَّةٍ مُحَوَّرَةٍ. وَيَدْخُلُ الْخَدَمُ مِنَ الْبَابِ حَامِلِينَ الثِّيَابَ الَّتِي قَدْ يَخْلَعُهَا الشَّاهُ عَلَى مُطْرِبِهِ. وَفِي شُرْفَةِ الْمَنَى الْمُجَاوِرِ جَلَسَتْ أَمْرَأَةٌ وَإِلَى صَدْرِهَا رَضِيعُهَا بَيْنَمَا وَقَفَ الْحَارِسُ حَامِلًا قَوْسَهُ.

وَتَشْهَدُ فَنٌّ مُظَفَّرٌ أَحَدَ تَلَامِيذَةِ بَهْرَادٍ فِي مُنَمَّنَةٍ بِهَرَامٍ جُورٍ فِي صَبَدِ الْحُمُرِ الرَّحْشِيَّةِ (لَوْحَةٌ ١٨٩). وَنَرَاهُ هُنَا يَتَحَاشَى الْإِكْتَارَ مِنَ التَّفَاصِيلِ وَيَبْدُو أَنَّهُ أَخَذَ عَنْ أَسْتَاذِهِ أَصُولَ التَّكْوِينِ الْمُنَازِنِ وَبِتَجَلُّيْ فِي شُخُوصِهِ وَحَيَوَانَاتِهِ طَائِعِ الْحَرَكَةِ أَكْثَرَ مِنْ مُعَاَصِرِيهِ.

وَتُزَوِّي قِصَّةَ الْمُنَمَّنَةِ - كَمَا أَسْلَفْنَا - أَنَّ بِهَرَامٍ خَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ لِلصَّيْدِ مُصْطَفِحًا مَعَهُ جَارِيَتُهُ الْأَثِيرَةُ فِتْنَةً كَيْ يَصْطَادَ وَهِيَ تُغْنِي لَهُ. فَظَهَرَ حِمَارٌ وَحْشِيٌّ شَرِسٌ، فَسَأَلَتْهُ فِتْنَةً إِنْ كَانَ يَقْوَى عَلَى أَنْ يُعَاجِلَهُ بِسَهْمٍ يَنْفِذَ مِنْ خَطْمِهِ إِلَى حَافِرِهِ. وَسُرْعَانِ مَا أَجَابَ

يَتَجَلَّى كَذَلِكَ وَلَعَهُ الشَّدِيدُ بِالطَّبِيعَةِ وَتَفَاصِيلِهَا، كَمَا يَتَّضِحُ الْأُسْلُوبُ الرَّقِيقُ اللَّمَّاحُ فِي مُوَاخَذَةِ الْمُلُوكِ فِي إِيرَانَ.

وَإِلَى جَانِبِ الْقَصْرِ الْمُتَهَدَّمِ الْمُسَدَّسِ الْأَضْلَاعِ، وَالَّذِي لَمْ يَضَنْ أَقَامِيرِكُ عَلَى جُدْرَانِهِ الْمُتَدَاعِيَّةِ بِكُسُوفَةٍ مِنَ الْقَاشَانِيِّ ذِي الزَّخَارِفِ الْهَنْدَسِيَّةِ، انْطَلَقَ يَسْخُو عَلَى الطَّبِيعَةِ الْمُحِيطَةِ بِالشَّجَارِ الْمُخْتَلِفَةِ الْأَلْوَانِ مِنْ سَرُوٍ إِلَى صَنْوَبَرٍ إِلَى أَشْجَارِ الْفَاكِهَةِ الْمُزْهِرَةِ إِلَى جَدُولٍ يَنْحَدِرُ مِنْ عَيْنٍ فِي جَوْفِ الصَّخْرِ فِي أَعْلَى يَمِينِ الصُّورَةِ مُسْتَرَسِلًا نَحْوَ الْبِرْكََةِ فِي مُقَدِّمَةِ الصُّورَةِ، حَيْثُ لَمْ يَثُتِ الْفَتَّانُ مُحَاكَاةَ لَفَاتِ الْمَعِيشَةِ الْيَوْمِيَّةِ، فَتَرَى حَطَابًا يَهْوِي بِفَأْسِهِ عَلَى جَذَعِ شَجَرَةٍ عَلَى حِينٍ يَزُتْوِي آخَرَ وَجِمَارَهُ مِنَ الْبِرْكََةِ، وَوَسْطِ أَطْلَالِ الْقَصْرِ نَلْمَحُ عَنَزَتَيْنِ. وَفَوْقَ قِمَمِ الْأَشْجَارِ وَالشَّجَرَاتِ يُحَلِّقُ الطَّيْرُ أَوْ يَعُشُّشُ، عَلَى حِينٍ نَلْمَحُ الْبُومَتَيْنِ فَوْقَ سُورِ الْقَصْرِ فِي الرُّكْنِ الْأَيْسَرِ.

وَفِي مُنَمَّنَةٍ أُخْرَى لِأَقَامِيرِكِ (لَوْحَةٌ ١٨٥) يُصَوِّرُ الْوُحُوشَ وَقَدْ أَسْنَتْ إِلَى الْمَجْنُونِ الَّذِي كَانَ كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مُسَافِرٌ وَقَدَّمَ لَهُ طَعَامًا يَأْكُلُ بَعْضُهُ ثُمَّ يَقْدِمُ الْبَاقِي إِلَى الْحَيَوَانَاتِ لِتُطْعَمَ مِنْهُ حَتَّى اسْتَأَقَتْ لَهُ طَائِعَةً، فَالْإِحْسَانُ يَأْسِرُ الْحَيَوَانَاتِ وَيَسْتَأْنِسُ الْوُحُوشُ مِنْهَا. وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ نِظَامِي فِي قَصِيدَتِهِ قَوْلُهُ الْمَثُورُ الَّذِي سَبَقَ أَنْ ذَكَرْنَاهُ: «لَعَمْرِي لَوْ فَعَلْتُ أَنْتَ أَيْضًا مَا فَعَلَهُ الْمَجْنُونُ فَلَنْ تَحْمَلَ مِنَ الدُّنْيَا هَمًّا، حَتَّى لَوْ كَانَ الْخَلِيفَةُ جَلِيسَكَ لِأَنَّهُ بَعْدَ أَنْ يَذُوقَ طَعَامَكَ يَخْدُو لَكَ خَادِمًا». وَنَحْنُ نَلْمَسُ لِلْوَهْلَةِ الْأُولَى مَدَى انْتِفَاعِ الْمُصَوِّرِ أَقَامِيرِكِ الْمُوَلِّعِ بِالطَّبِيعَةِ بِهَذَا النَّصِّ مِنْ قَصِيدَةِ نِظَامِي، فَتَرَاهُ قَدْ رَسَمَ الْمَجْنُونِ يُدَاعِبُ غَزَالَةَ اسْتَنَامَتْ لَهُ فِي دَعَةٍ، وَمِنْ وَرَائِهَا فَهْدٌ مُتَنَمِّرٌ يَسْتَنِدُ إِلَى صَخْرَةٍ نَائِتَةٍ وَإِلَى يَسَارِهِ أَسَدَانِ، وَمِنْ حَوْلِهِ الْغُزْلَانُ وَالْأَيَّالُ وَالطُّبَاءُ وَالْأَرَانِبُ الْبَرِّيَّةُ وَالْحُمُرُ الْوَحْشِيَّةُ، وَعَلَى قِمَّةِ الصَّخْرَةِ شَجَرَةُ مُزْهِرَةٌ يَسْلُفُهَا قِرْدٌ يُعَابِثُ صِنْوَهُ، وَفِي السَّمَاءِ يُحَلِّقُ جَارِحُ الطَّيْرِ، وَكَأَنَّهُ يُسْجَلُ بِفَرْشَاتِهِ مَا عَبَّرَ عَنْهُ نِظَامِي بِاللِّسَانِ وَالْقَلَمِ.

وَاهْتَمَّ مِير سَيِّدُ عَلِيٍّ أَيْضًا بِالتَّفَاصِيلِ فَتَرَى فِي مُنَمَّنَةِ «الْعَجُوزِ» تَقُودُ الْمَجْنُونِ أَسِيرًا إِلَى خَيْمَةِ لَيْلَى (لَوْحَةٌ ١٨٦) أَهْتِمَامِ الْمُصَوِّرِ بِتَسْجِيلِ تَفَاصِيلِ الْحَيَاةِ الْيَوْمِيَّةِ فِي حَيِّ لَيْلَى، وَتَشْهَدُ لَيْلَى جَالِسَةً فِي خَيْمَتِهَا وَالْعَجُوزُ تَقْتَرِبُ مِنْهَا وَهِيَ تَقُودُ قَيْسًا فِي هُزَالِهِ بِسِلْسِلَةٍ مُعْلَقَةٍ بِعُنْقِهِ. وَنَرَى فِتْنَةً تَمْلَأُ جَرَّتَهَا مِنْ جَدُولٍ قَرِيبٍ وَهِيَ تَتَطَّلَعُ إِلَى مَشْهَدِ لَيْلَى وَالْمَجْنُونِ وَالْعَجُوزِ، وَتَرَى نِسْوَةً فِي خَيْمَتِهِنَّ يُدَاعِبْنَ طِفْلًا، بَيْنَمَا يَلْعَبُ بَعْضُ الصَّبِيِّ فِي السَّاحَةِ أَمَامَ الْخَيْمَتَيْنِ. وَنَرَى أَمْرَأَةً تَحْلُبُ عَذْرَةَ مِنْ بَيْنِ قَطِيعِ الْعَنَمِ الَّذِي يَحْرُسُهُ رَاعِيَانِ يَنْفِخُ أَحَدُهُمَا فِي النَّايِ بَيْنَمَا يُمَسِكُ الْآخَرُ فِي يَدِهِ بِمِغْزَلٍ. وَاهْتَمَّكَتْ نِسْوَةً فِي خَيْمَةِ ثَالِثَةٍ فِي طَهُوِ الطَّعَامِ وَإِعْدَادِهِ.

وظلمك وتغمر المساكين بعدلك». وقد صَوَّر سُلْطَان مُحَمَّد هَذَا الجوار الذي دار بَيْنَ السُلْطَان سنجر والمرأة العجوز في مُنْمَنَة (لَوْحَة ١٩٢) تُعَدُّ مِنْ أَبْدَعِ الصُّوَرِ الْمُسَجَّلَةِ لِهَذِهِ الْحَادِثَةِ الَّتِي كَثِيرًا مَا عَكَّفَ الْمُصَوِّرُونَ عَلَى تَصْوِيرِهَا. وَقَدْ زَخَرَتْ بِالْأَلْوَانِ وَامْتَلَأَتْ بِالتَّفَاصِيلِ الْجَمِيلَةِ وَبِخَاصَّةِ الْخُطُوطِ الرَّقِيقَةِ لِأَشْكَالِ الزُّهُورِ وَالْأَشْجَارِ، غَيْرَ أَنَّا نَرَى فِي خَلْفِيَّةِ الصُّورَةِ كُنْلاً صَخْرِيَّةً غَرِيبَةً تُوحِي لِلْوَهْلَةِ الْأُولَى أَنَّهَا أَخَادِيدُ التَّقْلُصَاتِ الْجِيُولُوجِيَّةِ، بَيْنَمَا يَكْشِفُ تَأْمُلُهَا الْعَمِيقُ عَنْ شَخْصٍ أَدْمِيَّةٍ شَائِئَةٍ. وَنَلْحِظُ فِي الرُّكْنِ الْأَعْلَى الْأَيْسَرِ مِنْ هَذِهِ الْمُنْمَنَةِ مَرَّةً أُخْرَى قُرْصَ الشَّمْسِ تَنْبِيقٌ مِنْهُ الْأَشْيَعَةُ مُخْتَرَقَةٌ لِفَائِثِ السُّحْبِ. وَمِنْ جَدِيدٍ نَشْهَدُ هَامِشًا مُذْهَبًا خَلَابًا يَضُمُّ الطَّوَارِيسَ الْبَدِيعَةَ وَالْغِزْلَانَ الشَّارِدَةَ وَالْأَشْجَارَ الْمُورِقَةَ وَالتَّنْبَاتَاتِ الْمُزْهِرَةَ.

لهكذا تَجَلَّى عِنَايَةُ هَذَا الْعَصْرِ بِالْفَتَانَيْنِ أَنْفُسَهُمْ حَتَّى يَتَنَا نَعْرِفُ، خِلَالَ الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ، عَدَدًا كَبِيرًا مِنْهُمْ بِالْأَسْمَاءِ، وَغَدَا رُعَاةَ الْفَنِّ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْحُكَّامِ يَهْتَمُّونَ بِالْفَتَانَيْنِ وَسِمَاتِ أَسَالِيهِمِ الْمُمَيَّزَةِ أَكْثَرَ مِنْ اهْتِمَامِهِمْ بِالْفَصَصِ الَّتِي يُسَجِّلُونَ أَخْدَانَهَا، وَأَضَحَّتِ الصُّورُ نَقُومَ لِدَاتِهَا بِوَصْفِهَا إِنْجَارًا شَخْصِيًّا مُتَمَيِّزًا.

خُمْسُهُ نِظَامِي. تَبْرِيز ١٥٤٠. مُتَحَفُ فُوجِ لِلْفُنُونِ، جَامِعَةُ هَارْفَارِد: الْحَيَاةُ فِي الْمَدِينَةِ وَالْحَيَاةُ فِي الْبَادِيَةِ.

صَفْحَتَانِ مُتَقَابِلَتَانِ مِنَ الْمُنْظُومَاتِ الْخَمْسِ لِنِظَامِي أَبْلَغُهُمَا الْأُسْتَاذُ مِير سَيِّد عَلِيٍّ أَحَدَ أَسَاطِينِ الْمُصَوِّرِينَ فِي مَدْرَسَةِ تَبْرِيزِ الْمُبَكَّرَةِ. وَقَدْ كَانَ لَهُ وَلَعٌ غَرِيبٌ بِالتَّفَاصِيلِ الْوَاقِعِيَّةِ. وَنَكْشِفُ الصُّورَتَانِ، اللَّتَانِ تُعَدَّانِ مِنْ رَوَائِعِ تَصْوِيرِ الْحَيَاةِ الْيَوْمِيَّةِ، عَنْ تَفَاصِيلِ الْمَعِيشَةِ بِكُلِّ دَقَائِقِهَا فِي كُلِّ مِنَ الْمَدِينَةِ وَالْبَادِيَةِ. وَقَدْ بَلَغَ مِنْ تَأَثُّرِ الْإِمْبَرَاطُورِ الْمَغُولِيِّ هُمَايُونِ، عِنْدَمَا زَارَ تَبْرِيزَ، بِأَعْمَالِ هَذَا الْفَتَانِ أَنْ دَعَاهُ إِلَى الْهِنْدِ كَمَا سَبَقَ الْقَوْلُ حَيْثُ غَدَا أَحَدَ مُؤَسَّسِي طِرَازِ الْهِنْدِ الْمَغُولِيِّ الْإِسْلَامِيِّ.

وَقَدْ رَسَمَ مِير سَيِّد عَلِيٍّ السُّلْطَانَ وَحَوْلَهُ أَتْبَاعَهُ يَقُومُونَ عَلَى خِدْمَتِهِ، مِنْهُمْ مَنْ شُغِلَ بِتَقْدِيمِ الطَّعَامِ، وَمِنْهُمْ الْمَوْسِيقِيُّونَ وَقَدْ أَخَذُوا يَعْزِفُونَ. وَيَقَعُ هَذَا الْمَشْهَدُ بَيْنَ مَشَاهِدِ الْحَيَاةِ الْيَوْمِيَّةِ فِي الْمَدِينَةِ مِنْ بَيْعٍ وَشِرَاءٍ وَأَخْذٍ وَعَطَاءٍ بَيْنَ النَّاسِ. وَثَمَّةُ مَسْجِدٍ أَمَامَهُ شَيْخٌ يَتَحَدَّثُ إِلَى شَابٍّ، وَعَلَى مَدْخَلِ الْمَسْجِدِ الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ الْقَائِلُ: «مَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِدًا بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ» (لَوْحَة ٢٩٩ م).

أَمَّا الْمَشْهَدُ الْآخَرُ فَيَجْمَعُ لَنَا مَعَالِمَ الْحَيَاةِ فِي الْبَادِيَةِ. فَفِي

بَهْرَامِ فِتْنَةٍ إِلَى مَطْلَبِهَا، غَيْرَ أَنَّهَا اغْتَرَضَتْ مُدْعِيَةً أَنَّ إصَابَةَ السَّهْمِ لِحَافِرِ الْجِمَارِ لَيْسَتْ دَلِيلٌ قُوَّةٍ يَقْدُرُ مَا هِيَ حَصِيلَةُ مِرَانٍ وَتَدْرِيبٍ. وَنَرَى فِي الصُّورَةِ بَهْرَامَ مُمْتَطِيًا جَوَادَهُ مُقَضًّا بِسَهْمِهِ عَلَى الْجِمَارِ الْوَحْشِيِّ الَّذِي لَوَّى عُقْقَهُ لِأَعْلَى وَرَفَعَ قَائِمَتَيْهِ الْأَمَامِيَيْنِ إِذْ اخْتَرَقَ السَّهْمُ رَأْسَهُ بَيْنَمَا تَنْطَلِعُ إِلَيْهِ فِتْنَةٌ مِنْ فَوْقِ جَوَادِهَا وَهِيَ تَعْزِفُ عَلَى الْقِيَارَةِ. وَيَزِيدُ مِنْ تَأَلُّقِ هَذَا الْمَشْهَدِ الرَّائِعِ تَذْهِيبُ الْهَوَامِشِ بِصُورِ الطَّيْرِ الْمُحَلَّقِ وَالْحَيَوَانِ الشَّارِدِ وَالتَّنْبَاتَاتِ الْمُزْهِرَةِ وَالسُّحْبِ الْمُتَمَوِّجَةِ.

وَمِنْ بَيْنِ مُنْمَنَاتِ مَخْطُوطَةِ نِظَامِي الَّتِي صَوَّرَهَا سُلْطَانُ مُحَمَّدٍ لَوْحَةً تُصَوِّرُ قِصَّةَ رَحِيلِ خَيْسَرٍ إِلَى أَزْمِينِيهِ. وَخِلَالَ الطَّرِيقِ كَانَ جَوَادَهُ قَدْ أَتَاهُ فَتَنُورٌ عَنْهُ فِي مَوْقِعٍ كَانَتْ شِيرِينَ قَدْ سَبَقَتْهُ إِلَيْهِ، فَرَأَى فَتَاةً لَمْ تَقَعْ عَيْنَاهُ عَلَى مِثْلِهَا مِنْ قَبْلِ جَمَالٍ وَفِتْنَةٍ وَبِهَاءٍ تَسْتَجِمُّ فِي جَدُولِ مَاءٍ. وَعِنْدَمَا لَمَحَتْهُ شِيرِينَ نَثَرَتْ شَعْرَهَا فَوْقَ وَجْهِهَا خَفَرًا (لَوْحَة ١٩٠). وَيُعَدُّ هَذَا الْمَشْهَدُ مِنْ أَرْوَعِ لَوَحَاتِ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ، اسْتُخْدِمَ الْمُصَوِّرُ فِيهَا كُلَّ الْمُصْطَلَحَاتِ الْفَنِّيَّةِ الْمَأْلُوفَةِ بِإِلَافِ إِسْرَافٍ وَفِي أَتْرَافٍ تَامَةٍ. وَنَرَى شِيرِينَ بَعْدَ أَنْ خَرَجَتْ مِنْ جَدُولِ الْمَاءِ مُحَاطَةً بِالصُّخُورِ وَالشَّجَرَاتِ تُجَفِّفُ ضَفِيرَتَيْهَا بِيَدَيْهَا مُتَطَلِّعَةً إِلَى جَوَادِهَا الْأَنِيقِ ذِي السَّرْجِ وَالْجُلِّ الْمُزْخَرَفَيْنِ وَقَدْ لَوَّى عُقْقَهُ نَحْوَهَا، وَنَرَى حِذَاءَهَا مُلْقَى فِي نَاحِيَةٍ وَبَقِيَّةُ ثِيَابِهَا فِي نَاحِيَةٍ أُخْرَى بَيْنَا يَطْلُ عَلَيْهَا خَيْسَرٌ مِنْ فَوْقِ صَهْوَةٍ جَوَادِهِ وَاضِعًا إصْبَعَهُ فَوْقَ شَفَتَيْهِ عِلَامَةً الْإِعْجَابِ وَالْإِنْبِهَارِ. وَتَتَوَازَنُ مَعَهُ شَجَرَةُ الدُّلْبِ الْبَدِيعَةِ الَّتِي تَشْمَخُ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ تَغْطِيهَا لِفَائِثُ السُّحْبِ الْمُتَمَوِّجَةِ. وَنَلْحِظُ أَنَّ التَّمَطُّ الَّذِي اسْتُخْدِمَهُ الْمُصَوِّرُ لِشِيرِينَ يَكَادُ يَكُونُ هُوَ نَمَطُ الْحُورِيَّاتِ عِنْدَهُ فِي لَوَحَاتِ الْحُورِيَّاتِ يَسْتَحْصِنُ (لَوْحَة ١٦٦ م) الْوَارِدَةَ فِي دِيْوَانِ شِعْرِ إِسْكَندَرَ.

وَفِي مُنْمَنَةٍ أُخْرَى لِلسُّلْطَانِ مُحَمَّدٍ (لَوْحَة ١٩١) نَشْهَدُ بَهْرَامَ جُورَ يَصْطَادُ الْأَسَدَ بَيْنَمَا جَارِيَتُهُ فِتْنَةٌ تَعْزِفُ لَهُ عَلَى الْقِيَارَةِ مِنْ فَوْقِ صَهْوَةٍ جَوَادِهَا، وَيُصَوِّبُ أَحَدَ رِجَالِهِ سَهْمًا إِلَى فَهْدٍ مُتَحَفِّزٍ، وَيَحْمِلُ تَابِعَ الْمَلِكِ صَقْرَ الْبَازِ عَلَى مِغْصَمِهِ.

وَقَدْ جَاءَ فِي الْمَقَالَةِ الرَّابِعَةِ «فِي رِعَايَةِ الرَّعِيَّةِ» مِنْ مُنْظُومَةِ «مَخْزَنِ الْأَسْرَارِ» لِنِظَامِي، أَنَّ عَجُوزًا شَكَتْ إِلَى السُّلْطَانِ سَنَجَرِ السَّلْجُوقِيِّ، ظَلَمَ جُنُودَهُ وَمَضَتْ تُنْذِرُهُ بِعَاقِبَةِ ظُلْمِهِ الَّذِي أَذَى إِلَى خَرَابِ الدَّوْلَةِ وَبَوَارِهَا قَائِلَةً: «أَنْتَ تَدْعِي الْمُلْكَ وَلَا إِخْلَاكَ إِلَّا عَبْدًا، فَالْمُلْكُ لَا يُخْزِبُ مَا أَسْبَغَهُ عَلَيْهِ اللَّهُ مِنْ نِعْمَةٍ، بَلْ هُوَ مَنْ يُدَبِّرُ شُؤْنَ الدَّوْلَةِ وَيَحْرِصُ عَلَى رِعَايَاهَا حَتَّى يُطِيعُوهُ عَنْ طِيبِ خَاطِرٍ. فَلَنَكُفَّ عَنْ ظُلْمِ الْفُقَرَاءِ حَتَّى لَا يَعُودَ عَلَيْكَ دُعَاؤُهُمْ بِالْوَبَالِ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَنْ تَكُونَ مَلِكًا مَا لَمْ تَجِدْ عَنْ غَوَايِكَ

الدُّنْيَوِيَّة» (لَوْحَة ٣٠٢ م) مِنْ مَخْطُوطَةِ «هَفْت أورانج» (١٥٥٦ - ١٥٦٥) لَمَّا رَأَيْنَا لِلْوَهْلَةِ الْأُولَى سِوَى الْقَلِيلِ مِمَّا يَذْكُرُنَا بِالتَّصْوِيرِ الصِّينِيِّ بِاسْتِثْنَاءِ لَفَائِفِ السُّحْبِ التَّمْطِيَةِ الْمَأْلُوفَةِ عَلَى شَكْلِ الْقَوَائِعِ ذَاتِ الدُّيُولِ الْمُثَابِلَةِ لِأَطْرَافِ الْكَوَائِبِ الْمُذْنِبَةِ وَقَدْ تَفَتَّتْ فِي سَلَاسَةِ حَوْلِ جَذَعِ الشَّجَرَةِ الْخَضْرَاءِ. وَقَدْ مَلَأَ الْمُصَوِّرُ طَيَّاتِ هَذِهِ السُّحْبِ بِالْأَلْوَانِ الْمُتَنَوِّعَةِ وَكَأَنَّهَا قَوْسُ قُزَحٍ. وَلَجَأَ كَذَلِكَ إِلَى أَرْضِيَّةِ الْبَحْرِ الدَّاكِنَةِ لِإِبْرَازِ بَعْثِ أَلْوَانِهِ مِثْلَ الْقَارِبِ الْأَصْفَرِ ذِي الْمُقَدَّمِ عَلَى شَكْلِ رَأْسِ الْبَجَعَةِ وَالسُّلْخَفَةِ وَالْأَسْمَاكِ وَالْبَطِّ وَالطُّيُورِ. وَنَقَلَ الْفَنَّانُ بَطْلَى الْمُنْمَنَةِ إِلَى يَمِينِهَا فَوْقَ الضَّمَّةِ الصَّخْرِيَّةِ الَّتِي تَتَخَلَّلُهَا الْأَعْشَابُ الْخَضْرَاءُ وَشَجَرَةٌ مُثْمِرَةٌ يَسْتَلْقِيهَا قِرْدٌ وَشَجَرَةٌ سَرُوْ أَيْقَةٍ ثُمَّ الشَّجَرَةُ الْخَضْرَاءُ الرَّيْئِيسَةُ الَّتِي تَخْتَرِقُ الْحَاشِيَةَ الْعُلْوِيَّةَ لِلْمُنْمَنَةِ بِأَغْصَانِهَا الْمُرَوِّقَةِ تَحْطُّ عَلَيْهَا الطُّيُورُ وَسَطَ هَامِشٍ مُذْهَبٍ بِدِيْعٍ مُحَلَّى بِتَوْرِيقاتِ نَبَاتِيَّةٍ مُحَوَّرَةٍ. وَنَلْحِظُ فِي هَذِهِ الْمُنْمَنَةِ عِنَايَةً خَاصَّةً بِالْخُطُوطِ الْمُحَوَّرَةِ الَّتِي تُحَدِّدُ شَخْصِيَّةِي الصُّورَةِ بِدِقَّةٍ.

الْقَصَائِدُ الْخَمْسُ لِلشَّاعِرِ جَامِي. قَزْوِينَ ١٥٧٠ م.

مُتَحَفٌ طُوبُ قَاپُو بِاسْتَنْبُولِ.

تَضَمَّ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةُ فِيمَا تَضَمَّ مُنْمَنَةً شَاعِرِيَّةً جَذَابَةً هِيَ لَوْحَةُ التَّهْنِئَةِ لِمَأْدُبَةِ الْعَاشِقِينَ: قَمَّةٌ صَائِدٌ لِلطَّيْرِ، وَثَمَّةٌ قَاطِفٌ لِلنَّمْرِ، وَثَمَّةٌ مُشْعِلٌ لِلْحَطَبِ وَثَمَّةٌ طَاوٍ وَبَيْنَ يَدَيْهِ الْقُدُورِ فَوْقَ النَّارِ، وَثَمَّةٌ مَنْ يَحْمِلُ الصَّحَافَ (لَوْحَة ٣٠٣ م). وَتَتَنَوَّعُ الْأَشْجَارُ فَمِنْهُمَا الْمُرُوقُ الْمُزْهَرُ وَمِنْهَا الْإِصْطِلَاحِيَّةُ الْمَخْرُوطِيَّةُ الشَّكْلُ، يَحْطُّ عَلَيْهَا الطَّيْرُ أَوْ يُحَلِّقُ بَيْنَهَا، يَتَنَمَّا تُغْشِي السَّمَاءَ سُحْبٌ عَلَى الطَّرَازِ الصِّينِيِّ.

الشَّاهُ عَبَّاسُ (١٥٨٧ - ١٦٢٩)

تَبَوَّأَ الشَّاهُ عَبَّاسُ، وَهُوَ فِي السَّادِسَةِ عَشْرَةِ مِنْ عُمُرِهِ، عَرْشًا مُضْعَضًا أَنَهَكَتْهُ عَشْرُ سِنِينَ مِنَ الْقَلَائِلِ وَعَدَمِ الْاسْتِقْرَارِ حَتَّى اضْطُرَّ فِي بَادِي الْأَمْرِ أَنْ يُهَادِنَ خُصُومَهُ. ثُمَّ اسْتَطَاعَ فِي مُسْتَهْلِ الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ أَنْ يَسْتَرْجِعَ مِنَ الْأَوَزْبَكِيِّينَ تُخُومَهُ الشَّرْقِيَّةَ، وَأَنْ يُلْجِئَ بِالْأَثْرَاكِ هَزِيمَةَ حَاسِمَةٍ، وَأَنْ يَسْتَرِدَّ أَقَالِيمَهُ الْمَفْقُودَةَ، وَأَنْ يَرُوضَ الْعَنَاصِرَ الْمُشَاغِبَةَ مِنْ أَمْرَاءِ «الْقَزَلِ بَاش». وَإِلَى جَانِبِ هَذِهِ الْإِنْصَارَاتِ الْحَرِيَّةِ الْجَلِيلَةِ يُعَدُّ الشَّاهُ عَبَّاسُ إِدَارِيًّا عَظِيمًا أَكْثَرَ مِنْهُ قَائِدًا عَسْكَرِيًّا فَذًا. فَمَا أَكْثَرَ مَا كَانَ يُرَدُّ أَنْ تَعْمِيرُ بِلَادِهِ هَدَفَ أَنْبَلٍ مِنَ الْعَزْوِ، فَاتَّجَهَ إِلَى التُّهُوسِ بِالزَّرَاعَةِ وَتَشْجِيعِ التَّجَارَةِ مُتَفَوِّقًا فِي ذَلِكَ عَلَى أَسْلَافِهِ، وَشَيَّدَ الْجُسُورَ وَخَانَاتِ الْقَوَافِلِ وَغَيْرَهَا مِنْ الْعَمَائِرِ الْهَامَّةِ الَّتِي لَا حَصَرَ لَهَا. وَنَقَلَ الشَّاهُ عَبَّاسُ حَاضِرَتَهُ عَامَ

أَسْفَلَ الصُّورَةِ جَلَسَ شُبُوحُ الْبَدْوِ وَبَيْنَ أَيْدِيهِمْ خَدَمُهُمْ يُقَدِّمُونَ إِلَيْهِمْ صِحَافَ الطَّعَامِ. وَإِلَى الْأَعْلَى مِنَ الصُّورَةِ خِيَامٌ وَحَوْلُهَا إِبِلٌ وَأَغْنَامٌ وَنِسَاءٌ، مِنْهُنَّ مَنْ يَحْلُبْنَ الْأَغْنَامَ، وَمِنْهُنَّ مَنْ يَغْسِلْنَ الثِّيَابَ، وَمِنْهُنَّ مَنْ يَرْعَيْنَ الْأَطْفَالَ، وَمِنْهُنَّ مَنْ شَغْلُنَ يَطْهِي الطَّعَامَ (لَوْحَة ٣٠٠ م).

«سَبْعَةُ سَيَّارِهِ» [الْكَوَائِبِ السَّبْعَةِ] لِمِيرِ عَلِيِّ شِيرِنَوَائِي.

بُخَارَى ١٥٥٣ م، الْمَكْتَبَةُ الْبُودَلِيَّةُ بِإِكْسْفُورْدِ.

أُعِدَّتْ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةُ لِإِنَائِبِ الْحَاكِمِ الشَّيْبَانِيِّ مُحَمَّدٍ بِهَادِرِ خَانٍ، وَنَشْهَدُ مِنْ بَيْنِ مُنْمَنَاتِهَا الْجَذَابَةِ لَوْحَةُ بُهْرَامِ جُورِ فِي رَفْقَةِ الْأَمِيرَةِ التَّتَرِيَّةِ بِالْقَصْرِ ذِي الْقُبَّةِ الْخَضْرَاءِ (لَوْحَة ٣٠١ م). فَيُظْهِرُ بُهْرَامُ جُورَ جَالِسًا مَعَ الْأَمِيرَةِ التَّتَرِيَّةِ فَوْقَ سَجَادَةٍ مُزَخْرَفَةٍ بِأَفْرِعٍ وَأُورَاقٍ نَبَاتِيَّةٍ وَأَزْهَارٍ فِي جَوْسَقٍ تَغْلُوهُ قُبَّةٌ خَضْرَاءُ مُزَوَّقَةٌ بِزَخَارِفِ نَبَاتِيَّةٍ مُزْهِرَةٍ. وَيَغْلُو الْقُبَّةَ شَرِيطٌ عَلَيْهِ اسْمُ مُصَوِّرِ الْمُنْمَنَةِ سُلْطَانُ مُحَمَّدٍ. وَيُظْهِرُ الْقَصْرُ مُزَخْرَفًا بِمَدَامِيكِ الْقِرْمِيدِ وَزَخَارِفِ هَنْدَسِيَّةٍ، وَتَغْلُوهُ الشَّرَافَاتُ. وَفِي أَدْنَى الْمُنْمَنَةِ جَوَارِ ثَلَاثُ تَغْتِي إِحْدَاهُنَّ وَأَمَامَهَا زَمِيلَتَاهَا، إِحْدَاهُمَا تَعْرِفُ عَلَى آلَةٍ وَتَرِيَّةٍ وَالْأُخْرَى تَقْرَعُ الدَّقَّ، كَمَا يَظْهَرُ دَوْرَقٌ لِلشَّرَابِ وَثَلَاثَةُ شَمَاعِدٍ بِشُمُوعِهَا وَمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَشْهَدَ يَجْرِي لَيْلًا.

هَفْتُ أورانج، ١٥٥٦ - ١٥٦٥ م

وَشَارَكَ فِي تَصْوِيرِ مُنْمَنَاتِ «هَفْتِ أورانج» ثَلَاثَةُ مُصَوِّرِينَ هُمُ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ، وَعَلِيٌّ الْأَصْغَرُ، وَعَبْدُ اللَّهِ، وَكَانَ أَوَّلُهُمْ تَلْمِيزًا لِدَوَسْتِ مُحَمَّدٍ الَّذِي كَانَ هُوَ نَفْسُهُ تَلْمِيزًا لِبَهْزَادِ، وَقِيلَ إِنَّهُ قَصَدَ الْهِنْدَ بَحْثًا عَنِ الثَّرَاءِ بَعْدَ عَوْدَةِ هَمَايُونٍ إِلَيْهَا عَامَ ١٥٤٩. وَكَانَ عَلِيُّ الْأَصْغَرُ وَعَبْدُ اللَّهِ مِنَ أَبْرَزِ مُصَوِّرِي مَكْتَبَةِ إِبْرَاهِيمَ بِمِيزَا، بَرَعَ أَوَّلُهُمَا فِي التَّلْوِينِ وَفِي تَصْوِيرِ الطَّرُوقِ وَالْأَشْجَارِ، وَبَرَزَ الثَّانِي فِي التَّذْهِيبِ، وَلَعَلَّهُ الَّذِي رَسَمَ الزَّخَارِفَ الدَّهَبِيَّةَ فِي هَوَامِشِ الْكِتَابِ. وَكَانَ التَّذْهِيبُ أَحَدَ السَّمَاتِ الرَّاسِخَةِ لِلْمَخْطُوطَاتِ الصَّفَوِيَّةِ وَإِنْ يَكُنْ رَسْمُ أَوْرَاقِ الْأَشْجَارِ الْمُحَوَّرَةِ الْمُشْتَقِّ مِنْ زَخَارِفِ الْخَزَفِ الصِّينِيِّ ذِي اللَّوْنَيْنِ الْأَرَزَقِ وَالْأَبْيَضِ قَدْ أَضْحَى أَكْثَرَ تَطَوُّرًا وَانْطِلَاقًا حَتَّى اتَّخَذَ فِيمَا بَعْدَ صِبْغَةِ فَارِسِيَّةٍ خَالِصَةٍ تَجَلَّتْ مَلَامِحُهَا الْأُولَى فِي مُنْمَنَاتِ مَخْطُوطَةِ «هَفْتِ أورانج» أَكْثَرَ مِمَّا تَجَلَّتْ فِي هَوَامِشِ مَخْطُوطِ «نِظَامِي» الْخَاصِّ بِالشَّاهِ طَهْمَاسِپ. عَلَى أَنَّ وَحْدَةَ زُخْرَفِيَّةً مُشْتَرَكَةً قَدْ ظَهَرَتْ فِي كِلَا الْمَخْطُوطَيْنِ هِيَ الْعُضْنُ الْمُتَلَوِّلُ الْمُلتَفِّ حَوْلَ عُضْنٍ آخَرَ فِي حَرَكَةِ طَيَاقِيَّةٍ أَسِيرَةٍ.

وَإِذَا تَطَلَّعْنَا إِلَى مُنْمَنَةِ «الْعَاشِقَانِ يَهْبِطَانِ جَزِيرَةَ الْغُبْطَةِ

هذه المخطوطة بالإضافة إلى (اللوحين ٢٠ م، ٢١ م) مشهد صيد (لوحه ٣٠٤)، إذ كان جيش السلطان أبو سعيد قد أخذ إلى الراحة وهو في طريقه إلى غزو العراق وفارس، وكان السلطان أولجايتو إذا ما حلّ في طريقه بمنطقة غنيّة بحيواناتها وأذغالها شغل نفسه بالصيّد والقنص. ومن هذا ما نراه وهو يصرع غزالاً سيفه، ثم ما نراه من أحد أتباعه وقد حملَ بارًا، وكذا ما نراه من تابع آخر وهو يرمي غزالاً بسهمه.

مخطوطة مهر ومشتري، ١٦٨٠ م. دار الكتب المصرية

يشير العنوان السابق على إحدى تصاوير هذه المخطوطة إلى موضوع تجريد الملك كيوان حملًا لقتال خصمه فراخان. ويبدأ الشاعر هذا الجزء بأبيات ترجمتها العربية: «هَبَّ الفُرسان من كُلِّ حَذب وَصَوَّبَ كما انْخَرَطَ في الصُّفوف الأشراف والشُّجعان تصحبهم الدَّعوات بالثَّغر والظُّفر والقدرة على انْتِزاع البَغضاء حتّى من دَم الثَّملة».

أما الترجمة العربية للأبيات المحيطة بالصورة فتقول إنّ الملك كيوان أمرَ بأن يُقتلَ قَصْرَ خَصْمه من جذوره وأن تُروى الأرض بِدمائه حتّى تُخَصَّرَ وتُزبو وتُتبع. وعندما أتى الجند بفراخان حاسر الرأس عاريًا وقَعَ بَصَر مهر على هذا المشهد الدليل قطار من مقعده كأنه الباز وتَشَفَّعَ له لدى الملك فلم يهدر دمه. ويظهر الملك كيوان في المُنممة مُرتبًا على عَرش وأمامه فراخان حاسر الرأس مُكبَّلًا بالأغلال. وإلى اليسار يقف حارس شهر سيفه، وإلى أسفل منه وقَفَ زميل له، وقد جلس شخصان بين يدي الملك. ويهب مهر واقفًا مُشيرًا بيده مُثَمِّعًا لفراخان. وتبدو زخارف السجاجيد التي بُسِطت على الأرض، والقراميد الخزفية وقد ازدانت بها الجدران والثوابذ (لوحه ٣٠٥ م).

ديوان حافظ، ١٦٨٠ م. دار الكتب المصرية

أول ما يطالعنا حافظ في ديوانه قوله: «يا لها من نعمة عذبة تشيع من بين ثنايا ثوب المطرب، فإذا الجميع يسخرها ثملون يَمَابلون مَرَحًا، من فَعَلَ تلك الخمر التي يَسْكُبُها لهم السّاقى، فإذا اللّذامى لا يُجسّون رأسًا ولا قَدَمًا». وما أراد حافظ الصوفي الخمر التي يختسيها اللّذاس بل أراد فيض الله في نفسه ويسخر هذا الفيض الذي شَبَّهه بالخمر فإذا هو كالمخمور لا يُجسّ شيئًا، فتشوة المخمور بالخمر أشبه بنشوة المولّد بعشق الله. وهكذا نستطيع أن نفهم ما جاء على ألسنة المتصوفة من شعر في الخمر وما معها من نشوة، فما أرادوا غير أن يجعلوا من تلك

١٦٠٠ إلى إصفهان، ومن ثمَّ عبَدَ بها الطُّرق الواسعة الفخمة وشيّد المباني الفاخرة مثل مسجد شاه وميدانه وقصر عالي قاپو وقصر الأعمدة الأربعين «چهل ستون» وجسر علي وردی خان.

وقد شهد عصر شاه عباس انفتاح فارس على الغرب، فتوافد السُّفراء والتجار والرّحالة والفنّيون على إصفهان وغيرها من المُدن الكبرى من مُعظم بلدان أوروبا في أعداد مُتزايدة، وذلك بفضل سياسة الشاه عباس المُستتيرة نحو غير المُسلمين وإعجابه بالمنتجات الأجنبية. وقد دوّن الكثير منهم ذكرياتهم وأنبياعاتهم في شيء من التّفصيل عن حياة البلاط والشّعب وعاداته.

ولم يكن الحديث عن فنّ التصوير الذي يُزِن القصور الملكيّة وبيوت الأثرياء تَقرِيبًا كُلّه، إذ يقول ديلافالي عن صُورهم إنّها «ليست كصُور تسيانو، وهي وإن كانت سيئة التّنفيد إلّا أنّ ألوانها رائعة»، كما استنكر بعض موضوعات التصوير المُفجشة.

وانتشرت في عهد الشاه عباس الصُور الجداريّة. وما من شك في أنّ هذا كان انعكاسًا لذوق الشاه الذي شابه ذوق الإمبراطور شاه جهان في الهند في اهتمامه بفنون العمارة دون فنون الكتاب التي أخذت في الاضمحلال تدرّجًا.

وما تزال نماذج من الصُور الجداريّة من القرن السابع عشر قائمة، وبخاصّة في القصرين الملكيّين بإصفهان، وبعض صُور الشُخص تشبه في طابعها الأسلوب المنسوب إلى المصوّر رضا عباسي، وإن كان هناك عدّد من التّصاوير قد رَسَمها بعض الأوروبيّين، ومن المُحتمل أن يكون أحدهم وهو جون الهولنديّ - الذي كان في خدمة الشاه عباس لعدّة سنوات - قد رَسَمها لأنّ جزءًا من تصاوير قصر چهل ستون ذو أسلوب هولنديّ.

وإذا كانت الفنون في عهد الشاه عباس بِعامّة مثل العمارة والنّسيج والسّجاد والخزف محلّ الثناء والإعجاب، إلّا أنّ عين الخبير ما تلبث أن تلاحظ أنّ ضُمورًا قد أصاب حيويّتها وقوّتها الخلاقية، إذ كان إنتاج الخزف يَتَمّ بِالجملة مُحاكيا النّماذج والأشكال الصينيّة، كما افتقدت تَصميمات زخارف الأنسجة والسّجاد حيويّتها وتدهورت ألوانها.

«مطلع السّعدين» لِكَمال الدّين عبَد الرّازق السّمَرقنديّ،

١٦٠١ م. مُتحف الفنّ الإسلاميّ بالقاهرة.

تتناول هذه المخطوطة تاريخ الدّولتين الإيلخانيّة والتّيُموريّة حتّى سنة ١٤٧٠ م. بادئةً بِعهد السلطان السّعيد علاء الدّنيا والدّين أبو سعيد بهادر خان من الأسرة الإيلخانيّة. ونعرض من بين صُور

التغيير الذي طرأ على أساليب التصوير

اختلفت الظروف والنتائج المترتبة على هذه الظروف كُل الاختلاف بالنسبة للمُتمنّات المُصوّرة. ولا شك بأنّ مرّد ذلك إلى أنّ الفنّ وقتذاك كان يُمارَس بعيداً عن رعاية القصر. فبات أقلّ أرسطراطية من الماضي. وفي الوقت نفسه قدّمت بغض التماذج روعاً جديدة جُلّى بالابتكار والأصالة، وإن جاءت بغض الأعمال عارية من الجمال. وعلى الرغم من أنّ التدهور قد تتابع فيما بعد في سرعة إلا أنّ المستوى ظلّ مرتفعاً إلى حدّ ما.

وعندما بدأ شاه طهماسب يفقد اهتمامه بالتصوير سمح لبعض مصوري المكتبة الملكية بممارسة التصوير لحسابهم الخاص، فأصبحت المخطوطات الفاخرة في النصف الثاني من القرن السادس عشر نادرة، بينما شاعت الصور والرُسوم الشعبية المتعقبة من سيطرة الحكام رعاة الفنّ. ولم يكن ثمة مقرّر من تغيير شامل يطرأ على فنّ التصوير إلا إذا عاد القصر إلى رعايته بحماس من جديد. كذلك قفز إلى الوجود عامل آخر بدأ أثره يتضح في نهاية القرن هو أثر الفنّ الأوربيّ، فقد شغف الشاه عباس بالأوربيين وفنونهم، ومع ذلك فثمة أثر ضئيل لمحاكاة التقنية الأوربيّة حتّى انصرام جزء من القرن السابع عشر. على حين أصيب الرّحالة شاردان بخيبة الأمل إزاء عجز المصوريّين الفُرس عن اتباع قواعد المنظور وبقيّة الصّو والعنّة! وثمة عدد من الصور المحاكاة للتصوير الأوربيّ أو التي اقتبست عنه نرى فيها ثاباً وقبّعات أوربيّة، على حين أخذت تصاوير الحياة اليوميّة عن مثيلتها في مدارس شمال أوربا.

وإذا كانت تقاليد فنّ تصوير المخطوطات قد حالت دون الابتكار والتجديد، فإنّ الفنانين قد حطّموا أغلال قيودهم حين رسّمو مُتمنّاتهم الشعبيّة التي لم تعد تُصوّر لتزيين المخطوطات مُحرّرة من التقاليد والقواعد المتوارثة، وما يزال ليحسن الحظّ عدد كبير من هذه الصور باقياً. وبالإضافة إلى التّصاوير الملونة هناك عدد من «المعالجات التّخطيطيّة» بالقلم أو بالطباشير الملون أو بالرّيشة، رُسم بعضها بالألوان خافتة، والبعض الآخر قريب الشّبه من التّصوير بالألوان المائيّة.

ونلاحظ في إنتاج المخطوطات تفسّخاً في علاقة التّعاون بين كلّ المشتغلين بعناصر تزقين الكتاب، وعُدّت التّصاوير تقتجم الهوامش أكثر من ذي قَبْل في تطفّل شديد. كما جاء التّزقن زنبياً ونوعيّة الأصباغ مُخطّطة، وباتت نماذج الشّخوص المُصوّرة سوقيّة تقتقر إلى الوُفّار، ولم تعد أجمل المُتمنّات تحتلّ مكانها بين صفّحات الكُتب بل ظلّت خارجها، أو ضيّمن مُرقّعات الصور

الثّمّة الجسديّة مثلهم على الثّمّة الرّوحيّة التي هم معها قد انسَلَخوا من الوجود وغابوا في ذات الله.

ولهذه الصّورة التي افتتحت بها هذه المخطوطة لا تُطابق ما تضمّنه الكتاب من حديث العشق الإلهي وما معه من حديث عن خمر إلهيّة تجري بذكرها ألسنة المُتصوّفة. ولا نذري هل جاء هذا عن غفلة من المصوّر، فلم يُلْقِ بالآ لما تضمّنه الكتاب أم عن غفلة من الذي ضمّ هذه الصّورة إلى مثل هذا الكتاب؟ فليس ثمة ما يربط بين حديث العشق الإلهي والموضوع المصوّر الذي تتناوله غرّة الديوان والذي يدور حول أفراد الحاشيّة وقد استغرقوا في إعداد وليمة يقيمها الأمير. فنرى في أدنى المُتمنّة مشهداً لِقُدور الطّعام وقد انتشر حولها الطّهاء، على حين يقف الخدم يَحْمِلُونَ الصّحاف. وفي أعلاها طهارة آخرون يُعدّون الفطائر ونحوها. وفي وسط الصّورة صفّان من الأتباع يقومون بإنجاز أعمال مُشابهة. وللمُتمنّة إطار عريض مُذهب وملون من ثلاثة جوانب، يتألّف من صفّين مُتوازيين من شرافات مُتعاينة تُجملها مُعَيّنات بها رُسوم أوراق نباتيّة وأزهار بألوان مُتنوعة (لوحه ٣٠٦ م).

وعلى أيّة حال فإنّ ظاهرة قيام بعض الجُزفيّين بتصوير المخطوطات من دون أن يُعْزّوا بقراءة نُصوصها أو فهمها هي ظاهرة شائعة في التّصوير الإسلاميّ كما سبق القول، وهو ما تُؤكّده مقارنة النّصوص بالصور في كثير من الكُتب التي نجى نُصوصها في وادٍ وصوّرها في وادٍ آخر، وأصبح من المُمكن للقارئ أن يُغفل النّظر إلى هذه الصور من دون أن يُضار نصّ الكتاب أو يتعدّر عليه استيعابه. وثمة مُتمنّة أخرى بهذا الديوان (لوحه ٣٠٧ م) يعلوها بيت شعر يقول: «السّيم العليل يُساب على شفتيك فيشبع في البلاط صفّوا». وفي هذا البيت الذي يتغرّل فيه حافظ بثلّك الفتاة الجميلة تلمس أيضاً أنّ حافظاً لم يعشق هذا الجمال الدّنيويّ بل هو يتعشّق واهبه ومُفيضة ومُعطيه. غير أنّ المصوّر أطلق لخياله العنان في تفسير ما يشيع من صفو في البلاط، فينبري يُصوّر أميراً مُرتبّعاً في مجلسه ومن حوله أتباعه بينما يقف خادم يحمل صحيفة الطّعام، ثم يُصوّر في أدنى المُتمنّة ثلاث راقصات ومُوسيقيّات وقارعة على الدّف وتابعين يُعدّان الشّراب وأمامهما قارورة. وبإطار المُتمنّة المزوّق بالتّذهيب رُسوم نباتيّة تتخلّلها رُسوم حيوانات في أعلى الصّورة، وفي أسفلها غزلان وأسَد ينقضّ على فريسة. صوّر الفنّان هذا كله وهو خالي الدّهن تماماً عمّا يقصده الشّاعر الصّوفيّ في البيت الذي نظّمه.

المُصَوِّر مُحَمَّدي

كانت ظاهرة غريبة أن يتألق فجأة فنان من البلاط الصفوي هو المصور «محمدي» خلال فترة الاضمحلال الفني، فنبث الروح في فن التصوير بالعودة إلى الطبيعة من دون انسيلاخ جذري عن التقليد، ويقدم أسلوباً جديداً يرف بالتضارة والجادوية. ومع اشتيماله على العناصر التي سادت في أعمال الفنان سلطان محمد قبل ذلك بثلاثين عاماً، إلا أنها لم تعد مجرد خلفية تتوارى وراء الحدث الرئيسي أو جانب فرعي من قصة تحكيها الصورة، وإنما اجتماع لشمولها جميعاً بشكل منها منظراً خلوياً بحثاً.

وتتجلى المعالجة الواقعية بين صور محمدي في «مشهد جماعة الشاربين» (لوحة ٣٠٨ م)، المحفوظة بمتحف الفنون الجميلة ببوسطن والتي تعد نموذجاً رائعاً لهذا الأسلوب، فعلى الرغم من طغيان المنظر الخلوي على المشهد كله فلا يكاد يظهر على سطح المنمنمة غير الشخص، ولا شك أنهم من الدراويش الذين يبحثون عن الشوة الدينية بين أقداح الشراب، وقد جلسوا أمام شجرة عتيقة انتشرت على ساقها العقد الثابتة على التهج الصيني، وإلى جانبهم أطباق مليئة بالأرز وكؤوس ينتظرون أن يصب لهم فيها الخمر من الدن الضخم الذي يتصدر اللوحة. وقد ازدادت الأواني بالتزيينات النباتية التي استعارها الفرس من زخارف الخزف الصيني ذي اللونين الأبيض والأزرق خلال عصر الشاه عباس الأول (١٥٨٧ - ١٦٢٩) الذي تعزى هذه اللوحة إلى بداية عصره. وقد أوحى الواقعية التي صوّرت بها رؤوس بعض الأشخاص إلى «شرويد» بأنها من إبداع المدرسة المغولية بالهند. غير أن هذه الواقعية قد اثبتت من حماسة الفنان وانفعاله بالموضوع الذي صوّره لا من الاهتمام العلمي الشائع عن المدرسة المغولية في العناية بقواعد المنظور والتجسيم وما إلى ذلك مما استتفه من الغرب. وقد تجلّى الطابع الفارسي الخالص في التشكيل، فظهرت القطة والزهور بالدقة التي تنبئ عن ملاحظة بالغة، كما كشفت التعبيرات البادية على الوجوه عن إنسانية المصور، وأصفت مهارة التنفيذ على هذه الصورة الرقة والحياة، حتى عبرت واقعيته عن السر المكنون للموضوع المصور أكثر مما عبرت عن الملامح المزيّنة.

وتتميز خطوط الرسم عند محمدي بجدة ووضوح أكثر من خطوط سائر المصورين المعاصرين له. غير أننا نلاحظ جنوحه إلى الخيال المريح المنبثق من مزاجه الطروب والذي لم يكن ملحوظاً قبل ذلك في الفن الفارسي، فصور الدراويش وهم يرقصون بأسلوب مريح تعبّر عنه منمنمة رائعة (لوحة ١٩٣: أ)، يتميز فيها الدراويش قلشوات عالية مدببة «طراير»، بينما يكتسي

المتنوعة. وأصبح من العسير تحديد تاريخ الصور والرسوم الشيعية أو نسبتها إلى فنان بعينه على الرغم من التواريخ والتوقيعات المسجلة عليها نظراً لذوبان الأساليب واندماجها تدريجاً بعضها في بعض، كما غدت المصورات القديمة موضع تقليد الفنانين المحدثين. ولعل أفضل دليل لتأريخ عهود الشخص المصورة هو لباس الرأس، فقد أخذ حجم العمامة في الازدياد خلال القرن السادس عشر حتى بلغت عهد شاه طهماسب حداً غير مألوف من الضخامة، وما لبثت عمامم مختلفة أن ظهرت في أواخر القرن السابع عشر. ثم رأينا الغلمان المخشّين والخضيان، الذين شاع تصويرهم وقتذاك، يثبتون زهوراً طويلة الغصون فوق عماماتهم أو يلقون رؤوسهم بمناديل شأن النساء، بل ويتردون ثياباً أنثوية أو عمامم ضخمة، أو عباءات حمراء، أو فلابس رأس على شكل البروكة ذات حافات من الفراء انتشرت في عهد الشاه عباس. وكانت معظم شخصيات النساء المصورة من بين الرافعات أو المخيطات تزهر ثيابهن الحريرية والمطرزة بالقصب على ثياب الرجال، وتسترسل شعورهن في غداير، على حين تتحلى عباءتهن بالفراء، وتصبغ أكفهن وأقدامهن بلون الجناء، بينما توشم أطراف الصبايا بزخارف متقنة. ولم يعد استخدام الجواهر قاصراً على الرجال والنساء فحسب بل انتقل إلى عدة الخيل، وهو تقليد فارسي قديم.

وتعكس صور الشخص ورسومها في تلك الفترة شتى تفاصيل الحياة، وتظهر الخلفية أحياناً بلون واحد مع لمسات من الذهب تصور النباتات وأوراقها، في أسلوب شبه انطباعي مع لفائف السحب الصينية من حين لآخر كوحداث زخرفية فحسب. ونلاحظ آثاراً مباشرة من الشرق الأقصى في بعض رسوم عهد الشاه عباس الأول، وهي نتيجة منطقية في عصر لجأ إلى تقليد نماذج الخزف الصيني بوضوح.

وتختلف رسوم هذه الفترة عما سبقها، فروحها في أغلب الأحوال عصرية تعكس هنا وهناك أثر الاتصال بالغرب الأوروبي، مع اتباعها التقاليد الآسيوية التي تتحاشى الظلال والتجسيم والمنظور، وتلتزم أكثر ما تلتزم بالغاية الزخرفية. وحاولت الكثير من دراسات الشخص والحوان الالتزام أحياناً بالواقعية، كما اهتم الفنان بالتصوير الدقيق لأنماط الوجوه. وبصفة عامة كانت لهذه الرسوم شعبية واسعة حيث حلت موضوعات تصوير المعيشة اليومية والصور الشخصية لعامة الناس بين مناظر طبيعية محل الموضوعات التقليدية. فانتشرت صور الرعاة والدراويش والأطباء والحجاج والرحالة إلى غير ذلك، فضلاً عن مستنسخات الصور الأوروبية والرسوم الهندية.

على تصوير الشُّخُوص خلال حُكْم طهماسب مُتَطَوِّراً إلى الطراز الذي يقرضه ذوق العصر والذي تزداد فيه الكيفان أنجداراً والجسم امتلاءً من دون تحديد الخصر، وتلك نتيجة منطقيّة لسيادة النهج الطبعي في التصوير. وهكذا تغيّرت هيئة الشُّخُوص في صور مُتَنَصَف القَرْن، من شُخُوص مُتَوَثِّرِينَ ذوي شِفاه مَزْمومة، إلى آخَرِينَ قَد انْفَرَجَتْ شِفاههم مُوحِيَةً بِالإِتِّسَام في صور نهاية القَرْن، ومن شُخُوص جامِدين، إلى آخَرِينَ مُتَوَازِنِينَ تَعكِّس أوضاعهم حَرَكَةً مُتَوَثِّبَةً، على ما يظهر في مُنَمَّة مَصْرَع هابيل أثناء نومه بِحَجَرٍ على يد أخيه قابيل من كتاب قِصَص الأنبياء لِلتِّسَابُورِيِّ (لَوْحَة ١٩٥)، وكذا في مُنَمَّة هارون ومُوسى وَسَحَرَةُ فِرْعَوْنَ، إذ تُنْهَج هذه مَثَلُ سَابِقَتِهَا الأسلوب الذي اتَّبَعَهُ المُصَوِّر في مُنَمَّاتِهِ المُفْرَدَةِ [المُسْتَقِلَّةُ القَائِمَةُ بِذَاتِهَا] والعناية نَفْسُهَا بِاللَّحَى وَأَطْرَافِ العِمَامِ، حَيْثُ الشُّخُوص أَكْثَرُ شَبْهًا بِطَبِيعَتِهَا مِنْ أَيْةٍ تَصَاوِيرٍ سَابِقَةٍ بِالْمَخْطُوطَاتِ، وإنْ جَاءَ رَسْمُ المُنْظَرِ الطَّبِيعِيِّ بِالْأَسْلُوبِ الإِصْطِلَاحِيِّ المُتَوَاضِعِ عَلَيْهِ مِنْ زَمَنٍ، والأشجار على هيئة شُجَيْرَاتٍ عَارِيَةٍ عَنِ الشَّكْلِ، والتفاصيل قليلة إلى حَدٍّ بَعِيدٍ، كما تَبْدُو الشُّخُوصُ وَكَأَنَّهَا انْتَهَتْ لِنُتُوها مِنْ حَقْلٍ شَرَابٍ. وتُعْبَرُ (اللُّوحَة ٣١١ م) عَمَّا جَاءَ بِالآيَاتِ الكَرِيمَةِ في هذا الصَّدَدِ، إذ نَرَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَدْ أَحَاطَتْ بِرَأْسِهِ هَالَةٌ نُورَانِيَّةٌ وَأَخَاهُ هَارُونَ يَسْتَنِدُ إِلَى عَصَا. وبِأَعْلَى الصُّورَةِ شَرِيطٌ يَحْمِلُ الآيَةَ الكَرِيمَةَ «فَلَنَّا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى»، وَأَوْحَى اللهُ إِلَى مُوسَى أَنْ يُلْقِيَ مَا فِي يَدِهِ عَلَى الْأَرْضِ وَهِيَ عَصَاهُ، فإِذَا هِيَ قَدْ تَحَوَّلَتْ إِلَى حَيَّةٍ ضَخْمَةٍ عَلَى شَكْلِ تَيْنٍ فَارِغًا فَاهِ الذِّئْبِ يَنْبُتُ مِنْهُ اللَّهَبُ «تَلَقَّفْ مَا يَأْكُونُ». وَنَرَى أَحَدَ سَحَرَةِ فِرْعَوْنَ يَخْرُ سَاجِدًا يَتِيمًا يُولِّي سَاجِرَ آخَرٍ الْفِرَارَ وَقَدْ حُلَّتْ عِمَامَتُهُ، وَشَخْصًا ثَالِثًا يَرِيقُ المَشْهَدَ فِي عَجَبٍ وَكَأَنَّهُ يَرُدُّ قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: «قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى».

وَلَمْ يَعُدْ تَصْوِيرُ المَخْطُوطَاتِ فِيمَا نَبَقَ مِنْ عَصْرِ الشَّاهِ عَبَّاسٍ الْأَوَّلِ يُمَثِّلُ الأَهَمِّيَّةَ الرَّئِيسَةَ الَّتِي كَانَ يَحْطِي بِهَا، وَمَضَتْ رُسُومُ الْأَشْخَاصِ تَطْعَى تَدْرِيجًا، وَتَبْدُو فِيهَا أَلْوَانُ المَنَاطِرِ الطَّبِيعِيَّةِ فِي الخَلْفِيَّةِ خَافِتَةً الْأَلْوَانُ بِمُقَارَنَتِهَا بِالْأَلْوَانِ المَلَابِسِ القَشِيَّةِ الَّتِي تُجَسِّمُ الْأَشْخَاصَ.

وعندما كانت الصورة تتسلل إلى الهامش - وهو ما كان يحدث كثيرًا - نراها تهبط إلى مُجَرَّدِ رُسُومٍ مُلَوَّنة. وَلَمْ تَعُدْ أَجْمَلُ المَشَاهِدِ هِيَ المَنَاطِرُ الخَلَوِيَّةُ المُصَوَّرَةُ فِي خَلْفِيَّاتِ المُنَمَّة، وَإِنَّمَا تِلْكَ التَّصَاوِيرُ الجِدَارِيَّةُ الَّتِي تَظْهَرُ عَلَى جُدُرَانِ المَبَانِي المُصَوَّرَةِ فِي المُنَمَّة، وَالَّتِي كَانَتْ تُلَوَّنُ غَالِبًا بِاللُّوْنَيْنِ الْأَزْرَقِ وَالْأَحْمَرِ القَانِي فَوْقَ جِدَارٍ أبيض. وَثَمَّةُ نَمَاجٍ رَاضِيَةٍ

آخَرُونَ يَجْلِدُ المَاعِزَ وَرُؤُوسَهَا وَقُرُونَهَا، وَيَكْشِفُ العَازِفُونَ المَصَاحِيونَ لَهُمْ بِالطَّبَلِ والدُفُوفِ والمُصْفَارِ عَنِ التَّجَلِّيِ المَطْلَقِ وَالاسْتِرْخَاءِ أَثْنَاءَ حَالَةِ الجَذْبِ الدِّينِيِّ. وَنَرَى فِي مُنَمَّةٍ أُخْرَى ضِمْنَ مُرْقَعَةٍ (لَوْحَة ١٩٣: ب) عَازِفٍ نَائٍ مِنَ الدَّرَاوِيشِ وَرَاقِصًا وَحَوْلَهُمَا نَفْسٌ يَقُولُ: كُنْتُ أَنَا مَوْجُودًا وَلَكِنَّكَ نَهَبْتَ القَلْبَ، وَمَا دُمْتُ نَهَبْتُ القَلْبَ فَأَيْنَ يَجْلِسُ هَمُّكَ؟ وَفِي مُنَمَّةٍ أُخْرَى (لَوْحَة ١٩٤) نَرَى ذُرُوبِيشًا يُمِيسِكُ يَدَهُ اليُمْنَى مُصَحِّفًا وَبِالْيَدِ الأُخْرَى رُمَحَهُ وَقَدْ عَلَّقَ حَاجِيَاتِهِ فِي حِزَامِهِ.

المُصَوِّرُ أَقَا رِضَا

وَمَا لَبَثَ المُصَوِّرُ الفَارِسِيُّ أَنْ أَخَذَ يُعْنَى بِالتَّعْبِيرِ عَنْ ذَاتِهِ أَكْثَرَ مِنْ عِنَايَتِهِ بِنَقْلِ جَمَالِ الحَيَاةِ الخَلَوِيَّةِ أَوْ الجَوِّ العَاطِفِيِّ الكَامِنِ فِي إِحْدَى القِصَاصِ الشَّاعِرِيَّةِ، وَابْتَرَى يَبْحَثُ عَنِ الإِمْكَانِيَّاتِ الَّتِي تُقَدِّمُهَا لَهُ اللَّفَنَاتُ والأَوَاضَاعُ الأَنْبِيَّةُ مِنْ أَجْلِ تَكْوِينِ تَشْكِيلٍ جَذَابٍ، حَتَّى أَصْبَحَ التَّرْكِيزُ عَلَى اللَّمَّاسَاتِ الشَّخْصِيَّةِ، مُنْذُ ذَلِكَ الْوَقْتُ وَحَتَّى نِهَايَةِ العَصْرِ الصَّفَوِيِّ، هُوَ السِّمَةُ المُمِيزَةُ لِلتَّصْوِيرِ الفَارِسِيِّ.

وَيُمْكِنُ أَنْ نَعُدَّ أَوَّلَ فَنَائِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ الْفَنَانِ «أَقَا رِضَا» ابْنَ مَوْلَانَا عَلِيِّ أَصْغَرَ القَاشَانِيِّ مُصَوِّرِ الأَمِيرِ إِبْرَاهِيمِ مِيرْزَا حَاكِمِ مَشْهَدِ بَيْنِ عَامِي ١٥٥٦ و ١٥٥٧، وَمِنْ ثَمَّ يَكُونُ قَدْ نَشَأَ فِي أَكْبَرِ مَرْكَزٍ قَنِّيٍّ خِلَالِ تِلْكَ الْفَتْرَةِ. وَتَحَدَّثَ عَنْهُ الأَدِيبُ «القَاضِي أَحْمَدُ» الَّذِي وُلِدَ فِي الْبَلَدَةِ نَفْسُهَا فَقَالَ: إِنَّ مَهَارَةَ أَقَا رِضَا فِي شَبَابِهِ وَبِخَاصَّةٍ فِي رَسْمِ الصُّورِ الشَّخْصِيَّةِ «الْپُورْتِرِيَّةِ» قَدْ كَتَبَتْ لَهُ الشُّهُرَةُ وَجَعَلَتْهُ مَوْضِعَ التَّفْضِيلِ عَلَى غَيْرِهِ فِي بِلَاطِ الشَّاهِ عَبَّاسِ الْأَوَّلِ بَعْدَ ذَلِكَ، أَيِ فِي حَوَالِي عَامِ ١٥٩٠. عَلَى حِينِ يُؤَكِّدُ شَرَوِيدَرُ أَنَّ أَعْمَالَ أَقَا رِضَا المَعْرُوفَةَ تَرْجِعُ إِلَى الْفَتْرَةِ مَا بَيْنَ عَامِ ١٥٨٩ و ١٦٠٠، وَأَنَّهَا تَتَمَيَّزُ جَمِيعًا بِخُطُوطٍ جَمِيلَةٍ مُتَدَقِّقَةٍ مُسْتَرَسِلَةٍ تَسْتَجِيبُ فِي سَلَاسَةٍ لِلْعَنَاصِرِ الَّتِي تُشَكِّلُهَا وَتُنْتَهِي بِوَقْفَةٍ حَادَّةٍ كُلَّمَا ارْتَفَعَتِ الْفَرَشَةُ عَنِ الْوَرَقَةِ، وَتَكْشِفُ عَنْ وَلَعٍ بِالْإِعْرَابِ عَنِ الشَّفَافِيَّةِ حِينَ يُصَوِّرُ أَكْثَامَ «المُوسْلِينَ» وَعَنْ شَعْفٍ بِتَصْوِيرِ تَمَوُّجِ شَعْرِ الرُّؤُسِ واللَّحْيَةِ. فَضْلًا عَنْ إِظْهَارِ طَيَّاتِ حِزَامِ الخَصْرِ والعِمَامَةِ. وَتَحْمِلُ صُورَةَ شَخْصِيَّةٍ لِغِلَامٍ مِنَ الْبِلَاطِ (لَوْحَة ٣٠٩ م) مَحْفُوظَةً بِمُتَحَفِ فَوْجِ الْفُنُونِ وَكَذَا صُورَةَ أُخْرَى لِأَمِيرٍ شَابٍ يَعْزِفُ عَلَى المَانْدُولِينَ (لَوْحَة ٣١٠ م) مَلَامِحَ فَنِّ أَقَا رِضَا. وَتَتَضَمَّنُ هَاتَانِ الصُّورَتَانِ بِدَايَةَ نَهْجٍ جَدِيدٍ غَرِيبٍ تَحَوَّلَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى تَكْلُفٍ مُجَلٍّ فِي الْقَرْنِ التَّالِي، وَهُوَ تَقْوِيسُ الشَّخْصِ المُصَوَّرِ مِنَ الْأَمَامِ بِتَيِّ رُكْبَتَيْهِ قَلِيلًا وَثَنِي ظَهْرَهُ إِلَى الخَلْفِ، وَإِذَا أَضَفْنَا إِلَى ذَلِكَ اكْتِنَازَ الْوَجْهَةِ والدَّقْنَ أَذْرَكْنَا عَلَى الْفُورِ التَّعْبِيرَ الَّذِي طَرَأَ

يُمَيِّز رِضا عَبَّاسِي عن تلاميذه وخلفه هو عنايته بِاخْتِيارِ الموضوع ونقاء تفاصيل صورته كَطَيَّاتِ لفافة العُنُقِ أو عَباءة الدَّرُوشِ أو أطراف حزام العُلَمان، فَلَقَدْ كان يُعْنَى بِتفاصيل رُسومه إلى الحدِّ الذي يُضْفي عليها جَمالاً تَجْريدِيًّا ما نَلَبَثْ أن نَلْمسه في رَسْمِ الحَلْفِيَّةِ الدَّهْيِيَّةِ التي تَتَعانقُ فيها أواني الخَمَرِ والفَوَاكِه مَعَ أَغْصانِ النَّباتاتِ وَكُتْلِ السُّحْبِ بِما يُؤَلَّفُ في النِّهاية تَشْكِلاً شامِلاً بالغِ الرُّوعة. وَبُوشِكِ مَوْضُوعِ الصُّورة أن يَتَخايلَ مِن وِراءِ غِلالَةِ مِنَ الرِّسْمِ التَّجْريدِيّ الخالص الذي لا يَتَأَيُّ كَثِيرًا عن الفَنِّ الفارِسيِّ المُولَعِ بِالخَطِّ المُحَسَّنِ وبِالتَّصْميماتِ الرُّخْفِيَّةِ العارِيةِ عن رُسومِ الأشْخاصِ في نَسْجِ السَّجَادِ وَتَرْقِينِ الكُتُبِ. ومِثال ذلك مُنَمَّنَتانِ مُثَلَّانِ نُزْهة خَلَوِيَّةٌ إِحْداهما نَهْراً، بِمُتَحَفِ الإِرمِيتاجِ بِسانِ بَطْرَسِبرِج (لَوْحَة ١٩٦) والأُخْرَى لَيْلاً، بِالمُتَحَفِ البَرِيطانيِّ (لَوْحَة ١٩٧). نَشْهَدُ في الأوْلَى رُوجِينَ في مِيعَةِ الصِّبا يَجْلِسُانِ على ضِفَّةِ جَدُولِ ماءٍ تَتَخَلَّلُهُ الرُّهُورُ والشَّجِيرَاتُ المُزهرة وقد اَمْتَدَّتْ أَمامَهُما أَطباقُ الطَّعامِ وأواني الشَّرابِ. وإلى اليمينِ واليسارِ مِنْهُما شَيْخٌ وَرُوجَتُهُ لَعَلَّهُما وإِدا العُروسُ، ثُمَّ عازِفُ العُودِ وَفَتاتانِ مَلِيحَتانِ تُشارِكانِ الجَمْعَ تناوُلِ الطَّعامِ، رُسيمَ وَجْهِ إِحْداهما بِالمُجانِبَةِ التَّامَّةِ فَجاءَ بِدُعةٍ على التَّصويرِ الفارِسيِّ. وَوَقَفَ إلى جِوارِ العَريسِ الخادِمُ يَحْمِلُ مِنشَقَةً. وَمِنَ وِراءِ العُروسِ التي تَرْتَدِي ثُوباً مُوشًى بِزُخارفِ لَافِيفِ السُّحْبِ التَّقْلِيدِيَّةِ امْرَأَةٌ عَجُوزٌ يَثِبُ صَبِيٌّ صَغِيرٌ على ظَهْرِها. وَبِندِمْجِ المَشْهَدِ مَعَ الهامِشِ المُذْهَبِ مُطْلَقاً مَعَ الطَّبيعَةِ بِأَشْجارِها وَنَباتاتِها وَحَيَوانِها وَطَيرِها المُحَلَّقِ في وَضْعاتٍ خَلابة مُبتَكِرةٍ على صَفْحَةِ السَّمَاءِ التي تُغْشِيها السُّحْبُ المألُوفَةُ. وَإِذا كانَ رِضا عَبَّاسِي قَدْ رَسَمَ الشُّخُوصَ بِأسلوبِ جَدِّ واقِعِيٍّ يَرِفُ بِالحياةِ في تَشْكِيلِ دائِريٍّ يَسْلُبُ اللَّبَّ، نَراهُ قَدْ صَوَّرَ أَوْرَاقَ الشَّجَرِ الرَّئيسَةِ المائِلةِ شَدِيدَةَ التَّخْوِيرِ وَرَسَمَ أواني الطَّعامِ وَقِيتِناتِ الشَّرابِ بِأسلوبِ تَجْريدِيٍّ وَكَأَنَّنا نَتَطَّلَعُ إلى مَشْهَدٍ طَبِيعَةٍ ساكِنةٍ لَماتِيس!

أَمَّا اللُّوحَةُ الثَّانِيَّةُ فَلَنَلْسَ في رَسْمِ شُخُوصِها شَبْهاً كَبِيراً بِالصُّورِ الجِدَارِيَّةِ في قَصرِ الأعمدةِ الأربَعينِ «چهل سوتون» بِاصْطِهان، كَمَا نَجِدُ المُصَوِّرَ قَدْ أَقْلَعَ عَن تَصْويرِ الطَّبيعَةِ مِن خِلالِ الاصْطِلاحاتِ التَّقْلِيدِيَّةِ بِاسْتِثْناءِ الشَّجَرَةِ المائِلةِ بِأَوْرَاقِها المُحَوَّرةِ ذاتِ اللُّونينِ. وإلى جِوارِ الشَّجَرَةِ يَجْلِسُ العاشِقُ وَحَبِيبَتُهُ يَصْبُ لَهَا كَأْسُ الخَمَرِ، وَمِنَ أَمامَهُما طَبَقُ الفاكِهةِ وَقِيتِنَةُ شَرابٍ وَثَلَاثَةُ شَماعِدِ مُوقَدَةٍ. وَارْتَدَّتِ الفَتاةُ عَباءَةً يَزِينُ حافَتُها الفراءُ وَنُوشِها زُخارفُ لَافِيفِ السُّحْبِ التَّقْلِيدِيَّةِ، وَتَضَعُ على رَأْسِها عِمامةً ضَخْمةً ذاتِ طَيَّاتٍ بِدِيعَةٍ تَنبِيقُ مِنْها رِيشَتانِ. وَنَجِدُ ضِفَّةَ جَدُولِ الماءِ على شَكْلِ مُثَلَّثٍ تَتَصَدَّرُ قاعدَتُهُ اللُّوحَةُ

التَّناسُقُ تَشَبَّ فيها الأشْجارُ السَّامِقةُ والتَّابِعةُ مِن أَسْفَلَ الصُّورةِ ضاربةً في السَّمَاءِ التي تُوشِها السُّحْبُ وَتُحَلِّقُ خِلالَها الطُّيورُ. وَكانتِ السُّحْبُ تُصَوِّرُ في هَوامِشِ هَذِهِ المَخْطوطاتِ بِالأسلوبِ التَّقْلِيدِيّ، وما أَكْثَرَ ما كانَتْ تَأْخُذُ لَوْنَ الدَّهَبِ تُحِيطُها حَواوِيفُ زَرْقاءَ أو العَكْسُ، على نَحْوِ ما نَرى في مُنَمَّةِ «النَّمسِ» فوقِ الشَّجَرَةِ» مِن مَخْطُوطَةِ «عِجائِبِ المَخْلُوقاتِ» المَنسُوخَةِ في هِراةِ عام ١٦١٣ (لَوْحَة ٣١٢ م)، حَيْثُ رُسيمَتِ الأشْجارُ بِطَريقةٍ رُخْفِيَّةٍ وَالحَيَواناتُ بِرِفَّةٍ مُنتاهِيَّةٍ، وَزادَ فيها حَجْمُ الشُّخُوصِ مِن دُونِ مُراعاةٍ لِنِسْبَتِها إلى التَّشْكِيلِ العامِّ.

رِضا عَبَّاسِي

اعْتَمَدَ الشَّاهُ عَبَّاسُ الأَوَّلُ على جِهازِ حُكُومِيٍّ مُسَخَّرٍ لِتَحْقِيقِ أَهْدافِهِ وَدَوَقِهِ في جَمِيعِ المَجالاتِ، وَانْعَكَسَ وَلَعَهُ بِالْأَنْبِيَةِ وَاهْتِمَامُهُ بِالْإِعمارةِ في قَلْبِ مَدِينَةِ إِصفَهانِ الذي يَتَوَسَّطُهُ «مِيدانُ شاه» تُحِيطُ بِهِ مَساجِدُ تُغْطِي جُدرانَها اللُّوحاتُ الخَزَفِيَّةُ والبُواباتُ الخَشَبِيَّةُ وَيُطَّلُ عَلَيْهِ قَصرُ «عالي قاهر» الشَّاهِقُ الذي كانَ الشَّاهُ عَبَّاسُ يُتَابِعُ مِنْهُ تَبْضُ الحِياةِ في طُرُقاتِ مَدِينَتِهِ المُحاطَةِ بِالحِداثِيقِ الفَسيحةِ. غَيرَ أَنَّ زُخارفَ جُدُرانِ قَصرِهِ جاءَتْ دُونَ رُوعةِ الإِطارِ الشَّامِلِ الذي يُحِيطُها. وَلَعَلَّ مَرَدَّ ذلكَ إلى انْجِساسِ الثَّقاليدِ الحَقِيقِيَّةِ لِلزُّخارفِ الجِدَارِيَّةِ في فارِسِ الصَّفْويَّةِ. وَكانَ طَبِيعِيًّا أنْ يَتَوَقَّعَ المَرءُ مِن هَذا المَلِكِ الذي يَرْجِعُ لَهُ الفَضْلُ في تَوْجِيهِ فَتائِهِ مَراسِمِهِ الخاصَّةِ إلى نَسْجِ الحَريرِ المَوشى وَزُخْرَفَةِ الخَزَفِ الزَّائِعِ وَنَسْجِ الأَبْسيطةِ الجَذابَةِ - يَتَوَقَّعُ مِنْهُ أنْ يَسْتَجِدَّ مُصَوِّرِيَهُ على إِنْجازِ زُخارفِ جِدَارِيَّةٍ جَدِيدَةٍ بِمَسْكَنِهِ الخاصِّ. وَكانتِ اللُّوحاتُ التي تُصَوِّرُ أَتباعَهُ مِنَ العُلَمانِ وَرجالِ البَلاتِ تُمَثِّلُ إِطارَ حِياتِهِ الخاصَّةِ كَمَا نَعْرِفُها مِن خِلالِ الوَصْفِ المُثيرِ الذي وَضَعَهُ الرِّخالةُ الإِيطاليُّ بِيسترو ديلالافالي بَعْدَ أنْ أَقامَ عامًّا كامِلاً في البَلاتِ الفارِسيِّ، والذي سَجَّلَهُ أَيضاً سِيبِرِ ويلفريد بلانت في كِتابِهِ الزَّائِعِ. وَوَسَطَ هَذا المَنَاحَ تَأَلَّقَ المُصَوِّرُ «رِضا عَبَّاسِي» خِلالَ فَتْرَةٍ اَمْتَدَّتْ ما بَينَ عامِ ١٦١٠ وعامِ ١٦٤٠، وَأَغْلَبَ الظَّنُّ أَنَّ كَثِيراً مِنَ اللُّوحاتِ التي تَحْمِلُ تَوْقيعاتِ «رِضا عَبَّاسِي» لَمْ تَكُنْ لَهُ بَلْ كانَتْ زائِفَةً رُغمَ دِقَّةِ مُحاكاتِها.

وَكانَ رِضا عَبَّاسِي رَسامًا لَامِعًا تَشْهَدُ بِذلكَ كُرْاسةُ «عِجالاتِهِ» التَّخْطِيطِيَّةِ» المَخْفوظَةُ بِالفريرِ جاليريِ يَواشطنن، التي نَتَبَّنِ فيها قَسَماتُ أُسلوبِهِ مِن اسْتِزْسالِ حُطوطِهِ التي تَرْدادُ كَثافتُها أحياناً وَتَقَلُّ أحياناً أُخْرى وَتَتَكَسَّرُ عِندَ وَفَقاتِها، وَمِنَ تَلَوِينِ مُعْظَمِها بِأَصْباغِ البَرِيقِ المَعْلُونِيّ التي تَشَقَّقَتْ مَعَ الزَّمنِ، وَمِنَ إِضافةِ زُخارفِ وَشْيِ القَصَبِ على المَلابِسِ بَعْدَ الاِنتِهاءِ مِنَ الرِّسْمِ. على أَنَّ ما

بصورة لمُصوِّر صينيٍّ مجهولٍ من القرن الحادي عشر تُمثِّل فيلسوفًا يتأمل تحت شجرة صفّاف (لوحه ٢٠٣) وقد افترش سباطاً ومن أمامه لفافة الورق وطبق الطعام والمِغْرِفَة. هل هو مُجرّد توارّد خواطر؟

وتُمثِّل مُنمنمة أخرى (لوحه ٣١٣ م) مشهد غرام بين عاشقين أو زوجين، تقدّم الجارية لهما كأسين من شراب وسط منظر طبيعيّ بهيج. ونرى في مهاد الصورة أروضة خضراء داكنة تسير في خطّ منحنيّ في استدارة خفيفة لإثوي بالعُمق، وقد رُصّعت بزهور ذهبيّة وشجيرات مُحوّرة متناثرة وبينها أحجار صغيرة ذهبيّة وأنيّتان أنيقتان للشراب. ومن بعد هذا المهاد مساحة زرقاء خافتة يجلس عليها العاشقان في وضعة الألفة والحنان، وبدا المُحبّ ذو الرداء الأخضر الساهي يباقة البتّة من القرو وعِمامته المروحيّة ووجهه الناعم البضّ وقد مدّ ذراعَيْه إلى حبيبته وأراح خدّها على كُفّه، بينما أمسكت هي ببعصمه في رفق ومدّت يدها الأخرى إلى الجارية لتأخذ كأسها من إحدى يديها الممدودتين بالكأسين. وقد بدت العاشقة رقيقة مُستكنة في عباءتها الصفراء ومن تحتها رداؤها الزرديّ الهامس، بينما اتّسحت الجارية، التي جثت على رُكبتيها، برداء أزرق تُحيط خاصيرتها بحزام بُزْتَقاليّ مُزركش وعلى كُفّيها شالّ ما بين البُزْتَقاليّ والأصفر. ومن خلف الجميع شجرة بُتّة الساق ذهبيّة الأوراق الدقيقة على خلفيّة ذهبيّة. ولم يترك المُصوِّر للأفق سوى مساحة جدّ محدودة على شكل مثلثين في أعلى الرُكن الأيمن غشاها بالسُحب الصينيّة الأضل. ويغلو هذا المشهد مُستطيل به رسم شجرة بديعة مُحوّرة أمامها طائر العشق الميَّاس «مرغ عشق» يشدها بألوان ريشه الخلاّبة ووجهه الأبلق وقد حطّ فوق رابية خضراء تتخلّلها صُخور بُتّة وزرقاء. وإلى اليمين شجيرة أخرى ذهبيّة مُحوّرة. ويحيط بالصورة بِشَطْرَيْها إطار مُستطيل به جامات مُستطيلة مُفصّصة تضمّ أشعاراً فارسيّة لا صلة لها بموضوع الصورة. ويحيط بالإطار هامش أخضر عريض به رسوم غزلان وأسود وطُيور تُمثِّل صراع الحيوانات في الطّبيعة، وذلك بالتذهيب وسط شجيرات وغُصون موريقة مزهّرة. والمُنمنمة في عُمومها تعكس الدّعة والحنان والهدوء والسّحر والسّكينة التي تشهّرها القلوب.

والمُلاحظ أنّ خطّ الثُّقوش الكتابيّة في بعض رسوم رضا عباسي يطابق الخطّ المنقوش في رسوم ابن رضا عباسي الفنّان شافعيّ عباسي. ومن المُحتمل أنّ شافعي كان يستنسخ أعمال أبيه ثمّ يُقدّمها على أنّها أعماله مُضيقاً بعض التّفصيلات لتأكيد ما يزعم. ولم يكن عبّاسي اسماً للفنّان بل لَقَباً إمّا أضفاه عليه الشّاه عبّاس إعراباً عن تقديره له - وكان شعراء البلاط يحملون

وتدلف قيمته نحو داخل المشهد بما يُوحى بِقِسطٍ من العُمق. وجلس رجل في مُتّصف العمر المُرفُصاء يعبّ الخمر من كأسه ومُمسِكاً بِقِبتة الشراب المليئة حتّى مُتّصفها استعداداً لملء كأسه حال فراغه، ومن أمامه راقصة ترقص قاعدة في رشاقة تكشف عن استرسال الخطوط في غذوبة مُعبّرة، وإلى يمينها قارعة الدّف ومن ورائها فتاة أخرى تُكوّن قيمة المُثلث الرّهيف الفاتن الذي يضمّ الغانيات الثلاث. وتتأوّد تموجات الأحزمة التي يمتنطقن بها مُمتدّة لتلتق حول وسط التابع الجالس خلفهنّ، وهو ما يكشف عن نفرد أنماط هذا المُصوِّر الخطيّة بإيقاع متحوّ شديد الغواية. وجاء تصوير الثّل بِأسلوب جدّ طبيعيّ تنتشر على سطحه الأشجار المُتمايلة مع الرّيح على صفّحة سماء طبيعيّة على غرار التصوير الأوربيّ، ووقّف في طرف الصورة تابع يحمل مشعلين يتأجّج ليهيما ويتمايل متوازناً مع قيم الأشجار.

وثمة مشكلة محيرة تتركز حول شخصيّة رضا عباسي الذي يلي بهزاد مباشرة في أهمّيته فإنّ قدراً كبيراً من رسوم النّصف الأوّل من القرن السابع عشر يحتوي على توقيعات ونقوش تحوّل اسم «رضا» في صيغ مُتعدّدة. ومن الطّبيعيّ أن يشيع اسم «رضا» بين عديد من الفنّانين في دولة شييعيّة، غير أنّه من المُحتمل أيضاً إضافة هذا الاسم إلى الصورة بدون علم الفنّان الذي لم يكن لزاماً أن يكون اسمه «رضا» على الإطلاق، وذلك إمّا لرفع قيمة هذه الرسوم وإما لمُشابهتها لِأسلوب أحد الفنّانين ممّن يُدعَوْنَ رضا. ومُعظم هذه الرسوم صور شخصيّة لرجال في مُتّصف العمر ذوي أنوف طويلة غربيّة مثل (لوحه ١٩٨) و(لوحه ١٩٩) التي تُصوّر شيخاً يتكيّ على عصاه، و(لوحه ٢٠٠) التي تُصوّر شاعراً يُمسك كتاباً بإحدى يديه وبالأخرى كأس خمر، أو فنّيات ذوات وجوه مليحة رُسمت خيالنها بِأسلوب جدّ فريد في مُنحنيات جريئة لكنّها آليّة (لوحه ٢٠١) فجاءت الوجوه مُعبّرة وإن افترقت إلى التّنوع. ومثل هذه التّفنة - التي كانت سهلة التّفليد والمحاكاة - كان لها أثر قوي وإن لم يعد بالخير على التصوير فيما بعد. وقدّم رضا عباسي نماذج رفيعة من تلك الرسوم، فقدّ كان فنّاناً موهوباً خلاّقاً يملك قُدرة خارقة على التصوير الواقعيّ ويأنس قلمه البارِع بِتصوير نماذج عامّة الناس الذين يلقاهم في جولاته فيسجلهم في لَمسات مُقتضبة سريعة.

وفي مُنمنمة شيخ صنعان (لوحه ٢٠٢) نجد الشيخ جالساً تحت شجرة مالّ جذعها وائنتي، وحفلت ساقها بالعُقد وظهّرت أوراق الشجرة مُبسّطة مُحوّرة، ومن أمامه المُصحّف وإبريق وطبق وفاكهة. وظهّر تعبّر التّأمل واضحاً على وجه الشيخ الذي يقبض على طرف قماش يقرّشه ذي خطوط حمراء. وما أشبه هذا اللّوحة

عَلَيْهَا الْكَافُورُ كَمَا يَجْرِي عِنْدَ تَحْنِيطِ الْكَفَنِ، وَاقْتَرَبَ مِنْ أَبِيهِ فَتَرَجَّلَ وَقَالَ لَهُ: لَا بَأْسَ عَلَيْكَ فَإِنِّي إِن كُنْتُ بَرِيئًا فَسَوْفَ تَرَانِي وَقَدْ خَرَجْتُ سَالِمًا وَإِن كُنْتُ مُذْنِبًا فَلَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ. فَاضْطَرَبَ النَّاسُ وَضَجُّوا بِالْبُكَاءِ وَالنَّحِيبِ وَصَعِدَتْ سَوْدَابَةُ إِلَى إِيَّانَهَا تَنْظُرُ مَتَى يَحْتَرِقُ سَيَاوُخْشُ، وَرَكَضَ سَيَاوُخْشُ بِفَرْسِهِ وَخَاضَ تِلْكَ النَّارَ الْمُسْتَعْرَةَ وَدَاسَهَا بِخَوَافِرِ فَرْسِهِ حَتَّى قَطَعَهَا وَخَرَجَ مِنْهَا سَالِمًا، فَصَاحَ النَّاسُ وَاسْتَبَشَرُوا وَعَظُمَ الْأَمْرُ عَلَى سَوْدَابَةَ حَتَّى جَعَلَتْ تَنْتَفِ شَعْرُهَا وَتَخْمَشُ خَدَّهَا.

وَتَبَدُّ سَوْدَابَةُ فِي شُرْفَتِهَا بِأَعْلَى الْقَصْرِ بَيْنَمَا الْمَلِكُ فِي مَقْصُورَتِهِ بِالذُّورِ الْأَرْضِيِّ مِنَ الْمَبْنَى يَرْقُبَانِ التَّجْرِبَةَ، عَلَى حِينِ انْطَلَقَ سَيَاوُخْشُ بِجَوَادِهِ الْأَذْهَمِ وَسَطَ أَلْسِنَةِ النَّارِ الَّتِي رُئِيتْ عَلَى غِرَارِ مَثِيلَتِهَا الصَّبِيئَةِ الْمُسْتَحْدَمَةِ فِي التَّصْوِيرِ الْإِسْلَامِيِّ رَمُزًا لِلشُّعْبِ. وَلَيْسَ هُنَاكَ مِنْ جَدِيدٍ فِي هَذِهِ الْمُنْمَنَةِ لَمْ نَعُدْهُ فِيمَا سَبَقَ مِنْ تَصَاوِيرٍ، فَقَدْ شَطَرَ الْمُصَوِّرُ مَوْضُوعَهُ شَطْرَيْنِ شَبِهُهُ مُتَسَاوِيَيْنِ تَنَاوَلَ فِي الْقِسْمِ الْأَيْمَنِ مُؤَامَرَةَ الْقَصْرِ فِي أُسْلُوبِ مُبَسَّطٍ، لَكِنَّهُ مَعْبَرٌ، وَفِي أَلْوَانِ هَادِئَةٍ لَكِنَّهَا تُرِيحُ الْعَيْنَ. وَتَنَاوَلَ فِي الْقِسْمِ الْآخَرِ صُحْبَةَ الْمُؤَامَرَةِ وَسَطَ مَنْظَرٍ طَبِيعِيٍّ تَقْلِيدِيٍّ يَتَّسِمُ أَيْضًا بِالْقَصْدِ فِي اسْتِخْدَامِ الْعَنَاصِرِ التَّشْكِيلِيَّةِ وَاللَّوْنِيَّةِ قَصْدًا مَدْرُوسًا بِعِنَايَةٍ يَحِثُّ لَا يَسَعُ الْمُتَطَلِّعُ إِلَى هَذِهِ الْمُنْمَنَةِ إِلَّا الْإِعْجَابُ بِإِنْجَازِهَا الْبَلِغِ الْمُعَبَّرِ.

جُلُستَان سَعْدِي، أَوَائِلُ الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ

وَفِي نَسْخَةِ رُوضَةِ الْوَرْدِ «جُلُستَان» لِسَعْدِي غَيْرِ الْمُؤَرِّخَةِ وَالتِّي يُرْجَعُ تَشْوِكِينَ صُورُهَا الْأَرْبَعُ إِلَى أَوَائِلِ الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ، نَقَرْنَا هَذِهِ الْحِكَايَةَ: حَكَوْا إِنَّ قَاضِي هَمْدَانَ وَلَعَ بِعِشْقِ غُلَامٍ وَاسْتَمَرَّ مُدَّةَ مِنَ الزَّمَنِ جَادًّا فِي طَلَبِهِ مُتَغَنِّيًا بِجَمَالِهِ وَوَسَامَتِهِ، فَاعْتَزَّضَ الْغُلَامُ الْقَاضِيَّ وَكَالَ لَهُ السَّبَابَ نَظِيرَ مَا سَمِعَهُ عَنْهُ بِأُذُنِهِ مِنَ التَّشْنِيبِ، وَرَفَعَ يَدَهُ حَجَرًا لِيَضْرِبَهُ بِهِ. وَلَكِنَّ الْقَاضِيَّ تَغَاضَى قَائِلًا إِنَّ كُلَّ الْمَحَاسِنِ فِي تَقْطِيبِ حَاجِبِ الْغُلَامِ وَإِنَّ لِكَمَةٍ عَلَى فَمِي مِنْ يَدِهِ لَهِيَ أَحْلَى مَذَاقًا مِنَ الشَّهْدِ، وَفَاحَتْ رَائِحَةُ مُسَامَحَتِهِ مِنْ مَجْمَرَةِ وَقَاحَتِهِ شَأْنُ الْمُلُوكِ يَتَكَلَّمُونَ بِمَنْطِقِ الْكِبَرِيَاءِ وَيَطْلُبُونَ الصُّلْحَ فِي الْخَفَاءِ. وَمَضَى أَصْدِقَاءُ الْقَاضِيِّ يُحْذِرُونَهُ مِنْ مَعْبَةِ الْإِنْثِلَاقِ فِي مِثْلِ هَذَا الْأَمْرِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَرَجَّعْ وَطَلَّبَ أَنْ يَلُومُوهُ مَا اسْتَطَاعُوا فَهَمُّ لَنْ يَقُومُوا عَلَى غَسْلِ السَّوَادِ عَنِ الزُّنُوجِ!

وَذَاتَ لَيْلَةٍ اخْتَلَى بِالْغُلَامِ فَسَعَى بِهِ الْوُشَاةَ بِأَنَّ الْقَاضِيَّ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ تَعَبَتْ فِي رَأْسِهِ الْمُدَامُ وَيَلْعَبُ عَلَى صَدْرِهِ غُلَامًا. كَذَلِكَ أَبْلَغُوا الْمَلِكَ فَلَمْ يُصْغِ إِلَى قَوْلِهِمْ وَشَاءَ التَّحَقُّقَ بِنَفْسِهِ، فَاصْطَحَبَ بَعْضَ رِفَاقَةٍ. وَعِنْدَ السَّحَرِ كَانَ عِنْدَ وَسَادَةِ الْقَاضِيِّ قَرَأَى شَمْعًا مَنُظَّومًا

أَحْيَانًا اسْمَ رَاعِيهِمْ، وَهَكَذَا كَانَ الْخَطَّاطُونَ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْفَنَّانِينَ - وَإِنَّمَا إِنَّهُ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ سَلِيلُ عَبَّاسِ بْنِ الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ.

وَيَعُزُّو بَعْضَ التَّقَادِمِ مَجْمُوعَةً مِنْ مُنْمَنَاتٍ رِضَا عَبَّاسِيٍّ إِلَى الْفَنَّانِ أَقَا رِضَا السَّابِقِ الْحَدِيثِ عَنْهُ وَالَّذِي يُجْمَعُ كُلُّ الْمُؤَرِّخِينَ عَلَى أَنَّهُ شَخْصِيَّةٌ غَامِضَةٌ. وَيُمَيِّزُهُ عَنْ رِضَا عَبَّاسِيٍّ تَسْمِيَّتُهُ أَقَا أَوْ أَغَا وَهُوَ اسْمٌ شَرَفِيٌّ بِمَعْنَى السَّيِّدِ. وَمِنْ غَيْرِ الْمَعْقُولِ أَنْ يَبْلُغَ الرَّهْوُ بِمُصَوِّرٍ أَنْ يُضِيفَ إِلَى اسْمِهِ لَقَبَ أَقَا، وَالرَّاجِحُ أَنَّ غَيْرَهُ قَدْ أَضَافَهُ إِلَى اسْمِهِ إِعْجَابًا وَتَقْدِيرًا. غَيْرَ أَنَّ الثَّابِتَ أَنَّ عَدَدًا مِنَ الْمُنْمَنَاتِ الَّتِي تَحْمِلُ اسْمَ أَقَا رِضَا تَخْتَلِفُ أُسْلُوبِيًّا عَنْ صُورِ رِضَا عَبَّاسِيٍّ، وَهِيَ جَمِيعًا تَضُمُّ دِرَاسَاتٍ بِدِيعَةٍ لِيَعْبُضَ الشُّخُوصُ تُعَدُّ مِنْ أَجْمَلِ مَا أَنْتَجَتْهُ مَرَاسِمُ إِصْفَهَانَ، إِذْ تَتَفَرَّدُ بِرَقَّةٍ بَالِغَةٍ وَحِشٍّ مُرْهَفٍ بِالْبِنَاءِ وَالتَّصْمِيمِ عَلَى حِينِ تَتَمَيَّزُ خُطُوطُهَا بِغَرَابَةِ مَلْحُوظَةٍ حِينَ يَنْتَقِلُ هَذَا الْخَطُّ الشَّدِيدُ الْحَسَاسِيَّةِ مِنَ التَّحْوِيلِ إِلَى الْإِتْسَاعِ. وَكَانَتْ سِمَتُهُ الْمُمَيِّزَةُ هِيَ التَّرْقِيقُ الْمَعْقُوفُ فِي رَسْمِ أَطْرَافِ الْعَمَائِمِ وَأَحْزِمَةِ الْوَسَطِ، وَهُوَ مَا لَا نَجِدُهُ فِي خُطُوطِ رِضَا عَبَّاسِيٍّ الْمَحْوَطَةِ النَّاعِمَةِ. وَالْحَقُّ أَنَّ قَدْرًا كَبِيرًا مِنَ الْعُمُوضِ يُحِيطُ بِهَذَا الْفَنَّانِ، وَمَا مِنْ شَكٍّ أَنَّ ثَمَّةَ سِمَاتٍ مُشْتَرَكَةٍ بَيْنَ أُسْلُوبِهِ وَأُسْلُوبِ رِضَا عَبَّاسِيٍّ، غَيْرَ أَنَّ حِيرَتَنَا تَزْدَادُ إِذَا عَلَّمْنَا أَنَّ رِضَا عَبَّاسِيٍّ كَانَ يُعْرِفُ أَيْضًا بِاسْمِ أَقَا رِضَا.

شَاهَنَامَةُ الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ بِاسْتَبْوَالِ

وَبِمُتَخَفِ طُوبِ قَابِو شَاهَنَامَةُ تَحْتَوِي عَلَى ثَمَانٍ وَأَرْبَعِينَ مُنْمَنَةً، مِنْ أَوَائِلِ الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ، ذَاتَ أَلْوَانٍ غَيْرِ مُفْرِطَةٍ، وَشُخُوصٍ آدَمِيَّةٍ غَايَةِ فِي الرُّشَاقَةِ، يَزِيدُونَ الْعِمَامَاتِ الضُّخْمَةَ الشَّائِعَةَ وَتَقْدِذَاقَ. وَتُسَجِّلُ مُنْمَنَةُ سَيَاوُخْشِ يَحْتَرِقُ النَّارَ الْبَدِيعَةَ وَالتِّي لَمْ يَسْبِقْ نَشْرُهَا (لَوْحَةٌ ٣١٤ م) الْقِصَّةَ الْوَارِدَةَ بِالشَّاهَنَامَةِ عَنْ عِشْقِ سَوْدَابَةَ زَوْجَةِ كِيكاوسَ لِابْنِ زَوْجِهَا سَيَاوُخْشِ وَكَيْفَ رَاوَدَتْهُ عَنْ نَفْسِهَا سُدَى، وَلَمَّا اسْتَعَصَى أَمْرُهُ عَلَيْهَا لَجَأَتْ إِلَى الْجِيلَةِ وَادَّعَتْ أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَنَالَهَا فَسَرًّا قَدَعَتْ امْرَأَةً سَاحِرَةً وَهِيَ حَامِلٌ وَاقْتَرَحَتْ أَنْ تُسْقِطَ مَا فِي بَطْنِهَا لِتَجْعَلَهُ ذَرِيعَةً إِلَى إِثْبَاتِ صِدْقِهَا عِنْدَ الْمَلِكِ. فَأَحْضَرَ كِيكاوسَ الْعُلَمَاءَ وَالْمَوَابِذَةَ يَسْتَفْتِيهِمْ فَقَالَ أَحَدُهُمْ: إِنِّي أَرَدْتُ أَنْ يَنْكَشِفَ الْغِطَاءُ عَنْ وَجْهِ هَذَا الْخَطْبِ الْفَادِحِ فَالطَّرِيقُ أَنْ يَخْوَضَ أَحَدَ الْخَصْمَيْنِ النَّارَ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْهَا، فَإِنْ كَانَ بَرِيئًا فَلَنْ يُصِيبَهُ مَكْرُوهٌ. فَدَعَا بِسَوْدَابَةَ وَقَالَ لَهَا: إِنَّ النَّارَ تَفْصِلُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ سَيَاوُخْشِ، فَقَالَتْ: إِنِّي صَادِقَةٌ وَسُقُوطُ الْجَنِينِ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، فَعَلَى سَيَاوُخْشِ أَنْ يُبْرِيئَ سَاحَتَهُ، فَطَرَحُوا النَّارَ فِي الْأَحْطَابِ حَتَّى التَّهَبَّتْ، وَجَاءَ سَيَاوُخْشُ رَاكِبًا عَلَى فَرْسٍ أَذْهَمٍ وَعَلَى رَأْسِهِ بَيْضَةٌ مِنَ الدَّهَبِ، وَقَدْ لَبَسَ ثِيَابَ الْبَيَاضِ مَنثورًا

وَتَمَّةً أَرْبَعُ مُنَمَّمَاتٍ مُعاصرةٍ لِتاريخِ نَسْخِ المَخْطُوطَةِ مِنْ إِيْتاجِ المَرْسَمِ المَلِكِيِّ التَّيْمُورِيِّ بِهَرَاةَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعْلُومًا لَنَا اسْمُ مَنْ أَمَرَ بِرِسْمِهَا، هَلْ هُوَ السُّلْطَانُ أَوْ أَحَدُ أَفْرَادِ أُسْرَتِهِ أَمْ وَزِيرُهُ رَاعِي الفُتُونِ. وَهِيَ تُعَدُّ مِنْ أَرْوَاعِ نَمَازِجِ أُسْلُوبِ مَدْرَسَةِ بِهَزَادِ فِي أَوَاخِرِ القَرْنِ الخَامِسِ عَشَرَ بِهَرَاةَ نَشَرْنَا مِنْهَا صُورَتَيْنِ (اللُّوحَتَانِ ١٧٤، ٢٤٩ م).

أَمَّا المُنَمَّمَاتُ الأَرْبَعُ الأَخِيرَةُ فَقَدْ رُسِمَتْ فِي إِصْفَهَانَ عَهْدَ الشَّاهِ عَبَّاسِ الصَّفَوِيِّ الَّذِي أَمَرَ بِإِعَادَةِ تَرْكِيبِ صَفَحَاتِ المَخْطُوطَةِ وَإِضَافَةِ إِطَارَاتٍ ذَاتِ أَلْوَانٍ بَدِيعَةٍ مُذهَّبَةٍ وَتَجْلِيدِهَا مِنْ جَدِيدٍ. وَقَدَّمَ الشَّاهُ عَبَّاسُ المَخْطُوطَةَ كَامِلَةً عامَ ١٦٠٩ إِلَى ضَرِيحِ الأُسْرَةِ المَعْرُوفِ بِاسْمِ ضَرِيحِ الشَّيْخِ صَفِيِّ الدِّينِ بِأَرْدَبِيلِ.

وَتُعَدُّ اللُّوحَاتُ الأَرْبَعُ الَّتِي أَمَرَ الشَّاهُ عَبَّاسُ الصَّفَوِيُّ بِتَصْوِيرِهَا فِي المِسَاحَاتِ الخَالِيَةِ مِنَ المَخْطُوطَةِ ذَاتِ قِيَمَةٍ عَظِيمَةٍ وَأُسْلُوبِ مُحَيَّرٍ، لِأَنَّهَا، بِاسْتِثْنَاءِ صُورَةٍ وَاحِدَةٍ، لَا صِلَةَ لَهَا بِالأُسْلُوبِ الشَّائِعِ بِإِصْفَهَانَ حَوالَى عامَ ١٦٠٠ حِينَ تَوَصَّلَ الخَطَّاطُ والمُصَوِّرُ العَظِيمُ رِضَا عَبَّاسِي إِلَى ابْتِكَارِ أُسْلُوبٍ تَصْوِيرِي خِلَافِ مُسْرِفٍ فِي مَنَهِجِيَّتِهِ عَمِيقٍ فِي عُدُوبَتِهِ بَدَأَ فِي قَرَوِينِ عَهْدِ الشَّاهِ طَهْمَاسِپ. واللُّوْحَةُ الَّتِي نَعْرُضُهَا لِلْفَتَاةِ التُّصَرَّافِيَّةِ وَقَدْ أُعْجِبِي عَلَيْهَا بَعْدَ ارْتِدَادِ الشَّيْخِ صَنَعَانَ إِلَى إِسْلَامِهِ [أَنْظُرِ البَابَ السَّادِسَ: التَّصْوِيرُ الدِّينِي] هِيَ المُنَمَّمَةُ القَرِيبَةُ فِي أُسْلُوبِهَا مِنَ أُسْلُوبِ مَدْرَسَةِ إِصْفَهَانَ (لَوْحَةُ ٢٠٤). فَتَرَى مَلَامِيعَ الوُجْهِ الَّتِي اشْتَهَرَ بِرِسْمِهَا رِضَا عَبَّاسِي، وَبِخَاصَّةِ الفَتَاةِ المَسِيحِيَّةِ: الشَّكْلَ البَيْضِيَّ لِلرَّأْسِ والعُيُونَ الضَّيْقَةَ المَائِلَةَ والأَنْفَ البارِزَ والقَمَّ الدَّقِيقَ الكَامِلَ. كَمَا أَنَّ أَلْوَانَ الثِّيَابِ، الَّتِي لَا تَظْهَرُ فِي الصُّورَةِ المُسْتَسَخَّاةِ الَّتِي نَعْرُضُهَا، تَعْكِسُ الذُّوقَ الصَّفَوِيِّ فِي نِهَايَةِ القَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ وَمُسْتَهْلَ القَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ. وَلَا يَبْدُو الطَّائِعُ غَيْرَ الأَصْفَهَانِيِّ إِلَّا فِي المَنْظَرِ الخَلَوِيِّ. وَجَاءَتْ التَّفَاصِيلُ فِي دِقَّةٍ مُتَنَاهِيَةٍ وَتَوَزَّعَتِ الشَّجَائِرُ عَلَى سَطْحِ الأَرْضِ بِإِنْتِظَامٍ وَكَذَلِكَ كُنْتُ الصَّخْرَ الصَّغِيرَةَ ذَاتِ الأشْكَالِ المُتَنَوِّعَةِ مَعَ نَبَاتَاتٍ مُورِقَةٍ. وَبَلَفُنَا التَّصْوِيرَ المَنْهَجِيَّ لِجَدُولِ المَاءِ الَّذِي رُسِمَ سَطْحُهُ فِي تَصْمِيمٍ خَطِّيٍّ مُعَقَّدٍ شَدِيدِ التَّحْوِيرِ. وَتَكْشِفُ هَذِهِ المُعَالَجَةُ عَنْ نُزُوعِ الفَنَّانِ الإِصْفَهَانِيِّ نَحْوَ بَعْثِ أُسْلُوبِ القَرْنِ الخَامِسِ عَشَرَ مِنْ جَدِيدٍ، وَقَدْ صَوَّرَ الفَنَّانُ صَفَتِيَّ الجَدُولِ بِتَقْنِيَّةٍ تَقْطِيطِيَّةٍ^(١) نَاعِمَةٍ. وَيَكْشِفُ التَّنَاقُضُ بَيْنَ الشَّخْصِ

وَعُلَامًا جَمِيلًا مَحْمُورًا وَشَرَابًا مَسْكُوبًا وَقَدَحًا مَكْسُورًا، وَالْقَاضِي فِي عَقْوَةِ السُّكْرِ. فَأَيُّقِظُهُ المَلِكُ بِلُطْفٍ قَائِلًا: قُمْ فَإِنَّ الشَّمْسَ قَدْ بَرَّغَتْ. فَتَقْطُنَ القَاضِي لِمَا سَيَحِلُّ بِهِ فَقَالَ: مِنْ أَيِّ جِهَةٍ بَرَّغَتْ؟ فَأَجَابَهُ المَلِكُ: مِنْ جِهَةِ المَشْرِقِ. فَقَالَ الحَمْدُ لِلَّهِ حَيْثُ مَا يَزَالُ بَابُ التَّوْبَةِ مُفْتُوحًا لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: لَا يَغْلِقُ بَابَ التَّوْبَةِ عَلَى الْعِبَادِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا. فَقَالَ المَلِكُ: تَوَبْتُكَ فِي هَذِهِ الحَالَةِ الَّتِي أَتَيْتُكَ فِيهَا بِهَلاكِ نَفْسِكَ لَا تُفِيدُكَ، وَلَا قَدْفَنُ بِكَ مِنْ أَعَالِي القَلْعَةِ إِلَى أَسْفَلِ الخَنْدَقِ لِيَعْتَبِرَ بِكَ الْآخَرُونَ. فَقَالَ: أَتَيْتُهَا المَلِكُ أَنَا رَبِيبُ نِعْمَةٍ هَذَا الْبَيْتِ وَلَسْتُ وَخْدِي الَّذِي ارْتَكَبَ هَذِهِ الخَطِيئَةَ فَأَقْدَفَ مِنَ القَلْعَةِ غَيْرِي حَتَّى أَعْتَبِرَ. فَعَفَا عَنْهُ المَلِكُ وَقَالَ لِمَنْ وَشَوْا: لَقَدْ نَأَتْ نَفْسُكُمْ بِحِمْلِ الْعَيْبِ فَلَا تَطْعَنُوا فِي غَيْرِكُمْ أَبَدًا.

وَنَشْهَدُ فِي الجُزْءِ الأَسْفَلِ مِنْ هَذِهِ المُنَمَّمَةِ الَّتِي تُنَشَرُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ (اللُّوْحَةُ ٣١٥ م) الوَاشِي فِي حَضْرَةِ السُّلْطَانِ يَنْتَمِ بِمَا قَالَهُ عَنْ الْقَاضِي وَالْعُلَامِ وَقَدْ جَلَسَا فِي الجُزْءِ الأَعْلَى يَتَنَاوَلَانِ كَأَسَا بَيْنَمَا اقْتَحَمَ عَلَيْهَا خُلُوتُهُمَا شَخْصٌ وَلَعَلَّهُ أَحَدُ أَتْبَاعِ المَلِكِ.

مَنْطِقُ الطَّيْرِ، ١٦٠٩ م، لِفَرِيدِ الدِّينِ العَطَّارِ.

وَيُمْتَحَفُ المِتْرُوبُولِيَتَانِ بِنِيُورُوكَ نُسخَةٌ مِنْ مَخْطُوطَةٍ مُتْنَوِيَّ مَنْطِقِ الطَّيْرِ لِفَرِيدِ الدِّينِ العَطَّارِ نُسِخَتْ فِي هَرَاةَ عامَ ١٤١٣ بِوِاسِطَةِ سُلْطَانِ عَلِيٍّ الَّذِي اسْتَعْدَاهُ حُسَيْنٌ مِيرْزَا بِقِرَاءَةِ آخِرِ حُكَامِ التَّيْمُورِيِّينَ العِظَامِ (١٤٦١ - ١٥٠٦) وَرَاعِي القَرْنِ فِي إِيرَانَ. يَدُورُ المَتْنَوِيُّ حَوْلَ سَفَرِ الطَّيُورِ بِرِزَامَةِ الهُدُودِ وَكِفَاحِهَا فِي اجْتِيَاظِ الوُدَيَانِ السَّبْعَةِ لِلْوُصُولِ إِلَى السِّيمْرِغِ بِجَبَلِ قَافِ الَّذِي يَحُوطُ العَالَمَ، وَفَنَائِهَا فِيهِ بَعْدَ أَنْ تَوَحَّدَتْ مَعَهُ فَظْفَرَتْ بِالْبَقَاءِ. وَأَرَادَ العَطَّارُ بِهَذَا المَتْنَوِيِّ أَنْ يُصَوِّرَ دَرَجَاتِ أَهْلِ العِرْفَانِ فِي التَّصَوُّورِ الصُّورِيِّ وَرِيَاضَتِهِمُ الشَّاقَّةَ لِيُلَوِّغَ مَرْتَبَةَ الكَمَالِ. وَتَزُوي القِصَّةُ أَنَّ الطَّيُورَ اجْتَمَعَتْ لِيَتَخْتَارَ مَلِكًا فَأَبْلَغَهُمُ الهُدُودُ أَنَّ السِّيمْرِغَ هُوَ المَلِكُ، وَلَكِنْ عَلَيْهِمْ أَنْ يَسْعَوْا إِلَيْهِ. وَيَدُورُ حِوَارٌ شِعْرِيٌّ جَمِيلٌ بَيْنَ الهُدُودِ وَسَائِرِ الطَّيُورِ، كُلٌّ يَمْتَذِرُ عَنْ عَدَمِ إِمْكَانِهِ سُلُوكَ هَذَا الطَّرِيقِ الشَّاقِّ، وَكُلٌّ مِنْهُمْ مَشْغُولٌ بِنَفْسِهِ وَحَيَاتِهِ. وَأَخِيرًا يَقْتَبِعُونَ بِالسَّفَرِ وَيَبْدَأُونَ رِحْلَتَهُمُ الشَّاقَّةَ مُتَخَطِّطِينَ الوُدَيَانِ السَّبْعَةَ بِاسْمِ مَرَاتِبِ الصُّوفِيَّةِ السَّبْعِ، فَتَهْلِكُ مِنْهُمْ آلاَفُ الطَّيُورِ وَلَا يَصِلُ مِنْهُمْ إِلَى حَضْرَةِ السِّيمْرِغِ سِوَى ثَلَاثِينَ، وَكُلُّهُمْ وَاهِنُ الجِسْمِ مَهْمُضُ الجَنَاحِ كَسِيرِ القَلْبِ، غَيْرَ أَنَّهَا حِينَ تَمُثِلُ بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْوَنُ عَلَيْهَا مَا تَكْبَدَتْ مِنْ مَشَاقِّ وَتُشْرِقُ أَرْوَاحُهَا بِثُورِ إِلَهِيٍّ يَحْيِيهِ تَرَى نَفْسَهَا فِي السِّيمْرِغِ وَتَرَى السِّيمْرِغَ فِي نَفْسِهَا وَقُلُوبِهَا، أَيُّ أَنَّهَا وَصَلَتْ إِلَى مَرْتَبَةِ الفَنَاءِ فِي المَحْبُوبِ، وَهِيَ أَعْلَى مَرَاتِبِ الكَمَالِ.

(١) التَّقْطِيطِيَّةُ، التَّقْطِيطِيَّةُ، البَرَقَشِيَّةُ (pointillism): هِيَ امْتِدَادٌ لِلانْطِباعِيَّةِ فِي فَنِّ التَّصْوِيرِ، وَيُلْتَزَمُ فِيهَا حُسْبَانُ التَّجَارُجِ بَيْنَ اللَّطَفِ وَالبَعْثِ اللَّوْنِيَّةِ فَوْقَ اللُّوْحَةِ المُصَوَّرَةِ، فَيَكُونُ نَمَّةٌ امْتِزَاجٌ وَهْمِيٌّ بَيْنَ هَذِهِ الأَلْوَانِ. أُسَاسُهُ نَظَرِيَّةُ اخْتِلَاطِ الأَلْوَانِ فِي مَرَايِ البَصَرِ (optical mixing) وَرَائِدُ التَّقْطِيطِيَّةِ هُوَ جُورْجِ سِيرَا. [م. م. م. م. ث].

مُحفوظة بِمَكْتَبَةِ مورجان لِمَنْظَرِ غَرَايِي (اللُّوْحَةُ ٣١٧ م) تَصْمَمُ ثَلَاثَةً مِنَ الشُّبَّانِ يَنْحَنِي فِيهَا اِثْنَانِ مِنْهُمَا أَمَامَ فَايْتَةٍ فِي مِئَةِ الصَّبَا بَيْنَا يَحْتَضِنُ أَحَدُهُمَا خَصْرَهَا. وَهَذِهِ اللُّوْحَةُ هِيَ أَوَّلُ مُحَاوَلَةٍ لِتَعْمِيقِ أُسْلُوبِ الْأَشْكَالِ الْمُتَدَاخِلَةِ، فَقَدْ رَفَعَتِ الْمَرَاةُ ذِرَاعَهَا بَعْدَ أَنْ خَلَعَتْ عِمَامَةَ صَدِيقِهَا وَفَكَتْ طَيَّانَهَا وَتَحَوَّتْ بِهَا حَوْلَ جَسَدِهَا وَوَضَعَتْهَا فِي حَرَكَةٍ رَاقِصَةٍ كَأَنَّمَا يَتَرَدَّدُ صَدَاها فِي مُرُوقِ السُّحُبِ الْعَابِرَةِ، وَأُورَاقُ الْأَشْجَارِ تَتَوَسَّدُ أَعْمَاقَ سَمَاءِ دَاكِنَةِ الزُّرْقَةِ.

التَّصَاوِيرُ الْجِدَارِيَّةُ بِقَصْرِ جِهْل سوتون

وما كاد عَبَّاسُ الثَّانِي يَغْتَلِي الْعَرْشَ حَتَّى كَشَفَ عَنْ دَوَقِهِ الْأُورُبِّيِّ، وَكَلَّفَ مَجْمُوعَةً مِنَ الْمُصَوِّرِينَ الْهُولَنْدِيِّينَ بِزَخْرَفَةِ جُدْرَانِ قَصْرِ جِهْل سوتون بِإِصْفَافِهَا بَعْدَ أَنْ أَشْرَكَ مَعَهُمْ بَعْضُ تَلَامِذَتِهِمْ مِنَ الْفَرَسِ. وَتَعُدُّ لُوحَاتُ «جِهْل سوتون» الْجِدَارِيَّةُ مُصَوِّرَاتٍ فَنِّيَّةً رَائِعَةً جَدِيدَةً بِالْإِعْجَابِ، فَضْلاً عَمَّا لَهَا مِنْ أَهَمِّيَّةٍ مِنَ النَّاحِيَةِ التَّارِيخِيَّةِ، إِذْ تُصَوِّرُ لَنَا بِلَاطُ الشَّاهِ عَبَّاسُ الْمُوَلَعَ بِمُنْعِ الْحَيَاةِ وَمَنْ سَبَقُوهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَلَفُوهُ، فَتَرَى الْمَلِكَ مُشْتَرِكاً فِي الْقِتَالِ أَوْ فِي بَعْضِ الْوَلَايِمِ الْمَلَكِيَّةِ يَسْتَمْتِعُ بِأَشْهُي الطَّعَامِ. وَلَمْ تُشَرِّ هَذِهِ الصُّوَرُ الْجِدَارِيَّةُ حَتَّى هَذَا التَّارِيخِ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَرْبَعَةَ رُسُومٍ خَطِيئَةً جَاءَتْ بِكِتَابِ الرَّخَالَةِ تَكْسِيهِ فِي الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ، اسْتَأْذَنْتُ دَارَ الْكُتُبِ الْقَوْمِيَّةِ بِپَارِسِ فِي نَقْلِ عِدَّةٍ نُسَخٍ مِنْهَا. وَلَمْ أَوْفُقْ، رُغْمَ مَا بَذَلْتُهُ مِنْ جِهْدٍ إِبْتَانِ زِيَارَتِي لِإِيرَانِ، فِي الْحُصُولِ عَلَى صُورٍ مُلَوَّنةٍ أَوْ حَتَّى غَيْرِ مُلَوَّنةٍ لِهَذِهِ اللُّوْحَاتِ الْفَرِيدَةِ، غَيْرَ أَنِّي حَظَيْتُ بِالْحُصُولِ عَلَى بَعْضِ صُورٍ غَيْرِ مُلَوَّنةٍ أَهْدَانِيهَا الْمُهَنْدِسُ الْإِيطَالِيُّ زَانْدِرِينِي الَّذِي يَتَوَلَّى تَرْمِيمَ هَذِهِ اللَّوْحَاتِ قَدْ تُعِينُ الْقَارِئَ عَلَى تَصَوُّرِهَا، فَلَا غِنَى لِلْقَارِئِ الَّذِي اعْتَادَ فِي مُشَاهَدَاتِهِ لِلتَّصْوِيرِ الْإِسْلَامِيِّ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى الْمُنْمَنَّمَاتِ عَنِ أَنْ يُشَاهِدَ بِالْمِثْلِ هَذَا التَّصْوِيرَ الْجِدَارِيَّ الْإِسْلَامِيَّ الْفَرِيدَ.

وَتَبَدُّ الشُّخُوصُ فِي (اللُّوْحَةُ ٣١٨ م) خَلِيقَةُ الذُّقُونِ ذَاتِ شَوَارِبٍ ضَخْمَةٍ، مُرْتَدِيَّةٍ عَمَائِمَ كَبِيرَةٍ تُعَبِّرُ عَنْ تَقَالِيدِ عَصْرِ ائْتَدُرْ وَبَادَ. وَتَفْتَحُ أَسْلِحَةُ الْمُحَارِبِينَ وَأَزْدِيَّتِهِمْ وَأَلَاتُ الْمُوسِيقِيِّينَ بَلْ وَحَرَكَاتِ الرَّاكِصَاتِ أَمَامَ أَنْظَارِنَا أَبْوَابَ الْمَاضِي الْمَغْلَقَةِ وَكَأَنَّ الْمُشَاهِدَ يُشَارِكُ فِي الْوَلَايِمِ وَالْمَعَارِكِ وَمَظَاهِرِ الْعَظْمَةِ وَالْأَهْبَةِ الَّتِي تَعْلَقُ بِهَا الْمُلُوكُ الصَّفَوِيِّونَ. وَلَيْسَ مِنَ الْمَقْطُوعِ بِهِ أَنَّ اللَّوْحَاتِ كُلَّهَا أَصْلِيَّةٌ أَوْ مُجَرَّدُ صُورٍ طَبَّقَ الْأَصْلَ نُقِلَتْ عَنْهَا بِأَمْرِ الشَّاهِ سُلْطَانِ حُسَيْنٍ بَعْدَ حَرِيقِ الْقَصْرِ، غَيْرَ أَنَّ انْطِيقَ وَصَفِ الرَّخَالَةِ شَارِدَانِ عَلَيْهَا يَجْعَلُنَا لَا نَشْكُ فِي أَنَّ أَزْبَعًا مِنْهَا عَلَى الْأَقْلِ هِيَ اللَّوْحَاتُ نَفْسُهَا الَّتِي وَصَفَهَا حَوَالَى عَامِ ١٦٧٠.

الْمُلَوَّنةُ الطَّوِيلَةُ فِي جُرْأَةِ وَبَيِّنِ الْمَنْظَرِ الْخَلَوِيِّ النَّاعِمِ الْمُعْقَدِ الْحَادِقِ عَنِ أَنَّ الْفَتَانَ كَانَ يَتَلَاغَبُ بِأُسْلُوبَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ لَا صِلَةَ بَيْنَهُمَا.

أَمَّا أَبَعَدُ الْمُنْمَنَّمَاتِ عَنِ أُسْلُوبِ مَدْرَسَةِ إِصْفَهَانِ فِيهِ صُورَةُ اجْتِمَاعِ الطَّيْرِ (لَوْحَةُ ٣١٦ م) وَهِيَ أَرْفَعُ الْمُنْمَنَّمَاتِ الْأَرْبَعِ وَأَجْمَلُهَا، حَتَّى إِنَّ الْمَرَّةَ قَدْ يَظْهَرُ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ مِنْ تَصَاوِيرِ الْمَدْرَسَةِ التَّيْمُورِيَّةِ، غَيْرَ أَنَّ عَنَاصِرَهَا تَكْشِفُ عَنْ تَارِيخِهَا الْمَتَأَخَّرِ. فإِلَى يَمِينِ الصُّورَةِ وَخَلْفَ سِلْسِلَةِ الرُّبَى الصُّخْرِيَّةِ يَقِفُ رَجُلٌ حَامِلاً بُنْدُقِيَّةً يَنْتَمِي طِرَازُهَا إِلَى أَوَاخِرِ الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ. وَعَلَى غِرَارِ أَغْصَانِ الشَّجَرَةِ الْمَوْجُودَةِ فِي يَسَارِ اللُّوْحَةِ نَجِدُ الْبُنْدُقِيَّةَ هِيَ الْأُخْرَى تَخْتَرِقُ الْهَامِشَ. وَتُفْصِحُ الْمُنْمَنَّمَةُ عَنِ بَرَاةٍ مُذهِلَةٍ، فَرْقَةُ الْأَلْوَانِ وَالتَّكْوِينِ الْبَدِيعِ وَرَهَافَةُ الْفَرْشَةِ الَّتِي لَا تَبَارَى، كُلُّ هَذَا يُشِيرُ إِلَى تَقَالِيدِ التَّصْوِيرِ الْمُنْحَدِرَةِ مِنَ الْمَرْحَلَةِ الْأُولَى مِنَ مَرَاكِجِ مَرَايِمِ التَّصْوِيرِ التَّيْمُورِيِّ فِي أَوَاسِطِ آسِيَا وَهَرَاة. فَالزَّخَارِفُ النَّبَاتِيَّةُ وَتَشْكِيلَاتُ الصُّخُورِ وَتَصْوِيرُ جَذُولِ الْمَاءِ (شَأْنُ الْمُنْمَنَّمَةِ السَّابِقَةِ) كُلُّهَا تُذَكِّرُنَا بِالتَّصَاوِيرِ التَّيْمُورِيَّةِ فِي أَوَاخِرِ الْقَرْنِ الْخَامِسِ عَشَرَ. وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ اللُّوْحَةَ مَمْهُورَةٌ بِتَوْقِيعِ حَبِيبِ اللَّهِ، أَحَدِ مُصَوِّرِي مَرْسَمِ الشَّاهِ عَبَّاسِ، وَالْمَعْرُوفِ بِأَنَّهُ مِنْ أَتْصَارِ مَدْرَسَةِ إِصْفَهَانِ الَّتِي يُمَثِّلُهَا رِضَا عَبَّاسِي خَيْرَ تَمَثِيلٍ. وَالسُّؤَالُ الْمُحِيرُ أَمَامَنَا هُوَ لِمَاذَا لَمْ يُطَبَّقِ الْأُسْلُوبُ الرَّسْمِيُّ لِمَرَايِمِ بِلَاطُ الشَّاهِ عَبَّاسِ فِي هَذِهِ الْمُنْمَنَّمَاتِ؟ وَلَعَلَّ الشَّاهَ عَبَّاسَ وَفَتَانِيهِ قَدْ تَأَثَّرُوا تَأَثِّراً شَدِيداً بِالْمُنْمَنَّمَاتِ التَّيْمُورِيَّةِ الْمَوْجُودَةِ أَصْلاً فِي الْمَخْطُوطَةِ لِذَرَجَةِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي وَسْعِهِمْ إِلَّا مُحَاوَلَةُ مُحَاكَاتِهَا. غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ الْمُنْمَنَّمَاتِ الصَّفَوِيَّةَ الْآخِرَةَ لَا تُشَبِّهِ كَثِيراً الْمُنْمَنَّمَاتِ التَّيْمُورِيَّةَ فِي الْمَخْطُوطَةِ بِاسْتِثْنَاءِ التَّفْصِيلَاتِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا، وَيُؤَكِّدُ تشارلسُ فوري خَيْرِ الطُّيُورِ بِمُتَخَفِ التَّارِيخِ الطَّبِيعِيِّ الْأَمْرِيكِيِّ أَنَّ هَذِهِ الطُّيُورَ لَمْ يَرْسُمِهَا عَالِمٌ مُتَخَصِّصٌ بِالطُّيُورِ بَلْ فَتَانٌ حَادِقٌ.

وَقَدْ اِزْتَبَطَ نَشَاطُ مُصَوِّرِي الشَّاهِ عَبَّاسِ بِنَشَاطِ مَنَاسِبِهِ الْخَاصَّةِ بِرَوَابِطِ يَسْتَحِيلُ نُكْرَانِهَا، بَلْ لَقَدْ كَانَ «شَافِعِي بْنُ رِضَا عَبَّاسِي» مُصَمِّماً لِزَخَارِفِ النَّسِيجِ. غَيْرَ أَنَّ الْمَيْلَ إِلَى الْوَاقِعِيَّةِ قَدْ ائْتَصَرَ لِسُوءِ الْحِظِّ عَلَى الْأُسْلُوبِ التَّجْرِيدِيِّ، وَلَعَلَّ سِرَّ ذَلِكَ رَاجِعٌ إِلَى تَأْثِيرِ فَنِّ أوروپَا الَّتِي اِهْتَمَّتْ الشَّاهَ بِفُنُونِهَا وَالَّتِي رَأَى فِيهَا سُوقاً هَامَةً يَتَوَقَّعُ إِلَى غَزْوِهَا بِدِيَابِجَةِ الْمُوشَى.

المُصَوِّرُ مُحَمَّدٌ يَوْسُفُ الْحُسَيْنِي، ١٦٣٠ م

وَيَعُودُ الْفَضْلُ لِلْمُصَوِّرِ مُحَمَّدٍ يَوْسُفُ الْحُسَيْنِي - مُعَاوِصِرِ الْمُصَوِّرِ رِضَا - فِي تَأَلُّقِ إِرَادَةِ التَّحَرُّرِ مِنْ تَصْوِيرِ الْأَشْخَاصِ بِالطَّرِيقَةِ الْمُسَطَّحَةِ التَّقْلِيدِيَّةِ. وَقَدْ تَرَكَ لَوْحَةً رَائِعَةً التَّكْوِينِ

اللُّوحَات، كَذَلِكَ نَلْمَسُهُ فِي اللُّوحَاتِ الرَّيِّيَّةِ الْمُعْلَقَةِ عَلَى جُذُرَانِ الْغُرَفِ بِقَصْرِ الْأَعْمِدَةِ الْأَرْبَعِينَ. مِنْ ذَلِكَ لَوْحَةُ الْعَاشِقِينَ يَتَنَاولَانِ الْخَمْرَ فِي نَزْهَةِ خَلَوِيَّةٍ (لَوْحَةُ ٢٠٨)، حَيْثُ تَتَجَلَّى السَّمَاتُ الْغَرِّيَّةُ فِي وَجْهَيْهِمَا وَفِي زَيِّ الْفَتَى، كَمَا نَلْحَظُ مُحَاوَلَةً لَا بَأْسَ بِهَا لِلإِيْحَاءِ بِالْعُمُقِ، وَجَاءَتْ بَعْضُ التَّفَاصِيلِ غَيْرَ مُقْبِعَةٍ وَمِثْلُ وَضْعَةِ الْفَتَى وَالْكَأْسِ الْمُعْلَقِ فِي فَرَاغٍ بَيْنَ إِبْصَعَيْهِ. كَذَلِكَ يَبْدُو أَنَّ الْفَتَانَ الَّذِي تَنَاولَ النَّصْفَيْنِ السُّفْلَيْنِ مِنْ جِسْمَيْهِمَا كَانَ عَلَى غَيْرِ دِرَايَةٍ بِالنَّسَبِ السَّلِيمَةِ أَوْ بِكَيْفِيَّةِ تَصْوِيرِ الثَّنَايَا وَالْمَكَاسِيرِ، كَمَا رَسَمَ الْقَدَمَ الْيُمْنِي ضَحْمَةً الْحَجْمِ بِالنَّسَبَةِ لِلْيُسْرَى.

وَفِي لَوْحَةِ السَّيِّدَةِ الْمُضْطَجِعَةِ عَلَى الْعُشْبِ (لَوْحَةُ ٢٠٩) نَشْهَدُ عَنَاءَ مُفْرِطَةٍ بِالتَّعْبِيرِ عَنْ مَلَاخَةِ السَّيِّدَةِ وَفِتْنَةِ تَقَاطُعِهَا، غَيْرَ أَنَّ الْفَتَانَ مَا يَكَادُ يَسْدِلُ بِالْكَفِيفِ حَتَّى يُخْضِلَ إِلَيْنَا أَنَّهُ يَرْسُمُ مَخْلُوقًا مَلْفَقًا يَضْفَهُ الْأَعْلَى لِيشْرَ وَيَضْفَهُ الْأَسْفَلَ لِيَقْرَةَ، كَمَا جَاءَ رَسْمُهُ لِلْأَيْدِي وَالسَّاقِ وَالْقَدَمِ بَعِيدًا كُلُّ الْبُعْدِ عَنْ أَسْبَاطِ أَصُولِ الرَّسْمِ وَالتَّصْوِيرِ، الْأَمْرُ الَّذِي يَدُلُّ دَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى مَدَى التَّذَهُوُرِ الَّذِي لَحِقَ بِالْفَنِّ الْفَارِسِيِّ خِلَالِ تِلْكَ الْآوَنَةِ.

مُحَمَّدُ زَمَانٌ

وَكَانَ الشَّاهُ عَبَّاسُ الثَّانِي قَدْ أَوْفَدَ فِي مُسْتَهْلَ عَهْدِهِ الْفَتَانَ مُحَمَّدَ زَمَانَ لِلدِّرَاسَةِ بِرُومَا. وَفِي إِيطَالِيَا تَحَوَّلَ مُحَمَّدُ زَمَانٌ، الَّذِي ذَكَرَ عَنْهُ الرَّحَّالَةُ نَبَقُولَا مَانوتشي أَنَّهُ رَجُلٌ خَارِقُ الذِّكَاةِ - إِلَى الْمَسِيحِيَّةِ وَتَسَمَّى بِاسْمِ پاولو زَمَانَ. وَبَعْدَ رُجُوعِهِ إِلَى إِيرَانَ أَخْفَى دِيَانَتَهُ الْجَدِيدَةَ غَيْرَ أَنَّ أَحَادِيثَهُ كَشَفَتْ عَنْ إِثَارَةِ النَّصْرَانِيَّةِ عَلَى الْإِسْلَامِ. وَإِذَا الشُّكُوكُ الَّتِي بَدَأَتْ تَحْجُمُ حَوْلَهُ فَرَّ مُلْتَجِئًا إِلَى الْهِنْدِ حَيْثُ أَظَلَّهُ شَاهُ جِهَانَ (١٦٢١ - ١٦٥٩) بِحِمَايَتِهِ وَمَنْحَهُ رَاتِيًا عَلَى أَنَّهُ مُوظَّفٌ فِي الدَّوْلَةِ، وَأَوْفَدَهُ إِلَى كَشْمِيرٍ حَيْثُ كَانَ يَلْجَأُ الْمُهَاجِرُونَ الْفُرْسَ. أَمَّا تَارِيخُ عَوْدَتِهِ إِلَى إِيرَانَ فَغَيْرُ مَعْرُوفٍ. وَلَكِنَّهُ كُفِّ عَامَ ١٦٧٥ بِتَصْوِيرِ ثَلَاثِ مَسَاحَاتٍ ظَلَّتْ شَاغِرَةً مَا يَنُوفُ عَنْ قَرْنٍ فِي مَخْطُوطَةِ الْفَصَائِدِ الْخَمْسِ لِإِنْشَاءِ [مَخْطُوطَةٍ ١٥٣٩ - ١٥٤٣] بِالْمُتَحَفِ الْبَرِيطَانِيِّ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلشَّاهِ طَهْمَاسِپِ بَيْنَ الْعَامَيْنِ ١٥٣٩ وَ١٥٤٣. وَقَدْ سَمِحَ لَهُ بِأَنْ يَسْتَخْدِمَ نَمَازِجَ مِنْ أُسْلُوبِ التَّصْوِيرِ الْجَدِيدِ الَّذِي تَلَقَّاهُ فِي إِيطَالِيَا، وَهُوَ مُخْتَلِفٌ تَمَامًا الْاِخْتِلَافَ عَنْ أُسْلُوبِ مُصَوِّرِي شَاهِ طَهْمَاسِپِ. وَجَاءَتْ ثِيَابُ شَخْصِهِ فِي أَغْلَبِ الْأَحْيَانِ أَوْرِيَّةً كَمَا جَاءَتْ مَنَاطِرُهُ الْخَلَوِيَّةُ مُقْتَبَسَةً عَنِ الْمَنَاطِرِ الْإِيطَالِيَّةِ الْمُتَأَخَّرَةِ وَمِثْلُ مُنْمَنَةِ الْجَارِيَةِ فِتْنَةً وَهِيَ تَحْمِلُ الثَّوْرَ صَاعِدَةً السُّلْمَ إِلَى بُهْرَامِ جُورٍ، وَنَلْحَظُ تَوَقُّعَ مُحَمَّدَ زَمَانَ عَلَى الْحِثَّةِ فِي يَسَارِ الصُّورَةِ (لَوْحَةُ ٢١٠)، وَمِثْلُ مُنْمَنَةِ بُهْرَامِ جُورٍ يَقْتُلُ الثَّيْنِ (لَوْحَةُ ٢١١) حَيْثُ يَبْدُو الْجَوَادُ

وَيُزَيِّنُ الْحَاظِطُ الْمُقَابِلَ لِلْمَدْخَلِ ثَلَاثٌ مِنْ هَذِهِ اللُّوحَاتِ السَّتْ: تُصَوِّرُ إِحْدَاهَا الشَّاهُ إِسْمَاعِيلَ وَهُوَ يُقَاتِلُ جُنُودَ السُّلْطَانِ سُلَيْمَانَ، وَالشَّاهُ الْمَرْهُوبَ الْجَانِبِ يَشْطُرُ أَغَا الْإِنْكُشَارِيَّيْنَ قَائِدَ الْأَعْدَاءِ شَطْرَيْنِ، حَتَّى إِنَّنَا نَرَى خَطًّا أَحْمَرَ يُحَدِّدُ مُرُورَ سَيْفِ الشَّاهِ صَوْبَ أَسْفَلِ جِسْمِ الْعَدُوِّ. وَتُصَوِّرُ اللُّوحَةُ الثَّانِيَّةُ الشَّاهَ طَهْمَاسِپَ بَيْنَمَا يَخْتَفِي بِهُمَايُونَ إِمْبَرَاطُورَ الدَّوْلَةِ الْمَغُولِيَّةِ بِالْهِنْدِ الَّذِي لَجَأَ إِلَيْهِ خِلَالِ مَادُوبَةِ أُقِيمَتِ عَامَ ١٥٤٣ (لَوْحَةُ ٢٠٥). وَيُظْهِرُ الْمَلِكَانِ مُتَرَبِّعَيْنِ فَوْقَ الْمِنَصَّةِ وَأَمَامَهُمَا الْفِرْقَةُ الْمَوْسِيقِيَّةُ وَالْمُطَرِبُونَ، وَمِنْ حَوْلِهِمَا الْحُرَّاسُ وَحَامِلُو الصُّقُورِ الْمَلِكِيَّةِ فَوْقَ أَذْرُعِهِمْ. وَصُوِّرَتْ فِي مُقَدِّمَةِ اللُّوحَةِ فَتَاتَانِ تُؤَدِّيَانِ رَفَقَتَهُمَا فِي حَرَكَاتٍ تَتَسِمُ بِالْخَلَاعَةِ، وَيَكَادُ حَجْمُ الشَّخْصِ يَقْتَرِبُ مِنْ حَجْمِهَا الطَّبِيعِيِّ. وَتُصَوِّرُ اللُّوحَةُ الثَّالِثَةُ مَشْهَدًا تَتَضَّحُّ فِيهِ مَظَاهِرُ الْاِخْتِفَالِ وَالبَهْجَةِ أَكْثَرَ مِنَ اللُّوحَةِ السَّابِقَةِ، فَالْخَلْفِيَّةُ هِيَ نَفْسُهَا مِنَ الْحَاشِيَةِ الْمَلِكِيَّةِ وَالْمَوْسِيقِيَّةِ، لَكِنْ الشَّخْصِيَّيْنِ الْأَسَاسِيَّيْنِ هُمَا عَبَّاسُ الْأَكْبَرِ وَعَبْدُ اللَّهِ مُحَمَّدُ خَانَ الْأَوْرُزْكِ، وَيَبْدُو أَنَّ نَذْوَةَ الشَّرَابِ قَدْ امْتَدَّتْ إِذْ نَرَى الْمَلِكَ يَرْفَعُ كَأْسَهُ فِي طَلَبِ الْمَزِيدِ مِنَ التَّبِيدِ، بَيْنَمَا اقْتَرَشَ أَحَدُ الْمَدْعُودَيْنِ، وَلَعَلَّهُ عَلَيَّ وَرْدِي خَانَ قَائِدَ جِيُوشِ الشَّاهِ عَبَّاسِ، الْأَرْضَ رَافِعًا رُجَاجَةَ الْخَمْرِ إِلَى شَفَتَيْهِ ثِمَلًا (لَوْحَةُ ٢٠٦).

وَتَصَطَّفَتِ اللُّوحَاتُ الثَّلَاثُ الْبَاقِيَّةُ عَلَى الْجِدَارِ الْآخَرِ فِي مُوَاجَهَةِ السَّابِقَةِ، فَنَرَى فِي اللُّوحَةِ الْأُولَى الشَّاهُ إِسْمَاعِيلَ يَقُودُ فُرْسَانَهُ فِي مَعْرَكَةٍ ضِدَّ الْأَوْرُزْكِ التَّتَارِ. وَتُصَوِّرُ اللُّوحَةُ الثَّانِيَّةُ الشَّاهَ عَبَّاسَ الثَّانِي فِي الْمَادُوبَةِ الَّتِي أَقَامَهَا لِلْخَلِيفَةِ سُلْطَانِ سَفِيرِ الْمَغُولِ الْعَظِيمِ، وَمِنْ حَوْلِهِمَا الْمَوْسِيقِيُّونَ وَالرَّاقِصَاتُ يَفْرَعْنَ الدَّفُوفَ وَيَصْكُكْنَ الصُّنُوجَ (لَوْحَةُ ٢٠٧). وَتُصَوِّرُ اللُّوحَةُ الْآخِرَةُ الْمَعْرَكَةَ بَيْنَ نَادِرِ شَاهِ وَالسُّلْطَانِ مَحْمُودِ الَّذِي يَمْتَنِي ظَهَرَ فِيلٍ أُتِيضَ، وَهِيَ الْمَعْرَكَةُ الَّتِي حَدَّدَتْ مَصِيرَ دِلْهِي، وَالرَّاجِحُ أَنَّ هَذِهِ اللُّوحَةَ إِضَافَةً أَخَذَتْ عَهْدًا.

وَتَمَّةُ لَوْحَةِ لَوْلِيمَةِ ضِمْنِ مَنْظَرِ خَلَوِيٍّ، تُذَكِّرُنَا مَلَاحِجَ شَخْصِهَا وَوَضْعَاتِهَا وَتَنْسِيقَ مَنَاطِرِهَا وَتَرْتِيبَ عَنَاصِرِهَا بِلُوحَاتِ الْفَتَانَ رِضَا عَبَّاسِيٍّ، وَمَا مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّهَا إِمَّا مِنْ عَمَلِهِ أَوْ مِنْ عَمَلِ تَلَامِيذِهِ (لَوْحَةُ ٣١٩ م) وَإِذَا كَانَتْ أَلْوَانُ بَعْضِ هَذِهِ اللُّوحَاتِ وَتَدْهِيهَا عَلَى دَرَجَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ السَّلَامَةِ وَالْحَيَوِيَّةِ إِلَّا أَنَّ بَعْضَهَا قَدْ تَنَاكَلَ. وَقَدْ قَامَتِ الْبَعْثَةُ الْإِيطَالِيَّةُ بِجَهْدٍ رَاضٍ فِي سَبِيلِ تَرْمِيمِهَا وَمَا زَالَتْ حَتَّى كِتَابَةِ هَذِهِ السُّطُورِ تُؤَدِّي هَذِهِ الْمِهْمَةَ الْجَلِيلَةَ الَّتِي جَعَلَتْ فِي إِمْكَانِنَا الْاسْتِمْتَاعَ بِالتَّطَلُّعِ إِلَى هَذِهِ الصُّورِ الْجِدَارِيَّةِ الْبَدِيعَةِ.

وَكَمَا يَغْلِبُ الطَّابَعُ الْأُورُوبِيُّ عَلَى الْكَثِيرِ مِنْ عَنَاصِرِ هَذِهِ

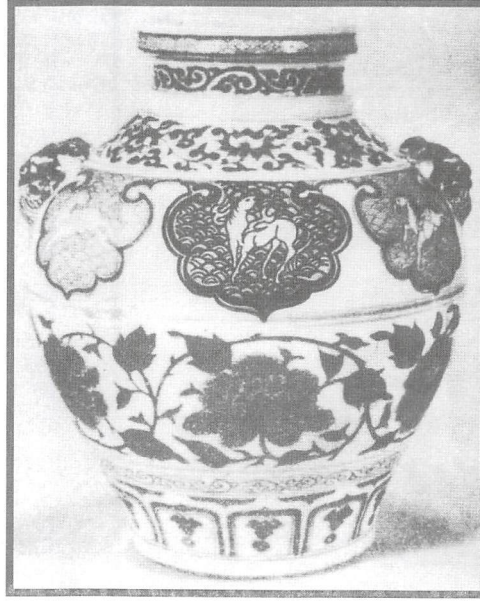
وَكأنَّه أَحَدُ جِيَادِ دَوَامَةِ الْخَيْلِ الْخَسِيبَةِ، وَيَصْعَبُ أَنْ يَتَّخِذَ جَسَدَ التَّنِينَ مِثْلَ هَذِهِ اللَّوَلِيَّاتِ الشَّدِيدَةِ الْإِنْتِظَامِ وَهُوَ فِي مَوْقِفِ صِرَاعٍ. عَلَى حِينٍ يَبْدُو بِهَرَامٍ جَوْرٍ وَكَأنَّه بِالْفِعْلِ طِفْلٌ يَلْعَبُ فَوْقَ جَوَادِ حَدِيقَةِ الْمَلَاهِي. أَمَّا الْمَشْهَدُ الطَّبِيعِيُّ فَمَنْقُولٌ بِرُمْتِهِ عَنْ صُورِ الْمَنَاطِرِ الطَّبِيعِيَّةِ الْأُورَبِيَّةِ بِلاَ أَيِّ مُحَاوَلَةٍ لِتَقْرِيْبِهِ إِلَى مَنَاطِرِ الشَّرْقِ فِي فَارِسَ. وَفِي الْعَامِ نَفْسِهِ (١٦٦١) وَفِي الْعَامِينَ التَّالِيَيْنِ كُلُّفَ مُحَمَّدَ زَمَانٍ بِتَصْوِيرِ مَخْطُوطَةٍ أُخْرَى مِنْ مَنَظُومَاتِ

نِظَامِي الْخَمْسِ، وَيَبْدُو أَنَّهُ فِي هَذِهِ الْآوَنَةِ قَدْ رَجَعَ إِلَى دِينِ آبَائِهِ. وَبَعْدَ... فَإِنَّ الزَّمَنَ قَاهِرَ، وَالْأَيَّامَ دُولَ، فَقَدْ تَذَهَوَّرَتِ الْأُسْرَةُ الصَّفَوِيَّةُ وَخَارَتِ قُوَاهَا؛ وَحَاوَلَ الْعُزَاةُ الْأَفْغَانِيَّوْنَ جَاهِدِينَ، وَسَايَرَتْهُمْ أُسْرَةُ «قَاجَار» فِي عَاصِمَتِهِمُ الْجَدِيدَةِ طَهْرَانَ، أَنْ يَرُدُّوا الْحَيَاةَ إِلَى فَنِّ تَرْقِيَنِ الْمَخْطُوطَاتِ فِي فَارِسَ، غَيْرَ أَنَّ مُحَاوَلَاتِهِمْ جَمِيعًا بَاءَتْ بِالْفَشْلِ، وَغَدَا هَذَا الْفَنُّ الرَّفِيعُ الْأَصِيلُ أَثَرًا بَعْدَ عَيْنٍ.

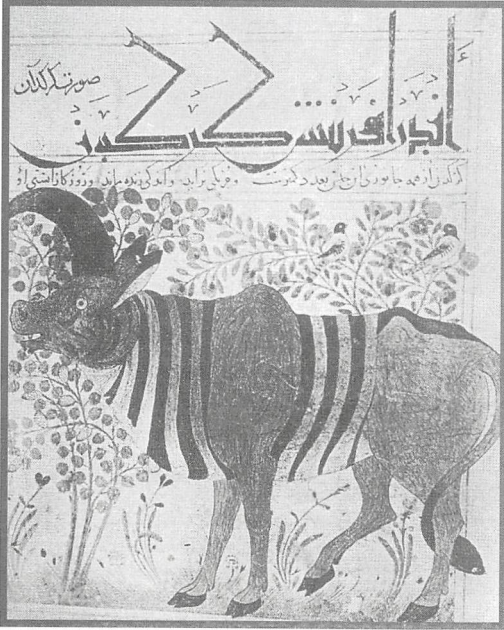
لَوْحَاتُ
البَابِ الثَّالِثِ
السَّوْدَاءِ وَالْبَيْضَاءِ
التَّصْوِيرُ الْفَارِسِيُّ



لوحة ١٣٩ : إناء صيني من
الخزف الأبيض ذو زخارف
زرقاء مُزججة .



لوحة ١٤٢ : منافع الحيوان . الكرّكذن . مكتبة
بيرپونت مورجان بنيويورك .



لوحة ١٤٠ : طبق صيني أبيض
ذو زخارف زرقاء مُزججة
لحيوان الكيلين .



لوحة ١٤١ : الحصان السماوي
المُجنح يركض فوق الأمواج .
مكتبة جامعة توبنجن بألمانيا .



لوحة ١٤٣: جامع التواريخ لرشيد الدين
١٣١٠م. سلسلة الجبال المؤدية إلى
التبت. المتحف البريطاني.

لوحة ١٤٤: جامع التواريخ لرشيد الدين
١٣١٠م. بنو إسرائيل يُلقون بحليّ ذهبيّة في
النّار. المتحف البريطاني.

لوحة ١٤٥: جامع التواريخ لرشيد الدين
١٣١٠م. أحد أنبياء إسرائيل وقد حضرته
المنية. المتحف البريطاني.

لوحة ١٤٦: جامع التواريخ لرشيد الدين ١٣١٠م. مَصْرَع طالوت. المتحف البريطاني.

[illegible][illegible]

و چون بخواهیم که در این مکتب
کتابهای متعددی که در این مکتب
خاسته که به این مکتب داده و در این مکتب
برای این مکتب که در این مکتب

لوحة ١٤٧: جامع التواريخ لرشيد الدين ١٣١٠م. بُوذا يُلقِي بِوَعاء فِي نَهْرِ الْغَانَج. المتحف البريطاني.

[illegible]

السادس في خروج شاكوفني من الخلوة والجاهدة ٥

فَأَخْرَجَهُمْ مِنْ قُلُوبِهِمْ وَوَجَّعَ فِيهِمُ الْإِسْخَارَ وَالْعَامَ وَالزَّوَادَ وَأَدْعَادَ الْعِلْمِ بَانَهُ مَخْرَجَ مِنْ قُلُوبِهِمُ وَالْأَذْوَاعَ وَهَلَكُوا وَالْأَكْلَ وَالْبَاسَ وَالْزَّوَادَ لَيْسَ خَطِيئَتُ الْمَازِنِ بِعَمَلِهَا وَأَمَّا وَدَعْدُهُ مِنْ بَرٍّ فَكَذِبٌ وَالْأَكْلُ عَدْوٌ وَالْإِسْخَارُ حَرْجٌ مِنَ الْإِنْفِ بِغَيْرِ وَجْهِ وَحُبُّهُ وَطُغْيَانُ الْإِنْفِ وَالْكَذِبُ أَلَمَّا كَرَاهِي أَيْضًا وَبَانَهُ قَطْعُ الْخَطِّ مِثْلَ الْخَطِّ لِأَنَّهُ قَدْ عَوَّزَ مِنَ الْعِلْمِ بِإِسْرَافِ الْعِلْمِ مِنْ بَرٍّ قَدْ بَدَأَ إِلَى الْإِسْخَارِ وَطُغْيَانُ الْإِسْخَارِ وَالْعَمَلُ

[illegible]

لوحة ١٤٨: الآثار الباقية للبيروني ١٣٠٧ م.
شخصيات جليلة. أدنبره.



لوحة ١٤٩: الآثار الباقية للبيروني
١٣٠٧ م. خطيئة آدم وحواء. أدنبره.



لوحة ١٥٠: الآثار الباقية للبيروني ١٣٠٧ م. رواية أشعيا عن سقوط بابل. أدنبره.



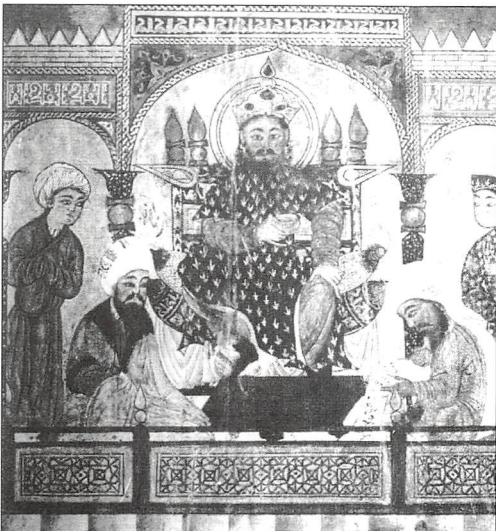


لوحة ١٥١: جامع التواريخ لرشيد الدين ١٣١٠م. مصرع رستم وانتقامه من أخيه شغاذ. المتحف البريطاني.



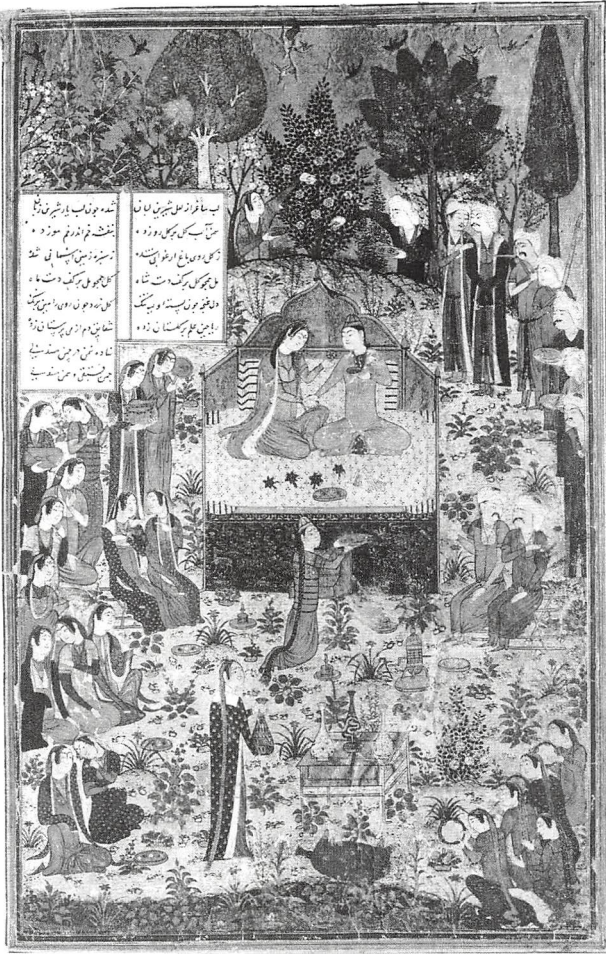
لوحة ١٥٣: شاهنامه ديموط. تبريز ١٣٣٠م.
جنازة إسفنديار. المتحف البريطاني.

لوحة ١٥٤: شاهنامه ديموط. تبريز ١٣٣٠م. الملك
مُترَبِّعًا فوق عرشه. متحف تشستر بيتي بـدِبلن.



لوحة ١٥٢: شاهنامه ديموط. تبريز ١٣٣٠م. مصرع رستم وانتقامه من أخيه
شغاذ. المتحف البريطاني.

لوحة ١٥٦ : ديوان خواجو
كرماني . بغداد ١٣٩٦ م . هومي
وهوميون يتناولان طعامهما
بالحديقة . المتحف البريطاني .
[صورة لم يسبق نشرها].



لوحة ١٥٥ : كلیلة ودمنة
١٣٤٤ م . المصّدق
المخدوع . دار الكتب
المصرية .



لوحة ١٥٧ : ديوان خواجو كرماني . بغداد
١٣٩٦ م . آزار أفروز يقع في غرام الأميرة هومي .
المتحف البريطاني . [صورة لم يسبق نشرها].



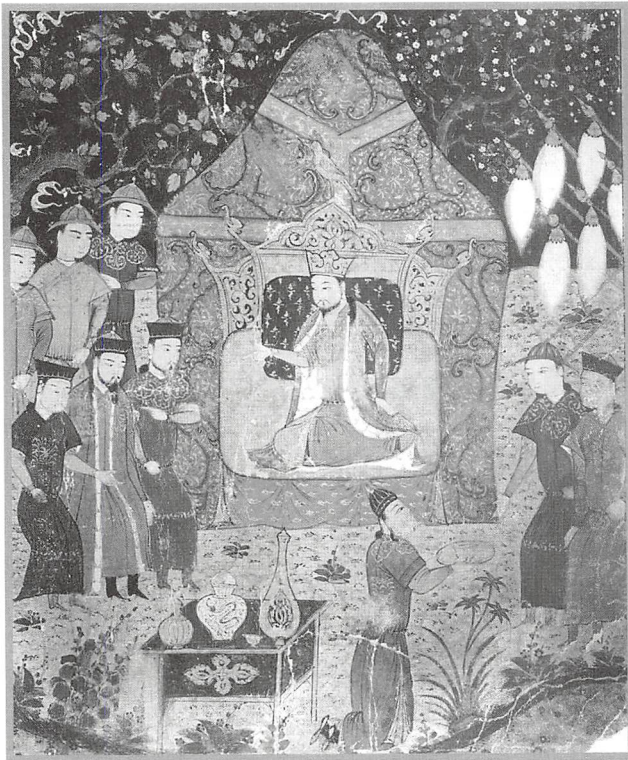
لوحة ١٥٨ : شاهنشاهنامه شیراز ١٣٩٧ م. جنکیزخان في مسجد بُخارى. المتحف البريطاني.

لوحة ١٦٠ : شاهنامه القاهرة. شیراز ١٣٩٣ م. روبين وييجين. دار الكتب المصرية.

لوحة ١٥٩ : شاهنشاهنامه شیراز ١٣٩٧ م. الخليفة المُعتصم بين يدي هولاكو. المتحف البريطاني.

لوحة ١٦١ : شاهنامه القاهرة. شیراز ١٣٩٣ م. كشتاسب يصرع لبؤة. دار الكتب المصرية.





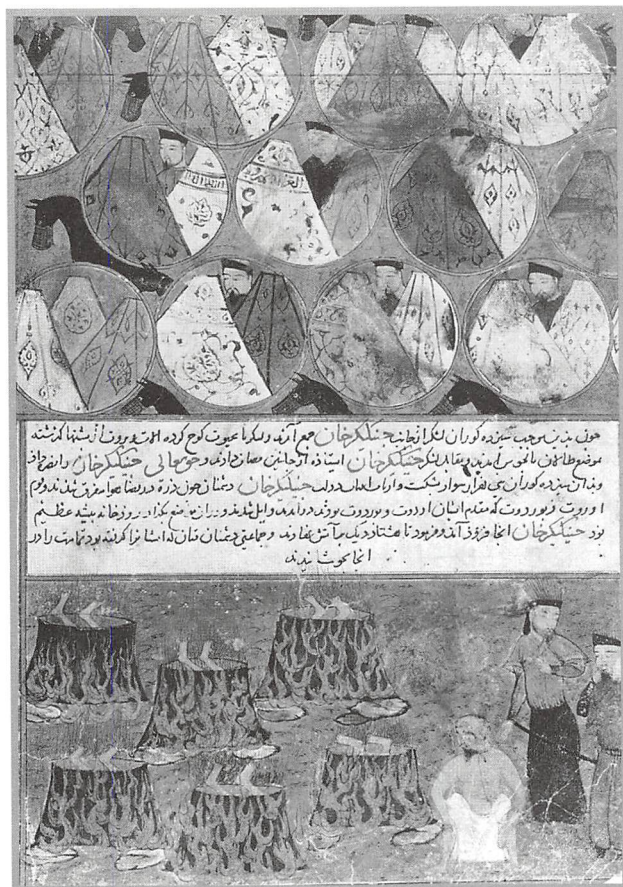
لوحة ١٦٣: جامع التواريخ. هرة ١٤٢٥ م. جنکیزخان جالسا
على عرشه ومن حوله حاشيته. دار الكتب القومية بباريس.



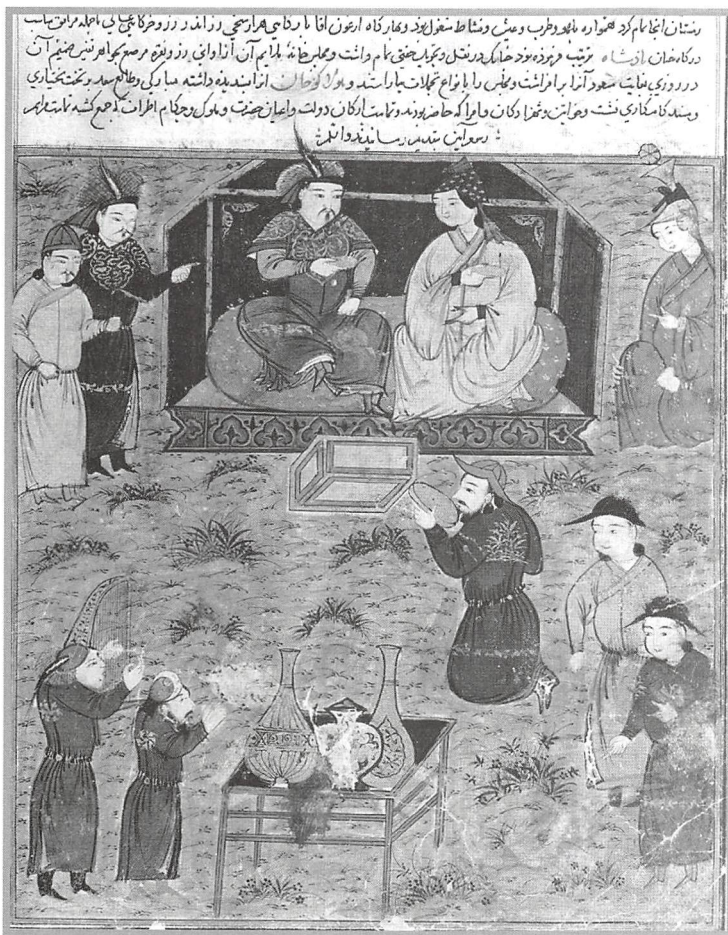
لوحة ١٦٢: شاهنامه القاهرة. شیراز ١٣٩٣ م.
کیخسرو یعبر نهر جیحون. دار الكتب المصرية.

لوحة ١٦٥: جامع التواريخ. هرة ١٤٢٥ م. مَضْرِب خِیام
المغول وتغذیب الأسرى. دار الكتب القومية بباريس.

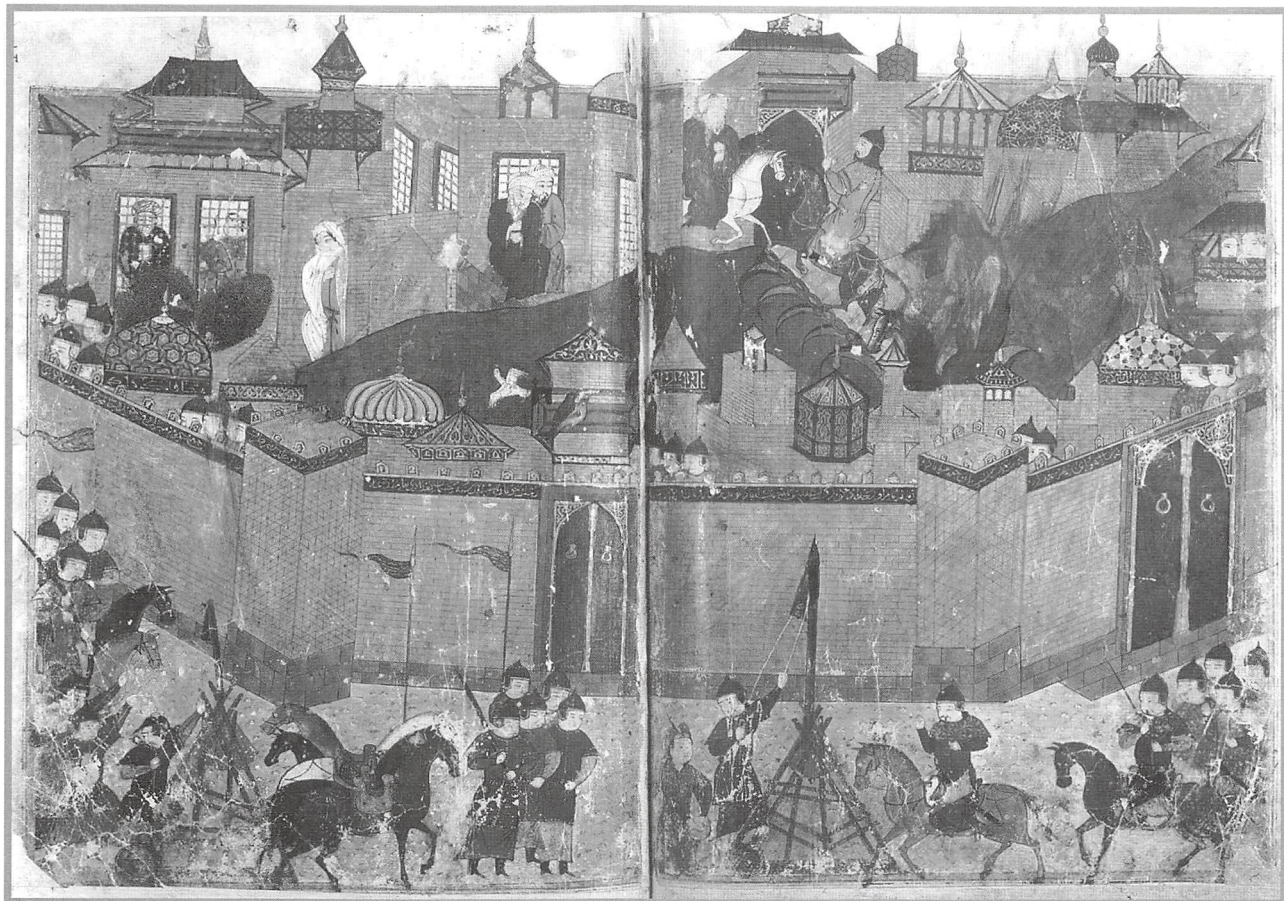
لوحة ١٦٤: جامع التواريخ. هرة ١٤٢٥ م. جنکیزخان
یعتلي منبر مسجد بُخارى. دار الكتب القومية بباريس.



لوحة ١٦٦: جامع التواريخ. هراة
١٤٢٥م. هولاکو وزوجته في
مجلس أنس وطرب. دار الكتب
القومية بباريس.



لوحة ١٦٧: جامع التواريخ. هراة ١٤٢٥م.
هولاکو يُحاصر مدينة بغداد. دار الكتب
القومية بباريس.

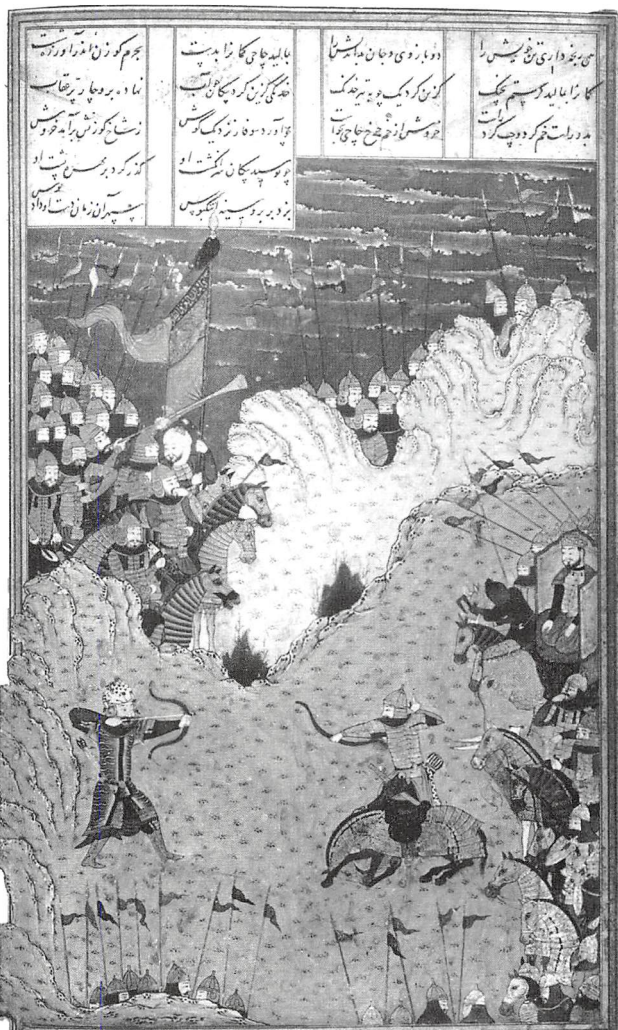


لوحة ١٦٨ : جامع
التواريخ. هراة
١٤٢٥م. المغول
يسوقون الأسرى.
دار الكتب القومية
بباريس.

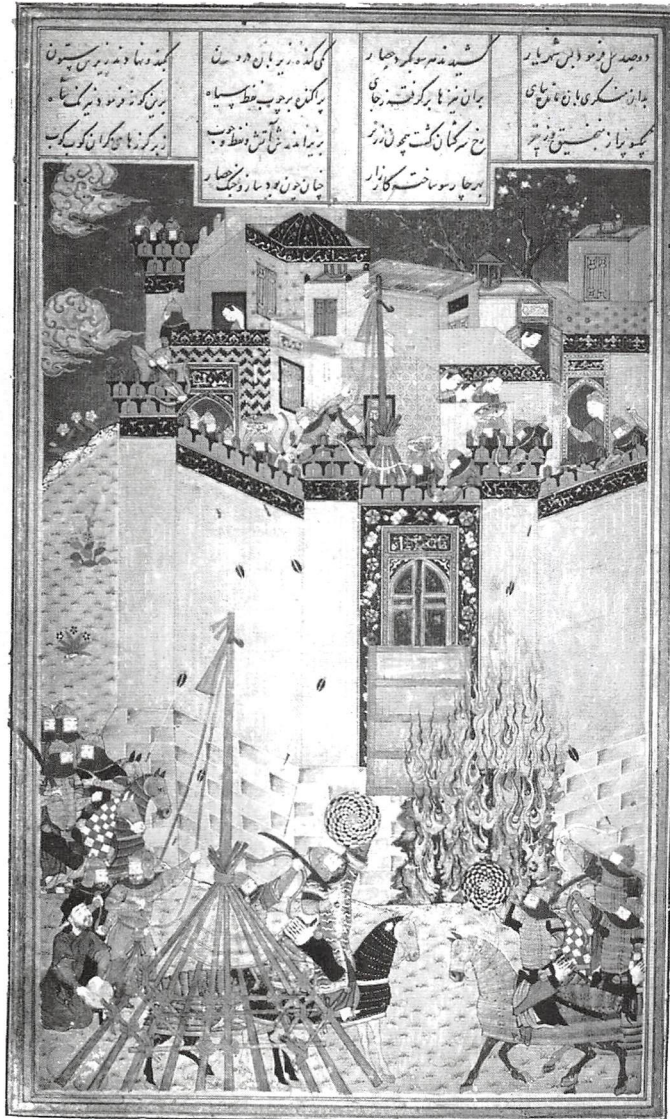
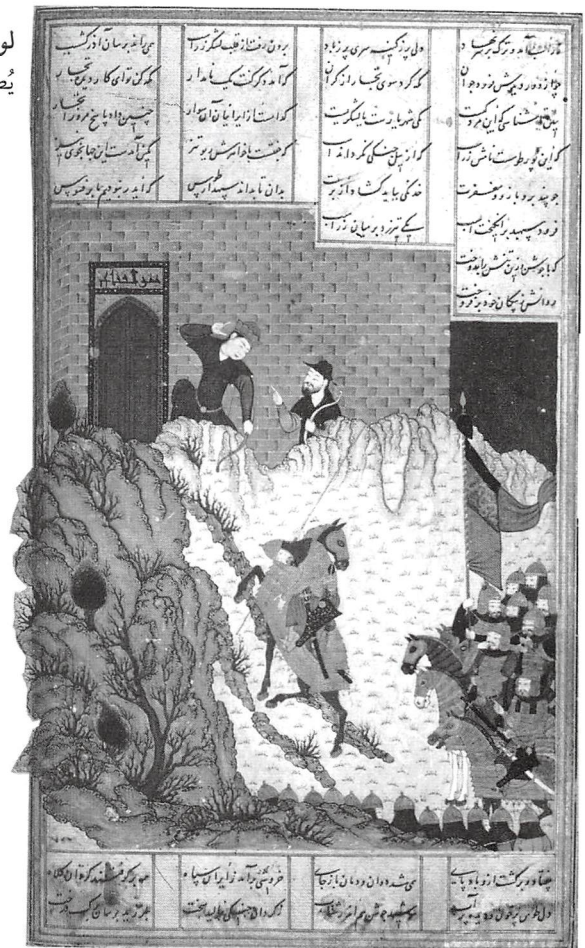


لوحة ١٧٠ : شاهنامه جوكي. هراة ١٤٤٠م. موقعة بين
رستم والمملك أشكبوس. المتحف البريطاني.

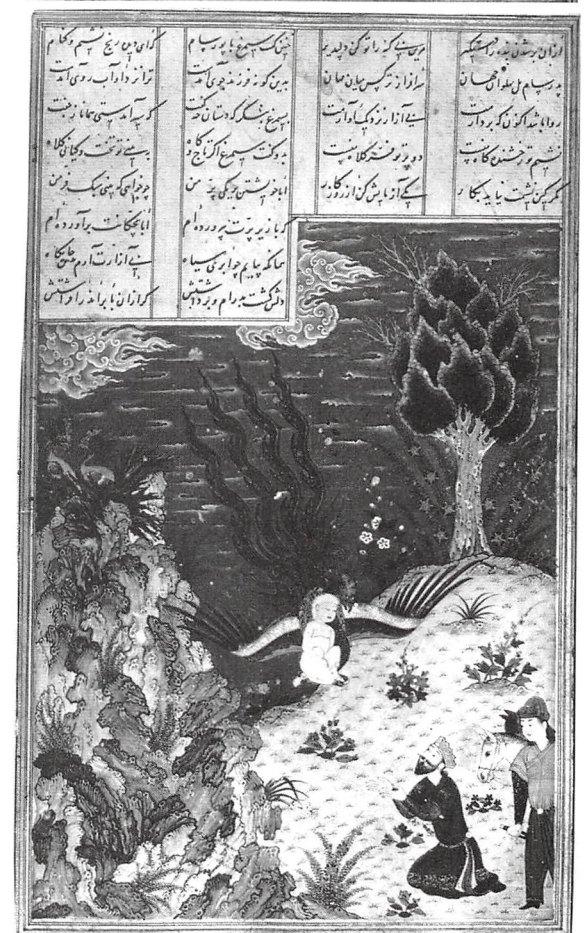
لوحة ١٦٩ : شاهنامه جوكي. هراة ١٤٤٠م. الأبطال فوق
الجليد. المتحف البريطاني.



لوحة ١٧١: شاهنامه جوكي. هَراة ١٤٤٠م. فارود
يُصمي زاراسب بسهمه. المتحف البريطاني.

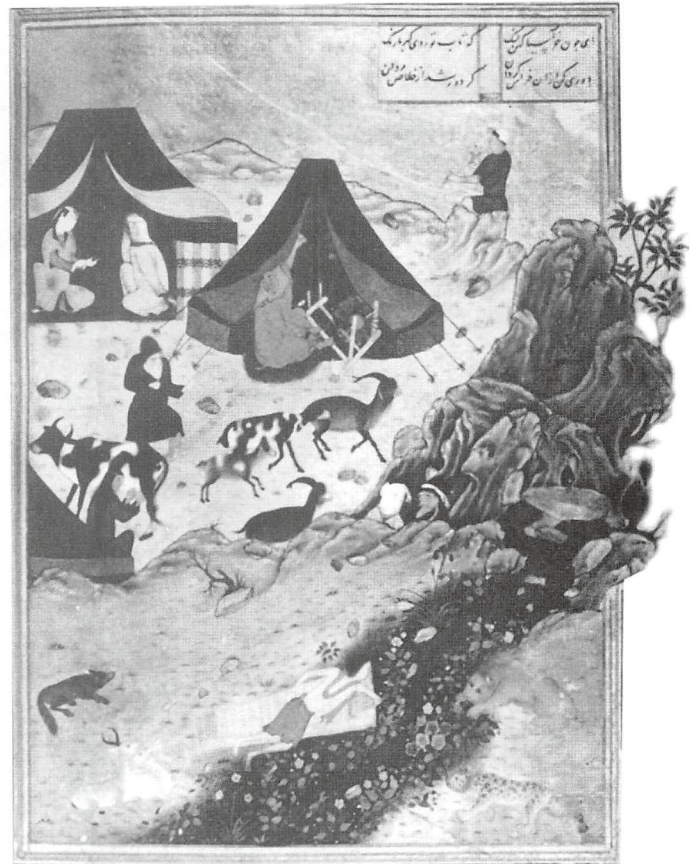
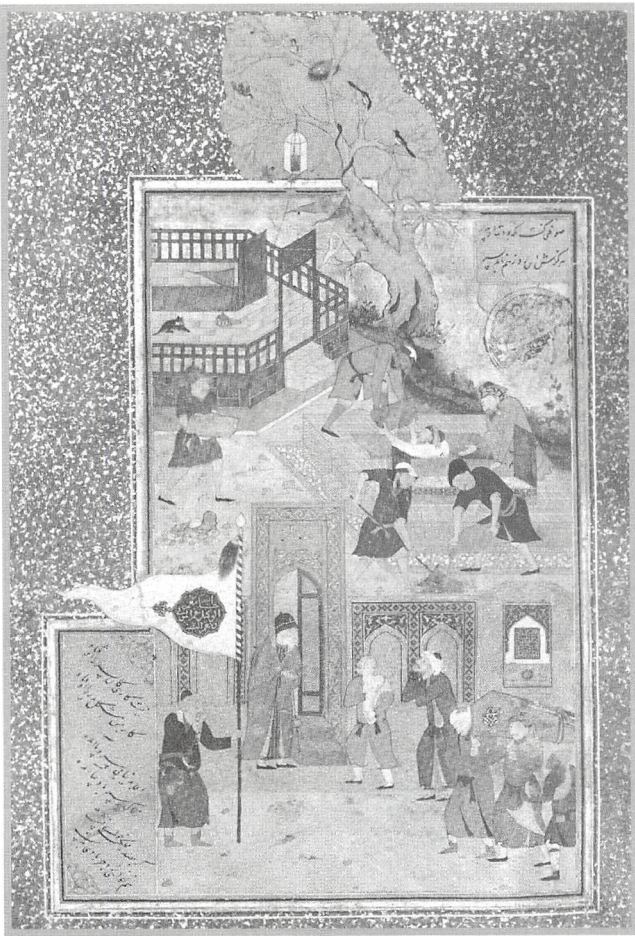


لوحة ١٧٢: شاهنامه جوكي. هَراة ١٤٤٠م. آحد
ملوك الفرس يُحاصر حصنًا حصينًا. المتحف
البريطاني.

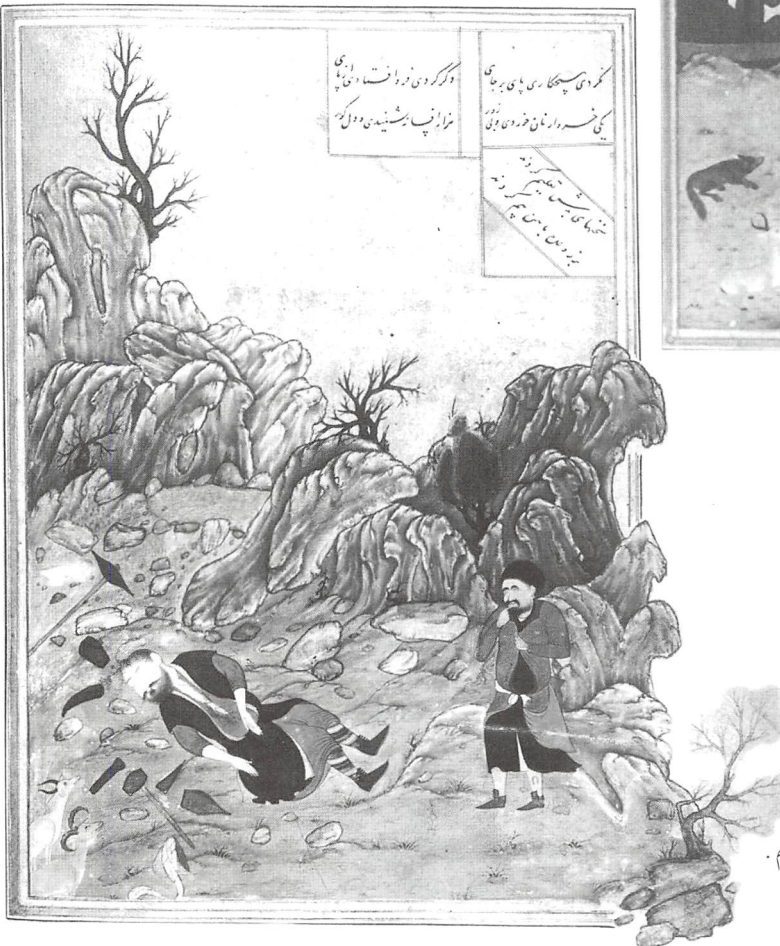


لوحة ١٧٣: شاهنامه جوكي. هَراة ١٤٤٠م.
السيمرغ يحمل زال إلى أبيه سام. المتحف
البريطاني.

لوحة ١٧٤ : منطق الطير . هرة ١٤٨٣ م . موكب
الجنّازة وإعداد المدفن . متحف المتروبوليتان .



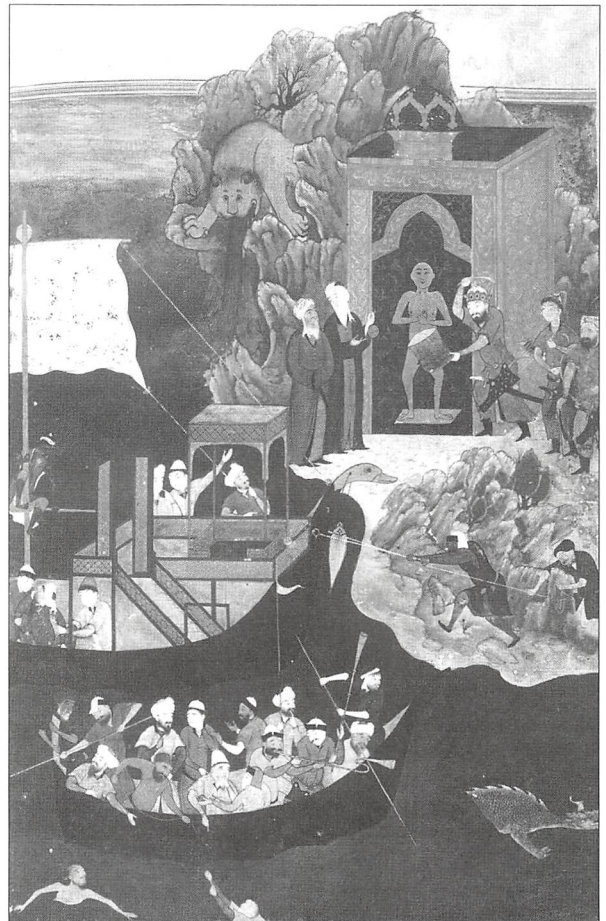
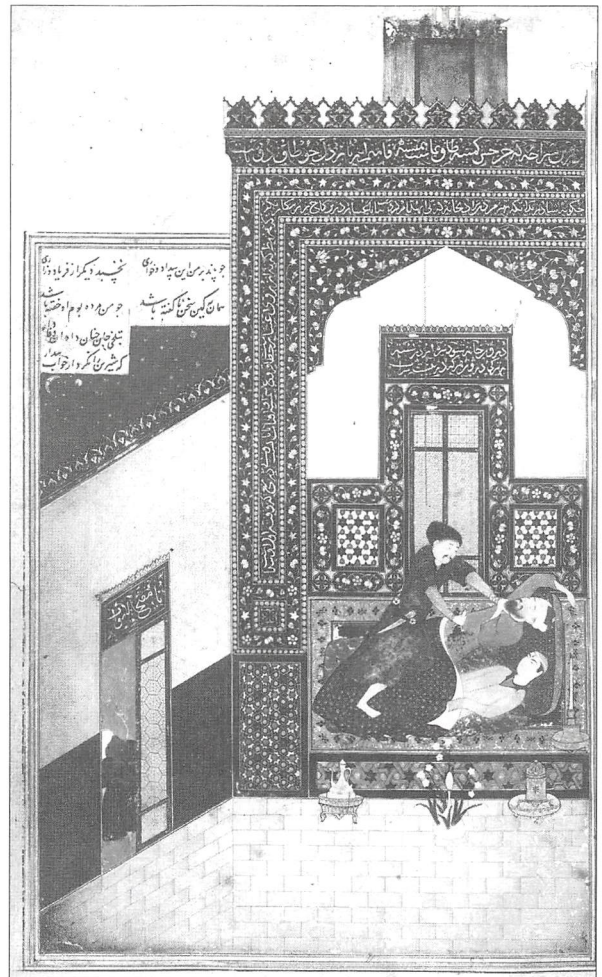
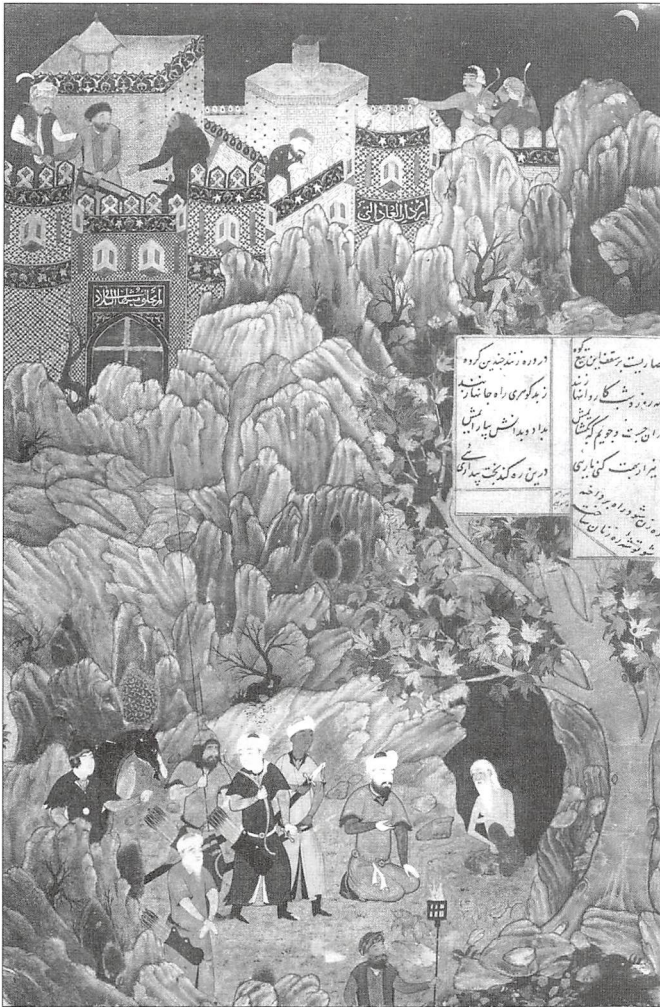
لوحة ١٧٥ : خمسة نظامي . هرة ١٤٩٥ م .
المجنون على قبر ليلي . المتحف البريطاني .



لوحة ١٧٦ : خمسة نظامي . هرة ١٤٩٥ م .
مصرع فرهاد . المتحف البريطاني .

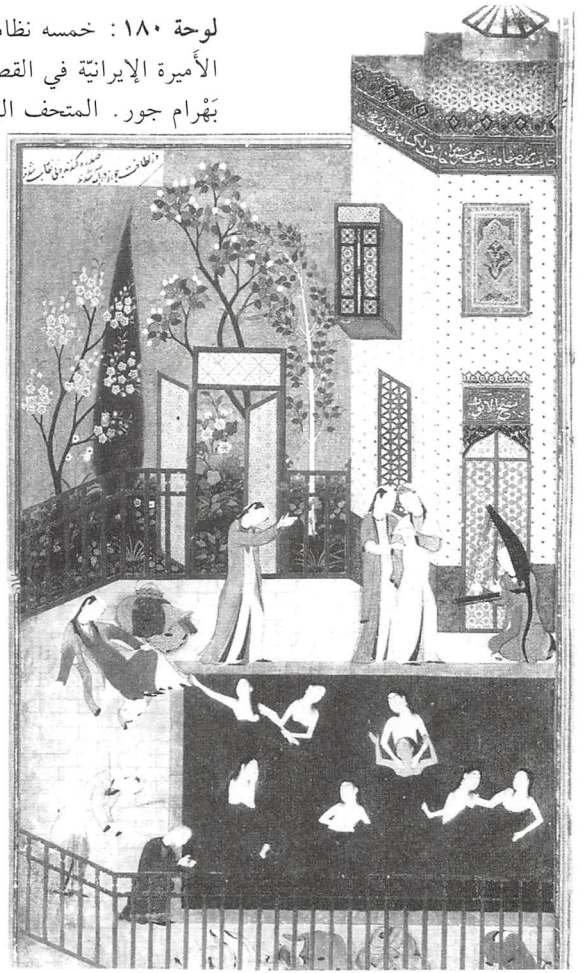
لوحة ١٧٧ : خمسة نظامي . هَراة ١٤٩٥م .
مصرع خُشرو إلى جوار شيرين . المتحف
البريطاني .

لوحة ١٧٨ : خمسة نظامي . هَراة ١٤٩٥م .
الإسكندر يزور ناسِكا . المتحف البريطاني .

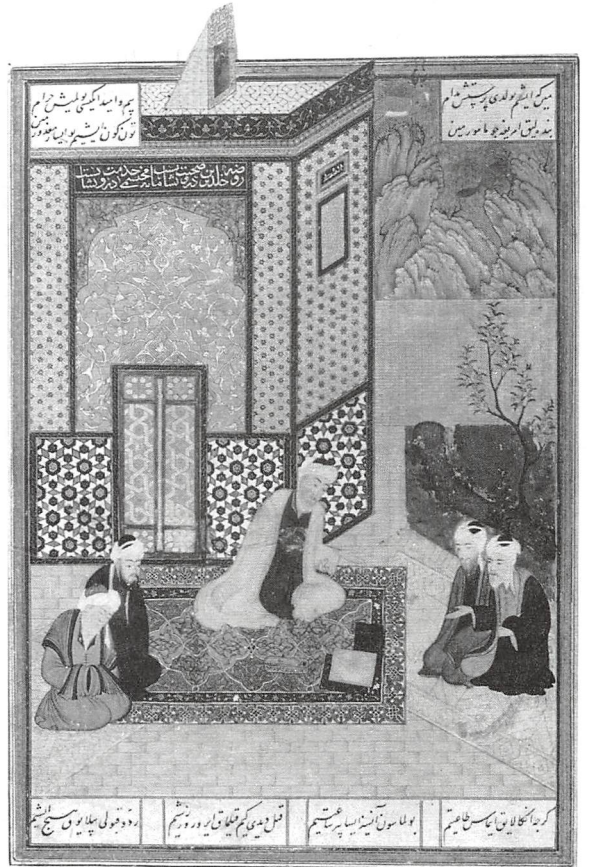


لوحة ١٧٩ : خمسة نظامي . هَراة ١٤٩٥م . قِصّة
الإسكندر والتّمثال البرونزيّ الذي يحمل طَبْلاً .
المتحف البريطاني .

لوحة ١٨٠ : خمسة نظامي . هَراة ١٤٩٥ م . قِصّة
الأميرة الإيرانيّة في القصر ذي القبة البيضاء لِزوجها
بَهْرام جور . المتحف البريطاني .



لوحة ١٨١ : خمسة نظامي . هَراة
١٤٩٥ م . حَفْل تقديم المخطوطة لِلسلطان
ميرزا بارلاس . المتحف البريطاني .



لوحة ١٨٢ : حيرة الأبرار . بُخارى ،
١٥٢٠ م . أَحَد الصّوْفِيّة مع مُريدِهِ .
المكتبة البودليّة بِأكسفورد .



لوحة ١٨٤ : خمسہ نظامي ١٥٣٩-١٥٤٣ م .
کسری آنو شروان یستمع إلى البوم في أطلال
قصر . المتحف البريطاني .



لوحة ۱۸۵: خمسة نظامي ۱۵۳۹-۱۵۴۳ م. مجنون ليلي بين كواسر الوحش. المتحف البريطاني.



لوحة ١٨٦ :

خمسه نظامي

١٥٣٩ -

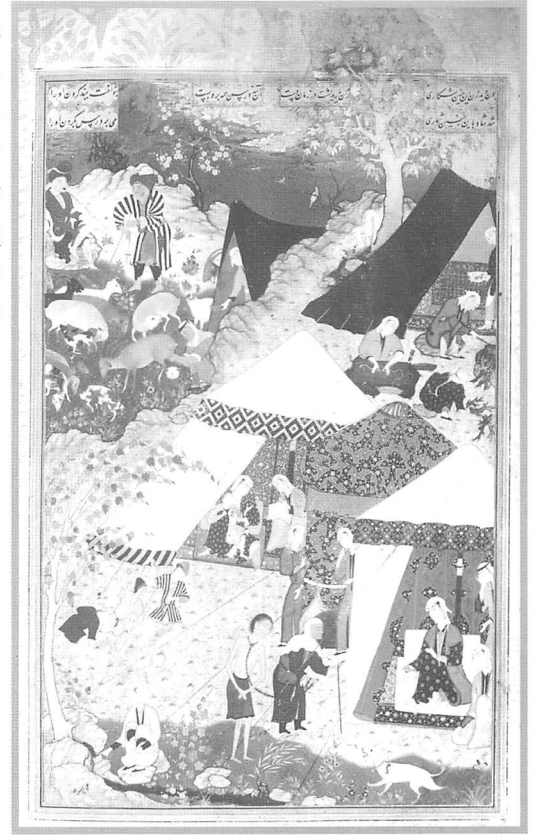
١٥٤٣ م. عَجُوز

تقود المجنون

إلى خيمة ليلى .

المتحف

البريطاني .



لوحة ١٨٧ :

خمسه نظامي

١٥٣٩ - ١٥٤٣ م.

شاپور يعرض

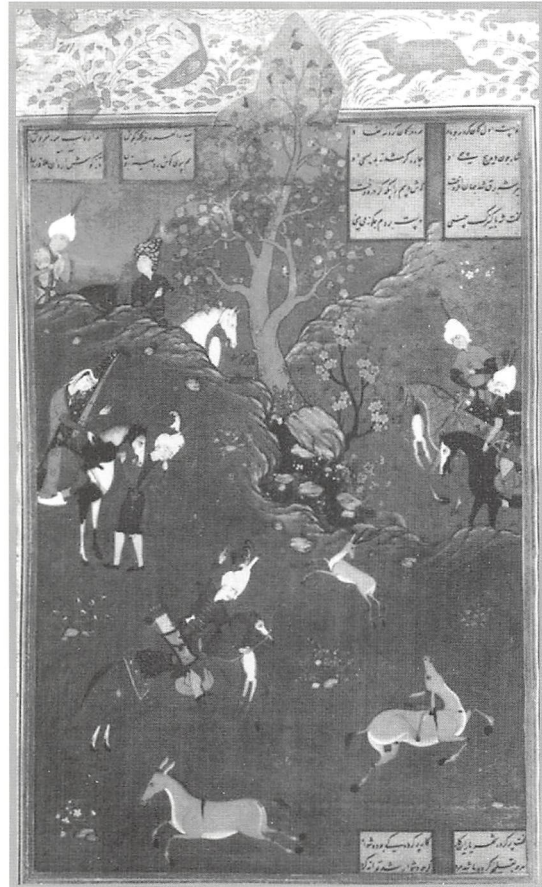
پورتريه خسرو

على شيرين .

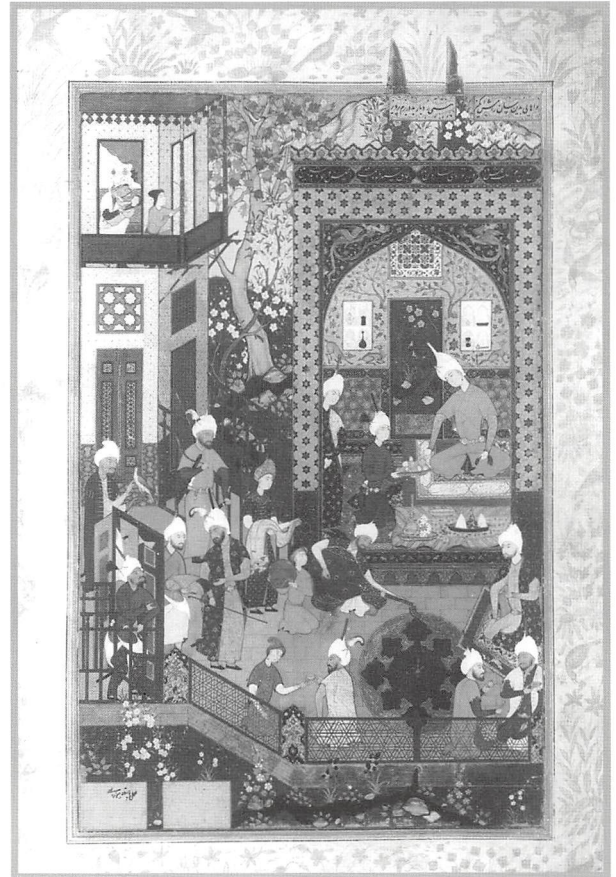
المتحف

البريطاني .

لوحة ١٨٩ : خمسه نظامي ١٥٣٩-١٥٤٣ م. بَهْرَام
جور يَصِيد الحُمُر الوحشيّة . المتحف البريطاني .

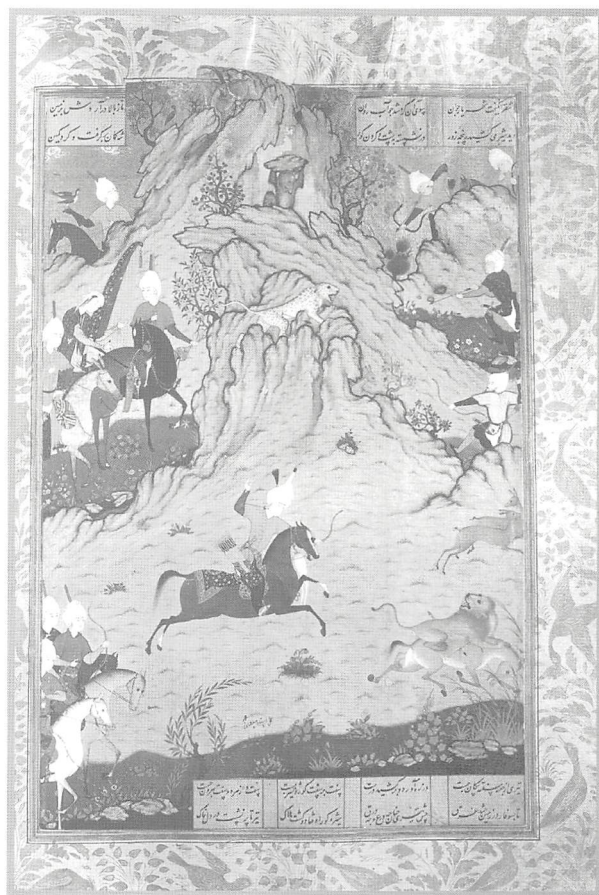


لوحة ١٨٨ : خمسه نظامي ١٥٣٩-١٥٤٣ م. خَسْرُو
يَسْتَمِيع إلى المُغْنِيّ بَارِبِد . المتحف البريطاني .





لوحة ١٩٠: خمسة نظامي ١٥٣٩-١٥٤٣ م. خسرو يختلِس النَّظْرَ إلى شيرين وهي تَسْتَحِم. المتحف البريطاني.

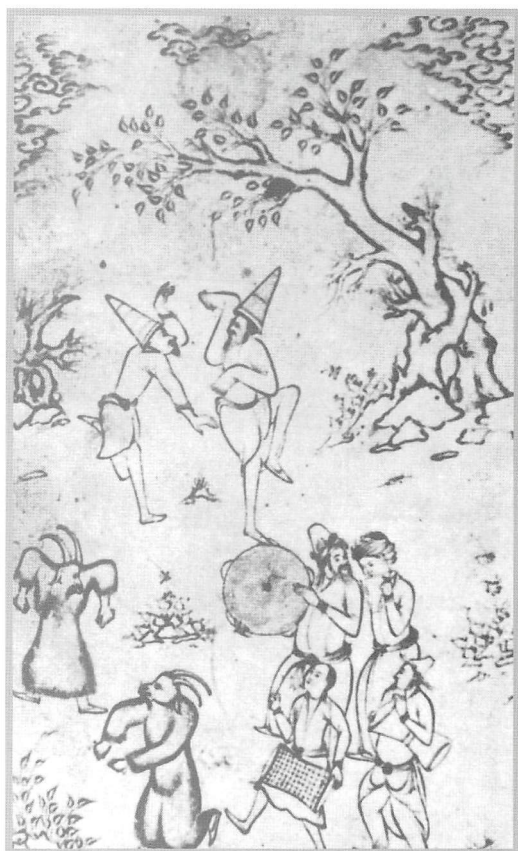


لوحة ١٩٢: خمسة نظامي ١٥٣٩-١٥٤٣ م. السلطان
سنجر والمرأة العجوز. المتحف البريطاني.

لوحة ١٩١: خمسة نظامي ١٥٣٩-١٥٤٣ م. بهرام جور
يصيد الأسد. المتحف البريطاني.



لوحة ١٩٣:
المصوّر
محمّدي: رقص
الدراويش.
مكتبة حكومة
الهند بلندن.



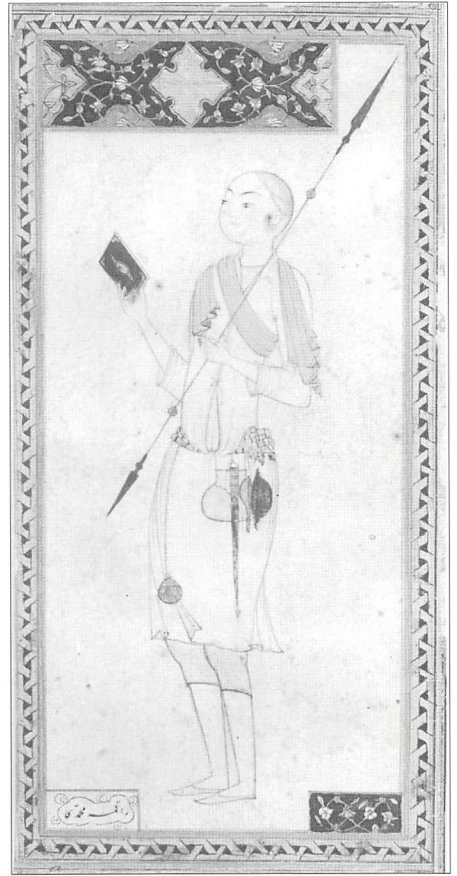
لوحة ١٩٣ ب:
المصوّر محمّدي:
عازف ناي وراقص
من الدراويش.
مكتبة حكومة الهند
بلندن.

لوحة ١٩٤ : المصوّر

محمّدي : درویش

يحمل مُصحفًا . مكتبة

حكومة الهند بلندن .



فین برادری کاه دارم من پریم از تو و نوار حبله کنه کارانی و جزای سپم کند کاه
دورخت قایل شتن برادر در دل گرفت و اندیشه کرد که او را چگونه کشد ابلیس باید و باری
پاورد و پیش قایل سرش بسک بگفت و تعلیم کرد که برادر را چنین بایک شتن بایک شتن



لوحة ١٩٥ : المصوّر آقا رضا :

کتاب قصص الأنبياء للنيسابوري .

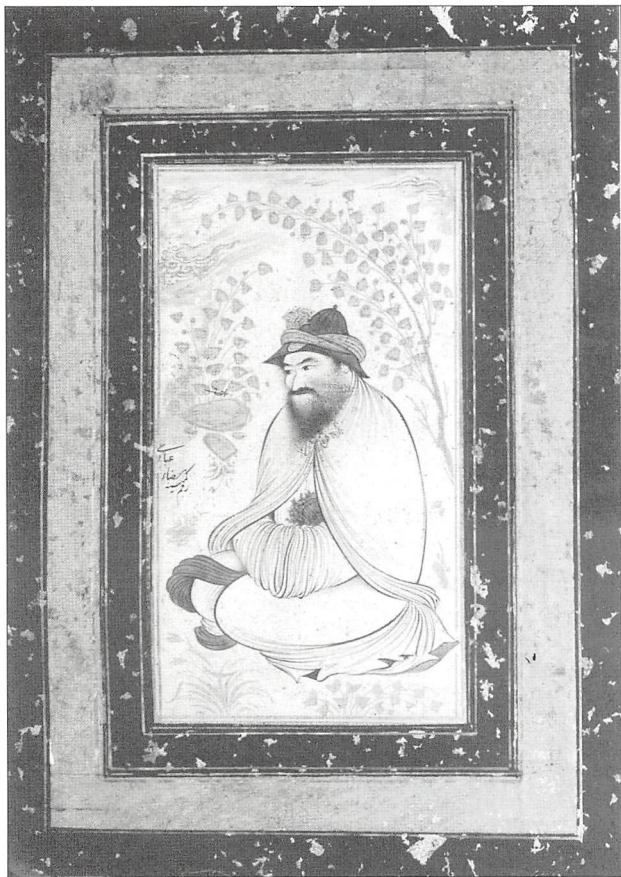
قایل وهابیل ١٥٩٠-١٦٠٠ م . دار

الكتب القومية بباريس .

کرده و دمانده شده در زیر درخت ید خسته قایل شکم گرفت و بر سر باس زد و درخت



لوحة ١٩٦: المصوّر رضا عباسي: نزهة خلويّة نهارًا. معهد العلوم الشرقيّة بسان بطرسبرج.



لوحة ١٩٨: المصوّر رضا عباسي. رجل في
مُتّصّف العمر. مكتبة حكومة الهند بلندن.



لوحة ١٩٧: المصوّر رضا عباسي. نزهة خلوية
ليلاً. المتحف البريطاني.

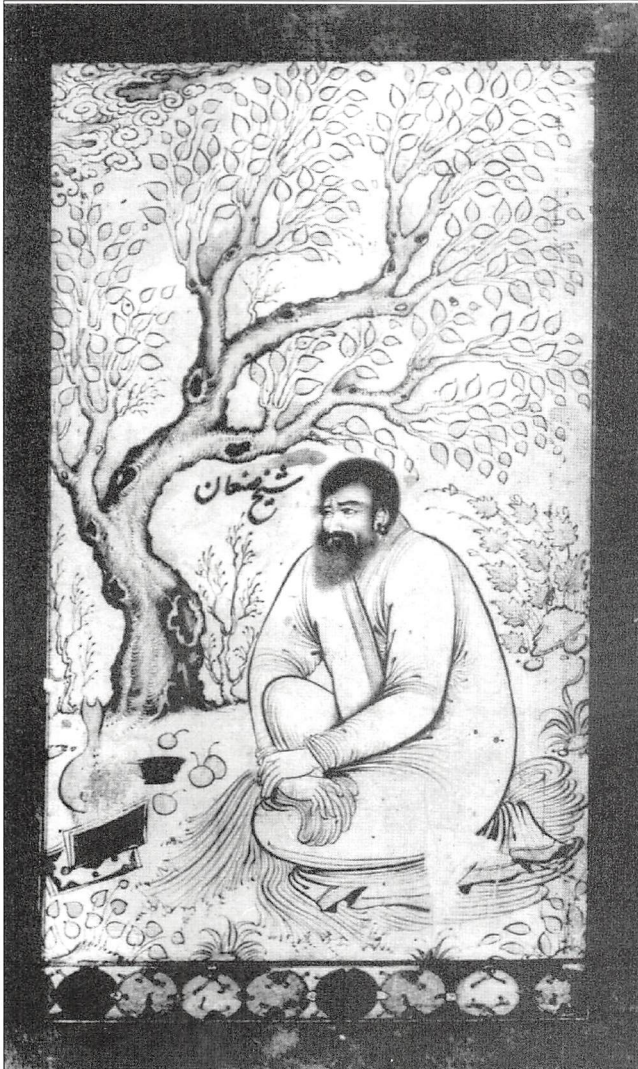


لوحة ١٩٩: المصوّر
رضا عباسي. شيخ
يتكى على عصاه.
المتحف البريطاني.



لوحة ٢٠٠: المصوّر
رضا عباسي. شاعر
يُمسِك كتاباً بإحدى
يديه وبالأخرى كأس
خمر. المتحف
البريطاني.

لوحة ٢٠١: المصور رضا
عبّاسي. فتاة تحمل جرة.
المتحف البريطاني.



لوحة ٢٠٢: المصور رضا
عبّاسي. شيخ صنعان. دار
الكتب القومية بباريس.

لوحة ٢٠٣: تصوير صيني. حكيم صيني يتأمل تحت شجرة صفصاف. لفافة معلقة. متحف القصر بتايتشون.



لوحة ٢٠٤: «منطق الطير» لفريد الدين العطار. إصفهان ١٦٠٩ م. إرتداد الفتاة النصرانية إلى الإسلام. متحف المتروبوليتان بنيويورك.

لوحة ٢٠٥: تصوير

جداري. إصفهان. جهل
سوتون. شاه طهماسب
يختفي بهمايون إمبراطور
الدولة المغولية بالهند.
إستنساخ خطي لتكسييه.



لوحة ٢٠٦: تصوير

جداري. إصفهان.
جهل سوتون. شاه
عباس يحتفل بخان
الأوزبك. إستنساخ
خطي لتكسييه.



لوحة ٢٠٧: تصوير

جداري. إصفهان. جهل
سوتون. الشاه عباس
يحتفل بالخليفة سلطان
سفير دولة المغول بالهند.
إستنساخ خطي لتكسييه.

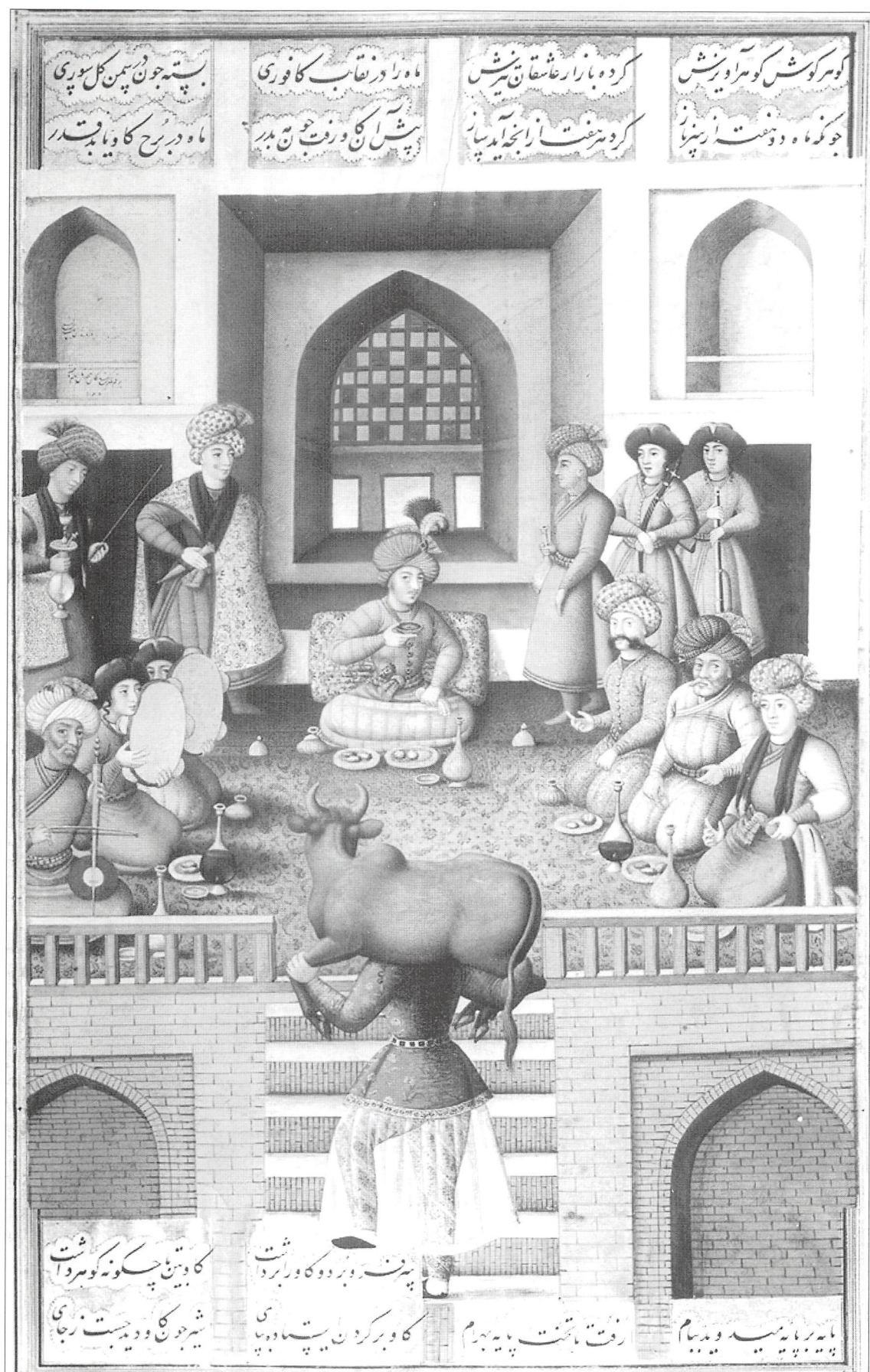




لوحة ٢٠٨: جهل سوتون. إصفهان. لوحة زيتية. عاشقان في نزهة خلوية. [صورة لم يسبق نشرها].



لوحة ٢٠٩: جهل سوتون. إصفهان. لوحة زيتية. سيّدة مُضطجعة على العشب. [صورة لم يسبق نشرها].



لوحة ۲۱۰: خمسة نظامي. أُعدَّت لِلشَّاه طهماسب. إصفهان ١٦٦١م. فتنه تحمل الثَّور إلى بهرام جور صاعدة السَّلم. تصوير مُحمَّد زمان. المتحف البريطاني.



لوحة ٢١١: خمسة نظامي. أُعدت للشاه طهماسب. إصفهان ١٦٦١م. بهرام جور يصرع الثَّين.
تصوير مُحمَّد زمان. المتحف البريطاني.

لَوَحَاتُ
الْبَابِ الثَّالِثِ
الْمُلَوَّنَةِ

التَّصْوِيرُ الْفَارِسِيُّ



لوحة ١٢٩ م:
تصوير صيني.
حفل موسيقي
بأحد القصور.
لفيفة مُعلّقة.
جبر وألوان
مائية على
الحرير.
متحف القصر
بتايشون.
القرن ١٠.

لوحة ١٣١ م: تصوير صيني: البامبو [أعواد
الخيزران]. لفافة مطوية. الفنان هزو وي.
القرن ١٦. فريز غاليري بواشنطن.



لوحة ١٣٠ م: تصوير صيني. الإصغاء إلى أنغام الرّيح. لفافة
مُعلّقة. الفنّان ماكين ١٢٤٦. متحف القصر بتايشون.





لوحة ١٣٢م: تصوير صيني: رحلة الإمبراطور مين هوان إلى شو. فنان مجهول. القرن ١٠. متحف القصر پتايشون.



لوحة ۱۳۴م: كتاب «منافع الحيوان». آدم وحواء. مكتبة پيرپونت مورجان بنيويورك.

لوحة ۱۳۵م: كتاب «جامع التواريخ» لرشيد الدين. مشهد من علّ لمدينة تحاصرها جيوش جنكيزخان. هراة ۱۴۳۵-۱۴۴۰. دار الكتب القومية بباريس.



لوحة ۱۳۳م: كتاب «منافع الحيوان». طائر السيمرغ. مكتبة پيرپونت مورجان بنيويورك.

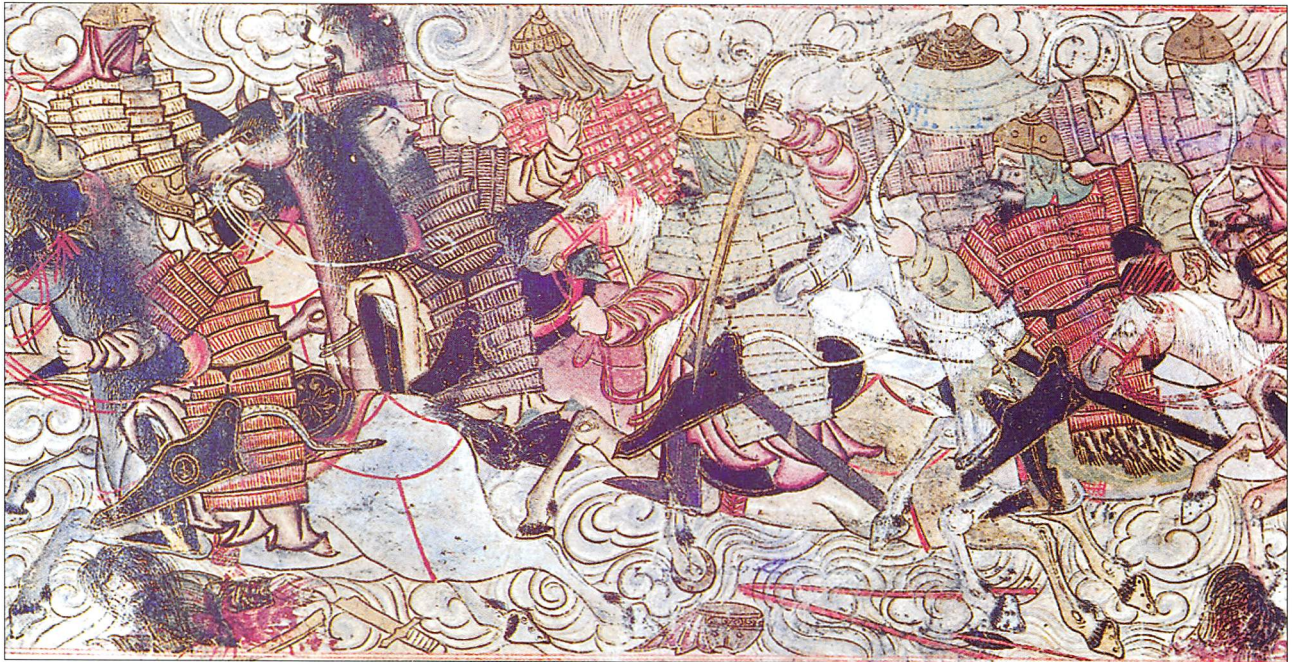




لوحة ١٣٦م: كتاب «جامع التواريخ» لرشيد الدين. جنازة غازان خان هراة ١٤٣٥-١٤٤٠. دار الكتب القومية بباريس.

لوحة ١٣٧م: كتاب «جامع التواريخ» لرشيد الدين. تفصيل من لوحة ١٣٦.

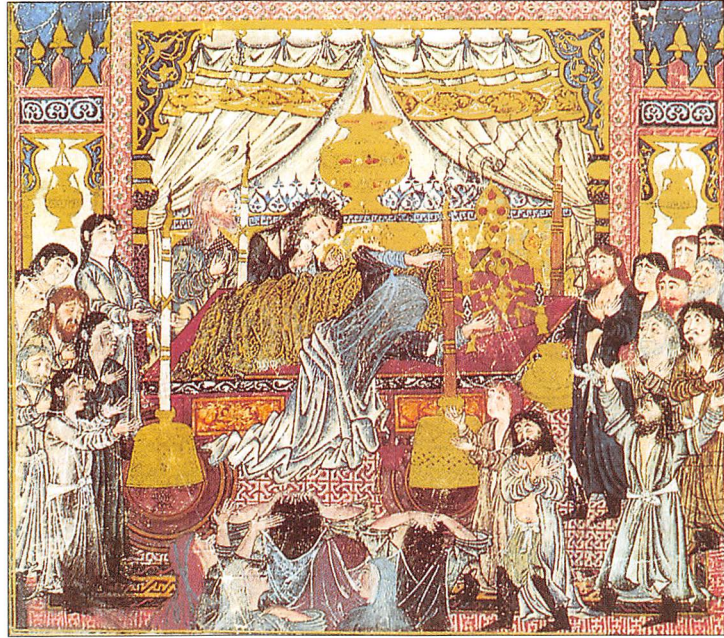
لوحة ١٣٨م: «جامع التواريخ»: معركة السلطان قشتمر ضد جيش الخليفة العباسي. متحف طوب قابو باستنبول [صورة لم يسبق نشرها].



لوحة ١٣٩م: شاهنامه ديموط. تبريز
١٣٣٠-١٣٣٥م. الإسكندر يصرع
الكركدن. متحف الفنون الجميلة
ببوسطن.



لوحة ١٤٠م: شاهنامه ديموط. تبريز
١٣٣٠-١٣٣٥م. التَّحْيِيبُ حَوْلَ نَعَشٍ
الإسكندر. فريز غاليري بواشنطن.



لوحة ١٤١م: شاهنامه ديموط. تبريز
١٣٣٠-١٣٣٥م. هجوم المَنْجِيقات
الحربيّة في معركة هيداسييس. متحف
فوج للفنون بجامعة هارفارد.



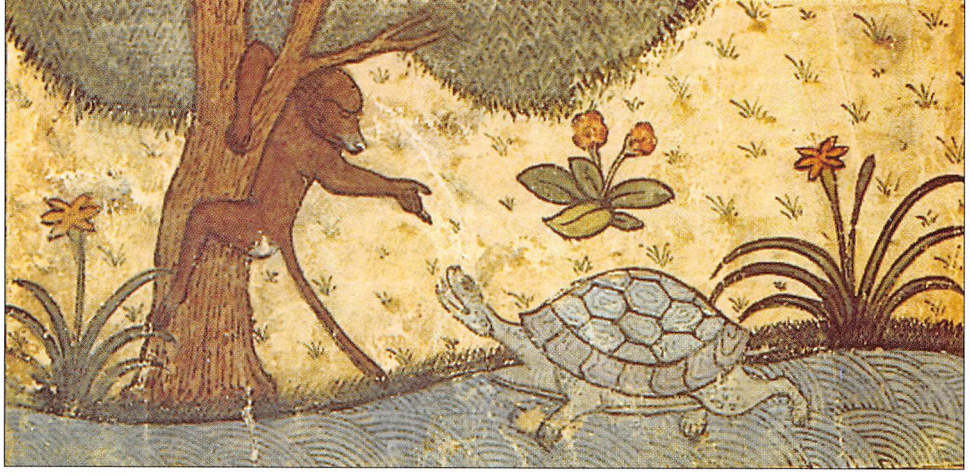
لوحة ۱۴۲م: مُرَقَّعة بَهْرَام میرزا
 ۱۵۴۴م. دخول المُسْلِمِينَ مَكَّةَ وقد
 تَجَمَّعُوا حول الكعبة. متحف طوب قاپو
 بَاسْتَنْبُول. [صورة لم يسبق نشرها].



لوحة ۱۴۳م: مُرَقَّعة بَهْرَام
 میرزا ۱۵۴۴م. مسجد زاخِر
 بِالزَّخَارِف. متحف طوب
 قاپو بَاسْتَنْبُول.

[illegible][illegible]

لوحة ١٤٧م: كَلِيلَة وَدِمْنَة
 ١٣٤٤م. مَلِكُ القُرود يُلقِي ثَمَارَ
 التَّينِ إِلَى الغَيْلِمِ. دار الكُتُبِ
 المِصْرِيَّة. [صُورَة لَمْ يَسْبِقْ
 نَشْرُهَا].



لوحة ١٤٨م: كَلِيلَة وَدِمْنَة
 ١٣٤٤م. مَلِكُ القُرود يَمْتَطِي
 ظَهْرَ الغَيْلِمِ عَابِرًا البَرَكَة. دار
 الكُتُبِ المِصْرِيَّة. [صُورَة لَمْ
 يَسْبِقْ نَشْرُهَا].



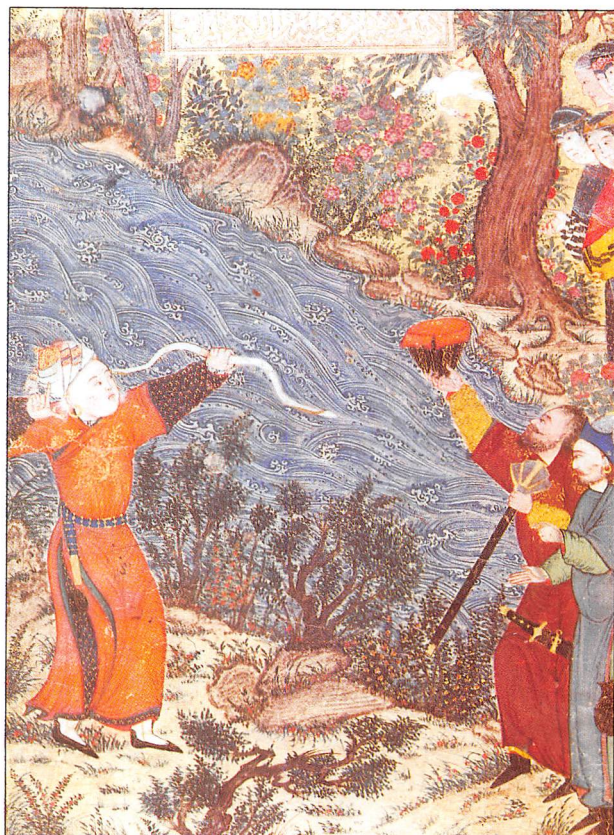
لوحة ١٤٩م: كَلِيلَة وَدِمْنَة
 ١٣٤٤م. التَّجَارُ وَامْرَأَتُهُ
 وَخَلِيلُهَا. دار الكُتُبِ المِصْرِيَّة.



لوحة ١٥٠م: شاهنامه تَبْرِيز
١٣٧٠م. طائر السيمرغ يحمل
زال إلى عشه بجبل البرز.
متحف طوپ قاپو بإستنبول.



لوحة ١٥١م: شاهنامه تَبْرِيز ١٣٧٠م. زال يصيد
طاوئرا. متحف طوپ قاپو بإستنبول.



لوحة ١٥٢م: شاهنامه تَبْرِيز ١٣٧٠م. منوچهر ملك إيران يهزم
أفراسياب ملك التورانيين. متحف طوپ قاپو بإستنبول.

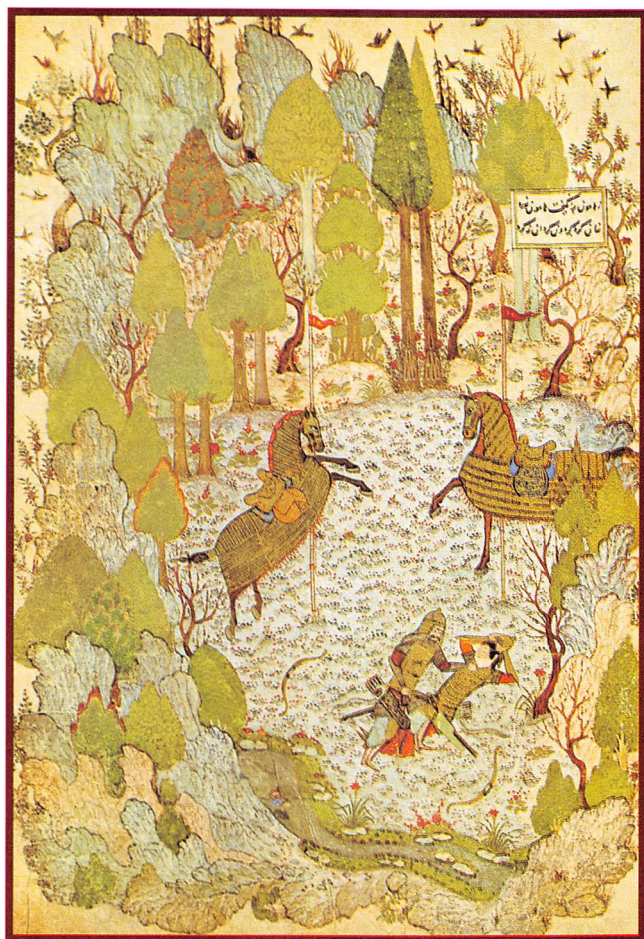
لوحة ١٥٣م: شاهنامه تبریز ١٣٧٠م.
جيش خسرو يُحاصر قلعة أفراسياب.
متحف طوب قاپو باستنبول. [صورة لم
يسبق نشرها].



دار دینی سرخ دینی سیاه کسان اندرفت بکروزنه فرو دار و از دی بسامد الرزلی
یک دانه بخورد بچسب بکند بوزنه بدز سره باشد اما بر لبیاری و دکه



لوحة ١٥٤م: عجائب المخلوقات
للقزويني. بغداد ١٣٨٨م. جنى ثمار
اللّوبيا، وهي «نبت من أكله يرى أحلاماً
ردیئة، وهو يُخصِب البَدَن ويدزّ الطَّمث
ويُنقّي من دم التفاس». دار الكتب
القومية بباريس.



لوحة ١٥٦م: ديوان خواجو کرمانی. بغداد ١٣٩٦م. الأمير هومايون يُبارز الأميرة هوماي. المتحف البريطاني.

لوحة ١٥٥م: ديوان خواجو کرمانی. بغداد ١٣٩٦م. الأمير هومايون على باب قلعة الأميرة هوماي. المتحف البريطاني.

لوحة ١٥٨م: شاهنامه شیراز ١٣٧٠م. بهرام جور یصرع اللّتين. متحف طوب قاپو بإستنبول.

لوحة ١٥٧م: ديوان السلطان أحمد: بغداد ١٤٠٥م. زخارف هوامش پریشانة جنید. فریر غاليري پواشنطن.



لوحة ١٥٩م: مؤنس الأحرار، بقلم محمد بدر
جارجني. مقتطفات علمية. شیراز ١٣٤١م.



لوحة ١٦٠م: تصویره من مضم
صور. هراة ١٤٠٠م. مکتبه طوب
قاپو باستنبول.

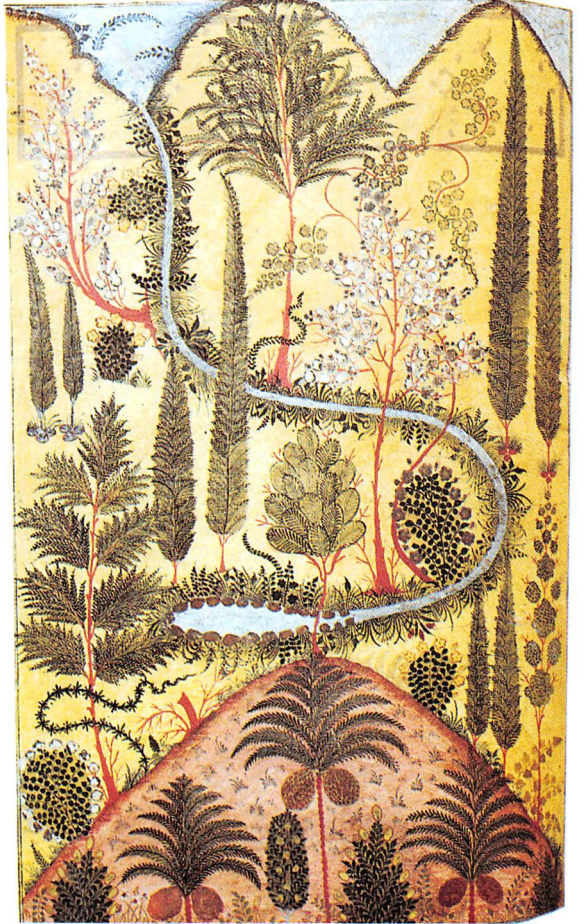




لوحة ١٦٢م: ديوان قصائد الشعراء السبعة.
شيراز ١٣٩٨م. منظر طبيعي متحف الفن
الإسلامي والتركي بإستنبول.



لوحة ١٦٤م: ديوان قصائد الشعراء السبعة.
شيراز ١٣٩٨م. منظر صيد. متحف الفن
الإسلامي والتركي بإستنبول.

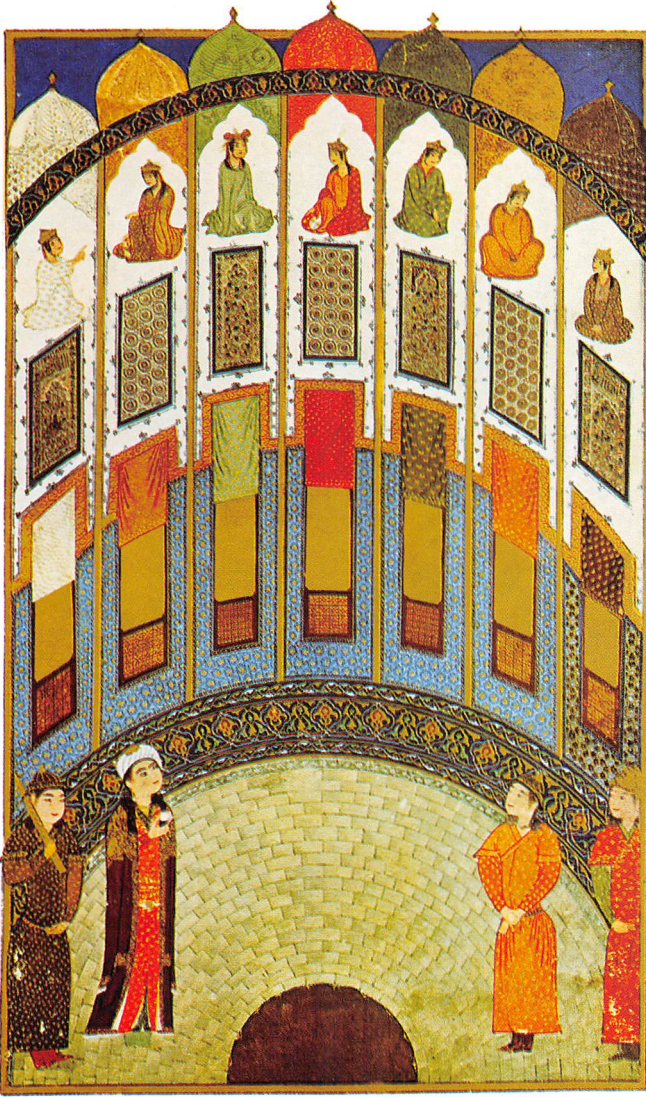


لوحة ١٦٣م: ديوان قصائد الشعراء السبعة.
شيراز ١٣٩٨م. منظر طبيعي متحف الفن
الإسلامي والتركي بإستنبول.

لوحة ١٦٥م: ديوان شِعْر. شيراز
١٤١٠م. إسكندر يأسر داراب.
مؤسسة جوليئكيان بِلشِبونة.



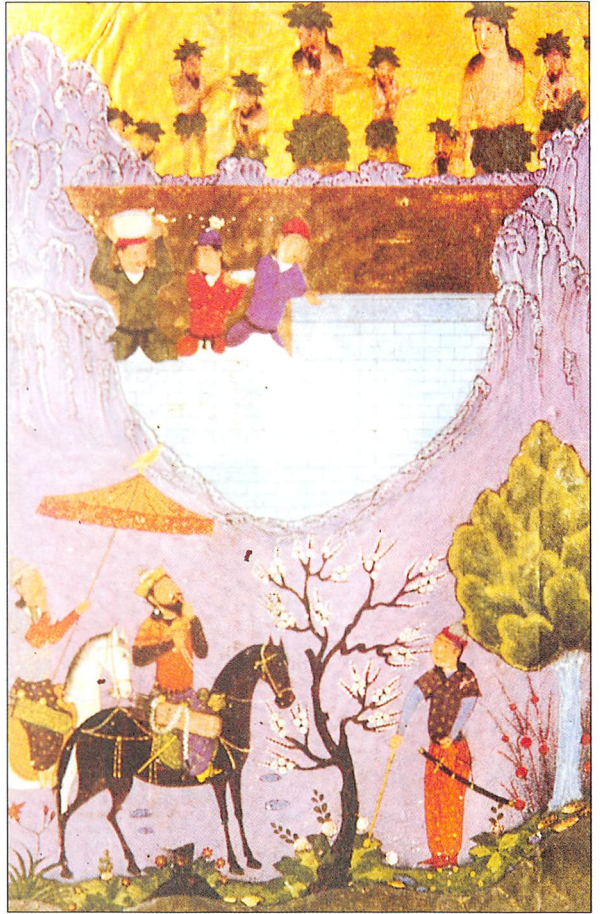
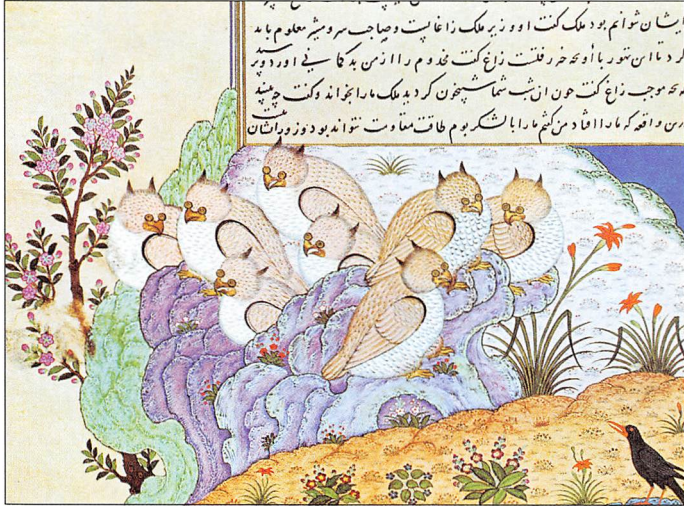
لوحة ١٦٧م: ديوان شِعْر.
شيراز ١٤١٠. بَهْرَام جُور فِي
قَاعَةِ الصُّورِ السَّبْعِ. مؤسَّسة
جوليئكيان بِلشِبونة.



لوحة ١٦٦م: ديوان شِعْر. شيراز
١٤١٠م. حَمَامُ الحُورِيَّاتِ.
مؤسسة جوليئكيان بِلشِبونة.

لوحة ١٦٨م: مجموعة أشعار. يَزِد
قرب شيراز ١٤٠٧م. الإسكندر في بلاد
يأجوج ومأجوج. متحف طوب قابو
بإستنبول. [صورة لم يسبق نشرها].

لوحة ١٦٩م: كَلِيلَة ودُمْنَة. هَرَاة
١٤٣٠م. «لا تملِكُوا اليوم عليكم».
مكتبة طوب قابو بإستنبول.



لوحة ١٧٠م: كَلِيَّات
حافظ هَرَاة. غَزْو خَيْر
وقلعتها. متحف طوب
قابو بإستنبول. [صورة لم
يسبق نشرها].

لوحة ۱۷۲م: شاهنامه بایسنقر ۱۴۳۹م.
منظر صید. مکتبة قصر جُلستان بطهران.



لوحة ۱۷۱م: جُلستان سعدي ۱۴۲۷م. حوار الوزير الدَّرويش
مع الملك. مکتبة تشستر بيتي بِدبلن.

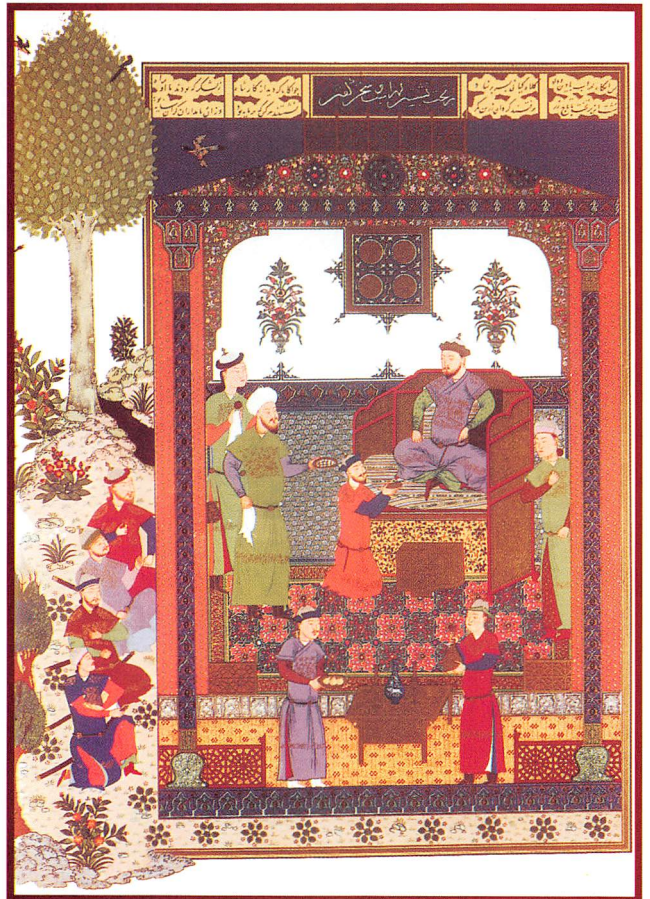


لوحة ۱۷۳م: شاهنامه بایسنقر ۱۴۳۹م.
منظر صید. مکتبة قصر جُلستان بطهران.

لوحة ١٧٤م: شاهنامه بايسنقر
١٤٣٩م. جُلنار تُطَلَّ من
نافذتها على أَرْدَشِير. مكتبة
قصر جُلستان بطهران.



لوحة ١٧٥م: شاهنامه بايسنقر ١٤٣٩م.
أفريدون يأمر بدقِّ الصَّخَاك إلى صخرة
المغارة. مكتبة قصر جُلستان بطهران.

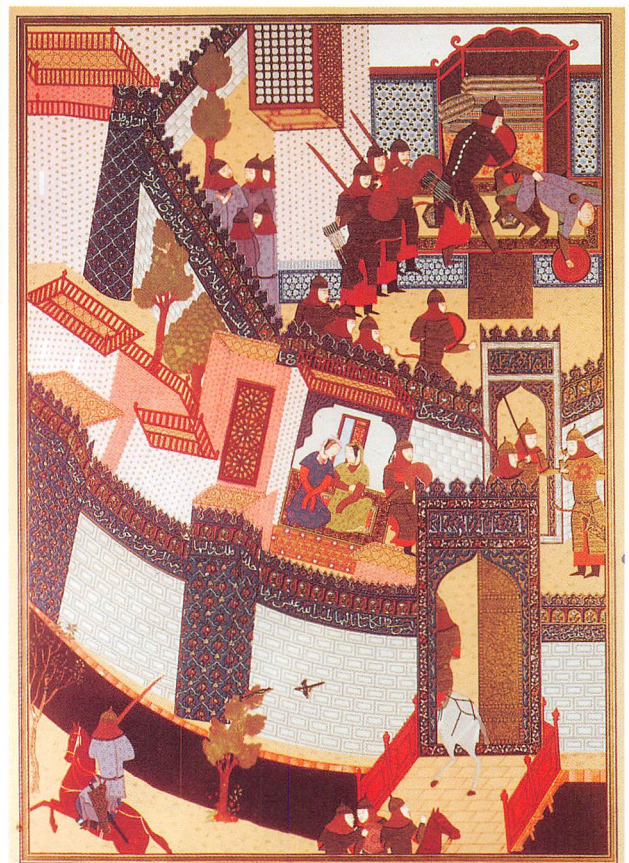


لوحة ١٧٦م: شاهنامه بايسنقر
١٤٣٩م. تَسْنُم لهراسب سرير
الملك بعد كيخسرو. مكتبة قصر
جُلستان بطهران.

لوحة ١٧٧م: شاهنامه بايسنقر ١٤٣٩م.
مقتل سیاوخش علی يد كروزره. مكتبة
قصر جُلستان بطهران.

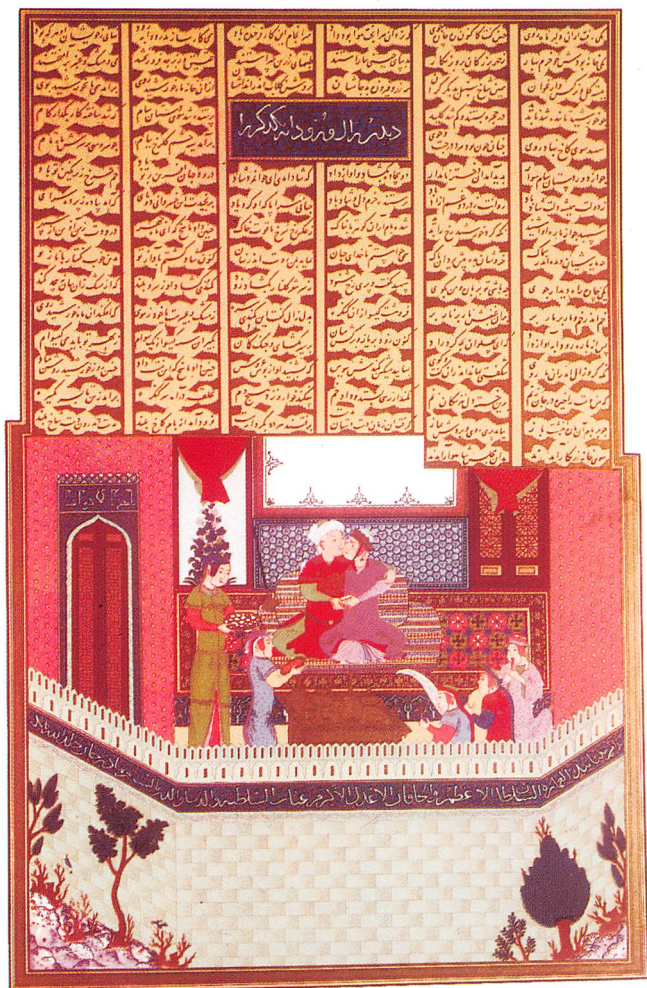
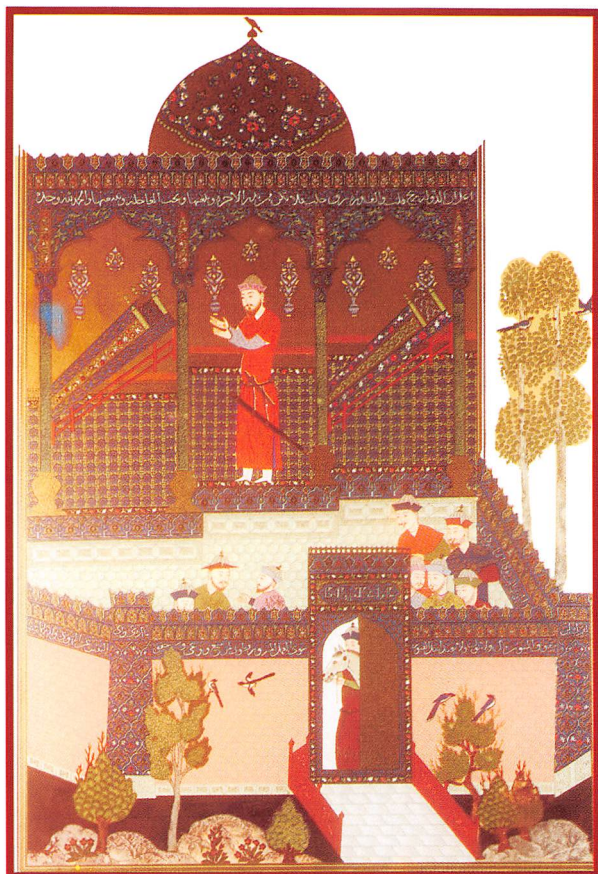


لوحة ١٧٨م: شاهنامه بايسنقر ١٤٣٩م. رستم
يقتل ملك الجن. مكتبة قصر جُلستان بطهران.

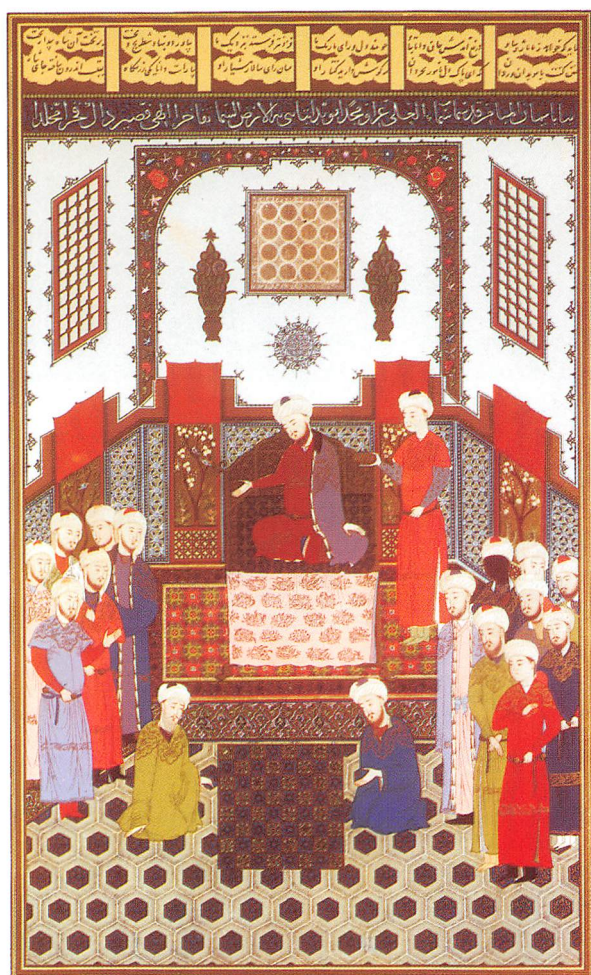


لوحة ١٧٩م: شاهنامه بايسنقر ١٤٣٩م.
اقتحام أسفنديار لقلعة أرجاسب. مكتبة
قصر جُلستان بطهران.

لوحة ١٨٠م: شاهنامه بايسنقر ١٤٣٩م. فرامرز حزيناً أمام نَعشي أبيه رستم وعَمّه زواره. مكتبة قصر جُلستان بطهران.

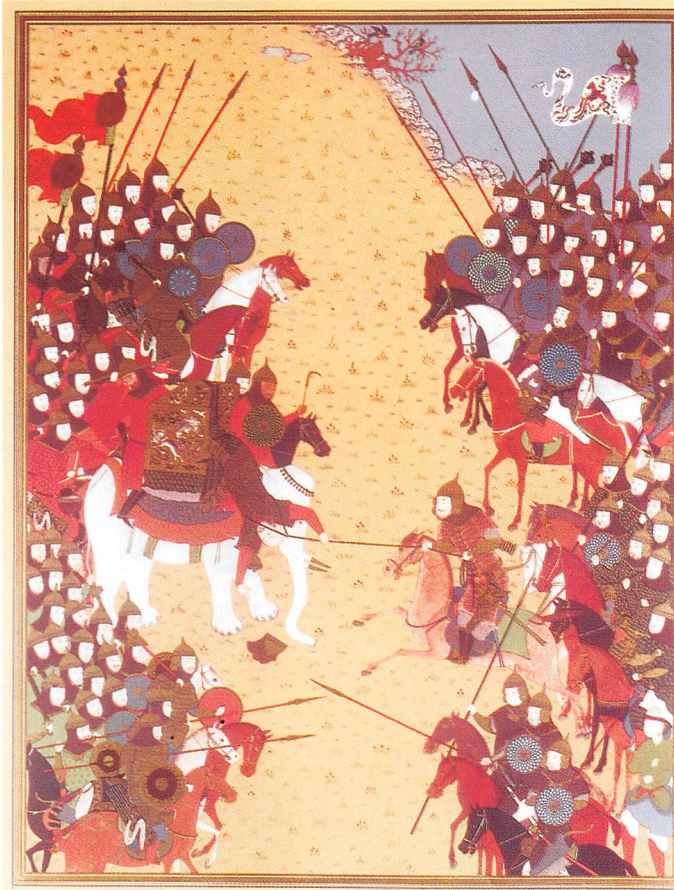


لوحة ١٨١م: شاهنامه بايسنقر ١٤٣٩م. لقاء زال پروذابه. مكتبة قصر جُلستان بطهران.



لوحة ١٨٢م: شاهنامه بايسنقر ١٤٣٩م. كِسرى يُصغي إلى بزرجمهر وهو يشرح له لعبة الشطرنج. مكتبة قصر جُلستان بطهران.

لوحة ۱۸۳م: شاهنامه باسنقر ۱۴۳۹م. المعركة بين بهرام جوبين وساه. مكتبة قصر جلستان بطهران.



لوحة ۱۸۵م: گليلة ودمنة. هرة ۱۴۳۰م. البطان والسلفاة. متحف طوب قايو باسنبول. [صورة لم يسبق نشرها].



لوحة ۱۸۴م: گليلة ودمنة. هرة ۱۴۳۰م. التاسيك والخروف. متحف طوب قايو باسنبول. [صورة لم يسبق نشرها].

لوحة ١٨٦ م: خمسة نظامي. ليلي والمجنون. إصفهان
١٦١١/١٦١٢. ليلي والمجنون في الكتاب. متحف
سالارجانج بختيار آباد.



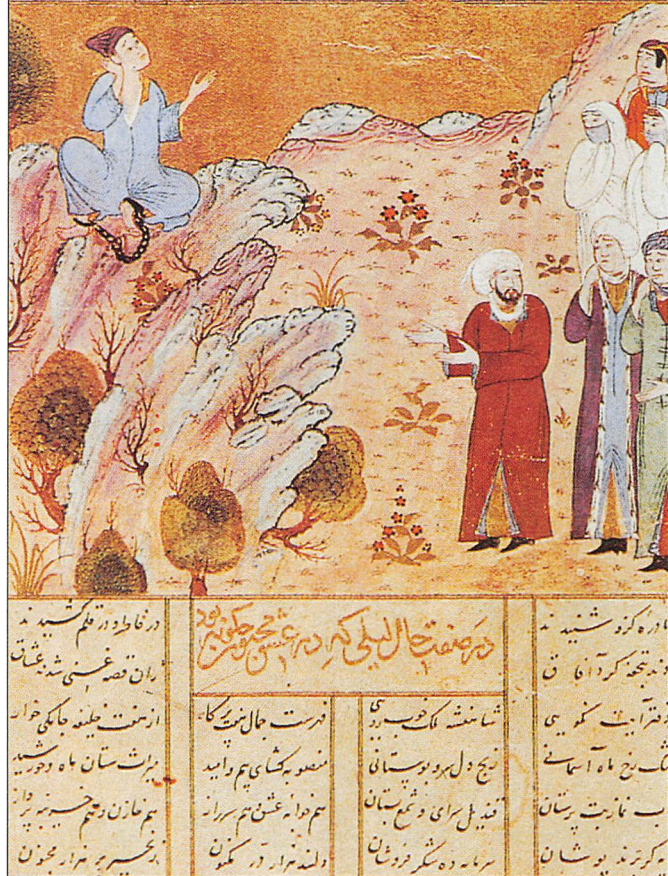
لوحة ١٨٧ م: خمسة نظامي. ليلي
والمجنون. هرة ١٤٣١. المجنون
يُطَلَّ على ليلي. متحف الارميتاج
بسان بطرسبرج.



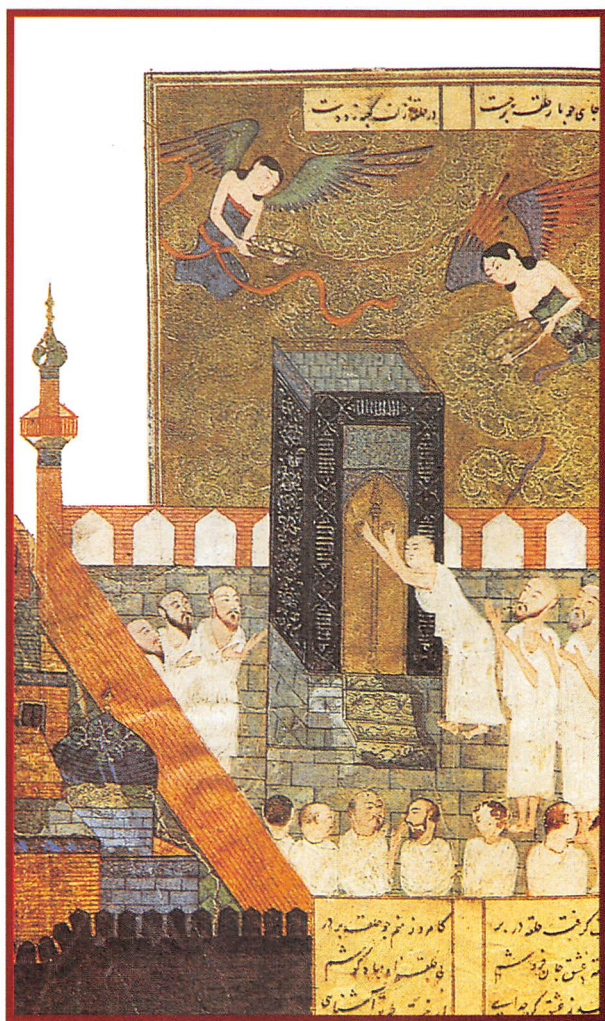
ن جان کز لاش اذخدا
 با خود تهم در ش افکند
 کبریت پدر آخوند
 و ن جو حشیت خود کرد
 ن شینه دل ز شوستی
 سوز در دیا به برود
 ن کرم شدی عرش و جبر
 ز تنی بنیاد کا به بنجش
 ن بر روی از نیر جسته
 کفنی غلی بر خود ش

جانیت مرا بدین تبت
 پس ابرو در گنجانه بر دشت
 روزی در دوان کشی
 می زیست بر رخ داد
 بر خند شدی جو شیر است
 از مرطه طی غلابه

بکوار ز جان من چه حشیت
 بنواخت و دست بر دشت
 ران گونه که مرگم دید
 می کرد کلام ز نه کا
 آسین بر پای دشت
 نظاره شدی بکوار آن کوه



ملوحة ١٩٠م: خمسة نظامي. ليلي والمجنون. هرة ١٤٣١.
مجنون ليلي حول الكعبة. متحف الإرميتاج بسان بطرسبرج.





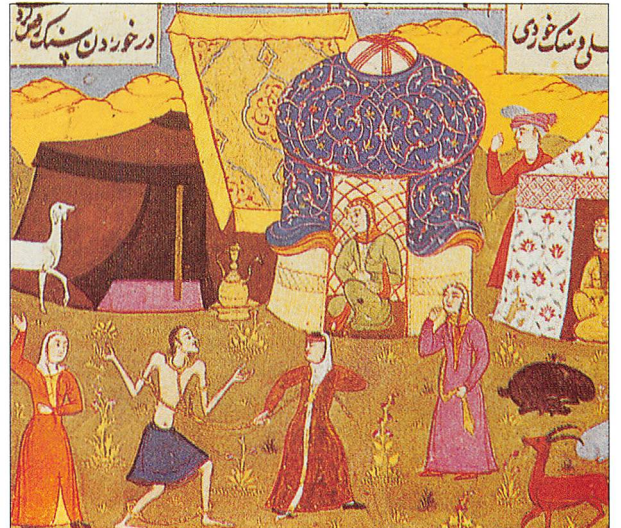
لوحة ١٩٢م: خمسة نظامي. ليلي والمجنون. هراة ١٤٣١. نُؤفل يقود رجاله في حربه مع قوم ليلي. متحف الإرميتاج بسان بطرسبرج.



لوحة ١٩١م: خمسة نظامي. ليلي والمجنون. كابل ١٦٦٢/١٦٦٣. نُؤفل يلتقي المجنون في البيداء. المتحف القومي بدلهي.



لوحة ١٩٤م: خمسة نظامي. ليلي والمجنون. شيراز ١٥٠٧/١٥٠٨. المجنون بين الوحوش. مكتبة السالتيكوف تشدرين بسان بطرسبرج.



لوحة ١٩٣م: خمسة نظامي. ليلي والمجنون. بخارى ١٦٤٨. عجوز شحاذة تَلَف حبلًا حول عنق المجنون وتقوده إلى مضارب ليلي. مكتبة السالتيكوف تشدرين بسان بطرسبرج.

لوحة ١٩٥ م: خمسة نظامي .
 ليلي والمجنون . شيراز
 ١٤٩١ . لقاء المجنون وليلي
 في الصحراء . مكتبة سالتيكوف
 تشدرين بسان بطرسبرج .

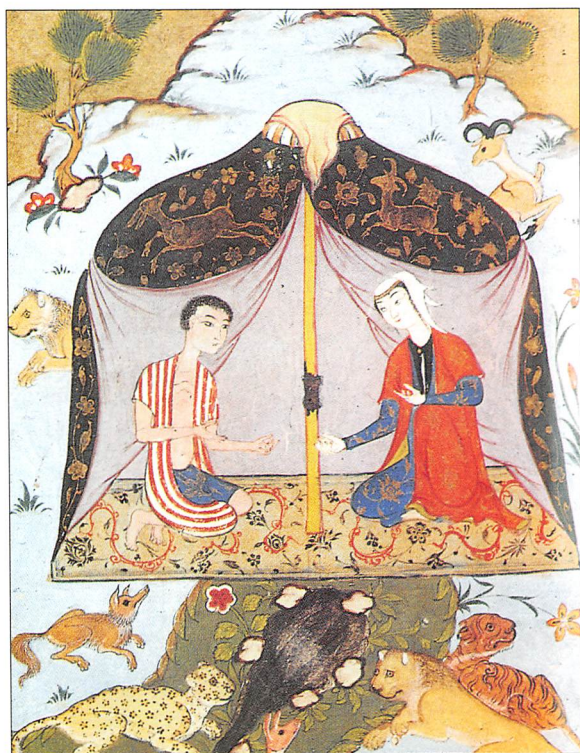


تفصيل من اللوحة ١٩٥ م



لوحة ١٩٦م: خمسة نظامي. ليلي والمجنون.
بُخارى ١٦٤٨. لقاء المجنون ويلي في الصحراء.
مكتبة سالتيكوف تشدرين بسان بطرسبرج.

لوحة ١٩٧م: خمسة نظامي. ليلي والمجنون. بُخارى
١٥٧٩/١٥٧٨. لقاء المجنون ويلي في الصحراء.
مكتبة سالتيكوف تشدرين بسان بطرسبرج.



لوحة ١٩٨م: خمسة نظامي. ليلي
والمجنون. بُخارى ١٦٤٨. المجنون
على قبر ليلي. مكتبة سالتيكوف
تشدرين بسان بطرسبرج.



لوحة ١٩٩م: خمسة نظامي. ليلي والمجنون. هراة ١٤٤٥. شيخ يصب ماء الورد من قارورة على العاشقين الغائبين عن الوعي. المتحف البريطاني.



لوحة ٢٠٠م: خمسة نظامي. ليلي والمجنون. هراة ١٤٤٦. لقاء ليلي والمجنون. المتحف البريطاني.



لوحة ٢٠٢م: شاهنامه السلطان إبراهيم. شیراز ١٤٣٥. رستم يجذب جواده رخش. المكتبة البودلية بأفسس.

لوحة ٢٠١م: ظفرنامه. شیراز ١٣٣٤. دخول تيمورلنك ظافرا مدينة سمرقند. فريز غاليري بواشنطن.



لوحة ۲۰۳م:

شاهنامه السلطان

إبراهيم. شیراز

۱۴۳۵. مشهد

طبيعي مذهب.

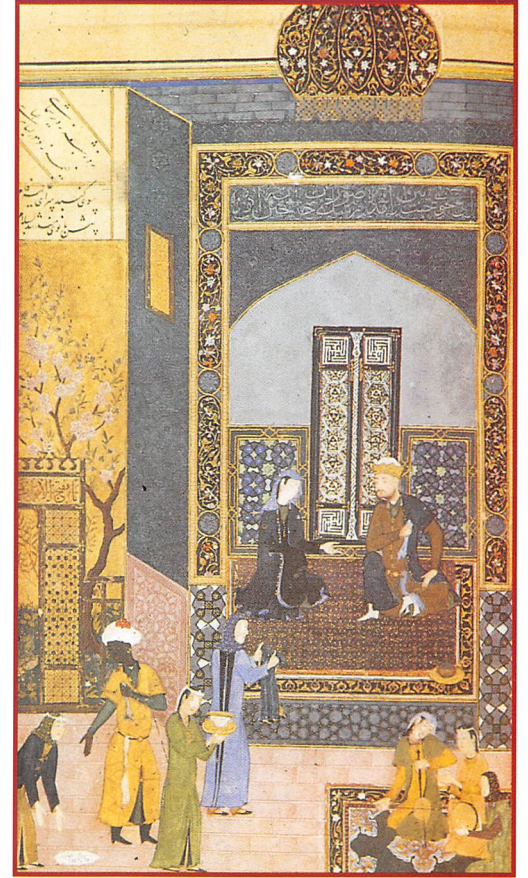
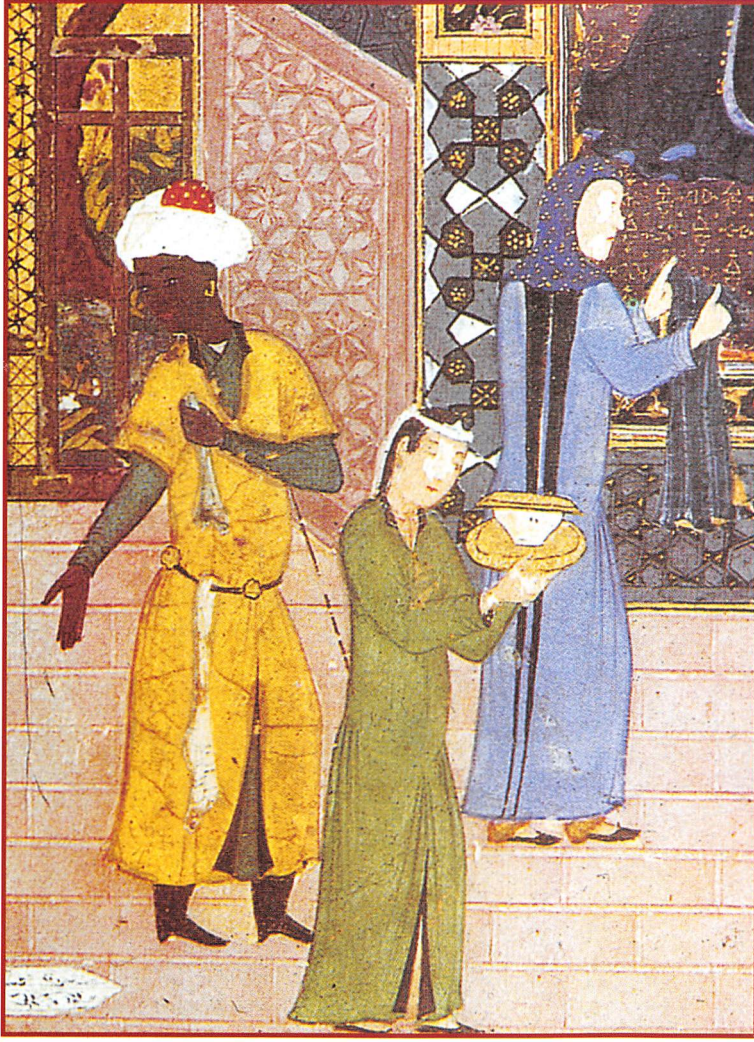
المكتبة البودلية

بأكسفورد.

لوحة ۲۰۴م: شاهنامه شیراز
۱۴۴۴. مشهد وليمة (الصفحة
اليمنى). متحف الفن بـكليفلاند.



لوحة ۲۰۵م: شاهنامه شیراز ۱۴۴۴.
مشهد وليمة (الصفحة اليسرى).
متحف الفن بـكليفلاند.



لوحة ٢٠٦م وتفصيلين لها : خمسة نظامي .
هفت بيكر . هرة ١٤٤٢ ، بهرام جور يستمع
إلى قصة الأميرة الهندية في القصر ذي القبة
السوداء . حقة ما قبل بهزاد ، وهي حقة ذات
تأثير غلاب لقيمتها الفنية الرفيعة وكمال
خطوطها وألوانها . المتحف البريطاني .



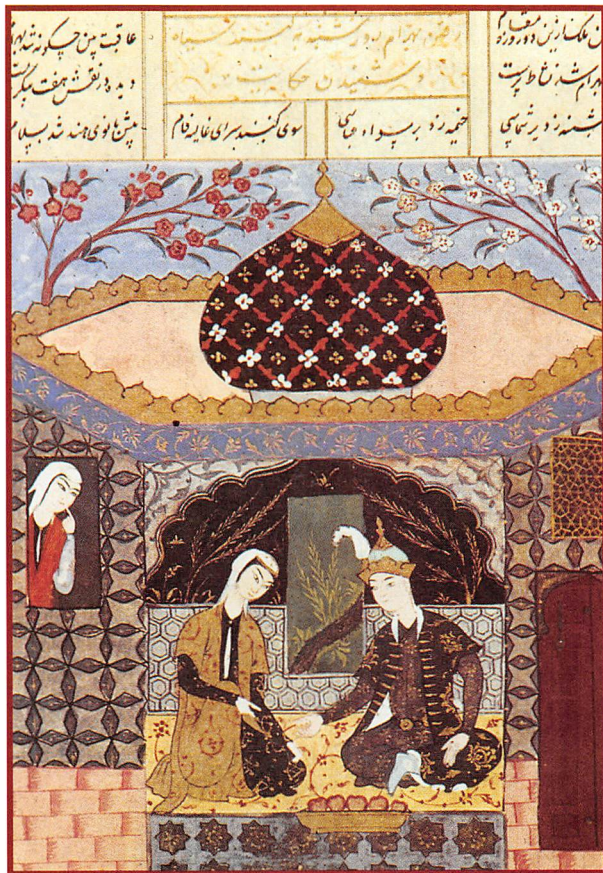


لوحة ۲۰۸م: خمسة نظامي. هفت بيكر. إصفهان ۱۶۳۱/
 ۱۶۳۲. بهرام جور يستمع إلى قصة الأميرة الهندية في القصر
 ذي القبة السوداء. متحف فكتوريا بـكلكتا.

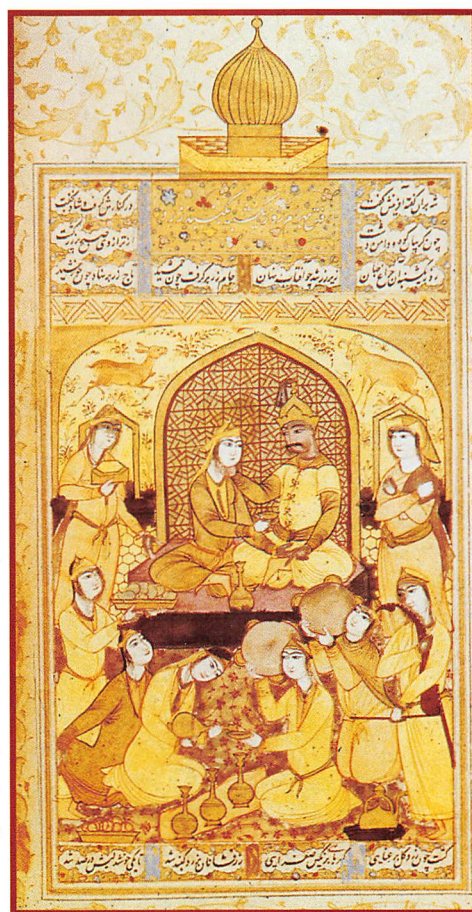
لوحة ۲۱۰م: خمسة نظامي. هفت بيكر. بخارى ۱۵۶۳/
 ۱۵۶۴. بهرام جور يستمع إلى قصة الأميرة الخوارزمية في
 القصر ذي القبة الخضراء. متحف فكتوريا بـكلكتا.

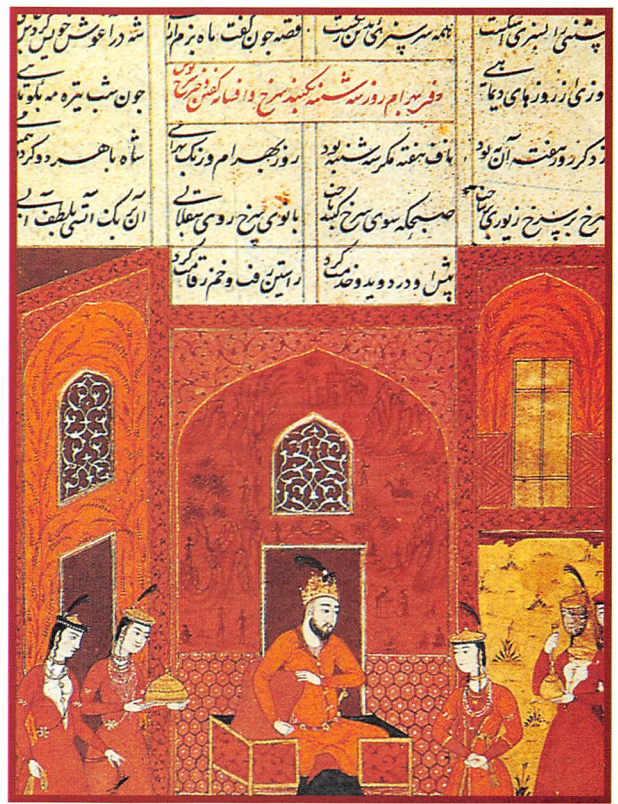


لوحة ۲۰۹م:
 خمسة نظامي.
 هفت بيكر.
 إصفهان ۱۶۳۱/
 ۱۶۳۲. بهرام
 جور يستمع إلى
 قصة الأميرة
 الصينية في القصر
 ذي القبة الصفراء.
 متحف فكتوريا
 بـكلكتا.



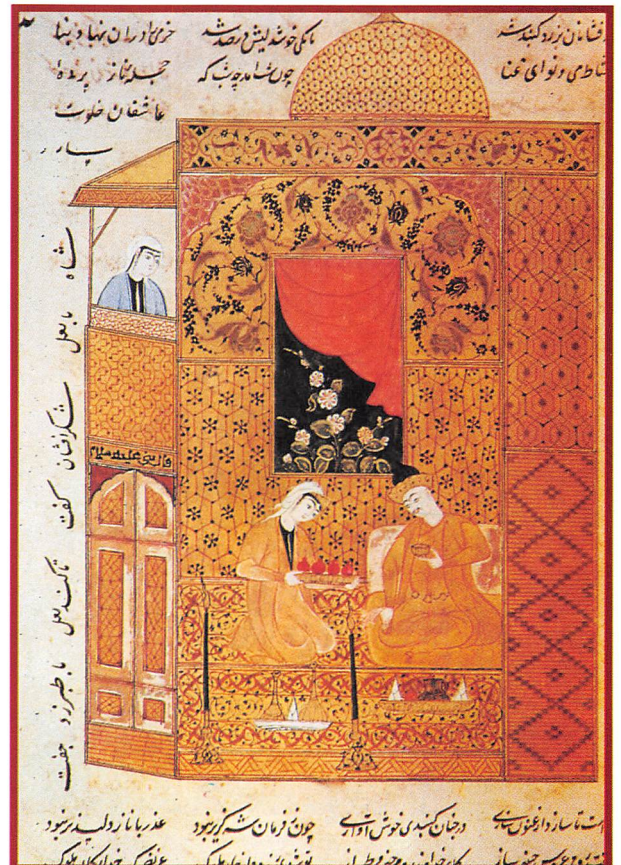
لوحة ۲۰۷م: خمسة نظامي. هفت بيكر. بخارى ۱۵۷۸/
 ۱۵۷۹. بهرام جور يستمع إلى قصة الأميرة الهندية في القصر
 ذي القبة السوداء. مكتبة سالتيكوف تشدرين بسان بطرسبرج.





لوحة ۲۱۱م: خمسة نظامي. هفت بيكر. بخاری ۱۶۴۸.
بهرام جور يستمع إلى قصة الأميرة الضقلبية في القصر ذي القبة الحمراء. مكتبة سالتيكوف تشدرين بسان بطرسبرج.

لوحة ۲۱۳م: خمسة نظامي. هفت بيكر. بخاری ۱۵۶۳.
بهرام جور يستمع إلى قصة الأميرة الرومية في القصر ذي القبة البيضاء. مكتبة فكتوريا بکلکتا.

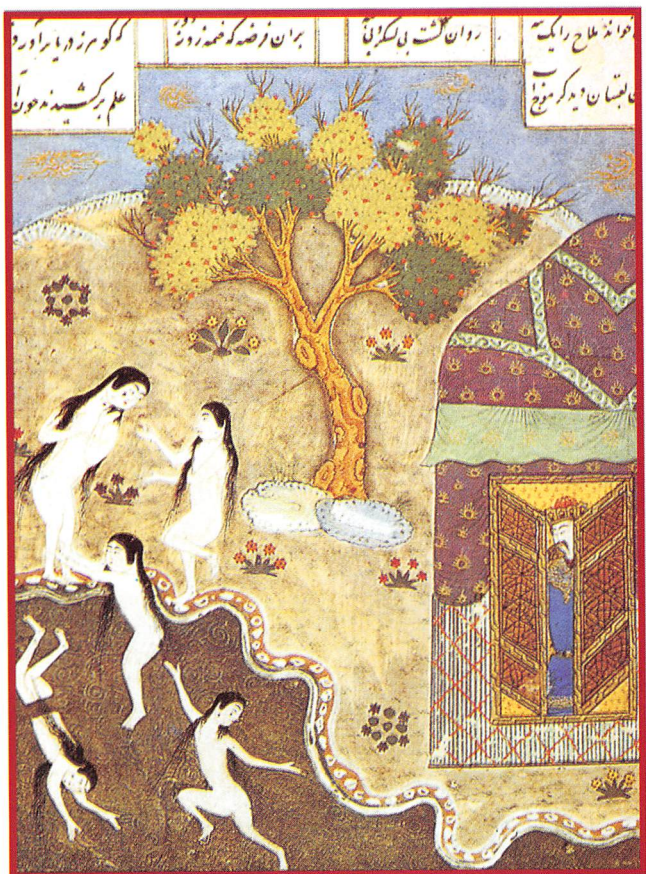


لوحة ۲۱۲م: خمسة نظامي. هفت بيكر. بخاری ۱۵۷۸.
بهرام جور يستمع إلى قصة الأميرة المغربية في القصر ذي القبة الفيروزية. مكتبة سالتيكوف تشدرين بسان بطرسبرج.

تفصيل من اللوحة ۲۱۳م



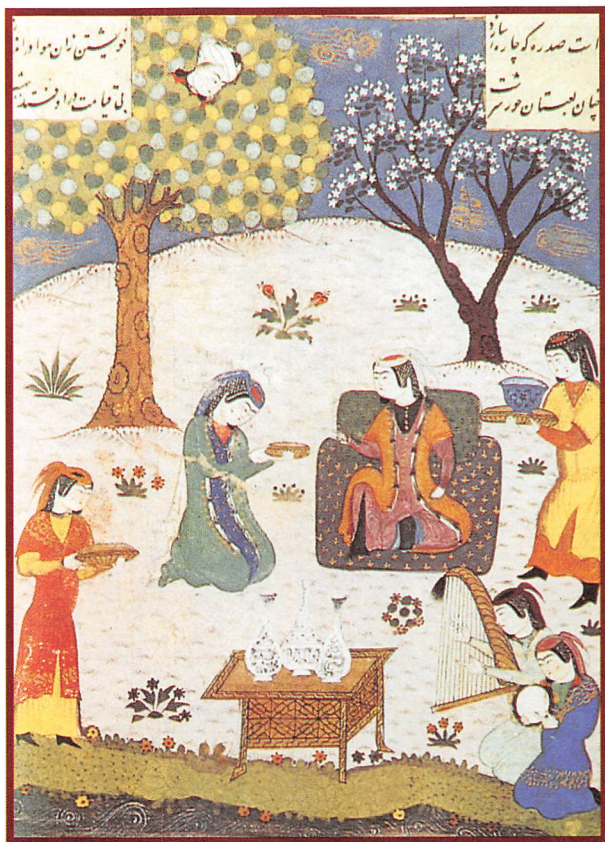
لوحة ٢١٤م: خمسة نظامي . هفت بيكر .
 شيراز ١٤٩١ . بَهْرَام جُور يَسْتَمِيعُ إِلَى قِصَّةِ
 الأَمِيرَةِ الإِيرَانِيَّةِ فِي القَصْرِ ذِي القُبَّةِ البِيضَاءِ .
 مكتبة سالتيكوف تشدرين بِسَان بطرسبرج .



تفصيلان من اللوحة ٢١٤م



لوحة ٢١٥م: خمسة نظامي. هفت بيكر. بهرام جور يستمع لقصة
الأميرة المغربية تحت القبة الفيروزيّة. ماهان في الحديقة المسحورة.
شيراز ١٤٩١. مكتبة سالتيكوف تشدرين بسان بطرسبرج.



لوحة ٢١٦م: خمسة نظامي. هفت بيكر. بخارى
١٦٤٨. بهرام جور يستمع لقصة الأميرة المغربية
تحت القبة الفيروزيّة. ماهان في الحديقة
المسحورة. مكتبة سالتيكوف تشدرين بسان
بطرسبرج.



لوحة ٢١٧م: خمسة نظامي. هفت
بيكر. تَبْرِيز ١٤٨١. بَهْرَام جور يُطْلَق
على الجارية فتنّة وهي تصعد الدّرج
حاملة الثّور. متحف طوب قاپو
بإسطنبول. [صورة لم يسبق نشرها].



لوحة ٢١٩م: خمسة نظامي. هفت بيكر. شیراز ١٥٠٧/١٥٠٨.
بهرام جور يُطَلّ على الجارية فتنة وهي تصعد الدّرج حامِلة الثّور.
مكتبة سالتيكوف تشدرين پسان بطرسبرج.

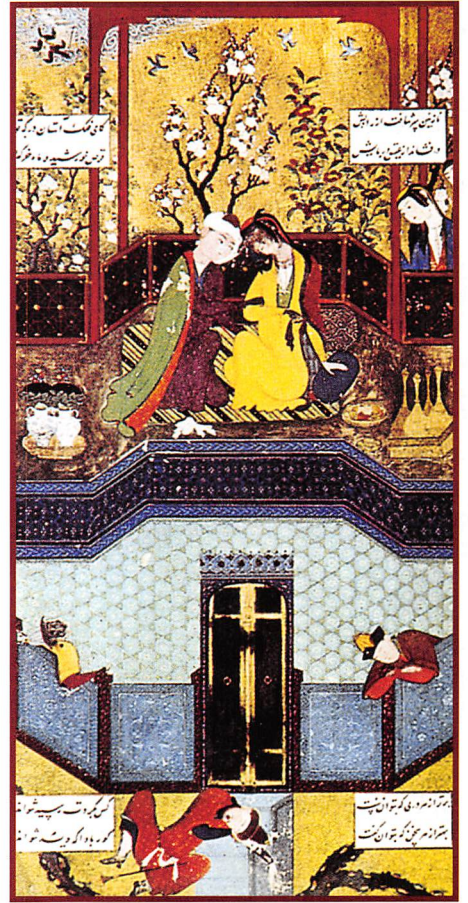


لوحة ٢١٨م: خمسة نظامي. هفت بيكر. شیراز ١٤٩١.
بهرام جور يُطَلّ على الجارية فتنة وهي تصعد الدّرج
حامِلة الثّور. مكتبة سالتيكوف تشدرين پسان بطرسبرج.

تفصيل من اللوحة ٢١٨م



لوحة ٢٢٠م: خمسة نظامي. هفت بيكر.
تبريز ١٤٨١. بهرام جور يستمع إلى قصة
الأميرة الصقلية في القصر ذي القبة
الحمراء. متحف طوب قابو بإستانبول.
[صورة لم يسبق نشرها].



تفصيل من اللوحة ٢٢٠م



لوحة ٢٢٢م: «خارنامه» ابن حُسام.
شیراز ١٤٧٦-١٤٨٧. جَمْعُ يُشْهَر
إسلامه. متحف الفنون الزخرفية
بتهران. [صورة لم يسبق نشرها].

لوحة ٢٢٣م: مُنَمَّمة منزوعة مِن مخطوطة مجهولة. شیراز حوالي
١٤٧٠. رُستَم يغفو بعد أن أنقذه جواده رخش مِن مَخَالِب السَّيِّع.
المتحف البريطاني.



لوحة ٢٢١م: «خارنامه» ابن حُسام.
شیراز ١٤٧٦، ١٤٨٧. الصَّرَاع مع
الحيوت. متحف الفنون الزخرفية
بتهران. [صورة لم يسبق نشرها].



لوحة ٢٢٥م: خمسه نظامي . هَراة ١٤٩٥ .
سيماط مُعدَّ تَرْقُبًا لِمَجِيءِ الضُّيُوفِ .
المتحف البريطاني .



لوحة ٢٢٤م وتفصيلين لها : خمسه نظامي . هَراة ١٤٩٥ .
السُّلطان حسين يَسْتَقْبِلُ مُحَارِبًا شَابًّا فِي
مَجْلِسِهِ . المتحف البريطاني .





لوحة ٢٢٦م: خمسه نظامي. هراة ١٤٩٤.
الوزير مير علي شيرنوائي في مجلس أساطين
الشعراء وإلى يساره الشاعر الصوفي عبد
الرحمن نور الدين جامي. توقيع الفنان قاسم
علي وإن رجح شتوكين أن التوقيع أضيف في
تاريخ لاحق. المكتبة البودلية بأكسفورد.



لوحة ٢٢٧م: خمسه نظامي. خيرو
وشيرين. إصفهان ١٦٣١/١٦٣٢.
خيرو يرقب شيرين وهي تستحم.
متحف فكتوريا بكلكتا.



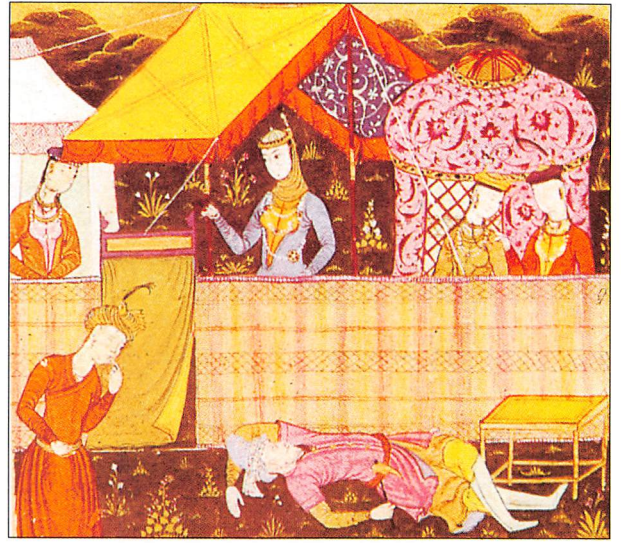
لوحة ٢٢٩م: خمسه
نظامي. خسرو
وشيرين. إصفهان
١٥٠٣/١٥٠٤.
خسرو يرقب شيرين
وهي تستجم. متحف
فكتوريا بكلكتا.



لوحة ٢٢٨م: خمسه
نظامي. خسرو وشيرين.
بخارى ١٥٧٨/١٥٧٩.
خسرو يرقب شيرين وهي
تستجم. مكتبة سالتيكوف
تشدرين بسان بطرسبرج.



لوحة ٢٣٠م: خمسه نظامي.
خسرو وشيرين. خسرو وشيرين
يلعبان الكرة والصولجان. مئمنمة
مُنفردة تعذر التعرف على
المخطوطة التي كانت تضمها.



لوحة ٢٣١م: خمسة نظامي. خسرو وشيرين. بخارى
١٦٤٨. قَرَاهاد يسقط مَعْشِيًا عليه عند سماعه صوت
شيرين. مكتبة سالتيكوف تشدرين بسان بطرسبرج.

لوحة ٢٣٢م وتفصيل لها: خمسة نظامي. خسرو وشيرين. شيراز
١٤٩١. شيرين في زيارة لِقَرَاهاد أثناء قيامه بحفر قناة اللّبن في
الصّخر. مكتبة سالتيكوف تشدرين بسان بطرسبرج.





لوحة ٢٣٤م: خمسة نظامي. خسرو وشيرين. بخارى ١٦٤٨.
فرهاد يرفع شيرين وهي مُمتطية جوادها شبديز بعد أن كُبا. مكتبة
سالتيكوف تشدرين بسان بطرسبرج.



لوحة ٢٣٣م: خمسة نظامي. خسرو وشيرين. شيرين في زيارة
فرهاد وهو يشق القناة في الصخر ويُناولها قدحًا من اللبن. بخارى
١٥٧٨/١٥٧٩. مكتبة سالتيكوف تشدرين بسان بطرسبرج.

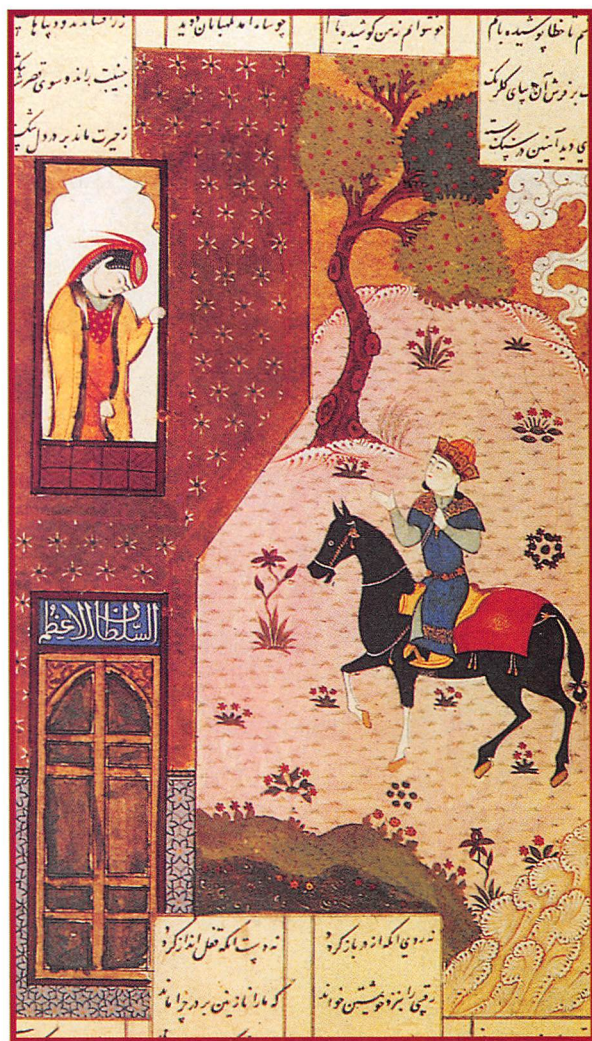
لوحة ٢٣٦م: خمسة نظامي. خسرو وشيرين. هراة ١٤٩٤/
١٤٩٥. شيرين في قصر خسرو. المتحف البريطاني.



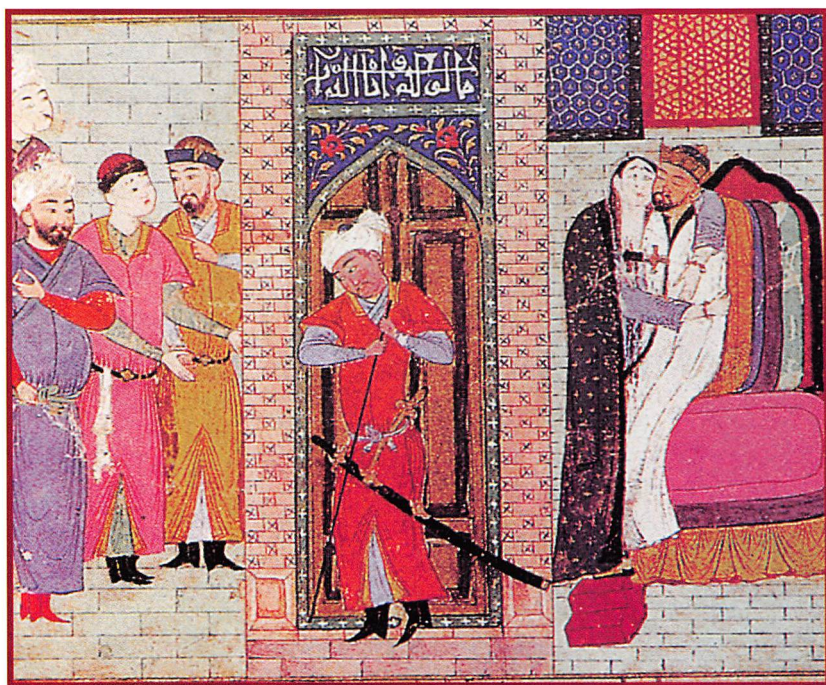
لوحة ٢٣٥م: خمسة نظامي. خسرو وشيرين. إصفهان
القرن ١٦. فرهاد وقد فرغ من شق القناة حتى قصر شيرين.



لوحة ٢٣٩م: خمسه نظامي. إسكندر نامه. هراة ١٤٤٢.
الإسكندر يذهب إلى دارا في احتضاره. المتحف البريطاني.



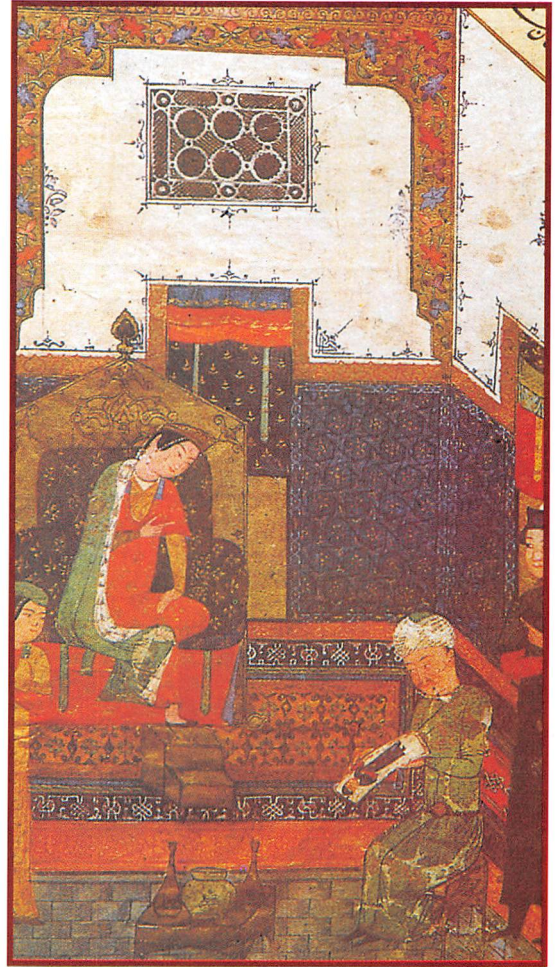
لوحة ٢٣٧م: خمسه نظامي. خسرو وشيرين. شيراز
١٤٩١. خسرو أمام قصر شيرين. مكتبة سالتيكوف
تشدرين بسان بطرسبرج.



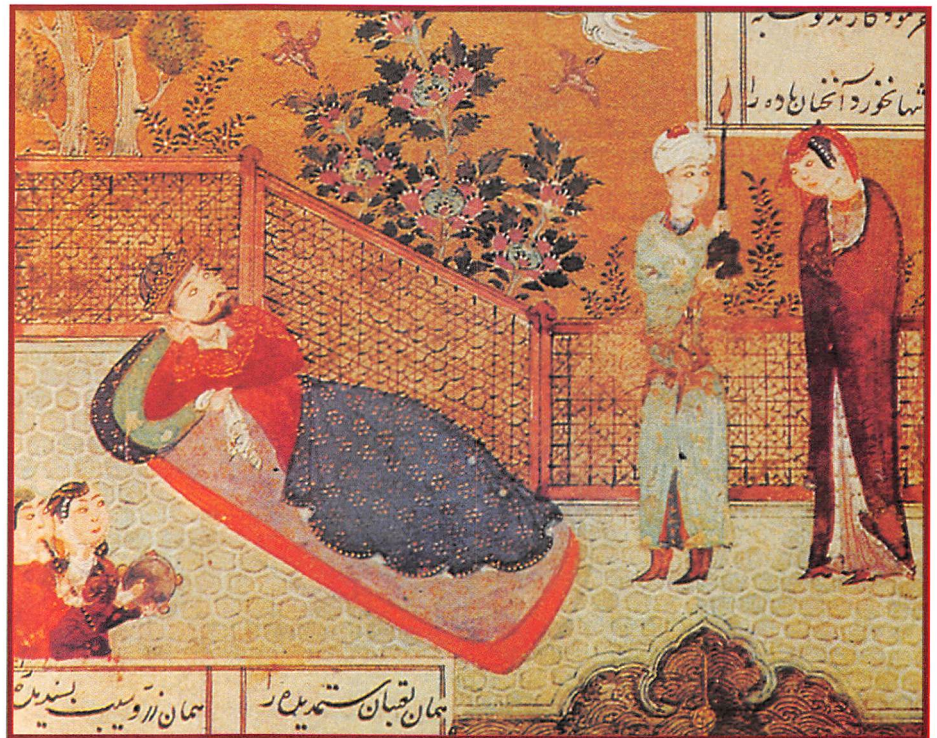
لوحة ٢٣٨م: خمسه نظامي. خسرو
وشيرين. هراة ١٤٨١/١٤٨٢. شيرين تستل
سيكيا وتطعن نفسها إلى جوار جثة خسرو.
مكتبة سالتيكوف تشدرين بسان بطرسبرج.



لوحة ٢٤١م: خمسة نظامي. إسكندر نامه. شیراز ١٤٩١. نوشابا تَعَرَّفَ على الإسكندر مِن صورته. مكتبة سالتيكوف تشدرين بسان بطرسبرج.



لوحة ٢٤٠م: خمسة نظامي. إسكندر نامه. هَراة ١٤٣١. نوشابا في استقبال الإسكندر. متحف الإرميتاج بسان بطرسبرج.

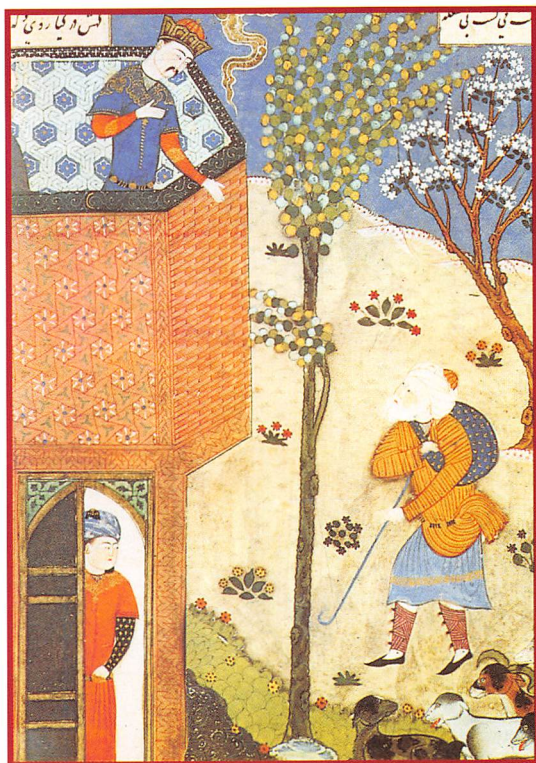


لوحة ٢٤٢م: خمسة نظامي. إسكندر نامه. هَراة ١٤٧٥/١٤٨٠. نوشابا في زيارة ائمتنان للإسكندر بعد أن فَكَّ أسرها مِن بين أيدي العُزاة الرُّوس. مكتبة سالتيكوف تشدرين بسان بطرسبرج.



لوحة ٢٤٣م: خمسة
نظامي. إسكندر
نامه. شيراز ١٤٩١.
الإسكندر يدعو
الزاعي إلى مجلسه.
مكتبة سالتيكوف
تشرين بسان
بطرسبرج.

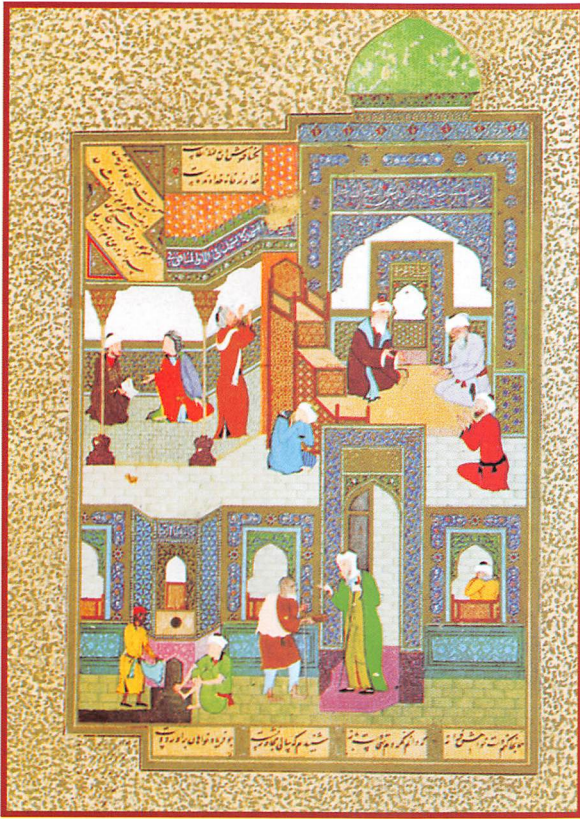
تفصيل من
اللوحة ٢٤٣م.



لوحة ٢٤٤م: خمسة نظامي. إسكندر
نامه. إصفهان ١٤٨٥. ماء الحياة.
مكتبة خوده بكشي. باتنا بالهند.

تفصيل من اللوحة ٢٤٤م



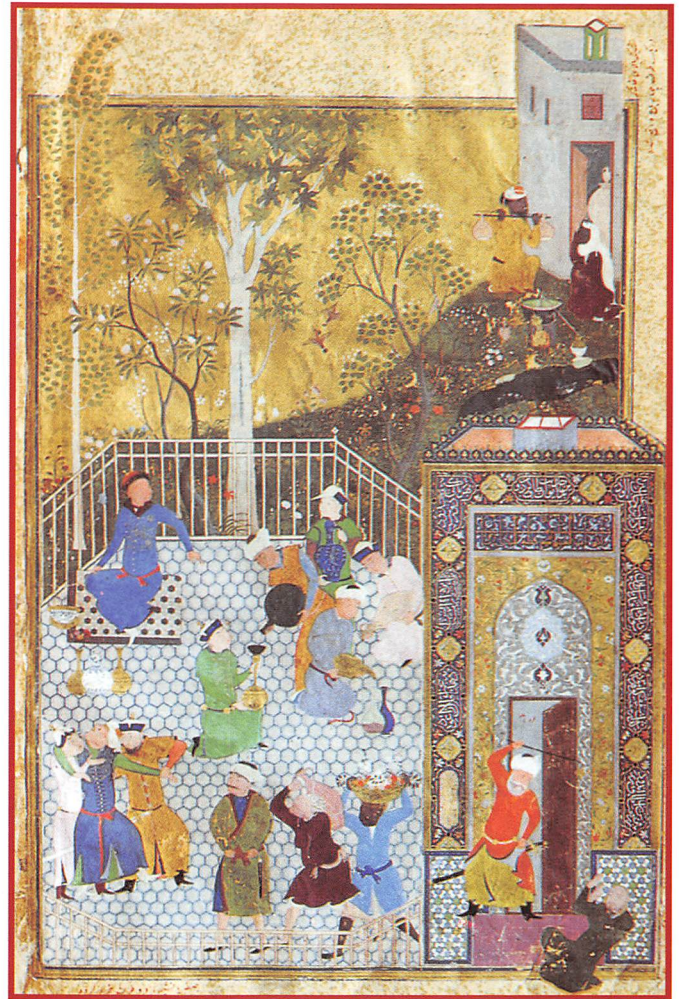


لوحة ٢٤٦م: بُستان سعدي الشيرازي. هَراة ١٤٨٨. مشاهد في المسجد. تصوير بهزاد. دار الكتب المصرية.

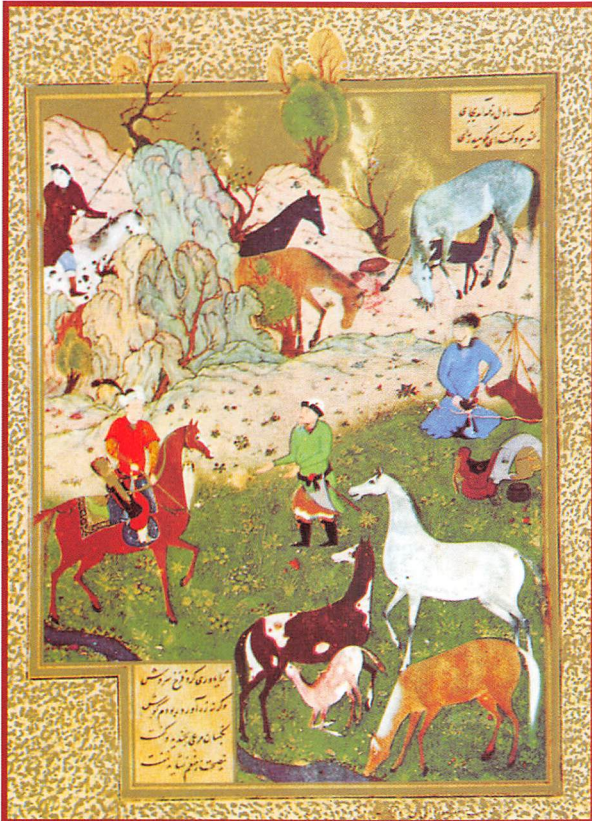


لوحة ٢٤٥م: خمسة نظامي. إسكندر نامه. بخاري ١٦٤٨. ماء الحياة. مكتبة سالتيكوف تشدرين بسان بطرسبرج.

لوحة ٢٤٧م: بُستان سعدي الشيرازي. هَراة ١٤٨٨. مجلس أنس وشراب بين يدي السلطان حسين ميرزا. تصوير بهزاد.



لوحة ٢٤٨م: بُستان سعدي الشيرازي. هَراة ١٤٨٨. الملك دارا وراعي خيله. تصوير بهزاد. دار الكتب المصرية.





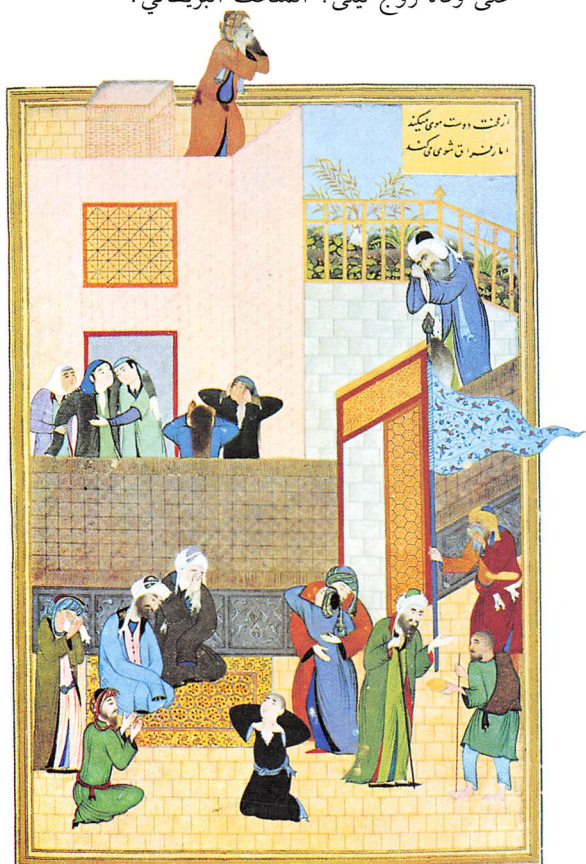
لوحة ۲۵۱م: خمسة نظامي. هَراة ۱۴۹۵م. تَشِيد
قصر الحَوْرَتق. المتحف البريطاني.



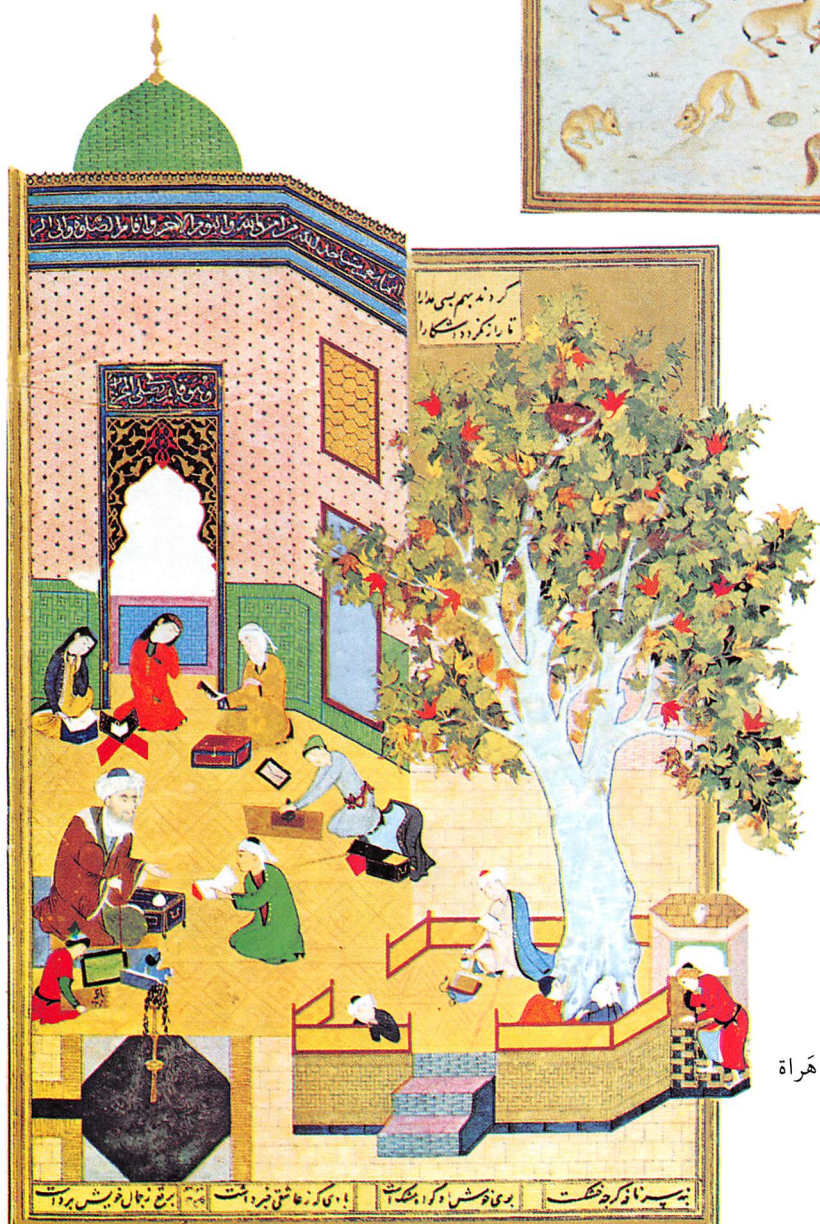
لوحة ۲۴۹م: منطق الطَّيَر. لفرید الدِّین العَطَّار. مَنسُوب
إلى يَهزاد. الحَطَّابون والغريق. متحف المتروبوليتان.

لوحة ۲۵۲م: خمسة نظامي. هَراة ۱۴۹۵م. الحداد
على وَفاة زَوْج لیلی. المتحف البريطاني.

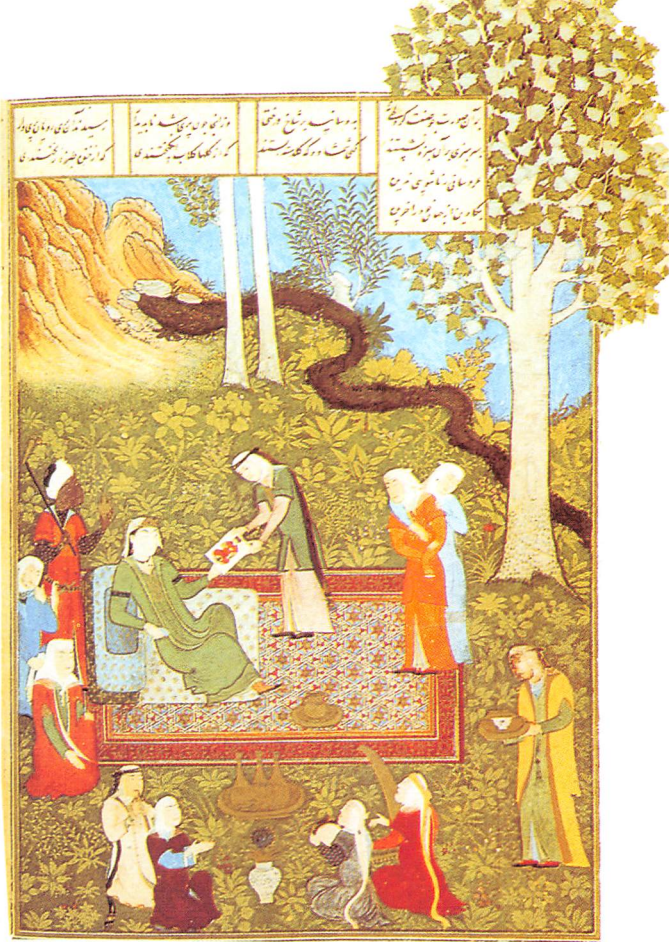
لوحة ۲۵۰م: خمسة نظامي. هَراة ۱۴۹۵م. زیارة الخلیفة الرَّشید
إلِلحَمَّام العام. المتحف البريطاني.



لوحة ٢٥٣م: خمسة نظامي. هرة
١٤٩٥م. سليم العامري يزور
مجنون ليلى. المتحف البريطاني.



لوحة ٢٥٤م: خمسة نظامي. هرة
١٤٩٥م. ليلى والمجنون في
الكتاب. المتحف البريطاني.



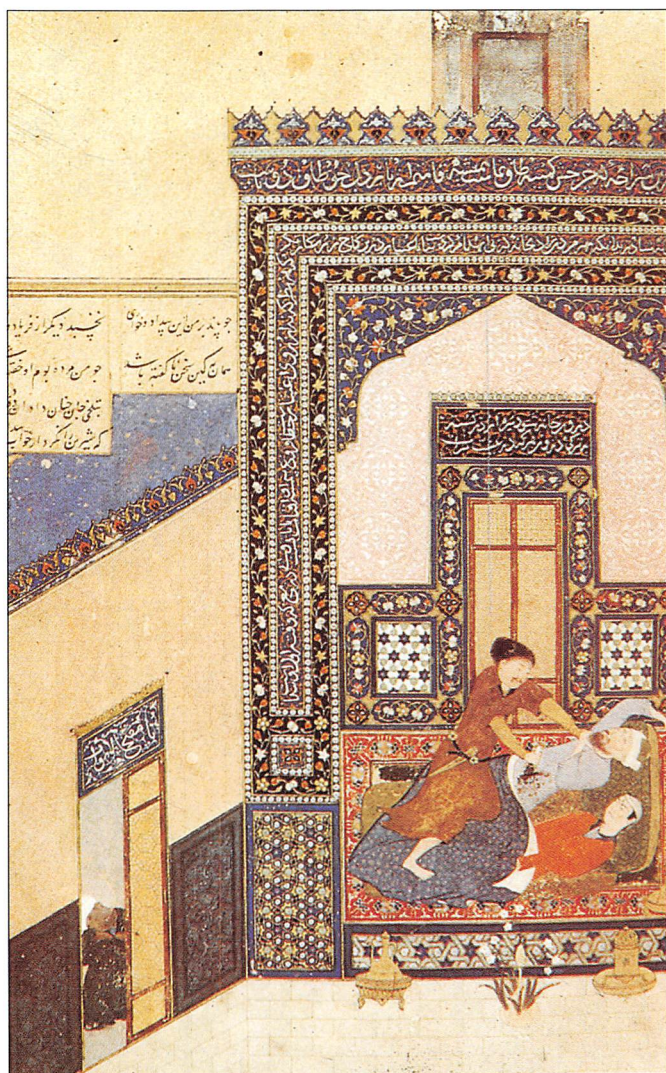
لوحة ٢٥٥م: خمسة نظامي. هرة
١٤٩٥م. شيرين تتأمل پورترية
خسرو. المتحف البريطاني.

تفصيل من اللوحة ٢٥٥م.

تفصيل من اللوحة ٢٥٥م.



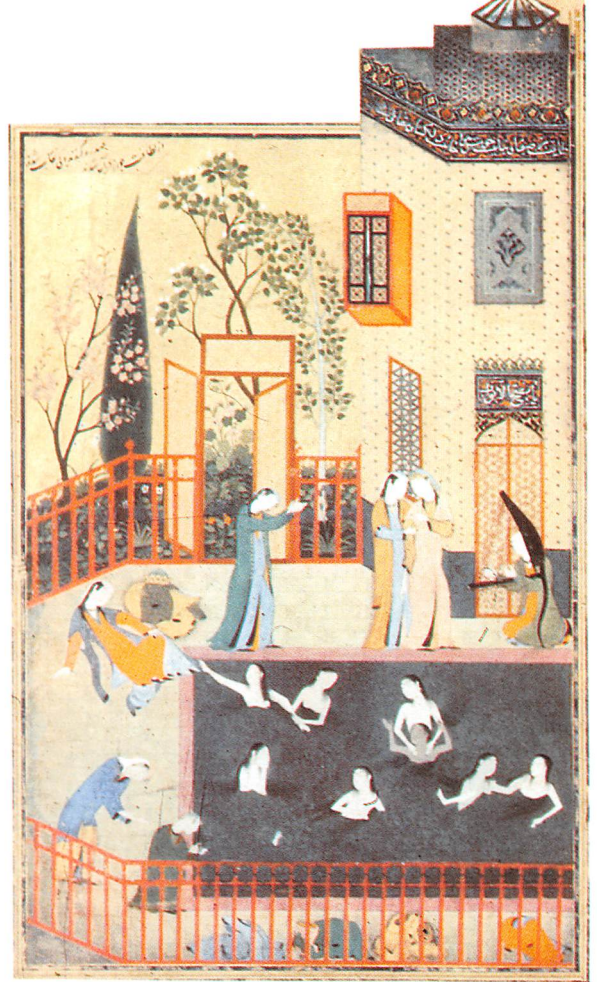
لوحة ٢٥٦ م: خمسة نظامي. هراة
١٤٩٥ م. مصرع خسرو إلى جوار
شيرين. المتحف البريطاني.



لوحة ٢٥٧ م: خمسة نظامي.
هراة ١٤٩٥ م. الإسكندر يزور
ناسكا. المتحف البريطاني.



تفصيل من اللوحة ٢٥٨ م.



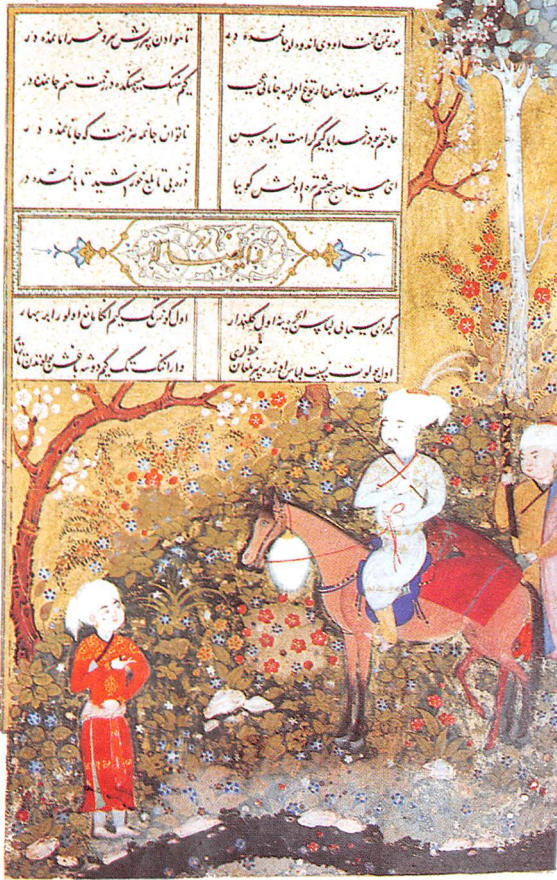
لوحة ٢٥٨ م: خمسه نظامي. هفت بيكر. هراة ١٤٩٥ م.
قصّة أميرة القصر ذي القبة البيضاء على مسامع بهرام جور.
المتحف البريطاني.



تفصيل من اللوحة ٢٥٨ م.



لوحة ٢٥٩م: خمسة نوائي. مير علي شيرنوائي. هراة ١٤٨٥. الشيخ العراقي يخرّ على ركبته خزاناً على فراقه لصديقه. المكتبة البوذية بأكسفورد.



لوحة ٢٦٠م: ديوان نوائي. هراة ١٤٧٢. أمير خراساني في بقعة شاعرية. دار الكتب المصرية. [صورة لم يسبق نشرها].



لوحة ٢٦١م: خمسة خسرو دهلوي، ١٤٩٠م. فرهاد يضرب الصخر بمغوله. دار الكتب المصرية. [صورة لم يسبق نشرها].



لوحة ٢٦٢م: خمسة خسرو دهلوي، ١٤٩٠م. زنجي يجلد خاطئة. دار الكتب المصرية. [صورة لم يسبق نشرها].



لوحة ۲۶۳م: مهر و مشتري،
۱۴۹۳م. قُطَاع الطَّرُق
يَأسرون مهر و مشتري. دار
الكتب المصرية. [صورة لم
يسبق نشرها].



لوحة ۲۶۵م: مهر و مشتري،
۱۴۹۳م. مهر و مشتري على ظهر
السفينة. دار الكتب المصرية.
[صورة لم يسبق نشرها].



لوحة ۲۶۴م: مهر و مشتري،
۱۴۹۳م. معركة مهر مع أكلة لحوم
البشر. دار الكتب المصرية.
[صورة لم يسبق نشرها].

لوحة ٢٦٦م: مهر ومشتري، ١٤٩٣م. مهر يلعب الكرة والصولجان. دار الكتب المصرية. [صورة لم يسبق نشرها].

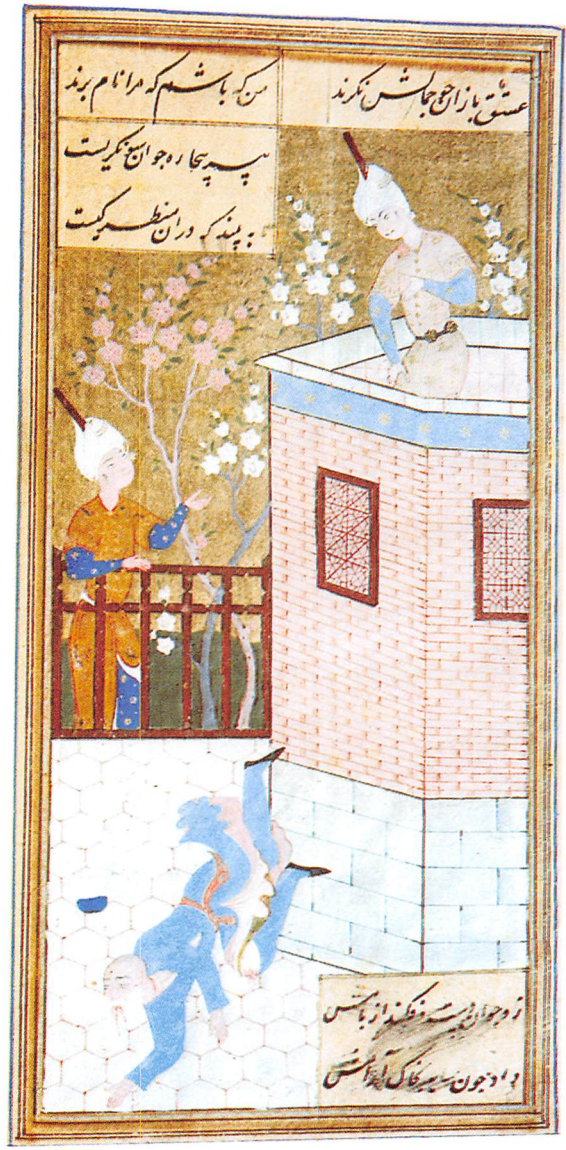


لوحة ٢٦٨م: هُمَاي هُمَايُون. هَرَاة. هُمَايُون أَثْنَاء الصَّيْد. متحف طوب قايو باستنبول. [صورة لم يسبق نشرها].

لوحة ٢٦٧م: مهر ومشتري، ١٤٩٣م. مشتري تَتَبَّرَح لِمِهْر بَدْمَهَا: «عندما سال اللَّمَّ مِن سَاعِدِ مِهْر انْبَثَق اللَّمَّ مِذْرَارًا مِن سَاعِدِ مُشْتَرِي». دار الكتب المصرية. [صورة لم يسبق نشرها].



لوحة ٢٦٩م: هُمَاي هُمَايُون. هَرَاة. هُمَايُون أَثْنَاء الصَّيْد. متحف طوب قابو بإستنبول. [صورة لم يسبق نشرها].



لوحة ٢٧١م: مِسْبَحَةُ الْأَبْرَار. لِلشَّاعِر جَامِي. شِيرَاز ١٥٦٢م. حَبِيبَانِ يَتَنَاجِيَانِ وَالْعَذُولُ الْهَرَمُ قَدْ وَقَعَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ. دَار الْكُتُب الْمِصْرِيَّة. [صورة لم يسبق نشرها].



لوحة ٢٧٠م: مَهْر وَمَشْتَرِي. شِيرَاز، ١٥٥٣م. زِيَارَةُ مَلِكِ إِصْطَخَرِ لِعَابِدِ فِي كَهْفِهِ. دَار الْكُتُب الْمِصْرِيَّة. [صورة لم يسبق نشرها].

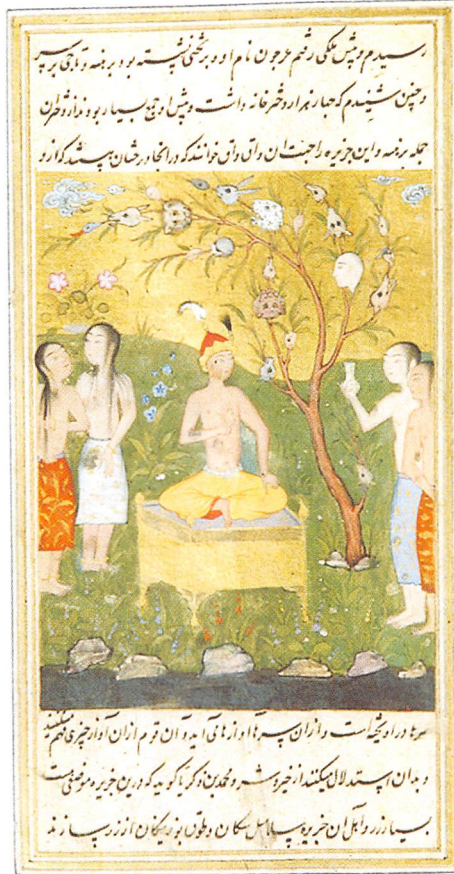
لوحة ٢٧٤م: «عجائب

المخلوقات و غرائب

الموجودات». هرة

١٥٦٧م. ملك واق الوق.

دار الكتب المصرية.



لوحة ٢٧٥م: «عجائب

المخلوقات و غرائب

الموجودات». هرة

١٥٦٧م. أقرام جزيرة رامن.

دار الكتب المصرية.



لوحة ٢٧٢م: «عجائب

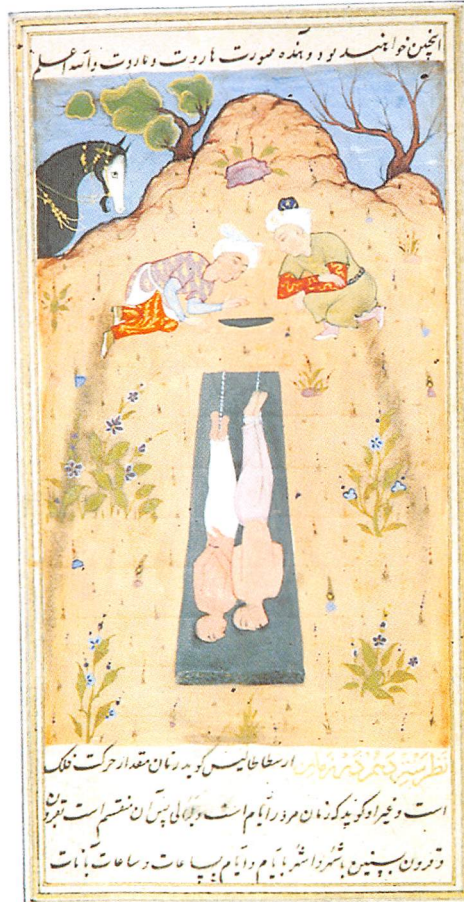
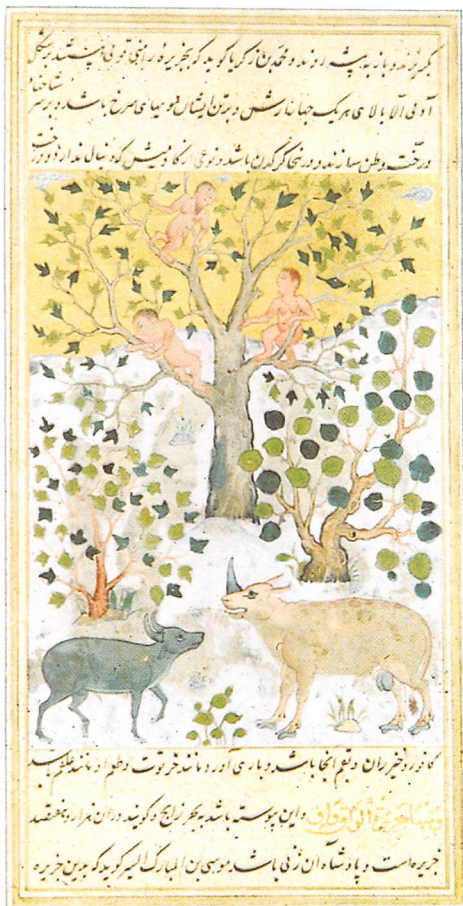
المخلوقات و غرائب

الموجودات». هرة

١٥٦٧م. ملك الموت

عزرائيل. دار الكتب

المصرية.



لوحة ٢٧٣م: «عجائب

المخلوقات و غرائب

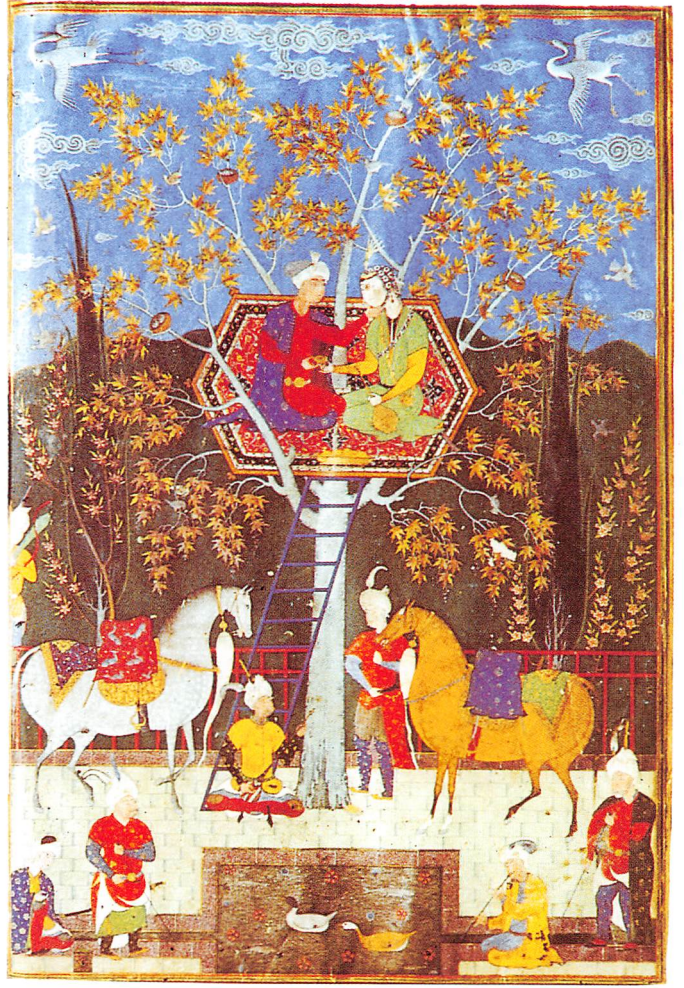
الموجودات». هرة

١٥٦٧م. هاروت وماروت.

دار الكتب المصرية.

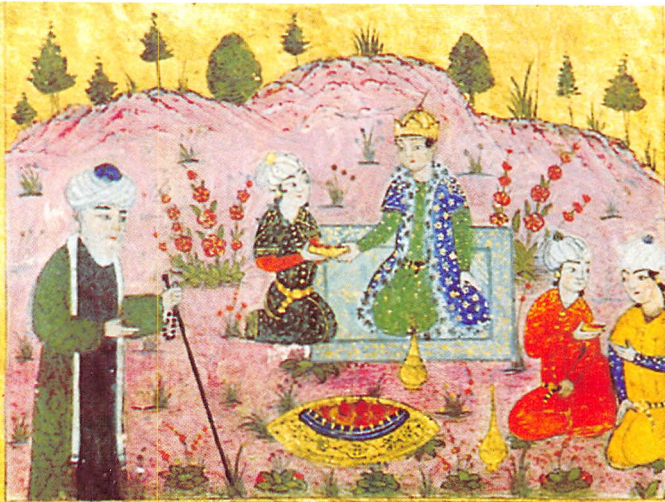


لوحة ٢٧٧م: قران السعدين ١٥١٥م. وصول الشاه إلى قصره. متحف طوب قاپو بإستنبول. [صورة لم يسبق نشرها].



لوحة ٢٧٦م: القصائد الخمس للشاعر جامي. قزوین ١٥٧٠. أمير مع معشوقته في جُوسق فوق شجرة. متحف طوب قاپو بإستنبول. [صورة لم يسبق نشرها].

لوحة ٢٧٩م: ديوان حافظ. مُستهل القرن ١٥. العاشقان والناسيك. دار الكتب المصرية. [صورة لم يسبق نشرها].



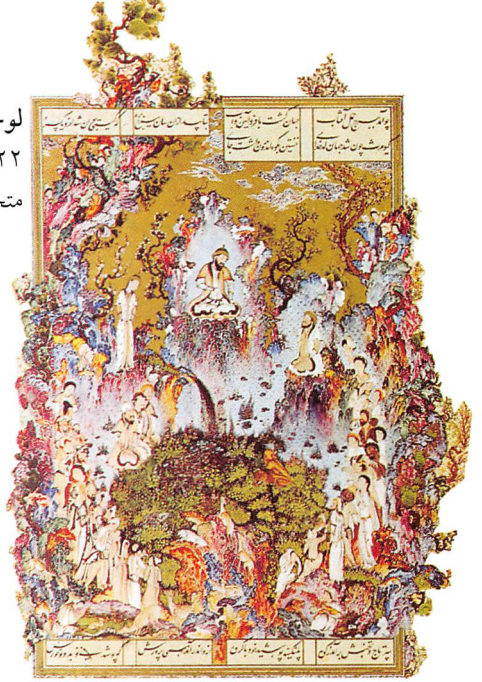
لوحة ٢٧٨م: ديوان حافظ. مُستهل القرن ١٥. حفل استقبال في منزل عروسين. دار الكتب المصرية. [صورة لم يسبق نشرها].





تفصيل من اللوحة ٢٨١م

لوحة ٢٨٢م: شاهنامه طهماسب. إصفهان
١٥٢٢-١٥٢٨م. حاشية جيومرت.
متحف المتروبوليتان بنيويورك.



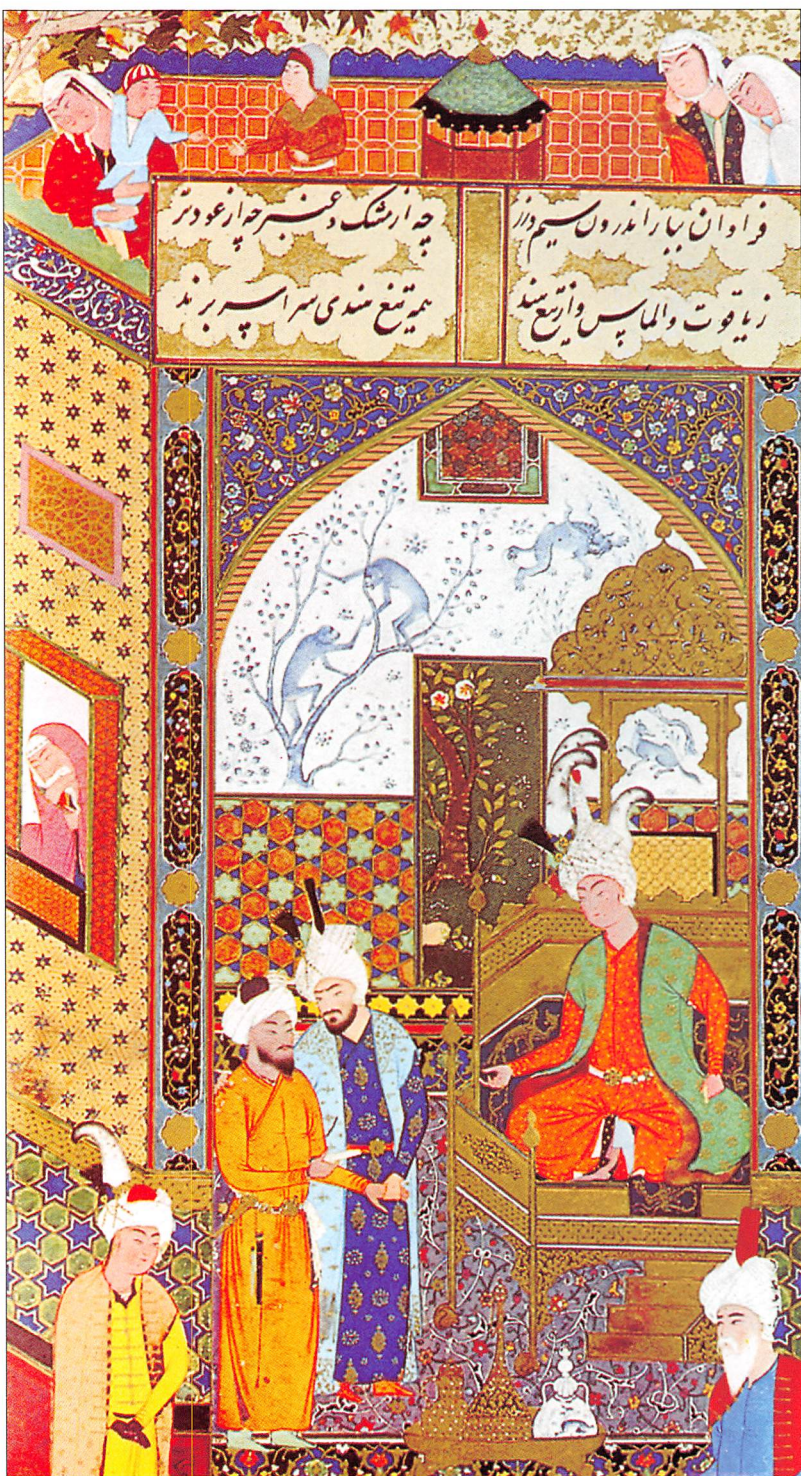
تفصيل من اللوحة ٢٨٢م

لوحة ٢٨٣م: شاهنامه طهماسب. إصفهان ١٥٢٢-
١٥٢٨م. الهجوم على مُعسكر الإيرانيين. متحف
المتروبوليتان بنيويورك.



تفصيل من اللوحة ٢٨٣م

لوحة ٢٨٤م: شاهنامه طهماسب. إصفهان
١٥٢٢-١٥٢٨م. أنو شروان يستقبل بعثة
الهند. متحف المتروبوليتان بنيويورك.



تفصيل من اللوحة ٢٨٤م

لوحة ٢٨٥م: شاهنامه طهماسب. إصفهان
١٥٢٢-١٥٢٨م. رؤيا الصَّحَّاح. متحف
المتروليستان بنيويورك.

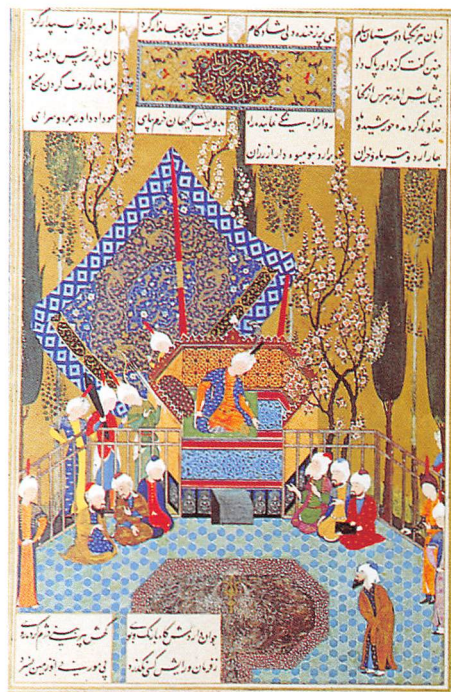


تفصيل من اللوحة ٢٨٥م

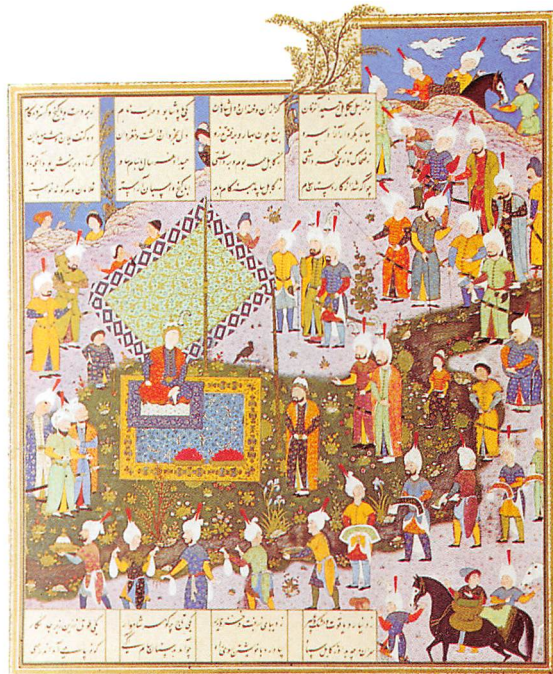
لوحة ٢٨٦م: شاهنامه طهماسب. إصفهان ١٥٢٢-١٥٢٨م.
سام يخف إلى جبل البرز. متحف المتروبوليتان بنيويورك.



لوحة ٢٨٧م: شاهنامه طهماسب. إصفهان
١٥٢٢-١٥٢٨م. زال يستشير حُكماء المجوس.
متحف المتروبوليتان بنيويورك.

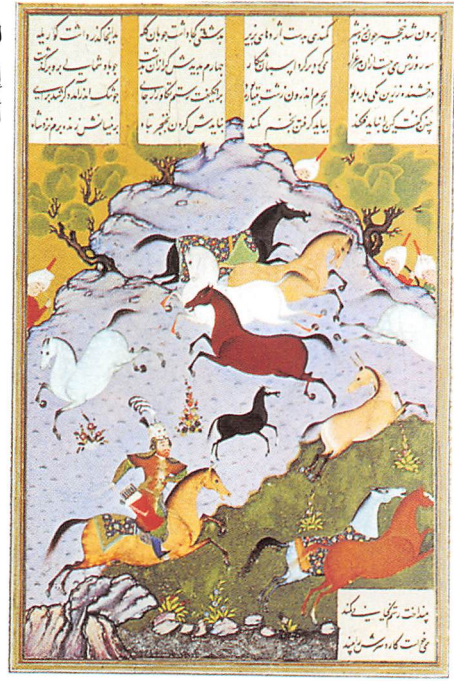


لوحة ٢٨٨م: شاهنامه طهماسب. إصفهان
١٥٢٢-١٥٢٨م. حفل استقبال مهرب لزال.
متحف المتروبوليتان بنيويورك.



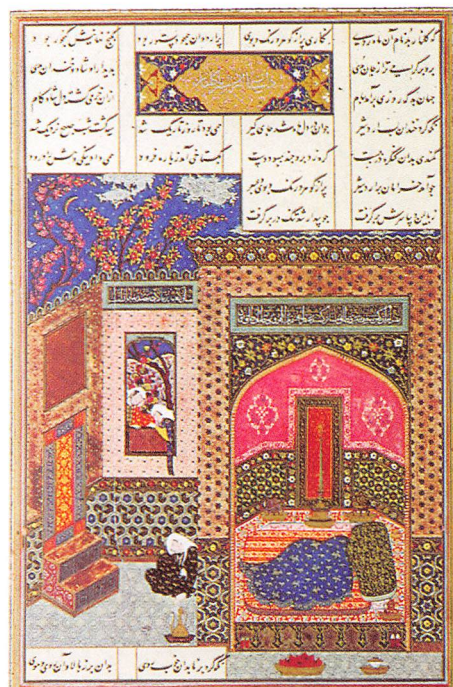
تفصیل من اللوحة ٢٨٨م

لوحة ٢٨٩م: شاهنامه طهماسب.
إصفهان ١٥٢٢-١٥٢٨م. رستم والجني
أكوان. متحف المتروبوليتان بنيويورك.



تفصيل من اللوحة ٢٨٩م

لوحة ٢٩٠م: شاهنامه طهماسب. إصفهان
١٥٢٢-١٥٢٨م. قصّة غرام أردشير
وَجُلنار. متحف المتروپوليتان بنيويورك.



تفصيل من اللوحة ٢٩٠م

لوحة ٢٩١م: شاهنامه طهماسب.
إصفهان ١٥٢٢-١٥٢٨م. مصرع خسرو
أبرويز. متحف المتروبوليتان بنيويورك.



تفصيل من اللوحة ٢٩١م

لوحة ٢٩٢م: شاهنامه طهماسب. إصفهان
١٥٢٢-١٥٢٨م. مبارزة فریبرز وکلباد.
متحف المتروپولیتان بنیویورک.



تفصيل من اللوحة ٢٩٢م

لوحة ٢٩٣م: شاهنامه طهماسب. إصفهان ١٥٢٢-
١٥٢٨م. هفتواذ والذودة. متحف المتروبوليتان بنيويورك.



تفصيل من اللوحة ٢٩٣م

لوحة ۲۹۵م: ظفرنامه. تَبْرِيز ۱۵۲۹م. منظر صيد. مكتبة قصر جُلستان بطهران.



لوحة ۲۹۴م: ظفرنامه. تَبْرِيز ۱۵۲۹م. الشُّفراء الأوربيُّون يُقدِّمون ابن السُّلطان العُثمانيَّ مُراد الأوَّل أسيرًا. مكتبة قصر جُلستان بطهران.



لوحة ۲۹۶م: ديوان حافظ. ۱۵۳۳م. عاشقان بين الرقص والغناء. مجموعة خاصّة.



لوحة ٢٩٧م: يوسف وزليخا. ١٥٣٣م. عزيز مصر
يَسْتَقْبِلُ عَرُوسَهُ زَلِيخَا. دار الكتب المصرية.

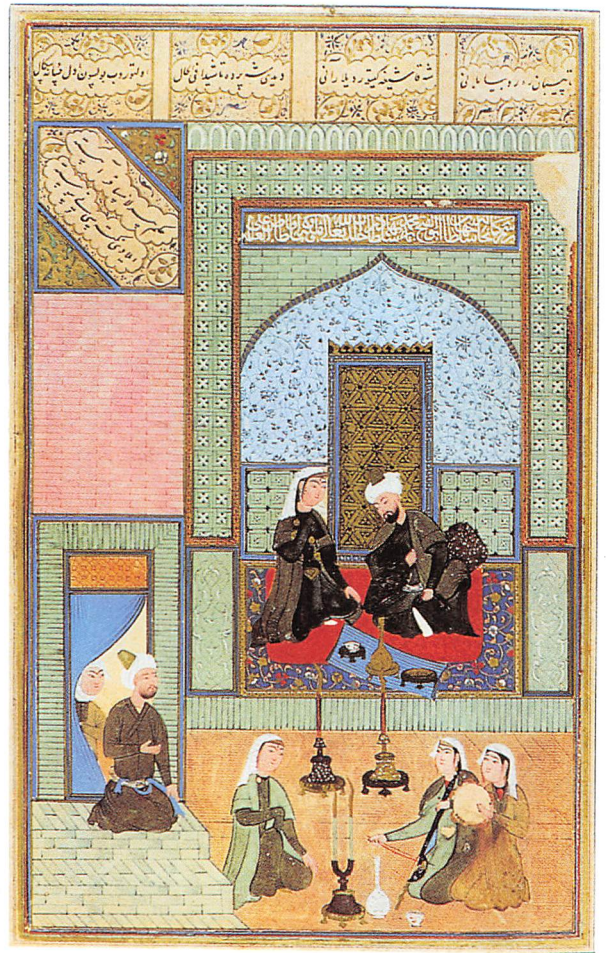
لوحة ٢٩٨م: خُشْرُو وشيرين. المعركة بين خُشْرُو
وبَهْرَام جوبين. المتحف الملكي بأذربه.

لوحة ٣٠٠م: خمسة نظامي. تَبْرِيز ١٥٤٠م. الحَيَاة
في المدينة. متحف فوج للفنون بجامعة هارفارد.



لوحة ٢٩٩م: خمسة نظامي. تَبْرِيز ١٥٤٠م. الحَيَاة
في المدينة. متحف فوج للفنون بجامعة هارفارد.





لوحة ٣٠١ م: «سبعة سيرة» [الكواكب السبعة].

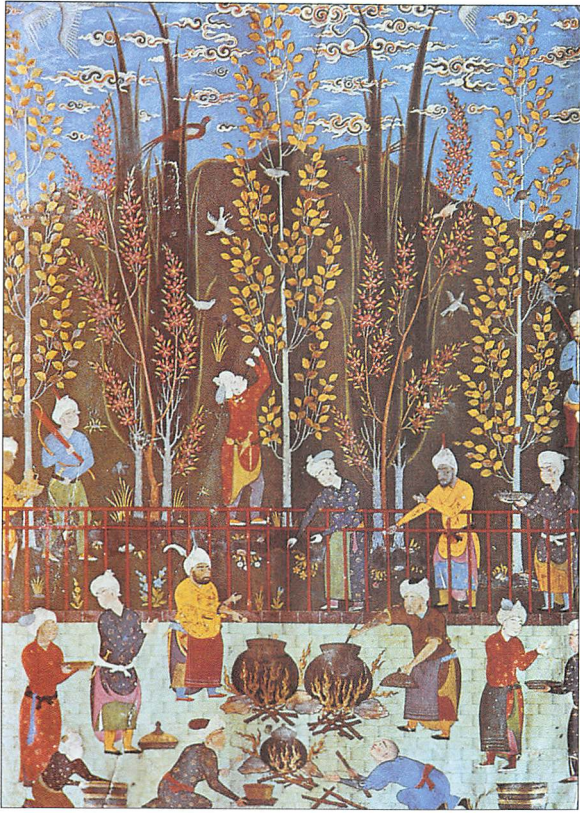
لمير علي شيرنوائي. بخارى ١٥٥٣. بهرام جور

يستمع إلى قصة الأميرة التتارية في القصر ذي القبة

الخضراء. المكتبة البودلية بأكسفورد.

تفصيل من اللوحة ٣٠١ م





لوحة ٣٠٣ م: «القصائد الخمس» للشاعر جامي. قزوین ١٥٧٠ م. التهيئة لمأدبة العاشقين. متحف طوب قابو باستنبول.



لوحة ٣٠٢ م: «هفت أورانج». ١٥٥٦-١٥٦٥ م. العاشقان يهبطان جزيرة الغبطة الدنيوية. فريد غاليري للفنون بواشنطن.

لوحة ٣٠٥ م: «مهر ومشتري» ١٦٨٠ م. الملك كيوان يعفو عن خصمه فراخان. دار الكتب المصرية. [صورة لم يسبق نشرها].

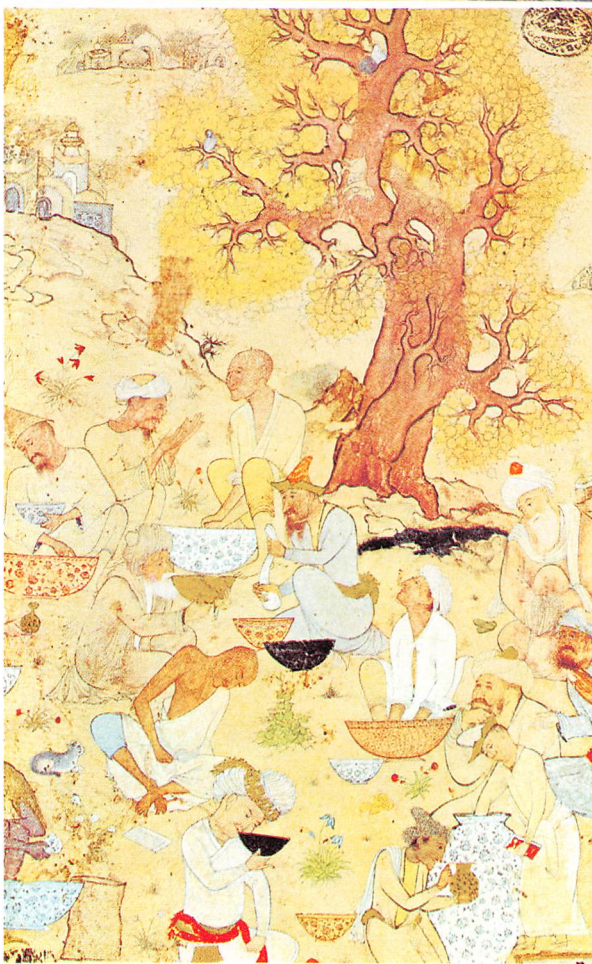
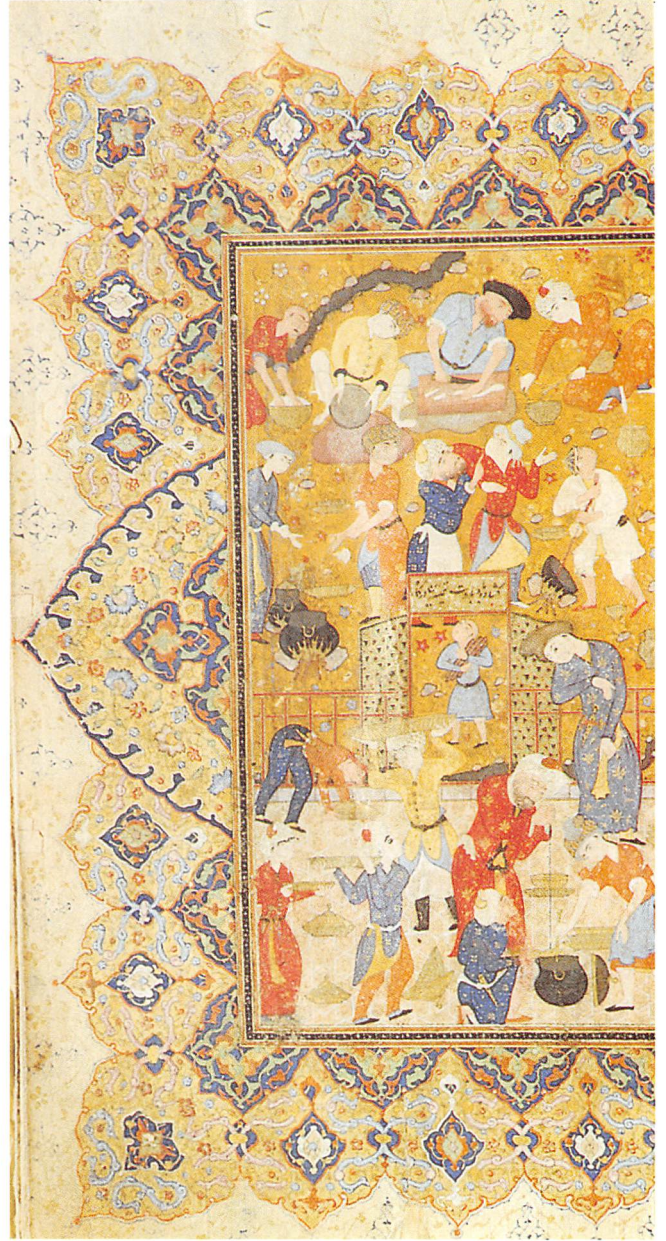


لوحة ٣٠٤ م: «مطلع السعدين» لجمال الدين عبد الرازق السمرقندي ١٦٠١ م. مشهد صيد. متحف الفن الإسلامي بالقاهرة. [صورة لم يسبق نشرها].

لوحة ٣٠٧م: ديوان حافظ ١٦٨٠م. النسيم
العليل يُشيع في البلاط صَفْوًا. دار الكتب
المصرية. [صورة لم يسبق نشرها].



لوحة ٣٠٦م: ديوان حافظ ١٦٨٠م. مشاهد حول طَهْيِ الطَّعام
وإعداده. دار الكتب المصرية. [صورة لم يسبق نشرها].



لوحة ٣٠٨م: المصوّر محمّدي. جماعة
الشاربين. متحف الفنون الجميلة ببوسطن.



لوحة ٣١١ م: المصوّر
أقا رضا . كتاب
قصص الأنبياء
للنيسابوري . هارون
وموسى وسحرة
فرعون . دار الكتب
القومية بباريس .



لوحة ٣٠٩ م: المصوّر أقا رضا ١٥٨٩-
١٦٠٠ م. غلام بالبلاط الصفوي . متحف
فوج للفنون بجامعة هارفارد .



لوحة ٣١٢ م: عجائب
المخلوقات للقزويني . هرة
١٦١٣ . النمس فوق الشجرة .
وولترز غاليري . بلتيمور .

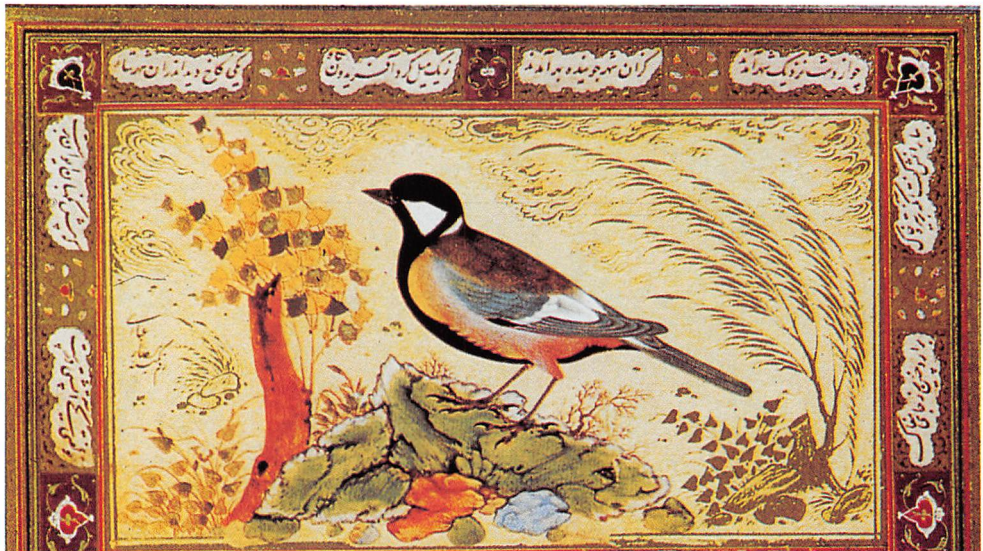
لوحة ٣١٠ م: المصوّر أقا رضا .
أمير شاب يعزف على
المندولين . المتحف البريطاني .



لوحة ٣١٣م: المصوّر رضا
عبّاسي: العاشقان وطائر
العشق: مُنمّنة مفردة ١٦٣٠م.
متحف الفنون بـسياتل.

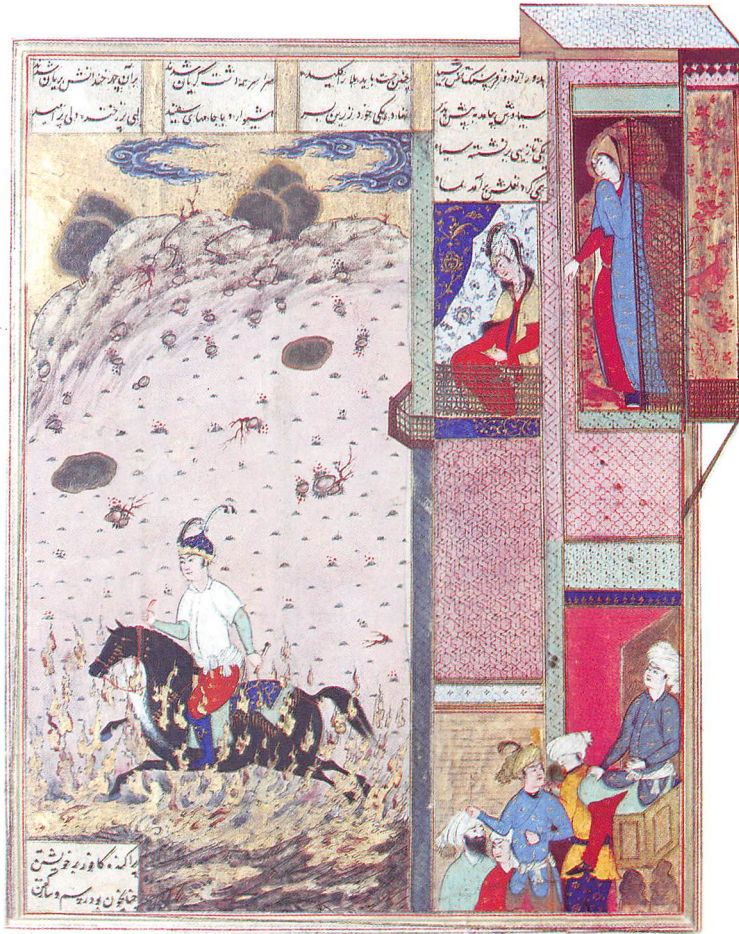


تفصيل من اللوحة ٣١٣م



تفصيل من اللوحة ٣١٣م

لوحة ٣١٤م: شاهنامه مُسْتَهْل القرن
السابع عشر. سیاوخش يخرق النار.
متحف طوب قاپو بإستنبول. [صورة لم
يسبق نشرها].



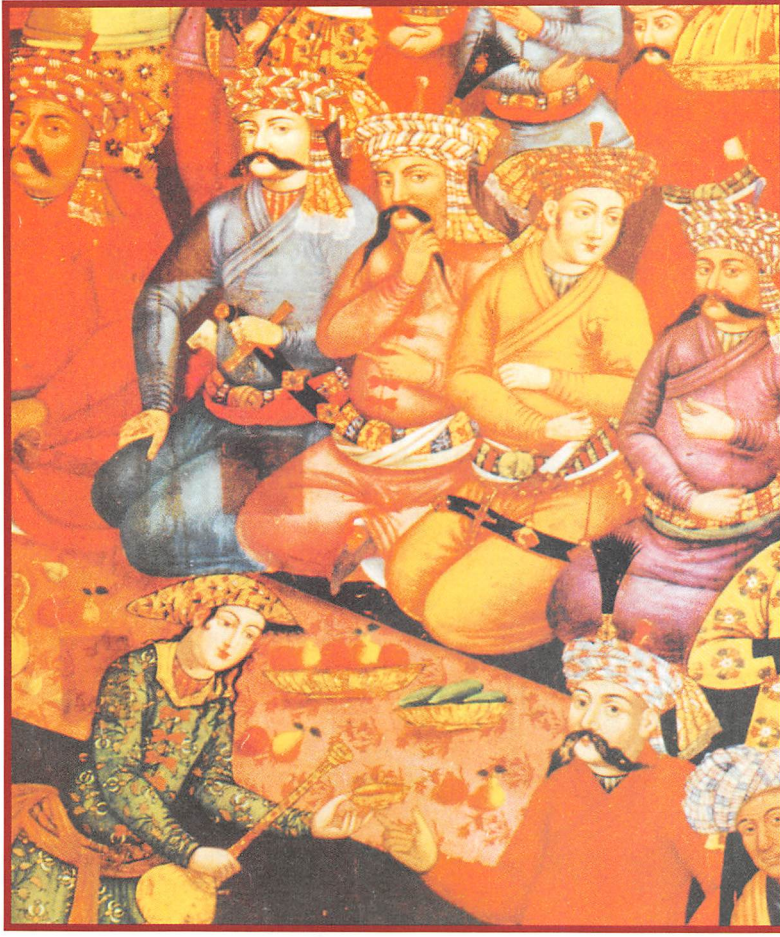
لوحة ٣١٥م: جُلستان سعدی. مُسْتَهْل القرن
١٧. قاضٍ يقع في حُبِّ غلام. دار الكتب
المصرية. [صورة لم يسبق نشرها].



لوحة ٣١٦ م: «منطق الطير لفرید الدین العطار». إصفهان ١٦٠٩ م. إجتماع الطیر. متحف المتروپولیتان بنیویورک.

لوحة ٣١٧ م: المصوّر مُحَمَّد یوسف الحُسینی ١٦٣٠ مشهد غرامی. مکتبة پیر پونت مورجان بنیویورک.





لوحة ٣١٨ م: تصوير
جداري من العهد
الصفوي. إصفهان جهل
سوتون. مأدبة بها
شخص ذوو شوارب
ضخمة.



لوحة ٣١٩ م: تصوير جداري من
العصر الصفوي. إصفهان.
جهل سوتون وليمة
خلوية.

الباب الرابع

التَّصَوُّبُ الْهَرَكِيُّ

أصول التصوير التركي

شُغف سلاطينه بالمشاهد التي تُصوّر القيم الخلقية والروحانية مما ساعد على شيوع التصوير الخاص بالمواعظ والعبير التي امتلأت بها كتب الصوفية. ومن ثم أخذ فن التصوير التركي يخضع لهذه المؤثرات التاريخية، إذ كانت الجهود قاصرة في مبدأ الأمر على نقل النماذج السابقة، وذلك لشيوع روح التقليد آنذاك، ثم لجذوبة الأخيلة. ثم ما لبث التصوير التركي أن تأثر بما لا يدع مجالاً للشك باللوحات التي جاءت من أوروبا على أيدي الجاليات الأجنبية الكبيرة التي عاشت في إسطنبول.

فجر التصوير التركي

ولعل أقدم ما آل إلينا من منمنمات الفن التركي، هي تلك التي تعكس الحياة التركية قبل أن تتطرق إليها فنون التصوير الإسلامي، وهي تُصوّر لنا جانباً من حياتهم القبلية ومن تصوّراتهم عن العفاريت والشياطين ومعتقداتهم الشامانية^(١). وثمة تشابه في طرُز هذه الرسوم الخطيّة المصوّرة فوق الحُرير أو الورق، وأغلب الظن أنها لفنان واحد أو عدد من الفنانين ينتمون إلى مدرسة واحدة في التصوير، والزّاحج أنها ترجع إلى نهاية القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر في التركستان وفيما وراء النهر.

وثمة مجموعتان من هذه المنمنمات تضم أولاهما صور العفاريت التي تتميز جلودها باللون الأسود تارّة، وبالألوانين الأحمر أو الأصفر تارّة أخرى، وبأن لها رؤوساً مخيفة تغلّوها

(١) الشامان شخص يعمل بالتنطيط والكهانة والسحر مُستعنياً بقدرة خاصة على التحكم في قوى الطبيعة، وهو مرشد الأرواح في العالم الآخر. ويغدو المرء شاماناً في سيبيريا وشمال آسيا باكتسابه هذه القوى عن طريق الوراثة أو اصطفاؤه بواسطة قوى الطبيعة ذاتها (م. م. ث).

مع أننا لا نعلم الكثير عن أصول التصوير التركي إلا أنه يمكن أن نتلمس أصوله في الحِقبة السابقة على دولتهم مباشرة، وهي حِقبة الممالك التي أعقبت حكم السلاجقة في آسيا الصغرى. فلقد كان استيلاء الشاه إسماعيل الصفوي على هراة ونهبها عام ١٥٠٧ من العوامل التي أعانت على انتقال المؤثرات الحضارية من وسط آسيا إلى العثمانيين، فقد نقل الشاه مكتبة هراة والعاملين بها وعلى رأسهم المصوّر «بهزاد» إلى تبريز التي لم تلبث أن سقطت في يد السلطان سليم الأول ياوز، ففي عام ١٥٢٤ نهّبا جُنده الأتراك ونقلوا مكتبتها إلى إسطنبول، واضطحبوا معها عدداً من العاملين بالتصوير فيها، كان لهم فضل كبير على تطوّر التصوير التركي فيما بعد. وهكذا أصبح البلاط العثماني في وقت قصير الوريث الأول للمدرسة الفنية التي ازدهرت من قبل في آسيا الوسطى خلال القرن الخامس عشر.

ولم يهتّم العثمانيون بما تحويه المخطوطات التي حملوها، ولم يُبالوا كثيراً بصورها سواء أكانت تُصوّر الرسول عليه الصلاة والسلام أم عليّاً رضي الله عنه أم غيره من أئمة الشيعة، غير أن الذي لا شك فيه أن بعض الجنود الإنكشارية قد وقّعوا تحت تأثير الشيعة. وليس من السهل الجزم بمدى تسلل المبادئ الشيعة إلى الدولة العثمانية، وذلك لِنقص المراجع التي تتضمن ذكر وسائل الدعاية الشيعة في منطقة الأناضول خلال القرن السادس عشر، غير أنه من المعروف أنه كانت هناك بعض مناطق للتفوذ الشيعي في إسطنبول، كما كان بين رجال البلاط العثماني نفسه من اعتنق مذهب الشيعة، فضلاً عما كان للغة الفارسية نفسها من منزلة مرموقة في البلاط العثماني. ومن اليقين أن المخطوطات المصوّرة قد انتقلت من إيران إلى تركيا العثمانية بعد استيلاء الأتراك على المكتبتين الإبرائيتين الكبيرتين، فالأتراك إذا لم يبتكروا فناً للتصوير، بل تدوّقه وتمثّلوه عبر التطوّر الطبيعي للإتجاهات الفنية التي زاملت ادب العصر التيموري اللاحق حين

ولما كانت علاقة هذه الصور بالمدرسة الفارسية أو العثمانية أو بمدرسة «وسط آسيا» غامضة، فقد كثر التساؤل عن تاريخها وأصلها ونشأتها. ولعلنا نجد في التقنية وفي الأسلوب الذي عولجت به هذه المشاهد ما يُعِيننا على كشف هذا الغموض. فنحن إذا ما تأملنا بعضاً منها، شهدنا كثرة من العناصر الصينية تتجلى من خلالها، وكثرة مما يحشد في تصاوير الشرق الأقصى من عناصر وألوان متميزة، بل وتظهر فيها الشخصيات المألوفة في اللآلئ المصورة الصينية منفصل بعضها عن بعض داخل أطر جزئية محددة. ويعتقد إتجهوازن من هذا الاستقراء، أنها نشأت في منطقة قريبة من الصين، وأن التأثيرات الصينية جاءت أكثر وضوحاً من التأثيرات الفارسية.

وثمة رأي آخر يعارض هذا الرأي، مستنداً في معارضته إلى وجود توقيع معين لفتان فارسي يدعى الأستاذ «محمد سياه قلم» أي «محمد أسود الريشة»، ويرد هذا التوقيع في لوحات فنية من المجموعتين التصويريتين على السواء. غير أن الاستناد إلى وجود هذا التوقيع وحده كدليل غير كافٍ، فقد وُضع على اللوحات بطريقة ساذجة يُستبعد معها أن يكون بخط المصور نفسه. وقد ذهب الأستاذ طوغان بجامعة إستانبول إلى أن سياه قلم هو نفسه الفتان «محمد نقاشي» وكان من أكبر الفنانين في «هراة» واعتاد أن يصور الأحداث الغريبة والشخصيات العجيبة، فضلاً عن ذلك فقد استطاع بعد تجارب عديدة أن يصنع خزفاً شبيهاً بالخزف الصيني الأصلي، وبلغ نشاطه أوجه في النصف الثاني من القرن الخامس عشر. وأبدى الأستاذ طوغان ملاحظة أخرى مؤداها أن بعض التيموريين الذين عاشوا في هراة أقاموا قبل ذلك طويلاً في براري «خوارزم» بآسيا الوسطى وفي سيبيريا الغربية. وعلى الرغم من صعوبة تحديد المصدر المباير لهذه الصور الفنية بشكل قاطع إلا أنه من الجلي وجود توافق تام فيما بينها من حيث المضمون والأسلوب والمستوى الفني التقني والروح العام المسيطر على جزئياتها وتفصيلاتها. ولذلك فالأقرب إلى المنطق أن تكون من عمل مصور واحد من مدينة «هراة»، وأنها حملت كل التأثيرات التي طرأت عليها وخضعت لها في منطقة أخرى أقرب إلى الشرق الأقصى وإلى المؤثرات الصينية بالذات. وهناك أعمال فنية كثيرة معاصرة لهذه المنمنمات ومميزة عنها في الأسلوب وفي المناحي والخصائص الاجتماعية ولكنها ترجع في الأغلب إلى أصول مغايرة. وثمة لوحة مجهولة السبب تصور صراعاً بين ثور وأسد (لوحة ٣٢٤م) تختلف عن بقية الأعمال التقليدية التي تصور هذا الموضوع والتي نرى فيها عادة حيواناً مفترساً قد بطش بغيره أو ارتقى ظهره وعضه بتواجده، أما

فرون، وبوجوها المجددة تتد أعنيها كالجمر، وتبرز من أفواها العريضة أتياب طويلة، كما تتولى أعناقها القصيرة وصل هذه الرؤوس البسيطة بأجسام قصيرة غليظة تنتهي أطرافها بمخالب. وتتردى هذه المخلوقات الغريبة أودية تستر نصف جسمها الأسفل وتترين أحياناً بحلقات تضعها في أذرعها ومعاصمها ويرقابها، على ما نراه في مشهد العفاريت حاملي الصناديق (لوحة ٣٢٠ م) أو العفريت المتكى على عصا (لوحة ٣٢٠ م). وفي أغلب الأحيان نرى هذه المخلوقات تتصارع بوحشية أو تقضي على الثنن أو تحمل الخيل على ظهورها في يسر، مما يشير إلى أنها عملاقة. ونحن نراها عادةً مقيدة بالسلاسل وإلى جوارها سباط مما يوحي بخطرتها، ونراها في أحيان أخرى مطبقة بوحشية على أشلاء آدمية دامية تقدم فدية لها. وتنعكس شخوص منمنمات المجموعة الثانية صفات أذى وحيثية، فتراها تعزف الموسيقى أو تحسني الخمر أو تؤدي رقصات على نهج الرقص الشعائري، تحمل أوعية دقيقة الصنع أو ملوحة بالمناديل والأوشحة (لوحة ٣٢٢ م) ويتجلى مدى فاعلية هذا الأسلوب وعمق تأثيره في استخدام أسلوب التفتيق وتسجيل الملامح الدقيقة المتعددة، رغم اللون الواحد الذي استعمله المصور أو المصورون في كل هذه المنمنمات. غير أن الألوان في كل من هاتين المجموعتين تتشابه في قناتها، كما يطغى اللونان البني والرمادي على منمنماتهما. وحين يستخدم المصور اللونين الأزرق والأحمر - وهو نادراً ما يفعل - فإن تأثيرهما يأتي هزياً مُعْديم البريق، وغالباً ما يستعيز عنهما ببعض الرموز البسيطة كرسمة وردة أو صخرة أو جذع شجرة، تُوحي بخلفية المنظر على نهج ما يقع في المسرح حينما يوحي الأثاث بنوعية المكان.

ويتم تخضع العفاريت للأرواح الشريرة ويؤدي بها الهلع إلى محاولات عنيفة للتحرر وتخطيم الأغلال، نرى شخصيات المجموعة «الثانية» تتحرك في بطء وبمحض إرادتها، بل وتبدو أحياناً في حالة تناوم أو شروء. ومعظم هذه المخلوقات الخيالية من الذكور وأقلها من الصغار والإناث، وهي تبدو مرتدية ملابس كثرة وسترات تشبه طياتها تجاعيد وجوها وقلنسوات مستديرة، ونراها عارية الأقدام أو متعلقة أحذية سميكة. على حين تبدو الوجوه متعبة منهكة وهي تزرن إلى الأفق البعيد تتأمل اللآلئ وقد اختفت حركات أعينها. وتُمَارَس كافة تلك الشخوص المُلَفَّقة نشاطها اليومي، فنجد من بينها الراعي وهو يُعنى بقطيعه أو صاحب الجرفة وهو يصنع الأثاث أو غيره على نحو ما نشهد في تصويرة الشيوخ الثلاثة (لوحة ٣٢٣م).

مأخوذة عن حضارات عديدة واضحة المعالم. فاللوحة مقسمة إلى ثلاثة أجزاء يوضح كل جزء منها جانباً من مكونات البناء تُصور الحياة بداخله وخارجه على السواء. وبمقارنة هذه اللوحة بالصورة الجدارية المسيحية الوثيقة الصلة بمدرسة «هرا» يتضح لنا أن هذه اللوحة ترجع إلى سنة ١٤٢٥. وأنها تنتمي إلى إقليم تأثر تأثراً قوياً بفارس مع وجود مؤثرات صينية وأخرى مسيحية من آسيا الوسطى في الوقت نفسه، ولا شك أن هذا الإقليم هو «هرا» نفسها أو بغض ما يجاورها.

سمات التصوير التركي في عصر الوثائق التاريخية

ويتعذر علينا استعراض تاريخ التصوير العثماني في شريط متلاحق منتظم قبل عهد سليمان العظيم، وذلك لقلّة ما لدينا من شواهد تنتمي إلى العهود السابقة. وإذا ما طرّخنا حقبة القرن الرابع عشر جانياً - لأننا لا نلّم بأيّ معلومات أكيدة عنها - وانتقلنا إلى القرن الخامس عشر، لا نجد ما ينبئ عن التصوير في النصف الأول منه سوى مخطوطة عثمانية واحدة هي «إسكندرنامه» لإحمدى والمؤرخة عام ١٤١٦م. وكلّ صورها مستوحاة من الفن الفارسي.

ولم يبق لنا كذلك شيء من فنّ الحقب التالية، كما لم يصل إلينا من منجزات المصورين عهد محمد الثاني فاتح إستانبول سوى صور مؤلف عن «الجراحة» مؤرخ عام ١٤٦٥، لا يمكن أن نعدّها لوحات فنية حيث لا تعدو أن تكون رسوماً فجّة للإيضاح ولا استعمال المتخصصين. ومع ذلك فهناك شواهد تاريخية كثيرة تدلّ على أنّ فنّ التصوير كان موجوداً بإستانبول، وأنّه عرف فترة ازدهار تحت رعاية ذلك العاهل الكبير الذي كان من هواة الفنّ وزعاته.

ولقد كنّا أوفر حظاً في الحصول على معلومات عن فنّ التصوير خلال فترة حكم بايزيد الثاني ابن الفاتح وخليفته (١٤٨١ - ١٥١٢) حفظت لنا عدّة مخطوطات تضمّ رسوماً تنتمي لتلك الحقبة. ويُعدّ كتاب «كليلة ودمنة» (١٤٩٥م) أقدمها، وتذكرنا رسوم شخوصه - التي تشبه رسوم الدمي الصغيرة - بصور الأشخاص التي كان يرسمها مصوِّرو مدرسة شييراز في نهاية القرن الخامس عشر.

وفي مخطوطة «خُمسيه» خسرو دهلوي (١٤٩٨م) التي أنجزت بعد المخطوطة السابقة بثلاث سنوات، نلاحظ أيضاً أن رسوم الأشخاص في بعض الصور شديدة القرب من مثيلاتها في أعمال مدرسة شييراز من الحقبة نفسها، وأنها تشبه الدمي أكثر مما تشبه الكائنات الحيّة.

مُصور هذه اللوحة فقد صوّر الخصمين في مناورة مُحفزة وكأنهما مُصارعان يشحذ كل منهما ذهنه وقواه ليُنقِص على خصمه بعتّة باحثاً في الوقت نفسه عن وسيلة لِنقادي الهجوم الذي يتوقّعه من غريمه. ويستخدم المصور هنا وسائل للتعبير لم يعرفها الفنّ الإسلاميّ بعامة كإيجاز الأجسام على نحو غريب، وإبراز العضلات على نحو يعكس بجلاء نفسيّة المتصارعين.

وينطبق هذا أيضاً على منمنمتين أُخريين، أولاهما تمثّل عبداً زنجياً يمسك بمذبة يروض بها جواداً جامحاً مشدود الوثاق يتمرّع متمرداً على الأرض، وهنا نجح الفنان في إضفاء الواقعية على جسم الحيوان المجنل فبدأ كما يبدو لعين المشاهد في الواقع في مثل هذا الموقف، وصوّر الزنجي أقرب إلى الشخوص الملفّقة التي سبقت الإشارة إليها (لوحة ٣٢٥م).

وتمثّل المنمنمة الثانية لوحة كبيرة المساحة بشكل غير مألوف ملوّنة بطريقة فريدة تعرض مناظر متعدّدة في دبر من أديرة آسيا الوسطى، ويُرّجح أنّ مصدرها هرا في الربع الثاني من القرن الخامس عشر (لوحة ٣٢٦م). ونلاحظ فيها مزجاً متمعدداً بين خصائص حضارات ثلاث: فهناك عناصر معيّنة في مشهد خلويّ إلى اليسار تشير بأكملها إلى الصين. أما الحدث الرئيس في اللوحة فيجري داخل بناء ذي قبة فارسية أو ذات طابع من آسيا الوسطى مزود بالواح من القاشاني المزوّق بتلويحات إقليمية وبيكتابات عربية وفارسية بخطوط متباينة شديدة التثويج. وتمثّل الكتابات الفارسية العبارات المألوفة في الأديرة التي تشير صراحةً إلى سير القربان المقدّس في المسيحية، وتحدّد حقيقة المبنى بشكل قاطع في عبارة «إنّه في هذا الدبر الذي مدّت لنا فيه الأقداح استجاب المسيح والعذراء لرغبتنا»، وثمة نقش آخر يعد بالخلاص ويشر بالخاتمة السعيدة الهنيئة. وكلّ التصوير والرسوم الجدارية التي تزين حوائط المبنى من الداخل ذات دلالات مسيحية، تمثّل إحداهما إلى أسفل اليسار لقاء بين يواكيم وحنة والدي العذراء، بينما تمثّل الأخرى في أعلى اليسار أيضاً دخول المسيح إلى بيت المقدس. وفي الجانب الأيسر من الدور الأعلى بالشكل الأوسط، يمثّل المشهد المسيح متوجّهاً بالحديث إلى الحواريين. أما الشكل المخفي جزئياً خلف القبة في الوسط فيصوّر شخصاً يشبه المسيح. وتضمّ هذه المنمنمة عدداً كبيراً من الرهبان العاكفين على الدراسة وبعض أوجه النشاط الخاصّة بحياة الأديرة التي تخالف مثيلاتها في الأديرة الأوربيّة. وثمة شخصيّة مُنزلة تشبه الشخصيات التقليديّة كشخصيّة يوحنا المعمدان أو القديسين في الصحارى، تتمثّل في صورة التاميك الواقف بجوار الباب إلى يمين اللوحة. وفي هذا كله خليط بارع لعناصر

المألوفة في ذلك الفن.

غير أننا إذا أنعمنا النظر في هذه اللوحات لاكتشفنا تبايناً جوهرياً، فموضوعات اللوحات التركبة وإن كانت مستوحاة من موضوعات التصوير الفارسي، إلا أن أسلوبها قد اختلف، ولحقت بخصائصها تحويرات عديدة وبخاصة من ناحية الرسامة التي عُدت أكثر وضوحاً وأشد قوة، كما أن الألوان وإن بقيت على حالها وضاءة على غرار ألوان اللوحات الفارسية إلا أنها أثقلت بثقلها الصارخ وفجأتها أحياناً، وجاءت أزياء الشخصيات تؤكد الطابع القومي التركي للوهلة الأولى. إن المصور التركي، وإن اتبع أشكال الفن الفارسي بعامّة، إلا أنه أدخل من التغييرات ما عاونه على إضفاء الطابع القومي عليها، بحيث أصبح من اليسير على المشاهد أن يتعرف على نكهتها العثمانية للوهلة الأولى.

وتتضح هذه التغييرات التركبة بجلء في مجال تصوير الأشخاص، فإن كافة شخوص اللوحات العثمانية سواء أكانوا من الفرسان الذين يمارسون رياضة الفَنص أم من السادة وأفراد الحاشية الذين يتجاذبون أطراف الحديث تحت ظلال الأشجار، أو من الهائمين على وجوههم ولها في دواوين الشعراء، إنما يلفتون الانتباه بمظهرهم القوي وبثيابهم المتين، الأمر الذي يجعلهم متميزين على شخوص اللوحات الفارسية خلال الجفّة نفسها، والذين بدوا ضعافاً تتخلع أجسادهم من فرط مرونتها. غير أن المدرسة العثمانية في عهد سليمان تحتفظ رغم ذلك في تصويرها الإنسان بسمات مستعارة من المدرسة الصفوية في عهد شاه طهماسب كالحبريّة الدافقة، وإن استبدلت بالطراوة والميوعة صرامة التعبير.

ولم يلبث الفنان التركي أن تخلى عن ألوان الفنان الفارسي، وابتكر ألوانه الخاصة، حتى إن بعض الفنانين الفرس ومن التحقوا بخدمة السلطان قد التزموا بخطّة التلوين التركبة. وأهم ما يميز المفهوم التركي للون في سماته العامة إذا ما قورن بمفهوم أساتذتهم من الإيرانيين هو ميلهم للألوان البسيطة الزاهية غير المركبة، على حين يميل الإيرانيون إلى الألوان المركبة. كذلك يتجه الفن العثماني إلى توليفات أقل رقة من التوليفات اللونية الأثيرة لدى المدرسة الصفوية، حيث تحتفظ الألوان في التوليفات التركبة بسماتها الطبيعية.

ويمضي الأسلوب العثماني في طريق الازدهار خلال الأجيال اللاحقة جنباً إلى جنب مع بزوغ اتجاهات فنية أخرى، مستمداً موضوعاته الأثيرة من دواوين الشعر، كمشاهد الصيد الملكي أو ألعاب الكرة والصولجان أو مجالس السلطان وسط المناظر

كذلك فإن ما نعرفه عن الفن التركي العثماني الذي ازدهر في القرن السادس عشر قليل نسبياً، فلم تصلنا سوى قلة من المخطوطات التي يتجلى فيها تأثير فن التصوير الفارسي، على نحو يعكس وشائج القرى بينهما على غرار الوشائج الوثيقة بين الشعر التركي والشعر الفارسي. ولا تعني هذه الصلات التهورين من شأن أيهما بحال، فننون البشرية جمعاء يستلهم بعضهم بعضاً من البعض الآخر، ثم تتخذ في النهاية صياغة تعكس أصالتها. ألم يرتبط الفن الروسي بالفن البيزنطي والفن الياباني بالفن الصيني من دون أن يفقد أيهما طابعه الأصلي؟ هذا هو واقع فن التصوير التركي، فلقد تفرّع من شجرة الفن الإسلامي في الشرق الأدنى التي تفرّع عنها الفن الفارسي أيضاً، ومن ثم فهو نزاع للرؤية الفنية عينها القائمة على أسس ومبادئ متماثلة. وقد أضفى هذا الأصل المشترك على الفن العثماني شَبهاً لا سبيل إلى إنكاره بالفن الفارسي الذي استمدّ وحيه منه، وإن كان لكل منهما شخصيته المستقلة.

وإذا كانت التصوير التركبة في القرن السادس عشر هي الابنة الشرعية للتصاوير الفارسية، إلا أنها ابنة زائدة ناضجة ما لبثت أن أخذت بالتطور والتجديد. وكما سبق أن ذكرنا فإن السنوات الأولى للقرن السادس عشر العثماني لم تترك لنا غير منجزات قليلة في التصوير، غير أن الجيل الثاني من عهد سليمان العظيم أي الجفّة فيما بين عام ١٥٣٠ و١٥٤٠ قد أمدّنا بفن عثماني مزدهر متأثر بالفن الفارسي متميز بالبراء، حتى أننا نلمس جميع الموضوعات المصورة المتداولة في الفن الفارسي في كل مجموعات الأشعار المزينة بالتصاوير سواء أكانت تركبة أم فارسية، ومنها على سبيل المثال مشاهد الصيد الملكي حيث الأمراء ومن حولهم أتباعهم وهم يلاحقون صيدهم في طراد مخموم، أو وهم يهاجمون بشجاعة فائقة الحيوانات المفترسة المنقضة عليهم على غرار ما نشاهد في أعمال المصورين الصفويين. وتصور لوحات أخرى مباريات الكرة والصولجان التي استهوت الأمراء الفرس منذ القدم، وتتلو هذه المشاهد التي تصور الرياضات العنيفة لروحاً أخرى تصور الترهات الخلوية، ومجالس السلطان التي يبدو فيها جالسا وسط منظر طبيعي خلّاب تحيط به حاشيته، وهو يستمتع بجمال الطبيعة الأخاذ. ونحن إذا تطلّعنا إلى هذه اللوحات العثمانية، نشاهد كل العناصر المعروفة عن الفن الفارسي في مجال تصوير الطبيعة مثل أشجار السرو وأشجار الفاكهة المزدهرة وباقات الحشائش البرية التي تكسو الأرض، والصخور المستديرة والسحب الصينية إلى غير ذلك من العناصر

مُواجهَة قُوَات السُلْطَان وَقَدْ رُسِمُوا بِأُسْلُوب مُخْتَلَف كُلِّ الْاِخْتِلَاف هُوَ أَقْرَب إِلَى الْأُسْلُوب الْأُورُيِّي. وَقَدْ سَيْطَرَتْ هَذِهِ الْاِتِّجَاهَاتِ الْأَجْنَبِيَّة عَلَى بَعْضِ اللَّوْحَاتِ التَّارِيخِيَّة، مُضْفِيَةً لَمَسَةً مِنَ الرَّقَّة عَلَى تَجْسِيم الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ يَظْهَرُونَ فِيهَا.

وَاسْتَمَرَّ اتِّبَاعُ الْأُسْلُوبِ التُّرْكِيِّ فِي الْمَخْطُوطَاتِ الَّتِي أُنْجِزَتْ فِي عَهْدِي سَلِيم الثَّانِي وَمُرَادِ الثَّالِثِ، وَعَلَى حِينِ اقْتَصَرَتِ الْعَنَاصِرُ غَيْرُ التُّرْكِيَّة عَلَى بَعْضِ النَّمَاذِجِ الْفَارِسِيَّةِ فِي رَسْمِ مَنَاطِرِ الطَّبِيعَةِ، وَالْخَلْفِيَّةِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى الْعَنَاصِرِ الْوَعْمَارِيَّةِ الَّتِي بَدَأَتْ تَقْتَضِي أَثَرُ الْمَنْظُورِ الْأُورُيِّي، ظَلَّتِ الشُّخُوصُ خَاضِعَةً لِلْأُسْلُوبِ التُّرْكِيِّ، فَجَمِيعُهَا مُسْتَقِيمَةٌ جَاوِدة الْوُضْعَاتِ وَكَأَنَّمَا هِيَ مُحْتَضَةٌ، وَغَالِيًا مَا تَصَطَّفُ فِي صُفُوفِ طَوِيلَةٍ تُعْطِي انْطِبَاعًا بِالْهَيْئَةِ وَالْعَظْمَةِ. عَلَى أَنَّ مَظْهَرَ الشُّخُوصِ الَّتِي كَانَتْ تَبْدُو وَكَأَنَّهَا التَّمَائِيلُ فِي اللَّوْحَاتِ التَّارِيخِيَّةِ يَتَغَيَّرُ فِي بَعْضِ لَوْحَاتِ أَفْرَاحِ الشَّعْبِ وَاحْتِفَالَاتِهِ الَّتِي تَكْتَفِ بِهَا «السُّورْنَامَةُ». وَيَنْطَبِقُ هَذَا التَّغْيِيرُ بِوَجْهِ خَاصٍّ عَلَى اللَّوْحَاتِ الَّتِي تُصَوِّرُ فَنَاتِ الشَّعْبِ، كَمُمَثَّلِي مُخْتَلَفِ الْجِرَفِ وَهُمْ يُسْتَعْرِضُونَ أَمَامَ السُّلْطَانِ. لَقَدْ صَوَّرَ الْفَتَانُ التُّرْكِيُّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ الْبُسْطَاءَ بِأُسْلُوبٍ يَتَمُّ عَنْ قُوَّةِ الْمُلَاحَظَةِ وَرُوحِ الْمَرَحِ وَالدَّعَابَةِ، فَهُمْ يَبْدُونَ أَقَلَّ جُمُودًا مِنَ الْأَشْرَافِ وَالْجُنْدِ، وَكَأَنَّهُمْ دُمَى صَغِيرَةٌ تُؤْذِي الْأَذْوَارَ الَّتِي وَرَّعَتْ عَلَيْهَا بِحِمَاسٍ.

وَلَقَدْ بَلَغَ أُسْلُوبُ رَسْمِ الشُّخُوصِ فِي خُطُوطِ مُسْتَقِيمَةِ دُرُوتِهِ فِي مَخْطُوطَةٍ أُخْرَى مِنَ الْمَخْطُوطَاتِ الْهَامَّةِ لِهَذِهِ الْحِقْبَةِ وَهِيَ مَخْطُوطَةُ «هُونَرْنَامَةُ»، الَّتِي أُنْجِزَتْ بَيْنَ عَامَيْ ١٥٨٤ وَ ١٥٨٩ بِتَوْجِيهِ الرَّسَّامِ الْكَبِيرِ عُثْمَانَ الَّذِي أَشْرَفَ عَلَى تَصْوِيرِهَا وَشَارَكَ فِيهِ، فَبَلَغَ الْفَنُّ التَّصْوِيرِيَّ عَلَى يَدَيْهِ أَفَاقًا لَمْ تَصِلْ إِلَيْهَا الْمَدْرَسَةُ التُّرْكِيَّةُ مِنْ قَبْلُ. عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَعُدْ فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ يَكْتَفِي بِالْخُطُوطِ الْمُسْتَقِيمَةِ بَلْ لَجَأَ إِلَى الْخُطُوطِ الْمُنْحَنِيَّةِ الَّتِي اسْتَعْدَمَهَا لِتَصْوِيرِ أَجْسَامِ الْحَيَوَانِ وَبِخَاصَّةِ الْخَيْلِ، وَوَضَعَهَا فِي مُوَاجَهَةِ الْخُطُوطِ الْمُسْتَقِيمَةِ لِأَشْكَالِ الْأَشْخَاصِ بِهَدَفِ تَكْوِينِ مَجْمُوعَاتٍ حَافِلَةٍ بِالتَّنَوُّعِ وَالتَّضَادِّ. وَغَنَّى عُثْمَانُ كَذَلِكَ بِبَعْثِ رُوحِ دِينَامِيكِيَّةٍ مُتَوَبِّةٍ فِي شُخُوصِهِ، بَلْ وَفِيهَا صَوْرٌ مِنْ حَيَوَانٍ، كَلَوْحَاتِهِ الَّتِي تُصَوِّرُ فُرْسَانًا مُنْطَلِقِينَ فَوْقَ ظُهُورِ خَيْلِهِمْ. وَلَعَلَّ اخْتِلَافَ أَحْجَامِ الشُّخُوصِ الْمَلْحُوظِ فِي لَوْحَاتِهِ، وَالَّذِي لَا يَرْتَبِطُ بِقَوَاعِدِ الْمَنْظُورِ يَمُودُ إِلَى رَفْعَةٍ أَوْ هَوَانٍ شَأْنِ الْمَرْكَزِ الْاجْتِمَاعِيِّ لِلشُّخُوصِ الْمَصُورَةِ عَلَى غِرَارِ تَقَالِيدِ مَدْرَسَةِ بَغْدَادِ الْعَرَبِيَّةِ. أَمَّا تَأْثِيرُ مَدَارِسِ التَّصْوِيرِ الْأُورُيَّةِ فَلَنَحْظُهُ فِي مَبَانِي الْخَلْفِيَّةِ وَعَمَائِرِهَا الَّتِي رُسِمَتْ طَبَقًا لِقَوَاعِدِ الْمَنْظُورِ وَاصْطَفَتْ مُتَرَاجِعَةً صَوْبَ عُمُقِ اللَّوْحَةِ.

وَقَدْ عَرَفَ التَّصْوِيرُ الْعُثْمَانِيُّ فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ كَذَلِكَ

الْخَلْوِيَّةَ. غَيْرَ أَنَّهُ يَعْدُو ذَلِكَ حِينِ يَتَنَاوَلُ الْأَعْمَالُ التَّارِيخِيَّةَ مُصَوِّرًا مَشَاهِدَ الصَّيْدِ أَوْ الرِّيَاضَةِ وَالْمُبَارِيَاتِ أَوْ مُنْجِزَاتِ السُّلَاطِينِ وَبُطُولَانِهِمْ فِي إِطَارِ التَّقَالِيدِ الْإِيرَانِيَّةِ الَّتِي طَوَّرَتْهَا الْعَبْقَرِيَّةُ التَّصْوِيرِيَّةُ التُّرْكِيَّةُ. فَالْفَنُّ التُّرْكِيُّ هُوَ الَّذِي أَمَدَّ تَكْوِينَ اللَّوْحَةِ بِأُسْلُوبِهِ الْخَاصَّ الطَّرِيفِ الْمُبْتَكِرِ، كَمَا أَضْفَى عَلَى رُسُومِ بَعْضِ الْفُرْسَانِ انْجِنَاءَ مُفْرِطَةٍ أَدَّتْ إِلَى ابْتِدَاعِ أَشْكَالٍ زُخْرَفِيَّةٍ بَدِيعَةٍ. كُلُّ هَذِهِ الْعَنَاصِرِ التُّرْكِيَّةِ الَّتِي ضَمَّتْ إِلَيْهَا أَيْضًا بَعْضَ الْعَنَاصِرِ الْأُورُيَّةِ، تَسَلَّلَتْ إِلَى الْأَصُولِ الْفَارِسِيَّةِ فَأَضْفَتْ عَلَى لَوْحَاتِهَا الصَّغِيرَةِ جَازِبِيَّةً خَاصَّةً جَلَّتْ رِقَّتُهَا. وَاسْتَمَرَّ هَذَا الْأُسْلُوبُ نَفْسَهُ يُزَيِّنُ دَوَابِنَ الشَّعْرِ طَوَالَ عَهْدِ سَلِيمِ الثَّانِي (١٥٦٦ - ١٥٧٤) وَمُنْمَنَمَاتِ دِيوَانِ جَدِّهِ سَلِيمِ يَاوِزِ الْأَوَّلِ الَّذِي صُوِّرَ اسْتِجَابَةً لِمَشِيتِهِ.

وَلَقَدْ اتَّخَذَ التَّصْوِيرُ الْعُثْمَانِيُّ خِلَالَ الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ أَشْكَالًا عِدَّةً تَنَوَّعَتْ بِتَنَوُّعِ الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي يَطْرُقُهَا الْفَنَّانُونَ إِرْضَاءً لِزَوَارِعِ رِعَانَتِهِمِ الْعِظَامِ، فَهُمْ يَلْبَنُونَ أَوَّلَ مَا يَلْبَنُونَ طَلَبَاتِ الْمَلِكِ «الْبَادِي شَاه» ثُمَّ يَسْتَقْبِلُونَ طَلَبَاتِ الْأُمَرَاءِ وَأَشْرَافِ الْبَلَاطِ وَكِبَارِ الْمُوْظَفِينَ. وَقَدْ أَثَرُ هَذَا التَّنَوُّعِ فِي مَوْضُوعَاتِ الْكُتُبِ الَّتِي عُهِدَ إِلَيْهِمْ بِتَرْقِيئِهَا، فَاتَّسَعَ بَحْثُهُمْ عَنِ الْمَصَادِرِ الَّتِي يَسْتَوْحُونَهَا، سَعْيًا وَرَاءَ الْمَزِيدِ مِنَ التَّنَوُّعِ.

وَإِذَا كَانَتْ الرُّسُومُ الَّتِي تَزْدَانُ بِهَا دَوَابِنَ الشَّعْرِ التُّرْكِيَّةِ وَالْفَارِسِيَّةِ قَدْ ظَلَّتْ خَاضِعَةً لِلتَّقَالِيدِ الْإِيرَانِيَّةِ، إِلَّا أَنَّ الْأَمْرَ قَدْ اخْتَلَفَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِمَجَالِ آخَرٍ مِنْ مَجَالَاتِ تَصْوِيرِ الْمَخْطُوطَاتِ التُّرْكِيَّةِ، وَهُوَ تَصْوِيرُ السَّجَلَاتِ التَّارِيخِيَّةِ. فَلَقَدْ شَاعَ هَذَا النَّوعُ وَتَطَوَّرَ عَلَى نَحْوِ أَوْسَعٍ بِكَثِيرٍ مِمَّا حَدَثَ فِي تَصْوِيرِ الْمَخْطُوطَاتِ الْأَدَبِيَّةِ الْأُخْرَى، بَلْ لَقَدْ سَيْطَرَ عَلَى الْفَنِّ الْعُثْمَانِيِّ فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ كُلُّهُ بِحَيْثُ يَجُوزُ لَنَا الْقَوْلُ بِأَنَّهُ اخْتَوَى خُلَاصَةَ الْعَبْقَرِيَّةِ التُّرْكِيَّةِ فِي أَوْجِ تَعْبِيرِهَا التَّصْوِيرِيِّ خِلَالَ هَذِهِ الْحِقْبَةِ.

وَيَتَّخِذُ التَّصْوِيرُ التُّرْكِيُّ اتِّجَاهًا مُسْتَقِلًّا ابْتِدَاءً مِنْ لَوْحَاتِ مَخْطُوطَةِ «سَلِيمَانِ نَامَةِ» عَامِ ١٥٥٨ حَتَّى لَمْ يَتَّبِقْ فِي تَكْوِينَاتِهَا مِنَ الْأَثَرِ الْفَارِسِيِّ إِلَّا أَقْلَهُ، وَبِخَاصَّةٍ فِي تَصَاوِيرِ الْمَنَاطِرِ الطَّبِيعِيَّةِ. أَمَّا الشُّخُوصُ فَتَبْدُو تَارَةً مُتَأَثِّرَةً بِالنِّيَّارِ الْأُورُيِّيِّ وَتَارَةً أُخْرَى - وَهَذَا فِي أَغْلَبِ الْأَحْيَانِ - تَبْدُو خَشِينَةً، مُطَابِقَةً لِمَفْهُومِ تُرْكِيٍّ خَالِصٍ، مُتَمَيِّزَةً بِالْمَنَاجِبِ الْعَرِيضَةِ وَالْبَيْتَةِ الْقَوِيَّةِ، وَكَأَنَّهَا دُمَى قُدَّتْ مِنْ خَشَبٍ مِنْ دُونِ عِنَايَةٍ، تَفُوحُ مِنْهَا تَعْبِيرِيَّةٌ وَخَشِينَةٌ تُوَاكِبُ الْعَسْكَرِيَّةَ التُّرْكِيَّةَ الْمَأَثُورَةَ فِي مَشَاهِدِ الْحَرْبِ. وَعَلَى حِينِ يُصَوِّرُ الْفَتَانُ الْعُثْمَانِيُّ مُوَاطِنِيهِ الْأَتْرَاقَ فِي هَذِهِ الْوَضْعَةِ الْجَاوِدةِ السَّائِكَةِ، فَإِنَّهُ يَسْتَوْحِي أَشْكَالَ أَعْدَائِهِ مِنَ الْأَجَانِبِ وَوَضْعَاتِهِمْ مِنَ الْمُنْمَنَمَاتِ الْأُورُيَّةِ، فَتَرَى فُرْسَانًا مُتَسَرِّبِينَ بِالثَّرُوسِ يَقْفُونَ فِي

وتُعَدُّ المَرَحَلَةُ الأولى مِنَ التَّصْوِيرِ التُّرْكِيِّ التي اسْتَعْرَفَتْ قُرُونًا كَامِلًا أَعْنَى مَرَاكِلهِ خُصُوبَةً وَغَزَاوَةً. وَعَلَيْنَا أَنْ أَرْدُنَا تَقْيِيمَ الفَنِّ العُثمانيِّ لِلقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ أَنْ نَقِيْمَهُ مِنْ خِلَالِ رُؤْيَا شَامِلَةٍ لِمَظَاهِرِهِ الْمُتَنَوِّعَةِ. فَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ أُسْلُوبَ مُنَجَزَاتِهِ قَدْ يَبْدُو أحيانًا غَيْرَ مُتجانِسٍ العَنَاصِرِ أَوْ ذَا طَائِعٍ مُلْفَقٍ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ كِبَوَاتِهِ التي مَا تَلَبَّثَ أَنْ تَتَّبِعَهَا مِنْ وَقْتٍ لِآخِرٍ أَلْمَعَ الإنجازاتِ وَأَنْجَحَهَا، فَإِنَّ تَجَدُّدَ تَهْجِينَاتِهِ لَا يَتَّضِحُ إِلَّا مِنْ خِلَالِ اسْتِعْرَاضِنا لِتَنَوُّعِ مُنَجَزَاتِهِ. عِنْدَهَا نَرَى العَنَاصِرَ الفَارِسيَّةَ والأُورُوبيَّةَ وَقَدْ اتَّحَدَتْ مَعَ التَّقَالِيدِ القَوْمِيَّةِ فِي تَكْوِينَاتِ خَلَدَتْهَا الرُّوحُ الخَلَّاقَةُ لِلْفَنَّانِينَ الأتْرَاقِ فِي مُنَجَزَاتِ تَرْكِيَّةِ بَحْتَةِ. فَلَا مَعْدَى إِذَا عَنِ التَّسْلِيمِ بِأَنَّ الفَضْلَ فِي خَلْقِ الطَّائِعِ الخَاصِّ لِلتَّصْوِيرِ العُثمانيِّ خِلَالِ هَذَا القَرْنِ إِنَّمَا يَرْجِعُ إِلَى العَبَقِيَّةِ التَّصَوُّرِيَّةِ التُّرْكِيَّةِ، التي أَضَفَتْ عَلَى لُوحَاتِهَا الشَّاعِرِيَّةَ جاذِبِيَّةً أَسِرَةً، وَعَلَى لُوحَاتِهَا الحَيَاةَ اليَوْمِيَّةَ رُوحَ الدُّعَابَةِ الرَّاقِيَّةِ، وَعَلَى لُوحَاتِهَا التَّارِيخِيَّةِ عَظَمَةَ المَلَاخِمِ وَجَلَالِهَا، وَعَلَى لُوحَاتِهَا الدِّينِيَّةِ المَهَابَةَ وَخَفَقَ المَشَاعِرِ بِكُلِّ مَا هُوَ قُدْسِيٌّ.

على هَذَا النِّحْوِ احْتَلَّ التَّصْوِيرُ مَكَانَ الصَّدَارَةِ بَيْنَ الفُنُونِ الأُخْرَى التي تَزْهَوُ بِهَا حَضَارَةُ الإمبراطوريَّةِ العُثمانيَّةِ. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ الأَحْجَامِ الصَّغِيرَةِ لِلْمُنْمَنَمَاتِ إِلَّا أَنَّهُ يُمْكِنُنَا وَضْعَهَا فِي مَصَافِّ فُنُونِ العِمَارَةِ وصِنَاعَةِ الخَزَفِ والأَقْمِشَةِ خِلَالِ هَذِهِ الحَقِيقَةِ، وَذَلِكَ بِفَضْلِ الطَّائِعِ الأَصِيلِ الرَّفِيعِ الذي يَتَجَلَّى فِي تَكْوِينَاتِهَا. كَمَا تُسَجِّلُ هَذِهِ المُنْمَنَمَاتُ الدَّقِيقَةُ لِمُصَوِّرِي السَّرَايِ إِنْجَازَاتِ حِقْبَةٍ فَنِّيَّةٍ نَشِيطَةٍ وَكَأَنَّهَا مِرَاةٌ لِعَصْرِهَا، تَتَجَلَّى فِيهَا تَكْوِينَاتُ خَطِيئَةٍ بَارِعَةٍ تَغْشِيهَا أَلْوَانُ بَرَاقَةٍ، كَالْأَبْيْنَةِ ذَاتِ الأشْكَالِ المُسْتَقِيمَةِ المُرْنَةِ بِبِلَاطَاتِ الخَزَفِ المُلَوَّنِ. وَمَا أَكْثَرَ مَا تُصَادَفُ فِيهَا أَلْقَى الحَرِيرِ وَعُمُقُ المُخَمَّلِ وَمَشْهَدُ الجَوَامِقِ والأَكْشَاكِ، والصَّيْغِ الهِنْدُوسِيَّةِ الرَّفِيعَةِ التي تَتَجَلَّى فِي زَخَارِفِ السَّجَادِ، فَفِي فَنِّ التَّصْوِيرِ تَظْهَرُ الأفكارُ الخَلَّاقَةُ لِلْفَنِّ التُّرْكِيِّ كُلِّهَا مُجْتَمِعَةً فِي مَزِيَجٍ جَرِيءٍ يَخْلِبُ الأَلْبَابَ.

شَكْلًا آخَرَ مِنَ التَّصْوِيرِ غَيْرَ زَخْرَفَةٍ دَوَاوِينَ الشَّعْرِ وَالتَّصْوِيرِ التَّارِيخِيِّ، أَلَا وَهُوَ التَّصْوِيرُ الدِّينِيُّ، وَلَمْ يَكُنْ أَقَلَّ مِنْ سَابِقِيهِ قُدْرَةً عَلَى الإِبْتِكَارِ. وَتَحْتَوِي مَخْطُوطَةٌ سِلْسِلَةٌ نَامَهُ وَزَبَدَةُ التَّوَارِيخِ مِنْ تَأْلِيفِ لُقْمَانَ عَامَ ١٥٨٣ عَلَى صُورٍ عَدِيدَةٍ لِيُطَارِزَ لَمْ يُطَرِّقَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَسْتَوْجِ التَّمَاذِجَ الإِيرَانِيَّةَ إِلَّا فِي القَلِيلِ، بَلْ خَضَعَ لِتَأْوِيلِ الأُسْلُوبِ التُّرْكِيِّ خُضُوعًا تَامًا. وَتَبْتَعِدُ الشُّخُوصُ الجَلِيلَةُ المُصَوَّرَةُ فِي هَذِهِ اللُّوحَاتِ الدِّينِيَّةِ بِمُرُونَةِ أَجْسَامِهَا وَاسْتِدَارَتِهَا وَبِوَضْعَاتِهَا الطَّبِيعِيَّةِ الرَّشِيقَةِ، عَنِ التَّمَاثِيلِ السَّاكِنَةِ التي ظَهَرَتْ فِي المَخْطُوطَاتِ التَّارِيخِيَّةِ أَوْ الدُّمَى الصَّغِيرَةِ الرَّهِيْفَةِ المُصَوَّرَةِ فِي الدَّوَاوِينَ الشَّعْرِيَّةِ.

وَتَشْكُلُ صُورُ مَخْطُوطَةِ «سِيرِ النَّبِيِّ» مَجْمُوعَةٌ مَرْمُوقَةٌ مِنَ المُنْمَنَمَاتِ الدِّينِيَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ. وَيَقْتَسِمُ عَدَدٌ مِنَ المَتَاحِفِ سَبْعُمَاةٍ وَسِتًّا وَيَسْعِينَ مِنْ صُورِهَا، يَحْتَفِظُ مُتَحَفُ طُوبِ قَابُو سَرَايِ بِثَلَاثِمِائَةٍ وَسَعٍ وَأَرْبَعِينَ لَوْحَةً مِنْهَا. وَقِيلَ إِنَّ جَمَهْرَةَ الفَنَّانِينَ الَّذِينَ اشْتَرَكُوا فِي تَنْفِيزِ هَذِهِ المَجْمُوعَةِ العَظِيمَةِ بِمَرَاثِمِ السُّلْطَانِ قَدْ اسْتَوْحَوْا أَحَدَ مَخْطُوطَاتِ القَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ وَتَقَلَّوْا عَنْهُ لُوحَاتِهِمْ. وَعَلَى آيَةٍ حَالٍ لَمْ يَأْتِ هَذَا الثَّقُلُ مُحَاكَاةَ حَرْفِيَّةِ بَلْ لَقَدْ أَطْلَقَ الفَنَّانُ لِرِيشَتِهِ حُرِّيَّةً وَاسِعَةً حَيْثُ اتَّسَمَتْ أَغْلَبُ هَذِهِ التَّكْوِينَاتِ بِالطَّائِعِ التُّرْكِيِّ المُمْتَرِزِ. فَإِلَى جِوَارِ المَظْهَرِ الجَلِيلِ وَالتَّكْوِينِ الفَنِّيِّ المَهِيبِ الذي يُسَايِرُ مِثْلَ هَذِهِ المَوْضُوعَاتِ، تَبَيَّنَ عَنَاصِرُ أُخْرَى مُسْتَوْحَاةٌ مِنَ الحَيَاةِ اليَوْمِيَّةِ لِلْبِيئَةِ العُثمانيَّةِ، مِثَالُ ذَلِكَ مُنْمَنَمَةُ تَقَاطُرِ الوُفُودِ مِنْ مُخْتَلِفِ الأُمَمِ لِإِسْهَارِ إِسْلَامِهَا (لَوْحَةٌ ٣٢٧م)، فَتَبَيَّنَ فِي كُلِّ هَؤُلَاءِ الأَشْخَاصِ سِمَاتِ شَخْصِيَّاتٍ لُوحَاتِ المَخْطُوطَاتِ التَّارِيخِيَّةِ. وَقَدْ بَلَغَ هَذَا الفَنِّ الدِّينِيُّ العُثمانيُّ دَرَجَةً عَالِيَةً مِنَ الكَمَالِ، وَنَجَحَ فِي التَّعْبِيرِ بِوَسَائِلٍ بَسِيطَةٍ نِسْبِيًّا عَنِ المُنَاحِ الرُّوحِيِّ المَصَاحِبِ لِلْمُعْجَزَاتِ أَوْ لِلتَّجَلِّيَّاتِ والإِشْرَاقَاتِ، وَظَلَّ الطَّائِعِ الدِّينِيُّ لِهَذِهِ المَجْمُوعَةِ الفَرِيدَةِ الفَذَّةِ طَائِعِيًّا عَلَى كُلِّ اللُّوحَاتِ، يُبْرِئُ الحَشْيَةَ وَيُوجِّجُ الوَرَعَ وَيُسْعِلُ جُدُودَ الإِيمَانِ.

الفصل السادس والعشرون

المرحلة الأولى :

عصر الوثائق التاريخية

بين عهد سليمان الأول وعهد عثمان الثاني

١٥٢٠ - ١٦٢٢ م.

سليم نامہ: (١٥٢٠ - ١٥٢٥)

سليماً الأول على رأس جنوده في مواجهة جُند الروم (لوحه ٣٢٨م). والجدير بالتّويه أنّ مخطوطة سليم نامہ هي أقدم المخطوطات التاريخية التي بقيت لنا والتي أنجزها فتّانو مراسيم السلطان العثماني. وبذلك تظلّ هذه المخطوطة رُغم خصوصيتها أمّ السجلات التركية المصورة الفريدة. وهي مع ذلك لم تظهر كثيراً بمحاكاة المقلدين، فبدلاً من أن يحدو مصوّر الموضوعات التاريخية في العهود التالية حذوها مُتمثلين أسلوبها، انبرؤا يبحثون في اتجاه آخر عمّا يستوحون منه أعمالهم.

وصف مراحل حملة السلطان سليمان في العراقين العربيّ والفارسيّ :

ومن أوائل المخطوطات المصورة المحفوظة بمكتبة الجامعة باستنبول نسخة من «وصف مراحل حملة السلطان سليمان في قطريّ العراقين العربيّ والفارسيّ» بقلم نصوح الصّلاحي مطرقي سنة ١٥٣٧. وقد استخدّم الكاتب المصوّر لمصوّراته منهجاً وسطاً بين طريقة التّعبير الموضوعيّ كما هي الحال في الخرائط وبين زخرفة المُنمنّات المتوهّجة، عند وصفه للمعسكرات والمواقع الحربيّة والمدن التي اجتازها السلطان. ولم يُغفل الكاتب المصوّر العناصر العابرة مثل دور السكّنى والحصون والمزارع والأتهار والجسور والجبال، ولكّته نأى عن تصوير العناصر البشريّة، وإن كان قد صوّر أحياناً الحيوانات والسفن، وعَمَد إلى تقديم هذه العناصر في ألوان زاهية بالحياة والبهجة وكأنّه يَصوّر مجموعة من اللّعب الصّغيرة. وتعدّ هذه المصوّرات وثائق دالة ثمينة بعد اذلّثار الكثير من الأماكن التي ورَدَ وصفها (اللّوحتان ٣٢٩م، ٣٣٠م).

ويظهر تأثير الفنّ الأوربيّ بشكل واضح خلال هذه المخطوطة في التّكوينات التي تصوّر الحروب أو العلاقات مع الدّول المسيحيّة، فإذا إيقونوغرافية جديدة تتسلّل إلى الفنّ العثمانيّ مع

تنفرد مخطوطة «سليم نامہ» من نظّم سُكري الكردي بمكانة خاصّة من بين المخطوطات العثمانيّة التي تنتمي لِعهد سُلیمان الأول، وهي لا تحلّ أيّ إشارة تُفيد عن مصدرها ومكان تزيينها وتصويرها وزمانه، غير أنّ المرجّح أنّها نُسخت في استنبول، كما يدلّ أسلوب رسومها، على أنّ تنفيذها قد تمّ فيما بين عامي ١٥٢٠ و١٥٢٥م أي في ظلّ التّقاليد القديمة المسيطرة على المدرسة العثمانيّة، عهد بايزيد الثاني وسليمان الأول. وما بقيت المُنمنّات الأربع والعشرون التي تُزيّن هذا السّجل لِعهد السلطان «المهيب» ترتبط - من ناحية الأسلوب - بمدرسة شييراز في أواخر القرن الخامس عشر، وهي المدرسة التي يبدو أنّ تأثيرها كان عميقاً على المراسيم العثمانيّة في هذه الحقبة وفي الحقبة التي تلتها. وإذا كانت هذه التّصاویر تُشبه الأسلوب «الشيرازيّ التركمانيّ» من نواح عديدة إلّا أنّها تختلف عنه من نواح أخرى. ووجه الاختلاف الأوّل هو أنّ موضوعاتها تاريخيّة لا ضريب لها في الفنّ الفارسيّ ممّا حداً بأساندة مراسيم السّراي إلى السّعي الدؤوب نحو ابتكار كلّ صغيرة وكبيرة في لوحاتهم. ووجه الاختلاف الثاني هو من حيث أسلوب التّناول، فقد أدّت الموضوعات الجديدة - كما هي الحال في مثل هذه الطُروف - إلى خلق تقنيّة جديدة، وإلى مزيد من الحرّيّة في رسم الخطوط والتّحلل من التّقاليد القديمة. كما حداً ذلك أيضاً بالفنّانين إلى التّقل عن الملاحظة المباشرة للّتماذج الحيّة الجديدة التي لم يسبق التّصدي لها، وإلى خلق مشاهد لم يتناولها أساطين الفنّ الفارسيّ. فإذا بهذه اللّوحات الصّغيرة تكشف عن تلقائيّة الحركة وعن قدر كبير من الحرّيّة في تجميع الشّخوص بدلاً من التّقلّ الآليّ للّتماذج المكررة المُستهلكة، ممّا يُباعد بينها وبين الاتّفعال الذي يطبع معارك بغض أبطال الملاحم الفارسيّة، ومن ثمّ يُضفي عليها يسحة من البساطة الطّبيعيّة، مثل المُنمنّة التي تصوّر السلطان

موضوعات وشخصيات لا نظير لها من قبل.

سليمان نامه: (١٥٥٨)

وتُصوّر مخطوطة «سليمان نامه» (١٥٥٨م) من تأليف وتصوير نصح مطرقي الأحداث التي جرت أثناء حكم السلطان سليمان العظيم بمناسبة اغتلائه العرش. وهي المخطوطة التاريخية المصورة الثانية التي بقيت لنا من عهد السلطان العظيم. وإذا كانت المخطوطة الأولى وهي «سليم نامه» ترجع إلى بداية حكمه ونُفذت لوحاتها وفقًا لتقاليد الفن الإيراني، فقد جاءت المخطوطة الثانية على العكس من ذلك، إذ أُنجِزت قُرب نهاية عهده. وقد صُوّرت لوحاتها بريشة العديد من الفنانين، لذا فهي تُشكّل مزيجًا عجيبًا من الاتجاهات المختلفة التي كانت سائدة في ذلك الحين والتي حاول كلٌّ منها أن يقرض وجوده على الفن العثماني خلال تلك الفترة. فعلى حين نرى فيها أعمالًا تتبع الأسلوب الصفوي الكلاسيكي مثل تصوير رحلات الصيد الملكي التي تُشبه الموضوعات التي صُوّرت في الأعوام ما بين ١٥٣٠ و١٥٤٠، يتجلى الطابع التركي بخاصة في الأزياء العثمانية.

وتعدّ صور هذه المخطوطة مرحلة جديدة في تطوّر مدرسة السلطان العظيم، فبينما كانت صور المخطوطات السابقة كلها تنم عن عميق تأثرها بالفن الفارسي بمختلف تياراته مثل مدارس هراة وشيراز وتبريز التي كانت تقتبس عنها الكثير من العناصر وتحوّرها لتتمسّح مع روح الفن المحلي، تضمّ منمنمات سليمان نامه إلى هذا كله شواهد قليلة وعناصر نادرة تشي بوجود اتصال بالغرب تتجلى في مناظر العمارة، مثل المنمنمة التي تُصوّر حفلًا يُقدّم فيه كبار موظفي الدولة فروض الولاء والطاعة إلى السلطان سليمان العظيم بمناسبة اغتلائه العرش (لوحة ٣٣١م). فترى السلطان مُتربّعًا على عرشه تحت باكية من البواكي الأربع التي استغرقت عرض الصورة من أعلى، بينما ظهرت القباب ذات الطابع التركي تتخللها أشجار السرو على خط الأفق، وانكفأ أحد كبار الموظفين ساجدًا يُقبل قدّمي السلطان، على حين اضطف كبار رجال الدولة في الحديقة في شكل نصف دائرة كلٌّ ينتظر دوره لتقبيل قدّمي السلطان. ومما يريح بصر الراي توزيع الألوان المتألّفة والمتباينة على ثياب القوم بثقوشها الخلابة، وكذا على بلاطات خزف الأرضية ساهية الزرقة بإطارها الأزهي، وبلاطات خزف حائط الرواق البنفسجية الشاحبة برسومها المشغولة وكأنّها ستر من فُماش مُسوج.

ولم يظهر تأثير الفن الأوربيّ، جليًا في التصوير التاريخي

العثمانيّ إلّا ابتداءً بمخطوطة «سليمان نامه» في عام ١٥٥٨م مع أنّ أثره بدأ يعرف طريقه إلى فنّ التصوير مُنذُ بداية حكم السلطان مُحمّد الفاتح. كما أنّ الموضوعات التي تُصوّرها المخطوطة مثل الحروب ضدّ المجر والإمبراطورية الرومانية المقدّسة وقرّسان مالطة والبندقية كانت تشدّ الفَتانين العثمانيين إلى الغرب وتدفعهم إلى محاكاة تصاويره وأشكاله الفنيّة المصورة. وتُستجّل مُنمنمة أخرى من المخطوطة نفسها لحظة عودة السلطان سليمان القانونيّ مُظفّرًا إلى قلعة رودس بعد جلاء الأعداء، وقد ظهر السلطان في الرُكن الأيسر من مُقدّمة الصورة مُمتطيًا جواده حاملًا عصا القيادة بيّنا يُساق الأسرى بين يديه وقد شدّوا من رقابهم بحبل وعلى رؤوسهم قلنسوات حمراء ذات حواف عريضة. وإلى يمين اللوحة ظهر كبار القادة يُشرفون على تطهير المدينة من قُلل الأعداء إمّا يقتلهم كما يبدو في أعلى الصورة أو بالقنص عليهم وأسرهم، ومن بينهم مجموعة من السبايا على خطّ الأفق المرتفع يؤلّون نائحات على ما صار إليه حالهنّ وحال قوّمهنّ من مهانة وانكسار (لوحة ٣٣٢م). ويستمرّينا الترتيب الحاذق للشخص الآدمي في صفوف مائلة، والخطّ المائل في التصوير يوحي بالحركة وعدم الاستقرار، الأمر الذي يواكب سير الأحداث فوق ربّي ذات لون أزرق باهت مُغطّاة بشجيرات البراري. وجاءت خطة ألوان المصور موفقة من حيث القصد في استخدام الألوان الصارخة إلّا عند الضرورة كالأعلام المرفرفة وثياب الجنّد في مُقابلة بليغة مع ألوان الخليفة والعماير التي بدّت في ألوان كابتة.

نُزهة الأسرار والأخبار «سفر سكتوار»:

ومضى الأسلوب «التاريخي» الجديد الذي ظهر في نهاية عهد سليمان الأول يتطوّر حتّى بلغ شأواً كبيرًا في العشرين منمنمة التي تُزيّن مخطوطة نُزهة الأسرار والأخبار «سفر سكتوار» لأحمد فريدون باشا المؤرّخة عام ١٥٦٨/١٥٦٩م. ولا يُعدّ الأسلوب الجديد في تصوير الحوادث التاريخية الذي يُميّز هذه الصور نقلاً أو محاكاة مُتقنة للتصوير الفارسيّ أو للتصوير الأوربيّ، إذ تنحصر الوشائج القليلة التي ظلّت تربطها بالفنّ الفارسيّ في الخطوط العامة المشتركة بينهما؛ وأولها خلوها من الجوّ المحيط مثل الغيوم والضباب بأشكاله المختلفة، وثانيها اختفاء الإضاءة أي انعكاسات الضوء والظلال، وثالثها وضوح الرّسم واتّصاله وتجاهل تجسيم الأشكال، ورابعها غياب البعد الثالث فإذا المشهد يبدو مُسطحًا بلا عمق سواءً في تصوير الشخص أو سواها، على نحو ما نشهد في المنمنمة التي تُغطّي صفحتين مُتقابلتين تُصوّر حفل اغتلاء السلطان سليم الثاني العرش في

وهي لإنشاجي [أي حامل أختام السلطان] (١٥٧٩م) مُرَيَّة بِتَسْعِ صُورٍ، وَمَحْفُوظَةٌ بِمَكْتَبَةِ الدَّوْلَةِ بِقِيَّيْنَا. أَمَّا الثَّانِيَّةُ وَهِيَ لِلْقِمَانِ (١٥٧٩م) فَتَحْتَوِي عَلَى خَمْسٍ وَعِشْرِينَ صُورَةً، مَحْفُوظَةٌ بِمَكْتَبَةِ شَيْسَرِ بَيْتِي بِدَبْلُن. وَتُحَاكِي صُورَ هَاتَيْنِ الْمَحْطُوطَتَيْنِ مِنْ جِهَةِ الْأَسْلُوبِ، صُورَ الْأَعْمَالِ التَّارِيخِيَّةِ فِي عَهْدِ سَلِيمِ الثَّانِي الَّتِي تَنْتَمِي بِدَوْرَهَا إِلَى التَّقَالِيدِ الَّتِي أَسَاسَهَا أَسَايَذَةُ التَّصْوِيرِ فِي عَهْدِ السُّلْطَانِ سُلَيْمَانَ الْأَوَّلِ. وَيُلَاحَظُ فِيهَا دِقَّةَ الرَّسْمِ وَتَصْوِيرَ الْأَشْخَاصِ الرَّبْعَةِ بِأَحْجَامِهِمِ الصَّغِيرَةِ الشَّبِيهِةِ بِالْذِمَى، كَمَا يَتَضَحُّ فِيهَا أَيْضًا الْمِثْلُ الشَّدِيدُ إِلَى إِثَارِ الْخُطُوطِ الْمُسْتَقِيمَةِ وَمَا يُضْفِي عَلَيْهَا مَظْهَرَ الْجُمُودِ. وَبِمَكْنَانِ أَنْ نُضِيفَ سِمَةً أُخْرَى تَتَجَلَّى فِي بَعْضِ هَذِهِ اللَّوْحَاتِ أَلَا وَهِيَ مُحَاوَلَةُ التَّزَامُ التَّرَاصُفِ وَمَا يَزِيدُ مِنْ مَظْهَرِ الْإِفْتِخَالِ وَالتَّكَلُّفِ الْغَالِبِينَ عَلَى التَّكُونَاتِ الْفَنِيَّةِ، لَا سِوَا فِي صُفُوفِ الذِمَى الْمُتَرَاصَّةِ فِي وَضْعَاتٍ مُتَمَاثِلَةٍ جَامِدَةٍ.

شاهنامه مراد الثالث:

وَيَنْتَمِي إِلَى طِرَازِ هَاتَيْنِ الْمَحْطُوطَتَيْنِ مَحْطُوظَةٌ ثَالِثَةٌ بِاسْمِ «الشَّاهَنَامَةِ» وَهِيَ مَلْحَمَةٌ تَارِيخِيَّةٌ بِالشَّعْرِ الْفَارِسِيِّ تَصِفُ الْأَحْدَاثَ الَّتِي وَقَعَتْ فِي عَهْدِ مُرَادِ الثَّالِثِ لِمَوْلَاهَا الشَّاعِرُ لَقْمَانَ (١٥٨٥م)، وَقَدْ رُيِّتُ بِخَمْسٍ وَتِسْعِينَ صُورَةً خُصِّصَتْ اثْنَتَانِ وَأَرْبَعُونَ مِنْهَا لِتَصْوِيرِ أَحْيَالَاتِ خِتَانِ مُحَمَّدٍ نَجَلِ السُّلْطَانِ مُرَادِ الثَّالِثِ الَّتِي اسْتَمَرَّتْ مَا يَزِيدُ عَلَى خَمْسِينَ يَوْمًا، وَلَعَلَّهَا كُلَّهَا بِفَرَّشَةِ لَقْمَانَ الْمَوْلَّافِ نَفْسِهِ. وَقَدْ نَفَّذَتْ بِالْأَسْلُوبِ «التَّارِيخِي» نَفْسُهُ الَّذِي نَفَّذَتْ بِهِ الْمَحْطُوطَتَانِ السَّابِقَتَانِ. وَقَدْ عَنِيَ الْفَتَانُونَ - عَلَى ذَرْبِ مَنْ سَبَقُوهُمْ - بِمُعَالَجَةِ الرَّتَابَةِ النَّاجِمَةِ عَنْ الْخُطُوطِ الْمُسْتَقِيمَةِ وَجُمُودِ الْأَشْخَاصِ بِإِبْدَاعِ تَشْكِيلَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ لِلْمَجْمُوعَاتِ، وَمِنْ ثَمَّ كَثِيرًا مَا لَجَأُوا إِلَى التَّكُونِ الْمُسْكَلِ حَوْلَ الْمَرَكَّزِ الَّذِي يَجْذِبُ نَظَرَ الْمُشَاهِدِ إِلَى بُؤْرَتِهِ فَيُخَفِّفُ مِنْ الْجُمُودِ الَّذِي تَنْسِمُ بِهِ شُخُوصَ اللُّوحَةِ. وَأَسْوَقُ مِنْ هَذِهِ الشَّاهَنَامَةِ مُنْمَنَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا تُصَوِّرُ دُخُولَ الْجُنُودِ الْأَتْرَاكِ بِقِيَادَةِ فَرْهَادِ بَاشَا غَازِيَا إِلَى مَدِينَةِ رَانَ فِي الْيَمَنِ (لَوْحَةٌ ٣٣٧م). وَلَنَلْصَقْ دِقَّةَ الرَّسْمِ وَتَصْوِيرَ الْأَشْخَاصِ الرَّبْعَةِ الْمَرْسُومَةِ بِأَحْجَامِ صَغِيرَةٍ شَبِيهِةٍ بِالْذِمَى. وَتُصَوِّرُ الْمُنْمَنَةَ الْأُخْرَى السُّلْطَانَ مُرَادَ الثَّالِثِ وَهُوَ يُزْجِي النَّصْحَ إِلَى وَلِيِّ عَهْدِهِ مُحَمَّدَ الثَّالِثِ (لَوْحَةٌ ٣٣٨م). وَيَلْفُتْنَا كَمَا سَبَقَ الْقَوْلُ إِثَارَ الْفَتَانِ لِلْخُطُوطِ الْمُسْتَقِيمَةِ وَمَا يُضْفِي عَلَى الْمَشْهَدِ صِفَةَ الْجُمُودِ، وَكَذَلِكَ التَّزَامُ التَّرَاصُفِ وَمَا يَسِمُهُ بِالتَّكَلُّفِ وَالتَّصَنَّعِ.

سورنامة:

وَتُزَيِّنُ مَجْمُوعَةٌ أُخْرَى مِنَ اللَّوْحَاتِ مَحْطُوظَةٌ «سورنامة» أَيْ

بَلْجَرَادٍ وَوُفُودِ الْمُهَيَّيْنِ الَّتِي تَنْتَظِرُ دَوْرَهَا فِي الْحَدِيقَةِ تَحْتَ ظِلَّةٍ قَبْلَ أَنْ تَتَوَافَدَ عَلَيْهِ لِلرُّكُوعِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَقْدِيمِ فُرُوضِ الْوَلَاءِ وَالطَّاعَةِ (اللُّوْحَتَانِ ٣٣٣م، ٣٣٤م). وَأَهَمُّ مَا يَلْفُتُ النَّظَرَ زَخَارِفُ الْخِيَامِ وَأَمَاكِنُ السُّكْنَى؛ وَمَعَ أَنَّ الشُّخُوصَ قَدْ رُسِمَتْ فَوْقَ خَلْفِيَّةٍ مَسْحَاءٍ، فَإِنَّ مَعَالِمَهَا لَمْ تَخْتَفِ وَسَطَ هَذِهِ الزَّخَارِفِ الْمُفْرِطَةِ. وَيَتَجَلَّى إِسْهَامُ الْفَنِّ الْغَرْبِيِّ أَسَاسًا فِي التَّرْزُوعَةِ الْوَاقِعِيَّةِ نَحْوَ تَصْوِيرِ الْأَشْخَاصِ بِقِسَمَاتٍ ذَاتِيَّةٍ، وَفِي رَسْمِ الْعِمَارَةِ الْمُحِيطَةِ أَوْ الدِّيْكُورِ الْوَعْمَارِيِّ الَّذِي بَاتَ يَجْنَحُ إِلَى اتِّبَاعِ قَوَاعِدِ الْمَنْظُورِ، مِثَالُ ذَلِكَ الْمُنْمَنَةِ الَّتِي تُصَوِّرُ السُّلْطَانَ سُلَيْمَانَ الْقَانُونِيَّ مُتَرَبِّعًا عَلَى عَرْشِهِ وَسَطَ حَاشِيَتِهِ وَقَدْ رَكَعَ أَمَامَهُ رَسُولٌ مِنَ الْمَجَرِّ يُقَدِّمُ لَهُ فُرُوضَ الْوَلَاءِ وَالطَّاعَةِ (لَوْحَةٌ ٣٣٥م).

وَهَكَذَا يَتَطَوَّرُ التَّصْوِيرُ التَّارِيخِيُّ الْعُثْمَانِيُّ فِي إِطَارِ هَذِهِ الْمَبَادِئِ مَعَ ظُهُورِ عَدَدٍ آخَرَ مِنَ الْعَنَاصِرِ الْإِيْقُونُوجَرَفِيَّةِ مِثْلُ شَجَرِ السَّرْوِ وَالشَّجَرَاتِ الْمُزْهِرَةِ وَالسُّحْبِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ. وَإِذَا أَنْعَمْنَا النَّظَرَ نَلَاظِحُ كَمَا سَبَقَ الْقَوْلُ إِثَارَ الْفَتَانِ الْأَتْرَاكِ لِلْخُطُوطِ الْمُسْتَقِيمَةِ فَهُمْ لَا يَكْتَفُونَ بِإِبْرَازِ الْخُطُوطِ الرَّأْسِيَّةِ وَالْأَفُقِيَّةِ لِلدِّيْكُورِ وَالْخَلْفِيَّاتِ فَحَسَبَ، بَلْ يَهَيِّمُونَ أَيْضًا بِإِظْهَارِ تَرْتِيبِ صُفُوفِ أَفْرَادِ الْحَاشِيَّةِ وَاقِفِينَ بِلَا حَرَكَ كَالْتِمَازِيلِ الْمُحْتَشِدَةِ حَوْلَ الْعَرْشِ الْإِمْبَرَاطُورِيِّ. كَذَلِكَ نَجَحُوا فِي الْإِيْحَاءِ بِالْقُوَّةِ الْمَجْتَاحَةِ الَّتِي تَنْبَدُ فِي صُفُوفِ الْمَشَاةِ وَالْفُرْسَانِ الْمُتَدَفِّقِينَ بِلَا نِهَآيَةٍ وَهُمْ يَتَحَرَّكُونَ بِبَطْءٍ فَوْقَ الْبِطَاحِ وَالْجِبَنِ وَكَأَنَّهُمْ نَعَمٌ يَتَرَدَّدُ بِانْتِظَامٍ رَتِيبٍ بِلَا نِهَآيَةٍ.

وَتَحَرَّرَ الصُّورُ شَيْئًا فَشَيْئًا مِنَ الثَّقَلِ وَالْجُمُودِ حِينَمَا تَنْتَقِلُ مِنْ تَصْوِيرِ لِقَاءَاتِ السُّلْطَانِ وَاسْتِغْرَاضِ جُنُودِهِ إِلَى تَصْوِيرِ مَشَاهِدِ الْمَعَارِكِ، فَنَشْهَدُ الْمُبَارَزَاتِ الْفَرْدِيَّةَ وَمَشَاهِدَ الْقِتَالِ بَيْنَ الْمَجْمُوعَاتِ فَوْقَ أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ الَّتِي تَحْتَلُّ جُلَّ مِسَاحَتِهَا الْوَحْدَاتِ الْمُتَرَاصَّةِ فِي نِظَامٍ دَقِيقٍ مُشْكَلَةٍ كُنْتَلًا كَثِيفَةً تَبْرُزُ فِيهَا الْخُطُوطُ الْمُسْتَقِيمَةُ. وَيُصَوِّرُ الْفَتَانُ التُّرْكِيُّ بِدِقَّةٍ شَدِيدَةٍ وَتَنَوُّعَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ تَجْمَعَاتِ الْجُنْدِ وَخُشُودَهُمْ بِطَرِيقَةٍ وَاقِعِيَّةٍ تُظْهِرُ أَدَقَّ الْوَضْعَاتِ وَالتَّشْكِيلَاتِ، بَلْ إِنَّ بَعْضَ الْمُنْمَنَاتِ قَدْ رُسِمَتْ مِنْ وَجْهَةٍ نَظَرُ طُوبُوعَرَفِيَّةٍ بَحْتَةٍ، وَأَسْوَقُ الْمُنْمَنَةِ الَّتِي تُصَوِّرُ حِصَارَ السُّلْطَانِ سُلَيْمَانَ الْقَانُونِيَّ لِقَلْعَةِ سَكْتَارِ فِي الْمَجَرِّ (لَوْحَةٌ ٣٣٦م) نَمُودَجًا لِهَذَا الطَّرَازِ.

وَيَتَمَيَّزُ عَهْدُ مُرَادِ الثَّالِثِ الْعَاجِلِ الْمُحِبِّ لِلْفُنُونِ بِإِنْجَازِ مَجْمُوعَاتٍ وَفِيرَةٍ مِنَ الْوُثَائِقِ الْمُصَوَّرَةِ الْمَحْفُوظَةِ حَتَّى الْآنَ، وَالَّتِي كَانَتْ مُتَدَاوِلَةً طِيلَةَ الْعِشْرِينَ سَنَةً الَّتِي عَاشَهَا هَذَا الْحَاكِمُ (١٥٧٤ - ١٥٩٥). وَتَعَدُّ الْمَحْطُوطَتَانِ اللَّتَانِ تَنْتَاوِلَانِ تَارِيخَ سُلَيْمَانَ الْأَوَّلِ أَقْدَمَ الْمَحْطُوطَاتِ الْمُصَوَّرَةِ لِهَذَا الْعَهْدِ. وَالْأَوَّلَى

الأول على حين تتناثر رؤوس القتلى تحت قوائم جواده (لوحة ٣٤٠م). وفي المشهد الذي يستريح فيه السلطان العثماني بعد فتح قلعة تنكريقان في طراقيا، يحتل بعض جنوده الذين يشبهون الدمي أسفل الصورة ممتورين خوذات ذهبية استولوا عليها ضمن الغنائم، على حين تشهد جندياً عثمانياً في أعلى الصورة يرفع العلم، بينما يسوق الجنود الأتراك خمسة من الجنود البلغار وامرأة تحمل طفلاً بعد سقوط الحصن (لوحة ٣٤١م). وفي مشهد يغلب عليه التأثر بالطابع الأوربي نرى الجصار الذي ضربه المجرّيون حول قصر نيجبولو والهجوم الليلي الذي شنه السلطان يلدرم بايزيد «الصاعقة». ويبدو قصر نيجبولو في الركن العلوي الأيسر، وإلى اليمين نرى الجنود المجرّيين في السهل وقد استسلم بعضهم للثوم على حين يقوم البعض الآخر بالجراحة وإعداد مدافع الجصار. ويظهر السلطان يلدرم بايزيد ممتطياً جواده في أقصى يسار الصورة (لوحة ٣٤٢م).

بيد أن المصور عثمان قد اعتنى أسلوباً جديداً في المجلد الثاني لمخطوطة «هونرنامه» حيث أفرد لشخصها مكاناً أكبر ضمن مساحة الممنمات، وعُني بدراسة نسب أجسامها، بل وينسب أجسام الحيوان والخيّل بوجه خاص فبدت أقرب إلى الطبيعة، ثم أسنع على تكويناته ككل مزيداً من الرقة والرفافة. وآية ذلك ما نلمسه من أسلوب واقعي يجمع بين البساطة والرفعة في ممنمة زيارة السلطان سليمان القانوني لقبر الحسين بعد فتح بغداد (لوحة ٣٤٣م)، فلقد اهتم المصور هنا اهتماماً ملحوظاً بتنسيق عناصر التكوين، وتنوع ألوانه في ثراء محاكٍ للطبيعة، محققاً التوازن والانسيجام.

ونلمس في ممنمة ابن سليمان القانوني يشهد عرضاً للألعاب البهلوانية (لوحة ٣٤٤م) مزيداً من الاهتمام بنسب الجسم البشري وبحركات الشخص وهن يمارسون ألعابهم الغريبة فبدت أقرب إلى الطبيعة. وفي ممنمة السلطان سليم يشهد حفلات ختان أنجاله في ميدان السباق (لوحة ٣٤٥م)، وحفل ختان الأمير ابن سليمان العظيم (لوحة ٣٤٦م) نرى تطبيقاً كاملاً لأسلوبه الجديد. وفي مشهد أخاذ آخر يصور معركة موهاج - وهي واحدة من أهم حملات سليمان العظيم - (لوحة ٣٤٧م) يعود فنان هونرنامه إلى أسلوب السرد التاريخي الذي ظهر في عهد سليمان الأول، فنشهد في الجزء الأكبر من الصفحة جنود المشاة العثمانيين منحلرين فوق قوق التلال، ويتبنهم ويحجم يفوقهم جميعاً يخطر السلطان فوق صهوة جواده في عظمة وخيلاء. وفي الركن الأسفل تخیل الفنان معركة يشترك فيها جنود الخطوط الأمامية فوق سهل موهاج.

رسالة حفلات الختان التي أقيمت بمناسبة ختان الأمير ولي العهد في عام ١٥٨٢م. وقد بُدئ في رسم اللوحات وعددها أربعمئة وسبع وثلاثون صورة في هذا التاريخ واستمر ليضع سنوات، واشترك في رسمها كبار فنان السراي. وتقل الصور مسيرات جماعات التجار والجرفيين الذين يمثلون مختلف الصناعات والأنشطة التي يزاولها أهل العاصمة، على حين لا تتغير الخلفية فهي دائماً حلبة السباق «آق ميدان» التي ينتصب في نهايتها إيوان مرتفع يطل منه السلطان وإثنه على المسيرات العديدة ومشاهد الرافضين والمهرجين الذين يصاحبونها في بغض الأحيان. على أنه من المسلم به أن الفنانين الأتراك حاولوا جهدهم معالجة الرتابة التي تثقل تلك المسيرات، التي وإن اختلف بعضها عن بعض إلا أنها تحتشد دائماً أمام الخلفية نفسها. وللتخفيف من حدة وتكرار الخطوط الرأسية التي يتطلبها تصوير عدد كبير من الرجال الوقوف والسائرين لجأوا تارة إلى تجزئة المسيرة إلى أكثر من تجمع غير منتظم، وتارة أخرى إلى التوفيق بين الألوان المتجانسة أو المتضادة حتى تشد انتباه الناظر بعيداً عن جمود الخطوط والتكوين الخطي. ويسيطر أسلوب التسجيل التاريخي الدقيق الجامد على كل صور السورنامه، وتظل نسب أجسام الأشخاص ضئيلة، وحركاتهم قاصرة عن بلوغ مداها ووضعاتهم يرين عليها الجمود مما يكسبهم مظهر الدمى المتحركة باستثناء مجموعة واحدة من هذه اللوحات استخدم المصور فيها نسباً أكبر لتصوير الأشكال الآدمية.

هونرنامه :

وتعدّ لوحات مخطوطة هونرنامه «رسالة الفن» السجل التاريخي الضخم للمؤرخ الرسمي للسلطان الشاهنامجي لقمان، والتي تمت بين عامي ١٥٨٤ و ١٥٨٨، قمة التصوير التاريخي في عهد مراد الثالث. وقد عكف عثمان، وهو أشهر رسامي عصره، وتلاميذه على تصوير الغالبية العظمى للوحات المجلدين اللذين بقيا لآن. وتتبع بعض هذه الصور وبخاصة في المجلد الأول نوعية الرسوم التاريخية نفسها التي أرسيت تقاليداً في مخطوطات العهد السابقة، فتلاحظ فيها صور الأشخاص الصغيرة والصغيرة الرعة التي حفلت بها صفحات مخطوطات سليمان نامه وسليم نامه، كما تبدو الخيل فيها أيضاً في المظهر البدائي نفسه الذي يجعلها أشبه بالدمى، مثل ممنمة السلطان عثمان الغازي مؤسس الدولة العثمانية وهو يشاهد مروّض الحيوانات يستعرض قدراته في عرض خاص لتدريب الأسد، وقد كُتب في أعلى الممنمة «يحسن الخلق يمكن ترويض الأسد» (لوحة ٣٣٩م)، ومثل الممنمة التي تصور أسيراً صقياً يساق إلى السلطان سليم ياوز

نصرت نامہ [كتاب النصر] تأليف المؤرخ عالي ١٥٨٤.

مُنَمَّنَتَانِ لِلجَيْشِ التُّرْكِيِّ فِي طَرِيقِهِ إِلَى حَمَلَةِ الْقُوَاز فِي
أَبْرِيل ١٥٧٨. مُتَحَف طُوب قَابُو بِاسْتَنْبُول.

تكشف المُنَمَّنَتَانِ (لَوْحَة ٣٤٨م) تَحْتَ سَمَاء ذَهَبِيَّة سُفُوح
تِلَال زُرْقَاء وَمِيدَانًا بِتَفْسِجِيٍّ فَسِيحًا يَمُور بِأَعْدَادِ غَفِيرَةٍ مِنْ
الْمُقَاتِلِينَ فِي تَكْوِينٍ فَتِّيٍّ شَدِيدِ الْإِزْدِحَامِ يُوحِي بِالتَّأَهُبِ وَالتَّوَحُّدِ
مِنْ خِلَالِ خَطْوِهِمْ جَمِيعًا فِي اتِّجَاهٍ وَاحِدٍ. وَكَانَ مَشْهَدُ الْجَيْشِ
التُّرْكِيِّ عِنْدَ الْإِحْتِشَادِ لِلْقِتَالِ مِنَ الْمَشَاهِدِ الَّتِي يَحْرُصُ أَهَالِي
إِسْتَنْبُولَ عَلَى مُشَاهَدَتِهَا كُلَّمَا لَاحَ شَبَحَ الْحَرْبِ عَلَى حُدُودِ
الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ الْعُثْمَانِيَّةِ الشَّاسِعَةِ. وَكَانَ عِمَادُ الْجَيْشِ التُّرْكِيِّ
قُوَّتَيْنِ: الْقُوَّةُ النَّظَامِيَّةُ الْمُعَسَّكِرَةُ بِالْعَاصِمَةِ، وَالْقُوَّةُ الْإِحْتِيَاظِيَّةُ
الَّتِي تَمَدَّهَا أَقَالِيمُ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ بِالْمُحَارِبِينَ.

وَفِي وَسْطِ الصُّورَةِ إِلَى الْيَمِينِ نَرَى الْقَائِدَ الْعَامَّ لَا لَا مُصْطَفَى
بَاشَا وَقَدْ بَدَأَ فِي صُورَتِهِ الْحَقِيقِيَّةِ وَلَكِنْ أَكْبَرَ حَجْمًا مِمَّنْ حَوْلَهُ،
مُرْتَدِيًا زِيًّا أَحْمَرَ وَمِعْطَفًا أَزْجَوَانِيًّا وَغِمْدَ خَنْجَرٍ ذَهَبِيًّا وَقَدْ امْتَطَى
صَهْوَةً جَوَادٍ ذِي جُلٍّ مُزْرَكَشٍ يَتْبَعُهُ غُلَامَانِ وَسَطَ مَوْكَبٍ يَرْفَعُ
الْأَعْلَامَ. وَتَضَمَّنَ حَاشِيَتُهُ فِيمَنْ تَضَمَّنَ الْمُصَوِّرِينَ وَالْمُؤَرِّخِينَ
لِتَسْجِيلِ وَقَائِعِ الْقِتَالِ. وَيَزِيدُ مِنْ رَوْعَةِ الْمَشْهَدِ جَوْقَةُ الْمَوْسِيقَى
وَهِيَ تَخْطُو خُطُوطَ عَسْكَرِيَّةٍ بَيْنَا نَعْرِفُ عَلَى الْآلَاتِ الْمَوْسِيقِيَّةِ
التَّقْلِيدِيَّةِ الْمُنْخَلِجَةِ إِلَيْهَا مِنْ أَوَاسِطِ آسِيَا الْأَحْنَاءِ حَمَاسِيَّةً. وَكَانَتْ
السُّفُنُ الشَّرَاعِيَّةُ الَّتِي يَتَوَلَّاهَا بِحَارَةٌ مِنَ الْجَزَائِرِ وَتُونِسَ التَّابِعَتَيْنِ
لِلْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ الْعُثْمَانِيَّةِ تَقُومُ بِنَقْلِ الْجِيُوشِ عَبْرَ الْبُوسْفُورِ بَيْنَمَا تَهْدِرُ
مَوَاقِعُ الْقِلَاعِ الْحَرِّيَّةِ وَالْفَنَارَاتِ بِطَلْقَاتِهَا نَجِيَّةً لِيُجْنُودِ الْحَمَلَةِ قَبْلَ
رَحِيلِهِمْ. وَعَلَى غِرَارِ تَقَالِيدِ أَوَاسِطِ آسِيَا كَانَتْ تُنْصَبُ خَيْمَةٌ
لِلْإِحْتِفَالَاتِ خَارِجَ أَسْوَارِ الْمَدِينَةِ بِالْقُرْبِ مِنْ أَحَدِ الْمَسَاجِدِ
الصَّغِيرَةِ مِثْلَ الْمَسْجِدِ الَّذِي نَرَاهُ فِي الرُّكْنِ الْعُلُويِّ الْأَيْسَرِ
لِلْمَشْهَدِ حَيْثُ تُقَامُ الصَّلَوَاتُ الَّتِي تَدْعُو لِلْجَيْشِ بِالنَّصْرِ الْمُؤَزَّرِ.
وَمِنْ خَلْفِ الْقَائِدِ الْعَامِّ يَحْتَالُ قُرْصَانُ السُّلْطَانِ فَوْقَ خَيْلِهِمُ الْمَطْهَمَةِ
الْبَدِيدَةِ الْأَلْوَانِ، عَلَى حِيْنٍ يَرْتَدِي الْخَيْالَةُ ذُوو الرِّمَاحِ أَزْيَاءَ
وَحُودَاتٍ لَا تَخْتَلِفُ كَثِيرًا عَنْ أَزْيَاءِ أَسْلَافِهِمُ التُّرُكْسَانِيِّينَ مِنْ
الْقُرْنِ الثَّامِنِ. وَتَحْمِلُ فِرْقُ الْجَيْشِ أَعْلَامًا وَرَايَاتٍ تَسْدُلُ مِنْ
أَعْلَاهَا خُصْلٌ مِنْ ذُبُولِ الْخَيْلِ شَأْنُ جِيُوشِ أَوَاسِطِ آسِيَا الْغَابِرَةِ.
وَيَتَقَدَّمُ الْقَائِدُ الْعَامُّ مَشَاةً الْإِنْكَشَارِيَّةَ بِأَعْطِيَةِ رُؤُوسِهِمُ الْأُسْطُوَانِيَّةِ
مِنَ اللَّبَادِ، وَقَدْ حَمَلَ ضَبَاطُهُمْ شَارَاتٍ فِرَقَهُمْ وَفِيَالِقَهُمْ.

وَفِي الرُّكْنِ الْأَعْلَى الْأَيْمَنِ مِنْ مُنَمَّمَةِ الصَّفْحَةِ الْيُسْرَى نَرَى
ثَلَاثَةً مِنْ حُكَّامِ الْمُقَاتَعَاتِ الْأَنَاضُولِيَّةِ الَّتِي تُتَاجِمُ مَنَاطِقَ الشُّغْبِ

وَالْتَمَرْدُ عَلَى حُدُودِ الْقُوَاز. وَكَانَ الْجَنَاحُ الْأَيْمَنُ لِلْجَيْشِ التُّرْكِيِّ
يَتَشَكَّلُ عَادَةً مِنْ جُنُودِ الْأَنَاضُولِ بَيْنَمَا يَتَشَكَّلُ الْجَنَاحُ الْأَيْسَرُ مِنْ
مُجَنَّدِي الْأَقَالِيمِ الْأُورُيَّةِ التَّابِعَةِ لِلْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ. وَكَانَ جُنُودُ لَا لَا
مُصْطَفَى بَاشَا الْأُورُيِّينَ مِنْ تَارِ شِبْهِ جَزِيرَةِ الْقَرَمِ، وَيَحْمِلُ جُنُودُ
سِلَاحَ الْمُهَنْدِسِينَ الْبَلَطَاتِ وَقَدْ تَدَلَّتْ مِنْ أَحْزَمَتِهِمْ. إِنَّهُ مَشْهَدٌ
يَقْصِدُ إِلَى الْإِبْهَارِ وَالْإِعْزَازِ وَالثَّقَّةِ وَإِنْ افْتَقَدَ التَّعْبِيرُ عَنْ مَشَاقِّ
الْقِتَالِ وَوَيَّلَاتِ الْحَرْبِ.

قِيَاةُ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي الشَّمَائِلِ الْعُثْمَانِيَّةِ:

وَتُعَدُّ مَجْمُوعَةُ صُورِ مَخْطُوطَةِ «قِيَاةُ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي الشَّمَائِلِ
الْعُثْمَانِيَّةِ» لِتَعْلِيْقِي زَادَةِ وَاحِدَةٍ مِنْ أَنْجَحِ الْأَعْمَالِ الَّتِي تُصَوِّرُ
السُّلَاطِينَ، وَقَدْ أُعِدَّتْ مِنْ أَجْلِ السُّلْطَانِ مُرَادِ الثَّالِثِ وَفِي
أَوَاخِرِ عَهْدِهِ.

وَلَقَدْ تَوَلَّى تَلَامِيذُ الْأُسْتَاذِ عُثْمَانَ تَنْفِيذَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ صُورَةً
لِسُلَاطِينَ الْعُثْمَانِيِّينَ، بَدَأَ مِنَ السُّلْطَانِ عُثْمَانَ الْأَوَّلِ حَتَّى مُرَادِ
الثَّالِثِ، نَقْلًا عَنِ الْأَصُولِ الَّتِي رَسَمَهَا أُسْتَاذُهُمْ. وَهَذِهِ الصُّورُ
وَإِنْ اتَّسَمَتْ بِالذِّقَّةِ وَالرَّهَافَةِ إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تَخُلْ مِنَ الْجُمُودِ إِذَا مَا
قُورِنَتْ بِالْأَصُولِ. وَبَدَأَ السُّلَاطِينَ كُلَّهُمْ فِي وَضْعَةٍ وَاحِدَةٍ،
مُتَرَبِّعِينَ عَلَى بُسْطٍ مَفْرُوشَةٍ عَلَى الْأَرْضِ. وَتَقْتَرِفُ الرُّسَامَةُ إِلَى
الْمُرُونَةِ وَالتَّلَقُّائِيَّةِ، وَيَزِيدُ مِنْ هَذَا الْإِحْسَاسِ الطَّرِيقَةُ الَّتِي
صُوِّرَتْ بِهَا الْأَقْمِشَةُ النَّعِيسَةُ حَيْثُ تَخْتَفِي مَكَاسِرُ الدِّيَاجِ وَطَيَّاتِ
الْحَرِيرِ وَهَفَافَةُ الْأَنْسِجَةِ الرَّهِيْفَةِ الَّتِي تَقْرُضُهَا وَضْعَةُ الْجُلُوسِ أَوْ
تُثِيرُهَا الْحَرَكَةُ وَخَطَرَاتُ النَّسِيمِ فَبَدَتْ الْمَلَايِسُ فَضْفَاضَةً تُخْفِي
مَعَالِمَ الْجِسْمِ أَكْثَرَ مِمَّا تُظْهِرُهَا، وَتَسْدِلُ صَمَاءَ دُونَ طَيَّاتٍ وَلَا
ثَنَاءٍ، وَدُونَ حَوَارٍ بَيْنَ ظِلِّ وَضُوءٍ عَلَى نَحْوِ مَا يَظْهَرُ فِي مُنَمَّمَةٍ
سُلَيْمَانَ الْقَانُونِيِّ وَابْنِهِ وَأَفْرَادِ حَاشِيَتِهِ (لَوْحَة ٣٤٩م).

ديوان نادري:

وَتَمَّةُ مَخْطُوطَةٍ أُخْرَى مِنَ الْمَخْطُوطَاتِ التَّارِيخِيَّةِ لَا تَبْرَحُ تَشْدُو
اِئْتِبَاهَ الدَّارِسِينَ، وَهِيَ مَخْطُوطَةُ دِيوَانِ «نَادَرِي» الَّتِي أُنْجِزَتْ عَهْدَ
مُحَمَّدِ الثَّالِثِ فِي الْقُرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ، وَتَحْتَوِي عَلَى تِسْعِ لُوحَاتٍ
مُصَوَّرَةٍ مِنْ أَدَقِّ نَمَازِجِ الْفَنِّ التُّرْكِيِّ، يَلْفَتُنَا إِلَيْهَا تَكْوِينَاتُهَا وَخُطَّةُ
أَلْوَانِهَا وَوَاقِعِيَّةُ التَّفَاصِيلِ الْمُعْمارِيَّةِ وَتَطْبِيقُهَا لِقَوَاعِدِ الْمُنْظُورِ، أَسْوَقُ
مِنْ بَيْنِهَا مُنَمَّمَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا لِمَوْكِبِ السُّلْطَانِ مُحَمَّدِ الثَّالِثِ فِي طَرِيقِهِ
إِلَى الْجَامِعِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَتَبْدُو «بَوَابَةُ هَمَايُونِ» الْمَلِكِيَّةِ فِي الْخَلْفِيَّةِ
(لَوْحَة ٣٥٠م). وَبَيَّنَّ اللَّوْحَةُ الثَّانِيَّةُ السُّلْطَانُ مُحَمَّدُ الثَّالِثُ وَحَاشِيَتُهُ
فِي مَجْلِسِ طَرَبٍ وَبَيَّنَّ يَدَيْهِ عَازِفَاتِ الدُّفِّ وَالْجُنَّكِ وَالتَّايِ، كَمَا
نَرَى شَخْصَيْنِ قَدْ غَابَا عَنِ الْوَعْيِ (لَوْحَة ٣٥١م).

شاهنامه إكري فتح نامہ:

وهناك شاهنامه صَنَّفَهَا نيساري عَهْدَ السُّلْطَانِ مُحَمَّدٍ الثَّالِثِ، وأُطْلِقَ عَلَيْهَا اسْمُ «إِكْرِي فَتَحْ نَامَه» أَي رِسَالَةِ فَتْحِ نَامَه، وَصَوَّرَهَا نَقَاشَ حَسَنٍ. وإِكْرِي هِيَ قَلْعَةٌ بِمَدِينَةِ أَرْلَادَ بِالْمَجَرِّ، فَتَحَهَا مُحَمَّدُ الثَّالِثُ عَامَ ١٥٩٦م، وَاشْتَهَرَ بَعْدَهَا بِاسْمِ فَاتِحِ إِكْرِي. وَتَضَمَّتِ الْمَخْطُوطَةُ أَرْبَعَ مُنَمَّنَاتٍ تُصَوِّرُ مَرَايِلَ الْحَمَلَةِ، مِنْ بَيْنِهَا ثَلَاثٌ تَسْتَعْرِقُ كُلٌّ مِنْهَا صَفْحَتَيْنِ مُتَقَابِلَتَيْنِ كَامِلَتَيْنِ. وَتَلْتَزِمُ الْمُنَمَّنَاتُ مِنْ حَيْثُ خُطَّةُ أَلْوَانِهَا وَتَكُونِيَاتُهَا أَسْلُوبَ الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ، وَإِنْ جَاءَتْ أَقَلُّ مُسْتَوًى.

وَتَكْشِفُ مُنَمَّنَةُ «مَعْرَكَةُ عَسْكَرِيَّةٍ لِعَزْوِ إِكْرِي» (لَوْحَةُ ٣٥٢م) عَنْ تَطْبِيقِ أَسْلُوبِ السَّرْدِ التَّارِيخِيِّ، وَتَرَى فِي الْمُنَمَّنَةِ الثَّانِيَةِ (لَوْحَةُ ٣٥٣م) السُّلْطَانُ مُحَمَّدٌ مُتَمَطِّيًا صَهْوَةً جَوَادَةً فِي «جِسْمَةٍ وَجَلَالٍ» وَسَطِ حَاشِيَّتِهِ فِي ظِلِّ الْعَلَمِ، يَسْتَقْبِلُ وَقَدْ الْمَجَرِّ وَهُوَ يَقْدَمُ إِلَيْهِ الرَّهَائِنَ مِنْ أُنْبَاءِ عَلِيَّةِ الْقَوْمِ.

فَنِّ الْبُورْتَرِيَّةِ

بَلَغَ فَنِّ تَصْوِيرِ الشُّخُوصِ «الْبُورْتَرِيَّةِ» ذُرْوَتَهُ فِي تُرْكِيَا حِينَ اسْتَطَاعَ الْفَنَّانُ تَسْخِيرَ فِرْشَاتِهِ بِنَجَاحٍ فِي تَسْجِيلِ التَّغْيِيرِ الْمُرْتَسِمِ عَلَى وَجْهِهِ شُخُوصِهِ، وَهُوَ مَا يَتَجَلَّى فِي صُورِ السَّلَاطِينِ الْبَلِيغَةِ التَّغْيِيرِ الَّتِي أَنْجَزَهَا الْمُصَوِّرُ حَيَّرَ الرِّيسَ الْمَشْهُورَ بِ«نِجَارِي» [أَي الْمُصَوِّرَ]، ثُمَّ مَا لَبِثَ بِذِكَاثِهِ أَنْ اُكْتُشِفَ كَيْفَ يَتَمَلَّقُ شَخْصَ سَلِيمِ الثَّانِي فِي الصُّورَةِ الَّتِي رَسَمَهَا لَهُ بِخُدُودِهِ الْمُتَنَفِّخَةِ وَوَجْهِهِ الْمُتَوَرِّدِ وَحِزَامِ بَطْنِهِ الضَّخْمِ. وَيَصِفُ لَنَا بوشبِيك سَفِيرَ إِمْبَرَاطُورِيَّةِ الْهَابْسْبُورْجِ لَدَى السُّلْطَانِ الْعُثْمَانِيِّ - فِيمَا سَجَّلَهُ مِنْ مُشَاهَدَاتٍ - حَقْلَ اسْتِثْبَالٍ بِالْبَلَاطِ مُشِيرًا إِلَى عِنَايَةِ الْمُصَوِّرِ بِالْبَيْئَةِ الْمُنَاسِبَةِ لِلشَّخْصِيَّةِ الَّتِي يُصَوِّرُهَا، وَهُوَ مَا نُجَسِّسُهُ جَلِيًّا فِي الصُّورِ الَّتِي سَجَّلَهَا الْمُصَوِّرُونَ بِمُنَاسِبَةِ حَفَلَاتِ الاسْتِثْبَالِ فِي بَلَاطِ الْقَصْرِ الَّتِي تُعَبِّرُ بِصِدْقٍ عَنْ مَظْهَرٍ مِنْ مَظَاهِرِ الْحَيَاةِ الرَّسْمِيَّةِ فِي عَصْرِ الْعُثْمَانِيِّينَ حَتَّى صَارَ سِمَةً أَسَاسِيَّةً مِنْ سِمَاتِ أَسْلُوبِ الْعَصْرِ. وَلَا تَقْتَصِرُ مَعْرِفَتُنَا بِالْحَيَاةِ التُّرْكِيَّةِ عَلَى مَا نَسْتَقْصِيهِ مِنْ مَوْلُفَاتِ الْغُرَبِيِّينَ فَحَسْبَ، فَهُنَاكَ عَدَدٌ لَا يُسْتَهَانُ بِهِ مِنَ الْمُصَوِّرِينَ الْأَتْرَاكِ تُمَثِّلُ مُنْجَزَاتِهِمْ مُصَدَّرًا ثَرًا لِلْأَلْمَانِ بِتَفَاصِيلِ هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَلَا أَذَلَّ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْمَجْمُوعَةِ الْهَامَّةِ مِنَ الصُّورِ الشَّخْصِيَّةِ لِلْسَّلَاطِينِ الْأَتْرَاكِ بِمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ إِحْيَاءَاتِ نَفْسِيَّةٍ. وَتَزْدَادُ قِيَمَةُ هَذَا الثَّرَاثِ الْفَنِّيِّ إِذَا أَخَذْنَا فِي الْاِعْتِبَارِ اسْتِخْدَاتِ فَنِّ تَصْوِيرِ الشُّخُوصِ لَدَى الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ أَنْ كَانَ مَحْظُورًا بِصِفَةِ شِبْهِ رَسْمِيَّةٍ.

وعكف الْفَنَّانُونَ فِي عَصْرِ مُرَادِ الثَّالِثِ (١٥٧٤ - ١٥٩٥) عَلَى

إِعْدَادِ صُورِ شَخْصِيَّةٍ مُتَخَيَّلَةٍ لِأَمْرَاءِ الْعُثْمَانِيِّينَ بِمَا فِي ذَلِكَ مُؤَسَّسُ أُسْرَتِهِمْ عُثْمَانُ الْأَوَّلُ. أَمَّا أَوَّلُ صُورَةٍ شَخْصِيَّةٍ حَقِيقِيَّةٍ نَسَخَهَا فَتَّانٌ عَنْ الْأَصْلِ الْحَيِّ فَهِيَ صُورَةُ مُحَمَّدٍ الْفَاتِحِ بِرِيْشَةِ الْفَنَّانِ سَنَانُ بَكْ (لَوْحَةُ ٣٥٤م) الَّذِي دَرَسَ عَلَى كِبَارِ الْمُصَوِّرِينَ فِي مَدِينَةِ الْبُنْدُؤِيَّةِ. وَهُوَ مَا يَتَّضِحُ مِنْ تِلْكَ الْأَنْطِبَاعَاتِ الْإِيطَالِيَّةِ الَّتِي يَكْشِفُ عَنْهَا تَنَاوُلُهُ لِفَنِّ تَصْوِيرِ الشُّخُوصِ وَطَرِيقَتِهِ فِي إِضْفَاءِ الْإِحْسَاسِ بِالتَّجَسُّمِ تَحْتَ تَأْثِيرِ الظَّلَالِ الَّتِي يُسْقِطُهَا عَلَى مَلَامِيحِ الْوُجْهِ وَعَلَى الْأَطْوَاءِ وَالْمَكَاسِرِ الَّتِي يَتَنَاوَلُ بِهَا مُعَالَجَةَ الثِّيَابِ.

وَقَدْ تَمَيَّزَ فَنِّ رُسُومِ الشُّخُوصِ التُّرْكِيِّ «الْبُورْتَرِيَّةِ» بِطَائِعِ خَاصٍّ هُوَ تَخَطُّيُّ الْجُزْئِيَّاتِ الْأَشْيَاءِ الْمَرْئِيَّةِ وَعَدَمُ وَقُوفِهِ عِنْدَ الْمَحْسُوسَاتِ الْمُشَاهَدَةِ، أَيِ إِنْ الْفَنِّ التُّرْكِيِّ قَدْ هَدَفَ دَائِمًا إِلَى عَدَمِ انْجِصَارِهِ فِي الْجُزْئِيَّاتِ الْمَرْئِيَّةِ تَعْبِيرًا عَمَّا هُوَ بَاطِنٌ وَرَاءَهَا. وَيَتَلَخَّصُ هَذَا الطَّائِعُ فِي الْجُرْصِ عَلَى تَجَاوُزِ الْمَرْئِيِّ إِلَى مَا هُوَ وَرَاءَ الشَّخْصِ مَوْضُوعِ الصُّورَةِ سِوَاهُ فِي ثِيَابِهِ أَمْ فِي حَرَكَاتِهِ التَّقْلِيدِيَّةِ، كَتَصْوِيرِهِ وَهُوَ يَهْمُ بِشَمِّ زُرْدَةٍ عَلَى سَبِيلِ الْوِثَالِ أَوْ وَهُوَ يَشُدُّ قَوْسَهُ لِيُطْلِقَ سَهْمًا. وَلَمْ يَزْتَصِ الْمُصَوِّرُ الْفَنَّانُ سَنَانُ بَكْ إِنْجَازَ صُورَةِ شَخْصِيَّةٍ نِصْفِيَّةٍ عَلَى طَرِيقَةِ الْإِيطَالِيِّينَ [مِثْلَمَا فَعَلَ بِلَلْبِنِي فِي صُورَتِهِ لِمُحَمَّدٍ الْفَاتِحِ]، بَلْ اتَّجَهَ إِلَى تَصْوِيرِ قَدَمِي مُحَمَّدٍ الْفَاتِحِ مِنْ دُونَ أَنْ يُوَفَّقَ فِي ذَلِكَ لِأَنَّهُ صَوَّرَ السَّاقَيْنِ بِأَسْلُوبٍ غَيْرِ دَقِيقٍ. وَقَدْ أَبْرَزَ بَدَانَتَهُ جِسْمَهُ لَتَكُونَ غَضْرًا مُقَابِلًا لِضَخَامَةِ وَجْهِهِ مُلَحًّا بِذَلِكَ عَلَى تَأْكِيدِ قُوَّتِهِ الْجِسْمَانِيَّةِ وَعَزِيمَتِهِ وَخَزْمِهِ الَّتِي هِيَ مِنْ مَقُومَاتِ شَخْصِيَّةِ السُّلْطَانِ. وَأَبْرَزَ الْمُصَوِّرُ طَائِعَ قُوَّةِ الشَّخْصِيَّةِ بِاسْتِخْدَامِ بَعْضِ الْأَلْوَانِ الْحَادَةِ فِي تَصْوِيرِ الْمَلَابِسِ وَالْوَجْهِ وَالْعِمَامَةِ. وَبِرَّغْمِ بَعْضِ نِقَاطِ الضَّعْفِ الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا بِحَقِّ مُؤَرِّخِ الْفَنِّ التُّرْكِيِّ أُوْكْتَايَ أَسْلَانَابَا، فَإِنَّ الصُّورَةَ تُمَثِّلُ - بِمَا لَا يَقْبَلُ الْجَدَلُ - الْقُوَّةَ وَالْعَظَمَةَ وَالشُّمُوخَ وَالْحَزْمَ وَالْبَسَالَةَ وَشَجَاعَةَ الرَّأْيِ فِي شَخْصِيَّةِ السُّلْطَانِ بِأَكْثَرِ مِمَّا حَقَّقَتْهُ صُورَةُ بِلَلْبِنِي، فَضْلًا عَنْ أَنَّ تَكُونِهَا قَدْ اتَّحَدَتْ فِيهِ عَنَاصِرٌ مِنْ تَصْوِيرِ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ، وَهِيَ إِلَى ذَلِكَ ضَرْبٌ مِنَ التَّشْرِيفِ وَالتَّجَيَّةِ اللَّائِقَةِ بِالْخَلِيفَةِ السُّلْطَانِ، وَهُوَ الْحَاكِمُ الْمَرْهُوبُ الَّذِي لَا يُبَايَعُهُ أَحَدٌ وَطُمُوحِهِ وَسُلْطَانُهُ الَّذِي اجْتَنَحَ بِإِلَازٍ تَصِيلَ بَيْنَ حَضَارَتَيْنِ شَامَخَتَيْنِ: الصِّينِ وَالْغَرْبِ.

وَتَمَّةُ صُورَةِ شَخْصِيَّةٍ أُخْرَى لِمُحَمَّدٍ الْفَاتِحِ رَسَمَهَا نَقَاشُ عُثْمَانُ خِلَالَ النِّصْفِ الثَّانِي مِنَ الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ كَتَبَ بِأَعْلَاهَا «السُّلْطَانُ مُحَمَّدُ الْفَاتِحِ اسْتَبُولُ كَانَ قَدْ تَوَلَّاهُ تَأْيِيدَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ» تَكَادُ تَنْطِقُ بِالسَّمَاتِ نَفْسَهَا (لَوْحَةُ ٣٥٥م).

أَمَّا «نِجَارِي» فَقَدْ تَنَاوَلَ مَوْضُوعَهُ (لَوْحَةُ ٣٥٦م) بِطَرِيقَةٍ مُخْتَلِفَةٍ تَمَامًا، فَهُوَ لَا يَدِينُ بِشَيْءٍ لِإِيطَالِيَا، وَإِنَّمَا عَلَى الْعَكْسِ

حاشية يقول فيها: «لَمْ أَرَّ مَمْلَكَةَ الرُّوسِ وَلَكِنِّي عَرَفْتُ بِطَرِيقَةِ حَفِيَّةٍ أَنَّ أَصَوْرَ بَرْبَارُوسَا هَكَذَا» (لَوْحَة ٣٥٧م).

وَتَمَّةٌ تَعَارُضُ بَيْنَ هَذِهِ الصُّوَرِ الشَّخْصِيَّةِ مِنَ الْعَصْرِ التَّقْلِيدِيِّ وَبَيْنَ تِلْكَ الَّتِي صُوِّرَتْ إِبْطَانِ اِزْدِهَارِ الْقَنِّ الْعُثْمَانِيِّ، نَسُوقُ مِنْهَا عَلَى سَبِيلِ الْمُقَارَنَةِ لَوْحَة «لُونِي» - وَهُوَ أَحَدُ كِبَارِ فَنَائِي الْبِلَاطِ فِيمَا بَعْدَ - صَوْرٍ فِيهَا أَحْمَدُ الثَّالِثُ وَابْنُهُ، وَلَمْ يَقْصِدْ مِنْهَا إِلَّا ضَرْبًا مِنَ الْمُبَاهَاةِ: الْمَلَابِسِ وَالْعَمَائِمِ ذَاتِ الْأُبْهَةِ وَالْعَرْشِ الْمُتَرَفِّ وَالسَّجَادِ الْمُزَيْنَ بِالزُّهُورِ وَالْجُدُرَانِ الْمَنْقُوشَةِ، غَيْرَ هَادِفٍ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا إِلَى تَأْكِيدِ ثَرَاءِ وَعَظَمَةِ «ظَلَّلَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ»، مِنْ دُونِ اهْتِمَامٍ بِجَلَاءِ الشَّخْصِيَّةِ الْبَاطِنَةِ لِلْمُلْطَانِ الَّذِي كَانَ فِي حَقِيقَتِهِ شَاعِرًا وَقَيْلَسُوفَ لَذَّةٍ، وَإِذَا بِهِ فِي الصُّورَةِ يَبْدُو حَاكِمًا مُسْتَبِدًّا غَلِيظَ الْكَبِدِ حَادَّ النَّظَرَاتِ يَفِّقُ ابْنَهُ الْأَمِيرَ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي وَجَلٍ وَرَهْبَةٍ (لَوْحَة ٣٥٨م).

يَعْمَدُ إِلَى مُوَاصَلَةِ فُنُونِ الشَّرْقِ الْأَذْنَى فِي تَنَاوُلِهِ التَّكْوِينِ الْمُسَطَّحِ مِنْ دُونِ إِضَافَةِ أَيِّ ظِلَالٍ إِلَى شَخْصِيَّاتِهِ وَأَلْوَانِهِ، وَكَانَ أَسْبَقُ الْمُصَوِّرِينَ إِلَى تَجَسِيدِ الشَّخْصِيَّةِ مِنْ خِلَالِ حَرَكَتِهَا، حَيْثُ نَرَى السُّلْطَانَ سَلِيمَ رَافِعًا ذِرَاعَهُ الْيُمْنَى فَوْقَ رَأْسِهِ مُمَسِّكًا قَوْسَهُ يَسْرَاهُ فِي وَضْعٍ يُشِيرُ إِلَى أَنَّهُ قَدْ أَطْلَقَ لِتَوْهٍ سَهْمًا فِي اتِّجَاهِ الْهَدَفِ مُتَابِعًا مَسِيرَتِهِ بِعَيْنِيهِ، بَيْنَمَا اسْتَعَدَّ تَابِعُهُ مِنْ خَلْفِهِ بِسَهْمٍ جَدِيدٍ عَلَى وَشْكَ أَنَّ يُنْبِلَهُ إِتْيَاهُ. وَتَمَّةٌ غُنْصُرٌ آخَرٌ مَلْحُوظٌ فِي الْوَقْتِ نَفْسُهُ إِلَى جَانِبِ دَلَائِلِ الْفُتُوَّةِ الْجَسَدِيَّةِ وَالْجُنُكَةِ الْقِتَالِيَّةِ هُوَ اسْتِعْرَاضُ الْأُبْهَةِ وَالْأَنَاقَةِ مِنْ خِلَالِ الثِّيَابِ الْبَاذِخَةِ الْمُوشَاةِ الَّتِي يَرْتَدِيهَا السُّلْطَانُ وَتِلْكَ الَّتِي يَرْتَدِيهَا الْغُلَامُ التَّابِعُ وَالشَّبِيهَةُ بِمَلَابِسِ النِّسَاءِ.

وَقَدْ رَسَمَ «نِجَارِي» - وَاسْمُهُ الْحَقِيقِيُّ الْمُصَوِّرُ حِيدَرُ - صُورَةَ شَخْصِيَّةٍ لِيُخَيِّرَ الدِّينَ بَرْبَارُوسَا أَمِيرَ الْبَحْرِ الْعُثْمَانِيِّ أَهْدَاها لَهُ مَعَ

الفصل السابع والعشرون

المرحلة الثانية :

عصرُ التَّيُولِيبِ

١٦٢٣ - ١٧٧٣ م.

التي باتت أنماطاً كلاسيكية، ما لبث أن اكتشف أنماطاً تصويرية جديدة مبتكرة.

وعلى نحو ما سبق أن ذكرنا، فإن التصوير العثماني قد ارتبط منذ نشأته بالتصوير الإيراني، وتأثر بالتيارات الأسلوبية الفارسية وإن لم يعن هذا الارتباط الوثيق نموه الطبيعي. وهكذا ظلت الأعمال التي أنجزت في استنبول بعد الفتح العثماني تنقل عن مدرسة شيراز عهد محمد الفاتح وبايزيد الثاني، ثم كان تأثير المدرسة الصفوية لشاه طهماسب هو الغالب، واستمر تأثيرها على ضفاف البوسفور على مدى القرن السادس عشر وفترة من القرن السابع عشر.

وكما رأينا، فإن الفن الصفوي الفارسي لم يتجمد بدوره عند مدرسة تبريز بل سرعان ما ظهرت مدرسة إصفهان عهد الشاه عباس الأول، وأحدثت تغييراً أسلوبياً كان بمثابة ثورة حقيقية في حقل التصوير الفارسي تسرب إلى الإمبراطورية العثمانية وانتشر بها، حيث ظلت العلاقات الثقافية والفنية بين البلدين على حالها وثيقة الصلة منذ قديم الزمان. ثم بدأت التأثيرات الأوروبية المتمثلة في فن الباروك^(١) عهد السلطان محمد تطفو

ببزوغ هذه الحقبة كان التصوير التركي قد غدا غنياً بتراث فني يزوّه به، آل إليه من القرن السابق حيث نما وترعرع في ظل ملوك رعاة للفنون مثل سليمان العظيم ومُراد الثالث. وقد جرى الحفاظ على هذا التراث الثمين بل إثراؤه في الربع الأول من القرن السابع عشر حتى تسلمه كبار الرسّامين الأتراك في مراسيم السلطان الشاب مُراد الرابع وخلفائه. وصحيح أن هذه الحقبة الجديدة لم تخلف أي سجلات تاريخية، وهي المخطوطات المُرئية بالرُسوم الدقيقة واللوحات الصغيرة المقاييس، إلا أنها خلّفت من الصور المفردة للمرقعات واللوحات والرُسوم كثرة تكفي شاهداً على أن جلوة تقاليد التصوير القومية لم تطفئ بل استمرت في التوهج تحت رعاية السلاطين الجدد، مصورة السلطان في أوج عظمته محاطاً بأبهة بلاطه.

وعلى الرغم من أن التصوير الديني الذي خفلت به كتب السيرة لم يعد يهيج نهج المصنّف الضخم ذي الأجزاء العديدة المُرئية بجنات الصور على غرار ما كان يحدث في القرن الماضي، إلا أنه لم يخف تماماً بل استمر معراج الرسول تبعاً يفيض بالوحي على الفنانين الأتراك، وإن ضاق نطاق نشاطهم في هذا المضمار. وفقدت لوحاتهم - بسبب صغر حجمها - تلك المهابة وهذا الجلال اللذين اتسمت بهما الصور المنخيلة للمعراج فيما سبق. وبرغم هذا كله فقد استمرّ الفنانون يعنون بتصوير شتى أحداث المعراج تبعاً لتقاليد الفنية السائدة وقتها.

وتابعت رسوم الشخصوس «الپورتريه» كذلك تطورها خلال القرن السابع عشر في إطار التقاليد التي رسخت خلال الحقبة السابقة، فنشهد دقة محاكاتها للتمازج التي نقلت عنها مع البساطة التامة في التفاصيل على نحو ما رأينا في پورتريه السلطان أحمد الثالث (لوحة ٣٥٨م). غير أن الفن العثماني إلى جانب تمسكه بالأساليب المتبعة من قبل، وبالأشكال التصويرية

(١) باروك: (Baroque): تطوّر فني نشأ قرب نهاية القرن ١٦ (١٥٨٠ - ١٧٢٠) خلال فترة ازدهار التّرجة التّكليفية، وتداعى عُقوائه بظهور طراز روكوكو rococo في القرن ١٨. وأصل الكلمة مُشتق من كلمة barocco البرّتغاليّة ومغناها اللؤلؤة الخام أو الخشنة. وهو ما يُشير، إلى حدّ ما، إلى ما يتطوي عليه طراز الباروك من عدم انّظام في الشّكل، وإن كان مقصوداً لذاته بغية إضفاؤه على الأثر الفنّي طابعاً مسرحيّاً جليلاً مهيّياً. ويتطوّر اصطلاح الباروك على كلّ من فنون العمارة والنّحت والتصوير، ويتجلى في أروع صوره عند اندماج الفنون الثلاثة كلّها معاً. ولا يجوز النّظر إلى الطّراز الباروكي من وجهة النّظر الجماليّة فحسب، فهو وثيق الارتباط بالظّروف الدّينية والاجتماعية والسياسية وبخاصة بحركة مناهضة =

التُرْكِيَّة بَلَغَتْ بِهِ أَوْجَ قِيَمَتِهِ عَلَى يَدِ الْفَتَّانِ «لُونِي» الَّذِي تَوَلَّى بِقُدْرَاتِهِ الْفَذَّةَ مَوَاهِبَ الْأَجْيَالِ الْأُولَى مِنَ الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ بِالْإِنْمَاءِ وَالْإِجْلَاءِ. لَقَدْ عَادَ هَذَا الْمُصَوِّرُ إِلَى تَنَاوُلِ ذَلِكَ الطَّرَازِ الْمَهْجُورِ وَهُوَ زَخْرَفَةُ السَّجَلَّاتِ الْمَلَكِيَّةِ، يَبْعَثُ فِيهَا الْحَيَاةَ مِنْ جَدِيدٍ، فَأَبْدَعَ لُوحَاتٍ تُصَوِّرُ الْإِحْفَاءَاتِ وَالْمَهْرَجَانَاتِ الَّتِي كَانَتْ تُقَامُ فِي «عَهْدِ التَّبُولِيبِ» [أَوِ اللَّالَةِ بِالتُّرْكِيَّةِ وَالْخَزَامِيِّ بِالْعَرَبِيَّةِ، وَهُوَ زَهْرٌ مِنْ فَصِيلَةِ الزُّبَيْبِيَّاتِ لَهُ بَصَلَةٌ وَأَزْهَارُهُ مُتَعَدَّةُ الْأَلْوَانِ]، وَهُوَ الْأَسْمُ الَّذِي أُطْلِقَ عَلَى عَهْدِ أَحْمَدَ الثَّالِثِ الْمَشْهُورِ بِبَذْخِهِ وَحُبِّهِ لِلْحَيَاةِ الرُّغْدَةِ وَالطَّبِيعَةِ الْمَرِحَةِ. وَلَا تَنْحَصِرُ أَهَمِّيَّةُ أَعْمَالِ لُونِي فِي النَّاحِيَةِ الْوَنَائِيَّةِ الَّتِي تُقَدِّمُهَا رُسُومُهُ، وَلَكِنَّهَا تَمْتَدُّ إِلَى الطَّائِفَةِ التَّصَوِيرِيَّةِ الْبَحْثِ لِللُّوحَاتِ الْمُبْتَكِرَةِ الْمُرْتَبِطَةِ بِالتَّقَالِيدِ الْقَدِيمَةِ وَالْمُفَعَّمَةِ فِي الْوَقْتِ عَيْنِهِ بِالْمَوْهَبَةِ الْخَلَّاقَةِ. وَلَمْ يَكُنْ لِلُّونِي ضَرِيبٌ فِي عَهْدِهِ، وَلَمْ يَزُقْ أَيَّ مِنْ تَلَامِيذِهِ إِلَى مُسْتَوَاهُ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَكْتَبْ لِأُسْلُوبِهِ الْمُبْتَكِرِ وَتَكُونِيَّاتِهِ الْقَوِيَّةِ أَنْ تَرَحَّفَ إِلَى عُصُورٍ تَالِيَةٍ، بَلْ مَا كَادَ يَلْقَى مَيِّتَهُ حَتَّى طَوَى الشَّيْئَانُ صَفْحَتَهُ.

وَتَابَعَ التَّصَوِيرُ التُّرْكِيَّ تَطَوُّرَهُ مُسْتَوِجًا النَّمَاذِجَ الْأُورُوبِيَّةَ بِاطِّرَادٍ. وَقَدْ حَاوَلَ عَبْدُ اللَّهِ بَخَارِي الْفَتَّانُ التُّرْكِيَّ الَّذِي جَاءَ بَعْدَ لُونِي بِفَتْرَةٍ وَحِيدَةٍ أَنْ يَمْزِجَ بَيْنَ الْقَوَاعِدِ الشَّرْقِيَّةِ وَبَيْنَ تَقْنِيَةِ التَّجْسِيمِ الْغَرْبِيَّةِ مُطْعَمًا الْوَاحِدَةَ بِالْأُخْرَى، فَأَصَابَ بَعْضَ النَّجَاحِ فِي إِضْفَاءِ بَعْضِ الْحَرَكَةِ عَلَى شَخْصِهِ الَّتِي بَدَتْ مِثْلَ الدُّمَى الْجَمِيلَةِ. كَذَلِكَ تَخَصَّصَ مُصَوِّرُ أَرْمَنِيَّ اسْمُهُ رَافَائِيلُ كَانَ يَعْمَلُ فِي خِدْمَةِ السُّلْطَانِ فِي تَصَوِيرِ جَمِيلَاتِ السَّرَايِ بِأُسْلُوبِ غَرْبِيٍّ بَحَثَ.

وهكذا أَتَمَّ التَّصَوِيرُ التُّرْكِيَّ دَوْرَتَهُ، نَابِعًا مِنَ الْمُنْمَنَاتِ الْفَارِسِيَّةِ بِالْعَمَلِ مُتَهَاءَ بِالْپُورْتَرِيَّةِ الْأُورُوبِيَّةِ حَيْثُ فَقَدَ اسْتِقْلَالَهُ كَفَقَ لَهُ مَقُومَاتِهِ الشَّخْصِيَّةَ الدَّائِيَّةَ، وَلِكَيْتِهِ قَبْلَ أَنْ يَنْهَارَ تَمَامًا تَحْتَ مَعَاوِلِ تَقَالِيدِ الْفَنِّ الْأُورُوبِيِّ، وَاتَّهَ عِدَّةُ انْخِصَافَاتٍ خِلَالَ شَيْخُوخَتِهِ امْتَدَّتْ قَرْنًا وَنِصْفَ قَرْنٍ فِيمَا بَيْنَ بَدَايَةِ عَهْدِ مُرَادِ الرَّابِعِ عَامَ ١٦٢٣ وَأَوَاخِرِ عَهْدِ مُصْطَفَى الثَّالِثِ عَامَ ١٧٧٣، بَلَغَتْ تَغْيِيرَاتُهُ التَّصَوِيرِيَّةَ فِيهَا أَوْجَ تَفَتُّحِهَا. وَخِلَالَ هَذِهِ الْوَقْعَاتِ أَبْدَعَ الرَّسَامُونَ الْأَتْرَاقَ رُسُومًا جَذَابَةً لِلْجَنِّ الْمُجَنَّحِ

=الإصلاح الديني. ومن هنا كان هدف طابع الطراز الباروكي المسرحي والمثير للوجدان دعائيًا خالصًا، حتى ليتمكن القول بأن الطراز الباروكي هو التعبير الوجداني عن الكاثوليكية. بيد أن الطراز الباروكي قد انسحب بالمثل إلى خدمة الأهداف الدنيوية تزييرًا لسلطة الملوك والأمراء، ولذلك لم يقتصر ظهوره على إيطاليا وحدها، بل امتدَّ إلى دول أخرى تُسيطر عليها الأرستقراطية وتنفّس في الكاثوليكية، مثل فرنسا وجنوب هولندا وإسبانيا والبرتغال والمكسيك والبرازيل. [م.م.م.ث.]

فَوْقَ التَّصَوِيرِ الْفَارِسِيِّ، حَاجِبَةً إِيَّاهُ، مُزَاجِمَةً لَهُ، ثُمَّ مُحْتَلَّةً مَكَانَهُ. وَأَثَبَتِ الْبَارُوكُ التُّرْكِيَّ خُصُوبَتَهُ بِإِنْجَازِهِ الْعَدِيدِ مِنَ الصُّوَرِ الْمُفْرَدَةِ وَاللُّوحَاتِ الْمُصَوَّرَةِ وَالرُّسُومِ الَّتِي تَضُمُّهَا الْمُرَقَّعَاتِ وَالَّتِي كَانَتْ وَحِيًّا لِلْعَدِيدِ مِنْ رُسُومِ الْأَشْخَاصِ الْمُفَعَّمَةِ بِالرَّفَقَةِ وَالْخَيَالِ، تَبْهَرُ النَّظْرَ بِمَهَارَةٍ تَقْتَتِهَا، وَبِإِنْسِيَابِ خُطُوطِهَا، وَتَعْرُجَاتِهَا الْبَهْلَوَانِيَّةِ، فَهِيَ أحيانًا مُتَنَفِّخَةٌ وَثَقِيلَةٌ، وَأحيانًا أُخْرَى تَدَقُّ وَتَرْهَفُ حَتَّى تَعْدُو مِثْلَ خَبِطِ الْعَنَكُوتِ.

وَتَمْزِجُ رُسُومُ «الباروك» الْعُثْمَانِيَّةِ التَّصَوِيرَ بِالزَّخْرَفَةِ، مُطْلَقَةً سَيْطَرَةَ الْمُتَخَيَّلِ «الْمُجَرَّد» عَلَى الْمَلْمُوسِ، وَقَدْ يَلِغُ فُقْدَانُ التَّوَازُنِ بَيْنَ الْعُنْصُرَيْنِ أحيانًا حَدًّا يُصْبِحُ مَعَهُ التَّكُونُ مَجْرَدَ زُخْرَفٍ، نَرَى فِيهِ حَيَوَانًا أَوْ وَرْدَةً لَا يَمْتَنِ إِلَى الْحَيَوَانِ أَوْ النَّبَاتِ بِصَلَةٍ. وَمَا لَبَّتْ هَذِهِ الْحَيَوَانَاتِ وَالنَّبَاتَاتِ وَلِيدَةُ الْأَحْلَامِ وَالْخَيَالِ أَنْ انْتَقَلَتْ مِنْ لُوحَاتِ الْمُصَوِّرِ إِلَى بَلَاطَاتِ الْخَزَفِ. وَعَلَى الرُّغْمِ مِنْ نَجَاحِ هَذِهِ الْإِتْجَاهَاتِ الْجَدِيدَةِ لِلتَّصَوِيرِ الْعُثْمَانِيِّ فَإِنَّهَا لَمْ تَفْلَحْ فِي الْقَضَاءِ عَلَى الْأَسَالِيبِ التَّصَوِيرِيَّةِ الْقَدِيمَةِ الَّتِي ظَلَّتْ تُتَابِعُ مَسِيرَتَهَا إِلَى جَوَارِهَا. لَقَدْ انْدَمَجَتْ هَذِهِ الْأَسَالِيبُ الْمُخْتَلِفَةُ فِي زَخَارِفِ مَخْطُوطَاتِ الشَّاهِنَامَةِ الْعَدِيدَةِ الَّتِي آَلَتْ إِلَيْنَا مِنَ الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ وَالَّتِي تَضُمُّ مُنْمَنَاتٍ تَحْتَوِي عَلَى أَشْكَالٍ عَتِيقَةٍ مِنَ الْقَرْنِ الْخَامِسِ عَشَرَ، وَأُخْرَى تَعْرُضُ أُسْلُوبَ «الباروك» الْجَدِيدِ فِي نَوْبِهِ الشَّرْقِيِّ. كَذَلِكَ تَجَلَّى تَزَاوُجُ التَّيَّارَيْنِ الْحَدِيثِ وَالْقَدِيمِ فِي مُنْجَزَاتِ الْفَنِّ الشَّعْبِيِّ التُّرْكِيِّ الَّذِي لَمْ يَتَرَدَّدْ فِي اسْتِعَارَةِ الْإِيقُونوغرافية الْقَدِيمَةِ فِي تَصَوِيرِ مُتَحَرِّرٍ مِنْ كُلِّ الْأَصُولِ الْأَكَادِيمِيَّةِ.

على هذا النحو تأثَّرَ الْفَنُّ التُّرْكِيُّ بِالْفَنِّ الْأُورُوبِيِّ فِي النِّصْفِ الثَّانِي مِنَ الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ، إِلَى جَوَارِ تَأْثِيرِ مَدْرَسَةِ إِصْفَهَانَ الْفَارِسِيَّةِ. وَقَدْ تَسَلَّلَتْ التَّأَثُّرَاتُ الْأُورُوبِيَّةُ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا عَلَى اسْتِحْيَاءِ لَا تَكَادُ تَتَعَدَّى أُسْلُوبَ تَجْسِيمِ الْجِسْمِ وَإِبْرَازِ طَيَّاتِ الثِّيَابِ وَسُمْكِ الْأَقْمِشَةِ، أَوْ فِي الْمَحَاوَلَاتِ الْمُتَرَدِّدَةِ لِلإِيْحَاءِ بِالْعُمُقِ عِنْدَ تَصَوِيرِ الطَّبِيعَةِ أَوْ الْعِمَارَةِ. وَلَا يَلْبَثُ الْمُصَوِّرُونَ الْأَتْرَاقُ أَنْ يُضَاعِفُوا مِنْ مَحَاوَلَاتِهِمْ تَقْلِيدَ مُصَوِّرِي الْغَرْبِ، حَتَّى إِذَا مَا شَارَفْنَا نِهَايَةَ الْقَرْنِ رَأَيْنَا أَنَّ خَلْفِيَّاتِ اللُّوحَاتِ التُّرْكِيَّةِ قَدْ أَطْرَحَتْ الْأَشْكَالَ الْمُسَطَّحَةَ تَمَامًا فَبَاتَتْ ذَاتَ أَعْمَاقٍ، وَغَدَتْ الطَّبِيعَةُ مُحَاكَاةً لِلْمَنْظَرِ الطَّبِيعِيِّ الْأُورُوبِيِّ بِأَشْجَارِهِ الْكَثِيفَةِ وَهَضَابِهِ الْمُتَسَرِّبِلَةِ بِالضُّبَابِ الْبَعِيدِ، وَلَمْ يَبْقَ مِنَ الْأُسْلُوبِ التُّرْكِيِّ فِي اللُّوحَاتِ سِوَى شَخْصِهَا الَّذِينَ بَدَّوْا وَكَأَنَّهُمْ هَبَاكِلُ مَلُوءَةٌ، تَرُكُوا مَعَزُولِينَ فِي فَرَاغٍ ذِي عُمُقٍ، أَغْنَى ثَلَاثِي الْأَبْعَادِ.

وَخِلَالَ هَذِهِ الْحِقْبَةِ الَّتِي تَرَايَدَتْ فِيهَا اسْتِعَارَاتُ الْفَنِّ التُّرْكِيِّ مِنَ الْفَنِّ الْأُورُوبِيِّ، دَبَّتْ فِي أَوْصَالِهِ نَهْضَةٌ جَدِيدَةٌ نَابِعَةٌ مِنْ أَرُومَةِ

من طبقات مُختلفة يَرْتَدُونَ الأزياء المتنوعة مُتَجَمِّعِينَ في مَسِيرَات. كما تَتَعَرَّفُ على السُّلْطَانِ وَرَئِيسِ الوُزَرَاءِ وَعِليَّةِ القَوْمِ مِنْ رِجَالِ الدِّينِ وَالمَدِينِيِّينَ وَالعَسْكَرِيِّينَ مِنْ كُلِّ الرُّتَبِ وَالمُوظَّفِينَ وَمُسْتَعْدِمِي السَّرَايِ. وفي مُواجهة هؤلاء الرِّجَالِ الرَّسْمِيِّينَ صَوَّرَ أَفْرَادَ الشَّعْبِ وَصِغارِ الطَّبَقَةِ المُتَوَسِّطَةِ وَالجِرْفِيِّينَ وَأَصْحَابِ الخَوَانِيتِ وَالصُّتَاعِ وَالرُّعَاةِ وَالدَّرَاوِشِ المُتَسَوِّلِينَ، وَلاعِبِي السِّيرِكِ وَالبَهْلَوَانَاتِ أَلخ... وَلَقَدْ نَجَحَ لوني في إبراز السَّمَاتِ المُمَيَّزَةِ لِكُلِّ مِنْهُمْ، كما نَجَحَ في خَلْقِ لَوْحَةٍ جَماعِيَّةٍ وَكَأَنَّهَا شَرِيطٌ مُصَوَّرٌ مُصَغَّرٌ إِلَى مَقاييسِ المَخْطُوطَةِ، يَضُمُّ كُلَّ هَؤُلَاءِ البَشَرِ الرَّايِحِينَ الغَادِينَ المُفَعَّمِينَ بِالحَرَكَةِ المتتالين فصِيلاً بعد آخر في إِنْقِاعٍ سَرِيعٍ - خِلَالَ فَتْرَةِ الأعيادِ في إِسْتَنْبُولِ - يَصِلُ بِهِمْ إِلَى قِمَّةِ البَهْجَةِ وَالإقبالِ على الحَيَاةِ.

وَيَتِمِيزُ الإنسانُ في لَوَحَاتِ لوني بِمَقاييسِ نِسْبِهِ الطَّبِيعِيَّةِ، وَيَخْتَلِفُ حَجْمُهُ تَبَعاً لِلنَّمُودَجِ المُتَوَلَّدِ عَنْهُ. فَقَدْ بَدَوُ الشَّخْصِ طَوِيلاً رَشِيقاً القَوَامِ لَهُ رَأْسٌ صَغِيرٌ، أَوْ مُتَوَسِّطَ الطُّوْلِ وَالحَجْمِ، أَوْ قَصِيراً رَبِيعَةً لَهُ رَأْسٌ ضَخْمٌ. وَلَقَدْ راعَى لوني التَّنَاسُبَ بَيْنَ أَعْضَاءِ الجِسْمِ، وَأَضْفَى المَظْهَرِ الطَّبِيعِيِّ على الوَضْعَاتِ، وَاتَّخَذَتْ أَكْفَهُ المُتَحَرِّكَةَ المُعْبَّرَةَ وَضْعَاتٍ مُتَنَوِّعَةً تَبَعاً لِحَرَكَةِ الشَّخْصِ أَوْ العَمَلِ الَّذِي يُؤَدِّيهِ، وَإِنْ بَدَتْ أَحْيَاناً بِالِغَةِ الصَّغَرِ وَغَيْرِ مُتَنَاسِبَةٍ مَعَ بَقِيَّةِ الجِسْمِ. كَذَلِكَ الأَقْدَامُ، قَدْ بَدَوُ صَغِيرَةً وَكَأَنَّهَا أَقْدَامُ امْرَأَةٍ لَا أَقْدَامُ جُنْدِيٍّ مِنَ الإِنْكِشَارِيَّةِ أَوْ أَحَدِ المَوَلُوتِيَّةِ. وَمِنْ المُرْجَحِ أَنْ يَكُونَ أُسْلُوبُ تَصْغِيرِ الأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ هَذَا قَدْ تَسَرَّبَ إِلَى رُسُومِ الفَنَّانِينَ العُثمانيينِ بِمَا فِيهِمْ لوني تَأَثَّرُوا بِالنَّمَاذِجِ الفَارِسيَّةِ اللاحقةِ، فَقَدْ اشتهرَ عَنِ الفَنَّانِينَ الفُرسِ فِي القَرْنَيْنِ الخَامِسِ عَشَرَ وَالسَّادِسِ عَشَرَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُصَوِّرُونَ الأَشْخَاصَ بِأَرْجُلٍ وَأَيَادٍ بِالِغَةِ الضَّالَّةِ.

وقَدْ تَمَيَّزَ لوني بِالْفُتْدَةِ على إِضْفَاءِ السَّمَاتِ الدَّائِيَّةِ على الشَّخْصِ المُصَوَّرَةِ، وَرَغمَ أَنَّ هَذَا الاتِّجَاهَ كَانَ قَدْ ظَهَرَ فِي المَخْطُوطَاتِ التَّارِيخِيَّةِ العُثمانيَّةِ لِلحَقَبِ السَّابِقَةِ لَا بِالنَّسْبَةِ لِلشَّخْصِيَّةِ الرَّئِيسَةِ فَقَطْ بَلْ بِالنَّسْبَةِ لِبَقِيَّةِ الشَّخْصِ أَيْضاً، إِلَّا أَنَّهُ يَتَجَلَّى بِوُضُوحٍ فِي أَعْمَالِ لوني بَلْ وَيَطْلُقُ عَلَيْهَا.

سورنامة وهي:

«وَالسُّورَنَامَةُ» أَوْ قَصِيدَةُ الخِتَانِ الإمبراطوريِّ تَرْوِي مَا دَارَ مِنْ حَفَلَاتٍ خِلَالَ أَسْبُوعَيْنِ فِي قُصُورِ آق ميدانِ «السَّاحَةِ البَيْضَاءِ» وَشَاطِئِ البَحْرِ الأَسْوَدِ، أُقِيمَتِ بِمُنَاسَبَةِ خِتَانِ أَبْنَاءِ السُّلْطَانِ أَحْمَدَ الثَّالِثِ الأَرْبَعَةَ عَامَ ١٧١١. وَقَدْ نَظَّمَ القَصِيدَةَ حُسَيْنٌ وَهَبِي وَرَسَمَ المُنْمَنَمَاتِ الفَتَّانِ لوني الَّذِي ضَمَّنَ المائَةَ وَسَبْعاً وَثَلَاثِينَ صُورَةً

وَالْحُورَ عَازِفَاتِ المُوسِيقَى وَالتَّنِينَ الرَّاجِفِ، وَهِيَ تَكُونَاتٌ يَلْعَبُ فِيهَا الخَطُّ دَوْرًا أَساسِيًّا يُجَسِّدُ الوَاقِعَ الظَّاهِرَ وَيَلْمَسُ مَا وَرَاءَ الغَيْبِ. كما اسْتَوْحَى مُصَوِّرُو السَّرَايِ شَاعِرِيَّةَ الوَاقِعِ قُبَيْلَ الانْجِدَارِ الأخيرِ. فَرَسَمُوا لَوَحَاتٍ تُصَوِّرُ تَفَاصِيلَ الحَيَاةِ زَاخِرَةً بِقُوَّةِ التَّعْبِيرِ الطَّاعِيَّةِ، تَتَجَلَّى فِيهَا البَرَاةُ وَدِقَّةُ المُلَاحَظَةِ. وَمِنْ ثَمَّ كَانَ مِنَ الإِنْصَافِ الاعْتِرَافُ بِأَنَّ التَّصَوِيرَ العُثمانيَّ فِي القَرْنَيْنِ السَّابِعِ عَشَرَ وَالثَّامِنِ عَشَرَ حَتَّى أَفُولِهِ قَدْ خَلَّفَ وَرَاءَهُ ثَرَاءً جَدِيداً بِمَاضِيهِ.

المُصَوِّرُ لوني (١٦٨٥ - ١٧٦٠ أو ١٧٧٠)

وُلِدَ عَبْدُ الجَلِيلِ شَلْبِي الشَّهِيرُ بلوني فِي أَدْرَنَةِ حِوَالِي عَامِ ١٦٨٥، وَهَاجَرَ وَهُوَ صَبِيٌّ مِنْ مَسْقَطِ رَأْسِهِ حِوَالِي عَامِ ١٧٠٠ قَاصِداً إِسْتَنْبُولَ لِيَعْمَلَ فِي مَرَسَمِ السَّرَايِ الَّذِي كَانَ يُطْلَقُ عَلَيْهِ «نَقْشُ خَانَةِ» حَيْثُ تَدْرُجُ فِي جَمِيعِ مَرَاجِلِ التَّعْلِيمِ العَمَلِيَّ الفَنِّيَّ. وَبَدَأَ يَتَعَلَّمُ الزَّخْرَفَةَ قَدْماً مُذْهِباً مُتَآزِراً، ثُمَّ عَنِيَ بِمُمارَسَةِ التَّصَوِيرِ حَتَّى وَصَلَ فِيهِ إِلَى مَرْتَبَةِ مُتَفَوِّقَةٍ وَأَصْبَحَ نَقَّاشاً أَيْ مُصَوِّراً لِلأَشْكَالِ البَشَرِيَّةِ، وَمِنْ ثَمَّ لِلصُّورِ الشَّخْصِيَّةِ «پورترته»، وَأَنعمَ عَلَيْهِ السُّلْطَانُ أَحْمَدُ الثَّالِثُ حَوْلَ عَامِ ١٧٢٠ بِلَقَبِ نَقَّاشِ بَاشِي [أَيِ رَئِيسِ النَقَّاشِينَ]، وَأَوَكَلَ إِلَيْهِ زَخْرَفَةَ مَخْطُوطَةٍ هَامَّةٍ. وَبَدَوُ أَنَّ لوني قَدْ احْتَفَظَ بِوُظِيفَتِهِ فِي العَهْدَيْنِ التَّالِيَيْنِ، وَقِيلَ فِي عَهْدِ مُصْطَفَى الثَّالِثِ أَيْضاً، وَإِنْ لَمْ يَتَبَيَّنْ ذَلِكَ حَيْثُ كَانَ قَدْ طَعَنَ فِي السَّنِّ. وَعَلَى الرُّغمِ مِنْ أَنَّ لوني كَانَ مُصَوِّراً مُوهِوباً وَشَاعِراً وَأَدِيباً، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَحْرَصْ عَلَى الإِفَادَةِ مِنْ ثِمَارِ نَجَاحِهِ وَمَجْدِهِ مُدْخِراً لِشَيْخُوخَتِهِ مِنْ صِيَاهُ، فَمَاتَ مُعَوِزاً، وَلَمْ يُعَرَفْ تَارِيخُ وَفَاتِهِ عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ وَإِنْ قِيلَ إِنَّهُ كَانَ بَيْنَ عَامَيِ ١٧٦٠ وَ١٧٧٠.

وَتَعَدُّ زَخْرَفَةُ «سورنامة وهي» أعْظَمَ أَعْمَالِهِ، وَتَتَكَوَّنُ مِنْ مُجَلَّدَيْنِ، بَدَأَ العَمَلُ فِيهِمَا عَامَ ١٧٢٠، بِمُسَاعَدَةِ مُعَاوِنِيهِ فِي المَرَايِمِ المَلَكِيَّةِ بِسَرَايِ إِسْتَنْبُولِ، كَمَا رَسَمَ عِدَّةَ صُورٍ عَلَى صَفَحَاتٍ مُنْفَرِّدَةٍ - كَانَ مِنَ المَفْرُوضِ أَنَّ تُضَمَّ فِي مُرَقَّعَاتٍ - صَوَّرَ فِيهَا مَجْمُوعَاتٍ شَتَّى مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ يُمَثِّلُونَ بَيْنَاتٍ وَطَبَقَاتٍ مُخْتَلِفَةً، وَقَدْ انْتَفَوْا حَوْلَ العَرْشِ لِخِدْمَةِ السُّلْطَانِ وَالتَّرْفِيهِ عَنْهُ. وَمِمَّا يُؤَثِّرُ عَنْهُ أَنَّ اثْنَيْنِ مِنَ سُلَاطِينِ ذَلِكَ العَصْرِ هُمَا أَحْمَدُ الثَّالِثُ وَعُثْمَانُ الثَّالِثُ لَمْ يَتَرَدَّدَا فِي الجُلُوسِ إِلَيْهِ لِيُصَوِّرَهُمَا.

وَلَقَدْ بَقِيَ لَنَا عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنْ لَوَحَاتِ لوني فِي حَالَةٍ جَيِّدَةٍ تَكْشِفُ عَنْ مَدَى تَوَثُّبِ طاقَتِهِ الخَلَّاقَةِ. وَأَوَّلُ مَا يَسْتَرَعِي النَّظَرَ فِي تَصَوِيرِ لوني زَخَمُ شَخْصِهِ الَّذِي تَحْتَشِدُ بِهِمْ زَخَارِفُهُ فِي مَخْطُوطَةِ «سورنامة وهي»، إِذْ يَنْبِضُ زَحَامُهُمْ بِالحَيَاةِ وَالحَيَوِيَّةِ. فَتَرَى رِجَالاً

الخطوط غير متقنة، يُذكرنا تشكيلها الحشيش يدمى الخيول المصنوعة من الورق المقوى لا بالخيل المطهمة الأصلية التي يقتنيها السلطان أو حرسه، ويتجلى هذا الغيب في المنمنمة التي تصور انتقال الأمير مصطفى والأمير سليم ابني السلطان سليمان القانوني على ظهور الخيل برفقة حرسهما إلى الحفل المقام بمناسبة ختانها (لوحة ٣٦١م).

كذلك لم يوفق لوني في تصوير بقية الحيوانات من ماشية وثيران وكلاب فإذا أشكالها المحورة تحرمها من نبض الحياة، فبدت غير طبيعية وسط هذا الحشد من الناس المفعم بالحركة والحياة، ولا يكاد المرء يصدق أن اليد التي رسمت هذه وتلك واحدة.

وتقتصر الخلفية التي تتحرك أمامها ومن خلالها هذه الشخص على أشكال خيام من القماش المطرز ومن السجاد المبرقش تتألق فيه الألوان بذرجاتها، وقلمًا تظهر الأشجار المحورة في الأفق. وفي الحق إن الخلفية لم تلعب سوى دور ثانوي في مجموع لوحات لوني إذ انصرف جل اهتمامه إلى الشخص، وكان ماهرًا في توزيع الأدوار على كل من يظهر في صوره، كما برع في التنسيق بين حركات الممرنوا إليهم وزود الفعل عند الجماهير وكأنه مخرج متمكن من كل أسرار مهنته محققًا بذلك تسيقًا واضحًا في لوحات السورنامة.

وفي منمنمة أخرى للأمراء الثلاثة وهم يسرون لإجراء عملية الختان في سراي طوب قابو (لوحة ٣٦٢م) تتجلى المحاولة الخاطئة لتمثيل المنظور، حيث نرى أشخاص الخلفية في أحجام الأشخاص البادين في صدر اللوحة، كما يصدمنا المشهد المتكرر الخالي من الحركة، فجاءت هذه اللوحة في مستوى هابط عن مستوى كثير من لوحات الفنان.

وكانت إستانبول في الفترة ما بين عامي ١٧٢٠ و ١٧٢٢ مسرحًا للعديد من الحفلات الشعبية احتفاء بزفاف بنات السلطان أحمد الثالث، وبمناسبة ختان أنجاله والاحتفالهم بالمدرسة. وقد سجل الفنان لوني، كما تقدم، هذه الاختلافات في العديد من الصور، ولا غرو، فقد كان يطلق على القرن الثامن عشر في التاريخ التركي اسم عصر التبوليب أو اللالة، وما من شك في أن الشعبية المفاجئة التي أحاطت بهذه الزهرة الوافدة منذ سبعة قرون من أواسط آسيا تعبر عن مزاج ذلك العصر بعد أن أطرح مواطنو إستانبول تقاليد العصور الوسطى المحافظة وعادت المتعة هي سمة العصر. وبدلًا من الاهتمام بتشييد المساجد الضخمة غنوا بتشييد القصور والجوايق والحدائق والتافورات. وما أكثر ما

منها كل عروض هذه المناسبة وحفلاتها. وبمهاره فائقة استطاع أن يدمج في بعض المنمنمات عدة أحداث في صفحة واحدة. وفي لوحاته الصغيرة هذه نلمح صورة حية للجماهير الغفيرة التي كانت تغص بهم شوارع إستانبول وميادنها أمام السراي بأسلوب واقعي فريد مما أضفى على رسومه القيمة الفنية والوثائقية، فكان بحق مرآة «عهد التبوليب».

وفي منمنمتين لمسيرات تمر بين يدي أحمد الثالث يصور الفنان السلطان جالسًا على حشيتة فوق السجاد، وتحيط بوجهه ذي القسعات الدقيقة لحية كثيفة سوداء (اللوحتان ٣٥٩م، ٣٦٠م) ويقف حرس السلطان من حوله، حليقو اللحية بشوارب طويلة يختلف بعضها عن البعض الآخر، وتضفي على كل واحد منهم مظهرًا فرديًا مميزًا. وإذا ما انتقل نظرنا من الشخصيات العظيمة وكبار الموظفين إلى الجنود الذين يستعرضون أمام السلطان ثم البسطاء من الطبقة الاجتماعية الأدنى الذين يشكلون المسيرة أمام السلطان، وجدنا تنوعًا واضحًا في الأنماط يربو على مثيله بالنسبة لكبار رجال البلاط. وكما يجيد هذا الفنان تصوير شخوصه أثناء حركتهم، يوفق أيضًا إلى تصويرهم ساكنين في غير جمود، كما يحرص على تسجيل وضعاتهم الطبيعية. وبالرغم من ظهور الأشخاص في حشود كبيرة إلا أن كل فرد منهم يتخذ وضعة متحررة ويؤدي دوره ببساطة تكشف عن حركة طبيعية لا يسوبها انفعال.

ويصور لوني شخصياته في وضعات شديدة التنوع، قاصدًا التخلص من التكرار الناتج عن احتشاد الجماهير أثناء المسيرة، فحينما تبدو صفوف الرجال سائرين في اتجاه واحد يصور واحدًا أو أكثر من بينهم وهو يتطلع إلى الخلف ليترجى الملك الناشئ عن تكرار النموذج في الصف. وفي مشاهد الاستقبال يستغل الفنان التباين بين الشخص الوافدة وأولئك الجالسين، وبين من يتابعون السير أو من يقفون بلا حراك، حتى يتفادى الرتابة والجمود. كذلك اختار وسيلة أخرى كانت أثيرة لديه، هي التواجه بين الشخص أثناء الحديث، ينظر أحدهم إلى الآخر ليذفع بالحياة إلى قلب المشهد. وفي مقابلة بين الحركة الطبيعية النابضة بالحياة التي ابتدعها لوني وأسبغها على جموعه وبين مجموعات البشر التي صورها السابقون عليه في تسجيلاتهم التاريخية عهد سليمان أو مراد الثالث، نلمس الفرق الشاسع بين الشخصيات التي تتحرك في خفة وحرية ورشاقة أمام المشاهد الخلفية، وبين الحركة الآلية المسيطرة على مجموعة من الدمي أو من البشر الجامدين.

إلا أن هذه الواقعية في التصوير لم تنطبق في رسومه على الحيوانات، فتبدو الخيل التي كثيرًا ما تظهر في رسومه جامدة

يَحْمَلَانِ أَكْيَاسَ الثُّغُودِ الدَّهَبِيَّةِ الَّتِي سَوْفَ يَنْتَرُهَا السُّلْطَانُ عَلَى الْمُحْتَفَلِينَ عَلَامةً عَلَى ثَرَاثِهِ وَسَخَائِهِ.

وفي مُنَمِّمَةِ أُخْرَى (لَوْحَة ٣٦٤م) لِلْمَسِيرَةِ نَفْسَهَا يَتَغَيَّرُ اتِّجَاهُ النَّهْرِ الْبَشَرِيِّ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ: فَبِأَعْلَى الصُّورَةِ يَنْسَابُ مِنَ الْيَمِينِ إِلَى الْبَسَارِ، وَفِي الْوَسْطِ يَنْحَنِي مِنَ الْبَسَارِ إِلَى الْيَمِينِ، ثُمَّ مَا يَلْبَثُ أَنْ يَأْخُذَ اتِّجَاهًا مُضَادًّا، وَأَخِيرًا فِي أَسْفَلِ الصُّورَةِ يَعُودُ صَوْبَ الْإِتِّجَاهِ الْأَيْمَنِ. وَتَمْضِي الْمَسِيرَةُ وَسْطَ الْجُنْدِ حَامِلِي الْبِنَادِقِ وَعَازِي فِي الْعُودِ وَالزَّامِرِينَ تَتَقَدَّمُ الرَّاكِبَاتُ. وَتَحْمِلُ كُلُّ طَائِفَةٍ هَوْدَجًا يَرْمِزُ مِنْ فِيهِ إِلَى الْمِهْنَةِ الَّتِي تُمَثِّلُهَا الطَّائِفَةُ، بَيْنَهُمْ مَنْ يَعْضُرُ كُتْبًا وَآخَرُ بَطِيخَةً وَثَالِثٌ مِيزَانًا وَرَابِعٌ أَخْذِيَّةً، عَلَى حِينٍ يَحْمِلُ السَّائِرُونَ قَنَانِي وَأَوْعِيَّةً وَسِلْعًا تُشِيرُ إِلَى مِهْنَتِهِمْ. وَتَتَحَقَّقُ وَخْدَةُ اللَّوْحَةِ مِنْ خِلَالِ زَخَفِ الْجَمَاهِيرِ وَكَأَنَّهَا تَيَّارُ جَارِفٍ فِي شَرِيطٍ وَاحِدٍ عَرِيضٍ.

وفي لَوْحَةِ «عَرَبَةِ التَّشْرِيفَةِ» الَّتِي تُقَالُ الْأَمْرَاءُ إِلَى حَفْلِ الْخِتَانِ (لَوْحَة ٣٦٥م) مَجْمُوعَةٌ مِنْ شُخُوصٍ مُصْطَفَاةٍ فِي ثَلَاثَةِ صُفُوفٍ مُتَرَاكِبَةٍ، وَيَلْبِغُ الْفَتَانُ إِلَى تَرْتِيبِ الرِّجَالِ فِي مِهَادِ الصُّورَةِ عَلَى خَطِّ مَائِلٍ وَكَأَنَّهُمْ يَقْفُونَ فَوْقَ أَخْدُورَةٍ، وَهَكَذَا أَصْبَحَ ثَمَّةُ فَارِقٍ

(١) الرُّوكُوكُو rococo اتَّجَاهٌ فَنِّي شَاعَ فِي أَوْرَبَا خِلَالَ الْفَتْرَةِ مِنْ حَوَالَى ١٧٣٠ إِلَى حَوَالَى ١٧٨٠، يَتِمَّيزُ بِالزُّخَارِفِ ذَاتِ الْخُطُوطِ اللَّوْلِيَّةِ الْمُتَخَنِّجَةِ وَالْمُحَاكِمَةِ لِأَشْكَالِ الْقَوَائِعِ أَوْ الْمُوَحِيَّةِ بِأَشْكَالِ الْكُهُوفِ وَالْمَعَارَاتِ بِخَاصَّةٍ فِي إِنْجَازِ الْأَثَاثِ وَالزُّخْرَفَةِ الْمُنْزِلِيَّةِ الدَّخَالِيَّةِ. وَهُوَ فَنٌّ أَرْسَتْ قَوَائِمُهُ فِيهِ إِفْرَاطٌ فِي الشُّغْفِ بِالْأَنَاقَةِ، أَسْلُوبًا وَمَوْضُوعًا. وَبِرَّحِيلِ مَلِكِ فَرَنْسَا لُوِيْسَ الرَّابِعِ عَشَرَ انْتَقَلَ طِرَازُ الْبَارُوكِ الْأَرْسَتْ قَوَائِمُهُ إِلَى مَرْحَلَتِهِ الْأَخِيرَةِ وَهِيَ الرُّوكُوكُو، بَعْدَ أَنْ لَمْ تَعُدْ رِعَايَةُ الْفُنُونِ اخْتِكَارًا لِلْبَلَابُطِ بَلْ ائْتَدَتْ إِلَى مُجْتَمَعِ بَارِيْسِ الرَّاقِي، الَّذِي يَضُمُّ الطَّبَقَةَ الْبُورْجُوازِيَّةَ الْعُلْيَا وَأَرْسَتْ قَوَائِمَهُ الْمُدُنَ. وَيَتَدَوَّلُ أَنَّ كَلِمَةَ رُوكُوكُو، وَبِهَا جِنَاسٌ مَعَ كَلِمَةِ بَارُوكُو barocco، قَدْ اِشْتَقَّتْ مِنْ كَلِمَةِ rocaille بِمَعْنَى الصُّخُورِ وَكَلِمَةِ coquille بِمَعْنَى الْقَوْعَةِ أَوْ الصَّدْفَةِ، إِذْ كَانَتْ الصُّخُورُ الْمَحَارِيَّةُ الشُّكْلَ وَالْقَوَائِعِ وَالْأَصْدَافُ تُسْتَعْدَمُ عَلَى نِطَاقٍ وَاسِعٍ كَصَيْنِغِ زُخْرُفِيَّةٍ فِي الطَّرَازِ الْبَارُوكِيِّ الشَّائِعِ، حَتَّى لَيْمَكِنْ اِغْتِيَارُ طِرَازِ الرُّوكُوكُو تَعْدِيلًا أَوْ تَوْبِيغًا لِيَطْرَازِ الْبَارُوكِ وَلَيْسَ طِرَازًا مُضَادًّا لَهُ. وَبِجِبَارَةِ أُخْرَى هُوَ طِرَازُ بَارُوكِيٍّ اِنْتَقَلَ إِلَى دَاخِلِ الدُّورِ وَالْقُصُورِ، يُلَاطِمُ الْبُيُوتِ الْأَبْيَقَةَ الَّتِي اِنْتَشَرَتْ فِي الْمُدُنِ أَكْثَرَ مِمَّا يُلَاطِمُ أَهْلَاءَ الْقُصُورِ، وَإِنْ اسْتُخْدِمَ فِي كِلَيْهِمَا. وَقَدْ شَمَلَ طِرَازُ الرُّوكُوكُو كَافَّةَ الْفُنُونِ الْكُبْرَى كَالنُّحْتِ وَالتَّصْوِيرِ وَالْعِمَارَةِ إِلَى جَانِبِ الْفُنُونِ الزُّخْرُفِيَّةِ، الَّتِي عَشَّتْ كُلَّ مَا فِي الدَّخَالِ، مِنْ الْمُتَخَنِّجَاتِ الرَّشِيقَةِ لِقَوَائِمِ الْمَنَاضِدِ إِلَى اللَّفَافِيفِ الزُّخْرُفِيَّةِ وَالْحَلِيَّاتِ الْحُلُوزِيَّةِ الْمَذْهَبَةِ الَّتِي تُجَمَّلُ السُّقُوفَ وَالْجُدُرَانِ. وَعَلَى حِينٍ كَانَ طِرَازُ الْبَارُوكِ مَهِيًّا غَامِرًا سَاحِقًا، كَانَ طِرَازُ الرُّوكُوكُو جَذَابًا رَقِيقًا مُرْهَقًا.

كَانَتْ اخْتِفَالَاتُ الْأُسْرَةِ الْمَالِكَةِ تَتَرَاوَمُنُ مَعَ الْاِخْتِفَالَاتِ الشَّعْبِيَّةِ مُسْتَعْرِقَةً عِدَّةَ أَسَابِيغٍ، حَيْثُ تَعُدُّ الْوَلَايِمُ الْحَافِلَةَ بِمَطَابِيخِ الْقُصُورِ وَيَتَبَادَلُ السُّلْطَانُ الْهَدَايَا مَعَ الطَّوَائِفِ الْمِهْنِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تُنْظَمُ عُرُوضًا يَقُودُهَا أَرْبَابُ الطَّوَائِفِ يَحْمِلُونَ عُصِيًّا ذَاتَ مُصْلَصَلَاتٍ، وَفِي إِثْرِهِمُ الْمَرْكَبَاتُ الْمُزَخْرَفَةُ وَأَمَائِيلُ الشُّخُوصِ الْأُسْطُورِيَّةِ، وَشِعَارَاتُ الْمِهْنِ وَالْحِرَفِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَتُمَثِّلُ الْأَحْدَاثَ التَّارِيخِيَّةَ فِي مَوْكِبٍ مُمْتَدٍّ أَمَامَ السُّلْطَانِ.

وَكَانَ لَوْنِي شَأْنُهُ شَأْنُ مُصَوِّرِي الرُّوكُوكُو^(١) فِي الْقَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ يُؤَيِّرُ الْأَلْوَانَ التَّاعِمَةَ وَيَتَجَنَّبُ مَا أَمْكَنَ تَذْهِيبَ الْمُتَمَنَّمَاتِ، كَمَا تَمَيَّزَتْ صُورُهُ بِدِقَّةِ الْمُلَاحَظَةِ وَالْجُنُوحِ نَحْوِ الدُّعَابَةِ، وَهُوَ مَا يَتَجَلَّى فِي (لَوْحَة ٣٦٣م). فَأَمَامَ خَلْفِيَّةٍ صَفْرَاءَ وَسَّمَاءَ لَازُورِيَّةٍ صَافِيَةٍ نَشْهَدُ مَوْكِبًا مُتَحَرِّكًا يُمَثِّلُ مَسِيرَةَ بَائِعِي الْفَاكِهَةِ وَالْكَتُبِ وَالْإِسْكَافِيِّينَ وَالْبَزَازِينَ وَالْحِرَفِيِّينَ وَمُخْتَلِفِ الطَّوَائِفِ أَمَامَ السُّلْطَانِ. وَصَوْرُ الْفَتَانِ الْمَسِيرَةِ عَلَى شَكْلِ شَرِيطٍ عَرِيضٍ يَنْحَنِي ثُمَّ يَعْتَدِلُ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى حَيْثُ يَجْلِسُ السُّلْطَانُ. وَيَتَغَيَّرُ اتِّجَاهُ النَّهْرِ الْبَشَرِيِّ عِدَّةَ مَرَّاتٍ قَبْلَ بُلُوغِهِ مِصْرَةَ السُّلْطَانِ الَّذِي نَرَاهُ فِي الرُّكْنِ الْعُلُويِّ الْأَيْمَنِ بِالْجَوْسَقِ الْإِمْبَرَاطُورِيِّ الَّذِي يَغْلُوهُ سَقْفٌ مُقَبَّبٌ عَلَى شَكْلِ الْقُبْعَةِ أَوْ خِيَمَةِ الْحَفَلَاتِ، وَقَدْ اِزْتَدَى ثَوْبًا بُيَّيًّا وَسُتْرَةً أَرْجَوَانِيَّةً فَاتِيحَةً مُبْطَنَةً بِالْفِرَاقِ وَعِمَامَةً. وَوَقَفَ إِلَى جِوَارِهِ أَمِيرُ شَابٍ وَائْتَانٌ مِنَ الْأَمْنَاءِ، يَضُمُّونَ جَمِيعًا أَكْفَهُمْ عَلَامةَ الْخُشُوعِ وَالْإِجْلَالِ. وَثَمَّةُ سِتَارٍ مِنَ الْقَمَاشِ مُطَرَّرٌ بِصَيْنِغِ زُخْرُفِيَّةٍ يَحْجُبُ الْحَاشِيَّةَ عَنِ عَامَّةِ النَّاسِ، عَلَى حِينٍ يَحْرُسُ جُنُودُ الْإِنْكَشَارِيَّةِ مُؤَخَّرَةً الْجَوْسَقِ. وَنَرَى بَعْضَ رِجَالِ الْبَلَاطِ وَقَدْ اِزْتَدَدُوا ثِيَابًا مُخْتَلِفَةً الْأَلْوَانِ بِاخْتِلَافِ وَطَائِفِهِمْ يَتَقَدَّمُونَ صَوْبَ السُّلْطَانِ يَتَصَدَّرُهُمْ شَخْصٌ يَزِيدِي ثَوْبًا أَخْضَرَ وَآخَرُ فِي ثَوْبٍ أَحْمَرَ يَتَمَنَّقُ بِحِزَامٍ دَهَبِيٍّ وَقُبْعَةٍ مَخْرُوطِيَّةٍ. كَمَا نَرَى رِجَالَ الْحَاشِيَّةِ فِي ثِيَابِ زَرْقَاءَ وَعِمَامَةٍ مُرْتَفِعَةٍ يَتَلَقَّوْنَ الْهَدَايَا. وَثَمَّةُ خِيَمَةٍ خَضْرَاءَ يَحْتَلُّهَا الصَّدْرُ الْأَعْظَمُ لِإِبْرَاهِيمَ بَاشَا زَوْجِ الْأَمِيرَةِ فَاطِمَةِ ابْنَةِ السُّلْطَانِ، وَقَدْ جَلَسَ فَوْقَ سَجَادَةِ حَمْرَاءَ مُتَّكِئًا عَلَى وَسَادَةِ زَرْقَاءَ، وَفِي خِيَمَةِ ثَالِثَةٍ يَقِفُ وَزِيرَانِ وَأَحَدُ الْعُلَمَاءِ. وَيَتَقَدَّمُ الْمَوْكِبُ مِنْ أَقْصَى الْبَسَارِ الْعُلُويِّ مِنَ الصُّورَةِ، فَتَرَى حَلَاقًا دَاخِلَ هَوْدَجٍ مَحْمُولٍ عَلَى هَيْئَةٍ حَمَامٍ مُنْتَقِلٍ وَقَدْ انْهَمَكَ فِي غَسَلِ شَعْرٍ أَحَدَ زَبَائِنِهِ. وَثَمَّةُ مَجْمُوعَةٍ تَحْمِلُ الْهَدَايَا أَحَاطَ بِهَا الْجُنُودُ حَامِلِينَ بِنَادِقِهِمْ يَتَقَدَّمُهُمُ الْمَوْسِيقِيُّونَ. وَيَنْحَنِي الْمَوْكِبُ صَوْبَ الْيَمِينِ حَيْثُ تَرَى هَوْدَجًا آخَرَ يَعْضُرُ أَصَابِعَ الْحُلُوى أَوْ لَعْلَهَا فِتَائِلُ الْمُفْرَعَاتِ وَالْأَلْعَابِ التَّارِيَّةِ. وَفِي أَدْنَى بَسَارِ اللَّوْحَةِ نَرَى طَائِفَةَ الْمُهَرِّجِينَ وَالبَهْلَوَانَاتِ بِأَدَوَاتِهِمْ وَعُدَّتِهِمْ. وَإِلَى الْيَمِينِ طَائِفَةُ صُنَاعِ الشُّمُوعِ يَقْدُمُونَ هَدَايَاهُمْ، وَكَذَا اِثْنَانِ مِنْ رِجَالِ الْقَصْرِ

الشَّكْل التَّقْلِيدِيّ والمُنْقُول عن المُلَاحَظَة المُبَاشِرَة تَكْمُن عَظْمَة هَذَا الرِّسَام .

وَيَتَمَيَّز فَنُّ لُونِي بِبِنَاء تَكْوِينَاتِهِ الْمَدْرُوسِ وَبِالطَّائِعِ الْوَاقِعِي فِي الْوَقْتُ ذَاتِهِ، عَلَى نَحْو مَا نَشْهَدُ فِي مُنَمَّةِ الْحَقْلِ اللَّيْلِيِّ فِي بَحْرِ مَرْمَرَة فِي سَبْتَمْبَر ١٧٢٠ (لَوْحَة ٣٦٦م). فَقَدْ رَسَمَ الْفَتَانُ مَشْهَدًا لَيْلِيًّا لِمَدِينَةِ إِسْتَنْبُولِ الْمُحَاطَةِ بِالْبَحْرِ بِتَدْرِجَاتِ اللَّوْنَيْنِ الْأَزْرَقِ وَالْبَنَفْسَجِيِّ مَعَ تَفْضِيضِ سَطْحِ الْبَحْرِ، بَيْنَمَا تَتَأَلَّقُ التَّفَاصِيلُ الْحَمْرَاءُ وَسَطَ رُزْقَةِ اللَّيْلِ. وَتَنْبَسِطُ الْمُنَمَّةُ فَوْقَ صَفْحَتَيْنِ مُتَقَابِلَتَيْنِ لِيَتَضَمَّ شُخُوصَهَا فِي خُطُوطِ أَقْفِيَّةٍ لِلإِيحَاءِ بِسَكِينَةِ اللَّيْلِ. وَالْمَوْضُوعُ الْمُصَوَّرُ اسْتِحْكَامُ اللَّيْلِيَّاتَيْنِ (٣٦٣م و ٣٦٤م)، فَالِاخْتِغَالَاتُ لَا تَتَوَقَّفُ إِذَا سَجَا اللَّيْلِ، فَتَرَى بَعْضَ الْأَلْعَابِ الْبَهْلَوَانِيَّةِ تَجْرِي فَوْقَ الْهِيَاءِ قُرْبَ قَصْرِ السُّلْطَانِ وَقَدْ مَدَّتْ الْجِبَالَ لِتَصِلَ سَفِينَةُ شِيرَاعِيَّةٍ ضَخْمَةً بِأُخْرَى ذَاتَ مَجَازِيْفٍ وَشَجَرَةٍ عَلَى الشَّاطِئِ. وَنَشْهَدُ قُرْبَ الْجِبَالِ الْمُمتَدَّةِ أَقْفِيًّا بَيْنَ السَّمَيَّتَيْنِ دُمَى تُمَثِّلُ عَرَبَةَ حَمْرَاءَ وَجَوَادًا وَسَائِسًا، وَبِدَاخِلَهَا دُمَى لِسَيِّدَاتٍ يَزْدَنِّ الثَّقَابُ الشَّقَافُ الْأَبْيَضُ - كَمَا هِيَ الْعَادَةُ وَقَدْ ذَاكَ - يَتَطَلَّعْنَ مِنَ التَّائِفَةِ. وَفَوْقَ سَطْحِ الْمَاءِ ثَلَاثُ رَاقِصَاتٍ تَقِفُ كُلُّ مِئْهُنَ فِي غَيْرِ اسْتِقْرَارٍ فَوْقَ رَمَتْ عَائِمٍ صَغِيرٍ يَفْرَعُنَ الصَّاجَاتِ وَيَرْقِصُنَ عَلَى أَنْغَامِ الْأَلَاتِ الْمَوْسِيقِيَّةِ مِنْ أَبْوَابٍ وَمَزَامِيرٍ وَدُفُوفٍ وَطَبْلٍ. وَفِي أَعْلَى يَسَارِ اللَّوْحَةِ نَرَى الْجَوْسُقَ الدَّرَجِيَّ الْمُتَصِيبَ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ. وَمَا مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّهُ خَلْفَ جُدْرَانِ الْقَصْرِ الْعَالِيَةِ وَتَحْتَ أَشْجَارِ الصَّنُوبَرِ كَانَتْ حَدَائِقُ التَّبُولِيبِ مُضَاءَةً بِالْمَصَابِيحِ الْمُلُونَةِ الَّتِي تَتَأَلَّقُ عَلَى أَضْوَائِهَا أَلْوَانُ الزُّهُورِ مُتَوَهَّجَةً. وَمِنْ جَوْسُقٍ صَغِيرٍ مُقَامٍ مُبَاشَرَةً فَوْقَ الْمَاءِ يَتَابِعُ السُّلْطَانُ الْاخْتِغَالَاتِ عَنْ كَتَبٍ وَقَدْ جَلَسَ فَوْقَ أَرِيكَةٍ خَفِيضَةٍ مُتَكِّئًا عَلَى وِسَادَةِ ذَهَبِيَّةِ اللَّوْنِ، وَازْدَنَى ثَوْبًا وَرَدِيًّا وَسُتْرَةً بُرْتُقَالِيَّةً مُبْطَنَةً بِالْفَرَاءِ، وَمِنْ حَوْلِهِ الْأُمَرَاءُ الصَّغَارُ بِسُرَاتِهِمُ الْمُبْطَنَةَ بِالْفَرَاءِ فَضْلًا عَنْ شَخْصِ أَسْمَرِ الْبَشَرَةِ فِي رِدَاءِ بُرْتُقَالِيٍّ لَعَلَّهُ كَبِيرِ الْأَعْوَاتِ، ثُمَّ كَبِيرِ الْأَمْنَاءِ فِي رِدَاءِ أَرْجَوَانِيٍّ اللَّوْنِ. وَفِي أَعْلَى يَمِينِ الصُّورَةِ نَشْهَدُ سَفِينَةَ شِيرَاعِيَّةٍ ضَخْمَةً، تَرَفَعُ عَلَمًا أَحْمَرَ تُوشِيهِ نُجُومٌ وَأَقْمَارٌ ذَهَبِيَّةٌ، وَتُرْتَبِّهَا صِبْغٌ زُخْرَفِيَّةٌ وَرُمُوزٌ قَوْمِيَّةٌ، وَقَدْ اغْتَلَاهَا عَلَيْهِ الْقَوْمُ مِنْ مُوَاطِنِي الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ. وَفِي مُقَدِّمَةِ الصُّورَةِ نَشْهَدُ أَهَالِي إِسْتَنْبُولِ وَقَدْ اسْتَقْلَوْا الْقَوَارِبَ وَالزُّوَارِقَ لِمُشَاهَدَةِ الْاخْتِغَالَاتِ الْبَحْرِيَّةِ اللَّيْلِيَّةِ.

وَفَضْلًا عَنِ الْعَدَدِ الْكَبِيرِ مِنَ الْمَخْطُوطَاتِ الَّتِي خَلَفَهَا لَنَا لُونِي، فَإِنَّ مَا بَقِيَ مِنْ لُوحَاتِهِ الَّتِي أَفْرَدَهَا لِلصُّورِ الشَّخْصِيَّةِ أَوْ لِمَشَاهِدِ الْحَيَاةِ الْيَوْمِيَّةِ فَوْقَ صَفْحَاتٍ مُنْفَرِدَةٍ لَا يَقِلُّ خُصُوبَةُ وَغَزَاةُ. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ أَشْخَاصَهُ قَدْ رُسِمُوا بِمَقَايِيسٍ كَبِيرَةٍ لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمْ يَشْغُلُ صَفْحَةً كَامِلَةً إِلَّا أَنَّهُمْ أَسَاسًا شَدِيدُو الشَّبَهِ بِالشُّخُوصِ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي رُسُومِ السُّورِنَامَةِ. وَقَدْ أَعَانَتْ هَذِهِ الْأَحْجَامُ الْكَبِيرَةُ الْفَتَانَ عَلَى إِبْدَاعِ التَّفَاصِيلِ فَوْقَ رُسُومِ الْقُمَاشِ وَالْحُلِيِّ وَالْأَسْلِحَةِ وَأَزْيَاءِ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، كَمَا مَنَحَ عِنَايَةً خَاصَّةً لِكُلِّ مُكْمَلَاتِ الْمَشْهَدِ مِثْلَ زَخَارِفِ الْحُجْرَةِ أَوْ الْمَكَانِ الْمُحِيطِ، وَالْمَفْرُوشَاتِ وَالرِّيَاشِ وَالسَّجَادِ وَالْخَزَفِ الْكَاسِي لِلْجُدْرَانِ. وَإِذَا كَانَ لُونِي قَدْ اكْتَفَى بِإِعْطَاءِ الْهَوَاسِ شَبَهًا قَلِيلًا بِصَاحِبِ الصُّورَةِ إِلَّا أَنَّهُ فِي الْوَقْتُ نَفْسَهُ - بِدَقَّةٍ مُلَاحَظَتِهِ - غُفِي بِنَقْلِ مَا يَطْبَعُ الشَّخْصِيَّةُ بِطَابَعِهَا الْخَاصِّ سَوَاءً فِي شَكْلِهَا الْعَامِّ أَمْ فِي مَظْهَرِهَا. وَمِنْ أَبْدَعِ اللَّوْحَاتِ الشَّخْصِيَّةِ الَّتِي صَوَّرَهَا الْفَتَانُ صُورَةَ أَحْمَدَ الثَّالِثِ وَابْنِهِ (لَوْحَة ٣٥٨م) حَيْثُ يَبْدُو السُّلْطَانُ وَكَأَنَّهُ إِلَهٌ مُقَدَّسٌ أَزْدَانٌ بِالذَّهَبِ وَالْحُلِيِّ، حَتَّى لَتَضَاعَلَ أَهْمِيَةُ الْوَجْهِ بِالْقِيَاسِ إِلَى ثَرَاءِ الْمَلَابِسِ وَالْمَفْرُوشَاتِ. وَيَتَوَهَّجُ نَظَرُ الْمُشَاهِدِ فِي أَنْاقَةِ الْعَنَاصِرِ الْمُكْمَلَةِ الْمُحِيطَةِ، دُونَ التَّرْكِيزِ عَلَى وَجْهِ الشَّخْصِيَّةِ الَّتِي كَانَ يَبْغِي أَنْ تَكُونَ الْبُورَةُ وَمَحَطُّ الْأَنْظَارِ فِي اللَّوْحَةِ.

بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَرَبَةِ التَّشْرِيفَةِ الَّتِي رُسِمَتْ فِي بُورَةِ التَّكْوِينِ بِكُتْلَتِهَا الضَخْمَةِ الَّتِي شَطَرَتْ الْجَمَاهِيرَ إِلَى مَجْمُوعَتَيْنِ.

وَيَتَمَيَّز فَنُّ لُونِي بِبِنَاء تَكْوِينَاتِهِ الْمَدْرُوسِ وَبِالطَّائِعِ الْوَاقِعِي فِي الْوَقْتُ ذَاتِهِ، عَلَى نَحْو مَا نَشْهَدُ فِي مُنَمَّةِ الْحَقْلِ اللَّيْلِيِّ فِي بَحْرِ مَرْمَرَة فِي سَبْتَمْبَر ١٧٢٠ (لَوْحَة ٣٦٦م). فَقَدْ رَسَمَ الْفَتَانُ مَشْهَدًا لَيْلِيًّا لِمَدِينَةِ إِسْتَنْبُولِ الْمُحَاطَةِ بِالْبَحْرِ بِتَدْرِجَاتِ اللَّوْنَيْنِ الْأَزْرَقِ وَالْبَنَفْسَجِيِّ مَعَ تَفْضِيضِ سَطْحِ الْبَحْرِ، بَيْنَمَا تَتَأَلَّقُ التَّفَاصِيلُ الْحَمْرَاءُ وَسَطَ رُزْقَةِ اللَّيْلِ. وَتَنْبَسِطُ الْمُنَمَّةُ فَوْقَ صَفْحَتَيْنِ مُتَقَابِلَتَيْنِ لِيَتَضَمَّ شُخُوصَهَا فِي خُطُوطِ أَقْفِيَّةٍ لِلإِيحَاءِ بِسَكِينَةِ اللَّيْلِ. وَالْمَوْضُوعُ الْمُصَوَّرُ اسْتِحْكَامُ اللَّيْلِيَّاتَيْنِ (٣٦٣م و ٣٦٤م)، فَالِاخْتِغَالَاتُ لَا تَتَوَقَّفُ إِذَا سَجَا اللَّيْلِ، فَتَرَى بَعْضَ الْأَلْعَابِ الْبَهْلَوَانِيَّةِ تَجْرِي فَوْقَ الْهِيَاءِ قُرْبَ قَصْرِ السُّلْطَانِ وَقَدْ مَدَّتْ الْجِبَالَ لِتَصِلَ سَفِينَةُ شِيرَاعِيَّةٍ ضَخْمَةً بِأُخْرَى ذَاتَ مَجَازِيْفٍ وَشَجَرَةٍ عَلَى الشَّاطِئِ. وَنَشْهَدُ قُرْبَ الْجِبَالِ الْمُمتَدَّةِ أَقْفِيًّا بَيْنَ السَّمَيَّتَيْنِ دُمَى تُمَثِّلُ عَرَبَةَ حَمْرَاءَ وَجَوَادًا وَسَائِسًا، وَبِدَاخِلَهَا دُمَى لِسَيِّدَاتٍ يَزْدَنِّ الثَّقَابُ الشَّقَافُ الْأَبْيَضُ - كَمَا هِيَ الْعَادَةُ وَقَدْ ذَاكَ - يَتَطَلَّعْنَ مِنَ التَّائِفَةِ. وَفَوْقَ سَطْحِ الْمَاءِ ثَلَاثُ رَاقِصَاتٍ تَقِفُ كُلُّ مِئْهُنَ فِي غَيْرِ اسْتِقْرَارٍ فَوْقَ رَمَتْ عَائِمٍ صَغِيرٍ يَفْرَعُنَ الصَّاجَاتِ وَيَرْقِصُنَ عَلَى أَنْغَامِ الْأَلَاتِ الْمَوْسِيقِيَّةِ مِنْ أَبْوَابٍ وَمَزَامِيرٍ وَدُفُوفٍ وَطَبْلٍ. وَفِي أَعْلَى يَسَارِ اللَّوْحَةِ نَرَى الْجَوْسُقَ الدَّرَجِيَّ الْمُتَصِيبَ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ. وَمَا مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّهُ خَلْفَ جُدْرَانِ الْقَصْرِ الْعَالِيَةِ وَتَحْتَ أَشْجَارِ الصَّنُوبَرِ كَانَتْ حَدَائِقُ التَّبُولِيبِ مُضَاءَةً بِالْمَصَابِيحِ الْمُلُونَةِ الَّتِي تَتَأَلَّقُ عَلَى أَضْوَائِهَا أَلْوَانُ الزُّهُورِ مُتَوَهَّجَةً. وَمِنْ جَوْسُقٍ صَغِيرٍ مُقَامٍ مُبَاشَرَةً فَوْقَ الْمَاءِ يَتَابِعُ السُّلْطَانُ الْاخْتِغَالَاتِ عَنْ كَتَبٍ وَقَدْ جَلَسَ فَوْقَ أَرِيكَةٍ خَفِيضَةٍ مُتَكِّئًا عَلَى وِسَادَةِ ذَهَبِيَّةِ اللَّوْنِ، وَازْدَنَى ثَوْبًا وَرَدِيًّا وَسُتْرَةً بُرْتُقَالِيَّةً مُبْطَنَةً بِالْفَرَاءِ، وَمِنْ حَوْلِهِ الْأُمَرَاءُ الصَّغَارُ بِسُرَاتِهِمُ الْمُبْطَنَةَ بِالْفَرَاءِ فَضْلًا عَنْ شَخْصِ أَسْمَرِ الْبَشَرَةِ فِي رِدَاءِ بُرْتُقَالِيٍّ لَعَلَّهُ كَبِيرِ الْأَعْوَاتِ، ثُمَّ كَبِيرِ الْأَمْنَاءِ فِي رِدَاءِ أَرْجَوَانِيٍّ اللَّوْنِ. وَفِي أَعْلَى يَمِينِ الصُّورَةِ نَشْهَدُ سَفِينَةَ شِيرَاعِيَّةٍ ضَخْمَةً، تَرَفَعُ عَلَمًا أَحْمَرَ تُوشِيهِ نُجُومٌ وَأَقْمَارٌ ذَهَبِيَّةٌ، وَتُرْتَبِّهَا صِبْغٌ زُخْرَفِيَّةٌ وَرُمُوزٌ قَوْمِيَّةٌ، وَقَدْ اغْتَلَاهَا عَلَيْهِ الْقَوْمُ مِنْ مُوَاطِنِي الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ. وَفِي مُقَدِّمَةِ الصُّورَةِ نَشْهَدُ أَهَالِي إِسْتَنْبُولِ وَقَدْ اسْتَقْلَوْا الْقَوَارِبَ وَالزُّوَارِقَ لِمُشَاهَدَةِ الْاخْتِغَالَاتِ الْبَحْرِيَّةِ اللَّيْلِيَّةِ.

وَالْوَاضِحُ أَنَّ لُونِي كَانَ يَدْرُسُ مَشَاهِدَهُ بِعِنَايَةٍ شَدِيدَةٍ وَيَقْلَعُهَا بِدَقَّةٍ عَنِ الطَّبِيعَةِ، وَمِنْ هُنَا كَانَتْ تَقْيِيزُ بِالنَّبْضِ الْحَيِّ، وَهُوَ لَمْ يَأْخُذْ عَنِ تَقَالِيدِ الْمَدْرَسَةِ الَّتِي اتَّكَمَتْ إِلَيْهَا إِلَّا أَقْلَهَا، مُتَجَنِّبًا تَسْجِيلَ الْأَحْدَاثِ تَسْجِيلًا آليًّا، مُحَوَّرًا إِيَّاهَا لِتَتَوَاقَمَ مَعَ مُقْتَضَيَاتِ رُسُومِهِ. فَفِي هَذَا الْمَزْجِ بَيْنَ الْإِمْتَثَالِيِّ وَالْوَاقِعِيِّ، وَفِي هَذَا التَّنَاقُصِ بَيْنَ

خَصَرَ السَّيِّدَةَ لِیَضَعَ تَوَقِيعَهُ بِاسْمِهِ. وَفِي تَحْتِ الثُّوبِ الْوَرْدِيِّ ذِي الْأَكْمامِ الْمَشْقُوقَةِ عِنْدَ الْمَرْفِقَيْنِ نَشَهِدُ قُماشًا شَفَافًا بَيْنًا قُماشِ الْأَكْمامِ ذُو لَوْنَيْنِ فَظَاهِرُهُ رَمَادِيٌّ خَفِيفٌ وَباطِنُهُ وَرْدِيٌّ. وَيَمْتَدُّ اللَّوْنُ الرَّمَادِيُّ بِحُلِيَّةٍ حَوْلَ الصَّدْرِ يَنْطَلِقُ مِنْهَا شَرِيطَانُ: طَوِيلٌ مُرْسَلٌ، وَقَصِيرٌ مُدْبَّبٌ، وَتَكْشِفُ قُماشِ الصَّدْرِ عَنِ التَّهْيِيرِ بَيْنَ نَهْدَيْهَا الْمُكُورَيْنِ. وَتَكْشِفُ الصُّورَةَ أَيْضًا عِنْدَ أَطْرَافِ الرِّدَاءِ عَنِ طَبَقَةِ مِنَ الْقُماشِ الشَّفَافِ الْأَزْرَقِ اللَّوْنُ وَتَحْتَهُ طَرَفُ سِرْوَالِهَا فِي لَوْنٍ بِنَفْسِجِيٍّ. وَحَلَّتِ الْغَاذَةُ حِزامَهَا الذَّهَبِيَّ عَنِ خَصْرِهَا التَّحِيلِ فَبَدَا نَصْفُهُ مَتَدَلِّيًا.

وَكَمَا يَتِمِّزُ لَوْنِي كَرَسَامٍ لِأَفْرَادِ الْمَلْهَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي تَصْوِيرِهِ لِلْحَيَاةِ الْيَوْمِيَّةِ الَّتِي أَجَادَ نَقْلَ طابَعِهَا وَتَحْرِيكَ مُمَثْلِيهَا، فَقَدْ صَوَّرَ كَذَلِكَ حَيَاةَ الْمُمَثِّلِينَ وَتَنَاوَلَ نَشَاطَهُمْ بِفُرْشَاتِهِ.

وَيُمْكِنُ تَلْخِيسُ الْإِنْطِيعِ الْعَامِّ لِأَعْمَالِ لَوْنِي الْغَزِيرَةِ فِي أَنَّ تَكْوِينَاتِهِ الْفَنِّيَّةَ الَّتِي تَصَمُّ عَدِيدًا مِنَ الشُّخُوصِ وَالَّتِي يُطْلَقُ عَلَيْهَا اسْمُ «الْمَجَالِسِ» كَمَا نَجِدُهَا فِي السُّورِنَامَةِ، تَرْتَبِطُ مِنْ بَعْضِ نَوَاحِيهَا بِالتَّقَالِيدِ الْمُتَوَارِثَةِ عَنِ التَّسْجِيلَاتِ التَّارِيخِيَّةِ التُّرْكِيَّةِ فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ مُقْتَرِنَةً بِتَأْثِيرَاتٍ وَلَمَسَاتٍ وَافِدَةٍ مِنْ أَوْرَبَا. أَمَّا صُورُهُ لِلْمَرْفُوعَاتِ فَهِيَ تَعْرُضُ، مِثْلُ الصُّورِ الَّتِي تُزَيَّنُ الْمَخْطُوطَاتُ، نَسِيجًا عَجِيبًا مِنْ مَبَادِي الْفَنِّ الْفَارِسِيِّ مَعَ عَنَاصِرِ مُسْتَعَارَةٍ مِنَ الْأَعْمَالِ الْأُورَبِيَّةِ، حَيْثُ تَنْبَيِّنُ أَنَّ الْخُطُوطَ الْمُنْحِنِيَّةَ الْكَبِيرَةَ الَّتِي تُحَدِّدُ الشَّكْلَ الْخَارِجِيَّ لِلْأَجْسَامِ مُسْتَوْحَاةٌ مِنَ الْفُرْسِ، عَلَى حَيْثُ تَشِي مُحَاوَلَةً لِإِبْرَازِ اسْتِدَارَةِ الْجِسْمِ أَوْ طَيَّاتِ الْأَقْمِشَةِ بِتَأْثِيرِ الْغَرْبِ، وَيُضْفِي عَلَيْهَا الرِّسَامَ اللَّمَسَاتِ الْمُعْبَّرَةَ عَنِ قُوَّةِ الْمُلَاحَظَةِ وَالْخُطُوطِ الْوَاضِحَةِ وَدِفْءِ التَّلَوِينِ بِمَا يُسَبِّغُ عَلَى شَخْصِهِ مِنَ مَظْهَرٍ طَبِيعِيٍّ بَعِيدٍ كُلِّ الْبُعْدِ عَنِ وَضْعَاتِ التَّمَاوِجِ الْفَارِسِيَّةِ الْمُفْتَعَلَةِ. كُلُّ هَذِهِ السَّمَاتِ تَجْعَلُ مِنْ أَعْمَالِ لَوْنِي أَخْلَصَ تَعْبِيرٍ وَأَصْدَقَهُ عَنِ الْفَنِّ الْعُثْمَانِيِّ فِي قِيَمَةِ تَطَوُّرِهِ خِلَالَ عَهْدِ التَّيُولِيبِ «الَلَّالَةِ».

وَحِينَ يَتَخَرَّرُ لَوْنِي مِنْ قُبُودِ مَظَاهِرِ الْعَظْمَةِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يُحَاطَ بِهَا السُّلْطَانُ لِيُصَوِّرَ عَامَّةَ النَّاسِ كَأَفْرَادِ الْحَاشِيَّةِ وَالْخَدَمِ وَالْأَتْبَاعِ رِجَالًا وَنِسَاءً، يَزْدَادُ تَرْكِيزُهُ عَلَى الْخَصَائِصِ الْبَشَرِيَّةِ الْبَحْتَةِ لِتَمَاوِجِهِ، فَيَبْدُوعُ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الصُّورِ الشَّخْصِيَّةِ لِلْحُرَّاسِ الْمُسْلِحِينَ وَالْخَدَمِ وَعَازِفَاتِ الْمَوْسِيقَى (لَوْحَةٌ ٣٦٧م) وَحَامِلَاتِ جِرَارِ الْمَاءِ وَغُلَّامَانِ الْبَلَاطِ (لَوْحَةٌ ٣٦٨م)، وَسَيِّدَاتِ الْحَرِيمِ (لَوْحَاتُ ٣٦٩م، ٣٧٠م، ٣٧١م). وَلَمْ تَجْرِ الْعَادَةُ بِتَصْوِيرِ السَّيِّدَاتِ التُّرْكِيَّاتِ فِي الْاجْتِمَاعَاتِ الْعَامَّةِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ أَتَمُّ لَدَى الْمُصَوِّرِينَ حِينَ يَجْرِي دَاخِلَ الْقُصُورِ، وَحِينَذَلِكَ يَبْدُونَ فِي مَظْهَرِ اضْطِلَاحٍ عَلَيْهِ، يَعُودُ إِلَى مَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ فِي التَّصْوِيرِ التُّرْكُسْتَانِيِّ حِينَ كَانَ وَجْهُ الْمَرْأَةِ الْجَمِيلَةِ مُعَادِلًا لِلْبَذْرِ فِي تَمَامِهِ. وَلَمْ يَطْرَأْ تَغْيِيرٌ يَذْكُرُ عَلَى مَقَابِيسِ ذَلِكَ الْجَمَالِ الْمِثَالِيِّ التَّقْلِيدِيِّ لِلْمَرْأَةِ مُنْذُ تَصَاوِيرِ وَمَنْحُوتَاتِ الْقَرْنِ الثَّامِنِ الْمِيلَادِيِّ فِي شَرْقِيَّةِ تُرْكُسْتَانِ وَحَتَّى الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ. وَهَكَذَا عَدَا وَجْهُ الْمَرْأَةِ الْمُسْتَدِيرِ، وَجَبْهَتِهَا الضَّيْقَةُ وَعَيْنَاهَا الْمَغُولِيَّتَانِ هِيَ التَّمَطُّ الْمُتَوَارِثُ الَّذِي تَغْنَى بِهِ الْأَدَبُ الْفَارِسِيُّ بِوَصْفِهِ «الْجَمَالُ التُّرْكِي». كَذَلِكَ لَمْ تَتَغَيَّرِ الْأَرْيَاءُ وَأَعْطِيَتِ الرَّأْسَ إِلَّا بِقَدْرٍ، فَإِذَا مَا خَلَعَتِ الْمَرْأَةُ نِقَابَهَا أَوِيَّتْهُ إِلَى مَخْذَعِهَا غَطَّتْ جَدَائِلَ شَعْرِهَا عَلَى نَحْوِ مَا كَانَتْ تَفْعَلُ جَدَّاتِهَا وَجَدَّاتُ جَدَّاتِهَا مُنْذُ أَلْفِ عَامٍ. وَفِي بَيْنِ صُورِ لَوْنِي لِسَيِّدَاتِ الْحَرِيمِ صُورَةُ سَيِّدَةٍ اكْتَسَبَتْ بِثُوبِ وَرْدِيٍّ (لَوْحَةٌ ٣٧٢م) وَاسْتَلْقَتْ فِي وَضْعَةٍ اسْتِرْخَاءٍ، مُسِنْدَةً رَأْسَهَا إِلَى ذِرَاعِهَا فَوْقَ وَسَادَةٍ أُسْطُوَائِيَّةٍ سَوْدَاءَ يُحَلِّي طَرَفَيْهَا تَطْرِيزٌ مُذْهَبٌ. وَأَلْوَانُ الْمُتَمَنَّمَةِ نَاعِمَةٌ هَادِئَةٌ، وَخُطُوطُهَا طَبِيعِيَّةٌ رَشِيقَةٌ، وَقَدْ أَغْمَضَتِ السَّيِّدَةُ عَيْنَيْهَا وَكَأَنَّهَا فِي سِنَّةٍ مِنَ النَّوْمِ أَوْ فِي حُلْمٍ يَقْطَعُهُ، يُحَاكِي جَمَالَهَا تَمَطُّ الْجَمَالِ الَّذِي تَغْنَى بِهِ شَعْرَاءُ الْبَلَاطِ عَلَى مَرِّ السَّنِينَ؛ قِوَامٌ لَدُنْ مَمْشُوقٍ كَشَجَرَةٍ سَرُو، وَوَجْهٌ شَاجِبٌ شُحُوبٍ ضَوْءُ الْقَمَرِ. وَيَبْدُو أَنَّ لَوْنِي كَانَ يَرْبِطُ جَمَالَ السَّيِّدَةِ بِجَمَالِ زَهْرَةِ الْقَرْنَفِلِ فَأَشَاعَهَا فِي ثُوبِهَا الْوَرْدِيِّ الْهَامِسِ، وَأَفْرَدَ زَهْرَةً مِنْهَا تَحْتَ

لَوْحَاتُ
البَابِ الرَّابِعِ
الْمُلَوَّنَةِ
التَّصَوِيرِ التَّزْكِئِيِّ



لوحة ٣٢٠م: العفاريت حامِلو الصناديق.
مُنْتَخَبَات مِن مُرْقَعَةِ الْفَاتِح. متحف طوب قاپو
ياستنبول.

لوحة ٣٢١م: عَفْرِيت مُتَكَيِّ عَلَى
عَصَا. مُنْتَخَبَات مِن مُرْقَعَةِ الْفَاتِح.
متحف طوب قاپو ياستنبول.



لوحة ٣٢٢م: رَقْصُ شَعَائِرِي.
مُنْتَخَبَات مِن مُرْقَعَةِ الْفَاتِح. متحف
طوب قاپو ياستنبول.

لوحة ٣٢٣م: الشيوخ الثلاثة.
مُنْتَخَبَات مِنْ مُرَقَّعة الفاتح. متحف
طوب قايو باستنبول.

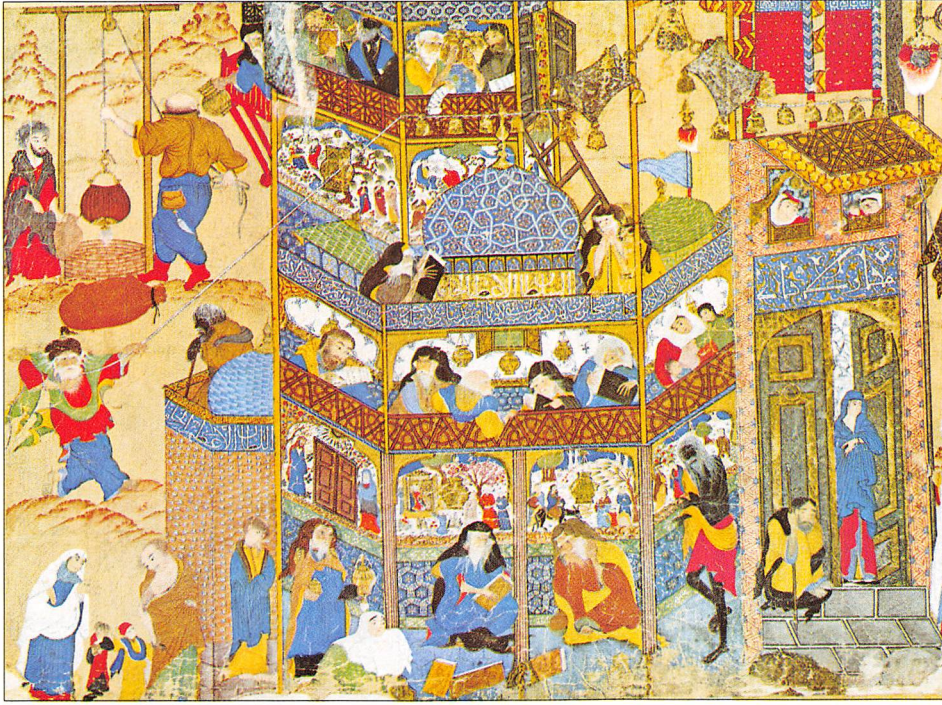


لوحة ٣٢٤م: صراع بين ثور
وأسد. متحف طوب قايو
باستنبول.



لوحة ٣٢٥م: عَبْد زَنْجِيّ يُرَوِّض
جَوَادًا جَامِحًا. متحف طوب قايو
باستنبول.





لوحة ٣٢٦م: مَشَاهِد
مُتَعَدِّدة فِي أَحَدِ أَذْيَرَةِ
آسِيَا الْوُسْطَى .
متحف طوب قاپو
بإسطنبول .



لوحة ٣٢٧م: تَقَاطُرُ
الْوُفُودِ مِنْ مُخْتَلِفِ
الْأُمَمِ لِأَشْهُارِ
إِسْلَامِهَا . متحف
طوب قاپو بإسطنبول .



لوحة ٣٢٨م: سليم نامه. السلطان سليم الأول على رأس جنوده في مواجهة الروم. متحف طوب قاپو بإستنبول. [صورة لم يسبق نشرها].

لوحة ٣٣٠م: وَصَف مَرَايِل حَمَلَةِ السُّلْطَان سُلَيْمَان فِي الْعِرَاقَيْنِ الْعَرَبِيِّ وَالْفَارِسِيِّ. خَرِيطَةُ إِسْتَنْبُول وَالْقُرْنِ الذَّهَبِيِّ ١٥٣٧م. مكتبة الجامعة بإستنبول.

لوحة ٣٢٩م: وَصَف مَرَايِل حَمَلَةِ السُّلْطَان سُلَيْمَان فِي الْعِرَاقَيْنِ الْعَرَبِيِّ وَالْفَارِسِيِّ. مَدِينَةُ السُّلْطَانِيَّةِ «تَبْرِيز». مكتبة الجامعة بإستنبول.





لوحة ٣٣١م: سُليمان نامه ١٥٥٨م. كبار مُوظفي
الدَّولة يُقدِّمونَ فُرُوضَ الوَلَاءِ والطَّاعَةِ إلى السُّلطان
سُليمان بمناسبة اعتلائه العرش. متحف طوب
قاپو بإستانبول. [صورة لم يسبق نشرها].



لوحة ٣٣٢م: سُليمان نامه ١٥٥٨م. عودة
السُّلطان سُليمان القانوني مُظفراً إلى قلعة رودس
بعد جلاء الأعداء. متحف طوب قاپو بإستانبول.
[صورة لم يسبق نشرها].



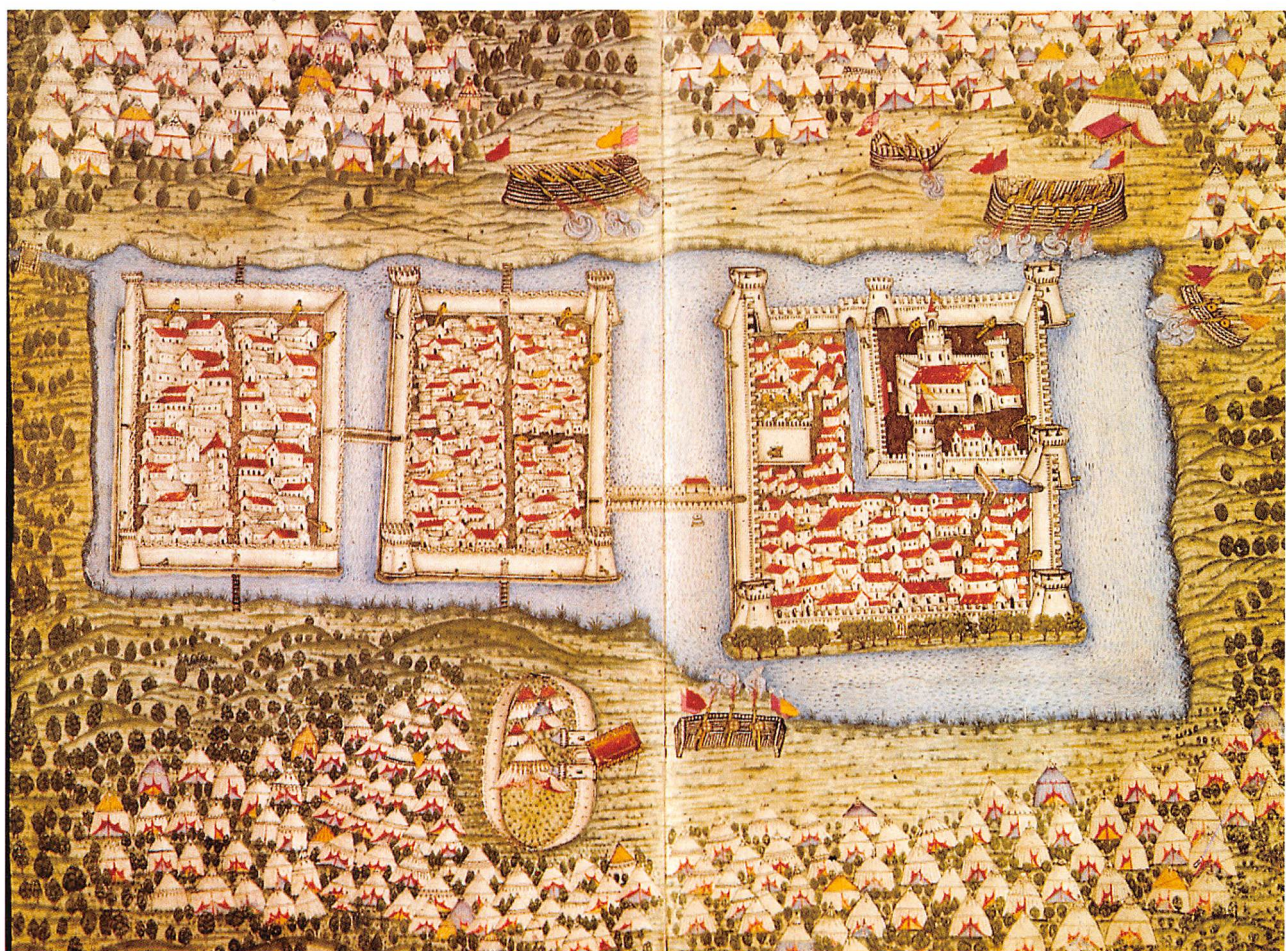
لوحة ٣٣٤م: نُزْهَة الْأَسْرَارِ وَالْأَخْبَارِ «سَفَرِ سَكْتَوَار»
 ١٥٦٨-١٥٦٩. حَفْلُ اعْتِلَاءِ السُّلْطَانِ سَلِيمِ الثَّانِي
 الْعَرْشِ فِي بَلْجَرَاد. مَتَحَفُ طُوبُوقَايُو بِاسْتَنْبُول.
 [صُورَةُ لَمْ يَسْبِقْ نَشْرُهَا].

لوحة ٣٣٣م: نُزْهَة الْأَسْرَارِ وَالْأَخْبَارِ «سَفَرِ سَكْتَوَار»
 ١٥٦٨-١٥٦٩. حَفْلُ اعْتِلَاءِ السُّلْطَانِ سَلِيمِ الثَّانِي
 الْعَرْشِ فِي بَلْجَرَاد. مَتَحَفُ طُوبُوقَايُو بِاسْتَنْبُول. [صُورَةُ
 لَمْ يَسْبِقْ نَشْرُهَا].

لوحة ٣٣٥م: نُزْهَة الأَسْرَار والأَخْبَار «سفر
سكتوار». السُّلْطَان سُلَيْمَان القَانُونِي مُتَرَبِّعًا عَلَى
عَرْشِهِ وَقَدْ رَكَّعَ أَمَامَهُ رَسُولٌ مِنَ الْمَجَرِّ. مَتَحَف
طُوپ قَاپُو بِإِسْتَنْبُول. [صورة لم يسبق نشرها].



لوحة ٣٣٦م: نُزْهَة الأَسْرَار والأَخْبَار «سفر
سكتوار». حِصَار السُّلْطَان سُلَيْمَان القَانُونِي
لِقَلْعَةِ سَكْتَوَار فِي الْمَجَرِّ. مَتَحَف طُوپ قَاپُو
بِإِسْتَنْبُول. [صورة لم يسبق نشرها].



لوحة ٣٣٧م: شاهنامه مُراد الثالث. دُخول الجنود
الأتراك بقيادة فرهاد باشا غازيًا إلى مدينة ران ١٥٨٥م.
متحف طوب قابو بإستنبول. [صورة لم يسبق نشرها].



لوحة ٣٣٨م: شاهنامه مُراد الثالث ١٥٨٥م. مُراد الثالث
يُزجي النُضح إلى وَلِيِّ عهده مُحَمَّد الثالث. متحف طوب
قابو بإستنبول. [صورة لم يسبق نشرها].

لوحة ٣٣٩م: هونر نامه «رسالة الفن». المُجلّد الأول ١٥٨٤م. السلطان عُثمان الغازي مؤسس الدولة العُثمانية يُشاهد مُدرب الحَيوانات يَستعرض قُدراته في عرض خاص لِترويض الأسد. متحف طوب قاپو بِإسطنبول. [صورة لم يسبق نشرها].



لوحة ٣٤٠م: هونر نامه. المُجلّد الأول ١٥٨٤م. أسير صفويّ هام يُساق إلى السلطان سليم الأول. متحف طوب قاپو بِإسطنبول. [صورة لم يسبق نشرها].

لوحة ٣٤١م: هونر نامه. المجلد
الأول ١٥٨٤م. السلطان العثماني
يُستريح على مقربة من قلعة تنكري
يقان بطراقيا بعد فتحها. متحف
طوب قايو بإستنبول. [صورة لم
يسبق نشرها]

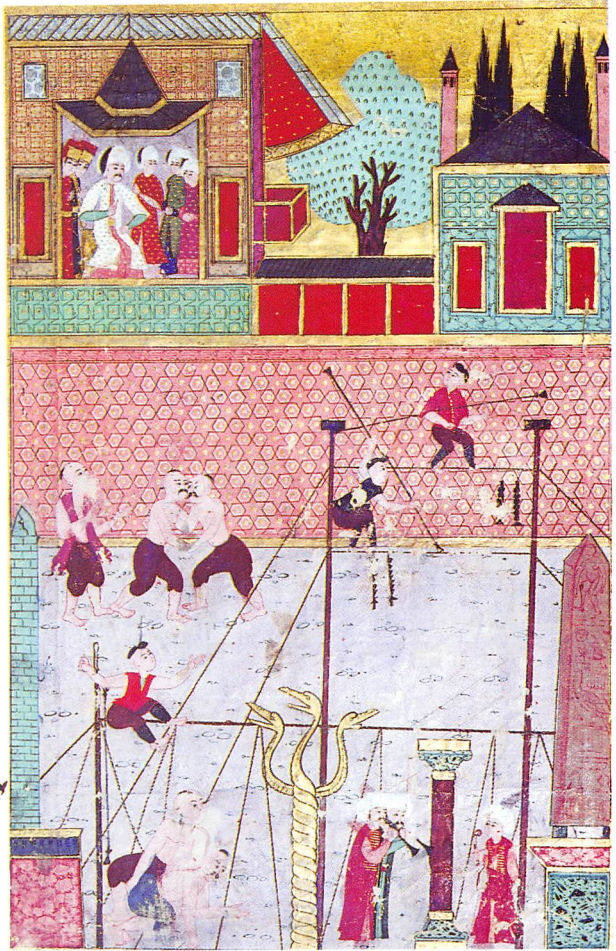
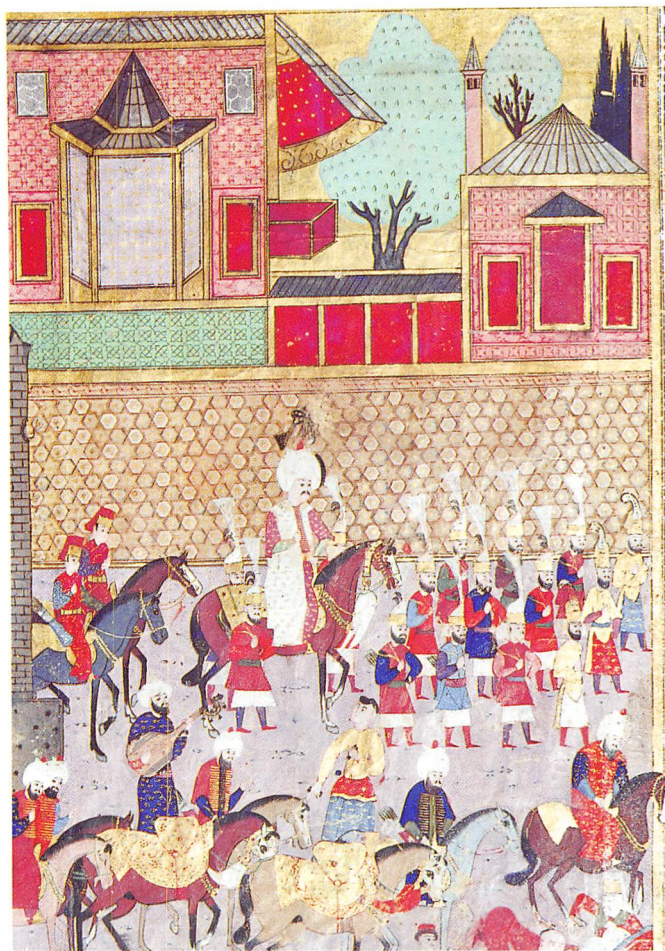




لوحة ٣٤٢م: هونر نامه. المجلد الأول.
الحصار الذي ضربه المجرّيون حول قصر
نيجوبولو والهجوم الليلي الذي شنه
السُلطان يلدريم بايزيد. متحف طوب
قاو باستنبول. [صورة لم يسبق نشرها].



لوحة ٣٤٣م: هونر نامه. المجلد الثاني.
السُلطان سُلَيْمَان القانوني يزور قبر
الحُسَيْن بعد فتح بغداد. متحف طوب
قاو باستنبول. [صورة لم يسبق نشرها].



لوحة ٣٤٥م: هونر نامه.
المُجلّد الثاني. وُصول السُلطان
سليم إلى ميدان السّباق لِحضور
حفلات خِتان أنجاله. متحف
طوب قاپو باستنبول. [صورة لم
يسبق نشرها].

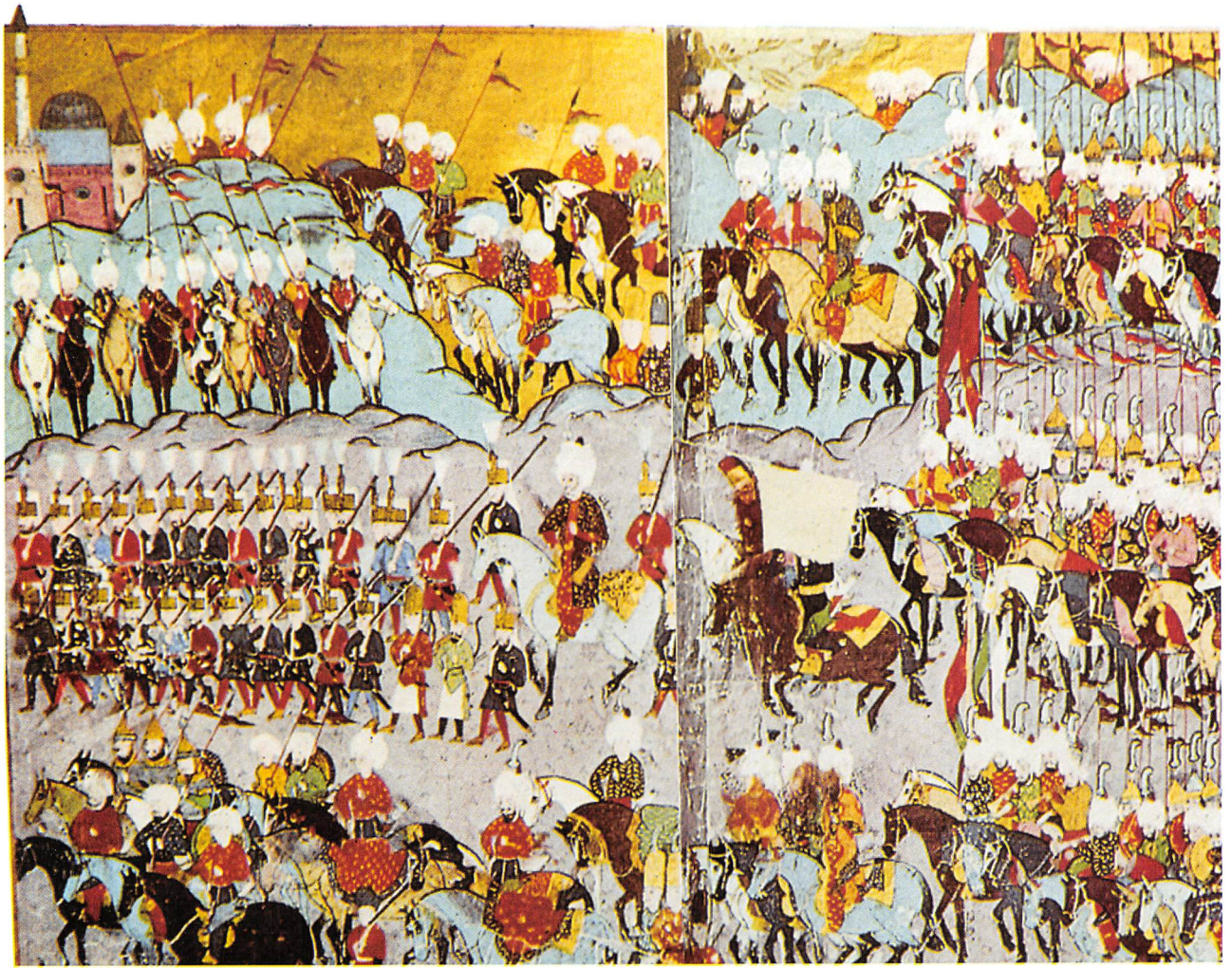


لوحة ٣٤٤م: هونر نامه.
المُجلّد الثاني. أحد أبناء
السُلطان سُلَيْمان القانونيّ يشهد
عرضًا للألعاب البهلوانيّة.
متحف طوب قاپو باستنبول.
[صورة لم يسبق نشرها].

لوحة ٣٤٧م: هونر نامه.
المُجلّد الثاني. معركة موهاج.
متحف طوب قاپو باستنبول.
[صورة لم يسبق نشرها].

لوحة ٣٤٦م: هونر نامه. المُجلّد
الثاني. حفل خِتان الأمير ابن
السُلطان سُلَيْمان العظيم، حيث
تجرى ألعاب البهلوانات. متحف
طوب قاپو باستنبول. [صورة لم
يسبق نشرها].



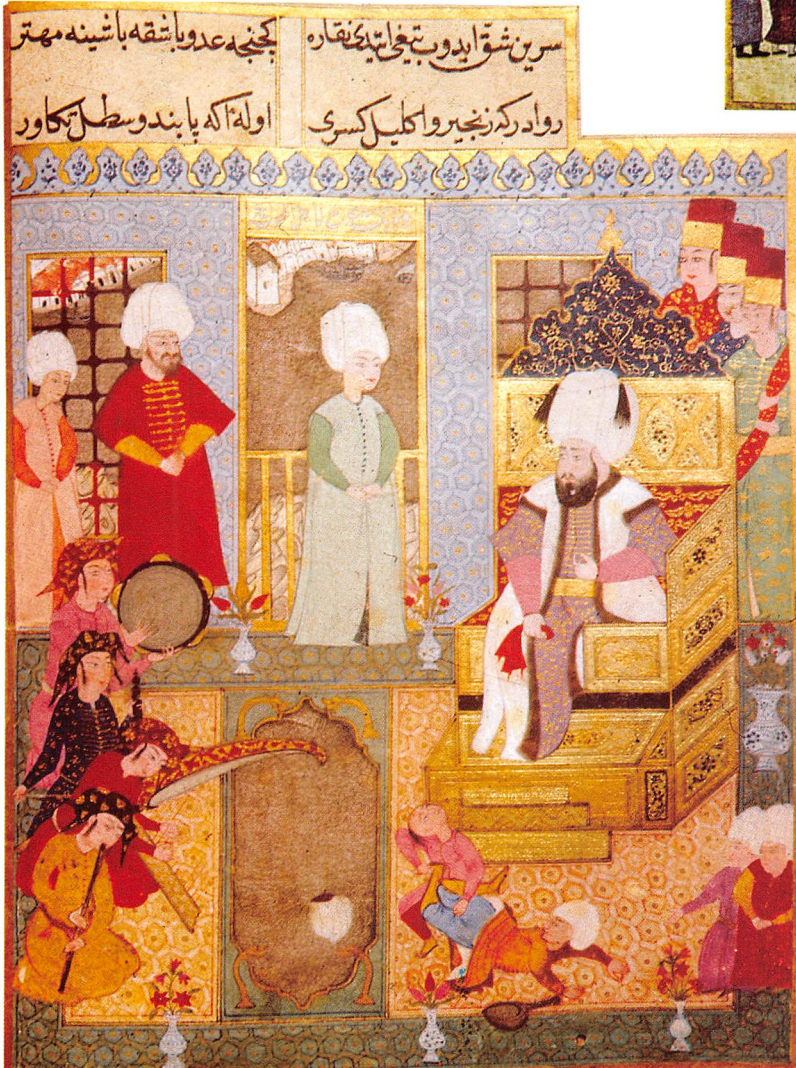


لوحة ٣٤٨م: نصرت نامه
«كتاب النصر» تأليف
المؤرخ عالي ١٥٨٤.
مُمنَمتان للجيش التركي في
طريقه إلى حملة القوفاز في
أبريل ١٥٧٨. متحف طوب
قاپو باستنبول.



لوحة ٣٤٩م: قيافة الإنسانيّة
في السّمائل العُثمانيّة. نهاية
القرن ١٦ ومُسْتَهَلّ القرن ١٧.
سُلَيْمان القانوني وابنه وأفراد
حاشيّته داخل قصره. متحف
طوب قاپو باستنبول. [صورة
لم يسبق نشرها].

لوحة ٣٥٠م: ديوان نادري . النصف الأول من
القرن ١٧ . موكب السلطان محمد الثالث
طريقه إلى الجامع يوم الجمعة . متحف طوب قابو
بإستنبول . [صورة لم يسبق نشرها] .



لوحة ٣٥١م: ديوان نادري . السلطان محمد الثالث
وحاشيته في مجلس طرب . متحف طوب قابو
بإستنبول . [صورة لم يسبق نشرها] .

كتبخانه عز وجاهند صندم
النده قلم سدرة المنتهى در
سمواتي برنسخه هفت بيكر
صور مشاخي چشمه آب كوثر

لوحة ٣٥٢ م: شاهنامه
إكرى فتح نامه. مُستَهَلّ
القرن ١٧. مشهد حَرْبِي
لِعَزْوِ إكرى. على
صفحتين. متحف طوب
قاپو ياستنبول. [صورة
لم يسبق نشرها].



آل ایشل بر ایله طوختیه هوا
لا جور دایکن پیایه اولدی سما



شرق شاهی دایکی اولکن مسجد
حشمت ایلدیندی فالدردی علم

لوحة ٣٥٣ م: شاهنامه إكرى فتح نامه. السُّلْطَان
مُحَمَّدُ الثَّالِثُ وَسَطُ حَاشِيَتِهِ يَسْتَقِيلُ وَقَدْ
الْمَجْر. متحف طوب قاپو ياستنبول. [صورة
لم يسبق نشرها].



لوحة ٣٥٤م: صورة شَخْصِيَّة لِلسُّلْطَان مُحَمَّد الْفَاتِح
بريشة الفنان سِنان بك. متحف طوپ قاپو باستنبول.

لوحة ٣٥٥م: صورة شَخْصِيَّة لِلسُّلْطَان
مُحَمَّد الْفَاتِح بِرِيشة نَقَاش عُثْمَان. متحف
طوپ قاپو باستنبول.

لوحة ٣٥٦م: صورة
شَخْصِيَّة لِلسُّلْطَان سَلِيم
الثَّانِي بِرِيشة نِيجَارِي.
متحف طوپ قاپو
باستنبول.



لوحة ٣٥٧م: صورة
شَخْصِيَّة لِخَيْر الدِّين
بَارْبَارُوسَا (ذِي اللِّحْيَةِ
الْحَمْرَاء). متحف
طوپ قاپو باستنبول.



لوحة ٣٥٨ م: صورة شخصية للسلطان
أحمد الثالث وابنه بريشة لوني.
متحف طوب قابو بإستنبول.



لوحة ٣٥٩ م: سورنامة وهبي. ١٧٢٠ م. الحوارة والمهرجون
يعرضون ألعابهم أمام السلطان أحمد الثالث. متحف طوب
قابو بإستنبول. [صورة لم يسبق نشرها].

لوحة ٣٦٠م: سورنامه وهبي. السلطان أحمد
الثالث ومن حوله حاشيته يستعرض فرقة عسكرية
ترافق مسيرة أرباب الحرّف. متحف طوب قايو
بإستنبول. [صورة لم يسبق نشرها].



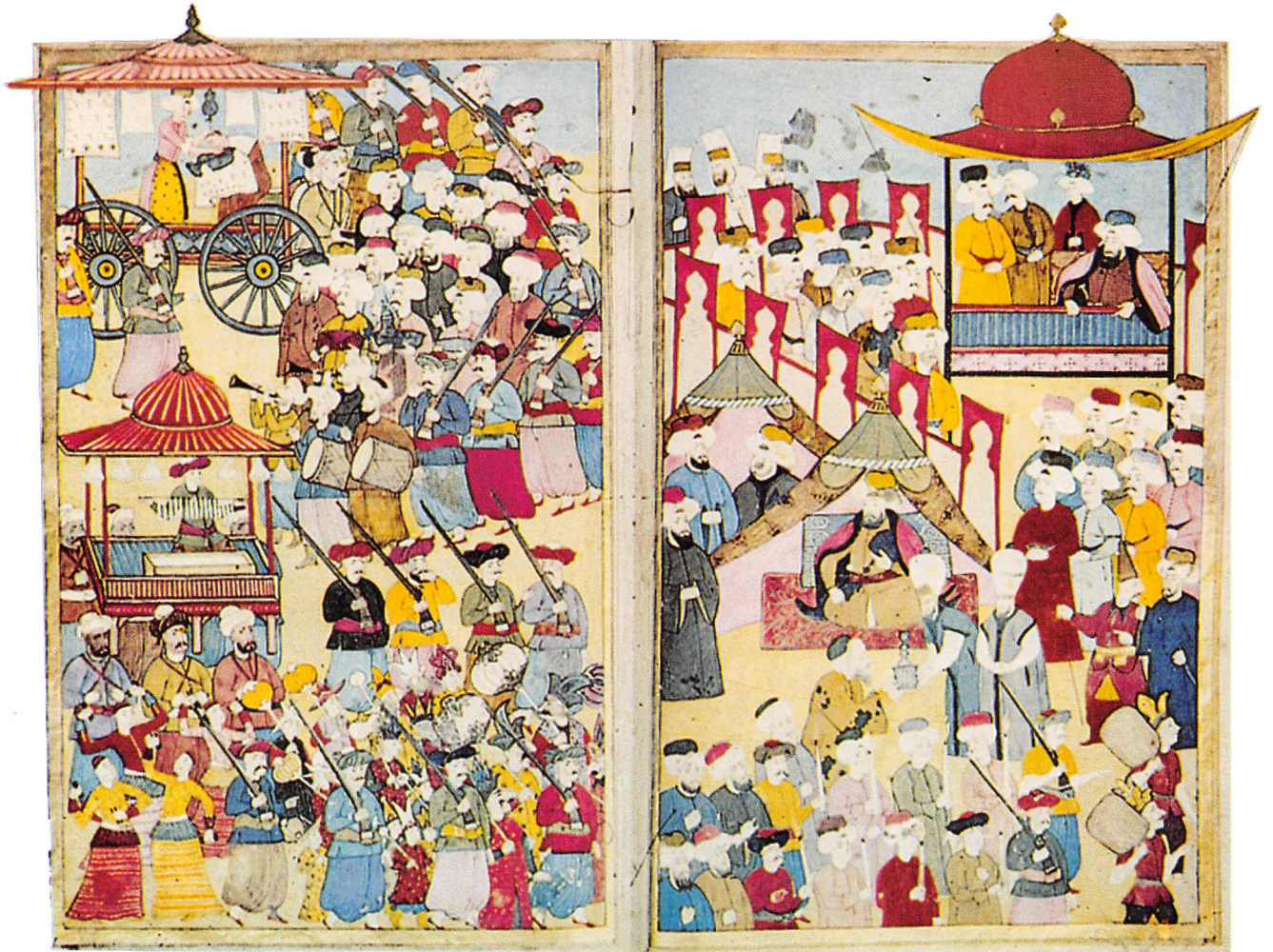
لوحة ٣٦١م: سورنامه وهبي. إنتقال الأمير مصطفى
والأمير سليم إبن السلطان سليمان القانوني. إلى الحفل
المقام بمناسبة ختانهما على ظهور الخيل برفقة حرسهما.
متحف طوب قايو بإستنبول. [صورة لم يسبق نشرها].

لوحة ٣٦٢م: سورنامه وهبي. ثلاثة أمراء يُؤخذون
للخِتان في سراي طوپ قابو. متحف طوپ قابو
ياستنبول. [صورة لم يسبق نشرها].



لوحة ٣٦٤م: سورنامه وهبي. مسيرة
بإيعي الفاكهة والكتب والإشكافيين
والبرازيين والحرفيين أمام السلطان.
متحف طوپ قابو ياستنبول.

لوحة ٣٦٣م: سورنامه وهبي. مسيرة أرباب
الحرف في موكب الاحتفال بختان أنجال السلطان
أحمد الثالث. متحف طوپ قابو ياستنبول.





لوحة ٣٦٧م: أربع موسيقيّات تنفخ إحداهنَّ
في المزمار والأخرى في مصفار وتقرع الثالثة
الدَّف وتغزف الرَّابِعة على العود. تصوير
لوني. مرقّعة. متحف طوب قابو بإستنبول.



لوحة ٣٦٥م: سورنامه وهبي. عربة الموكب
تُقلّ الأمراء إلى حفل الختان. متحف طوب
قابو بإستنبول. [صورة لم يسبق نشرها].



لوحة ٣٦٦م:
سورنامه وهبي.
السلطان وأفراد
حاشيته في الجؤسق
الإمبراطوري
يشهدون حفلًا بحريًا
كئيلاً على مياه
البوسفور. متحف
طوب قابو بإستنبول.



لوحة ٣٦٩م: سَيِّدَة تَرْكِيَّة تُمَسِّكُ بِيَمَانِهَا زَهْرَةً وَيُسْرَاهَا
بِأَقْلَمِ قَرْنُفَلٍ. وَنَلْحِظُ عَلَى الْهَامِشِ تَزَاوِيْقَ عَلَى طِرَازِ
خَالِكَارِ (التَّرْقِيْنَ بِالذَّهَبِ). تَصْوِيرُ لَوْنِي. مُرَقَّعة.
مَتْحَف طُوب قَايُو بِاسْتَنْبُول.

لوحة ٣٦٨م: غُلَامٌ مُعَمَّمٌ أَمَامَ شَجَرَةٍ يَحِطُّ عَلَيْهَا الطَّيْرُ.
تَصْوِيرُ لَوْنِي. مُرَقَّعة. مَتْحَف طُوب قَايُو بِاسْتَنْبُول.



لوحة ٣٧١م: سَيِّدة تركيَّة. تصوير لوني. مُرَقَّعة. متحف طوب قاپو بإستنبول.



لوحة ٣٧٠م: سَيِّدة تركيَّة مُحجَّبة، وتظهر في الهامش تَزاويق نباتيَّة على طراز خالكار. مُرَقَّعة. تصوير لوني. متحف طوب قاپو بإستنبول. [صورة لم يسبق نشرها].

لوحة ٣٧٢م: سَيِّدة تركيَّة مُستلقية. تصوير لوني. مُرَقَّعة. متحف طوب قاپو بإستنبول.



الباب الخ

التصوير المخلو للالهة

الفصلُ الثامن والعشرون

التصويرُ الهنديُّ

يساؤهم على حظٍّ من الحرِّيةِ واسعٍ تهبُّ المرأةُ نفسها لمن تشاء، وكانوا يتَّخذونَ من آلهةِ الطبيعةِ وأزواجِ الأسلافِ مَعْبُودَاتِهِمْ، وكانت قَرَابِينَهُمْ إلى تلكِ الآلهةِ هي ما يَسْفِكُونَ مِنْ دَمٍ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ مُعْتَقَدَاتِهِمُ الْإِيمَانُ بِتَنَاسُخِ الْأَرْوَاحِ وَلَا الْإِيمَانُ بِالطُّهَرِ وَالنَّجَاسَةِ عَلَى نَحْوِ مَا كَانَ يَفْعَلُ الْهِنْدُوسُ بَعْدُ.

وعلى مَرِّ الْأَيَّامِ كَانَ ثَمَّةُ تَمَازُجٍ تَدْرُجِيٍّ بَيْنَ الثَّقَافَاتِ الْمُتَبَايِنَةِ، فَلَقَدْ أَخَذَ كُلُّ جِنْسٍ مِنَ الْآخَرِ مَا يَرُوقُ لَهُ أَوْ مَا يُرَعَمُ عَلَى الْأَخْذِ بِهِ، وَإِذَا الْحَاكِمُ وَالْمُخَكِّمِينَ يَرْبِطُهُمْ نِظَامٌ مُوحَّدٌ. وَمَا لَيْتَ النِّظَامَ الْآرِيَّ الطَّبَقِيَّ الْمَفْتُوحَ أَنْ طَرَأَ عَلَيْهِ التَّعْدِيلُ وَالتَّغْيِيرُ، إِذْ لَمْ يَجِدْ اسْتِجَابَةً مِنْ شُعُوبِ الْهِنْدِ الْأَصْلِيَّةِ الَّتِي عَاشَتْ عَلَى طَبَقِيَّةٍ مُغْلَقَةٍ. وَكَانَ هَذَا التَّغْيِيرُ عَلَى دَرَجَاتٍ، فَإِذَا الطَّبَقَتَانِ الْعُلَوِّيَّانِ؛ طَبَقَةُ الْمُحَارِبِينَ وَطَبَقَةُ رِجَالِ الدِّينِ تُصْبِحَانِ طَبَقَتَيْنِ مُغْلَقَتَيْنِ، ثُمَّ إِذَا طَبَقَةُ رِجَالِ الدِّينِ «الْبَرَاهْمَانِيِّينَ» تَسْبِقُ طَبَقَةَ الْمُحَارِبِينَ وَتَرَأْسُ النِّظَامِ الطَّبَقِيِّ كُلَّهُ. كَمَا ظَهَرَتْ طَبَقَةُ دُنْيَا جَدِيدَةٍ دُونَ طَبَقَةِ الْعَامَّةِ هِيَ طَبَقَةُ أَصْحَابِ الْيَمِينِ الْوَضِيعَةِ «شُودَرَا»، وَلَمْ يَكُنْ لِهَذِهِ الطَّبَقَةِ الدُّنْيَا الْحَقُّ فِي مُمَارَسَةِ طُقُوسِ التَّطْهِيرِ كَمَا لِبَاقِيهَا مِنَ الطَّبَقَاتِ، وَهِيَ الَّتِي تَنْجِبُ لِلْمَرْءِ أَنْ يَظْهَرَ بِلَبَقٍ «دَوِيچَا» أَيِ الْمَوْلُودِ وَلَاذَتَيْنِ، مَرَّةً وَلاَدَةً طَبِيعِيَّةً وَمَرَّةً وَلاَدَةً رُوحِيَّةً بَعْدَ التَّطْهِيرِ. وَتَتَأَلَّفُ طَبَقَةُ الشُّودَرَا مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ الدُّنْيَا مِنَ الْهُنُودِ الْأَصْلِيِّينَ «الدَّاسِيُو» الَّذِينَ مَا لَيْثُوا أَنْ ائْتَدَجُوا فِي الْمُجْتَمَعِ الْآرِيَّ لِظُرُوفِ اقْتِصَادِيَّةٍ.

وَمَعَ أَوَائِلِ التَّارِيخِ الْمَسِيحِيِّ، أَخَذَ النِّظَامُ الطَّبَقِيُّ فِي الْهِنْدِ يَسْتَقِرُّ، وَإِنْ ظَلَّتْ لِلْمُلُوكِ وَالْأَمْثَرَاءِ سُلْطَتُهُمْ لَزِمْنَ طَوِيلٌ فِي ضَمِّ مَنْ يَشَاءُونَ إِلَى طَبَقَةٍ بِعَيْنِهَا أَوْ إِبْعَادِ غَيْرِهِمْ عَنْ طَبَقَةٍ بِذَاتِهَا، كَمَا غَدَا الْإِيمَانُ بِعَقِيدَةِ تَنَاسُخِ الْأَرْوَاحِ لَهُ شَرِيعَتُهُ، وَبَدَأَ الْهُنُودُ تَقْدِيسَهُمْ لِلْبَقَرِ، كَمَا سَادَتْ نَظَرِيَّةُ الطُّهَرِ وَالنَّجَاسَةِ فِي مَا يَطْعَمُونَ وَيَشْرَبُونَ، وَامْتَدَّتْ أَخْطَارُ الطُّهَرِ وَالنَّجَاسَةِ إِلَى مَنْ يُوَلَّدُ؛ فَإِذَا كَانَ الْأَبُّ أَعْلَى طَبَقَةٍ مِنَ الْأُمِّ غُزِيَ الطِّفْلُ إِلَى أَبِيهِ، وَإِذَا مَا كَانَتِ الْأُمُّ أَعْلَى طَبَقَةٍ مِنَ الْأَبِّ غَدَا الطِّفْلُ «مَبُودًا»، وَكَذَا الْأُمُّ لِأَنَّ الدَّنْسَ قَدْ لَحِقَهَا بِزَوَاجِهَا بِمَنْ هُوَ أَدْنَى مِنْهَا طَبَقَةً. وَمَعَ الْأَيَّامِ أَخَذَتْ تَعَالِيمُ الْبَرَاهْمَانِيِّينَ تَسْرِي بَيْنَ شُعُوبِ الْهِنْدِ الْمُخْتَلِفَةِ

إِطْلَالَةٌ عَامَّةٌ عَلَى عَقَائِدِ الْهِنْدِ قَبْلَ الْفَتْحِ الْإِسْلَامِيِّ

نَشَأَ الْفَنُّ الْهِنْدِيُّ أَوَّلَ مَا نَشَأَ مُتَحَرِّزًا مُتَنَوِّعًا، ثُمَّ مَا لَيْتَ أَنْ أَصْبَحَ أَسِيرًا لِتَوَامِيسِ فَنِّيَّةٍ جَامِدَةٍ مُسْتَقَاةٍ مِنَ الثَّقَالِيدِ الْهِنْدِيَّةِ، فَإِذَا هُوَ يَغْدُو فَنًّا كَهَنُوتِيًّا بَعْدَ أَنْ ظَهَرَتْ كُتُبٌ تَحْتَوِي أَصُولَ الْفَنِّ الْهِنْدِيِّ يَحْتَنِزِي بِهَا الْجَمِيعَ. وَمَعَ الْغَزْوِ الْمَغُولِيِّ لِلْهِنْدِ دَخَلَ الْفَنُّ الْهِنْدِيُّ مَرَحَلَةً جَدِيدَةً مُتَطَوِّرَةً، وَأَخَذَتْ تَقَالِيدُ الْعُصُورِ الْوُسْطَى تَتَوَارَى شَيْئًا فَشَيْئًا أَمَامَ الْأَتِّجَاهَاتِ الْحَدِيثَةِ، فَخَرَجَ الْفَنُّ الْهِنْدِيُّ مِنَ الرُّكُودِ الَّذِي عَانَاهُ قُرُونًا طَوِيلَةً إِلَى نَهْضَةٍ رَاضِيَةٍ فِي مَجَالِ التَّصْوِيرِ. وَقَبْلَ أَنْ نَأْخُذَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ التَّصْوِيرِ الْهِنْدِيِّ لَا بُدَّ مِنْ كَلِمَةٍ أُولَى تَتَحَدَّثُ فِيهَا عَنْ نَشْأَةِ شَعْبِ الْهِنْدِ وَعَنِ مُعْتَقَدَاتِهِ الدِّينِيَّةِ وَآلِهَتِهِ عَلَى مَرِّ السَّنِينَ، وَعَمَّا كَانَ لَهُمْ مِنْ مَلَاجِمٍ مُخْتَلِفَةٍ وَأَغَانٍ لَا تَرَالُ تَتَرَدَّدُ عَلَى الْأَلْسُنِ إِلَى الْيَوْمِ، إِذْ هَذِهِ كُلُّهَا قَدْ اسْتَلْهَمَ مِنْهَا التَّصْوِيرُ الْهِنْدِيُّ مَوْضُوعَاتِهِ.

دَخَلَتْ الْهِنْدُ، مَعَ غَزْوَةِ الْآرِيِّينَ لِشِمَالِهَا حَوَالَى عَامِ ١٥٠٠ ق.م، حِقْبَةً جَدِيدَةً. وَلَقَدْ كَانَ لِسُكَّانِ الْهِنْدِ الْأَصْلَاءِ «الدَّاسِيُو» قَبْلَ هَذَا الْغَزْوِ حَضَارَةٌ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَصِلْ إِلَيْنَا مِنْهَا إِلَّا الْقَلِيلُ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهَا بَعْدَ هَذَا الْغَزْوِ، وَمِنْ هَذَا تِلْكَ الْآثَارِ الَّتِي تُشِيرُ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْحَضَارَةَ كَانَتْ مَدَنِيَّةً حَضَرِيَّةً تَمَثَّلَتْ فِي مُجْتَمَعَاتِ لَهَا حَظٌّ مِنَ الرُّقِيِّ يَتِمَّزُ فِيهَا بَعْضُ النَّاسِ عَنْ بَعْضٍ، كَمَا تَنَاقَلَتْ هُنْدَسَةٌ تَوَزِيعِ الْغِيَاةِ خَزْنًا وَصَرْفًا، وَقَدْ اخْتَلَفَتْ حَضَارَاتُ تِلْكَ الشُّعُوبِ فِي نِظْمِهَا الْاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي تَمَثَّلَتْ فِي أُمُورِ الزَّوَاجِ وَشُؤُونِ الطَّعَامِ. وَكَانَ الْآرِيُّونَ الْغَزَاةُ مِنَ الْبَرَابِرَةِ لَهُمْ مُجْتَمَعُهُمُ الْمَفْتُوحُ، وَتَجَمَّعُهُمْ طَبَقَاتُ ثَلَاثٍ: طَبَقَةُ الْمُحَارِبِينَ «كَشَاتْرِيَا» وَطَبَقَةُ رِجَالِ الدِّينِ «الْبَرَاهْمَانَا» وَطَبَقَةُ الْعَامَّةِ «فَايشِيَا». وَكَانَ مِنَ الْبَسِيرِ عَلَى كُلِّ فَرْدٍ فِي مُجْتَمَعِهِمُ الْمَفْتُوحِ أَنْ يَنْتَقِلَ مِنْ طَبَقَةٍ إِلَى أُخْرَى إِذَا تَوَافَرَتْ فِيهِ الشُّرُوطُ الْمَطْلُوبَةُ أَوْ نَالَ رِضَا الْحَاكِمِ، كَمَا كَانَتْ عَقَائِدُهُمْ وَعَادَاتُهُمْ تَخْتَلِفُ الْاِخْتِلَافَ كُلَّهُ عَنْ عَقَائِدِ الْهِنْدِ الْحَدِيثَةِ. وَكَانَ كُلُّ طَعَامِهِمْ مِنْ لَحْمِ الْبَقَرِ، كَمَا كَانَ شَرَابُهُمْ يُدْعَى السُّومَا، وَهُوَ شَرَابٌ قَوِيٌّ لَا نَعْرِفُ حَتَّى الْيَوْمِ مُكَوَّنَاتِهِ. وَكَانَتْ

وتقوم الهندوكية الحديثة على ثلاث إلهي مكوّن من براهيم وشيخه وفشنو، والأخيران من الممكن أن يتقمصا سمات إنسانية. وبراها هو الإله المتعالي الذي لا يسمو إلى مرتبة إنسان، وشيخه هو الإله الواقي الذي يده حفظ الوجود، وفشنو هو الإله الهادم الذي يده الإقناء.

وتحفل الهندوكية الحديثة بشعائر دينية بيّتها تناقض بين وتنوع كبير، وهي على الرغم من ذلك لا تقضي إحداهما على الأخرى، كما نبذت شيئاً فشيئاً بعض الشعائر والعادات أو عدلت فيها مثل تحريم زواج الصبية من الصبايا في سن مبكرة وإحراق الزوجة نفسها في جنازة زوجها وإزوراء المنبذين «الشودرا» الذين لا ينتمون إلى طبقة من الطبقات الثلاث العليا. ولا تزال الهندوكية الحديثة تقدس الحيوان لاسيما البقر أخذاً بمبدأ اللاعنّف واللاتعذيب وعدم مسّ أي كائن بأذى، كما تقدس نحل وحيوانات منها الأفاعي.

والبراهمانية أو البراهمية هي العقائد التي يعتنقها الكهنة الهندوس، ومزدها إلى الفيدات الثلاث الأخيرة تأويلاً لا نصاً. وهي تتطوّر على مبدأ وحدة الوجود الذي شاع في كل الديانات الهندية تقريباً، وهو المبدأ الأول بين المبادئ التي يقوم عليها كتاب «أوبانيشاد»، فكل فرد من البشر ما هو إلا جزء من «الحق الفرد» أو «الأصل الواحد الأحد»، وهو إن انفصل عنه ظاهراً فلا بُد من رجعة إليه واندماج فيه آخر الأمر. وقد ظهرت البراهمانية الأولى بين سنتي ٨٠٠ و ٦٠٠ ق.م قبل ظهور البوذية، ومصادرها كتاب الفيدا والبراهماناس والأوبانيشاد، على حين ظهرت البراهمانية الثانية متأثرة بالعقيدتين الجاينية والبوذية (٢٥٠ ق.م - ٨٠٠) حتى إذا ما علا شأنها إذا هي تنفي البوذية من الهند مسقط رأسها. فما إن أطل القرن الحادي عشر الميلادي حتى امتحت التعاليم البوذية من الهند ولم يبق لها أثر ما إلا في بعض نواح معدودة. ولكن الذي لا شك فيه أن بعض التعاليم البوذية قد انتقلت إلى البراهمانية ولاسيما الرأي القائل بالتسامح والإحسان إلى الفقراء، غير أن البوذية لم تنته بانتهائها من الهند، فلقد أخذت تنتشر في صور أخرى بالتيب والصين واليابان وتايواند (سيام) وبورما.

وفشنو هو العضو الثاني في الثلاث الإلهي الهندوكي الذي يتوسط براهيم وشيخه. وفشنو وشيخه إلهان مهجنان يتكوّن كل منهما من عناصر متعدّدة المصادور، ويضمّان فيما بيتهما معظم النحل الهندوكية المتنازعة التي تدور حولهما وحول زوجتيهما وأبنائهما والشخص المرتبطة بهما. ويؤمن أتباع كل إله منهما أن إلهه هو الإله الأعلى الخالق الحافظ الواقي المدمر، ثم باعث الحياة والخلق من جديد بيتهما الإله الآخر أدنى مرتبة. وكان لفشنو - شأن معظم الآلهة الهندية - العديد من الأسماء التي تقرب من الألف، وزوجته هي لاكشمي إلهة الحظ ورثة الجمال والثراء.

شيئاً فشيئاً، فإذا هي تكوّن ما يشبه الرابطة العامة التي كان من الصعوبة بمكان على أي سلطة مدنية أن تجيء يمثّلها، وكانت هذه الرابطة هي حَجَر الأساس الذي قامت عليه القومية الهندية. وقد بلغ هذا النظام أقصى ذروته مع الاحتلال البريطاني للهند في القرن التاسع عشر، فلم يحاول الإنجليز أن يجمعوا أنفسهم فيما يمسّ العقيدة بين الهند. وما إن كُتب للهند استقلالها عام ١٩٤٩ حتى أخذ حكامها في إلغاء هذا النظام الطائفي، فلم يعد ثمة فرق بين هندي وآخر بحكم القانون، كما أنه لا متبذون بعد، وفتحت أبواب المعابد والأماكن المقدسة للجميع بدون استثناء، غير أن المعارضة للإصلاح لم تخمد تماماً، وظلت قائمة تقاومه كما فعل أسلافهم مع الآريين والمسلمين والمسيحيين.

وليس باليسير التعريف بالهندوكية نظراً لأن معتقداتها وطُوقها تتباين تبايناً شديداً يتعدّد الأقاليم التي تتباين فيها هي الأخرى تلك العقائد، وكذا بين الطبقات المختلفة. والمتواتر أن الهندوكية ليست ديناً ولكنها نظام متكامل للحياة يشمل أكثر ما للإنسان من نشاط لم تتناوله الأديان اللاحقة، وينتظم طريقة من طرق التعايش بين الناس، وكذا ينتظم أسلوباً من أساليب الحضارة العامة. ولقد أخذت الهندوكية تنمو رويداً رويداً آخذة من شرائع الآريين حوالي ١٥٠٠ ق.م ومن العقائد المحلية التي كانت تدين بها طوائف الشعب المقيور. وكانت تلك الطوائف تختلف فيما بينها عقائدياً باختلافها فكرياً وإرثاً، هذا إلى أثر العقائد الطائفة كالزردشتية والإسلام والمسيحية وديانات قبائل آسيا الوسطى الرُحل، بل والطاوية الصينية، فلقد تضافرت جميعها في التأثير على الهندوكية. وأكثر ما يميز الهندوكية التقليدية ما تشتمل عليه من رأي في تناسخ الأرواح وما يتبع هذا من أن الكائنات الحية كلها شيء واحد في جوهره، ومن رأي معتد ظاهره تعدد الآلهة وباطنه التوحيد، أي الاعتراف بإله واحد إذ هؤلاء الآلهة ما هم إلا فروع من إله واحد، ومن رأي أزلي ينزع إلى التصوفية والفلسفة الأحادية التي ترّد الوجود والمعرفة والسلوك إلى مبدأ واحد، ومن جنوح إلى الأخذ عن المذاهب الأخرى لا إلى الثور منها، وهو ما يباعد بين الهندوكية والمسيحية التي كانت في نشأتها الأولى تنبذ الأديان جمعاء على حين أن الهندوكية تفيض على الأديان جميعاً لوّاً من الشريعة، وهكذا تجمع الهندوكية بين عقائد شتى فيها كل ما يعن للخطير، كما تستوعب العقائد الدينية عامة منذ ظهور الفيدا التي هي أقدم كتبهم المقدسة إلى يومنا هذا. وتعني كلمة فيدا بالسسكريتيّة العلم أو المعرفة، ويعتقد المؤمنون بها أنها فيض سماوي رباني تلقاه نفر من حكام الهندوكيين السالفين يسمون الريشيين أي الحكماء إما إلهاماً فاتصلوا بما هو أزلي أبدي فكانوا أمّبه ما يكونون بالوسطاء بين الخالق والمخلوق، وإما تلقوه تلقيناً عن سلفهم، وتقع الفيدا في أسفار أربعة أهمها وأقدمها «الريغ فيدا».

أَنَّهُ وُلِدَ مِنَ السَّمَاءِ.

ورامه هو التَّجْسِيدُ السَّادِسُ لِلإِلَهِ فَشَنُو الَّذِي تَضَمَّنَتْ مَلَحْمَةُ الرامايانه قِصَّةَ حَيَاتِهِ، وهو الابن الأكبر لِداشَرَتاه مَلِكِ أيودهيا في شَمال الهِنْد الَّذِي رَأَى، عِنْدَمَا تَقَدَّمَ بِهِ العُمُرُ، أَنَّ يَعْبُدَ بِالْعُرْشِ إِلَى ابْنِهِ رَامَه، غَيْرَ أَنَّ زَوْجَتَهُ الثَّانِيَةَ اعْتَرَضَتْ عَلَى ذَلِكَ مُدْكِرَةً زَوْجَهَا بِوَعْدِ سَابِقٍ أَنَّ يَجْعَلَ مِنْ ابْنِهَا هِيَ وَلِيًّا لِلْعَهْدِ، فَتَرَجَعَ وَقَضَى بِنَفْسِ رَامَه أَرْبَعَةَ عَشَرَ عَامًا. فَقَصَدَ رَامَه وَزَوْجَتَهُ سِينَا وَشَقِيقَهُ الْكَبِيرَ لَاشْمَانِ إِحْدَى الْغَابَاتِ لِيَعِيشَ بَيْنَ النَّسَاكِ وَيَقْضِيَ وَقْتَهُ فِي إِقَامَةِ الشَّعَائِرِ الدِّيْنِيَّةِ، الْأَمْرُ الَّذِي أَغْضَبَ رَافَتَهُ مَلِكِ سِيلَانَ الرَّوحِيَّ، فَسَلَّلَ إِلَى الْغَابَةِ مُتَنَكِّرًا وَاخْتَطَفَ سِينَا. غَيْرَ أَنَّ رَامَه، بِمُعَاوَنَةِ سَوجَرِيه مَلِكِ الْقُرُودِ، غَرَا سِيلَانَ وَقَتَلَ رَافَتَهُ، ثُمَّ عَادَ إِلَى عَاصِمَتِهِ بِلَادِهِ حَيْثُ تَوَجَّ مَلِكًا وَسَطَ هُتَافِ رَعَايَاهُ، وَكَانَتْ فِتْرَةُ حُكْمِهِ عَهْدًا ذَهَبِيًّا اتَّسَمَ بِالرِّخَاءِ الْمَادِّيِّ وَالرُّوحِيِّ.

وشبهه هو الإله الثالث في الثالوث الهندوكي بَعْدَ بَرَاهْمَا وَفَشَنُو، وَعَقِيدَةُ شَيْفِهِ هِيَ أَشَدُّ الْعَقَائِدِ شُيُوعًا فِي الْهِنْدُوكِيَّةِ الْحَدِيثَةِ. وَيَعْنِي اسْمُ شَيْفِهِ فِي السَّنَسْكَريَّةِ الْيَمُونِ أَوِ الْمُبَشِّرِ، وَكَانَ فِي مَبْدَأِ الْأَمْرِ الْمُعْتَمَلِ الْإِلَهِيِّ لِلطَّبِيعَةِ الْبِدَائِيَّةِ الشَّائِكَةِ الْمَحْفُوفَةِ بِالْمَخَاطِرِ، أَهْلَتَهُ طَبِيعَتُهُ لِلانْتِشَارِ إِلَى مَظَاهِرِ جُزْئِيَّةٍ يُعْتَمَلُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا صِفَةً مِنْ صِفَاتِهِ، فَضْلًا عَنْ قُدْرَتِهِ عَلَى اسْتِيعَارَةِ الْقُوَى الْإِلَهِيَّةِ وَالشَّيْطَانِيَّةِ مِنَ الْآلِهَةِ الْأُخْرَى. وَهُوَ يُجَسِّدُ خَصَائِصَ التَّذْمِيرِ وَإِعَادَةِ الْخَلْقِ وَإِنْ كَانَ الشَّائِعُ أَنَّ يُنْظَرُ إِلَيْهِ بِوصْفِهِ الْإِلَهَ الْمُدمِّرَ. وَيَضَعُهُ أَتْبَاعُهُ فِي مَرَبَّةِ الْإِلَهِ الْأَوَّلِ فِي الثَّالُوثِ الْإِلَهِيِّ. وَيُمَثِّلُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمُ الزَّمَنَ وَالْعَدَالَةَ وَالْجِيَاهَ وَالشَّمْسَ وَالْخَالِقَ وَالْهَادِمَ. وَيُصَوَّرُ مُمْتَطِيًا ثَوْرًا أَبْيَضَ لِيَرْمِزَ لِلْعَدْلِ وَالْبَعْثِ، كَمَا يُصَوَّرُ بِوُجُوهِ خَمْسَةٍ وَعِیُونَ ثَلَاثَ تَعْلُو إِحْدَاهَا جَبِينَهُ لِيَرْمِزَ إِلَى مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ مِنْ قُوَى الْفِكْرِ وَالتَّأَمُّلِ، وَيَبْدِينَ أَوْ أَرْبَعٍ أَوْ ثَمَانٍ أَوْ عَشَرَ، وَبِهَالٍ وَسَطَ جَبْهَتِهِ. وَيُصَوَّرُ عُنْقُهُ أَزْرَقَ دَاكِئًا وَشَعْرُهُ مُخْمَرًا مُضْفَرًا فِي خُصْلَةٍ قَوِّ رَأْسَهُ وَكَأَنَّهُ قَرْنٌ يُطَلُّ مِنْ هَامَتِهِ، وَيَلْتَفُّ عُنْقُهُ بِأَكْلِيلٍ مِنَ الْجَمَاجِمِ الْبَشَرِيَّةِ وَبِثُعْبَانٍ. وَيَحْمِلُ صَاعِقَةً، تُتَوَجَّهَاتُ جُمُجُمَةً، وَرَأْسًا أَوْ رَأْسَيْنِ آدَمِيَّيْنِ. وَغَالِيًا مَا يُصَوَّرُ شَيْفَهُ وَقَدْ انْتَفَتْ حَوْلَ جَسَدِهِ الْأَفَاعِي رَمَزُ الْخُلُودِ. وَشَيْئًا فَشَيْئًا ارْتَقَى إِلَى مَصَافِ الْآلِهَةِ الْجَلِيلَةِ الْمُسْتَظَرَّةِ عَلَى شُؤْنِ الْبَشَرِ. وَشَيْفَهُ نَمُودَجٌ لِلإِلَهِ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ تَقْضِيصِ وَإِنْ كَانَ مُتَكَامِلَيْنِ: فَهُوَ مُرْعِبٌ وَلَطِيفٌ، وَهُوَ خَالِقٌ وَهَادِمٌ، وَهُوَ سَاكِنٌ إِلَى الْأَبَدِ وَلَا يَكْفُ عَنْ الْحَرَكَةِ، وَهُوَ مَا يَجْعَلُهُ إِلَهًا يَجِيشُ بِالْمُفَارَقَةِ مُتَرَفِّعًا عَلَى الْبَشَرِ، يَحْفَظُ بِجَلَالِ خَفِيٍّ. وَمَعَ أَنَّ الْفَلَاسِيفَةَ الْبَرَاهِمَةَ لَا يَفْتَاوْنَ بِشِيرُونِ إِلَى زُهْدِهِ وَتَسْكُنُهُ فَإِنَّ الْقَائِمِينَ عَلَى شَعَائِرِهِ وَطُقُوسِهِ يُلْحَوْنَ عَلَى قُدْرَاتِهِ الْجَسَدِيَّةِ، وَهُمَا التَّقِيضَانِ الْمُجْتَمِعَانِ فِي شَخْصِيَّتِهِ. فَهُوَ يَهْجُرُ زُهْدَهُ وَتَسْكُنُهُ لِيَتَزَوَّجَ مِنْ بَارْفَاتِي، وَلِكَيْتَهُ يَعُودَ إِلَى تَسْكُنِهِ أَحْيَاءًا،

وَيُصَوَّرُ فَشَنُو بِشَعْرِهِ مَعْقُوصًا بَيْنَا يَحْمِلُ صَوْلَجَانًا وَمَحَارَةً وَقُرْصًا وَزَهْرَةً لَوْتَسَ فِي كُلِّ يَدٍ مِنْ أَيْدِيهِ الْأَرْبَعِ الَّتِي ذَبَحَ بِهَا الْعَدِيدَ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الْوَحْشِيَّةِ، كَمَا يُصَوَّرُ عَادَةً دَاكِنَ اللَّوْنِ، وَيُعْبَدُ إِمَّا مُبَاشَرَةً بِوصْفِهِ فَشَنُو أَوْ وَهُوَ مُتَقَمِّصٌ أَحَدَ تَجْسِيدَاتِهِ وَمِثْلَ رَامَه وَكَرِيْشَنَه وَبُودَا، وَهِيَ الْأَكْثَرُ شُيُوعًا. وَثَمَّةُ الْعَدِيدِ مِنْ عَقَائِدِ الْأَنْجِذَابِ الرُّوحِيِّ تَرْتَبِطُ بِفَشَنُو وَبِخَاصَّةٍ فِي هَيْئَتِهِ كَكْرِيْشَنَه الَّذِي قَدْ تَتَجَلَّى فِي طُقُوسِ عِبَادَتِهِ بَعْضُ الشَّعَائِرِ الْمَاجِنَةِ.

وَكْرِيْشَنَه هُوَ التَّجْسِيدُ الثَّامِنُ وَالْأَهَمُّ مِنْ بَيْنِ تَجْسِيدَاتِ فَشَنُو فِي الْعَقِيدَةِ الْهِنْدُوكِيَّةِ، وَكَمَا جَاءَ فِي نَشِيدِ الْبَهَاجَاوَاتِ فِيتَا [نَشِيدُ الرَّبِّ أَوْ الْمُبَارَكِ، وَهُوَ الْفَصْلُ الرَّابِعُ عَشَرَ مِنْ مَلَحْمَةِ مَهَابَهَارَاتِهِ] هُوَ الَّذِي قَادَ مَرْكَبَهُ أَرْجُونَا بِطَلِّ الْمَلَحْمَةِ وَإِنْ لَمْ يُشَارِكْهُ الْقِتَالُ أَثْنَاءَ الْحَرْبِ الَّتِي نَشَبَتْ بَيْنَ أَبْنَاءِ پَانْدُو الَّذِينَ يَنْتَمِي إِلَيْهِمُ أَرْجُونَا وَالَّذِينَ اكْتَفَى كْرِيْشَنَه بِشَدِّ أَزْرَهْمُ مَعْنَوِيًّا وَخَصَّهْمُ عَلَى مُوَاسَلَةِ الْقِتَالِ، وَبَيْنَ أَبْنَاءِ كُورُو. يُمَثِّلُ كْرِيْشَنَه أَيْضًا بِوصْفِهِ الْمُعَلِّمَ الرُّوحَانِيَّ الَّذِي يُزِيحُ السَّتَارَ عَنْ عَقِيدَةِ الْعِشْقِ الْإِلَهِيِّ، وَهُوَ فِي الْأَسَاطِيرِ الشَّعْبِيَّةِ رَبُّ الْإِخْصَابِ الْأَثِيرِ لَدَى رِعَاةِ الْمَاشِيَةِ وَحَالِيَاتِ الْبَقَرِ Gopis. وَلَقَدْ زَوَّدَتْ مُغَامِرَاتِهِ، مُنْذُ مَوْلِدِهِ حَتَّى مُغَادِرَتِهِ الْأَرْضِ، مُصَوَّرِي الْمُنْمَنَّمَاتِ الْهُنُودِ بِخَصِيلَةٍ لَا خَصَرَ لَهَا مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي تَشَدُّ أَهْتِمَامَ النَّاسِ. وَعِنْدَمَا لَا يُوَدِّي كْرِيْشَنَه دَوْرَ الْمُتَقِدِّ وَالْمُخْلِصِ يَتَقَمِّصُ شَخْصِيَّةً تَتَخَلَّى بِأَجْمَلٍ مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ الْبَشَرُ مِنْ صِفَاتٍ، فَيَبْدُو فِي دَوْرِ صَدِيقِ الْأَهَالِي يُشَارِكُهُمْ أَفْرَاحَهُمْ وَأَتْرَاحَهُمْ، وَيُرَافِقُ الرِّعَاةَ وَحَالِيَاتِ الْبَقَرِ فِي غُدُوِّهِمْ وَرَوَاحِهِمْ، وَيَسْتَجِمُّ مَعَهُمْ فِي النَّهْرِ، وَيَعُودُ الْأَبْقَارَ إِلَى حَظَائِرِهَا عِنْدَ الْغَسَقِ وَهُوَ يَنْفَخُ فِي بَزْمَارِهِ.

عَلَى أَنَّ أَعْمَالَ كْرِيْشَنَه لَا تَدْعُو كُلَّهَا إِلَى الْإِعْجَابِ، فَهُوَ يَسْرِقُ اللَّبَنَ فِي طُفُولَتِهِ، وَيَخْطِفُ ثِيَابَ حَالِيَاتِ الْبَقَرِ فِي شَبَابِهِ وَهُنَّ يَسْتَحِمُّنَ فِي النَّهْرِ، ثُمَّ يَرْتَقِي شَجَرَةً عَالِيَةً كَيْ يُمَتَّعَ بِصَرِّهِ بِمَشْهَدِهِنَّ، كَمَا يُضَاجِعُ الزَّوْجَاتِ فِي غَيْبَةِ أَزْوَاجِهِنَّ. وَكَانَ يُصَوِّرُ عَاطِفَةً جَارِفَةً لِحَالِيَّةٍ بَقَرٍ تَدْعَى «رَادَا»، فَكَانَتْ عِلَاقَةً رُومَانِيَّةً غَرِيبَةً بِالنِّسْبَةِ لِلْهُنُودِ الَّذِينَ اعْتَادُوا عَقْدَ قِرَانِ أَبْنَائِهِمْ وَبَنَاتِهِمْ سَلَفًا مُنْذُ طُفُولَتِهِمْ حَيْثُ لَمْ يَكُنِ الْغَرَامُ عُصْرًا أُسَاسِيًّا مِنْ عَنَاصِرِ الزَّوْاجِ، وَهُوَ مَا أَذَاعَ شُعْبِيَّةَ عِشْقِ كْرِيْشَنَه لِرَادَا. وَعَلَى حِينٍ كَانَ كْرِيْشَنَه إِلَهًا كَانَتْ رَادَا بَشَرًا فَاثِيًا، وَمِنْ ثَمَّ كَانَ النَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَى هَذِهِ الْعِلَاقَةِ نَظَرَةً ذَاتَ مَعْنَى جَلِيلٍ بِوصْفِ رَادَا هِيَ الرُّوحُ السَّاعِيَّةُ فِي ظِلَامِ الْحَيَاةِ إِلَى الْإِتِّحَادِ بِاللَّهِ، وَبِهَذِهِ النِّظَرَةِ أَفَلَتْ كْرِيْشَنَه مِنْ وَصْمَةِ الزُّنَا. وَيُمْكِنُ لِمُشَاهِدِ الْمُنْمَنَّمَاتِ الْهِنْدِيَّةِ أَنْ يُمَيِّزَ صُورَةَ كْرِيْشَنَه عَلَى الْقُورِ، فَهُوَ يَرْتَدِي ثِيَابَ الْأَمْرَاءِ، وَيَعْتَمِرُ بِتَاجِ ذِي خَمْسَةِ نُتُوءَاتٍ مُزِينٍ بِرِيْشِ الطَّاءُوُوسِ، وَيَأْتَرِرُ بِمُزَرِّزٍ ذَهَبِيٍّ يَلْتَفُّ حَوْلَ خَصْرِهِ، وَيَحْمِلُ يَدَهُ مِصْفَارًا أَوْ عَصَا، وَيَأْخُذُ جِلْدَهُ اللَّوْنُ الْأَزْرَقُ، وَمَرَدَّةُ ذَلِكَ إِمَّا لِأَنَّهُ وُلِدَ مِنْ شَعْرَةِ سَوْدَاءٍ وَاحِدَةٍ مِنْ شَعْرِ الْإِلَهِ فَشَنُو أَوْ

تعاليم مُحدّدة للقيام بالشعائر الدينيّة، كما لم يَخَصَّ دُعاةَ بَعضِهِمْ لِشَرِّ دُعوته، فَلَقَدْ كان أَتباعه جَمِيعًا فِتّةً واحدة، يَتَرَسَّمونَ خُطاه، وَيُشَرِّونَ مَبادِئه، وَيَعِيشونَ كَابِحِينَ لِشَهَوَاتِهِمْ، ضابِطِينَ لِأَنفُسِهِمْ مِنْ دُونِ التَّوَرُطِ فِي عَذَابِ بَذَنِيّ كَمَا فَعَلَ الْبَراهِمة، وَلَكِنَّهُمْ كانوا إلى هَذَا يَهْجَرونَ مَلادَ الحَيَاةِ وَيَتَزَلَّونَ عَمّا يَمْتَلِكُون، وَيَعَدُّونَ بُودًا الْأَكْبَرُ نَمَطًا بِذاته مِنْ الكَمالِ الْأَمثلِ لا أُسطورة أُملاها الخَيال. وبهذا الجانِبِ المُشرقِ مِنْ حَيَاةِ بُودا كان إِعْجابُ أَصْحابِ المَذاهِبِ الدِّينِيَّةِ الأُخَرى، فَإِذا الهِنْدُوكِيَّةُ الحَدِيثَةُ تَعَدّه مَعَ الأَخيار.

ويعني لَقَبَ بُودا الحَكيمِ أو المُستَثير، لُقِّبَ بِهِ الأميرُ سِيدَهارة أو جُوتامَة أَي البَعيدِ النَظر، وكان وَلِيّ عَهْدٍ لِمَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ إِفْلِيمِ نِيبالِ بِالهِنْد، هَجَرَ زَوجَتَهُ وإِبنَهُ وَقَصَرَ لِطَلَبِ الجُكْمَةِ عِنْدَ حَكِيمينَ مِنَ الْبَراهِمة، وَلَكِنَّهُ ما لَبِثَ أَنْ تَكشَفَ لَهُ أَنَّ الجُكْمَةَ لا تَكونُ وَسيلَتها رِياضَةُ الأَبْدانِ بَلْ رِياضَةُ الأَرواحِ، فَهَجَرَ هَذاينِ الحَكِيمينَ وَاتَّخَذَ غايَةً فِي بِلادِ البُتْغالِ باحِثًا عَن وَسيلَةٍ أُخَرى لِيُبلُغَ هَذا فَنَيتَها فِي إِذْلالِ الذَّاتِ فَأَخَذَ نَفْسَهُ بِحَيَاةِ أَقْسَى ما تَكونُ وَحَرَمَ نَفْسَهُ مَلادَها وَاعْتَزَلَ النَّاسَ عَزلَةً تامَّةً شاعَتَ بَينَ قَومِهِ، وَبَقِيَ على هَذهِ الحالِ أَعوامًا سَنتَهُ كادَ يُشْرِفَ مَعها على الهَلَاكِ، فَعَرَفَ أَنَّ الرُّهْدَ القاسيَ كادَ يَقْضي بِه إلى المَوتِ وَلَم يَبلغْ بِهِ الحَقِيقَةُ التي يَشدُّها، فَأَخَذَ يَطُوفُ فِي الأَرْضِ وَاتَّهَى إلى غايَةٍ أُخَرى فِي لَيْلَةٍ مُقَمِّرة، فَجَلَسَ فِي ظِلِّ شَجرَةٍ تَينَ تُسَمَّى شَجرَةً بُو [أو تَينَ المَعايدِ أو الأَثابِ] جَلِسةً ثابِتَةً اتَّخَذَها لِنَفْسِهِ، تارِكًا لِرُوحِهِ العِنانَ تَجولُ كَما تَشاءُ، عازِمًا على أَلّا يَتَحوَّلَ عَن جِلِستِهِ، وَإِنْ أَطَبَقَتْ عَلَيَّهِ السَّماءُ، إلى أَنْ يَبلغَ ما يُريدُ مِنْ حِكمةٍ وَمَعرِفَةٍ، وما إِنْ انْبَثَقَ الفُجْرُ حَتّى أَحاطَ عِلْمًا بِكُلِّ ما يُريدُ. وَعِنْدَها بَلَغَ الفَناءَ البَدَنِيّ وَالصَّفاهُ الرُّوحِيّ «نيرفانه» لا بِالرِياضَةِ البَدَنِيَّةِ المَبْنِيَّةِ على عَذابِ الجِسمِ، وَلَكنْ بِإِطلاقةِ النَفْسِ بَحْثًا عَن الفَضائِلِ الذَّائِبَةِ، وبَهذا أَدرَكَ أَنَّ الكائِناتِ جَمِيعًا إلى تَحوُّلٍ. وَمِنْ المَعرُوفِ أَنَّ البُودِيَّةَ الأَولى لا تَدِينُ بِالوُهيَّةِ، فَلَيسَ لِإِلالِهِ عِنْدَها وُجودٌ ولا عَدَمٌ.

وَتَمَّةُ العَدِيدِ مِنَ المَلاحِمِ الهِنْدُويَّةِ العامَّةِ وَالتَّصوُّصِ الدِّينِيَّةِ وَالْأَدْعِيَّةِ وَالتَّراثِيلِ المُقدَّسَةِ قَدْ صَوَّرها الفَنانُ الهِنْدُويُّ على مَرِّ العُصورِ أَسوقَ مِنْ بَينَها مَلَحَمَةُ المَهابَاراتِ وَمَلَحَمَةُ الرّامايانِ وَالمَهابَاراتِ جيتا وَالمَهابَاراتِ پورانا وَالجيتا جُوفِنِدا.

وَمَلَحَمَةُ «المَهابَاراتِ» أو «الهِنْدُ الكُبرى» تَتناولُ الحَدِيثَ عَن شُعْبِ «بَهاراتِ» أَي الهِنْد، وَتُعَدُّ أَحَدَ إِحدى مَلَحَمَتَينِ سَيسَكرِيَّتَينِ فِي تاريخِ الهِنْدِ القَدِيمِ، وَتُسجَلُ أَحداثُ ما يُنَبِّغُ على ثَمانِيَةِ قُرُونٍ بَدءًا مِنْ القُرُونِ الرّابِعِ ق.م. وَهي أَطولُ الأَعمالِ فِي تاريخِ الأدبِ، وَتَتكوَّنُ مِنْ مائةِ أَلْفِ بَيتٍ مُوزَّعةٍ فِي ١٨ كِتابًا، وَمِنْ ثَمَّ فِيها أَرَبَةُ أَضعافٍ مَلَحَمَةُ الرّامايانِ الهِنْدُويَّةِ وَأَطولُ مِنْ مَلَحَمَتَيِ الإلياذةِ وَالأوديسيا مُجمِعتَينِ ثَمانِي مَرَّاتٍ. وَتَترَخَّرُ المَلَحَمَةُ بِالأَشعارِ

فَتَحوَّلَ زَوجَتُهُ إلى ناسِكةٍ عِنْدَما يَتَفَرَّغُ لِنُفْسِهِ وإلى عاشِقةٍ عِنْدَما يَرتَدُّ شَيفَهُ إلى بَهيْمِيَّتِهِ.

وعلى حَينٍ كانَتِ الجِسيَّةُ تَجرِي مَعَ كَريشِنه وَسَطَ الرُّعاةِ وَحالياتِ البَقَرِ أَخذَتَ مَعَ شَيفَهُ مَظَهَرًا غامِضًا، وَهو ما دَفَعَ أَتباعَهُ المُتَحَمِّسينَ إلى أَنْ يَروا فِيهِ تَحَقِيقًا لِصِفَتَيِ النَّاسِكِ وَرَبِّ الدَّارِ، وبِذلكَ كانَ زَواجُهُ مِنْ پارِفاتِي نَموذجًا لِلحُبِّ الرُّوجِيّ «والتَّموذَجِ الْأَصْلِيّ» لِلزَّواجِ البَشَرِيّ الَّذِي يُضفي القَداسَةَ على قُوى الإِخصابِ والإِنجابِ. وَكانَ شَيفَهُ راعي الرّاقِصينَ وَالرّاقِصاتِ «نَراجه»، وَلا غَروَ فَهو مُبتَكِرُ الإِنقاعِ الكُورَنِيّ الخالِدِ. وَلِشَيفِهِ ما يُنَبِّغُ على أَلْفِ اسمٍ، كَما يُطلَقُ على زَوجَتِهِ أَسماءُ عَدَّةٍ فِي أَتِحاءِ الهِنْد.

والجانيَّةُ عَقيدةٌ مِنَ العَقائِدِ التي نَشأتْ بِالهِنْدِ واسْتَقَرَّتْ بِها وَلَم تَتجاوَزْ حُدُودَها، هَذا بِها الأَسمى أَنْ تُحَقِّقَ لِلإِنسانِ أَرَفَعَ مَراتِبِ الكَمالِ، إِذْ كانَتِ تُؤمِّنُ بِأَنَّهُ كانَ أَطَهَرُ ما يَكونُ عِنْدَ وَلادَتِهِ مُتَحَرِّرًا مِنْ أَغلالِ الحَيَاةِ التي تُقَيِّدُهُ بِدونِ أَنْ يَأْتِيهِ بِالْمَصرِ المَحْتومِ. وَالكَلِمَةُ تَعني المُتَصَيِّرُ أو القاهِرُ، كَما تَعني التَّحَرُّرُ مِنْ قُيُودِ الحَيَاةِ التي يَفَعُّ عَلَیْها جِسمُ الإِنسانِ. وَلا تَرى الجانيَّةَ ضَروورةً فِي الاعترافِ بِكائِنٍ أَوَّلٍ أَعلى مَرَبَّةٍ مِنَ الإِنسانِ الكامِلِ، وَلِهذا يَعدُّها بَعضُ عُلَماءِ الأَدیانِ مِنَ العَقائِدِ التي تَذهبُ إلى الإِلَحادِ. وَتَتمَثَّلُ رُوحُها الفَريدةُ التي تَتمَيِّزُ بِها فِي إِيْمانِها بِالنَّراحمِ بَينَ الكائِناتِ سَواسِيَّةٍ حَتّى أَذْناها شَأْنًا، وَمِنْ أَجلِ هَذا كانَتِ عَقيدةُ حُبِّ وَتَراحمٍ. وَمَعَ أَنَّ الجانيَّةَ كانَتِ تَأخُذُ بِالرَّأيِ القائلِ بِتَناسُخِ الأَرواحِ إِلاَّ أَنَّها كانَتِ تُؤمِّنُ بِأَنَّ لِلإِنسانِ رُوحًا لا صِلَةَ بَينَها وَبَينَ رُوحِ الكَونِ بَلْ تَبقى خالِدةً قائِمةً بِذاتِها. وَلَيسَتِ هَذهِ حالًا خاصَّةً بِالإِنسانِ وَحَدَهُ بَلْ هي تَعَمُّ الحَيَوانَ وَالتَّباتِ أَيْضًا. وَمِمّا كانَ يُحَرِّمُ على الجانيّ أَنْ يَعبَثَ أو يَقْضيَ على كائِنٍ ما، حَيَوانًا كانَ أَمْ نَباتًا أَمْ جَماذا، كَما كانَ مُحَرِّمًا عَلَیْهِ أَنْ يَطعَمَ لَحْمًا. وَكانَ الرُّهبانُ مِنْهُمْ يَشدُّونَ على أَنْفُسِهِمْ قِصْعَونَ على أَفْواهِهِمْ وَأُنفُهِمْ ما يُشَبِّهُ الكِمامَةَ لِتَحوُّلِ دُونِ أَنْ يَدْخُلَها كائِنٌ حَیّ عِنْدَ التَّنَفُّسِ قَيموتٍ.

وَتَنَبِّيَ تَعاليمُ البُودِيَّةِ على مَبْدَأِ ضَبْطِ النَفْسِ الَّذِي تُسائِدُهُ أُسُسُ أَرَبَةِ، أَوَّلُها: إِنَّ الوجودَ لا يَنفَكُ عَن حُزْنٍ وَأَسى، فَالحَيَاةُ بِصُورِها المُختَلِفةِ لا تَكونُ بَينَ طَيَّانَتِها غَيرَ ما هو مُؤَلَمٌ مُضِنٌّ. وَثانِيا: إِنَّ ما يَجرُّ إلى الحُزْنِ والأَسى هو ما رُكِبَ فِي الإِنسانَ مِنْ شَهْوَةٍ. وَثالثِها: لا سَيلَ إلى تَحَرُّرِ الإِنسانِ مِنْ امْتِلاكِ شَهْوَتهِ لَهُ إِلاَّ بِالْقَضاءِ على هَذهِ الشَهْوَةِ. وَرابِعا: لا يَتَأَتى لَهُ هَذا إِلاَّ إِذا نَهِجَ فِي حَياتِهِ السَّييلَ ذاتِ العَناصِرِ الثَّمانِيَةِ، وَهي: العَقائِدُ السَّليمةُ، والأَغراضُ الثَّبيلةُ، والقُولُ الحَسَنُ، وَالعَمَلُ الصَّالِحُ، وَانْتِهاجُ نَهِجِ شَريفٍ فِي الحُصولِ على عَيشِهِ، وَأَلّا يَتَراخى فِي بَذْلِ الجَهدِ الواجِبِ، وَالانْهُماكِ فِي عَمَلِهِ مِنْ دُونِ نَظَرٍ إلى ما سَيجزِ إِليهِ هَذا العَمَلُ، ثُمَّ صَفاهُ الرُّوحَ بِالتَّبَتُّلِ الرُّوحانيّ. وَلَم يَتَرَكَ بُودا

وكان لأناشيد «بهاجاوات پورانا» في العقيدة الفشنوية أثر أي أثر على ترسيخ «العشق الإلهي» bhakta الذي هو خلوص النفس في صلتها بإله خلوصاً لا شائبة فيه. وجوهر البهاجاوات پورانا هو حياة كريشنه طفلاً وشاباً، وهو ما يقوم النص بعرض الوزع والخشية له في النفوس. وقد فاض الشاعر جايايدف في شعره بذكر حالات البقر اللاتي عشقن كريشنه عشقاً نسين فيه أنفسهن وأكزن ذواتهن إنكاراً بدا بعد في العقيدة الفشنوية وكأنه رمز لتوق الأرواح إلى الله. ويعد العابدون لكريشنه عبثه وتوليه يرادها وبحالبات البقر انطلاقاً إلى تحقيق ألوهيته، وذلك أن جوهر البهاجاوات پورانا يذهب إلى أن حب المحبوب حباً مشهوراً تستحيل معه التفضات الجنسية حماسة دينية فياضة، وبهذا يكون قد سما بمعنى الشبق الذي كان قديماً مجوناً وتهتكاً إلى أن غدا تعبداً روحياً.

وتعد الجيتا جوفيندا [أي أغاني كريشنه، فجوفيندا اسم آخر لكريشنه] عند المؤمنين بالعقيدة الفشنوية تفسيراً لها، هذا إلى أنها ديوان شعري له سحره الجسدي والغنائي، فترى ناظمها الشاعر جايايدف قد عرض في أغانيه هذه أدباً جنسياً له متعته وجاذبيته، كما ضمن أشعاره ألواناً من الصور المجازية تثير العواطف وتحرك الوجدان. وكانت أغاني الجوفيندا يُرقص على أنغامها في كل المعابد الفشنوية شمالاً وجنوباً. ومع انتشار الفشنوية في إقليم جوجرات وتلال البنجاب بدأ أثر الجيتا جوفيندا يبدو جلياً في فن التصوير. ومع النصف الثاني من القرن الخامس عشر زادت عناية فنانين غرب الهند بها. وحوالي عام ١٥٥٠ بدأ تصوير موضوعات الجيتا جوفيندا يعم شمال الهند، فإذا الألوان الدافقة التابضة والرسمية المعبرة والمناظر الطبيعية الخلابة، إذا هذا كله يشيع وأصحت هذه الصور أنموذجاً لما جاء بعد من صور الجيتا جوفيندا، كذلك لم تغب صور الجيتا جوفيندا عن مدرسة التصوير المغولي في الهند منذ عام ١٦٠٠ كما سترى، كما عدت خلال القرن السابع عشر ذات شأن كبير في مراكز التصوير المختلفة في كل من راجستان وجوجرات، غير أنه مما لا شك فيه أن الأسلوب اختلف باختلاف الموقع والبيئة، ولكنها كانت جميعاً تخضع لإبراز العشق المحموم بين كريشنه ورادها. وفي النصف الأول من القرن الثامن عشر ظهرت صور عدة للجيتا جوفيندا في مدرسة باشوهلي للتصوير البهارتي، وكانت أزوع الصور إقصاحاً عن التعبير الفني هي صور مدرسة كانجرا التي ظهرت ضمن التصوير الراجپوتي.

التصوير الهندوكي قبل الفتح الإسلامي وبعده.

يقدم لنا فن التصوير الهندي بخطوطه وألوانه الساحرة ملحمة أسيرة تنتظم حياة الشعب الهندي الدينية والاجتماعية والثقافية. والحديث عن التصوير الهندي لا يعد خروجا على ما يتضمنه

الدينية والفصول التعليمية، وتدور حول الحرب القبلية بين أبناء باندو الخمسة المعروفين باسم الباندافاس وأبناء كورو المعروفين باسم الكورافاس، وذلك للسيطرة على مملكة كورو كيشترا، وأغلب الظن أنها لا تستند إلى حقائق تاريخية. وكان البطل أرجونا أحد الأخوة الباندافاس الخمسة قد راود نفسه في أن ينسحب من موقعه في المعركة ورأى أن يقدم نفسه لخصمه فداء لجنده. وعندها لأمه الإله كريشنه ونصحه أن يمضي في سبيله عامر القلب بالإيمان بالله مهما كانت النتيجة، فازنصى أرجونا رأي كريشنه ومضى يواصل القتال. ولقد كان يتضمن الملحمة بالموضوعات الدينية والأخلاقية والسياسية ما جعل منها موسوعة خضبة للمعلومات عن الحضارة الهندية، وأهم مصدر يكشف عن المثل العليا الهندوكية في مقابل الثقافات الفيدية والبراهمانية. ولقد ذاع صيت الكتاب الرابع عشر من ملحمة مهابهاراته لإشتماله على النص الشهير المعروف باسم «بهاجاوات جيتا» أي أنشودة الرب الذي تُرجم إلى معظم لغات العالم ويشده الإله كريشنه، وينتظم عناصر الإيمان بوحدانية الله خالق الكون ومواعظ أخلاقية ترقى بالإنسان إلى خلود النفس في عالم سام يفضل عالمنا الحالي. ولجلال هذه الأناشيد القدسية عرضت لها الكتب قديماً - ولا تزال - بالشرح والتعقيب، كما غني بها مصورو الهند فإذا هم يصورون ما جاء بها من أحداث في مواقع مختلفة.

وتشكل ملحمة «الرامايانه» مع ملحمة مهابهاراته - كما أسلفنا - أعظم ملحمتين سيكريتيين في تاريخ الهند القديم، وتروي مغامرات رامه الصياد الذي تجسد فيه الإله فشنو رب الخلق وراعي البشر، فصارع مخلوقاً وحشياً كان قد اختطف زوجته سيتا وحبسها بقلعه في لانكا [سيلان] كما قدّمت، واستطاع رامه بعون الآلهة وشقيقه لاكشمان والألوف المؤلفة من القروود والذئبة استعادة زوجته سيتا والقضاء على المخلوق الوحشي وجنده. وتنظم الملحمة ٤٨٠٠٠ بيت تضمها أجزاء سبعة، وتزخر بروائع التشبيه والحكايات الخيالية إلى جانب الزخارف التثمينية المألوفة في الشعر الكلاسيكي. وكان فالميكى مؤلف هذه الملحمة في مستهل حياته قاطع طريق ثم تحول إلى راهب من فرط ما كان يردد اسم رامه على لسانه. وليست هذه الملحمة ضرباً من الخيال بل هي تقوم على سيرة رامه التي كانت على ألسنة الناس وقت تأليفها، ومن ثم كان تأثير هذه الملحمة على الثقافة الهندية بلا ضريب، إذ كانت تواكب بأحداثها العقلية الهندوكية. وقد ترجمت إلى أغلب اللغات المحكية في الهند، وتغنى بها الشعراء المتجولون في المناسبات الدينية. كما كانت مغامرات رامه أحد المصادر التي استقت منها مدرسة راجپوت للتصوير موضوعاتها المصورة. كذلك استمد أغلب المؤلفين المسرحيين والشعراء الهنود موضوعاتهم من ملحمة رامايانه.

هذا الباب، بل هو وثيق الصلة به كما سيبيّن في ثناياه.

بَسْجِل مُنَمَّاتِهِمْ عَلَى صَفَحَاتٍ مِنْ سَعَفَاتِ التَّخِيلِ، وَلَكِنْ مَا لَبِثَ الْوَرَقَ أَنْ وَقَدَّ مِنْ فَارِسٍ لِيَحْلَ مَحَلَّ هَذِهِ السَّعَفَاتِ فِي صِنَاعَةِ الْكُتُبِ، غَيْرَ أَنَّ التَّمَاذِجَ الْمُبَكَّرَةَ الَّتِي حَفَظَهَا الزَّمَنُ مِنَ الْمُنَمَّاتِ الْهِنْدِيَّةِ الْمُصَوَّرَةِ لَا نَلْتَقِي بِهَا إِلَّا بَدْءًا مِنَ الْقَرْنِ الْعَاشِرِ، وَهِيَ تَصَاوِيرُ إِيضَاحِيَّةٍ صَغِيرَةٍ لِلْكَتُبِ الْجَايِنِيَّةِ غَرْبِي الْهِنْدِ وَلِبَعْضِ الثُّصُوصِ الشَّهِيرَةِ فِي بِيهَارِ وَبَنْغَالِ.

وَيَضُمُّ قَنَ التَّصْوِيرِ الْهِنْدِيِّ مَدَارِسَ شَتَّى أَوَّلَهَا پالا Pala الَّتِي جَاءَتْ مُنَمَّاتِهَا عَلَى غِرَارِ تَقَالِيدِ التَّصْوِيرِ الْجِدَارِيِّ فِي أَجَانَتَا، حَيْثُ تُرْسَمُ الْخُطُوطُ الْمُحَوَّطَةُ لِلْأَشْكَالِ ثُمَّ تُشَبَّعُ بِالْأَلْوَانِ، ثُمَّ تَجِيءُ الْخُطُوطُ الْمُحَوَّطَةُ النَّهَائِيَّةُ بِذَرَجَاتٍ لَوْنِيَّةٍ أَعَمَقَ مِنَ أَلْوَانِ الْأَشْكَالِ. وَتَقْتَصِرُ الْخُطَّةُ اللَّوْنِيَّةُ عَلَى أَلْوَانٍ مَحْدُودَةٍ، كَمَا يَتَمَيَّزُ التَّكْوِينُ الْفَنِّيُّ بِالسَّادَةِ وَالتَّنَاسُقِ وَتَغْلِبُ التَّرْعَةُ الطَّبِيعِيَّةُ. عَلَى أَنَّ مَدْرَسَةَ تَرْقِينَ الْمَخْطُوطَاتِ لِيَهَارِ وَبَنْغَالِ قَدْ تَوَارَتْ مَعَ الْفَتْحِ الْإِسْلَامِيِّ فِي مَطْلَعِ الْقَرْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ، وَإِنْ اسْتَمَرَّتْ فِي مُوَاصَلَةٍ نَهْجِهَا فِي نِيَالٍ حَيْثُ لَجَأَ الْعَدِيدُ مِنَ الْفَنَّانِينَ. كَذَلِكَ نَجِدُ نَمَّةَ مَخْطُوطَاتِ بُؤِيَّةٍ مُصَوَّرَةٍ عَلَى سَعَفَاتِ التَّخِيلِ وَلُبَّ شَجَرِ الْبَتُولَا فِي كَشْمِيرِ. وَظَلَّتْ سَعَفَاتِ التَّخِيلِ مُسْتَخْدَمَةً فِي مَخْطُوطَاتِ مَدْرَسَةِ أَوْرِيسَا شَرْقِي الْهِنْدِ حَتَّى الْقَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ فِي الْوَقْتِ الَّذِي غَدَتْ فِيهِ أَثَرًا مِنْ آثَارِ الْمَاضِي فِي بَقِيَّةِ أَنْحَاءِ الْهِنْدِ. وَكَانَتْ الْخُطُوطُ الْمُحَوَّطَةُ لِلْأَشْكَالِ فِي مُصَوِّرَاتِ أَوْرِيسَا فَوْقَ سَعَفِ التَّخِيلِ تُرْسَمُ بِخُزُوزٍ أَوْ ثُقُوبٍ، ثُمَّ يُمرَّرُ فَوْقَهَا الْجَبْرُ الْأَسْوَدُ وَتُشَبَّعُ بِالْأَلْوَانِ.

أَمَّا الْمَدْرَسَةُ الْهِنْدِيَّةُ الْغَرْبِيَّةُ فِي جُوجَرَاتِ [كُجَرَاتِ] الَّتِي يُطَلَقُ عَلَيْهَا أَحْيَانًا اسْمُ الْمَدْرَسَةِ الْجَايِنِيَّةِ أَوْ مَدْرَسَةِ أَبِرَامَزَا، فَقَدْ ازْدَهَرَتْ فِي جُوجَرَاتِ وَرَاجِسْتَانِ وَبُضِعَ مَرَاكِزُ فَنِّيَّةٍ أُخْرَى ابْتِدَاءً مِنَ الْقَرْنِ الْحَادِي عَشَرَ إِلَى السَّابِعِ عَشَرَ. وَجَمِيعُ مَخْطُوطَاتِ هَذِهِ الْمَدْرَسَةِ جَايِنِيَّةٍ تَتَنَاولُ مَوْضُوعَاتِهَا الْمُصَوَّرَةَ الثُّصُوصِ الدِّيْنِيَّةِ الْجَايِنِيَّةِ، وَفِي مَرَحَلَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ تَنَاولَتْ بِالْمِثْلِ تَصْوِيرَ الْمَوْضُوعَاتِ الدِّيْنِيَّةِ الْبَرَاهْمَانِيَّةِ، وَقَدْ رُئِيتُ جَمِيعُهَا بِصُورٍ تَمَيَّزَتْ بِأَلْوَانِهَا الزَّاهِيَةِ بَعْدَ أَنْ اسْتُخْدِمَ الذَّهَبُ وَاللَّازُورُودُ بِسَخَاءٍ. عَلَى أَنَّ السَّمَةَ اللَّافِيَّةَ لِهَذِهِ الْمَدْرَسَةِ هِيَ رَسْمُ الشُّخُوصِ فِي وَضْعَةٍ ثَلَاثِيَّةِ الْأَرْبَاعِ، وَقَدْ جَحَظَتْ الْعُيُونُ مِنَ الْوُجُوهِ ذَاتِ الْأَنْفِ الْبَارِزِ وَالذَّقْنِ الْجَلِيَّةِ، وَيَبْضُ أُسْلُوبُهَا بِالتَّخْوِيرِ الشَّدِيدِ وَالْحَيَوِيَّةِ الْفُطْرِيَّةِ.

وَالْتَّصُورِ الْهِنْدِيِّ هُوَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ قَنَ الْخُطُوطِ الْمُحَوَّطَةِ الْخَلَابَةِ، وَيَخْتَلِفُ عَنِ التَّصْوِيرِ الْأَوْرَبِيِّ الَّذِي يَعْتَمِدُ عَلَى الْكُتْلِ وَالتَّنَسُّبِ السَّوِيَّةِ. وَإِنْ كَانَ التَّصْوِيرُ الْهِنْدِيُّ يُعَوِّزُهُ الْفَهْمُ الصَّحِيحُ لِلْبَيْتَةِ التَّشْرِيحِيَّةِ فِي الْإِنْسَانِ وَكَذَا قَوَاعِدِ الْمَنْظُورِ وَإِدْرَاكِهِ لِلْمَنَاطِرِ الطَّبِيعِيَّةِ عَلَى حَقِيقَتِهَا، فَلَقَدْ عَوَّضَ هَذَا كُلُّهُ بِخُطُوطِهِ الْمُعْجَبَةِ وَالْمَهَارَةِ فِي تَنَاعُمِ الْأَلْوَانِ وَشِيوعِ الْعَاطِفَةِ الْحَادَّةِ فِي مُصَوِّرَاتِهِ. وَإِذَا كَانَ الْمُصَوِّرُونَ الْأَوْرَبِيُّونَ يُعْنَوْنَ بِجَمَالِ جِسْمِ الْإِنْسَانِ، وَالصِّينِيُّونَ يُعْنَوْنَ بِالطَّبِيعَةِ وَمَنَاطِرِهَا الْأَخَاذَةِ، وَالْفَرَسِيُّونَ يُعْنَوْنَ

وَلَقَدْ كُشِفَ عَنْ أَقْدَمِ التَّصَاوِيرِ الْهِنْدِيَّةِ عَلَى جُذْرَانِ الْكُهَوفِ شِمَالِي الْهِنْدِ، وَهِيَ تُصَوَّرُ بِالْمَعْرَةِ الْخَمْرَاءِ قَنْصِ الْحَيَوَانِ، وَتُشَبَّهُ إِلَى حَدِّ بَعِيدٍ مِثْلَاتِهَا فِي كُهَوفِ الْعَصْرِ الْحَجَرِيِّ الْقَدِيمِ بِإِسْبَانِيَا. وَمِنْ الْمُؤَكَّدِ أَنَّهُ قَدْ نَشَأَتْ فِي حَوْضِ نَهْرِ السِّنْدِ، شِمَالِي غَرْبِ الْهِنْدِ، خَضَارَةٌ مُزْدَهِرَةٌ حَوَالَى عَامِ ٢٧٥٠ ق. م، تَرَكَتْ تَمَائِيلَ مُجَسِّمَةً وَعَدَدًا مِنَ الْفَخَّارِيَّاتِ الْمُصَوَّرَةِ الَّتِي تُؤَكِّدُ الزَّعْمَ بِأَنَّهُ نَمَّةٌ ضُرُوبُ أُخْرَى مِنَ التَّصْوِيرِ قَدْ أَنْجَزَتْ فَوْقَ أُسْطَحِ هَشَّةٍ لَمْ يُكْتَبْ لَهَا الْبَقَاءُ، وَهُوَ مَا تُؤَيِّدُهُ الصَّيْغَةُ النَّبَاتِيَّةُ وَالْحَيَوَانِيَّةُ وَالْهِنْدُسِيَّةُ الْمَرْسُومَةُ عَلَى أُسْطَحِ الْفَخَّارِيَّاتِ الَّتِي اكْتُشِفَتْ فِي هَارَپَا وَمُوهِنْجُودَارُو وَتَشَانِهُودَارُو. وَلَيْسَ نَمَّةٌ تَمَازِجُ مُصَوَّرَةٌ تَدَلُّ عَلَى الْجَفَّةِ الَّتِي نَشَأَتْ فِيهَا الْعَقَائِدُ الْهِنْدُوكِيَّةُ الْمُتَنَوِّعَةُ، غَيْرَ أَنَّهُ حِينَ ظَهَرَتْ الْعَقِيدَتَانِ الْمُتَنَازِعَتَانِ الْجَايِنِيَّةُ وَالبُؤِيَّةُ أَصْبَحْنَا مُصْذَرِي إِلَهُامٍ لِبَعْضِ الْمُصَوِّرَاتِ الْهِنْدِيَّةِ الْعُظْمَى؛ فَعَلَى جُذْرَانِ الْمَعَابِدِ وَالْأَذْيِرَةِ وَالْكَهَوفِ فِي أَجَانَتَا (لَوْحَةٌ ٢١٢م) وَبَاغٍ وَإِلُّورَا وَهِنْدُوبُورٍ وَغَيْرِهَا، وَكَذَا فِي الْقِلَاعِ وَالْفُصُوصِ الْمَلِكِيَّةِ فِي رَاجِسْتَانِ وَوَادِي كَانْجَرَا - كُولُو اكْتُشِفَتْ مُصَوِّرَاتُ جِدَارِيَّةٍ بُؤِيَّةٍ يَرْجِعُ أَقْدَمُهَا إِلَى الْقَرْنِ الثَّانِي ق. م، أَكْثَرُ مَوْضُوعَاتِهَا مُسْتَمَدَّةٌ مِنْ قِصَصِ بُؤَا وَسِيرَتِهِ، وَهُوَ مَا أَتَانَا لِلْفَنَّانِينَ تَصْوِيرَ مَوْضُوعَاتِ الْحَيَاةِ الْيَوْمِيَّةِ الْهِنْدِيَّةِ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَتْ مَشَاهِدَ حَيَاةِ بُؤَا التَّارِيخِيَّةِ وَالْأَسْطُورِيَّةِ تَكْشِفُ بِحَقٍّ عَنْ عَادَاتِ الْهِنْدِ وَأَعْرَافِهَا. وَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ التَّصْوِيرَ الْهِنْدِيَّ لَمْ يَعْرِفِ الْبُعْدَ الثَّالِثَ اسْتَطَاعَ الْفَنَّانُونَ بِالْإِسْتِخْدَامِ الْحَاقِقِ لِلْأَلْوَانِ الْفَاحِشَةِ فِي أَمَامِيَّةِ الصُّورَةِ وَالْأَلْوَانِ الْقَائِمَةِ فِي خَلْفِيَّتِهَا تَوْفِيرَ قَدَرٍ مِنَ التَّجَسُّمِ لِشُخُوصِهِمْ بَعْدَ أَنْ دَرَسُوا بِعَنَاءٍ شَدِيدَةٍ كُلَّ وَضْعَةٍ مِنَ الْوَضْعَاتِ، فَبَدَتْ الشُّخُوصُ تَبْضُ بِالْحَيَوِيَّةِ وَالتَّنَاطُلِ.

وَمَعَ نِهَايَةِ الْقَرْنِ السَّابِعِ غَدَتْ الْهِنْدُوكِيَّةُ مِنْ جَدِيدٍ الْعَقِيدَةُ الشَّائِعَةُ شِمَالِي الْهِنْدِ. وَمَا تَرَالِ الْمُصَوِّرَاتِ الْجِدَارِيَّةِ مِنَ الْقَرْنِ السَّادِسِ وَالتِّي تُعَدُّ أَقْدَمَ الْمُصَوِّرَاتِ الْهِنْدُوكِيَّةِ تَهْتَدِي بِتَقَالِيدِ مُصَوِّرَاتِ أَجَانَتَا عَلَى الزَّعْمِ مِنْ أَنَّ مَوْضُوعَاتِهَا تَدُورُ حَوْلَ الْإِلَهِ الْهِنْدُوكِيِّ فَشْنُو، كَمَا زُخِرَتْ الْكَهَوفُ الْجَايِنِيَّةُ مِنَ الْقَرْنِ السَّابِعِ بِالْمُصَوِّرَاتِ. وَنَمَّةٌ لَوْحَاتِ جِدَارِيَّةٍ بُؤِيَّةٍ مُصَوَّرَةٍ مِنَ الْقَرْنِ الْخَامِسِ مَا تَرَالِ فِي سَرَنْدِيبِ [سَرِي لَانْكََا]، وَتَحْفَظُ الْمَعَابِدَ الْكَهْفِيَّةَ فِي إِلُّورَا بِأَجْمَلِ الْمُصَوِّرَاتِ الْهِنْدُوكِيَّةِ الْجِدَارِيَّةِ مِنَ الْعُصُورِ الْوُسْطَى، حَيْثُ تَنْطَوِي زَخَارِفُ السَّقْفِ عَلَى لَوْحَاتٍ مِنْ حِفْطَيْنِ، تَحْمِلُ الْحَقِيقَةَ الْمُبَكَّرَةَ مِنْهَا خِلَالِ الْقَرْنِ الثَّامِنِ سِمَاتِ تَقَالِيدِ أَجَانَتَا، عَلَى حِينٍ تَجَلَّتْ فِي لَوْحَاتِ الْحَقِيقَةِ الثَّالِيَةِ فِي الْقَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ مَظَاهِيرَ الْأُسْلُوبِ الْجَدِيدِ الْمَطْوُورِ، حَيْثُ تُرْهَصُ قَسَمَاتُ الْوُجُهِ الْبَارِزَةِ بِأُسْلُوبِ رَسْمِ مَدْرَسَةِ جُوجَرَاتِ [كُجَرَاتِ] غَرْبِي الْهِنْدِ، وَحَيْثُ ازْدَهَرَتْ مَدْرَسَةُ لَتَرْقِينَ الْمَخْطُوطَاتِ مِنَ الْقَرْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ حَتَّى الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ. وَكَانَ الْفَنَّانُونَ قَدْ بَدَأُوا

والپورتريهات، وكذا الصُور الإيضاحية للمخطوطات والراجاه مالا [الأكايليل الموسيقية]. ويعني مُصطلح «الراجاه مالا» السُّسكربتِي معاني عدّة، أعمّها تلك العلاقة العضوية بين النغم وتألّفاته في تكوين موسيقيّ واحد في إطار أحد المقامات، وبهذا تكون «الراجاه مالا» نظاماً موسيقياً متكاملاً تميّز فيه كلُّ وَحْدَةٍ من وَحْداته بِتصوير مُظَوَّر يرتبط بها وَحْدُها حيثُ تكون ثَمّة مُقابِلة عضويّة بين اللَّوْن والنَّغْم. وهناك سيّئة وثلاثون مقاماً موسيقياً هِنْدِيّاً تُؤدّي دوراً هامّاً في التّصوير والشَّعر، إذ إنّ هذه الفنون الثلاثة لا يَتَفَصَّل أحدها عن الآخر، وفي اجتماعها معاً مُتعة أكيدة، ويَتَكَوَّن المَقام في الموسيقى من عدد من النّغمات، ومنه ينشأ اللَّحن الذي يَخْتَلِف أثره في آذان المُستمِعين بَعْضهم عن البَعْض الآخر. ويأتي المَصوِّرون لِيُحِيلوا هذه الموسيقى المسموعة صُوراً مُجسّمة تُمثِّل عواطف مُختلفة مثل الرّغبة واللّهفة والارتياح والسّكّ والعيّرة والترقّب إلى غير ذلك، وهذا مثل ما يؤدّيه الشّاعر بِكلماته حين يُحيل الموسيقى عبارات مُختلفة من الوجدانيّات. والمقامات لَوْنان: الرّاجاه وهي المقامات المُذكّرة أي الخاصّة بالذكور، والراجيني وهي المقامات المؤنثة أي الخاصّة بالإناث. وتهدف «الراجاه مالا» إلى مُسايرة نوازع الرّوح خلال ساعات اليَوم المُختلفة وفصول السّنة، إذ ثَمّة اختِلاف بين ساعة وأخرى، كما أنّه ثَمّة اختِلاف بين فصل وآخر، وتأثير هذا وذاك على مزاج الإنسان وطبّعه. ومن أجل هذا فإنّ «الراجاه مالا» هي التي تُهيئ النّفس لِتَقْبَل التّباينات المُختلفة، عاطفيّة ومُناخيّة.

وثمة مُنمنمة دَكْنِيّة لِرَاجيني مالا هي لَوْحة «رامه كالي راجيني» [وكالي هي رَبّة القُوّة] (لَوْحة ٣٧٤م) نرى فيها العاشق وقد اطّرح أرضاً بين قَدَمَي مَعْشوقته ذُلّة وخُضوعاً تعبيراً منه عن ولّهِه المُشوب. وفي الرُّكن الأعلى الأيسر لِلْمُنمنمة جَمْعٌ من الحُكّماء هم مَنْ يُسمّون «الجورو» Guru في وُضعات من التّأمّل مُختلفة، وقد أَخَذَ بَعْضُهم يَسْبُح بالمسبحة، وأمامهم واحد من مُريدِهم خَلِيق الذّقن وقد اطّرح هو الآخر على الأرض أمام الجورو ومثل ما فَعَلَ ذلك العاشق أمام مَعْشوقته؛ وَكَانَ المَصوِّرُ أراد بِالْمُجانسة بين فِعْل العاشق والمُريد أن يُضفي على العِشق صِفة التّعبد، كما كانت الحال بين كَريشنة ورادها التي كانت الصّلة بينهما تَمزج بين الرّوحانيّة والجسديّة. ولما في هذه المُنمنمة من رِقّة في الألوان تَبْدُو الصّورة وكأنّها رَسَم مُلَوّن. وعلى الرّغم من أنّ المَصوِّر قد أَقْحَم على الصّورة ما لا ضَرورة لَه - كما فَعَلَ في تَصويره لِلنّهر وقد حَلَقَ فَوْق سَطْحِه طَير البَطّ والفلامنجو، ثُمَّ رَسَمه لِلْمَدِينَةِ ذات الأسوار - فإنّ المُشاهد لا يُجسِّن لِهَذَا الإقْحام أثراً.

وفي مُنمنمة دَكْنِيّة أُخرى هي لَوْحة «لا ليتا راجيني» (١٦٧٠) نرى أميراً يَحْمِل في يُمْنِه إكليلاً من الزّهور ويُمسِك بِسُراهِ وَرْدَةٍ يستاف أربِجها وهو يتلَفَّت إلى الوراء مُلقياً نَظَرَهُ وداع مع الصّباح

بالزّخرفة وتَعْظِيم مُلوّكهم وأبطالهم، فإنّ الفَتانين الهنود كانوا يُعَنّون بِتصوير كُلِّ ما يَتَصِل بِمَوْضوع الحُبّ الذي بِهِ حُفِظَ الجِنْس البَشَرِيّ.

وثَمّة صُورة في مَحْطُوطَة «الجيتا جوفندا» من مدرّسة جوجرات تُمثِّل «رادها» وقد أُرْسِلَتْ فِتاة لَهَا تَسْمِيل كَريشنة بَعْدَ أن عَلِمَتْ أَنَّهُ يُعَاذِلُ غَيرَها (لَوْحة ٣٧٣م)، والمَشْهَد داخِل غِضّة بِها شَجَرات ثلاث بِها تَحْوِير واضح وتَمَلُّا أَغْصانها الأفقُ الوَرْدِيّ، ومن حَوْلِها نُحُوم نَحَلات. ويَتَكَوَّن المَشْهَد من أربعة صُفوف رَأْسِيّة تَفْصِل كُلَّ شَجَرَةٍ بَيْنَ صَفِّ وَصَفِّ إِمَاءٍ لِأَحْداث القَصيدة. فَنَزَى إلى الِيسار الفِتاة الموفدة إلى كَريشنة وهي تعود إلى رادها من عِنْدِه، ثُمَّ نَرَى الفِتاة نَفْسُها تَحَدِّث إلى كَريشنة، ونَراها ثالِثة وهي تعود إلى رادها، ثُمَّ نَراها أخيراً تَحَدِّث إلى كَريشنة. وقد اسْتخدِم المَصوِّر اللَّوْن الأصْفَر لِيشيرة المَرأتَيْن والأَزْرَق لِيشيرة كَريشنة، كما نَراه قد صَوَّر الأنوف كُلَّها بارِزة مُدْبِية والذّقون مُتَشَبِّهة والأَنْدَاء مُكَوّرة والصّدور بارِزة، وهذا كُلّه يُشير إلى ما كانت عَلَیْه جوجرات من تَقاليد فَنِّيّة، كما يُشير إلى ما كان في القَرْن الخامِيس عَشَرَ من تَكَلُّف مَلُحوظ.

وكان يَتَوَلَّى إَعْداد كُلِّ مَحْطُوطَة ناسِخ يَتَرَك وهو يَنْسَخ فَرَاغاً لِلصّور المُوضّحة لِلنّص، ومَصوِّر يَلي عَمَلِه بَعْدَ أن يَفْرغ النّاسِخ من مُهمّته. وكانت كُلُّ مَحْطُوطَة تُصان بَيْنَ لَوْحَيْنِ من الخَشَبِ قد تُرَسَم عَلَیْهما بَعْضُ المَشاهِد الجَدّابة. وكان الموصرون من التّجار يَزْعَوْنَ شُؤْنَ هذه المدرّسة من إِفْئاق على تلك المَحْطُوطات لِيقْدَم بَعْدُ إلى الحُكّماء وِرْجال الدّين بُعْثَةً نوال رضاهم.

أما عن مدرّسة التّصوير المغوليّة بِالِهِنْد فسُنْخَصِّص لَهَا صَفْحات هذا الباب كُلّها.

ومع النّصف الثّاني من القَرْن السّادِس عَشَرَ جَدَّ أُسْلُوب مُتَميِّز من التّصوير في بِلّاط السّلاطين في الدّكْن [Dakshin ومعناها الجنوب]، وَلِكُلِّ بِلّاط خِصائِصه، سُمِّيَ أُسْلُوب المدرّسة الدّكْنِيّة الذي جاء شَبِيهاً بِأُسْلُوب مدرّسة الإمبراطور أَكْبَرِ المَغُولِيّ، فَجَمَعَ بين النّزعة التّكَلُفِيّة الفارسيّة والتّقيّيات القومِيّة غَربِيّ الهِنْد والصّور الجَدّاريّة جَنُوبِيّ الهِنْد.

وتَميِّز المَرَحَلَة الأولى من مَراحِل المدرّسة الدّكْنِيّة Deccani school بِالْجَلال والهِبّة وِثراء الألوان وبراعة الرّسامة واسِطِطالَة الأشْكال ورَسَم طَيّات الثّياب على هَيّئة الدّوامات، وكثيراً ما كانت الخَلْفِيّات تَمْتَلِئ بِالْأَغْصان المُتكَائِفة وبِالزّهور اليانعة وبِالأشْجار الباسِقة بِأُسْلُوب تَغلب عَلَیْه النّزعة الشّكْلِيّة.

وفي المَرَحَلَة الأخيرة لِلْمدرّسة الدّكْنِيّة غَلَبَ أثر الفَنّ المَغُولِيّ الذي نَفَذَ إلى البِلّاطات الدّكْنِيّة نَتِيجَةً لِانْتِشار سُلْطان المَغُول، وأَصْبَحَتْ هذه المدرّسة الدّكْنِيّة قَرْعاً من فُرُوع المدرّسة المَغُولِيّة، وكان يَجْري إَعْداد صُورِها في بِلّاطات حَيَدَر آباد وكورنول وشوراپور، وتَتَنَوَّل المَشاهِد الخاصّة بِالْقَصْرِ والبِلّاط

به قلوبهم من أحاسيس.

وفي لوحة رؤيا أرچونا لإله كريشنه من «البهاجوات جيتا» التي أعدت في جايپور عام ١٧٩٠ (لوحة ٣٧٦م) يبدو كريشنه برؤوس عدة تبلغ الأربع عشرة رأساً، كما يبدو في أجساد مختلف كائنات الوجود بشرية وحيوانية وطبيعية. وفي أدنى الصورة نرى أرچونا في مركبته الحربية وهو يطيل النظر إلى كريشنه وقد اضططع جنده يميناً ويساراً. وتصور هذه اللوحة ما جاء في الفصل الحادي عشر من البهاجوات جيتا عن رجاء أرچونا إلى كريشنه كي يراه في صورته الإلهية، فاستجاب كريشنه لهذا الرجاء وبدا له في صور لا تخصي، سماوية ودنيوية ورمزية.

وثمة منمنمة بدعية تنتمي إلى مدرسة ميوار من مخطوطة «بهاجوات پورانا» (لوحة ٣٧٧م) تمثل كريشنه وهو يرفع جبل جوفاردان [اسم آخر لكريشنه] بطرف خنصره وقد وقف بوجهه الأزرق ومن ورائه خلفية فضية اللون وقد ارتدى زياً مغولياً. وبدا الجبل بألوانه البنية والقرمزية وقد كسته النباتات ومن فوقه تنهمر المياه من سحب داكنة. وفوق هذه السحب الإله إندرا ممطياً فيله الأبيض إرافاتا وقد أشار بيديه للسحب كي تتحرك. وصور الفنان طاعة السحب لأمر إندرا بشخص ضموا أكفهم بعضها إلى بعض علامة التجميل والإذعان. وعلى هذا الجبل ناسكان قد جلسا في هدأة المتعبدين. وفي سفح الجبل وقف على جانبي كريشنه رعاة ومعهم مربيه ورائده نанда بلحيته البيضاء، ورفع بعض الرعاة عصيهم مشاركة منهم لكريشنه في حمل الجبل. وأهم ما تتميز به هذه الصورة الراجستانية ألوانها البديعة التي تبدو وكأنها طلاء الميناء.

ومن صور «الراجاه مالا» تقدم مدرسة ميوار منمنمة راجه هندولا (لوحة ٣٧٨م) حيث نرى هندولا العاشق على صورة الإله كريشنه يتأرجح ومحبوبته على الأرجوحة بينما تخفق طيور الكركي بأجنحتها على إيقاع هزات الأرجوحة ومن حولهما فتيات. والآلة الموسيقية المستخدمة في هذه «الراجاه مالا» هي آلة «الفينا» الوترية. وثمة ما يضافي على الصورة متعة وبهجة من سحب متموجة تقطر ماء وخضرة يانعة وطواويس في ألوانها الزاهية

(١) راجستان الآن هي ثانية ولايات الهند حتمًا، وهي إلى الشمال الغربي من شبه القارة الهندية، تحدها من الشمال ولاية البنجاب، ومن الجنوب ولاية جوجرات، وعاصمتها جايپور. وحين كتب الاستقلال للهند عام ١٩٤٨ انضمت إلى راجستان إمارات راجبوتية هندية، من أهمها بيكانير وجايپور وكوتاه وأودايبور وتونك وجودپور وألوار وجيسلمير، وكان الاسم الذي سميت به ولاية راجستان أولاً هو راجپوتانا، وكان الراجپوت قد حلوا بهذه المنطقة منذ القرن السابع، واضطلعوا بمقاومة الغزو الإسلامي حتى القرن السادس عشر حين استقر الحكم المغولي بالهند. وتمتد الصحراء في جانب كبير من راجستان، كما تقع في شرقها منطقة زراعية [م.م.م.ث].

على معشوقته يتناهي مسترخية على سريرها الذي من تحته قد بسطت سجادة حاشيدة بأجمل الزخارف وأبهى الألوان. وثمة وصيفة قد غلبها النوم وهي جالسة على الأرض فأنكأت برأسها على السرير (لوحة ٣٧٥م).

وكانت ثمة مدرسة للتصوير في الأقاليم الجنوبية من الهند كُتبت لها أن تزدهر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في تانجور. وكان مما اختصت به خروجها شيئاً عن المألوف في تصوير الأشكال، وكذا ترصيع المصورات بقطع من الزجاج الملون والأحجار شبه الكريمة، وكانت تصاویر هذه المدرسة أكثرها تعبر عن الأساطير الهندوكية.

وثمة مدرسة أخرى ظهرت شيئاً فشيئاً خلال القرن السادس عشر هي مدرسة التصوير الراجستانية^(١)، وكان لها طابع تصاویر غربي الهند، فلم تكن في مراحلها الأولى تلتزم بالملامح الزاوية ولا بإظهار العينين معاً بل تجزئ بأقربهما، ومن هنا مهزت في رسم الوجوه مجانية وفي إبراز الجودة في التصميم والألوان. ومع الربع الأخير من القرن السادس عشر ظهر أثر المدرسة المغولية جلياً في تصاویر المدرسة الراجستانية مما أكسب تلك التصاویر روعةً وجمالاً. وكانت لتلك الصلات المتبادلة بين الحكام المغول والراجاوات الراجستانيين أثر في إنعاش فن التصوير الراجستاني.

وقد ازدهرت المدرسة الراجستانية في الفترة ما بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر في منطقة شاسعة فسحة. وكان كل بلاط راجستاني يضم نخبة من الفنانين، ومن هنا تعددت أساليب الصور لكل بلاط. وكانت ميوار وبوندي وبيكانير وجودپور وكيشانجار وجايپور وكوتاه هي أهم المراكز الفنية الراجستانية. وقد تميز التصوير الراجستاني بأسلوبه الزخرفي الرمزي والحيوية ذات الطابع الفطري وبالتعبير المباشر. أما ما يمس المشاعر فقد عبر عنه الفنان الراجستاني بوضعات إيحائية. وكانت ألوانه المستخدمة ساخنة زاهية تتضام معاً في انسجام باهر، كما كانت تصاویره تدل على مهارة فائقة في تكويناتها الفنية، وإن لم تكن تعتمد على «المنظور» الذي توحى به بين الفينة والفينة بقع من الألوان المختلفة. وأكثر ما تناول التصوير الراجستاني موضوعات تدور حول أسطورة الإله كريشنه وفق ما جاءت في الأدب الديني والملاحم والأغاني والمقامات الموسيقية، وتصوير الأبطال والبطلات في وضعات تتفق وذرجات بطولتهم وما وهبوا من صفات بدنية وعقلية وما لهم من أمزجة وعواطف، كما تناول المواسم والفصول وما يختص به كل موسم وفصل من مظاهر طبيعة لها أثرها في نفوس العشاق، وكذا ما سلف من قصص غرامية - لا سيما قصة شيفه وپارفاتى - وأخرى أسطورية، وكذلك كل ما يتصل بالمعتقدات الدينية الهندوكية. على أن أهم ما تصيف به الصور الراجستانية ما كانت عليه الحياة الراجستانية وپروسيپها التي شاركت فيها العامة الخاصة والتغني بمفاتيح نسايم وما تفيض

كان تصوير مدرسة ميوار يتناول ما يُعنى به الناس ويشتاقون إليه، ومن هنا كان أكثر شيوعاً بين عامة الناس على حين كان التصوير المغولي محصوراً في محيط بذاته.

ومن بين مراكز التصوير الراجستانية كانت مدرسة بيكانير أيضاً، ومن بين منمنماتها المرموقة تلك التي تصور الإله فشنو على صورة الإله نارايانا بأذنه الأربع وقد جلس على عرشه المذهب وإلى جواره زوجته لاشمي، وعلى كل جانب من جانبيهما صقان من الفتيات يحملن الزهور ويعزفن الموسيقى، وفي كل صف خمس (لوحة ٣٨٢م).

وتضم راجستان أيضاً ولاية بوندي التي تقع في وسطها. وفي خلال القرن السابع عشر نشأت فيها مدرسة للتصوير كانت غزيرة الإنتاج، وتتميز هذه المدرسة بحسها اللوني الرهيف وبتشكيل تصميماتها البار. من هذا منمنمة المهرابا باو سنغ (لوحة ٢١٤م) حيث نرى سنغ جالساً في جوسق مقبب وبين يديه سيده تقدم له كأساً ذهبية وهي راحة ومن خلفها فتاة تحمل آنية. ومن وراء الأمير وصيفتان تحمل إحداهما مروحة من ريش الطاووس بينما تحمل الوصيفة الأخرى صحناً للطعام، وقد جلست إلى اليمين فتاتان تعزفان على الطبل والطبور، وفي أمامية الصورة نافورات وأحواض للنبات. وقد كان لظهور مدرسة بوندي الأثر في تتابع مدارس أخرى، منها مدرسة كوتاه التي عادت أعظم مدارس راجستان في فن التصوير مع نهاية القرن السابع عشر؛ فهي تتميز عن سائر المدارس الراجستانية بحساسية شديدة، كما كانت تعد إزاهامة بمشاهد الصيد المأثورة عن مدرسة كوتاه خلال القرن الثامن عشر، والتي من بين نماذجها الخارقة صورة مهرابا كوتاه سنغ الأول وهو يصيد الأسود (لوحة ٣٨٣م) حيث نرى رام سنغ مختبئاً في أجمة مع سيّدات وهو يصوب سهمه نحو أحد أسدين توتباً للإيقض عليه، وقد أصاب السهم أسداً من الأسدين فإذا هو جريح يعض بنواجذه على ساق شجرة من فوط الأكم. ويضم المشهد ظياء وطواويس، كما يضم بلدة كوتاه إلى أقصى اليمين من الخلفية. وثمة منمنمة ثالثة من كوتاه هي لوحة «بيلالال راجيني» (١٦٧٠) (لوحة ٣٨٤م) تبتين فيها سيده جالسة على كرسي عالي المسند قاعدته سداسية القوائم قد انثنت إلى الخلف رافعة ذراعيها فوق رأسها ناظرة إلى امرأة، وتحمل هذه المرأة وصيفة من وصيفاتها الخمس، بينما تظلي وصيفة أخرى أظافر قدمها. ونرى وصيفة ثالثة إلى يسار الصورة ترضع طفلاً. وثمة إلى خلف

وقد وأزهار تشكل خلفية تنفق وهذا المشهد الغرامي.

وثمة صورة ناطقة من مخطوطة بهاجاوات بورانا (لوحة ٣٧٩م) تمثل كريشنه يقفز إلى الماء كي يغازل راعيات الماشية اللاتي أخذن يسبحن في مياه النهر. وقد وقع الفنان في إرباز مشاعر كريشنه ونشوة شبابه وبدت الأشجار وكأنها على طبيعتها. ويكاد لون ماء النهر الرمادي، وكذا الخلفية البنية يطغيان على الصورة، ومن ثم استخدم المصور ألواناً أربعة هي البرتقالي والأصفر والأخضر والأزرق لكي يبرز هذا اللون الرمادي وذاك اللون البني. وهذه الصورة من آخر ما عهد تصويراً لمدرسة ميوار في القرن السابع عشر، ولذا بدا فيها شيء من الاضمحلال يتجلى في الوجوه التي بدت أكبر مما ينبغي أن تكون عليه، كما يلاحظ ما في الرسم من قلة عناية. وعلى الرغم من ذلك فلقد بدا المنظر ساحراً وإن بدت الألوان تخالف شيئاً ما كانت عليه من نضرة وتألق فيما سلف. وهذه لوحة من مدرسة راجپوت تمثل كريشنه بعد أن استولى على ثياب حاليات اللبن أثناء استحمامهن في النهر وقد أخذ يرقبهن من فوق شجرة (لوحة ٣٨٠م).

ويتميز الأسلوب الراجستاني بتوُّعه الشديد، ويبدو هذا التوُّع واضحاً في تصاوير الولايات الراجستانية التي يقرب بعضها من بعض جغرافياً، ومردّ هذا إلى اعتراز رعاة الفن من الحكام الراجستانيين كل بميله من دون أن يتأثر بأسلوب مجاور مهما اختلف مقامهم. فعلى حين عيّنت بغض المدارس بدقة التنفيذ عيّنت مدارس أخرى بالألوان المشرقة الزاهية أو الإفراط في التكلّف. ويتمثل هذا التكلّف^(١) الذي بلغ الغاية في أسلوب مدرسة كيشانجار وهو ما نراه في رسم العيون شديدة الانحراف وفي رسم الوجوه على غاية من الجمال تفوق المألوف، ويتجلى هذا وذاك في لوحتين، نرى في أولاهما (لوحة ٣٨١م) التي تعود إلى العام ١٧٦٠م أميراً وأميرة وقد جلس أحدهما إلى جانب الآخر في شرفة تطل على نهر ومن ورائهما وصيفة تحمل مروحة من ريش الطاووس وأمامهما مطربة تعزف على الطبور، وعلى أرضية الشرفة سجادة مزخرفة بزخارف نباتية، وعلى الشاطئ البعيد من النهر منظر برّي. وتصور اللوحة الثانية جواداً وسائسه (لوحة ٢١٣م) ونرى هذا الإفراط في التكلّف قد عمّ الجياد أيضاً فإذا هي ذات طابع مصطنع بل سوريالي.

كانت منطقة ميوار تتميز بغاباتها الكثيفة وجبالها الشاهقة وبخيراتنا الواسعة وقصورها العتيقة، لذا كانت مصدر إلهام للمصورين الذين جاءت تصاويرهم تحاكي الطبيعة كل المحاكاة. ولقد كان ازدهار مدرسة ميوار فيما بين عامي ١٦٦٠ و١٧٠٠، وتمثل هذه المدرسة جانباً ملحوظاً من تاريخ الفن الهندي، على الرغم من أنها كانت تعوزها تلك التقنيّة البديعة التي شاعت في التصوير المغولي المعاصر لها. وإذا كان التصوير المغولي هو فن خاص بالارستقراطية والبلاط، فلقد

(١) الأسلوب التكلّفي: هو ما يطرأ على الأسلوب الفني من تصنع أو تائق أو غلو، وأهم خواصه المبالغة في إظهار القوى العضلية، أو إطالة أشكال الشخص، أو إضفاء التأثير على الحركات والإيماءات، أو ازدياد التكوين الفني، أو المغالاة في بغض النسب والمقاييس، وما يترتب على ذلك كله من استخدام للألوان الصارخة [م.م.م.ث.].

وَسَطَ الصُّورَةَ الْأَشْجَارَ وَالنَّبَاتَاتِ.

وَمَعَ نِهَايَةِ الْقُرْنِ السَّامِعِ عَشَرَ نَشَأَتْ مَدَارِسُ تَصْوِيرٍ بِأَهَارِيَّةٍ أُخْرَى فِي مَانكوت وَكوكو نَهَجَتْ نَهْجَ مَدْرَسَةِ بَاشُوهِلي، كَمَا نَرَى فِي مُنَمَّةِ رَامِه وَشَقِيقِهِ الْأَكْبَرِ وَهُمَا فِي إِثْرِ الْحَكِيمِ حَامِلِ الْإِنَاءِ وَهُمْ جَمِيعًا فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى الْمَنفَى. وَنَرَى الطَّيْرَ كَمَا نَرَى بَعْضَ الْحَيَوَانِ قَدْ اسْتَقَرَّ فَوْقَ الشَّجَرِ، حَيْثُ يَبْدُو ذَنْبُ يَطْلُ مِنَ الشَّجَرَةِ إِلَى الْيَسَارِ، كَمَا نَرَى نَمْرًا فَوْقَ الشَّجَرَةِ إِلَى الْيَمِينِ، وَيَغْلُو الْمُنَمَّةُ شَرِيطَ يُمَثِّلُ السَّمَاءَ (لَوْحَة ٣٨٨م).

وَمَا تَلَبَّثَ التَّصَاوِيرُ الْبَاهَارِيَّةُ خِلَالَ الْقُرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ أَنْ تَتَّخِذَ طَابَعًا «غِنَائِيًّا» مُعَبَّرًا فِي مَغَالَاةٍ عَنِ الْعَوَاطِفِ. وَمَا إِنَّ أَهْلَ الْقُرْنِ السَّامِعِ عَشَرَ حَتَّى شَاعَ هَذَا الْأُسْلُوبُ فِي الْكَثِيرِ مِنَ الْمَدَارِسِ الْجَبَلِيَّةِ. وَنَرَى نَمُودَجًا لِهَذَا الطَّرَازِ فِي مُنَمَّةٍ مِنْ جَارَوَالِ لِرَامِه وَسَيَا وَلَاكْشَمَانِ وَهُمْ فِي الْغَابَةِ (لَوْحَة ٢١٥)، مَرَّةً وَهُمْ قَادِمُونَ مِنَ الْيَسَارِ لِلِقَاءِ جَمَاعَةٍ مِنَ الثَّسَاكِ، وَأُخْرَى وَقَدْ جَلَسُوا يَتَنَاوَلُونَ طَعَامَهُمْ مَعَ أَحَدِ هَؤُلَاءِ الثَّسَاكِ، وَنَرَاهُمْ ثَالِثَةً وَهُمْ يَسْتَرِيحُونَ تَحْتَ ظِلِّ شَجَرَةٍ.

وَمِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ تَصَاوِيرَ الْمَدْرَسَةِ الرَّاجِپُوتِيَّةِ هِيَ أَرْوَعُ التَّصَاوِيرِ الْهِنْدِيَّةِ، وَهِيَ وَإِنْ كَانَتْ تَحْمِلُ بَعْضَ السَّمَاتِ الْفَارِسِيَّةِ فَهِيَ تَخْتَلِفُ الْاِخْتِلَافَ كُلَّهُ عَنِ تَصَاوِيرِ الْمَدْرَسَةِ الْمَغُولِيَّةِ الْهِنْدِيَّةِ الْمُعَاَصِرَةِ لَهَا، إِذْ كَانَ مُصَوِّرُو الرَّاجِپُوتِ يَجْمَعُونَ بَيْنَ مَا كَانَ لِأَسْلَافِهِمْ مِنْ تَقَالِيدٍ وَبَيْنَ مَا لَهُمْ مِنْ تَصْوِيرٍ هِنْدِيٍّ شَعْبِيٍّ، فَغَدَوْا أَصْحَابَ طِرَازٍ جَدِيدٍ صَوَّرُوا بِهِ الْمَأْثُورَاتِ الشَّعْبِيَّةِ الْهِنْدِيَّةِ عَلَى خَيْرِ وَجْهِ. وَلَقَدْ جَاءَ التَّصْوِيرُ الرَّاجِپُوتِيُّ سَابِقًا لِلتَّصْوِيرِ الْمَغُولِيِّ ثُمَّ عَاشَ وَعَاشَ بَعْدَهُ. وَكَانَتْ نَشْأَةُ هَذَا التَّصْوِيرِ فِي مَدَارِسِ إِفْلِييَّةِ، وَكَمَا اسْتَمَدَّ أَصْلَهُ مِنْ تَقَالِيدِ التَّصْوِيرِ الرَّاجِپُوتِيِّ الْقَدِيمِ، كَذَلِكَ اسْتَمَدَّ أَصْلًا آخَرَ مِنَ التَّصْوِيرِ الْفَارِسِيِّ الَّذِي مِنْهُ اسْتَمَدَّ التَّصْوِيرُ الْمَغُولِيُّ. وَاسْمُ مَدْرَسَةِ «رَاجِپُوت»^(١) مَأْخُوذٌ مِنَ اللَّقَبِ

(١) الرَّاجِپُوتِ: مُصْطَلَحٌ يُقْصَدُ بِهِ جِنْسُ الرَّاجِپُوتِ الَّذِي يَشْمَلُ حَوَالِي أَعْدَ عَشَرَ مَلِكًا مِنْ مَلَاكِ الْأَرَاضِي، تَنْتَظِمُهُمْ قِبَالُ الْوَلَاءِ فِيهَا لِلْأَبِ، وَمُؤْطِنُهُم الْأَوَّلُ شِمَالِي الْهِنْدِ وَوَسَطُهُ لَا سِيَّمًا فِي إِقْلِيمِ رَاجِپُوتَانَا الْقَدِيمِ، وَهُمْ يُعَدُّونَ أَنْفُسَهُمْ خُلَفَاءَ طَبَقَةِ الْمُحَارِبِينَ الْقَدَمَاءِ فِي الْهِنْدِ، وَثَمَّةُ عَدَدٌ يُعَدُّ بِهِ مِنَ الرَّاجِپُوتِ الْمُسْلِمِينَ فِي الشَّمَالِ الْغَرْبِيِّ لِلْهِنْدِ. وَالرَّاجِپُوتُ بِصِفَةِ عَامَّةٍ يَزْعَوْنَ حُرْمَةَ الْحَرِيمِ الَّذِي يُسَمَّى عِنْدَهُمْ بِاسْمِ پُورْدَا Purdah وَمَعْنَاهُ «السَّتَار». وَمِمَّا يَتَمَيَّزُ بِهِ الرَّاجِپُوتُ الْاِغْتِرَازُ الشَّدِيدُ بِأَسْلَافِهِمْ وَحَمِيَّتُهُمْ لِلشَّرَفِ وَالْقَانِي فِي سَبِيلِ الْقُوَّةِ.

وَلَقَدْ نَشَأَتْ مَا بَيْنَ الْقُرْنَيْنِ الثَّامِنِ وَالثَّانِي عَشَرَ عِدَّةُ مَمَالِكٍ فِي شِمَالِ الْهِنْدِ وَوَسَطِهَا تُعَدُّ نَمُودَجًا حَقًّا لِحُكْمِ الرَّاجِپُوتِ؛ حَيْثُ أَزْدَهَرَتِ الْمَعَارِفُ وَالتَّجَارَةُ. وَكَانَتْ أَخْلَاقُ الْفُرُوسِيَّةِ دَيْدَنَهُمْ فِي حُرُوبِهِمْ، وَكَمْ تَعْنَى شُعْرَاهُمْ بِالشَّجَاعَةِ وَعَدَمَ الرُّهْبَةِ مِمَّا هُوَ أَقْوَى مِنْهُمْ. وَخِلَالَ سَنَوَاتِ الثُّغُورِ الْإِسْلَامِيِّ فِي الْهِنْدِ انْتَقَلَ سُلْطَانُهُمْ إِلَى إِقْلِيمِ رَاجِپُوتَانَا وَبَعْضُ مَمَالِكِ الرَّاجِپُوتِ الصَّغِيرَةِ، وَعَدَّوْا عَقْبَهُ فِي سَبِيلِ اسْتِئْلَافِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْهِنْدِ الْهِنْدُوكِيَّةِ كُلِّهَا. وَمَعَ اسْتِثْقَالِ

الْمَجْمُوعَةِ شَجَرَتَا سَرَوَ وَكَذَا شُجَيْرَاتُ زَهْرَاتِهَا حَمْرَاءَ. وَفِي أَدْنَى الصُّورَةِ زَهْرِيَّةٍ فِي لَوْنَيْنِ أَبْيَضَ وَأَزْرَقَ، وَثَمَّةُ قِطٌّ قَدْ افْتَرَشَ السَّجَادَةَ وَهُوَ يَغْطِي فِي نَوْمِهِ. وَوَضْعَةُ الذَّرَاعَيْنِ فَوْقَ الرَّأْسِ وَوُجُودُ هَذِهِ الْمِرْآةِ يَقْطَعَانِ بِأَنَّ الصُّورَةَ إِحْدَى صُورِ الرَّاجِجِ مَالَا.

أَمَّا الْأَزْدِهَارُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ أَزْدِهَارُ فِي فَنِّ تَصْوِيرِ الْمُنَمَّاتِ الْهِنْدِيَّةِ فَكَانَ فِي الْوِلَايَاتِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ أَقْصَى الْهِنْدِ وَعِنْدَ سَفُوحِ جِبَالِ الْهَمْلَايَا، وَهَذِهِ وَتِلْكَ يَحْتَلَانِ رُقْعَةً ضَيِّقَةً مِنَ الْأَرْضِ. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ قُرْبِ هَذِهِ الْوِلَايَاتِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضِ تَكَادِ الْجِبَالِ تَقْصُلُ الْوَاحِدَةَ عَنِ الْأُخْرَى. وَهَذِهِ الْوِلَايَاتُ هِيَ بَاشُوهِلي وَجَامُو وَتَشَامْبَا وَنُورُ پُورَ وَجُولَرُ وَكَانَجِرَا وَبِيلَاسِپُورَ وَكُولُو وَمَانْدِي وَجَارَوَالِ وَالْبِنْجَابِ. وَجَمِيعُ الْمُنَمَّاتِ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي هَذِهِ الْوِلَايَاتِ هِيَ مِنْ صُنْعِ مَدْرَسَةِ بَاهَارِي الْمَعْرُوفَةِ بِاسْمِ مَدْرَسَةِ رَاجِپُوتِ. وَالتَّصْوِيرُ الْبَاهَارِيُّ يَعْنِي التَّصْوِيرَ فِي الْمَنَاطِقِ الْجَبَلِيَّةِ، وَثَمَّةُ مَرَاكِجِلُ ثَلَاثَ لِلتَّصْوِيرِ الْبَاهَارِيِّ، أَوَّلَاهَا مَرَحَلَةٌ بِبَاشُوهِلي ثُمَّ مَرَحَلَةٌ مَا قَبْلَ كَانَجِرَا ثُمَّ مَرَحَلَةٌ كَانَجِرَا الَّتِي تَنْقَسِمُ بِدَوْرَهَا إِلَى أُسْلُوبَيْنِ أَوَّلُهُمَا الْأُسْلُوبُ الثَّقَلِيدِي وَثَانِيُهُمَا أُسْلُوبُ الْبَهْجَاتَا. وَأَكْثَرُ هَذِهِ تَجْدِيدًا هِيَ مَدْرَسَةُ بَاشُوهِلي، عَلَى نَحْوِ مَا نَرَى فِي مُنَمَّةِ فُشَنُو تَقْمَصُ هَيْئَةً الْأَسَدِ، «نَارَاشِيْمَا أَقَاتَارَا» (لَوْحَة ٣٨٥م) إِذْ يَبْدُو الْإِلَهُ فُشَنُو مُتَقَمِّصًا هَيْئَةً أَسَدٌ وَهُوَ يَسْتَرِجُ أَحْشَاءَ الْمَلِكِ الدَّمَوِيِّ هِيرَانِيَا كَاسِپُو بَعْدَ أَنْ حَطَّمَ سَيْفَ خَصْمِهِ وَأَزَاحَ عَنْ رَأْسِهِ عِمَامَتَهُ. وَإِلَى الْيَسَارِ يَقِفُ بِرَادَالَا الْوَرَعُ ابْنُ الْمَلِكِ، وَإِلَى الْيَمِينِ زَوْجَتُهُ فِي وَضْعَةٍ إِجْلَالٍ.

وَيَتَجَلَّى هَذَا التَّجْدِيدُ أَرْوَعُ مَا يَكُونُ فِي مُنَمَّةٍ مِنْ مَخْطُوطَةِ جِيْتَا جُوفِينْدَا (لَوْحَة ٣٨٦م) تُمَثِّلُ كَرِيشَنَ وَهُوَ يَرْفَعُ جَبَلَ جُوفَارْدَانِ [اسْمُ آخَرٍ لِكَرِيشَنَ] لِيَسْتَظِلَّ الرُّعَاةَ تَحْتَهُ، وَكَانَ الْإِلَهُ إِنْدَرَا قَدْ أَنْذَرَهُمْ - كَمَا سَبَقَ الْقَوْلُ - بِسُحْبِ ثُمَطِيرِهِمْ سَيِّلًا يُعْرِقُهُمْ حِينَ رَفَضُوا أَنْ يَحْتَفِلُوا بِعِيْدِهِ بَعْدَ أَنْ أَمَرَهُمْ كَرِيشَنَ أَلَّا يَفْعَلُوا وَأَنْ يَعُودُوا إِلَى عِبَادَةِ جَبَلِ جُوفَارْدَانِ، فَاحْتَمَى الرُّعَاةَ تَحْتَ الْجَبَلِ بَعْدَ أَنْ رَفَعَهُ كَرِيشَنَ. وَبِهَذَا كُتِبَ النَّصْرُ لِكَرِيشَنَ عَلَى إِنْدَرَا الَّذِي اسْتَسَلَّمَ مَهْزُومًا. وَتَلَفْنَا فِي هَذِهِ الْمُنَمَّةِ الْأَلْوَانِ الزَّاهِيَةَ الْمُتَأَلِّقَةَ وَمَلَامِحَ الْوُجُوهِ الْحَادَّةِ وَالتَّكْوِينِ الْفَنِّيِّ غَيْرَ الْمَأْلُوفِ.

وَمِنْ مَدْرَسَةِ بَاشُوهِلي أَيْضًا لَوْحَةٌ مِنْ مَلَحْمَةِ الرَّامَايَانَةِ تُصَوِّرُ اسْتِخْلَاصَ رَامِه لِزَوْجَتِهِ مِنْ بَرَاثِنِ الْوَحْشِ (لَوْحَة ٣٨٧م)، فَتَرَى مَدِينَةَ لَانْكَ «سِيلَان» إِلَى أَقْصَى الْيَمِينِ حَيْثُ اعْتَقَلَ الْوَحْشُ زَوْجَةَ رَامِه «سَيَا» بَعْدَ أَنْ اخْتَطَفَهَا، كَمَا نَرَى رَامِه مُخْتَبِئًا فِي غِيضَةِ إِلَى الْيَسَارِ بَعْدَ أَنْ وَصَلَ لِإِنْقَازِ زَوْجَتِهِ، فَإِذَا الْمَخْلُوقَاتُ الْوَحْشِيَّةُ قَدْ تَحَوَّلَتْ إِلَى صَبَايَا يَرْفُضْنَ وَيُعَيِّنْنَ مِمَّا يُبَيِّرُ الْحَيَوِيَّةَ فِي الْمَشْهَدِ الْمُصَوَّرِ، وَيَبْدُو الْمُحِيطُ الْهِنْدِيُّ، الَّذِي رَسَمَهُ الْفَنَّانُ عَلَى شَكْلِ أَهْلَةٍ مُتَدَاخِلَةٍ، زَمَادِيَّ اللَّوْنِ. وَإِلَى الْيَمِينِ مِنَ الصُّورَةِ الْقَصْرُ ذُو الْأَبْرَاجِ زَمْرًا إِلَى مَدِينَةِ لَانْكَ وَبِرْكَهَ غَطَّتْهَا أَزْهَارُ اللَّوْتُسِ وَقَدْ حَوَّمتَ فَوْقَهَا طُيُورُ الْفَلَامَنْجُو، كَمَا تُحِيطُ بِالْأَرْضِيَّةِ الصَّفْرَاءِ فِي

الذي كان يَتَلَقَّبُ بِهِ حُكَّامُ المنطقة التي تَصَمَّ إقليم راجپوتانا^(١) وتلال البنجاب في الفترة من القرن السادس عشر إلى التاسع عشر. لَقَدْ تَمَيَّزَت مَرَحَلَةُ مَدْرَسَةِ راجپوت المُبَكَّرَةِ بِالرُّسُومِ الرُّخْزِيَّةِ الْمُسَطَّحَةِ مِنْ دُونِ أَذْنَى إِحْسَاسٍ بِالتَّجْسِيمِ، وَلَكِنْ مَا لَبِثَ الْمُصَوِّرُونَ أَنْ أَضْفَوْا الرُّقَّةَ عَلَى مُنَمَّاتِهِمْ. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ أَهْتِمَامَهُمْ كَانَ مَا يَزَالُ مُنْصَبًّا عَلَى الْفِكْرَةِ الَّتِي يَبْغُونَ التَّعْبِيرَ عَنْهَا أَكْثَرَ مِنْ بُلُوغِ الْوَاقِعِيَّةِ فَقَدْ بَدَأَتِ الْحَرَكَةُ تَدَبُّ فِي نَمَازِجِ شُخُوصِهِمْ. وَمَعَ ذَلِكَ فَالْقَائِدُ أَنَّ أَعْظَمَ مُصَوِّرَاتِ مَدْرَسَةِ راجپوت قَدْ صُوِّرَتِ فِي مَدِينَةِ كَانَجَرَا، حَيْثُ خَطَا الْفَنَّاوْنَ خُطُواتٍ وَاسِعَةً نَحْوَ الْإِلْتِزَامِ بِالْوَاقِعِيَّةِ فِي تَصْوِيرِ مَوْضُوعَاتِهِمْ، وَإِنْ انْحَصَرَ أَهْتِمَامُهُمُ الْأَوَّلُ فِي السَّيْطَرَةِ الْمُثْلَى عَلَى «الْخُطُوطِ» الَّتِي يُضْفُونَ بِهَا «الْغِنَائِيَّةِ» عَلَى رُسُومِهِمْ، كَمَا جَاءَتْ أَلْوَانُهُمْ نَاعِمَةً مُوَاجِبَةً أَشَدَّ الْمُوَاجِبَةِ لِطَبِيعَةِ تَصَاوِيرِهِمْ، حَتَّى لَقَدْ اعْتَمَدَتِ مُعْظَمُ أَعْمَالِهِمْ اعْتِمَادًا كَلِّيًا عَلَى «الْخُطُوطِ» وَلَجَأَتْ أَقَلُّ مَا يُمْكِنُ إِلَى «الْأَلْوَانِ». وَمَعَ أَنَّ كَثْرَةَ الْفَنَّاوِينَ قَدْ شَغَلُوا بِالْقَصَصِ الْهِنْدُوكِيِّ وَالْقُصُوصِ الدِّينِيَّةِ، فَتَمَّتْ بَعْضُ الْهَوَرْتِيَّاتِ الَّتِي صُوِّرَتْ مُجَابِيَّةً شَأْنَ جَمِيعِ أَعْمَالِ مَدْرَسَةِ راجپوت. وَالْجَدِيرُ بِالتَّنْوِيهِ أَنَّ الْحُكَّامَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ عَمَلُوا عَلَى تَشْجِيعِ تَقَالِيدِ التَّصْوِيرِ الْهِنْدُوكِيَّةِ إِذَا الْمُصَوِّرُونَ يَتَرَعُونَ صُورَهُمْ بِحَرَكَةٍ جَارِفَةٍ، كَمَا تَنَاقَلُوا مَوْضُوعَاتِهِمْ بِأَسْلُوبِ رُومَانِيَّيْ، وَعُتُوا بِتَصْوِيرِ الثِّيَابِ الشَّافَةِ الْمَرْسُومَةِ بِدَقَّةٍ مُتَنَاهِيَةٍ، كَمَا انْضَمَّ اللَّوْنَانِ الْأَبْيَضُ وَالذَّهَبِيُّ إِلَى خُطَّةِ أَلْوَانِهِمْ.

وَهَذِهِ مُنَمَّةٌ مِنْ مَدْرَسَةِ كَانَجَرَا تُمَثِّلُ لِقَاءَ إِلَهِ كَرِيشْنَةِ بِحَالِيَّاتِ الْبَقَرِ لَيْلًا، هِيَ مِنْ بَيْنِ سِتٍّ وَعِشْرِينَ مُنَمَّةً أُخْرَى تَرَوِي مُغَامَرَاتِ إِلَهِ كَرِيشْنَةِ (لَوْحَةٌ ٣٩١م). نَرَاهُ وَقَدْ بَدَأَ الْهَلَالَ فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقِهِ وَمِنْ حَوْلِهِ حَالِيَّاتِ الْبَقَرِ (Gopis) وَقَدْ التَّقَى بِهِنَّ خَفِيَّةً فِي طَرْفِ نَاءٍ مِنَ الْفَرِيَّةِ. وَنَرَى التَّاسَ وَهُمْ يَغْطُونَ فِي نَوْمِهِمْ بِبُيُوتِهِمْ مِنْ فَرْطِ الْهَدْوِ الَّذِي يَسُودُ الْفَرِيَّةَ وَقَدْ تَغَطَّوْا بِأَعْطِيَتِهِمْ، وَحَوْلَ الْبُيُوتِ نَرَى الْأَبْقَارَ دَاخِلَ حِطَائِرِهَا. وَتُشِيرُ لَمْسَةُ الظِّلِّ الْأَزْرَقِ الرَّمَادِيِّ فِي الصُّورَةِ إِلَى أَنَّ اللَّيْلَ قَدْ حَيَّمْ، وَيَدُّو مَاءَ النَّهْرِ وَكَأَنَّهُ شَحَّ مُتَالِقًا كَمَا تَبْدُو ضَفَّتُهُ رَمَادِيَّةً. وَإِذْ كَانَ كَرِيشْنَةُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي لَا تُحَيِّمُ عَلَيْهِ عَتَمَةُ اللَّيْلِ، لِذَا بَدَأَ بِتَوْبِهِ الْأَصْفَرَ الذَّهَبِيَّ مُتَالِقًا وَقَدْ حَقَّهُ وَبِضْ إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ مُرْسَلٌ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ. وَمَا أُنْدَرُ تِلْكَ الصُّورِ الَّتِي تُصَوِّرُ اللَّيْلَ بِنَجَاحٍ، وَمِنْ هُنَا نَرَى الْمُصَوِّرَ قَدْ تَنَازَعَهُ شَيْئَانِ، أَوَّلُهُمَا أَنْ يَلْتَزِمَ بِإِنْصَاحِ أَشْكَالِهِ وَثَانِيَهُمَا أَنْ يَلْتَزِمَ بِالتَّعْبِيرِ عَنِ الْإِظْلَامِ، إِذَا مَا غَلَبَ الْإِنْصَاحُ التَّعْبِيرُ عَنِ الْإِظْلَامِ اخْتَفَى سِخْرُ اللَّيْلِ، وَإِذَا مَا غَلَبَ الْإِظْلَامُ اخْتَفَى الْإِنْصَاحُ، وَالْمُصَوِّرُ هُنَا اسْتَطَاعَ أَنْ يُوقِفَ بَيْنَ الْأَتْنَيْنِ.

وَأَخِرُ مَوْضُوعَاتِ التَّصْوِيرِ الرَّاجِپُوتِيِّ هُوَ الْعِشْقُ وَالْغَرَامُ، حَيْثُ نَرَى الْمُشَاقَّ تَارَةً يَلْتَقُونَ خَلْسَةً وَتَارَةً أُخْرَى يَتَعَانَقُونَ جَهْرَةً بِحَرَارَةٍ، أَوْ قَدْ تَبَدُّوا السَّيِّدَةَ وَهِيَ تَأْخُذُ زَيْتَهَا عَلَى أَفْرَادٍ قَبْلَ مَوْعِدِ اللَّقَاءِ، أَوْ وَهِيَ تَنْتَفِضُ غَضَبًا بَعْدَ أَنْ هَجَرَهَا عَاشِقُهَا، أَوْ وَهِيَ تَنْتَلِعُ مِنْ شَرْفَتِهَا نَحْوَ الْأَفْقِ انْتِظَارًا لَوْصُولِ مَحْبُوبِهَا، أَوْ وَهِيَ

وَقَدْ غَنِيَتْ مَدْرَسَةُ راجپوت بِالْمَشَاهِدِ الْقَوْمِيَّةِ الَّتِي تَدُورُ حَوْلَ مَوْضُوعَاتٍ أَرْبَعَةٍ: الْمَقَامَاتِ الْمَوْسِيقِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ بِاسْمِ «رَاجِهَ مَالَا» [الْأَكَالِيلِ الْمَوْسِيقِيَّةِ]، وَالْمَوْضُوعَاتِ الرُّومَانِيَّةِ، وَالْمَلَاجِمِ، وَالْمَوْضُوعَاتِ الْغَرَامِيَّةِ.

أَمَّا أَشْعَارُ الْمَلَاجِمِ فَكَانَتْ تُعَبِّرُ عَنْ مُغَامَرَاتِ الْأَبْطَالِ وَرِفَاقِهِمْ ضِدَّ قُوَى الشَّرِّ الْمُتَمَثِّلَةِ فِي هَيْئَةِ مَخْلُوقَاتٍ وَخَشِيَّةٍ. وَكَانَ النَّصْرُ يَنْعَقِدُ بِطَبِيعَةِ الْحَالِ لِلْبَطْلِ مَهْمَا بَلَغَتْ قُوَّةُ خُصُومِهِ. وَمِنْ بَيْنِ هَذِهِ الْمَلَاجِمِ ظَهَرَتِ قِصَّةُ الْبَطْلِ «رَامِه» بِنَصِيبٍ كَبِيرٍ فِي صُورِ مَدْرَسَةِ راجپوت، تُقَدِّمُ مِنْ بَيْنِهَا مُنَمَّةً تُمَثِّلُ كَرِيشْنَةَ وَهُوَ يَتَبَلَعُ النَّارَ الَّتِي اشْتَعَلَتْ فِي الْغَابَةِ انْقِذَاً لِأَهَالِي بَلَدَةِ فَرَاجا مِنْ الدَّمَارِ الَّذِي كَانَ سَيَحِلُّ بِهِمْ وَيَقْطَعَانِهِمْ بَعْدَ أَنْ اسْتَنْجَدَتْ بِهِ حَالِيَّاتِ اللَّبَنِ فَأَمَرَهُنَّ بِإِخْفَاءِ عِيُونِهِنَّ بِأَيْدِيَهُنَّ فَاسْتَجَبْنَ، وَإِذَا الْمَاشِيَّةُ بَعْدَ أَنْ هَبَّ كَرِيشْنَةُ لِتُجِدَّتْهَا تَرَعَى فِي أَطْمَئِنَّانٍ نَازِلَةٍ إِلَيْهِ وَمُؤْمِنَةً بِأَنَّهُ لَنْ يَتْرَكَهَا لِلْهَلَاكِ، وَفِي أَمَامِيَّةِ الصُّورَةِ يَبْدُو نَهْرُ چامونا (يامونا) (لَوْحَةٌ ٣٨٩م).

وَتَتَّصِلُ الْمَوْضُوعَاتُ الدِّينِيَّةُ انْتِصَالًا وَثَقًا بِالْمَلَاجِمِ الشَّعْرِيَّةِ لِأَنَّهَا هِيَ الْأُخْرَى تَرَوِي مُغَامَرَاتِ الْأَلْهَةِ وَالْأَبْطَالِ الَّذِينَ يُصَارِعُونَ بِذُرِّهِمُ الْمَخْلُوقَاتِ الْوَحْشِيَّةَ وَيَقْضُونَ عَلَيْهَا. وَمَعَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الْقِصَصِ تَنْدَرِجُ تَحْتَ الْجَكَايَاتِ الْخُرَافِيَّةِ وَالْخَيَالِيَّةِ وَتَتَخَلَّلُهَا بَعْضُ الْعَلَاقَاتِ الْجَسَنِيَّةِ الْمُثِيرَةِ إِلَّا أَنَّهَا تَكْشِفُ عَنْ بَعْضِ مَظَاهِيرِ غَرَامِيَّاتِ الْأَلْهَةِ. وَهَكَذَا لَعَبَتْ مُغَامَرَاتِ إِلَهِ كَرِيشْنَةَ عَلَى سَبِيلِ

=الهند عام ١٩٤٧ اتحدت الولايات الراجپوتية ضمن إقليم راجستان، ولا يزال معظم الراجپوت يحتفظون بتقاليدهم القديمة، كما يعدون ركنًا يعتمد عليه في القوات المسلحة الهندية.

(١) راجپوتانا: وتعني أرض الراجپوت، وتضم بعض الإمارات الهندية في شمال غرب الهند، وسميت بهذا الاسم لأن حكامها كانوا من الراجپوت بينما كان معظم سكانها من الهندوس. وقد استولى البريطانيون خلال القرن التاسع عشر على إقليم راجپوتانا وأقاموا به إمارة تحت حمايتهم. وكانت راجپوتانا تضم ثلاثًا وعشرين ولاية هي في مجموعها وحدة تحتل أرضًا جبلية وسهلاً يقع بين سهول الشمال الهندي والسهل الرئيسي ليشبه القارة الهندية. وبعد استقلال الهند عام ١٩٤٧ انضمت راجپوتانا إلى ولايات أخرى تألفت منها جميعًا إقليم راجستان الحالي، الذي يضم فيما يضم ولايات بيكانير وچايبور وبوندي وكوتاه وكيشانجار وآوار وجيسلمير وأدراپور وبانسوارا.

بُني وعلى وجهه، وكذا على وجه الجواد، خمار من اللؤلؤ، وفي إثره أبوه شاه جهان على جواده وحولهما كثرة من رجال الحاشية وقد امتطوا هم الآخرون جيادهم، ومن أمام هؤلاء جميعاً جم غفير من الناس وفي أيديهم شموع ومصابيح مضاءة، وفي خلفية الصورة بدت الصواريخ تسطع في السماء.

ولكن ما لبث هذا الأثر أن توارى شيئاً وعلب عليه الفن الأوربي بعد أن استقر الوافدون من الإنجليز والأوربيين تجاراً وحكاماً وقنانين في أعداد كثيرة في هذه البلاد، وسرعان ما نهج الفنانون الهنود نهجهم فإذا ثمة أسلوب مهجن عرف باسم «أسلوب شركة الهند الشرقية». ومن هذا الأسلوب لوحة تمثل راني چندان مع الجهرجا دالب سنغ وهو لا يزال صبياً في الثالثة من عمره وهما في عربة يجرها جوادان أبيضان مطهمان. وعلى حافة الطريق جموع مختلفة، فثمة أسرة ومعهما كلبان، وثمة زوجان يحمل الرجل صقراً وتجر المرأة عربة صغيرة فيها طفلاً، ومن خلفهما أرنب (لوحة ٢١٦م).

ومع أن المُنمنمات المغولية كانت عادةً تحمل أسماء مصوريها إلا أن المُنمنمات الهندية كانت تخلو من أي اسم، فالفنان الهندي يؤدي عمله ابتغاء وجه الإله وقرباناً له أو تلبية لرغبة راعي الفن الحاكم. والحديث عن مصوري الهند حديث ليس باليسير، فلقد ولوا عتاً ولم يتركوا لنا إلى جانب أعمالهم مذكرات عن حياتهم، فليس إلى جانب أعمالهم التي تركوها مذكرات أو شبه مذكرات تريح لنا الستار عن حياتهم التي عاشوها. ولقد أتاح لنا القدر منذ أعوام ثناهِ الخمسين العثور على مخطوطات تحمل بين طياتها آثاراً لتفر قليل من هؤلاء المصورين، غير أنها للأسف آثاراً ليست فيها إلا لمحات خاطفة في غرة كتاب أو إشارة عارضة في نص من النصوص. وما تركه هؤلاء المصورون من تصاوير يُخيم عليه صمت مطبق لا يسع المرء معه إلا أن يعمل قريحته ليكشف شيئاً عن هذا الغموض، ويتبين ما في هذه الآثار من همسات ولمحات وإشارات قد تلقى شيئاً من الضوء على حياة مصوري الهند. ولعله مما يلفت النظر تجاهل المصور الهندي لذاته تجاهلاً مطلقاً. ومما يقال إن الجهل بأسماء المصورين يرجع إلى أن فن التصوير الهندي كان في بيئة أئمة تجهل القراءة والكتابة، وكان المصورون أنفسهم من هذه البيئة الأئمة، هذا إلى أن التصوير الهندي لم تكن لمصور واحد بل كان يُشارك في إنجازه أكثر من واحد. ثم إن هؤلاء المصورين لم يفكر واحد منهم في أن يضع اسمه على ما صور، ومن هنا جاء الجهل بأسماء المصورين. غير أن البعض يرد هذا وذاك إلى أن البيئة الهندية لم تكن على هذه الحال التي وصفت. كما يقال بأن المصور الهندي التقليدي كان يرى نفسه صاحب حرفة من تلك الجزف الشائعة، شأنه شأن التجار والخزاف والنساج، وكما لم

تعدو نحوَه أثناء إحدى العواصف من دون مُبالاة بما يعترضها. وهكذا تزدنا مُنمنمات مدرسة راجپوت بصورة جليّة عن الحياة اليومية في أرجاء الهند حتى لو كان الموضوع المصور مُستقى من الأدب، مثل مشاهد غرام كريشنه الذي أثر ألا يقضي وقته على الأرض مُتبتلاً في المعابد فانطلق مُغازلاً حاليات اللبن، مُشاركاً راعيات الماشية لهوهن ماذا لهن يد المساعدة في أداء مهامهن حتى كانت مُتابعة كريشنه في هذه المُنمنمات، في واقع الأمر، جولة في قري الهند وريفها وجبالها وسهولها وغاباتها وأنها راها، حيث نشهد الرعاة يسوقون قُطعانهم، والتجارين والبائعين والحرفيين وربات البيوت يؤدون واجباتهم، وتُلم بأزيائهم وسلوكهم وأعرافهم بمُجرد التطلع إلى هذه المُنمنمات التي كان الفنانون يُصورون فيها بالمثل الحيوان بجلء عواطفهم وبمحبة دافقة. ولم تقتصر أهمية هذه المُنمنمات على الترحال بين أنحاء الريف الهندي، بل هي تكشف كذلك عن أحلام الناس وآمالهم. وقد أدت المرأة الهندية دوراً بارزاً هاماً في التصوير الراجپوتي، فتجلت فيه برشاقها وجمالها أكثر مما تجلّى الرجل، على أن هذه الظاهرة لم تكن بأي حال تعبيراً عن انحصار إرادة المرأة في المُجتمع الراجپوتي.

وينظر بعض مؤرخي الفن إلى المدرستين المغوليتين والراجپوتية على أن الأولى فن ديبوي والثانية فن ديبني مع أن المدرسة الراجپوتية لا تمت بسبب إلى الفن الديني، والدليل على ذلك أن مدرسة كانجرا ومدرسة جايپور وهما في قمة مجدهما كان فنانهما علمانياً رعاة الأمراء، إذ كان فناً يتفق والدوق العام، كما كان امتداداً للذوق الوافد من البلاط المغولي. وأما من أنكر هذا من العلماء فيذهبون إلى أن الكثير من موضوعات هذه الصور يرجع إلى أساطير دينية، وقد فات هؤلاء - كما يقول مؤرخ الفن إيفان شوكين - أن الموضوعات الأسطورية لم تكن في جوهرها دينية وإنما كانت إطاراً للتعبير عن حياة البلاط.

ومع تلك الحال من ازدهار التصوير الراجپوتي أو الباهاري خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر كان الفنانون الذين أخذوا عن المغول يدعون ما أخذوا من تقاليد فنية مغولية في نواح شتى. وما إن دخلت هذه التقاليد إلى الدكن الخاضعة للحكم الإسلامي حتى تنازعت تنوعات مختلفة. وما لبث هذا الفن أن دخل في منتصف القرن الثامن عشر بلاط حكام أوده والبنغال في شرقي الهند، فإذا هو مزيج بين اثنين: الفن المغولي والفن المحلي، وهو ما يتجلى في صورة من القرن الثامن عشر، تمثل حفل زواج الأمير دارا شيكوه بن شاه جهان ليلاً والذي جرى خلال القرن السابع عشر (لوحة ٣٩٢م). ففي هذا المشهد رجعة إلى عظمة الإمبراطورية المغولية ومجدها وأيامها الزاهرة خلال القرن السابع عشر. فنرى العريس دارا شيكوه على صهوة جواد

مُنَمِّمَةُ الشَّاعِرِ جَايَادِيفِ حَيْثُ يَنْحِنِي إِجْلَالًا أَمَامَ إِلَهِ فَشَنُو (لَوْحَة ٣٩٣م)، وَكَذَا جَرَّتِ الْعَادَةُ أَنَّ يَجْتُو الْمُصَوِّرُ الْهِنْدِيَّ بَيْنَ يَدَيِ إِلَهِهِ قَبْلَ أَنْ يَشْرَعَ فِي التَّصْوِيرِ. وَقَدْ تَرَدَّدَ هَذَا الْمَعْنَى فِي التَّصَوُّصِ الْأَدْبِيَّةِ الْهِنْدِيَّةِ حَيْثُ تَقُولُ إِنَّهُ عَلَى الْمُصَوِّرِ قَبْلَ أَنْ يَأْخُذَ فِي تَصْوِيرِهِ أَنْ يُعِدَّ نَفْسَهُ إِعْدَادًا ذَهَبِيًّا بِأَنْ يَخْلُو إِلَى نَفْسِهِ وَيَقْطَعَ صِلَتَهُ الْفِكْرِيَّةَ بِمَا حَوْلَهُ حَتَّى يُخَلِّصَ ذَهْنَهُ وَمِمَّا يَشُوبُهُ مِنْ دَنَسِ الْوُجُودِ، وَبِذَلِكَ يَفْرَغُ الْفَرَاغَ كُلَّهُ لِمَا سَيَقُومُ بِهِ مِنْ تَصْوِيرٍ فَلَا يُشْغَلُ عَنْهُ بِمَا سِوَاهُ. وَتَخْتَلِفُ هَذِهِ الْخُلُوةُ النَّفْسِيَّةُ مِنْ فَتَانٍ إِلَى آخَرٍ وَمِنْ بَيْتَةٍ إِلَى أُخْرَى. وَكَانَ الْإِنْتِهَاءُ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ مِنْ صَفَاءِ النَّفْسِ هُوَ أَسْمَى مَا تَصْبُو إِلَيْهِ نَفْسُ مُصَوِّرٍ هِنْدِيٍّ، فَهُوَ فِي تِلْكَ الْخُلُوةِ أَشْبَهَ مَا يَكُونُ بِالْمُتَعَبِّدِ فِي خَلْوَتِهِ الدِّيْنِيَّةِ الَّتِي يَخْلُو فِيهَا إِلَى مَعْبُودِهِ خُلُوعًا كَامِلًا. وَلَعَلَّ مَا شَاعَ بَيْنَ مُصَوِّرِي الْهِنْدِ مِنْ إِنْكَارِ لِلذَّاتِ مَرَدَّهُ إِلَى تِلْكَ الْخُلُوةِ الَّتِي يَصْحَبُهَا الْخُشُوعُ وَالتَّوَضُّعُ اللَّذَيْنِ يُؤْمِنُ الْمُصَوِّرُ مَعَهُمَا بِعَجْزِهِ كِإِنْسَانٍ وَأَنَّهُ غَيْرُ جَدِيرٍ بِأَنْ يُعَدَّ «خَالِقًا». وَهَذَا لَا يَعْنِي أَنَّ الْفَتَانَ الْهِنْدِيَّ كَانَ نَاسِكًا، بَلْ لَقَدْ كَانَ يَعِيشُ بَيْنَ أَفْرَادِ جِنْسِهِ وَاحِدًا مِنْهُمْ لَهُ مَا لَهُمْ وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْهِمْ، وَلَكِنَّهُ مَا إِنَّ يَخْلُو خَلْوَتَهُ قَبْلَ التَّصْوِيرِ حَتَّى يَغْدُو إِنْسَانًا آخَرًا. هَذَا إِلَى أَنَّ إِحْجَامَ الْمُصَوِّرِ الْهِنْدِيَّ عَنْ أَنْ يَنْسَبَ مَا يُصَوِّرُهُ إِلَى إِبدَاعِهِ وَخَلْقِهِ هُوَ أَنَّ الصُّورَ كَانَتْ فِي أَكْثَرِهَا تَقْلِيدِيَّةً تَرَاتِيَّةً. ثُمَّ إِنَّهُ كَانَ مَعَ الْمَوْضُوعَاتِ غَيْرِ التَّقْلِيدِيَّةِ الَّتِي لَمْ يَسْبِقْ تَصْوِيرُهَا فِي الْمَاضِي لَا يَدَّعِي أَنَّهُ جَدَّدٌ أَوْ ابْتَكَّرَ، وَإِنَّمَا هُوَ يَسْتَوْحِي مِنْ مَوْضُوعٍ لَهُ قُدْسِيَّتُهُ وَمَا هُوَ إِلَّا مُفَسِّرٌ لِهَذَا الْمَوْضُوعِ، وَأَنَّ مَا فَعَلَهُ مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ مَا هُوَ إِلَّا إِعَادَةُ لِعَمَلٍ سَابِقٍ مِثْلِهِ، وَقَدْ يَكُونُ مَا سَبَقَ أَفْضَلَ مِمَّا سَجَلَتْهُ فَرَشَاتُهُ. وَيُعَزِّزُ هَذَا فِي نَفْسِهِ أَنَّ كُلَّ مَا مَضَى مِنْ تَصَاوِيرٍ يَتَّصِلُ بِالْمَلَا حِمِّ كَالرَّامَايَانَةِ وَالْمَهَابَهَارَاتِ أَوْ قِصَصِ الرَّاجِهِ مَا لَا أَوْ الْمَوْضُوعَاتِ الشَّعْرِيَّةِ لَمْ يُضِفْ إِلَيْهَا غَيْرَ صَوْنِهَا صِيَاغَةً عَصْرِيَّةً جَدِيدَةً.

يَتْرَكَ وَاحِدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ اسْمُهُ عَلَى مَا يَصْنَعُ كَذَلِكَ كَانَ الْمُصَوِّرُ يَرَى عَمَلَهُ وَلَا دَاعِي لِأَنْ يَتْرَكَ اسْمَهُ عَلَى مَا صَوَّرَ. وَلَعَلَّ أَفْضَلَ مَا يَكْشِفُ لَنَا عَنْ إِيمَانِ الْمُصَوِّرِ الْهِنْدِيَّ ذَاتَهُ بِأَنَّ تَمَّةَ قُوَّةٍ أُخْرَى أَسْمَى مِنْهُ تُلْهِمُهُ مَا يُرَوَى مِنْ أَنَّ أَحَدَ عُشَّاقِ الْفَنِّ مِنَ الْمُلُوكِ قَدْ عَهَدَ إِلَى مُصَوِّرٍ مِنَ الْمُصَوِّرِينَ أَنْ يَرَسِمَ لَهُ صُورَةَ لِرِزْوَجَتِهِ وَكَانَتْ أَثِيرَةً عِنْدَهُ، غَيَّرَ أَنَّ أَسْلُوبَ ذَلِكَ الْعَهْدِ كَانَ يَقْضِي بِأَلَّا تَقَعَ عَيْنُ الْمُصَوِّرِ عَلَى حَرِيمِ الْمَلِكِ. وَمِنْ هُنَا كَانَ عَلَى هَذَا الْمُصَوِّرِ أَنْ يُعْمَلَ خِيَالَهُ لِيَرَسِمَ تِلْكَ الصُّورَةَ غَيْرَ نَاسِيٍّ أَنْ يُضْفِي عَلَيْهَا كُلَّ أَلْوَانِ الْجَمَالِ الشَّائِعَةِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ. وَحِينَ قَارَبَ الْمُصَوِّرُ أَنْ يَنْتَهِيَ مِنَ الصُّورَةِ سَقَطَتْ عَقْوًا نُقْطَةً صَغِيرَةً مِنْ فُرْشَاتِهِ عَلَى فَخْذِ الْمَرْأَةِ الْمُصَوَّرَةِ، غَيْرَ أَنَّ الْمُصَوِّرَ لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا وَلَمْ يُلْتَفِ إِلَيْهَا بِأَلَّا وَحَمَلَ الصُّورَةَ إِلَى الْمَلِكِ، فَإِذَا هُوَ يُعْجَبُ بِهَا الْإِعْجَابَ كُلَّهُ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى تِلْكَ الْبُقْعَةِ الدَّاكِنَةِ عَلَى الْفَخْذِ. وَيَوْمًا مَا وَقَعَ بَصَرُهُ عَلَيْهَا، وَمِنْ سُوءِ حَظِّ الْمُصَوِّرِ أَنَّ الْمَلِكَةَ كَانَتْ ذَاتَ شَامَةِ عَلَى فَخْذِهَا. وَعِنْدَهَا غَضَبُ الْمَلِكِ وَوَقَعَ فِي رَوْعِهِ أَنَّ الْمُصَوِّرَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ رَأَى الْمَلِكَةَ، فَإِذَا هُوَ يَلْقِيهِ فِي السَّجْنِ. وَتَمَرَّ الْأَيَّامُ فَإِذَا الْمَلِكُ يَرَى فِي رُؤْيَا لَهُ أَنَّ الرِّبَّةَ الْعَظْمَى قَدْ تَمَثَّلَتْ لَهُ، وَإِذَا هِيَ تُفْصَحُ لَهُ عَنْ حَقِيقَةِ الْمَوْضُوعِ وَأَنَّ تِلْكَ الْبُقْعَةَ مِنْ فِعْلِهَا هِيَ لِأَنَّهَا كَانَتْ عَلَى طَرَفِ الْفُرْشَةِ وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ سَبَبًا فِي سُقُوطِ تِلْكَ النُّقْطَةِ لِكَيْ تَجِيءَ الصُّورَةُ مُحَاكِيَةً كُلَّ مُحَاكَاةِ صُورَةِ الْمَلِكَةِ، إِذْ كَانَ هَذَا الْمُصَوِّرُ أَثِيرًا عِنْدَهَا لِشِدَّةِ إِيمَانِهِ بِهَا، وَرَأَتْ أَنْ يَجِيءَ عَمَلُهُ مُطَابِقًا لِلْوَاقِعِ الْمُطَابَقَةِ كُلِّهَا. عِنْدَهَا أَفْرَجَ الْمَلِكُ عَنِ الْمُصَوِّرِ وَكَافَأَهُ مُكَافَأَةً سَخِيَّةً. وَقَدْ تَفِيدُ هَذِهِ الْأَسْطُورَةُ الَّتِي تَرْجِعُ إِلَى الْقَرْنِ الْحَادِي عَشَرَ أَنَّ الْإِعْتِقَادَ السَّائِدَ فِي الْهِنْدِ كَانَ يَعْنِي أَنَّ قُدْرَةَ الْفَتَانَ مَخْدُودَةٌ وَأَنَّهُ يَسْتَوْحِي مِنْ قُوَّةٍ أُخْرَى أَسْمَى مِنْهُ تُلْهِمُهُ، تَمَامًا كَمَا كَانَ الْأَمْرُ عِنْدَ شُعُوبِ الْعَرَبِ حِينَ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ تَمَّةَ شَيْطَانًا يُمْلِي عَلَيْهِمُ الشُّعْرَ.

وَقَدْ جَرَّتِ الْعَادَةُ أَنَّ يَجْتُو الشَّاعِرَ بَيْنَ يَدَيِ إِلَهِهِ مِثْلَمَا نَرَى فِي

الفصل التاسع والعشرون

الفتح الإسلامي للهند

تقنية التصوير المغولي في الهند

يواجه من يُقبل على دراسة فنون التصوير الإسلامية مصاعب جمّة، ذلك أن ما يهتم به يكون عادةً على شيء من التناثر والتوزع يصعب لم شتاته والجمع بين أطرافه كما سبق القول. ولهذا يحتاج إلى التّقلّب بين أماكن يبعد بعضها عن بعض بُعدًا شاسعًا، وهذا يحتاج إلى معونات من المختصّين واختلاف إلى المكتبات والمتاحف العالمية، وما أسعده ذلك الذي يتحقّق له ذلك كلّ. وثمة مصاعب غير ما ذكرنا، منها أن النماذج الفنّية التي بقيت لا تعدو غير قلة من الأعمال الفنّية التي أنجزت، وهكذا تزداد الثغرات اتساعًا، فإذا الوصول إلى فكرة كاملة عن مدرسة يعينها قد أصبح متعذرًا أو مستحيلًا، اللهم إلا إذا اجتزأنا بنموذج مفرد أبقته لنا الأيام. وسوف يظلّ ما نستقيه عن تلك المدارس أو مجموعات الفنّانين المصوّرين مبهمًا في أكثر الأحوال، وقد يُمكن التعرف أحيانًا على التأثيرات الجديدة دون الوصول إلى منابعها ومصادرها.

وللمخطوطات المرفقة في الهند بعد أن دخلها الإسلام نفاستها وقدرها، وذلك لقيمتها الأدبية والفنّية أولاً، ثمّ لما كان يُدّل في هذه المخطوطات من وقت وجهد وموادّ ثمينة، كما كانت البعثة الأولى للغزاة هي أن يقفوا على تلك المخطوطات لتكون لهم غنيمة. وكان النظام الملكيّ في الهند يقضي أن تؤلّ ممتلكات كلّ من يُتوفّى من الأمراء والوجهاء إلى بيت الملك يرثها ما يشاء إلى أهلها ويحتفظ بما يشاء، ومن هنا كان ثراء المكتبة الإمبراطورية، إذ كانت تضمّ فيما يُقال نحوًا من أربعة وعشرين ألف مخطوطة يوم وفاة الإمبراطور أكبر. وكان لكلّ راعي فنّ مرسومه الخاص الذي يضمّ جملة من الفنّانين يستأجرون برأي صاحب المرسوم ويقتفون ذوقه، ومن هنا كان التنافس بين المراسيم والفنّانين على أشده. ويذكر لنا كتاب «تاريخ الأخبار» أن عدد الفنّانين الذين جمعهم الإمبراطور أكبر لإعداد مخطوطة «حزمة نامه» بلغ المائة؛ كان منهم صانعو الورق والمجلّدون والمرفقون والمذهّبون والنساخ والمصوّرون، هذا إلى صبية كان

إليهم إعداد الأصباغ والفرش وصقل الورق بعد الفراغ من النسخ والتصوير والتذهيب، وتعدّ هذه المخطوطة أضخم إنجاز فنّي تمّ في عهد «أكبر» (اللوحتان ٣٩٤م، ٢١٧م).

وكان إعداد كلّ مخطوطة يوكل إلى أستاذ فنّان، فينتقي من بين أحداث النسخ الوارد في المخطوطة ما هو جدير بالتصوير، ويختار لكلّ عمل من يناسبه من الفنّانين في مرسومه. ولقد بلغ من حرص بعض الأباطرة المغول على أن تُعدّ المخطوطات إعدادًا فخمًا رائعا أنّهم شاركوا في هذا الإعداد. وكان لهذا النوع من التصوير مراتبه؛ فمرتبة التصميم العام تُوكل إلى أستاذ في الفنّ، ومرتبة التنفيذ تُوكل إلى فنّان أصغر شأنًا، ومرتبة الهورتريهات تُوكل إلى مختصّ بها. وكان كلّ مصوّر متخصصًا في ناحية بذاتها، فمنهم من تخصص في تصوير مشاهد المعارك والطراد، ومنهم من تخصص في تصوير الهورتريهات، ومنهم من تخصص في رسم الطير والحيوان والنبات مثل المصوّر منصور (لوحة ٣٩٥م، ٣٩٦م)، ومنهم من تخصص في رسم الأولياء والشّاك (لوحة ٣٩٧م) والموسيقيين ويأتي في مقدّمهم جوفاردان Govardhan [اسم آخر لكريشنه] وعلى الرغم من أن الصورة الواحدة كانت تحمل أسماء عدّة من الفنّانين، غير أنّه كان على رأس هؤلاء جميعًا واحد مسؤول عن العمل جملةً، ومن هؤلاء الرؤوس باسوان وداسونت ولال ومسكين.

وقد رأينا أمناء المكتبات يُسجلون هذا كلّ في الهامش الأسفل من المُنمنمة. وامتدّ هذا النظام من عام ١٥٨٠ إلى عام ١٥٩٠، ورأينا من نمطه مخطوطات تاريخية عظيمة مثل مخطوطة «بابورنامه» (١٥٨٩) ومخطوطة «التاريخ الألفي» والنسخة الأولى من مخطوطة «أكبر نامه» (١٥٩٠م) ومخطوطة «جامع التواريخ» (١٥٩٦م). وكان نتيجة لتوالي العمل أكثر من فنّان أن رأينا شيئًا من اختلاف المستوى نظرًا لاختلاف درجات المؤهبة. وتجلّى لنا هذه الظاهرة في النسخة الثانية من مخطوطة «أكبر نامه» (١٦٠٤)، فعلى حين كانت المخطوطة الأولى قد توزّع العمل فيها بين أكثر من فنّان، إذا العمل في المخطوطة الثانية قد تولاه فنّان واحد لكلّ صورة.

الأصباغ المخلوطة بأكسيد النحاس عَصِيَّة على التأكُل كانت تُعْشَى الصَّفَحَات بِطِلَاء آخَر، وكانَ المَصُورُ بِاسْمِ أَشْهَرِ فَتَانِي الهِنْد في التَّذْهِيب. وكانَ الورَق يُصَنَع من لَب الشَّجَر وَيَخْتَلِف سُمْكًا ونُعُومَةً ورَهَافَةً، وعلى حين كانَ مُصَوِّرُ الإمبراطور أَكْبَر في أواخر القَرْن السَّادِس عَشْر يُفَضِّلونَ الورَق الثَّخينَ العَاجِي اللَّوْن المَجُودَ صَفْلَه، كانَ مُصَوِّرُ الإمبراطور شاه جِهَان يُؤَثِّرُونَ الورَق الرَّقِيقَ الفاخِر المَصْنُوع من خيوط الحرير.

وكان راعي الفن يَخْتَار من المَصُورِينَ مَنْ يَقْوَى على تَجْسِيد ما يَخْطُرُ بِإِلَه، حَتَّى إِذَا ما تَمَّ الاتِّفَاقُ بَيْنَ راعي الفن والمَصُورِ على الصُّورَةِ المُناسِبَةِ يَرَسِمُ الفَتَانُ الواقِعَ تَلْقَائًا في عَجَلَات تَخْطِيطِيَّة، ثُمَّ يَأْخُذُ في تَنْفِيزِهَا التَّهَانِي بِالْمَرْسَم. ولِلتَّيْسِيرِ على نَاسِخِي الصُّورِ ولا سِيَّما تلكَ الصُّورِ التي تَتَكَرَّرُ فِيهَا المَصْطَلَحَات لَجَأُوا إلى «الأسلوب التَّنْقِيطِي»، فكانَ المَصُورُ يَتَعَمَّدُ في تَصْمِيمَاتِهِ على رَصِيدِ مَوْرُوثٍ يَشْمَلُ صُورًا وَأَجْزَاءً مِنْ صُور. وكانَ هَذَا كُلُّهُ يُحْفَظُ بِالْمَراسِمِ أو بِمَكْتَبَاتِ رُعاةِ الفنِّ، وَقَلَّ أَنْ كَانَ مَرْسَمٌ يَخْلُو مِنْ ذَلِكَ الإِثْرُ مِنْ عَجَلَاتِ تَخْطِيطِيَّةٍ وَرُسُومٍ مَنَسُوخَةٍ مِنْ وَرَقٍ شَقَافٍ وَرَقٍ مُقَوَّى أو صَفَائِحٍ مِنَ المَعْدِنِ فِيهَا ثُقُوبٌ تُعَيَّنُ الخُطُوطُ الرِّئِيسِيَّةُ لِلرَّسْمِ أو لِلصُّورَةِ، وَمِنْ مَسْحُوقِ الفَحْمِ يُذَرُّ على الثُّقُوبِ فَيَتَرَكُ أَثَرُهُ على الصَّفْحَةِ المَنْقُولِ إِلَيْهَا الرَّسْم. وكانَ يَلْجَأُ إلى هَذَا النِّسْخِ في العَادَةِ المَصُورُونَ المُبْتَدِئُونَ أو المُقْلِدُونَ الَّذِينَ لَمْ يَرْقُوا إلى دَرَجَةِ الرِّسَامِينَ المُبَرِّزينَ وَيَكْمُلُونَ رُسُومَهُم المَنَسُوخَةَ تلكَ بِإِمرارِ رِيشَتِهِمْ على ما بَيْنَ تِلْكَ الثُّقُوبِ لِيَجْعَلُوا مِنْ هَذَا شَكْلًا كَامِلًا. وَبَعْدَ أَنْ يَفْرَغَ الفَتَانُ مِنْ إَعْدَادِ الصُّورَةِ وَعَرَضُهَا على رَاعيهِ الذي لا يَنْتَاقِبُ يُتَابِعُ إِنْجَازَها خُطُوَةً خُطُوَةً يُعْطِيهَا لِلرَّقِيقِينَ الَّذِينَ يَذْهَبُونَ حَوَاشِيهَا، ثُمَّ يَكُونُ أَمْرٌ وَضَعُهَا مَوْكُولًا إلى رَغْبَةِ الإمبراطور؛ إِمَّا أَنْ تَضُمَّها مُرَقَّعةً [بِصَمِّ الصُّورِ] وإِمَّا أَنْ تَضُمَّها مَخْطُوطَةً، وَقَدْ تَعَلَّقَ أَحْيَانًا على الجُدْرَانِ.

وكانتْ حالُ الفَتَانِينَ الاجْتِمَاعِيَّةِ يُخَالِفُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَلَقَدْ بَلَغَ الحالُ بِنُغْضِهِمْ أَنْ وُلُّوا مَنَاصِبَ سِياسِيَّةٍ أو دِبْلُومَاسِيَّةٍ. وكانَ فَتَانُو البَلَاطِ مَلُحُوظِينَ إِجْلَالًا وَتَقْدِيرًا، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَتَشَأُ في البَلَاطِ المَلِكِيِّ مِثْلُ الفَتَانِ أَبُو الحَسَنِ الذي كانَ أَثِيرًا عِنْدَ الإمبراطور جِهَانَجِير وَحَظِّيَّ بَعْدَ بَلَقَبِ «عَجِيبِ الزَّمانِ». وعلى أَيْةِ حالٍ فَلَقَدْ كانَ الفَتَانُونَ أَكْثَرَ حَظًّا مِنَ الأُمَرَاءِ طُمَأْنِينَةً وَأَمْنًا؛ فَعَلَى حينِ كانَ الأُمَرَاءُ يَتَعَرَّضُونَ لِهَبَاتٍ سِياسِيَّةٍ تَذْهَبُ بِهِمْ بَعِيدًا عَنِ مَرَاكِزِهِمْ إِمَّا سَجْنًا وإِمَّا قَتْلًا، فَلَقَدْ كانَ الفَتَانُونَ يَعْيشُونَ عَهْودَهُمْ كُلُّهَا بَعِيدِينَ عَنِ تِلْكَ الهَبَاتِ العَاصِفَةِ. وَكَمْ أَغْدَقَ الأَبَاطِرَةُ المَغُولُ على الفَتَانِينَ إِعْدَادًا واسِعًا لِإِعْرَاقِهِم بِالْتَّصْوِيرِ، وَمَا كَانَ أَسْعَدَ الفَتَانِ الذي يُعْجَبُ بِهِ الإمبراطور، فَلَقَدْ كانَ يُؤَرَّبُهُ إِلَيْهِ وَيَبْدِلُ لَهُ العَطَاءَ السَّخِيَّ. ورَأَيْنَا المَصُورَ يَشْتِيرُ بِصُورِ هَذَا العَطَاءِ في صُورَةٍ نَرَاهُ فِيهَا جَالِسًا بَيْنَ يَدَيِ الإمبراطور جِهَانَجِيرِ وفي يَمَنَاهُ صُورَةُ تُصَوِّرُ جَوَادًا وَفِيلاً، وَأَكْبَرَ الظَّنَّ أَنَّ هَذَا الجَوَادَ

وَلِهَذَا تَبَيَّنَ الفَرْقُ بَيْنَ المُسْتَوَيْنِ، فَكانَ المُسْتَوَى الأوَّلُ أَدْنَى مِنَ المُسْتَوَى الثَّانِي، وَهُوَ ما أَفْضَى إلى قَصْرِ العَمَلِ في الصُّورَةِ الواحِدَةِ على فَتَانٍ وَاحِدٍ مُنْذُ حَوَالِي عام ١٥٩٠ إِلَّا فِيما نَدَرَ.

وَحِينَ كُتِبَ لِلإمبراطوريَّةِ أَنْ تَسْتَقِرَّ بَعْدَ حُرُوبِ طَاحِنَةٍ فِيما بَيْنَ المُلُوكِ والحُكَّامِ في عام ١٥٩٠ وأَصْبَحَ لِدَوْلَةِ المَغُولِ في الهِنْدِ إمبراطورٌ وَاحِدٌ، وَلَمْ يَعُدْ ثَمَّةَ تَنَافُسٍ بَيْنَ مَلِكٍ وَمَلِكٍ في إِنْشاءِ المَكْتَبَاتِ ذَلِيلًا على قُوَّتِهِم السِّيَاسِيَّةِ، لَمْ يَعُدْ هَذَا الإمبراطورُ الأَوْحَدُ في حَاجَةٍ إلى إِنْشاءِ مَكْتَبَةٍ يُنافِسُ بِهَا غَيْرَهُ إِذْ لَمْ يَعُدْ ثَمَّةَ مُنافِسٍ، وَأَخَذَ الأَبَاطِرَةُ بَدَلًا مِنْ هَذَا يَبْذُلُونَ جَهْدَهُمْ في التَّجْوِيدِ والتَّائِقِ حِرْصًا على المُتعةِ التي باتوا يَشْتَدُونَهَا. وَمِنْ هُنَا أَخَذَتِ المَخْطُوطَاتُ تَقَلَّ عَدَدًا وَإِنْ عَدَّتْ أَكْثَرَ أَنَاقَةً ورَهَافَةً. وَهَذَا التَّائِقُ في إَعْدَادِ المَخْطُوطَاتِ اقْتَضَى لا شَكَّ مِنَ الفَتَانِينَ وَقَتًا أَطْوَلَ؛ فَعَلَى حينِ نَرَى أَنَّ المَصُورَ عَبْدَ الصَّمَدِ قَدْ أَمَضَى في تَصْوِيرِ صَفْحَةٍ مِنَ مَخْطُوطَةٍ في عام ١٥٥١ ما يَقْرِبُ مِنْ نَصْفِ اليَوْمِ، نَرى هَذَا العَمَلِ في مَخْطُوطَةِ «بابور» (١٥٨٩م) قَدْ اسْتَوْعَبَ مِنَ الفَتَانِ نَحْوًا مِنْ خَمْسِينَ يَوْمًا، وَكَذا نَرى أَنَّ مُنَمِنَةَ مِنَ الدَّقَّةِ بِمَكَانٍ في مَخْطُوطَةِ «باد شاه نامِه» (١٦٣٩م) قَدْ اسْتَوْعَبَ إَعْدَادُها نَحْوًا مِنْ عَامَيْنِ. كَذَلِكَ رَأَيْنَا هَذَا العَهْدَ بِاسْتِيفَراره وَرِخائِهِ يَفْسَحُ المَجَالَ أَمَامَ الفَتَانِينَ لِاسْتِخْدَامِ أَحْسَنِ المَوَادِّ الوَاسِطَةِ وَأَعْلَاهَا ثَمَنًا - مِنْ وَرَقٍ وَأَصْبَاغٍ وَفُرَشٍ - التي لَجَأُوا إلى اسْتِيرادِ بَعْضِها مِنْ بِلَادٍ أُخْرَى. وما نَظُنُّ أَنَّ مَخْطُوطَةَ «أكْبَر نامِه» (١٦٠٤م) كانتْ لِيَتَصَلَ إلى ما وَصَلَتْ إِلَيْهِ إِذَا صُوِّرَتْ وَقْتُ إِنْجَازِ مَخْطُوطَةِ «حمزة نامِه» في عام ١٥٦٢.

وكانَ مُصَوِّرُ المُنَمِنَمَاتِ يَتَعَرَّشُونَ الأَرْضَ أَثْناءَ عَمَلِهِمْ مَعَ ثِيٍّ إِحْدَى الرُّكْبَتَيْنِ لِيَكُونَ مُتَّكًا لِلْوُجْهِ التَّصَوِيرِ، وَكانوا يَسْتَعْدِمُونَ الورَقَ أو السَّجَّحَ القُطْبِيَّ لِرُسُومِهِمْ. وَقَدْ تَشَأُ الفَتَانُونَ أوَّلَ ما تَشَأُوا صَبِيَّةً في المَراسِمِ يُلقِنُونَ عَنْ أَساسِيتِهِم الَّذِينَ كانوا في العَادَةِ إِمَّا أَبَاءَهُمْ أو أَعْمَامَهُمْ أو مِنْ ذَوِي قُرْبَاهِم إِذْ كانتْ هَذِهِ الجِرْفَةُ عَائِلِيَّةً. وكانتْ مُهِمَّةُ هَؤُلاءِ الصَّبِيَّةِ هِيَ سَحَقُ الحِجَارَةِ التي يَتَّخِذُونَ مِنْها الأَصْبَاغَ مِثْلُ المَلَكِيَّةِ الأَخْضَرِ واللَّازُورْدِ الأَزْرَقِ داخِلَ الهاوِنِ بَعْدَ تَنْقِيطِها مِمَّا يَشوبُها مِنْ حِجَارَةٍ أُخْرَى، كما كانوا يُعْدُونَ الأَصْمَاغَ والسَّوَالِ الغُرُوبِيَّةِ التي تُضَفَى على الأَصْبَاغِ لَزُوجَتِها. وَثَمَّةَ أَصْبَاغٍ أُخْرَى غَيْرَ تِلْكَ الأَصْبَاغِ الحَجَرِيَّةِ كانتْ تُتَّخَذُ مِنَ الحَمَأِ وَمِنْ عِظامِ بَعْضِ الحَيَوانِ وَمِنْ أَعْضاءِ بَعْضِ الحَخْشَرَاتِ المُلُونَةِ، كما كانتْ ثَمَّةَ أَصْبَاغٍ مَعْدِنِيَّةٍ مِنَ الذَّهَبِ أو الفِضَّةِ أو النُّحاسِ. وكانَ إَعْدَادُها يَطْلُبُ أوَّلًا كَبْسَها داخِلَ صَحَائِفٍ جِلْدِيَّةٍ لِيُصْبِحَ رَقَائِقُ طَيِّعَةً لِلطَّخُنِ داخِلَ الهاوِنِ بَعْدَ أَنْ يُضَافَ إِلَيْها المِلْحُ، ثُمَّ يَصَبُّ عَلَيْها المِاءُ لِيَتَخَلَّصَ مِنَ المِلْحِ فَيَتَبَقَّى بَعْدَ ذَلِكَ مَسْحُوقٌ مَعْدِنِيٌّ نَقِيٌّ. وكانَ يَتَّخَذُ الخَلِيطُ مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ لِلألوانِ الذَّهَبِيَّةِ الهادِئَةِ، وَيَتَّخَذُ الخَلِيطُ مِنَ الذَّهَبِ والنُّحاسِ لِلألوانِ الذَّهَبِيَّةِ السَّاخِنَةِ. وَحِرْصًا على أَنْ تَبْقَى

وذلك الفيل كانا ممّا وهبه الإمبراطور إياه (لوحه ٣٩٨م).

على أنّ التّدرّ اليسير الذي نعرفه عن سيرِ الفنّانين لا يزيد كثيراً عمّا نعرفه عن تقنيّتهم، غيّر أنّه من المؤكّد أنّ كبارهم الذين خطّوا برعاية الملوك قد أدّوا أعمالهم في المراسيم الملكيّة التي وفّرت لهم أنفس الموائد والأدوات ممّا يحتاجونه في عملهم، ومنها الذهب الذي لم يبدل بسخاء في تذهيب ترقيّينات المخطوطات فحسب، بل كان يحتلّ مكانة هامّة في خطّة ألوان الصّور نفسها. وكانت أحجار اللّازورد التي يستخرج منها اللّون الأزرق الزاهي الذي يُميّز الصّورة يُعادِل الذهب في قيمته. كذلك كان الورق المصقول الذي يُعدّ خصيصاً للتصوير يُقدّم إليهم من الخزّانة الملكيّة، ولم يتيسّر هذا كلّهُ بالطّبع أو حتّى بغضّ منه لعامة الفنّانين. وكان الفنّان إذا ما فرغ من رسم المُنمنمة وتلوّنها وتذهيبها أو تقصّيبها يُلقي عليها نظرة نافذة تستهدف الإجابة سواءً بالإضافة أم بالتّصحيح. ولا يقف من المُنمنمة عند هذا الحدّ، بل لا يلبث أن يشرع في تخطيط هوامشها وتجميلها برسم إطار من الزخارف التّوريقية أو الطّير والحيوان، ثمّ يُعقّب على ذلك بصقلها بوصفلة من العقيق أو بيّضة البلّور أو بأداة شبيهة ذات سطح أملس، حتّى إذا ما أخذت المُنمنمة تتوهّج بالبريق نُقلت إلى مكانها الخاصّ في المخطوطة أو المرقّعة [مضمّن الصّور].

وعلى الرّغم من أنّ الصّور الإسلاميّة كانت تُرسم على الورق، وهو مادّة هشّة قابلة للتلف السريع وفي جَوّ الشّرق على الأخصّ، فإنّ هذا التّلف يُعدّ ضئيلاً إذا قيس بالخراب التّاجم عن نهب المُدن. فقد تعرّضت المكتبات أيضاً لذلك المصير العاظم الذي كان يتعرّض له السكّان أنفسهم عندما ينطلق الجيش المُتصّص في أعماله الوحشيّة. ونحن ندين بالفضل في الاحتفاظ بأحسن النّماذج من أعمال الفنّانين والمصوّرين في بلاط «أكبر»، وفي بقاء لوائحهم وإنّماجهم إلى حادثة سلّب «نادر شاه» سنّة ١٧٣٩ للمكتبة الملكيّة في دلهي [دهلي] وتجريده لها من مجموعة من أجمل التّحف والكنوز، ثمّ احتفاظه بها في إيران حيث صارت بمأمن من المصير العاظم الذي لقيته بقيّة المخطوطات التي لم يعتدّ نادر شاه أنّها تستحقّ عناه حملها معه في طريق العود من الهند. ذلك أنّ البقيّة من مخطوطات المكتبة الملكيّة في دلهي تعرّضت لتهب همجيّ من قبل فرقة من الجنود الحمقى الجاهلين في تاريخ لاحق على ذلك التاريخ. أمّا كثر الصّور الذي استولى عليه نادر شاه وصحبه معه خلال رحلته الطويلة الشاقّة عبر سهول الهند ومُرتفعات أفغانستان فقد وصل سائلاً إلى هراة.

سلاطنة دلهي (١٢٠٦ - ١٥٥٨)

بعد أن تمّ لمحمّد الغوري فتح شماليّ الهند إلى مصبّ نهر الجانج أقام مولاة التّركيّ قطب الدّين أيّك والياً عامّاً على دلهي، وانتهز هذا المولى الفرصة بعد وفاة مولاة عام ١٢٠٦ فنصب نفسه حاكماً عامّاً على شماليّ الهند. وكانت هذه أوّل دولة إسلاميّة حاكمة في الهند عُرفت باسم «دولة المماليك» وتبعته دول أربع

إسلاميّة، إلى أن جاء الفتح المغوليّ للهند. ولم تكن هذه الدّول الإسلاميّة تجتمعها وحدة أُسرية غير تلك الصّفة التي جمعت بينهم وهي أنّهم «سلاطنة دلهي» لأنّ مقرّ حكمهم كان في مدينة دلهي. وقد أُتيح للسّلطنة الإسلاميّة الثّانية وهي «دولة الخلقين» أن يمتدّ نفوذها إلى الدّكن [الدكهن] والكهجات (١٢٩٧م) ومنطقة چيتور على يد علاء الدّين مُحمّد الخلجيّ، كما تمّ لهذا السّلطان أن يُخضع لحُكمه الراجپوت مدّة ما. وبانتهاء هذه السّلطنة الإسلاميّة آل الحُكم إلى السّلطنة الثّالثة وهي دولة التّغلقين الأتراك عام ١٣٢٠، وكان ناصر الدّين مُحمّد شاه آخر سُلطان تغلقيّ، وبموته عام ١٤١٢ انتهت حُكم الدولة التّغلقية. وخلال هذه السّلطنة الثّالثة غزا التّيموريّون شماليّ الهند عام ١٣٩٨ ثمّ جلّوا عنها بعد أن أسالوا دماء كثيرة. ثمّ أقام الخضرخانيّون السّلطنة الرّابعة وكان مقرّ حكمهم أيضاً في دلهي، وانتهى أمر هذه الأُسرة بتسليم مقاليد الحُكم إلى الأُسرة الخامسة سنّة ١٤٥١ التي كان أوّل حُكامها بهلول اللّودي الأفغانيّ، ولكن هذه الأُسرة الخامسة لم يكن لها سُلطان إلّا على ولاية واحدة من ولايات الهند ذات الشّأن، إذ أصبحت الولايات الأخرى مثل البنغال وچونپور ومالوه وجوجرات لها استقلالها، كما أنّ الوثيين من راجپوت الدّكن وهندوكيها كانوا هم الآخرون قد استردّوا أجزاء شاسعة من ممتلكاتهم القديمة. وكان آخر اللّوديين هو السّلطان إبراهيم بن سكندر الذي لقي حتفه عام ١٥٢٦ في سهل پانيبث أثناء الحُرّب التي كانت بينه وبين بابر المغوليّ، وكانت هذه نهاية السّلطنة الخامسة. وما إن كُتب التّصّر لباور المغوليّ على اللّوديين حتّى أرسى قواعد الحُكم المغوليّ في شمال الهند ما عدا البنغال. وانهز فريد شير شاه [شير خان] الأفغانيّ فُرصة مَوّت بابر عام ١٥٤٠ فاستولى على الأقاليم التي كان يحكمها بابر وأزغم هُمايون المغوليّ على الفرار إلى كابل وأجلى عن البلاد من يتّبعونه إليه، ثمّ دخل أجرا حيث اعتلى العرش، وشملت دَوْلته دلهي وما حوالها وكذا مالوه ومُعظم بلاد الهند. وبعد وفاته عام ١٥٤٥ حكّم دلهي بعده من نسله حُكام أفغان، غير أنّهم لم يكونوا من القوّة بِمكان فانقسمت عليهم ولايات الهند ممّا مهّد لعودة المغول إلى الهند مرّة ثانية وانهزم سكندر شاه الثّالث آخر الأفغانيين على يد هُمايون عام ١٥٥٤.

الإمبراطور مُحمّد بابر (١٥٢٦ - ١٥٣٠)

جاء على إثر الفتح الإسلاميّ للهند في القرن السّادس عشر على يد ظهير الدّين مُحمّد بابر (ومعنى بابر بالتركيّة الأسد) - سليل الغازي التّتريّ تيمورلنك أبا والغازي المغوليّ چينكيز خان أمّا - تأسيس إمبراطوريّة المغول الإسلاميّة بشمال الهند على أطلال سلطنة دلهي ناعلاً معه حضارة الإسلام. وكان بابر (١٥٢٦م - ١٥٣٠م) مؤسس هذه الأُسرة المغوليّة بالهند مُسلماً سنيّاً، وُلد بفُرغانة [في تركستان] عام ١٤٨٣. وعندما بلغ الرّابعة

يدين به بابلور.

وكانت الموضوعات التي تُصوّر في عهد السلاطنة هي القصائد الرومانسية والتاريخية لأمير خسرو دهلوي وملحمة الشاهنامة للفردوسي والحكايات الشعبية التي تُمجّد أبطال الإسلام فضلاً عن أساليب طهي الطعام. وتكمن أهمية مُنمنمات هذا العهد فنيًا في أسلوبها الصادق عند تصويرها لما يروى ويُحس من مشاهد، وفي التوسع في استخدام الألوان، وفي لجوئها للأساليب الفنية الأجنبية بعد تطوُّرها لتناوب التقاليد الهندية. والراجح أنّ بعض الصور الممتازة لِمدرسة راجستان ووسط الهند قد نشأت أول ما نشأت في بلاطات السلاطين المسلمين أثناء المرحلة الأولى من مراحل مدرسة التصوير الراجستانية.

لهكذا كان فن التصوير في الهند مُزدهورًا قبل أن ينزلها المغول سواءً أكان التصوير على الجدران أم التصوير الإيضاحي لخصوص المخطوطات. وكانت التفرقة بين أساليب التصوير المختلفة مردها العقيدة الدينية، فنرى مثلاً أنّ الصور الهندية المبكرة كانت استملاءً من العقيدتين البوذية والجاينية، غير أنّ العقيدة الإسلامية وكذا الهندوكية هي أشدّ العقائد تأثيرًا فيما بين أيدينا من دراسة.

وكان التصوير الهندي أيام النفوذ الإسلامي وقبل الغزو المغولي يُقال له «تصوير السلاطنة» يعنون سلطنة دهلوي التي بدأ نفوذها خلال القرن الثالث عشر إلى أن أفل نجمها كما أسلفت على يد المغول في القرن السادس عشر. ولا يعني هذا أنّ كلّ «تصوير السلاطنة» قد وُلد في دهلوي أو في شمالها، فلقد كان ثمة مسلمون يقطنون الجنوب في الدكن [الدكن]، وفي الغرب الذي كانت له صلة وثيقة بالغرب عن طريق البحر.

ومما يلقي الضوء على تقنيات التصوير الهندي وقت الغزو المغولي للهند على يدي بابلور وهمايون أسواق مُنمنمة من صور اللُفائف ذات أسلوب هندوكي أو چايني تشرح نصًا هندوكيًا هو «الفاسانت فيلازا» أي جمال الربيع. وترمز الصورة إلى تولد الناس بإلاله كريشنه احتفاءً بتجدد الإخصاب، جاء فيه:

«أما وقد ولى الشتاء وأطل الربيع،

وأخذ النحل يطير شاجيًا لما يرشقه من رحيق الزهور،

وعدت أشجار المانجو تردّد صوت الوقواق،

فقد هبّ النسيم العليل ليلين ما استغصى من قلوب النساء،

وليروح عنهن ما عاتين من كدّ العشق».

وكانت النحلة التي تنتقل من زهرة إلى أخرى رمزًا أثيرًا في الهند يدلّ على الشبق الجنسي. ويصف المشهد المصور كيف تسعى النحلة جاهدة لإرشاف رحيق زهرة الكوراماجا ذات العطر التادر. وقد أضاف المصور بغض الشخص خصوص النسائية لم يرد لها ذكر في النص (لوحه ٣٩٩م). ومع أنّ النص يتناول شؤونًا تبدو دنيوية غير أنّه فيه تمجيد لإله الحب «كاما»،

عشرة كان حلمه أن يؤسس مملكة، فاستولى في عام ١٥٠٠ على سمرقند ولكن ما لبث أن استردها منه الأوزبكيون وجاء نصره الأكبر في عام ١٥٠٤ عندما استولى على مدينتي كابل وغزنة، وبعدها قاد حملات خمس خلال الممرات المنيعة في شمالي غرب الهند نحو الهندوستان بين عامي ١٥١٩ و ١٥٢٥ حين عبر الحدود على رأس عشرة آلاف محارب. وفي عام ١٥٢٦ أوقع فرسانه ومذغيتيه الهزيمة بكل من إبراهيم اللودي سلطان دهلوي المسلم وراجا چوالپور الهندي في بانپيث بالقرب من دهلوي، ولم يمض عام إلا وكان قد قضى على الجيوش الهندية المتحالفة للأمراء الراجپوت، فأحكم بذلك قبضته على هندوستان. ومع أنّ بعض المسلمين من العرب والأتراك والفرس قد جاءوا قبله إلى الهند لتأسيس أسر حاكمة منذ القرن السابع كما تقدّم، فلقد أصبح بابلور أعظم قوة إسلامية حكمت الهند على مرّ الأيام السالفة. وإذا كان بطبعه محاربًا فلم تتوقف حملاته التوسعية إلى أن لحقه المرض عام ١٥٣٠ فأوصى بالعرش إلى ابنه همايون. وعلى الرغم من غزوه الهند إلا أنّه لم يأنس بالعيش فيها، وهو ما يتضح في مذكراته إذ يقول: «ليس في الهند غير مفاين قليلة». كما نراه في هذه المذكرات يُعيب على الهند إنجازاتها الفنية، إذ لم تكن في رأيه تقوم على أسس أو يسودها التناقض.

ولفن التصوير الهندي تاريخ طويل في الهند كما أسلفت ولا سيما الرسوم الجدارية التي تحفل بها جدران المعابر البوذية والهندوكية، كما ازدادت العناية بتصوير المخطوطات مع دخول الإسلام إلى الهند في القرن التاسع. وعلى العكس من الصور الجدارية والزخارف المعمارية كان في الإمكان إخفاء المخطوطات وحجبها عن الأنظار في الفترات المتقطعة التي يبلغ فيها التزمت أشدّه.

وقد واكب اضمحلال البوذية في الهند نهوض الإسلام، على حين بقيت الهندوكية والجاينية على قوتيهما وما شجع المصورين على تزوين كُتب المخطوطات المقدسة بالتصاویر. وعلى العكس من رعاة الفن المغول كان الهندوكيون والجاينيون أشدّ ما يكونون قُربًا ومجاراةً لأحاسيس الشعب، لذا كانت أساليبهم التصويرية ذات جذور عميقة في التقاليد الهندية. وقد ظلّ المصورون الجاينيون لهم استقلالهم عن رعاة الفن، يتخيرون العمل مع من هو أقدر إنفاقًا.

وعند وصول بابلور إلى الهند كان شمالها يتقسم إلى دويلات صغيرة هندية وإسلامية، وبأنصاره على سلطان دهلوي تمّ له إخضاع أكبر الولايات، غير أنّ ممالك الراجپوت الهندية في الغرب والسلطنات الإسلامية في الجنوب والشرق ظلّت مصدر خطر له. وكانت هذه السلطنات ترعى فن التصوير من قبل أن يدخلها المغول، غير أنّ منجزاتها كانت تختلف اختلافاً كبيراً عن الأساليب الفارسية التي كانت جزءاً من التراث الثقافي الذي

فيما بقي من الهندوستان.

وعلى حين كان شيرخان فيه طُموح وتَحَفُّزَ كَانَ هُمَايُونُ عَلَى الْعُكْسِ مِنْهُ قَدْرِيًّا خَاشِعًا. وَلَقَدْ تَعَقَّبَ شِيرْخَانَ هُمَايُونُ إِلَى أَجْرَا عَامَ ١٥٣٩، ثُمَّ اضْطَرَّ إِلَى الْفِرَارِ نَحْوَ إِقْلِيمِ الْبَنْجَابِ، فَإِذَا هُوَ يَلْقَى أَخَاهُ مِيرْزَا كِرْمَانَ وَقَدْ سَدَّ عَلَيْهِ الْمَنَافِذَ الْمُفْضِيَّةَ إِلَى الْبَنْجَابِ وَكَابُلٍ، وَإِذَا هُوَ يُضْطَرُّ إِلَى أَنْ يُغَيِّرَ وَجْهَهُ إِلَى السُّنْدِ، ثُمَّ أَخَذَ يُطَوِّفُ فِي الْأَرْضِ عَامِينَ إِلَى أَنْ سَمَحَ لَهُ الشَّاهُ الصَّفَوِيُّ طَهْمَاسِپَ فِي نَهَائِيَتَيْهِمَا بِأَنْ يَقْصِدَ إِيْرَانَ، لَا كَرَمًا مِنْهُ بَلْ لِمَارَبِ سِيَاسِيَّةٍ وَدِينِيَّةٍ، فَلَقَدْ كَانَ ثَمَّةَ قُوَّتَانِ إِسْلَامِيَّتَانِ سُنِّيَّتَانِ هُمَا الْأَثَرَاكُ الْعُثْمَانِيُّونَ فِي الْغَرْبِ وَالْأَوَزْبِكِيُّونَ فِي الشَّرْقِ تَهْدِدَانِهِ، وَمِنْ هُنَا كَانَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَنْ يَضُمَّ إِلَى صَفِّهِ حَلِيفًا شَيْعِيًّا، فَرَأَى فِي هُمَايُونِ بُغْيَتَهُ بَعْدَ أَنْ يُحَوِّلَهُ مِنَ الْمَذْهَبِ السُّنِّيِّ إِلَى الشَّيْعِيِّ. وَوَجَدَ هُمَايُونُ هُوَ الْآخِرُ فِيهَا فُرْصَةً فَتَظَاهَرَ بِإِعْتِنَاكَ الْمَذْهَبِ الشَّيْعِيِّ لِيَجْعَلَ مِنَ الشَّاهِ عَصْدًا لَهُ فِي اسْتِعَادَةِ الْهِندُوسْتَانِ. وَلَمْ يَكْذِبْ ظَنَّهُ إِذَا هُوَ بِمُعَاوَنَةِ الصَّفَوِيِّينَ يَسْتَوْلِي عَامَ ١٥٤٥ عَلَى قَنْدَهَارِ، تِلْكَ الْقَلْعَةُ الْإِسْتِرَاطِيَّةُ الْحَصِينَةُ عِنْدَ مَدْخَلِ الْهِندِ وَإِعْدَا الصَّفَوِيِّينَ بِأَنْ يَتَنَازَلَ لَهُمْ عَنْهَا بَعْدَ قَلِيلٍ، ثُمَّ وَلَّى وَجْهَهُ شَطْرَ كَابُلٍ إِذَا هُوَ يَنْتَزِعُهَا مِنْ أَخِيهِ مِيرْزَا كِرْمَانَ، ثُمَّ إِذَا هُوَ يَأْمُرُ بِسَمْلِ عَيْنِيهِ فِي عَامِ ١٥٥٣. ثُمَّ أُتِيحَتْ لَهُ فُرْصَةٌ أُخْرَى بَعْدَ عَامَيْنِ حِينَ ضَعُفَتْ شَوْكَةُ الْأَفْغَانِ بَعْدَ مَوْتِ شِيرْخَانَ، إِذَا هُوَ يَسْتَوْلِي عَلَى مَدِينَتَيْ أَجْرَا وَدِلْهِي، وَلَكِنَّ الْمُنِيَّةَ لَمْ تُهْمَلْ إِذَا هِيَ تُعَاجِلُهُ بَعْدَ أَشْهُرٍ سَبْعَةٍ. وَكَانَتْ سَنَوَاتُ حُكْمِ هُمَايُونِ خَمْسًا وَعِشْرِينَ مِنْهَا سَبْعٌ فِي الْمَنَى، وَلَكِنَّهُ تَرَكَ إِمْبَرَاطُورِيَّةَ عَزْمًا مَا تَكُونُ شَوْكَةً وَمَا كَانَتْ عَلَيْهِ حِينَ تَرَكَهَا أَبُوهُ بَابُورُ عِنْدَ مَوْتِهِ.

وَتُعَدُّ زِيَارَةُ هُمَايُونِ لِلْبَلَاطِ الصَّفَوِيِّ عَامَ ١٥٤٤ نَقْطَةً تَحَوَّلَ حَاسِمَةً فِي تَارِيخِ الْفَنِّ الْمَغُولِيِّ وَمِثْلَمَا كَانَتْ فِي تَارِيخِ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ الْمَغُولِيَّةِ، فَلَقَدْ أَعْجَبَ خِلَالَهَا بِالتَّصَاوِيرِ الرَّائِعَةِ الَّتِي أَنْجَزَهَا فَتَانُو الشَّاهِ. وَتَصَادَفَ أَنْ كَانَ اهْتِمَامُ الشَّاهِ طَهْمَاسِپَ وَقْتَهَا بِالتَّصْوِيرِ قَدْ فَتَرَ أَمَامَ أَغْيَاءِ الْحُكْمِ الْبَاهِظَةِ وَتَرْتُمَتِهِ الدِّينِيَّةِ، فَمَكَنَّ هُمَايُونُ فِي عَامِ ١٥٤٦ مِنْ صَمِّ اثْنَيْنِ مِنْ كِبَارِ الْفَنَّاينِ الْفُرسِ إِلَى بِلَاطِهِ هُمَا مِيرْسِيدِ عَلِي - الَّذِي انْضَمَّ إِلَيْهِ أَبُوهُ مِيرُ مُصَوِّرٌ فِيْمَا بَعْدَ - وَالْأَسْتَازُ عَبْدِ الصَّمَدِ اللَّذِينَ غَادَرَا تَبْرِيزَ مَعَ إِخْصَائِيٍّ فِي تَغْلِيفِ الْكُتُبِ وَأَخَذَ عُلَمَاءُ الرِّيَاضَةِ فِي صَيْفِ عَامِ ١٥٤٨، فَتَوَجَّهُوا فِي مَبْدَأِ الْأَمْرِ إِلَى قَنْدَهَارِ حَيْثُ مَكَثُوا عَامًا انْشَغَلَ أَثْنَاءَهُ هُمَايُونُ بِقِتَالِ أَخِيهِ مِيرْزَا كِرْمَانَ إِلَى أَنْ تَوَقَّفَتِ الْحَرْبُ مُوقِفًا فَأَرْسَلَهُمْ هُمَايُونُ تَحْتَ جِرَاسَةِ مُشَدَّدَةٍ إِلَى كَابُلٍ فَلَبَّغُوا عَامَ ١٥٤٩، وَأَخَذُوا فِي عَمَلٍ جَادٍّ إِلَى أَنْ اسْتُعِيدَتِ الْهِندُوسْتَانُ بَعْدَ سَنَوَاتِ خَمْسٍ فِي نَوْفَمْبَرِ ١٥٥٤.

وَمِنْ بَيْنِ كُلِّ فَنَّاينِ طَهْمَاسِپَ كَانَ مِيرْسِيدِ عَلِيٍّ أَدَقَّهُمْ مَلَاخِظَةً لَا يَدَّخِرُ وَسْعًا فِي سَبِيلِ تَمْثِيلِ الْأَشْكَالِ بِدَقَّةٍ مُتَنَاهِيَةٍ، وَفِي التَّعْبِيرِ عَنِ الْمَلَمَسِ سَوَاءً فِي الْفِرَاءِ أَمْ الْمَعَادِنِ، غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ إِلَى جَانِبِ

فَالْعَشْقِ الَّذِي يَرْبِطُ بَيْنَ الْمُحِبِّ وَالْمَحْبُوبَةِ هُوَ رَمَزٌ إِلَى اتِّحَادِ رُوحِ الْإِنْسَانِ بِرُوحِ اللَّهِ، وَهُوَ الْمَعْنَى الَّتِي تَضَمَّنَتْهُ أَسْفَارُ الْبَهَا جَاوَاتِ بُورَانَا الَّتِي تَصِفُ مُعَاوَرَاتِ الْإِلَهِ كَرِيْشْنَةَ الْغَرَامِيَّةِ. وَالَّذِي أَوْحَى بِهَذَا كُلَّهُ خَيَالُ هِنْدِيٍّ بَحَثَ لَا طَائِفِيٍّ، وَلَا غَرَابَةَ فَالْفَاسَانَتِ فِيلَازَا هِيَ أَحَدُ الْأَسْفَارِ الْجَائِنِيَّةِ.

وَيَقَعُ هَذَا النَّوْعُ مِنَ الْمُتَمَنَّمَاتِ فِي مِسَاحَاتِ مَطْلِيَّةِ طِلَاءِ مُسَطَّحًا أَحَادِيثِ اللَّوْنِ وَالذَّرْجَةِ فِي جَمِيعِ أَجْزَائِهَا، وَمُلَوَّنَةً بِأَلْوَانٍ زَاهِيَةٍ، كَمَا تَضُمُّ الْمُتَمَنَّمَةُ أَشْكَالًا زَاوِيَّةً وَتَكُونِيَّاتٍ مُجَرَّزَةً إِلَى أَقْسَامٍ مُسْتَقِلَّةٍ، وَتُحَسُّ فِيهَا حَيَوِيَّةٌ دَافِقَةٌ وَأَثَرًا مُبَاغِتًا، عَلَى الْعُكْسِ مِنَ الْمُتَمَنَّمَاتِ الْفَارْسِيَّةِ الْمُعَاوِرَةِ لَهَا الْمُعَقَّدَةِ التَّكُونِيَّاتِ الرَّهِيْفَةِ، وَالَّتِي كَانَ بَابُورُ حَرِيصًا أَنْ تَشْبِعَ.

وَحِينَ وَافَتْ بَابُورُ مَدِينَتَهُ دُفِنَ فِي مَدِينَةِ كَابُلٍ حَيْثُ شِيدَ لَهُ الْإِمْبَرَاطُورُ شَاهُ جِهَانَ بَعْدَ ضَرْبِحًا مُنَاسِبًا عَامَ ١٦٤٦. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ لَمْ يَتْرِكْ لَنَا أَثَارًا فَنِّيَّةً - لَا فِي كَابُلٍ وَلَا فِي الْهِندِ - تَخَلَّدَ اسْمُهُ، غَيْرَ أَنَّ سِيرَتَهُ اللَّذَاتِيَّةَ الَّتِي تَتَضَمَّنُ مُذْكَرَاتِهِ وَالْمَعْرُوفَةَ بِاسْمِ «بَابُورِ نَامَةِ» وَالْمُدَوَّنَةَ بِاللُّغَةِ التُّرْكِيَّةِ الْجَعْتَانِيَّةِ وَالْمُتَرْجِمَةَ إِلَى الْفَارْسِيَّةِ نَسْتَشِفُّ مِنْهَا رَجَاحَةَ عَقْلِهِ وَقُوَّةَ شَخْصِيَّتِهِ، وَعَلَى غِرَارِهِ سَارَ خَلْفَاؤُهُ سِيرَتَهُ فَرَعُوا النَّاسَ كَمَا رَعَا الطَّبِيعَةُ. وَهَذِهِ السَّيْرَةُ وَإِنْ جَاءَتْ تَثْرًا إِلَّا أَنَّنَا نَحْسُ فِيهَا رُوحَ الشَّاعِرِ وَخِيَالَهُ وَتَعَشُّقَهُ لِلطَّبِيعَةِ وَلَوْلَهُ بِالْحَدَائِقِ. وَتَزَخَّرَ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةُ بِمَوْضُوعَاتٍ عَنْ عَالَمِ الطَّبِيعَةِ الَّتِي شَغِفَ بِهَا بَابُورُ، هَذَا إِلَى ذِكْرِ الْأَحْدَاثِ الَّتِي عَاشَهَا. وَإِذَا كَانَ بَابُورُ مُوَلَّعًا بِالْوَلَعِ كُلِّهِ بِإِنْشَاءِ الْحَدَائِقِ، إِذَا مَا كَادَ يَتِمُّ لَهُ الْاسْتِيلَاءُ عَلَى مَدِينَةِ أَجْرَا عَامَ ١٥٢٦ حَتَّى خَرَجَ لِقَائِهِ فِي رِحْلَةٍ لِلْبَحْثِ عَنْ مَكَانٍ مُنَاسِبٍ لِإِنْشَاءِ حَدِيقَةٍ عَلَى نَسْقٍ جَمِيلٍ وَتَرَاضِفٍ رَائِعٍ بِحَيْثُ يَكُونُ كُلُّ رُكْنٍ فِيهَا وَكَأَنَّهُ رَوْضَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ بَيْنَ أَحْوَاضِ الزَّرْعِ تَتَخَلَّلُهَا مَمَرَاتٌ وَتَتَبَّنَّ عَلَى حَوَافِّهَا زُهُورُ التُّرْجَسِ وَالْوَرْدِ. وَيُمْكِنُنَا أَنْ نَتَبَيَّنَ صُورَةَ بَابُورِ فِي يَسَرٍّ وَهُوَ وَاقِفٌ أَمَامَ خَلْفِيَّةٍ صَفْرَاءَ يَزِيهِ الْمُخَالِيفُ لِرِزِيِّ الْبُسْتَانِيِّينَ مِنْ حَوْلِهِ فِي مُتَمَنَّمَةٍ بِمَخْطُوطَةِ بَابُورِ نَامَةِ حَيْثُ يُشْرِفُ عَلَى إِنْشَاءِ حَدِيقَةٍ لَهُ بِالْقُرْبِ مِنْ كَابُلٍ (لَوْحَةٌ ٤١٠م). وَمِنْ الْمَعْرُوفِ أَنَّ بَابُورَ قَدْ أَنْشَأَ مَا يُنِيفُ عَلَى إِحْدَى عَشْرَةِ حَدِيقَةٍ فِي كَابُلٍ وَحَدَهَا.

الإمبراطور نور الدين مُحَمَّد هُمَايُون (١٥٣٠ - ١٥٥٦)

كَانَ هُمَايُونُ بِلَا مَنَازِعٍ الرَّاعِي الْأَوَّلَ لِلتَّصْوِيرِ الْمَغُولِيِّ فِي الْهِندِ. وَكَانَ شَخْصِيَّةً مُلْغِزَةً أَقَلَّ جَاذِبِيَّةً مِنْ أَبِيهِ وَأَكْثَرَ التَّيْرَامًا بِالرَّسْمِيَّاتِ وَأَشَدَّ تَحَفُّظًا، مَعْنِيًّا كُلَّ الْعِنَايَةِ بِاتِّبَاعِ قَوَاعِدِ الْبُورُتُوكُولِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ قَائِدًا عَسْكَرِيًّا مُوَهَّوِبًا، غَيْرَ أَنَّهُ إِلَى هَذَا كُلِّهِ كَانَ مُدْمِنًا عَلَى شَرْبِ الْخَمْرِ وَتَعَاطِيِ الْأَفْيُونِ شَأْنَهُ شَأْنُ أَفْرَادِ أُسْرَتِهِ. وَقَدْ خَصَّ الْفَلَكُ بِنَصِيبٍ كَبِيرٍ مِنْ اهْتِمَامِهِ وَوَقْتِهِ، وَكَمْ عَانِيَ مِنْ أَخَوِيهِ اللَّذِينَ كَانُوا لَا يَفْتَنَانِ بِهَيْدَادَانِهِ، هَذَا إِلَى مَا كَانَ يَلْقَاهُ مِنْ تَهْدِيدِ الْأَفْغَانِ وَعَلَى رَأْسِهِمْ شِيرْخَانَ، وَكَانَ نَبِيلًا مِنْ نُبَلَاءِ بَابُورِ السَّابِقِينَ اسْتَوْلَى عَلَى الْبُلْغَالِ ثُمَّ أَخَذَ يُنَازِعُ هُمَايُونِ

فإذا العَمَ يَضَعُ ابْنُ أَخِيهِ فَوْقَ أَسْوَارِ قَلْعَةٍ كَابِلٍ لِيَصْدَ بِذَلِكَ الْأَبَ عَنْ ذَلِكَ الْقَلْعَةِ بِمُدْفَعِيهِ غَيْرَ أَنَّ هُمَايُونَ تَمَكَّنَ مِنْ دُخُولِ الْمَدِينَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُصِيبَ ابْنَهُ بِأَذَى. وَحِينَ صَحَبَ الْابْنَ أَبَاهُ هُمَايُونَ بَعْدَ أَنْ تَمَّ لَهُ اسْتِعَادَةُ الْهِنْدِ أَحْسَنَ أَنَّهُ فِي مَوْطِنِ جَدِيدٍ، حَتَّى إِذَا مَا كَانَ عَامَ ١٥٦٢ تَزَوَّجَ أَكْبَرَ مِنْ ابْنَةِ الرَّاجَا الْهِنْدِيِّ فِي چَايُورَ، وَكَانَتْ لِهَذِهِ الْمَصَاهِرَةِ أَثَرُهَا فِي إِيجَادِ نَوْعٍ مِنَ التَّحَالُفِ اسْتَطَاعَ بِهِ أَكْبَرُ أَنْ يَجْعَلَ الْحُكَّامَ الْهُنُودَ تَحْتَ السَّيْطَرَةِ الْمَغُولِيَّةِ. وَلَمْ يَفْرَضْ أَكْبَرُ الْإِسْلَامَ عَلَى الْبِلَادِ وَاسْتِعَاضَ عَنْ ذَلِكَ بِفَرْضِ الْجِزْيَةِ وَالْإِنْتِظَامِ فِي سِلْكِ الْجُنْدِيَّةِ، كَمَا أَتَاهُ لِلْحُكَّامِ الْهُنُودِ أَنْ يَحْكُمُوا إِمَارَاتِهِمْ حُكْمًا ذَاتِيًّا وَأَنْ يُتَّقُوا عَلَى عَقَائِدِهِمُ الدِّيْنِيَّةِ. وَلَقَدْ حَاوَلَ أَكْبَرُ دَمَجَ الشَّعْبِ الْهِنْدِيِّ مَعَ أَشْيَاعِهِ الْمَغُولِ الْمُسْلِمِينَ بِتَحَالُفِهِ مَعَ الرَّاجُپُوتِ فِي وَحْدَةٍ سِيَاسِيَّةٍ وَاجْتِمَاعِيَّةٍ، وَهُوَ مَا أَسْفَرَ عَنْ تَأَلُّقِ التَّصْوِيرِ الْمَغُولِيِّ بِقَسَمَاتِهِ الْمُتَمَيِّزَةِ، حَيْثُ تَدَرَّبَ فِي الْمَدْرَسَةِ الَّتِي أَنْشَأَهَا بِعَاصِمَةِ مُلْكِهِ قُرَابَةً مَائَةٍ مِنَ الْمُصَوِّرِينَ الْهُنُودِ وَالْمُسْلِمِينَ عَلَى أَيْدِي الْأَسَازِدَةِ الْفُرسِ، وَكَانَ نِتَاجُ هَذَا فَنًّا هِنْدِيًّا، تَكَوَّنَ الْفَنِّي الْعَامَّ فَارِسِيًّا، وَأَشْكَالُهُ وَعِمَارَتُهُ فَارِسِيَّةٌ فِي بَعْضِ أَجْزَائِهَا وَرَاجُپُوتِيَّةٌ فِي أَجْزَائِهَا الْأُخْرَى، بَيْنَمَا كَانَ يَتَجَلَّى تَأْثِيرُ الْفَنِّ الْأُورُبِّيِّ بَيْنَ الْفَنِّيَّةِ وَالْفَنِّيَّةِ فِي اتِّبَاعِ قَوَاعِدِ الْمَنْظُورِ وَتَلْوِينِ الْخَلْفِيَّاتِ. وَقَدْ عَمَلَ أَكْبَرُ فِي سَبِيلِ تَحْقِيقِهِ لِهَذَا الْغَايَةِ، وَهُوَ خَلَقَ قَوْمِيَّةً عَامَّةً، عَلَى إِذْخَالِ مَوْضُوعَاتٍ مِنَ التَّقَالِيدِ وَالْأَسَاطِيرِ الْهِنْدُوْكِيَّةِ، فَتَمَّ الْعَدِيدُ مِنَ اللَّوْحَاتِ الْمَصُورَةِ الْمُعْبَّرَةِ عَنْ نُصُوصِ سَنَسْكَرِيَّتِيَّةٍ إِلَى جَانِبِ الْمَخْطُوطَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ. فَكَمَا كَانَ أَكْبَرُ عَاشِقًا لِلْفُنُونِ وَرَاعِيًا لَهَا، كَانَ ذَا حَسَنٍ انْتِقَائِيٍّ يَذْفَعُهُ إِلَى التَّرْحِيبِ بِكُلِّ مَا يَنَالُ إعْجَابَهُ بِغَضِّ النَّظَرِ عَنْ مَصْدَرِهِ، فَمَقْيَاسُهُ الْأَسَاسِيَّ وَالْأَوْحَدُ هُوَ تَوَاقُفُ عَنَاصِرِهِ مَعَ نِظَرَتِهِ الْجَمَالِيَّةِ. وَإِذَا كَانَتْ مَدْرَسَةُ التَّصْوِيرِ الْفَارِسِيَّةِ قَدْ بَدَأَتْ أَثَرًا قَوِيًّا فِي الْمَدْرَسَةِ الْمَغُولِيَّةِ لِلتَّصْوِيرِ فِي أَيَّامِهَا الْأُولَى إِلَّا أَنَّ هَذَا الْأَثَرَ مَا لَبَثَ أَنْ لَحِقَهُ الْفُتُورُ فِي نِهَازَةِ عَهْدِ أَكْبَرٍ. وَمَعَ الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ لَمْ نَعُدْ نَرَى لِلْعَنَاصِرِ التَّصَوُّرِيَّةِ الْفَارِسِيَّةِ غَيْرَ آثارٍ عَارِضَةٍ.

كَانَتْ سِيَاسَةُ أَكْبَرٍ فِي عُمُومِهَا الْجَمْعَ سِيَاسِيًّا وَفَنِّيًّا وَدِينِيًّا بَيْنَ مَا لِلْهِنْدِ وَمَا لِلْإِسْلَامِ مِنْ تَقَالِيدٍ وَمَنَاجِحٍ وَأَسَالِيبَ، وَكَانَتْ هَذِهِ سِيَاسَتُهُ الَّتِي عُرِفَ بِهَا وَالَّتِي كَانَتْ سَبَبًا فِي تَطَوُّرِ الْأُسْلُوبِ الْمَغُولِيِّ فِي كِلَا الْمَجَالَيْنِ الْفَنِّيِّ وَالْعِمَارِيِّ، وَكَانَ أَجَلٌ مَا تَرَكَ فِي مِيدَانِ التَّصْوِيرِ هُوَ مَخْطُوطَةُ «حِزْمَةُ نَامَةِ» الْمَصُورَةِ، وَفِي مِيدَانِ الْعِمَارَةِ هُوَ عَاصِمَتُهُ الْجَدِيدَةُ فَتَحُورَ سِيكْرِي أَيَّ مَدِينَةِ الْفَتْحِ الَّتِي شَيَّدَهَا بَيْنَ عَامَيِ ١٥٦٩ وَ ١٥٨٥. لِذَا لَمْ يَكُنْ عَجَبًا أَنْ يَخْطِئَ مُصَوِّرٌ هِنْدُوْكِيٌّ مِثْلَ دَاسُونْتُ بِخَطْوَةٍ أَثِيرَةٍ عِنْدَ أَكْبَرٍ، وَإِنْ لَمْ يَتَرَكَ لَنَا الزَّمَنُ مِنْ أَعْمَالِ هَذَا الْمَصَوِّرِ غَيْرَ النَّذْرِ الْيَسِيرِ. وَالْعَمَلُ الْأَكْبَرُ الَّذِي يُعْزَى إِلَيْهِ هُوَ تَصْمِيمُهُ لِصُورِ مَخْطُوطَةِ «رُزْمِ نَامَةِ» أَيَّ كِتَابِ الْحُرُوبِ الَّتِي بَدَأَ فِي إِعْدَادِهَا عَامَ ١٥٨٢. وَيَبْدُو أَنَّ

عَقْرِتِهِ الْفَنِّيَّةُ صَاحِبَ مِزَاجٍ مُتَقَلِّبٍ كَثِيرَ الشَّلَكِ. أَمَّا الْأُسْتَادُ عَبْدُ الصَّمَدِ وَإِنْ كَانَ أَقَلَّ مِنْهُ مَوْهَبَةً إِلَّا أَنَّهُ كَانَ أَكْثَرَ مُرُونَةً، كَمَا كَانَتْ الْمَرْحَلَةُ الَّتِي قَضَاهَا فِي خِدْمَةِ الْفَنِّ الْمَغُولِيِّ أَطْوَلَ وَأَغْزَرَ مِنَ الْمَرْحَلَةِ الَّتِي قَضَاهَا مِيرْسِيدُ عَلِيٍّ. وَتَكْشِفُ أَعْمَالُهُ الَّتِي بَدَأَهَا مُنْذُ كَانَ فِي كَابِلٍ، عَنْ أَنَّهُ قَدْ أَخَذَ يَكْتِفِ أَسْلُوبَهُ الصَّفَوِيِّ وَيُطَوِّعُهُ لِيُؤَاتِمَ الرِّغَبَاتِ الْمُتَنَامِيَّةَ لِلْإِمْبَرَاطُورِ الْمَغُولِيِّ فِي تَصْوِيرِ الْبُورْتَرِيَّاتِ الدَّقِيقَةِ الْمُتَقَنَّةِ وَفِي تَوْثِيقِ الْقِصَصِ الْمُتَضَمِّنَةِ لِلْجُكَايَاتِ وَالنَّوَادِرِ. وَهَكَذَا اسْتَقَرَّ التَّصْوِيرُ الصَّفَوِيُّ فِي الْهِنْدِ بِاعْتِبَارِهِ الْعُنْصُرَ الْأَسَاسِيَّ فِي التَّصْوِيرِ الْمَغُولِيِّ. وَتُعْزَى إِلَى مِيرْسِيدِ عَلِيٍّ وَعَبْدِ الصَّمَدِ الصُّورَةُ الْمُهَيَّزَةُ الَّتِي أُعِيدَ رَسْمُهَا مِرَارًا وَالمَعْرُوفَةُ بِاسْمِ «بَيْتِ آلِ تِيْمُورٍ» وَالمَحْفُوظَةُ بِالْمُتَحَفِ الْبَرِيطَانِيِّ (لَوْحَةٌ ٤٠١م) (١٥٥٠م - ١٥٦٠م)، وَأَكْثَرَ الظَّنَّ أَنَّهَا رُسِمَتْ فِي كَابِلٍ، أَوْ فِي الْهِنْدِ عِنْدَ وُصُولِهِمَا إِلَيْهَا. وَهِيَ صُورَةٌ يَمَّا لَا يُؤَلَّفُ حَجْمًا وَمَوْضُوعًا، كَبِيرَةٌ الْحَجْمُ ذَاتُ أَلْوَانٍ فَخْمَةٍ سَخِيَّةٍ تَعْكِسُ ذَوْقَ هُمَايُونَ. وَتُعَدُّ هَذِهِ الصُّورَةُ أَعْظَمَ أَعْمَالِ الْفَنِّ الْمَغُولِيِّ فِي عَصْرِهِ الْمُبَكِّرِ، وَالرَّاجِحُ أَنَّهَا كَانَتْ دَائِمًا مَحَطَّ الإعْجَابِ وَالتَّقْدِيرِ، إِذْ أُضِيفَتْ إِلَيْهَا بُورْتَرِيَّاتٌ لِأَجْيَالِ ثَلَاثَةِ خَلَفَتْ هُمَايُونَ. وَتَتَجَلَّى فِي هَذِهِ اللَّوْحَةِ الْمَلَامِيحُ الْجَوْهَرِيَّةُ الَّتِي سُرْعَانَ مَا أَصْبَحَتْ مِنْ مُمَيَّزَاتِ الْمَدْرَسَةِ الْمَغُولِيَّةِ فِي التَّصْوِيرِ، مِنْ حَيْثُ الْوَاقِعِيَّةُ الَّتِي انْتَهَتْ مُبَاشَرَةً إِلَى افْتِحَامِ مَجَالِ تَصْوِيرِ الْبُورْتَرِيَّاتِ وَمِنْ حَيْثُ تَقْنِنَتُهَا الْحَاضِفَةُ. فَلَقَدْ كَانَتْ تَصَاوِيرُ الْبُورْتَرِيَّاتِ نَادِرَةً فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْقِعِ مِنَ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ، عَلَى حِينِ يَتَجَلَّى الْأَثَرُ الْمُبَاشِرُ لِلتَّمَاذِجِ الْفَارِسِيَّةِ فِي الشَّقِّ الْفَنِّيِّ وَمُعْظَمِ الْمَلَامِيحِ الْإِيْقُونُوغَرَفِيَّةِ الْأَسَاسِيَّةِ.

كَذَلِكَ عَهْدَ هُمَايُونَ إِلَى الْأُسْتَادِينَ مِيرْسِيدِ عَلِيٍّ وَخَوَاجِهِ عَبْدِ الصَّمَدِ بِالْإِشْرَافِ عَلَى الْإِعْدَادِ لِمَخْطُوطَةِ «حِزْمَةِ نَامَةِ» (١٥٦٠م - ١٥٧٤م)، وَهِيَ الْمَلْحَمَةُ الَّتِي تُشِيدُ بِمَآثِرِ حَزْمَةِ عَمِّ الرُّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَيَعُدُّهَا التَّبَعُ الرَّمْزَ الْفَنِّيَّ الْمُعْبَّرَ عَنِ الْفَتْحِ الْمَغُولِيِّ الْإِسْلَامِيِّ لِلْهِنْدِ. وَقَدْ عَكَفَ عَلَى إِعْدَادِهَا فِيمَا يُقَالُ مِائَةً مُصَوِّرًا بَيْنَ هُنُودٍ وَفُرسٍ، فَجَاءَتْ عَمَلًا قَدًّا رَائِعًا فِي تَارِيخِ الْفَنِّ الْمَصُورِ يَضُمُّ ٢٤٠٠ صُورَةً مُسَجَّلَةً عَلَى نَسِيجٍ قُطْعَتَيْنِ مِنَ الْحَجْمِ الْكَبِيرِ غَيْرِ الْمَأْلُوفِ [٢٧,٥ بوصة فِي ٢٣,٥ بوصة]، وَمَا يَزَالُ عَدَدُ مِنْهَا مَحْفُوظًا بَيْنَ الْمَجْمُوعَاتِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ فِي أُرْبَتَا وَآمَرِيكََا، غَيْرَ أَنَّ الْعَمَلَ فِي هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ لَمْ يَنْتَهَ إِلَّا فِي عَهْدِ الْإِمْبَرَاطُورِ أَكْبَرٍ.

الإمبراطور أبو الفتح جلال الدين أكبر (١٥٥٦-١٦٠٥)

وُلِدَ أَبُو الْفَتْحِ جَلَالُ الدِّينِ مُحَمَّدٌ أَكْبَرُ سَنَةِ ١٥٤٠ وَكَانَ أَبُوهُ هُمَايُونَ عِنْدَهَا قَدْ تَرَكَ الْهِنْدَ إِلَى إِيرَانَ مُخْلَفًا إِيَّاهُ وَهُوَ صَبِيٌّ فِي رِعَايَةِ بَعْضِ أَصْفِيَاءِهِ. وَفِي عَامِ ١٥٤٥ هَمَّ بِأَنْ يَلْحَقَ بِأَبِيهِ فِي كَابِلٍ وَلَكِنْ الظُّرُوفُ لَمْ تُمْكِنَهُ فَفَضَى أَعْوَامًا كَانَتْ مِنَ الْعُسْرِ بِمَكَانٍ، وَكَانَ أَنْ اغْتَقَلَهُ عَمُّهُ كَرْمَانُ. ثُمَّ كَانَتْ مَعْرَكَةٌ بَيْنَ الْعَمِّ وَالْأَبِ،

عامة وأُطلق على هذه الوحدة اسم «صُلح كل». فكان يُرحَّب في بلاطه بِكُلِّ مَنْ كَانَتْ لَهُ كَفَاءة، وهو ما حفز الشعراء والموسيقيين والمحاربين ورجال الدين والتجار والمُصورين أَنْ يَسْعُوا إِلَيْهِ اِتِّغَاءً الثَّراء، فإذا هُؤَلاءِ جَمِيعًا يقدون من تُركيا وإيران وبلاد العَرَب وأوروبا وإفريقيا لِيُضَمُّوا إلى بلاط أكبر الذي أصبح بلاطًا دُوليًا مُزدهرًا. وكذا لَمْ يَكُنْ أكبر في إسناد مناصب الدَّولة حَرِيصًا على أَنْ تكون خالصة للمُسلمين، بل كان يُسَيِّدُها إلى مَنْ يَتَمَيَّزُ بِمَوْهبة من أيِّ دين كان، ففَرَّاه يَجْعَلُ أَحَدَ الهِنْدُوس من رجال الأعمال مُشرفًا على جباية الضرائب، كما اتَّخَذَ براهمايًّا من البراهمة صَفِيًّا له.

وبدأ لقاء أكبر بالأوربيين سنة ١٥٧٢ حين غزا جوجرات، ومُنْذُ ذَلِكَ الحين ازدادَ اِهْتِمَامُهُ بِالْعَقَائِدِ الدِّينِيَّةِ على اِخْتِلَافِهَا. ثُمَّ إِنَّ هَذَا اللِّقَاءَ وما تلاه من لقاءات أُخْرَى بالأوربيين كَانَتْ لَهُ شَأْنُهُ فِي تَطَوُّرِ التَّصْوِيرِ المغولي، إذ شُغِفَ أكبر بِالصُّورِ الأوربية ولاسيما الصُّورِ المَطْبُوعَةِ على الحَجَرِ أو المَعْدِنِ، فإذا هو يُشير على فَنَائِهِ بِدِرَاسَتِهَا واسْتِشْصَاحِهَا وَمُحَاكَاتِهَا، على نَحْوِ مَا نَرَى فِي پورترية هو صورة من أُخْرَى أوربية مطبوعة، أو لَعَلَّهُ يُمَثِّلُ الواقع تَحْتَ مَرَأَى الْعَيْنِ (لَوْحَة ٤٠٢م)، وَنَرَى النِّسَاءَ المَسِيحِيَّاتِ فِي خَلْفِيَّةِ الصُّورَةِ وقد جَنُوزَ بَيْنَ يَدَيِ يَمَثَالٍ لِأَحَدِ الآلهَةِ تَضُمُّهُ صَوْمَعَةٌ تُشَبِّهُ العِمَارَةَ الهِنْدُوكِيَّةَ المُعاصرة. وَتَضُمُّ حَوَاشِي بَعْضِ الصُّورِ رُسُومًا مَقْبُولَةً عَنِ نَظَائِرِهَا مِنَ الصُّورِ الأوربية المَطْبُوعَةِ على الحَجَرِ وَبَعْضِ پورترية تَصُورُ بَعْضَ ثُبُلَاءِ المَغُولِ وَبَعْضَ الْفَنَائِينَ (لَوْحَة ٢١٨م).

وتَدُلُّنا هَذِهِ كُلُّهَا على مِقْدَارِ التَّطَوُّرِ الذي دَخَلَ على التَّصْوِيرِ المغولي خِلالَ القَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ، غَيْرَ أَنَّ الزَّمَانَ لَمْ يَحْفَظْ لَنَا مِنْ پورترية الإمبراطور أكبر شَيْئًا بِاسْتِثْنَاءِ صُورَتِهِ الرِّسْمِيَّةِ فِي مَخْطُوطَةِ أكبرِ نَامِهِ. كَذَلِكَ طَرَأَ تَغْيِيرٌ مَلْحُوظٌ على التَّصْوِيرِ المغولي فِي الفَتْرَةِ ما بَيْنَ عَامَيْ ١٦٠٠ و ١٦٠٥، فَبَدَلًا مِنَ المَخْطُوطَاتِ التَّارِيخِيَّةِ الكَبِيرَةِ الَّتِي تَنْتَظِمُ الجِوَاهِرَ مِنَ الصُّورِ الإِنْصَاحِيَّةِ أَصْبَحَتْ أَقْلَ حَجْمًا وَأَقْلَ صُورًا وَلِكِنِّهَا شَدِيدَةُ الإِتِّقَانِ، يَنْفَرِدُ كُلُّ مُصَوِّرٍ بِرِسْمِ صُورَةٍ مِنْهَا. فَتَرَى مَخْطُوطَةَ «أكبرِ نَامِهِ» الثَّانِيَّةَ (١٦٠٤) قد عَدَّتْ أَشَدَّ تَأَثُّفًا وَإِتِّقَانًا مِنَ المَخْطُوطَةِ الأُولَى الَّتِي أُعِدَّتْ عَامَ ١٥٩٠، وَكَذَا حُصِّصَتْ لِپورترية الفَرْدِيَّةِ بِعِنايَةِ أكبر، وَحَلَّ التَّعْبِيرُ عَنِ المَشَاعِرِ الذَّائِيَةِ مَحَلَّ التَّعْبِيرِ عَنِ المَهَامِ والأَحْدَاثِ الَّتِي تَقَعُ لِفَرْدٍ مَا.

وَيَبْدُو أَنَّ أكبرَ لَمْ يَكُنْ مُلْتَمِزًا بِأَصُولِ الإِسْلَامِ كُلِّهَا، فَلَقَدْ رَأَيْنَاهُ يُشِيدُ فِي عَامِ ١٥٧٥ مَبْنًى أَطْلُقَ عَلَيْهِ اسْمُ «عِبَادَاتِ خانِهِ» بِمَدِينَةِ فَتْجُورِ سِيكْرِى حَيْثُ كَانُ يَجْتَمِعُ رِجَالُ الدِّينِ على اِخْتِلَافِ عَقَائِدِهِمْ مِنْ زَرَدُشْتِيَّيْنِ وَچَايْنِيَّيْنِ وَهِنْدُوسٍ وَمَسِيحِيَّيْنِ وَمُسلمِينَ يُدْلِي كُلُّ مِنْهُمْ بِرَأْيِهِ فِي مُعْتَقَدِهِ وَبِحَاجٍ فِيهِ. وَكَانَ الإِمْبَرِاطُورُ يُشَارِكُ فِي هَذَا الاجْتِمَاعِ الذي يَسْتَغْرِقُ اللَّيْلَ كُلَّهُ بِرَأْيِهِ وَبِأَسْئَلَةٍ أَكْثَرَ مَا تَكُونُ عُمُقًا وَدَلَالَةً. وَإِذَا أكبرُ يُبَاعِدُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ،

مُبُولُهُ الْخَيَالِيَّةُ الْحَالِمَةُ كَانَتْ تَتَّفَقُ وَمُبُولُ أَكْبَرِ الذي كان قد مَرَقَ مِنَ التَّقَالِيدِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي وَصَلَتْ بِهِ إِلَى الْمُنَادَاةِ بِعَقِيدَةِ «التَّوْحِيدِ الإِلَهِيِّ». عَلَى أَنَّ هَذَا المُصَوِّرَ لَمْ يَلْبَثْ طَوِيلًا حَتَّى انْتَحَرَ بِأَنْ طَعَنَ نَفْسَهُ بِخَنْجَرٍ بَعْدَ مَرَحَلَةٍ مِنَ الْاِكْتِثَابِ مَرَّ بِهَا. وَعِنْدَهَا رَأَيْنَا أَكْبَرَ يُغَيِّرُ اتِّجَاهَهُ فَإِذَا هُوَ أَكْثَرَ مَا يَكُونُ رَزَانَةً وَعَقْلًا.

كَانَ الإِمْبَرِاطُورُ أَكْبَرَ يَحَقُّ مِنَ عُظَمَاءِ حُكَّامِ الهِنْدِ، فَتَرَكَ لِمَنْ بَعْدَهُ بِجَهْدِهِ وَالْهَامَهُ آثَارًا جَنُوزًا لِمَارِهَا. وَعَلَى الرُّغْمِ مِنْ أَنَّ أَبَاهُ تَرَكَهُ وَهُوَ فِي الرَّابِعَةِ عَشْرَةِ مِنْ عُمُرِهِ غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ جَلْدًا شَجَاعًا. وَلَقَدْ نَصَّبَهُ قَائِدٌ مِنْ قُودَادِ أَبِيهِ، هُوَ بَايْرَامْ خَانُ الذي عُرِفَ بِالْوَفَاءِ - مَلِكًا على العَرْشِ على أَنْ يَكُونَ وَصِيًّا عَلَيْهِ. وَعَلَى الرُّغْمِ مِنْ صِغَرِ سِنَتِهِ فَلَقَدْ قَادَ جَيْشًا فِي أَرْضِ وَعَرَةِ لِطَرْدِ مَلِكِ الْأَفْغَانِ اسْكَندَرِ شَاه. وَلَقَدْ بَذَلَ بَايْرَامْ خَانُ الكَثِيرَ فِي مُسَاعَدَةِ أَكْبَرَ لِإِعَادَةِ الاسْتِقْرَارِ إِلَى الْبِلَادِ، وَلَكِنْ مَا لَبَثَ أَكْبَرَ أَنْ يَرِمَ بِتِلْكَ الْوَصَايَةِ، وَحِينَ أَرَادَ أَنْ يَخْلُصَ مِنْ تِلْكَ الْوَصَايَةِ أَرْسَلَهُ إِلَى مَكَّةَ فِي عَامِ ١٦٥٠ لِيَحُجَّ، وَكَانَ مِنْ حُسْنِ حَظِّهِ أَنَّ بَايْرَامْ خَانَ قُبِلَ عَلَى أَيْدِي بَعْضِ الْأَفْغَانِ انْتِقَامًا لِمَا أَصَابَهُمْ عَلَى يَدَيْهِ. غَيْرَ أَنَّ تَخْلُصَ أَكْبَرَ مِنْ وَصَايَةِ بَايْرَامْ خَانَ لَمْ تُحَرِّزْهُ كَمَا أَرَادَ، فَإِذَا هُوَ يَقَعُ تَحْتَ هَيْمَنَةِ حَرِيمِ الْبِلَاطِ اللَّاتِي كُنَّ قُوَّةُ تَحْرُكِ العَرْشِ وَظَلَّتْ كَذَلِكَ سَنَوَاتٍ أَرْبَعَ مُنْذُ أَنْ تَوَلَّى. وَلَمْ يَكُنِ التَّخْلُصُ مِنْ سُلْطَانِيَّةِ الْاَمْرِ الْهَيْئِ لِمَا كَانُ مَلْفًى عَلَى عَائِقِهِ مِنْ أَعْبَاءِ لَاسِيْمَا قِيَادَةِ الْجُيُوشِ وَالنَّظَرِ فِي أُمُورِ الدَّولةِ وَغَيْرِهَا مِنْ شُؤُونَ تَقَافِيَّةٍ وَفَنِيَّةٍ أَخَذَتْ طَرِيقَهَا إِلَى الْاَزْدِهَارِ.

وَلَقَدْ كَانُ أَكْبَرَ قَتَى مَمْلُوءًا حَيَوِيَّةً وَنَشَاطًا، مُغَامِرًا مَا وَسَعَتُهُ الْمُغَامَرَةُ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَأْخُذْ نَفْسَهُ بِتَعَلُّمِ الْقِرَاءَةِ شَأْنٍ غَيْرِهِ مِنَ الْأُمُورِ وَآثَرَ عَلَيْهِا الصَّيْدَ وَالطَّرَادَ وَالْمُصَارَعَةَ، وَلِهَذَا عَاشَ أُمِّيًّا. عَلَى أَنَّهُ كَانُ كَمَا وَصَفَهُ ابْنُهُ چَهَانْجِيرُ شَدِيدَ الْمُخَالَطَةِ لِلْعُلَمَاءِ وَرِجَالِ الدِّينِ عَلَى أَيِّ عَقِيدَةٍ كَانُوا، يَعْقِدُ صِلَاتَ بَيْنِهِ وَبَيْنَ كُلِّ مَنْ رَأَى فِيهِ خَيْرًا مِنْ أَيِّ جِنْسٍ أَوْ عَقِيدَةٍ، فَكَانَ سَمَحًا كَرِيمًا يَلْقَى كُلَّ فِكْرٍ بِرِضَاءٍ وَقَبُولٍ. وَالْغَرِيبُ أَنَّهُ عُرِفَ بِتَدْوِقِهِ لِلشَّعْرِ وَالْأَدَبِ حَتَّى إِنَّ النَّاسَ كَادُوا لَا يُصَدِّقُونَ أَنَّهُ أُمِّيٌّ. وَعَلَى الرُّغْمِ مِنْ أُمِّيَّةِ أَكْبَرَ فَإِنَّهُ كَانُ جَمَاعًا لِلْكَتَبِ وَلَا سِيَمَا الْمَزُودَةِ بِالصُّورِ الإِنْصَاحِيَّةِ، وَمِنْ هُنَا يُقَالُ إِنَّ مَكْتَبَتَهُ كَانَتْ تَزخرُ بِكُتُبِ التَّارِيخِ الطَّبِيعِيِّ وَالطَّبِّ وَالْبَيْطَرَةِ وَأَصُولِ الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ وَالذِّيَانَاتِ الْمُقَارَنَةِ وَالرِّيَاضِيَّاتِ وَالْهِنْدَسَةِ وَالْاِسْتِراتِجِيَّةِ الْحَرْبِيَّةِ وَالْفَلَكِ وَالتَّنْجِيمِ وَالْأَدَبِ وَشُؤُونَ الْحُكْمِ. وَقَدْ زُرُقَ أَكْبَرَ فِي عَامِ ١٥٦٩ بِالْأَمِيرِ سَلِيمِ [الإِمْبَرِاطُورِ چَهَانْجِيرِ فِيمَا بَعْدَ]، ثُمَّ زُرُقَ فِي الْعَامِ التَّالِيِ بِالسُّلْطَانِ مُرَادٍ، وَفِي عَامِ ١٥٧٢ بِالسُّلْطَانِ دَانِيَالٍ. وَعِنْدَهَا تَجَمَّعَتِ السُّلْطَنَةُ السِّيَاسِيَّةُ كُلُّهَا فِي يَدِ أَكْبَرَ لَا يُنَافِسُهُ فِي ذَلِكَ مُنَافِسٌ، وَبِهَذَا ضَمِنَ لِأُسْرَتِهِ الْمُلْكَ مِنْ بَعْدِهِ.

وَلَمْ يَكُنِ الزَاجِچُوتُ وَالْمُسْلِمُونَ هُمْ وَحْدَهُمْ مَنْ يُحِيطُ بِأكْبَرَ، كَمَا لَمْ يَكُنْ كُلُّ مَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَعْوَانِ هُنُودًا، لَقَدْ كَانُ أَكْبَرَ غَيْرَ مُتَعَصِّبٍ لِجِنْسٍ دُونَ جِنْسٍ، وَكَانَ يَرَى أَنَّ يَمِيشَ الْعَالَمُ عَلَى وَحْدَةٍ

التاليزين في مُستعمرة «جوا» البرُتغالية بِشَرْفِي الهِنْد لِإرسال بعثة منهم إلى البلاط المغولي.

ويقال إنَّ أكبرَ كانَ قد خَرَجَ سَنَةَ ١٥٦٤ لِصَيْدِ الْفَيْلَةِ، فَإِذَا هُوَ يَجِدُ قَطِيعًا مِنَ الْفَيْلَةِ يُزِيهِ عَلَى السَّبْعِينَ، فَكَانَ طَرَادًا رَأَى بَعْدَهُ أَنَّ يَتَلَبَّثُ فِي هَذَا الْمَكَانِ لَيْلَةً اسْتَمَعَ فِيهَا إِلَى قَصَاصٍ يَقْصُصُ عَلَيْهِ مَا كَانَ مِنْ مُغَامِرَاتٍ لِحَمْزَةِ عَمِّ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَفُوقِ الْخَيَالِ، شَطْرٌ كَبِيرٌ مِنْهَا يَخْصُ حَمْزَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَالشَّطْرُ الْآخَرُ يَدُورُ حَوْلَ مُغَامِرَاتِ الْأُنْطَالِ نَهْيًا وَسَلْبًا وَطَرَادًا وَرِحْلَاتِ خَيْالِيَّةٍ مَلِيَّةٍ بِذِكْرِ التَّيْنَاتِ وَالْعَمَالِقَةِ. وَكَانَتْ مِثْلَ هَذِهِ الْمَوْضُوعَاتِ وَمَا يَشْغِفُ بِهِ أَكْبَرُ حِينَ كَانَ صَبِيًّا، يُؤَيِّدُ هَذَا مَا نَقَرَاهُ فِي كِتَابِ «مَآثِرِ الْأُمَرَاءِ» مِمَّا كَانَ لِأَكْبَرُ مِنْ وَلَعٍ بِسِيرَةِ سَيِّدِنَا حَمْزَةَ فَكَانَ مِنْ حُبِّهِ لَهَا حَرِيصًا عَلَى أَنْ يَزِيَّهَا لِحَرِيمِهِ كُلَّمَا جَلَسَ إِلَيْهِنَّ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ جَدَّهُ بَابُورَ أَشَارَ إِلَى هَذِهِ الْقِصَصِ فِي مُذَكِّرَاتِهِ بِمَا يَحِطُّ مِنْ شَأْنِهَا.

وهكذا كانت قصة مخطوطة «حمزة نامه» مزيجًا من الحقيقة والحكايات الشعبية والخيال يَخْصُ الشَّطْرَ الْأَكْبَرُ مِنْهَا سَيِّدَنَا حَمْزَةَ. فَتُرَوِّي الْقِصَّةَ كَيْفَ جَاهَدَ فِي سَبِيلِ نَشْرِ الْإِسْلَامِ فِي جَمِيعِ بَقَاعِ الْعَالَمِ، ثُمَّ تَزْعُمُ أَنَّهُ لِذَلِكَ تَرَكَ الْجَزِيرَةَ الْعَرَبِيَّةَ مُتَّجِهًا شَطْرَ سِيْلَانِ وَبِيرُنْطَةَ وَمِصْرَ وَالْقُرْقَازَ، وَأَنَّهُ فِي رِحْلَتِهِ هَذِهِ أَحَبَّ «مِهْرَانَا جَار» ابْنَةَ مَلِكِ الْفُرْسِ أَلَدَ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ وَبَنَى بِهَا، كَمَا بَنَى أَيْضًا بِإِخْدَى الْجِنِّيَّاتِ [الپريهات]. وَتَمْضِي الْقِصَّةُ لِتَصِفَ الْوَقَائِعَ الْحَرْبِيَّةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعِرَاقِيِّينَ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبْدَةِ التَّارِ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ زَمَرْدِ شَاهِ أَحَدِ كِبَارِ السَّحَرَةِ، إِلَى أَنْ كُتِبَ لَهُ النَّصْرُ عَلَى الْفُرْسِ بِمُعَاوَنَةِ صَدِيقِهِ عَمْرُو [مَقْصُودٌ بِهِ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ].

وَفِي سَنَةِ ١٥٦٢ خِلَالَ حُكْمِ أَكْبَرٍ أَخَذَ الْعَمَلَ يَخْطُو مِنْ جَدِيدٍ لِيُظْهِرَ مَخْطُوطَةً «حمزة نامه» الْكُبْرَى، وَكَانَ قَدْ بُدِئَ الْإِعْدَادُ لَهَا فِي عَهْدِ أَبِيهِ هُمَايُون. وَقَدْ تَمَّ إِنْجَازُهَا عَلَى أَيْدِي نَحْوِ مِنْ مِائَةِ فَنَّانٍ مِنْهُمْ مَا لَا يَقِلُّ عَنْ ثَلَاثِينَ فَنَّانًا كَانَ قَدْ اسْتَعَانَ بِهِمْ مِنْ بَيْنِ الْهُنُودِ قَاصِدًا بِذَلِكَ أَنْ يَفِيدَ الْأَسْلُوبَ الْمَغُولِيَّ مِنْ أَسْلُوبِ الْفَنِّ الْهِنْدِيِّ، وَهَذَا لِمَا رَاقَهُ مِنْ أَشْكَالِهِ وَأَلْوَانِهِ وَتَقْنِيَّاتِهِ. وَتَأْرِخُ مَخْطُوطَةِ «حمزة نامه» الَّتِي تَقْصُمُ أَجْزَاءَ عِدَّةٍ مَثَارٍ جَدَلٍ إِلَى الْيَوْمِ، غَيْرَ أَنَّ الرَّأْيَ الرَّاجِحَ يَجْعَلُهُ مَا بَيْنَ عَامِي ١٥٦٢ وَ١٥٧٧. وَتَنْتَظِمُ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةُ أَرْبَعَمِائَةِ وَأَلْفَ صُورَةٍ إِلَّا أَنَّ الزَّمْنَ لَمْ يَحْتَفِظْ لَنَا مِنْهَا بِأَكْثَرِ مِنْ مِائَةٍ وَخَمْسِينَ صُورَةً جُلُّهَا مِمَّا يَضُمُّهُ الْجُزْأَانِ الْعَاشِرُ وَالْحَادِي عَشَرَ. وَلِقِلَّةِ هَذِهِ الصَّفَحَاتِ الَّتِي انْتَهَتْ إِلَيْنَا أَصْبَحَ مِنَ الْعَسِيرِ الْحُكْمُ عَلَى الطَّائِعِ الْعَامِّ لِصُورِ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ أَوْ الْحُكْمُ عَلَى مَا طَرَأَ عَلَى أَسْلُوبِ تَصْوِيرِهَا مِنْ تَطَوُّرٍ. وَقَدْ بَاشَرَ الْإِشْرَافُ عَلَى إِعْدَادِ هَذَا الْعَمَلِ الْفَنِّيِّ الصَّخْمُ الَّذِي امْتَدَّتْ مُدَّةُ الْمُصَوِّرِ الْإِيرَانِيِّ مِير سِيدِ عَلِيِّ أَوَّلًا ثُمَّ تَلَاهُ مُوَاطِنُهُ عَبْدُ الصَّمَدِ ثَانِيًا، حَتَّى أَتْنِي عَلَيْهِمَا الْإِمْبَرَاطُورُ أَكْبَرُ فِي مُذَكِّرَاتِهِ وَعَدَّاهُمَا أَعْظَمَ مُصَوِّرَيْنِ بِالْمَرَامِ الْمَلَكِيَّةِ. وَالْمَقْطُوعُ بِهِ أَنَّهُمَا لَمْ يُصَوِّرَا صُورَةً مَا مِنْ صُورِ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ، وَاقْتَصَرَ عَمَلُهُمَا عَلَى

وَأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لِلدُّوْلَةِ دِيْنًا جَدِيدًا كَانَ مَزِيْجًا مِنَ الْأَدْيَانِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي الْهِنْدُ وَفِي غَيْرِ الْهِنْد. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ نَقَرًا مِنَ الْمُفَرِّبِينَ إِلَيْهِ اعْتَقَقُوا هَذَا الدِّينَ، غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ فِي الْجُمْلَةِ دَعْوَةً لَمْ يَسْتَجِبْ إِلَيْهَا النَّاسُ.

وَأَنْبَرَى أَكْبَرُ مُدَافِعًا عَنِ الْفَنِّانِ الْمُصَوِّرِ مِنْ وَجْهِهِ النَّظَرِ الدِّيْنِيَّةِ، فَجَاءَ فِي مَقَالٍ بِكِتَابِ «عَيْنُ الْأَخْبَارِ» بِقَلَمِ وَزِيرِهِ الْوَفِيِّ أَبُو الْفَضْلِ عَنْ دِفَاعِ أَكْبَرٍ عَنْ فَنِّ التَّصْوِيرِ شَرَحَ فِيهِ رَأْيَ أَكْبَرٍ وَحَكَى عَلَى لِسَانِهِ أَنَّهُ قَالَ «يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّ لِلْمُصَوِّرِ وَسَائِلَ غَرِيبَةً لِلْغَايَةِ لِلتَّعَرُّفِ عَلَى اللَّهِ. إِذْ إِنَّهُ يَقُومُ بِعَمَلٍ تَخْطِيطِ لِأَيِّ شَيْءٍ حَيٍّ، وَعِنْدَمَا يَعْمَدُ إِلَى إِثْدَاعِ أَطْرَافِهِ وَاحِدًا بَعْدَ الْآخَرِ لَا بُدَّ أَنْ يَشْعُرَ بِقُصُورِهِ عَنْ أَنْ يَهَبَ عَمَلَهُ فَرْدِيَّتَهُ وَشَخْصِيَّتَهُ، وَبِالتَّالِي يَجِدُ نَفْسَهُ مُضْطَرًّا إِلَى التَّفَكُّيرِ فِي اللَّهِ وَاهِبِ الْحَيَاةِ فَتَزْدَادُ عَلَى هَذَا التَّخَوُّعِ مَعْرِفَتُهُ».

وَكَانَ مِنْ جَزَاءِ مَا عَلَيْهِ مِنْ أَغْبَاءٍ وَتَبِعَاتٍ أَنْ اضْطُرَّ إِلَى أَنْ يَزَجَّ بِنَفْسِهِ فِي مُغَامِرَاتٍ شَاقَّةٍ، وَبَلَغَتْ بِهِ جُرْأَتُهُ أَنَّهُ كَانَ يُرَوِّضُ أَشْرَسَ الْفَيْلَةِ جُمُوحًا وَالتِّي تَتَأَبَّى حَتَّى عَلَى إِنْأَتِهَا أَنْ تَقْرُبَ مِنْهَا وَهُوَ مَا نَتَبَّهَ فِي (الْوَلُوحَةُ ٤٠٣م)، إِذْ نَرَاهُ قَدْ امْتَطَى ظَهْرَ فَيْلٍ شَرَسٍ هَائِجٍ وَهُوَ يَعْبُرُ بِهِ جِسْرًا مِنَ الْقَوَارِبِ. وَفِي سِيرَتِهِ الَّتِي كَتَبَهَا صَدِيقُهُ وَوَزِيرُهُ أَبُو الْفَضْلِ مَا يُشِيرُ إِلَى الْأَسْبَابِ الَّتِي دَعَتْهُ إِلَى أَنْ يَزَجَّ بِنَفْسِهِ فِي تِلْكَ الْمَخَاطِرِ، إِذْ نَقَرْنَا لَهُ: «لَوْ أَنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى رِضَا عَنِّي نَجَانِي، وَإِلَّا ذَهَبْتُ إِلَى حَيْثُ لَا عَوْدَةَ».

وَلَقَدْ سَعَى أَكْبَرُ جُهْدَهُ الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ فِي الْجِفَافِ عَلَى عَرْشِهِ، وَإِذَا هُوَ فِي سَبِيلِ هَذَا يَقْضِي عَلَى تَقْوَذِ حَرِيمِ الْبَلَاطِ، وَيُحَرِّرُ أَسْرَى الْحَرْبِ الْهُنُودِ مِنَ الرُّقِّ، إِذْ جَرَتْ الْعَادَةُ حِينَئِذٍ أَنْ يَجْعَلُوا مِنْ أَسْرَى الْحَرْبِ أَرْقَاءَ، كَمَا أَتَاحَ لِلْهِنْدُوسِ أَنْ يَشْغَلُوا مَنَاصِبَ حُكُومِيَّةٍ كُبْرَى، وَكَذَا أُلْغِيَ فِي عَامِ ١٥٦٣ الضَّرْبَةُ الَّتِي كَانَتْ مَفْرُوضَةً عَلَى الْحُجَّاجِ وَأَتَّبَعَ هَذَا بِالْغَلَاءِ الْجَزِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تُضْرَبُ عَلَى غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَفُتْ أَكْبَرُ أَنْ يَصْهَرِ إِلَى الْهِنْدُوسِ فَتَزَوَّجَ - كَمَا أَسْلَفْتُ - بِأَمِيرَةٍ مِنْ بَيْنَهُمْ هِيَ ابْنَةُ أَحَدِ الرَّاجَاوَاتِ. وَلَقَدْ فَعَلَ هَذَا كُلَّهُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الرَّأْيَ الْعَامَّ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ لَا يُجِيزُهُ، وَكَانَ هَذَا مِنْهُ اسْتِثْنَاءًا بِقُوَّتِهِ، إِذْ كَانَ يَدْرِكُ أَنَّ الْخِلَافَ بَيْنَ الْهِنْدُوسِ وَالْمُسْلِمِينَ أَشَدَّ خَطَرًا عَلَى انْقِصَامِ الْوَحْدَةِ فِي إِمْبَرَاطُورِيَّتِهِ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَخْطَارِ. وَلَقَدْ تَحَقَّقَ لِأَكْبَرٍ مَا أَرَادَ فَإِذَا الرَّاجِوَاتُ - الْمَعْرُوفُ عَنْهُمْ شِدَّةُ الْوَرَسِ فِي الْحُرُوبِ - يُمَضُّونَ فِي تَحْقِيقِ أَهْدَافِ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ، وَإِذَا هُمْ يَقِفُونَ إِلَى جَوَارِهِ. وَلَكِنِّي يَزِيدُ الصَّلَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الرَّاجِوَاتِ تَوْثِيقًا أَبَاحَ لَهُمْ أَنْ يَلُوا أَعْلَى مَنَاصِبِ الدُّوْلَةِ، وَإِذَا هُمْ مَعَ مُرُورِ الزَّمَنِ يَدْرِكُونَ مَا لِلْمَغُولِ مِنْ قُوَّةٍ وَبَأْسٍ فَاصْبَحُوا يَأْتُمِرُونَ بِأَمْرِهِ طَوَاعِيَةً. وَفِي عَامِ ١٥٧٦ تَغَلَّبَ أَكْبَرُ عَلَى جُيُوشِ الْبَنَغَالِ الَّتِي لَمْ تَكُفْ عَنْ مُنَاوَأَتِهِ، وَكَانَ هَذَا النَّصْرُ مِمَّا ثَبَّتَ مُلْكَهُ. وَفِي عَامِ ١٥٧٩ أَصْدَرَ أَكْبَرُ مُرْسُومًا سَمَّاهُ «الْعِصْمَةُ مِنَ الْخَطَا»، وَفِيهِ مَنَحَ نَفْسَهُ سُلْطَاتٍ وَاسِعَةً لِتَقْسِيرِ الْعَقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، كَمَا دَعَا الْأَبَاءَ الْيَسُوعِيِّينَ

مَسْجُونِينَ بها. وَثَمَّةٌ مُنَمَّةٌ أُخْرَى مِنْ مَخْطُوطَةِ «حَمْزَةِ نَامَةِ» تُصَوِّرُ أُسْطُورَةَ مِنَ الْأَسَاطِيرِ الْخَارِقَةِ الَّتِي تَزْخُرُ بِهَا هَذِهِ الْمَخْطُوطَةُ. وَمِمَّا يَلَفَتْ أَنْظَارُنَا فِيهَا «عَمَرُ الْعِيَارِ»، تِلْكَ الشَّخْصِيَّةُ الشَّهِيرَةُ بِالْمَخْطُوطَةِ [وَالْمَقْصُودُ بِهَا عَمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ] وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى عَرْشِهِ وَقَدْ أَخَذَتْهُ الْمُفَاجَأَةُ أَمَامَ ثَوْرَةِ الْفِيلَةِ وَهِيَ تَدُكُ الْحُصْنَ دُكًّا، وَالْفَوْضَى السَّائِدَةَ بَيْنَ الْحُشُودِ، كَمَا أَنَّ غَزَارَةَ الثَّلَوَيْنِ فِيهَا تَخْرُجُ بِهَا شَيْئًا عَنِ الْأَسَالِيبِ الْفَارِسِيَّةِ وَتَجْعَلُهَا قَرِيدَةً فِي نَوْعِهَا؛ فَصُورَةُ الْفِيلِ مِنَ الْفَنِّ الْهِنْدِيِّ الْخَالِصِ، وَالثِّيَابُ صُورَةٌ مِنْ أَزْيَاءِ عَهْدٍ أَكْبَرَ، وَالْجَالِسُ عَلَى الْعَرْشِ يَتَعَمَّقُ بِعِمَامَةٍ صَغِيرَةٍ تَعُودُ إِلَى ذَلِكَ الْعَهْدِ وَيَشُدُّ وَسْطَهُ بِحِزَامٍ ضَيِّقٍ يَرِجُّعُ هُوَ الْآخِرُ إِلَى عَهْدٍ أَكْبَرَ. وَكُلُّ هَذِهِ الْعُنَاوِينَ تُشَكِّلُ فِي مَجْمُوعِهَا جَوْاءَ غَرِيبًا غَيْرَ مَعْهُودٍ، غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ الْمُنَمَّةَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ هَذَا كُلِّهِ لَا تَزَالُ تَمُتُ بِأَسْبَابٍ إِلَى الْفَنِّ الْفَارِسِيِّ (لَوْحَةٌ ٤٠٦م).

أَمَّا مُنَمَّةُ زَرْدَنْكَ خَاتَنِ وَهُوَ يَحْمِلُ الْخَاتَمَ إِلَى السَّجَّانِ مِنَ الْمَخْطُوطَةِ نَفْسِهَا وَالْمَخْطُوطَةُ بِالْفَرِيرِ جَالِرِي بَوَاشِطِن (لَوْحَةٌ ٤٠٧م) فَتُعْزَى إِلَى فَتَّانٍ مَجْهُولٍ وَقَدْ رَسَمَهَا خَالِيَةً مِنْ تِلْكَ الشَّوَائِبِ الَّتِي نَرَاهَا أَحْيَانًا فِي صُورِ «حَمْزَةِ نَامَةِ»، تِلْكَ الشَّوَائِبِ الَّتِي تَتِمَّتْ فِي الْإِسْرَافِ فِي زَخْمِ الْحُشُودِ، وَكَذَا الْإِسْرَافِ فِي تَسْجِيلِ جُزْئِيَّاتِ الْعِمَارِ، وَالْإِسْرَافِ أَيْضًا فِي رَسْمِ الْأَشْخَاصِ غَيْرِ مُتَنَاسِقَةِ الْأَحْجَامِ وَكَأَنَّ بَعْضَهَا دُمِّي. ثُمَّ إِنَّا نَرَى الْحَدَثَ الَّذِي أَرَادَ الْمُصَوِّرُ إِبْرَازَهُ فِي مَكَانٍ بَعِيْنَهُ لَا يَتَعَدَّاهُ يَغْلُو الْمِسَاحَةُ الْخَالِيَةَ خَارِجَ أَسْوَارِ الْقَصْرِ. وَلَيْسَ مِمَّا يَغِيبُ اللَّوْحَةُ تَصْوِيرُ السَّجَّانِ ضَخْمَ الْجُثَّةِ عَلَى حِينِ نَرَى الرِّجَالَ مِنْ حَوْلِهِ صِغَارَ الْحَجَمِ، إِذْ فِي تَصْوِيرِ السَّجَّانِ عَلَى هَذِهِ الضَّخَامَةِ مَا يُبْرِزُ شَخْصِيَّتَهُ. وَأَخِيرًا فَإِنَّ التَّعْبِيرَاتِ الَّتِي تَبْدُو فِي قَسَمَاتِ الْوُجُوهِ الرَّئِيسِيَّةِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْحَدَثَ كَانَ حَدَثًا دِرَامِيًّا، وَلَا يُضِيرُ هَذَا أَنَّ الْمُصَوِّرَ قَدْ صَوَّرَ الْأَشْخَاصَ الَّذِينَ هُمْ دُونَ الْأَوَّلِينَ مَرْتَبَةً مِثْلَ الْحُرَّاسِ عَلَى هَيْئَةِ دُمِّي. وَمِمَّا يَلَفَتْ النَّظْرُ صُورَةَ الْحَارِسِ الْبَدِينِ الَّذِي تَبْدُو عَلَيْهِ قِلَّةُ أَكْثَرَاتٍ بِمَا حَوْلَهُ إِذْ يَتَجَلَّى فِيهَا الْمَثَلُ الْحَقُّ لِلِبُورْتَرِي، كَمَا تَبْدُو صُورَةُ زَرْدَنْكَ خَاتَنِ الْأَسْمَرِ اللَّوْنِ صَادِقَةً الْإِيْمَاءَاتِ، وَكَذَا يَبْدُو الشَّخْصُ الْوَاقِفُ فِي صَحْنِ السَّجْنِ يُدِيرُ بِوَجْهِهِ فِي حَرَكَةٍ عَنِيفَةٍ. وَالْأَشْخَاصُ جَمِيعًا لِيَأْسَهُمْ مَلُونٌ بِأَلْوَانٍ زَاهِيَةٍ غَيْرَ أَنَّهُ خَالٍ مِنَ الرُّخْفَةِ. وَنَرَى أَثَرَ الْفَنِّ الْفَارِسِيِّ خِلَالَ الْقُرْنِ السَّادِسَ عَشَرَ وَاضِحًا فِي تَصْوِيرِ السَّجَّاجِيدِ وَالْبَلَّاطَاتِ.

وَفِي عَامِ ١٥٧٤ أُنْشِأَ أَكْبَرُ مَكْتَبًا لِلْوَثَائِقِ، وَكَانَ هَذَا لَا شَكَّ مِنْ أَهَمِّ الْأَسْبَابِ الَّتِي دَعَتْ لِتَذْوِينِ الْأَحْدَاثِ عَلَى مَرِّ الْأَعْوَامِ فِي عَهْدِهِ، وَكَانَ يَعْمَلُ فِي هَذَا الْمَكْتَبِ أَرْبَعَةٌ عَشَرَ مُوظَّفًا. وَهُنَا حَفَرَ أَكْبَرُ أَبَا الْفَضْلِ عَلَى تَذْوِينِ مُذْكَرَاتِهِ الَّتِي أَمْلَاهَا لِتَنْتَظِمَ إِلَى الْوَثَائِقِ وَكَأَنَّهَا حَزَلِيَّةٌ مِنَ الْحَوْلِيَّاتِ الْهَامَّةِ عَلَى غِرَارِ «بَابُورِ نَامَةِ» وَالْقَانُونِ الْهُمَايُونِيِّ لِخُونْدَامِير. وَبِهَذَا تَوَقَّرَتْ بَيْنَ أَيْدِي

الْإِسْرَافِ فَحَسَبَ. وَمِمَّا يُذَكِّرُ أَنَّهُ كَانَ ثَمَّةَ مُصَوِّرَانِ هِنْدِيَّانِ يُعْدَانِ مِنْ أَعْظَمِ مُصَوِّرِي الْهِنْدِ شَارِكَا فِي إِعْدَادِ بَعْضِ صُورِ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ هُمَا دَاسُونْتُ وَبَاسُونُ.

وَصَفَحَاتُ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ مِنْ نَسِيجٍ قُطْنِيٍّ، وَهُوَ مَا جَرَى بِهِ الْعُرْفُ فِي بَعْضِ الْمَخْطُوطَاتِ الْجَائِنِيَّةِ مِثْلَ صُورِ الْفَاسَانَتِ فِيلَازَا (لَوْحَةٌ ٣٩٩م) وَالصُّورِ الْمُعَلَّقَةِ بِالْمَعَابِدِ الْبُودِيَّةِ الْجَائِنِيَّةِ وَالْهِنْدُوكِيَّةِ. وَلَا نُحَسِّنُ فِي مَخْطُوطَةِ «حَمْزَةِ نَامَةِ» شَيْئًا مِنَ الرَّهَافَةِ الَّذِي نُحَسِّنُ مِثْلَهُ فِي الْمُصَوِّرَاتِ الْفَارِسِيَّةِ، فَعَلَى حِينِ نَرَى فِي التَّصَاوِيرِ الْفَارِسِيَّةِ الْإِيْمَاءَاتِ جَامِدَةً وَالْإِنْفِعَالَاتِ هَادِئَةً زَيْنَةً كَمَا تَتَجَلَّى فِيهَا مِسْحَةُ الْبَلَّاطِ الْجَلِيلَةِ، نَرَى فِي صُورِ «حَمْزَةِ نَامَةِ» الْإِيْمَاءَاتِ طَائِشَةً فِي كَثَرَةِ الْإِنْفِعَالَاتِ ثَائِرَةٍ وَصُورِ الْأَجْسَامِ تَكَادُ تَنْطَلِقُ بِمَهَامَهَا، وَعَلَى حِينِ كَانَ الْفَتَّانُ الْفَارِسِيُّ يُعْنَى بِالتَّفْصِيلَاتِ الدَّقِيقَةِ وَالْوَضْعَاتِ الرَّشِيقَةِ وَالْإِنْفِعَالَاتِ الْمُتَمَوِّجَةِ الْبَارِعَةِ لِلثِّيَابِ وَالْأَزْدِيَّةِ، لَا نُحَسِّنُ بِمِثْلِ هَذَا كُلِّهِ فِي صُورِ «حَمْزَةِ نَامَةِ». وَمِمَّا تَتَمَيَّزُ بِهِ صُورُ الْمَخْطُوطَةِ مَا نَرَاهُ مِنْ جُمُوعٍ حَاشِدَةٍ وَأَحْدَاثٍ دِرَامِيَّةٍ وَجَوٍّ سِيَحْرِيٍّ يَشِيعُ فِي الصُّورِ جَمِيعًا.

وَلَوْفَقَ التَّقَالِيدِ الْهِنْدِيَّةِ نَرَى التَّنَصُّعَ فِي مَخْطُوطَةِ «حَمْزَةِ نَامَةِ» لَهُ الْأَوَّلِيَّةُ عَلَى الصُّورِ. وَإِذْ كَانَ أَكْبَرَ قَدْ اسْتَعَانَ بِمُصَوِّرِينَ مِنَ الْهُنُودِ فِي إِعْدَادِ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ، نَرَى أَنَّ الْأَسْلُوبَ الْمَغُولِيَّ الَّذِي كَانَ مَا يَزَالُ فِي طَوْرِ التَّمَوُّ قَدْ دَخَلَتْ عَلَيْهِ اتِّجَاهَاتُ وَتَقَالِيدُ تُخَالِفُ تِلْكَ الَّتِي وَضَعَ أُسُسُهَا مِير سِيد عَلِي وَأُسْتَازُ عَبْدِ الصَّمَدِ لِفَتَّانِي الْمَرْسَمِ الْمَلِكِيِّ. إِذَا جَاءَ التَّصْوِيرُ الْمَغُولِيُّ فِي هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ لَا يُمَثِّلُ الطَّائِعَ الْهِنْدِيَّ فِي جُمْلَتِهِ، كَمَا لَمْ يُمَثِّلِ الْفَنُّ الْفَارِسِيُّ فِي جُمْلَتِهِ هُوَ الْآخَرُ، بَلْ كَانَ أَسْلُوبًا جَدِيدًا لَهُ مُمَيَّزَاتُهُ الْخَاصَّةُ. وَثَمَّةُ صُورٌ تَشِيعُ فِيهَا الْحَيَوِيَّةُ كَمَا فِي مُنَمَّةِ «فِرَارِ مَرْدُخْتِ مِنَ الْأَشْقِيَاءِ». وَمِنْ أَمْثِلَةِ هَذِهِ الْحَيَوِيَّةِ ذَلِكَ الْحَدَثُ الْفَاصِلُ بَيْنَ الْيَابِسَةِ وَالْمَاءِ، وَكَذَا الشُّخُوصِ الْهَارِعَةِ، وَتِلْكَ الْإِيْمَاءَاتِ الدِّرَامِيَّةِ الْبَيْتَةِ، ثُمَّ الْهِيَاءِ الْمُضْطَرِبَةِ الصَّاخِيَةِ بِأَسْمَاكِهَا وَمَا فِي جَوْفِ هَذِهِ الْمِيَاهِ الْمُضْطَرِبَةِ، وَيَأْنَعَامُ النَّظْرُ تَتَرَاءَى لَنَا أَشْكَالٌ مُبْهِمَةٌ لِيَطِيرَ وَظِيَاءٌ وَكِبَاشٌ تَتَنَازَرُ هُنَا وَهُنَا (لَوْحَةٌ ٤٠٤م).

وَبَيْنَ أَيْدِينَا مُنَمَّةٌ أُخْرَى مِنْ مَخْطُوطَةِ «حَمْزَةِ نَامَةِ» تُمَثِّلُ عَمْرًا صَاحِبَ حَمْزَةٍ يَنْتَجِلُ شَخْصِيَّةَ الْجَرَّاحِ مِزْمُوهِيلِ (لَوْحَةٌ ٤٠٥م). وَتَرَوِي الْقِصَّةَ أَنَّهُ اضْطُرَّ إِلَى هَذَا حِينَ عَدَا السَّحْرَةُ عَلَى أَعْوَانِ حَمْزَةٍ فَاخْطَطَفُوهُمْ. وَلِذَا كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَلْجَأَ إِلَى حِيلَةٍ يَقْتَضِيهَا بِهَا السَّجْنُ الَّذِي اخْتَبَسُوا فِيهِ أَعْوَانُ حَمْزَةٍ بِقَلْعَةِ السَّحْرَةِ فِي أَنْطَاكِيَّةِ. وَاخْتَالَ لِذَلِكَ بِأَنْ عَقَدَ صِلَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَائِدِ قَافِلَةٍ مِنَ الْبِغَالِ هُوَ الْجَرَّاحُ مِزْمُوهِيلُ وَكَانَ فِي طَرِيقِ عَوْدَتِهِ إِلَى دَارِهِ بَعْدَ غَنِيَّةٍ سَنَوَاتٍ ثَلَاثَ، فَقَدَّمَ لَهُ تَفَاحَةً مَحْشُوءَةً بِمُخَدَّرٍ مَا لَبِثَ الرَّجُلُ بَعْدَ أَنْ أَكَلَهَا أَنْ فَقَدَ وَعْيَهُ، فَازْدَدَى عَمْرُو ثِيَابَهُ وَتَرَيَا مُعَاوَنَهُ يَزِي سَائِسَ أَحَدِ الْبِغَالِ، وَتَبِعَهُمَا أَعْوَانُهُمَا فَاقْتَحَمُوا الْقَلْعَةَ وَقَتَلُوا زَمْرُدَ شَاهِ كَبِيرِ السَّحْرَةِ وَأَخْرَجُوا مَنْ فِيهَا مِنْ أَصْحَابِهِمُ الَّذِينَ كَانُوا

الصُّور، مِن بَيْنِهَا مَخْطُوطَةٌ «رزم نامه» (١٥٨٠) الَّتِي تَنْتَظِمُ ١٧٦ مُنْمَنَةً، و«الراماياه» الَّتِي تَنْتَظِمُ مَا يُبَيِّنُ عَن ١٧٠ مُنْمَنَةً و«تيمور نامه» الَّتِي تَنْتَظِمُ ١٢٨ مُنْمَنَةً و«داراب نامه» الَّتِي تَنْتَظِمُ ١٥٧ مُنْمَنَةً وَمَخْطُوطَةٌ «بابور نامه» الْأُولَى الَّتِي تَنْتَظِمُ ١٨٣ مُنْمَنَةً وَمَخْطُوطَةٌ «أكبر نامه» الْأُولَى و«تاريخ الألف عام» الَّتِي تَنْتَظِمُ كُلَّ مِنْهُمَا حَوَالَى ٣٠٠ مُنْمَنَةً. عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْمُنْمَنَاتُ لَمْ تَكُنْ كُلُّهَا ذَاتُ مُسْتَوًى رَفِيعٍ وَلَا كَانَتْ أَسَالِيبَ فَنَائِيهَا جَمِيعًا مُتَمَيِّزَةً، إِذْ لَمْ يَكُنِ الْفَنَّاوُنُ بَعْدُ قَدْ اسْتَقَرَّوا عَلَى التَّقْنِيَّاتِ وَالْأَسَالِيبِ الَّتِي أُزْبِيتَ قَوَاعِدُهَا خِلَالِ عَامِ ١٥٩٠ وَمَا بَعْدَهُ، وَالَّتِي لَمْ يُضِفِ الْفَنَّاوُنُ إِلَيْهَا بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا إِضَافَاتٍ بَسِيطَةً وَتَنَوُّعَاتٍ ثَوَائِبَ الذُّوقِ الْخَاصِّ بِكُلِّ فَنَّاوُنٍ.

وَشَهِدَ عَامَ ١٥٨٠ بَدْءَ مَرَحَلَةٍ جَدِيدَةٍ مِنَ النَّشَاطِ الْفَنِّيِّ، فَلَقَدْ أَمَرَ أَكْبَرُ بِإِعْدَادِ مَوْسُوعَةٍ جَدِيدَةٍ لِتَارِيخِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ خِلَالِ الْأَلْفِ عَامِ السَّابِقَةِ الَّتِي تَنْتَهِي عَامَ ١٠٠٠ هَجْرِيَّةً (١٥٩١م - ١٥٩٢م) وَهِيَ «تَارِيخُ الْأَلْفِ عَامٍ»، وَمِنْ بَيْنِ أَحْدَاثِهَا الْحَاوِثِ الَّذِي يُصَوِّرُ حِصَارَ الْخَلِيفَةِ الْمَأْمُونِ لِمَدِينَةِ بَغْدَادِ عَامِ ٨١٣م (لَوْحَةٌ ٢٢٠). وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ هَذَا فَإِنَّ رِجَالَ الدِّينِ لَمْ يَطْمَئِنُّوا إِلَّا طَوْنَانِ كُلَّهُ لِعَقِيدَةِ أَكْبَرٍ وَتَوَجُّهَاتِهِ الدِّينِيَّةِ.

وَفِي هَذَا الْعَامِ الَّذِي أَمَرَ فِيهِ أَكْبَرُ بِإِعْدَادِ تِلْكَ الْمَوْسُوعَةِ أَمَرَ بِتَرْجُمَةِ مَلْحَمَةِ «المهابهاراته» [الهند الكبرى] مِنَ اللُّغَةِ السُّنْسَكْرِيتِيَّةِ وَسَمَّاها «رزم نامه» [كِتَابُ الْخُرُوبِ]، ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ أَتْبَعَ هَذَا الْعَمَلَ بِعَمَلٍ آخَرَ هُوَ تَرْجُمَةُ مَلْحَمَةِ «الراماياه» مِنَ السُّنْسَكْرِيتِيَّةِ أَيْضًا عَلَى نَحْوِ مَا نَرَى فِي مُنْمَنَةِ «رامه ولاكشمان» بِقَضِيَانٍ عَلَى الشَّيْطَانَةِ طَارَاقًا (لَوْحَةٌ ٤١٠م) مِنْ تَصْوِيرِ الْفَنَّاوُنِ مَشْفُوقٍ، حِينَ كَانَ رَامَهُ وَأَخُوهُ التَّوَّامُ لَاكْشْمَانُ فِي السَّادِسَةِ مِنْ عُمرِهِمَا قَوْدًا إِلَى بَلَاطِ الْمَلِكِ دَاشَرْتِ الْحَكِيمِ فَيُشَوُّ مِيتَرًا لِجِبَالِ حُكَمَاءِ الْبَلَاطِ الرَّأْيِيِّ، فَاسْتَقْبَلَهُ الْمَلِكُ أَحْسَنَ اسْتِقْبَالٍ وَعَدَهُ بِأَنْ يُجِيبَهُ إِلَى مَا يَطْلُبُ. وَجَرَتْ مُنَاطَرَةٌ بَيْنَ فَيَشَوِّ مِيتَرًا وَبَيْنَ الْمَلِكِ أَبَدَى فِيهَا الْحَكِيمُ الْوَافِدَ تَخَوُّفَهُ مِنْ ظُهُورِ الْمَخْلُوقَاتِ الشَّرِّيرَةِ الَّتِي تُفْسِدُ عَلَيْهِ وَعَلَى النَّاسِ صِلَاتِهِمْ، وَرَجَاهُ أَنْ يُعِينَهُ عَلَى التَّغْلُبِ عَلَى هَؤُلَاءِ الشَّيَاطِينِ. وَحِينَ اسْتَجَابَ دَاشَرْتُ لِمَطْلَبِهِ مُبَدِّيًا اسْتَعْدَادَهُ لِتَقْدِيمِ الْعَوْنِ زَدَ عَلَيْهِ فَيَشَوُّ مِيتَرًا بِأَنَّهُ لَيْسَ فِي طَاقَةٍ أَحَدٌ غَيْرُ رَامِهِ أَنْ يَدْفَعَ عَنْهُ شَرَّ هَذِهِ الشَّيَاطِينِ. عِنْدَهَا أَذِنَ لَهُ الْمَلِكُ أَنْ يَصْحَبَ مَعَهُ رَامَهُ وَأَخَاهُ الْوَفِّيَّ لَاكْشْمَانُ لِخَلْصَاهُ مِنْ هَذَا الشَّرِّ. وَانْتَهَى بِهِمْ جَمِيعًا الْمَسِيرُ إِلَى غَايَةِ يَكْتَفِيهَا الظَّلَامُ، وَإِذْ كَانَ الْهَوَاءُ مَلْبِيًا بِرِيحٍ عَظِيمَةٍ سَاقَةً تَوَقَّفَ رَامَهُ وَقَالَ لَهُ فَيَشَوُّ مِيتَرًا إِنَّهُ هُنَا تَكْمُنُ الشَّيْطَانَةُ طَارَاقًا وَأَخَذَ يَقْصُصَ عَلَيْهِ وَعَلَى أَخِيهِ قِصَّتَهَا. فَذَكَرَ لَهُمَا أَنَّهَا كَانَتْ فِي شَبَابِهَا عَلَى غَايَةِ مِنَ الْجَمَالِ ثُمَّ تَزَوَّجَتْ سَوْنَدًا وَزُرْقًا وَلَدًا هُوَ مَارِيْتِشَا، ثُمَّ مَاتَ زَوْجُهَا فَإِذَا هِيَ وَابْنُهَا يَخْرُجَانِ لِمَوْتِهِ حَزْنًا شَدِيدًا أَقْضَى بِهِمَا إِلَى الْجُنُونِ، وَإِذَا هُمَا يَنْقَلِبَانِ شَرِيرِينَ لَا يَضْبُطُ عَاطِفَتَيْهِمَا ضَاطِطٌ، وَإِذَا هُمَا يَعْدَوَانِ عَلَى كُلِّ مَنْ مَلَكَ حِكْمَةً

الْمُؤَرِّخِينَ وَفَرَّةً مِنَ الْمَرَاجِعِ وَالْأَسَانِيدِ الَّتِي يُكْمِنُهَا الرُّجُوعُ إِلَيْهَا. وَدَعَا أَبَا الْفَضْلِ إِلَى أَنْ يَسْتَخْلَصَ مِنْ تِلْكَ الْوَثَائِقِ مَا يَخْصُهُ هُوَ، عَلَى أَنْ يُجْمَعَ فِي كِتَابٍ لَهُ خَاصَّةً هُوَ مَخْطُوطَةٌ «أكبر نامه» الَّتِي هِيَ سِيرَةُ لِلْإِمْبَرَاطُورِ أَكْبَرٍ عَلَى لِسَانِ صَدِيقِهِ وَوَزِيرِهِ وَمُؤَرِّخِهِ «أَبُو الْفَضْلِ». وَمَعَ ذَلِكَ لَيْسَ الْكِتَابُ مَقْصُورًا عَلَى سِيرَةِ أَكْبَرٍ فَحَسْبَ بَلْ يَشْمَلُ كَذَلِكَ التَّارِيخَ الْبَاقِيَ لِلْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ الْمَغُولِيَّةِ.

وَتَكْشَفُ صَفَحَاتُ مَخْطُوطَةِ «أكبر نامه» عَنْ حَيَاةِ أَكْبَرِ الْحَافِلَةِ بِمُخْتَلِفِ النَّشَاطَاتِ الْمُفَعَّمَةِ بِالْحَيَوِيَّةِ، فَتَرَاهُ مَرَّةً يَصِيدُ الثُّمُورَ، وَمَرَّةً يَمْتَطِي الْفِيلَةَ وَمَرَّةً هُوَ يَقْتَحِمُ حِصْنًا رَاجِئِيًّا مَنِيعًا. كَمَا نَرَاهُ وَقَدْ جَلَسَ إِلَى رِجَالِ الدِّينِ مِنَ الْآبَاءِ الْيَسُوعِيِّينَ يُنَاقِشُهُمُ الرَّأْيَ، وَنَرَاهُ وَقَدْ أَخَذَ يُتَابِعُ بِنَاءَ عَاصِمَتِهِ الْجَدِيدَةِ فَتَحْبُورُ سِيَكْرِي، ثُمَّ نَرَاهُ وَهُوَ يَأْمُرُ بِإِغْرَاقِ أَحَدِ الثُّبُلَاءِ الْمُتَمَرِّدِينَ فِي مِيَاهِ النَّهْرِ لِخُرُوجِهِ عَلَى أَمْرِهِ (لَوْحَةٌ ٢١٩م).

أَمَّا النَّصُّ الْأَصْلِيُّ لِمَخْطُوطَةِ «بابر نامه» فَلَيْسَ إِلَّا حَوَالِيَاتُ فَحَسْبَ، ثُمَّ شَيْءٌ مِنْ سِيرَةِ بَابُورِ تُمَثِّلُ أَوَّلَ إِمْبَرَاطُورِ مَغُولِيٍّ فِي الْهِنْدِ. وَقَدْ كُتِبَتْ بِاللُّغَةِ التُّرْكِيَّةِ الْجَنْجَانِيَّةِ لُغَةً الْمَغُولِ الْأُولَى، وَحِينَ رُفِيَ تَقْدِيمُهُمَا إِلَى الْإِمْبَرَاطُورِ أَكْبَرٍ فِي ٢٤ نَوْفَمِيرِ ١٥٨٩ تَرَجَمَها إِلَى الْفَارِسِيَّةِ خَانَ خَانَانَ عَبْدَ الرَّحِيمِ الَّذِي كَانَ قَائِدًا لِلْجَيْشِ وَكَانَ أَيْضًا أَدِيبًا مُصَوِّرًا. وَيُقَالُ أَيْضًا إِنَّهُ لَمْ يَقُمْ بِتَرْجُمَةِ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ وَإِنَّمَا صَقَلَ تَرْجُمَةً أُولَى سَبَقَتْهُ. وَمِنْ بَيْنِ مُنْمَنَاتِ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ مُنْمَنَةٌ تُمَثِّلُ مَشْهَدَ مُعَسْكَرٍ يَحْتَفِظُ بِهَا الْمُتَحَفُّ الْقَوْمِيُّ بِنِيْدِلَهِي (لَوْحَةٌ ٤٠٨م) تَنْتَمِي إِلَى الْمَكْتَبَةِ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ أَصْلًا حَيْثُ تَحْمِلُ تَوْقِيعَ الْإِمْبَرَاطُورِ شَاهِ جِهَانَ وَكَذَا تَوْقِيعَاتِ الْفَنَّاوِنِ الَّذِينَ اشْتَرَكُوا فِي تَصْوِيرِهَا. وَالْمَعْرُوفُ أَنَّ حَيَاةَ الْمَغُولِ عَامَّةً تَكُونُ فِي مُعَسْكَرَاتٍ، لِذَا كَانَتْ قِيَلَاهُمُ مُعَسْكَرَاتٍ، وَيَبْدُو بِبَابُورِ فِي هَذِهِ الْمُنْمَنَةِ ذَا بَشَرَةٍ سَمَرَاءَ، وَتُعَدُّ مُنْمَنَاتُ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ مِنْ أَرْوَعِ مَا صُوِّرَ فِي عَهْدِ أَكْبَرٍ.

وَكَانَتْ هَذِهِ الْمَشْرُوعَاتُ الْفَنِّيَّةُ كُلُّهَا لَهَا صِبْغَةٌ خَاصَّةٌ تَمَيَّزَ بِهَا عَنْ سَابِقَاتِهَا مِنْ مَخْطُوطَاتٍ ظَهَرَتْ فِي الْمَرَحَلَةِ الْمُبَكِّرَةِ مِنْ عَهْدِ أَكْبَرٍ، حِينَ كَانَ هَمُّ الْإِمْبَرَاطُورِ مَخْصُورًا فِي مَخْطُوطَاتٍ مِثْلَ «تَوْتِي نَامِه» [قِصَصُ بَبْغَاءَ] وَ«حَمَزَةُ نَامِه» أَيْ فِي كُلِّ مَا هُوَ أَسْطُورِيٌّ خُرَافِيٌّ خَيَالِيٌّ. أَمَّا فِي هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ الْآخِرَةِ فَقَدْ أَمَرَ الْإِمْبَرَاطُورُ بِتَرْجُمَةِ مَا يَتَوَقَّعُ مِنَ الْعَقَائِدِ الدِّينِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ، فَإِنَّ ثِمَارَ كُلِّ عَقِيدَةٍ - عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ - يَجِبُ أَنْ تُنْفَى مِنْ أَشْوَاكِ الْوَهْنِيَّةِ.

هُكَذَا كَانَتْ مُنْمَنَاتُ عَهْدِ أَكْبَرٍ مُتَنَوِّعَةً، مِنْهَا التَّارِيخُ الْعَامُّ وَالسَّيْرُ الذَّائِيَّةُ وَالتَّقُولُ عَنِ الثُّبُوصِ الْهِنْدِيَّةِ وَالشَّعْرُ الْفَارِسِيُّ عَلَى نَحْوِ مَا نَرَى فِي مُنْمَنَةٍ مِنْ دِيْوَانِ حَافِظِ تُمَثِّلُ سَفِينَةَ نُوحٍ وَقَدْ حَمَلَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ اثْنَيْنِ إِنْسَانًا وَحَيَوَانًا وَطَيْرًا، وَيُقَالُ إِنَّ إِبْلِيسَ كَانَ يُوعَدُ بِإِغْرَاقِ هَذِهِ السَّفِينَةِ، لِذَا أَخَذَ بِعِنَاقِهِ أَوْلَادَ نُوحٍ وَقَدَّفُوا بِهِ إِلَى الْيَمِّ (لَوْحَةٌ ٤٠٩م).

وَمَا مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ عَهْدَ أَكْبَرٍ كَانَ زَاخِرًا بِعَدَدِ كَبِيرٍ مِنْ

الإمبراطورية المغولية. وثمة نص من عهد هُمَايون يَصِفُ التَّسْجِيَّاتِ المُرْسَمَةُ الأورِيبَّة المعلقة على جُدران القصر الإمبراطوري، كما أنَّ أكبر قد جاءته نسخة مُصَوَّرة من الإنجيل من بعثة التبشير اليسوعية التي نزلت أجرا عام ١٥٨٠.

ونلمس هذا الاتجاه أكثر وضوحاً في مخطوطة «أكبر نامه» الثانية (١٦٠٤م) على نحو ما نرى في مُنممة داود بتلقى رداء الشرف من منعم خان (لوحة ٢٢١م). فنظرة واحدة للمُضاهاة بين صور مخطوطة «حُمزه نامه» وصور مخطوطة «أكبر نامه» تكشف كيف انتقل المصورون المغول من أشكال الشخصيات النمطية المتوارثة عن التقاليد الإسلامية والهندية إلى رسم الشخصيات بذواتها، فإذا هي تمثل الشخص نفسه. وبينما كان يقوم على تصميم أي مُنممة من مخطوطات عام ١٥٨٠ فتان واحد يتولى تنفيذها بعده فتان مُساعد أصبحنا مع عام ١٥٩٠ نرى أنَّ الأمر يُوكل إلى فتان واحد ليحيى أشد إثنائاً، وهو ما كان يؤثِّره الإمبراطور.

ونرى لأبي الفضل كلمة يشكر بها الإمبراطور أكبر على تهنئته إياه بعد أن رفع إليه المُجلد الأول من مخطوطة «أكبر نامه» في عام ١٥٩٦ فيقول: «كم غرقت حَجَلًا في عرقي بتهنئة الإمبراطور إياي». ولقد كان المُجلد الأول الذي أهده أبو الفضل إلى أكبر يضم تاريخ ثلاثين عامًا من عهد الإمبراطور، كما يضم نبذة قصيرة عن حياة أسلافه. وكان أبو الفضل يعتزم أن يُتمها مُجلدات أربعاً إذ كان في تقديره أنَّ الإمبراطور سوف يمتد به العمر إلى مائة وعشرين سنة، ثم يُتوج هذا بمجلد خامس يضم مُجريات الحكم وأعمال الإمبراطور، غير أنه لم يوفق إلا في إتمام مُجلد ثالث اختار له عنواناً هو «حواليات الإمبراطور». على أنه لم يبق لنا من هذا العمل إلا مخطوطتان مُصورتان غير تاممتين حفظهما لنا الزمن، إحداهما بِمُتحف فكتوريا وألبرت والأخرى بِمكتبة حكومة الهند بلندن.

وكان المصورون في عهد أكبر عِدَّة، منهم ميرسيد علي التبريزي وخواجه عبد الصمد المُلقب بِاسم «شيرين قلم» أي القلم العذب وداسوت الذي وهب حياته كُلها للفن، وباسوان الذي اختص بِتصوير الخلفيات ورسم قسَمات الوجوه وتوزيع الألوان وتصوير البورتريهات. وثمة غيرهم مثل كيشوف ولال وموكوند ومسكين وفروخ ومادهوك وجاجان وماهيش وخيمكاران وتارا وسانلا وهارياس رام.

ويكفي ما عدده أبو الفضل من أسماء الفنانين المُقيمين في بلاط أكبر وسرده عنهم في كتابه «عين الأخبار» دليلاً على مدى الاهتمام الذي يُحيط به الإمبراطور فنانيه. ويعكس هذا كله بِغير شك مدى تقدير أكبر لهؤلاء المصورين الأفاضل ولإبداعاتهم. وقد روى أبو الفضل أنَّ أعمالهم كانت تخضع لِفحص أسبوعي، وأنَّ الإمبراطور كان يُجزل العطاء والهدايا أسبوعياً على قدر امتياز العمل. ومن المؤسف أنَّ تقليد إثبات التوقيعات على الصور لم

يُضبط بها عواطفه لاسيما الحكماء والأولياء الذين كانوا نمطاً يحتذيه الهندوس. وكان أن اعتدنا على كبير حكماء الهند أجاستيه فإذا هو يدعو على طاراقا بأن تَسْخِط على صورة سيئة تُشبه ما عليه عاطفتها، فإذا هي تنقلب إلى صورة وخش شيرير فييح قد تدلَّى ثدياه وقذفت عيناه بالشَّرر، كما انقلب ابنها إلى مارِد شيطاني، وإذا هما يعيثان في الغابة قتلاً وتذميراً. وحين انتهى فيشوا ميترا من سَرَد قصته رجا رامة في أن يُقضي على تلك الشَّيطانة الشريرة وابنها، غير أنَّ رامة لم يستجب لِرجاء الحكيم إذ كانت الشَّيطانة أنثى، والأنثى في رأيه لا تُمس بأذى، ولكن الحكيم لم يلبث برامة حتى أفتعه، فإذا رامة يمضي وأخاه في البَحْث عنها في الغابة، وإذا هو بين يدي طاراقا التي أقبلت عليهما تلعنهما وعيناها تَقْدَحان بالشَّرر ملوَّحة بِيديها اللتين أثارتا سُحْبًا من العُبار ثم أخذت تَقْدَحهما بالخصي. فأثار هذا المسلك منها غضب لاشممان لا سيما وأنه لم يبدُ منهما ما يثير حفيظتها، وإذا هو يصلم أذنتها ويَجِدع أنفها راجياً أن يردّها هذا وذاك إلى صوابها، غير أنها لم ترتدع وعاودت هُجومها وأخذت شكلها يتغير من حال سيئة إلى حال أسوأ، ثم إذا هي عِملاق قد ملأ الفضاء. عندها صوب رامة سهمه إليها فأزادها قتيلاً. ويُقال إن بدواني الذي وكل إليه الإشراف على نصي المهابهارته والزمايانه كان حذيراً كُل الحذر من موافقة أكبر على تلك الآراء المتطرفة لِلهندوس مثل تحريم ذبح البقر، وكان هذا منه بعد أن توثقت الصلة بينه وبين الهندوس، ثم من تقدس لِلبقر الذي هو عند الهندوس سبب الخُصب في الحياة.

ومن السهولة بِمكان تَمييز التطور الذي طرأ على فن التصوير المغولي في عهد أكبر بِتأمل مُنممة «كريشنه ومدينة دفاراكا الذهبية» من مخطوطة «رزم نامه» (١٥٨٥م) (لوحة ٤١١م) والتي نرى فيها مدينة دفاراكا التي أمر الإله كريشنه بِشُييدها بدلاً من مدينة ماتورا التي أتت عليها غارات الشَّيطان جاراساندا. ونرى كريشنه بلونه الأسمر وِردائه الأصفر جالساً بِغرفة في المدينة الذَّهبيَّة يُحيط به أتباعه الذين يُقدِّم له بعضهم الهدايا. وتدلُّ مشاهد السَّلام في أمامية الصورة مثل الراعي الذي يقدِّم قِطْعانه والرَّجُلان اللَّذَان يَتَحَدَثان عند بَوَّابة المدينة على أنَّ الرُّعب الذي كان يُسيطر على المدينة قد ولى إلى غير رجعة.

وتتجلى في هذه المُنممة خُريَّة أوسع في استخدام المساحات، كما إنَّ العمارة مُصَوَّرة بِأسلوب يكاد يكون ثلاثي الأبعاد بدلاً من التَّصميمات المُسطَّحة، وكذا نجد تصوير الكائنات الحيَّة مثل رعاة البقر والشجر قد صار تجسيمياً بِأسلوب يُوحى بِالإحساس بِالكتلة ضمن الفراغ المُتاح لها في المُنممة. كذلك يتناقص حجم الشُّخوص والعماير في الخلفيَّة عنه في الأمامية. ولعلَّ هذه الظاهرة وكذا ظاهرة التَّجسيم جاءت من أثر التقنيات الأورِيبَّة، فكثير من التَّحف الأورِيبَّة وَجَدَتْ طريقها إلى

بِتَّغَاءِ الْمَخْطُوطَةِ بِمَكْتَبَةِ تَشْسْتَرِ بِيْتِي بِدَبْلُنْ تَضَمَّ مُعَامَرَاتِ رومانسية تُجْرِي عَلَى لِسَانِ بِيَّتْغَاءِ، وَهِيَ مُتَرْجِمَةٌ عَنِ الْفَارْسِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ هِيَ الْأُخْرَى مُتَرْجِمَةً عَنِ أَصْلِ هِنْدِيٍّ، فَتَشْهَدُ فِي إِحْدَى الصُّوَرِ (لَوْحَةُ ٢٢٢م) رَجُلًا يَزْدَدِي ثَوْبًا بُرْتُقَالِيًّا مَشْغُولًا بِالْحَدِيثِ مَعَ فَتَاةٍ تَجْلِسُ فِي غُرْفَةٍ ضَيِّقَةٍ مِنْ وَرَاءِ بَابٍ قَدْ فُتِحَ أَحَدُ مِصْرَاعِيهِ، وَفِي الْيَسَارِ فَتَاتَانِ إِحْدَاهُمَا تَحْمِلُ رُجَاجَةً مُدْهَبَةً وَالْأُخْرَى تَحْمِلُ طَبَقًا مَلِيًّا بِالرُّتَمَانِ. وَقَدْ تَوَزَّعَتْ بَعْضُ صُورِ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ فِي أَتْنَاءِ شَتَّى مِنَ الْعَالَمِ، وَهُوَ مَا جَرَى لِكَثِيرٍ مِنَ الْمَخْطُوطَاتِ الْمَغُولِيَّةِ لِمَا لِيُصَوِّرَهَا مِنْ جاذِبِيَّةٍ أَغْرَتِ الْمُعْجِبِينَ بِاقْطَاعِهَا. وَهُنَاكَ نُسخَةٌ أُخْرَى مِنْ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ يَحْتَفِظُ بِمُعْظَمِ مُنَمَّنَاتِهَا الَّتِي تَبْلُغُ مَاتَتَيْنِ وَخَمْسِينَ عَشْرَةً مُتَخَفٍ كَلِيْفْلَانْدِ لِلْفُنُونِ، يَرْتَبِطُ أَسْلُوبُهَا بِالْأُسْلُوبَيْنِ الرَّاجِحَتَيْنِ وَالْإِسْلَامِيِّ الْمُبَكَّرِ فِي رَاجِسْتَانِ وَالذِّكْنِ وَوَسَطِ الْهِنْدِ.

وَتَمَّةٌ مَخْطُوطَةٌ لَهَا شَأْنُهَا تَمَّتْ فِي أَوَاخِرِ عَهْدِ أَكْبَرٍ تُصَوِّرُ قِصَّةَ مِنْ قِصَصِ جُلُسْتَانِ لِلشَّاعِرِ الْفَارْسِيِّ سَعْدِيِّ الَّذِي عُرِفَ شِعْرُهُ بِالْجَزَالَةِ وَاشْتَهَرَتْ قِصَصُهُ بِالْإِنْطِيعَاتِ الْأَخْلَاقِيَّةِ، وَكَانَتْ اللَّغَةُ الْفَارْسِيَّةُ مَصْدَرٌ مُتَعَةً أَدْبِيَّةً كَبِيرَةً فِي بَلَاطِ أَكْبَرٍ بِاعْتِبَارِهَا لُغَةً الْحَضَارَةِ الْأُمِّ. فَبَيْنَمَا كَانَ الشَّاعِرُ سَعْدِيُّ يَخْطُبُ ذَاتَ يَوْمٍ بِالْمَسْجِدِ الْأُمَوِيِّ بِدِمَشْقِ وَسَطِ جُمْهُورٍ غَيْرِ عَائِيٍّ بِمَا يَقُولُ، إِذَا رَجُلٌ يَمُرُّ بِالْمَسْجِدِ، وَحِينَ سَمِعَ تَفْسِيرَهُ لِآيَةٍ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ انْتَفَضَ مُنْجَذِبًا، وَمَا لَبِثَ جُمْهُورُ الْمُصَلِّينَ أَنْ هَتَفُوا مُعْجِبِينَ. وَبِمَضِيِّ سَعْدِي قَانَلَا «إِنَّ الَّذِينَ كَانُوا خَارِجَ الْمَسْجِدِ وَلَمْ يَسْمَعُوا حَدِيثَهُ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى عِلْمٍ هُمْ أَقْرَبُ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَانُوا دَاخِلَ الْمَسْجِدِ وَأَعْجَبُوا بِحَدِيثِهِ عَنْ جَهْلٍ» (لَوْحَةُ ٤١٣م). وَهَذَا الْمَشْهَدُ الْمُصَوَّرُ مِنْ عَمَلِ الْفَتَّانِ مُسْكِينِ الَّذِي تَمَيَّزَ بِتَقْنِيَّةٍ خَاصَّةٍ وَبِقُدْرَتِهِ الْفَائِقَةِ عَلَى التَّفَرُّقَةِ فِي صُورِهِ بَيْنَ الصِّفَاتِ الْخَلْقِيَّةِ.

وَتَمَّةٌ صُورَةٌ مِنْ عَامِ ١٦٠٢ لِاسْتِشْهَادِ الصُّوفِيِّ حُسَيْنِ بْنِ مَنْصُورِ الْحَلَّاجِ فِي عَامِ ٩٢٢ بِبَغْدَادِ تُعَزَّى إِلَى مِيرِ عَبْدِ اللَّهِ صَاحِبِ «الْقَلَمِ الْمُسْكِ» يَحْتَفِظُ بِهَا الْوَلْتَرزِ چاليري بِوِاشِينْغْتُنْ (لَوْحَةُ ٤١٤م). وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ مُصَوِّرًا مَاهِرًا تَعْبِيرُهُ الْوَافِي عَنْ مَأْسَاةِ الْحَلَّاجِ فَفِيهِ إِزْهَافٌ جَسَدِيٌّ بِالْبَلْغِ مِنْ حَيْثُ تَعْبِيرُهُ عَنْ قَسَمَاتِ الْوُجُوهِ وَتَأَثُّرِهَا بِالْحَدَثِ مِنْ حَوْلِهَا، فَإِذَا هُوَ يَبْلُغُ الْقِمَّةَ فِي تَصْوِيرِ الشَّهِيدِ. وَكَذَا وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى بُرُوغِهِ تَصْوِيرُهُ لِمُرِيدٍ مِنْ مُرِيدِي الْحَلَّاجِ وَهُوَ يُمَزَّقُ ثَوْبُهُ الْأَزْرَقُ خُرْنًا وَأَسَى عَلَى مَقْتَلِ مَوْلَاهُ، ثُمَّ تِلْكَ الصُّورَةُ الَّتِي تُمَثِّلُ مُرِيدًا آخَرَ رَافِعًا يَدَيْهِ مُوَلَّوْلًا صَارِخًا، ثُمَّ تَصْوِيرُهُ لِمُرِيدٍ ثَالِثٍ يَنْبَطِجُ عَلَى الْأَرْضِ جَزَعًا وَخُرْنًا بَيْنَمَا يُحَاوِلُ رَفِيقَ لَهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْهُ. وَعَلَى حَيْثُ نَرَى سِمَاتِ الْأَسَى بَادِيَةً عَلَى وَجُوهِ أَتْبَاعِ الْحَلَّاجِ نَرَى سِمَاتِ الْعُنفِ وَالْقَسْوَةِ عَلَى وَجُوهِ الْجَلَادِينَ. وَالْمُنْمَنَةُ فِي تَلْوِينِهَا تَفْيِضُ نَرَاءً، وَتَكَادُ تَخْتَفِي فِيهَا مُرَاعَاةَ قَوَاعِدِ الْمُنْظُورِ إِلَّا فِي الْقَلِيلِ، وَهُوَ مَا يَتَبَيَّنُ فِي

يَتَشَبَّهِ إِلَّا قُبَيْلَ انْجِطَاعِ فَنِّ التَّصْوِيرِ الْإِسْلَامِيِّ، وَإِلَّا لَكَانَتْ لَدُنَا الْيَوْمَ حَصِيلَةٌ وَفِيرَةٌ فِي هَذَا الْمَجَالِ. كَمَا يَقُورُّ أَبُو الْفَضْلِ أَنَّ مُصَوِّرِي الْإِمْبَرَاتُورِ أَكْبَرَ كَانُوا يَحْصِلُونَ عَلَى مُرْتَبَاتٍ شَهْرِيَّةٍ، وَأَنَّ الْعَلَاقَةَ الْوَثِيقَةَ بَيْنَ الْفَتَّانِ كَمُصَوِّرٍ أَوْ كَجَرَفِيٍّ أَوْ كَمُوظَفٍ بِرئيسِهِ ظَلَّتْ سَائِدَةً فِي الْهِنْدِ. وَمِنْ الْمُؤَكَّدِ أَنَّهُ بَعِيرُ هَذَا التَّأْيِيدِ وَتِلْكَ الْمَعُونَةُ لَمْ يَكُنْ لِيَتَيَسَّرَ لِلْفَتَّانِ أَنْ يُبْدِعَ مِثْلَ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الرَّفِيعَةِ الْمُسْتَوَى، وَلِتَعُدَّرَ عَلَيْهِ أَنْ يَهَبَ مِنْ وَقْتِهِ وَجَهْدِهِ وَنَفْسِهِ مَا يَصِلُ بِهِ إِلَى الْإِجَادَةِ وَالْإِبْدَاعِ، فَمِثْلُ هَذِهِ الرُّوَائِعِ يَسْتَحِيلُ أَنْ تَخْرُجَ إِلَى التُّورِ وَالْفَتَّانِ فِي عَجَلَةٍ مِنْ أَمْرِهِ وَحِينَ يَشْغُلُ عَنْهَا بِتَدْبِيرِ أُمُورِ مَعَايِشِهِ الْيَوْمِيَّةِ.

كَانَ جُزْءٌ مِنَ النَّجَاحِ الَّذِي حَقَّقَهُ أَكْبَرُ بَانِيًا مِنْ بِنَاءِ الْإِمْبَرَاتُورِيَّةِ يَرْجِعُ إِلَى تَسَامُحِهِ الدِّينِيِّ غَيْرِ الْمَعْهُودِ، فَقَدْ كَانَ مُتَفَتِّحَ الذَّهْنِ لَا اعْتِرَاضَ لَهُ عَلَى آيَةٍ عَقِيدَةٍ وَدِينِيَّةٍ أُخْرَى. وَلِهَذَا أَثَرُهُ الْكَبِيرُ فِي أَسْلُوبِ تَصْوِيرِ الْمَخْطُوطَاتِ الْمَغُولِيَّةِ خِلَالَ عَهْدِهِ، فَلَقَدْ خَفَزَتْ أَكْبَرُ طَبِيعَتِهِ التَّوْفِيقِيَّةِ إِلَى أَنْ يَسْتَعِينَ بِفَتَّانِينَ مِنْ مُخْتَلِفِ الْأَدْيَانِ يُشْرِفُ عَلَيْهِمْ أَسَايِدُهُ وَفَدُوا إِلَى الْهِنْدِ مِنْ فَارِسٍ. كَذَلِكَ ضَمَّ بَلَاطُهُ عَدَدًا مِنَ الْيَسُوعِيِّينَ الْبُرْتُغَالِيِّينَ الَّذِينَ جَهَدُوا جُهْدَهُمْ فِي أَنْ يَضْمُوا الْإِمْبَرَاتُورِ وَحَاشِيَتِهِ إِلَى الْمَسِيحِيَّةِ وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يُفْلِحُوا، وَكَانَ غَرَضُ أَكْبَرٍ مِنْ ضَمِّ هَؤُلَاءِ الْيَسُوعِيِّينَ إِتَابَةُ فُرْصَةٍ أَوْسَعٍ لِلْمُنَاقَشَاتِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَدُورُ فِي مَجْلِسِهِ. وَمَا لَبِثَ أَنْ امْتَدَّ أَثَرُ التَّصْوِيرِ الْأُورُوبِيِّ إِلَى التَّصْوِيرِ الْمَغُولِيِّ، كَمَا هِيَ الْحَالُ فِي الْمَنَاطِرِ الطَّبِيعِيَّةِ الَّتِي نَرَاهَا تَمَلًّا الطَّرْفَ الْبَعِيدَ مِنَ الْمُنَمَّنَاتِ الْمَغُولِيَّةِ، يُحَاكُونَ بِهَا الصُّورَ الْأُورُوبِيَّةَ مَا صُوِّرَ مِنْهَا وَمَا طُبِعَ عَلَى الْحَجَرِ أَوْ الْمَعْدِنِ، وَقَدْ يُغَالُونَ فَيَنْقُلُونَ الْمَوْضُوعَاتِ الْأُورُوبِيَّةَ الْمُصَوَّرَةَ كَمَا هِيَ، كَمَا نَرَى فِي لَوْحَةِ زِيَارَةِ الْعَذْرَاءِ مَرْيَمَ لِإِلْيَاصَابَاتِ (لَوْحَةُ ٤١٢م). وَهَكَذَا بَدَأَتْ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ تَظْهَرُ بَعْضُ غَنَائِمِ التَّصْوِيرِ الْأُورُوبِيِّ مِثْلُ اتِّبَاعِ قَوَاعِدِ الْمُنْظُورِ وَتَقْنَةُ الْإِشْرَاقِ وَالْعَتَمَةِ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَ التَّحَوُّلُ الَّذِي امْتَزَجَتْ فِيهِ الْخُطُوطُ وَالْأَلْوَانُ الْفَارْسِيَّةُ بِالْوَاقِعِيَّةِ الْأُورُوبِيَّةِ وَالْأَسَالِيبِ الْهِنْدِيَّةِ الْمَحَلِّيَّةِ، وَغَدَا التَّصْوِيرُ الْمَغُولِيُّ فِي صَدْرِ الْقُرُونِ السَّابِعِ عَشَرَ قُرْعًا قَائِمًا بِذَاتِهِ مِنْ قُرُوعِ التَّصْوِيرِ الْإِسْلَامِيِّ.

وَكَانَ جُلٌّ مَا يُصَوِّرُ لِتَجْمِيلِ الْمَخْطُوطَاتِ، وَمِنْ بَيْنِ هَذِهِ الْمَخْطُوطَاتِ مَخْطُوطٌ خُصَّ بِالْفَلَّكِ هُوَ «كِتَابُ السَّاعَاتِ» (١٥٨٣)، عَلَمًا بِأَنَّ الْمَخْطُوطَاتِ الْمَغُولِيَّةَ الْمُؤَرَّخَةَ قَبْلَ عَامِ ١٦٠٠ كَانَتْ مِنَ الثَّرْدَةِ بِمَكَانٍ. وَتُنْسَبُ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةُ إِلَى وَاحِدٍ مِنْ رُعَاةِ الْفَنِّ فِي حَاجِي پُورِ وَكَانَ مُقَرَّبًا إِلَى الْإِمْبَرَاتُورِ أَكْبَرٍ، وَهِيَ تُمَثِّلُ الْأَسْلُوبَ الْمَغُولِيَّ فِي قِيَمَةِ نَضْجِهِ، كَمَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْمَخْطُوطَاتِ كَانَ فِي الْإِمْتِنَانِ إِنْجَازُهَا خَارِجَ نِطَاقِ الْبَلَاطِ الْإِمْبَرَاتُورِيِّ. وَإِلَى جِوَارِ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ تَمَّةٌ مَخْطُوطَاتُ أُخْرَى مِنْ عَهْدِ أَكْبَرٍ تَدُلُّ عَلَى تَنْوُّعِ الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي ظَفِرَتْ بِالتَّصْوِيرِ؛ فَتَرَى مِثْلًا أَنَّ نُسخَةَ مَخْطُوطَةِ «تَوْتِي نَامَه» أَوْ قِصَصِ

رَسَمَ پورتره له (لَوْحَة ٤١٧م) فَلَقِيَ رَبَّهُ بَعْدَ شَهْرٍ وَاحِدٍ مِنَ الْمَرَضِ. وَنَرَى مِنْ وَرَائِهِ خَفِيهِهِ الْعُلَامُ الْأَمِيرُ خورام [شاه جهان فيما بَعْدَ] يَتَحَدَّثُ إِلَى أَخِيهِ السَّكِيرِ الْأَمِيرِ خُشْرُو، وَبَيْنَ يَدَيْ أَكْبَرِ طَبِيبِهِ الْخَاصِّ الْمُشْرِفِ عَلَى عِلَاجِهِ، وَثَمَّةٌ صَيَادٌ يُحَاوِلُ سُدَى أَنْ يَجْذِبَ إِلَيْهِ اثْنِيَاةً أَحَدَ كِلَابِ الصَّيْدِ.

الإمبراطور نور الدين مُحَمَّد جِهَانْغِير (١٦٠٥ - ١٦٢٧)

ما إنْ اغْتَلَى الْأَمِيرُ سَلِيمُ الْعَرْشِ حَتَّى أَضْفَى عَلَى نَفْسِهِ لَقَبَ «جِهَانْغِير» أَيْ «فَاتِحِ الْعَالَمِ». وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ مُذَكِّرَاتِهِ تُوحِي بِأَنَّهُ كَانَ حَاكِمًا مُسْتَبِدًّا لَا يَتَبَتَّ عَلَى رَأْيٍ، إِلَّا أَنَّنَا نَرَاهُ مَرَّةً رَحِيمًا بِالْحَيَوَانِ كَمَا هُوَ رَحِيمٌ بِالْإِنْسَانِ وَمَرَّةً نَرَاهُ غَيْرَ رَحِيمٍ، وَكَذَا نَرَاهُ عَاطِفِيًّا مَرَّةً وَغَيْرَ عَاطِفِيٍّ مَرَّةً أُخْرَى. وَمِنْ رَحْمَتِهِ أَنَّهُ حِينَ رَأَى أَفْيَالَهُ تَزْتَعِدُ فَرَاثِصَهَا مِنْ بُرُودَةِ الْمَاءِ فِي الشِّتَاءِ أَمَرَ بِتَذْفِيفَةِ الْهَيَاءِ لِاسْتِحْضَامِهَا. وَكَانَ مُتَذَوِّقًا لِلْجَمَالِ تَوَاقًا إِلَى الْمَعْرِفَةِ، وَنَرَاهُ قَدْ شَبَّهَ مَبْنَى بَدِيْعًا تَخْلِيْدًا لِذِكْرِ طَبِيبِهِ الْأَثِيرِ. وَكَانَ إِذَا مَا أُعْجِبَ بِالْبَّانِ إِحْدَى التَّوَقُّ أَخَذَ يَحْتِثُ عَنْ أَيِّ طَعَامٍ تَأْكُلُ، وَإِذَا هُوَ يَأْمُرُ بِأَنْ يَكُونَ هَذَا الطَّعَامُ هُوَ طَعَامُ كُلِّ قُطْعَانِهِ. وَكَمْ كَانَ رِجَالُ بِلَاطِهِ حَرِيصِينَ عَلَى أَنْ يُدْخِلُوا السَّرُورَ إِلَى نَفْسِهِ، فَيَجْمَعُونَ لَهُ مِنْ الْأَخْبَارِ مَا هُوَ عَجِيبٌ، وَيَتَحَفُّونَهُ مِنَ الْهَدَايَا مَا هُوَ غَيْرُ مَأْلُوفٍ، وَيَجْلِبُونَ إِلَيْهِ مَا هُوَ غَرِيبٌ مِنَ حَيَوَانِ الْبِلَادِ الثَّانِيَةِ وَمِثْلَ حَيَوَانِ الزُّبْرَا الَّذِي خِيلَ إِلَيْهِ فِي مَبْدَأِ الْأَمْرِ أَنَّ الْخُطُوطَ الَّتِي تَعْلُو ظَهْرَ هَذَا الْجِمَارِ لَيْسَتْ مِنْ فِعْلِ الطَّبِيعَةِ وَإِنَّمَا هِيَ مِنْ صُنْعِ صَانِعٍ، وَمَا لَبَثَ بَعْدَ أَنْ رَأَاهُ أَنْ ضَمَّهُ إِلَى خَدِيقَةِ حَيَوَانِهِ. وَثَمَّةُ فَتَانٍ مِنْ فَتَاتِي هَذَا الْعَصْرِ يُسَمَّى الْأُسْتَاذُ مَنُصُورَ رَسَمَ هَذَا الْجِمَارَ فِي أَبْدَعِ صُورَةٍ (لَوْحَة ٣٩٦م)، وَمِنْ أَجْلِ هَذَا خَلَعَ عَلَيْهِ جِهَانْغِيرُ لَقَبَ «نَادِرِ عَصْرِهِ» كَمَا خَلَعَ عَلَى غَيْرِهِ لَقَبَ نَادِرِ الزَّمَانِ. وَيُرْوَى الْإِمْبَرَاطُورُ فِي مُذَكِّرَاتِهِ أَنَّهُ لَيْسَ ثَمَّةُ ثَالِثٌ لِهَذَا الْفَتَانِ وَمُصَوِّرٌ آخَرُ يُسَمَّى أَبَا الْحَسَنِ، وَلَمْ يُبَالِغِ الْإِمْبَرَاطُورُ فِي هَذَا اللَّقَبِ الَّذِي خَلَعَهُ عَلَى مَنُصُورٍ لِأَنَّهُ كَانَ قَرِيدًا فِي رَسْمِهِ. وَعَلَى حِينٍ كَانَ مَنُصُورٌ رَسَامًا فَحَسَبَ يَرَسُمُ مَا يُعْهَدُ إِلَيْهِ رَسْمُهُ كَانَ أَبُو الْحَسَنِ مَنُصُورًا يُجِيدُ التَّصْوِيرَ. وَمِنْ إِعْجَابِ الْإِمْبَرَاطُورِ بِالْفَتَانِ مَنُصُورٍ أَوْعَزَ إِلَيْهِ أَنْ يَرَسُمَ الطَّائِرَ الْمَائِيَّ الْفَرِيدَ الْمُسَمَّى بِالسَّجَّاحِ، وَجَاءَ فِي مُذَكِّرَاتِ جِهَانْغِيرِ أَنَّهُ رَسَمَ مَا يَزُوبُ عَلَى مَائَةٍ رَسْمٍ لِأَزْهَارِ تَنْبَتِ فِي كَشْمِيرٍ. أَمَّا الْحَوَاشِي الَّتِي تُحِيطُ بِرَسْمِ جِمَارِ الْوَحْشِ الَّتِي تَتَكَوَّنُ مِنَ التَّوْرِيقَاتِ الْمُشَابِكَةِ الْحَزَلَوِيَّةِ لِأَزْهَارِ وَالْكُرُومِ فَلَمْ تُكُنْ مِنْ رَسْمِ مَنُصُورٍ بَلْ أُضِيفَتْ إِلَى الرُّسْمِ قَبْلَ أَنْ يَضْمَهُ مَضْمٌ مَلِكِيٌّ لِلصُّورِ.

وَمَعَ وَلَعَ جِهَانْغِيرُ بِالْفُنُونِ فَقَدْ كَانَ مَعْنِيًّا بِمَا يُفِيدُ شَعْبَهُ، إِذَا عَاشَ هَذَا الشَّعْبُ فِي رَخَاءٍ وَاسِعٍ وَأَمْنٍ دَائِمٍ لَا حُرُوبَ فِيهِ. وَكَانَتْ أَيَّامُهُ تَتَسَبَّحُ لِاسْتِقْبَالِ زَائِرِيهِ وَالْقَضَاءِ فِي حَوَائِجِ النَّاسِ، حَتَّى إِتَهَ لِكَيْ يُسَرَّ عَلَى طَائِلِي الْحَاجَاتِ مَشَقَّةَ السَّعْيِ إِلَيْهِ جَعَلَ عَلَى بَابِ قَصْرِهِ جَرَسًا يَتَدَلَّى مِنْهُ حَبْلٌ يَشْدَهُ صَاحِبُ الْحَاجَةِ فَيَكُونُ

صُورَ الْأَشْخَاصِ الْوَاقِفِينَ بِالْقُرْبِ مِنْ مَدِينَةِ بَغْدَادَ فَهُمْ أَقَلُّ حَجْمًا مِنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَرَاهُمْ فِي أَمَامِيَّةِ الصُّورَةِ. وَنَرَى الْبِعْمَارَ الْهِنْدِيَّ قَدْ طَغَى شَيْئًا عَلَى الْمُتَمَنِّمَةِ، فَإِذَا نَحْنُ نَرَى صُورَةَ بَغْدَادِ الْعَرَبِيَّةِ عَلَى التَّمِطِ الْهِنْدِيِّ. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ تِلْكَ الرَّحْمَةِ الْمُتَمَثِّلَةِ فِي الْمُتَمَنِّمَةِ فَثَمَّةُ رَهْبَةٍ تَسُودُ الْمَشْهَدَ، وَلَعَلَّ هَذَا يُعْزَى إِلَى تِلْكَ الْمَأْسَاةِ الَّتِي وَقَعَتْ لِلْحَلَّاجِ، وَمِمَّا يُخَفِّفُ مِنْ تِلْكَ الرَّهْبَةِ الْمَشْهَدِ الطَّبِيعِيُّ فِي الصُّورَةِ.

وَلَيْسَتْ كُلُّ صُورَةٍ عَهْدِ أَكْبَرِ صُورًا لِتَجْمِيلِ الْمَخْطُوطَاتِ وَحْدَهَا، بَلْ كَانَ هُنَاكَ الْعَدِيدُ مِنَ الصُّورِ الْقَائِمَةِ بِذَاتِهَا يُحْتَفَظُ بِهَا فِي «مَضْمَنَاتٍ»، كَمَا كَانَ بَعْضُهَا دِرَاسَاتٍ فَتِيَّةٍ سَوَاءٌ لِلثَّبَاتِ أَوْ الْحَيَوَانِ أَوْ الْإِنْسَانِ. كَذَلِكَ عُيِّنَ أَكْبَرُ عِنَايَةً شَدِيدَةً بِپورترهياتِ رِجَالِ الْبِلَاطِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ كَانَ يَأْسُ إِلَيْهِمْ، وَكَانَ حَرِيصًا عَلَى ضَرُورَةِ الْمُحَاكَاةِ الدَّقِيقَةِ. وَمِنْ هَذِهِ الْپورترهياتِ كَوْنُ مَضْمُنًا ضَخْمًا لِلصُّورِ ضَمَّنَ بِهِ لِمَنْ تَوَفَّاهُمْ اللَّهُ حَيَاةً جَدِيدَةً وَاكْتَسَبَ مَنْ لَا يَزَالُ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ خُلُودَ الذِّكْرِ. وَهَكَذَا أَمَرَ فَتَاتِيهِ أَنْ يُعْنُوا بِالْحَقِيقَةِ لَا بِالرَّمْزِ فِي تَصْوِيرِ پورترهياتِهِمْ، وَكَانَتْ قَبْلُ تَمِيلُ إِلَى الرَّمْزِ، وَبِهَذَا غَدَّتِ الْپورترهياتِ فِي عَهْدِ أَكْبَرِ تُخَالِفُ كَثِيرًا الْمَنَاجِيزَ الْإِسْلَامِيَّةَ وَالْهِنْدِيَّةَ.

وَمِنْ نَمَازِجِ الدَّرَاسَاتِ الْفَتِيَّةِ لِلطَّبِيعَةِ صُورَةُ الْفُهُودِ الصَّيَّادَةِ (لَوْحَة ٤١٥م) الَّتِي تُمَثِّلُ نَمُودَجًا مُبَكِّرًا لِلْفَنِّ الْمُسْتَقِلِّ بِذَاتِهِ، صُوِّرَتْ عَلَى نَسْجٍ قُطْنِيٍّ، وَهِيَ لَا تُصَوِّرُ حَدِيثًا بَعِيْنَهُ وَلَا تَخْدُمُ نَصًّا مِنَ التَّنُصُوصِ بَلْ هِيَ تَسْجِيلٌ لِجَمَاعَةٍ مِنَ الْفُهُودِ الصَّيَّادَةِ الْمَعْرُوفَةِ بِاسْمِ «تَشِينَا»، وَكَانَتْ لَهَا أَهْمِيَّةٌ خَاصَّةٌ بَيْنَ مَغُولِ الْهِنْدِ لِقُدْرَتِهَا الْفَائِظَةِ عَلَى الصَّيْدِ. وَهَذِهِ الصُّورَةُ لِجَمَاعَةِ الْفُهُودِ بِالْغَايَةِ لَمْ تَجْعَلْ إِلَّا عَنْ دِرَاسَاتٍ أَمَلَتْهَا عَلَى الْفَتَانِ رِحَالَاتِ الصَّيْدِ الَّتِي شَارَكَ فِيهَا، الْأَمْرُ الَّذِي أَعَانَهُ عَلَى تَقْدِيمِ هَذِهِ الصُّورَةِ. وَكَانَ مَنَظَرُ الْفُهُودِ الصَّيَّادَةِ فِي شُهُولِ الْهِنْدِ وَجِبَالِهَا أَمْرًا مَأْلُوفًا خِلَالَ الْقُرُونِ السَّادِسِ عَشَرَ، غَيْرَ أَنَّ هَذَا الْخَيَوَانَ مَا لَبَثَ أَنْ انْقَرَضَ وَكَانَ آخِرُ مَا شُوْهِدَ فِي عَامِ ١٩٤٨. وَكَمْ تَلَفْتُنَا مُتَمَنِّمَةُ الْفِيلِ الْمُقَيَّدِ بِالسَّلَاسِلِ (لَوْحَة ٤١٦م) مِنْ تَصْوِيرِ الْفَتَانِ فُرُوحَ، وَلاَسِيْمَا حَاشِيَتِهَا الرَّاحِرَةُ بِالزُّخَارِفِ الْحَيَوَانِيَّةِ وَالنَّبَاتِيَّةِ الرَّائِعَةِ.

وَلَقَدْ أَظَلَّتْ أَيَّامُ أَكْبَرِ الْأَخِيرَةِ سَحَابَةً كَثِيفَةً حِينَ تَمَرَّدَ عَلَيْهِ ابْنُهُ سَلِيمُ الَّذِي لَمْ يَرُزَقِ الصَّبْرَ إِلَى أَنْ يُوْوَلَ إِلَيْهِ الْحُكْمُ. فَبَعْدَ عَامِ ١٦٠٠ اِذْعَى أَنَّهُ الْمَلِكُ وَسَارَ عَلَى رَأْسِ جَيْشٍ جَرَّارٍ مِنْ مَدِينَةِ اللَّهِ أَبَادَ حَيْثُ كَانَ حَاكِمًا لَهَا نَحْوَ الْعَاصِمَةِ، الْأَمْرُ الَّذِي فَرَّغَ لَهُ أَكْبَرُ فَدَعَا إِلَيْهِ صَدِيقَهُ أَبَا الْفَضْلِ مِنَ الدَّكْنِ لِيُسَانِدَهُ، وَلَمْ يَلْتَقِ الْجَيْشَانِ بَعْدَ أَنْ تَوَعَّدَ أَبُو الْفَضْلِ ابْنَ الْإِمْبَرَاطُورِ فَرَجَعَ عَنْ مُحَاوَلَتِهِ وَلَكِنِ تَهَوَّلَ لِأَبِي الْفَضْلِ الضَّغِينَةُ، فَإِذَا هُوَ يُوقِعُ بِهِ فِي كَمِينٍ دَبَّرَهُ أَحَدُ حُلَفَائِهِ عَامَ ١٦٠٢ دُبِحَ فِيهِ أَبُو الْفَضْلِ وَأُرْسِلَ رَأْسُهُ إِلَى سَلِيمٍ. وَمَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ غَفَرَ أَكْبَرُ لِابْنِهِ تَمَرُّدَهُ وَجَرِيْمَتِهِ الشَّنْعَاءَ، وَمَا لَبَثَ أَكْبَرُ أَنْ مَرَضَ فِي سِبْتَمْبَرِ ١٦٠٥ بَعْدَ أَنْ فَرَّغَ الْفَتَانُ مَانُوَهَارَ مِنْ

هذا إندانا لَهُ بِالْذُّخُولِ.

وعلى الرَّغْمِ مِنْ تَعَدُّدِ حَرِيمِ الْبَلَاطِ فَقَدْ كَانَ وَلِئَا بِرُؤُوسِهِ «نور جهان» التي كَانَتْ ابْنَةً لِرَجُلٍ فَارِسِيٍّ مِنْ بِلَاطِهِ اسْمُهَا أَوَّلًا يَهْرُونِيسَا، يَدُلُّنَا عَلَى ذَلِكَ تِلْكَ الْأَلْقَابُ الَّتِي خَلَعَهَا عَلَيْهَا، مِثْلَ «نور محل» أي نُورِ الْقَصْرِ فِي مَبْدَأِ الْأَمْرِ ثُمَّ «نور جهان» أي «نور العالم». وَكَانَ فِيهَا طُمُوحٌ، فَإِذَا هِيَ تَخْلَعُ عَلَى أَبِيهَا لَقَبَ «اعْتِمَادِ الدَّوْلَةِ» وَتَضُمُّ أَخَاهَا إِلَى الْبَلَاطِ، فَأَصْبَحَتْ بِهِمَا ذَاتُ سُلْطَةٍ كَبِيرَةٍ فِي الدَّوْلَةِ، ثُمَّ زَوَّجَتْ ابْنَهَا «خورام» مِنْ بِنْتِ أَخِيهَا أَرْجَمَنْد. وَهِيَ عَلَى هَذَا كَانَتْ مُوَلَّيَّةً بِالْفُنُونِ فَإِذَا هِيَ تُسْرِفُ فِي ضَرْحِ أَبِيهَا فَتَجْعَلُهُ عَلَى دَرَجَةٍ مِنَ الْفَخَامَةِ عَظُمَى، كَمَا كَانَتْ ذَاتُ خَيْرَةٍ وَاسِعَةٍ بِالْعُطُورِ وَالْأَزْيَاءِ، جَوَادَةٍ كَرِيمَةٍ حَازِقَةٍ فِي الرَّمَايَةِ. وَكَانَتْ إِلَى هَذَا كُلِّهِ تَمِيلُ إِلَى تَذْيِيرِ الْمَكَائِدِ وَالْمُؤَامَرَاتِ وَتُجِيدُ هَذِهِ الْهَوَايَةَ إِجَادَةً كَامِلَةً، وَلَعَلَّ مَا دَفَعَهَا إِلَى ذَلِكَ أَنَّهَا وَجَدَتْ مِنْ حَوْلِهَا أَكْثَرَ مِنْ وَارِثٍ لِلْعَرْشِ غَيْرِ ابْنِهَا، وَمِنْ هُنَا تَعَدَّدَتْ مُؤَامَرَاتُهَا الَّتِي لَا تَسْتَعِجِلُ لَهَا إِلَّا مُجَلَّدَاتٍ كَبِيرَةٍ. وَمَعَ هَذَا لَمْ تَنْسَ أَنْ تَكُونَ وَفِيَّةً لِرُؤُوسِهَا الْوَفَاءَ كُلَّهُ، حَرِيصَةً عَلَى أَنْ تُفَرِّجَ عَنْهُ وَتَرَاهُ بَيْنَ يَدَيْهَا سَعِيدًا مَا كَلَّفَهَا ذَلِكَ، فَلَقَدْ كَانَتْ تَعْرِفُ فِي رُؤُوسِهَا رَغْبَتَهُ فِي أَنْ يُحَاطَ بِالْحَرِيمِ فَكَانَتْ تَخْتَارُ لَهُ أَجْمَلَ النِّسَاءِ مَعَ اخْتِيَاطِهَا لِئَلَّا يَكُونَ وَرَاءَ هَذَا الْاِخْتِيَارِ مَا يَهْدِدُ مَكَانَتَهَا. وَلَقَدْ لَبِثَتْ نَوْرُجَهَانَ دَوْرًا فِي تَطَوُّرِ قَبْلِ التَّصْوِيرِ الْمَغُولِيِّ بِإِسَاعَتِهَا إِحْسَاسًا جَدِيدًا بِالرُّفَّةِ تَجَلَّى فِي الثِّيَابِ الْبَيْضَاءِ الرَّهِيْفَةِ الشَّفَافَةِ لِلرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ عَلَى السَّوَاءِ، كَمَا تَجَلَّى فِي الرُّخَامِ الْأَبْيَضِ الْمُكَمَّلِ فِي تَصْوِيرِ الْعِمَارِ، وَفِي فَيْضِ الْأَلْوَانِ الْمُخَفَّفَةِ، حَتَّى بَاتَتْ حَقَبَةُ حُكْمِ جِهَانَجِيرِ تُعَدُّ الْعَصْرَ الذَّهَبِيَّ لِلتَّصْوِيرِ الْمَغُولِيِّ.

وَكَانَتْ مَدْرَسَةُ جِهَانَجِيرِ لِلتَّصْوِيرِ تُعْنَى بِالْأَحْدَاثِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَلَاطِ الْإِمْبَرَاطُورِيِّ، وَإِذَا مَعَ مَرِّ الزَّمَنِ يَخْتَفِي الْأَثَرُ الْفَارِسِيَّ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَتَعَمُّ التَّرَعُّعُ الْوَاقِعِيَّةُ وَالْإِلْتِمَازُ بِتَصْوِيرِ مَشَاهِدِ الطَّبِيعَةِ مَعَ مُرَاعَاةِ الدَّقَّةِ النَّامَةِ، كَمَا اتَّسَمَ هَذَا الْعَهْدُ بِتَغْيِيرِ مَلْحُوظٍ فِي الدَّرَجَاتِ اللَّوْنِيَّةِ لِلْمُنْمَنَمَاتِ، هَذَا إِلَى التَّوَسُّعِ شَيْئًا فِي اسْتِخْدَامِ نَفْثَةِ «الْإِشْرَاقِ وَالْعَمَةِ». وَلَيْسَ ثَمَّةَ مَا يُفْصَحُ عَنْ مَجْرِيَّاتِ الْأُمُورِ فِي عَهْدِ جِهَانَجِيرِ إِلَّا مَا دَوَّنَهُ فِي مَذَكَّرَاتِهِ ثُمَّ مَا نَسْتَشْفِقُهُ مِنْ مَجْمُوعَاتِ الصُّوَرِ الَّتِي أَنْجِزَتْ فِي عَهْدِهِ.

كَانَ جِهَانَجِيرُ بِلَا رَبِّبٍ عَاشِقًا لِلْفَنِّ يُؤَثِّرُ الْكَثِيفَ عَلَى الْكَمِّ، عَلَى الضَّدِّ مِنْ أَبِيهِ الَّذِي مَلَأَ الْمَرْسَمَ الْمَلَكِيَّ بِكَثْرَةٍ مِنَ الْفَنَّانِينَ، فَمَا إِنْ اغْتَلَى جِهَانَجِيرُ الْعَرْشَ حَتَّى تَخْلُصَ مِنْ جُمْلَةٍ مِنْهُمْ. وَقَدْ خَالَفَ فَتَانُو جِهَانَجِيرِ التَّهَجُّجَ الَّذِي انْتَهَجَهُ مَرْسَمُ أَبِيهِ «أكبر» مِنْ الْإِلْتِمَازِ فِي تَصَاوِيرِهِمْ بِالْقُوَّةِ دُونَ الرَّهَافَةِ، فَإِذَا الْإِبْنُ يَتَرَسَّمُ خَطًى أُخْرَى فَيُؤَثِّرُ الرَّهَافَةَ عَلَى الْقُوَّةِ بِاسْتِخْدَامِ أَلْوَانٍ وَادِعةٍ وَإِنْفَاعَاتٍ أَقْلَ عُمْقًا وَتَصْمِيمَاتٍ أَكْثَرَ تَنْغِيمًا، هَذَا إِلَى أَنَّ تَصْوِيرَ الْبَشَرِ وَالْحَيَوَانَ أَخَذَ فِي عَهْدِهِ طَائِعًا أَشَدَّ عُمُقًا وَأَكْثَرَ جُهْدًا. فَعَلَى حِينٍ أَطْلُقَ أَكْبَرَ الْعِنَانَ لِمُصَوِّرِيهِ يُصَوِّرُونَ مَا تَقَعُ عَلَيْهِ أَعْيُنُهُمْ

وَلَا سِيَّامَا الطَّيْرَ وَالْحَيَوَانَ وَالْبُورْتِيَهَاتِ عَنْ مَوْضُوعِيَّةٍ وَاقِعِيَّةٍ، إِذَا هُمْ فِي عَهْدِ الْإِبْنِ يُلَبِّثُونَ نَزَوَاتِهِ وَطَيْشِهِ. مِنْ هَذَا أَنَّهُ حِينَ أَرَادَ أَنْ يُصَوِّرَ «عُنَايَتِ خَانَ» أَحَدَ رِجَالِ حَاشِيَتِهِ فِي فِرَاشِ الْمَوْتِ وَهُوَ فِي التَّرَنُّعِ الْأَخِيرِ لِإِدْمَانِهِ الْأَقْيُونِ أَمَرَ بِأَنْ يُحْمَلَ إِلَيْهِ هَذَا الْأَخِيرُ مِنْ بَيْتِهِ وَهُوَ يُحْتَضَرُ لِيَكُونَ بَيْنَ أَيْدِي الْمُصَوِّرِينَ، وَقَدْ مَاتَ هَذَا الرَّجُلُ بَعْدَ يَوْمٍ وَاحِدٍ مِنْ تَصْوِيرِهِ (لَوْحَةٌ ٤١٨م). وَعَلَى حِينٍ كَانَ أَكْبَرَ يَمِيلُ إِلَى التَّقَرُّبِ بَيْنَ الدِّيَانَاتِ فَيَأْمُرُ بِتَصْوِيرِ الْآلِهَةِ الْهِنْدُوكِيَّةِ كَمَا يَأْمُرُ بِتَصْوِيرِ غَيْرِهَا، لَمْ يَأْخُذْ جِهَانَجِيرُ بِرَأْيٍ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ.

وَكَانَ النَّشَائِظُ بَيْنَ الْحَيَوَانَ مَوْضُوعًا مُجَبِّبًا لِمُصَوِّرِي الْهِنْدِ مِنْ قَدِيمِ الزَّمَنِ، وَمِنْ هَذَا تِلْكَ اللَّوْحَةُ الْمَعْرُوفَةُ عَلَى جُدْرَانِ كَهُوفِ أَجَانَتَا الَّتِي تُمَثِّلُ الْعِرَاقَ بَيْنَ الثِّيَرَانِ. وَلَقَدْ كَانَ مِنْ أَحَبِّ الرِّيَاضَاتِ عِنْدَ مُلُوكِ الْهِنْدِ مَا يُقَامُ مِنْ صِرَاعٍ بَيْنَ الْفِيلَةِ، وَكَذَا بَيْنَ الْأَسُودِ وَبَيْنَ الْإِبِلِ وَبَيْنَ الْكِبَاشِ وَبَيْنَ الدِّيَكَةِ. وَالْجَمَلُ وَإِنْ بَدَأَ وَادِعًا مُسْتَرْحِيًا غَيْرَ أَنَّهُ حِينَ يَثُورُ مِنْ أَعْيَفِ الْحَيَوَانَاتِ عِرَاقًا، وَلِذَا كَانَ أَخْشَى مَا يَخْشَاهُ النَّاسُ مِنْهُ قَضَمَاتِهِ الْوَحْشِيَّةِ. وَنَجَدَ التَّصْوِيرَ الْمَغُولِيَّ وَالزَّاجِسْتَانِيَّ مِلْثًا بِصُورِ الْعِرَاقِ بَيْنَ الْإِبِلِ، وَمِنْ أُنْدَعِ مَا صُوِّرَ مِنْ هَذِهِ الْمَعَارِكِ صُورَةٌ يَحْتَفِظُ بِهَا مَتْنَفُ أَمِيرٍ وَيلز ببومباي ١٦١٠ جَاءَتْ عَلَى غَايَةِ مِنَ الدَّقَّةِ، هَذَا إِلَى إِثْدَاعِ الْمُصَوِّرِ فِي إِبْرَازِ الْحَرَكََةِ فِي عُنْفُونِهَا (لَوْحَةٌ ٤١٩م). وَفِي خَلْفِيَّةِ الصُّورَةِ سُحِبَ جَاءَتْ عَلَى نَهْجِ التَّصْوِيرِ الصِّينِيِّ الَّذِي عَنْهُ نَقَلَ الْفُرْسُ، وَفِي أَمَامَتِهَا ثَمَّةُ أَغْشَابٍ وَشُجَيْرَاتٍ تَتَمَايَلُ مَعَ الرِّيحِ عَلَى نَمَطِ الْأَسْلُوبِ الْفَارِسِيِّ وَتُطَوَّقُ مَشْهَدَ الْمَعْرَكَةِ. وَتُعْزَى هَذِهِ الْمُنْمَنَةُ إِلَى الْمُصَوِّرِ هُونَارِ فِي عَهْدِ جِهَانَجِيرِ.

وَتَمَّةُ مُنْمَنَةٍ مِنَ الْعَهْدِ الْأَوَّلِ لِهَانَجِيرِ نَرَاهُ فِيهَا وَقَدْ خَرَجَ لِصَيْدِ الْأَسُودِ مُنْمَنَةً فَيَلًا (لَوْحَةٌ ٤٢٠م)، وَمِنْ أَمَامِهِ نَرَى أَسَدًا يَبْطِشُ بِتَابِعٍ لِلْإِمْبَرَاطُورِ وَمِمَّا حَرَّكَ الْأَخِيرَ لِيَرْمِيَ الْأَسَدَ بِحَرْبَتِهِ، وَإِذَا الْفِيلُ قَدْ لَفَّ الْأَسَدَ بِخُرْطُومِهِ، وَإِذَا الْأَمِيرُ بِرُيُوزٍ يَخْفُ عَلَى جَوَادِهِ لِيَنْجِدَةَ الرَّجُلِ. وَفِي خَلْفِيَّةِ الصُّورَةِ أَسَدٌ يَطَارِدُ رَجُلَيْنِ وَقَدْ أَخَذَا يَتَسَلَّقَانِ شَجَرَةً طَلَبًا لِلنَّجَاةِ. وَفِي أَمَامِيَّةِ الصُّورَةِ رِجَالٌ أَخَذَ أَحَدُهُمْ يَنْتَرِعُ بَطَلَةً مِنْ بَرَاثِنِ الْبَازِ. وَقَدْ صَوَّرَ هَذِهِ الصُّورَةَ الْفَنَّانُ فُرُوحُ تَشِيلَا عَامَ ١٦١٠ لِيَتَكُونَ بَيْنَ مِصْمَمِ لِلصُّوَرِ لَا زِينَةَ لِأَخْذِي الْمَخْطُوطَاتِ. وَأَوَّلَ مَا عُرِفَتْ هَذِهِ الْمِصْمَمَاتُ فِي الْهِنْدِ فِي عَهْدِ الْإِمْبَرَاطُورِ أَكْبَرَ، ثُمَّ أَخَذَتْ تَشِيْعُ شَيْئًا فَشَيْئًا خِلَالَ التَّصْفِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ. وَقَدْ أَخَذَ الْمَغُولُ فِكْرَةَ مِصْمَمَاتِ الصُّوَرِ عَنِ الْفُرْسِ. وَعَلَى حِينٍ كَانَتْ الْمُنْمَنَمَاتُ فِي الْأَصْلِ صُورًا تَوْضِيحِيَّةً لِنَصِّ الْمَخْطُوطَةِ عَدَّتْ مَعَ الْمِصْمَمَاتِ لَهَا اسْتِقْلَالُهَا.

وَمِنْ مُنْمَنَمَاتِ هَذَا الْعَهْدِ أَيْضًا صُورَةٌ تُمَثِّلُ فِي أَمَامِيَّتِهَا عِرَاقًا بَيْنَ الْفِيلَةِ (لَوْحَةٌ ٢٢٣م) وَمِنْ خَلْفِهَا مِنْ يُبَيِّرُ الْفِيلَةَ بِمَنَاخِيسٍ لَتَسْجِمَ فِي عِرَاقِهَا. وَفِي خَلْفِيَّةِ الصُّورَةِ بُحَيْرَةٌ بِهَا زُورَقٌ يَسْتَقِيلُهُ أَشْخَاصٌ ثَلَاثَةٌ، وَفِيهَا وَرَاءَ الْخَلْفِيَّةِ تَبْدُو عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ الْبَعِيدِ قَرْيَةٌ وَقَدْ بَدَتْ السَّمَاءُ غَائِمَةً.

وَكَمْ كَانَ يَحُلُو لجهانجير أَنَّ يَبْدُو فِي صُورِهِ كُلَّهَا يُحِيط بِهِ أَبْنَاؤُهُ وَحَاشِيَتُهُ وَالسُّفَرَاءُ، وَكَذَا تُحِيط بِهِ رُمُوزُهُ الَّتِي تَدَلُّ عَلَى أَنَّ سُلْطَنَهُ مُسْتَمَدَّةٌ مِنْ سُلْطَةِ اللَّهِ، كَمَا تَدَلُّ عَلَى زَكَاءِ نَسَبِهِ وَجُنُوحِهِ إِلَى الْعَدْلِ وَاسْتِثْبَابِ السَّلَامِ، فَكَثِيرًا مَا كَانَ يَجْعَلُ مِنْ هَذِهِ الصُّورِ لَوْنًا مِنْ أَلْوَانِ الدَّعَايَةِ لِنَفْسِهِ خُلُقِيًّا وَاجْتِمَاعِيًّا وَأَدَبِيًّا عَلَى نَحْوِ مَا نَرَى فِي (اللُّوْحَةِ ٢١٤م)، فَتَرَى جِهَانَجِيرَ وَقَدْ جَلَسَ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْأُورُوبِيَّةِ مُوَاجِهًا ابْنَهُ الثَّانِي پَرُوزَ بَيْنَمَا وَقَفَ إِلَى اليمين شاه جهان سُلْطَانِ خَوَارِزْمِ مُرْتَدِيًا ثَوْبًا مَخْطُطًا، وَقَدْ التَفَّتْ حَوْلَ الْإِمْبَرَاطُورِ حَاشِيَتُهُ. وَفِي الرُّكْنِ الْأَيْسَرِ مِنَ الصُّورَةِ رَجُلٌ عَلَتِ وَجْهَهُ سُمْرَةٌ شَدِيدَةٌ وَلَمْ يَكُنْ غَيْرَ كَارَانَ سَنَغٍ أَمِيرِ مِيوَارِ الذِّي انْضَمَّ إِلَى حَاشِيَةِ الْإِمْبَرَاطُورِ عَامَ ١٦١٥ بَعْدَ أَنْ غَلَبَهُ عَلَى مَمْلَكَتِهِ سُلْطَانُ خَوَارِزْمِ.

وَكَانَ فِي حَيَاةِ جِهَانَجِيرِ مَا يُثِيرُ الْقَلْقَ فِي نَفْسِهِ، مِنْ هَذَا أَعْدَاءُ لَهُ كَانَ لَا يَقْوَى عَلَيْهِمْ، فَكَانَ يُزِيحُ هَذَا الْقَلْقَ مِنْ نَفْسِهِ بِأَنْ يَأْمُرَ مُصَوِّرِيهِ فَيَصَوِّرُونَهُمْ وَهُمْ يَقْدُمُونَ لَهُ فُرُوضَ الْوَلَاءِ وَالطَّاعَةِ، أَوْ وَهُوَ يُدَيِّقُ خُصُومَهُ صُنُوفًا مِنَ الْعَذَابِ مُخْتَلِفَةٍ.

وَلَقَدْ مَهَّدَتْ أَسْبَابٌ سِيَاسِيَّةٌ وَاقْتِصَادِيَّةٌ لِأُورَبَا أَنْ تَقَعَ عَلَى التَّصْوِيرِ الْمَغُولِيِّ وَإِذَا هُوَ يَنَالُ إِعْجَابَهَا. وَكَانَ الْفَتَانُ الْهُولَنْدِيُّ رَمْبِرَانْتُ أَوَّلُ مَنْ أَعْجَبَ بِهَذَا الْفَنِّ، وَإِذَا هُوَ يَقْتَنِي بَعْضَ تِلْكَ الْمُتَمَنَّمَاتِ وَكَذَا مُتَمَنَّمَاتٍ أُخْرَى دَكْنِيَّةً، ثُمَّ أَخَذَ يَنْقُلُهَا بِيَدِهِ مَا بَيْنَ عَامَيْ ١٦٥٤ وَ ١٦٥٦، وَتَحْتَفِظُ الْمَتَاحِفُ الْآنَ بِعَشْرِينَ مِنْهَا. وَلَمْ يَقِفْ رَمْبِرَانْتُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ بَلْ اقْتَبَسَ مِنْهَا، فَضَمَّنَ بَعْضَ عَنَاصِرِهَا لَوُحَاتِهِ بَعْدَ أَنْ مَرَّجَهَا بِأُسْلُوبِهِ، وَهُوَ مَا فَعَلَهُ فَتَانُو جِهَانَجِيرِ حِينَ ضَمَّنُوا حَوَاشِي مُتَمَنَّمَاتِ أَلْبُومَاتِ الْإِمْبَرَاطُورِ زَخَارِفَ مَأْخُودَةٍ عَنْ صُورِ الْفَتَانِ الْأَلْمَانِيِّ أَلْبِرَخْتِ دُورَرِ، تِلْكَ الثَّرْعَةُ الَّتِي بَلَغَتْ الذُّرُورَةَ فِي عَهْدِ شَاهِ جِهَانِ ابْنِ الْإِمْبَرَاطُورِ جِهَانَجِيرِ. وَمَا نَسَخَهُ رَمْبِرَانْتُ لَيْسَ غَيْرَ عُجَالَاتٍ أَضَافَ إِلَيْهَا مِنْ عِنْدِهِ تَقْنَةُ الْإِشْرَاقِ وَالْعَتَمَةُ «كِيَارُوسْكُورُو» الَّتِي أُثِرَتْ عَنْهُ، وَالَّتِي خَلَّتْ مِنْهَا الْأَصُولُ الْمَغُولِيَّةُ. غَيْرَ أَنَّهُ عَلَى هَذَا بَدَتْ مُسْتَنْسَخَاتُهُ تَحْمِلُ رُوحَ التَّصَاوِيرِ الْمَغُولِيَّةِ، فَإِذَا الشَّخْصِيَّاتُ فِيهَا تَبْدُو وَكَأَنَّهَا هِيَ فِي أَصُولِهَا (لَوْحَةُ ٢٢٤م)، وَكَمَا أَعْجَبَ رَمْبِرَانْتُ بِالتَّصَاوِيرِ الْمَغُولِيَّةِ كَذَلِكَ أَعْجَبَ بِهَا عَدَدٌ مِنَ الْفَتَانِينَ الْإِنْجِلِيزِ، وَلَعَا هُمْ الْآخَرُونَ بِهَذَا الْفَنِّ، وَعَلَى رَأْسِهِمُ الْمُصَوِّرُ وَالتَّائِقِدُ الْفَذُّ جُوشَا رَيْنُولْدز.

وَكَانَ جِهَانَجِيرُ يُعْنَى فِي تَصْوِيرِ الْبُورْتَرِيَّاتِ الَّتِي أَمَرَ بِإِعْدَادِهَا بِمَا يَجْرِي لِلنَّاسِ، كَمَا رَأَيْنَا الْعَدِيدَ مِنَ الْبُورْتَرِيَّاتِ لِلشَّخْصِيَّاتِ التَّارِيخِيَّةِ مَنْ مَاتَ قَبْلَ وَمَنْ كَانَ لَا يَزَالُ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ. وَكَذَلِكَ كَانَ جِهَانَجِيرُ مُوَلِّيًا بِمَظَاهِرِ الطَّبِيعَةِ الْكُونِيَّةِ وَالنَّبَاتِيَّةِ وَالْحَيَوَانِيَّةِ، إِذَا نَرَى شَطْرًا كَبِيرًا مِنْ مُتَمَنَّمَاتِهِ يَتَنَاوَلُ بِالْدرَاسَةِ هَذِهِ الْكَائِنَاتِ كُلَّهَا، وَلَقَدْ كَانَتْ لَهُ تَجَارِبٌ كَثِيرَةٌ - وَغَرِيبَةٌ أحيانًا - مِنْ ذَلِكَ تَجَرِبَتِهِ الَّتِي وَازَنَ فِيهَا بَيْنَ مُنَاحِينِ، مُنَاحِ مَدِينَةِ مُحَمَّدَ أَبَادٍ وَمُنَاحِ مَدِينَةِ أَحْمَدَ أَبَادٍ أَتَيْهَمَا أَفْضَلَ. وَكَانَ كَثِيرَ التَّطَوُّفِ فِي أَنْحَاءِ

مَمْلَكَتِهِ لِلتَّرْفِيهِ عَنْ نَفْسِهِ وَتَعَرُّفِ الْأَحْوَالِ، كَمَا كَانَ يَعِيشُ عِيشَةً مُتَرَفَةً، تَدُلُّنا عَلَى هَذَا مُتَمَنَّمَاتِهِ، فَفِيهَا نَرَى ثِيَابَهُ مُزْرَكَشَةً بِخُيُوطِ الْقَصَبِ، كَمَا نَرَى أَوَانِيَهُ الَّتِي يَسْتَخْدِمُهَا مِنَ الْيَشْبِ أَوْ الْبَلُورِ أَوْ الْخَزَفِ الصِّينِيِّ، وَكَانَتْ تُحْفُهُ الَّتِي يَسْتَوْدِعُهَا مِنَ الثَّقَاسَةِ بِمَكَانٍ. كَذَلِكَ كَانَ مِنْ عَادَتِهِ أَنْ تُصَوِّرَ جُذُرَانِ الْعُرْفِ الَّتِي يَعِيشُ فِيهَا عَلَى أَيْدِي مُصَوِّرِيهِ. وَقَدْ شَيَّدَ فِي حَدِيقَةِ قَصْرِهِ مَبْنًى خَاصًّا يَنْتَظِمُ مَعْرَضًا لِلصُّورِ، وَتَضَمَّتْ جُذُرَانِ الطَّابِقِ الْأَوَّلِ مِنْهُ بُورْتَرِيَّاتُ لِيُهَامِيُونَ وَأَكْبَرُ وَشَاهِ عَبَّاسٍ وَكَذَا لِأَخَوَاتِهِ وَأَوْلَادِهِ، وَتَضَمَّتْ جُذُرَانِ الطَّابِقِ الثَّانِي بُورْتَرِيَّاتُ لِلْأُمَرَاءِ وَالْحَاشِيَةِ. وَعَلَى حِينَ لَمْ يُعَرَفْ أَكْبَرُ عِنَايَةِ كَبِيرَةِ بُورْتَرِيَّاتِهِ الشَّخْصِيَّةِ كَانَ جِهَانَجِيرُ ذَا عِنَايَةٍ فَائِقَةٍ بِبُورْتَرِيَّاتِهِ الشَّخْصِيَّةِ، فَتَرَاهُ فِي مُتَمَنَّمَةٍ مَحْفُوظَةٍ بِالْفَرِيرِ جَالِسِيٍّ يُوَاسِئُطُنَ (لَوْحَةُ ٣٩٨م) قَدْ انْفَرَدَ بِالْحَدِيثِ مَعَ شَيْخٍ صُوفِيٍّ مُهْمَلًا جَانِيًا الْمُلُوكِ مِثْلَ سُلْطَانِ تُرْكِيَا، كَمَا نَرَى جِيْمِسَ الْأَوَّلَ مَلِكَ إِنْجِلْتَرَا وَقَدْ انْتَحَى جَانِيًا. وَصُورَةُ الْمَلِكِ جِيْمِسَ مَأْخُودَةٌ مِنْ أَصْلِ إِنْجِلِيزِيٍّ صُورَهُ الْفَتَانُ الْإِنْجِلِيزِيُّ جُونِ دِهْ كَرِيْتزِ الذِّي كَانَ الْمُصَوِّرُ الْخَاصَّ لِلْبَلَاطِ الْإِنْجِلِيزِيِّ، بَعَثَ بِهَا مَلِكَ إِنْجِلْتَرَا هَدِيَّةً إِلَى جِهَانَجِيرِ، حَمَلَهَا إِلَيْهِ السَّفِيرُ الْإِنْجِلِيزِيُّ سِيرِ توماس رُو. وَكَانَتْ مُذْكَرَاتُ هَذَا السَّفِيرِ مِنْ أَهَمِّ الْمَصَادِرِ الَّتِي كَشَفَتْ كَثِيرًا عَنْ الْحَيَاةِ فِي الْهِنْدِ الْمَغُولِيَّةِ، وَكَانَ هَذَا السَّفِيرُ مُفَوَّضًا عَنْ شَرِكَةِ الْهِنْدِ الشَّرْقِيَّةِ لِعَقْدِ الصَّفَقَاتِ التَّجَارِيَةِ. وَمِنْ الطَّرِيفِ أَنَّ هَذِهِ الشَّرِكَةَ أَهْدَتْ إِلَى جِهَانَجِيرِ هَدَايَا لَا تَلِيْقُ بِمَقَامِهِ أَحْسَنَ مَعَهَا أَنَّ هَذِهِ الشَّرِكَةَ عَلَى قَفَرٍ مُدْقِعٍ، وَيَذْكُرُ السَّفِيرُ أَنَّ جِهَانَجِيرَ سَأَلَهُ مُتَعَجِّبًا هَلْ بَلَغَ الْفَقْرُ بِمَلِكِ إِنْجِلْتَرَا - تِلْكَ الدَّوْلَةُ الْعُظْمَى - إِلَى هَذَا الْحَدِّ الذِّي يُرْسِلُ مَعَهُ مِثْلَ هَذِهِ الْهَدَايَا الثَّاقِفَةِ. وَيَمْضِي رُو فِي حَدِيثِهِ يَقُولُ إِنَّهُ خِلَالَ خِدْمَتِهِ بِالْهِنْدِ كَانَ كَثِيرًا مَا يَلِجُ عَلَى الْحُكُومَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ لِإَرْسَالِ هَدَايَا ذَاتِ قِيَمَةٍ إِلَى الْإِمْبَرَاطُورِ الْمَغُولِيِّ وَلاِسِيَّامًا لِللُّوْحَاتِ الْمُصَوَّرَةِ الشَّدِيدَةِ الْإِتْقَانِ. وَسُرْعَانِ مَا اسْتَجَابَتِ الْحُكُومَةُ الْإِنْجِلِيزِيَّةُ إِلَى مَطْلَبِ السَّفِيرِ فَأَرْسَلَتْ مَا أَشَارَ بِهِ، فَإِذَا جِهَانَجِيرُ يُعْطِيهِ إِزَاءَ هَذَا بُورْتَرِيَّهِ الشَّخْصِيِّ الذِّي حَمَلَهُ السَّفِيرُ مَعَهُ إِلَى إِنْجِلْتَرَا. وَتَقْبِضُ الْمُتَمَنَّمَةُ بِمَشَاهِدِ الْأَنْبِيَاءِ الْمَلَكِيَّةِ وَالْإِنِحَاءَاتِ الرُّمُوزِيَّةِ، وَمِنْ هَذَا وَذَلِكَ صُورَةُ جِهَانَجِيرِ وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى عَرْشِهِ وَمِنْ تَحْتِهِ سَاعَةٌ زَمَنِيَّةٌ تَرْتَكِزُ عَلَى سَجَّادَةٍ إِيْطَالِيَّةٍ مُزَخْرَفَةٍ بِزَخَارِفِ جِرُوسْكِيَّةٍ. وَلِلتَّخْفِيفِ مِنْ مُضَيِّبِ الزَّمَنِ سَرِيعًا وَمُضَيِّبِ الْعُمُرِ مَعَهُ سَرِيعًا كَذَلِكَ نَرَى اثْنَيْنِ مِنْ وَلَدَانِ الْحُبِّ وَهُمَا يَخْطُانِ عَلَى السَّاعَةِ الزَّمَنِيَّةِ: «مَدَّ اللَّهُ فِي عُمُرِكَ أَيُّهَا الشَّاهُ إِلَى أَنْ تَبْلُغَ أَلْفَ عَامٍ». وَمِنْ خَلْفِ أَحَدِ الْوَلَدَيْنِ مُرْتَقَى يَرْتَقِي عَلَيْهِ الْإِمْبَرَاطُورُ لِيُعْتَلِيَ عَرْشَهُ، وَعَلَى سَطْحِ الْمُرْتَقَى حَيْثُ مُوطِئُ قَدَمِ الْإِمْبَرَاطُورِ خُطَّ الْمُصَوِّرُ تَوْقِيعُهُ زَمْرًا إِلَى خُشُوعِهِ وَتَوَاضَعِهِ. وَتُحِيطُ بِرَأْسِ الْإِمْبَرَاطُورِ هَالَةٌ كَبِيرَةٌ مُشِيعَةٌ قِيَامُهَا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ تَرْمِزُ إِلَى اسْمِهِ «نُورُ الدِّينِ» وَتُمَثِّلُ الْمُتَمَنَّمَةُ الْإِمْبَرَاطُورَ - كَمَا سَبَقَ الْقَوْلُ - وَقَدْ أَقْبَلَ عَلَى الشَّيْخِ الصُّوفِيِّ مُشِيحًا

يَحْمِلُ نَسَبَ الْأُسْرَةِ الْمَغُولِيَّةِ الْمَالِكَةِ، وَفَوْقَ هَذَا النَّقْشِ نَقْشَ آخَرَ يَقُولُ «پورتریه یحكي صورة صاحب الجلالة نور الدين جهانجير باد شاه» وإلى الأمام من صورة جهانجير صورة عَسَاف خان شقيق نورجهان زَوْجَة جهانجير ووالد «ممتاز محل» زَوْجَة ابْنه شاه جهان. وإلى الأمام من شاه عَبَّاس صورة خان علم سفير جهانجير في البلاط الإيراني. وإلى الأعلى من صورة شاه عَبَّاس عبارة «الأخ شاه عباس»، ويقال إنَّ جهانجير هو الذي خَطَّها. وثُمَّ بين يدي العاهلين مجموعة من التَّحَفِ النَّفِيسَةِ اسْتَطَاعَ مُؤَرِّخُ الْفَنِّ ريتشارد إِنْجِهَارْزَنْ أَنْ يُحَدِّدَ مَصَادِرَهَا، فَقَالَ إِنَّ الْمَائِدَةَ وَالْإِثْرِيَّ الْأَبْيَضَ مَجْلُوبَانِ مِنْ إِيْطَالِيَا، وَإِنَّ الْكَأْسَ الْخَزْفِيَّةَ الْبَيْتِيَّةَ مَجْلُوبَةٌ مِنَ الصِّينِ، وَإِنَّ الرُّجَاجَةَ مَجْلُوبَةٌ مِنَ الْبُنْدُقِيَّةِ، أَمَّا تُمُثَالُ دِيَانَا وَهِيَ تَمْتَلِي صَهْوَةً ظَنِّي وَيَحْمِلُهُ خَانْ عِلْمٌ فِي بُسْرَاهِ فَهُوَ مِنْ صُنْعِ مَدِينَةِ أَوْجِسْبَرْجِ بِالْمَآلِيَا خِلَالِ الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ. وَمِنْ هُنَا كَانَ عَهْدُ جهانجير مِنْ أَكْثَرِ الْعُهُودِ تَأَثُّرًا بِالْفَنِّ الْأَوْرَبِيِّ.

وَمِنْ أَنْفَسِ الْمَخْطُوطَاتِ الَّتِي تَمَّتْ فِي عَهْدِ جهانجير مَخْطُوطَةٌ مُصَوَّرَةٌ لِمَذْكُرَاتِ الْإِمْبَرَاطُورِ هِيَ «جهانجير نامه» بُدِئَ فِي إِعْدَادِهَا عَامَ ١٦١٢ وَبَقِيَ الْعَمَلُ فِيهَا إِلَى نِهَايَةِ عَهْدِهِ. وَلِلْأَسَفِ لَا يُوجَدُ مِنْ صُورِ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ إِلَّا قَلِيلٌ مُبَعَثٌ هُنَا وَهُنَا. وَثُمَّ مُنَمَّنَاتٌ مِنْ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ نَقِذَتْ إِلَى إِيْرَانِ خِلَالِ الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ، وَفِي مُنْحَفِ فَرِيرِ جَالِيرِي سِتُّ مُنَمَّنَاتٍ مِنْهَا أَشْهَرُهَا مُنَمَّنَةٌ «جهانجير وهو يَمْنَحُ الشُّيُوخَ بَعْضُ الْكُتُبِ» (لَوْحَةٌ ٢٥م). فَلَقَدْ كَانَ جهانجير عَلَى صِلَاتٍ وَثِيقَةٍ بِرِجَالِ الدِّينِ مُسْلِمِينَ وَهِنْدُوكِيِّينَ، وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَزُورُ التُّسَاكَ مِنْهُمْ فِي كُهُوفِهِمْ أَوْ يَتَلَقَّاهُمْ فِي قَصْرِهِ. وَتُمُثِّلُ هَذِهِ الصُّورَةُ زُورَةً مِنْ زُورَاتِ جهانجير لِجُوجِرَاتِ عَامِ ١٦١٨ حَيْثُ خَرَجَ فُقَهَاءُ الْمَدِينَةِ لِاسْتِيفَالِهِ وَعَلَى كُلِّ مِنْهُمْ جُبَّةُ الشَّرِيفَةِ. وَيَحْكِي جهانجير فِي مَذْكُرَاتِهِ أَنَّهُ أَهْدَى كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كِتَابًا مِنْ مَكْتَبَتِهِ الْخَاصَّةِ. وَلِهَذِهِ الْمُنَمَّنَةُ خَاصَّةً أُسْلُوبُهَا الْمُتَمَيِّزُ، وَأَكْبَرُ الظَّنِّ أَنَّهَا لِفَتَانٍ بَدَأَ ظُهُورُهُ فِي عَهْدِ جهانجير، يَدُلُّنَا عَلَى ذَلِكَ خَلْوَاهُ مِنَ الطَّابِعِ التَّخَوُّيرِيِّ الَّذِي كَانَ سَائِدًا مِنْ قَبْلِ أَيَّامِ الْإِمْبَرَاطُورِ أَكْبَرِ، ثُمَّ خُفَّتْ أَلْوَانُهَا وَلُطِفَتْ إِيقَاعَاتُهَا. وَأُسْلُوبُ هَذَا الْفَتَانِ عَلَى نَمَطِ أُسْلُوبِ الْمُصَوِّرِ أَبِي الْحَسَنِ، فَهُوَ كَمَا فَعَلَ أَبُو الْحَسَنِ يُجَسِّمُ الْأَشْكَالَ بِتَقْنِيَّةٍ أَشَبَّهَ بِتَقْنِيَّةِ «الْجَلَاءِ وَالْعَتَمَةِ» الَّتِي نَرَاهَا مُتَجَلِّيةً عَلَى كُتْمِ أَحَدِ الشُّيُوخِ وَهُوَ يَتَسَلَّمُ كِتَابَهُ مِنَ الْإِمْبَرَاطُورِ، حَيْثُ تَبَدُّو الْإِحْيَاءَاتِ بِالْأَبْعَادِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي هِيَ صِفَةٌ لَازِمَةٌ مِنْ صِفَاتِ التَّجَسُّمِ.

وَفِي مُنَمَّنَةٍ أُخْرَى نَشْهَدُ اخْتِفَاءَ نُورِ جهان بِعَوْدَةِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهَا الْأَمِيرِ خُورَامِ [شاه جهان فيما بعد] بِعَوْدَتِهِمَا مُتَنَصِّرَيْنِ مِنْ غَزْوَةِ غَزَوَاهَا. وَيُقَالُ إِنَّهَا أَقَامَتْ مَأْذِبَةً أَهَدَتْ أَثْنَاءَهَا ابْنَهَا ثَوْبًا بِأَهْظِ الثَّمَنِ مُطَرَّرًا بِالزُّهُورِ وَاللَّائِلِيِّ وَعِمَامَةً مُرْصَعَةً بِالْجَوَاهِرِ، كَمَا قَدَّمَتْ إِلَيْهِ جَارِيَتَيْنِ وَفِيلَيْنِ. وَيَبْدُو فِي الْمُنَمَّنَةِ جَوْسِقٌ عَلَيْهِ صُورٌ مُخْتَلِفَةٌ مِنْهَا صُورَةُ الْعَدْرَاءِ مَرْيَمَ (لَوْحَةٌ ٢٦م).

بَوَجْهِهِ عَنِ السُّلْطَانِ الْمُتَمَانِيَّ وَالْمَلِكِ الْإِنْجِلِيزِيِّ، وَصُورَةُ اثْنَيْنِ مِنْ وَلَدَانِ الْحُبِّ إِلَى أَعْلَى، وَقَدْ أَخَذَ أَوَّلُهُمَا يُؤَلِّوْلَ وَأَخَذَ الْآخَرُ يَكْسِرُ سَهْمَهُ، رَمَزًا إِلَى إِثَارِ جهانجير لِلدُّرُوشِ عَلَى الْعَاهِلِينَ وَإِعْرَاضِهِ عَنْهُمَا. وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ پورتریه الْإِمْبَرَاطُورِ صُورٌ وَهُوَ فِي أَوَاخِرِ عُمُرِهِ أَنَّهُ يُمَثِّلُ وَجْهَهُ مِنْهُكَا مِنْ إِدْمَانَةِ الْخَمْرِ وَالْأَفْيُونِ وَإِسْرَافِهِ فِي الْمَلَذَّاتِ وَإِحْسَاسِيهِ بِالْأَسَى لِمَا مَرَّ بِهِ مِنْ مَآسٍ شَخْصِيَّةٍ وَسِيَاسِيَّةٍ. وَفِي الرُّكْنِ الْأَيْسَرِ الْأَدْنَى مِنَ الْمُنَمَّنَةِ شَخْصٌ هِنْدُوكِيَّ الرَّاجِحِ أَنَّهُ الْفَتَانُ الْمُصَوِّرُ بِيْتَشِيرِ وَبَيْنَ يَدَيْهِ صُورَةُ لَهَا إِطَارٌ تُمَثِّلُ فِيلًا وَجَوَادَيْنِ مَعَ السَّائِسِ، قَدْ تَدَلَّ عَلَى أَنَّهَا مِنْ هَدَايَا الْإِمْبَرَاطُورِ أَوْ مِمَّا أَهْدَى لِلْإِمْبَرَاطُورِ.

وَكَانَتِ الْپُورْتَرِيَّاتُ الْمَغُولِيَّةُ ذَاتَ الرُّمُوزِ كَثِيرًا مَا تَأْخُذُ عَنْ أُصُولِ إِنْجِلِيزِيَّةٍ، وَنَرَى هَذَا مُتَمَثِّلًا فِي صُورَةِ «جهانجير وهو يحلم بِزِيَارَةِ خَصْمِهِ شاه عَبَّاسَ لَهُ»، فَهِيَ مُقْتَبَسَةٌ عَنْ صُورَةٍ لِلْمَلِكَةِ الْإِلِيزَابِيثِ مَحْفُوظَةٍ بِالْتَّاشُونَالِ جَالِيرِي بِلْدُنِ. وَفِي هَذِهِ الصُّورَةِ (لَوْحَةٌ ٢٥م) تَعْتَلِي الْإِمْبَرَاطُورَةُ كُرَّةَ أَرْضِيَّةٍ، وَقَدْ أَسْنَدَتْ ظَهْرَهَا إِلَى سُحْبٍ كَثِيفَةٍ تَرَكَمَتْ مِنْ خَلْفِهَا وَهِيَ تَنْطَلِعُ إِلَى نُورِ السَّمَاءِ. وَإِلَى يَمِينِهَا قَصِيدَةٌ فِي آيَاتٍ قَلِيلَةٍ مَنقُوشَةٍ تَقُولُ أَيْتَانِهَا إِنَّ أَشْعَةَ الشَّمْسِ لَتَكَادُ تَنْكَسِفُ أَمَامَ نُورِ صَاحِبَةِ الْجَلَالَةِ. وَقَدْ شَغِفَ جهانجير بِهَذَا اللَّوْنِ مِنَ التَّصْوِيرِ وَلَمْ يَكُنْ قَدْ عَلَا الْعَرْشَ بَعْدُ، وَإِذَا هُوَ يُرَدِّدُ «عِنْدَمَا أَصْبَحَ مَلِكًا سَأَلِقَبُ نَفْسِي بِلَقَبِ نُورِ الدِّينِ كَمَا سَأَكُنِّي نَفْسِي بِجهانجير [أَي فَاتِحِ الْعَالَمِ]».

وَفِي أَغْلَبِ الظَّنِّ أَنَّ هَذِهِ الصُّورَ - لَا الصُّورَ الْمَطْبُوعَةَ عَلَى الْحَجَرِ أَوْ الْمَعْلَنِ - كَانَتْ الْأُولَى مِنْ نَوْعِهَا مِنَ الصُّورِ الْأَوْرَبِيَّةِ ذَاتِ الْمُسْتَوَى الرَّفِيعِ الَّتِي وَقَعَتْ فِي يَدِ جهانجير. وَلَقَدْ طَالَعْتُ هَذِهِ الصُّورَ الْفَتَانَيْنِ الْمَغُولِ بِجَدِيدٍ لَمْ يَكُنْ يَخْطُرُ عَلَى بَالِهِمْ الْأَمْرُ الَّذِي غَيَّرَ مَسَارَ تَصْوِيرِ الْپُورْتَرِيَّةِ الْمَغُولِيَّةِ، وَأَصْبَحَتْ تِلْكَ الصُّورَةُ الَّتِي تُمَثِّلُ «بِلَاط جهانجير» (لَوْحَةٌ ٢٢م) بِالنِّسْبَةِ إِلَى هَذَا اللَّوْنِ الْجَدِيدِ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي عَقَى عَلَيْهَا الزَّمَنُ، إِذْ عَدَدْنَا نَرَى بَعْدَ عَامِ ١٦١٥ رُومُورًا تُحِيطُ بِشَخْصِ الْإِمْبَرَاطُورِ تَدُلُّنَا عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ الْعَهْدُ مِنْ ثَرَاءٍ وَمَا كَانَ لِلْإِمْبَرَاطُورِ مِنْ نُفُوذٍ وَسُلْطَانٍ، كَمَا قَدْ تَرَمَزَ إِلَى أَخْذَاتٍ مِنْ وَحْيِ الْخِيَالِ أَوْ تَطْوِيعِ الْأَفْكَارِ لِلْأَمَانِيَّةِ، عَلَى نَحْوِ مَا رَأَيْنَا فِي (لَوْحَةٌ ٣٩٨م)، وَمِثْلَمَا رَأَيْنَا فِي (لَوْحَةٌ ٢٣م) حَيْثُ يَسْتَقْبِلُ الْإِمْبَرَاطُورُ جهانجير شاه عَبَّاسَ الْفَارِسِيَّ، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا اللَّقَاءُ هُوَ الْآخَرُ مِنْ إِثْلَاءِ الْوَاقِعِ بَلْ مِنْ إِثْلَاءِ الْخِيَالِ. وَلَعَلَّ مَا أَوْحَى بِهِ مَا انْطَوَتْ عَلَيْهِ نَفْسُ جهانجير مِنْ رَغْبَةٍ فِي أَنْ يَلْقَى الشَّاهَ. وَيُؤَكِّدُ ذَلِكَ النَّقْشُ الَّذِي يَقَعُ فِي الطَّرْفِ الْأَبْعَدِ وَفِي الطَّرْفِ الْأَدْنَى مِنَ الْمُنَمَّنَةِ وَنَقْرًا فِيهِ «شاه جهانجير وشاه عَبَّاسَ هُمَا مَلِكَانِ شَابَتَانِ شُجَاعَانِ قَبْضًا بِكِلْتَا يَدَيْهِمَا عَلَى كَأْسِ الْعَالَمِ، يُلْبِغَانِ الْهَاتِفَ بِأَنْ يَتَّجِدَا لِتَكُونَ لَهُمَا الْهَيْمَنَةُ عَلَى شُعُوبِ الْعَالَمِ أَجْمَعِ حَتَّى يَعِيشَ الْعَالَمُ فِي سَلَامٍ. اللَّهُمَّ امْنَحْهُمَا النَّصْرَ». وَفِي أَعْلَى الصُّورَةِ نَرَى الْمَلَأِيكَةَ تَرْفَعُ نَقْشًا يَقَعُ فِي نِصْفِ دَائِرَةِ ذَهَبِيَّةٍ

وَهُمْ مُغْرَقُونَ فِي التَّأْمُلِ، وَنَرَى كَبِيرَهُمْ بِأَظَافِرِهِ الطَّوِيلَةِ وَقَدْ جَلَسَ جَلِيسَةَ التَّأْمُلِ وَارْبَدَ وَجْهَهُ لِيُحَقِّقَ تَأْمُلَهُ وَاسْتَرْسَلَ شَعْرَهُ عَلَى جَسَدِهِ فَبَدَا وَكَأَنَّهُ وَشَاحَ يَقِيَهُ تَقَلُّبَاتِ الْجَوِّ. وَإِلَى يَمِينِهِ نَاسِيكَ آخَرَ قَدْ تَكَوَّرَ شَعْرُهُ عَلَى رَأْسِهِ وَكَأَنَّهُ عِمَامَةٌ وَبِيَدِهِ مَسْبَحَةٌ يُسَبِّحُ بِهَا. وَثَالِثُهُمْ نَاسِيكَ قَدْ تَعَرَّى إِلَّا مِنْ قِطْعَةٍ مِنَ الْقُمَاشِ تَغْطِي سَاقَيْهِ وَقَدْ اسْتَغْرَقَ فِي التَّأْمُلِ غَيْرَ عَابِثٍ بِمَا حَوْلَهُ، وَمِنْ وَرَائِهِ نَاسِيكَ رَابِعٌ وَقَدْ اسْتَغْرَقَ فِي التَّوَمِّ. وَإِلَى الْأَمَامِ مِنَ الصُّورَةِ بَدَا أَحَدُ الْمُرِيدِينَ عَارِيًّا إِلَّا مِنْ خِرْقَةٍ مِنْ قُمَاشٍ تَغْطِي سَاقَيْهِ وَقَدْ اضْطَجَعَ عَلَى جَنْبِهِ. وَلَعَلَّ مَا يَتَمَيَّزُ بِهِ أَسْلُوبُ الْمُصَوِّرِ جَوْفَارْدَانِ هُوَ تَصْوِيرُهُ لِأَصَابِعِ الْيَدِ وَقَدْ بَدَتْ عِظَامُهَا لِيَخْفَةَ مَا عَلَيْهَا مِنْ لَحْمٍ، وَكَذَا تَحْدِيدُهُ لِنَايَا الْقِيَابِ بِخُطُوطٍ مُتَشَتِّةٍ.

وَلَقَدْ كَانَتْ الْحَيَاةُ الْيَوْمِيَّةُ بِمَشَاغِلِهَا مِمَّا يَجْتَذِبُ جِهَانَجِيرَ، كَمَا كَانَ يَقْضِي جُلَّ وَقْتِهِ مَشْغُولًا بِأُمُورِ الْبِلَاطِ. وَهَذَا وَذَلِكَ وَمِمَّا شَغَلَ الْمُصَوِّرِينَ الْمَغُولَ بِتَصْوِيرِهِ، وَكَانَتْ لَهُمْ أَسُوءُ فِي التَّصْوِيرِ الْأُورَبِيِّ. وَثَمَّةُ صُورَةٍ مِنْ تَصْوِيرِ جَوْفَارْدَانِ «لِيَحْلُلَ مُوسِيقِيَّ حَلَوِيَّ» تَشْهَدُ فِيهَا مُوسِيقِيَّيْنِ يَعْرِفَانِ بَيْنَ يَدَيَّ وَلَيَّ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ نَرَاهُ جَالِسًا وَقَدْ جَلَسَ أَمَامَهُ تَابِعٌ لَهُ. وَجَاءَتْ هَذِهِ الصُّورَةُ عَلَى نَمَطِ الْأَسْلُوبِ الْأُورَبِيِّ الَّذِي عَهْدَنَاهُ فِي لُوحَاتِ الْمُصَوِّرِ الْبُنْدُقِيِّ جُورْجُونِي فِيمَا ابْتِكَرَهُ مِنْ صُورِ حَفَلَاتِ الْمُوسِيقَى الْخَلَوِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ بِاسْمِ Concert Champêtre وَلاَ سِيَّمًا تَصْوِيرِ الْمَشَاهِدِ الْخَلْفِيَّةِ الْبَعِيدَةِ. وَمَا مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ جَوْفَارْدَانِ قَدْ تَأَثَّرَ بِمَا وَقَعَ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْهَا أَوْ مِنْ صُورِهَا الْمَطْبُوعَةِ، فَإِذَا هُوَ يُصَوِّرُ بِهَذَا الْأَسْلُوبِ مَشْهَدًا هِنْدِيًّا بِخَتَا، إِذْ نَرَى خَلْفَ الْخِيَامِ مَنْظَرًا لِيَبُوتِ قَرْيَةٍ هِنْدِيَّةٍ أَسْفَهًا مِنَ الْقَشِّ، وَمَعَ هَذِهِ الْبُيُوتِ قِفْلَةٌ وَعَرَبَةٌ تَجْرُهَا الْخَيْلُ، وَهَذَا إِلَى مَشَاهِدٍ عَامَّةٍ تُمَثِّلُ الْحَيَاةَ الْيَوْمِيَّةَ فِي قَرْيِ الْهِنْدِ (لَوْحَةٌ ٤٢٨م).

وَثَمَّةُ مُنْمَنَاتٍ تَرْجِعَانِ إِلَى أَوَائِلِ عَهْدِ جِهَانَجِيرَ، وَمَا يَزَالُ الْأَثَرُ الْفَارِسِيُّ بَادِيًا عَلَيْهِمَا وَلاَ سِيَّمًا فِي تَفَاصِيلِ الْمَشَاهِدِ الْبَرِّيَّةِ وَالْعَمَائِرِ. وَهِيَ عَلَى مَا فِيهَا مِنْ رَقَّةٍ فِي الْأَلْوَانِ انْفَرَدَتْ بِهَا، تَمَيَّزَتْ بِوَاقِعِيَّةٍ لَمْ تَعْهَدْ فِي التَّصْوِيرِ الْفَارِسِيِّ. وَالصُّورَتَانِ تَعْلُو إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى، وَتُصَوِّرُ الْعُلِيَّا مِنْهُمَا مَشْهَدًا يُمَثِّلُ التَّنْكِيلَ بَوَزِيرٍ قَدْ صَبَّ عَلَيْهِ السُّلْطَانُ جَامَ غَضَبِهِ، فَأَخَذَ جُنْدِيَّ يَسُوقُهُ أَمَامَهُ فِي عُثْفٍ وَهُوَ شِبْهُ عَارٍ مُكَبَّلٍ بِالْأَغْلَالِ، وَهَذَا عَلَى مَشْهَدٍ مِنَ السُّلْطَانِ وَأَتْبَاعِهِ مِنْ حَوْلِهِ. وَالصُّورَةُ السُّفْلَى تُمَثِّلُ رَجُلًا اقْتَحَمَ عَلَى السُّلْطَانِ مَجْلِسَهُ يَعْزِضُ عَلَيْهِ قَضِيَّةً مِنَ الْقَضَايَا وَأَتْبَاعُ السُّلْطَانِ يَدْفَعُونَهُ طُرْدًا إِلَى الْخَارِجِ (لَوْحَةٌ ٤٢٩م).

وَيَصِفُ الْإِمْبَرَاطُورُ جِهَانَجِيرَ فِي مُذَكِّرَاتِهِ مَا جَرَى عَلَيْهِ الْقَوْمُ حِينَئِذٍ مِنْ وَرْثِهِمُ الْأَبَاطِرَةِ بِمَا يَعْدِلُهُمُ مِنَ الْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَا بَدَأَ هَذَا التَّنْقِيدَ مَعَ عَامِ ١٦٠٧ يَقُولُ: «كَانَ أَبِي الْإِمْبَرَاطُورُ أَكْبَرَ يُوزَنُ مَرَّتَيْنِ كُلَّ عَامٍ، مَرَّةً مَعَ دُخُولِ السَّنَةِ الشَّمْسِيَّةِ وَمَرَّةً مَعَ دُخُولِ السَّنَةِ الْقَمَرِيَّةِ. وَكَانَ الْأَمْرَاءُ لَا يُوزَنُونَ إِلَّا مَعَ دُخُولِ السَّنَةِ الشَّمْسِيَّةِ فَحَسَبَ. وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ الَّتِي كَانَ ابْنِي خُورَامَ قَدْ بَلَغَ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمرِهِ بِالْعَدِّ الْقَمَرِيِّ طَالَعَنَا الْمُنْجَمُونَ وَقُرَّاءُ

وَتَمَّةٌ بَيْنَ أَيْدِينَا عَنْ ذَلِكَ الْعَهْدِ پُورْتَرِيَّاتٍ صَوَّرَ فِيهَا الْفَتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ صُورًا غَيْرَ مُسْتَقَلَّةٍ وَلِكِنَّهَا جَاءَتْ عَلَى حَوَاشِي الْمُنْمَنَاتِ أَوْ إِلَى جَانِبِ غُرَّةِ الْمَخْطُوطَةِ، وَثَمَّةُ أَيْضًا صُورَةٌ لِمُصَوِّرٍ مُنْدَسَّةٍ بَيْنَ حَاشِيَةِ الْإِمْبَرَاطُورِ. وَهَنَّاكَ ظَوَاهِرُ ثَلَاثِ تَلَفَاتِ الْأَنْظَارِ: أَوَّلُهَا أَنَّ الْمُصَوِّرِينَ لَمْ يَدُونُوا لِأَنْفُسِهِمْ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِمْ بَلْ كَانَ هَذَا لِيَعْتَرِفَهُمْ، وَإِنْ بَدَأَ تَوْقِيعُ الْمُصَوِّرِينَ مُنْذُ ذَلِكَ الْعَهْدِ يَتَسَلَّلُ إِلَى الصُّورِ إِلَى أَنْ شَاعَ فِي عَهْدِ شَاهِ جِهَانِ. وَثَانِيهَا أَنَّ الْمُصَوِّرِينَ لَمْ يَظْفَرُوا بِمُجَدِّ أَعْمَالِهِمْ بَلْ كَانَ هَذَا الْمَجْدُ لِلْإِمْبَرَاطُورِ وَحْدَهُ، فَمَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا كَانَ يُعَزَّى إِلَيْهِ، فَيَقَالُ إِنَّهُ لَوْلَا مَا كَانَ لِلْإِمْبَرَاطُورِ مِنْ عَيْنٍ لَمَاحَةٍ مَا كَانَ ثَمَّةَ ظُهُورٍ لِمُصَوِّرٍ. وَثَالِثُهَا أَنَّ شَأْنَ الْمُصَوِّرِينَ أَخَذَ يَتَوَارَى شَيْئًا فَشَيْئًا، وَلاَ سِيَّمًا فِي عَهْدِ شَاهِ جِهَانِ، وَلَمْ يَعُدَّ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِمْ غَيْرَ إشاراتٍ خَفِيَّةٍ يَذَلُّونَ بِهَا صُورَهُمْ مَعَ عِبَارَاتٍ فِيهَا الْخُشُوعُ وَالتَّوَاضُّعُ كَأَن يَصِفُ أَحَدُهُمْ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ الْعَبْدُ الْفَقِيرُ أَوْ الْعَبْدُ الْحَقِيرُ أَوْ الْعَبْدُ الدَّلِيلُ أَوْ صَاحِبُ الْقَلَمِ الْمَكْسُورِ، وَهَذِهِ الْعِبَارَاتُ وَإِنْ دَلَّتْ عَلَى شَيْءٍ فَإِنَّمَا تَدُلُّ عَلَى تِلْكَ الطَّاعَةِ الْعَمِيَاءِ الَّتِي كَانَتْ مِنَ الْمُصَوِّرِينَ لِرَاعِي الْفَنِّ أَيْ الْإِمْبَرَاطُورِ. وَالْغَرِيبُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُصَوِّرِينَ الَّذِينَ حَطُّوا مِنْ أَقْدَارِهِمْ كَانُوا قَبْلَ أَنْ يُصَوِّرُوا يَنْتَظِرُونَ وَيَتَوَضَّأُونَ ثُمَّ يَضْرَعُونَ إِلَى رَبِّهِمْ، رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.

وَمِنْ الْپُورْتَرِيَّاتِ ذَاتِ الشَّأْنِ مِنْ عَهْدِ جِهَانَجِيرِ پُورْتَرِيَّهٌ يُمَثِّلُ مُحَارِبًا مَغُولِيًّا جَالِسًا عَلَى سَجَادَةٍ مُزْرَكَشَةٍ (لَوْحَةٌ ٤٢٦م) وَقَدْ بَدَتْ لِيَحْيَتِهِ كَمَا بَدَا شَارِبِهِ، وَعَلَى رَأْسِهِ قَلَسُوءَةٌ مِنَ الْفَرَاءِ، وَقَدْ ظَهَرَ سَيْفُهُ وَقَوْسُهُ وَسِهَامُهُ مَشْدُودَةٌ إِلَى وَسَطِهِ، كَمَا ظَهَرَتْ وَرَاءَهُ زُهُورُ تَظْلِيلِهَا سَحْبٌ مُصَوَّرَةٌ عَلَى الطَّرَازِ الصِّينِيِّ.

وَثَمَّةُ مُنْمَنَةٍ تُمَثِّلُ نَاسِيخًا نَحِيلَ الْجِسْمِ يَنْقُلُ مَخْطُوطَتَهُ مِنْ أُخْرَى كَبِيرَةٍ، اِزْتَدَى جُبَّةَ حَرِيرِيَّةٍ التَّصَقَّتْ بِجِسْمِهِ، وَبَدَتْ أَصَابِعُهُ وَقَدْ التَّصَقَّ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ لِكِبَرِ سِنِّهِ، وَقَدْ أَكَبَ عَلَى النَّسْخِ انْجِبَابًا لَا يُشْغَلُ عَنْهُ، وَيَبْدُو أَنَّ هَذِهِ الْجَلِيسَةَ كَانَتْ عَادَةً قَدِيمَةً لَهُ (لَوْحَةٌ ٤٢٧م). نَرَاهُ وَقَدْ أَسْنَدَ ظَهْرَهُ إِلَى حَشِيَّةٍ ضَخْمَةٍ، كَمَا وَضَعَ قَدَمَهُ الْيُمْنَى عَلَى وِسَادَةٍ طُرُزَتْ بِالْقَصَبِ لِيُتِيحَ لِأَصَابِعِهِ أَنْ تَنْتَحِرَكَ فِي يُسْرٍ، وَإِلَى جِوَارِهِ دَوَاةٌ صَيْنِيَّةٌ بَيَضَاءٌ عَلَيْهَا رُسُومُ زَرْقَاءَ كَمَا اسْتَقْدَمَ مِمَّا تَحْوِيهِ مِنْ جِبْرِ أَسْوَدَ نَسَخَ بِهِ صَفَحَاتٍ وَصَفَحَاتٍ لَا حَصْرَ لَهَا. وَيَكَادُ الْهُدُوءُ الَّذِي يَسُودُ الصُّورَةَ يُوحِي بِأَنَّهُ لَيْسَ ثَمَّةُ إِلَّا صَرِيرُ الرِّيشَةِ عَلَى صَفَحَاتِ الْوَرَقِ وَإِلَّا سَعَالُ يَتَنَابُؤُ التَّامِيخِ فِي الْحِينِ بَعْدَ الْحِينِ. وَمَا أَبْعَدَ مَا بَيْنَ زَرْكَشَةِ الزُّهُورِ الْجَمِيلَةِ الَّتِي تَكَادُ تَتَأَرَّجَحُ فَوْقَ السَّجَادَةِ الَّتِي جَاءَتْهُ هَدِيَّةً مِنَ الْإِمْبَرَاطُورِ وَبَيْنَ تِلْكَ الدُّكْنَةِ الَّتِي تَغْشَى الْبَابَ الْمَفْتُوحَ وَرَاءَهُ. وَيَكَادُ يُوحِي هَذَا التَّرْكِيزُ عَلَى پُورْتَرِيَّهِ التَّامِيخِ الْمُثْقَلِ بِالْأَصْبَاحِ السَّمِيكَةِ وَالَّذِي بَدَا شَيْءٌ مِنَ التَّضَاوُلِ النَّسْبِيِّ عَلَى وَجْهِهِ أَنَّ الْمُصَوِّرَ كَانَ حَرِيصًا عَلَى أَنْ يُسْرِعَ فِي تَصْوِيرِ هَذَا التَّامِيخِ قَبْلَ أَنْ تُدْرِكَهُ الْمَيِّتَةُ.

وَهُنَّاكَ مُنْمَنَةٌ مِنْ تَصْوِيرِ جَوْفَارْدَانِ يَبْدُو فِيهَا «نُسَّاكُ هِنْدُوكِيُونِ خَمْسَةَ» (لَوْحَةٌ ٣٩٧) جَلَسُوا فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ مَعْبَدِ هِنْدُوكِي

الطالع بأنه ثمة حدث جَلَلٌ سَبَّحَتْ فِي هَذِهِ السَّنَةِ لِإِنِّي وَكَانَ عِنْدَهَا مُعْتَلًا. وَخِلَافًا لِمَا جَرَى عَلَيْهِ الْعُرْفُ فَقَدْ أَمُرْتُ أَنْ يُوزَنَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ الْقَمَرِيَّةُ بِمَا يَعْدِلُهُ مِنْ أَحْجَارٍ كَرِيمَةٍ وَذَهَبٍ وَفِضَّةٍ عَلَى أَنْ تُوزَعَ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمُعْدَمِينَ». وَثُمَّ مُنِمَّةً لِلْأَمِيرِ خورام [شاه جهان فيما بعد] وَهُوَ يُوزَنُ بِالْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ (لَوْحَةٌ ٤٣٠ م) جَاءَتْ عَلَى نَمَطٍ مَا يَجْرِي عَلَيْهِ الْفَنُّ الْمَغُولِيُّ تَجَمُّعَ عَالَمِينَ: الْعَالَمُ الرُّوحِيّ وَالْعَالَمُ الْمَادِّي. وَالْمَكَانُ زَاخِرٌ بِالطَّنَافِسِ الْفَاخِرَةِ وَالْجَوَاهِرِ الْمُثَوَّرَةِ وَالْتِمَائِيلِ الْمُسْتَوْرَدَةِ مِنَ الصَّيْنِ لِازْتِنَافِ قُدْرَتِهَا وَالْأَسْلِحَةِ الْمُرَصَّعَةِ بِالطَّنَافِسِ مِنَ الْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ.

وَحِينَ شَقَّ الْأَمِيرُ سَلِيمٌ عَصَا الطَّاعَةِ عَلَى أَبِيهِ فِي عَامٍ ١٥٩٩ وَغَدًا حَاكِمًا، أَصْبَحَ لَهُ عَرْشُهُ الْمُسْتَقَلُّ فِي اللَّهِ أَبَادًا، وَكَانَ عَرْشًا يَمُوجُ بِالْبَذْخِ وَالتَّرَفِ. وَانْتَهَى أَمْرُ هَذَا الْبَذْخِ إِلَى أَبِيهِ، وَأَنَّهُ لَا يَكَادُ يَبْقَى مِنْ شُرْبِ الْخَمْرِ وَأَنَّ الْكَأْسَ لَا تُفَارِقُ شَفَتَيْهِ حَتَّى غَدَا بَعْدَ لَا تُؤَثِّرُ فِيهِ الْخَمْرُ مَهْمَا شَرِبَ فَإِذَا هُوَ يَلْجَأُ إِلَى تَعَاطِي الْأَقْيُونِ، وَإِذَا هُوَ بَعْدَ هَذَا يَفْقِدُ الْوَعْيَ وَيَخْدُ ذَهْنَهُ، ثُمَّ إِذَا هُوَ يَشْتَطُّ فَيَحْكُمُ بِالْقَتْلِ لِأَنَّهُ الْأَسْبَابُ. وَمِنْ هَذَا مَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ بِسُلْخِ جِلْدِ كَاتِمِ سِرِّهِ عَلَى مَشْهَدٍ مِنْهُ، ثُمَّ مَا أَمَرَ بِهِ مِنْ خَصْمِي أَحَدٍ خَدَمَهُ وَضَرَبَ آخَرَ حَتَّى تُزْهَقَ رُوحُهُ، وَهَذَا يَمَّا جَعَلَ أَبَاهُ الْإِمْبَرَاطُورُ يُوجِسُ خِيفَةً عَلَيْهِ. وَكَانَ سَلِيمٌ حِينَ خَرَجَ عَلَى أَبِيهِ فِي الثَّلَاثِينَ مِنْ عُمُرِهِ، وَقَدْ دَعَاهُ إِلَى هَذَا الْخُرُوجِ بَرَمَهُ بِأَنْ يَصْبِرَ طَوِيلًا حَتَّى يَمُوتَ أَبُوهُ وَتَوَلَّوْا إِلَيْهِ السُّلْطَةَ الَّتِي كَانَ يَصْبُرُ إِلَيْهَا مُنْذُ صِبَاهٍ. وَكَانَ مِنْ بَيْنِ حَاشِيَتِهِ فِي اللَّهِ أَبَادَ الْفَتَانِ الْمُصَوَّرِ أَقَارِضًا وَمَعَهُ وَلَدُهُ أَبُو الْحَسَنِ، وَكَانَا قَدْ هَاجَرَا مِنْ فَارِسَ إِلَى بِلَاطِهِ بِالْهِنْدِ، وَيُعْزَى إِلَيْهِمَا الْكَثِيرُ مِنْ رُسُومِ مَخْطُوطَاتِ تِلْكَ الْحَقِيقَةِ، وَكَانَتْ تَسْبِغُ فِيهَا كُلُّهَا السَّمَةُ الْفَارِسِيَّةُ الَّتِي تَخْتَلِفُ عَنِ الْأَتَجَاهِ الَّتِي كَانَ يَسُودُ بِلَاطُ أَكْبَرٍ. وَحِينَ انْتَهَى إِلَى سَلِيمٍ مَرَضُ أَبِيهِ عَامَ ١٦٠٤ شَدَّ الرَّحَالَ إِلَى أَجْرَا مَوْطِنِ الْإِمْبَرَاطُورِ الَّذِي مَا لَبِثَ أَنْ فَارَقَ الْحَيَاةَ بَعْدَ عَامٍ وَاحِدٍ. وَلَقَدْ كَانَتْ مَضْمَنَاتُ الصُّورِ الَّتِي جَمَعَهَا جِهَانَجِيرٌ فِيهَا مَا يُغْنِي عَنْ تَقَهُمِ تَطَوُّرِ فَنِّ التَّصْوِيرِ فِي عَهْدِهِ وَمَا كَانَ لَهُ مِنْ نَزْعَةٍ تَوْفِيقِيَّةٍ فِي مَجَالِ التَّدْوِقِ الْفَنِّيِّ. وَكَانَتْ الْأَعْمَالُ الَّتِي تَضَمَّتْهَا تِلْكَ الْمَضْمَنَاتُ وَالَّتِي بَدَأَتْ مُنْذُ كَانَ فِي اللَّهِ أَبَادَ شَدِيدَةِ التَّنَوُّعِ، فِيهَا مَا هُوَ صُورٌ وَرُسُومٌ وَكِتَابَةٌ وَمَغُولِيَّةٌ وَفَارِسِيَّةٌ، وَكَذَا مَا هُوَ صُورٌ أَوْ رِيبِيَّةٌ مَطْبُوعَةٌ عَلَى الْحَجَرِ أَوْ الْمَعْدِنِ بَلْ وَصُورٌ لِفَتَانٍ أَوْ رِيبِيٍّ كَانَ فِي رِحْلَةٍ إِلَى الْهِنْدِ. وَتُوقَفُ جِهَانَجِيرٌ عَنْ ثَمَانِيَةِ وَخَمْسِينَ عَامًا عَنْ مَرَضٍ فِي قَلْبِهِ زَادَ فِي حِدَّتِهِ إِذْمَانَهُ الْخَمْرُ وَالْأَقْيُونُ وَإِسْرَافِهِ فِي مُعَاشَرَةِ النِّسَاءِ. هَذَا إِلَى مَا كَانَ فِي مُحِيطِ أَسْرَتِهِ مِنْ مُؤَامَرَاتٍ تُحَاكُّ لَهُ ثُمَّ مَا كَانَ مِنْ تَمَرُّدِ ابْنِهِ وَوَلِيِّ عَهْدِهِ عَلَيْهِ.

وَحِينَ شَقَّ الْأَمِيرُ سَلِيمٌ عَصَا الطَّاعَةِ عَلَى أَبِيهِ فِي عَامٍ ١٥٩٩ وَغَدًا حَاكِمًا، أَصْبَحَ لَهُ عَرْشُهُ الْمُسْتَقَلُّ فِي اللَّهِ أَبَادًا، وَكَانَ عَرْشًا يَمُوجُ بِالْبَذْخِ وَالتَّرَفِ. وَانْتَهَى أَمْرُ هَذَا الْبَذْخِ إِلَى أَبِيهِ، وَأَنَّهُ لَا يَكَادُ يَبْقَى مِنْ شُرْبِ الْخَمْرِ وَأَنَّ الْكَأْسَ لَا تُفَارِقُ شَفَتَيْهِ حَتَّى غَدَا بَعْدَ لَا تُؤَثِّرُ فِيهِ الْخَمْرُ مَهْمَا شَرِبَ فَإِذَا هُوَ يَلْجَأُ إِلَى تَعَاطِي الْأَقْيُونِ، وَإِذَا هُوَ بَعْدَ هَذَا يَفْقِدُ الْوَعْيَ وَيَخْدُ ذَهْنَهُ، ثُمَّ إِذَا هُوَ يَشْتَطُّ فَيَحْكُمُ بِالْقَتْلِ لِأَنَّهُ الْأَسْبَابُ. وَمِنْ هَذَا مَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ بِسُلْخِ جِلْدِ كَاتِمِ سِرِّهِ عَلَى مَشْهَدٍ مِنْهُ، ثُمَّ مَا أَمَرَ بِهِ مِنْ خَصْمِي أَحَدٍ خَدَمَهُ وَضَرَبَ آخَرَ حَتَّى تُزْهَقَ رُوحُهُ، وَهَذَا يَمَّا جَعَلَ أَبَاهُ الْإِمْبَرَاطُورُ يُوجِسُ خِيفَةً عَلَيْهِ. وَكَانَ سَلِيمٌ حِينَ خَرَجَ عَلَى أَبِيهِ فِي الثَّلَاثِينَ مِنْ عُمُرِهِ، وَقَدْ دَعَاهُ إِلَى هَذَا الْخُرُوجِ بَرَمَهُ بِأَنْ يَصْبِرَ طَوِيلًا حَتَّى يَمُوتَ أَبُوهُ وَتَوَلَّوْا إِلَيْهِ السُّلْطَةَ الَّتِي كَانَ يَصْبُرُ إِلَيْهَا مُنْذُ صِبَاهٍ. وَكَانَ مِنْ بَيْنِ حَاشِيَتِهِ فِي اللَّهِ أَبَادَ الْفَتَانِ الْمُصَوَّرِ أَقَارِضًا وَمَعَهُ وَلَدُهُ أَبُو الْحَسَنِ، وَكَانَا قَدْ هَاجَرَا مِنْ فَارِسَ إِلَى بِلَاطِهِ بِالْهِنْدِ، وَيُعْزَى إِلَيْهِمَا الْكَثِيرُ مِنْ رُسُومِ مَخْطُوطَاتِ تِلْكَ الْحَقِيقَةِ، وَكَانَتْ تَسْبِغُ فِيهَا كُلُّهَا السَّمَةُ الْفَارِسِيَّةُ الَّتِي تَخْتَلِفُ عَنِ الْأَتَجَاهِ الَّتِي كَانَ يَسُودُ بِلَاطُ أَكْبَرٍ. وَحِينَ انْتَهَى إِلَى سَلِيمٍ مَرَضُ أَبِيهِ عَامَ ١٦٠٤ شَدَّ الرَّحَالَ إِلَى أَجْرَا مَوْطِنِ الْإِمْبَرَاطُورِ الَّذِي مَا لَبِثَ أَنْ فَارَقَ الْحَيَاةَ بَعْدَ عَامٍ وَاحِدٍ. وَلَقَدْ كَانَتْ مَضْمَنَاتُ الصُّورِ الَّتِي جَمَعَهَا جِهَانَجِيرٌ فِيهَا مَا يُغْنِي عَنْ تَقَهُمِ تَطَوُّرِ فَنِّ التَّصْوِيرِ فِي عَهْدِهِ وَمَا كَانَ لَهُ مِنْ نَزْعَةٍ تَوْفِيقِيَّةٍ فِي مَجَالِ التَّدْوِقِ الْفَنِّيِّ. وَكَانَتْ الْأَعْمَالُ الَّتِي تَضَمَّتْهَا تِلْكَ الْمَضْمَنَاتُ وَالَّتِي بَدَأَتْ مُنْذُ كَانَ فِي اللَّهِ أَبَادَ شَدِيدَةِ التَّنَوُّعِ، فِيهَا مَا هُوَ صُورٌ وَرُسُومٌ وَكِتَابَةٌ وَمَغُولِيَّةٌ وَفَارِسِيَّةٌ، وَكَذَا مَا هُوَ صُورٌ أَوْ رِيبِيَّةٌ مَطْبُوعَةٌ عَلَى الْحَجَرِ أَوْ الْمَعْدِنِ بَلْ وَصُورٌ لِفَتَانٍ أَوْ رِيبِيٍّ كَانَ فِي رِحْلَةٍ إِلَى الْهِنْدِ. وَتُوقَفُ جِهَانَجِيرٌ عَنْ ثَمَانِيَةِ وَخَمْسِينَ عَامًا عَنْ مَرَضٍ فِي قَلْبِهِ زَادَ فِي حِدَّتِهِ إِذْمَانَهُ الْخَمْرُ وَالْأَقْيُونُ وَإِسْرَافِهِ فِي مُعَاشَرَةِ النِّسَاءِ. هَذَا إِلَى مَا كَانَ فِي مُحِيطِ أَسْرَتِهِ مِنْ مُؤَامَرَاتٍ تُحَاكُّ لَهُ ثُمَّ مَا كَانَ مِنْ تَمَرُّدِ ابْنِهِ وَوَلِيِّ عَهْدِهِ عَلَيْهِ.

وَحِينَ شَقَّ الْأَمِيرُ سَلِيمٌ عَصَا الطَّاعَةِ عَلَى أَبِيهِ فِي عَامٍ ١٥٩٩ وَغَدًا حَاكِمًا، أَصْبَحَ لَهُ عَرْشُهُ الْمُسْتَقَلُّ فِي اللَّهِ أَبَادًا، وَكَانَ عَرْشًا يَمُوجُ بِالْبَذْخِ وَالتَّرَفِ. وَانْتَهَى أَمْرُ هَذَا الْبَذْخِ إِلَى أَبِيهِ، وَأَنَّهُ لَا يَكَادُ يَبْقَى مِنْ شُرْبِ الْخَمْرِ وَأَنَّ الْكَأْسَ لَا تُفَارِقُ شَفَتَيْهِ حَتَّى غَدَا بَعْدَ لَا تُؤَثِّرُ فِيهِ الْخَمْرُ مَهْمَا شَرِبَ فَإِذَا هُوَ يَلْجَأُ إِلَى تَعَاطِي الْأَقْيُونِ، وَإِذَا هُوَ بَعْدَ هَذَا يَفْقِدُ الْوَعْيَ وَيَخْدُ ذَهْنَهُ، ثُمَّ إِذَا هُوَ يَشْتَطُّ فَيَحْكُمُ بِالْقَتْلِ لِأَنَّهُ الْأَسْبَابُ. وَمِنْ هَذَا مَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ بِسُلْخِ جِلْدِ كَاتِمِ سِرِّهِ عَلَى مَشْهَدٍ مِنْهُ، ثُمَّ مَا أَمَرَ بِهِ مِنْ خَصْمِي أَحَدٍ خَدَمَهُ وَضَرَبَ آخَرَ حَتَّى تُزْهَقَ رُوحُهُ، وَهَذَا يَمَّا جَعَلَ أَبَاهُ الْإِمْبَرَاطُورُ يُوجِسُ خِيفَةً عَلَيْهِ. وَكَانَ سَلِيمٌ حِينَ خَرَجَ عَلَى أَبِيهِ فِي الثَّلَاثِينَ مِنْ عُمُرِهِ، وَقَدْ دَعَاهُ إِلَى هَذَا الْخُرُوجِ بَرَمَهُ بِأَنْ يَصْبِرَ طَوِيلًا حَتَّى يَمُوتَ أَبُوهُ وَتَوَلَّوْا إِلَيْهِ السُّلْطَةَ الَّتِي كَانَ يَصْبُرُ إِلَيْهَا مُنْذُ صِبَاهٍ. وَكَانَ مِنْ بَيْنِ حَاشِيَتِهِ فِي اللَّهِ أَبَادَ الْفَتَانِ الْمُصَوَّرِ أَقَارِضًا وَمَعَهُ وَلَدُهُ أَبُو الْحَسَنِ، وَكَانَا قَدْ هَاجَرَا مِنْ فَارِسَ إِلَى بِلَاطِهِ بِالْهِنْدِ، وَيُعْزَى إِلَيْهِمَا الْكَثِيرُ مِنْ رُسُومِ مَخْطُوطَاتِ تِلْكَ الْحَقِيقَةِ، وَكَانَتْ تَسْبِغُ فِيهَا كُلُّهَا السَّمَةُ الْفَارِسِيَّةُ الَّتِي تَخْتَلِفُ عَنِ الْأَتَجَاهِ الَّتِي كَانَ يَسُودُ بِلَاطُ أَكْبَرٍ. وَحِينَ انْتَهَى إِلَى سَلِيمٍ مَرَضُ أَبِيهِ عَامَ ١٦٠٤ شَدَّ الرَّحَالَ إِلَى أَجْرَا مَوْطِنِ الْإِمْبَرَاطُورِ الَّذِي مَا لَبِثَ أَنْ فَارَقَ الْحَيَاةَ بَعْدَ عَامٍ وَاحِدٍ. وَلَقَدْ كَانَتْ مَضْمَنَاتُ الصُّورِ الَّتِي جَمَعَهَا جِهَانَجِيرٌ فِيهَا مَا يُغْنِي عَنْ تَقَهُمِ تَطَوُّرِ فَنِّ التَّصْوِيرِ فِي عَهْدِهِ وَمَا كَانَ لَهُ مِنْ نَزْعَةٍ تَوْفِيقِيَّةٍ فِي مَجَالِ التَّدْوِقِ الْفَنِّيِّ. وَكَانَتْ الْأَعْمَالُ الَّتِي تَضَمَّتْهَا تِلْكَ الْمَضْمَنَاتُ وَالَّتِي بَدَأَتْ مُنْذُ كَانَ فِي اللَّهِ أَبَادَ شَدِيدَةِ التَّنَوُّعِ، فِيهَا مَا هُوَ صُورٌ وَرُسُومٌ وَكِتَابَةٌ وَمَغُولِيَّةٌ وَفَارِسِيَّةٌ، وَكَذَا مَا هُوَ صُورٌ أَوْ رِيبِيَّةٌ مَطْبُوعَةٌ عَلَى الْحَجَرِ أَوْ الْمَعْدِنِ بَلْ وَصُورٌ لِفَتَانٍ أَوْ رِيبِيٍّ كَانَ فِي رِحْلَةٍ إِلَى الْهِنْدِ. وَتُوقَفُ جِهَانَجِيرٌ عَنْ ثَمَانِيَةِ وَخَمْسِينَ عَامًا عَنْ مَرَضٍ فِي قَلْبِهِ زَادَ فِي حِدَّتِهِ إِذْمَانَهُ الْخَمْرُ وَالْأَقْيُونُ وَإِسْرَافِهِ فِي مُعَاشَرَةِ النِّسَاءِ. هَذَا إِلَى مَا كَانَ فِي مُحِيطِ أَسْرَتِهِ مِنْ مُؤَامَرَاتٍ تُحَاكُّ لَهُ ثُمَّ مَا كَانَ مِنْ تَمَرُّدِ ابْنِهِ وَوَلِيِّ عَهْدِهِ عَلَيْهِ.

الإمبراطور شهاب الدين محمد صاحب قيران سني (شاه جهان) (١٦٢٨ - ١٦٥٨)

كان الأمير خورام كما كان أبوه أمهما راجيوتي، وعاش أيامه

اتَّخَذَ الْأَمِيرُ خورام لَقَبَ شاه جهان أَي مَلِكِ الْعَالَمِ فِي عَامٍ ١٦١٧ بَعْدَ أَنْ خَلَّصَ لَهُ الْحُكْمَ عِنْدَمَا فَقَّأَ أَبُوهُ عَيْنِي أَخِيهِ خُسْرُو لِفَعْلَةٍ فَعَلَهَا أَسَاسُهُ. وَتَنَطَّقُ الْبُورْتِيَهَاتُ الَّتِي تُصَوِّرُ شاه جهان عَنْ مَلَامِيحِ الْعُتْفِ وَالْقَسْوَةِ وَالْإِسْرَافِ فِي أَثْبَةِ الْمُلْكِ. وَإِذْ لَمْ يَرُقْهُ الْمَبْنَى الْقَدِيمُ لِلْقَصْرِ الْمَلَكِيِّ فِي أَجْرَا الَّذِي كَانَ مُشِيدًا بِالْحَجَرِ الرَّمْلِيِّ إِذَا هُوَ يُعِيدُ بِنَاءَ الْقَصْرِ فَيَسْتَبْدِلُ بِالْحَجَرِ الرَّمْلِيِّ أَحْجَارًا مَرْمَرِيَّةً بَيْضَاءَ، كَمَا شِيدَ عَاصِمَةُ جَدِيدَةٍ هِيَ «شاه جهان باد»، وَهِيَ الْآنَ تُمَثِّلُ الْجَانِبَ الْقَدِيمَ مِنْ مَدِينَةِ دِلْهِي. وَيَذْكَرُ لَنَا التَّارِيخُ أَنَّ

وثمة صورة مُحكَّمة الإثقان وعلى مُستوى رفيع لفتى يقرأ (لوحة ٤٣٤م) من مضمّن صور الإمبراطور شاه جهان، فكلّ جُزئية من جُزئياتها قد نالت حظّها من الإجادة شكلاً ولَوْنًا، وحظّيت بإمكانها المُناسب من الصّورة، مع تَشْيِيق لِلثَّبَات والخُضرة يفوق الطّبيعة جَمَالًا واتِّساقًا. هذا إلى ما يتجلى في رَسْم الفتى من حيّوية وحُضور على نحو لم يرد له مُثل في التّصوير الفارسيّ اللّهمّ إلاّ بورتريهات المُصوّر رضا عبّاسي. فضلًا عمّا أسبّغه مُحمّد علي على الصّورة من حواشي زاخرة بِالزُّهور النّضرة.

وكان شاه جهان قد أُرسل في عام ١٦٤٤ حَمَلَتَيْن عَسْكَرَتَيْن إلى إقليم بلُخ وبُخارى الذي كان خاضِعًا لِلأوزبكيّين، غيّر أنّه لم يكتب التّفريق لِكَلِّنا الحَمَلَتَيْن، ولِهَذَا خَرَج هو على رَأْس حَمَلَةٍ أُخرى عام ١٦٤٥ إلى كابل، وحين استولى عليها بعث بِابْنِهِ الأمير مُراد إلى بلُخ وبُخارى فاستولى عليهما واستسلم إِلَيْهِه الحاكِم الأوزبكيّ نزار مُحمّد وابنه. وهناك مُنمنمة تُمثّل لقاء نزار مُحمّد الأوزبكيّ بِالأمير مُراد المغوليّ (لوحة ٤٣٥م) ١٦٤٥ تَبْدُو في خَلْفِيَّتِهَا الجبال والأشجار على نَهْج واقعيّ شاع في عهد شاه جهان، وفي سَفْح هذه الجبال بِرُكَّة لِيَحْزَن الجياه. وإلى يسار المُنمنمة مُعسكِر مغوليّ حيث يُرْفَر العَلَم المَلَكِيّ، وفي خَلْفِيَّة الصّورة جُنود وأفيال وإبل وفي الوَسَط من المُنمنمة الخِيمة التي أُعدّت لِلقاء، وقد زُخِرَتْ بِصِبْغ الزُّهور. وأمام الخِيمة وتحت ظِلِّهَا مَشْهَد يتجلى فيه جلال مَراسيم البلاط المغوليّ وزُوعته، إذ نَرَى نزار مُحمّد وقد أَخَذَ يُعَانِق الأمير مُراد وقد وَقَفَ مِن وَرَائِهِ قائِد الجَيْش المغوليّ، ومن وَرَاء نزار وَقَفَ سَعْدُ الله خان رئيس وزراء الإمبراطوريّة المغوليّة وهو يُقدِّم العاهل الأوزبكيّ مُشيرًا بِيدِهِ. وفي أَمَامِيَّة الصّورة مَشْهَد يُضْفِي عَلَيْهَا جَلَالًا يُمَثِّل صَفِيْن من الضُّباط. وتكاد المُنمنمة تَبْدُو وكأنّها مَطْلِيَّة بِالمِيناء نَظَرًا لِرَاعَةِ التَّلَوِين ومَسَات الفُرْشاة الرّهيّفة. وإلى الأسفل من الصّورة سُور خَشَبِيّ من تَحْتِهِ تَوْقِيع المُصوّر بِالخَطِّ الفارسيّ.

وكما فَعَلَ أَكْبَر وجهانغير حينَ أَمَرَا بِتَدْوِين تاريخ رَسْمِيّ لَمَهْدِيَّيْهِمَا، كَذَلِكَ فَعَلَ شاه جهان فيما سَمَّاه «شاه جهان نامه». ومع أنّ الصّور التي يَضُمُّهَا هذا التّأريخ قد تَتَابَع تَصْوِيرُهَا على مَدَى الأَيَّام غَيْر أنّها لم تُجَمَع إِلَّا مع نِهَايَةِ حُكْمِهِ. وأغلب الظّن أنّ تلك الذِّكْرِيَّات مع صُورِهَا التي ضَمَّتْهَا هذه المَخْطُوطَة كانت هي السَّلْوى الوحيدة لِشاه جهان خِلال السَّنَوَات التّسع التي قَضَاهَا سَجِينًا في القَلْعَة الحُمْراء بِأَجْرًا بعد أن نَحَاه ابْنُهُ أورانجزيب عن العَرْش.

ويُروى التّاريخ أنّ شاه جهان لم يَسْعَ إلى لِقَاء رَجُلٍ من رجال الدّين غَيْر مَرَّةٍ واحدة، غَيْر أنّه كان يُفْسِح لَهُمْ صَدْرَهُ لِلِقَائِهِمْ بِقَصْرِهِ في كُلِّ مُنَاسَبَةٍ عَامَّةٍ على نَحْوِ ما نَرَى في مُنمنمتَيْن مُتَقَابِلَتَيْنِ تُنَمِّم إحداهما الأُخْرَى ضَمَّتُهُمَا مَخْطُوطَة «شاه جهان نامه» (اللّوْحَتَان ٤٣٦م، ٤٣٧م). وتُمَثِّل إحداهما شاه جهان في

شاه جهان لم يَكُنْ مِثْلَ أَبِيهِ ذَا نَزْعَةٍ تَوْفِيقِيَّةٍ فِي حِسِّهِ الفَنِّيّ، كما لَمْ تَكُنْ لَهُ طُمُوحَات جَدَّة العَسْكَرِيَّة.

وقَدْ جَدَّ تَغْيِير على فَنِّ التّصوير المغوليّ في عَهْد شاه جهان، إذ أَخَذْنَا نَلْمَح فِيهِ مَزِيدًا من مَلَامِيح ثَرَاء البلاط الإمبراطوريّ وَرِخَانِهِ الذي كان قد بَلَغَ في ذَلِكَ الحِين ذُرُوتَهُ، وعلى الرُّغْم من المَهَارَة التّقْنِيَّة الواضحة لِكِنَّةٍ ثَمَّةٍ فَيَضًا يُوحِي بِالانْتِجَاه الحَثِيث نَحْوِ الاضْوَاحِلال، فَقَدْ أَخَذَ التّأَكِيد على الأَبْهَةِ يَطْفِئ، كما زَادَتِ النّزْعَةُ التّكَلْفِيَّة في رَسْم التّفاصيل الدّقيقة لِذَرَجَةِ تَدْعُو أحيانًا إلى المَلَل، تُعَوِّضُهَا المَسَامَات الرّائِعة وَبِهَاء الأَلْوَان وَرَسْم الأَطْرَاف بِعِناية شَدِيدَة وَلايَسِيَّما الأَيْدِي وإنْ لَمَسْنَا أحيانًا بَعْضَ الجُمُود. وَكَانَتْ لِمَشَاهِدِ البلاط رُوعَةٌ لا تُحَدّ، هذا إلى تَصْوِيرِ رِجَال الدّين والأَوْلِيَاء والدَّرَاوِيش. وثَمَّةُ تَقْيِيَّةٍ جَدِيدَة بَلَغَتْ بِالبُورْتَرِيَةِ المغوليّ أَوْجَ قِيَمَتِهِ سَمِّيَتْ «سِيَاه قَلَم»، وتُعْزَى إلى المُصوّر مُحمّد نادر مِن سَمَرْقَنْد الذي كَانَ يَعْمَل في مَرَسَمِ جِهَانغِير مِن قَبْل، وهي عُجالات تَتَخَلَّلُهَا لَمَسَات خَفِيفَة مِنَ اللّوْن أو التّذهيب نَشَأَتْ فِي ذَلِكَ العَهْد. وكَذَا شاع تَصْوِيرُ مَوْضُوعَات الثَّبَات والْحَيَوَان وَخَاصَّةً فِي مَخْطُوطَات كَلِيلَة وَدِثْنَة. وكان لِهذا وَذاك أَثَرُهُ على فَنِّ التّصوير الهِنْدُوْكِيّ الذي تَجَلَّى هو الآخر في مُنمنمات مَخْطُوطَات الرّامايانة والمهابهاراتا. وما أَكْثَرَ المُنمنمات التي بَدَلُ فِيهَا المُصوِّرونَ غَايَةً جَهْدَهُم والتي جَاءَتْ تُصَوِّرُ عَظْمَة بلاط شاه جهان وَجَلالِهِ، وَقَدْ تَأَلَّقَتْ فِي هَذِهِ المُنمنمات الأَلْوَان تَأَلَّقَ طِلَاء المِيناء. ومن بَيْنِ هَذِهِ المُنمنمات مُنمنمة بارِعة التّوَازِن فِي تَكْوِينِهَا الفَنِّيّ (لوحة ٤٣٢م) ١٦٤٥، إذ نَرَى شاه جهان إلى اليمين مِن الرُّكْنِ الأَبْعَد مِنَ الصّورة، كما نَرَى رِجَالِ البلاط وَقَدْ وَقَفُوا أَمَامَهُ صُفُوفًا. وكَذَا نَرَى فَيَلًا يَرْفَعُ خُرْطُومَهُ وَكَأَنَّهُ يُحْيِي الإمبراطور. وإلى جِوَارِ الفِيل جِوَاد رَمَادِيّ اللَّوْن، فَلَقَدْ كان تَصْوِيرُ الفِيلَة والجِيَاد فِي المُنمنمات تَقْلِيدًا راسِيخًا مُنْذُ عَهْد أَكْبَر لِلدَّلَالَةِ على عَظْمَة البلاط المغوليّ. وبُورْتَرِيَةِ شاه جهان فِي هَذِهِ المُنمنمة يَرْجِع إلى الوَقْت الذي أَعْقَبَ وَفاةَ زَوْجَتِهِ تاج محلّ، لَذا نَرَاهُ وَقَدْ اكْتَسَى شَعْرَهُ البَيَاض. ونَلْحَظُ فِي هَذِهِ المُنمنمة أَيْضًا «عُقُودًا مُفْصَّصَة» شَاعَتْ فِي العِمَارَةِ المغوليّة خِلال عَهْد شاه جهان تَعْلُو الأَعْمِدَة الذّهَبِيَّة الرُّخَارِف.

وثَمَّةُ عَدَدٌ كَثِير من بورتريهات تُمَثِّل النِّسَاء المغوليّات، وعلى الرُّغْم من الأسلوب التّقْلِيدِيّ الذي لا يُفَرِّق بَيْنَ المَرءِ وَنَظِيرِهِ إِلَّا أنّنا نُلَاحِظُ هُنَا اخْتِلَافَ قَسَمَات وَجُوهِيَّة، الأَمْر الذي يَنْفِي أنّها كانت صُورًا مِن إِمْلَاء الخِيَال بَلْ كانت صُورًا واقِعيّة لِنِساء فِي البلاط. وَنَرَى فِي مُنمنمة مِن تلك المُنمنمات (لوحة ٤٣٣م) ١٦٤٠ أنّ الثَّيَاب الرّقيقَة تَكَاد تَشْف عَن لَوْنِ البَشَرَة. وَمِمَّا يَدُلُّنا على مَهَارَةِ المُصوّر تلك الدّقَّة فِي تَصْوِيرِ جَدَائِلِ الشَّعْر وَكَذا تَصْوِيرِهِ لِلأَخْجَار الكَرِيمَة التي رُصِّعَ بِهَا الثُّوب، كما نَرَى زَهْرَةَ اللّوْتَس التي أَمْسَكَتْهَا الفَتاة بِيَدِهَا تُضْفِي على الصّورة طابَعًا هِنْدُويًّا.

خاصته، وكان لدارا عليه فضل إذ أنقذ حياته مرة من موت مُحقق. وبعد أن كُتِبَ الأمر لأورانجزيب واعتلى العرش شهر بأخيه دارا فأزكته فيلاً وظهره إلى الأمام وجمهرة الرعاع من حوله يلقون عليه بالثفايات. غيّر أن من كانوا على وعي من المواطنين - وكانوا كثرة - ظلوا يكبرون دارا وكم بكوا وحزنوا لما حلّ به. وهذا الإكبار من الكثرة حمل أورانجزيب المعتدي على أن يُبرّر فعلته بمحاكمة أخيه على تهمته ألصقتها به وهي الرذقة. وانتهت هذه المحاكمة بالحكم بإعدامه على مشهد من ابنه الأثير. والغريب أن هذا الأخ المغتصب حين قدّم إليه رأس أخيه وهو يدمي جرت الدموع على خديّه.

وقد رسم المصور بيتشير الأمير دارا (لوحة ٤٣٩م) وحوله المثقفون من رفاقه حين كان في أوج قوته ولياً للعهد، وحين كان الشعر والموسيقى والنقاش الجاد من أهم ما يعنى به. فترى الأمير ومن حوله تغلّوهم مسحة الأرستقراطية بينة وكأنّ مكانهم الذي يحتلونّه شرفة من شرف الجنة على بسط مزرّكة يطلون على حديقة غاصة بالزهور وبين أيديهم خادم يصبّ النبيذ في الكؤوس وآخرون من الخدم على أهبة الاستعداد. وغير بعيد عنهم سرير أعدّ لدارا كي يستريح عليه بعد انتهاء الحفل. وبصور بيتشير هذا كله في دقة ومهارة مع العناية الثامة بإنعكاسات الضوء على زجاج الأواني وهي تشقّ عن النبيذ. وثمة جندي في أسفل الصورة تبدو أصابع يده معقوفة مما يدلّ على ما تميّز به هذا المصور الموهوب من مهارة ينفرد بها.

وحيث دهم الممرض شاه جهان عام ١٦٥٧ هبّ المتنافسون من أبنائه على العرش ينافع بعضهم بعضاً، وكانت فترة عصية مرّت بتاريخ المغول في الهند، وانتهى هذا النزاع بأن كُتِبَ الناصر لأورانجزيب الذي كان أكثر تشدداً في العقيدة، على حين كان دارا شيكوه المقرب إلى أبيه والمتوقع أن يرث العرش متسامحاً في الدين، وكانت الرغبة في التشدد هي السائدة. وما إن اعتلى أورانجزيب العرش حتّى قبض على أبيه عام ١٦٥٨ ورجّ به سجيناً في قلعة أجرا التي قضى فيها سائر عمره حتّى وافته ميته عام ١٦٦٦، وكان قد بلغ من العمر سنة وسبعين عاماً، فنصب أورانجزيب نفسه إمبراطوراً تحت اسم «عالمجير» الأول.

وإذا كان أكبر قد أبدى تسامحاً دينياً مع غير المسلمين إلا أنّه مع أواخر عهده أخذ ينزل شيئاً فشيئاً عن هذا التسامح، حتّى إذا ما أطلّ القرن السابع عشر أخذت ملامح التعصب الدينيّ تبدو على أشدها، وكان لهذا بغض الأثر في فنّ التصوير المغولي، غيّر أننا نجد من الفنانين من أطلق لنفسه العنان في التعبير عن أحاسيسه الخاصة، فإذا المصور پاياج الذي عُرف بإجرا الحاد يروخي لنفسه الزمام في تصوير المعارك الحزبية (لوحة ٤٣٨م)، كما نجد غيره مثلاً «بالجند» يصور ذلك الغرام الحيات بين عاشقين هما الأمير شاه شجاع الابن الثاني لشاه جهان وزوجته ابنة ميرزا رستم

لقاء من تلك اللقاءات التي استقبل فيها رجال الدين ودعاهم إلى مأدبة بمناسبة زواج ابنه الأكبر الأثير وليّ عهده الأمير دارا شيكوه. وتمثّل الصورة شاه جهان وهو جالس على عرشه وبين يديه درع عليه صورة عصفور الجنة، ومن وراءه الأمير دارا شيكوه. ونرى رجال الدين في المنمنمة المقابلة وقد اصطفوا من حول الإمبراطور. والمنمنمتان مع ما يبدو فيهما من روعة تقليديتا الأسلوب، قام بتصويرها المصور مراد يلميز المصور نادر الزمان.

ولم يخلّ عهد شاه جهان، على الرغم مما سادّه من هدوء وأمن واستقرار، من بعض قلاقل وفتن، وتلك الحرب التي شبت بينه وبين الصفويين للاستيلاء على قندهار، تلك القلعة الإستراتيجية التي تحمي الحدود الشماليّة الغربيّة للهند. وقد أوفد شاه جهان ابنه الأكبر الأمير دارا شيكوه على رأس حملة لطرده الصفويين من قندهار، غير أنّه لم يكتب لهذه الحملة التوفيق. ففي أكتوبر ١٦٥٣ رجع دارا شيكوه عن حملته تلك بعد أن حقق شيئاً من الانصياعات الهيئية على الفرس، كان من بينها ما سجله المصور في إحدى المنمنمات (لوحة ٤٣٨م) حين أصابت قذيفة مخزناً للبارود في قلعة صفوية فرعية، فإذا السماء تشتعل ناراً، وإذا هذه النار تلتهم أشجار الجبل الذي تدور من حوله المعركة وكذا جثث القتلى. كذلك صور الفنان دارا شيكوه بين صفوف جيشه المترصة، وكان هذا الأمير يؤثر رجال الدين والفلاسفة والموسيقيين على جنوده، ومن هنا لم يكن جاداً في حصاره بل هازلاً، إذ يذكر أنّه كان يعتمد على المنجمين في تحديد الوقت الذي يبدأ فيه غارته. وإمعاناً منه في الروحانية إذا هو يضمّ كتيبة من المشايخ إلى صفوف المقاتلين يشدون أزهرهم. ولم يفت المصور پاياج المتخصص في الصور الرومانسية الطابع أن يصور نور القمر يثقف من غيوم السماء. ولعلّ أعجب ما في هذه المنمنمة أنّ كلّ شخصية من الشخصيات العديدة تبدو وكأنّها بورتريه بذاته.

ولكي يأمن شاه جهان ما يكون من تمرّد على الآباء كما وقع منه لأبيه وما وقع من أبيه لجده قرب دارا شيكوه منه ليؤمّنه وليضمن ألا يتمرد عليه. ومن هنا تسوّى لدارا أن يتابع ما كان من نشاط فتّي أو ديني. وكان دارا على نحو جده الإمبراطور أكبر مفتوناً بالعقيدة الهندوكية فإذا هو يستطيع أن يترجم نصوصاً من الهندية، وكان على تواذ مع رجال الدين الهندوكيين يأخذ منهم ويعطي، ولقد ساقه هذا التواء إلى أن شجّع الفنانين على تصويرهم. ولقد كان جنوحه هذا نحو السلم وانغماسه في الفنون لهما أثرهما في بعده عن أن يكون ذا قدرة عسكرية كبيرة، هذا إلى مشابهته لجده أكبر في التسامح الديني. وحين دارت رحى الحرب بينه وبين أخيه أورانجزيب الذي كان على حظ كبير من الكفاءة العسكرية مع تشدده الديني الذي أروى به رجال الدين، كان هذا وذاك مما مهدّ له السبيل لإغتيال العرش بعد أن عدلّ بدارا نبيل كان من

تلال، وتبدو في الأفق مدينة. وعلى مقربة من عالمجير أفياله وعلى أحدها هودج ذهبي مما يدل على ما كان عليه الإمبراطور من بذخ خلال رحلات صيده، وثمة حمالون وصيادون ورجال من الحاشية هنا وهناك.

عصر الاضمحلال

بعد أن خلف أورانجزيب العرش غدا التصوير المغولي مضمجلاً مُنحلاً شأنه في ذلك شأن الإمبراطورية المغولية نفسها. ومع ذلك ظلَّ التصوير المغولي حتى عهد محمد شاه (١٧٢٠م - ١٧٤٨م) يحتفظ تقنياً بشيء من الأبهة السابقة. وحين انطوت الحياة الأرستقراطية على إسراف في الترف والملذات والشهوات كان لهذا أثره في التصوير، فإذا نحنُ نرى أنَّ الصور المترعة بموضوعات الحريم وحفلات الرقص والموسيقى ومجالس الشراب وحياة العشاق هي الطابع الغالب على التصوير. ومع اضمحلال الأسرة المغولية انتقلت سمات التصوير المغولي شيئاً فشيئاً إلى مدرسة راجستان، على حين كان أثر التصوير الراجستاني على التصوير المغولي المتأخر يتيماً، حتى أصبح من العسير التفرقة بين الأسلوبين. وحين أطلَّ عهد عالمجير الثاني (١٧٥٤م - ١٨٠٦م) اختفى ما كان للمغول من عظمة سائلة وذلك بعد هزيمة المغول في معركة پانيبت حتى إنَّ شاه علم (١٧٥٩م - ١٨٠٦م) الذي خلف عالمجير الثاني كان إمبراطور اسمًا لا فعلياً. وإذا الغارات المتتالية لِنادر شاه والسيخ والمهرات^(١) تأتي على كُُلِّ ما في الخزائن الإمبراطورية، وكذا انتهت مُنمنمات كثيرة نفيسة، وأدَّى عَدَم الاستيقرار السياسي والقوضى الاقتصادية إلى انحلال خلقي.

وعلى الرغم مما فقدته المغول أرضاً وثراً فلقد ظلَّوا مُحفَظين بتقاليد بلاطهم المتداعي، وظلَّ الفنانون يحتفظون بصورة من أوراق الاستشفاف للمُنمنمات القديمة التي توارثوها عن أسلافهم، وبها تمكَّنوا من إعادة تصوير المُنمنمات القديمة حتى إنه أصبح يصلُّ المُتخصِّصين التفرقة بين ما هو أصل وما هو فرع، ولكي يُعطوا تلك الصور صفة الأصل كانوا يَختُمونها بالخاتم الملكي.

وكانت قد تلت وفاة أورانجزيب حروب أهلية لاعتلاء العرش من بعده انتهت باستيلاء قُطب الدين شاه عالم بهادر شاه الأول على العرش عام ١٧٠٧ غير أنه تولاها لفترة قصيرة، وتلاه على العرش أباطرة من المغول من الكثرة بمكان حتى يضيق المقام بحصرهم. وكان أمر تولَّى العرش مرَّده إلى رجال البلاط لوفق طموحهم وأطماعهم، وغدت الرافصات يتأمرن كما تأمرت

الصمويَّ أحد رجال بلاط الإمبراطور المغولي والذي ينحدر أصله من البيت المالك الفارسي. وكان كلُّ منهما يعشق الآخر عشقاً مُبرحاً بدا في تحديق كلِّ منهما إلى عَيْن الآخر، وهو ما ركَّز عليه بالجند لإظهار مدى هذا العشق، وقد جَلَسَ العاشقان في شُرْفَة يُظللُهما العَسق بِبرودته، فتعما به كما ينعم به أهل الهند، ومن حولهما الوصيفات ويتنهَّن موسيقى. وإذا أغفلنا جانباً ما في هذه الصورة من هنات في رسم الأجساد تعدَّ هذه المُنمنمة من أعظم الصور الرومانسية أثراً في التصوير المغولي (لوحة ٤٤٠م).

الإمبراطور محيي الدين أورانجزيب (١٦٥٩ - ١٧٠٧)

كُتِبَ لِأورانجزيب [أي زينة العرش] الذي اتَّخذَ لَقَب عالمجير الأول - وكان الإبن الثالث لِشاه جهان - أن ينهض بِالإمبراطورية المغولية إلى الذروة بأساً وثراء بعد أن تمَّ له الإيقاع بِسلطنة الدكن في أواخر القرن السابع عشر، الأمر الذي أفسح في مَلْكه، غير أن تنكره لسياسة الإمبراطور أكبر في التسامح الديني أثار عليه الراجپوت والهندوس فَعَدُّوا خصوماً وأعداء بعد أن كانوا أصدقاء وحلفاء. وعلى الرغم مما كان من عالمجير من حماسة ونزق فلقد كان رقيق القلب ثاقب الفكر شديد الروع. وكان سنيّاً مُتشدداً، لذا أمر بِسُخ العَدِيد من مخطوطات القرآن، وهَدَم ما كان لِلهندوس من معابد وأقام كثيراً من المساجد. وحين بلغ الثَّعين من عُمره - وكان قد أشرف على الموت - أحسَّ بعد قِوَات الألوان بما كان لسياسته الحمقاء من إضعاف لِلإمبراطورية، وذلك لِبعده عن التسامح الديني. وقد امتدَّت تشدُّده إلى أن سرَّح المصورين من المراسيم الملكية وأبطل رعاية البلاط للفنون على اختلافها من تصوير وُرقص وموسيقى، الأمر الذي أسفر عن تدهور الفنون ولاسيما التصوير بِشكل لا يُحيطه العَيْن. وعلى الرغم من أنَّ القوَّة الدافعة لِلرعاية التي أولاها شاه جهان للفنون ظَلَّت مُستورة في السنين الأولى لِحكم أورانجزيب إلَّا أنَّ البلاط ما لبث أن فقدَ الاهتمام بِالفنون. وبانحسار رعاية الإمبراطور لِلفنون بدأ المصورون المُسرَّحون يَعتمدون على عَوْن راجاوات الهند في الإمارات المُختلفة هنا وهناك. ومع ذلك نشأ خلال حكم أورانجزيب أسلوب طغَتْ عليه مَشَاهِد المَعارك الحربية والصور الشخصية الرسمية. كذلك نجد صورة لِأورانجزيب من عَمَل المصور بيتشير الذي عايش كلاً من جهانغير وشاه جهان وقد وقَّف أمامه وجَّهاً لِوجه ابنه الثالث مُحَمَّد أعظم وكان عندها صَغير السن، وإلى يساره رَجُل ذو ليحية سوداء كَثَّة هو ابن عَساف خان شقيق نور جهان (لوحة ٤٤١م).

وثمة صورة أخرى لِنفس المصور تُمثِّل «عالمجير يصيد الغزلان» (لوحة ٤٤٢م)، حيث نرى عالمجير يَرْتدي رداء صَيد أخضر وتحيط بِرأسه هالة مُستديرة جالسا على سَجادة صغيرة ومن أمامه تابعان يُسَاندانه في تصوُّب بُذُوِيَّة التي اشتعلَ قَتْلها وخَرَجَتْ منها قَدِيمة صُوب غَزَالَة أَرْدَتْهَا قَتِيلَة بِالقُرب من بُع ماء. وعلى امتداد الصورة أشجار قصيرة تنتهي إلى رُبَى خَفِيضة من ورائها

(١) كان المهرات أو المراتيون يَزلون إلى الغرب من وَسَط الهند ويتكلمون المراتية. وفي القرن السابع عشر أعلن زعيمهم شيفاجي استيلاء بلاده عن إمبراطورية المغول، وحلَّ محلَّهم في بسط سُلطانه على الهند. وما إنَّ كان عام ١٨١٨ حتى شَنَّ الإنجليز حملاتهم على المهرات وأخضعوهم لِسلطانهم.

التَّظْلِيل والأسلوب الإسلامي الذي يَنْزِع إلى الأسطُح الأحاديّة اللّون الذي لا تَدْرُج فيه. وَيَتَبَيَّن هذا التَّدْبُذ في صُورة العَدْرَاء وطفُلها التي ينعلم فيها الإحساس بالكثلة والتي لا تُمَثِّل العَدْرَاء حَقَّ التَّمثِيل. فَقَدْ كَانَ مِنْ عَادَةِ الْفَنَانِينَ الْمَغُولِ وَالذَّكْنِيِّينَ اسْتِخْصَاصُ الصُّوَرِ الْأُورُبِّيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ، غَيْرَ أَنَّ أَسَالِيَهُمْ كَانَتْ مُخْتَلِفَةً، إِذَا كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ التَّمْيِيزُ بَيْنَ هَذَيْنِ الْأُسْلُوبَيْنِ الْإِسْلَامِيِّينَ الْمُتَعَاَصِرِينَ فِي الْهِنْد. فَتَنَحَّنْ إِذَا وَارَنا بَيْنَ الصُّوَرَةِ الَّتِي يَتَبَيَّنْ أَيْدِينَا وَالصُّوَرِ الْأُورُبِّيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ الَّتِي نَجِدُ مِثْلَاتِهَا فِي حَوَاشِي مَضْمَنَاتِ صُورِ الْإِمْبَرَاطُورِ جِهَانْجِيرِ مِثْلَ (لَوْحَةٍ ٢٢٨م) نَرَى أَنَّهُ عَلَى حِينٍ يَجْعَلُ الْفَتَانِ الْمَغُولِيَّ الثَّوْبَ فَضْفَاضًا مَعَ تَدْرُجِ الظَّلَالِ لِكَيْ تَبْدُو الْكُثْلَةُ أَكْبَرَ مِنْ حَقِيقَتِهَا وَالشَّكْلُ بَارِزًا فِي الْفَرَاغِ - وَهُوَ مَا نَجِدُهُ قَرِيبًا قُرْبًا مَا مِنْ الْأَصْلِ الْأُورُبِّيِّ الْمُنْقُولِ عَنْهُ - نَرَى الْفَتَانِ الذَّكْنِيَّ يُعَالِي فِي لَوْحَةِ الْعَدْرَاءِ وَطِفْلِهَا - ذَاتِ الْأَصْلِ الْأُورُبِّيِّ - فِي تَعْدَادِ الْأَطْوَاءِ وَالْمَكَاسِيرِ مَعَ اسْتِخْدَامِ الظَّلَالِ الْمُتَدْرِجَةِ كَيْ تَبْرَزَ فَوْقَ السَّطْحِ الْأَحَادِيّ اللَّوْن. لَقَدْ عَدَا التَّصْوِيرُ الْمَغُولِيَّ شَيْئًا فَمِثْنًا مُتَشَابِهًا تُعَوِّزُهُ الْأَصَالَةُ وَغَارِقًا فِي الْأَسَالِيبِ الْإِسْلَامِيَّةِ، كَمَا شَاعَتْ الزُّخَارِفُ الْمُفْرَطَةُ الثَّرَاءُ مَعَ الْغُلُوِّ فِي التَّذْهِيبِ وَتَصْوِيرِ الثِّيَابِ الْحَدِيثَةِ الطَّرَازِ. كَذَلِكَ تَغَيَّرَتْ مَوْضُوعَاتُ التَّصْوِيرِ بِالتَّدْرِيجِ وَكَشَفَتْ عَنْ عَاطِفِيَّةٍ رُومَانِيَّةٍ بِالْغَايَةِ تَجَلَّتْ فِي تَمَجِيدِ الْحَيَاةِ الرِّيفِيَّةِ عَلَى نَحْوِ مَا نَرَى فِي مُنَمَّنَةِ «بُئْرِ الْقَرْيَةِ» مِنْ عَهْدِ الْإِمْبَرَاطُورِ فَرُوحِ سِيرِ (١٧١٣م - ١٧١٩م) (لَوْحَةٍ ٤٤٧م). وَكَانَ فَنُّ التَّصْوِيرِ الْمَغُولِيَّ خِلَالَ الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ مُتَأَثِّرًا بِأُسْلُوبِ الْمَدْرَسَةِ الرَّاجِسْتَانِيَّةِ وَالْمَدْرَسَةِ الذَّكْنِيَّةِ الَّتَيْنِ اسْتَلْهَمَتَا أُسْلُوبَهُمَا مِنَ الْمَدْرَسَةِ الْمَغُولِيَّةِ. وَتُمَثِّلُ هَذِهِ الْمُنَمَّنَةُ ذَلِكَ التَّبَادُلَ الْفَنِّيَّ خَيْرَ تَمَثِيلٍ، فَتَشْهَدُ مَزِيَجًا بَارِعًا مِنَ الْفَنِّ الْمَغُولِيِّ وَالرَّاجِسْتَانِيِّ وَالذَّكْنِيِّ. وَلَقَدْ كَانَ لِحِمْلَةِ أَوْرَانْجِزِبِ الَّتِي امْتَدَّتْ طَوِيلًا فِي الدَّكْنِ أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي هَذَا التَّبَادُلِ الْفَنِّيِّ، فَمَا مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ الْمُصَوِّرِينَ الَّذِينَ رَافَقُوهُ فِي حِمْلَتِهِ الذَّكْنِيَّةِ، قَدْ تَأَثَّرُوا بِسِمَاتِ التَّصْوِيرِ الذَّكْنِيِّ الَّتِي بَدَأَتْ فِي الظُّهُورِ ضِمْنَ الْمُنَمَّنَاتِ الْمَغُولِيَّةِ فِي النِّصْفِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ.

وَفِي عَصْرِ الْمَغُولِ وَكَذَا فِي أَيَّامِنَا هَذِهِ الَّتِي نَعِيشُهَا نَرَى لِثَرِّ الْقَرْيَةِ أَثَرَهُ فِي حَيَاةِ الْقَرْيَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، فَعَلَى الْبُئْرِ كَانَتْ تَجْتَمِعُ النِّسَاءُ الْوَافِدَاتُ مِنَ الدَّسَاكِرِ الْقَرْيَةِ يَأْتِينَ لِمَلَأَ جَرَائِهِنَّ بِمَاءِ الْبُئْرِ وَهُنَّ يَعْزُضْنَ حُلِيِّهِنَّ وَأَزْيَاءَهُنَّ وَتَكُونُ لَهُنَّ ثُرُورَةٌ حَوْلَ مَوْضُوعَاتِ شَتَّى. وَفِي هَذِهِ الْمُنَمَّنَةِ نَرَى أَمِيرَ نَوَابٍ يَتَنَاوَلُ كُوبًا مِنْ فَنَاءَةٍ مِنَ الْفَتَيَاتِ لِيزَوِي ظَمَأَهُ بَعْدَ الصَّيْدِ وَالطَّرَادِ وَقَدْ أَحَاطَتْ بِالْبُئْرِ صَبَايَا حَسَنَاتٍ. وَإِلَى يَمِينِ الصُّورَةِ نَرَى السَّيِّدَاتِ اللَّاتِي يُرَافِقْنَ جَمَاعَةَ الصَّيْدِ يَلْهَوْنَ عَلَى أَرْجُوحَةٍ. وَفِي الرُّكْنِ الْأَعْلَى الْأَيْسَرِ مُوسِيقِيَّانِ قَدْ جَلَسَا أَمَامَ كُوحِ لِنَاسِكٍ مِنَ الشَّتَاكِ، كَمَا نَرَى آخَرَيْنِ وَقَدْ شَعِلُوا بِالصَّيْدِ، وَكَذَا نَرَى النِّسَاءَ يَحْمِلْنَ جَرَائِهِنَّ الْمَمْلُوءَةَ بِالمَاءِ عَلَى رُؤُوسِهِنَّ وَهُنَّ فِي طَرِيقِ الْعُودَةِ إِلَى دُورِهِنَّ. وَنَرَى الْحَيَوَانَاتِ وَقَدْ

نُورِجِهَانِ مِنْ قَبْلِ، وَخَطَمِي الْمُصَارِعُونَ وَالْمُهْرَجُونَ بِأَلْقَابِ النَّبَالَةِ، كَمَا تَوَلَّى الْعَرْشَ صَبِيَّةٌ صِغَارٌ أَغْرَارُ كَانَ الْأَمْرُ يَنْتَهِي بِهِمْ إِلَى حَبْلِ الْهَيْشَقَةِ لِيَحْلَ مَحَلَّهُمْ كِبَارٌ مِنَ الْمُسْتَبِينَ لَا حَوْلَ لَهُمْ وَلَا قُوَّةَ وَكَأَنَّهُمْ دُمَى أَمْرُهُمْ فِي أَيْدِي غَيْرِهِمْ. وَقَدْ أَغْرَتَ هَذِهِ الْحَالَةُ مِنَ الضَّعْفِ الَّتِي انْتَهَتْ إِلَيْهَا الدَّوْلَةُ الْمَغُولِيَّةُ كُلَّ نَهَازٍ لِلْفُرْصِ وَكُلِّ مُتَأَمِّرٍ، وَإِذَا تِلْكَ الْحَالُ تُغْرِي أَيْضًا الْمُغَايِرِينَ مِنَ الدَّكْنِ وَمِنْ إِنْجَلْتَرَا لِيَشْتَرِكُوا فِي هَذَا الصَّرَاعِ عَلَى السُّلْطَةِ، ذَلِكَ الصَّرَاعُ الَّذِي كَانَ رِجَالَهُ مِنْ قَبْلِ مِنْ أَمْرَاءِ الرَّاجِپُوتِ وَنُبَلَاءِ الْمُسْلِمِينَ. وَإِذَا أَفْرَادُ الْأُسْرَةِ الْمَالِكَةِ تُسْمَلُ عُيُونُهُمْ وَتُنْقَلُ جُثَّتُهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ لِيُتْلَقَى فِي الْعَرَاءِ، وَوَصَلَ الضَّيِّقُ بِهِمْ أَشَدَّهُ حَتَّى كَانَ الْأَمْرَاءُ يَجِدُونَهُ فِي الْبَحْثِ عَنْ رَغِيفِ عَيْشٍ.

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ هَذَا الْإِنْهِيَارِ الَّذِي أَصَابَ الدَّوْلَةَ سِيَاسِيًّا وَاقْتِصَادِيًّا فَلَقَدْ بَقِيَ الْأَدَبُ وَالْفَنُّ الْمَغُولِيَّ لُهُمَا حَظُّوهُمَا، فَتَرَى مُحَمَّدَ شَاهٍ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ اسْتِغْفَادِ قَوَاهِ بِتِلْكَ الْحَمَلَاتِ الَّتِي شَهَّاهَا عَلَيْهِ نَادِرُ شَاهٍ وَاقْتَحَمَ عَلَيْهِ الْهِنْدُوسْتَانُ نَاهِبًا سَالِيًا، لَمْ تَصْرِفْهُ تِلْكَ الْحُرُوبُ عَنْ وَلَعِهِ بِالْفُنُونِ، إِذْ كَانَ مُوسِيقِيًّا مَوْهَبًا وَذَوَاقَةً لِفَنِّ التَّصْوِيرِ وَمَوْلَعًا بِجَمَالِ الْحَدَائِقِ حَتَّى سُمِّيَ «عَاشِقُ الْمُتَعَةِ». وَثَمَّةٌ مُنَمَّنَةٌ تُمَثِّلُهُ وَسَطَ حَدِيقَةٍ وَقَدْ حُجِّلَ عَلَى مِحْفَةٍ بَدَأَ فِيهَا بَدِينًا (لَوْحَةٍ ٤٤٣م).

وَكَمْ حَاوَلَ هَذَا الْإِمْبَرَاطُورُ أَنْ يُعِيدَ الْأَمْنَ وَالِاسْتِقْرَارَ إِلَى الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ الْمُتَدَاعِيَّةِ، غَيْرَ أَنَّ هَذَا لَمْ يَكُنْ فِي طَاقَتِهِ. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ هَذَا الْفَشَلِ السِّيَاسِيِّ الَّذِي مُنِيتَ بِهِ الدَّوْلَةُ الْمَغُولِيَّةُ فَقَدْ عَاشَتْ لَهَا حَضَارَةٌ بَعْدُ. وَكَانَ عَهْدُ مُحَمَّدَ شَاهٍ يَمِيزُ عَلَى الْعُهُودِ الْأُخْرَى بِأُسْلُوبٍ خَاصٍّ فِي التَّصْوِيرِ حَيْثُ تَبَيَّنَ الْأَلْوَانُ تَبَايُنًا تَامًا وَتَلَوَّنَ السَّمَاءُ بِلَوْنَيْنِ أَحَدُهُمَا أَحْمَرُ بُرْتُقَالِيٍّ وَالْآخَرُ ذَهَبِيٌّ لَهُ جَازِبِيَّةٌ، وَتُصَوِّرُ الشُّخُوصَ تَسْوِذَهَا الْكُلْفَةُ وَالِالْتِزَامُ بِالرَّسْمِيَّاتِ وَاطِّرَاحُ اسْتِخْدَامِ الطَّلَاءِ السَّمِيكِ.

وَحِينَ تَمَزَّجَتْ أَشْلَاءُ الدَّوْلَةِ أَخَذَ كُلُّ نَبِيلٍ مِنَ النُّبَلَاءِ الْأَقْوِيَاءِ يُؤَسِّسُ لَهُ دَوْلَةً مُسْتَقِلَّةً، فَكَانَ لِأَحَدِهِمْ وَلايَةً فِي الْبَنْغَالِ، كَمَا كَانَ لِآخَرٍ وَلايَةً فِي أَوْدَةٍ، كَمَا لِثَالِثٍ وَلايَةً فِي حَيْدَرِ أَبَادٍ وَهَكَذَا. وَمَعَ تَعَدُّدِ هَذِهِ الْوَلَايَاتِ تَعَدَّدَتْ مَدَارِسُ التَّصْوِيرِ الَّتِي تَرَسَّمَتْ خُطَى الْمَدْرَسَةِ الْمَغُولِيَّةِ وَازْدَهَرَتْ وَآتَتْ ثِمَارَهَا، وَبَقِيَتْ دَهْلِيَّ الْعَاصِمَةِ تَعِيشُ عَلَى إِعَادَةِ تَصْوِيرِ مَا هُوَ قَدِيمٌ فِي ثَوْبٍ جَدِيدٍ، مِثْلَ مَشَاهِدِ الْبَلَاطِ وَالصَّيْدِ وَالطَّرَادِ عَلَى الرَّغْمِ مِمَّا كَانَ هُنَاكَ مِنْ عَوَزٍ فِي الْأَلْوَانِ وَالْأَصْبَاغِ الْبَاهِظَةِ الْأَثْمَانِ، وَمِنْ ذَلِكَ صِنْعُ اللَّازُورْدِ. وَمَعَ تَعَدُّدِ الْمَدَارِسِ الْفَنِّيَّةِ فِي الْوَلَايَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ فَلَقَدْ كَانَ مَا يُصْدَرُ عَنْهَا جَمِيعًا يُشَبِّهُ بَعْضُهُ بَعْضًا مِثْلَ تَصَاوِيرِ دَوَاوِينِ الشُّعْرِ الْفَارِسِيِّ (لَوْحَاتٍ ٤٤٤م، ٤٤٥م، ٤٤٦م)، وَمُسْتَنْسَخَاتِ الصُّوَرِ الْأُورُبِّيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ عَلَى الْحَجَرِ أَوْ الْخَشَبِ أَوْ الْمَعْدِنِ وَالبُورْتِريَهَاتِ وَكَذَا صُورِ الْعَدْرَاءِ مَزِيَمٍ مَعَ طِفْلِهَا (لَوْحَةٍ ٢٢٧م). وَكَانَتْ هَذِهِ الصُّوَرُ مَعَ تَشَابُهِهَا جَمِيعًا تَتَدَبَّذُ بَيْنَ الْأَخْذِ بِالْأُسْلُوبِ الْأُورُبِّيِّ الَّذِي يَنْزِعُ إِلَى

الأمّاكن الهندية يَسْتَوِطِنُونَهَا لِمَآرِبِ تِجَارِيَّةٍ، وَكَانَ الْبُرْتِغَالِيُونَ أَوَّلَ مَنْ وَقَدُوا إِلَى الْهِنْدِ، ثُمَّ جَاءَ الْهَوْلَنْدِيُونَ فِي إِثْرِهِمْ، حَتَّى إِذَا مَا كَانَتْ سَنَةُ ١٦٠٣ رَأَيْنَا الْإِنْجِلِيزِ يُؤَسِّسُونَ مَرَاكِزَ تِجَارِيَّةٍ عَلَى بَعْضِ السَّوَاحِلِ عَلَى أَيْدِي شَرِكَاتٍ، ثُمَّ تَلَاهُمَ الْفَرَنْسِيُّونَ سَنَةَ ١٦٤٢، كَمَا حَاوَلَتْ إِسْبَانِيَا وَبُورُوسِيَا وَالْدَانِمَرْكُ أَنْ تَمُضِيَ عَلَى نَفْسِ النَّهْجِ. وَفِي آخِرِ الْأَمْرِ اقْتَصَرَ هَذَا الصَّرَاحُ بَيْنَ الدُّوَلِ الْمُخْتَلِفَةِ عَلَى دَوْلَتَيْنِ هُمَا إِنْجِلْتَرَا وَفَرَنْسَا، وَقُدِّرَ لِشَرِكَةِ الْهِنْدِ الشَّرْقِيَّةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ الظُّفَرُ بِتَرْخِيصٍ مِنَ الْإِمْبَرَاطُورِ سَنَةَ ١٦٣٤ لِلاِسْتِيلَاءِ عَلَى مِينَا فِي أُونِسَا ثُمَّ أَخَذَتْ بَعْدَ تَسْتَوْلِي شَيْئًا فَشَيْئًا عَلَى أَمَاكِنَ أُخْرَى. وَعِنْدَمَا اشْتَدَّ التَّنَافُسُ بَيْنَ الْإِنْجِلِيزِ وَالْفَرَنْسِيِّينَ نَشَبَتْ بَيْنَهُمَا حَرْبٌ كُتِبَ فِيهَا النَّصْرُ لِلْإِنْجِلِيزِ عَامَ ١٧٥٣.

وَكَانَتْ بَيْنَ الْإِمْبَرَاطُورِ عَالِمَجِيرِ الثَّانِي وَبَيْنَ أَمْرَاءِ الْهِنْدِ حَرْبٌ انْتَهَتْ بِهَزِيمَةِ الْهِنْدُودِ سَنَةَ ١٧٥٧. بَعْدَهَا أَقَامَ الْإِمْبَرَاطُورُ الْمَغُولِيَّ الْمُؤَلَّفَ الْإِنْجِلِيزِيَّ كَلَايْفَ حَاكِمًا لِلْبَنْغَالِ وَأُونِسَا، ثُمَّ مَا لَبَثَ الْإِنْجِلِيزُ بَعْدَ أَنْ أَجْلَوْا الْفَرَنْسِيِّينَ نِهَائِيًّا عَنْ الْهِنْدِ حَرْبًا أَنْ انْفَرَدُوا وَحَدَّاهُمْ بِشُؤْنِ الْهِنْدِ وَقَفَّضُوا عَلَى سُلْطَانِ الْمَغُولِ الَّذِينَ أَصْبَحُوا لَيْسَ لَهُمْ مِنْ حُكْمِ الْهِنْدِ إِلَّا اسْمٌ فَقَطْ، وَعَدَّتْ «شَرِكَةُ الْهِنْدِ الشَّرْقِيَّةِ» الْإِنْجِلِيزِيَّةُ لَهَا سُلْطَةً كَامِلَةً تَقْضِي بِمَا تُرِيدُ مَالِيًّا وَإِدَارِيًّا، مُعْتَمِدَةً عَلَى فَرْمَانِ أَصْدَرَهُ الْإِمْبَرَاطُورُ الْمَغُولِيَّ سَنَةَ ١٧٦٥ ثُمَّ مُعَاهَدَةِ اللَّهِ أَبَادَ الَّتِي أُبْرِمَتْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْإِمْبَرَاطُورِ الَّذِي أَقَامَهُ الْإِنْجِلِيزُ حَاكِمًا عَلَى اللَّهِ أَبَادَ وَكَوَرَهُ عَلَى أَنْ تَكُونَ لَهُ مُخَصَّصَاتٌ يَعْيشُ مِنْهَا، فَيُصْبِحُ بِهَذَا وَكَأَنَّهُ مِنْ مُوْظَفِي الدَّوْلَةِ الْبَرِيطَانِيَّةِ. وَمُنْذُ ذَلِكَ الْجَيْنِ غَدَتْ إِمْبَرَاطُورِيَّةُ الْمَغُولِ يَتَصَارَعُ عَلَى أُمُورِهَا عَدَدٌ مِنَ الْمُغَايِرِينَ مِنْ جَنَسِيَّاتٍ مُخْتَلِفَةٍ كُتِبَ لِيَعْتَصِمَ الْاِسْتِيلَاءُ عَلَى أَجْزَاءٍ مِنَ دَوْلَةِ تَمَرُزْتُ أَوْصَالَهَا. إِلَى أَنْ قَامَتْ ثَوْرَةُ السِّبَاهِي أَوْ ثَوْرَةُ الْفَرَسَانِ فِي الْهِنْدِ عَامَ ١٨٥٧ كَمَا أَسْلَفْتُ، فَاتَّهَمَ الْإِنْجِلِيزُ الْإِمْبَرَاطُورَ بِهَادِرِ شَاهِ الثَّانِي بِأَنَّهُ لَهُ يَدٌ فِيهَا وَقَبَضُوا عَلَيْهِ ثُمَّ نَفَوْهُ إِلَى بُورْمَا كَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ. وَبِالْقَضَاءِ عَلَى هَذِهِ الثَّوْرَةِ كُتِبَ لِلْإِنْجِلِيزِ الْاِسْتِيلَاءُ التَّامُّ عَلَى الْهِنْدِ وَضَمُّهَا إِلَى مُمْتَلَكَاتِ التَّاجِ الْبَرِيطَانِيَّ عَامَ ١٨٧٧.

(١) ثَوْرَةُ السِّبَاهِي (Sepoy): هِيَ تَمَرُّدُ الْجُنُودِ الْوَطَنِيِّينَ فِي جَيْشِ الْبَنْغَالِ عَامَ ١٨٥٧ بِتَشْجِيعِ الْأَمْرَاءِ الْهِنْدُودِ، وَكَانَ هَذَا الْجَيْشُ تَحْتَ وِلَايَةِ شَرِكَةِ الْهِنْدِ الشَّرْقِيَّةِ، اخْتِجَاجًا عَلَى صَمِّ إِقْلِيمِ أَوْدِه (١٨٥٦) إِلَى مُمْتَلَكَاتِ شَرِكَةِ الْهِنْدِ الشَّرْقِيَّةِ. وَكَانَ قِيَامُ هَذَا الْجَيْشِ مِنَ الْبَرَاهِمَةِ، وَيُقَالُ أَيْضًا إِنَّ سَبَبَ تَمَرُّدِهِمْ كَانَ لِمَا فَعَلَتْهُ هَذِهِ الشَّرِكَةُ مِنْ إِعْطَائِهِمْ خَرْطُوشًا مُغَطًى بِمَادَّةٍ مِنْ شُحُومِ الْبَقَرِ الَّذِي كَانُوا يُقَدِّسُونَهُ. وَمَا إِنَّ بَدَأَ هَذَا التَّمَرُّدُ عَامَ ١٨٥٧ حَتَّى امْتَدَّ إِلَى الْأَقَالِيمِ الْوُسْطَى مِنَ شَرْقِ الْهِنْدِ، وَإِذَا هَؤُلَاءِ الثَّوَارُ يُحَاصِرُونَ حَاصِيَةً لَكُنْزِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ وَيَسْتَوِلُونَ عَلَى كَاونِبُورِ وَدِهْلِي، وَلَكِنْ الْبَرِيطَانِيِّينَ تَمَكَّنُوا مِنْ قَبْضِ هَذَا التَّمَرُّدِ فِي الْعَامِ نَفْسِهِ. وَقَدْ حَصَلَ هَذَا التَّمَرُّدُ الْإِنْجِلِيزِ عَلَى أَنْ يَقْبَلُوا حُكْمَ الْهِنْدِ مِنْ نَفْوَ شَرِكَةِ الْهِنْدِ الشَّرْقِيَّةِ إِلَى التَّاجِ الْبَرِيطَانِيَّ عَامَ ١٨٧٧ [م.م.م.ث.].

أَخَذَ يَفِرُّ هَرَبًا أَمَامَ الصَّائِدِينَ عَلَى حِينِ اخْتِذَ الطَّيْرُ يُحَلَّقُ فَوْقَ الرُّؤُوسِ، وَثَمَّةَ رِعَاةٍ يَسُوقُونَ قُطْعَانَهُمْ أَمَامَهُمْ. وَالصُّورَةُ فِي عُمُومِهَا مُشْبَعَةٌ بِالْمَرْحِ وَاطَّرَاحِ الْهُمُومِ كَمَا هِيَ الْحَالُ بَيْنَ أَهْلِ الرِّيفِ، أَمَّا السُّحُبُ الَّتِي بَدَتْ فِي السَّمَاءِ مُرْقَشَةٌ مُخْتَلِفَةُ الْأَلْوَانِ فِسِمَةٌ مِنْ سِمَاتِ التَّصْوِيرِ خِلَالَ الْقَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ. وَكَمَا تَدُلُّ هَيْئَاتُ الْأَشْجَارِ وَتَنْسِيقُهَا ثُمَّ الْمَنْظَرُ الطَّبِيعِيُّ وَأَسْوَارُ الْمَدِينَةِ الْقَائِمَةِ وَرَاءَ النَّهْرِ عَلَى التَّأثيرِ الدَّكْنِيِّ، كَذَلِكَ يَدُلُّ تَصْوِيرُ جَمَاعَةِ الصَّيْدِ وَصَبَايَا الْقَرْيَةِ عَلَى مَزْجٍ مِنَ الْأَسْلُوبَيْنِ الْمَغُولِيِّ وَالرَّاجُوتِيِّ.

لَقَدْ كَانَ ثَمَّةَ بَعْثٍ قَصِيرٍ بَيْنَ عَامَ ١٧١٣ وَ١٧٤٨ يُذَكِّرُ بِأَمْجَادِ الْمَاضِي التَّالِيدِ وَإِنْ ظَلَّ الْإِنْتِاجُ الْفَنِّيُّ فِي عُمُومِهِ وَاهِنًا، وَإِنْ كَانَ سَلِيمًا مَعَ ذَلِكَ مِنَ التَّاحِيَةِ التَّقْنِيَّةِ.

وَكَانَ لَايْتِقَالَ الْعَدَدُ الْأَكْبَرُ مِنْ مُصَوِّرِي الْمَدْرَسَةِ الْمَغُولِيَّةِ إِلَى رِحَابِ بَلَاطَاتِ الْأَمْرَاءِ الرَّاجُوتِ الْفَضْلُ فِي انْتِشَاقِ «الْمَدْرَسَةِ الْمَغُولِيَّةِ الرَّاجُوتِيَّةِ» الَّتِي أَقْبَتِ الْمَدْرَسَةُ الْهِنْدِيَّةُ الرَّاجُوتِيَّةُ الْبَاكِرَةُ، وَسَيَّطَرَتْ خِلَالَ النِّصْفِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ عَلَى الْمَجَالِ الْفَنِّيِّ، وَهِيَ وَإِنْ اخْتَفَضَتْ بِالنَّقِيَّةِ الْمَغُولِيَّةِ إِلَّا أَنَّهَا اسْتُخْدِمَتْ الْمَوْضُوعَاتُ الرَّاجُوتِيَّةُ. وَفِي نِهَايَةِ الْقَرْنِ النَّاسِعِ عَشَرَ فَقَدَتْ تَقَالِيدَ الْمَدْرَسَةِ الْمَغُولِيَّةِ حَيَوِيَّتَهَا بَعْدَ أَنْ أَخَذَ التَّدَهُّورُ بِتَلَابِيحِهَا طَوَالَ الْقَرْنَيْنِ الثَّانِي عَشَرَ وَالثَّلَاثِ عَشَرَ، فَضْلًا عَمَّا أَلْحَقَتْهُ عَنَاصِرُ التَّصْوِيرِ الْأُورُوبِيَّةِ الْمُتَقَحِّمَةِ مِنْ تَخْرِيْبٍ، فَانْتَهَتْ إِلَى غَيْرِ رَجْعَةٍ كُلِّ مُحَاوَلَاتِ التَّجْدِيدِ.

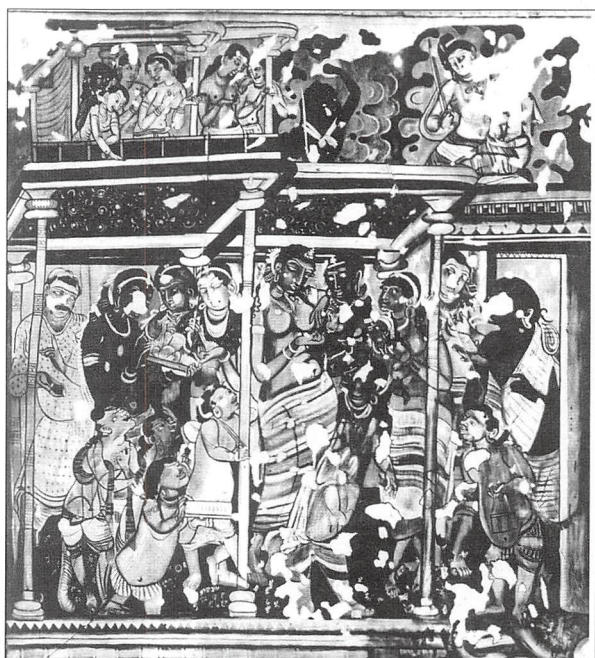
وَكَانَ بِهَادِرِ شَاهِ الثَّانِي شَاعِرًا مُوْهَبًا، وَكَانَ مِنَ الْمَيَسُورِ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ حَاكِمًا عَظِيمًا غَيْرَ أَنَّ عَهْدَهُ كَانَتْ تَسُودُهُ أَلْوَانٌ مِنَ الْأُثْبَةِ الْكَاذِبَةِ، تَدُلُّنا عَلَى ذَلِكَ تِلْكَ الْعِبَارَةُ الْمَنْقُوشَةُ عَلَى مُنْمَنَةٍ تُثَمِّلُ بَوْرْتَرِيهِ رُسِمَ بِأَخْزَرَةٍ لِآخِرِ الْأَبَاطِرَةِ الْمَغُولِ وَالَّتِي تَقُولُ: «مَا أَذَلَّ هَذِهِ الصُّورَةُ عَلَى صَاحِبِ الْجَلَالَةِ الْمُعَظَّمِ. ظَلَّ اللَّهُ عَلَى الْأَرْضِ. مَلِكُ الْمُلُوكِ الْأَفْقَحِ. مَلِجًا الْإِسْلَامَ. نَاشِرَ الْعَقِيدَةِ، الَّذِي يَبْدُو رِخَاءَ الْمُجْتَمَعِ. سَلِيلُ الْأُسْرَةِ الْمَالِكَةِ الْمَغُولِيَّةِ. الْمُخْتَارُ مِنْ بَيْنِ سُلَالَةِ تِيْمُورَلَنْك. الْإِمْبَرَاطُورُ ابْنُ الْإِمْبَرَاطُورِ. السُّلْطَانُ ابْنُ السُّلْطَانِ. الْجَامِعُ بَيْنَ الْأَمْجَادِ وَالْاِنْتِصَارَاتِ». وَنَرَى بِهَادِرِ شَاهٍ وَقَدْ جَلَسَ بَيْنَ وَلَدَيْهِ، غَيْرَ أَنَّ أَسَدِيَّ كُرْسِيِّ الْعَرْشِ يَتَدَوَّنُ وَكَأَنَّهَا جَزْوَانٌ، كَمَا بَدَأَ شَكْلُ الْإِمْبَرَاطُورِ وَكَأَنَّهُ رُوحٌ بِلَا جَسَدٍ، وَبَدَتْ عَيْنَاهُ مُحْمَلَقَتَيْنِ وَكَأَنَّهُ قَدِيسٌ فِي أَقْفُونَةٍ بِيْزَنْطِيَّةٍ، وَلَكِنَّهُ عَلَى هَذَا كُلِّهِ تَبْدُو عَلَيْهِ مَلَامِيحُ الْعِزَّةِ وَالْكَِبَرِيَاءِ. وَلَقَدْ كَانَ هَذَا الْإِمْبَرَاطُورُ عَظِيمًا حَقًّا وَشَاعِرًا مُوْهَبًا، إِذْ ظَلَّ الْمُوسِيقِيَّونَ يُشِيدُونَ أَشْعَارَهُ حَتَّى بَعْدَ أَنْ نَحَاهُ الْإِنْجِلِيزُ عَنِ الْعَرْشِ وَنَفَوْهُ إِلَى بُورْمَا (لَوْحَةٌ ٤٤٨م). وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ كَانَ أَلْعُوبَةً فِي يَدِ الْبَرِيطَانِيِّينَ خِلَالَ قَفْزَةِ حُكْمِهِ كُلَّهَا غَيْرَ أَنَّهُ اتَّهَمَ بِأَنَّهُ كَانَ عَلَى رَأْسِ مُتَمَرِّدِي السِّبَاهِي (١) مِنَ الْفَرَسَانِ فَأَعْدَمَ الْإِنْجِلِيزُ أَوْلَادَهُ رَمِيًّا بِالرِّصَاصِ ثُمَّ نَفَوْهُ إِلَى رَانْجُونِ حَيْثُ عَاشَ بِضَعِ سَنَاتٍ قَضَاهَا فِي نَظْمِ الشُّعْرِ. وَكَانَ الْأُورُوبِيُّونَ قَدْ بَدَأُوا مُنْذُ عَامِ ١٦٠١ يَقْدُونَ إِلَى بَعْضِ

لَوْحَاتُ
البَابِ الْخَامِسِ
السَّوْدَاءِ وَالْبَيْضَاءِ
التَّخْوِيرُ الْمَرْفُوعُ
بِالْهِنْدِ

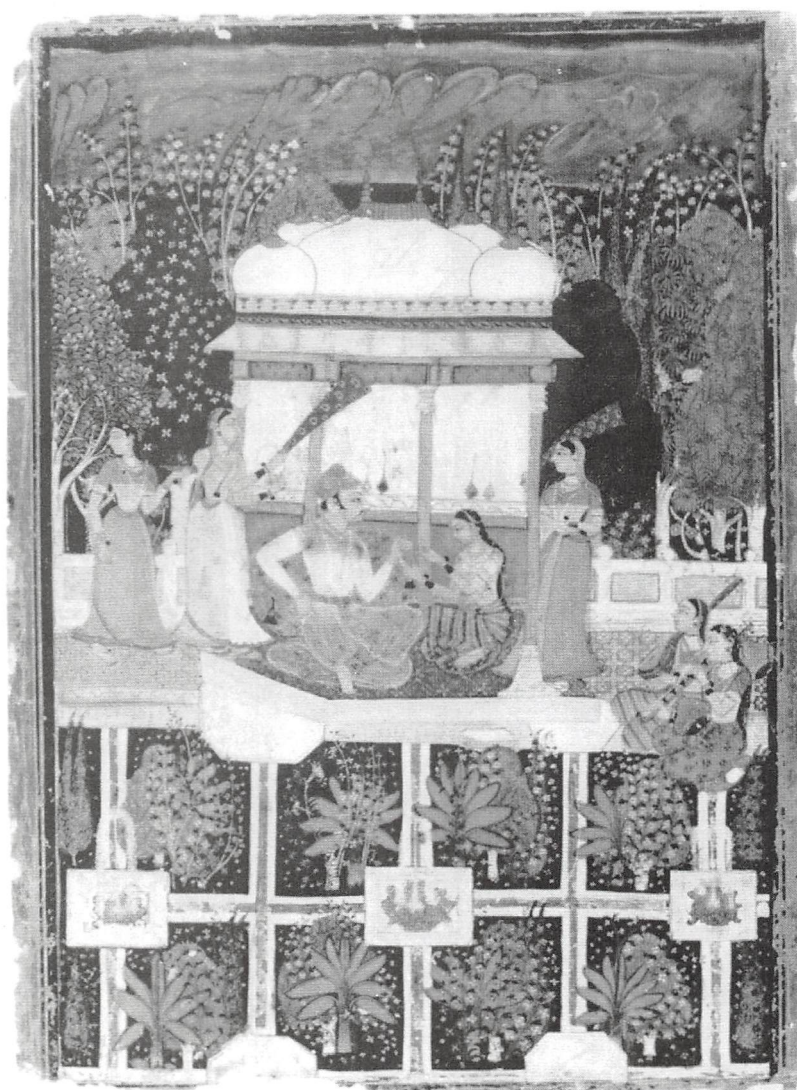




لوحة ٢١٣: جواد وسائسه. كيشانغار، ١٧٧٠.



لوحة ٢١٢: تصاوير جدارية بكهف أجاننا.



لوحة ٢١٤: مهراجا باو سنغ في
جوسق بالحديقة. بوندي، ١٦٧٠.

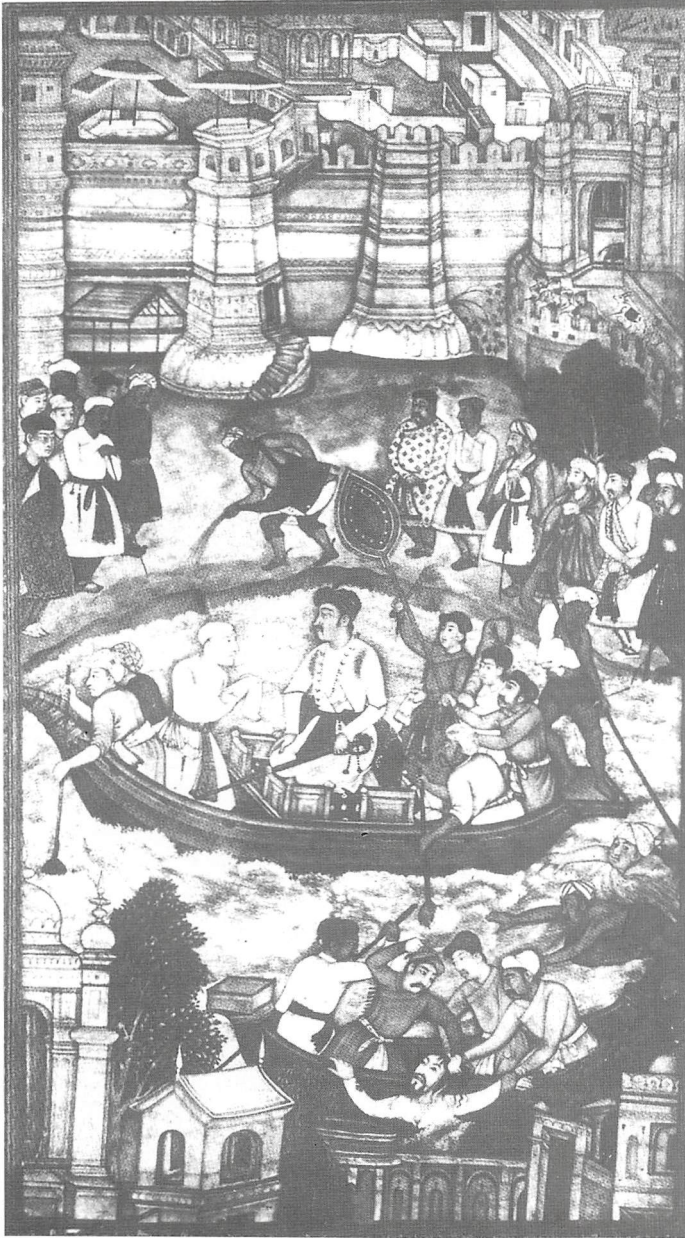
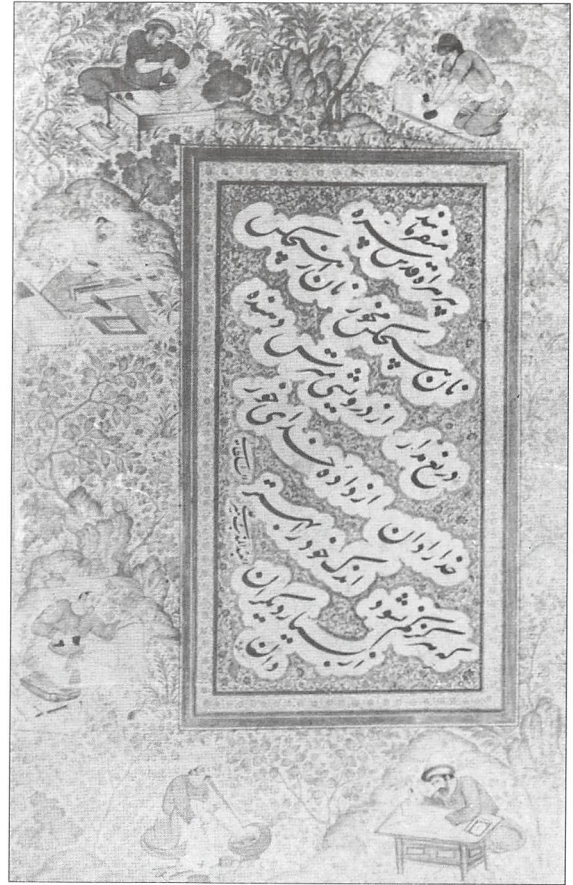


لوحة ٢١٥: رامه وسيتا ولاكشمان في الغابة. جاروال، ١٨٥٠.

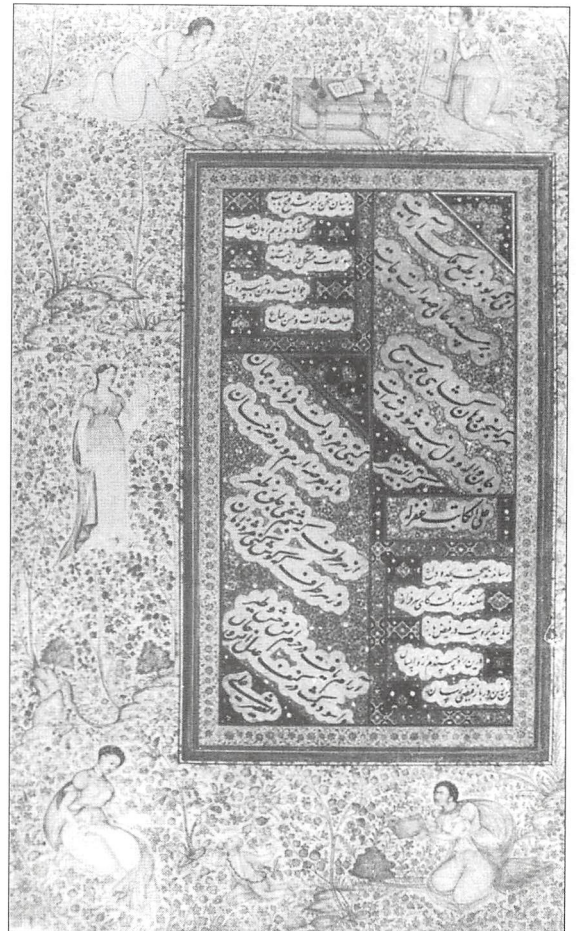


لوحة ٢١٦: راني جندان فوق العربة مع مهراجا داليپ سنغ طفلاً. أسلوب شركة الهند الشرقية. لاهور، ١٨٤٠.

لوحة ٢١٧: الفَنَانُونَ فِي الْمَرْسَمِ.
تفصيل من حاشية مُنَمَّمة من مضمَّن
صُور [مُرَقَّعة] لِلإمبراطور جهانغير.



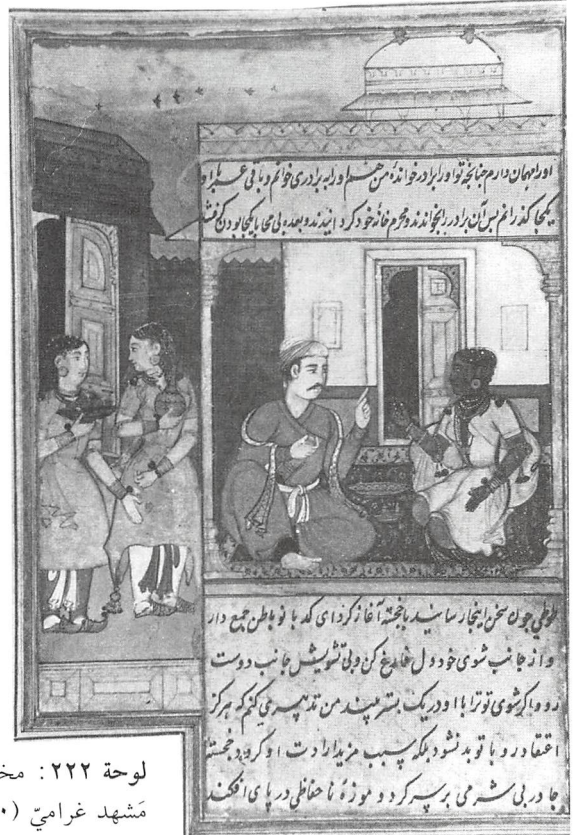
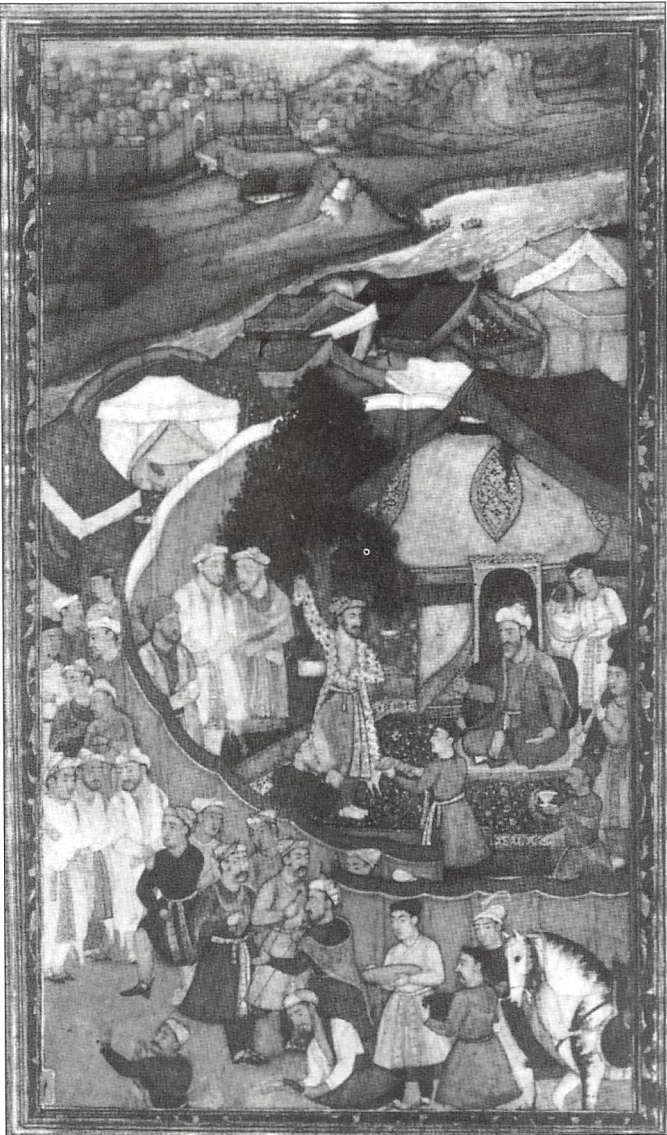
لوحة ٢١٩: مخطوطة أكبر نامه . الإمبراطور أكبر يأمر بإغراق
أحد النبلاء المُتَمَرِّدين في مياه النهر لِخروجه على أمره .



لوحة ٢١٨: هوامش صفحة مخطوطة تضم رسوم أشخاص
منقولة عن الصُور الأوربية المطبوعة على الحجر (١٦٠٠).

لوحة ٢٢٠: مخطوطة التاريخ
الألفي. حصار الخليفة
المأمون لمدينة بغداد.

لوحة ٢٢١: مخطوطة أكبر نامه
«الثانية» (١٦٠٤). داود يتلقى
رداء الشرف من منعم خان.



لوحة ٢٢٢: مخطوطة توتی نامه.
مشهد غرامی (١٥٨٠).

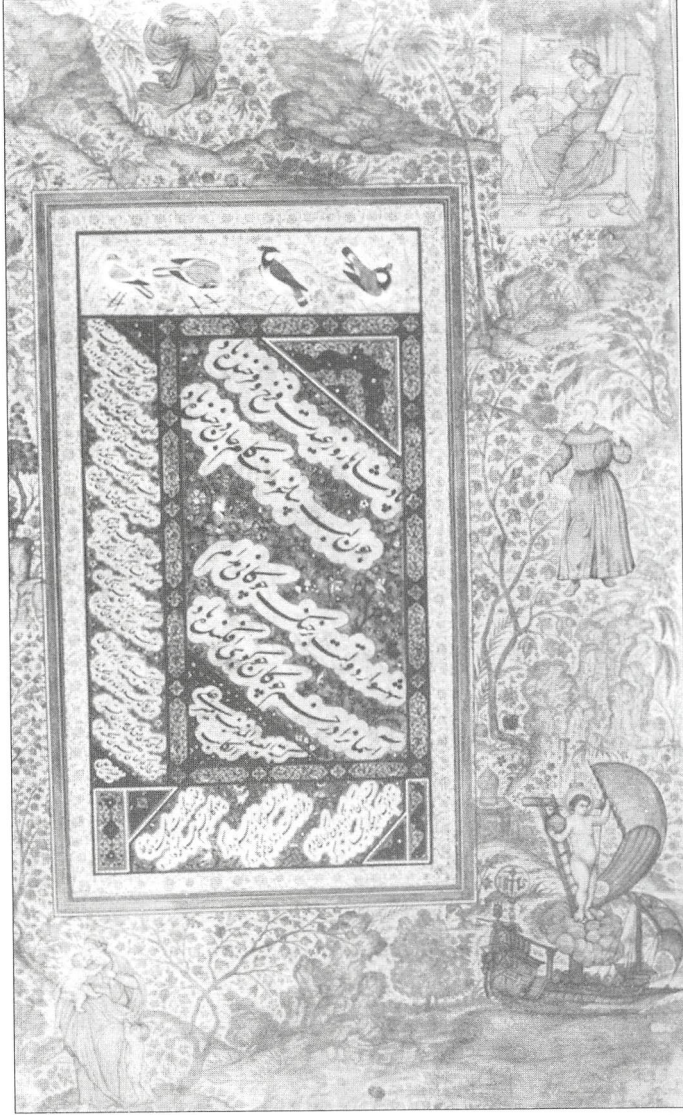
لوحة ٢٢٣: معركة
الفيلة. كوتاه.
(١٦٦٠).



لوحة ٢٢٤: استسساخ رُمبرانت لِمُنْمَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا إِلَى
الْيَمِينِ تَصَوِّرُ خَانَ خَانَانَ وَالْثَانِيَةَ لِشَخْصٍ مَجْهُولٍ يَحْمِلُ
صَقْرًا (١٦٥٤). مَكْتَبَةُ پِيَر پونت مَورجَان بَنِيُورِك.

لوحة ٢٢٥: پورترته إلیزابيث الأولى مَلِكَة
إِنجِلْتَرَا. تَصَوِيرُ مَارْكُوس غِبَارْتَزْ الْأَصْغَرُ
(١٥٩٢). النَّاشُونَالْ غَالِيرِي بَلْنَدُنْ.

لوحة ٢٢٦: إحتفاء نور جهان بَعُودَة زَوْجِهَا
جهانگیر وولدها الأمير خورام (شاه جهان)
مُنْتَصِرِينَ مِنْ غَزْوَةِ غَزَاوَا (١٦١٧).



لوحة ٢٢٨: هامش صورة من مضمّن صُور
الإمبراطور جهانگیر.



لوحة ٢٢٧: العذراء والطفل . تصوير دکنّي
من بيجاپور (١٦٠١).

لَوَحَات
البَابِ الْخَامِسِ
الْمُلَوَّنَةِ

الَّتِي صُوِّرَ الْمَسْفُوفِي

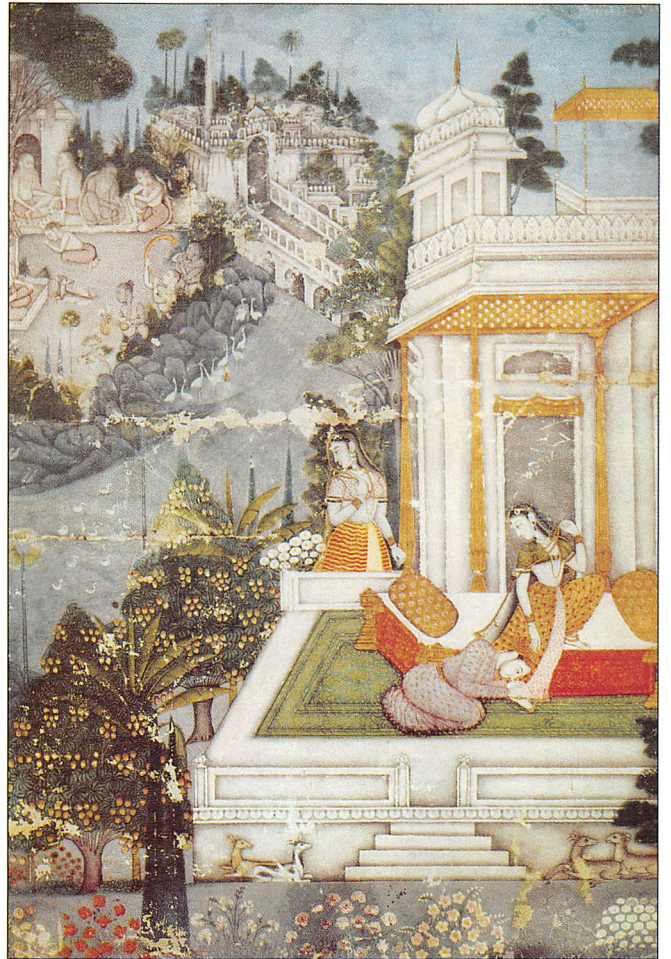
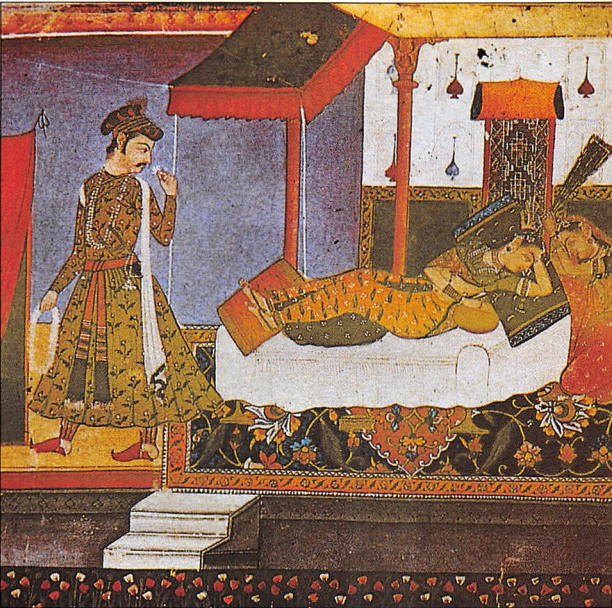
بِالْهُنْدِ

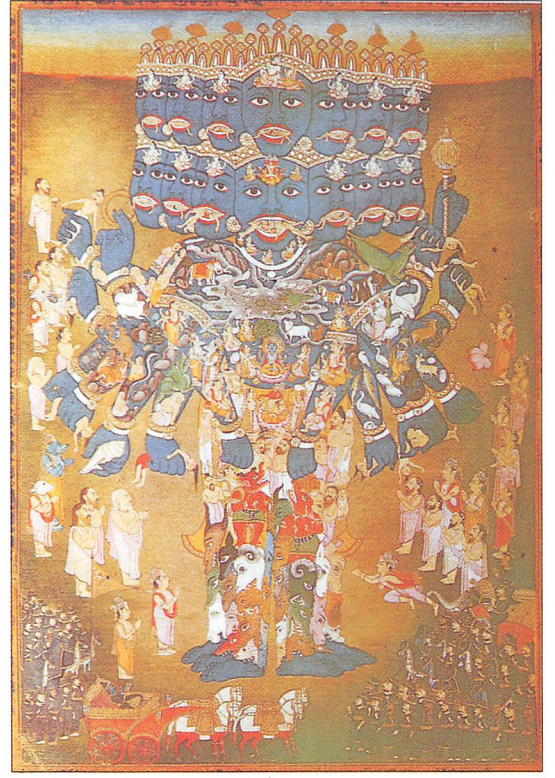
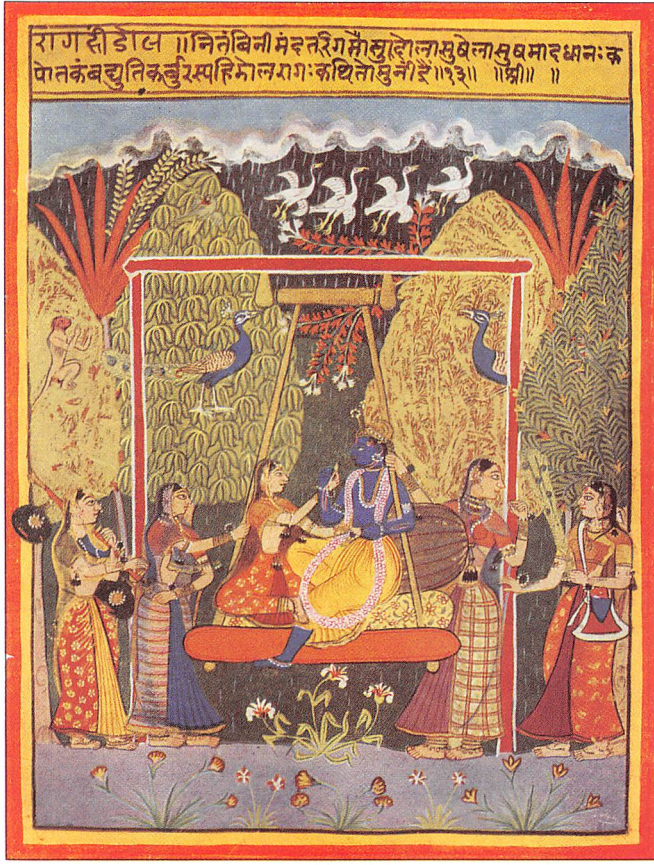


لوحة ٣٧٣م: كتاب جيتا جوفندا. مدرسة غوجرات ١٦٠٠. رادها تشك في وفاء كريشنه بعد أن علمت أنه يُغازل غيرها. بومباي.

لوحة ٣٧٤م: رامه كالي
راغيني. المدرسة الدكنية.
خيدر آباد ١٧٤٠م. متحف
نلسون آتكينز. مدينة
كانساس. ميسوري.

لوحة ٣٧٥م: لالينا راغيني.
المدرسة الدكنية ١٦٧٠.



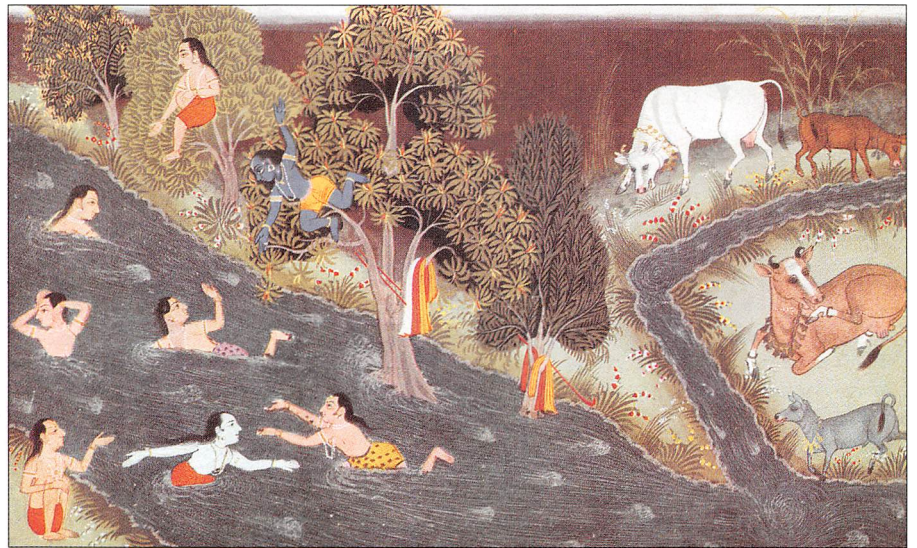


لوحة ٣٧٦م: رُؤيا أرغونا للاله كريشنه . من البهاغاوات
غيتا . جايپور ١٧٩٠ .

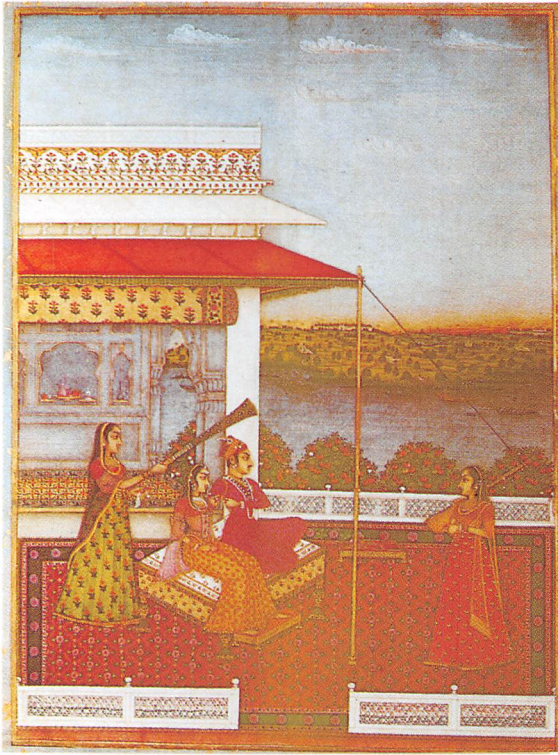
لوحة ٣٧٨م: راجه مالا . راجا
هندولا ، أو العاشق هندولا
على صورة الإله كريشنه .
مدرسة ميوار ١٦٦٠ . المتحف
القومي بنيودلهي .



لوحة ٣٧٧م: مخطوطة بهغاوات بورانا .
كريشنه يرفع جبل جوفاردان بطرف
خنصره . مدرسة ميوار ١٦٨٠ ، بنارس .



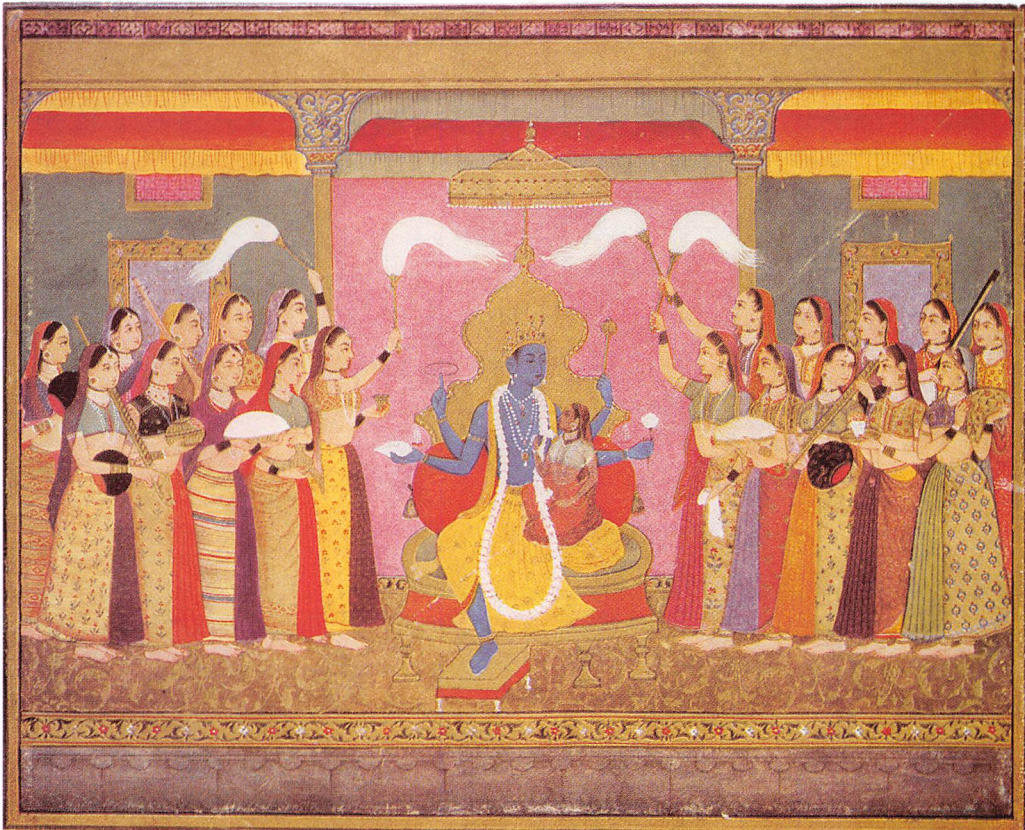
لوحة ٣٧٩م: كريشنه يقفز إلى الماء
كي يُغازِل راعيات الماشية أثناء
استحمامهن في النهر ١٧٠٠م .
بهاغاوات بورانا . مجموعة خاصّة .



لوحة ٣٨١م: أمير وأميرة في شرفة تُطِلّ على
نهر. تأثير مغولي. كيشانجار ١٧٦٠.



لوحة ٣٨٠م: كريشنه يَسْتَوِلِي على ثياب حاليات
البقر أثناء استحمامهنّ في النهر ويرقبهنّ من فوق
شجرة. مدرسة راجپوت. أسلوب پاهاري.



لوحة ٣٨٢م: فُشنو
على صورة الإله
نارايانه. مدرسة
بيكانير ١٦٥٠.
تصوير علي رضا.

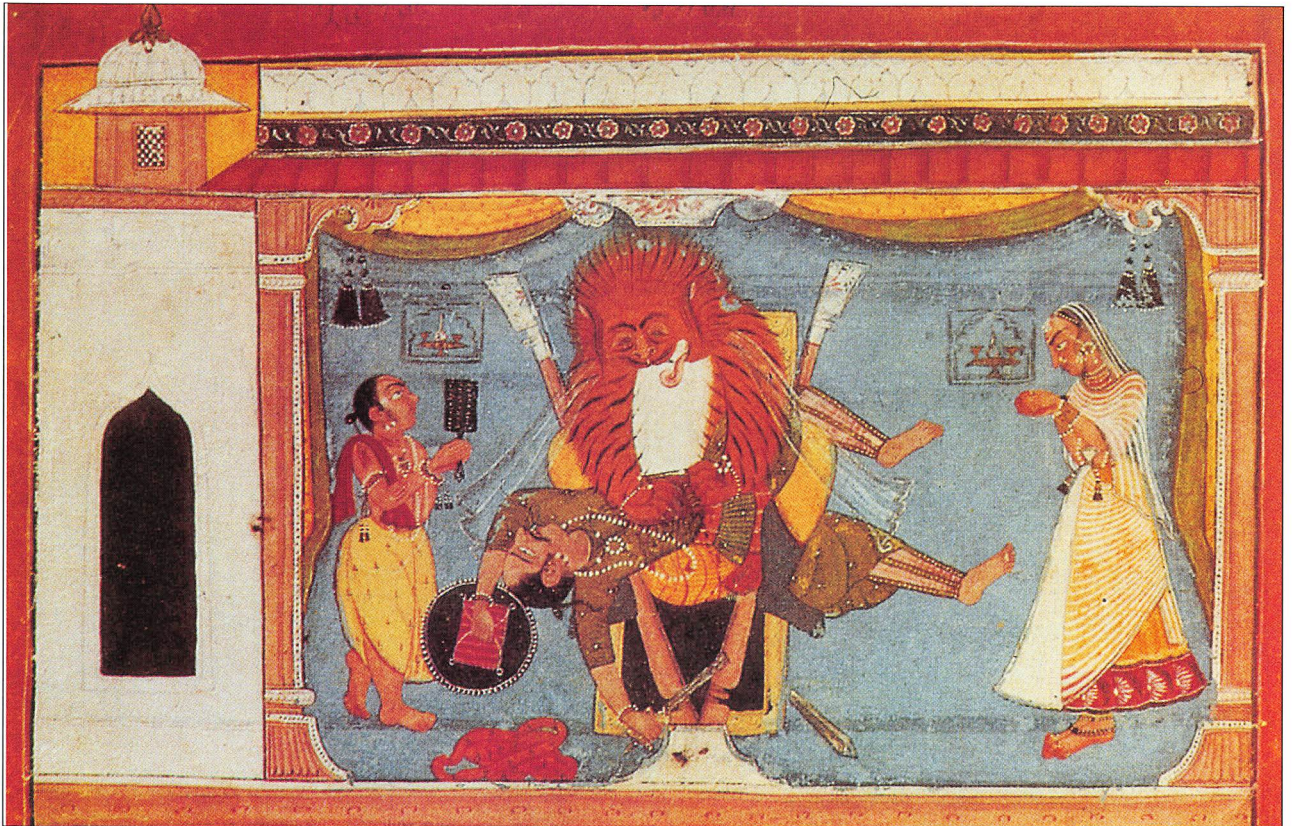


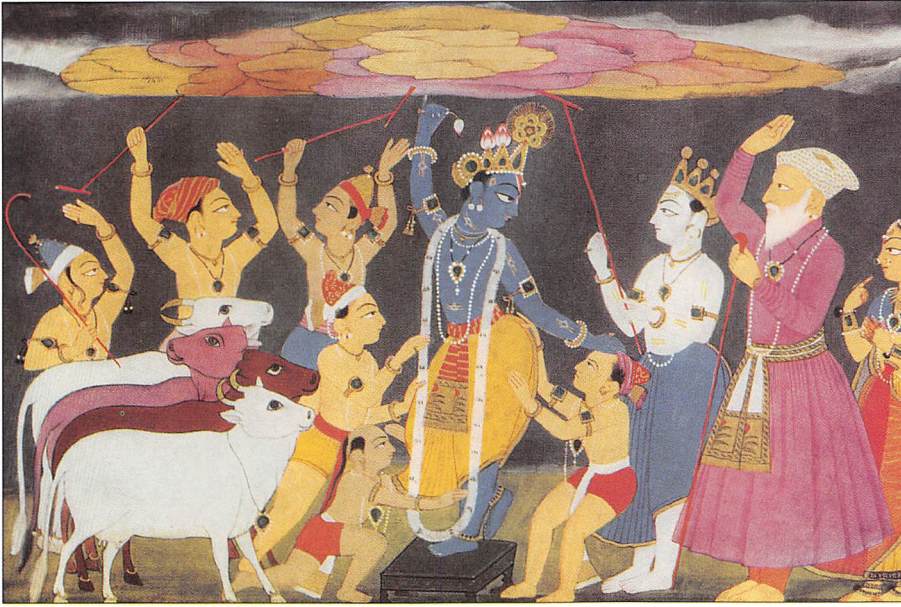
لوحة ٣٨٣م: مَهْرَاجَا سَنَغُ الْأَوَّلُ يَصِيدُ
الْأَسُودَ. كُوتَاهُ، ١٧٠٠.

لوحة ٣٨٤م: بِيلاوَالُ
رَاجِينِي. كُوتَاهُ، ١٦٧٠.

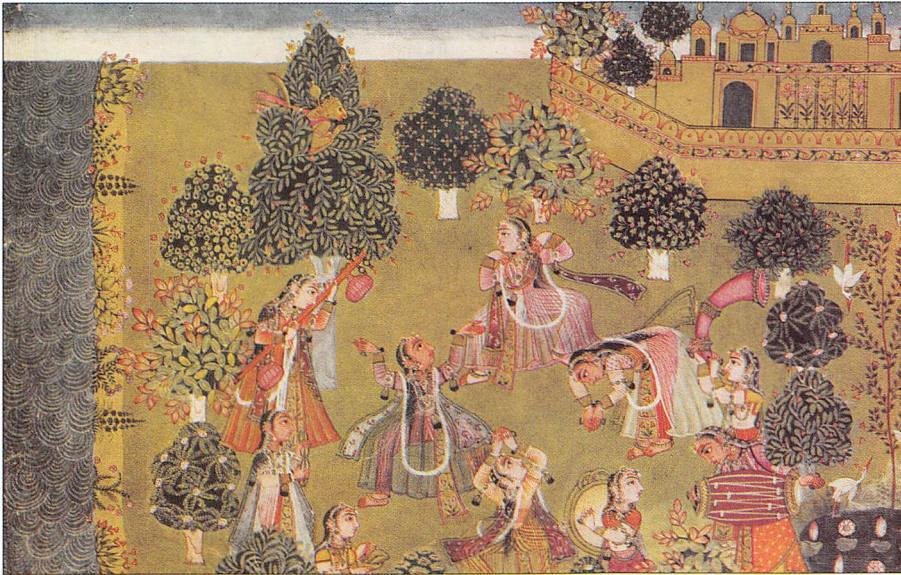


لوحة ٣٨٥م: نَارَاشِيْمَا أَقَاتَارَا. تَقْمُصُ الْإِلَهِ قُشْنُو فِي هَيْئَةِ أَسَدٍ. بَاشُوهِلِي، ١٦٩٥.

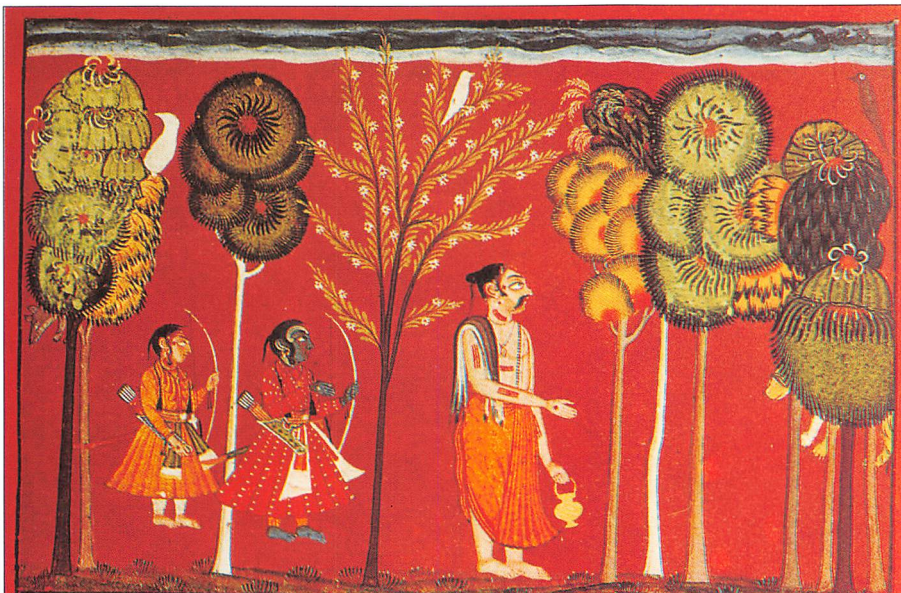




لوحة ٣٨٦م: مخطوطة غيتا
جوفيندا. كريشنه يرفع جبل
جوفاردان بطَرْفِ خَنْصَرِه. باشوهلي
١٧٣٠. مجموعة خاصّة.

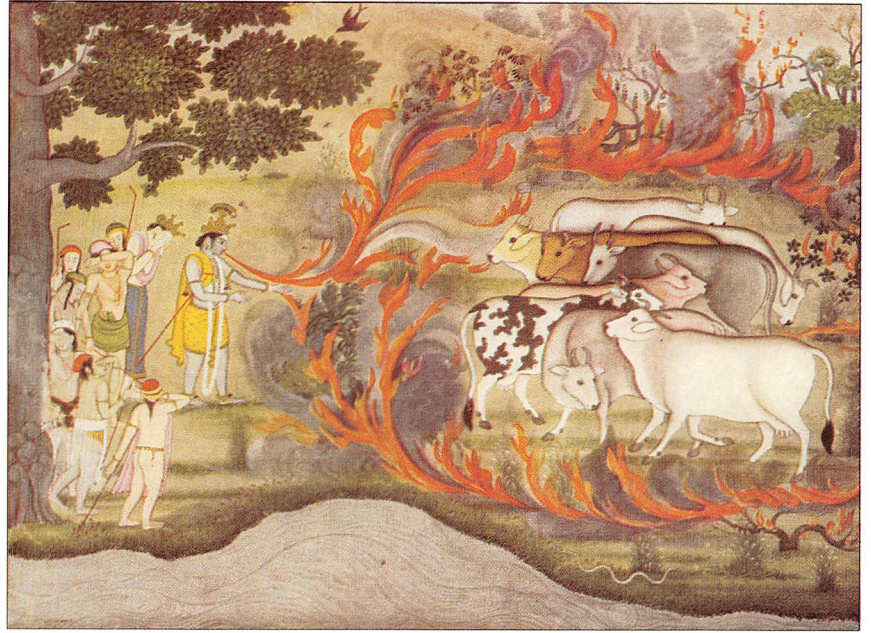


لوحة ٣٨٧م: مخطوطة الرّامايانه .
رامه يَسْتَخْلِصُ زوجته سِيتا مِنْ بَرَاثِنِ
الوحش في لانكا . مدرسة
باشوهلي . متحف غوجرات بمدينة
أحمد آباد، ١٧٥٠.

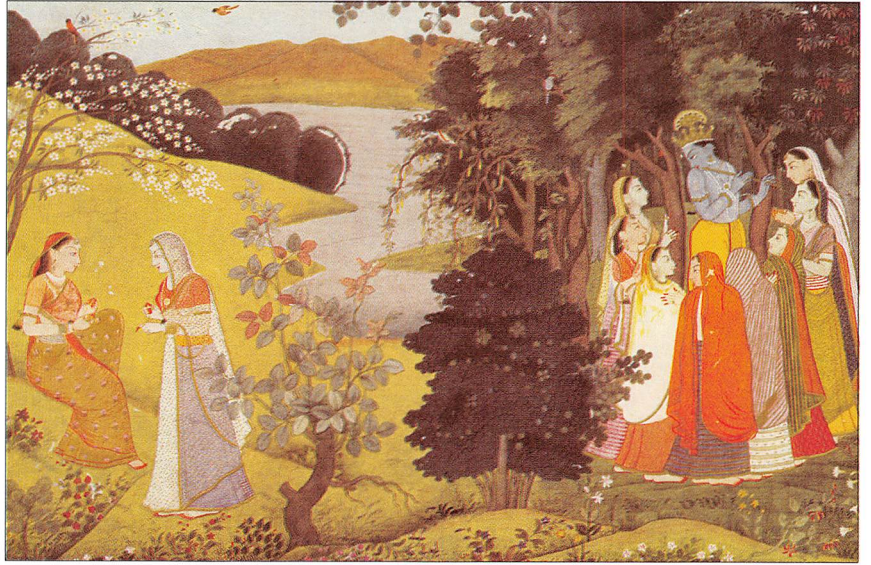


لوحة ٣٨٨م: مخطوطة الرّامايانه .
رامه ولاكشمانه يتبعانِ حَكِيمًا في
طريقهم إلى المَنفى . كولو،
١٧٠٠.

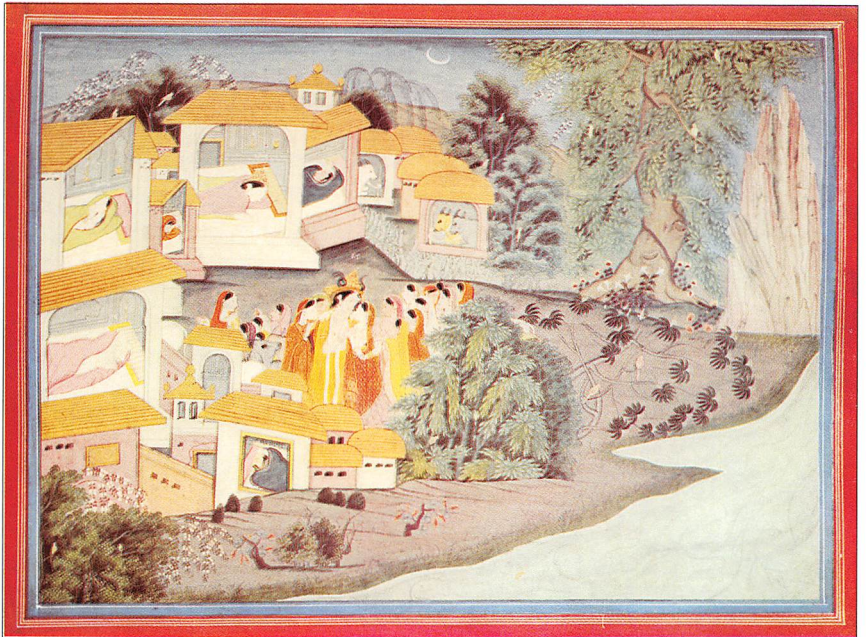
لوحة ٣٨٩م: بهاجوات پورانا .
كريشنه يبتلع النار التي تشتعل في
الغابة . مدرسة باهاري . كانجرا .
المتحف القومي بِنودلهي .



لوحة ٣٩٠م: جيتا جوفيندا .
رادها تتحدث إلى صاحبة لها،
وكريشنه يستهوي بعض الفتيات
عازفاً على المِصْفار . مدرسة
كانجرا، ١٧٧٥ .

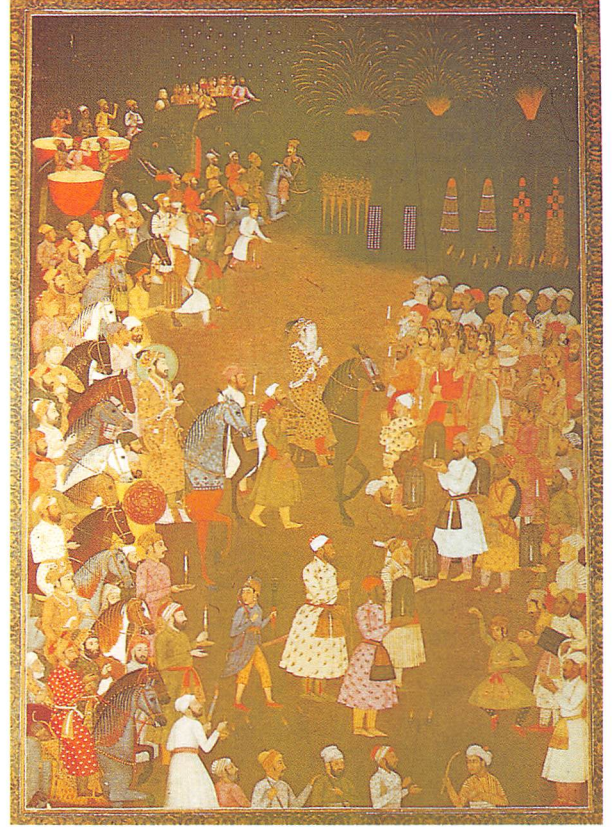


لوحة ٣٩١م: لقاء كريشنه
بحالبات البقر ليلاً . مدرسة
كانجرا . القرن ١٨ . المكتبة
العامّة بِنويورك .

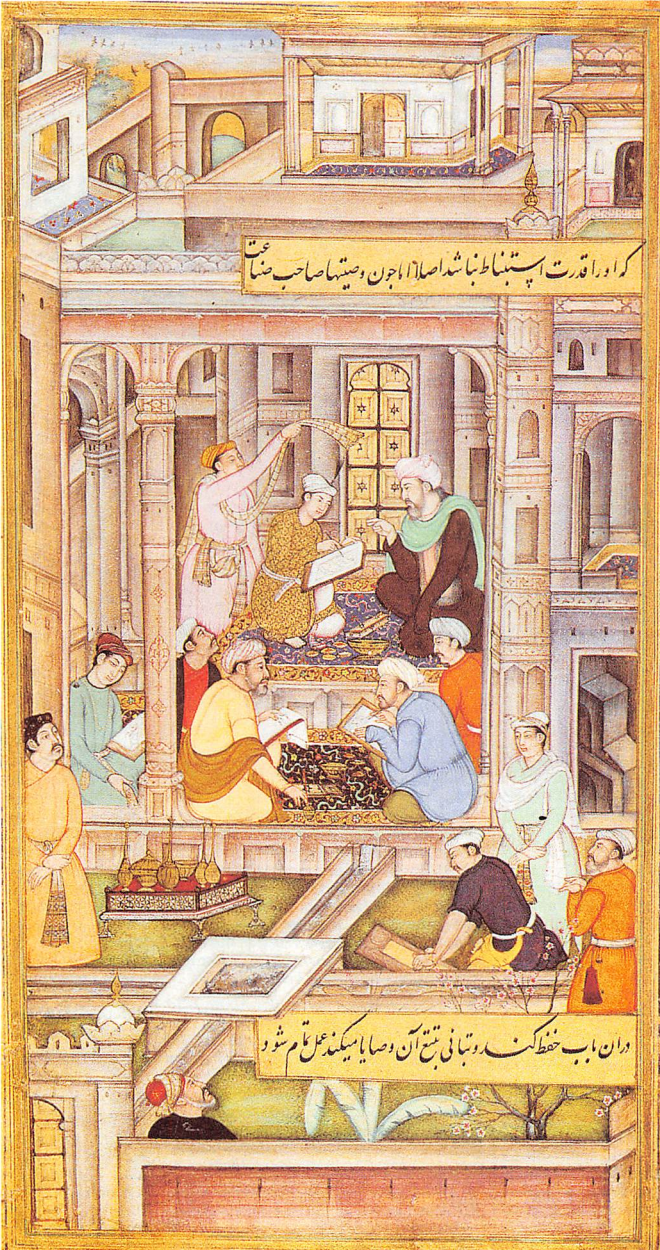




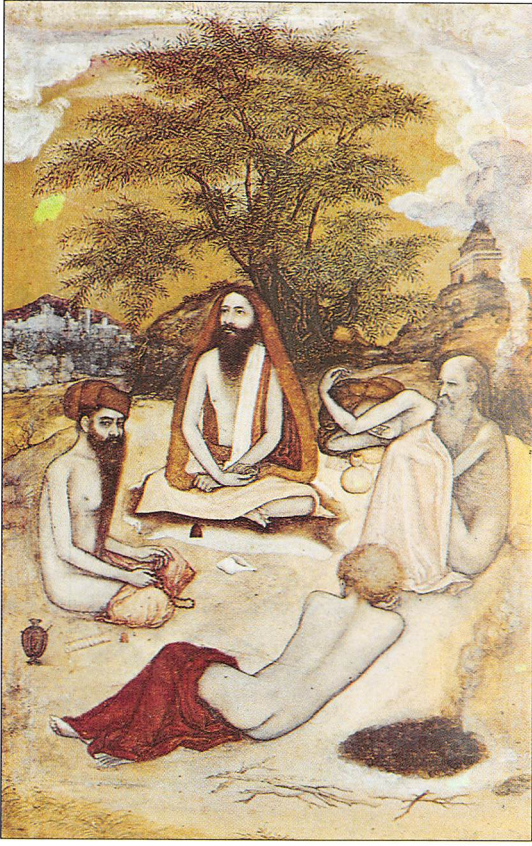
لوحة ٣٩٣: الشاعر جايا ديثا يَنْحني إِجْلَالاً أَمَامَ الإلهِ قُشنو. تصوير الفنان ماناكو. مدرسة جُولر ١٧٣٠. متحف ريتبرج، زيورخ.



لوحة ٣٩٢م: ليلة العُرس. حفل زواج الأمير دارا شيكوه. أوده، ١٧٦٠.



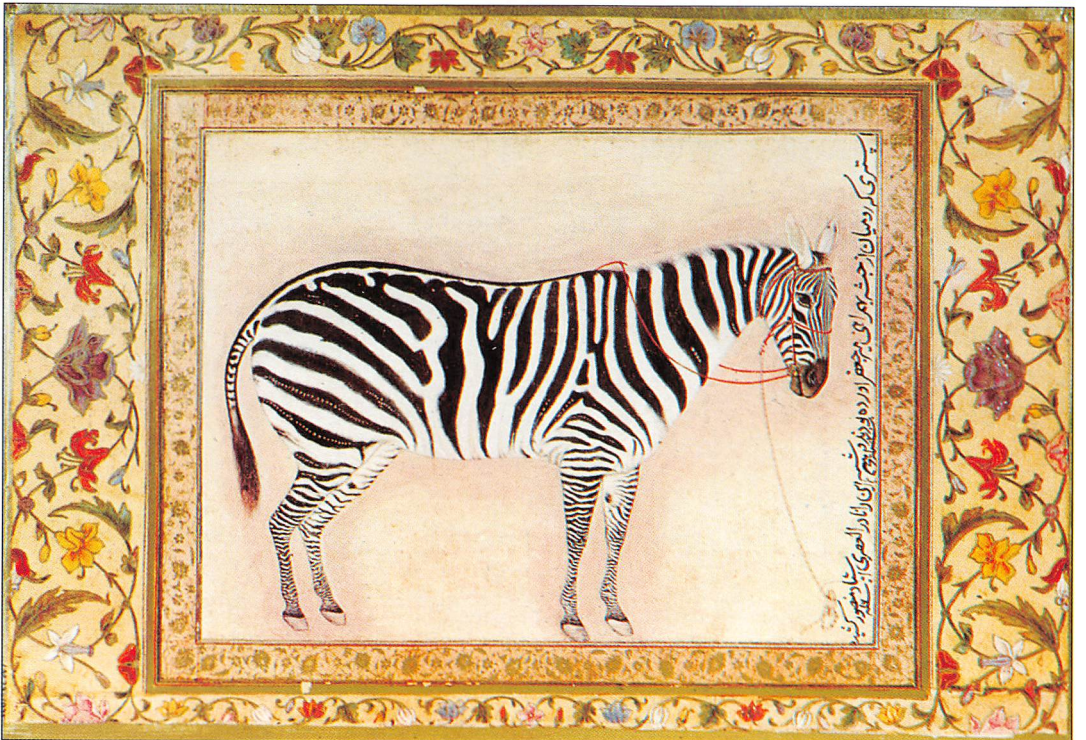
لوحة ٣٩٤م: مَرَسَمٌ فِي بِلَاطِ أَحَدِ أَبَاطِرَةِ المَغُولِ فِي الهِنْدِ ١٦٠٠. مجموعة الأمير صَدْرُ الدِّينِ خانِ الخاصَّة.



لوحة ٣٩٧م: السَّكَّ
الهندويون في جلسة تأمل.
تصوير جوفاردان ١٦٢٥.
متحف فوج للفنون.



لوحة ٣٩٥م: طاووس يعتدي
بالدود. تصوير أستاذ منصور
«نادر العَصْر» ١٦١٠، متحف
فوج للفنون.



لوحة ٣٩٦م: جمار
الزُّبُرَا. تصوير أستاذ
منصور. عهد
جهانغير ١٦٢١.
متحف فكتوريا
والبرت بلندن.



لوحة ۳۹۸م وتفصيلان منها: المصوّر، بيتشتر بين يدي الإمبراطور جهانغير، وفي يمينه لوحة تُصوّر جوادًا وفيلًا ممّا وهبه الإمبراطور إياه. ويبدو جهانغير مُنفردًا بالحديث مع شيخ صوفيٍّ مُهملاً جانبًا سلطان تركيا ومَلِك إنجلترا (١٦٢٥). فرير غاليري بواشنطن.





لوحة ٣٩٩م: مخطوطة فاسانت فيلازا. التَّحْل يسعی
لارتشاف رَحیق الزُّهور. أحمد أباد.

لوحة ٤٠٠م: بابر نامه. الإمبراطور بابر يُشرف
على إنشاء حديقة له بالقرب من كابل. تصوير
جوالیوري تحت إشراف المُصوّر مسکین.

لوحة ٤٠١م: بیت آل تیمور. أباطرة وأُمراء الأسرة المالكة
التیموريةّة ١٥٥٠. قطعٌ من لوحة مُصوِّرة كبيرة على قُماش
قُطنی (١١٤ × ١٠٧سم). المتحف البريطاني.



لوحة ٤٠٢م: پورتريه
لِسَخْصِيَّة أوريَّة (١٥٩٠)
متحف فكتوريا وألبرت.

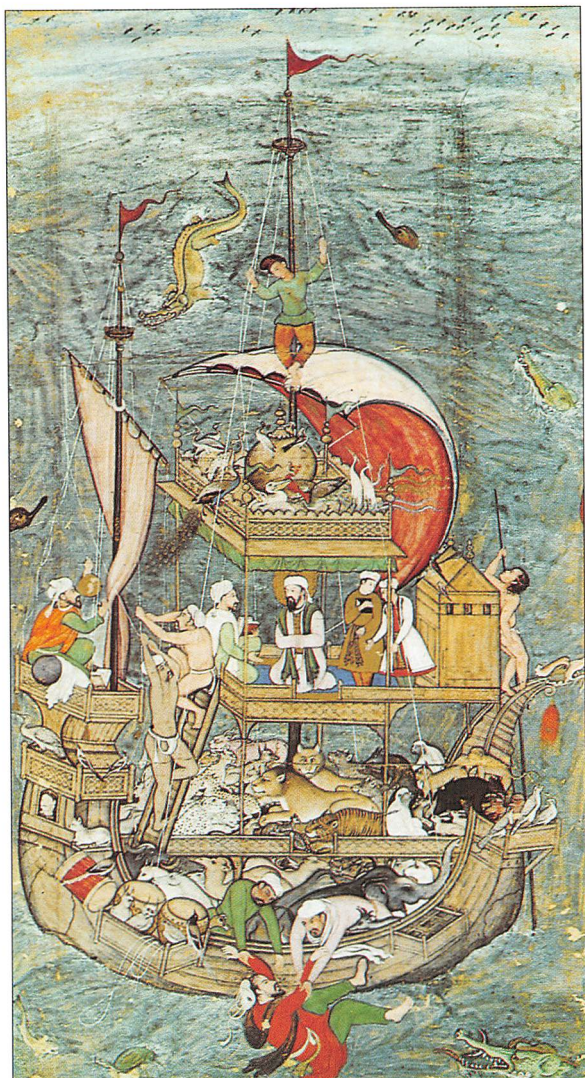


لوحة ٤٠٤م: مخطوطة حمزه نامه. فرار مردُختِ مِنَ الْأَشْقِيَاءِ (١٥٦٧-١٥٨٢). متحف الفنون التطبيقية بفسينا.

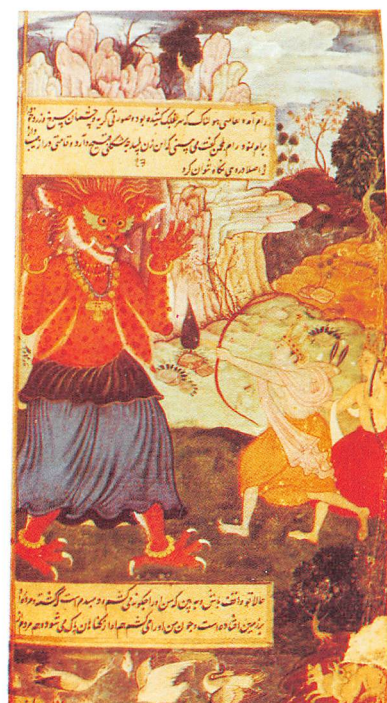


لوحة ٤٠٣م: مخطوطة أكبر نامه. الإمبراطور أكبر يُروّض
فيلاً شرساً جموحاً. تصوير باسوان (١٥٩٠). متحف
فكتوريا وألبرت بلندن.





لوحة ٤٠٩م: ديوان حافظ. فُلك نوح (١٥٩٠). فرير غاليري
بواشنطن.



لوحة ٤١٠م: الرامايانه.
رامه ولاكشمان يقضيان على
الشيطانة طاراقا (١٥٨٧-
١٥٩٨) تصوير مشفق.



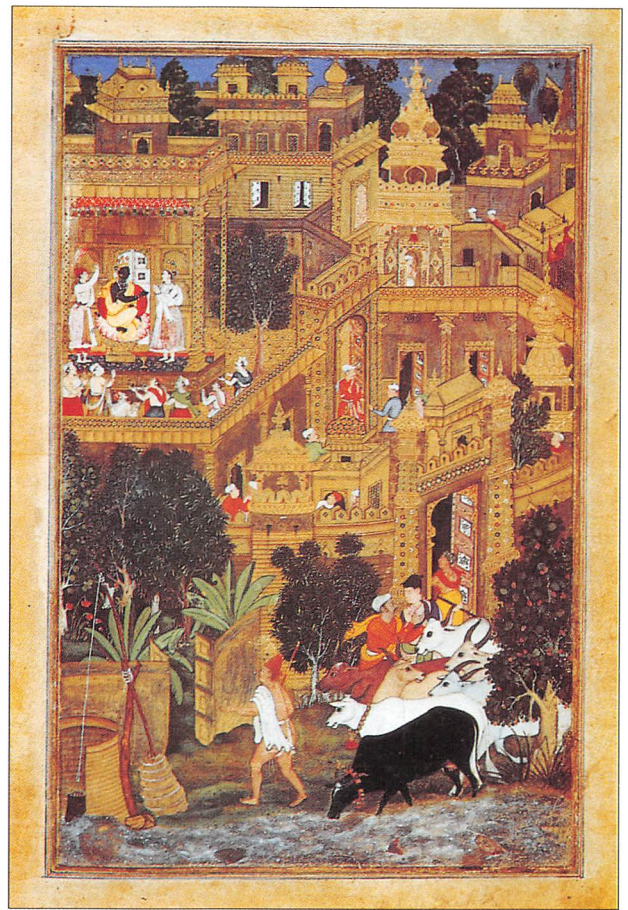
لوحة ٤٠٧م: حمزه نامه. زردنك خاتني يحمل الخاتم للسجّان.
فرير غاليري بواشنطن.



لوحة ٤٠٨م: بابر نامه.
مشهد مُعسكر.
المتحف القومي
بنيودلهي.



لوحة ٤١٢م: تصوير مغولي. زيارة مريم العذراء لابنة عمها
إليصابات أم يوحنا المعمدان. متحف ريتبرج، زيورخ.



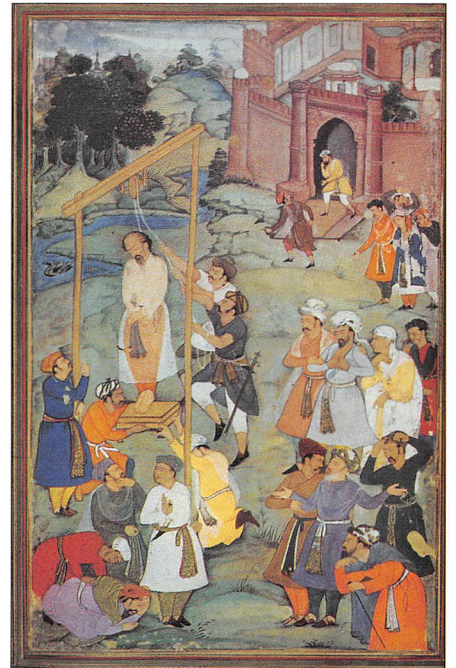
لوحة ٤١١م: مخطوطة رزم نامه. مدينة
دافاراكا الذهبية التي أمر الإله كريشنة
بتشييدها بدلاً من مدينة ماتورا.

دینق ادم تربت پوران اینه داری در محله کوران لیک در مضمی ناز بود
و سپاسه سخن دراز در مضمی این آیت و سخن اقرب الیمن جل الیوم
سپین احینا
رسانیده بود و دم

لوحة ٤١٣م: مخطوطة جُلستان
لِسَعْدِي. الشّاعر يخطب بالمسجد
الأُمويّ بدمشق. تصوير مسكين.



لوحة ٤١٤م: تصوير
مغولي. استِشهاد
الصّوفيّ حسن بن منصور
الحلاج. تصوير مير
عبدالله صاحب «القلم
المسك» (١٦٠٢).
وولترز غاليري
بواشنطن.





لوحة ٤١٧م: بورتريه الإمبراطور أكبر بعد أن تقدّم به السنّ.
تصوير مانوهار.

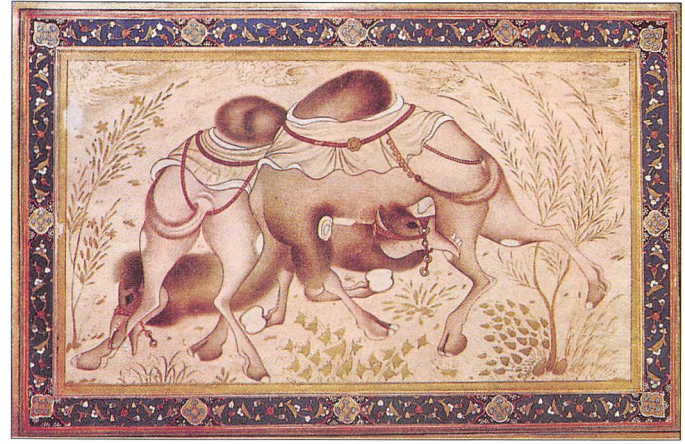
لوحة ٤١٨م: عنايت خان أحد رجال حاشية جهانغير على
فراش الموت (١٦١٨). المكتبة البودلية بأكسفورد.



لوحة ٤١٥م: تصوير مغوليّ. عائلة من الفهود
الصّيّادة بالغابة (١٦٠٤). متحف سنسناتي للفنون.

لوحة ٤١٦م: تصوير مغوليّ. فيل مُقيّد بالسلاسل
(١٥٩٠). المكتبة القومية بطهران.





لوحة ٤١٩م: معركة الإبل . تصوير هونار . مُسْتَهَلَّ القرن ١٧ .
متحف أمير ويلز بـبومباي .

لوحة ٤٢٠م: جهانغير وقد خَرَجَ
لِلصَّيْدِ مُتَطَيِّبًا فَيْلًا . مُسْتَهَلَّ القرن
١٧ . تصوير فروخ تشيلا .



لوحة ٤٢١م: بلاط جهانغير . تصوير أبو الحسن (١٦١٥) .



لوحة ٤٢٢م: المُصَوِّرُ دولت يُصَوِّرُ النَّسَاجَ عَبْدَ الرَّحِيمِ
المعروف باسم «عَبَّير قَلَم» (١٦١٤) .

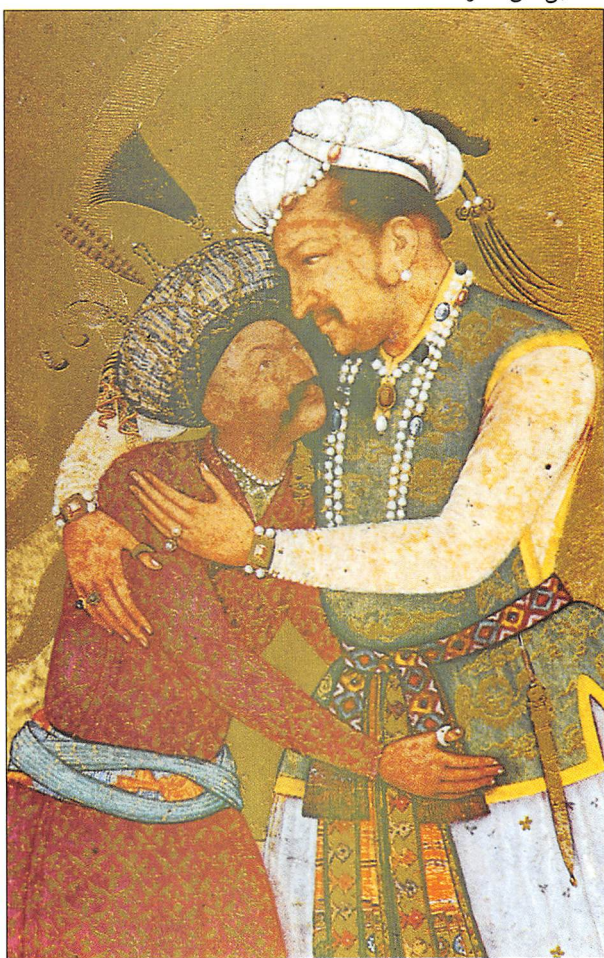
لوحة ٤٢٥م: جهانغير يَمْنَح
الشُّيوخ بعضَ الكُتُب.

لوحة ٤٢٣م: جهانغير
يَحْلِم بِمَجِيءِ خَصْمِهِ شاه
عَبَّاس زَائِرًا لَهُ (١٦١٨-
١٦٢٢). تصوير أبو
الحسن «نادر الزَّمان».
فرير غاليري بَواشنطن.



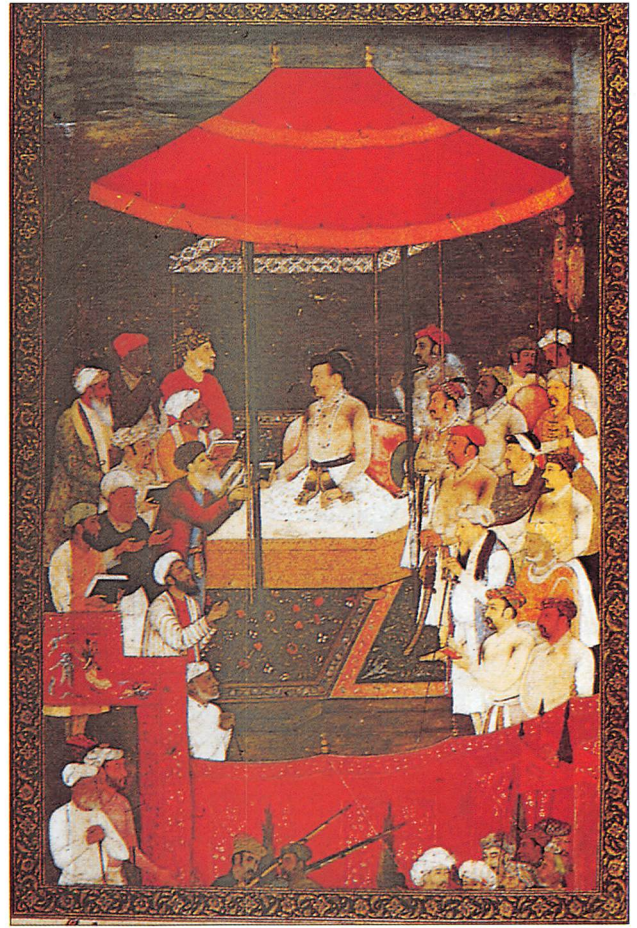
لوحة ٤٢٤م: الإمبراطور
جهانغير يَسْتَقْبِلُ شاه عَبَّاس.

تفصيل من اللوحة ٤٢٣.





لوحة ٤٢٦م: مُحَارِبٌ مَغُولِيٌّ
مِنْ عَهْدِ جِهَانْغِيرَ.



لوحة ٤٢٧م: نَاسِخٌ يَنْقُلُ
مَخْطُوطَتَهُ مِنْ أُخْرَى كَبِيرَةٍ.

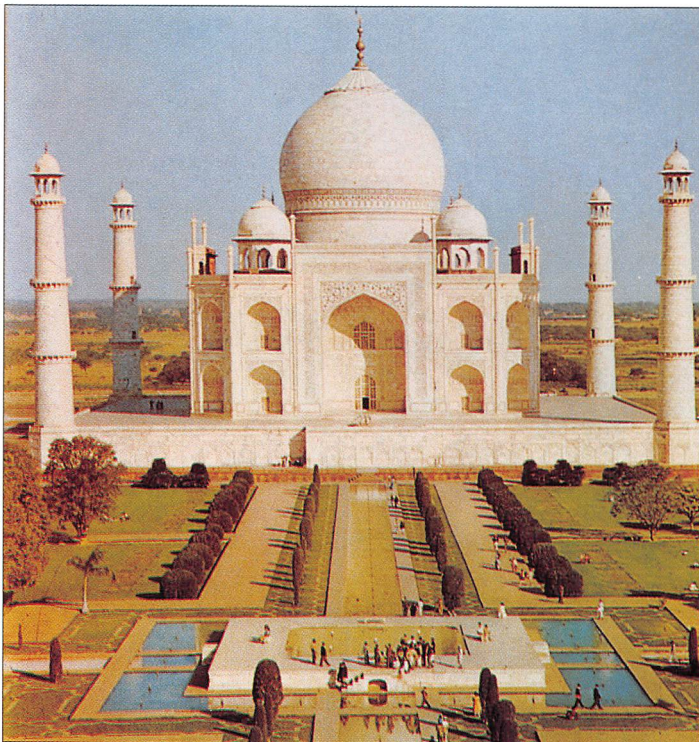


لوحة ٤٢٨م: حَفْلٌ موسيقيّ خَلَوِيّ. تصوير
جوفاردان. مكتبة تشستر بيتي بِدِلْن.

لوحة ٤٢٩م: جُلُستان سعدي (١٦١٠). تصوير
مانوهار مجموعة خاصّة في الولايات المتّحدة.

لوحة ٤٣٠م: الأمير كورم (شاه جهان)
يُوزَن بِالْأحجار الكريمة.

لوحة ٤٣١م: ضريح تاج محلّ. أغرا (١٦٤٣).





لوحة ٤٣٣م: فتاة مغولية. مدرسة شاه
جهان (١٦٢٨). بنارس.

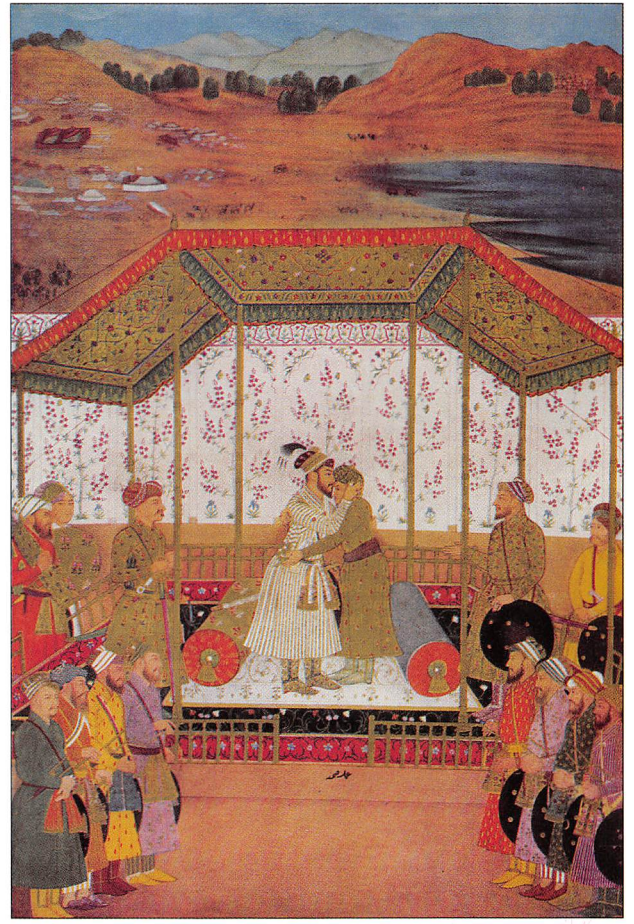


لوحة ٤٣٢م: شاه جهان في بلاطه.



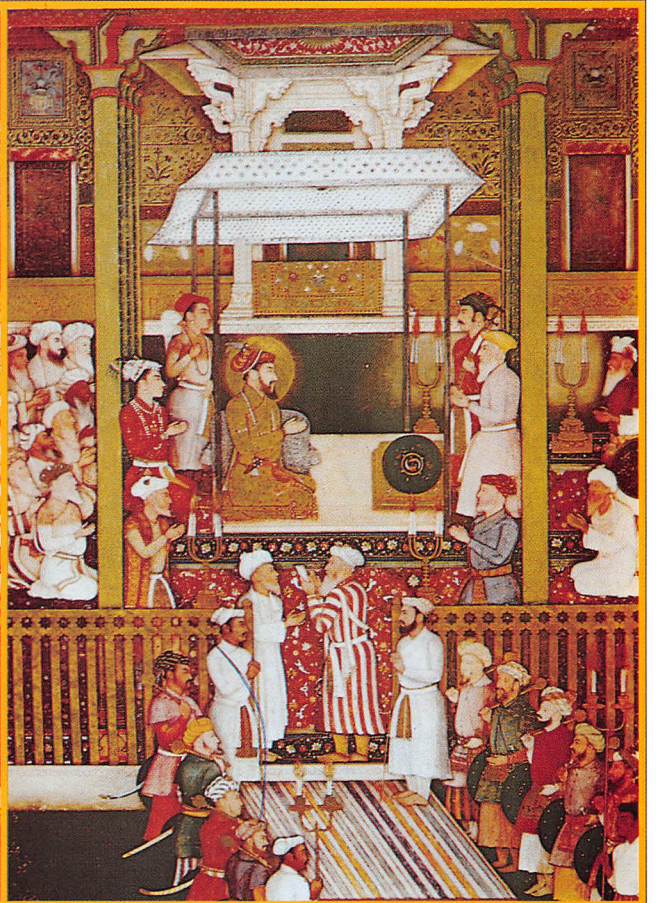
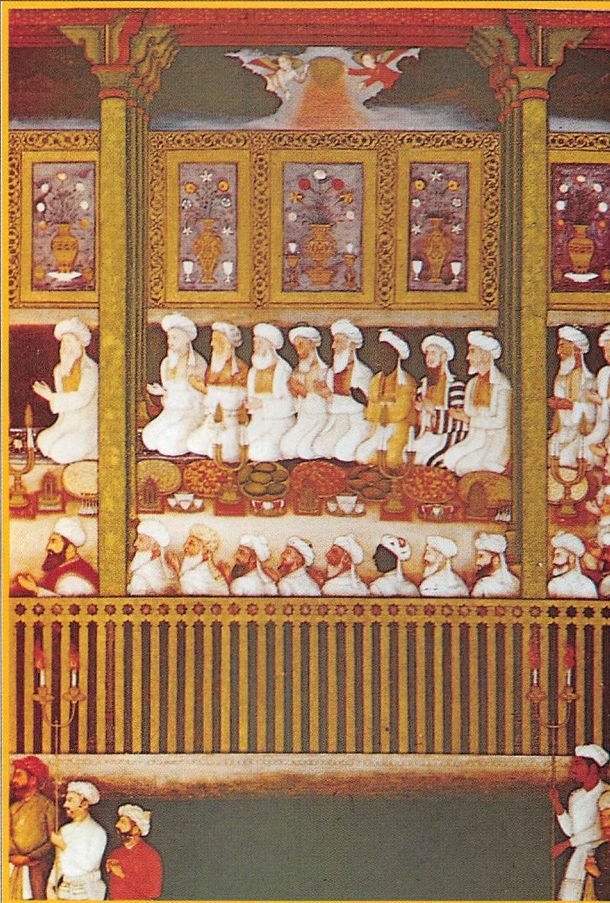
لوحة ٤٣٤م: فتى يقرأ من مضمّن صور
الإمبراطور شاه جهان (١٦١٠).
تصوير محمد علي.

لوحة ٤٣٥م: لقاء نزار مُحمَّد
الأوزبكي بِالأمير مُراد المغولي.



لوحة ٤٣٨م: معركة قُنْدُھَار (١٦٥٧).
تصوير باياج. متحف فوج لِلْفنون.

اللوحتان ٤٣٦م، ٤٣٧م: شاه جهان نامه. شاه جهان يستقبل
رجال الدين. (١٦٥٦-١٦٥٧). فريز غاليري پِواشنطن.





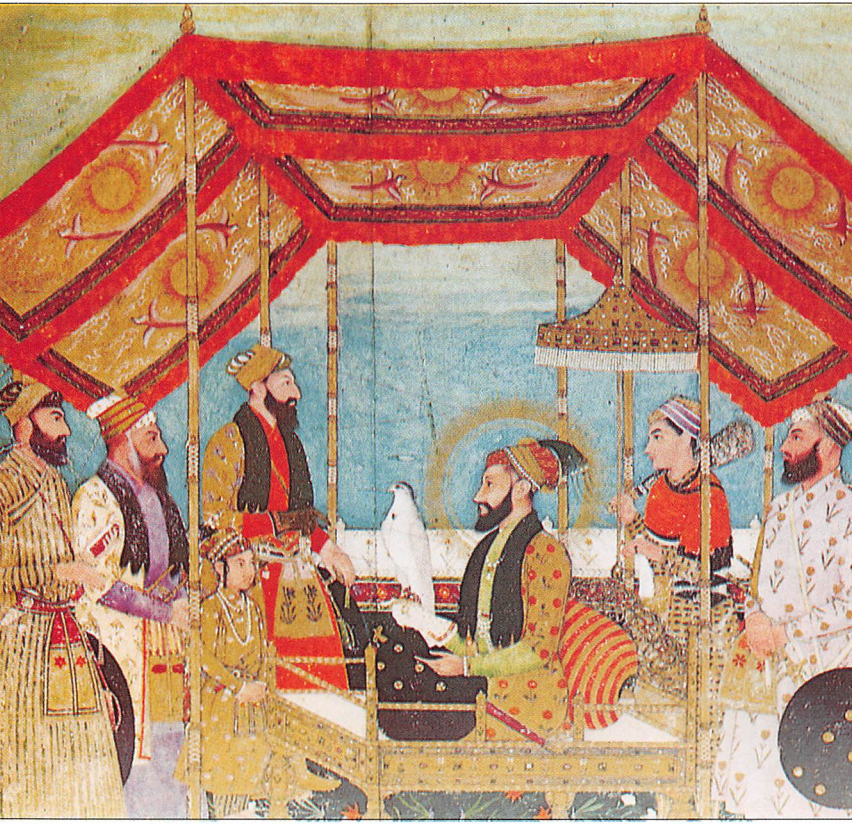
لوحة ٤٤٠م: العاشقان. مُنَمَّة ضِمْنَ مَضْمٍ لِلصُّور
(١٦٣٣). مجموعة خاصة. تصوير بالجند.

تفصيل من اللوحة ٤٤٠م



لوحة ٤٣٩م: الأمير داراشيكوه وبين يديه الحكماء
في حديثه (غير مؤرخة). تصوير بيشتر.



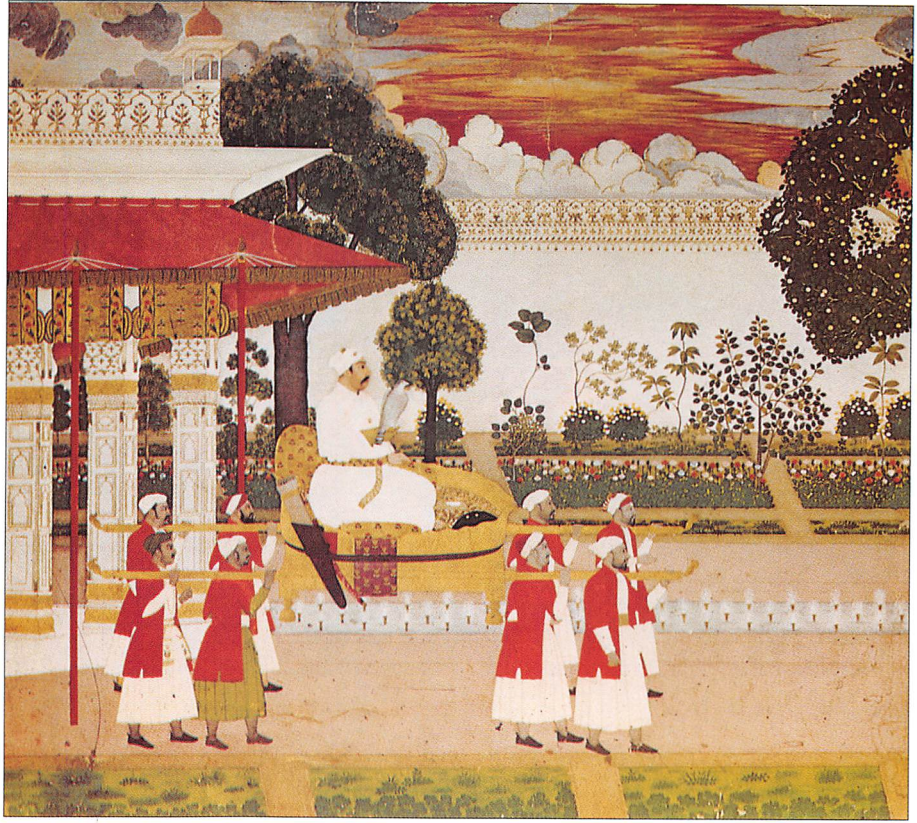


لوحة ٤٤١م: أورانجزيب وابنه مُحَمَّد
أعظم (١٦٥٨). مُنَمَّة ضِمْن مضم
للصُّور. مجموعة خاصّة. تصوير
بيتشتر.

لوحة ٤٤٢م: عالمجير
يُصيد الغزلان. مُنَمَّة
ضِمْن مضم للصُّور
(١٦٦٠). تصوير بيتشتر.
مكتبة تشستر بيتي دبلن.

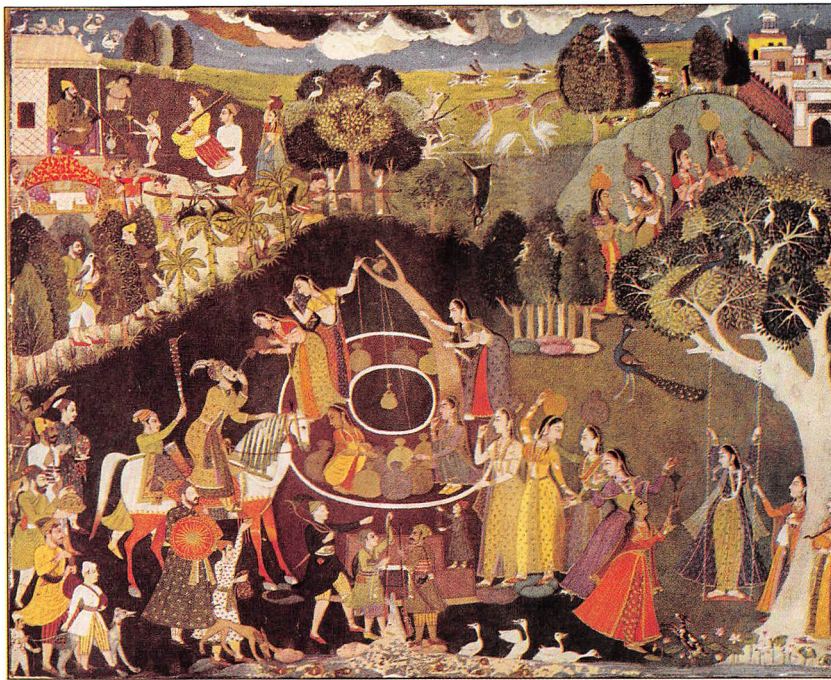


لوحة ٤٤٣م: مُحَمَّد شاه في
الحديقة. مُنَمَّة ضِمْنِ
مضَمِّ لِلصُّور. متحف الفنون
الجميلة ببوسطن.



لوحة ٤٤٤م: خمسہ نظامی.
خسرو وشیرین (١٧٢٢)
(١٧٢٣). خسرو في قصر
شیرین. المتحف القومي
بدهلي.



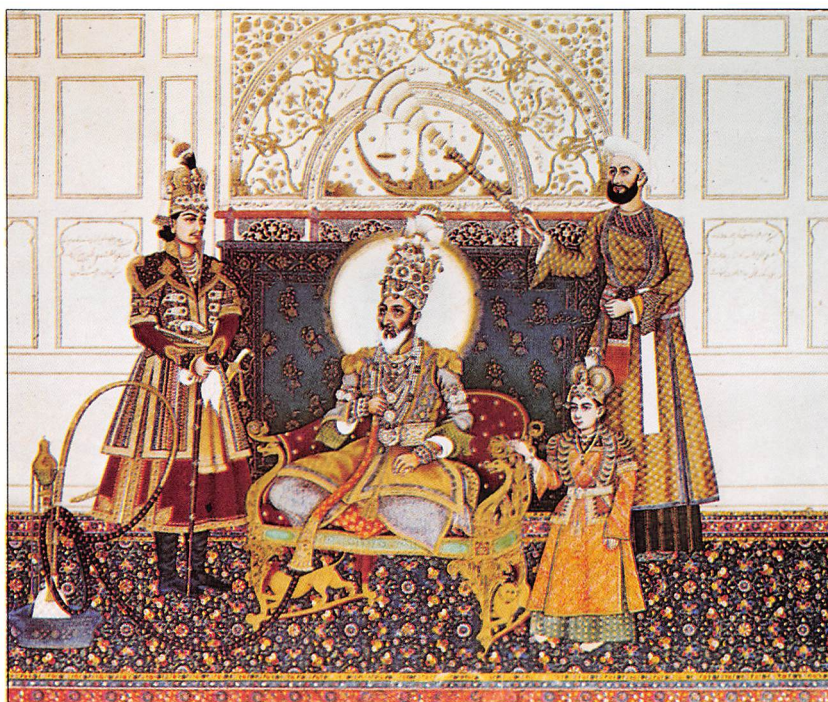


لوحة ٤٤٧م: بئر القرية.

لوحة ٤٤٥م: خمسة نظامي. هفت بيكر. كابل (١٦٦٢/١٦٦٣). بهرام جور يستمع إلى قصة الأميرة الصقلية في القصر ذي القبة الحمراء. المتحف القومي بدلهي.

لوحة ٤٤٦م: خمسة نظامي. هفت بيكر. كابل (١٦٦٣/١٦٦٢). بهرام جور يستمع إلى قصة الأميرة الخوارزمية في القصر ذي القبة الخضراء.

لوحة ٤٤٨م: بهادر شاه الثاني (١٨٣٨). مجموعة خاصة.



الْبَابُ السَّادِسُ

التَّصَوُّبُ الدِّبِّيُّ فِي الْإِسْلَامِ

الفصل السادس

توطئة

التصوير الديني عامة.

في الحق إن التصوير الديني لم يلقَ حظاً من التشجيع في العصور الإسلامية الأولى مثلما لقي عند البوذيين والمسيحيين. فلم تبد المساجد مزيّنة بصُور دينية، كما لم نر التصوير مستخدماً في أغراض تعليمية أو تربوية أو تهذيبية دينية إلا بعد القرن الرابع عشر. وعلى الرغم من ذلك، فقد بذت بعض ملامح دينية في ميدان التصوير الإسلامي، وطلب إلى المصورين تسجيل مشاهد دينية مختلفة، وأغراضهم هذا الالتجاء إليهم بتناولهم تصوير الرسول، ومع هذا فإن صور الرسول إذا قيسَت بصُور المسيح في العقيدة المسيحية تعدّ نادرة جداً. والقائلون بتحريم التصوير عامة يرون فيما يرون من أسباب تحريمه أن في هذا محاكاة لصنع الخالق، فما باله إذا كان يُصور شخصيات مقدّسة. وهذه النُدرة في صور الرسول مردها - فيما نرى - إلى الهيبة والإجلال.

التصوير الديني المسيحي.

كذلك انعدمت الرعاية والتوجيه في مجال التصوير من قِبل أئمة الدين، على عكس ما جرى عليه أسلوب السلطة الكنسية في العقيدة المسيحية، ولم يرد في الأدب الإسلامي كتاب موجه على غرار ذلك المؤلف المتداول «إيقونوغرافيا» الذي وضعه بانزيلينوس في جبل أنوس وجمّع فيه التوجيهات التي يلتزم بها المصورون البيزنطيون، أو على نهج التوجيهات التي اتفق عليها رجال الدين في الكنيسة الروسية لتصوير الأيقونات خلال القرن السادس عشر. وعلى حين كانت وسائل التعبير الفني لدى البيزنطيين بعد انتهاء حركة تحطيم الصور «إيقونوكلازم»^(١) صريحة وجليّة كانت تلك الوسائل عند المسلمين ضمنية وخفية. ومن أجل هذا كان ما صدر عن الفنانين المسلمين غير ملتزم بقاعدة ولا مُتّبع بأسس. وهكذا لم يكن من اليسير أن نستنبط قواعد إيقونوغرافية كاملة تواضع عليها المصورون المسلمون، إلا أنه على الرغم من هذا فقد استطاع ريتشارد انتجهاوزن أن يفتح لنا الطريق بذلك الجهد الجبار الذي بذله فكشف لنا عن بعض تلك القواعد

الإيقونوغرافية المتواضع عليها في رسم حيوان الكركدن ورمز الهلال. وقد استطعنا بالنظرة الفاحصة أن نكتشف عن بعض تلك القواعد ونعرّفها مثل تصويرهم للبراق واستخدام الهالات حول

(١) حركة تحطيم الصور (الدينية) Iconoclast: منذ القرن الرابع الميلادي كانت ثمة أقلية بين رجال الفكر والطبقة العليا داخل الإمبراطورية البيزنطية، تُعارض مبدأ الأيقونات Icons وما يرتبط بها من عادات خرافية، فضلاً عن الأقاليم الشرقية من الإمبراطورية التي كانت تمور بميول قويّة معادية للتصوير بدعوى أنه لا ينبغي للإله المسيح المنزه عن أن يقع عليه الجس البشري - كما كانوا يرون - أن يكون موضوعاً للتصوير الفني.

وكانت الكنيسة في العهد المسيحي الأول ضد صنع صور المسيح والقديسين؛ خشية الردة إلى الوثنية. وقرّب نهاية القرن السادس ومطلع القرن السابع ظفرت الأيقونات بتشجيع الدولة الرسمي، وعُدّت تُستخدَم بوصفها حامية الجيوش والمدن، فلقد ظلّ الإيمان بالخصائص السحرية لبعض الصور وممارسة استغلال هذا الاعتقاد أمراً شائعاً في العالمين المتأغرق والروماني. وبظهور المسيحية أضيف إلى العقائد المتوارثة عن الوثنية القديمة الاعتقاد في صور المسيح والعذراء والقديسين. وفضلاً عن ذلك كان ثمة إيمان جارِف بأنّ القوى الإلهية كائنة في الصورة الدينية التي حظيت بِقَدْر كبير من التبرُّج والقداسة، باتت معها الصورة أكثر من مجرد تذكّرة بالإله أو بالعذراء أو بالقديسين، بل امتداداً لشخصياتهم.

وما دامت هذه الصور مقصورة على الكنيسة أو المباني الرسمية الهامة، كان في الإمكان ترشيد هذه المعتقدات الدينية والخرافات الشعبية عن طريق القرارات الكنسية. ولكن ما إن تخطّت هذه الصور أماكن العبادة إلى البيوت، حتّى أصبحت إساءة استخدام الأيقونات بمنأى عن السيطرة والتحكّم، وهو ما كان عاملاً أساسياً في ضراوة الغضب الذي صاحَب حركة تحطيم الصور. وكانت الأديرة هي العمود الفقري للدفاع عن الأيقونات؛ إذ كان ثراؤها يعتمد، في المقام الأول، على جذب الحجاج وخاصة النساء منهم.

ولعلّ مرّد حركة مناهضة الأيقونات إلى تحريم العهد القديم لصنع التماثيل والصور الدينية وعبادتها، وكذلك إلى الحجج اللاهوتية عن الطبيعة الإلهية للمسيح، ومن ثمّ عدم جواز تمثيل شكله. وفي =

المسيحية. ولقد كانوا يرون في الصور أهم وسيلة لإيصال تعاليم المسيحية إلى الأميين وتلقينهم مبادئها. فاستخدموا المشاهد التي تصور حياة المسيح وآباء الكنيسة وأنبياء العهد القديم من أجل شرح تعاليم المسيحية اللاهوتية وتأسيس الفضائل الخلقية، ثم وسعوا نطاق التصوير حتى شمل مناظر من حياة القديسين وآباء الكنيسة وشهداء المسيحية الذين ذاقوا العذاب في سبيل عقيدتهم هادفين إلى تجسيد فضائلهم وتمجيد بطولاتهم لبحث المسيحيين على الاقتداء بهم واحتذاء حذوهم. هكذا كان هدف التصوير الديني عند المسيحيين تعليمياً يرمي إلى الإعلاء من شأن القدوة لا إلى تقديس الصورة.

والأمر في الإسلام يختلف عنه في المسيحية، فالقرآن الكريم هو كتاب تشريع قبل كل شيء، والأنبياء ليسوا غير بشر أوجي

عام ٧٢٦م اتخذ الإمبراطور ليو [ليون] الثالث موقفاً رسمياً ضد الأيقونات إلى أن حرمها تماماً عام ٧٣٠م، ومن ثم بدأ اضطهاد عبادة الأيقونات الذي بلغ ذروته في عهد قسطنطين الخامس (٧٤١م - ٧٧٥م) خليفة ليو، الذي طالب أفراد الجيش بأن يقسموا يميناً يتعهدون فيها بعدم تقديس الأيقونات، أو مشاركة الرهبان تلقي سير الثنا أو تبادل التحيّة معهم. ولما كان معظم أفراد الجيش مجندين من الأقاليم الشرقية التي كانت معقلاً لحرّكة تحطيم الصور، فقد كان من المنصور عليهم أداء هذا القسم والالتزام به، على حين لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لبحارة الأسطول الذين كان معظمهم من اليونانيين مؤيدي الأيقونات. وقد صاحب قرارات «تحطيم الصور» اضطهاد وحشي للأديرة، واضطرّ رجال الدين من مؤيدي الأيقونات إلى اللجوء إلى البلاد وفقدان ممتلكاتهم، كما استشهد الكثيرون منهم، وفرّ أغلبهم إلى روما.

على أنّ حرّكة «تحطيم الصور» قد انتهت على يد الإمبراطورة أيرينه اليونانية الأصل، حين عقدت في عام ٧٨٧م المجمع المسكوني السابع في نيقية فأدان مبدأ تحطيم الصور. ثم ما لبثت حرّكة مناهضة الصور أن انتعشت من جديد في عام ٨١٥م بعد أن ثبّأ ليو الخامس عرش الإمبراطورية، وقضي على هذه الحرّكة بعد موت الإمبراطور ثيوفيلوس عام ٨٤٢م، حين أعادت الإمبراطورة تيودورا للأيقونات والصور في المجمع المسكوني المنعقد عام ٨٤٣م، ما كان لها من قبل من مكانة وتقديس. ويستتعي الانتباه أنّ نفوذ النساء في البيت الإمبراطوري كان عاملاً مؤثراً خلال الجدال القائم حول إباحة التصوير الديني وتخريمه.

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى أنّ الموقف الإسلامي المعادي لفنون التصوير قد ظهر أثراً من آثار حرّكة تحطيم الصور المقدسة، التي بدأت في العالم المسيحي الشرقي عام ٧٢٦م، بينما ذهب آخرون إلى القول بأن هذه الحرّكة قد جاءت متأثرة بتخريم الإسلام للتصوير.

ومهما يكن من أمر تأثر أحد هذين الموقفين بالآخر فليس ثمة قرابة بين هاتين الحرّكتين، إذ على حين كانت حرّكة تحطيم الصور المسيحية حدثاً تاريخياً طارئاً له بداية ونهاية، كانت مواقف تخريم التصوير عند المسلمين اتجاهاً يختلف ظهوره باختلاف الأقاليم والمذاهب [م.م.م.ث].

رأس الرسول عليه السلام. وإذا كان الإنجيل قد مدّ مصوري المسيحية بمضمون يصورونه منذ الفترات المبكرة من تاريخ الفن المسيحي فلم يقدم المسلمون على تصوير القرآن لأن أكثر مفكرين الإسلام نبذوا هذه الفكرة.

وليس تلك التّصاویر المسيحية التي قد تبدو متصلة بالدين بسبب هي ذوّماً من التّصاویر الدّينية، بل قد تكون لغرض أبعد من هذا وأعَمَق، فمن المستبعد مثلاً أن نعدّ لوحات الفن الإسباني جوايا الدّينية تصوّراً دينياً بمعناه المعروف وإن كانت له بعض اللّوحت المصوّرة ذات الموضوعات الدّينية الصّريحة، فمِمّا لا شك فيه أنّ جوايا لم يقصد بهذا أن يعرب عن تبجيله للكنيسة أو أن يُثير بذلك عاطفة دينية في نفوس الناس، بل كان همه الأكبر التّغيير عن أحاسيس أخرى للناس لا سيّما تلك الأحاسيس التي تنفر من القسوة وتستنكر البطش. هكذا كان جوايا بارعاً في تصوّر المشاهد الإنسانيّة المثيرة الزّاجرة بالعواطف مُستملياً في ذلك عن ضيقه بالمجازير البشريّة أكثر من استملائه عن العقائد الدّينية، ولذا جاءت تصاويره الدّينية دون مُستوى تصاويره الأخرى.

وصورة الملاك المُجنّح، على سبيل المثال، قد تكون من التّصویر الدّينيّ كما قد تكون من غيره، فشتان ما بين ملائكة الفنّان الفلورنسيّ فرا أنجيليكو التي تفيض روحانيّة وسُموً وبين ملائكة المصوّر الفرنسيّ بوشيه التي تكاد تكون كيبيدات حسّية تُذكرنا بخدور الغايات. إنّ ورع فرا أنجيليكو يتبدى للوهلة الأولى من ملائكته على حين يتّهب بوشيه نهج فنّاني القرن الثّامن عشر الذين لا يهتمون بالشعور الدّينيّ بقدر اهتمامهم بالزّخرفة. فقد جرّدت كيبيدات المَخادع الرموز الدّينية من كلّ ما لا يتفق والعنصرين التّصويريّ والزّخرفيّ. وعلى حين نجد بعض المصوّرين قد استخدّموا التّصویر للتّعبير عن نظرتهم الصّوفيّة مثل الفنّان الألمانيّ هيرونيمس بوش والفنّان الإيطاليّ بوتيتشيليّ اللّذين رسّما مجموعة الصور التي تُزيّن الكوميديا الإلهيّة ليداني، اثّرى غيرهما ليزيّنها لغرض فنيّ بعيد البعد كلّهُ عن القصد الدّينيّ مثل الفنّان الإسبانيّ سلفادور دالي، وهم في ذلك لم يجعلوا الذين غرضهم الأوّل بل كانوا يهدفون إلى التّحقيق الوظيفيّ للصّورة.

ومن قبل ظهور التّصویر الدّينيّ في الإسلام كان ظهوره في المسيحية هادفاً إلى أغراض تعليميّة. وكانت التّكوينات الفنّيّة المُستوحاة من الكتاب المقدّس تصوّر لتعليم المشاهد وتلقينه إحدى العظات الدّينية. والمسيحية كما نعلم تقوم على فكرة تجسّد الرّب في المسيح، فهو المثل الأعلى والقدوة التي يقتدي بها المسيحيّون. وحياة المسيح ذات دلالة خلقيّة ودلالة روحيّة رمزيّة لأنّها تصوّر كشف الرّب عن ذاته للعالم. وهذا هو الأساس الذي استند إليه مُبجّلو الأيقونات البيزنطيّون في القرن الثّامن في دفاعهم عن استخدام الصور في صميم النّصوص المتعلّقة بالأسرار

النماذج الأصلية. كما واصل فنانو عهد النهضة الأوربية استنساخ النماذج الكلاسيكية، فنجد رافائل - على سبيل المثال - يستنسخ في لوحه الشهيرة «مدرسة أثينا» قسمات الفلاسفة الكلاسيكيين. وهكذا يصبح من السهولة تمييز هذه الشخصيات في اللوحات التي صُوروا عليها تلقائياً. وهذا التقليد لا ينطبق على الفن الإسلامي، فالفنان المسلم لم يعمل وفقاً لنموذج حتى أمامه، كما أنه لم يكن لديه أي نموذج يمثل الشخصيات الدينية.

أما ما يتصل بافتقار الفن الديني الإسلامي إلى المدارس المتعددة فينبو أن أرنولد قد ساق هذا الحكم قبل اكتشاف كنوز التصوير التركي التي ظلت حتى وقت جد قريب مجهولة. ومن ثم بات في استطاعتنا الآن دون أن نغدو الحقيقة التمييز بين التيارات الأسلوبية المختلفة التي يتطوي عليها التصوير الديني في المدارس الإسلامية الكبرى: مدارس الإليخانات والتموريين والصفويين والمدرسة التركية العثمانية والمدرسة المغولية بالهند. على أن أهم ما ينعيننا هو ميلاد طراز التصوير الديني وتطوره في آسيا الوسطى. أما أنه أصبح بعد ذلك سبباً متشدداً في تركيا العثمانية وشيعياً متشدداً في إيران فهذا أمر ثانوي. ثم إن هذين النوعين من التصوير يشتركان في الاتجاه العام، فكلاهما لا يقتصر على اتخاذ التعليم هدفاً، بل يعمل أيضاً على تحريك الشعور بتقديس المعاني التي توضحها الصورة. ولم يكن من قبيل الصدفة اتساع الهالات التي أخذ المصورون يحيطون بها رؤوس الأنبياء، وشيوع اللثم التي تحجب وجوههم، واتسام ملابسهم ولقائهم بمزيد من المهابة والجلال. ثم اقتراب شخصية النبي محمد ﷺ في صور الدولة العثمانية السنية من شخصية الإمام علي رضي الله عنه في صور الشيعة التي جعلت علياً في منزلة تفوق البشر وترتقي به إلى مصاف الأولياء والقدسين.

لقد بدأ تصوير النبي محمد ﷺ وسائر الأنبياء على ما يظهر في أواخر القرن الثالث عشر في عصر مملكة الإليخانات في إيران، وكان الإليخانات تواقين إلى اصطناع ماضي مجيد لهم يسبق على حكمهم صفة الشرعية من التاجيتين السياسية والدينية، ويضمن لهم الهيبة في النفوس، وكان هذا من العوامل التي أدت إلى انتشار المخطوطات المصورة انتشاراً عظيماً في دولتهم كما سبق القول، وكانت هذه المخطوطات تتناول في البدء موضوعات تاريخية، ثم اتجهت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر إلى معالجة مواضيع دينية قصصية أو وعظية تعليمية، وهو ما حدث كذلك في التصوير، فاختفت الصور التي كان يظهر فيها النبي وصحابته وحلت محلها صور ذات معزى خلقي، ثم كان تطور جديد حين أخذ المصورون يعملون على هز المشاعر بما هو قدسي. ومع تأكيد الطابع القصصي الوعظي أخذت قيمة الصور تتزايد حتى لم تعد قيمتها تقل عن قيمة النص المكتوب، إن لم تكن فاقتها في وقت من الأوقات،

إلهم، ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾. وهو وإن كان خاتم الأنبياء والمرسلين لكانه بشر لا يميز عن غيره من البشر إلا بحمله رسالة ربه، وما كان للمسلمين أن يعبدوه أو يؤلهوه. من هنا لم يكن ثمة مجال للشبه بين محمد في نظر المسلمين والمسيح في نظر المسيحيين، إلا بين طائفة المسيحيين التي آمنت بالطبيعة الواحدة للمسيح، وهؤلاء قد حرموا تصوير المسيح كما حرم المسلمون تصوير الله.

ولقد جاءت تعاليم القرآن الدينية والروحانية صريحة واضحة تعد مبادئ مقررّة، وهذا مما حال بين المسلمين في صدر الإسلام وبين رسم صور إيضاحية لمصوص القرآن. وكذلك كانت الحال في تصوير حياة النبي وصحابته، ولم يحجم المصورون في مبدأ الأمر عن تصوير الرسول لأن تصويره كان محرماً فحسب، بل توفيراً وإجلالاً، ودليل ذلك استخدام الشعلة أو الهالة الثورانية حول رأس النبي ﷺ وغيره من الأنبياء منذ أواخر القرن الرابع عشر، ثم إضافة النقاب إلى وجهه في نهاية القرن الخامس عشر تمييزاً له وتبجيلاً. ولقد فاضت في المجال الأدبي مجموعة من القصص التي تدور حول قصص القرآن مثل قصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز التي اشتهرت باسم قصة «يوسف وزليخا»، غير أن القصة بكل ما أضافه إليها الكتاب الصوفيون من تفاصيل وكل ما أمدت به المصورين من مادة للتصوير لم يعدها المسلمون غير عمل فني لا علاقة له بأي موضوع ديني.

تشعب التصوير الديني في الإسلام.

ويرى توماس أرنولد وغيره من كبار المؤرخين أن التصوير الديني في الإسلام يقف عند تصوير القصص الدينية المتصل بشخصيات مقدسة كمحمد صلى الله عليه وسلم وعيسى وإبراهيم وغيرهم، غير أن هذا في رأينا جانب واحد فحسب من التصوير الديني الإسلامي. أما الجوانب الأخرى فأولها ما يهز المشاعر بما هو قدسي سواء أكان هذا عن إحساس للمصور أو عن إحساس للمشاهد، وثانيهما التصوير الخاص بالمواعظ والعبر التي شاعت في كتب الصوفية، وثالثها التخويف بالتار وإلقاء الخشية والترغيب بالجنة وحفز النفوس إلى الطاعة.

ولأرنولد رأي في التصوير الديني الإسلامي يسوقه في كتابه «التصوير في الإسلام» فيقول إنه لم تكن هناك تقاليد تاريخية للتصوير الديني في الإسلام أو أي تطور فني في تمثيل الأنماط، أو أي مدرسة فنية للتصوير الديني، كما لم يكن هناك أي توجه على الإطلاق من رجال الدين للمصورين. وربما كان هناك بعض العذر لأرنولد حين ساق هذا الرأي، فنحن نعلم أن ثمة تقاليد لتصوير وتمثيل الشخصيات الكلاسيكية مثل أرسطو وأفلاطون وغيرهما تعود إلى القرن الثالث ق. م، وهكذا الحال مع تماثيل قيصر أوغسطس وشيشرون، وكذلك كانت سائر المستنسخات الرومانية لتماثيل الشخصيات اليونانية نسخاً طبق الأصل من

غَيَّرَ أَنَّ الكُتُبَ المُصَوَّرةَ الفُخْمَةَ لم تُكُنْ تُعَدُّ لِتَكُونَ وَسِيلَةً لِلإفَادَةِ العَامَّةِ قَدَرُ مَا كَانَتْ تُعَدُّ لِلِاسْتِمْتَاعِ بِإِفْتِنَانِهَا.

الصُّورُ الإِبْدَاعِيَّةُ الرَّامِزَةُ فِي المُنَمَّمَاتِ الدِّينِيَّةِ:

لَقَدْ كَانَ الفَنُّ فِي جُلِّ عَصُورِهِ - وَلَا يَزَالُ - أَكْثَرَ جُنُوحًا إِلَى التَّجْرِيدِ مِنْهُ إِلَى المُحَاكَاةِ الَّتِي كَانَتْ مِنْ خَصَائِصِ الفَنِّ الإِغْرِيقِيِّ وَخُذِهِ، وَالَّتِي لَمْ يَأْخُذْ بِهَا الفَنُّ فِي الشَّرْقِ القَدِيمِ كَمَا لَمْ يَأْخُذْ بِهَا الفُنُونُ فِي القُرُونِ الوُسْطَى، يَدُلُّنا عَلَى ذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ مَوْجَةٍ تَحْطِيطِ الصُّورِ فِي بِيْزَنْطَةَ خِلَالِ القَرْنَيْنِ الثَّامِنِ وَالتَّاسِعِ المِيلَادِيِّينَ. وَعَلَى مِثْلِ مَا كَانَ الفَنُّ خِلَالِ تِلْكَ القُرُونِ السَّالِفَةِ نَجِدُهُ فِي العَصْرِ الحَدِيثِ إِذْ بَدَأَ الفَنَّانُ فِيهِ فَنًّا تَجْرِيدِيًّا لَا مُحَاكِيًا. وَالمَعْرُوفُ أَنَّ تَعَالِيمَ الإِسْلَامِ تَقُومُ أَكْثَرَ مَا تَقُومُ عَلَى التَّجْرِيدِ، كَمَا تَتَفَرَّقُ مِنَ التَّجْسِيدِ، الأَمْرُ الَّذِي كَانَ لَهُ أَثَرُهُ فِي الإِنْتِحَاءِ إِلَى كُلِّ مَا هُوَ مُجَرَّدٌ، مَعَ اطِّرَاحِ مَا كَانَ مُحَاكَاةً لِلْمَحْسُوسِ وَالسُّمُوِّ إِلَى «المَثَلِ» وَالعُقْلَانِيَّةِ. عَلَى أَنَّ التَّجْرِيدَ قَدْ يَكُونُ تَشْخِصِيًّا كَذَلِكَ عَلَى شَرْطِ أَلَّا يَكُونَ مُطَابِقًا مُطَابَقَةً حَرْفِيَّةً لِلوَاقِعِ، بَلْ لَا يَدَّ مِنْ أَنْ يَدْخُلَهُ شَيْءٌ مِنَ التَّحْوِيرِ وَالتَّحْرِيفِ لِيُبْعِدَهُ بِهَذَا وَذَلِكَ عَنِ صُورَتِهِ الأَصْلِيَّةِ، وَهَذَا مَا كَانَ عَلَيْهِ الفَنُّ المِصْرِيُّ القَدِيمُ الَّذِي نَحْنُ الرَّمْزِيَّةُ فِي تَصْوِيرِ شُخُوصِهِ مُتَبَعِدًا عَنِ الوَاقِعِ. وَهَكَذَا كَانَ المُصَوِّرُونَ المُسْلِمُونَ أَبْعَدَ مَا يَكُونُونَ عَنْ كُلِّ مَا فِيهِ مُحَاكَاةٌ لِلطَّبِيعَةِ، فَإِذَا هُمْ أَقْرَبَ إِلَى رُوحِ الخَلْقِ وَأَبْعَدَ عَنِ المُحَاكَاةِ.

وَمَا إِنَّ أَطْلَلَ الإِسْلَامَ البَيْتَةَ العَرَبِيَّةَ حَتَّى أَخَذَتْ هَذِهِ الفَلَسَفَةُ التَّأَمُّلِيَّةَ العُقْلَانِيَّةَ تَشْبِيحًا وَتَغْلِبًا، وَفِي ظِلِّ هَذِهِ الفَلَسَفَةِ أَخَذَ الفَنُّ طَرِيقَهُ بَعِيدًا كُلَّ البُعْدِ عَنِ المُحَاكَاةِ المُطَابِقَةِ، جَانِبًا فِي كُلِّ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ إِلَى الخَلْقِ وَالإِبْدَاعِ. فَلَا يَكَادُ المَرءُ يَتَأَمَّلُ الفَنَّ الإِسْلَامِيَّ حَتَّى يُدْرِكَ عَلَى القُورِ أَنَّه إِبْدَاعٌ خَالِصٌ، وَأَنَّهُ أَبْعَدَ مَا يَكُونُ عَنِ تِلْكَ المُحَاكَاةِ لِلطَّبِيعَةِ الَّتِي كَانَتْ مِنْ خَصَائِصِ الفَنِّ الإِغْرِيقِيِّ. وَلَيْسَ مِنْ شَكِّ فِي أَنَّ الفَنَّ التَّجْرِيدِيَّ يَسْمُو فَوْقَ فَنِّ المُحَاكَاةِ، فَفَنِّ المُحَاكَاةِ مُجَرَّدُ نَقْلٍ مَهْمَا اتَّسَمَ بِالجِدْقِ وَالبَرَاعَةِ، فِي حِينِ أَنَّ فَنَّ التَّجْرِيدِ يَعْتَرِفُ عَنَاصِرَهُ مِنْ وَجْدَانٍ نَابِضٍ بِأَفْكَارٍ وَمَثَلٍ وَأَخِيلَةٍ وَأَنْطِبَاعَاتٍ. وَمِنْ هُنَا نَجِدُ الفُنُونِ الإِسْلَامِيَّةَ زَاخِرَةً بِالأَفْكَارِ المُجَرَّدَةِ المَعْنَوِيَّةِ. فَإِذَا نَظَرَ الفَنَّانُ المُسْلِمُ إِلَى الوَاقِعِ المَحْسُوسِ أَخْضَعَهُ لِمَنْهَجِهِ دُونَ أَنْ يَخْضَعَ لَهُ، وَتَنَاوَلَهُ بِمَا مَنَحَهُ لَهُ الجِسْنَ الإِسْلَامِيَّ مِنْ صِفَاءِ ذَهْنٍ وَدِقَّةِ حَدْسٍ، فَحَالَهُ إِلَى صُورٍ رَمْزِيَّةٍ تُشِيرُ إِلَى الوَاقِعِ، وَتُوحِي بِهِ دُونَ أَنْ تُحَاكِاهُ أَوْ تُطَابِقَ الوَاقِعَ. وَقَدِيمًا أَدْرَكَ فَلَاسِيفَةُ الإِغْرِيقِ مَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ فَنُّهُمْ المُحَاكِى لِلوَاقِعِ، فَلَمْ يَتَرَفَّقُوا بِهِ، حَتَّى نَجِدَ أَفْلَاطُونَ يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ «الفَنَّ لَيْسَ إِلَّا صُورَةً لِلأَشْيَاءِ المَحْسُوسَةِ الَّتِي هِيَ نَفْسُهَا صُورَةٌ لِلْمَثَلِ». وَحَيْثُ إِنَّ العَمَلَ الفَنِّيَّ لَا يُحَاكِى المَثَلِ النَّاتِيَةَ لِلأَشْيَاءِ، بَلْ مُجَرَّدُ مَظَاهِرِ جُزْئِيَّةٍ لَهَا، يَكُونُ العَمَلُ الفَنِّيُّ فِي نَظَرِهِ أَقْرَبَ إِلَى الظَّلَالِ الَّتِي هِيَ أَقَلُّ مَرَاتِبِ الوجودِ.

وَمَعَ أَنَّنَا نَضَعُ فِي اعْتِبَارِنَا اذْتِكَازَ مَقُولَةِ أَفْلَاطُونَ عَلَى نَظَرِيَّةِ «المَثَلِ»، وَمَوْقِفَهُ المِيتافِيزِيْقِيَّ العَامَّ مِنَ المَحْسُوسَاتِ بِوصْفِهَا صُورًا لِلْمَثَلِ، فَإِنَّ هَذَا لَا يُغَيِّرُ مِنْ أَنَّهُ يَنْتَقِصُ مِنْ قَدْرِ الأَعْمَالِ الفَنِّيَّةِ الَّتِي تُحَاكِى الوَاقِعَ. فَإِذَا جِئْنَا إِلَى فَلَاسِيفَةِ الإِسْلَامِ وَجَدْنَا إِذْرَاكَ عَمِيقًا بِأَنَّ العَمَلَ الفَنِّيَّ هُوَ عَمَلِيَّةٌ خَلَقٌ وَإِبْدَاعٌ أَصْلًا، وَأَنَّ الفَنَّانَ يَسْتَلْهِمُ أَفْكَارًا وَخَيَالَاتٍ غَيْرَ وَاقِعِيَّةٍ وَلَا مَرْتَبِيَّةٍ. كَمَا أَنَّهَا لَيْسَتْ فِي الوَقْتِ نَفْسَهُ «مَثَلًا» مِنْ تِلْكَ الَّتِي افْتَرَضَ أَفْلَاطُونَ وَجُودَهَا. وَيَكْفِي أَنْ نَتَأَمَّلَ مَقُولَةَ المُنْتَصُوفِ الإِسْلَامِيِّ النَّابِهِ جَلَالِ الدِّينِ الرُّومِيِّ: «إِنَّ كُلَّ صُورَةٍ أَرَاهَا، جِنْسُهَا فِي اللَّامَكَانِ. فَلَوْ ذَهَبَتْ الصُّورَةُ فَلَيْسَ ثَمَّةَ مَا يُحَرِّزُ، إِذْ أَصْلُهَا خَالِدٌ...» إِلَى أَنْ يُخَاطَبَ رَبُّهُ قَائِلًا: «هَلْ أَنَا إِلَّا مُصَوِّرٌ نَقَّاشٌ أَصْنَعُ لَخْطَةً تَمَثَّلًا، ثُمَّ أَنَا فِي حَضْرَتِكَ أَصْهَرُ كُلِّ هَذِهِ التَّمَاثِيلِ. كَمَا أَخْلَقْتُ مَائَةَ نَفْسٍ وَأَنْتَ فِيهَا الرُّوحُ، فَإِذَا مَا رَأَيْتُ مَا صَوَّرْتُ أَنْتَ، أَلْقَيْتُ بِمَا صَنَعْتُ أَنَا جَمِيعًا فِي التَّارِ». وَهَكَذَا نَجِدُ اعْتِبَارًا مِنَ الفَيْلَسُوفِ المُسْلِمِ بِأَنَّ الفَنَّانَ المُسْلِمَ يَقْدِمُ عَلَى الإِبْدَاعِ مُدْرِكًا أَنَّهُ إِنَّمَا يَتَشَبَّهُ بِالخَالِقِ مُبْدِعِ الكَائِنَاتِ. وَتِلْكَ مُخَاطَرَةٌ يَتَّبِعِي أَنْ يُحَسِّبَ حِسَابَهَا، وَمِنْ ثَمَّ كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَفْلِتَ مِنْ إِسَارِ الوَاقِعِ، بِأَنْ يَلْوِذَ بِالرُّمُوزِ تُسَبِّغُ عَلَى مُنْجَزَاتِهِ أَلْوَانًا مِنَ التَّخَيُّلاتِ المُعْبَّرَةِ عَنْ أَحَاسِيْسِهِ الحَقِيقَةِ الغَيْبِيَّةِ، لَا عَنْ مَلَاحِجِ الطَّبِيعَةِ الوَاقِعِيَّةِ.

وَقَدْ أَزْدَهَرَ الفَنُّ الإِسْلَامِيَّ نَابِضًا حِينَ اذْتَبَطَ بِرُوحِ التَّصَوُّفِ الإِسْلَامِيِّ، وَأَخَذَتْ تَصَاوِيرُ العَالَمِ المَحْسُوسِ تَتَرَاءَى فِي ثِرَاتِ المُنْصَوِّفَةِ المُسْلِمِينَ بِوصْفِهَا تَعَابِيرَ رَمْزِيَّةٍ تُشِي بِمَا يُحْسِنُونَهُ فِي أَعْمَاقِهِمْ مِنْ خَنِينٍ إِلَى العَالَمِ الآخِرِ، وَبِمَا يَشْدُو وَجْدَانِهِمْ مِنْ صِلَةٍ غَيْبِيَّةٍ إِلَى عَامِلِ الرُّوحِ. وَهَذِهِ الفِكْرَةُ التَّصَوُّفِيَّةُ هِيَ الَّتِي أَمَلَتْ عَلَى رِجَالِ الفَنِّ مِنَ المُصَوِّرِينَ تِلْكَ القَوَاعِدَ لَا يَخْرُجُونَ عَنْهَا. فَجَاءَتْ تَصَاوِيرُهُمْ رُومًا مُشِيرَةً إِلَى أَحَاسِيْسِهِمُ الغَيْبِيَّةِ. وَمِنْ ثَمَّ يَتَّبِعِي أَنْ تُدْرِكَ وَنَحْنُ نَتَأَمَّلُ الصُّورَ الَّتِي تَمَثِّلُ بَعْضَ الأَشْخَاصِ أَوْ الأَمَاكِينِ المُقَدَّسَةِ أَنَّهَا لَيْسَتْ بِالفِعْلِ مِنْ فَنِّ المُحَاكَاةِ المُطَابِقَةِ، بَلْ هِيَ أَلْوَانٌ مِنَ التَّجْسِيمِ لِخَيَالَاتٍ تَسْكُنُ الفِكْرَ فِي مُحَاوَلَةٍ لِلوُصُولِ إِلَى العُقُولِ عَبْرَ صُورَةٍ تَسْتَعِيرُ شَكْلَ المَحْسُوسِ، مِنْ أَجْلِ التَّعْبِيرِ عَنْ فِكْرَةٍ فِي وَجْدَانِ الفَنَّانِ. وَالحَقُّ إِنَّ مَا نَرَاهُ فِي التَّصَوُّورِ الإِسْلَامِيِّ الدِّينِيِّ هُوَ أَطْيَافٌ لَا تُحَاكِى الوَاقِعَ، وَإِنْ حَاوَلْتَ أَنْ تَرْبِطُنَا بِهِ غَيْرَ نَمَازِجٍ مُتَخَيَّلَةٍ لَهُ (لَوَحَاتِ ٤٤٩م، ٤٥٠م: أ، ب).

وَلَعَلَّ مِنْ وَاجِبِي أَنْ أُشِيرَ إِلَى أَنَّ مُحَاكَاةَ الوَاقِعِ تَلْقَى عَلَى الفَنَّانِ المُحَاكِى تَبَعَاتِ الإِلْتِزَامِ بِمَا يَرَاهُ، فِي حِينِ أَنَّ الفَنَّانَ الخَلَّاقَ لَا يَحْمِلُ تِلْكَ التَّبَعَةَ لِأَنَّهُ لَا يَلْتَزِمُ إِلَّا بِالفِكْرَةِ الَّتِي تُسَيِّطِرُ عَلَى وَجْدَانِهِ، الَّتِي يَجْهَدُ فِي التَّعْبِيرِ عَنْهَا. مِنْ هُنَا أَقْدَمَ المُصَوِّرُ المُسْلِمُ عَلَى صِيَاغَةِ صُورٍ لِلأنبياءِ وَالمَلَائِكَةِ وَلِلجَنَّةِ وَالتَّارِ مِمَّا لَمْ يَشْهَدْهُ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُلْزِمَهُ بِمُطَابَقَتِهِ لِشَيْءٍ مُحَدَّدٍ أَوْ لِشَخْصٍ بَعِيْنِهِ. وَهُوَ مَا يَدْفَعُنَا إِلَى أَنْ نَعُودَ فَتَقُولُ إِنَّ التَّصَوُّورَ الدِّينِيَّ الإِسْلَامِيَّ

فيما تقدّم من صُور رايزة - كما يتّضح بَعْض المُفكّرِين - قدّ يحمل مُعامرة خُطرة، لأنّ التّصوير الرّمزي للرّسول قدّ مرّ بِمراحل تتميّز إحداهما بِإسْدال يقاب على وَجّه الرّسول. وهذا يَعْنِي أنّ الفارئ أو الدّارس سوّف يخلط بين مَرحلة تاريخيّة وأُخرى من مَراحل إيقونوغرافيّة التّصوير الرّمزي للرّسول، وهذا أبعد ما يَكون عن الأمانة العِلْميّة، كما أنّه يُفقد نُشر مثل هذه المَخطوطة أهمّيّتها العِلْميّة ويُقلّل من قيمتها بين المُتخصّصين.

وتخلو هذه الدّراسة من ست وعشرين مُنمنمة ترمز إلى الرّسول عَلَيْهِ الصّلاة والسّلام والإمام عَلِيّ كَرَّمَ الله وَجْهَهُ والسّيّدة خديجة أمّ المؤمنين وَبَعْض الصّحابة رَضوان الله عَلَيْهِم، لَمْ يَرْتَضِها مَجْمَع البُحوث الإسلاميّة «فَحَرَّمَ عَمَلُها واقتناءها ونُشرها وتداولها سواء أكانت مُنفردة أم في ثَنايا الكُتب أم مَخطوطة في المتاحف أو دور الكُتب أو غيرها» [بيان صادر من مَجْمَع البُحوث الإسلاميّة بشأن كِتَاب «التّصوير الإسلاميّ الدّينيّ والعربيّ» تأليف الدّكتور ثروت عكاشة في ٢٦ أبريل ١٩٧٨].

لهذا قدّ اجْتَرَأْتُ هنا عَن نُشر هذه المُنمنمات بِعبارات وَصفيّة لَهَا تُعْنِي عَن عَرَضها اسْتِجَابة لِمَا رآه المَجْمَع. فَلَقَدْ سَبَقَتْ إلى هذا كُتب السّير وكُتب التّاريخ فَوَصَفَت الرّسول عَلَيْهِ الصّلاة والسّلام كما وَصَفَتْ غَيره من الصّحابة.

وأخيراً يَعرُن لي أن أسأل لَوْ أنّ الحَزيرة العربيّة في عَهْد الرّسول ﷺ كانت على دَرَجَة من الحَضارة التي نَحْنُ عَلَیْها الآن وشاع في ظلّ تلك الحَضارة ما يَشِيع الآن من آلاَت لِلتّصوير لا تَحْفِي عَلَیْها خَافِيَة وآلاَت مُسَجَّلَة تُحْصِي على التّاس أَصواتهم، إذا صَحَّ هذا أَلَمْ نَكن نَمْلِك الآن صُور ذلك العَهد كُلّه بِجَمِيع ما فيه؟ لا شَكّ في أنّ صُور الرّسول وَصُوتَه كانت سَتَكون أذخَر ما نَمْلِكُه من ذلك الثّراث الجَليل، وما كان بِمِلْكِ أَحَد أن يَمْنَع ما سَجَّلَتْه يَد الحَضارة. ثُمَّ أَلَمْ يَكُنِ الرّسول يُعْطِي ويأخُذ؟ أَلَمْ يَعيش بين جُموع التّاس تُسألُه وَيُجِيب، وتأخُذ مِنه وتُعْطِي؟ أَلَمْ كانَ مُحَلَّلًا لِعَينِنا يُعَدُّ مُحَرِّمًا عَلَينَا؟ وما أَجَدَرنا أَلّا نَظَلَّ نَسْتَقِي مَعارِفنا عَن ثِرائِنا الفَنّيّ الإسلاميّ من المُستَشْرِقِينَ وَخُدَهم، وأن نكون لَهُم في ذلك يَتَعًا لَيس لَنا رَأْي مُستَقِلّ تُملِيه دِراسَة، بلّ قدّ يَكون لِديَراسَتنا نَحْنُ لِهذه الآثار الفَنّيّة الإسلاميّة - ونَحْنُ قَريبو الصّلة بِها - رَأْي القَريب المَوْصول بِثِرائِها. وما أَحرانا أَلّا نَقْلَت مِن أَيْدِنا آثارنا الإسلاميّة فَتَكون ثِروَة أدَبيّة وفَنّيّة لِعَينِنا، وَحَسَبنا ما ضاع وَلُتَلَقِيَ بالّا لِمَا هو آتٍ وَلَتُتَخذ مِن المَاضِي عِبرَة لِلْمُستَقبَل.

يَقوم على مَلء الفَراغ بِإبداع فَنّيّ يَتَشكّل في أساسه من الرّموز لا مِن عَناصر واقعيّة، مَهْما ادّعى الفَنان أنّ هذه الصّورة أو تلك تُمَثِّل هذا الثّبيّ أو ذاك، أو أنّ هذا المَبْنى يُمَثِّل الكعْبة أو قُبّة الصّخْرة بِالْقُدْس. فَلَيس ما نَراه غير نَمادِج يَرمِز بِها لِلأشْخاص والأماكن. وكان بِوَدّي لو اسْتُبدلت بِكَلِمَة صُورة الرّسول كَلِمَة رَمَز أتى وَرَدَتْ تلك الكَلِمَة، وما أَطُنّني أَتَقَيّت إلّا القَليل في السّياق الذي لا ضَير مَعَه حَتّى لا أُخرج بِدِراسَة عَن فَنّ التّصوير إلى غَير الصّيغة الفَنّيّة الخالِصة.

ومِمّا يُثير القيل والقال نُشر صُور رايزة للرّسول عَلَيْهِ الصّلاة والسّلام دون أن يَكون عَلَیْها يقاب يَحجب وَجْهه في ثَنايا بَعْض المَخطوطات القَدِية، وَلِكِنّا ما نَشك أنّ هُؤَلاءِ الفَنانين الذين صَوّروا تلك المُنمنمات كانت قُلوبُهم عامِرة بِالإسلام تَقِيض لِلرّسول بِالْإجلال والتّعظيم. ثُمَّ إنّ تلك الصّور بعد ما أَصبَحَتْ دُور الكُتب والمتاحف في بلادنا وَغَير بلادنا في شَتّى أنحاء العالَم تَترخ بِالكَثير مِنها، كانَ مِن تَجاهل الحَقِيقَة أن تُعْمِض الطّرف عَنها، ولا تُشارِك أَصحاب الرّأْي الفَنّيّ فيها بعد أن وَثَقنا أنّهُ لَيس ثَمّة قَصْد إلى التّجريح أو التّهوين، بلّ هو فَنّ المُؤمِن الِوَرع الذي أَملى هذا كُلّه. وسواء شِئنا أو لَمْ نَشأ فلهذا شَيء قدّ فَرَضَه عَلَينا الزّمن بِمُخَلَّفاته التي تَتداولُها أَيْدي التّاس كافّة، فما أَحرَصنا مُسلمين على أن تُشارِك التّاس في التّداول عَلَنا بِالمُشارَكة نَفَهم غَير ما يُفَهمون ونُعْطِي أَكثَر مِمّا يُعْطُونَ ونُدْفَع عَن وَجْهه نَظَرنا أَكثَر مِمّا يَدْفَع الذين يَريدون أن يَحْبِسوا تلك الصّور عَن أَعين المُسلمين، فَلَيس في عَرَض مثل هذه الصّور الرّايزة شَيءٌ مِن المُحاكاة والمُشاَبَهِة بلّ هو لَيس إلّا تَحليلًا ودِراسَة يَجْعَلانِ التّاس على فَهم ودِراية بِما كان. ثُمَّ إنّ بَعْض دُور النّشر المِصريّة قدّ سَبَقَتنا فَأَخْرَجَتْ كُتُبًا عِدّة تَضُم صُورًا لِلرّسول دونَ غِلالَة تُسَرُّ وَجْهه. فَعلَى سَبيل المِثال لا الحَصر أَخْرَجَتْ مَطابع «جامِعة القاهِرة» عام ١٩٥٦ أَطْلَسا لِلفَنون الرّخُرفيّة والتّصاوِير الإسلاميّة لِلْمَرَحوم الدّكتور زكي مُحمّد حَسَن تولّت الإِثْفاق عَلَیْهِ وإِصداره كُلّيّة الآداب والعلوم بِبَعداد، ويَضُمّ هذا الأطلَس عَديدًا مِن صُور الرّسول في مَلامِح جَلِيّة كما يَضُمّ عَدَدًا آخَر مُحجَّبًا. كما أَصدَرَتْ وَزارَة الثّقافة المِصريّة عام ١٩٥٩ كِتَاب «صُور مِن مَدْرسة بِهْزاد» ويَضُمّ صُورَتين لِلثّبيّ يُوسُف عَلَيْهِ السّلام، وأُخرى لِلثّبيّ سُلَيمان عَلَيْهِ السّلام، ورابعة لِإِمعراج الرّسول مُحمّد عَلَيْهِ الصّلاة والسّلام وهو يَمْطِي البَراق لِیَصْعَد بِهِ إلى السّماء، ويَقود الرّكَب المُقدّس المَلّاك جَبْريل.

ثُمَّ إنّ إِسْدال غِلالَة رَقيقَة مُصْطَنَعَة على وَجّه الرّسول الكريم

الفصل الحادي والثلاثون

تصوير قصص القرآن والكتب السماوية المقدسة

التصاوير الدينية في مخطوطة «جامع التواريخ».

ظهرت في العالم الإسلامي في أواخر القرن الثالث عشر بعض عناصر التصوير التي يُمكن أن نطلق عليها اسم «التصوير الديني» بمعناه الضيق المحدود، الذي قد يكون الغزو المغولي من الأسباب الحافزة إليه. ولقد كانت لهذا الغزو آثار بالغة في مختلف جوانب التفكير الإسلامي، فحينما تدفق المغول عام ١٢٢١ على الشرق الأوسط وعلى شطر كبير من القارة الأوربية كانوا ما يزالون شعباً بدوياً همجياً لم تصقله الحضارة ولم يعرف الاستقرار. غير أن تصديهم لحكم الإمبراطورية الضخمة التي تمكّنوا من إنشائها بسرعة هائلة فرض عليهم الاستقرار، وإن اقتضى أخذهم بأسباب الحضارة وقتاً طويلاً. وكان بعض ملوك المغول في بداية عهدهم مؤمنين بمبدأ حيوية المادة، وقد اتخذ بعضهم زوجات مسيحيات، ومال بعضهم إلى اعتناق البوذية، وإن كانوا أقرب بوجه عام إلى مذهب «اللاأدرية» يتسمون بالتسامح الديني، ثم ما لبثوا أن تبثوا التقاليد الفارسية الإسلامية ضمناً لكسب احترام الناس وبث الهيبة في نفوسهم.

ومن غير المحتمل أن تكون قد نشأت أثناء القرون المبكرة في العهد الإسلامي أي محاولة لتصوير أحداث التاريخ الدينية، فلا يثني أي من التماذج التي وصلتنا إلى تاريخ متقدم على القرن الرابع عشر. وبالتالي، لم يكن لمصور تلك الفترة أو ما بعدها أي تقاليد للفن الديني يصوغون إنتاجهم على نمطها، فأقدم مثال بلغنا عن تصوير شخص محمد عليه الصلاة والسلام ورد في رواية تاجر عربي كان قد رحل إلى الصين في القرن التاسع، وروى حديثاً جرى بينه وبين إمبراطور الصين الذي سأله عما إذا كان يؤد رؤية صورة للنبي. وسرعان ما أحضر ضابط بالبلات صندوقاً يحتوي على صور الأنبياء مثل نوح في فلكه، وموسى بين بني إسرائيل وعيسى ممتطياً حماراً ورفقته الحواريون الاثنا عشر، ومحمد عليه الصلاة والسلام على جمل ومن حوله صحابته [المسعودي: مروج الذهب. جزء أول. صفحة ٣١٥ - ٣١٧].

ويذهب مينجانا في كتابه «انتشار المسيحية المبكر في أواسط

آسيا وفي الشرق الأقصى [صفحة ٣١، طبعة مانستر ١٩٢٥] إلى أن مثل هذه الصور قد أعدّها في الصين بعض أتباع الشاطرة المسيحيين ممن استقرّ بهم المقام في تلك البلاد خلال القرن السابع وهو أمر مشكوك فيه. وثمة ما يدل على أن المصورين المسلمين أو غير المسلمين كانوا ينزعون أثناء عملهم في خدمة مواليم المسلمين إلى نسخ أو اقتباس الصور الدينية المسيحية في أغراضهم الخاصة. فإذا كانوا من المسيحيين فلا غرابة في الأمر، وإن لم يكونوا فعلى الأرجح أنهم وضعوا الأعمال الفنية المسيحية نصب أعينهم.

وفي عام ١٢٩٥ اعتنق غازان خان الإسلام، وكان لذلك أثره في الاهتمام بالأدب والفن الفارسيين وبكل ما يتعلق بالتاريخ الفارسي القديم سواء الواقعي أم الأسطوري، لا سيما بعد أن ربط ملوك المغول أنفسهم بملوك الفرس الأقدمين نسباً، حتى لا يؤخذوا على أنهم شعب مجهول الأصل محروم من التقاليد الحضارية العريقة. وتجلّى أثر ذلك في ظهور كثرة من المخطوطات الفخمة التي تتناول تاريخ فارس وتقاليدها الأسطورية والملحمة القديمة، التي تُعدّ «شاهنامه الفردوسي» أروع نماذجها. وقد طالعنا الجويني خلال تلك الفترة بكتابه «تاريخ حياة قاهر العالم» وبسط فيه حياة جنكيز خان وتاريخ المغول حتى هولاكو. وكان الجويني مسلماً يعمل مؤرخاً رسمياً لدولة لم تكن قد اتخذت من الإسلام ديناً رسمياً لها بعد، وهو ما جعله يحاول التوفيق في كتابه بين عقيدته الإسلامية وبين التمجيد الذي يتّسم بممألأته للمغول، فهو يُطري فتوحاتهم، ويصور غزوهم لبلاد الشرق الأدنى على أنه نعمة الله على المسلمين ليُدهم عن التمسك بدينهم وخروجهم على تعاليم القرآن. ولم يلبث الوزير المغولي رشيد الدين أن أخرج عام ١٣١٠ كتابه «جامع التواريخ» بعد بضع سنين من كتاب الجويني لتاريخ حياة قاهر العالم، وكان المغول قد تحوّلوا إلى الإسلام. وجاء كتاب رشيد الدين شديد الاختلاف عن كتاب الجويني على الرغم من اعتماد رشيد الدين على الثقل الكامل من كتاب الجويني، فقد

فارس إلى النبيّ بينَ وقد نجران (لَوْحَة ٢٢٩م)، حيثَ يَدُو النبيّ جالساً إلى اليسار لا مُواجهاً ولا مُجانباً ولكن بينَ بينَ على دُكَّة خَشَبِيَّة مَكْسُوءَة بِالنَّسِيج، وفي خِصَر يُمْنَاه خَاتَمٌ وعلى فَخْذِهِ اليُمْنَى سَيْفٌ وعلى رَأْسِهِ عِمَامَةٌ مِن قَرُو أو مِن ريشٍ وَجِلْبَابُهُ أَطْوَاء، وَبَيْنَ يَدَيْهِ وَقَفَ أَصْفٌ مُعَمَّمُ الرُّأْسِ وإلى جَانِبِهِ العَاقِبُ وعلى رَأْسِهِ عِمَامَةٌ أَشَبَهَ بِعِمَامَةِ الرُّسُول. وَثَمَّةٌ مَلَكَانٌ مَجْدُولَا شَعْرُ الرُّأْسِ وقد عَصَبَ كُلُّ مِنْهُمَا بِعَصَابَةٍ دَقِيقَةٍ. وَيَذْهَبُ بِشَرِ فَارِسٍ فِي كِتَابِهِ «مُنْمَنَةٌ دِينِيَّةٌ تُمَثِّلُ الرُّسُولَ مِن أَسْلُوبِ التَّصْوِيرِ الْعَرَبِيِّ الْبَغْدَادِيِّ»، الْمَعْهَدُ الْعِلْمِيُّ الْقُرْآنِيُّ لِلْأَثَارِ الشَّرْقِيَّةِ، الْقَاهِرَةُ ١٩٤٨، إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْمُنْمَنَةُ عَلَى غِرَارِ أَسْلُوبِ التَّصْوِيرِ الْبَغْدَادِيِّ وَالَّذِي إِلَيْهِ تَنْتَسِبُ الْمُنْمَنَاتُ الْعَرَبِيَّةُ فِي الْعِرَاقِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ وَغَيْرِهَا مِنَ الدُّوَلِ الَّتِي كَانَتْ تُظَاهِيهَا الْخِلَافَةُ الْعَبَّاسِيَّةُ خِلَالِ الْقُرْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ الْمِيلَادِيِّ، وَأَنَّ الصُّورَةَ تُشِيرُ إِلَى الْمُبَاهَلَةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ الرُّسُولِ وَبَيْنَ وَدَّ نَجْرَانَ وَالتَّي جَاءَ ذِكْرُهَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كُتُبِ السِّيَرِ وَالتَّفْسِيرِ وَالْأَخْبَارِ. وَقَدْ عَرَضَ الْهَرُوفُورِ ستورم راييس - كَمَا سَبَقَ الْقَوْلُ - لِرَأْيِ بِشَرِ فَارِسٍ بِالتَّشْنِيدِ بِحُجَجٍ قَوِيَّةٍ فِي مَقَالٍ لَهُ عَنِ التَّصْوِيرِ الْإِسْلَامِيِّ نُشِرَ فِي مَجَلَّةٍ بَرُلِنْجَتُونِ فَقَالَ: «إِنَّ مُنْمَنَةَ كِتَابِ الْأَغَانِي لَا تُصَوِّرُ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا مَعَ وَدَّ نَصَارَى نَجْرَانَ كَمَا ذَهَبَ بِشَرِ فَارِسٍ وَإِنَّمَا تُصَوِّرُ أَنَابَكُ لَوْلُ الْمُوصِلِيِّ الَّتِي أُنْجِزَتْ مِنْ أَجْلِهِ نُسْخَةُ الْكِتَابِ عَامَ ١٢١٧ عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيبِ، وَأَنَّ الْأُسْتَاذَ بِشَرٍ قَدْ اعْتَمَدَ فِي ذِكْرِ شَخْصِيَّاتِ الصُّورَةِ عَلَى الْقِصَّةِ الْمُدَوَّنَةِ فَوْقَ ظَهَرِهَا وَهُوَ مَذْهَبٌ غَيْرُ مَأْمُونٍ لِأَنَّ تِلْكَ الصُّورَةَ لَيْسَتْ شَخْصِيَّةً، فَمَلَامِحُ شَخْصِهَا لَيْسَتْ عَرَبِيَّةً خَالِصَةً بَلْ هِيَ تَحْمِلُ سِمَاتٍ مَغُولِيَّةً وَمِمَّا لَا يَتَّفِقُ مَعَ أَوْصَافِ الرُّسُولِ. ثُمَّ إِنَّهُ قَدْ اعْتَمَدَ عَلَى تَارِيخِ الْمَخْطُوطَةِ فَقَطُّ دُونَ مُنَاقَشَةِ أَسْلُوبِ التَّصْوِيرِ». غَيْرَ أَنَّ بِشَرِ فَارِسَ مَا لَبَثَ أَنْ رَمَى الدَّكْتُورُ رَايِسَ بِالتَّعَصُّبِ لِلرَّأْيِ الْقَائِلِ بِأَنَّ أَقْدَمَ صُورِ الرُّسُولِ الَّتِي وَصَلَتْ إِلَيْنَا هِيَ الْمَعْرُوفَةُ فِي التَّصْوِيرِ الْفَارِسِيِّ، بَيْنَمَا يَرَى هُوَ أَنَّ التَّصْوِيرَ الْعَرَبِيَّ أَسْبَقَ عَلَى التَّصْوِيرِ الْفَارِسِيِّ فِي هَذَا الشَّانِ.

وَيَكَادُ التَّأثيرُ الصِّينِيُّ أَنْ يَكُونَ وَاضِحًا كُلَّ الْوُضُوحِ فِي صُورِ «جَامِعِ التَّوَارِيخِ» وَبِخَاصَّةٍ فِي مَنَاطِرِ الْأَشْعَارِ الطَّبِيعِيَّةِ. وَكَمَا تَسِمُ مَلَابِسُ الْمُحَارِبِينَ بِالطَّانِعِ الْمَغُولِيِّ يَزِيدُ الْمُلُوكُ أَنْفُسَهُمْ ثِيَابَ الْمَغُولِ. وَثَمَّةٌ دَلَالِلٌ أُخْرَى تُشِيرُ إِلَى مَدَى تَأثيرِ الشَّرْقِ الْبَالِغِ عَلَى هَذِهِ الصُّورِ، عَلَى نَحْوِ مَا سَبَقَ الْحَدِيثُ عَنْهَا فِي تَفْصِيلِ. وَرُغْمَ ذَلِكَ فَمِنِ الْوَاضِحِ أَنَّ الْمُصَوِّرِينَ قَدْ اسْتَعَانُوا بِصُورِ مَسِيحِيَّةٍ أَوْ هِنْدِيَّةٍ كَنَمَازِجٍ يُحَاكُونَهَا فِي عَمَلِهِمْ.

وَتَضُمُّ نُسْخَتَا «جَامِعِ التَّوَارِيخِ» صُورًا لِمَشَاهِدٍ مِنَ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ، أَيْ مِنَ الثَّوْرَةِ، حَيْثُ يَبْدَأُ السَّرْدُ التَّارِيخِيَّ فِي كُلِّ مِنْهُمَا بِقِصَّةِ آدَمَ وَخُرُوجِهِ مِنَ الْجَنَّةِ وَقِصَّةِ يُونُسَ وَالْحَوْتِ وَغَيْرِهِمَا، دُونَ أَنْ تَتَفَقَّ الرِّوَايَةُ التَّارِيخِيَّةُ دَائِمًا مَعَ التُّصُوصِ الْقُرْآنِيِّ. كَمَا تَضْمَنُ صُورًا تُمَثِّلُ مَشَاهِدَ مِنَ الْإِنْجِيلِ، وَالسِّيَرَةِ

جَعَلَ هَمَّهُ تَأْكِيدَ أَنَّ دَوْلَةَ الْمَغُولِ لَيْسَتْ إِلَّا امْتِدَادًا لِذَوْلَةِ الْإِسْلَامِ، وَأَنَّهَا تَمَلُّ الْفَرَاغَ الَّذِي خَلْفَهُ مَصْرَعُ آخِرِ الْخُلَفَاءِ الْعَبَّاسِيِّينَ عَامَ ١٢٥٨ عَلَى يَدِ هَوْلَاكُو، فَلَقَدْ كَانَ يَرَى فِي وَجُودِ الْمَغُولِ شَيْئًا طَبِيعِيًّا تَفْرُضُهُ الْحَقِيقَةُ التَّارِيخِيَّةُ وَاسْتِمْرَارُ الْإِسْلَامِ بِوُضُفِهِ دَوْلَةً وَعَقِيدَةً.

وَأَوَّلُ نَمَازِجِ صُورِ الرُّسُولِ الَّتِي وَصَلَتْ إِلَيْنَا هِيَ تِلْكَ الَّتِي فِي نُسْخَةِ «جَامِعِ التَّوَارِيخِ» تَأَلَّفَ رَشِيدُ الدِّينِ الَّتِي تَوَزَّعَتْ أَجْزَاؤُهُ بَيْنَ الْجَمْعِيَّةِ الْأَسْيَوِيَّةِ الْمَلِكِيَّةِ وَالْمُتَخَفِ الْبَرِيطَانِيِّ وَمَكْتَبَاتِ بَرُلِينِ وَفِينَا وَاسْتَنْبُولِ وَإِدْنِبِرِهِ. وَحِينَ بَدَأَ رَشِيدُ الدِّينِ فِي تَصْنِيفِ مُؤَلَّفِهِ عَنِ تَارِيخِ الْعَالَمِ أَرْسَلَ فِي طَلَبِ رَجُلَيْنِ صِينِيِّينَ مِنْ رِجَالِ الْعِلْمِ حَمَلًا مَعَهُمَا عَدَدًا مِنْ كُتُبِ الطَّبِّ وَالْفَلَكِ وَالتَّارِيخِ. وَقَدْ اشْتَمَلَ هَذَا الْكِتَابُ الضَّخْمُ عَلَى تَارِيخِ الْعَالَمِ بِقَدْرِ مَا اسْتَطَاعَ الْمُؤَلِّفُ الْإِلْمَامُ بِهِ، وَكَانَ هُوَ شَخْصِيًّا مِنْ أَوْسَعِ النَّاسِ مَعْرِفَةً، وَالرَّاجِحُ أَنَّهُ كَانَتْ فِي مُتَنَاوَلِ يَدِهِ مَرَاجِعُ بِاللُّغَاتِ الْعِبْرِيَّةِ وَالْمَغُولِيَّةِ وَالتُّرْكِيَّةِ فَضْلًا عَنِ اللُّغَاتِ الشَّائِعَةِ لَدَى الْمُتَعَلِّمِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي عَصْرِهِ مِثْلَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْفَارْسِيَّةِ. وَيَبْدَأُ مُؤَلَّفُهُ فِي التَّارِيخِ بِآدَمَ، وَيَتَضَمَّنُ قِصَصَ الشَّعْبِ الْيَهُودِيِّ، كَمَا يَذْكُرُ تَارِيخَ الْقُرْنِجَةِ الْمَسِيحِيَّةِ بِقَدْرِ مَا كَانَ يَهَمُّ الْكَاتِبَ الْمُسْلِمَ. وَالتَّفَتُّ الْمُؤَلِّفُ التِّفَاتًا خَاصًّا إِلَى التَّارِيخِ الْقَدِيمِ لِمُلُوكِ فَارِسَ، وَلَعَلَّهُ كَانَ أَمْرًا قَرِيبًا أَنْ يَزُودَ تَارِيخَ الصِّينِ وَالْهِنْدُوسَ، كَمَا دُونَ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ حَتَّى الْعَصْرِ الَّذِي عَاشَ فِيهِ.

وَمِنْ أَجْلِ تَرْيِينِ هَذَا الْكِتَابِ بِالتَّصَاوِيرِ اجْتَذَبَ مِنْ أَقَالِيمِ شَتَّى إِلَى مَدِينَةِ «تَبْرِيز» أَبْرَعَ الْمُصَوِّرِينَ وَوَفَّاهُمْ بِالصُّورِ وَالْأَعْمَالِ التَّارِيخِيَّةِ الْمُصَوَّرَةِ لِيَكُونَ هَادِيًا لَهُمْ. وَبَذَلَ فِي هَذَا الصَّدَدِ مِنَ الْجَهْدِ مَا يُعَادِلُ مَا بَذَلَهُ مِنْ أَجْلِ تَجْمِيعِ الْمَوَادِّ التَّارِيخِيَّةِ لِلنَّصِّ. وَمِنَ الْمُؤَسِّفِ أَنَّنَا لَمْ نَرِ تَوْقِيعًا لِفَتَانٍ مَا عَلَى أَيْ صُورَةٍ مِنَ صُورِ الْمَخْطُوطَةِ وَبِهَذَا لَمْ نَظْفِرْ بِبَيِّنَاتٍ عَنِ جِنْسِيَّةِ الْمُصَوِّرِ أَوْ دِيَانَتِهِ. وَقَدْ انْعَكَسَتْ نَظَرَةُ رَشِيدِ الدِّينِ إِلَى دَوْلَةِ الْمَغُولِ فِي الصُّورِ الَّتِي رَزَمَتْ مَخْطُوطَةَ كِتَابِ «جَامِعِ التَّوَارِيخِ» وَالنُّسخَةِ الْمَخْطُوطَةِ مِنْ «الْأَثَارِ الْبَاقِيَّةِ» لِلْبِيرُونِيِّ الَّتِي تَرْجَعُ إِلَى عَامِ ١٣٠٧، وَتَضُمُّ كُلَّ مِنْهُمَا صُورًا رَامِزَةً لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ، يُقَالُ إِنَّهَا أَقْدَمُ صُورٍ عُرِفَتْ لِلنَّبِيِّ. وَهَذَا الرَّأْيُ عَارِضُهُ الْمَرْحُومُ بِشَرِ فَارِسَ ذَاهِبًا إِلَى أَنَّ ثَمَّةَ صُورَةٍ لِلنَّبِيِّ فِي وَجْهِ الْوَرَقَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ نُسْخَةِ مَخْطُوطَةٍ مِنْ كِتَابِ الْأَغَانِي لِأَبِي الْفَرَجِ الْأَصْفَهَانِيِّ الْمَخْطُوطَةِ بِدَارِ الْكُتُبِ الْبُصْرِيَّةِ بِالْقَاهِرَةِ، وَالرَّاجِحُ أَنَّهَا نُسَخَتْ مِنْ أَجْلِ بَذْرِ الدِّينِ لَوْلُ أَنَابَكِ الْمُوصِلِ (١٢١٥م - ١٢٦٢م) وَيَرْجِعُ تَارِيخُهَا إِلَى عَهْدِ أَوَّلٍ فِي الْقَدَمِ مِنْ تَارِيخِ نُسْخَتِي «جَامِعِ التَّوَارِيخِ» وَ«الْأَثَارِ الْبَاقِيَّةِ» الْمَذْكُورَتَيْنِ.

مَقُولَةٌ سَبَقَ مَدْرَسَةُ بَغْدَادِ الْمَدْرَسَةِ الْفَارِسِيَّةِ فِي تَصْوِيرِ الرُّسُولِ؟

وَتَرْمِزُ هَذِهِ الصُّورَةُ الشَّيْخِيَّةِ [أَوِ الطَّيْفِ ظَلِيَّةٍ] فِي نَظَرِ بِشَرِ

مُستخدمة في الفن البيزنطي أعني أنها كانت دائرية، ثم ما لبثت تلك الهالة مع امتداد الزمن أن تأثرت بمثلتها في الفن الصيني والأسبوري فجاءت على شكل هالة ثورانية.

ولقد اعتاد المصورون في الإسلام أن يرسموا الصور الرامية للرسول تكبر غيرها من الصور المحيطة بها ومثل هذا كان شائعاً في فنون الشرق الأدنى في العصور التي سبقت الإسلام بتصوير الشخصيات العظيمة تكبر غيرها ممن يحيطون بها. وليس هذا التصوير الرُمزي للرسول وكذلك النبي يوسف في منظومة يوسف وزليخا بمخطوطة «خمس» للشاعر نظامي من التصوير الدنيي بمعناه المطلق، فالمصور هنا في تصويره لمحمد ﷺ لم يفعل غير أن نظر إليه نظرة إنسان يفضل غيره، وهذا لا شك يتفق وما جاء في القرآن من أنه المصطفى المختار ولعل هذا كان من بين دواعي الخلاف بين النظرتين الإسلامية والمسيحية في التصوير، فعلى حين كانت النظرة الإسلامية تعدّ محمداً بشراً لا يتميز عن غيره من البشر إلا بما اضطفاه الله به وطهره، كانت النظرة المسيحية تعدّ المسيح معبوداً، ولهذا خالفت صور المسيح صور محمد ﷺ. وجاءت صور محمد ﷺ في مخطوطة جامع التواريخ خالية من ذلك التعظيم والتقدّس الذي ظفرت به صور المسيح، بل لتُسجل تلك الأحداث التاريخية التي شارك فيها الرسول فحسب.

صور الرسول عليه الصلاة والسلام.

وفي لوحة مؤيد الرسول بكتاب جامع التواريخ [مخطوطة نشرها] نرى إلى يمين الصورة رُكناً عليه ستارة وعبد المطلب جدّ الرسول قدّ جلس إلى كرسيّ ويده عصاً، وظاهر أنّ هذا الركن بستانته وكرسيه يمثل الكعبة حيث كان ينتظر عبد المطلب مؤيد الرسول. وفي وسط الصورة السيّد أئمة أم الرسول عليه الصلاة والسلام، وقد ولدت وبين يديها امرأة لعلها إحدى قريباتها، وكذلك وقف على رأسها ثلاث نسوة يبدو أنّهن الأخرى من قريباتها. وإلى اليسار من تلك الحجرة - حجرة أئمة - ملكان باجنحتهما وقد تلقى أحدهما الرسول ووقف الملك الآخر إلى جانبه يباركه وقد أمسك بيده مبخرة ذليل البركة والتعويذ. وإلى يسار الصورة عجز قد توكّأت على عصا ومن خلفها نسوة ثلاث، ويظهر أنّ هذه المجموعة ممن يتصلون بأُسرة الرسول بسبب وقد جاءوا يهتفون.

ويعتقد أرنولد أنّ تكوين هذه اللوحة مقتبس عن صور مسيحية لميلاد يسوع، إذ تمثل الصورة الملائكة وهي تحلق فوق أم الطفل الوليد وفقاً للنموذج المسيحي. بينما يجلس عبد المطلب في المكان المخصّص عادة ليوسف النجار في الفن المسيحي، وقد بدت عليه علامات الأسى لأنّ الطفل قد وُلِدَ بعد وفاة أبيه. وتُعادِل السيدات الثلاث القادِمات لزيارة الأمّ حكماء المجوس الثلاثة. وبمخطوطة روضة الصفا لميرخوند صورة تمثل حليمة مرضعة

النبيّة يجري المصور فيها غالباً على التّهج المعروف في التصوير البيزنطي مثل لوحة البشارة (لوحة ٢٣٠م) التي جاءت على غرار أسلوب الكنيسة الشرقية في تصوير هذه الحادثة إذ يلتقي جبريل بالعدراء مرّتين بينما هي في طريقها إلى البئر للاستسقاء. وإلى اليوم لا نكاد نعرف المصنّف الذي استقى منها مصورو هذه المخطوطة الطابع الرُمزي لشخص النبي عليه الصلاة والسلام. والصور الرامية التي ظهر فيها الرسول في «جامع التواريخ» ثمانية يبدو فيها فارغ القامة نحيل البدن وقور القسّات، غير صورة واحدة مثله وليدًا. ويرى توماس أرنولد أنّ طابع الحزن كان مميزاً لغالبية الوجوه التي ظهرت في صور المخطوطة، وقد عزا هذا الوجوم إلى أنّ المصورين كانوا يُحسِنون رُحبة إزاء الموضوعات التي عهد إليهم بتصويرها، فكانت في أغلبها مشاهد قتال وتنفيد لأحكام الإعدام وتعذيب في صور مختلفة [أنظر اللوحات من ١٦٣ إلى ١٦٨].

كذلك نرى صوراً يفض الخلفاء والحكام المتعاقبين على الدّولة الإسلامية، غير أنّه من الطبيعي ألاّ تمثل تلك الصور أصحابها الحقيقيين الذين ماتوا قبل أن تُنجز هذه الصور فهي جدّ خيالية. ثمّ تتنازع الصور حتّى تصل إلى ملوك المغول المعاصرين للوزير رشيد الدّين في «جامع التواريخ»، بينما تنتهي الصور في كتاب «الآثار الباقية» لليروني عند عصر الغزنويين.

والصور الرامية للنبي في هذا الكتاب لا نكاد نتميّز عن غيرها من تلك الصور الكثيرة التي رسمها المصور، تعني أنّنا لم نر تلك الهالة المستديرة على رأسه التي يُمكن أن تُميّزه عن غيره. على أنّنا رأينا نسخة من مخطوطة «الآثار الباقية» لليروني المخطوطة بمكتبة الجامعة بإدنبه تاريخها ١٣٠٧ - ١٣٠٨، وفيها صورة ترمز لشخص ذي شأن تُحيط بها تلك الهالة المستديرة المميّزة (لوحة ٢٣١م). ونكاد نعرف أنّ تلك الهالة عامّة ترجع إلى أصليين قديمين أوّلهما بيزنطي، وكانت الهالة فيه تُرسم على شكل دائرة تُكلّل بها رؤوس الأباطرة والأبطال ومن إليهم. وحين اعتنقت بيزنطة المسيحية شاعت تلك الهالة أيضاً بين المسيحيين، ولم تكن علامة تقدّس كما يظنّ البعض، فقدّ كُلت بها رؤوس أشخاص كانوا أعداء للمسيحية، ومن المحقّق أنّ تلك الهالة قدّدت معزاهاً في التصوير الإسلامي، ولم تعدّ غير عنصر زخرفي، نراها حول رؤوس الأشخاص عامّة، حتّى من يمثل منهم أهريمان إله الشرّ الإيراني أو ساقيات الخمر في سوق عُكاظ، بل والطّيور أحياناً.

أمّا عن الأصل الثاني للهالة فقدّ شهدناها في فنون الصين وآسيا الوسطى - كما مرّ بنا - غير أنّها هنا كانت تُرسم في الأكثر بيضيّة غير منتظمة الخطوط ممّا جعلها تبدو على شكل شُعلة نارية. ومن ثمّ نكاد نجزم أنّ الهالة التي استُخدمت في الفن الإسلامي في أوائل عهده تُشاكل تلك التي كانت

صُورَ دائِمًا فارِعَ القامةِ كَثَّ اللَّحْيَةُ وَمِمَّا يُوحِي بِأَنَّ ثَمَّةَ مُحَاوَلَةٍ مَقْصُودَةٍ لِإِبْدَائِهِ عَرَبِيًّا قُحًّا، وَخَاصَّةً إِذَا لَاحِظْنَا أَنَّ كَثِيرًا مِنْ صُورِ الشُّخُوصِ الْوَارِدَةِ بِهَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ الْمُبَكَّرَةِ مِنْ «جَامِعِ التَّوَارِيخِ» مَغُولِيَّةُ الطَّلَاعِ صِينِيَّةُ الْأَثَرِ فَتَبَدُّو الشُّخُوصِ الْأَدَوِيَّةُ قَصِيرَةٌ خَلِيقَةُ الدَّقْنِ.

وَهُنَاكَ أَثَرٌ تَارِيخِي آخَرُ كَانَ مِنَ الْمُتَوَقَّعِ أَنْ تَظْهَرَ فِيهِ صُورُ النَّبِيِّ وَتَعْنِي بِهِ كِتَابُ «قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ»، وَهُوَ عُتُونُ أَطْلَفِهِ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الْمُؤَلِّفِينَ عَلَى كُتُبِهِمُ الَّتِي سَجَّلُوا فِيهَا الْأَحْدَاثَ التَّارِيخِيَّةَ الدِّينِيَّةَ فِي الْإِسْلَامِ. وَرُغْمُ وَرُودِ سِيرَةِ النَّبِيِّ فِي هَذَا الْكِتَابِ فَإِنَّ الْحَدَّثَ الْوَاحِدَ الْمُصَوِّرَ فِيهِ ضَمَّنَ مَخْطُوطَةٌ بِدَارِ الْكُتُبِ الْقَوْمِيَّةِ بِبَارِيسٍ هُوَ خُرُوجُ الرَّسُولِ عَلَى رَأْسِ تِلْكَ الرِّحْلَةِ التِّجَارِيَّةِ الَّتِي اخْتَارَتْهُ السَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ لَهَا [لَوْحَةٌ مَحْظُورَةٌ نَشْرُهَا]، وَيُؤَيِّدُ هَذَا أَنَّ ذَلِكَ الْاِخْتِيَارَ وَقَعَ مَوْقِعَ الدَّهْشَةِ مِنَ الْمُحِيطِينَ بِخَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي أَنْ تَخْتَارَ شَابًّا يافِعًا لِيُمَثِّلَ هَذَا الْعَمَلُ الصَّخْمَ. وَهَذَا الْاِنْدِهَاشُ الْبَادِي عَلَى الْفِئَةِ الَّتِي فِي أَعْلَى الصُّورَةِ يُمَثِّلُ تِلْكَ الدَّهْشَةَ الَّتِي سَادَتْ الْقَوْمَ، غَيْرَ أَنَّهُ مِمَّا يَلَاخِظُ أَنَّ تِلْكَ الْعَمَائِمَ الَّتِي عَلَى الرُّؤُوسِ لَا تُمَثِّلُ عَمَائِمَ عَرَبِيَّةَ بَلْ عَمَائِمَ أَسْيُوتِيَّةَ. وَلَمْ يَتَّسِ الْمُصَوِّرُ أَنْ يُذَكِّرَنَا بِالْبَيْئَةِ الْمَكِّيَّةِ فَأَقَامَ تِلْكَ التَّلْخُلَةَ الْبَاسِقَةَ رَمْزًا لِذَلِكَ، وَلَا نَدْرِي لِمَ أَحَاطَ الْمُصَوِّرُ رَأْسَ الرَّسُولِ بِهَالَةٍ وَلَمْ يَكُنْ قَدْ نَبَّيْ بَعْدَ.

وَتَمَّةُ لَوْحَةٍ أُخْرَى مِنْ نُسخَةٍ أُخْرَى لِنَفْسِ الْمَخْطُوطَةِ ضَمَّنَ مَجْمُوعَةٌ تَشْتَرِي بَيْتِي بِذِلْنِ تُمَثِّلُ الرَّسُولَ فِي أُوْبَةٍ مِنْ أُوْبَاتِهِ إِلَى بَيْتِ زَوْجَتِهِ السَّيِّدَةِ خَدِيجَةَ الَّتِي ظَهَرَتْ صُورَتُهَا شَبِيهَ مُلْصَقَةٍ بِالْبَيْتِ لِيَتَرَمَّزَ إِلَى أَنَّهُ بَيْتُ خَدِيجَةَ زَوْجَتِهِ الَّذِي كَانَ يَأْوِي إِلَيْهِ، وَدَلِيلُنَا عَلَى أَنَّ هَذِهِ الصُّورَةَ بَعْدَ الثَّبُوتِ ذَلِكَ الْخِيَارُ الْمُلْقَى عَلَى وَجْهِهِ [لَوْحَةٌ مَحْظُورَةٌ نَشْرُهَا].

وَشَاعَتْ عَلَى نَحْوِ أَوْسَعِ تِلْكَ الصُّورِ الْمُنْفَصِلَةِ الَّتِي يَظْهَرُ فِيهَا النَّبِيُّ جَالِسًا بَيْنَ صَحَابَتِهِ، وَالَّتِي يُمَكِّنُ تَمَيِّزَ وَجْهِهِ أَفْرَادَهَا فَرْدًا فَرْدًا حَتَّى دُونَ ذِكْرِ اسْمِ مِنْ أَسْمَائِهِمْ. وَقَدْ اسْتُخْدِمَتْ هَذِهِ الصُّورُ أَحْيَانًا اسْتِخْدَامًا هَادِفًا قَصْدَ بِهِ إِلَى تَأْيِيدِ دَعْوَةِ الشَّيْعَةِ، دَلِيلُ ذَلِكَ الْوَضْعَاتُ الْمُتَمَيِّزَةُ الَّتِي يَخْتَارُهَا الْمُصَوِّرُ «لِعَلِّي» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَوَلَدَيْهِ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ. وَمِنْ أَجْمَلِ هَذِهِ الْمَجْمُوعَاتِ مَا جَاءَ بِمَخْطُوطَةِ كِتَابِ «حَيَرَةِ الْأَبْرَارِ» تَأْلِيفِ مِيرِ عَلِيِّ شِيرِ نَوَائِي وَتَصْوِيرِ قَاسِمِ عَلِيٍّ، وَالْمَخْطُوطَةُ بِالْمَكْتَبَةِ الْبُودَلِيَّةِ بِأَكْسُفُورْدَ، وَالْمُؤَرَّخَةُ عَامَ ١٤٨٥ حَيْثُ نَرَى الصُّورَةَ الرَّائِزَةَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي مِخْرَابِ الْمَسْجِدِ الْمَكْسُوفِ بِبَلَطَاتِ الْقَاشَانِي ذَاتِ الرِّخَارِفِ الثَّبَاتِيَّةِ، وَإِلَى جِوَارِهِ الْمِنْبَرُ الْخَشْبِي الْمَطْعَمُ بِالصَّدَفِ فِي زَخَارِفِ نَجْمِيَّةٍ بَدِيعَةٍ. وَالْمَسْجِدُ نَمُودَجٌ رَائِعٌ لِلرِّيَازَةِ الَّتِي لَا شَكَّ أَنَّ الْمُصَوِّرَ نَفْسَهُ قَدْ شَاهَدَهَا بِمَدِينَةِ هَرَاةٍ أَوْ سَمَرْقَنْدَ أَيَّامَ اَزْدَهَارِهَا، فَصَوَّرَ الْمَسْجِدَ بِقُبَّتِهِ الْخَضْرَاءِ وَوَاجِهَةٍ مِنْ بَلَطَاتِ الْقَاشَانِي ذَاتِ الرِّخَارِفِ الْهَنْدَسِيَّةِ بِاللُّونِينِ

الرَّسُولَ وَقَدْ حَمَلْتَهُ مِنْ مَكَّةَ مَعَهَا إِلَى مَقَامِهَا «بِالْأَبْوَاءِ» لِيُزْجِعَهُ [لَوْحَةٌ مَحْظُورَةٌ نَشْرُهَا]، وَهِيَ تَبْدُو فِي الصُّورَةِ عَلَى حِمَارِهَا وَالرَّسُولَ ﷺ فِي حُجْرِهَا وَلَمْ يَتَّسِ الْمُصَوِّرُ أَنْ يَضَعِ عَلَى رَأْسِ الرَّسُولِ تِلْكَ الْهَالَةَ الْمُمَيَّزَةَ وَإِنْ بَدَتْ صَغِيرَةً، كَمَا كَانَتْ لَهُ لَفَتَةٌ طَبِيعِيَّةٌ إِذْ صَوَّرَ حَلِيمَةً مُثْشِجَةً قَدْ غَطَّتْ صَدْرَهَا وَرَأْسَهَا بِوِشَاحٍ أَيْضَ إِشَارَةً إِلَى شَيْءٍ مِنَ التَّقْوَى وَالْوَرَعِ أَحَسَّتَهُ بِحَمَلِهَا الرَّسُولَ مَعَهَا. يُؤَيِّدُ هَذَا تِلْكَ الصُّورَةَ الَّتِي بَدَأَ زَوْجُهَا مِنْ خَلْفِهَا يَسُوقُ بِهَا، فَقَدْ بَدَأَ هُوَ الْآخَرُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْخَشْيَةِ الَّتِي بَدَتْ فِيهَا حَلِيمَةً. وَيَلَاخِظُ أَنَّ الدَّابَّةَ ظَهَرَتْ فَارِهَةً، وَكَانَتْ قَبْلَ عَجَفَاءٍ هَزِيلَةٍ تَكَادُ تَتَصَوَّرُ جُوعًا، وَهَذَا مَا تُشِيرُ إِلَيْهِ كُتُبُ السَّيِّرَةِ مِنْ ذَلِكَ الْخَيْرِ الَّذِي أَحَسَّتَهُ حَلِيمَةً فِيهَا وَفِي زَوْجِهَا وَفِي دَابَّتِهَا. وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَشْخَاصَ الَّذِينَ هُمْ إِلَى يَمِينِ حَلِيمَةٍ عَلَى دَوَابِّهِمْ شَبِيهَ مُتَلَفِّتِينَ إِلَى حَلِيمَةٍ الْفَنَاءَةِ فِيهَا دَهْشَةً، فَلَقَدْ رَأَوْهَا مِنْ قَبْلِ وَهِيَ قَادِمَةٌ إِلَى مَكَّةَ عَلَى حَالٍ غَيْرِ تِلْكَ الْحَالِ الَّتِي رَجَعَتْ عَلَيْهَا مِنْ مَكَّةَ.

وَيُمَثِّلُ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي صُورَةٍ أُخْرَى [لَوْحَةٌ مَحْظُورَةٌ نَشْرُهَا] شَابًّا نَحِيلًا وَاقِفًا بَيْنَ قَوْمِهِ وَقَدْ أَطْلَعَتْهُ عَمَامَةٌ تُمَثِّلُ مَلَكًا مِنْ تَحْتِهَا وَكَأَنَّهُ يَحْمِلُهَا وَيَجْرِي بِهَا. وَفِي يَسْرَى هَذَا الْمَلَكُ شَبِيهَ زَنْبِيقٍ وَكَأَنَّهُ الْعِطْرُ، وَفِي يُمْنَاهُ شَيْءٌ يَبْدُو كَالْمِشْطِ. وَغَايَةُ مَا نَسْتَطِيعُ تَأْوِيلُهُ أَنَّ هَذَا وَذَاكَ كَانَا مِنْ أَدَوَاتِ التَّجْمِيلِ وَالتَّعْطِيرِ، وَنَرَى الْجِمَالَ بَارِكَةً وَقَدْ أُلْقِيَتْ عَنْهَا أَحْمَالُهَا. وَيَنْقَسِمُ الْقَوْمُ إِلَى شَيْئَيْنِ، شَيْقٌ وَقَفَتْ خَلْفَهُ وَقَدْ انْبَسَطَتْ أَسَارِيرُ وَجُوهِهِمْ، وَشَيْقٌ وَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُمْ قَلَّةٌ وَقَدْ حَنَوُا الرُّؤُوسَ إِجْلَالًا، وَكَأَنَّ هَذَا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ الْجَوَارِ الَّذِي دَارَ بَيْنَ الرَّاهِبِ بَحِيرَا وَمُحَمَّدٍ، وَتَبَيَّنَ قَوْمُ مُحَمَّدٍ مِنْهُ أَنَّهُ النَّبِيُّ الْمُبَشِّرُ بِهِ. وَإِلَى يَمِينِ الصُّورَةِ يَبْدُو بَحِيرَا فِي ثِيَابِهِ الْكَهْنَوِيَّةِ وَإِلَى جَانِبِهِ تَابِعٌ لَهُ وَهُمَا يَطْلَانِ مِنْ شَبِيهٍ نَافِذَةٍ لَعَلَّهَا نَافِذَةٌ صَوْمَعَةٍ بَحِيرَا، وَقَدْ رَفَعَ الْآخِرُ يُمْنَاهُ مُشِيرًا بِإِصْبَعِهِ إِلَى الرَّسُولِ.

وَفِي صُورَتِهِ وَهُوَ بِغَارِ حَرَاءَ [لَوْحَةٌ مَحْظُورَةٌ نَشْرُهَا] بَدَأَ أَكْبَرَ سَيِّئًا مُسْتَعْرِفًا فِي التَّأَمُّلِ يَتَلَقَّى بُشْرَى الرِّسَالَةِ النَّبَوِيَّةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ جِبْرِيلَ. وَالْأَمْرُ اللَّافِتُ فِي هَذِهِ الْمُنْمَنَةِ أَنَّ جَنَاحِي الْمَلَائِكَةِ مُلتَصِقَانِ بِذِرَاعِيهِ. وَهَذَا عَلَى الْعَكْسِ مِمَّا عَهَدْنَا فِي التَّصْوِيرِ الْمَسِيحِيِّ حَيْثُ يَنْبِيقُ الْجَنَاحَانِ مِنَ الْكَتِفَيْنِ.

وَظَهَرَ فِي صُورَةٍ أُخْرَى أَثْنَاءَ هِجْرَتِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ مَعَ صَدِيقِهِ أَبِي بَكْرٍ مُخْلَفًا خُصُومَهُ فِي مَكَّةَ بَعْدَ أَنْ رَفَضَ أَهْلُهَا رِسَالَتَهُ بَيْنَمَا انْهَمَكَتْ امْرَأَةٌ عَجُوزٌ فِي حَلْبِ اللَّبَنِ مِنْ ضَرْعِ شَاةٍ لِيَتَزَوَّيَ غَلَّةُ الْمُهَاجِرِينَ الْمُتَهَكِّينَ، عَلَى حِينٍ يَطْلُعُ أَبُو بَكْرٍ الْوَفَى إِلَى وَجْهِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ فِي إِكْبَارِ [لَوْحَةٌ مَحْظُورَةٌ نَشْرُهَا] وَقَدْ أَحَاطَ الْمُصَوِّرُ شُخُوصَ الْمُنْمَنَةِ بِإِطَارٍ مِنْ تَضَارِيسِ الْبَيْئَةِ، وَنَلَمَسَ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ بِالذَّاتِ ضَرْبًا مِنَ الشَّجَنِ الْعَاطِفِيِّ فَلَمَّا نَجَحَ الْمُصَوِّرُونَ الْمُسْلِمُونَ فِي تَضَمِينِهِ تَكْوِينَاتِهِمُ الْمُصَوَّرَةَ فِيمَا بَعْدَ.

وَيُثِيرُ انْتِبَاهَنَا أَنَّ الرَّسُولَ فِي كَافَّةِ مُنْمَنَاتِ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ قَدْ

في غلالة فضفاضة قد غطت جسمه كله (لوحه ٢٣٢م). ثم كان بعد ذلك أن رأينا المصورين يمعنون في توير النبي فلا يظهره جسمًا بل يجعلونه هالة من نور، كما نراه في مخطوطة «حملة حيدر» بدار الكتب القومية بباريس. وهي منظومة تزوي بالشعر سيرة النبي والخلفاء الراشدين، ويتمثل النبي في كل صورها هالة ثورانية دون إبراز لأي جزء من أعضاء الجسم. وفي اللوحة المنسورة نراه ومن حوله المؤمنون من مختلف الأجناس المنتشرين في شتى الأقطار، إذ ترمز العمائم إلى لباس رأس يختلف باختلاف الأقالييم (لوحه ٢٣٣م).

العذراء مريم.

وقد أفرد الدين الإسلامي لعيسى عليه السلام مكانة خاصة تأتي بعد النبي محمد عليه الصلاة والسلام. ولهذا كثيرًا ما ترد صور عيسى في الفن الديني الإسلامي، خاصة وأن شعراء مثل نظامي الكنجوي وجلال الدين الرومي وسعدي وغيرهم كثيرًا ما أوردوا قصصًا عنه ضمن قصائدهم. ومن المحتمل أن يكون المصورون المسلمون قد احتفظوا أحيانًا بصور مسيحية عن حياة عيسى وربما نسخًا مصورة من الإنجيل.

غير أنه لم يتوافر للمصور المسلم أي نموذج خاص بتصوير المسيح في الحالات التي يختلف فيها نص القرآن مع نصوص الأنجيل. مثال ذلك أن القرآن الكريم قد وصف مولد المسيح بقوله: «وإذ ذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانًا شرقيًا فاتخذت من دونهم حجابًا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرًا سويًا. قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا. قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلامًا زكيًا. قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا. قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرًا مقررًا. فحملته فانتبذت به مكانًا قصيًّا. فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيت مبنيًّا. فتادها من تحيها ألا تحزني قد جعل ربك تخذك سرًّا. وهزي إليك الجذع الذي يساقط عليك رطبا جنيا» [سورة مريم. آية ١٦ - ٢٥].

ومن هنا لم يكن أمام المصور المسلم إلا أن يتبكر نماذجه بنفسه عند تمثيل ميلاد يسوع، ولذلك جاءت هذه الصورة الموجودة في مخطوطة «قصص الأنبياء» غير المؤرخة الموجودة ضمن مجموعة تشستر بيتي قريفة في الفن الإسلامي (لوحه ٤٥١م)، ويحتمل أنها ترجع إلى أواخر القرن السادس عشر، وتمثل العذراء في حالة إغيا بعد الوضع فلجأت إلى نخلة جرداء من السعف والتمر وراحت تستند إلى جذع النخلة تهزها، فلا تلبث النخلة أن تورق وتثمر إثر لمستها وينبثق من جذورها جذول من الماء. ومما يوسع له أن الفضة التي استخدمها المصور لتصوير الماء قد تلوئت واسودت لونها تمامًا كما هي الحال مع كثرة من الصور الفارسية، بينما يزد السيد المسيح

الأزرق والأخضر. كذلك وضع المصور مصحفًا مفتوحًا فوق حامل من الخشب المطعم بالعاج والمغطى بشماش مطرز. وأحاط المصنف بهالة ثورانية مثل التي تعلق الرسول. ويبدو النبي مشغولًا بإملاء آية من القرآن أو بعض الرسائل على كاتيه زيد بن ثابت الذي قبع على الأرض إلى جواره منهكًا في التدوين بينما يجلس إلى جواره شخص آخر لعله علي رضي الله عنه، وقد وقف من ورائه عبده متأبطًا سيفه سيده «ذا الفقار». وظهر قبالتهم اثنين من الصحابة، يقف وراءهما بلال مؤذن الرسول نعرفه من سمر طلعته، وفي مقدمة الصورة يجلس أربعة آخرون من الصحابة يحيط بهم سباح خفيض. والصورة في مجموعها تكوين بديع يتميز بالأناقة والنسجاء الألوان [لوحه مخطور نشرها].

تطور أسلوب تصوير الرسول.

والصور التي تبدو فيها ملامح النبي مكتملة واضحة مكتملة غاية في الندرة، وترجع في الأكثر إلى فترة مبكرة، مثال ذلك صور الواردة «بجامع التواريخ» في مستهل القرن الرابع عشر. وإبتداءً من أواخر القرن الرابع عشر أو ربما قبل ذلك يقليل تميزت صور الرسول بهالة من النور وكأنها شعله ثورانية شبيهة بالهالة الممتلئة في صور بودا وتمائله مثل صور مخطوطة معراج نامه بدار الكتب القومية بباريس [لوحه مخطور نشرها]، ومنمنمة رحلة بيت المقدس بمخطوطة «خمس» للشاعر نظامي (١٤٩٤م - ١٤٩٥م) بالمتحف البريطاني [لوحه مخطور نشرها].

ومنذ أواخر القرن السادس عشر جرى العرف على رسم خمار فوق وجه النبي عليه الصلاة والسلام ينسدل من الجبهة حتى الدفن لحجب ملامحه توقيراً لشخصه، وربما لإرضاء أصحاب الرأي المتشدد، مثل لوحه الرسول وأبي بكر وعلي من مخطوطة «سير النبي» بالمكتبة العامة بنيويورك [لوحه مخطور نشرها] ومثل منمنمة معراج الرسول بمخطوطة «يوسف وزليخا» للشاعر جامي بدار الكتب المصرية [لوحه مخطور نشرها] وبمخطوطة «خمس» للشاعر نظامي بالمتحف البريطاني [لوحه مخطور نشرها]، ويبدو فيهما الرسول فوق ظهر البراق، والسما صافية في زرقة أخادة وقد غششتها رقائق من السحب ذهبية. واختشدت الملائكة من حول الرسول بين مقدم هدايا وبين ناير في طريقه بين يديه أحجار الجنة، وبين حامل إليه البزوة الخضراء رمز النبوة، وبين حاملي المباخر تعطر الجو بين يديه. ويبدو جبريل في مقدم الصورة وهو يحث الخطى وعليه دلائل الإبهاج بمقدم الرسول. وبطبيعة الحال كانت ثمة استثناءات بدا فيها وجه الرسول جلّي الملامح خلال هذه الفترة، مثل صور مخطوطة «روضة الصفا» لميرخوند (١٦٠٦م).

وفي نسخة ترجع إلى القرن الثامن عشر من مخطوطة «بستان» للشاعر سعدي يظهر الرسول في إحدى الصور ممتطيًا البراق متلفعًا

الصورة التي جاءت عليها هالة مريم كما جعل على رأسه قلنسوة قمّتها حمراء ولُفاتها خضراء، وبين يدي مريم قدر ذهبي اللون ثم طبق ذهبي اللون وقد غصّ بلون من الطعام أخذ شكلاً هرمياً. ولكي يُشيع المصور تلك البهجة التي أحاطت بهذا المولد ملأ أركان الصورة بزهور يانعة مخضرة الأوراق مُتفتحة الزهرات صارخة مما يجذب الأنظار. هذا إلى أن تصوير العذراء وهي تُرضع طفلها لهو أمر نادر قل أن نفع على مثله في التصوير المسيحي. فإن أول تصوير مسيحي وقّعنا عليه «لمريم المُرْضِع» (Maria Lactans) هو ذلك النقش الخفيف البروز الذي انتهى إلينا من القرن السادس وقد عُثر عليه يدبر القديس إرميا بسقارة (لوحة ٢٣٤م)، وأكاد أذهب إلى أن هذا الموضوع فيه استلهم من موضوع إيزيس وهي تُرضع ابنها حورس (لوحة ٢٣٥م)، كما أكاد أذهب إلى أن قلندر باشا قد اقتبس لوحته عن نموذج بيزنطي أو أرمني.

المسيح عيسى.

ومن أبدع ما رواه المسلمون عن المسيح من قصص، تلك القصة التي تخكي أن المسيح كان يسير ذات يوم بين تلاميذه في السوق، فلمحوا كلباً ميتاً ألقيت جثته في قناة، وأبدى التلاميذ استياءهم من المنظر. فقال أحدهم: يا لها من رائحة نبتة! وقال آخر: إن جلده قد بلي حتى لم يعد منه ما يصلح لصنع كيس نفود. وقال ثالث إنه يسبب عمي العين ومَرَض القلب. ومضى الجميع يتنقدون الكلب، غير أن المسيح زجرهم ونصحهم بعدم ذكر الغيوب والافتات إلى المحاسن فحسب، فلا يجوز أن يسخر الإنسان من مصائب الغير، ثم اختار من سمات الكلب أجدرها بالإطراء وقال: لعل اللآلئ لا تعادل أسنانه في بياضها. وقد وردت هذه القصة لأول مرة في كُتب الأدب الإسلامي، ثم خلق منها الشعراء موضوعاً شعبيّاً وبخاصة نظامي الشاعر الفارسي في المقالة العاشرة: في ظهور آخر الزمان من ديوانه «مخزن الأسرار» (لوحة ٤٥٣م). وعلى غير عادة الأدب الإسلامي فيما ينسبه إلى المسيح، ليس لهذه القصة أصل مسيحي سواء في الأناجيل أم في الأسفار المشكوك في صحتها. وإنما رويت هذه القصة على لسان «هاريبهدارا» وهو راجب عاش في النصف الثاني من القرن التاسع، وأصحت جزءاً من الأدب الأوربي على يد جوته في تعليقاته على «ديوانه الشرقي الغربي». وهناك مُنمنمة أخرى في الموضوع نفسه ضمن مخطوطة «خمس» للشاعر نظامي بالمتحف البريطاني (لوحة ٢٣٦م) تقتيد العناصر العاطفية المثيرة، وهذا لأن المصور لجأ إلى إظهار الحوايين في لباس بُرْتُغالي، معتقداً أن المسيحيين جميعاً كانوا على صورة أولئك الرحالة البُرتُغاليين الذين نزلوا بلده، أعني فارس.

وثمة مُنمنمة في مخطوطة تاريخ خواندمير بدار الكتب القومية بباريس تمثل «عيسى يتأمل مصراع لصوص ثلاثة» (لوحة

عن كُتب منها طفلاً في لفافته يتوسط هالة ذهبية. ولهذه الصورة من بين الصور التي لا حصر لها عن ميلاد يسوع في العالم خصائص مميزة لا وجود لها فيما عداها. وعلى الرغم من أنها لم تبلغ القيمة في التصوير غير أنها لا شك تُعد فريدة في مفهومها وفي تنفيذها معاً. ونلاحظ في هذه اللوحة أن مريم تهز النخلة من ساقها لا من جذعها على خلاف ما جاء بسورة مريم. والقرآن يقصد أن مريم مُعانة بقوة الله، فهي نفساء غير قوية الحركة فأوحى إليها الله أن تلمس جذع النخلة فحسب لا ساقها، وهز الجذع أمر مُستعصى ولكنه دليل على شيء من الإعجاز. ومعروف أن هذه الناحية التي وضعت فيها مريم ابنها عيسى في ظل تلك النخلة كانت ناحية مجدية كما كانت النخلة هي الأخرى عقيماً. ولقد تبدل هذا الجذب وهذا العُقم بمولد عيسى، فإذا هذا الجانب خصب، وإذا النخلة يانعة مخضرة مثيرة ولم يعم الخصب هذا المكان كله بل جعله الفتان في هذا الركن بذاته دون غيره من الأركان المحيطة ليبرز المعجزة، ولهذا نرى الصورة ذات شقين، شق مخضّر معشوشب حيث وُضِع عيسى، وشق على حاله الأولى مُجذب مُقفر لأنه لم يتل شرف نزول عيسى.

وفي كتاب «فالنامه» أو كتاب القال والخط للوزير قلندر باشا في مطلع القرن السابع عشر صورة للعذراء وهي تُرضع ابنها عيسى (لوحة ٤٥٢م) ولن نناقش أسلوب المصور في رسم الثدي وكأنه قطعة منفصلة عن الجسد. ونرى هذا الثدي وقد ضغطته مريم يديها ليدرّ لبناً وقد سقطت من هذا اللبن نقطة بيضاء ولكن نمة بُعد بين وجه عيسى واللبن السائل من الثدي، ولعل في هذا إشارة إلى أن عيسى وُلد مكتوباً غنياً عن أن تُرضعه أمه. ومن أجل هذا الاستغناء أيضاً جعله المصور أكبر من حجم طفل رضيع في سنه. ولم يجر هذا غفواً من المصور بل مما لا شك فيه أنه قصد إليه ليعبر لنا عن اكتمال عيسى رضيعاً، فلقد تكلم وهو في مهده، وهذا لا يصدر إلا عمن تجاوز مثل هذه السن. ثم إننا نرى عيسى وقد مدّ يُمناه برمانة حمراء يُقدمها لأمه، وهذه تحمل معنيين المعنى الأول أن الرمانة كما نعلم من ثمار الجنة التي كثيراً ما يتردد ذكرها، والمعنى الثاني أن حمرة الرمان ترمز لحمرة الدم الذي هو منبع الحياة. وإلى أعلى الصورة وضع المصور صورة يصفية لهذا الملك الذي هرع إلى مريم في وضعها وأوحى إليها بأن تطمئن وأن تهز جذع النخلة إلى غير ذلك مما جاء مفصلاً في الكُتب المقدسة. وعلى رأس ذلك الملك تاج مُشع ذو شعب نورانية. واختار المصور للباس مريم جلباباً أحمر مُزركشاً بورود ذهبية وأكمام فضفاضة، ومن تحت هذا الجلباب قميص أبيض فضفاض قد بدا منه كُمه في يدها التي أمسكت بها ثديها، وعلى هذا الجلباب ملء زرقاء مُزركشة بورود ذهبية قد غطت رأسها وانسدلت على سائر جسمها. وقد كُتِل رأس مريم بهالة كبيرة وصلت إلى الكتفين، ونرى على رأس عيسى هالة على غير

أَعْلَاهُ مِنَ الْمَنَكِبِينَ بِشُعْلَةٍ مِنْ نُورٍ (لَوْحَة ٢٣٩م). ويقول تعالى في كتابه الكريم ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ. قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ إِنْ قَدْ صَدَقْتَنا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ. قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ. قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أَعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أَعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة المائدة ١١٢ - ١١٥].

وقد صَوَّرَ الفَنَانُ القِصَّةَ في مُجْمَلِهَا وَلَكِنْ يَبْدُو أَنَّهُ اسْتَطَاعَ أَنْ يَضَعَ اللَّمَسَاتِ الْمُعْبَّرَةَ عَمَّا تَضَمَّنَتْهُ الآيَاتِ الْكَرِيمَةِ حَوْلَ تِلْكَ الْمُعْجِزَةِ، هَذَا مَعَ تَجَاوُزِ مَا هِيََا المُصَوِّرُ مِنْ جَوْ حَوْلَ عِيسَى يَتِمُّثَلُ فِي الْأَشْخَاصِ السَّائِلِينَ وَالْعَلَامَاتِ الْبَادِيَةِ عَلَى وَجْهِ كُلِّ بِمُقْتَضَى مَا تَسْتَلِزِمُهُ الْحَالُ مِنْ تَهْكُمٍ وَسُخْرِيَةٍ وَصَمْتٍ وَتَرْقُبٍ، تِلْكَ الْأَشْيَاءُ الَّتِي لَمْ يَعْضُرِ الْقُرْآنَ لِتَفْصِيلِهَا وَإِنَّمَا اسْتَنْبَطَهَا المُصَوِّرُ مِنْ مُقْتَضَى الْحَالِ.

وما مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ هَذَا كُلَّهُ يَخْتَلِفُ اخْتِلَافًا كَبِيرًا عَمَّا جَاءَ فِي الْإِنْجِيلِ عَنِ الْعِشَاءِ الْآخِرِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ غَيْرَ دَعْوَةٍ دَعَا فِيهَا عِيسَى إِلَيْهِ أَصْحَابَهُ فِي وَدَاعِهِ الْآخِرِ. وَكَانَتْ تِلْكَ الْمَائِدَةُ الَّتِي وَصَفَهَا الْإِنْجِيلُ وَالَّتِي يَتَجَلَّى فِيهَا عِيسَى عَلَى أَتْبَاعِهِ بِرُوحَانِيَّةٍ عَالِيَةٍ تَجْعَلُ دَمَهُمْ دَمَهُ وَلَحْمَهُمْ مِنْ لَحْمِهِ. يَقُولُ الْإِنْجِيلُ: «وَفِيمَا هُمْ يَأْكُلُونَ أَخَذَ يَسُوعُ خُبْزًا وَكَسَّرَ وَأَعْطَاهُمْ وَقَالَ خُذُوا كُلُوا هَذَا هُوَ جَسَدِي، ثُمَّ أَخَذَ الْكَأْسَ وَشَكَرَ فَأَعْطَاهُمْ وَشَرَبُوا مِنْهَا كُلُّهُمْ وَقَالَ لَهُمْ هَذَا هُوَ دَمِي لِلْعَهْدِ الْجَدِيدِ الَّذِي يُسْفِكُ مِنْ أَجْلِ كَثِيرِينَ.»

نُوحٌ

وهناك مُنَمِّمَةٌ لِسَفِينَةِ نُوحٍ بِمَخْطُوطَةِ «تَارِيخِ خَوَانْدَمِير» بِبَارِيسِ كَمَا تَخَيَّلَهَا المُصَوِّرُ إِذْ جَعَلَ مُقَدِّمَهَا عَلَى شَكْلِ رَأْسِ فَرَسٍ، وَلَعَلَّ هَذَا التَّوَعُّدَ مِنَ السُّفُنِ بِهَذَا الشَّكْلِ كَانَ مُسْتَخْدَمًا فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ وَلَا نَزَالُ نَشَاهِدُ مِثْلَهُ إِلَى الْيَوْمِ. وَمِنْ خَلْفِ نُوحٍ - الَّذِي تُحِيطُ بِرَأْسِهِ هَالَةٌ نُورَانِيَّةٌ - رَجُلٌ مُلْتَحٍ عَلَى رَأْسِهِ عِمَامَةً. وَمِنْ خَلْفِ هَذَا الرَّجُلِ امْرَأَةٌ أَوْ غُلَامٌ، وَهَذَانِ الْاِثْنَانِ رَمَزَ لِمَنْ رَكِبَ مَعَ نُوحٍ مِنْ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ، غَيْرَ أَنَّ المُصَوِّرَ لَمْ يُسَدِلِ الْخِمَارَ كَامِلًا عَلَى وَجْهِ نُوحٍ بَلْ جَعَلَهُ نَقَابًا مِنَ الْأَنْفِ إِلَى مَا تَحْتَهَا، وَبَدَتْ الْعَيْنَانِ وَاضِحَتَيْنِ. وَنَرَى مَاءَ السَّمَاءِ الْمُتَهَوِّرَ كَمَا نَرَى الْمَوْجَ تَحْتَ السَّفِينَةِ وَقَدْ غَطَّى رَجُلًا وَاقِفًا إِلَى يَمِينِ الصُّورَةِ إِلَى وَسَطِهِ. وَظَاهِرٌ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ هُوَ ابْنُ نُوحٍ إِذْ نَرَى نُوحًا قَدْ رَفَعَ يَدَيْهِ يُخَاطِبُهُ، كَمَا رَفَعَ هَذَا الْاِبْنُ يَدَيْهِ مُتَهَكِّمًا، إِخْدَى يَدَيْهِ لِأَعْلَى وَالْأُخْرَى إِلَى أَسْفَلٍ، وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَنْ سُؤَالِ نُوحٍ لِابْنِهِ أَنْ يَرْكَبَ مَعَهُ لِيُنْجُو، وَرَفُضِ الْاِبْنِ الرُّكُوبَ مَعَ أَبِيهِ زَاعِمًا أَنَّهُ سَيَأْوِي إِلَى جَبَلٍ يَعِصِمُهُ مِنَ الْمَاءِ (لَوْحَة ٢٤٠م).

٢٣٧م) وَقَدْ انْبَطَحَتْ بَيْنَ يَدَيْ عِيسَى جُثَّةٌ لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ. وَإِلَى أَسْفَلِ مِنْهَا جُثَّةٌ اللَّصَّ الثَّانِي وَقَدْ امْتَدَّتْ عَلَى الْأَرْضِ وَيَدُهُ فِي بَطْنِهِ كَأَنَّهُ مَا زَالَ يَشْكُو أَلَمًا، وَإِلَى جَوَارِهِ غُلَامٌ، وَفِي نِهَايَةِ الصُّورَةِ إِلَى خَلْفِ الشَّجَرَةِ جُثَّةٌ اللَّصَّ الثَّالِثِ وَقَدْ مَدَّ يَدَيْهِ إِلَى صَدْرِهِ. وَإِلَى يَسَارِ الصُّورَةِ رَجُلٌ قَدْ وَضَعَ إصْبَعَهُ فِي فَمِهِ إِشَارَةً إِلَى التَّعَجُّبِ، وَثَمَّةٌ رَجُلٌ قَدْ وَقَفَ إِلَى خَلْفِ عِيسَى يَرْقُبُ مَا يَدُورُ. وَنَرَى عِيسَى فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ وَارِفَةٍ تَدَلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يَرُكِنُ دَائِمًا إِلَى مَكَانٍ ظَلِيلٍ لِإِظْهَارِ مُعْجِزَةِ الْإِحْيَاءِ وَالْإِبْرَاءِ. وَلَا شَكَّ أَنَّ الطَّبَقَ فِي مُتَصَفِّ الصُّورَةِ يَحْمِلُ ثِمَارَ تِلْكَ الشَّجَرَةِ الْوَارِفَةِ الَّتِي مِنْهَا غِذَاؤُهُ.

وهناك مُنَمِّمَةٌ مِنَ نَفْسِ الْمَخْطُوطَةِ السَّابِقَةِ تُمَثِّلُ عِيسَى وَعَلَى رَأْسِهِ عِمَامَةً بَيَضَاءُ تُحِيطُ بِهَا هَالَةٌ مُشِيعَةٌ وَقَدْ غَطَّى وَجْهَهُ كَمَا هِيَ الْعَادَةُ (لَوْحَة ٢٣٨م). وَنَرَاهُ شَبِيهَ جَانٍ عَلَى رُكْبَتَيْهِ رَافِعًا يُمْنَاهُ حَجَرًا وَمَادًّا يَسْرَاهُ إِلَى شَيْخٍ يَشْبَهُ أَنْ يَكُونَ إِبْلِيسُ. وَهَذَا الرِّبَاطُ الَّذِي انْسَدَلَ طَرْفَاهُ مِنَ الْعُنُقِ عَلَى صَدْرِ عِيسَى يَكَادُ يُوحِي لَنَا بِأَنَّهُ قَدْ هَبَّ مِنَ النَّوْمِ فَرَعًا لِيُوسَّسَهُ إِبْلِيسُ لَهُ حِينَ أَرَادَ أَنْ يَصْرِفَهُ عَنْ تَعْلُقِهِ بِالْآخِرَةِ، وَحِينَ أَرَادَ أَنْ يَرِدَّ عَلَيْهِ زَعْمُهُ بِأَنَّهُ - أَيُّ عِيسَى - مُنْصَرِفٌ عَنِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ إِبْلِيسُ: يَا عِيسَى إِنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّكَ مُنْفَصِلٌ عَنِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا غَيْرَ مُشْغُولٍ بِهَا وَهِيَ أَتَتْ قَدْ تَوَسَّدَتْ حَجَرًا مِنْ أَحْجَارِهَا وَضَعْتُهُ أَنَا تَحْتَ رَأْسِكَ. فَكَانَتْ هَبَّةٌ عِيسَى فَرَعًا كَمَا قُلْنَا وَإِمْسَاكُهُ بِالْحَجَرِ وَتَلْوِيحُهُ بِهِ لِيَقْذِفَ بِهِ إِبْلِيسُ، وَإِشَارَةُ عِيسَى بِإِسْرَاهُ إِلَى إِبْلِيسِ تُشِيرُ إِلَى مَا أَجَابَ بِهِ عِيسَى إِبْلِيسَ مِنْ قَوْلِهِ لَهُ: خُذْ هَذَا الْحَجَرَ فَهُوَ مِنْ نَصِيكِ. يَعْنِي بِهَذَا أَنَّ الدُّنْيَا لِإِبْلِيسَ وَلَا يَخْطِئُ فِيهَا إِلَّا أَتْبَاعُهُ أَيْ أَتْبَاعُ إِبْلِيسِ. وَقَدْ أَحَاطَ المُصَوِّرُ عِيسَى بِشَجَرَتَيْنِ مُزْهَرَتَيْنِ عَلَى حِينِ جَعَلٍ مِنْ خَلْفِ إِبْلِيسِ شَجَرَةً تَبْدُو عَارِيَةً مِنَ الْأَزْهَارِ وَتَكَادُ تَكُونُ وَرَقَاتُهَا جَافَّةً، وَهُوَ مَا قَدْ يَعْنِي ازْدِهَارَ الْآخِرَةِ وَجَذْبَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

وَنَرَى فِي مُنَمِّمَةِ أُخْرَى مِنَ مَخْطُوطَةِ «تَارِيخِ خَوَانْدَمِير» بِدَارِ الْكُتُبِ الْقَوْمِيَّةِ بِبَارِيسِ عِيسَى فِي وَسْطِ أَتْبَاعِهِ وَهُمْ يُجَادِلُونَهُ فِي رِسَالَتِهِ وَيَسْأَلُونَهُ بُرْهَانًا عَلَى صِدْقِ دَعْوَتِهِ وَقَدْ أَمْعَنُوا فِي سُؤَالِهِمْ إِمْعَانِ الْإِعْجَازِ فِي خِيَالِهِمْ فَسَأَلُوهُ أَنْ يَسْأَلَ رَبَّهُ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْهِمْ مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ فِيهَا أَصْنَافٌ بِعَيْنِهَا اخْتَارُوهَا، وَهُمْ يَسْأَلُهُمْ هَذَا كَانُوا يَتَخَيَّلُونَ أَنَّهُمْ أَفْحَمُوا عِيسَى وَأَنَّهُ لَنْ يَسْتَطِيعَ الْاسْتِجَابَةُ إِلَى مَا سَأَلُوهُ. وَتَبْدُو فِي الْمُنَمِّمَةِ هَيْئَةُ السُّخْرِيَةِ عَلَى مُحِيطًا بَعْضُ السَّائِلِينَ الْمُتَحَدِّينَ، كَمَا يَظْهَرُ عَلَى هَيْئَةِ الْآخَرِينَ الْإِغْرَاقَ فِي الدُّهُولِ. وَتَبْدُو فِي وَجْهِ الْمُتَحَدِّثِ إِلَى عِيسَى وَالْجَالِسِ أَمَامَهُ نَظْرَةُ الْمُتَحَدِّثِ، كَمَا تَبْدُو عَلَى صُورَةِ الْغُلَامِ الْجَالِسِ إِلَى طَرْفِ الصُّورَةِ فِي أَسْفَلِ الْخَشْيَةِ مِنَ الْعَاقِبَةِ. وَذَلِكَ لِأَنَّ عِيسَى كَانَ قَدْ أَنْذَرَهُمْ بِأَنْ مَنْ يَكْفُرُ مِنْهُمْ بَعْدَ إِثْرَالِ الْمَائِدَةِ فَإِنَّ اللَّهَ سَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا شَدِيدًا. كَذَلِكَ تَبْدُو عَلَى الْجَالِسِ خَلْفَ عِيسَى هَيْئَةُ الْمُتَرْقِّبِ الْمُؤْمِنِ بِقِسْلِ الْمَجِيبِ. وَقَدْ أَسَدَلَ الْفَنَانُ عَلَى وَجْهِ عِيسَى خِمَارًا لِيُغْطِيَ مَعَالِمَ وَجْهِهِ غَيْرَ أُذُنِهِ، وَأُحِيطَ

في زِيٍّ مُخَالِفٍ وَكَأَنَّهُ أَمِيرٌ يُشْرِفُ عَلَى إِحْرَاقِ إِبْرَاهِيمَ.
ثُمَّ نَرَى إِبْرَاهِيمَ فِي صُورَةٍ أُخْرَى مِنَ الْمَخْطُوطَةِ نَفْسَهَا وَهُوَ يُصَحِّي بِابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ اسْتِجَابَةً لِأَمْرِ رَبِّهِ (لَوْحَةٌ ٤٥٤م) وهذه الصورة في الواقع هي صَدَى لِمَا كَانَ الْمُصَوِّرُونَ يَفْعَلُونَهُ فِي تَصْوِيرِ الْحَيَالَاتِ الَّتِي كَانَ يَجِيشُ بِهَا شِعْرٌ مَشْهُورٌ يُفَعِّلُونَهُ فِي الْإِسْلَامِ. وَكَثِيرًا مَا نَرَى إِبْرَاهِيمَ وَابْنَهُ فِي هَذِهِ الصُّورِ يُؤَدِّيَانِ الصَّلَاةَ فِي الْكَعْبَةِ الَّتِي شَيَّدَهَا فِي مَوْقِعِهَا الْمُخْتَارِ بِمَكَّةَ. هَذَا إِلَى لَوْحَةٍ تَمَثَّلُ «بِنَاءَ الْكَعْبَةِ» (لَوْحَةٌ ٢٤٣م) بَعْدَ أَنْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِتَشْيِيدِ بَيْتٍ لَهُ فِي الْأَرْضِ وَأَرْسَلَ سَحَابَةً أَظْلَنَهُ حَتَّى وَصَلَ إِلَى مَكَانِ الْكَعْبَةِ الَّذِي ذَلَّ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ فَبَنَاهَا عَلَى مِسَاحَةٍ تُسَاوِي ظِلَّ السَّحَابَةِ: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾. وَقَدْ شَيَّدَهَا إِبْرَاهِيمَ بِمَعُونَةِ ابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ مِنْ أَحْجَارٍ جُمِعَتْ مِنْ خَمْسَةِ جِبَالٍ وَاخْتَارَا لِقَاعِدَتِهَا حِجَارَةً مِنْ حَرَاءَ، وَقَدْ تَرَكََا فِي وَسْطِهَا مَكَانًا لِلْحَجَرِ الْأَسْوَدِ. وَقَفَّ إِبْرَاهِيمَ رَافِعًا يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ عَلَى هَيْئَةِ الدَّاعِي الْمُبْتَهِلِ وَعَلَى وَجْهِهِ خِمارٌ يُغْطِي مَعَالِمَ وَجْهِهِ، كَمَا ارْتَفَعَتْ مِنْ مَنَكِبَيْهِ إِلَى أَعْلَى شُعْلَةِ نُورَانِيَّةٍ. وَإِبْرَاهِيمَ فِي هَذَا الْمَوْقِفِ كَأَنَّهُ يَشْكُرُ اللَّهَ عَلَى أَنْ عَانَهُ عَلَى بِنَاءِ الْبَيْتِ وَيَسْأَلُهُ أَنْ يُهَيِّئَ لَابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ فِي هَذَا الْمَكَانِ حَيَاةً مُسْتَقَرَّةً. وَإِلَى يَسَارِ الصُّورَةِ وَقَفَّ إِسْمَاعِيلُ وَقَدْ مَدَّ يَدَهُ إِلَى الْبِنَاءِ، وَلَعَلَّ هَذَا يُشِيرُ إِلَى مَا قَدَّمَهُ إِلَى أَبِيهِ مِنْ مَعُونَةٍ فِي هَذَا الْبِنَاءِ. وَلَمْ يَضَعِ الْمُصَوِّرُ خِمارًا عَلَى وَجْهِهِ إِسْمَاعِيلَ مَعَ أَنَّهُ نَبِيُّهُ هُوَ الْآخَرُ وَوَضَعَ عَلَى رَأْسِهِ شَيْئًا قُبْعَةً مَعَ أَنَّ هَذَا لَمْ يَكُنْ هُوَ زِيَّ الرُّؤُوسِ لِلْبَادِيَةِ. وَالْجِلْبَابُ الَّذِي لَبَسَهُ إِبْرَاهِيمَ وَكَذَلِكَ الَّذِي لَبَسَهُ إِسْمَاعِيلُ لَا يُمَثِّلَانِ لِبَاسَ الْبَادِيَةِ هُمَا الْآخِرَانِ، وَقَدْ شَدَّ إِبْرَاهِيمَ كَمَا شَدَّ إِسْمَاعِيلُ وَسَطِيَهُمَا بِحِزَامَيْنِ.

وَفِي أَعْلَى الصُّورَةِ نَرَى مَلَكًا هَابِطًا مِنَ السَّمَاءِ بَاسِطًا يَدَيْهِ اللَّتَيْنِ تَكَادَانِ تَلْمَسَانِ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ. وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ هَذَا الْهَابِطَ جَاءَ حَامِلًا الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ. وَمَا يَلْفَتُ النَّظَرُ، يَلِكُ الْقَوَائِمُ الْأَرْبَعُ الَّتِي قَامَ عَلَيْهَا الْبِنَاءُ وَالتَّي صَوَّرَهَا الْفَنَانُ عَلَى صُورَةٍ بَدَائِيَّةٍ تَتَّقِ وَغَضَرُ الصُّورَةِ.

وَيَسُوقُ سَعْدِي الشِّيرَازِي فِي كِتَابِهِ «بُسْتَان» فِي حَدِيثِهِ عَنِ الْعَطْفِ عَلَى الْإِيثَامِ حِكَايَةً عَنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَإِكْرَامِهِ لِلنَّاسِ كَأَنَّهُ لَا يَخْصُ مِنْهُمْ أَحَدًا دُونَ غَيْرِهِ. يَقُولُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ ضَاقَ ذَرْعًا بِقَلَّةِ الْوَافِدِينَ إِلَيْهِ فَخَرَجَ يَنْظُرُ لَعَلَّهُ يَلْقَى مُعَوِّزًا. وَفِيمَا هُوَ يَمْدُ بَصَرَهُ عَبْرَ الصَّخْرَاءِ وَقَعَتْ عَيْنُهُ عَلَى طَارِقٍ قَدْ جَلَّلَهُ الشَّيْبُ وَهُوَ يَنْتَفِضُ مِنْ شِدَّةِ الْبَرْدِ فَخَفَّ إِلَيْهِ وَاسْتَقْبَلَهُ مُرَحِّبًا وَدَعَاهُ إِلَى دُخُولِ دَارِهِ. وَسُرْعَانِ مَا أُعِدَّ الطَّعَامُ وَدُمَّتْ مَائِدَتُهُ بَيْنَ يَدَيْهِمَا وَبَسَطَ إِبْرَاهِيمَ يَدَهُ إِلَى الطَّعَامِ مُفْتِحًا بِاسْمِ اللَّهِ. وَعَجِبَ إِبْرَاهِيمَ مِنْ سَكُوتِ الشَّيْخِ عَنْ أَنْ يَذْكُرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَى الطَّعَامِ وَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ وَإِذَا الشَّيْخُ يُجِيبُهُ بِأَنَّهُ مَجُوسِي لَا يَعْرِفُ غَيْرَ النَّارِ إِلَهًا. عِنْدَهَا فَرَعَ إِبْرَاهِيمَ وَأَثَرَهُ عَلَى نَفْسِهِ أَنَّ

وَجَاءَ فِي مُنَمَّمَةٍ أُخْرَى بِمَخْطُوطَةٍ «قِصَصُ الْأَنْبِيَاءِ» هَذَا الْمَشْهَدُ (لَوْحَةٌ ٢٤١م) مُخْتَلِفًا، فَالسَّفِينَةُ فِي الْمَشْهَدِ الْأَوَّلِ رَأْسُهَا إِلَى أَيْمَنِ أَيْ أَنَّهَا تَمُخَّرُ مِنَ الْيَسَارِ إِلَى الْيَمِينِ، وَلَعَلَّ الْمُصَوِّرَ بِهَذَا يَرْمِزُ إِلَى تَرْكِ أَهْلِ الْخَطِيئَةِ وَرَاءَهُ إِلَى الْيَسَارِ مُيَّمًّا شَطْرَ الصَّلَاحِ إِلَى الْيَمِينِ، عَلَى حِينٍ نَرَى الْمُصَوِّرَ فِي الْمَشْهَدِ الثَّانِي قَدْ صَوَّرَ السَّفِينَةَ عَلَى صُورَةٍ أَدَقٍّ، وَلَكِنْ جَعَلَهَا مَآخِرَةً مِنَ الْيَمِينِ إِلَى الْيَسَارِ، وَلَعَلَّهُ يُشِيرُ بِهَذَا إِلَى مَعْنَى آخَرٍ وَهُوَ الْجَهَّةُ الَّتِي بَدَأَ مِنْهَا نُوحٌ إِلَى الْجَهَّةِ الَّتِي هُوَ قَاصِدٌ إِلَيْهَا، وَبِهَذَا يَكُونُ بَيْنَ الْخَيَالَيْنِ اللَّذَيْنِ أَمْلِيًا عَلَى الْمُصَوِّرِينَ خِلَافٌ، فَأَوَّلُهُمَا يَسْتَمْلِي مِنَ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالثَّانِي يَسْتَمْلِي مِمَّا عُرِفَ فِي الْأَخْبَارِ. هَذَا إِلَى أَنَّ رَأْسَ السَّفِينَةِ الْأُولَى رَأْسَ فَرَسٍ وَرَأْسَ السَّفِينَةِ الثَّانِيَةِ رَأْسَ طَائِرٍ أَقْرَبَ مَا يَكُونُ إِلَى الْإِوَرِ وَالْبَطِّ. وَلَقَدْ عِنْدَ الْمُصَوِّرِ حَوْلَ رَقَبَةِ هَذَا الرَّأْسِ رِبَاطًا تَدَلِّي طَرْفَاهُ وَانْتَشَرَا فِي الْجَوِّ. وَفِي السَّفِينَةِ الثَّانِيَةِ عَدَدٌ أَكْبَرَ مِنَ التَّاجِينَ وَنُوحٍ فِي وَسْطِهِمْ تُحِيطُ بِرَأْسِهِ هَالَةٌ مُصْعَدَةٌ وَلَيْسَ عَلَى وَجْهِهِ نِقَابٌ وَابْنُهُ غَارِقٌ فِي الْيَمِّ قَدْ طَارَتْ عِمَامَتُهُ مِنْ عَلَى رَأْسِهِ وَرَفَعَ وَجْهَهُ فَافْغَرِ الْقَمَّ وَضَرَبَ بِيَمِينِهِ فِي الْمَاءِ عَلَى هَيْئَةِ الْمُشْرِفِ عَلَى الْغَرَقِ. وَالْجَدِيرُ بِالْمُلاحَظَةِ أَنَّ الصُّورَةَ الثَّانِيَةَ تَبْدُو أَكْثَرَ دِقَّةً وَأَكْثَرَ حَرَكَةً وَأَكْثَرَ إِمْعَانًا فِي الرُّقُوشِ، فَالْمَاءُ فِيهَا قَدْ تَبَيَّنَتْ أَمْوَاجُهُ الْمُضْطَرِبَةُ بِتِلْكَ الْخُطُوطِ الْمُتَعَرِّجَةِ الْمُتَشَابِكَةِ كَأَنَّهَا غَدَائِرُ يَعْثُ بِهَا الْهَوَاءُ، كَمَا تَمَيَّزَتْ السُّحُبُ التَّنِينِيَّةُ الشَّكْلُ فِي تَنَسُّيقِ أَدَقٍّ وَتَنَوُّعِ بَدِيعٍ وَقَدْ تَقَطَّعَتْ قِطْعًا مُتَنَائِرَةً فِي الْفَضَاءِ. وَالصُّورَةُ الْأُولَى تُمَثِّلُ انْتِهَامَ الْمَاءِ مِنَ السَّمَاءِ وَهَذَا يُشِيرُ إِلَى الْفَتْرَةِ الْأُولَى مِنَ الطُّوفَانِ عَلَى حِينٍ لَا انْتِهَامَ لِلْمِيَاهِ فِي الصُّورَةِ الثَّانِيَةِ، وَالسُّحُبُ تَبْدُو مُتَأَلِّقَةً بِرَيْقِ الضُّوءِ وَقَدْ بَدَأَ الْإِطْمِئْنَانُ عَلَى وَجْهِ الرَّاكِبِينَ وَهِيَ بِهَذَا كَأَنَّهَا تُمَثِّلُ الطُّوفَانَ وَقَدْ انْحَسَرَ.

إِبْرَاهِيمَ.

لَقَدْ تَعَدَّدَتْ صُورُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَنَرَاهُ فِي إِحْدَاهَا يُحْطَمُ أَصْنَامَ عَشِيرَتِهِ ثُمَّ وَهُوَ يُعَاقَبُ عَلَى هَذَا الْمُرُوقِ بِأَنْ يُوَضَّعَ فِي النَّارِ الَّتِي أَمَرَ الْمَلِكُ نَمْرُودَ بِإِشْعَالِهَا. وَلَكِنْ مَا تَلَبَّثَ الْمَلَائِكَةُ أَنْ تُحِيطَ بِهِ وَتُوفَّرَ لَهُ النَّجَاةُ وَتَغْدُو النَّارُ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيْهِ، وَتُمَثِّلُ إِحْدَى الْمُنَمَّمَاتِ مِنَ مَخْطُوطَةِ «تَارِيخِ خَوَانْدَمِير» قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَهُمْ يُعَذِّونَ النَّارَ لِيُلْقَوْهُ فِيهَا بَعْدَ أَنْ هَشَمَ أَصْنَامَهُمْ كَمَا يَذْكُرُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ (لَوْحَةٌ ٢٤٢م)، وَنَرَى إِبْرَاهِيمَ وَقَدْ جَلَسَ الْقُرْفُصَاءَ بَاسِطًا يَدَيْهِ يَسْأَلُ اللَّهَ الْخَلَاصَ مِمَّا أَعَدَّ لَهُ قَوْمُهُ مِنْ إِحْرَاقٍ. وَإِلَى أَعْلَى الْمُنَمَّمَةِ نَرَى صُورَةَ لِمَلِكٍ هَابِطٍ مِنَ السَّمَاءِ لَعَلَّهُ جِبْرِيلُ وَقَدْ مَدَّ يَدَيْهِ اللَّتَيْنِ كَاذَاتَا تَلْمَسَانِ يَدَيِ إِبْرَاهِيمَ، وَهَذَا يَعْنِي مَعُونَةَ اللَّهِ لِإِبْرَاهِيمَ وَتَبَشِيرًا لَهُ بِأَنَّ النَّارَ سَتَكُونُ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيْهِ، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ سَأَلَهُ جِبْرِيلُ: أَلَيْكَ حَاجَةٌ؟ فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: أَمَا إِلَيْكَ فَلَا وَأَمَّا إِلَى اللَّهِ فَعِلْمُهُ بِحَالِي يُغْنِي عَن سْؤَالِي. وَإِلَى الْأَمَامِ مِنْ إِبْرَاهِيمَ نَرَى النَّارَ وَقَدْ تَأَجَّجَتْ وَارْتَفَعَتْ لَهَبُهَا، وَإِلَى الْأَسْفَلِ نَرَى بَعْضَ الْقَوْمِ وَهُمْ يُوجِّحُونَ النَّارَ. وَإِلَى الْخَلْفِ مِنْ هَؤُلَاءِ رَجُلٌ بَدَأَ

شَكَ أَقْرَبَ إِلَى الْحَقِيقَةِ فِي تَمَثُّلِ قَوْمَ فَرْعِينَ. هَذَا إِلَى أَنَّ الْمُصَوِّرَ هُنَا جَعَلَ الْكَلْبَ خَارِجَ الْكَهْفِ وَلَمْ يَجْعَلْهُ دَاخِلَهُ كَمَا فَعَلَ صَاحِبُ الصُّورَةِ الْأُولَى، كَمَا جَعَلَهُ مُنْبَطِحًا انْطِطَاحَ النَّائِمِ رَأْسَهُ عَلَى الْأَرْضِ.

سُلَيْمَانُ.

الْأَدَبُ الْإِسْلَامِيُّ حَافِلٌ بِإِشَارَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ عَنِ سُلَيْمَانَ وَقِصَّتِهِ مَعَ بَلْقِيسَ وَأَكْثَرَ هَذَا الَّذِي حَفَلَ بِهِ الْأَدَبُ مَرَدَّهُ إِلَى مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي أَكْثَرِ مِنْ مَوْضِعٍ عَنِ هَذِهِ الْقِصَّةِ. فَقَدْ وَرَدَ فِي خَمْسِ سُورٍ تَلَخَّصَهَا نَحْوُ مِنْ سِتِّ عَشْرَةَ آيَةً تَعْرِضُ شَيْئًا مِنْ تَسْخِيرِ اللَّهِ الرِّيحَ وَالطَّيْرَ وَالْجِنَّ لِسُلَيْمَانَ، ثُمَّ مِنْ لِقَاءِ بَلْقِيسَ لِسُلَيْمَانَ بَعْدَ أَنْ رُفِعَ إِلَيْهِ عَرْشُهَا مِنْ حَيْثُ تَعِيشُ فِي مَمْلَكَةِ سَبَأَ إِلَى حَيْثُ كَانَ يَعِيشُ فِي أُورُشَلِيمَ. وَلَقَدْ أَطْلَقَ الْمُصَوِّرُونَ خَيَالَهُمْ مَا شَاءُوا أَنْ يُطْلِقُوهُ فِي ذَلِكَ الْمَيْدَانِ الْخَصْبِ الَّذِي يُلْهِبُ أَحَاسِيسَ الْفَنَانِ. فَكَمَّةُ صُورَةٍ بِمَخْطُوطَةِ «قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ» (لَوْحَةُ ٢٤٧م) تُمَثِّلُ سُلَيْمَانَ عَلَى عَرْشِهِ وَعَلَى رَأْسِهِ هَالَةٌ مِنْ نُورٍ ذَاتِ أَلْسِنَةٍ وَبَيْنَ يَدَيْهِ الْجِنَّ وَالشَّيَاطِينَ وَالْمَلَائِكَةَ وَأَنْوَاعَ الْحَيَوَانِ إِشَارَةً إِلَى مَا وَرَدَ فِي الْأَخْبَارِ مِنْ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَهُ هَذَا كُلَّهُ. وَقَرِيبَ مِنْ عَرْشِ سُلَيْمَانَ الْهُدُودُ وَكَأَنَّهُ جَاءَهُ بِخَبَرٍ بَلْقِيسَ، وَسُلَيْمَانَ مُشِيرٌ بِمَنْهَاهُ إِلَى مَنْ حَوْلَهُ وَكَأَنَّهُ يَسْتَشِيرُهُمْ فَيَمْنُ يَجِئُهُ بِعَرْشِهَا وَقَدْ بَدَأَ عَلَى الْكُلِّ التَّحَفُّزُ وَالتَّوَتُّبُ لِتَلْبِيَةِ أَمْرِ سُلَيْمَانَ.

وَتَشِيرُ صُورَةٌ مِنْ مَخْطُوطَةِ «كَلِّيَّاتِ حَافِظٍ» إِلَى مَا كَانَ مِنْ عِلْمِ سُلَيْمَانَ عَنِ طَرِيقِ الْهُدُودِ بِأَمْرِ بَلْقِيسَ وَمَا كَانَ مِنْ سُلَيْمَانَ حِينَ أَمَرَ جَنَّهُ بِأَنْ يَحْمِلُوهَا إِلَيْهِ عَلَى عَرْشِهَا. وَيُلَخِّصُ هَذَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ حِينَ يَقُولُ تَعَالَى: «قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ. قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ» [سُورَةُ النَّمْلِ ٣٩ - ٤٠].

وَتُمَثِّلُ الصُّورَةُ عَرْشَ بَلْقِيسَ وَهِيَ جَالِسَةٌ قَوْعَهُ، وَقَدْ أَبْدَعَ الْمُصَوِّرُ فِي إِظْهَارِ أُبْهَةِ ذَلِكَ الْعَرْشِ وَجَلَالِهِ، وَيَحْمِلُ هَذَا الْعَرْشَ جُنْدِيٌّ مِنْ جُنُودِ سُلَيْمَانَ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْجِنِّ وَكَانُوا مُسَخَّرِينَ لَهُ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ تَعَالَى «وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ» [سُورَةُ سَبَأٍ ١٢]. وَلَعَلَّ تِلْكَ الصُّورَةَ لِهَذَا الْجَنِّيِّ كَمَا تَخَيَّلَهُ الْمُصَوِّرُ وَجَعَلَ لَهُ أَجْنِحَةً إِذْ يَدُونُهُمَا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْتَارَ تِلْكَ الْمَسَافَاتِ الطَّوِيلَةَ فِي غَمْضَةٍ عَيْنٍ وَلَا أَنْ يَحْمِلَ هَذَا الْعَرْشَ الثَّقِيلَ عَلَى رَأْسِهِ (لَوْحَةُ ٤٥٥م).

وَقَدْ شَاعَتْ صُورُ سُلَيْمَانَ وَبَلْقِيسَ وَهُمَا جَالِسَانِ مَعًا عَلَى الْعَرْشِ تَحَوُّطَهُمَا الطَّيْرَ وَالْوُحُوشَ وَالْمَخْلُوقَاتِ الْغَرِيبَةَ بِأَنْوَاعِهَا الْمُخْتَلِفَةِ بِصِفَةِ خَاصَّةٍ فِي مُسْتَهْلَ ذَوَابِينِ شِعْرِ الْغَزْلِ، وَجَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ «قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» [سُورَةُ

يَاوِي إِلَى دَارِهِ مَنْ لَيْسَ عَلَى دِينِهِ وَمَنْ لَا يَعْبُدُ اللَّهَ. وَأَحْسَنَ الشَّيْخُ بَرَمَ إِبْرَاهِيمَ، فَخَرَجَ عَنْ دَارِهِ ذَلِيلًا مُتَكِسِرًا. عِنْدَهَا هَبَطَ مَلَكَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ يُبَكِّرُ عَلَيْهِ سُوءَ مَا فَعَلَ مُذْكَرًا إِيَّاهُ بِكَرَمِ اللَّهِ الَّذِي وَسَّعَ هَذَا الشَّيْخَ أَغْوَامًا مِائَةً وَكَيْفَ بِإِبْرَاهِيمَ فِي كَرَمِهِ الْمَعْهُودِ إِلَّا يَتَّسِعَ لِإِبْوَاءِ الشَّيْخِ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ. وَإِلَى هُنَا يَنْتَهِي سَعْدِي الشِّيرَازِي مِنْ سَرْدِهِ، غَيْرَ أَنَّ ثَمَّةَ مَخْطُوطَةٍ مِنْ «بُستَان» يَرْجِعُ زَمَنُهَا إِلَى الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ عَرَضَ فِيهَا الْمُصَوِّرُ لِتَصْوِيرِ أَحْدَاثِ هَذِهِ الْقِصَّةِ وَإِذَا هُوَ يُصَيِّفُ مِنْ خَيَالِهِ شَيْئًا يَكَادُ يَكُونُ النَّتِيجَةُ الْحَثَوِيَّةُ لِمَا نَزَلَ بِهِ الْمَلَكَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ. فَتَرَاهُ قَدْ هَرَعَ فِي إِثْرِ الضَّيْفِ الْعَجُوزِ يَدْعُوهُ إِلَى الْعُودَةِ مُتَوَسِّلًا، كَمَا نَرَى الشَّيْخَ قَدْ اسْتَجَابَ إِلَى تَوَسُّلِ إِبْرَاهِيمَ وَأَخَذَ يَخْطُو إِلَى الْبَيْتِ فِي خُطَى ثَقِيلَةٍ. وَلَمْ يَسَّ الْمُصَوِّرُ أَنْ يَجْعَلَ الْمَلَكَ مُحَلِّقًا فَوْقَ الْكَهْلِ، تَذَكُّرًا لِلْمُشَاهِدِ بِأَنَّ مَا فَعَلَهُ إِبْرَاهِيمَ كَانَ عَنْ وَحْيِ السَّمَاءِ. وَثَمَّةَ شُهُودٌ ثَلَاثَةٌ إِلَى جَانِبِ إِبْرَاهِيمَ أَكْثَرَ الظَّنِّ أَنَّهُمْ خَدَمُهُ وَهُمْ بَيْنَ دَهْشٍ وَوَاجِمٍ، وَالطَّرِيفُ أَنَّ الْمُصَوِّرَ سَجَّلَ هَذِهِ الْكَلِمَةَ الْمَأْثُورَةَ عَلَى بَابِ دَارِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ وَهِيَ تُعَدُّ كَالْمَعْزَى الْمُسْتَخْلَصِ: «اُكْرِمُوا الضَّيْفَ وَلَوْ كَانَ كَافِرًا» (لَوْحَةُ ٢٤٤م).

أَهْلُ الْكَهْفِ.

وَقَدْ تَمَثَّلَ الْفَنَانُ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى «أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا. إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا. فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا. ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْجِزْبِينَ أَحْسَنُ لِمَا لُبَّشُوا أَمْدًا» [سُورَةُ الْكَهْفِ: ٩ - ١٢] «وَنَحْسُهُمْ أَتِفَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَاهُ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا» [سُورَةُ الْكَهْفِ الْآيَةُ ١٨]. تَمَثَّلَ فَتَنَانُ مَخْطُوطَةِ «تَارِيخِ خَوَانْدَمِير» هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ فَمَثَّلَ الْكَهْفَ بِإِظْلَامِهِ وَشَعْبَ الْجَبَلِ الَّتِي نُجِتَ فِيهَا هَذَا الْكَهْفُ نَائِتَةً. وَقَدْ شَكَّلَ النَّائِمِينَ عَلَى هَيْئَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، فَمِنْهُمْ مَنْ نَامَ الْقُرْفُصَاءَ وَمِنْهُمْ مَنْ امْتَدَّ أَرْضًا، وَمِنْهُمْ مَنْ تَوَسَّدَ ذِرَاعَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ اتَّكَأَ إِلَى جِدَارِ الْكَهْفِ وَقَدْ ضَمَّ ذِرَاعَهُ إِلَى صَدْرِهِ. كَمَا صَوَّرَ الْكَلْبَ وَقَدْ انْبَسَطَ عَلَى الْأَرْضِ غَيْرَ أَنَّهُ فَاتَهُ أَنْ يَضَعَ رَأْسَ الْكَلْبِ عَلَى سَاقِيهِ الْأَمَامِيَّتَيْنِ، وَتِلْكَ حَالُ الْكَلْبِ حِينَ يَنَامُ بَلْ جَعَلَ رَأْسَهُ قَائِمًا وَفِي هَذَا دَلِيلُ الْيَقَظَةِ لَا التَّوَمِّ (لَوْحَةُ ٢٤٥م).

وَثَمَّةَ مُنَمَّةٍ مِنْ مَخْطُوطَةِ «قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ» تُمَثِّلُ أَهْلَ الْكَهْفِ (لَوْحَةُ ٢٤٦م)، وَأَوَّلُ مَا يَلْفُتُنَا إِلَيْهَا مِمَّا تُخَالِفُ بِهِ الصُّورَةَ الْأُولَى ذَلِكَ الْإِتِّفَانُ فِي تَصْوِيرِ شَعْبِ الْجَبَلِ الْمُطَلَّةِ عَلَى الْكَهْفِ وَهَذَا الْعُمُقُ الَّذِي بَدَأَ وَاضِحًا شَيْئًا فِي أَغْوَارِ الْجَبَلِ، ثُمَّ تِلْكَ الثَّبَاتَاتِ الْجَبَلِيَّةِ وَالْأَشْجَارِ الَّتِي أَحَاطَ بِهَا الْكَهْفُ. وَالْمُصَوِّرُ هُنَا لَمْ يَصُورْ أَهْلَ الْكَهْفِ مُتَفَرِّقِينَ كَمَا صَوَّرَهُمْ صَاحِبُ الصُّورَةِ السَّابِقَةِ بَلْ جَعَلَهُمْ هُنَا مُتَضَامِينَ يَكَادُ بَعْضُهُمْ يَتَكَيُّ عَلَى الْآخَرِ. وَهَذَا لَا

الغليظة، ومنها مَنْ بَدَا مُتَجَهِّمًا عَلَى شَكْلِ يُلْقِي الرُّعْبَ فِي الْقُلُوبِ. وَقَدْ أَلْبَسَ الْمُصَوِّرُ بَعْضَ الْأَشْكَالِ الَّتِي تَبْدُو قَرِيبَةً إِلَى الْأَدَمِيِّينَ تَنَوَّرَاتٍ مِنْهَا الْأَخْضَرُ وَمِنْهَا الْأَحْمَرُ وَحَلَّى أَيَادِيهَا بِأَسَاوِرٍ وَأَرْجُلَهَا بِخَلَائِلٍ كَمَا تَرَكَ الَّذِي جَاءَ عَلَى صُورَةِ الْحَيَوَانِ مِنْهَا عَارِيًا.

وَقَدْ بَدَا سُلَيْمَانُ فِي غُرَّةٍ مَخْطُوطَةٍ «سُلَيْمَانُ نَامَهُ» جَالِسًا عَلَى عَرْشِهِ، ذَلِكَ الْعَرْشُ الصَّخْمُ ذُو الْقِيَابِ وَهُوَ فِي أَبْهَى مَلْبَسٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَحَاشِيَتِهِ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ فِي ثِيَابٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْهَا مَا يُشَبِّهُ الْجَلَابِيبَ وَمِنْهَا مَا يُشَبِّهُ الْجُبَّةَ وَالْقُفْطَانَ، كَأَنَّ الْمُصَوِّرَ أَرَادَ بِذَلِكَ أَنْ يَجْمَعَ لَنَا رَعَايَا سُلَيْمَانَ بِأَجْنَاسِهِمُ الْمُخْتَلِفَةِ، وَقَدْ جَاءَ وَاحِدٌ يَحْمِلُونَ إِلَيْهِ الْجِزْيَاتِ الْمَفْرُوضَةَ عَلَيْهِمْ (لَوْحَةٌ ٤٥٦م). وَلَمْ تَبْدُ صُورَةُ الشَّيْطَانِ فِي التَّصْوِيرِ الْإِسْلَامِيِّ وَمِثْلَمَا بَدَتْ فِي الْفُنُونِ الْمَسِيحِيَّةِ إِلَّا نَادِرًا.

النَّبِيُّ صَالِحُ:

وَهُنَاكَ مُنْمَنَةٌ بِحَجْمٍ كَبِيرٍ بِمُتَخَفٍ بَزْلِينَ تُصَوِّرُ مُعْجَزَةً نَاقَةٍ النَّبِيِّ صَالِحٍ (لَوْحَةٌ ٢٥٠م). وَنَرَى فِيهَا صَالِحًا مُتَمِّيزًا بِتِلْكَ الْهَالَةِ الثَّوْرَانِيَّةِ الَّتِي تُحِيطُ بِرَأْسِهِ وَبَيْنَ يَدَيْهِ صُورَةُ لِلنَّاقَةِ. وَلَقَدْ وَفَّقَ الْمُصَوِّرُ حِينَ أَبْرَزَ رَقَبَةَ النَّاقَةِ ضَخْمَةً لِيَتَّفِقَ ذَلِكَ وَمَا جَاءَ عَنْهَا فِي الْكُتُبِ الْمُقَدَّسَةِ، غَيْرَ أَنَّ الْغَرِيبَ أَنَّهُ جَعَلَ لِتِلْكَ النَّاقَةِ أَرْجُلًا كَأَرْجُلِ الْعِزْزِ لَا تَتَّفِقُ وَضَخَامَةِ تِلْكَ النَّاقَةِ. وَالصُّورَةُ فِي مَجْمُوعِهَا تُمَثِّلُ صَالِحًا وَقَدْ رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ وَكَأَنَّهُ يُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا يَشْتَرِطُهُ عَلَى قَوْمِهِ مِنْ أَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَّا يَمْسُوا تِلْكَ النَّاقَةَ بِسُوءٍ، فَلَهَا يَوْمٌ وَلَهُمْ يَوْمٌ يَتَعَاقَبُونَ فِيهِ عَلَى الْوَرْدِ. وَقَدْ وَقَفَ الْقَوْمُ فِي جَوَانِبٍ مُتَفَرِّقَةٍ مِنَ الصُّورَةِ، مِنْهُمْ مَنْ بَدَا فِي هَيْئَةٍ كَامِلَةٍ وَمِنْهُمْ مَنْ بَدَتْ أَنْصَافُهُمْ. وَكُلُّهُمْ، فِي قَسَمَاتِ وَجُوهِهِمْ وَوَضْعَةِ أَيْدِيهِمْ، يَكَادُونَ يَبْدُونَ كَالْمُسْتَهْزِئِينَ بِصَالِحٍ غَيْرِ مُصَدِّقِينَ لِمَا يَقُولُ.

وَإِذَا كَانَ الْمَكَانَ الَّذِي كَانَ فِيهِ صَالِحٌ شَبَّهِ بَرِّيَّةٍ - كَمَا نَعْلَمُ - فَقَدْ مَلَأَ الْمُصَوِّرُ أَرْضَهُ بِأَلْوَانٍ مِنْ أَغْشَابِ الْبَرَارِيِّ، كَمَا جَعَلَ فِي أَعْلَى الصُّورَةِ شَجَرَةً عَنِيَّةً مِنْ تِلْكَ الْأَشْجَارِ الْجَبَلِيَّةِ. وَأَلْوَانُ هَذِهِ الْمُنْمَنَةِ غَنِيَّةٌ وَلَكِنَّهَا غَيْرُ مُحَدَّدَةٍ. وَتَبْدُو رُسُومُ الْأَشْخَاصِ مُتَصَلِّبَةً بَعْضُ الشَّيْءِ، وَقَدْ صُوِّرَتْ أَمَامَ مَنْظَرٍ طَبِيعِيٍّ بَسِيطٍ سَمَاءُوهُ ذَهَبِيَّةٌ وَهِيَ الْعُنَاصِرُ الْمُمَيَّزَةُ لِمَدْرَسَةِ بُخَارَى وَالَّتِي تَجْعَلُنَا نَفْرَقُ بِسُهُولَةٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الرُّسُومِ الْخَيَالِيَّةِ لِلْعَصْرِ الصَّفَوِيِّ الَّتِي كَانَتْ مُتَشَبِّهَةً فِي إِيرَانَ خِلَالَ هَذِهِ الْفَتْرَةِ مِنَ الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ.

يُوسُفُ وَزَلِيخَا:

كَانَ لِمَا خَصَّ بِهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِسُورَةِ بَذَاتِهَا تَجْمَعُ مَا وَقَعَ لَهُ مُنْذُ كَانَ صَبِيًّا إِلَى أَنْ غَدَا فِي بَصْرَ وَزَيْرًا، ثُمَّ مَا كَانَ مِنْ أَحْدَاثٍ وَقَعَتْ لَهُ مَعَ إِخْوَتِهِ، لَقَدْ كَانَ لِإِيرَادِ هَذَا كُلِّهِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِهَذَا الْأَسْلُوبِ الرَّائِعِ أَثَرٌ أَثَرٌ فِي إِيقَاطِ أَخْيَلَةِ الشُّعْرَاءِ وَالْمُصَوِّرِينَ عَلَى مَرِّ الْأَجْيَالِ. فَمِمَّا كَانَ لِلشُّعْرَاءِ فِي

الْقُرْآنِ [٤٤] وَجَرَتْ الْعَادَةُ لَدَى الْمُفَسِّرِينَ عَلَى شَرْحِ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ بِأَنَّ الْجِنَّ حِينَ أَحْسَتِ بِأَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَى وَشَكِّ الزَّوْجِ مِنْ بَلْقِيسَ خَشِيتُ أَنْ يُوَلِّدَهَا غُلَامًا يَغْدُو عَلَيْهَا مَلِكًا وَتَظَلَّ عَبِيدًا فَعَمِدَتْ إِلَى الْجِيلَةِ كَيْ تُقْصِبَهَا عَنْهُ وَتُفَرِّهَ مِنْهَا، فَوَصَفَتْهَا لَهُ بِأَنَّ سَاقِيهَا كَسَافِي أَنَاثِ الْبَيْتِ شَعْرٌ كَثِيفٌ. فَأَرَادَ سُلَيْمَانُ أَنْ يَحْتَالَ عَلَيْهَا لِيَتَكَشَّفَ عَنْ سَاقِيهَا لِيَسْتَوْثِقَ بِمَا أَفْضَتْ إِلَيْهِ بِهِ الْجِنَّ فَأَعَدَّ لَهَا قَصْرًا مُسَيِّدًا، وَجَعَلَ أَرْضِيَّةَ فَنَائِهِ مِنْ زُجَاجٍ وَسَطَهَا أَشْبَهُ بِنَهْرٍ تَسْبَحُ فِيهَا الْأَسْمَاكُ. وَحِينَ وَطِئَتْ بَلْقِيسَ بِقَدَمَيْهَا تِلْكَ الْأَرْضَ الرَّجَاجِيَّةَ بِأَسْمَاكِهَا كَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا تَحْسَبَهَا لُجَّةً. وَبِهَذَا اسْتَطَاعَ سُلَيْمَانُ أَنْ يَتَحَقَّقَ بِمَا أَخْبَرَتْهُ بِهِ الْجِنَّ، وَإِذَا هُوَ يَصْدَفُ عَمَّا هُمْ بِهِ مِنْ زَوْجٍ بَلْقِيسَ وَلَكِنَّهَا خَفَّتْ إِلَيْهِ فَكَشَفَتْ فِيهَا وَهِيَ تُحَاوِرُهُ عَنْ عَقْلِ سَدِيدٍ وَرَأْيٍ رَاجِحٍ، فَدَعَاها إِلَى دِينِهِ فَاسْتَجَابَتْ، وَإِذَا هُوَ أَكْثَرُ مَا يَكُونُ بِهَا شَغَفًا عَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ الشَّعْرِ الَّذِي يُغَطِّي سَاقِيهَا، وَأَخَذَ يَسْتَأْنِسُ بِرَأْيِ الْإِنْسِ فِي إِزَالَةِ ذَلِكَ الشَّعْرِ بِالْمُوسَى لَكِنَّهَا أَبَتْ، فَعَادَ إِلَى الْجِنَّ يَطْلُبُ مِنْهَا أَنْ تَحْتَالَ لَهُ فَفَعَلَتْ وَغَدَتْ سَاقَاهَا مَلْسَاوِينَ كَالْفِضَّةِ. وَنَجِدُ أَحَدَ الْمُصَوِّرِينَ الَّذِينَ تَفَتَّنُوا فِي تَسْجِيلِ مَشَاهِدِ الْوَاقِعَةِ يُبْرِزُهَا فِي مَخْطُوطَةِ «مَجَالِسِ الْعُشَاقِ» لِخُسَيْنِ مِيرْزَا بِالْمَكْتَبَةِ الْبُودَلِيَّةِ، فَيَجْعَلُ أَرْضِيَّةَ فِنَاءِ الْقَصْرِ يَجْرِي فِي وَسَطِهَا نَهْرٌ عَلَى ضَفَّتَيْهِ نَبَاتَاتٌ إِمْعَانًا مِنْهُ فِي مُحَاكَاةِ الطَّبِيعَةِ، وَنَرَى بَلْقِيسَ قَدْ شَمَرَتْ عَنْ سَاقِيهَا وَهَمَةً أَنَّهَا تَخْوِضُ نَهْرًا حَقًّا، وَثَمَّةَ وَصِيفَاتٍ أَرْبَعٍ لِيَلْقِيسَ عَلَى ضَفَّتَيْ النَّهْرِ يُمَثِّلْنَ حَالَةَ الدَّهْشِ بِوَضْعِ الْإِصْبَعِ فِي الْفَمِ مَرَّةً وَبِالإِشَارَةِ بِالإِصْبَعِ أُخْرَى وَبِعَقْدِ الْيَدَيْنِ ثَالِثَةً. وَإِلَى أَعْلَى الصُّورَةِ سُلَيْمَانُ تُحِيطُ بِرَأْسِهِ هَالَةً، وَهُوَ جَالِسٌ جِلْسَةً الْمُتَرْقِّبِ وَإِلَى جَانِبِهِ نَفَرٌ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ مُحَلَّقَةً مِنْ قَوْقُ زُؤُوسِهِمْ جَمِيعًا (لَوْحَةٌ ٢٤٨م).

وهذه الصورة الرابعة (لَوْحَةٌ ٢٤٩م) تُمَثِّلُ سُلَيْمَانَ عَلَى عَرْشِهِ وَإِلَى جَانِبِهِ بَلْقِيسَ عَلَى رَأْسِهَا تَاجٌ وَقَدْ انْشَدَلَتْ مِنْ شَعْرِهَا ضَفِيرَةٌ مُطَاطِرَةٌ. وَالْهُدُودُ هُنَا أَمَامَ سُلَيْمَانَ وَمِنْ خَلْفِهِ آصَفُ وَزِيرُ سُلَيْمَانَ وَقَدْ جَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّ يَسْتَوِجُ إِلَى مَلِكِيَّةٍ مُشِيرًا بِسُورَاهُ وَكَأَنَّهُ يَتَلَقَّى مِنْهُ أَمْرًا. وَتَتَفَرَّقُ الصُّورَةُ بِجَوٍّ مِنَ الْبَهْجَةِ وَتِلْكَ الزُّهُورُ الْمُتَشَبِّهَةُ هُنَا وَهَنَاكَ، وَتَمَّ عَنْهَا تِلْكَ الْحَيَوَانَاتُ الرَّابِضَةُ فِي مَجَالِمِهَا مُطْمِئِنَّةٌ، وَذَلِكَ الْمَلِكُ الَّذِي وَقَفَ خَلْفَ بَلْقِيسَ عَاقِدًا يَدَيْهِ إِلَى مَا تَحْتَ السَّرَّةِ، حَتَّى ذَلِكَ الْعِفْرِيَّتِ الَّذِي بَدَا فِي الصُّورَةِ السَّابِقَةِ وَاقِفًا وَفَقَّةَ التَّوْتُبِ أَمَامَ سُلَيْمَانَ إِذَا هُوَ هُنَا يَبْدُو رَاجِعًا تَحْتَ الْعَرْشِ.

الْجِنَّ:

وَرَدَّ تُمَثِيلُ الْجِنَّ فِي التَّصْوِيرِ الْإِسْلَامِيِّ عَلَى صُورٍ شَتَّى مِنْ التَّفَرُّعِ وَالتَّهْوِيلِ، فَقَدْ تَفَتَّنَ الْمُصَوِّرُ مَا شَاءَ أَنْ يَتَفَتَّنَ فِي إِبْدَاءِ بَعْضِهَا عَلَى صُورٍ قَرِيبَةٍ مِنْ صُورِ الْقِرْزَةِ، وَفِي إِبْدَاءِ الْبَعْضِ الْآخَرِ عَلَى أَشْكَالٍ تَحْمِلُ رُؤُوسَهَا قُرُوءًا، كَمَا بَدَا بِبَعْضِهَا وَلَهُ دُيُولٌ قَدْ انْشَدَلَتْ مَرَّةً وَارْتَفَعَتْ أُخْرَى. وَكَذَا يَظْهَرُ بَعْضُهَا بِرُؤُوسِ كُرُؤُوسِ أَفْرَاسِ الْبَحْرِ أَوْ رُؤُوسِ الْغِيلَانِ، وَمِنْهَا مَنْ فَتَحَ فَاهُ وَبَدَتْ أُنْيَابُهُ

أحد، ثُمَّ لَكَ مُلْكُهُ مِنْ بَعْدِهِ. أَجَابَ: الْجَزَاءُ يَوْمَ الْجَزَاءِ. قَالَتْ: مَا أَكْثَرَ مَا أَمْلِكُ مِنْ دُرٍّ وَيَاقُوتٍ وَزُمُرَدٍ وَلَكَ ذَلِكَ كُلَّهُ تُنْفِقُهُ فِي مَرْضَاةِ سَيِّدِكَ فِي السَّمَاءِ. فَأَبَى يُوسُفُ. وَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَ بِهَا، فَقَدْ حَلَّ سَرَائِيلَ وَقَعَدَ مِنْهَا مَقْعَدَ الرَّجُلِ مِنَ الْمَرْأَةِ إِذَا يَكْفَى قَدْ بَدَتْ فِيمَا بَيْنَهُمَا لَيْسَ لَهَا عِصْدُ وَلَا مِعْصَمٌ مَكْتُوبٌ فِيهَا ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾، فَتَهَضَّ مُوَلِّيًا عَنْهَا. وَكَمَا ذَهَبَ عَنْهُمَا الرُّوعُ عَادَتْ فَلَمَّا قَعَدَ مِنْهَا مَقْعَدَ الرَّجُلِ مِنْ امْرَأَتِهِ إِذَا الْكَفَّ قَدْ بَدَتْ بَيْنَهُمَا لَيْسَ لَهَا عِصْدُ وَلَا مِعْصَمٌ مَكْتُوبٌ فِيهَا: ﴿وَاقْتُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾. فَقَامَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ إِلَى الصَّنَمِ فَأَسْدَلَتْ عَلَيْهِ ثَوْبًا فَسَأَلَهَا عَمَّا فَعَلَتْ فَقَالَتْ: أَسْتَحْيِي أَنْ يَرَانَا أَحَدٌ. فَأَجَابَهَا: أَسْتَحْيِيَنَّ وَمَنْ لَا يَسْمَعُ وَلَا يَبْصُرُ وَلَا يَفْقَهُ وَلَا أَسْتَحْيِي أَنَا وَمَنْ خَلَقَ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا وَعَلِمَهَا؟

وَإِذْ رَأَى يُوسُفُ بُرْهَانَ رَبِّهِ قَامَ مُبَادِرًا إِلَى بَابِ الْقَصْرِ هَارِبًا خَشْيَةً أَنْ يَرْتَكِبَ مَا يُغْضِبُ اللَّهَ مِنْ فَاحِشَةٍ وَاتَّبَعَتْهُ إِلَى الْبَابِ تُرِيدُهُ لِنَفْسِهَا فَتَعَلَّقَتْ بِقَمِيصِهِ مِنْ خَلْفٍ تَجَذِبُهُ إِلَيْهَا فَمَزَقَتْ الْقَمِيصَ مِنْ خَلْفٍ. وَإِذَا هُمَا يَلْقِيَانِ سَيِّدَهُمَا فُوطَايِرَ عَزِيزٍ وَمِصْرَ لَدَى الْبَابِ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ جَالِسًا مَعَ ابْنِ عَمِّ لِرَاعِيلَ «زَلِيخَا»، فَلَمَّا رَأَتْهُ خَافَتْ عَلَى نَفْسِهَا مِنْ أَنْ تَنْهَمَ بِيُوسُفَ وَابْدَرْتَهُ قَائِلَةً ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. (لَوْحَةُ ٤٥٧م) [بُستان سعدى].

فَقَالَ يُوسُفُ: «هِيَ الَّتِي رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي فَأَيَّبْتُ وَفَرَرْتُ مِنْهَا فَأَدْرَكْتَنِي وَشَقَّتْ قَمِيصِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا». وَاخْتَلَفَ فِي هَذَا الشَّاهِدِ، فَقِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَبِيًّا تَكَلَّمَ فِي الْمَهْدِ، وَقِيلَ إِنَّهُ كَانَ قَرِيبًا مِنْ أَقْرَبَائِهَا. [يَتَصَرَّفُ عَنْ قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُسَمَّى «عَرَائِسَ الْمَجَالِسِ الثَّغَلِيَّةِ» صَحِيفَةُ ١١٢ وما بعدها].

وَيَقُولُ جَامِي فِي كِتَابِهِ «يُوسُفُ وَزَلِيخَا»، يَدَارُ الْكُتُبِ الْوُضْرِيَّةِ، فِي وَصْفِ الْقَصْرِ الَّذِي شَيَّدَتْهُ زَلِيخَا لِلِقَاءِ يُوسُفَ: عَمَدَتِ زَلِيخَا إِلَى كُلِّ رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ الْقَصْرِ فَجَمَلَتْهُ بِصُورَةِ لَهَا مَعَ يُوسُفَ، تَرَى فِي إِحْدَاهَا وَقَدْ مَالَتْ بِخَدَّهَا لِيُوسُفَ لِيَرَشِفَ مِنْهُ قُبْلَةً، وَتَرَى فِي أُخْرَى وَقَدْ احْتَضَنَتْهُ بِذِرَاعَيْهَا، إِلَى غَيْرِ هَذَا مِنْ صُورٍ فِيهَا وَلَهُ الْمَعْشُوقَةُ بِعَشيقِهَا، وَصَوَّرَتْ ذَلِكَ كُلَّهُ عَلَى الطَّنَافُسِ وَالْفُرُشِ وَالْجُودَرَانِ. وَكَانَ يُوسُفُ أُنًى مَدَّ يَبْصَرُهُ رَأَى نَفْسَهُ فِي أَحْضَانِ تِلْكَ الْعَاشِقَةِ الْمُورَدَةِ الْحَدِيثِ، إِذَا أَشَاحَ بِوَجْهِهِ مُتَّجِهَاً إِلَى السَّمَاءِ إِذَا هُوَ يَبْهَتُهُ أَنْ يَرَى صُورَتَهُ مَعَهَا قَدْ نَقِشَتْ فِي سَقْفِ الْقَصْرِ (لَوْحَةُ ٤٥٨م).

وَجَاءَ فِي الْكِتَابِ الْكَرِيمِ ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا، إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْتَهُ أَكْبَرْتَهُ وَقَطَّعْنَ

ذَلِكَ «يُوسُفَ وَزَلِيخَا» لِلْفِرْدَوْسِيِّ الَّتِي وَضَعَهَا سَنَةُ ١٠١٠، ثُمَّ تِلْكَ الْقِصَّةُ الَّتِي نَظَّمَهَا الشَّاعِرُ جَامِي سَنَةَ ١٤٨٣، وَهُمَا وَلَا شَكَّ مِنْ أَوَّلِ مَا أُنتِجَتْهُ الْعَبْقَرِيَّةُ الْفَارِسِيَّةُ. وَلَمْ يَكُنْ هُوَ لِأَوَّلِ الشُّعْرَاءِ الْفُرْسِ أَوْ آخِرِهِمْ وَمَنْ تَنَاولُوا قِصَّةَ يُوسُفَ وَزَلِيخَا شِعْرًا، فَتَمَّةٌ قَائِمَةٌ طَوِيلَةٌ بِأَسْمَاءِ الشُّعْرَاءِ الَّذِينَ شَارَكُوا فِي تَسْجِيلِ هَذَا الْمَوْضُوعِ. وَلَمْ تَسْتَهْوَ هَذِهِ الْقِصَّةُ قُرَاءَ الْمُسْلِمِينَ بِأَسْلُوبِ حَالِمٍ عَلَى نَحْوِ مَا فَعَلَتْ بِالعَالَمِ الْمَسِيحِيِّ فَقَطُّ، وَلَكِنَّهَا تَلَقَّتْ عَلَى أَيْدِي شُعْرَاءِ فَارِسٍ تَفْسِيرًا رَمَظِيًّا أَمْسَتْ بِهِ وَسِيلَةً لِنَشْرِ الْمَذْهَبِ الصُّوفِيِّ. فَقَدْ عَدَا يُوسُفُ تَجَسُّدًا لِلْجَمَالِ الْإِلَهِيِّ ذَاتِهِ عَلَى حِينِ بَدَتْ زَلِيخَا مَثَلًا لِلْحُبِّ الطَّاعِي الْمُسْتَطِرِّ وَكَأَنَّهَا تُمَثِّلُ الرُّوحَ الصُّوفِيَّةَ الَّتِي تَتَوَسَّلُ بِحُبِّ الْمَخْلُوقِ لِكَيْ تَصِلَ إِلَى الْفَنَاءِ فِي الْخَالِقِ. وَقَدْ رَوَى «جَامِي» هَذَا الْمَعْنَى فِي قَصِيدَةٍ مِنْ قَصَائِدِهِ مُعَبِّرًا عَنْ تَطْبِيقِ هَذِهِ الْقِصَّةِ عَلَى إِذْرَاكِ الْمَعْرِفَةِ الْإِلَهِيَّةِ.

وَمِنْ أَهَمِّ التَّفْصِيلَاتِ الشَّعْبِيَّةِ فِي الْقِصَّةِ الَّتِي اخْتَارَهَا الْمُصَوِّرُونَ لِمَوْضُوعَاتِهِمْ بَيَّعَ يُوسُفُ فِي مِصْرَ وَغَوَايَةِ زَلِيخَا بِهِ وَمَا جَرَى عِنْدَمَا انْتَشِلَ يُوسُفُ مِنَ الْبِئْرِ الَّتِي أَلْقَاهُ فِيهَا إِخْوَتُهُ. وَيَذْكُرُ الْمُفْرِيزِيُّ فِي «الْخَطُّطِ» [جُزْءٌ ٢، صَفْحَةُ ٣١٨] صُورَةَ صَوَّرَهَا الْكِتَابِيُّ فِي بَيْتِ الثُّعْمَانِ بِالْقَاهِرَةِ يَرْجِعُ تَارِيخَهَا إِلَى نِهَاجَةِ الْقُرُونِ تُمَثِّلُ يُوسُفَ فِي الْبِئْرِ، وَكَانَ لِأَسْلُوبِهَا فِي تُمَثِيلِ جَسَدِهِ الْعَضْوَ وَسَطَ الْحِجَارَةِ السُّودَاءِ فِي الْبِئْرِ وَقَعَ كَبِيرٌ فِي نَفُوسِ الْكَثِيرِينَ مِمَّا أَثَارَ إِعْجَابَهُمْ. وَرُغْمَ أَنَّ النَّصَّ الْإِسْلَامِيَّ لِلْقِصَّةِ يُمَاطِلُ مَا جَاءَ بِالْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ فِي هَذَا الصَّدَدِ فَإِنَّ أَحَدًا مِنَ الْمُصَوِّرِينَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يُحَاطِلْ قَطُّ أَنْ يَجْعَلَ مِنَ الصُّورِ الْمَسِيحِيَّةِ نَمُودَجًا لَهُ. وَقَدْ ذَهَبَ الشُّعْرَاءُ فِي رِوَايَةِ قِصَّةِ يُوسُفَ مَذَاهِبَ شَتَّى تَبَعْدَ عَنِ الْقُرْآنِ وَعَنِ سِفْرِ التَّكْوِينِ.

وَرَأَيْتُ أَنَّ أَسْوَقَ هَذِهِ الْقِصَّةِ الشَّيْئَةَ بِشَيْءٍ مِنَ التَّفْصِيلِ الَّذِي يُعِينُ الْقَارِئَ عَلَى تَتَبُعِ الْمُتَمَنَّمَاتِ الَّتِي وَقَعَ اخْتِيَارِي عَلَيْهَا لِتَنْشُرَهَا فِي هَذَا الْمَقَامِ. فَحِينَ أَرَادَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ أَنْ تُرَاوِدَ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ اسْتَهْوَتْهُ بِذِكْرِ مَحَاسِنِهِ لِإِنْفَاعِهِ فِي شَرْكَهَا وَقَالَتْ لَهُ: يَا يُوسُفُ كَمْ يَبْدُو شَعْرُكَ جَمِيلًا! فَأَجَابَهَا: وَلَكِنَّهُ أَوَّلَ مَا يَتَلَّى إِذَا مِتَ. فَقَالَتْ: مَا أَبْهَى طَلَعَتْكَ! فَأَجَابَهَا: عَلَى هَذَا صَوَّرَنِي رَبِّي فِي رَجَمِ أُمِّي. قَالَتْ: قَدْ سَقَى جِسْمِي الْهَزَالَ بِطَلْعَتِكَ. فَأَجَابَهَا: هَذَا مِنْ غَوَايَةِ الشَّيْطَانِ. فَقَالَتْ: مَا أَظْلَمَ الْبُستانَ إِلَى أَنْ يَزُورِي ظِلْمَاهُ. فَأَجَابَهَا: فِي هَذَا اخْتِرَاقِي. قَالَتْ: يَا يُوسُفُ قَدْ عَطِشَ الْبُستانَ فَأَزُوهُ. فَأَجَابَهَا: هَذَا أَحَقُّ بِهِ مَنْ يَبْدُو مِفْتَاحِهِ. وَقَالَتْ: لَقَدْ بَسَطْتَ الْأَرْضَ لَكَ حَرِيرًا فَهَلُمَّ إِلَيَّ. فَأَجَابَهَا: لَكِنَّ فَعَلْتُ فَقَدْتُ نَصِيبِي مِنَ الْجَنَّةِ. قَالَتْ: فَهَلُمَّ أَظْلُكُ بِسِثْرِي. فَأَجَابَهَا: وَمَنْ يَسْتُرْنِي مِنْ رَبِّي إِنْ عَصَيْتُ؟ قَالَتْ: ضَعْ يَدَكَ عَلَى صَدْرِي تَهْدَأْ لَوْعَتِي. فَأَجَابَهَا: أَوْلَى لِسَيْدِي أَنْ يَفْعَلَ. قَالَتْ: أَنَا عَنْ سَيِّدِكَ فَسَوْفَ أَسْقِيهِ كَأْسًا مِنْ صَهِيرِ الذَّهَبِ فَيَنْسَاقُ لِحَمِهِ ثُمَّ أَلْفَهُ فِي ثَوْبٍ مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ثُمَّ أَلْقِيَهُ بَعِيدًا فِي مَكَانٍ لَا يَعْلَمُهُ

بَيْنَ الصَّدَقَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قَطْرًا فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا [سُورَةُ الْكَهْفِ ٩٣ - ٩٧].

وَقَدْ قَسَمَ الشَّاعِرُ نِظَامِي مَظْمُومَةُ إِسْكَنْدَرٍ نَامَهُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَجْزَاءٍ عَرَّضَ فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ الَّذِي دَعَاهُ «شَرْفَنَامَهُ» أَيِ كِتَابِ الشَّرَفِ صُورَةَ الْإِسْكَنْدَرِ مَلِكًا فَائِحًا لِلْعَالَمِ وَيَطْلًا غَازِيًا مُسْجِلًا مَأْيَرَهُ، وَعَرَّضَ فِي الْجُزْءِ الثَّانِي صُورَةَ الْإِسْكَنْدَرِ حَكِيمًا فَآخِذَ النَّاسِ الْجُحْمَةَ مِنْ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَدَعَاهُ «خُرْدُ نَامَهُ» أَيِ كِتَابِ الْعَقْلِ. وَعَرَّضَ فِي الْجُزْءِ الثَّالِثِ الْإِسْكَنْدَرِ فِي صُورَةِ نَبِيِّ تَلَقَّى الْوَحْيَ وَهَبَطَ عَلَيْهِ الرِّسَالَةُ وَدَعَاهُ «إِقْبَالُ نَامَهُ» أَيِ كِتَابِ الْحِطِّ. وَقَدْ اخْتَلَفَ الرُّوَاةُ فِي نَسَبِ الْإِسْكَنْدَرِ وَإِنْ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ ثَمَّةَ صِلَةَ نَسَبٍ لَهُ بِالرُّومِ وَالْفُرْسِ! وَكُنِيَ بِذِي الْقَرْنَيْنِ لِأَنَّهُ كَانَ مَلِكًا لِلرُّومِ وَالْفُرْسِ، وَقِيلَ لِأَنَّهُ دَعَا أَهْلَهُ إِلَى التَّوْحِيدِ فَضَرَبُوهُ عَلَى قَرْنِهِ الْأَيْسَرِ ثُمَّ الْأَيْمَنِ، وَقِيلَ لِأَنَّهُ فِي مُقَدِّمِ رَأْسِهِ زِيَادَتَانِ مِنْ لَحْمٍ أَشْبَهَ بِالْقَرْنَيْنِ، وَقِيلَ لِأَنَّهُ لَهُ ذَوَاتَانِ جَمِيلَتَانِ قُسِّمَتِ الذَّوَابَةُ قُرْنًا، وَقِيلَ لِأَنَّهُ عَاشَ عَلَى مَدَى قَرْنَيْنِ مِنَ الزَّمَانِ، وَقِيلَ إِنَّهُ لَمَّا مَضَى عَلَى مَوْتِ الْإِسْكَنْدَرِ وَقَتَ طَوِيلٍ لَمْ يُصَدَّقِ النَّاسُ أَنَّهُ مَضَى فَرَسَمَ الْإِغْرِيقُ وَلَعَا بِهِ صُورَتَهُ الشَّخْصِيَّةَ بَيْنَ مَلَكَيْنِ فِي صُورَةِ قَرْنَيْنِ وَقَدْ طَنَّ الْعَرَبُ أَنَّ هَذَيْنِ الْمَلَكَيْنِ قُرْنَاهُ، فَكَانَ هَذَا الْخَطَأُ الَّذِي جَرَّاهُ إِلَى تَخِيلِ الْإِسْكَنْدَرِ ذَا قَرْنَيْنِ. وَقَالَ قَوْمٌ إِنَّ الْإِسْكَنْدَرَ كَانَ ابْنِ مَلِكِ الْيُونَانِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّهُ حَفِيدُهُ وَقَالَ آخَرُونَ إِنَّهُ أَخُو دَارِ الْأَصْغَرِ. وَرُويَ أَنَّ وَالِدَ الْإِسْكَنْدَرِ كَانَ يَدْفَعُ الْجِزْيَةَ إِلَى دَارِ فِي شَكْلِ بَيْضَةٍ مِنَ الذَّهَبِ وَلَمَّا تَوَفَّى وَآتَسَ الْإِسْكَنْدَرُ فِي نَفْسِهِ الْقُوَّةَ غَزَا مُلُوكَ الرُّومِ وَأَخْضَعَهُمْ ثُمَّ غَزَا بَعْضَ مُلُوكِ الْعَرَبِ، وَامْتَنَعَ عَنْ إِسْالِ الْجِزْيَةِ إِلَى دَارِ مَلِكِ فَارِسَ الَّذِي غَضِبَ لِذَلِكَ وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ كُرَّةَ وَصُولَ جَائِئٍ يُشِيرُ إِلَى أَنَّهُ مَا زَالَ صَبِيًّا يَلْعَبُ بِالْكُرَّةِ، وَكَيْسًا مِنَ السَّمْسِمِ يَوْمِزُ إِلَى أَنَّهُ سَوْفَ يُخْضِعُهُ وَلَوْ كَانَ جُنُودُهُ فِي عَدَدِ حَبَّاتِ السَّمْسِمِ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ يَقُولُ إِنَّهُ فَهِمَ مَا يَوْمِي إِلَيْهِ، وَإِنَّهُ صَمَّ الصُّوْلَجَانَ إِلَى الْكُرَّةِ وَشَبَّهَ مُلْكُهُ بِالْكُرَّةِ وَإِنَّهُ سَوْفَ يَحْتَوِيهَا ثُمَّ رَدَّهَا إِلَيْهِ وَمَعَهَا كَيْسٌ مِنْ حَبَّاتِ الْخَرْدَلِ يُشَبَّهُ بِهِ جُنُودُهُ. وَبَدَأَ الْقِتَالَ بَيْنَهُمَا حَيْثُ دَارَتْ الدَّائِرَةُ عَلَى دَارِ وَجَيْشِهِ، وَانْتَهَزَ اثْنَانِ مِنْ رِفَاقِ دَارِ هَذِهِ السَّائِحَةِ فَقَتَلَاهُ غِيلَةً تَقَرُّبًا مِنَ الْإِسْكَنْدَرِ، الَّذِي لَحِقَ بِدَارِ قَبْلَ أَنْ يَلْفِظَ أَنْفَاسَهُ وَأَعْلَمَهُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَسْعَى إِلَى قَتْلِهِ وَإِنَّمَا إِلَى أَسْرِهِ فَطَلَبَ إِلَيْهِ أَمْرَيْنِ، أَنْ يَنْتَقِمَ لَهُ مِنْ غَاتِلَاهُ، وَأَنْ يَتَزَوَّجَ مِنْ ابْنَتِهِ رُوشَنَ، وَقَدْ حَقَّقَ لَهُ الْإِسْكَنْدَرُ مَا أَرَادَ. وَقَالَ بَعْضُ الْمُؤَرِّخِينَ إِنَّ الْإِسْكَنْدَرَ هَدَمَ مَا فِي بِلَادِ الْفُرْسِ مِنْ بُيُوتِ النَّارِ، وَمَا فِي الْهِنْدِ مِنْ مَعَابِدِ الْأَوْثَانِ وَقَتَلَ الْمَوَابِدَةَ وَأَحْرَقَ كُتُبَهُمْ وَدَعَا النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ! ثُمَّ بَنَى اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَدِينَةً مِنْهَا وَاحِدَةً بِأَرْضِ بَابِلَ لِزَوْجَتِهِ رُوشَنَ، وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي نُبُوتهِ، وَنَسَبُوا زَعَمًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ «لَا أَدْرِي إِنْ كَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ نَبِيًّا أَمْ لَا»، وَمِنْهُمْ

أَبْدِيَهُمْ وَقُلْنَ حَاشَا لِلَّهِ، مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ، وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِي فَاسْتَعْصَمَ، وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيَسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرَفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ [سُورَةُ يُوسُفَ ٣٠ - ٣٤] (لَوْحَةُ ٤٥٩م).

وَلَا يَلْبَثُ زَوْجُ زَلِيخَا أَنْ يَقْضِيَ نَحْبَهُ وَتَعُودَ هِيَ إِلَى الْفَقْرِ الْمُدْفِعِ وَتَسْكُنَ فِي كُوخٍ مِنَ الْغَابِ بَعْدَ أَنْ شَيَّبَهَا الْأَسَى وَذَهَبَ الْبُكَاءُ بِثُورِ عَيْنَيْهَا، وَلَا يُعَزِّيهَا فِي مَاسَاتِهَا سِوَى أَصْوَاتِ مُؤَكِّبِ يُوسُفَ تَنْصِبَتْ إِلَيْهَا فِي لَهْفَةٍ وَتَسْتَعِيدُ أَنْغَامَهَا فِي أُذُنِهَا كُلَّمَا مَرَّ بِهَا مِنْ بَعِيدٍ، وَبَعْدَ أَنْ سَلَخَتْ أَمَدًا فِي عِبَادَةِ أَصْنَامٍ لَا تُغْنِي عَنْهَا شَيْئًا عَادَتْ إِلَى اللَّهِ نَادِمَةً مُسْتَغْفِرَةً، ثُمَّ إِذَا بِهَا هِيَ تُصَلِّي ذَاتَ يَوْمٍ دَائِعِيَّةَ رَبِّهَا فِي تَوَسُّلٍ وَابْتِهَالٍ أَنْ يَغْمُرَ يُوسُفَ بِرَبِّكَتِهِ. وَيُنْتَهِي دُعَاؤُهَا إِلَى مَسَامِيعِ يُوسُفَ فَيَأْمُرُ بِحَمْلِهَا إِلَيْهِ وَيَعْرِفُ لِدَهْشَتِهِ خَبَرَهَا وَأَنَّهَا عَاشِقَتُهُ الْقَدِيمَةُ، فَيُبَيِّنُهَا إِلَى اللَّهِ مِنْ أَجْلِهَا، وَيَسْتَجِيبُ لَهُ رَبُّهُ وَبِرَّةَ عَلَّيْهَا بَصَرَهَا وَفِتْنَتَهَا وَشَبَابَهَا وَتَكُونُ إِرَادَةُ اللَّهِ أَنْ يُبَيِّنَ بِهَا. وَنَادِرًا مَا حَظَّتْ هَذِهِ النَّهَايَةُ السَّعِيدَةُ بِمُصَوِّرٍ يَتَبَنَّى تَصْوِيرَ مَشَاهِدِهَا (لَوْحَةُ ٢٥١م).

وَيَصِفُ جَامِي فِي النُّسخَةِ الْخَطِّيةِ لِكِتَابِ يُوسُفَ وَزَلِيخَا فِي فَصْلٍ خَاصٍّ لِقَاءِ زَلِيخَا بِيُوسُفَ وَهِيَ تَخْكِي لَهُ قِصَّةَ حُبِّهَا لَهُ وَكَيْفَ قَاسَتْ حَتَّى أَصْبَحَتْ عَجُوزًا ضَرِيرَةً. وَلَمَّا سَأَلَهَا يُوسُفَ عَنْ حَاجَتِهَا قَالَتْ: أَأَنْتَ مَطْلَبِي أَوَّلًا وَآخِرًا. وَلَكِنِّي لَا يَنْفَرُ مِنْهَا سَأَلَتْهُ أَنْ يَدْعُو رَبَّهُ كَيْ يُعِيدَ لَهَا شَبَابَهَا وَجَمَالَهَا وَبِرْدَ إِلَيْهَا بِصَرِّهَا الَّذِي فَقَدَتْهُ مِنْ كَثَرَةِ مَا بَكَتَ عَلَى فِرَاقِهِ لِيَتَقَوَّى عَلَى رُؤْيَيْهِ وَيَسْهَلَ عَلَيْهَا أَنْ تَقْطِفَ مِنْ وَرْدِ خَدَّيْهِ. فَردَّ اللَّهُ إِلَيْهَا مَا دَوَّى فِيهَا مِنْ جَمَالٍ كَمَا رَدَّ إِلَيْهَا بِصَرِّهَا وَزَادَهَا نُضْرَةً وَبَهَاءً. ثُمَّ كَانَ أَنْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى يُوسُفَ أَنْ يَتَزَوَّجَ زَلِيخَا فَلَمَّا بَنَى بِهَا قَالَ لَهَا: أَلَا تَرَيْنِ أَنَّ هَذَا خَيْرٌ مِمَّا أَرَدْتِهِ مِنْ قَبْلُ؟

قَالَتْ: رُؤْيَاكَ أَيُّهَا الصَّدِيقُ فَلَقَدْ كُنْتُ امْرَأَةً عَلَى جَانِبٍ مِنَ الْحُسْنِ وَالْجَمَالِ وَكَانَ لِي زَوْجٌ لَا يُشْبِعُ نَهْمِي وَرَأَيْتُكَ عَلَى تِلْكَ الصُّورَةِ الْجَذَابَةِ فَلَمْ أَملِكْ نَفْسِي أَنْ أَرَاوِدَكَ. وَحِينَ دَخَلَ بِهَا يُوسُفَ وَجَدَهَا بِكْرًا لَمْ تَمَسَّ! وَوَلَدَتْ لَهُ ابْنَيْنِ: أَفْرَائِيمَ وَمِيشَا.

ذو القرنين:

وَقَدْ وَرَدَ ذِكْرُ ذِي الْقَرْنَيْنِ فِي الْقُرْآنِ كَمَا وَرَدَ ذِكْرُ رِخْلَاتِهِ وَجَوْلَاتِهِ فِي الْعَرَبِ وَالشَّرْقِ. وَيَرَاهُ مُعْظَمُ الْمُفَسِّرِينَ نَبِيًّا مُرْسَلًا وَيَرَى آخَرُونَ أَنَّهُ الْإِسْكَنْدَرُ الْأَكْبَرُ، وَتَابَعَهُمْ فِي هَذَا الشُّعْرَاءُ الْفُرْسِ. وَجَاءَ فِي آيَةِ الْكَرِيمَةِ «حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا. قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَاجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا. قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا. آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى

التاريخ - كان مدفوعاً إلى ذلك بنزعة الوطنية حريصاً على ألا يجعل هذا الغازي غير إيراني، جانحاً إلى أن هذا ليس غزواً بل استزاداً لعرش اغتصبه أخوه دارا غير الشقيق. وكما فعل الفرزدوسي في تأثره بنزعة الوطنية فعل نظامي في تصويره لإسكندر متأثراً بنزعة إلى حب العدل والإنصاف لا يعنيه أن يكون ذلك الملك العادل إيرانيّاً أو يونانيّاً، فهو لم يَجِئ غازياً حُبّاً في الغزو بل دُفْعاً للظلم. وما من شك في أن نظامي قد أفاد شيئاً مما نظمته الفرزدوسي من قبله عن فتوحات الإسكندر وتلك العدالة التي أثيرت عنه في الأقاليم التي فتحها، كما أفاد من تلك القصة الثريّة عن الإسكندر التي كُتبت في القرن الثاني عشر الميلادي، ومن الأخبار القديمة التي كانت لا تزال متواترة إلى عهده في اللغات السريانية والحبشية والفارسية والتركية والجعظائية. وهذا الذي أثير عن الإسكندر شِعْراً ونثراً وقصصاً وأمثالاً من صنّع الرواة لا سند له من الحقيقة. وعلى الرغم من ذلك، فقد ألهب ذلك كله خيال المصورين فكان لهم تلك الإبداعات التصويرية الكثيرة عن ذي القرنين.

الفن الشعبي.

ويمكن اختيار موضوع تصوير قصص الأنبياء بعرض صورتين لا صلة لهما بالفن، أريد بذلك أن أبين إلى أي مدى قد أقمّت الصور الدينية في حياة المسلمين البسطاء. ونلاحظ في الصورة الأولى ليوسف وزليخا (لوحة ٤٦٠م) استملاء المصور من النص الوارد في القرآن حيث تشتعل زليخا رغبة في يوسف فتقطع قميصه من دُبر. ومما يبعث المشاهد السليم التفكير في هذه الصورة ظهور زليخا زوجة وزير مصر في صورة راقصة شرقية بثياب فرعونية. أما الصورة الأخرى (لوحة ٤٦١م) فهي لإبراهيم يضحكي بابنه اسماعيل. وليس ثمة ما يلفت إليها غير قيمتها الفنية الشعبية.

من قال إنه كان رجلاً صالحاً وملياً عادلاً فاضلاً، ويرى الثعلبي أنه كان نبياً غير مرسل!

وقال الفقهاء إن الإسكندر حين فرغ من أمر الأمم الذين هم في أطراف الأرض انعطف على الأمم التي في الوسط، وأنه حين بلغ مكاناً خلف جبلين بينهما فراغ يفصل بينهما، شاهد قوماً شكوا إليه من أن خلف الجبلين جماعة من المخلوقات الغريبة التي تتناسل بسرعة مخيفة وأنهم يخشون على أنفسهم وعلى الأرض كلها منهم وطلبوا إليه أن يحتال لهم في إنشاء سد يصل ما بين الجبلين فيمنع خروج تلك المخلوقات إليهم أو إلى العالم. فأمرهم بأن يحضروا قطع الحديد والنحاس. فلما سألوه عن الوسيلة التي يقطعون بها تلك المعادن دَلَّهم على معادن آخر يُقال له «الساهاون» الذي سبق واستعمله سليمان. وبعد أن انتهوا من جمع الحديد والنحاس، ونقلوه إلى ما بين الجبلين أمرهم بأن يوقدوا عليه ناراً، وصنع من الحديد صخوراً كبيرة ثم أذاب النحاس فجعله كالطين والملاط ليترك الصخور من الحديد ثم بنى السد.

ويبدو الإسكندر في مخطوطة المكتبة البودلية أنجزت في بخارى سنة ١٥٥٣م مرتدياً ملابس أمير تركي أثناء إشرافه على بناء السد بين جانبي الممر الجبلي. وقد بُني السد من كتل الحجر الضخم بعد أن سوّيت بمهارة وسكب الحديد المذاب في ما بينها من ثغرات، ويبدو العمال في مقدمة الصورة منشغلين بتقطيع سبائك الحديد، بينما يعمل غيرهم بالكبر لإشعال النار في القرن (لوحة ٢٥٢م).

ونرى شعراء الفرس يختلفون في رواية قصة الإسكندر، كل يستملي وفق ما يُمليه عليه خياله. فقد عدّه الفرزدوسي إيرانيّاً ذاهباً في ذلك إلى أنه الابن الأكبر للملك الإيراني داراب من زوجته اليونانية، والفرزدوسي في ذلك - يقطع النظر عن نصيب هذا من

الفصل الثاني والثلثون

هز المشاعر بما هو قدسي

إحساس المصور وإحساس المشاهد

ويَعْلُو عَنْ كُلِّ تَغْيِيرٍ كَلَامِيٍّ أَوْ تَغْيِيرٍ سَمْعِيٍّ، فَهَذَا التَّغْيِيرُ وَذَلِكَ، أَغْنَى التَّغْيِيرَ اللَّفْظِيَّ وَالتَّغْيِيرَ السَّمْعِيَّ، لَا يَتَّسِعَانِ فِي الْأَكْثَرِ لِكُلِّ مَا يَجِيشُ فِي النَّفْسِ عَلَى حِينٍ أَنَّ خَطَأً وَاجِدًا مِنْ خُطُوطِ الْمُصَوِّرِ قَدْ يَجْتَمِعُ حَوْلَهُ كُلُّ مَا يَجِيشُ فِي نَفْسِ الْمُصَوِّرِ. مِنْ أَجْلِ هَذَا جَاءَتْ صُورُ الْمُصَوِّرِ الْمُبْدِعِ الَّذِي يَنْطِقُ عَنْ مَشَاعِرِ وَأَحَاسِيسِ تُعَبِّرُ تَغْيِيرًا كَامِلًا عَنْ مَعَانٍ فَيَاضَةٍ قَدْ تَحْوِي بَعْضَهَا الْكَلِمَةُ وَلَكِنَّهَا لَا تُفْلِحُ فِي اخْتِوَانِهَا كُلَّهَا، فَالْصُّورَةُ حِينَ تَمْلِكُ التَّغْيِيرَ الْحَقَّ عَنْ الْمَشَاعِرِ وَالْأَحَاسِيسِ تَجْمَعُ مَا لَا تَسْتَعِجُ لَهُ كُتُبُ ضَخْمَةٍ، وَمَا لَا يَسْتَطِيعُ الْإِفْصَاحُ عَنْهُ لِسَانٌ، فَخَوَاطِرُ النَّفْسِ أَعْصَى مِنْ أَنْ يُفْصَحَ عَنْهَا غَيْرَ رِيشَةِ الْمُصَوِّرِ الْمُبْدِعِ الْمُتَأَثِّرِ بِمَشَاعِرِهِ وَأَحَاسِيسِهِ. وَحَدِيثُنَا فِي هَذَا الْفَصْلِ سَوْفَ لَا تَسْتَأْثِرُ فِيهِ الْكَلِمَةُ بَلْ سَتَكُونُ الْغَلْبَةُ لِلصُّورَةِ إِنْ لَمْ يَكُنْ مَحْظُورٌ نَشْرُهَا، إِذْ هِيَ النَّاطِقَةُ الْمَعْبُورَةُ بِمَا تَعْجِزُ عَنْ الْوَفَاءِ بِهِ الْكَلِمَةُ. وَسَتَعْرُضُ الصُّورُ الَّتِي اخْتَرْنَاهَا نَمَازِجَ مُعْبَّرَةٍ عَنْ إِحْسَاسِ الْمُصَوِّرِ مِنْ نَاحِيَةٍ، ثُمَّ عَنْ إِحْسَاسِ الْمَشَاهِدِ مِنْ نَاحِيَةٍ ثَانِيَةٍ، لِيَكُونَ وَسِيلَتُنَا إِلَى تَقْرِبٍ وَجْهَةٍ نَظَرْنَا إِلَى الْقَارِئِ.

سير النبي (١٥٩٤) نَسَخَهَا أَحْمَدُ نُورُ بْنُ مُصْطَفَى لِلْسُلْطَانِ مُرَادِ الثَّالِثِ. مُتَحَفٌ طُوبُ قَابُو، بِاسْتَنْبُولِ

هذه لَوْحَةٌ مِنَ اللَّوْحَاتِ الَّتِي اخْتَرْتَهَا مِنْ مَخْطُوطَةِ سِيرِ النَّبِيِّ تَتَقَوَّى وَمَا أَعْرَضُ فِي هَذَا الْفَصْلِ، وَهِيَ تُمَثِّلُ «مَوْلِدَ الرَّسُولِ» حَيْثُ تَشْهَدُ الْغُرْفَةُ الَّتِي وُلِدَ بِهَا مُحَمَّدٌ وَإِلَى جَانِبَيْهِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ مَجْمُوعَتَانِ مُتَقَابِلَتَانِ: فِلَالِي الْيَمِينِ أُمُّهُ آمِنَةُ وَقَدْ جَلَسَتْ عَلَى رُكْبَتَيْهَا رَافِعَةً يَدَيْهَا إِلَى السَّمَاءِ شَاكِرَةً لِلَّهِ نِعْمَتَهُ. وَلَمْ يَفُتْ الْمُصَوِّرُ أَنْ يُلْقِيَ الْخِمَارَ عَلَى وَجْهِهَا تَمْكِيًا لِقُدْسِيَّتِهَا وَكَأَنَّهَا لَا تَقَلُّ هِيَ الْأُخْرَى عَنْ قَدَاسَةِ الْأَنْبِيَاءِ. وَإِلَى يَسَارِ الصُّورَةِ الْمَلَايِكَةُ الثَّلَاثَةُ وَقَدْ تَمَيَّزَتْ صُورُهُمْ بِالْأَجْنِحَةِ لِتَدَلَّ ذَلَالَةُ قَاطِعَةٍ عَلَى أَنَّهَا لِلْمَلَايِكَةِ لَا لِغَيْرِهِمْ، وَيُمَثِّلُ لِيَاسَهُمْ فِي مَجْمُوعَةِ اللَّبَاسِ التُّرْكِيَّ، كَمَا أَنَّ قَسَمَاتِ وَجُوهِهِمْ أَقْرَبَ إِلَى الْمَغُولِيَّةِ مِنْهَا إِلَى أَيِّ جِنْسٍ

مَا مِنْ شَيْءٍ أَنَّ الْمُصَوِّرَ حِينَ يُمَلِّي فِي تَصَاوِيرِهِ يُمَلِّي عَنْ عَوَامِلَ مُخْتَلِفَةٍ مِنْهَا تِلْكَ الْإِتِّفَاضَةُ الَّتِي تَمْتَلِكُ بِهَا جَوَانِحُهُ عِنْدَ رُؤْيَةِ مَشْهَدٍ مِنَ الْمَشَاهِدِ تَقَعُ عَلَيْهِ عَيْنَاهُ أَوْ عِنْدَ سَمَاعِهِ خَبْرًا مِنَ الْأَخْبَارِ تَرَعِدُ لَهُ مَشَاعِرُهُ وَتَضْطَرِبُ عَوَاطِفُهُ أَوْ عِنْدَ إِحْسَاسِهِ بِمَا يَضِيقُ بِهِ أَوْ يَقْرَحُ لَهُ، هَذِهِ الْعَوَامِلُ كُلُّهَا الَّتِي تُثِيرُ الْخَوَاطِرَ فِي نَفْسِ الْمُصَوِّرِ فَيَعْتَلِجُ بِهَا وَجْدَانَهُ هِيَ عَلَى الْقَطْعِ الْأَثَرُ الْأَوَّلُ الَّذِي يُنْشِئُ الْمُصَوِّرَ وَيُهَيِّئُ فِيهِ اسْتِعْدَادَهُ الْمَوْرُوثَ وَالْمُكْتَسَبَ لِأَنْ يَكُونَ مُصَوِّرًا وَلَنْ يَكُونَ مُبْدِعًا. وَإِذَا قَفَدَ الْمُصَوِّرُ هَذَا الْإِحْسَاسَ الَّذِي يَتَأَثَّرُ بِمَا حَوْلَهُ فَهُوَ لَا شَيْءَ فَاقِدَ ذَلِكَ الْإِبْدَاعِ الَّذِي يُجَمِّلُ بِهِ عَمَلَهُ. فَيُزْضِي نَفْسَهُ وَيُزْضِي مَنْ يُشَاهِدُ عَمَلَهُ. وَالْمُصَوِّرُونَ كُلُّهُمْ لَيْسُوا عَلَى هَذَا التَّمَطُّ، أَغْنَى لَيْسُوا كُلُّهُمْ سَوَاسِيَةً فِي التَّأَثُّرِ بِمَا حَوْلَهُمْ بَلْ هُمْ عَلَى ذَلِكَ دَرَجَاتٍ، مِنْهُمْ مَنْ يعمقُ الْأَثَرُ فِي نَفْسِهِ وَيُؤْغِلُ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَبْلُغُ الْأَثَرُ فِيهِ دَرَجَةُ الْعُمُقِ. وَعَلَى هَذَا الْاِخْتِلَافِ فِي الْإِحْسَاسِ يَجِيءُ الْاِخْتِلَافُ فِي الْإِبْدَاعِ، فَإِذَا كَانَ ثِمَّةَ عَمَلٍ تَصَوِيرِيٍّ يَهْبِطُ شَأْنُهُ فَهُوَ لَذَلِكَ الْإِحْسَاسُ الْهَيْنُ. وَثِمَّةُ فِتْنَةٍ مِنَ الْمُصَوِّرِينَ لَا يَتِمُّونَ إِلَى شَطْرٍ مِنْ هَذَيْنِ الشَّطْرَيْنِ، أَغْنَى لَا هُمْ مِنَ الْمُتَعَمِّقِينَ وَلَا هُمْ مِنَ السَّطْحِيِّينَ، فَهَؤُلَاءِ تَجِيءُ أَعْمَالُهُمْ تَصَوِيرًا شَكْلِيًّا بَحْثًا قَدْ يَتَّصِفُ بِالِاتِّقَانِ وَلَكِنَّهُ لَا يَتَّصِفُ بِالِابْدَاعِ، أَوْ لَا يَحْمِلُ مَا يَهْزُ مَشَاعِرَ الْمَشَاهِدِ، كَمَا لَا يَحْمِلُ قَبْلَ هَذَا مَا يَدُلُّ عَلَى اهْتِزَازِ مَشَاعِرِ الْمُصَوِّرِ نَفْسَهُ. وَالْفَنُّ مَا خُلِقَ وَمَا عَاشَ إِلَّا لِصِلَتِهِ بِالْمَشَاعِرِ وَلِصِلَتِهِ بِالْأَحَاسِيسِ النَّفْسِيَّةِ، يَتَّصِلُ بِمَشَاعِرِ الْمُصَوِّرِ وَأَحَاسِيسِهِ أَوَّلًا، ثُمَّ يَتَّصِلُ بِمَشَاعِرِ الْمَشَاهِدِ وَأَحَاسِيسِهِ ثَانِيًا. وَعَلَى قَدَرِ مَا تَهْتَزُّ لَهُ نَفْسُ الْمُصَوِّرِ وَأَحَاسِيسُهُ كَذَلِكَ تَهْتَزُّ لَهُ مَشَاعِرُ الْمَشَاهِدِ وَأَحَاسِيسُهُ، فَاجْتِمَاعُ الْمَشَاهِدِينَ عَلَى عَمَلٍ مُبْدِعٍ مِنَ التَّصَوِيرِ هُوَ إِجْمَاعُهُمْ عَلَى نَفْسٍ مُبْدِعَةٍ لِلْمُصَوِّرِ.

وَالْفَنُّ جَمَالٌ بَلْ هُوَ أَزْقَى أَنْوَاعِ الْجَمَالِ، هُوَ يَعْلُو عَنْ الْكَلِمَةِ

يَوْمَ يَقْضِ أَهْلُهُ لِلصَّلَاةِ وَهُمَا عَلَيَّ فِي صِيبَاهُ وَزَوْجَتُهُ خَدِيجَةُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الرَّسُولُ إِلَى الْأَمَامِ خُطْوَةً، تُحِيطُ بِهِ تِلْكَ الْهَالَةُ الْمُتَسَاوِيَةُ إِلَى أَعْلَى لِتَلَدَلْ - كَمَا قُلْنَا مِنْ قَبْلُ - عَلَى امْتِدَادِ نَسَبِهِ الرَّكْبِيِّ. وَبَدَأَ الرَّسُولُ مُرْتَلِيًا عِمَامَةً خَضْرَاءَ وَجَبَّةَ خَضْرَاءَ رَمَزًا إِلَى نَعِيمِ الْجَنَّةِ. وَإِلَى يَمِينِ النَّبِيِّ وَقَفَتْ عَلَيَّ وَقَدْ ارْتَدَى هُوَ الْآخَرُ جَبَّةً وَعِمَامَةً خَضْرَاوِينَ، كَمَا وَقَفَتْ خَدِيجَةُ إِلَى يَسَارِهِ وَهِيَ تَرْتَدِي جِلْبَابًا أَزْرَقَ، وَقَدْ غَطَّى الْمُصَوِّرُ وَجْهَهَا وَرَأْسَهَا بِخِمَارٍ وَأَرْسَلَ مِنْ فَوْقِ رَأْسِهَا هَالَةً تَقْصُرُ بِكَثِيرٍ عَنْ هَالَةِ الرَّسُولِ إِذْ مَرَّبَتْهَا دُونَ مَرَّبَتِهِ لَا شَكَّ. وَتُلاحِظُ أَنَّ عَقْدَ الْأَيْدِي عَلَى الصُّدُورِ يَخْتَلِفُ، فَبَيْنَمَا يَتَّقُوهُ الرَّسُولُ وَعَلَيَّ فِي عَقْدِ أَيْدِيهِمَا إِلَى مَا تَحْتَ السُّرَّةِ نَرَى خَدِيجَةَ قَدْ كَادَتْ تَلْفُ صَدْرَهَا بِيَدَيْهَا، وَهَذَا رَمَزٌ لِلإِسْرَافِ فِي الْوَرَعِ وَالْتَقِيَّةِ. وَقَدْ تَكُونُ هَذِهِ الْأَشْجَارُ الَّتِي فِي أَعْلَى الصُّورَةِ بِأَزْهَارِهَا الْمُخْتَلِفَةِ وَذَلِكَ التَّهَرُّجِ الْجَارِي تَحْتَ إِحْدَى هَذِهِ الْأَشْجَارِ - قَدْ يَكُونُ هَذَا كُلُّهُ دَلِيلًا عَلَى مَا وَعَدَ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ الْمُتَّقِينَ مِنْ جَنَّاتٍ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ - وَهَذِهِ الطَّنَافِيسُ الَّتِي تَمْتَدُّ عَلَى أَرْضِيَّةِ الْحُجْرَةِ، وَتِلْكَ الرُّسُومُ وَالتَّقْوِشُ الَّتِي تُغَطِّي جُذُرَانِهَا فِي أَلْوَانِهَا الْمُخْتَلِفَةِ لَا نَظْنَ أَنَّ لَهَا دَلَالَةً أَكْثَرَ مِنْ إِضْفَاءِ الْمُصَوِّرِ عَلَى تِلْكَ الصُّورَةِ الَّتِي تَجْمَعُ بَيْنَ نَبِيِّ كَرِيمٍ وَزَوْجَةٍ وَقَرِيبٍ لَوْثًا مِنْ أَلْوَانِ الْبَهَاءِ وَالْجَلَالِ وَفَقًا لِتِلْكَ الرُّوحِ الَّتِي أَمْلَأَتْهُ، وَمَا نَظْنَ أَنَّ لَهَا دَلَالَاتٍ أُخْرَى كَمَا يَذْهَبُ بَعْضُ الْمُتَصَوِّفَةِ مِنْ أَنَّ التَّجَمُّمَ دَلِيلٌ عَلَى صِلَةِ النَّفْسِ بِاللَّهِ وَأَنَّ تِلْكَ السُّيُوفَ الْمُتَقَاطِعَةَ تَرْمِزُ إِلَى سَيْفِ اللَّهِ الَّذِي يَفْصِلُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، فَمَا أَرْوَعُ مَا أَمْلَأَتْ هَذِهِ الصُّورَةَ عَلَى الْمُصَوِّرِ، وَمَا أَرْوَعُ مَا أَمْلَأَهُ الْمُصَوِّرُ فِي نَفْسِ كُلِّ مُشَاهِدٍ [لَوْحَةٍ مَحْظُورٍ نَشْرُهَا].

وهذا هو المشهد الرابع من كتاب «سير النبي»، ومُثِّلَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ جَدَّ الرَّسُولِ وَقَدْ وَقَفَتْ إِلَى أَسْتَارِ الْكَعْبَةِ يَتَمَسَّكُ بِهَا فِي خَشْيَةٍ وَضَرَاعَةٍ عَلَى مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ نَجَاةِ ابْنِهِ عَبْدَ اللَّهِ مِنَ الذَّبْحِ. وَاقْتِدَائِهِ بِمَاهِهِ مِنَ الْإِبْلِ كَمَا أَشَارَ عَلَيْهِ الْكَاهِنُ فِي ذَلِكَ الْحَدِيثِ الطَّوِيلِ الَّذِي سَاقَتْهُ كُتُبُ السِّيَرَةِ، وَمَا كَانَ لَوْثًا تِلْكَ الْإِشَارَةُ إِلَّا ذَائِبًا أَعَزَّ أَبْنَاءَهُ إِلَيْهِ وَفَاءً بِنَذْرِهِ. فَهُنَا أُبَوَّةٌ كَادَتْ أَنْ تُكَلِّمَ لَوْثًا رَحْمَةً رَبِّهَا، وَهُنَا ابْنٌ كَادَ أَنْ يُذْبِحَ طَائِعًا مُسْتَجِيبًا لِيَدَاءِ أَبِيهِ وَيَدَاءَ رَبِّهِ. ثُمَّ لَا نَنْسَى مَا كَانَ وَرَاءَ هَذَا مِنْ حِكْمَةِ سَمَاوِيَةٍ فِي بَقَاءِ الْأَبِ عَبْدِ اللَّهِ لِيَلِدَ لَنَا رَسُولَ اللَّهِ. هَذِهِ الْمَعَانِي كُلُّهَا كَفِيلَةٌ بِأَنَّ تَهَرُّجَ الْمَشَاعِرِ وَتَحَرُّكَ الْأَحَاسِيسِ. وَمُصَوِّرُنَا كَانَ أَقْبَلَ مَا يَكُونُ نَفْسًا لِلتَّأَثُّرِ بِهَذِهِ الْمَعَانِي الْجَلِيلَةِ كُلُّهَا فَكَانَ أَسْرَعَ مَا يَكُونُ لِأَن يَخْطُ بِرِيشَتِهِ تِلْكَ الصُّورَةَ الْمُعْبَّرَةَ عَنْ شُكْرِ الْأَبِ لِلرَّبِّ وَفَرَحِ الْإِبْنِ بِالنَّجَاةِ، وَهِيَ إِذَا كَانَتْ قَدْ هَزَّتْ بِمَعَانِيهَا تِلْكَ أَحَاسِيسَ الْمُصَوِّرِ وَمَشَاعِرِهِ فَهِيَ لَا تَزَالُ تَهَرُّجُ بِمَعَانِيهَا الصَّامِتَةِ الْمُرْفُوفَةِ عَلَيْهَا أَحَاسِيسُنَا وَمَشَاعِرُنَا كُلُّمَا وَقَعَ عَلَيْهَا نَظَرُنَا (لَوْحَةٌ ٤٦٢م).

آخَرُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَحَدَهُمْ بِطُسْتٍ فِي يَسَارِهِ مَاذَا يُمْنَاهُ وَكَأَنَّهُ يُرِيدُ بِذَلِكَ أَنْ يَتَلَقَّى الطُّغْلُ بَيْنَمَا تَلَاهُ الْآخَرُ وَهُوَ يَحْمِلُ الْإِبْرِيْقَ، وَتَأَخَّرَ الْثَالِثُ وَهُوَ يَحْمِلُ الْمَشْفَةَ، وَعَلَى رُؤُوسِ الثَّلَاثِ تِيجَانٌ تَخْتَلِفُ شَكْلًا بِاخْتِلَافِ مَرَاتِبِهِمْ. وَهَذَا كُلُّهُ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ السَّمَاءَ هِيَ الَّتِي تَوَلَّتْ طَهْرَهُ وَلَمْ يُعْهَدْ بِذَلِكَ إِلَى قَابِلَةٍ أَوْ حَاضِنَةٍ. وَمِنْ حَوْلِ رَأْسِ النَّبِيِّ هَالَةٌ مِنْ لَهَبٍ ذَهَبِيٍّ تَجَاوَزَ حَجْمُهَا النَّسَبَ الْمَالُوفَةَ فَقَدْ غُوِيَتْ فِي ارْتِفَاعِهَا وَكَأَنَّهَا بِذَلِكَ تَرْمِزُ إِلَى اتِّصَالِ نَسَبِهِ الطَّاهِرِ بِالْأَنْبِيَاءِ الْمُطَهَّرِينَ مِنْ قَبْلُ. وَفُرِشَتْ أَرْضُ الْحُجْرَةِ الَّتِي وُلِدَ بِهَا الرَّسُولُ بِخَصِيرٍ تَبْدُو سَمَرَاتِهِ (قَشَنِهِ) وَخُيُوطُهُ وَاضِحَةً، كَمَا تَبْدُو حَيْطَانُ الْعُرْفَةِ مُفَسَّمةٌ تَقْسِيمًا هَنْدَسِيًّا عَلَى الطَّرَازِ الرَّكْبِيِّ. وَهَذَا لَا شَكَّ مِنْ خِيَالِ الْمُصَوِّرِ إِذْ أَرَادَ أَنْ يُضْفِي عَلَى الْحُجْرَةِ لَوْثًا مِنْ أَلْوَانِ الْأُيُتْمَةِ، وَزَادَ فَجَعَلَ لَهَا حَنَائِيًا وَبَوَائِكَ عَلَى الشَّكْلِ الْبَيْنِيِّ الْمَالُوفِ فِي الْعِمَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ. وَفِي الْحَيَّةِ الَّتِي شَرَفَتْ بِمَوْلِدِ الرَّسُولِ أَرْسَلَ الْمُصَوِّرُ مِنْ سَقْفِهَا مِضْبَاحًا [لَوْحَةٍ مَحْظُورٍ نَشْرُهَا] وَمَا أُوْصَلَ هَذَا الْمَوْلِدُ بِنُفُوسِ النَّاسِ لِاسْتِيفَاءِ بَعْدِ مَا عَمَرَتْ قُلُوبُهُمْ بِالْإِيمَانِ وَانْفَسَحَتْ صُدُورُهُمْ لِلتَّصَدِيقِ بِمُحَمَّدٍ، فَهُمْ أَحْوَجُ مَا يَكُونُونَ إِلَى رَجْعَةٍ إِلَى الْوَرَاءِ تُذَكِّرُهُمْ بِمَوْلِدِ هَذَا الرَّسُولِ الْكَرِيمِ، إِذِ الْنُفُوسُ الْمُؤْمِنَةُ الْمُجَبَّةُ الْمُصَدِّقَةُ تَحْرِصُ كُلَّ الْجُرُصِ عَلَى أَنْ تَعْرِفَ الرَّسُولَ مُنْذُ أَنْ سَعِدَ بِهِ الْوُجُودُ، فَهَذَا حَدِيثٌ يَلْذُ لِكُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَقْرَأَهُ، ثُمَّ هُوَ أَكْثَرُ اهْتِزَازًا بِهِ حِينَ يَرَاهُ مُصَوِّرًا.

وهذه صورة ثانية من مخطوطة «سير النبي» تُمَثِّلُهُ وهو في غَارِ حَرَاءَ، وَيَكَادُ اللَّوْنُ الَّذِي أَسْبَغَهُ الْمُصَوِّرُ عَلَى الصُّورَةِ يَضْرِبُ إِلَى غُبْرَةِ جِبَالِ مَكَّةَ، غَيْرَ أَنَّ تِلْكَ الْأَغْشَابَ الْمُحِيطَةَ بِالْغَارِ هِيَ مِنَ الْأَغْشَابِ الْبَرْيَةِ الَّتِي تَنْبِتُ فِي الصَّحَارِيِّ وَالْقِفَارِ، وَمَا نَظْنَ أَنَّ غَارَ حَرَاءَ كَانَ مِنْ حَوْلِهِ يُمِثِّلُ هَذِهِ الْأَغْشَابَ، وَقَدْ فَرَضَهَا الْمُصَوِّرُ عَلَى الْمُنْمَنَةِ اسْتِيفَاءً مِنْ وَحْيِ بَيْتِهِ. وَجَعَلَ الْمُصَوِّرُ الرَّسُولَ وَاقِفًا فِي ثِيَابٍ بَيْضَاءَ، وَهَذَا لَا شَكَّ مَثَلٌ لِلطَّهَرِ الْبَدَنِيِّ وَالنَّفْسِيِّ، وَوَضَعَ عَلَى رَأْسِهِ عِمَامَةً لَهَا دُؤَابَةٌ طَوِيلَةٌ قَدْ انْسَدَلَتْ عَلَى كَتِفَيْهِ. وَهَذِهِ الْعِمَامَاتُ مِنْ لِيَاسِ الْبَدْوِ فِي الصَّخْرَاءِ وَلَكِنَّهَا لَا تَكُونُ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ الَّتِي ذَهَبَ إِلَيْهَا الْمُصَوِّرُ وَتَكَادُ تَكُونُ هِيَ الْأُخْرَى مِنْ وَحْيِ بَيْتِهِ. وَأَرْوَحَى الْمُصَوِّرُ عَلَى وَجْهِ الرَّسُولِ كَمَا هِيَ عَادَةُ الْمُصَوِّرِينَ الْأَثْرَاقِ سَثْرَةً (نِقَابًا) تَسْتُرُ الْوَجْهَ مَعَ الذَّقْنِ وَالرَّقَبَةِ. وَيَبْدُو الرَّسُولَ فِي لِيَاسِهِ الْقَضْفَاضِ رَافِقًا يَدَيْهِ بِصَفْحَتَيْهِمَا، وَهَذِهِ فِيهَا إِشَارَةٌ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْفَرَعِ، وَكَأَنَّ هَذَا اللَّقَاءَ هُوَ اللَّقَاءُ الْأَوَّلُ بَيْنَ النَّبِيِّ وَبَيْنَ جِبْرِيلَ إِذْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ فَرَعٍ بَعْدَ ذَلِكَ فِي لِقَاءِ مُحَمَّدٍ ﷺ لِجِبْرِيلَ [لَوْحَةٍ مَحْظُورٍ نَشْرُهَا].

وهذه مُنْمَنَةٌ ثَالِثَةٌ مِنْ مُنْمَنَاتِ تِلْكَ الْمَخْطُوطَةِ تُصَوِّرُ مُحَمَّدًا

وزمزم، كما قلنا، فهي تجتمع من الماضي زهبتها وذكرياته حين كان ظهور زمزم على يد إسماعيل، وبهذا الظهور تحولت تلك الأرض الجرداء إلى أرض عامرة بالقاطنين يؤمها الناس من كل فج، ثم امتداد ذلك التقديس إلى المسلمين، ويمثلهم هذا الرجل في تلك الجلسة الخاشعة، وتلك الألوان التي اختارها المصور لستر الكعبة والجبة التي يرتديها الرجل الضارع فيها تناسق يشد الانتباه ويجعل الأبصار لا تتحول عنها.

ومعلوم أن الكعبة قد ظلت على حالها حتى سنة خمس وثلاثين من مولد محمد عليه الصلاة والسلام، أي قبل الرسالة بخمس سنوات وكان أن رأت قریش أن تُعيد بناء الكعبة من جديد. وأعدوا لستيفتها خشبًا حصلوا عليه من سفينة تحطمت في البحر. وكانت ثمة حبة زهرية تخيا في بئر الكعبة يحشاها الناس. فخرجت ذات صباح واستلقت على جدار الكعبة، فأرسل الله طيرًا اختطفها وأراحهم من شرها. فحدسوا أن هذا إذن من الله لهم بإعادة بنائها، فأخذوا في بنيانها وآلوا على أنفسهم ألا يدخلوا في بنائها مالا حرامًا، حتى إذا ما بلغوا مبلغ الحجر الأسود اختلفوا فيمن يرفعه ويضعه بيده. واقترح أكبرهم سنًا أن يحتكموا إلى أول قادم عليهم، وكان محمد عليه الصلاة والسلام أول من قدم عليهم، وحين سأله المشورة طلب منهم ثوبًا وضع فيه الحجر وطلب إلى كل قبيلة أن تمسك بطرف من أطراف الثوب وأن يرفعه إلى مكان الحجر، فلما بلغوا مكانه حملة بيده ووضع في موضعه. ويتمثل محمد في الصورة الواردة «بجامع التواريخ» شابًا نحيلًا وهو واقف أمام الكعبة يرفع الحجر الأسود فوق ثوب تقدم به أربعة من أشرف قریش [لوحة مخطوطة نشرها].

وهذه الحكمة التي ألهمتها السماء محمدًا والتي غابت عن حكماء قریش وكادوا أن تثور بينهم حرب لا يعلم إلا الله مداها، هذه الحكمة لا شك تثير في نفس الأديب ما تثيره في نفس الفنان فيعبر الأديب عنها بكلماته ويعبر عنها الفنان بتصويره. والصورة لا شك تؤيدنا فيما قلنا قبل إن الفنان - فيما صور - كاذ يجعل هذا المشهد الذي بُدع عتًا ميثا الثنتين يكاد يكون ماثلاً في أذهاننا وفي خواطرنما بما تعجز عنه الكلمة أن تقر به من هذا التقريب. ومما يلفتنا في هذه الصورة ذلك التوازن السائد في التكوين حيث يبدو الرسول في بؤرة الصورة على حين تتوزع الشخصيات على جانبيها في تماثل ملحوظ.

«رُبلة التواريخ» (١٥٨٣). كُتِبَ لِلِسُلْطَانِ مُرَادِ الثَّالِثِ. مُتَحَفُ الْفَنِّ الْإِسْلَامِيِّ بِإِسْتَنْبُول

وتنضم إلى تلك اللوحات التي سُقناها من «سير النبي»

وهذه اللوحة الخامسة من لوحات هذه المخطوطة تمثل «وفاة الرسول»، ويبدو النبي مسجى وقد غطي بملاء يتضاء وجنا عند رأسه صديقه أبو بكر وقد بدا الأسى على وجهه مادًا يديه يدعو ربه أن يُثبت فؤاده. ووقفت فاطمة من خلف أبي بكر وعلى وجهها خمار يُغطي وجهها وارتفعت على رأسها تلك الهالة الثورانية المقدسة التي تُشير إلى أنها بنت رسول كريم وقد أمسكت بيمنها منديلًا وكأنها تجحف به دموعها. وبين يديها جلس زوجها علي هليًا فرعًا مُسندًا رأسه بكتف يديه، وفي ذلك إشارة إلى هول ما أصابه. وإلى أسفل الصورة جلس ابن فاطمة وعلي: الحسن والحسين، وقد ارتفعت على رأس كل منهما هالة إحداهما أكبر من الأخرى وكان هذا تمييزًا لأكبرهما عن أصغرهما، فالهالة الكبرى للحسن والأخرى للحسين، ويريان وكأنهما يتكلمان، إذ نرى يدا لكل منهما قد ارتفعت إلى عينه تجحف دموعه. وحرص المصور على أن يظهر لنا الوجه بما اغترها من أسى وحزن جعله يصورها مُتجهة إلينا، وطبيعة التصوير أن تكون تلك الوجه كلها مُتجهة إلى رفات الرسول. وليس موقف كموقف الوداع الأخير، حين ينتقل الإنسان إلى ربه ويترك دنياه يُثير الأسى والحزن في النفوس. ويتنضم إلى هذه الإثارة ويقوي من فعلها في النفس أن نرى جمعًا حول الميت بين باكٍ ومُتجنب وآسٍ. فهذا المشهد الذي يُمكن المصور في البلوغ به إلى أقوى أثر في النفس قد جمع بين هذا كله، فجمع بين جثة الرسول مسجى والباكين حوله. ثم خالف بين جمع الباكين فصورهم على وضعات مختلفة من الأسى ليبلغ بهذا كله أقصى ما يبلغ من إثارة الحزن والشجن في النفس وهز المشاعر وتحريك الأحاسيس [لوحة مخطوطة نشرها].

وهذه صورة أخيرة من مخطوطة سير النبي (لوحة ٤٦٣م) تتميز ببساطتها والتزامها جانب الدقة، فقد بدت الكعبة في تكوينها الحق. وثمة فجوة ذهبية اللون لا نذري أرمز بذلك المصور إلى باب الكعبة أم إلى الحجر الأسود. وقد حُزمت الكعبة من أعلى بشرط مُذهب كما كُسيَت بكساء أزرق ذي تموجات تضرب إلى السواد. وبين يدي الكعبة رجل في بؤرة خضراء وهو غارق في التبتل، وقد عقد يديه على صدره وكأنه يتبهل، وتعلو رأسه هالة ثورانية، وقد بدا الوجه ولا تقاسيم فيه. وثمة، إلى يسار الصورة، شكل مُستطيل لعله يرمز به إلى قطعة من الأرض صخرية. وفي وسط ذلك المُستطيل شكل أسطوانة لا يبلغ الأعماق، لا نذري ماذا أراد به المصور ولكنه في استدارته هذه يكاد يُشير إلى بئر زمزم. والصورة على بساطتها فيها جلال وخشية، يتمثل هذا الجلال في كسوة الكعبة كما يتمثل في جلسة الرجل المتبتل الخاشع وفي ذلك الشكل الذي إلى اليسار مُمثلًا بئر

تُمَثَّلُ آدَمَ وَحَوَّاءَ بَعْدَ أَنْ عَرَّيَا أَمَامَ الرَّبِّ وَطَفِقَا يُعْطِيَانِ عَوْرَتَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ. وَلَمْ يَتَسَّرَ الْمُصَوِّرُ أَنْ يُشِيرَ إِلَى سَبَبِ عِصْيَانِ أَمْرِ الرَّبِّ بِأَكْلِهِمَا مِنْ تِلْكَ الثَّمَرَةِ الْمَمْنُوعَةِ فَجَعَلَ يُسْرِى حَوَّاءَ قَابِضَةً عَلَى حَزْمَةٍ مِنَ الْقَمْحِ أَوْ نَحْوِهِ، وَهَذَا مَا يُفَسِّرُ بِهِ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ تِلْكَ الثَّمَرَةَ الْمَمْنُوعَةَ. وَازْتَفَعَتْ مِنْ رَأْسِ كِلَيْهِمَا شُعْلَةٌ نُورَانِيَّةٌ، وَتَبَدُّو شُعْلَةً آدَمَ أَعْلَى مِنْ شُعْلَةِ حَوَّاءَ. وَمِمَّا يُؤْخَذُ عَلَى الْمُصَوِّرِ أَنَّهُ صَوَّرَ آدَمَ تَكَادَ صُورَتَهُ تُضَارِعُ صُورَةَ حَوَّاءَ جَمَالًا وَأُنُوثةً لَوْلَا التَّذْيِينُ اللَّذِينَ مَيَّزَ بِهِمَا صُورَةَ حَوَّاءَ، وَكَمَا أُرْسِلَ لِحَوَّاءَ شَعْرًا انْسَدَلَ عَلَى كَيْفِيهَا صَوَّرَ لِآدَمَ شَعْرًا انْسَدَلَ عَلَى كَيْفِيهِ هُوَ الْآخَرُ. وَإِلَى يَمِينِ الصُّورَةِ إِلَى أَعْلَى تَبَرَّزَ صُورَةُ الْمَلَكَ عَلَى رَأْسِهِ التَّاجُ وَمِنْ خَلْفِهِ جَنَاحَاهُ مُتَشِيرَانِ وَقَدْ اسْتَدَّ إِصْبَعًا مِنْ أَصَابِعِ يُمْنَاهُ إِلَى ذَقْنِهِ وَهُوَ يَلْتَفِتُ إِلَى آدَمَ وَحَوَّاءَ وَهُمَا مَطْرُودَانِ مِنَ الْجَنَّةِ مُتَعَجِّبَانِ نَادِمًا رَائيًا لِمَا انْتَهَى إِلَيْهِ أَمْرُهُمَا. وَتَحْتَ قَدَمَي الْمَلَكَ بَدَتْ صُورَةُ طَاوُوسٍ وَقَدْ نَشَرَ ذَيْلَهُ بِأَلْوَانِهِ الزَّاهِيَةِ وَكَأَنَّهُ يُشِيرُ إِلَى مَا خَلْفَ وَرَاءَهُمَا مِنْ نَعِيمٍ زَاهٍ مُتَشِيرٍ يُمَثِّلُهُ هَذَا الطَّاوُوسُ فِي وَقْتِهِ تِلْكَ. أَمَّا هَذَا السَّيْفُ الَّذِي يَبْدُو عَلَى غَيْرِ إِتْقَانٍ فِي يُسْرِى جَبْرِيلَ فَلَعَلَّهُ إِشَارَةٌ إِلَى مَا سَيَسْتَقْبِلُهُ آدَمَ وَحَوَّاءَ وَنَسْلُهُمَا مِنْ بَعْدِهِمَا فِي الدُّنْيَا مِنْ إِرَاقَةِ دِمَاءٍ وَكِفَاحٍ وَعُدُونٍ وَشُرُورٍ وَأَثَامٍ.

«رُوضَةُ الصَّفَاءِ». لِمِيرْخُونَد (١٦٠٦). مَتْحَفُ الْفَنِّ الْإِسْلَامِيِّ بِالْقَاهِرَةِ.

وَتَضَمَّنَ مَخْطُوطَةُ «رُوضَةِ الصَّفَاءِ» أَيْضًا مَشْهَدًا رُوحِيًّا تَتَجَلَّى فِيهِ الرُّوحَانِيَّةُ بِأَدَقِّ وَأَجَلِّ مَعَانِيهَا [لَوْحَةٌ مَحْظُورَةٌ نَشْرُهَا] فَهَذَا رَسُولُ اللَّهِ قَدْ اعْتَزَلَ الْعَالَمَ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ فِي غَارِ حِرَاءٍ يَقْضِي فِيهِ اللَّيَالِي الطُّوَالَ مُتَعَبِّدًا مُتَهَيِّجًا تَصَفُّو رُوحَهُ وَتَسْمُو نَفْسُهُ اسْتِعْدَادًا لِتَلْقَى رِسَالَةَ رَبِّهِ. وَمَا أَهَزَّ النَّفْسُ إِذَا مَا ذُكِّرَتْ بِمَا يُخْلَصُّهَا مِنْ دَرَكِ الْحَيَاةِ وَيَسْمُو بِهَا إِلَى صَفَاءِ الرُّوحَانِيَّةِ. ثُمَّ مَا أَكْثَرَ اهْتِزَازَهَا لِذَلِكَ إِذَا كَانَ هَذَا الَّذِي يَدْفَعُهَا إِلَى ذَلِكَ هُوَ صَفَاءُ كَذَلِكَ الصَّفَاءِ وَقِسْوَةٌ عَلَى النَّفْسِ كَيْلِكَ الْقِسْوَةِ اللَّذِينَ عَمَرَ بِهِمَا اعْتَزَالَ الرَّسُولِ فِي غَارِ حِرَاءٍ. وَغَرِيبٌ أَنْ يَجْمَعَ الْمُصَوِّرُ هُنَا فِي هَذَا الْمَشْهَدِ بَيْنَ الرَّسُولِ وَهُوَ فِي الْغَارِ وَبَيْنَ خَدِيجَةَ وَأَبِي بَكْرٍ. وَتَكَادُ تَرَى أَنَّ هَذَا الْجَمْعَ يَعْنِي أَنََّّهُمَا كَانَا أَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَلَقَّى عَنْهُ رِسَالَةَ رَبِّهِ.

وَكَمَا تُثِيرُ الرُّوحَانِيَّةُ فِي النَّفْسِ خَفَقَ الْقَلْبُ وَخَنَانَ الْعَاطِفَةِ فَإِنَّ الْفَرْعَ هُوَ الْآخَرُ لَهُ أَثَرُهُ فِي إِثَارَةِ عَوَامِلِ الشَّفَقَةِ عَلَى الْمُعْتَدَى عَلَيْهِ مِنْ نَاحِيَةِ وَعَوَامِلِ الثَّقَمَةِ عَلَى الْمُعْتَدَى مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى. وَهَكَذَا تُمَثَّلُ لَنَا هَذِهِ الصُّورَةُ مِنَ الْمَخْطُوطَةِ نَفْسُهَا [لَوْحَةٌ مَحْظُورَةٌ نَشْرُهَا] الَّتِي جَمَعَتْ بَيْنَ مَكَانِ الرَّسُولِ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ فِي الْغَارِ يَخْتَبِئَانِ مِنْ قُرَيْشٍ. وَقَدْ كَادَ أَبُو بَكْرٍ يَهْلَعُ وَالرَّسُولُ يُثَبِّتُ جَنَانَهُ. فَهَذِهِ الصُّورَةُ

و«جَامِعُ التَّوَارِيخِ» شَوَاهِدَ عَلَى هَذَا الْعَرَضِ لَوْحَةٌ مِنْ مَخْطُوطَةِ «زُبْدَةِ التَّوَارِيخِ» وَهِيَ تُمَثِّلُ النَّبِيَّ حَزَقِيَالَ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى. وَفِي أَعْلَى اللُّوحَةِ مَا يُشِيرُ إِلَى أَنَّهُ ثَمَّةٌ إِزْهَاصٍ بِمَبْعَثِ نَبِيِّ، وَهَذَا مَا تُوحِي بِهِ عُلوِّيَّةُ الصُّورَةِ مِنْ سَمَاءٍ ذَهَبِيَّةٍ تُثْبِتُ بِإِشْعَاعٍ وَبَرِيقٍ، وَقَدْ بَدَأَ أَثَرُ هَذَا الْإِشْعَاعِ وَالْبَرِيقِ عَلَى تِلْكَ الْجِبَالِ الشَّاهِقَةِ مِنْ تَحْتِهَا فَاكْتَسَتْ هِيَ الْأُخْرَى بِلَوْنٍ بِنَفْسِجِيٍّ يَمْتَزِجُ بِاللَّوْنِ الْوَرْدِيِّ، وَهَذَا وَذَلِكَ نَمَطٌ مِنَ الْأَنْمَاطِ اللَّوْنِيَّةِ التُّرْكِيَّةِ خِلَالَ الْقَرْنَيْنِ السَّادِسِ وَعَشَرَ وَالسَّابِعِ عَشَرَ (لَوْحَةٌ ٤٦٤م). وَفِي أَرْضِيَّةِ الْمُنْمَمَةِ وَقَفَ حَزَقِيَالَ يُجْرِي مُعْجَزَتَهُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ وَهِيَ بَعَثَتْ لِمَنْ فِي الْقُبُورِ، فَتَرَى أَرْضِيَّةَ الصُّورَةِ وَقَدْ بَدَتْ تَضْرِبُ إِلَى الزُّرْقَةِ الَّتِي مِنْ لَوْنٍ خَضَمَ الْمَاءِ حَيْثُ بَدَأَتْ الْحَيَاةَ. وَفِي اخْتِيَارِ الْمُصَوِّرِ لِهَذَا اللَّوْنِ رُبُطٌ بَيْنَ الْمَاءِ وَبَيْنَ كُلِّ شَيْءٍ حَيٍّ، ثُمَّ هُوَ يَكُونُ بِذَلِكَ قَدْ جَمَعَ بَيْنَ أَلْوَانِ ثَلَاثٍ: الذَّهَبِيِّ بِرَبْقِهِ وَالبِنْفَسِجِيِّ بِتَأَلُّفِهِ وَالْأَزْرَقِ بِاضْطِرَابِهِ. وَتَرَى الْمَوْتَى بَيْنَ يَدَيِ حَزَقِيَالَ وَقَدْ أَخَذَتْ تَدَبَّ فِيهِمُ الْحَيَاةَ، فَمِنْهُمْ مَنْ وَقَفَتْ نَاضِجًا وَمِنْهُمْ مَنْ بَدَأَ يَتَحَرَّكُ فِي تَابُوتِهِ، ثُمَّ تَرَى بَعْدَ ذَلِكَ رُؤُوسًا وَعِظَامًا وَأَشْلَاءَ وَهَيَاكِلَ مُتَفَرِّقَةً تَنْتَظِرُ دَوْرَهَا فِي جَمْعٍ أَوْصَالِهَا وَازْتِدَادِ الْحَيَاةِ إِلَيْهَا. وَتَعْلُو رَأْسَ حَزَقِيَالَ هَالَةٌ مُتَوَسِّطَةٌ الِازْتِفَاعِ وَعَلَيْهِ جَبَّةٌ زُرْقَاءُ، وَهُوَ يُشِيرُ بِسَبَابَةِ يَدِهِ الْيُمْنَى إِلَى السَّمَاءِ وَيَبْدُو الْيُسْرَى مَضْمُومَةً الْأَصَابِعِ إِلَى الْأَرْضِ وَكَأَنَّهُ يُرِيدُ بِالْأُولَى أَنْ يَقُولَ إِنَّ هَذَا مِنْ عِنْدِ رَبِّي، وَبِالْثَّانِيَةِ إِلَى الْمَوْتَى لِيُنْهَضُوا مِنْ قُبُورِهِمْ، وَلَيْسَ ثَمَّةَ مَا يَأْخُذُ نَفْسَ الْمُشَاهِدِ مِنْ أَنْ تُمَثِّلَ لَهُ مُصَوَّرَةً مُعْجَزَةً كَتَلِكِ الْمُعْجَزَةِ فِيهَا إِحْيَاءُ الْمَوْتَى وَجَمْعُ مَا بَعُثَ فِي الْقُبُورِ مِنْ عِظَامٍ وَرُفَاتٍ. ثُمَّ أَنْ يَرَى الْمُشَاهِدُ أَيْضًا إِلَى ذَلِكَ هَذَا الْإِزْهَاصِ الَّذِي تَحْكِي عَنْهُ الْكُتُبُ الْكَثِيرُ وَلَا تَكَادُ تُمَثِّلُهُ الْأَعْيُنُ وَلَا تَعْرِفُ عَنْهُ صُورَةً تُقَرِّبُهُ إِلَى خَيَالِنَا. فَهَذَا الْجَمْعُ بَيْنَ مَا تَرُجُو النَّفْسُ أَنْ تَرَاهُ مِنْ بَعَثِ لِلْمَوْتَى وَمِنْ تَجَسُّيدِ لِهَذَا الْإِزْهَاصِ هُوَ لَا شَكَّ - كَمَا قُلْنَا قَبْلَ - مِنْ الْأُمُورِ الْمُعْجَزَةِ الَّتِي انْفَرَدَ بِهَا فَنَ التَّصْوِيرِ وَعَلَا بِهَا عَلَى فَنِّ الْكَلِمَةِ فَانْتَقَلَ بِالنَّفْسِ مِمَّا تَوَهَّمُ إِلَى مَا تَطْمَعُ أَنْ تَرَاهُ مُجَسَّدًا.

«كِتَابُ الْفَالْنَامَةِ» لِقَلَنْدَرِ بَاشَا. الْقَرْنُ ١٧. مَتْحَفُ طُوبُ قَابُو بِاسْتَنْبُولِ

وهذه لَوْحَةٌ مِنْ كِتَابِ «الْفَالْنَامَةِ» تَضَمَّنَ إِلَى مَا سَقْنَاهُ قَبْلَ، تُمَثِّلُ لَنَا «آدَمَ وَحَوَّاءَ» (لَوْحَةٌ ٤٦٥م). وَفِي خَلْفِيَّةِ الصُّورَةِ الْجَنَّةُ بِوُرُودِهَا وَرِيَاضِهَا، وَيَبْدُو آدَمَ فِي وَسْطِ الصُّورَةِ وَقَدْ أَمْسَكَ يَسْرَاهُ يَمِينِ حَوَّاءَ وَالتَفَّتْ إِلَيْهَا الْيَفَافَةُ فِيهَا مَعْنَى التَّائِيْبِ إِلَى أَنَّهَا كَانَتْ السَّبَبَ فِي طَرْدِهِمَا مِنَ الْجَنَّةِ، كَمَا بَدَأَ عَلَى وَجْهِ حَوَّاءَ وَجُومِ النَّدَمِ وَهِيَ تَسْتَمِعُ لِآدَمَ الَّذِي صَوَّرَ رَافِعًا يُمْنَاهُ إِلَى صَدْرِهِ حَيْثُ الْقَلْبُ وَكَأَنَّهُ يُشِيرُ بِهَذِهِ الْوَضْعَةِ إِلَى صِدْقِ مَا يُحَدِّثُ بِهِ حَوَّاءَ. وَالصُّورَةُ

دِرْعَه الحَصِينِ والدَّائِدِ عَنْهُ، والوَاقِفَ مَعَهُ ضِدَّ أَعْدَائِهِ مِنْ قُرَيْشٍ. ثُمَّ لَقَدْ كَانَ الْمُحَارِبِ الشُّجَاعِ وَالْبَطْلِ الصَّنْدِيدِ وَالرَّجُلِ الْمَهِيْبِ، فَكَانَ وُجُودُهُ إِلَى جَانِبِ الرَّسُولِ عِزًّا لِلرَّسُولِ وَلِلْمُسْلِمِينَ، لِهَذَا كَانَ مَقْتَلُهُ خَسَارَةً كُبْرَى مَادِّيَّةً وَمَعْنَوِيَّةً، وَكَانَ التَّمَثِيلُ بِهِ فِي مَقْتَلِهِ أَشَدَّ مِنْ ذَلِكَ وَأَنْكَبَى. كُلُّ هَذِهِ الْمَعَانِي تَمَثِّلُهَا الْمُصَوِّرُ لَا شَكَّ فِي نَفْسِهِ وَتَأَثَّرَ بِهَا وَجْدَانُهُ فَأَحْسَنَ مَا نُحِيسُهُ جَمِيعًا إِلَى الْيَوْمِ مِنْ إِشْفَاقٍ وَأَسَى لَا تَزَالُ الصُّورَةُ تَنْطَلِقُ بِهِمَا وَتُحَرِّكُهُمَا فِي النُّفُوسِ مَا بَقِيَتْ وَعَاشَتْ بَيْنَ أَيْدِينَا [لَوْحَةٌ مَحْظُورَةٌ نَشْرُهَا].

وَنَخْتِمُ مَا نَعْرُضُهُ مِنْ مُصَوِّرَاتِ تِلْكَ الْمَخْطُوطَةِ بِصُورَةِ «الْعَفْوِ عَنْ عِكْرَمَةَ بَعْدَ دُخُولِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مَكَّةَ» فِي الْعَامِ الثَّامِنِ لِلْهِجْرَةِ (لَوْحَةٌ ٤٦٦م).

الَّتِي تَجْمَعُ بَيْنَ هَذَا الْمَشْهَدِ، وَبَيْنَ مَشْهَدِ الْمُعْتَدِينَ تُثِيرُ - لَا شَكَّ - كَمَا قُلْنَا، لَوْنَيْنِ مِنَ أَلْوَانِ الْعَاطِفَةِ، لَوْنًا مَشُوبًا بِالرَّقَّةِ وَالشُّفَقَةِ وَالْأَسَى وَلَوْنًا مَشُوبًا بِالثُّقْمَةِ وَالْغَضَبِ وَالْوَيْلِ. وَالنَّفْسُ لَا تَمْلِكُ غَيْرَ هَذِهِ الْمَشَاعِرِ، مَشَاعِرِ الرَّحْمَةِ وَمَشَاعِرِ الثُّقْمَةِ، وَبِهِمَا يَكُونُ أَبْلَغُ الْأَثَرِ الَّذِي تَمْلِكُهُ صُورَةُ مَا يُبْدَأُ مِنَ الْمُصَوِّرِ وَاسْتِمْتَاعًا مِنَ الْمُشَاهِدِ.

وَتَسُوقُ الْمَخْطُوطَةُ فِيمَا تَسُوقُ مِنْ صُورٍ نَعُدُّهَا تَتَّفِقُ وَهَذَا الْجَانِبِ الَّذِي اخْتَرْنَاهُ وَأَفْرَدْنَا لَهُ هَذَا الْفَصْلَ تِلْكَ الصُّورَةُ الَّتِي تُمَثِّلُ مَشْهَدًا مِنْ أَرْوَاعِ الْمَشَاهِدِ وَأَبْلَغُهَا أَثَرًا فِي النَّفْسِ وَأَقْوَاهَا إِثَارَةً لِلْوَاعِجِ الْحُزْنَ، فَلَقَدْ كَانَ حَمَزَةُ عَمِّ الرَّسُولِ أَعَزَّ رَجُلٍ عَلَى الرَّسُولِ. كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَارَعَ لِلْإِسْلَامِ بِهِ مِنْ أَعْمَامِهِ، وَكَانَ

الفصل الثالث والثلاثون

التصوير الوعظي

قِصَصُ الْمُتَصَوِّفَةِ مَعِينٌ خَصِبٌ يَنْهَلُ مِنْهُ الْمُصَوِّرُونَ

وُجْدَانُهُ، وَتَمَثَّلُ فِيهِ الْعِظَةُ الْهَادِيَّةُ وَالْعِبْرَةُ الْمُرْشِدَةُ وَالتَّصْبِيحَةُ الْمَوْجَّهَةُ، فَإِذَا هُوَ بَعْدَ أَنْ تَمَثَّلَتْ نَفْسُهُ بِهَذَا كُلِّهِ يُبْرِزُهُ لَنَا فِي تَصَاوِيرٍ تُعَبِّرُ عَنْ هَذَا الْوُجْدَانِ وَتِلْكَ الْمَشَاعِرِ وَهَذِهِ الْأَحَاسِيسُ (الْلُّوحَتَانِ ٢٥٣، ٢٥٤). وَقَدْ وَقَعَتْ عَلَى كَثْرَةِ مِنْ تِلْكَ الصُّوَرِ الَّتِي تُسَانِدُنِي فِي عَرْضِي هَذَا، بَعْضُهَا مَا أَنَا مُسْبِقٌ إِلَيْهِ وَبَعْضُهَا لَمْ أُسْبِقْ إِلَيْهِ، مِثْلُ مَا جَاءَ بِكِتَابِ «مَنْطِقِ الطَّيْرِ»، بِدَارِ الْكُتُبِ الْقَوْمِيَّةِ بِبَارِيسِ وَمُتَخَفِ الْمِتْرُوبُولِيتَانِ، لِفَرِيدِ الدِّينِ الْعَطَّارِ، وَمَخْطُوطَةِ الْمَشْنُوعِيِّ، بِمُتَخَفِ الْفَنِّ الْإِسْلَامِيِّ بِالْقَاهِرَةِ، لِجَلَالِ الدِّينِ الرَّومِيِّ، وَبِمَخْطُوطَةِ الْعُرُوشِ السَّبْعَةِ لِلشَّاعِرِ جَامِي، وَبِمَخْطُوطَةِ جُلُستَانِ لِلشَّاعِرِ سَعْدِيِّ، وَكِلَاهُمَا بِدَارِ الْكُتُبِ الْمَوْصَرِيَّةِ.

وَالْأَحَادِيثُ عَنِ الْوَعْظِ قَدِيمَةٌ قَدَّمَ الْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ، وَقَدْ عَبَّرَتْ عَنْهَا فِي عَهْدِهَا الْمُخْتَلِفَةِ الْمُتَعَاوِيَةِ تَعَابِيرَ ذَاتِ أَلْوَانٍ وَذَاتِ أَشْكَالٍ وَذَاتِ قَوَالِبٍ. فَمِنْهَا مَا جَاءَ عَلَى صُورَةِ الْأَمْثَالِ وَمِنْهَا مَا جَاءَ عَلَى صُورَةِ الْحِكْمَةِ، وَمِنْهَا مَا أُفْرِغَ فِي قِصَّةِ رَمْزِيَّةٍ عَلَى أَلْسِنَةِ الْخَيَّوَانِ وَالطَّيْرِ، وَمِنْهَا مَا اقْتَبَسَ مِنَ الْوَاقِعِ الْإِنْسَانِيِّ وَكَانَ تَغْيِيرًا عَنْ أَمْرٍ وَاقِعٍ حَقًّا، وَمِنْهَا مَا كَانَ لِلْخَيَالِ فِيهِ نَصِيبٌ كَبِيرٌ. بِكُلِّ هَذِهِ الْأَسَالِيبِ جَاءَتْ الْوَعْظِيَّاتُ فِي تَارِيخِ الْأُمَّةِ، وَلَكِنَّا نَكَادُ نَجِدُ هَذَا كُلَّهُ شَيْئًا مُتَنَائِرًا هُنَا وَهُنَاكَ لَمْ يَكْدِ يَجْتَمِعُ شَمْلُهُ وَيُظْهِرُ فِي قُوَّتِهِ وَعُنفَوَانِهِ إِلَّا مَعَ ظُهُورِ التَّصَوُّفِ. فَمِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ قِصَصَ الْمُتَصَوِّفَةِ وَالذَّرَاوِشِ وَمَنْ إِلَيْهِمْ مَلِيَّةٌ بِالْكَثِيرِ مِنَ التَّضَحُّيَّاتِ وَالْكَثِيرِ مِنَ الْجُهُودِ الرُّوحَانِيَّةِ الْخَارِقَةِ، وَالْكَثِيرِ مِنَ الْمُنَامَرَاتِ فِي سَبِيلِ نُصْرَةِ الْحَقِّ. وَهَذَا كُلُّهُ كَانَ مَادَّةَ خَصِيبَةٍ لِلْمَوْلَفِ حَاكٍ مِنْهُ وَخَوَّلَهُ مَا شَاءَ أَنْ يَحْكُو، مُلْتَزِمًا جَانِبَ الْوَاقِعِ مَرَّةً وَمُضَيِّعًا إِلَى ذَلِكَ الْوَاقِعِ شَيْئًا مِنَ الْخَيَالِ مَرَّةً ثَانِيَةً، ثُمَّ مُشِيرًا آخِرَ الْأَمْرِ إِلَى مَا تَحْمِلُهُ تِلْكَ الْقِصَّةُ مِنْ عِظَةِ يُرِيدُ أَنْ يَلْقَئَهَا النَّاسُ عَنْهُ.

«مَنْطِقُ الطَّيْرِ» لِفَرِيدِ الدِّينِ الْعَطَّارِ

قُلْنَا إِنَّ فَنَّ التَّصْوِيرِ يُسَايِرُ فَنَّ الْقَوْلِ لَا يَعِيشُ أَحَدُهُمَا بَعِيدًا

حِينَ دَخَلَ فَنُّ التَّصْوِيرِ إِلَى الْحَيَاةِ الْإِسْلَامِيَّةِ كَانَ لَا بُدَّ لَهُ أَنْ يُعَالِجَ تِلْكَ الْحَيَاةَ مِنْ جَمِيعِ نَوَاحِيهَا لَا يَنْفِرُ بِنَاحِيَّةٍ دُونَ أُخْرَى، شَأْنُهُ فِي ذَلِكَ شَأْنُ أَيِّ فَنٍّ تَعْبِيرِيٍّ لَا يَقْتَصِرُ عَلَى أَمْرٍ دُونَ أَمْرٍ، وَإِذَا كُنَّا قَدْ رَأَيْنَا فِيهَا عَرَضُنَا أَنَّ هَذَا الْفَنَّ التَّصْوِيرِيَّ قَدْ اقْتَحَمَ أَمْنَعَ مَعْقَلٍ فِي الْحَيَاةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَهُوَ تَعَرُّضُهُ لِتَصْوِيرِ الرَّسُولِ وَمَا يَتَّصِلُ بِحَيَاتِهِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ تِلْكَ الْمُشَادَاتِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي جَزَتْ حَوْلَ إِبَاحَتِهِ وَتَحْرِيمِهِ، فَإِنَّ فَنَّ التَّصْوِيرِ وَجَدَ لِنَفْسِهِ مَا يُبَيِّرُ بِهِ التَّعْبِيرَ عَنْ تِلْكَ الْمَشَاعِرِ الَّتِي تَفِيضُ بِهَا نَفُوسُ الْمُصَوِّرِينَ وَالَّتِي رَأَى أَنَّهُ فِي تَعْبِيرِهِ عَنْهَا بِالصُّورَةِ إِنَّمَا يُقَدِّمُ عَمَلًا يُقْنِعُ وَيُغْنِي إِقْنَاعَ الْكَلِمَةِ وَغِنَاءَهَا. وَمَا مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ الْمُصَوِّرَ الْمُسْلِمَ لَمْ يَكُنْ يُصَوِّرُ عَنْ نَزْعَةٍ تُخَالِفُ أَوَامِرَ الدِّينِ فِيمَا يَعْتَقِدُ، بَلْ كَانَ يُؤْمِنُ بِأَنَّهُ يُسَانِدُ كُلَّ مَنْ تَصَدَّى لِلرَّسَالَةِ الدِّينِيَّةِ بِقَلَمِهِ وَلِسَانِهِ.

وَلَقَدْ اسْتَقَرَّ التَّصْوِيرُ الْإِسْلَامِيُّ بَعْدَ تِلْكَ الْخُطُوبَاتِ الْأُولَى الْمُضْطَرِبَةِ الَّتِي عَاشَهَا بَيْنَ إِقْدَامٍ وَإِحْجَامٍ، حَتَّى إِذَا مَا اسْتَوَتْ لَهُ كَلِمَتُهُ وَاطْمَأَنَّ لَهُ أَمْرُهُ رَأَيْنَا لَهُ تِلْكَ الْكَثْرَةَ الْكَثِيرَةَ مِنْ تَصَاوِيرٍ تَتَنَاوَلُ نَوَاحِي مُخْتَلِفَةٍ. وَلَقَدْ رَأَيْنَا فِي تِلْكَ التَّصَاوِيرِ - فِيمَا سَبَقَ أَنْ قَدَّمْنَا مِنْ عَرَضٍ لِقِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ مِنْ عَرَضٍ لِتَحْرِيكِ الْمَشَاعِرِ - كَمَ كَانَ لِلْمُصَوِّرِ الْمُسْلِمِ أَثَرُهُ الْبَالِغُ فِيمَا أَخَذَ فِيهِ. وَكَانَتْ ثَمَّةُ نَاحِيَّةٍ أُخْرَى لَمْ نَشَأْ أَنْ نُهْجِلَ الْحَدِيثَ عَنْهَا إِذْ هِيَ لَا تَقَلُّ شَأْنًا عَنْ سَابِقَتَيْهَا، وَكَانَ لِلْمُصَوِّرِ فِيهَا إِبْدَاعٌ أَيْ إِبْدَاعٌ. ثُمَّ إِنَّ الْأَمْرَ - كَمَا قُلْنَا - لَا يَجْمُدُ فِيهِ لَفَنٌ إِذَا مَا بَدَأَ وَظَهَرَ عَنْ أَنْ يَأْخُذَ فِي أَلْوَانِ الْحَيَاةِ كُلِّهَا. وَكَانَ مِنَ أَلْوَانِ الْحَيَاةِ الْإِسْلَامِيَّةِ إِلَى جَانِبِ اللَّوْنَيْنِ اللَّذَيْنِ سَبَقَا لَوْ أَنَّ آخَرَ لَمْ تَنْفَرِدْ بِهِ الْبَيْئَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ بَلْ شَارَكَتْ فِيهِ غَيْرُهَا مِنَ الْبَيْئَاتِ. وَهَذَا الْجَانِبُ الَّذِي أَغْنِيَهُ هُنَا هُوَ الْجَانِبُ الْوَعْظِيُّ، الَّذِي يَحْمِلُ عِظَاتٍ تَجْرِي فِي الْبَيْئَةِ، أَبْطَالُهَا أَفْرَادُ حَقِيقَتِيُونَ أَوْ أَنْاسُ مُتَخَيِّلُونَ، وَيَجِدُ الْمُصَوِّرُ فِي هَذَا وَذَلِكَ مَا يُثِيرُ خَيَالَهُ وَيُحَرِّكُ

عَنِ الْآخَرِ، فَهَمَا مُتَلَاذِمَانِ. والدليل على هذا التلازم ما تحمله الكتب القصصية القديمة من صور بين طياتها ترمز إلى أشخاص القصص وأحداثها، لا يعنينا أن يجيء أحد الفئتين متخلفاً عن الآخر، ولكن الذي يعنينا هو التلازم، فقد يجد القول مرّة على حين يهن التصوير، كما قد يجد التصوير على حين يهن القول، كما قد يجد الاثنان معاً. وقد بدأ هذا يكثر - أعني إجادة الاثنين معاً - حين بدأت القصة تجد عناصرها القويّة ومادتها الغزيرة في الموضوعات الصوفيّة. ومن هنا نستطيع القول بأنّ التصوير الوعظي في الإسلام كانت له قوّته وبروزه وشهرته مع ظهور القصص الصوفيّة. أمّا ما جاء قبل هذا فلا نكاد نقع فيه إلا على لفئات تصويريّة لا تُعني شيئاً، ولا نكاد نجد منها إلا النزر اليسير الذي لا يصلح مادّة للقول عن التصوير الوعظي. ومن بين هؤلاء المتصوّفين الذين ذاعت أسماءهم ودارت حولهم قصص كثيرة مليئة بالعظات والعبر فريد الدين العطار النيسابوري وجلال الدين الرومي.

وإذا كنّا قد عرضنا لهذا العلم الصوفيّ فإني أجد أن أطلع القارئ مع هذا العرض بصورة تُمثله لعلّها تُلقي ضوءاً عن شخصيّة هذا الرجل، فكثيراً ما يُعنى الناظر في كتاب لمؤلف بأن يرى إلى جانب ما كُتب رسم ذلك المؤلف مُخيّلاً أو حقّاً، إذ كلاهما يُشبع رغبة للمستقصي الذي يُجب أن يشفع استقصاءه عن الكلمة المكتوبة يرسم كاتبها ليربط ما بين الاثنين (لوحة ٢٥٥م).

ولم تكن حياة العطار هي وحدها مكان العظة التي يستمدّ منها المصوّر، بل كانت له ثمة مؤلّفات عن حياة أضرابه من المتصوّفين، وتحمل إلى جانب تلك التراجم أفكاراً له عن التصوّف نفسه، منها «تذكرة الأولياء»، «منطق الطير» الذي سنُفرد به الحديث بعد لما اشتمل من صور وعظية. ولم يتأكد بعد على وجه اليقين من العام الذي كتّب العطار خلاله هذا الكتاب الذي أطلق عليه: «منطق الطير» لأنّه يدور حول رحلة الطيور بزعامة الهذد وكفاحها في اجتياز الوديان السبعة للوصول إلى السيمرغ بجبل قاف الذي يحيط بالعالم، وفنائها فيه بعد أن توحّدت معه فظفرت بالبقاء. والسيمرغ أحد الطير الخرافيّة التي يكثر ذكرها في الأساطير الإيرانيّة والتاريخيّة ومعناها ثلاثة طيور أو ثلاثون طائراً. وهو نوع من الطير تُرُضِع أفراسها بالبنان. ومسكن السيمرغ على الشجرة التي تقي كلّ البذور، وهي في المحيط الواسع على مقربة من شجرة الخلد تجتمع عليها البذور التي أنتجت البساتين كلّها طول السّنة. وقد صار السيمرغ يعدّ مثال الحكمة العليا واتّخذ بعض الصوفيّة رمزاً للحقّ.

وأراد العطار بهذه الملمحة أن يصوّر درجّات أهل العرفان في التصوّر الصوفيّ ورياضتهم الشاقّة ليلوغ مرتبة الكمال. وتتلخّص هذه الدرجات في مقام «الطلب» ثمّ مقام «العشق» ثمّ «المعرفة»، وهو طريق غامض وشاق، وقد يهتدي إليه واحد من بين كلّ مائة ألف، وبعد ذلك يأتي مقام «الاستغناء» ثمّ «الوجد» ثمّ مقام «الجيرة» وسابغها وآخرها مقام «الفناء». وتروى القصة أنّ الطيور اجتمعت لاختار ملكاً، فأبلغهم الهذد أنّ السيمرغ هو الملك ولكن عليهم أن يسمّوا إليه. ويدور حوار شيعريّ طويل بين الهذد وسائر الطيور كلّ يعتذر عن إمكانه سلوك هذا الطريق الشاق. وكلّ منهم مشغول بنفسه وحياته، وأخيراً يقنعون بالسفر ويبدأون رحلتهم الشاقّة متخطّين الوديان السبعة بعدد مراتب الصوفيّة السبعة، فتَهلك منهم آلاف الطيور ولا يصل منهم إلى حضرة السيمرغ سوى ثلاثين، وكلّهم واهن الجسم

عَنِ الْآخَرِ، فَهَمَا مُتَلَاذِمَانِ. والدليل على هذا التلازم ما تحمله الكتب القصصية القديمة من صور بين طياتها ترمز إلى أشخاص القصص وأحداثها، لا يعنينا أن يجيء أحد الفئتين متخلفاً عن الآخر، ولكن الذي يعنينا هو التلازم، فقد يجد القول مرّة على حين يهن التصوير، كما قد يجد التصوير على حين يهن القول، كما قد يجد الاثنان معاً. وقد بدأ هذا يكثر - أعني إجادة الاثنين معاً - حين بدأت القصة تجد عناصرها القويّة ومادتها الغزيرة في الموضوعات الصوفيّة. ومن هنا نستطيع القول بأنّ التصوير الوعظي في الإسلام كانت له قوّته وبروزه وشهرته مع ظهور القصص الصوفيّة. أمّا ما جاء قبل هذا فلا نكاد نقع فيه إلا على لفئات تصويريّة لا تُعني شيئاً، ولا نكاد نجد منها إلا النزر اليسير الذي لا يصلح مادّة للقول عن التصوير الوعظي. ومن بين هؤلاء المتصوّفين الذين ذاعت أسماءهم ودارت حولهم قصص كثيرة مليئة بالعظات والعبر فريد الدين العطار النيسابوري وجلال الدين الرومي.

أما أولهما فقد عاش فيما بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر وكان رأس المتصوّفة في ذلك العهد، هذا إلى ما وهب من ملكة الشعر. ولقد ورث العطار عن والده مهنة الطبّ وحرفة الصيدلة وكانت تُعرّف قديماً باسم العطارة. ويحكى أنّ العطار بينما كان جالساً ذات يوم أمام حانوته تشغله دُنياه عن أخراه إذا درّوش به من جنون يقترب منه مُحملقاً فيه دهشاً وكأنّه يُثيره. فصاح العطار: كيف تنظر إليّ شذراً؟ ما أولاك أن تمضي لشأنك. فأجاب الدرّوش بجنان ثابت ونفس مطمئنة: ما أنا بالذي يعنيه ما أنت فيه من جأو. وهل أنا إلا رجل خفّ جملي ليس لي من دُنياي غير خزقي تلك الرئة التي أحملها على كتفي. أما أنت فما أثقل جملك يوم الرّحيل. فلقد انصرفت عن أخراك بما شغلتك به دُنيا العقاقير، فما أقدّرني على أن أمضي لتوّي، وما أعجزك عن المضيّ بأثقالك.

وأحسن العطار كأنّه ألهم حَجْراً، ثمّ هدأت نفسه شيئاً، وإذا هو يسأل الدرّوش: وكيف تمضي؟ فيقول الدرّوش: هكذا.

ويتزع الخرقه عن كتفه ويلقيها على الأرض ويضطجع عليها فإذا هو قد فاضت روحه.

فطارت نفس العطار شعاعاً وخلف صيدليته وأباح أمواله بين الناس وخرّج من سوق الدنيا وباعها بقبضة ربح.

ويحكى دولتشاه أنّ عسكر جنكيز خان كانوا قد أسروا العطار ودّبحوه فاستشهد على أيديهم، وأنّ هذا لم يكن إلا «لأنّ بيغاه روحه المباركة كانت قد برّمت بسجن البدن فسارعت إلى هذا

سيمعان. وتتلخص القصة كما وردت في كتاب «منطق الطير» في أن الشيخ صنعان كان إماماً لعلماء عصره في العلم والعبادة ورفعة الخلق، وأنه حجَّ خمسَ حِجَّةٍ ولازم الحَرَمَ خمسَين عاماً، وبلغ مُريدوه أربعمائة يتلقون تعاليمه ويتبعون هديه، وأنه رأى ذات ليلة في حلمه أنه زار بلاد الروم وسجد للصنم. ولم يرَ بُدّاً من أن ينزح إلى تلك البلاد ليرى تأويلاً لحلمه، فسار إليها ومُريدوه في ركابه. وخلال طوافهم بتلك البلاد وقعت عينا الشيخ على فتاة مسيحية فاتنة تطل من شرفها فبهره سناها، فلأزم حياها واستقرَّ مقامه تحت شرفها هيأماً:

كانت شُرْفَةٌ عالية

بدت وكأنها القضاء والقدر،

منها أطلت حورية مسيحية في مِيعَةِ الصَّبَا.

في طريقها إلى الله لها مائة مَعْرِفَةٍ.

كانت في سماء الحُسن،

في بُرجِ الجمال،

شمساً لا تغيب.

في دَفَنها عَمارة تسبي القلوب.

وفي نُطقها سحر عيسى الكليم

.....

ولما نَحَّتْ عَنْ وَجْهِها لَمَّةٌ شَعَرها الفاجم

انْقَدَّ جِسْمُ الشَّيْخِ سَعيراً

وهوى صريع الوجد

وطارَ شَعاعاً ما يعمر قلبه من إيمان

وطمس دُخان نار العشق على قلبه

وخَرَّ قَتيل الهوى

فَسَمَّ قلبه وعاف رُوحه

وأعرض عن نُصح أتباعه له بالأقول راجعين إلى الحَرَم، إذ

هو شيخ طاعن وهي صبيّة في ربيع الشَّباب، ثُمَّ هو مُسلم وهي نصرانيّة، غير أنه لم يلتقِ بالاً واستسلم لحُبّه:

وحينَ رآه مُريدوه نايحاً ضارِعاً ذليلاً

علِموا أن نفسه قد زُلزِلَت

وحارت في أمره عُقولهم،

مهيض الجَناح كسير القلب. غيرَ أنها حينَ تمثّل بين يديه يهون عليها ما تكبّدت من مشاق، وتُشرق أزواحها بنور إلهي بحيث ترى نفسها في السيمرغ وترى السيمرغ في نفوسها وقلوبها، أي أنها وصلت إلى مرتبة الفناء في المَحْبُوب وهي أعلى مراتب الكمال. فهُم عندما يمثّلون بين يدي السيمرغ تكون أشخاصهم قد انمحت وزالت الحُجُبَ بينهم وبين مَلِيكهم. وعندما يتطلّعون إليه يُشاهدون فيه سي مرغ [ثلاثين طائراً] وبذلك يرون كثرة في وَحدة، فإذا ما نظّروا إلى أنفسهم أي إلى سي مرغ [ثلاثين طائراً] شاهدوا السيمرغ وَحدة فتتألمهم الجيرة ويسألون فيقال لهم: إنّ هذه الحَضرة مِرْآة، فَمَن جاءها لا يرى نفسه، جِئْتُم سي مرغ [ثلاثين طائراً] فرأيْتُم السيمرغ.

وثمة صورة من مخطوطة «منطق الطير» المَحفوظة بالمتحف البريطاني للطاؤوس والهُدُود (لَوْحَة ٢٥٦) وهما يتحاوران ويتناجيان. وترى الطاؤوس فيها مُتكلِّماً والهُدُود مُصغياً، وقد أخذ الطاؤوس يحكي في أسى كيف صادق الحَيَّةَ وهي التي مكّنته إلبس من دخول الجَنَّة، وكان جزاء الطاؤوس على ذلك أن كان من المطرودين من الجَنَّة وهو يودّ - يجذع الأئف - لو عاد إليها ثانية. وقد نظم العطار ذلك شِعْراً بالفارسيّة ونحن نُجول ما قال بالعربيّة.

يقول الطاؤوس:

ما أَشامها صُحْبَةً،

صُحْبَتِي لِلحَيَّة.

وما كانَ أَعدَله من جَزاء لي،

طرّدي من الجَنَّة.

وما تَمَيَّيتُ شَيْئاً غيرَ أن أعود إلى ما كُنْتُ عَلَيْهِ

هَلْ مَن يَدُلّني إلى الخُلْد؟

لو خُيِّرَت لِأَكُونَ سُلطان الطيور في الأرض

لَتَمَيَّيتُ مُخْلِصاً أن أعود إلى جَنَّتِي

تلك الجَنَّة التي هي فردوسي الأعلى

ويتخلّل هذه الملحمة حكايات تمثيلية عديدة على نحو ما اعتاد الشعراء الفُرس وبخاصة المتصوّفين، هادفين من ذلك تجسيد مقاصدهم في مثل تلك الحكايات، ومن أشهرها قصة «الشيخ صنعان» التي تداولتها قصص الصُوف. وقد أوردنا العطار في كتابه «منطق الطير» شِعْراً فارسيّاً، كما ذُكرت في عدّة مصادر أخرى، وسَمّي فيها صنعان باسم عبد الرّازق وأحياناً

واجْتَمَعُوا لَهُ ناصِحِينَ،

غَيْرَ أَنَّ نُصَحَهُمْ لَمْ يُجِدْهُمْ أَوْ يُجِدْهِ قَتِيلًا.

وَصَلَ اللَّيْلُ بِالنَّهَارِ،

عَيْنَاهُ عَالِقَتَانِ بِشُرْفَةِ الْمَعْشُوقِ.

فَاغْرَأْ فَاهُ كَمَنْ قَضَى نَجْبَهُ.

يقول مُريدوه:

يا عَارِفَ السِّرِّ

انْهَضْ واجْمَعْ شَتَاتَ نَفْسِكَ فِي صَلَاتِكَ

صنعان : مِخْرَابِي وَجْهَ مَعْشُوقِي ...

ذُلُونِي عَلَيْهِ، حَتَّى أَقْطَعَ إِلَى صَلَاتِي

مَا أَرْوَعَ السُّجُودِ

أَمَامَ وَجْهِ حَبِيبِي الْمَلِيحِ.

مُريد : يَا شَيْخَ أَلَيْسَ وَازِعَ لَكَ مِنْ إِسْلَامِكَ؟

وَلَكِنْ لَيْسَ نَمَّةٌ وَازِعٌ.

صنعان : واحْسَرَتْهُ إِذْ لَمْ أَحْشِقْ مِنْ قَبْلِ

مُريد : كُلُّ مَنْ يَعْلَمُ حَالَكَ يَزِيْمُكَ بِالضَّلَالِ

صنعان : لَقَدْ سَمَوْتُ عَلَى الْجَاهِ وَالزَّلَلِ

وَرَجِمْتُ آيَةَ التَّفَاقِ فَحَطَّمْتُهَا ..

مُريد : لَقَدْ وَجَدَ صِحَابُكَ الْقُدَامَى عَلَيْكَ

وَانْفَرَطَتْ قُلُوبُهُمْ حُزْنًا وَهَمًّا

صنعان : رِضَى طِفْلَتِي الْمَسِيحِيَّةِ عَنِّي

يَجْعَلُنِي لَا أُلْقَى بِالًا لِهَذَا أَوْ ذَاكَ

مُريد : فَلْتُخَضَّعْ لِمَشِينَةِ مُرِيدِكَ،

وَلْتُسُدَّ الرَّحَالُ إِلَى الْكَعْبَةِ

صنعان : إِذَا لَمْ تَكُنْ كَعْبَةً، فَالْدَّيْرُ مَوْجُودٌ.

مَا أَبْقَظْنِي فِي الْكَعْبَةِ وَأَشَدَّ خُمَارِي فِي الدَّيْرِ (أَيِ سُكْرِي)

مُريد : فَلْتَحْزَمْ أَمْرَكَ عَلَى الْمَسِيرِ اللَّيْلَةِ،

وَلْتُفْخَعْ فِي الْحَرَمِ وَتُبْدِيَ التَّوْبَةَ

صنعان : دَعْنِي، فَالْتَّوْبَةُ أَنْشَدَهَا

بَيْنَا رَأْسِي تَزْنَحُ عَلَى أَعْتَابِ حَبِيبِي ...

مُريد : يَا شَيْخَ احْذَرْ نَارَ جَهَنَّمَ،

وَجَهَنَّمَ لَا تَضُمُّ الْعَارِفِينَ

صنعان : نَارُ جَهَنَّمَ لَوْ اعْتَرَضَتْ طَرِيقِي

وَلَوْ كَانَتْ سَبْعًا لاحتَرَقَتْ مِنْ آهَةِ لِقَلْبِي

أُطْلِقُهَا مَرَّةً ...

وعلى هذا النحو من المُحَاوَرَةِ الصُّوفِيَّةِ الرَّفِيعَةِ، وَالشُّعْرِ

الْفَلَسَفِيِّ الْمُتَعَدِّدِ الْأَوْجُهَ يَمْضِي الْعَطَّارُ فِي قِصَّةِ الشَّيْخِ صَنَعَانَ،

وَنَصِلُ خِلَالَهَا إِلَى نُقْطَةِ حَرَجَةٍ هِيَ مُرَاوَدَةُ الشَّيْخِ لِلصَّبِيَّةِ عَنْ

نَفْسِهَا، وَإِدْلَالِهَا لَهُ:

صنعان : تَكَادُ رُوحِي تَصْعَدُ إِلَيْكَ اسْتِهَاءً

فَإِلَى مَتَى احْتِجَابُكَ عَنِّي ...

الصَّبِيَّةُ : أَيُّهَا الشَّيْخُ الْخَرِفُ تَحْتَ أَغْبَاءِ الزَّمَنِ ..

إِخْسَاءً وَاشْتَرِ كَفَنًا وَبَعْضُ كَافُورِ

وَقَبْرًا يَحْتَوِيكَ.

.....

صنعان : قُولِي وَأَعْيِدِي مِثِّي، أَلْفَا بَعْدَ أَلْفٍ ...

أَنْهَيْتُ جَمِيعَ الْأَعْمَالِ وَتَفَرَّغْتُ لِعِشْقِكَ ...

وَسِهَامُ الْحُبِّ عَمِيَاءٌ ...

تَرَشَّقُ، لَا تَسْأَلُ عَمَّنْ تُضْمِيهِ

شَيْخًا كَانَ أَمَ صَبِيًّا ...

الصَّبِيَّةُ : مَا دُمْتُ تَدَّعِي قُدْرَتَكَ عَلَى أَنْ تَأْتِي عَمَلًا ...

فَوِصَالِي غَالٍ وَعَسِيرِ

عَقَرُ بَثْرَابِ الصَّمِّ جَبِينِكَ وَاسْجُدْ لَهُ ...

أَشْعِلْ نَارًا فِي قُرْآنِكَ

وَاشْرَبْ خَمْرًا حَتَّى تَتَمَلَّ

وَلْتُغْمِضَ عَيْنُكَ عَنِ الْإِيمَانِ

صنعان : إِخْتَرْتُ الْخَمْرَةَ،

أَمَّا مَا بَقِيَ فَلَنْ أَقْرِبَهُ ..

وما جَدُو الصَّدَاقَةِ إِنْ لَمْ تَنْفَعْ فِي يَوْمِ الصِّيقِ
لَمْ لَمْ يُقَدِّمْ نَفَرٍ مِنْكُمْ يَدُ الْعَوْنِ إِلَيْهِ؟
وَحِينَ عَقَدَ الزَّتَارَ،
كَانَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَتَّبِعُوهُ،
لَا أَنْ تَتَفَضَّوْا مِنْ حَوْلِهِ.

كَانَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَدْخُلُوا فِي التَّصْرَانِيَةِ
لَمَّا سَقَطَ الشَّيْخُ فِي جَوْفِ التَّمْسَاحِ وَلَيْتُمْ هَرَبًا
خَوْفًا مِمَّا قَدْ يَلْحَقُكُمْ مِنْ عَارٍ وَفَضِيحَةٍ.

عادوا جَمِيعًا إِلَى بِلَادِ الرُّومِ وَعَكَفُوا عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ مُتَضَرِّعِينَ.
وَاسْتَجَابَ اللَّهُ لِمُرِيدِهِ بَعْدَ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، إِذْ رَأَى رَسُولُ اللَّهِ فِي مَنَامِهِ
وَأَبْلَغَهُ أَنَّهُ قَدْ فَكَّ إِسَارَ الشَّيْخِ. وَحِينَ ذَهَبُوا إِلَيْهِ، وَجَدُوهُ قَدْ خَلَعَ
لِبَاسَ الْمَسِيحِيَّةِ وَعَادَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَارْتَدَّى مَلَابِسَ الدَّرَاوِشِ
وَسَارُوا جَمِيعًا يَنْشُدُونَ الْجِجَازَ.

يَقُولُ الشَّاعِرُ عَنِ الْمُرِيدِ الَّذِي صَلَّى مِنْ أَجْلِ الشَّيْخِ:

وَسَارَ مَعَ صَحْبِهِ بَاكِيًا
حَتَّى بَلَغُوا مَكَانَ الشَّيْخِ
فَرَأَوْهُ سَعِيدًا

قَدْ أَلْقَى بِالتَّاقُوسِ
وَقَطَعَ الزَّتَارَ

وَدَاسَ قَلَنْسُوَةَ الْكُفْرِ

وَحِينَ رَأَى عَنْ بُعْدِ أَصْحَابِهِ

مَرَّقَ أُرْدِيَّتِهِ خَجَلًا

وَحَثَا التُّرَابَ عَلَى مَفْرَقِهِ

يَذْرِفُ دَمْعًا فَيَاضًا

وَيَشَعُّ بِنُورِ الرُّوحِ

يُرْسِلُ آهَةً تُمَرِّقُ حُجُبَ الْأَفْلاكِ

وَتُشْعِلُ فِي عُرْوَةِ الدَّمِ.

وَحِينَ بَغْتَةً

عَادَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ

.....

وَقَبِلَ الشَّيْخُ

وَأَلْفَى مَعْشُوقَتَهُ سَكْرَى

يَرْقِصُ فِي يَدَيْهَا الْكَأْسَ...

فَاجْتَرَأَ عَلَيْهَا

وَتَطَاوَلَ يَبْغِي أَنْ يَطْوِيَهَا بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ

صَدَّتْهُ...

سَكِرَ الشَّيْخُ وَقَقَدَ الْوَعْيَ

.....

حَمَلُوا الشَّيْخَ السَّكْرَانَ إِلَى الدَّيْرِ

شَدَّ الزَّتَارَ

وَنَسِيَ الْكَعْبَةَ وَالشَّيْخُوخَةَ

.....

الصَّبِيَّةُ : أَنْتَ فَقِيرٌ مُعْدِمٌ

وَأَنَا مَهْرِي غَالٍ

فَاذْهَبْ عَنِّي

.....

وَحِينَ أَخَذَ يَبْكِي بَيْنَ يَدَيْهَا، يَسْتَرْحِمُهَا وَيَسْتَغْطِيفُهَا وَيُقَبِّلُ
الْأَرْضَ تَحْتَ قَدَمَيْهَا وَهِيَ تَسْبُحُهُ وَتَلْعَنُهُ وَتَذْفَعُهُ عَنْهَا دُونَ أَنْ
يُثْنِي عَنْ مَقْصَدِهِ، قَالَتْ لَهُ:

إِذَا فَصَدَاقِي عِنْدَكَ

أَنْ تَمْضِيَ فِي إِثْرِ خَنَازِيرِي تَرْعَاهَا لِمُدَّةِ عَامٍ

وَتَمْضِيَ الْقِصَّةَ الشَّعْرِيَّةَ بَعْدَ ذَلِكَ، يُعَلِّقُ الشَّاعِرُ مِنْ خِلَالِهَا
عَلَى خُلُقِ الْإِنْسَانِ وَالرَّابِطَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ، حَتَّى يَتَوَبَّ الشَّيْخُ إِلَى
رُشْدِهِ وَيَعُودَ إِلَى إِسْلَامِهِ.

وَلَمَّا رَأَى صِاحِبَهُ مَا آلَ إِلَيْهِ حَالُهُ قَفَلُوا رَاجِعِينَ إِلَى الْكَعْبَةِ،
وَهُنَاكَ قَابَلُوا أَحَدَ مُرِيدِهِ وَكَانَ غَاثِيًا سَاعَةَ رَحِيلِهِمْ، وَقَصَّوْا عَلَيْهِ
قِصَّةَ شَيْخِهِمْ فَحَزِنَ لَهُ وَعَاتَبَهُمْ عَلَى تَرْكِهِمْ لَهُ فِي مَخْتَلِهِ:

لَمْ تَبْلُغُوا فِي وَفَائِكُمْ قَدْرَ النِّسَاءِ أَوْ الرِّجَالِ

بَلْ أَنْتُمْ فَسَقَةٌ.

الصَّدِيقُ الْمُنْكَوبُ يَحْتَاجُ إِلَى مِائَةِ أَلْفِ صَدِيقٍ

تَحْيَا فِي عَقْلِهِ	كَسْحَابَةِ دَائِمَةٍ
فِي وَجْدَانِهِ	تَاهَتْ خُطُوتُهَا
وَسَجَدَ شُكْرًا لَهُ
وَبَكَى يَذْمَعُ فِي لَوْنِ الْوَرْدِ	وَأُوحِيَ إِلَى الشَّيْخِ
وَسَبَّحَ فِي عِرْقِ الْحَجَلِ	أَنَّ الصَّبِيَّةَ قَدْ اهْتَدَتْ
هَكَذَا يَنْطَلِقُ الشَّاعِرُ فِي رَوَايَةِ الْفَيَاضَةِ بِإِبْدَاعَاتِ التَّصَوُّفِ	وَعَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ لَهَا رَفِيقًا وَأَنْيَسًا
حَتَّى يَصِلَ إِلَى مَا آلَ إِلَيْهِ حَالُ الصَّبِيَّةِ الْمَسِيحِيَّةِ بَعْدَ أَنْ عَادَ	فَعَادَ أَذْرَاجَهُ كَالرَّيْحِ
الشَّيْخُ إِلَى إِسْلَامِهِ فَيَقُولُ:	وَفَزَعَ مُرِيدُوهُ وَصَاحُوا
وَهَبَطَتْ عَلَى الصَّبِيَّةِ رُؤْيَا	أَتَيْ تَوْبَتُكَ وَسَعَيْكَ؟
أَنَّ الشَّمْسَ قَدْ تَطَامَنْتَ فِي حِضْنِهَا	فَقَصَّ عَلَيْهِمْ وَحْيَهُ ...
وَخَاطَبَتْهَا قَائِلَةً: سِيرِي إِثْرَ شَيْخِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ...	وَعَادُوا
وَاعْتَنَقِي فِي الدُّنْيَا دِينَهُ	وَهَالَهُمْ مِنْهَا وَجْهَ ذَهَبِي أَصْفَرَ
وَكُونِي تُرَابًا لَهُ ...	وَعَدَائِرُ تَذْوِي فِي سُحْبِ الْعُبَارِ
أَنْتِ يَا مَنْ أَنْزَلْتِ بِهِ الدَّنَسَ	حَافِيَةً
تَطْهَرِي بِهِ	بِرِدَاءٍ مُمَزَّقٍ مُغْبَرٍّ ...
.....	وَهَوَثَ
كُنْتُ قَاطِعَةً طَرِيقَهُ	وَكَأَنَّ الْحَيَاةَ قَدْ غَاضَتْ مِنْهَا
وَأَنْتِ الْآنَ رَفِيقَةُ طَرِيقٍ ...	وَحِينَ رَأَتْ شَيْخَهَا
.....	دَهَمَهَا إِعْماء ...
فَلَمَّا اسْتَيْقَظَتْ	فَنَثَرَ الشَّيْخُ الدَّمْعَ عَلَى طَلْعَتِهَا
شَعَّتْ نَفْسُهَا نُورًا	فَأَفَاقَتْ وَعَدَّتْ تَبْكِي
وَتَنَزَّى قَلْبُهَا أَلَمًا	تَتَمَرَّغُ،
وَانْتَابَتْهَا الْحَيْرَةُ	تَقْبَلُ قَدَمَيْهِ وَكَفَّيْهِ
.....	تَطْلُبُ مِنْهُ الصَّمْغَ ...
وَلَمْ تَذَرِ أَيَّ بُدُورٍ أَثْمَرَتْ فِي رُوحِهَا	فَعَرَّضَ عَلَيْهَا الْإِسْلَامَ ...
.....	فَأَسْلَمَتْ لِرَبِّهَا
وَصَرَخَتْ وَانْفَلَتَتْ تَجْرِي	وَفَاضَتْ مِنْهَا الرُّوحُ ^(١) ...
وَهِيَ تُمَزَّقُ رِدَاءُهَا	

وَعَلَى مَفْرِقِهَا تَحْتُو التُّرَابَ

وَاتَّبَعَتْ سَبِيلَ شَيْخِهَا وَمُرِيدِهِ

(١) كَانَ مَرْجِعِي فِي هَذَا كِتَابِ «عِطَارِ نَامَةِ» لِأَحْمَدَ نَاجِي الْقَيْسِي،

الْكِتَابُ الثَّانِي: مُنْطَلِقُ الطَّيْرِ. مَطْبَعَةُ الْإِزْشَادِ بِبَغْدَادِ، ١٩٦٨. وَقَدْ =

سَوِيًّا بَدَا هُنَا نَحِيْلًا لِهَذَا الْعِشْقِ الَّذِي هَدَّ جِسْمَهُ وَقَدْ جَلَسَتْ أَمَامَهُ
مَعْشُوقَتُهُ عَلَى طَنَفٍ مُرْزَكَشٍ وَهِيَ تُشِيرُ إِلَيْهِ بِسُبَّابَةٍ يُمْنَاهَا إِلَى الْقِيَامِ
بِأَمْرِ أَمْرَتِهِ بِهِ لِيُرْهِنَ لَهَا عَلَى صِدْقِ عِشْقِهِ، وَسَيَنْجَلِي هَذَا الْأَمْرَ
فِي الصُّورَةِ التَّالِيَةِ. وَجَلَسَتْ إِلَى يَمِينِ الْمَعْشُوقَةِ خَادِمَتُهَا عَلَى
الْأَرْضِ فِي ثِيَابٍ مُبْتَذَلَةٍ وَقَدْ شَدَّتْ رَأْسَهَا بِلِفَافَةٍ عَقَدَتْهَا عَلَى
عُنُقِهَا وَرَفَعَتْ يُسْرَاهَا إِلَى خَدِّهَا وَكَأَنَّهَا تَعَجَّبُ وَمَا يَجْرِي
أَمَامَهَا. وَكَانَ مِمَّا قَالَهُ الشَّيْخُ لِمَحْبُوبَتِهِ:

هَرِغْتَ إِلَيْكَ وَأَنَا بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ

فَمَا عَرَفْتُ الْاسْتِقْرَارَ مِذَّ أَحِبَّتُكَ

إِنَّ كَلِمَةَ مِنْكَ تَرْدِنِي إِلَى الْحَيَاةِ

وَأَنَّ كَلِمَةَ مِنْكَ تَقْضِي عَلَيَّ

فَاخْتَارِي أَيْهَمَا تُحِبِّينَ

إِنْ كُنْتُ لِحُبِّي تُقَدِّرِينَ

وَبِالْعِشْقِ تُؤْمِنِينَ

وَعَلَى الْإِخْلَاصِ لِي تَعِيشِينَ

حَيَاتِي لَكَ

فَأَقْعَلِي بِهَا مَا تَشَائِنَ

وَتُمَثِّلُ الْخَامِيسَةَ، وَهِيَ مِنَ الْمَخْطُوطَةِ نَفْسُهَا، الشَّيْخُ فِي شِبْهِ
زِيَةِ السَّابِقِ وَإِنْ بَدَا بِعِمَامَةِ رُقْطَاءَ (لَوْحَةٌ ٢٦٠م) وَكَأَنَّهُ قَدْ اسْتَجَابَ
لِمَا أَمَرْتَهُ بِهِ مَحْبُوبَتُهُ فَقَرَأَ هُنَا قَدْ جَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ بَيْنَ يَدَيِ الصَّنَمِ
وَقَدْ عَقَّرَ بِثَرَابِ الْأَرْضِ جَبِينَهُ. كَمَا نَرَاهُ مُحْمَلِقُ الْعَيْنَيْنِ كَمَا يَبْدُو
الْكَمَلُ اثْنِمَارًا بِأَمْرَاهَا لِيَتَسَّى إِيمَانَهُ بِرَبِّهِ وَيَخْرُجَ مِنْ دِينِهِ إِلَى دِينِهَا.
وَقَدْ بَدَا جَبْرِيلُ إِلَى أَعْلَى الصُّورَةِ مِنْ الْيَمِينِ وَكَأَنَّهُ يَسْأَلُ اللَّهَ لَهُ
الرَّحْمَةَ وَالْعُودَةَ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ إِيمَانٍ، وَتُمَثِّلُ الْأَبْيَاتِ
الْمَنْظُومَةِ الَّتِي جَرَتْ عَلَى لِسَانِ شَاعِرِ الْمَخْطُوطَةِ تِلْكَ الْأَوَامِرِ
الَّتِي أَمَرَتْ بِهَا الْمَعْشُوقَةُ الشَّيْخَ.

وَسَادِسَتُهَا مِنَ الْمَخْطُوطَةِ الْأُولَى وَهِيَ تُمَثِّلُ تَمَادِي الشَّيْخِ فِي
الاسْتِجَابَةِ لِأَمْرِ مَحْبُوبَتِهِ وَقَوْلُهُ أَنْ يَزْعَى لَهَا خَنَازِيرَهَا وَقَدْ بَدَا بَيْنَ
الْخَنَازِيرِ مُنْخَنِ الظُّهْرِ مُتَّكِئًا عَلَى عَصَاهُ، وَقَدْ خَلَعَ عَنْ رَأْسِهِ
عِمَامَتَهُ وَاسْتَبَدَّلَهَا بِقَلَنْسُوَةِ الرُّعَاةِ. وَوَقَفَ خَلْفَ الشَّيْخِ بَعْضُ
مُرِيدِيهِ وَهُمْ فِي وَضْعَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ بَيْنَ نَظَرٍ إِلَيْهِ فِي وُجُوهٍ هَامِسٍ
وَمُشِيرٍ (لَوْحَةٌ ٢٦١م).

=تَقَلَّتْ عَنْهُ مَا تَقَلَّتْ مِنْ شَيْءٍ مِنْ التَّصَوُّفِ إِذْ قَصْدِي أَنْ
أَوْقَى - مَا اسْتَطَعْتُ - بَيْنَ النَّصِّ الْقَوْلِيِّ وَالنَّصِّ التَّصَوُّرِيِّ.

وَسَيَجِدُ الْقَارِئُ كَيْفَ اسْتَلْهَمَ الْمُصَوِّرُونَ شَاعِرِيَةَ هَذِهِ الْقِصَّةِ
فَانْطَلَقَتْ فُرْشَاتُهُمْ مُحَلَّقَةً فِي سَمَاءِ هَذَا الْعَمَلِ الْمُبْدِعِ مُنْجِزَةً بِذَلِكَ
لَوْحَاتٍ لَا تَقَلُّ رَوْعَةً وَشَفَافِيَةً وَرِقَّةً عَنِ النَّصِّ الشُّعْرِيِّ، وَهَذِهِ صُورُ
ثَمَانٍ تُمَثِّلُ أَنْطَقَ جَوَانِبِ الْقِصَّةِ خَيَالًا وَأَشْمَلَهَا مَعْنَى: أُولَاهَا،
وَهِيَ مِنْ مَخْطُوطَةِ «لِسَانِ الطَّيْرِ» تَرْجَمَةُ مِيرِ عَلِيِّ شِيرِنَوَانِي،
تُمَثِّلُ الشَّيْخَ صَنْعَانِ جَالِسًا عَلَى الْأَرْضِ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ وَارِفَةٍ
وَهُوَ غَارِقٌ فِي التَّأَمُّلِ، وَعَلَيْهِ ذَلِكَ الْجِلْبَابُ الْفَضْفَاضُ الَّذِي لَا
يَحْمِلُ حَلِيَّةً وَلَا زِينَةً شَأْنُ الْمُصَوِّفَةِ فِيمَا يَلْبَسُونَ. وَالشَّجَرَةُ تَبْدُو
عَتِيقَةً بِذَلِيلِ الْعُقْدِ الَّتِي تَمَلَأُ السَّاقَ وَالْفُرُوعَ عَلَى غِرَارِ التَّصَوُّيرِ
الصَّيْنِيِّ. وَاخْتِيَارُ الْمُصَوِّرِ لِشَجَرَةٍ عَتِيقَةٍ لَيْسَ أَمْرًا غَيْرَ ذِي جَدْوَى
بَلْ فِيهِ مَا يَدُلُّنا عَلَى فَهْمِهِ لِرُوحِ التَّصَوُّفِ وَجُمُوحِ الْمُتَصَوِّفَةِ إِلَى
كُلِّ مَا هُوَ مُعِينٌ فِي الْقِدَمِ (لَوْحَةٌ ٢٥٧).

وَتَائِيَّتُهَا مِنَ مَخْطُوطَةِ تَضَمَّنِ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةَ لِمِيرِ عَلِيِّ
شِيرِنَوَانِي بِدَارِ الْكُتُبِ الْقَوِيَّةِ بِپَارِسِ (لَوْحَةٌ ٢٥٨م)، وَهِيَ تُمَثِّلُ
الْمَحْبُوبَةَ النَّصْرَانِيَّةَ فِي شُرْفَةٍ قَدْ جَعَلَهَا الْمُصَوِّرُ أَجْمَلُ مَا تَكُونُ
حَلِيَّةً وَبَالَغَ فِي زُرْكَشَتِهَا وَتَقَاسِيمِهَا وَتَلْوِينِهَا، وَجَعَلَ الْفَتَاةَ تَبْدُو فِي
الصُّورَةِ مُطْلَعَةً مُتَنَبِّئَةً فِي ذِلَالٍ وَكَأَنَّهَا تَعَجَّبُ لَوْلَا الشَّيْخُ بِهَا،
وَوَقَفَتْ إِلَى جَانِبِهَا فَتَاةٌ تَبْدُو كَأَنَّهَا وَصِيفَةٌ وَقَدْ رَفَعَتْ يُسْرَاهَا هِيَ
الْأُخْرَى تُشَارِكُ سَيِّدَتَهَا هَذَا الْعَجَبَ. وَإِلَى خَلْفِيَةِ الصُّورَةِ ظَهَرَتْ
فَتَاتَانِ تَخْتَلِفَانِ زِيًّا فَإِحْدَاهُمَا فِي زِيِّ الرَّاكِبَاتِ وَالْأُخْرَى فِي زِيِّ
سَيِّدَاتِ الْبُيُوتِ وَلَا يَبْعَدُ أَنْ تَكُونَ هِيَ الْأُمُّ. وَقَدْ وَقَفَ الشَّيْخُ تَحْتَ
الشُّرْفَةِ فِي يَهُوَ الْبَيْتِ الْمَرْصُوفِ وَإِلَى يَمِينِهِ حَدِيقَةُ الْبَيْتِ تَعْلُو فِيهَا
بَعْضُ الْأَشْجَارِ الْمُرَوِّقَةِ الْمُزْهَرَةِ. وَمِنْ تَحْتِ الْأَشْجَارِ أَزْهَارٌ مُلَوَّنَةٌ
تَمَلَأُ أَرْضَ الْحَدِيقَةِ. وَمِنْ حَوْلِ الشَّيْخِ، وَهُوَ فِي مَظْهَرِ الْوَالِدِ وَقَدْ
رَفَعَ عَيْنَيْهِ إِلَى الْفَتَاةِ وَيُسْرَاهُ وَكَأَنَّهُ يَسْتَجِدِّيها، تَفَرَّقَ أَتْبَاعُ الشَّيْخِ
جَمَاعَاتٍ وَفُرَادِي وَحَرَكَاتِهِمْ كُلُّهَا بِأَيْدِيهِمْ تُشِيرُ إِلَى ذَهَبَتِهِمْ
وَذُوهُلِهِمْ وَتَعَجُّبِهِمْ وَمِمَّا وَقَعَ فِيهِ الشَّيْخُ.

وَتَائِيَّتُهَا مِنَ الْمَخْطُوطَةِ الْأُولَى وَهِيَ تُمَثِّلُ مَنْزِلَ الْمَحْبُوبَةِ
وَشُرْفَتَهَا وَهِيَ تُطَلُّ مِنْهَا. وَقَدْ شَاءَ الْمُصَوِّرُ أَنْ يُصَوِّرَ لَنَا مَرَاجِلَ
الْجَوَارِ الَّذِي جَرَى بَيْنَ الشَّيْخِ وَمُرِيدِيهِ ثُمَّ بَيْنَ الشَّيْخِ وَالْمَحْبُوبَةِ
إِلَى أَنْ انْتَهَى الْأَمْرُ بِهِ أَخِيرًا إِلَى أَنْ وَقَعَ صَرِيحًا عَلَى الْأَرْضِ (لَوْحَةٌ
٢٦٧م).

وَرَابِعَتُهَا مِنَ مَخْطُوطَةِ «مَنْطِقِ الطَّيْرِ» الْمَخْطُوطَةِ بِالْمُتَحَفِ
الْبَرِيطَانِيِّ (لَوْحَةٌ ٢٥٩م) وَهِيَ تُمَثِّلُ الشَّيْخَ الْوَلْهَانَ وَقَدْ جَثَا عَلَى
رُكْبَتَيْهِ فِي زِنَارِ النَّصَارَى وَعَلَى رَأْسِهِ مَا يُشَبِّهُ الْقَلَنْسُوَةَ السَّوْدَاءَ وَقَدْ
شَدَّبَ لِحِيَّتَهُ وَيَظْهَرُ أَنَّهُ صَبَّغَهَا صِبْغَةً سَوْدَاءَ أَيْضًا فَهِيَ عَلَى الْعَكْسِ
مِنْ صُورِهِ الْأُولَى الَّتِي بَدَتْ فِيهَا لِحِيَّتُهُ طَوِيلَةً بَيْضَاءَ، كَمَا شَدَّبَ
شَارِبِيَّتَهُ وَصَبَّغَهَا بِصِبْغٍ أَسْوَدَ. وَعَلَى حِينٍ قَدْ بَدَا فِي صُورِهِ الْأُولَى

يُحدِّدًا تلك المثل العليا الفكرية التي ترسمها جلال الدين، فلقد نشأت فلسفته تستمد عناصرها من المناحي الخلقية والحكمة العملية، ولم يكن ذلك المتصوِّف السُّلبي الذي يعيش ليتصوِّفه وحده، إذ كانت تلك المِحنة - كما قلنا - وإلى جانبها ذلك الاستعداد الروحي جديرين بأن يخرجوا بالشاعر من السُّلبية إلى الواقعية وأن يكون لسانًا مُعبرًا عما يرى ويشهد لا لسانًا ذاكرًا مُتهجِّدًا فحسب. وعلى هذا كانت طريقته المُولوية التي إلهي الفضل في إنشائها، فهي طريقة كما نعلم تجمع بين الروحانية الخالصة التي هي عماد الفكرة التصوفية، ثم تجمع بين المشاركة في أحاسيس الناس وأنيهم وأشواقهم. وكان للثاني الذي استخذه تلك الفرقة المُولوية دوره في تحريك تلك المشاعر وهز النفوس طربًا إلى الاستجابة ليلك الأحاسيس.

وكان لنا فيما تركه جلال الدين من نظمته تلك المنظومة الكبيرة التي تُسمي «المثنوي»، وهذا الاسم فيما يبدو لا يشير إلى المضمون وإنما يشير إلى الشكل الذي نظمت عليه تلك المنظومة. وهي في الرَّاجح على غرار «حديقة الحقيقة» للشاعر سنائي أو على غرار «منطق الطير» للشاعر العطار. فكما قصد سنائي والعطار بما نظمنا أن يتركوا في منظومتيهما قانونًا للأتباع يرجعون إليه ليتَّرسَّموا الخطى. كذلك فعل جلال الدين.

ولعله مما يضيف على المثنوي هذا الجلال الذي لا تزال نجسه تلك المعالجات التي تطرق إليها جلال الدين من أخلاق وسلوك ومعاملة بذلك الغرض الروحي اللطيف، فقل أن نجد ناحية تمس حياة الناس خلُقًا وعمَلًا إلا عالَجها جلال الدين بروحه التافذة إلى القلوب وعظًا وإرشادًا ساخرًا حينًا لتكون لتلك السُّخرية أثرها في الرِّدع. من أجل هذا عاش هذا العمل يعيه الناس بروحانيته الخالصة وفلسفته العميقة ومواعظه الخالدة^(١).

وكما سُقت صورة العطار أحب أيضًا أن أسوق صورة جلال الدين الرومي لهذا الربط الذي أشرت إليه بين الكلمة والرسم. وصورة جلال الدين الرومي هنا ليست صورة صائتة لا تحمل غير إبراز معالم صاحبها فحسب كما سبق، بل هي صورة تمثل حدثًا من الأحداث التي وقعت للشاعر، إذ يقال إن الصورة تُشير إلى ما يروى عن جلال الدين من أنه كان يومًا يمر على حوانيت صائغي الذهب فإذا هو يرقص مع دقات مطارقهم الخفيفة، وإذا هذه الحال التي وقع فيها الشيخ تحفز تابعًا من أتباعه كان لفقره

وتمثل السابعة، من المخطوطة نفسها، هرع الفتاة النُصرانية إلى الشيخ بعد أن ثاب إلى رُشده وعاد إلى دينه كما يقول الشعر لا يذة به خارجة من دينها إلى دينه، وهي هنا في الصورة في قفرتها الأخيرة حيث فاضت روحها بين يديه، وقد أخذ برأسها فوضعه على فخذيه، والمريدون من خلفه في شبه وجوم وأسى (لوحه ٢٦٢م).

هذا هو المشهد كما صوّره وغيره مما سبق مخطوطة مترجمة من كتاب «منطق الطير» أنجزها مير علي شيرنوائي ونُسخت في بخارى عام ١٥٥٣، وهي محفوظة بدار الكتب القومية بباريس.

أما عن لوحه المشهد الأخير، وهي الثامنة، الذي تحمله مخطوطة «منطق الطير» المنسوخة في هراة عام ١٤٨٣ والمخطوطة بمتحف المتروبوليتان بنيويورك، فهو يكاد يفترق في الكثير. فعلى حين جاء المشهد في الصورة السابقة في بادية ظهرت فيها الرمال والآكام نجد هذا المشهد يقع في شبه غصنة فيها نهر جار، وعلى شاطئه جلس الشيخ هليًا ومحبوبته قد ألفت برأسها على حجره وهي في التزع الأخير، وتظل الشيخ شجرة وارفة إلى يمينها غيرها من أشجار ونباتات، وقد تورع المريدون، الكثرة منهم تحمل عصيًا طويلة. ومن هؤلاء المريدين مريدان وقفا بعيدًا وقد ركزا عصويهما في الأرض وانكأ أحدهما عليهما بذقنه على حين انكأ الآخر برأسه، وثمة أربعة من المريدين وقف اثنان منهم إلى يمين الشيخ واثنان إلى يساره، منهم من وضع إصبعه في فمه أسى، ومنهم من رفع يده إلى فمه يحبس عويله، ومنهم من رفع يساره إلى جبهته ممسكًا بها من أن تنفجر حزناً (لوحه ٢٦٣م).

وهذه الصور الثماني تبدو في إبداع قوي تفيض خيالاً مستملى مما أحسه المصور من تخيلات المتصوفة وشطحاتهم. فجانب الزرع باد في تلك الجباب المسدلة وتلك العمائم الغليظة وتلك اللحي المستديرة، وفي ذلك الوجوم المخيم الذي هو سمة من سمات الزرع. ولعل هذا الذي أبدع المصور في تجسيمه هو مكان العظة والعبرة فيما ساق من تصوير.

«المثنوي» لجلال الدين الرومي

أما ثاني كبار الصوفية فهو جلال الدين محمد البلخي الرومي (نسبة إلى أرض الروم في الأناضول حيث هاجر الشاعر إليها). وقد عاش جلال الدين في القرن الثالث عشر، وكان إلى جانب مكانته المرموقة في الصوفية شاعرًا مجيدًا ثم مؤلفًا متقنًا، وما من شك في أن الغزو المغولي يُلخ موطن جلال الدين وما ارتكب في ظل هذا الغزو من شرور وآثام، كان له أثره في نفس الشاعر. وكان استعداده الروحي إلى جانب هذا الأثر النفسي كافيًا بأن

(١) أنظر «جلال الدين الرومي» للدكتور محمد عبد السلام كفاي. دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧١.

الذي أَرَادَهُ بِمَا ابْتَلَى بِهِ اللَّهُ الرَّسُولَ مِنْ قَبْلِ حِينَ عَرَضَ عَلَيْهِ خَزَائِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَمَا مَالَ إِلَى الدُّنْيَا وَلَكِنَّهُ اعْتَكَلَ عَلَى هَذَا كُلِّهِ وَظَلَّ الرَّسُولَ الْأَمِينَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ. وَلَقَدْ قَصَدَ جَلَالُ الدِّينِ - لَا شَكَّ - أَنْ يَحْفَظَ بِهَذَا الْمَثَلِ الَّذِي سَاقَهُ لِلرَّسُولِ، الصُّوفِيِّينَ إِلَى تِلْكَ الْقُدُوةِ الْحَسَنَةِ، فَمَا تَشْغَلُهُمْ زَخَارِفُ الْأَرْضِ وَلَكِنْ عَلَيْهِمْ أَنْ يَشْغَلُوا بِصَانِعِ تِلْكَ الزَّخَارِفِ كَمَا أَنَّ عَلَيْهِمْ أَلَّا يَهَابُوا الْمَوْتَ، فَحَيَاةُ الْمُؤْمِنِ الْحَقِّ هِيَ الْحَيَاةُ الْآخِرِيَّةُ لَا تِلْكَ الْحَيَاةُ الْأَرْضِيَّةُ. وَكَمَا فَعَلَ الْمُصَوِّرُ فِي الصُّورَةِ الْأُولَى إِذَا اجْتَزَأَ بِالْعِبَرَةِ عَنْ سَوْقِ الْعِلَّةِ فَعَلَّ أَيْضًا هُنَا، فَهُوَ لَمْ يَعْرِضَ لِتَصْوِيرِ مَا سَاقَهُ جَلَالُ الدِّينِ عَنْ حَالِ الرَّسُولِ بَلْ وَقَفَ عِنْدَ تِلْكَ الْمَرْتَبَةِ الْآخِرَةِ الَّتِي أَحَبَّ جَلَالُ الدِّينِ أَنْ يَنْتَهِيَ الْمُتَصَوِّفُ إِلَيْهَا، وَهِيَ تِلْكَ الْمَرْتَبَةُ الَّتِي يَخْلُصُ فِيهَا مَنْ أَرَادَ الدُّنْيَا خِلَاصًا رُوحَانِيًّا، فَصَوَّرَ لَنَا جَمَاعَةً مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ. وَحِينَ أَرَادَ أَنْ يَرْمِزَ إِلَى أَنَّهُمْ قَدْ بَلَغُوا مَرَحِلَةَ التَّجَلِّيِ وَالنَّسَامِيِّ جَعَلَ فِي يَدِ كُلِّ مِنْهُمْ طَيْرًا مِنَ الطُّيُورِ عَلَى أَهْبَةِ التَّخْلِيقِ.

وثالثتها، وهي في الجزء الثالث من المنظومة (لَوْحَةُ ٤٧٠م)، تَحْكِي لَنَا فِي إِجْمَالِ تِلْكَ الْقِصَّةِ الَّتِي سَاقَهَا جَلَالُ الدِّينِ لِأَخْذِ يَدِ الْمُتَصَوِّفَةِ إِلَى بُلُوغِ الْغَايَةِ الْمَرْجُوءَةِ، فَحَدَّثَنَا عَنْ عَاشِقٍ بِخَارِي سَعَى سَعْيِهِ لِيَبْلُغَ مَآرَبَهُ فَإِذَا هُوَ قَدْ بَلَغَهُ بَعْدَ سَعْيٍ دَائِبٍ وَجَهْدٍ مُتَّصِلٍ لَا يَمَلُّ وَلَا يَكَلُّ، وَضَرَبَ لَنَا جَلَالُ الدِّينِ أَمَثِلَةً عَلَى بُلُوغِ السَّاعِي الدَّائِبِ سَعْيِهِ بِحَافِرِ الْبَثْرِ وَضَارِبِ الْحَدِيدِ لَا يَعْنِي أَوَّلُهُمَا بِمَا يَلْقَاهُ مِنْ كَدٍّ وَلَا يَأْبَهُ ثَانِيَهُمَا بِمَا يَتَطَايَرُ مِنَ الْحَدِيدِ مِنْ شَرِّرٍ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا مَضَى الْعَبْدُ سَاعِيًا مُعْتَمِدًا عَلَى رَبِّهِ مُفَوَّضًا إِلَيْهِ أَمْرَهُ، وَمَنْ عَمِلَ خَيْرًا فَلَنْ يَلْقَى إِلَّا خَيْرًا وَمَنْ عَمِلَ شَرًّا فَلَنْ يَلْقَى إِلَّا شَرًّا. هَذِهِ الْقِصَّةُ الْوَعُظِيَّةُ الَّتِي جَرَتْ عَلَى لِسَانِ جَلَالِ الدِّينِ وَالَّتِي لَا تَخْرُجُ عَمَّا يُرِيدُهُ أَسْتَاذُ الْمُتَصَوِّفَةِ مِنْ غَرَسِ رُوحِ الْكَدِّ فِي الثَّفُوسِ وَخَلَعَ رِدَاءَ الْخُمُولِ وَعَدَمَ الْمُبَالَاهُ بِمَا يَلْقَى النَّاسُ مِنْ شُرُورٍ فِي سَبِيلِ مَا يُرِيدُونَ، تُصَوِّرُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ الْوَعُظِيِّ أَيْضًا غَايَتَهُ وَلَمْ تُحِطْ بِكُلِّ أَسْبَابِهِ إِذِ الْإِحَاطَةُ بِهَذِهِ الْأَسْبَابِ كُلِّهَا لَا يَكْفِيهَا لَوْحَةٌ وَإِنَّمَا تَنْتَبِيعُ لَهَا لَوَحَاتٌ وَلَوَحَاتٌ. وَالْمُصَوِّرُ حِينَ اكْتَفَى هُنَا وَفِيهَا قَبْلَ بِالْغَايَاتِ دُونَ الْأَسْبَابِ كَانَ مَاهِرًا لَبِقًا. فَكَمَّةٌ سَرَدَ بَيْنَ يَدَيْهِ يَحْكِي تَفَاصِيلَ كَثِيرَةٍ، وَهُوَ فِي صُورِهِ بِهَذَا الْاجْتِزَاءِ الَّذِي اخْتَطَّهُ لِنَفْسِهِ وَاقٍ بِأَنَّ الْقَارِئَ لَنْ يَنْظُرَ إِلَى صُورِهِ مُعْجَرَةً عَنْ ذَلِكَ النَّصِّ بَلْ هُوَ مُؤْمِنٌ أَنَّ الْقَارِئَ وَاصِلَ بَيْنَ الصُّورِ وَالنَّصِّ. وَمِنْ أَجْلِ هَذَا كَانَ حَسْبُهُ أَنْ يَسُوقَ تِلْكَ الصُّورَةَ الَّتِي تُمَثِّلُ غَايَةَ الْحَدِيثِ وَلُبَّهُ. وَهُوَ هُنَا فِي هَذِهِ الصُّورَةِ اكْتَفَى بِتَصْوِيرِ الْعَاشِقِ وَقَدْ اتَّقَى بِمَنْ يَعَشَقُ وَهُوَ يَعْنِي ظَفَرَ السَّاعِي بِنَتِيجَةِ سَعْيِهِ، وَهَذَا هُوَ جَوْهَرُ الْحَدِيثِ.

يَعْمَلُ فِي هَذَا الْحَانُوتِ فَخَرًا وَاقِعًا عَلَى قَدَمَيْ شَيْخِهِ يُقْبَلُهُمَا. وَفِي هَذَا مَا يَدُلُّنَا عَلَى شُعُورِ هَذَا التَّالِيَةِ بِمَا اعْتَرَى الشَّيْخَ مِنْ قَيْضِ رُوحَانِيٍّ (لَوْحَةُ ٢٦٤م).

وَكِتَابُ «الْمَثْنَوِي» الَّذِي أَشْرَفَتْ إِلَيْهِ لِمُؤَلِّفِهِ جَلَالُ الدِّينِ مِنْهُ نُسخَةٌ خَطِيَّةٌ يُمْتَحَفُ الْفَنُّ الْإِسْلَامِي بِالْقَاهِرَةِ تَضُمُّ مُنَمَّنَاتٍ سِيَّاتًا تَدُورُ حَوْلَ بَعْضِ قِصَصِهِ الَّتِي تَضُمُّنَهَا هَذَا التَّنْظِيمُ، وَقَدْ اخْتَرْتُ مِنْهَا خَمْسًا تَنْفِقُ وَالْمَوْضُوعُ الَّذِي أَعَالِجُهُ هُنَا.

وَأُولَى هَذِهِ الصُّورِ (لَوْحَةُ ٤٦٨م) تُشِيرُ إِلَى مَا وَرَدَ فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنَ الْمَثْنَوِيِّ عَنْ طُيُورٍ أَلْبِفَةُ اتَّخَذَتْ أَفْرَاحًا مِنَ الْبَطِّ الْبَحْرِيِّ تُرْبِيهَا عَلَى الْيَاسَةِ. وَجَلَالُ الدِّينِ فِي هَذَا الْمَرْجُوعِ بَيْنَ طُيُورِ بَرِّيَّةٍ وَبَطِّ بَحْرِيٍّ يَرْمِزُ إِلَى الْإِنْسَانِ وَمَا خَلَقَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ رُوحٍ عُلوِيَّةٍ وَجِسْمٍ أَرْضِيٍّ. وَلَقَدْ مَضَى جَلَالُ الدِّينِ يُحَدِّثُنَا فِي مَنْظُومَتِهِ عَمَّا كَانَ فِي طَبِيعَةِ أَفْرَاحِ الْبَطِّ مِنَ الْبَحْثِ عَنْ أَصْلِهَا مُنْطَلِقَةً مِنْ قَيْدِهَا الْجِسْمَانِيِّ وَاقْتِحَامِهَا الْبِحَارَ وَالغُوصُ فِيهَا عَنْ غَيْرِ رَهْبَةٍ بَحْثًا عَنْ تِلْكَ الْحَقِيقَةِ، هَائِمَةً إِلَى الرُّجُوعِ إِلَى فَلَكَهَا الْعُلُويِّ رَاغِبَةً فِي الْخِلَاصِ مِنْ جَسَدِهَا الْمَادِّيِّ. وَجَلَالُ الدِّينِ يَعْنِي بِهَذَا الَّذِي سَاقَهُ أَنَّ خِلَاصَ الْإِنْسَانِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالتَّحَرُّرِ مِنْ فُيُودِ الْجَسَدِ الْأَرْضِيَّةِ وَالْإِنْطِلَاقِ إِلَى عَالَمِ الْفِكْرِ الرَّحْبِ. وَلَقَدْ جَاءَ الْمُصَوِّرُ بَعْدُ، فَصَوَّرَ لَنَا تِلْكَ الْمَعَانِي الَّتِي جَاشَتْ فِي نَفْسِ جَلَالِ الدِّينِ. وَإِقْدَامُ مُصَوِّرٍ عَلَى شَيْءٍ بِمِثْلِ هَذَا عَنَاصِرِهِ الْغَالِبَةِ رُوحَانِيَّةٍ مِنَ الصُّعُوبَةِ بِمَكَانٍ، فَتَحُجُّ لَا تَنْسَى أَنَّ التَّصْوِيرَ يَتَجَلَّى فِيهَا هُوَ مَادِّيٌّ وَأَنَّ تِلْكَ الرُّوحَانِيَّاتِ الْمُحِيطَةَ تَجِيءُ فِي الصُّورَةِ ظِلَالًا مُعْبَّرَةً عَلَى قَدْرِ الْمُسْتَطَاعِ. فَلَا يَكُونُ مُسْتَوَاهَا فِي الصُّورِ وَالتَّعْبِيرِ عَلَى مُسْتَوَى الْمَادِّيَّاتِ. وَمِنْ أَجْلِ هَذَا نَرَى الْمُصَوِّرَ هُنَا لَا عَنْ عَجْزٍ - كَمَا قُلْنَا - وَلَكِنْ عَنْ ذَلِكَ السَّبَبِ الَّذِي سَفَّاهُ بِجُتْرِي بِتَصْوِيرِ خُلَاصَةِ الْقِصَّةِ، أَعْنِي النَّتِيجَةَ الَّتِي انْتَهَى إِلَيْهَا جَلَالُ الدِّينِ وَمَهَّدَ لَهَا، لَا بِتَصْوِيرِ الْمُسَبِّبَاتِ وَالْمُهَيِّئَاتِ لِتِلْكَ النَّتِيجَةِ. فَتَرَى هُنَا فِي الصُّورَةِ جَمْعًا مِنَ النَّاسِ هُمُ هَذَا الْجَمْعُ الَّذِي أَرَادَ جَلَالُ الدِّينِ أَنْ يَجْعَلَهُمْ وَمِثْلَهُ فِي الْخِلَاصِ مِنَ الْمَادِّيَّةِ وَالْإِرْتِفَاعِ إِلَى الرُّوحَانِيَّةِ، فَهُمْ لِهَذَا يَتَبَدُّونَ فِي وَضْعَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ كُلُّ وَضْعَةٍ مِنْهَا تُؤَكِّدُ لَنَا الْفِكْرَةَ الْعَمِيقَةَ فِي التَّخَلُّصِ مِنَ الْمَادِّيَّةِ وَارْتِفَاعِهِ إِلَى الرُّوحَانِيَّةِ، فَهُمْ بَيْنَ وَاجِمٍ وَمُشِيرٍ وَمُطَرِّقٍ تَفَكُّيرًا وَمُسْتَسْلِمٍ.

وثانيتها، وهي التي جاءت في الجزء الثاني (لَوْحَةُ ٤٦٩م)، جَهْدُ الْمُصَوِّرِ فِيهَا أَنْ يُبْرِزَ مَا جَاءَ عَلَى لِسَانِ جَلَالِ الدِّينِ مِنْ وَصْفِهِ لِجِهَادِ الرَّسُولِ وَدُخُولِهِ مَكَّةَ فَاتِحًا. وَلَقَدْ أَرَادَ جَلَالُ الدِّينِ أَنْ يَسْمُوَ بِأَفْكَارِ النَّاسِ عَنْ أَنْ يَقَرَّ بِهَا أَنَّ فَتْحَ الرَّسُولِ لِمَكَّةَ كَانَ ابْتِغَاءً لِمُلْكٍ وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا امْتِدَادًا لِرِسَالَتِهِ الرُّوحَانِيَّةِ مِنْ نَشْرِ لُؤَاءِ الْإِسْلَامِ لِيُظِلَّ النَّاسَ كَافَّةً. وَيُؤَكِّدُ جَلَالُ الدِّينِ هَذَا الْمَعْنَى

والرابعة - وهي الخامسة من صور المخطوطة، وقد تضمنها الجزء الخامس - (لوحه ٤٧١م) تعبر عما جاء على لسان جلال الدين من حديثه عن شيخ من شيوخ الصوفية وحوله تلامذته وقد جلس بينهم يلقنهم وحدة الوجود ويحثهم على الفناء في الله. وما أشقها من مرحلة لا يبلغها من الصوفية إلا من نسي دنياه بما فيها من ملأه وأقبل على أخراه بما يحيط طريقها من مشاق. ولقد كان الأمر هنا على المصور يسيراً سهلاً، فليس ثمة أسباب وليس ثمة غايات بل الأمر هنا يحكي واقعاً أحب المصور أن يبرزه كما هو. لهذا جاءت تلك الصورة تحمّل الفكرة التي وردت في القصة، فتمتة شيخ قد جلس على أريكته ومريدوه واقفون بين يديه لا جالسون. ولعل هذا الذي اختاره المصور من وقوف المريدين فيه إشارة خفية إلى زهبة المريدن لسلوك الطريق التي رسمها لهم الشيخ وحثهم عليها.

والأخيرة من لوحات تلك المخطوطة - وهي السادسة - يضمها الجزء السادس من المنظومة (لوحه ٤٧٢م). والمصور فيها يتمثل ما جاء على لسان جلال الدين من أنه كان ثمة شيخ من المتصوفة اسمه حسن الخارقاني وكان جالساً في كهفه وبين يديه مريدوه. وكان ثمة وافد كان قد سمع بما شاع عن الشيخ وخرج قاصداً إليه طارفاً بأنه فخرج إليه أحد المريدن يستقبله وأمسك بزمام فرسه بعدما نزل عنه. وجلال الدين يحكي تيممة للقصة أنه كانت لهذا الشيخ زوج عجوز كثيراً ما تعيب عليه عزله وانصرافه عن الدنيا لا تتورع عن أن تقذفه بأقبح ما عندها. ولقد رآها هذا الوافد وهي تطل بعداً عليمته بمقدمه وسمعها وهي ترمي الشيخ بألفاظها التابية. وهنا ازدادت محبة الوافد في الشيخ ولم يثنه عن السعي إليه ما سمعه من سب زوجته له وعرف أن هذا لؤن آخر من ألوان صبر الشيخ في جهاده. والمصور قد اكتفى بتصوير الشق الأول الذي يمثل الشيخ في كهفه ومن حوله مريدوه ونهوض أحد المريدن وأخذه بزمام فرس ذلك الوافد. ولقد كان يسيراً على المصور أن يضيف إلى الصورة شيئاً عن تلك العجوز، ولم يكن هذا الاجتزاء على منهج الاجتزاء فيما سبق من حذف الأسباب والاكتفاء بالغايات بل هو أمر مادي كان من الميسور إضافته.

«سُبْحَةُ الْأَبْرَار» لِتُور الدِّين جَامِي

وثمة من المتصوفة آخرون غير العطار وجلال الدين لهم هم الآخرون آثارهم المكتوبة التي شغل المصورون بالدخول فيها واستخلاص شيء من موعظاتها وإخراج تلك الموعظ مصورة كما أوجي إليهم استنباطهم من هذه الموعظ. فمن هؤلاء

المتصوفة تُور الدين عبد الرحمن جامي، ولقد كان هو الآخر شاعراً ومن منظوماته التي تركها منظومة كُبرى تُسمى العروش السبعة «هفت أورانج» جعلها على أجزاء مثنوية النظم، الرابعة منها تُسمى «سُبْحَةُ الْأَبْرَار» تتضمن حكايات ومواعظ وأمثلة، ومنها نسخة خطية بدار الكتب المصرية، يرجع تاريخها إلى عام ١٥٦٢م، وقد ظفرنا في تلك المخطوطة على صور ثلاث ملونة ترجع كلها إلى المدرسة الصفوية تمثل إحداها (لوحه ٤٧٣م) صورة لصوفي في داره المشيدة من الطوب الأحمر وتزدان جدران هذه الدار من الداخل بزخارف هندسية ونباتية بديعة. وقد جلس هذا الصوفي في حجرة من حُجَر داره يقرأ في كتاب مفتوح نرى واضحاً على صفحته بيتاً من الشعر للشاعر سعدي الشيرازي ترجمته: «كَمْ تُوحِي أوراق الأشجار الخضراء للإنسان الفطن بعبيرات وعظات تدله على وجود الله». ولهذا البيت يرمز عند الصوفية إلى الخلق بتلك الأوراق، إذ كل ورقة عندهم تمثل باباً من أبواب المعرفة. وقد أبدع المصور حين مثل تلك المعرفة في هيئة ملك يهبط على الشيخ من عل حاملاً إكليلاً من الثور رمزاً لما تشعه المعرفة من ضياء.

جُلُستان لِسَعْدِي

ويكاد يلحق بهؤلاء المتصوفة سعدي الشيرازي، وكان له في ميدان الوعظ الذي يكاد يتفق مع وعظ المتصوفة كتاب «جُلُستان». ولقد ظفرنا منه بنسخة لا تزال بدار الكتب المصرية وهي لا تحمل تاريخاً وإن كان من المحتمل أن تكون قد سُيخت في أوائل القرن السابع عشر، دليلنا على ذلك أن الصور الأربع التي تحملها يرجع أسلوبها إلى أسلوب هذا القرن. ومن هذه الصور اختزت صورة لمعلم وبين يديه ثلاثة من الطلبة يسأله أحدهم (لوحه ٤٧٤م). ونجد في أسفل الصورة ما جرى بين هذا الطالب والأستاذ من سؤال وجواب.

يقول الطالب: ما الفرق بين العالم والعايد؟

فيجيب عليه الأستاذ: أولهما من الغرق يُنقذ نفسه، وثانيهما يسعى ليشبيل غريقاً.

الدَّرَاوِيش.

وثمة فرقة من الناس يكاد يعدها البعض ذات صلة بفرق المتصوفة ونعني ما نسميهم اليوم بالدراویش. ولكن الذي لا شك فيه أنه ثمة فرق كبير بين هؤلاء وهؤلاء. وإذا كان المجال ليس مجال إفاضة في هذه التفرقة فإني أكتفي هنا بعبارة خاطفة لا تبعدني عن الموضوع وليكتي أجعل من إيجازها تمهيداً لي في

رُفَات الشَّيْخ وَحِيد الْكَلْبِيِّ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ. وَيَقُولُونَ تَبَرُّيرًا لِقَوْلِهِمْ هَذَا إِنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ حَضَرَ الْجَنَازَةَ وَأَمَرَ بِغَسْلِهِ وَدَفْنِهِ! (لَوْحَة ٢٦٥م).

وَنُشَاهِد فِي تَصْوِيرِ مَغُولِي (لَوْحَة ٢٦٦م) فَرِيقًا مِنَ الرِّجَالِ الْوَقُورِينَ بِيض اللَّحَى وَهُمْ يُشَاهِدُونَ رَقِصَ بَعْضِ الدَّرَاوِشِ الْمُسْتَيْنِّ، وَقَدْ سَقَطَ أَحَدُهُمْ بِأَثَرِ الْجَذْبَةِ، بَيْنَمَا رَاحَ آخَرُ يَسْتَنِدُ عَلَى زَمِيلٍ ثَالِثٍ ذِي لِحْيَةٍ شَهْبَاءٍ يَبْدُو وَكَأَنَّهُ عَلَى وَشَكِّ السَّقُوطِ هُوَ الْآخَرُ. وَلَعَلَّ أَبْدَعَ الصُّوَرِ الْأَخَاذَةَ عَنْ حَيَاةِ الدَّرَاوِشِ هِيَ الَّتِي لِرِضَا عَبَّاسِي فَلَقَدْ عَرَفَ فِي تَصَاوِيرِهِ عَنِ الْمُتَعَةِ الْعَابِثَةِ عَلَى الرُّغْمِ مِنْ شُغْلِهَا لِلْإِنْتِهَاءِ إِلَى نَمَازِجٍ أَكْثَرَ جَاذِبِيَّةً لِلدَّرَاوِشِ الَّذِينَ يَظْهَرُونَ فِي جَدِّ وَتَأَمُّلٍ وَوَقَارٍ (لَوْحَة ٢٦٧م).

قِصَصُ الْغَرَائِبِ وَالْمُعْجَزَاتِ

وإلى جانب هذه الصُّوَرِ الَّتِي تُمَثِّلُ بِلَا شَكِّ أَشْخَاصًا وَمَنَاطِرَ مَأْلُوفَةٍ فِي تَجَرُّبَةِ الْمُصَوِّرِ الْفِعْلِيَّةِ كَانَتْ ثَمَّةُ صُورٍ أُخْرَى الدَّافِعُ إِلَيْهَا هُوَ التَّعَلُّقُ بِالْمُعْجَزَاتِ وَبِمَا هُوَ غَرِيبٌ. وَقَدْ حَصَلَتْ الْأَسَاطِيرُ الْإِسْلَامِيَّةُ بِالْقِصَصِ الْغَرِيبِ عَنِ الزُّهَادِ وَالْمُتَعَبِّدِينَ وَالصَّالِحِينَ، وَهُوَ قِصَصٌ يَرْبِطُ بَيْنَ الْقَدَاسَةِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى الْإِثْنَانِ بِالْأَعْجَابِ، فَلَقَدْ رُويَ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ كَانَ يَغْتَلِي ظَهْرَ الْأَسَدِ، وَثَمَّةُ صُورٌ عَدِيدَةٌ لِأَمْثَالِ هَذِهِ الْخَوَاقِرِ.

وإنَّ قِصَصَ الْغَرَائِبِ وَالْأَعْجَابِ تُوفِّرُ عَادَةً لِلْمُصَوِّرِ مَادَّةً غَزِيرَةً لِمُارِسِ فَنِّهِ مِنْ خِلَالِهَا، غَيْرَ أَنَّ الْمُصَوِّرَ فِي الْإِسْلَامِ لَمْ يَكُنْ لِيَخْتَارَ مِنْ بَيْنِ تِلْكَ الْمُعْجَزَاتِ إِلَّا مَا يُطَلِّبُ إِلَيْهِ تَصْوِيرُهُ فِي مُؤَلَّفَاتِ مَشَاهِيرِ الْكُتَّابِ. وَمِنْ قَبِيلِ هَذِهِ الْقِصَصِ الْغَرِيبَةِ وَالَّتِي نَاسَبَتْ التَّصْوِيرَ الْإِسْلَامِيَّ تِلْكَ الْقِصَّةُ الَّتِي رَوَاهَا سَعْدِي فِي دِيَوَانِهِ «بُستَان» عَنِ الدَّرَوِشِ الَّذِي عَزَرَ التُّهَرَّ عَلَى سَجَادَةِ الصَّلَاةِ لِعِجْزِهِ عَنِ الْوَفَاءِ بِمَنْ الرُّخْلَةَ فِي الْقَارِبِ. وَكَذَلِكَ مَا يُروى عَنِ السَّيِّدِ الْبَدَوِيِّ مَعَ الصُّوفِيَّةِ خُضْرَةَ الشَّرِيفَةِ حِينَ أَسْرَهَا أَحَدُ الْمُلُوكِ الْأَجَانِبِ فَخَفَّ إِلَيْهَا السَّيِّدُ الْبَدَوِيُّ وَأَحْضَرَهَا فِي لَمَحِ الْبَصَرِ وَمَعَهَا مَنْ أَسْرَاهَا، وَلَا تَزَالُ هَذِهِ اللَّوْحَةُ تُمَثِّلُ فِي مَوْلَدِ السَّيِّدِ الْبَدَوِيِّ.

نَفَحَاتُ الْأُنْسِ لِلشَّاعِرِ جَامِي

وَتَمَّةٌ مُنَمَّنَتَانِ مِنَ التَّصْوِيرِ الْهِنْدِيِّ الْمَغُولِيِّ الْإِسْلَامِيِّ فِي مَخْطُوطَةِ «نَفَحَاتِ الْأُنْسِ مِنْ حَضَرَاتِ الْقُدُسِ» لِثُورِ الدِّينِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ جَامِي بِالْمُتَحَفِ الْبَرِيطَانِيِّ، أَوَّلَاهُمَا لِلشَّيْخِ أَبُو الْغَيْثِ جَمِيلُ الْيَمِينِيِّ، وَقَدْ خَرَجَ يَوْمًا بِجِمَارِهِ لِيَجْمَعَ الْحَطَبَ، وَحِينَ تَرَكَ جِمَارَهُ جَانِبًا عَدَا عَلَيْهِ أَسَدٌ فَمَرَّقَهُ. وَبَعْدَ أَنْ عَادَ وَرَأَى مَا

الدُّخُولَ إِلَى مَوْضُوعِي، فَالْمُتَصَوِّفَةُ كَمَا يَبْدُو لَنَا مِنْ دِرَاسَةِ أَحْوَالِهِمْ وَمَا خَلَّفُوهُ مِنْ أَقْوَالٍ فِرَقَ كَثِيرَةٍ كَانَتْ لَهَا نَهْجٌ عِلْمِيٌّ وَأَسَالِيبُ فِكْرِيَّةٌ مَخْصُوصَةٌ وَدَعْوَةٌ إِلَى ذَلِكَ الْفِكْرِ وَالْأَخْذِ بِتِلْكَ الْآرَاءِ، فَهُمْ لَا شَكَّ كَانُوا فَلَاسِيفَةً مِنْ طِرَازِ خَاصٍّ، فَلَاسِيفَةً شُغِلُوا بِشُؤْنِ الدِّينِ وَشُؤْنِ اللَّهِ وَصِلَةَ الْإِنْسَانِ بِالْإِلَهِ وَوُجُودُهُ فِي دُنْيَاهِ.

هَذَا هُوَ مُجْمَلٌ مَا يُمَكِّنُ قَوْلُهُ عَنْ تِلْكَ الْفِرَقِ، أَمَّا عَنْ الدَّرَاوِشِ فَكُلُّنَا يَعْلَمُ - مِنْ غَيْرِ شَكٍّ - أَنَّهُمْ أَنْاسٌ كَانَتْ لَهُمْ نَزَعَاتٌ تَجَرُّدِيَّةٌ، وَلِكِنَّهُمْ فِي نَزَعَاتِهِمْ تِلْكَ لَا يَصْدُرُونَ عَنْ رَأْيٍ أَوْ عَنْ فِكْرٍ أَوْ عَنْ اتِّجَاهٍ مُعَيَّنٍ، بَلْ تِلْكَ التَّزَعُّعَةُ هِيَ نَزَعَةُ تَعَبُّدِيَّةٍ أَرَادُوا بِهَا أَنْ يَتَشَبَّهُوا بِمَا يَأْتِيهِ الْمُتَصَوِّفَةُ فِي مَظَاهِرِهِمُ الْعَامَّةِ مِنْ تَقَشُّفٍ وَانْقِطَاعٍ لِلْعِبَادَةِ وَازْدِيَادٍ لَوْنٍ خَاصٍّ مِنَ أَلْوَانِ اللَّبَاسِ دُونَ أَنْ يَتَعَمَّقُوا هَذَا كُلَّهُ. ثُمَّ هُنَاكَ شَيْءٌ يَأْتِي بَعْدَ هَذَا وَهُوَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الدَّرَاوِشِ قَدْ يُسْرِفُونَ فَيَعَالُونَ فِي تِلْكَ الْمَظَاهِرِ غُلُوًّا قَدْ يُطِيعُ بِهِمْ بَعِيدًا عَنِ الطَّرِيقِ السَّوِيِّ، فَإِذَا هُمْ أَبْعَدُ مَا يَكُونُونَ عَنْ الدِّينِ وَهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَكُونُوا أَقْرَبَ مَا يَكُونُونَ إِلَى الدِّينِ. وَلِكِنَّهُمْ عَلَى هَذَا لَهُمْ مِنَ الْأَثَرِ الْوَعْظِيِّ - لَاسِيَّمَا عَلَى عَامَّةِ النَّاسِ وَالْبُيُطَاءِ - مَا يَجْعَلُنَا نَضْمُهُمْ وَنَضْمَ آثَارِهِمْ إِلَى فَضْلِنَا هَذَا الَّذِي نَتَنَاوَلُ فِيهِ التَّصْوِيرَ الْوَعْظِيَّ.

وَقَدْ وَجَدْنَا لِلْمُصَوِّرِينَ عِنَايَةً بِآثَارِ هَؤُلَاءِ الدَّرَاوِشِ فَصَوَّرُوا لَنَا صُورًا كَثِيرَةً عَمَّا وَقَعَ لَهُمْ مِنْ حِكَايَاتٍ وَأَفْعَالٍ. وَوَجَدْنَا نَحْنُ فِي هَذِهِ الصُّوَرِ مَجَالًا لِلدِّرَاسَةِ الْوَعْظِيَّةِ فَاخْتَرْنَا مِنْهَا بَعْضَهَا.

وَمِمَّا يَلْفَتُ النَّظَرَ أَنَّ بَعْضَ الْمُصَوِّرِينَ قَدْ وَلَعَ بِصِفَةِ خَاصَّةٍ يَرْسُمُ صُورَ لِيَجْمَاعَاتِ الدَّرَاوِشِ التَّابِضَةِ بِالْحَيَاةِ، وَحَرَصَ عَلَى إِثْرَارِ حَرَكَاتِ الذِّكْرِ الصَّاحِبَةِ مُظْهِرًا سُلُوكَهُمْ فِرْقَةً مِنَ الْمُهَرِّجِينَ لَا مَجْمُوعَةٍ مِنَ رِجَالِ الدِّينِ الْمُتَفَقِّهِينَ، وَبِهَذَا سَجَّلَ وَجْهًا مِنْ وَجُوهِ حَيَاةِ التَّعَبُّدِ فِي الْإِسْلَامِ تَتَعَاضَّدُ تَعَاوُضًا مَلْحُوظًا مَعَ الْجَدِّيَّةِ وَالتَّقَشُّفِ الَّذِي يُنَادِي بِهِمَا الدِّينُ. وَلَا نَكَادُ نَرَى لِلدَّرَاوِشِ رَأْيًا مُجْمَعًا عَلَيْهِ نَعْتَبِرُهُ مَذْهَبًا أَوْ نِحْلَةً، فِيمَا يَتَّصِلُ بِالرَّقِصِ تَعْبِيرًا عَنْ الْأَنْفِعَالِ الدِّينِيِّ، فَبَيْنَمَا يُحَرِّمُهُ الْبَعْضُ تَحْرِيمًا قَاطِعًا يَرَاهُ الْبَعْضُ جُزْءًا مِنَ الشَّعَائِرِ الدِّينِيَّةِ مِثْلَ الْمَوْلُودِيَّةِ، تِلْكَ الْفِرْقَةُ الَّتِي أَسَّسَهَا جَلَالُ الدِّينِ الرُّومِيَّ، كَمَا أَشْرَفَتْ مِنْ قَبْلِ. وَكَانَ الرَّقِصُ عَادَةً يَتَّبِعُهُ شَيْءٌ مِنَ الْأَنْجِذَابِ يَفْقَدُ مَعَهُ الرَّاغِبُ كُلَّ إِحْسَاسٍ بِالْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ.

وَفِي اللَّوْحَةِ الَّتِي تُمَثِّلُ دَرَوِشَ مُحَمَّدَ نَائِي [أَيَّ عَازِفِ التَّاي] كَمَا تَنْطِقُ الثَّقُوشُ الَّتِي تَحْمِلُهَا - وَلَا تُمَثِّلُ مُحَمَّدَ تَبَادِقَانِي كَمَا ذَهَبَ توماس أَرْنولد فِي كِتَابِهِ «التَّصْوِيرُ فِي الْإِسْلَامِ» -، نَرَى مُحَمَّدَ نَائِي يَتَصَدَّرُ حَلَقَةً الذِّكْرِ بَعْدَ الْإِنْتِهَاءِ مِنْ مَرَامِسِ دَفْنِ

وَقَعَ اتَّجَهَ إِلَى الْأَسَدِ يَقُولُ «عَلَيْكَ إِذَا أَنْ تَحْمِلَ مَا جَمَعْتَ مِنْ حَطَبٍ بَعْدَ أَنْ قَتَلْتَ حِمَارِي» (لَوْحَةٌ ٢٦٨ م). وَالْمُنْمَنَةُ الثَّانِيَّةُ لِلشَّيْخِ سَرِي وَكَانَ قَدْ انْتَهَى إِلَى عِلْمِهِ أَنَّ طِفْلاً ابْتَلَعَتْهُ مِرْوَحَةٌ الْمِيَاهِ فَقَصَدَ قَصْدَ أُمِّهِ وَأَخَذَ يُعْزِيهَا وَيُسْرِى عَنْهَا وَيُصْبِرُّهَا، غَيْرَ

أَنَّ الْأُمَّ لَمْ تُصَدِّقْ مَا كَانَ مِنْ غَرَقِ ابْنِهَا وَعَادَتْ أَذْرَاجَهَا مَعَ الشَّيْخِ إِلَى حَيْثُ غَرَقَ الطِّفْلُ وَنَادَتْهُ، فَإِذَا هُوَ يُجِيبُهَا وَكَأَنَّهُ لَمْ يَمُتْ. وَهَذِهِ مِنَ الْخَوَارِقِ الَّتِي تُعْزَى إِلَى الْأُمِّ، وَلَعَلَّهَا كَانَتْ مِنَ الْمُقَرَّبَاتِ (لَوْحَةٌ ٢٦٩ م).

الفصل الرابع والثلاثون

الترغيب بالجنة والترهيب بالنار

التخويف بالنار وإلقاء الخشية والترغيب بالجنة وحفز النفوس إلى الطاعة.

هذا المجال الخصب المليء بتلك الصور الواعظة رُشدًا ونهيًا كانت فيها فسحة للمُصور ليبدع ويصور مُستوحياً من خيال المُسلم المؤمن بهذا كله فيُضفي على التعيم جلالاً بعد جلال وعلى العذاب نفمة بعد نفمة ليبلغ صورته من النفس ما لم تبلغه عبارة الكاتب. وفي الحق إن تلك الصور التي جاءت فيما سنعرض من مُنمنمات عن الجنة والنار في السموات لتخوي أجل العظات ترغيباً وأشد العبر ترهيباً، وهكذا جاءت تلك الصور تُمثل أقوى تمثيل الترغيب والترهيب بأسمى ما يحملان من معاني لا يعبر عنها بهذا التعبير لسان مُتكلم أو قلم مُنشي.

مرقعة بهرام ميرزا (١٥٤٤)

في عام ١٥٤٤ كلف الأمير أبو الفتح بهرام ميرزا أخو الشاه طهماسب الصفوي المؤرخ والفنان الفارسي «دوست محمد» أن يعد له مرقعة تحوي مجموعة من الصور ومن نماذج فن الخط وأن يصدرها بثبت أعلام الماضي في هذين الفئين.

وبينما مؤرخ الفن ريتشارد إتنجهاوزن يُنقّب وسَط المخطوطات الإسلامية بِمتحف طوب قابو بِاستنبول عام ١٩٥١ إذ وقَعَ على تلك المجموعة من صور المعراج المُنتسبة إلى المُصور أحمد موسى، وذَهَبَ إلى أنها قد انتزعت من مخطوطها الأصلي في عام ١٥٤٤ لِتضمها هذه المرقعة على غير الترتيب الذي كانت عليه أول الأمر. وقد سجّل إتنجهاوزن هذا في مقال له، بدأه بلوحة ترمز للرّسول عليه الصّلاة والسّلام يتقدّمه ملاك مُجَنّح هو بلا شك رمز ليجريل، يتّمتا يتطّلع إلى حشد من الملائكة أمام الملك الديك المُعتلي منصّة ذهبيّة قريّة من العرش الإلهي، والمُكلّف بِإخفاء ساعات النهار لِإعلان مَواقيت الصّلاة، مُسبّحاً بِاسم الله، فلا تلبث ديكة العالم حين تسمعه أن تُكرّر

لعلّ من تلك الجوانب التي تتسع لِخيال المُصور الإسلاميّ ويُبدع فيها أيّما إبداع ذلك الجانب الذي يمسّ الجنة ترغيباً والنار تهديداً ووعيداً، وكَم من مشاهد الجنة ما يُغري وَيَجذب النفوس طمعا في التّنعّم به. ولقد حفّلت الكتب - سماويّة وإخباريّة - بأوصاف لِلجنة من أنهار من لبن وعسل مُصفّى ومن نخيل وأغاب ومن قصور شاهقات وخور عين إلى غير ذلك ممّا تشتهي الأنفس وليد الأعين ويُطرب السّمع، ثمّ كم حفّلت تلك الكتب أيضاً بِأحاديث عن النار تُهول الأنفس وتُفزع القلوب وتخلع الخواطر وتزلزل الجنان من ذكر لُزبانِيّة غلاظ شداد وذكر للمُعذّبين الآثمين وما يلقون من هول، طعامهم من غسيلٍ وشرابهم من حميمٍ أن، كلّما نَضجت جلودهم بُدّلوا غيرها لِيَذوقوا العذاب مُتجدّداً مع تجدد جلودهم، يستغيثون ولا مُغيث ويستصرخون ولا مُجيب. تلك الألوان التي جمعتها الجنة وجَمعتها النار وتلك الصور المُطمئنة هنا والمُفزعّة هناك، وهؤلاء الناعمون في الجنة يَمرحون حيث يشاءون، ثمّ هؤلاء المُعذّبون في النار يَضجّون ويستغيثون، ثمّ صور ملائكة الرّحمة في الجنة وما يُتجفّون به أهلها من عَذب الكلمات وطيب العبارات، وصور ملائكة العذاب في النار بِوجوههم البشعة وأجسامهم المُخوّفة وأسواط العذاب في أيديهم، كلّ هذا الذي اتّسعت له رُقعة السّماء فطوّته بين جَنّباتها وأفسحت له مكاناً بين طولها وعرضها، والتي تنقل بينها الرّسول خلال معجازه يُشاهد ما يَنعم به أهل الجنة فيقرّ نفساً، ويُشاهد ما يُصلاه أهل النار فيهلح ويفزع، وهو بين الحالين يسأل ربّه أن يجعل الجنة من نصيب أمته وأن يقي النار العصاة من تلك الأمّة، ويؤدّه لو أطلع الناس معه جيلاً بعد جيل إلى يوم يُبعثون على ما رَأَى وشاهد من نعيم الجنة وعذاب في النار لِيَتَعظُوا وتبلغ العظة مكانها من نفوسهم فيعملوا بِعمل

التَّسْبِيح. وَيَبْدُو الْوَجْهَ الرَّامِزَ لِلرَّسُولِ ﷺ مُغَطًى بِنِقَابٍ وَرَأْسُهُ مُحَاطٌ بِهَالَةٍ ذَهَبِيَّةٍ مُسْتَدِيرَةٍ وَالْمَلَائِكَةُ فِي ثِيَابٍ مُتَنَوِّعَةٍ الْأَلْوَانُ تُحِيطُ بِأَجْنَحَتِهِمْ أَشْرَاطُهُ ذَهَبِيَّةٌ... وَتَرْمِزُ الْمُنْمَنَةِ الثَّانِيَةَ لِشَخْصِيَّةٍ جَلِيلَةٍ أَوْ لِإِمَامٍ ذِي شَأْنٍ مُحَاطَةِ الْوَجْهِ بِهَالَةٍ مِنْ نُورٍ جَالِسًا وَسَطَ مَبْنًى زَاخِرٍ بِالزُّخَارِفِ يُوحِي بِمُحَرَّابِهِ بِأَنَّهُ مَسْجِدٌ لَعَلَّهُ قُبَّةُ الصَّخْرَةِ، وَظَهَرَتْ أَرْبَعَةُ أَعْمِدَةٍ مُزْدَوِجَةٍ نَحِيلَةٍ مِنْ الرُّخَامِ الْأَخْضَرِ وَكَأَنَّهَا قِسْمٌ مِنْ أَعْمِدَةٍ ثَمَانِيَةٍ تَقُومُ عَلَيْهَا قُبَّةُ ضَخْمَةٍ (لَوْحَةٌ ٤٧٥م). وَيَتَجَمَّعُ حَوْلَ هَذَا الْإِمَامِ الْجَلِيلِ حَشْدٌ مِنَ الشُّخُوصِ يَظْهَرُ أَكْثَرُهُمْ إِلَى جَانِبِهِ وَإِنْ لَمْ يُكَلَّلْ بِهَالَةٍ مِثْلِهِ. وَنَرَى فِي الرُّكْنِ الْأَسْفَلِ الْأَيْسَرِ دَابَّةً وَقَدْ شُدَّتْ إِلَى حَلَقَةٍ بِبَابِ الْمَسْجِدِ، قَائِمَتِهَا الْيُمْنَى الْأَمَامِيَّةُ تَبْدُو وَكَأَنَّ لِسَانًا مِنَ اللَّهَبِ يَنْطَلِقُ مِنْهَا، وَلَهَا وَجْهٌ آدَمِيٌّ وَجِسْمٌ أَحْمَرٌ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ إِلَى جِسْمِ الْفَرَسِ حَجْمًا، وَعَلَى ظَهْرِهَا سَرَجٌ مِنْ ذَهَبٍ. وَنَرَى وَرَاءَ الْعُمُودَيْنِ إِلَى يَسَارِ الْإِمَامِ مَلَكَ يَمِيزَانِ يَتَجَانَّ نُورَانِيَّةً وَأَجْنِحَةً مَبْسُوطَةً يَفْدُمَانِ أَقْدَاخًا ذَهَبِيَّةً. وَتَتَمَيَّزُ هَذِهِ الْمُنْمَنَةُ بِالتَّضَاوُلِ النَّسْبِيِّ فِي عَنَاصِرِهَا الْمِيعْمَارِيَّةِ لِلإِبْهَامِ بِالْعَمُوقِ، كَمَا يَتَجَلَّى الْإِتِّجَاهُ إِلَى رَسْمِ بَعْضِ الشَّخْصِيَّاتِ مِنْ خَلْفٍ، وَهَذَا أَشْبَهَ مَا يَكُونُ بِالتَّصْوِيرِ الْإِيطَالِيِّ مِنْهُ بِتَصْوِيرِ الْمُنْمَنَاتِ الْفَارِسِيَّةِ. كَذَلِكَ نَرَى التَّأثيرَ الصِّينِيَّ وَاضِحًا فِي رَسْمِ السُّحُبِ...

مِعْرَاجُ نَامِهِ. هَرَاة ١٤٣٦

وَتَمَّةُ مُنْمَنَاتٍ أُخْرَى تَرْمِزُ إِحْدَاهَا إِلَى مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِرِفْقَةٍ مَلَكَ لَا يَقُومُ بِدَوْرِ الدَّلِيلِ فَحَسْبُ، بَلْ نَرَاهُ يَحْمِلُ رَمْزَ الرَّسُولِ عَلَى مَنَكِبَيْهِ. وَنَرَى فِي إِحْدَى الْمُنْمَنَاتِ جِبْرِيلَ أَيْضًا يَحْمِلُ رَمْزَ الرَّسُولِ ﷺ فِي رِفْقَةٍ حَشْدٌ مِنْ صِغَارِ الْمَلَائِكَةِ مُحَلَّقًا بِهِ عَالِيًا فَوْقَ الْجِبَالِ الَّتِي تَبْدُو قِمَمُهَا الْبَيْضَاءُ وَاضِحَةً بَيْنَ رَفَاقِ اللَّهَبِ اللَّذْهَبِيَّةِ ذَاتِ الْخُطُوطِ الْحُمْرَاءِ وَالسُّودَاءِ. وَفِي مُنْمَنَةٍ أُخْرَى نَرَى جِبْرِيلَ يَحْمِلُ رَمْزَ الرَّسُولِ عَلَى كَتِفَيْهِ وَهُمَا يُحَلِّقَانِ فَوْقَ الْبِيَاهِ الَّتِي رُسِمَتْ رَسْمًا مَأْخُوذًا عَنْ مَدَارِسِ الشُّرُوقِ الْأَقْصَى مَعَ شَيْءٍ مِنَ التَّخْوِيرِ. وَنَرَى فِي أَسْفَلِ هَذِهِ الْمُنْمَنَةِ مَبْنًى يَضُمُّ جِسَانًا قَدْ نُوحِيَ رُؤُوسُهُنَّ الْمُتَوَّجَّةُ وَثِيَابُهُنَّ الْفَخْمَةُ وَبَعْضُ آثَارِ الْوُشْمِ عَلَى وُجُوهِنَّ بِأَنَّهُنَّ مَلَائِكَةُ حُجِبَتْ أَجْنِحَتُهُنَّ، وَرُبَّمَا كَانَ هَؤُلَاءِ الصَّبَابَا الْمُتَوَّجَاتِ غَيْرَ الْمُجْتَنَحَاتِ مِنَ الْخُورِ الْعَيْنِ أَوْ مِنْ نِسَاءِ الْفِرْزَدُوسِ الْجَمِيلَاتِ. وَفِي مُنْمَنَةٍ تُمَثِّلُ وُصُولَ الرَّسُولِ ﷺ وَجِبْرِيلَ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ الذَّهَبِيِّ نَرَى مَلَكَ يُرْحَبُ بِهِمَا. وَقَدْ أَوْضَحَ الْمَصُورُ فِي كُلِّ هَذِهِ الْمَشَاهِدِ اتِّجَاهَ حَرَكَةِ الطَّيْرَانِ لِلْإِمَامِ بِوَضْعَةِ جِسْمِ الْمَلَكَ وَالشَّرَاطِطِ الْمُتَطَايِرَةِ. وَلَا يَتَمَيَّزُ رَمْزُ الرَّسُولِ فِي هَذِهِ الْمُنْمَنَاتِ جَمِيعًا بِالهَالَةِ الْمُحِيطَةِ بِرَأْسِهِ الْمُعَمَّمِ وَالتَّقَابِ الْمُسْلِلِ عَلَى وَجْهِهِ وَخَدَيْهِمَا، بَلْ أَيْضًا بِعَبَائِهِ ذَاتِ اللَّوْنِ الْأَزْرَقِ. كَمَا يَتَمَيَّزُ رَمْزُ جِبْرِيلَ شَأْنُ جَمِيعِ الْمَلَائِكَةِ بِالْعِبَادَةِ الصَّغِيرَةِ ذَاتِ

وَتَمَّةُ مَخْطُوطَةٍ بِدَارِ الْكُتُبِ الْقَوِيَّةِ بِپَارِيسِ أُنْجِزَتْ بَعْدَ قُرَابَةِ قَرْنٍ مِنْ إِنْجَازِ صُورِ مُرَقَّعةٍ بِهَرَامٍ مِيزَرَا تَزْخُرُ بِصُورِ رَايِزَةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَالبُرَاقِ وَبِصُحْبَتِهِ الْمَلِكِ جِبْرِيلَ فِي السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْجَنَّةِ، وَصُورَ أُخْرَى لِلنَّارِ وَأَهْلِهَا. وَتَضُمُّ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةُ صَفَحَاتٍ مُضِيئَةٍ مِنْ ثَرَاتِنَا الْفَنِّيِّ الْإِسْلَامِيِّ مِنْ نِتَاجِ زَمَنٍ كَانَتْ الرُّوحَانِيَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ الصُّوفِيَّةُ وَالذِّينِيَّةُ تَتَدَفَّقَانِ فِي نَفُوسِ الْمُسْلِمِينَ وَتُحْيِي فِيهَا مَنَابِعَ الْإِنْدَاعِ فَإِذَا بِهِمْ يَخْلُقُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ الْفَنِّيَّةِ مَا يَقْرُضُ نَفْسَهُ عَلَى الْخُلُودِ ضِمْنَ الثَّرَاثِ الْإِنْسَانِيِّ وَتَتَسَابَقُ إِلَى اقْتِنَائِهِ مَتَاحِفُ الْعَالَمِ...

وَهَذِهِ الْمَخْطُوطَةُ بِاللُّغَةِ التُّرْكِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ (الْخَاقَانِيَّةِ الْجَفْطَانِيَّةِ) حُرُوفُهَا أَوِيغُورِيَّةٌ، وَهِيَ كِتَابَانِ يَحْكِي أَوَّلُهُمَا قِصَّةَ الْمِعْرَاجِ الْمُتَرَجِّمَةِ عَنِ الْعَرَبِيَّةِ وَالكِتَابِ الثَّانِي تَذَكُّرَةُ الْأَوَّلِيَاءِ لِلشَّاعِرِ الصُّوفِيِّ فَرِيدِ الدِّينِ الْعَطَّارِ. وَقَدْ انْتَهَى مَالِكٌ بِخَشْيِهِ مِنْ نَسْخِ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ بِهَرَاةٍ فِي ٢١ دَيْسَمْبَرِ سَنَةِ ١٤٣٦. وَكَانَ الْعَاهِلُ التَّيْمُورِيَّ شَاهُ رُخٍ قَدْ أَمَرَ بِتَرْوِيْقِهَا بِالصُّورِ، وَالرَّاجِحُ أَنَّ تَكُونَ قَدْ أُنْجِزَتْ فِي أَحَدِ الْمَرَامِسِ الَّتِي أَنْشَأَهَا الْأَمِيرُ بَايَسْتَرُ التَّيْمُورِيَّ الَّذِي

(١) أَنْظَرُ «مِعْرَاجُ نَامِهِ، أَثَرُ إِسْلَامِيٍّ مُصَوَّرٌ: دَرَاةٌ وَنَصٌّ» لِكَاتِبِ هَذِهِ السُّطُورِ. دَارُ الْمُسْتَقْبَلِ الْعَرَبِيِّ، بِضَرْفِ الْجَدِيدَةِ، ١٩٨٧.

تُوْفِّي قَبْلَ إِنْجَازِهَا بِثَلَاثِ سَنَوَاتٍ.

العناصر التشكيلية لِنَسَقِ خاصَّ تَنَجَّلِي فِيهِ بَرَاةَ الْفَتَانِ فِي التَّصْوِيرِ وَالْخَلْقِ وَالْإِبْدَاعِ، فَلَيْسَ ثَمَّةَ انْعِزَالِيَّةٍ فِي الْفَنِّ، إِذْ يَأْخُذُ كُلُّ عَمَلٍ فَنِّي بِطَرَفٍ، فَيَجِيءُ هَذَا وَذَاكَ خَلِيطًا مِنْ هَذَا كُلِّهِ. وَيُمَثِّلُ اللَّوْنُ فِي مُنَمَّنَاتِ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ مَا أَشْرَفْنَا إِلَيْهِ قَبْلَ، فَهُوَ تَارَةً يُؤَدِّي دَوْرًا تَشْكِيلِيًّا كَمَا هِيَ الْحَالُ فِي لَوْحَاتِ الْحَجِيمِ، وَتَارَةً أُخْرَى يُؤَدِّي دَوْرًا جَمَالِيًّا كَمَا هِيَ الْحَالُ فِي تَصْوِيرِ أَصْنَافِ الْمَلَايِكَةِ.

وما نكاد نَشْكُ فِي أَنَّ تَرَاوُجَ الْوَاقِعِيَّةِ رُؤْيَا رُؤْيَا وَاحْتِلَالَهَا مَكَانًا وَسَطًا كَانَ لِغَلْبَةِ الْقِيَمَةِ الْجَمَالِيَّةِ وَتَبَوُّثِهَا مَكَانَتَهَا، فَالْتَّصْمِيمِ الْفَنِّي إِبْدَاعٌ بَحَثٌ مِنْ إِمْلَاءِ الْعَقْلِ وَإِشْرَاقَاتِ الْوُجْدَانِ، فَهُوَ عَلَى هَذَا عَقْلَانِي وَوُجْدَانِي، وَهَذَا غَايَةٌ مَا يَنْشُدُهُ الْفَتَانُ. وَقَدِيمًا غَلَبَ الْإِغْرِيقُ الْمِثَالِيَّةَ عَلَى وَاقِعِيَّتِهِ الْمَعْرُوفَةِ مُتَبَعِدِينَ عَنِ الْمُحَاكَاةِ الْمُطَابِقَةِ، مُخْتَارِينَ حَلًّا وَسَطًا يُؤَلِّفُ بَيْنَ الطَّبِيعَةِ وَالْعَقْلِ. وَفِي مُقَابِلِ هَذَا الْحَلِّ الْوَسْطِ الَّذِي اخْتَذَاهُ الْإِغْرِيقُ مِنْ تَغْلِبِ الْمِثَالِيَّةِ عَلَى الْوَاقِعِيَّةِ نَرَى مُصَوِّرَنَا الْمُسْلِمَ يُوَثِّرُ التَّحْوِيرَ مِنْ إِبْدَاعِ خَيَالِهِ وَإِنْجَاءِ فِطْرَتِهِ. خُذْ لِذَلِكَ مَثَلًا تَصْوِيرَ الْخُورِيَّاتِ فِي الْجَنَّةِ فِي وَضْعَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ لَيْسَ فِيهَا التَّزَامُ بِالنَّصِّ وَإِنَّمَا فِيهِ تَحَرُّرٌ يُمْلِيهِ الْإِبْدَاعُ. فَلَقَدْ اسْتَعَاذَ عَنْ تِلْكَ الْكُرْمَةِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي عُنْوَانِ بَيَانِ الصُّورَةِ بِشَجَرَاتٍ أُخْرَ أُيْنَعُ زُهُورًا وَأَنْسَقَ أَوْرَاقًا وَأَفْرَعَ جَذْعًا. وَهَذَا كُلُّهُ لَمْ يَخْتَرَهُ الْمُصَوِّرُ عَيْنًا، وَإِنَّمَا كَانَ لِتِلْكَ الرُّخْرَفَةِ ذَاتِ الْأَلْوَانِ الْمُخْتَلِفَةِ الَّتِي شَاعَتْ فِي اللَّوْحَةِ فَاضْفَتْ عَلَيْهَا شَيْئًا مِنَ الْبَهْجَةِ وَالثَّمَنَةِ، مَا رَجَا بَيْنَ الْمَظْهَرِ الطَّبِيعِيِّ الْوَاقِعِيِّ وَالتَّصْمِيمِ الْعَقْلَانِيِّ الْمُتَخَيَّلِ. وَهَذَا التَّغْلِبُ لَا شَكَّ وَمَا يُؤَيِّدُ فِينَا الرَّغْبَةَ فِي لَمَسِ الصُّورَةِ الْجَمِيلَةِ بِأَنَامِلِنَا وَتَذَوُّقِهَا بِأَلْسِنَتِنَا وَشَمِّهَا بِأَنْفُونَا، وَقَبْلَ هَذَا وَذَاكَ الْإِحْسَاسُ بِالْمِيلِ إِلَى أَنَّ نَعْمَهَا فِي رَفَقِ بِنَظَرَاتِ عِيُونِنَا، وَإِذْ هِيَ قَدْ أَجْجَحَتْ فِينَا الْجِسِّيَّةَ التَّصَوُّورِيَّةَ.

وَقَدْ التَّزَمَ الْفَتَانُ بِالْمُؤَاوَنَةِ بَيْنَ مُكَوِّنَاتِ الصُّورَةِ مِنْ حَيْثُ الْأَوْضَاعُ وَالْأَلْوَانُ وَتَأَثَّرَ كُلٌّ مِنْهَا بِالْآخِرِ حَتَّى لَا يَطْفَى جَمَالُ عَلَى جَمَالٍ، كَمَا كَانَ ثَمَّةَ وَجُودٍ لِلْعَنَاصِرِ الْمَعْمَارِيَّةِ فِي بَعْضِ الْمُنَمَّنَاتِ بِخُطُوطِهَا الرَّأْسِيَّةِ الْمُتَسَيِّقَةِ وَالتَّمَاثُلِ الْقَائِمِ بَيْنَ مُكَوِّنَاتِهَا، الْأَمْرُ الَّذِي كَانَ لَهُ تَصْبِيهِ فِي إِضْفَاءِ التَّوَارُنِ وَالْإِتْسَاقِ عَلَى التَّكْوِينِ. فَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَعْقُولِ أَنْ تَخْرُجَ مُنَمَّنَاتُ مَخْطُوطَةٍ مَا عَنْ مَرَسَمِ هَرَوِيٍّ فِي الْعَهْدِ التَّيْمُورِيِّ مِنْ دُونِ مِثْلِ هَذَا التَّمَاثُلِ، الَّذِي كَانَ خِلَالَ الْقَرْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ إِضَافَةً فَارِسِيَّةً خَالِصَةً إِلَى الْأُسْلُوبِ الْعِرَاقِيِّ لِلتَّصْوِيرِ. وَبَدَلُ وَجُودِهِ فِي الْعَدِيدِ مِنَ

وَتُعَدُّ صُورَ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ مِنْ أَهَمِّ وَأَنْدَرِ الْمُنَمَّنَاتِ الَّتِي تَرْمِزُ إِلَى الْجَنَّةِ وَالتَّارِ وَمَوْضُوعَاتِ الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ كَمَا تَصَوَّرَهَا الْفِكْرُ الْإِسْلَامِيُّ مُتَّبِعًا خُطَى الرَّسُولِ ﷺ بِصُخْبَةِ جِبْرِيلَ وَهُوَ يَجُوسُ خِلَالَ الْجَنَّةِ، ثُمَّ وَهُوَ يَشْهَدُ عَذَابَ الْهَالِكِينَ فِي التَّارِ^(١). حَقًّا لَمْ يَتِمَّتْ جَلَالُ الْمَفْهُومِ الدِّينِيِّ بِقَدْرٍ مَا تَمَثَّلَ فِي تَصْوِيرِ قِصَّةِ الْمِعْرَاجِ ذَاتِ لَيْلَةٍ رَائِعَةٍ مُوَشَّاةٍ بِالنُّجُومِ الْمُتَلَالِئَةِ. وَلَقَدْ أَوْحَى هَذَا الْمَوْضُوعُ إِلَى الْفَتَانِ الْمُسْلِمِ بِصَفَحَاتِ خَلَابَةِ، فَغَدَّتِ الْأَرْضُ الَّتِي تُعَدُّ عِنْدَ الْمُصَوِّرِ مُتعة تَبْعَثُ فِي حَوَاسِّ الْإِنْسَانِ كُلَّ بَهْجَةٍ رُكْنًا ضَمِيلًا فِي رُسُومِهِمْ حَتَّى لَكَأَنَّهَا كُرَّةٌ صَغِيرَةٌ تَبْدُو سَابِحةً بَيْنَ الْعَمَامِ وَالْفَضَاءِ الْحَافِلِ بِالنُّجُومِ وَإِنْ لَمْ تَحُلْ - بِالرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ - مِنْ بَعْضِ اللَّمَسَاتِ الْجِسِّيَّةِ. وَيَتَّبِعُ تَأْثِيرُ صِينِيٍّ وَاضِحٍ فِي مُنَمَّنَاتِ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ جَاءَ وَلِيدَ الْمَدِّ الصِّينِيِّ الْوَافِدِ مَعَ الْبَعْثَةِ الَّتِي وَجَّهَهَا شَاهُ رُخْ إِلَى الصِّينِ فَعَاذَتْ تَجَهَّرُ بِرُوعَةِ التَّصَاوِيرِ الصِّينِيَّةِ وَسِحْرُهَا وَجَازِبِيَّتِهَا.

لِكُلِّ صُورَةٍ خَطَّتْهَا يَدُ الْإِنْسَانِ مَفْهُومَانِ: مَفْهُومٌ خَاصٌّ عَنِ جَمَالِهَا الدَّائِي، وَهُوَ مَا يُعْبَرُ عَنْهُ بِالْجَانِبِ التَّشْكِيلِيِّ وَيُمَثِّلُ التَّوَاحِي الْجِسِّيَّةَ وَالْبَصَرِيَّةَ الَّتِي هِيَ مِنْ خُصَائِصِ الْمَادَّةِ، وَآخَرٌ يَنْطِقُ بِمَا تَجِيشُ بِهِ نَفْسُ الْفَتَانِ مِنْ إِحْسَاسٍ مَعْنَوِيٍّ وَوُجْدَانِيٍّ مِنْ إِمْلَاءِ الرُّوحِ. وَلِهَذَا كَانَ بَعِيدًا أَنْ تَأْتِيَ الصُّورَةُ الْمُبْدِعَةُ مُتَمَثِّلَةً الْجَانِبِ التَّشْكِيلِيِّ وَحْدَهُ أَوْ الْجَانِبِ الْوُجْدَانِيِّ وَحْدَهُ، بَلْ هِيَ مَزِيجٌ مِنْ هَذَيْنِ الْجَانِبَيْنِ. فَالْإِبْدَاعُ الْفَنِّيُّ هُوَ مَزْجُ الْقِيَمِ الْجَمَالِيَّةِ الْمُجَرَّدَةِ بِالْمَعْنَوِيَّاتِ الرُّوحِيَّةِ الَّتِي هِيَ مِنْ قِيَضِ الْإِلَهِ عَلَى الْكَوْنِ. وَلِكُلِّ فَنَانٍ تَأَثَّرُهُ بِهَذَا الْقِيَضِ، إِذْ بَعِيدٌ أَنْ يَكُونَ الْفَتَانُونَ جُمْلَةً عَلَى دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ تَأَثُّرِهِمْ بِهَذَا الْجَمَالِ الَّذِي هُوَ مِنْ قِيَضِ الْأُلُوهِيَّةِ، لِذَا كَانَتْ تَصَاوِيرُهُمْ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ تَأَثُّرِهِمْ بِهَذَا الْقِيَضِ. وَهَذَا الْأَثَرُ الَّذِي يَسْتَقِرُّ فِي نَفْسِ الْفَتَانِ هُوَ الَّذِي يُمْلِي عَلَيْهِ إِبْدَاعَهُ فِي عَمَلِهِ، وَالَّذِي بِهِ تَخْرُجُ صُورَتُهُ عَلَى لَوْنٍ مِنْ أَلْوَانِ الْجَمَالِ، نَعْنِي أَنَّ رُوحَ الْفَتَانِ يَتَأَثَّرُ بِذَلِكَ الْجَمَالِ الَّتِي تَمَلَّا ذَلِكَ الْفَرَاغَ الَّذِي يَتَحَوَّلُ إِلَى صُورَةٍ فَنِّيَّةٍ فِيهَا لَمَسَاتٌ مِنْ جَمَالِ الْأُلُوهِيَّةِ. وَالصُّورَةُ كَمَا هِيَ مَعْرُوفَةٌ تَنْبِيءُ عَلَى أُسُسِ ثَلَاثَةٍ هِيَ الْاسْتِلهَامُ [أَوْ الْاسْتِشْرَادُ] وَالتَّشْكِيلُ وَالتَّعْبِيرُ، أَيْ بِمَعْنَى آخَرِ الْوَاقِعِ وَالْإِبْدَاعِ وَالشَّاعَرِيَّةِ. وَلَيْسَ ثَمَّةَ عَمَلٍ فَنِّيٍّ جَلِيلٍ لَا يَحْمِلُ هَذِهِ الْعَنَاصِرَ الثَّلَاثَةَ عَلَى صُورَةٍ مَا، كَيْ يُحَقِّقَ الْمُؤَاوَنَةَ بَيْنَ تَمَثُّلِ الطَّبِيعَةِ وَتَقْنِيَةِ التَّصْوِيرِ وَقِيَضِ خَيَالِ الْفَتَانِ.

كَذَلِكَ نَرَى أَنَّ اللَّوْنَ يُؤَدِّي دَوْرَيْنِ: أَحَدُهُمَا أَنَّهُ عُنْصُرٌ تَشْكِيلِيٌّ يَشْمَلُ الْخُطُوطَ وَالْأَشْكَالَ وَالْأَلْوَانِ وَالضُّوْءَ وَالظَّلَّ، وَالْآخَرُ أَنَّهُ قِيَمَةٌ جَمَالِيَّةٌ تَتِمَّتْ فِي طَرِيقَةِ التَّنَاوُلِ وَالْإِخْضَاعِ

(١) الْمَصْدَرُ السَّابِقُ.

وَكُرُوبِيَّةٌ وَمَخْرُوطِيَّةٌ، فَتَرَاهُ قَدْ صَوَّرَ الرُّجُوهَ الْآدَمِيَّةَ دَائِرِيَّةً وَبَيْضِيَّةً، وَالْأَجْسَادَ أُسْطُوَانِيَّةً سِوَا أَجَاءَتٍ مُحْتَشِدَةٍ بِالتَّفَاصِيلِ، كَمَا هِيَ الْحَالُ فِي الصُّورِ الرَّامِزَةِ لِلْأَنْبِيَاءِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْبَرَّاقِ وَكَبِيرِي الزَّيْبَانِيَّةِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَالطَّيُورِ، أَمْ قَاصِرَةً عَلَى رَسْمِ الْحَوَافِ الْخَارِجِيَّةِ، كَمَا نَرَى فِي رَسْمِ الزَّيْبَانِيَّةِ الْمَوْكُولِ إِلَيْهِمْ تَعْذِيبِ الْخَاطِئِينَ، أَمْ مُعْتَمِدَةً عَلَى الْأُسْطُوَانِيَّاتِ الْمُحَدَّدَةِ لِلْأَجْسَادِ مِثْلَمَا نَشْهَدُ فِي أَغْلَبِ الْمُنْمَنَاتِ.

وَإِذْ لَجَأَ مُصَوِّرُ «مِعْرَاجِ نَامِهِ» إِلَى أُسُسِ أَوَّلِيَّةٍ مِنْ حَيْثُ «صَفَّ» الشُّخُوصَ وَمُوَاجَهَةً بَعْضُهَا بَعْضًا جَاءَتِ مُنْمَنَاتُهُ أَشَدَّ مَا تَكُونُ نَمَطِيَّةً، كَمَا أَنَّ اللَّمَسَاتِ الْآخِرَةَ الَّتِي تَقْيِضُ رَقَّةَ وَرَهَافَةِ وَالْمَطْهَرِ الْمُبْدِعِ وَالْثَّرَاءِ فِي الْأَلْوَانِ ثُمَّ السَّخَاءِ فِي التَّذْهِيبِ، كَانَ هَذَا كُلُّهُ وَمِمَّا يُوحِي بِأَنَّ بِنَاءَ الْمَشَاهِدِ فِي مَجْمُوعِهَا تَقْلِيدِيٌّ. وَيَتَّضِحُ هَذَا الطَّائِعُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْجُزْئِيَّاتِ، وَذَلِكَ مِثْلُ ظُهُورِ الشُّخُوصِ جَامِدَةٍ سَاكِئَةٍ فِي مَوَاقِعِهَا لَا طَوَاعِيَّةٍ لَهَا عَلَى الْحَرَكَةِ، هَذَا إِلَى تَمَاطُلِ الْوَضْعَاتِ وَازْدِحَامِ الصُّورِ بِالشُّخُوصِ. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنَ الْبَسَاطَةِ الَّتِي تَسُودُ هَذِهِ الصُّورَ، فَمِمَّا لَا يَنْتَكِرُ أَنَّهُ ثَمَّةٌ لَمَسَاتٍ لَا تَصْدُرُ إِلَّا عَنْ ذِي عَقِيدَةٍ وَذِي دِينٍ، فَإِنَّ جَوَّ الصُّورِ تَشْبِعُ فِيهِ قُدْسِيَّةٌ وَرُوحَانِيَّةٌ تَتَفَقَّانِ وَقِصَّةَ الْمِعْرَاجِ. وَلَقَدْ جَاءَتِ الشُّخُوصُ الْعَدِيدَةُ الْوَارِدَةُ فِي صُورِ الْمَخْطُوطَةِ سِوَا أَكَانَتْ رُمُوزَ الْأَنْبِيَاءِ أَمْ الْمَلَائِكَةِ تُسَاطِرِ الْأَنْمَاطِ الَّتِي أَبَدَعَتْهَا مَدْرَسَةُ هَرَاةٍ وَقَتْدَاكَ مِنْ نَاحِيَةِ الْبَيْئَةِ الْجِسْمِيَّةِ أَوْ مِنْ نَاحِيَةِ أَشْكَالِهَا الْخَارِجِيَّةِ.

وَقَدْ يَتَسَاءَلُ الْبَعْضُ لِمَ لَا نَرَى فِي تَصَاوِيرِ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ تِلْكَ الْبَيْئَةَ الْحِجَازِيَّةَ الَّتِي تَدُورُ فِيهَا الْأَحْدَاثُ الْمُصَوَّرَةُ. وَالْحَقُّ إِنَّا لَا نَرَى أَنَّ الْفَتَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَلْتَزِمَ بِتَقْدِيمِ صُورٍ مُطَابِقَةٍ لِبَيْئَةِ الَّتِي يَقُولُ عَنْهَا، إِذْ إِنَّهُ لَيْسَ مُؤَرِّخًا يُقَدِّمُ لَنَا تَفَاصِيلَ مِنَ الْوَاقِعِ التَّارِيخِيِّ بَلْ إِنَّهُ مُبْدِعُ جَمَالٍ يُقَدِّمُ لَنَا لَوْحَاتٍ تُثِيرُ فِي وَجْدَانِنَا التَّأَمُّلَ بِقَدْرِ مَا تُحَرِّكُ فِينَا الْإِعْجَابَ وَالْإِنْهَارَ وَالِاسْتِجَابَةَ. وَمِنْ هُنَا كَانَ تَقْدِيمُهُ لِعَنَاصِرٍ مِنَ الْبَيْئَةِ الَّتِي يُعَاشِهَا أَقْدَرُ عَلَى تَحْرِيكِهَا وَإِثَارَةِ انْفِعَالَاتِنَا مِنْ بَيْئَةٍ نَجْهَلُ وَإِيَّاهُ كَثِيرًا مِنْ تَفَاصِيلِهَا. وَتَارِيخُ الْقَنْ فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ مُحْتَشِدٌ بِشَوَاهِدٍ عَلَى هَذَا التَّصَوُّرِ، كَتَصْوِيرِ الْمَسِيحِ أَشَقَرُ فِي بَيْتَاتِ الْأَوْرُشَلِيمِ، وَتَصْوِيرِهِ أَسْمَرُ بِمَلَامِحِ أَفْرِيْقِيَّةٍ فِي بَيْئَةِ الْأَجْبَاشِ، وَكَظُهُورِ بَعْضِ قِصَصِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ فِي تَصَاوِيرِ الْفَتَانَ الْأَوْرُبِيِّ فِي إِطَارِ الْبَيْئَةِ وَالْأَزْيَاءِ وَالْمَعْمَارِ وَالْأَثَاثِ الْمُعَاصِرَةِ لَهُ.

وَالْفَتَانَ يُمْلِي عَادَةً مُتَأَثِّرًا بِأَحَدِ شَيْئَيْنِ، إِمَّا مُتَأَثِّرًا بِمَا قَرَأَ وَرَأَى أَوْ مُتَأَثِّرًا بِتَرْغَةِ تَمْلِيٍّ عَلَيْهِ الصُّورَةَ، وَهُوَ فِي الْحَالَيْنِ لَا يَتَلَبَّغُ مِثْلُ «الْمُنْكَلَمِينَ» مِنْ أَذْيَاءٍ وَشَعْرَاءٍ وَمُتَوَقِّفَةٍ، وَلِهَذَا جَمِيعًا شَطَحَاتٍ وَاسِعَةٍ قَدْ لَا يَتَلَبَّغُ خَيَالُ الْمُصَوِّرِ وَقَدْ لَا يَقْتَنِعُ بِهَا وَقَدْ يَعْجُزُ فَلَا

مُنْمَنَاتٍ هَذِهِ الشُّخْصَةُ الْفَرِيدَةُ عَلَى أَنَّ الرُّوحَ الْفَارِسِيَّةَ كَانَتْ مُتَمَثِّلَةً دَوْمًا عَلَى الرَّغْمِ مِنْ اسْتِعَارَةِ بَعْضِ الْمُصْطَلَحَاتِ الصِّينِيَّةِ، الَّتِي كَانَتْ هِيَ الْآخَرَى تُسْتَخْدَمُ بِمَضْمُونِ فَارِسِيٍّ بَحْتٍ.

غَيْرَ أَنَّ الْاهْتِمَامَ الْمَفْرُوطَ «بِالشَّكْلِ» كَانَ كَثِيرًا مَا يُنْذِرُ بِخَضِرِ الْعَمَلِ الْفَنِّيِّ فِي حُدُودِ ضَيْقَةٍ وَالْهَبُوطِ بِهِ بِنَاءً وَمَطْهَرًا، إِذِ الْمُتَعَارَفُ أَنَّ كُلَّ شَكْلٍ لَا بُدَّ أَنْ يَنْطَوِي عَلَى رُوحٍ، وَبِهَذَا الْإِيمَانِ بِالشَّكْلِ وَالرُّوحِ أَبْدَعَ مُصَوِّرٌ مِعْرَاجِ نَامِهِ فِي بَعْضِ مُصَوِّرَاتِهِ فَجَاءَتِ تَنْطَوِي عَلَى الشَّكْلِ وَالرُّوحِ مَعًا. وَكَانَ هَذَا يَحْدُثُ حِينَ يَتَعَدَّى الْفَتَانَ عَنْ الْإِلْتِزَامِ بِحَرْفِيَّةِ النَّصِّ وَحِينَ يُطْلِقُ الْعِنَانِ لِنَفْسِهِ فِي التَّحَلُّلِ مِنَ التَّفَاصِيلِ، مِثْلَمَا صَنَعَ فِي مَشْهَدِ لِقَاءِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ بِرَبِّهِ تَعَالَى وَوُقُوعِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ سَاجِدًا خَاشِعًا، فَخَطُوطُ الشُّحْبِ الْمَرْسُومَةِ فِي تَنْثِيهَا وَتَحْوِيلِهَا وَانْعِطَافَاتِهَا تُجَسِّنُ مَعَهَا النَّفْسَ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَنْسِ وَالِاسْتِغْنَاءِ وَالِاسْتِزْخَاءِ، إِذِ فِيهَا إِحْيَاءٌ بِأَنَّ السَّمَاءَ تَكَادُ تَرْقُصُ بَيْنَ أَيْدِينَا طَرَبًا وَتَهْلِيلًا مُرَحَّبَةً بِالزَّائِرِ الْجَلِيلِ. وَيَكَادُ اسْتِزْسَالُ الرَّسُولِ فِي السُّكُونِ سَاجِدًا يُوَأْمِ الْبَيْئَةِ مِنْ حَوْلِهِ حَتَّى تَكَادُ تُجَسِّنُ بِحُلُولِهِ فِي قَلْبِ الصُّورَةِ بِالْوُجُودِ الْمَطْلُوقِ الَّذِي يَدُوبُ كُلُّ مَا عَدَاهُ فِي الْفَنَاءِ الْعَامِّ. هُكَذَا كَانَتْ تِلْكَ الْخَطُوطُ الَّتِي تُمَثِّلُ الشُّحْبَ فِي انْسِيَابِهَا وَتَدْفُقِهَا وَانْحِنَاءِهَا الْلَيِّنَةِ تَجْعَلُنَا نَسْبِحُ مُحَلِّقِينَ فِي عَالَمِ خَيَالِيٍّ بِالْبَاحِ الرَّهَافَةِ.

وَإِنَّ مِثْلَ الْعَقْلِ إِلَى كُلِّ مَا هُوَ مُبَسَّطٌ ثُمَّ تَعَمَّقُهُ فِي تَعْرِفِ الْأَشْكَالِ الْهَنْدَسِيَّةِ النَّمَطِيَّةِ عَامَّةً، هَذَا الْمِثْلُ وَذَلِكَ التَّعَمُّقُ إِذَا مَا زَادَا فَمَضَايَا بَحْثًا عَنْ الْمُتَعَةِ انْتَهَيَا إِلَى اسْتِثْبَاتِ التَّنَاغُمِ أَوْ الْإِنْجِسَامِ التَّشْكِيلِيِّ. وَكُلَّمَا اقْتَرَبَ الشَّكْلُ الْمُصَوَّرُ مِنَ الْأَشْكَالِ الْهَنْدَسِيَّةِ النَّمَطِيَّةِ الْمُبَسَّطَةِ كَانَ فِي ذَلِكَ - كَمَا سَبَقَ الْقَوْلُ - مَا يَقْرُبُ الْعَقْلَ مِنْ إِدْرَاكِ الْوَاقِعِ. فَالْمُرْتَعِ وَالْمُسْتَطِيلُ وَالْمُثَلَّثُ وَالدَّائِرَةُ هِيَ الْأَسَاسُ فِي التَّكْوِينَاتِ الْمُصَوَّرَةِ، وَهَذِهِ كُلُّهَا أَشْكَالٌ لَا يَسْتَعِصِي عَلَى الْعَقْلِ إِدْرَاكِهَا، غَيْرَ أَنَّ الْأَشْكَالَ الرَّئِيسِيَّةَ الَّتِي يَسْتَخْدِمُهَا الْفَتَانَ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْعُصُورِ وَالْحَضَارَاتِ، فَتَحْنُ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ قَدْ انْتَقَلْنَا مِنَ الْأَشْكَالِ الْهَنْدَسِيَّةِ الْأَوَّلِيَّةِ الَّتِي تَعْتَمِدُ عَلَى الْمُسْطَرَّةِ وَالْفَرْجَارِ إِلَى الْمُنْحَنِيَّاتِ الدِّيْنَامِيكِيَّةِ كَالْقَطَاعَاتِ الْمَخْرُوطِيَّةِ، وَخَاصَّةً الْقَطْعِ النَّاقِصِ وَالزَّائِدِ وَالْمُكَافِئِ. وَنَجِدُ فَتَانَ الْمِعْرَاجِ لَمْ يَخْرُجْ عَنْ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ الْأَوَّلِيَّةِ مُسْتَخْدِمًا الْأَشْكَالَ الْهَنْدَسِيَّةَ الْمُبَسَّطَةَ مِنْ مُرَبَّعَاتٍ وَمُسْتَطِيلَاتٍ وَدَوَائِرَ وَمُثَلَّثَاتٍ فِي تَشْكِيلِ تَكْوِينَاتِهِ الْمُصَوَّرَةِ وَخَاصَّةً الْمَعْمَارِيَّةِ مِنْهَا.

أَمَّا مَا يَتَّصِلُ بِمَا هُوَ آدَمِيٌّ فَلَمْ يَبْعُدْ مُصَوِّرُنَا كَثِيرًا عَمَّا قَالَه «سِيزَان» فَتَانَ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ: مِنْ أَنَّهُ مِنَ الْمُمْكِنِ تَمَثُّلِ مُحْتَوَيَاتِ الْكُؤُنِ - بِمَا فِي ذَلِكَ الشَّكْلِ الْآدَمِيِّ - فِي أَشْكَالِ أُسْطُوَانِيَّةٍ

وغيرها ذا شاربين يتما المعروف أنه كان يحفهما. وعلى حين نرى بعض ملامحه تطابق ما جاء في كُتب الأثر إذ صوره الفنان: «متماسك البدن، أبيض الوجه، مشرب الحمرة، طويل الأهداب، أبلج [أي نقى الفرجة ما بين الحاجبين]، أزج [أي مُمتد الحاجبين إلى مؤخّر العينين]، ليس مطهماً ولا مكلتماً [أعني أسيل الوجه مُستطيله لا مُستديره]، نجد بعضها الآخر يخالف ما جاء في هذه الكتب، فلم يصوره عظيم المنكين أو رَحَب القدمين والكفين، أو واسع الجبين أو ضليع الفم [واسع الشدقين]، أو كث اللحية التي تملأ الصدر، بل صوره بلحية مدببة مُشدّبة، أو أدعج العينين، بل بعينين ضيقتين كالشقيين شأن العيون الصبئية، وإن كان قد صوره أفنى العرزين، فهو لم يخرج عما جاء في كُتب الأثر. ولكن كُتب الأثر تقول أيضاً إن من رآه متأملاً عرفه أشم ومن لم يتأمله ظنه أفنى، وكان المصور قد أخذ بأحد الرأيين.

وهؤلاء الذين أباحوا لأنفسهم أن يصفوا الرسول قولاً وقفاً دون أن يوصف رسماً، وليس ثمة فرق بين الاثنين فيما أرى، فكلا الوصفين معبر غير أن حجّتهم فيما يبدو أن رسم المصور قد يجيء غير مطابق للحقيقة. ولقد فاتهم أن من التصوير ما يزبو على القول نطقاً وإنصاحاً وبياناً. ثم إن التصوير لو أُبَيح أولاً كما أبيع القول لكان خالصاً من الاختلافات التي وقّع فيها القائلون. فالقارئ للكتب التي عرضت لشمائل الرسول يجد بينها اضطراباً واسعاً لأنها جاءت عن مظنة ورواية، على حين أن الفرصة لو أتاحت للمصور وهو بين يدي الرسول صلوات الله عليه وسلامه لكفانا هذا التخليط ولطفزنا بصورة صادقة للرسول لا خلاف حولها.

وبصفة عامة يتجلى في صور الرسول جرّص المصور على إشاعة السماحة النبوية النابضة بإشراق إلهي يحسن معه المشاهد بوزع يملأ عليه وجدانه. ففي ليحته رقة ولطافة يوحيان بالوقار، وفي قسّات وجهه نورانية دافقة تسيل إلى أعماق النفوس. وتحتضن عمامته البيضاء خضرة وادعة، وينسدل طرفاها على جانبي وجهه الكريم مضيئين إلى ليحته جمالاً فوق جمالها. وتتسامى خلف رأسه هالة نورانية تدفق بالتي يملأ السماء إشراقاً وبهاء، وتكاد السحب تسعى لتحيط بهالة النبي، فينخلع عليها هذا اللون الذهبي، فإذا هي الأخرى ذهبيّة خالصة. وقد بدا سائر الأنبياء في هذه المخطوطة بملايح تكاد تتفق وملايح صورة الرسول، ولكن ثمة ما يمايز بينه وبينهم بتلك الثياب والإيماءات ولون اللحي أحياناً وائسِدال الأكمّام للأيدي.

موجز القول إن الفنان تأثر بمقومات الجمال التي كانت تسود

يُصورها. والفنان عادة لا يتأثر برأي الغير وإنما يتأثر برأي نفسه، وقد يخرج به الإبداع الفني - كما أسلفت - إلى أن يضيفي على صوره أخيلة لا صلة لها بالواقع. ولنا في تصوير السيّد العذراء في الفن المسيحي أسوة، فقد ظلت هي الموضوع الأثير لدى المصورين الإيطاليين منذ اختفى بها الفن البيزنطي، فكانت حتى القرن الرابع عشر تُصور في الوضعة الكهنوتية التي فرضتها الكنيسة، ثم أخذ مصورو «مدرسة سينا» ينزعون إلى إضفاء مسحة من الجلال والشجن من دون التقيّد بقسّات الوجه التي تميز شخصاً عن غيره. ومع ظهور القديس فرنسيس الأسيزي وخلعه السمة الإنسانية على العقيدة المسيحية، أخذ المصورون يتجهون شيئاً فشيئاً إلى صنع السيّد العذراء بسمات الأم الحانية تارة والأسبانية تارة أخرى. ومع ابتعادهم عن تصويرها في صورة مثالية حرصوا على خلع جمال خلّاب على وجهها، الذي غالباً ما شكّلوا قسّماته من ملايح شخصيات مميزة في عصرهم وما أكثر ما كانت وجوه محبوباتهم، مقتفين بذلك أثر الفنان اليوناني الخالد پراكستيليس الذي اتّخذ من معشوقته فريني النموذج الذي اختاره ليكون تمثال الرّبة «فينوس من كنيديوس» الدائع الصيت. وأخذ كل مصور يسجل انطباعه ومزاجه الخاص في تصويره للعذراء، فعلى حين صوّرها بوتشيلي في تعبير حزين يشوبه التكلّف، صوّرها مانتنيا في نضارة الفلاحات، بينما صوّرها جيرالاندابو متشحة بالرصانة.

وعلى هذا النحو نرى المصور المسلم في منمنمات هذه المخطوطة وغيرها يُملي عن البيئة التي عاش فيها ولا يكلف نفسه غناء الرجوع إلى المصادر التي فيها البيان الحق. فكُتب الأثر مثلاً عرضت لشمائل الرسول، وما كان يستخدم من لباس وأدوات، وما كان بين يديه من أثاث، وما اتّخذ من منابر يخطب الناس عليها حيث عاش في الحجاز. فالمنبر، معروف أن النبي ﷺ كان يتخذ من جذع شجرة، والمسجد كان يفرش من حصير، وسقف المسجد كان من سعف، ولباس النبي كان بُرداً وملحفة، وكان يجوس وعلى رأسه عمامة يسيرة من قماش. وعلى حين كانت ثبوت العرب لا تعدو خياء من صوف، أو بجاداً من وبر، أو فسطاطاً من شعر أو سرادقاً من قطن، أو حظيرة من أعصان الشجر، أو بيتاً من لبن أو حجر، نرى في هذه المخطوطة وغيرها الثياب المطرزة والجبّة والعمامة الفارسية ذات الشال الأبيض والقلنسوة، كما تحتشد المنمنمات ببلاطات القاشاني والأفاريز الزخرفية والأبهاء ذات الأقواس المدببة والمقود ذات التوشيدات المنمقة التي لم تكن فيما سبق في عهد النبوة.

ويبدو النبي، صلى الله عليه وسلم، في صور هذه المخطوطة

واللّٰحى والشّوارب الحليقة والحواجب الكثيفة، إذ كانت غاية جمال الوجه أن يُشبّه بالبدر في استدارته النّائمة.

والملاحظ أنّ تجسيدات الملائكة قد ظهرت في تصاوير بعض المراكز الإسلامية الكبرى دون بعضها الآخر. فعلى حين لم تظهر في المغرب ولا في الأندلس ظهرت صور الملائكة في مَنمنمات مخطوطات مصر وسوريا والعراق متأثرة بأشكال ملائكة الأفلاطونية المُحدثة وكُتِب السّحر اليهودية حتّى بثنا نراهم بأسمائهم لاصقة بهم، مثل جبريل وميكائيل وروفايل وإسرافيل في مخطوطة «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» للقزويني (١٣٧٠) دون أن يكون لأيّ منهم دور في النّص المدوّن، بينما اختلف الأمر في إيران وتركيا حيث باتوا يؤدّون أدواراً في نصوص مُنبئة الصّلة بالدين، مثل غرايميات الإسكندر [أحد أبطال الأساطير والملاحم الإيرانية القديمة] حيث يغلب على الظنّ أنّهم نظراء للملائكة الأسطورية الإنثى عشر «الهربات» Peris الذين كانوا يُحيطون دوماً بأهورا مزدا إله الخير في العقيدة المزدية، وهو ما يعود بنا إلى القول بأنّ صور الملائكة في مخطوطات هراة وتبريز في القرنين الرابع عشر والخامس عشر تحمل سمات أسيوية وبوذية.

والشّكل مُنذُ العهد الكلاسيكي القديم كان المُشكلة الأولى، فكلمة «فَيْح» في اللّغة اليونانية كانت تعني «ما لا شكل له»، إلى أن أصبح المبدأ الأوّل في الفنّ يُلتمس في النّسبة الرياضيّة أي علاقة الأجزاء بعضها ببعض، وغدت النّسبة الرياضيّة هي الأساس المعمول به في الفنّ. ثمّ إنّ هذه النّسبة التي اتّخذها الإغريق أساساً فدعّوها قانون «النّسبة الدّهية» والتي تعني أنّ نسبة القسم الأكبر من خطّ أو مساحة ما إلى المجموع الكلّي لهذا الخطّ أو تلك المساحة تُعادل نسبة القسم الأصغر إلى القسم الأكبر، نرى فتان معراج نامه قد التزمها عن فطرة، فهي مُتمثلة في رسومه، وما نظنّ أنّه قد استوحاها من الفنّ الإغريقي. ونرى هذه النّسبة تطبّق الانطباع كلّ على صورة الملك الديك الذي يحتلّ القسم الأصغر من الصّورة، ومثل هذا أيضاً في صورة الملاك ذي النّصف الثّلجي والنّصف الثّاري الذي يحتلّ القسم الأصغر من الصّورة. وثمة غير هذا وذاك عديد من الثّمادج يخضع لبتلك القاعدة التي شرخناها، ولو تشبّعها الفارئ لوجد فيها ما يؤيد ما ذهبنا إليه. هذا إلى ما سوف تستشعره نفسه من مُتعة ورضا عن عمَل فتان نقد بصيرته وفطرته إلى قاعدة من أمّهات القواعد التي اعتزّ بها الفنّ قديماً ولا يزال يعتزّ بها إلى الآن.

والصّور في هذه المخطوطة إمّا مُستطيلة وإمّا مُربّعة، وهي في جُمْلتها مُستقيمة عن متن الكتاب، يفصلها عنه ذلك الإطار الذي

عصره والتي كان العُرف يقضي بها، فلم تجنّ صورة مُحمّد الصّورة الحقّة للنبّي صلى الله عليه وسلّم الذي على أرض الجِجَار نشأ، بل جعله «التمط المثالي» للرّجل الفارسي. ومن هنا جانب المُصوّر الصّواب، إذ إنّ لئس ناقلاً تسجيلاً بل فتاناً مُبدعاً. ترى أكان عليه أن يعود إلى كُتب الأثر يتعرّف منها على شمائل الرّسول قبل الإقدام على تصوّره أم يطلق لخياله العنان لتشكل صورة مثالية توازي قداسة الموضوع الذي يتناولُه؟ الواقع أنّ المُصوّر لم يلتزم بكُتب الأثر مؤثراً أن يستقي من يتابع البيئة الفارسيّة بلغتها ومعانيها وأحاسيسها، بل إنّ لم يكن يملك نفهم اللّغة العربيّة والبيئة العربيّة بمعانيها وأحاسيسها. ومن هنا أنّت ملايح الشّخصيات التي رسمها لا تمثّل الواقع بل تُعبّر عن خياله المتأثر بالطابع الفارسي، إذ كانت البيئة الفارسيّة هي التي ستلقّى تصاويره وتحمّك عليها جودة أو رداءة.

والجمال يختلف تصوّره باختلاف الأمم والبيئات، فَمِنْهُمْ مَنْ يَرى الجمال في ثقل الحواجب ومِنْهُمْ مَنْ يراه في خِفَتها أو انْتِزاعها. ومِنْهُمْ مَنْ يَرى الجمال في شعر الرّأس المُتهذّل على أشكال فيضفرونه صفائر مُتنوّعة تنسدل على المناكب. وجاء المُصوِّرون يتشوّحون تلك المناحي كلّها، وكلّ مُصوّر ملتزم وبيئته يستملي منها وقد يستملي من بيئة أخرى. ومن هنا جاءت صور الغنّيات - ومنها الملائكة - تختلف معالمها على يد كلّ فتانٍ وفقاً لمصادره، إذ هي مسألة أجهادية لئس ثمة نصّ صريح حولها. فالملائكة من خلق الله احتفظ وحده بالعلم عنهم، وكلّ ما جاء حولهم هو من أجهاد البشر. وإذ هم خلقٌ تسامى وتعالى، انطلقت أخيلة الفنّانين يُصوِّرون ما قرّ في أذهانهم من تعالي الملائكة وتساميهم وتطهرهم بالصّورة التي يُملئها خيال كلّ منهم.

وإذ كانت الملائكة رُسل السّماء إلى الأرض منها يهبّون وإلّاها يصعدون فعمل الطّائر في طيرانه وتحليقه، فقد أضاف فتان معراج نامه لها الأجنحة. وإذ كان الطّائر يُكيّف جناحيه انبساطاً وقبضاً وفق طبقة الجوّ التي يطير فيها، فقد جعل أجنحة الملائكة تخضع لما تخضع له أجنحة الطّير. وإذ كانت المسيرة شاقّة، من أجل هذا أفرط الفنّان في حجم الأجنحة أحياناً إفراطاً زائداً لتقوى الملائكة على التحليق إلى أسمى المنازل. وإذ كانت الألوان الطّينية مردّها إلى الألوان السّبعة التي ينتظمها قوس قزح أضفى الفنّان تلك الألوان على ريش الأجنحة، ولكّنها على الرّغم من هذا التّنوّع فإنّها كلّها تشملها وحدة جامعة. وعلى هذا التّحوّجاءت صور الملائكة في مجموعها وسمية وعلى وتيرة واحدة، فقد كان هذا الفنّان وغيره من معاصريه متأثرين بفنون آسيا الوسطى والصّين على ما أسلفنا، وكان الجمال عندهم يتمثّل في الوجوه المُستديرة

من التعبير لا حَرَكَة بها. ومن المُستبعد أن نَعزُو مثل هذا القُصور إلى نَقْص في الكِفَايَة الذَّائِية ما دَامَ بَيِّنٌ أَيْدِينَا تِلْكَ الإِنْجَازَاتِ الرَّائِعَة الَّتِي خَلَفَهَا الْمُصَوِّرُونَ المُسْلِمُونَ فِي مُخْتَلِفِ أَنْوَاعِ التَّصْوِيرِ، وَالَّتِي تَكْشِفُ عَن مَقْدِرَةِ مُبْدِعَةِ خَلَاقَةٍ وَبِخَاصَّةٍ فِي مَجَالِ تَصْوِيرِ الْقَسَمَاتِ الْمُمَيَّزَةِ، غَيْرَ أَنَّا نَعْتَقِدُ أَنَّ ثَمَّةَ عَوَامِلَ وَطُرُوفًا عَدِيدَةً أَذَتْ إِلَى هَذِهِ النَّتِيجَةِ. فَإِذَا تَذَكَّرْنَا مَثَلًا أَنَّ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الْفَنِّيَّةَ التَّصَوُّرِيَّةَ تَنْتَمِي أَصْلًا إِلَى فُنُونِ الْبَلَاطِ، فَقَدْ أَصْبَحَ حَتْمًا أَنَّ تَوَاجِبَ مَظَاهِرِ الْوَقَارِ هَيْئَةً صَاحِبِ الصُّورَةِ مُجَارِيَةِ السُّلُوكِ الْعَامِّ فِي اخْتِرَامِ جَمَاهِيرِ النَّاسِ لِلْخَلِيفَةِ أَوْ السُّلْطَانِ عَلَى مَرَّ حَقِيقَةٍ طَوِيلَةٍ مِنَ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ. وَلَعَلَّ تَحَاشِي إظهارِ سِمَاتِ الانْتِفَاعِ كَانَ مَرَدَّهُ إِلَى إِيْمَانِ الْمُصَوِّرِ الْمُسْلِمِ بِرَبِّهِ إِيْمَانًا مُطْلَقًا وَتَسْلِيمَهُ بِالْقَدْرِ خَيْرَهُ وَشَرَّهُ فَلَا تَهَرَّهَ الصَّعَابِ وَلَا تَبْهَجَةَ الْأَفْرَاحِ. وَإِذَا كَانَتِ الْانْتِفَاعَاتُ الْعَاطِفِيَّةُ وَمَا يَصْحَبُهَا مِنْ حَرَكَاتٍ وَإِيْمَاءَاتٍ هِيَ مِنْ صِفَاتِ الْبَشَرِ فِي حِينِ أَنَّ الْاسْتِقْرَارَ وَالثَّبَاتَ مِنْ مَظَاهِرِ الْمَلَائِكَةِ وَصِفَاتِ الْأَنْبِيَاءِ، مِنْ أَجْلِ هَذَا خَلَّتْ وَجُوهُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمَلَائِكَةِ مِنَ السَّمَاتِ الْانْتِفَاعِيَّةِ الْمُسْرِفَةِ الْمَأْلُوفَةِ فِي فُنُونِ الْغَرْبِ. وَلِذَلِكَ أَيْضًا التَّزَمَ الْفَنَّاَنُ بِتِلْكَ الظَّاهِرَةِ «الْمَوَارَةِ» لِلشُّعْبِ الَّتِي تَبْدُو مُتَمَوِّجَةً خَفَافَةً مَوَاجَةٍ لِكَيْ تُبْرِزَ التَّعَادُلَ وَالتَّوَازُنَ الْفَنِّيَّ بَيْنَ مَا هُوَ سَاكِنٌ وَبَيْنَ مَا هُوَ مُتَحَرِّكٌ، بَيْنَ الْإِسْتَاتِيكِيِّ وَالْدِيْنَامِيكِيِّ.

وَلَقَدْ كَانَ لِلْكَثْرَةِ مِنْ تَصَاوِيرِ الْمَخْطُوطَاتِ الْفَارْسِيَّةِ أَصُولُهَا فِي الصُّورِ الَّتِي تُغْطِي جُذُرَانِ الْقُصُورِ الْمَلَكِيَّةِ، وَمِنْ ثَمَّ انْطَبَعَتْ بِطَائِعِهَا الْأَسَاسِيَّ، وَجَارَتْهَا فِي جَعْلِ التَّعْبِيرِ الْانْتِفَاعِيِّ يَحْتَلُّ مَكَانًا ثَانَوِيًّا لِيُفَسِّحَ الْمَجَالَ لِمُتَطَلِّبَاتِ الرُّخْفَةِ الْبَحْتَةِ. وَلِكَيْ يُعَوِّضَ الْمُصَوِّرُونَ هَذَا النِّقْصَ لَجَأُوا عِنْدَ تَنْوِيعِ التَّعْبِيرِ الْانْتِفَاعِيِّ عَلَى الْوُجُوهِ الْبَشَرِيَّةِ - كَمَا سَبَقَ الْقَوْلُ - إِلَى أَسَالِيْبِ الرُّسْمِ التَّقْلِيدِيَّةِ لِتَوْضِيحِ الْانْتِفَاعِ الشُّعُورِيِّ، وَمِنْ أَكْثَرِهَا شُبُوحًا وَضَعُ الْإِصْبَعِ عَلَى الشَّفَاهِ عَلَامَةً لِلدَّهْشَةِ وَالذُّهُولِ وَالْعَجَبِ، وَمِنْهَا أَيْضًا غَضٌّ ظَهَرَ الْكَفْتُ إِشَارَةً إِلَى الْيَأْسِ، وَعَلَامَةً ثَالِثَةً هِيَ إِسْدَالُ حِجَابٍ عَلَى الْوَجْهِ أَوْ طَرَحُ الدَّرَاعِيْنِ إِلَى الْخَلْفِ لِلتَّذْلِيلِ عَلَى الْأَسَى، وَمِنْهَا رَفْعُ الْيَدَيْنِ إِلَى الْأُذُنَيْنِ وَذَلِكَ إِشَارَةً لِلتَّجَلُّةِ وَالْإِحْتِرَامِ لَا لِلْإِعْرَابِ عَنِ الضِّيقِ بِالْجَلْبَةِ وَالضُّوْضَاءِ، كَذَلِكَ مِنْ هَذِهِ الْأَسَالِيْبِ مَا نَرَاهُ مِنْ إِخْفَاءِ الْأَيْدِي دَاخِلَ أَكْثَامِ طَوِيلَةٍ عَلَامَةِ التَّوْقِيرِ - وَهُوَ تَقْلِيدُ سَاسَانِيَّ عَرِيقٍ - أَوْ انْبِسَاطِ السَّبَابَةِ مُشِيرَةً إِلَى شَيْءٍ وَمَا يَدُلُّ عَلَى الْاسْتِيفْسَارِ، فَإِذَا رَأَيْنَا السَّبَابَةَ مَعَ الْإِنْهَامِ مُنْبَسِطَتَيْنِ فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى تَأَكِيدِ الْمُسْتَفْهَمِ. وَثَمَّةَ تَعْبِيرٍ إِيْمَانِيٍّ آخَرَ حِينَ نَرَى الْيَدَيْنِ مَقْبُوضَتَيْنِ إِلَى الصَّدْرِ فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى الْفَرْعِ. وَلَجَأَ الْمُصَوِّرُ الْمُسْلِمُ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ يَجْعَلَ الشَّخْصَ عِنْدَمَا يُرِيدُ الْحَدِيثَ يُؤْمِنُ

يُحَدِّدُ أَطْرَافَهَا. وَلَقَدْ أَمَعَنَ الْمُصَوِّرُ فِي إِبْرَازِهَا مُسْتَقْلَلَةً بِتِلْكَ الْأَلْوَانِ الذَّهَبِيَّةِ وَالزَّرْقَاءِ الَّتِي أَضْفَاها عَلَيْهَا.

وَأَنَّ كَانَ ثَمَّةَ رَتَابَةِ يُجَسِّسُهَا الْمُشَاهِدُ وَهُوَ يُقَلِّبُ النَّظَرَ فِي صُورِ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ، فَهَذَا لَيْسَ مِنْ مَأْخُذٍ عَلَى الصُّورَةِ، وَإِنَّمَا هُوَ نِتَاجُ تَصْوِيرِ الْمَوْضُوعِ مِنْ زَاوِيَةٍ وَاحِدَةٍ تَكَادُ تَكُونُ مُتَكَرِّرَةً فِي جَمِيعِ اللَّوْحَاتِ رُغْمَ اخْتِلَافِ التَّفَاصِيلِ الْمُتَشَبِّعَةِ الَّتِي لَا يَتَسَبَّحُ لَهَا مَنْظَرٌ وَاحِدٌ، وَالَّتِي كَانَ عَلَى الْمُصَوِّرِ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَهَا جَمِيعًا. وَقَدْ يَكُونُ هَذَا الْإِلْتِزَامُ نَوْعًا مِنْ كَبْجِ جَمَاحِ الْخَيَالِ مِنْ أَنْ يَسْتَرْسِلَ فِيمَا قَدْ لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَقَعْلَهُ إِزَاءَ مَوْضُوعٍ قُدْسِيٍّ كَهَذَا الْمَوْضُوعِ. ثُمَّ إِنَّا لَا نَسَى أَنَّ التَّكَرُّارَ إِذَا مَا كَانَ اسْتِجَابَةً لِمَوْقِفٍ مَبْدُئِيٍّ فَهُوَ مِنْ مُسْتَلْزَمَاتِ الْفَنِّ، إِذْ بِهِ يُفَرِّضُ النَّظَامُ عَلَى التَّعَدُّدِ، وَهَذِهِ سِمَةٌ عَامَّةٌ فِي الْفُنُونِ الدِّينِيَّةِ عَلَى مَرِّ التَّارِيخِ. وَآيَةُ ذَلِكَ تَمَائِيلُ جُودِيَا الْمَلِكِ الْكَاهِنِ السُّومَرِيِّ الَّتِي تُعَدُّ أَرْوَعُ مَجْمُوعَةٌ نُجِحَتْ بِإِشْرَافِ رَجُلٍ وَاحِدٍ وَفِي مَدِينَةٍ وَاحِدَةٍ، فَقَدْ يُجَسِّسُ الْمُشَاهِدُ الْمُعَاَصِرُ بِنَعَضِ الْمَلَلِ وَالْفُتُورِ مِنْ تَأَمُّلِ تَمَائِيلِ جُودِيَا الثَّقِيلَةِ الْمُتَكَرِّرَةِ، غَيْرَ أَنَّ هَذَا لَا يَنْفِي عَنْهَا قِيَمَتَهَا التَّارِيخِيَّةَ وَالتَّشْكِيلِيَّةَ. كَذَلِكَ التَّمَائِيلُ الْمُضَرِّيَّةُ الدِّينِيَّةُ الْقَدِيمَةُ، تَكَادُ تَصْدُرُ كُلُّهَا مُتَقَارِبَةً فِي أَشْكَالِهَا وَصِفَاتِهَا، لَا يَجِدُ الْمُشَاهِدُ بَيْنَهَا جَدِيدًا يَدْفَعُ الْمَلَلُ الَّذِي يُدْرِكُهُ أَوَّلَ وَهْلَةٍ عِنْدَ رُؤْيَةِ أَشْيَاءٍ مُتَجَانِسَةٍ فِي عُمُومِهَا، غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا مَا أَعْقَبَ هَذِهِ النَّظْرَةَ الْعَابِرَةَ الَّتِي لَا تَتَكَشَّفُ لَهَا إِلَّا الْعُمُومِيَّاتُ بِنَظْرَةٍ فَاحِصَةٍ تَتَكَشَّفُ لَهَا الْجُزْئِيَّاتُ، وَقَعَ عَلَى أَلْوَانِ مِنَ التَّنَوُّعِ يَقْبِضُ بِهَا الْوَجْهَ وَتَنْمَ عَنْ قَسَمَاتِهِ. بِهَذَا آمَنَ الْعَالِمُ الْأَثَرِيُّ مَاسِيبِرُو، وَبِهَذَا دَفَعَ قَوْلَ مَنْ يَقُولُ مِنَ الْقَرِيبِيِّينَ بِرَتَابَةِ التَّمَائِيلِ الْمُضَرِّيَّةِ الْقَدِيمَةِ مُسْتِنْدًا إِلَى أَنَّ هَذَا الْإِحْسَاسَ سَوْفَ يُجَسِّسُهُ الْمُشَاهِدُ الْعَجَلُ أَيْضًا إِذَا وَقَفَ بَيْنَ أَيْدِي تَمَائِيلِ الْقِدَيسِيِّنَ الْمُتَكَرِّرَةِ عَلَى وَاجِهَاتِ الْكُنَائِسِ وَالكَاتِدِرَائِيَّاتِ، بَلَّهَ ذَلِكَ الْمَشْهَدَ الْمَعْرُوفَ الَّذِي يَضُمُّ أَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ تَمَنَّا لَا تُصَوِّرُ كُلُّهَا الْقَدِيسِ «سِيَّاسْتِيَان» فِي وَضْعَةِ الشَّهِيدِ التَّقْلِيدِيَّةِ.

وَلِهَذَا نَرَى أَنَّهُ لَيْسَ ثَمَّةَ فَنٍّ دِينِيٍّ يَخْلُو مِنْ هَذِهِ الرَّتَابَةِ وَذَلِكَ التَّكَرُّارُ، بَلْ إِنَّ الْفَنَّ الدِّينِيَّ عَاشَ عَلَى مَدَى الْأَيَّامِ وَمَرَّ الْعُصُورِ يَلْتَزِمُ هَذَا وَذَلِكَ، إِذْ كَانَا وَسِيلَةَ الْفَنَّاَنِ لَا مَعْدَلَ لَهُ عَنْهُمَا لِيُؤَكِّدَ فِي النَّفْسِ تِلْكَ الْمَعَانِي الرُّوحَانِيَّةِ الَّتِي لَا تَثْبِتُ وَلَا تَقَرُّ إِلَّا بِالتَّكَرُّارِ. وَقَدْ نَعُدُّ هَذَا فِي الْاسْتِشْهَادِ بِمَا جَاءَ فِي الْكُتُبِ الْمُقَدَّسَةِ مِنْ التَّوَكِيدِ لِلْمَعْنَى الْوَاحِدِ بِأَكْثَرٍ مِنْ عِبَارَةٍ وَبِإِبْرَازِهِ فِي أَكْثَرٍ مِنْ مَكَانٍ.

وَثَمَّةَ سِمَةٍ أُخْرَى فِي التَّصْوِيرِ الْإِسْلَامِيِّ سَبَقَ الْإِشَارَةُ إِلَيْهَا الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ هِيَ الْوُقُوفُ عِنْدَ وَضْعَةِ تَقْلِيدِيَّةٍ وَالتَّجَاوُزُ عَمَّا يَبْدُو عَلَى الْوُجُوهِ مِنْ انْتِفَاعٍ وَوَجْدَانٍ إِلَّا فِيمَا نَدَرَ، فَتَبْدُو الْوُجُوهُ عُفْلًا

والتَّسَابُّ. كَذَلِكَ فَإِنَّ لَوْنَ السَّمَاءِ الْأَزْرَقَ الْقَوِيَّ وَالذَّهَبَ الْبَرَّاقَ لِلْجُودِ وَالسُّحْبِ، وَالْأَلْوَانِ الْحُمْرَاءِ وَالْبَيْتِيَّةِ وَالرَّمَادِيَّةِ وَالْبُرْتَقَالِيَّةِ وَالْبَنَفْسَجِيَّةِ وَالْفَيَروُزِيَّةِ وَالْخَضْرَاءِ، وَالْوَانِ الثِّيَابِ الْمَعُولِيَّةِ الطَّابِعِ الَّتِي تَفَنُّ فِي تَوَازِيْعِهَا وَكَأَنَّهُ مُصَمَّمٌ أَزْيَاءَ، وَالْوَانِ رِيَشِ الْمَلَائِكَةِ الْمُتَعَدِّدَةِ وَكَأَنَّهُا قَوْسُ فَرْحٍ دُونَ أَنْ تَنْفِرَ مِنْهَا الْعَيْنُ، وَالْوَانِ اللَّهَبِ الذَّهَبِيَّةِ الْمُشْرِبَةِ حُمْرَةً، وَاللُّوْنِ الْأَسْوَدِ لِظُلُمَاتِ الْجَحِيمِ، هَذِهِ الْأَلْوَانُ كُلُّهَا تُكَوِّنُ فِي هَذِهِ الْمُنْمَنَاتِ مَجْمُوعَاتٍ مُتَجَانِسَةً وَمُقَابِلَاتٍ أَخَاذَةً وَسِحْرًا لَا يُبَارَى، وَلِكَيْتَها إِلَى هَذَا تَكَادَ تَحْمِلُ صِفَةً مِنْ صِفَاتِ الْجُمُودِ.

وَإِنَّا لَا نَذْرِي هَلْ كَانَتْ هَذِهِ الْمُنْمَنَاتُ جَمِيعًا لِفَتَانٍ وَاحِدٍ أَمْ لِفَتَانَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ؟ وَفِي رَأْيِي أَنَّهُ كَانَ ثَمَّةَ مَرَسَمٍ يَضُمُّ جُمْلَةً مِنْ الْفَتَانَيْنِ اشْتَرَكُوا جَمِيعًا فِي إِجْزَاءِهِ، لَا أَغْنِي أَنَّ كُلَّ فَتَانٍ كَانَ يَفْرِدُ بِعَدَدٍ مِنَ الْمُنْمَنَاتِ، بَلْ أَغْنِي أَنَّ كُلَّ فَتَانٍ كَانَتْ لَهُ خَصِيصَةٌ، فَهَذَا مُخْتَصَّ بِرَسْمِ الصُّورِ الرَّائِزَةِ لِلرُّسُولِ وَالْأَنْبِيَاءِ بِمَلَامِحِهِمِ السَّامِيَّةِ، وَذَلِيلِنَا عَلَى هَذَا أَنَّا لَا نَجِدُ تَقَاوُثًا مَا بَيْنَ هَذِهِ الْوُجُوهِ كُلِّهَا، كَمَا كَانَ ثَمَّةَ فَتَانٍ آخَرَ مُخْتَصَّ بِرَسْمِ الْمَلَائِكَةِ بِقَسَمَاتِهِمِ الْأَسْوِيَّةِ الَّتِي جَاءَتْ عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ، وَثَالِثٌ مُخْتَصَّ بِرَسْمِ الزَّبَانِيَّةِ بِوُجُوهِهِمِ الْقَبِيحَةِ الْبَشِيعَةِ الَّتِي تَنْطِقُ بِأَنَّهُا مِنْ صُنْعِ يَدٍ وَاحِدَةٍ، وَرَابِعٌ مُخْتَصَّ بِتَصْوِيرِ الْعَمَائِرِ وَزَخَارِفِهَا وَنُقُوشِهَا، وَسَادِسٌ مُخْتَصَّ بِرَسْمِ السُّحْبِ، فَهَذِهِ الثُّقُوبُ الصَّغِيرَةُ الَّتِي نَلْحَظُهَا خَاصَّةً عَلَى الْحُدُودِ الْخَارِجِيَّةِ «الْمَحْوُطَةِ» لِتَفَاصِيلِ السُّحْبِ فِي اللَّوْحَةِ الَّتِي تَتَخَلَّلُ مُحَمَّدًا فِي أَوْجِ سُمُوهِ حِينَ بَلَغَ الْعَرْشِ [وَجْهَ الْوَرَقَةِ ٤٤] تَدَلُّ فِيمَا نَرَى عَلَى أَنَّ تَصْوِيرَ السُّحْبِ كَانَ يُسَخَّرُ بَعْضُهُ عَنْ بَعْضٍ، وَهَذِهِ الصُّورَةُ الْبَاقِيَّةُ لَنَا بِنُقْطِهَا الَّتِي لَمْ تَكْمَلْ بَعْدُ فِيهَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهَا أَصْلٌ لَمْ يَتِمَّ. وَهَذَا الْأَسْلُوبُ التَّخْطِيطِيُّ أَمْرٌ مُتَعَارَفٌ عَلَيْهِ يَقْصِدُ بِهِ التَّيْسِيرَ عَلَى نَاسِخِي الصُّورِ، وَلَا سِيَّمًا تِلْكَ الصُّورَ الَّتِي تَتَكَرَّرُ فِيهَا الْمُصْطَلَحَاتُ. فَلَقَدْ كَانَ مِنْ الْمُتَعَارَفِ عَلَيْهِ أَنَّ يَعْتَمِدَ الْمُصَوِّرُ فِي تَصْمِيمَاتِهِ عَلَى رَصِيدِ مَوْرُوثٍ يَشْمَلُ صُورًا وَأَجْزَاءً مِنْ صُورٍ. وَكَانَ هَذَا كُلُّهُ يُحْفَظُ بِالْمَرَامِ أَوْ بِمَكْتَبَاتِ رِعَاةِ الْفُنُونِ، وَقُلُّ أَنَّ كَانَ مَرَسَمٌ يَخْلُو مِنْ ذَلِكَ الْإِزْثُ مِنْ عَجَلَاتِ تَخْطِيطِيَّةٍ، وَرُسُومٍ مَسْخُوحَةٍ مِنْ وَرَقٍ شَفَافٍ، وَوَرَقٍ مُقَوًى أَوْ صَفَائِحٍ مِنَ الْمَعَادِنِ فِيهَا ثُقُوبٌ تُعَيِّنُ الْخُطُوطَ الرَّئِيسِيَّةَ لِلرَّسْمِ أَوْ الصُّورَةِ، وَمِنْ مَسْحُوقِ الْفَحْمِ يُدْرَسُ عَلَى الثُّقُوبِ فَيَتَرَكُ أَثَرُهُ عَلَى الصَّفْحَةِ الْمُنْقُولِ إِلَيْهَا الرَّسْمِ. وَكَانَ يَلْجَأُ إِلَى هَذَا التَّسَخُّغِ - فِي الْعَادَةِ - الْمُصَوِّرُونَ الْمُبْتَدِئُونَ أَوْ الْمُقَلِّدُونَ الَّذِينَ لَمْ يَرْقُوا إِلَى دَرَجَةِ الرَّسَامِينَ الْمُبْرَرِينَ وَيُكْمَلُونَ رُسُومَهُمِ الْمَسْخُوحَةَ تِلْكَ بِإِمْرَارِ رِيَشَتِهِمْ عَلَى مَا بَيْنَ تِلْكَ الثُّقُوبِ لِجَعْلِهِمْ مِنْ هَذَا شَكْلًا كَامِلًا.

بِسَبَابَةِ يُعْنَاهُ وَإِنْهَامِهَا وَيَسْطُ يُسْرَاهُ مُتَسَائِلًا، فَيَرِدُ عَلَيْهِ مُحَدِّثُهُ بِبَسْطِ يُمْنَاهُ مُنْفَرِجَةً الْأَصَابِعِ وَيُسْرَاهُ مَقْبُوضَةً الْأَصَابِعِ. وَكُلُّ هَذَا تُشَاهِدُهُ مِرَارًا وَتَكَرَّرًا فِي صُورِ هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ.

وَلِكَيْتَ نَتَسَاءَلَ كَيْفَ اتَّبَعَ هَذَا الْفَتَانُ الْمَجْهُولُ فِي هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ تَصْوِيرَ الزَّبَانِيَّةِ بِشِيعَةِ وَجُوهِهِمْ، فَاغِرَةً أَفْوَاهِهِمْ، جَاحِظَةً عُيُونِهِمْ، مُقَطَّبَةً حَوَاجِبِهِمْ وَفَقَّ مَا جَاءَ عَنْهُمْ فِي الْمَلَا حِمِ وَالْأَسَاطِيرِ، وَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا وَسِيلَةً مِنْ وَسَائِلِ التَّعْبِيرِ عَنْ أَحَاسِيسِ النَّفْسِ؟ إِنَّ صَحَّ هَذَا فَلَعَلَّ الْمُرَادَ بِهِ هُنَا هُوَ تَأْجِيجُ الْفَرْخِ وَإِثَارَةُ الْهَلَعِ فِي قُلُوبِ الْخَاطِئِينَ. وَقَدْ يَكُونُ مِنْ أَوْفَقِ الثَّمَاذِجِ فِي التَّعْبِيرِ عَنِ الْإِنْفِعالِ فِي التَّصْوِيرِ الْإِسْلَامِيِّ هِيَ تِلْكَ الَّتِي تَمَثَّلَتْ فِيهَا صُورُ الْحَيَوَانِ، فَقَدْ نَجَحَ الْمُصَوِّرُونَ الْفَرَسَ فِي إِبْرَازِهَا جَلِيلَةً وَاضِحَةً وَعُنُوا بِهَا تِلْكَ الْعِنَايَةَ الَّتِي بَدَّلُوهَا فِي تَصْوِيرِ الْأَشْجَارِ وَالزُّهُورِ.

وَلَقَدْ نَجَحَ فَتَانُ «مِعْرَاجِ نَامِهِ» فِي تَقْدِيمِ صُورِ تَجَلُّو مَوْضُوعًا كَانَ عَصِيًّا عَلَى التَّصْوِيرِ لِمَا فِيهِ مِنْ طَبِيعَةٍ رُوحَانِيَّةٍ وَذَلِكَ عَنْ طَرِيقِ التَّعْبِيرِ الزُّخْرُفِيِّ وَالْأَلْوَانِ الْخَاصَّةِ الْفَرِيدَةِ وَإِتْيَاكِهِ أَشْكَالًا زُّخْرُفِيَّةً بَحْتَةً. كَذَلِكَ أَمَكَّنَهُ الْجَمْعُ بَيْنَ الْأَشْكَالِ الزُّخْرُفِيَّةِ وَتَذْهِيبِ تِلْكَ الْوَسَاحَاتِ الْمُحِيطَةِ بِالشُّخُوصِ السَّائِكَةِ مِمَّا أَضْفَى عَلَى الْمُنْمَنَاتِ خَيَالَاتٍ رُوحَانِيَّةٍ خَفِيَّةٍ، فَالسَّمَاءُ تَتَغَيَّرُ حَالًا بَعْدَ حَالٍ مُتَسَامِيَةً فِي رَوْعَتِهَا تَسَامِي الْعُرُوجِ، وَتَبْدُو وَقَدْ زَوَّقَتْهَا السُّحْبُ الْمُتَرَاقِصَةُ الْبَرَّاقَةُ، الْأَمْرُ الَّذِي ارْتَقَى بِهَا عَنِ الْوَاقِعِيَّةِ الدُّنْيَوِيَّةِ بِفَضْلِ الْإِفْرَاطِ فِي الْخَيَالِ وَاسْتِخْدَامِ الْمَشَاهِدِ الْمُغْرَقَةِ فِي الزُّخْرُفَةِ. وَهُنَاكَ لَا شَكَّ نَوْعٌ مِنَ الْإِنْسِيَاقِ وَرَاءَ الْبَلَاغَةِ وَالْبَيَانِ اللَّذِينَ نَسَجَ عَلَى مِثْوَالِهِمَا النَّصَّ، وَلَكِنْ بَعْضُ الْمَشَاهِدِ - مِثْلُ تِلْكَ الَّتِي تُمَثِّلُ حُورَ الْجَنَّةِ - تَتَمَيَّزُ بِالسَّحَرِ الْأَخَاذِ لِقَنِّ تَأَثَّرِ بَدْنِهَا الْأَسَاطِيرِ، وَكَذَلِكَ الْأَمْرُ فِيمَا يَتَّصِلُ بِمَشْهَدٍ لِشَجَرَةِ سُدرَةِ الْمُتَهَيِّ الذَّهَبِيَّةِ اللَّوْنِ وَالَّتِي تَبْدُو مُرْصَعَةً بِفُصُوصِ مُخْتَلِفَةِ الْأَلْوَانِ مِنَ الْأَخْجَارِ الْكَرِيمَةِ. وَهَكَذَا الْأَمْرُ فِي لَوْحَةِ لِمَرْيَمَ وَأُمِّ مُوسَى وَأَسْيَا زَوْجَةِ فَرْعُونَ أَمَامَ خُدُودِهِمْ، وَكَذَا تِلْكَ الْمُنْمَنَةُ الَّتِي تَبْدُو فِيهَا سَبْعُونَ أَلْفَ خَيْمَةٍ فِي الْجَنَّةِ، وَمُنْمَنَةُ شَاطِئِ الْكَوْثَرِ، وَتِلْكَ الَّتِي يَفْتَحُ فِيهَا رِضْوَانُ بَابِ الْجَنَّةِ، وَصُورَةُ السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ وَصُورَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ عَلَى الْأَرْضِ وَعَذَابُ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ الْعَقَارِبِ وَالْحَيَاتِ. كُلُّ هَذِهِ الْمُصَوِّرَاتِ وَغَيْرِهَا تُؤَكِّدُ قَوْلَ الْفَتَانِ مَا تَبَيَّنَ: إِنَّ التَّكْوِينَ الْفَنِّيَّ هُوَ فَنٌّ تَنْسِقُ الْعَنَاصِرُ الْمُخْتَلِفَةَ الْمُتَاحَةَ لِلْفَتَانِ تَنْسِيقًا زُّخْرُفِيًّا جَمَالِيًّا تَعْبِيرِيًّا عَنْ رُؤَاهِ الْخَاصَّةِ.

وَقَدْ لَجَأَ مُصَوِّرُ مِعْرَاجِ نَامِهِ إِلَى الْأَلْوَانِ الْمُتَعَدِّدَةِ تُعَيِّنُهُ عَلَى التَّغَلُّبِ عَلَى بُعْدِ تَشْكِيلِهِ عَنِ الْوَاقِعِيَّةِ، فَجَمَعَ بَيْنَهَا فِي تَنَاسُقٍ يَشَدُّ الْإِنْتِبَاهَ وَيَجْعَلُ الْأَبْصَارَ لَا تَحْوِلُ عَنْهَا فَتَغْفِرَ لَهُ سَقَطَةُ النَّسْبَةِ

الحيوان. ولكي يمين المصور في هذا الشبه صور لها ما يشبه الرؤوس فاغرة الأفواه والذبول الملتوية المدببة الأطراف. وتلاحظ أن الحواف المحوطة بتصاوير السحب كافة تتخللها دوماً عناصر زخرفية تبدو شبيهة بكليّة الإنسان أو نبات الفطر.

وثمة منمنمة (لوحة ٤٧٨م) تصور الملك الذي يصفه من الثلج ويصفه من النار، وفي إحدى يديه سبحة من النار وفي الأخرى من الثلج والرعد. وقد رمز المصور إلى النصف الثلجي بالبياض، كما رمز إلى النصف الناري بلون ذهبي اندلعت منه ألسنة لهب حمراء، واندلعت اليد التي في الجانب الثلجي شيئاً، أما التي في الجانب الناري فقد ارتفعت إلى الصدر شيئاً. ولعل في هذا الهبوط وذاك الارتفاع رمزين، إذ مع الجمدة الاسترخاء ومع النار الفرع والهول. وفي كل من اليدين مسبحة إحداهما من نار والأخرى من الثلج، والملك يدعو بصوت جهير معبراً عن تلك الهيئة التي خلق عليها والتي ترمز إلى مثلاتها في الوجود: «يا مؤلفاً بين الثلج والنار ألف بين عبادك الأخيار والأشرار». وتبدو السماء زرقاء تتخللها السحب الذهبية والنجوم المستديرة، ويظهر البحر متموجاً في أدنى الصورة وقد استحال لونه الفضي بفعل الزمن إلى أسود.

ويُسجل المصور قصة ملكين في السماء السابعة (لوحة ٤٧٩م) «أحدهما يسبحون رأساً وطوله بمقدار الدنيا، وفي كل رأس سبعون لساناً تسبح الله تعالى وثانيهما إن صب ماء جميع البحار في عينه لا تلتحق إلى عينه الأخرى». ويمتد الملك الأول أمّداد الدنيا طولاً وله سبعون رأساً في كل رأس سبعون لساناً تلهج بتسبيح الله، وقد رسمه الفنان - كما هي العادة - برؤوس رمزية تشير إلى ذلك العدد وإن لم يتوج غير الرأس الرئيسة، وجعله يقف معقود اليدين إلى ما تحت الشرة مرتدياً مئزرًا أزرق فوق جلباب أحمر يغطي رداء أخضر. ويتمطّق الملك الثاني بحزام أحمر مزدان بالخليّ الذهبية أمسكه يمينه، ولياسه مئزر بنفسجي فوق جلباب أخضر يغطي رداء بيّناً. ثم هناك أمر غريب في صورة هذا الملك، فهو يشير بسبابة يسراه جانبا، ولا نعرف أيغني الإشارة إلى ذلك الملك الواقف إلى يساره أم هو يشير إلى شيء آخر. ولكي يخرج المصور عن الرتبة التي كان لا مفر من الوقوع فيها قابل بين الاتجاه الأفقي للسماء الزرقاء المشحونة بالسحب الذهبية والاتجاه الرأسّي للملاكين، وإن كان قد غالى في الشطر الرأسّي فجعل الرؤوس تمتد وتنفذ من إطار الصورة العلوي كما جعل الأرجل تجاوز هي الأخرى الإطار الأدنى ممتدة إلى نهاية الصفحة.

وفي السماء السابعة أيضاً يصور الفنان ملكين مهولين مخوفين

ومن المحقق أنه كان لهذا الرسم أستاذ مشرف يخطط لجميع هذه الأعمال ويوجهها وينسّقها ويأشير تنفيذها، غير أن هذه المشاركة من هؤلاء الفنانين لم تظهر فيها سمة الفردية التي تنال من وحدة المجموعة المتجانسة. ولهذا نظير في الفن الغربي أثناء عصر النهضة فقد كان لكبار الفنانين في مراسيمهم مساعدون يقومون بإعداد اللوحات ويتخصصون في رسم بعض العناصر وفقاً للتصميم الذي يعده الأستاذ الذي يكمل العمل بوضع لمساته الأخيرة، وعلى رأس هؤلاء الفنانين كان فيروكيو وجيرلاندايو وروبنز وغيرهم.

هذا ما أوحى به إليّ تلك المشابهات التي سقناها وتلك النقط التي وقعت عليها وكانت دليلى فيما رأيت. وإني مع هذا لا أستبعد تماماً أن يكون وراء هذا العمل الجامع فنان واحد.

ويبدو في (اللوحة ٤٧٦م) - كما ذكر في قصة المعراج - مشهد لملك على هيئة ديك أبيض غني المصور بتصويره من دون أن يبرز معه تلك الصفات التي أحاطته به القصة، واكتفى بأن جعله ديكاً أبيض ضخماً ناصع البياض متميزاً بالعرف الأحمر و«الورقتين» اللتين تدلّتا من عنقه، وقد امتد ذيله الذهبي الذي بدا كذيل الطاووس خارجاً عن إطار الصورة ليبدو الذيك في حجمه الحق وفي شكله الكامل، واخترق قائماته المنمنمة ليستند إلى كتلة من الأرض بتفسيحة. وجاء تصوير الذيك بديعاً على غرار التقنية الواقعية المأثورة عن مدرسة بغداد في تصوير الطير والحيوان. كذلك التزم المصور بقانون النسبة الذهبية التي تقضي بأن تكون نسبة القسم الأصغر إلى الأكبر كنسبة القسم الأكبر إلى مجموع الصورة، فالذيك هنا يحتل القسم الأصغر على حين أن سائر الصورة يمثل الشطر الأكبر منها. وتبدو السماء زرقاء تتخللها السحب الذهبية والنجوم الدائرية المدهبة.

وتمثل (اللوحة ٤٧٧م) ملائكة ثلاثة بأرديتهم يتمنطقون بأحزمة ذات خليّ ذهبية وتنسبط أجنيحتهم من وراء منابجهم. وقد أبدع المصور في رسم أجنيحة الملائكة مبسطة لا يحجب جناح جناحاً، في تناسق رائع وتتابع متسق. ويحمل هؤلاء الملائكة في أيديهم صواني ذهبية عليها أقداح ثلاثة من الخرف الأبيض ذي الزخارف الزرقاء، واجد من لبن والثاني من خمر والثالث من عسل على نحو ما ذكرت قصة المعراج، فاختار الرسول قدح اللبن ولم يشرب غيره، فهناً جبريل الرسول - على نحو ما تزوي القصة - بهذا، وقال له: على مثل هذا ستكون أمّتك. وتُحيط السحب الذهبية الملائكة إحاطة شاملة تكاد تغطي على أفق الصورة كله، وهي سحب أعوانية الشكل تتحوّل تحوّلًا تكاد تبلغ فيه أشكال التين الصيني وغيره من خرافتي

حُورِيَّاتٍ أُخْرِيَّاتٍ قَدْ تَشَابَكَتْ مِنْهُنَّ الْأَيْدِي فِي شِبْهِ رَقْصَةٍ تَقْضِي مَرَحًا. وإلى أقصى اليسار من الصورة ثَمَّة حُورِيَّاتٍ وإِقْتَنَانٍ تَنْظُرَانِ إِلَى هَذَا كُلِّهِ فِي إعْجَابٍ وَوَقَارٍ وَصَمْتٍ. وَقَدْ أَرَادَ الْمُصَوِّرُ أَنْ يُمَثِّلَ الصَّمْتَ وَالسُّكُونَ فَجَعَلَ عَلَى رَأْسَيْهِمَا طَائِرَيْنِ هُمَا طَائِرُ الْعَقَقِ. وَيُضِيفُ الْجَدُولُ الْفُضِّيُّ الَّذِي يَشَقُّ الرُّوْضَةَ الْخَضْرَاءَ فِي أَسْفَلِ الصُّورَةِ لَمَسَةً أُخْرَى إِلَى رَوْعَةِ الْمَشْهَدِ تَحَفُّ بِهِ شُجَيْرَاتُ ذَهَبِيَّةٍ وَشَجَرَةٌ بَدِيعَةٌ عَلَى شَكْلِ مَخْرُوطِيٍّ. هَذَا الْمَشْهَدُ الرَّائِعُ الَّذِي ذَكَرْتُهُ قِصَّةَ الْمِعْرَاجِ فِي خَيَالِ مُبْدِعٍ مُشَوِّقٍ جَعَلَ الْمُصَوِّرَ يَتَحَرَّكُ بِنَفْسٍ جَيَّاشَةٍ لِيَجْلُوَ تِلْكَ الْمَظَاهِيرَ جَمِيعًا.

ونَرَى فِي مُنْمَنَةِ أُخْرَى (لَوْحَةُ ٤٨٢م) رَذْمَةً عَلَى شَكْلِ مُعَيَّنٍ فِي قَصْرِ مِنْ قُصُورِ الْجَنَّةِ مَرْصُوفَةٌ بِبَلَّاطَاتٍ فَيْرُوزِيَّةٍ، فِيهَا جَمَاعَةٌ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ يَقُولُ الْقِصَّةَ إِنَّهُنَّ كُنَّ كَثِيرَاتٍ، غَيْرَ أَنَّ الْمُصَوِّرَ احْتَكَمَ مِنْهُنَّ بِأَرْبَعٍ فِي وَضْعَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ وَثِيَابٍ مُتَعَدِّدَةٍ الْأَلْوَانِ. وَتَرْتَدِي الْحُورِيَّةُ الْأُولَى تَاجًا مُذَهَّبًا عَلَى حِينٍ عَصَبَتِ الْبَاقِيَاتِ رُءُوسَهُنَّ بِعَصَبَاتٍ فَرِيدَةٍ فِي شَكْلِهَا، بَيْنَمَا بَدَتْ الْأُولَى فِي وَفْقَةِ الدَّاهِلَةِ، إِذْ بَدَتْ الثَّلَاثُ الْأُخْرَيَاتُ مُشْغُولَاتٍ بِالْحَدِيثِ بَعْضُهُنَّ إِلَى بَعْضٍ. وَحِينَ سُئِلَ عَنْ صَاحِبِ هَذَا الْقَصْرِ أَجَابَتْ إِحْدَاهُنَّ أَنَّهُ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ. وَصَوَّرَ الْفَنَانُ جُذْرَانَ الْقَصْرِ مِنَ الدَّخِيلِ وَكَأَنَّ كُلَّ جِدَارٍ مِنْهَا يَحْمِلُ زِينَةً خَاصَةً يَتَفَرَّدُ بِهَا، فَثَمَّةُ زَخَارِفِ هِنْدَسِيَّةٍ عَلَى الْقَاشَانِيِّ الْأَزْرَقِ، وَأُخْرَى نَبَاتِيَّةٌ فَوْقَ اسْتِطْحِ الْقَاشَانِيِّ الذَّهَبِيِّ وَالرَّمَادِيِّ، كَمَا ثَمَّةُ سِتَارٍ بِنَفْسَجِيٍّ أَطَوَاهُ مُتَنَبِّئَةٌ يَغْلُوهُ بُرُوعُ أَخْضَرٍ. وَلَمْ يَكُنْ الْفَنَانُ أَنْ يَصُوِّرَ نَهْرًا يَجْرِي مِنْ تَحْتِ الْقَصْرِ تَكْتِفُهُ الْخُضْرَةُ وَالشُّجَيْرَاتُ الذَّهَبِيَّةُ، كَمَا أَظَلَّ الْمَشْهَدُ بِوَرَقَاتِ وَزُهورِ أَشْبَهَ بِوَرَقَاتِ اللَّوتسِ الصَّبِينِيِّ وَزُهورِهِ الْبِنْفَسَجِيَّةِ وَالْبُرْتُقَالِيَّةِ وَالصَّفْرَاءِ.

وفي (اللَّوْحَةُ ٤٨٣م) مَشْهَدٌ مِنْ مَشَاهِدِ النَّارِ وَمَا فِيهَا مِنْ مُعَذِّبِينَ، وَقَدْ وَقَفَتْ أَمَامَ تِلْكَ النَّارِ كَبِيرَةِ الزَّبَانِيَّةِ فِي صُورَةٍ بَشِيعَةٍ صَوَّرَهَا الْفَنَانُ بِجَسَدٍ أَخْضَرَ اللَّوْنُ مُخَدَّدٌ قَدَمَاهَا بِمَخَالِبٍ، وَتَرْتَدِي تَتُورَةً بُنْيَةً، مُمَسِكَةً بِيَدِهَا الْيُمْنَى مِقْمَعَةً حَمْرَاءَ وَقَدْ انْدَلَعَتْ أَلْسِنَةُ النَّارِ الْمُتَوَهِّجَةِ مِنْ فِيهَا الْأَحْمَرِ، وَأَلْبَسَهَا كَذَلِكَ خَلْجَالًا فِي سَاقِيهَا وَقِلَادَةً فِي عُنُقِهَا. وَتَبْدُو النَّارُ مُحْتَلَّةٌ قِسْمًا كَبِيرًا مِنَ الصُّورَةِ إِلَى الْيَسَارِ، وَفِيهَا سَيْتٌ مِنَ النَّسَاءِ مُعَلَّقَاتٍ مِنَ أَلْسِنَتِهِنَّ بِخَطَاطِيفٍ وَالنَّارُ تَنْهَشُ أَطْرَافَهُنَّ لِمَا أُوتِيْنَ مِنْ سُلَاطَةِ لِسَانٍ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ وَخُرُوجِهِنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ بِغَيْرِ إِذْنٍ أَزْوَاجِهِنَّ وَانْعِمَاسِهِنَّ فِي الْمَفَاسِدِ.

وفي مُنْمَنَةِ أُخْرَى (لَوْحَةُ ٤٨٤م) نَرَى أَحَدَ الزَّبَانِيَّةِ أَمَامَ النَّارِ فِي وَجْهِ بَشِيعٍ مُخِيفٍ أَحْمَرَ الْجَسَدِ أَزْرَقَ الْعَيْنَيْنِ مُنْتَصِبٍ الْحَاجِبِ الْأَصْفَرَ مُتَفَوْشِ الشَّعْرِ الْأَزْرَقِ، مُشِيرًا بِسَبَابَةِ يَدِهِ الْيُمْنَى إِلَى

(لَوْحَةُ ٤٨٠م)، أَخَذَهُمَا مَلَاكٌ ذُو عَشْرَةِ آلَافِ جَنَاحٍ يَغُوصُ فِي الْبَحْرِ ثُمَّ يَخْرُجُ فَيَنْفُضُ أَجْنَحَتَهُ فَيَكُونُ مَعَ كُلِّ قَطْرَةٍ تَسْقُطُ مِنْهَا خَلْقٌ مَلَكٌ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَمَلَكٌ آخَرٌ إِلَى جِوَارِ هَذَا الْمَلَكِ لَهُ رُؤُوسُ أَرْبَعَةٍ أَوَّلُهَا لِإِنْسَانٍ وَالثَّانِي لِأَسَدٍ وَالثَّلَاثُ لِطَائِرٍ مَيِّمُونَ لَعَلَّهُ الْعَقَاءُ وَالرَّابِعُ لِثُورٍ، وَبَدَأَ بِاسِطًا سَبَابَتَيْهِ وَكَأَنَّهُ يَنْطِقُ بِالشَّهَادَتَيْنِ. وَيَسْتَرْعِي انْتِبَاهَنَا شَبَهُ هَذِهِ الرُّمُوزِ بِتِلْكَ الَّتِي يُرْمَزُ بِهَا إِلَى أَصْحَابِ الْأَنْبِجَالِ الْأَرْبَعَةِ: إِنْسَانٌ أَوْ مَلَاكٌ مَتَى الرَّسُولُ وَأَسَدٌ مَرَقُسُ الرَّسُولِ وَثُورٌ لَوْقَا الرَّسُولِ وَنَسْرٌ يُوَحِّتَا الرَّسُولِ. وَكَانَ الْقُرْآنِيُّ قَدْ أَوْرَدَ ضِمْنَ فُصْلٍ مِنْ كِتَابِهِ «عَجَائِبُ الْمَخْلُوقَاتِ وَغَرَائِبُ الْمَوْجُودَاتِ وَصَفًا لِمُصَوِّرِ الْمَلَائِكَةِ وَثِيَابِهِمْ وَأَلْوَانِهِمْ، وَذَهَبَ إِلَى أَنَّ حَمَلَةَ الْعَرْشِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ - أَرْبَعَةٌ صُورٌ: آدَمِيٌّ وَبَقَرٌ وَنَسْرٌ وَأَسَدٌ.

وَقَدْ لَجَأَ الْفَنَانُ فِي تَكْوِينِهِ التَّشْكِيلِيَّ إِلَى التَّقْسِيمِ الثَّلَاثِيِّ لِلْسَّمَاءِ الْأُفُقِيَّةِ الزَّرْقَاءِ، وَالْبَحْرِ الْأُفُقِيِّ يَغُوصُ فِيهِ مَلَاكٌ مُتَوَجٌّ لَا يَبْدُو مِنْهُ غَيْرُ وَجْهِهِ وَصَدْرِهِ وَجَنَاحَيْهِ ذَوِي اللَّوْنَيْنِ الْأَزْرَقِ وَالْأَحْمَرِ يُضْفِيَانِ عَلَى اللَّوْنِ الْفُضِّيِّ [الَّذِي صَارَ أَسْوَدَ بِمُرُورِ الزَّمَنِ] حَيَوِيَّةً دَافِقَةً. وَإِلَى الْيَسَارِ فِي الْقِسْمِ الرَّأْسِيِّ وَقَفَ الْمَلَكُ ذُو الرُّؤُوسِ الْأَرْبَعَةِ بِازْتِفَاعِ الْمُنْمَنَةِ كُلِّهَا، وَفِي هَذَا خُرُوجٍ عَلَى الرَّتَابَةِ، فَضْلًا عَنْ مُحَاوَلَةِ أُخْرَى مِنَ الْمُصَوِّرِ، وَذَلِكَ بِتَغْرِيجِهِ لِإِطَارِ الصُّورَةِ وَجَعَلَهُ شَطْرًا مِنْهُ يَبْرُزُ شَيْئًا عَنْ سَائِرِ الصُّورَةِ. ثُمَّ هُوَ مِنَ التَّاحِيَةِ التَّصْوِيرِيَّةِ قَدْ أَفَاضَ فِي تَوَزِيعِ الْأَلْوَانِ الزَّاهِيَةِ الْمُتَجَانِسَةِ فِي شَطْرِي الصُّورَةِ الْأَيْمَنِ وَالْأَيْسَرِ، كَمَا كَانَ لِأَلْوَانِ الْأَجْنِحَةِ الْبُرْتُقَالِيَّةِ وَالزَّرْقَاءِ وَالذَّهَبِيَّةِ وَالْحَمْرَاءِ أَثَرُهَا فِي اجْتِنَابِ الْبَصَرِ إِلَى الْمَلَكَيْنِ الْغَرِيبَيْنِ.

وَتُمَثِّلُ مُنْمَنَةُ أُخْرَى (لَوْحَةُ ٤٨١م) كَرَمًا وَسَطَ الْجَنَّةِ وَمِنْ حَوْلِهِ جَمْعٌ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، غَيْرَ أَنَّ الْمُصَوِّرَ لَمْ يَصُوِّرْ لَنَا هَذَا الْكَرْمَ وَإِنَّمَا صَوَّرَ لَنَا خَلْفِيَّةَ فَيْرُوزِيَّةَ اللَّوْنِ تُجَمِّلُهَا أَشْجَارُ الْخَوْخِ أَوْ الْبُرْقُوقِ أَوْ الْمُشْمُشِ. وَقَدْ اتَّخَذَتْ بَعْضُ الْحُورِ الْعِينِ مَجَالِسَهُنَّ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ مِنَ الْأَشْجَارِ لَعَلَّهَا الْمُشْمُشُ، وَقَدْ اعْتَلَتْ إِحْدَى الْحُورِيَّاتِ هَذِهِ الشَّجَرَةَ مُمَسِكَةً عُصْفًا مِنْ أَغْصَانِهَا بِسُرَاهَا كَمَا لَقَّتْ عَلَيْهَا سَاقَهَا الْيُسْرَى حَتَّى لَا تَقَعَ، وَتَدَلَّتْ تَقَطُّفٌ مِنْ ثِمَارِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ. وَإِلَى أَسْفَلِهَا مِنْهَا وَقَفَتْ حُورِيَّةٌ أُخْرَى تَتَلَقَّى بَعْضَ مَا تَرْمِي بِهِ إِلَيْهَا زَمِيلَتُهَا مِنْ تِلْكَ الثَّمَارِ. وَإِلَى الْيَسَارِ شَجَرَةٌ أُخْرَى تَبْدُو بِوَرَقَاتِهَا أَشْبَهَ بِشَجَرَةِ الْخَوْخِ. وَثَمَّةُ دَغْلٍ وَشُجَيْرَاتٍ خَضْرَاءَ مُزْهِرَةٍ فَوْقَ السَّطْحِ الْأَزْرَقِ لِهَذَا الْمَرْجِ السَّمَائِيِّ. وَأَخَذَتْ بَعْضُ الْحُورِيَّاتِ يَمْرَحْنَ وَيَلْعَبْنَ أَوْ وَقَفْنَ يَنْظُرْنَ إِلَى مَا يَأْتِيهِ سَائِرُهُنَّ. وَإِلَى أَسْفَلِ الشَّجَرَةِ بَدَتْ حُورِيَّاتَانِ جَالِسَتَانِ عَلَى أَرِيكَةٍ ذَهَبِيَّةٍ تَتَسَامَرَانِ. وَإِلَى جَانِبِ هَاتَيْنِ الْحُورِيَّتَيْنِ الْجَالِسَتَيْنِ بَدَتْ

المُعَذِّبِينَ فِي النَّارِ الْمُتَدَلِّعَةِ، نَرَى مِنْهُمْ ثَمَانِيَةَ رِجَالٍ كُلُّهُمْ مُلْتَحِقُونَ عُرَاةَ الرُّؤُوسِ، مِنْهُمْ الْأَشْيَبُ وَغَيْرُ الْأَشْيَبِ، وَقَدْ قُتِدُوا بِأَغْلَالِ ضَخْمَةٍ تَشُدُّ أَيْدِيَهُمْ إِلَى أَعْنَاقِهِمْ وَعُلِّقُوا بِالْخَطَاطِيفِ لِأَنَّهُمْ أَكْرَمُوا الْأُمَرَاءَ رِبَاءً.

وَتُصَوِّرُ إِحْدَى الْمُنْمَنَاتِ «شَجَرَةَ الرَّقُومِ» فِي جَهَنَّمَ الَّتِي مَعَهَا الْهَوَلُ وَالرُّعْبُ (لَوْحَةٌ ٤٨٥م)، وَالَّتِي لَهَا أَشْوَكَ كَالرَّمَاخِ، وَثِمَارُ تِلْكَ الْأَشْوَكَ رُؤُوسُ غَفَارِيتٍ وَسِبَاعِ الْحَيَّوَانِ، فَتَرَى مَرَّةً رَأْسَ ذِئْبٍ وَمَرَّةً رَأْسَ ثَوْرٍ بَرِّيٍّ وَمَرَّةً رَأْسَ فِيلٍ بِنَائِيَّةٍ وَمَرَّةً رَأْسَ أَسَدٍ وَمَرَّةً رَأْسَ نَمْرٍ وَمَرَّةً رَأْسَ قِطٍّ بَرِّيٍّ وَمَرَّةً رَأْسَ عُقَابٍ وَمَرَّةً رَأْسَ ضَبْعٍ. وَيَبْدُو الْعِفْرِيتُ أَوْ كَبِيرُ الزَّبَانِيَةِ أَزْرَقَ اللَّوْنِ مُشَوِّهُ الْوَجْهَ بَعَيْنَيْنِ تَشَعُّ مِنْهُمَا حُمْرَةٌ وَتَتَدَلَّى مِنْ رَأْسِهِ شُعْلَةٌ نَارٍ. وَإِلَى أَسْفَلِ

الصُّورَةِ نَقَرٌ مِنَ الزَّبَانِيَةِ فِي لِبَاسِ الْجَلَادِينَ عُرَاةَ الصُّدُورِ مَسْتَوْرِي الْجُدُوعِ، فِي أَيْدِيهِمْ مَقَامِيعٌ مِنْ حَدِيدٍ جَعَلَهَا الْمُصَوِّرُ أَشْبَاهَ السُّيُوفِ. وَنَرَى الزَّبَانِيَةَ فِي أَسْفَلِ الصُّورَةِ يَقْطَعُونَ أَلْسِنَةَ الْمُذْنِبِينَ الَّتِي لَا تَلْبَثُ أَنْ تَنْمُو مِنْ جَدِيدٍ. وَأَلْوَانُ الْمُنْمَنَةِ مُسْتَخْدَمَةٌ خَيْرَ اسْتِخْدَامٍ، فَجَعَلَ الرَّسَامُ لَوْنَ الشَّجَرَةِ بِجَدْعِهَا وَأَشْوَكَهَا أَخْضَرَ، ثُمَّ إِذَا هُوَ يَخْتَارُ لِلزَّبَانِيَةِ الَّذِينَ هُمْ رَمَزَ لِلْعَذَابِ اللَّوْنُ الْأَحْمَرُ لَوْنُ النَّارِ، وَجَعَلَ الزَّبَانِيَةَ فِي أَجْسَامِ عَارِيَةٍ بِسَرَاوِيلِ خَضْرَاءَ وَبِنَفْسَجِيَّةٍ، وَجَعَلَ الْمُعَذِّبِينَ كَذَلِكَ عُرَاةَ الْأَجْسَامِ يَضْرِبُ لَوْنُهُمْ إِلَى الْبَيْتِيِّ وَالْبَسَمِ سَرَاوِيلَ خَضْرَاءَ. وَهَذِهِ الْمُنْمَنَةُ مِمَّا يُعَدُّ لِلْفَتَانِ عَلَى إِثْدَاعِهِ، فَقَدْ جَمَعَ فِيهَا وَأَوْعَى، فَلَمْ يَتْرِكْ مِمَّا جَاءَ فِي قِصَّةِ الْمِعْرَاجِ شَيْئًا إِلَّا صَوَّرَهُ وَأَضَافَ إِلَيْهِ مِنْ خَيَالِهِ.

لَوَحَاتُ
البَابِ السَّادِسِ
السَّوْدَاءِ وَالْبَيْضَاءِ
التَّصْوِيرُ الرَّيْحِي
فِي الْإِسْلَامِ



لوحة ٢٣١: «الآثار الباقية». صورة لشخصية ذات شأن. مكتبة جامعة أدنبره (١٣٠٧-١٣٠٨).



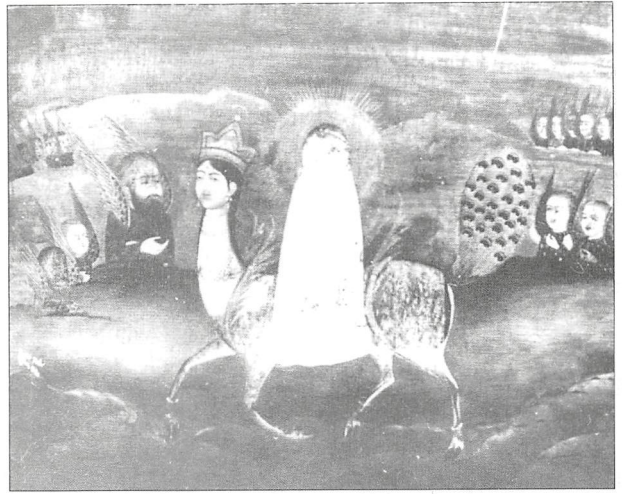
لوحة ٢٢٩: «كتاب الأغاني» لأبي الفرج الإصفهاني. أتابك لؤلؤ الموصل. دار الكتب المصرية.

لوحة ٢٣٠: «جامع التواريخ». البشارة. مكتبة جامعة أدنبره (١٣١٠-١٣١١).





لوحة ٢٣٢: بُستان سَعدي. البُراق. [صورة لم يسبق نشرها].



لوحة ٢٣٣: حَمَلَة حَيَّدر. هالة مِن نور (١٧١١).
دار الكتب. [صورة لم يسبق نشرها].



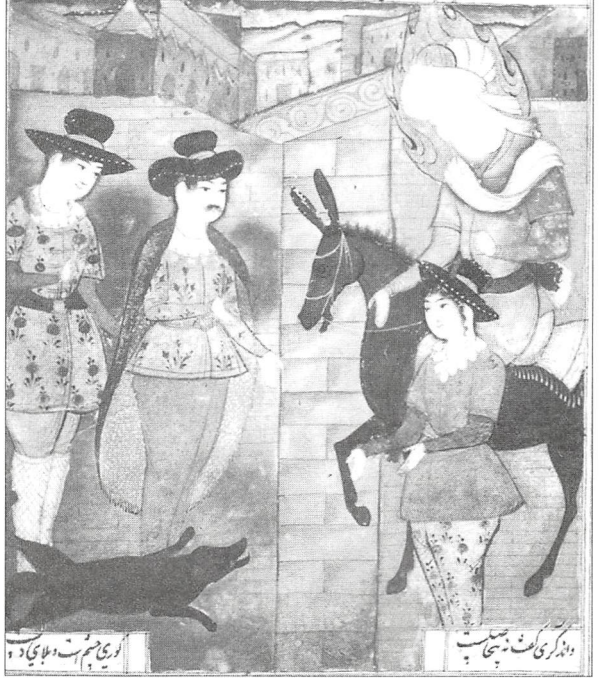
لوحة ٢٣٤: «مَرَيَم المُرْضِع» [ماريا لاكتانس].
نقش خفيف البروز. دير القَدِيس إرميا بسَقَّارة.



لوحة ٢٣٥: تمثال لإيزيس من
البرونز وهي تُرْضِع الطِّفْل
حورس. سَقَّارة. العصر اللاحق.
المتحف المصري بالقاهرة.

لوحة ٢٣٧: «تاريخ خوندامير»: المَسِيح
يتأمل مَصْرَعُ لُصُوص ثَلَاثَةَ حَاوِلَ كُلِّ مِنْهُمْ
قَتَلَ زَمِيلَهُ. دار الكتب القوميّة بباريس.

لوحة ٢٣٦: خمسة نظامي. مَخَزَن الأَشْرَار. الْمَسِيح
والكَلْب المَيِّت. المكتبة البودلية بأكسفورد.

[illegible]

لوحة ٢٣٨: «تاريخ خواندمير»:
المسيح يَرحم إبليس. دار الكتب
القومية بباريس.

یوسفان با باقی یکدیگر او را کشیدند و سلبت فوت او علیهم خردین شول شدند هنوز از طعام تنه بر نداشتند
بودند که نشان نیز دست سالک آفرین کشیدند و چون حسن بی بی علی السلام از خانه خود مراجعت نمود در آن کسیران
تقدیر را برانسان دید و فرمود که **عَلَيْهَا يَأْتِي** و یکی از میزمرات حضرت بی بی علی السلام

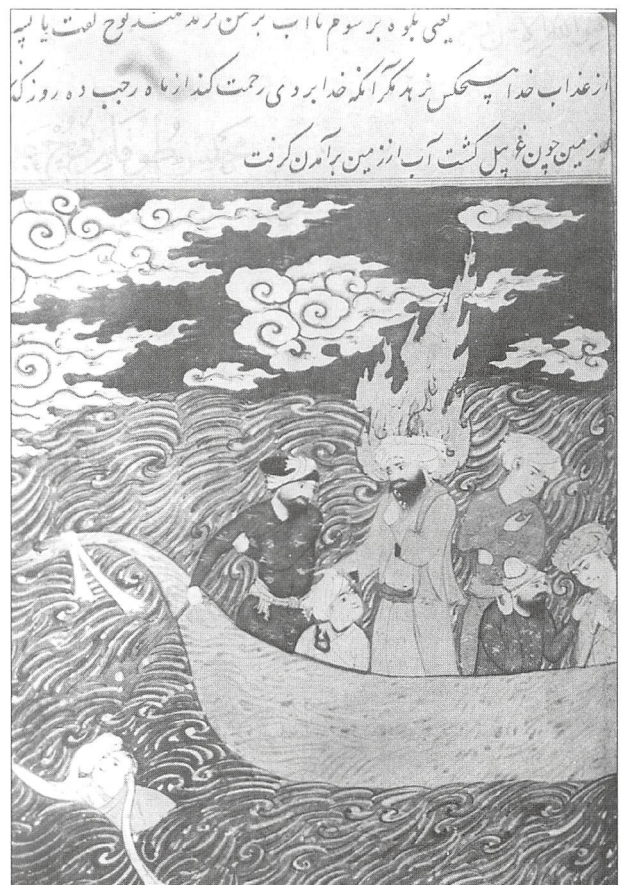
یوسف که خود کشید سلطان را و دنیا و دل که حلی است خود را بر طلب دنیا صرف میدارد و بسوزانده و
دین شیخ را نیز درین طاعت و بپاوستی و حق را بر میبرد و در خواب اخوت خود را می بیند و دیگری را
آنست که پادشاه را بسایت حریفان نشاند و در وسیع پادشاهان و در آن کسیران و در آن کسیران و در آن کسیران

[illegible]

لوحة ٢٣٩: «تاريخ خواندمير»: المائدة أو العشاء الأخير. دار الكتب القومية بباريس.



لوحة ٢٤٠: «تاريخ خواندمير»: فُلُك نُوح. دار الكتب القومية بباريس.



لوحة ٢٤١: «قصص الأنبياء» لِلنَّيْسَابُورِيِّ. إنجسار طوفان نوح. دار الكتب القومية بباريس.

لوحة ٢٤٢: «تاريخ خواندمير»: قَوْم
إبراهيم يُعَذِّون النَّارَ لِيُلْقُوهُ فِيهَا. دار
الكتب القومية بباريس.



لوحة ٢٤٣: «تاريخ خواندمير»: إبراهيم
واسماعيل يُشِيدَانِ الْكَعْبَةَ. دار الكتب
القومية بباريس.

لوحة ٢٤٤: بُسْتَانِ سَعْدِي. إبراهيم يَسْتَضِيفُ
عَائِدَ النَّارِ. [عن كِتَابِ التَّصْوِيرِ فِي الْإِسْلَامِ،
لِتوماس أرنولد. مَجْمُوعَةٌ خَاصَّةٌ.]



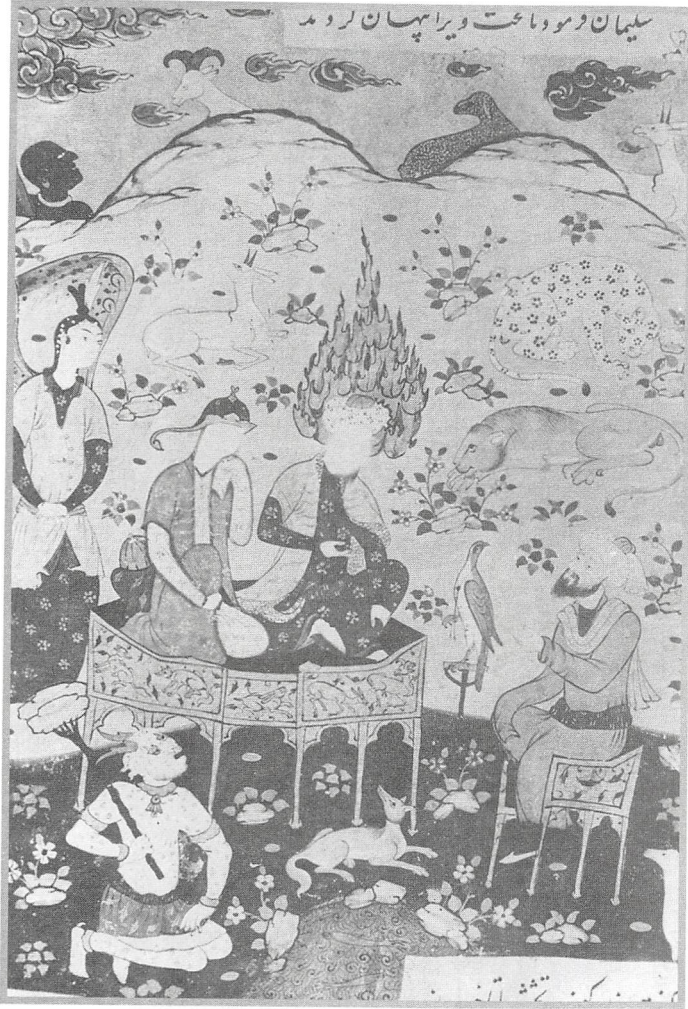
لوحة ٢٤٥: «تاريخ خواندمير»: أهل الكهف. دار الكتب القومية بباريس.

لوحة ٢٤٦: «قصص الأنبياء». أهل الكهف. دار الكتب القومية بباريس.



لوحة ٢٤٧: «قصص الأنبياء». سليمان على عرشه. دار الكتب القومية بباريس.

لوحة ٢٤٨: «مَجَالِسُ الْعُشَّاقِ» لِحُسَيْنِ مِيرْزَا. بَلْقَيْسُ
تَخْوِضُ لُجَّةَ الْمَاءِ. المَكْتَبَةُ الْبُودَلِيَّةُ بِأَكْسَفُورْد.



لوحة ٢٤٩: «قَصَصُ الْأَنْبِيَاءِ» سُلَيْمَانُ وَبَلْقَيْسُ يَجْلِسَانِ عَلَى الْعَرْشِ
وَأَمَامَهُمَا الْوَزِيرُ آصَفُ. دَارُ الْكُتُبِ الْقَوْمِيَّةِ بِبَارِيسَ.

لوحة ٢٥٠: مُعْجِزَةُ نَاقَةِ
الْبَيْتِ صَالِحٍ. مَتَحَفُ بَرْلِينِ.

لوحة ٢٥١: «يوسف وزليخا»
للشاعر جامي. زليخا في كهولتها.
المتحف البريطاني.

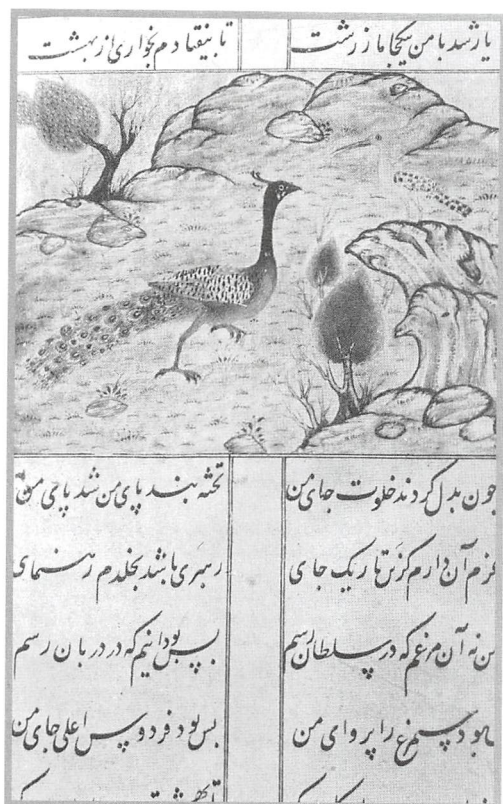


لوحة ٢٥٣: الصوفية في الحديقة. تصوير
قاسم علي.



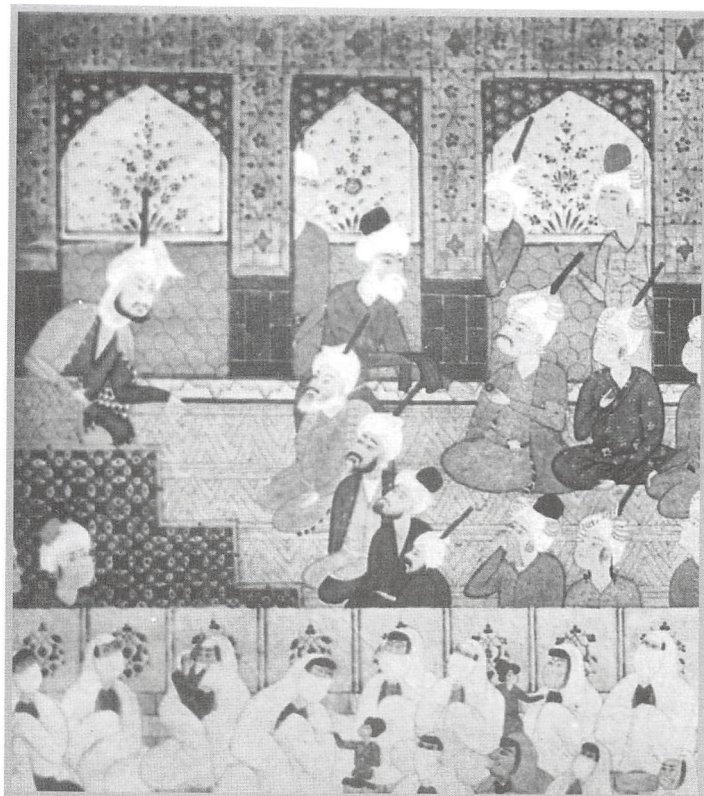
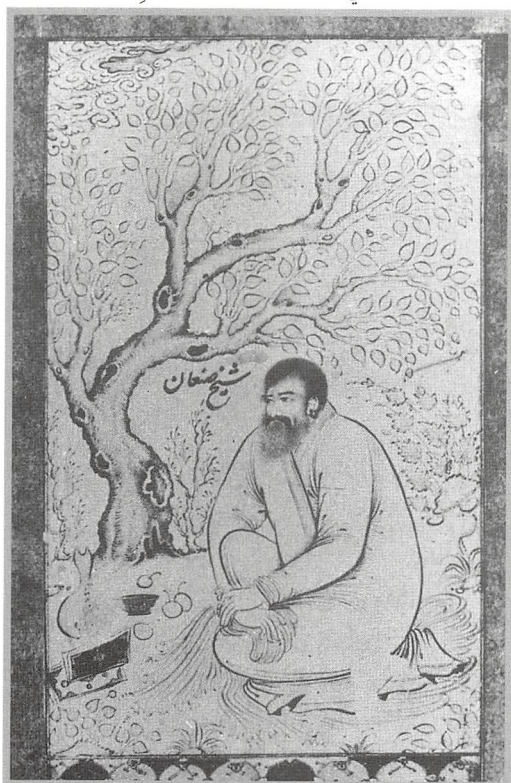
لوحة ٢٥٢: إشكندر نامه للشاعر نظامي ١٠٥٣. ذو القرنين
يُشرف على بناء السّد. المكتبة البودلية باكسفورد.





لوحة ٢٥٦: «مَنْطِقُ الطَّيْرِ» لَفَرِيدِ الدِّينِ الْعَطَّارِ.
الطَّائُوسُ وَالْهُدُودُ. العصر التَّيْمُورِيّ. المتحف
البريطانيّ. [صورة لم يسبق نشرها].

لوحة ٢٥٧: «لسان الطَّيْرِ» ترجمة مير علي
شيرنوايي. شَيْخُ صَنْعَانِ مُتَأَمِّلًا. رسم رِضا
عَبَّاسِي. دار الكتب القوميّة بباريس.



لوحة ٢٥٤: «مَجَالِسُ الْعُشَّاقِ» لِلْسلْطَانِ حُسَيْنِ ميرزا
(١٥٥٢). الشَّاعِرُ الصُّوفِيّ مَجْدُ الدِّينِ البَغْدَادِيّ.

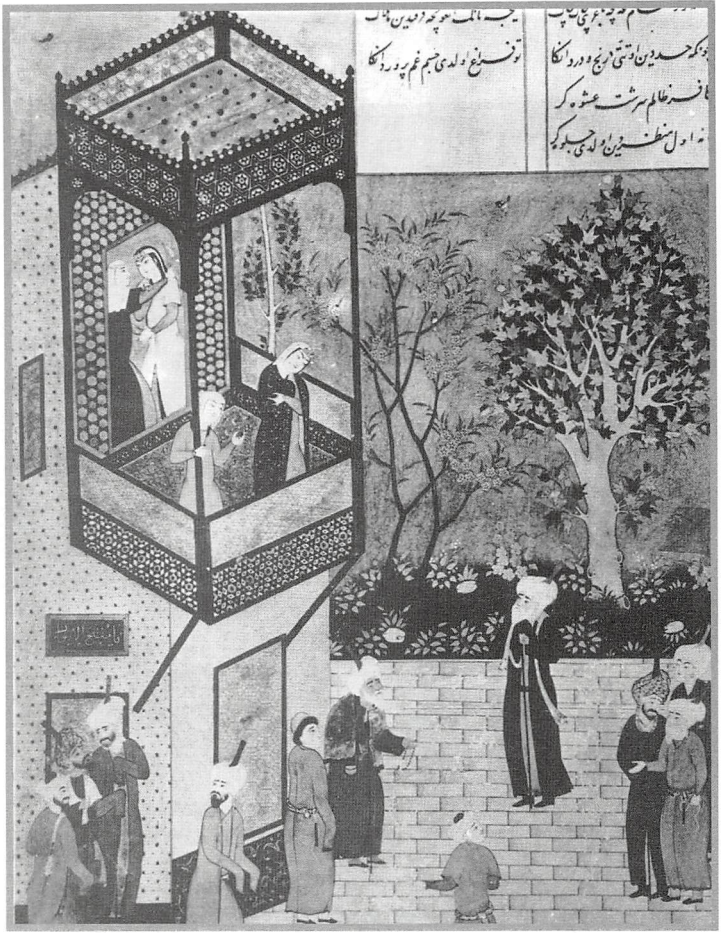
لوحة ٢٥٥: «مَجَالِسُ الْعُشَّاقِ» لِلْسلْطَانِ حُسَيْنِ ميرزا
(١٥٥٢). الشَّاعِرُ الصُّوفِيّ فَرِيدُ الدِّينِ الْعَطَّارِ.





قصید تو دار بند بر خیز و بر و
بر درم منشین و بگریز و بر و
آن که گفت که من آرزو دیت
شسته ام از جان که کشم از تو پت
صد نه از آن جان چون من مقبیرا
باد بر روی تو سه ساعت شار
چون من خوانند گشتن بی صدا
ایک سوال مرا به لطفیت ده جواب

لوحة ۲۵۹: «مَنْطِقُ الطَّيْرِ». شَيْخُ صَنْعَانَ جَائِثًا أَمَامَ
الْفَتَاةِ النَّصْرَانِيَّةِ. المَتَحَفُ الْبَرِيطَانِيَّ. [صورة لم يسبق
نشرها].



لوحة ۲۵۸: الأعمال الكاملة لمير علي شيرنوائي.
هَراة ۱۵۲۷. شَيْخُ صَنْعَانَ يُخَاطِبُ الْفَتَاةَ النَّصْرَانِيَّةَ.
دار الكتب القومية بباريس. [صورة لم يسبق نشرها].



جبریل آواز چالت بگوشت
سوی حضرت باز آمد دگر
بر زبان کشاد گفت ای بی نیاز
پرده کن از پیش من را
آنگاه در بری کند بست را خطاب
تو مطلق خود وای در راه
حق تعالی گفت پست او دل سیه
چند اندازان غلط کردی

لوحة ۲۶۰: «مَنْطِقُ الطَّيْرِ». شَيْخُ صَنْعَانَ يَعْبُدُ الصَّنَمَ.
المتحف البريطاني. [صورة لم يسبق نشرها].

لوحة ٢٦١: «لسان الطير». شيخ صنعان يرمى الخنازير.
دار الكتب القومية بباريس. [صورة لم يسبق نشرها].



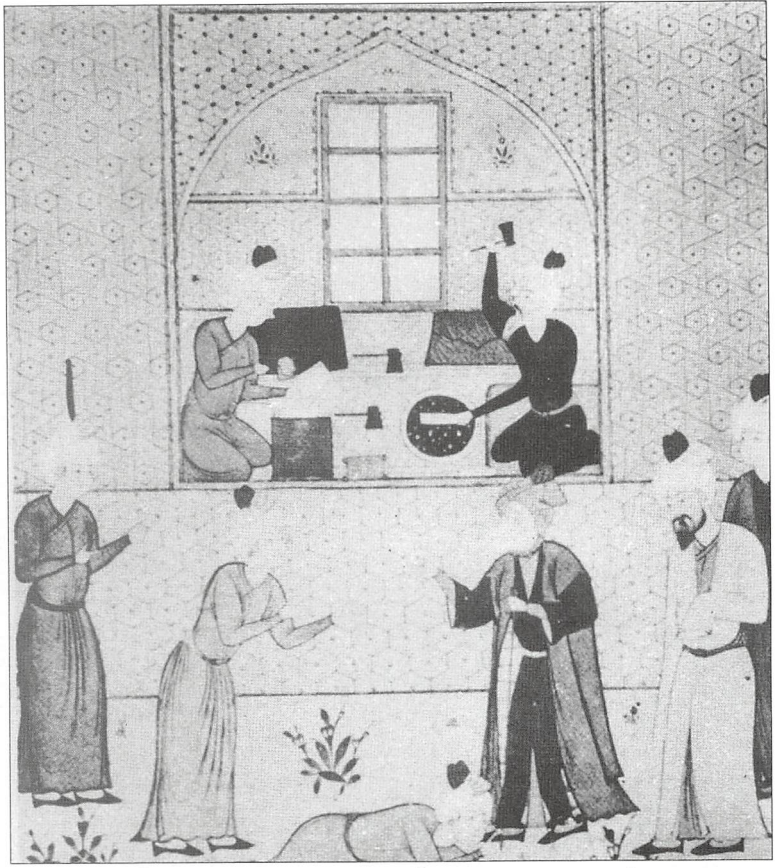
لوحة ٢٦٢: «لسان الطير». الفتاة التصرايية تُسلم الروح
على صدر الشيخ صنعان. دار الكتب القومية بباريس.
[صورة لم يسبق نشرها].



لوحة ٢٦٣: «منطق الطير». الفتاة التصرايية تُسلم الروح
على صدر شيخ صنعان. متحف المتروبوليتان بنيويورك.



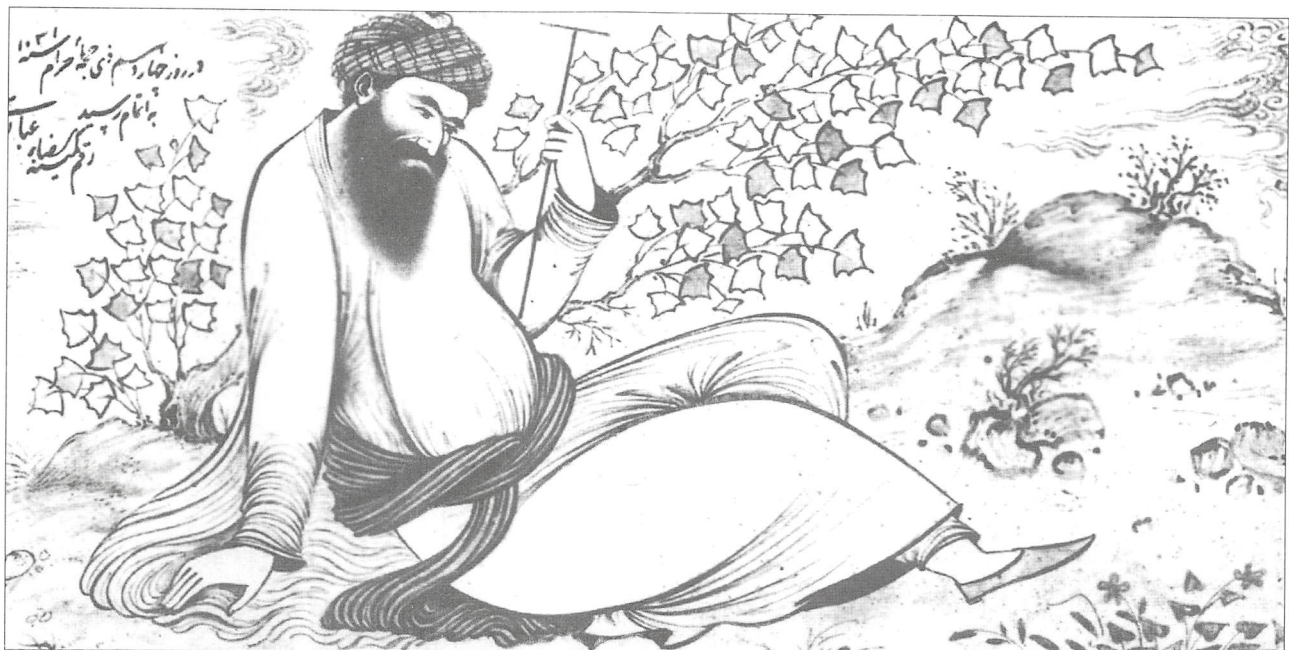
لوحة ٢٦٥: درویش مُحَمَّد نایب [عازِف النّاي] یَتصدّر حلقة الذّکر. المكتبة البودلیّة بِأكسفورد.



لوحة ٢٦٤: الشّاعر الصّوّفی جلال الدّین الرّومی. المكتبة البودلیّة بِأكسفورد.

لوحة ٢٦٦: رَفْص الدّراویش. المكتبة البودلیّة بِأكسفورد.



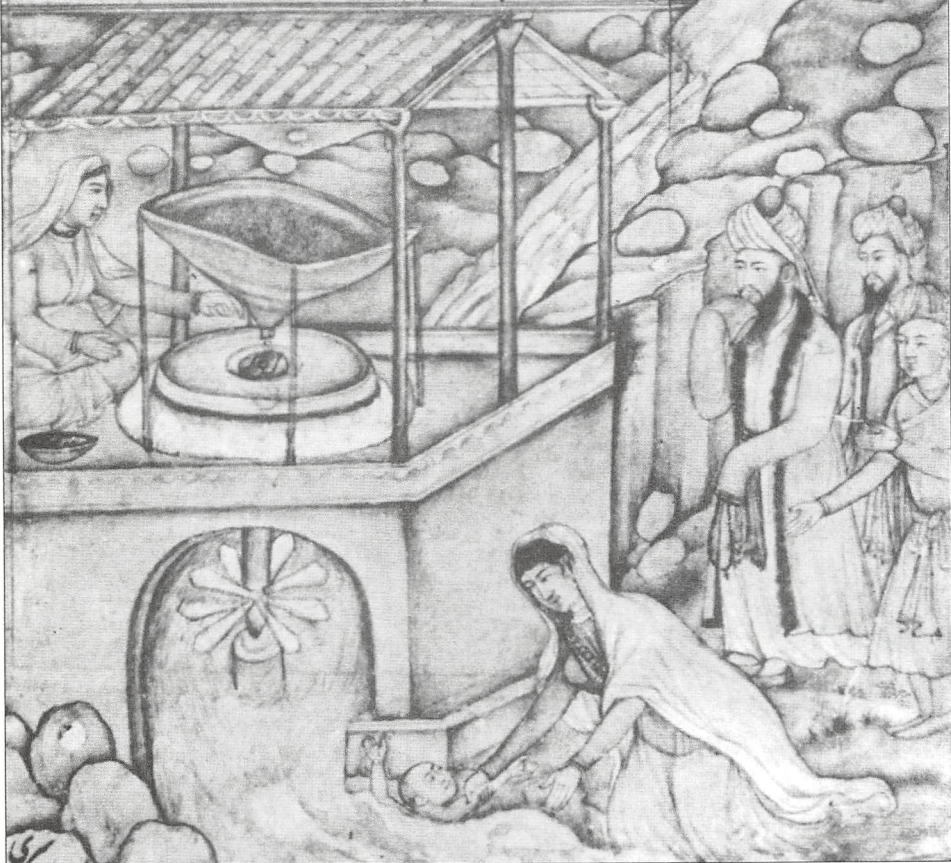


لوحة ٢٦٧: درویش يتأمل . من
تصوير رضا عباسي وبثوقه . دار
الكتب القومية بباريس .



لوحة ٢٦٨: «نَفَحَاتِ الْأُنْسِ» لإجمي . الشيخ أبو
الغيث جميل اليميني يأمر الأسد بحمل حطبه بعد أن
فتك بحماره . فن إسلامي مغولي بالهند . المتحف
البريطاني . [صورة لم يسبق نشرها] .

وی در آب افتاد و غرق شدن معلم شیخ سیرازان مغی خرداد پری گفت بر
 خرید و با من بیایید تا پیش مادر وی برویم بر فدی شیخ پری قدس پسر بهامادر که
 پناذ پنجن کرد در صبر بعد از آن در رضا زن گفت ای پادشاه شما این چیز
 چیست گفت پسر تو غرق شده است گفت پسر من گفت بلی گفت بدرستی که خدا
 تعالی کرده است شیخ پری از در صبر و رضا پنجن باخا که در زن گفت بر خبر بدو
 بیایید بد بر خاستند و با وی فرستند تا بجای آب رسیدند پرسید که کجاست شیخ
 گفت اینجا باخا رفت و با من زد که ای فرزند من گفت پیک ای در آن زن بان
 آب فرو رفت و دست پسر
 بگرفت و باخا برد



لَوْحَاتُ
البَابِ السَّادِسِ
المُلَوَّنَةِ

التَّصَوِيرُ الدِّينِيُّ
فِي الْإِسْلَامِ



لوحة ٤٥٠ أ (م): مخطوطة يوسف وزليخا
للسّاعر جامي. الحَضرة الرِّبّانيّة. دار
الكتب المصريّة.



لوحة ٤٥٠ ب (م): خمسة نظامي.
الحَضرة الرِّبّانيّة. المتحف البريطانيّ.

لوحة ٤٥١ م: قصص
الأنبياء. العذراء مريم
تهزّ النخلة. مكتبة
تشستر بيتي.



لوحة ٤٥٢ م: فال نامه لقنندر
باشا. العذراء مريم تُرضع
الطفل عيسى «مريم
المُرضع». القرن ١٧.

لوحة ٤٥٣ م: خمسة نظامي. مخزن
الأسرار (١٦٦٢/١٦٦٣). قصة
«المسيح والكلب الميت». المتحف
القومي بدهلي.



لوحة ٤٥٤ م: مقتطفات تيمورية
١٤١٠-١٤١١). إبراهيم
يُضحّي بابنه إسماعيل. مؤسسة
جولبنكيان بلسبونة.



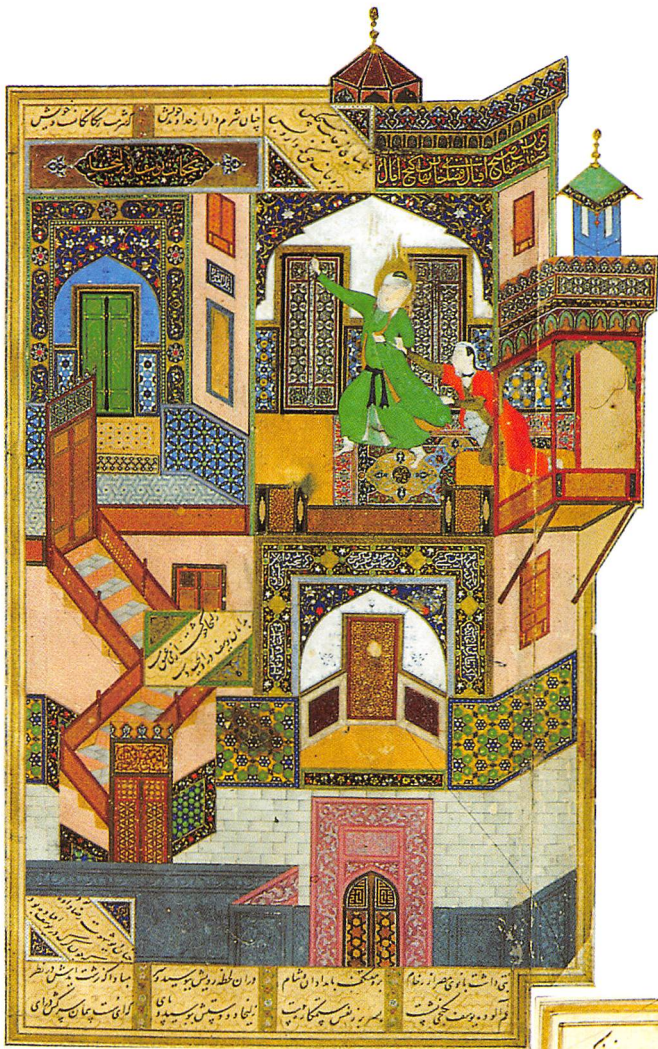


لوحة ٤٥٥م: كُتُبَات حَافِظ. جَنِّي
يحمل بَلْقِيسَ ملكة سَبَأَ فوق عرشها
مِن اليَمَن بِأمر سُلَيْمَانَ. متحف
طوب قاپو بِإسطنبول. [صورة لم
يسبق نشرها].



لوحة ٤٥٦م: غُرَّة مخطوطة سُلَيْمَانَ
نامه (١٤٨١-١٥١٢). سُلَيْمَانَ فوق
عرشه بَيْن رَعَاياه مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ.
بورصة، تركيا.

لوحة ٤٥٧ م: بُستان سَعْدِي لِلشَّاعِرِ
جامي. زَلِيخا تَعَلَّقَ بِقَمِيصِ يَوْسُفَ
حَتَّى قَلَّتْهُ مِنْ دُبُرٍ. دار الكتب المِصْرِيَّة.



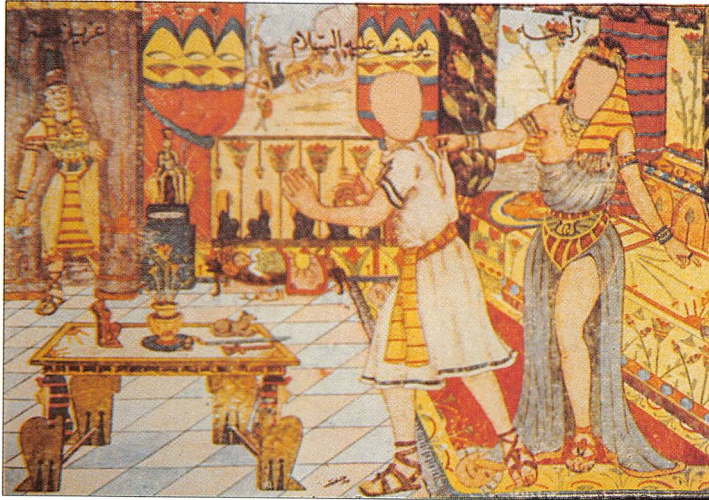
کدامی کلخ بروی منظر کن
بچشم لطیف سوی منظر کن



لوحة ٤٥٨ م: یوسف وزَلِيخا لِلشَّاعِرِ
جامي. یوسف فی ضیافة زَلِيخا بقصرها
حیث نَقَشَتْ صورته معها علی جدران
القَصْرِ وسَقَفه. دار الكتب المِصْرِيَّة.
[صورة لم يسبق نشرها].

اگر خوشید روی من بید
چو از چشم من فریاد

لوحة ٤٥٩م: يوسف وزليخا للشاعر
جامي. وليمة زليخا لِنساء المدينة.
دار الكتب المصرية.

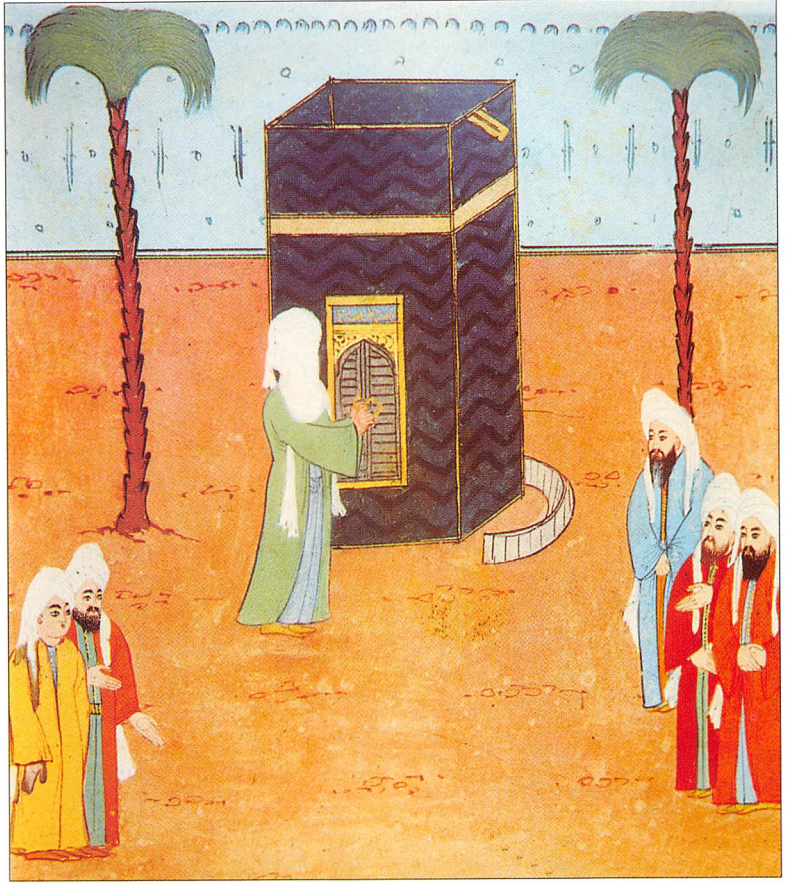


لوحة ٤٦٠م: فنّ شعبيّ
مصريّ. يوسف وزليخا.



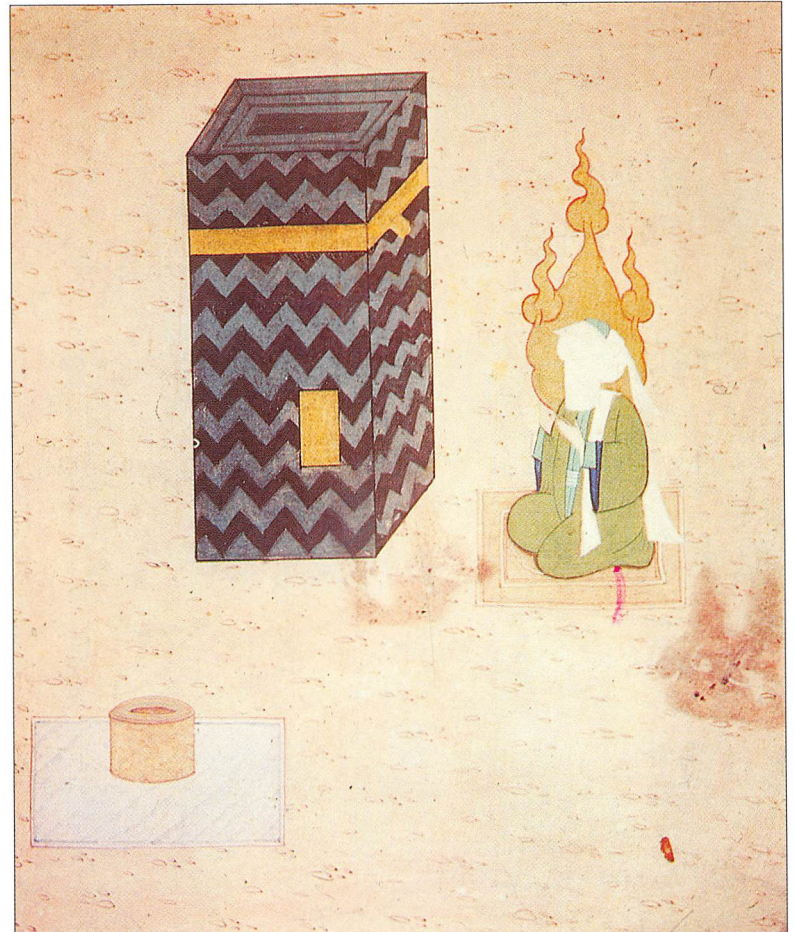
لوحة ٤٦١م: فنّ شعبيّ
مصريّ. إبراهيم يُضحي
بإبنه إسماعيل.

لوحة ٤٦٢م: سير النبي (١٥٩٤). جد الرسول
أمام الكعبة. متحف طوب قابو باستنبول.

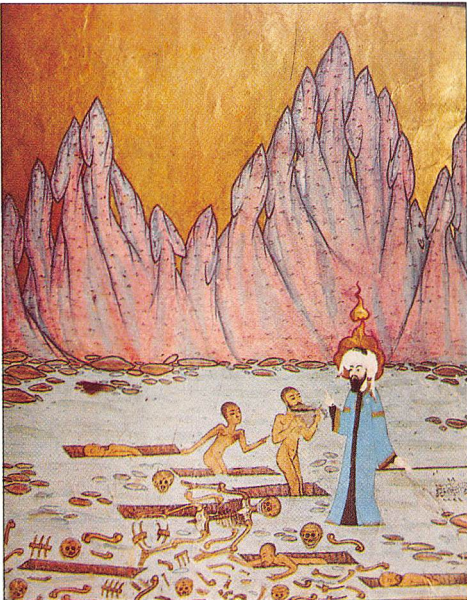


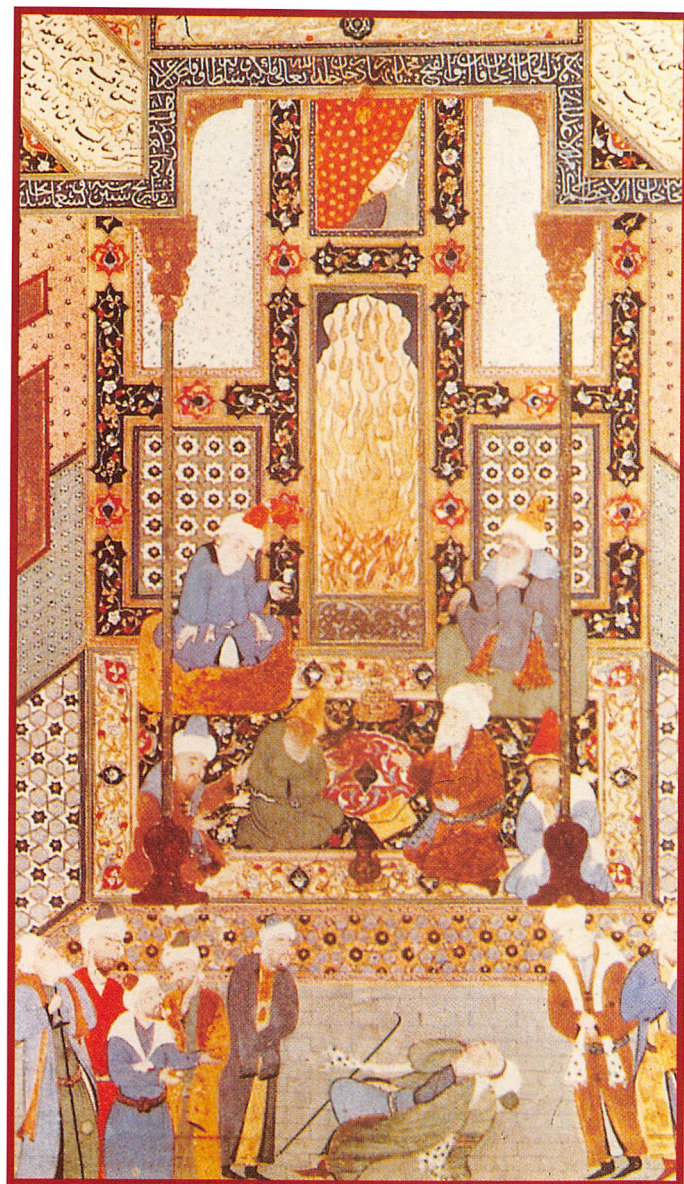
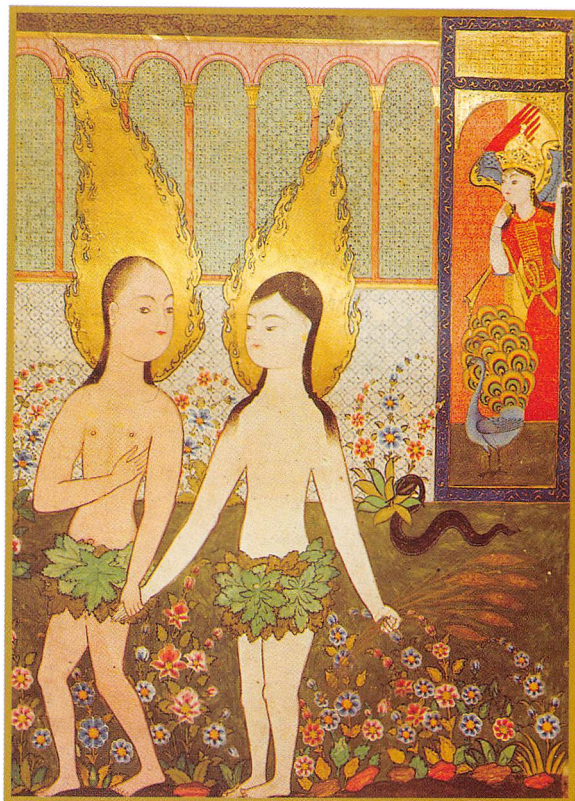
لوحة ٤٦٥م: «كتاب
الغالب» لقلندر باشا.
آدم وحواء. متحف
طوب قابو باستنبول.

لوحة ٤٦٣م: سير النبي (١٥٩٤)
شخصية جليلة غارقة في التبتل أمام
الكعبة. متحف طوب قابو باستنبول.



لوحة ٤٦٤م: «زبدة التواريخ» (١٥٨٣). حزقيال
يحيي الموتى. متحف الفن الإسلامي باستنبول.





لوحة ٤٦٧م: «مَنْطِقُ الطَّيْرِ». شَيْخ
صَنْعَانُ يَتَّقِعُ صَرِيحًا أَمَامَ مُرِيدِيهِ. المَتَحَفُ
الْبَرِيطَانِيّ. [صورة لم يسبق نشرها].

لوحة ٤٦٦م: «روضة الصّفا» لميرخوند.
العَفْوُ عَنْ عَكْرَمَةَ بَعْدَ دُخُولِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى
مَكَّةَ فِي الْعَامِ الثَّامِنِ لِلْهِجْرَةِ (١٦٠٦).
مَتَحَفُ الْفَنِّ الْإِسْلَامِيِّ بِالْقَاهِرَةِ.



لوحة ٤٦٨م: «مَشْنُوِي جَلال الدِّين الرُّومِيّ». عن قِصَّة الطُّيُور الأَلِفَّة تَتَّخِذُ أَفْرَاحًا مِنَ البَطِّ البَحْرِيِّ تُرَبِّيها على اليَاسَةِ. متحف الفنِّ الإسلاميِّ بِالقاهرة. [صورة لم يسبق نشرها].



لوحة ۴۶۹م: «مثنوی جلال الدین الرومی». الشاور لفتح مكة لِشُرّ لواء الإسلام.
متحف الفن الإسلامي بالقاهرة. [صورة لم يسبق نشرها].





لوحة ٤٧١م: «مثنوي جلال الدين الرُّومِي». الشَّيْخ الصَّوْفِي يُلَقِّن مُرِيدِهِ نَظْرِيَّةَ وَحْدَةِ الوجود وَيَحَثُّهُمْ عَلَى الفَنَاءِ فِي الله .
متحف الفن الإسلامي بالقاهرة. [صورة لم يسبق نشرها].

شتران بخیم از سبکهای حق
 دست و پا در میان خاک و گل
 ستمگر و ستم شده از ستمگر
 جان با خود داد و دان و دیوانه
 جان با خود داد و دان و دیوانه
 جان با خود داد و دان و دیوانه

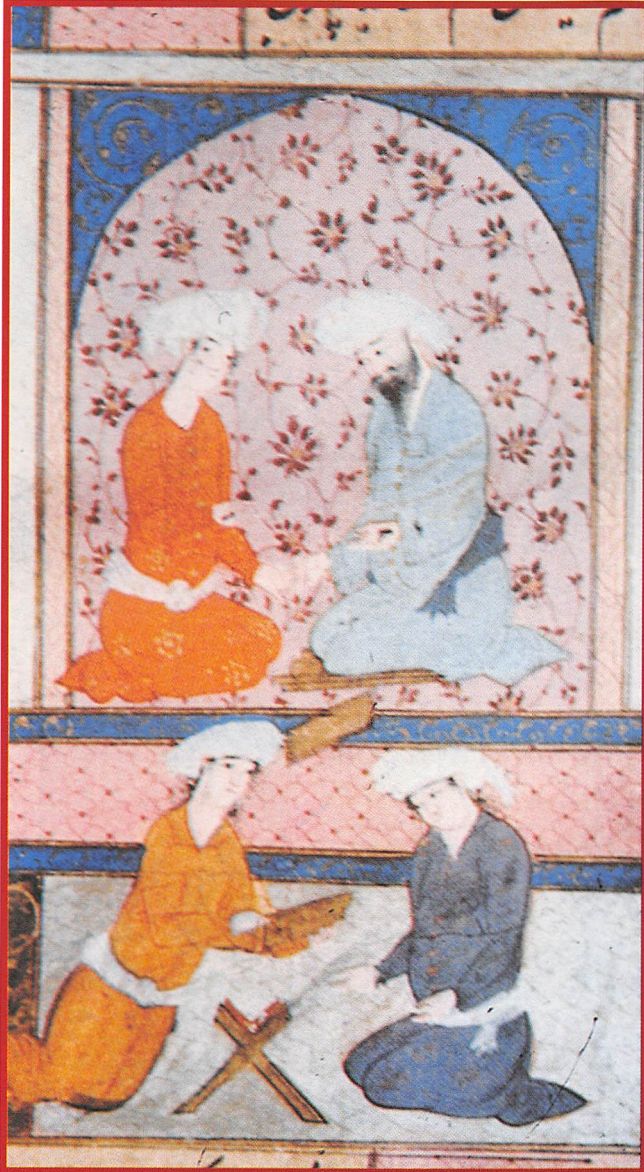
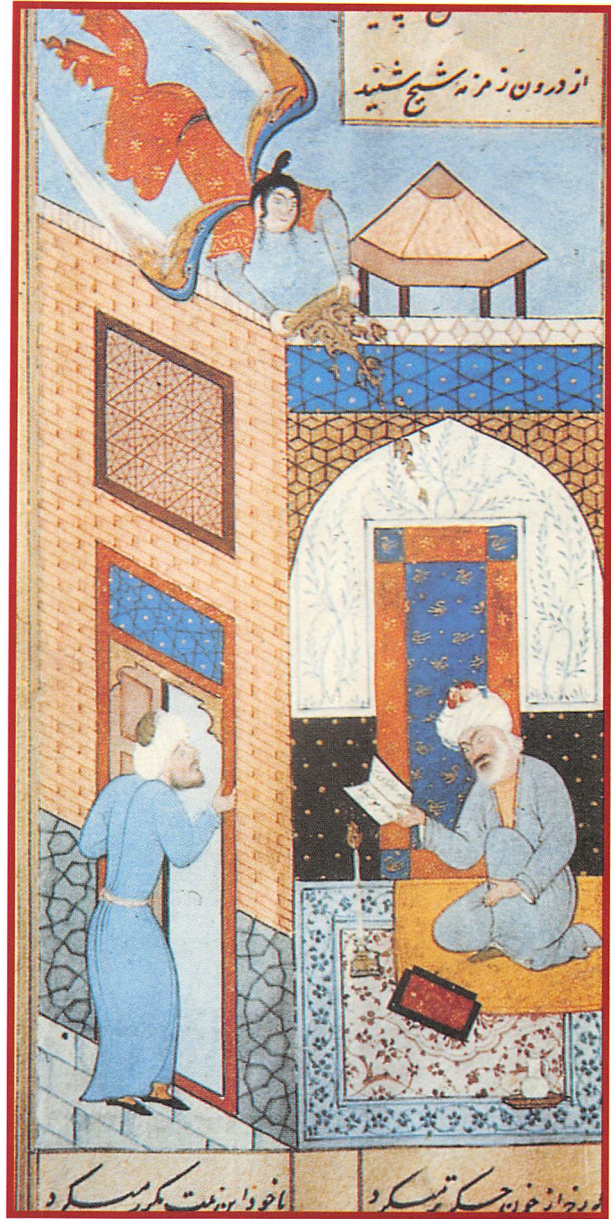
که چه نسبت دیوار را با جبریل
 چون تواند ساخت با از خلیل
 که بود با او بصفت هم تمیز
 چون تواند ساخت با از خلیل



بهر تو از نسبت کرد و گفت و گو
 تا باری بارش و بارش و بارش
 از بی اختیار و خوش بود و بد
 چون ببارش باضی این جهان
 کس ندی اندر نوز ستمگران
 از چنین ماردان بی دیده اند

و آن است که از رقصی خدا توان نوز
 و آن است که از رقصی خدا توان نوز
 و آن است که از رقصی خدا توان نوز
 و آن است که از رقصی خدا توان نوز

لوحة ٤٧٣ م: «سُبْحَةُ الْأَبْرَارِ» لِبِجَامِي:
كَمْ تُوحِي أَوْرَاقُ الْأَشْجَارِ الْخَضِرَاءِ
لِلْإِنْسَانِ الْقَطِينِ بِعِبْرَاتٍ وَعِظَاتٍ تَدُلُّهُ
عَلَى وُجُودِ اللَّهِ. دار الكتب المصرية.
[صورة لم يسبق نشرها].



لوحة ٤٧٤ م: جُلُستان سَعْدِي. العالم
يُنْقِذُ نَفْسَهُ مِنَ الْغَرَقِ، وَالْعَابِدُ يَسْعَى
لِإِنْتِشَالِ غَرِيقًا. دار الكتب المصرية.
[صورة لم يسبق نشرها].



لوحة ٤٧٥م: مُرَقَّعة بَهْرَام مِيرزا (١٥٤٤) إِمَام فِي قُبَّة الصَّخْرَةِ.
تصویر أَحْمَد مُوسَى. متحف طوب قابو بإسطنبول.

لوحات من
معراج نامة

فی الاثر وراثته تحت العرش

11

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اول ما وصل اليه من عرشه برآق نور زكرو ديك بانسي عرش النور ايا قلا ري بر نورين بانسي اول ملكه

سورة الفاتحة
بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على
سيدنا محمد وآله الطيبين
الطاهرين
الذين هم خيرة
الخلق
والله اعلم
بما
في
الغيب



سورة الفاتحة
بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على
سيدنا محمد وآله الطيبين
الطاهرين
الذين هم خيرة
الخلق
والله اعلم
بما
في
الغيب

عُضَارُ الْمَلَائِكَةِ لِأَجْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَةُ أَقْدَاحٍ الْوَاحِدُ لِبْنٍ وَالْآخَرُ
لِالْآخَرِ عَسَلٌ وَشَرِبَ النَّبِيُّ قَدَحَ اللَّبَنِ لَا غَيْرَ فَقَالَ لَهُ الْمَلَائِكَةُ نِعْمَ مَا فَعَلْتَ يَا مُحَمَّدُ
لِلْبَنِ وَحْدَكَ وَلَمْ تَشْرِبْ غَيْرَهُ فَإِنَّ أَمَّتْكَ يَخْرُجُونَ مِنَ الدُّنْيَا بِالْإِيمَانِ وَفَرِحَ بِهَذَا

۱
 ۲
 ۳



رسول الله ص و اولاد و انجی سما و اوستا سن و رسته که و در پیش قاریون و نصیحتی آتشیدن بر آتش قاریون و هیچ بر آتش ناردن کوکی که رادی اول و بیج که صد است و

This detail from a Japanese Buddhist painting depicts three figures against a blue background adorned with gold dots. On the left, a white-skinned figure with a golden, dragon-like body is shown. In the center, a winged figure in purple and green robes is depicted. On the right, a figure in green robes is riding a red deer-like creature. All three figures have golden flames or halos above their heads. The bottom of the image shows a dark, textured ground.

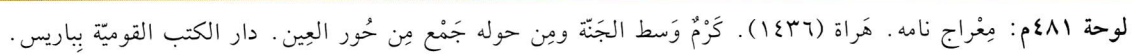
[Faint handwritten text from another page]

[illegible][illegible]

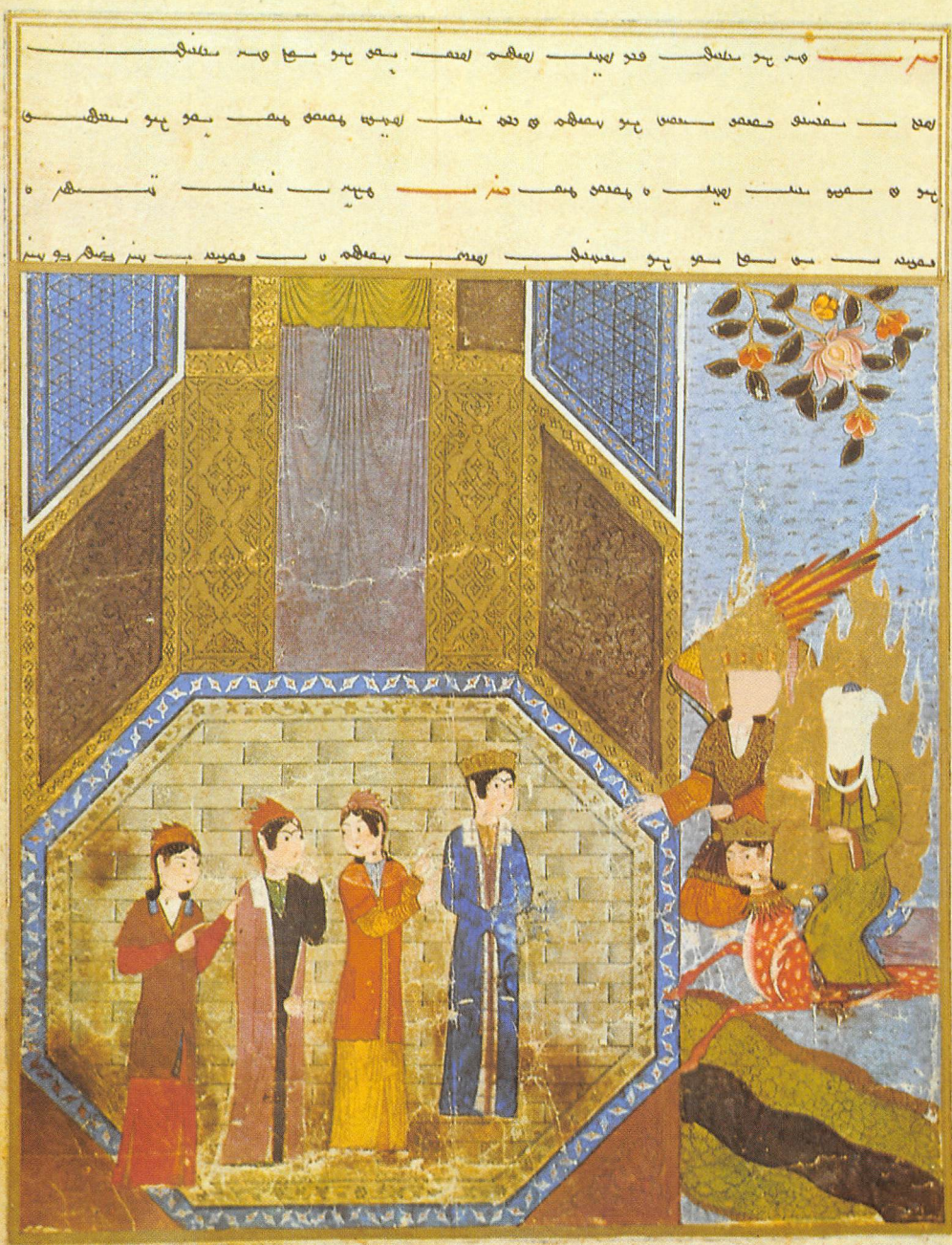
ملک ان کی کوڑیوں کے درخت باہی



4 26 49



وَبِهِ لَتَنِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِقَصْرِ عَظِيمٍ وَفِيهِ جَمَاعَةٌ كَثِيرٌ مِنَ الْخُورِ وَالْجَسَارِ
 عَوَالِدُ مَنْ هَذَا الْقَصْرِ فَقَالَتِ الْخُورَاتُهَا الْعَمْرُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ ٥



عَذَابُ النِّسَاءِ الَّتِي تَطُولُ لِسَانَهُنَّ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ وَيَخْرُجْنَ بَغْيًا ذَبِيحًا
وَتَشْتَغِلْنَ بِالْعَمَلِ الْفَاسِدِ ٥

شول عورتلورد کیم اولرینه دل اوزادون واجازت سوفطاشوه چقوب کورلور فاسد عملان مشغول اولورلر قیامت کوننده بویله عذاب ایله

لِسَانَهُنَّ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ وَيَخْرُجْنَ بَغْيًا ذَبِيحًا
وَتَشْتَغِلْنَ بِالْعَمَلِ الْفَاسِدِ ٥
لِسَانَهُنَّ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ وَيَخْرُجْنَ بَغْيًا ذَبِيحًا
وَتَشْتَغِلْنَ بِالْعَمَلِ الْفَاسِدِ ٥
لِسَانَهُنَّ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ وَيَخْرُجْنَ بَغْيًا ذَبِيحًا
وَتَشْتَغِلْنَ بِالْعَمَلِ الْفَاسِدِ ٥
لِسَانَهُنَّ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ وَيَخْرُجْنَ بَغْيًا ذَبِيحًا
وَتَشْتَغِلْنَ بِالْعَمَلِ الْفَاسِدِ ٥



صِفَةُ الرِّجَالِ الَّذِينَ أَكْرَمُوا الْأُمَرَاءَ رِيَاءً



من —————
 من —————
 من —————
 من —————

وَصِفَةُ الرِّجَالِ الَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ يَعْلَمُونَ وَيُحْجُونَ النَّاسَ مِيعَتَهُمْ مِنَ الْعَمَلِ
وَهُمْ لَا يَسْتَعْمِلُونَ ٥٥

[illegible]

لوحة ٤٨٥م: مِعْرَاجُ نَامِهِ . هَرَاة (١٤٣٦) شَجَرَةُ الزَّقُّومِ الَّتِي شَوَّكَهَا مِنَ الرِّمَاحِ وَثِمَارُهَا رُؤُوسُ الْعَفَارِيتِ وَالسَّبَّاعِ وَصَفَةُ الرِّجَالِ الَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ بِعِلْمِهِمْ وَيَنْصَحُونَ النَّاسَ وَيَمْنَعُونَهُمْ مِنَ الْعَمَلِ السَّيِّئِ وَهُمْ يَسْتَعْلُونَ بِهِ . دَارُ الْكُتُبِ الْقَوْمِيَّةِ بَبَارِيسَ .

خاتمة

حفظه.

ولقد رأينا التصوير الإسلامي حين كُتِبَ له الإزدهار فيما بين القرنين الثالث عشر والسادس عشر يدخل إلى النصوص الدينية بألوان من الرُخفة، كما رأيناه يعرض لأحداث من حياة الرسول يُبرزها لنا في صور جليّة قُديسة. وأخذت المخطوطات التي فيها الكثير من قصص الأنبياء والرسل والصالحين تشيع فيها بعض تلك الصور التي تُمثل جوانب من حياتهم، غير أنه نَمّة كتاب وهو القرآن الكريم ظلّ على مرّ العصور لا يمسّه التصوير من قُرب أو من بُعد، وإن كانت طبعاته المختلفة قد حفلت بِرُخارف وجليات نجيّة على رأس السُور. ولقد كانَ مِنّا عَوَقٌ انْتِشار التصوير تأخّر دُخول الطباعة إلى الشّرق. فلقد كانت الكُتب تُنسخ وتُرسَم معها الصور التي تُحتويها الأمر الذي لم يجعل لتلك الصور شُيوعاً، كما لم تشع أيضاً تلك المخطوطات شُيوع المطبوعات، وظلّت هذه وتلك قاصرة على الحُكّام وعلية القوم ومن لهم حِرص على الاقتناء من رجال الأدب والعلم.

ولعلّ قُصور التصوير الإسلامي على ما جاء مِنه تَوْضِيحاً لِمَا تَضَمَّنَه بعض المخطوطات هو الذي جعلنا عاجزين شُيئاً عن أن نذري خصائصه، وإن كانت تلك الخصائص على الرُغم من قِلتها تكاد تَبْدُو لها طابعها المُستَقِلّ ولها طرافتها. والتّصاویر بهذا وذاك تُعطينا فِكرة واضِحة عن أن التصوير الدِّيني في الإسلام جاء يَخْتَلِف كُلُّ الاختِلاف عَن التصوير الدِّيني المَسيحي. ولم يكن مَرَد قُصور التّصوير في الإسلام هو إلى ذلك المَنع وتلك الإباحة فَحَسْب بَلْ كانَ هُذا القُصور مَرَدَه في الأكثر إلى انْجِيازِهِ إلى تَصوير المَخطوطات، ومَعلوم أن لِكُلِّ مَخطوط طاقته، مِن أَجل هُذا جاء التّصوير مَحْدوداً بِطَاقَةِ هُذه المَخطوطات.

ويكاد تَصوير الأشخاص في الإسلام يَتَمَيَّز بِالتَّزامِهِ بِالْبُعْدَيْنِ

وهكذا نرى مِنّا سَبَقَ عَرَضُهُ مِن صُور أن التّصوير الإسلامي الدِّيني بَدَأ يَزْدَهِر مُنْذُ القَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ وَكانَت لَهُ مُشارَكَته في تَوْضِيح النّصوص الدِّينية، وَكانَت تِلْكَ المُشارَكَة لَهَا تَقالِيدُها وَلَهَا أَهْدافُها كَمَا كانَ الأمرُ في الفُنون الأورِبيّة التي قُصِدَ فيها إلى إثارة المَشاير والتّمكنين لِلدِّينِ في القُلُوب. وَكانَ إقبال المُصوِّرين المُسلمين على التّصوير إقبالاً يُحيط بِهِ كَثِيرٌ مِنَ الوَعِيدِ مِن بَعْضِ المُتَشَدِّدين الَّذين تَأَوَّلُوا بَعْضَ النّصوص الدِّينية تَأَوِّلاً يُحَرِّمُ التّصوير وَيَعِدُ مُراوِلِهِ بِالتَّارِ والعَذاب. وهؤلاء المُصوِّرونَ فيما نَعْتَقِد لَمْ يَكُونُوا يُسَلِّمُونَ بِما ذَهَبَ إِلَيْهِ أَصْحابُ ذَلِكَ الرّأْيِ، إِذْ لَوْ كانوا يُؤْمِنُونَ بِهَذَا ما عُدُّوا مِنَ الإيمان والإسلام في شَيْءٍ. لِهَذَا لا نَرى فيما ذَهَبَ إِلَيْهِ توماس أرنولد مِن شَيْءٍ دِفَاعٍ عَن هؤلاء مَكاناً، فهو يَقول ما مِن إنسان مُسلم أو غَيْرِ مُسلم إلّا وهو يَأْتِي مَعْصِيَةً في حَيَاتِهِ، وَأَنَّهُ إِذا كانَ التّصوير مَعْصِيَةً فَمَا أَهْوَنُها مِن مَعْصِيَةٍ. وهو بِهَذَا يَكادُ يُسَلِّمُ أَنَّ المُصوِّرَ المُسلمَ صَوَّرَ ما صَوَّرَ وهو يُؤْمِنُ بِتَحْرِيمِ التّصوير. فَلَوْ صَحَّ هُذا لَوَجَدنا مِنَ المُصوِّرينَ المُسلمينَ مَنْ يَعُودُ بَعْدَ تَوْبَتِهِ فَيَحرقُ صُورَهُ التي صَوَّرَها في غَمَرَةٍ مِنَ غَمَرَاتِ العَوْدَةِ إلى الدِّينِ، وَلِكِنَّا لَمْ نَجِدْ مِنَ ذَلِكَ شَيْئاً بِاسْتِشْعارِ حادِثٍ واحدٍ، وَبَعِيدٍ أَنَّ نُسَلِّمَ أَنَّ هؤلاء المُصوِّرينَ لَمْ يَسْتَشِيرِ مِنْهُمْ التَّوْبَةُ أَحَدٌ.

والتّصوير الدِّيني في الإسلام لا شَكَّ مَضَى مُنْذُ نَشَأَتِهِ يَخْدُم الدِّينَ نَفْسَهُ وَإِنْ كانَ لَمْ يَتَّخِذْ أَدَاةً تَعْلِيمِيَّةً في مَجالِ التّعليمِ الدِّينيِّ، كَمَا لَمْ يَظْهَرِ في المَساجِدِ أو المَحارِبِ. ثُمَّ هو كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ نَهْجُهُ يَخالِفُ التّصوير الدِّينيَّ عِنْدَ المَسيحيينَ والبُوذيينَ، فَالتّصوير الدِّينيُّ المَسيحيُّ مُنْذُ نَشَأَتِهِ يَتَّخِذُ وَسِيلَةَ تَعْلِيمِيَّةً لِيَخْدُمَ العَقيدةَ المَسيحيّة. مِن أَجل هُذا كانَ يُغني غِناهُ النّصَّ لِمَنْ لا يَقرَأونَ ولا يَكْتُبونَ، على حينَ كانَ التّصوير الإسلامي بعيداً كُلِّ البُعدِ عَن أن يُسايرَ التّعليمَ الدِّينيَّ حَتّى يَبينَ الأُمَمِينَ أَنفُسَهُمْ، فَإِنْ كانَ هؤلاء عاجزينَ عَن قِراءةِ القُرْآنِ فَلَقَدْ كانوا قادِرينَ على

عند التصوير في الفراغ، كما نرى للتلوين فيه خطأ وإفرا، هذا إلى اضطراب الفتنان في تنفيذ رسومه إلى الالتزام بمقاييس المنمنمات. ولو فرض أننا لم نرث من التصوير البيزنطي غير الأناجيل ولم تقع لنا منه لوحات الفريسك والفسيفساء الكبيرة لكان حكمنا على هذا التصوير البيزنطي قريبا من حكمنا على التصوير الإسلامي، وهكذا الأمر على التصوير الإيطالي في القرن الرابع عشر لو أننا لم نحصل منه إلا على الطراز القوطي. وأوضح مثل على ذلك أن الزمن لم يخلف لنا لوحة تصويرية إغريقية واحدة، فاقصر حكمنا على التصوير الإغريقي على الرسوم التي نزين الأواني الفخارية

وحدها، وعلى لوحات الفسيفساء والتصوير الجدارية الرومانية التي تُعروف على أن أكثرها مُستنسخ عن الأصول الإغريقية، وهو حكم لا شك مُبتسر.

خلاصة القول إنه لو أننا وقعنا على كثرة من التصوير الإسلامية الجدارية ذات الأحجام الكبيرة، كما وقعنا على كثرة من التصوير عند غير المسلمين لاختلف الحكم كثيرا، ولكانت ثمة نظرة أخرى لهذا التصوير الذي ما نشك أنه ظلّ ظلما كبيرا لقلّة ما انتهى إلينا منه وسلم من التخريب والهدم والإبادة.

شَبَتِ الْمَرَاجِعُ الْعَرَبِيَّةَ

- ١- ابن خلدون : المُقَدِّمَة . بيروت ، ١٨٨٢ .
- ٢- ابن منظور المصري : أخبار أبي نواس ، جزء أوّل . القاهرة ، ١٩٢٣ .
- ٣- ابن النديم : الفهرست ، الجزء الأوّل .
- ٤- أبو الفرج الإصفهاني : الأغاني ، الجزء الخامس . القاهرة ، دار الكتب المصرية .
- ٥- أحمد تيمور باشا : التصوير عند العرب . ١٩٤٢ .
- ٦- أحمد ناجي القيسي : عطار نامه ، الكتاب الثاني ، منطق الطير . بغداد ، مطبعة الإرشاد ، ١٩٦٨ .
- ٧- بشر فارس : سر الزخرفة الإسلامية . القاهرة ، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية ، ١٩٥٢ .
- ٨- بشر فارس : منمنمة دينية تمثل الرسول ، من أسلوب التصوير العربي البغدادي . القاهرة ، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية ، ١٩٤٨ .
- ٩- بشر فارس : التصوير القدسي في التصوير الإسلامي الأوّل . القاهرة ، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية ، ١٩٥٩ .
- ١٠- بشر فارس : كتاب الترياق . القاهرة ، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية ، ١٩٥٣ .
- ١١- بيدبا/ ابن المقفع : كليله ودمنة . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٤١ .
- ١٢- ثروت عكاشة : فن الواسطي من خلال مقامات الحريري . أثر إسلامي مصوّر . القاهرة ، دار الشروق ، ١٩٩٢ .
- ١٣- ثروت عكاشة : معراج نامه ؛ أثر إسلامي مصوّر . القاهرة ، دار المستقبل العربي ، ١٩٨٧ .
- ١٤- ثروت عكاشة : التصوير الإسلامي الديني والعربي ، سلسلة العين تسمع والأذن ترى . بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٨ .
- ١٥- ثروت عكاشة : التصوير الإسلامي الفارسي والتركي ، سلسلة العين تسمع والأذن ترى . بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٣ .
- ١٦- ثروت عكاشة : التصوير الإسلامي المغولي في الهند ، سلسلة العين تسمع والأذن ترى . القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٥ .
- ١٧- الثعالبي ، أبو منصور عبد الملك : لطائف المعارف .
- ١٨- الثعلبي النيسابوري ، أبو إسحاق أحمد : قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس . القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٥٢ .
- ١٩- الجاحظ : كتاب المحاسن ، جزء أوّل .
- ٢٠- جمال محرز : موقف اليهودية من التصوير وعلاقته بالإسلام . القاهرة ، مجلة كلية الآداب ، العدد الثامن ، المجلد الثاني ، ديسمبر ١٩٤٦ .
- ٢١- جمال محرز : من التصوير المملوكي . القاهرة ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد السابع ، الجزء الثاني ، نوفمبر ١٩٦١ .
- ٢٢- حسن الباشا : التصوير الإسلامي في العصور الوسطى ، ١٩٥٩ .
- ٢٣- حسين مؤنس : عالم الإسلام . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٣ .
- ٢٤- دائرة المعارف الإسلامية .
- ٢٥- دولت شاه : تذكرة الشعراء .
- ٢٦- رشيد الدين ، فضل الله : جامع التواريخ (عن طبعة كاترمير) ، راجعه وقدم له يحيى الخشاب . القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية .
- ٢٧- رشيد رضا : تاريخ الشيخ محمد عبده ، المجلد الثاني . القاهرة ، مطبعة المنار .
- ٢٨- زكي محمد حسن : فنون الإسلام ، ١٩٤٨ .

- ٢٩- زكي محمد حسن : الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي، ١٩٤٠.
- ٣٠- زكي محمد حسن : مدرسة بغداد في التصوير الإسلامي. القاهرة، مجلة سومر، المجلد ١١، الجزء الأول، ١٩٥٥.
- ٣١- زكي محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية. بغداد، مطبوعات كلية الآداب والعلوم، ١٩٥٦.
- ٣٢- زكي محمد حسن : حول وحدة الفن في عصور التاريخ العربي. القاهرة، مجلة كلية الآداب، المجلد ١، عدد ٨ مايو ١٩٤٦.
- ٣٣- زكي محمد حسن : الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي، ١٩٤٠.
- ٣٤- سعدي الشيرازي : بوستان، ترجمة محمد موسى هنداوي. القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية.
- ٣٥- عبد المنعم محمد حسنين : نظامي الكنجوي. القاهرة، مطبعة الخانجي، ١٩٥٤.
- ٣٦- الفردوسي : الشاهنامه، ترجمة البنداري، تحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام. القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٣٢.
- ٣٧- فريد الدين العطار : تذكرة الأولياء.
- ٣٨- القزويني : عجائب المخلوقات.
- ٣٩- القلقشندي : صبح الأعشى، جزء ثالث.
- ٤٠- الكندي : الولاة والقضاء في مصر.
- ٤١- كونل، إرنست : الفن الإسلامي، ترجمة أحمد موسى.
- ٤٢- مجلة الهداية. الجزآن السادس والسابع، السنة الثانية، يونيه ويوليه، ١٩١١.
- ٤٣- محمد عبد السلام كفاقي : جلال الدين الرومي في حياته وشعره. بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٧١.
- ٤٤- محمد مصطفى : مجلة المجمع العلمي المصري. القاهرة، المجلد ٥١، دورة ١٩٦٩/١٩٧٠.
- ٤٥- محمد مصطفى : صور من مدرسة بهزاد في المجموعة الفنية، بالقاهرة. سلسلة الينبوع الفضي، وزارة الثقافة المصرية.
- ٤٦- المسعودي : مروج الذهب، جزء أول وثامن.
- ٤٧- المقدسي : أحسن التقاسيم، جزء ثالث.
- ٤٨- المقرئ : نفح الطيب، الجزء الأول والثاني.
- ٤٩- المقرئ : الخطط، جزء أول وثان.
- ٥٠- ناصر خسرو : سفر نامه، نقلها إلى العربية يحيى الخشاب. بيروت، دار الكتاب الجديد.
- ٥١- ياقوت : معجم البلدان، جزء أول ورابع.

شَبَتِ المَخْطُوطَاتُ

- ١- ابن بختيشوع، أبو سعيد : منافع الحيوان، مراغة، ١٢٩٤ - ١٢٩٩، مكتبة بيربونت، مورجان بنيويورك.
- ٢- ابن حسام : خارنامه، ١٤٧٦-١٤٨٧، متحف الفنون الزخرفية بطهران.
- ٣- ابن حسام : خارنامه، شيراز، ١٤٨٠، متحف الفنون الزخرفية بطهران.
- ٤- ابن حسام : حمزه نامه، ١٥٧٥، متحف المتروبوليتان بنيويورك.
- ٥- أبو الحسن بن بطلان : دعوة الأطباء، ١٢٧٣م، مكتبة الأمبروزيانو بميلانو.
- ٦- أبو سليمان المقدسي وغيره: رسائل إخوان الصفا، ١٢٨٧م، متحف طوب قابو بإستنبول.
- ٧- أبو المعالي محمد بن عبيد الله: بيان الأديان، ١٠٩٢م.
- ٨- أبو الوفا بشر بن فاتك : مختار الحكم ومحاسن الكلم، ١٢٠٠ - ١٢٥٠م، متحف طوب قابو بإستنبول.
- ٩- أحمد فريدون باشا : سفر سكتوار، ١٥٦٨ - ١٥٦٩، متحف طوب قابو بإستنبول.
- ١٠- أحمد فريدون باشا : نزهة الأسرار والأخبار، سفر سكتوار، ١٥٦٨ - ١٥٦٩، متحف طوب قابو بإستنبول.
- ١١- أحمد المصري : قانون الدنيا وعجائبها، ١٥٦٣، متحف طوب قابو بإستنبول.
- ١٢- أحمد نور بن مصطفى : سير النبي، ثلاثة أجزاء، ١٥٩٤م، متحف طوب قابو بإستنبول.
- ١٣- أحمد نور بن مصطفى : سير النبي، متحف طوب قابو بإستنبول، ١٥٩٤.
- ١٤- الأحنف، أحمد بن الحسين: كتاب البيطرة، ١٢٠٩م، بدار الكتب المصرية.
- ١٥- الأحنف، أحمد بن الحسين: كتاب البيطرة، ١٢١٠م، متحف طوب قابو بإستنبول.
- ١٦- الإصفهاني، أبو الفرج : الأغاني، ١٢٠٢ - ١٢٢٨، مكتبة فيض الله بإستنبول.
- ١٧- الإصفهاني، أبو الفرج : الأغاني، صدر القرن ١٣، المكتبة الملكية بكونينهاجن.
- ١٨- الإصفهاني، أبو الفرج : الأغاني، الأجزاء ٢، ٤، ٥، ١١، دار الكتب المصرية، ١٢١٧م.
- ١٩- بهرام ميرزا : مرقعة بهرام ميرزا، ١٥٤٤م، بمتحف طوب قابو بإستنبول، رقم خزينة ٢١٥٤.
- ٢٠- بيدبا/ ابن المقفع : كليلة ودمنة، ١٤٣٠م، بمتحف طوب قابو بإستنبول، رقم ١٠٢٢.
- ٢١- بيدبا/ ابن المقفع : كليلة ودمنة، ١٣٤٤م، بدار الكتب المصرية.
- ٢٢- بيدبا/ ابن المقفع : كليلة ودمنة، دار الكتب القومية بباريس، ١٢٢٠ - ١٢٣٠.
- ٢٣- بيدبا/ ابن المقفع : كليلة ودمنة، رقم ٣٤٦٧، عام ١٣٢٥ - ١٣٥٠م، دار الكتب القومية بباريس.
- ٢٤- بيدبا/ ابن المقفع : كليلة ودمنة، سوريا، ١٣٥٤، المكتبة البودلية بأكسفورد.
- ٢٥- بيدبا/ ابن المقفع : كليلة ودمنة، القرن ١٤، دار الكتب القومية بباريس.
- ٢٦- بيدبا/ ابن المقفع : كليلة ودمنة، ١٣٦٠ - ١٣٧٤، مكتبة الجامعة بإستنبول.
- ٢٧- بيدبا/ ابن المقفع : كليلة ودمنة، ١٣٤٧، المكتبة العامة بإستنبول.
- ٢٨- بيدبا/ ابن المقفع : ديوان السلطان أحمد، بغداد، ١٤٠٥، فريدي جاليري بواشنطن.
- ٢٩- البيروني : الآثار الباقية، ١٣٠٧م، مجموعة تشستر بيتي بدبلن.
- ٣٠- البيروني : الآثار الباقية، ١٣٠٧، مكتبة جامعة أدنبره.
- ٣١- التبريزي، أحمد عصار : مخطوطة مهرومشتري، بدار الكتب المصرية، رقم ١٦٩ م أدب فارسي.
- ٣٢- التبريزي، أحمد عصار : مخطوطة مهرومشتري، بدار الكتب المصرية، رقم ١٧٠ م أدب فارسي.
- ٣٣- تعليقي زاده : قيافة الإنسانية في الشرائع العثمانية، مستهل القرن ١٧، متحف طوب قابو بإستنبول.
- ٣٤- جاجرني، محمد بدر : مؤنس الأحرار، شيراز، ١٣٤١.
- ٣٥- الجاحظ : الحيوان، ١٢٢٥ - ١٣٥٠م، مكتبة الأمبروزيانو بميلانو.

- ٣٦- جالينوس : الترياق، ١١٩٩م، دار الكتب القومية بباريس، رقم ٢٩٦٤.
- ٣٧- جالينوس : الترياق، الموصل، منتصف القرن ١٣، دار الكتب القومية بفيينا.
- ٣٨- جامي، نور الدين : هفت أورانج، ١٥٥٦ - ١٥٦٥، فريز جاليري بواشنطن.
- ٣٩- جامي، نور الدين : مسيحة الأبرار، شيراز، ١٥٦٢، دار الكتب المصرية.
- ٤٠- جامي، نور الدين : يوسف وزليخا، بدار الكتب المصرية، ١٥٣٣، رقم ٤٥م أدب فارسي.
- ٤١- جامي، نور الدين : يوسف وزليخا، ١٥٣٣م، بدار الكتب المصرية.
- ٤٢- جامي، نور الدين : خمسة، عام ١٥٧٠م، بمتحف طوب قابو بإستنبول، رقم خزينة ١٤٨٣.
- ٤٣- جامي، نور الدين : مسيحة الأبرار، بدار الكتب المصرية، رقم ١٠٥ أدب فارسي.
- ٤٤- جامي، نور الدين : نفحات الأنس، المتحف البريطاني.
- ٤٥- الجزري، أبو العز : الجامع بين العلم والعمل في الحيل، ١٢٠٥، متحف طوب قابو بإستنبول.
- ٤٦- الجزري، أبو العز : الجامع بين العلم والعمل في الحيل، ١٣١٥، متحف المتروبوليتان.
- ٤٧- الجزري، أبو العز : الجامع بين العلم والعمل في الحيل، ١٢٥٤م، متحف طوب قابو بإستنبول.
- ٤٨- الجزري، أبو العز : الجامع بين العلم والعمل في الحيل، ١٣٥٤، متحف بوسطن للفنون الجميلة.
- ٤٩- جلال الدين الرومي : مثنوي، متحف الفن الإسلامي بالقاهرة.
- ٥٠- حافظ أبرو : ديوان حافظ، بدار الكتب المصرية، مستهل القرن ١٥.
- ٥١- حافظ أبرو : كليات حافظ، بمتحف طوب قابو بإستنبول، رقم ٢٨٢.
- ٥٢- الحريري، أبو القاسم : مقامات الحريري، ١٢٢٢م، رقم ٦٠٩٤، دار الكتب القومية بباريس.
- ٥٣- الحريري، أبو القاسم : مقامات الحريري، ١٢٢٢م، رقم ٣٩٢٩، دار الكتب القومية بباريس.
- ٥٤- الحريري، أبو القاسم : مقامات الحريري، [شيفر] ١٢٣٧م، رقم ٥٨٤٧، دار الكتب القومية بباريس [تصوير يحيى الواسطي].
- ٥٥- الحريري، أبو القاسم : مقامات الحريري، ١٢٢٥ - ١٢٣٥، معهد الدراسات الشرقية، سان بطرسبرج.
- ٥٦- الحريري، أبو القاسم : مقامات الحريري، ١٣٧٧م، رقم ٤٨٥، المكتبة البودلية بأكسفورد.
- ٥٧- الحريري، أبو القاسم : مقامات الحريري، ١٣٠٠م، رقم ٢٢١١٤، المتحف البريطاني.
- ٥٨- الحريري، أبو القاسم : مقامات الحريري، رقم ١٢٠٠، المتحف البريطاني.
- ٥٩- الحريري، أبو القاسم : مقامات الحريري، ١٣٣٤م، دار الكتب القومية بفيينا.
- ٦٠- خسرو دهلوي الأمير : خمسة، بدار الكتب المصرية، رقم ١٤٤ أدب فارسي.
- ٦١- خسرو دهلوي الأمير : قران السعدين، ١٥١٥م، بمتحف طوب قابو بإستنبول، رقم خزينة ٨٧١.
- ٦٢- خواجو كرماني : همايون، النصف الثاني من القرن ١٥، بمتحف طوب قابو بإستنبول.
- ٦٣- خواجو كرماني : خواجو كرماني، ١٣٩٦، بالمتحف البريطاني.
- ٦٤- خوندامير : تاريخ خوندامير، دار الكتب القومية بباريس.
- ٦٥- ديوسقوريدس : الحشائش وخواص العقاقير، ١٢٢٤، متحف المتروبوليتان.
- ٦٦- ديوسقوريدس : الحشائش وخواص العقاقير، ١٢٢٩، متحف طوب قابو بإستنبول.
- ٦٧- رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ، تبريز، ١٣١٠م، بالمتحف البريطاني.
- ٦٨- رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ، هراة، ١٤٢٥، دار الكتب القومية بباريس.
- ٦٩- رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ، ١٤٣٥ - ١٤٤٠، بدار الكتب القومية بباريس، رقم فارسي ١١١٣.
- ٧٠- رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ، متحف طوب قابو بإستنبول.
- ٧١- سعدي الشيرازي : جلستان، ١٤٢٧، مكتبة تشستر بيتي ببلن.
- ٧٢- سعدي الشيرازي : جلستان «روضة الورد»، بدار الكتب المصرية، مستهل القرن ١٧، رقم ١١م أدب فارسي.
- ٧٣- سعدي الشيرازي : بستان، هراة، ١٤٨٨، دار الكتب المصرية.
- ٧٤- سعدي الشيرازي : جلستان، تصوير مسكين.
- ٧٥- سعدي الشيرازي : بستان سعدي، دار الكتب المصرية.
- ٧٦- سعدي الشيرازي : جلستان سعدي، دار الكتب المصرية.
- ٧٧- السمرقندي : مطلع السعدين، ١٦٠١، متحف الفن الإسلامي بالقاهرة.
- ٧٨- شرف الدين علي يزدي : ظفرنامه، تبريز، ١٥٢٩، مكتبة قصر جلستان بطهران.

- ٧٩- شكري الكردي : سليم نامہ، ١٢٢٠ - ١٢٢٥، متحف طوب قابو بإستنبول.
- ٨٠- الصوفي عبد الرحمن : صور الكواكب الثابتة، رقم ٨٣١م، دار الكتب المصرية.
- ٨١- الصوفي عبد الرحمن : الصور بمعرفة الكواكب ومواقعها في الفلك، وذكر أطوالها وعروضها في البروج والدقائق، ٩٦٥م، متحف طوب قابو بإستنبول.
- ٨٢- الصوفي عبد الرحمن : صور الكواكب الثابتة، ١٠٠٩، المكتبة البودلية بأكسفورد.
- ٨٣- عالي المؤرخ : نصرت نامہ [كتاب النصر]، ١٥٨٤، متحف طوب قابو بإستنبول.
- ٨٤- العطار، فريد الدين : منطق الطير، هراة، ١٤٨٣م، بمتحف المتروپوليتان، منسوبة إلى بهزاد.
- ٨٥- العطار، فريد الدين : منطق الطير، إصفهان، ١٦٠٩م، بمتحف المتروپوليتان.
- ٨٦- العطار، فريد الدين : منطق الطير، بدار الكتب القومية بباريس.
- ٨٧- العطار، فريد الدين : منطق الطير، المتحف البريطاني.
- ٨٨- علاء الدين عبد الله البهائي الغزولي: مطالع البدور في منازل السرور، جزء ثان. القاهرة، دار الكتب المصرية.
- ٨٩- الفردوسي : شاهنامه ديموط، تبريز، ١٣٣٠ - ١٣٣٥، متحف طوب قابو بإستنبول.
- ٩٠- الفردوسي : شاهنامه شيراز، ١٣٧٠، متحف طوب قابو بإستنبول.
- ٩١- الفردوسي : شاهنامه تبريز، ١٣٧٠م، متحف طوب قابو بإستنبول.
- ٩٢- الفردوسي : شاهنامه القاهرة، ١٣٩٣، بدار الكتب المصرية.
- ٩٣- الفردوسي : شاهنامه السلطان إبراهيم، شيراز، ١٤٣٥، المكتبة البودلية بأكسفورد.
- ٩٤- الفردوسي : شاهنامه شيراز، ١٤٤٠، متحف الفن بكليفلاند.
- ٩٥- الفردوسي : شاهنامه بايسنقر، ١٤٣٩، بمكتبة قصر جلستان بطهران.
- ٩٦- الفردوسي : الشاهنامه، رقم الخزانة ١٥١٢، بمتحف طوب قابو بإستنبول.
- ٩٧- الفردوسي : شاهنامه، مستهل القرن ١٧، متحف طوب قابو سراي.
- ٩٨- الفردوسي : الشاهنامه، ١٦١٤، المكتبة العامة بنيويورك.
- ٩٩- الفردوسي : شاهنامه، ديموط، تبريز، ١٣٣٠، المتحف البريطاني.
- ١٠٠- الفردوسي : شاهنامه ديموط، تبريز، ١٣٣٠، متحف تشستر بيتي بدبلن.
- ١٠١- الفردوسي : شاهنامه طهماسب، إصفهان، ١٥٢٢ - ١٥٢٨، متحف المتروپوليتان بنيويورك.
- ١٠٢- القزويني، زكريا : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، ١٢٨٠، مكتبة الدولة ببافاريا، ميونخ.
- ١٠٣- القزويني، زكريا : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، ١٣٧٠ - ١٣٨٠، فريز جاليري بواشنطن.
- ١٠٤- القزويني، زكريا : عجائب المخلوقات غرائب الموجودات، ١٣٧٥ - ١٤٢٥، المتحف البريطاني.
- ١٠٥- القزويني، زكريا : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، بغداد ١٣٨٨، دار الكتب القومية بباريس.
- ١٠٦- القزويني، زكريا : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، هراة، ١٥٦٧، دار الكتب المصرية.
- ١٠٧- قلندر باشا : فالنامه، متحف طوب قابو بإستنبول.
- ١٠٨- قلندر باشا : فالنامه، مطلع القرن ١٧، متحف طوب قابو سراي بإستنبول.
- ١٠٩- كبار فناني السراي : سورنامه، رسالة حفلات ختان ولي العهد، ١٥٨٢، متحف طوب قابو بإستنبول.
- ١١٠- كتب للسلطان مراد الثالث : زبدة التواريخ، ١٥٨٣، متحف الفن الإسلامي بإستنبول.
- ١١١- كوكا : كوماسوترا: شريعة اللذة، دار الكتب المصرية.
- ١١٢- لقمان (الشاعر) : شاهنامه مراد الثالث، ١٥٨٥، متحف طوب قابو بإستنبول.
- ١١٣- لقمان (الشاعر) : هونرنامه، المجلدان الأول والثاني، ١٥٨٤م، متحف طوب قابو بإستنبول.
- ١١٤- ميرخوند : روضة الصفا، ١٦٠٦م، القاهرة، متحف الفن الإسلامي.
- ١١٥- مير علي شيرنوائي : ديوان نوائي، هراة، ١٥٢٦، دار الكتب القومية بباريس.
- ١١٦- مير علي شيرنوائي : ديوان نوائي، ١٤٧٢م، بدار الكتب المصرية.
- ١١٧- مير علي شيرنوائي : خمسة نوائي، هراة، ١٤٧٤، المكتبة البودلية بأكسفورد.
- ١١٨- مير علي شيرنوائي : سبعة سيارة [الكواكب السبعة]، بخارى، ١٥٥٣، المكتبة البودلية بأكسفورد.
- ١١٩- مير علي شيرنوائي : حيرة الأبرار، المكتبة البودلية بأكسفورد.
- ١٢٠- مير علي شيرنوائي : الأعمال الكاملة لمير علي شيرنوائي، دار الكتب القومية بباريس.
- ١٢١- مير علي شيرنوائي : لسان الطير، دار الكتب القومية بباريس.

- ١٢٢- نادري : ديوان نادري، مستهل القرن ١٧، متحف طوب قابو بإستنبول.
- ١٢٣- نصوح الصلاحي مطرقي: وصف مراحل حملة السلطان سليمان في العراقين العربي والفارسي، ١٥٣، مكتب الجامعة بإستنبول.
- ١٢٤- نصوح الصلاحي مطرقي: سليمان نامه، ١٥٥٨، متحف طوب قابو بإستنبول.
- ١٢٥- نظامي الكنجوي : خمسة، ليلي والمجنون، إصفهان، ١٦١١ - ١٦١٢، متحف سالارجانج، حيدر آباد.
- ١٢٦- نظامي الكنجوي : خمسة، ليلي والمجنون، هراة، ١٤٣١، متحف الإرميتاج، سان بطرسبرج.
- ١٢٧- نظامي الكنجوي : خمسة، ليلي والمجنون، هراة، ١٤٨١ - ١٤٨٢، مكتبة سالتيكوف تشدرين، سان بطرسبرج.
- ١٢٨- نظامي الكنجوي : خمسة، ليلي والمجنون، كابل، ١٦٦٢ - ١٦٦٣، المتحف القومي بدلهي.
- ١٢٩- نظامي الكنجوي : خمسة، ليلي والمجنون، شيراز، ١٥٠٧ - ١٥٠٨، مكتبة سالتيكوف تشدرين، سان بطرسبرج.
- ١٣٠- نظامي الكنجوي : خمسة، ليلي والمجنون، هراة، ١٤٤٥ - ١٤٤٦، المتحف البريطاني.
- ١٣١- نظامي الكنجوي : خمسة، هفت پيكر، هراة، ١٤٤٢، المتحف البريطاني.
- ١٣٢- نظامي الكنجوي : خمسة، هفت پيكر، بخارى، ١٥٧٨ - ١٥٧٩، مكتبة سالتيكوف تشدرين، سان بطرسبرج.
- ١٣٣- نظامي الكنجوي : خمسة، هفت پيكر، إصفهان، ١٦٣١ - ١٦٣٢، متحف فكتوريا بكلكتا.
- ١٣٤- نظامي الكنجوي : خمسة، هفت پيكر، بخارى، ١٥٦٣ - ١٥٦٤، متحف فكتوريا بكلكتا.
- ١٣٥- نظامي الكنجوي : خمسة، هفت پيكر، بخارى، ١٦٤٨، مكتبة سالتيكوف تشدرين، سان بطرسبرج.
- ١٣٦- نظامي الكنجوي : خمسة، هفت پيكر، شيراز، ١٤٩١، مكتبة سالتيكوف تشدرين، سان بطرسبرج.
- ١٣٧- نظامي الكنجوي : خمسة، هفت پيكر، تبريز، ١٤٨١، متحف طوب قابو بإستنبول.
- ١٣٨- نظامي الكنجوي : خمسة، هفت پيكر، شيراز، ١٥٠٧ - ١٥٠٨، مكتبة سالتيكوف تشدرين، سان بطرسبرج.
- ١٣٩- نظامي الكنجوي : خمسة نظامي، هراة، ١٤٩٤، المكتبة البودلية بأسفورد.
- ١٤٠- نظامي الكنجوي : خمسة نظامي، تبريز، ١٥٤٠، متحف فوج للفنون بجامعة هارفارد.
- ١٤١- نظامي الكنجوي : خمسة، خسرو وشيرين، إصفهان، ١٦٣١ - ١٦٣٢، مكتبة فكتوريا بكلكتا.
- ١٤٢- نظامي الكنجوي : خمسة، خسرو وشيرين، بخارى، ١٥٧٨ - ١٥٧٩، مكتبة سالتيكوف تشدرين، سان بطرسبرج.
- ١٤٣- نظامي الكنجوي : خمسة، خسرو وشيرين، إصفهان، ١٥٠٣ - ١٥٠٤، مكتبة فكتوريا بكلكتا.
- ١٤٤- نظامي الكنجوي : خمسة، خسرو وشيرين، بخارى، ١٦٤٨، مكتبة سالتيكوف تشدرين، سان بطرسبرج.
- ١٤٥- نظامي الكنجوي : خمسة، خسرو وشيرين، شيراز، ١٤٩١، مكتبة سالتيكوف تشدرين، سان بطرسبرج.
- ١٤٦- نظامي الكنجوي : خمسة، خسرو وشيرين، بخارى، ١٥٧٨ - ١٥٧٩، مكتبة سالتيكوف تشدرين، سان بطرسبرج.
- ١٤٧- نظامي الكنجوي : خمسة، خسرو وشيرين، هراة، ١٤٩٤ - ١٤٩٥، المتحف البريطاني.
- ١٤٨- نظامي الكنجوي : خمسة، خسرو وشيرين، هراة، ١٤٨١ - ١٤٨٢، مكتبة سالتيكوف تشدرين، سان بطرسبرج.
- ١٤٩- نظامي الكنجوي : خمسة، إسكندر نامه، هراة، ١٤٤٢، المتحف البريطاني.
- ١٥٠- نظامي الكنجوي : خمسة، إسكندر نامه، هراة، ١٤٣١، مكتبة الإرميتاج، سان بطرسبرج.
- ١٥١- نظامي الكنجوي : خمسة، إسكندر نامه، شيراز، ١٤٩١، مكتبة سالتيكوف تشدرين، سان بطرسبرج.
- ١٥٢- نظامي الكنجوي : خمسة، إسكندر نامه، هراة، ١٤٧٥ - ١٤٨٠، مكتبة سالتيكوف تشدرين، سان بطرسبرج.
- ١٥٣- نظامي الكنجوي : خمسة، إسكندر نامه، إصفهان، ١٤٨٥، مكتبة خوده بكشي، پاتنا بالهند.
- ١٥٤- نظامي الكنجوي : خمسة، إسكندر نامه، بخارى، ١٦٤٨، مكتبة سالتيكوف تشدرين، سان بطرسبرج.
- ١٥٥- نظامي الكنجوي : خمسة، خسرو وشيرين، المتحف الملكي بأدنبه.
- ١٥٦- نظامي الكنجوي : خمسة نظامي، ١٤٤٥، المتحف البريطاني.
- ١٥٧- نظامي الكنجوي : خمسة نظامي، ١٤٨١م، متحف طوب قابو بإستنبول، رقم خزينة ٧٦٢.
- ١٥٨- نظامي الكنجوي : خمسة نظامي، ١٤٤٥م، متحف طوب قابو بإستنبول، رقم خزينة ٧٨٦.
- ١٥٩- نظامي الكنجوي : خمسة نظامي، ١٤٤٦م، متحف طوب قابو بإستنبول، رقم خزينة ٧٨٦.
- ١٦٠- نظامي الكنجوي : خمسة نظامي، ١٥٣٩ - ١٥٤٣.
- ١٦١- نظامي الكنجوي : خمسة نظامي، ١٩٤٥، المتحف البريطاني، رقم شرقي ٦٨١٠.
- ١٦٢- نظامي الكنجوي : خمسة نظامي، ١٤٩٥م، المتحف البريطاني.
- ١٦٣- نظامي الكنجوي : مسبحة الأبرار من مخطوطة هفت أورانج، ١٥٦٢م، دار الكتب المصرية.
- ١٦٤- نظامي الكنجوي : خمسة نظامي، ١٦١٤، المكتبة البريطانية بلندن.

- ١٦٥- نظامي الكنجوي : خمسة، خسرو وشيرين، ١٧٢٢ - ١٧٢٣، المتحف القومي بدلهي.
- ١٦٦- نظامي الكنجوي : خمسة، هفت پيكر، كابل، ١٦٦٢ - ١٦٦٣، المتحف القومي بدلهي.
- ١٦٧- النيسابوري : قصص الأنبياء، دار الكتب القومية بباريس.
- ١٦٨- نيساري : شاهنامه إكري فتح نامه، مستهل القرن ١٧، متحف طوب قابو بإستنبول.
- ١٦٩- وهي، حسين : سورنامه وهي، ١٧٢٠م، متحف طوب قابو بإستنبول.
- ١٧٠- تعليم فنون القتال والفروسية، القرن ١٦، متحف الفن الإسلامي بالقاهرة. ومجموعة دكتور إدموند دي أونجر بلندن.
- ١٧١- بياض ورياض، القرن الثالث عشر، مكتبة الفاتيكان.
- ١٧٢- حمزة نامه، ١٥٧٥، متحف المتروبوليتان، بنيويورك.
- ١٧٣- البيطرة، ١٢٠٩، دار الكتب المصرية.
- ١٧٤- البيطرة، ١٢١٠، متحف طوب قابو بإستنبول.
- ١٧٥- الشطرنج لمؤلف مجهول، ١٢٨٣، الأندلس، مكتبة الإسكوريال.
- ١٧٦- مصحف أرغون شاه، ١٢٤٩، دار الكتب المصرية.
- ١٧٧- مصحف عثمانى، ١٨٦٩، دار الكتب المصرية.
- ١٧٨- مجموعة أشعار، يزد قرب شيراز، ١٤٧٠، متحف طوب قابو بإستنبول.
- ١٧٩- ديوان شعر، شيراز، ١٤١٠، مؤسسة جوليكنيان بلشبونة.
- ١٨٠- شاهنامه چوكي، ١٨٤٤م، بالمتحف البريطاني.
- ١٨١- شاهنشاهنامه، ١٣٩٧م، بالمتحف البريطاني.
- ١٨٢- ديوان قصائد الشعراء السبعة، ١٣٩٨م، بمتحف الفن الإسلامي والتركي بإستنبول، رقم ١٩٥٠م.
- ١٨٣- مجموعة أشعار، ١٤٠٧م، بمتحف طوب قابو بإستنبول، رقم خزينة ٧٩٦.
- ١٨٤- زبدة التواريخ، ١٥٨٣م، متحف الفن الإسلامي بإستنبول.
- ١٨٥- مجموعة الصور الفارسية والهندية، القرن ١٦ - ١٨، دار الكتب القومية بباريس.
- ١٨٦- الإنجيل القبطي، ١١٨٠م، دار الكتب القومية بباريس، رقم ١٣ قبطي.
- ١٨٧- ربعات أولچايتو، دار الكتب المصرية، ١٣٤٩م.
- ١٨٨- مصحف السلطان شعبان، دار الكتب المصرية، ١٣٦٩م.
- ١٨٩- مصحف مكتوب بقلم مغربي على ورق غزال، ١٣٩٩م، دار الكتب المصرية.
- ١٩٠- مصحف السلطان المؤيد، ١٤١٧م، دار الكتب المصرية.
- ١٩١- مصحف مكتوب بقلم مغربي، ١٧٢٩م، دار الكتب المصرية.
- ١٩٢- أكبر نامه، ١٥٩٠، متحف فكتوريا وألبرت بلندن.
- ١٩٣- توني نامه، ١٥٨٠، مكتبة تشستر بيتي بدبلن.
- ١٩٤- كتاب جيتا جوفندا، مدرسة جوجرات، ١٦٠٠، بومباي.
- ١٩٥- كتاب رame كالا راجيني، المدرسة الدكنية، حيدر آباد، ١٧٤٠، متحف نلسون آتكز بمدينة كانساس.
- ١٩٦- بهاجافات پورانا، مدرسة ميوار، ١٦٨٠، بفارس.
- ١٩٧- راجه مالا، مدرسة ميوار، ١٦٦٠، المتحف القومي بنودلهي.
- ١٩٨- جيتا جوفندا، باشوهلي، ١٧٣٠، مجموعة خاصة.
- ١٩٩- الرامايانه، مدرسة باشوهلي، ١٧٥٠، متحف جوجرات.
- ٢٠٠- الرامايانه، كولو، ١٥٨٧ - ١٥٩٨، تصوير مشفق.
- ٢٠١- بهاجافاتا پورانا، مدرسة باهاري، كانجرا، المتحف القومي بنودلهي.
- ٢٠٢- جيتا جوفندا، مدرسة كانجرا، ١٧٧٥.
- ٢٠٣- فاسانت فيلازا، أسلوب هندوكي أو چايني، ١٤٥١، أحمد آباد.
- ٢٠٤- بابرنامه، ١٥٢٦، المتحف القومي بنودلهي.
- ٢٠٥- حمزة نامه، ١٥٦٧ - ١٥٨٢، متحف الفنون التطبيقية بفيينا.
- ٢٠٦- حمزة نامه، ١٥٦٢ - ١٥٧٧، فريز جاليري بواشنطن.
- ٢٠٧- ديوان حافظ أبرو، ١٥٩٠، فريز جاليري بواشنطن.
- ٢٠٨- رزم نامه، ١٥٨٠، فريز جاليري بواشنطن.

شَبَتِ المَرَا جِعُ الأَجَنِبِيَّةِ

- Aga Oglu, M.: **The landscape miniatures of an anthology manuscript of the year 1398.** Ars Islamica III, 1936.
- Akurgal, Ekrem, Mangu, Cyril and Ettinghausen, Richard.: **Les Trésors de Turquie.** Skira, 1966.
- Arié, Rachel: **Miniatures Hispano Musulmanes.** Leiden, E. Brill, 1969.
- Arnold, Thomas: **Painting in Islam.** Dover Publications, New York 1965.
- Arnold, Thomas: **Survival of Sassanian and Manichaen art in Persian Painting.**
- Arnold, Thomas: **Old and New Testaments in Muslim Religious art.**
- Arnold, Thomas and Wilkinson, J.V.S.: **The Library of Chester Beatty: A Catalogue of Indian Miniature.** London 1936.
- Barrett, Douglas and Gray, Basil: **Painting of India,** Skira, 1963.
- Barrett, Douglas: **Persian Painting of the 14th Century.**
- Baute, J: **Indian Miniature Paintings 1590-1850.** Salarie Saundarya Lahari.
- Beach, Milo Cleveland: **The Grand Mugul Imperial Painting in India 1600-1660.** Sterling Francine Clark Institute 1978.
- Beach, Milo Cleveland: **The Imperial Image Paintings for the Mughal Court.** Freer Gallery of Art. Washington 1981.
- Binyon, L.; Wilkinson, J.V.S and Gray, B.: **Persian Miniature Painting.** Oxford, 1933.
- Bloch, Edgar: **Les Enluminures des Manuscrits Orientaux de la Bibliothèque Nationale,** Paris 1926.
- Brown, Percy: **Indian Paintings under the Mughals. AD. 1550 to AD 1950.** Oxford, The Clarendon Press, 1924.
- Buchta, Hugo: **Hellenistic miniatures in early Islamic manuscripts,** Ars Islamica, Vol. 7, 1940.
- Buchta, Hugo: **Early Islamic miniatures from Baghdad.** The Journal of the Walters Art Gallery, Vol. 5, 1942.
- Buchta, Hugo: **Three illustrated Hariri Manuscripts in the British Museum.** The Burlington Magazine, Vol. 77.
- Busagli, Mario: **Chinese painting.** Paul Hamlyn. London 1969.
- Cahill, James: **Chinese Painting.** Skira.
- Chandra, P: **The Technique of Mughal Painting.** Lucknow, 1946.
- Chardin: **Voyages du Chevalier Chardin en Perse et autres lieux de l'Orient,** ed. L. Langlès, Paris, 1811.
- Coomaraswamy, Ananda, K: **Catalogue of the Indian Collections in the Museum of Fine Arts, Boston.** Part VI. Mughal Painting. Harvard University Press. Cambridge. Mass, 1930.
- Day, Florence: **Mesopotamian Manuscripts of Dioscorides.** Bulletin of the Metropolitan Museum. Vol. 8.
- Diehl: **Manuel d'art Byzantin,** Vol. 2.
- Dimand, Maurice: **Persian miniatures.** The Folio art books. Office Press. Milan.
- D'Ohson, M.: **Tableau Général de l'empire Othoman,** Vol. 4. Paris, 1921.
- Ettinghausen, Richard: **Arab Painting.** Skira, 1962.

- Ettinghausen, Richard: **Painting of the Sultans and Emperors of India in American collections**. Lalit Kala Akademi. India, 1961.
- Ettinghausen, Richard: **The Unicorn**. Freer Gallery Art occasional papers. Vol. I, no. 3. Washington 1953.
- Folk, Toby: **Indian Miniatures in the India Office Library**. Sotheby Parke Bernet. London 1981.
- Folk, Toby: **Indian Painting, Mughal and Rajput and a Sultanate Manuscript**. P & D Colnaghi & Co. Ltd. London 1978.
- Gascoigne, Bamber: **The Great Moghuls**. B.I. Publications NewDelhi, 1971.
- Gibb, Hamilton: **Arab Byzantine relations under the Umayyad Caliphate**. Dumbarton Oaks papers, No. 12.
- Gibb, Hamilton: **History of Ottoman Poetry**. Vol. I.
- Godard, André: **The Art of Iran**. London, George Allen, 1962.
- Godard, Yedda A.: **L'Imamzade Zaid d'Isfahan, un édifice décoré de peintures religieuses musulmanes**. Athar-e Iran, Tome II, 1937.
- Goetz, H.: **Indian Painting in the muslim Period**. Journal of the Indian Society of Oriental art. Calcutta 1947.
- Goswamy, B.N.: **Essence of Indian Art**. Catalogue of the exhibition in San Francisco and Paris.
- Graber, Oleg: **The Painting of the six kings at Qusayr Amrah**. Ars Orientalis, Vol. I.
- Graber, Oleg: **The Omayyad Dome of the Rock in Jerusalem**. Ars Orientalis, Vol. 3.
- Gray, Basil: **The Arts of India**. Cornell University Press. Ithaca, Newyork 1981.
- Gray, Basil: **Painting. The Art of India and Pakistan**. London 1950.
- Gray, Basil: **Persian Painting**. Skira 1961.
- Gray, Basil: **Some Chinoiserie drawings and their origin**. Forschungen zur Kunst Asiens Istanbul 1970.
- Gray, Basil: **Persian miniatures**. Mentor Books. Unesco art books. 1962.
- Grube, Ernst and Lubens, Mary: **The Language of Birds**. Bulletin of the Metropolitan Museum of Art. May 1967.
- Grube, Ernst: **The World of Islam**. Paul Hamlyn, London. 1967.
- Grube, Ernst: **Muslim Miniature Paintings from the XIII to XIX century**. Neri Pozza Editore. Venezia, 1962.
- Guillaume, A: **The Influence of Judaism on Islam: (The Legacy of Israel)**. Oxford, 1927.
- Hajek, Tubor: **Indian Miniatures of the Moghul School**. Spring books. London 1960.
- Hamilton, R.W: **Khirbat al Mafjar**. Oxford, 1959.
- Heyd, W.: **Histoire du commerce du Levant au moyen âge**. Vol. I. Leipzig, 1923.
- Huyghe, René: **Dialogue avec le visible**. Flammarion.
- Ibn Batoutah: **Voyages d'Ibn Batoutah**, (Texte Arabe accompagné d'une traduction), Société Asiatique.
- Khuallar, G.D.: **Indian Painting**. R and K publishing House. New Delhi, 1967.
- Kitzinger, Ernst: **Early Medieval art**. Trustees of the British Museum, 1969.
- Krishna dasa, Rai: **Mughal Miniatures**, Lalit Kala Adademi. India 1955.
- Krishna dasa, Rai: **Indian Miniatures**, Souvenir Press London. 1965.
- Kuhnel, E. and Goetz, H: **Indian Book Painting**. London 1926.
- Lammens, H.: **L'attitude de l'Islam primitif en face des arts figurés**.
- Leach, Linda York: **Indian Miniatures. Paintings and Drawings**. The Cleveland Museum of Art, 1986.
- Le Strange, G. (Edit.): **Don Juan of Persia, A Shi'ah Catholic (1560-1604)**, The Broadway Travellers, George, Routledge 1926.
- Lillys, William; Reiff, Robert and Esin, Emel: **Oriental Miniatures, Persian, Indian and Turkish**, Souvenir Press, London, 1965.

- Lorey, Eustache de: **La peinture musulmane de l'école de Baghdad**. Gazette des Beaux-Arts, Vol. 10.
- Losty, Jermiah, P.: **The Art of the Book in India**. The British Library 1988.
- Martin, Fredrik: **The Miniature painting and painters of Persia, India and Turkey, from the eighth to the eighteenth century**. London, 1912.
- Massignon L.: **Les Méthodes de Réalisation Artistique des Peuples de l'Islam, Syria II**, 1921.
- Mazaheri. A: **Les Trésors de L'Iran**. Skira 1970.
- Okeasha, Sarwat: **The Muslim Painter and the Divine. The Perian Impact on Islamic Religious Painting**. Rainbird Publishing. Group. Park Lane Publishing Press. London 1981.
- Ostrogorsky, G: **History of Byzantine State**. Translated by J. Hussey. Blackwell, Oxford.
- Owens, Meredith: **Persian Illustrated manuscripts**. Trustees of the British Museum, 1965.
- Owens, Meredith: **Turkish miniatures**. Trustees of the British Museum, 1963.
- Pinder-Wilson, Ralph: **Bihzad. Vol. II of the Encyclopedia Universale dell'Arte**. Rome, 1960.
- Qadi Ahmad, Son of Mir-Munshi (1606): **Calligraphers and Painters**, Translated by V. Minor sky, Freer Gallery of Art Occasional Papers, Washington 1959.
- Rice, David Talbot: **Islamic Painting**. Edinburgh University Press, 1971.
- Robinson, B.W.: **Persian Miniature Painting**. London, 1967.
- Rogers T.M.: **The Genesis of Safawid Religious Paintings, Iran**, Journal of the British Institute of Persian Studies, Vol. 8, 1970.
- Rostowtzeff: **Dura Europos and its arts**. Oxford, 1938.
- Rice, D.S.: **The Aghani Miniatures and religious painting in Islam**. The Burlington Magazine, Vol. 95.
- Rice, D.T.: **Islamic painting, a survey**. Edinburgh University Press, 1971.
- Salman, Isa: **Islam and figurative art**. Sumer, Vol. XXV, 1969, No. 1,2.
- Sauvaget, J.: **Remarques sur les monuments omeyyades**. Journal Asiatique, Vol. 231.
- Schlumberger, Daniel: **Deux Fresques omeyyades, Syria**. Vol. 25.
- Schtoukine, Ivan: **Les peintures du Shah-nameh Demotte**, Arts Asiatiques V (2) 1958.
- Schtoukine, Ivan: **La peinture iranienne sous les derniers Abbasides et les Ilkhans**. Bruges 1936.
- Schtoukine, Ivan: **Les peintures des manuscrits Timurides**. Paris, 1954.
- Schtoukine, Ivan: **Les peintures de manuscrits Safavis de 1502 à 1587**. Paris, 1959.
- Schtoukine, Ivan: **Les peintures de Shah Abbas 1er à la fin de Safavis**. Paris, Librairie Paul Gouthner, 1946.
- Schtoukine, Ivan: **La peinture Turque, de Sulayman 1er à Osman II**. Paris, 1966.
- Schtoukine, Ivan: **La peinture Turque d'Osman II à Ahmed III**. Institut Français d'Archéologie. Beirut. Pais, 1972.
- Smart, Ellen, Walker, Daniel: **Pride of the Princes. Indian Art of the Mughal Era**. The Cincinnati Art Museum 1985.
- Sourdel, D. Et J.: **La civilisation de l'Islam**. Arthaud, 1968.
- Villard, Ugs: Monneret de: **Le pitture musulmane al soffitts della Cappella Palatina in Palermos**. Rome, 1950.
- Welch, S.C.: **A Flower From Every Meadow**. New York, 1973.
- Welch, S.C.: **Imperial Mughal Painting**. George Braziller. New York, 1978.
- Wensinck, A. T.: **Handbood of Early Mohammadan Tradition**. Leiden, Brill, 1927.
- Wensinck, A.J.: **The Second Commandement**. Amsterdam, 1925.
- Wiet, Gaston et L. Hautcoeur: **Les mosquées du Caire**. Paris, Librairie Ernst Leroux, 1932.
- Zaki Hassan: **The Attitude of Islam towards painting**. Bulletin of the Faculty of Arts, Fouad I University. Vol. I, July 1944.

شَبَت بَبِلْيُوجَرَا فِي

● موسوعة تاريخ الفن: العين تسمع والأذن ترى (*)

- ١- الفن المصري: العمارة دراسة. طبعة أولى ١٩٧١
طبعة ثالثة ١٩٩٨
- ٢- الفن المصري: النحت والتصوير دراسة. طبعة أولى ١٩٧٢
طبعة ثانية ١٩٩٨
- ٣- الفن المصري القديم: الفن السكندري والقبطي دراسة. طبعة أولى ١٩٧٦، طبعة ثالثة ١٩٩٩
- ٤- الفن العراقي القديم دراسة. طبعة أولى ١٩٧٤
- ٥- التصوير الإسلامي الديني والعربي دراسة. طبعة أولى ١٩٧٨
- ٦- التصوير الإسلامي الفارسي والتركي دراسة. طبعة أولى ١٩٨٣
- ٧- الفن الإغريقي دراسة. طبعة أولى ١٩٨١
طبعة ثانية ١٩٩٩
- ٨- الفن الفارسي القديم دراسة. طبعة أولى ١٩٨٩
- ٩- فنون عصر النهضة [الرنيسانس والباروك] دراسة. طبعة أولى ١٩٨٨
- ١٠- فنون عصر النهضة «الرنيسانس» دراسة. طبعة ثانية فاخرة ١٩٩٦
- ١١- فنون عصر النهضة «الباروك» دراسة. طبعة ثانية فاخرة ١٩٩٧
- ١٢- فنون عصر النهضة «الروكوكو» دراسة. طبعة أولى فاخرة ١٩٩٨
- ١٣- الفن الروماني دراسة. طبعة أولى ١٩٩١
- ١٤- الفن البيزنطي دراسة. طبعة أولى ١٩٩٢
- ١٥- فنون العصور الوسطى دراسة. طبعة أولى ١٩٩٢
- ١٦- التصوير المغولي الإسلامي في الهند دراسة. طبعة أولى ١٩٩١
- ١٧- الزمن ونسيج النغم (من نشر أبوللو إلى تورانجاليا) دراسة. طبعة أولى ١٩٨٠
طبعة ثانية ١٩٩٦
- ١٨- القيم الجمالية في العمارة الإسلامية دراسة. طبعة أولى ١٩٨١
طبعة ثانية ١٩٩١
- ١٩- الإغريق بين الأسطورة والإبداع دراسة. طبعة أولى ١٩٧٨
طبعة ثانية ١٩٩٢
- ٢٠- ميكلانجلو دراسة. طبعة أولى ١٩٨٠
- ٢١- فن الواسطي من خلال مقامات الحريري [أثر إسلامي مصور]

- دراسة وتحقيق. طبعة أولى ١٩٧٤، طبعة ثانية ١٩٩٢
- ٢٢- معراج نامه [أثر إسلامي مصور] دراسة وتحقيق. طبعة أولى ١٩٨٧
- أعمال الشاعر أوفيد
- ٢٣- ميتامورفوزيس [مسخ الكائنات] ترجمة. طبعة أولى ١٩٧١
طبعة رابعة ١٩٩٧
- مكتبة الأسرة - طبعة خامسة ١٩٩٧
- ٢٤- آراس أماتوريا [فن الهوى] ترجمة. طبعة أولى ١٩٧٣
طبعة رابعة ١٩٩٩
- أعمال جبران خليل جبران
- ٢٥- النبي: ترجمة. طبعة أولى ١٩٥٩
طبعة تاسعة ١٩٩٨
- ٢٦- حديقة النبي: ترجمة. طبعة أولى ١٩٦٠، طبعة ثامنة ١٩٩٨
- ٢٧- عيسى ابن الإنسان: ترجمة. طبعة أولى ١٩٦٢
طبعة خامسة ١٩٩٨
- ٢٨- رمل وزيد: ترجمة. طبعة أولى ١٩٦٣
طبعة خامسة ١٩٩٨
- ٢٩- أرباب الأرض: ترجمة. طبعة أولى ١٩٦٥
طبعة رابعة ١٩٩٨
- ٣٠- روائع جبران خليل جبران، الأعمال المتكاملة ترجمة. طبعة أولى ١٩٨٠، طبعة ثانية ١٩٩٠
- أعمال أخرى
- ٣١- كتاب المعارف لابن قتيبة دراسة وتحقيق. طبعة أولى ١٩٦٠
طبعة سادسة ١٩٩٢
- ٣٢- مولع بفاجنر: لبرنارد شو ترجمة. طبعة أولى ١٩٦٥
طبعة ثانية ١٩٩٢
- ٣٣- مولع حذر بفاجنر دراسة نقدية. طبعة أولى ١٩٧٥
طبعة ثالثة ١٩٩٣
- ٣٤- المسرح المصري القديم: لإتتين دريوتون ترجمة. طبعة أولى ١٩٧٦، طبعة ثانية ١٩٨٩

December 1976.

Problématique de la Figuration dans l'art Islamique. - La *
Figuration Sacrée. - La Figuration Profane. - Plastique et
Musique dans l'Art pharaonique. - Wagnre enter la théorie et
P'application.

سلسلة محاضرات ألفت بالكوليج ده فرانس بباريس خلال شهري يناير
ومارس ١٩٧٣.

Annuaire du Collège de France, 73e Année, Paris 11,
Place Marcelin-Berthelot 1973.

***- المشاكل المعاصرة للفنون العربية.** مؤتمر منظمة اليونسكو المنعقد
بمدينة الحمامات. تونس ١٩٧٤.

***- حرية الفنان.** نشر بمجلة عالم الفكر. المجلد الرابع يناير ١٩٧٤.
الكويت.

***- رعاية الدولة للثقافة والفنون.** محاضرة ألفت بنادي الجسرة الثقافي
بالدوحة (دولة قطر) فبراير ١٩٨٩.

***- إطلالة على التصوير الإسلامي:** العربي والفارسي والتركي
والمغولي. محاضرة ألفت بالمجمع الثقافي. أبو ظبي أبريل ١٩٩١.

***- سبيل إلى تعميم مدن التكنولوجيا «تكنوبوليس» في العالم العربي.**
بحث مقدّم إلى «ندوة العالم العربي أمام التحدي العلمي
والتكنولوجي». معهد العالم العربي بباريس. يونية ١٩٩٠.

***- الدولة والثقافة.** وجهة نظر من خلال التجربة. محاضرة ألفت بندوة
الثقافة والعلوم بدبي. نوفمبر ١٩٩٣.

***- التصوير الإسلامي بين الإباحة والتحریم.** بحث أُلقي في الدورة
العاشرة لمؤتمر المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بعمّان
الأردن في المدة من ٥ إلى ٧ يولية ١٩٩٥.

***- تساؤلات حول هوية التصاوير الجدارية في پايستوم.** بحث ألقى في
مؤتمر «مصر في إيطاليا منذ القدم حتى العصور الوسطى» المنعقد
بروما في المدة من ١٣ إلى ١٩ نوفمبر ١٩٩٥.

***- الفن والحياة.** محاضرة ألفت ببهو قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة
القاهرة في ٦ مارس ١٩٩٦، ثم في المجمع الثقافي. أبو ظبي.
أبريل ١٩٩٦.

***- فنون عصر النهضة.** محاضرة ألفت بمركز تكنولوجيا المعلومات
للحفاظ على التراث التابع للمركز الإقليمي لتكنولوجيا المعلومات
وهندسة البرامج. القاهرة. مارس ١٩٩٧.

***- التطهر النفسي من خلال الفن.** محاضرة ألفت بدعوة من مجلة الطب
النفسي [محاضرة عكاشة] بفندق مريديان القاهرة. يولية ١٩٩٧.

***- طراز الباروك.** محاضرة ألفت بالمجمع الثقافي. أبو ظبي. نوفمبر
١٩٩٧.

٣٥- إنسان العصر يتوّج رمسيس تأليف. طبعة أولى ١٩٧١

٣٦- فرنسا والفرنسيون على لسان الرائد طومسون لبيير داتينوس
ترجمة. طبعة أولى ١٩٦٤ طبعة ثانية ١٩٨٩

٣٧- إعصار من الشرق أو جنكيز خان تأليف. طبعة أولى ١٩٥٢
طبعة خامسة ١٩٩٢

٣٨- العودة إلى الإيمان: لهنري لنك ترجمة. طبعة أولى ١٩٥٠
طبعة رابعة ١٩٩٦

٣٩- السيد آدم: لبات فرانك ترجمة. طبعة أولى ١٩٤٨
طبعة ثانية ١٩٦٥

٤٠- سروال القس: لثورن سميت ترجمة. طبعة أولى ١٩٥٢
طبعة ثانية ١٩٧٦

٤١- الحرب الميكانيكية: للجنرال فولر ترجمة. طبعة أولى ١٩٤٢
طبعة ثانية ١٩٥٢

٤٢- قائد البانزر: للجنرال جوديريان ترجمة. طبعة أولى ١٩٦٠
تأليف. طبعة أولى ١٩٥١

٤٣- حرب التحرير بالمشاركة. طبعة ثانية ١٩٦٧
٤٤- تربية الطفل من الوجهة النفسية ترجمة. طبعة أولى ١٩٤٤
بالمشاركة.

٤٥- علم النفس في خدمتك ترجمة بالمشاركة.
طبعة أولى ١٩٤٥

٤٦- مصر في عيون الغرباء من الرحالة والفنانين والأدباء (١٨٠٠ -
١٩٠٠) دراسة. طبعة أولى ١٩٨٤ طبعة ثانية ١٩٩٨

٤٧- مذكراتي في السياسة والثقافة تأليف. طبعة أولى ١٩٨٨
طبعة ثالثة ١٩٩٨

٤٨- المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية
إعداد وتحرير. طبعة أولى ١٩٩٠ [إنجليزي - فرنسي - عربي]
٤٩- موسوعة التصوير الإسلامي دراسة. طبعة أولى ١٩٩٩

بالفرنسية

٥٠- Ramsès Re-Couronné: Hommage Vivant au Pharaon Mort, 1974.
"UNESCO"

بالإنجليزية

٥١- In The Minds of Men. Protection and Development of
Mankind's Cultural Heritage "UNESCO" 1972.

٥٢- The Muslim Painter the and Divine. The Persian Impact on
Islamic Religious Painting. Rainbird Publishing Group, Park
Lane Publishing Press. London 1981.

٥٣- The Miraj-Nameh: A Masterpiece of Islamic Painting.
Pyramid Studies and other Essays presented to. I.E.S.
Edwards. The Egypt Exploration Society. London 1988.

أبحاث

٥٤- The Portrayal of the Prophet, The Times Literary Supplement *

المحتويات

الفصل السابع: مصاعب دراسة التصوير الإسلامي .. ٥٤
غزوات جنكيزخان وهولاكو وتيمورلنك المخربة ٥٤؛ تخريب المنشئدين
للائثار المصورة ٥٥؛ التعرف على تاريخ الصورة ٥٥.

الفصل الثامن: مكانة المصور المسلم في المجتمع ٥٧
رعاية الحكام للمصورين ٥٧؛ مهز المصورين لبلوحيهم ٥٨؛ المؤرخ
إسكندر منشي ٥٩؛ المصور أفا رضا ٦٠؛ رضا عباسي ٦٠؛ المصور محمد
زمان ٦٠؛ خوندامير ٦١.

الباب الثاني: التصوير العربي

الفصل التاسع: فجر التصوير الإسلامي ٦٥
قبة الصخرة ٦٥؛ المسجد الأموي بدمشق ٦٦؛ قصير عمرة ٦٨؛ قصر
الخير الغربي ٧٠؛ خزنة البقمير ٧١.

الفصل العاشر: مدرسة بغداد ٧٢
عهد العباسيين ومباحج البلاط ٧٢؛ صور كنيسة كابيلا بالانينا بباليرمو
المستوحاة من فن مدينة سامرا والقرن الفاطمي ٧٤؛ نشأة التصوير الإسلامي
بالمخطوطات في أوائل العصر العباسي ٧٥؛ تسمية مدرسة التصوير بالعراق
٧٥؛ مراكز تصوير المخطوطات العربية ٧٦؛ كتاب «صور الكواكب الثابتة»
لعبد الرحمن الصوفي (١٠٠٩م). المكتبة البوذية بأوكسفورد ٧٧؛ كتاب
«الصور بمعرف الكواكب ومواقعها في الفلك وذكر أطوالها وعروضها في
البروج والدقائق» لأبي الحسين الصوفي، عبد الرحمن بن عمر الزاوي.
مصحف طوب قابو باستنبول ٧٧.

الفصل الحادي عشر: الواقعية في التصوير الإسلامي من
القرن العاشر حتى الثالث عشر ٧٩
صعوبة تصنيف المخطوطات ٨٠.

الفصل الثاني عشر: الأثر الفارسي في فن البلاط ... ٨١
كيلة ودمية ١٢٢٠ - ١٢٣٠م. سوريا. دار الكتب القومية بباريس ٨١؛
«كتاب الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني ١٢١٧م. دار الكتب المصرية ٨٢؛
كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني. مكتبة فيض الله باستنبول ٨٢؛
«كتاب الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني. المكتبة الملكية بكونهاجن ٨٤؛
كتاب «الزرباق» لسيوي جالينوس. الموصل ١١٩٩م. دار الكتب القومية
بباريس ٨٤؛ كتاب «الزرباق» لسيوي جالينوس. الموصل. منتصف القرن
الثالث عشر. دار الكتب القومية بفيينا ٨٤.

الفصل الثالث عشر: الفن البيزنطي في كنف الإسلام ٨٦

إهداء ك

شكر م

توطئة ف

الباب الأول: التصوير الإسلامي

الفصل الأول: التصوير بين الجواز والحظر ٣
فنون الجزيرة العربية قبل الإسلام ٣؛ التصوير الإسلامي بين الإباحة
والتحريم ٤؛ التحريم في «العهد القديم» ٨؛ الصلة بين حركة تخطيط
الصور المقدسة المسيحية (الأيقونات) والتحريم في الإسلام ٩.

الفصل الثاني: ملامح التصوير الإسلامي مع اختلاف

الزمان والمكان ١١

النحت في عهود الإسلام الأولى ١١؛ فنون الزخرفة الإسلامية ١٢؛ خيال
الظل ١٣؛ فن التصوير بين أهل السنة والشيعة ١٣؛ التصوير الجداري في
الإسلام ١٥؛ التصوير الليني على ألبسة الرخالة المسلمين والأوربيين ١٧؛
التصوير نزع من نزعات النفس لا يخضع لتشريع يغاليها وتغاليه ١٩.

الفصل الثالث: سمات التصوير الإسلامي ٢٤

الفصل الرابع: مدارس التصوير الإسلامي ٢٨
التصوير العربي ٢٨؛ التصوير الفارسي ٢٩؛ التصوير المغولي بالهند ٣٠؛
التصوير التركي ٣٢.

الفصل الخامس: مصادر التصوير الإسلامي ٣٤

التأثير الفني لمدينة حران ٣٦؛ تأثير السلاجقة ٣٦؛ التأثير الفني الماني
٣٧؛ التأثير الفني الساساني الفارسي ٣٨؛ التأثير الفني للصين وأواسط آسيا
٣٩.

الفصل السادس: موضوعات التصوير الإسلامي ٤١

تصاوير الكتب العلمية ٤١؛ كتب الآليات المتحركة «الأوتوماتا» ٤١؛ كتب
طبائع الحيوان المرموز بها ٤٢؛ كتاب كيلة ودمية ٤٣؛ «مقامات الحريري»
لأبي القاسم بن علي الحريري (١٠٥٤ - ١١٢٢) ٤٣؛ الشاهنامة ٤٥؛
مخطوطات خمسة للشاعر نظامي الكنجوي ١١٤٤ - ١٢١١ ٤٦؛ «بستان»
سعدى الشيرازي (١١٨٩ - ١٢٩١) ٤٧؛ ديوان حافظ الشيرازي ١٣٢٠ -
١٣٨٩ ٤٧؛ «نفحات الأنس» لعبد الرحمن جامي (١٤١٤ - ١٤٩٢) ٤٧؛
كتاب «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» ٤٧؛ كتب العشق ٤٨؛
صور الحمامات ٤٨؛ صور الغلمان ٥٠؛ البورتريهات الإسلامية ٥٠.

تَقْوِيعُ الْفَنِّ الْبِزَنْطِي لِلطَّائِعِ الْعَرَبِيِّ ٨٦؛ كِتَابُ الْخَشَائِشِ وَخَوَاصِّ الْعَقَاقِيرِ لِدْيوسقوريدس. ١٢٢٩م. مَكْتَبَةُ طُوبِ قَاهِرَ بِاسْتَنْبُولِ ٨٦؛ «كِتَابُ مُخْتَارِ الْحِكْمِ وَمَحَامِينِ الْكَلِمِ» لِأَبِي الْوَفَاءِ مُبَشَّرِ بْنِ فَاتِكِ الْمُسْتَنْصِرِيِّ الْقَائِدِ، ١٢٠٠ - ١٢٥٠. مَتَخَفُ طُوبِ قَاهِرَ بِاسْتَنْبُولِ ٨٧.

الفصل الرابع عشر: مقامات الحريري في التصوير

الإسلامي ٩٠

المَقَامَةُ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ ٩٠؛ مَخْطُوطَاتُ مَقَامَاتِ الْخَرِيرِيِّ ٩٠؛ مَخْطُوطَةُ مَقَامَاتِ الْخَرِيرِيِّ ١٢٢٢م. دَارُ الْكُتُبِ الْقَوِيَّةِ بِپَارِيسِ تَحْتَ رَقْمِ ٦٠٩٤؛ مَوْجَةُ الْاهْتِمَامِ بِتَصْوِيرِ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ ٩٣؛ مَخْطُوطَةُ «مَقَامَاتِ الْخَرِيرِيِّ» ١٢٢٢م. دَارُ الْكُتُبِ الْقَوِيَّةِ بِپَارِيسِ تَحْتَ رَقْمِ ٣٩٢٩؛ الْمَصُورُ يَحْيَى الْوَاسِطِيُّ ٩٥؛ مَقَامَاتُ الْخَرِيرِيِّ ١٢٣٧م. «مَخْطُوطَةُ الْوَاسِطِيِّ». دَارُ الْكُتُبِ الْقَوِيَّةِ بِپَارِيسِ تَحْتَ رَقْمِ ٥٨٤٧ ٩٦؛ مَقَامَاتُ الْخَرِيرِيِّ ١٢٢٥ - ١٢٣٥ (مَخْطُوطَةُ سَانَ بَطْرُسْبِرْج). مَعْهَدُ الدِّرَاسَاتِ الشَّرْقِيَّةِ بِأَكَادِمِيَّةِ الْعُلُومِ. سَانَ بَطْرُسْبِرْجِ ١٠٠.

الفصل الخامس عشر: تألف الحضارات في التصوير

العربي ١٠٥

كِتَابُ «الْحَشَائِشِ وَخَوَاصِّ الْعَقَاقِيرِ» لِدْيوسقوريدس ١٢٢٤م. مَتَخَفُ الْمَتْرُوبُولِيَانِ بِنِيُورِكِ ١٠٥؛ كِتَابُ التَّرِّيَاقِ لِسَمِيِّ جَالِينُوسِ ١١٩٩م. دَارُ الْكُتُبِ الْقَوِيَّةِ بِپَارِيسِ تَحْتَ رَقْمِ ٢٩٦٤. نِهَآيَةُ الْقُرْنِ ١٢ ١٠٦؛ «كِتَابُ الْجَامِعِ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ فِي الْجَيْلِ» لِلْجَزْرِيِّ. ١٣١٥م. مَتَخَفُ الْمَتْرُوبُولِيَانِ ١٠٧؛ «كِتَابُ الْجَامِعِ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ فِي الْجَيْلِ» لِلْجَزْرِيِّ ١٢٠٥م. مَتَخَفُ طُوبِ قَاهِرَ بِاسْتَنْبُولِ ١٠٨؛ «كِتَابُ الْجَامِعِ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ فِي الْجَيْلِ» لِلْجَزْرِيِّ ١٣٥٤م. مَتَخَفُ الْفُنُونِ الْجَمِيلَةِ بِبُوسْطَنِ ١٠٨؛ «كِتَابُ الْبَيْطَرَةِ» ١٢٠٩م. دَارُ الْكُتُبِ الْمُصَرِّئَةِ ١٠٨؛ كِتَابُ الْبَيْطَرَةِ ١٢١٠م. مَتَخَفُ طُوبِ قَاهِرَ بِاسْتَنْبُولِ ١٠٩؛ رَسَائِلُ إِخْوَانِ الصِّفَا وَخِلَآنِ الْوَفَا ١٢٨٧م. مَكْتَبَةُ جَامِعِ السُّلَيْمَانِيَّةِ بِاسْتَنْبُولِ ١٠٩.

الفصل السادس عشر: التصوير في الأندلس ١١١

تَصَاوِيرُ جِدَارِيَّةٍ بِأَحَدِ مَنَازِلِ الْبِرْطَلِ. قَصْرُ الْحَمْرَاءِ. غِرْنَاطَةُ. الْقُرْنِ ١٤ ١١١؛ «بَيَاضُ وَرِيَاضِ». الْقُرْنِ الثَّالِثُ عَشَرَ. مَكْتَبَةُ الْفَاتِيكَانِ ١١٢؛ كِتَابُ «الشُّطْرُنْجِ» لِمُؤَلَّفٍ مَجْهُولٍ ١٢٨٣م. ١١٣.

الفصل السابع عشر: بداية النهاية: الغزو المغولي .. ١١٥

مَنَافِعُ الْخَيَوَانِ ١٢٩٤ - ١٢٩٩م لِأَبِي سَعِيدِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ بَخْتِشُوعٍ. مَكْتَبَةُ پِپِيرِبُونْتِ مَورْجَانِ بِنِيُورِكِ ١١٥؛ كِتَابُ «عَجَائِبِ الْمَخْلُوقَاتِ وَغَرَائِبِ الْمَوْجُودَاتِ» لِلْفَرُوزِيِّ ١٢٨٠م - مَكْتَبَةُ الدَّوْلَةِ بِبَاغَرِيَا، مِيُونِخِ ١١٦.

الفصل الثامن عشر: الفن المملوكي ١٢٥٠-١٣٩٠ ١١٨

ذَعْوَةُ الْأَطْيَافِ ١٢٧٣م لِابْنِ بُلْطَانَ. مَكْتَبَةُ أَمْبُرُوزِيَانَا بِمِيلَانُو ١١٩؛ مَقَامَاتُ الْخَرِيرِيِّ ١٣٧٧م. الْمَكْتَبَةُ الْبُودَلِيَّةُ بِأُوكْسُفُورْدِ تَحْتَ رَقْمِ ٤٨٥ ١١٩؛ مَقَامَاتُ الْخَرِيرِيِّ. نُسخَةُ الْمُتَخَفِ الْبَرِيطَانِيِّ، خَوَالِي سَنَةِ ١٣٠٠م: تَحْتَ رَقْمِ ٢٢١١٤ ١٢٠؛ مَقَامَاتُ الْخَرِيرِيِّ ١٣٠٠م. الْمُتَخَفُ الْبَرِيطَانِيُّ تَحْتَ رَقْمِ ١٢٠ ١٢١؛ مَقَامَاتُ الْخَرِيرِيِّ ١٣٣٤م. دَارُ الْكُتُبِ الْقَوِيَّةِ بِبِيسِنَا ١٢١؛ كَلِيلَةُ وَدْمَنَةِ. الْقُرْنِ الرَّابِعُ عَشَرَ. دَارُ الْكُتُبِ الْقَوِيَّةِ بِپَارِيسِ تَحْتَ رَقْمِ ٣٤٦٧ ١٢٣؛ كَلِيلَةُ وَدْمَنَةِ ١٣٥٤م. الْمَكْتَبَةُ الْبُودَلِيَّةُ بِأُوكْسُفُورْدِ ١٢٤؛

كِتَابُ تَعْلِيمِ فُنُونِ الْقِتَالِ وَالْفُرُوسِيَّةِ ١٢٤؛ كِتَابُ الْخَيَوَانِ لِلْجَاحِظِ. الْقُرْنِ الرَّابِعُ عَشَرَ. مَكْتَبَةُ أَمْبُرُوزِيَانَا بِمِيلَانُو ١٢٤.

الفصل التاسع عشر: الوُضْعَةُ الْآخِرَةُ:

بعد عالم ١٣٥٠ ١٢٦

«كِتَابُ عَجَائِبِ الْمَخْلُوقَاتِ وَغَرَائِبِ الْمَوْجُودَاتِ» لِلْفَرُوزِيِّ ١٣٧٠ - ١٣٨٠م. فَرِيرِ جَالِيرِي لِلْفُنُونِ بِوَاشَنْطُنِ ١٢٦؛ قَانُونُ الدُّنْيَا وَعَجَائِبُهَا ١٥٦٣م. لِلشَّيْخِ أَحْمَدَ الْمَصْرِيِّ. مَتَخَفُ طُوبِ قَاهِرَ بِاسْتَنْبُولِ ١٢٦.

الفصل العشرون: ترقين المصاحف من أواخر القرن

التاسع إلى القرن الثامن عشر ١٢٨

رَبْعَاتُ أُولُجَايَتُو ١٣١٣م. دَارُ الْكُتُبِ الْمُصَرِّئَةِ ١٢٩؛ مُصَخَّفُ أَرْغُونِ شَاهِ ١٢٤٩م. دَارُ الْكُتُبِ الْمُصَرِّئَةِ ١٢٩؛ مُصَخَّفُ السُّلْطَانِ شُعْبَانَ ١٣٦٩م. دَارُ الْكُتُبِ الْمُصَرِّئَةِ ١٢٩؛ مُصَخَّفُ مَكْتُوبِ بَقْلَمِ مَغْرِبِيِّ عَلَى رِقِّ غَزَالِ ١٣٩٩م. دَارُ الْكُتُبِ الْمُصَرِّئَةِ ١٢٩؛ مُصَخَّفُ السُّلْطَانِ الْمُؤَيَّدِ ١٤١٧م. دَارُ الْكُتُبِ الْمُصَرِّئَةِ ١٣٠؛ مُصَخَّفُ بَقْلَمِ مَثْرَبِيِّ ١٧٢٩م. دَارُ الْكُتُبِ الْمُصَرِّئَةِ ١٣٠؛ مُصَخَّفُ عُثْمَانِيَّ ١٨٦٩م. دَارُ الْكُتُبِ الْمُصَرِّئَةِ ١٣٠.

الباب الثالث: التصوير الفارسي

الفصل الحادي والعشرون: توطئة ١٣٥

سِمَاتُ التَّصْوِيرِ الْفَارْسِيِّ ١٣٥؛ الشَّاعِرِيَّةُ فِي التَّصْوِيرِ الْفَارْسِيِّ ١٣٦؛ الْمُصَوِّرَاتُ الرُّخْزِيَّةُ الْإِنْصَاحِيَّةُ ١٣٧؛ الثَّلَوَيْنِ فِي التَّصْوِيرِ الْفَارْسِيِّ ١٣٨؛ صَفَلُ الْمُتَمَنِّمَاتِ ١٣٩؛ الرُّوحَانِيَّةُ فِي التَّصْوِيرِ الْفَارْسِيِّ ١٣٩؛ عِلَاقَةُ التَّصْوِيرِ الْفَارْسِيِّ بِالشَّعْرِ ١٣٩؛ التَّغْيِيرُ عَنِ الْإِنْعِلَاقَاتِ ١٤٠.

الفصل الثاني والعشرون: التصوير الفارسي في

عهد الإيلخانات المغول ١٤١

التَّصْوِيرُ الصَّيْنِيُّ ١٤١؛ كِتَابُ «مَنَافِعِ الْحَيَوَانِ»، مَرَاغَةُ ١٢٩٤ - ١٢٩٩م. مَكْتَبَةُ پِپِيرِبُونْتِ مَورْجَانِ، نِيُورِكِ ١٤٦؛ «جَامِعُ التَّوَارِيخِ» لِزُشِيدِ الدِّدِينِ ١٣١٠م. جَايَعَةُ أَدْنَبَرِهْ وَالْمَتَخَفُ الْبَرِيطَانِيُّ ١٤٧؛ كِتَابُ «الْأَنَارُ الْبَاقِيَّةُ» لِلْبِيرُونِيِّ ١٣٠٧م. أَدْنَبَرِهْ ١٥٠؛ شَاهَنَامَةُ تَبْرِيزِ الْمُظْفَمِيِّ، «دِيمُوطُ»، ١٣٣٠م - ١٣٣٦م ١٥٠؛ الْمُؤَرِّخُ دُوسْتِ مُحَمَّدٍ، وَالْمُصَوِّرُ أَحْمَدُ مُوسَى ١٥٣؛ أَحْمَدُ مُوسَى، وَمُرْقَعَةُ بَهْرَامِ مِيرَزَا ١٥٤؛ «كَلِيلَةُ وَدْمَنَةِ» لِأَحْمَدِ مُوسَى، عَامَ ١٣٤٧م ١٥٤؛ كَلِيلَةُ وَدْمَنَةِ، ١٣٤٤م ١٥٦؛ شَاهَنَامَةُ تَبْرِيزِ، ١٣٧٠م ١٥٧؛ الْأَسْرَةُ الْجَلَايَرِيَّةُ: السُّلْطَانُ أُويسَ وَعَبْدُ الْحَيِّ وَشَمْسُ الدِّدِينِ مُصَوِّرُو الْعَهْدِ ١٥٨؛ عَجَائِبُ الْمَخْلُوقَاتِ، ١٣١٨م، بَغْدَادُ ١٥٨؛ دِيَوَانُ قَصَائِدِ خَوَاجُو كَرْمَانِي، ١٣٩٦م. الْمُتَخَفُ الْبَرِيطَانِيُّ ١٥٨؛ الرُّخَاوَرُ الْهَامِشِيَّةُ بِرِيْشَةِ جَنِيدِ فِي دِيَوَانِ السُّلْطَانِ أَحْمَدَ. فَرِيرِ جَالِيرِي بِوَاشَنْطُنِ ١٥٩؛ أَصْحَابُ الْخُرُوفِ الْأَسْوَدِ ١٥٩؛ شِيرَازُ فِي الْقُرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ ١٦٠؛ أَسْرَةُ إِنْجُو ١٦٠؛ شَاهَنَامَةُ ١٣٧٠م. عَهْدُ بَنِي مُظْفَرٍ، «شِيرَازُ» مَتَخَفُ طُوبِ قَاهِرَ بِاسْتَنْبُولِ ١٦١؛ مَوْزِنُ الْأَخْرَارِ (مُتَقَطَّعَاتُ عِلْمِيَّةٍ) بِقَلَمِ مُحَمَّدِ بَذَرِ جَاجَرْنِي. شِيرَازُ ١٣٤١م. مَتَخَفُ كَلِيْشَلَانْدِ لِلْفُنُونِ ١٦٢.

الفصل الثالث والعشرون: التصوير الفارسي في

عهد التيموريين ١٦٣

أَوَّلًا: الْعَصْرُ التِّيمُورِيُّ الْأَوَّلُ (١٤٠٠ - ١٤٥٠) ١٦٣؛ أَفْوَلُ التَّأْثِيرِ الصَّيْنِيِّ

١٦٤: التَّصْوِيرُ فِي مُسْتَهْلَ الْعَهْدِ التَّيْمُورِيِّ ١٦٤؛ تَيْمُورْلُوكَ ١٦٤؛ الرُّسُومُ
الْجِدَارِيَّةُ فِي عَهْدِ تَيْمُور ١٦٥؛ شَاهَنَامَهُ ١٣٩٧، الْمُتَخَفُ الْبَرِيطَانِيَّ
١٦٥؛ شَاهَنَامَةُ الْقَاهِرَةِ، ١٣٩٣ م. دَارُ الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ ١٦٦؛ دِيَوَانُ قَصَائِدِ
الشُّعْرَاءِ السَّبْعَةِ، ١٣٩٨ م، مَتْخَفُ الْفُنُونِ التُّرْكِيَّةِ وَالْإِسْلَامِيَّةِ بِإِسْتَنْبُولِ ١٦٦؛
دِيَوَانُ الشُّعْرِ الْمُعَدَّنَانِ لِإِسْكَنْدَرِ ١٦٨؛ مَخْطُوطَةٌ مَجْمُوعَةٌ أَشْعَارُ، ١٤٠٧ م
١٦٩؛ كَلِيلَةُ وَدِئْمَةٌ، مَكْتَبَةُ طُوبِ قَاهِرَ بِإِسْتَنْبُولِ، ١٤٣٠ م ١٧٠؛ شَاهُ رُخْ
١٧٠؛ دِيَوَانُ «كَلِيلَاتِ حَافِظٍ» لِحَافِظِ أَبْرُو، بِدَايَةِ الْقَرْنِ الْخَامِسِ عَشَرَ ١٧١؛
جَامِعُ التَّوَارِيخِ، ١٤٢٥ ١٧١؛ مَكْتَبَةُ بَايَسَنْقَرُ وَكِتَابُ «جُلَسْتَان» لِسَعْدِي،
١٤٢٧ م ١٧٢؛ شَاهَنَامَةُ بَايَسَنْقَرُ. هَرَاةُ ١٤٣٩ م ١٧٤؛ كَلِيلَةُ وَدِئْمَةٌ،
١٤٣٠ م، مَتْخَفُ طُوبِ قَاهِرَ بِإِسْتَنْبُولِ ١٨٠؛ شَاهَنَامَةُ مُحَمَّدُ جُوكِي،
١٤٤٠ م ١٨١؛ خُمُسُهُ نِظَامِي. مَتْظُومَةُ «لَيْلَى وَالْمَجْنُونِ» ١٨٣؛ خُمُسُهُ
نِظَامِي. لَيْلَى وَالْمَجْنُونِ، ١٤٤٥/١٤٤٦ ١٨٤؛ نِهَايَةُ الْعَصْرِ التَّيْمُورِيِّ الْأَوَّلِ
١٨٥؛ مَدْرَسَةُ شِيرَازِ ١٤١٥ - ١٥٠٣ م ١٨٥؛ ظَفَرْنَامَةُ، ١٤٢٥ م ١٨٥؛
شَاهَنَامَةُ السُّلْطَانِ إِبْرَاهِيمَ، ١٤٣٥ م ١٨٥؛ شَاهَنَامَةُ شِيرَازِ، ١٤٤٤ م، دَارُ
الْكُتُبِ الْقَوْمِيَّةِ بِبَارِيسِ ١٨٦؛ أَصْحَابُ الْخِرَافِ السُّودِ ١٨٦؛ أَصْحَابُ
الْخِرَافِ الْبَيْضِ ١٨٧؛ مَتْظُومَةُ «مَخْزَنُ الْأَسْرَارِ». خُمُسُهُ نِظَامِي ١٨٨؛
مَتْظُومَةُ «هَفَّتْ بِكِرَ». خُمُسُهُ نِظَامِي ١٨٨؛ خُمُسُهُ نِظَامِي. مَتْظُومَةُ هَفَّتْ
بِكِرَ. قِصَّةُ الْأَمِيرَةِ الْمَغْرِبِيَّةِ لِبَهْرَامِ جُورِ تَحْتَ الْقُبَّةِ الْفَيْرُوزِيَّةِ. شِيرَازِ
(١٤٩١). سَانِ بِطَرْسَبَرْجِ ١٨٩؛ خُمُسُهُ نِظَامِي. هَفَّتْ بِكِرَ. تَبْرِيزِ ١٤٨١ م.
١٨٩؛ شَاهَنَامَةُ شِيرَازِ، ١٤٧٠ م. بُوَسْطَنَ ١٩٢؛ خَارَنَامَةُ شِيرَازِ لِأَبْنِ
حُسَامِ، ١٤٧٦ - ١٤٨٧ م. مَتْخَفُ الْفُنُونِ الزُّخْرُفِيَّةِ بِطَهْرَانَ ١٩٢؛ ثَالِثًا:
الْعَصْرِ التَّيْمُورِيِّ الثَّانِي. الْأَسْلُوبُ الْهَزَوِيَّ الْمُبَكَّرُ وَالْأَحَقُّ ١٩٣؛ مَتْظُومَةُ
خُسْرُو وَشِيرِينِ. خُمُسُهُ نِظَامِي ١٩٤؛ مَتْظُومَةُ خُمُسُهُ نِظَامِي. إِسْكَنْدَرُ نَامَهُ
١٩٦؛ الْمَصُورُ بِهَزَادِ ١٩٩؛ «بُشْتَانُ» سَعْدِي الشَّيرَازِيَّ، ١٤٨٨ م. دَارُ
الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ ٢٠٠؛ «مَنْطِقُ الطَّيْرِ» لِغُرَيْدِ الدِّينِ الْعَطَّارِ، الْمَنْسُوبُ إِلَى
بَهْزَادِ، ١٤٨٣. مَتْخَفُ الْمَتْرُوبُولِيَّتَانِ ٢٠١؛ «خُمُسُهُ» نِظَامِي، ١٤٩٥ م،
الْمَتْخَفُ الْبَرِيطَانِيَّ ٢٠١؛ «خُمُسُهُ نَوَائِي» لِمِيرِ عَلِيِّ شِيرِنَوَائِي. هَرَاةُ ١٤٨٥.
جُزْءٌ بِالْمَكْتَبَةِ الْبُودَلِيَّةِ بِأَكْسَفُورْدِ وَالْجُزْءُ الْآخَرُ بِمَكْتَبَةِ جُونِ رِيلَانْدَزِ بِمَانِشَسْتَرِ
٢٠٥؛ خُمُسُهُ خُسْرُو دَهْلَوِي، ١٤٩٠ م ٢٠٥؛ مِيرُ وَشِيرَتِي ١٤٩٣، دَارُ
الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ ٢٠٦؛ هُمَايُ هُمَايُونِ، هَرَاةُ. النُّصْفُ الثَّانِي مِنْ الْقَرْنِ ١٥.
مَتْخَفُ طُوبِ قَاهِرَ بِإِسْتَنْبُولِ ٢٠٦؛ ثَالِثًا: التَّصْوِيرُ فِي الْعَوَاصِمِ الْإِفْلَاجِيَّةِ.
مَدْرَسَةُ بُخَارَى ٢٠٧؛ حِيرَةُ الْأَبْرَارِ. بُخَارَى، حَوَالَى ١٥٢٠ م، الْمَكْتَبَةُ
الْبُودَلِيَّةِ بِأَكْسَفُورْدِ ٢٠٨؛ مَدْرَسَةُ شِيرَازِ ٢٠٨؛ مِيرُ وَشِيرَتِي. شِيرَازِ ١٥٥٣
م. دَارُ الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ ٢٠٩؛ مِسْبَحَةُ الْأَبْرَارِ. شِيرَازِ ١٥٦٢ م. دَارُ الْكُتُبِ
الْمِصْرِيَّةِ ٢٠٩؛ مَدْرَسَةُ هَرَاةُ؛ عَجَائِبُ الْمَخْلُوقَاتِ وَغَرَائِبُ الْمَوْجُودَاتِ،
١٥٦٧ م. دَارُ الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ ٢٠٩؛ مَدْرَسَةُ قَزْوِينِ. قَصَائِدُ جَامِيِ
الْخَمْسِ، ١٥٧٠ م. مَتْخَفُ طُوبِ قَاهِرَ بِإِسْتَنْبُولِ ٢١٠.

الفصل الرابع والعشرون: التصوير الصَّفَوِيُّ ٢١١

الشَّاهُ إِسْمَاعِيلُ ٢١١؛ سِمَاتُ الْأَسْلُوبِ الصَّفَوِيِّ ٢١٢؛ نَمَاجُ الْفَتْرَةِ
الْإِثْنِقَالِيَّةِ: قِرَانُ السَّعْدِينِ ١٥١٥ م، مَتْخَفُ طُوبِ قَاهِرَ بِإِسْتَنْبُولِ ٢١٣؛
دِيَوَانُ حَافِظِ، الْقَرْنُ الْخَامِسُ عَشَرَ، دَارُ الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ ٢١٣؛ دِيَوَانُ نَوَائِي
١٥٢٦، تَبْرِيزِ. دَارُ الْكُتُبِ الْقَوْمِيَّةِ بِبَارِيسِ ٢١٣؛ شَاهَنَامَةُ طَهْمَاسَبِ.
إِصْفَهَانَ ١٥٢٢ - ١٥٢٨ م، مَتْخَفُ الْمَتْرُوبُولِيَّتَانِ بِنِيُورُوكَ ٢١٤؛ أَمْرُ
الْفَرْسِ فِي التَّصْوِيرِ الْمَغُولِيِّ بِالْهِنْدِ وَالتَّصْوِيرِ التُّرْكِيِّ ٢١٩؛ الصُّورُ الْجِدَارِيَّةُ

٢١٩؛ مَا بَعْدَ طَهْمَاسَبِ ٢١٩؛ ظَفَرْنَامَةُ شَرْفِ الدِّينِ عَلِيِّ بَزْدِي. تَبْرِيزِ
١٥٢٩ م. مَكْتَبَةُ قَصْرِ جُلَسْتَانَ بِطَهْرَانَ ٢٢٠؛ دِيَوَانُ حَافِظِ ١٥٣٣ م ٢٢١؛
يُوسُفُ وَزَلِيخَا، ١٥٣٣ م. دَارُ الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ ٢٢١؛ خُسْرُو وَشِيرِينِ،
١٥٤٠ م، الْمُتَخَفُ الْمَلِكِيُّ بِأَدْنَبَرِهِ ٢٢٢؛ خُمُسُهُ نِظَامِي، ١٥٣٩ - ١٥٤٣ م
٢٢٢؛ خُمُسُهُ نِظَامِي. تَبْرِيزِ ١٥٤٠. مَتْخَفُ فُوجِ لِلْفُنُونِ، جَامِعَةُ هَارْفَارْدِ:
الْحَيَاةُ فِي الْمَدِينَةِ وَالْحَيَاةُ فِي الْبَادِيَةِ ٢٢٤؛ «سَبْعَةُ سَيَّارِهِ» [الْكُوكَبُ السَّبْعَةُ]
لِمِيرِ عَلِيِّ شِيرِنَوَائِي. بُخَارَى ١٥٥٣ م، الْمَكْتَبَةُ الْبُودَلِيَّةِ بِأَكْسَفُورْدِ ٢٢٥؛
هَفَّتْ أَوْرَانَجِ، ١٥٥٦ - ١٥٦٥ م ٢٢٥؛ الْقَصَائِدُ الْخَمْسُ لِلشَّاعِرِ جَامِيِ.
قَزْوِينِ ١٥٧٠ م. مَتْخَفُ طُوبِ قَاهِرَ بِإِسْتَنْبُولِ ٢٢٥؛ الشَّاهُ عَبَّاسُ (١٥٨٧ -
١٦٢٩) ٢٢٥؛ «مَطْلَعُ السُّعْدِينِ» لِكَمَالِ الدِّينِ عَبْدُ الرَّزَّاقِ السَّمَرْقَنْدِيَّ،
١٦٠١ م. مَتْخَفُ الْفَنِّ الْإِسْلَامِيِّ بِالْقَاهِرَةِ ٢٢٦؛ مَخْطُوطَةُ مِيرُ وَشِيرَتِي،
١٦٨٠ م. دَارُ الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ ٢٢٦؛ دِيَوَانُ حَافِظِ، ١٦٨٠ م. دَارُ الْكُتُبِ
الْمِصْرِيَّةِ ٢٢٦؛ التَّغْيِيرُ الَّذِي طَرَأَ عَلَى أَسَالِيبِ التَّصْوِيرِ ٢٢٧؛ الْمَصُورُ
مُحَمَّدِي ٢٢٨؛ الْمَصُورُ أَقَا رِضَا ٢٢٩؛ رِضَا عَبَّاسِي ٢٣٠؛ شَاهَنَامَةُ الْقَرْنِ
السَّابِعِ عَشَرَ بِإِسْتَنْبُولِ ٢٣٢؛ جُلَسْتَانُ سَعْدِي، أَوَائِلُ الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ
٢٣٢؛ مَنْطِقُ الطَّيْرِ، ١٦٠٩ م، لِغُرَيْدِ الدِّينِ الْعَطَّارِ ٢٣٣؛ الْمَصُورُ مُحَمَّدُ
يُوسُفُ الْحُسَيْنِي، ١٦٣٠ م ٢٣٤؛ التَّصَاوِيرُ الْجِدَارِيَّةُ بِقَصْرِ جَهْلِ سَوْتُونِ
٢٣٤؛ مُحَمَّدُ زَمَانُ ٢٣٥.

الباب الرابع: التصوير التركي

الفصل الخامس والعشرون: أصول التصوير التركي ٢٣٩
فَجَرُ التَّصْوِيرِ التُّرْكِيِّ ٢٣٩؛ سِمَاتُ التَّصْوِيرِ التُّرْكِيِّ فِي عَصْرِ الْوَنَائِكِ
التَّارِيخِيَّةِ ٢٤١.

الفصل السادس والعشرون: المرحلة الأولى:

عَصْرِ الْوَنَائِكِ التَّارِيخِيَّةِ ٢٤٥

سَلِيمُ نَامَهُ: (١٥٢٠ - ١٥٢٥) ٢٤٥؛ وَصَفُ مَرَاكِحِ حَمَلَةِ السُّلْطَانِ سُلَيْمَانَ
فِي الْعِرَاقَيْنِ الْعَرَبِيَّ وَالْفَارِسِيَّ ٢٤٥؛ سَلِيمَانَ نَامَهُ: (١٥٥٨) ٢٤٦؛ نَزْهَةُ
الْأَسْرَارِ وَالْأَخْبَارِ «سَفَرُ سَكْتَوَارِ» ٢٤٦؛ شَاهَنَامَةُ مَرَادِ الثَّالِثِ ٢٤٧؛ سَوْرَنَامَةُ
٢٤٧؛ هَوْرَنَامَةُ ٢٤٨؛ مُنَمَتَانِ لِلجَيْشِ التُّرْكِيِّ فِي طَرِيقِهِ إِلَى حَمَلَةِ الْقَوَازِ
فِي أَتْرِيْلِ ١٥٧٨. مَتْخَفُ طُوبِ قَاهِرَ بِإِسْتَنْبُولِ ٢٤٩؛ قِيَاةُ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي
الشَّمَائِلِ الْمُتَمَائِنَةِ ٢٤٩؛ دِيَوَانُ نَادِرِي ٢٤٩؛ شَاهَنَامَةُ إِكْرِي فَتْحِ نَامَهُ ٢٥٠؛
فَنُّ الْبُورْتَرِيَّةِ ٢٥٠.

الفصل السابع والعشرون: المرحلة الثانية:

عَصْرِ التَّيُولِيَّ ٢٥٢

الْمَصُورُ لُونِي (١٦٨٥ - ١٧٦٠ أَوْ ١٧٧٠) ٢٥٤؛ سَوْرَنَامَةُ وَهْبِي ٢٥٤.

الباب الخامس: التصوير المغولي بالهند

الفصل الثامن والعشرون: التصوير الهندي ٢٦١
إِطْلَالَةُ عَامَّةٍ عَلَى عَقَائِدِ الْهِنْدِ قَبْلَ الْفَتْحِ الْإِسْلَامِيِّ ٢٦١؛ التَّصْوِيرُ الْهِنْدِيُّ
قَبْلَ الْفَتْحِ الْإِسْلَامِيِّ وَبَعْدَهُ ٢٦٥.

الفصل التاسع والعشرون: الفتح الإسلامي للهند ٢٧٤

تَقْنِيَةُ التَّصْوِيرِ الْمَغُولِيِّ فِي الْهِنْدِ ٢٧٤؛ سَلَاطِنَةُ دَهْلِي (١٢٠٦ - ١٥٥٨)
٢٧٦؛ الْإِمْبَرَاطُورُ مُحَمَّدُ بَابُورِ (١٥٢٦ - ١٥٣٠) ٢٧٦؛ الْإِمْبَرَاطُورُ نُورِ

الذين مُحَمَّد هُمَايون (١٥٣٠ - ١٥٥٦) ٢٧٨؛ الإمبراطور أبو الفتح جلال الذين أَكْبَر (١٦٠٥-١٥٥٦) ٢٧٩؛ الإمبراطور نور الدين مُحَمَّد جهانجير (١٦٠٥ - ١٦٢٧) ٢٨٦؛ الإمبراطور شهاب الدين مُحَمَّد صاحب قيران سني (شاه جهان) (١٦٢٨ - ١٦٥٨) ٢٩١؛ الإمبراطور محيي الدين أورانجيرب (١٦٥٩ - ١٧٠٧) ٢٩٤؛ عصر الاضمحلال ٢٩٤.

الباب السادس: التصوير الديني في الإسلام

الفصل الثلاثون: توطئة ٢٩٩

التصوير الديني عامة ٢٩٩؛ التصوير الديني المسيحي ٢٩٩؛ تشعب التصوير الديني في الإسلام ٣٠١؛ الصور الإبداعية الرائجة في المنمنمات الدينية ٣٠٢.

الفصل الحادي والثلاثون: تصوير قصص القرآن

والكتب السماوية المقدسة ٣٠٤

التصاوير الدينية في مخطوطة «جامع التواريخ» ٣٠٤؛ مقولة سبق مدرسة بغداد المدرسة الفارسية في تصوير الرسول؟ ٣٠٥؛ صور الرسول عليه الصلاة والسلام ٣٠٦؛ تطور أسلوب تصوير الرسول ٣٠٨؛ العذراء مريم ٣٠٨؛ المسيح عيسى ٣٠٩؛ نوح ٣١٠؛ إبراهيم ٣١١؛ أهل الكهف ٣١٢؛ سليمان ٣١٢؛ الجن ٣١٣؛ النبي صالح ٣١٣؛ يوسف وزليخا ٣١٣؛ ذو القرنين ٣١٥؛ الفن الشعبي ٣١٦.

الفصل الثاني والثلاثون: هز المشاعر بما هو قدسي ٣١٧

إحساس المصور وإحساس المشاهد ٣١٧؛ سير النبي (١٥٩٤) نسخها أحمد

نور بن مصطفى للسلطان مراد الثالث. متحف طوب قاهر، باستنبول ٣١٧؛ «زبدة التواريخ» (١٥٨٣). كتيب للسلطان مراد الثالث. متحف الفن الإسلامي باستنبول ٣١٩؛ «كتاب الفالنامة» لفلندر باشا. القرن ١٧. متحف طوب قاهر باستنبول ٣٢٠؛ «روضة الصفا» لـميرخوند (١٦٠٦). متحف الفن الإسلامي بالقاهرة ٣٢٠.

الفصل الثالث والثلاثون: التصوير الوعظي ٣٢٢

قصص المنصوفة معين خصب يتهل منه المصورون ٣٢٢؛ «مطبق الطير» لفريد الدين العطار ٣٢٢؛ «المثنوي» لجلال الدين الرومي ٣٢٩؛ «سبحه الأبرار» لثور الدين جامي ٣٣١؛ «جلستان لسعدى» ٣٣١؛ الدراويش ٣٣١؛ قصص القرائب والمعجزات ٣٣٢؛ «نفحات الأنس» للشاعر جامي ٣٣٢.

الفصل الرابع والثلاثون: الترغيب بالجنة

والترهيب بالنار ٣٣٤

التخويف بالتار وإلقاء الخشية والترغيب بالجنة وحفز النفوس إلى الطاعة ٣٣٤؛ مرقعة بهرام ميرزا (١٥٤٤) ٣٣٤؛ مغراج نامة. هرة ١٤٣٦ ٣٣٥.

خاتمة ٣٤٥

- ثبت المراجع العربية ٣٤٧

- ثبت المخطوطات ٣٤٩

- ثبت المراجع الأجنبية ٣٥٤

- ثبت بيلوجرافي ٣٥٧

- المحتويات ٣٥٩